

تفسير الفاسي
المسكت

محاسن التأويل

كتاب علامه الشك

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه ونصحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

« الطبعة الأولى »

جميع الحقوق محفوظة

[١٣٧٦ هـ — ١٩٥٧ م]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتدأؤه . ولَمَّا افْتُتِحَ التنزيل الكريم بها ، إمَّا بتوقيفٍ من النبي ﷺ ، أو باجتهادٍ من الصحابة - كما حكى القولين القاضي الباقلاني في ترتيب التنزيل - . سُمِّيَتْ بذلك .

قال السيد الجرجاني : فاتحة الكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فيما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية . وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الكتاب » : لأنها يُفْتَتَحُ بكتابها المصحف ، ويقرأ بها في الصلوات . فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة . وتسمى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة تقدّم الأم والأصل ؛ أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبد بأمره ونهيهِ ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء . والعرب تسمى كلَّ أمرٍ جامعٍ أموراً ، وكلَّ مقدمٍ له توابعٍ تبعه « أمّاً » - فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ « أم الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمّاً » وتسمى « السبع الثاني » - جمع مثني كمفعل اسم مكان ، أو مثني بالتشديد من التثنية

على غير قياس - لأنها سبع آيات تنثني في الصلاة أى تكرر فيها .
والأكثر على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لفظة : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة
للحائط الذى يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملكٍ دونها يتدبذب^(١)

أى منزلة من منازل الشرف التى قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمّا بمعنى : العلامة - لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتدائها ،
كآية التى تكون دلالة على الشيء يستدل به عليه - وإمّا بمعنى : القصة - كما قال كعب
ابن زهير :

ألا أبلغنا هذا المرصّ آيةً : أيقظان قال القول ، إذ قال ، أم حَمَ

أى رسالة منى ، وخبراً عني - فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تتلو قصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدب نبيه محمداً ﷺ :
بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه فى وصفه بها قبل جميع
مهماته ، وجعل - ما أدبه به من ذلك ، وعلمه إياه - منه لجميع خلقه : سنة يستنون بها ،
وسبيلاً يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ،
حتى أغنت دلالة ماظهر ، من قول القائل : بسم الله ، على ما بطن من مراده الذى هو محذوف .

(١) قال السيد محمود محمد شاكر فى التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتى :

يتدبذب : يضطرب ويحار . والتدبذب : تردد الشيء المعلق فى الهواء بمنة ويسرة . يقول :
أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقاً دونها حاراً يضطرب
ويتردد ، لا يطبق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً يقدَّر بما جُمِلت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية - كالكلام بمعنى التكليم ، والمطاء بمعنى الإعطاء - والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى . و « الله » علم على ذاته ، تعالى وتقدس . قال ابن عباس : هو الذى يأله كل شئ ويعبده وأصله « إله » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة فى الكلام ؛ وبعد الإدغام فحّمت تعظيماً - هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » قال الجوهري : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادٌ مجدٌ إلا أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » ^(١) فعادل به الاسم الذى لا يشركه فيه غيره . اهـ .

وقد ناقش فى كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلامة الشيخ محمد عبده المصرى فى بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها - ثم قال : - وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول ، فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة جاءت لتأكيدها ولا معنى لها فى نفسها ، بل ليس فى القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلال المنعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم باللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيَّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُ مِنْهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنى ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى « الرحمن » المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذي حمل من قال : إن الثاني مؤكد للأول - على قوله هذا - هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفارقة ، مع عدم التفطن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذي أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعليٌّ فيه معنى المبالغة - كفعال - ويدل في استعمال اللغة على الصفات العارضة - كمطشان وغرثان وغضبان - وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس - كليم وحكيم وحليم وجميل - والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تملو عن مماثله صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثاني مؤكداً للأول . فإذا سمع العربي وصف الله جلّ ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه الفيض للنعم فعلاً ، لا يمتد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً - لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة - فمنعدهما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أي الثناء بالجليل ، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام في « الحمد » للاستغراق أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيذاً - كما في الحديث : « اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله »^(١) .

(١) لم أعر على هذا الحديث في شيء من أصول السنة .

قال الإمام ابن القيم في « طريق الهجرتين » : الملك والحمد في حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود في ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لئيبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »^(١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة ، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته ، وتفصيل الأمر والنهي واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمد ، وصفاته حمد ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الناية هي حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده في الموجودات ، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالابصار والبصائر .

- ثم قال - : وبالجمله فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه اه .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . - تقول : رَبَّهُ يَرْبُهُ فهو رب كما تقول : نعم عليه نعم فهو نعم - فهو صفة مشبهة ، ويجوز أن يكون

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التربية وهى : تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب - باللام - لا يقال إلا لله عز وجل . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة - كرب الدار - ومنه قوله تعالى : «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ» ^(١) «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ» ^(٢) . و «الْمَالِئِينَ» جمع عالم وهو : الخلق كله وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستفراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

إرادها عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل الحكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائى بإثبات ألف «مالك» والباقون بحذفها . قال الزمخشري : ورجحت قراءة «ملك» لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غصاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» ^(٣)

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة في عبد مملوك في مملكة لهاسلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارئ القرآن بكل^(١) حرف عشر حسنات - كما رواه الترمذى عن ابن مسعود بإسناد صحيح - وكلاهما صحيح متواتر في السبع .

و « الدين » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كاتدين تدان » أى : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إمّا لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرد تعالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبري : أى لك ، اللهم ، نخشع ونذل ونستكين . إقراراً لك بالربوبية لا لنيرك - قال - والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمى الطريق المذل الذى قد وطئته الأقدام ، وذلت السابلة « معبداً » ومنه قيل للبعير المذل بالركوب فى الحوائج « معبد » ومنه سمي العبد « عبداً » لذلت لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعنى : أن لا يشرك شيئاً مامعه ، لا فى محبته كمحبته ، ولا فى خوفه ، ولا فى رجائه ، ولا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٦ - باب ما جاء فىمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بمشر أمثالها . لا أقول : آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

في التوكل عليه ، ولا في العمل له ، ولا في النذر له ، ولا في الخضوع له ، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذي لا يستحقها إلا هو ، وهى كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلا هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للعبد من تخصيصه ربه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين في عبادتهم ، متشاكسين في وجهتهم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » (١) الآية . وفي قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » (٢) . وفي قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ » (٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِبْنَاءَ تَعْبُدُونَ .
(٢) [٣٤ / سبأ / ٤١٤٠] ونصها : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۝ ^(١) الآية . وفي قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَرْيَةَ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » ^(٢) . وحديث ^(٣) أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركون سدرة يمعفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . قال : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ - إلى قوله - وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » ^(٤) رواه الترمذى وصححه .

= لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩ و ٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَرْيَةَ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - باب ماجاء لتركن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركون يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبي ﷺ « سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . والذي نفسي بيده لتركن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ - ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَنَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إلهًا كما لهم =

وأما عبادتهم للأخبار والرهبان ففى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » ^(١) فروى الإمام أحمد والترمذى ^(٢) عن عدى بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلا بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة . أى ركنها المهم الأعظم . وأصله من التزيل الكريم قوله تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي » ^(٣) فسماء عبادة .

= وَاللَّهُ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمُ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .
(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال : « يا عدى ، اطرح عنك هذا الوثن » . وسمعتة يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفي الخبر^(١) : « الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل » .
 قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشیطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه في ذلك ، فلا تزال
 النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفاً منه ، أو رجاءً له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخلص توحيدة
 من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاث
 مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جمل له عدلاً ونذاً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ،
 يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .
 (فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ،
 والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ
 وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ »^(٢) ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا^(٣) ، رَبُّ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا^(٤) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبي) ونصه :
 عن أبي موسى الأشعري قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس .
 اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه
 وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك
 شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
 الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ،
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٤) [٧٣ / الزمل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له .

قال الإمام الراغب في تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متقدماتها لكونها هادية لسايرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وما كان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور المروس على وجهين : قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جعلت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » ^(١) وقال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ الصَّعِيرِ » ^(٢) قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التمسك كإفلال : وخيل قد دلفت لها بخيل . تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ ^(٣)

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلًا ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلا بعد الأول ، ولا الثالث إلا بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه المبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً - كالشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خص به الإنسان ، وعلى ذلك دل قوله تعالى : « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » ^(٤) وقوله تعالى : « الَّذِي قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها : مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشري في الكشف . وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى موجه . أى رب جيش قد منيت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

فَهْدَىٰ «^(١) وهذه الهداية إما تسخير وإما تلميم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »^(٢) وقوله تعالى « يَا نَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »^(٣) وقال في الإنسان ، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »^(٤) وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »^(٥) وقال في عمود : « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »^(٦) وثانيهما الهداية بالدعاء وبمئة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عني بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »^(٧) . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »^(٨) وهذه الهداية تنسب تارة إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبي عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »^(٩)

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَمْرُسُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢ / السجدة / ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّاصِرُونَ ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧ / الإسراء / ٩] ونصها : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحي عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهى الهداية المذكورة فى قوله عز وجل : « وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ »^(١) . وقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ »^(٢) وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »^(٣) . وهذه الهداية هى المنة بقوله : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »^(٤) . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهدهم . فمن قصد سلطاناً مسترفداً فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسمعه ، ولا تطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »^(٥) وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »^(٦) . فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً . وهذه الهداية يصح أن يقال : هى مباحة للمقلاد كلهم ، ويصح أن يقال : هى محظورة

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / المفكوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧ / الحديد / ٢٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إِلَّا عَلَى أَوْلِيَاءِهِ ، لِمَا كَانَ فِي إِمَّاكَانٍ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ أَنْ يَتَرَشَّحُوا لَتَنَاوُلَهَا . وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ :
لِإِنِّهَا لَا يَسْهُلُ تَنَاوُلُهَا قَبْلَ أَنْ يَتَشَكَّلَ الْإِنْسَانُ بِشَكْلِ مَخْصُوصٍ ، بِتَقْدِيمِ عِبَادَاتِهِ . وَقَدْ قَالَ
بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ : الْهُدَى مِنَ اللَّهِ كَثِيرٌ ، وَلَا يَبْصُرُهُ إِلَّا الْبَصِيرُ ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا الْيَسِيرُ .
أَلَا تَرَى إِلَى نَجْمِ السَّمَاءِ مَا أَكْثَرُهَا وَلَا يَهْتَدِي بِهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ . وَقَالَ بَعْضُ الْأَوْلِيَاءِ :
إِنْ مِثْلَ هِدَايَةِ اللَّهِ مَعَ النَّاسِ كَمِثْلِ سَبِيلٍ مَرَّ عَلَى قِلَآتٍ ^(١) وَغَدِرَانٍ ^(٢) ، فَيَتَنَاوَلُ كُلُّ قَلْتٍ
مِنْهَا بِقَدْرِ سَمْعَتِهِ - ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ - « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » ^(٣) وَقَالَ
بَعْضُهُمْ : هِيَ كَطَرٍ أَتَى عَلَى أَرْضَيْنِ فَيَنْتَفِعُ كُلُّ أَرْضٍ بِقَدْرِ تَرْشِيحِهَا لِلانْتِفَاعِ بِهِ .
(وَالْمِثْلَةُ الرَّابِعَةُ) مِنَ الْهُدَايَةِ التَّمَكُّنُ مِنْ مَجَاوِرَتِهِ فِي دَارِ الْخُلْدِ ، وَإِيَّاهَا عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ
« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
هَدَانَا لِهَذَا » ^(٤) . فَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَمِنْ الْهُدَايَةِ مَا لَا يَنْفَى عَنْ أَحَدٍ بَوَاجِهِ . وَمِنْهَا مَا يَنْفَى

(١) فِي الْمَصْبَاحِ : الْقَلْتُ نَقْرَةٌ فِي الْجَبَلِ يَسْتَنْقِعُ فِيهَا الْمَاءُ . وَالْجَمْعُ قِلَآتٌ ، مِثْلُ سَهْمٍ
وَسَهَامٍ .

(٢) الْغَدِرَانُ جَمْعُ غَدِيرٍ ، وَهُوَ النَّهْرُ .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] وَنَصَبَهَا : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا
فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ
مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] وَنَصَبَهَا : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ .

عن بعض ويثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » (١) . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » (٢) . وقال : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » (٣) . فإنه عن الهداية - التي هي التوفيق وإدخال الجنة - دون التي هي الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٤) . وقال في الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » (٥) . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عن الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك - وإن كان هو قد فعله لا محالة - ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صل على محمد . (الثاني) قيل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواية واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠ / الروم / ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ » (١) . وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زِدْنَاهُمْ هُدًى » (٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيقي فذلك سبب الخلاص ، وهو المعبر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » (٣) (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ » (٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » (٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاد الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية - إذ لا تنافي بينها -

(١) [٦٤ / التباين / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَلِمَا مَتَّأ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق » اه كلام الراغب : وبه يعلم تحقيق معنى الهداية في سائر مواقعها في التنزيل الكريم ، وأن الوجوه الماثورة في آية ما - إذا لم تتناف - صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة : قال رحمه الله :

ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقاً ، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف في الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فكل من المفسرين يمتز عن الصراط المستقيم بعبارة تدل بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يُسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامثال الأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتمددت أسماءه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحد والحصر - مثل أن يقول قائل من المعجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيغ - وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ^(١) . أو عن قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ^(٢) . أو عن الصالحين أو الظالمين ، ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسر أو يتعذر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدل به على نظائره : فإن الظالم لنفسه هو تارك الأمور فاعل المحذور . والمقتصد هو فاعل الواجب وتارك المحرم . والسابق هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه . فيقول المجيب بحسب حاجة السائل : الظالم الذي يفوت الصلاة ، أو الذي لا يسبغ الوضوء ، أو الذي لا يتم الأركان ونحو ذلك . والمقتصد الذي يصلي في الوقت - كما أمر - والسابق بالخيرات الذي يصلي الصلاة بواجباتها ومستحباتها ويأتي بالنوافل المستحبة معها . وكذلك يقول مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يندر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فن ادعى علمه فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه كما أخذوا عنه السنة . وإن كان من الناس من غير السفة ، فمن الناس من غير بعض معاني القرآن - إذ لم يتمكن من تغيير لفظه . وأيضاً فقد يخفى على بعض العلماء بعض معاني القرآن ، كما خفى عليه بعض السنة ، فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب والله أعلم .

وتقدم في مقدمة الكتاب بسط لهذا البحث فارجع إليه . (انظر : ج ١ ص ١٧)

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ونصها : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً في تحقيق هذه الآية :

« كل عبد مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم . فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو : إما من المنضوب عليهم ، وإما من الضالين ؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله » **« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »** ^(١) . فإن الصراط المستقيم : أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نهيت عنه . وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن تعلم : ما أمر به في ذلك الوقت ، وما نهى عنه ؛ وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور ؛ وكراهة لترك المحذور . والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، ف حاجته إلى هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته ؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإن انقطع رزقه مات - والموت لا بد منه - فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمه في حقه . وكذلك النصر - إذا قدر أنه قهر وغلب حتى قتل - فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما ، فلمذا كان هذا الدعاء مفروضاً عليهم في الصلوات - فرضها ونفلها - وأيضاً فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر : لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتقين **« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »** ^(٢) وكان من التوكلين **« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى**

(١) [١٨ / الكهف / ١٧] ونصها : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَتِفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢ ، ٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَھُنَّ فَأَمْسِكُوھُنَّ بِمَعْرُوفٍ =

اللهُ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ^(١) ، وكان ممن ينصره الله ورسوله ومن ينصر الله يُنصره ^(٢) وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون ^(٣) . فاللهي التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر . فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب تحصل به كل منفعة ، وتندفع به كل مضرة .

(فائدة) الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة . فالطريق الواضح للحسن ، كالخلق للمقل ، في أنه : إذا سير بهما أبلغا السالك النهاية الحسنى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

أى : بطاعتك وعبادتك، وهم المذكورون في قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » ^(٤) .

= أَوْ فَارِقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ مِنْ بُوْعَظٍ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] ونصها : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٢) يشير إلى قوله تعالى [٤٧ / محمد / ٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى [٣٧ / الصافات / ١٧٣] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(٤) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال الأصفهاني: وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير عليهم ، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة خاصة . ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كل من حاد عن جادة الإسلام من أى فرقة ونحلة . وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفرادها وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبي حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً في أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .

(فوائد) الأولى : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: « آمين » ومعناه : اللهم استجب ، أو كذلك فليكن ، أو كذلك فافعل . وليس من القرآن . بدليل أنه لم يثبت في المصاحف . والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي^(١) عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال: « آمين » بعد بها صوته . ولأبي داود : رفع بها صوته . قال الترمذي : هذا حديث حسن ، وفي الباب عن عليّ وأبي هريرة ، وروى عن عليّ وابن مسعود وغيرهم . وعن أبي هريرة قال^(٢) : كان رسول الله ﷺ إذا تلا « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول . رواه أبو داود . وفي الصحيحين^(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمّن

(١) أخرجه الترمذي في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٧٠ - باب ما جاء في التأمين .

وأبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٦٨ - باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٢ . والإمام أحمد في مسنده في : ج ٤ ص ٣١٦ (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٦٨ - باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٤ .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١١١ - باب جهر الإمام بالتأمين .

ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٧٢ .

الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .
وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي موسى مرفوعا : « إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين
فقولوا : آمين ، يجبكم الله » .

الثانية : في ذكر ما اشتملت عليه هذه السورة من العلوم :
اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت - وهي سبع آيات - على حمد الله تعالى ،
وتمجيد ، والثناء عليه : بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد
وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من جوهلهم وقوتهم ،
وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك
أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم - وهو الدين القويم -
وتثبيتهم عليه حتى يُفَضَّى بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء
والصالحين .

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير
من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المفضوب عليهم والضالون .
قال العلامة الشيخ محمد عبده في تفسيره :

الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت
فيها . ولست أعني بهذا ما يعمرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم : إن أسرار

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٦٢ ونصه :

عن أبي موسى الأشعري قال : إن رسول الله ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلما صلاتنا ،
فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر فكبروا . وإذا قال :
غير المفضوب عليهم ولا الضالين ، فقولوا : آمين . يجبكم الله . فإذا كبر وركع فكبروا
واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم » .

القرآن في الفاتحة ، وأسرار الفاتحة في البسملة ، وأسرار البسملة في الباء ، وأسرار الباء في تقطعها ! فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأحبابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقول في نفسه . وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى إعدام القرآن خاصته ، وهي البيان . - قال - : وبيان ما أريد : أن ما نزل القرآن لأجله أمور :

أحدها التوحيد : لأن الناس كانوا كلهم وثنيين - وإن كان بعضهم يدعى التوحيد - ثانيها وعد من أخذه ، وتبشير به بحسن المثوبة ، ووعد من لم يأخذه به ، وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد ، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد - كذلك - يشمل نعمهما وشقاءهما . فقد وعد الله المؤمنين : بالاستخلاف في الأرض ، والعزة ، والسلطان ، والسيادة . وأوعد المخالفين : بالخزي والشقاء في الدنيا . كما وعد في الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبت في النفوس .

رابعها بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار الذين تمدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار ، واختيار طريق المحسنين . هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن ، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد ففي قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ، ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية . ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصّح به بقوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . ولفظ « رب » ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإعلاء . وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في

نفسه وفي الآفاق منه عزّ وجلّ . فليس في الكون متصرف بالإيجاد ، والإشقاء ، والإسماعاد سواء . ثم إن التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين . ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه ، بل استكمل بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم ، وهي اتخاذ أولياء من دون الله تمتد لهم السلطة الغيبية ، يُدعون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى . وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

« وأما الوعد والوعيد : فالأول منهما مطوًى في « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فذكر الرحمة في أول الكتاب ، وهي التي وسعت كل شيء . وعدّ بالاحسان - لا سيما وقد كررها مرة ثانية - تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا ، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمن الوعد والوعيد معاً ، لأن معنى الدين الخضوع ، أى : إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها ، لاحقيقة ولا ادعاء ؛ وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لمظمتة - ظاهراً وباطناً - يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ؛ وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو : إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسيء ، وذلك وعدّ ووعد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وهو الذى من سلكه فاز ، ومن تنكبته هلك . وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة ، فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أوضح معناها بمض الإيضاح بقوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : إنه قد وضع لنا صراطاً سبيطته ويحدده . ويكون مناط السعادة في الاستقامة عليه ، والشقاء في الانحراف عنه . وهذه الاستقامة عليه هي روح العبادة . ويشبه هذا قوله تعالى :

«وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ»^(١). فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجمالها تنفخ روح العبادة في التندير لها . وروح العبادة هي إثراء القلوب خشية الله ، وهيبته ، والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعلٍ وكيفٍ وحركات اللسان والأعضاء . فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه ؛ وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية ، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة . ومخ العبادة الفكر والمبرة ؛ وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصريح بأن هنالك قوماً تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصاح يصيح : ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبيه يدعو إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ »^(٢) حيث بين أن القصص إنما هو للمظة والاعتبار . وفي قوله تعالى : « غَيْرِ الْمُنْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تصريح بأن من دون المنعم عليهم فريقان : فريق ضل عن صراط الله ؛ وفريق جاحده ، وعاند من يدعو إليه ، فكان محفوفاً بالغضب الإلهي ، والخزي في هذه الحياة الدنيا . وبقى القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد المبرة ، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها

(١) [١٠٣ / العصر / ١-٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

القرآن تفصيلاً . فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى « أم الكتاب » .

الثالثة : مما صح في فضلها من الأخبار : ما رواه البخارى في صحيحه عن أبى سعيد ابن المولى رضى الله عنه قال ^(١) :

كفّت أصلى في المسجد فدعانى النبي ﷺ فلم أجبه . فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلى . فقال : ألم يقل الله « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » ؟ - ثم قال لى : « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلت : يا رسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن . قال :

« الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وروى ^(٢) الامام أحمد والترمذى بإسناد حسن صحيح عن أبى هريرة ، نحوه ، غير أن القصة مع أبى بن كعب ، وفي آخره :

« والذى نفسى بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني » .

واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الايات والسور على بعض ، كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم : إسحق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربى وابن الحضر من المالكية ، وذلك بين واضح .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال ^(٣) :

كننا في مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم ، وإن نفرنا غيب ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - باب ماجاء في فاتحة الكتاب .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده في : ج ٥ ص ١١٤ (طبعة الحلبي) .

والترمذى في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١ - باب ماجاء في فضل فاتحة الكتاب .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٩ - باب فاتحة الكتاب .

فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية . فراه ، فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبناً ؛ فلما رجع قلنا له : أ كنت تحسن رقية ، أو كنت ترقى ؟ قال : لا ، مارقيت إلا بأمر الكتاب . قلنا : لا تحدثوا شيئاً حتى نأتى ، أو نسأل ، النبي ﷺ . فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبي ﷺ فقال « وما كان يُدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم » . وهكذا رواه مسلم وأبو داود . وفى بعض روايات مسلم : أن أبا سميد الخدرى هو الذى رقى ذلك السليم - يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلاً - .

وروى مسلم والنسائى عن ابن عباس قال (١) :

بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيصاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال (٢) « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمر القرآن فهي خداج (ثلاثاً) غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام . فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى على عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى - وقال مرة فوض إلى عبدى - فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : اهتدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

ويكنى من شرح الفاتحة هذا المقدار الجليل ، والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٣٨ .

(سورة البقرة)

جميعها مدنيّ بلا خلاف . وآيها مائتان وست وثمانون . وقد صح في فضلها عدة أخبار :
منها ما في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه :
أن رسول الله ﷺ قال (١) :

« لا تجملوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » .
وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ . « إن لكل
شيء سنماً ، وإن سنم القرآن البقرة ، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث
ليال ، ومن قرأها في بيته نهارة لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » .

وروى مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (٢) : « اقرأوا القرآن
فإنه يأتي يوم القيامة شفيماً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران فإنهما
يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن
أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .
(وقوله الزهراوين : أي المنيرتين - في الإعجاز أو في وفرة الأحكام - والقيامة : ما
أظلك من فوقك . والفرق : القطعة من الشيء . والصواف : المصطفة . والبطلة : السحرة .
ومعنى لا تستطيعها : لا تستطيع النفوذ في قارئها ، أو لا يمكنهم حفظها . والله أعلم) .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٢ - باب ما جاء في فضل
سورة البقرة وآية الكرسي .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٢ .

القول في تأويل قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [١] (آلم)

اعلم أن للناس في هذا وما يجري مجراه من الفواتح مذهبان :

الأول أن هذا علم مستور ، ومسرّ محجوب ، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابه . ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا : لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق . واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية ، بسطها العلامة الفخر .
(المذهب الثاني) مذهب من فسرهما ، وتكلم فيما يصح أن يكون مراداً منها ، وهو ما للجهمور . وفيه وجهان : (الأول) . وعليه الأكثر : أنها أسماء للسور .

(الثاني) أن يكون ورود الأسماء هكذا مسرودةً على غلط التعديد : كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُجَدَّى بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم - وقد عجزوا عنه عن آخرهم - كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤدبهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله - بمد المراجعات المتطاولة - وهم أمراء الكلام ، وزعماء الحوار ، وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب ، والمتهاككون على الافتتان في القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق ، وشقت غبار كل سابق ، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامع أعين البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر ، وإنه كلام خالق القوى والقدر . قاله الزخشي

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)

أى : هذا القرآن لا شك أنه من عند الله تعالى كما قال تعالى في السجدة « آلم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ^(١) . قال بعض المحققين : اختصاص ذلك

(١) [٣٢ / السجدة / ٢١] .

بالإشارة للبعيد حكم عرفى لا وضعى ؛ فإن العرب تعارض بين اسمى الإشارة . فيستمعلون كلاً منهما مكان الآخر ، وهذا معروف فى كلامهم . وفى التنزيل من ذلك آيات كثيرة . ومن جرى على أن ذلك إشارة للبعيد يقول : إنما صحت الإشارة بذلك ، هنا إلى ما ليس ببعيد ، لتعظيم المشار إليه ، ذهاباً إلى بُعد درجته وعلو مرتبته ومنزلته فى الهداية والشرف .

والريب فى الأصل : مصدر رابى إذا حصل فىك الريبة . وحقيقتها : قلق النفس واضطرابها . ثم استعمل فى معنى الشك مطلقاً ، أو مع تهمة . لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة .

وفى الحديث ^(١) : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

ومعنى نفيه عن الكتاب : أنه فى علو الشأن ، وسطوع البرهان ، بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيقته ، وكونه حياً منزلاً من عند الله تعالى . والأمر كذلك ، لأن العرب ، مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية ، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن . وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لا يجوز للماقل أن يرتاب فيه ، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً .

« هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » أى : هادٍ لهم ودالّ على الدين القويم المفضى إلى سعادتى الدارين . قال الناصر فى الانتصاف : الهدى يطلق فى القرآن على معنيين (أحدهما) الإرشاد وإيضاح سبيل الحق . ومنه قوله تعالى « وَأَمَّا نُمُودُ فِهْدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَجِبُوا أَعْمًى عَلَى الْهُدًى » ^(٢) . وعلى هذا يكون الهدى للضالّ باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أولاً . و (الآخر) خلق الله تعالى الاهتداء فى قلب العبد ، ومنه « أُولَئِكَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك ج ٣ ص ١٥٣ (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : « وَأَمَّا نُمُودُ فِهْدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَجِبُوا أَعْمًى عَلَى الْهُدًى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ^(١) . فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المنيان جميعاً . وعلى الأول ، فتخصيص الهدى بالمتقين للتنبؤ به بمدحهم حتى يتبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به ، كما قال تعالى « إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا » ^(٢) . وقال « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » ^(٣) . وقد كان ، صلى الله عليه وآله وسلم ، منذراً لكل الناس ، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره . وهذه الآية نظير آية « قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » ^(٤) ، « وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » ^(٥) . وكقوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » ^(٦) . إلى غير ذلك ، مما دل على أن النفع به لا يناله إلا الأبرار . والمراد بالمتقين - هنا - من نعمهم الله تعالى بقوله

- (١) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْمَٰلِكِينَ .
- (٢) [٧٩ / النازعات / ٤٥] .
- (٣) [٣٦ / يس / ١١] ونصها : إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .
- (٤) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .
- (٥) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .
- (٦) [١٠ / يونس / ٥٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون « بِالْغَيْبِ » الغيب فى الأصل مصدر غاب . بمعنى استتر واحتجب وخفى . وهو بمعنى الفاعل - كالزور للزائر - أطلق عليه مبالغة ، والمراد به ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام . والمعنى يؤمنون بما لا يتناولوه حسّهم . كذاته تعالى ، وملأئكته ، والجنة ، والنار ، والعرش والكبرى ، والروح ونحوها .

« وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى يؤدونها بمحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة . كالخشوع والمراقبة وتدبر التلوّ والقراءة .

قال الراغب : إقامة الصلاة توفية حدودها ، وإدامتها . وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط . ولهذا ، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو « أقم الصلاة » ^(١) ، وقوله « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ^(٢) ، و « الَّذِينَ

(١) [١١ / هود / ١١٤] ونصها : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا .

و [١٧ / الإسراء / ٧٨] ونصها : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل . وقرءان الفجر ، إن قرءان الفجر كان مشهودا .

و [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

و [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها : اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٢] ونصها : لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ =

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ»^(١) . ولم يقل : المصلى ، إلا فى المنافقين « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ »^(٢) ، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والقيمين لها قليل - كما قال عمر رضى الله عنه : الحاج قليل والركب كثير - ولهذا قال عليه السلام^(٣) « من صلى ركعتين مقبلاً بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . فذكر مع قوله « صلى » الإقبال بقلبه على الله تنبيهاً على معنى الإقامة ، وبذلك عظم ثوابه . وكثير من الأفعال التى حث تعالى على توفيقه حق ، ذكره بلفظ الإقامة ، نحو « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ »^(٤) ونحو « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ »^(٥) تنبيهاً على المحافظة على تعديله . انتهى .

فالإقامة من أقام العود إذا قومه . و « الصلوة » فعلة من صلى إذا دعا ، ك « الزكوة » من زكى - وإنما كتبنا بالواو مراعاة للفظ المفتحة - وإنما سعى الفعل المخصوص بها لاشتراكه على الدعاء . « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى يؤتون مما رزقناهم من الأموال من شرع لهم إيتاؤه والإنفاق عليه من الفقراء والمساكين وذرى القربى واليتامى وأمثالهم ، على ما بين فى آيات كثيرة .

= يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .
(١) [٥ / المائدة / ٥٥] ونصها : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

(٢) [١٠٧ / الماعون / ٥٤] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

(٤) [٥ / المائدة / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

(٥) [٥٥ / الرحمن / ٩] ونصها : وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » والمراد « بما أنزل إليك » الكتاب المنزل كله ، وإنما عبر عنه بلفظ المضى - وإن كان بعضه مترقباً - تفضيلاً للموجود على ما لم يوجد . كما أن المراد من قوله « وما أنزل من قبلك » الكتب الإلهية السالفة كلها . وهذا كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » ^(١) الآية . والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل . فنزل الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بأن يتلقاها جبريل من جنابه عز وجل فينزل بها إلى الرسل عليهم السلام . ولهذا يقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ .

قال الإمام أحمد وغيره : وإليه يعود أى هو المتكلم به . قال تعالى « وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » ^(٢) . وقال تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ

(١) [٤ / النساء / ١٣٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»^(١) . وقال تعالى : « تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »^(٢) .

« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » الآخرة في الأصل : تأنيث الآخر الذي هو تقيض الأول وهي صفة الدار ، بدليل قوله تعالى « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ »^(٣) . سميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا . وقيل للدنيا : دنيا ، لأنها أدنى من الآخرة . وهما من الصفات الغالبة . ومع ذلك فقد جرى مجرى الأسماء ، إذ قد غلب ترك ذكر اسم موصوفهما معهما ، كأنهما ليسا من الصفات .

والإيقان إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . وفي تقديم « الآخرة » وبناء « يوقنون » على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته . كزعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى^(٤) ؛ وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة^(٥) ؛ واختلافهم في أن نعم الجنة هل هو من قبيل نعم الدنيا أو لا ؟ وهل هو دائم أو لا ؟ فاعتقادهم في أمور الآخرة بمزول عن الصحة ، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين !

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ١] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٣] ونصها : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى في [٢ / البقرة / ٨٠] وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« أُولَئِكَ » أى : المتصفون بما تقدم . « عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ » أى على نور من ربهم ، وبرهان ، واستقامة ، ومسار - بتسديده إياهم وتوفيقه لهم - . « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون ، المدركون ما طلبوا عند الله - بإيمانهم - من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعدَّ الله لأعدائه من العقاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لَمَّا بَيَّنَّ تعالى نموت المؤمنين قبل ، شَرَحَ أحوال مقابلهم وهم الكفرة المردة بأنهم : تنَاهَوْا فى العواية والضلال إلى حيث لا يجدهم الإنذار والتذكير ، كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ »^(١) . وكقوله سبحانه فى الماندين الكتبيين « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ »^(٢) الآية .

و « سواء » اسم بمعنى : الاستواء ، وصف به ، كما يوصف بالصادر ، مبالغة ؛ ومنه

= وقوله تعالى فى [٣ / آل عمران / ٢٤] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنَنصَنَعَنَّ النَّارَ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّبَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(١) [١٠ / يونس / ٩٧ ، ٩٦] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٥] ونصها : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ

مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

قوله تعالى « تَمَآلُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » بمعنى : مستوية .
 و (الإنذار) الإعلام مع تخويف . والمراد هنا : التخويف من عذابه تعالى ، وانتقامه ،
 والاختصار عليه لما أنهم ليسوا أهلاً للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ؛ ومن لم يتأثر به
 فَلَأَن لا يرفع للبشارة رأساً - أُولَى .
 وقوله « لا يؤمنون » جملة مستقلة ، مؤكدة لما قبلها ، مبيّنة لما فيه من إجمال ما فيه
 الاستواء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

استئناف معلل لما سبق من الحكم ، أو بيان وتأكيده له . والختم على الشيء :
 الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه . والمراد : إحداث حالة تجعلها - بسبب تمامهم في النفي ،
 وانهماء بهم في التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح - بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ،
 ولا ينفذ فيها الحق أصلاً .

قال أبو السعود : وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى ، لاستناد جميع
 الحوادث عندنا - من حيث الخلق - إليه سبحانه . وورود الآية السريعة ناعية عليهم
 سوء صنيعهم ، ووخامة عاقبتهم ، لكون أفعالهم - من حيث الكسب - مستندة إليهم .
 فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر ، بل بطريق الترتيب - على ما اقتضاه من
 القبايح - كما يعرب عنه قوله تعالى « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » (٣) ونحو ذلك ،

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ
 وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
 يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

يعنى كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » وقوله : « وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(١) .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل .
منها : أن القوم لما أعرضوا عن الحق ، وتمكّن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم ، شبه بالوصف الخلقيّ المجهول عليه .

ومنها : أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها . كما فى : سال به الوادى - إذا هلك - وطارت به العنقاء - إذا طالت غيبته - .

ومنها : أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر ، واستحكمت ، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ؛ ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف ، عبر عن ذلك بالتحتم ، لأنه سدّ لطريق إيمانهم بالكلية . وفيه إشعار بترامى أمرهم فى النقي والمعاد .

ومنها : أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه . مثل قولهم : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى أذاننا وقرّ ، ومن بيننا وبينك حجاب ^(٢) . تهكمًا بهم .

ومنها : أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقّق وقوعه . وبعضه قوله تعالى « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا » ^(٣) . انتهى ملخصاً .

(فائدة) قال الراغب : المراد بالقلب فى كثير من الآيات : العقل والمعرفة اه .

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] ونصها : وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٧] ونصها : وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)

أصل ناس أناس ، حذفت همزته تخفيفاً ، وحذفها مع لام التعريف كاللازم . ويشهد لأصله إنسان ، وأناس ، وأناسى ، وإنس . وسماوا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون - كما سمى الجن لاجتماعهم - ولذلك سماوا بشراً . وقيل : اشتقاقه من الأنس - ضد الوحشة - لأن الإنسان مدنى بالطبع . والأول أظهر .

واعلم أن صفات المنافقين إنما نزلت في السور المدنية . لأن مكة لم يكن فيها نفاق ؛ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب . وبها اليهود - من أهل الكتاب - وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع - حلفاء الخزرج - وبنو النضير وبنو قريظة - حلفاء الأوس - فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلّ من أسلم من اليهود - إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه - ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين ، بعد ، شوكة تخاف ؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة - من أحياء العرب حوالى المدينة - . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي سلول - وكان رأساً في المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان ابن سيد الطائفتين في الجاهلية ؛ وكانوا قد عزموا على أن يعلكوه عليهم ، فجاءهم الخبر ، وأسلموا ، واشتغلوا عنه . فبقى في نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بدر ، قال : هذا أمر قد توجه . فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف - ممن هو على طريقته ونحلته - وآخرون من أهل الكتاب ؛ فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب .

= فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَاوَاهُم جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ)

قال القاشاني : المخادعة استعمال الخدع من الجانبين ، وهو إظهار الخير ، واستبطان الشر . ومخادعة الله مخادعة رسوله ، لقوله « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » (١) . يخداعهم الله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبة ، واستبطان الكفر والمداوة . وخداع الله للمؤمنين إياهم مسالتهم ، وإجراء أحكام الإسلام عليهم . بحسن الدماء وحسن الأموال وغير ذلك . وإدخال العذاب الأليم ، والمآل الوخيم ، وسوء المنية لهم ، وخزيهم في الدنيا لانتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحي عن حالهم . لكن الفرق بين الخداعين : أن خداعهم لا ينجح إلا في أنفسهم . بإهلاكها ، وتحجيرها ، وإيرائها الوبال والنكال - بازدياد الظلمة ، والكفر ، والنفاق ، واجتماع أسباب الهلكة ، والبعد والشقاء ، عليها - وخداع الله يؤثر فيهم أبلغ تأثير ، ويوقعهم أشد إيقاع ، كقوله تعالى « وَمَكْرُؤًا ، وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (٢) وهم - من غاية تمعقهم في جهلهم - لا يحسون بذلك الأمر الظاهر .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « وَمَا يُخَادِعُونَ » بالآلف .

قال ابن كثير : نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يفتروا بظاهر أمرهم المؤمنين ، فيقع بذلك فساد عريض - من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم ، وهم كفار في نفس الأمر - وهذا من المحذورات : أن يُظَنَّ بأهل الفجور خير . ثم إن قول من قال : كان عليه

(١) [٤ / النساء / ٨٠] ونصها : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

(٢) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين - إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان^(١) في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً - في غزوة تبوك - الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عندعقبة هناك، عزموا على أن ينفروا به الناقة ، ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم ، فأطلع على ذلك حذيفة .

فأما غير هؤلاء ، فقد قال الله تعالى « وَِمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ »^(٢) الآية . وقال تعالى « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم ، فيتوسمها في بعضهم ، كما قال تعالى « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَ تَعْرِفَهُمْ سِيَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »^(٣) . وقد كان من أشهرهم بالنفاق ، عبد الله بن أبي بن سلول .

واستند - غير واحد من الأئمة - في الحكمة عن كفه ﷺ عن قتل المنافقين ، بما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه^(٤) « أكره أن يتحدث العرب أن محمداً

(١) يشير إلى حديث حذيفة الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في : ٥٠ - كتاب

صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٩ و ١٠ و ١١ .

(٢) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَِمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ

أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

(٣) [٤٧ / محمد / ٣٠] .

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث

=

١٤٢ ونصه :

يقتل أصحابه . ومعناه خشية أن يقع بسبب ذلك تدميرٌ لكثيرٍ من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتلهم - بأنه لأجل كفرهم - فإنهم إنما يأخذونه بمجرّد ما يظهرون لهم ، فيقولون : إن محمداً يقتل أصحابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

المرض : السقم ، وهو نقىض الصحة ، بسبب ما يمرض للبدن ؛ فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل في أفعاله . استعير ههنا لعدم صحة يقينهم ، وضعف دينهم - وكذا توصف قلوب المؤمنين بالسلامة التي هي صحة اليقين ، وعدم ضعفه ، كما قال تعالى « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »^(١) أى : غير مريض بما ذكرنا - أو استعير لشكهم ، لأن الشك تردّد بين الأمرين ، والمنافق متردّد ، كما في الحديث^(٢) « مثل المنافق كمثل الشاة

= عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجرمانة ، منصرفه من حنين ، وفي ثوب بلال فضة . ورسول الله ﷺ يقبض منها . يعطى الناس . فقال : يا محمد ، اعدل . قال « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت » ، إن لم أكن أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى ، يا رسول الله ، فأقتل ، هذا المنافق . فقال « معاذ الله ، أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم . يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية » .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٩] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٧ ونصه : عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « مثل المنافق كمثل الشاة المائرة بين الفئتين . تمر إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة » .

العائرة^(١) بين الغنمين » والمريض متردد بين الحياة والموت .

« فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا » بأن طبع على قلوبهم ، لعله تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار .

وقال القاشاني : أى مرضاً آخر - حقدًا وحسدًا وغلاً - بإعلاء كلمة الدين ، ونصرة الرسول والمؤمنين - ثم قال : والذائل كلها أمراض القلوب ، لأنها أسباب ضعفها وآفتها في أفعالها الخاصة ، وهلاكها في العاقبة .

« وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مؤلِمٌ - بكسر اللام - فمیل بمعنى فاعل - كسميع وبصير -

قال في المحكم : الأليم من العذاب الذى يبلغ إجماعه غاية البلوغ . ومنه . يُلم وجه إشاره في عذاب المنافقين - على « العظم » المتقدم في وصف عذاب الكافرين - ويؤيده : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »^(٢) . « بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » الباء للسببية أو للمقابلة - أى بسبب كذبهم أو بمقابلته - وهو قولهم : ءامنا بالله وباليوم الآخر ، وهم غير مؤمنين . وفيه رمز إلى قبح الكذب ، وسماجته ، وتخيل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم - مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم من جهات شتى - ونحوه قوله تعالى « بِمَا خَطِئْتُمْ بِهِمْ أُغْرِقُوا »^(٣) - والقوم كفرة - وإنما خصت الخطيئات استعظاماً لها ، وتنفيراً عن ارتكابها .

(١) العائرة : المترددة والحائرة لا تدرى أيهما تتبع . تميز أى تتردد وتذهب .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٥] .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] ونصها : بِمَا خَطِئْتُمْ بِهِمْ أُغْرِقُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

[١٢] (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)

م شروع في تعديد بعض من مساوئهم المتفرعة - على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق - و « الفساد » خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به . ونقيضه « الصلاح » وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة . والفساد في الأرض : تهيج الحروب والفتن ، لأن في ذلك فساداً مافى الأرض ، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس ، والزروع ، والمنافع الدينية والدينية . قال الله تعالى « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ الْفُسَادَ »^(١) . « أَنْجَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »^(٢) - ومنه قيل للحرب كانت بين طيء : حرب الفساد - .

وكان إفساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يُمالئون الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم ، وإغرائهم عليهم ، واتخاذهم أولياء ، مع ما يدعون في السرّ إلى : تكذيب النبي ﷺ ، وجحد الإسلام ، وإلقاء الشبه ، وذلك مما يجري الكفرة على إظهار عداوة النبي ﷺ ، ونصب الحرب له ، وطمعهم في الغلبة . فلما كان ذلك من صنيمهم مؤدياً إلى الفساد - تهيج الفتن بينهم - قيل لهم : لا تفسدوا - كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك في النار ؛ إذا أقدم على ما هذه عاقبته - وقد قال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْزِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٌ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفُسَادٌ كَبِيرٌ »^(٣)

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها : وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧٣] .

فأخبر أن موالاة الكافرين تؤدي إلى الفتنة والفساد ، لما تقدم .

وقولهم « إنما نحن مصلحون » أي : بين المؤمنين وأهل الكتاب . نُدَارَى الفريقين
ونريد الإصلاح بينهما كما حكى الله عنهم أنهم قالوا « إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا » (١) .
أو معناه : إنما نحن مصلحون في الأرض بالطاعة والانقياد .

قال الراغب : تصوّروا إفسادهم بصورة الإصلاح - لما في قلوبهم من المرض - كما قال
« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » (٢) وقوله « وَزُيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٣) وقوله « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا » (٤) .

وقال القاشاني : كانوا يروون الصلاح في تحصيل المعاش ، وتيسير أسبابه ، وتنظيم
أموال الدنيا - لأنفسهم خاصة - لتوغلهم في عجة الدنيا ، وأنها كمهم في اللذات البدنية ،
واحتجابهم - بالمنافع الجزئية ، والملاذ الحسية - عن المصالح العامة السلكية ، واللذات
العقلية ؛ وبذلك يتيسر مرادهم ، ويتسهل مطلوبهم ، وهم لا يحسون بإفسادهم المدرك
بالحس .

(١) [٤ / النساء / ٦٢] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ
ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخُلُوفٍ بِاللَّهِ إِنَّ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَصْنَعُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٤٣] ونصها : فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَزُيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٤) [١٨ / الكهف / ١٠٤] ونصها : الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » بطريق الأمر بالمعروف ، إثر نهيبهم عن المنكر .. إتماماً للنضح ، وإكمالاً للإرشاد .. « ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ » أى : السكاملون فى الإنسانية ، فإن المؤمنين هم الناس فى الحقيقة لاجتماعهم ما يمد من خواص الإنسان وفضائله .. « قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ » استفهام فى معنى الإنكار . و (السفه) خفة وسخافة رأى يورثهما : قصور العقل ، وقلة المعرفة بمواضع المصالح والمضار .. ولهذا سعى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » (١) ..

وإنما سفههم .. مع أنهم العقلاء المراجيح .. لأنهم : لجهلهم ، وإخلافهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق ، وأن ما عداه باطل .. ومن ركب متن الباطل كان سفياً .. ولأنهم كانوا فى رياسة فى قومهم ، ويسار ؛ وكان أكثر المؤمنين فقراء ، ومنهم موال .. كصهيب ، وبلال ، وخباب .. فدعواهم سفهاء تحقيراً لشأنهم ! « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤] (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » أى : أظهروا لهم الإيمان ، والموالاة ، والمصافاة .. نفاقاً ، ومصانعةً ، وتقيةً وليشركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومنهم ..

(١) [٤ / النساء / ٥] .

واعلم أن مساق هذه الآية بخلاف ما سبقت له أول قصة المنافقين ، فليس بتكرير . لأن تلك في بيان مذهبهم ، والترجمة عن نفاقهم ؛ وهذه لبيان تباين أحوالهم ، وتناقض أقوالهم . في أثناء المعاملة والمخاطبة - حسب تباين المخاطبين !

« وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » يقال :

خلوت بفلان وإليه أى : انفردت معه ؛ ويجوز أن يكون من خلا بمعنى : مضى ، ومنه :

القرون الخالية . والمراد بـ « شَيَاطِينِهِمْ » : أصحابهم أولو التمرّد والعناد ؛ والشيطان يكون

من الأنس والجن ، كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ

وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » (١) . وإضافتهم إليهم للمشاركة

في الكفر . واشتقاق شيطان من شطن ، إذا بعد ، لبعده من الصلاح والخير .

ومعنى « إِنَّا مَعَكُمْ » أى في الاعتقاد على مثل ما أنتم عليه ، إنما نحن في إظهار

الإيمان عند المؤمنين مستهزون ساخرون بهم . والاستهزاء بالشيء السخرية منه . يقال :

هزأت واستهزأت بمعنى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » - يسخر بهم للنقمة منهم - هكذا فسره ابن عباس رضى الله

عنهما فيما رواه الضحاك - « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » يزيدهم على وجه الإملاء ،

والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، كما قال تعالى « وَتَقَلَّبُ أَفْتِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ

يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (٢) .

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ

الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ،

فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٠] .

و (الطغيان) المراد به هنا : الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو . وأصل المادة هو المجاوزة في الشيء ، كما قال تعالى « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُفْرَ الْجَارِيَةِ » (١) .
و (العمه) مثل العمى - إلا أن العمى عام في البصر والرأى ، والعمه في الرأى خاصة - وهو التحير والتردد ، لا يدري أين يتوجه .

أى في ضلالهم وكفرهم - الذى غمرهم دَنَسُهُ ، وعلاهم رِجْسُهُ - يترددون حيارى ، ضلّالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

والشهور فتح الباء من « يمدّهم » ، وقرئ - شاذاً - بضمها ، وهما بمعنى واحد . يقال : مدّ الجيش وأمدّه - إذا زاده ، وألحق به ما يقوّيه ويكثره - وكذلك مدّ الدواء وأمدّها زادها ما يصلحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ » إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميّزة لهم عن عداهم أكل تمييز ، بحيث صاروا كأنهم حضّار مشاهدون على ما هم عليه . وما فيه من معنى البعد للإيذان بيمد منزلتهم في الشرّ وسوء الحال ، ومحلّه الرفع على الابتداء ، خبره قوله تعالى « الَّذِينَ اشْتَرَوْا » الخ . والجملة مَسْوَقة لتقرير ما قبلها ، وبيان لسكّال جهالتهم - فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال - بإظهار غاية سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز - فضلاً عن العقلاء - . و « الضلالة » الجور عن القصد ؛ و « الهدى » التوجّه إليه . وقد استعير الأول : للمدول عن الصواب فى الدين ، والثانى : للاستقامة عليه . و « الاشتراء » استبدال السلعة بالثمن - أى أخذها به -

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١] .

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعمار لأخذها بدلاً منه أخذاً منوطاً بالرغبة فيها والإعراض عنه .

فإن قيل : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟

قلت : جعلوا لئـكـنهم منه - بتيسير أسبابه - كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه ، واستبدلوهـا به ؛ فاستعير ثبوته لئـكـنهم بجامع المشاركة في استتباع الجدوى ، ولا مـرـيـة في أن هذه المرتبة - من التـكـن - كانت حاصلة لهم بما شاهدوه - من الآيات الباهرة ، والمعجزات القاهرة - من جهة النبي ﷺ .

« فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ » عطف على الصلة داخل في حيزها . والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها . والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدي للبيع والشراء ، لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ، وإسناد عدمه - الذي هو عبارة عن الخسران - إليها ؛ وهو لأصحابها ، من الإسناد المجازي وهو : أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له - كما تلبست التجارة بالمشتري - وفائدته : المبالغة في تحسيرهم ، لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار ، وعمومه المستتبع ، لسرايته إلى ما يلبسهم .

فإن قلت : هـب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح ، والتجارة كأنهم مبايعة على الحقيقة ؟

قلت : هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقف بأشكال لها ، وأخوات - إذا تلاحقن - لم تر كلاماً أحسن منه دياجعة ، وأكثر ماء ورونقاً ، وهو المجاز المرشح ؛ فإبرادها - إثر الشراء - تصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسران التجارة - الذي يتحاشى عنه كل أحد - للإشباع في التحسير والتحسير . وهذا النوع قريب من التتميم الذي يمثل أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإن صخرًا لتأنم الهداة به كأنه علم في رأسه نار . . .

لما شبهته - في الاهتداء به - بالعلم المرتفع ، أتبعت ذلك ما يناسبه ويحققه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر ، باشتعال النار في رأسه .

وقوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : لزوال استمدادهم ، وتكدير قلوبهم بالرّين الموجب للحجاب والحرمان الأبديّ .

قال الزمخشريّ : فإن قيل : لمّ عطف بالواو عدم اهتدائهم على انتفاء ربح تجارتهم ، ورتباً ممّا بالفاء على اشتراء الضلالة بالهدى ؟ وما وجه الجمع بينهما - مع ذلك الترتيب - على أن عدم الاهتداء قد فهم من استبدال الضلالة بالهدى ، فيكون تكراراً لِمَا مضى ؟

فالجواب : أن رأس ما لهم هو الهدى ، فلمّا استبدلوا به ما يضادّه - ولا يحاميه أصلاً - انتفى رأس المال بالسكينة ، وحين لم يبق في أيديهم إلا ذلك الضد - أعنى الضلالة - وصفوا بانتفاء الربح والخسارة . لأنّ الضالّ في دينه خاسرٌ هالكٌ - وإن أصاب فوائد دنيوية - ولأنّ مَنْ لم يسلم له رأس ماله لم يوصف بالربح ، بل بانتفائه ؛ فقد أضاعوا سلامة رأس المال بالاستبدال ، وترتب على ذلك إضاعة الربح .

وأما قوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » فليس معناه عدم اهتدائهم في الدين - فيكون تكراراً لما سبق - بل لَمَّا وُصفوا بالخسارة في هذه التجارة أشير إلى عدم اهتدائهم لطرق التجارة - كما يهتدى إليه التجار البصراء بالأموال التي يربح فيها ويخسر - فهذا راجع إلى الترشيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

ولما جاء بحقيقة صفتهم ، عقبها بضرب المثل - زيادةً في الكشف ، وتتميماً للبيان - فقال تعالى : « مَثَلُهُمْ » أى : مثالهم في نفاقهم ، وحالهم فيه « كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ » أى أوقد « نَارًا » في ظلمة - والتنكير للتمظيم - « فَلَمَّا أَضَاءَتْ » أى : أنارت النار

« مَا حَوْلَهُ » فَأَبْصَرَ ، وَاسْتَدْفَأَ ، وَأَمِنَ مِمَّا يَخَافُهُ « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » أَيْ : أَلْفَأَ اللَّهُ نَارَهُمْ - الَّتِي هِيَ مَدَارُ نُورِهِمْ - فَبَقُوا فِي ظُلْمَةٍ وَخَوْفٍ - وَجَمَعَ الضَّمِيرُ مِرَاعَةً لِمَعْنَى الَّذِي كَقَوْلِهِ « وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » (١) . « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » مَا حَوْلَهُمْ - مُتَحَيِّرِينَ عَنِ الطَّرِيقِ ، خَائِفِينَ - فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ اسْتَضَاءُوا قَلِيلًا بِالْإِنْتِفَاعِ بِالسَّكْمَةِ الْجَرَاةِ عَلَى السَّنَنِ ، حَيْثُ أَمِنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَتَّبِعُهَا . ثُمَّ وَرَاءَ اسْتِضَاءَتِهِمْ بِنُورِ هَذِهِ السَّكْمَةِ - ظُلْمَةُ الْإِنْفَاقِ - الَّتِي تَرَى بِهِمْ إِلَى ظُلْمَةِ سُخْطِ اللَّهِ ، وَظُلْمَةِ الْمَقَابِ السَّرْمَدِ ؛ وَمَحْصُولُهُ : أَنَّهُمْ انْتَفَعُوا بِهَذِهِ السَّكْمَةِ مَدَّةَ حَيَاتِهِمْ الْقَلِيلَةِ ، ثُمَّ قَطَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَوْتِ .

وُنُقِلَ - مِنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ - تَفْسِيرُ آخِرِ ، وَهُوَ : تَمْثِيلُ لِعَانِهِمْ أَوَّلًا ، ثُمَّ كُفْرِهِمْ ثَانِيًا . فَيَكُونُ إِذْ هَابَ النُّورُ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا » (٢) الْآيَةِ ، فَلَمَّا آمَنُوا أَضَاءَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ - كَمَا أَضَاءَتِ النَّارُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَوْقَدُوا نَارَآ - ثُمَّ لَمَّا كَفَرُوا ، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ : انْتَزَعَهُ - كَمَا ذَهَبَ بِضَوْءِ هَذِهِ النَّارِ - وَعَلَى هَذَا فَالْتِمِثِلُ مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَهُ . فَإِنَّهُمْ - لَمَّا وَصَفُوا بِأَنَّهُمْ اشْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى - مِثْلَ هِدَايِهِمْ - الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّارِ الْمُضَيِّئَةِ مَا حَوْلَ الْمُسْتَوْقَدِ - وَالضَّلَالََةَ - الَّتِي اشْتَرَوْهَا وَطَبَعَ بِهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ - بِذَهَابِ اللَّهِ بِنُورِهِمْ ، وَتَرْكِهُ إِيَابَهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ .

قَالَ الزُّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ : وَاضْرَبَ الْعَرَبُ الْأَمْثَالَ ، وَاسْتَحْضَرَ الْعُلَمَاءُ الْمَثَلَ

(١) [٩ / التوبة / ٦٩] وَنَصَبَهَا : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ٣] وَنَصَبَهَا : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

والنظار شأنٌ ليس بالخفيّ في إراز خبيّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيّل في صورة المحقّق ، والمتوهّم في معرض المتيقّن ، والغائب كأنّه مشاهد - وفيه تبيكيتٌ للخصم الألدّ ، وقمّعٌ لسورة الجامع الأبيّ .

ولأمرٍ ما ، أكثر الله - في كتابه المبين ، وفي سائر كتبه - أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله ﷺ ، وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » (١) .

و (المثل) في أصل كلامهم بمعنى : المثل وهو النظير . يقال : مثل ، ومثل ، ومثّل ، ومثّل - كشيء وشبهه وشبيهه - ثم قيل للقول السائر الممثل مضر به بمورده : مثل . ولم يضربوا مثلاً ، ولا رأوه أهلاً للتفسير ولا جديراً بالتداول والقبول ، إلّا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه . ومن ثمّ حوفظ عليه ، وحُمي من التغير .

فإنه (٢) - لو غيّر - لربما انتفى الدلالة على تلك الغرابة . وقيل : إنّ المحافظة على المثل إنّما هي بسبب كونه استعارة . فوجب لذلك أن يكون هو بعينه لفظ المشبه به . فإن وقع تغير ، لم يكن مثلاً ، بل مأخوذاً منه ، وإشارة إليه - كما في قولك : بالصيف ضيعت اللبن (٣) . بالتذكير .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] .

(٢) في حاشية الجرجاني على الكشف .

(٣) قال في اللسان : ومن أمثالهم : الصيف ضيعت اللبن . إذا فرط في أمره في وقته . معناه طلبت الشيء في غير وقته . وذلك أن الألبان تكثر في الصيف . فيضرب مثلاً لترك الشيء وهو ممكن ، وطلبه وهو متعذر . قال ذلك ابن الأنباري .

وأول من قاله عمرو بن عمرو بن عُدَسٍ لَدَ خَتْنُوسَ بنت لَقِيط : وكانت تحته فقر كته . وكان موسراً . فتزوجها عمرو بن معبد ، وهو ابن عمها ، وكان شاباً مقترأ . ففرت به إبل عمرو فسأله اللبن فقال لها ذلك .

وقال بعضهم : قد استمير المثل للحال ، أو القصّة ، أو الصّفة - إذا كان لها شأن ، وفيها غرابة - كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً . وكذلك قوله « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ »^(١) أى - فيما قصّصنا عليك من المجائب - قصة الجنة العجيبة الشأن ، ثم أخذ في بيان عجائبها « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى »^(٢) أى : الوصف الذى له شأن من المظمة والجلالة . « مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ »^(٣) أى : صفتهم وشأنهم المتمجّب منه . ولما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثله فى الخير والشر ، فاشتقوا منه صفة للمعجب الشأن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ » الصمم : آفة مانعة من السماع ، متى به فقدان حاسة السمع ، لما أن سببه اكتناز باطن الصّماخ ، وانسداد منافذه ، بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه . والبكم : الخرس . والعُمَى : عدم البصر عما من شأنه أن يبصر .

(١) [١٣ / الرعد / ٣٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ .
(٢) [١٦ / النحل / ٦٠] ونصها : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

وَصِفُوا بِذَلِكَ - مع سلامة حوائثهم المذكورة - لما أَنَّهُمْ سَدَّوْا عَنِ الْإِصَاخَةِ إِلَى الْحَقِّ مَسَامِعَهُمْ ، وَأَبَوْا أَنْ يُنْطِقُوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَأَنْ يَنْظُرُوا وَيَتَبَصَّرُوا بِمَعْيُونِهِمْ ، فَجَعَلُوا كَأَنَّمَا أُصِيبَ بِآفَةٍ مَشَاعِرُهُمْ - كَقَوْلِهِ - :

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وَكَقَوْلِهِ :

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقَ اللَّهِ حِينَ أُرِيدُ
« فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أَيْ - بسبب انصافهم بالصفات المذكورة - لا يعودون إلى الهدى - بعد أن باعوه . أو عن الضلالة - بعد أن اشتروها . فالآية السكرية تَمَمَّةٌ لِلتَّمْثِيلِ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ ، لَيْسَ بِمَجْرَدِ انطفاء نارهم ، وبقائهم في ظلمات كثيفة هائلة - مع بقاء حاسة البصر بحالها - بل اختلَّتْ مشاعرهم جميعاً ، واتصفوا بتلك الصفات فَبَقُوا جامدين في مكانهم لا يرجعون ، ولا يدرون أَيْتَقَدَّمُونَ أم يتأخَّرون ؟ وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)

« أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ » تمثيل للحلم إثر تمثيله ، ليعمَّ البيان منها كلَّ دقيق وجليل ، ويوفى حقها من التفضيع والتهويل . فَإِنَّ تَفَنَّنَهُمْ فِي فَنُونِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَضْرِبَ فِي شَأْنِهِ الْأَمْثَالَ . وكما يجب على البايغ - في مظان الإجمال والإيجاز - أن يحمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه - في موارد التفصيل والإشباع - أن يفصل ويشبع .

و«الصَّيْبُ» السحاب ذوالصوب . والصوب المطر . والمراد بالسما : السحاب ، كما قال تعالى « أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ » ^(١) . وهى فى الأصل : كل ما علاك من سقف ونحوه :

« فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » التنوين في السكّ للتعظيم والتهويل - كأنه قيل : فيه ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف - « يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مَنْ الصَّوَاعِقِ » الصاعقة : الصوت الشديد من الرعدة يحقط معها قطعة نارٍ تنفدح من السحاب - إذا اصطكت أجرامه - لاناقي على شيءٍ إلا أحرقتَه « حَذَرَ » - أي خوف - « الْمَوْتِ » - من سماعها - « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » علماً وقُدْرَةً فلا يفوتونه . والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعُوا - من سدّ الآذان بالأصابع - لا يغني عنهم شيئاً ، فإنَّ القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا تردُّ بأس الله عزّ وجلّ . وفائدة وَضَعَ الْكَافِرِينَ موضع الضمير - الراجع إلى أصحاب الصيّب - الإيذان بأن ما دهمهم - من الأمور الهائلة الْحَكِيمَةِ - بسبب كفرهم ، فيُظهر استحقاقهم شدة الأمر عليهم ، على طريقة قوله تعالى : « أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْمٍ ظَلَمُوا »^(١) فإن الإهلاك النائي عن السخط أشد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَإِنْ لَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ » استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدر - كأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد يخطف أبصارهم ، أي : يأخذها بسرعة « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » أي : في ضوئه « وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا » أي : وقفوا ،

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] ونصها : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ .

وثبتوا في مكانهم - ومنه : قامت السوق ، إذا ركبت وكسدت . وقام الماء ، جمد - وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين : بشدته على أصحاب الصيْب ، وما هم فيه من غاية التحير والجهل - بما يأتون وما يذرون - إذا صادفوا من البرق خفقة - مع خوف أن يخطف أبصارهم - انتهزوا تلك الخفقة فرصة ، فَخَطَّوْا خطواتٍ يسيرةً ، فإذا خفي ، وفتر لماعه ، بقوا واقفين متقيدين عن الحركة « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » أى : لزاد في قصيف الرعد فأصمهم ، أو في ضوء البرق فأعماهم . ومفعول « شاء » محذوف ، لأن الجواب يدل عليه . والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها . ولقد تكرّر هذا الحذف في « شاء » و « أراد » . لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب - كمنحو قوله : فلو شئت أن أبكي دماً لبكيت^(١) ؛ وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ دُنَا »^(٢) . « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليل للشرطية ، وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهاني .

تنبيهات :

الأول : محصول التمثيلين - غيب وصف أربابهما بوقوعهم في ضلالتهم التي استبدلوها بالهدى - هو أنه شبه ، في الأول ، حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طمئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل . وفي الثاني : شبه حالهم بحال من أخذتهم السماء في ليلة تكاثف ظلماتها - بتراكم السحب ، وانتساج قطراتها ، وتواتر فيها الرعود الهائلة ، والبروق الخفيفة ، والصواعق المختلفة المهلكة ، وهم في أثناء ذلك يزاولون غمرات الموت . وبذلك يعلم أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة ، وهو الذي تقتضيه جزالة المعاني - لأنه يحصل في النفس من تشبيه الهيئات المركبة مالا يحصل من تشبيه مفرداتها . فإنك إذا تصورت حال من طمئت ناره بعد إيقادها ... الخ ، وحال من أخذتهم السماء .. الخ حصل في نفسك

(١) استشهد به في الكشف . وعجزة : عليه ولكن ساحة الصبر أوسع .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

هيئة عجيبة توصلك إلى معرفة حال المنافقين ، على وجهٍ يتقاصر عنه تشبيه المنافق - في التمثيل الأول - بالمستوقد ناراً ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار ؛ وتشبيه دين الإسلام - في الثاني - بالصيْب ، وما يتعلق به - من شبه الكفار - بالظلمات ، وما فيه - من الوعد والوعيد - بالعد والبرق ، وما يصيب الكفرة - من الإفزاع والبلايا والفتن - من جهة أهل الإسلام بالصواعق . وأيضاً في تشبيه المفردات ، وطى ذكر المشبهات تسكف ظاهر . وأيضاً في لفظ (المثل) نوع إنباء عن التركيب ، إذ المتبادر منه القصة التي هي في غرابتها كالمثل السائر ، وهي في الهيئة المركبة دون كل واحد من مفرداتها . وأيضاً في التمثيل المركب اشتغال على التشبيه في المفردات إجمالاً ، مع أمر زائد : هو تشبيه الهيئة بالهيئة ، وإيداعه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلاً في الغرابة .

التنبيه الثاني :

قال الإمام العلامة « ابن القيم » في كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المظلة والجممية)

« في هذه الآية ، شبه ، سبحانه ، أعداءه المنافقين : بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم ، وينتفعوا بها ، فلما أضاءت لهم النار ، فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق - بعد أن كانوا حيارى تأمهن - فهم كقوم سَفَرٍ ضَلُّوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضيء لهم الطريق ، فلما أضاءت لهم - فأبصروا وعرفوا - طَفِئَتْ تلك الأنوار ، وبقوا في الظلمات لا يبصرون ، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث - فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بإذنه ، ويراها بعينه ، ويمقل بقلبه - وهؤلاء قد سُدت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تمقل ما ينفعها . وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نَزَلُوا بمنزلة مَنْ لا يسمع له ، ولا يبصر ، ولا عقل . والقولان متلازمان .

وقال في صفتهم «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» لأنهم قد رأوا في ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلما طفت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا . وقال سبحانه وتعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل : ذهب نورهم ؛ وفيه سرّ بديع : وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة .. التي هي للمؤمنين .. من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين ^(١) ، وإن الله مع الصابرين ^(٢) ، و« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ^(٣) . فذهب الله بذلك النور : انقطاع المعية .. التي خص بها أوليائه .. فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يبقَ عندهم .. بعد ذهاب نورهم .. ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » ^(٤)

(١) [٨ / الأنفال / ١٩] ونصها : إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٥٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها : فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٤٦] ونصها : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ =

ولا من « كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » (١) .

وتأمل قوله تعالى « أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » كيف جعل ضوءها خارجاً عنه ، منفصلاً ، ولو اتصل ضوءها به ، ولا بسه ، لم يذهب ، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة في معدنها ، فرجع كلُّ منهما إلى أصله اللاتني به : حجة من الله قاعة ، وحكمة بالغة ، تعرّف بها إلى أولى الأبواب من عباده .

وتأمل قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل بنارهم ، ليطابق أول الآية ، فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق - وهو النور - وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق - وهو النارية - وتأمل كيف قال « بِنُورِهِمْ » ولم يقل : بضوئهم - مع قوله « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » - لأن الضوء هي زيادة في النور ؛ فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لَأَوْهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ؛ فلما كان النور أصل الضوء ، كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته ؛ وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم ؛ وأيضاً فإن الله تعالى سمى كتابه (نوراً) ، ورسوله ﷺ (نوراً) ، ودينه (نوراً) ، وهُده (نوراً) ، ومن أسمائه (النور) ، والصلاة (نور) ؛ فذهابه سبحانه بهم : ذهابٌ بهذا كله . وتأمل مطابقة هذا المثل - لِمَا تقدمه من قوله « أَوَلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » (٢) كيف

= الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُمْلَى ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٢] ونصها : قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت هول الضلالة والرضاء بها ، وبدل الهدى في مقابلتها ، وهول الظلمات - التي هي الضلالة والرضاء بها - بدلاً عن النور - الذي هو الهدى والنور - فبدلوا الهدى والنور ، وتموضوا عنه بالظلمة والضلالة . فبالها من تجارة ما أخسرَها ، وصفقة ما أشدَّ غَبْنَهَا . وتأمل كيف قال تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » فوحده ثم قال « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ » فجمعها . فإن الحق واحد : هو صراط الله المستقيم - الذي لا صراط يوصل إليه سواه - وهو عبادته وحده لا شريك له ، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، لا بالأهواء ، والبدع ، وطرق الخارجين عن ما بعث الله به رسوله ﷺ - من الهدى ودين الحق - بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة . ولهذا ، يُفَرِّدُ ، سبحانه ، الحق ، ويجمع الباطل ، كقوله تعالى « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » (١) وقال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (٢) فجمع سُبُل الباطل ، ووحده سبيل الحق . ولا يناقض هذا قوله « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ » (٣) فإن تلك هي طُرُق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم ، فإن طرق مرضاته كلها - ترجع إلى صراط واحد ، وسبيل واحد ، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها . وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه خط خطاً مستقيماً ، وقال (٤) « هذا سبيل الله »

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٦] .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن في المقدمة ، ١ - باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ،

حديث ١١ : عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ . فخط خطاً . وخط خطين =

ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال « هذه سُبُل ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه » ثم قرأ قوله تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وقد قيل : إن هذا مَثَلٌ للمنافقين ، وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ، ويكون بمنزلة قول الله تعالى « كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » (١) . ويكون قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » مطابقاً لقوله تعالى « أَطْفَأَهَا اللَّهُ » ويكون تخييرهم ، وإبطال ما راموه ، هو : تركهم في ظلمات الحيرة ، لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ، ولا يُبصرون سبيلاً ؛ بل هم « صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ » . وهذا التقدير - وإن كان حقاً - ففي كونه مراداً بالآية نظر ، فإن السياق إنما قصد لغيره ، ويأباه قوله تعالى « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » وموقدُ نارِ الحرب لا يضيء ما حوله أبداً . ويأباه قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » وموقد نار الحرب لا نور له . ويأباه قوله تعالى « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة ، إلى ظلمة الشك والكفر .

== عن يمينه . وخط خطين عن يساره . ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال « هذا سبيل الله » ثم تلا هذه الآية « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [٦ / الأنعام / ١٥٣]

(١) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْذِينَ .

قال الحسن رحمه الله : هو المنافق أبْصَرَ ثم عمى ، وعرف ثم أنكر . ولهذا قال «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» أى لا يرجعون إلى النور الذى فارقوه . وقال تعالى فى حق الكفار «صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَمْقَلُونَ» فسلب العقل عن الكفار - إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان - وسلب الرجوع عن المنافقين - لأنهم آمنوا ثم كفروا - فلم يرجعوا إلى الإيمان.

فصل

ثم ضرب الله ، سبحانه ، لهم مثلاً آخرَ مائياً ، فقال تعالى «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِمَهُمْ فِي إِذَا نَهَمُ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» . فشبه نصيبهم - مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ - من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التى طَفِئَتْ عنه أحوجَ ما كان إليها ، وذهب نوره ، وبقي فى الظلمات حائراً ، تائهاً ، لا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف طريقاً ؛ وبنصيب أصحاب الصيِّب - وهو المطر الذى يصوب (أى ينزل) من علو إلى أسفل - فشبه الهدى - الذى هدى به عباده - بالصيِّب ، لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر . ونصيب المنافقين من هذا الهدى ، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيِّب إلا ظلمات ورعد وبرق . ولا نصيب له - فيما وراء ذلك - مما هو المقصود بالصيِّب - من حياة البلاد ، والعباد ، والشجر ، والدواب ؛ وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد ، والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيِّب . فالجاهل - لفرط جهله - يقتصر على الإحساس بما فى الصيِّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من بردٍ شديد ، وتمطيل المسافر عن سفره ، وصانعٍ عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيِّب من الحياة والنفع العام . وهكذا شأن كل قاصر النظر ، ضعيف العقل ، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب . وهذه حال أكثر الخلق - إلا من صحّت بصيرته -

فإذا رأى ضعيف البصيرة مافى الجهاد من التعب ، والمشاق ، والتعرض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة ، وملامة اللوام ، ومعاداة من يخاف معاداته - لم يقدم عليه . لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة ، والغايات التى إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون . وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام ، فلم يعلم - من سفره ذلك - إلا مشقة السفر ، ومفارقة الأهل والوطن ، ومقاساة الشدائد ، وفراق المألوفات ؛ ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر هذا السفر ، ومآله ، وعاقبته - فإنه لا يخرج إليه ، ولا يعزم عليه . وحال هؤلاء ، حال الضعيف البصيرة والإيمان ، الذى يرى مافى القرآن من الوعد والوعيد ، والزواج والنواهى ، والأوامر الشاقة على النفوس التى تطفمها عن رضاها من ندى المألوفات والشهوات - والفظام على الصبى أصعب شئ ، وأشقاه - والناس كلهم صبيان العقول ، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحق علماً ، وعملاً ، ومعرفة ؛ فهو الذى ينظر إلى ما وراء الصيب ، وما فيه - من الرعد والبرق والصواعق - ويعلم أنه حياة الوجود.

التنبية الثالث :

قال القاشانى : « إنما بولغ فى ذكر فريق المنافقين ، وذمهم ، وتمييزهم ، وتقبيح صورة حالهم ، وتهديدهم ، وإيمادهم ، وتهجين سيرهم وعاداتهم : لإمكان قبولهم للهداية ، وزوال مرضهم المارض . عسى التقريع يكسر أعواد شكائهم ، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم ، فتزكى بواطنهم ، وتنور قلوبهم ، فيسلوكوا طريق الحق . ولعل موادة المؤمنين ، وملاطفتهم إياهم ، ومجالستهم معهم - تستميل طباعهم ، فتسبيح فيهم محبة ما ، وشوقاً تلين به قلوبهم إلى ذكر الله ، وتقاد به نفوسهم لأمر الله ، فيتوبوا ويصلحوا ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » (١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ » لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ علوّ طبعه كقابه الكريم ، وتحزّب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق : مؤمنة به محافظة على مافيه من الشرائع والأحكام ، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالخادعة والنفاق ؛ وما اختصت به كلّ فرقة مما يسمدها ويشقيها ، ويحظيها عند الله ويرديها ؛ أقبل عليهم بالخطاب - وهو من الالتفات المذكور عند قوله جلّ ذكره « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » - وهو فنّ من الكلام جَزَلٌ ، فيه هزٌّ وتحريك من السامع - كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً من ثالث لكما : إن فلاناً من قصته كيت وكيت ، فقصصت عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث ، فقلت : يا فلان ! من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجارى أمورك ، وتستوى على جادة السداد في مصادرِك ومواردك - نهته بالفتاك نحوه فضل تنبهه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ؛ وأوجدته ، بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ، ما لا يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستشعر الأنفس للقبول . وإنما كثر النداء في كتابه تعالى على طريقة (يا أيها الناس) لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب من المبالغة . كالإيضاح بعد الإيهام ، واختيار لفظ البعيد وتأكيده معناه بحرف التنبيه . ومعلوم أن كلّ ما نادى الله له عباده : من أوامره ، ونواهيهِ ، وعظائمه ، وزواجره ، ووعدهِ ، ووعيدهِ ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك . . . مما أنطق به كتابه - أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعانٍ علمهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون . فاقترض الحال أن ينادوا بالألّا كد الأباغ - أفاده الزمخشريّ - .

والمراد بالناس : كافة المكلفين - مؤمنهم وكافرهم - فطلبُ العبادة من المؤمنين طلبُ الزيادة فيها ، والثبات عليها ؛ ومن الكافرين ، ابتدأوها . « الَّذِي خَلَقَكُمْ » أنعم عليكم بإخراجكم من العدم إلى الوجود « وَ » - خلق - « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى كى تتقون ، كقوله تعالى « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »^(١) ، وقوله سبحانه « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »^(٢) . وفى إيراد « لعل » تشبيه طلبه تعالى برجاء الراجى من الرجوة منه أمراً هيئ الحصول . فإنه تعالى لما وضع فى أيدي المكلفين زمام الاختيار ، وطلب منهم الطاعة ، ونصب لهم أدلة عقلية ونقلية داعية إليها ؛ ووعد ، وأعد ، وألطف بما لا يحصى كثرة - لم يبق للمكلف عذر ، وصار حاله فى رجحان اختياره للطاعة مع تمكنه من المعصية كحال المترجى منه فى رجحان اختياره لما يرتجى منه - مع تمكنه من خلافه - وصار طلب الله تعالى لعبادته واثقائه بمنزلة الترجى - فيما ذكرناه - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ،

فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« الَّذِي جَعَلَ » - خلق - « لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا » بساطاً ومهاداً غير حزنة ، « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » البناء ، فى الأصل ، مصدر سعى به المبنى - بيتاً كان ، أو قبة ، أو خباء . قال بعض علماء الفلك فى معنى الآية : أى كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً . و « السماء » يُراد بها الجنس كالسموات ، والمعنى بها السكواكب السيارات - قال - : فجميع السموات

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [٦٧ / الملك / ٢] .

أو السكواكب كالبناء المرتبط بفضه ببعض من كل جهة ، التماسك كأجزاء الجسم الواحد بالجاذبية التي تحفظ نظامها في مداراتها ، وهو جذب الشمس لها .

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى : السحاب « مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ . فَلَا تَجْمَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » النهى متفرع على مضمون ذلك الأمر ، كأنه قيل : إذا أمرتكم بعبادة من هذا شأنه - من التفرد بهذه الأفعال الجليلة - فلا تجعلوا له أنداداً شركاء في العبادة ، أى أمثالاً تعبدونهم كعبادته - جمع نداء . وهو المثل ، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ - فإن قيل : كيف صالح تسميتها أنداداً وهم ما كانوا يزعمون أنها تخالفه وتناوئه ، بل كانوا يحملونها شفعاء عنده ؟ . أجيب : بأنهم لما تقربوا إليها ، وعظموها ، وسموها آلهة - أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قادرة على مخالفته ، ومضادته ، ف قيل لهم ذلك على سبيل التهكم . وكما تهكم بهم بلفظ الندبة شنع عليهم ، واستفزع شأنهم ، بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له نداء قط .

« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما بينه وبينها من التفاوت ، وأنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله « هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ »^(١) : أو وأنتم من أهل العلم والمعرفة - والتوبيخ إفيه أكيد - أى أنتم العرافون الميزون ، ثم ما أنتم عليه في أمر ديانيتكم من جمل الأصنام لله أنداداً - هو غاية الجهل ، ونهاية سخافة العقل .

ومما ينبغى التفطن له - فى الاعتبار بهذه الآية - ما قاله الزمخشري : من أنه سبحانه وتعالى قدّم من موجبات عبادته ، وملزمات حق الشكر له : خلقهم أحياء قادرين أولاً - لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدمتها ، والسبب فى التمسك من العبادة والشكر وغيرها - ؛ ثم خلق الأرض - التى هى مكانهم ، ومستقرهم الذى لا بد لهم منه - وهى بمنزلة عرصة المسكن ، ومثقله ، ومفترشه ؛ ثم خلق السماء - التى هى كالقبة الضرورية ، والخيمة المطبقة - على هذا القرار ؛ ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين القيلة والظلة .

(١) [٣٠ / الروم / ٤٠]

يأزال الماء منها عليها ، والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان - من ألوان الثمار - رزقاً لبني آدم ، ليكون لهم ذلك معتبراً ، ومتسلاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف . ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكرون في خلق أنفسهم ؛ وخلق ما فوقهم وتحتمهم ، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها ، فيتبينوا - عند ذلك - أن لا بد لها من خالق - ليس كمثلها - حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً ، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر .

ونظير هذه الآية قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (١) . فمضمونه أنه الخالق ، الرزاق ، مالك الدار وساكنيها ، ورازقهم . فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره .

ولما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ، ويحققها . ويبطل الإشراك ، ويهدمه . وعلم الطريق إلى إثبات ذلك ، وتصحيحه . وعرفهم أن من أشرك فقد كابر عقله ، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه - عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة ، وأراهم كيف يتعرفون : أهو من عند الله - كما يدعى - أم هو من عند نفسه - كما يدعون - ؟ بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ، ويدوقوا طباعهم ، وهم أبناء جنسه ، وأهل جلدته . فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا » - أي من القرآن الذي نزلناه - « عَلَىٰ

عَبْدِنَا « مُحَمَّدٌ ﷺ » أنه من عند الله تعالى ، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالرب - مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر - كما يعرب عنه قوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » إما للإيدان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم - وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والتمناد - هو الارتياب في شأنه (وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفاً مشكوك الوقوع) وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الرب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ، ونهاية قوتها . وإلّا لما يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ... الخ ، إِمَّا أُشِيرَ إِلَيْهِ - فيما سلف - من المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبه وقوع الرب فيه - حسبما نطق به قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ » - والإشعار بأن ذلك - إن وقع - فن جهتهم لا مِنْ جهته العالية . واعتبار استقرارهم فيه ، وإحاطته بهم ، لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته : إِمَّا أَنْ مَا يَقْتَضِيهِ ذلك هو دوام ملاستهم به ، لا قلته ولا كثرته . وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة - من التشريف ، والتنويه ، والتنبيه على اختصاصه به عز وجل ، وانقياده لأوامره تعالى - ما لا يخفى . والأمر في قوله تعالى : « فَاتُّوا بِسُورَةٍ » من باب التمجيد وإلقام الحجر ، كما في قوله تعالى « فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »^(١) ، أو من باب المجازاة منهم - بحسب حسابهم - حيث كانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . و « السورة » الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وواوها أصلية . منقولة من سور البلد - لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة ، مُحَوَّرَةٌ . أو محتوية على فنون رائقة من

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّبُ وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

العلوم ، احتواء سور المدينة على ما فيها . أو من السورة التي هي الرتبة . فلن سور القرآن مع كونها في أنفسها رتباً - من حيث الفضل والشرف ، أو من حيث الطول والقصر - فهي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف : مراتب يرتقى إليها القارىء شيئاً فشيئاً . و « من » في قوله تعالى « مِنْ مِّثْلِهِ » بيانية متعلقة بمحذوف صفة لسورة ، والضمير « لما نزلنا » أى بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة ، وسمو الطبقة ، والنظم الرائق ، والبيان البديع ، وحياسة سائر نعمت الإعجاز . وقيل « من » زائدة - على ما هو رأى الأخفش - بدليل قوله تعالى « فَأَنزَلْنَا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »^(١) « بِمِثْرِ سُورَةٍ مِّثْلِهِ »^(٢) .

وقوله تعالى « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » إرشاد لهم إلى إنهاض أمة جمعة ، ليحشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم ، ويتعاونوا على الإتيان بقدر يسير مماثل في صفات الكمال لا أنى بجملته واحد من أبناء جنسهم . وهذا كقوله تعالى في سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورَةٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٢) و « الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر . و « من » لا ابتداء الغاية متعلقة بـ « ادعوا » والظرف مستقر . والمعنى : ادعوا ، متجاوزين الله تعالى للاستظهار ، مَنْ حَضَرَ كَمْ - كائناً من كان - أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأمرافكم - الذين تفرعون إليهم في المهمات ، وتمولون عليهم في المهمات - أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم - من

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَنزَلْنَا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَتُوا بِمِثْرِ سُورَةٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق ، بتنفيذ القول عند الولاة - أو القائمين بنصرتكم - حقيقةً أو زعمًا - من الإنس والجنّ ليعينوكم . وإخراجه ، سبحانه وتعالى ، من حكم الدعاء في الأول - مع اندراجة في الحضور - لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ؛ فإنّ ذلك مما يومئ أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه . وأمّا في سائر الوجوه : فللتصريح من أول الأمر ببراءتهم منه تعالى ، وكونهم في عدوة المحادة والمشاقة له ، قاصرين استظهارهم على ما سواه ؛ والاتفات لإدخال الروعة ، وتربية المهابة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : في زعمكم أنه من كلامه ﷺ ، واستلزام القّدَم للتالى من حيث أنّ صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله ، بقضية مشاركتهم له ﷺ فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون - ولا ريب فى أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ، ودواعى الأمر به -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى : ما أمرتم به من الإتيان بالمثل ، بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود « وَلَنْ تَفْعَلُوا » اعتراض بين جزأى الشرطية ، مقرر لمضمون مقدمها ، ومؤكدة لإيجاب العمل بآليها ، وهى معجزة باهرة : حيث أخبر بالغيب الخاص - علمه به عز وجل - وقد وقع الأمر كذلك « فَاتَّقُوا النَّارَ » جواب للشرط ، على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد ، إذ - بذلك - يتحقق تسببه عنه ، وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله - كما هو المقرر - فاحتزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه ، فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبينة على

تصوير العناد بصورة النار ، وجعل الاتصاف به عين الملابس بها ، المبالغة في تهويل شأنه ، وتفضيع أمره ، وإظهار كمال العناية - بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجدة في تحقيق المسكن به - وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى . حيث كان الأصل : فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندهم ، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد ، وتر كسكم الإيمان به ، سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار «الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة - أعاذنا الله منها برحمته الواسعة - و «الوقود» ما توقد به النار ، وترفع من الحطب . وقرئ بضم الواو ، وهو مصدر سمي به المفعول بمبالغة - كما يقال : فلان فخر قومه ، وزين بلده - فإن قيل : صلة الذي والتي يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب ، فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟

قلت : لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من آيات التنزيل المتقدمة عليها ، أو من رسول الله ﷺ ، أو من أهل الكتاب . والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم - حسبما ورد في قوله تعالى «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» (١) فإنها مفسرة لما نحن فيه - وحكمة اقترانهم مع الحجارة في الوقود : أنهم لما اعتقدوا في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستنفعون بهم ، ويستدفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بها حجارة في نار جهنم - إبلاغاً في إيلاهم ، وإغراقاً في تحسيرهم . ونحوه ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدّة وذخيرة ، فشجّوا بها ، ومنموها من الحقوق ، حيث يحصى عليها في نار جهنم ، فتكوى جباههم وجنوبهم «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» هيئت لهم ، وجعلت عدّة لعذابهم . والمراد : إما جنس الكفار - والمخاطبون داخلون فيهم دخولاً أولياً - وإما هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم - لذمهم ، وتعليل الحكم بكفرهم - والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، ومبينة لمن أريد بالناس ، دافعة لاحتمال العموم .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

(تنبيه) هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التي صدعت بتحدّي الكافرين بالتنزيل الكريم . وقد تحدّاهم الله تعالى في غير موضع منه ، فقال في سورة القصص « قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْبِئَهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(١) . وقال في سورة سبحان « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »^(٢) . وقال في سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِمِثْلِ سُورِ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٣) . وقال في سورة يونس « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٤) . وكل هذه الآيات مكيّة . ثمّ تحدّاهم أيضاً في المدينة بقوله « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ... إلى آخر هذه الآية »^(٥) فمجزوا عن آخرهم : - وهم فرسان الكلام ، وأرباب النظام ، وقد خُصوا من البلاغة والحكم ، ما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب ، ما يقيد الأبواب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقةً ، وفيهم غريزة وقوّة . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب . ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصّلون ، ويرفمون ، ويضمعون ، فيأتون بالسحر

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] .

(٣) [١١ / هود / ١٣] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٧ و ٣٨] .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٣] .

الحلال ، ويطوّقون من أوصافهم أجل من سمح اللال . فيخدعون الأبواب ، ويدللون الصعاب . ويذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن . ويُجَرِّثُونَ الجبان ، ويبسطون يدَ الجمد البَئْثَان . ويصيّرون الناقصَ كاملاً ، ويتركون النبيهَ خائلاً . منهم البدوى : ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والسكلام الفخيم ، والطبيع الجوهرى ، والنزع القوى . ومنهم الحضرى : ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والسكلمات الجامعة ، والطبيع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرنق ، الرقيق الحاشية . وكلا البابين فلهما - فى البلاغة - الحجة البالغة ، والقوة الدامنة ، والقِدْحُ الفالج ، والمهبع الناهج . لا يشكّون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قدَحُوا فنونها ، واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كل بابٍ من أبوابها ، وَعَلَوْا صرحاً لُبُوغ أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين ، وتفَتَّنُوا فى الفث والسمين ، وتَقَابَلُوا فى القلّ والكُثر ، وتساجلوا فى النظم والنثر - ومع هذا - فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم ، ولم ينهض - ل مقدار أقصر سورة منه - ناهضٌ من بلقائهم ، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عدداً من رمال الدهناء ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط فى المضادة والمضارة ، وإلقائهم الشرائر على المعازة والمعارزة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط ، وركوبهم فى كل ما يرومونه الشطط : إن آناهم أحدٌ بمفخرة أنوّه بمفاخر ، وإن رماهم بمائرة رمّوه بمآثر . وقد جرّد لهم الحجة أولاً ، والسيف آخرأ ، فلم يمارضوا إلا السيف وحده . فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على السكواكب ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور السكواكب ؛ وبذلك يظهر أن فى قوله تعالى « وَلَنْ نَقْمَعَكُمَا » معجزة أخرى ، فإنهم ما فعلوا ، وما قدروا ، ومن تماطى ذلك من سخفائهم - كسيلة - كشف عواره لجميهم . قال الحافظ ابن كثير : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة الكذاب قبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلة : ماذا أنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ فقال له عمرو : لقد

أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ فقال « وَالْمَعْرِ » إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » . ففكر ساعة
ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل على مثلها . قال : وما هو ؟ فقال : يَا وَبْرُ يَا وَبْرُ^(١) ! إنما
أنت أذنان وصدر . وسائرُك حَفَرٌ نَقْرٌ - ثم قال - : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله
إنك لتعلم إنى أعلم أنك تكذب ! . .

وحيث عجز عرب ذلك العصر ، فما سواهم أعجز في هذا الأمر . . ! وقد مضى - إلى
الآن - أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، ولم يوجد أحد من معاديه البلغاء إلا وهو مسلم ،
أو ذو استسلام ؛ فدل على أنه ليس من كلام البشر ، بل كلام خالق القوى والقدر ، أنزله
تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لقوله . وهذا الوجه - أعني بلوغه في الفصاحة والبلاغة إلى حد
خرج عن طوق البشر - كافٍ وحده في الإعجاز ، وقد انضم إليه أوجه :

(منها) : إخباره عن أمور مغفية ظهرت كما أخبر . و (منها) كونه لا يعلمه السمع
مهما تكرر . و (منها) جمعه لعلوم لم تكن معهودة ، عند العرب والمجم . و (منها) إنبأؤه
عن الوقائع الخالية ، وأحوال الأمم . والحال أن من أنزل عليه ، ﷺ ، كان أمياً لا يكتب
ولا يقرأ ، لاستغنائه بالوحي ، وليكون وجه الإعجاز بالقبول أخرى . وبذلك يعلم أن
القرآن أعظم المعجزات ، فإنه آية باقية مدى الدهر ، يشاهدها - كل حين بعين الفكر -
كل ذي حجر . وسواء - من المعجزات - انقضت بانقضاء وقتها ، فلم يبق منها إلا الخبر .
وقد ذهب بعض علماء الشيعة - في وجه إعجازه - إلى : كونه قاهراً لمن يقاومه ،

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (ج ٤ ص ٥٤٧) بعد أن ساق هذا ، مانصه :

الوَر دويبة تشبه الهر ، أعظم شيء فيه أذناه وصدره ، وباقية دميم . فأراد مسيلمة أن
يركب من هذا الهذيان ما يمارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان ، في ذلك
الزمان .

و غالباً على من يغال به ، و نافذاً في إزهاق ما يخالفه . و كونه مؤثراً في إيجاد الأمة ، و بقاء الشريعة ، و نفوذ الحكم ، و ثبوت الكلمة ، لما جمل الله فيه من النور ، و الهداية ، و الرحمة . و عبارته : إن كلام الله تعالى يمتاز عن غيره بالنفوذ ، و الغلبة في هداية الخلق ، و إنشاء أمة مستقلة ، و إبقاء شريعة جديدة . و هي علامة كافية في معرفة السكيات الإلهية ، و الآيات السماوية . ثم قال : و خلاصة تقرير الدليل أن الكلام - الذي يتحدى الداعي به ، و ينسبه إلى الله - إذا ظهر منه التأثير التام في هداية النفوس المستعدة الطالبة ، و قهر الأمم المنكرة المانعة ، فأوجد أمة مستقلة نامية ، و شريعة جديدة باقية ، فلا يبقى ثمة شك أنه هو كلام الله النازل من السماء ، و القدرة الظاهرة منه هي القدرة التي منذ القديم ظهرت من الرسلين و الأنبياء . و إلى هذه النكتة أشير في قوله تعالى « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » ^(١) و قال تعالى « وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ^(٢) و هذه العلامة لا توجد إلا في كتب الله تعالى . و يتمكن كل إنسان أن يدركها و يفهمها منها . سواء كان عالماً ، أو أمياً . عربياً ، أو عجمياً . شرقياً ، أو غربياً .! فمن الذي يشك أن بني إسرائيل ما خرجوا عن ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، و عن ذلة العبودية إلى عز الاستقلال إلا بسبب التوراة ؟! و من الذي يجهل أن الأمم الأوروبية ما وصلوا إلى عبادة الله تعالى - بعد عبادة الأوثان - إلا بواسطة الإنجيل ؟! و من الذي لا يعرف أن الأمم الكبرى - من حدود الشرق الأقصى إلى أقصى إفريقيا - ما خرجوا عن ربقة الوثنية ،

(١) [٨ / الأنفال / ٧] و نصها : وَاِذْ يَمِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٦] .

وعباد النار إلى التوحيد وعبادة الله إلهادية القرآن العظيم ؟ وما تحرروا عن أغلال العقائد الفاسدة ، والأعمال القبيحة ، وما وصلوا إلى الأخلاق الفاضلة ، والعقائد الصحيحة إلا بنور هذا السَّفرِ الكريم ١٩٠٠ ! ثم قال : والخلاصة إن هذه الملامة وهى هداية النفوس ، وإيجاد الديانة الجديدة - بقر الأديان القديمة ، وتبديل العوائد العتيقة - هى الملامة الظاهرة المميّزة بين السكّلات الالهية ! والمصنّفات البشرية . حتى أن أول نفس أذعنت بحقيقة رسالة رسول ، وصدق شريعته ، لو لم تعرف فى نفسها هذه الهداية ، ولم تشعر فى ذاتها بهذه المغلوطة لما كانت أول من صدّقه ولّباه ، واتبعه وآسأه ؛ فإن حجة الدين القديم الموروث راسخة فى جميع النفوس . والخوف من تبديل أركانه وآدابه متمكّن فى أعماق القلوب . فالهداية أظهر علامة فى صدق النبوة والرسالة ، إذ هى صفة الفعل ، ومرتبطة بالدعوة - كالإبراء للطب ، ومعرفة السطوح للهندسة ، والبيع والشراء للتجارة ، وصنع الأسرة والأبواب وغيرها للتجارة - ثم قال : وإذا تصفّحت القرآن المجيد ، تجد أن الله تعالى استدللّ بها فى مواضع متعدّدة ، ووصف القرآن بأنه حجة - بما أودع فيه من الهداية والرحمة - ولا ترى موضعاً واحداً وصفه بأنه أفصح الكتب وأبلغ الصحف ، فانظر فى قوله تعالى « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى » ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) . أترى أن الله تعالى أحمهم بقوله : فأتوا بكتاب من عند الله هو أفصح منهما أو أبلغ منهما ؟ وكذلك لما انتقدوا على النبي ﷺ بعدم صدور معجزة منه كالمعجزات السالفة ، فقال تعالى « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٣) فبين الله تعالى مزية القرآن على سائر المعجزات ، وكفايته عن غيره بأن فيه الذكرى والرحمة . وقال تعالى في أول هذه السورة « أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » وما قال فيه فصاحة وبلاغة يعجز عن مثلها جميع العالمين . وذلك لأن الفصاحة والبلاغة من الأوصاف الخفية الغامضة الدقيقة - التي تختلف فيها الأذواق ، وتنشعب فيها الآراء والأنظار - ولكن ما ظهر من الرسول عليه السلام - بسبب نزول القرآن عليه - من العلم والقدرة على هداية الأمم ، وإزالة أسقام أهل العالم ، وتأسيس الشريعة الإلهامية ، وإيجاد الأمة الإسلامية رغماً للأُمم الكبرى ، ومبائناً للديانات المظلمى : أمر ظاهر محسوس ، تصعب فيه المناقشة ، ولا تفيد معه المناظرة . فمن الذى يمكنه أن ينكر أن الأمم العظيمة - كالعرب ، والفرس ، والهنود ، والصينيين ، وأهالى إفريقيا - خرجوا من ظلمات الشرك ، وعبادة النار والأوثان ، وإنكار الأنبياء ؛ ودخلوا فى نور التوحيد ، وعبادة الله وحده ، والإيمان بأنبيائه ورسوله وكتبه ، بنور الكتاب البين !!..

- كذا فى كتاب (الدرر البهية) لأبى الفضائل الإيرانى - ولا يخفى أن ما ذكره هو وجه متين ، ولكن لا يسوغ نفي ما عده لأجله ، بل يجدر أن يضم إليها ، ويكون فى مقتضاها والله أعلم .

ثم إن من عادته تعالى ، فى كتابه ، أن يذكر الترغيب مع التهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار . وهذا معنى تسمية القرآن مثانى - على الأصح - وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر - أو عكسه - أو حال السعداء ثم الأشقياء - أو عكسه - وحاصله ذكر الشيء ومقابلته . والحكمة فى ذلك : هى إرادة التنشيط لا اكتساب ما يضاف ، والتنشيط عن اقتراح ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم ، وأوعدهم بالمقاب ، ففاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصى - فقال عز وجل :

(١) [٢٩ / المنكوت / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور الخبر به . ومنه البشارة : لظاهر الجلد . وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه . وأما « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فنن المكنس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزاء - الزائد فى غيظ المستهزأ به ، وتآلمه ، واغتمامه - ففيه استمارة أحد الضدين للآخر تهكمًا وسخرية . و « الصالحات » ما استقام من الأعمال أى صلح لترتب الثواب عليه . وقد أجمع السلف على أن الإيمان : قول وعمل ، يزيد وينقص . ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ، لقول النبي ﷺ (١) :

« الإيمان بضع وستون شعبة - أو بضع وسبعون شعبة - أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وإذا عطف عليه - كما فى هذه الآية - فهنا ، قد يقال : الأعمال دخلت فيه ، وعطفت عطف الخاص على العام . وقد يقال : لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف - كما فى اسم الفقير

(١) أخرجه ابن ماجه فى : المقدمة ، ٩ - باب فى الإيمان ، حديث ٥٧ (طبعنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا . أدناها إمطة الأذى عن الطريق . وأرفعها قول : لا إله إلا الله . والحياء شعبة من الإيمان » .

والمسكين . إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان - وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البرّ ، والتقوى ، والمعروف . وفي الإيمان ، والمدوان ، والمنكر . تختلف دلالتها في الأفراد والاقتران لمن تدبر القرآن .

وقد بين حديث جبريل أن الإيمان أصله في القلب ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله - كما في المسند عن النبي ﷺ - أنه قال (١) :

« الإسلام علانية والإيمان في القلب » .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح (٢) :

« ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

فإذا كان الإيمان في القلب ، فقد صلح القلب . فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فذلك هو ثمرة ما في القلب . فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان . وصحته ، لما كانت لازمة لصلاح

(١) أخرجه الإمام أحمد : ج ٣ ص ١٣٥ (طبعة الحلبي) ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يقول « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ، ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات . قال ، ثم يقول « التقوى ههنا . التقوى ههنا » .
(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٩ - باب فضل من استبرأ لدينه .

ونصه :

عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بين والحرام بين . وبينهما مشبهات لا يلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد القلب كله . ألا وهي القلب » .

القلب، دخلت في الاسم . كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع ، هذا ما أفاده الإمام ابن تيمية رحمه الله .

وقوله تعالى « أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ » جمع (جَنَّة) : وهى البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه . وإنما سميت « دار الثواب » بها مع أن فيها ما لا يوصف من العرفات والقصور، لِمَا أَنَّهَا مناط نعيمها ، ومعظم ملاحظها . وجمعها مع التفكير : لاشتغالها على جنات كثيرة في كل منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها . وقوله « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » صفة جنات ، ثم إن أريد بها الأشجار، فخرى إن الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فلا بد من تقدير مضاف - أى من تحت أشجارها - وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار ، فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنّة على الكل ، وإنما جىء ذكر الجنات - مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية - لِمَا أَنَّ أَزْهَ الْبَسَاتِينِ ، وَأَكْرَمَهَا مَنْظَرًا ، مَا كَانَتْ أَشْجَارُهُ مَظْلَمَةً ، وَالْأَنْهَارُ فِي خِلَالِهَا مَطْرَدَةً ، وفي ذلك النعمة العظمى واللذة الكبرى . واللام في الأنهار : للجنس - كما في قولك : فلان بستان فيه الماء الجارى - أو للعهد . والإشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى « فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ... » ^(١) الآية .

« كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا » - أى : أطعموا من تلك الجنات - « مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ » - أى : مثل الذى رزقناه من قبل هذا الذى أحضر إلينا - فلا إشارة إلى المرزوق فى الجنة لتشابه ثمارها . بقريته قوله « وَأَنْوَارِهِ » - أى : أنتم الملائكة والولدان

(١) [٤٧ / محمد / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

برزق الجنة - « مُتَشَابِهًا » يشبه بعضه بعضاً لونا ، ويختلف طعماً ، وذلك أَجْلَبُ للسرور ، وأزِيدُ في التعجب ، وأظهرُ للزينة ، وأبينُ للفضل . وترديد هذا القول ، ونطقهم به - عند كل ثمرة يرزقونها - دليل على تنافى الأمر في استحكام الشبهة ، وأنه الذى يستعمل تعجبهم ، ويستدعى استغرابهم ، ويفرط ابتهاجهم . فإن قيل : كيف موقع قوله « وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا » من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ، ونعم ما فعل . ورأى من رأى كذا ، وكان سواها . ومنه قوله تعالى « وَجَمَلُوا أَهْرَةَ أَهْلَهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »^(١) . وما أشبه ذلك من الجمل التى تساق فى الكلام معترضة للتقرير . « وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من الأقدار والأدناس - ويجوز ، لجيشه مطلقاً ، أن يدخل تحتها الطهر من دَس الطباع ، وسوء الأخلاق وسائر مثالبهن وكيدهن .

وقوله تعالى « وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » هذا هو تمام السعادة ؛ فإنهم - مع هذا النعيم - فى مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل فى نعيم سرمدي أبدي على الدوام . والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرة بهم . إنه البر الرحيم . ولما ضرب تعالى - فيما تقدم - للمنافقين مثلين : فى قوله « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ ... الخ » وقوله « أَوْ كَصَيِّبٍ ... الخ » إلى أمثال أخرى تقدمت على نزول هذه السورة ، من الشور المسكية ، ضربت للمشركين - نبيه تعالى إلى موضع العبرة بها ، والحكمة منها ، وتضليل من لا يقدرها قدرها - بمن يتجاهل عن سرها ، ويتعمى عن نورها ، ويحول دون الاهتداء بها ، والأخذ بسببها - فقال سبحانه :

(١) [٢٧ / النمل / ٣٤] ونصها : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » أى : يذكر مثلاً ما . يقال : ضرب مثلاً ، ذكره ، فيتمدى لفعول واحد . أو صير ، فَلَمَفْعُولَيْن . قال أبو إسحاق فى قوله تعالى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا » ^(١) أى : اذكر لهم . وعبارة الجوهرى : ضرب الله مثلاً أى وَصَفَ وَبَيَّن . وفى شرح نظم الفصيح : ضرب المثل : إيراد لمثل به ، ويتصور ما أراد التكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشئ مثلاً ، وضرب به ؛ وتمثله ، وتمثل به . ثم قال : وهذا معنى قول بعضهم : ضرب المثل اعتبار الشئ بغيره ، وتمثله به . و« ما » هذه اسمية إبهامية ، وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً ، وزادته شيئاً وعموماً - كقولك : أعطى كتاباً ما ، تريد أى كتاب كان - كأنه قيل : مثلاً ما من الأمثال أى مثل كان . فهى صفة لما قبلها . أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها - كفى قوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » ^(٢) - كأنه قيل : لا يستحي أن يضرب مثلاً حقاً ، أو البتة .

(١) [١٨ / السكف / ٣٢] ونصها : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

و [٣٦ / يس / ١٣] ونصها : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ =

و « بموضة » بدل من « مثلاً » . أوها مفعولاً « يضرب » لتضمنه معنى الجمل والتصيير . ومعنى الآية : إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ، ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها . أى لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً - ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة - كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والمنكبوت فى قوله « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ » ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضُمِّفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ^(١) وقال « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْمَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِثَتْ الْمَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » ^(٢) وغير ذلك من أمثال الكتاب العزيز . فما استنكره السفهاء وأهلُ العناد والمراء ، واستغريه من أن تكون المحقرات من الأشياء ومضروباً بها المثل - ليس بموضع للاستنكار والاستغراب . مِنْ قَبْلِ أَنْ التَّمَثِيلِ إِنَّمَا يَصَارُ إِلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ كَشْفِ الْمَعْنَى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء التوهم من المشاهد . فإن كان المتمثل له عظيماً ، كان المتمثل به مثله . وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك . فليس العظيم والحقارة فى المضروب به المثل إذاً ، إلّا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرحه إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية . ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً ، جلياً أبلج ، كيف تمثله بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته ، كيف تمثله بالظلمة ؟ أفاده الزمخشري .

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيٍ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ ذُلُكُمَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

(٢) [٢٩ / المنكبوت / ٤١] .

تحقيق حقيقة صدوره عنه تعالى - أى : فأما المؤمنون « فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » - كسائر ما ورد منه تعالى - والحق هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره . وذلك لأن التمثيل به مسوق على قضية مضربه ، ومحتذى على مثال ما يستدعيه - كما جعل بيت المنكبوت مثل الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله تعالى - وجعلت أقل من الذباب ، وأخس قدراً . وضربت لها البعوضة فما دونها مثلاً ، لأنه لا حال أحقر من تلك الأنداد وأقل ... ! فالؤمنون - الذين عادتهم الإنصاف ، والعمل على العدل والتسوية ، والنظر فى الأمور بنظر العقل - إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذى لا تتر الشبهة بساحته ، والصواب الذى لا يرتع الخطأ حوله « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » بمن غلبهم الجهل على عقولهم ، وغشيهم على بصائرهم - فلا يتفطنون ، ولا يلقون أذهانهم . أو عرفوا أنه الحق ، إلا أن حب الرئاسة ، وهوى الإلف والمادة ، لا يخليهم أن ينصفوا « فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » أى : فإذا سمعوه عاندوا ، وكابروا ، وقضوا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار . ولا خفاء فى أن التمثيل بالبعوضة وبأحقر منها - مما لا تغبي استقامته وصحته على من به أدنى مسكة . ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذى لا يبق له متمسك بدليل ، ولا متشبث بأمانة ولا إقناع ، أن يرى لفرط الحيرة ، والمجز عن إعمال الحيلة ، بدفع الواضح ، وإنكار المستقيم ، والتعويل على المكابرة والمغالطة - إذا لم يجد سوى ذلك معمولاً . « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » جواب عن تلك المقالة الباطلة ، ورد لها بيان أنه مشتمل على حكمة جليلة ، وغاية جميلة ، هى كونه ذريعة إلى الهداية المستمدين للهداية ، وإضلال المهكمين فى الفواية . وقدم الإضلال على الهداية - مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ، ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً عظيماً يسوؤهم ، ويفت فى أعضادهم ، وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر « وَمَا يُضِلُّ بِهِ » أى بالمثل أو بضر به « إِلَّا الْعَاسِقِينَ » تكملة للجواب والرد ، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم ، ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» صفة للفاسقين، للذم . و «العهد» الذي وصفوا بنقضه : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إيتام بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيتام عما نهاهم عنه من معصيته - في كتبه ، وعلى لسان رسله - و«نقضهم ذلك» هو تركهم العمل به «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» عامٌّ في كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى : كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق ، وسائر ما فيه رفض خيرٍ أو تعاطي شرٍّ ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل «وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» بالمنع عن الإيمان ، والاستهزاء بالحق ، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» لأنهم استبدلوا النقص بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . وهذه الصفات المسوقة في الآية صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين ، كما قال تعالى في سورة الرعد : «أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنْ نَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»^(١) الآيات - إلى أن قال - : «وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»^(٢) .

(١) [١٣ / الرعد / ١٩ و ٢٠ و ٢١] .

(٢) [١٣ / الرعد / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ » التفات إلى خطاب المذكورين، مبنى على إراث ما عدد من قبائحهم السابقة ، لتزايد السخط الموجب للمساومة بالتوبيخ والتفريع . والاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع ، واستبعاده ، والتعجب منه ، لأن مهمهم ما يصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان « وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا » أجساماً لا حياة لها - عناصر ، وأغذية ، ونطفاً ، ومضناً مخلقةً وغير مخلقة - وإطلاق الأموات على تلك الأجسام الجادية ، إما حقيقة - بناء على أن الميت عادم الحياة مطلقاً ، كما في قوله تعالى « بَلَدَةٌ مَيِّتَةٌ »^(١) و « وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ »^(٢) . أو استعارة ، جرياً على أن إطلاق الميت فيما تصح فيه الحياة ، لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس . « فَأَحْيَاكُمْ » بخلق الأرواح ، ونفخها فيكم . وإنما عطفه بالغاء لأنه متصل بما عطف عليه ، غير متراخ عنه ، بخلاف البواق « ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » عند تقضى آجالكم « ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » بالنشور ، والبعث ، للحساب والجزاء « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » - بعد الحشر - فيجازيكم بأعمالكم : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فما أعجب كفركم مع علمكم بحالتكم هذه ..

فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ، لم يعلموا أنه يحْيِيهم ثم إليه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤٩] ونصها : لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتَةً وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا

أَنْعَامًا وَأَنْهَى كَثِيرًا .

و [٥٠ / ق / ١١] ونصها : رِزْقًا لِلْمَيِّتِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتَةً ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .

(٢) [٢٦ / يس / ٣٣] ونصها : وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا

مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

يرجعون ، فكيف نظم ما ينكرونه ، من الإحياء الأخير والرجع ، في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة ؟..

قلتُ : تمكّنهم من العلم بهما - لما نصب لهم من الدلائل - منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر . سيما وفي الآية تنبيه على ما يدلّ على صحتهما . وهو أنّه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً ، قدر على أن يحييهم ثانياً . فإنّ بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته !.. أو الخطأ ، مع أهل الكتابين . وإنكار اجتماع الكفر - مع القصة التي ذكرها الله تعالى - إمّا لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر ، أو على نعم جسم حقها أن تشكر ولا تنكفر . أو لإرادة الأمرين جميعاً . فإنّ ما عدده آيات ، وهى - مع كونها آيات - من أعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ

إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى ، فإنّها خلقهم أحياء قادرين مرّة بعد أخرى . وهذه خلق ما يقوقف عليه بقاؤهم ، ويتمّ به معاشهم . ومعنى « لكم » لأجلكم ، ولا تتفاعدكم . وفيه دليل على أنّ الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدلّ على النقل عن هذا الأصل . ولا فرق بين الحيوانات وغيرها ، مما ينتفع به من غير ضرر . وفي التأكيد بقوله « جميعاً » أقوى دلالة على هذا . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » قال أبو العالية الرياحي : استوى إلى السماء أى : ارتفع . نقله عنه البخاريّ في صحيحه ^(١) ، ورواه محمد بن جرير الطبري ^(٢) في تفسيره عن الربيع بن أنس .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء وهو ربّ العرش العظيم .

(٢) جزء أول ص ٤٢٩ (طبعة المعارف) .

وقال البغوي : قال ابن عباس وأكثر المفسرين : ارتفع إلى السماء . وقال الخليل بن أحمد في « مُنَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » : ارتفع . رواه أبو عمرو ابن عبد البر في شرح الموطأ ، نقله الذهبي في كتاب الملوك - . وقد استدلل بقوله « مُنَّ اسْتَوَى » على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وكذلك الآية التي في (حم السجدة) . وقوله تعالى في سورة (النازعات) « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » ^(١) إنما يفيد تأخر دحوها ، لا خلق جرمها ؛ فإن خلق الأرض وتهيئتها - لما يراد منها - قبل خلق السماء . ودحوها بعد خلق السماء . والدحو هو البسط ، وإنبات العشب منها ، وغير ذلك . مما فسره قوله تعالى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » ^(٢) الآية - وكانت قبل ذلك خربة وخالية . على أن « بعد » تأتي بمعنى « مع » كقوله « عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » ^(٣) أي : مع ذلك ، فلا إشكال . وتقديم الأرض - هنا - لأنها أدل لشدة الملازمة والمباشرة . « فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » أي : صيّرهن ، كما في آية أخرى « فَقَضَاهُنَّ » ^(٤) .

(تنبيه) قال بعض علماء الفلك : السموات السبع - المذكورة كثيراً في القرآن - هي هذه السيارات السبع . وإنما خصت بالذكر - مع أن السيارات أكثر من ذلك - لأنها أكبر السيارات وأعظمها ؛ على أن القرآن الكريم لم يذكرها في موضع واحد - على سبيل الحصر - فلا ينافي ذلك أنها أكثر من سبع .

وقال بعض علماء اللغة : إن العرب تستعمل لفظ سبع ، وسبعين ، وسبعمائة للمبالغة

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٠] .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٣١] .

(٣) [٦٨ / القلم / ١٣] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

في السكثرة . فالمدد إذن غير مراد . ومنه آية « سَبْعَ سَنَابِلَ » ^(١) وآية « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » ^(٢) وآية « سَبْعِينَ مَرَّةً » ^(٣) والله أعلم .

وذهب بعض علماء الفلك إلى أن الحصر في السبع حقيقي ، وأن المراد به العالم الشمسي وحده دون غيره . وعبارته : إن قيل : إن كل ما يعلو الأرض - من الشمس والقمر والكواكب - هو سماء ، فلماذا خصص تعالى عدداً هو سبع ؟ فالجواب : لا شك أنه يشير إلى العالم الشمسي - الذي أحطنا الآن به علماء - وأن حصر العدد لا يدل على احتمال وجود زيادة عن سبع ، لأن القول بذلك ، يخرج تطبيق القرآن على الفلك ، لأن العلم أثبتها سبعمائة كالقرآن الذي لم يوجد فيه احتمال الزيادة - لأن الجمع يدخل فيه جميع العوالم التي لا نهاية لها - حتى يمكن أن يقال : إن سبعمائة للمبالغة - كسبعين وسبعمائة - ولا يصح أن يكون العدد سبعة للمبالغة لأنه قليل جداً بالنسبة إلى العوالم التي تمتد بالملايين - مثل العالم الشمسي - ويؤيد الحصر في هذا العدد آية « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » ^(٤) فأخرج الشمس لأنها مركز،

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٧] ونصها : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَاحٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ هَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٨٠] ونصها : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦ و ١٥] .

وأخرج القمر لأنه تابع للأرض ، ولم يبق بعد ذلك إلا سبع !..
قال : وبذلك تتجلى الآن معجزة واضحة جلية . لأنه في عصر التقدم والمدنية
العربية ، حينما كان العلم ساطعاً على الأرض بعلماء الإسلام ، كان علماء الفلك لا يعرفون
من السيارات إلا خمساً - بأسمائها العربية إلى اليوم - وهى : عطارد ، الزهرة ، المريخ ،
المشتري ، زحل . وكانوا يفسرونها بأنها هى السموات المذكورة فى القرآن . ولما لم
يمكنهم التوفيق بين السبع والخمس ، أضافوا الشمس والقمر لتمام العدد . مع أن القرآن
يصرح بأن السموات السبع غير الشمس والقمر . وذلك فى قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى »^(١) فلفظ « وسَخَّرَ » دليل يفصل تعداد الشمس والقمر عن
السبع السموات . ولذلك كان المفسرون - الذين لا يعرفون الهيئة - لا يرون أن تعد
الشمس وماء ، ولا القمر ، لعلمهم أن السموات السبع مسكونة . وأما الشمس فنارٌ محرقة .
فذهبوا - فى تفسير السموات - على تلك الظنون . ولما اكتشف بعد (بالتلسكوب)
سيارات لم يكن معلوماً ، دعوه « أورانوس » ثم سيار آخر سموه « نبتون » - صارت مجاميع
السيارات سبعة . فهذا الاكتشاف - الذى ظهر بعد النبى ﷺ بألف ومائتى سنة - دلّ على
معجزة القرآن ، ونبوة المنزل عليه ﷺ .

ثم قال : وأما كون السموات هى السيارات السبع بدون توابعها ، فلا يفهم من
الآية ، لأن الأقمار التى نثبتها ، والنجوم الصغيرة التى مع المريخ ، يلزم أن تكون تابعة
لسموات السبع - لأنها تعملونا - وهى فى العالم الشمسى . وحينئذٍ ، فالسموات السبع
هى مجاميع السيارات السبع . بمعنى : أن مجموعة زحل - بما فيها هو نفسه أى مع أقماره
الثمانية - تعد سماء ، لأن فلكها طبقة فوق طبقة فلك مجموعة المشتري . ويدل على هذا

(١) [١٣ / الرعد / ٢] .

التطبيق قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ »^(١) يشير إلى أن السماء الدنيا - أى السماء التى تلى الأرض - فلك المريع . فهو وما حوله من النجوم العديدة التى تسمى مصابيح ، وتعتبر كلها سماء ، وليس السيار نفسه .. انتهى .

وقوله تعالى « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلي مقرر لما قبله - من خلق السموات والأرض وما فيها - على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الماتقة ، والمصالح اللاتقة . فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق .

ولما ذكر تعالى الحياة والموت - المشاهدين - تنبيهاً على القدرة على ما اتبعهما به من البعث ، ثم دل على ذلك أيضاً بخلق هذا الكون كله على هذا النظام البديع ، وختم ذلك بصفة العلم - ذكر ابتداء خلق هذا النوع البشرى - المودع من صفة العلم - مظهر به فضله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ،

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرن . كما قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خِلَافَةً فِي الْأَرْضِ »^(٢) وقال

(١) [٦٧ / الملك / ٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٥] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خِلَافَةً فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَيَجْمَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » ^(١) وقال « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ » ^(٢) وقال « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ » ^(٣) . ويجوز أن يراد : خليفة منكم ، لأنهم كانوا سكان الأرض ، فخلفهم فيها آدم وذريته ؛ وأن يراد : خليفة مني ، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه . وكذلك كل نبي « إِنَّا جَمَعْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » ^(٤) والغرض من إخبار الملائكة بذلك ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ، ويجابوا بما أجيئوا به ، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم ، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم ؛ أو الحكمة : تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحاءهم - وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة - أو تعظيم شأن الجمول ، وإظهار فضله ، بأن بشرَ بوجود سُكَّانٍ ملكوته ، ونوّه بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده ، ولقبه بالخليفة .

« قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » هذا تعجب من أن يستخلف - لعمارة الأرض وإصلاحها - من يفسد فيها ، واستعلام عن الحكمة في ذلك . أى : كيف تستخلف هؤلاء ، مع أن

(١) [٢٧ / النمل / ٦٢] ونصها : أَمِنْ يُجِيبُ الْمُنْظَرِ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَلَهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٠] .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٩] ونصها : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَمَعْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسيح بحمدك ونقدس لك - أى ولا يصدر عنا شئ - من ذلك - وهلا وقع الاختصار علينا ؟.. فقال تعالى مجيباً لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : إن لي حكمة - في خلق الخليقة - لا تعلمونها .

فإن قلت : من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه ، وإنما هو غيب ؟ أجيب : بأنهم عرفوه : إما بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ »^(١) أو فهموا من « الخليفة » أنه الذى يفصل بين الناس ، ما يقع بينهم من الظالم ، ويرد عنهم عن المحارم والمآثم .

قال العلامة برهان الدين البقاعي في تفسيره : وما يقال من أنه كان قبل آدم ، عليه السلام ، في الأرض خلق يعصون ، قاس عليهم الملائكة حال آدم عليه السلام - كلام لا أصل له . بل آدم أول ساكنها بنفسه . انتهى .

- وقوله تعالى « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » أى : ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك ، ملتبسين بحمدك - على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جلتها توفيقنا لهذه العبادة .

وقوله « نقدس لك » أى : نصفك بما يليق بك - من العلو والمرتبة - وننزهك عما لا يليق بك . وقيل : المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك . كأنهم قابلو الفساد ، الذى أعظمه الإشرار ، بالتسبيح . وسفك الدماء ، الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم ، بتطهير النفس عن الاثام . لا تمدحاً بذلك ، ولا إظهاراً للمنة ، بل بياناً للواقع .

(١) [١٥/الحجر/٢٦] ونصها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

و [١٥/الحجر/٢٨] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

و [١٥/الحجر/٣٣] قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

تنبيهات

في وجوه فوائد من الآية

الأول : ذات الآية على أن الله تعالى - في عظمته وجلاله - يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسرارهِ في خلقهِ ، لاسيّما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال ، والتوجّه إلى الله تعالى في إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سننهُ تعالى بأن يفيض منها - كالبحت العلميّ ، والاستدلال العقليّ ، والإلهام الإلهيّ - .

الثاني : إذا كان من أسرار الله تعالى ، وحكمه ، ما يخفى على الملائكة ، فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليفة وحكمها ، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً .!

الثالث : إن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل - بعد الإرشاد - إلى الخضوع والتسليم . وذلك أنه - بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون - علم آدم الأسماء ، ثم عرضهم على الملائكة ، كما سيأتي بيانه .

الرابع : تسليّة النبي ﷺ ، عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان ، على إنكار ما أنكروا ، وبطلان ما جحدوا . فإذا كان الملائكة الأعلى قد مُتّوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان ، فيما لا يعلمون ، فأجدرُ بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبيا أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين . أى فمليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسُلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لا يزال في موضوع الكتاب ، وكونه لا ريب فيه ؛ والرسول ، وكونه يبلغ وحى الله تعالى ، ويهدى به عباده ، واختلاف الناس فيها .

ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها .
مع كون الجميع في سياق موضوع واحد ، - كذا في تفسير مفتى مصر - .
ولما بين سبحانه وتعالى لهم أولاً على وجه الإجمال والإيهام ، أن في الخليفة فضائل
غائبة عنهم ، ليستشرفوا إليها ، أبرز لهم طرقاتها ، ليماينوه جهرة ، ويظهر لهم بديع صنعه
وحكمته ، وتزاح شبهتهم بالكلية ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » إما بخلق علم ضروري بها فيه ، أو إلقاء في روعه .
وآدم اسم عبراني مشتق من أدمه ، وهي لفظة عبرانية معناها التراب ، لأنه جُبل من تراب
الأرض . كما أن حواء كلمة عبرانية معناها « حى » ، وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء .
والمراد بالأسماء ، أسماء كل شيء . قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس :
إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وسمار ، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها .
وفي التوراة مصداق الآية : وهو أنه تعالى صور من الأرض كل حيوانات البر ، وكل طيور
السماء ، وأحضرها إلى آدم ، لينظر ما يسميها ، وكل ما سماه آدم من نفس حية ، فهو اسمه .
وسمى آدم جميع الحيوانات بأسمائها وجميع طيور السماء ، وجميع وحوش الأرض .

قال ابن جرير : وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن أذكر ، والبيان لمن كان
له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله عز وجل في هذا القرآن ، من لطائف الحكم
التي تمجيز عن أوصافها الألسن . وذلك أن الله جل ثناؤه ، احتج فيها لنبيه ﷺ ، على من
كان بين ظهرائه ، من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب ، التي لم يكن تعالى

أطلع عليها من خلقه إلا خاصاً ، ولم يكن مدركاً علمه إلا بالأنباء والأخبار ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما آناهم به فن عنده .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك ، لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك . فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام ، عقيب هذا ، ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم في العلم « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » أى عرض أهل الأسماء ، فالضمير للمسميات المدلول عليها ضمناً « فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » أى التى علمتها آدم . وإنما استنبأهم ، وقد علم عجزهم عن الإنباء ، تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة . فإن التصرف والتدبير ، وإقامة المعدلة ، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ، ومقادير الحقوق ، مما لا يكاد يمكن « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته ، كما ينبيء عنه مقالكم . والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه ، قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الأخبار . فإن أدنى مراتب الاستحقاق ، هو الوقوف على أسماء ما فى الأرض . ولما انصح لهم موضع خطأ قيلهم ، وهدت لهم هفوة زلتهم ، أنابوا إلى الله تعالى بالتوبة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه ، إلا بما شاء . وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . واعتراف منهم بالمعجز والقصور عما كلفوه . وأنه العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام ، لما نحن بمزول من الاستعداد له ، من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الأرض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذى لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة . ومن جلته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم
الكلية ، والمعارف الجزئية ، المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض ، وبناء أمر
الخلافة عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

« قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ » أى أعلمهم « بِأَسْمَائِهِمْ » التى عجزوا عن علمها « فَلَمَّا
أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ » عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالى واستحضاراً له
« أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إيراد ما لا تعلمون بعنوان الغيب
مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط ، وغاية سمته . مع
الإيدان بأن ما ظهر من عجزهم ، وعلم آدم عليه السلام ، من الأمور المتعلقة بأهل السموات
والأرض . وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون ، فيما سبق ، ما أشير إليه هناك ،
كأنه قيل : ألم أقول لكم إني أعلم فيه من دواعى الخلافة ما لا تعلمونه فيه ، هو هذا الذى
عائنتموه . وفى الآية تمريض بمنايتهم على ترك الأولى ، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن
يبين لهم « وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » عطف على جملة « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ »
لا على « أعلم » ، إذ هو غير داخل تحت القول . أى ما تظهرونه بألسنتكم ، وما كنتم
تخفون فى أنفسكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » لما أنبأهم بأسماء ، وعلمهم ما لم يعلموا ، أمرهم بالسجود له ، على وجه التحية والتكرمة تعظيماً له ، واعتذاراً عما قالوا فيه . وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام « فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ » أى امتنع عن السجود « وَاسْتَكْبَرَ » أى تكبر وقال : أنا خير منه ، فالسين للمبالغة « وَكَانَ » فى سابق علم الله أو صار « مِنَ الْكَافِرِينَ » .

« تنبيهات »

الأول : للناس فى هذا السجود أقوال : أحدها أنه تكريم لآدم ، وطاعة لله ، ولم يكن عبادة لآدم . وقيل : السجود لله ، وآدم قبيلة ، أو السجود لآدم تحية ، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله ، وفرضه عليهم . ذكر ابن الأنبارى عن الفراء وجاعة من الأئمة ؛ أن سجود الملائكة لآدم ، كان تحية ، ولم يكن عبادة . وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية ، لا سجود صلاة وعبادة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه . وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله . فإن الله تعالى قال « اسْجُدُوا لِآدَمَ » ولم يقل : إلى آدم . وكل حرف له معنى . وفرق بين « سجدت له » وبين « سجدت إليه » قال تعالى « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ »^(١) « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(٤) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِبَادَةً تَعْبُدُونَ .

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١) أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم . وأما الكعبة ، فيقال : كان النّبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ، ولا للكعبة . والصواب أن الخضوع بالقلوب ، والاعتراف بالعبودية ، لا يصلى على الإطلاق إلا لله سبحانه . وأما السجود فشرعية من الشرائع يتبع الأمر . فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه ، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره . فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقرية يقتربون بها إليه . وهو لآدم تشريف وتمظيم وتكريم . وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام . ولم يأت أن آدم سجد للملائكة . بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين . وبالجملة ، أهل السنة قالوا : إنه سجود تمظيم وتكريم وتحية له . وقالت المعتزلة : كان آدم كالقابلة يسجد إليه ، ولم يسجدوا له . قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم . فإن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة ، وصالح البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم . وخالفت المعتزلة في ذلك وقالت : الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقابلة ، ويبطل ما حكى الله سبحانه عن إبليس « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا خَافُكُمْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »^(٢) .

الثاني : اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود ، فقيل : هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض . قال تقي الدين بن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى . وقيل : هم جميع الملائكة ، حتى جبريل وميكائيل . وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة . قال ابن تيمية : ومن قال خلافه فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان ،

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٢] .

لأنه سبحانه قال « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »^(١) وهذا تأكيد للمعوم .

الثالث : للعلماء في إبليس ، هل كان من الملائكة أم لا ؟ قولان : أحدهما أنه كان من الملائكة . قاله ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيب ، واختاره الشيخ موفق الدين والشيخ أبو الحسن الأشعري وأئمة المالكية وابن جرير الطبري . قال البغوي : هذا قول أكثر المفسرين ، لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم . قال تعالى « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » فلو أنه من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزي والنكال . والقول الثاني أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة . قاله ابن عباس ، في رواية ، والحسن وقتادة ، واختاره الزمخشري وأبو البقاء العكبري والكواشي في تفسيره . لقوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »^(٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، ولا ذرية للملائكة .

قال في الكشف : إنما تناوله الأمر ، وهو للملائكة خاصة ، لأن إبليس كان في صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنى الذى معهم أجدر بأن يتواضع . والقول الأول هو الصحيح الذى عليه جمهور العلماء . وصححه البغوي . وأجابوا عن قوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ » أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة .

(١) [١٥ / الحجر / ٣٠] و [٣٨ / ص / ٧٣] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال ابن القيم : الصواب التفصيل في هذه المسألة ، وأن القولين في الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان أصله من نار ، وأصل الملائكة من نور . فالتأني كونه من الملائكة ، وانثبث ، لم يتواردا على محل واحد . وكذلك قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في الفتاوى المصرية : وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار . سموا « جنًا » ، لاستنارهم عن الأعين ، فإبليس كان منهم . الدليل على ذلك قوله تعالى « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا »^(١) وهو قولهم : الملائكة بنات الله . ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية .

سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرس لم أشهده ! قال : ثم قرأت هذه الآية ، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة . فقلت : نعم . وقال قوم : ليس له ذرية ولا أولاد ، وذريته أعوانه من الشياطين .

الرابع : في قوله تعالى « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » قولان : أحدهما أنه وقت العبادة كان منافقاً ، والثاني أنه كان مؤمناً ثم كفر ، وهذا قول الأكثرين . ف قيل في معنى الآية « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » في علم الله ، أي كان عالماً في الأزل أنه سيكفر . والذي عليه الأكثر أن إبليس أول كافر بالله . أو يقال : معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك . واختلف الناس بأي سبب كفر إبليس ، لعنه الله . فقالت الخوارج : إنما كفر بمصية الله ، وكل معصية كفر ، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة . وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله . وقال آخرون : كفر لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله ، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود . ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قبحاً . وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ونصها : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

واعتقد أنه محق في تمرده ، واستدل بـ « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »^(١) كما يأتي . فـكأنه ترك السجود لآدم ، تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وهذا الكبر عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله^(٢) « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » كذا في كتاب الاستعاذة للإمام مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وخلق له زوجة وأقرهما في الجنة ، أباحهما الأكل منها بقوله « وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » أي أكلًا واسماً . و « حيث » للمكان المبهم ، أي أي مكان من الجنة شئتما . أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعملة . حين لم يحظر عليهما بمض الأكل ولا بمض المواضع الجامعة للأماكولات من الجنة . حتى لا يبقى لهما عذر في تناول مما منعه بقوله تعالى « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » أي هذه الحاضرة من الشجر ، أي لا تأكلا منها ، وإنما علق النهي بالقربان منها ، مبالغة في تحريم الأكل ، ووجوب الاجتناب عنه . لأن القرب من الشيء مقتضى الالفة . والالفة داءية للمحبة . وعبة الشيء تعمي وتضم . فلا يرى قبيحاً ، ولا

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٧ عن عبد الله بن

مسمود (طبعنا) .

يسمع نهياً ، فيقع . والسبب الداعي إلى الشرّ منهى عنه . كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به . وعلى ذلك قوله ﷺ ^(١) « العيفان تزنيان » - كما كان النظر داعياً إلى الالفة ، والالفة إلى الحبة ، وذلك مفيض لارتكابه ، فصار النظر مبدءاً الزنا . وعلى هذا قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى » ^(٢) ، « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ^(٣) .

قال ابن العربي : سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول : إذا قيل : لا قرّب ، بفتح الراء ، كان معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، معناه لا تدن ، نقله ابن مفلح في كتاب الاستمادة . ونقل الفرق المذكور بينهما أيضاً السيد مرتضى في شرح القاموس عن شيخه العلامة الفاضل . قال : إن أرباب الأفعال تصدوا عليه ، وظاهر القاموس أنهما مترادفان ، فإنه قال : قرب منه ، ككرم ، وقربه كسمع قرباً وقرباناً وقرباناً دنا ، فهو قريب . للواحد والجمع . انتهى .

(١) أخرجه الأمام أحمد في المسند . جزء ثان ص ٣٤٣ (طبعة الحلبي) . ونصه :
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لكل بني آدم حظ من الزنى . فالعيتان تزنيان وزناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش . والرّجلان تزنيان وزناهما المشي . والغم يزني وزناه القبل . والقلب يهوى ويتمنى . والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ » .

و [١٧ / الإسراء / ٣٤] ونصها : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » .

لطيفة :

جاء في آية الأعراف « فَكَلَّا »^(١) وهنا بالواو ، لأن كل فعل عطف عليه شيء ، وكان ذلك الفعل كالشرط ، وذكر الشيء كالجزاء ، عطف بالفاء دون الواو ، كقوله تعالى « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا »^(٢) لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها ذكر بالفاء ، كأنه قال : إن دخلتموها أكلتم منها ، فلا كل يتعلق بوجوده بوجود الدخول . وقوله في الأعراف « وَاسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا »^(٣) بالواو دون الفاء ، لأنه من السكنى ، وهو في المقام مع اللبث الطويل ، والأكل كل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من دخل بستاناً قد يأكل منه ، وإن كان مجتازاً . فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط ، عطف بالواو . وإذا ثبت هذا فنقول : قد يراد بـ « اسكن » الزم مكاناً دخلته ، ولا تنتقل عنه ، وقد يراد ادخله واسكن فيه . ففي البقرة ، ورد الأمر ، بعد أن كان آدم في الجنة ، فكان المراد المكث . والأكل كل لا يتعلق به ، فجاء بالواو . وفي الأعراف ورد قبل أن دخل الجنة . والمراد الدخول والأكل كل متعلق به ، فورد بالفاء .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَاءَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٥٨] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَتْرِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦١] ونصها : وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَتْرِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

تنبيه :

لم يرد في القرآن المجيد ، ولا في السنة الصحيحة تعيين هذه الشجرة ، إذ لا حاجة إليه ، لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة . ومالا يكون مقصودا ، لا يجب بيانه . وقوله « **مِنَ الظَّالِمِينَ** » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالى .

قال ابن مفلح الحنبلي في كتاب الاستمعاذة : قال ابن حزم : حمل الأمر على الذنب ، والنهي على الكراهة ، يقع فيه الفقهاء والأفاضل كثيرا ، وهو الذى يقع من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يؤخذون به ، وعلى السبيل أكل آدم من الشجرة . ومعنى قوله « **فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ** » أى ظالمين لأنفسكم ، والظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه ، فن وضع الأمر والنهى فى موضع الذنب والكراهة ، فقد وضع الشيء فى غير موضعه . انتهى .

ثم قال : وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : لا براءة من المعصية أعظم من حال من ظن أن أحدا لا يخلف حائثا . وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ناسيا لنص القرآن ، ومتأولا وقاصدا إلى الخير ، لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكا مقربا أو خالدا فيما هو فيه أبدا . فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به ، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه . ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجورا ، ولكن آدم لما فعل وأخرج عن الجنة إلى الدنيا ، كان بذلك ظالما لنفسه . وقد سعى الله تعالى قاتل الخطأ قاتلا ، كما سعى العامد . والمخطئ لم يعمد بمعصية . وجعل فى مثل الخطأ عتق رقبة ، وهو لم يعمد ذنباً . انتهى .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية وجاءة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام ، لما قاسمه عدو الله أنه ناصح ، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات : أحدها القسم . والثانى الإتيان بجملة اسمية لا فعلية . والثالث تصديرها بأداة التأكيد . الرابع الإتيان بلام التأكيدي فى الخبر . الخامس الإتيان به اسم فاعل لا فعلا دالا على الحدث . السادس

تقديم المعمول على التلبيس فيه . ولم يظن آدم أن أحدا يخلف بالله كاذباً يعين غموس ، فظن صدقه ، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل ، وإن كان فيه مفسدة ، فصلاحة الخلود أرجح ، ولعله يتأني له استدراك مفسدة اليمين في أثناء ذلك باعتذار أو توبة ، كما تجدد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية . اهـ

قال ابن مفلح : فأدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، وإلا فهو لم يقصد المعصية ، والمخالفة ، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا » أى أذهبهما عن الجنة ، وأبعدهما . يقال : زلّ عن مرتبته ، وزلّ عنى ذاك ، إذا ذهب عنك ؛ وزلّ من الشهر كذا . وقال ابن جرير : فأزلهما ، بتشديد اللام ، بمعنى استزلهما ، من قولك زلّ الرجل في دينه ، إذا هفا فيه وأخطأ ، فأنى ما ليس له إتيان فيه ، وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه . وقرئ « فأزالهما » بالالف ، من التنحية « فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » من الرغد والنعيم والكرامة « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » أى انزلوا إلى الأرض ، خطاب لآدم وحواء والشيطان . أو خطاب لآدم وحواء خاصة ، لقوله في الآية الأخرى « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً » وجمع الضمير لأنهما أصلا الإنس ، فكأنهما الإنس كلهم « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » متعادين يبنى بعضكم على بعض « وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » منزل وموضع استقرار « وَمَتَاعٌ » تمتع بالعيش « إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى الموت .

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » استقبلها بالأخذ والقبول ، والعمل بها حين علمها . قال ابن جرير : وهى الكلمات التى أخبر عنه أنه قالها متصلاً بقليلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ^(١) الآية ، فدعا بها لى تكون عنواناً له ولأولاده على التوبة « فَتَابَ عَلَيْهِ » فرجع عليه بالرحمة والقبول ، وتجاوز عنه ، وقوله تعالى « إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » فى الجمع بين الاسمين وعد للثائب بالإحسان مع العفو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ

هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« قُلْنَا » لآدم وحواء « اهْبِطُوا مِنْهَا » من الجنة « جَمِيعًا » ثم ذكر ذرية آدم فقال « فَإِمَّا » بإدغام نون « إِنْ » الشرطية فى « مَا » الزائدة « يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى » ككتاب أنزله عليكم ، ورسول أبعثه إليكم « فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ » أقبل على الهدى وقبل « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فى الآخرة بأن يدخلوا الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بالكتاب والرسول « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ » هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لا يموتون ولا يخرجون .

(١) [٧ / الأعراف / ٢٣] ونصها : قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

تنبیه :

إنما كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والإيذان بتحتّم مقتضاه . وتحقيقه لا محالة . أو لاختلاف المقصود . فإن الأول دل على أن هبوطهم الى دار بلية يتمادون فيها ولا يخلدون . والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف . فن اتبع الهدى نجا ، ومن ضله هلك .

« فوائد »

الأولى :

ذهب كثيرون إلى أن الجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام ، كانت في الأرض . قال بعضهم : هي على رأس جبل بالشرق تحت خط الاستواء . وحملوا الهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما في قوله تعالى : « اهْبِطُوا مِصْرًا »^(١) ، واحتجوا عليه بوجوه : أحدها : أن هذه الجنة ، لو كانت هي دار الثواب ، لكانت جنة الخلد ، ولو كان آدم في جنة الخلد ، لما لحقه الفرور من الشيطان بقوله « هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى »^(٢) ولما صح قوله « مَا نَهَا كُمَا رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »^(٣) .

وثانيها : أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »^(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ٦١] ونصها : ... اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأْتُمْ ...

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠] ونصها : فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَا كُمَا رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٤٨] ونصها : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

وثالثها : لا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام في الأرض ، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء ، لكان ذلك أولى بالذکر ، لأن نقله من الأرض إلى السماء ، من أعظم النعم . فدل ذلك على أنه لم يحصل . وذلك يوجب أن المراد من الجنة غير جنة الخلد .

ورابعها : روى مسلم^(١) في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل ، كل من أنهار الجنة » .

قال ابن مفلح : أكثر الناس على أن الراد بالجنة التي أسكنها آدم جنة الخلد ، دار الثواب . ثم قال : قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية : وهذا قول أهل السنة والجماعة ، ومن قال إنها جنة في الأرض بالهند أو جدّة ، أو غير ذلك ، فهو من الملحدة المبتدعين . والكتاب والسنة يرد هذا القول . وقد استوفى الكلام فيها في « مفتاح دار السعادة » وكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

الفائدة الثانية :

اتفق الناس أن الشيطان كان متولياً إغواء آدم . واختلف في الكيفية . فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله « هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى »^(٢) ، وقوله « مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »^(٣) ومقامته لهما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٢٦ (طبعنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : « فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى » .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠] ونصها : « فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ =

« إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ »^(١) . والمقاسمة ظاهرها المشافهة ، ومنهم من قال : كان ذلك بالوسوسة ، كما قال « فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ »^(٢) فإغواؤه إغراؤه بوسواسه وسلطانته الذي جعل له ، كما قال ﷺ^(٣) « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » . وزعموا أن الشيطان لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها . والوسوسة ، لغة ، حديث النفس والأفكار . وحديث الشيطان بما لا نفع فيه ولا خير ، والكلام الخفي . وظاهر الآيات يؤيد القول الأول .

الفائدة الثالثة :

لم يسمَّ الشيطان في الآية ، إذ لا حاجة ماسة إلى اسمه ، كما تقدم في الشجرة . ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً ، وذكر مبدأهم - دعا بني إسرائيل خصوصاً ، وهم اليهود ، لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبي ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد جرى الكلام معهم (من هنا إلى الآية رقم ١٤٢) فتارة دعاهم بالملاطفة ، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم . وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم ، وذكر عقوباتهم التي عاقبهم بها ، كما سيأتي تفصيله ، فقال تعالى :

= عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٢١] ونصها : وَقَامَهُمَا إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ ص ١١٢ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند

الحاكم في ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم . ونصه : عن علي بن الحسين أن النبي ﷺ أنه صفيه بنت حيي . فلما رجعت انطلق معها . ففر به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هي صفيه » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » أي أولاد يعقوب . وقد هيجهم تعالى بذكر أيهم إسرائيل ، كأنه قيل : يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم ، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا ، ويا ابن العالم ، اطلب العلم « اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » قال ابن جرير : نعمه التي أنعم بها على بني إسرائيل : اصطفاؤه منهم الرسل ، وإزاله عليهم الكتب ، واستنقاذهم إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه ، إلى التمسكين لهم في الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام النمل والسلوى . فأمر ، جل ثناؤه ، أعقابهم أن يكون ماسلف منه إلى آبائهم على ذكره ، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحل بهم من النقم ، ما أحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده . « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » العهد هو الميثاق ، وقد أشير إليه في قوله تعالى « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » (١)

الآية . فعهد الله هو وصيته لهم ، بما ذكر في الآية . ومنها : الإيمان برسله المتناول لخاتمهم

(١) [٥ / المائدة / ١٢] ونصها : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

عليه السلام ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . وعهده تعالى بإياهم ، هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة . وقوله تعالى « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » قال ابن جرير: أى اخشونى واتقوا، أيها المضيئون عهدى من بنى إسرائيل، والكاذبون رسولى الذى أخذت ميثاقكم فيما أنزلت على أنبيائى أن تؤمنوا به وتتبعوه، أن أحل بكم من عقوبتى إن لم تتوبوا إلى باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحلت بمن خالف أمرى ، وكذب رسلى من أسلافكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

« وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ » أى من القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ » أى موافقاً بالتوحيد ، وصفة محمد ﷺ ونعمته، وبعض الشرائع ، لما معكم من الكتاب - كما فى التنوير - قال ابن جرير: أمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم أن فى تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة ، لأن الذى فى القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه ، نظير الذى من ذلك فى الإنجيل والتوراة . فى تصديقهم بما أنزل على محمد ، تصديق منهم لما معهم من التوراة . وفى تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة . انتهى .

وتقييد النزل بكونه مصدقاً لما معهم، لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعاً .

تنبيه :

كثيراً ما يستدل مجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها ، كآية « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ »^(١) ، وآية « وَلَكِنْ (١) [٢ / البقرة / ٨٩] ونصها : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا =

تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»^(١) وغيرها . مع أنه ثبت بالبراهين القاطمة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلها فيما بقي ، كما صنف في ذلك مصنفات عدة . وقد رُدَّ استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على مادعوه ، بأن معنى كون القرآن مصداقاً لما معهم ، ما ذكرناه قبل في تأويلها . وحاصله أن ما أنزل عليه ﷺ هو طبق ما عندهم من حقية نبوته ، وصحة البشائر عنه ، كما قال تعالى « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » أى أنه عليه السلام جاء طبق ما عندهم عنه في التوراة والإنجيل ، بمعنى أن أحواله جميعاً توافق البشائر « وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ » يعنى من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . فالأولية نسبية ، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، أو هو تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لعرفتهم به وبصفتهم ، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه ، والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يمدون أتباعه أول الناس كلهم ، فلما بعث كان أمرهم على العكس ، لقوله « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » . « وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولى ، بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، فالاشتراء استعارة للاستبدال . « وَإِيتَايَ فَاتَّقُونِ » بالإيمان واتباع الحق ، والإعراض عن حطام الدنيا .

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الدِّينِ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَمَنَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] ونصها : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . و [١٢ / يوسف / ١١١] ونصها : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٤٣] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

اللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين . والمعنى لا تخلطوا الحق بالباطل الذى يخترعونه أو يذكرونه فى تأويله حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، وقوله « وَتَكْتُمُوا » مجزوم داخل تحت حكم النهى . وتكرير الحق ، لزيادة تقبيح النهى عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ، ما ليس فى ضميره ، والتقيد بقوله « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يمذر . وقوله « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » الآية ، أمر بلزوم الشرائع عليهم بعد الإيمان . وذلك إقامة الصلاة بأدائها بفروضها ، والمحافظة عليها . وإعطاء الصدقة المفروضة ، والركوع لله ، أى الخضوع لأوامره بإطاعتها .

قال ابن جرير : هذا أمر من الله ، جل ثناؤه ، لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإقامة والتوبة إليه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام والخضوع له بالطاعة . ونهى عنه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ ، بعد تظاهر حججه عليهم ، وبعد الإعذار لهم والإنذار . وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغاً إليهم فى القدرة اهـ .

وقد قيل فى قوله « وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » حث على إقامة الصلاة فى الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس فى النجاة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » أى بما فيه لله رضا من القول أو الفعل . وجماع البر كل ما فيه طاعة لله تعالى . والهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم « وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » أى تتركونها من البر كالنسيات . والمعنى تخالفون ما تأمرون به من ذلك إلى غيره . وقوله « وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ » تكلمت مثل قوله « وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ » يعنى تتلون التوراة وفيها الوعيد على الحيانة وترك البر ومخالفة القول العمل . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبوا العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه .

روى الحافظ ابن كثير الدمشقى فى تفسيره عن إبراهيم النخعى قال : إني لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ^(١) وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » ^(٢) وقوله إخباراً عن شعيب « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » ^(٣) .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٤] ونصها : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٤) [٦١ / الصف / ٣٢] .

(٥) [١١ / هود / ٨٨] ونصها : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاسْتَمِعُوا لِلصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

« وَاسْتَمِعُوا لِلصَّبْرِ » أى على الوفاء بالمهد « وَالصَّلَاةِ » أى التى سرها خشوع القلب للرب . فإنها من أكبر العون على الثبات فى الأمر . قال ابن جرير : أى استمعوا على الوفاء بمهدى الذى عاهدتوني فى كتابكم من طاعتي واتباع أمرى وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة . فالآية متصلة بما قبلها . كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك . « وَإِنَّهَا » الضمير للصلاة . وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتغالها على ضروب من الصبر ؛ وجوز عود الضمير على الاستعانة بهما « لَكَبِيرَةٌ » لشاقة ثقيلة ، كقوله تعالى « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » (١) « إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى محشورون إليه يوم القيامة للجزاء . والظنُّ

= مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَافَكُمُ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (١) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

هنا بمعنى اليقين ومثله « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ » (١) .

قال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقين ظناً نظير تسميتهم الظلمة سُدفة والضياء سُدفة والمفئذ صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده .
والشواهد على ذلك من أشعار العرب أكثر من أن تحصر « وَأَنَّهُمْ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ »
أى بعد الموت فيجازيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » كسر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به « وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ » عطف على نعمتي ، عطف الخاص على العام لكأله . أى فضلت آبائكم « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى على زمانهم بإزالة الكتاب عليهم وإرسال الرسل فيهم وجعلهم ملوكاً ، وهم آبائهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا . وتفضيل الآباء شرف الأبناء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« وَاتَّقُوا يَوْمًا » يريد يوم القيامة أى حسابه أو عذابه « لَا تَجْزِي » فيه « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » أى لا تنقضى عنها شيئاً من الحقوق . فانتصاب « شَيْئًا » على المفعولية . أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية . وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى

« وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ » لا يقبل « مِنْهَا عَدْلٌ » أى فدية « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » ينجون من عذاب الله . وجُمِعَ لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة .
وذكر لمعنى العباد أو الأناسى .

(تنبيه) تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة لأنه نفي أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفي أن يقبل منها شفاعة شفيح . فلم أنها لا تقبل للعصاة . والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ^(١) ، وكما قال عن أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ » * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » ^(٢) فمعنى الآية أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد .

وفى الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها ، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم . وليس فى الآية دليل لنكريها ، لأن قوله « يوما » أخرجه منكرها . ولا شك أن فى القيامة مواطن . ويومها معدود بخمسين ألف سنة . فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة . وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها . منها قوله تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » ^(٣) مع قوله « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » ^(٤)

(١) [٧٤ / الدثر / ٤٨] .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠ و ١٠١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] ونصها : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٧] . و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

فيمتن حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتین متباينين : أحدهما محل للتناول والآخر ليس محله ، وكذلك الشفاعة . وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة . رزقنا الله الشفاعة . وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » تذكير لتفاصيل ما أجّل في قوله تعالى « نِعَمْتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » من فنون النعماء . أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم ، أى آباءكم . فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم . والمراد بالآل ، فرعون وأتباعه ، فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه (قاله في القاموس) .

ثم بين ما أنجاهم منه بقوله « يَسُومُونَكُمْ » أى ينفونكم « سُوءَ الْعَذَابِ » أى أفظمه وأشدّه « يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ » أى يتركونهم أحياء « وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » البلاء إما المحنة ، إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون ؛ أو النعمة ، إن أشير به إلى الإنجاء . قال ابن جرير : العرب تسمى الخير بلاء والشر بلاء .

فائدة : فرعون لقب لمن ملك مصر كافراً . ككسرى لملك الفرس . وقيصر لملك الروم . وتبسع لمن ملك اليمن كافراً . والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك . ولعمرة اشق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتا وتمرد .

وسبب سَومِ بني إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم (على ما روى في التوراة) خوفه من نعمهم وكثرة توالدهم . وكانت أرض مصر امتلأت منهم . فإن يوسف ، عليه

السلام، لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان إلى مصر ، أعطاهم ملكاً في أرض مصر في أفضل الأرض كما أمره ملك مصر . وكان لهم في مصر مقام عظيم بسبب يوسف عليه السلام . فتكاثروا وتناسلوا . ولما توفي يوسف عليه السلام والملك الذي اتخذه وزيراً عنده ، انقطع ذلك الاحترام عن بني إسرائيل . إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة . فرأى غوَّ الإسرائيليين . فقال لقومه : أضحي بنو إسرائيل شعباً أكثر منا وأعظم . فهل نحتال لهم لئلا ينموا . فيكون ، إذا حدثت حرب ، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا . ويخرجون من أرضنا . فسلط عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأنقائهم . وكانوا كلما اشتدّ تمبدهم إزدادوا كثرة وشدة . فشق على المصريين كثرتهم واحتشوا منهم . فجعل أهل مصر يستعبدونهم جوراً ويمزّون عليهم حياتهم بالعمل الشديداً بالطين واللّبن ، وكل فلاحه الأرض ، وكل الأفعال التي استعبدوهم بها بالمشقة .

وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله تعالى . ولم يزل الأمر في هذه الشدة عليهم حتى نجاهم سبحانه بإرسال موسى عليه السلام . وقوله جل ذكره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » بيان لسبب التنجية ، وتصوير لكيفيةها ، إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها . وقد بين في تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هي الإنجاء من الفرق . أي واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبساً بكم أو بسبب إنجائكم . وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك . فالباء على الأول استمانية . مثلها في : كتبت بالقلم . وعلى الثاني للمصاحبة . مثلها في : أسندت ظهري بالحائط . وعلى الثالث للسببية . والوجه الأول

ضعيف من حيث إن مقتضاه أن تفريق البحر وقع بيني إسرائيل والنصوص عليه في التنزيل أن البحر إنما انفرق بمصا موسى . قال تعالى « أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ »^(١) فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل « فَأَنْجَيْنَاكُمْ » أى من الفرق بإخراجكم إلى الساحل « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » أريد فرعون وقومه . وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أى إلى ذلك وتشاهدونه لاتشكون فيه . ليكون ذلك أشنى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم .

وكانت قصة إغراق آل فرعون المشار لها فى هذه الآية ، على ما روى ، أن الحق تعالى لما شاء إخراج بنى إسرائيل من مصر من بيت العبودية ، أوقع فى نفس فرعون أن يطلقهم من مصر . بعد إباء شديد منه ورؤية آيات إلهية كادت تحل به وبقومه البوار . فدعا موسى وهارون وقال : اخرجوا من بين شعبي أنتم وبنو إسرائيل جميعا . واذهبوا اعبدوا الرب كما تسكتم . فلما ارتحلوا وأخبر فرعون أن الشعب قد هرب ، تغير قلبه عليهم وقال : ماذا فعلنا حتى أطلقناهم من خدمتنا ؟ فشد مركبته وأخذ قومه معه وسمى وراءهم وأدركهم وهم نازلون عند بحر القلزم . وهو المشهور ببحر السويس . فلما رأت بنو إسرائيل عسكر فرعون وراءهم قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ؟ فلو بقينا على خدمة المصريين لكان خيرا لنا من أن نهلك فى هذه البرية « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »^(٢) وقال « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »^(٣) . وأوحى

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٦٣] ونصها : فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٢٩] ونصها : قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ =

الله إلى موسى عليه السلام أن اضرب بمصاك البحر فاضربه فانفلق وأبیس قعره . فدخل بنو إسرائيل فيه . فتبعهم فرعون وجنوده . فخرج موسى وقومه من الجهة الثانية . وانطبق البحر على فرعون ومن معه ففرقوا كلهم . وسيأتي الإشارة إلى هذه القصة في مواضع من التزويل . ومن أبسطها فيه سورة الشعراء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ » أى بعد فراغه من مقاومة آل فرعون وإهلاكم « أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » أى لنعطيه عند انقضائها التوراة لتعملوا بها . وقد روى في ترجمة التوراة أنه تعالى قال لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك ألواحاً من حجارة والشريعة والوصية التى كتبها لتعلمهم . فصعد موسى إلى الجبل وبقي هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة . وموسى كلمة عبرانية معناها منشول من الماء « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » أى إلهاً ومعبوداً « مِن بَعْدِهِ » أى من بعد مضيّه للميقات « وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ » أى بوضع العبادة في غير موضعها . وهو حال من ضمير اتخذتم . أو اعتراض تذييل . أى وأنتم قوم عادتكم الظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ)

« ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم » أى محونا ذنوبكم « مِن بَعْدِ ذَلِكَ » أى الاتخاذ والظلم القبيح « لَمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ » لى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة .

= بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل . يعنى التوراة . كقولك : رأيت الغيث واللبث تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة . ونحوه قوله تعالى « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » ^(١) يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياءً وذكرا . أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من المصا واليد وغيرها من الآيات . أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل : الفرقان انفراق البحر . وقيل : النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » ^(٢) يريد به يوم بدر « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى لئلا يضلوا بالمعمل فيه من الضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ

الْعِجْلِ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ فَتُوبُوا

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٨] .

(٢) [٨ / الأنفال / ٤١] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا

أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذه الآية بيان لكيفية وقوع المغفر المذكور في الآية قبل . روى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل ، غضب ورمى باللوحين من يده . فكسرها في أسفل الجبل . ثم أحرق العجل الذي صنموه . ثم قال : من كان من حزب الرب فليقبل إلي . فاجتمع إليه جميع بني لاوى . وقال لهم : هذا مايقول الرب إله إسرائيل : ليقتل كل رجل منكم سيفه . فحوزوا في وسط الحلة من باب إلى باب . وارجموا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوى كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفي رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) وفي غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإني الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه اه .

ولاوى ، ثالث مولود ليمقوب عليه السلام من أولاده الاثنى عشر ، معناه في العربية ملتصق أو متصل .

والأخبار اللاويون ينسبون إليه . وقد اختارهم تعالى من بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام للخدمة المقدسة . وجعلهم من القربين لديه . وبما سقناه يعلم أن قوله تعالى « فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » أمر لمن لم يعبد العجل ، أعني اللاويين ، أن يقتلوا العبد . لا كما فهمه بعضهم من قتل بعضهم بعضاً مطلقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنَٰ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

[٥٦] (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنَٰ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «
أى وأذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق . إذ سألتم رؤيتى عيانا بما لا يستطيع
لكم ولا لأمثالكم فى دار الدنيا . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن القائلين لموسى
ذلك هم السبعون المختارون . ويؤيده آية الأعراف . « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا
لِإِمْقَانِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ - الآية .

وقد غلط أهل الكتاب فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الحكيم
عليه السلام قد سأل ذلك . فمنع منه . فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟ أفاده ابن كثير . وقد
رأيت دعواهم المذكورة فى الفصل الرابع والعشرين فى سفر الخروج . وهذا من الواضع
المحقق تحريفها . ويدل عليه ما فى الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال
لموسى : لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يراى ويعيش اهـ .

وجهرة ، فى الأصل ، مصدر قولك جهرت بالقراءة . استعيرت للمعاينة ، لما بينهما من
الاتحاد . فى الوضوح والانكشاف . إلا أن الأول فى السموعات ، والثانى فى المبصرات .
ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس .
أو على الحال من الفاعل أو المفعول .

قال ابن جرير : وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هَوْلِهِ
وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم ، أو فقد بعض آلات الجسم .
صوتا كان ذلك أو نارا . أو زلزلة أو رجفا (قال) ومما يدل على أنه قد يكون مصموقا وهو

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصبها : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ،
فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي ، أَهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الشَّفْهَاءُ مِنَّا ، إِنَّ هِيَ إِلَّا لَفِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ
وَلَيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

حَيَّ غَيْر مِيت قول الله عز وجل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ يعنى مغشياً عليه . ومنه قول جرير :
وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قَرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَ (١)
فقد علم أن موسى لم يكن ، حين غشى عليه وصعق ، ميتا . لأن الله ، جل وعز ، أخبر عنه أنه
لما أفاق قال : تبث إليك . ولا شبه جريرَ الفرزدق ، وهو حي ، بالقرد ميتا ، ولكن معنى
ذلك ما وصفناه .

وقوله تعالى «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» أى إلى تلك الصاعقة . وقوله تعالى «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ
مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ» قال الراغب الأصبهاني في تفسيره : البعث إرسال المبعوث من السكان
الذى فيه . لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف الملق به ، ف قيل : بعثت البعير من
مبركه أى أثره . وبعثته في السير أى هيجته ، وبعث الله الميت أحياء . وضرب البعث
على الجند إذا أمروا بالارتحال . وكل ذلك واحد في الحقيقة ، وإنما اختلف لاختلاف صور
المبعوثات (ثم قال) والموت حُمِلَ على المعروف ، وحُمِلَ أيضا على الأحوال الشاقة الجارية مجرى

(١) قال السيد محمود محمد شاكر ، في تعليقه على هذا البيت ، في تفسير ابن جرير ، مانصه :
ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده في هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :
وَكُنْتُ إِذَا حَلَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخَزِيَةٍ وَتَرَكْتُ عَارًا
وما أشد ما قال ! وقال في النقائض في شرح البيت : « ولغته - يعنى جريرا - الصواعق .
فاستدار : أى استدار إنسانا بعد أن كان قرداً .

وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسح قرداً على هيئته التى كان عليها قبل أن يكون
إنسانا . فقوله « استدار » عاد إلى الموضع الذى ابتدأ منه . ومن ذلك قوله ﷺ في حجة
الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى عاد كما بدأ .
فهو يقول : كان الفرزدق فى أصل نشأته قرداً . ثم تحول إنساناً . فلما أصابته صواعق شعري
عاد كما كان فى أصل نشأته قردا صريحا اه . وهو كما قال .

الموت ، وليس يقتضى قوله « فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » أنهم ماتوا . ألا ترى إلى قوله : « فَخَرَّ مُوسَىٰ صَمِقًا » لكن الآية تحتل الأمرين ، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتمدى عن الاحتمالات . انتهى . وقد يؤيد الثانى آية الأعراف المذكورة وهى « وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِئَاسَةً ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِثْبَآءٍ »^(١) فالرجفة هى المساة بالصاعقة هنا ، والتزليل يفسر بمضه بعضا ، والأصل توافق الآى . وقد ذكر ابن إسحق والسدى أن الذين أخذتهم الرجفة هم الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة ، وسيأتى فى الأعراف بسط ذلك إن شاء الله .

دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى فى الدنيا مستنكر غير جائز ، ولذا لم يذكر ، سبحانه وتعالى ، سؤال الرؤية إلا استمظمه . وذلك فى آيات . منها هذه . ومنها قوله تعالى « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ »^(٢) ومنها قوله تعالى « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا »^(٣) فدللت هذه التهويلات الفظيمة الواردة لطالبيها فى الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى فى الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته فى الدار الآخرة فى آيات عديدة ، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وهى قطعية الدلالة . لا يبنى لنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٢٨ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٣] وبقى الآية : ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ، وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
 « وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فنها تظليل الغمام عليهم . وذلك أنهم كانت تظلمهم سحابة إذا ارتحلوا . لئلا تؤذيهم حرارة الشمس . وقد ذكر تفصيل شأنها في توراتهم في الفصل التاسع من سفر العدد . ومنها إنزال المني . وقد روى في التوراة أنهم لما ارتحلوا من إيليم وأتوا إلى برية سين ، التي بين إيليم وسيناء ، في منتصف الشهر الثاني بعد خروجهم من مصر ، تدمروا على موسى وهرون في البرية ، وقالوا لها : ليتنا متنا في أرض مصر إذ كننا نأكل خبزاً ولحماً . فأخرجتنا إلى هذه البرية لتُهْلِكَنا هذا الجمع بالجوع . فأوحى تعالى لموسى عليه السلام إلى أمطر عليكم خبزاً من السماء . فليخرج الشعب ، ويلتقطون حاجة اليوم بيومها طعامهم من أجل أني أمتحنهم ، هل يمشون في شريعتي أم لا ، وليكونوا في اليوم السادس أنهم يهيئون ضعف ما يلتقطونه يوماً فيوماً . لأن اليوم السابع يوم عيد لا يشخص فيه لأمر العيشة ولا لطلبه شيء . فقال لهم موسى : إن الرب تعالى يعطيكم عند المساء لحماً تأكلون . وبالغداء تشبعون خباً . فكان في المساء أن السلوى صمدت وغطت الحلة ، وبالغداء أيضاً وقع الندى حول الحلة . ولما غطى وجه الأرض تباين في البرية شيء رقيق كأنه مدقوق بالدقة . يشبه الجليد على الأرض . فلما نظر إليه بنو إسرائيل قالوا : ما هذا ؟ لأنهم لم يعرفوه . فقال لهم موسى : هذا هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا . وقد أمركم أن يلقط كل واحد على قدر ما في بيته ، وقدر ما كفه . ففعل بنو إسرائيل كذلك ولقطوا ما بين مكث ومقلل ، وقال لهم موسى : لا تبقيوا منه شيئاً إلى الغد . فلم يطيعوا

موسى . واستفضل منه رجال إلى الغد ؛ فضرب فيه الدود و نتن . فغضب عليهم موسى .
وكانوا يلقطون غدوة . كل إنسان يلقط على قدر ما يأكل . فإذا أصابه حر الشمس ذاب .
وقد أعطوا في اليوم السادس خبز يومين ليجلس كل رجل منهم في مكانه في اليوم السابع .
راحة وتقديس له . وكان إذا خرج بعض الشعب ليلتقط ، يوم السابع ، لا يجد في الأرض
منه شيئاً . ودعا آل إسرائيل اسمه المنّ . وكان مثل حب الكزبرة أبيض ، وطعمه كرقاق
بعسل ، أو أكل بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى أتوا إلى الأرض العامرة ودنوا من
تحوم أرض كنعان . وروى في ترجمة التوراة أيضاً أن المنّ كان يشبه لون اللؤلؤ . وكان
يطوف الشعب ويلتقطونه ويطحنونه بالرحى . ويدقونه في الهاون ويطبخونه في القدور .
ويعملون منه رغفاً طعمها كالخبز المخبون بالدهن . ومتى نزل الندى على المحلة ليلاً كان ينزل
المن معه اه .

هذا ما كان من أمر المنّ . وأما السلوى فروى أيضاً : أن جماعة ممن صعد مع بنى
إسرائيل من مصر تأقت أنفسهم للحجم وجلسوا يبيكون ، وواقفهم بنو إسرائيل على اشتهاه
أيضاً . وقالوا : من يطعمنا لحماً لنأكل ؟ قد تذكرنا السمك الذى كنّا نأكله بمصر من غير
ثمن . والقثاء والبطيخ والسكرات والبصل والثوم . والآن قد يبست نفوسنا ولا ننظر
عيوننا إلا المنّ . فلما سمع موسى الشعب يبيكون بعشائرهم ، وعلم غضب الرب عليهم ؛ لذلك ،
ابتهل إلى ربه وقال : من أين لى لحم أطعم منه هذا الجمع وهم يبيكون على ويقولون أعطنا لحماً
لنأكل ؟ فأوحى إليه ربه أن يجمع سبعين رجلاً من شيوخ شعبه وعرفائه . ويقبل بهم إلى
خيمة الاجتماع فيكونوا معه . ثم كلمه ربه ووعد أن يعطيه لحماً يأكلون منه شهراً حتى
يأنفوا منه . فأخبر موسى الشعب بذلك . ثم انحاز إلى المحلة هو وشيوخ قومه . فخرجت ريح
وحملت السلوى من البحر وألقته على المحلة مسيرة يوم حول المحلة من كل جانب ، وكانت
تطير بالجو ذراعين على الأرض وقام الشعب يومهم ذلك كله ، والليل . وفى غد اليوم
الثانى . فجمعوا السلوى أقل من جمع عشرة أكرار . سطحوه سطيحاً وبيسوه حول المحلة .

وقبل أن ينقطع اللحم من عندهم غضب الرب تعالى على الشعب . فضربه ضربة عظيمة جدا . ودعى اسم ذلك الموضع قبور الشهوة . لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا . ثم خرجوا من قبور الشهوة وارتحلوا لغيره . انتهى .

وقوله تعالى « كلوا » على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا . وقوله « وما ظلمونا » كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيدان باقتضاء جنایات المخاطبين للإعراض عنهم وتمداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المبالغة . معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز ، والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به . أى فظلموا بأن أكثروا من التضجر والتذمر على ربهم وشكوى سكناتهم في البرية وفراقهم مصر . وما ظلمونا بذلك ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، بالمصيان . إذ لا يتخطاهم ضرره وبذلك حق عليهم العذاب الذى ضربوا به كما ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا

الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

[٥٩] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ

سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

هذا إشارة إلى ما حلّ ببني إسرائيل - لما نكسوا عن الجهاد - ودخولهم الأرض

وقوله سبحانه « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » أى : بدّلوا أمره تعالى لهم - بدخول الأرض مجاهدين - بالإحجام عنه ، وتثبيط الناس . ولذا قال أبو مسلم « قوله تعالى « فَبَدَّلَ » يدلّ على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببديل . والدليل عليه : أن تبديل القول قد يستعمل فى المخالفة . قال تعالى « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ - إلى قوله - يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ »^(١) ولم يكن تبديلهم إلّا الخلاف فى الفعل لا فى القول . فكنا هنا ، فيكون المعنى : إنهم لما أمروا بدخول الأرض - وما ذكر معه - لم يمتثلوا أمر الله ، ولم يلتفتوا إليه » .

وفى تكرير « الَّذِينَ ظَلَمُوا » زيادةٌ فى تفبيح أمرهم ، وإيدانٌ بأنّ إزال الرجز عليهم لظلمهم . و (الرجز) : هو الموت بغتة ، كما تقدّم .

قال الراغب : وتخصيص قوله « رجزاً من السماء » هو أنّ العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن - على بعض الوجوه - دفاعه ، أو يظنّ أنه يمكن فيه ذلك ، وهو كلّ عذاب على يد آدمي ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والفرق . وضربٌ لا يمكن - ولا يظنّ - دفاعه بقوة آدمي - كالطاعون ، والصاعقة ، والوت - وهو المعنى بقوله « رجزاً من السماء » اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا

مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

هذا تذكير لنعمة أخرى كفروها . روى فى توراتهم أنه ارتحلت كل جماعة بنى إسرائيل

(١) [٤٨ / الفتح / ١٥] ونصها : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمَ لَنَأْخُذْوهَا ذُرُوءًا نَّتَّبِعُكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

من برية سيناء بأمره تعالى ، وحلوا في رقادين ، ولم يكن هناك ماء ليشربوا ، فخاصموا موسى ، وقالوا له أعطنا ماء للشرب ، أخرجتنا من مصر لتقتلنا نحن وأولادنا ودوابنا بالعطش ؟ فابتهل موسى إلى ربه في السقيا ، فأوحى إليه أن امض أمام الشعب ، وخذ معك من شيوخ إسرائيل . والعصا التي ضربت بها النهر خذها بيدك . واذهب إلى صخرة حوريب ، فاضربها فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى كذلك أمام شيوخ إسرائيل . انتهى .

وقوله تعالى « ائْتِنَا عَيْنًا » أى عدد أسباط يعقوب الاثنى عشر ، لكل سبط منهم عين قد عرفوها . قال الراغب : وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعدوه ، وهذا المنكر ، مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى في تغيير الطبائع والاستحالات الخارجة عن العادات ، فقد ترك النظر على طريقته . إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجز الحديد ، وأن الحجر المنفر للنحل ينفره ، والحجر الحلاق يخلق الشعر ، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة . وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم ، فغير ممتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض . اهـ .

وقوله « وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تمشوا في الأرض بالفساد ، وخلاف أمر موسى . قال الراغب : فإن قيل : فما فائدة قوله « مُفْسِدِينَ » والعمى ضرب من الإفساد ؟ قيل : قد قال بعض النحويين : إن ذلك حال مؤكدة ، وذكر ألفاظاً مما يشبهه . وقال بعض المحققين : إن العمى ، وإن اقتضى الفساد ، فليس بموضوع له ، بل هو كالاعتداء ، وقد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد ، وهو مقابلة المعتدى بفعله نحو « فَمَنْ اِعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ » ^(١) وهذا الاعتداء ليس بفساد ، بل هو ، بالإضافة إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اِعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ما قوبل به ، عدل . ولولا كونه جزاء لكان إفساداً . فبين تعالى أن المثلث المنهى عنه ، هو المقصود به الإفساد . فالإفساد مكروه على الإطلاق ، ولهذا قال « لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا »^(١) وقد يكون في صورة المثلث والتعمد ما هو صلاح وعدل ، كما تقدم . وهذا ظاهره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ، قَالَ أَلَسْتَبْدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » قال قتادة : لما ملوا طعامهم وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك ، قالوا ذلك . قال الراغب : إن قيل : كيف قال « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » وكان لهم المن والسلوى ، قيل : إن ذلك إشارة إلى مساواته في الأزمنة المختلفة ، كقولك : فلان يفعل فعلاً واحداً في كل يوم ، وإن كثرت أفعاله ، إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها . وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ . لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ » ، حتى أكدوا بقولهم « واحد » أو

(١) [٧ / الأعراف / ٥٦] ونصها : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أرادوا بالواحد مالا يختلف ولا يتبدل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْزِلُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا » هو الثوم لقراءة ابن مسعود « وثومها » وللتصريح به في التوراة في هذه القصة . وقد ذكر ابن جرير شواهد لإبدال الثاء فاءً لتمام مخرجيهما كقولهم للأثافي « أثافي » ، وقولهم وقموا في عاتور شر وعافور شر ، وللمنافير « مفائير » « وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ « أَي أدون قدرًا ، وأصل الدنو القرب في المكان ، فاستعير للخسة ، كما استعير البمد للشرف والرفعة ، فقيل : بعيد الهمة . « بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » أي بمقابلة ما هو خير ، أي أرفع وأجل ، وهو المن الذي فيه الخلاوة التي تألفها أغلب الطبائع البشرية ، والساوى من أطيب لحوم الطير ، وفي مجموعهما غذاء تقوم به البنية . وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة ولا تغذية « اهْبِطُوا مِصْرًا » هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور ، بالصرف .

قال ابن جرير : ولا أستجزز القراءة بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك ؛ أي من الأمصار ، أي انحدروا إليه « فَإِنَّ لَكُمْ » فيها « مَا سَأَلْتُمْ » أي فإن الذى سألتكم يكون فى الأمصار لا فى القفار ، والمعنى أن هذا الذى سألتكم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير ، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه . فليس يساوى مع دناءته ، وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه . ولما حكى الله تعالى إنكار موسى عليه السلام على اليهود استبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، بعد تعداد النعم ، جاء بحكاية سوء صنيعهم بالأنبياء ، وكفرهم ، واعتدائهم ، وضرب الذلة عليهم لذلك ، استطراداً فقال « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ » فن هنا إلى قوله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » معترض فى خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بنى إسرائيل الذين كانوا فى عهد موسى ، يدل على هذا قوله « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ » فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم . والذلة بالكسر الضغار والهوان والحقارة ، والذل بالضم ضد العز . والمسكنة مفعلة من السكون ، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفقر . والمسكين مفعيل منه - كذا فى السمين -

وفي الذلة استمارة بالكناية حيث شبهت بالقبة في الشمول والإحاطة ، أو شبهت الذلة بهم بلصوق الطين بالحائط في عدم الانفكاك . وهذا الخبر الذي أخبر الله تعالى به هو معلوم في جميع الأزمنة ، فإن اليهود أذلّ الفرق ، وأشدّهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً ، لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصي في كل زمن ، وطروقة كل فحل في كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال ، وإن بلغ في الكثرة أى مبلغ ، فهو مرتدّ بأتواب المسكنة . « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ » أى رجعوا به ، أى صار عليهم ، أو صاروا أحقاء به . من قولهم : باء فلان بفلان ، أى صار حقيقة أن يقتل بمقابله . فالباء على التقديرين صلة بأووا ، لا للملابسة . وإلا لاحتيج اعتبار المرجوع إليه ، ولا دلالة في الكلام عليه « ذَلِكَ » إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم « بِأَنَّهُمْ » بسبب أنهم « كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » الباهرة التي ظهرت على يدى عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » كزكريا ويحيى عليهما السلام . وقتل الأنبياء في بنى إسرائيل كان ظاهراً ، ولم يذكر قتل رسول من الرسل . وذلك - والله أعلم - لقوله « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا »^(١) وقوله « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ »^(٢) وقال قوم : لم يقتل أحد من الرسل ، وإنما قتل الأنبياء ، أو رسل الرسل ، والله أعلم . كذا في التأويلات .

وقوله « بغير الحق » لم يخرج مخرج التقييد ، حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال ، لمكان العصمة . بل المراد نعى هذا الأمر عليهم ، وتمظيمه ، وأنه ظلم بحث في نفس الأمر ، حملهم عليه اتباع الهوى ، وحب الدنيا ، والغلو في العصيان ،

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] ونصها : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧٢] .

والاعتداء ، كما يفصح عنه قوله تعالى « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى جرّم المصيان والتماذى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر ، وقتل الأنبياء عليهم السلام . وقيل : كررت الإشارة للدلالة على أن ملحقهم ، كما أنه بسبب الكفر والقتل ، فهو بسبب ارتكابهم المعاصى ، واعتدائهم حدود الله تعالى . وعليه فيكون ذكر علل إزال العقوبة بهم فى نهاية حسن الترتيب . إذ بدئ أولاً بما فعلوه فى حق الله تعالى وهو كفرهم بآياته . ثم تُنئى بما يتلوه فى العظم ، وهو قتل الأنبياء . ثم بما يكون منهم من المعاصى التى تخصهم . ثم بما يكون منهم من المعاصى المتعدية إلى الغير ، مثل الاعتداء . وهذا من لطائف أسلوب التنزيل .

ثم أعلم تعالى بأن باب التوبة مفتوح على الوجه العام لليهود وغيرهم . وأن من ارتكب كبائر الذنوب التى تستوجب الغضب الإلهى ، وضرب الذلة والمسكنة ، كما حل باليهود ، إذا آمن وتاب فله فى الدنيا والآخرة ما للمؤمنين . وعادة التنزيل جارية بأنه متى ذكر وعد أو وعيد ، عقب بضده ليكون الكلام تاماً فقيلاً :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أى إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد ﷺ ، وصاروا من جملة أتباعه . قال فى فتح البيان : كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية ، وحال من قبلها من سائر الملل ، يرجع إلى شئ واحد ، وهو أن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ما ذكره الله من الأجر . ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دقه وجهه . والمراد بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله ، لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان

فقال ^(١) « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » .
ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية . فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ
ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن . ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ، ولم يبق يهودياً ولا نصرانياً
ولا مجوسياً . انتهى .

قال الراغب في تفسيره : تقدم أن الإيمان يستعمل على وجهين : أحدهما الإقرار
بالشهادتين ، الذي يؤمن نفس الإنسان ، وماله عن الإباحة إلا بحق ، وذلك بعد استقرار
هذا الدين مختص به كالإسلام . والثاني تحرى اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه . فقوله

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، ٩ - باب في الإيمان ، حديث رقم ٦٣ (طبعنا) ،
ونصه : عن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ . فجاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد
سواد شعر الرأس ، لا يُرى عليه أثر سفر ، ولا يعرفه منا أحد .
قال : فجلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع يده على فخذه ، ثم قال :
يا محمد ! ما الإسلام ؟ قال « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء
الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » قال : صدقت . فمجبنا منه . يسأله ويصدقه .
ثم قال : يا محمد ! ما الإيمان ؟ قال « أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر
والقدر ، خيره وشره » قال : صدقت . فمجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد !
ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإنك إن لاتراه فإنه يراك » قال : فتي
الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فما أمارتها ؟ قال « أن تلد الأمة
رَبَّتَهَا (قال وكيع : يعنى تلد المعجم العرب) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ،
يتطاولون في البناء » .

قال ثم قال : فلقيني النبي بعد ثلاث فقال « أتدرى من الرجل » ؟ قلت : الله ورسوله
أعلم . قال « ذاك جبريل ، أنا كم يعلمكم معالم دينكم » .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » عني به التدين بدين محمد ﷺ ، وقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ » عني به المتحرى للاعتقاد اليقيني ، فهو غير الأول . ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع ، بين تعالى أن كل من تماطى ديناً من هذه الأديان في وقت شرعه ، وقبل أن ينسخ ، فتحرى في ذلك الاعتقاد اليقيني ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ثم قال : وقول ابن عباس : إن هذا منسوخ بقوله « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »^(١) يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام ، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبي عليه السلام . فأما في وقته ، فالأديان كلها منسوخة بدينه . اهـ . أى فليس مراد ابن عباس ، ومن وافقه ، أنه تعالى كان وعد من عمل صالحاً من اليهود ، ومن ذكر معهم ، على عمله ، في الآخرة ، الجنة ، ثم نسخه بآية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » بل مراده ما ذكره الراغب . وهذا ما لا شبهة فيه . ولذا قال ابن جرير : ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان ، بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » عن جميع ما ذكر في أول الآية .

تنبيه :

ظاهر هذه الآية ، مع تفسير الراغب « مَنْ ءَامَنَ » بالمتحرى للاعتقاد اليقيني ، مما قد يستدل به المنبري لمذهبه . فقد نقل الأصوليون في باب الاجتهاد والتقليد أن المنبري ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب ، حتى في الأصول ، ووافقه الجاحظ . قال الغزالي في المستصفى : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والديورية ، إن كان معانداً على خلاف اعتقاده ، فهو آثم . وإن نظر فمجز عن درك الحق فهو مذمور .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٥] ونصها : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »

وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

غير آثم . وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر ، فهو أيضاً معذور . وإنما الآثم الممذّب ، المماندُ فقط . لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى ، إذ استدل عليهم طريق المعرفة . ثم ردّه الغزاليّ بأدلة سمّية ضرورية ، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره عليه السلام اليهود والنصارى بالإيمان به ، وذهمهم على إصرارهم على عقائدهم ، وذلك لا ينحصر في الكتاب والسنة .

ثم قال الغزاليّ : وأما قوله - أي الجاحظ - : كيف يكلفهم ما لا يطيقون ؟ قلنا : نعلم ضرورة أنه كلفهم ، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون ، فلننظر فيه ، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ، ونصب من الأدلة ، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات ، الذين نبهوا المقول ، وحركوا دواعي النظر ، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل . وقوله « وَالَّذِينَ هَادُوا » أي تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهود ، إذا دخل في اليهودية . وهو هائد ، والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم ، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ، ومن سبى بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب (بالذال المعجمة - فقلبتها العرب دالاً مهملة) .

وقوله تعالى : « وَالنَّصَارَى » جمع نصران ، كنداي جمع ندمان ، يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، والياء في نصرانيّ للمبالغة ، كما في أحمريّ ، سموا بذلك لأنهم نصرخوا المسيح عليه السلام - كذا في الكشف - أو هو جمع نصرانيّ ، مغير عن ناصريّ ، نسبة إلى ناصرة - القرية المعروفة - وقد نسب إليها المسيح عليه السلام ، لأنه ربّي بها . وجاء في الإنجيل « يسوع الناصريّ » . وقوله تعالى « وَالصَّابِئِينَ » جمع صابئ ، ويقال لهم الصابئة . قال ابن جرير : الصابئ هو المستحدث ، سوى دينه ، ديناً ، كالترتد من أهل الإسلام عن دينه . وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب « صابئاً » يقال منه : صبا فلان يصبو صباء ، ويقال : صبات النجوم إذا طلعت . وقد اختلف أهل

التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم ، من أهل الملل . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذي عنى الله بهذا الاسم قوماً لا دين لهم . فمن مجاهد : الصابئون ليسوا يهود ولا نصارى ، ولا دين لهم . وعن ابن زيد : الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي . وعن قتادة : أنهم قوم يعبدون الملائكة . اهـ .

وقال الإمام الشهرستاني ، في الكلام عن الصابئة ما مثاله : والصبوة في مقابلة الحنيفية . وفي اللغة : صبا الرجل إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزينهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . وهم يقولون : الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال . وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين . والصابئة تدعى أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعى أن مذهبها هو الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة . فالصابئة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ولا يقولون بالشريعة والإسلام . فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد . والصابئة الأولى الذين قالوا بماذا يمون وهرمس ، وهامشيت وإدريس ، ولم يقولوا بغيرها من الأنبياء . وهم أصحاب الروحانيات . فيعتقدون أن للعالم صانعاً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يُتَقَرَّبُ إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرًا وفعلًا وحالة . أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، الذين جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ، لا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . قالوا فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم ، منهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب . وأما الفعل ، فقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع وتصريف الأمور من حال إلى حال ، يستمدون القوة من الحضرة الإلهية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية ،

فمنها مدبرات السكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي هياكلها . ولكل روحاني هيكلي ، ولكل هيكلي فلكي ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد ؛ فهو ربه ومدبره . وكانوا يسمون الهياكل أربابا ، وربما يسمونها آباء ، والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية : مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك . ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو مما يصعد من الأرض فينزل ، مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء : مثل الصواعق والشهب ؛ وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ؛ وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبخر ، إلى غير ذلك . قالوا : وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والسرور في جوار رب الأرباب كيف يخفى ؟ هذا ملخص ما أفاده العلامة الشهرستاني في كتاب - اللل والنحل - ثم ساق مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء جرت في المفاضلة بين الروحاني المحض والبشرية النبوية ، وأوردها على شكل سؤال وجواب ، فلتنظر ثم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه - في الرد على المنطقيين - إن حرّان كانت دار هؤلاء الصابئة ، وفيها ولد إبراهيم عليه السلام (أو انتقل إليها من العراق . على اختلاف القولين) وكان بها هيكل الملة الأولى . هيكل العقل الأول ، هيكل النفس السكّية ، هيكل زحل . هيكل المشتري . هيكل المريخ ، هيكل الشمس . وكذلك الزهرة وعطارد والقمر . وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم . ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة

المشركين ، حتى جاء الإسلام . ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة في دولة الإسلام إلى آخر وقت . ومنهم الصابئة الذين كانوا يبعثون وغيرها ، أطباء وكتّاباً ، وبعضهم لم يُسلم . وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور النصرانية . وكانوا يصّلون إلى القطب الشمالي . وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبله إلى القطب الشمالي كان لهؤلاء . فإن الصابئة نوعان : صابئة حنفاء موحدون ، وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أنشئ الله عليهم بهذه الآية . فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً . من هذه الملل الأربع : المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين . فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل ، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل . والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتممين ملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل . وهذا بخلاف المجوس والمشركين ، فإنه ليس فيهم مؤمن . فلماذا قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَتَوْا إِنْ اللَّهُ بِفَصْلٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (١) فذكر الملل الست هؤلاء ، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة . لم يذكر في الست من كان مؤمناً ، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط . ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين . والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين . وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ، ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ، ويقرون بعماد الأبدان ، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أنشئ الله عليهم . ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرّون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرّون بحدوثه . وكذلك المشركون من الهند . وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين ، هو أرسطو . انتهى .

وما قرره الإمام ابن تيمية ، يؤيد ماذهب إليه كثير من المفسرين ، من أن معنى

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

قوله تعالى « مَنْ ءَامَنَ » من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ ، مصداقاً بقلبه بالمبدئ والمعاد ، عاملاً بمقتضى شرعه ، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين . وذهب آخرون إلى أن معنى قوله « مَنْ ءَامَنَ » من أحدث من هذه الطوائف ، إيماناً خالصاً بما ذكر . قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام . وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه ، فلا ملازمة له بالمقام ، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات . فليتأمل .

وقوله تعالى « فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ » أى : الذى وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان ، وهو فى الأصل جُعل العامل على عمله . وفى قوله « عِنْدَ رَبِّهِمْ » مزيد لطف بهم وإيدان بأن أجركم متيقن الثبوت ، مأمون من الفوات . وقوله تعالى « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى حين يخاف الكفار العقاب ويحزنون على تفويت الثواب .

(تنبيه) قال العلامة البقاعى فى تفسيره : وحسنَ وضع هذه الآية ، فى أثناء قصصهم ، أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذكر ممن عداهم . وربما أمروا بقتل النساء أيضاً . فربما ظن من ذلك أن من آمن من غيرهم لا يقبل . وقد ذكر منه فى سورة المائدة ، وفى وضعها أيضاً فى أثناء قصصهم ، إشارة إلى تكذيبهم فى قولهم « لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » (١) وأن المدار فى عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة . وذلك موجود فى نص التوراة فى غير موضع . وفيها تهديدهم على المخالفة فى ذلك بالذل والسكنة . وسيأتى بعض ذلك عند قوله « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » (٢) الآية . بل وفيها ما يقتضى المنع من مال المخالف

- (١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .
- (٢) [٢ / البقرة / ٨٣] ونصها : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ =

في الدين ، فإنه قال في وسط السفر الثاني : وإذا لقيت ثور عدوك أو حماره وعليه حمولة فارددها إليه . وإذا رأيت حمار عدوك جائئاً تحت حملة فهممت أن لا توازره فوازره وساعده . ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » تذكيراً لجناية أخرى لأسلافهم ، أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة ، « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » ترهيباً لكم لتقبلوا الميثاق . وذلك أن الطور اقتلع من أصله ، ورفع وظلّ فوقهم . والطور هو الجبل . وقيل لهم وهو مطلّ فوقهم « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ » من الكتاب « بِقُوَّةٍ » أى بجد واجتهاد ، « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » لكي تتقوا المعاصي ، أو رجاى منكم أن تنتظموا في سلك المتقين ، أو طلباً لذلك . وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الأعراف « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١) .

قال الراغب : إن قيل إن هذا يكون إلهاء ولا يستحق به الثواب ، قيل : لم يستحقوا الثواب بالالتزام وإنما استحقوه بالعمل بها من بعد . فأما في التزامها فمضطرون ، وقال بعض

= إِلَّا اللَّهَ وَبِأَنَّا الدِّينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ . (١) [٧ / الأعراف / ١٧١] .

الناس: عنى بالطور تشديد الأمر عليهم، وجعل ذلك مثلاً . وذلك بعيد . ومثله قول القاشاني: طور الدماغ للتمكن من فهم المعاني وقبولها . فإنه بعيد ياباه ظاهر الآية الأخرى . وإن كان الإطلاق في اللغة لا ينحصر في الحقيقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق « مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد « فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » أى لكم بتوفيقكم للتوبة، أو تأخير العذاب ، « لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الهالكين بالعقوبة .

قال الراغب : الخاسر المطلق ، في القرآن ، هو الذى خسر أعظم ما يقضى ، وذلك نعيم الأبد ، وهو المذكور في قوله « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

وقال القفال : قد يعلم في الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور ، تولوا عن التوراة بأمر كثيرة . فحرفوا كلها عن مواضعه ، وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بهم ، وعصوا أمرهم . ومنها ما عمله أوائلهم ، ومنها ما فعله متأخروهم ، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً ونهاراً يخالفون موسى ويمترضون عليه ، ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك . حتى لقد خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم ، وعوقبوا بالطاعون . وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التى يقرون بها ، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به ، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح ، وهما يقتله .

والقرآن ، وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة ، فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم . فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

(١) [٣٩ / الزمر / ١٥] .

من الكتاب ، وجحدوم لحقه . وحالهم في كتابهم ونيهم ما ذكر . والله أعلم .
ثم ذكّرهم تعالى بالإيقاع بمن نقض ميثاقه وفيما أخذه عليهم من تعظيم السبت بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا » أى تعدوا العدوان « مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ » بأن استحلوه وتحيلوا على اصطيد الحيتان فيه . وذلك أن الله ابتلام ، فما كان يبق حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت ، فإذا مضى تفرقت كما قال « تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ » ^(١) فحفرُوا حياضاً عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم . فتسبب عن اعتدائهم المذكور ما ذكره تعالى بقوله « فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أى صاغرين مطرودين مبعدين من الخير ، أذلاء . وقد روى عن الضحاك وقتادة : أنهم مسخوا قرده ، لها أذنان تماوى ، بمد ما كانوا رجالاً ونساء . وأما مجاهد فقال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قرده . وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . رواه ابن جرير . وهكذا قال القاشاني « كُونُوا قِرَدَةً » أى مشابهين الناس في الصورة وليسوا بهم . ثم قال : والمسوخ بالحقيقة حق غير منكفر في الدنيا والآخرة . وردت به الآيات والأحاديث . وفي أثر : عدّ المسوخ ثلاثة عشر ، وبيان أعمالهم ومعاصيهم وموجبات

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] ونصها : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

مسخهم . والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استمداده ، وتمسكن في طبعه ، وصار صورة ذاتية له ، صار طبعه طبع ذلك الحيوان ، ونفسه نفسه ، فصارت صفته صورته .

وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى « وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » ^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

« فَجَعَلْنَاهَا » أى المسخة والعقوبة « نَكَالًا » عبرة تشكل المعتبر بها ، أى تمنعه وتردعه . ومنه النكل للقيد « لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا » من المعاصي من أهل عالمها الشاهدين لها « وَمَا خَلْفَهَا » ممن جاء بعدهم، أو لأهل تلك القرية وما حوالها، أو لما يحضرتها من القرى وما تباعد عنها « وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » من قومهم ، أو لكل متق سمعها . وأشهر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور ، وأن النقم تقع في غيرهم ، وعظما لهم .

(تنبيه) : أفادت هذه الآية التنويه بشأن يوم السبت عند الإسرائيليين ، إذ مستحلوه منهم مسخوا قرده . وفي ترجمة التوراة ما نصه : وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل ، تحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، من دنسه يقتل ، ومن صنع فيه عملاً يقطع من بين شعبه . في ستة أيام تصنع الأعمال ، وأما اليوم السابع ففيه سبت راحة ، وليحفظ بنو إسرائيل السبت ، وليتخذوه عيداً بأجياهم . لأن الرب خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وفرغ يوم السابع . وفيها أيضاً ما نصه : في ستة أيام تعمل عملك ، وأما اليوم السابع ففيه تستريح ، لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب . انتهى

وقد حرم على اليهود فيه أن يعدوا طعامهم . بل حرم عليهم أن يوقدوا نارا . وفي

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] .

سفر نحميا - في الفصل الثالث عشر - ما نصه : وفي تلك الأيام رأيت في يهوذا قوماً يدوسون في المعاصر في السبت ويأتون بأكداسها يحملونها على الحمير ، ويحضر أيضاً ، وعذب وتين ، وكل حمل مما كانوا يأتون به إلى أورشليم في يوم السبت . فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسّمك . وكل نوع من المبيعات ، ويبيعون في يوم السبت لبني يهوذا وفي أورشليم . فخاصمت عظماء يهوذا ، وقلت لهم : ما هذا الشر الذي تفعلونه وتدنسون يوم السبت ؟ ألم تفعل آباؤكم هكذا ؟ فاجلب إلينا كل هذا الشر علينا وعلى هذه المدينة ، وأنتم تزيدون الغضب على بني إسرائيل بتدنيسكم السبت ، إلى آخره . ولما بين تعالى قساوتهم في حقوقه العلية ، أتبعه ببيان قساوتهم في مصالح أنفسهم توبيخاً لأخلافهم . مع الإشارة إلى نعمته عليهم في خرق العادة في شأن البقرة ، وبيان من هو القاتل بسببها ، وإحياء الله تعالى المقتول ، ونصه على من قتله منهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ » بنى إسرائيل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنه وجد قتيل فيهم ، وكانوا يطالبون بدمه ، فأمرهم الله بذبح بقرة وأن يضربوه بيمضها ليحيى ويخبر بقاتله « قَالُوا » استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فإذا صنعوا ؟ هل سارعوا إلى الامتثال أو لا . فقيل « قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا » بضم الزاى وقلب الهمزة واوا ، وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون . أى أجمعلنا مكان هُزُؤٍ ، أو أهل هُزُؤٍ ، أو مهزؤاً بنا ، أو نفس الهزؤ ، للمبالغة . وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم ، إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقدموا لها . « قَالَ » استئناف كما سبق « أَعُوذُ بِاللَّهِ »

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» لَأَن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله، سبحانه، جهل وسفه. نفى عنه، عليه السلام، ما توهموه من قبليه على أبلغ وجه، وآكده، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه، استفظاعاً له، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه، عليه السلام، بها. والموذ: اللجأ من متخوِّف لكافٍ يكفيه. والجهل: التقدم في الأمور بغير علم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

« قَالُوا » تمادياً في الغلظة « ادْعُ لَنَا » أى لأجلنا « رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » ما حالها، وصفها. وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيى. فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن، الخارجة عما عليه البقر، و « ما » وإن شاعت في طلب مفهوم الحقيقة، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال. تقول: ما زيد؟ فيقال: طيب أو عالم. « قَالَ » أى موسى عليه السلام، بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان، وأتاه الوحي. « إِنَّهُ » تعالى « يَقُولُ إِنَّهَا » أى البقرة المأمور بذبحها « بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ » أى لا مستنة. وقد فرضت فروضا، فهي فارض، أى أسنت. من الفرض بمعنى القطع. كأنها قطعت سنّها وبلغت آخرها. « وَلَا بَكْرٌ » أى لا فتية صغيرة لم يُلَقَّحْها الفحل. « عَوَانٌ » أى نصف « بَيْنَ ذَلِكَ » أى سِنَى الفارض والبكر « فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ » هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به. وفيه حث على الامتثال، وزجر عن المراجعة. ومع ذلك لم يفعلوا، بل سألوا بيان اللون بعد بيان السنّ بأن :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْثُهَا » شديد الصفرة ، يقال في التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر قاني ، وأخضر ناضر ومدهام . وفي إسناد الفقوع إلى اللون - مع كونه من أحوال اللون للابسته به - ما لا يخفى من فضل تأكيد . كأنه قيل : صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما في : جدّ جدّه . « تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » أي تبهج نفوسهم .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة لا كتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . وقد رواه غير واحد عن ابن عباس ، ورفع ابن جرير والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا

وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » زيادة استكشاف عن حالها لتمييز عما يشار إليها في التعمين والصفرة . ولذلك عللوا تكرير سؤالهم بقولهم « إِنَّ الْبَقَرَ » الموصوف بما تقدم « تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لكثرة ، أي اشتبه علينا أيها نذبح . قال البقاعي : وذكر الفعل ، لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحده ، فإن العرب تذكره . نقل عن سيويه . « وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » إلى البقرة المراد ذبحها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ

مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ » . أى

لم تذلل لإثارة الأرض وسقى الحرث . و«لا ذلول» صفة لبقرة . بمعنى غير ذلول . و«لا» الأولى للنفى ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى . لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى ، على أن الفعلين صفتان للذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية ، والمقصود : إنها مكرومة ليست مذلة بالحرارة ، ولا مُمدة للسقى فى السانية . « مُسَلَّمَةٌ » ، سلمها الله من العيوب ، أو معفاة من العمل ، سلمها أهلها منه ، أو مخلصه اللون لم يشب صفرتها شئاً من الألوان . من : سلم له كذا ، إذا خلص له « لَا شِيَةَ فِيهَا » ، أى لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة ، فهى صفراء كلها ، وهى فى الأصل مصدر : وشاء وشيا وشية ، إذا خلط بولونه لوناً آخر . فى الصحاح : الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله . والجمع : شيات . يقال : ثور أشية ، كما يقال : فرس أبلق . « قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ، ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلاً . بخلاف المرتين الأوليين ، فإن ما جئت به فيهما لم يكن فى التمييز بهذه المرتبة « فَذَبَحُوهَا » ، الفاء فصيحة ، كما فى « فانفجرت » ، أى فحصلوا البقرة فذبحوها « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » كاد من أفعال المقاربة ، وضع لدنو الخبر من الحصول ، والجملة حال من ضمير ذبحوها ، أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمنزل منه . اعتراض تذييل . وما له استثقال استقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط إسهابهم فيها .

(تنبيه) قال الراغب : قال بعض الناس : فى هذه الآية دلالة على نسخ الشئ قبل

فعله . فإن في الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أى بقرة شاؤا . وفي الثانى والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة . فكانهم نهوا عما كانوا أمروا به من قبل . وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثانى والثالث كالبيان له ، لما راجعوا . ولم يسقط عنهم ذبح البقرة . بل زيد فى أوصافها وكشف عن المراد بالأمر الأول . وفى الآية دلالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا » أى اختلفتم واختصمتم فى شأنها ، إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر « وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » مظهر ، لا محالة ، ما كنتم من أمر القتل ، لا يتركه مكتوما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعْضِهِ ، كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى)

وَيُزَيِّرُكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ » أى المقتول « بِيَعْضِهِ » أى البقرة . يعنى فضر به فخي وأخبر بقاتله . كما دل عليه قوله « كَذَلِكَ » أى مثل هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة « يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى » يوم القيامة « وَيُزَيِّرُكُمْ ءَايَاتِهِ » أى دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير . ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتراكه على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت ، وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل ، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره ، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى .

قال الراغب: وقوله « كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْتَى » قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه ، وقيل بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة ، تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى .

تنبيهات :

(الأول) قال الزمخشري : (فإن قلت) فما للقصة لم نقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتل والضرب بيمض البقرة على الأمر بذبحها ؟ فيقال : وإذ قتلت أنفساً فادارأتهم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه بيمضها ؟

(أجيب) بأن كل ما قص من قصص بني إسرائيل ، إنما قص تعدداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريماً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدثين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في نشية التقريع . ولقد روعيت نكتة ، بعد ما استؤنفت الثانية ، استئناف قصة رأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادها بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : اضربوه بيمضها ، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها . وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة . اهـ

وقال الحرالي : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر نذائهم في القتل ، ابتداء بأشرف القاصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة . والله أعلم .

(التنبيه الثاني) قال الراغب : قد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه ، وأنكر

حصول ذلك الفعل على الحقيقة وقال : ذلك ممتنع من حيث الطبيعة ، وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلهية . فأما استبماده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبماد للإحياء والنشور ، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير . ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه فى تفسير القرآن . وأما الحكمة فيه فظاهرة إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للمقول . وأما تخصيص البقرة ، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه . ولو لم يكن فى تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلا توافر المأمورين بذلك على طلبها ، واستيجاب الثواب فى بذل ثمنها ، وجلب نفع توفّر إلى صاحبها - لكان فى ذلك حكمة عظيمة . وفى الآية تنبيه على أن الجماعة التى حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم وإن كان واقعاً من بعضهم ، ولا يكون ذلك كذباً . كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها .

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبي ﷺ ، ولا يتعلق به كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يجرى من طريق صحيح عن معصوم بيانه . فنحن نهمه كما أبهمه الله تعالى ، إذ ليس فى تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية . وإن كان معينا فى نفس الأمر ، وأياً كان فالمعجزة حاصلة به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » المخاطبون إما أهل الكتاب الذين كانوا فى زمنه ﷺ ، أى اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التى جاءت أوائلكم ، والأمور التى جرت عليهم ، والعقاب الذى نزل عن أصرّ على المعصية منهم ، والآيات التى

جاءهم بها أنبياءهم ، والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم ، وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم . فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تليق عندها القلوب . وهذا أولى . لأن قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ » ، خطاب مشافهة . فحمله على الحاضرين أولى . وإما أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصاً ، أو من قبل المخاطبين من سلفهم . والله أعلم . « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » في القساوة « أَوْ أَشَدُّ » منها « قَسَوَةً » أى هي في القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها . و « أَوْ » للتخيير أو للتريد . بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد . أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة ، وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ » أى يتفتح بالسمّة والكثرة « مِنْهُ الْأَنْهَارُ » بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة في القساوة وعدم التأثر بالمعظّات والقوارع التي تبيع منها الجبال وتلين بها الصخور ، يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ » أى ينشقق « فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ » أى العيون التي هي دون الأنهار « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى يتردى من رأس الجبل من خشية الله ، انقياداً لما سخره له من الميل إلى المركز بالسلاسة ، قاله القاشاني .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الاستدلال بظاهر الآية على خلق التمييز في الجماد حتى يخشى ويسبح . والمحققون على أن هذه الآية وأمثالها من المجاز البليغ . وأن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة . لا سيما وأن المجاز أكثر في اللسان منها ، كما بسط في مطولات البيان .

وقد رد الإمام ابن حزم ، في أول كتابه « الفصل » على من زعم أن للحيوان والجماد تمييزاً ، ردّاً مسهباً . وقال : من ادعى ذلك أكذبه العيان . ثم استثنى ما كان معجزة للأنبياء عليهم السلام .

(قال) ولعل معترضاً يعترض بقوله تعالى يصف الحجارة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ »

خَشِيَةَ اللَّهِ ، فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بمقل ولا بمثل إليها نبي . فإذا لا شك في هذا ، فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الضمير في قوله تعالى « وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَحْطِ » راجع إلى القلوب المذكورة في أول الآية في قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى ، وهذا أمر يشاهد بالعيان ، فقد تلى القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصي . وقد أخبر عز وجل : « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ » ^(١) ، وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن بالله ^(٢) من بعد أن أخبر أن « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » ^(٣) . (قال) فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة . والوجه الثاني أن الخشية المذكورة في الآية إنما هي التصرف بحكم الله تعالى وجرى أقداره ، كما قلنا في قوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » ^(٤) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٩ / التوبة / ٩٩] ونصها : وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٩٧] ونصها : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

والوجه الثالث أن يكون الله تعالى عنى بقوله « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » الجبل الذى صار دكا، إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كلمه عليه السلام الرؤيه ، فذلك الجبل بلاشك من جملة الحجارة ، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى ، وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعیه فى ذلك الجبل خاصة . ويكون « يهبط » بمعنى « هبط » كقوله تعالى « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »^(١) معناه : وإذ مكر ، وبين قوله تعالى ، مصدقا إبراهيم خليله ﷺ فى إنكاره على أبيه عبادة الحجارة « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ »^(٢) وقوله تعالى « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ »^(٣) فصح بهذا، صحة لا مجال للشك فيها ، أن الحجارة لا تمقل . وإذ يتقن ذلك بالنص وبالضرورة والمشاهدة فقد انتفى عنها النطق والتميز والخشية ، المهود كل ذلك عندنا . وأما الأحاديث المأثورة فى أن الحجر له لسان وشفطان ، والسكبة كذلك ، وأن الجبال تطاولت ، وخشع جبل كذا ، فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف ، لا يصح منها شيء من طريق الإسناد أصلا . ويكفى من التطويل فى ذلك أنه لم يُدْخِلْ شيئا منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث ، أو ما يستجاز روايته ، مما يقارب الصحة (انتهى كلام ابن حزم) .

وقال ابن جرير : اختلف أهل النحو فى معنى المهبوط - ما هبط من الأحجار من خشية الله - فقال بعضهم : إن هبوط ما هبط منها من خشية الله تفيق ظلاله . وقال آخرون : ذلك الجبل الذى صار دكا إذ تجلى له ربه . وقال آخرون : قوله « يَلْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠] ونصها : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٣] .

كقوله « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ »^(١) ولا إرادة له . قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله بِرَى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله . قال زيد الخيل :
يَجْمَعُ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ مِنْهُ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ^(٢)
وكما قال سويد بن أبي كاهل، يصف عدوًّا له :
سَاجِدَ الْمَخْرِ لَا يَرْفَعُهُ خَاشِعَ الطَّرْفِ أَمَمٌ الْمُسْتَمِعِ^(٣)
يريد أنه ذليل .

(١) [١٨ / الكهف / ٧٧] ونصها : فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .
(٢) قال السيد محمود محمد شاكر في تعليقه على هذا البيت في تفسير ابن جرير (١٠٤/٢) ما يأتي :

البلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين . والحجرات جمع حَجْرَة : الناحية . والأكْم (وأصلها بضمّتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهي تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة .

قال ابن قتيبة في المعاني الكبير « يقول إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أخرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكْم قد خشعت من وقع الخوافر . والباء في (بجمع) متملقة ببيت سالف هو :

بنى عامر ، هل تعرفون إذا غدا أبو مِكَتَفٍ قد شدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ
(٣) وقال أيضاً (٢٤٢/٢) ما يأتي :

يقول : أذَلَّهُ فطأطأ رأسه خزيا ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصمّ لا يسمع ما يقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حيّ قائم ، لا يبحر جوابا . ولذلك قال بعده :
فَرَّ مِنْ هَارِبًا شَيْطَانُهُ حَيْثُ لَا يُعْطَى ، وَلَا شَيْئًا مَنَعَ

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خَبْرُ الزَّيْبِرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ^(١)

وقال آخرون : معنى قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل : ناقة تاجرة إذا كانت ، من نجابتها وفراحتها ، تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

وَأَعْوَرُ مِنْ نَبْهَانٍ ، أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ^(٢)

فجمل الصفة ليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهاني الذي يهجو . من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به . ثم اختار ابن جرير ما يقتضيه ظاهر الآية . وتقدم رد ابن حزم له مبرهنا عليه .

(١) وقال أيضاً (١٧/٢) ما يأتي :

استشهد به سيبويه على أن تاء التانيث جاءت للفعل لما أضاف (سور) إلى مؤنث وهو (المدينة) وهو بعض منها .

قال سيبويه : وربما قالوا في بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنت البمض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال « ذهبت عبد أمك » لم يحسن .

وهذا البيت يعبر به الفرزدق بالفندر ويهجو . فإن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بني مجاشع (رهط الفرزدق) فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها « خشع » يريد : عند موته خشمت وطأطأت من هول المصيبة في حوارى رسول الله ﷺ ، ومن قبج مالتى من غدر بني مجاشع .

(٢) وقال أيضاً (٣١٧/١) ما يأتي :

كان الأعور النبهاني هجا جريرا . فأكله جرير . قال أبو عبيدة « أى هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزنى » .

ثم رأيت الإمام الراغب حاول هنا تقريب ما نقل من الوقوف على ظاهرها بتأويله .
وعبارته : قال مجاهد وابن جريج : كل حجر تردى من رأس جبل نخشية الله نزلت به ، وقال
الزجاج : الهابط منها قد جعل له معرفة ، قال ويدل على ذلك قوله « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »^(١) وقال « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ
لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »^(٢) إلى قوله « وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالْدَوَابُّ »^(٣) وقد روى مثل هذا عن السلف ، ولا بد في معرفة ذلك من مقدمة تكشف
عن وجه هذا القول ، وحقيقته . فإن قوماً استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو ، فانطوا
على شبهة . وقوماً استبعدوا ذلك واستخفوا عقل رواته وقائله ، فيقال وبالله التوفيق : إن
قوماً من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب : الأول المعرفة التامة التي هي العلم
التام . وذلك لعلام الغيوب الذي أحاط بكل شيء علماً . والثاني معرفة مترايدة ، وهي
للإنسان . وذاك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية . وجعل له بذلك سبيلاً إلى تعرف كثير
مما لم يعرفه . وليس ذلك إلا للإنسان . والثالث معرفة دون ذلك ، وهي معرفة الحيوانات
التي سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسمي إليها . واستردال أشياء هي ضارة لها وتجنبها ،
ودفع مضار عن أنفسها . والرابع : معرفة الناميات من الأشجار والنبات ، وهي دون
ما للحيوانات ، وليس ذلك إلا في استجلاب المنافع وما ينميها . والخامس : معرفة العناصر .
فإن كل واحد منها مسخر لأن يشغل المكان المختص به كالحجر في طلب السفلى ، والنار في

(١) [٥٩ / الحشر / ٢١] .

(٢) [٢٢ / الحج / ١٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ
النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يَشَاءُ .

طلب المآل ، وذلك بتسخير الله تعالى ، بلا اختيار منه . قالوا : والدلالة على ذلك أن كل واحد من هذه العناصر إذا نقل من مركزه قهراً ، أبى إلا العود إليه طوعاً . قالوا ويوضح ذلك أن السراج يجتذب الأدهان التي تبقية . وبأبى الماء الذي يطفية . وأن المغناطيس يجرح الحديد ولا يجرح غيره . هذا ما حكوه .

فعلى هذا إذا قيل : لهذه الأشياء معرفة ، فليس ببعيد ، متى سلم لهم أن هذه القوى تسمى معرفة . فأما إذا قيل إن للجادات معارف الإنسان في أنها تميز وتختار وتريد ، فهذا مما تعافه العقول . (انتهى قول الراغب) .

وهو تأويل حسن ، ومبناه على أن اصطلاح السلف في كثير من الإطلاقات غير اصطلاحات الخلف . وهو مسلم في كثير من الإطلاقات .

وقوله تعالى « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد . ولما بين سبحانه وتعالى قساوة قلوبهم ، تسبب عن ذلك بعدهم عن الإيمان ، قالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم تسلية للنبي ﷺ عما كان يشدد حرصه عليه من طلب إيمانهم في معرض التنسكيت عليهم ، والتبكيث لهم ، منكرراً للطمع في إيمانهم فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَفَتَطْمَعُونَ » أيها المؤمنون بعد أن علمتم تفاصيل شؤون أسلافهم المؤيسة عنهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أي هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم وهم متماثلون في الأخلاق الذميمة ، لا يأتي من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم ، (واللام في قوله) « لَكُمْ » لتضمين

معنى الاستجابة . كما في قوله عز وجل « فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ »^(١) أى في إيمانهم مستجيبين
لحكم . أو للتعميل أى في أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ »
أى طائفة فيمن سلف منهم « يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ » وهو ما يتأولونه من التوراة « ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ » قال ابن كثير : أى يتأولونه على غير تأويله . وقال ابن جرير : يعنى بقوله
« يُحَرِّفُونَهُ » يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه ، وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو
ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله « يُحَرِّفُونَهُ » أى يميلونه عن وجهه ، ومعناه الذى
هو معناه ، إلى غيره . « مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ » أى فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على
بصيرة « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

قال ابن جرير : هذا إخبار عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة له ولرسوله
موسى عليه السلام . وأن بقاياهم في العصر الحمدي على مثل ما كان عليه أوائلهم في العصر
الموسوي بغياً وحسداً . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »^(٢) والظاهر أن المراد ، بالفريق منهم ،
أخبارهم ، وإعما فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى ، من بعد ، في قوله
تعالى « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا »^(٣) وقال « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »^(٤) .

(١) [٢٩ / المنكبات / ٢٦] ونصها : فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ . وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى
رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٥ / البائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ
قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَيُبْسِ مَا يَشْتَرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٦] ونصها : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ =

ولقائل أن يقول ، كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان
الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافي إقرار الباقين . وأجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن
يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم إنما يأخذون دينهم ، ويتملونه من قوم هم يتممدون
التحريف عناداً ، فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيره عن وجهه ، والمفردة لا يقبلون
إلا ذلك ، ولا يلتفتون إلى أقوال أهل الحق ، وهو قولك للرجل كيف تغلح ، وأستاذك
فلان ؟ أى وأنت عنه تأخذ ، ولا تأخذ عن غيره .

وتحويه قول الراغب : لما كان الإيمان هو العلم الحقيقي مع العمل بمقتضاه ، فمتى لم يتحر
ذلك من حصل له بعض المعلوم ، لتحقيق أن لا يحصل لمن غيبي عن كل المعلوم . فذكر ذلك
تبعيداً لإيمانهم لا يأساً للحكم بذلك ، إذ ليس كل ما لا يطمع فيه كان مأبوساً (ثم قال
الراغب) وفي الآية تنبيه أن ليس المانع للإنسان من تحرى الإيمان الجهل به فقط ، بل
يكون عناداً وغلبة شهوة .

(تنبيه) ما نقلناه عن ابن جرير وابن كثير في تفسير « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » هو الأنسب
باعتبار سوق الآية السكريمة ، ولا يقوم من ذلك دفع تحريفهم اللفظي عن التواتر ، فإنه
واقع بلا ريب ، فقد بدلوا بعضاً منها وحرفوا لفظه ، وأوتوا بعضاً منها بغير المراد منه ،
وكذا يقال في الإنجيل . ويشهد لذلك كلام أحبارهم ، فقد نقل العلامة الجليل الشيخ رحمة
الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) : أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً ، عادتهم جارية
بأنهم يترجمون غالباً الأسماء في تراجمهم ، ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ
للفساد ، وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام ، الذي هو كلام الله في زعمهم ،

= أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور المادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة باللسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . ثم ساق بعضاً منها فانظره .

وفي ذخيرة الألباب ، لأحد علماء النصارى ، ما مثاله : إن بمضهم ذهب إلى أن الروح القدس لم يبق الكتبة عثرة الخطأ الطفيف ، ولا كفاهم زلة القدم حتى لم يستحلّ أنهم خلطوا البشرى بالإنجيليات . وفيه أيضاً : إن بين النسخة العبرانية والسامرية واليونانية من الأسفار الخمسة خلافاً عظيماً في أمر التاريخ . فإذا تحريف الأسفار الخمسة أمر بين . وفيه أيضاً في الفصل (٣١) : أن بعض علمائهم زعم أنه وجد في الترجمة اللاتينية العامة للمهدين العتيق والجديد نيفاً وأربعة آلاف غلطة ، ورأى آخر فيها ما يزيد على الثمانية آلاف خطأ . انتهى . فثبت من شهادتهم وقوع التحريف اللفظي فيها . وهو المقصود .

وأما القول بتحريف الأسفار كلها أو جلها ، فهو إفراط . قال الحافظ ابن حجر في أواخر شرح الصحيح في باب قول الله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » (١) : إن القول بأنها بدلت كلها مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » (٢) الآية . ومن ذلك

(١) [٨٥ / البروج / ٢١] .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

قصة رجم اليهوديين^(١) وفيه وجود آية الرجم ويؤيده قوله تعالى « قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٢). وقد أسلفنا تنمة هذا البحث في مقدمة التفسير في الكلام على الإسرائيليات . فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى ، عن تخلق أولئك المايوس من إيمانهم من اليهود بأخلاق المنافقين وسلوكهم منهاجهم ، بقوله تعالى :

- (١) أخرجه البخارى في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٦ - باب قول الله تعالى : يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يملكون .
- عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا . فوضع أحدهم يده على آية الرجم . فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك .
- فرفع يده فإذا فيها آية الرجم .
- فقالوا : صدق ، يا محمد ، فيها آية الرجم .
- فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما .
- قال عبد الله : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقبها الحجارة .
- (٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] ونصها : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْصُمِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)
« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله من أصحاب النبي ﷺ « قَالُوا ءَامَنَّا »
أى بأنكم على الحق ، وأن محمداً هو الرسول المبشر به ، وكأنهم يقولون ذلك لإرضاء لحلفائهم
من الأوس والخزرج ، أو جهراً بحقيقة لا يسمعونهم ، أمام حلفائهم ، السكوت عنها . « وَإِذَا
خَلَا بِمَعْصُمِهِمْ » يعنى الذين لم ينافقوا « إِلَىٰ بَعْضٍ » أى الذين نافقوا « قَالُوا » أى عاتبين
عليهم « أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » أى بما بين لكم فى التوراة من البشارة
بالنبي ﷺ ، والإيمان بالنبي الذى يجيئكم مصداقاً لما معكم ، ونصره .

قال ابن إسحق : أى أتقرّون بأنه نبيّ ، وقد علمتم أنه أخذ له الميثاق عليكم باتّباعه ،
وهو يخبرهم أنه النبيّ الذى نجاه فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا به .

قال ابن جرير : أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم . والمعنى : أتحدّثونهم بما
حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ، ما أخذ به ميثاقهم من
الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به فى التوراة . اهـ .

« لِيُحَاجُّوكُمْ » متعلقة بالتحديث ، دون الفتح ، أى ليقم المؤمنون به عليكم الحجة
« بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى لتكون الحجة للمؤمنين عليكم فى الآخرة ، فيقولون : ألم تحدّثونا
بما فى كتابكم ، فى الدنيا ، من حقّة ديننا ، وصدق نبينا ؟ فيكون ذلك زائداً فى ظهور
فضيحتكم ، وتوبيخكم على رؤوس الخلائق ، فى الموقف . لأنه ليس من اعترف بالحق ،
ثم كتم ، كمن ثبت على الإنكار .

وتأول الراغب الأصفهانيّ قوله تعالى « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى فى حكمه وكتابه ، كما هو
وجه فى آية « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »^(١) أى فى

(١) [٢٤ / النور / ١٣] وأولها : أَوْلَا جَاؤَا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ،

حكم الله وقضائه ، وهو وجه جيد . وقوله « أَفَلَا تَعْلَمُونَ » من تمام التوبيخ والعتاب ، فهو من جملة الحكاية عنهم على سبيل إنكار بضمهم على بعض . قال الراغب : ويصح أن تكون استثناء إنكار من الله عز وجل ، على سبيل ما يسمى في البلاغة « الالتفات » . ويصح أن يكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، تنبيهاً على ما يفعله الكفار والمنافقون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى يخفون من قولهم لأصحابهم ، ومن غيره « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يظهرون من ذلك ، فيخبر به أوليائه . قال الراغب : هذا تبيكيت لهم ، وإنكار لما يتعاطونه ، مع علمهم بأن الله لا يخفى عليه خافية . ولما ذكر العلماء من اليهود الذين عاندوا بالتحريف ، مع العلم والاستيقان ، ذكر العوام الذين قلدوهم ، ونبه على أنهم في الضلال سواء . لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العوام أن لا يرضى بالتقليد والظن ، وهو متمكن من العلم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ » أى لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة ، فبؤمنوا . « لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ » أى التوراة ، أى لا يدرون ما فيها من حدود وأحكام وموانيق « إِلَّا أَمَانِيَّ » بالتشديد جمع أمنية ، أصلها أَمْنُوِيَّة « أَفْعُولَةٌ » فَأَعْلَتْ إعلال سيد ، وميت . مأخوذة من تمنى الشيء : قدره وأحب أن يصير إليه . أو من تمنى : كذب . أو من تمنى الكتاب : قرأه . وعلى كل فلاستثناء منقطع ، إذ ليس ما يتمنى ، وما يُختلق وما يُتلى ، من جنس علم الكتاب . أى لا يعلمون الكتاب . لكن يتمنون

أمانى حسبما منتهم أخبارهم من أن الله سبحانه يعمو عنهم . وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . وغير ذلك من أمانتهم الفارغة . المستندة إلى الكتاب ، على زعم رؤسائهم . أولا يعلمون الكتاب ، لكن أكاذيب مختلفة سموها من علمائهم . فتقبلوها على التقليد . أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم . فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر والتأمل فيه .

قال ابن جرير : وأولى ما رويناه في تأويل قوله « إلامانى » أن هؤلاء الأميين لا يفقهون ، من الكتاب الذى أنزله الله ، شيئا . ولكنهم يتخرسون الكذب ويتقوتلون الأباطيل كذبا وزورا . والتمنى فى هذا الموضع هو تخلى الكذب وتخرسه وافتعاله . بدليل قوله تعالى بعد « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا منهم ، لا يقينا .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : حمله على تمنى القلب أولى . بدليل قوله تعالى « وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ »^(١) أى تمنىهم . وقال الله تعالى « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »^(٢) وقال « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ »^(١) ، « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »^(٣) بمعنى يقدرون ويخرسون . ورجح كثيرون حمله على القراءة ، كقوله تعالى

(١) [٢ / البقرة / ١١١] .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٣] ونصها : لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

« إِذَا تَمَنَّى أَلْتَمِئَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » ^(١) إذ في الاستثناء ، حينئذ ، نوع تعلق بما قبله . فيكون أليق في طريقة الاستثناء . و « إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم . فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ؟

(تنبيه) قال الراغب : قد أنبأ الله عن جهل الأميين وذمهم والمبالغة في ذم علمائهم وأخبارهم . فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة . واعتمدوا على زعمائهم وأخبارهم . وهم قد ضلوا وأضلوا . ونهينا الله تعالى بدم الأميين ، على اكتساب المعارف لثلاثيحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه . وبدم زعمائهم ، على تحريص الصدق وتجنب الإضلال . إذ هو أعظم من الضلال اهـ

ولما بين حال هؤلاء في تمسكهم بحبال الأمان واتباع الظن ، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم في تلك الورطة ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل .. فقليل على وجه الدعاء عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

« فَوَيْلٌ » فإن أضيف ، نُصِبَ . نحو : ويلك وويلحك - وإذا فُصِّلَ عن الإضافة ،

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْتَمِئَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

رفع . نحو : ويلٌ له . الويل : الهلاك وشدة العذاب « لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ » أى
المحرّف . أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة « بِأَيْدِيهِمْ » تأكيد لدفع توهم المجاز . كقولك :
كتبته بيمينى . وقد يقال فى مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة فى النفس كما وقعت حتى يكاد
السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة « ثُمَّ يَقُولُونَ » لما كتبوه ، كذباً وبهتاناً « هَذَا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ » أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى عَرَضًا يسيراً .
ويجوز فى الآية معنى آخر . أى : فويلٌ للذين يكتبون كتاب التوراة بأيديهم ثم يقولون :
هذا من عند الله ، فيشهدون بذلك . وكان من مقتضى كتابتهم بأيديهم التى تفهم من
الكتاب على ما لا يفهم عليه ، لو كان كتابةً غيرهم ، ومقتضى قولهم وإقرارهم بأنه من
عند الله - الوقوفُ مع عهوده ومواثيقه ، إجلالاً لمُنزِلِهِ ومُوحِيهِ ، ودعوى الناس إلى ظواهره
وخوافيه . ولكن لم يكن ذلك منهم . بل كان أن حرّفوا كلمة عن مواضعه ليشتروا به ثَمَنًا
قليلًا . وحاصل هذا الوجه إبقاء الكتاب المكتوب على أصله ، وصدقهم فى قولهم : هذا من
عند الله . ثم مخالفتهم لذلك . فيكون قوله تعالى « لِيَشْتَرُوا بِهِ » تعليلًا لمُحذوف دل عليه
السياق . أى ثم بعد ذلك يحرفونه ليشتروا به . وهو وجه جيد يوافق آية « يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » وربما يشير إلى هذا الوجه قول مجاهد فيما رواه ابن جرير : هؤلاء
الذين عرفوا أنه من عند الله يحرفونه « قَوْلٌ لَهُمْ » كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ » أى : فشدّة
العذاب لهم مما غيرت أيديهم « وَوَيْلٌ لَهُمْ » كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ » يصيبون من الحرام والسحت .
قال الراغب : إن قيل : لم ذكر « يَكْتُمُونَ » بلفظ المستقبل و « كُتِبَتْ »
بلفظ الماضي ؟ قيل : تنبيهاً على ما قال النبي ﷺ (١) « من سنّ سنة سيئة فعلية وزرها

(١) أخرجه مسلم عن جرير فى : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ١٥ ونصه : « من سنّ
فى الإسلام سنة حسنة ، فعمل بها بعده ، كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقصُ من
أجورهم شيء . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، فعمل بها بعده ، كُتِبَ عليه وزر من
عمل بها ، ولا ينقصُ من أوزارهم شيء » .

ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فنبه بالآية أن ما أصْلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التي يعتمد عليها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالاً فحالاً (إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول (قيل) لما كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه ، إذ هو كذب باللسان واليد ، صار أبلغ . لأن كلام اليد يبقى رسمه والقول يضمحل أثره . (إن قيل) : ما الذي كانوا يكتبونه ؟ (قيل) : روى عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبي ﷺ . ثم يقولون هذا من عند الله . وهذا فصل يحتاج إلى فضل شرح . وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بوصفٍ لنبي بعده ، فإنه أتى بلفظة معرّضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم . وقد قال العلماء : ما انفك كتابٌ منزل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ . لكن بإشارات . ولو كان ذلك متجلياً للعوام لما عوتب علماؤهم في كتابته . ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان : من العبراني إلى السرياني إلى العربي . وقد ذكر المحصلة ألفاظاً من التوراة والإنجيل ، إذا اعتبرت وجدت دالة على صحة نبوة محمد ﷺ بتعريض . هو عند الراسخين في العلم جليّ وعند العامة خفيّ . فبان بهذه الجملة أن ما كتبت أيديهم كانت تأويلات محرّفة . وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه ، وتبديل آياته ، وكتبان الحق عن أهله ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، طمعا في عَرْض الدنيا . وقد تقدم أنه عني بالثمن القليل ، أعراض الدنيا وإن كثرت . لقوله تعالى « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » (١)

اه كلام الراغب رحمه الله .

(١) [٤ / النساء / ٧٧] ونصها : . . . قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا

فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » بيان لبعض آخر من جناباتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار في الآخرة إلا مدة يسيرة . ومرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها . لأن كل معدود منقضى . قال مجاهد : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة . فإنما نعدّ ، مكان كل ألف سنة ، يوماً . ثم ينقطع العذاب . وروى ذلك عن ابن عباس . وعنه أن اليهود قالوا : لن ندخل النار إلا الأيام التي عبدنا فيها المجل ، أربعين ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب . ثم بين تعالى إفكهم . لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك ، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى ، وهو منتف . فقال سبحانه « قُلْ » منكرًا لقولهم ومو بئخا لهم « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » أى عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار « فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ » أى فتقولوا لن يخلف الله عهده . وجعل بعضهم الفاء فصيحة مُعْرِبة عن شرط مقدر . أى : إن كان الأمر كذلك فلن يخلفه « أَمْ تَقُولُونَ » أى : أم لم يكن ذلك فأنتم تقولون مفترين « عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى وقوعه جهلا وجراءة . وقولهم المحكى ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه ، لكنه مستلزم له . لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ،

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« بَلَىٰ » إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ » أى بلى تمسكم أبدا . بدليل قوله « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ، « مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » أى عملها وهى والسى

عملان قبيحان. أصلها سيوءة. من : ساءه يسوه. فَأَعْلَتْ إِعْلَالَ سِيد . ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار ، بل لا بد أن يكون سببه محيطا به فقال « وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » أى غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة . وسدت عليه مسالك النجاة . بأن عمل مثل عملكم أيها اليهود . وكفر بما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله من حسنة « فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود في النار إنما هو للكفار والمشركين . لما ثبت في السنة ، تواتراً ، من خروج عصاة الموحدين من النار . فيتمين تفسير السيئة والخطيئة ، في هذه الآية ، بالكفر والشرك . ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ،

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية في الوعيد إلا ويتلوها آية في الوعد . وذلك لفوائد منها ، ليظهر بذلك عدله سبحانه . لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان . ومنها ، أن المؤمن لا بد وأن يمتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها ، أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكيمته ، فيصير ذلك سبباً للمعرفان .

وقد قدمنا عند قوله تعالى « وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ^(١) أن السلف أجمعوا على أن الإيمان قول وعمل . فإذا عطف عليه العمل ، فيما أن يكون من عطف الخاص على العام . أو يقال : لم يدخل فيه ولكن مع العطف . كما في اسم الفقير والمسكين . فتذكر .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] .

قال الراغب : في هذه الآية دليل على أن قوله تعالى من قبل « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » هو الكفر . وإحاطة الخطيئة به ، الأعمال السيئة ، وذلك لما قابله به من الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم شرع ، سبحانه ، يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ» ثم بين الميثاق بقوله تعالى «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» وهو إخبار في معنى النهي ، كقوله تعالى «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ»^(١) وكما نقول : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي . وقد بدى بأعلى الحقوق وأعظمها . وهو حق الله تبارك وتعالى ، أن يُعْبَدَ وحده ولا يشرك بها شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه . ولذلك خلقهم . كما قال تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»^(٢) . وقال تعالى «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»^(٣) . «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» والإحسان نهاية البر ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : ... وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين . حتى قرن تعالى الأمر بالإحسان إليهما ، بعبادته التي هي توحيده ، والبراءة عن الشرك ، اهتماماً به وتمظيلاً له .

قال حكيم مصر في تفسيره : العلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد ، هي العناية الصادقة التي بذلها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً . لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرراً . وكأنا يحوطانه بالعناية والرعاية . ويكفلانه ، حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه . فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما ، عن علم واختيار ، بل مع الشغف الصحيح والحفان العظيم ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان . وإذا وجب على الإنسان أن يشكر ، لكل من يساعده على أمر عسير ، فضله ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد ؛ وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى ، وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء .

« وَذِي الْقُرْبَىٰ » أى القرابة .

قال الأستاذ الحكيم « الإحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ، ويوثق الروابط الطبيعية ، حتى تبلغ البيوت ، فى وحدة المصلحة ، درجة السكال . والأمة تتألف من البيوت ، أى العائلات . فصلاحها صلاحها . ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد . ثم بين سائر الأقربين . فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله ، فأى خير يرجى منه للبعدهاء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمتة . لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس . فأى لحمة يمدّها تصله بغير الأهل فتجعله جزءاً منهم ، يسره ما يسرهم ويؤله ما يؤلهم ويرى منفعتهم عين منفعة ، ومضرّتهم عين مضرّته ؟ قضى نظام الفطرة بأن تكون نعمة القرابة أقوى من كل نعمة ، وصلتها أمتن من كل صلة . فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق .

وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . ثم ذكر تعالى حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال سبحانه « وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ » . اليتامى جمع يتيم . وهو من مات أبوه وهو صغير . قدم تعالى الوصية به على الوصية بالمسكين ، ولم يقيد بها بفقر ولا مسكنة . فمكلم أنها مقصودة لذاتها . وقد أكد تعالى في الوحي الوصية باليتيم . وفي القرآن والسنة كثير . من هذه الوصايا . وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً . والسرّ في ذلك هو كون اليتيم لا يجد ، في الغالب ، من تيممه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه والعناية بأموره الدينية والدينية . فإن الأم ، إن وجدت ، تكون في الأغلب عاجزة . لا سيما إذا تزوجت بعد أبيه . فأراد الله تعالى ، وهو أرحم الراحمين ، بما أكد من الوصية باليتامى ، أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم . يربونهم تربية دينية دنيوية ، لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم ؛ فينتشر الفساد في الأمة فتتفحل انحلالاً . فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تنيسر مع وجود هذه القدوة . فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة . وأما المساكين فلا يراهم هؤلاء السائلون الشحاذون المُلْحِفُونَ الذين يقدرّون على كسب ما يفي بحاجاتهم ، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا . إلا أنهم قد اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملاً ينفع الناس . ولكن المسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه اهـ .

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » أى قولاً حسناً . أى : كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً . وفيه من التأكيد والتحضيض على إحسان مقابلة الناس ، أنه وضع المصدر فيه موضع الاسم ، وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف ، كرجل عدل وصوم وفطر . « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » خطاب لبني إسرائيل . فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها والزكاة التي كانوا يخرجونها . « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق الذى فيه سمادتكم ورفضتموه . وقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ » استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، أو في كل زمن . فإنه لا تخلو أمة من الأمم ، من المخلصين الذين

يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بنحس المحسنين حقهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي . إذا فشا فيها المنكر ، وقلّ المعروف . « وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق . ثم نعى عليهم أيضاً إخلالهم بواجب الميثاق المأخوذ عليهم في حقوق العباد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ » إخبار في معنى النهي . والراد به النهي الشديد عن تعرض بعض بني إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء . أى لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرجهم من منزله « ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ » أى أظهرتم الالتزام بموجب المحافظة على الميثاق المذكور « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » بلزومه . فهو تأكيد للإقرار ، كقولك : أقر فلان ، شاهداً على نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » خطاب خاص للحاضرين ، فيه توبيخ شديد « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ »

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ « من غير التفات إلى هذا العهد الوثيق » تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ « أى تعاوانون عليهم » بِالْإِثْمِ « وهو الفعل الذى يستحق فاعله الدم واللوم » وَالْعُدْوَانِ « وهو التجاوز فى الظلم » وَإِنْ يَأْتُواكُم « أى هؤلاء الذين تعاوانتم أو عاونتم عليهم » أَسَارَى « بضم الهمزة ، وفتح السين ، والالف بعدها . وقرأ حمزة « أُسْرَى » بفتح الهمزة ، وسكون السين كقتلى ، جمع أسير ، وأصله المشدود بالأسر ، وهو القيد ، وهو ما يُقَدَّ أى يقطع من السير « تُفَادُوهُمْ » بضم التاء وفتح الفاء . وقرئ تُفَدُوهم بفتح التاء وسكون الفاء ، أى تخلصوهم بالمال من الفداء . وهو الفكك بعوضٍ « وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ » الجملة حال من الضمير فى « تخرجون » أو من « فريقاً » أو منهما . وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج ، مع كونه قريباً للقتل عند أخذ الميثاق ، لسكونه مظنة للمساهلة فى أمره ، بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل . ولأن مساق الكلام لزمهم وتوبيخهم على جنائياتهم وتناقض أفعالهم معاً . وذلك مخنص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتل بشيء من دية أو قصاص . وهو السرّ فى تخصيص التظاهر به فيما سبق . ثم أنكر عليهم التفرقة بين الأحكام فقال « أَفْتَوُمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » أى : التوراة وهو الموجب للمفاداة « وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ » وهو المحرم للقتل والإخراج . ثم اعلم أن ما ذكرناه فى قوله تعالى « تُفَادُوهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين . من أن ذلك وصف لهم بما هو طاعة ، وهو التخليص من الأمر ببذل مال أو غيره ، والإيمان بذلك . وذكر أبو مسلم أنه ضد ذلك . والمراد أنكم ، مع القتل والإخراج ، إذا وقع أسير فى أيديكم لم ترضوا منه إلا بأخذ مال وإن كان ذلك محرماً عليكم ؛ ثم عنده تخرجونه من الأسر .

قال أبو مسلم : والمفسرون ، إنما اتوا من جهة قوله تعالى « أَفْتَوُمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ » وهذا ضعيف لأن هذا القول راجع إلى ما تقدم من ذكر النبي ﷺ وما أنزل عليهم . والمراد أنه إذا كان فى الكتاب الذى معكم نبأ محمد فجحدتموه فقد آمنتم ببعض الكتاب وكفرتهم ببعض .

وكلا القولين يحتمله لفظ المفادة ، لأن الباذل عن الأسير يوصف بأنه فاداه . والآخذ منه للتخليص يوصف أيضاً بذلك . إلا أن الذي أجمع المفسرون عليه أقرب . لأن عود قوله « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ، أُولَى من عوده إلى أمورٍ تقدم ذكرها بعد آياتٍ . أفاده الرازي . « فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ » إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض . أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفادة الأسارى « إِلَّا خِزْيٌ » ذلٌ وهوان مع الفضيحة . والتنكير للتفخيم . « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقد فعل سبحانه ذلك ، فُقُتِلَتْ بنو قريظة وأُجْلِيَتْ بنو النضير إلى أَذْرِعَاتٍ^(١) وأَرِيحَا^(٢) من الشام . « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ » يعنى النار « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) |

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا » أى آثروا « الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » على خساستها . واستبدلوها « بِالْآخِرَةِ » مع نفاستها . « فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ » فى واحدة من الدارين . « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أنكر تعالى على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ ، فى المدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت

(١) قال ياقوت :

أذرعَات : كأنه جمع أذرعة ، جمع ذراع جمع قلة . وهو بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء و غسان .

أريحا : هى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام .

بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قَيْنُقَاع ، حُلَفَاءُ الْخَزْرَج . وبنو نَضِير وبنو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْس . فكانوا ، إذا كانت بين الْأَوْس والخزرج حرب ، خرجت بنو قَيْنُقَاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الْأَوْس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه . فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، ويسفكون دماءهم ، وبأيديهم التوراة . يعرفون فيها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بمثاً ولا قيامة ، ولا كتاباً ، ولا حلالاً ولا حراماً ؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها وأسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه ، فتفتدى بنو قَيْنُقَاع ما كان من أسراهم في أيدي الْأَوْس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم . فإذا عبرتهم العرب بذلك وقالوا : كيف تقاتلونهم وتقدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحُرِّم علينا قتالهم . فيقال : لم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن نُسْتَدَلَّ حلفاؤنا . فلذلك حين عبرهم عز وجل فقال « أَفْتَوْمُنُونِي بِمَعْزِرِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونِ بِبَعْضِ » أى تفادوهم بحكم التوراة وتقاتلونهم . وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويمبد الأوثان من دونه ؛ ابتغاء عرض الدنيا . هذا ملخص ما ساقه ابن كثير عن محمد بن إسحاق بسنده إلى ابن عباس . ورواه أيضاً عن السدى . فليحقق تصحيح هذه القصة .

وفى الآية تفسير آخر . أى لا تقتلوا أنفسكم لشدة تصيبكم بسكين أو خنق أو بارتكاب ما يوجب ذلك . كالارتداد والزنى بعد الإحصان . وقتل النفس بغير الحق ونحو ذلك . ولا تسيثوا جوار من جاوركم فيضطرون إلى الخروج من دياركم . أو : لا تفسدوا فتكونوا سبباً لإخراجكم أنفسكم . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » شروع في بيان بعض آخر من جناباتهم . وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب التوراة . « وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » يقال : قفاه به أتبعه إياه ، من التعفية وهي متابعة شيء شيئاً . كأنه يتلو قفاه ، وقفا الصورة منها ، خلفها المقابل للوجه . والمعنى لم تقتصر على الضبط بالكتاب الذي تركه فيكم موسى ، بل أرسلنا من بعده الرسل تترى ، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم اليهود . « وَآتَيْنَا عِيسَى » اسم معرب أصله يسوع . لفظة يونانية بمعنى مخلص . ومثله يسوع ، بالمعجمة ، في اللغة العبرانية « ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » المعجزات الواضحات التي لا مرية فيها لذى عقل . كأحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص « وَأَيَّدْنَاهُ » أى قويناه على ذلك كله « بِرُوحِ الْقُدُسِ » بالروح المقدسة كما تقول : حاتم الجود ورجلٌ صدق . وهى الروح الطاهرة التي نفخها الله فيه وميزه بها عن غيره ممن خلق . قال تعالى « وَرُوحٌ مِنْهُ » ^(١) . ولذا كان له ، عليه الصلاة والسلام ، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيى من الموتى . وعن الحسن البصرى : القدس هو الله . وروحه جبريل . والإضافة للتشريف . والمعنى :

(١) [٤ / النساء / ١٧١] ونصها : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . . .

أَعْنَاهُ بِجِبْرِيلَ . قال الرازى : والذى يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ »^(١) والله أعلم .

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام ، ببيان حقيقته وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ » من الحق، أى لا تحبه . من هوى كفرح ، إذا أحب « اسْتَكْبَرْتُمْ » عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى « فَفَرِّقًا » منهم « كَذَّبْتُمْ » إذ لم تنل أيديكم مضرته « وَفَرِّقًا » آخر منهم « تَقْتُلُونَ » غير مكثفين بتكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ)

« وَقَالُوا » بيان لنوع آخر من مخازيهم . والقائلون المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام « قُلُوبُنَا غُلْفٌ » هذا كقوله تعالى « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ »^(٢) أى هى مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها . فلا تفقه . مستعار من الأغلف الذى لم يختن « بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » رد الله أن تكون قلوبهم كذلك لأنها متمكنة من قبول الحق . وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم . وهذا كما قال فى سورة النساء « وَقَوِّرْ لَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »^(٣) . وقوله « فَقَلِيلًا »

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فِيمَا نَقُضُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ =

مَا يُؤْمِنُونَ « ما » مزيدة للمبالغة أى فإيماناً قليلاً يؤمنون . وهو إيمانهم ببعض الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ،

فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ » هو القرآن الكريم الذى مقصود هذه السورة . وصفه بالهدى . وتنكيره للتفخيم . ونمته بقوله « مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » للتشريف « مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » من التوراة . وجواب « لما » محذوف دل عليه جواب « لما » الثانية . وعليه ، فقوله تعالى : وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية ، عطفت الفصة على الفصة . وقيل : جوابها كفروا . ولما الثانية تكرار للأولى ، فلا تحتاج إلى جواب . وقيل : كفروا جواب للأولى والثانية لأن مقتضاهما واحد . وعلى الوجهين فجملة قوله « وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئه « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا » جملة حالية مفيدة لسكمال مكابرتهم وعنادهم . والاستفتاح : الاستنصار أى طلب النصر ، أى يطلبون من الله النصر على المشركين لما أنهم كانوا مستذلين فى جزيرة العرب ، ولذا كانوا يحالفون بعض القبائل تعزراً بهم على ما تقدم « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا » صحته وصدقه . كان من حقهم أن يسارعوا إلى الإيمان به لظفرهم بأمنيتهم حينئذ ، وهو انتصارهم على المشركين وحصول العزة لهم مع المؤمنين . ولكن « كَفَرُوا بِهِ » أى امتنعوا من الإيمان به خوفاً من زوال رياستهم وأموالهم . وأصرّوا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته . ولذا قال عبد الله بن سلام فى = وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

قصة إسلامه : يا معشر اليهود^(١) اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق . رواه البخارى فى الهجرة . وروى أيضاً أن عبد الله بن سلام لما بلغه مقدم^(٢) النبي صلى الله عليه وسلم أتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي . فلما أجابه عنها قال : أشهد أنك رسول الله . وسنذكر الحديث بتامه عند قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ »^(٣) الآية إن شاء الله تعالى . وقوله « فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » اللام فيه للمعد أى عليهم ، ووضع المظهر موضع المضمرة للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم ؛ كما أن الفاء للإبذان بترتيبها عليه . أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولاً أولياً . إذ الكلام فيهم . وأياً ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى « بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بِشْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« بِشْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » « ما » نكرة موصوفة بما بعدها ، منصوبة على التمييز ، مفسرة لفاعل بئس . أى بئس شيئاً باعوا به أنفسهم واعتاضوا لها ، فرضوا به وعدلوا إليه . والمخصوص بالذم قوله تعالى « أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى كفرهم بالكتاب المصدق

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٦ - باب قوله :

من كان عدوًّا لجبريل .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

لما معهم بعد الوقوف على حقيقته « بَمَيَّا » حسداً « أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ » لِأَنْ يَنْزِلَ ، أو على أَنْ يَنْزِلَ . أى حسدوه على أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ « مِنْ فَضْلِهِ » الذى هو الوحي « عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى يشاؤه ويصطفيه للرسالة « فَبَاؤُوا بِنَغْصَبٍ » أى رجعوا لأجل ذلك بنغضب ، فى حسدهم لهذا النبي ﷺ حتى كفروا به « عَلَى غَضَبٍ » كانوا استحقوه قبل بعثته ﷺ من أجل تحريفهم الكلام ، وتضييعهم بعض أحكام التوراة ، وكفرهم بعباسي عليه السلام .

قال الرازى : إن غضبه تعالى يزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته فى العذاب ، فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة ، كغضبه على من كفر بخصال كثيرة .

قلت : وفى الصحيحين عن أبي هريرة^(١) : اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله . والروايات فى توصيف غضبه تعالى بالشدة على بعض المنكرات متوافرة . انظر الجامع الصغير .

ويحتمل المعنى . فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، فلا يكون الفصد إثبات غضبين

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٨ - باب أبغض الأسماء إلى الله ،

ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنى (أخنع) الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الأملاك » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ - كتاب الأدب ، حديث ٢٠ ونصه :

عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك » . زاد ابن أبي شيبه فى رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

وحديث ٢١ ونصه : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » .

لأمرين متنوعين أو أمور ، بل المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر ، وإن كان واحداً ، إلا أنه عظيم . والله أعلم .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » أن الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها . وليس غضبه كغضبنا . كما أن ذاته ليست مثل ذراتنا ، فليس هو مماثلاً لأبداننا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته . وما قيل : إن الغضب من الانفعالات النفسانية فيقال نحن وذواتنا منفصلة ، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفصلاً بها . كما أن نفسه القدسة ليست مثل ذوات المخلوقين . فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه . وليس المنسوب كالمنسوب والمنسوب إليه كالمنسوب إليه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »^(١) فشبّه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي . وهذا يتبين بقاعدة : وهى أن كثيراً من الناس يتوهم ، في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين . ثم يريد نفي ذلك الذى فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير : أحدها كونه مثل ما فهمه من النصوص لصفات المخلوقين . وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل . الثانى إنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعظمه فبقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللاتقة بالله فيبقى مع جنائية على النصوص ، وظنه السيئ الذى ظنه بالله ورسوله ، حيث خلاف الذى يفهم من كلامهما ، من إثبات صفات الله والماعنى الإلهية اللاتقة بجلال الله تعالى . الثالث : أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير دليل . فيكون معطلاً عما يستحقه الرب تبارك وتعالى . الرابع : أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات وصفات المدومات . فيكون قد عطل صفات الكمال التى يستحقها الرب . ومثله بالمتنوعات والمدومات . وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات . وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات . فيجمع فى الله وفى كلام الله بين التعطيل والتمثيل . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . أفاده الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى القاعدة التدمرية .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ - باب فضل صلاة العصر .

« وَلِلْكَافِرِينَ » أى لهم . والإظهار فى موضع الإضمار للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم « عَذَابٌ مُهِينٌ » يراد به إهانتهم . أى إذلالهم . فإن كفرهم ، لما كان سببه البنى والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، أقبلوا بالإهانة والصغار فى الآخرة كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »^(١) أى صاغرين حقيرين .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٩١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لليهود « ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ » على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه « قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا » من التوراة ، ولا نفر إلا بها « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » حال من ضمير « قَالُوا » بتقدير مبتدأ . أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما بعده « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ » منها غير مخالف له . وفيه رد لمقاتلتهم . لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها « قُلْ » تبكيها لهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم نبياً وعناداً ، واستكباراً على رسل الله . فلمستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى « أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ »^(٢) والخطاب للحاضرين من اليهود والمؤمنين ، على

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٧] .

طريق التغليب ، وحيث كانوا مشاركين في المقد والعمل ، كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضاً على أخلافهم . ودلت الآية على أن المجادلة في الدين من عرف الأنبياء عليهم السلام ، وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز .
ولما دل على كذبهم في دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى ، أقام دليلاً آخر أقوى مما تقدمه . فإنه لم يعهد إليهم في التوراة ماعهد إليهم في التوحيد والبعث عن الإثراك . وهو في النسخ الموجودة بين أظهرهم الآن . وقد نقضوا جميع ذلك باتخاذ العجل في أيام موسى ، وبحضرة هارون عليهما السلام . فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ » من الآيات كقفل البحر وإنزال المان والسلوى وغير ذلك من الدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » معبوداً من دون الله « مِن بَعْدِهِ » أى من بعد ما ذهب موسى عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل . كما قال تعالى « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْيِهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ »^(١) وقوله تعالى « وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ » أى بعبادته . واضعين لها في غير موضعها . أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى . أو هو اعتراض . أى وأنتم قوم عادتكم الظلم . ثم ذكر أمراً آخر هو أيين في عنادهم وأنهم مع الهوى فقال :

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٨] ونصها : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْيِهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمِجْلَ بَكَفَرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » على الإيمان والطاعة . « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » قائلين « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ » أى ما أمرتم به فى التوراة « بِقُوَّةٍ » بجهد « وَاسْمِعُوا » أطيعوا « قَالُوا سَمِعْنَا » قولك « وَعَصَيْنَا » أمرك . وظاهر السوق يقتضى أنهم قالوا ذلك حقيقة .

قال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى : سمعوه فتلقوه بالمعصيان . فعبّر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه . كقوله تعالى « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١) . « وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمِجْلَ » أى حبه على حذف المضاف . وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة . أو المجل مجاز عن صورته . فلا يحتاج إلى حذف المضاف . وعلى كلِّ ، فأشربوا استعارة تبعية . إما من إشراب الثوب الصبغ - أى تداخله فيه - أو من إشراب الماء - أى تداخله أعماق البدن - والجامع السراية فى كل جزء . وإسناد الفعل إليهم لإيهام لمكان الإشراب . ثم بُيِّنَ بقوله « فِي قُلُوبِهِمْ » للمبالغة ، فظهر وجه المدول عن مقتضى الظاهر وهو : وأشرب قلوبهم المجل . « بَكَفَرِهِمْ » بسبب كفرهم « قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى كازعتم ، بالتوراة . وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما فى قصة شعيب « أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ »^(٢)

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [١١ / هود / ٨٧] ونصها : قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَا أَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

وكذا إضافة الإيمان إليهم. وقوله « **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** » قدح في صحة دعواهم. فإن الإيمان إنما يأمر بعبادة الله وحده لا بشركة العباد لما هو في غاية البلادة . فهو غاية الاستهزاء . وحاصل الكلام : إن كنتم مؤمنين بها عاملين ، فيما ذكر من القول والعمل ، بما فيها ، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها . وإذا لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً . فجواب الشرط محذوف ، كما ترى ، لدلالة ما سبق عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)

« **قُلْ** » كرر الأمر بتبكيته لإظهار نوع آخر من أباطيلهم . وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس . لكنه لم يخك عنهم قبل الأمر بإبطاله ، بل اكتفى بالإشارة إليه في تضاعيف الكلام بقوله « **إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً** » نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة . أي سائلة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق كما تقولون « **لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا** »^(١) . « **مِنْ دُونِ النَّاسِ** » اللام للجنس أو للمهد وهم المسلمون « **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ** » فسلوا الموت « **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** » لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الأكدار ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالموت . والذي يتوقف عليه المطلوب لا بد وأن يكون مطلوباً ، نظراً إلى كونه وسيلة إلى ذلك المطلوب . والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه كما أشرنا إليه ، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد في مقام الحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى لأنه من ضمائر القلوب . وتم تفسير آخر للتمنى

(١) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : **وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .**

بأن يُدْعَوْا إلى المباهلة والدعاء بالموت . وإليه ذهب ابن جرير . والأول أقرب إلى موافقة اللفظ . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب . وكان كما أخبر به . كقوله « وَلَنْ تَفْعَلُوا » ^(١) . « بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ » بما أسلفوا من أنواع العصيان . واليد مجاز عن النفس . عبر بها عنها ، لأنها من بين جوارح الإنسان ، مناط عامة صنائمه . ولذا كانت الجنايات بها أكثر من غيرها . ولم يحمل المجاز في الإسناد ، فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم ، يشمل ما قدموا بسائر الأعضاء « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » أى بهم . تذييل للتهديد . والتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم ، ونفيه عن سواهم . ونظير هذه الآية في سورة الجمعة قوله تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أُولِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » ^(٢) .

وقد تلطف الغزالي في توجيه الإتيان بـ « لن » هنا و « لا » في سورة الجمعة بأن الدعوى هنا أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهي ، وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة . فلما كانت الدعوى الأولى أعظم ، لاجرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ « لن » لأنها أقوى الألفاظ النافية . ولما كانت

- (١) [٢ / البقرة / ٢٤] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .
(٢) [٦٢ / الجمعة / ٧٦] .

الدعوى الثانية ليست فى غاية العظمة اكتفى فى إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس فى نهاية القوة،
فى إفادة معنى النفى . والله أعلم .

ولما أخبر تعالى عنهم أنهم لا يتمنون الموت، أنبهم بأنهم فى غاية الحرص على الحياة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُودُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ » التذكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة
وهى الحياة المتطاولة ، ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبى : على الحياة . « وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا » عطف على ما قبله بحسب المعنى ؛ كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين
أشركوا . وإفرادهم بالذكر ، مع دخولهم فى الناس ، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة
الحرص . للبالغة فى توبيخ اليهود . فإن حرصهم ، وهم معترفون بالجزاء ، لما كان أشد من
حرص المشركين المنكرين له ، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار . ويجوز أن
يحمل على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوف عليه ، عنه ؛ أى وأحرص من الذين
أشركوا .

وأما تجويز كون الواو للاستئناف وقد تم الكلام عند قوله : « عَلَى حَيَاةٍ » تقديره
« وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » ناسٌ يود أحدهم ، على حذف الموصوف ، وقول أبو مسلم :
إن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وتقديره : ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص
الناس على حياة ، ثم فسر هذه المحبة بقوله : يود أحدهم لو يعمر ألف سنة - فلا
يخفى بعده . لأنه إذا كانت القصة فى شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر ، أن يكون المراد :

ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ، ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم : إن الدار الآخرة لنا ، لا لغيرنا والله أعلم .
 « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » بيان لزيادة حرصهم ، على طريق الاستئناف .
 و « لَوْ » مصدرية ، بمعنى « أَنْ » مؤوّل ما بعدها بمصدر ، مفعول يود . أى يود أحدهم تعمير ألف سنة « وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » « ما » حجازية ، والضمير العائد على أحدهم اسمها ، وبمزحزحه خبرها ، والباء زائدة ، وأن يعمر فاعل مزحزحه ، أى وما أحدهم المتمنى بمن يزحزحه ، أى يبعده وينجيه ، من العذاب ، تعميره . قال القاضي : والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ، ولو قال تعالى : وما هو ببعده ومنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول « وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمَلُونَ » فسوف يجازيهم عليه .

وما ذكره بعض المفسرين من أن البصير في اللفظة بمعنى العليم لا ينفى فساد ، فإن العليم والبصير اسمان متباينا المعنى لفة . نعم ! لو حمل أحدهما على الآخر مجازا لم يبعد ، ولا ضرورة إليه هنا . ودعوى أن بمض الأعمال مما لا يصح أن يرى ، فلذا حمل هذا البصر على العلم - هو من باب قياس الغائب على الشاهد ، وهو بديهيّ البطلان . قال شمس الدين ابن القيم الدمشقيّ في كتاب الكافية الشافية :

وهو البصير يرى ديب النملة السَّـوداء تحت الصخر والصوّان
 ويرى مجارى القوتِ في أعضائها ويرى عُروق بياضها بعميان
 ويرى خياناتِ العيونِ بلحظها ويرى ، كذاك ، تقلّب الأجفان
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٩٨] (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ

عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » .

روى البخارى في صحيحه في كتاب التفسير عن أنس قال ^(١) : سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ . وهو في أرض يثرب ، فأتى النبي ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث ، لا يعلمهن إلا نبي . فما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرني بهن جبريل آتفا » ، قال : جبريل ؟ قال « نعم » قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » . « أما أول أشرط الساعة ، فنار تحترق الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد حوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزع » قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله ! إن اليهود قوم بُهتٍ وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني . فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ « أي رجل عبد الله فيكم » ؟ قالوا :

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٦ - باب قوله

من كان عدوا لجبريل .

خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ فقالوا : أعاده الله من ذلك ! فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فقالوا : شرُّنا وابن شرنا . وانتقصوه .

قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال ^(١) : حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايملهن إلا نبي . وساق نحواً مما تقدم . وتتمته قالوا : أنت الآن ، فحدثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجممك أو نفارقك ، قال : فإن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط ، إلا وهو وليه . قالوا : فعندها نفارقك . ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : فما منكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ » إلى قوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » فعندها باؤوا بغضب على غضب . وفي رواية للإمام أحمد والترمذي والنسائي في القصة : فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل عليه السلام . قالوا : جبريل ! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والمذاب ، عدونا . لو قلت « ميكائيل » الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان ! فأنزل الله تعالى « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ » إلى آخر الآية . ويؤخذ من روايات أخر أن سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي ﷺ . فقد روى ابن جرير عن الشعبي قال : نزل عمرُ الرِّوْحَاءَ ، فرأى رجالاً يبتدون أحجاراً يصلون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا . قال فسكره ذلك ، وقال : أيما ؟ رسول الله ﷺ أدر كته الصلاة بوادٍ فصلي ، ثم ارتحل فتركه . ثم أنشأ يتحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مِدرَاسِهِمْ ، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدق

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند جزء أول صفحة ٢٧٨ (طبعة الحلبي) ، وحديث

رقم ٢٥١٤ (طبعة المعارف) .

التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ! ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك . إقلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تفشاننا وتأتينا . قال قلت : إني آتيتكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان . قال ، ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ! ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . قال : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد عظم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت . قال : أما إذ نشدتنا به . فإننا نعلم أنه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، إذا هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قال : قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدواً من الملائكة ، وسليماً من الملائكة . وإنه قرين به عدونا من الملائكة . قال : قلت : ومن عدوكم ، ومن سلميكم . قالوا : عدونا جبريل ، وسليماً ميكائيل . قال : قلت : وفيهم عاديتهم جبريل ؟ وفيهم سالتهم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار ، والتشديد والمذاب ، ونحو هذا . وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : قلت : فوالله الذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسليماً لمن سالمهما ، ما ينبئى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبئى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل . قال : ثم قت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من مخرفة لبنى فلان . فقال لى : يا ابن الخطاب ، ألا أقرئك آيات زلزل ؟ فقرأ على « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ » حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، والذى بمنك بالحق ، لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر .

ورواه مختصراً ابن أبى حاتم أيضاً ، وفيه انقطاع ، فإن الشعبي لم يدرك زمان عمر رضى

الله عنه . كذا قاله الحافظ ابن كثير . وساقه أيضاً الواحدي ، وزاد في آخره : قال عمر : فلقد رأيتني في دين الله أشد من حجر .

قال العلامة البقاعي : وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحق بن راهويه في مسنده عن الشامي ، عن عمر رضي الله عنه . قال شيخنا البوصيري : وهو مرسل صحيح الإسناد ، انتهى . وثم روايات متنوعة ساقها ابن كثير في تفسيره ، لا نطوّل كتابنا بسردها ، ومرجعها واحد . فإن قيل : بين رواية البخاري الأولى وما بعدها تنافي . فالجواب : لا منافاة ، لأن قراءته ﷺ لها في محاوره عبد الله بن سلام ، ردّاً لقول اليهود ، لا يستلزم نزولها حينئذ . فإن المتمد في سبب نزولها غير قصة عبد الله بن سلام مما سلف من الروايات . فإن طرقها يقوى بعضها بعضاً ، وكأن النبي ﷺ لما قال له عبد الله بن سلام : إن جبريل عدو لليهود ، تلا عليه الآية ، مذكراً له سبب نزولها - كذا قاله الحافظ ابن حجر في الفتح .

وقد أشار إلى ذلك السيوطي في « الإتيان » حيث قال (تنبيه) قد يكون في إحدى القصتين ، (فتلا) قِيمَهُ الراوي ، فيقول (فينزل) . وقال العلامة ولي الله الدهلوي قدس سره في كتابه « أصول التفسير » وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية في كذا وكذا ، وكأن غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية وذكروا بعض الحوادث التي تشملها الآية بمعومها . سواء تقدمت القصة أو تأخرت . إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً . استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، والله أعلم .

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلا . وللقصص المتمددة هنالك سعة . فمن استحضر هذه النكته يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية . انتهى .

وقوله تعالى « لجبريل » قرئ في السبع بكسر الجيم والراء بلا همز ، وبفتح الجيم بدونها أيضاً ، وبفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة ثم ياء وبدونها . قال ابن جني : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه .

وقوله «فإنه نزل» تمليل لجواب الشرط قائم مقامه ، والبارز الأول لجبريل عليه السلام ،
والثاني للقرآن ، أضمر من غير سبق ذكره ، إيداناً بفخامة شأنه ، واستغفائه عن الذكر ،
لكمال شهرته ونباهته ، لاسيما عند ذكر شيء من صفاته . وقوله «على قلبك» زيادة
تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحي ، فإنه القابل الأول له ، إن أريد به الروح . ومدار الفهم
والحفظ إن أريد به العضو ، وهذا كقوله «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ»^(١)
وكان حق الكلام أن يقال «على قلبي» لأنه المطابق لقل ، ولكن جاء على حكاية كلام
الله كما تسكلم به تحقيقاً لكونه كلام الله . وأنه أمر بإبلاغه . وقوله «يَا ذُنِ اللَّهِ» أى
بأمره . وقوله «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أى من التوراة وبقيصة الصحف المنزلة . وقوله
«وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ» أى يهدى للرشد وبشرى لهم بالجنة ، كما قال تعالى
«قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هَدَىٰ وَشَفَا»^(٢) الآية . وقال تعالى «وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ
مَا هُوَ شِفَاؤٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»^(٣) وفيه رد على اليهود ، حيث قالوا : إن جبريل ينزل
بالحرب والشدة كما تقدم ، فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً . فإن قيل : من شأن
الشرط والجزاء الاتصال بالسببية والترتب ، فكيف استقام قوله «فإنه نزل» جزاء للشرط ؟
أجيب بأن قوله «فإنه نزل» تمليل لجواب الشرط ، كما أسلفنا . والمعنى : من عادى
جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لماداته ، بل يجب عليه محبته ، فإنه نزل عليك كتاباً

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] ونصها: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هَدَىٰ وَشَفَا ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٢] ونصها: وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاؤٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْبُدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

مصدقاً لكتبهم . فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، في إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المأل عليهم . وقيل : الجواب محذوف تقديره « فليمت غيظاً » . وعليه فلا يكون « فإنه نزله » نائباً عنه . ووجهه أن يقدر الجواب مؤخراً عن قوله « فإنه نزله » ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة ، كأنه قيل : من عاداه ، لأنه نزل على قلبك فليمت غيظاً .

قال الرضى : كثيراً ما يدخل الغاء على السبب ويكون بمعنى اللام ، قال الله تعالى « فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ »^(١) ، وقيل تقديره : فهو عدو لى وأناعدوه ، بقرينة الجملة المترضة المذكورة بعده في وعيدهم ، وهى قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » أى من كان عدواً لله لإنزاله فضله على من يشاء أو لأمر آخر . وأفادت الآية غضب الله تعالى لجبريل على من عاداه . وقد^(٢) روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى هريرة حديثاً قدسياً « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » . وصدر الكلام بذكره الجليل تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا . وقدم الملائكة على الرسل ، كما قدم الله على الجميع ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحي ، ونزوله بتنزيل الملائكة ، وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب ،

(١) [١٥ / الحجر / ٣٤] ونصها : قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ .

و [٣٨ / ص / ٧٧] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ونصه :
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشيء أحبَّ إلىَّ مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذنى لأعيننه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما ، وإنهما ، وإن كانا من الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفى ، منزلة التغاير الذاتى ، وللتنبية على أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر ، واستجلاب العداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد ، ولأن الحاجة كانت فيهما . ووضع « الكافرين » موضع « لهم » ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وإن عداوة الملائكة كفر . وقد قرئ فى السبع « ميكال » كيزان ، و« ميكائيل » بهمزة مكسورة بعد الألف بدون ياء و« ميكائيل » بالهمزة والياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)
« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى أنزلنا إليك علامات واضحات دالات على نبوتك . وتلك الآيات هى ما حواه القرآن من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبا عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم ، وما حرقه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة ، فأطلمها الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغى . إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة ، تصديق من أنى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصفت ، من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيء منه عن آدمى . وحمل الآيات على ما ذكرناه من آيات القرآن المجيد أولى من حملها على سائر المعجزات المسأورة . لأن الآيات إذا قرنت إلى التنزيل ، كانت أخص بالقرآن . وقوله « وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى المتوردون من الكفرة ، واللام للعهد ، أى الفاسقون المهودون ، وهم اليهود . أو للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أولاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) « أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » الهمزة للإِنْكار والواو للمطف على محذوف يقتضيه المقام ، أى كفروا بالآيات البينات ، « وَكَلِمًا عَاهَدُوا » الخ . أو أَيْسَكِرُونَ فسَقَهُمْ وكلما الخ ، وقيل : الواو زائدة ، وقيل هى « أو » التى لأحد الشئين . حركت بالفتح . وقد قرئ شاذاً بسكونها . فتسكون بمعنى بل . دلت عليه القرينة . أعنى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ . قال ابن جنى : « أو » هذه هى التى بمعنى « أم » المنقطعة ، وكلتاهما بمعنى « بل » - موجود فى الكلام كثيراً . أنشد الفراء لذى الرمة :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَيْهَا . أَوْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أُمْلَحُ
وكذا قال فى قوله تعالى « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وعلى الوجه الأول ، فالقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ، لأن مثل ذلك ، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التنكير والتبكيك . ودل بقوله « أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا » على عهدٍ بعدهم نقضوه ونبذوه . بل يدل على أن ذلك كالمادة فيهم . فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن ذلك ليس بيدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم . على ما بينه فى الآيات المتقدمة من نقضهم المهود والمواثيق حالاً بعد حال . لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته ، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك .

قال العلامة : واليهود موسومون بالنذر ونقض المهود ، وكما أخذ الله الميثاق منهم ، ومن آبائهم ، فنقضوا ، وكما عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا « الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ » (١) . والنبذ الرى بالذمام ، ورفضه . وإسناده إلى فريق منهم ، لأن منهم من لم ينبذه . وفى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون . قوله تعالى :

(١) [٨ / الأنفال / ٥٦] وتعام الآية : وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » تصريح بما طوى قبل . فإن نبذهم اليهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقتها ، أعقبهم التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذي في كتبهم نعمته ، كما قال تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » (١) الآية ، فتكبير « رسول » للتفخيم . والجار بعده متعلق بجاء ، أو بمحذوف وقع صفة لرسول ، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التكبير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وقوله « كِتَابَ اللَّهِ » معنى التوراة ، لأنهم بكفروهم برسول الله ، المصدق لما معهم ، كافرونها ، فابذرونها . وقيل « كِتَابَ اللَّهِ » القرآن نبذوه بعد ما لزموهم تلقيه بالقبول . وقوله « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » مثل تركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرى به وراء الظهر استغناء عنه ، وقلة التفات إليه . وقوله « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » جملة حالية ، أي نبذوه وراء ظهورهم ، مشبهين بمن لا يعلمه . فإن أريد بهم أخبارهم ، فالعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته ﷺ . ففيه إيذان بأن علمهم به رصين ، لكنهم يتجاهلون . أو كأنهم

(١) [٧/الأعراف/ ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لا يعلمون أنه كتاب الله ، أو لا يعلمونه أصلاً ، كما إذا أريد بهم الكل . وفي هذين الوجهين ، زيادة مبالغة في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة . وهذا ، وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن ، فالمراد بالعلم المنفي في « كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » هو العلم بأنه كتاب الله ، ففيه ما في الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون في ذلك ، وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» هو حكاية لفتى آخر من زيفهم وضلالهم ، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم . وهو اتباعهم لما تكلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والكفر ، وأنه إنما نال ذلك الملك بسبب معرفته السحر . وزادوا على ذلك فنسبوه إلى الردة والكفر لأسباب افتروها عليه ، فبرأه الله تعالى من هذا الافتراء والاختلاق ، وألصق الكفر بأولئك الشياطين الذين يضللون العقول والأفهام بتعليم السحر والشعبذة ، وإسناد التأثير إلى غير الخالق ، سبحانه ، والصد عن سبيل الحق ، وابتغائهم إياها عوجاً

و « تَتْلُو » بمعنى تقصّ وتحدث. من التلاوة ، وهى القراءة . أو بمعنى تكذب وتختلق ، وهو قول أبى مسلم ، قال : يقال تلا عليه ، إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . وهكذا قال الراغب فى تفسيره : تلا عليه كذب ، نحو روى عليه ، وقال عليه « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ »^(١). وقال : الآية معطوفة على ما تقدم من ذكر اليهود ، وهى منظومة على أمرين : ذم اليهود فى تحرى السحر وإيثاره ، وتبرئة لسليمان عليه السلام مما نسبوه إليه ، وتخرسوه عليه اه . وذلك أنهم زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام ، وبني لها المعابد ، كما تراه فى الفصل الحادى عشر من سفر الملوك الثالث . فانظر إلى هذه الجراءة العظيمة والقحة الكبيرة . ولما تنبه عقلاء أهل الكتاب المتأخرون لمثل هذه الفِرى ، اعترفوا بأنه ليس كل قول من الأقوال المندرجة فى كتبهم المقدسة إلهاميا ، بل بعضها كتب على طريقة المؤرخين ، يعنى بلا إلهام ، كما فى « إظهار الحق » . والمراد بالشياطين شياطين الإنس ، وهم المتمردة العصاة الأشرار الأفوياء ، الدعاة إلى الباطل . وقوله « عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ » أى على عهد ملكه من تلك الأفاضيل المختلقة عليه . وقوله تعالى « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » تنزيه لساحته عليه السلام من الردة والشرك وعبادة الأوثان التى نسبوها إليه ، وتكذيب لمن تقولها . وقال كثيرون : هذا تبرئته من السحر ، وأنه تعالى كنى عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر ، وأن من كان نبيا كان معصوماً عنه . وإنما كان كفراً لكونه يكون بالتوجه إلى الأفلاك والشياطين وعبادتها ، وزعم أنها مؤثرة دونه تعالى .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقْنَطِرَ يُوَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يَدْبِنَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . [٣ / آل عمران / ٧٨] ونصها : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

والمعنى الأول أصرح وأوضح . وقوله تعالى « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » عني بالشیاطین من ذکرناهم قبلُ وهم خبثاء الإنس وأشرارهم . كما في قوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ » ^(١) وقوله « شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ » ^(٢) والذي يعين هذا المعنى قوله « تَقْلُو » لأن تلاوة شياطين الجن ، لا يسمعونها أحد . ومعنى « تَقْلُو » نقص كما تقدم . وقوله : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يعين هذا المعنى أيضاً ، إذ لا يتعلم أحد السحر إلا من شياطين الإنس . والمراد بقوله « كَفَرُوا » كفرهم بآيات الله المنزل ، أو عبادتهم غيره تعالى ، أو كفرهم باستعمال السحر والشعوذة ، تنمية على الحق ، وتغشية للبصائر . وجمله قوله « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » حالية من ضمير « كَفَرُوا » ، أو خبر ثانٍ لـ « لَكِنَّ » ، أو مستأنفة . هذا على تقدير كون الضمير للشیاطین . وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل « انَّبَعُوا » فهي إما حال منه أو استئنافية . وقوله تعالى « وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » . اعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوها كثيرة ، وأقوالا عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الأخباريين نقلة الفث والسمين ، ومنهم من وقف مع

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْعَرُونَ .

ظاهرها البحث وتمجّل لما اعترضه ، بما المعنى الصحيح في غنى عنه . ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير وردّ آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألفاظ والمعجمات ، التي يتنزه عنها بيان أبلغ كلام . إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها .

والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل - وهى مدينة بالعراق على نهر الفرات - وكانا يعلمان الناس السحر . وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله . وبلغ مكر هذين الرجلين ، ومخافتتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » ، أى إنما نحن أولو فتنة نبلك ونختبرك ، أنشكر أم تكفر ، وننصح لك أن لاتكفر . يقولان ذلك ليوها الناس أن علومهما إلهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لا يقصدان إلا الخير . كما يفعل ذلك دجاجة هذا الزمان ، قائلين لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء . ولليهود في ذلك خرافات كثيرة . حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله . وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس . فجاء القرآن مكذباً لهم في دعواهم نزوله من السماء ، وفي ذم السحر ، ومن يتعلمه أو يعلمه ، فقال « يُكَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ » الآية ، ف « ما » هنا نافية ، على أصح الأقوال ، ولفظ « الملّكين » هنا وارد حسب العرف الجارى بين الناس في ذلك الوقت ، كما يرد ذكرُ آلهة الخير والشر في كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم ، وكما يرد في كلام المسلم ، في الرد على المسيحيين ، ذكرُ تجسد الإله وصلبه ، وإن كان لا يعتقد ذلك . وقوله تعالى « فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ » من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر في أقبح صورة ، أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الخيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع : كالرء وزوجه . والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : أن اليهود كذبوا القرآن

ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه . وزعموا أنه كفر ، وهو لم يكفر . ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت ، اللذين سمّوا ملكين ، ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدرّيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لا يقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر . وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون به بين المجتيمين ، ويحولون به عقد المتحدين . فأنت ترى من هذا أن المقام كله للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت . والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أي ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عند الله ، غير الوحي إلى الأنبياء ، ونص نصّاً صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (١) ، وقال مفكراً على من طلب إزال الملك « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ » (٢) ، وقال في سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا - إِلَى قَوْلِهِ - فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » (٣) .

وللإقصاء في هاروت وماروت أحداث عجيبة . فزعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة ، وأنهما لما نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصي ، أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض . فأوحى الله تعالى إليهما : إني لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم من الشهوات لمعصيتاني ، فقالا : يا رب ، لو ابتليتنا لم نفعل ، فاهبطهما إلى الأرض ، وابتلاهما الله بشهوات

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧-٩] .

بنى آدم، فمكثا في بلدة كانت فيها فاجرة تسمى « الزهرة » فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس وسجدا للصنم. وعلماها الاسم الأعظم، الذي كانا به يمرجان إلى السماء، فتكلمت المرأة بذلك الاسم، وعرجت إلى السماء، فسخها الله تعالى، وصيرها هذا السكوكب المسمى بالزهرة. ثم إن الله تعالى عرّف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا، ثم خيّرهما بين عذاب الآخرة آجلاً، وبين عذاب الدنيا عاجلاً، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلهما يبابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة، وهما يملئان الناس السحر، ويدعوان إليه، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة. وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم. ولم يقل بها القرآن قط، وإنما ذكرها التلمود، كما يعلم من مراجعة « مدراس يدكوت » في الإصحاح الثالث والثلاثين، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين، فأخذوها منه.

قال الرازي في تفسيره : إن القصة التي ذكروها باطلة من وجوه :

أحدها : أنهم ذكروا في القصة أن الله تعالى قال لهما (أي لهاروت وماروت) : لو ابتليتما بما ابتليت به بنى آدم لمصيتاني ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .
وثانيها : أنهما خيّرّا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد ، بل كان الأولى أن يخيّرّا بين التوبة وبين العذاب ، والله تعالى خيّر بينهما من أشرك به طول عمره ، وبالغ في إيذاء أنبيائه .

وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يملئان السحر ، في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه ، وهما يُعاقبان .

وهكذا ، الإمام أبو مسلم احتج على بطلان نزول السحر عليهما أيضاً بوجوه :

الأول : أن السحر لو كان نازلاً عليهما لكان منزله هو الله ، وذلك غير جائز ، لأن السحر كفر وعبث لا يليق بالله تعالى إنزال ذلك .

الثانى : ان قوله « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يدل على أن تعليم السحر كفر . فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر . وذلك باطل .
الثالث : كما لا يجوز فى الانبياء أن يعمثوا لتعليم السحر ، فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى .

الرابع : إن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ؟ وقد جرت عادة الله بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى عليه السلام « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ » ^(١) انتهى .

وقد ساق الرازى ما ارتآه أبو مسلم فى تفسير هذه الآية . ولم نشأ نقله لبعده عن الصواب . وهكذا ما ذكره الإمام ابن حزم فى كتابه « الفصل » فى بحث « عصمة الملائكة » ففيه تكلف وتمحل غريب ، كما يعلم بمراجعتها .

ولارغب الأصفهانيّ احتمالات فى تصحيح القصة ، وتجويزات عجبية تنبو عن الحق الصراح الذى آثرنا نقله أولاً عن بعض المحققين . والله أعلم .

واعلم أن لفظ السحر ، فى عرف الشرع ، مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله ، قال تعالى « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ » ^(٢) يعنى موّها عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسمى . وقد

(١) [١٠ / بونس / ٨١] ونصها : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١١٦] ونصها : قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

يستعمل مقيداً : فيما يمدح ويحمد ، كما قال رسول الله ﷺ لعمر بن أحم : « إن من البيان لسحراً »^(١) ، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقة بحسن بيانه ، وبلغ عبارته . وبالمجمل ، فالسحر المطلق إنما هو تخيل بشعوذة صارفة للأبصار ، أو تتممة مزخرفة عاتقة للأسماع ، فلا يغير حقائق الأشياء ، ولا ينقل الصور . وقوله تعالى « وَمَا هُمْ بِبَصَّارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » قال الراغب : الإذن قد يقال في الإعلام بالرخصة ، ويقال للعلم ، ومنه آذنته بكذا ، ويقال للأمر الحتم . وينبغي أن يعلم أن الإذن في الشيء من الله تعالى ضربان :

أحدهما : الإذن لقاصد الفعل في مباشرته . نحو قولك : أذن الله لك أن تصل الرحم .
والثاني : الإذن في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله ، والترياق في تخليصه من أذيته . فإذا الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء ، وعلى هذا يقال : « الأشياء كلها بإذن الله وقضائه » ولا يقال : الأشياء كلها بأمره ورضاه . وقوله تعالى « وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ » إرشاد إلى أن ليس في تعلم السحر إلا المضرة ، لما فيه من التلبس والتويه ، وإيهام الباطل حقاً ، والتوصل به إلى المفساد والشرور . وقوله سبحانه « وَلَا يَنْفَعُهُمْ » صرح به إيداناً بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر ، بل هو شر بحت ، وضرر محض . وقوله تعالى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » أي اليهود الذي حكيت ضلالتهم . وقوله « لَمَنْ اشْتَرَاهُ » أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، والحق الذي أنزله . وقوله « مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ » أي نصيب ، لإقباله على التويه والكذب ، واستعمال

(١) في سنن أبي داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٨٦ - باب ما جاء في المتشدد في الكلام ، حديث ٥٠٠٧ .

عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق . فخطبا . فمجب الناس - يعني لبيانهما - فقال رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً » .

ذلك فى اكتساب حطام الدنيا وتمتعاتها . وفيه إشارة إلى أن اختيارهم للسحر ، ليس من جهلهم بضرره ، بل أتوا ما أتوا عن علم بعاقبته السوأى . وقوله تعالى « وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » أى ما باعوا به حظهم الأخرى ، حتى كأنهم أتلفوا أنفسهم ، وإنما نفى عنهم العلم بقوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » مع إثباته لهم على سبيل التوكيد القسمى بقوله « وَلَقَدْ عَلِمُوا » - لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم . فجهلهم غير عالمين ، لعدم عملهم بموجب علمهم . ولما بين سبحانه ما عليهم فيما ارتكبوا من المضار أتبعه ما فى الإعراض عنه من المنافع فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)
« وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى بما دعوا إليه من القرآن الحكيم « وَاتَّقَوْا » أى ما يؤثمهم ، ومنه السحر والتمويه وقوله « لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ » جواب « لو » وأصله : لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم . فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم ، دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، وقوله تعالى « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى أن ثواب الله خير . وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ،

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا » للنبي ﷺ « رَاعِنَا » التى تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون

بها السنتهم ، ويقصدون بها الرعونة ، وهى إفراط الجهالة ، فهام عن موافقتهم فى القول ، منمّا للصحيح الموافق فى الصورة لشبهه من القبيح ، وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال « وَقُولُوا انظُرْنَا » فأبقى المعنى وصرف اللفظ . أى انظر إلينا . بالحذف والإيصال . أو انتظرنا . على أنه من نظره إذا انتظره ، وقرئ أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ . وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير . وراعنا على صيغة الفاعل أى قولاً ذا رعنٍ ، كدارع ولابنٍ ، لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن انصف به « وَاسْمَعُوا » أى قولوا ما أمرتكم به ، وامثلوا جميع أوامرى ، ولا تكونوا كاليهود ، حيث قالوا سمعنا وعصينا « وَلِلْكَافِرِينَ » أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله ﷺ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » لما اجترؤوا عليه من العظيمة ، وهو تذييل لما سبق ، فيه وعيد شديد لهم ، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة النساء « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَمَنْهُمْ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (١) ومن ليهم ما جاء فى الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون « السام عليكم » (٢) والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ « وعليكم » ، وإنما يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا .

(١) [٤ / النساء / ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٥ - باب الرفق فى الأمر كله .

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها ، زوج النبي ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها فقلت : وعليكم السام واللعنة . قالت فقال رسول الله ﷺ « مهلا يا عائشة . إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » . فقلت : يا رسول الله ! ولم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ « قد قلت : وعليكم » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) « مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ببيان لشدة عداوة الكافرين من القبيلين للمؤمنين ، حسداً وبغياً . ليقطع التشبه بهم . فإن مخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين في الأخلاق الفاضلة . ثم بين أن الحسد لا يؤثر في زوال ذلك بقوله « وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » و (الاختصاص) عناية تميّن المختص لرتبة يفرد بها دون غيره ، وفيه تنبيه على ما أنعم به على المؤمنين ، من الشرع التام الكامل الذي شرعه لهم . ولما أنكرت اليهود أن يقع شيء من النسخ لآيات الله ، توصلوا بذلك إلى إنكار آيات القرآن ، وتأيد تأييد التوراة ، ردّ عليهم سبحانه - بعد تحقيق حقيقة الوحي - بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ » أى : ما تبدل من آية بغيرها - كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن - « أَوْ نُنسِهَا » أى : نذهبها من القلوب - كما أخبر بقوله « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ »^(١) - وقرئ « أَوْ نَسَاهَا » أى نؤخرها ونتركها بلا نسخ ، كما أبقي كثيرًا

(١) [٥ / المائة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

من أحكام التوراة في القرآن . وعلى هذه القراءة ، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أى : من المنسوخة المبدلة - كما فعل في الآيات التي شرعت في الملّة الخنيفية بما فيه اليسر ، ورفع الحرج ، والعتق - فكانت خيراً من تلك الآصار والأغلال . وقوله « أَوْ مِثْلَهَا » أى : مثل تلك الآيات الموحاة قبل ، كما بُرِيَ في كثير من الآيات في القرآن الموافقة لِمَا بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره .

قال الراغب : فإن قيل : إن الذى تُرك ولم يُنسخ ليس هو مثله بل هو هو ، فكيف قال « بمثلها » ؟ قيل : الحكم الذى أنزل في القرآن - وكان ثابتاً في الشرع الذى قبلنا - يصحّ أن يقال هو هو ، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته - التى هى اللفظ . ويصحّ أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ . ونحو ذلك أن يقال : ماء البئر هو ماء النهر - إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر - إذا اعتبر قرار الماء . اهـ . على أن إرادة العين بالمثل شائمة - كما في قولهم : مثلك لا يبخل - « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله في الخير . قال الراغب : أى لا تحسبن أن تغييرى لحكمي ، حالاً خالاً ، وأنى لم آت بالثاني في الابتداء - هو المعجز ؛ فإن من علم قدرته على كل شيء لا يظنّ ذلك . وإنما تغيّر ذلك يرجع إلى مصلحة العباد ، وأنّ الأليق بهم ، في الوقت المتقدّم ، الحكم المتقدّم . وفي الوقت المتأخّر ، الحكم المتأخّر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فهو يملك أموركم ويدبرها ، وهو أعلم بما يتعبّدكم به من ناسخ أو منسوخ . « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أموركم

« وَلَا نَصِيرٌ » ناصر بمنكم من العذاب .

وقضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة ، هو الجزم والإيقان بأنه تعالى لا يفعل بهم - في أمرٍ من أمور دينهم أو دنياهم - إلّا ما هو خيرٌ لهم ، والعمل بمؤجبه - من الثقة به ، والتوكل عليه ، وتفويض الأمر إليه . من غير إصغاء إلى أقاويل اليهود ، وتشكيكاتها التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ ، حيث أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له مُلك السموات والأرض وسلطانهما ، وأنّ الخلق أهل مملكته وطاعته . عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأنّ له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء . والذي حمل اليهود على منع النسخ إنما هو الكفر والعناد ؛ وإلا فقد وُجد في شريعتهم النسخ بكثرة .

وقد ذكر العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في (إظهار الحق) أمثلة وافرة مما وقع من ذلك في التوراة والإنجيل . فارجع إليها في الباب الثالث منه .

تنبيهان

الأول : قال بمض الفضلاء : نزلت هذه الآية لما قال المشركون أو اليهود : إنّ محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . وفي الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحكم السابق : تهيتُّ النفوس لأرق منه . وهو معنى قوله تعالى « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » لأنّ الخالق تعالى ربّ الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدرجية لا تتم لغيرها - بواسطة الفواعل الاجتماعية - إلّا في قرونٍ عديدة . لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليتها ، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره . وهذه سنة الخالق في الأفراد والأمم على حدٍ سواء . فإنّك لو نظرت في الكائنات الحية - من أوّل الخلية النباتية إلى أرق شكل من أشكال الأشجار ، ومن أوّل رتبة من رتب الحيوانات إلى الإنسان - لرأيت

أن النسخ ناموس طبيعي محسوس في الأمور المادية والأدبية معاً .. ! فإن انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين ، ثم إلى طفل ، فيافع ، فشاب ، فكهل فشيخ ، وما يتبع كل دور من هذه الأدوار - من الأحوال الناسخة للأحوال التي قبلها - يريك بأجلى دليل : أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي محقق . وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكر في الكائنات ، فكيف يستنكر نسخ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة ، وهي في حالة نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى ؟ هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب - وهم في مبدأ أمرهم - بما يلزم أن يتصفوا به وهم في نهاية الرق الإنسانية ، وغاية الكمال البشري .. ؟! وإذا كان هذا يصح ، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال ، وهذا لم يقل به عاقل في الوجود .. ! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود ، فكيف يجوز على الله - وهو أحكم الحاكمين - بأن يكلف الأمة - وهي في دور طفوليتها - بما لا تتحملة إلا في دور شبوبيتها وكهولتها .. ؟! وأي الأمرين أفضل : أشرعنا الذي سن الله لنا حدوده بنفسه ، ونسخ منه ما أراد بعله ، وأتمه - بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفاً منه - لانطباقه على كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لأي حالة من حالات الإنسان .. ؟! أم شرائع دينية أخرى ، حرّفها كهانها ، ونسخ الوجود أحكامها - بحيث يستحيل العمل بها - لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه .. ؟!

الثاني : أسلفنا - في مقدمة التفسير - إلى أن النسخ باصطلاح السلف أعم منه في اصطلاح الخلف ، بما ينبني مراجعته ..

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ،

وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ » (أم) هنا ، إما

متصلة بمادّة الهمزة في (ألم تعلم) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، قادرٌ على الأشياء كلها ، يأمر وينهى كما أراد ... أم تعلموا وتقرّحون بالسؤال - كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ؟ وإما منقطعة - بمعنى بل - للإضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب عِلْمِهِمْ بما ذكر عند ظهور بمض غايل المساهلة منهم في ذلك ، وأمارات التأثير من أقاويل الكفرة ، إلى التحذير من ذلك . ومعنى (الهمزة) إنكار وقوع الإرادة منهم ، واستبعاده . لما أن قضية الإيمان وازعة عنها . وتوجيه الإنكار إلى الإرادة - دون متعلّقها - للمبالغة في إنكاره واستبعاده ، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته . فضلاً عن صدور نفسه . وقوله « وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ » أى : يختره ، ويأخذه لنفسه « بِالْإِيمَانِ » . بمقابله بدلاً منه « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى عدل عن الصراط المستقيم . جملةٌ مستقلة مشتملة على حكم كلى أخرجت مخرج المثل جىء بها لتأكيد النهى عن الاقتراح المفهوم من قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ ، معطوفة عليه . ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدى بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان . فظهر وجه ذكر قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ بعد قوله تعالى « مَا نَنْسَخْ » . فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .

قال الراغب : فإن قيل ما فائدة قوله « وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ » الخ ومعلوم أنه بدون الكفر يضل الإنسان سواء السبيل فكيف بالكفر ؟ قيل معنى ذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل ، قبل ، سواء السبيل ؛ وفي ذلك تنبيه أن ضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان . ومعناه لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدى بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان . فبدأ ذلك ، الضلال عن سواء السبيل . ووجه آخر وهو أنه سمي مماندة الأنبياء عليهم السلام ، بعد حصول ما تسكن النفس إليه ، كفرآ . إذ هى مؤدية إليه . كتسمية المعصير خراً . فقال « وَمَنْ يَتَّبِدَلِ » أى يطلب تبديل الكفر ، أى المماندة التى هى مبدأ الكفر ، بالإيمان أى بما حصل له من الدلالة المتقضية لسكون النفس ، فقد ضل سواء السبيل .

ووجه ثالث وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل . وأنه كن كان على وضوح الطريق فتاه فيه . ووجه رابع وهو أن « سَوَاءَ السَّبِيلِ » إشارة إلى الفطرة التي فطر الناس عليها . والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال « وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » أى بالإيمان المكتسب فقد أبطله ، وضيّع الفطرة التي فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك .

هذا . وما قرناه في الآية من أن الخطاب للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ » ^(١) . وبرشحه قوله « وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين . ورجح الرازى كون الخطاب مع اليهود قال : لأن هذه السورة من أول قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » حكاية عنهم ومحااجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم في السياق ، وقد قص تعالى عنهم سؤال النبي ﷺ بقوله « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا » الآية ، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالإيمان ، وهم بمعزل من الإيمان ، إعراضهم عنه ، مع تمكنهم منه ، وإشارتهم للكفر عليه . كما أن إضافة الرسول إليهم باعتبار أنهم من أمة الدعوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا »

(١) [٥ / المائدة / ١٠١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

علة ود « مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة ما طابقه من التوراة « فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا » أى أعرضوا عما يكون منهم من الجهل والمداوة فلا تجازوهم « حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » وهو الإذن في قتالهم وإجلالهم « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فينتقم منهم إذا آن أوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ

مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ» أى ثوابه

«عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فلا يضيع عنده عمل عامل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ،

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَقَالُوا » أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ

هُودًا أَوْ نَصَارَى » نشر لما لفته الواو فى « وَقَالُوا » ، واليهود جمع هائد ، كهود جمع

عائد . وقرئ « إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » . « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ » جملة ممتضة

مبينة لبطلان ما قالوا . والأمانى جمع أمنية وهى ما يمتنى . كالأعجوبة والأضحوكة . فإن قيل :

قولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » أمنية واحدة ، فلم قال : أمانيتهم ؟ أجيب : بأن الجمع باعتبار

صدوره عن الجميع . وأجاب صاحب الانتصاف بأنهم لشدة تمنيتهم لهذه الأمنية ومعاودتهم

لها وتأكدتها فى نفوسهم ، جمعت . ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ،

والجمع يفيد ذلك ، وإن كان مؤداه واحدا . ونظيره قولهم : معى جياغ . فجمعوا الصفة . ومؤداهما

واحد ، لأن موصوفها واحد ، تأكيذا لثبوتها وتمسكها . وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » ^(١) فإنه جمع (قليل) وقد كان الأصل إفراده فيقال « لشِرْذِمَةٌ قليلة » كقوله تعالى « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ » ^(٢) لولا ما قصد إليه من تأكيدهم على القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيـد ، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد ، فنقل إلى تأكيـد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه ، نقلاً مجازياً بديعاً . فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان . والله الموفق « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة « إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » في دعواكم . قال الرازي : دلت الآية على أن المدعى سواء ادعى نفيّاً أو إثباتاً ، فلا بد له من الدليل والبرهان ، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد ، قال الشاعر :

من ادّعى شيئاً بلا شاهدٍ لا بد أن تبطل دعواه

انتهى كلام الرازي . وسبقه إلى ذلك الزمخشري حيث قال : وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه ، فهو باطل غير ثابت . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« بَلَىٰ » إيجاب لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره . وإنما عبر عن النفس بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ، وجمع المشاعر ، وموضع السجود ، ومظهر آثار الخضوع . أو المعنى : من أخلص توجهه وقصده ، بحيث لا يلوى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها : . . . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

عزيمته إلى شيء غيره « وَهُوَ مُحْسِنٌ » في عمله ، موافق لهديه ﷺ ، وإلا لم يقبل ، ولذا قال ﷺ (١) « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم « فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » وهو عبارة عن دخول الجنة . وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل . « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من حقوق مكروهه « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » من فوات مطلوب . والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى « مَنْ » كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ يَبْتَلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ » وقالت النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ . بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه ، إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . ومعنى « عَلَىٰ شَيْءٍ » أى أمر يعتمد به من الدين « وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ » الواو للحال . والكتاب للجنس . أى قالوا ذلك وحلهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل ، أو غيرها من كتب الله ، وآمن به ، أن لا يكفر بالباقي . لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني ، شاهد بصحته . وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً « كَذَلِكَ » أى مثل ذلك الذى سمعت به على ذلك المنهاج « قَالَ » الجمله « الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » لا علم عندهم ولا كتاب . كمبدة الأصنام . قالوا لأهل كل دين « مِثْلَ قَوْلِهِمْ » ليسوا على شيء . وهذا توبيخ عظيم ، حيث نظموا أنفسهم ، مع علمهم ،

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٠ - كتاب الأفضية ، ح ١٨ عن عائشة قالت : إن رسول الله

ﷺ قال . . . (طبعنا).

في سلك من لا يعلم « فَأَلَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى يفصل بينهم بقضائه العدل ، فيحكم بين الحق والمبطل فيما اختلفوا فيه . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »^(١) وكما قال تعالى « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ »^(٢) . قال الرازى : واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ ، فإن كل طائفة تكفر الأخرى . مع اتفاقهم على تلاوة القرآن . انتهى .

فهاهنا تسكب المبرات بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامى بالكفر ، لا بسنن ولا قرآن ، ولا لبيان من الله ولا لبرهان ، بل لما غلت مراجل العصبية في الدين ، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين ،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف . ونهى عن الفرقة والاختلاف . فقال تعالى « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا »^(٣) . وقال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ »^(٤) . وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٠٣] ونصها : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

وَاخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ^(١) . وقال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » ^(٢) . وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، و عما مضت عليه جماعة المسلمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا » إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك . ولما وجه تعالى الذم فيما سبق في حق اليهود والنصارى ، ذبله بزم المشركين في قوله « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم وجهه بهذه الآية أيضاً المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأحبابه من مكة ، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام ، وصدوم أيضاً عنه ، حين ^(٣) ذهب إليه النبي ﷺ

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٥] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) هذا حديث جم الفائدة عظيم القدر يعتبر من أهم الوثائق التاريخية في سيرة الرسول الأعظم ﷺ . وقد عني الإمام البخاري به عنايته بكل عظيم . فأخرجه

في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٠٦ - باب من أشعر وقلد بذى الحليفة ثم أحرم . =

وأصحابه من المدينة عام الحديبية. وكل هذا تخريب للمسجد الحرام ، لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه ، سعى في تخريبه . وأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنه رسول الله ﷺ وأصحابه . واستحذوا عليه بأصنامهم وأننادهم وشركهم ، كما قال تعالى « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعْبُدَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْإِتْمَانُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (١) وقال تعالى « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ » إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ » (٢) وقال تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَكْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ » (٣) فإذا كان من آمن بالله واليوم الآخر الخ مصدوداً عنه ، مطروداً منه ،

= وفي : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١ - باب ما يجوز من الشروط في الإسلام .

١٥ - باب ما يجوز من الشروط في الجهاد .

وفي : ٦٤ - كتاب المغازي في ثلاثة مواضع : عن علي بن عبد الله .

وعن عبد الله بن محمد .

وعن إسحاق .

وإن أطول طريق له هو الذي أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب ما يجوز

من الشروط في الجهاد ، وقد استغرق سرده ست صفحات من الصحيح .

فلا يفوتك أيها القارئ البصير مطالعته والتفقه فيه فإن فيه علماً .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤]

(٢) [٩ / التوبة / ١٧ و ١٨] .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَكْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ ، وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ =

فأىّ خراب له أعظم من ذلك . والمهارة إحياء السكان وشغله بما وضع له . وليس المراد بهمارته ، زخرفته وإقامة صورته فقط ، إنما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعته عن الدنس والشرك . وإنما أوقع المنع على المساجد ، وإن كان المنوع هو الناس لما أن المال عائد لها . ولا يقال : كيف قيل مساجد والمراد المسجد الحرام فقط ؟ لأنه لا بأس أن يحجى الحكم عاما وإن كان السبب خاصا ، كما تقول ، لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن آذى الصالحين ؟ وكما قال تعالى « وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ »^(١) والنزول فيه واحد . وقوله « أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، ويدلّ لهم المشركين ، حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفا . يخاف أن يؤخذ فيعاقب . أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنهم من دحول المسجد الحرام . ونادى فيهم عامّ حجّ أبو بكر رضى الله عنه « ألا لا يحجن بعد العام مشرك » . حجج النبي ﷺ من العام الثاني ظاهرا على المسجد الحرام ، لا يجترى أحد من المشركين أن يحجج ويدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، المشار إليه بقوله تعالى « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » لأن الجزء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين صدّوا عنه « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله ، والطواف به عريا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله . وفي الآية وجه آخر وهو أن الآية في ذم اليهود ، تبعاً للسابق واللاحق ، وما جنّوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم ، وقتل وسبى منهم وأسروهم

= لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .
(١) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

وبقوا في الأسر البائلي سبعين سنة ؛ كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته . وفي قوله تعالى «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ» إشارة إلى رجوعهم إليه بعد الأسر على تخوف من العدو ومذلة لصقت بهم . وهو وجه وجيه . لأن لفظ «سمى» يرشد إلى ذلك . كما أن مفهومها يشعر بدم القائمين على الخراب بالأولى وهم النصارى ، حينما تمكنت سلطتهم انتقاما من أعدائهم اليهود .

روى ابن جرير عن مجاهد ، قال في الآية : هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى . ويمنون الناس أن يصلوا فيه . وقال قتادة : حملهم بغض اليهود على أن أعانوا مختصر البائلي المجوسى على تخريب بيت المقدس . وتدل على أن أما كن العبادة تصان وتحترم ، لأنها المدرسة العامة التي تتلى فيها الحكم والأحكام والإرشاد إلى سبل السلام .

وقد ورد الحديث بالاستمادة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فيما رواه الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة قال كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث حسن وليس في شيء من الكتب الستة ، وليس لصحابيته ، وهو بُسر بن أرطاة (ويقال ابن أبي أرطاة) حديث سواء ، وسوى حديث : لا تقطع الأيدي في الفزو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ،

إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » بيان لشمول ملكوته لجميع الآفاق ، المتسبب عنه سعة علمه . وفي ذلك تحذير من المعاصي وزجر

عن ارتكابها . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » نظير قوله « إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »^(١) . وكقوله تعالى « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »^(٢) وقوله « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ »^(٣) وقوله « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا »^(٤) أى عم كل شيء بعلمه وتديره وإحاطته به وعلوه عليه .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] ونصها : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » يريد الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله . فأكذب الله تعالى جميعهم في دعواهم وقولهم : إن لله ولداً . فقال « سُبْحَانَهُ » أى تقدس وتنزه عما زعموا تنزهها بليفاً . وكلمة « بَلْ » للإضراب عما تقتضيه مقالهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات . أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ، والتنوين فى « كُلٌّ » عوض عن المضاف إليه . أى كل ما فيها ، كائناً ما كان من أولى العالم وغيرهم « لَهُ قَانِتُونَ » منقادون ، لا يستمصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء . ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد .

قال الراغب فى تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفي ذلك . وبيانها : هو أن لكل موجود فى العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكالاً أوجد لأجله . وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض ، كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، والسكين لقطع مخصوص ، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشى فى حال ، والرجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض فى الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه ، لئلا لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه . ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلاقاً ، لئلا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان . ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لا تحاذه الولد لنفسه معنى . ولهذا قال « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » أى هو منزّه عن السبب المتقضى للولد .

ثم لما كان اقتناء الولد لفقرٍ ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه - بين تعالى بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أنه لا يتوهم له فقر ، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدُّ لفقره ، فصار في قوله « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » دلالة ثانية . ثم زاد حجة بقوله « قَانِتُونَ » وهو أنه لما كان الولد يمتد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ »^(١) بين أن كل ما في السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً . كقوله « يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »^(٢) وقوله « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب : إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى ؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة : كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله ، حتى إنهم قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان ، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجه أي مخدومه . وكانوا يقولون للملائكة : آلهة .

(١) [١٦ / النحل / ٧٢] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

كما قالت العرب للشمس : إلهة . وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماءنا بقولهم : الله محب ومحبوب ، ومريد ومراد ونحو ذلك من اللفاظ . كما يقال للسلطان : الملك . وقولُ الناس : رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف . ويقوى ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله ، وأن عيسى كان يقول : أنا ذاهب إلى أبي . ونحو ذلك من اللفاظ . ثم تصور الجهلة منهم ، بأخرة ، معنى الولادة الطبيعية . فصار ذلك منهباً عن التفوه به في شرعنا ، تنزهاً عن هذا الاعتقاد ، حتى صار إطلاقه ، وإن قصد به ما قصده هؤلاء ، قرين الكفر ، اه كلام الراغب رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق . وكل من فعل مالم يسبق إليه يقال له : أبدع . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبدع ، لأنه يأتى في دين الإسلام ، مالم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضى الله عنهم . وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبههم في ولادة عيسى بلا أب . وعلم عزيز بالتوراة بلا تعلم . وتقرير الحجة : إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها . فلا يبعد أن يوجد أحداً بلا أب ، أو يعلم بلا واسطة بشر . وقال الراغب : ذكر تعالى في هذه الآية حجة رابعة . شرحها : إن الأب هو عنصر للابن . منه تكون . والله مبدع الأشياء كلها ، فلا يكون عنصراً للولد ، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلاً . وقوله تعالى : « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى إذا أراد أمراً . والقضاء إنفاذ المقدّر . والمقدر ما حدث من مطلق المعلوم . قال الراغب : القضاء إتمام الشيء قولاً أو فعلاً ، فمن القول آية « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » ^(١) (١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ =

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ ^(١) وَمِنَ الْفِعْلِ قَوْلُهُ « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » ^(٢) وَقَضَىٰ فُلَانٌ دِينَهُ ، وَقَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَانْقَضَىٰ الْأَمْرُ . (ثم قال) ونبه بقوله « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » على حجة خامسة وهو أن الولد يكون بنشوء وتركيب . حالاً بمد حال . وهو إذا أراد شيئاً ، فقد فعل بلا مهلة . ولم يرد بـ « إذا » حقيقة الزمان ، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان . ولم يرد أيضاً بـ « كن » حقيقة اللفظ ، ولا بالفاء التعميق الزماني . بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يترأى لنا به سرعة الفعل وتماه . وذ كر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل ، والأمر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل ، والقول إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجاداً ، ولفظ « كُنْ » لعموم معناه واختصار لفظه ، ثم قال « فَيَكُونُ » تنبيهاً لأنه لا يمتنع عليه شيء يريد إيجاداً ، و « كُنْ فَيَكُونُ » وإن كان خرجها مخرج شيئين ، أحدهما مبني على الآخر ، فهو في الحقيقة شيء واحد . انتهى .

والذين ذهبوا إلى أن المراد بـ « كُنْ » حقيقة اللفظ ، ورد عليهم سؤال مشهور . وهو : إن « كُنْ » لفظ أمر ، والأمر لا يكون إلا لوجود . فبعضٌ أجاب بأنه أمر للشيء في حال تكونه لا قبله ولا بعده . وبعضٌ قال : هو أمر لمعلوم له ، وذلك في حكم الوجود وإن كان معدوم الذات . وبعضٌ قال : هو أمر للمعدوم . قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الوجود . ولهم أجوبة أخرى أكثر تكلفاً وتعجلاً .

= وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(١) [١٧ / الإسراء / ٤] ونصها : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَمْلُنَّ عُلوًّا كَبِيرًا .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَافِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وقد سئل شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ « كُنْ » موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . وإن كان معدوماً ، فكيف يتصور خطاب الممدوم ؟ فأجاب بقوله : هذه المسألة مبنية على أصليين : أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلاً من المخاطب ، بل هو الذي يكون المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة أو إرادة أو وجود له . وبين خطاب التكليف الذي يطلب به من الأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة . وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته . إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس . هل يصح أن يخاطب به الممدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده . وكذلك تنازعوا في الأول هل هو خطاب حقيقى ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ . والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة . والأصل الثانى أن الممدوم فى حال عدمه ، هل هو شىء أم لا ؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شىء فى الخارج وذات وعين ، وزعموا أن الماهيات غير مجمولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها . وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة . والذي عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة ؟ إنه فى الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشىء أصلاً ولا ذات ولا عين . وإنه ليس فى الخارج شيئاً أحدهما حقيقة ، والآخر وجوده الزائد على حقيقته . فإن الله أبدع الذوات التى هى الماهيات . فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجمول ومبدع ومبدوء له سبحانه وتعالى . لكن فى هؤلاء من يقول : الممدوم ليس بشىء أصلاً ، وإن سمي شيئاً باعتبار ثبوته فى العلم ، كان مجازاً . ومنهم من يقول : لا ريب أن له ثبوتاً فى العلم ووجوداً فيه ، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شىء وذات . وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت . كما فرق من قال : الممدوم شىء . ولا يفرقون فى كون الممدوم ليس بشىء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك . إذ قد

اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء وإنما النزاع في الممكن . وعمدة مَنْ جملة شيئاً ، إنما هو لأنه ثابت في العلم ، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض . فإن خُصَّ الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العملي ، وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي ، زالت الشبهة في هذا الباب .

وقوله تعالى « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ^(١) ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه . وبذلك كان مقدراً مقضياً . فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ما شاء . كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وعرضه على الماء . وفي صحيح البخاري ^(٣) عن عمران

(١) [١٦ / النحل / ٤٠] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ١٦ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده . ونصه : عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ . وعقلت ناقتي بالباب . فأناه ناس من بني تميم . فقال « اقبلوا البشرى يا بني تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ؟ قال « كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء . وكتب في الذكر كل شيء . وخلق السموات والأرض » .

فنادى مناد : ذهب ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب . فوالله ! لوددت أني كنت تركتها .

ابن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض . وفي سنن أبي داود^(١) وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبراً عنه ، مكتوباً . فهو شيء باعتبار وجوده العلمى الكلامى الكتابى ، وإن كانت حقيقة التي هي وجوده العيني ليس ثابتاً في الخارج . بل هو عدم محض ونقي صرف . وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات . وقد ذكرها الله سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيه في قوله « اقْرَأْ بِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »^(٢) وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجهاً إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق وكون كما قال « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(٣) فالذى يقال له « كُنْ » هو الذى يراد ، وهو ، حين يراد قبل أن يخلق ، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير . ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره ، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم . فإن قول السائل : إن كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . يقال له هذا إذا كان موجوداً في الخارج وجوده الذى هو وجوده . ولا ريب أن المعلوم ليس موجوداً ، ولا هو في نفسه ثابت . وأما ما علم وأريد وكان شيئاً في العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده في الخارج محالاً ، بل

(١) أخرجه أبو داود في سننه في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٦ - باب في القدر ،

حديث ٤٧٠٠

(٢) [٦٦ / الملق / ٤ - ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٠] .

جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد وجودها في العلم والإرادة . وقول السائل: إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعلوم ؟ يقال له : أما إذا قصد أن يخاطب المعلوم بخطاب يفهمه ويمثله فهذا محال ، إذ من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم والفعل . والمعلوم لا يتصور أن يفهم ويفعل . فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، ولذلك أيضاً يمتنع أن يخاطب المعلوم في الخارج خطاب تكويني . بمعنى أن يمتد أنه شيء ثابت في الخارج وأنه يخاطب بأن يكون . وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالاً . بل هو أمر ممكن . بل مثل ذلك يحده الإنسان في نفسه ؛ فيقدر أمراً في نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب ، الذي قدره في نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته . فإن كان قادراً على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم . وإن كان عاجزاً ، لم يحصل . وقد يقول الإنسان : ليسكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب . فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه . والله سبحانه على كل شيء قدير . وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ يَدَّبَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » من المشركين أو من أهل الكتاب وهو الأظهر . لأن ما تقدم ، كله في حوارهم وردّ أضاليلهم . ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به « لَوْلَا

يُكَلِّمُنَا اللَّهُ « هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى ؟ استكباراً منهم وعتوا
 « أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ » جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله ، آيات ، واستهانة بها
 « كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ » أى هذا الباطل الشنيع فقالوا : أرنا
 الله جهرة . وفى ذلك تسلية للنبي ﷺ بأنه كما تُعْزَّتْ عليه تُعْزَّتْ على من قبله « تَشَابَهَتْ
 قُلُوبُهُمْ » أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى والعماد والتحكم على الأنبياء « قَدْ بَيَّنَّا
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى بالحق . لاتعتريهم شبهة ولا ريبة . وهذا رد لطلبهم الآية . وفى
 تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبئين المفصح عن كمال التوضيح ، مكان الإتيان الذى طلبوه ، ما
 لا يخفى من الجزالة . والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ، ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون
 الحق واليقين . وإنما لم يتعرض لرد قولهم « لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ » إيداناً بأنه من ظهور
 البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا » بالثواب للمؤمنين « وَنَذِيرًا » بالعقاب للكافرين
 « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » ولا نسألك عنهم : ما لهم لم يؤمنوا بمسئد أن بلغت
 وبلغت جهدك فى دعوتهم ؟ كقوله « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »^(١) وفى التعبير
 عنهم بصاحبة الجحيم ، دون الكفر والتكذيب ونحوها ، وعيد شديد لهم ، وإيدان بأنهم
 مطبوع على قلوبهم ، لا يرجى منهم الإيمان . والجحيم ، من أسماء النار وتطلق على النار
 الشديدة التاجع ، وعلى كل نار بعضها فوق بعض ، وعلى كل نار عظيمة فى مهواة ، وعلى
 المكان الشديد الحر .

(١) [١٣ / الرعد / ٤٠] ونصها : وَإِنْ مَأْنُرِبَنَّاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ
 فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » أى لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق . وفيه مبالغة في الإقناط من إسلامهم ، وتنبية على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه ، عليه السلام « قُلْ » لا يتبع رسول الله إلا الهدى و « إِنَّ هُدَى اللَّهِ » أى الذى هو الإسلام « هُوَ الْهُدَى » أى فليس وراءه هدى . وما تدعون إليه ليس بهدى ، بل هو هوى . كما يعرب عنه قوله « وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم الزائفة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم « بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة « مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » بلى أمرك « وَلَا نَصِيرٍ » يدفع عنك عقابه . وإنما أُوثر خطابه ﷺ ليدخل دخولا أوليا من اتباع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكوا بولايتهم ، طمعا فى نصرتهم .

قال الإمام الرازى : فى الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا . فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد . انتهى .

وفى فتح البيان ما نصه : وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه ، والقائمين ببيان شرائعه - ترك الدهان لتاركى العمل بالكتاب والسنة ، المؤثرين لحض الرأى عليهما . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ،
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لما ذكر تعالى ، فيما تقدم ، عدم رضا اليهود والنصارى إلا باتباع ملتهم ، لدعواهم أنهم على حق وأنهم مؤمنون بما لديهم - فقد تعالى دعواهم الإيمان به بأن من أوتي الكتاب فتلاه حق تلاوته فذاك المؤمن به . والمذكورون ممن لم يتله حق تلاوته ، إما عدد من مساوي اليهود أولاً ، وشفعة بدعوى النصارى اتخاذ الولد . ومن كان يعتقد ذلك فأنى له الإيمان ؟ وهل هو ممن يتلو الكتاب حق تلاوته ؟ وكتابه بأمر بتوحيد ربه والشئ مع شريعته وتصديق كل نبي يصدق مامهم ، وقد كفروا بكل ذلك . فجملة « يتلون » حال مقدرة من « هم » أو من « الكتاب » . وجوز أن تكون الآية سيقّت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن . فالضمير في « يتلون » للقرآن . فتكون الآية « الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَبِمَارَزَتْنَاهُمْ بِنِفْقِهِمْ » (١) وكآية « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا » (٢) .

ومن تلاوته حق تلاوته الإيمان بأنه حق من ربهم ، وصبرهم ودرؤهم بالحسنة السيئة ، وإنفاقهم وسجودهم له تعالى : فلايتان مفسرتان لتلاوته حق تلاوته .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٤] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

وعن ابن مسعود : والذي نفسى بيده ! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ،
ويقرأه كما أنزل الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله .
ومثله عن ابن عباس .

وقوله تعالى « أُولَئِكَ » إشارة إلى الموصوفين بإتياء الكتاب وتلاوته كما هو حقه
« يُؤْمِنُونَ بِهِ » محط الفائدة ما يلزم الإيمان به من الرجح . بقرينة قوله « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » حيث اشتروا الضلالة بالهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ)

[١٢٣] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا » أى خافوا « يَوْمًا لَا تَجْزِي » أى لا تغنى « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ »
فيه « شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ » أى فداء « وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ »
أى ينعمون من عذاب الله . وقد مر نظير الآيتين في صدر السورة .

قال القاضى : ولما صدر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها ، والحذر عن إضاعتها
والخوف من الساعة وأهوالها - كرر ذلك وختم به الكلام معهم ، مبالغةً في النصح وإيذاناً
بأنه فذلكم القضية والمقصود من القصة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

« وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » لما عاب سبحانه أهل الضلال ، وكان جلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب ، وبيته الذى بناه أكبر مفاخرهم وأعظم ما تروم - ذكر الجميع ما أنعم به عليه تذكيرا يودى إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبي الأئمة ، الذى لم يخالط عالما قط ، على ما لا يعلمه إلا خواص العلماء . وذكر البيت الذى بناه فجعله عماد صلاحهم ، وأمر بأن يتخذ بعض ما هناك مصلى ، تعظيما لأمره وتفخيمًا لملئ قدره . وفى التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة ، وبعد دعوة بنى إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر - حث على الاقتداء به . وكذا فى ذكر الإسلام والتوحيد ، هز الجميع من يعظمه إلى اتباعه فى ذلك . ذكره البقاعى .

و « إِذِ » منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبي ﷺ بطريق التلوين . أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد ، الوازعة عن الشرك ، فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل . ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على « اذكروا » خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى ، عن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام ، من الأفعال والأقوال ، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم . أى واذكروا إذ ابتلى أبائكم إبراهيم ، فأتتم ما ابتلاه به . فالكم أنتم لا تقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله ، فى إيفاء العهد والثبات على الوعد ، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين ؟ والابتلاء ، فى الأصل ، الاختبار . أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه ، غالباً فعله أو تركه . والاختبار منّا لظهور ما لم نعلم . ومن الله لإظهار ما قد علم . وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفى فى الشاهد والغائب جميعاً ، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى . وقوله تعالى « بِكَلِمَاتٍ » أى بشرائع : أوامر ونواه . والمفسرين أقاويل فيها وفى

تعدادها . قال ابن جرير : ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكره منها أنه المراد على التعمين ، إلا بمحدث أو إجماع . قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له . انتهى .

وعندى أن الأقرب في معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام ، فأسلم لرب العالمين . وابتلاؤه بالهجرة ، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله . وابتلاؤه بالنار فصبر عليها . ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه . ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلم واحتسب . كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته في التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة . ففيهما بيان ما ذكرنا في شأنه عليه الصلاة والسلام . من قيامه بتلك الكلمات حق القيام ، وتوفيتهما أحسن الوفاء . وهذا معنى قوله تعالى « فَأَتَمَّهُنَّ » كقوله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى »^(١) والإتمام التوفية .

« قَالَ » جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الكلام . فكأنه قيل : فما جوزى على شكره ؟ قيل : قال له ربه « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى قدوة لمن بعدك . والإمام اسم لمن يؤتم به . ولم يبعث بعده نبي إلا كان مأموراً باتباع ملته ، وكان من ذريته . كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »^(٢) « قَالَ » أى إبراهيم « وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » أى واجمل من ذريتي أئمة « قَالَ لَا يَنَالُ » أى قد أحبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك . لكن لا ينال « عَهْدِي » أى الذى عهدته إليك بالإمامة « الظَّالِمِينَ » أى منهم . لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين . ففى قوله « لَا يَنَالُ... الخ » إجابة خفية لدعوته عليه السلام . وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة . كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »^(٣) وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه ،

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

لا سيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد . وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقي رفعهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تفلح دعوته ، فضربت عليهم الذلة وما معها ، ولا يجزى أحد عنهم شيئاً ولا هم ينصرون . وقرئ «الظالمون» على أن «عهدي» مفعول مقدم اهتماماً ورعاية للفواصل . وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الظالم ليس بأهل للإمامة . والكشاف أوسع المقال ، في ذلك ، هنا ، وأبدع في إبراد الشواهد . كما أن الشيعة استدلت بها على صحة قولهم في وجوب العصمة في الأئمة ، ظاهراً وباطناً . على ما نقله الرازي عنهم وحاورهم . أقول : إن استدلال الفرقتين على مدعاهما وقوف مع عموم اللفظ . إلا أن الآية الكريمة بمزول عن إرادة خلافة السلطنة والملك .

المراد بالعهد ، تلك الإمامة المسؤول عنها . وهل كانت إلا الإمامة في الدين وهي النبوة التي حرّمها الظالمون من ذريته ؟ كما قال تعالى « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ » ولو دلت الآية على ما ادّعوا لخالفه الواقع . . . فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين . فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة في الدين خاصة . والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تمحل . لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق ؛ أو ذهاب إلى أن الخبر في معنى الأمر بعدم تولية الظالم . كما قاله بعضهم . وهو أشد تمحلاً . ومعلوم أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع ، كما ورد . ومتى زاغ عن ذلك كان ظالماً ، والبحث في ذلك له غير هذا المقام . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَأْكُفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ » أى الذى بناه إبراهيم بأمر القرى . وهم اسم غالب للكعبة . كالنجم

للثريا « مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ » مباءة ومرجماً للحجاج والعمار، يتفرون عنه ثم يثوبون إليه . ومثابة مفعلة . من « الثوب » وهو الرجوع ترميماً إليه بالسكينة . وسر هذا التفضيل ظاهر في انجذاب الأنفذة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها له . فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد . فهو الأولى بقول القائل :

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار . ولا يقضون منه وطرا . بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً
فله كم لها من قتيل وسليب وجريح ! وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح !
ورضى الحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف
والمتالف والمعاطب والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيعه !
ذكر هذه الشذرة (الإمام ابن القيم في أوائل زاد المعاد) .

« وَأَمِنَّا » موضع أمن . كقوله « حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » ^(١)
وكقوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » ^(٢) وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم
وهم آمنون لا يُسَبَّون . وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له . وفي هذا بيان
شرف البيت من كونه محلاً تشاقق إليه الأرواح ولا تقضى منه وطرا ، ولو ترددت إليه كل

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٦٧] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله في قوله « فَاجْمَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ »^(١) إلى أن قال « رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »^(٢) ومن كونه مأمناً لمن دخله . كما بينا .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال^(٣) يوم فتح مكة : « إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض . وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي . ولم يحل لي إلا ساعة من نهار » الحديث . وقوله تعالى « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » قرئ بكسر الخاء ، أمراً معترضاً بين الجملتين الخبريتين . أو بتقدير : وقلنا اتخذوا . وقرئ بفتح الخاء ماضياً معطوفاً على جملة . أى واتخذوه مصلى ، ومقام إبراهيم هو الحرم كله . عن مجاهد . وعنه : هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة . ويقال : هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام . فقد قال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . ولقد تكلفت الأمم شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٠]

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ١٠ - باب لا يحل القتال بمكة

ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ ، يوم افتتح مكة « لا هجرة . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا . فإن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي . ولم يحل لي إلا ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . لا يُعصد شوكة ، ولا ينفّر صيده ، ولا يلقتقط لُقْطَتُهُ إلا من عرفها . ولا يختلي خلاها » .

قال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم . قال « إلا الإذخر » .

قال الراغب الأصفهاني : والأولى أنه الحرم كله . فما من موضع ذكره إلا وهو مصلى أو مدعى أو موضع صلاة .

أقول : كأن الأصل في الآية : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومصلى . إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك ، ودون أن يقال مثلاً : واتخذوا منه مصلى - لوجوه : (أحدها) التنويه بأمر الصلاة فيه والتعظيم لشأنها حيث أفرد ، للعناية بها ، جملة على حدة . (وثانيها) التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة . وما كان مقامه فجدير أن يحترم ويعظم . (وثالثها) التخصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر رباني لا بتشريع بشري ، تمهيداً للأمر باستقباله ، وإلزاماً لمن جادل فيه ، وهم اليهود . وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر رضى الله عنه قال ^(١) : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» قال ابن كثير : ومقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلي عنده الأئمة . وذلك الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه عند بناء البيت ، لما ارتفع الجدار أنه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكما كل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها . وهكذا حتى تم جدران الكعبة . كما جاء بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٣٢ - باب ماجاء في القبلة . ونصه : عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي في ثلاث : فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى . فنزلت : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وآية الحجاب ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنه يكلمن البر والفاجر . فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لمن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . فنزلت هذه الآية .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٩ - باب يزفون . وهو حديث طويل عن ابن عباس يبتدئ فيه بذكر أن أول ما اتخذ النساء المنطق =

قال ابن كثير : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً . ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر عتبة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت ، وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء ، فتركه هناك . ولهذا ، والله أعلم ، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . كما فعل رسول الله ﷺ . فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبماً ، وجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

قال ابن كثير : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر رضي الله عنه . ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة . وقد روى البيهقي بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : إن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقاً بالبيت . ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال سفيان بن عيينة ، وهو إمام المسكين في زمانه : كان المقام من سُمع^(١) البيت على عهد رسول الله ﷺ ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ . قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه . وقال سفيان : لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله . وقال أيضاً : لا أدري أكان لاصفاً بها أم لا . وأثر عائشة المتقدم يدل على أنه كان لاصفاً بها . والله أعلم . وقال الحافظ الشيخ عمر بن الحافظ التقي محمد بن فهد المكي الهاشمي ، في كتاب « إتحاف الوري بأخبار أم القرى » في حوادث سنة سبع عشرة : فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم . فدخل المسجد الحرام واقطع مقام

= من قبل أم إسماعيل . ثم حجى إبراهيم بها وبابنها إسماعيل وهي ترضعه إلى مكة ، وبحث الملك بمقبه عند موضع زمزم حتى ظهر الماء . ومرت بهم رققة من جرم فزلوا في أسفل مكة . ثم شب الغلام وتعلم العربية ، ثم تزوج منهم . ثم مطالمة إبراهيم تركته ، في غيبة إسماعيل ، مرتين . ثم رفعهما القواعد من البيت . الخ . وهو حديث جليل جداً .

(١) السقم ، بالضم : ناحية من الأرض والبيت .

إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة . وعين مكانه الذي كان فيه لما عقاه السيل . فأثني به وربط بلبصق الكعبة في وجهها . وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد ابن الماص بن أمية . فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة ، وكان سيلا هائلا . فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو بالمدينة الشريفة . فهاهنا ذلك . وركب فزعا إلى مكة . فدخلها بعمره في شهر رمضان . فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف . ثم قال : أنشد الله عبدا عنده علم في هذا المقام . فقال المطلب ابن أبي وداعة السهمي رضى الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندي علم ذلك . فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر . ومن موضعه إلى زمزم بمقاط^(١) . وهى عندي في البيت . فقال له عمر : اجلس عندي وأرسل إليها من يأتي بها . فجلس عنده وأرسل إليها فأثني بها . فقيس ، ووضع حجر المقام في هذا المحل الذي هو فيه الآن . وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . انتهى « وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ » أى أمرناهما . وتعديته ؛ « إلى » لأنه في معنى : تقدمنا وأوحينا « أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي » أى عن كل رجس حسى ومعنوى : فلا يفعل بحضرته شيء لا يليق في الشرع . أو ابنياء على طهر من الشرك . كما قال تعالى « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »^(٢) أو إخلاصه للطائفين وما بعده ، لئلا يقشاه غيرهم . فاللام صلة « طهرا » على هذا . وعلى ما قبله ، لام العلة . أى طهراه لأجلهم . وقوله تعالى « لِلطَّائِفِينَ » أى حوله . وعن سعيد بن جبير : يعنى من أتاه من غربة « وَالْمَاكِفِينَ » يعنى أهله المقيمين فيه أو المعتكفين . كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أرانى إلا مكلم الأمير : أن اُمنع الذين ينামون في المسجد الحرام . فإنهم يُجنبون ويُحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل

(١) المِطَاط : الحَبَل الصغير الشديد الفتل ، يكاد يقوم من شدة قتله . وجمعه مُطَطٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٦] .

عنهم فقال : هم الماكفون . ورواه عبد بن محمد في مسنده . وقد ثبت في الصحيح^(١)
أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب .
وفي الكشف : يجوز أن يريد بالماكفين الواقفين . يعنى القائمين في الصلاة .
كما قال للطائفتين والقائمين « والرُّكْعُ السُّجُودُ » جمع راكم وساجد والمعنى للطائفتين
والصليين . لأن القيام والركوع والسجود هيأت المصلى . ولتقارب الآخرين
ذاتنا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما . وجمع صفتين جمع سلامة ، وآخرين جمع
تكسير لأجل المقابلة . وهو نوع من الفصاحة . وآخر صيغة «فُعُول» على «فُعَل» لأنها
فاصلة . والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيئته المؤسس على عبادته
وحده لا شريك له . ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَمَاءُ كَفُ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » ففي ذلك تبكيت
لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ
مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّمُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ
إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا » أى الموضع الذى جعلت فيه بيتك وأمرتنى

(١) أخرجه البخارى في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٣٥ - باب الأمن وذهاب الروع

في المنام .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

بأن أسكنته من ذريتي « بَلَدًا » أى يأنس من يحمل به « ءَامِنًا » أى من الخوف . أى لا يُرْعَبُ أهلُه . وقد أجاب الله دعاءه . كقوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا »^(١) وقوله « أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ »^(٢) إلى غير ذلك من الآيات . وصحت أحاديث متعددة بتحريم القتال فيه . وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول^(٣) : « لا يحمل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » فهو آمن من الآفات ، لم يصل إليه جبار إلا قسمه الله . كما فعل بأصحاب الغيل . وقوله تعالى فى سورة إبراهيم « هَذَا الْبَلَدُ ءَامِنًا »^(٤) بتعريف البلد مع جعله صفة لهذا ، خلاف ما هنا ، إما أن يحمل على تعدد السؤال بأن تكون الدعوة الأولى المذكورة هنا ، وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا . كأنه قال : اجعل هذا الوادى بلدا آمنا . لأنه تعالى حكى عنه أنه قال « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ »^(٥) فقال ، ههنا ، اجعل هذا الوادى بلدا آمنا . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا . فكَانَ قال : اجعل هذا

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٩ / المنكوت / ٦٧]

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٩ (طبعنا) .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن وسلامة. وإما أن يحمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر . فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين . وقد حكى ذلك هنا . واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن ، اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال اجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، هذا خلاصة ما حققوه .

وعندى أن السؤال والمسؤول واحد . إلا أنه تفنن فى الموضعين . فحذف من كل ما أثبتته فى الآخر احتياكا . والأصل : رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا . وبه تتطابق الدعوتان على أبدع وجه وأخلصه من التكلف . على ما فيه من إفادة البالغة . أى بلدا كاملا فى الأمن : كأنه قيل : اجعله بلدا معلوم الاتصاف بالأمن مشهورا به كقولك : كان هذا اليوم يوما حارا . وفى القاموس وشرحه التاج : البلد والبلدة علم على مكة ، شرفها الله تعالى ، تفخيما لها . كالنجم للثريا . وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة خالية أو مسكونة . وفى النهاية : البلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . « وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ » إنما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك ، لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر ، فاستجاب الله تعالى له ، فصارت يجبى إليها ثمرات كل شئ « مَن آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بدل « من أهله » ، بدل البعض ، يعنى : ارزق المؤمنين من أهله خاصة . وإنما خصهم بالدعاء إظهارا لشرف الإيمان ، واهتماما بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب فى المسألة . حيث ميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين ، فى باب الإمامة ، فى قوله « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » بعد أن سأل ، عليه السلام ، جعلهما فى ذريته ، فلا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء ، وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان ، وزجر عن الكفر « قَالَ » الله تعالى معلما أن ثمولى الرحمانية بأمن الدنيا ورزقها لجميع عمرة الأرض « وَمَن كَفَرَ » أى أنيله أيضاً ما أهتمتكم من الدعاء بالأمن والرزق ، فهو عطف على مفعول فعل محذوف ، دل الكلام عليه . ويجوز أن تكون « مَن » مبتدأ موصولة أو شرطية . وقوله « فَأَمْتَعُهُ » خبره أو جوابه . وعبر عن رزقه

بالتمعة التي هي الزاد القليل والبلغة، تحسيساً له ، وأكّد ذلك بقوله « قَلِيلًا » تميّماً قليلاً ، أو زماناً قليلاً « ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ » أى أُلجّته إليه كما قال تعالى « يَوْمَ يُدْفَنُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا »^(١) و « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »^(٢) وقرئ فأتمته قليلاً ثم اضطره ، بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام ، وفي « قال » ضميره « وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ » النار أو عذابها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » أى اذكر بناءهما البيت ورفعهما القواعد منه . وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية ، لاستحضار صورتها المجسية . والقواعد : جمع قاعدة ، وهى الأساس والأصل لما فوقه ، وقال الزجاج : القواعد : أساطين البناء التى تتمده « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » على إرادة القول أى يقولان ، وترك مفعول « تقبل » ليعم الدعاء وغيره من القُرْبِ والطاعات ، التى من جملتها ما هما بصدد من البناء . كما يعرب عنه جمل الجملة الدعائية الحالية « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ » لدعائنا « الْعَلِيمُ » بضمائرنا ونياتنا . وفى صحيح البخارى^(٣) عن ابن عباس فى حديث مجىء إبراهيم لتفقد إسماعيل عليهما السلام ، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله قد أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينى ؟

(١) [٥٢ / الطور / ١٣] .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٨] ونصها : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٤٩ .

قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ » مخلصين لك أوجهنا . من قوله : أسلم وجهه لله . أو مستسلمين ، يقال : أسلم له وسلم ، واستسلم ، إذا خضع وأذعن . والمعنى : زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا » واجعل من ذريتنا « أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » و « من » للتبويض ، أو للتبيين ، كقوله « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ »^(١) وإنما خصنا الذرية بالدعاء ، لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأنبا « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » أى عرفنا مقبداتنا ، جمع منسك بفتح السين وكسرهما ، وهو المتعبد ، وشرعة العبادة . يقع على المصدر والزمان والمكان ، من النسك مثلثة وبضمين وهو العبادة والطاعة ، وكل ما تقرب به إلى الله تعالى . ومن المفسرين من حمل المناسك على مناسك الحج لشيوعها في أعماله ومواضعه . فالإراءة حينئذ لتعريف تلك الأعمال والبقاع . وقد رويت آثار عن بعض الصحابة والتابعين تتضمن أن

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] ونصها : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

جبريل أَرى إبراهيمَ الناسك وأن الشيطان تعرض له ، فرماه عليه السلام . قالوا : وفي ذلك ظهور لشرف عمل الحج ، حيث كان متلقًى عن الله بلا واسطة ، لكونه علماً على آتى يوم الدين ، حيث لا واسطة هناك بين الرب والعباد . والذي عول عليه أئمة اللغة ماذكرناه أولاً من حمل الناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، والازوم لما يرضيه ، وجعل ذلك عاماً لكل ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام . أى علمنا كيف نعبدك وأين نعبدك ، وبماذا نتقرب إليك ، حتى نخدمك كما يخدم العبد مولاه ؟ « وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا الدعاء استجابة لما فرط من التقصير . فإن العبد، وإن اجتهد في طاعة ربه ، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه ، إما على سبيل السهو والنسيان ، أو على سبيل ترك الأولى . فالدعاء منهما ، عليهما السلام، لأجل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أى من ذرية إبراهيم ، وهم العرب من ولد إسماعيل . وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة ، فبعث في ذريته رسولاً منهم ، وهو محمد ، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، إلى الناس كافة . وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم . ومراده هذه الدعوة . وذلك فيما خرجه الإمام أحمد^(١) عن العرابض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : إني ، عند الله ، لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لنجدل في طينته ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده . بالجزء الرابع بالصفحة رقم ١٢٧ (طبعة الحلبي).

وسأنبئكم بأول ذلك : أنادعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بنى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين . وأخرج أيضاً نحوه عن أبي أمامة ^(١) ، قال : قلت : يا نبي الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بنى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً حتى أفصح باسمه عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، حيث قال « إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ^(٢) وهذا معنى قوله في الحديث : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم . وقوله فيه : ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منها قصور الشام . قيل : كان منها ما رآته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وإرهاصاً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا يكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم - إذا نزل بدمشق - بالنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء في الصحيحين ^(٣) « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك » وفي صحيح البخاري « وهم بالشام » ^(٤) وقوله تعالى « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءيَاتِنَا » هي إما الفرقان الذي أنزل على

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده . بالجزء الخامس بالصفحة رقم ٢٦٢ (طبعة الحلبي).

(٢) [٦١ / الصف / ٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٣) يشير إلى حديث المغيرة بن شعبه . وهذه طريقه :

أخرج البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٣ - باب حدثني محمد بن الثني عن المغيرة =

النبي ﷺ ، التلوة عليهم ، وإما الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته تعالى . ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكركم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها . وقوله تعالى « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى الكامل الشامل لكل كتاب وهو القرآن و« الْحِكْمَةَ » هى السنة ، فسرّها بها كثيرون . وعن مالك : هى معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له . وقوله تعالى « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس ، كقوله « وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ »^(١) .

= ابن شعبة عن النبي ﷺ قال « لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٠ - باب قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ... الخ ونصه : عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال « لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٩ - باب قول الله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ . ونصه : عن المغيرة بن شعبة قال : سمعت النبي ﷺ يقول « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله » .

ورواه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٧١ . (طبعنا) ونصه : عن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون » .

أما نص المؤلف فهو مطابق لنص حديث ثوبان الذى انفرد به مسلم وأخرجه فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٧٠ . (طبعنا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ =

ولما ذكر عليه السلام هذه الدعوات، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، والعزیز ذو العزة وهی القوة ، والشدة ، والغلبة ، والرفعة . و « الحكيم » بمعنى الحاكم ، أو بمعنى الذى يحكم الأشياء ويتقنها ، وكلاهما من أوصافه تعالى .

قال الراغب : إن قيل ما وجه الترتيب فى الآية ؟ قيل : أما الآيات فهى الآيات الدالة على معجز النبى ﷺ . وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن . وأما الترتيب ، فلأن أول منزلة النبى ﷺ بعد ادعاء النبوة ، الإتيان بالآيات الدالة على نبوته ، ثم بعده تعليمهم الكتاب ، أى تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط ، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة ، وهى أشرف منزلة السلم ، ولهذا قال « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »^(١) ثم بالتدرج فى الحكمة يصير الإنسان مزكى أى مطهراً مستصلاًحاً لمجاورة الله عز وجل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » هذا إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذى هو ملة إبراهيم ، وهو ما جاء به محمد

= الْمُنْكَرُ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] ونصها : يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي ذلك تعريض بماعندى أهل الكتاب والمشركون ، أى لا يرغب عن ملته الواضحة الفراء إلا من سفه نفسه ، أى حملها على السفه وهو الجهل .

قال الراغب : وسفه نفسه أبلغ من جهلها ، وذلك أن الجهل ضربان : جهل بسيط ، وهو أن لا يكون للإنسان اعتقاد فى الشيء . وجهل مركب وهو أن يعتقد فى الحق أنه باطل ، وفى الباطل أنه حق . والسفه أن يعتقد ذلك ويتجرى بالفعل مقتضى ما اعتقده . فبين تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم ، فإن ذلك إسفَه نفسه ، وذلك أعظم مذمة ، فهو مبدأ كل نقیصة . وذلك أن من جهل نفسه ، جهل أنه مصنوع ، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه ، وإذا لم يعلم أن له صانعاً ، فكيف يعرف أمره ونهيه ، وما حسنه وقبحه ؟ ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق جل ثناؤه ، قال « وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١) وقال « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » (٢) .

وقوله تعالى « وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا » أى اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ، وتكثير الأنبياء من نسله ، وإعطاء الخلّة ، وإظهار المناسك عليه ، وجعل بيته آمناً ، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة . « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » الذين لهم الدرجات العلى ، وفى هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح ، حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة ، لعلو رتبته عند الله تعالى فى الدارين ، وفى ذلك أعظم ترغيب فى اتباع دينه ، والاهتداء بهديه . وأشدّ ذم لمن خالفه .

قال الراغب : إن قيل كيف وصفه بالاصطفاء فى الدنيا ، وبالصلاح فى الآخرة ، والنظر يقتضى عكس ذلك . فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل ، وذلك يكون فى الدنيا . والاصطفاء

(١) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ١٩] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

حال يستحقه العبد بكونه صالحا ، فحقه أن يكون في الآخرة ؟ قيل : الاصطفاء ضربان ، أحدهما كما قلت ، والآخر في الدنيا ، وهو اختصاص الله ببعض المبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه ، وهو المعنى بقوله « شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ »^(١) ، والصالح ، وإن اعتبر بأحوال الدنيا ، فمجازى به في الآخرة ، فبين تعالى أنه مجتبي في الدنيا لما علم الله من حكمته فيه ، ومحكوم له في الآخرة ، بصلاحه في الدنيا ، تنبيهاً أن الثواب في الآخرة لم يستحقه باصطفائه في الدنيا ، وإنما استحقه بصلاحه فيها . ويجوز أن يكون قوله « في الآخرة » أى في أفعال الآخرة لمن الصالحين . ويجوز أنه عني بقوله « في الدنيا » حال بقاءه ، و « في الآخرة » أى حال وفاته ، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه ، الذى رغب إلى الله تعالى فيه بقوله « وَاجْمَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »^(٢) ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب : ظالم ، ومقتصد ، وسابق ، عبر عن السابق بالصالح ، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح . انتهى .

وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبي الكريم ، وإقامة للحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على « اذكروا » في قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ »^(٣) .

(١) [١٦ / النحل / ١٢١] ونصها : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٠] ونصها : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

و [٢ / البقرة / ٤٧] و [٢ / البقرة / ١٢٢] ونصهما : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا

نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

ولما ذكر إمامته عليه السلام ، ذكر ما يؤتم به فيه ، وهو سبب اصطفاؤه وصلاحه ، وذلك دينه ، وما أوصى به بنيه ، وما أوصى به بنوه بنهم سلفاً عن خلف ، ولا سيما يعقوب عليه السلام المنوء بنسبة أهل الكتاب إليه فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ)

« إِذْ » أى اصطفيناه لأنه « قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ » أى لربك ، أى انقذ له ، وأخلص نفسك له . وأستقم على الإسلام ، واثبت على التوحيد « قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ » وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقى ، وليس فى ذلك مانع ، ولا ما جاء ما يوجب تأويله . وقول بعضهم : هو تمثيل ، والمعنى : أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام - ليس بشيء . ولا معنى لحل شيء من الكلام على المجاز ، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ » شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره ، إثر بيان كماله فى نفسه . والتوصية التقدم إلى الغير فى الشيء النافع المحمود عاقبته . والضمير فى « بها » إما عائد لقوله « أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ » على تأويل الكلمة والجملة . ونحوه رجوع الضمير فى قوله « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً »^(١) إلى قوله « إِنَّنِي بَرَأَئِمَّا نَعْبُدُونَ » [٤٣/ الزخرف / ٢٨] ونصها : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي»^(١) وقوله «كَلِمَةً» دليل على أن التأنيت على تأويل الكلمة . وإما عائد إلى المسئلة في قوله «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ» ، وأيد الأول بكون الموصى به مطابقاً في اللفظ لأسلمت ، وقرب المعطوف عليه . ورجح القاضي الثاني لكون المرجع المذكوراً صريحاً . ورد الإضمار إلى المصرح بذكره ، إذا أمكن ، أولى من رده إلى المدلول والمفهوم . ولكون اللمة أجمع من تلك الكلمة . والكل حسن . وقوله تعالى «بَنِيهِ» تفيد صيغة الجمع أن لإبراهيم عليه السلام من الولد غير إسماعيل وإسحق . وقرأت في سفر التكوين من التوراة^(٢) أن إبراهيم عليه السلام تزوج ، بعد وفاة سارة أم إسحق ، امرأة أخرى اسمها قَطُورَةُ ، فولدت له : زِمْرَانُ وَيَقْشَانُ وَمَدَّانَ وَمِذْيَانَ وَيَشْبَاقَ وَشُوحَا ، فعلى هذا تكون بنوه عليه السلام ثمانية «وَيَمْتُوبُ» معطوف على إبراهيم ، ومفعوله محذوف تقديره : ووصى يعقوب بنيه . لأن يعقوب أوصى بنيه أيضاً كما أوصى إبراهيم بنيه . ودليل ذلك قوله تعالى «إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي»^(٣) كما سيأتي . وقرئ «ويعقوب» بالنصب عطفًا على بنيه ، ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ، ونافلته يعقوب . وقد ولد يعقوب في حياة جده إبراهيم ، وأدرك من حياته خمس عشرة سنة ، كما يستفاد من سفر التكوين من التوراة ، فإن فيها أن إبراهيم عليه السلام ، ولد له إسحق ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٦ و ٢٧] ونصهما : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ لِمِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، ٢١ ونصهما : وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قَطُورَةُ . فولدت له زِمْرَانُ وَيَقْشَانُ وَمَدَّانُ وَمِذْيَانُ وَيَشْبَاقُ وَشُوحَا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وهو ابن مائة سنة^(١) ، ومات وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ، وكان لإسحق ، حين ولد له يعقوب وعيسو ، ستون سنة ، فاستفيد من ذلك ما ذكرناه . ولوجود يعقوب في حياة جده يفهم سر ذكره في قوله تعالى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ »^(٢) وفي آية أخرى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »^(٣) . « يَا بَنِيَّ » أى قال كل من إبراهيم ويعقوب ، على القراءة الأولى . وعلى الثانية : قال إبراهيم : يَا بَنِيَّ « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ » أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان ، وهو دين الإسلام ، الذى لادين غيره عند الله تعالى « فَلَا » أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم : لا « تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » وفي هذه الجملة إيجاز بليغ . والمراد : الزموا الإسلام ، ولا تفارقوه حتى تموتوا . وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال ، أى لا تموتوا على حالة إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام . فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، لأنه هو المقدور . فلا يقال : صيغة النهي موضوعة لطلب الكف عما هو مدلولها ، فيكون المفهوم منه النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام ، وذا ليس بمقصود ، لأنه غير مقدور . وإنما المقدور فيه هو الكون على خلاف حال الإسلام ، فيعود النهي إليه ، ويكون المقصود النهي عن الانصاف بخلاف

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

و [٢٩ / المنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٢] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ .

حال الإسلام وقت الموت ، لما أن الامتناع عن الانصاف بتلك الحال يتبع الامتناع عن الموت في تلك الحال. فإما أن يقال : استعمل اللفظ الموضوع للأول في الثاني ، فيكون مجازاً . أو يقال : استعمل اللفظ في معناه لينتقل منه إلى لازومه ، فيكون كناية .

قال الزمخشري : ونظير ذلك قولك : لا تصلّ إلا وأنت خاشع ، فلانتهاء عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . والنكتة في إدخال حرف النهي عماليس بمنهى عنه ، هو إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام ، موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم . كما تقول في الأمر : مت وأنت شهيد . فليس مرادك الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات . وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وإنها حقيقة بأن يُحَثَّ عليها . هذا . وقد قرر سبحانه بهذه الآيات بطلان ما عليه المعتنون من اليهودية والنصرانية ، وبرأ خليله والأنبياء من ذلك . ولما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه بالغ في وصية بنيه بالدين والإسلام ، ذكر عقبيه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيذاً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة في البيان بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ» أي ما كنتم حاضرين حينئذ ، فـ «أَمْ» منقطعة مقدرة بـ «بل» والهمزة ، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر ، وحضور الموت حضور مقدماته «إِذْ قَالَ» أي يعقوب

« لِبَنِيهِ » وهم^(١) : رَأُوْبَيْنَ ، وَشِمْعُونُ ، وَلَآوِي ، وَيَهُوذَا ، وَيَسَّآكَرَ ، وَزَبُولُونُ ، وَيُوسُفَ ، وَبَنِيَامِينَ ، وَدَانُ ، وَنَفْتَالِي ، وَجَادُ ، وَأَشِيرُ ، وهم الأسباط الآتية ذكرهم « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي » أى أى شئ تعبدونه بعد موتى ، وأراد بسؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » عطف بيان لآبائك . وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه . لأن العم أب والخالة أم ، لأنخراطهما فى سلك واحد ، وهو الأخوة ، لا تفاوت بينهما . ومنه حديث الترمذى عن على كرم الله وجهه ، رفعه^(٢) « عم الرجل صنو أبيه » أى لا تفاوت بينهما ، كما لا تفاوت بين صنوى النخلة . وفى الصحيحين عن البراء ، رفعه^(٣) « الخالة بمنزلة الأم » ؛ وروى ابن سعد عن محمد بن على مرسلًا « الخالة والدة » .

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والثلاثون ، ٢٣-٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٢٨ - باب مناقب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . ونصه : عن على : أن النبى ﷺ قال لعمر ، فى العباس « إن عم الرجل صنو أبيه » وكان عمر تكلم فى صدقته .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٥٣ - كتاب الصلح ، ٦ - باب كيف يكتب : هذا ماصالح فلان بن فلان وفلان بن فلان .

ونصه : فخرج النبى ﷺ (من مكة) فقبضهم ابنة حمزة : يا عم ! يا عم ! فتناولها على فأخذ بيدها . وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك ، احملها . فاختم فيها على وزيد وجعفر . فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحبى . وقال زيد : ابنة أختى . فقضى بها النبى ﷺ لخالتها ، وقال « الخالة بمنزلة الأم »

ولم أجده فى صحيح مسلم .

« إِلَهًا وَاحِدًا » بدل من إله آبائك ، كقوله تعالى « بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »^(١) أو على الاختصاص ، أى زبد بإله آبائك إلهًا واحدًا ، وفى ذلك تحقيق للبراءة من الشرك ، للتصريح بالتوحيد . ثم أخبروا بعد توحيدهم بإخلاصهم فى عبادتهم ، بقولهم « وَنَحْنُ لَهُ » أى وحده لا لأب ولا غيره « مُسْلِمُونَ » أى مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »^(٢) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم ، واختلفت مناهجهم ، كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »^(٣) والآيات فى هذا كثيرة ، والأحاديث . ومنها قوله ﷺ^(٤) « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » وقد اشتمل نبأ وصية إبراهيم ويمقبوب عليهما السلام لبيهما على دقائق مرغبة فى الدين . منها أنه تعالى لم يقل « وأمر إبراهيم بنيه » بل قال « وصام » ، ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفى ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فدل على الاهتمام بالوصى به ، والتمسك به . ومنها تخصيص بניהما بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقة على غيرهم ، فلما خصاهما بذلك فى آخر عمرها علمنا أن اهتمامهما

(١) [٩٦ / العلق / ١٦ و ١٥] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذا ذكر فى الكتاب مريم ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بغيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لِمَلَأَتْ . أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ (طبعنا)

بذلك كان أشد من اهتمامهما بغيره . ومنها أنهما ، عليهما السلام ، مامزجا بهذه الوصية وصية أخرى . وهذا يدل على شدة الاهتمام أيضاً . إلى دقائق أخرى أشار إليها الفخر ، عليه الرحمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ،

وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنهما الموحدين « أُمَّةٌ » أى جيل وجماعة « قَدْ خَلَتْ » أى سلفت ومضت « لَهَا مَا كَسَبَتْ » فى إسلامها من الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » أى مما أنتم عليه من الهوى خاص بكم ، لا يسألون هم عن أعمالكم « وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » والمعنى أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً . فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . فما اقتص عليكم أخبارهم ، وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إليه ، إلا لتفعلوا ما فعلوه ، فتنتفعوا . وإن أبيتم ، لم تنتفعوا بأعمالهم .

قال الرازى : الآية دالة على بطلان التقليد ، لأن قوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ » يدل على أن كسب كل أحد يختص به ، ولا ينتفع به غيره ، ولو كان التقليد جائزاً ، لكان كسب المتبوع نافعا للتابع ، فكأنه قال : إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم ، ولكن لِنَتَّبِعُهُوا على ما يلزمكم ، فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق . انتهى . ومعلوم أن اتباع الأنبياء عليهم السلام ، والإيمان بهم ، لا يسمى تقليداً ، لخروجه عن حده المقرر فى كتب الأصول .

ثم أخبر تعالى أنهم اعتاضوا عن الاهتداء بالأصفياء من أسلافهم ، بأن صاروا دعاء إلى الكفر ، مع بيان بطلان ما هم عليه من كل وجه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا،

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَقَالُوا » أى الفريقان من أهل الكتاب « كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ » تتبع « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » ونسبنا بسنته لا نحول عنها كما تحولتم « حَنِيفًا » أى مستقيماً أو مائلاً عن الباطل إلى الحق ، لأن الحنف ، محرّكة ، يطلق على الاستقامة ، ومنه قيل للمائل الرّجل : أحنف . تفاؤلاً بالاستقامة كما قالوا للديع : سليم . وللمهلكة : مفازة . ويطلق على ميل فى صدر القدم ، واعوجاج فى الرجل ، فالحنيف المستقيم على إسلامه لله تعالى ، المائل عن الشرك إلى دين الله سبحانه .

ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وفيه تعريض بأهل الكتاب ، وإيدان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام ، مع إشرأ كههم بقولهم : عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله . وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان ، وأن الدين المرضي عند الله الإسلام ، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى ، وعبادته وحده ، لا شريك له .

ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« قُولُوا » أى يا أيها الذين آمنوا . وفيه إظهار لزية فضل الله عليهم حيث بلغهم ولا يستنطقهم فيقصروا في مقالهم « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » أى من الكتاب الذى تقدم إنه الهدى « وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » من الأحكام التى كانوا متعبدين بها، مما اشتملت عليه صحف أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن الوحي إليهم خاصة . والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر المتقدم ذكرهم . جمع سبط وهو الحافد . سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق . « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ » من التوراة والإنجيل « وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » مما ذكر ، وغيرهم . « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » فى الإيمان فلا تؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » متقادون .

وقد روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال^(١) : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا » .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١١ - باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَآمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ

فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَإِنْ ءَامَنُوا » أى أهل الكتاب الذين أرادوا أن يستبعموكم « بِمِثْلِ مَا ءَآمَنْتُمْ بِهِ » أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل . على أن المثل مقحم . وقد قرأ ابن عباس وابن مسعود بما آمنتم به . وقرأ أبى : بالذى آمنتم به « فَقَدْ اهْتَدَوْا » إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم . عكس ما قالوا : كونوا مثلنا تهتدوا « وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بما آمنتم به . « فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » أى فإم لا فى خلاف وعداوة وليسوا من طالب الحق فى شيء .

قال القاضى : ولا يكاد يقال فى الماداة على وجه الحق أو المخالفة التى لا تكون مفضية إنه شقاق . وإنما يقال ذلك فى مخالفة عظيمة توقع صاحبها فى عداوة الله وغضبه ولعنه ، وفى استحقاق النار . فصار هذا القول وعيداً منه تعالى لهم ، وصار وصفهم بذلك دليلاً على أن القوم معادون للرسول ، مضمرون له سوء ، مترصدون لإيقاعه فى الحن ، فمعد هذا أمته الله تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية فى أمر حصلت الثقة به . وقد أنجز وعده بقتل قريظة ونسبهم^(١)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٠ - باب مرجع النبي ﷺ

من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومقاتلته بإمام .

عن أبى أمامة قال : سمعت أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ . فأرسل النبي ﷺ إلى سعد . فأتى على حمار . فلما دنا من المسجد قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » أو « خيركم » فقال « هؤلاء نزلوا على حكمك » فقال : تَقْتُلُ مقاتلتهم ونَسَبِي ذراريهم . قال « قضيت بحكم الله » وربما قال « بحكم الملك » .

وإجلاء بني النضير^(١) « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أتبع وعده بالنصر والكفاية ، بما يدل على أن ما يسرون وما يملنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى . فهو يسبب لكل قول وضيم منهم ما يرد ضرره عليهم . فهو وعيد لهم ، أو وعد لرسول الله ﷺ . أى يسمع ما تدعو به ، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق . وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (صِبْغَةَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

« صِبْغَةَ اللَّهِ » مصدر مؤكد منتصب عن قوله « آمنا بالله » كذا قاله سيبويه . فهو بمثابة فعله . كأنه قيل صبغنا الله صبغة . أى صبغ قلوبنا بالهداية والبيان صبغة كاملة لا ترتفع بماء الشبه ، ولا تغلب صبغة غيره عليها . والصبغة كالصبغ (بالكسر فيهما لمة) ما يصبغ به وتلون به الثياب . ووصف الإيمان بذلك لكونه تطهيراً للمؤمنين من أوضار الكفر ، وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ، ومتداخلاً في قلوبهم . كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك . ويقال : صبغ يده بالماء غمسها فيه . وأنشد ثعلب :

دع الشر وانزل بالنجاة تحوزا إذا أنت لم يصبغك فى الشر صابغ
وقال الراغب : الصبغة إشارة من الله عز وجل إلى ما أوجده فى الناس من بداية العقول

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١٤ - حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : حاربت النضير وقريظة . فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم . حتى حاربت قريظة . فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين . إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا . وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهود المدينة .

التي ميزنا بها من البهائم، ووشحننا بها لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة في قوله « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » (١) الآية والمعنى بقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة (٢) ... الخبر . وتسمية ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الإنسان التي ركب عليها، إذا اعتبرت بذاته ، تجري مجرى الصبغة التي هي زينة المصبوغ . ولما كانت اليهود والنصارى، إذا لقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية، يقولون: قد صبغناه - بين تعالى أن الإيمان يمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التي ركزها في الخلق. ولا أحد أحسن صبغة منه .

(ثم قال) وقول الحسن وقتادة ومجاهد : إن الصبغة هي الدين ، وقول غيرهم : إنها الشريعة ، وقول من قال : هو الختان - إشارة إلى مغزى واحد . « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً » الاستفهام للإنكار والنفي . أى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى. لأنها صبغة قلب لا تزول . لثباتها بما تولاهها الحفيظ المليم ، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بمد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه . والجملة اعتراضية مقررة لما في « صبغة الله » من معنى الابتهاج « وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » شكرًا لتلك النعمة ولسائر نعمه . فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نوكلها بالعبادة ، وهي تزيل ربَّن القلب فينطبع فيه صورة الهداية . وهو عطف على آمنا ، داخل معه تحت الأمر .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارى في: ٢٣ - كتاب الجنائز، ٩٣ - باب ما قيل في أولاد المشركين. ونصه : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء؟ »

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

« قُلْ » منكرا لحاجتهم وموئخا لهم عليها « أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ » أى أنناظروننا في توحيد الله والإخلاص له واتباع الهدى وترك الهوى « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » المستحق لإخلاص العبودية له وحده لا شريك له ، ونحن وأنتم في العبودية له سواء « وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » أى نحن برءاء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برءاء منا . كما قال في الآية الأخرى « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » (١) . وقال تعالى « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ » (٢) الآية . « وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » في العبادة والتوجه ، لا نشرك به شيئا وأنتم تشركون به عَزَّوَجَلَّ والمسيح والأخبار والرهبان . ولما بقي من مباحثاتهم ادعائهم أن أسلافهم كانوا على دينهم ، أبطلها سبحانه بقوله :

(١) [١٠ / يونس / ٤١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ » خليل الله « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » ابنه « وَيَعْقُوبَ » ابن إسحاق « وَالْأَسْبَاطَ » أولاد يعقوب « كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى » أى على ملتهم . إما اليهودية وإما النصرانية « قُلْ ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ » أى الذى له الإحاطة كلها أَعْلَمُ . فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن . وإن قالوا : الله ، فقد برأ الله إبراهيم ومن معه من ذلك . فبطل ما ادعوا . وثبت أنهم ، عليهم السلام ، كانوا على الحنفية مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية . هذا مع أن رد قولهم هذا أظهر ظاهر من حيث إنه لا يعقل أن يكون السابق على نسبة للآحق ، ما حدثت إلا بعده بمدد متطاولة . وسيأتى النص الصريح بإبطال ذلك فى آل عمران . ولما كان العلم عندهم عن الله بأن الخليل ومن ذكر معه ، عليهم السلام ، على دين الإسلام وكانوا يكتمون ما عندهم من ذلك . مع تقرير الله لهم به واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمان ما يقاربه بقوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » ^(١) الآية - أشار إلى أشد الوعيد فى كتمان ذلك بقوله « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً » موجودة ومودعة « عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ » وهو كتمان العلم الذى هو الإخبار بما أنزل الله . والاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا شهادته تعالى لهم ، عليهم السلام ، بالحنفية والبراءة من الفريقين .

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] ونصها : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَتَمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

قال التقى ابن تيمية : سمى تعالى ما عندهم من العلم شهادة كما قال « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ » ^(١) الآية كأنه قال : خبراً عنده ، ديناً عنده من الله ، وبياناً عنده من الله ، وعلماً عنده من الله ، فإن كان قوله « من الله » متعلقاً بـ « كنتم » فإنه يعم كل الشهادات . وإن كان متعلقاً بـ « عنده » ، وهو الأوجه ، أو بشهادة ، أو بهما ، فإن الأمر في ذلك واحد . أي شهادة استقرت عنده من جهة الله . فهو كتمان شهادات العلم الموروث عن الأنبياء . فسمى الإخبار به شهادة .

ثم قال : وكذلك الأخبار النبوية إنما يراد بالشهادة فيها الإخبار . « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد شديد . أي أن علمه محيط بكم وسيجزىكم عليه .

قال الرازي : هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد . ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ، ولا يخفى عليه خافية ، وأنه من وراء مجازاته ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر - لا يعضى عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف . ألا ترى أن أحداً لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يمدّ عليه الأنفاس ، لكان دائم الحذر والوجل ، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى ، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس

من القول ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ،

وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » فلا يسألون عن أعمالكم

(١) [٢ / البقرة / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

«وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين، ولم يدع لهم متمسكاً من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره في كل زمان . وأنه لا يفهمهم إلا ما يستجدونه بحكم ما تجدد من المنزل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحرهم وأسودهم .. أى فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة . فلها ما كسبت . وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم . ولا تُسألون إلا عن عملكم . قال الراغب : إعادة هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمة في الناس ، صالحهم وطالحهم أن يفخروا بآبائهم ويقتدوا بهم في متحرياتهم . سيما في أمور دينهم . ولهذا حكي عن الكفار قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ »^(١) . فأكد الله تعالى القول في إنزالهم عن هذه الطريقة . وذكر في أثر ما حكي من وصية إبراهيم ويعقوب بنيه بذلك ، تنبيهاً أن الأمر سواء على ما قلت أو لم يكن . فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه . وفي الثاني لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً كيداً عليهم تنبيهاً على نحو ما قال « وَكُلٌّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »^(٢) ، وقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »^(٣) ، وقوله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »^(٤) ولما جرت به عادتهم وتفردت به معرفتهم : كل شاة تناط برجليها .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٢] ونصها : بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٣] ونصها : وَكُلٌّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ،

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » روى البخارى في صحيحه^(١) عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . وكان رسول الله ﷺ يمجبه أن تكون قبلته قبل البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فرآ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة . فداروا ، كما هم ، قبل البيت .

وروى مسلم^(٢) عن البراء رضى الله عنه نحو ما تقدم ولفظه : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، ثم صرفنا نحو الكعبة . وروى الشيخان^(٣) عن ابن عمر قال : بينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن . وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها . وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . (اللفظ لمسلم) والأحاديث في تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة متوافرة . وفيما ذكرنا كفاية .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٢ - باب سيقول السفهاء من الناس . . .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٢ . (طبعنا)

(٣) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٣٢ - باب ما جاء في القبلة .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٣ . (طبعنا)

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن فريقاً من الناس سينكرون تغيير القبلة وسماهم سفهاء ، جمع سفيه . وهو الخفيف الحلم والأحمق والجاهل . قال أبو السعود : أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر . انتهى . ومعنى قوله « ما ولاهم » أى أى شئ صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، أى ثابتين على التوجه إليها ، وهى بيت المقدس . ومدار الإنكار ، إن كان القائلون هم اليهود ، كراحتهم للتحويل عنها لأنها قبلتهم . وإن كان غيرهم ، فجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقبح فى أحكامه . وقد روى عن ابن عباس : أن القائلين هم اليهود ، وعن الحسن أنهم مشركو العرب . وعن السدى أنهم المنافقون . قال الراغب : ولا تنافى بين أقوالهم فكل قد عابوا ، وكل سفهاء .

(تنبيه) ظاهر قوله تعالى « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ » الخ أنه إخبار بقولهم المذكور . ثم إن الإخبار قبل وقوعه . وفائدته توطئ النفس وإعداد ما يسكتهم ، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد . والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد ، مع ما فيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيكون معجزاً « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » جواب عن شبهتهم . وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً . فلا يستحق شئ منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة . فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى . وما أمر به فهو الحق . « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم وتفخيم شأن الكعبة . كما نفعه بإضافته إليه فى قوله تعالى « وَطَهَّرَ بَيْتِي » (١) .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٦] ونصها : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْعَائِقِينَ وَالْعَائِقِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَكَذَلِكَ » أى كما هديناكم إلى قبله هى أوسط القبل وأفضلها « جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا ، خياراً . وقوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » تامليل للجمل المنوه به الذى تمت المنة به عليهم . واعلم أن أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة . إما بالبصر أو بالبصيرة . قال الرازى : الشهادة والمشاهدة والشهود هو الرؤية ، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته ، ولما كان بين الإبصار بالعين وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة ، لاجرم قد تسمى المعرفة التى فى القلب مشاهدة وشهوداً ، والعارف بالشىء شاهداً ومشاهداً . ثم سميت الدلالة على الشىء شاهداً على الشىء لأنها هى التى بها صار الشاهد شاهداً . ولما كان الخبر عن الشىء والمبين لحاله جارياً مجرى الدليل على ذلك ، سمى ذلك الخبر أيضاً شاهداً . وبالجملة ، فكل من عرف حال شىء وكشف عنه كان شاهداً عليه . انتهى .

والشاهد أصله الشاهد والمشاهد للشىء والخبر عن علم حصل بمشاهدة بصرٍ أو بصيرة . وهو ، بالمعنى الثالث ، من النعوت الجليلة . ولذلك وصف به النبيون والسادة والأئمة . كما ترى فى هذه الآية وفى آية « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هُوَ لَا شَهِيدًا»^(١) وآية «وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ»^(٢) «وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحِينَ»^(٣) ثم إن في اللام في قوله تعالى «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وجهين (الأول) إنها لام الصيرورة والعاقبة . أى قَالَ الأمر بهدايتكم وجمعكم ووسطا أن كنتم شهداء على الناس . وهم أهل الأديان الآخر . أى بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا . مما قص عليكم في الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبرا . ففرقتم حق دينهم من باطله ، ووحية من مخترعه . يعنى : وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتهم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافاكم مما ابتلى به سواكم ، حيث وفقكم للمنهج السوى وهذاكم للمهيع الرضى . وكذلك صار الرسول عليكم شهيدا بأنكم عرفتم الحق من الباطل والهدى من الضلال والفور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فمظمت المنة لله عليكم إذ أصبحتم مهتدين بمد الضلالة ، علماء بمد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيفوا بمد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نوى عليهم ضلاتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت على أولئك . (الوجه الثانى) أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى : جعلناكم أمة خيارا لتكُونُوا شهداء على الناس ، أى رقباء قواما عليهم بدعائهم إلى الحق وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال . كما كان الرسول شهيدا عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم . فتكون الآية نظير آية «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١) وربما آثر هذا المعنى من قال: خير ما فسر القرآن بالقرآن. لتماثل الآيتين بادية بدء . فإن الوسط بمعنى الخيار. وقد صرح به في قوله « خَيْرَ أُمَّةٍ » وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد في الآية : لتكونوا شهداء محمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أى شهداء على حقية رسالته . وذلك بالدعوة إليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت السمرقندى في تفسيره نقل خلاصة ما قلناه . وعبارته : والآية تأويل آخر « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا « لتكونوا شهداء على الناس » الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم . ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة في اللغة هو البيان . ولهذا سمى الشاهد بينة لأنه يبين حق المدعى . يعنى إنكم تبينون لمن بعدكم ، والنبي ، عليه السلام ، يبين لكم . انتهى .

وأوضح ذلك الراغب الأصفهاني بأسلوب آخر فقال : إن قيل : على أى وجه شهادة النبي ﷺ على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل : الشاهد هو العالم بالشيء الخبر عنه مثبتا حكمه . وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة . ولما خص الله تعالى الإنسان بالعقل والتمييز بين الخير والشر ، وكله ببعثة الأنبياء ، وخص هذه الأمة بأتم كتاب ، كما وصفه بقوله « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »^(٢) وقوله « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ »^(٣)

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ =

فأفادناه عليه السلام وبينه لنا - صار حجة وشاهدا أن يقولوا « مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ »^(١).
وجمل أمته ، المتخصصة بمعرفة ، شهودا على سائر الناس . (إن قيل) هل أمته شهود
كلهم أم بعضهم ؟ (قيل) كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء . وذلك بشرطة أن يزكوا
أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهدا ومقبولا . ولذلك قال تعالى
« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »^(٢) وعلى هذا قال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ »^(٣) فالقيام بالقسط مراعاة العدالة : وهي ، بالقول المجمل ،
ثلاث : عدالة بين الإنسان ونفسه - وعدالة بينه وبين الناس - وعدالة بينه وبين الله عز
وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلا شاهدا لله عز وجل . (إن قيل) فهل هم شهود على
بعض الأمة أم على الناس كافة ؟ (قيل) بل كل شاهد على نفسه وعلى أمته وعلى الناس كافة .
فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورافته ، علم أنه لم يفعل تعالى عنه ولا عن أحد
من الناس ، ولا يخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على مَنْ في زمانه وعلى

= مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجُنُودًا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) [٥ / المائدة / ١٩] ونصها : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَىٰ قُرْآنٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ
وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ
أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَمَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

مَنْ قَبْلَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ . وعلى هذا الوجه ماروى في الخبر أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم . انتهى كلام الراغب . والخبر الذى أشار إليه رواه البخارى^(١) عن أبي سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمرته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أئانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمرته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهداء . فذلك قوله جل ذكره « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » وقد روى مرفوعا عن جابر . أخرجه الطبرى^(٢) . وعن ثلة من التابعين من قولهم .

وأقول: قد بينا مرارا ، أن مثل هذا الخبر وكل ما يروى مرفوعا أو غير مرفوع في تأويل هذه الآية ، فكله يفيد أن للآية عموماً يشمل ما ذكر . لا أنها خاصة به لا يستفاد منها غيره . كما أوضحناه في المقدمة في قولهم : نزلت الآية في كذا . وعليه ، فلا تنافي بين ما يفهم من سياق الآية أو ما يتقاضاه معناها لغة ، من حيث عمومها ، أو ما يحمل عليها من نظائرها في التنزيل الكريم ، وبين ما يروى في تفسيرها . فمآل ما يتمدد من سبب النزول في آية ما ، أو ما يكثر من الآثار في وجوهها ، كله من باب تفسير العام ببعض ما يتناوله لفظه . ولذلك يكثر في بعض طرق الروايات : ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى . أو ثم قرأ . أو اقرؤا إن شئتم . مما يدل على أنه ذكرت الآية حجة لما أخبر به ، لأنه مما يندرج فيها . فاحرص على ذلك .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٣ - باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا .

(٢) تفسير الطبرى ، حديث رقم (٢١٨٢) طبعة المعارف .

(تنبيهات)

(الأول) . استدل بالآية على أن الإجماع حجة . لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها . فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله ، فإجماع الأمة حق . لا تجتمع الأمة ، والحمد لله ، على ضلالة . كما وصفها الله بذلك في الكتاب فقال تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »^(١) وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . كما وصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ »^(٢) وبذلك وصف المؤمنين في قوله « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »^(٣) فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال ، لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه . وقد جعلهم الله شهداء على الناس . وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت في الصحيح^(٤) عن عبد العزيز بن صهيب قال . سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول : مرّوا بجنادة فآمنوا عليها خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « وجبت » ثم مروا بأخرى فآمنوا عليها شرا فقال « وجبت » .

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٣ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٩ .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] ونصها : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) أخرجه البخارى في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٦ - باب ثناء الناس على الميت .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أنثيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أنثيتم عليه شرا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض . وعند الحاكم أنه قرأ هذه الآية : وكذلك جعلناكم ... إلى آخرها . فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء ، لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء ، فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطا لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . بل زكاهم الله فى شهادتهم ، كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا الحق . هذه نبذة من كلام الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى الإجماع ، من بعض رسائله .

(الثانى) مما يتعلق أيضاً بهذا المقام ، ما قاله أيضا هذا الإمام فى رسالته إلى جماعة عدو ابن مسافر . ونصه : فمصم الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة . ولهذا كان إجماعهم حجة ، كما كان الكتاب والسنة حجة . ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويمرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين ؛ وقد روى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة ، رواها عنه أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد^(١) ،

(١) الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده . الجزء الثانى ص ٣٣٢ (طبعة الحلبيّ) .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة . وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وفى الجزء الثالث ص ١٢٠ : (طبعة الحلبيّ) .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن بنى إسرائيل قد افترقت على ثنتين وسبعين فرقة . وأنتم تفتشقون على مثلها . كلها فى النار إلا فرقة » .

وأبي داود^(١) ، والترمذي^(٢) وغيرهم ، أنه قال : ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا واحدة ، وهي الجماعة . وفي رواية : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ، وأصحابي . وهذه الفرقة الناجية أهل السنة . وهم وسط في النحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل . فالسلمون وسط في أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين ، لم يقلوا فيهم كما غلت النصارى « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ،

(١) سنن أبي داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١ - باب شرح السنة ، حديث ٤٥٩٦ .
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة . وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وحديث ٤٥٩٧ :

عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون في النار . وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » .

(٢) جامع الترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٨ - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى على مثل ذلك . وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل ، حذو النمل بالنمل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية ، لسان في أمتي من يصنع ذلك . وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » .

وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَمْبُذُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا یُشْرِكُونَ ^(١) ولا جَفَّوْا عَنْهُمْ ، كما جفت اليهود ، فكانوا یقتلون الأنبياء بغير حق ، ویقتلون الذین یأمرون بالقسط من الناس ^(٢) ، وكما جاءهم رسول بما لا تهوی أنفسهم كذبوا فريقاً ، وقتلوا فريقاً ^(٣) . بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، ولم یعبدوهم ، ولم یتخذوهم أرباباً . كما قال تعالى « مَا كَانَ لِیُبَشِّرَ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ یَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّی مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِیْنَ یَمَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَیَمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا یَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِیِّینَ أَرْبَابًا ، أَمْ أَمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ^(٤) .

ومن ذلك أن المؤمنین توسطوا فی المسيح ، فلم یقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة . كما نقوله النصاری . ولا كفروا به ، وقالوا علی مریم بهتاناً عظیماً ، حتی جعلوه ، ولدَ غیةً ، كما زعمت اليهود . بل قالوا : هذا عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مریم العذراء البتول ، وروح منه . وكذلك المؤمنون وسط فی شرائع دین الله ، فلم یحرموا علی الله أن ینسخ ما شاء ، ویعجو ما شاء ویثبت . كما قالته اليهود . كما حکى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « سَیَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَا هُمْ عَنْ فِیْلَتِهِمُ الَّتِی كَانُوا عَلَیْهَا » ^(٥) وبقوله

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الذِّینَ یَكْفُرُونَ بِآیَاتِ اللَّهِ وَیَقْتُلُونَ النَّبِیِّینَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَیَقْتُلُونَ الذِّینَ یَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِیمٍ (٣) [٥ / المائدة / ٧٠] ونصها : لَقَدْ أَخَذْنَا مِیثَاقَ بَنِی إِسْرَءِیْلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَیْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَوْ لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِیقًا كَذَبُوا وَفَرِیقًا یَقْتُلُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٤٢] ونصها : سَیَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَا هُمْ عَنْ =

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»^(١) ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله، فيأمرُوا بما شأؤوا وينهَوْا عما شأؤوا . كما يفعله النصارى . كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »^(٢) .

قال عدى بن حاتم رضى الله عنه^(٣) : قلت : يا رسول الله ما عبدوهم ؟ قال : ما عبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر^(٤) ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا = قَبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(١) [٢ / البقرة / ٩١] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٩ .

(٣) جامع الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا

الحسين بن مرثد .

عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفى عنق صليب من ذهب . فقال « يا عدى ، اطرح عنك هذا الوثن » وسممته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا شيئاً استحلوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

(٤) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد^(١) . وأما المخلوق ، فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ، ولو كان عظيماً . وكذلك في صفات الله تعالى ، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء^(٢) . وقالوا يدُ الله مغلولة^(٣) . وقالوا : إنه تمب من الخلق فاستراح يوم السبت^(٤) . إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا : إنه مخلق ويرزق ويعفو ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى . ليس له سمى ولا نذ . «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»^(٥) و«وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٦) فإنه رب العالمين ، وخالق كل شيء . وكل ما سواه عباد له ، فقراء إليه .

(١) [٥ / المائدة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . . .

(٤) سفر التكوين ، الأصحاح الثاني ، ٣ و ٢

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤] .

(٦) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُّكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

« إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا * لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلَّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » ^(١) ومن ذلك : أمر الحلال والحرام . فإن اليهود كما قال الله تعالى « فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » ^(٢) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط . ولا شحم الثرب (الثرب : شحم دقيق ينشئ السكرش والأمعاء . وجمعه ثروب) والكليتين . ولا الجدى في لبن أمه . إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرها . حتى قيل : إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا . والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمرا . وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يواكلوا الحائض ، ولا يجامعوها في البيوت . وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وبأثروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح « وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِمَعْصِيَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » ^(٣) . ولهذا قال تعالى « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » ^(٤) . وأما المؤمنون فكما نعمهم الله به في قوله « وَرَحِمْتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » ، فسأ كتبها للذين يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

(١) [١٩ / مريم / ٩٣-٩٥] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٠] ونصها : فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٠] ونصها : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِمَعْصِيَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

(٤) [٩ / التوبة / ٢٩] .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَاَلَّذِينَ
ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١).

وهذا باب يطول وصفه . وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق . فهم في باب أسماء
الله وآياته وصفاته ، وسط بين أهل التعطيل ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويمطلون
حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات . وبين أهل التمثيل الذين يضربون
له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات . فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما
وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم . من غير تحريف ولا تعطيل . ومن غير تكييف وتمثيل .
وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدره الله ، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة
ومشيئته الشاملة وخلق له لكل شيء . وبين المفسدين لدين الله . الذين يعملون العبد ليس له
مشيئة ولا قدرة ولا عمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب . فيصرون بمنزلة المشركين
الذين قالوا « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَرَكُنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ » (٢) فيؤمن أهل
السنة بأن الله على كل شيء قدير . فيقدر أن يهدي العباد ويقب قلبهم . وإنه ما شاء الله كان
وما لم يشأ لم يكن . فلا يكون في ملكه ما لا يريد . ولا يمجز عن إنفاذ مراده . وإنه خالق
كل شيء من الأعيان والصفات والحركات . ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل . وأنه
مختار . ولا يسمونه مجبورا . إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره . والله سبحانه جميل
العبد مختاراً لما يفعله . فهو مختار مريد . والله خالقه وخالق اختياره . وهذا ليس له نظير .

- (١) [٧ / الأعراف / ١٥٦ و ١٥٧] وَأَوَّلُ آيَةِ الْأُولَى: وَآكُتِبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ . . .
(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] وَنَصَهَا : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَرَكُنَا
وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ،
قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

فإن الله ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . وهم فى باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدة الذين يعملون أهل الكبار من المسلمين مخلصين فى النار ، ويخرجونهم من الإيمان بالكلىة . ويكذبون بشفاعه النبى صلى الله عليه وسلم . وبين المرجئة الذين يقولون : إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء . والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان . ويكذبون بالوعيد والمقاب بالكلىة . فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله . وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة . وأنهم لا يخلدون فى النار بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، أو مثقال خردلة من إيمان . وأن النبى ﷺ أذخر شفاعته لأهل الكبار من أمتة . وهم أيضا فى أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون فى على رضى الله عنه فيفضلونه على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويمتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبيا أو إلها . وبين الجافية الذين يمتقدون كفره وكفر عثمان رضى الله عنهما ، ويستحلون دماءها ودماء من تولاهما . ويستحبون سب على وعثمان ونحوهما . ويقدمون فى خلافة على رضى الله عنه وإمامته . وكذلك فى سائر أبواب السنة هم وسط . لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . انتهى .

« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » أى ما شرعنا القبلة ، كقوله تعالى « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »^(١) أى ما شرعها . و« الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » ليس بصفة للقبلة إنما هو ثانى مفعولى « جعل » أى وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها أى فى مكة تستقبلها قبل

(١) [٥ / المائة / ١٠٣] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

المهجرة وهى الكعبة . يعنى : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء . أو « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى صرت عليها الآن . كقوله تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »^(١) . أو بمعنى كنت على تطلبها ، أى حريصا عليه . وراغب فيه . كما يفصح عنه قوله تعالى بعد « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ »^(٢) الآية .

وعلى هذه الأوجه ، فتكون الآية بيانا للحكمة فى جمل الكعبة قبله . أو معنى التى « كنت عليها » : قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس . أى إنما شرعنا لك التوجه أولا إليه ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ، حينما توجهت ، من غيره . فتكون الآية بيانا للحكمة فى جمل بيت المقدس قبله أولا .

ثم اعلم أن الحكمة هو التمييز بين الناس بقوله « إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ » فى كل ما يؤمر به ، فيثبت عند تقلب الأحكام بما فى قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيا ما وجهه « مِمَّنْ يَنْقَلِبُ ذَلِكُمْ عَلَى عَقَبَيْهِ » أى يرد عن دينه فيناق أو يكفر ممن كان يظهر الاتباع . وأصل المنقلب على عقبه : الراجع مستدبرا فى الطريق الذى قد كان قطعه منصرفا عنه . استعير لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير . قال ابن جرير : قد ارتد ، فى محنة الله أصحاب رسوله فى القبلة ، رجال ممن كان قد أسلم . وأظهر كثير من المنافقين من

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُتُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أجل ذلك نفاقهم . وقالوا : ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟ وقال المسلمون :
 فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيت المقدس : بطلت أيماننا وأعمالهم وضاعت .
 وقال المشركون : تحير محمد في دينه . فكان ذلك فتنة للمؤمنين وتمحيصاً للمؤمنين . انتهى .
 (لطيفة) المقبين ثنية عقب وهو مؤخر القدم . والانقلاب عليهما استمارة تمثيلية .
 وهذه الاستمارة نظير قوله تعالى « ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ »^(١) وكقوله « كَذَّبَ وَتَوَلَّى »^(٢) .
 (تنبيه) قال الراغب رحمه الله : ما وجه قوله « إلا لنعلم » وذلك يقتضى استفادة علم .
 ولم يزل ، تعالى ، عالماً بما كان وبما يكون ؟ (قيل) : إن ذلك من الألفاظ التي لولا السمع
 لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى . وجزاز ذلك على أوجه : (الأول) أن اللام في مثل ذلك
 تقتضى شيئين : حدوث الفعل في نفسه وحدث العلم به . ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال ،
 صار اللام فيه مقتضياً لحدوث الفعل لا حدوث العلم . (والثاني) أن العلم يتعلق بالشيء على
 ما هو به . والله تعالى عَلِمَهُمْ ، قبل أن يتبعوه ، غير تابعين . وبعد أن تبعوه عَلِمَهُمْ تابعين .
 وهذا الجواب هو في الحقيقة الأول . لأن التفسير داخل في المعلوم لا في العلم . (والثالث) معناه
 ليعلم غيرنا بنا . فنسب ذلك إلى نفسه . كقوله تعالى « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »^(٣)

(١) [٧٤ / المدثر / ٢٣] .

(٢) [٢٠ / طه / ٤٨] ونصها : إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

و [٧٥ / القيامة / ٣٢] ونصها : وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

و [٩٢ / الليل / ١٦] ونصها : الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

و [٩٦ / الملق / ١٣] ونصها : أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ

فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ
 فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وفي موضع آخر « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ »^(١) وقال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ »^(٢) وإنما علمه بملائكته . (والرابع) معناه لنجازي . وذلك متعارف . نحو قولك : سأعلم حسن بلائك . أى سأجزيك على حسب مقتضى علمي قبل . فمبّر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه . (والخامس) أن عادة الحليم إذا أفاد غيره علما أن يقول : تعال حتى نعلم كذا . وإنما يريد لإعلام المخاطب . لكن يُحَلّ نفسه محل المشارك للتعلم على سبيل اللطف . انتهى .

والوجه الثالث هو الذى اختاره الإمام ابن جرير قال : أما معناه عندنا : وما جعلنا القبله التى كنت عليها إلا ليعلم رسولى وحزبى وأوليائى : من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (قال) وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس ، إلى الرئيس . وما فعل بهم ، إليه . نحو قولهم : فتح عمر بن الخطاب سواد العراق وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه ، عن سبب كان منه فى ذلك . وكالذى روى فى نظيره عن النبى ﷺ أنه قال^(٣) « يقول الله

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١١٣] ونصها : وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ =

جل ثناؤه : مرضت فلم يمدني عبي . واستقرضته فلم يقرضني « فأضاف ، تعالى ذكره ، الاستقراض والعيادة إلى نفسه ، وقد كان ذلك بغيره ، إذ كان ذلك عن سببه .

قد حكى عن العرب سماعا : أجوع في غير بطنى ، وأعري في غير ظهري . بمعنى جوع أهله وعياله وعُريَ ظهورهم . فكذلك قوله « إلا لنعلم » بمعنى : يعلم أوليائي وحزبي اه . « وَإِنْ كَانَتْ » أى التولية إليها أو الجملة أو التحويلة « لَكَبِيرَةً » أى ثقبلة شاقة . لأن مفارقة الإلف ، بعد طمأنينة النفس إليه ، أمر شاق جدا . « إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » قلوبهم . فأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه . وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء . وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك ، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر ، أحدث لهم شكا . كما يحصل ، للذين آمنوا ، إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » (١) وقال تعالى « وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (٢) . وقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ » هذا تطمين لمن صلى إلى بيت المقدس من المسلمين ومن أهل الكتاب قبل النسخ .

= قال : أما علمت أنه استطعمك عبي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب المالين ؟ قال : استسقاك عبي فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٤ و ١٢٥] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وبيان أنهم يثابون على ذلك. وقد روى البخارى^(١) من حديث أبي إسحق المتقدم عن البراء :
 وكان الذى مات على القبلة ، قبل أن تحوّل قِبَل البيت ، رجال قتلوا . لم ندر ما نقول فيهم .
 فأنزل الله «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ»^(٢) أى صلاتكم . وإنما عدل إلى لفظ الإيمان ،
 الذى هو عام فى الصلاة وغيرها ، ليفيدهم أنه لم يضع شىء مما عملوه ، ثم يصح عنهم ، فيندرج
 المسئول عنه اندراجاً أولياً ، ويكون الحكم كلياً . وذكر بلفظ الخطاب دون الغائب ، ليتناول
 الماضين والباقيين ، تفليةً لحكم المخاطب على الغائب فى اللفظ ، وفى تنمة الآية إشارة إلى تعليل
 عدم الإضاعة ، بما اتصف به من الرأفة المنافية لما هجس فى نفوسهم من الإضاعة .

ولما انطوى ضمير النبي ﷺ على إرادة التوجه إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم
 ومفخرة العرب ومزارهم ومطافهم ، ولخالفه اليهود - أجابه الحق إلى ذلك بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٢ - سيقول

السفهاء من الناس . . . ونصه :

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو
 سبعة عشر شهراً . وكان يمجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها
 صلاة العصر . وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فرّ على أهل المسجد وهم
 راكعون . قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة . فداروا كما هم قبل البيت .
 وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم .
 فأنزل الله : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ» .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » أى تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء تشوقاً لنزول الوحي بالتحويل .

قالوا : وفي ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل . وهذا اللطف مما قيل : إن تقلب وجهه كناية عن دعائه ، ولأمانع أن يراد بتقلب وجهه صلى الله عليه وسلم بالتحويل ، ففيه إعلام بما جملة تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعي . وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة ، فهي متقدمة في المعنى . فإنها رأس القصة . « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » أى لنعطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها . ودل على أن مرضية الكعبة ، بفاء السبب في قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى نحوه وجهته . والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » أى حيثما كنتم في بر أو بحر فولوا وجوهكم في الصلاة تلقاء المسجد . وأما سرّ الأمر بالتولية خاصاً وعاماً ، فقال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريعاً له وإيجاباً لرغبته . وأما خطابه العام بعده ، فلا أنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خص ، عليه السلام ، به . كما خص في قوله « قُمْ اللَّيْلَ »^(١) ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وليكون لهم في ذلك تشريف . ولأن في الخطاب العام

(١) [٧٣ / الزمل / ٢] ونصها : قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .

تمليق حكم آخر به . وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد في وجوب التوجه إلى الكعبة . « وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الفخر : الضمير في قوله « أنه الحق » راجع إلى المذكور سابق . وقد تقدم ذكر الرسول ، كما تقدم ذكر القبلة . فجاز أن يكون المراد أن القوم يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق . فيشتمل ذلك على أمر القبلة وغيرها . وبمحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة ، وأنهم يعلمون أنه الحق . وهذا الاحتمال الأخير أقرب ، لأنه أليق بالمساق . ثم ذكر من وجوه علمهم لذلك : أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هي البيت العتيق الذي جملة الله تعالى قبلة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وأنهم كانوا يعلمون نبوة محمد ﷺ لما ظهر عليه من المعجزات . ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق . فكان هذا التحويل حقا .

قلت : وثم وجه آخر أدق مما ذكره الفخر في علمهم حقيقة ذلك التحويل وأنه من أعلام نبوته ﷺ . وبيانه أن أمره تعالى للنبي ﷺ ، ولكافة من اتبعه ، باستقبال الكعبة ، من جملة الاستمئان في فاران المذكور في التوراة إشارة لخاتم النبيين وبشارة به . فقد جاء في الأنصاح الثالث والثلاثين^(١) من سفر التثنية (ويقال الاستثناء) هكذا : وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سمير وتلاؤا من جبل فاران .

وهذه البشارة تنبه على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى في طور سيناء والإنجيل على عيسى في جبل سمير . لأنه عليه السلام كان يسكن أرض الخليل من سمير بقرية تدعى الناصرة . وتلاؤوه من جبل فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم في جبل فاران . وفاران هي مكة . لا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب . ففي الأنصاح^(٢) الحادى والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل

(١) سفر التثنية ، الأنصاح الثالث والثلاثون ، ٢٠١ .

(٢) سفر التكوين ، الأنصاح الحادى والعشرون ، ٢١ و٢٠ .

عليه السلام هكذا : وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن في البرية وكان ينمو راعى قوس .
وسكن في برية فاران .

ولا شك أن إسماعيل ، عليه السلام ، كان سكناه في مكة وفيها مات وبها دفن .
وقال ابن الأثير : وفي الحديث ذكر جبل فاران اسم لجبال مكة بالعبراني . له ذكر في
أعلام النبوة . وألفه الأولى ليست بهمزة . « وَمَا اللَّهُ بِمُفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » قرئ بالياء
والثاء . فيه إنشاء بتماديهم على سوء أحوالهم . ولما بين تعالى أنهم يعملون أن هذه القبلة
حق ، أعلم أن صفتهم لا تتغير في الاستمرار على المعاندة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا
أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى من اليهود والنصارى « بِكُلِّ آيَةٍ » أى
برهان قاطع . أن التوجه إلى الكعبة هو الحق « مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ » أى هذه التى حوّلت
إليها . لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة . إنما هو عن مكابرة وعناد .
مع علمهم بما فى كتبهم من نعمتك أنك على الحق . وقوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ »
هذا حسم لأطاعتهم فى العود إليها . أو للمقابلة . يعنى ما هم بتاركى باطلهم وما أنت بتارك حقك .
« وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » فلا اتفاق بين فريقهم ، مع كون الكل من بنى إسرائيل .
قال الزمخشري : أخبر تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه . فالحق منهم لا يزل
عن مذهبه لتمسكه بالبرهان . والبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته فى عناده . وفيه إراحة
للنبي ﷺ من التطلع إلى هدى بعضهم .

(فوائد)

الأولى : قال الراغب : إن قيل كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق ؟ قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الألباض . وهذا صحيح . بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً . وقيل : عني به أقوام مخصوصون . الثانية : قال الراغب : في قوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ » إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته ، فن المحال أن يرتد . ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق : أى ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول .

إن قيل : فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتد (قيل) إن الذى يقدر أنه معرفة ، هو ظن متصور بصورة العلم . فأما أن يحصل له العلم الحقيقى ثم يعقبه الارتداد - فيعبد . ولم يمن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطنة . فإن تلك كشررة تحمد إذا لم تتوقد . الثالثة : قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، في بدائع الفوائد : قبله أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله . بل بمشورة واجتهاد منهم . أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم فى الإنجيل ولا فى غيره باستقبال المشرق . وهم يقرّون بأن قبلة المسيح قبله بنى إسرائيل . وهى الصخرة . وإنما وضع لهم أشياءهم هذه القبلة . فهم مع اليهود ، متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا . والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر . وأما اليهود فليس فى التوراة الأمر باستقبال الصخرة ، البتة . وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلّون إليه من حيث خرجوا . فإذا قدّموا نصبوه على الصخرة وصلّوا إليه . فلما رفع صلّوا إلى موضعه وهى الصخرة . وقوله « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المملومة عنده فى قوله « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ » كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير . بمعنى : ولئن اتبعتمهم ، مثلاً ، بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر « إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى المرتكبين الظلم الفاحش .

وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى . وتهيج وإلهاب للثبات على الحق . أفاده الزمخشري .

(تنبيهات)

الأول : قال الراغب : حذر تعالى نبيه عن اتباع أهوائهم . ونبه أن اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم يدخل متحريه في جملة الظلمة . وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك في عدة مواضع . وقول من قال : الخطاب للنبي ﷺ ، والمعنى به الأمة ، فلا معنى لتخصصه . فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره . فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمزنته وصيانة لمكانته اهـ . وهو كلام نفيس جداً .

(الثاني) في الآية تنويه بشأن العلم . حيث سمي أمر النبوات والدلائل والمعجزات باسم العلم . فذلك ينبه على أن العلم أعظم المخلوقات شرفاً ومرتبة .
(الثالث) دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم . لأن قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » يدل على ذلك . ذكره الرازي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ،

وإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » أى يعرفون رسول الله ﷺ معرفة لا امتراء فيها ، كما لا يمترون في معرفة أولادهم من بين أولاد الناس . وهذه المعرفة مستفادة من الكتاب . كما أخبر تعالى عن نعمته فيه بقوله « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ»^(١) يعنى يعرفونه بالأوصاف المذكورة فى التوراة والإنجيل بأنه هو النبى الموعود بحيث لا يلتبس عليهم . كما يعرفون أبناءهم ، ولا تلتبس أشخاصهم بنيرهم . فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسية فى أن كلا منهما يقينى ، لا اشتباه فيه .

وقد روى عن عمر^(٢) أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعمته فعرفته . وإنى لا أدرى ما كان من أمه . فقبل عمر رأسه . « وَإِنَّ قَرِيْقًا مِنْهُمْ » أى أهل الكتاب ، مع ذلك التحقق والإيقان العلمى « لَيْسَ كَتُمُونَ الْحَقَّ » أى يخفونه ولا يعلنونه « وَهُمْ يَمْلِكُونَ » أى الحق ، أو عقاب الحكماء ، وأنهم يكتمون . قال الراغب : لم يقل يكتمونه . لأن فى كتمان أمره كتمان الحق جملة . وزاد فى ذمهم بقوله « وَهُمْ يَمْلِكُونَ » فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل ، كمن يرتكبه عن علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » أى الحق من الله ، لا من غيره . يعنى أن الحق ماثبت أنه من الله ، كالذى أنت عليه . وما لم يثبت أنه من الله ، كالذى عليه أهل الكتاب ، فهو الباطل . أى

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) هذا النص نقله ابن كثير فى تفسيره عن القرطبي . ج أول ص ١٩٤ .

هذا الذى يكتُمونه هو الحق من ربك . وقرأ على رضى الله عنه « الحق » بالنصب على الإبدال من الأول ، كما فى الكشف . أو الفعولية لـ « يعلمون » ، كما قاله أبو البقاء . « فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَرَبِّينَ » الشاكين فى كتابهم الحق مع علمهم . أو فى الحق الذى جاءك من ربك ، وهو ما أنت عليه . ومعلوم أن الشك غير متوقع منه . ففيه تعريض للأمة . وقال الراغب : ليس هذا بنهى عن الشك لأنه لا يكون بقصد من الشاك ، بل هو حث على اكتساب المعارف المزية للشك واستعمالها . وعلى ذلك قوله « إِنِّي أُعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ » أى لكل أمة أو لكل نبى قبله أو شرعة ومنهاج « هُوَ مُوَلِّيُّهَا » وجهه . أى مائل إليها بوجهه ، تابع لها . لأنها حُبَّتْ إليه وَزِيَّتْ له . وقال أبو معاذ : موليا بمعنى متوليا . أى تولاهما ورضيها واتبعها « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أى ابتدروها بالمسابقة إليها . وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة ، لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق . والمراد بالخيرات جميع أنواعها مما ينال به سعادة الدارين « أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » قال الراغب : أى أى شغل تحريتم ، وحيثما تصرفتم ، وأى معبود اتخذتم ، فإنكم مجبوهون ومماسبون عليها « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تمليل لما قبله . أى هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(تنبيه) تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة وأديان متنوعة . وأن على الماقل أن يستبق إلى ما كان خيرا وأرقاها . وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أن دين الإسلام أرق الأديان كلها لما حوى من حاجيات الكمال البشرى ، ووفى بشؤون الاجتماع ، وأسباب (١) [١١ / هود / ٤٦] ونصها : قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

العمران وذرائع الرق وطرق السعادتين . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ »^(١) وقوله « لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »^(٢) .

ثم إنه تعالى أكد حكم التحويل وبين عدم تفاوت أمر الاستقبال في حالتي السفر والحضر بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ،

وَلِإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ » أى ومن أى بلد خرجت للسفر « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » إذا صليت « وَلِإِنَّهُ » أى هذا الأمر « لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » قرئ بالياء فهو وعيد للكافرين ، وبالتاء فهو وعد للمؤمنين . ولما عظم في شأن القبلة انتشار أقوال السفهاء وتنوع شبههم وجداهم ، كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيد لأمرها ، تعظيماً لشأنها وتوهية لشبههم ، فقال تعالى :

(١) [٢٢ / الحج / ٦٧] ونصها : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا

يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٨] ونصها : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» وقوله تعالى «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» أى لئلا يحتج عليكم أحد في التولى إلى غيره . ولتنتفي مجادلهم لكم . كقول اليهود مثلاً : يمجّد ديننا ويتبع قبيلتنا ! وقول غيرهم : يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته ! فإذا صليتم إليه لا تكون لهم عليكم حجة .

قال الراغب : وأشار بقوله «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» إلى تحقيق ما قدمه . فبين أنه إذا كانت الحكمة تقتضى أن يكون لكل صاحب شرع قبله يختص بها ، وأنت صاحب شرع ، فتفجير القبلة لك حق من ربك . (ثم قال) إن قيل : لم كرّر قوله «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» ؟ قيل : حتّ ياحداها على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن في أى مكان حصل للإنسان ، نائماً كان عنها أو دانياً منها . وذلك مآل الاختيار والتمسك . وحتّ بالآخر على التمسك بالقلب وحده عند اشتباه القبلة . وفي النافلة في حال اليسر على الراحلة والسفر . «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» فإنهم يظهرون فجوراً ولدداً في ذلك ، بالناد . وهم : إما اليهود المعبر عنهم بأهل الكتاب قبل ، أو المناقون أو الشركون ، كما حكى قبل في «السفهاء» . وكان من قول اليهود ، فيما حكاه قتادة : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . ومن قول المشركين ، فيما حكاه مجاهد : قد رجع إلى قبليكم فيوشك

أن يرجع إلى دينكم . وتقدم قول المناقين . وبالجملة فالكل عابوا وخاضوا « فَلَا تَخْشَوْهُمْ »
تخافوا جدالهم « وَاخْشَوْنِي » فلا تخالفوا أمرى « وَلَا تَمَنَّيْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ » بالتوجه إلى
أكل الجهات المتضمنة للآيات البينات والأمن « وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » للصرط المستقيم
بالتوجه إليها ، فهتدون بهذه القبله هداية كاملة .

قال الحرالي : وفي طيه بشرى بفتح مكة ، واستيلائه على جزيرة العرب كلها ، وتمكينه
بذلك من سائر أهل الأرض ، لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق
الأرض ومغاربها ، التي انتهى إليها ملك أمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)
« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ » وقوله تعالى « فِيكُمْ » المراد به العرب .
وكذلك قوله « مِنْكُمْ » .

وفى إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لا لهم فيه من الشرف . ولأن المشهور من حال
العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير . فبمته الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول
أقرب « يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا » يقرأ عليكم القرآن الذى هو من أعظم النعم . لأنه
معجزة باقية . ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم ، ومجامع الأخلاق
الحميدة ، فتحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة « وَيُزَكِّيكُمْ » أى يطهركم من
الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق « وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ » وهو القرآن . وهذا
ليس بتكرار . لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم « وَالْحِكْمَةَ » وهى العلم بسائر
الشريعة التى يشتمل القرآن على تفصيلها . ولذلك قال الشافعى رضى الله عنه : الحكمة هى

سنة الرسول . وقوله « وَيُكَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل ، وجهالة من الأمم ، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم . فبعث الله تعالى النبي بالحق . حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم . فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة . وذلك من أعظم أنواع النعم . قال تعالى « أَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَقُولُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ » (١) الآية . وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ » (٢) قال ابن عباس معنى ، بنعمة الله ، محمداً ﷺ . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . وقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » قال ابن جرير : أى اذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما أمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم . وقد كان بعضهم يتأول ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح . وقال القاشاني : اذكروني بالإجابة والطاعة ، أذكركم بالزيد والتواي . وهى بمعنى ما قبله . وقوله « وَاشْكُرُوا لِي » قال ابن جرير : أى اشكروا لى فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذى شرعته . وقوله « وَلَا تَكْفُرُونِ » أى لا تجحدوا إحسانى إليكم فأسلبكم نعمتى التى أنعمت عليكم .

قال السمرقندى : أى اشكروا نعمتى : أن أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويملككم الكتاب والحكمة . ولا تجحدوا هذه النعمة ، ويقال : النعمة ، فى الحقيقة . هى العلم . وما سواه فهو تحول من راحة إلى راحة . وليس بنعمة . والعلامة

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

لا يمل منه صاحبه . بل يطلب منه الزيادة . فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة ، وهي نعمة بعثه رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة . كما قصه الحرالي . ولما كان للعرب ولع بالذكر لأبائهم ولوقائعهم ، جعل ، تعالى ذكره ، لهم عوض ما كانوا يذكرون . كما جعل كتابه عوضا من أشعارهم . وهز عزائمهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ^(١) « يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملاهم خير منهم . وإن اقترب إلى شبراء اقتربت إليه ذراعا . وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا . فإن أنانى يمضى أتيته هرولة . صحيح الإسناد أخرجه ^(٢) البخارى أيضا .

وروى ^(٣) مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة : أنهما شهدا على النبى ﷺ أنه قال : لا يمد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكروا الله فيمن عنده . والآثار فى فضل الذكر متوافرة ، ويكفى فيه هذه الآية الكريمة .

(تنبيه) قال النووى رحمه الله تعالى : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما . بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكر لله تعالى .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جزء ثان ص ٢٥١ (طبعة الحلبي) ورقم ٧٤١٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٥ - باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه ، حديث رقم ٢٥٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

كذا قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه ، وغيره من العلماء . وقال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام . كيف تشتري وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق . وأشبهاء هذا . وقال النووى أيضاً : إن الأذكار المشروعة فى الصلاة وغيرها ، واجبة كانت أومستحبة ، لا يحسب شئ منها ولا يعتمد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ، لا عارض . وقد صنف ، فى عمل اليوم والليلة ، جماعة من الأئمة كتباً نفيسة . ومن أجمعها للمتأخرين (كتاب الأذكار للنووى) ومن جمع زبدة ما روى فيها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى (زاد المعاد) . وقال فى طليعة ذلك : كان النبي ﷺ أكل الخلق ذكراً لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والا . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله . وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعدده ووعيده ذكراً منه له . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكراً منه له . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه له . وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه . فكان ذكر الله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائماً وقاعداً ، وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ومسيره ، ونزوله وطمئه وإقامته . انتهى .

وأما الأذكار المحدثه والساعات المبتدعة ، سماع الكف والدف ، فلم يكن الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان ، وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجمعون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى . ولا يمدونه من القرب والطاعات بل يمدونه من البدع المذمومة . حتى قال الشافعى : خلفت بيننا شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغير) يصدون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك . ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم . ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر . فسماع الفناء والملاهى من أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية . وهو

سماع المشركين . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً »^(١) قال ابن عباس وابن عمر رضی الله عنهم ، وغيرها من السلف : التصديّة ، التصفيق باليد . والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة . وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية . ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط . لا بكف ولا بدف ولا تواجد . وكان أصحاب النبي ﷺ ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ . والباقيون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضی الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا . فقرأ وهم يستمعون . ومر النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له^(٢) : مررت بك البارحة

(١) [٨ / الأنفال / ٣٥] ونصها : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٣٦ (طبعنا) ونصه :

عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ لأبي موسى « لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود » .

وقال الحافظ في الفتح عند الكلام على الحديث ٢٠٩٧ ما نصه : كذا وقع عنده مختصراً من طريق بريد . وأخرجه مسلم من طريق طلحة بن يحيى عن أبي بردة بلفظ (وساق نصه ، كما مر) ثم قال :

وأخرجه أبو يعلى من طريق سعيد بن أبي بردة عن أبيه ، بزيادة فيه : أن النبي ﷺ وعائشة مرّاً بأبي موسى وهو يقرأ في بيته . فقاما يستمعان لقراءته . ثم إنهما مضيا . فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا موسى ! مررت بك ، فذكر الحديث . فقال : أما أني لو علمت بمكانك لحبّرت لك تحميراً .

وَأَنْتَ تَقْرَأُ الْفَجْلَ أَتَسْمَعُ لِقَاءَكَ . فَقَالَ : لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْمَعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْيِيرًا . أَيْ لِحُسْنَتِهِ لَكَ تَحْسِينًا . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ^(١) : زِينُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَانِكُمْ . وَقَالَ ﷺ ^(٢) : اللَّهُ أَشَدُّ أَذْنَا (أَيْ اسْمَاءًا) إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ ، مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ ^(٣) « أَقْرَأْ عَلَى » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَتَزَلُّ ؟ قَالَ « نَمْ » فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » ^(٤) قَالَ : حَسْبُكَ الْآنَ . فَالْتَفَتَ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه فقال « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَرِمَّةٍ مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَرِمَّةٍ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًا » ^(٥) وقال تعالى في أهل المعرفة « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٢ - باب قول النبي ﷺ « الماهر بالقرآن مع البررة الكرام وزينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال الحافظ في الفتح : هذا الحديث من الأحاديث التي علقها البخاري ولم يصلها في موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه في كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء بهذا . وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي ، وابن خزيمة وابن حبان ، في صحيحهما من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ١٧٦ - باب في حسن الصوت بالقرآن ، حديث ١٣٤٠ (طبعنا) ، عن فضالة بن عبيد .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٣٣ - باب قول المقرئ

للقاري : حَسْبُكَ . حديث رقم ١٩٩٠

(٤) [٤ / النساء / ٤١] .

(٥) [١٩ / مريم / ٥٨] .

تَرَىٰ أَغْيَيْنَهُمْ تَفْرِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» ^(١) ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » ^(٢) وقال تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » ^(٣) بخلاف هذا السماع، من الباطل الذي نهى عنه . ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التي أتت عليها النبي ﷺ ، ولا فعله أكابر المشايخ . فليُفَقَّ من كان من الفريق الأدنى في سلوك فقره . وليصحب من هو من الفريق الأعلى إلى حلول قبره ، وليدأو جراحات اجتراح بدعته ، باتباع هدى النبي ﷺ ولزوم سنته . واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته ، فيتولد منه الهيبة والإجلال . وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن . وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر . فحق المؤمن أن لا ينفك أبدا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه . وقوله تعالى «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» فيه أمر بشكره على نعمه وعدم جحدها (فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب) . وقد وعد تعالى على شكره بمزيد الخير فقال « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ^(٤) قال ابن عطية : اشكروا لي واشكروني بمعنى واحد . و« لي » أفصح وأشهر مع الشكر .

(١) [٥ / المائدة / ٨٣] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٢] .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر في الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة . لأن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها . أو في نقمة فيصبر عليها . كما جاء في الحديث ^(١) : عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له . وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله ، الصبر والصلاة . كما تقدم في قوله « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » ^(٢) وفي الحديث ^(٣) : أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثوبا . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضا واجب . كالاستغفار من المصائب .

(١) أخرج مسلم في صحيحه في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) ما نصه : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجبا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده جزء خامس ص ٢٤ (طبعة الحلبي) ما نصه : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئا إلا كان خيرا له » .

(٢) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بالجزء الخامس بالصفحة ٣٨٨ (طبعة الحلبي)

عن حذيفة .

وقال الإمام ابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) وأعظم عون لولى الأمر خاصة ، ولغيره عامة ثلاثة أمور : أحدها الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . والثانى الإحسان إلى الخلق بالنفع والمسال الذى هو الزكاة . والثالث الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ »^(١) وكقوله تعالى « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا » وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »^(٢) وقوله « فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »^(٣) وأما قرآنه بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة ، يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمسال والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطور . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » قال الإمام ابن تيمية (فى شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عاما كما فى قوله تعالى « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »^(٤) وفى قوله

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٢) [١١ / هود / ١١٤ و ١١٥] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] ونصها : فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى .

(٤) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

« مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ »^(١) إلى قوله « وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » وجاء خاصا كما في قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »^(٢) وقوله « إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى »^(٣) وقوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »^(٤) فلو كان المراد بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار ، وكذلك قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضا ، فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى

== ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا يَخِصِّيهِ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الذاتين بالأخرى . كما في قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » ^(١) وقوله « فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » ^(٢) وقوله « اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » ^(٣) وقوله « وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ » ^(٤) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله « وَهُوَ مَعَكُمْ » يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المية في اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو ، إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه . ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد . انتهى مختصرا .

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْكِهِ لِيَجْذِيَ الزَّارِعَ لِيَمْلَأَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٦] ونصها : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

(٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ،

بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ينهى تعالى عباده المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتا . بمعنى الذين تلفت نفوسهم وعدموا الحياة . وتصرفت عنهم اللذات . وأضحوا كالجادات . كما يتبادر من معنى الميت . ويأمرهم سبحانه بأن يقولوا لهم : الأحياء . لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون . كما قال تعالى في آل عمران « وَلَا تَحْزَنْنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »^(١) فقوله في هذه الآية « عِنْدَ رَبِّهِمْ » يفسر المراد من حياتهم . أى إنها لأرواحهم عنده تعالى . وقوله « وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » أى بحياتهم الروحية بعد موتهم . إذ لم يظهر منها شئ في أبدانهم ، وإن حفظ بعضها عن التلف . كما ترون النيام همودا لا يتحركون . فلا نخر أعظم من ذلك في الدنيا ، ولا عيش أرغد منه في الآخرة .

قال الحارثي : فكأنه تعالى ينفي عن المجاهد مثال السكره من كل وجه . حتى في أن يقال عنه : ميت . فإما من القول الذي هو عندهم من أشد غرض أنفسهم ، لاعتلاق أنفسهم بمجمل الذكر . انتهى . ولذا قال الأصم : يعنى لا نسموهم بالموتى ، وقولوا لهم الشهداء الأحياء . وقال الراغب الأصفهاني : الحياة على أوجه . وكل واحد منها يقابله موت (الأولى) هى القوة النامية التى

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩-١٧١] .

بها الغذاء ، والشهوة إليه . وذلك موجود في النبات والحيوان والإنسان . ولذلك يقال : نبات حتى . (والثانية) في القوة الحاسة التي بها الحركة السكانية . وهي في الحيوان دون النبات (والثالثة) القوة العاملة الماقلة . وهي في الإنسان دون الحيوان والنبات . وبها يتعلق التكليف . وقد يقال للعلم الاستفادة والعمل الصالح : حياة . وعلى ذلك قوله تعالى « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »^(١) وقيل : المحسن حتى وإن كان في دار الأموات . والمسيء ميت وإن كان في دار الأحياء (قال) ونعود إلى معنى الآية فنقول : قد أجمعوا على أنه لا يثبت لهم الحياة التي بها النمو والغذاء ، ولا الحياة التي بها الحس . فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول . فبعض المفسرين اعتبر الحياة المختصة بالإنسان . وقال : إن هذه الحياة مخصصة بالقوة المسماة تارة الروح وتارة النفس . قال : والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة ، التي هي الروح ، البدن . فمتى كان الإنسان محسناً كان منعماً بروحه مسروراً لمكانه إلى يوم القيامة . وإن كان مسيئاً كان به معذباً . وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والأدلة . وهو مذهب أصحاب الحديث . ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبي ﷺ . بل إليه ذهب أصحاب الملل كلها . ومما دل على صحته خبراً^(٢) « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وما روى عن أمير المؤمنين رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال^(٣) « إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَجَشَّرُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجندة ،

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ يقول . . . حديث ١٥٧٦

(٣) لم أهد إلى هذا الحديث .

بأنى عام « وروى ^(١) أنه لما قتل من قتل من صناديد قريش - يوم بدر - وجعوا في قلوبهم ، أقبل النبي ﷺ فخطبهم بقوله : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » قيل : يا رسول الله ! أتخطب جيفاً ؟ فقال « ما أنتم بأسمع منهم ، ولو قدروا لأجابوا » إلى غير ذلك من الأخبار . وقال تعالى في آل فرعون « النَّارُ يُمرْضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وهذا يعنى به قبل يوم القيامة ، لأنه قال في آخر الآية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أُدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ^(٢) انتهى .

وفي البيضاوى وحواشيه : « إن إثبات الحياة للشهداء في زمان بطلان الجسد ، وفساد البنية ؛ ونفى الشعور بها - دليل على أن حياتهم ليست الجسد ، ولا من جنس حياة الحيوان ، لأنها بصحة البنية ، واعتدال المزاج . وإنما هي أمر يدرك بالوحي لا بالمقل » انتهى .
وقد جاء الوحي ببيان حياتهم - كما أسلفنا - قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب (الروح) : وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دارٌ ، وإلا فالأبدان قد تمزقت . وقد فسر رسول الله ﷺ هذه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٧٧

(طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً . ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال « يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يسمعون وأنى يجيبوا وقد جيفوا ؟ قال « والذي نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسحبوا . فألقوا في قليب بدر .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] .

الحياة : بأنّ أرواحهم^(١) في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم أطّلا فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شيء نشتهي ؟ ونحن تسرح من الجنة حيث شئنا ..! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا - قالوا: يارب! نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ..! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. وصح عنه ﷺ^(٢) « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلّق من ثمر الجنة » (وتعلّق بضم اللام - أى : تأكل العليقة) وهذا صريح في أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها ..! انتهى .

قال الطيبي : قوله ﷺ « أرواحهم في جوف طير خضر » أى : يخلق لأرواحهم، بعد مفارقت أبدانهم، هياكل على تلك الهيئة ، تتعلّق بها وتكون خلفاً عن أبدانهم ، فيتوسّلون بها إلى نيل ما يشتهون من اللذات الحسية . وقال ابن القيم في كتاب (الروح) : « إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها . وركب هذا الإنسان من بدن ونفس . وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدانُ

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعنا) .

عن مسروق قال : سألتنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . قال : أمّا إنّنا قد سألنا عن ذلك . فقال . . . الخ .

(٢) أخرجه الترمذی في جامعه في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ١٣ - باب ما جاء

في ثواب الشهداء . عن ابن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال . . . الخ

تبع لها . فكما تبعَت الأرواح الأبدانَ في أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والمذاب - تبعَت الأبدانُ الأرواحَ في نعيمها وعذابها . والأرواح حينئذ هي التي تبأثر المذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة ، والأرواح خفية . والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها . فتجرب أحكام البرزخ على الأرواح . فترى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً . كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان فترى إلى أرواحها نعيماً وعذاباً . فأحيط بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغي ، يزلُ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج . وقد أَرانا الله سبحانه ، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك . أنموذجاً في الدنيا من حال النَّائم . فإن ما نعيم به ، أو يعذب في نومه ، يجري على روحه أصلاً ، والبدن تبع له . وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهدًا ، فيرى النَّائم أنه في نومه ضُرب ، فيصبح وآثار الضرب في جسمه . ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه . ويذهب عنه الجوع والظمأ . وأعجب من ذلك أنك ترى النَّائم ، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك . لأنَّ الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه . ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس . فإذا كانت الروح تتألم وتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستنباع ، فهكذا في البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهي متعلقة ببدنها ، لم تنقطع عنه كل الانقطاع . فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والمذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً . ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقة وسمته ، وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة - مطابق للعقل . وأنه حق لا مرية فيه . وأن من أشكل عليه ذلك ، فن سوء فهمه ، وقلة علمه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالشَّعْرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)
[١٥٦] (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ » خطاب لمن آمن مع النبي ﷺ ، خصّوا به ، وإن شمل من
ماثلهم ، لأنهم المباشرون للدعوة والجهاد ، ومكافحة الفجار . وكل قائم بحق ، وداع إليه ،
معرض للابتلاء بما ذكر ، كله أو بعضه . والتنوين للتقليل . أى : بقليل من كل واحد من
هذه البلايا وطرف منه . وإنما قلّ ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان ، وإن جل ، ففوقه
ما يقل إليه . وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا ترايبهم . وإنما أخبر به
قبل الوقوع ، ليوطنوا عليه نفوسهم ، ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به .
وليمهلوا أنه شيء يسير ، له عاقبة حميدة « مِنَ الْخَوْفِ » أى خوف العدو والإرجاف به
« وَالْجُوعِ » أى الفقر ، للشغل بالجهاد ، أو فقد الزاد ، إذا كنتم في سرية تجاهدون
في سبيل الله . وقد كان يتفق لهم ذلك أياماً يتقلبون فيها بتمرة « وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ »
أى لاقطاعهم بالجهاد عن عمارة بساتينهم ، أو لافتقار بعضها بسبب الهجرة ، وترك شيء منه
في البلدة المهاجرة منها « وَالْأَنْفُسِ » يقتلها شهيدة في سبيل الله ، أو ذهاب أطرافها فيه
« وَالشَّعْرَاتِ » أى بأن لا تنفل الحقائق كماداتها ، للغمية عنها في سبيل الله ، وفقد من يتعاهدها ،
وخصت بالذكر لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم أخص الناس بهذا الذكر ، لاسيما في وقت
نزول هذه الآيات . وهو أول زمان الهجرة . فكل هذا وأمثاله مما يجتبر الله به عباده كما قال

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ»^(١) . قال الراغب : هذه الآية مشتملة على محن الدنيا كلها : أى إذا نظر إلى عموم كل فرد مما ذكر فيها ، وقطع النظر عن خصوص حال المخاطبين فيها ، بما يدل عليه سابقه .

ثم بين تعالى ما للصابرين عنده بقوله «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ» مكروه ، اسم فاعل من أصابته شدة : لحقته . أى كهذه البلايا «قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ» أى ملكاً وخلقاً ، فلا ينبغي أن نخاف غيره ، لأنه غالب على الكل . أو نبأى بالجوع ، لأن رزق العبد على سيده ، فإن مُنِعَ وقتاً ، فلا بد أن يعود إليه . وأموالنا وأنفسنا وممراتنا ملك له ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء «وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فى الدار الآخرة . فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا . لأنه لا يضيع أجر المحسنين . فالصاب يهون عليه خطبه ، إذا تسلى بقوله هذا ، وتصور ما خلق له ، وأنه راجع إلى ربه ، وتذكر نعم الله عليه ، ورأى أن ما أبقي عليه أضعاف ما استرده منه . قال الراغب : وليس يريد بالقول اللفظ فقط ، فإن التلطف بذلك مع الجزع القبيح وتسخط القضاء ، ليس يفنى شياً . وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله والقصد له ، والاستهانة بما يمرض فى طريق الوصول إليه . فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه .
(ثم قال) إن قيل : ولمَ قلت : إن الأمر بالصبر يقتضى العلم ؟ قيل : الصبر فى الحقيقة إنما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبه .

(١) [٤٧ / محمد / ٣١] ونصها : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعمت « عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الراغب : الصلاة ، وإن كانت في الأصل الدعاء ، فهي من الله البركة على وجهه ، والمغفرة على وجهه . وقال الرازى : الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم . قال الراغب : وإنما قال « صلوات » على الجمع ، تنبيها على كثرتها منه وأنها حاصلة في الدنيا توفيقا وإرشادا ، وفي الآخرة ثوابا ومغفرة « وَرَحْمَةٌ » عظيمة في الدنيا عوض مصيبتهم « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » أى إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية ، فلا بد أن يوفى الله عليهم صلواته ورحمته .

(تنبيه) ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند المصائب ، وفى أجر الصابرين ، أحاديث كثيرة . منها ما فى صحيح مسلم ^(١) عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، إلا أجره الله فى مصيبتيه وأخلف له خيرا منها .

قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خير من أبى سلمة : صاحب رسول الله ؟ ثم عزم الله لى فقلت . قالت : فتزوجت رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد ^(٢) عن الحسين بن على عليهما السلام عن النبى ﷺ قال : مامن مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها ، فيحدث لذلك استرجاعا ، إلا جدد الله له عند ذلك ، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٥٤٠٥ (طبعنا) .

(٢) مسند الإمام أحمد جزء أول صفحة ٢٠١ (طبعة الحلبي) حديث رقم ١٧٣٤ (طبعة المعارف) .

وروى الإمام أحمد^(١) بسنده عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لى . وإنى لنى القبر إذ أخذ ييدى أبو طلحة (يعنى الجولاني) فأخرجنى وقال : ألا أبشرك ؟ قال قلت : بلى . قال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : يا مَلِكُ الموت ، قبضت ولد عبدى ، قبضت قرّة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . ورواه الترمذى وقال : حسن غريب .

وروى البخارى^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يصيب منه .

وروى الشيخان^(٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبى ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها .

وروي أيضاً^(٤) عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يصيبه أذى من مرض

(١) السند جزء رابع صفحة ٤١٥ والترمذى فى : ٨ - كتاب الجنائز ، ٣٦ - باب حدثنا سويد بن مضر .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١ - باب ما جاء فى كفارة المرض .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١ - باب ما جاء فى كفارة المرض . ومسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ٣ - باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول (ثم الأمثل فالأمثل) ونصه : حديث ٢٢٤١

عن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك . فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدا . قال « أجل . إني أوعك كما يوعك رجلان =

فما سواه إلا حظ الله به عنه من سيئاته . كما تحط الشجرة ورقها .
والأحاديث في ذلك متوافرة معروفة في كتب السنة .

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى ، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن
إبراده هنا . قال عليه الرحمة : للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس .
أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثاني : معرفة ذلة العبودية وكسرها . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ^(١) اعترفوا بأنهم مملوكه وعبيده وأنهم
راجعون إلى حكمه وتديره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا عييد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى إذا لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه . ولا معتمد في
كشفها إلا عليه « وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » ^(٢) « فَإِذَا رَكِبُوا
فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » ^(٣) .

= منكم « قلت : ذلك أن لك أجرين . قال « أجل . ذلك كذلك . ما من مسلم يصيبه
أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » .

وأخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .
(١) [٢ / البقرة / ١٥٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٧] ونصها : وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
هُوَ ، وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٠ / يونس / ١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] ونصها : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

الرابعة : الإجابة إلى الله تعالى والإقبال عليه « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ »^(١) .

الخامسة : التضرع والدعاء « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا »^(٢) . « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »^(٣) . « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا أَنْتُمْ كُونَ »^(٤) . « قُلْ مَنْ يُنَجِّيَكُم مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »^(٥) .

السادسة : الحلم من صدرت عنه المصيبة « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »^(٦) « إِنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٨] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَمَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّبُصْلٍ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٦٧] ونصها : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا .

(٤) [٦ / الأنعام / ٤١] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٦٣] .

(٦) [٩ / التوبة / ١١٤] ونصها : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

نُبَشِّرُكَ بِفُلَامٍ حَلِيمٍ»^(١). إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة^(٢). وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم. السابعة: العفو عن جانيها «وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ»^(٣). «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٤) والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها. وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه «وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»^(٥) «إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(٦) وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر^(٧).

- (١) [١٥ / الحجر / ٥٣] ونصها: قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِفُلَامٍ حَلِيمٍ.
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه في: ١ - كتاب الإيمان، حديث ٢٥ و ٢٦ (طبعنا)
- من حديث طويل لما قدم أناس من عبد القيس على رسول الله ﷺ، قاله للأشج، أشج عبد القيس.
- (٣) [٣ / آل عمران / ١٣٤] ونصها: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.
- (٤) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.
- (٥) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.
- (٦) [٣٩ / الزمر / ١٠] ونصها: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.
- (٧) أخرجه البخاري في: ٢٤ - كتاب الزكاة، ٥٠ - باب الاستمغاف عن المسئلة =

التاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها . قال عليه الصلاة والسلام ^(١) : والذي نفسي بيده ! إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : حبذا المكروهان الموت والفقر . وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ، كما يفرح من عظمت أذاؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرعه لمرارتها .

العاشرة : الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها . كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه ، المانع من شهواته ، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء .

الحادية عشرة : تحصيلها للذنوب والخطايا « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ^(٢) ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمله

= ونصه : عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده . فقال : ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم . ومن يستغفِرْ يُعْفِهِهُ الله . ومن يستغفِرْ يَفْهِهِهُ الله . ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر . حديث رقم ٧٨١

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢٣ - باب الصبر على البلاء ، حديث ٤٠٢٤ (طبعنا) ونصه : عن أبي سعيد الخدرى قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك . فوضعت يدي عليه . فوجدت حره بين يدي ، فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ! ما أشدها عليك ! قال : إنا كذلك . يضطف لنا البلاء ويضطف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ! ثم من ؟ قال : ثم الصالحون . إن كان أحدكم ليتلى بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العبادة يحويها . وإن كان

أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

في الزوائد إسناده صحيح . رجاله ثقات .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

والشوكة يشاكها إلا كفر به من سيئاته^(١) .

الثانية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلوهم . فالناس معافي ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية^(٢) . وإنما يرحم العشاق من عشق .
الثالثة عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها . فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الرابعة عشرة : ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الخامسة عشرة : ما في طيبتها من الفوائد الخفية « فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »^(٣) . « وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »^(٤) .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعنا) .
(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٥٦ - كتاب الكلام ، حديث رقم ٨ (طبعنا) .
إنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول : لا تنكروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم .
فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب . وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد . فإنما الناس مبتلى ومعافى . فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

(٣) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ، وَعَاصِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (١).

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم (٢) كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين. فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية، وقد قيل :

كم نعمة مطوية لك بين أنشاء المصائب

(١) [٢٤ / النور / ١١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلاً . حديث ١١١٣

ونصه : عن أبي هريرة قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذب باب . فنتين منهن في ذات الله عز وجل . قوله : إني سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا .

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة . فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختي .

فأتى سارة قال : يا سارة ! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك . وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبي .

فأرسل إليها . فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ . فقال : ادعى الله ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية . فأخذ مثلها أو أشد . فقال : ادعى الله لي ولا أضرك . فدعت فأطلق .

فدعا بعض حبيته فقال : إنكم لم تأتونني بإنسان ، إنما أتيتموني بشيطان . فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلي . فأومأ بيده : مهيا . قالت : رد الله كيد الكافر (أو الفاجر) وأخدمها هاجر .

قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء !

وقال آخر :

رب مبنوض كربه فيه لله لطائف

السادسة عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأثر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتعجب ، فإن نمرود ، لو كان فقيراً سقيماً ، فاقد السمع والبصر ، لما حاج إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك . وقد علل الله سبحانه وتعالى حاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» (١) . «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» (٢) «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ» * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْنَى (٣) . «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِمَبَادِهِ لَبَغَمُوا فِي الْأَرْضِ» (٤) «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ» (٥) . «لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا» * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (٦) . «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

(٢) [٩ / التوبة / ٧٤] ونصها : يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوْبَهُمَا بِكَلِمَتِهِمْ يَنَاقِلُونَ ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُمْسِكْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ٧٥] .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٢٧] ونصها : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِمَبَادِهِ لَبَغَمُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِمِيقَاتِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(٥) [١١ / هود / ١١٦] ونصها : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

(٦) [٧٢ / الجن / ١٦] ونصها : وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا .

مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ»^(١).

والفقراء والضعفاء هم الأوليا وأنباغ الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء^(٢) الأنبياء. ثم الأمثل فالأمثل. نسبوا إلى الجنون^(٣) والسحر^(٤) والكهانة^(٥) واستهزء بهم^(٦) وسخر منهم^(٧) «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا»^(٨). وقيل لنا «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلُوفَا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»^(٩).

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٤].

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٥ - كتاب الرضى ، ٣ - باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

(٣) [١٥ / الحجر / ٦] ونصها : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٤) [٥١ / الذاريات / ٥٢] ونصها : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢٩] ونصها : فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

(٦) [١٥ / الحجر / ١١] ونصها : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٧) [٦ / الأنعام / ١٠] ونصها : وَلَقَدْ اسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٨) [٦ / الأنعام / ٣٤] ونصها : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ^(١) » « لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَفْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ^(٢) . كَالَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَتَقَرَّبُوا عَنْ أَوطَانِهِمْ . وَكَثُرَ عَنَانِهِمْ . وَاشْتَدَّ بَلَاءُهُمْ . وَتَكَارَّرَ أَعْدَاؤُهُمْ . فَغَلَبُوا فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ بِأَحَدٍ ^(٣) وَبُرِّ مَعُونَةٍ ^(٤) مِنْ قَتْلِ . وَشُجٍّ ^(٥) وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَكَسَرَتْ ^(٦) رِبَاعِيَّتُهُ . وَهَشَمَتْ ^(٧) الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ . وَتُبِّلَ أَهْرَؤُهُ وَمُثِّلَ بِهِمْ . فَشَقَمَتْ أَعْدَاؤُهُ وَانْغَمَّ أَوْلِيَائُهُ . وَابْتَلَوْا يَوْمَ الْخَنْدَقِ ^(٨) . وَزَلَزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا . وَزَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ . وَكَانُوا فِي خَوْفٍ دَائِمٍ وَعَرَى لَازِمٍ . وَفَقَرَ مَدْقَعٌ . حَتَّى شَدُّوا الْحِجَارَةَ عَلَى بَطُونِهِمْ مِنَ الْجُوعِ . وَلَمْ يَشْبِعْ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ خَبْزِ بُرٍّ فِي يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ . وَأَوْدَى بِأَنْوَاعِ الْأَذْيَةِ حَتَّى قَذَفُوا أَحَبَّ ^(٩) أَهْلِهِ إِلَيْهِ . ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

(٣) اقرأ عن غزوة أُحُد وما تم فيها، في صحيح البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ،

١٧ - باب غزوة أُحُد ، إلى ٢٦ - باب من قتل من المسلمين يوم أُحُد .

(٤) اقرأ عن بُرِّ معونة في صحيح البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٢٨ - باب غزوة

الرجيع ورعل وذكوان وبُرِّ معونة ... الخ

(٥) اقرأ في صحيح البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٢٩ - باب غزوة الخندق، وهي

الأحزاب .

(٦) اقرأ في صحيح البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٤ - باب حديث الإفك .

بمسليمة^(١) وطليحة^(٢) والعنسي^(٣). ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة^(٤) ما لقوه. ومات ودرعه^(٥) عند يهودي على آسع من شمير . ولم تزل الأنبياء والصالحون يتمهدون بالبلاء الوقت بالوقت (يبتلى الرجل^(٦) على قدر دينه فإن كان صلبا في دينه شدد في بلائه . ولقد كان أحدهم بوضع^(٧) المنشار على مفرقه فلا يصدده ذلك عن دينه) . وقال عليه الصلاة والسلام :

(١) اقرأ في صحيح البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٧٠ - باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ، وفيه قدوم مسليمة الكذاب و ٧١ - باب قصة الأسود العنسي .
(٢) انظر : الإصابة رقم ٤٢٨٣

(٣) اقرأ في صحيح البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٧١ - باب قصة الأسود العنسي .

(٤) اقرأ في صحيح البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٨ - باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة .

(٥) صحيح البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٨٩ - باب لما قيل في درع النبي ﷺ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : توفي رسول الله ﷺ ودرعه مبرهونة عند يهودي ثلاثين صاعا من شمير .

(٦) الترمذي في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء .
عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ! أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه . وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ، ما عليه من خطيئته .

(٧) اقرأ في صحيح مسلم قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .
في : ٥٣ - كتاب الزهد ، حديث ٧٣ (طبعنا) .

(مثل المؤمن ^(١)) مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمن ^(٢)) كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتمدها مرة حتى تهيج) فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبء إلى الله عز وجل . وحال العافية والنعماء صارفة للعبء عن الله تعالى « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَّتِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » ^(٣) فلاجل ذلك تقللوا في المال كل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك . ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه .

السابعة عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى . فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر . فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا . والرضا أفضل من الجنة وما فيها . لقوله تعالى « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » ^(٤) أى من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

(١) جامع الترمذى فى : ٤١ - كتاب الأدب ، ٧٩ - باب ما جاء فى مثل المؤمن القارى للقرآن ، وغير القارى :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء . ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣١ - باب فى المشيئة والإرادة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمن كمثل خامة الزرع ، ينفى ورقه من حيث أتها الريح تكفئها . فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرزة . صماء معتدلة ، حتى يقصمها الله ، إذا شاء .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] .

(٤) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى =

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوى ، ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فليسنا من رجال البلوى .
وقفنا الله تعالى لما يحب ويرضى وعافانا من الحزن والرزاياء بمته وكرمه . آمين .

تم الجزء الثاني من محاسن التأويل . ويليه المجلد الثالث وأوله في الكلام على آية « إن الصفا والمروة » .
وافق الفراغ من تحريره في العشر الأول من شوال سنة ١٣١٧ في دارنا ، على يد جامعته جمال الدين القاسمي غفر الله له .

بحمده تعالى أعدت النظر على هذا الجزء . وضمت إليه ماجدة المثور عليه من الفوائد ، في أوقات متفرقة ، كان آخرها في ٣ ربيع الأول سنة (١٣٢٩) وكتبه جامعته الفقير جمال الدين القاسمي في عنه .



= مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ
مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

[٢٩ / س / ٣٨]

تفسير الفاسمي

المسيحي

محاسن التأويل

تأليف علامّة الشّام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثالث

ويبتدئ بتفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة
وينتهي بتفسير آخر آية منها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد رضا عبد الباقى

دار الخيلاء الكتب العربية

عميسى البابى الجلبى وشركاه

« الطبعة الأولى »

جميع الحقوق محفوظة

[١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

قوله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » (الصفا والمروة) : علمان لجبلين بمكة . ومعنى كونهما من شعائر الله : من أعلام مناسكه ومتعبداته .

قال الرازى : كل شئ جعل علماً من أعلام طاعة الله ، فهو من شعائر الله . قال الله تعالى « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ »^(١) أى : علامة للقربة .. وقال « ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ »^(٢) ، وشعائر الحج معالم نسكه . ومنه الشعر الحرام . ومنه إشعار السنام - وهو أن يعلم بالمدينة - فيكون ذلك علماً على إحرام صاحبها ، وعلى أنه قد جعله هدياً لبیت الله . و (الشعائر) جمع شعيرة وهى العلامة ، مأخوذ من الإشعار الذى هو الإعلام ، ومنه قولك : شعرت بكذا أى علمت انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] ونصها : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] ونصها : ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

و (الحجّ) في اللغة : القصد . و (الاعتبار) : الزيارة . غلباً في الشريعة على قصد البيت وزيارته ، على الوجهين المعروفين في النسك . و (الجُنَاح) بالضم : الإثم والتضييق والمؤاخذه . وأصل (الطواف) : المشى حول الشيء . والمراد : السعى بينهما .
وقد روى في سبب نزول الآية عدّة روايات :

ولفظ البخاريّ عن عروة قال ^(١) : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها : أرايت قول الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » فوالله ! ما على أحدٍ جناح أن لا يطوف بالصفاء والمروة ! قالت : بئسما قلت يا ابن أختي ! إنّ هذه لو كانت كما أولتها عليه ، كانت : لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكنها أنزلت في الأنصار . كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل . فكان من أهلّ يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة . فلما أسلموا سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ قالوا : يا رسول الله ! إنّنا كنّا نتخرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزّل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ... » الآية .

قالت عائشة رضي الله عنها : وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما .
فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما .

ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إنّ هذا لعلمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يذكرون أنّ الناس - إلّا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة - كانوا يطوفون كلهم بالصفاء والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن ، قالوا : يا رسول الله ! كنّا نطوف بالصفاء والمروة . وإنّ الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا . فهل علينا من حرج أن نطوّف بالصفاء والمروة ؟ فأنزّل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ... » الآية .

(١) أخرجه البخاريّ بنصه في : ٢٥ - كتاب الحج ، ٧٩ - باب حدثنا أبو اليمان .

قال أبو بكر : فاسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما : في الذين كانوا يتخرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفاء والمروة ، والذين يطوفون ثم تخرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام . من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفاء ، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت .

وفي رواية معمر عن الزهري : إنا كنا لانطوف بين الصفاء والمروة تعظيماً لمناة ، أخرجه البخاري تعليقاً ، ووصله أحمد وغيره .

وأخرج مسلم^(١) في رواية يونس عن الزهري عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا ، هم وغسان ، يهلّون لمناة . فتخرجوا أن يطوفوا بين الصفاء والمروة ، وكان ذلك سنة في آبائهم : من أحرم لمناة لم يطف بين الصفاء والمروة . وإنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا . فأُزيل الله عز وجل في ذلك : إِنَّ الصَّافَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

وروى الفاكهي عن الزهري : أن عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديد . فكانت الأزرد وغسان يحجونها ويعظمونها ، إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى أتوا مناة فأهلّوا لها . فمن أهلّ لها لم يطف بين الصفاء والمروة . قال : وكانت مناة للأوس والخزرج والأزد من غسان ومن دان دينهم من أهل يثرب .

وروى النسائي بإسناد قوى عن زيد بن حارثة^(٢) قال : كان على الصفاء والمروة صلمان من نحاس يقال لهما « إساف ونائلة » كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما . . . الحديث .

وروى الطبراني وابن أبي حاتم في التفسير بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال :

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٢٦٣ (طبعنا) .

(٢) زيد بن حارثة ، قال عنه في ذخائر المواريث : ليس له إلا حديث واحد . أخرجه ابن ماجه في الطهارة .

قالت الأنصار : إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية. فأنزل الله عز وجل « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ... » الآية .

وروى الفاكهي وإسماعيل القاضي في « الأحكام » بإسناد صحيح عن الشعبي قال : كان صنم بالصفا يدعى « إساف » ، ووثن بالمروة يدعى « نائلة » ، فكان أهل الجاهلية يسمون بينهما . فلما جاء الإسلام رمى بهما ؛ وقالوا : إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم ، فأمسكوا عن السعى بينهما ، قال : فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ... » الآية . وقد استفيد من مجموع هذه الروايات أنه تخرج طوائف من السعى بين الصفا والمروة لأسباب متعددة فنزلت في الكل . والله أعلم .

وجواب عائشة، رضى الله عنها، لعروة هو من دقيق علمها وفهمها الثاقب وكبير معرفتها بدقائق الألفاظ . لأن الآية الكريمة إنما دلّ لفظها على رفع الجناح عمن يطوف بهما ، وليس فيه دلالة على عدم وجوب السعى ولا على وجوبه . « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » أى : من فعل خيراً فإن الله يشكره عليه ويثيبه به . ومعنى (تطوَّع) أتى بما فى طوعه أو بالطاعة ، وإطلاقه على ما لا يجب عرف فقهي لا لغوي . و (الشكر) من الله تعالى المجازاة والثناء الجميل .

قال الراغب : الشكر ، كما يكون بالقول ، يكون بالفعل ، وعلى ذلك قوله تعالى « اَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا » ^(١) ؛ قال : وليس شكر الرفيع للوضع إلا الإفضال عليه وقبول حمد منه .

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] ونصها : يَمَعْمُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

تنبيهات :

الأول : تمسك بعضهم بقوله تعالى « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا » على أن السعى سنة ، وأن من تركه لا شيء عليه . فإن كان مأخذه منها : إن التطوع التبرع بما لا يلزم فقد قدّمنا أنه عرف فقهي لا لغوي ، فلا حجة فيه . وإن كان نفي الجناح ، فقد علمت المراد منه .

وممن ذهب إلى أنه سنة ، لا يجبر بتركه شيء ، أنس في نقله ابن المنذر وعطاء . نقله ابن حجر في (الفتح) .

وقال الرازي : روى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء ، أن من تركه فلا شيء عليه . وأما حديث (١) : اسمعوا فإن الله كتب عليكم السعى رواه أحمد وغيره ، ففي إسناده عبدالله بن المؤمل ، وفيه ضعف .

ومن ثم قال ابن المنذر : إن ثبت فهو حجة في الوجوب . ذكره الحافظ ابن حجر في (الفتح) .

الثاني : صح أنه (٢) صلى الله عليه وسلم طاف بين الصفا والمروة سبعا ، رواه الشيخان

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، جزء سادس صفحة ٤٢١ (طبعة الحلبي) ونصه : عن حبيبة بنت أبي تمرة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه . وهو وراءهم وهو يسعى . حتى أرى ركبتيه من شدة السعى ، يدور به إزاره ، وهو يقول « اسمعوا فإن الله كتب عليكم السعى » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٣٠ - باب قول الله : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . ونصه :

عن عمرو بن دينار قال : سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة ، ولم يطف بين الصفا والمروة ، أيأتى امرأته ؟ فقال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة . وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٨٩ (طبعنا) .

وغيرها عن ابن عمر . وأخرج مسلم وغيره^(١) من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه ، فجعل يحمده الله ويدعو بما شاء أن يدعو . وأخرج أيضاً^(٢) من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دنا من الصفا قرأ : إن الصفا والمروة من شعائر الله . أبداً بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك ، فقال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي ، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا اه . وظاهر هذا أنه كان ماشياً .

وقد روى مسلم^(٣) في صحيحه عن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ليراه الناس ، وليشرف وليسألوه ، فإن الناس غشوه .

ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً . قال ابن حزم : لا تعارض بينهما ، لأن الراكب إذا انصب به بعيره فقد انصب كله وانصبت قدماه أيضاً مع سائر جسده .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٤ (طبعنا) .

وهذه الجملة آخر حديث طويل ، وفيه ذكر فتح مكة ، يجب الاطلاع عليه والتفقه فيه .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعنا) .

هو قطعة من أصح وأطول حديث ، وأتم وصف لحجة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٢٥٥ (طبعنا) .

وعندى - فى الجمع بينهما - وجه آخر أحسن من هذا وهو : أنه سعى ماشياً أولاً ، ثم أتمّ سعيه راكباً ، وقد جاء ذلك مصرحاً به .

فى صحيح مسلم^(١) عن أبى الطفيل قال : قلت لابن عباس : أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً ، أسنّة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنّة ! قال : صدقوا وكذبوا !.. - قال - قلت : ما قولك صدقوا وكذبوا .. ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر عليه الناس . يقولون : هذا محمد !.. حتى خرج عليه العواتق من البيوت - قال - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُضربُ الناس بين يديه - فلما كثر عليه ركب . والمشى والسعى أفضل . وفى الصحيحين^(٢) عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوّته !..

وعن كريب مولى ابن عباس : أن ابن عباس قال^(٣) : ليس السعى بيطن الوادى بين الصفا والمروة بسنّة ، إنما كان أهل الجاهلية يسعونها ويقولون : لا نُجيزُ البطحاء إلا شداً !.. رواه البخارى تعليقاً ، ووصله أبو نعيم فى مستخرجه . قال شراح الصحيح : المراد بالسعى المنىّ هو شدّة المشى والعدوّ . فهو ، رضى الله عنه ، لم ينف سنية السعى المجرد ، بل مجاوزة الوادى بقوّة وعدوّ شديد ، إذ أصل السعى هديه صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٢٣٧ (طبعتنا) وهو الشطر الثانى من الحديث .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٤٣ - باب عمرة القضاء ، حديث ٨٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٢٧ - باب القسامة فى الجاهلية ، حديث ١٨٠٤ .

الثالث : في البخارى^(١) عن ابن عباس في قصة هجر أم إسماعيل : إن الطواف بينهما مأخوذ من طوافها وتردادها في طلب الماء . ولفظه : وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى (أو قال ، يتلبط) فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . ففعلت ذلك سبع مرّات .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً . . . الحديث .

قال ابن كثير : لما ترددت هاجر في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة ، تطلب الغوث من الله تعالى متذللاً ، خائفاً ، مضطراً ، فقيرة إلى الله عز وجل ، كشف تعالى كربتها ، وآس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي طعامها طعام طعم ، وشفاء سقم . فالساعى بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه ، وصلاح حاله ، وغفران ذنبه ، وأنه يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبت عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه - من الذنوب والمعاصي - إلى حال السكّال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٩ - باب يزفون . التسلان في المشي .

حديث ١١٨٣ . وهو حديث طويل جداً فيه فوائد تاريخية وفقهية يجدر بالمسلم حق المسلم أن لا يفوته ما فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنُهُ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » .

لما تقدم أن بعض أهل الكتاب يكتُمون ما يعلمون من هذا الحق ، وختم ما أتبعه له بصفى الشكر والعلم - ترغيباً وترهيباً - بأنه يشكر من فعل ما شرعه له ، ويعلم من أخفاه وإن دق فعله وبالع في كتمانهم ، انعطف الكلام إلى تبكيت المنافقين منهم . ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق . إذ كانت هذه كلها في الحقيقة قصصهم . والخروج إلى غيرها إنما هو استطراد على الأسلوب الحكيم المبين ، لأن هذا الكتاب هدى ؛ وكان السياق مرشداً إلى أن التقدير بعد « شاكر عليم » : ومن أحدث شراً فإن الله عليم قدير ، فوصل به استثناء قوله - على وجه يعمهم وغيرهم - « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا ... » الآية ، بيانا لجزائهم . فانتظمت هذه الآية في ختمها لهذا الخطاب بما مضى في أوله من قوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ^(١) فكانت البداية خاصة ، وكان الختم عاماً ، ليكون ما في كتاب الله أمراً منطبقاً - على نحو ما كان أمر محمد صلى الله عليه وسلم ومن تقدمه من الرسل خلقاً - لينطبق الأمر على الخلق بدءاً وختماً انطباقاً واحداً ، فعم كل كاتم من الأولين والآخرين . نقله البقاعي .

و (اللعن) الطرد والإبعاد عن الخير ، هذا من الله تعالى ؛ ومن الخلق : السب ، والشتم ، والدعاء على الملعون ، ومشاقته ، ومخالفته ، مع السخط عليه ، والبراءة منه . والمراد بقوله « اللَّاعِنُونَ » كل من يصح منه لعن ، وقد بينه بعد قوله تعالى « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] .

لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ^(١) وقد دلّت الآية على أنّ هذا الكتمان من الكبائر ، لأنه تعالى أوجب فيه اللعن ، لأنّ ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلف لا يجوز أن يُكتم ، ومن كتمه فقد عظمت خطيئته ، وبلغ للعنه من الشقاوة والخسران الغاية التي لا يدرك كمها .. ! وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتمان العلم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال ^(٢) : لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ... » ^(٣) الآية ، وقوله « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... » ^(٤) الآية .

ثم استثنى تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال :

(١) [٢ / البقرة / ١٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث ١٠٢ ونصه :

عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة . ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً . ثم يتلو : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، إِلَى قَوْلِهِ : الرَّحِيمُ . إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم . وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٩] .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَيُبَيِّنُ مَا يَشْتَرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ،

وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » - أى عن الكتمان - « وَأَصْلَحُوا » - أى عملوا صالحاً -
« وَبَيَّنُّوا » - ما كانوا كتموه فظهرت توبتهم بالإقلاع - « فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ »
- أى أقبل توبتهم بإفاضة المغفرة والرحمة عليهم - « وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .
ثم أخبر تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى كفره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٦٢] (خَالِدِينَ فِيهَا ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا » - أى فى اللعنة ، أو فى النار ، على أنها أضمرت من غير
ذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها - « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » -
إما من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال . أى : لا يمهلون عن العذاب ولا يؤخر عنهم ساعة
بل هو متواصل دائم ؛ أو من النظر بمعنى الرؤية أى : لا ينظر إليهم نظر رحمة كقوله « وَلَا
يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) . -

(١) [٣ / آل عمران / ٧٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظَرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

«وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» يخبر تعالى بخطابه كافة الناس عن تفرده بالإلهية . وأنه لا شريك له ولا عديل .

قال الراغب : يجوز أن يكون قوله «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» خطاباً عاماً ، أى المستحق منكم العبادة هو إله واحد لا أكثر ؛ ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين . والمعنى . الذى تعبده هو إله واحد ، تنبيهاً أنكم لستم كالكفار الذين يعبدون أصناماً آلهة والشيطان والهوى وغير ذلك . إن قيل : ما فائدة الجمع بين «إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» وبين «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وأحدهما يبنى على الآخر ؟ قيل : لما بين بقوله «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها - وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لا يعبد ولا يستحق العبادة - أكد بقوله «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وحق لهذا المعنى أن يكون مؤكداً وتكرر عليه الألفاظ ، إذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه . انتهى .

وقال الرازى : إنما خص سبحانه وتعالى هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلهية والفردانية يفيد القهر والعلو ، فمقهما بذكر هذه المبالغة فى الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية وعزة الفردانية ، وإشماراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان . انتهى .

ولما كان مقام الوحدانية لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة ، نصب تعالى الأدلة ، من العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ، على ذلك تبصيراً للجهال وتذكيراً للعلماء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » - في ارتفاع الأولى ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فللكها ، وفي انخفاض الثانية وكثافتها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من النافع - « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى : اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر ، فيجئ أحدهما ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كقوله تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً » ^(١) أو اختلاف كلٍّ منهما في أنفسهما ازدياداً وانتقاصاً كما قال « يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » ^(٢) أى : يزيد من هذا في هذا ومن هذا في ذلك . « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » أى : في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى آخر لمعيش الناس والارتفاع بما عند أهل إقليمٍ لغيره .

قال الراغب : ولما لم يكن فرق بين أن يقال « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ » وبين أن يقال : والبحر الذى يجرى فيه الفلك ، فى أن القصد الأول بالآية أن يعرف منفعة البحر

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٢] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

وإن آخر في اللفظ، قدم ذكر الفلك الذى هو من صنعتنا . ولما كان سبيلنا إلى معرفتها أقرب منه إلى معرفة صنعه - قدم ذكر الفلك لينظر منها إلى آثار خلق الله تعالى . اه . « وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ » بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار « بَعْدَ مَوْتِهَا » باستيلاء اليبوسة عليها « وَبَثَّ فِيهَا » أى نشر وفرق « مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » من العقلاء وغيرهم « وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ » أى : تقليبها فى مهابها : قبولاً ودبوراً وجنوباً وشمالاً ، وفى أحوالها : حارةً وباردةً وعاصفةً ولينةً ، فتارةً مبشرة بين يدى السحاب ، وطوراً تسوقه ، وآونةً تجمعمه ، ووقتاً تفرقه ، وحيناً تصرفه .

قال الثعالبي : إذا جاءت الريح بنفس ضعيف وروح فى النسيم ، فإذا كانت شديدة فى العاصف، فإذا حركت الأغصان تحريكاً شديداً وقلعت الأشجار فى الزرعان والزرع . فإذا جاءت بالحصاء فى الحاصبة ، فإذا هبت من الأرض نحو السماء كالعمود فى الإعصار ويقال لها زوبعة أيضاً ، فإذا هبت بالغبرة فى الهبوة ، فإذا كانت باردة فى الصرصر ، فإذا كان مع بردها ندى فى الليل ، فإذا كانت حارة فى الحرور والسُموم ، فإذا لم تلقح شجراً ولم تحمل مطراً فى المقيم . ومما يذكر منها بلفظ الجمع : الأعاصير وهى التى تهيج بالغبار ، والوواقع التى تلقح الأشجار ، والمصرات التى تأتى بالأمطار ، والمبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

« وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى : فلا يهوى إلى جهة السفلى مع ثقله بحمله بخار الماء - كما تهوى بقية الأجرام العالية - حيث لم يكن لها ممسك محسوس ، ولا يعلو ، ولا ينقشع ؛ مع أن الطابع يقتضى أحد الثلاثة : فالكثيف يقتضى النزول ، واللطيف يقتضى العلو ، والمتوسط يقتضى الانقشاع . ذكره البقاعى .

لطيقتان :

الأولى : قال الثعالبي : أول ما ينشأ السحاب فهو النَّشْءُ ، فإذا انسحب فى الهواء

فهو السحاب ، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام ، فإذا أظلم فهو العارض ، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق فهو الغمام ، فإذا عنّ فهو العنان ، فإذا كان أبيض فهو المزن .

الثانية : قال الراغب : التسخير القهر على الفعل . وهو أبلغ من الإكراه . فإنه حمل الغير على الفعل بلا إرادة منه على وجهٍ ، كحمل الرحي على الطحن اه . وقوله تعالى « لآيَاتٍ » : أى عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كما وكيفاً « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى يتفكرون فيها وينظرون إليها بعين العقول ، فيستدلون على قدرته ، سبحانه ، القاهرة ، وحكمته الباهرة ، ورحمته الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به جلّ شأنه .

قال البقاعي : وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة . فجعل سبحانه العالم - وهو الممكنات الموجودة ، وهى جملة ما سواه ، الدالة على وجوده وفعله بالاختيار - على قسمين : قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة ، ويسمى فى عرف أهل الشرع : الشهادة والخلق والملك . وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى : الغيب والأمر والمسلوك . والأول يدركه عامة الناس ، والثانى يدركه أولو الأبصار الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس . فله تعالى - بكمال عنايته ورأفته ورحمته - جعل العالم بقسميه محتوياً على جمل وتفصيل من وجوه متعددة ، وطرقٍ متكررة ، تعجز القوى البشرية عن ضبطها ، يستدلّ بها على وحدانيته ، بعضها أوضح من بعض ، ليشارك الكل فى المعرفة ، فيحصل لكلٍ بقدر ما هُيئَ له ، اللهم إلا أن يكون ممن طُبِعَ على قلبه ، فذلك - والعياذ بالله - هو الشقُّ انتهى .

قال المهايى : وكيف ينكرون وجود الله ، وتوحيده ، ورحمانيته ، ورحيميته ، وقدرلّ عليها دلائل العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ؟ ثم قال : أمادالة السماء والأرض على وجود الإله فلائهما حادثان . لأنّ لهما أجزاءً يفتقران إليها ، فلا بدّ لهما من محدث ليس بعض أجزاءهما ، لأنّه دخله التركيب الحادث ، والقديم لا يكون محلاً للحوادث ، والمحدث لا بدّ أن يكون

قديمًا قطعاً للتسلسل . وعلى التوحيد ، فلأنَّ إلهَ السموات لو كان غير إله الأرض لم يرتبط
 منافع أحدهما بالآخر . وعلى الرحمتين لأنه عزَّ وجلَّ جعل في الأرض موادَّ قابلة للصُّور المختلفة
 وأفاضها واحدة بعد أخرى بتحريك السموات . وأما دلالة اختلاف الليل والنهار على وجود الإله
 فلحدوثهما من حركات السموات ولا بدَّ لها من محرك ، فإن كان حادثاً فلا بدَّ له من محدث .
وعلى التوحيد ، فلأنَّ إلهَ الليل لو كان غير إله النهار لأمكن كل واحد أن يأتي بما هو له في
 وقت إتيان الآخر بما هو له ، فيلزم اجتماعهما وهو محال . فإن امتنع لزم عجز أحدهما أو كليهما .
وعلى الرحمتين ، فلأنَّ الاعتدال الذي به انتظام أمر الحيوانات إنما يكون من تعاقبهما ، إذ
 دوام الليل مبرِّد للعالم في الغاية ، ودوام النهار مسخِّن له في الغاية . وأما دلالة الفلك على
 وجود الإله ، فلأنَّها أثقل من الماء فخفَّها الرسوب فيها ، فإمسكها فوق الماء من الله . ودخول
 الهواء فيها - وإن كان من الأسباب - فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة ، إذ يقلَّ
 الهواء جداً فيضعف أثره في إمساك هذا الثقل جداً ، فلا ينبغي أن ينسب إلَّا إلى الله تعالى
 من أوَّل الأمر ؛ وعلى التوحيد ، فلأنَّ إلهَ الفلك لو كان غير إله البحر لرُبما منع أحدهما
 الآخر من التصرف في ملكه ، وهو يفضي إلى اختلال نظام العالم لاختلاف المنافع المُنوطة
 بالفلك ؛ وعلى الرحمتين فلأنَّه رحم المسافرين بالتجارات ، والمسافر إليهم بالأمتعة التي يحتاجون
 إليها . وأما دلالة إنزال الماء على وجود الإله ، فلأنَّه أثقل من الهواء ، فوجوده في مركزه
 لا يكون إلَّا من الله . وعلى التوحيد ، فلأنَّ إلهَ الماء لو كان غير إله الهواء ، لمنع من التصرف
 في ملكه . وعلى الرحمتين ، فلأنَّه أخفى به الأرض معاشاً للحيوانات ، وبثَّ به الدواب
 تكميلاً لمنافع الإنسان . وأما دلالة تصريف الرياح على وجود الإله ، فلأنَّها حادثة تحدث
 هذه مرَّةً وهذه أخرى ، وقد يعدم الكلُّ ، فلا بدَّ من محدث ، فإن كان حادثاً افتقر إلى
 قديم . وعلى التوحيد ، فلأنَّه لو كان لكلِّ ريح إله لأمكن لكلِّ أن يأتي بما له ، فيلزم
 اجتماع الرياح المختلفة وهو مغلَّ بالنظام . وعلى الرحمتين ، فلأنَّها تحرك الفلك والسحب وتنمى

الأشجار والثمار . وأما دلالة السحاب على وجود الإله ، فلأنه لو كان ثقیلاً لنزل ، أو كان خفيفاً لصعد ، لكنه يصعد تارةً وينزل أخرى فهو من الله تعالى ؛ وأما على التوحيد فلأن إله السحاب لو كان غير إله السحاب الآخر ، لأمكن لكل واحدٍ أن يجعل سحابه في مكان سحاب الآخر ، فيلزم تداخل الأجسام أو العجز . وعلى الرّحمتين فلأنّ منها الأمطار . وله وجوه آخر من الدلالات وفوائد غير محصورة ، قنعنا بما ذكرنا .

قال القاضي عبد الجبار : الآية تدلّ على أمورٍ : (أحدها) لو كان الحقّ يدرك بالتقليد ، واتباع الآباء ، والجري على الإلف والعادة ، لما صحّ ذلك . و (ثانيها) لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صحّ وصف هذه الأمور بأنها آيات ، لأنّ المعلوم بالضرورة لا يحتاج في معرفته إلى الآيات . و (ثالثها) أنّ سائر الأجسام والأعراض ، وإن كانت تدلّ على الصانع ، فهو تعالى خصّ هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعماً على المكلفين على أوفر حظّ ونصيب ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشدّ تأثيراً في الخواطر . نقله الرازي .

ثم إنّ الله تعالى إنما أظهر هذه الآيات الدالة على وجوده ، وتوحيده ، ورحمته ، ليخصّه الخلق بالمحبة والعبادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

« وَ » لكن « مِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا » أى : أمثالا . مع أنّ الآيات منعت من أن يكون له ندّ واحد فضلاً عن جماعتها يسوون بينهم وبين الله إذ

« يُجِبُونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ » أى : يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له .
 و (الأنداد) هى : إمّا الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى ، ورجوا منها النفع
 والضّرّ ، وقصدوها بالمسائل ، ونذروا لها النذور وقرّبوا لها القرابين . وإمّا الرؤساء الذين
 يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون ، لاسيما فى الأوامر والنواهي . ورجح هذا ، لأنه تعالى ذكر
 بعد هذه الآية « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » ^(١) وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ
 الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والافتقار لهم ما يلتزمه المؤمنون من
 الافتقار لله تعالى « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » من المشركين لأندادهم ، لأن أولئك
 أشركوا فى المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلها لله ، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه ،
 ولأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره ، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه
 إلى غيره أو يأكلونه ، كما أكلت باهلة إلهها من حيس ، عام المجاعة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى (شرح المنازل) فى باب التوبة :

أما الشرك فهو نوعان : أكبر وأصغر . فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة ، وهو أن يتخذ
 من دون الله نداً يحبه كما يحب الله تعالى ، وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين
 برب العالمين ، ولذا قالوا لآلهتهم فى النار « تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ
 بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ^(٢) مع إقرارهم بأن الله تعالى وحده خالق كل شئ ، وربّه ، ومليكه ،
 وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيى ، وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة ،
 والتعظيم ، والعبادة ، كما هو حال أكثر مشركى العالم !.. بل كلهم يحبون معبوديهم ،
 ويعظمونها ، ويوادونها من دون الله تعالى !.. وكثير منهم - بل أكثرهم - يحبون آلهتهم

(١) [٢ / البقرة / ١٦٦] ونصها : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا
 الْعَذَابَ وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٩٧ و ٩٨] .

أعظم من محبة الله تعالى ..! ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله تعالى ..! ويفضون بتقص معبوديهم وأهتهم من المشايخ أعظم ما يفضون إذا انتقص أحد رب العالمين ..! وإذا انتقصت حرمت آلهتهم ومعبودهم غضبوا غضب الليث أو الكلب ..! وإذا انتهكت حرمت الله تعالى لم يفضوا لها . بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ولم تنكر له قلوبهم ..! قد شاهدنا نحن وغيرنا هذا منهم ... انتهى .

وقال الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقرئ رحمه الله :

ومن أجل الشرك، وأصله الشرك في محبة الله ، قال تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . . . » (١) الآية ، فأخبر سبحانه أن من أحب مع الله شيئاً غيره ، كما يحبه ، فقد اتخذ ندّاً من دونه ! وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله ، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » (٢) والمعنى على أصح القولين : أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسبون بينه وبين غيره في الحب والعبادة . وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (٣) ؛ ومعلوم قطعاً أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونهم خالقهم ، فإنهم كانوا - كما أخبر الله عنهم - مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم ، وأن الأرض ومن فيها لله وحده ، وأنه رب السموات ورب

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١] ونصها : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٩٧ و ٩٨] .

العرش العظيم ، وأنه هو الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهو يحير ولا يحار عليه ... وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى فى المحبة والعبادة ؛ فمن أحبّ غير الله تعالى ، وخافه ، ورجاه ، وذللّ له - كما يحبّ الله ويخافه ويرجوه - فهذا هو الشرك الذى لا ينفقه الله تعالى !! فعياذاً بالله ! من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام ، كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظنّ أنه مسلم موحد !!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاويه :
والمتخذ إلهه هواء ، له محبة كمحبة المشركين لألهتهم ، ومحبة عباد المجله ، وهذه محبة مع الله لا محبة لله ! وهذه محبة أهل الشرك !! والنفس قد تدعى محبة الله ، وتكون فى نفس الأمر محبة شرك تحبّ ما تهواه وقد أشركته فى الحب مع الله ! وقد يخفى الهوى على النفس ، فلنّ حبك الشيء يعنى ويصمّ .. وهكذا الأعمال التى يظنّ الإنسان أنه يعملها لله وفى نفسه شرك قد خفى عليه وهو يعلمه : إما حبّ رياسة ، وإما حبّ مال ، وإما حبّ صورة .. ولهذا قالوا^(١) : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعةً وحمةً ورياءً ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . . . ! فلما صار كثير من الصوفية النسّاك المتأخرين يدعون المحبة - ولم يزنها بميزان العلم والكتاب والسنة - دخل فيها نوعٌ من الشرك واتباع الأهواء . والله تعالى قد جمل محبته موجبة لاتباع رسوله فقال « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٥ - باب من سأل ، وهو قائم ، عالماً

جالساً . حديث ١٠٥ . ونصه :

عن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النّبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإنّ أحداً يقاتل غضباً ويقاثل حمية . فرفع إليه رأسه (قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً) فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله عز وجل .

اللَّهُ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (١) وهذا ، لأن الرسول هو الذى يدعو إلى ما يحبه الله ، وليس شئٌ يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه . . ! وليس شئٌ يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه . . ! فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين ، بل هذا هو هذا فى ذاته ، وإن تنوّعت الصفات ..! انتهى .

« وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى : باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود « إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ » المعد لهم يوم القيامة « أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : القدرة كلها لله ، على كل شئ ، من العقاب والثواب ، دون أندادهم « وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » أى : العقاب للظالمين . وفائدة عطفها على ما قبلها : المبالغة فى تهويل الخطب ، وتفضيع الأمر . فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب ، لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه . وجواب (لو) محذوف للإيدان بخروجه عن دائرة البيان : إما لعدم الإحاطة بكنهه ، وإما لضيق العبارة عنه ، وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبّر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه . أى : لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم . ونظيره - فى حذف الجواب - قوله تعالى « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا » (٢) وقولهم : لو رأيت فلاناً والسيّاط تأخذه . وقرئ « وَلَوْ تَرَى » بالتاء - على خطاب الرسول أو كل مخاطب - أى : ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً فى الفظاعة والهول .

(١) [٣ / آل عمران / ٣١] ونصها : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا كَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و [٦ / الأنعام / ٣٠] ونصها : وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ

وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » بدل من « إِذْ يَرَوْنَ » أى : تبرأ المشبوعون وهم الرؤساء
الأمرون باتخاذ الأنداد وكل ما عبد من دونه تعالى « مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » من الأتباع ،
بأن اعترفوا بطلان ما كانوا يدعونه في الدنيا لهم - أو يدعونهم إليه - من فنون الكفر
والضلال ، واعتزلوا عن مخالطتهم ، وقابلوهم باللعن . وقرئ الأول على البناء للفاعل ، والثانى
على البناء للمفعول ، أى تبرأ الأتباع من الرؤساء « وَرَأَوْا الْعَذَابَ » الواو للحال ، أى :
تبرأوا في حال رؤيتهم العذاب « وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » أى : الوصل التى كانت بينهم :
من الاتفاق على دين واحد ، ومن الأنساب ، والمحاب ، والاتباع ، والاستتباع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ،

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم ، وندموا على ما فعلوا من
اتباعهم لهم في الدنيا « لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى : ليت لنا رجعة إلى الدنيا « فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ »
هناك ، ومن عبادتهم ، ونعبده تعالى وحده « كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا » اليوم . وهم كاذبون في
هذا ، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، كما أخبر تعالى عنهم بذلك « كَذَلِكَ » أى :
مثل تلك الإراءة الفظيعة « يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ » ندمات شديدة
« عَلَيْهِمْ » أى : تذهب وتضمحل ، كما قال تعالى « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»^(١) وقال تعالى « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ... »^(٢) الآية ، وقال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ شَیْعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ... »^(٣) الآية « وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » ونظير هذه الآية قوله تعالى «...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ یَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ یَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْخُنْ صَدْدَنَا كُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ یُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا یَعْمَلُونَ »^(٤) . . ؟ وقال تعالى « وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّیَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَیَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَیَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »^(٥) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ١٨] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا یَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَیْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٩] ونصها : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِیْعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِیعُ الْحِسَابِ .

(٤) [٣٤ / سبأ / ٣١-٣٣] وأول الآية الأولى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِی بَیْنَ يَدَيْهِ ،

(٥) [١٩ / مريم / ٨١ و٨٢] .

وقال الخليل لقومه « إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَبَلَغُنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ^(١) . وقالت الملائكة « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » ^(٢) ويقولون « سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » ^(٣) . وقال تعالى « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » ^(٤) . وقال تعالى « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُوا أَنْفُسُكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ^(٥) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٦٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥] .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا » - حال أو مفعول ، وهو ما انتفى عنه حكم التحريم « طَيِّبًا » أى : مستطاباً في نفسه ، غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول .
وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ! فقال : يا سعد ! أَطْبُ مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذي نفس محمد بيده ! إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيّما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به .. ! « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » وهى طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحار والسوائب والوصائل ونحوها ... مما زينه لهم في جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم^(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله تعالى : إن كل مالٍ منحتهم عبادى فهو لهم حلال . وفيه : وإنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحلت لهم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .
وهاكموه بنصه الكامل :

عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ، ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ « أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي ، يَوْمِي هَذَا . كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا ، حَلَالٌ . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلِّهُمْ . وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ . وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَّا أَحَلَّلْتُ لَهُمْ . وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ =

ومما يدخل في خطوات الشيطان : كل معصية لله ، ومنها : النذور في المعاصي ، كما قاله بعض السلف في الآية .

قال الشعبي : نذر رجل أن ينحر ابنه ، فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال : هذا من خطوات الشيطان !

وقال أبو الضحى عن مسروق : أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح ، فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ؛ فقال : لا أريده ؛ فقال : أصائم أنت ؟ قال : لا .. ! قال : فما شأنك ؟ قال : حرمت أن آكل ضرعاً أبداً .. ! فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفر عن يمينك .. ! رواه ابن أبي حاتم . وروى أيضا عن أبي رافع قال : غضبت يوماً على امرأتى ، فقالت : هي يوماً يهودية

= يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَتَّعَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .

وَقَالَ « إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتَلِيكَ وَأَتَلِيَّ بِكَ . وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَنْفُسُهُ الْمَاءُ . تَقْرُوهُ نَارِمًا وَيَقْطَنَ . وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا . فَقُلْتُ : رَبِّ ! إِذَا يَثَلَقُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةٌ . قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخَرْتُ جُوكَ . وَاغْزُهُمْ نَفْرَكَ . وَأَنْفِقْ فَسَنَنْفِقُ عَلَيْكَ . وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ . وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ .

قَالَ : وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدٌ مُوَفَّقٌ . وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى ، وَمُسْلِمٌ . وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ .

قَالَ : وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا . وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ . وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ .

ويوماً نصرانية ، وكلّ مملوك لها حرٌّ إن لم تطلق امرأتك ..! فأُتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان ..! وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة - وهي يومئذٍ أفضه امرأة في المدينة - وأُتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك .

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمينٍ أو نذرٍ في غضب ، فهو من خطوات الشيطان ، وكفّارته كفارة يمين ! نقله الإمام ابن كثير الدمشقيّ .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » تعليل للنهي ، للتنفير عنه والتحذير منه كما قال « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » (١) وقال تعالى « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » (٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » استئنافٌ لبيان كيفية عداوته ، وتفصيلٌ لفنون شرّه وإفساده . و (السوء) يشمل جميع الماعصي ، سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب . و (الفحشاء) ما تجاوز الحد في القبح من المظالم . « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أي : بأن تفتروا عليه تعالى بأنه حرّم هذا وذلك بغير علم . فعني « ما لا تعلمون » ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به .

(١) [٣٥ / فاطر / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال البقاعي : ولقد أبلغ سبحانه في هذه الآية في حسن الدعاء لعباده إليه ، لطفاً بهم ورحمة لهم ، بتذكيرهم في سياق الاستدلال على وحدانيته ، بما أنعم عليهم : بخلقهم أولاً ، وبجعله ملائماً لهم ثانياً ، وإباحته لهم ثالثاً ، وتحذيره لهم من العدو رابعاً ... إلى غير ذلك من دقائق الألفاظ وجلائل المتن !! اهـ .

قال الرازي : قوله تعالى « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » يتناول جميع المذاهب الفاسدة ، بل يتناول مقلد الحق .. لأنه - وإن كان مقلدا للحق - لكنه قال ما لا يعلمه ، فصار مستحقاً للذم لا ندرجه تحت الذم في هذه الآية ! انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) : القول على الله بلا علم يعم القول عليه سبحانه في أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وفي دينه وشرعه . وقد جعله الله تعالى من أعظم المحرمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها ، فقال تعالى « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١) . وقال تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢) ! فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه . وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام . ولما لم يحله : هذا حلال . وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلالٌ وهذا حرام ، إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه .

وقال بعض السلف : ليتق أحدكم أن يقول لما لا يعلم ولا ورد الوحي المبين بتحليله وتحريمه : أحله الله وحرمه ، لمجرد التقليد أو بالتأويل .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٦ و ١١٧] .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، في الحديث الصحيح ، أميره بريدة^(١) أن ينزل عدوه ، إذا حاصرهم ، على حكم الله ، وقال : فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا .. ؟ ولكن

(١) هذا حديث جليل يتضمن سياسة رشيدة أوحى بها أنوار النبوة التي لا تنطق عن الهوى . فهو جدير بأن يدرسه كبار الساسة وأن يسترشدوا به في أمورهم كلها . ولنفاسته رأيت من الواجب نشره حرفياً منقولاً عن صحيح مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ح ٣ (طبعنا) وقد أخرجه كذلك أصحاب السنن الأربعة والإمام أحمد في مسنده . وهاكموه كما أخرجه الإمام مسلم رضي الله عنه :

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصته ، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال « اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فإيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم ، إن فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين . يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين . ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم ، أن تحفروا ذممكم وذمم أصحابكم ، أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله . ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا » .

أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك... فتأمل، كيف فرّق بين حكم الله وحكم الأُمير المجتهد ، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله . ومن هذا ، لما كتب الكاتب - بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه - حكماً حكم به فقال : هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر ، فقال : لا تقل هكذا . ولكن قل : هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقال مالك : لم يكن من أمر الناس ، ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدركتُ أحداً اقتدى به ، يقول فى شيء : هذا حلال وهذا حرام . وما كانوا يجترئون على ذلك . وإنما كانوا يقولون : نكروه كذا ونرى هذا حسناً .

ولمّا نهام سبحانه عن متابعة العدو ، ذمهم بمتابعته ، مع أنه عدوّ ، من غير حجة ، بل بمجرد التقليد للجهلة ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

ءِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ ءِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على رسوله واجتهدوا فى تكليف أنفسكم الردّ عن الهوى الذى نفخه فيها الشيطان « قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا » أى : وجدنا « عَلَيْهِ ءِ آبَاءَنَا » أى : من عبادة الأصنام والأنداد .

فقال مبتكراً لهم « أَوْ لَوْ » أى : أيتبعون آباءهم ولو « كَانَ ءِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا » أى : من الدين « وَلَا يَهْتَدُونَ » للصواب إذ جهلوه ؟

قال الحارثى : فيه إشعار بأنّ عوائد الآباء منهية حتى يشهد لها شاهد أبوة الدين .
ففيه التحذير فى رتب ما بين حال الكفر إلى أدنى الفتنة التى شأن الناس أن يتبعوها فيها عوائد آبائهم .

قال الرازى : معنى الآية : إن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة . فهم قالوا : لا تتبع ذلك وإنما تتبع آباءنا وأسلافنا . فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد . وأجاب الله تعالى عنهم بقوله « أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ ... إلى آخره » .
ثم قال : تقرير هذا الجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال للمقلد : هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يعلم كونه محققاً أم لا ؟ فإن اعترفت بذلك ، لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محققاً ، فكيف عرفت أنه محقق ؟ وإن عرفت بتقليد آخر ، لزم التسلسل ؛ وإن عرفت بالمقل ، فذاك كافٍ ، فلا حاجة إلى التقليد . . ! وإن قلت : ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محققاً . . . فإذن قد جوزت تقليده وإن كان مبطلاً . . ! فإذن أنت - على تقليدك - لا تعلم أنك محقق أو مبطل . . !

وثانيها : هب أن ذلك المتقدم كان عالماً بهذا الشيء ؛ إلا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالماً بذلك الشيء قط ، وما اختار فيه البتة مذهباً ؛ فأنت ماذا كنت تعمل ؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه ، كان لابد من العدول إلى النظر ، فكذا ههنا .
وثالثها : أنك إذا قللت من قبلك ، فذلك المتقدم كيف عرفت ؟ أعرفت بتقليد أم لا بتقليد ؟ فإن عرفت بتقليد ، لزم إما الدور وإما التسلسل . وإن عرفت لا بتقليد ، بل بدليل ، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم ، وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد ، لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل - مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد - كنت مخالفاً له . فثبت أن القول بالتقليد يُفرض ثبوته إلى نفيه ، فيكون باطلاً .

ثم قال الرازى عليه الرحمة : إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان ، تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد ، وفيه

أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التمويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل ،
أو على ما يقوله الغير من غير دليل .

وقال الإمام الراغب : ذمهم الله بأنهم أبطلوا ما خصّ الله به الإنسان من الفكر والروية ،
وركّب فيه من المعارف . وذلك أنّ الله تعالى ميز الإنسان بالفكر ليعرف به الحقّ من الباطل
في الاعتقاد . والصدق من الكذب في الأقوال . والجليل من القبيح في الفعل . ليتحرى
الحقّ والصدق والجليل . ويتجنب أضرارها . وجعل له من نور العقل ما يستغنى به . فيدله
على معرفة مطلوبه . فلما حثّ الناس على تناول الحلال الطيب ، ونهاهم عن متابعة الشيطان ،
بيّن حال الكفّار - في تركهم الرشاد ، واتباعهم الآباء والأجداد - ليحذّر الاقتداء بهم ،
تاركين استعمال الفكر الذي هو صورة الإنسان وحقيقته . ثمّ قال « أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا » أى : أيتبعونهم وإن كانوا جهلة ؟ تنبيهاً على أنه محال اتباع من لا عقل له
ولا اهتداء . إن قيل : ما فائدة الجمع بين قوله « يعقلون » و « يهتدون » وأحدهما يغنى عن
الآخر ؟ قيل : قد تقدم أنّ (العاقل) يقال على ضربين : أحدهما لمن يحصل له القوة التي بها
يصح التكليف ، والثاني لمن يحصل العلوم المكتسبة وهو المقصود ههنا . و (المهتدى) قد
يقال لمن اقتدى في أفعاله بالعالم وإن لم يكن مثله في العلم ؛ فبيّن أنهم لا يعقلون ولا يهتدون .
ووجه آخر : وهو أن يعقل ويهتدى ، وإن كان كثيراً ما يتلازمان ، فإنّ العقل يقال
بالإضافة إلى المعرفة ، والاهتداء بالإضافة إلى العمل ، فكأنّه قيل : لا علم لهم صحيح ولا
مستقيم .

ثمّ ضرب تعالى للكافرين مثلاً فظيماً - كما قال سبحانه « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ » ^(١) - فقال :

(١) [١٦ / النحل / ٦٠] ... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّعِقِ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ،
صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّعِقِ الَّذِي يَنْعِقُ » أى : يصيح ، يقال : نعق الراعى بغنمه : صاح بها وزجرها . وقوله تعالى « بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً » أى : بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناق ونداءه - الذى هو تصويت بها ، وزجر لها - ولا تفقه شيئاً آخر ، ولا تعى كما يفهم العقلاء ويعون . وقد أفهم هذا الإيجاز البليغ تمثيلين فى مثل واحد . فكأن وفاء اللفظ : مثل الذين كفروا ومثل داعيهم كمثل الراعى ومثل ما يرعى من البهائم . وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب . ومن لا يصل فهمه إلى جمع المثلين ، يقتصر على تأويله بمثل واحد ، فيقدر فى الكلام : ومثل داعي الذين كفروا . أشار لذلك الحرالى فيما نقله البقاعى عنه .

وقال الفراء^(١) : أضاف تعالى المثل إلى الذين كفروا ، ثم شبههم بالراعى ولم يقل كالغنم . والمعنى - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التى لا تفقه ما يقول الراعى أكثر من الصوت ، فأضاف التشبيه إلى الراعى والمعنى فى المرعى . قال : ومثله فى الكلام (فلان يخافك نخوف الأسد) المعنى : نخوفه الأسد ، لأن الأسد معروف أنه المخوف .

وقيل : أريد تشبيه حال الكافر - فى دعائه الصنم - بحال من ينطق بما لا يسمعه . والمعنى : مثل هؤلاء فى دعائهم آلهتهم - التى لا تفقه دعاءهم - كمثل الناق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه هو فى دعاء ونداء . وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء .

(١) انظر كتاب معانى القرآن للإمام أبى زكرياء يحيى بن زياد الفراء . الجزء الأول

صفحة ٩٩ .

وقال ابن القيم في (أعلام الموقعين) : ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق . فإن جعلته من المركب : كان تشبيهاً للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالنعمة التي ينعم بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرّد الذي هو الدعاء والنداء . وإن جعلته من التشبيه المفرق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعم بها ، ودعائهم إلى الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناقع . والله أعلم .

قال الرازي : اعلم أنه تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى اتباع ما أنزل الله : تركوا النظر والتدبر ، وأخلدوا إلى التقليد ، وقالوا : بل تتبع ما ألقينا عليه آباءنا - ضرب لهم هذا المثل - تنبيهاً للسامعين لهم - إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه : بسبب ترك الإصغاء ، وقلة الاهتمام بالدين ، فصيرهم - من هذا الوجه - بمنزلة الأنعام . . ! ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفةً بأحوال الكفار ، ويحقّر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسراً لقلبه ، وتضييقاً لصدره - حيث صيره كالبهيمة - فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد . ثم زاد في تبكيته فقال « صُمُّ بَكْمٌ عُمَّى فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ » فهم بمنزلة الصم : في أن الذي سمعوه كأنهم لم يسمعوه ، وبمنزلة البكم : في أنهم لم يستجيبوا لما دُعوا إليه ، وبمنزلة العمى : من حيث أنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يشاهدوها . ولما كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة ، فلما أعرضوا عنها ، فقدوا العقل المكتسب . ولهذا قيل : مَنْ فَقَدَ حَسًّا فَقَدْ عَمِيَ !..

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ ءِيتَاهُ تَعْبُدُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى : ما أخلصناه لكم من
الشُّبْه ، ولا تعرضوا لما فيه دنس - كما أحله المشركون من المحرّمات - ولا تحرّموا ما أحلّوا
منها من السائبة وما معها « وَاشْكُرُوا لِلَّهِ » - الذى رزقكم هذه النعم - « إِن كُنتُمْ
ءِيتَاهُ » - أى : وحده - « تَعْبُدُونَ » أى : إن صحّ أنكم تخصّصونه بالعبادة ، وتقرّون
أنه سبحانه هو النعم لا غير .

قال الإمام ابن تيمية فى (جواب أهل الإيمان) : الطيبات التى أباحها هى المطاعم النافعة
للعقول والأخلاق . والخبائث هى الضارة فى العقول والأخلاق . كما أن الخمر أم الخبائث لأنها
تفسد العقول والأخلاق . فأباح الله الطيبات للمتّقين التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى
خلقوا لها . وحرّم عليهم الخبائث التى تضرّهم فى المقصود الذى خلقوا له . وأمرهم - مع
أكلها - بالشكر ، ونهاهم عن تحرّمها . فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحقّ
العقوبة . ومن حرّمها - كالرهبان - فقد تعدّى حدود الله فاستحقّ العقوبة .

وفى الحديث الصحيح عن النبىّ ﷺ أنه قال ^(١) :

إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها .

وفى حديث آخر ^(٢) : المطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٨٩
(طبعتنا) عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٠ - كتاب الأطعمة ، ٥٦ - باب المطاعم الشاكر مثل
الصائم الصابر (ترجمة الباب) .

وقال تعالى « لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »^(١) أى : عن شكره ، فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب مَنْ فعله ، ولكن يسأله عن الواجب الذى أوجبه معه . وعمّا حرّمه عليه ، هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور ؟ كما قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »^(٢) .

ولمّا قيّد تعالى الإذن لهم بالطيب من الرزق ، افتقر الأمر إلى بيان الخبيث منه ليجتنب ، فبيّن صريحاً ما حرّم عليهم - مما كان المشركون يستحلّونه ويحرّمون غيره - وأفهم حلّ ما عداه ، وأنه كثيرٌ جداً ليزداد المخاطب شكراً ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » وهى فى عرف الشرع : مامات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة - إمّا فى الفاعل أو فى المفعول - فدخل فيها : المنخقة ، والموقودة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما عدا عليها السبع .

قال ابن كثير : وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر ، لقوله تعالى « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ »^(٣) على ما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وحديث المنبر فى الصحيح . وفى المسند ، والموطأ ، والسنن : قوله ﷺ فى البحر^(٤) : هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته .

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٨] .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٧] .

(٣) [٥ / المائدة / ٩٦] .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ١ - كتاب الطهارة ، ٤١ - باب الوضوء بماء البحر ،

وروى الشافعيّ وأحمد وابن ماجه والدارقطنيّ حديث ابن عمر^(١) : أحلت لنا ميتتان ودمان . فأما الميتتان فالحوت والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال . « وَالْدَّمَ » وهو المسفوح أى : الجارى ، كما صرّح بذلك فى الآية الأخرى - والمفسّر قاضٍ على المبهّم - وكان بعض العرب يجعل الدم فى المصارين ثم يشويها ويأكلها ويسمّونه الفصيد . وفى القاموس وشرحه : والفصيد دمٌ كان يوضع فى الجاهلية فى مِعَى مِنْ فُصْدٍ عرق البعير ، ويشوى ، وكان أهل الجاهلية يأكلونه ويطعمونه الضيف فى الأزمة . ويحكى : أنه بات رجلان عند أعرابيّ فالتقيا صباحاً ، فسأل أحدهما صاحبه عن القرى فقال : ما قرئت وإنما فُصِدَ لى . فقال : لم يُحْرَمَ من فُصْدِهِ - بسكون الصاد - فجرى ذلك مثلاً لمن نال بعض المقصد ، وسكّن الصاد تخفيفاً ، أى : لم يحرم القرى من فُصْدَتِ له الراحلة فخطى بدمها . ويروى : من فزّده - بالزاي بدل الصاد - وبعضهم يقول : من قصده - بالقاف - أى : من أعطى قصداً أى قليلاً . وكلام العرب بالفاء . وقال يعقوب : تأويل هذا أن الرجل كان يضيف الرجل فى شدّة الزمان ، فلا يكون عنده ما يقرّيه ، ويشحّ أن ينحر راحلته ، فيفصدها ، فإذا خرج الدم سخّنه للضيف إلى أن يجمد ويقوى فيطعمه إياه . « وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ » ويدخل شحمه وبقية أجزائه فى حكم لحمه : إمّا تغليياً ؛ أو لأنّ اللحم يشمل ذلك لغةً ، لأنّه ما لحم بين أخفى ما فى الحيوان من وسط عظمه ، وما انتهى إليه ظاهره من سطح جلده . وعرف غلبة استماله على رطبه الأحمر . وهو هنا على أصله فى اللغة . وإمّا بطريق القياس على رأى ، لأنّه إذا حرّم لحمه الذى هو المقصود بالأكل - وهو أطيب ما فيه - كان غيره من أجزائه أولى بالتحريم . ولما حرّم ما يضرّ الجسم ويؤذى النفس ، حرّم ما يرين على القلب ، فقال « وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ » أى : ذُبِحَ على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد ونحو ذلك

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٢٩ - كتاب الأطعمة ، ٣١ - باب الكبد والطحال ، حديث ٣٣١٤ (طبعتنا) .

مما كانت الجاهلية ينحرون له . وأصل (الإهلال) رفع الصوت أى : رفع به الصوت للصنم ونحوه ، وذلك كقول أهل الجاهلية : باسم اللات والعزى .

وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها ، فنحرت فيه جزوراً ، فقال : لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم . وذكر أيضاً عن عائشة رضى الله عنها : أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت : ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلاوا من أشجارهم . والقصدُ سدُّ ما كان مظنةً للشرك .

قال النووي في (شرح مسلم) : فإن قصد الذابح - مع ذلك - تعظيم المذبح له ، وكان غير الله تعالى - والعبادة له ، كان ذلك كفراً . فإن كان الذابح مسلماً ، قبل ذلك ، صار بالذبح مرتدّاً . ذكره في الكلام على حديث ^(١) على رضى الله عنه : لعن الله من ذبح لغير الله . قال الحرالي : وَذِكْرُ الإِهْلَالِ إِعْلَامٌ بَأَنِّ مَا أُعْلِنَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ هُوَ أَشَدُّ مُحْرَمٌ ، ففى إيفاهمه تخفيف الخطاب عما لا يُعلم من خفى الذكر . وقد روى البخارى ^(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن قوما قالوا للنبي ﷺ : إن قوما يأتوننا باللحم ، لا ندرى أذكر

(١) أخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ٤٣ (طبعنا) ونصه :
عن أبي الطفيل ، عامر بن وائلة قال : كنت عند علي بن أبي طالب ، فأتاه رجل فقال :
ما كان النبي ﷺ يُسرّ إليك ؟ قال ففضب وقال : ما كان النبي ﷺ يُسرّ إلى شيئاً يكتمه
الناس . غير أنه قد حدثني بكلمات أربع . قال فقال : ماهن ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال
« لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثاً . ولعن الله
من غير منار الأرض » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ - باب ذبيحة الأعراب
ونحوهم .

اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر . فكان المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه ؛ بل الذى علم أن غير اسم الله قد أعلن به عليه .

وروى عن علي رضي الله عنه قال : إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلّون لغير الله فلا تأكلوا ، وإذا لم تسمعوهم فكلوا ، فإن الله قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون .

فصل

« فيما لتحريم هذه المذكورات من الحكم والأسرار الباهرات »

فأما الميتة : فقال الحرالي : هي ما أدركه الموت من الحيوان - عن ذبول القوة وفناء الحياة - وهي أشدّ مفسد للجسم ، لفساد تركيبها بالموت ، وذهاب تلزز أجزائها ، وعنفها ، وذهاب روح الحياة والطهارة منها .

وقال الهايمي في تفسيره : ثم أشار تعالى إلى أنه إنما يقطع محبته أكل ما حرّم وهو الميتة وما ذكر معها . فأما الميتة فلائها خبث بنزع الروح منها بلا مطهر من الذبح باسم الله - تحقيقاً أو تقديرًا - فتتعلق أرواحكم بالخبيث فتخبث ، فينقطع عنها محبة الله . وإنما أيسح ميتة السمك لأن أصله الماء المطهر ، فكما لا يؤثر فيه النجاسة ، لا يؤثر نزع الروح فيما حصل منه ؛ والجراد لأنه حصل من غير تولد ولا خبث في ذاته كسائر الحشرات .

وأما خبث الدّم : فلا نه جوهر مرتكس عن حال الطعام ، ولم يبلغ بعد إلى حال الأعضاء ، فهو ميتة .

وقال الإمام ابن تيمية : حرّم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية المضنية ،

وزيادته توجب طغيان هذه القوى ، وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبي ﷺ (١) :
 إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

وأما خبث لحم الخنزير : فلأذاه للنفس - كما حرّم ما قبله لمضرّتها في الجسم - لأنّ
 من حكمة الله في خلقه : أنّ من اغتذى جسمه بجسمانية شيء اغتدت نفسانيته بنفسانية ذلك
 الشيء : (٢) الكبر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم . فلما جعل في
 الخنزير من الأوصاف الذميمة ، حرّم على من حوفظ على نفسه من ذميم الأخلاق . نقله
 البقاعي .

وقد كشف لأطباء هذا العصر من مضار لحم الخنزير - المبنية على التجارب الحسيّة -
 غير ما قالوه القدماء . فمن مضارّه : أنه يورث الدودة الوحيدة التسبب من وجودها في الأمعاء
 أعراض كثيرة : كالغص ، والإسهال ، والقئ ، وقد شهوة الطعام أو النهم الشديد ، وآلام
 الرأس ، والإغماء ، والدوار ، واضطراب الفكر ، وعروض نوبات صرعية ، وتشنّجات
 عصبية ، وإصابة مرض دودة الشعر الخلزونية الذي يفوق الحمّى ، ويؤدى بحياة المصاب ...
 إلى غير ذلك من التعب ، وعسر الهضم ، ومضار سواها .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند
 الحاكم ، حديث ١٠٦٣ ونصه : عن عليّ بن حسين أن النبي ﷺ أتته صفيّة بنت حيّ .
 فلما رجعت انطلق معها . فرّ به رجلان من الأنصار فدعاها فقال « إنما هي صفيّة » قالا :
 سبحان الله ! قال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم
 يتبع بها شعف الجبال . عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « رأس الكفر
 نحو المشرق . والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر . والسكينة في أهل
 الغنم » .

قال حكيم : فالإسلام لم يأت لإصلاح الروح فقط ، بل لإصلاح الروح والجسم معاً !! فلم يترك ضاراً لأحدهما إلا ونبّه عليه تصريحاً أو تلويحاً ... وقد بسط الحكماء المتأخرون الكلام على مضرات لحم الخنزير في مقالات عديدة .

وأما خبث المهلّ به لغير الله : فلأنه يرين على القلب ، لأنه تقرب به لغير موجدّه وخالقه تقرب عبادة ، وذلك من صريح الإشراك والاعتماد على غيره تعالى ؛ فكان خبثه معنوياً لتأثيره على النفوس والأخلاق كتأثير الضر بالجسم والبدن ؛ والشرع جاء للحفاظ عما يضرّ مطلقاً ، ولصيانة مقام التوحيد .

ولما كان هذا الدين يُسرّاً لا عُسرَ فيه ولا حَرَجَ ، رفع حكم هذا التحريم عن المضطر . فقال «فَمَنْ اضْطُرَّ» أى ألجأه ملجئٌ بأى ضرورة كانت إلى أكل شيء مباحم بأن أشرف على التلف ، فأكل من شيء منه حال كونه « غَيْرَ بَاغٍ » أى غير طالبٍ له راغب فيه لذاته . من (بغى الشيء وابتغاه : طلبه وحرص عليه) « وَلَا عَادٍ » أى : مجاوزٍ لسدِّ الرmq وإزالة الضرورة « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وإن بقيت حرمة ، لأنه إذا تناوله حال الاضطرار لا يؤثر فيه الخبث لأنه كارهٌ بالطبع .

وقال الراغب : واختلف إذا اضطر إلى ذلك في دواء لا يسدّ غيره مسدّه . والصحيح أنه يجوز له تناوله للعلّة المذكورة ، يعنى : إبقاء روحه بجهة مارآه أقرب إلى إبقائه ، وهى التى أجزت تناول ما ذكر له للجوع .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لما أكله حال الضرورة « رَحِيمٌ » حيث رخص لعباده فى ذلك إبقاءً عليهم .

ثم أعاد تعالى وعيد كاتمى أحكامه - إثر ما ذكره من الأحكام - تحذيراً لهذه الأمة أن يسلكوا سبيل من عنوا به ، وهم أهل الكتاب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قول تعالى :

[١٧٤] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من حدوده وأحكامه وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الأولى بالبينات والهدى « وَيَشْتَرُونَ بِهِ » أى : يأخذون بدله « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى : مما يتمتعون به من لذات العاجلة . وقللته لحقارته في نفسه . ففيه إشعار بدناءة نفوسهم حيث رضيت بالقليل ، أو بالنسبة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة الذى لا يحاط بوصفه « أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ » أى ما يستتبّع النار ويستلزمها ، فكأنه عين النار ، وأكله أكلها ، و « في بطونهم » متعلق بـ « يأكلون » وفائدته : تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقرّ الأكل .

قال الراغب : أكل النار : تناول ما يؤدي إليها . وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال . وذكر « في بطونهم » تنبيهاً على شرهم وتقييحاً لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذى هو أخسّ متناولٍ من الدنيا ..!

« وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال الراغب : لم يعن نفي الكلام رأساً ، فقد قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ^(١) ، وقال : « وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا »^(٢) . وإنما أراد كلاماً يقتضى جدوى ؛ ولهذا قال الحسن : معناه يفضب عليهم تنبيهاً

(١) [٧ / الأعراف / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٢] ونصها : وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا .

أنهم بخلاف من قال فيهم « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ». وقيل : حقيقة (كَلِمَتُهُ) حملته على الكلام ، نحو حركته ، لأن مَنْ كَلِمَتُهُ فقد استدعيت كلامه ؛ فكأنه قيل : لا يستدعي كلامهم نحو قوله « لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » .

« وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أى : يطهرهم من دنس الذنوب لغضبه عليهم لأنهم كتموا ، وقد علموا ، فاستحقوا الغضب « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مؤلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ ،

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » أى : استبدلوا إضلال أنفسهم وغيرهم

- من الكتمان والتجريف - بالاهتداء « وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ » أى : أسبابه بأسبابها . ولما جعل سبحانه أول ما كلهم ناراً ، وآخر أمرهم عذاباً ، وترجمة حالهم عدم المغفرة ، فكان بذلك أيضاً أوسط حالهم ناراً - سبب عنه التعجب من أمرهم : بحبسهم أنفسهم فى ذلك الذى هو معنى الصبر ، لاتباسهم بالنار حقيقة أو بموجباتها من غير مبالاة ، فقال « فَمَا أَصْبَرَهُمْ » - أى : ما أشد حبسهم أنفسهم ، أو ما أجراهم - « عَلَى النَّارِ » التى أكلوها فى الدنيا فأحسوا بها فى الأخرى - نقله البقاعى . -

ثم قال : وإذا جعلته مجازاً ، كان مثل قولك لمن عاند السلطان : ما أصبرك على السجن الطويل والقيد الثقيل ؟ تهديداً له . تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب .

وقد روى عن الكسائى أنه قال : قال لى قاضى اليمين بمكة : اختصم إلى رجلان من العرب ، فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله ! أى : ما أصبرك على عذاب الله . نقله الزمخشرى .

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٦] .

قال الراغب : وقد يوصف بالصبر من لا صَبَرَ له اعتباراً بالنظر إليه ، وتَصَوَّرَ أَنَّهُ ضابِرٌ ، واستعمال لفظ التعجّب في ذلك اعتباراً بالخلق لا بالخالق .
ثم ذكر تعالى السبب الموجب لهذا الإبعاد العظيم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا

فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ، لأنَّ الله تعالى أنزل الكتاب الجامع لأنواع الهدى . وهو صالح لإرادة القرآن والتوراة . بالحق ، أى : متلبساً به . فلا جرم يكون - مَنْ يَخْتَلِفُ فيه ويرفضه بالتحريف والكتمان - مبتلياً بمثل هذا من أفانين العذاب ، لأنه جاول نقي ما أثبت الله ، فقد ضادَّ الله في شرعه ، عياداً به سبحانه . « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ » أى : في جنس الكتاب الإلهي . بأن آمنوا ببعض آياته وكفروا ببعض . أو الاختلاف في تأويلها . فاجترأوا لأجله على تحريفها . أو في القرآن . بأن قال بعضهم : إنه سحرٌ ، وبعضهم : إنه شعر ، وبعضهم : أساطير الأولين .

قال الراغب : وأصل الاختلاف : التخلف عن المنهج . وقيل : اختلفوا : أتوا بخلاف ما أنزل الله . وقيل : اختلفوا : بمعنى خلفوا - نحو اكتسبوا وكسبوا ، وعملوا واعتملوا - أى : صاروا خلفاء فيه ، نحو « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ » (١) هـ .

« لَفِي شِقَاقٍ » أى : خلافٍ ومنازعة « بَعِيدٍ » عن الحق والصواب ، مستوجب لأشدَّ العذاب . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦٩] و [١٩ / مريم / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » (البر) : اسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقرّبة إلى الله تعالى، ومن هذا : برّ الوالدين ، قال تعالى « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » ^(١) فجعل البرّ ضدّ الفجور. وقال « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » ^(٢) فجعل البرّ ضدّ الإثم، فدلّ على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان . أى : ليس الصلاح والطاعة والفعل المرضي في تركية النفس - الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ - هو أمر القبلّة ، ولكن البرّ - الذى يجب الاهتمام به - هو هذه الخصال التى عدّها جلّ شأنه .

ولا يبعد أن يكون بعض المؤمنين - عند نسخ القبلّة وتحويلها - حصل منهم الاغتياب بهذه القبلّة ، وحصل منهم التشدد في شأنها ، حتى ظنوا أنه الغرض الأكبر في الدين . فبمّتهم تعالى بهذا الخطاب على استيفاء جميع العبادات والطاعات . أشار لهذا الرازى . وقال الراغب : الخطاب في هذه الآية للكفّار والمنافقين الذين أنكروا تغيير القبلّة . وقيل : بل لهم وللمؤمنين حيث قد يرون أنهم نالوا البرّ كلّّه بالتوجّه إليها .

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » أى : إيمان من آمن بالله - الذى دعت إليه آية

(١) [٨٢ / الانفطار / ١٤ و ١٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] .

الوحدانية - فأثبت له صفات الكمال ، ونزّهه عن سمات النقصان . « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »
الذى كذب به المشركون ، فاختلّ نظامهم بيغى بعضهم على بعض « وَالْمَلَائِكَةِ » أى :
وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين رسله بإلقاء الوحي وإزال
الكتب « وَالْكِتَابِ » أى : بجنس الكتاب . فيشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ،
التي من أفرادها : أشرفها وهو القرآن - المهيمن على ما قبله من الكتب - الذى انتهى
إليه كلّ خير واشتمل على كلّ سعادة في الدنيا والآخرة . « وَالنَّبِيِّينَ » جميعاً من غير
تفرقة بين أحدٍ منهم ، كما فعل أهل الكتابين .

قال الحارثي : ففيه - أى الإيمان بهم وبما قبلهم - قهر النفس للإذعان لمن هو من
جنسها ، والإيمان بغير من ليس من جنسها ، ليكون في ذلك ما يزع النفس عن هواها .
« وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » أى : أخرجه وهو محبّ له راغب فيه ، نصّ على ذلك :
ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وغيرها من السلف والخلف ، كما ثبت في الصحيحين من
حديث أبي هريرة ^(١) مرفوعاً : أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الفنى وتحشى
الفقر . وقوله « ذَوِى الْقُرْبَىٰ » هم : قرابات الرجل ، وهم أوّل من أعطى من الصدقة . وقد
روى الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى وغيرهم عن سليمان بن عامر قال : قال ^(٢) رسول الله
ﷺ : إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة . وفى

(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ١١ - باب أى الصدقة أفضل؟ ونصه :
عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى
الصدقة أعظم أجراً؟ قال « أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَحْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْغِنَى ، وَلَا
تَمْلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْخُلُقُومَ قُلْتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ » .

(٢) أخرجه النسائى في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٨٢ - باب الصدقة على الأقارب .

الصحيحين من حديث زينب ، امرأة عبد الله بن مسعود^(١) ، أنها وامرأة أخرى سألتا رسول الله ﷺ : أيجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما..؟ فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجرُ القرابة وأجر الصدقة . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى القرابة

(١) أخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤٤ - باب الزكاة على الأقارب . ونصه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : خرج رسول الله ﷺ في أضحية أو فطر إلى المصلى . ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة . فقال « أيها الناس ! تصدقوا » فرّ على النساء فقال « يا معشر النساء تصدقن فإنّي رأيتكن أكثر أهل النار » فقلن : وبِمَ ذلك يا رسول الله ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير . ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ، يا معشر النساء » .

ثم انصرف . فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه . فقيل : يا رسول الله ! هذه زينب . فقال « أيّ الزيانب ؟ » فقيل : امرأة ابن مسعود . قال « نعم . ائذنوا لها » فأذن لها . قالت : يابى الله ! إنك أمرت اليوم بالصدقة . وكان عندي حليّ لي . فأردت أن أتصدق به . فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم . فقال النبي ﷺ « صدق ابن مسعود . زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم » .

أما حديثها والمرأة الأخرى فقد أخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤٨ - باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر . حديث ٧٧٨ .

عن زينب امرأة عبد الله رضي الله عنهما قالت : كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال « تصدقن ولو من حليكن » .

وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها . قال : فقالت لعبد الله : سل رسول الله ﷺ : أيجزى عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجرى من الصدقة ؟ فقال : سلى أنت رسول الله ﷺ .

في غير موضع من كتابه العزيز . « وَالْيَتَامَى » وهم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ . « وَالْمَسْكِينِ » وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكنائهم ، فَيُعْطُونَ ما يسدّ به حاجتهم وختهم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي تردّه التمرة والتمرّتان واللّقمة واللّقمتان . ولكنّ المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظنّ له فيتصدق عليه . « وَابْنُ السَّبِيلِ » وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته . فَيُعْطَى ما يوصله إلى بلده لعجزه بالغربة . وكذا الذي يريد سفراً في طاعة . فَيُعْطَى ما يكفيه في ذهابه وإيابه . ويدخل في ذلك الضيف ، كما قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين .

= فانطلقتُ إلى النبي ﷺ ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب ، حاجتها مثل حاجتي . فرّ علينا بلال . قلنا : سل النبي ﷺ : أيجزى عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجرى ؟ وقلنا : لا تُخبر بنا .

فدخل فسأله . فقال « من هما » قال : زينب . قال « أى الزيانب ؟ » قال : امرأة عبدالله . قال « نعم . لها أجزان : أجر القرابة وأجر الصدقة » .
(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٥٣ - باب قول الله تعالى : لا يسألون الناس إلحافاً .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٠١ (طبعنا) .

وها كمو سياق نص مسلم :
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللّقمتان ، والتمرّة والتمرّتان » .

قالوا : فما المسكين ، يا رسول الله ؟

قال « الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظنّ له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو جعفر الباقر ، والحسن وقتادة ، والضحاك ،
والزهري ، والريبع بن أنس ، ومقاتل بن حيان . و (السبيل) اسم للطريق ، وجعل المسافر
ابناً لها لملازمته إياها - كما يقال لطير الماء : ابن الماء ، ويقال للرجل الذي أتت عليه السنون :
ابن الأيام ، وللشجمان : بنو الحرب ، والناس : بنو الزمان .

« وَالسَّائِلِينَ » وهم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات . كما
روى الإمام أحمد عن حسين بن عليّ عليهما السلام قال : قال رسول الله ﷺ ^(١) : للسائل
حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود . « وَفِي الرِّقَابِ » معطوف على المفعول الأول
- وهو ذوى - أى : وآتى المال فى الرقاب ، أى : دفعه فى فكها ، أى : لأجله وبسببه .

قال الراغب : الرقاب جمع رقبة . وأصل الرقبة : العنق . ويعبر بها عن الجملة ، كما يعبر
عنها بالرأس .

وقال الحرالى : الرقاب جمع رقبة وهو ما ناله الرق من بنى آدم . فالمراد : الرقاب المستترقة
التي يرام فكها بالكتابة - وفكّ الأسرى منه - وقدم عليهم أولئك لأن حاجتهم لإقامة
البنية .

قيل : نكتة إيراد (فى) هُوَ أَنَّ ما يعطى لهم : مصروف فى تخلص رقابهم ، فلا
يملكونه كالمصارف الآخر . والله أعلم .

لطفة :

قال الراغب : إن قيل : كيف اعتبر الترتيب المذكور فى قوله تعالى « وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ
حُبِّهِ ... » الآية ؟ قيل : لما كان أولى من يتفقده الإنسان بمعرفة أقاربه ، كان تقديمها أولى .
ثم عقبه باليتامى لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى . ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم
حاضراً ولا غائباً . ثم ذكر ابن السبيل الذى قد يكون له مال غائب . ثم ذكر السائلين

(١) أخرجه أبو داود فى : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٣ - باب حق السائل ، حديث ١٦٦٥ .

الذين منهم صادق وكاذب . ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم . فكل واحد ممن آخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره ..!

«وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أى : أتم أفعالها في أوقاتها - بركوعها وسجودها وطما نيتها وخشوعها - على الوجه الشرعى المرضى . «وَأَتَى الزَّكَاةَ» أى : زكاة المال المفروضة ؛ على أن المراد بما مر من إيتاء المال ، التنفل بالصدقات والبر والصلة . قدم على الفريضة مبالغة في الحث عليه ، أو المراد بهما المفروضة ، والأول لبيان المصارف ، والثاني لبيان وجوب الأداء . وقد أبعد من حمل الزكاة - هنا - على زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، كقوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» وقوله «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى» ، ووجه البعد : أن الزكاة المقرونة بالصلاة في التنزيل لا يُراد بها إلا زكاة المال ، وأما مع الانفراد فعلى حسب المقام «وَالْمُؤْفُونَ بِمَعْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» عطف على من آمن ، فإنه في قوة أن يقال : ومن أوفوا بمعدهم . وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء .

قال الرازى : اعلم أن هذا العهد إما أن يكون بين العبد وبين الله ، أو بينه وبين رسول الله أو بينه وبين سائر الناس . فالأول : ما يلزمه بالنذور والأيمان . والثاني : فهو ما عاهد الرسول عليه عند البيعة : من القيام بالنصرة ، والمظاهرة ، والمجاهدة ، وموالاته من والاه ، ومعاداة من عاداه . والثالث : قد يكون من الواجبات : مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسلم . وكذا الشروط التي يلتزمها في السلم والرهن . وقد يكون من المندوبات : مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة . فالآية تتناول كل هذه الأقسام . قال ابن كثير : وعكس هذه الصفة النفاق . كما صح في الحديث ^(١) : آية المنافق ثلاث :

(١) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ونصه :

عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » .

إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . وفي رواية : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . « وَالصَّابِرِينَ » نصب على الاختصاص . غير سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيجته . وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله . قال أبو علي : إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف في بعضها الإعراب ، فقد خولف للافتتنان . ويسمى ذلك قطعاً . لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ، ومزيد اهتمام بشأنه ! وقد قرئ « والصابرون » كما قرئ « والموفين » .

قال الراغب : لما كان الصبر : من وجهٍ مبدأً للفضائل ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل ، إذا لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ ، غير إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد ..!

« فِي الْبَأْسَاءِ » أى : الشدة ، أى عند حلولها بهم « وَالضَّرَاءِ » بمعنى البأساء وهي الشدة أيضاً ، كما فسرها بها في القاموس . وقال ابن الأثير : الضراء : الحالة التي تضر وهي تقيض السراء ، وهما بناءان للمؤنث ولا مذكراً لهما « وَحِينَ الْبَأْسِ » أى : وقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب ، وزيادة (الحين) للإشعار بوقوعه أحياناً ، وسرعة انقضائه . ومعنى (البأس) في اللغة : الشدة ، يقال : لا بأس عليك في هذا ، أى : لا شدة . وعذاب بئس : شديد . وسميت الحرب بأساً لما فيها من الشدة . والعذاب يسمى بأساً لشدة . قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا^(١) . فَلَمَّا أَحْسَوْا بَأْسَنَا^(٢) . فَمَنْ يَنْصُرُنَا

= وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً .

ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

(١) [٤٠ / غافر / ٨٤] ونصها : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا

بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٢] ونصها : فَلَمَّا أَحْسَوْا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ .

مِنْ بَأْسِ اللَّهِ^(١) . وقال ابن سيده : البأس الحرب ، ثمّ كثر حتى قيل : لا بأس عليك ، أى : لا خوف .

وقال الراغب : استوعبت هذه الجملة أنواع الضرر . لأنه إمّا أن يحتاج إلى الصبر فى شىء يعوز الإنسان ، أو يريد فلا يناله ، وهو البأساء . أو فيما نال جسمه من ألم ، وهو الضراء . أو فى مدافعة مؤذيه ، وهو البأس .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا » فى إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فلم تغيرهم الأحوال ، ولم تزلزلهم الأهوال . وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق فى دعواه الإيمان ..! « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » عن الكفر وسائر الرذائل . وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم . وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم . قال الواحدى : هذه الواوات فى الأوصاف فى هذه الآية للجمع . فمن شرائط البر ، وتام شرط البار ، أن تجتمع فيه هذه الأوصاف . ومن قام به واحد منهم لم يستحق الوصف بالبر .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٩] ونضها : يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ
وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَدَائِهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ
فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ » هذا شروع في بيان
الحدود والحقوق التي لآدمي معين ، وهي النفوس . و « كتب » بمعنى فرض وأوجب .
قال الراغب : الكتابة يعبر بها عن الإيجاب . وأصل ذلك أن الشيء يراد ثم يقال ثم
يكتب . فيعبر عن المراد الذي هو المبدأ ، بالكتابة التي هي المنتهى .

« الْحُرُّ » يقتل « بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ » من
القاتلين « مِنْ أَخِيهِ » أى دم أخيه المقتول « شَيْءٌ » بأن ترك وليه القود منه ،
ونزل عن طلب الدم إلى الدية . وفي ذكر الأخوة : تعطف داعٍ إلى العفو ، وإيدانٌ بأن
القتل لا يقطع أخوة الإيمان « فَاتَّبَاعُ » أى : فعلى العافى اتباع للقاتل « بِالْمَعْرُوفِ »
بأن يطالبه بالدية بلا عنف « وَ » على القاتل « أَدَاءٌ » للدية « إِلَيْهِ » أى :
العافى وهو الوارث « بِإِحْسَانٍ » بلا مطل ولا بنحس « ذَلِكَ » أى : ما ذكر من
الحكم وهو جواز القصاص والعفو عنه على الدية « تَخْفِيفٌ » تسهيل « مِنْ رَبِّكُمْ »
عليكم « وَرَحْمَةٌ » بكم حيث وسع في ذلك ولم يحتم واحداً منهما « فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ
ذَلِكَ » بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ
الدية « فَلَهُ » باعتدائه « عَذَابٌ أَلِيمٌ » أما في الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق ،
وأما في الآخرة فبالنار .

تنبيهات

الأول : قال الراغب : إن قيل : على من يتوجه هذا الوجوب في قوله تعالى : كتب عليكم ؟ أجيب : على الناس كافة . فمنهم من يلزمه استقادته - وهو الإمام - إذا طلبه الولي . ومنهم من يلزمه تسليم النفس وهو القاتل . ومنهم من يلزمه المعاونة والرضا به . ومنهم من يلزمه أن لا يتعدى بل يقتص أو يأخذ الدية . والقصد بالآية : منع التعدّي الجاهلي .

الثاني : القصاص مصدر قاصه ، المزيد . وأصل القص : قطع الشيء على سبيل الاجتناد ، ومنه : قص شعره ؛ وقص الحديث : اقتطع كلاماً حادثاً جداً وغيره ، والقصة اسم منه . وحقيقة القصاص : أن يفعل بالقاتل والجراح مثل ما فعلا . أفاده الراغب .

الثالث : ذكر تقي الدين ابن تيمية في (السياسة الشرعية) جملةً من أحكام القتل نأثرها عنه هنا . قال رحمه الله :

« القتل ثلاثة أنواع :

أحدها العمد المحض : وهو أن يقصد من يعلمه معصوماً بما يقتل غالباً . سواء كان يقتل بحدّه ، كالسيف ونحوه . أو بثقله ، كالسندان وكودس القصار . أو بغير ذلك : كالتحريق ، والتفريق ، وإلقاء من مكان شاهق ، والخنق ، وإمساك الخصيتين حتى يخرج الروح ، وغم الوجه حتى يموت ، وسقى السموم ... ونحو ذلك من الأفعال . فهذا إذا فعله وجب فيه القود . وهو أن يمكن أولياء المقتول من القاتل . فإن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا عفوًا ، وإن أحبوا أخذوا الدية ؛ وليس لهم أن يقتلوا غير قاتله . قال الله تعالى : . . . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا^(١) . وقيل في التفسير : لا يقتل

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٣] وأول الآية : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ .

غير قاتله . وعن أبي شريح الخزازي قال : قال رسول الله ﷺ ^(١) : من أصيب بدم أو خبل - والخبل الجرح - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث . فإن أراد الرابعة ، فخذوا على يديه : أن يقتل ، أو يعفو ، أو يأخذ الدية . فمن فعل شيئاً من ذلك فعاد ، فإنه نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . فمن قتل بعد العفو وأخذ الدية فهو أعظم جرماً ممن قتل ابتداءً . حتى قال بعض العلماء : إنه يجب قتله حداً ولا يكون أمره إلى أولياء المقتول . فإن الله تعالى كتب عليكم القصاص في القتلى : الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء : فاتبع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم . ولكم في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون . قال العلماء : إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيب ، حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه . وربما لم يرصوا بقتل القاتل ، بل يقتلون كثيراً من أصحاب القاتل . - كسيد القبيلة ومقدم الطائفة - . فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء ، ويعتدى هؤلاء في الاستيفاء . كما كان يفعل أهل الجاهلية ، وكما يفعل أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم . وقد يستمظمون قتل القاتل لكونه عظيماً ، أشرف من المقتول . فيفضي ذلك إلى أن أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل . وربما حالف هؤلاء قوماً واستعانوا بهم . وهؤلاء ، قوماً . فيفضي إلى الفتن والعدواة العظيمة . وسبب ذلك : خروجهم عن سنن العدل الذي هو القصاص في القتلى . فكتب الله علينا (القصاص) وهو المساواة والمعادلة في القتل . وأخبر أن فيه (حياة) فإنه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين . وأيضاً إذا علم من يريد القتل : أنه يقتل ، كف عن القتل ..!

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٢١ - كتاب الديات ، ٣ - باب من قتل له قتيلاً فهو بالخيار بين إحدى ثلاث ، حديث ٢٦٢٣ (طبعتنا) .

وقد روى عن علي بن أبي طالب^(١) وعمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ أنه قال : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ألا لا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده .! رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن . فقتضى رسول الله ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم - أى تتساوى أو تتعادل - فلا يفضل عربي على عجمي ولا قرشي أو هاشمي على غيره من المسلمين . ولا حرّ أصلي على مولى عتيق . ولا عالم أو أمير على أُمي أو مأمور . وهذا متفق عليه بين المسلمين . بخلاف ما عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود . فإنه كان يقرب مدينة النبي ﷺ صنفان من اليهود : قريظة والنضير . وكانت النضير تفضل على قريظة في الدماء . فتجأ كوا إلى النبي ﷺ في ذلك وفي حد الزاني . فإنهم كانوا قد غيروه من الرجم إلى التحميم^(٢) ، وقالوا : إن حكم بينكم بذلك كان لكم

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ١١ - باب أيقاد المسلم بالكافر ؟ ،

حديث ٤٥٣٠ ونصه :

عن قيس بن عباد قال : انطلقت أنا والأشتر إلى علي عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا ما في كتابي هذا . قال فأخرج كتاباً من جراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تكافؤ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ألا ، لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده . من أحدث حدثاً فعلى نفسه . ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : مرّ على النبي ﷺ يهودي محمماً مجلوداً . فدعاهم فقال « هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ » قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم فقال « أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ » قال : لا . ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك . نجده الرجم . ولكنه كثر في أشرافنا . قلنا : إذا أخذنا =

حِجَّةَ ، وَإِلَّا فَأَنْتُمْ قَدْ تَرَكْتُمْ حُكْمَ التَّوْرَةِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ...
- إِلَى قَوْلِهِ - ... وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ... (١)
- إِلَى قَوْلِهِ - ... فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ الدُّنْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ (٢) ...

فَبَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنَّهُ سَوَى بَيْنَ نَفْسِهِمْ ، وَلَمْ يَفْضَلْ مِنْهُمْ نَفْسًا عَلَى أُخْرَى ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ
إِلَى قَوْلِهِ : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِمِّمًا عَلَيْهِ ، فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ الشَّرِيفِ تَرْكَاهُ . وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقْنًا عَلَيْهِ الْحَدَّ . قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعَ عَلَى شَيْءٍ نَقِيمِهِ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ . فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرِّجْمِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ » فَأَمَرَ بِهِ فَرَجَمَ .
فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . إِلَى قَوْلِهِ :
إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ [٥ / المائدة / ٤١] .

يَقُولُ : اسْتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالرِّجْمِ فَاحْذَرُوا .
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٥ / المائدة / ٤٤]
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٥ / المائدة / ٤٥]
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٥ / المائدة / ٤٧] فِي الْكُفْرِ كُلِّهَا .
(١) [٥ / المائدة / ٤١ و ٤٢] .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٤ و ٤٥] .

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . . . - إلى قوله - أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ^(١) .

فحكم الله سبحانه وتعالى في دماء المسلمين أنها كلها سواء . خلاف ما عليه أهل الجاهلية . وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس - في البوادي والخواضر - إنما هي البني وتترك العدل . فإن إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها دماً من الأخرى . أو مالا . أو يعلو عليها بالباطل ، فلا ينصفها . ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق ! فالواجب في كتاب الله الحكم بين الناس في الدماء ، والأموال ، وغيرها ... بالقسط الذي أمر الله به ، ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية ..! وإذا أصلح مصلح بينهم فليصلح بالعدل ، كما قال تعالى : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ^(٢) . وينبغي أن يطلب العفو من أولياء القتول ، فإنه أفضل لهم كما قال تعالى : وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ^(٣) . قال أنس ^(٤) : ما رأيت نبي الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو ..! رواه أبو داود وغيره . وروى مسلم في صحيحه ^(٥) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) [٥ / المائدة / ٤٨ - ٥٠] .

(٢) [٤٩ / الحجرات / ١٠ و ٩] .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ٣ - باب الإمام يأمر بالعفو في الدم ،

حديث ٤٤٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعنا) .

مانقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله . وهذا الذى ذكرناه من التكافؤ ، هو فى المسلم الحرّ مع المسلم الحرّ ، فأما الذمى ، فجمهور العلماء على أنه ليس بكُفٍّ للمسلم . كما أنّ المستأمن الذى يقدم من بلاد الكفار - رسولاً أو تاجراً أو نحو ذلك - ليس بكُفٍّ له ، وفقاً . ومنهم من يقول : بل هو كفٌّ له . وكذلك النزاع فى قتل الحرّ بالعبد .

النوع الثانى : الخطأ الذى يشبه العمد : قال النبى ﷺ (١) : ألا إن قتل العمد الخطأ بالسوط والعصا شبه العمد فيه مائة من الإبل مغلظة منها أربعون خلفةً فى بطونها أولادها . سمّاه شبه العمد لأنه قصد العدوان عليه بالخيانة ، لكنه بفعل لا يقتل غالباً ، فقد تعمّد العدوان ولم يتعمّد ما يقتل .

الثالث : الخطأ المحض وما يجرى مجراه : مثل أن يكون يرمى صيداً أو هدفاً فيصيب إنساناً بغير علمه ولا قصده ، فهذا ليس فيه قود ، وإنما فيه الدية والكفارة . وهنا مسائل كثيرة معروفة فى كتب أهل العلم وبينهم .

التنبيه الرابع : قال الراغب : إن قيل : لم قال فمن عفى له من أخيه شيء ولم يقل : فمن عفا له أخوه شيئاً ..؟ قيل : المدول إلى ذلك للطيفة . وهى أنه لافرق بين أن يكون صاحب الدم قد عفا أو جماعة ، فعفا أحدهم . إذ القصاص يبطل ويعمل حينئذٍ إلى الدية ، فقال : فمن عفى له من أخيه شيء ليدل على هذا المعنى ، و(الهاء) فى قوله : أخيه يجوز أن تكون للمقتول ولوليّه . وجعله أخاً لولى الدم لا للنسب ولا لموالاته دينية ، ولكن للإحسان الذى أسداه فى الرضا منه بالدية اهـ .

(١) أخرجه النسائى فى : ٤٥ - كتاب القسامة ، حديث ٣٣ و ٣٤ - باب كم دية شبه العمد .

الخامس : هذه الآية مفسرة لما أبهم في آية المائدة وهي قوله تعالى : النفس بالنفس ^(١) .
 كما أنها مقيدة وتلك مطلقة ، والمطلق يحمل على المقيد ، وكذا ما ورد في السنة وصح عن
 النبي ﷺ في هذا الباب فإنه يبين ما يراد في هذه الآية وآية المائدة . وقد رويت أحاديث من
 طرق متعددة بأنه : لا يقتل حرٌ بعبد . كالأحاديث والآثار القاضية بأنه يقتل الذكر بالأنثى .
 فالتمويل على ذلك . وبالجملة : فقوله تعالى : الحرُّ بالحرِّ ... الخ . لا يفيد الحصر البتة ،
 بل يفيد شرع القصاص بين المذكورين من غير أن يكون فيه دلالة على سائر الأقسام .
 هذا ما اعتمدوه ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » كلام في غاية الفصاحة والبلاغة لما فيه من الغزابة ،
 حيث جعل الشيء محل ضده ، فإن القصاص قتل وتقويت للحياة . وقد جعل مكاناً وظرفاً
 للحياة ، وعرف القصاص ونكر الحياة ، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم - الذي
 هو القصاص - حياة عظيمة . وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة . وكم قتل مهلهل ^(٢)
 بأخيه حتى كاد يفنى بكر بن وائل ! وكان يقتل بالمتول غير قاتله ، فتثور الفتنة ، ويقع بينهم
 التناحر ..! فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ..! أو نوع من
 الحياة ، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاعتصام من القاتل ، لأنه إذا
 هم بالقتل ، فعلم أنه يقتص منه فارتدع ، سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود . فكان

(١) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير . الجزء الأول صفحة ٢١٤ (طبعة بولاق) ذكر مقتل كليب ،
 والأيام بين بكر وتغلب .

القصاص سبب حياة نفسين ..! هذا ما يستفاد من (الكشاف) .
لطيفة :

اتفق علماء البيان على أن هذه الآية - في الإيجاز مع جمع المعاني - بالغة إلى أعلى الدرجات ..! وذلك لأن العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة ، كقولهم : قَتَلَ البعض إحياء للجميع ، وقول آخرين : أَكثَرُوا القتل ليقِلَّ القتل . وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم ^(١) القتل أنقى للقتل ؛ وقد كانوا مطبقين على استجادة معنى كلمتهم واسترشاق لفظها ..! ومن المعلوم لكلّ ذي لبٍّ أن بينها وبين ما في القرآن كما بين الله وخلقها ! وآتى لها الوصول إلى رشاقة القرآن وعذوبته ..!

قال في (الإتيان) وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنقى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر . وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال : لاتشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق ..! وإنما العلماء يقدحون أذنانهم فيما يظهر لهم من ذلك ..!

الأول : أن ما يناظره من كلامهم وهو «القصاص حياة» أقلّ حروفاً ، فإنّ حروفه عشرة وحروف (القتل أنقى للقتل) أربعة عشر ..!

الثاني : أن نفي القتل لا يستلزم الحياة ، والحياة ناصّة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه !

الثالث : أن تنكير «حياة» يفيد تعظيماً ، فيدلّ على أن في القصاص حياة متطاولة ، كقوله تعالى : وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ^(٢) . ولا كذلك المثل ، فإنّ اللام فيه للجنس ، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء !

(١) انظر (وحى القلم) للأستاذ مصطفى صادق الرافعي . الجزء الثالث صفحة ٤٦٣
ففيه شفاء الغليل ، وتحقيق عدم جاهلية هذه الكلمة .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٦] .

الرابع : أن الآية فيه مطردة ، بخلاف المثل ، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له ، وهو القتل ظلماً . وإنما ينفيه قتل خاص ، وهو القصاص ، ففيه حياة أبدأ . !
الخامس : أن الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع في المثل . والخالي من التكرار أفضل من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة .. !

السادس : أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف . بخلاف قولهم . فإن فيه حذف (من) التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها ، وحذف (قصاصاً) مع القتل الأول ، (وظلماً) مع القتل الثاني ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

✓ السابع : أن في الآية طباقاً ، لأن القصاص يشعر بضد الحياة بخلاف المثل .. !

الثامن : أن الآية اشتملت على فنّ بديع ، وهو جعل أحد الضدين - الذي هو الفناء والموت - محلاً ومكاناً لضده - الذي هو الحياة . واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة .. ! ذكره في (الكشف) ، وعبر عنه صاحب (الإيضاح) بأنه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال « في » عليه .

التاسع : أن في المثل توالى أسباب كثيرة خفيفة - وهو السكون بعد الحركة - وذلك مستكره . فإن اللفظ المنطوق به إذا توالى حركاته تمكن اللسان من النطق به وظهرت بذلك فصاحته ! بخلاف ما إذا تعقّب كل حركة سكوناً ، فالحركات تنقطع بالسكنات . نظيره : إذا تحركت الدابة أدنى حركة ، فخبست ، ثم تحركت فخبست ، لا تطيق إطلاقها ، ولا تتمكن من حركتها على ما تختاره ، فهي كالقيدة !

العاشر : أن المثل كالتناقض من حيث الظاهر . لأن الشيء لا ينفي نفسه !

الحادى عشر : سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة ، وبُعدها عن غنة النون .

الثاني عشر : اشتبهالها على حروف متلآءة ، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد .
- إذ القاف من حروف الاستعلاء ، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق . بخلاف الخروج من القاف إلى التاء - التي هي حرف منخفض - فهو غير ملائم للقاف . وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق .

الثالث عشر : في النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، ولا كذلك تكرير القاف والتاء .

الرابع عشر : سلامتها من لفظ (القتل) الشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ (الحياة) فإنّ الطباع أقبل له من لفظ (القتل) .

الخامس عشر : أنّ لفظ القصاص مشعر بالمساواة ، فهو منبهي لا عن العدل ، بخلاف مطلق القتل .

السادس عشر : الآية مبنية على الإثبات ، والمثل على النفي ، والإثبات أشرف لأنه أول ، والنفي ثانٍ عنه .

السابع عشر : أنّ المثل لا يكاد يفهم إلّا بعد فهم أنّ القصاص هو الحياة . وقوله « فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » مفهوم من أول وهلة ..!

الثامن عشر : أنّ في المثل بناء (أفعل التفضيل) من فعل متعدّد ، والآية سالمة منه ..!
التاسع عشر : أنّ (أفعل) في الغالب يقتضي الاشتراك ، فيكون ترك القصاص نافيّاً للقتل ، ولكنّ القصاص أكثر نفيّاً ..! وليس الأمر كذلك ، والآية سالمة من ذلك .

العشرون : أنّ الآية زائدة عن القتل والجرح معاً ، لشمول القصاص لهما . والحياة أيضاً في قصاص الأعضاء . لأنّ قطع العضو ينقص أو ينفصّ مصلحة الحياة ، وقد يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل ..!

في أول الآية « ولکم » وفيها لطيفة : وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم ..! (١) انتهى .

وقوله تعالى « يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ » المراد به : العقلاء الذين يعرفون العواقب ويعلمون جهات الخوف . فإذا أرادوا الإقدام على قتل أعدائهم ، وعلموا أنهم يطالبون بالقود ، صار ذلك رادعاً لهم . لأنّ العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه . فإذا خاف ذلك كان خوفه سبباً للكفّ والامتناع ..! إلا أنّ هذا الخوف إنما يتولّد من الفكر الذي ذكرناه ، ممّن له عقل يهديه إلى هذا الفكر . فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر ، لا يحصل له هذا الخوف ..! فلهذا السبب خصّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولى الألباب ، ثمّ علّل ذلك بقوله « لعلّكم تتقون » أي : الله تعالى بالانقياد لما شرع ، فتتحامون القتل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا

الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ » أي : فرض ، كما استفاض في الشرع « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أي أمارته وهو المرض الخوف « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أي مالا ينبغي أن يوصى فيه ، وقد أطلق في القرآن « الخير » وأريد به المال في آيات كثيرة : منها هذه ، ومنها قوله : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ (٢) ،

(١) الإتيان ، الجزء الثاني صفحة ٥٥ (المطبعة الأزهرية عام ١٣١٨ هـ) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

ومنها : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ^(١) ، ومنها : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَعِيرٌ^(٢) إلى غيرها . وإنما سُمِّيَ المال خيراً تنبيهاً على معنى لطيف : وهو أن المال الذي يحسن الوصية به ما كان مجموعاً من وجهٍ محمودٍ ..! كما أن في التسمية إشارة إلى كثرته ، كما قال بعضهم : لا يقال للمال خيراً حتى يكون كثيراً ومن مكانٍ طيبٍ ..! وقد روى ابن أبي حاتم عن هشام ابن عروة عن أبيه : أن علياً رضى الله عنه دخل على رجل من قومه يعود ، فقال له : أوصي؟ فقال له على : إنما قال الله : إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ . إنما تركت شيئاً يسيراً فأتركه لولدك .! وروى الحاكم عن ابن عباس : من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً ! وقال طاوس : لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً . وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فوقها . ومنه يعلم أن لا تحديد للكثرة الفهومة ، وأن مردّها للعرف لاختلاف أحوال الزمان

والمكان .

ثم ذكر نائب فاعل (كُتِبَ) بعد أن اشتدَّ التشوُّف إليه ، فقال « الْوَصِيَّةُ » وتذكير الفعل الرافع لها : إمّا لأنه أريد بالوصية الإيضاء ، ولذلك ذكّر الضمير في قوله « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » وإمّا للفصل بين الفعل ونائبه ، لأنّ الكلام لما طال ، كان الفاصل بين المؤنث والفعل كالعوض من تاء التأنيث . وقوله « لِلْوَالِدَيْنِ » بدأ بهما لشرفهما وعظم حقهما « وَالْأَقْرَبِينَ » من عداها من جميع القربات « بِالْمَعْرُوفِ » وهو ما تتقبله الأنفس ولا تجد منه تكرّها .

= و [٢ / البقرة / ٢٧٣] ونصها : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(١) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٢٤] ونصها : فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَعِيرٌ .

وفي الصحيحين^(١) : أن سعداً قال : يا رسول الله ، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي : أفأوصي بثلاثي مالي ؟ قال : لا .. ! قال : فبالشطر ؟ قال : لا .. ! قال : فالثالث ؟ قال الثالث ، والثالث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ! وفي صحيح البخاري^(٢) أن ابن عباس قال : لو أن الناس غصوا من الثالث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : الثالث والثالث كثير .. !

وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي سعيد مولى بني هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة : سمعت

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣٦ - باب رثى النبي ﷺ سعد بن

خولة . ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي . فقلت : إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة . أفأتصدق بثلاثي مالي ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثالث ، والثالث كبير (أو كثير) إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى ما تجعل في في امرأتك » فقلت : يا رسول الله ! أخلف بعد أصحابي ؟ قال « إنك لن تخلف فتعمل عملا صالحا إلا أزددت به درجة ورفعة . ثم لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون . اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » .

لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ ، أن مات بمكة .

وأخرجه مسلم في : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث ٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٣ - باب الوصية بالثالث .

ومسلم في : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث ١٠ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بالجزء الخامس صفحة ٦٧ (طبعة الحلبي) =

حنظلة بن جذيم بن حنيفة أن جدّه حنيفة أوصى لیتیم فی حجره بمائة من الإبل ، فشقّ ذلك على بنیه ، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال حنيفة : إني أوصيت لیتیم لی بمائة من

= وهاكم الحديث بطوله، بنصه:

عن ذیال بن عتبة بن حنظلة قال : سمعت حنظلة بن جذيم ، جدی ، أن جدّه حنيفة قال لجذيم : اجمع لی بنیّ فإني أريد أن أوصی . فجمعهم فقال : إن أول ما أوصی أن لیتیمی هذا الذي فی حجری مائة من الإبل ، التي كنا نسّمیها فی الجاهلية المطیبة . فقال جذيم : یاأبت ! إني سمعت بنیک يقولون : إنما قرّب بهذا عند آئینا . فإذا مات رجعنا فیهِ . قال : فیبنی وینسکم رسول الله ﷺ . فقال جذيم : رضینا . فارتفع جذيم وحنيفة ، وحنظلة معهم غلام وهو رديف لجذيم . فلما أتوا النبی ﷺ سلموا علیه . فقال النبی ﷺ « وما رفمک؟ یاأبا جذيم! » قال : هذا . وضرب بیده على نخذ جذيم . فقال : إني خشیت أن یفجأنی الکبر أو الموت ، فأردت أن أوصی . وإني قلت : إن أول ما أوصی أن لیتیمی هذا ، الذي فی حجری ، مائة من الإبل ، كنا نسّمیها فی الجاهلية المطیبة . فغضب رسول الله ﷺ حتی رأینا الغضب فی وجهه . وكان قاعداً فجأنا على رکبته . وقال « لا . لا . لا . الصدقة خمس ، وإلا فمشر ، وإلا فخمس عشرة ، وإلا فعشرون ، وإلا فخمس وعشرون ، وإلا فثلاثون ، وإلا فخمس وثلاثون . فإن كثرت فأربعون » .

قال فودعوه ، ومع الیتیم عصا وهو یضرب جملاً . فقال النبی ﷺ « عظمت هذه هراوة یتیم » .

قال حنظلة : فدنا بی إلى النبی ﷺ فقال : إن لی بنین ذوی لحي ودون ذلك ، وإن ذا أصغرهم فادع الله له . فسح رأسه وقال « باریک الله فیک ، أو بورك فیهِ » .

قال ذیال : فلقد رأیت حنظلة یؤتی بالإنسان الوارم وجهه ، أو البهیمة الوارمة الضرع فیتقل على یدیه ویقول : بسم الله . ویضع یدیه على رأسه ویقول : علی موضع کف رسول الله ﷺ ، فیمسحه علیه . وقال ذیال : فیذهب الورم .

الإبل كنا نسميها المطيبة، فقال النبي ﷺ : لا لالا..! الصدقة خمس، وإلا فطش، وإلا خمس عشرة، وإلا فمشرون، وإلا خمس وعشرون، وإلا فتلاثون، وإلا خمس وثلاثون، فإن كثرت فأربعون! وذكر الحديث بطوله.

ثم أكد تعالى الوجوب بقوله « حَقًّا » - وكذا قوله - « عَلَى الْمُتَّقِينَ » فهو إلهابٌ وتهيجٌ وتذكير بما أمامه من القدوم على من يسأله عن النقيض والقطيع.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ،

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« فَمَنْ بَدَّلَهُ » أى : فمن غير الإيصاء عن وجهه، إن كان موافقاً للشرع، من الأوصياء والشهود « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أى : بعد ما وصل إليه وتحقق لديه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ » - أى التبديل - « عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع، فلا يلحق الموصى منه شيء وقد وقع أجره على الله « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وعيد شديد للمبدلين.

هذا، وما ذكرناه من أن المنهى عن التبديل إما الأوصياء أو الشهود هو المشهور. وهناك وجه آخر - أراه أقرب - وهو أن يكون المنهى عن التغير هو الموصى. نهى عن تغير الوصية عن المواضع التى بين تعالى الوصية إليها. وذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية يوصون للأبغدين الأجانب، طلباً للفخر والشرف. ويتركون الأقارب فى الفقر والمسكنة والضر، فأوجب الله تعالى الوصية لهؤلاء منعاً للقوم عما اعتادوه - كذا قاله الأصم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ،
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَمَنْ خَافَ » أى توقع وعلم ، وهذا فى كلامهم شائع ، يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقع والظنّ الغالب ، الجارى مجرى العلم « مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » ميلاً عن الحقّ ، بالخطأ فى الوصية ، والتصرّف فيما ليس له « أَوْ إِثْمًا » أى : ميلاً فيها عمداً « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أى : بينه وبين الموصى لهم - وهم الوالدان والأقربون - بإجرائهم على طريق الشرع . قال ابن جرير : بأن يأمره بالعدل فى وصيته ، وأن ينهاهم عن منعه فيما أذن له فيه وأيسح له . « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : بهذا التبديل ، لأنّ تبديله تبديلاً باطلاً إلى حقّ ! - « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن جرير : أى غفورٌ للموصى - فيما كان حدّث به نفسه من الجنف والإثم إذا ترك أن يأثم ويحنف فى وصيته - فتجاوز له عما كان حدّث به نفسه من الجور إذ لم يعض ذلك ، « رحيمٌ » بالمصلح بين الوصى وبين من أراد أن يحيف عليه لغيره أو يأثم فيه له..!

تفسيه

(ما أفادته الآية من فرضية الوصية للوالدين والأقربين)

ذكر بعضهم : أنه كان واجباً قبل نزول آية الموارث . فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت الموارث المقدّرة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمّل منّة الموصى . ولهذا جاء فى الحديث ^(١) - الذى فى السنن وغيرها - عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : إنّ الله قد أعطى كلّ ذى حقّ حقه ، فلا وصيّة لو ارث ...!

(١) أخرجه الترمذى فى : ٢٨ - كتاب الوصايا ، ٥ - باب ما جاء لا وصية لو ارث .

ونصّ الإمام الشافعي^(١) على أنّ هذا المتن متواتر، فقال: وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازي من قريش وغيرهم لا يختلفون في أنّ النبي ﷺ قال عام الفتح: لا وصية لوارث. ويأثرونه عن حفظوه عنه ممن لقوه من أهل العلم، فكان نقل كافة عن كافة. فهو أقوى من نقل واحد.

قال الإمام مالك في «الموطأ»^(٢): السنة الثابتة عندنا التي لا اختلاف فيها أنّه: لا تجوز وصية لوارث إلا أن يجزله ذلك ورثة الميت.

وذهبت طائفة إلى أنّ الآية محكمة لا تخالف آية الموارث. والمعنى: كتب عليكم ما أوصاكم به من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ» أو كتب على المحتضر: أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصبتهم! فلا منافاة بين ثبوت الميراث للأقرباء، مع ثبوت الوصية بالميراث عطية من الله تعالى، والوصية عطية ممن حضره الموت. فالوارث جُمِعَ له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين. ولو فرض المنافاة، لأمكن جعل آية الميراث مخصصة لهذه الآية. بإبقاء القريب الذي لا يكون وارثاً لأجل صلة الرحم. فقد أكد تعالى الإحسان إلى الأرحام وذوى القربى في غير ما آية، فتكون الوصية للأقارب الذين لا يرثون عصبه، أو ذوى رحم مفروضة...! قالوا: ونسخ وجوبها للوالدين والأقربين الوارثين لا يستلزم نسخ وجوبها في غيرهم...!

ومما استدللّ به على وجوب الوصية، من السنة: خبر الصحيحين^(٣) عن ابن عمر قال:

(١) الرسالة - بتحقيق أحمد محمد شاكر، الفقرة رقم ٣٩٨ و ٣٩٩.

(٢) الموطأ في: ٣٧ - كتاب الوصية، ٥ - باب الوصية للوارث والحيازة (طبعتنا).

(٣) أخرجه البخاري في: ٥٥ - كتاب الوصايا، ١ - باب الوصايا وقول النبي صلى

الله عليه وسلم «وصية الرجل مكتوبة عنده».

وأخرجه مسلم في: ٢٥ - كتاب الوصية، حديث رقم ١ (طبعتنا).

قال رسول الله ﷺ ^(١) : ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده . قال ابن عمر : ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندي وصيتي .. ! والآيات والأحاديث - بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم - كثيرة جداً !

ظهر لي (*) في آية « كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . . . الخ » - وكان درسنا صباحاً من البخاريّ في (كتاب الوصايا) - أن هذه الآية ليست منسوخة - كما قيل - بل هي محكمة بطريقة لا أدرى هل أحد سبقني بها أم لا ؟ فإني - في تفسيرى المسمى بمحاسن التأويل - نقلت هناك مذاهب العلماء ، ولا يحضرني الآن أن ما سأذكره مأثور أم لا ؟ وهو أن هذه الآية مع آية : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، متلاقيتان في المعنى ، من حيث أن المراد بالوصية : وصية الله في إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، وعدم الغض منها ، والحذر من تبديلها ، لما يلحق البدل من الوعيد الشديد .. ! وخلاصة المعنى على ما ظهر :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ » أى : فرض عليكم فرضاً مؤكداً بمثابة المكتوب الذى لا يُمحى ولا يمتوره تغيير « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى : قرب زوله به بأن قرب مفارقاته الحياة « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أى : مالا يورث « الْوَصِيَّةُ » أى : المهددة ، وهى وصية الله سبحانه وتعالى في إيتاء كلّ ذى حقّ حقّه ، على ما بينته تلك الآية « لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » أى : في إبلاغهم فرضهم المبين في آية « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » فإنه أجمع آية « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » تأكيداً للكتابة بأنها أمر ثابت لا يسوغ التسامح فيه بوجه ما « فَمَنْ بَدَّلَهُ »

(١) أخرجه مسلم في : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث رقم ٤ (طبعنا) .

(*) نُقِلَتْ هذه العبارة من دفتر اللواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله وقد كتبها الجمعة ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٢٤ .

أى : هذا المكتوب الحقّ « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أى : فلم الحقّ المفروض فيه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى : فلا يخفى عليه شئ من حال المتبدّل والمبدّل ، وقوله تعالى « فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا » أى : ميلاً عمّا فرضه تعالى « أَوْ إِثْمًا » أى : بقطع من يستحقّ عن حقّه ، لما لا تخلو عنه كثير من الأنفس التي لم يدركها نور التهذيب « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أى : بأمرٍ رضى به الكلّ « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : لأنّ الصلح جائزٌ إلّا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً ، والله أعلم . اه المنقول من الدفتر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ » - أى : فرض - « عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » وهو الإمساك

عن الطعام والشراب والوقوع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

واعلم أنّ مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله

لعباده رحمةً لهم ، وإحساناً إليهم ، وحميةً ، وجنةً ..! فإنّ المقصود من الصيام : حبس

النفس عن الشهوات ، وفطمها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتسعد بطلب ما

فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تركوه ممّا فيه حياتها الأبدية ..! ويكسر الجوعُ

والظمأ من حدتها وسورتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجامعة من الساكنين ..! وتضييق

مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وحبس قوى الأعضاء عن

استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها ، ويسكن كلّ عضو منها وكلّ قوّة

عن جماحها ، وتلجم بلجامه ، فهو لجأ المتقين ، وجنة المجاهدين ، ورياضة الأبرار والمقرّبين ..!

وهو ربّ العالمين من بين سائر الأعمال ، فإنّ الصائم لا يفعل شيئاً ، إلّا ما تركه شهوته وطعامه

وشرا به من أجل معبوده . فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاة . وهو سرٌّ بين العبد وربّه ، ولا يطلع عليه سواه !..

والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة . وأمّا كونه ترك طعامه وشرا به وشهوته من أجل معبوده ، فهو أمرٌ لا يطلع عليه بشر . وذلك حقيقة الصوم !.. وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة . وحمتها عن التخليط الجالب لها الموادّ الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها . واستفراغ الموادّ الرديّة المانعة له من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها . ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات . فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى في تنمة الآية : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، وقال النبي ﷺ (١) : الصوم جُنة . وأمر (٢) من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه ، بالصيام . وجعله وجاء هذه الشهوة . وكان هدى رسول الله ﷺ فيه أكل الهدى ، وأعظم

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٢ - باب فضل الصوم ، حديث ٩٦١

ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصيام جُنة . فلا يرفث ولا يجهل . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم (مرتين) والذي نفسى بيده ! لخلُوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك . يترك طعامه وشرا به وشهوته من أجلي . الصيام لى وأنا أجزي به . والحسنة بعشر أمثالها » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٣ - باب من لم يستطع الباءة فليصم ،

حديث ٩٦٧ ونصه :

قال عبد الله (بن مسعود) كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب ! من استطاع الباءة فليتزوج . فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

تحصيلاً للمقصود ، وأسهله على النفوس ..! ولما كان فطم النفس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، تأخّر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة . لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة . وألفت أوامر القرآن . فنقلت إليه بالتدريج . وكان فرضه السنة الثانية من الهجرة . فتوفى رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات . وفرض أوّلًا على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كلّ يومٍ مسكيناً . ثمّ نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم ، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة - إذا لم يطبقا الصيام - فإنهما يفطران ويطمان عن كلّ يومٍ مسكيناً - كما سيأتى بيانه - وكان للصوم رتب ثلاث : أحدها : إيجابه بوصف التخيير . والثانية : تحتمه ، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة ، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة : وهى التى استقرّ عليها الشرع إلى يوم القيامة ..! كذا أفاده ابن القيم فى زاد المعاد .

وقوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » تأكيد للحكم ، وترغيب فيه ، وتطبيب لأنفس المخاطبين به ؛ فإنّ الشاقّ إذا عمّ سهل عمله ! والمائلة إنّما هى فى أصل الوجوب لافى الوقت والمقدار ، وفيه دليل على أنّ الصوم عبادة قديمة .
وفى التوراة ، سفر عزّرا ، الأصحاح الثانى ، ص ٧٥٠ :
(٢١) « وناديتُ هناك بصومٍ على نهر أهُوا لكى تتدلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقاً مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل مالنا » .

وفى سفر إشعياء ، الأصحاح الثامن والخمسون ص ١٠٦٢ :
(٣) « يقولون لماذا صمنا ولم ننظر . ذلّلنا أنفسنا ولم نلاحظ . ها إنكم فى يوم صومكم توجدون مسرّةً وبكل أشغالكم تُسَخَّرُونَ . (٤) ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون ولتضربوا بلكمة الشرّ . لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم فى العلاء . (٥) أمثل هذا يكون صومٌ اختاره . يوما يذلل الإنسان فيه نفسه يُحنى كالأسكّة رأسه ويفرّش تحته مسحاً ورمادا . هل تسمى هذا صوما ويوما مقبولا للرب ؟ ... الخ .

وفي سفر يوثيل ، الأصحاح الأول ، ص ١٢٩٩ :

(١٤) قدّسوا صوما .

وفي الأصحاح الثاني ، ص ١٣٠٠ :

(١٢) ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلىّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح
(١٣) ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب
وكثير الرأفة .. (١٥) ... قدّسوا صوما نادوا باعتكاف (١٦) اجمعوا الشعب قدسوا الجماعة .
وفي سفر زكريا ، الأصحاح الثامن ، ص ١٣٤٧ :

(١٩) هكذا قال رب الجنود . إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم
العاشر يكون لبيت يهوذا ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة . فأحبوا الحق والسلام .
وفي إنجيل متى ، الأصحاح السادس ص ١١ :

(١٧) وأما أنت فتى صمت فادهنْ رأسك واغسل وجهك (١٨) لكي لا تظهر للناس
صائما بل لأبيك الذي في الخفاء . فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية .
الأصحاح السابع عشر ص ٣٢ :

لما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه (٢١) وأما
هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم .

وفي الأصحاح الرابع ص ٦ :

(٢) فبعد ما صام أربعين نهرا وأربعين ليلة جاع أخيراً (أى المسيح عليه السلام) .

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ، الأصحاح السادس ص ٢٩٥ :

(٤) بل في كل شيء نظهر أنفسنا كخُدّام الله في صبر كثير في شدائد في ضرورات

في ضيقات (٥) في ضربات في سجون في اضطرابات في أتعاب في أسهار في أصوام .

وفي الأصحاح الحادى عشر ص ٣٠١ :
 (٢٧) فى تعب وكدّ . فى أسفار مرارا كثيرة . فى جوع وعطش . فى أصوام مرارا كثيرة . فى برد وعزى .
 هذا ، ومتى أطلق الصوم فى كل شريعة ، فلا يُقصد به إلّا الامتناع عن الأكل كلّ النهار إلى المساء ، لا مجرد إبدال طعام بطعام .
 وقوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى : تجعلون بينكم وبين سخطه تعالى وقاية بالمسارعة إليه ، والمواظبة عليه ، رجاءً لرضاه تعالى ؛ فإنّ الصوم يكسر الشهوة ، فيقمع الهوى ، فيردع عن مواجهة السوء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » نصب على الظرف ، أى : كتب عليكم الصيام فى أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان ، كما بينها تعالى فيما بعد بقوله « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » . « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا » أى : مرضاً يضرّه الصوم ، أو يعسر معه .
 و (المرض) : السقم وهو تقيض الصحة واضطراب الطبيعة بعد صفائها واعتدالها « أَوْ عَلَى سَفَرٍ » أى : فأفطر « فَعِدَّةٌ » أى : فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر « مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » غير المعدودات المذكورة ، وإنما رخص الفطر فى حال المرض والسفر لما فى ذلك من المشقة . وقد سافر رسول الله ﷺ فى رمضان فى أعظم الغزوات وأجلها : فى غزوة بدر

وغزوة الفتح . قال عمر بن الخطاب ^(١) : غزونا مع رسول الله ﷺ في رمضان غزوتين : يوم بدر والفتح ، فافطرنا فيهما .

تنبيهات

الأول : ثبت أنه ﷺ صام في السفر وأفطر ، كما خيّر بعض الصحابة بين الصوم والفطر .
 ففي الصحيحين ^(٢) : عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يومٍ حارٍّ ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرِّ ، وما فينا صائمٌ إلَّا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة . وقوله (في بعض أسفاره) وقع في إحدى روايتي مسلم ، بدله (في شهر رمضان) . وعن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله قال ^(٣) : سرنا مع رسول الله ﷺ وهو صائم . وفي رواية : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فلما غابت الشمس قال لرجل : انزل فاجدح لنا ..! فقال : يا رسول الله ! لو أمسيت . قال : انزل فاجدح لنا قال : إن عليك نهاراً . فنزل ، فجدح له ، فشرب ، ثم قال : إذا رأيتم الليل قد أقبل من ههنا - وأشار بيده نحو المشرق - فقد أفطر الصائم . رواه الشيخان . واللفظ لمسلم .

(١) أخرجه الترمذیّ في : ٦ - كتاب الصوم ، ٢٠ - باب ما جاء في الرخصة للمحارب في الإفطار .

(٢) أخرجه البخاریّ في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٣٥ - باب حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث ٩٨٩ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٠٩١ و ١٠٩٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاریّ في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٣٣ - باب الصوم في السفر والإفطار ، حديث ٩٨٦ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٥٣٥٢ و ٥٣٥٣ (طبعتنا)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال^(١) : خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفَانَ ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريه الناس. فأفطر حتى قدم مكة ، وذلك في رمضان .

فكان ابن عباس يقول : قد صام رسول صلى الله عليه وسلم وأفطر ، فمن شاء صام ، ومن شاء أفطر . رواه الشيخان. واللفظ للبخارى .

وعن قزعة قال^(٢) : أتيت أبا سعيد الخدري فسألته عن الصوم في السفر فقال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم ! فكانت رخصة ، ففنا من صام ومننا من أفطر ...

ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا. وكانت عزيمة فأفطروا. ثم قال : لقد رأيتنا نصوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك في السفر ، رواه مسلم . وعن عائشة^(٣) : أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأصوم في السفر ؟ - وكان كثير الصيام - فقال : إن شئت فصم وإن شئت فأفطر . رواه البخارى . ورواه مسلم من طريق آخر ، أنه قال : يا رسول الله ! أجدُ بي قوَّةً على الصيام في السفر

(١) أخرجه البخارى في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٣٨ - باب من أفطر في السفر ليرام الناس ، حديث ٩٨٨ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٨٨ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٠٢ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى في : ٣٠ - كتاب الصيام ، ٣٣ - باب الصوم في السفر والإفطار ،

حديث ٩٨٧ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٧ (طبعنا) .

فهل على جناح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي رخصة من الله. فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه.

وعن أنس بن مالك قال ^(١): كنا نسافر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يعِبِ الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم. رواه الشيخان.

الثاني: لا يخفى أن جواز الصوم للمسافر، إذا أطاقه بلا ضرر. وأما إذا شق عليه الصوم، فلا ريب في كراهته، لما في الصحيحين ^(٢): عن جابر رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه في سفر، فرأى زحماً، ورجل قد ظلل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر. فلا ينافي هذا ما تقدم، كما لا يرد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن السياق والقرائن تدل على تخصيصه بمن شق عليه الصوم. وما تقدم، في غيره.

قال ابن دقيق العيد: وينبغي أن يتنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم؛ وبين مجرد العام على سبب. فإن بين المقيمين فرقاً واضحاً. ومن أجراها مجرى واحداً لم يصب. فإن مجرد ورود العام على سبب لا يقتضى التخصيص به. كنزول آية السرقة في قصة رداء صفوان ^(٣). وأما السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة إلى بيان المجملات كما في هذا الحديث. انتهى. وهو استنباط جيد. وبالجملة: فالمرضى والمسافر يباح لهما المفطر. فإن صاماً، صح. فإن تضرراً، كره. ١..

(١) أخرجه البخاري في: ٣٠ - كتاب الصوم، ٣٧ - باب لم يعِبِ أصحاب النبي ﷺ بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار، حديث ٩٩١.

ومسلم في: ١٣ - كتاب الصيام، حديث ٩٩٨ و٩٩٩ (طبعنا).

(٢) أخرجه البخاري في: ٣٠ - كتاب الصوم، ٣٦ - باب قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر «ليس من البر الصوم في السفر»، حديث ٩٩٠.

ومسلم في: ١٣ - كتاب الصيام، حديث ٩٢ (طبعنا).

(٣) انظر: المنتقى لابن تيمية، حديث رقم (٤٠٨١).

الثالث : لم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بمقدار ، ولا صح عنه في ذلك شيء . وقد أفطر دحية بن خليفة الكلبي في سفر ثلاثة أميال ، وقال لمن صام : قد رغبوا عن هدى محمد صلى الله عليه وسلم !.. وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ، ويخبرون أن ذلك سنته وهديه صلى الله عليه وسلم . كما قال عبيد بن جبر ^(١) : ركب مع أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفينة من الفسطاط في رمضان . فلم يجاوز البيوت حتى دعا بالسفرة . قال : اقترب . قلت : ألتستري البيوت ؟ قال أبو بصرة : أرغب عن سنة رسول الله ﷺ ؟ رواه أبو داود وأحمد . ولفظ أحمد : ركب مع أبي بصرة من الفسطاط إلى الاسكندرية في سفينة ، فلما دفعنا من مرسانا أمر بسفرته فقربت ، ثم دعاني إلى الغداء . وذلك في رمضان ، فقلت يا أبا بصرة ! والله ما تنيت عنا منازلنا بعد . فقال : أرغب عن سنة رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا ! قال : فلم نزل مفطرين حتى بلغنا مأخوذنا (قيل : أي موضعهم الذي أرادوه) وقال ^(٢) محمد بن كعب : أتيت أنس بن مالك في رمضان - وهو يريد السفر - وقد رُحلت راحلته ، وقد لبس ثياب السفر ، فدعا بطعام فأكل ، فقلت له : سنة ؟ قال : سنة . ثم ركب . قال الترمذي : حديث حسن . وقال الدارقطني فيه : فأكل وقد تقارب غروب الشمس !.. وهذه الآثار صريحة أن من أنشأ السفر في أثناء يوم من رمضان فله الفطر فيه . قاله في (زاد المعاد) . « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » أي الصوم ، إن أفطروا « فِدْيَةٌ » أي إعطاء فدية وهي « طَعَامُ مَسْكِينٍ » و (الفدية) ما يقي الإنسان به نفسه من مال يبدله في عبادة يقصر فيها ، و (الطعام) ما يؤكل وما به قوام البدن « فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا » بأن أطعم أكثر

(١) رواه أبو داود في : ١٤ - كتاب الصوم ، ٤٦ - باب متى يفطر المسافر إذا خرج ،

حديث ٤٢١٢ . وأحمد في ص ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٦ - كتاب الصوم ، ٧٦ - باب من أكل ثم خرج سفرا .

من مسكين « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » لأنه فعل ما يدل على مزيد حبه لربه « وَأَنْ تَصُومُوا » أيها المطبقون « خَيْرٌ لَكُمْ » من الفدية وإن زادت « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى فضيلة الصوم وفوائده ، أو إن كنتم من أهل العلم .

وقد ذهب الأكثرون إلى أن هذه الآية منسوخة بما بعدها . فإنه كان في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخص لهم في الإفطار والفدية . كما روى مسلم^(١) عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها . وأسند من طريق آخر عن سلمة أيضا قال : كنا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء صام ، ومن شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين ، حتى أنزلت هذه الآية « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » . وفي البخارى^(٢) : قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع : نسختها « شَهْرُ رَمَضَانَ . . . » الآية . ثم روى عن ابن أبى لى : حدثنا أصحاب محمد ﷺ : نزل رمضان فسق عليهم ، فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ، ورخص لهم في ذلك ، فنسخت وأمروا بالصوم . ثم أسند أيضا عن ابن عمر أنه قال : هى منسوخة . هذا وقد روى البخارى^(٣) فى (التفسير) : عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول فى هذه الآية : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كل يوم مسكينا .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٦ - باب فن شهد منكم الشهر فليصمه ، حديث ١٩٧١ .

ومسلم فى : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٥٠٩ و ١٥١٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٣٩ - باب وعلى الذين يطيقونه .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٥ - باب قوله أياما معدودات ، حديث ١٩٧٠ .

هذا ، وقد ذكر البخاري^(١) في «التفسير» : أن أنس بن مالك أطعم - بعدما كبر - عاماً أو عامين ، كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر ، رواه تعليقاً . ووصله أبو يعلى الموصلي في «مسنده» . ورواه عبد بن حميد في «مسنده» من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . وروى محمد بن هشام في «فوائده» عن حميد قال : ضعف أنس عن الصوم عام توفي فسألت ابنه عمر بن أنس : أطاق الصوم ؟ قال : لا . . ! فلما عرف أنه لا يطيق القضاء أمر بجفان من خبز ولحم فاطعم العدة أو أكثر . !
ولما أبهم الأمر في الأيام عُيِّنَ هنا بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« شَهْرُ رَمَضَانَ » لأن ذلك أخفم وأكد من تعيينه من أول الأمر .
وقال الراغب : جعل معالم فرضه على الأهلة ليبادر الإنسان به في كل وقت من أوقات السنة ، كما يدور الشهر فيه من الصيف والشتاء والربيعين .

وفي رفع « شهر » وجهان : (أحدهما) أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي شهر ، يعني الأيام المعدودات . فعلى هذا يكون قوله « الَّذِي أُنْزِلَ » نعتاً للشهر أو لرمضان . و (الثاني)

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٥ - باب

قوله أياماً معدودات .

هو مبتدأ . ثم في الخبر وجهان : (أحدهما) « الذي أنزل » ؛ و (الثاني) « الذي أنزل » صفة ، والخبر هو الجملة التي هي قوله « فَمَنْ شَهِدَ » .

فإن قيل : لو كان خبراً لم يكن فيه الفاء لأن شهر رمضان لا يشبه الشرط ! قيل : الفاء - على قول الأخفش - زائدة . وعلى قول غيره ليست زائدة ، وإنما دخلت لأنك وصفت الشهر بـ (الذي) ، فدخلت الفاء كما تدخل في خبر نفس (الذي) . ومثله « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » ^(١) . فإن قيل : فأين الضمير العائد على المبتدأ من الجملة ؟ قيل : وضع الظاهر موضعه تفخياً أي : فمن شهد منكم . كذا في الكبرى .

« الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » أي : ابتداء فيه إنزاله ، وكان ذلك في ليلة القدر . قال الرازي : لأن مبادئ الملل والدول هي التي يؤرخ بها ، لكونها أشرف الأوقات ، ولأنها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة .

وقال سفيان بن عيينة : معناه : أنزل في فضله القرآن . وهذا اختيار الحسين بن الفضل ، قال : ومثله أن يقال : أنزل الله في الصديق كذا آية ، يريدون في فضله . وقال ابن الأنباري : أنزل - في إيجاب صومه على الخلق - القرآن ، كما يقال : أنزل الله في الزكاة كذا وكذا ، يريد في إيجابها ، وأنزل في الحمر كذا يريد في تحريمها ، والله أعلم .

قال الحرالي : أشعرت الآية أن في الصوم حسن تلقى لمعناه ، ويسراً لتلاوته ، ولذلك جمع فيه بين صوم النهار وتمجيد الليل ، وهو صيغة مبالغة من (القراء) وهو ما جمع الكتب والصحف والألواح . انتهى .

(١) [٦٢ / الجمعة / ٨] ... ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وفى مدحه - بإزاله فيه - مدح للقرآن به ، من حيث أشعر أن من أعظم المقاصد بمشروعيته تصفية الفكر لأجل فهم القرآن ، ليوقف على حقيقة ما اتبع هذا به من أوصافه التي قررت ما افتتحت به السورة ، من أنه لا ريب فيه ، وأنه هدى ، على وجه أعم من ذلك الأول . فقال تعالى « هُدًى لِلنَّاسِ » نصب على الحال . « وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ » عطف على الحال قبله . فهي حال أيضاً . والظرف صفة . أى : أنزل حال كونه هداية للناس ، وآيات واضحة مرشدة إلى الحق ، فارقة بينه وبين الباطل . ولدفع سؤال التكرار في قوله « وَبَيِّنَاتٍ ... الخ » بعد قوله « هُدًى لِلنَّاسِ » حمل بعض المفسرين « الهدى » الأول بواسطة النكرة على الهدى الذى لا يقدر قدره المختص بالقرآن أعنى هدايته بإعجازه . والثانى على الهدى الحاصل باشماله على الواضحات من أمر الدين ، والفرقان بين الحلال والحرام والأحكام والحدود والخروج من الشبهات .

وتمت وجه آخر نقله الرازى : وهو أن (الهدى) الثانى المراد به التوراة والإنجيل . قال تعالى : نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ ^(١) . فبين تعالى أن القرآن - مع كونه هدى فى نفسه - ففيه أيضاً هدى من الكتب المتقدمة التى هى هدى وفرقان ، والله أعلم .

« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أى : حضر فيه بأن كان مقيماً فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه - أن يصوم لا محالة . ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان . ثم أعيد ذكر الرخصة بقوله تعالى « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » لئلا يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير ، أن الصوم حتم لا تتناوله الرخصة بوجه ، أو

(١) [٣ / آل عمران / ٤٣] ... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ،
وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .

تتناوله ، ولكنها مفضولة . وفيه عناية بأمر الرخصة ، وأنها محبوبة له تعالى كما ورد . وفي إطلاقه ، إشعار بصحة وقوع القضاء متتابعاً وغير متتابع « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ » أى تسريع السهولة بالترخيص للمريض والمسافر ، وبقصر الصوم على شهر « وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » فى جعله عزيمة على الكل ، وزيادته على شهر .

قال الحرايى : الْيُسْرَ عَمَلٌ لَا يَجْهَدُ النَّفْسَ وَلَا يَنْتَقِلُ الْجِسْمَ . والعسر ما يجهد النفس ويضرّ الجسم .

قال الشعبى : إذا اختلف عليك أمران ، فإنّ أيسرهما أقربهما إلى الحق ، لهذه الآية . وروى الإمام أحمد مرفوعاً^(١) : إنّ خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم أيسره . وروى أيضاً^(٢) : إنّ دين الله فى يسرٍ (ثلاثاً) .

وفى الصحيحين^(٣) : أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى ، حين بعثهما إلى اليمن : يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا .

وفى السنن والمسانيد^(٤) : أنّ رسول الله ﷺ قال : بعثت بالحنيفية السمحة . أى التى

(١) مسند الإمام أحمد ، الجزء الثالث صفحة ٤٧٩ (طبعة الحلبي) عن أعرابي .

(٢) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس صفحة ٦٩ (طبعة الحلبي) عن عمرو الفقيمي ونصه : كنا ننتظر النبي ﷺ ، فخرج رجلاً يقطر رأسه من وضوء أو غسل ، فصلى . فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه : يا رسول الله ! أعلينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ : لا . أيها الناس ! إن دين الله عز وجل فى يسر « (ثلاثاً يقولها) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٦٤ - باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب ، حديث ١١٢٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٤) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس ، صفحة ٢٦٦ (طبعة الحلبي) ونصه : =

لا إِضْرَ فِيهَا وَلَا حَرَجَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ^(١) .
 «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» . علل
 لفعلٍ محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره . ولهذه الأمور شرع ذلك . يعنى جملة ما ذكر
 من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخص له بمراعاة عِدَّة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص
 فى إباحة الفطر . فقوله «لِتُكْمِلُوا» علة الأمر بمراعاة العِدَّة . «وَلِتُكَبِّرُوا» . علة ما علم من كيفية
 القضاء ، والخروج عن عهدة الفطر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» علة الترخيص والتيسير . وهذا
 نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلاَّ النقاب المحدث من علماء البيان !
 وإنما عدى (فعل التكبير) بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد . كأنه قيل :

= عن أبى أمامة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سرية من سراياه . قال فرّ رجل بنار
 فيه شيء من ماء . قال فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك النار فيقوته ما كان فيه من ماء .
 ويصيب ما حوله من بقل ويتخلى من الدنيا . ثم قال : لو أنى أتيت نبي الله ﷺ فذكرت
 ذلك له ، فإن أذن لى فعلت . وإلا ، لم أفعل . فأتاه فقال : يا نبي الله ! إني مررت بنار فيه
 ما يقوتنى من الماء والقل . فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبي
 صلى الله عليه وسلم « إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية . لكن بعثت بالحنيفية السمحة .
 والذى نفس محمد بيده ! لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . ولقائم أحدكم
 فى الصف خير من صلاته ستين سنة » .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ
 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
 مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،
 فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
 النَّصِيرُ .

ولتكبروا الله حامدين على ما هذا كم . ومعنى «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وإرادة أن تشكروا . ويجوز عطفها على اليسر أى : يريد بكم لتكملوا ... الخ ، كقوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا... الخ^(١) . والمراد بالتكبير تعظيمه تعالى والثناء عليه - كذا أفاده الزمخشري .

فالحرالى : وفى لفظ : وَلِتَكْبَرُوا اللَّهَ ، إشعار لما أظهرته السنة من صلاة العيد ، وأعلن فيها بالتكبير . وكرر مع الجهر فيها لمقصد موافقة معنى التكبير الذى إنما يكون علناً . وجعلت فى براحٍ من متسع الأرض لمقصد التكبير . لأن تكبير الله إنما هو بما جل من مخلوقاته . انتهى ملخصاً .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى «وَلِتَكْبَرُوا اللَّهَ» . أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم ، كما قال « فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا »^(٢) وقال « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »^(٣) وقال « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ »^(٤) ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات .

(١) [٦١ / الصف / ٨] ونصها : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٠٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ .

(٣) [٦٢ / الجمعة / ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٤) [٥٠ / ق / ٤٠٣٩] وأول الآيتين : فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...

وقال ابن عباس ^(١) : ما كنّا نعرف انقضاء صلاة رسول ﷺ إلّا بالتكبير .
ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعيّة التكبير في عيد الفطر من هذه الآية . حتى ذهب
داود بن عليّ الأصبهانيّ الظاهريّ إلى وجوبه في عيد الفطر ، لظاهر الأمر في قوله «وَلِتُكَبِّرُوا
اللهَ عَلَى مَا هَذَا كُمْ» . وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله : أنه لا يشرع التكبير في
عيد الفطر . والباقون على استحبابه . انتهى .

وفي (زوائد المشكاة) عن عبد الله بن عمر أنّه كان إذا غدا يوم الأضحيّ ويوم الفطر يجهر
بالتكبير حتى يأتي المصلّي . ثم يكبر حتى يأتي الإمام . وفي رواية : رفعه إلى النبيّ ﷺ ؛
رواه الدارقطنيّ . وعن نافع أنّ ابن عمر كان يغدو إلى المصلّي يوم الفطر إذا طلعت الشمس
فيكبر حتى يأتي المصلّي ، ثم يكبر بالمصلّي حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير . رواه الشافعيّ .
قال الحافظ ابن حجر في تخرّيج أحاديث الرافعيّ : حديث أنه ﷺ كان يخرج يوم الفطر
والأضحيّ رافعاً صوته بالتهليل والتكبير حتى يأتي المصلّي ، رواه الحاكم والبيهقيّ من حديث
ابن عمر من طريق مرفوعاً وموقوفاً ، وصحّح وقفه . ورواه الشافعيّ موقوفاً أيضاً .

وفي الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً : زينوا أعيادكم بالتكبير . إسناده غريب . انتهى .
وفائدة طلب الشكر في هذا الموضع ، هو أنّه تعالى ، لما أمر بالتكبير ، وهو لا يتم
إلّا بأن يعلم العبد جلال الله وكبريائه وعزّته وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليه
عقول العقلاء ، وأوصاف الواصفين ، وذكر الذاكرين . ثمّ يعلم أنّه سبحانه - مع جلاله
وعزّته واستغنائاه عن جميع المخلوقات ، فضلاً عن هذا المسكين - خصه الله بهذه الهداية
العظيمة - لا بدّ وأن يصير ذلك داعياً للعبد إلى الاشتغال بشكره ، والمواظبة على الثناء عليه بمقدار
قدرته وطاقته ، فلهذا قال «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أفاده الرازيّ .

(١) أخرجه البخاريّ في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٥٥ - باب الذكر بعد الصلاة .

حديث ٤٩٨ ونصه : قال ابن عباس : كنت أعرف انقضاء صلاة النبيّ ﷺ بالتكبير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ » قال الراغب : هذه الآية من تمام الآية الأولى . لأنه لما حث على تكبيره وشكره على ما قيضه لهم من تمام الصوم ، بين أن الذي يذكرونه ويشكرونه قريب منهم ، وجيب لهم إذا دعوه ، ثم تم ما بقى من أحكام الصوم . قال الرازي : إن السؤال متى كان مبهمًا ، والجواب مفصلاً ، دلّ الجواب على أن المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين . فلما قال في الجواب « فَإِنِّي قَرِيبٌ » علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات ، أي كما صرحت به الرواية السابقة . و (القريب) من أسمائه تعالى الحسنى . ومعناه القرب من عبده بسماعه دعاءه ، ورؤيته تضرّعه ، وعلمه به ، كما قال « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ^(١) وقال « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » ^(٢) وقال « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ » ^(٣) .

(١) [٥٠ / ق / ١٦] ونصها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَاعْلَمُوا مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

قال الإمام تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، في عقيدته الواسطية :

ودخل - فيما ذكرناه من الإيمان بالله - الإيمان بما أخبر الله به في كتابه ، وتواتر عن رسوله ﷺ ، وأجمع عليه سلف الأمة . من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه ، على خلقه . وهو معهم سبحانه أينما كانوا . يعلم ما هم عاملون . كما جمع بين ذلك في قوله « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (١) . وليس معنى قوله « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » أنه مختلط بالخلق ، فإن هذا لا توجه اللغة . وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة . وخلاف ما فطر الله عليه الخلق . بل القمر - آية من آيات الله - من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع في السماء ، وهو مع المسافر أينما كان . وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه . مهيم عليهم . مطلع إليهم . إلى غير ذلك من معاني ربوبيته . وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش ، وأنه معنا - حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة . ودخل في ذلك : الإيمان بأنه قريب من خلقه ، كما قال تعالى « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... الآية » . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) : إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . وما ذكر في الكتاب والسنة - من قربته ومعينته - لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته . ! فإنه سبحانه ليس كمثل شيء (٣)

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٤٣١ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٦

(طبعنا) عن أبي موسى الأشعري .

(٣) [٤٢/الشورى/١١] ونصها: فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذَرُوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

في جميع نموته . وهو على في دنوه ، قريب في علوه . . ! انتهى كلامه ، رحمه الله تعالى .
وقوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » تقريرٌ للقرب وتحقيق له . ووعد للداعي بالإجابة . وقد قرئ في السبع بإثبات الياء في (الداع) و (دعان) في الوصل دون الوقف ، وبالحذف مطلقاً .

تنبيهات

الأول : في معنى الدعاء :

قال في القاموس وشرحه : الدعاء : الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال . ويطلق على العبادة والاستغاثة .

الثاني : فيما فسر به قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ » :

قال ابن القيم في (زاد المعاد) في هديه ﷺ في سجوده ما نصه : وأمر - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - بالدعاء في السجود ، وقال ^(١) : إنه قمن أن يستجاب لكم . وهل هذا أمر بأن يكثر الدعاء في السجود ؟ أو أمر بأن الداعي إذا دعا في محلّ فليكن في السجود ؟ وفرق بين الأمرين .. ! وأحسن ما يحمل عليه الحديث ، أن الدعاء نوعان : دعاء ثناء ، ودعاء مسألة . والنبي ﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين . والدعاء الذي أمر به في السجود يتناول النوعين . والاستجابة - أيضاً - نوعان : استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله ،

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة ، والناس صفوف خلف أبي بكر . فقال « أيها الناس ! إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل . وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء . فقمن أن يستجاب لكم » .

واستجابة دعاء المثنى بالثواب . وبكل واحدٍ من النوعين فسّر قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » . والصحيح أنه يعمّ النوعين . انتهى .

الثالث : فيمن هو الداعي المحجب :

قال الراغب : بين تعالى - في هذه الآية - إفضاله على عباده ، وضمن أنهم إذا دعوه أجابهم ، وعليه نبّه بقوله تعالى « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ^(١) . إن قيل : قد ضمن في الآيتين أن من دعاه أجابه ، وكم رأينا من داعٍ له لم يجبه ! قيل : إنه ضمن الإجابة لعباده ، ولم يرد بالعباد من ذكرهم بقوله « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا » ^(٢) ؛ وإنما عني به الموصوفين بقوله « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » ^(٣) وقوله « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ » ^(٤) الآيات ؛ وللدعاء المحجب شرائط وهي : أن يدعوا بأحسن الأسماء ، كما قال تعالى « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ^(٥) ، ويخلص النية ، ويظهر الافتقار ، ولا يدعو بإثم ، ولا بما يستعين به على معاداته . وأن يعلم أن نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوّله وأعطاه . ومعلوم أن من هذا حاله فحجاب الدعوة ! .. اهـ . وقال ابن القيم ، عليه الرحمة ، أيضاً في أول كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٤٢] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(الشافى) ما نصّه ، بعد جمل : وكذلك الدعاء . فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب . ولكن قد يتخلف عنه أثره . إمّا لضعفه فى نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لا فيه من العدوان . وإمّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء . فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً . فإنّ السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً . وإمّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورؤى الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها . كما فى صحيح الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ ! . فهذا دواء نافع من زيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته . وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها . كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) : أيها الناس ! إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » [٢٣ / المؤمنون / ٥١] وقال ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ حَبِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » [٢ / البقرة / ١٧٢] ثم ذكر : الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يده إلى السماء : ياربّ ياربّ ! ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام . فأنتى يستجاب لذلك ؟ . وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب (الزهد) لأبيه : أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلى أ كفاً قد سفكتم بها الدماء وملائم بها بيوتكم من الحرام . الآن حين اشتد غضبى عليكم ولنى تزدادوا منى إلا بعداً ! .

ثم قال ابن القيم رحمه الله : والدعاء من أنفع الأدوية . وهو عدوّ البلاء ، يدافعه ، ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه أو يخففه إذا نزل . وهو سلاح المؤمن . كما روى الحاكم فى

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

(صحيحه) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ! وله مع البلاء ثلاث مقامات : أحدها ، أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه . الثاني ، أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً . الثالث ، أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .. !

وقد روى الحاكم في (صحيحه) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغني حذر من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيمتلجان إلى يوم القيامة ! . وفيه أيضاً ، من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . فعليك ، عباد الله ، بالدعاء ! . وفيه أيضاً : من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يرد القدر إلا الدعاء . ولا يزيد في العمر إلا البر . وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه .. !

ثم قال ابن القيم رضي الله عنه : ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء . وقد روى ابن ماجه في (سننه)^(١) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يسأل الله يغضب عليه ! وفي (صحيح الحاكم) من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد . وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عمرو عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الملحين في الدعاء ! وفي كتاب (الزهد) للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مروق : ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة . فهو يدعو : يا رب يا رب ! لعل الله عز وجل أن ينجيهِ .. !

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٤ - كتاب الدعاء ، ١ - باب فضل الدعاء ، حديث ٣٨٢٧ (طبعنا) ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله ، سبحانه ، غضب عليه » .

ثم قال ابن القيم، نور الله ضريحه : ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه ، أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه . فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله ..! وفي البخاري^(١) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يستجاب لأحدكم ما لم يعجل . يقول : دعوت فلم يستجب لي ! . وفي صحيح مسلم^(٢) عنه : لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعْ يائماً أو قطيعة رحم ما لم يستعجل ! قيل : يا رسول الله ! ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لي . فيستحسر عند ذاك ويدع الدعاء . وفي (مسند أحمد)^(٣) من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يا رسول الله ! كيف يستعجل ؟ قال : يقول : قد دعوت لربي فلم يستجب لي .

ثم قال :

فصل

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجميعته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي : الثالث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم ، وصادف خشوعاً في القلب ، وانكساراً بين يدي

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٢٢ - باب يستجاب للعبد ما لم يعجل ، حديث ٢٣٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٢ (طبعنا) .

(٣) أخرجه أحمد في الجزء الثالث صفحة ١٩٣ (طبعة الحلبي) .

الرب ، وذلاً له وتضرعاً ورقة ، واستقبل الداعي القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة وتملّقه ودعاه رغبةً ورهبةً ، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدم بين يدي دعائه صدقة - فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . فمنها ما في السنن وفي (صحيح ابن حبان)^(١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ..! فقال : لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب ! وفي لفظ : لقد سألت الله باسمه الأعظم ! . وفي السنن^(٢) و(صحيح ابن حبان) أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلي ثم دعا : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المتان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى ! وأخرج الحديثين أحمد في (مسنده) . وفي (جامع الترمذی)^(٣) من حديث أسماء بنت يزيد : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اسم

(١) أخرجه أبو داود بهذا النص في : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث ١٤٩٣ .
وأخرجه الترمذی في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٦٣ - باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ .
وفيه : فقال « والذي نفسى بيده ! لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث ١٤٩٥ .

(٣) أخرجه الترمذی في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٦٤ - باب حدثنا قتيبة .

الله الأعظم في هاتين الآيتين « وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » [٢ / البقرة / ١٦٣] و فاتحة آل عمران « أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » ، قال الترمذی : هذا حديث حسن صحيح . وفي (مسند أحمد)^(١) و (صحيح الحاكم) من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أَلْظُؤَا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ . يعني : تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها . وفي (جامع الترمذی)^(٢) من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أُمِّه الأمر رفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الله العظيم . وإذا اجتهد في الدعاء قال : يا حي يا قيوم . . . وفيه أيضا من حديث أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : يا حي يا قيوم ! برحمتك أستغيث .

وفي (صحيح الحاكم)^(٣) من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقرة وآل عمران وطه .

قال القاسم : فالتمسها فإذا هي آية الحى القيوم . وفي (جامع الترمذی)^(٤) و (صحيح الحاكم) من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : دعوة ذى النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فإنه لم يدع بهارجل مسلم ، في شيء قط ، إلا استجاب الله له قال الترمذی : حديث صحيح . وفي (صحيح الحاكم) أيضا من حديث سعد عن النبي ﷺ : ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمرٌ مهمٌ فدعا به يفرج الله عنه : دعاء ذى النون . وفي (صحيحه) أيضا عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه في المسند في الجزء الرابع ، صفحة ١٧٧ (طبعة الحلبي) عن ربيعة بن عامر .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٣٩ - باب ماجاء ما يقول عند الكرب .

(٣) أخرجه الترمذی في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩١ - باب حدثنا محمد بن حاتم المكنى .

(٤) أخرجه الترمذی في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨١ - باب حدثنا محمد بن يحيى .

وهو يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس . فقال رجل : يا رسول الله ! هل كان ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ » ^(١) فأَيُّ مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك ، أُعطى أجر شهيد . وإن برأ ، برأ مغفوراً له ! وفي (الصحيحين) ^(٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العرش الكريم ! . وفي (مسند الإمام أحمد) ^(٣) من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : علّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بي كرب أن أقول : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله ربّ العرش العظيم ، والحمد لله ربّ العالمين . وفي (مسنده) أيضاً ^(٤) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال : اللهم ! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك . ناصيتي بيدك . ماضٍ فيّ حكمك . عدلٌ فيّ قضاؤك . أسألك اللهم بكلّ اسمٍ هو لك سمّيت به نفسك ، أو علّمته أحداً من خلقك . أو أنزلته في كتابك . أو استأثرت به في علم الغيب عندك . أن تجعل القرآن العظيم

(١) [٢١ / الأنبياء / ٨٨] .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٢٧ - باب الدعاء عند الكرب ،

حديث ٢٤٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٨٣ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في المسند في الجزء الأول ، صفحة ٩١ (طبعة الحلبيّ) وحديث رقم ٧٠١

(طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه في المسند في الجزء الأول ، صفحة ٣٩١ (طبعة الحلبيّ) وحديث رقم

٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

ربيع قلبي ، ونورَ بصرى ، وجلاءَ حزنى ، وذهابَ همى . ! إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً . فقيل : يا رسول الله ! ألا تتعلمها ؟ قال : بل ينبئني لمن سمعها أن يتعلمها .

وقال ابن مسعود : ما كرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح .

ثم قال ابن القيم : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجبت دعوته . فيظنّ الظان أن السرّ في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغى على الوجه الذي ينبغى فانتفع به . فظنّ غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرد كافي في حصول المطلوب كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا ، قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظنّ الجاهل أن السرّ للقبر . ولم يعلم أن السرّ للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك في

بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله ..!

ثم قال ابن القيم : والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه لا بحدّه فقط ! فحتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعداً قوياً ، والمانع مفقود ، حصلت به النكاية في العدو ..! ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة ، تخلف التأثير ..! فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثم مانع من الإجابة - لم يحصل التأثير ..!

ثم قال ابن القيم : وهنا سؤال مشهور وهو : أن الدّعويَ به إن كان قد قدر لم يكن بدّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع . وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله . فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت : لا فائدة فيه ! وهؤلاء - مع فرط جهلهم وضلالهم - يتناقضون . فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب .

فيقال لأحدهم إن كان الشمع والرى قد قدر لك فلا بد من وقوعهما. أكلت أو لم تأكل . وإن لم يقدر لم يقعا. أكلت أو لم تأكل . وإن كان الولد قدر لك، فلا بد منه ، وطأت الزوجة والأمة أو لم تطأها . وإن لم يقدر لم يكن. فلا حاجة إلى التزويج والتسرى. وهلم جراً ... فهل يقال : هذا عاقل أو آدمي ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته . فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ...!

وتكيس بعضهم . وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التبعّد المحض . يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ..! ولا فرق - عند هذا الكيس - بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق ..! وقالت طائفة أخرى أكيّس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمانة على قضاء الحاجة . ففتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له ، وأمانة على أن حاجته قد قضيت ..! وهذا كما إذا رأيت غيماً أسود بارداً في زمن الشتاء . فإنّ ذلك دليل وعلامة على أنه يعطر ..! قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لأنها أسباب له ..! وهكذا - عندهم - الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شيء من ذلك سبباً البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا بمجرّد الاقتران العادي لا التأثير السببي . وخالفوا ، بذلك ، الحسّ والعقل والشرع وسائر طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء ..! والصواب أن ههنا قسماً ثالثاً غير مذكور السائل ، وهو : إنّ هذا المقدور قدرّ بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجرداً عن سببه ولكن قدر بسببه ، فتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ،

وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق ، وهذا الذي حُرِّمَهُ السائل ولم يوفق له . وحينئذٍ ، بالدعاء ، من أقوى الأسباب . فإذا قدر وقوع الدعوى به بالدعاء ، لم يصح أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ؛ وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب ! ولما كان الصحابة رضی الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله وأفقههم في دينه ، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر رضي الله عنه يستنصر به على عدوه . وكان أعظم جنده ، وكان يقول للصحابة : لستم تُنصرون بكثرة وإنما تُنصرون من السماء ! وكان يقول : إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا أُلِّهت الدعاء فإن الإجابة معه ..!

فمن أُلِّه الدعاء فقد أريد به الإجابة ، فإن الله سبحانه يقول «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^(١) ، «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»^(٢) . وفي (سنن ابن ماجه)^(٣) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يسأل الله يغضب عليه . وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته ، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه ، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه ..! وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب (الزهد) أثراً : أنا الله لا إله إلا أنا ، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى . وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد ! وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه ، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ؛ وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٣٦ .

لكلّ شرّ... ! فما استجلبت نعمُ الله واستدفعت نعمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه ! وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول السرور في الدنيا والآخرة - في كتابه - على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب . وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع : فتارةً يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »^(١) ، وقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »^(٢) ، وقوله « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا »^(٣) وقوله « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... - إلى قوله - وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا »^(٤) . وهذا كثير جداً !..

وتارةً ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء : كقوله تعالى « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ »^(٥) وقوله « وَاللّٰوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٣) [٥ / المائدة / ٣٨] ونصها : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٥] ونصها : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٥) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الطَّرِيقَةَ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا» ^(١) وقوله « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » ^(٢) ونظائره ...

وتارة يأتي بـ (لام التعليل) : كقوله « لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ^(٣) وقوله « لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » ^(٤) .

وتارة يأتي بأداة (كي) التي للتعليل ، كقوله « كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » ^(٥) ...

وتارة يأتي بـ (باء السببية) كقوله تعالى « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ » ^(٦) وقوله « بِمَا

(١) [٧٢ / الجن / ١٦] .

(٢) [٩ / التوبة / ١١] .

(٣) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَمَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٦) [٣ / آل عمران / ١٨٢] ونصها : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^(١) و «بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ»^(٢) وقوله « ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا »^(٣) ...

ونارة يأتي به (المفعول لأجله) ظاهراً أو محذوفاً ، كقوله « فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى »^(٤) وكقوله تعالى « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ »^(٥) وقوله « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا »^(٦) أى كراهة أن تقولوا ...

(١) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٩] ونصها : وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٨] ونصها : ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا : إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّأْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٥٦] ونصها : أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

وتارة بـ (فناء السببية) ، كقوله « فَكَذَّبُوهُ فَقَرُّوْهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمُ بِذَنْبِهِمْ »^(١) وقوله « فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَآيَةً »^(٢) ، وقوله « فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ »^(٣) ونظائره ...

وتارة يأتي بأداة (لما) الدالة على الجزاء ، كقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »^(٤) ونظائره ...

وتارة يأتي بـ (إن) وماعملت فيه ، كقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ »^(٥) وقوله في ضد هؤلاء « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »^(٦) ...

وتارة يأتي بأداة (لولا) الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »^(٧) ...

وتارة يأتي بـ (لو) الدالة على الشرط ، كقوله « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »^(٨) ...

- (١) [٩١/الشمس/١٤] ونصها : فَكَذَّبُوهُ فَقَرُّوْهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمُ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا .
- (٢) [٦٩/الحاقة/١٠] .
- (٣) [٢٣/المؤمنون/٤٨] .
- (٤) [٤٣/الزخرف/٥٥] .
- (٥) [٢١/الأنبياء/٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .
- (٦) [٢١/الأنبياء/٧٧] ونصها : وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .
- (٧) [٣٧/الصافات/١١٣و١١٤] .
- (٨) [٤/النساء/٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ =

وبالجملة : فالقرآن - من أوله إلى آخره - صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال . ومن تفقّه في هذه المسألة ، وتأملها حقّ التأمل ، انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ؛ فيكون توكله عجزاً ، وعجزه توكلًا ..! بل الفقيه - كلّ الفقيه - الذي يرّد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر . لا يمكن للإنسان أن يعيش إلّا بذلك ..! فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر . واخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر ..! وهكذا من وفقّه الله وألهمه رشده يدفع قدرّ العقوبة الأخروية بقدرّ التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ..! فهذا وزن القدر المخوف في الدنيا وما يضاعده ، قرب الدارين واحدٌ ، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضاً . ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حقّ رعايتها ..! والله المستعان .

ولكن يبقى عليه أمران بهما تتمّ سعادته وفلاحه :
أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشرّ والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهدته في العالم ، وما جرّبه في نفسه وغيره ، وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً .
ومن أنفع ما في ذلك : تدبّر القرآن ، فإنّه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشرّ جميعاً مفصّلة مبينة ؛ ثمّ السنة فإنّها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرها ، وما يربّانك الخير والشرّ وأسبابهما ، حتى كأنك تعان ذلك عياناً ..! وبعد ذلك ، فإذا تأملت أخبار الأمم ، وأيام الله في أهل طاعته وأهل

= أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا .

معصيته ، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به . وعلمت من آياته في الآفاق ما يدل على أن القرآن حقٌ ، وأن الرسول حقٌ ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ..! فالتاريخ تفصيلٌ لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر ..! انتهى .

وقوله تعالى « فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي » أى : إذا دعوتهم للإيمان والطاعة . كما جيبهم إذا دعونى لمهامهم « وَلْيُؤْمِنُوا بِي » أمر بالثبات على ما هم عليه « لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » أى : راجين إصابة الرشd وهو الحق .

تنبيهان

الأول : قال الراغب : أوثر (فليستجيبوا) على (فليجيبوا) للطفية وهى : أن حقيقة الاستجابة طلب الإجابة وإن كان قد يستعمل فى معنى الإجابة . فبين أن العباد متى تحروا إجابته بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم . إن قيل : كيف جمع بين الاستجابة والإيمان ، وأحدهما يغنى عن الآخر ، فإنه لا يكون مستجيباً لله من لا يكون مؤمناً ؟ قلنا : استجابته ارتسام أوامره ونواهيه التى تتولاه الجوارح ، والإيمان هو الذى تقتضيه القلوب . وأيضاً فإن الإيمان المعنى ههنا هو الإيمان المذكور فى قوله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ... » (١) الآية ! » .

الثانى : قدمنا عن الراغب سرّ وصل هذه الآية بما قبلها ووجه التناسب ؛ وثمّت سرّ آخر قاله الحافظ ابن كثير . وعبارته :

وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء ، متخللةً بين أحكام الصيام ، إرشادٌ إلى الاجتهاد

(١) [٨ / الأنفال / ٢] ونصها : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر . كما روى أبو داود الطيالسي في «مسنده»^(١) عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة ! . فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجه^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد . . ! وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .. ! وروى الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه^(٣) : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغلام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

(١) حديث رقم ٢٢٦٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٧ - كتاب الصيام ، ٤٨ - باب الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٧ - كتاب الصيام ، ٤٨ - باب في الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٢ (طبعتنا) .

وقوله تعالى :

« أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » إرشاد إلى ما شرعه في الصوم - بعد بيان إيجابه على من وجب عليه ، وحاله معه حضراً أو سفراً ، وعدته - من إحلال غشيان الزوج ليلاً . وكأن الصحابة تخرجوا عن ذلك ظناً أنه من تنمة الصوم ، ورأوا أن لا صبرَ لأنفسهم عنه ، فبين لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه .

وقد روى البخاري^(١) عن البراء رضى الله عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأمر الله : عليم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم .

إيداناً بأنه أحله ولم يحرّمه ، إذ لم يشرع من فضله ما فيه إعنات وحرج .

و (الرفث) أصله قول الفحش . وكفى به هنا عن الجماع وما يتبعه . كما كفى عنه في قوله « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا »^(٢) وقوله « فَأَتُوا حَرَثَكُمْ »^(٣) . فالله تعالى كريم يكتفى ، وإيثار الكناية عنه - هنا - بلفظ الرفث الدال على معنى القبح - عدا بقية الآيات - استهجاناً لما

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٧ - باب
أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسُكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسُ هُنَّ عِلْمَ
اللَّهِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ
مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ؛ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ
دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٣] ونصها : نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى
شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختياناً لأنفسهم . والكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه من سنن العرب . وللثعالبي في آخر كتابه (فقه اللغة) فصل في ذلك بديع .

ثم إن المستعمل الشائع : رفث بالمرأة - بالبلاء - وإنما عدى هنا بـ (إلى) لتضمنه معنى الإفضاء ، كما في قوله « وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ »^(١).

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه ستراً لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء ، كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السوء . وعلى ذلك كنى عن المرأة بالإزار ، وسمى النكاح حصناً لكونه حصناً لذويه عن تعاطي القبيح .

وهذا أطف من قول بعضهم : شبه كل واحد من الزوجين - لاشتماله على صاحبه في العناق والضم - باللباس المشتمل على لابس ، وفيه قال الجعدي^(٢) :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها . شئت فكانت عليه لباساً
وقال الزمخشري : فإن قلت : ما موقع قوله « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ؟ قلت : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة ، قل صبركم عنهن ، وصعب عليكم اجتنبهن ؛ فلذلك رخص لكم في مباشرتهن . « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ » استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب وهو (اختيان النفس) ، أي : قلة تصبيرها من نزوعها إلى رغبتها . ومنه : خانتَهُ رجلاه إذا لم يقدر على المشي . أي : علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم لو لم يحلّ لكم ذلك

(١) [٤ / النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

(٢) قاهله النابغة الجعدي . قال في اللسان : لبست امرأة أي تمتعت بها زمناً . ولبست قوماً أي تمليت بهم دهما . والعرب تسمى المرأة لباساً وإزاراً .

فأحلّه رحمةً بكم ولطفًا . وفي (الاختيان) وجه آخر وهو : أنه عني به مخالفة الحقّ بنقض العهد ، أى : كنتم تظلمونها بذلك - بتعريضها للعقاب - لو لم يحلّ ذلك لكم . قالوا : والاختيان أبلغ من الخيانة - كالاكتساب من الكسب - ففيه زيادةٌ وشدةٌ .

ثمّ أشار تعالى إلى لطفه بالمؤمنين بتخفيفه ما كان يغلّهم ويثقلهم ويخونهم لولا رحمته ، بقوله : « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى : عاد بفضله وتيسيره عليكم برفع الحرج في الرث ليلًا « وَعَفَا عَنْكُمْ » أى : جاوز عنكم تحريمه ، ذ (العفو) بمعنى التوسعة والتخفيف . « فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ » قال أبو البقاء : حقيقة (الآن) الوقت الذى أنت فيه ؛ وقد يقع على الماضى القريب منك ، وعلى المستقبل القريب وقوعه . تنزيلاً للقريب منزلة الحاضر وهو المراد - هنا - لأنّ قوله « فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ » أى : فالوقت الذى كان يحرم عليكم الجماع فيه من الليل قد أبجناه لكم فيه ؛ فعلى هذا (الآن) ظرف (باشروهن) . وقيل : الكلام محمول على المعنى ، والتقدير : فالآن قد أبجنا لكم أن تباشروهن . ودلّ على المحذوف لفظ الأمر الذى يراد به الإباحة . فعلى هذا ، (الآن) على حقيقته .

وأصل (المباشرة) إلصاق البشرة بالبشرة . كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها « وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » تأكيد لما قبله ، أى : ابتغوا هذه الرخصة التى أحلّها لكم . و (كتب) هنا ، إمّا بمعنى جعل كقوله « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »^(١)

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : جعل ، وقوله « فَآكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » ^(١) « فَسَأَكُتُبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ^(٢) .
 أى : أجمعها . أو بمعنى قضى ، كقوله « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » ^(٣) أى :
 قضاء ، وقوله « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » ^(٤) وقوله « لَبَّرَ
 الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » ^(٥) أى : قضى .

قال الراغب : فى الآية إشارة فى تحرّى النكاح إلى لطيفة . وهى : أن الله تعالى جعل لنا
 شهوة النكاح لبقاء نوع الإنسان إلى غاية ! كما جعل لنا شهوة الطعام لبقاء أشخاصنا إلى غاية !
 فحق الإنسان أن يتحرّى بالنكاح ما جعل الله له على حسب ما يقتضيه العقل والديانة . ففى
 تحرّى به حفظ النفس وحسن النفس على الوجه المشروع ، فقد ابتغى ما كتب الله له .
 وإلى هذا أشار من قال : عنى الولد .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٣] ونصها : رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ
 فَآكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَآكُتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَىكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ،
 فَسَأَكُتُبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٩ / التوبة / ٥١] ونصها : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ،
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٤) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٥٤] ونصها : ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا
 يَفْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ،
 يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
 مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
 صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » أباح تعالى الأكل والشرب - مع ما تقدم من إباحة الجماع - في أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل . وشبهًا بخيطين : أبيض وأسود ، لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل ، كالخيط الممدود . قال أبو دؤاد الإيادى^(١) :

فلما أضاءت لنا سدفَةٌ ولاح من الصبح خيطٌ أنا را ..!

وقوله « مِنَ الْفَجْرِ » بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لأن بيان أحدهما بيان للثاني . وقد رفع بهذا البيان الالتباس الذى وقع أول أمر الصيام . كما روى الشيخان^(٢) وغيرها عن سهل بن سعد قال : أنزلت « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ » ولم ينزل « مِنَ الْفَجْرِ »

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير الطبرى ، بالصفحة رقم ٥٢٩ من الجزء الثالث ، ما نصه :

يصف فرساً . والسدفة ظلمة الليل فى لغة نجد ، والضوء فى لغة قيس . وهى أيضاً اختلاط الضوء والظلمة جميعاً ، كوقت ما بين صلاة الفجر إلى أول الإسفار . وأراد أبو دؤاد اختلاط الظلمة والضوء . ولاح : بدا وظهر من بعيد . والخيط : اللون هنا يكون ممتداً كالخيط .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٨ - باب قوله : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ - إلى قوله - : تَتَّقُونَ ، حديث ٩٧٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٣٥ (طبعنا) .

وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده « مِنَ الْفَجْرِ » فعملوا إنما يعني الليل والنهار. ورويا أيضاً^(١) - واللفظ لمسلم - عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » قال له عدى : يا رسول الله ! إنني أجعل تحت وسادتي عقالين : عقالاً أبيض وعقالاً أسود ، أعرف الليل من النهار . فقال رسول الله ﷺ : إن وسادك لعريض . إنما هو سواد الليل وبياض النهار !..

قال ابن كثير : ومعنى قوله : إن وسادك لعريض أى : إن كان يسع تحته الخيطين المرادين من هذه الآية ؛ فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب !.. وجاء في بعض هذه الألفاظ : إنك لعريض القفا . ففسره بعضهم بالبلادة - وهو ضعيف - بل يرجع إلى هذا ؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريضاً ، والله أعلم . انتهى .

وفي الإتيان بلفظ التفعّل في قوله تعالى « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ... » إشعار بأنه لا يكفي إلاّ التبين الواضح لا تباشير الضوء . وقد روى مسلم^(٢) عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يفرّنكم من سحوركم أذان بلال ولا يياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا . وحكاه حماد يديه ، قال : يعني معترضاً . وفي لفظ آخر عنه : لا يفرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال : - حتى ينفجر الفجر . وروى الإمام أحمد^(٣) عن قيس بن طلق عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال ليس الفجر المستطيل

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٨ - باب قوله :

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ... الخ ، حديث ٩٧٤ .

وأخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٣٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٤١-٤٣ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في السند بالجزء الرابع ، صفحة ٢٣ (طبعة الحلبي) .

^١ في الأفق. ولكنه المعارض الأحمر. ورواه الترمذى^(١) بلفظ : كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد ، وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر . قال : وفي الباب عن عدى بن حاتم وأبي ذرٍّ وسمرة . ثم قال : حديث طلق بن عليٍّ حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه ، والعمل على هذا - عند أهل العلم - أنه لا يحرم على الصائم الأكل والشرب حتى يكون الفجر الأحمر المعارض ، وبه يقول أهل العلم . انتهى .

قال بعضهم: المراد بالأحمر الأبيض ، كما فسّر به حديث^(٢) «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال شمر : سماه الأبيض أحمرَ تطيرًا بالأبرص ، حكاه عن أبي عمرو بن العلاء . ويظهر أنه لا حاجة إلى هذا ، فإن طلوع الفجر يصحبه حمرة . وفي (القاموس) الفجر ضوء الصباح ، وهو حمرة الشمس في سواد الليل . فافهم .

وقال الحافظ عبد الرزاق في (مصنّفه) : أخبرنا ابن جريج عن عطاء : سمعت ابن عباس يقول : هما فجران ، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحلّ ولا يحرم شيئاً ، ولكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب! . وقال عطاء : فأما إذا سطع سطوعاً في السماء - وسطوعه أن يذهب في السماء طويلاً - فإنه لا يحرم به شرابٌ للصائم ، ولا صلاةٌ ، ولا يفوت به الحجّ . ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام ، وفات الحجّ . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء . وهكذا روى عن غير واحدٍ من السلف . رحمهم الله .. انتهى .

(١) أخرجه الترمذى في : ٦ - كتاب الصوم ، ١٥ - باب ما جاء في بيان الفجر .

(٢) أخرجه الدارمى في : ١٧ - كتاب السير ، ٢٨ - باب الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا .

ونصه : عن أبي ذرٍّ أن النبي ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن نبيّ قبلى : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحللت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، ونصرت بالرعب شهراً ، يرعب منى العدو مسيرة شهر ، وقيل لى : سل تُعطه ، فاختبأت دعوتى شفاعة لأمتى ، وهى نائلة منكم ، إن شاء الله تعالى ، من لا يشرك بالله شيئاً .

« ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَّامَ » أى : صوم كل يوم « إِلَى اللَّيْلِ » أى : إلى ظهور الظلمة من قبل المشرق وذلك بغروب الشمس . وكلمة (إلى) تفيد أن الإفطار عند غروب الشمس . كما جاء فى (الصحيحين)^(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم . قال ابن القيم : أى أفطر حكماً وإن لم ينوه . أو دخل فى وقت فطره ، كما فى : أصبح وأمسى .

وقد كان ﷺ يجعل الفطر ويحضّ عليه ، كما فى (الصحيحين)^(٢) : لا يزال الناس بخير ما عجّلوا الفطر . وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : يقول الله عزّ وجلّ : إنّ أحبّ عبادى إلىّ أعجلهم فطرا . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب . وعن أنس بن مالك^(٤) قال : كان رسول الله ﷺ يفطر ، قبل أن يصلى ، على رطبات ، فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء . رواه الترمذى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤٣ - باب متى يحلّ فطر الصائم . ومسلم فى : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٥١ (طبعنا) ونصه : إذا أقبل الليل ، وأدبر النهار ، وغابت الشمس ، فقد أفطر الصائم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤٥ - باب تعجيل الإفطار ، عن سهل بن سعد .

ومسلم فى : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٤٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ٢٣٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) . والترمذى فى : ٦ - كتاب الصيام ، ١٣ - باب ما جاء فى تعجيل الإفطار .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ٦ - كتاب الصيام ، ١٠ - باب ما جاء فى ما يستحب عليه

الإفطار .

وقال : حسن غريب . وروى الإمام أحمد^(١) عن ليلي ، امرأة بشير بن الحصاصية ، قالت : أردت أن أصوم يومين مواصلةً فنعني بشير وقال : إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال : يفعل ذلك النصارى ، ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام إلى الليل ، فإذا كان الليل فافطروا .

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة ، النهى عن الوصال . وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً . ففي (الصحيحين)^(٢) عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : لا تواصلوا ..! قالوا : إنك تواصل ، قال : لست كأحدٍ منكم ، إني أطعم وأسقى - أو - إني أبيت أطعم وأسقى . قال الترمذي : وفي الباب عن عليّ ، وأبي هريرة ، وعائشة ، وابن عمر ، وجابر ، وأبي سعيد ، وبشير بن الحصاصية . أي : فالنهي عنه قد ثبت من غير وجه . نعم ! من أحب أن يواصل إلى السحر فله ذلك ، كما في حديث^(٣) أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تواصلوا . فأياكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده صفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤٨ - باب الوصال .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٦٠ (طبعتنا) ونصه : عن أنس قال : وأصل رسول الله ﷺ في أول شهر رمضان . فواصل ناس من المسلمين . فبلغه ذلك . فقال « لو مُدَّ الشهر لواصلنا وصالا . يدع المتعمقون تعمقهم . إنكم لستم مثلي . (أو قال : إني لست مثلكم) إني أظل يطعمني ربي ويسقيني .

(٣) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤٨ - باب الوصال ونصه : إنه سمع

النبي ﷺ يقول « لا تواصلوا . فأياكم إذا أراد أن يواصل ، فليواصل حتى السحر » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال « إني لست كهيئتكم . إني أبيت لي مُطعم يطعمني وساق يسقين » .

قالوا : فإنّك تواصل يا رسول الله . قال : لست كهيتكم . إنّى أبيت لى مُطعم يطعمنى وساقٍ يسقبنى . أخرجاه فى (الصحيحين) . والمراد بهذا الطعام والشراب ، ما يغذيه الله به من المعارف ، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته ، وقرّة عينه بقربه ، وتنعمه بحبه ، والشوق إليه ؛ وتوابع ذلك من الأحوال التى هى غذاء القلب ، ونعيم الأرواح ، وقرّة العين ، وبهجة النفوس والروح والقلب . بما هو أعظم غذاءً ، وأجوده ، وأنفعه . وقد يقوى هذا الغذاء حتى يغنى عن غذاء الأجسام مدّة من الزمان .

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثيرٍ من الغذاء الحيوانى . ولا سيما السرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذى قد قرّت عينه بمحبوبه . وتنعم بقربه والرضا عنه . وألطفُ محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليه كلّ وقت . ومحبوبه حتىّ به ، معترّزٌ بأمره ، مكرمه غاية الإكرام مع المحبة التامة له . أفليس فى هذا أعظم غذاء لهذا المحبّ؟ فكيف بالحبيب الذى لا شىء أجلّ منه ، ولا أعظم ، ولا أجلّ ، ولا أكل ، ولا أعظم إحساناً ، إذا امتلأ قلب المحبّ بحبه ، وملك حبه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكّن حبه منه أعظم تمكّن؟ وهذا حاله مع حبيبه . أفليس هذا المحبّ عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً؟ ولهذا قال : إنّى أظللّ عند ربى يطعمنى ويسقبنى . ولو كان ذلك طعاماً وشراباً للفم - كما قيل - لما كان صائماً . فضلاً عن كونه مواصلاً . كذا فى (زاد المعاد) .

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف ، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة . وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم . لأنهم كانوا يفعلونه عبادةً . والله أعلم .

قال ابن كثير : ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشادى من باب الشفقة . كما جاء فى حديث عائشة^(١) : رحمةٌ لهم . فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشّمون ذلك ويفعلونه . لأنهم كانوا يجدون قوّةً عليه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤٨ - باب الوصال ، عن عائشة =

« وَلَا تَبَاسِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ » قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غيره . فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضى اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد : أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية . قال ابن أبي حاتم : روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، والربيع بن أنس ، ومقاتل قالوا : لا يقربها وهو معتكف .

قال ابن كثير : وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء : أن المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفاً في مسجده . ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها ، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك - من قضاء الغائط أو الأكل - وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولا أن يشتغل بشيء سوى اعتكافه .

ثم قال ابن كثير : المراد بالمباشرة ، الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك . فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به . فقد ثبت في (الصحيحين)^(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يذني إلى رأسه فأرجله وأنا حائض . وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان . وفي (الصحيحين)^(٢) أيضاً : أن صفية أم المؤمنين كانت تزور

= قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال ، رحمة لهم . فقالوا : إنك تواصل ؟ قال « إني لست كهيتنتكم . إني يطعمني ربي ويسقين » .

وأخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٣ - باب لا يدخل البيت إلا لحاجة .

ومسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ٩٠٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ - باب هل يخرج المعتكف =

النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد . فتحدثت عنده ساعة ثم ترجع إلى منزلها . فيقوم النبي ﷺ ليمشى معها حتى يبلغها دارها ، وذلك في الليل .

تنبيهات

الأول : قال الراغب : ظاهر ذكر المساجد يقتضي جواز الاعتكاف في كل مسجد .
الثاني : في ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبية على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام . كما ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ ^(١) أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . ثم إن حقيقة الاعتكاف هو المكث في بيت الله تقريباً إليه . وهو من الشرائع القديمة .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في هديه ﷺ في الاعتكاف : لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً وعلى جمعيته على الله . ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى . فإن شعث القلب لا يله إلا الإقبال على الله تعالى . وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ، مما يزيده شعثاً ، ويشتته في كل واحد . ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أضعفه ، أو يعوقه ويوقفه . اقتضت رحمة العزيز الرحيم لعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى . وشرعه بقدر

= لحوائجه إلى باب المسجد .

ومسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ٢٤٠٢٤ (طبعنا) .

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ١ - باب الاعتكاف في العشر الأواخر ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٤ - كتاب الاعتكاف ، حديث ٤٠٤٣ (طبعنا) .

المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه . ولا يضرّه . ولا يقطع من مصالحه العاجلة والآجلة . وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والاقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه . بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محلّ هموم القلب وخطراته . فيستولى عليه بدلها ، ويصير الهمّ به كلّ ، والخطرات كلّها بذكره . والفكرة في تحصيل مرضيه وما يقرب منه . فيكون أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق . فيعدّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه . فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم . ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان . ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطراً فقط . بل قد قالت عائشة : لا اعتكاف إلا بصوم . ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم . ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم . فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف ، أن الصوم شرط في الاعتكاف . وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية . وأمّا الكلام ، فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة . وأمّا فضول المنام ، فإنه شرع لهم من قيام الليل ما هو أفضل من السهر وأحمد عاقبة . وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن ، ولا يعوق عن مصلحة العبد . ومدارُ أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة . وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبويّ المحمديّ . ولم ينحرف انحراف الغالين ولا قصر تقصير المفرطين . ثم قال :

كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ . وتركه مرةً ففضاه في شوال . واعتكف مرةً - في العشر الأول ، ثم الأوسط ، ثم العشر الأخير - يلتمس ليلة القدر ، ثمّ تبين له أنها في العشر الأخير ، فداوم على اعتكافه حتى

لحق بربه عزّ وجلّ . وكان يأمر بنجاء^(١) فيضرب له في المسجد يخالوفيه برّبه عزوجلّ . وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله . فأمر به مرّة فضرب . فأمر أزواجه بأخيتهنّ فضربت . فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية . فأمر بنجائه فقوّض . وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال . وكان يعتكف كلّ سنة عشرة أيام . فلما كان في العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً . وكان يعارضه جبريل^(٢) بالقرآن كلّ سنة مرّة . فلما كان ذلك العام عارضه به مرّتين . ولم يباشر امرأة من نسائه - وهو معتكف - لا بقبلة ولا بغيرها . وكان - إذا اعتكف - طرح له فراشه ، ووضع له سريره في معتكفه . وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض ، وهو على طريقه ، فلا يرجع له إلّا سأل عنه . واعتكف مرّة في قبة تركية ، وجعل على سدّتها حصيراً . كلّ هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه .

« تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا » يعني : تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع . وشبه تلك الأحكام بالحدود الحاضرة بين الأشياء لكونها حاضرة بين الحق والباطل . فإن من عمل بها كان في حيز الحق ، ومن خالفها وقع في الباطل . ونهى عن قربها كيلا يدانى الباطل فضلاً أن يتخطى إليه . فالنهي عن مكان القرب من الحدود التي هي الأحكام ، كناية عن النهي عن قرب الباطل . لكون الأول لازماً للثاني . وبذلك يحصل الجمع بين هذه الآية وآية « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٧ - باب الأخبية في المسجد .

ومسلم في : ١٤ - كتاب الاعتكاف ، حديث ٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٧ - باب كان جبريل يعرض

القرآن على النبي ﷺ ، عن أبي هريرة .

فَلَا تَعْتَدُوهَا» ^(١) ويندفع التناقض . وقوله « فَلَا تَقْرَبُوهَا » أبلغ من « لَا تَعْتَدُوهَا » لأنه نهى عن قرب الباطل بطريق الكناية التي هي أبلغ من التصريح . وذلك نهى عن الوقوع في الباطل بطريق التصريح « كَذَلِكَ يبينُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ » أى : كما بين ما أمركم به ونهاكم عنه - في هذا الموضع - يبين للناس ما شرعه لهم على لسان نبيه ﷺ « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » المحارم فيعرفون كيف يطيعون ويهتدون . كما قال تعالى « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » ^(٢) .

قال الرازى : والغرض من قوله تعالى « كَذَلِكَ ... الخ » تعظيم حال البيان ، وتعظيم رحمته على الخلق في ذكره مثل هذا البيان .
وفيه أيضاً تقريرٌ للأحكام السابقة ، والترغيب إلى امتثالها بأنها شرعت لأجل التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ » قال ابن جرير : يعنى تعالى ذكره بذلك : ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل . فجعل بذلك آكل مال أخيه بالباطل

(١) (٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَبِأَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُم أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٩] .

كلّ مال نفسه بالباطل ، ونظير ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » ^(١) . وقوله « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » ^(٢) بمعنى : لا يلزم بعضكم بعضاً ولا يقتل بعضكم بعضاً . لأنه تعالى جعل المؤمنين إخوة . وكذلك تفعل العرب . تكنى عن أنفسها بأخواتها ، وعن أخواتها بأنفسها لأن أخت الرجل عندها كنفسه ؛ فتأويل الكلام : ولا يأكل بعضكم أموال بعض فيما بينكم بالباطل ، وأكله بالباطل أكله من غير الوجه الذي أباحه الله لا كليته . اهـ .

و (بينكم) : إما ظرف لـ (تأكلوا) بمعنى : لا تتناولوها فيما بينكم بالأكل ، أو حال من (الأموال) أى : لا تأكلوها كائنة بينكم ودائرة بينكم . و (بالباطل) فى موضع نصب ؛ (تأكلوا) أى : لا تأخذوها بالسبب الباطل - أى الوجه الذى لم يبيحه الله تعالى - ويجوز أن يكون حالاً من (الأموال) أى : لا تأكلوها متلبسة بالباطل . أو من الفاعل فى (تأكلوا) أى : لا تأكلوها مبطلين أى متلبسين بالباطل « وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ » أى : تخاصموا بها - أى : بأموالهم - إلى الحكام ؛ مجزوم عطفاً على النهى ، ويؤيده قراءة أبى « وَلَا تَدُلُّوا » بإعادة (لا الناهية) والإدلاء : مأخوذ من إدلاء الدلو وهو إرسالها فى البئر للاستقاء ثم استعير لكل إلقاء قول أو فعل توصلاً إلى شىء ؛ ومنه يقال للمحتج :

(١) [٤٩ / الحجرات / ١١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بَشَرِ الْأَسْمِ الْمُسْوَقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

أدلى بحجته . كأنه يرسلها ليصير إلى مراده ، كإدلاء المستقى الدلو ليصل إلى مطلوبه من الماء . وفلان يدلى إلى الميت بقراءة أو رحم ، إذا كان منتسباً إليه . فيطلب الميراث بتلك النسبة . (الباء) صلة الإدلاء تجوزاً به عن الإلقاء كما ذكرنا . والمعنى : لاتلقوا أمرها - والحكومة فيها - إلى الحكام . أولاً تلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة ليعينوك على اقتطاع أموال الناس . وقد لمن رسول الله ﷺ الراشئ والمرثئ والرائش - وهو الواسطة الذي يمشى بينهما - رواه أهل السنن . وذلك لأن ولى الأمر إذا أكل هذا السحت - أعنى الرشوة المسماة بالبرطيل ، وتسمى أحياناً بالهدية وغيرها - احتاج أن يسمع الكذب من الشهادة الزور وغيرها مما فيه إغانة على الإثم والعدوان ؛ وولى الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، هذا مقصود الولاية . وإذا كان الوالى يمتن من المنكر بما يأخذه كان قد أتى بضد المقصود ، مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك . وبمنزلة من أخذ مالاً ليجاهد به في سبيل الله فقاتل المسلمين . و (الحكام) : جمع حاكم وهو منفذ الحكم بين الناس كالحكم ، محرّكة . « لَتَأْكُلُوا » - أى : بواسطة حكمهم الفاسد ، وبالتحاكم إليهم - « فَرِيقًا » - أى : طائفة وقطعة - « مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ » بما يوجب إثمًا - كشهادة الزور واليمين الفاجرة وحكمهم الفاسد - فإنه لا يفيد الحل والظلم . (الباء) للسببية . متعلقها (لتأكلوا) . وجوز كونها للمصاحبة . فالمجرور حال من فاعل (لتأكلوا) أى : متلبسين بالإثم « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : أنكم على الباطل . وارتكاب المعصية - مع العلم بقبحها - أقبح ، وصاحبه أحق بالتوبيخ ، فالتقيد لكمال تقبيح حالهم . قال الراغب : أى : إن خفى ظلمكم على الناس فإنه لا يخفى عليكم ، تنبيهاً على أن الاعتبار بما عليه الأمر في نفسه ، وما علمتم منه لا بما يظهر .

(١) أخرجه الترمذى في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٩ - باب ما جاء في الراشئ والمرثئ . في الحكم ، عن أبى هريرة . وقال الترمذى : حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح .

وقال ابن كثير في (تفسيره) : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذه الآية في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيّنة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكم . وهو يعرف أنّ الحقّ عليه . وهو يعلم أنّه آثم آكل الحرام . وكذا روى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسديّ ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد في (الصحيحين)^(١) عن أم سلمة : أنّ رسول الله ﷺ قال : ألا إنما أنا بشر . وإنما يأتيني الخصم . فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له . فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هي قطعة من نار . فليحملها أو ليذرها . فدلّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أنّ حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر . فلا يُحِلّ في نفس الأمر حراماً هو حلال ، ولا يحرم باطلاً هو حلال . وإنما هو ملزم في الظاهر . فإن طابق في نفس الأمر فذاك . وإلا فللحاكم أجره . وعلى المحتال وزره . ولهذا قال تعالى في آخر الآية « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أي : تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم . قال قتادة : اعلم يا بُنَيَّ آدم ..! أنّ قضاء القاضي لا يحلّ لك حراماً ، ولا يحقّ لك باطلاً . وإنما يقضى القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضي بشرٌ يخطئ ويصيب . واعلموا أنّ من قضى له بباطلٍ أنّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة . فيقضى على المبطل للمحقّ بأجود مما قضى به للمبطل على الحق في الدنيا .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، ١٦ - باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه . ونصه : عن أم سلمة رضي الله عنها ، زوج النبي ﷺ ، عن رسول الله ﷺ أنّه سمع خصومة بين حبرته ، فخرج إليهم فقال « إنما أنا بشر . وإنه يأتيني الخصم . فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدّق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها » . وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث ٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ » أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله ! لِمَ خلقت الأهلّة ؟ فنزلت . وروى أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال : نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم . قال : يا رسول الله ! ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدقّ حتى يعود كما كان ، لا يكون على حالٍ واحد ؟ فنزلت .

ومعنى كونها « مَوَاقِيتُ النَّاسِ » معالم لهم في حلّ دينهم ، ولصومهم ، ولفطرمهم ، وأوقات حجهم ، وأجائرهم ، وأوقات الحيض وعدّ نساءهم ، والشروط التي إلى أجل . فكلّ هذا مما لايسهل ضبط أوقاتها إلّا عند وقوع الاختلاف في شكل القمر زيادةً ونقصاً . ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دأمة على حالة واحدة .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنّ الأحكام الشرعية - كالزكاة والعِدّة للنساء والحمل - تتعلق بشهور الأهلّة لا بشهور الفرس . أمّا ما تعلّق بالعقود والأفعال المتعلقة بفعل بني آدم فيتبع فيه العرف من حسابهم . بالأهلّة أو بشهور الفرس . فهذا حكم ، وذاك حكم آخر . وقد ذكر تعالى هذا المعنى في آيات . كقوله سبحانه : وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ ^(١) . وقوله : فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا

(١) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ^(١) . أى : من غير افتقارٍ إلى مراجعة المنجم وحساب الحاسب، رحمةً منه تعالى وفضلاً . وإفراد «الحج» بالذكر هنا تنويهاً بشأنه . وقال القفال : نكتة إفراده بيان أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها الله تعالى لفرضه ، وأنه لا يجوز نقل الحج من تلك الأشهر إلى أشهر ، كما كانت العرب تفعل ذلك في النسيء . والله أعلم .

والجمهور على فتح حاء (الحج) ؛ والحسن على كسرها في جميع القرآن . قال سيبويه : هما مصدران كالردّ والذكر ؛ وقيل : بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . و (الأهلة) جمع هلال . وجمعه باختلاف زمانه . وهو : غرة القمر إلى ثلاث ليالٍ أوسبع ، ثم يسمّى قرأً ، وليلة البدر لأربع عشرة .

قال أبو العباس : سمي الهلال هلالاً لأنّ الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه ، وسمى بدرًا لمبادرته الشمس بالطولع كأنّه يجعلها المغيّب . ويقال : سمي بدرًا لتامه وامتلأه . وكلّ شيء تمّ فهو بدر .

تنبيه :

الجواب على الرواية الثانية في سبب نزول الآية من الأسلوب الحكيم . وهو تلقى السائل بغير ما يتطلب - بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً للسائل على أن ذلك الغير هو الأولى بحاله أو المهم له . فلما سألوا عن السبب الفاعل للتشكلات النورية في الهلال ، أجبوا بما ترى من السبب الفاعل . تنبيهاً على أن السؤال عن الغاية والفائدة هو أليق بحالهم . لأنّ درك الأسباب الفاعلية لتلك التشكلات مبنى على أمور من علم الهيئة لا عناية للشرع بها . فلو

(١) [١٧ / الإسرائ / ١٢] ونصها : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا .

أجيبوا : بأنّ اختلاف تشكلات الهلال . بقدر محاذاته للشمس ، فإذا حاذها طرف منه استنار ذلك الطرف . ثمّ تزداد المحاذاة والاستنارة حتى إذا تمت بالمقابلة امتلاً . ثمّ تنقص المحاذاة والاستنارة حتى إذا حصل الاجتماع أظلم بالكلية - لكان هذا الجواب اشتغلاً بعلم الهيئة الذى لا ينتفع به فى الدين ، ولا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم . والنبيّ ﷺ إنما بعث لبيان ذلك . وقد روى أنّ النبيّ ﷺ قال : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس باباً من السحر . زادما زاد . أخرجه الإمام أحمد^(١) وأبوداود^(٢) وابن ماجه^(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال علىّ رضى الله عنه : من طلب علم النجوم تكهن . وهو من العلم الذى قال فيه رسول الله ﷺ : علم لا ينفع ، وجهل لا يضر . ! والمقصود أنّ الجواب ، على الرواية الثانية ، من الأسلوب الحكيم . إشعاراً بأنّ الأوّل السؤال عن الحكمة فيه .

قال السكاكىّ فى (الفتاح) : ولهذا النوع - أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر - أساليب متفنّنة ، إذ مامن مقتضى كلام ظاهريّ إلاّ ولهذا النوع مدخل فيه بجمه من جهات البلاغة . ترشد إليه تارةً بالتصريح ، وتارةً بالفحوى . ولكلّ من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كما قال :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى : صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) وحديث رقم ٢٠٠٠ (طبعة المعارف) . ونصه : ما اقتبس رجل علماً من النجوم إلاّ اقتبس بها شعبة من السحر . ما زاد زاد .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٢٧ - كتاب الطب ، ٢٢ - باب فى النجوم ونصه : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٣ - كتاب الأدب ، ٢٨ - باب تعلّم النجوم ، حديث ٣٧٢٦ (طبعتنا) .

أنت تشكى عندى مزاوله القرى ، وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
 فقلت ، كأنى ما سمعت كلامها : هُمُ الضيف . جدّى فى قراهم وعجلى !..
 أو السائل بغير ما يتطلب كما قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ .. الآية قالوا فى السؤال : ما
 بال الهلال يبدو دقيقاً !.. الخ ؟ فأجيبوا بما ترى . وكما قال : يسألونك ماذا ينفقون؟^(١) قل :
 ما انفقتم من خيرٍ فلول الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . سألوها عن بيان
 ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصروف . ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله ، لتوحي
 التنبيه له بِالطَّفِّ وجهٍ على تعديه عن موضع سؤالٍ هو أليقُ بحاله أن يسأل عنه ، أو أهمُّ له
 إذا تأمل . وأن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه
 حكم الوقور ، وأبرزه فى معرض المسحور ؛ وهل أَلَانَ شكيمة الحجاج لذلك الخارجى ،
 وسلَّ سخيمته ، حتى آثر أن يحسن ، على أن يسيء ؛ غير أن سَحَرَهُ بهذا الأسلوب ؟ إذ
 توعده الحجاج بالقيّد فى قوله « لأحملنك على الأدم ! » فقال متغابياً : مثل الأمير يحمل على
 الأدم والأشهب ! مبرزاً وعيده فى معرض الوعد ، متوصلاً أن يريه بالطف وجه : أن اصراً
 مثله - فى مسند الإمرة المطاعة - خليقٌ بأن يَصْفِدَ لا أن يَصْفَدَ ، وأن بعد لا أن يُوعِدَ .
 « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا
 الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

قال الراغب فى (تفسيره) : الباب معروف . وعنه استعير لدخول الأمور المتوصل به
 إليها . وقيل فى العلم باب كذا . وقد كان سئل عليه السلام عن زيادة القمر ونقصانه . فأُنزل
 الله هذه الآية تنبيهاً على أظهر فائده للحسّ ، وأبينها له . ثم قال : وليس البرُّ بأن تأتوا

(١) [٢ / البقرة / ٢١٥] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ
 فَلِلَّهِ الدِّينِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
 اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

البيوت من ظهورها أى : بأن تطلبوا الأمر من غير وجهه . وذلك أنه يقال : أتى فلان البيت من بابه - إذا طلب الشيء من وجهه . وقال الشاعر * أتيت المروءة من بابها * وأتى البيت من ظهره : إذا طلب الأمر من غير وجهه . وجعل ذلك مثلاً لسؤالهم النبي ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة . وإن ذلك عدولٌ عن النهج . وذلك أن العلوم ضربان : دنيوى ، يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ، ومعرفة حركات النجوم ، ومعرفة المعادن ، والنبات ، وطبائع الحيوانات . وقد جعل لنا سبيلاً إلى معرفته على غير لسان نبية عليه السلام .

وشريعة : وهو البر . ولا سبيل إلى أخذه إلا من جهته . وهو أحكام التقوى ... !
فلما جاؤا يسألون النبي ﷺ ، عما أمكنهم معرفته من غير جهته ، أجابهم . ثم بين لهم أنه ليس البر ترك النهج في السؤال من النبي ما ليس مختصاً بعلم نبوته . ولكن البر هو مجرد التقوى : وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : المراد من هذه الآية ، ما كانوا يعملونه من النسيء . فإنهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله له . فيحرمون الحلال ويحللون الحرام . فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلاً لمخالفة الواجب في الحج ومشهوره .

وأما ما رواه البخاري^(١) وغيره عن أبي إسحق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاؤ رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه . فكأنه غير بذلك ، فنزلت « وليس البر ... » الآية . فالمراد ، من نزولها في ذلك ، صدقها عليه حسبما رآه . لا أن ذلك كان سبب نزولها . كما بينا مراراً معنى قولهم : نزلت الآية في كذا .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٦ - كتاب العمرة ، ١٨ - باب قول الله تعالى : وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .

وقد أشار، لهذا، الراغبُ - بعد حكايته هذه الرواية وما قاله أبو مسلم - بقوله: وكل ذلك لا يدفع أن تناوله الآية . لكنّ الأليق أن تؤول الآية بما تقدم ذكره من أن معنى « وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » أى : تحروا فى كلّ عملٍ إتيان الشيء من وجهه ، تنبيهاً على أن ما يطلب من غير وجهه صعب تناوله . ثمّ قال « وَأَتَقُوا اللَّهَ » حثاً لنا أن نجعل تقوى الله شعارنا فى كلّ ما نتحرّاه . ويبيّن أن ذلك ذريعة إلى تحصيل الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ،

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » المقاتلة فى سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين . وفى قوله « الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » تهبيجٌ وإغراء بالأعداء الذين همّهم قتال الإسلام وأهله . أى : كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم . كما قال : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً^(١) « وَلَا تَعْتَدُوا » أى : بابتداء القتال . أو بقتال من نهيتُم عن قتاله ، من النساء ، والشيوخ ، والصبيان ، وأصحاب الصوامع ، والذين بينكم وبينهم عهدٌ . أو بالمثلّة ، أو بالمفاجأة من غير دعوة . « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » أى : المتجاوزين حكمه فى هذا وغيره .

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ،
وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ
فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« وَأَقْتُلُوهُمْ » أى : الذين يقاتلونكم « حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ » أى : وجدتموهم .
« وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ » أى : من مكة . فإن قريشاً أخرجوا المسلمين منها .
والمسلمون أخرجوا المشركين يوم الفتح . « وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » أى : الحنة والبلاء
الذى ينزل بالإنسان ، يتعذب به ، أشدّ عليه من القتل . أى : إن فتنهم إيّاكم فى الحرم
عن دينكم - بالتمذيب ، والإخراج من الوطن ، والمصادرة فى المال - أشدّ قبحاً من القتل
فيه . إذ لا بلاء على الإنسان أشدّ من إيذاؤه على اعتقاده الذى تمكن من عقله ونفسه .
ورآه سعادة له فى عاقبة أمره . فالجملة دفع لما قد يقع من استعظام قتلهم فى مثل الحرم ،
وإعلام بأن القصاص منهم بالقتل دون جرمهم بفتنة المؤمنين . لأن الفتنة أشدّ من القتل .
« وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ » لأن حرمة لذاته . وحرمة
سائر الحرم من أجله . وهذا بمثابة الاستثناء من قوله تعالى «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ»
« فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ » أى : فيه فلا تفتقرون إلى الفرار عن الحرم «فَأَقْتُلُوهُمْ» فيه إذ لا حرمة
لهم لهتكهم حرمة المسجد الحرام « كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لا يترك لهم حرمة كما لم
يتركوا حرمة الله فى آياته .

تنبيهه :

دلّت الآية على الأمر بقتال المشركين فى الحرم ، إذا بدأوا بالقتال فيه ، دفعاً لوصولهم .

كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية^(١) تحت الشجرة على القتال . لما تألب عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذٍ . ثم كف الله القتال بينهم فقال : « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ »^(٢) . وقال ﷺ لخالد ومن معه يوم الفتح^(٣) : إن عرض لكم أحدٌ من قريش فأحصدوه حصداً حتى توافوني على الصفا ... فاعرض لهم أحدٌ إلا أناموه ، وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً . كما في السيرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِنْ انْتَهَوْا » أى : عن القتال « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم تخلقاً بصفتي الحق تعالى المذكورتين وهما : المغفرة والرحمة ، هذا ظاهر المساق . وقال بعضهم : « فَإِنْ انْتَهَوْا » أى : عن الشرك والقتال « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لما سلف من طغيانهم « رَحِيمٌ » بقبول توبتهم وإيمانهم .

- (١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .
- (٢) [٤٨ / الفتح / ٢٤] ونصها : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .
- (٣) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٨٥ و ٨٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ،

فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

« وَقَاتِلُوهُمْ » أى : هؤلاء الذين نسبناهم إلى قتالكم وإخراجكم وفتنكم « حَتَّى لَا تَكُونَ » - أى : لا توجد في الحرم - « فِتْنَةٌ » أى تقوى بسببه يفتنون الناس عن دينهم ، ويمنعونهم من إظهاره والدعوة إليه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » خالصاً أى : لا يُعبد دونه شئ لا في الحرم . ولا يُخشى فيه غيره ، فلا يفتن أحد في دينه . ولا يؤذى لأجله .

وفى (الصحيحين)^(١) عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله .

« فَإِنْ انْتَهَوْا » عن قتالكم في الحرم « فَلَا عُدْوَانَ » فلا سبيل لكم بالقتل « إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » المبتدئين بالقتل .

وروى البخارى في (صحيحه)^(٢) عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أتاه رجلان في فتنه ابن الزبير فقالا : إن الناس قد ضيعوا ، وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخى .. ! قالوا : ألم يقل الله « وَقَاتِلُوهُمْ »

(١) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث ٢٤ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٠ - باب وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

ثم ساق البخاري رواية أخرى وفيها : قال ابن عمر : فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه وإما يعذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وقوله تعالى :

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ » إيدان بأن مراعاة حرمة الشهر واجبة لمن راعى حرمة ، وإن من هتكها اقتص منه ؛ فهتك حرمة بهتكهم حرمة . فكما يقاتلون عند المسجد الحرام - إذا قاتلوا فيه - يقاتلون في الشهر الحرام إذا قاتلوا فيه .

وقد روى الإمام أحمد^(١) بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى - أو يُغزوا - فإذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ . ولهذا ، لما سار ﷺ في ذي القعدة ، سنة ست معتمرا ، وخيم بالحديبية ، وبلغه أن عثمان قُتل - وكان بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه - وكانوا ألفاً وأربعمائة - تحت الشجرة على قتال المشركين . فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك ، وجنح إلى المسألة والمصالحة ، فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالنجنيق . واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً . كما ثبت في (الصحيحين) عن أنس . فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٣٣٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

ولم تفتح . ثم كرّ راجعاً إلى مكة . واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً عام ثمان .

« وَالْجُرُمَاتُ قِصَاصٌ » أى : متساوية ، فلا يفضل شهر حرام على آخر . بحيث يمتنع هتك حرمة لهتكهم حرمة مادونه ، على أن لا يهتك حرمة الشهر والمسجد الحرام والحرم ، بل يهتك حرمة من هتك حرمة أحدهما - قاله المهايمى .

و (الحرّمات) جمع حرمة . وهى ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك . و (القصاص) : المساواة . والكلام على حذف المضاف . أى : ذوات قصاص . أو المصدر بمعنى المفعول أى : مقاصة ، أو الحل بطريق المبالغة . « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » أمر بالعدل حتى فى المشركين ، كما قال : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ^(١) » وقال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ^(٢) » . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فى هتك حرمة الشهر والمسجد والحرم بدون هتكهم ، وفى زيادة الاعتداء « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى : بالمعونة والنصر والحفظ والتأييد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أمرٌ بالإِنفاق فى سائر وجوه القربات والطاعات . ومن أهمها : صرف الأموال فى قتال الأعداء ، وبذلك فيما يقوى به المسلمون على عدوهم .

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] ونصها : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

وقوله تعالى « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » أى : ما يؤدى إلى الهلاك أى : لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك ، وذلك بالتعرض لما تستوخم عاقبته ، جهلاً به .
قال الراغب : وللاية تأويلان بنظرين أحدهما : إنه نهى عن الإسراف فى الإنفاق ، وعن التهور فى الإقدام ، والثانى : إنه نهى عن البخل بالمال ، وعن القعود عن الجهاد .
وكلا المعنيين يراد بها . فالإنسان ، كما أنه منتهى عن الإسراف فى الإنفاق ، والتهور فى الإقدام ، فهو منتهى عن البخل والإحجام عن الجهاد ، ولهذا قال تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا »^(١) الآية ، وقال : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ »^(٢) الآية .
ولما كان أمر الإنفاق أخص بالأنصار الذين كانوا أهل الأموال ، لتجرد المهاجرين عنها ، وقد اشتهر فى هذه الآية حديث أبى أيوب الأنصارى ، رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى وابن حبان فى (صحيحه) ، والحاكم فى (مستدركه) وغيرهم . . . ولفظ الترمذى^(٣) :
عن أسلم أبى عمران قال : كنا بمدينة الروم . فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر . وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة ابن عبيد . فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل عليهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يلقى بيديه إلى التهلكة . . ! فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : يا أيها الناس ! إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل ، وإما زلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما أعز الله

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] ونصها : وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٩] ونصها : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٩ - حدثنا

عبد بن حميد .

الإسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرّاً - دون رسول الله ﷺ - إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعزّ الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقفنا في أموالنا فأصلحنا ماضاع منها ! فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ يردّ علينا ما قلنا « وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » فكانت التهلكة الإقامة على الأموال ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم . هذا حديث حسن غريب صحيح .

أقول : إنكار أبي أيوب رضى الله عنه إمّا لكونه لا يقول بعموم اللفظ بل بخصوص السبب ، وإمّا لردّ زعم أنها نزلت في القتال . أى : في حمل الواحد على جماعة العدو كما تأولوها . وهذا هو الظاهر . وإلّا فاللفظ يقتضى العموم ، ووروده على السبب لا يصلح قرينة لقصره على ذلك . ولا شبهة أن التعميد إمّا هو باللفظ الوارد وهو عام .

وقد استشهد بعموم الآية عمرو بن العاص فيما رواه ابن أبي حاتم بسنده : أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبر أنهم حاصروا دمشق . فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فردّه . وقال عمرو : قال الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » ! وقد روى في سبب نزولها آثار ضعيفة ساقها ابن كثير وهى - والله أعلم - من باب صدق عمومها على مارووه .

تنبيه :

قال الحاكم : تدلّ الآية على جواز الهزيمة في الجهاد إذا خاف على النفس . وتدلّ على جواز ترك الأمر بالمعروف إذا خاف ، لأنّ كل ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة . وتدلّ على جواز مصالحة الكفار والبلغاة إذا خاف الإمام على نفسه أو على المسلمين . كما فعله رسول الله ﷺ عام الحديبية . وكما فعله أمير المؤمنين على عليه السلام بصفين . وكما فعله الحسن عليه السلام من مصالحة معاوية . وتدلّ أيضاً على جواز مصالحة الإمام بشيء من أموال الناس إذا

خشى التهلكة. ويؤيده أنه ﷺ أراد أن يصلح يوم الأحزاب بثلاث ثمار المدينة حتى شاور سعد بن معاذ وسعد بن عباد فأشارا بترك ذلك ^(١). وهو لا يعزم إلا على ما يجوز.

لطيفة : (الإلقاء) لغة ، طرح الشيء ، عُذِّي يُلْقَى لتضمن معنى الانتهاء ، والباء مزيدة في المفعول لتأكيد معنى النهى . والمراد بالأيدى : الأنفس ، فذكر الجزء وإرادة الكل لمزيد اختصاص لها باليد . بناءً على أن أكثر ظهور أفعال النفس بها . والتهلكة والهلاك والهلك واحد . فهي مصدر . أى : لا توقعوا أنفسكم في الهلاك . والتهلكة بضم اللام . قال الخارزنجي : لا أعلم في كلام العرب مصدراً على تفعلة - بضم العين - إلا هذا .

وقال الزبيدي هو من نوادر المصادر . ولا يجرى على القياس !

قال الزمخشري : ويجوز أن يقال : أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما . على أنها مصدر من هلك . فأبدلت من الكسرة ضمة . كجاء الجوار في الجوار . هذا ما ذكره . قال الفخر الرازي - ولله دره - بعد نقله نحو ما سبق : وإني لأتعجب كثيراً من تكلفات هؤلاء النحويين في أمثال هذه المواضع ، وذلك أنهم لو وجدوا شعراً مجهولاً يشهد لما أرادوه فرحوا به واتخذوه حجة قوية . فورود هذا اللفظ في كلام الله تعالى . المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة - أولى بأن يدل على صحة هذه اللفظة واستقامتها .

« وَأَحْسِنُوا » أى : تحروا فعل الإحسان ، أى : الإتيان بكل ما هو حسن ، ومن أجله الإنفاق ، وقوله « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . قال الراغب : نبه بإظهار المحبة للمحسنين على شرف منزلتهم وفضيلة أفعالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » أى : أدوها تامين بما سكهما الشريعة لوجه الله تعالى . قال الراغب : قيل : « أتموا » خطاب لمن خرج حاجاً أو معتمراً ، فأمر أن لا يصرف وجهه حتى يتمهما . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله . واحتج به في وجوب إتمام كل عبادة دخل فيها الإنسان متنفلاً . وأنه متى أفسدها وجب قضاؤها . وقيل : إنه خطاب لهم ولن لم يتلبس بالعبادة . وذكر لفظ الإتمام تنبيه على توفية حقها وإكمال شرائطها . وعلى هذا قوله تعالى « ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ » ^(١) وإلى هذا ذهب الشافعي رحمه الله واحتج به في وجوب العمرة . وإنما قال في الحج والعمرة « لله » ولم يقل ذلك في الصلاة والزكاة ، من أجل أنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحج والعمرة إلى أصنامهم : فخصهما بالذكر لله تعالى حقاً على الإخلاص فيهما ، ومجانبة ذلك الاعتقاد المحذور .

« فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ » أى : حبسكم عدو عن تمام الحج أو العمرة وأردتم التحلل « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » أى فاعلموا ما استيسر ، أو فالواجب ، يقال : يسر الأمر

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

واستيسر كما يقال : صَعُبُ واستصعب ؛ و (الهدى) بتخفيف الياء وتشديدها جمع هَدْيَةٍ وهَدْيَةٍ . وهو ما هدى إلى مكة من النعم لينحر قربابه إلى الله . قال ثعلب : الهدى ، بالتخفيف ، لغة أهل الحجاز . وبالتثقيـل ، على فـعيل ، لغة بني تميم وسفلى قيس . وقد قرئ بالوجهين جميعاً في الآية . وشاهد الهدى مثقلاً من كلامهم قول الفرزدق :

حَلَفْتُ رَبَّ مَكَّةَ وَالْمَصَلَى وَأَعْنَقِ الْهَدْيَ مَقْلَدَاتٍ

وشاهد الهدية كذلك قول ساعدة بن جُوَيْة :

إِنِّي وَأَيْدِيهِمْ وَكُلْ هَدِيَةٍ مِمَّا تَشْجُ لَهُ تَرَائِبُ تَتَعَبُ

وأعلى الهدى بدنة . وأدناه شاة . والمعنى : أن المحرم إذا أُحْصِرَ وأراد أن يتحلل ، تحلل بذبح هدى تيسر عليه : من بدنة أو بقرة أو شاة .

تنبيه :

قال الراغب : ظاهر قوله تعالى « أُحْصِرْتُمْ » أنه لا فرق فيه بين أن يحصر بمكة أو بغيرها . وبعد عرفة أو قبلها . وكذلك لا فرق في الظاهر بين أن يحصره عدو مسلم أو غيره . وظاهره يقتضى أنه لا فصل بين إحصار العدو وإحصار المرض . لولا أن الآية نزلت في سبب العدو فلا يجوز أن تتعدى إلا بدلالة ، ولأن قوله « فَإِذَا أُمِيتُمْ » يدل على أن المراد بالإحصار هو بالعدو .

وقد يقال : العبرة في أمثاله بعمومه كما ذهب إليه ثلثة من السلف . فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ، وابن الزبير ، وعلقمة ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، ومجاهد ، والنخعي ، وعطاء ، ومقاتل أنهم قالوا : الإحصار من عدو أو مرض أو كسر . وقال الثوري : الإحصار من كل شيء آذاه .

وثبت في (الصحيحين)^(١) عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٥ - باب الأكل في الدين .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٠٤ و ١٠٥ (طبعنا) .

ابن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله ! إني أريد الحج وأنا شاكية . فقال : حجّي واشترطى أن محلى حيث حبستنى . ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله .
ومن دلالة الآية ما قاله الراغب : إن ظاهرها يقتضى أن لا قضاء على المحصر لأنه قال « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » واقتصر عليه .

« وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ » أى : الموضع الذى يحلّ فيه نحره ، وهو مكانه الذى يستقرّ فيه . يعنى موضع الإحصار . وبلوغه إياه كناية عن ذبحه فيه . واستعمال بلوغ الشيء محله فى وصوله إلى ما يقصد منه - شائع . ولما اعتمر النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية ، وحصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم بها ولم يبعثوا به إلى الحرم .

وقد ساق الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) بعض ما فى قصة الحديبية من القواعد الفقهية فى فصلٍ قال فيه : ومنها أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم ، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره فى الحرم إذا لم يصل إليه ، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله . بدليل قوله تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ » (١) . ومنها أن الموضع الذى نحر فيه الهدى كان من الحل لا من الحرم ، لأن الحرم كله محل الهدى .

وقال الإمام مالك فى « الموطأ » (٢) : من حبس بعدوٍّ فحال بينه وبين البيت ، فإنه يحل

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ، وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٩٨ (طبعنا) .

من كل شيء ، وينحر هديه ، ويحلق رأسه حيث حبس ، وليس عليه قضاء .

قال (١) : فهذا الأمر عندنا فيمن أحصر بعدوٍ كما أحصر النبي ﷺ وأصحابه .

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ » أى : فمن كان منكم - معسر المحرمين - مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر ويحوجه

إلى الحلق ، أو كان به أذى من رأسه - كجراحة وقل - فعليه ، إن حلق ، فدية من صيام أو صدقة أو نسك . وقد نزلت هذه الآية في كعب بن عُجرة الأنصارى رضى الله عنه قال (٢) :

« حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا .. ! أما تجد شاة ؟ قلت : لا ! قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين

نصف صاع من طعام واحلق رأسك . فنزلت في خاصة وهى لكم عامة ، رواه الشيخان وغيرهما . واللفظ للبخارى . وروى الإمام أحمد (٣) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب

ابن عجرة قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالجديبية ونحن محرمون ، وقد حصرنا المشركون ، وكانت لى وفرة ، فجعلت الهوام تساقط على وجهي ، فرأى النبي ﷺ فقال : أيؤذيك

هوام رأسك ؟ قلت : نعم . فأمره أن يحلق . قال : ونزلت هذه الآية . قال ابن عباس : إذا كان (أو أو) فاية أخذت أجراً عنك ! وعامة العلماء : إنه يخير في هذا المقام إن شاء

صام وإن شاء تصدق بفرق - وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان - وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء ، أى ذلك فعل أجزأه . ولما كان لفظ القرآن في بيان

(١) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٢ - باب

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، حديث ٩٢١ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

الرخصة ، جاء بالأسهل فالأسهل . ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولاً إلى الأفضل فقال : أما تجد شاة ؟ فكلَّ حسن في مقامه ، والله الحمد والمنّة - أفاده ابن كثير .
تنبيه :

استفيد من الآية أحكام :

الأول : جواز الحلق من المحرم ، واللبس للمخيط للضرورة ، ووجوب الفدية عليه ، وذلك لبيان سبب النزول .

الثاني : تحريم الحلق ولبس المخيط لغير عُذر ، وهذا مأخوذ من المفهوم لأنه مصرّح به ، وذلك إجماع .

الثالث : أنّ الفدية الواجبة تكون من أجناس الثلاثة وهي : الصيام ، أو الصدقة ، أو النسك ، وقد ورد بيانها في حديث كعب .

الرابع : أنّ الفدية واجبة على التخيير كما بينّا .

قال الراغب : وظاهر الآية يقتضى أنه لا فرق بين قليل الشعر وكثيره ، بخلاف ما قال أبو حنيفة رحمه الله ، حيث لم يلزم إلا بحلق الثلث . وغيره لم يلزم إلا بحلق الربع .

لطيفة :

أصل النسك العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى .

قال أبو البقاء : والنسك - في الأصل - مصدر بمعنى المفعول لأنه من : نَسَكَ ينسك ، والمراد به ههنا المنسوك ، ويجوز أن يكون اسماً لا مصدرًا ، ويجوز تسكين السين . انتهى .

« فَإِذَا أُمِيتُمْ » أى : كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ » أى : بإحرامه بها في أشهر الحج . ليستفيد الحل حين وصوله إلى البيت ، ويستمرّ حلالاً في سفره ذلك « إِلَى الْحَجِّ » أى : إلى وقت الإحرام بالحجّ « فَمَا »

أى: فعليه ما « اسْتَيْسَرَ » أى: تيسر « مِنْ الْهَدْيِ » من النعم ، يكون هذا الهدى لأجل ما تمتع به بين النسكين من الحل .

وفي (النهاية) : صورة التمتع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ، فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوالاً فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحج ، وسمى به . لأنه : إذا قدم مكة ، وطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، حلّ من عمرته ، وحلق رأسه ، وذبح نسكه الواجب عليه لتمتعه ، وحلّ له كلّ شيء كان حرم عليه في إحرامه من النساء والطيب ، ثم ينشئ بعد ذلك إحراماً جديداً للحجّ وقت نهوضه إلى منى ، أو قبل ذلك ، من غير أن يجب عليه الرجوع إلى الميقات الذى أنشأ منه عمرته ، فذلك تمتعه بالعمرة إلى الحجّ ، أى انتفاعه وتبلغه بما انتفع به من حلقٍ وطيبٍ وتنظفٍ وقضاء تفتٍ وإلام بأهله ، إن كانت معه .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : وكان من هديه ﷺ ذبح هدى العمرة عند المروة ، وهدى القران بمنى . وكذلك كان ابن عمر يفعل . ولم ينحر ﷺ قط إلا بعد أن حلّ ، ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة ، البته .

« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » الهدى « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » أى : بعد الإحرام وقبل الفراغ من أعماله ، والأولى سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه .

قال الراغب : إن قيل : كيف قال « فِي الْحَجِّ » ؟ ومتى أحرم يوم عرفة لا يمكنه صيام ثلاثة أيام في الحج لأنه منهي عنه في يوم النحر وأيام التشريق ؟ قيل : الواجب على المتمتع أن يحرم بالحجّ على وجه يمكنه الإتيان بالصيام لثلاثة أيام ، وذلك بتقديم الإحرام قبل يوم عرفة . وقد قال ابن عمر وعائشة : يصوم أيام التشريق . ويحملان النهي على صوم أيام منى على غير المتمتع . « وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى : إلى أهليكم ، أو إذا أخذتم في الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحجّ .

قال الراغب : وإطلاق اللفظ يحتمل الأمرين جميعاً ، فيصحّ جملة عليهما .

إِلَّا أَنْ الَّذِي يَرْجِعُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ مَارَوْى فِي (الصَّحِيحِينَ)^(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الطَّوِيلِ
وَفِيهِ : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدِيًّا فَلْيَصْمِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ .
« تِلْكَ عَشْرَةٌ » فَذَلِكَ حَسَابٌ ، أَيْ : إِجْمَالٌ بَعْدَ تَفْصِيلٍ ، وَفَائِدَتُهَا : أَنْ لَا يَتَوَهَّمُ
أَنَّ الْوَاوَ بِمَعْنَى (أَوْ) وَأَنَّ الْكَلَامَ عَلَى التَّخْيِيرِ ، بَلِ الْمَجْمُوعُ بَدَلُ الْهَدْيِ !! وَأَنْ يَعْلَمَ الْعَدَدُ
جَمَلَةً كَمَا عُلِّمَ تَفْصِيلًا ، فَيَحَاطُ بِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ فَيَتَأَكَّدُ الْعِلْمَ . وَفِي الْمَثَلِ : عَلِمَانِ خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ ،
فَإِنَّ أَكْثَرَ الْعَرَبِ لَا يَعْرِفُ الْحَسَابَ . فَالْإِثْمُ الْخَطَابُ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ . وَهُوَ
مَا يَكُونُ بِتَكَرُّارِ الْكَلَامِ وَزِيَادَةِ الْإِفْهَامِ !!

وفائدة ثالثة : وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّبْمَةِ هُوَ الْعَدَدُ دُونَ الْكَثْرَةِ فَإِنَّهُ يُطْلَقُ لَهَا !!
وفائدة رابعة : أَشَارَ لَهَا الرَّائِبُ وَهُوَ :

إِنَّ قَوْلَهُ « تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ » اسْتَطْرَادَ فِي الْكَلَامِ ، وَتَنْبِيَهُ عَلَى فَضِيلَةِ عِلْمِ الْعَدَدِ ،
وَلِذَا قِيلَ : الْعَدَدُ أَوَّلُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُهَا . أَمَّا أَنَّهُ أَوَّلُ ، فَلِأَنَّ مَا عَدَاهُ مُعَدُولٌ مِنْهُ ، وَبِهِ يَفْصَلُ
وَيُمَيِّزُ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَشْرَفَ ، فَلِأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَغْيِيرَ ، بَلِ هُوَ لَازِمُ طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ .
فَذَكَرَ الْعَشْرَةَ وَوَصَفَهَا بِالْكَامِلَةِ . إِذْ هِيَ عَدَدُ كُلِّ فِيهِ خَوَاصُّ الْأَعْدَادِ ، فَإِنَّ الْوَاحِدَ مُبْدَأُ
الْعَدَدِ ، وَالْاِثْنَيْنِ أَوَّلُ الْعَدَدِ ، وَالثَّلَاثَةُ أَوَّلُ عَدَدِ فَرْدٍ ، وَالْأَرْبَعَةُ أَوَّلُ عَدَدِ زَوْجٍ مُحْدُودٍ - أَيْ
مُجْتَمِعٍ مِنْ ضَرْبِ عَدَدٍ فِي نَفْسِهِ - وَالْخَمْسَةُ أَوَّلُ عَدَدٍ دَائِرٍ ، وَالسَّتَةُ أَوَّلُ عَدَدٍ تَامٍ - أَيْ إِذَا
أُخِذَ جَمِيعُ أَجْزَائِهِ لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ - وَالسَّبْعَةُ أَوَّلُ عَدَدٍ أَوَّلٍ - أَيْ لَا يَتَقَدَّمُهُ عَدَدٌ
بَعْدَهُ - وَالثَّمَانِيَةُ أَوَّلُ عَدَدِ زَوْجٍ الزَّوْجِ ، وَالتَّسْعَةُ أَوَّلُ عَدَدٍ مَثَلٍ ، وَالْعَشْرَةُ أَوَّلُ عَدَدٍ يَنْتَهِي
إِلَيْهِ الْعَدَدُ . لِأَنَّ مَا بَعْدَهُ يَكُونُ مُكَرَّرًا بِمَا قَبْلَهُ ، فَإِذْ الْعَشْرَةُ هِيَ الْعَدَدُ الْكَامِلُ !!

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٢٥ - كِتَابُ الْحَجِّ ، ١٠٤ - بَابُ مَنْ سَاقَ الْبَدْنَ مَعَهُ ،

حَدِيثُ ٨٧٩ .

وَمُسْلِمٌ فِي : ١٥ - كِتَابُ الْحَجِّ ، حَدِيثُ ١٧٤ (طَبَعْتُنَا) .

« كَامِلَةٌ » صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد ، ففيه زيادة توصية لصيامها ، وأن لا يتهاون بها ، ولا ينقص من عددها ، كأنه قيل : تلك عشرة كاملة ، فراعوا كلها ولا تنقصوها . « ذَلِكَ » أى : وجوب دم التمتع أو بدله لمن لم يجد « لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى : بل كان أهله على مسافة الغيبة منه ، وأما من كان أهله حاضريه - بأن يكون ساكناً في مكة - فهو في حكم القرب من الله ، فالله تعالى يحجره بفضله . هذا ، وقال بعض المجتهدين : إن ذلك إشارة إلى التمتع المفهوم من قوله « فَمَنْ تَمَتَّعَ » وليست للمهدى والصوم ، فلا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام ، عنده .

وروى ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا إن ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ! لا متعة لكم . أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً - أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً - ثم يهمل بعمره ..!

وروى عبد الرزاق عن طاووس قال : المتعة للناس للأهل مكة . ثم قال : وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاووس ، والله أعلم .

و (الأهل) : سكن الرء من زوجٍ ومستوطن . و (الحضور) : ملازمة الوطن . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » - فى الجنابة على إحرامه - « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » لمن جنى على إحرامه أكثر من شدة الملوك على من أساء الأدب بحضرته . وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ ..الآية » دليل على مشروعية التمتع . كاجاء فى (الصحيحين) ^(١) عن عمران بن حصين قال : أنزلت آية المتعة فى كتاب الله ففعلناها مع

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٣ - باب

فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ، حديث ٨٣٢ .

رسول الله ﷺ ، ولم يُزَلْ قرآن يحرمه ، ولم ينه عنها حتى مات ، قال رجل برأيه ما شاء .
وروى مالك في « الموطأ » ^(١) عن عبد الله بن عمر أنه قال : والله ! لأن أعتمر قبل الحج
وأهدي أحب إلي من أن أعتمر بعد الحج في ذى الحجة !!
وفي (الصحيحين) ^(٢) : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى وجعلتها
عمرة . يعنى كما فعل أصحابه ﷺ عن أمره .

الثانى : قال ابن القيم في (زاد المعاد) : قد ثبت أن التمتع أفضل من الإفراد لوجوه
كثيرة : منها : أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بفسخ الحج إليه ، ومحال أن ينقلهم من الفاضل
إلى المفضول الذى هو دونه . ومنها : أنه تأسف على كونه لم يفعله بقوله : لو استقبلت من
أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى وجعلتها متعة . ومنها : أنه أمر به كل من لم يسق
الهدى . ومنها : أن الحج ، الذى استقر عليه فعله وفعل أصحابه ، القرآن ممن ساق الهدى ،
والتمتع لمن يسق الهدى ، ولوجوه كثيرة غير هذه !!

الثالث : قال الراغب : لا يجب الدم أو بدله في التمتع إلا بأربع شرائط : إيقاع العمرة
في أشهر الحج والتحلل منها فيه ، والثانى : أن يثنى الحج من سنته ، والثالث : أن لا يرجع
إلى الميقات لإنشاء الحج ، الرابع : أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام .

= ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٧٠ (طبعنا) .

(١) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٢٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٥ - كتاب الحج ، ٨١ - باب تقضى الحائض المناسك

كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤١ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ)

« الْحَجُّ » أى : أوقات أعماله . « أَشْهُرٌ » وهى : شوال وذو القعدة وذو الحجة .
أى عشره الأول . نزل منزلة الكلّ لغاية فضله .

قال الثعلبى : وقد جاء فى تفسير أشهر الحجّ وعشر ذى الحجة - وفى بعضها تسع -
فن عبر بالتسع أراد الأيام ، ومن عبر بالعشر أراد الليالى ؛ ولقوله ﷺ : الحجّ عرفة .
وقد تبين أنهُ يفوت الوقوف بطلوع الفجر .

وقوله « مَّعْلُومَاتٌ » أى : قبل نزول الشرع عند الناس ، لا يشكان عليهم . وأذن هذا
أنّ الأمر بعد الشرع على ما كان عليه « فَمَنْ فَرَضَ » أى : أوجب على نفسه « فِيهِنَّ الْحَجَّ »
بإحرامه « فَلَا رَفَثَ » أى : ففقتضى إحرامه أن لا يوجد جماع ولا مقدماته ولا فحش من
القول « وَلَا فُسُوقَ » أى : خروج عن حدود الشريعة بارتكاب محظورات الإحرام وغيرها
كالسباب والتناز بالآلقاب ، « وَلَا جِدَالَ » أى : مماراة أحد من الرفقة والخدم والمكارين
« فِي الْحَجِّ » أى : فى أيامه ، بل ينبى أن يوجد فيها كلّ خيرٍ من خيرات الحجّ . والإظهار
فى مقام الإضرار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه ، والإشعار بعله الحكم ؛ فإنّ زيارة البيت المعظم ،
والنقرب بها إلى الله عزّ وجلّ ، من موجبات ترك الأمور المذكورة ، وإيثار النفي للمبالغة
فى النهى ؛ والدلالة على أنّ ذلك حقيق بأن لا يكون ، فإنّ ما كان منكراً مستقبلاً فى نفسه ،
فى تضاعيف الحجّ أقبح ، كلبس الحرير فى الصلاة .

لطيفة :

قال بعضهم : النكته فى منع هذه الأشياء على أنّها آداب لسانية : تعظيم شأن الحرم ،

وتغليظ أمر الإثم فيه ، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلملاً آداب غير آداب الخلوة مع الأهل . ويقال في مجلس الإخوان ما لا يقال في مجلس السلطان . ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب ، وأفضل الأحوال . وناهيك بالحضور في البيت الذي نسبه الله سبحانه إليه ..! وأما السرّ فيها على أنها محرمات الإحرام، فهو أن يتمثل الحاج أنّه بزيارته لبيت الله تعالى مقبلاً على الله تعالى ، قاصداً له . فيتجرّد عن عاداته ونعيمه ، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره ، بحيث يساوى الفنى الفقير ، ويمثل الصلوك الأمير ، فيكون الناس من جميع الطبقات في زيّ كزيّ الأموات ، وفي ذلك - من تصفية النفس ، وتهذيبها ، وإشعارها بحقيقة العبودية لله ، والأخوة للناس - ما لا يقدر قدره ، وإن كان لا يخفى أمره ..!

« وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ » حثّ على الخير عقيب النهى عن الشرّ ، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ، ومكان الفسوق البرّ والتقوى ، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة ..! وقد روى^(١) فيمن حجّ ولم يرفث ولم يفسق أنّه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه ! وذلك ، لأنّ الإقبال على الله تعالى بتلك الهيئة ، والتقلب في تلك المناسك على الوجه المشروع ، يمحو من النفوس آثار الذنوب وظلمتها ، ويدخلها في حياة جديدة : لها فيها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ..! « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى »

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢٧ - كتاب المحصر ، ٩ - باب قول الله تعالى: فَلَا رَفَثَ

حديث ٨١٠

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعنا) .

ولفظ البخاريّ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » .

روى البخارى^(١) عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان أهل اليمن يُحْجُونَ ولا يَزُودُونَ ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

أى : وتزودوا ما تبلغون به وتسكفون به وجوهكم عن الناس ، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقل عليهم . فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، أى : الاتقاء عن الإبرام والتثقل عليهم !..

وقال ابن عمر : إنَّ من كرم الرجل طيب زاده فى السفر . وكان يشترط على من صحبه الجوده .. نقله ابن كثير .

ويقال فى معنى الآية : وتزودوا من التقوى للمعاد ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَابْدَلُهُ مِنْ سَفَرٍ فى الدنيا ، ولابدَّ فيه من زادٍ ، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب ؛ وسفر من الدنيا إلى الآخرة ، ولابدَّ فيه من زادٍ أيضاً وهو تقوى الله ، والعمل بطاعته ، واتقاء المحظورات !.. وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول ، فَإِنَّ زَادَ الدُّنْيَا يُوَصِّلُ إِلَى مَرَادِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة !.. وفى هذا المعنى قال الأعشى^(٢) :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولا قيت بعد الموت مَنْ قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون كمثلهِ وأنت لم تُرصدَ لِمَا كان أرصداً !..

وَمَتَّ وجه آخر : وهو أن قوله تعالى « وَتَزَوَّدُوا » أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر ، وقوله « فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » إرشاد إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها بعد

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٥ - كتاب الحج ، ٦ - باب قول الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا

فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، حديث ٨١١ .

(٢) من قصيدة قالها الأعشى يمدح النبى ﷺ . ومطلعها :

أَلَمْ تَفْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السُّلَيْمَ السُّهَدَا

الأمر بالزاد للسفر في الدنيا ، كما قال تعالى « وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ » ^(١) لما ذكر اللباس الحسىّ نبه مرشداً إلى اللباس المعنوى وهو الخشوع والطاعة ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع .

« وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ » أى : اتقوا عقابى وعذابى فى مخالفتى وعصيانى يا ذوى العقول والأفهام ! فإن قضية اللب تقوى الله ، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له ..! كما قال تعالى « أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » ^(٢) !

وقد قرىء بإثبات الياء فى « اتقون » على الأصل ، وب حذفها للتخفيف ودلالة الكسرة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » قال الراغب : كانت العرب تتحاشى من التجارة فى الحج ، حتى إنهم كانوا يتجنبون المبايعة إذا دخل العشر ، وحتى سموا من تولى متجراً فى الحج : الداج دون الحاج ؛ فأباح الله ذلك ؛ وعلى إباحة ذلك ، دلّ

(١) [٧ / الأعراف / ٢٦] ونصها : يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .
(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] ونصها : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

قوله «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...» إلى قوله - ليشهدوا منافع لهم»^(١) وقوله : «وَأَخْرُوجْ يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ»^(٢).

وقد روى البخاري^(٣) عن ابن عباس قال: كان ذوالحجاء وعكاظ متجرا للناس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ « في مواسم الحج » .

ففي الآية الترخيص لمن حج في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق - وهو المراد بالفضل هنا - ومنه قوله تعالى : فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^(٤) . أى : لا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحج رزقا ونفعا وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج ..! « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ - أى : دفعتم منها - « فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » أى : بالتيبة ، والتهليل ، والتكبير ، والثناء ، والدعوات . و (المشعر الحرام) : موضع بالمزدلفة ، ميمه مفتوحة وقد تكسر ، وقد وهم من ظنه جيلا بها . سمي به لأنه معلم للعبادة وموضع لها - كذا في « القاموس وشرحه » .

ونقل الفخر عن الواحدى في (البيسط) : إن (المشعر الحرام) هو المزدلفة . سماها الله تعالى بذلك ، لأن الصلاة والمقام والمبيت به ، والدعاء عنده . واستقر به الفخر قال : لأن الفاء في قوله « فَادْكُرُوا اللَّهَ ... الخ » تدل على أن الذكر عند المشعر الحرام يحصل عقب الإفاضة من عرفات ، وما ذاك إلا بالبيتة بالمزدلفة . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٧] . (٢) [٧٣ / الزمل / ٢٠] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٥٠ - باب التجارة أيام الموسم

والبيع في أسواق الجاهلية ، حديث ٩٠٤ .

(٤) [٦٢ / الجمعة / ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

قال البيضاوى : ويؤيد الأول ما روى جابر^(١) : أنه صلى الله عليه وسلم لما صلى الفجر - يعنى بالمزلفة بغلس - ركب ناقته حتى أتى الشعر الحرام . أى : فإنه يدلّ على تغاير المزلفة والشعر الحرام لكان مسيره صلى الله عليه وسلم منها إلى الشعر الحرام . ! وإنما قال (يؤيد) لأنه يجوز أن يؤول الشعر الحرام فى الحديث بالجبل ، إمّا بحذف المضاف ، أو بتسمية الجزء باسم الكل - أفاده السيلكوتى .

قال ابن القيمّ فى (زاد المعاد) فى سياق حجته صلى الله عليه وسلم : فلما غربت الشمس واستحكم غروبها أفاض من عرفة بالسكينة من طريق المأزمين ، ثمّ جعل يسير العنق - وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطيء - فإذا وجد فجوة - وهو المتسع - نصّ سيره - أى : رفعه فوق ذلك - وكان يلبي فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، حتى أتى المزلفة فتوضأ ، ثمّ أمر المؤذن بالأذان فأذن ، ثمّ أقام فصلّى المغرب قبل حطّ الرحال وتبريك الجبال ؛ فلما حطّوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثمّ صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ، ولم يصلّ بينهما شيئاً ؛ فلما طلع الفجر صلاها فى أول الوقت ، ثمّ ركب حتى أتى موقفه عند الشعر الحرام ، فاستقبل القبلة وأخذ فى الدعاء والتضرّع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جداً ، وذلك قبل طلوع الشمس . انتهى المقصود منه .

قال بعض الأئمة : ما أحقّ الذكّر عند الشعر الحرام بأن يكون واجباً أو نسكاً ، لأنّه مع كونه مفعولاً له ﷺ ، ومندرجاً تحت قوله : خذوا عني مناسككم ، فيه أيضاً النصّ القرآنى بصيغة الأمر : فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ .

« وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ » بدلائل الكتاب ، أى : اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هدايةً حسنة ! ففاد التشبيه التسوية فى الحسن والكمال ، كما تقول : اخدمه كما أكرمك ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

وهذا الحديث ، ينبغى لمن ينوى الحج ، أن يجعل دراسته هجيراً .

يعنى : لا تنقاصر خدمتك عن إكرامه . وفيه تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج ! « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ : من قبل الهدى « كَلِمَ الضَّالِّينَ » الجاهلين بالإيمان والطاعة . و (إن) هى المحففة ، و (اللام) هى الفارقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ،

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » أى : من عرفة لا من المزدلفة . وفى الخطاب

وجهاً :

أحدها : أنه قريش . وذلك لما كانوا عليه من الترفع على الناس والتعالى عليهم ، وتمظّمهم عن أن يساووهم فى الموقف ، وقولهم : نحن أهل الله ، وقطان حرمة ، فلا نخرج منه فيقفون بجمع ، وسائر الناس بعرفات .

وقد روى البخارى^(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ؛ فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتَ ، ثُمَّ يَقِفْ بِهَا ، ثُمَّ يُفِيضْ مِنْهَا ، فذلك قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » .

وثانيهما : أنه أمر الجميع الناس أن يفيضوا من حيث أفاض الناس يعنى : إبراهيم عليه السلام .

قال الراغب : وسمّاه الناس لأنّ (الناس) يستعمل على ضربين : أحدهما للنوع من غير

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٥ - باب

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، حديث ٨٦٧

اعتبار مدحٍ وذم ، والثاني المدح اعتباراً بوجود تمام الصورة المختصة بالإنسانية ، وليس ذلك في هذه اللفظة ، بل في اسم كل جنس ونوع - نحو : هذه فرس وفلان رجل ، وليس هذا بفرس ولا فلان برجل - أى : ليس فيه معناه المختص بنوعه . وبهذا النظر نفى السمع والبصر عن الكفار ؛ فعلى هذا سُمِّي إبراهيم (الناس) على سبيل المدح - وهو أن الواحد يسمَّى باسم الجماعة تنبيهاً على أنه يقوم مقامهم في الحكم - وعلى هذا قول الشاعر :

وليس على الله بمستكرٍ أن يجمع العالم في واحد !!
وعلى هذا قال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » ^(١) اهـ .

فإن قيل : ما معنى كلمة « ثم » فإنها تستلزم تراخى الشيء عن نفسه ، سواء عطف على مجموع الشرط والجزاء ، أو الجزاء فقط .. ؟

الجواب : إن كلمة « ثم » ليست للتراخى ، بل مستعمارة للتفاوت بين الإفاضتين - أى : الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة - والبعد بينهما بأن أحدهما صواب والآخر خطأ . قال التفتازانى : لما كان المقصود من قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » المعنى التمريض ، كان معناه : ثم لا تفيضوا من مزدلفة . والمقصود من إيراد كلمة « ثم » التفاوت بين الإفاضتين في الرتبة بأن إحداها صواب والأخرى خطأ .

وأجاب بعضهم بأن « ثم » بمعنى الواو .

« وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ » عما سلف من المعاصي « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال ابن كثير عليه الرحمة : كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات . ولهذا ثبت في (صحيح مسلم) ^(٢) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠] ونصها : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٣٥ (طبعتنا) =

وثلاثين . وفي (الصحيحين)^(١) : أنه نذب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين .
وقد روى ابن جرير ههنا حديث^(٢) عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة .

= ونصه : عن ثوبان قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا انصرف من صلاته ، استغفر الله ثلاثاً وقال « اللهم ! أنت السلام ومنك السلام . تباركت إذا الجلال والإكرام » .
(١) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٥٥ - باب الذكر بعد الصلاة ،
حديث ٤٩٩ . ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء الفقراء إلى النبى ﷺ فقالوا :
ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم . يصلون كما نصلى . ويصومون
كما نصوم . ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتصرون ، ويجاهدون ويتصدقون .
قال « ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد
بعدكم . وكنتم خير من أنتم بين ظهرائه ، إلا من عمل مثله : تسبحون وتحمدون وتكبرون
خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » .
فاختلفنا بيننا . فقال بعضنا : نسبح ثلاثاً وثلاثين ونحمد ثلاثاً وثلاثين ونكبر أربعاً
وثلاثين .

فرجعت إليه فقال « تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر . حتى يكون منهم كلهن
ثلاثاً وثلاثين » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٢ (طبعتنا) .
(٢) انظر الصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع من تفسير ابن جرير ، حديث رقم ٣٨٤٣
(طبعة المعارف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ)
 « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ » أى : فرغتم من أعمال الحجّ ونفرتم « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » أى : فأكثرُوا ذكر الله ، وابدلوا جهدكم فى الثناء عليه وشرح آلائه ونعمائه ، كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم بعد قضاء مناسككم .
 وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات .. ! ليس لهم ذكر غير فمال آبائهم ، فأزل الله هذه الآية . وفيها إشعارٌ بتحويل القوم عما اعتادوه ، وحثٌ على أفراد ذكره جلّ شأنه .

ثمّ أرشد تعالى إلى دعائه - بعد كثرة ذكره - فإنه مظنة الإجابة . وذمّ من لا يسأله إلّا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه ، فقال « فَمِنَ النَّاسِ » أى : الذين نسوا قدر الآخرة وكانت الدنيا أكبر همهم « مَنْ يَقُولُ » أى : فى ذكره « رَبَّنَا ءَاتِنَا » أى : مرغوباتنا « فى الدُّنْيَا » لا نطلب غيرها « وَمَا لَهُ فى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ » أى : نصيب وحظ لأنه استوفى نصيبه فى الدنيا بتخصيص دعائه به . فالجملّة إخبار منه تعالى ببيان حاله فى الآخرة ؛ أو المعنى : ماله فى الآخرة من طلب خلاق . فهو بيان لحاله فى الدنيا وتصريح بما علم ضمناً من قوله « ءَاتِنَا فى الدُّنْيَا » ؛ أو تأكيد لكون همه مقصوراً على الدنيا . وقوله « فى الْآخِرَةِ » حينئذٍ متعلّق « بخلاق » حال منه ؛ وتضمن هذا الذمّ والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك .
 قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس : كان قوم من الأعراب يحيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم ! اجعله عام غيثٍ وعام خصبٍ وعام ولاد حسن . ! لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً .
 فنزل فيهم ذلك .

وهؤلاء الذين حكى الله عنهم - أنهم يقتصرون في الدعاء على طلب الدنيا - قال قوم : هو مشركو العرب . وكونهم لا خلاق لهم في الآخرة ظاهر . إذ لا نصيب لهم فيها من كرامة ونعيم وثواب . وقال قوم : هؤلاء قد يكونون مؤمنين ولكنهم يسألون الله لدنياهم لا لأخراهم ، ويكون سؤالهم هذا من جملة الذنوب ، حيث سألوا الله تعالى - في أعظم المواقف وأشرف المشاهد - حطام الدنيا وعرضها الفاني ، معرضين عن سؤال النعيم الدائم في الآخرة . . ! ومعنى كونهم لا خلاق لهم في الآخرة ، أى : إلا أن يتوبوا ، أو إلا أن يعفو الله عنه ، أو لا خلاق له في الآخرة كخلاق من سأل المولى لآخرته ، والله أعلم . كذا يستفاد من الرازى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»
 جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا والآخرة ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى - من عافية ، ودار رحبة ، وزوجه حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ... إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين - ولا منافاة بينها - فإنها كلها مندرجة في الحسنه في الدنيا . وأما الحسنه في الآخرة : فأعلى ذلك رضوان الله تعالى ودخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ... وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وأما النجاة من النار : فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام .
 وقد ورد في السنة الترغيب في هذا الدعاء ، فقد كان يقول صلى الله عليه وسلم كما رواه البخارى^(١) عن أنس .

(١) أخرجه البخارى في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٥٥ - باب قول النبي ﷺ :

ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، حديث ١٩٧٤ .

وروى الإمام أحمد^(١) : سأل قتادة أنساً : أى دعوة كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم أكثر ؟ قال : كان أكثر دعوة يدعو بها يقول « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ! ورواه مسلم^(٢) . وهذا لفظه .

وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ... الآية » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعمت الجميلة ، وما فيه من معنى البعد لما مرّ مراراً من الإشارة إلى علو درجاتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل « لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا » أى : من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذى هو النافع الحسنة . أو من أجل ما كسبوا ، كقوله : مما خَطِئْتُمْ بِهِمُ اغْرِقُوا^(٣) . أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيتهم منه فى الدنيا والآخرة . وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال وهى موصوفة بالكسب « وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » إمّا بمعنى سريع فى الحساب كسريع فى السير ، فالجملة تذييل لقوله « أُولَئِكَ ... » الخ يعنى : أنه يجازيهم على قدر أعمالهم وكسبهم ولا يشغله شأن عن شأن لأنه سريع فى المحاسبة ؛ أو بمعنى : سريع حسابه كحسن الوجه . فالجملة

= ونصه : عن أنس قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : اللهم ! ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٦

(طبعتنا) .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] .

تذييل لقوله « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ... » الخ يعني : يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد . فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة باكتساب الطاعات والحسنات .
وقال الراغب : لما كان الحساب يكشف عن جل الشيء وتفصيله ، نبه بذلك على إحاطته بأفعال عباده ووقوفه على حقائقها . وذكر السريع تنبيهاً أن ذلك منه لا في زمان ولا بفكرة ، وذلك أبلغ ما يمكن أن يتصور به الكافة سرعة فعل الله .

تنبيه :

قال الرازي : اعلم أن الله تعالى بين أولاً تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال « فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ... » الخ ، ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره فقال « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ... » الخ ، ثم بين بعد ذلك الذكر كيفية الدعاء فقال « فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ... » الخ وما أحسن هذا الترتيب ! فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ، ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله تعالى لتنوير القلب وتجلي نور جلاله ، ثم بعد ذلك الذكر ، يشتغل الرجل بالدعاء ، فإن الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقاً بالذكر ...!

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَإِذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ » هي أيام التشريق ، قاله ابن عباس رضي الله عنه .
وروى الإمام مسلم^(١) عن نبیة الهذلي قال : قال رسول الله ﷺ : أيام التشريق أيام

(١) أخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٤٤ (طبعنا) .

أكل وشرب وذكر الله . وقال عكرمة : معنى هذه الآية : التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر ! الله أكبر ! .

وروى البخارى^(١) عن ابن عمر : أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام ، وخلف الصلوات ، وعلى فراشه ، وفي فسطاطه ، وفي مجلسه ، وفي مشاه في تلك الأيام جميعاً . وفي رواية : أنه كان يكبر في قبه فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى - أخرجه البخارى تعليقاً .

ومن الذكر في هذه الأيام التكبير مع كل حصاة من حصى الجمار كل يوم من أيام التشريق . فقد ورد في (الصحيح)^(٢) : أن النبي ﷺ كبر مع كل حصاة . وقد جاء في الحديث^(٣) الذي رواه أبو داود وغيره : إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل . .

وروى مالك^(٤) في (موطأه) عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر حين ارتفاع النهار شيئاً . فكبر ، فكبر الناس بتكبيره . ثم خرج الثانية من يومه ذلك بعد ارتفاع النهار فكبر ، فكبر الناس بتكبيره . ثم خرج الثالثة حين زاغت الشمس فكبر ، فكبر الناس بتكبيره حتى يتصل التكبير ويبلغ البيت فيعلم أن عمر قد خرج يرى .

ثم قال مالك : والتكبير في أيام التشريق على الرجال والنساء - من كان في جماعة أو وحده - بمنى أو بالآفاق كلها واجب .

(١) أخرجه البخارى في : ١٣ - كتاب العيدن ، ١٢ - باب التكبير أيام منى .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٣٨ - باب يكبر مع كل حصاة ،

حديث ٨٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٧ - كتاب الحج ، ٦٤ - باب ماجاء كيف ترمى الجمار .

(٤) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

ثم قال : الأيام المحدودات أيام التشريق .

وفي (القاموس وشرحه) : (التشريق) تقديد اللحم ، ومنه سميت أيام التشريق وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها أي : تشرّر في الشمس - حكاه يعقوب . وقيل : سميت بذلك لقولهم : أشرق ثبير كما نغير ؛ أو لأن الهدى لا ينحر حتى تشرق الشمس - قاله ابن الأعرابي . قال أبو عبيد : وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير ، ولم يذهب إليه غيره .

« فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أي : فمن تعجل النفر الأول من هذه الأيام الثلاثة ، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث ، واكتفى برمي الجار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ، فلا يأتهم بهذا التعجيل . وإيضاحه : أنه يجب على الحاج البيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالي أيام التشريق . ليرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة . يرمي عند كل جمرة سبع حصيات . ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويدع البيت ليلة الثالثة ورمى يومها ، فذلك واسع له « وَمَنْ تَأَخَّرَ » أي : حتى رمى في اليوم الثالث وهو النفر الثاني « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » في تأخره ، واعلم : السنة هو التأخر . فإنه ﷺ لم يتعجل في يومين بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة . ولا يقال هذا اللفظ - أعني « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » - إنما يقال في حق المقتص لا في حق من أتى بتمام العمل ، لأننا نقول : أتى به لمشكلة اللفظ الأول كقوله : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ^(١) ، وقوله : فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ^(٢) ، ونحن نعلم أن جزاء السيئة والعدوان ليس بسيئة

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ولا عدوان . فإذا حمل على موافقة اللفظ مالا يصح في المعنى - فَلَأَنْ يُحْمَلَ عَلَى مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ مَا يَصِحُّ فِي الْمَعْنَى أَوَّلَى . لِأَنَّ الْمُرُورَ الْمَاجُورَ يَصِحُّ فِي الْمَعْنَى نَقْيَ الْإِثْمِ عَنْهُ - قَالَ الْوَاحِدِيُّ .
وقال الراغب : رفع الإثم عن المتعجل والتأخر على وجه الإباحة - أى كناية عنها -
وقيل : رفع الإثم أنه حط ذنوبهما بإقامتهما الحج - تعجل أو تأخر - بشرط أن يكون
مقياسهما الاعتبار بالتقوى ، وعلى ذلك دلّ حديث^(١) : مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرَفْثَ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ
كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ !

وقوله تعالى : « لِمَنْ أَتَقَى » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الذى ذكر - من التخيير ونقي
الإثم عن المتعجل والتأخر ، أو من الأحكام - لمن اتقى ، لأنه الحاج على الحقيقة والمنفعة به .
على حد : ذلك خير للذين يريدون وجه الله^(٢) وقوله : هُدًى لِلْمُتَّقِينَ^(٣) . « وَأَتَقُوا
اللَّهَ » - فى مجامع أموركم - « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء على أعمالكم ،
وهو تأكيد للأمر بالتقوى وبعث على التشدد فيه ، لأن من تصور أنه لا بد من حشر
ومحاسبة ومساءلة ، وأن بعد الموت لادار إلا الجنة أو النار - صار ذلك من أقوى الدواعى له
إلى التقوى . و (الحشر) اسم يقع على ابتداء خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف .

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٧ - كتاب المحصر ، ٩ - باب قول الله تعالى : فَلَا رَفْثَ

حديث ٨١٥ .

ومسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعنا) .

(٢) [٣٠ / الروم / ٣٨] ونصها : فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ،
ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢] ونصها : ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ

عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى : يعظم في نفسك حلاوة حديثه وفصاحته في أمر الحياة الدنيا التي هي مبلغ علمه « وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ » أى : يحلف بالله على الإيمان بك والمحبة لك وأن الذي في قلبه موافق لسانه لئلا يتفرس فيه الكفر والعداوة ؛ أو معناه : يظهر لك الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق - على نحو ما وصف به أهل النفاق حيث قالوا : نشهد إنك لرسول الله ^(١) . - كقوله تعالى : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ... ^(٢) الآية « وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ » شديد الخصومة ، جدل بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٥] (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ،

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)

« وَإِذَا تَوَلَّى » - انصرف عن خدعه بكلامه - « سَعَىٰ » - مشى - « فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا » بإدخال الشبه في قلوب المسلمين ، وباستخراج الحيل في تقوية الكفر ، وهذا

(١) [٦٣ / المناقون / ١] ونصها : إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٠٨] ونصها : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا .

المعنى يسمّى فساداً ، كقوله تعالى - حكايةً عن قوم فرعون : أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ^(١) . أى : يردّوا قومك عن دينهم ويفسدوا عليهم شرعهم ؛ وسمّى هذا المعنى فساداً لأنه يوقع الاختلاف بين الناس ، ويفرق كلمتهم ، ويؤدى إلى أن يتبرأ بعضهم من بعض ، فتتقطع الأرحام ، وتنسفك الدماء . وهذا كثير في القرآن المجيد . « وَيُهْلِكِ الْحَرْثَ » أى : الزرع . « وَالنَّسْلَ » أى : المواشى الناتجة .

قال بعض المحققين : إنّ إهلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد ، وأن التعبير به عن ذلك صار من قبيل المثل ؛ فالعنى : يؤذى مسترسلاً فى إفساده ولو أدّى إلى إهلاك الحرث والنسل .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ » أى : لا يرضى فعله .

قال الراغب : إن قيل : كيف حكم تعالى بأنه لا يحب الفساد وهو مفسد للأشياء ؟ قيل : الإفساد فى الحقيقة : إخراج الشئ عن حاله محمودة لالغرض صحيح ، وذلك غير موجود فى فعل الله تعالى ، ولا هو أمرٌ به ، ولا محبٌ له ، وما يرى من فعله ويظهر بظاهره فساداً فهو بالإضافة إلينا واعتبارنا له كذلك . فأمّا بالنظر الإلهى فكله صلاح ، ولهذا قال بعض الحكماء : يا من إفساده إصلاح ! أى : ما نظنه إفساداً - لقصور نظرنا ومعرفتنا - فهو فى الحقيقة إصلاح ؛ وجملة الأمر : إنّ الإنسان هو زينة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله ، ولهذا قال تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ^(٢) . والمقصود من الإنسان سوقه إلى كماله

(١) [٧ / الأعراف / ١٢٧] ونصها : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ، قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الذى رسخ له ، فإذن : إهلاك ما أمر بإهلاكه ، لإصلاح الإنسان وما منه أسباب حياته الأبدية . ولشرح هذه الجملة موضع آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ،

فَحَسْبُ جَهَنَّمَ ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُ » على نهج العظة « اتَّقِ اللَّهَ » في النفاق ، واحذر سوء عاقبته . أوفى الإفساد والإهلاك وفي اللجاج بالباطل « أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » أى : حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم وهو التكبر ؛ أو المعنى : أخذته الحمية للإثم الذى فى قلبه فنعتته عن قبول قول الناصح « فَحَسْبُ » أى : كفيه « جَهَنَّمَ » إذا صار إليها واستقر فيها جزاء وعذاباً « وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : الفراش الذى يستقر عليه بدل فرش عزته .

قال الراغب : المهد معروف ، وتصور منه التوطئة ، ف قيل لكل وطى مهدي . والمهاد يجعل تارة جملاً للمهد ، وتارة للآلة نحو فراش . وجعل جهنم مهاداً لهم كما جعل العذاب مبشراً به فى قوله : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(١) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . و [٩ / التوبة / ٣٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ - ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وقال الحاكم : هذه الآية تدلّ على أنّ من أ كبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد : اتق الله ! فيقول : عليك نفسك . .

قال الزمخشري : ومنه ردّ قول الواعظ .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَ فَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ ، النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبَشَ الْأَمْصِيرُ ^(١) .

ولما أتمّ تعالى الإخبار عن هذا الفريق من الناس الضالّ ، أتبعه بقسيمه المهتدى . ليعث العباد على تجنّب صفات الفريق الأول ، والتخلّق بنبوت الثاني فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٧] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ » أى : يبيعها بيدها في طاعة الله « ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » أى : طلب رضاه « وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » حيث أرشدهم لما فيه رضاه ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، مع كفرهم به ، وتقصيرهم في أمره .

لطيفة :

قال بعضهم : كان مقتضى المقابلة للفريق الأول أن يوصف هذا الفريق بالعمل الصالح مع عدم الدعوى والتبجّح بالقول ، أو مع مطابقة قوله لعمله ، وموافقة لسانه لما في جنانه ! والآية تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به . فإنّ من يبيع نفسه لله ، لا يبغي ثمناً لها غير مرضاته ، لا يتحرّى إلا العمل الصالح وقول الحق والإخلاص في القلب فلا يتكلم بلسانين ،

ولا يقابل الناس بوجهين ، ولا يؤثر على ما عند الله عرض الحياة الدنيا ... وهذا هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه ...

وقد أخرج الحارث بن أبى أسامة فى (مسنده) ، وابن أبى حاتم ورزين عن سعيد ابن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، واتثل ما فى كنانته ثم قال : يامعشر قريش ! لقد علمت أنى من أرمأكم رجلاً ، وإيم الله ! لاتصلون إلى حتى أرى كل سهم معى فى كنانتى ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شيء ، ثم افعولوا ما شئتم . وإن شئتم دلتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى ؟ قالوا : نعم ! فلما قدم على النبىِّ ﷺ المدينة قال : ربح البيع ، أبايحي ! ربح ، أبايحي !.. ونزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ... الآية » .

وأخرج الحاكم فى (المستدرک) نحوه من طريق ابن المسيب عن صهيب موصولاً . وأخرجه أيضاً من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس . وفيه التصريح بنزول الآية ، وقال : صحيح على شرط مسلم ؛ وروى أنها نزلت فى صهيب وغيره . كما روى فى نزول الأولى روايات ساقها بعض المفسرين .

ولا تنافى فى ذلك . لأن قولهم نزلت فى كذا ، تارة يراد به أن حالاً ما كان سبباً لنزولها ، بمعنى أنها ما نزلت إلا لأجله ! وهذا يعلم إما من إشعار الآية بذلك ، أو من رواية صح سندها صحة لا مطعن فيه . وتارة يراد به أنها نزلت بعد وقوع شأن ما تشمله بعمومها . فيقول الراوى عقيب حدوث ذلك الشأن : نزلت فى كذا ، والمراد أنها تصدق عليه لا أن ذلك الشأن كان سبباً للنزول ... وما روى فى هذه الآية من هذا القبيل .

وإلى هذا النوع أشار الزركشى فى (البرهان) بقوله : قد^(١) عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم . لأن هذا كان السبب فى نزولها . فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع ...

(١) بالصفحة رقم ٣١ من الجزء الأول (طبعتنا) .

وقد قدّمنا أنّ سبب النزول مما يدخله الاجتهاد . وأنّه لا يعول منه إلّا على ما صحّ سنده . وما نزل عنه وارتقى عن درجة الضعف يتفقّه فيه .. فاحرص على هذا التحقيق ، وقد أسلفنا في (المقدّمة) البحث فيه مستوفى . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ » - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام فيهما . قراءتان سبعيتان - أى : فى الإسلام . قال امرؤ القيس بن عابس :
فلستُ مبدّلاً بالله ربّاً ولا مستبدلاً بالسِّلْمِ ديناً ! ..
ومثله قول أخى كندة :

دعوت عشيرتى للسِّلْمِ لَمَّا رأيتهمُ تولّوا مدبرينا ! ..

قال الرازى : أصل هذه الكلمة من الانقياد . قال الله تعالى : إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(١) . والإسلام إنما سُمّي إسلاماً لهذا المعنى . وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب . وهذا أيضاً راجع إلى هذا المعنى . لأن عند الصلح ينقاد كل واحدٍ لصاحبه ولا ينازعه فيه .

ومعنى الآية : ادخلوا فى الاستسلام والطاعة . أى : استسلموا لله وأطيعوه ولا تخرجوا عن شىء من شرائعه « كَافَّةً » حال من الضمير فى (ادخلوا) « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : طرقه التى يأمركم بها . فَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا

(١) [٢ / البقرة / ١٣١] .

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(١) وَإِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ^(٢)
 وضمّ الطاء من (خطوات) واسكانها لغتان : حجازية وتميمية . وقد قرئ بهما في السبع .
 « إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » . ظاهر العداوة أو مُظْهِر لها . أى : بما أخبرناكم به في أمر
 أيكم آدم عليه السلام وغيره ، مما شواهدة ظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٩] (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فَإِنْ زَلَلْتُمْ » أى : عن الدخول في السلم « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ » أى :
 الآيات الظاهرة على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ « فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » غالبٌ
 لا يمجزه الانتقام ممن زلّ ولا يفوته من ضلّ « حَكِيمٌ » لا ينتقم إلا بحقّ . وقوله
 « فَأَعْلَمُوا ... » الخ نهاية في الوعيد . لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر
 العقاب . وربما قال الوالد لولده : إن عصيتني فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وشدة
 سطوتى . فيكون هذا الكلام - فى الزجر - أبلغ من ذكر الضرب وغيره . فظهر تسبب
 الجزاء فى الآية بما أشعر به من الزجر والتهديد على الشرط المشير إلى ذنبهم وجرمهم .

هذا ، ومن الوجوه المحتملة فى الآية ، أن يكون (السلم) المذكور فيها معناه الصلح
 والمسالة وترك المنازعة والاختلاف . فعنى « ادخلوا فى السلم » : كونوا متوافقين ومجتمعين
 فى نصره الدين ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن يحملكم على طلب الدنيا والمنازعة مع
 الناس . فتكون الآية حينئذ كقوله تعالى : وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ^(٣) .

(١) [٢ / البقرة / ١٦٩] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٦] وأول الآية : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ،

(٣) [٨ / الأنفال / ٤٦] ونصها : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا

وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وقوله : **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ^(١) وقوله : **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ^(٢) . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] **(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)**

« هَلْ يَنْظُرُونَ » أى ينتظرون ، (فنظر) كـ (انتظر) ، يقال : نظرت و انتظرته إذا ارتقت حضوره . وهذا الاستفهام إنكارى فى معنى النفي ؛ أى : ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة - فى الامتثال بما أمروا به ، والانهاء عما نهوا عنه - بعد طول الحلم عنهم « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » جمع ظلة - كقل فى جمع قلة - أى : فى ظلة داخل ظلة - ، وهى ما يستر من الشمس ، وهى فى غاية الإظلام وال هول والمهابة لما لها من الكثافة التى تمنع على الرأى ما فيها « وَالْمَلَائِكَةُ » - عطف على الاسم الجليل - أى : ويأتى جنده الذين لا يعلم كثرتهم إِلَّا هو . هذا ، على قراءة الجماعة . وعلى قراءة أبى جعفر ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٣] ونصها : **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .**

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .**

بالخلف . فهو عطف على ظلل أو الغمام « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » أى : أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه . قال الراغب : نبه به على أنه لا يمكن تلافى الفاسط ..! وهو عطف على « يأتهم » داخل في حيز الانتظار . وإنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحققه ، فكأنه قد كان . أو جملة مستأنفه جىء بها إنباء عن وقوع مضمونها . « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » . أى : فمن كانوا نافذى الملك والتصرف فى الدنيا ، فإن ملكهم وتصرفهم مسترد منهم يوم القيامة وراجع إليه تعالى . يقال : رجع الأمر إلى الأمير ، أى استرد ما كان فوضه إليهم . أو عنى : « الأمور » الأرواح والأنفس دون الأجسام ، وسمّاها أموراً من حيث إنها إبداعات مشار إليها بقوله : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ^(١) . فهى من الإبداع الذى لا يمكن من البشر تصوره ؛ فنبه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة ؛ وعلى نحو ذلك قال : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ^(٢) . ويكون رجوعها إما بريح وغبطة ، وإما بندامة وحسرة . قاله الإمام الراغب .

قال أبو مسلم : إنه تعالى قد ملك كل أحد فى دار الاختبار والبلوى أموراً ، امتحاناً . فإذا انقضى أمر هذه الدار ووصلنا إلى دار الثواب والعقاب كان الأمر كله لله وحده . وإذا كان كذلك فهو أهل أن يُتقى ويطاع ويدخل فى السلم - كما أمر - ويحترز عن خطوات الشيطان كما نهى .

وقد قرئ فى السبع (تُرْجَع) بضم التاء بمعنى تُرد ، وبفتحةا بمعنى تصير ، كقوله تعالى

- (١) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَالِكِينَ .
- (٢) [٧ / الأعراف / ٢٩] ونصها : قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ^(١) .

قال القفال : والمعنى فى القراءتين متقارب . لأنها ترجع إليه تعالى ، وهو سبحانه يرجعها إلى نفسه بإفناء الدنيا وإقامة القيامة .

تنبيهات

الأول :

لهذه الآية أشباه ونظائر تدلّ على أن هذا الوعيد أخروى .

ولذا قال ابن كثير فى معنى الآية : يقول تعالى مهدياً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ »
يعنى : يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كلّ عاملٍ بعمله : إن خيراً نغير ، وإن شراً فشرّ . ! ولهذا قال تعالى « وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ »
كما قال الله تعالى : كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *
وَجِئْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى^(٢) . وقال : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...^(٣) الآية.

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٣] ونصها : صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٢١-٢٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٨] وباقى الآية : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنًا مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

الثانى :

وصفه تعالى نفسه بالإتيان فى ظللٍ من الغمام كوصفه بالحيء فى آيات آخر ونحوها مما وصف به نفسه فى كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ . والقول فى جميع ذلك من جنس واحد . وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها : إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكيفٍ ولا تمثيل . والقول فى صفاته كالقول فى ذاته . والله تعالى ليس كمثله شئٌ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله . فلو سأل سائل : كيف يحيى سبحانه أو كيف يأتى ..؟ فليقل له : كيف هو فى نفسه ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفية ذاته ! فليقل له : وكذلك لا تعلم كيفية صفاته ..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف .

وقد أطلق غير واحدٍ ، ممن حكى إجماع السلف ، منهم الخطأ بى : مذهب السلف أن صفاته تعالى تجرى على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها . وبعض الناس يقول : مذهب السلف إن الظاهر غير مراد . ويقول أجمعنا على أن الظاهر غير مراد . وهذه العبارة خطأ إمّا لفظاً ومعنىً ، أو لفظاً لا معنى . لأن لفظ (الظاهر) فيه إجمال واشتراك . فإن كان القائل يمتد أن ظاهرها التمثيل بصفات الخلقين أو ماهو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد ؛ ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ؛ فهذا القائل أخطأ حيث ظن أن هذا المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى جعله محتاجاً إلى تأويل ، وحيث حكى عن السلف ما لم يريدوه . وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها ، والظاهر هو المراد فى الجميع ، فإن الله لما أخبر أنه بكل شئ عليم ، وأنه على كل شئ قدير ، وافق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره ، أن ظاهر ذلك مراد - كان من العلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقد رتته كقدرتنا . وكذلك لما اتفقوا على أنه حى عالم حقيقة ، قادر حقيقة ، لم يكن مرادهم أنه مثل الخلق الذى هو حى عليم قدير . فإن كان المستمع يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات الخلقين لزمه أن لا يكون

شيء من ظاهر ذلك مراداً . وإن كان يعتقد أن ظاهرها ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن له نقى هذا الظاهر ، ونفى أن يكون مراداً إلاّ بدليل يدل على النقي . وليس في العقل ولا السمع ما ينفي هذا إلاّ من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الكلام في الجميع واحداً .
 وحينئذٍ فلا يجوز أن يقال : إن الظاهر غير مراد بهذا التفسير . وبالجملة ، فمن قال : إن الظاهر غير مراد - بمعنى أن صفات المخلوقين غير مرادة - قلنا له : أصبت في المعنى ولكن أخطأت في اللفظ ، وأوهمت البدعة ، وجعلت للجهمية طريقاً إلى غرضهم ، وكان يمكنك أن تقول : تمرّ كما جاءت على ظاهرها مع العلم بأن صفات الله ليست كصفات المخلوقين ، وأنه منزّه مقدّس عن كلّ ما يلزم منه حدوثه أو نقصه . ومن قال : الظاهر غير مراد بالتفسير الثاني - وهو مراد الجهمية ومن تبعهم - فقد أخطأ . وإنما أتى من أخطأ من قبل أنه يتوهم - في بعض الصفات أو في كثير منها أو أكثرها أو كلّها - أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير :
 أحدها : كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظنّ أن مدلول النصوص هو التمثيل .

الثاني : أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله ، بقيت النصوص معطلة عما دلّت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله . فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيء الذي ظنه بالله ورسوله - حيث ظنّ أن الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل - قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى .
الثالث : أنه ينفي تلك الصفات عن الله عزّ وجلّ بغير علم ، فيكون معطلاً لما يستحقّه الرب .

الرابع : أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات - من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات - فيكون قد عطّل به صفات الكمال التي يستحقّها الرب ، ومثله

بالمقوصات والمعدومات ، وعطلّ النصوص عما دلّت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بال مخلوقات ، فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملجداً في أسماء الله وآياته .

وحاصل الكلام : أنّ هذه الصفات إنما هي صفات الله سبحانه على ما يليق بجلاله .
نسبتُها إلى ذاته المقدسة كنسبة صفات كل شيء إلى ذاته .

هذا ملخص ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه في رسالتيه (التدمرية) و (المدنية) .

قال الحافظ ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ؛ إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أنّ من أقرّ بها شبه . وهم ، عند من أقرّ بها ، نافون للمعبود . والحقّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة . وقال القاضي أبو يعلى في كتاب (إبطال التأويل) : لا يجوز ردّ هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ؛ والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله لا تشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتد التشبيه فيها .

وقال عبد الله بن المبارك : إذا نطق الكتاب بشيء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه . واعلم أنه ليس في العقل الصحيح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية . والمخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة ، من التأولين لهذا الباب ، في أمر مريب . وسبحان الله ! بأيّ عقل يوزن الكتاب والسنة ..؟

ورضى الله عن الإمام مالك حيث قال : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ ، لجدل هذا ؟ وكلّ من هؤلاء خصوم بمنزل ما خصم به الآخر . وهو من وجوه :

أحدها : بيان أنّ العقل لا يحيل ذلك .

والثاني : أنّ النصوص الواردة لا تحتمل التأويل .

الثالث : أنّ عامة هذه الأمور قد علم أنّ الرسول جاء بها بالاضطرار . كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان . فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية فى الحجّ والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات ؛ على أنّ الأساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأنّ العقل لاسبيل له إلى اليقين فى عامة المطالب الإلهية . فإذا كان هكذا ، فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

قال البقاعى : وتبلى الملائكة فى ظلل من الغمام أمر مألوف . منه مافى الصحيح عن البراء رضى الله عنه قال ^(١) : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطّين ، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة نزلت بالقرآن !

وعن أسيد بن حضير قال ^(٢) : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس . فسكت فسكت . فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكتت الفرس . ثم قرأ فجالت الفرس . فأنصرف . وكان ابنه يحى قريباً منها . فأشفق أن تصيبه . فلما اجتريه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها . فلما أصبح حدث النبيّ ﷺ . فقال : اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير . قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ بحى وكان منها قريباً . فرفعت رأسى فأنصرفت إليه . فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصاييح . فخرجت حتى لا أراها .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ١١ - باب فضل سورة الكهف .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ١٥ - باب نزول السكينة

والملائكة عند قراءة القرآن .

قال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك . ولو قرأت لأصبحتُ ينظر الناس إليها ، لاتتوارى منهم .
وقال البقاعى أيضاً : لما كان بنو إسرائيل أعلم الناس بظهور مجد الله فى الغمام لما رأى أسلافهم منه عند خروجهم من مصر وفى جبل الطور وقبة الزمان وما فى ذلك - على ما نقل إليهم - من وفور الهيئة وتعظم الجلال . قال تعالى - جواباً لمن كان قال : كيف يكون هذا ؟ -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١١] (سَلِّ بْنِ إِسْرَآئِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« سَلِّ بْنِ إِسْرَآئِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ » المراد بهذا السؤال : تقرير بنى إسرائيل وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات ، لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم أمر . كما إذا أراد واحدنا توبيخ أحد ، يقول لمن حضره : سلُّ كمْ أنعمت عليه ؟ - أى : كم شاهدوا المعجزات الظاهرة على أيدى أنبيائهم ، القاطعة بصدقهم عليهم السلام فيما جاءوهم به : كعصا موسى ، وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر ، ومن إزال المن والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق . ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله عليهم بها كفرًا كما أشعر بذلك قوله تعالى : « وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » فالمراد بنعمة الله آياته ، فهو من وضع الظاهر موضع المضمهر بغير اللفظ السابق ، لتعظيم الآيات ؛ ولا يخفى أنها من أجل أقسام نعم الله تعالى لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة . وتبديلهم إياها : استبدالهم

بالإيمان بها، الكفرَ بها والإعراض عنها . كما قال تعالى - إخباراً عن كفار قريش - :
 « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
 وَبِئْسَ الْقَرَارُ ^(١) » وقوله « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ » أى : وصلت إليه وتمكن من معرفتها
 أو عرفها ، والتصريح بذلك - مع أن التبديل لا يتصور قبل المجيء - للإشعار بأنهم قد بدلوها
 بعد ما وقفوا على تفاصيلها ، وفيه تقييح عظيم بهم ، ونمى على شناعة حالهم ، واستدلال
 على استحقاتهم العذاب الشديد حيث بدلوا ، بعد المعرفة .. !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٢] (زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا .
 وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
 « زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » حتى بدلوا النعمة « الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » لحضورها ، فأهتهم
 عن غائب الآخرة .

قال الحرالى : فى ضمنه إشعار بأن استحسان بهجة الدنيا كفرهم ما ، من حيث أن
 نظر العقل والإيمان يُبصِّرُ طيبتها ، ويشهد جيفتها ، فلا يغترّ بزينتها ، وهى آفة الخلق
 فى انقطاعهم عن الحق ؛ فأبهم تعالى الزين فى هذه الآية ليشمل أدنى الزين الواقع على
 لسان الشيطان ، وأخفى الزين الذى يكون من استدراج الله كما فى قوله تعالى : كَذَلِكَ
 زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ^(٢) .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ
 فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وفي كلامه إشعار بما يجاب عن ورود التزيين ، مسنداً إلى الله تعالى تارةً وإلى غيره أخرى ، في عدة آيات من التنزيل الكريم .

وللراغب كلام بديع ينحلّ به مثل هذا الإشكال وهو قوله :

إنّ الفعل كما ينسب إلى المباشر له ، ينسب إلى ما هو سببه ومسبّله ، وعلى هذا يصحّ أن ينسب فعل واحد تارةً إلى الله تعالى وتارةً إلى غيره ، نحو قوله : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ^(١) ، وفي موضع آخر: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ^(٢) . فأسند الفعل في الأول إلى المباشر له ، وفي الثاني إلى الأمر به ؛ وهكذا ، بتصوّر ما ذكر ، نزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوبةً إلى الله تعالى ، منفياً عن الله تعالى . نحو قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ^(٣) . وقوله : وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى^(٤) ، وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ^(٥) .

« وَيَسْخَرُونَ » - أي : يهزأون - « مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » وهذا كما قال تعالى :

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ بِكُمْ تَرْجَعُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلْيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ... (١) الآيات « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون ، وإنما ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها وإيذاناً بترتب الحكم عليها « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأنهم في عِلِّيِّين وهم في أسفل سافلين ، أو لأنهم يتناولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا ، كما قال تعالى : فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (١) .

ولذا قال الراغب : يحتمل قوله تعالى « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وجهين :

أحدهما : أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا .

والثاني : أن المؤمنين في الآخرة هم في العرفات ، والكفار في الدرك الأسفل من النار . انتهى .

لطائف : قال السيلكوتى : اعلم أن قوله تعالى « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... » الخ جملة معلة لما سبق من أحوال الكفار من المناققين وأهل الكتاب ؛ يعنى أن جميع ما ذكر من صفاتهم الذميمة ، لأجل تهالكهم في محبة الحياة الدنيا وإعراضهم عن غيرها ؛ وأورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه ، مركوزاً في طبيعتهم . وعطف عليه بالفعل المضارع - أعنى « يَسْخَرُونَ » - لإفادة الاستمرار . وعطف قوله « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا » لتسلية المؤمنين .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » يعنى : ما يعطى الله هؤلاء

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٩ - ٣٦] وبقى الآيات : وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَى الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

المتقين من الثواب بغير حساب ، أى: رزقا واسماً رغداً لا فناء له ولا انقطاع ، كقوله سبحانه: فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ^(١) ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا دَخَلَ تَحْتَ الْحِسَابِ وَالْحَصْرِ وَالتَّقْدِيرِ فَهُوَ مَتْنَاهُ ، فَمَا لَا يَكُونُ مَتْنَاهُ كَانَ لَا مُحَالَةَ خَارِجاً عَنِ الْحِسَابِ .

وقد استقصى الراغب ما تحتمله الآية من وجوها - وتلك سعة - وعبارته : أعطاه بغير حساب : إذا أعطاه أكثر مما يستحق ، أو أقل مما يستحق ؛ والأول هو المقصود وهو المشار إليه بالإحسان ؛ وقد فسر ذلك على أوجه لإجمال اللفظ وإبهامه :

الأول : يعطيه عطاء لا يحويه حصر العباد . كقول الشاعر :

* عطاياه ، يُحْصَى قَبْلَ إِحْصَائِهَا الْقَطْرُ *

الثانى : يعطيه أكثر مما يستحقه .

الثالث : يعطيه ولا مئة .

الرابع : يعطيه بلا مضايقة ، من قولهم : حاسبه .

الخامس : يعطيه أكثر مما يحسبه أن يكفيه - وكلّ هذه الوجوه يحتمل أن يكون في الدنيا ، ويحتمل أن يكون في الآخرة .

السادس : أن ذلك إشارة إلى توسيعه على الكفار والفساق الذين قال فيهم : وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... الآية^(٢) ، تنبيهاً أن لا فضيلة فى المال لمن يوسع عليه ،

(١) [٤٠ / غافر / ٤٠] ونصها : مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] ونصها : وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

مالم يستعن عليه في الوصول إلى المطلوب منه؛ ولهذا قال تعالى: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ... الآية (١)**.
السابع : يعطى أولياءه بلا تبعة ولا حساب عليهم فيما يعطون ، وذلك لأنّ المؤمن لا يأخذ من عرض الدنيا إلّا ما يجب من حيث يجب على الوجه الذي يجب ولا ينفقه إلّا على ذلك ، فهو يحاسب نفسه فلا يحاسب ، ولهذا روى : من حاسب نفسه في الدنيا أمن الحساب في الآخرة ! وعلى هذا قال تعالى لسليمان : **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢)**.

الثامن : أن الله عزّ وجلّ يعامل في القيامة المؤمنين لا بقدر استحقاقهم بل بأكثر منه ، كما قال : **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً... (٣)** الآية .

التاسع : وهو يقارب ذلك : أن ذلك إشارة إلى ما روى أن أهل الجنة لا حظر عليهم ، وعلى ذلك قوله تعالى: **فِيهَا مَا تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ... (٤)** الآية وقوله : **يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ... الآية .**
وأمّا تعلقه بما تقدم ، فعلى بعض هذه التفسير ، يتعلق بالذين كفروا ، وعلى بعضه يتعلق بالذين آمنوا .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥ و ٥٦] ونصهما : **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .**
(٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .**

(٤) [٤٣ / الزخرف / ٧١] ونصها : **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .**

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٣] (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ

مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ

إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى : وجدوا أمة واحدة تتحدا مقاصدها ومطالبها ووجهتها

لتصلح ولا تفسد ، وتحسن ولا تسيء ، وتعديل ولا تعظم ؛ أى : ما وجدوا إلا ليكونوا

كذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (١)

أى : اتحرفوا عن الاتحاد والاتفاق ، الذى يشمر كل خير لهم وسعادة ، إلى

الاختلاف والشقاق المستتبع الفساد وهلاك الحرث والنسل . ولما كانوا لم يخلقوا سدى من

الله عليهم بما يبصرهم سبيل الرشاد فى الاتحاد على الحق من بعثة الأنبياء ، وما نزل معهم من

الكتاب الفصل ، كما أشارت تمة الآية « فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ » الذين رفعهم على بقية خلقه

فأنبأهم بما يريد من أمره ، وأرسلهم إلى خلقه « مُبَشِّرِينَ » لمن آمن وأطاع « وَمُنْذِرِينَ »

لمن كفر وعصى « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ » أى : كلامه الجامع لما يحتاجون إليه فى باب

الدين على الاستقامة والهداية التامة لكونه متلبساً « بِالْحَقِّ » من جميع الوجوه « لِيَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » من الاعتقادات والأعمال التى كانوا عليها قبل ذلك أمة

واحدة ، فسلكوا بهم ، بعد جهد ، السبيل الأقوم ، ثم ضلوا على علم بعد موت الرسل ،

فاختلفوا فى الدين لاختلفهم فى الكتاب « وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ » أى : الكتاب الهادى الذى

(١) [١٠ / يونس / ١٩] ونصها : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ،

وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف « إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ » أى : علموه ، فبدّلوا نعمة الله بأن أوقعوا الخلاف فيما أزل لرفع الخلاف . ولم يكن اختلافهم لالتباس عليهم من جهته بل « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ » - أى : الدلائل الواضحة - « بَغْيًا بَيْنَهُمْ » أى : حسداً وقع بينهم « فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالكتاب « لِمَا اخْتَلَفُوا » أى : أهل الضلالة « فِيهِ مِنَ الْحَقِّ » : أى : للحق الذى اختلفوا فيه . وفى إيهامه أولاً ، وتفسيره ثانياً ، ما لا يخفى من التفخيم ، « بِإِذْنِهِ » أى : بتيسيره ولطفه ، « وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . تقرير لما سبق . وفى (صحيح مسلم)^(١) عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان - إذا قام من الليل يصلى - يقول : اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ! فاطر السموات والأرض ! عالم الغيب والشهادة ! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم .. ! .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ »
أى : من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين ، أى : والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ، ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة ، سنة الله التى لا تبدل « مَسْتَهْمُ » استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه ذهن ، كأنه قيل : كيف كان مثلهم ؟

(١) أخرجه فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعنا) .

قفيل : مستهم « البأساء والضراء » أى : الشدائد والآلام « وَزُلْزِلُوا » أى : أزعجوا ، مما دهمهم من الأهوال والإفزع ، إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة التى تكاد تهد الأرض وتذك الجبال « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ » أى : انتهى أمرهم من الشدة إلى حيث اضطرم الضجر إلى أن يقول الرسول - وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى ، وأوثقهم بنصره ، وداعيمهم إلى الصبر - « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ » - وهم الأتبع بعدة ، العازمون على الصبر ، الموقنون بوعد النصر - « مَتَى نَصْرُ اللَّهِ » - استبطاء له ، واستطالة لمدّة الشدة والعناء - فيقال لهم : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . كما قال تعالى : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ^(١) . أى : فاصبروا كما صبروا تظفروا !.. وقد حصل من هذا الابتلاء جانب عظيم للصحابة رضى الله عنهم يوم الأحزاب ، كما قال الله تعالى : إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ... الآيات ^(٢) .

وروى البخارى ^(٣) عن خباب بن الارت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالنتشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه . والله ! ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون !..

(١) [٩٤ / الشرح / ٦٥] .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠ - ١٢] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٨٩ - كتاب الإكراه ، ١ - باب من اختار الضرب والقتل

والهوان على الكفر ، حديث ١٦٩٦ .

وفي رواية : . . . وهو متوسدٌ مُردَّةً ، وقد لقينا من المشركين شدة . . .
ولما سأل هرقل أبا سفيان : هل قاتلتموه ؟ قال : نعم ! قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟
قال : سجالاً ، يدال علينا ونُدال عليه . قال : كذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة !
وهذه الآية كآية : ألم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الكَاذِبِينَ (١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٥] (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)
« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : أى شئ ينفقونه من أصناف الأموال ؟ « قُلْ
مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ » قبل غيرها ليكون أداء لحق تربيتهما مع كونه صلة وصدقة
« وَالْأَقْرَبِينَ » بعدهما ليكون صلة وصدقة « وَالْيَتَامَىٰ » بعدهم لأن فيهم الفقر مع العجز
« وَالْمَسَاكِينِ » بعدهم لاحتياجهم « وَابْنِ السَّبِيلِ » بعدهم لأنه كالفقير لغيبه ماله .
فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال ، فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأجيبوا ببيان
المصرف ؟ فالجواب : أن قوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » قد تضمن بيان ما ينفقونه - وهو
كل مالٍ عدوه خيراً - وبني الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف ، لأن النفقة لا يعتمد
بها إلا أن تقع موقعها . قال الشاعر :

إن الصنعة لا تكون صنعةً حتى يصاب بها طريق المصنع !
فإذا صنعت صنعةً فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أو دَعِ . . !

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ - ٣] .

فيكون الكلام من الأسلوب الحكيم كقوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ (١) . فيما تقدم هذا .

وقال القفال : إنه وإن كان السؤال وارداً بلفظ (ما) ، إلا أن المقصود السؤال عن الكيفية ، لأنهم كانوا عاقلين أن الذي أمروا به إنفاق مال يخرج قربة إلى الله تعالى ؛ وإذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم إلى أن ذلك المال أى شيء هو ؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مراداً تعين أن المطلوب بالسؤال : أن مصرفه أى شيء هو ؟ وحينئذ يكون الجواب مطابقاً للسؤال . ونظيره قوله تعالى : قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ... (٢) وإنما كان هذا الجواب موافقاً لذلك السؤال ، لأنه كان من المعلوم أن البقرة هي البهيمة التي شأنها وصفها كذا ؛ فقوله (ما هي ؟) لا يمكن حمله على طلب الماهية ، فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التي بها تتميز تلك البقرة عن غيرها . فهذا الطريق قلنا : إن ذلك الجواب مطابق لذلك السؤال . فكذا ههنا ، لما علمنا أنهم كانوا عاقلين بأن الذي أمروا بإنفاقه ما هو - وجب أن يقطع بأن مرادهم من قولهم « مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ » ليس هو طلب الماهية ، بل طلب المصرف ، فلهذا أحسن هذا الجواب ...!

وأجاب الراغب بجوابين :

أحدهما : أنهم سألوا عنهما وقالوا : ما تنفق ؟ وعلى من تنفق ؟ ولكن حذف

- (١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .
- (٢) [٢ / البقرة / ٧٠ و ٧١] وباقيهما : ... تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَأَشْيَةٍ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

في حكاية السؤال أحدهما إيجازاً ، ودلّ عليه بالجواب بقوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » كأنه قيل : المنفق الخير ، والمنفق عليهم هؤلاء ؛ فلفف أحد الجوابين في الآخر ، وهذا طريق معروف في البلاغة .

الجواب الثاني : إن السؤال ضربان : سؤال جدل ، وحقه أن يطابقه جوابه . لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه . وسؤال تعلم وحق المعلم أن يكون كالطبيب يتحرى شفاء سقيم فيطلب ما يشفيه - طلبه المريض أو لم يطلب . فلما كان حاجتهم إلى من ينفق المال عليهم كحاجتهم إلى ما ينفق من المال ، بين لهم الأمرين جميعاً . إن قيل : كيف خص هؤلاء نفر دون غيرهم ..؟ قيل : إنما ذكر من ذكر على سبيل المثال لمن ينفق عليهم ، لا على سبيل الحصر والاستيعاب ، إذ أصناف المنفق عليهم على ما قد ذكر في غير هذا الموضع .

ولما بين تعالى وجه المصرف وفصله هذا التفصيل الحسن الكامل ، أرفده بالإجمال فقال « وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى : وكل ما فعلتموه من خير - إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم - حسبه الله ، وطلباً للجزيل ثوابه ، وهرباً من أليم عقابه ، فإن الله به عليم . والعليم مبالغة في كونه عالماً ، يعنى : لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فيجازيكم أحسن الجزاء عليه ، كما قال : إِنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى^(١) وقال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(٢) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٢) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٦] (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« كُتِبَ » أى : فرض « عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ » أى : قتال المتعرضين لقتالكم ، كما قال : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا^(١) ، المراد بقتالهم الجهاد فيهم بما يبيدهم أو يقهرهم ويخذلهم ويضعف قوتهم .

قال بعض الحكماء : سيف الجهاد والقتال هو آية العز ، وبه مصرت الأمصار ، ومدنت المدن ، وانتشرت المبادئ والمذاهب ، وأيدت الشرائع والقوانين ؛ وبه حُيى الإسلام من أن تعبت به أيدي العابثين في الغابر ، وهو الذى يحميه من طمع الطامعين فى الحاضر ؛ وبه امتدت سيطرة الإسلام إلى ما وراء جبال الأورال شمالاً ، وخط الاستواء جنوباً ، وجدران الصين شرقاً ، وجبال الپيرنه غرباً ..!

قال : فيجب على المسلمين أن لا يتملصوا من قول بعض الأوروبيين : إن الدين الإسلامى قد انتشر بالسيف ! فإن هذا القول لا يضر جوهر الدين شيئاً ؛ فإن المنصفين من الأوروبيين يعلمون أنه قام بالدعوة والإقناع ، وأن السيف لم يجرد إلا لحماية الدعوة ، وإنما التملص منه يضر المسلمين لأنه يقعدهم عن نصره الدين بالسيف ، ويقودهم إلى التخاذل والتواكل ، ويحملهم على الاعتقاد بترك الوسائل فيستخذنون إلى الضعف كما هى حالتهم اليوم ، وتبتلعهم الأمم القوية التى جعلت شعار تمدنها السيف أو القوة ..!

قال : يجب على المسلمين أن يدرسوا آيات الجهاد صباح مساء ، ويطيلوا النظر فى قوله تعالى :

(١) [٢ / البقرة / ١٩٠] . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ^(١) ، لَعَلَّهُمْ يَتَحَفَّزُونَ إِلَى مَجَارَاةِ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ الْمُجَاهِدَةِ فِي الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ !..

وقوله تعالى « وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ » من الكراهة ، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة .
كقول الخنساء ^(٢) : * فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ * كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له ، أو هو فُعل بمعنى مفعول - كالخبز بمعنى المحبوز - أى : وهو مكروه لكم ، وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال - لما فيه من مؤنة المال ، ومشقة النفس ، وخطر الروح ، والخوف - فلا ينافي الإيمان . لأن كراهة الطبع جبلية لا تنافي الرضاء بما كلف به . كالمرضى الشارب للدواء البشع .

وفي القاموس وشرحه : (الكره) بالفتح ويضمّ : لغتان جيدتان بمعنى الإباء والمشقة .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .
(٢) البيت بتمامه :

تَرْتَعُ مَارْتَعَتْ حَتَّى إِذَا دَاكَرْتَ فَيْعَمًا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
أخبرت أنها قلقه تقبل وتدبر من شدة ما بها من العجز (والعجز الرعدة والاضطراب والقلق الشديد) على ولدها .

تقول : كَأَنِّي وَحْشِيَّةٌ إِذَا غَفَلْتُ رَعْتُ ، وَإِذَا دَاكَرْتُ فَقَدْ وَلَدِيهَا لَمْ يُقَرِّهَا قَرَارٌ . والبيت للخنساء من قصيدة في صخر . مطلعها :

ما هاج حزني ؟ أم بالعين عَوَّارُ أم ذَرَفَتْ أُمُ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
العَوَّار : وجع في العين كالقذى . ذرفت : قطرت قطراً متتابعاً لايبلغ أن يكون سيلاً .
والمعنى : أى شيء هاج حزني ؟ عَوَّارُ بعينيك ؟ أم سالت الدموع لخلاء هذه الدار ؟

قال ثعلب : قرأ نافع وأهل المدينة في سورة البقرة « وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ » بالضم في هذا الحرف خاصة ، وسأر القرآن بالفتح . وكان عاصم يضم هذا الحرف والذي في الأحقاف : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا^(١) ، ويقرأ سائرهن بالفتح . وكان الأعمش وحمة والكسائي يضمون هذه الحروف الثلاثة والذي في النساء : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهًا^(٢) ، ثم قرأوا كل شيء سواها بالفتح . قال الأزهرى : ونختار ما عليه أهل الحجاز : أَنْ جَمِيعُ مَا فِي الْقُرْآنِ بِالْفَتْحِ إِلَّا الَّذِي فِي الْبَقَرَةِ خَاصَةً ، فَإِنَّ الْقُرَاءَةَ أَجْمَعُوا عَلَيْهِ ! . قال ثعلب : ولا أعلم بين الأحرف التي ضمها هؤلاء وبين التي فتحوها فرقاً في العربية ، ولا في سنة تتبع ، ولا أرى الناس اتفقوا على الحرف الذي في سورة البقرة خاصة ، إلا أنه اسم وبقية القرآن مصادر . قال الأزهرى : وقد أجمع كثير من أهل اللغة : أَنَّ (الْكُرْهُ وَالْكُرْه) لثنتان ، فبأى لغة وقع فجأز . إلا الفراء فإنه فرق بينهما بأن (الْكُرْه) بالضم ما أكرهت نفسك عليه ، وبالفتح : ما أكرهك غيرك عليه . تقول : جئتُك كُرْهًا ، وأدخلتني كُرْهًا . وقال ابن سيده : الْكُرْه : الإياء والمشقة تتكلفها فتحتملها ، وبالضم : المشقة تحتملها من غير أن تكلفها . يقال : فعل ذلك كرها وعلى كره . قال ابن برى :

- (١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .
- (٢) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

وبدل لصحة قول الفراء قول الله عز وجل : وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا^(١) ، ولم يقرأ أحد بضم الكاف . وقال سبجانه : كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ^(٢) ، ولم يقرأ أحد بفتح الكاف . فيصير (الكره) بالفتح . فعل المضطر ، و(الكره) بالضم : فعل المختار .

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا » - كالجهاد في سبيل الله تعالى - « وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » إذ فيه إحدى الحسنين : إما الظفر والغبية ، وإما الشهادة والجنة « وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا » - كالقعود عن الغزو - « وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنية والأجر « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » - ماهو خير لكم « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ذلك . فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم فهو رؤوف بالعباد لا يأمرهم إلا بخير .

قال الحارثي : ففنى العلم عنهم بكلمة (لا) أى : التى هى للاستقبال حتى تفيد دوام الاستصحاب . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . قال : من حيث رتبة هذا الصنف من الناس من الأعراب وغيرهم ، وأما المؤمنون - أى : الراسخون - فقد علمهم الله من علمه ما علموا أن القتال خير لهم وأن التخلف شر لهم .

حتى إن علمهم ذلك أفاض على ألسنتهم ما يفيض الدموع وينير القلوب ، حتى شاورهم النبي صلى الله عليه وسلم في التوجه إلى غزوة بدر^(٣) ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال وأحسن

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَفَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

ثم قام عمر رضى الله عنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضى الله عنه فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك، والله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون^(١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذى بعثك بالحق لو سرت إلى برك الغماد^(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .! فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا على أيها الناس! فقال له سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه : والله! لكانك تريدنا يا رسول الله! قال : أجل . قال : فقد آمنا بك وصدقتك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

القول في تأويل قول تعالى :

[٢١٧] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتَوْهُ هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(١) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

(٢) هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر . وقيل : بلد باليمن .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ » قال الراغب : السائل عن ذلك ، قيل : أهل الشرك قصداً إلى تعيير المسلمين لما تجاوزوه من القتل في الشهر الحرام ، وقيل : هم أهل الإسلام .

وقد أخرج الطبراني في (الكبير) ، والبيهقي في (سننه) ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً ، وبعث عليهم عبد الله بن جحش ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى . فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام . فأُنزل الله هذه الآية . فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأُنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية (١) .

وأخرجه ابن منده في الصحابة عن ابن عباس .

وملخص ما ذكره الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) وابن هشام في (السيرة) في الكلام على هذه السرية ونزول هذه الآية : أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين ، كل اثنين يعتقان على بعير ، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش ، وفي هذه السرية سُمي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين . وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه . فلما سار يومين فتح الكتاب فوجد فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة - بين مكة والطائف - فترصد بها عيراً لقريش ، وتعلم لنا من أخبارهم ، فقال : سمعاً وطاعة ! وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم ، فن

(١) [٢ / البقرة / ٢١٨] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٢٣ و٤٢٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

أحبّ الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، فأما أنا فناهض ! فنهضوا كلّهم . فلما كان في أثناء الطريق أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يتعقبانه . فتخلفا في طلبه . فبعّد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت به غير لقريش تحمل زبيياً وأدماً وتجارة . فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن الغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بني الغيرة . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب . لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم فليمتنعنّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ! فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على مقاتلتهم ، فرمى أحدهم عمرو ابن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل فأعجزهم ، ثم أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعر والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ وقد عزلوا من ذلك الخمس - وهو أول خميس كان في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسيرين في الإسلام - فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه واشتد تعيب قريش وإنكارهم ذلك . وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً فقالوا : لقد أحلّ محمد الشهر الحرام ! ، واشتد ذلك على المسلمين حتى أنزل الله تعالى « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ... الآية » .

وقوله تعالى « قِتَالٍ فِيهِ » بدل من الشهر ، بدل الاشتمال ، لأن القتال يقع في الشهر . وقال الكسائي : هو مخفوض على التكرير . يريد أن التقدير : عن قتالٍ فيه . وهو معنى قول الفراء : مخفوض بـ (عن) مضمرة . وهذا ضعيف جداً لأن حرف الجر لا يبقّى عمله بعد حذفه في الاختيار ..! وقال أبو عبيدة : هو مجرور على الجوار . وهو أبعد من قولهما ، لأن الجوار من مواضع الضرورة والشذوذ ولا يحمل عليه ما وجدت عنه مندوحة . وفيه يجوز أن يكون نعتاً لـ (قتال) ، ويجوز أن يكون متعلقاً به كما يتعلق بـ (قاتل) .

وقد قرئ بالرفع في الشاذ ، ووجهه على أن يكون خبر مبتدأ محذوف معه همزة الاستفهام تقديره : أجاز قتال فيه ؟

« قُلْ » في جوابهم « قِتَالُهُ فِيهِ كَبِيرٌ » أى : أمر كبير مستنكر ؛ وقد كانت العرب لا تسفك دمًا ولا تغير على عدوٍّ في الأشهر الحرم وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وسندكر ، في تنبيه يأتى ، التحقيق فى كون تحريم القتال فيها محكمًا أو منسوخًا .

قال الراغب : إن قيل : لمَ لم يقل : القتال فيه كبير ، وشرط النكرة المذكورة إذا أعيد ذكرها أن يعاد معرّفًا نحو : سألتنى عن رجلٍ والرجل كذا وكذا ؟ قيل : فى ذكره منكرًا تنبيهًا على أن ليس كل القتال فى الشهر الحرام هذا حكمه ، فإن قتال النبي ﷺ لأهل مكة لم يكن هذا حكمه ، فقد قال : أحلت لي ساعة من نهارٍ ولم تكن تحل لأحد قبلى ^(١) . « وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : عن دينه الموصل إلى رضوانه ، أو عن البيت الحرام ، فإن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : سُمي الحجّ (سبيل الله) .

قال الحرايى : و (الصدّة) : صرفٌ إلى ناحية بإعراض وتكرّره ، و (السبيل) : طريق الجادة السالبة عليه الظاهر لكلّ سالك منهجه . وصدّ مبتدأ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ - كتاب العلم ، ٣٩ - باب كتابة العلم . ونصه : عن أبى هريرة أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتلوه . فأخبر بذلك النبي ﷺ . فركب راحلته فخطب فقال « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار . ألا وإنها ساعتي هذه ، حرام لا يختل شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطها إلا لمنشد . فمن قُتل فهو بخير النظرين . إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتل » .

فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يا رسول الله . فقال « اكتبوا لأبى فلان » فقال رجل من قريش : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإننا نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال النبي ﷺ « إلا الإذخر ، إلا الإذخر » .

« وَكُفِّرْ بِهِ » أى : بالسبيل - أعنى الدين - أو بالله ، عطف عليه . « وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » عطف على « سبيل الله » أى : وصدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام . وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى « به » أى : كفره به بالمسجد الحرام . « وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ » أى : أهل المسجد الحرام - وهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون الذين هم أولياؤه - وهو عطف على « صدّ » أيضاً « مِنْهُ » من المسجد الحرام ؛ وخبر الأسماء الثلاثة « أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ » جرماً مما فعلته السرية من قتلهم إياهم فى الشهر الحرام . لأن الإخراج فتنة « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » فى الشهر الحرام ، أى : فقد فعلوا بكم فى المسجد الحرام ما هو أكبر من القتل فيه ، وحرمة المسجد كرامة الشهر ..! هذا ، وقيل : خبر « صدّ » و « كفر » محذوف لدلالة ما تقدم عليه .

وأشار الرازى إلى إعراب آخر وهو : إنّ « صدّ » و « وكفر » معطوفان على « كبير » أى : قتال فيه ، موصوف بهذه الصفات . وعليه ، ف(أكبر) خبر (إخراج) فقط . وقد جنح لهذا المهايى حيث قال فى (تفسيره) :

(قل قتال فيه كبير) من المعاصى الكبائر كيف (و) هو (صدّ عن سبيل الله) أى عن التجارة التى جعلها الله سبيل الرزق لعباده (و) لو استبيح هذا القتل فهو (كفر به) صدّ عن (المسجد الحرام) إذا قتل الحجاج الخارجون فى الشهر الحرام ، فهذا وجه تحريم القتال فى هذا الشهر (و) لكن (إخراج أهله) أى إخراجهم أهل المسجد الحرام وهم النبيّ والمؤمنون (منه أكبر عند الله) ... إلى آخره . وهذا الوجه من الإعراب بديع ، والأكثر على الأول .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) فى تأويل هذه الآية : يقول سبحانه : هذا الذى أنكرتموه عليهم - وإن كان كبيراً - فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله ، والصدّ عن سبيله وعن بيته ، وإخراج المسلمين - الذين هم أهله - منه ، والشرك الذى أنتم عليه ، والفتنة التى حصلت

منكم به - أ كبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام . ومما نسب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه في هذا المعنى هذه الأبيات ، ويقال هي لعبد الله بن جحش :

تعدّون قتلاً في الحرام عظيمة ! وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به ، والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ثلثا يرى لله في البيت ساجد
فإنا - وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دماً ، وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غلّ من القيد عائد

قال الإمام ابن القيم في (زادالمعاد) : وأكثر السلف فسروا «الفتنة» هنا بالشرك ، كقوله تعالى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ^(١) وبدل عليه قوله : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ^(٢) أى لم يكن مال شركهم وعاقبته وآخر أمرهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه . وحقيقتها أنها الشرك الذى يدعو صاحبه إليه ، ويقاتل عليه ، ويعاقب من لم يفتن به . ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ . قال ابن عباس : تكذيبكم . وحقيقته : ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها ومصير أمرها ، كقوله : ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ^(٣) . وكما فتنوا عباده على الشرك ، فتنوا على النار وقيل لهم :

(١) [٨ / الأنفال / ٣٩] ونصها : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنَّ انْتِهَآءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٢٤] ونصها : أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ^(١) . ومنه قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ...^(٢) فَتَرَتِ الْفِتْنَةُ - هنا - بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار ، واللفظ أعم من ذلك . وحقيقته : عذبوا المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم . فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين . وأمّا الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه ويضيفها رسوله إليه كقوله : وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ^(٣) وقول موسى : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ^(٤) فتلك بمعنى آخر ، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر ، بالنعم والمصائب . فهذه لون ، وفتنة المشركين لون . وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر . والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب عليٍّ ومعاوية ، وبين أهل الجمل وصفين ، وبين المسلمين حتى يتقاتلوا ويتهاجروا - لون آخر . وهي الفتنة التي قال فيها محمد ﷺ^(٥) : ستكون فتنة ، القاعد فيها خيرٌ من القائم ، والقائم فيها خير

(١) [٥١ / الذاريات / ١٤] ونصها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

(٢) [٨٥ / البروج / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

(٥) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٩ - باب تكون فتنة القاعد فيها =

من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . . . وأحاديث الفتنة - التى أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين - هى هذه الفتنة^(١) . وقد تأتى الفتنة مراداً بها المعصية ، كقوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي^(٢) . يقوله الجدّ بن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك^(٣) ، يقول : ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بتعرضى لبنات الأصفر فإنى لا أصبر

= خير من القائم . ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذب به » .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٢ - كتاب الفتن ، ١١ - باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ونصه : عن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ؟ وكنت أسأله عن الشر ؟ مخافة أن يدركنى . قلت : يا رسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال « نعم » قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال « نعم . وفيه دخن » قلت : وما دخنه ؟ قال « قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال « نعم . دعاة على أبواب جهنم . من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ! صفهم لنا . قال « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » قلت : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال « فاعتزل تلك الفرق كلها . ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

(٢) [٩ / التوبة / ٤٩] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع صفحة ١٥٩ (طبعة الحلبي) وصفحة ٨٩٣ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

عنهنّ ..! قال تعالى : أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، أى : وقعوا فى فتنة النفاق وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر .

والمقصود : أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يبرئ أوليائه من ارتكاب الإثم بالقتال فى الشهر الحرام ، بل أخبر الله أنه كبير وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال فى الشهر الحرام ، فهم أحقّ بالذم ، والعيب والعقوبة ، لاسيما أولياؤه . كانوا متأولين فى قتالهم ذلك ، أو مقصرين نوع تقصير يغفره الله لهم . فى جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ماعند الله ، فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع ..!
فكيف يقاس ببغيضٍ عدوٍّ جاء بكلّ قبيحٍ ولم يأت بشفيعٍ واحدٍ من المحاسن ؟..
تنبيه : اتفق الجمهور على أن حكم هذه الآية : حرمة القتال فى الشهر الحرام . ثم اختلفوا أن ذلك الحكم هل بقى أم نسخ ؟

قال ابن القيم فى (زادالمعاد) فى الفصل الذى عقده ليما كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية . ما نصّه : منها محاربة الكفار ومقاتلتهم فى الأشهر الحرم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية فى الحجة . فكث بها ثم سار إلى خيبر فى المحرم كذلك . قال الزهرى عن عمرو بن مروان والمسور ، وكذلك قال الواقدى : خرج فى أوّل سنة سبع من الهجرة . ولكن فى الاستدلال بذلك نظر . فإنّ خروجه كان فى أواخر المحرم لا فى أوّله ، وفتحها إنما كان فى صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النّبى صلى الله عليه وسلم أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان على القتال وأن لا يفروا . وكانت فى ذى القعدة . ولكن لا دليل فى ذلك . لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فيحنّذ بايع الصحابة . ولا خلاف فى جواز القتال فى الشهر الحرام دفعاً ، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداءً . فالجمهور جوّزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ ، وهو مذهب الأئمة

الأربعة رحمهم الله . وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ ؛ وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال في الشهر الحرام ولا نسخ من تحريمه شيء ..! وأقوى من هذين الاستدلالتين ، الاستدلالُ بحصار النبي صلى الله عليه وسلم للطائف . فإنه خرج إليها في أواخر شوال فحاصروهم بضعاً وعشرين ليلة . فبعضها كان في ذى القعدة . فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان ، وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة . فخرج إلى هوازن وقد بقى من شوال عشرون يوماً ففتح الله عليه هوازن وقسم غنائمها . ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصروه عشرين ليلة . وهذا يقتضى أن بعضها في ذى القعدة بلا شك . وقد قيل إنما حاصروهم بضعة عشرة ليلة . (قال ابن حزم : وهو الصحيح بلا شك) وهذا عجيب منه . فمن أين له هذا التصحيح والجزم به ..؟ وفي (الصحيحين) ^(١) عن أنس بن مالك في قصة الطائف قال : فحاصروناهم أربعين يوماً فاستعصوا وتمنعوا ، وذكر الحديث . فهذا الحصار وقع في ذى القعدة بلا ريب . ومع هذا ، فلا دليل في القصة لأن غزو الطائف كان من تمام غزوة هوازن . وهم بدأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال . ولما انهزموا دخل ملكهم - وهو مالك بن عوف النضري - مع ثقيف في حصن الطائف . فخاربت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان غزوهم من تمام الغزو التي شرع فيها ، والله أعلم .

وقال الله تعالى في سورة المائدة وهي من آخر القرآن نزولاً وليس فيها منسوخ :

(١) ذكر المؤلف أن حديث أنس أخرجه صاحباً الصحيحين . وبحث عنه فيهما فلم أهدأ إليه . لكنني أرجح أنه في صحيح مسلم فقط . بدليل أن الحافظ ابن حجر ، عند قول البخاري (في الحديث ١٩٢٨ في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٥٦ - باب غزوة الطائف) لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ، قال : وذكر أنس في حديثه ، عند مسلم ، أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً . فقلوه (عند مسلم) دليل على أن البخاري لم يخرج به . فمن وقف عليه عند مسلم فليذكره هنا . وأجره على الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ^(١) وقال في سورة البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(٢) . فهاتان آيتان مدينتان . بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام . وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكما . ولا اجتمعت الأمة على نسخه . ومن استدلل على النسخ بقوله تعالى : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ^(٣) ونحوها من العمومات ، فقد استدلل على النسخ بما لا يدل . ومن استدلل عليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أباعاصم في سرية إلى أوطاس في ذى القعدة ، فقد استدلل بغير دليل . لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام .

« وَلَا يَزَالُونَ » - يعنى أهل مكة - « يُقَاتِلُونَكُمْ » - أيها المؤمنون - « حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ » أى : يرجعوكم عن دينكم الإسلام إلى الكفر « إِنْ اسْتَطَاعُوا » أى : قدرُوا على ردِّكم . وفيه استبعاد لاستطاعتهم . فهو كقول الرجل لعدوه : إِنْ ظَفَرْتُ بِي .

(١) [٥ / المائدة / ٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فَلَا تُبْقِرْ عَلَىٰ . وهو واثقٌ أنه لا يظفر به . وجملته « وَلَا يَرِ الْأُنَ » إما معطوفة على « يَسْأَلُونَكَ » أو معترضة . والمقصود : تحذير المؤمنين منهم وعدم المبالاة بمواقفتهم في بعض الأمور، لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة في الدين . وفي الآية إشعار بأنكم أحق بأن لاتزالوا تقاتلونهم . لأنهم قاطعون بأنكم على الحق وأنكم منصورون ، وأنهم على الباطل وهم مخذولون ، ولابد ، وإن طال المدى . لاعتمادكم على الله واعتمادهم على قوتهم . ومن وكل إلى نفسه ضاع . فالأمر الذي بينكم وبينهم أشد من الكلام . فينبغي الاستعداد له بعدته ، والتأهب له بأهبتة ، فضلاً عن أن يلتفت إلى التأثير بكلامهم الذي توحيه إليهم الشياطين طعناً في الدين ، وصدّاً عن السبيل . أشار لذلك البقاعى . ثم حذر تعالى عن الارتداد بقوله : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ » وهو الإسلام . وبناء صيغة الافتعال من الردّة المؤذنة بالتسكف ، إشارة إلى أن من باشر دين الحقّ يبعد أن يرجع عنه ، فهو متكلف في ذلك « فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » أى : بطلت جميع مساعيهم النافعة لهم ، ورُدَّتْ « فِي الدُّنْيَا » - إذ يرفع الأمان عن أموالهم وأهلهم - « وَالْآخِرَةِ » - إذ يسقط ثوابهم فلا يجزون ثمت بحسناتهم « وَ » لا يقتصر عليه بل « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ » أى : أهل النار « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » مقيمون لا يموتون ولا يخرجون كسائر الكفار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بحزمة الشهر في نفسه وجواز قتال الخرجين أهل المسجد الحرام منه « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا » تركوا مكة وعشائرهم إذ أخرجوا من المسجد الحرام « وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ولو في الشهر الحرام للدفع عن أنفسهم « أُولَئِكَ » وإن باشروا القتال

في الشهر الحرام « يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » أى جنته على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم . وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالرجو للإيدان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه ، لا لِأَن في فوزهم اشتباهاً « وَاللَّهُ غَفُورٌ » لهتكهم حرمة الشهر « رَحِيمٌ » بما تجاوز عن قتالهم، مع قيام دليل الحرمة فلم يعاقبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٩] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » هذه الآية أول آية نزلت في الخمر ، على ما قاله ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة .

وروى الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) عن عمر أنه قال - لما نزل تحريم الخمر - قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ! فنزلت هذه الآية التي في البقرة : يسألونك عن الخمر والميسر . . . الآية . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت

(١) أخرجه أحمد في المسند . الصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٥ - كتاب الأشربة ، ١ - باب في تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٨ - باب حدثنا

عبد بن حميد .

الآية التي في النساء « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فكان منادى رسول الله ﷺ - إذا أقام الصلاة - نادى أن : لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرأت عليه ، فلما بلغ « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال عمر : انتهينا انتهينا .

وحقيقة الخمر ما أسكر من كل شيء روى (الشيخان) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (١) : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها ، لم يشربها في الآخرة .

وأما اليسر فهو القمار - بكسر القاف - مصدر من يَسَرَ - كالوعد والرجع من فعلهما - يقال : يَسَرَّتْهُ إذا قرته ، واشتقاقه من (اليُسْر) لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، أو من (اليسار) لأنه سلب يساره .

وصفته : أنه كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام وهي :

(الفذ ، والتوأم ، والرقيب ، والحلس - بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وككتف - والنافس ، والمسبل - كحسين - والمعلّى - كمعظم - ، والمنيح - كأمير ، والسفيح - بوزن ما قبله - ، والوغد) لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزّئونها عشرة أجزاء (كما قاله أبو عمر) أو ثمانية وعشرين جزءاً (كما قاله الأصمعي) وهو الأكثر ، إلا ثلاثة منها وهي (المنيح والسفيح والوغد) فلا أنصباء لها . وإنما يكثر بها القداح كراهة التهمة . ولبعضهم :

لِي فِي الدُّنْيَا سِهَامٌ لَيْسَ فِيهِنَّ رِيحٌ
وَأَسَامِيهِنَّ : وَغْدٌ وَسَفِيحٌ وَمَنِيحٌ

(١) أخرجه مسلم في : ٣٦ - كتاب الأشربة ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

ولم يخرج البخاري عن ابن عمر .

فللفدّ سهم - أى : فرض واحد - وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحِلْس أربعة وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ، وللمعلّى سبعة يجعلونها فى الرّبابة (وهى خريطة) ويضعونها على يديّ عدل ثمّ يجلبجلبها ويدخل يده فيُخرج ، باسم رجلٍ رجلٍ ، قدحاً منها . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ، ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البرّم (بفتحيتين) . كذا : فى (الكشف) بزيادة .

وفى (القاموس وشرحه) : (الميسر) اللعب بالقداح ، أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها . كانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نسيئة ونحروه وقسموه ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رجلٍ رجلٍ ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغرم من خرج له الغفل . وإنما سُمى الجزور ميسراً لأنه يجرّأ أجزاء . وكلّ شيء جزأته فقد يَسَرَّتْه ؛ ويسرت الناقة جزأت لحمها ، ويسر القوم الجزور أى : اجتزروها واقتسموا أجزاءها . قال سُحَيْمُ بْنُ وَثَيْلٍ الْيَرْبُوعِيُّ :

أقول لهم بالشَّعبِ إذ ييسرُونى ألم تعلموا أنّى ابنُ فارسٍ زَهْدَمَ ؟
كان وقع عليه سباء فضرب عليه بالسَّهام . وقوله (ييسرونى) هو من الميسر ، أى : يجزُونى ويقتسمونى . وقال لبيد :

واعفف عن الجارات وامْنَحْهُنَّ مَيْسِرَكَ السَّمِيثَا !

فجعل الجزور نفسه ميسراً . ونقل الصاغاني ، أن الميسر النرد . وقال مجاهد : كلّ شيء فيه قار فهو من الميسر . حتى لعب الصبيان بالجزور .

« قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » أى : عظيم - وقرئ بالثلثة - وذلك لما فيهما من المساوى المناهضة لمحاسن الشرع . من الكذب والشتم وزوال العقل واستحلال مال الغير « وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ « دنيوية من اللذة والطرب والتجارة في الخمر ، وإصابة المال بلا كد في الميسر . وفي تقديم بيان إثمه ، ووصفه بالكِبَر ، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس ، من الدلالة على غلبة الأول - ما لا يخفى على مانطق به قوله تعالى « وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » أى : المفسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه ، أى : لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين . وفي هذا من التنفير عنها ما لا يخفى . ولهذا ، كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرّضة ؛ ولهذا ، قال عمر لما قرئت عليه : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ! حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ^(١) .

تنبيه :

أَلَّف كثير من أعلام الأطباء والفلاسفة مؤلفات خاصة في مضرّات المسكرات . ولم تزل تعقد في بعض ممالك النصارى مؤتمرات دولية ، تدعى إليه نواب من جميع دول العالم الكبيرة لمحاربة المسكرات ، وعيافها ، وإعلان تأثيرها في الأجساد والعقول والأرواح ، وما ينشأ عنها من الخسران المالى . ومما قرره خمسون طبيباً منهم هذه الجمل :

- ١ - إن المسكرات لا تروى الظمأ بل تزيد .
- ٢ - إنها لا تفيد شيئاً في قضاء الأعمال .
- ٣ - إنها توقف النمو العقلى والجسدى في الأولاد .
- ٤ - إنها تضعف قوة الإرادة فتفضى إلى ارتكاب الموبقات ، وتجرّ إلى الفقر والشقاء .
- ٥ - هى من المسكنات كالبنج والإيثر .

(١) [٥ / المائدة / ٩١ و ٩٠] .

- ٦ - إنها تعدّ للأمراض المعدية .
 - ٧ - إنها تعدّ بنوع خاص للتدرّن والسل .
 - ٨ - إنها تضرّ في ذات الرئة والحمى التيفودية أكثر مما تنفع .
 - ٩ - إنها تقرّب النهاية المحزنة في الأمراض التي تنتهي بالموت . وتطيل مدّة الشفاء في الأمراض التي تنتهي بالصحة .
 - ١٠ - إنها تعدّ لضربة الشمس والرغن في أيام الحرّ .
 - ١١ - إنها تسرع يانفاق الحرارة في أيام البرد . .
 - ١٢ - إنها تغير مادة القلب والأوعية الدموية .
 - ١٣ - إنها كثيراً ما تسبب التهاب الأعصاب ، والآلام المبرّحة .
 - ١٤ - إنها تسرع بحويصلات الجسم إلى الهدم .
 - ١٥ - إنّ المقدار العظيم الذي يتناوله أصحاب الأعمال الجسدية من أشربتها هو سبب شقائهم وقرهم وذهاب صحتهم .
 - ١٦ - إنّ الامتناع عنها مما يفضي إلى صحة وسعادة الجنس البشري .
- « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : يتصدقون به من أموالهم « قُلِ الْمَغْفُورُ » وهو ما يفضل عن النفقة ، أى : الفاضل الذي يمكن التجاوز عنه لعدم الاحتياج إليه .
- وفي (الصحيحين)^(١) عن النبي ﷺ قال : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وأبدأ بمن تعول .
- وأخرج مسلم^(٢) عن جابر : أن النبي ﷺ قال : ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٩ - كتاب النفقات ، ٢ - باب وجوب النفقة على الأهل والعيال ، حديث ٧٦٢ . ولم يخرجّه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعنا) ونصه : =

شيء فلاهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلهذا قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا .

وروى أبو داود^(١) والنسائي^(٢) عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : عندي دينار ، قال : أنفقه على نفسك . قال عندي آخر ، قال : أنفقه على ولدك . قال : عندي آخر ، قال : أنفقه على أهلك . قال : عندي آخر ، قال : أنفقه على خادمك . قال : عندي آخر ، قال : أنت أعلم .

« كَذَلِكَ » - أى : كما بين لكم ما ذكر - « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ » أى : الأمر والنهى وهوان الدنيا « لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ، فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فِي الدُّنْيَا » أنها فانية - والآخرة - أنها باقية ، وفى أمورهما لتصلحوها ولا تتحملوا مفسداتهما ، فلا تتركوا اللذائذ الباقية للذائذ الفانية .

== عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دُبر . فباغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « ألك مال غيره ؟ » فقال : لا . فقال « من يشتريه منى ؟ » فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوى بمائة درهم . فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك ... » الخ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٩ - كتاب الزكاة ، ٤٥ - باب صلة الرحم ، حديث ١٦٩١

(٢) أخرجه النسائي فى : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٥٤ - باب تفسير ذلك (أى الصدقة

عن ظهر غنى) وهو ترجمة الباب السابق .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ » أخرج أبو داود^(١) والنسائي^(٢) والحاكم وغيرهم ، عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٣) . وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ سَعِيرًا [٤ / النساء / ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول ﷺ ، فأنزل الله تعالى « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ... الآية » فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وقوله تعالى « قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » أى : مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم . وإنما أقيم غاية المداخلة - أعنى الإصلاح - مقامها ، تنبيهاً على أن المأمور به مداخله يكون ترتب الإصلاح عليها ظاهراً . كأنها عين الإصلاح « وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ » تعاشرهم ولم تجانبوهم « فَأَخْوَأْكُمْ » فبهم إخوانكم فى الدين - الذى هو أقوى من العلاقة النسبية . ومن حقوق الإخوة : المخالطة بالإصلاح والنفع . قال الأصمباني : وإذا كان هذا فى أموال اليتامى واسعاً ، كان فى غيرهم أوسع . وهو أصل شاهد لما يفعله الرفاق فى الأسفار . يخرجون النفقات بالسوية ، ويتباينون فى قلة المطعم وكثرته .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٧ - باب مخالطة اليتيم فى طعامه ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) أخرجه النسائي فى : ٣٠ - كتاب الوصايا ، ١١ - باب ما للوصى من مال اليتيم إذا قام عليه .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ » لأموالهم « مِنْ الْمُصْلِحِ » لها، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحرّوا غير الإصلاح « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ » لَحَمَلَكُمُ على العنت - وهو المشقة - وأخرجكم ، فلم يطلق لكم مداخلتهم ، ولا يمنعه من ذلك شيء . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أى : غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » أى : فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة .

هذا، وقد حمل القاضى قوله تعالى « قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » على جهات المصالح والخيرات العائدة إلى الوليّ واليتيم . قال رحمه الله : هذا الكلام يجمع النظر فى صلاح مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرها لى ينشأ على علم وأدب وفضل ، لأنّ هذا الصنع أعظم تأثيراً فيه من إصلاح حاله بالتجارة . ويدخل فيه أيضاً إصلاح ماله كي لا تأكله النفقة من جهة التجارة . ويدخل فيه أيضاً معنى قوله تعالى : « وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ ^(١) » . ومعنى قوله « خَيْرٌ » يتناول حال المتكفل . أى : هذا العمل خير له من أن يكون مقصراً فى حق اليتيم . ويتناول حال اليتيم أيضاً . أى : هذا العمل خير لليتيم من حيث أنّه يتضمن صلاح نفسه وصلاح ماله . فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والوليّ .

وقد روى البخارى ^(٢) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما . وروى نحوه مسلم أيضاً فى (صحيحه) ^(٣) .

(١) [٤ / النساء / ٢] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٤ - باب فضل من يعود يتيماً .

(٣) مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٢ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢١] (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ، وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ» أى : لا تزوجوا الوثنيات حتى يؤمن بالله تعالى . قال ابن كثير : هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان . ثم إن كان عمومها مراداً ، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : «وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ»^(١) . وقد بسط العلامة الرازى ههنا الكلام على أن لفظ (المشرك) هل يتناول الكفار من أهل الكتاب ؟ فانظره .

والتحقيق : أن المشرك لا يتناول الكتابي ، لأن آيات القرآن صريحة في التفرقة بينهما . وعطف أحدهما على الآخر في مثل : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ»^(٢) . وسر ذلك ، أن المشرك هو من يتدين بالشرك . أى : يكون أصل دينه الإثراك ؛ والكتابي - وإن طرأ في دينه الشرك - فلم يكن من أصله وجوهره .

وقوله تعالى «وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ» تعليل للنهي عن مواصلةهن ، وترغيب في مواصلة المؤمنات ؛ أى : ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر خير من مشركة مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشأن . فإن نقصان الرقية فيها مجبور بالإيمان الذي هو أجل كمالات الإنسان «وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» أى : المشركة بحسنها ونسبها

(١) [٥ / المائة / ٥] . (٢) [٩٨ / البينة / ٦] .

وغيرها . فإن نقصان الكفر لا يجبر بها « وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ » - بضمّ التاء - من الإنكاح وهو التزويج أى : لاتزوّجوا الكفار - بأى كُفّر كان - من المسلمات « حَتَّى يُؤْمِنُوا » وبتركوا ما هم فيه من الكفر « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ » مع ما به من ذلّ الرقيّة « خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ » بداعى الرغبة فيه الدينوية ، فإن ذهاب الكفاءة بالكفر غير مجبور بشئ منها . وأفهم هذا خيرية الحرّة والحرّ المؤمنين من باب الأولى ، مع التشريف العظيم لهما بترك ذكرهما ، إعلاماً بأن خيريّتهما أمرٌ مقطوع به ، وأن المفاضلة إنما هي بين من كانوا يعدّونه دنياً فشرّفه الإيمان ، ومن يعدّونه شريفاً فخرّاه الكفران . ولذلك ذكر الموصوف بالإيمان فى الموضعين ليدلّ على أنه - وإن كان دنياً - موضع التفضيل لعلوّ وصفه . وأثبت الوصف بالشرك فى الموضعين مقتصرّاً عليه لأنه موضع التحقير وإن علا فى العرف موصوفه - أفاده البقاعى .

ثم أشار إلى وجه الحظر بقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى : المذكورون من المشركات والمشركين « يَدْعُونَ » من يقارنهم ويعاشرهم « إِلَى النَّارِ » أى : إلى ما يؤدى إليها من الكفر والفسوق ؛ فإنّ الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة ، وكلّ ذلك يوجب الموافقة فى المطالب والأغراض ، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ..! « وَاللَّهُ يَدْعُو » أى : بما يأمره على السنة رسله « إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ » أى : العمل المؤدى إليهما . وتقدير اللجنة هنا على المغفرة مع سبقها عليها ، لرعاية مقابلة النار ابتداءً « يَأْذَنِهِ » بأمره « وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ » أمره ونهييه فى التزويج « لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » لكى يتعظوا وينتبهوا عن تزويج الحرام ، ويوالوا أولياء الله - وهم المؤمنون - بالمعاشرة والمصاهرة فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والفردان .

هذا ، وقد قيل : معنى « وَاللَّهُ يَدْعُو » وأولياء الله يدعون ، وهم المؤمنون . على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . تشريفاً لهم ، وتقخيماً لشأنهم ، حيث جعل فعلهم فعل نفسه صورة . وملحظه رعاية المقابلة ، كأنه قيل : أعداء الله يدعون إلى النار ، وأولياء الله

يدعون إلى الجنة والمغفرة. إلا أن فيه فوات رعاية تناسب الضمائر ، فإن الضمير في المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى « وَيُبَيِّنْ » لله تعالى ، فيلزم التفكيك .

تنبيه :

قال الراغب : حقيقة التذكّر ، الاستدراك عن نسيان أو غفلة لما اشتبه القلب . قال : إن قيل : إلى أى شيء أشار بهذا التذكّر ؟ قيل : إن الله عزّ وجلّ ركبّ فينا بالفطرة معرفته ومعرفة آلائه . والإنسان باستفادة العلم - يتذكّر ما ذكر فيه ، فهذا معنى التذكّر . ثم قال : وقد قيل : الرجاء من الله واجب . بمعنى أنه إذا رجانا حقق رجاؤنا . قال : وهذه مسألة لا يمكن تصوّرها إن لم نبلغها بتعاطي هذه الأفعال التي شرطها الله تعالى . فلذلك صعب إدراكها لنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٢] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ » وهو الدم الخارج من الرحم على وجه مخصوص في وقت مخصوص . ويسمى الحيض أيضاً . أى : هل يسبب ويقضى مجانبة مسّ من رآته ؟ « قُلْ هُوَ أَذًى » أى : الحيض شيء يستقذر ويؤذى من يقربه ، نفرة منه وكراهة له . « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ » أى : فاجتنبوا مجامعتنّ في زمنه .

قال الراغب : في قوله تعالى « هُوَ أَذًى » تنبيه على أن العقل يقتضى تجنبه ، كأنه قيل : الحيض أذى وكلّ أذى متحاشى منه . ولما كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرّماً ، صرح بتحريمه بقوله « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ » .

روى الإمام أحمد ومسلم^(١) عن ثابت عن أنس رضى الله عنه : أن اليهود كانوا إذا حاضت

(١) أخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت . فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأُنزل الله عزّ وجلّ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى ... إلى آخر الآية» . فقال رسول الله ﷺ : اصنعوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح . فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله ! إن اليهود تقول كذا وكذا ، فلا نجتمعن؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أن قد وجد عليهما . فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ ، فأرسل في آثارهما ، فسقاها ، فعرفا أن لم يجد عليهما .

« وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » تأكيده لحكم الاعتزال ، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن ، لآعدم القرب منهن ، وكفى بقربانهن ، المنهى عنه ، عن مباضعتن . فدل على جواز التمتع بهن حينئذ فيما دون الفرج .

في (الصحيحين)^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض .

وفيها^(٢) عنها أيضا قالت : كان رسول الله ﷺ يتكى في حجرى وأنا حائض ، ثم يقرأ القرآن .

وروى مسلم^(٣) عنها أيضا قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبي ﷺ

(١) أخرجه البخارى في ٦ - كتاب الحيض ، ٢ - باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله ، حديث ٢١٠ .

ومسلم في ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في ٦ - كتاب الحيض ، ٣ - باب قراءة الرجل في حجر امرأته وهى حائض ، حديث ٢١١ .

ومسلم في ٣ - كتاب الحيض حديث ١٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١٤ (طبعنا) .

فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب . وأتعرّق العرق وأنا حائض ، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ .

وفي (الصحيحين)^(١) - واللفظ لمسلم - عن ميمونة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر نساءه فوق الإزار وهنّ حيض .

وفي لفظ له : كان يضطجع معي وأنا حائض وبينى وبينه ثوب .

وقوله « حَتَّى يَطْهُرَنَّ » بيان لغاية الاعتزال . وقد قرئ في السبع : بفتح الطاء والهاء مع التشديد ، وبسكون الطاء وضمّ الهاء مخففة . والقراءة الأولى تدلّ صريحاً على أنّ غاية حرمة القربان هو الاغتسال ، كما ينبيء عنه قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ... الخ » . والقراءة الثانية وإن دلت على أنّ الغاية هو انقطاع الدم - بناء على ما قيل : إنّ الطهر انقطاع الدم ، والتطهر الاغتسال - إلّا أنه لما ضمّ إليها قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » صار المجموع هو الغاية؛ وذلك بمنزلة أن يقول الرجل : لا تكلم فلاناً حتى يدخل الدار، فإذا طابت نفسه بعد الدخول فكلمه ! فإنه يجب أن يتعلق بإباحة كلامه بالأمرين جميعاً . وكذلك الآية - لما دلت على وجوب الأمرين - وجب أن لا تنتهي هذه الحرمة إلّا عند حصول الأمرين ، فرجع القراءتين واحداً، كما بينّا .

وقد روى مسلم^(٢) عن عائشة : أنّ أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل الحيض ؟ فقال :

(١) أخرجه البخاري في : ٦ - كتاب الحيض ، ٥ - باب مباشرة الحائض ، حديث ٢١٤

ومسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

وتعام الحديث : فقالت أسماء : وكيف نظهر بها ؟ فقال « سبحان الله ! تطهّرين بها » فقالت عائشة (كأنها تخفى ذلك) : تنبعين أثر الدم .

وسألت عن غسل الجنابة ؟ فقال « تأخذ ماء فتطهّرين ، فتحسن الطهور . أو تُبلغ =

تأخذ إحدا كنّ ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور ، ثم تصبّ على رأسها فتدلكه دلکاً شديداً حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تصبّ عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها - والفرصة بالكسر : قطعة من صوف أو قطن أو غيره - تتبع بها أثر الدم .

ثم آذن تعالى أنّ التطهر شرط في إباحة قربانهم ، لا يصحّ بدونه ، بقوله سبحانه « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » أى : فجامعوهنّ من المكان الذى أمركم الله بتجنّبه في الحيض وهو القبّل ولا تتعدّوه إلى غيره . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » من الذنوب « وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أى : المتزّهين عن الفواحش والأفذار . كجامعة الحائض والإتيان في غير المأتى . وفي ذكر التوبة إشعاراً بمساس الحاجة إليها - بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه - وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ سِتُّمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا أَنْكُم مَّلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ سِتُّمْ » روى الشيخان^(١) عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتيت المرأة من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول . قال : فأزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ سِتُّمْ » .

= الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه . حتى تبلغ شؤون رأسها . ثم تفيض عليها الماء . فقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار ! لم يكن يمنعن الحياء أن يتفقهن في الدين .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٩ - باب نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ سِتُّمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ... الآية، حديث ١٩٧٧ ومسلم في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث ١١٧ (طبعنا) .

وعند مسلم عن الزهري: إن شاء مجيئة، وإن شاء غير مجيئة، غير أن ذلك في صمام واحد.
قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : هذه الزيادة يشبه أن تكون من تفسير الزهري ،
خلوها من رواية غيره من أصحاب ابن المنكدر ، مع كثرتهم .

و (المجيئة) كملبية : المنكبة على وجهها . و (الصمام الواحد) : الفرج . وقوله تعالى
« حَرِّثَ لَكُمْ » الحَرِّث : إلقاء البذر في الأرض ، هذا أصله ؛ والكلام إما بحذف
المضاف ، أي مواضع حرث ، أو المصدر بمعنى المفعول أي : محروثات . وإنما شُبِّهَنَ بذلك
لما بين ما يلقى في أرحامهن وبين البذور من المشابهة . من حيث إنَّ كلاً منهما مادة لما
يحصل منه . ولما عَبَّرَ تعالى عنهنَّ بالحرثِ عبَّرَ عن مجامعتهنَّ بالإتيان كما تقدَّم ، فقال « فَاتُّوا
حَرَثَكُمْ أَنْتِ شِئْتُمْ » أي : فَاتُّوهُنَّ كما تَأْتُونَ أراضِيكم التي تريدون أن تحرثوها من
أي جهة شِئْتُمْ ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى : جامعوهن من أي جهة شِئْتُمْ
ولا تبالوا بقول اليهود . وفي تخصيص (الحرث) بالذكور تعميم جميع الكيفيات الموصلة إليه .
قال الزحسري : وقوله تعالى : هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ - من حَيْثُ أَمَرَ كُمْ اللهُ - فَاتُّوا
حَرَثَكُمْ أَنْتِ شِئْتُمْ . من الكنايات اللطيفة ، والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها
في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدَّبوا بها ، ويتكلفوا مثلها في محاورتهم
ومكاتبتهم .

وقد ورد - في سبب نزول هذه الآية - رواية أخرى أخرجه أبو داود^(١) والحاكم عن
ابن عباس قال : كان هذا الحى من الأنصار (وهم أهل وثن) مع هذا الحى من يهود (وهم
أهل كتاب) كانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم . وكان
من أمر أهل الكتاب أنهم لا يأتون النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة .
فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحى من قريش

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤٥ - باب في جامع النكاح ، حديث ٢١٦٤

يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون منهنّ مُقبِلات ومُدْبِرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأةً من الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت : إنما كنّا نؤتى على حرف . فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني . حتى سرى أمرها . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » أى : مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعنى بذلك موضع الولد .

تنبيه :

ما ذكرناه من الروايات هو المعول عليه عند المحققين .

وتمت روايات أخرى تدلّ على أنّ هذه الآية إنّما أنزلت رخصةً في إثبات النساء في أدبارهنّ . قال الطحاوى : روى أصبغ بن الفرّج عن عبد الرحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحداً أقنّدى به في ديني يشك أنه حلال (يعنى وطء المرأة في دبرها) ثم قرأ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » ثم قال : فأى شيء أئين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاوى نقلها ابن كثير . وقال الحافظ ابن حجر في تخرّيج أحاديث الرافعى : قال ابن القاسم : ولم أدرك أحداً أقنّدى به في ديني يشك فيه . والمدينون يروون فيه الرخصة عن النبي ﷺ . يشير بذلك إلى ما روى عن ابن عمر وأبى سعيد .

أما حديث ابن عمر فله طرق . رواه عنه نافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وزيد بن أسلم . وسعيد بن يسار . وغيرهم .

أما نافع فاشتهر عنه من طرق كثيرة جداً . منها رواية مالك ، وأيوب ، وعبيد الله بن عمر العمريّ ، وابن أبى ذئب ، وعبد الله بن عون ، وهشام بن سعد ، وعمر بن محمد بن زيد ، وعبد الله بن نافع ، وأبان بن صالح ، وإسحق بن عبد الله بن فروة .

قال الدارقطنى ، في أحاديث مالك التي رواها خارج (الموطأ) : نا أبو جعفر الأسوانى المالكى بمصر . ثنا محمد بن أحمد بن حماد . نا أبو الحرث أحمد بن سعيد الفهرى . نا أبو ثابت

محمد بن عبيد الله . حدثنا الدراوردي عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن نافع قال : قال لي ابن عمر : أمسك على المصحف يا نافع . فقرأ حتى أتى على هذه الآية « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ ... » فقال : تدري يا نافع فيمن أنزلت هذه الآية ؟ قال قلت : لا ؟ قال ، فقال لي : في رجلٍ من الأنصار أصاب امرأته في دبرها ، فأعظم الناس ذلك ، فأنزل الله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ ... » الآية قال نافع : فقلت لابن عمر : من دبرها في قبلها ؟ قال : لا . إلا في دبرها .

قال أبو ثابت : وحدثني به الدراوردي عن مالك وابن أبي ذئب . وفيهما عن نافع مثله . وفي تفسير البقرة من صحيح البخاري : نا إسحق . أنا النضر . أنا ابن عون عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه . فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكانٍ . فقال : تدري فيم أنزلت ؟ فقلت : لا ! قال : نزلت في كذا وكذا . ثم مضى .

وعن عبد الصمد : حدثني أبي - يعني عبد الوارث - حدثني أيوب عن نافع عن ابن عمر في قوله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » قال : يأتيها في ... قال : ورواه محمد بن يحيى بن سعيد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر . هكذا وقع عنده .

والرواية الأولى - في تفسير إسحق بن راهويه - مثل ما ساق ، لكن عين الآية وهي « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » وعين قوله كذا وكذا . فقال : نزلت في إتيان النساء في أدبارهن . وكذا رواه الطبري من طريق ابن علية عن ابن عون . وأما رواية عبد الصمد فهي في تفسير إسحق أيضاً عنه ، وقال فيه : يأتيها في الدبر .

وأما رواية محمد : فأخرجها الطبراني في (الأوسط) عن علي بن سعيد ، عن أبي بكر الأعمش ، عن محمد بن يحيى بن سعيد بلفظ : إنما أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » رخصة في إتيان الدبر . وأخرجه الحاكم في (تاريخه) من طريق عيسى بن ميثون عن

عبد الرحمن بن القاسم . ومن طريق سهل بن عمار عن عبد الله بن نافع . ورواه الدارقطني في (غرائب مالك) من طريق زكريا الساجي عن محمد بن الحرث المدني عن أبي مصعب . ورواه الخطيب في (الرواة) عن مالك من طريق أحمد بن الحكم العبدى . ورواه أبو إسحق الثعلبي في (تفسيره) والدارقطني - أيضاً - من طريق إسحق بن محمد الفروي . ورواه أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) من طريق محمد بن صدقة الفدكي ، كلهم عن مالك . قال الدارقطني : هذا ثابت عن مالك .

وأما زيد بن أسلم : فروى النسائي والطبري من طريق أبي بكر بن أبي أويس ، عن سليمان بن بلال ، عنه ، عن ابن عمر : أن رجلاً أتى امرأته في دبرها على عهد رسول الله ﷺ ، فوجد من ذلك وجداً شديداً ، فأُنزل الله عز وجل « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ ... » الآية . وأما عبيد الله بن عبد الله بن عمر : فروى النسائي من طريق يزيد بن رومان عنه : أن ابن عمر كان لا يرى به بأساً . موقوف .

وأما سعيد بن يسار : فروى النسائي والطحاوي والطبري من طريق عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك : إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحرث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال : قلت لابن عمر : إنا نشتري الجوارى فنحمض لهن (والتحميض : الإتيان في الدبر) فقال : أف ! أو يفعل هذا مسلم ؟ قال ابن القاسم : فقال لي مالك : أشهد على ربيعة لحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر عنه فقال : لا بأس به .

وأما حديث أبي سعيد : فروى أبو يعلى وابن مردويه في (تفسيره) والطبري والطحاوي من طرق : عن عبد الله بن نافع ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها فأنكر الناس ذلك عليه وقالوا : أئفرها ! فأُنزل الله عز وجل « نِسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » . ورواه أسامة بن أحمد التجيبي من طريق يحيى بن أيوب عن هشام بن سعد ، ولفظه : كنّا

نأتى النساء فى أدبارهن ويسمى ذلك الإثفار، فأنزل الله الآية . ورواه من طريق معن بن عيسى عن هشام - ولم يسم أباً سعيد - قال : كان رجال من الأنصار ...

هذا ، وقد روى فى تحريم ذلك آثار كثيرة نقلها الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) ، وابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعى . وكلها معلولة .

ولذا قال البزار : لا أعلم فى هذا الباب حديثاً صحيحاً ، لا فى الحظر ولا فى الإطلاق . وكل ما روى فيه عن خزيمة بن ثابت من طريق فيه ، فغير صحيح .

وكذا روى الحاكم عن الحافظ أبى على النيسابورى ، ومثله عن النسائى ، وقاله قبلهما البخارى .

وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعى أنه قال : لم يصح عن رسول الله ﷺ فى تحريمه ولا فى تحليله شئ . والقياس أنه حلال .

وروى أحمد بن أسامة التجيبى من طريق معن بن عيسى قال : سألت مالكا عنه ، فقال : ما أعلم فيه تحريماً .

وقال ابن رشد فى كتاب (البيان والتحصيل فى شرح المتبىة) روى العتبى عن ابن القاسم عن مالك أنه قال له - وقد سأله عن ذلك مخلياً به - فقال : حلال ليس به بأس .

وأخرج الحاكم عن محمد بن عبد الحكم قال : قال الشافعى كلاماً كلم به محمد بن الحسن فى مسألة إتيان المرأة فى دبرها ، قال : سألتى محمد بن الحسن فقلت له : إن كنت تريد المكابرة وتصحيح الروايات - وإن لم تصح - فأنت أعلم ، وإن تكلمت بالمناصفة كلمتك . قال : على المناصفة . قلت : فبأى شئ حرّمته ؟ قال : بقول الله عز وجل « فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » وقال « فَأَتُوا حَرَثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » ، والحرث لا يكون إلا فى الفرج قلت : أفىكون ذلك محرماً لما سواه ؟ قال : نعم . قلت : فما تقول لو وطئها بين ساقها ، أو فى أعكائها ، أو تحت إبطها ، أو أخذت ذكره بيدها ، أو فى ذلك حرث ..؟ قال : لا !

قلت : أفيجرم ذلك ؟ قال : لا ! قلت : فلمَ تحتج بما لا حجة فيه ؟ قال : فإن الله قال « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ ... » الآية . قال : فقلت له : إن هذا مما يحتجون به للجواز أن الله أثنى على من حفظ فرجه من غير زوجته وما ملكت يمينه ، فقلت : أنت تتحفظ من زوجته وما ملكت يمينه . قال الحاكم : لعل الشافعي كان يقول بذلك في القديم . فأما في الجديد ، فالشهور أنه حرّمه . فقد روى الأصمّ عن الربيع : أن الشافعي نصّ على تحريمه في ستة كتب من كتبه . . وأخرج الحاكم عن الأصمّ عن الربيع قال : قال الشافعي قال الله « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شَيْئٌ » احتملت الآية معنيين : أحدهما أن تؤتى المرأة من حيث شاء زوجها . لأن « أَنْتِ شَيْئٌ » يأتي بمعنى أين شئتم . ثانيهما أن (الحرث) إنما يراد به النبات في موضعه دون ما سواه . فاختلف أصحابنا في ذلك . فأحسب كلا من الفريقين تأولوا ما وصفت من احتمال الآية . قال : فطلبنا الدلالة من السنة ، فوجدنا حديثين مختلفين : أحدهما ثابت ؛ وهو حديث خزيمة في التحريم . قال : فأخذنا به . وعليه ، فيكون الشافعي رجع عن القديم . وحديث خزيمة رواه الشافعي وأحمد والنسائي وابن ماجه^(١) وابن حبان وأبو نعيم بالسند إلى خزيمة بن ثابت : أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهنّ فقال : حلال . فلما ولي الرجل دعاء - أو أمر به فدُعِيَ - فقال : كيف قلت ؟ في أيّ الخرتين ؟ أمن دبرها في قبلها ؟ فنعم ! أم من دبرها في دبرها فلا ! إن الله لا يستحي من الحق . لا تأتوا النساء في أدبارهنّ .

قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) : وفي إسناده عمرو بن أحيحة . وهو مجهول الحال . واختلف في إسناده اختلافاً كثيراً . ثم قال الحافظ : وقد قال الشافعي :

(١) أخرجه أحمد في مسنده بالصفحة ٢١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وابن ماجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٢٩ - باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن ، حديث ١٩٢٤ (طبعنا) .

غلط ابن عيينة في إسناد حديث خزيمة - يعني حيث رواه . وتقدم قول الزار : وكل ما روى فيه عن خزيمة بن ثابت ، من طريق فيه ، فغير صحيح .

وقال الرازي في (تفسيره) : ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد من الآية : أن الرجل مخير بين أن يأتيها من قبلها في قبلها ، وبين أن يأتيها من دبرها في قبلها . فقوله « أني شئت » محمول على ذلك . ونقل نافع عن ابن عمر أنه كان يقول : المراد من الآية تجوز إتيان النساء في أدبارهن . وهذا قول مالك . واختيار السيد المرتضى من الشيعة . والمرضى رواه عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه .

وبالجملة : فهذا المقام من معارك الرجال ، ومجاول الأبطال . وقد استفيد مما أسلفناه : أن من جوز ذلك وقف مع لفظ الآية . فإنه تعالى جعل الحرث اسماً للمرأة . قال بعض المفسرين : إن العرب تسمى النساء حرثاً . قال الشاعر :

إذا أكل الجراد حروث قومٍ فخرى هم أكل الجراد
يريد : امرأتى . وقال آخر :

إنما الأرحام أرضٌ ولنا محترنات
فقلبنا الزرع فيها ، وعلى الله النبات ..!

وحينئذ ، في قوله « فَأَتُوا حَرَثَكُمْ أَنِّي شِئْتُ » إطلاق في إتيانهم على جميع الوجوه . فيدخل فيه محل النزاع . واعتمد أيضاً من سبب النزول ما رواه البخاري عن ابن عمر كما تقدم . وقال في رواية جابر المروية في (الصحيح) المتقدمة : إن ورود العام على سبب لا يقصره عليه . وأجاب عن توهيم ابن عباس لابن عمر ، رضي الله عنهم ، الروي في (سنن أبي داود) بأن سنده ليس على شرط البخاري فلا يعارضه . فيقدم الأصح سنداً . ونظر إلى أنه لم يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب حديث .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : ذهب جماعة من أئمة الحديث - كالبخاري والذهلي والزار والنسائي وأبي علي النيسابوري - إلى أنه لا يثبت فيه شيء .

وأما من منع ذلك : فتأول الآيات المتقدمة على صام واحد . ونظر إلى أن الأحاديث المروية - من طرق متعددة - بالزجر عن تعاطيه ، وإن لم تكن على شرط الشيخين في الصحة ، إلا أن مجموعها صالح للاحتجاج به .

وقد استقصى الأحاديث الواردة في ذلك ، الحافظ الذهبي في جزء جمعه في ذلك . وساق جملة منها الحافظ ابن كثير في (تفسيره) وكذا الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) وقد هول - عليه الرحمة - في شأنه تهويلاً عظيماً . فقال في كتابه المذكور ، في الكلام على هديه ﷺ في الجماع ، ما نصّه :

وأما الدبر ، فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء . ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه . ثم ساق أخبار النعي عنه - وقال بعد : وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين : أحدهما : أنه إنما أباح إتيانها في الحرث وهو موضع الولد ، لا في الحش الذي هو موضع الأذى . وموضع الحرث هو المراد من قوله « مِنْ حَيْثُ أَمَرَ كُمْ اللَّهُ ... » الآية - « فَأَتُوا حَرَثَكُمْ أَنْتِ سِتْنَمُ » وإتيانها في قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضاً لأنه قال « أَنْتِ سِتْنَمُ » أي : من أين سِتْنَمُ : من أمام أو من خلف : قال ابن عباس : « فَأَتُوا حَرَثَكُمْ » يعني الفرج ؛ وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحش الذي هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لقطع النسل والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان . وأيضاً ، فللمرأة حق على الرجل في الوطء ، ووطؤها في دبرها يفوت حقها ، ولا يقضى وطرها ، ولا يحصل مقصودها . وأيضاً فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ولم يخلق له ، وإنما الذي هيئ له الفرج ؛ فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً . وأيضاً فإن ذلك مضر بالرجل ، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن ، وراحة الرجل منه ، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب

جميع الماء ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي... وأيضاً يضرّ من وجه آخر وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة. وأيضاً فإنه محل القدر والنَّجْو فيستقبله الرجل بوجهه ويلا بسه. وأيضاً فإنه يضرّ بالمرأة جداً، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع منافر لها غاية المنافرة. وأيضاً فإنه يحدث الهم والغم والنفرة عن الفاعل والمفعول. وأيضاً فإنه يسودّ الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسياء، يعرفها من له أدنى فراسة. وأيضاً، فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد والتقاطع بين الفاعل والمفعول، ولا بدّ. وأيضاً فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فساداً لا يكاد يرحى بعده صلاح. إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح. وأيضاً فإنه يذهب بالمحسن منهما ويكسوها ضدّها. كما يذهب بالمودة بينهما ويبدلها بها تباغضاً وتلاعناً. وأيضاً فإنه من أكبر أسباب زوال النعم وحلول النقم، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله، وإعراضه عن فاعله، وعدم نظره إليه فأى خير يرجوه بعد هذا؟ وأى شرّ يأمنه؟ وكيف حياة عبدٍ قد حلّت عليه لعنة الله ومقتّه، وأعرض عنه بوجهه ولم ينظر إليه؟

أقول: أخذ هذا ابن القيم من أحاديث وردت في لعن فاعل ذلك، وعدم نظر الحقّ إليه. بيد أنها ضعيفة^(١).

(١) أقول أنا: ليس الأمر كذلك.

فقد أخرج ابن ماجة في: ٩ - كتاب النكاح، ٢٩ - باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهنّ، حديث ١٩٢٣ (طبعنا) هذا الحديث ونصه:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها ».

في الزوائد: إسناده صحيح. لأن الحارث بن مخلد (أحد رجال السند) ذكره ابن حبان في الثقات. وبقا رجال الإسناد ثقات.

قال السنديّ: والجديد قد رواه أبو داود والترمذيّ بلفظ قريب من هذا.

ورواه أيضاً الدارميّ في سننه في: ١ - كتاب الوضوء، ١١٤ - باب من أتى امرأته في دبرها =

ثم قال ابن القيم : وأيضاً فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلب استحسن القبيح واستقبح الحسن ، وحينئذ فقد استحكم فسادُه . وأيضاً فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله، ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئاً من الحيوان بل هو طبع منكوس ، وإذا نُكِسَ الطبع انتكس القلب والعمل والهدى ، فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والأفعال والهيئات ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره . وأيضاً فإنه يورث من الوقاحة والجراءة مالا يورثه سواه . وأيضاً فإنه يورث من المهانة والسفالة والحقارة مالا يورثه غيره . وأيضاً فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء وازدراء الناس له ، واحتقارهم إياه ، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحسّ . فصلوات الله وسلامه على مَنْ سعادة الدنيا والآخرة في هديه واتباع ما جاء به . وهلاك الدنيا والآخرة في مخالفة هديه وما جاء به . اهـ .

ولما اشتملت هذه الآية على الإذن في قضاء الشهوة ، نبه على أن لا يكون المرء في قيدها بل في قيد الطاعة ، فقال تعالى « وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ » أى : ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة لتناولوا به الجنة والكرامة ، كقوله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وَاتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَجْتَرُّوا عَلَى الْمَعَاصِي « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ » صائرُونَ إليه فاستعدّوا

= وأخرج الترمذى في جامعه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٧ - باب حدثنا عبد بن حميد، هذا الحديث ونصه :

عن ابن عباس قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! هلكتُ . قال « وما أهلكك ؟ » قال : حولت رحلى الليلة . قال فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً . قال فأوحى إلى رسول الله ﷺ هذه الآية : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . أقبلْ وأدبرْ . واتقِ الدبرَ والحيضة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

لِلْقَائِهِ « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » بالثواب. وإنما حذف لكونه كالعلوم ، فصار كقوله : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٤] (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (العُرْضَةُ) بضم العين فعلة بمعنى مفعول - كالقبضة والغرفة - وهى اسم ماتعرضه دون الشيء . من عرض العود على الإبناء . فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه . تقول : فلان عرضة دون الخير . وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات - مِنْ صِلَةٍ رَحِمَ ، أو إصلاح ذات بينٍ ، أو إحسان إلى أحد - ثم يقول : أخاف الله أن أحنث في يميني . فيترك البرَّ لإرادة البرِّ في يمينه . فقيل لهم « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ » أى : حاجزاً لما حلفتم عليه . وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين . كحديث : من حلف على يمين . الآتى ذكره . أى : على شيء مما يحلف عليه . وقوله « أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا » عطف بيان لـ « إِيْمَانِكُمْ » أى : للأمور المحلوف عليها التى هى البر والتقوى والإصلاح بين الناس - أفاده الزمخشري .

وعلى هذا التأويل : الآية . كقوله تعالى : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ^(٢) . والمعنى المتقدم فى الآية اتفق عليه جمهور السلف . ورواه

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] .

(٢) [٢٤ / النور / ٢٢] ونصها : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا

أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا تجعلن الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير . ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير . وقد ثبت في (الصحيحين)^(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إني ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحملتها . وروى مسلم^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير .

وفي الآية وجه آخر ذكره كثير من المفسرين . وهو النهي عن الجراءة على الله تعالى بكثرة الحلف به . وذلك لأن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني فقد جعله عرضة له . يقول الرجل : قد جعلتني عرضةً للوهم . وقال الشاعر : * ولا تجعليني عرضةً للوائم *

(١) أخرجه البخاري في : ٥٧ - كتاب فرض الخمس ، ١٥ - باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ، حديث ١٤٧١ ونصه :

عن زهدم قال : كنا عند أبي موسى . فأتى ذكر دجاجة . وعنده رجل من بني تميم الله أحمر كأنه من الموالى . فدعاه للطعام . فقال : إني رأيته يأكل شيئاً فقدرته فخلقت لا آكل . فقال : هلم فلا أحدثكم عن ذاك : إني أتيت النبي ﷺ في نفر الأشعريين نستحملة . فقال « والله ! لا أحملكم . وما عندي ما أحملكم » وأتى رسول الله ﷺ بنهب إبل . فسأل عنا . فقال « أين نفر الأشعريون ؟ » فأمر لنا بخمس ذودٍ غرّ الذرى . فلما انطلقنا قلنا : ما صنعنا؟ لا يبارك لنا . فرجعنا إليه فقلنا : إنا سألناك أن تحملنا فخلقت أن لا تحملنا . أفتسيت ؟ قال « لست أنا حملتكم . ولكن الله حملكم . وإني ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير ، وتحملتها » .

وأخرجه مسلم في : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ١٢ و ١٣ و ١٤ (طبعتنا) .

وقد ذم الله تعالى مَنْ أَكْثَرَ الحَلْفِ بقوله : وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْنٍ^(١) . وقال تعالى :
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ^(٢) . والعرب كانوا يمدحون المرء بالإفلال من الحلف كما قال كثير :

قليلُ الأَلَايا^(٣) حافظٌ ليمينه وإن سبقت منه الألية بَرَّتْ

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان : أنَّ من حلف في كل قليل وكثير بالله ، انطلق لسانه بذلك . ولا يبقى لليمين في قلبه وقع . فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة . فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين . وأيضاً ، كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكثر في العبودية . ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلاً وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية . وأمّا قوله تعالى بعد ذلك « أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا » فهو علة للنهي . أي : إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا . لأن الحلاف مجترى على الله ، غير معظم له ، فلا يكون براً متقياً ، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطتهم وإصلاح ذات بينهم ، والله أعلم .

(١) [٦٨ / القلم / ١٠] .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٩] ونصها : لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٣) الأَلَايا ، مفرداً : أَلِيَّة . والألية : اليمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٥] (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » أى : لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية - إذ لم تقصدوا هتك حرمة - وهى التى لا يقصدها الحالف ، بل تجرى على لسانه عادةً من غير تعقيد ولا قصدٍ إليها . كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ^(١) وهو المعنى بقوله عز وجل « وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » أى : تعمده قلوبكم فاجتمع فيه ، مع اللفظ ، النية . يعنى : ربط القلب به لفوات تعظيم أمره ، ولهتك حرمة بنقض اليمين المقصودة .

روى عن عائشة أنها قالت : أنزلت هذه الآية فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ! أخرجه البخارى ومالك وأبو داود^(٢) ، وهذا لفظ البخارى .

وقد نقل ابن المنذر نحو هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهما من الصحابة والتابعين . ولفظ رواه ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إنما اللغو فى الزاحة والهزل وهو قول الرجل : لا والله ! وبلى والله ! فذاك لا كفارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥٧٦

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ - باب لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث ١٩٩٦ .

وأخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٢ - كتاب النذور والأيمان ، حديث ٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ٢١ - كتاب الأيمان والنذور ، ٦ - باب لغو اليمين ، حديث ٣٢٥٤ .

ويروى في تفسير لغو اليمين: هو أن يحلف على الشيء يظنه ، ثم يظهر خلافه . ويروى: أن يحلف وهو غضبان : ويروى غير ذلك ، كما ساقها ابن كثير ، مسندة . وقد ظهر - للفقير - أن لا تنافي بين هذه الروايات . لأن كل ما لا عقد للقلب معه من الأيمان فهو لغو بأى صورة كانت وحالة وقعت . فكل ما روى في تفسير الآية فهو مما يشمله اللغو . والله أعلم .

والمراد من المؤاخذه : إيجاب الكفارة . كما بين ذلك في آية المائدة : وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ . « وَاللَّهُ غَفُورٌ » يعنى : لعباده فيما لغوا من أيمانهم فلم يؤاخذهم به « حَلِيمٌ » يعنى فى ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة تربصاً بالتوبة . والجملة تذييل للحكمين السابقين . فائدته الامتنان على المؤمنين ، وشمول مغفرته وإحسانه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٦] (لِلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ،

فَإِنْ فَأَوْ فَاَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[٢٢٧] (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« لِلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَأَوْ فَاَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

« وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اشتملت هذه الآية على حكم الإيلاء ،

وهو لغة ، الامتناع باليمين . وخص في عرف الشرع : بالامتناع باليمين من وطء الزوجة .

ولهذا عدى فعله بأداة (من) تضميناً له معنى : يمتنعون من نساءهم . وهو أحسن من إقامة

(من) مقام (على) . وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من نساءهم

بالإيلاء ، فإذا مضت فإمّا أن ينوّ وإما أن يطلق .

وقد اشتهر عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم أنّ الإيلاء إنّما يكون في حال الغضب دون الرضا ، كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) مع نسائه . وظاهر القرآن مع الجمهور . وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر . فاحتجّ عليّ محمد بقول عليّ كرم الله وجهه ، فاحتجّ عليه محمد بالآية فسكت . وقد اتفق الأئمة على أنّ المولى إذا فاء إلى المواصلة لزمته كفارة يمين ، وإنّما ترك ذكرها هنا لأنها معلومة من موضع آخر في التنزيل العزيز . فعموم وجوب التفكير ثابت على حالف .

قال العلامة صديق خان في (تفسيره) : اعلم أنّ أهل كل مذهب قد فسّروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم ، وتكفّوا بما لا يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر . ومعناها ظاهر واضح وهو أنّ الله جعل الأجل لمن يولى (أى : يحلف من امرأته) أربعة أشهر ؛ ثم قال مخبراً لعباده بحكم هذا المولى بعد هذه المدة « فَإِنْ فَاءُوا » أى : رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : لا يؤاخذهم بتلك اليمين ، بل يغفر لهم ويرحمهم ؛ « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ » أى : وقع العزم منهم عليه والقصد له « فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » لذلك منهم « عَلِيمٌ » به . فهذا معنى الآية الذى لاشكّ فيه ولا شبهة . فمن حلف أن لا يوطأ امرأته - ولم يقيد بمدة ، أو قيد بزيادة على أربعة أشهر - كان علينا إمهاله أربعة أشهر . فإذا مضت فهو بالخيار : إما رجوع إلى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته قبلها . أو طلقها ، وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء . وأمّا إذا وقت بدون أربعة أشهر : فإن أراد

(١) أخرج البخارى في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١١ - باب قول النبي ﷺ « إذا رأيتم الهلال فصوموا » .

عن أم سلمة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً . فلما مضى تسعة وعشرون يوماً غدا أو راح . فقيل له : إنك حلفت أن لا تدخل شهراً . فقال « إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوماً » .

أن يبر في يمينه اعتزل امرأته التي حلف منها حتى تنقضي المدة . كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهراً . فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر . وإن أراد أن يبطأ امرأته قبل مضى تلك المدة التي هي دون أربعة أشهر حنث في يمينه ولزمته الكفارة . وكان ممثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله : من حلف على يمين فرأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه .

قال الحرالي : وفي قوله تعالى « فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » تهديد بما يقع في الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأزواج في أمور لا تأخذها الأحكام ، ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام ، فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر . ولذلك رأى العلماء أن الطلاق أمانة في أيدي الرجال ، كما أن المدد والاستبراء أمانة في أيدي النساء . فلذلك انتظمت آية تربص المرأة في عدتها بآية تربص الزوج في إيلائه .

قال الإمام ابن كثير : وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر - الأثر الذي رواه مالك عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبُه وأرقتني إلا خليل الأعبة

فوالله ! لولا الله ، أنى أراقبُه لحُرِّك من هذا السرير جوانبُه ..!

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنهما : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر . فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك . وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ - قال : ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة - وكان يفعل ذلك كثيراً - إذ مرّ بامرأة من نساء العرب مُغلقةً بابها تقول :

تطاول هذا الليل وازورَّ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي إِلَّا ضَجِيعَ الْأَعْبَةِ
الْأَعْبَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّمَا بَدَأَ قَرَأًا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ حَاجِبُهُ
يُسْرِهُ بِهِ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقَرْبِهِ لَطِيفَ الْحِشَا لَا يَحْتَوِيهِ أَقَارِبُهُ
فَوَاللَّهِ ! لَوْلَا اللَّهُ ، لَا شَيْءَ غَيْرِهِ ، لَنُقِضَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ
وَلَكِنِّي أَخْشَى رَقِيبًا مُوَكَّلًا بِأَنْفَاسِنَا ، لَا يَفْتَرُ ، الدَّهْرَ ، كَاتِبُهُ
خَافَةَ رَبِّي ، وَالْحَيَاءُ يَصْدَقُنِي ، وَإِكْرَامَ بَعْلِي ، أَنْ تَنَالَ مَرَكَبَهُ !
ثم ذكر بقية ذلك - كما تقدم أو نحوه - وقد روى هذا من طرق ، وهو من المشهورات -

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٨] (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » هذا أمر للمطلقات بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وأريد بالمطلقات : المدخول بهن من ذوات الأقراء ، لما دلت الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر . أما غير المدخولة فلا عدة عليها لقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ^(١) ؛ وأما التى لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر لقوله تعالى :

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا . فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ^(١) ؛ وأما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ^(٢) . فهذه الآية من العام المخصوص .

قال الزمخشري : فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربص ؟ قلت : هو خبر في معنى الأمر ، وأصل الكلام (وليتربص المطلقات) ، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله . فكانهن امتثلن الأمر بالتربص . فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم في الدعاء : (رحمك الله) أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة . كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها . وبناءً على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل توكيد . ولو قيل (وليتربص المطلقات) لم يكن بتلك الوكادة .. فإن قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء كما قيل تربص أربعة أشهر ، وما معنى ذكر الأنفس ؟ قلت : في ذكر الأنفس تهيج لهن على التربص وزيادة بعث . لأن فيه ما يستكفن منه فيحملهن على أن يتربصن . وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن إن يقمن أنفسهن ويغلبنهن على الطموح ويجبرنهن على التربص .

و (القرء) : من الأضداد . يطلق على الحيض والطمهر . نص عليه من أئمة اللغة : أبو عبيد والزجاج وعمرو بن العلاء وغيرهم . والبحث في ترجيح أحدهما طويل الذيل ، استوفاه الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فانظره . ولمن نظر إلى موضوعه اللغوي أن يقول : تنقضي العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض . فأيهما اعتبرته المعتدة خرجت عن عهدة التكليف به . والله أعلم . « وَلَا يَحِلُّ لهنَّ » - أي : المطلقات - « أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ »

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ... وباقى الآية : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ

حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٤] .

من الحيض أو الولد ، استعجالاً في العدة أو إبطاءً لحقّ الزوج في الرجعة « إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » أى : إن جرين على مقتضى الإيمان به ، الخوف من ذاته « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الخوف من جزائه . ودلّ هذا على أن المرجع في هذا إليهنّ . لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن . ويتعذر إقامة البينة على ذلك . فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لثلاثي بخرن بغير الحقّ . وهذه الآية دالة على أنّ كل من جعل أميناً شئاً فغان فيه ، فأمره عند الله شديد « وَبُعُو لَتُهُنَّ » - أى : أزواجهن - « أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ » أى : برجعتهنّ ، والكلام في الرجعية بدليل الآية التى بعدها « فِي ذَلِكَ » أى : في زمان التربص . وهى أيام الأقراء . أما إذا انقضت مدة التربص فهى أحقّ بنفسها ولا تحلّ له إلا بركاح مستأنف بولى وشهودٍ ومهرٍ جديد . ولا خلاف فى ذلك « إِنْ أَرَادُوا » أى : بالرجعة « إِصْلَاحًا » لما بينهم وبينهن ، وإحساناً إليهن ، ولم يريدوا مضارتهن . وإلا فالرجعة محرمة لقوله تعالى : وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا^(١) ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أى : ولهن على الرجال مثل ما للرجال عليهن . فليؤدّ كلّ واحدٍ منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف . كما ثبت فى (صحيح مسلم)^(٢) : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجّة الوداع : فاتقوا الله فى النساء . فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

- (١) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ النِّسَاءَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .
- (٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، ١٩ - باب حجّة النبي ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعنا) .

وعن معاوية بن حيدة قال : قلت : يا رسول الله ! ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت . وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت . رواه أبو داود^(١) وقال : معنى (لا تقبح) : لا تقل قبحك الله .

وعن أبي هريرة^(٢) : أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه . ولا تأذن في بيته إلا بإذنه . متفق عليه .

وعن ابن عمر^(٣) : أن النبي ﷺ قال : كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته . والأمير راع . والرجل راع على أهل بيته . والمرأة راعية على بيت زوجها وولده . فكلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته . متفق عليه .

وعن طلق بن عليّ : أن رسول الله ﷺ قال : إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته ، وإن كانت على التنور . رواه الترمذي^(٤) والنسائي .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤١ - باب حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٨٦ - باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه ، حديث ١٠٤٣ .

ومسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٨٤ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ١١ - كتاب الجمعة ، ١١ - باب الجمعة في القرى والمدن ، حديث ٥٢٤ .

ومسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٢٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه الترمذيّ في جامعه في : ١٠ - كتاب الرضاع ، ١٠ - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فلم تأت ، فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح . متفق عليه .
وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إني لأحب أن أترين للمرأة كما أحب أن تترين لي . لأن الله يقول : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

تنبيه :

(المعروف) ما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره ، مما قبله العقل ، ووافق كرم النفس ، وأقره الشرع . وقد قال بعض الفقهاء : لا يجب عليها خدمة زوجها في عجن وخبز وطبخ ونحوه ، لأن المقود عليه منفعة البضع ، فلا يملك غيرها من منافعها ..! ولكن مفاد الآية يرد هذا ويدل على وجوب المعروف من مثلها لمثلها؛ وبه أفتى الإمام ابن تيمية وفاقاً للمالكية . وإليه ذهب أبو بكر ابن شيبه وأبو إسحق الجوزجاني واحتجاً بما روى : أن النبي ﷺ قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت وعلى ما كان خارجاً من البيت من عمل . رواه الجوزجاني من طرق . واستدل بالآية أيضاً على وجوب إعدامها ، إذا كان مثلها لا يخدم نفسها .

« وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » أي : زيادة في الحق وفضيلة . كما قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء ، حديث ١٥٢٩ .

ومسلم في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٣٤] ونصها : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . رواه الترمذى^(١) وقال : حديث حسن صحيح . « وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أى : غالبٌ فى انتقامه ممن عصاه ، حكيمٌ فى أمره وشرعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٩] (الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » الطلاق بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، وهو مبتدأ بتقدير مضاف ، خبره ما بعده . أى : عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة مرتان أى : اثنتان . وإيثار ماورد به النظم الكريم عليه للإيدان بأن حقها أن يقعا مرة بعد مرة لادفعة واحدة ، وإن كان حكم الرد ثابتاً حينئذ أيضاً .

قال ابن كثير : هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام : من أن الرجل كان أحقّ برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت فى العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله تعالى على ثلاث طلاقات : وأباح الرجعة فى المرة وثلثتين ، وأبأنها بالكلية فى الثالثة ، فقال : الطلاق مرتان ... الآية .

(١) أخرجه الترمذى فى : ١٠ - كتاب الرضاع ، ١٠ - باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة .

قال الإمام أبو داود في (سننه)^(١) : باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث . ثم أسند عن ابن عباس في هذه الآية قال : إن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحقّ برجعها وإن طلقها ثلاثاً . فنسخ ذلك ، فقال « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ .. » الآية . ورواه النسائي وغيره . وروى الترمذي^(٢) عن عائشة قالت : كان الناس والرجل يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر ؛ حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك تبينين مني ولا أؤويك أبداً .. ! قالت : وكيف ذاك؟ قال : أطلقك . فكلما همت عدتك أن تنقض راجعتك . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكت عائشة حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ .. » الآية . قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً . من كان طلق ومن لم يكن طلق . ثم أسنده عن عروة ولم يذكر عائشة ، وقال : هو أصح !

وقوله تعالى « فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِخِي بِإِحْسَانٍ » أي فالحكم بعد تطليق الرجل امرأته تطليقتين : أن يمسكها بمعروف فيحسن صاحبها ؛ أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ، ولا ينفر الناس عنها .

قال الرازي : الحكمة في إثبات حق الرجعة : أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشقّ عليه مفارقتة أولاً ؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر . فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة ، فلا جرم أثبت تعالى حقّ المراجعة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة وعرف حال قلبه في ذلك

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٠ - باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث ٢١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ١١ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب حدثنا قتيبة .

الباب . فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف . وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه . وهذا التدرج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده .

«وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ» - أى : أيها المطلقون - «أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» - من المهر وغيره - «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» أى : فيما يلزمهما من حقوق الزوجية - «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» أى : نفسها عن ضرره ؛ أى : لا إثم على الزوج فى أخذما افتدت به ، ولا عليها فى إعطائه . وهذه الآية أصل فى الخلع .

وقد ذكر ابن جرير : أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس وكانت زوجته لا تطيقه بغضاً . ففى (صحيح البخارى) ^(١) عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! ما أعيب عليه فى خلق ولا دين . ولكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديثه ؟ قالت : نعم ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديثة وطلقها تطليقة . وقد بسط طرق هذا الحديث مع أحكام الخلع الإمام ابن كثير فى (تفسيره) ، وكذا شمس الدين ابن القيم فى (زاد المعاد) فلتنظر ثمة .

« تِلْكَ » - أى : الأحكام العظيمة المتقدمة للطلاق والرجعة والخلع وغيرها - « حُدُودُ اللَّهِ » - شرائعه - « فَلَا تَعْتَدُوهَا » - بالمخالفة والرفض - « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى : لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه . وتعقيب النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١٢ - باب الخلع وكيف الطلاق فيه ،

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٠] (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ طَلَّقَهَا » - أى : بعد التخليقين - « فَلَا تَحِلُّ لَهُ » - برجمة ولا بنكاح جديد - « مِنْ بَعْدُ » - أى : من بعد هذا الطلاق - « حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » أى : حتى تذوق وطء زوج آخر ، وهى المسيلة التى صرح بها النبى صلى الله عليه وسلم فى نكاح صحيح . وفى جمل هذا غاية للحل ، زجر لمن له غرض ما فى امرأته عن طلاقها ثلاثاً ، لأن كل ذى مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر .

فروع مهمة تتعلق بهذه الآية

الأول :

قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المطلقة ثلاثاً لا تحل للأول حتى يطأها الزوج الثانى . ثبت فى (الصحيحين)^(١) عن عائشة رضى الله عنها : أن امرأة رفاعة القرظى جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى . وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظى وإن ما معه مثل الهدية ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لملك تريد أن ترجعى إلى رفاعة ؟

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٤ - باب من أجاز طلاق الثلاث ،

حديث ١٢٨١ .

ومسلم فى : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

لا . حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك . وفي (سنن النسائي^(١)) : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العسيلة الجماع ولو لم ينزل . وفيها^(٢) عن ابن عمر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فيتزوجها الرجل فيفلق الباب ويرخي الست ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ؟ قال : لا تحلّ للأول حتى يجامعها الآخر . فتضمن هذا الحكم أموراً .

أحدها : أنه لا يقبل قول المرأة على الرجل : أنه لا يقدر على جماعها .

الثاني : أن إصابة الزوج الثاني شرط في حلها للأول ، خلافاً لمن اكتفى بمجرد العقد ، فإنّ قوله مردود بالسنة التي لا مردّ لها .

الثالث : أنه لا يشترط الإزال بل يكفي مجرد الجماع الذي هو ذوق العسيلة .

الرابع : أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل مجرد العقد المقصود - الذي هو نكاح رغبة - كافياً ، ولا اتصال الخلوة به وإغلاق الأبواب وإرخاء الستور حتى يتصل به الوطء ..! وهذا يدلّ على أنه لا يكفي مجرد عقد التحليل الذي لا غرض للزوج والزوجة فيه سوى صورة العقد وإحلالها للأول بطريق الأولى . فإنه إذا كان عقد الرغبة المقصود للدوام

(١) لم أجد هذا النص في السنن التي تحت يدي وإنما الذي وجدته وفيه ذكر العسيلة

هو هذا الحديث :

عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته فتزوجت زوجاً غيره . فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها ، أتحلّ للأول ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا . حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » .

وهو في : ٢٧ - كتاب الطلاق ، ٩ - باب الطلاق التي تنكح زوجاً ثم لا يدخل بها .

(٢) أخرجه النسائي في : ٢٧ - كتاب الطلاق ، ١٢ - باب إحلال المطلقة ثلاثاً ،

والنكاح الذي يحلها به .

غير كافٍ حتى يوجد فيه الوطاء ، فكيف يكن عقد تيس مستعار ليحلها ، لا رغبة له في إمساكها وإنما هو عارية لحمار الفرس المستعار للضراب ؟

وقال - عليه الرحمة - قبل ذلك : وأما نكاح المحلل ، ففي (الترمذى)^(١) و(المسند)^(٢) من حديث ابن مسعود - رضى الله عنهما - قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وفي (المسند)^(٣) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : لعن الله المحلل والمحلل له ، وإسناده حسن . وفيه عن على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله . وفي (سنن ابن ماجة)^(٤) من حديث عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له . فهو لاء الأربعة من سادات الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شهدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلعنه أصحاب التحليل ، وهم المحلل والمحلل له . وهذا : إما خبر عن الله فهو خبر صدق . وإما دعاء مستجاب قطعاً . وهذا يفيد أنه من الكبائر الملعون فاعلمها . ولا فرق عند أهل المدينة وأهل الحديث وفقهاءهم بين اشتراط ذلك بالقول أو بالتواطؤ والقصد . فإنَّ القصد في العقود عندهم معتبرة . والأعمال بالنيات . والشرط التواطؤ عليه الذى دخل عليه المتعاقدان كالمفوض عندهم . والألفاظ لا تراد لعينها بل للدلالة على المعانى ، فإذا ظهرت المعانى والمقاصد فلا عبرة بالألفاظ لأنها وسائل قد تحققت غاياتها فترتب عليها أحكامها .

- (١) أخرجه الترمذى في : ٩ - كتاب النكاح ، ٢٨ - باب ما جاء في المحلل والمحلل له .
- (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٤٨ بالجزء الأول (طبعة الحلبي) .
- (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٢٣ بالجزء الثانى (طبعة الحلبي) .
- (٤) أخرجه ابن ماجة في : ٩ - كتاب النكاح ، ٣٣ - باب المحلل والمحلل له ، حديث ١٩٣٦ (طبعتنا) .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك : منها ما قدمناه ، ومنها ما رواه الحاكم في (مستدركه) : عن نافع قال : جاء رجل إلى ابن عمر . فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتروجها أخ له ، من غير مؤامرة منه ، ليحلها لأخيه : هل تحل للأول ؟ فقال : لا . إلا نكاح رغبة . كنا نعدّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن عمر أنه قال : لا أوتى بمحل ولا محل له إلا رجتهما . وروى البيهقي : أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها . ففرق بينهما . وكذا روى عن عليّ وابن عباس وغير واحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم .

وبالجملة : فالتحليل غير جائز في الشرع . ولو كان جائزاً لم يلعن فاعله والراضى به . وإذا كان لمن الفاعل لا يدلّ على تحريم فعله لم تبق صيغة تدلّ على التحريم قط ؛ وإذا كان هذا الفعل حراماً غير جائز في الشريعة فليس هو النكاح الذي ذكره الله تعالى في قوله : حتى تنكح زوجاً غيره . كما أنه لو قال : (لمن الله بائع الحجر) لم يلزم من لفظ بائع أنه قد جاز بيعه وصار من البيع الذي أذن فيه بقوله : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ . والأمر ظاهر .

فصل

قال الإمام ابن القسيم في (أعلام الموقعين) :

إلزام الخالف بالطلاق والعتاق ، إذا حنث ، بطلاق زوجته وعتق عبده - مما حدث الإفتاء به بعد انقراض عصر الصحابة - فلا يحفظ عن صحابيٍّ في صيغة القسم إلزام الطلاق به أبداً . وإنما المحفوظ إلزام الطلاق بصيغة الشرط والجزاء - الذي قصد به الطلاق عند وجود الشرط - كما في (صحيح البخاري) ^(١) عن نافع قال : طلق رجل امرأته البتة إن خرجت .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١١ - باب الطلاق في الإغلاق والسكره .

فقال ابن عمر : إن خرجتُ فقد بانت منه ، وإن لم تخرج فليس بشيء . فهذا لا ينازعُ فيه إلا من يمنع وقوع الطلاق المعلق بالشرط مطلقاً . وأما من يفصل بين القسم المحض والتعليق الذى يقصد به الوقوع ، فإنه يقول بالآثار المروية عن الصحابة كلها فى هذا الباب . فإنه صحَّ عنهم الإفتاء بالوقوع فى صور . وصح عنهم عدم الوقوع فى صور . والصواب : ما أفتوا به فى النوعين . ولا يؤخذ ببعض فتاويهم ويترك بعضها . فأما الوقوع : فالمحفوظ عنهم ما ذكره البخارى عن ابن عمر ، وما رواه الثورى عن ابن مسعود فى رجل قال لامرأته : إن فعلت كذا وكذا فهى طالق ، ففعلته . قال : هى واحدة وهو أحق بها . على أنه منقطع . وكذلك ما ذكره البيهقى وغيره عن ابن عباس فى رجل قال لامرأته : هى طالق إلى سنة ، قال : يتمتع بها إلى سنة . ومن هذا قول أبى ذرٍّ لامرأته - وقد ألحت عليه فى سؤاله عن ليلة القدر - فقال : إن عدتِ سألتينى فأنت طالق . فهذه جميع الآثار المحفوظة عن الصحابة فى وقوع الطلاق المعلق . وأما الآثار عنهم فى خلافه : فصح عن عائشة وابن عباس وحفصة وأم سلمة - رضى الله عنهم - فيمن حلفت بأن كلِّ مملوك لها حرٌّ إن لم تفرق بين عبدها وبين امرأته أنها تكفر عن يمينها ولا تفرق بينهما . رواه الأثرم فى (سننه) والجوزجاني فى (الترجم) والدارقطنى والبيهقى .

وقاعدة الإمام أحمد : أن ما أفتى به الصحابة لا يخرج عنه ، إذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه . فعلى أصله الذى بنى مذهبه عليه ، يلزمه القول بهذا الأثر لصحته وانتفاء علته . قال أبو محمد بن حزم : وصحَّ عن ابن عمر وعائشة وأم سلمة - أمّى المؤمنين - أنهم جعلوا فى قول ليل بنت العجماء (كل مملوك لها حرٌّ وكل مال لها هديٌّ) وهى يهودية ونصرانية إن لم تطلق امرأتك) كفارة يمين واحدة . وإذا صحَّ هذا عن الصحابة ولم يعلم لهم مخالف فى قول الحالف : عبده حرٌّ إن فعل ، أنه يجزئ كفاة يمين ولم يلزموه بالعتق المحبوب إلى الله ، فإن لا يلزموه بالطلاق البغيض إلى الله أولى وأحرى . كيف وقد أفتى على بن أبى طالب

رضى الله عنه : الحالف بالطلاق ، أنه لا شيء عليه . ولم يعرف له في الصحابة مخالف ؟ قال عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد بن علي التيمي المعروف بابن بريّة الأندلسي في (شرحه لأحكام عبد الحق) الباب الثالث في حكم اليمين بالطلاق أو الشك منه : وقد قدمنا في (كتاب الأيمان) اختلاف العلماء في اليمين بالطلاق والعق والشئ وغير ذلك ، هل يلزم أم لا ؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشرح وطاوس : لا يلزم من ذلك شيء ، ولا يقضى بالطلاق على من حلف به فحث . ولا يعرف في ذلك مخالف من الصحابة - هذا لفظه بعينه - فهذه فتوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلف بالعق والطلاق . وقد قدمنا فتاويهم في وقوع الطلاق المعلق بالشرط - ولا تعارض بين ذلك - فإن الحالف لم يقصد وقوع الطلاق وإنما قصد منع نفسه بالحلف بما لا يريد وقوعه ... - إلى أن قال - وإذا دخلت اليمين بالطلاق في قول الحالف : أيمان البيعة تلزمني - وهي الأيمان التي رتبها الحجاج - فلم لا تكون أولى بالدخول في لفظ الأيمان في كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإن كانت يمين الطلاق يميناً شرعية - بمعنى أن الشرع اعتبرها - وجب أن تعطى حكم الأيمان . وإن لم تكن يميناً شرعية كانت باطلة في الشرع فلا يلزم الحالف بها شيء . كما صح عن طاوس من رواية عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عنه : ليس الحلف بالطلاق شيئاً . وصح عن عكرمة من رواية سنيد بن داود في (تفسيره) عنه : إنها من خطوات الشيطان لا يلزم بها شيء ؛ وصح عن شريح - قاضي علي - وابن مسعود : إنها لا يلزم بها الطلاق . وهو مذهب داود بن علي وجميع أصحابه . فهذه أقوال أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . اهـ .

فصل

وقال الإمام ابن القيم - أيضاً - في (أعلام الموقعين) :

إن المطلق في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وزمن أبي بكر ، وصدرًا من خلافة عمر ، كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفهم واحد جعلت واحدة . كما ثبت ذلك في (الصحيح) ^(١) عن ابن عباس . فروى مسلم في (صحيحه) عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؛ فأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ . وروى الإمام ^(٢) أحمد عن ابن عباس قال : طلق ركانة ابن عبد يزيد أخو بني مُطَلِّب امرأته ثلاثاً في مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً ؛ قال : فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف طلقها ؟ قال : طلقها ثلاثاً ، قال : فقال في مجلس واحد ؟ قال : نعم ! قال : فإنما تلك واحدة فارجمها إن شئت ، قال : فرجمها . فكان ابن عباس يرى : إنما الطلاق عند كل طهر . وقد صحح الإمام أحمد هذا الإسناد وحسنه . ثم إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لم يخفَ عليه أن هذا هو السنة ، وأنه توسعة من الله لعباده إذ جعل الطلاق مرة بعد مرة . وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع كلمة واحدة . كاللعان فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات إنى لمن الصادقين ، كان مرة واحدة . ولو حلف في القسم وقال : أقسم بالله خمسين يمينا إن هذا قاتله ، كان يمينا واحدة . ولو قال المقر بالزنا : أنا أقر أربع مرات أنى زنيت ، كان مرة واحدة . فمن يعتبر الأربع لا يجعل ذلك

(١) أخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

حديث ٢٣٨٧ (طبعة المعارف) .

الإقرار إلّا واحدا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم^(١) : من قال في يومٍ (سبحان الله وبحمده) مائة مرة حطّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر . فلو قال : (سبحان الله وبحمده مائة مرة) لم يحصل له هذا الثواب حتى يقولها مرة بعد مرة . وكذلك قوله^(٢) : من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمده ثلاثاً وثلاثين وكبّره ثلاثاً وثلاثين ... الحديث ، لا يكون عاملاً به حتى يقول ذلك مرة بعد مرة ، لا يجمع الكلّ بلفظ واحد . وكذلك قوله^(٣) : من قال في يومٍ : (لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) مائة مرة كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي . لا يحصل هذا إلّا بقولها مرة بعد مرة . وهذا كما أنه في الأقوال والألفاظ فكذلك هو في الأفعال سواء . كقوله تعالى : سُنِعِدُّ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ^(٤) إنما هو مرة بعد مرة . وكذا قول ابن عباس^(٥) : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين إنما هو مرة بعد مرة . وكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) :

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٦٥ - باب فضل التسبيح ، حديث ٢٤٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٦ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١١ - باب صفة إبليس وجنوده ،

حديث ١٥٥٥ .

ومسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٨ (طبعنا) .

(٤) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَيَمْنُ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَاقِقُونَ ، وَمِنْ

أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سُنِعِدُّ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ .

(٥) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٥ (طبعنا) .

(٦) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٨٣ - باب لا يلدغ المؤمن من جحر

مرتين ، حديث ٢٣٥١

وأخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد ، حديث ٦٣ (طبعنا) .

لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين. فهذا هو المعقول من اللغة والعرف. ^١ فالأحاديث المذكورة ، وهذه النصوص المذكورة ، وقوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ، كلها من باب واحد ومشكاة واحدة. والأحاديث المذكورة تفسر المراد من قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ . فهذا كتاب الله ، وهذه سنة رسوله ، وهذه لغة العرب ، وهذا عرف التخاطب ، وهذا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة كلهم معه في عصره ، وثلاث سنين من عصر عمر رضى الله عنه ، على هذا المذهب ، فلو عدم العاد ل زادوا على الألف قطعاً . ولهذا ادعى بعض أهل العلم أن هذا إجماع قديم ، ولم تجمع الأمة - والله الحمد - على خلافه . بل لم يزل فيهم من يفتى به قرناً بعد قرن ، وإلى يومنا هذا . فأفتى به من الصحابة ابن عباس والزبير وابن عوف . وعن عليّ وابن مسعود روايتان ، ومن التابعين عكرمة وطاوس . ومن تابعيهم محمد بن إسحق وغيره . ومن بعدهم داود وإمام أهل الظاهر ، وبعض أصحاب مالك ، وبعض الحنفية ، وأفتى بعض أصحاب أحمد - حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عنه - قال : وكان الجدّ يفتى به أحياناً .

والمقصود أن هذا القول قد دلّ عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم . ولم يأت بعده إجماع يبطله . ولكن رأى أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم ، ليعلموا أن أحدهم ، إذا أوقعه جملة ، بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، نكاح رغبة يراد للدوام لا نكاح تحليل ، فإنه كان من أشدّ الناس فيه . فإذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق. فرأى عمر هذا مصلحة لهم في زمانه . ورأى أن ما كانوا عليه في عهد النبي ﷺ وعهد الصديق وصدراً من خلافته - كان اللائق بهم. لأنهم لم يتتابعوا فيه . وكانوا يتقون الله في الطلاق . وقد جعل الله لكل من اتقاه مخرجاً . فلما تركوا تقوى الله وتلاعبوا بكتاب الله وطلقوا على غير ما شرعه الله ألزمهم بما ألزموه عقوبة لهم . فإن الله سبحانه إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة . ولم يشرعه كلّ مرة واحدة . فمن جمع الثلاث في مرة واحدة فقد تعدى

حدود الله ، وظلم نفسه ، ولعب بكتاب الله . فهو حقيق أن يعاقب ويُلزم بما التزمه ، ولا يقر على رخصة الله وسعته ، وقد ضيعها على نفسه ، ولم يتق الله ويطلق كما أمره الله وشرعه له . بل استعجل فيما جعل الله له الأناة فيه ، رحمة وإحساناً . واختار الأغلظ والأشد . فهذا ما تغيرت به الباوى لتغير الزمان . وعَلِمَ الصحابةُ - رضى الله عنهم - حسنَ سياسة عمر وتأديبه لرعيته في ذلك فواقوه على ما أُلْزِمَ به . ثم قال : فلما تغير الزمان ، وبعد العهد بالسنة وآثار القوم ، وقامت سوق التحليل ونفقت في الناس ، فالواجب أن يُردَّ الأمر إلى ما كان عليه في زمن النبي ﷺ وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل ويقللها ويخفف شرها . وإذا عُرِضَ ، على من وقفه الله وبصره بالهدى وقفه في دينه ، مسألة كون الثلاث واحدة ومسألة التحليل ، ووازن بينهما - تبين له التفاوت ، وعلم أى المسألتين أولى بالدين وأصلح للمسلمين . ثم قال عليه الرحمة : ويمتنع في هذه الأزمنة معاقبة الناس بما عاقبهم به عمر رضى الله عنه

من وجهين :

أحدهما : أن أكثرهم لا يعلم أن جمع الثلاث حرام ، لاسيما وكثير من الفقهاء لا يرى تحريره ، فكيف يعاقب من لم يرتكب محرماً عند نفسه ؟

الثانى : أن عقوبتهم بذلك تفتح عليهم باب التحليل الذى كان مسدوداً على عهد الصحابة رضى الله عنهم . والعقوبة - إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه - كان تركها أحب إلى الله ورسوله . ولا يستريب أحد في أن الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة في عهد النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وصدر من خلافة عمر أولى من الرجوع إلى التحليل ، والله الموفق .

فصل

وأما طلاق الغضبان ففي (أعلام الموقعين) ما نصه :

إنَّ اللفظ إنما يوجب معناه لقصد التكلم به . والله سبحانه رفع المؤاخذة عن حدث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل . كما رفعها عن تلفظ من غير قصد لعناه ولا إرادة . ولهذا لم يكفر من جرى على لسانه لفظ الكفر سبقاً من غير قصد ، لفرح أو دهش أو غير ذلك . كما في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد^(١) ، وَضَرَبَ مَثَلَ ذَلِكَ : من فقد راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة فأيس منها ثم وجدها فقال : اللهم ! أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح . ولم يؤاخذ بذلك . وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ . ومن هذا قوله تعالى : وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ^(٢) قال السلف : هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب ، لو استجاب الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه . ولكنه لا يستجيبه لعله أن الداعي لم يقصده . ومن هذا رَفَعَهُ ﷺ حكم الطلاق عن طلق في إغلاق . قال الإمام أحمد رضى الله عنه في رواية حنبل : هو الغضب .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٧ (طبعنا) ونصه :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « اللَّهُ أَشَدُّ فَرْحًا بِتُوبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بَارِضٌ فَلَاةٌ فَانْقَلَبَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيْسَ مِنْهَا . فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا . قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ . فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ فَاخْذُ بِخُطَامِهَا . ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ . أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » .

(٢) [١٠ / يونس / ١١] وباقى الآية : ... فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرِجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

وبذلك فسرهُ أبو داود . وهو قول القاضي إسماعيل بن إسحق - أحد أئمة المالكية ومقدم فقهاء أهل العراق منهم - وهي عنده من لغو اليمين أيضاً . فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي يمين الإغلاق . وحكاه شارح أحكام عبد الحق عنه - وهو ابن بريرة الأندلسي - قال : وهذا قول عليّ وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما من الصحابة : أن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لا تلزم . وفي « سنن الدارقطني » بإسناد فيه لين من حديث ابن عباس رفعه : لا يمين في غضب ، ولا عتاق فيما لا يملك . وهو ، إن لم يثبت رفعه ، فهو قول ابن عباس . وقد فسر الشافعي (لا طلاق في إغلاق) بالغضب . وفسره مسروق به . فهذا مسروق والشافعي وأحمد وأبو داود والقاضي إسماعيل كلهم فسروا الإغلاق بالغضب . وهو من أحسن التفسير . لأن الغضبان قد أغلق عليه باب القصد لشدة غضبه . وهو كالمكره . بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره . لأن المكره قد قصد رفع الشر الكثير بالشر الذي هو دونه ، فهو قاصد حقيقة . ومن ههنا أوقع عليه الطلاق من أوقعه . وأما الغضبان فإن انفلاق باب القصد والعلم عنه كانفلاقه عن السكران والمجنون . فإن غَوَلَ العقل يفتاله كما يفتاله الخمر بل أشد . وهو شعبة من الجنون ، ولا يشك فقيه النفس في أن هذا لا يقع طلاقه . ولهذا قال حبر الأمة - الذي دعا له النبي ﷺ بالفقه في الدين : إنما الطلاق من وطء . ذكره البخاري في (صحيحه)^(١) أي : عن غرض من المطلق في وقوعه . وهذا من كمال فقهه رضي الله عنه ، وإجابة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، إذ الألفاظ إنما تترتب عليها موجباتها لقصد الالفاظ بها . والله لم يؤاخذنا باللغو في أيماننا . ومن اللغو ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها^(٢) وجهور السلف : إنه قول الحالف : (لا ، والله . وبلى ، والله .) في عرض كلامه من غير عقد لليمين ، كذلك لا يؤاخذ الله باللغو في أيمان الطلاق كقول الحالف في عرض كلامه : (على الطلاق لأفعل)

(١) أخرجه في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١١ - باب الطلاق في الإغلاق والمكره

والسكران .. الخ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ - باب لا يؤاخذكم

الله باللغو في أيمانكم ، حديث ١٩٩٦ .

و(الطلاق يلزمى لأفعل) من غير قصد لعقد اليمين . بل إذا كان اسم الرب جلّ جلاله لا ينعقد به يمين اللغو ، فيمين الطلاق أولى أن لا تنعقد ، ولا تكون أعظم حرمةً من الحلف بالله . وهذا أحد القولين في مذهب أحمد وهو الصواب . فإيّاك أن تهمل قصد التكلم ونيته وعرفه فتجنّ عليه وعلى الشريعة ، وتنسب إليها ماهي بريئة منه ، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به . فاللغو في الأقوال نظير الخطأ والنسيان في الأفعال . وقد رفع الله المؤاخذه بهذا . وهذا كما قال المؤمنون : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا !^(١) فقال ربهم تبارك وتعالى : قد فعلت .

وفى (زاد المعاد) قال شيخنا : حقيقة الإغلاق أن يغلق على الرجل قلبه فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته .

قال أبو العباس المبرّد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لا يجد له مخلصاً .
قال شيخنا : ويدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون ومن زال عقله بسكر أو غضب وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال .
والغضب على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يزيل العقل فلا يشعر صاحبه بما قال . وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاع .
الثاني : ما يكون في مبادئه بحيث لا يمنع صاحبه من تصوّر ما يقول وقصده ، فهذا يقع طلاقه .

الثالث : أن يستحكم ويشدد به فلا يزيل عقله بالكلية ، ولكن يحول بينه وبين نيّته بحيث يندم على ما فرط منه إذا زال . فهذا محل نظر . وعدم الوقوع في هذه الحالة قوى متجه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] .

فصل

وأما طلاق الحائض والنفساء والموطوءة في طهرها ، ففي (الصحيحين)^(١) أن ابن عمر طلق امرأته وهي حائض - على عهد رسول الله ﷺ - فسأل عمر بن الخطاب ، عن ذلك ، رسول الله ﷺ ؟ فقال : مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر . ثم إن شاء أمسكها بعد ذلك وإن شاء طلقها قبل أن يمس ، فتلک العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء . ولمسلم^(٢) : مره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت أو وهي حامل . وفي لفظ : إن شاء طلقها طاهراً قبل أن يمس . فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله تعالى . وفي لفظ للبخاري : مره فليراجعها ثم ليطلقها في قبْلِ عدتها . وفي لفظ لأحمد^(٣) وأبي داود^(٤) والنسائي^(٥) ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : طلق عبد الله بن عمر امرأته وهي حائض فردها عليه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١ - باب قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ، حديث ٢٠٦٠ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق ، قبل أن يمس . فتلک العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء » .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ١ وما بعده (طبعتنا) .

وأخرجه أحمد في الصفحة ٨٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

وأبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٤ - باب في طلاق السنة ، حديث ٢١٧٩ .

والنسائي في : ٢٧ - كتاب الطلاق ، ١ - باب وقت الطلاق للعدة التي أمر الله عز وجل

أن تطلق لها النساء .

رسول الله ﷺ ولم يهاشئاً وقال : إذا طهرت فليطلق أو ليمسك . وقال ابن عمر رضي الله عنه :
قرأ رسول الله ﷺ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ، فِي قُبُلِ عَدَّتِهِنَّ .
فتضمن هذا الحكم أن الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلالان ووجهان حرامان . فالحلال :
أن يطلق امرأته طاهراً من جماع . أو يطلقها حاملاً مستبيناً حملها . والحرام : أن يطلقها وهي
حائض . أو يطلقها في طهر جامعها فيه . هذا في طلاق المدخول بها . وأما من لم يدخل بها
فيجوز طلاقها حائضاً وطاهراً .

ثم إن الخلاف في وقوع الطلاق المحرم لم يزل ثابتاً بين السلف والخلف . وقد وهم من
ادعى الإجماع على وقوعه وقال بمبلغ علمه وخفي عليه من الخلاف ما اطلع عليه غيره . وقد
قال الإمام أحمد : من ادعى الإجماع فهو كاذب . وما يدرية لعل الناس اختلفوا ؟ كيف
والخلاف بين الناس في هذه المسألة معلوم الثبوت عن المتقدمين والمتأخرين .. ؟

قال محمد بن عبد السلام الحشني : ثنا محمد بن بشار . ثنا عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي .
ثنا عبيد الله بن عمر عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال ، في رجل يطلق
امرأته وهي حائض ، قال ابن عمر : لا يعتد بذلك . ذكره أبو محمد بن حزم في (المحلى)
بإسناده إليه .

وقال عبد الرزاق في (مصنفه) عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان لا يرى
طلاق ما خالف وجه الطلاق ووجه العدة . وكان يقول : وجه الطلاق أن يطلقها طاهراً من
غير جماع أو إذا استبان حملها .

قال أبو محمد بن حزم : العجب من جراءة من ادعى الإجماع على خلاف هذا وهو لا يجد
فيما يوافق قوله - في إمضاء الطلاق في الحيض أو في الطهر الذي جامعها فيه - كلمة عن أحد
من الصحابة رضي الله عنهم ، غير رواية عن ابن عمر . وقد عارضها ما هو أحسن منها عن
ابن عمر .

وقال أبو محمد : بل نحن أسعد بدعوى الإجماع ههنا لو استجزنا ما يستجيزون - ونعوذ بالله من ذلك - وذلك أنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم قاطبة ومن جملتهم جميع المخالفين لنا في ذلك ، أن الطلاق في الحيض أو في طهرٍ جامعها فيه - بدعة . فإذا لاشك في هذا عندهم ، فكيف يستجيزون الحكم بتجوز البدعة التي يقرّون أنها بدعة وضلالة ؟ أليس ، بحكم المشاهدة ، محيزُ البدعة مخالفاً لإجماع القائلين بأنها بدعة..؟

قال أبو محمد : وحتى لو لم يبلغنا الخلاف لكان القاطع على جميع أهل الإسلام بما لا يقين عنده ، ولا بلغه عن جميعهم - كاذباً على جميعهم .
هـذا ما أفاده الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) . ثم ذكر حجج المانعين من وقوعه ، وحجج من أوقعه ، والمناقشة فيها ، فراجعهُ إن شئت .

وذكر في خلال البحث : أنه لا دليل في قوله : مره فليراجعها ، على وقوع الطلاق . لأن المراجعة قد وقعت في كلام الله ورسوله على ثلاث معان : منها ابتداء النكاح كقوله تعالى « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » ولا خلاف بين أحد من أهل العلم بالقرآن أن المطلق - ههنا - هو الزوج الثاني . وأن التراجع بينها وبين الزوج الأول . وذلك نكاح مبتدأ . ومنها الردّ الحسنى إلى الحالة التي كان عليها أولاً كقوله ^(١) لأبي النعمان بن بشير لما نحل ابنه غلاماً خصه به دون ولده : رُدّه . فهذا ردّ ما لم تصح فيه الهبة الجائرة التي سماها رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في : ٥١ - كتاب الهبة ، ١٢ - باب الهبة للولد ، حديث ١٢٦٣

ونصه : عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال : إني نحلّ ابني هذا غلاماً . فقال « أكلّ ولدتك نحلّت مثله ؟ » قال : لا . قال « فارجه » .

وأخرجه مسلم في : ٢٤ - كتاب الهبات ، حديث ٩ (طبعنا) .

جوراً . وأخبر أنها لا تصح ، وأنها خلاف العدل . ومن هذا قوله ^(١) لمن فرق بين جارية وولدها في البيع فنهاء عن ذلك وردّ البيع ؛ وليس هذا الردّ مستلزماً لصحة البيع ، فإنه بيع باطل ، بل هو ردّ شيئين إلى حالة اجتماعهما كما كانا . وهكذا الأمر ، بمراجعة ابن عمر أمراته ، ارتجاع وردّ إلى حالة الاجتماع كما كانا قبل الطلاق ، وليس في ذلك ما يقتضى وقوع الطلاق في الحيض البتة ، وثمت وجوه أخرى ، والله أعلم .

فصل

وأما الخلع : فالتحقيق أنه فسخ لا طلاق . وأن العدة فيه حيضة . روى أبو داود ^(٢) في (سننه) عن ابن عباس ؛ أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس اختلعت من زوجها ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتدّ حيضة . ففي ذلك دليل على حكيم : أحدهما أنه لا يجب عليها ثلاث حيض بل تكفيها حيضة . وهذا كما أنه صريح السنة فهو مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والربيع بنت معوذ وعمر بن عبد الله بن الخطاب . وهو من كبار الصحابة - فهؤلاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم . وذهب إلى هذا المذهب إسحق بن رهوايه والإمام أحمد ، في رواية عنه اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية . قال : هذا القول هو مقتضى قواعد الشريعة . فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة . فإذا لم تكن عليها رجعة فالتقصود مجرد براءة رحمها من الحمل . وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء . ولا ينتقض هذا بالملكة ثلاثاً . فإنّ باب الطلاق جعل حكم العدة فيه واحداً بآئنة ورجعية . قالوا : وهذا دليل على أن الخلع فسخٌ ، وليس بطلاق . وهو مذهب ابن عباس وعثمان وابن عمر والربيع وعمر . ولا يصح

(١) انظر الحديث رقم ٢٨٣٢ من المنتقى .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٨ - باب في الخلع ، حديث ٢٢٢٩ .

عن صحابيٍّ أنه طلاق البتة . فروى الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد عن سفيان عن عمرو ، عن طاوس عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أنه قال : الخلع تفريق وليس بطلاق . وذكر عبد الرزاق عن سفيان عن عمرو ، عن طاوس : أن إبراهيم بن سعد سأله عن رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أينكحها ؟ قال ابن عباس رضي الله عنه : نعم ! ذكر الله الطلاق في أول الآية ، وأخبرها ، والخلع بين ذلك . والذي يدل على أنه ليس بطلاق ، أن الله سبحانه وتعالى رتب على الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ، ثلاثة أحكام كلها منتفية عن الخلع : أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه . الثاني : أنه محسوب من الثلاث فلا يحل بعد استيفاء العدد إلا بعد زوج وإصابة . الثالث : أن العدة فيه ثلاث قروء . وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع . وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة . وثبت بالنص جوازه بعد طليقتين ووقوع ثالثة بعده . وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق ؛ فإنه سبحانه قال «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِأَمْهَاءِ الَّذِينَ اتَّيَمُّوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ»^(١) وهذا - وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين - فإنه يتناولها وغيرها . ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر ، ويحلى عنه المذكور . بل إما أن يختص بالسابق ، أو يتناوله وغيره . ثم قال : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ^(٢) وهذا يتناول من طلقت بعد فدية تطليقتين قطعاً لأنها هي المذكورة . فلا بد من دخولها تحت اللفظ . فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله تأويل القرآن ، وهي دعوة مستجابة بلا شك . وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق ، دلّ على أنها غير جنسه . فهذا مقتضى النص والقياس وأقوال الصحابة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٠] .

هذه خلاصة الحجج في هذه الفروع المهمة معرقها . ولا يعرف قدرها إلا من صفى فهمه عن التعصبات . ومن نظر إلى ما عمت به البلوى - من التفرقة بين المرء وزوجه بمجرد الانتحال للكيل والقال ، وترك ما حقه بالدلائل الأئمة الأبطال - قضى العجب ، وبالله التوفيق . « فَإِنْ طَلَّقَهَا » - أى : الزوج الثانى - « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » - أى : على المرأة ومطلقها الأول - « أَنْ يَتَرَاجَعَا » أى : إلى ما كانا فيه من النكاح بعقد جديد بعد عدة طلاق الثانى - المعلومة مما تقدم من قوله : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ... الآية - « إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » أى : التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق « وَتِلْكَ » أى : الأحكام المذكورة « حُدُودُ اللَّهِ » أى : أحكامه الحميمة من التغير والمخالفة « يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : يكشف اللبس عنها لقوم فيهم بهضة وجد في الاجتهاد فيجددون النظر والتأمل بغاية الاجتهاد فى كل وقت ، فبذلك يعطيهم الله ملكة يميزون بها ما يلبس على غيرهم (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)^(١) ، (وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ)^(٢) - أفاده الباقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣١] (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنْفَاكِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِمَكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

- (١) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .
(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] وباقي الآية : ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ » أى : طلاقاً رجعيّاً « فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : قاربن انقضاء العدة « فَأَمْسِكُوهُنَّ » أى : بالمراجعة إن أردتم « بِمَعْرُوفٍ » من غير ضرار « أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى : بأن تتركوهن حتى تنقضى العدة فيملكن أنفسهن « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ » أى : بالرجعة « ضِرَارًا » أى : مضارةً بإزالة الألفة وإيقاع الوحشة وموجبات النفرة « لَتَعْتَدُوا » اللام للعاقبة ، أى : لتكون عاقبة أمركم الاعتداء؛ أو للتعليل (متعلقة بالضرار) فيكون علة للعلة ، أى : لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أى : بتعريضها لسخط الله عليه ونفرة الناس منه « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ » أى : أوامره ونواهيه « هُزُوءًا » أى : مهزواً بها بأن تعرضوا عنها وتهاونوا فى المحافظة عليها « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى : فى إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم « وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ » أى : السنة « يَغِظُكُمْ بِهِ » أى : بما أنزل. أى : يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على المخالفة « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تأكيد وتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٢] (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : انقضت عدتهن . وقد دلّ سياق الكلامين على اختلاف البلوغين ، إذ الأول دلّ على المشارفة للأمر بالإمساك ، وهذا على الحقيقة للنهى عن المضل « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » أى : لا تمنعهن « أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ »

الذين طلقوهن والآن يرغبن فيهم « إِذَا تَرَاضَوْا » أى : النساء والأزواج « بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ » أى : بما يحسن فى الدين من الشرائط « ذَلِكَ » أى : النهى عن العضل « يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ » أى : الاتعاظ بترك العضل والضرار « أَزْكَى لَكُمْ » أى أصلح لكم « وَأَطْهَرُ » لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والعداوة « وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى : يعلم ما فيه صلاح أموركم فيما يأمر وينهى (ومنه ما بينه هنا) وأنتم لا تعلمونه ، فدعوا رأىكم وامتنلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ماتأتون وما تذكرون . وقد روى : أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنى وأخته .

أخرج البخارى وأبو داود والترمذى^(١) وغيرهم عن معقل بن يسار : أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين . فكانت عنده ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها . حتى انقضت العدة فهويها وهويته . فخطبها مع الخطاب . فقال له : يا لكرمك ! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً . فعلم الله حاجتها إليها وحاجتها إليه ، فأنزل الله الآية . فلما سمعها معقل قال : سمع لربى وطاعة ! ثم دعاه وقال : أزوجك وأكرمك . زاد ابن مردويه : وكفرت عن يميني .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٣] (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ٤٤ - باب وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ،

حديث ١٩٧٨ .

والترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٢٨ - حدثنا عبد بن حميد .

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ
تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

« وَالْوَالِدَاتُ » أى : من المطلقات « يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » أى :
سنتين كاملتين « لَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » أى : هذا الحكم لمن أراد أن يتم رضاع
الولد، فَافْتَهُمَ أَنَّهُ يجوز الفطام للمصلحة قبل ذلك ، وأنه لا رضاع بعد التمام .

قال الحرّالى : وهو - أى الذى يكتفى به دون التمام - هو ما جمعه قوله تعالى : وَحَمَلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ^(١) فإذا كان الحمل تسعاً كان الرضاع أحدًا وعشرين شهرًا . وإذا
كان حولين كان المجموع ثلاثًا وثلاثين شهرًا ، فيكون ثلاثة آحاد وثلاثة عقود ، فيكون
ذلك تمام الحمل والرضاع .

« وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ » - أى : الأب - وعبر عنه بهذه العبارة إشارة إلى جهة وجوب
المؤن عليه ، لأن الوالدات إنما وَلَدْنَ للآباء ، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم ؛
قال بعضهم :

وإنما أمهات الناس أوعيةٌ مستودعاتٌ وللآباء أبناء

« رَزَقْنَهُنَّ وَكَسَوْنَهُنَّ » أى : على والد الطفل نفقة أمّه المطلقة مدّة الإرضاع ، أى
طعامهنّ ولباسهنّ « بِالْمَعْرُوفِ » وهو قدر اليسرة كما فسّره قوله تعالى : « لَا تُكَلِّفُ

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ
أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ
وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

نَفْسُهُ إِلَّا وُسْعَهَا » يعنى طاقتها ؛ والمعنى : أن أبا الولد لا يكلف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تنسج به مقدرته ، ولا يبلغ إسراف القدرة « لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا » أى : بأخذ ولدها منها بعد رضاها بإرضاعه ورغبتها فى إمساكه وشدة محبتها له « وَلَا مَوْلُودٌ » يعنى الأب « بِوَلَدِهِ » بطرح الولد عليه ؛ يعنى : لا تلقى المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفتها ، تضاره بذلك . وهذا التأويل على تقدير كون (تضار) مبنياً للمفعول ، وأما على بناءه للفاعل ، فالمفعول محذوف والتقدير . لا تضار - بكسر الراء الأولى - والدته زوجها بسبب ولدها ، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد ، وأن تقول (بعد أن ألفتها الصبي) : اطلب له ظئراً ، وما أشبه ذلك ؛ ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ، أو يأخذ منها وهى تريد إرضاعه . والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو أن يفيظ أحدهما صاحبه « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » أى : على وارث الأب أو وارث الصبي مثل ما على الأب من النفقة وترك الضرار إذا لم يكن الأب « فَإِنْ أَرَادَا » يعنى الزوج والمرأة « فِصَالًا » أى : فصال الصبي عن اللبن قبل الحولين - يعنى : فطاماً « عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا » بتراضى الأب والأم « وَتَشَاوُرٍ » بمشاورتهما « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » أى : على الأب والأم إن لم يرضعا ولدهما سنتين « وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ » يعنى غير الأم عند إبانها أو عجزها أو إرادتها أن تتزوج « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ » - يعنى إلى المراضع - « مَاءً آتَيْتُمْ » أى : ما أردتم إيتاءه إليهن من الأجرة « بِالْمَعْرُوفِ » متعلق بـ (سلمتم) أى : سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور . والمقصود ندهم أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشرين الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيعين لأنفس المراضع حتى يؤمن من تفريطهن بمصالح الرضيع « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فيه من الوعيد والتحذير عن مخالفة أحكامه ما لا يخفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٤] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يموتون من رجالكم « وَيَذَرُونَ » أى : يتركون « أَزْوَاجًا » بعد الموت « يَتَرَبَّصْنَ » أى ينتظرن « بِأَنْفُسِهِنَّ » فى العدة « أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » يعنى عشرة أيام « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : انقضت عدتهن « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى : على الأولياء فى تركهن « فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » من التعرض للخطاب والتزين « بِالْمَعْرُوفِ » أى : بوجه لا ينكره الشرع. وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع ، فعليهن أن يكفوهن عن ذلك . وإلا فعليهن الجناح « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

اعلم أن فى هذه الآية مسائل :

الأولى : خص ، من عموم الآية ، الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن عدتها بوضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ^(١) ؛ ولما فى (الصحيحين)^(٢) عن سبيعة الأسلمية : أنها كانت تحت سعد بن خولة - وهو من بنى عامر بن لؤى وكان ممن

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : وَاللَّائِي يَلْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣٩ - باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ

أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ٥٧ (طبعنا) .

شهد بداراً - فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل . فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تلّعت من نفاسها تجملت للخطّاب . فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك - رجل من بني عبد الدار - فقال : مالى أراك تجملت للخطّاب ، لعلك ترجين النكاح ؟ وإنّك والله ما أنتِ بنا كح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ؟ فأفتانى بأنى قد حلت حين وضعت حملى . وأمرنى بالتزويج إن بدا لى . وفيه قال ابن شهاب : ولا أرى بأساً أن تزوج حين وضعت ، وإن كانت فى دمها ، غير أنه لا يقربها حتى تطهر .

الثانية : المراد من تربصها بنفسها : الامتناع عن النكاح ، والامتناع عن التزويج ، والامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفى زوجها فيه . فالأول مجمع عليه . والثانى : روى فيه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش وعائشة - أمهات المؤمنين - عن النبي صلى الله عليه وسلم^(١) قال : لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث . إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً . متفق عليه . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله ! إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عيناها أفنكحها ؟ قال : لا . كل ذلك يقول : لا . مرتين أو ثلاثاً - ثم قال : إنما هى أربعة أشهر وعشر . وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة . متفق عليه .

وعن نافع : أن صفية بنت عبد الله اشتكت عيناها - وهى حادّة على زوجها ابن عمر - فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان ، أخرجه مالك فى (الموطأ)^(٢) .

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣١ - باب حد المرأة على غير زوجها ، حديث ٦٨٠ و ٦٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ٦٥٨ و ٥٩٥ و ٦٥٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٩ - كتاب الطلاق ، حديث ١٠٧ (طبعنا) .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : لا تلبس التوفى عنها زوجها، المعصرة من الثياب ولا المشقة ولا الحلى ولا تحتضب ولا تكتحل ولا تطيب أخرجه أبو داود^(١) (والمشقة : المصبوغة بالمشق وهي الغرة) .

وقد استنبط بعضهم وجوب الإحداد من قوله تعالى « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » أى : من زينة وتطيب - كما قدمنا - فيفيد تحريم ذلك في العدة وهو الإحداد .

وأما الامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفى فيه زوجها : فروى فيه أحمد وأهل السنن^(٢) حديث فريمة بنت مالك قالت : خرج زوجى فى طلب أعلاج له فأدركهم فى طريق القدوم فقتلوه ، فأتى نعيه وأنا فى دار شاسعة عن دار أهلى ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فقلت : إن نى زوجى أتانى فى دار شاسعة عن أهلى ولم يدع نفقة ولا مالاً ورثته وليس المسكن له ، فلو تحولت إلى أهلى وإخوتى لكان أرفق بى فى بعض شأنى ؟ قال : تحولى . فلما خرجت إلى المسجد أو إلى الحجرة دعانى - أو أمر بى فدعيت - فقال : امكثى فى بيتك الذى أتاك فيه نى زوجك حتى يبلغ الكتاب أجله . قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً . وفى بعض ألفاظه : أنه أرسل إليها عثمان بعد ذلك فأخبرته ، فأخذ به . وقد أعل هذا الحديث بما لا يقدح فى الاحتجاج به .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٤٦ - باب فيما تجتنبه المعتدة فى عدتها حديث ٢٣٠٤ .

(٢) أخرجه أحمد فى الصفحة ٣٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .
والنسائي فى : ٢٧ - كتاب الطلاق ، ٦٢ - باب عدة التوفى عنها زوجها من يوم يأتيها الخبر .

وابن ماجة فى : ١٠ - كتاب الطلاق ، ٨ - باب أين تعتد التوفى عنها زوجها ، حديث ٢٠٣١ (طبعنا) .

الثالثة : أكثر الفقهاء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحوال وإن كانت متقدمة في التلاوة ، فإن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول بل هو توقيفي . وذهب مجاهد وغيره إلى أنهما محكمتان . كما سيأتي بيانه .

الرابعة : أبدى المهايي الحكمة في تحديد عدة التوفى عنها بهذا القدر ، فقال : لثلا يتعارض في قلبها حب التوفى وحب الجديد ، فأخذت مدة صبرها - وهو أربعة أشهر - وزيد عليه العشر ، إذ بذلك ينقطع صبرها فتميل إلى الجديد ميلاً كلياً ، فينقطع عن قلبها حب التوفى . على أنه يظهر في حق المدخول بها حركة الحمل إذ تكون بعد أربعة أشهر ، لكنها تبتدىء ضعيفة وتتقوى بمضى عشر آخر . ثم قال : ولم يكتف بالأقراء الدالة على عدمه ههنا ، بخلاف الفراق حال الحياة ، لأن الفراق الاختياري شاهد عدمه مع شهادة الأقراء ، فثمت شاهدان وههنا واحد ، وعدم الحركة بعد هذه المدة يقوى شهادة الأول فيكون كالشاهد مع اليمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٥] (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
« وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ » أى : لا حرج عليكم أيها

الخاطبون في التعريض بخطبتكم النساء المتوفى عنهن أزواجهن قبل انقضاء العدة لتزواجهن بعد انقضائها . والتعريض : إفهام المقصود بالم يوضع له ، حقيقة ولا مجازاً . كأن يقال لها : إنك جميلة أو صالحة ، أو ربّ راغب فيك ، أو من يجد مثلك . والخطبة - بالكسر - طلب المرأة . « أَوْ » - فيما - « أَكْنَنْتُمْ » أى : أضمرتم من نكاحهن « فِي أَنْفُسِكُمْ » أى :

قلوبكم وإن كان حقه التحريم فضلاً عن التعريض باللسان ، لكن أباحه الله لكم إذ « عَليمَ الله أَنَّكُمْ سَتَدْكُرُونَهُنَّ » أى : لا تصبرون عن النطق برغبتكم فيهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح ، وفيه طرف من التوبيخ على قلة التثبت كقوله تعالى : عَليمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ^(١) . « وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا » هذا الاستدراك من قوله « فِيمَا عَرَّضْتُمُ بِهِ » . و « سِرًّا » مفعول به لأنه بمعنى النكاح . أى : لا تواعدوهن نكاحاً . أو هو بمعنى ضد الجهر والإعلان فيكون مصدراً فى موضع الحال تقديره (مستخفين بذلك) والمفعول محذوف تقديره (لا تواعدوهن النكاح سراً) ، أو صفة لمصدر محذوف أى : مواعدة سراً ، أو التقدير (فى سر) فيكون ظرفاً . وإنما نهى عن ذلك لأن المواعدة بذكر الجماع والرفث بين الأجنبي والأجنبية غير جائز إجماعاً . كالمواعدة بينهما على وجه السر . إذ لا تنفك ظاهراً عن أن تكون مواعدة بشئ من المنكرات .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز . وقال أيضاً : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها ، وللأب في ابنته البكر ، وللسيد في أُمِّهِ .

وقوله تعالى « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا » أى : لا يستحي منه عند أحدٍ من الناس . فال الأمر إلى أن المعنى : لا تواعدوهن إلا ما لا يستحي من ذكره فيسر وهو التعريض ؛ فنصت هذه الآية على تحريم التصريح . بعد إفهام الآية الأولى لذلك ، اهتماماً به لما للنفس من الداعية إليه - أفاده البقاعي .

وقال الرازى : لما أُذِنَ تعالى فى أول الآية بالتعريض ثم نهى عن المسارة معها دفماً للريبة والغيبة ، استثنى عنه أن يساررها بالقول المعروف . وذلك أن يعدها فى السر بالإحسان إليها ، والاهتمام بشأنها ، والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض ، والله أعلم .

تنبيه :

ما قدمناه من أن قوله تعالى « وَلَكِنْ ... » الخ استدراك من قوله « فِيمَا عَرَضْتُمْ » قاله أبو البقاء .

وجعل الزمخشريّ المستدرك محذوفاً دلّ عليه « سَتَذَكَّرُوهُمْ » أى : فاذكروهم ولكن لا تواعدوهن سراً .

قال الناصر : وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف . لأن المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقيبها . ونظير هذا النظم قوله تعالى : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ...^(١) الآية . ولهذا الحذف سرّ - والله أعلم - وهو أنه اجتنب لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً . بل اختصت بوجه واحد من وجوهه . وذلك الوجه المباح عسر التميز عما لم يبيح . فذكرت مستثناة بقوله « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا » تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر ، والأصل فيه الحظر . ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم . فإنه أبيض مطلقاً غير مقيد ؛ فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة . وجاء النهي عن مباشرة العتكفة في المسجد تلوّاً للإباحة وتبهماً في الذكر . لأنها حالة فاذة . والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم ولكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب ، وهو الاعتكاف . فتفطن لهذا السرّ فإنه من غرائب النكت .

« وَلَا تَعْرِزُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » (المُقَدَّة) بالضم من النكاح وكل شيء من البيع ونحوه ، وجوبه . قال الفارسيّ : هو من الشدّ والربط . وقال الرازيّ : أصل العقد الشدّ . وسميت العهود والأنكحة عقوداً لأنها تعقد كما يعقد الحبل . وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح . لأن العزم على الفعل يتقدمه . فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى . ومعناه : ولا تعزموا وجوب النكاح لأن القصد إليه حال العدة يفيد مزيد تحريك

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

من الجانبين بحيث لا يطاق معه الصبر إلى انقضاء العدة . وقوله « حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ »
 أى : العدة المكتوبة المفروضة آخرها . « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » من الميل
 إليهن قبل الأجل « فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » يغفر ذلك الميل إذ لم يتعد العزم
 عقدة النكاح « حَلِيمٌ » لا يعاجل بالعقوبة ، فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتهم عنه من
 العزم ليس مما يستتبع المؤاخظة !..

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٦] (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَتَعْتَوْهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

« لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً »
 (ما) شرطية ، أى : إن لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة . يعنى : ولم تعينوا لهن صداقاً
 - ذ (أو) بمعنى الواو - وحينئذ فلا مهر لهن ولكن المتعة بالمعروف كما قال تعالى « وَتَعْتَوْهُنَّ »
 أى : من مالكم جبراً لوحشة الفراق « عَلَى الْمَوْسِعِ » أى : الفنى الذى يكون فى سعة
 من غناه « قَدَرُهُ » - بسكون الدال ويفتحها قراءتان سبعتان - أى : يجب على المورس قدر
 ما يليق ببساره « وَعَلَى الْمُقْتَرِ » أى : المعسر الذى فى ضيق من فقره ، وهو المقل الفقير ،
 يقال : أقتَر إذا افتقر « قَدَرُهُ » أى : قدر ما يليق بإعساره « مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ » تأكيد
 لـ « تَعْتَوْهُنَّ » يعنى : متعوهن تمتعاً بالمعروف - أى : بالوجه المستحسن فلا يزداد إلى نصف
 مهر المثل ولا ينقص إلى ما لا يعتد به - « حَقًّا » أى : ثبت ذلك ثبوتاً مستقراً « عَلَى
 الْمُحْسِنِينَ » أى : المؤمنين لأنه بدل المهر ؛ وذكركم بهذا العنوان ترغيب وتحريض لهم على
 الإحسان إليهن بالمتعة . وإنما كانت إحساناً لأن ملاك القصد فيها ما تطيب به نفس المرأة

ويبقى باطنها وباطن أهلها سلماً ذا مودة . لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً - أفاده الحرالي .
وروى الثوري عن ابن عباس قال : متعة الطلاق أعلاها الخادم ، ودون ذلك الوريق ،
ودون ذلك الكسوة . وعنه : إن كان موسراً متمها بخادم ونحوه ، وإن كان معسراً متمها
بثلاثة أثواب .

وروى عبد الرزاق أن الحسن بن علي - عليهما السلام - متع بعشرة آلاف . فقالت المرأة :
متاع قليل من حبيب مفارق .

تنبيه :

أخذ بعض المفسرين يحاول البحث بأن عنوان نفي الجناح - عما ذكر هنا - يفيد ثبوته
فيما عداه ، مع أنه لا جناح أيضاً فيه . وتكلف للجواب - ساعه الله - ولا يخفأك أن مثل
هذا العنوان كثيراً ما يراد به في التزليل الترخيص والتسهيل . كما تكلف بعضٌ بجعل (أو)
بمعنى (إلا) أو (حتى) ؛ وجعل الحرج بمعنى المهر مع أن الآية بيّنة بنفسها لا حاجة إلى أن
تتجاوزها أطراف هذه الأبحاث . وعدولهم عن أقرب مما سلكوه - أعنى كون (أو) بمعنى
الواو - مع شيوعها في آيات كثيرة - عجيبٌ . وأعجب منه تخطئة من جنح لهذا الأقرب ، مع
أنّ مما يرشحه مساق الآية بعدها .

وما روى في سبب نزول هذه الآية : قال الخازن : نزلت في رجلٍ من الأنصار تزوج
امراًة من بني حنيفة ولم يسم لها صداقاً ثم طلقها قبل أن يمسه ، فنزلت « لَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ ... » الآية فقال له رسول الله ﷺ : أتمتها ولو بقلنسوتك . وهذه الرواية - إن
ثبتت - كانت شاهدة لما اعتمدناه ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٧] (وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ » - أى : الزوجات - « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ » أى : تجامعوهُنَّ . قال أبو مسلم : وإنما كنى تعالى بقوله « تَمْسُوهُنَّ » عن الجماع ، تأديباً للعباد فى اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به . « وَقَدْ فَرَضْتُمْ » أى : سميتم « لَهُنَّ فَرِيضَةً » أى : مهراً مقدراً « فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أى : فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر ، أو فالواجب عليكم ذلك « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » أى : المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر . وتقول المرأة : مارأى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئاً ؟ « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » وهو الزوج فيسوق إليها المهر كاملاً ، أو الولي ، يعنى : إذا كانت صغيرة - أو غير جائزة التصرف - فيترك نصيبها للزوج .

قال مالك فى (موطأه) فى هذه الآية : هو الأب فى ابنته البكر . والسيد فى أمته . وكلا التأويلين مروى عن عدة من الصحابة والتابعين .

قال الحزالى : إذا قرن هذا الإيراد بقوله « وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » خطاباً للأزواج قوى فسر من جعل « الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » هو الزوج معادلة للزوجات ، ومن خص عفوهُنَّ بالمالكات - أى الرشيدات - خص هذا بالأولياء .

ونقل ابن جرير : أن الشعبي رجع إلى أنه الزوج ، وكان يباهل عليه .

وقال الزخشرى : القول بأنه الولي ظاهر الصحة .

قال الناصر فى (حواشيه) : وصدق الزخشرى أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق

الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة . ساقها بالطف بيان . فانظرها ، والله أعلم .

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً ، وغلب التذكير نظراً للأشرف . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : أقربهما للتقوى الذى يعفو ، وذلك لأن من سمح بترك حقه كان محسناً وذلك عنوان التقوى « وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » أى : التفضل بالإحسان لما فيه من الألفة وطيب خاطر . فهو حث على العفو ، فمن عفا منهما فله الفضل على الآخر . ومعلوم أن النسيان ليس فى الوسع حتى ينهى عنه . فالمراد منه الترك . أى : لا تتركوه ترك المنسى . فالتعبير بالنسيان أكد فى النهى . والخطاب هنا أيضاً للقبيلين بالتغليب ، كالذى قبله ، وخصه الحرالى بالرجال ، قال :

فمن حق الزوج - الذى له فضل الرجولة - أن يكون هو العافى . وأن لا يؤخذ النساء بالعفو ، ولذلك لم يأت فى الخطاب أمرهن ولا تحريض . فمن أقبح ما يكون حمل الرجل على المرأة فى استرجاع ما آتاها بما يصرح به قوله : « وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ فَنُطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا »^(١) . فينبغى أن لا تنسوا ذلك الفضل فتجرون عليه حيث لم تلموا به .

وقد حكى الرغشرى عن جبير بن مطعم ، أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو ..! وعنه : أنه دخل على سمد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها . فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها على فكرهت رده . قيل : فلم بعث بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟

وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى : فلا يضيع تفضلكم وإحسانكم . ولما كانت الحقوق المشروعة قبل ، مما قد يشق القيام بها على بعض الناس ، أمروا بما يخفف عنهم عبئها ويحبب إليهم أداءها . وذلك بالمحافظة على الصلوات فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذا أمر بها تعالى - إثر ما تقدم - بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٨] (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ » أى : داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها وسننها من غير إخلال بشيء منها « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أى : الوسطى بين الصلوات بمعنى المتوسطة أو الفضلى منها ، من قولهم للأفضل : الأوسط . فعلى الأول : يكون الأمر لصلاة متوسطة بين صلاتين . وهل هى الصبح أو الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، أقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين . وعلى الثانى : فهى صلاة الفطر أو الأضحية أو الجماعة أو صلاة الخوف أو الجمعة أو المتوسطة بين الطول والقصر . أقوال أيضاً عن كثير من الأعلام . والقول الأخير جيد جداً كما لو قيل بأنها ذات الخشوع لآية : وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .

وأما علماء الأثر فقد ذهبوا إلى أن المعنى بالآية صلاة العصر لما فى (الصحيحين)^(١) عن على رضى الله عنه ؛ أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب (وفى رواية يوم الخندق) : ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . وفى رواية : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . وذكر نحوه وزاد فى أخرى : ثم صلاها بين المغرب والعشاء . أخرجه فى (الصحيحين) ورواه أصحاب السنن والسانيد والصحاح من طرق يطول ذكرها .

وأجاب عن هذا الاستدلال من ذهب إلى غيره بأنه لم يرد الحديث مورد تفسير الآية حتى يعينها . وإنما فيه الإخبار عن كونها وسطى ، وهو كذلك لأنها متوسطة وفضل من الصلوات .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٩٨ - باب الدعاء على المشركين بالهزيمة

والزلة .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٢ (طبعنا) .

وما رواه مسلم^(١) عن أبي يونس - مولى عائشة - قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت : إذا بلغت هذه الآية فأذني « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ». قال : فلما بلغت آذنتها ، فأملت على : حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و صلاة العصر وقوموا لله قانتين . قالت عائشة : سمعتها من رسول الله ﷺ . وروى ابن جرير عن حفصة نحو ذلك . قال نافع : فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو . وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير ، أنهما قرآ كذلك .

فهذا من عائشة رضى الله عنها إعلام بالمراد من (الوسطى) عندها . ضمت التأويل إلى أصل التنزيل لِأَمْنِ اللبس فيه . لأن القرآن متواتر مأمون أن يزد فيه أو ينقص . وكان في أول العهد بنسخه ربما ضم بعض الصحابة تفسيراً إليه ، أو حرفاً يقرؤه . ولذا لما خشي عثمان رضى الله عنه أن يرتاب في كونه من التنزيل - مع أنه ليس منه - أمر بأن تجرد المصاحف في عهده مما زيد فيها من التأويل وحروف القراءات التي انفرد بها بعض الصحب ، وأن يقتصر على المتواتر تنزيهه وتلقيه من النبي ﷺ .

قال القاضي أبو بكر في (الانتصار) : لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين . وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد ...

هذا وقد أيد علماء الأثر ما ذهبوا إليه من أنها صلاة العصر بأنها خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة عليها ، والتغليظ لمن ضيعها . فقد قال أبو المليح : كنا مع بريدة في غزوة . فقال في يوم ذي غيم : بكمروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال : من ترك صلاة العصر فقد

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا).

حبط عمله . أخرجه البخارى^(١) . وقوله : بكرؤا بصلاة العصر ، أى قدّموها فى أوّل وقتها .
وروى الشيخان^(٢) عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : الذى تفوته صلاة العصر
فكأنما وتر أهله وماله !.. أى : نقص وسلب أهله وماله فبقى فرداً ، فافدّها . والمعنى :
ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله .

وقد ساق الحافظ عبد المؤمن الدمايطى فى كتابه (كشف المغطى فى تبين الصلاة
الوسطى) ما امتازت به صلاة العصر من الخصائص والفضائل ، قال عليه الرحمة :

فمنها : أن رسول الله ﷺ غلظ المصيبة فى فواتها بذهاب الأهل والمال فى الحديث المتقدم .
ومنها : جبوط عمل تاركها المضّيع لها فى الحديث السالف أيضا .

ومنها : أنها كانت أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وأهلهم وأموالهم !

ومنها : قوله ﷺ : من حافظ عليها كان له أجرها مرتين . رواه مسلم .

ومنها : أن انتظارها بعد الجمعة كعمرة - رواه أبو يعلى . وروى الحاكم : كمن أتى
بحجة وعمره .

ومنها : قوله ﷺ^(٣) : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب المواقيت ، ١٥ - باب من ترك العصر ،

حديث ٣٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٤ - باب إثم من فاتته

العصر ، حديث ٣٥٦ .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٠ و ٢٠١ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٤٢ - كتاب الشرب والمساواة ، ٥ - باب إثم من منع

ابن السبيل من الماء ، حديث ١١٧٨ .

ومسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧٣ و ١٧٤ (طبعنا) .

ولهم عذاب أليم ... - إلى أن قال - ورجل أقام سلعة بعد العصر خلف بالله أنه أخذها بكذا وكذا . فجاء رجل فصدقه فاشتراها . متفق عليه . ثم قال : قلت وقد عظم الله الأيمان التي يحلف بها العباد فيما شجر بينهم بعدها فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ^(١) . قال عامة المفسرين : بعد صلاة العصر . ولذلك غلظ العلماء اللعان وسائر الأيمان المغلظة بوقت صلاة العصر لشرفه ومزيته .

ومنها : أن سليمان - عليه السلام - أتلّف مالا عظيما من الخيل لما شغله عرضها عن صلاة العصر إلى أن غابت الشمس . فدحه الله تعالى بذلك وأثنى عليه بقوله تعالى : نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ... ^(٢) الآية .
ومنها : أن ^(٣) الساعة التي في يوم الجمعة قد قيل : إنها بعد العصر .
ومنها : أن وقتها وقت ارتفاع الأعمال .

(١) [٥ / المائدة / ١٠٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٠ - ٣٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، ففطّق مسحّا بالسوق والأغناق .

(٣) أخرجه البخاري في ١١ - كتاب الجمعة ، ٣٧ - باب الساعة التي في يوم الجمعة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه » وأشار بيده ، يقللها .

ومنها ؛ الحديث المرفوع : إنَّ الله تعالى يوحى إلى الملّكين : لا تسكتبا على عبدى الصائم بعد العصر سيئة .

ومنها ؛ ما جاء فى قوله تعالى : وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ .^(١) قال مقاتل : العصر هى الصلاة الوسطى أقسم بها - حكاه ابن عطية .

ومنها ؛ ما روى فى الحديث ، أن الملائكة تصفّ كل يوم بعد العصر بكتبتها فى السماء الدنيا فينادى الملّك : ألتى تلك الصحيفة . فيقول : وعزّتك ما كتبت إلّا ما عمل . فيقول الله عزّ وجل : لم يرد به وجهى . وينادى الملّك الآخر : اكتب لفلان كذا وكذا ، فيقول الملّك : وعزّتك إنه لم يعمل ذلك . فيقول الله عزّ وجل : إنه نواه .

ومنها ؛ أن وقتها وقت اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم فى الغالب . وقد أفرد الكلام على تفسير هذه الآية بمؤلفات . وذكر العلامة الفاسى - شارح (القاموس) - فيما نقله عنه الزبيدى ، أن الأقوال فيها أُنافت على الأربعين . فرضى الله عن العلماء المجتهدين وأرضاهم .

سنح لى (*) وقوى بعد تمّتن - فى أواخر رمضان سنة ١٣٢٣ - احتمال قوله تعالى « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » بعد قوله « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ » لأن يكون إرشاداً وأمرأً بالمحافظة على أداء الصلاة أداءً متوسطاً . لا طويلاً مملاً ولا قصيراً مخلاً . أى : والصلاة المتوسطة بين الطول والقصر . ويؤيده الأحاديث المروية عنه ﷺ فى ذلك ، قولاً وفعلأ .

ثم مرّ بى فى القاموس - فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ - حكاية هذا قولأ . حيث ساقى فى مادة (و س ط) الأقوال فى الآية ، ومنها قوله (أو المتوسطة بين الطول والقصر) ؛ قال شارحه الزبيدى : وهذا القول ردّه أبو حيّان فى (البحر) .

(١) [١٠٣ / العصر / ١] .

(*) نقلت هذه السانحة من دفترٍ للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

ثم سنع لى (*) احتمال وجه آخر : وهو أن يكون قوله « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أريد به توصيف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فضلى ، أى : ذات فضل عظيم عند الله . فالوسطى بمعنى الفضلى من قولهم للأفضل : الأوسط . وتوسط (الواو) بين الصفة والموصوف مما حققه الزمخشري واستدل له بكثير من الآيات . وفى سوق الصفة بهذا الأسلوب ، من الاعتناء بالموصوف ما لا يخفى . وأسلوب القرآن أسلوب خاص انفرد به فى باب البلاغة ، لم يفتح من أبواب عجائبه إلا قطرة من بحر . ولعل هذا الوجه هو ملحظ من قال : هى الصلوات الخمس ، وهو معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فكأنه أشار إلى أن المعطوف عَيْنُ المعطوف عليه . إلا أنه أتى بجملة تفيد التوصيف .

وقوله تعالى : « وَقَوْمُوا لِلَّهِ » - فى الصلاة - « قَانِتِينَ » خاشعين ساكتين . روى الشيخان^(١) عن زيد بن أرقم : إن كنا لتكلم فى الصلاة على عهد النبى ﷺ . يكلم أحدا صاحبه بحاجته . حتى نزلت « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت . هذا لفظ البخارى . ولفظ مسلم : عن زيد بن أرقم قال^(٢) : كنا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت « وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام .

وروى أبو يعلى عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة ، فررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فلم يرد على ، فوقع فى نفسى إنه نزل فى شىء ، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال : وعليك السلام - أيها المسلم - ورحمة الله ، إن الله يحدث فى أمره ما يشاء ، فإذا كنتم فى الصلاة فاقتنوا ولا تتكلموا .

(*) نقلت هذه السانحة من دفتر اللواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٢١ - كتاب العمل فى الصلاة ، ٢ - باب ما ينهى عنه

من الكلام فى الصلاة ، حديث ٦٥١ .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٥ (طبعنا) .

وروى الطبراني في (الأوسط) والإمام أحمد^(١) وأبو يعلى الموصلي في (مسندهما) وابن حبان في (صحيحه) عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل حرف ذكر من (القنوت) في القرآن فهو الطاعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣٩] (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ خِفْتُمْ » أى : فإن كان بكم خوف من عدوٍّ أو غيره « فَرِجَالًا » أى : فصلوا راجلين ، أى : ماشين على الأقدام - يقال : رَجَلَ - كَفَرَجَ - فهو راجل ، ورجُل - بضم الجيم - ورجل - بكسرهما - ورجل - بفتحها - ورجل ورجلان إذا لم يكن له ظهر في سفر يركبه فشئ على قدميه ، والجمع رجال ورجالة ورجال - كرمان - « أَوْ رُكْبَانًا » أى : راكبين ، فيعنى عن كثرة الأفعال وإتمام الركوع والسجود واستقبال القبلة . وهذا من رخص الله تعالى التي رخص لعباده ، وَوَضِعِ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ عَنْهُمْ . وقد رويت صلاة الخوف عن رسول الله ﷺ على صفات مختلفة مفصلة في كتب السنة ، وذلك لأنه ﷺ كان يتحرى في كل موطن ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة .

قال الرازى : صلاة الخوف قسمان : أحدهما أن تكون في حال القتال - وهو المراد بهذه الآية ؛ والثانى : في غير حال القتال وهو المذکور في سورة النساء في قوله تعالى : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ »^(٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٧٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤ / النساء / ١٠٢] ونصها : وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ =

وقد روى مالك^(١) عن نافع : أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف ، وصفها ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلّوا رجلاً على أقدامهم أو ركبانا مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها .

قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه الشيخان .
ولسلم^(٢) أيضاً عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشد من ذلك فصلّ راكباً أو قائماً تومئاً بإيماء .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود^(٣) ، بإسناد جيد ، عن عبد الله بن أنيس الجهني قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن سفيان الهذلي - وكان نحو عُرنة وعرفات - فقال : اذهب فاقتله ، قال ، فرأيت - وحضرت صلاة العصر - فقلت : إني لأخاف أن يكون بيني وبينه ما إن أؤخر الصلاة ، فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومئاً بإيماء نحوه ، فلما دنوت منه قال لي : من أنت ؟ قلت : رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل فجئتك في ذلك ، قال :

= وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ١١ - كتاب صلاة الخوف ، حديث ٣ (طبعتنا) .
وأخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٤ - باب قوله عز وجل : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، حديث ٥٤٧ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤ - كتاب الصلاة ، ٢٠ - باب صلاة الطالب ، حديث ١٢٤٩ .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

إني لفي ذلك . فمشيت معه ساعة . حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد (وهذا نص أبي داود) .
وأخرج الطيالسيّ وعبد الرزاق وابن أبي شيبه وأحمد وعبد بن حميد والنسائي^(١) وأبو
يعلى والبيهقيّ عن أبي سعيد الخدريّ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فشغلنا عن
صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كفينا ذلك . وذلك قوله : وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ^(٢) . فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام لكلّ صلاة إقامة ، وذلك قبل أن ينزل عليه
« فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »^(٣) .

تنبيه :

هذه الآية قد أطلقت الخوف . فيدخل فيه أيّ مخافة من عدوّ أو سبع أو جمل صائل ،
وهذا قول الأكثر . وشدّد قول الوافي وبعض الظاهرية : إنّ الخوف مختص بأن يكون من
آدمي . وقد أفادت هذه الآية أن فعلها بالإيماء هو فرضهم ، فلا قضاء عليهم بعد الأمن . قال
في (التهذيب) خلاف ما يقوله بعضهم . ولكن هذا إذا أتوا بما يسمى صلاة فإن لم يمكنهم
شيء من الأفعال ، وإنما أتوا بالذكر فقط . فقال الناصر زيد وابن أبي الفوارس وأبو جعفر :
هذا لا يسمى صلاة فيجب القضاء . وقال الراضي بالله والأمير الحسين : هو بعض الصلاة ،
فلا قضاء ، لقوله ﷺ^(٤) : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . وإذا ثبت الترخيص

(١) أخرجه النسائيّ في : ٧ - كتاب الأذان ، ٢١ - باب الأذان للفائت من الصلوات .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] ونصها : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَيْضِهِمْ لَمْ يَنَالُوا
خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٩] ونصها : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢ - باب الاقتداء بسنن رسول الله

ﷺ ، حديث ٢٥٨٥ ونصه : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « دعوني ما تركتكم . =

في هذه الصلاة - بترك كمال الفروض - رخص فيها بفعل ما تحتاج إليه ، ولبلباس ما فيه نجس إذا احتيج إليه - كذا في تفسير بعض علماء الزيدية .

« فَإِذَا أَمِنتُمْ » أى : زال خوفكم « فَأَذْكُرُوا اللَّهَ » أى : فصلّوا صلاة الأمن . عبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها . وقوله « كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » أى : مثل ما علمكم من صلاة الأمن ، أو لأجل إنعامه عليكم ، فالكاف للتعليل . وهذه الآية كقوله تعالى : فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا^(١) . والفائدة في ذكر المفعول فيه ، وإن كان الإنسان لا يعلم إلا ما لم يعلم ، التصريح بذكر حالة الجهل التي انتقلوا عنها ، فإنه أوضح في الامتنان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٠] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يُقْبَضُونَ من رجالكم « وَيَذَرُونَ » أى : يتركون « أَزْوَاجًا » بعد الموت « وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ » خبر (الذين) أى : يوصون ، أو ليوصوا ،

= إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٣٨ (طبعنا) .

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] ونصها : فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا .

أو كتب الله عليهم وصية . وفي قراءة ، بالرفع . أى : عليهم وصية لأزواجهم فى أموالهم « مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ » بدل من وصية ، على قراءة من نصها . وعلى قراءة الرفع فنصوب بوصية أو بفعله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » حال من أزواجهم ، أى : غير مخرجات . والمعنى : يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يتمتعن بعدهم حولًا بالنفقة والسكنى من غير أن يخرجن من مسكن زوجهن « فَإِنْ خَرَجْنَ » عن منزل الأزواج من قبل أنفسهن « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » على أولياء الميت « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ » لا ينكره الشرع - كالزينة والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب - وفيه دلالة على أن المحذور إخراجها عند إرادتها القرار ، وملازمة مسكن الزوج ، والحداد من غير أن يجب عليها ذلك ، وأنها مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة ، وبين الخروج مع تركها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . ثم ليعلم أن اختيار جمهور المفسرين أن هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهى قوله تعالى : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا^(١) . قالوا : كان الحكم فى ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدت زوجته حولًا ، وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول ، وكانت نفقتها وسكنائها واجبتين فى مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شيء ، ولكنها تكون مخيرة . فإن شاءت اعتدت فى بيت زوجها ولها النفقة والسكنى ، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى ؛ وكان يجب على الرجل أن يوصى بذلك . فدلّت هذه الآية على مجموع أمرين . أحدهما : أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة ، والثانى : أن عليها عدة سنة ؛ ثم نسخ هذان الحكمان .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٤] ونصها : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخت بآية الميراث. فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى . ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر .

وقد روى البخارى عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » قد نسختها الآية الأخرى فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدْعُهَا ..؟ قال : يا ابن أخى ! لا أغير شيئاً^(١) منه من مكانه .

وأخرج أبو داود^(٢) والنسائى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن ، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشرًا . هذا ، وقد ذهب مجاهد إلى أن هذه الآية محكمة كالأولى . أخرجه عنه البخارى^(٣) قال مجاهد : دلت الآية الأولى وهى « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها . ودلت هذه الآية ، بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول ، أن ذلك من باب الوصية بالزواج أن يُمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملاً ، ولا يمنع من ذلك ، لقوله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهن لا يمنع من ذلك لقوله « فَإِنْ خَرَجْنَ ... » الخ . قال الإمام ابن كثير : وهذا القول له اتجاه ، وفى اللفظ مساعدة له ؛ وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية .

ومنهم أبو مسلم الأصفهاني قال : معنى الآية : من يتوفى منكم ويذرون أزواجًا ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤١ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٤٢ - باب نسخ متاع المتوفى عنها بما فرض لها من الميراث ، حديث ٢٢٩٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤١ - باب وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا .

وقد وصوا وصية لأزواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول ، فإن خرجن قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التي ضربها الله تعالى لهنّ فلا خرج « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ » أى : نكاح صحيح . لأن إقامتهنّ بهذه الوصية غير لازمة . قال : والسبب أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولاً كاملاً . وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول . فبين الله تعالى فى هذه الآية أنّ ذلك غير واجب . واحتجّ على قوله بوجوه ساقها الفخر الرازى عنه - إلى أن قال : فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من الترام النسخ من غير دليل . ثم قال : وإذا عرفت هذا فنقول : هذه الآية من أولها إلى آخرها تكون جملة واحدة شرطية ؛ فالشرط هو قوله « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فهذا كله شرط ، والجزاء هو قوله . « فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ... » الخ فهذا تقرير قول أبى مسلم . قال الرازى : وهو فى غاية الصحة ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤١] (وَالْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« وَالْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » أى : للمطلقات متعة من جهة الزوج بقدر الإمكان ، جبراً لو حشة الفراق . وأما المهر فهو حقّ البضع . قال ابن كثير : وقد استدللّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكلّ مطلقة . سواء كانت مفوضة ، أو مفروضاً لها ، أو مطلقة قبل السيس ، أو مدخولاً بها . وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف . واختاره ابن جرير . وقد أخرج ابن النذر عن عليّ بن أبى طالب قال : لكلّ مؤمنة طلقت ، حرة أو أمة ، متعة . وقرأ الآية .

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة ، أتت

النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لزوجها : متعها . قال : لا أجد ما أمتعها قال : فإنه لا بد من المتاع ، متعها ولو نصف صاع من التمر .

وأخرج البيهقي عن قتادة قال : طلق رجل امرأته عند شريح ، فقال له شريح : متعها ! فقالت المرأة : إنه ليس لي عليه متعة . إنما قال الله تعالى : وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ : وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وليس من أولئك !!
وأخرج البيهقي عن شريح أنه قال لرجل فارق امرأته : لا تأبى أن تكون من المتقين . لا تأبى أن تكون من المحسنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٢] (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« كَذَلِكَ » أى : مثل ذلك البيان الشافى « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ » فى جميع المواضع « ءَايَاتِهِ » الدالة على أحكامه « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لكى تفهموا مافيهما وتعملوا بموجبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا » أى : ممن تقدمكم من الأمم « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى : التى ألغوها لما وقع فيها مما لا طاقة لهم به من الموت . ولفظة « أَلَمْ تَرَ » قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير - كالأخبار وأهل التاريخ - وقد تذكر لمن لا يكون كذلك . فتكون لتعريفه وتعجيبه .

قال الراغب : (رأيت) يتعدى بنفسه دون الجار . لكن لما استعير (ألم تر) لمعنى (ألم تنظر) عدى تعديته (إلى) ، وفائدة استعارته : أن النظر قد يتعدى عن الرؤية ، فإذا أريد الحث على نظر ناتج لاحالة للرؤية استعيرت له ، وقلما استعمل ذلك في غير التقيير فلا يقال : رأيت إلى كذا .

« وَهُمْ أُلُوفٌ » أى : فى العدد جمع ألف ، أو وهم مؤتلفون ومجتمعون جمع ألف ، بالمدّ - كشاهد وشهود - أى : إن خروجهم لم يكن عن افتراق كان منهم ولا تباعد ولكن « حَذَرَ الْمَوْتِ » مفعول له - أى : فرارا منه وقوله « فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا » معناه : فأماتهم ، وإنما جىء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك مشيئة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف . كقوله تعالى « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١) « ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » عطف . إما على مقدر يستدعيه المقام أى : فأتوا ثم أحياهم - وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخاف مراده تعالى عن إرادته . وإما على (قال) لما أنه عبارة عن الإمامة « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » قاطبة . أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ، فقد تفضل على الجميع ليشكروه « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » أى : فضله كما ينبغي .

تنبيه :

روى عن ابن عباس : أن الآية غنى بها قوم كثير والعدد خرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فى سبيل الله فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم . فكأنها ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها فى قوله تعالى « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

ومعلوم أن سورة البقرة مما نزل في المدينة إثر الهجرة قبل فتح مكة . وكان العدو في مكة ومحاولها في كثرة وقوة ومنعة، فأمر المسلمون المهاجرون ومن آواهم أن يقاتلوا في سبيل الله . وقصّ لهم من الأنباء ما فيه بمث لهم على الجهاد وتبشير لهم بالفوز والعاقبة ، وإن يكونوا في قلة وضعف، ماداموا مستمسكين بحبل الوفاق والصبر والمصابرة . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن هذه الآية عني بها ما قص في التوراة عن (حزقيل) - أحد أنبياء بني إسرائيل - أنه أوحى إليه أن يخرج إلى فلاة واسعة قد ملئت عظاماً يابسة من موتى بني إسرائيل . وأن يناديها باسمه تعالى . فجعلت تتقارب ثم كسيت لحماً . ثم نادى أرواحها فعدت إلى أجسامها واستووا أحياء على أقدامهم بأمره تعالى . وهم جيش كثير جداً . وأوحى إلى (حزقيل) أنهم سيعودون إلى وطنهم بعد أن أجلوا عنه ، وهذه القصة مبسطة في توراتهم في الفصل السابع والثلاثين من نبوة (حزقيل) .

ومن روى عنه أنه عني بهذه الآية نبأ (حزقيل) ، وهب بن منبه وأشعث بن أسلم البصريّ والحجاج بن أرطاة والسديّ وهلال بن يساف وغيرهم . أخرجهم عنهم ابن جرير . فإن صحت هذه الرواية يكون ذلك من معجزات (حزقيل) في إحياء الموتى له كما أحيى لعيسى عليه السلام . فيرى قومه مالا يأسون معه من جهاد عدوهم ليسترجعوا وطنهم الذي أجلاهم عنه عدوهم . لأن (حزقيل) كان فيمن أُجلى إلى بابل . قالوا ونبوته تتضمن القضاء المنزل على بني إسرائيل وبشرى السلام الذي يعقب ذلك القضاء . وقد نقل ابن كثير عن عطاء أنه قال في هذه الآية : إنها مثّل . ولعل مراده أنها مثل في تسكينه تعالى أمة قوية تقهر وتغلب وتسوس غيرها بعد بلوغها غاية الضعف والخلول . فكان حياتها وموتها تمثيلاً لحالتها قبل وبعد . فيكون إشعاراً بما ستصير إليه العرب من القوة العظيمة والمدنية الفخيمة . وتنبئها على أن الوصول إلى ذلك إنما يكون بجهاد الظالمين واتفاق التقيين على دحر التغلبين الباغين . والله أعلم .

ثم إنه لاختفاء في أن ما قصّ من حوادث الإسرائيليين كان معروفاً في الجملة لمخالطة اليهود للعرب في قرون كثيرة .

قال وليّ الله الدهلويّ في (الفوز الكبير) : واختار سبحانه في تنزيهه من أيام الله ، يعني الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى ، كإنعام الطيعين وتعذيب العصاة ، ما قرع سمعهم . وذكر لهم إجمالاً مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود . وكانت العرب تتلقاها أباً عن جد ، ومثل قصص سيدنا إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل فإنها كانت مألوفاً لأسماعهم لمخالطة اليهود العرب في قرون كثيرة ، وانترع من القصص المشهورة جُملاً تنفع في تذكيرهم . ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها . والحكمة في ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة ، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات ، يميلون إلى القصص نفسها ويفوتهم التذكر الذي هو الغرض الأصليّ فيها . ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين : إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٤] (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

قال المفسرون : في إتباع القصة المتقدمة الأمر بالقتال ، دليل على أنها سيقّت بعثاً على الجهاد . فخرّض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغني ، كما قال تعالى : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١) . وأصل السبيل هو الطريق . وسميت المجاهدة سبيلاً إلى الله تعالى من حيث إن الإنسان يسلكها ويتوصل إلى الله بها ليتمكن من إظهار عبادته تعالى ، ونشر الدعوة إلى توحيده وحماية أهلها والمدافعة عن الحق وأهله . فالقتال دفاع في سبيل الله لإزالة الضرر العام .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] .

وهو منع الحق وتأيد الشرك . وذلك بتربية الذين يفتنون الناس عن دينهم وينكثون عهودهم ، لا لحظوظ النفس وأهوائها ، والضراوة بحب التسافك وإزهاق الأرواح ، ولا لأجل الطمع في الكسب . وفي قوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » بعث على صدق النية والإخلاص . كما في الصحيحين^(١) عن أبي موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٥] (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » - هذا حث من الله تعالى لعباده على الصدقة ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع . قال القرطبي : طلب القرض في هذه الآية لما هو تأنيب وتقريب للناس بما يفهمون . والله هو الغنى الحميد . لكنه تعالى شبه إعطاءه المؤمنين ، وإنفاقهم في الدنيا الذى يرجون ثوابه في الآخرة ، بالقرض . كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة ، بالبيع والشراء . حسبما يأتى بيانه فى سورة براءة ، وكفى الله سبحانه وتعالى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٥ - باب من سأل وهو قائم عالما جالسا ، حديث ١٠٥ ونصه : عن أبي موسى قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية . فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل » . وأخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) .

الحاجات ترغيباً في الصدقة . كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة . ففي (١) صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى : يا ابن آدم ! مرضتُ فلم تعدني . استطعمتك فلم تطعمني ، استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؛ وكذا فيما قبله . أخرجه الشيخان . وهذا كله خرج مخرج التشریف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به . وقد أخرج سعيد بن منصور والبخاري وغيرهم عن ابن مسعود قال (٢) : لما نزلت هذه الآية ، قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ! وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم . يا أبا الدحداح ! قال : أرني يدك ، يا رسول الله ! فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربّي حائطي (وحائطه) فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها) فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ! قالت : لبيك . قال : أخرجني فقد أقرضته ربّي عز وجل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .
ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدني . قال : يا رب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا رب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي » .
ولم يخرج البخاري .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة ٢٩٩ من الجزء الأول .

قبله منك . فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم اليتامى الذين في حجره . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رب عَذِّقْ لأبي الدحداح مدلى في الجنة ، وفي رواية كم من عَذِّق الخ . وقوله تعالى « حَسَنًا » أى طيبة به نفسه من دون مَنْ ولا أذى . وقوله سبحانه « فَيُضَاعَفُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » كما قال سبحانه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ^(١) . ولما رغب سبحانه في إقراضه أتبعه جملة مرهبة مرغبة فقال « وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » أى يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ويوسعه على آخرين . أى فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ، ثلثا يُبدلُ السعة الحاصلة لكم بالضيق . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم القيامة فيجازيكم .

قال المهايى : وكيف ينكر بسط الله وقبضه وهو الذى يعطى الفقير الملك ويسلبه من أهله ، ويقوى الضعفاء من الجمع القليل ويضعف الأقوياء من الجمع الكثير ؟ يعنى كما قصه تعالى في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٦] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ » وهم القوم ذو الشارة والتجمع « مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ » إنما نكر لعدم مقتضى لتعريفه ، وزعم الكتايبون أنه صموئيل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] .

« ابْتِئْ لَنَا مَلِكًا » أى أقم لنا أميراً « ثَقَاتِلْ » أى معه عن أمره « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وذلك حين ظهرت المارقة، قوم جالوت على كثير من أرضهم « قَالَ » لهم نبهم « هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا » .

قال الزخشرى : خبر (عسيتم) ألا تقاتلوا . والشرط فاصل بينهما . والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا . يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون . أراد أن يقول عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جنبكم عن القتال، فأدخل (هل) مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وثبتت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه كقوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ ^(١) معناه التقرير . وقرئ عسيتم بكسر السين، وهى ضعيفة .

« قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ » أى وأى سبب لنا فى ترك قتال عدونا « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا » أى والجال أنه قد عرض ما يوجب القتال إيجاباً قوياً من أخذ بلادنا وسبى أولادنا « فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » بعد إلحاحهم فى طلبه « تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قتال عدوهم جبناً « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وَعَيْدُهُمْ عَلَى ظَلَمِهِم بِالتَّوَلَّى عَنِ الْقِتَالِ وَتَرَكَ الْجِهَادَ وَعَصِيَانًا لِأَمْرِه تَعَالَى .

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآية الكريمة أنها دلت على أحكام : الأول وجوب الجهاد لأن الله تعالى إنما ذكر هذه القصة المشهورة فى بنى إسرائيل وما نالهم تحذيراً من سلوك طريقهم . وأيضاً : شرائع من قبلنا تلزمنا . الثانى أن الأمير يحتاج إليه فى أمر الجهاد لتدبير أمورهم . وقد ^(٢) كان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية أمر عليها أميراً . قال فى الكشف :

(١) [٧٦ / الإنسان / ١] ونصها : هَلْ أُنَبِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٨٢ - باب فى دعاء المشركين ،

حديث ٢١٦٢ .

وفى هذا الحديث وصيته ﷺ القيمة لأمير الجيش .

وروى ^(١) أنه أمرَ الناس إذا سافروا، أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم . الثالث : وجوب طاعة الأمير في أمر السياسة وتدير الحرب . لأن سياق الآية يقضى بذلك، وفي الحديث عنه ﷺ : أطيعوا الأمير ولو كان عبداً حبشياً ^(٢) . وقد ذكر أهل علم المعاملة أنه ينبغى في الأسفار أن يجعل أهل السفر لهم أميراً ودليلاً وإماماً . وهذا محمود . إذ بذلك ينقطع الجدل وينتظم أمورهم . ويلزم مثل هذا في كل أمر يحتاج فيه إلى تردد في الآراء . نحو أمور الأوقاف والمساجد والإمامة لكل مسجد ونحو هذا . قال الحاكم : وفيه دلالة على أن للأنبياء تشديد العهود والمواثيق فيما يلزمهم ، ووجه ذلك أنه قال (هل عسيتم) وهذا نوع من التأكيد عليهم . وكذا يأتي في الإمام قياس ما ذكر الحاكم في النبي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٧] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٨٠ - باب القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ، حديث ٢٦٠٨ و ٢٦٠٩ .

الأول عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » .

والثاني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٤ - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، حديث ٤٣٤ ونصه : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » هذا شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال ، إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم . أى قال لهم (بعد ما أوحى إليه ما أوحى) إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً أى ملكه عليكم . فأنهوا في تدير الحرب إلى أمره . وكان طالوت من سبط لم يكن الملك فيهم . وطالوت اسم أعجمي كجالت وداد . ولذلك لم ينصرف . وزعم قوم أنه عربي (من الطول) لما وصف به من البسطة في الجسم . ولكنه ليس من أبنية العرب فنفع صرفه للعلمية وشبه العجمة . وقد زعم الكتايبون أن طالوت هو المعروف عندهم بشاول . « قَالُوا » معترضين على نبيهم بل على الله تعالى « أَنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا » أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك « وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ » أى لأن فينا من هو سبط الملوك دونه .

قال الحرالي : فتنوا اعتراضهم بما هو أشد وهو الفخر بما ادعوه من استحقاق الملك على من ملكه الله عليهم . فكان فيه حظ من نحر إبليس حيث قال حين أمر بالسجود لآدم : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (٢) .

« وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ » أى فصار له ماعان : أحدهما أنه ليس من بيت الملك . والثاني أنه مملق . والملك لا بد له من مال يعتضد به .

قال الحرالي : فكان في هذه الثالثة فتنة استصنام المال وأنه مما يقام به ملك . وإنما الملك بإيتاء الله . فكان في هذه الفتنة الثالثة جهل وشرك ، فترايدت صنوف فتنهم فيما انبعثوا إلى طلبه من أنفسهم .

« قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » لما استبمدوا

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

تملكه بسقوط نسبه وبفقره ، رد عليهم ذلك أولاً : بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى . وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم . وثانياً : بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة . وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب . وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر . قاله أبو السعود .

« وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » في الدنيا من غير إرث أو مال . إذ لا يشترط في حقه تعالى شيء ، فهو الفعال لما يريد « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » يوسع على الفقير ويغنيه « عَلِيمٌ » بمن يليق بالملك ممن لا يليق به . وإظهار الاسم الجليل لتربية الهابة .

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أن النبوة والإمامة لا تستحق بالإرث وأن النفي ، والصيانة من الحرف الدنيئة ، لا تشترط في أمير ولا إمام ولا قاض . أى لما روى أن طالوت كان دباغاً أو سقاء مع فقره . قال الحاكم : فيبطل قول الإمامية أنها وراثية ، والمعروف من قولهم : أن الإمامة طريقها النص ، وتدل الآية أيضاً على أنه يشترط في الأمير ونحوه القوة على ما تولاه . فيكون سليماً من الآفات عالمياً بما يحتاج إليه ، لأن الله تعالى ذكر البسطة في العلم والجسم ردّاً على ما اعتبروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٨] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ » أى علامة « مُلْكِهِ » أنه من الله تعالى « أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ » أى يرد الله إليكم التابوت الذى أخذ منكم وهو صندوق التوراة . على ما سنده . « فِيهِ سَكِينَةٌ » من ربكم « أى وقار وجلال وهيبة . أو فيه سكون نفوس بنى إسرائيل يتقون به على

الحرب « وَبَقِيَّةٌ » أى فضلة جملة، ذهب جلّها « مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ » أى من آثارهم الفاضلة « تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى رد التابوت إليكم « لَآيَةً لَّكُمْ » أن ملكه من الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » بآيات الله وأنبيائه .

قال العلامة البقاعى عليه الرحمة : التابوت، والله أعلم، الصندوق الذى وضع فيه اللوحان اللذان كتب فيهما العشر الآيات، ويسمى تابوت الشهادة، وكانوا إذا حاربوا حَمَلَهُ جماعة منهم، موظفون لحمله ، ويتقدمون به أمام الجيش فيكون ذلك سبب نصرهم . وكان العالقة أصحاب جالوت لما ظهروا عليهم أخذوه فى جملة ما أخذوا من نفائسهم . وكان عهدهم به قد طال . فذكرهم بما ثره ترغيباً فيه وحملًا على الانقياد لطالوت . فقال « فِيهِ سَكِينَةٌ ... » الآية .

وفى الأصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج مانصه :

(١) وكَلَّمَ الرب موسى قائلاً . (٢) كَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا لِي تَقْدِيمَةً . من كل مَنْ يَحِبُّهُ قَلْبُهُ يَأْخُذُونَ تَقْدِمَتِي . (٣) وهذه هى التقدمة التى تَأْخُذُونَهَا مِنْهُمْ . ذهب وفضة ونحاس . (٤) وَأَسْمَا نُجُونِيَّ وَأَرْجُونََّ وَقِرْمِزَ وَبُوصَ وَشَعْرَ مِعْرَى . (٥) وجلود كباش محمّرة وجلود نَحِيسٍ وَخَشَبُ سَنْطٍ . (٦) وزيت للمنارة وأطيباب لِدُهْنِ الْمَسْحَةِ وللبخور العِطَر . (٧) وحجارة جَزَعٍ وحجارة ترصيع للرداء والصُّدْرَةِ . (٨) فيصنعون لى مَقْدِسًا لِأَسْكَنْ فِي وَسْطِهِمْ . (٩) بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آيَنَتِهِ هَكَذَا تصنعون :

(١٠) فتصنعون تابوتا من خشب السنتط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف . وارتفاعه ذراع ونصف (١١) وتُغَشَّى بِذَهَبٍ نَقِيٍّ من داخل ومن خارج تغشيه . وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه . (١٢) وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على جانبه الواحد حلقتان . وعلى جانبه الثانى حلقتان . (١٣) وتصنع عصوين من خشب السنتط وتغشيهما بذهب . (١٤) وتدخل العصوين فى الحلقات على جانب التابوت ليُحْمَلَ التابوت

بهما . (١٥) تبقى العصوان في حلقات التابوت . لاتنزعان منها . (١٦) وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك .

وفي الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر الخروج :

(١٨) ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لَوْحَى الشهادة لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله .

وفي الأصحاح الرابع والثلاثين منه : أن موسى لما كسر اللوحين أمره الله أن ينحت لوحين مثل الأولين ، وأمره أن يكتب عليهما كلمات العهد الكلمات العشر . ونصه : (١) ثم قال الرب لموسى : انْحَتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين . فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما .

وفي حواشى التوراة : أن تابوت الشهادة هو التابوت الذى كان فيه لوحا الشريعة الإلهية المسماة شهادة .

وزعموا أن السكينة معربة عن (شكينا) في اللغة العبرانية . وفي سفر صموئيل من سفر الملوك الأول في الأصحاح الرابع وما بعده نبأ انكسار الإسرائيليين أمام الفلسطينيين وأخذ التابوت من الإسرائيليين وأنه بقى التابوت في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر . في قصص مسهبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٩] (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقوله تعالى :

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ » أى خرج بالجيش ، لَمَّا رد إليهم التابوت وقبلوا ملكه ، وخرجوا معه . وكان طالوت أخذ بهم فى أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد « قَالَ » لهم طالوت « إِنْ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى » أى من أشياى الذين يقاتلون معى عدوى ، ولا يجاوزه « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى لم يذقه . من (طَعِمَ كَعَلِمَ الشئ) ، إذا ذاقه مأ كولا كان أو مشروباً) وفى إثارة على (لم يشربه) إشعار بأنه محذور تناوله ولو مع الطعام . ذكره الراغب . « إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ » الواحدة . فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى . لأنه فى معنى من لم يذقه .

قال الحرالى فى قراءة فتح الغين إعراب عن معنى أفرادها ، آخذة ما أخذت من قليل أو كثير . وفى الضم ، إعلام بملئها .

« فَشَرِبُوا مِنْهُ » أى إلى حد الارتواء « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » لم يشربوا إلا كما أذن الله تعالى « فَلَمَّا جَاوَزَهُ » أى النهر « هُوَ » أى طالوت « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا » أى المفرطون فى الشرب « لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » لأنه سلبت شجاعتهم (وجاء فى التوراة تسميته بجليات . على ما سند كره) « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ » أى يعلمون « أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ » يرجعون إليه بعد الموت « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٠] (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا بَرَزُوا » ظهروا « لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » إذ دنوا منه « قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفضئه علينا وأكرمنا به لقتالهم فلا نجزع للجراحات ، وإنما طلبوه أولاً لأنه

ملاك الأمر «وَبَيَّنَّا أَقْدَامَنَا» في ميدان الحرب فلا نهرب منه «وَأَنْصُرْنَا» لأننا مؤمنون بك «عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» بك . وهم جالوت وجنوده ، وهذه الآية تدل على أن من حَزَبَهُ أمر فإنه ينبغي له سؤال المعونة من الله ، والتوفيق ، والانتطاع إليه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥١] فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ

« فَهَزَمُوهُمْ » أى هؤلاء القليلون ، أولئك الكثيرين « بِإِذْنِ اللَّهِ » بنصره إذ شجع القليلين وجبَّ الكثيرين « وَقَتَلَ دَاوُدُ » وكان في جيش طالوت « جَالُوتَ » الذى هو رأس الأقوياء « وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » أى أعطى الله داود ملك بنى إسرائيل « وَالْحِكْمَةَ » أى الفهم والنبوة « وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ » من صنعة الدروع وغيرها « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ » من أهل الشر « بِبَعْضٍ » من أهل الخير « لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بفساد الكفار وظهور الشرك والمعاصي كما قال تعالى : وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (١) الآية .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » أى من عليهم بالدفع . ولذلك قوى سبحانه هؤلاء الضعفاء وأعطى بعضهم الملك والحكمة ومن سائر العلوم ، ليدفع فساد الأقوياء بالسيف .

(١) [٢٢ / الحج / ٤٠] ونصها : الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٢] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« تِلْكَ » أى المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام جالوت وقتل داود وإياه وتملكه « آيَاتُ اللَّهِ » إذ هى أخبار غيوب تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته ولطفه « تَتْلُوهَا عَلَيْكَ » أى نُزِّلَ عَلَيْكَ جبريل بها « بِالْحَقِّ » أى اليقين الذى لا يرتاب فيه « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » بمادلت عليه هذه الآيات من علمك بها من غير معلم من البشر ، ثم بإعجازها الباقى على مدى الدهر . وفى هذه القصص معتبر لهذه الأمة فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمة . كما أن فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم من الكفار والمنافقين . فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام فى بنى إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم . فلا يعظمين عليك كُفْرَ من كفر بك وخلاف من خالف عليك لأنك مثلهم . وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامثال الأمر على سبيل الاختيار والطوع ، لا على سبيل الإكراه . فلا عتب عليك فى خلافهم وكفرهم . والوبال فى ذلك يرجع عليهم ؛ وقوله « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » كالتنبيه على ذلك . أشار له الرازى .

قال البقاعى : ولعل ختام قصص بنى إسرائيل بهذه القصة ، لما فيها للنبي صلى الله عليه وسلم من واضح الدلالة على صحة رسالته . لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بنى إسرائيل .

قلت : يرحم الله البقاعى فإنه لم يطلع على هذه القصة من التوراة مع أنها مسوقة فى الأصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول ونصه :

(١) وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا فى سوكوه التى ليهودا ونزلوا بين سوكوه وعريقة فى أفس دميم . (٢) واجتمع شاول ورجال إسرائيل ونزلوا فى وادى

البُطْم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين . (٣) وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم . (٤) نخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جُلَيَات من جَبْت طوله ست أذرع وشبر . (٥) وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابساً درعاً حَرَشَفِيّاً ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس . (٦) وجُرْموقاً نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه . (٧) وقناة رمح رمح كنول النَّسَاجين وشنان رمح ست مائة شاقل حديد وحامل الترس كان يمشى قدامه . (٨) فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم : لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب . أما أنا الفلسطينيُّ وأنتم عبيد لشاول . اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إليَّ . (٩) فإن قدر أن يحاربني يقتلني نصير لكم عبيداً . وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدمونا . (١٠) وقال الفلسطينيُّ أنا عيّرت صفوف إسرائيل هذا اليوم . أعطوني رجلاً فتتحارب معاً . (١١) ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينيِّ هذا ارتاعوا وخافوا جداً . (١٢) وداود هو ابن ذلك الرجل الأفرايَّ من بيت لحم يهوذا الذي اسمه يَسَّى وله ثمانية بنين . وكان الرجل في أيام شاول قد شاخ وكبر بين الناس . (١٣) وذهب بنو يَسَّى الثلاثة الكبار وتبعوا شاول إلى الحرب . وأسماء بنيهم الثلاثة الذين ذهبوا إلى الحرب أَلْيَابُ البكر وأَيِينَادَابُ ثانيه وشَمَّةُ ثالثهما . (١٤) وداود هو الصغير والثلاثة الكبار ذهبوا وراء شاول . (١٥) وأما داود فكان يذهب ويرجع من عند شاول ليرعى غنم أبيه في بيت لحم .

وكان الفلسطينيُّ يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً . (١٧) فقال يَسَّى لداود ابنه خذ لإخوتك إِيْفَةً من هذا الفريك وهذه العشر الخُبَرَات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . (١٨) وهذه العشر القطعات من الجبن قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عُربونا . (١٩) وكان شاولُ وهم وجميع رجال إسرائيل في وادي البُطْم يحاربون الفلسطينيين . (٢٠) فبكر داود صباحاً وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما أمره يَسَّى وأتى إلى المتراس

والجيش خارج إلى الاصطياف وهتفوا للحرب . (٢١) واصطف إسرائيل والفلسطينيون صفاً مقابل صف . (٢٢) فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . (٢٣) وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطينيّ من جَبَّ صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . (٢٤) وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا . (٢٥) فقال رجال إسرائيل أرايتم هذا الرجل الصاعد . ليعيّر إسرائيل هو صاعد . فيكون أن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرّاً في إسرائيل .

(٢٦) فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلاً ماذا يُفعل للرجل الذي يقتل ذلك الفلسطينيّ ويزيل العار عن إسرائيل . لأنه من هو هذا الفلسطينيّ الأغلف حتى يعيّر صفوف الله الحيّ . (٢٧) فكلمه الشعب بمثل هذا الكلام قائلين كذا يُفعل بالرجل الذي يقتله . (٢٨) وسمع أخوه الأكبر أليّابُ كلامه مع الرجال فغضب أليّابُ على داود وقال لماذا نزلتَ وعلى من تركت تلك الفتيات القليلة في البرية . أنا علمتُ كبرياءك وشر قلبك لأنك نزلتَ لكي ترى الحرب . (٢٩) فقال داود ماذا عملتُ الآن . أما هو كلام . (٣٠) وتحول من عنده نحو آخر وتكلم بمثل هذا الكلام فردّ له الشعب نجواباً كالجواب الأول . (٣١) وسمع الكلام الذي تكلم به داود وأخبروا به أمام شاول . فاستحضره . (٣٢) فقال داود لشاول: لا يسقط قلب أحد بسببه . عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطينيّ . (٣٣) فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطينيّ لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه . (٣٤) فقال داود لشاول كان عبدك يرعى لأبيه غنماً فجاء أسد مع دبٍّ وأخذ شاة من القطيع . (٣٥) فخرجت وراءه وقتلته وأتقذتها من فيه ولما قام على أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته . (٣٦) قتل عبدك الأسد والدب جميعاً . وهذا الفلسطينيّ الأغلف يكون كواحد منهما لأنه قد عيّر صفوف الله الحيّ . (٣٧) وقال داود الربّ الذي أقنذني من يد الأسد ومن يد الدب

هو ينقذني من يد هذا الفلسطيني". فقال شاول لداود : اذهب وليكن الرب معك . (٣٨) وألبس شاول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه وألبسه درعا . (٣٩) فتقدم داود بسيفه فوق ثيابه وعزم أن يمشي لأنه لم يكن قد جرب . فقال داود لشاول لا أقدر أن أمشي بهذه لأنني لم أجربها . ونزعها داود عنه . (٤٠) وأخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة مُلَسٍّ من الوادي وجعلها في كِنْفِ الرعاة الذي له أي في الجراب ومقلعه بيده وتقدم نحو الفلسطيني . (٤١) وذهب الفلسطيني ذاهبا واقترب إلى داود والرجل حامل الترس أمامه . ولما نظر الفلسطيني ورأى داود استحققه لأنه كان غلاما وأشقر جميل المنظر . (٤٣) فقال الفلسطيني لداود ألملي أنا كلب حتى أنك تأتي إليَّ بعصي . ولعن الفلسطيني داود بألحته . (٤٤) وقال الفلسطيني لداود تعال إليَّ فأعطى لحك لطيور السماء ووحوش البرية . (٤٥) فقال داود للفلسطيني أنت تأتي إليَّ بسيف وبرمح وبترس . وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين غيرتهم . (٤٦) هذا اليوم يحبسك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك . وأعطى جثت جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل . (٤٧) وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يُخَلِّصُ الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدينا . (٤٨) وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف للقاء الفلسطيني . (٤٩) ومد داود يده إلى الكِنْفِ وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض . (٥٠) فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله . ولم يكن سيف بيد داود . (٥١) فركض داود ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واختارطه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا . (٥٢) فقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا الفلسطينيين حتى بحيثك إلى الوادي وحتى أبواب عقرُون . . . الخ .

وتتمة شأن داود بعد ذلك إلى أن آتاه الله الملك المذكور في الفصول بعد هذا الفصل من التوراة . فانظره إن شئت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥٣] (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)
« تِلْكَ الرُّسُلُ » إشارة إلى من ذكر منهم في هذه السورة أو العلوم للنسب ﷺ
« فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » بأن خص بمنقبة ليست لغيره « مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ » تفصيل التفضيل أى منهم من فضله الله بأن كله من غير سفير وهو موسى عليه السلام « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » كإبراهيم أتخذه الله خليلاً . وداود آتاه الله النبوة والخلافة والملك . قال الزخشرى : أى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة .

والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء . لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفي هذا الإيهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى . لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشبهه والتميز الذى لا يلتبس ؛ ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول : أحدكم أو بعضكم . تريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال . فيكون أنعم من التصريح به وأنوه بصاحبه .

وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث .
أراد نفسه . ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسي ، لم يفخم أمره .
ثم قال : ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرها من أولى العزم .
« وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » كإبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى
« وَآيَدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » سبق الكلام فيه .

قال الزمخشري : فإن قلت فلم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ قلت : لما
أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة . ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل
التكليم من الفضل وهو آية من الآيات . فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من
عظام الآيات ، خصاً بالذكر في باب التفضيل . وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلاً بالآيات
منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا ﷺ هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها
وعظمتها ، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد الرسل لاختلافهم في الدين
وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
فِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » .

قال الزمخشري : كرهه للتأكييد . قال الناصر في حواشيه : ووراء التأكييد سر أخص
منه . وهو أن العرب متى ثبت أول كلامهم على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع
إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها . وذلك عندهم مبيح من الفصاحة
مسلوك . وفي كتاب الله تعالى مواضع في هذا المعنى . منها قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ^(١) ،

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] ونصها : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ومنها قوله تعالى : - وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ - إلى قوله - لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ^(١) . وهذه الآية من هذا النمط . لما صدر الكلام بأن اقتتلهم كان على وفق المشيئة ، ثم طال الكلام وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت في هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء ، فهي نافذة في كل فعل واقع . وهو المعنى المبرر عنه في قوله « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاعتقال لتلوه عموم تعلق المشيئة . لتناسب الكلام ويعرف كل بشكله . فهذا سر ينشرح له الصدر ، ويرتاح له السر . والله الموفق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ » هذا أمر بالإنفاق لبعض من المال . قيل هو أمر بإيجاب وأنه أراد ، بذلك ، الإنفاق الواجب وهو الزكاة . لأنه تعالى عقبه بالوعيد بقوله « وَالْكَافِرُونَ » الخ ، حيث عني بهم مانعوها كما يأتي . وقال الأصم وأبو علي : أراد النفقة في الجهاد . وقال أبو مسلم وابن جريج : أراد الفرض والنفل . وهو المتجه . وقوله تعالى « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ » هو يوم القيامة « لَا يَبِيعُ فِيهِ » أي فتحصلون ماتنفقونه

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

أَوْ تَفْتَدُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ « وَلَا خَلَّةٌ » حَتَّى يَعِينَكُمْ الْأَخْلَاءُ . الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ^(١) « وَلَا شَفَاعَةٌ » حَتَّى تَتَكَلَّوْا عَلَى شَفْعَاءِ : إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ^(٢) . « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أَرَادَ وَالتَّارِكُونَ الزَّكَاةَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَإِثَارُهُ عَلَيْهِ لِلتَّفْلِيزِ وَالتَّهْدِيدِ . كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ آيَةِ الْحِجِّ (وَمَنْ كَفَرَ) ^(٣) مَكَانَ (وَمَنْ لَمْ يَحْجِ) (وَالْإِذْ بَانَ أَنَّ تَرَكَ الزَّكَاةَ مِنْ صِفَاتِ الْكُفَرِ . قَالَ تَعَالَى : وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) ^(٤) . ذَكَرَهُ الزَّخَرِيُّ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِوَضْعِ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا . فَلَا تَكُونُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِثْلَهُمْ فِي أَنْ لَا تَنْفَقُوا فَتَضَعُوا أَمْوَالَكُمْ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى حَسَنِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، قَبْلَ فَوَاتِهَا بِهَجُومِ مَا يَخْشَى مَعَهُ الْفَوْتُ ، مِنْ مَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

(٢) [٢٠ / طه / ١٠٩] وَنَصَهَا : يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] وَنَصَهَا : فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٧٦] وَنَصَهَا : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥٥] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ » أى الباقي الذى لا سبيل عليه للفناء « الْقَيُّومُ » الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وقرئ القيام والقيم .

« لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ » تأكيد للقيوم . أى لا يغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس . والسنة (كمدة) والوسن (محركة وبهاء) والوسنة شدة النوم أو أوله ، أو النعاس . كذا في القاموس .

قال المهايغي : السنة فتور يتقدم النوم . والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء دماغه من رطوبات أبخرة متصاعدة تمنع الحواس الظاهرة عن الإحساس . فهما منقصان للحياة منافيان للقيومية ، لأنهما من التغيرات المنافية لوجوب الوجود الذى للقيوم . ونفى النوم أوّلًا التزامًا ، ثم تصريحًا ، ليدل كمال نفيه على ثبوت كمال ما ينافيه . ومن كمال قيوميته اختصاصه بملك العلويات والسفليات المشار إليه بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ » من الملائكة والشمس والقمر والكواكب « وَمَا فِي الْأَرْضِ » من العوالم المشاهدات . وهذا إخبار بأن الجميع فى ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ^(١) . » « مَنْ ذَا » من الأنبياء والملائكة ، فضلًا عما ادعى الكفار شفاعته من الأصنام « الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ » فضلًا عن أن يقاومه أو يناصبه

« إِلَّا يَازِّنُهُ » أى بتمكينه تحقيقاً للعبودية، كما قال تعالى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى^(١) . وكقوله : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى^(٢) . وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا يآذنه في الشفاعة . كما في حديث الشفاعة^(٣) : آتَى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرَجَ سَاجِداً فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي . ثم يقال : ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع . قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة .

قال أبو العباس بن تيمية : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون . فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب . فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن . وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد له ويحمده . لا يبدأ بالشفاعة أولاً . ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع . وقال^(٤) له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال :

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ .

(٣) أخرجه البخاري في ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٩ - باب قوله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٢ - ٣٢٦ (طبعنا) .

وهو حديث طويل وجليل وعظيم الشأن ، والسعيد من ظفر به وأحاط علماً بما فيه .

(٤) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٣ - باب الحرص على الحديث ونصه :

عن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ « لقد ظننت يا أبا هريرة ، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه . »

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ . فتلک الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله . ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقته أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك . ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » أى ما أنام علمه من أمر أنفسهم وغيرهم . لأن ما بين يدي المرء يحيط به حسه . وما علمه أيضاً . فكأنه بين يدي قلبه يحيط به علمه « وَمَا خَلْفَهُمْ » وهو ما لم ينله علمهم . لأن الخلف هو ما لا يناله الحس . فأبنا أن علمه من وراء علمهم يحيط بعلمهم فيما علموا وما لم يعلموا . أفاده الحرالى . فهذه الجملة كقوله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ^(١) « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » أى لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أراد أن يعلمهم به منها على السنة الرسل . كما قال تعالى : فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ^(٢) . أى ليكون ما يطلعه عليه من علم غيبه دليلاً على نبوته . « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المعنى بالكرسى العلم . وذلك لدلالة قوله تعالى « وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا » أى لا يؤوده حفظ ما علم وأحاط به مما فى السموات والأرض . وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا فى دعائهم : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ^(٣) فأخبر أن علمه وسع كل شيء ، فكذلك

(١) [٦ / الأنعام / ٧٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

(٢) [٧٢ / الجن / ٢٦ و ٢٧] ونصهما : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

(٣) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ =

قوله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحة ظاهر القرآن لما ذكر . ولأن أصل الكرسي العلم . ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كراسية . ومنه قول الراجز في صفة قانص * حتى إذا ما احتازها تكرر سا * يعني علم ، ومنه يقال للعلماء : الكراسى . لأنهم المعتمد عليهم . كما يقال : أوتاد الأرض . يعني أنهم الذين تصلح بهم الأرض . ومنه قول الشاعر :

يخف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأحداث حين تنوب

يعنى بذلك علمه بحوادث الأمور ونوازلهما . وروى ابن جرير أيضاً عن الحسن : أن الكرسي في الآية هو العرش . اهـ . وأيده بعضهم بأن لفظ عرش الملكة وكرسيها مترادفان . ولذلك قال تعالى على لسان سليمان : أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ^(١) فالعرش والكرسي هما شيء واحد وإنما سماه هنا . كرسيًا ، إعلامًا باسم له آخر^(٢) . « وَلَا

= بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .
(١) [٢٧ / النمل / ٣٨] ونصها : قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .

(٢) كان المؤلف ، رضى الله عنه فسر الكرسي بما يأتي :

الكرسي ، بالضم وبالكسر ، السرير والعلم ، كما في القاموس .

قال الأزهرى : والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الزهبي عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الكرسي ، موضع القدمين . وأما العرش فإنه لا يقدر قدره . قال : وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها .

قال : ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم فقد أبطل . انتهى . =

يُؤْوَدُهُ « أى لا يثقله ولا يشق عليه . يقال : آده الأمر أوداً وأووداً (كقعود) بلغ منه المجهود والمشقة » حِفْظُهُمَا « أى السموات والأرض فلا يفتقر إلى شريك ولا ولد . وكيف يشق عليه » وَهُوَ الْعَلِيُّ « قال ابن جرير . قال بعضهم : يعنى بذلك علوه عن النظير والأشباه . وقال آخرون : معناه العلى على خلقه بارتفاع مكانه عن أما كن خلقه . لأنه تعالى ذكره فوق جميع خلقه . وخلقه دونه . كما وصف به نفسه أنه على العرش . فهو عالٍ بذلك عليهم . » الْعَظِيمُ « أى أعظم كل شىء بالجلال والكبرياء والقهر والقدرة والسلطان .

تنبيه :

آية الكرسي هذه لها شأن عظيم وفضل كبير . وقد صرح الحديث ^(١) عن رسول الله ﷺ بأنها أعظم آية في كتاب الله وأنها مشتملة على اسم الله الأعظم ، وقد ساق ما ورد في فضلها الإمام ابن كثير في (تفسيره) والجلال السيوطي في (الدر المنثور) فانظرهما . قال الزمخشري : فإن قلت : لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ماورد . قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى . ولا مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار .

= وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الكرسي الذى يوضع تحت العرش ، الذى تجعل الملوك عليه أقدامهم .

وفي الفتح : الكرسي هنا ، الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته . ثم إن المؤلف عدل عن ذلك إلى ما تراه .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) ونصه : عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذين الآيتين : الله لا إله إلا هو الحي القيوم . وآلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، أن فيهما اسم الله الأعظم .

وقد حكى السيوطي في (الإتقان) عن الأشعريّ والباقلانيّ وابن حبان المنع من أن يقال في القرآن فاضل وأفضل . قالوا: وما ورد مما يفيد ذلك محمول على الأعظمية في الأجر . لا أن بعض القرآن أفضل من بعض . وقد ردّ ذلك غير واحد ، حتى قال ابن الحصار : العجب ممن يذكر الاختلاف في ذلك مع النصوص الواردة في التفضيل . وقال الغزاليّ في (جواهر القرآن): لعلك أن تقول : قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض ، والكلام كلام الله ، فكيف يتفاوت بعضها بعضاً ، وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسيّ وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع على اعتقاد نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد ، فقلد صاحب الرسالة ﷺ فهو الذي أنزل عليه القرآن وقال : يس قلب القرآن^(١) . وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن^(٢) .

(١) أخرجه الترمذيّ في: ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٧ - باب ماجاء في فضل يس . ونصه : عن أنس قال : قال النبيّ ﷺ « إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

(٢) أخرجه البخاريّ في: ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - سورة الفاتحة ، ١ - باب ماجاء في فاتحة الكتاب . ونصه : عن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلي في المسجد . فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه . فقلت : يا رسول الله ! إني كنت أصلي . فقال « ألم يقل الله : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ؟ » ثم قال لي « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد » ثم أخذ بيدي . فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال « الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

وآية الكرسي سيدة آى القرآن^(١) . وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن^(٢) . والأخبار الواردة في فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب في تلاوتها - لا تحصى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥٦] (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » قال ابن كثير : أى لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جليّ دلائله وبراهينه . لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه . بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة . ومن عمى قلبه فإنه لا يفيد الدخول فيه مكرهاً مقسوراً : فالنبي بمعنى النهي .

(١) قال الإمام ابن كثير في تفسيره بالصفحة ٣٠٧ من الجزء الأول :

قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه : حدثنا عليّ بن حشاد . حدثنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدى . حدثنا سفيان . حدثني حكيم بن جبير الأسديّ عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « سورة البقرة فيها آية سيد آى القرآن . لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه . آية الكرسي » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ١٣ - باب فضل قل هو

الله أحد .

ونصه : عن أبي سعيد الخدرى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد ، يرددها . فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له . وكان الرجل يتقالها . فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسى بيده ! إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وهو ما ذهب إليه في تأويل الآية كثير . وذهب آخرون إلى أنه خبر محض . أى أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما بناء على التمكين والاختيار . قال القفال - موضعاً له - لما بين تعالى دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، أخبر بعد ذلك أنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر . إلا أن يُقصر على الإيمان ويحبر عليه . وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء . إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان . ونظير هذه الآية قوله تعالى : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ^(١) . وقوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٢) . وقوله تعالى : لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ^(٣) .

تنبيه :

علم من هذه الآية أن سيف الجهاد المشروع في الإسلام والذي لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر لم يستعمل للإكراه على الدخول في الدين . ولكن لحماية الدعوة إلى الدين والإذعان لسلطانه وحكمه العدل .

« فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ » أى بالشیطان . أى بما يدعو إليه من عبادة الأوثان « وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا » أى فقد تمسك من الدين بأقوى سبب . وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم . هي في نفسها محكمة مبرمة قوية . وربطها قوى

(١) [١٨ / الكهف / ٢٩] ونصها : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٩] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٤٣] .

شديد . وجملة (لا انفصام لها) إما استئناف مقرر لما قبلها ، وإما حال من (العروة) والعامل (استمسك) أو من الضمير المستتر في (الوثق) وإما صلة لموصول محذوف أى (التى) . نقله الرازى .
وقد روى الشيخان عن عبد الله بن سلام قال : رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ .
رأيت كأنى فى روضة خضراء وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء . فى أعلاه عروة . فقيل لى : اصعد عليه . فقلت : لا أستطيع . فجاءنى منصف (أى وصيف) فرفع ثيابى من خلفى ، فقال : اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة . فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لى يدى . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه . فقال : أما الروضة فروضة الإسلام . وأما العمود فعمود الإسلام . وأما العروة فهى العروة الوثقى . أنت على الإسلام حتى تموت « وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ حامل على الإيمان ، رادع عن الكفر والنفاق ، بما فيه من الوعد والوعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٧] (اللّٰهُ وَلِىُّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ ، وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوْتُ يُخْرِجُوْنَهُم مِّنَ النُّوْرِ اِلَى الظُّلُمٰتِ ، اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ)

« اللّٰهُ وَلِىُّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا » أى حافظهم وناصرهم « يُخْرِجُهُم » تفسير للولاية أو خبر ثان « مِّنَ الظُّلُمٰتِ » أى ظلمات الكفر والمعاصى « اِلَى النُّوْرِ » أى نور الإيمان الحق الواضح . وإفراد النور لوحدة الحق . كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال . كما قال تعالى :
وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيْمًا فَاتَّبِعُوْهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ
ذٰلِكُمْ وَصَآئِكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ^(١) « وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوْتُ » أى

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق « يُخْرِجُونَهُمْ » بالسواوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء « مِنَ النُّورِ » أى الإيمان الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة ، أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم « إِلَى الظُّلُمَاتِ » أى ظلمات الكفر والنفى « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم استشهد تعالى على ما ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ » أى جادل « إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ » أى كيف أخرجه الطاغوت من نور نسبة الإحياء والإماتة إلى ربه ، إلى ظلمات نسبتها إلى نفسه « أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » أى : لأن آتاه الله . يعنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر . فحاج لذلك . أو حاجه لأجله . وضماً للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر . كما يقال : عادانى فلان لأننى أحسنت إليه . تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان . ونحوه قوله تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (١) .

قال الحرالى : وفى إشعاره أن الملك بلاء وفتنة على من أوتيه .

« إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » حين سأل من ربك الذى تدعونا إليه « رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ » أى بنفخ الروح فى الجسم وإخراجها منه « قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ » أى بالقتل

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] .

والعفو عنه . ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعا ، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد ، والتصدى لإبطاله من قبيل السعى في تحصيل الحاصل ، انتقل إبراهيم عليه السلام ، إرسالاً لعنان المناظرة معه ، إلى حجة أخرى لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمخرج مكابرة أو مشاغبة أو تلبيس على العوام . وهو ما قصه تعالى بقوله « قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ » أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحي وتميت فالذى يحي ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود ، فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته . فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما ادعيت فأت بها من المغرب « فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ » تحير ودesh وغلب بالحجة ، لما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى لا يلهمهم حجة ولا برهاناً . بل حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٩] (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(١) [٤٢ / الشورى / ١٦] ونصها : وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

«أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ» استشهاد على ما ذكر تعالى من ولايته للمؤمنين وتقريره له، معطوف على الموصول السابق . وإيثار (أو) الفارقة على (الواو) الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر . والكاف إما اسمية جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر ، وإما زائدة . والمعنى : أو لم تر إلى مثل الذي . أو إلى الذي مرَّ على قرية . كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا » خالية ساقطة حيطانها على سقوفها « قَالَ أَتَىٰ لُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها . فكان منه كالوقوع في الظلمات . فأراه الدليل على الإحياء الحقيقي في نفسه مبالغة في قلع الشبهة ، إخراجاً له منها إلى النور « فَأَمَّا تَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ » ليندرس بالكلية « ثُمَّ بَعَثَهُ » أى أحياء ببعث روحه إلى بدنه وبعض أجزائه إلى بعض بعد تفرقها « قَالَ » الله له « كَمْ لَبِثْتَ » أى مكثت ميتاً « قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » قاله بناء على التقريب والتخمين . أو استقصاراً لمدة لبثه « قَالَ » الله « بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ » وإنما سأله تعالى ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه . وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ، ربما يتوهم أنه هين في الجملة ، بل بعد مدة طويلة . وينحسم به مادة استبعاده بالمرة . ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى . وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع ، على ما كان عليه دهرًا طويلاً ، من غير تغير ما . كما قال سبحانه « فَانْظُرْ » لثمان أمراً آخر من دلائل قدرتنا « إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ » أى لم يتغير في هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد . والهاء يجوز أن تكون هاء سكت زيدت في الوقف . وأصل الفعل على هذا فيه وجهان : أحدهما يتسنن من قوله : حَمًا مَسْنُونٍ . فلما اجتمعت ثلاث نونات قلبت الأخيرة ياء كما قلبت في تظنيت ثم أبدلت الياء ألفاً ثم حذفت للجزم . والثاني أن يكون أصل الألف واواً من قولهم : أسنى يسنى إذا مضت عليه السنون . وأصل سنة سنة لقولهم : سنوات أى لم تمر عليه السنون . والمعنى على التشبيه . أى كأنه لم يمر

عليه المائة سنة لبقائه على حاله وعدم تغيره . ويجوز أن تكون الهاء أصلاً ويكون اشتقاقه من السنة بناء على أن لام السنة هاء وأصلها سنية . لقولهم سناء وعاملته مسانية . فعلى هذا ثبتت الهاء وصلاً ووقفاً . إذ الفعل مجزوم بسكونها . وعلى الأول ثبتت في الوقف دون الوصل . ومن أثبتها في الوصل أجراه مجرى الوقف . وقد قرأ حمزة والكسائي بحذف الهاء وصلاً وإثباتها وقفاً والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً . فإن قيل : ما فاعل يتسنى ؟ قيل : يحتمل أن يكون ضمير الطعام والشراب لاحتياج كل واحد منهما إلى الآخر ، فكانا بمنزلة شيء واحد . فلذلك أفرد الضمير في الفعل . ويحتمل أن يكون جعل الضمير لـ (ذلك) . و (ذلك) يكتنى به عن الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد . ويحتمل أن يكون الضمير للشراب فقط لأنه أقرب . وثم جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها . والتقدير : وانظر إلى طعامك لم يتسنه ، وإلى شرابك لم يتسنه . ويجوز أن يكون أفرد في موضع التثنية كما قال الشاعر :

فَكَانَ فِي الْعَيْنَيْنِ حَبٌّ قَرَنْفُلٍ أَوْ سَبِيلًا كُحِلَتْ بِهِ فَانْهَلَتْ

أشار لذلك أبو البقاء « وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ » كيف هو . فرآه صار عظماً نخرة « وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ » عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق . أى فعلنا ما فعلنا ، من إحيائك بعد ما ذكر ، لتعائن ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل . ولنجعلك آية للناس على البعث . أو متعلق بفعل مقدر بعده . أى : ولنجعلك آية للناس فعلنا ما فعلنا « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ » أى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء « كَيْفَ نُنْشِرُهَا » قرىء بالزاي أى ترفع بعضها على بعض وتركبه عليه . من (النشز) وهو المرتفع من الأرض . وفيها على هذا وجهان : ضم النون وكسر الشين من (أنشزته) وفتح النون وضم الشين من (نشزته) وهما لفتان . وقرىء بالراء وفيها وجهان : الأول فتح النون وضم الشين وماضيه (نشر) فيكون إمامطاوع أنشر الله الميت فنشره ، وحينئذ نشر بمعنى أنشر . فاللازم والمتعدى بلفظ واحد . وإما من النشر الذي هو ضد الطي أى يبسطها بالإحياء . والثاني ضم النون

وكسر الشين أى نحيبها كقوله: ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ^(١). قاله أبو البقاء . «ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا» أى نسترها به «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ» أى اتضح له إعادته مع طعامه وشرابه وحماره ، بعد التلف الكلى ، وظهر له كيفية الإحياء «قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فخرج من الظلمات إلى النور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٠] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ» قال المہامی: واذکر لتمثیل قصۃ المار علی القریۃ، فی الإخراج من الظلمات إلى النور، بالإحياء ، قصۃ إبراہیم .

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى» إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً «قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي» أى بلى آمنت ولكن سألت لأزداد بصيرة وسكون قلب برؤية الإحياء ، فوق سكونه بالوحي . فإن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين . وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراہیم علیہ الصلاة والسلام لم يكن شاكاً في إحياء الموتى قط . وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أُخْبِرَتْ عَنْهُ . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) : ليس الخبر كالمعاينة . وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك في قدرة الله . واستدلوا بما صح عنه ﷺ

(١) [٨٠ / عبس / ٢٢] .

(٢) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

في الصحيحين وغيرها من قوله ^(١) : نحن أحق بالشك من إبراهيم . وبما روى عن ابن عباس أنه قال ^(٢) : ما في القرآن عندى آية أرجى منها . إذ رضى الله من إبراهيم قوله « بَلَى » . قال فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان . أخرجه عنه الحاكم في المستدرک وصححه . ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له .

قال ابن عطية : وهو عندى مردود . يعنى قول هذه الطائفة . ثم قال : وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، فعناه أنه لو كان شاكاً لكننا نحن أحق به . ونحن لانشك إبراهيم أخرى أن لا يشك . فالحديث مبنى على نفي الشك عن إبراهيم . وأطال ابن عطية البحث في هذا . وأطاب .

قال القرطبي : ولا يجوز على الأنبياء عليهم السلام مثل هذا الشك . وقد أخبر الله سبحانه

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٦ - باب وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . ونصه : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

(٢) انظر الأثر ٥٩٧١ من تفسير الطبرى (طبعة المعارف) ونصه : عن سعيد بن المسيب قال : أتت عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا . قال : ونحن يومئذ شببة . فقال أحدهما لصاحبه : أى آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة ؟ فقال عبد الله بن عمرو : قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ [٣٩ / الزمر / ٥٣] حتى ختم الآية . فقال ابن عباس : أمّا إن كنت تقول : إنها ، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم ﷺ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي .

أن أصفياه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ^(١). وقال اللعين: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ^(٢). وإذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشكهم! وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفرقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزقها. فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين .

وقال الناصر في (الانتصاف) : الأولى في هذه الآية أن يذكر فيها المختار في تفسيرهما من المباحث المتحنّة بالفكر المحرر ، والنكت المفصحة بالرأى المخمّر . فنقول : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له : كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . فليس عن شك ، والعياذ بالله ، في قدرة الله على الإحياء . ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء . ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها . فإنما هي طلب علم مالا يتوقف الإيمان على علمه . ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال . ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه ، لا بثبوته . ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية . وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله: نحن أحق بالشك من إبراهيم أى : ونحن لم نشك. فَلَا يَشْكُ إِبْرَاهِيمُ أُخْرَى وَأُولَى . (فإن قلت) إذا كان السؤال مصروحاً إلى الكيفية التي

لا يضرّ عدم تصوّرِها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخلّ به ، فما موقع قوله تعالى « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » ؟ قلت : قد وَقَعَتْ لبعض الخذاق فيه على لطيفة ، وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مرّ . وقد تستعمل في الاستعجاز . مثاله أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بمعجزه عن حمله فتقول له : أرني كيف تحمل هذا ؟ فلما كانت هذه الصيغة

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٥] ونصها : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٣] .

قد يمرض لها هذا الاستعمال الذى أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم ميراً منه - أراد بقوله : **أَوَلَمْ تُؤْمِنُ** أن ينطق إبراهيم بقوله : **بَلَىٰ آمَنَ** . ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى . ليكون إيمانه مخلصاً ، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يالحقه فيه شك . (فإن قلت) قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين . فما موقع قول إبراهيم : **وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي** ؟ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة . قلت : معناه : ولكن ليُنزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة . لأنني إذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها التخيلة وتعينت عندي بالتصوير المشاهد . فهذا أحسن ما يجرى لي في تفسير هذه الآية . وربك الفتاح العليم . انتهى .

« **قَالَ** » أى إذ أردت الطمأنينة « **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ** » بضم الصاد وكسرها بمعنى فأملهن واضمهن إليك . يقال : صار يصوره ويصيره إذا أماله لفتان . قال الزخشرى : وقرأ ابن عباس رضى الله عنه **فَصُرْهُنَّ** بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من : صره يصره ويصره إذا جمعه ، وعنه : **فَصُرْهُنَّ** (من التصرية) وهى الجمع أيضاً : وقال اللحياني قال بعضهم : معنى **صُرْهُنَّ وَجَّهْنَّ** . ومعنى **صِرْهُنَّ** قطعهن وشققهن . والمعروف أنهما لفتان بمعنى واحد . وكلهم فسروا **فَصُرْهُنَّ** أملهن ، والكسر فسر بمعنى قطعهن . وقال الفيروزبادى فى (البصائر) : قال بعضهم : **صِرْهُنَّ** بضم الصاد وتشديد الراء وفتحها من **الصر** أى الشد . قال وقرئ **فَصُرْهُنَّ** بكسر الصاد وفتح الراء المشددة (من الصرير) أى الصوت أى صح بهن . وقال أبو البقاء : ويقرأ بضم الصاد وتشديد الراء ثم منهم من يضمها اتباعاً ومنهم من يفتحها تخفيفاً ومنهم من يكسرها على أصل التقاء الساكنين .

أقول : قد تقرر فى العربية أن المضاعف إذا لحقته هاء الضمير يلزم وجه واحد فى المؤنث وهو فتح ما قبلها نحو ردّها مراعاة للألف اتفاقاً ، وفى المذكور ثلاثة أوجه : أفصحها الضم ويليهِ الكسر وهو ضعيف ، ويليهِ الفتح وهو أضعفها . ومن ذكره ثعلب فى (الفصيح)

لكن غلطوه لكونه أَوْهَم فصاحته ولم ينبه على ضعفه « ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا » أى ثم اذبحهم وجزئهم وضع على كل جبل منهم بعضاً « ثُمَّ ادْعُهُنَّ » أى بأسمائهن « يَا تَيْنِكَ سَعْيًا » أى مسرعات « وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

قال الزخشري : فإن قلت : مامعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت : ليتأملها ويعرف أشكالها وهياتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك .
ولذلك قال « يَا تَيْنِكَ سَعْيًا » أى ولم يقل طيراناً لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦١] (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى فى طاعته « كَمَثَلِ حَبَّةٍ » أى مثل نفقتهم كمثل حبة ، أو مثلهم كمثل باذر حبة . فالخذف إما من جانب المشبه أو المشبه به لتحصيل المناسبة . أى وتلك الحبة ألقىت فى الأرض ثم « أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » أى : أنبتت ساقاً انشعب سبع شعب ، خرج من كل شعبة سنبله فيها مائة حبة ، فصارت الحبة سبعمائة حبة بمضاعفة الله لها . قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة . فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمىها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة . انتهى .

أقول : مصداق هذا ما فى الصحيحين^(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٣ - باب قول الله تعالى : تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ .

ومسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .

تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل .
 « وَاللَّهُ يُضَاعِفُ » أى هذا التضعيف أو أكثر منه « لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف . فى الصحيحين ^(١) وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به . وأخرج أحمد ومسلم ^(٢) والنسائى والحاكم عن ابن مسعود قال : جاء رجل بناقاة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقاة كلها مخطومة . وأخرج أحمد ^(٣) والطبرانى والبيهقى عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله . الدرهم بسبعمائة ضعف . وثمت آثار أخرى فى (ابن كثير) و(الدر المنثور) . ثم مدح تعالى من حفظ نفسه من المن والأذى فيما أنفق بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٢] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)
 « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ » أى لا يعقبون « مَا أَنْفَقُوا مَنَّا » وهو ذكره لمن أنفق عليه ليريه أنه أوجب بذلك عليه حقا « وَلَا أَدَى » وهو

(١) أخرجه مسلم فى : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث ١٦٤ (طبعتنا) ونصه :
 يدع شهرته وطعامه من أجل . للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه . ولخُلُوفٍ فيه أطيب عند الله من ريح المسك .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٣٢ (طبعتنا) .
 (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٥٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

ذكره لغيره فيؤذيه بذلك أو التطاول عليه بسببه « لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الموعود به قبل « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » على فائتٍ من زهرة الدنيا ، لصيرورتهم إلى ما هو خير من ذلك .
لطائف :

الأولى : قال الزمخشريّ معنى (ثم) إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى . وفي حواشيه للناصر مانصه : (ثم) فى أصل وضعها تشعر بترأخي المعطوف بها عن المعطوف عليه فى الزمان وبُعد ما بينهما ، والزمخشريّ يحملها على التفاوت فى المراتب والتباعد بينهما . حيث لا يمكنه حملها على التراخي فى الزمان لسياقٍ يأبى ذلك . كهذه الآية . وحاصله أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة . وعندى فيها وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها . وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه . فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن . ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدثه . ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقاءه . وعليه حمل قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَقامُوا^(١) أى داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد . وتلك الاستقامة هى المعتبرة ، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات ، وكذلك قوله « ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى » أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ، ليسوا بتاركيه فى أزمنة إلى الأذية وتقليد المن بسببه ، ثم يتوبون : والله أعلم . وقريب من هذا أو مثله ، أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه . ثم ورد قوله تعالى حكاية

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .
و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

عن الخليل عليه السلام: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ^(١). وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ^(٢). فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له من سبيل. فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخي بقاءها وتعادي أمدها. انتهى.

الثانية: قال الزمخشري: (فإن قلت) أى فرق بين قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ، وقوله فيما بعد: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ؟ (قلت) الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمنه ثمة. والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عارٍ عن تلك الدلالة.

وقال أبو السعود: وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، للإيدان بأن ترتيب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك اتباع المن والأذى - أمرٌ بين لا يحتاج إلى التصريح بالسببية.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٦٣] (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

«قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم «وَمَغْفِرَةٌ» أى غفرٌ عن ظلم قولى أو فعلى «خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى» إذ لا يحصل للصدقة ثواب ويحصل إثم الأذى. وقد دخل في قوله (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) الرد الجميل للسائل و (مَغْفِرَةٌ) العفو عن السائل إذا وجد منه ما يشغل على المسؤل. «وَاللَّهُ غَنِيٌّ» عن طلب صدقة لمبيده مع الأذى لهم أو المن عليهم «حَلِيمٌ» عن معاملة من يئن ويؤذى بالمعقوبة.

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٩].

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٧٨].

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ » أى لا تبطلوا أجرها بكل واحد منهما . فإنهما إساءتان ينافيان الإحسان المعتبر فى الصدقة . والمنافى مبطل كالرياء . فيصير المان والمؤذى « كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » فى بطلان صدقته . و (رياء) إما مفعول له أو حال . أى مرئياً . والهمزة الأولى فى (رياء) عين الكلمة لأنه من راءى . والأخيرة بدل من الياء لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة كالقضاء . ويجوز تخفيف الهمزة الأولى بأن تقلب ياء فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة . وقد قرئ به . قاله أبو البقاء .

« فَمَثَلُهُ » أى هذا المنفق رياء ، فى إنفاقه مقارناً لما يفسده . ومثل نفقته « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ » وهو حجر أملس « عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ » أى مطر كثير « فَتَرَكَهُ صَلْدًا » أى أجرد لا شئ عليه « لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا » أى المرأى والمال والمؤذى ، لا يقدرُونَ على تحصيل شئ من ثواب ما عملوا لبطلانه . كقوله : فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا^(١) . فلا يجدون ثواب صدقاتهم كما لا يوجد على الصفا التراب بعد ما أصابه الوابل « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » إلى الخير والرشاد . وفيه تعريض بأن الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار . ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها . وقد ورد فى وعيد المنّ بالصدقة أحاديث متوافرة . فى صحيح مسلم^(٢) عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة

(١) [٢٥/الفوقان/ ٢٣] ونصها : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ...

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧١ (طبعتنا) ونصه : =

لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب . وفي سنن النسائي^(١) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة مومن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٥] (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُلَهَا صِغْفِيرٌ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » مفعول له « وَتَثْبِيتًا » معطوف عليه . ويجوز أن يكونا حالين . أى مبتغين ومتثبتين « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قال أبو البقاء : يجوز أن يكون (من) بمعنى اللام أى تثبيتاً لأنفسهم . كما تقول : فلت ذلك كسرا من شهوتي . ويجوز أن تكون على أصلها أى تثبيتاً صادراً من أنفسهم . والتثبيت مصدر فعل متعد . فعلى الوجه الأول يكون « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » مفعول المصدر . وعلى الثانى ، يكون المفعول محذوفاً . تقديره :

= عن أبى ذر عن النبي ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » قال فقراها رسول الله ﷺ ثلاث مرار . قال أبو ذر : خابوا وخسروا . من هم يا رسول الله ؟ قال « المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

(١) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٦٩ - باب المنان بما أعطى : ونصه :
عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمومن على الخمر ، والمنان بما أعطى » .

ويثبتون أعمالهم بإخلاص النية . ويجوز أن يكون تثبتنا بمعنى (ثَبَّتْ) فيكون لازما . والمصادر قد تختلف ويقع بعضها موقع بعض . ومثله قوله تعالى : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا^(١) . أى تبثلا . انتهى . وعن الشعبي : تثبتنا تصديقا وبقينا « كَمَثَلِ جَنَّةٍ » أى بستان « بِرَبْوَةٍ » أى موضع مرتفع « أَصَابَهَا وَابِلٌ » مطر كثير « فَآتَتْ أَكْثَلَهَا » أى أخرجت ثمرها « ضِعْفَيْنِ » أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان « فَإِنْ لَمْ يُصْبِهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » وهو المطر الضعيف ، أو أخف المطر ، أو أضعفه أو الندى . ولا بد من تقدير مضاف هنا كما تقدم : إما من جانب المشبه أو المشبه به . أى ومثل نفقة الذين الخ . أو كمثّل غارس جنة الخ . رعاية للتناسب .

قال الشهاب : وفي التشبيه وجهان : أحدهما أنه مركب ، والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة في كونها زاكية متكررة النافع عند الله كيف كانت الحال . والثاني أن تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة في أن نفقتهم ، كثرت أو قلت ، زاكية زائدة في حسن حالهم . كما أن الجنة يُضَعَّفُ أَكْثَلُهَا قَوِيُّ الْمَطَرِ وَضَعِيفُهُ . وهذا أيضا تشبيه مركب . إلا أنه لوحظ الشبه فيما بين المفردات . وحاصله : أن حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر . كحال الجنة في إنتاج الواابل والطل تضعيف ثمارها . ويحتمل وجها ثالثا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد بأن تشبه حالهم بمحنة مرتفعة في الحسن والبهجة . والنفقة الكثيرة والقليلة بالطل والواابل ، والأجر والثواب بالثمرات . والربوة مثلثة الرائ . وأكُل بضمين ، وتسكن للتخفيف ، وبه قرىء « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تحذير عن الرياء وترغيب في الإخلاص .

(١) [٧٣ / الزمل / ٨] ونصها : وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٦] (أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ » أى كبر السن . فإن الفاقة والعالة فى الشيخوخة أصعب « وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ » صغاراً قدرة لهم على الكسب « فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ » أى ريح شديدة « فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ » تلك الجنة وبقي صاحبها بمضيعة مع ضعفه وثقل ظهره بالعيال وقلة المال . والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ، ويضم إليها ما يحبطها ، كرياض وإيذاء ، فى الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة ، واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال مَنْ هذا شأنه « كَذَلِكَ » أى مثل هذا البيان « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » أى فيها . فتعتبرون بها . وروى البخارى ^(١) فى التفسير عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ : فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ : أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ؟ قَالُوا : اللَّهُ أَعْلَمُ . فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ : قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فى نفسى منها شئٌ يا أمير المؤمنين . قَالَ عُمَرُ : يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ : أَىِّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ لِرَجُلٍ غَنَى يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٧ - باب قوله

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ... إلى قوله : تَتَفَكَّرُونَ .

حتى أغرق أعماله . (قال ابن كثير وهو من أفراد البخاري .) ولا بن جرير من طريق عطاء عن ابن عباس معناه : أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل الخير حتى إذا كان حين فني عمره ختم ذلك بعمل أهل الشقاء فأفسد ذلك فأحرقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » هذا بيان لحال ما ينفق منه ، إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته . أي أنفقوا من جياذ ما كسبتم لقوله تعالى : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ^(١) . فقتضى الإيمان الإنفاق من الجيد . سيما ما يطلب به رضا الله وتثبيت النفس . وفي الأمر إشعار بأنه إنما يمثل بالزرع المنبت سبع سنابل ، أو بالجنة بربوة ، ما أنفق من الجيد « وَمِمَّا » أي ومن طيبات ما « أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » من الحبوب والثمار « وَلَا تَيَمَّمُوا » أي لا تقصدوا « الْخَبِيثَ » أي الرديء من أموالكم ، « مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ » أي بقابليه (يعنى الرديء) إذا أهدى إليكم « إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ » أي : إلا بأن تتساحوا في أخذه وتترخصوا فيه . من قولك : أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره . ويقال للبائع : أغمض . أي : لاتستقص كأنك لا تبصر . كذا في الكشف .

قال الرازي : الإغماض في اللغة غض البصر وإطباق جفن على جفن . والمراد ههنا المساهلة ، وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك . ثم

(١) [٣ / آل عمران / ٩٢] ونصها : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة في البيع وغيره إغماضا . فقوله : وَلَسَّمُ بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تُمْضُوا فِيهِ . يعني لو أهدى إليكم مثل هذه الأشياء ، لَمَا أَخَذْتُمُوهَا إِلَّا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَإِغْمَاضٍ . فكيف ترضون لى مالا ترضونه لأنفسكم ؟ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ إِنْتَاقِكُمْ وَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ لِنَفْعَتِكُمْ » حَمِيدٌ « يجازى المحسن أفضل الجزاء . وفى الأمر بأن يعلموا ذلك ، مع ظهور علمهم به ، توبيخٌ على إعطاء الخبيث وإيدانٌ بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى . ولما رغب تعالى فى إنفاق الجيد حذر من وسوسة الشيطان فى ذلك فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٨] (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ

مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » فى الإنفاق « وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » أى يفرىكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمر . والفاحش ، عند العرب ، البخيل . قال طَرَفَةُ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ

قال الحرالى : الفحشاء كل ما اجتمعت عليه استقباحات الشرع . وأعظم مراد بها هنا البخل الذى هو أدوأ داء . لمناسبة ذكر الفقر . وعليه ينبى شر الدنيا والآخرة . ويلازمه الحرص ويتابمه الحسد ويتلاحق به الشر كله .

« وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ » بالإنفاق ، سيما من الجيد « مَغْفِرَةً مِنْهُ » للذنوب « وَفَضْلًا » خلفًا وثوابًا فى الآخرة « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » قدرة وفضلاً فيحقق ما وعدهم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه « عَلِيمٌ » بصدقاتكم . فلا يضيع أجركم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٩] (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » قال كثيرون : الحكمة إقتان العلم والعمل . وبعبارة أخرى معرفة الحق والعمل به . قال أبو مسلم : الحكمة فعلة من الحكم وهي كالنحلة من النحل ، ورجل حكيم إذا كان ذا حجة ولب وإصابة رأى . وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل . ويقال : أمر حكيم ، أى محكم ، وهو فاعيل بمعنى مفعول ، قال تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ^(١) .

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » إذ بها انتظام أمر الدارين . والإظهار في مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها . وفي إيلاء هذه الآية لما قبلها إشعار بأن الذي لا يفتقر بوعد الشيطان ويوقن بوعد الله هو من آتاه الله الحكمة « وَمَا يَذَّكَّرُ » أى يتعظ بأمثال القرآن والحكمة « إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى ذوو العقول من الناس ، الخالصة من شوائب الهوى . وهم الحكماء . والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآى في معنى الإنفاق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٠] (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ،

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » أى يؤول إلى الإنفاق « فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ » لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه « وَمَا لِلظَّالِمِينَ » أى الذين ينفقون رياء الناس ، أو يضعون الإنفاق في غير موضعه ، أو بضم المن والأذى إليه ، أو بالإنفاق من الخبيث ،

(١) [٤٤ / الدخان / ٤] .

أو يمنعون الصدقات ، أو ينفقون أموالهم في المعاصي ، أو لا يفون بالنذور « مِنْ أَنْصَارٍ »
أى من أعوان ينصرونهم من عقاب الله .

قال الحرالي : ففي إفهامه أن الله آخذ بيد السخى وييد الكريم كلما عثر فيجد له نصيراً
ولا يجد الظالم ، بوضع القهر موضع البر ، ناصراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧١] (إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ

خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » نوع تفصيل لعموم ما أجمل في الشرطية . وبيان له .

ولذلك ترك العطف بينهما . أى إن تظهروا الصدقات فنعمة شيئاً إبدائها . لأنه يرفع التهمة ويدعو له

كل من يسمع من محتاج وغيره ويفيد اتباع الناس إياه « وَإِنْ تُخْفُوهَا » أى تُسِرُّوها

مخافة الرياء ، وسترًا لعار الفقراء « وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى من العلانية .

لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص الذى هو روح العبادات « وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ

سَيِّئَاتِكُمْ » ذنوبكم بقدر صدقاتكم « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » ترغيب فى الإسرار .

وفى الصحيحين^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : سبعة يظلمهم الله

فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل . وشاب نشأ فى عبادة ربه . ورجل قلبه معلق فى المساجد .

ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال

إنى أخاف الله رب العالمين . ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله

خاليا ففاضت عيناه . وروى الإمام أحمد^(٢) وابن أبى حاتم عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله

(١) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٦ - باب من جلس فى المسجد

ينتظر الصلاة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

أى الصدقة أفضل؟ قال: سرُّ إلى فقير، أو جهد من مقلّ.

لطائف : قال : أبوالبقاء فى قوله تعالى (فنعماهى) : نِعَمَ فعل جامد لا يكون فيه مستقبل . وأصله نَعِمَ كعلم . وقد جاء على ذلك فى الشعر . إلا أنهم سكّنوا العين ونقلوا حركتها إلى النون ليكون دليلاً على الأصل . ومنهم من يترك النون مفتوحة على الأصل . ومنهم من يكسر النون والعين اتّباعاً . وبكلّ قد قرئ . وفاعل (نعم) مضمّر و (ما) بمعنى شىء . ثم قال : (ونكفر عنكم) يقرأ بالنون على إسناد الفعل إلى الله عز وجل ويقرأ بالياء على هذا التقدير أيضاً وعلى تقدير آخر وهو أن يكون الفاعل ضمير الإخفاء . ويقرأ (وتكفر) بالتاء على أن الفعل مسند إلى ضمير الصدقة . ويقرأ بجزم الراء عطفاً على موضع « فَهُوَ خَيْرٌ » وبالرفع على إضمار مبتدأ أى ونحن أو وهى . و (من) هنا زائدة عند الأخفش فيكون (سيئاتكم) المفعول . وعند سيبويه المفعول محذوف أى شيئاً من سيئاتكم . والسيئة فيعلة . وعينها واو لأنها من ساء يسوء فأصلها سيوئة فأبدلت الواو ياء وأدغمت الأولى فيها . انتهى .

وفى (غيث النفع) : قرأ (فنعما) الشامى . والإخوان بفتح النون . والباقون بالكسر . وقرأ قالون والبصرىّ وشعبة بإسكان العين واختار كثير لهم إخفاء كسرة العين يريدون الاختلاس فراراً من الجمع بين الساكنين ، والباقون بكسر العين ، واتفقوا على تشديد الميم . ثم ناقش الشاطبىّ فى كونه لم يذكر لقالون ومن عطف عليه إلا الإخفاء ، مع أنه روى عنهم الإسكان المحض أيضاً . ثم قال : وقد صرح المحقق فى نشره أن الدانى روى الوجهين جميعاً . ثم قال : والإسكان آثر والإخفاء أقيس وهو قراءة أبى جعفر والحسن . وغاية ما فيه الجمع بين الساكنين وليس أولهما حرف مد ولين وهو جائز قراءةً ولغةً . ولا عبرة بمن أنكره ولو كان إمام البصرة . والمنكر له هنا يقرأ به لحزة فى قوله تعالى : فَمَا اسْتَطَاعُوا^(١) . بالكهف إذ فيه الجمع بين الساكنين وصلاً بلا شك إذ السين ساكن والطاء مشدد وهذا مثله .

(١) [١٨ / الكهف / ٩٧] ونصها : فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا .

والله أعلم . وبه يعلم ردّ ما قيل إن راوى التفسير لم يضبط القراءة لأن القارئ اختلس كسرة العين فظنه إسكاناً فإنه غفلة عن جوازه لغة . كما حكاه أبو عبيد . وعن القراءة بنظيره في (استطاعوا) وبالله التوفيق .

[٢٧٢] (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الإتيان بما أمروا به من المحاسن والانتها عما نهوا عنه من المساوئ المدودة كالن والأذى والإنفاق من الخبيث والبخل « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » بخلق الهداية في قلبه عقيب بيانك لجريان سنته بخلق الأشياء عقيب أسبابها ، لعل على سبيل الوجوب . بل على سبيل الاختيار . أفاده المهايى .

قال أبو السعود : والجملة معترضة جى بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ ، مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين ، مبالغة في حملهم على الامتثال . فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبي ﷺ مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » أى بالحقيقة لأن المنفق عليه إنما يقضى بها حاجته الفانية ويحصل لكم بها الثواب الأبدى ، فلم تمنون به على الناس وتؤذونهم ؟ ونظائر هذا في القرآن كثيرة كقوله : من عمل صالحاً فلنفسه (١) . « وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ » نفى في معنى النهى . أى فلا تستطيلوا به على الناس

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] ونصها : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

ولا تراؤا به . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ » ثوابه أضاعافاً مضاعفة « وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ » أى لا تنقصون من حسناتكم ، كما لا يزداد على سيئاتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٣] (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لِلْفُقَرَاءِ » متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام . أى اجعلوا ما تنفقونه للفقراء . أو صدقاتكم للفقراء . أى المحتاجين إلى النفقة « الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى حبسوا أنفسهم فى طاعته تعالى من جهاد أو غيره « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا » أى ذهاباً « فِي الْأَرْضِ » لا كتساب أو تجارة « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ » بحالهم « أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » أى من أجل تعففهم عن السؤال . والتلويح به قناعة بما أعطاهم مولاهم ، ورضاعنه ، وشرف نفس . « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ » بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى : سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ^(١) . وقال : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ^(٢) . وفى الحديث الذى فى السنن^(٣) :

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] ونصها : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يُعَلِّمُ أَعْمَالَكُمْ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - حدثنا محمد بن إسماعيل .

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ (١) .
قاله ابن كثير .

قال الغزالي : ينبغي أن يطلب بالفحص عن أهل الدين في كل محلة ، ويستكشف عن مواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، ممن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى . أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته . فهو يتعيش في جلباب التجمل . فتوابُ صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال . كما ينبغي أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة كأن يكون أهل علم . فإن ذلك إغانة له على العلم . والعلم أشرف المبادات مهما صحّت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعرفته أهل العلم . فقيل له : لو عمت ! فقال : إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء . فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم . فتفرغهم للعلم أفضل .

لطيفة :

السيا مقصور ، كالسيمة ، والسياء والسيما . (ممدودين بكسرهن) والسومة (بالضم) : العلامة . قال أبو بكر بن دريد : قولهم : عليه سيا حسنة ، معناه علامة . وهي مأخوذة من وسمت أَسِمُ . والأصل في (سيا) وسمي . فحوت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين ، كما قالوا : ما أطيبه وأطيبه ، فصار سومي . وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، قال السمين : فوزن سيا عفلا . وإذا مدت فالهمزة فيها متقلبة عن حرف زائد للإلحاق . إما واو أو ياء . فهي كملباء ملحقة بسرداح . فالهمزة للإلحاق لا للتأنيث وهي منصرفة لذلك . انتهى .
« لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » مصدر في موضع الحال . أي ملحقين . يقال : ألحف عليه الخ قال الزمخشري : الإلحاف الإلحاق . وهو اللزوم . وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه . من قولهم : لحفتي من فضل لحافه . أي أعطاني من فضل ما عنده . قيل معنى الآية : إن سألو سألوا

بتلطف ولم ياحوا. فيكون النفي متوجهاً إلى القيد وحده. والصحيح أنه نفي للسؤال والإلحاف جميعاً. فرجع النفي إلى القيد ومقيدته كقوله : «وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ»^(١) وفيه تنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً. واستيجاب المدح والتعظيم للمتعفف عن ذلك. وفي الصحيحين^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤا إن شئتم : «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا»^(٣) وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم^(٤) والنسائي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود^(٥) والترمذي وصححه، والنسائي وابن حبان عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : إن المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه . فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك . إلا أن يسأل ذا سلطان، أو في أمر لا يجد منه بداً . وأخرج أحمد^(٦) عن ابن عمر :

(١) [٤٠ / غافر / ١٨] ونصها : وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٨ - باب : لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] ونصها : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(٤) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٠٣ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٢٦ - باب كم يعطى الرجل الواحد من الزكاة ، حديث ١٦٣٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٩٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسألة كدوح في وجه صاحبها يوم القيامة . فمن شاء استبقى على وجهه . وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم^(١) وابن ماجة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سأل الناس أموالهم تكثر فأبى يسأل جراً فليستقل أو ليستكثر . وأخرج أحمد وأبو داود^(٢) وابن خزيمة عن سهل بن الحنظلية قال : قال رسول الله ﷺ : من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جر جهنم . قالوا : يا رسول الله وما يغنيه؟ قال : ما يغذيه أو يعشيه . وأخرج مسلم^(٣) والترمذي والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ فقلنا علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . والصلوات الخمس . وتطيعوا ولا تسألوا الناس . فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة والبخاري^(٤) ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه . وأخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : الله يحب المؤمن المحترف . وأخرج أحمد والطبراني وأبو داود والنسائي^(٥) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : من استغنى

(١) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٠٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٢٤ - باب من يعطى من الصدقة وحدث

الغنى ، حديث ١٦٢٩ .

(٣) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٠٨ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٥٠ - باب الاستغفار عن المسئلة ،

حديث ٧٨٢ .

(٥) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٨٩ - باب في الملحف .

أَغْنَاهُ اللَّهُ . وَمَنْ اسْتَعْفَ أَعْفَاهُ اللَّهُ . وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ . وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةٌ أُوقِيَتْ فَقَدْ أَلْحَفَ . وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ^(١) وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْطِيَنِ الْعَطَاءَ فَأَقُولُ : أَعْطَهُ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي . فَقَالَ : خُذْهُ . إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرَفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ فَمَتْلُوهُ . فَإِنْ شِئْتَ كُلَّهُ وَإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ . وَمَالًا ، فَلَا تَبِعْهُ نَفْسَكَ .

قال سالم بن عبد الله فلاجل ذلك كان عبد الله لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أُعْطِيَهُ . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » أى ولو على الملحين وعلى من لم يتحقق فقرهم أولم تشتد حاجتهم « فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى بأن ذلك الإنفاق له أولنيره، فيجازى بحسبه . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يختص الإنفاق بوقتٍ أو حالٍ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٤] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وفى تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيدان بمزية الإخفاء على الإظهار .

قال الحرالى : فأفضلهم النفق ليلاً سرًّا . وأنزلهم النفق نهاراً علانية . فهم بذلك أربعة أصناف .

لطائف : لا يخفى أن فى حظه تعالى على الإنفاق فى هذه الآية الوافرة ، وضربه الأمثال فى الإحسان إلى خلقه ترغيباً وترهيباً ، ما يدعو كل مؤمن إلى أن يترك بفضل ماله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ١٧ - باب رزق الحكام والعاملين عليها .

قال الإمام الغزالي عليه الرحمة في (الإحياء) ما نصه : في وجه الامتحان ، بالصدقات ثلاث معاني : الأول أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد . فإن المحبة لا تقبل الشراكة . والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يتمتعن به درجة الحب بمفارقة المحبوب . والأموال محبوبة عند الخلاق لأنها آلة تتمتعهم بالدنيا . وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت . مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزوا عن المال الذي هو مرهوقهم ومعشوقهم . ولذلك قال الله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ^(١) . وذلك بالجهد . وهو مساعمة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل . والمساعمة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم . فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً . وقسم درجتهم دون من قبلهم ، وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات . فيكون قصدهم في الادخار الإتفاق على قدر الحاجة دون التمتع . وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوها . وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة . كالنخمي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي (بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟) قال : نعم . أما سمعت قوله عز وجل : **وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى** ... الآية ^(٢) واستدلوا بقوله

(١) [٩/التوبة / ١١١] ونصها : **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .**

(٢) [٢/البقرة / ١٧٧] ونصها : **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ =**

عز وجل : وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ^(١) . وبقوله تعالى : وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ^(٢) . وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم . ومعناه أنه يجب على الموسر ، مهما وجد محتاجاً ، أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة . وقسم يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه . وهي أقل الرتب . وقد اقتصر جميع العوام عليه . لبخلهم بالمال وميلهم إليه ، وضعف حبهم للآخرة . قال الله تعالى : إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ^(٣) تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ^(٤) . يخفكم أى : يستقص عليكم . فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله . فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال . المعنى الثانى التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات . قال ﷺ^(٥) : ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وقال تعالى : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٦) . وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود

= وَالْمَغْرِبَ وَلَكِنَّ الْإِبْرَءَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .
(١) [٢ / البقرة / ٣] ونصها : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

(٢) [٦٣ / النفاقون / ١٠] ونصها : وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٧] .

(٤) ١٠٣٥ (كشف الخفاء) : البزار والطبرانى وأبو نعيم ، عن أنس بسند ضعيف .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٩] ونصها : وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ =

بذل المال . حب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير اعتياداً . والزكاة ، بهذا المعنى ، طهارة . أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك . وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى . المعنى الثالث شكر النعمة . فإن لله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله . فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن . والمالية شكر لنعمة المال . وما أخس من ينظر إلى الفقير ، وقد ضيق عليه الرزق ، وأحوج إليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه .

فصل

وللغزالي رحمه الله أيضاً بحث فى المن والأذى المتقدم ذكرها . يجدر ذكره هنا ، لما فيه من الفوائد لطالب الآخرة .

قال رحمه الله : الوظيفة الخامسة (يعنى من وظائف مرید طريق الآخرة بصدقته) أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى . قال الله تعالى : لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى^(١) . واختلفوا فى حقيقة المن والأذى . ف قيل : المن أن يذكرها . والأذى أن يظهرها . وقال

= يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

[٦٤ / التباين / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

سفيان : من منّ فسدت صدقته . قيل له : كيف المنّ ؟ قال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المنّ أن يستخدمه بالعتاء . والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المنّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه . والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالسألة . وقد قال ﷺ (١) : لا يقبل الله صدقة من أنف . وعندى أن المنّ له أصل ومغرس . وهو من أحوال القلب وصفاته . ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح . فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه . وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عز وجل منه ، الذي هو طهرته ونجاته من النار . وأنه لو لم يقبله لبقى مرتيناً به . فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ﷺ (٢) : إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل . فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه . والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحل به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كونه القابض تحت منته سفيهاً وجهلاً . فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذي لزمه بشراء ما أحبه . فهو ساع في حق نفسه . فلم يمن به على غيره؟ ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها قبل ، أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه . إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل ، أو شكراً على نعمة المال طلباً للزيد . وكيف كان فلامعاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه . ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرع منه على ظاهره ، ما ذكر في معنى المنّ . وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة

(١) قال الحافظ العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء) : لم أجده .

(٢) قال الحافظ العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء) : الدارقطني في (الإفراد) من

حديث ابن عباس . وقال : غريب من حديث عكرمة عنه . ورواه البيهقي في (شعب الإيمان)

بسند ضعيف .

منه بالشكر والدعاء ، والخدمة والتوقير والتعظيم ، والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس ، والمتابعة في الأمور . فهذه كلها ثمرات المنّة . ومعنى المنّة في الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار ، وفنون الاستخفاف وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه ، فإن ذلك يضيق الخلق لاحالة . والثاني رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حق . لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يسوى ألفاً فهو شديد الحق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل ، والثواب في الدار الآخرة . وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل ، أو شكره لطلب المزيد . وكيف يفرض فالكراهة لواجه لها . وأما الثاني فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . وقد أطال الغزالي رحمه الله من هذا النفس العالي . فليراجع .

فصل

في هديه ﷺ في الزكاة والصدقة

قال شمس الدين ابن القيم الدمشقي في (زاد المعاد) : هديه ﷺ في الزكاة أكمل هدى في وقتها ، وقدرها ونصابها ، ومن تجب عليه ، ومصرفها . ويراعى فيها مصلحة أرباب الأموال ومصلحة المساكين وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للمال ولصاحبه . وقيد النعمة به على الأغنياء . فما أزال النعمة بالمال على من أدى زكاته . بل يحفظه عليه وينمي له ويدفع عنه بها الآفات ، ويجعلها سوراً عليه وحصناً له وحارساً له .

ثم قال في (هديه ﷺ في صدقة التطوع) : كان ﷺ أعظم الناس صدقة مما ملكت يده . وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى ولا يستقله . ولا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه قليلاً أو كثيراً . وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر . وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه . وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه . وكان أجود الناس بالخير ، يمينه كالريح المرسلة . وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه . وكان يتنوع في أصناف عطائه وصدقته . فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً كما فعل بجابر^(١) . وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه ، وأفضل وأكبر ، ويشتري الشيء فيعطى أكثر من ثمنه . ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان

(١) أخرج البخاري في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٣٤ - باب شراء الدواب والخيول ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي وأعيأ . فأتى علي النبي ﷺ فقال « جابر ! » فقلت : نعم . قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أبطأ علي جملي وأعيأ فتخلفت . فنزل يحججني بمحججه . ثم قال « اركب » فركبت . فلقد رأيته أكفه عن رسول الله ﷺ . قال « تزوجت ؟ » قلت : نعم . قال « بكرة أم ثيباً ؟ » قلت : بل ثيباً . قال « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : إن لي أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهم وتمشطهن وتقوم عليهن . قال « أما إنك قادم . فإذا قدمت فالكيس ! الكيس ! » ثم قال « أتبيع جملك ؟ » قلت : نعم . فاشتراه بأوقية . ثم قدم رسول الله ﷺ قبلي وقدمت بالعداء . فحُتُّنا إلى المسجد . فوجدته على باب المسجد . قال « الآن قدمت ؟ » قلت : نعم . قال « فدع جملك فادخل فصل ركعتين » فدخلت فصليت . فأمر بلالا أن يزن لي أوقية . فوزن لي بلال فأرجع في الميزان . فانطلقت حتى وليت . فقال « ادع لي جابراً » قلت : الآن يرد علي الجمل . ولم يكن شيء أبغض إليّ منه . قال : « خذ جملك ولك ثمنه » .

بكل ممكن . وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله فيخرج ما عنده ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو إليها وبحاله وقوله . فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء . وكان من خلّاطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السباحة والندى . وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدرًا وأطيبهم نفسًا وأنعمهم قلبًا . فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدور وانضاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها . وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه .

ولما ذكر تعالى الأبرار المؤدّين النفقات من الزكوات والصدقات في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات . فأخبر عن حالهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٥] (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا » وهو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال . وكتب الربوا بالواو على لغة من يفهم . كما كتبت الصلوة والزكوة . وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع « لَا يَقُومُونَ » أي يوم القيامة كما قاله بعض الصحابة والتابعين « إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » في القاموس خبطه ضربه شديداً ، كتخبطه واختبطه . وفي (العباب) كل من ضربه بيده فصرعه فقد خبطه وتخبطه . وأصل المسّ

باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه . والجار يتعلق إما بـ (لا يقومون) أى لا يقومون من المس الذى بهم إلا كما يقوم المصروع من جنونه أو بـ (يقوم) أى : كما يقوم المصروع من جنونه . أو بـ (يتخبطه) أى من جهة الجنون . والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين . تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة .

قال الحرالى : فى إطلاقه إشعار بحالهم فى الدنيا والبرزخ والآخرة . فى إعلامه إيدان بأن آكله يسلب عقله ويكون بقاؤه فى الدنيا بخُرْقٍ لا بعقل . يقبل فى عمل الإِدبار ، ويدبر فى محل الإقبال .

قال البقاعى : وهو مؤيد بالمشاهدة . فإنالم نر ولم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة ولا يشهر بفضيلة بل هم أدنى الناس وأدنسهم .

تنبيه :

قال فى الكشف : وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون . ورجل ممسوس . وهذا أيضا من زعماتهم . وأن الجنى يمس فيه يختلط عقله . وكذلك : جُنَّ الرجل معناه ضربته الجن .

وتبعه البيضاوى فى قوله وهو : أى التخبط والمس ، وارد على ما يزعمون الخ .

قال الناصر فى (الانتصار) : معنى قول الكشف من زعمات العرب أى كذباتهم وزخارفهم التى لاحقيقة لها . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية من زعماتهم المردودة بقواطع الشرع . ثم ساق ما ورد فى ذلك من الأحاديث والآثار : وقال بعده : واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها . وإنما القدرية خصماء العلانية . فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم . من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن . وإن اعترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع . فى خبط طويل لهم .

وقال الشيخ سعد الدين التفتازاني في (شرح المقاصد) : وبالجملة فالقول بوجود الملائكة والجن والشياطين مما انعقد عليه إجماع الآراء . ونطق به كلام الله وكلام الأنبياء .

وقال : الجن أجسام لطيفة هوائية تتشكل بأشكال مختلفة ويظهر منها أحوال عجيبة . والشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء الناس في الفساد والغواية . ولكون الهواء والنار في غاية اللطافة والتشفيف ، كانت الملائكة والجن والشياطين يدخلون النفاذ الضيقة حتى أجواف الإنسان ولا يُروْنَ بحسن البصر إلا إذا اكتسبوا من المعترجات .

قال العلامة البقاعي ، بعد نقله ما ذكرنا : وقد ورد في كثير من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) ، أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم . وورد أنه ﷺ أخرج الصارع من الجن من جوف المصروع في صورة كلب ، ونحو ذلك . وفي كتب الله سبحانه وتعالى المقدمة مالا يحصى من مثل ذلك . وأمام مشاهدة المصروع يخبر بالمغيبات وهو مصروع غائب الحس ، وربما كان ملقى في النار وهو لا يحترق ، وربما ارتفع في الهواء من غير رافع - فكثير جداً . لا يحصى مشاهدوه . إلى غير ذلك من الأمور الموجبة للقطع أن ذلك من الجن أو الشياطين . وها أنا أذكر لك في ذلك من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه مقنع لمن تدبره والله الموفق .

روى الدارمي ^(٢) في أوائل مسنده بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة

(١) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولايته القضاء . ونصه : عن علي بن الحسن أن النبي ﷺ أنه صفيه بنت جُحَيٍّ . فلما رجعت انطلق معها . فمرّ به رجلان من الأنصار . فدعاها فقال « إنما هي صفيه » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة ، ٤ - باب ما أكرم الله به نبيّه من إيمان الشجر به

والبهائم والجن .

جاءت بآبَن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله : إن ابني به جنون . وأنه يأخذه عند غدائنا وعشاءنا . فَيُخَبِّث علينا . فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا . فَفَعَّ ثَمَّةً . وخرج من صدره مثل الجرو الأسود فسعى . (وقوله ثع بمثابة ومهملة أى قاء) .

وللدارمى أيضاً وعبد بن حميد بسند حسن أيضاً عن جابر رضى الله عنه قال : خرجت مع النبي ﷺ في سفر . فركبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ بيننا كأنما على رؤسنا الطير ، تظللنا . فعرضت له امرأة معها صبي لها . فقالت : يا رسول الله ! إن ابني هذا يأخذه الشيطان كل يوم ثلاث مرار . فتناول الصبي فجعله بينه وبين مقدم الرحل . ثم قال : اخسأ ، عدو الله ! أنا رسول الله (ثلاثاً) ثم دفعه إليها .

وأخرجه الطبراني من وجه آخر . وبين أن السفر غزوة ذات الرقاع وأن ذلك كان في حرّة واقم . قال جابر : فلما قضينا سفرنا مهرنا بذلك المكان . فعرضت لنا المرأة ومعها صبيها ومعها كبشان تسوقهما . فقالت : يا رسول الله ! اقبل مني هديتي . فوالذي بعثك بالحق ! ما عاد إليه بعد . فقال : خذوا منها واحداً ، وردوا عليها الآخر .

ورواه البغوي في (شرح السنة) عن يعلى بن مرة رضى الله عنه .

ثم ساق البقاعي ما جاء في الإنجيل . قال : وذلك كثير جداً . يعنى ما وقع للمسيح عليه السلام من إخراج الشياطين والأرواح الخبيثة من المبطلين بذلك . وبعد أن ساق ذلك قال : وإنما كتبت هذا مع كون ما نقل عن نبينا ﷺ كافياً ، لأنه لا يدفع أن يكون فيه إيناس له ومصادقة تزيد في الإيمان .

وقد أجاد بيان تسلط الأرواح الخبيثة الإمام شمس الدين ابن القيم في (زاد المعاد) وذكر علاج دفعها فقال عليه الرحمة :

فصل

في هديه ﷺ في علاج الصرع

أخرجنا في الصحيحين^(١) من حديث عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء. أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع. وإني أتكشف. فادع الله لي. فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة. وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك. فقالت: أصبر. قالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها.

قلت: الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية وصرع من الأخلط الردية. والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه. وأما صرع الأرواح، فأمثمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه. ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة. فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها. وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه. فذكر بعض علاج الصرع وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلط والمادة. أما الصرع الذي يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج. وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يمتد بالزندقة فضيلة، فأولئك ينكرون صرع الأرواح ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع. وليس معهم إلا الجهل. وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك. والحس والوجود شاهد به. وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلط هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها. وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلهي. وقالوا: إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره، فتأولوا عليهم هذه التسمية وقالوا: إنما سموها بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس فتضرّ بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ. وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها.

(١) أخرجه البخاري في: ٧٥ - كتاب المرضي، ٦ - باب فضل من يصرع من الریح.

وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده . ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء الأطباء وضعف عقولهم . وعلاج هذا النوع يكون بأمرين : أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج . فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها . والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان . فإن هذا نوع محاربة . والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين : أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً ، وأن يكون الساعد قوياً . فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل . فكيف إذا عدم الأمران جميعاً ، يكون القلب خراباً من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه ، ولا سلاح له . والثاني من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً . حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله : اخرج منه . أو بقول : بسم الله . أو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . والنبي ﷺ كان يقول : اخرج عدو الله ! أنا رسول الله . وشاهدت شيخنا (يعني الإمام ابن تيمية رضي الله عنه) يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه ويقول : قال لك الشيخ اخرجي . فإن هذا لا يحل لك . فيفيق المصروع . وربما خاطبها بنفسه . وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب . فيفيق المصروع ولا يحس بألم . وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً . وكان كثيراً ما يقرأ في أذن المصروع : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ^(١) . وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع فقالت الروح : نعم . ومدّ بها صوته . قال : فأخذت له عصا وضربت به في عروق عنقه حتى مجلت يداي من الضرب . ولم يشك الحاضرون بأنه يموت لذلك الضرب . ففي أثناء الضرب قالت : أنا أحبّه . فقلت لها : هو لا يحبك . قالت : أنا أريد أن أحج به . فقلت لها : هو لا يريد أن يحج معك . فقالت : أنا أدعه كرامة لك . قال قلت : لا . ولكن طاعة لله ولرسوله . قالت : فأنا أخرج منه .

قال : فقم المصروع يلتفت يميناً وشمالاً . وقال : ماجأني إلى حضرة الشيخ؟ قالوا له : وهذا الضرب كله؟ فقال : وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب؟ ولم يشعر بأنه وقع ضرباً البتة .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٥٥] .

وكان يعالج بآية الكرسي . وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومن يعالجه بها . وقراءة المودتين . وبالجمله ، فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة . وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله يكون من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم ، من حقائق الذكر والتعاويد والتحسسات النبوية والإيمانية . فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لاسلح معه ، وربما كان عرياناً فيؤثر فيه هذا . ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى مع هذه الأرواح الخبيثة . وهى فى أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت . ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها . وبها الصرع الأعظم الذى لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة . فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة . وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل . وأن تكون الجنة والنار نصب عينه وقبلة قلبه . ويستحضر أهل الدنيا وحلول الثلاث والآفات بهم . ووقوعها خلال ديارهم . كمواقع القطر . وهم صرعى لا يفيقون . وما أشد أعداء هذا الصرع ! ولكن لما عمت البلية بحيث لا يرى إلا مصروعاً لم يصبر مستغرباً ولا مستنكراً . بل صار ، لكثرة المصروعين ، عين المستنكر المستغرب خلافه . فإذا أراد الله تعبد خيراً أفاق من هذه الصرعة ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم . فمنهم من أطبق به الجنون . ومنهم من يفيق أحياناً قليلة ويعود إلى جنونه . ومنهم من يفيق مرة ويحزن أخرى . فإذا أفاق عمل أهل الإفاة والعقل . ثم يعاوده الصرع فيقع التخبط .

ثم قال : وأما صرع الأخطا فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام : وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة . فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفى الأعضاء نفوذاً ما ، من غير اقطاع بالكلية . وقد يكون لأسباب أخرى . كريح غليظ يحتبس فى منافذ الروح . أو بخار ردى يرتفع إليه من بعض الأعضاء . أو كيفية لازعة فينقبض الدماغ لدفع المؤذى فيتبعه تشنج فى جميع الأعضاء . ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً بل يسقط ويظهر فى فيه الزبد غالباً . وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار

وقت وجود المؤلم خاصة . وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها وعسر برئها .
لا سيما إن جاوز في السن خمساً وعشرين سنة . وهذه العلة في دماغه وخاصة في جوهه . فإن
صرع هؤلاء يكون لازماً . قال بقراط : إن الصرع يبق في هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا ، فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تصرع وتنكشف ، يجوز أن يكون
صرعها من هذا النوع . فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض . ودعا لها أن
لا تنكشف . وخيرها بين الصبر والجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان . فاختارت
الصبر والجنة . وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوى . وإن علاج الأرواح بالدعوات
والتوجه إلى الله يفعل مالا يناله علاج الأطباء . وإن تأثيره وفعله وتأثير الطبيعة عنه وانفعالها
أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها . وقد جربنا هذا مراراً ونحن وغيرنا .
وعقلاء الأطباء معترفون بأن في فعل القوى النفسية وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب .
وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم . والظاهر أن صرع هذه
المرأة كان من هذا النوع . ويجوز أن يكون من جهة الأرواح . ويكون رسول الله ﷺ
قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة . وبين الدعاء لها بالشفاء . فاختارت الصبر والستر .
والله أعلم .

« ذَلِكَ » أى القيام المخطئ « بِأَنَّهُمْ قَالُوا » أى بسبب قولهم « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا »
أى نظيره فى أن كلاً منهما معاوضة . فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام
فى الربا لا فى البيع . وحل البيع متفق عليه . فيقاس عليه الربا . وحق القياس أن يشبه
محل الخلاف بمحل الوفاق ؟ أجيب بأنه جىء به على طريق المبالغة . وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم
فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل . حتى شبهوا به البيع . كذا أجاب الزمخشري .
قال الناصر فى (حواشيه) : وعندى وجه فى الجواب غير ما ذكر . وهو أنه متى كان
المطلوب التسوية بين المحلين فى ثبوت الحكم ، فللقائل أن يسوى بينهما طرداً . فيقول مثلاً :
الربا مثل البيع . وغرضه من ذلك أن يقول والبيع حلال فالربا حلال . وله أن يسوى بينهما

في العكس فيقول : البيع مثل الربا . فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً . ضرورة المائلة .
وتبيجه التي دلت قوة الكلام عليها أن يقول : ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام ، وجب
أن يكون الربا مثله . والأول على طريقة قياس الطرد . والثاني على طريقة قياس العكس .
ومآلهما إلى مقصد واحد . فلا حاجة ، على هذا التقرير ، إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة
أو غيره . وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذي تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح .
وإن كان قياساً فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا
وتحليل البيع وقطع القياس بينهما . ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالاً صحيحاً
فقل في الأولى : النبيذ مثل الخمر في علة التحريم . وهو الإسكار . والخمر حرام . فالنبيذ حرام .
وقل في الثانية : إنما الخمر مثل النبيذ . فلو كان النبيذ حلالاً لكان الخمر حلالاً . وليست
حلالاً اتفاقاً . فالنبيذ كذلك . ضرورة المائلة المذكورة . فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه .
والله أعلم . وقوله « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » إنكار لتسويتهم بينهما . إذ الحل مع
الحزمة ضدان . فأتى يماثلان ؟ ودلالة على أن القياس يهدمه النص ، لأنه جعل الدليل على
بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه .

قال الرازي : إن نفاة القياس يتمسكون بهذا الحرف . قالوا : لو كان الدين بالقياس لشكانت
هذه الشبهة لازمة . فلما كانت مدفوعة علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس . وذكر القفال
رحمه الله الفرق بين الباين فقال : من باع ثوباً يساوي عشرة بعشرين ، فقد جعل ذات الثوب
مقابلاً بالعشرين . فلما حصل التراضي على هذا التقابل ، صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر
في المالية عندهما . فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض . أما إذا باع العشرة بالعشرين فقد
أخذ العشرة الزائدة من غير عوض ، ولا يمكن أن يقال : إن عوضه هو الإمهال في مدة الأجل .
لأن الإمهال ليس مآلاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة . فظهر الفرق
بين الصورتين . وقد أخرج أبو نعيم في (الحلية) عن جعفر بن محمد أنه سئل : لم حرم الله

الربا ؟ قال لثلاثيناع الناس المعروف . أى الإحسان الذى فى القرض إذ لو حَلَّ درهم بدرهمين ماسمح أحد بإعطاء درهم بمثله .

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أى بلغه وعظ وزجر كالنهي عن الربا « مِنْ رَبِّهِ » متعلق بـ(جاءه) أو بمحذوف وقع صفة لـ(موعظة). والتعرض لعنوان الربوية مع الإضافة للإشعار بكون محيى الموعظة للتربية « فَأَنْتَهَى » عطف على (جاءه) أى فاتمط بلا تراخ، وتبع النهى « فَلَهُ مَا سَلَفَ » أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه « وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ » إن شاء أخذه لظهور الفرق وإن شاء عفا عنه. لأن الفرق ، وإن ظهر لأرباب النظر ، يجوز أن يخفى على العوام « وَمَنْ عَادَ » أى إلى تحليل الربا بعد النص « فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لكفرهم بالنص، وردمهم بإياه بقياسهم الفاسد، بعد ظهور فساده. ومن أحل ما حرم الله عز وجل فهو كافر. فلذا استحق الخلود. وبهذا تبين أنه لاتعلق للمعتزلة بهذه الآية فى تخليد الفساق . حيث بنوا على أن التواعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة . ولا يخفى أنه لا يساعدهم على ذلك الظاهر الذى استدلوا به . فإن الذى وقع العود إليه محمول على ما تقدم . كأنه قال : ومن عاد إلى ما سلف ذكره ، وهو فعل الربا واعتقاد جوازه والاحتجاج عليه بقياسه على البيع . ولاشك أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً فى تحريمها، مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات ، بما يتوهمه من الخيالات - فقد كفر ثم ازداد كفراً . وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود فى الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن . وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل إذا للمعتزلة على اعتزالهم فى هذه الآية . والله الموفق . أشار لذلك فى الانتصاف . قال فى فتح البيان : والمصير إلى هذا التأويل واجب ، للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٦] (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

« يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » أى يذهب ربه ويمحو خيره، وإن كان زيادة في الظاهر فلا ينتفع به في الآخرة كما قال تعالى : وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ^(١) وقال تعالى : وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ^(٢) . « وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ » أى يكثرها وينميتها وإن كانت نقصاناً في الشاهد .

فوائد :

الأولى قال القاشانى : لأن الزيادة والنقصان إنما يكونان باعتبار العاقبة والنفع في الدارين . والمال الحاصل من الربا لا بركة له لأنه حصل من مخالفة الحق . فتكون عاقبته وخيمة وصاحبه يرتكب سائر المعاصي . إذ كل طعام يولد في آكله دواعى وأفعالا من جنسه . فإن كان حراما يدعو إلى أفعال محرمة ، وإن كان مكروهاً إلى أفعال مكروهة . وإن كان مباحاً إلى مباحة . وإن كان من طعام فضل إلى مندوبات ، وكان في أفعاله متبرعاً متفضلاً . وإن كان بقدر الواجب من الحقوق فأفعاله تكون واجبة ضرورية . وإن كان من الفضول والحظوظ فأفعاله تكون كذلك . فعليه إثم الربا وآثار أفعاله المحرمة المتولدة من أكله . فتزداد عقوباته وآثامه أبداً . ويتلف الله ماله في الدنيا فلا ينتفع به أعقابه وأولاده . فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الحق الكلى . وأما المتصدق فلكون ماله مذكى يبارك الله في تنميته مع حفظ الأصل . وآكله لا يكون إلا مطيعاً في أفعاله . ويبقى ماله في أعقابه وأولاده منتفعاً به . وذلك

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] وبقاى الآية : . . . وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٣٧] ونصها : لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

هو الزيادة في الحقيقة . ولو لم تكن زيادته إلا ما صرف في طاعة الله لكفى به زيادة . وأى زيادة أفضل مما تبقى عند الله ؟ ولو لم يكن نقصان الربا إلا حصوله من مخالفة الله وارتكاب نهيه لكفى به نقصاناً . وأى نقصان أخش مما يكون سبب حجاب صاحبه وعذابه ونقصان حظه عند الله ؟

الثانية : قال القاشاني : عليه الرحمة ، قبل ذلك : آكل الربا أسوأ حالاً من جميع مرتكبي الكبائر . فإن كل مكتسب له توكلٌ ما في كسبه ، قليلاً كان أو كثيراً . كالتاجر والزارع والمحترف . إذ لم يعينوا أرزاقهم بقولهم ولم تمنعهم قبل الاكتساب . فهم على غير معلوم في الحقيقة . كما قال رسول الله ﷺ : أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم^(١) . وأما آكل الربا فقد عين على آخذه مكسبه ورزقه . سواء ربح الآخذ أو خسر . فهو محجوب عن ربه بنفسه ، وعن رزقه بتعيينه . لا توكل له أصلاً . فوكله الله تعالى إلى نفسه وعقله . وأخرجه من حفظه وكلاءته . فاخطفه الجن وخبلته . فيقوم يوم القيامة ولا رابطة بينه وبين الله ، كسائر الناس المرتبطين به بالتوكل . فيكون كالمصروع الذي مسه الشيطان فتخبطه ، لا يهتدى إلى مقصد .

الثالثة : قال بعض العلماء العمرانيين : يشترط لجواز التمول أن يكون من وجه مشروع . كما في مقابلة عمل أو معاوضة . وأن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . ولذا حرمت الشرائع المساوية كلها ، وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية ، أكل الربا ، قصد الحفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية . لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادي ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تعرض لخسائر طبيعية ، كالتجارة والزراعة والأملاك . ومن المشاهد أن بالربا تربو الثروات فيختل التساوي بين الناس .

ثم قال : وقد نظر المليون والاقتصاديون في أمر الربا فقالوا : إن المعتدل منه نافع^(١) كشف الخفاء رقم ٥٨ . قال في التمييز تبعاً للأصل : أخرجه الديلمي من حديث أبي هريرة ، من رواية عمر بن راشد ، وهو ضعيف جدا .

بل لابد منه . أولاً لأجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانياً لأجل أن النقود الموجودة لا تفي للتداول ، فكيف إذا أمسك المكتزون قسمها أيضاً؟ وثالثاً لأجل أن الكثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرّون عليها . كما أن كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان .

فهذا النظر صحيح من وجه إنماء ثروات الأفراد والأمم . أما السياسيون والأخلاقيون فينظرون إلى أن ضرر ذلك في جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأن هذه الثروات الفردية تمكن الاستبداد الداخلي . فتجعل الناس صنفين عبيداً وأسياداً . وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مآلاً وعُدّة . وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة . ولذلك حرمت الأديان الربا تحريماً مغلظاً . انتهى .

الرابعة : قال الرازي : لما بالغ تعالى في الزجر عن الربا ، وكان قد بالغ في الآيات المتقدمة في الأمر بالصدقات ، ذكر ههنا ما يجري مجرى الداعي إلى ترك الصدقات وفعل الربا ، وكشف عن فساده . وذلك لأن الداعي إلى فعل الربا تحصيل المزيد في الخيرات . والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان الخيرات . فبين تعالى أن الربا وإن كان زيادة في المال إلا أنه نقصان في الحقيقة . وإن الصدقة وإن كانت نقصاناً في الصورة إلا أنها زيادة في المعنى . ولما كان الأمر كذلك كان اللائق بالمعقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس من الدواعي والصوارف . بل يعول على ما ندبه الشرع إليه منهما .

وقال القفال : ونظير قوله : يَمَحَقُ اللَّهُ الرَّبَا ، المثل الذي ضربه فيما تقدم بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً . ونظير قوله : وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ، المثل الذي ضربه بحجة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » صيغتا مبالغة من الكفر والإثم ، لاستمرار مستحل الربا وآكله عليهما وتماديه في ذلك . وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار ، لا من فعل المسلمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله ورسوله وكتبه وبتحريم الربا ، ورجع إيمانهم أمر الله بالإتفاق ، على جمعهم للمال « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فيما بينهم وبين ربهم التي من أجلها الجود وترك الربا « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » التي تنهى عن الفحشاء والمنكر كالشح والربا « وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ » أعطوا زكاة أموالهم التي هي أجل أسباب فضيلة الجود « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » ثوابهم الكامل « عِنْدَ رَبِّهِمْ » في الجنة « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » يوم الفزع الأكبر « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » لأنهم فرحون بما آتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى اخشوا الله في الربا لأن فيه إبطال حكمته تعالى في خلق الأموال « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » أى اتركوا ما بقى لكم من الربا على الغرماء « إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » على الحقيقة . فإن ذلك مستلزم لما أمرتم به البتة .
قال الحرالي : فيبين أن الربا والإيمان لا يجتمعان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٩] (فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

« فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا » أى لم تتركوا ما بقى « فَأْذَنُوا » أى اعلموا « بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ »

وَرَسُولِهِ « قال المهايى : أى إن لم تفعلوا ترك ما بقى كنتم متهاونين بأمره . ومن تهاون بأمر ملك حاربه .

والحرب نقيض السلم . ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً . وفيه إيماء إلى سوء الخاتمة إن دام على أكله . « وَإِنْ تُبْتُمْ » من الربا « فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » أى أصولها « لَا تَظْلِمُونَ » بطلب الزيادة « وَلَا تُظْلَمُونَ » بالنقص والمطل . بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص فيه . ثم أمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٠] (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ،
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » أى بالكل أو البعض « فَنَظِرَةٌ » أى فالواجب إمهال بقدر ما أعسر « إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » أى بذلك القدر . لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه ، إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى وإما أن تربي . ثم ندب تعالى إلى الوضع من المعسر ووعد عليه الخير والثواب الجزيل فقال « وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى وأن تتركوا للمعسر قدر ما أعسر بإبرائه منه ، لأنه ربما لا يحصل البذل فى الحال ، فيأخذ ما يساويه فى الآخرة . والصدقة تتضاعف الأضعاف المذكورة .

وقد أخرج البخارى^(١) ومسلم والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه . وأخرج مسلم والترمذى نحوه عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان .

ومسلم فى : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعن أبي قتادة^(١) الحارث بن ربيع الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نفّس عن غريمه أو محب عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة . رواه الإمام أحمد ومسلم . وعن بريدة^(٢) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة . قال: ثم سمعته يقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة . فسألته عن ذلك فقال ﷺ: له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين . فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة . وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٣): من أنظر معسراً أو وضع عنه ، وقاه الله من فيح جهنم . رواها الإمام أحمد ، ثم قال تعالى يعط عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته بإيهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨١] (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

«وَاتَّقُوا يَوْمًا» أى اخشوا عذاب يوم «تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ» ما عملت من خير أو شر .

قال المهايى : فإن استوفى الدائن حقه بالتضييق على المدين استوفى الله منه حقوقه بالتضييق . وإن ساعه فالله أولى بالمساحة . والمدين ، إن لم يوف حق الدائن مع قدرته على

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٠٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٥ - كتاب الصدقات ، ١٤ - باب إنظار المعسر ،

حديث ٢٤١٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، حديث رقم ٣٠١٧ (طبعة المعارف) .

الأداء استوفى الله منه حقه. وأما من لا يقدر، فيرجى أن يعفو الله عنه ، ويرضى خصمه بعوض من عنده « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » لا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم .

تنبيه :

من تأمل هذه الآيات وما اشتملت عليه من عقوبة أهل الربا ومستخليه، أَكْبَرَ جُرْمَهُ وإِثْمَهُ. فقد ترتب عليه قيامهم في المحشر مخبلين وتحليدهم في النار ونزهم بالكفر. والحرب من الله ورسوله واللعنة . وكذا الذم والبغض وسقوط العدالة وزوال الأمانة، وحصول اسم الفسق والقسوة والنلظة ودعاء من ظلم بأخذ ماله على ظالمه . وذلك سبب لزوال الخير والبركة . فما أقبح هذه المعصية وأزيد فحشها وأعظم ما يترتب من العقوبات عليها ! وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما طوى التصريح به في تلك الآيات من العقوبات والقبائح الحاصلة لأهل الربا في أحاديث كثيرة . فمنها : ما رواه الشيخان^(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات (أى المهلكات) قالوا : يا رسول الله ! وماهن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . وأخرج البخارى^(٢)

(١) أخرجه البخارى في : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٢٣ - باب قول الله تعالى :
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٩٣ - باب ما قيل في أولاد المشركين .
سنسوق لك أيها القارئ هذا الحديث على طوله بنصه ، لما فيه من الغرائب .

عن سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ ، إذا صلى صلاة ، أقبل علينا بوجهه فقال « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ » قال فإن رأى أحد قصها . فيقول ما شاء الله . فسلنا يوماً فقال « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا . قال « لكنى رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذوا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة . فإذا رجل جالس ورجل قائم ، بيده كلؤب =

عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم : رأيت الليلة رجلين أتيا فأخرجاني إلى أرض مقدسة . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم . فيه رجل قائم . وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة . فأقبل الرجل الذي في النهر . فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت : ما هذا الذي

= من حديد . إنه يدخل ذلك السكّوب في شدة حتى يبلغ قفاه . ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك . وملتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله . قات : ما هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهرٍ أو صخرة فيشدخ بها رأسه . فإذا ضربه تدهده الحجر . فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هنا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو . فعاد إليه فضره . قات : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثقبٍ مثل التّور ، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً . فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا . فإذا خمدت رجعوا فيها . وفيها رجال ونساء عراة . فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم على وسط النهر . رجل بين يديه حجارة . فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر ، فيرجع كما كان . فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة . وفي أصلها شيخ وصبيان . وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها . فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني داراً لم أرقط أحسن منها . فيها رجال وشيوخ وشباب ، ونساء وصبيان . ثم أخرجاني منها . فصعدا بي الشجرة ، فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل . فيها شيوخ وشباب . قلت : طوّقتماني الليلة ، فأخبراني عما رأيتم .

قالا : نعم . أما الذي رأيته يشق شدقه ، فكذاب . يحدث بالكذبة . فتحمّل عنه حتى تبلغ الآفاق . فيصنع به إلى يوم القيامة . =

رأيتُه في النهر ؟ قال : آكل الربا . وأخرج مسلم ^(١) عن جابر بن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه . وقال : هم سواء . وأخرج البخاري ^(٢) وأبو داود عن أبي جحيفة قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله . وثمت آثار وافرة ، ساقها السيوطي في الدر المنثور .

= والذي رأيتُه يشدخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة .

والذي رأيتُه في الثقب فهم الزناة .

والذي رأيتُه في النهر آكلو الربا .

والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان حوله فأولاد الناس .

والذي يوقد النار مالك ، خازن النار .

والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين .

وأما هذه الدار فدار الشهداء .

وأنا جبريل وهذا ميكائيل . فارفع رأسك .

فرفعت رأسي فإذا فوق مثل السحاب . قالوا : ذاك منزلك .

قلت : دعاني أدخل منزلي . قالوا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله . فلو استكملت أتيت

منزلك .

(١) أخرجه مسلم في : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ١٠٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ١١٣ - باب ثمن الكلب ، ونصه :

عن عون بن أبي جحيفة قال : رأيت أبي اشترى حجاما . فسألته عن ذلك ؟ فقال :

إن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم وثن الكلب وكسب الأمة . ولعن الواشمة والمستوشمة

وآكل الربا وموكله . ولعن المصور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَیَعْلَمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين ، إذا تعاملوا بعمليات مؤجلة ، أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها . وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال « ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرْتَابُوا » وفي قوله « تَدَايَنْتُمْ » دليل على جواز السلم . لأن المداينة فعل اثنين وهو السلم نفسه . لأنه دين من الجانبين جميعاً . وعلى ذلك

روى عن ابن عباس قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى ، أن الله تعالى أحله وأذن فيه ثم قرأ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ » الآية . رواه البخارى ^(١) .

وقال آخرون : قوله « إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ » هو بيع كل دين إلى أجل مسمى . فهو يسمى التداين . كما يسمى البائع والمشتري المتبايعين . لأن كل واحد منهما بائع في وجهه . فعلى ذلك ، المداينة التداين . وإنما لم تؤمر بالكتابة في بيع الأعيان لأنه في المداينات وصل أحدهما إلى حاجته بقبض رأس المال ، والآخر لم يصل . فلعل ذلك يحمله على إنكار الحق والجحود . فإذا تذكر أنه كتب وأشهد عليه ارتدع عن الإنكار والجحود . لما يخاف ظهور كذبه وفضيخته على الناس . ولا كذلك مع العين بالعين . لأن كل واحد منهما لا يصل إلى حاجته إلا بما يصل به الآخر . فليس هنالك للإنكار معنى ، وثمت وجه آخر وهو أنه يجوز أن ينسى فينكر ذلك ، أو ينسى بعضه ويذكر بعضاً ، فأمر بالكتابة لئلا يبطل حق الآخر بترك الكتابة . ولا كذلك في بيع العين بالعين . فافترقا . كذا في التأويلات للماتريدى « وَلْيَكُتَبْ بَيْنَكُمُ » أى الدين المذكور « كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » الجار متعلق إما بالفعل أى (وليكتب بالحق) . أو بحذوف صفة لكاتب ، أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . لا يزيد ولا ينقص . وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين ، حتى يحى كتابه موثقاً به معدلاً بالشرع . « وَلَا يَأْبَ » أى ولا يمتنع « كَاتِبٌ » من « أَنْ يَكُتَبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » أى كما بينه بقوله تعالى « بالعديل » ، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته . كما نفعه الله بتعليم الكتاب . كقوله تعالى : وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ^(٢) . وفى الحديث ^(٣) : إن من الصدقة أن تعين صانماً أو تصنع لأخرق .

(١) لم أهتد إليه .

(٢) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٢ - باب أى الرقاب أفضل . ونصه : =

وفي الحديث ^(١) الآخر: من كتم علماً يعلمه، ألجم بلجام من نار .
قال الرازي : ظاهر هذا الكلام نهى لكل كاتب عن الامتناع من الكتابة . وإيجابها على كل من كان كاتباً « فَلْيَكْتُبْ » أى تلك الكتابة الملعنة . أمر بها بعد النهي عن إياها تأكيداً لها « وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ » الإملال الإملاء . وهما لفتان نطق القرآن بهما . قال تعالى : فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ^(٢) . أى وليكن الملى على الكاتب المدين وهو الذى عليه الحق ، لأنه المقر المشهود عليه « وَلْيَتَّقِ » أى وليخش الملى « اللَّهُ رَبَّهُ » جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجليل ، للمبالغة في التحذير « وَلَا يَبْخَسْ » أى لا ينقص « مِنْهُ » أى مما عليه « شَيْئاً » مما عليه من الدين « فَإِنْ كَانَ » المدين وهو « الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً » أى خفيف الحلم أو جاهلاً بالإملاء لا يحسنه « أَوْ ضَعِيفاً » صبيهاً أو شيخاً هرمًا « أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِهُ » أى أو غير مستطيع للإملاء بنفسه - لمى به أو خرس أو عجمة . ولفظ (هو) هنا تأكيد للفاعل المضمر - والجمهور على ضم الهاء لأنها كلمة منفصلة عما قبلها فهي مبدوء بها . وقرئ بإسكانها على أن يكون أجرى المنفصل مجرى المتصل بالواو أو الفاء أو اللام . نحو : وهو، فهو، لهو . قاله أبو البقاء « فَلْيُمْلِلِ وَلِيَّهُ » يعنى الذى يلى أمره من قيم أو وكيل أو ترجمان « بِالْعَدْلِ » من غير نقص ولا زيادة « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ »

= عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أى العمل أفضل؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها » قلت : فإن لم أفعل ؟ قال « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » . قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدقُ بها على نفسك » .

(١) فى الجامع الصغير للسيوطى : ابن عدى فى (الكامل) عن ابن مسعود .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى

عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

أى اطلبوها ليتحملا الشهادة على المداينة « فَإِنْ لَمْ يَكُونَا » أى الشاهدان « رَجُلَيْنِ
فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ » أى فى العدالة « مِنْ الشُّهَدَاءِ » ولما شرط فى القيام
مقام الواحد من الرجال ، العدد من النساء ، علله بما يشير إلى نقص الضبط فيهن فقال « أَنْ
تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا » أى تغيب عنها الشهادة « فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى » الضالة « وَلَا
يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » أى لأداء الشهادة التى تحملوها أو لتحملها . وتسميتهن
(شهداء) قبل التحمل من تنزيل المشارف منزلة الواقع « وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ »
أى الدين « صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ » أى المذكور من الكتابة « أَقْسَطُ »
أى أعدل « عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ » أى أعون لإقامتها إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ
« وَأَدْنَى » أى أقرب « أَنْ لَا تَرْتَابُوا » أى لا تشكوا فى جنس الدين وقدره وأجله بتشكيك
أحد المتدينين « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً » أى حالة « تُدِيرُونَهَا » أى تكتثرون
إدارتها « بَيْنَكُمْ » فتصعب عليكم كتابتها مع قلة الحاجة إليها « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا » لأنها مناجزة فيبعد فيها التنازع والنسيان . قال أبو البقاء (تجارة) يقرأ
بالرفع على أن تكون التامة (وحاضرة) صفتها . ويجوز أن تكون الناقصة واسمها تجارة ،
وحاضرة صفتها ، وتديرونها الخير . وقرئ بالنصب على أن يكون اسم الفاعل مضمراً فيه ،
تقديره : إلا أن تكون المباعة تجارة « وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » أمر بالإشهاد على التبايع
مطلقاً ناجزاً أو كائناً لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد :
وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة . على أن الإشهاد كاف فيه دون
الكتابة . وعن الضحاك : هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل . كذا فى الكشف .
وأخرج ابن المنذر عن جابر بن زيد أنه اشترى سوطاً فأشهد وقال : قال الله « وَأَشْهَدُوا
إِذَا تَبَايَعْتُمْ » .

قال أبو القاسم بن سلامة فى كتابه (الناسخ والنسوخ) : قد كان جماعة من التابعين

يرون أنهم يشهدون في كل بيع وابتياح . فهم الشعبي وإبراهيم النخعي . كانوا يقولون إنا نرى أن نشهد ولو في جرة بقل .

« وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » يحتمل البناء للفاعل والمفعول . ويدل عليه أنه قرئ : ولا يضارَر (بالكسر والفتح) والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان ، أو النهي عن الضرر بهما ، بأن يعجلا عن مهم .

قال الحرالي : في الإحنة تعريض بالإحسان منه للشهيد والكاتب ليحببه لمراده ، ويمينه على الائتمار لأمره بما يدفع من ضرر ، عطلته واستعماله في أمر من أمور دنياه . ففي تعريضه إجازة لما يأخذه الكاتب ومن يدعى لإقامة معونة في نحوه ممن يعرض له فيما يضره التخلي عنه .

« وَإِنْ تَقَعُوا » أى ما نهيتهم عنه من الضرر « فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ » أى خروجكم عن الشرع الذى نهجه الله لكم . قال الحرالي : وفي صيغة (فعول) تأكيد فيه وتشديد في الندارة .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أن يعذبكم بالخروج عن طاعته « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ » أحكامه المتضمنة لمصالحكم « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ولما كان التقدير : هذا إذا كنتم حضوراً يسهل عليكم إحضار الكاتب والشاهد ، عطف عليه قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ » أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى « وَلَمْ تَجِدُوا

كَاتِبًا فَرِهَانَ مَقْبُوضَةً» أى فالذى يستوثق به رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق ، وثيقة لدينه. هذا إذا لم يأمن البعض البعض بلا وثيقة « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا » لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان « فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ » وهو المدين . وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقاً للإعلام ، ولجله على الأداء « أَمَانَتُهُ » أى دينه . وإنما سمي أمانة لاثمائه عليه بترك الارتهان به « وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ » فى رعاية حقوق الأمانة . وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير ما لا يخفى « وَلَا تَكْتُمُوا » أيها الشهود « الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » .

قال الزخشرى : فإن قلت هلا اقتصر على قوله فإنه آثم . وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضررها ولا يتكلم بها . فلما كان إنما مقترفاً بالقلب أسند إليه . لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ . ألا تراك تقول ، إذا أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبي . ولأن القلب هو رئيس الأعضاء، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله^(١) . فكانه قيل : فقد تمكن الإنم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه . ولثلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط . وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه.

(١) يشير إلى الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ،

٣٩ - باب فضل من استبرأ لدينه ، حديث ٤٧ ونصه :

عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بين والحرام بين . وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب »

واللسان ترجمان عنه . ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح . وهى لها كالأصول التى تتشعب منها . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر . وهما من أفعال القلوب . فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معظم الذنوب . وقرئ (قلبه) بالنصب . كقوله : سفه نفسه . وقرأ ابن أبى عبلة : آثم قلبه . أى جعله آثماً « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٤] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُوا » أى تظهروا « مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » من الأفعال الاختيارية باللسان أو الجوارح « أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال أبو مسلم الأصفهاني : إنه تعالى لما قال فى آخر الآية المتقدمة : والله بما تعملون عليم . ذكر عقبيه ما يجرى مجرى الدليل العقلي فقال « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ومعنى هذا الملك ، أن هذه الأشياء لما كانت محدثة فقد وجدت بتخليقه وتكوينه وإبداعه . ومن كان فاعلاً لهذه الأفعال المحكمة المتقنة العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة والمنافع العظيمة لا بد أن يكون عالماً بها . إذ من المحال صدور الفعل المحكم المتقن عن الجاهل به . فكان الله تعالى احتج بخلق السماوات والأرض ، مع ما فيها من وجوه الأحكام والإتقان ، على كونه تعالى عالماً بها محيطاً بأجزائها وجزئياتها .

قال الشعبي : إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه ، بين أن له ملك السماوات والأرض ، فيجازى على الكتمان والإظهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر

وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى: وإن تبدوا... الخ. نزلت في كتمان الشهادة وإقامتها .

وروى الإمام أحمد ومسلم^(١) والنسائي وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية « وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء.. فقال النبي ﷺ : قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا . قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال: قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال: قد فعلت) وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال: قد فعلت) . وفي مسند عبد بن حميد والطبراني : قال ابن عباس : فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها . وصار الأمر إلى أن قضى الله تعالى أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت من القول والعمل . أقول إن ما جاء من أن الآية هالت من هالت من الصحابة فإنما جاء من عمومها ومن قوله « يُحَاسِبْكُمْ » إذ حمله على حساب المؤاخذه ، فأما عمومها فنظّمها ظاهر فيه . إلا أنها تتناول الشهادة وكتمانها أولاً وبالذات . وغيرها ثانياً وبالعرض . وأما حمل الحساب على المؤاخذه والانتقام فإن كان عرفياً أو لغوياً فالإخفاء حينئذ مراد به إخفاء متفق على حظره . كنفاق وريب في الدين . ولا إشكال في الآية . وقد يؤديه ذكر الإيمان بعده . ويكون ختام السورة بالإبداء والإخفاء بمثابة رد العجز على الصدر . لافتتاح السورة بالؤمنين والكافرين وما لكل منهما . وإن لم يكن الحساب حقيقة فيما ذكر بل كان معناه إيقافه تعالى العبد على عمله خيراً أو شراً وإراءته عاقبته الحسنى أو السيئى ، وهو الذى يظهر ، فلا إشكال أيضاً . فما روى عن بعض الصحب عليهم الرضوان منشؤه قوة اليقين وشدة الخوف من هول المطلع مع ورود الحساب في كثير من الآيات في معرض أخطار القيامة مما يحق أن

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

يخفق له فؤاد كل مؤمن . ولا تنس ما أسلفنا في المقدمة وفي غير موضع ، أن قولهم : نزلت في كذا قد يراد أن كذا مما يشمله لفظ الآية لعمومها له ولغيره . وهكذا هنا . فالآية وإن كان سياقها في الشهادة وكتبتها ، إلا أنها تتناول غيرها بعمومها . ولذلك دخل فيها الوسوسة وتوهم ما توهم . وقوله في الرواية : فأُزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » لا يتوهم التراخي بين ما دخل قلوبهم وبين نزولها . بل المراد ، كما أسلفنا في سبب النزول ، أن لفظ « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ ... » الخ الذي نزل معها مبين أن لا حرج في مثل الوسوسة ونحوها . فافهم فإنه نفيس جداً . وبه يزاح عنك ما يبحث فيه الكثيرون في هذه الآية ويروونه من المعضلات . وبالله التوفيق .

هذا وفي الصحيحين^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورهم ، ما لم تعمل أو تكلّم . وفي الصحيحين^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه . فإن عملها فكتبوها سيئة . وإذا هم بحسنة فلم يعملها فكتبوها حسنة ، فإن عملها فكتبوها عشرا . « فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » وقرئ برفع الفعلين على الاستئناف أي فهو يغفر الخ . ويجزمهما عطفاً على جواب الشرط . وفي تقديم المغفرة على التعذيب إشعار بسبق رحمته تعالى على غضبه « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . قال الرازي : قد بين بقوله « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أنه كامل الملك والملكوت . وبين بقوله « وَإِنْ تُبْدُوا .. » الخ . أنه كامل العلم والإحاطة . ثم بين بقوله « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أنه كامل القدرة مستول على كل الممكنات بالقهر والقدرة والتكوين والإعدام . ولا كمال أعلى وأعظم من حصول الكمال في هذه الصفات . والموصوف بهذه الكمالات يجب على كل عاقل أن يكون عبداً منقاداً له ، خاضعاً لأوامره ، ونواهيهِ ، محترزاً عن سخطه . وبالله التوفيق .

(١) أخرجه البخاري في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق .

(٢) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٣ (طبعتنا) ولم يخرج به البخاري .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨٥] (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

« ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » أى صدقه بقبوله والتخلق به كما قالت عائشة^(١) : كان خلقه القرآن والترقي بجمانيه والتحقق « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى كذلك آمنوا . قال الزجاج رحمه الله : لما ذكر الله عز وجل في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والربا والدّين ، ختمها بقوله « ءَامَنَ الرَّسُولُ » لتعظيمه وتصديق نبيه ﷺ والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله ، وغيره ليكون تأكيداً له وفذلكه .

لطيفة :

قوله (والمؤمنون) إما مبتدأ والجملة بعده خبر . أعنى كُلٌّ ءَامَنَ . والعائد إلى المبتدأ التنوين القائم مقام الضمير في (كل) ، لأن من جملة العائد إلى المبتدأ التنوين النائب مناب الضمير . وإما معطوف على الرسول فيكون التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين . وقد اختار كثيرون الأول . ومنهم العلامة أبو السعود . وأطال في توجيهه . وعندى أن الوجه هو الثانى .

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٣٩ (طبعنا) . وهو حديث طويل . يرويه سعد بن هشام بن عامر وفيه يقول ، بعد أن استأذن على عائشة قال : فقلت : يا أم المؤمنين ! أنبئني عن خلق رسول الله . قالت : أأستقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبي الله كان القرآن . وفيه وصف جامع لقيامه ﷺ وعن وتره على لسان سيدتنا أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

لأن المقام لتعداد المؤمن به . وذلك يشترك فيه الرسول وأتباعه . وإن كان كنه إيمان الرسول لا يشاركه فيه غيره . فالمقام ليس مقام الخصوصية . والله أعلم .

« كَلَّ اللَّهُ أَمِنْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا فُرْقُ » أى يقولون لا نفرق « بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » أى برّد بعض وقبول بعض ، ولا نشك فى كونهم على الحق وبالحق « وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » أى قولك وفهمناه « وَأَطَعْنَا » أى امتثلنا أمرك وقنا به واستقمنا عليه . ولما علموا أنهم لا يخلون من تقصير ، وأن الرب يغفر لمن يشاء قالوا « غُفْرَانُكَ رَبَّنَا » أى اغفر لنا غفرانك . أو نسألك غفرانك ذنوبنا . وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول « وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك ، وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة . لما أن الرجوع للحساب والجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٦] (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » أى لا يحملها إلا ماتسعه وتطبيقه ولا تمجز عنه . قال الرازى : يحتمل أن يكون هذا ابتداء خبر من الله . ويحتمل أن يكون حكاية عن الرسول والمؤمنين بأنهم قالوا : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . على نسق الكلام فى قوله : وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . وقالوا : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . ويؤيد ذلك ما أردفه من قوله : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا . فكأنه تعالى حكى عنهم طريقتهم فى التمسك بالإيمان والعمل

الصالح . وحكى عنهم في جملة ذلك أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ثم قال الرازى ، في كيفية النظم : إن قلنا : إن هذا من كلام المؤمنين ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فكأنهم قالوا : كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا . فإذا كان هو تعالى ، بحكم الرحمة الإلهية ، لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين . وإن قلنا : إن هذا من كلام الله تعالى ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا : ثم قالوا بعده : غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا ، دل ذلك على أن قولهم : غُفِرَ لَكَ ، طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد . فلما كان قولهم (غفرانك) طلباً للمغفرة في ذلك التقصير ، لا جرم خفف الله تعالى ذلك عنهم . وقال : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . والمعنى : أنكم إذا سمعتم وأطعتم ، وما تهمتم التقصير ، فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه . فإن الله تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . وبالجملة فهذا إجابة لهم في دعائهم في قولهم : غفرانك ربنا .

قال زين العابدين مير محمد دره في (المدحة الكبرى) : وعلى احتمال أن يكون قوله لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ... إلخ . حكاية ، فهو من قبيل العطف بلا عاطف . أو الكلام على تقدير قالوا . قال بعضهم : ولك أن تجعل (لا يكلف الله...) إلخ في حيز القول . وأن يكون حكاية للاثقوال المتفرقة غير المعطوفة بعضها على بعض للمؤمنين . ويكون مدحاً لهم بأنهم شاكرون لله تعالى في تكليفه . حيث يرونه بأنه لم يخرج عن وسعهم . وبأنهم يرون أن الله تعالى لا ينتفع بعملهم الخير ، بل هو لهم . ولا يتضرر بعملهم الشر ، بل هو عليهم .

وقال البقاعي : وهذا الكلام من جملة دعائهم على وجه الثناء طلباً للوفاء بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عنه سبحانه من ذلك ، خوفاً من أن يكلفوا بما لله تعالى أن يكلف به من المؤاخذه بالوساوس . لأنه مما تخفيه النفوس ولا طاقة على دفعه .

ولعل العدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضى العفو عن ضعفهم . ومن صفات الحلم والرحمة ما يرفّه عنهم . ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاء لهم على قولهم : سمعنا وأطعنا ، الآية . فأفادهم بذلك أنه لا يحاسبهم بمحدث النفس . فانتفى ما شق عليهم من قوله : وإن تبدوا ما في أنفسكم ، الآية . بخلاف ما أفاد بنى إسرائيل قولهم : سمعنا وعصينا ، من الآصار في الدنيا والآخرة . فيكون حينئذ استثنافاً جواباً لمن كانه قال : هل أجاب دعاءهم . ويؤيد هذا الاحتمال اتباعه لحكم ما في الوسع على طريق الاستئناف أو الاستنتاج بقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى « لَهَا مَا كَسَبَتْ » الخ . للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها . ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة . وأنها تعود إليها لا إلى غيرها . ويستتبع الإخلال به مضرة تحقيق بها لا بغيرها . فإن اختصاص منفعة الفعل بفعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله . واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته . أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله ، لا لغيرها . وعليها لا على غيرها عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه . وإيراد الاكتساب في جانب الشر لما فيه من أعمال ناشئة من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها في طلبه .

قال الحراليّ : وصيغة (فَعَلَ) مجردة ، تعرب عن أدنى الكسب . فلذلك من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .

لطيفة :

وقال الجاربردىّ في (شرح الشافية): معنى الكسب تحصيل الشيء على أى وجه كان . والاكتساب المبالغة والاعمال فيه . ومن ذلك قوله تعالى: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . وفيه تنبيه على لطف الله تعالى بخلقه ، إذ أثبت لهم ثواب الفعل على أى وجه كان . ولم يثبت عليهم عقاب الفعل إلا على وجه مبالغة واعمال فيه .

قال الزمخشريّ : لما كان الشر مما تشبهه النفس وهي منجذبة إليه وأماره به ، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ . فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن في باب الخير كذلك لفتورها في تحصيله ، وصفت بما لا دلالة له على الاعمال والتصرف . انتهى .

قال العلامة ابن جماعة في (حواشيه) : تفرقه بين الكسب والاكتساب هو ما قاله الزمخشريّ وغيره ونص عليه سيبويه . قال الحلبيّ : وهو الأظهر . وقال قوم : لا فرق . قالوا : وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب في مورد واحد . قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ^(١) . وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ^(٢) . بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ^(٣) . وقال تعالى : يَغْيِرْ مَا اكْتَسَبُوا ^(٤) . فقد استعمل الكسب والاكتساب في الشر . وقال الواحديّ : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد . وفي القاموس : كسبه يكسبه كسباً ، وتكسب واكتسب : طلب الرزق . أو كسب أصاب ، واكتسب تصرف واجتهد . ثم قال ابن جماعة : ما ذكره من تنبيه الآية على لطف الله بخلقه إلى آخره ، قاله ابن الحاجب في شرح (الفصل) وبمعناه قول بعضهم : في الآية إيذان أن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكمراً من الله على عبده ، بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جدّ فيها واجتهد . وقريب منه قول آخر : للنفس ما حصل من الثواب بأي وجه اتفق حصوله سواء كان بإصابة مجردة أو بتحصيل . وعليها ما حصلته وسعت فيه لا ما حصل من غير اختيار

(١) [٧٤ / المذثر / ٣٨] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٨١] ونصها : بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥٨] ونصها : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا .

وسمى . نبه تعالى أن الثواب حاصل لها سواء كان بسعيها واختيارها أو لم يكن كذلك .
وأما العقاب فلا يكون عليها إلا بقصدها وتحصيلها .

وما قالوه من الفرق يحتاج إلى ثبت . وقد قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ*
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١) أى يرى جزاءه . وقال : وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ^(٢) . على أن ترتب الثواب على ما حصل من غير سعى واختيار ، إن كان لمباشرة سببه مع
« الغفلة عنه ، فالعقاب أيضاً كذلك . فمن عمل سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها ، وإن صور بالإصابة
عند أول الالتفات فلا مانع أن يكون العقاب مثله . ومدعى خلافه عليه البيان . نعم الإصرار
شرط . لأن الرجوع يحويه لكنه قدر زائد على الفعل . وبالجمله فما قاله جار الله حسن .
وقد ذكره البضاوى أيضاً . وفى إعراب الحلبي : الذى يظهر فى هذا ، أن الحسنات مما
تكسب دون تكلف . إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكسب
بتكلف . إذ كاسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ، ويتجاوز إليها .
فحسن فى الآية مجئ التصريفين إحرازاً لهذه المعنى والله أعلم . ثم قال ابن جماعة : والمبالغة
من بالغ مبالغة اجتهد ولم يقصر . والاعمال من اعتمل أى عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته . انتهى .
قال البقاعى ولما بشرهم بذلك ، عرفهم مواقع نعمه من دعاء رَّبِّهِ على الأخف فلاخف
على سبيل التعلّى ، إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجتروه نسياناً ، ولا بما قارفوه خطأ ، ولا حمل
عليهم ثقلاً . بل جعل شريعتهم حنيفةً سمحاء . ولا حملهم فوق طاقتهم . مع أن له جميع
ذلك . وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . ثم رحمهم بأن أحلهم محل
القرب فجعلهم أهلاً للخلافة . فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر . ويظهر دينهم على كل
دين . إذ كان سبحانه هو الداعى عنهم . وليكون الدعاء كله محمولاً على الإصابة ومشمولاً
بالإجابة فقال تعالى « رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا » أى لا تعاقبنا « إِنْ نَسِينَا » أمرك ونهيك « أَوْ

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٨٧] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

أَخْطَأْنَا « أى ففعلنا خلاف الصواب ، تفريطاً ونحوه .

وقد ورع كثير من المفسرين ههنا بالبحث فى أن النسيان والخطأ معفوّ عنهما ، فافائدة طلب العفو عنهما ؟ وأجابوا عن ذلك بوجوه . وأرق جواب رأيتَه قول العلامة بير محمد فى (المدحة الكبرى) : لما كان طالب العفو الرسول والأنصار والمهاجرون ومن كان على شاكلتهم ، فكأنهم يعدون النسيان من العصيان والخطأ من الخطيئة . كقوله تعالى « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » (١) .

وقيل فى معنى الآية : لا تعاقبنا إن تركنا أمرك أو اكتسبنا خطيئة . على أن يكون النسيان بمعنى الترك . والخطأ من الخطيئة . وعليه فلا إيراد ، والله أعلم .

« رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا » أى عهداً يثقل علينا .

قال الحارثى : الإصر العهد الثقيل الذى فى تحمله أشد المشقة « كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » وهو ما كلفه بنو إسرائيل مما يهد الأركان . ولا بأس بالإشارة إلى جمل مما حملوه من الآصار . ننقله عن أسفارهم تأكيذا لما يحمل على الشكر على تخفيف ذلك عنا ، وتعظيما لنته تعالى ، فله الحمد فنقول : فى سفر الخروج فى الأصحاح الثانى عشر :

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخير من بيوتكم . فإن كل من أكل خيرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل . وكل هذا الأصحاح آصار شاقة .

وفى السفر المذكور - فى الأصحاح الحادى والعشرين :

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا (١٦) ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا . (١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . (٢٧) وإن أسقط سنن عبده أو سن أمته يُطلقه حُرّاً عوضا عن سنه (٢٨) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فأت يرحم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا (٢٩) ولكن إن كان ثورا نطأ من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرحم وصاحبه أيضا يقتل .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٦٠] ... أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح الثالث والعشرين .

(١٠) وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها (١١) وأما في السابعة فتريحها وتركها لياً كل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية كذلك تفعل بكرمك وزيتونك .
(١٢) ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

(١٩) أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك .

وفي سفر العدد ، في الأصحاح الخامس عشر :

(٣٧) وكلم الرب موسى قائلاً (٣٨) كلمّ بنى إسرائيل وقل لهم : أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم في أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصاة من أسمانجونيّ (٣٩) فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح التاسع عشر :

(١١) من مس ميتاً ميتة إنسان ما يكون نجساً سبعة أيام . (١٢) يتطهر به في اليوم الثالث ، وفي السابع يكون طاهراً . وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً . (١٣) كل من مس ميتاً ميتة إنسان قدمات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب . فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة . نجاستها لم تزل فيها . (١٤) هذه هي الشريعة . إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام (١٥) وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصاة فإنه نجس . (١٦) وكل من مس على وجه الصحراء قتيلاً بالسيف أو ميتاً أو عظم إنسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيام . وتام الفصل المذكور كيفية الطهارة من هذه النجاسة الشاقة جداً .

وفي السفر المذكور في الأصحاح الخامس والثلاثين :

(٣١) ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الخامس عشر :

(١٩) كل بكرٍ ذكرٍ يولد من بقرك ومن غنمك تقدسه للرب إلهك . لا تستغل على بكر بقرك ولا تجزّ بكر غنمك .

وفي سفر الخروج - في الأصحاح الرابع والثلاثين :

(٢٠) وأما بكر الحمار فتفديه بشاة . وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه .

وفي سفر اللاويين ، في الأصحاح الرابع :

(١) وكلم الرب موسى قائلا (٢) كلم بني إسرائيل قائلا : إذا أخطأت نفس سهوا في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وعمِلت واحدة منها (٣) إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرب عن خطيئته التي أخطأ ثورا ابن بقرٍ صحيحا للرب ذبيحة خطية . وكيفية ذلك حرجة جدا . انظرها .

وفيه ، في الأصحاح الخامس :

(٢) أو إذا مسَّ أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة ديب نجس وأخفى عنه فهو نجس ومذنب .

(٥) فإن كان يذنب في شيء من هذه يقر بما قد أخطأ به (٦) ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيئته التي أخطأ بها أنثى من الأغنام نعجة أو عذرا من المزم ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيئته .

والأصحاح المذكور كله آصار .

وكذا الأصحاح السادس بعده كله آصار :

وفي الأصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه آصار كثيرة . منها :

(٣٣) وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو فتكسرونه .

وفي الأصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم والفرق بين ولادتها ذكرها وأنثى . وإنها في الأولى تكون نجسة أسبوعا ثم ثلاثا وثلاثين يوما . وفي الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يوما . وعن تمام أيام طهرها تأتى بكيس كفارة عنها .

وفي الأصحاح الخامس عشر تشريعات لذوى الجراحات .

وفي ذلك آصار كبرى . انظرها .

وفيه أيضا أحكام الحائض والآصار في شأنها . ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء (٢٠) وكل ما تضطجع عليه في طمئتها

يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا (٢١) وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء

وفي الأصحاح السابع عشر :

(١٥) وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة وطنيا كان أو غريبا يغسل ثيابه ويستحم بماء ويبقى نجسا إلى المساء.

وفي الأصحاح التاسع عشر :

(٢٣) ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غرلتها . ثلاث سنين تكون لكم غلفاء . لا يؤكل منها . (٢٤) وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدسا لتمجيد الرب . (٢٥) وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها . لتزيد بكم غلتها . أنا الرب إلهكم . (٢٧) لا تقصروا رؤوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك .

وفي الأصحاح الخامس والعشرين :

(٣) ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما . (٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبثا للرب . لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك . (٥) زرع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المحول لا تقطف . سنة عطلة تكون للأرض . (٦) ويكون سبت الأرض لكم طعاما . لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولستوطنك النازلين عندك . (٧) ولبهائمك وللحيوان الذي في أرضك تكون كل غلتها طعاما .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الحادي والعشرين .

(١٨) وإذا كان لرجل ابن معاند ومارد ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤذبه فلا يسمع لهما . (١٩) يسكه أبوه وأمه ويأتیان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه . (٢٠) ويقولون لشيخ مدينته . ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكّير . (٢١) فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت .

وفيه ، في الأصحاح الثاني والعشرين :

(١٠) لا تحرث على ثور وحمار معا . (١١) لا تلبس ثوبا مختلطا صوفاً وكتانا معا .

وفيه ، في الأصحاح الرابع والعشرين :

(١) إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . (٢) ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر . (٣) فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة . (٤) لا يقدر زوجها الأول الذيطلقها أن يعود بأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست . لأن ذلك رجس لدى الرب . هذه نبذة يسيرة من الآصار التي كانت على الإسرائيليين ولم يشرعها لنا مولانا بفضلہ وكرمه فله الحمد ، إنه أرحم الراحمين .

« رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » أى من بليات الدنيا والآخرة . فالدعاء الأول في رفع شدائد التكليف ، وهذا في رفع شدائد البليات . ويقال : هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا استطاع مبالغة . « وَاعْفُ عَنَّا » أى : تجاوز عن ذنوبنا ولا تعاقبنا « وَاعْفِرْ لَنَا » أى غطّ على ذنوبنا واعف عنها « وَارْحَمْنَا » أى : تفضل علينا بالرحمة مع كوننا مقصرين مذنبين « أَنْتَ مَوْلَانَا » أى : ولينا وناصرنا « فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء . وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى ، حسبما أمر في تضاعيف السورة الكريمة ، غاية مطلبهم .

قال البقاعي : فتضمن ذلك وجوب قتال الكافرين . وأنهم أعدى الأعداء . وأن قوله « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » ليس ناهياً عن ذلك . وإنما هو إشارة إلى أن الدين صار في الوضوح إلى حد لا يتصور فيه إكراه . بل ينبغى لكل عاقل أن يدخل فيه بفاية الرغبة فضلاً عن الإحواج إلى إزهاب ، فمن نصح نفسه دخل فيه بما دلّ عليه عقله ، ومن أبى دخل فيه قهراً بنصيحة الله التي هي الضرب بالحسام ونافذ السهام .

وقد ورد في (صحيح مسلم) ^(١) عن النبي ﷺ : أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) ونصه : =

وقد روى البخارى^(١) والجماعة عن أبي مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي ﷺ : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ، فى ليلة ، كفتاه .
وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كثر من تحت العرش ، لم يعطهن نبي قبلى .

وأخرج مسلم^(٣) عن ابن مسعود قال : لما أسرى رسول الله ﷺ ، انتهى به إلى سدره المنتهى وهى فى السماء السادسة . إليها ينتهى ما يُعرج به من الأرض ، فيقبض منها . وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها ، فيقبض منها . قال : إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى [٥٣/النجم/١٦] قال : فرأى من ذهب قال ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً ، المقحات .

وعن ابن عباس^(٤) قال : بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم . لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض . لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما

= عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : وَإِنْ تُبَدُّوْا مَافِ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمُ بِهِ اللَّهُ [٢/البقرة/٢٨٤] قال ، دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء . فقال النبي ﷺ « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » قال فأتى الله الإيمان فى قلوبهم . فأنزل الله تعالى : لَا يُكَافُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال : قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال : قد فعلت) وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال : قد فعلت) [٢/البقرة/٢٨٦] .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ١٠ - باب فضل سورة البقرة .

(٢) أخرجه فى المسند فى الصفحة ١٥١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٧٩ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ (طبعنا)

نبيُّ قبلك . فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرفاً منهما إلا أُعْطِيَتْهُ . رواه مسلم والنسائي . وهذا لفظ مسلم .

وأخرج الترمذي^(١) والنسائي والدارمي والحاكم وصححه، عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قال : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألْفِ عام . أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة . ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان .

وأخرج عبد بن حميد في (مسنده) عن الحسن : أنه كان إذا قرأ آخر البقرة قال : يالك نعمة ..! يالك نعمة ..!

هذا ، وقد روى في فضل سورة البقرة أحاديث كثيرة . . . منها ما أخرجه مسلم^(٢) والترمذي من حديث النّوّاس بن سَمعان قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدّمهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعدُ قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرِق . أو كأنهما حِرْزان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد^(٣) والحاكم والدارمي عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا سورة البقرة . فإن أخذها بركة . وتركها حسرة . ولا تستطيعها البطلة . تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تجادلان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد ومسلم^(٤) والترمذي عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٤ - باب ماجاء في آخر سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا)

(٣) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٣٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢١٢ (طبعتنا)

والترمذي في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ٢ - باب ماجاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي

بيوتكم مقابر . إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة . ولفظ الترمذى :
وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان .

وأخرج سعيد بن منصور والترمذى^(١) والحاكم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :
لكل شيء سنام . وإن سنام القرآن سورة البقرة . وفيها آية هي سيدة آي القرآن . آية
الكرسى .

فائدة :

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمته
الأمر كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردتها إليه ، مستوياً على العرش ، لا تحفى عليه خافية
من أقطار مملكته ، عالماً بما في نفوس عباده ، مطلعاً على أسرارهم وعلايتهم ، منفرداً
بتدبير المملكة . يسمع ويرى ويمطى ويمنع ، ويثيب ويماقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق
ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضى ويدبر ، الأمور نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ،
وصاعدة إليه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يثني
على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم
ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحجب إليهم
بنعمه وآلائه ! يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذرهم من
نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن
عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثني
على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويدم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ،
ويضرب الأمثال ، وينوع الأدلة والبراهين ، ويحيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة .

(١) أخرج الترمذى في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٢ - باب ما جاء في فضل سورة
البقرة وآية الكرى .

ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام
ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها
وآلامها. ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه. ولأنهم لا غنى لهم عنه
طرفة عين، ويذكرهم غناهم عنهم وعن جميع الموجودات. وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه.
وكل ما سواه فقير إليه. وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضلته ورحمته. ولا
ذرة من الشر فما فوقها إلا بعذله وحكمته. وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه اللطف عتاب.
وأنه مع ذلك مقبل عثراتهم، وغافر ذلاتهم، ومقيم أعدارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم،
والحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والنجى لهم من كل كرب، والوفى لهم
بوعده. وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، وينصبرهم على عدوهم،
فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً جواداً رحباً جميلاً هذا شأنه، فكيف
لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من
كل ما سواه، ورضاه أثر عندها من رضى كل من سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، وتصير حبه
والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت
ولم تنتفع بحياتها؟

اللهم! اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزنا. وأعنا على إكمال
ما قصدناه بفضلك. يا أرحم الراحمين.

تم « الجزء الثالث » عشية الثلاثاء

في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ في دارنا.

ويليه « الجزء الرابع »

وأوله سورة

« آل عمران »

استدراك

فاتنا أن نشير إلى أن الاستدراك الذى ألقناه بالجزء الأول من قلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد ، الشيخ محمد بهجة البيطار .

وها هو ذا يرسل إلينا استدراكه عما زاغ عنه البصر وطنى فى الجزء الثانى . نشره هنا شاكرين لفضيلته أجزل الشكر على هذه العناية الدقيقة التى لا يتنى بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى . وسنختم كل جزء من التفسير باستدراكه على الجزء الذى سبقه . وهكذا .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	ثلاث مواضع	ثلاثة مواضع
١٩	٢	زدناهم هدى	زادهم هدى
٣٢	٣	مذهبان	مذهبين
٣٧	١٢	منه بدا	(يضاف إليه) أى تكلم به حقيقة لا مجازا
	١٣	وإليه يعود	(يضاف إليه) أى لا يبق له أثر فى الوجود
١٠٥	١٤	الشجرة	الشجرة
١٠٦	٥	لا تقرب	لا تقرب
١٠٧	٦	واسكنوا	« اسكنوا »
١٠٩	١٦	قال اهبطا	(١) قال اهبطا
١١١	٨	بعضهم	بعضهم
١٢٠	١٧	حسابه	حسابه
١٢٣	٥	غو	(لمله) غى
١٢٤	فى الذيل	(٢) (٣) (٤)	(١) (٢) (٣)

تصويب الأخطاء الجزء الثاني

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٨	٤	« واختار	(١) « واختار
	٥	الرجمة	الرجفة
١٣٧	٢	لا تفسدوا	ولا تفسدوا
١٥٩	١٢	فيخرج منها	فيخرج منه
١٦٠	٣	يهبط	يهبط
١٦٧	٧	وتحوه	وتحوه
١٧٨	١٢	يشرك بها	يشرك به
١٨٨	٢٠	وبشرى	وبشرى
١٩١	١٣	وفيه رد	وفيه رد
٢١٣	٩	ما ارتآه	ما ارتآه
٢٢٤	١٦	إثباب	إثبات
٢٣٢	٤	الأرض	والأرض
٢٤٧	١٨	إبراهيم	إبراهيم
٢٥٠	١١	عينية	عينة
٢٦٨	١٦	يرجمون	يرجمون
٢٧٨	٧	سيا	لاسيا
٣١٧	١٨ و ١	وسح	وسبح

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسمى

مَحَاسِنُ التَّائِيلِ

تَأليفُ علامَةِ الشَّامِ

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

المجلد الرابع

وفيه تفسير سورة آل عمران بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد قاسم عبد الباقى

دار الخيرية للكتاب العربي
عيسى البابى الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين

هدى السلف ، والارتقاء المدنى الذى

يقتضيه الزمن »

« وإنى لأوصى جميع الناشئة

الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع

فهماً تراح إليه ضماؤها ، وتنعقد عليه

خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وهي مدنية. مائتا آية، أو إلا آية. سميت بذلك لأن اصطفاء آل عمران، وهم عيسى ويحيى ومريم وأمه، نزل فيه منها ما لم ينزل في غيره. إذ هو بضع وثمانون آية. وقد جعل هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محب لله ومحبوب له.

وتسمى الزهراء، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام. والأمان، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط في شأنه. والكفر، لتضمنها الأسرار العيسوية. والمجادلة، لنزول نيف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران. وسورة الاستغفار، لما فيها من قوله: **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** ^(١). وطيبة، لجمعها من أصناف الطيبين في قوله: **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ** ^(٢). إلى آخره، أفاده المهايي.

والمراد بعمران هو والد مريم، أم عيسى عليهما السلام، كما يأتي التنويه به في قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ^(٣).

- (١) [٣ / آل عمران / ١٧] ونصها: **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**.
- (٢) [٣ / آل عمران / ٣٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[٣] (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ)

« الْم » سلف الكلام على ذلك أول البقرة . « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » سبق تأويله في آية الكرسي . « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أى القرآن . عبر عنه باسم الجنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس ، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه ، كما يلوح به التصريح باسمي التوراة والإنجيل « بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من الكتب المنزلة قبله .

قال المهابي : أى معرفاً صدق الكتب السالفة . وقال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبياً قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان . فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك . « وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » تعين لما بين يديه وتبين لرفعة محله . تأكيذاً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده . إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ، ويزداد فى القلوب قبولاً ومهابة ، ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة ، واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام . قاله أبو السعود .

والتوراة اسم عبرانى معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البشرى)

أى الخبر الحسن . هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتائين فى مصنفاتهم . وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها . وهو خبط . بغير ضبط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« مِنْ قَبْلُ » متعلق بـ « أنزل » ، أى أنزلها من قبل تنزيل الكتاب . والتصريح به مع ظهور الأمر ، للمبالغة فى البيان « هُدًى لِلنَّاسِ » أى لقوم موسى وعيسى . أو ما هو أعم . لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع « وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ » وهو الكتب السماوية التى ذكرها . لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو هو القرآن . وإنما كرر ذكره بما هو نعت له ، ومدح له ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله . قال الرازى : أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبيّن أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ، ليجمعه فرقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل . وعلى هذا التقدير فلا تكرار . ثم استظهر حمل الفرقان على المعجزات التى قرنها الله تعالى بإزالة هذه الكتب الفارقة بين دعواهم ودعوى الكذابين . قال : فالفرقان هو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة . انتهى .

ويجوز أن يكون المراد بالفرقان (الميزان) المشار إليه فى قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^(١) . والميزان هو العدل فى الأمور كلها ؛ واللفظ مما يشمل ذلك كله لتلاقيها فى المعنى .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ =

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى جحدوا بها « لَهُمْ » بسبب كفرهم بها « عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهذا الوعيد. جىء به إثر ما تقدم حملاً على الإذعان ، وزجراً عن العصيان « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » لا يغالب يفعل ما يشاء « ذُو انتِقَامٍ » أى معاقبة ، يقال : انتقم الله منه : عاقبه . والنقمة : الكفأة بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن ، وهو مجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقى وسعيد « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا

بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » واضحات الدلالة « هُنَّ

= لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

أَمْ الْكِتَابِ « أَى أصله المعتمد عليه فى الأحكام » وَأَخْرُ مُشَابِهَاتٌ وهى ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التى أخبر عنها، أو ما احتملت أوجهاً . وجعله كله محكماً فى قوله : (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) ^(١) بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعانى . ومتشابهاً فى قوله (كِتَابًا مُتَشَابِهًا) ^(٢) بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن، ويصدق بعضه بعضاً « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » أى ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » أى طلب الإيقاع فى الشبهات واللبس « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وحده « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » أى الثابتون المتمكنون مبتدأ خبره « يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » أى بالمتشابه على ما أراد الله تعالى « كُلُّ » من المحكم والمتشابه « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائفة . وهو تذييل سيق منه تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر .

تنبيه :

للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة . وأبدع ما رأيت فى تحرير هذا المقام مقالة سابعة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان . يقول فى خلاصها : المحكم فى القرآن ، تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله ، مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أو لا اتباعاً للظاهر من قوله : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ . فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ، ينبغى التفطن لها . وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل . فىكون فى مقابلته ما يلقى الشيطان . فالحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشئ ويحصل إيقانه ،

(١) [١١ / هود / ١] ونصها : آلر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

ولهذا دخل فيه معنى المنع ، كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه ، لاجميع معناه . وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحى . أو يقال (وهو أشبه) : السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فهو منسوخ في اصطلاح السلف . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في مسمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال : **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ^(١) . ومعلوم أن من سمع ، سمع النص الذى قدر رفع حكمه ، أو دلالة له ، فإنه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ ، فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رفع الحكم ، وبأن المراد . وعلى هذا التقدير ، فيصح أن يقال : التشابه المنسوخ . بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها ، حتى لا تشبه غيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل فى التشابه (لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله) ، وإنما قال : « **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** » وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع . فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا . على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجهور التابعين ، وجهابرة الأمة . ولكن لم ينف عنهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : **كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ^(٢) . وهذا يعم الآيات

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .**

(٢) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : **كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .**

المحكمات والآيات المتشابهات . وما لا يعقل له معنى لا يتدبر ، وقال : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ (١) . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . واللهُ ورسوله إنما ذم من اتبع التشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه . يبين ذلك أن التأويل ، قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يحيى بن أخطب وغيره من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصائبة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً . لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل ، بعد إسقاط المكرر . وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر . وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد نجران من تأويل (إنا ونحن) على أن الآلهة ثلاثة . لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل في الإيمان بالله . فأولئك تأولوا في اليوم الآخر . وهؤلاء تأولوا في الله . ومعلوم أن (إنا ونحن) من التشابه . فإنه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد الواحد العظيم نفسه ، الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى . فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع ، والأسماء المشتركة في اللفظ هي من التشابه ، وبعض المتواطئ أيضاً من التشابه . ويسمى أهل التفسير (الوجوه والنظائر) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر . فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً في الأسماء المشتركة ، فهي نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ،

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

و [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .

بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل : **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ^(١) . **إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى** ^(٢) . **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ** ^(٣) . **وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ^(٤) . **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ^(٥) . ويتبعون التشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار . فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف : إن السنة هي تأويل الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها ^(٦) : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفرلى . يتأول القرآن ، تعنى قوله : **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ^(٧) . وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع .

(١) [٢ / البقرة / ١٦٣] ونصها : **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : **إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى** .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] ونصها : **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ** .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢] ونصها : **الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ تَقْدِيرًا** .

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤٣] .

(٦) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٣٩ - باب التسبيح والدعاء في السجود .

(٧) [١١٠ / النصر / ٣] .

ليس تأويله فهم معناه ، وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع . وهذا معناه . قال الله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ^(١) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتميزه بحيث لا يشتبه ، ثم قال : هَلْ يَنْظُرُونَ ، أى ينتظرون ، إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله . إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجىء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها . كالدابة وبأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجىء ربك والملك صفا صفا ، وما فى الآخرة من الصحف والموازن والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك . فحينئذ يقولون : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله . فإن الله يقول : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ^(٢) . ويقول^(٣) : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمرًا ولبنًا وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع

(١) [٧ / الأعراف / ٥٣ و ٥٢] ونصهما : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٥ - باب قول الله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ . ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ، قال الله : أعددت .. الخ .

التشابه . كما في قوله : وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا^(١) على أحد القولين أى يشبه ما في الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها في الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكها لنا لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به ، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل في الإسلام ووافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضرورة لتفهم النعيم الروحاني ، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من مناقدة الملتين القرنين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته . وكان في هذا أيضاً متبهماً للتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا التشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المهود الذي يعلمونه في الدنيا ، قال الله تعالى : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ^(٢) ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . وقوله : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على التشابه . فإن

- (١) [٢ / البقرة / ٢٥] ونصها : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .
- (٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كان عائداً على الكتاب لقوله: منه. ومنه: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، فهذا يصح . فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به ، لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ^(١) . فجعل التأويل الجائي الكتاب الفصل ، وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدرأً ونوعاً وحقيقة إلا الله . وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا . وكذلك قوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . وإذا كان التأويل الكتاب كله والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ^(٢) . وكذلك قوله : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا^(٣) . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله . وهذا واضح بين ، ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها . فهذا هذا .

(١) انظر الهامش رقم ١ ص ٧٥٦ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيفٌ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٣] .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس ، فلا ن الخبر به من الوعد والوعيد متشابه ، بخلاف الأمر والنهي . ولهذا في الآثار : العمل بحكمه والإيمان بمتشابهه . لأن المقصود في الخبر الإيمان . وذلك لأن الخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه . بخلاف الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبّه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع . وأمور نتركها لا بد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ^(١) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه ، وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ^(٢) . فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ^(٣) لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله . كما تحداهم وطالبهم لما قال : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٤) ، فهذا تعجيز

(١) [١٠ / يونس / ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٧-٤٠] .

(٣) [١١ / هود / ١١٧] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٨] .

لجميع المخلوقين . قال تعالى : وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ^(١) ، أى مصدق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، أى مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس . ولما تحدى القائلين : افترأه ، ودل على أنهم هم المفترون ، قال : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله .

فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التام ، وإتيان التأويل نفس وقوع الخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين الخبر به . فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن . ومعرفة الخبر به هى معرفة تأويله . وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم .

إن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر به محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله . وبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : وَإِذَا قرأتَ القرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ^(٢) . فقد أخبر ، ذماً للمشركين ، أنه إذ قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوه في ذلك . وقوله : أَنْ يَفْقَهُوهُ . يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصرى : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا أنزلت وماذا عنى بها . وما استثنى من ذلك لامتشابهها ولا غيره . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٥ و ٤٦] .

أفقه عند كل آية وأسأله عنها. فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد من كان يقول: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، يجب مجاهداً عن كل آية في القرآن. وهذا هو الذي جعل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل. لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه. فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله. وأصل ذلك أن لفظ التأويل، وبه أشير إلى بين ماعناه الله في القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين. فبسبب الاشتراك في لفظ (التأويل) اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن.

ومجاهد إمام التفسير، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وأما التأويل فشأن آخر. وبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله وقال: هذه من التشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم. وإنما قد ينفون علم بعض ذلك على بعض الناس، وهذا لا ريب فيه، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك. فلقبوها، هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم؟ فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء. ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه. والغالب على كلتا الطائفتين الخطأ. أولئك يقصرون في فهمهم القرآن بمزلة من قيل فيه: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ^(١). وهؤلاء معتدون بمزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. ومن المتأخرين من وضع المسألة

(١) [٢ / البقرة / ٧٨] .

بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له ؛ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه . وبين نفى المعنى عند المتكلم ، ونفى الفهم عند المخاطب ، بون عظيم . ثم احتج بما لا يجرى على أصله ، فقال : هذا عبث ، والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع في الحروف ، وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صريح ، ولا عقل صحيح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطؤوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين ، لعلمهم بالقرآن والسنن ، وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب ، علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن . فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأوامر . وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء . وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر وفي آيات القدر ، ويتأولون آيات الصفات . وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات ، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر . وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان يغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه . والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن . ورأوا عجزاً وعبثاً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرؤونه ويتلونه وهم لا يفهمونه . وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطؤوا في معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفي التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك

مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ، ولكن بفرية على الله ، وقول عليه مالا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل . فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثه والتصوف ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والتأويل عليه وظيقتان : بياض احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه في مسائل الصفات ، إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ، ويترك عند المصلحة ، أو يصح للعلماء دون غيرهم ، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما - تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا - والله أعلم - هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . ومحمد بن جرير الطبرى يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا . واختلف أهل التأويل في هذه الآية . ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثانى - فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام . فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وبين هذا المعنى والذى قبله بون . فإن الذى قبله يكون التأويل

فيه من باب العلم ، والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح . ويكون وجود التأويل في القلب واللسان، له الوجود الذهني واللفظي والرمزي . وأما هذا، فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلية . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . وهذا الوضع والعرف . الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها ، وقد قدمنا التبيين في ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ^(١) . وقوله : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ* قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَا نَبَأُ تَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ^(٢) . وقول الملائكة: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ^(٣) . وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ^(٤) . وقول يوسف لما دخلوا عليه مصر وآوى إليه أبويه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ^(٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٦] ونصها : وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٣٦ و ٣٧] ... قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٩٩] ونصها : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ^(١) .

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تقول إليه، كما قال يوسف :
هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ^(١) . والعالم بتأويلها الذي يخبر به ، كما قال
يوسف : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ . أَى فِي الْمَنَامِ . إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ
يَأْتِيَكُمَا . أَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلُ . وقال الله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ^(٢)
قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة،
والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا ، والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن ،
وكذلك في سورة آل عمران . وقال تعالى في قصة موسى والعالم : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ^(٣) . إلى قوله : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ
أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ^(٤) . فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٠] ... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمُ
مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ،
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...

(٣) [١٨ / الكهف / ٧٨] .

(٤) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...

من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار . فهو تأويل عمل ، لا تأويل قول ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلاً ، مثل حوّل تحويلاً ، وعول تعويلاً . و (أول يؤول) تعديّة (آل يؤول أوّلاً) ، مثل حال يحول حوّلًا ، وقولهم (آل يؤول) أى عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المآل ، وهو ما يؤول إليه الشيء . ويشاركه في الاشتقاق الموثل ، فإنه وائل ، وهذا من أول ، والموثل المرجع ، قال تعالى : وَلَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل . كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون . بخلاف الأهل . والأول أفعل ، لأنهم قالوا في تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى ، وفي القصص : وله الحمد في الأولى والآخرة . ومن الناس من يقول فوعل ويقول (أوّل) إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف . سمي المتقدم أول - والله أعلم - لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحمر وحمراء ، ولهذا يقولون : جئته أول من أمس وقال : مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ^(١) . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(٢) . وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاْفِرٍ بِهِ^(٣) .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٨] ونصها : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] ونصها : وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاْفِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ .

ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذى فضل عليهم فى الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله ، فيعتمد عليه ، وهذا السابق ، كلهم يؤول إليه . فإن من تقدم فى فعل ، فاستبق به من بعده ، كان السابق الذى يؤول الكل إليه . فالأول له وصف السؤدد والاتباع . ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود . والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدى خلاف العائد . لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فإنه يقال (أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) ، و (أَوَّلُ يَوْمٍ) ، فما فيه من معنى الرجوع والعود ، هو للمضاف إليه لا للمضاف . وإذا قلنا: آل فلان فالعود فى المضاف . لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه ما لا ومرجعاً لغيره . لأن كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع . إذ لا فضل فى كون الشيء راجعاً إلى غيره ، آيلاً إليه ، وإنما الفضل فى كونه هو الذى يرجع إليه ويُوال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه ما لا ومرجعاً ، والتفضيل المطلق فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدى . والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله إليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام أو ماتأوله المتكلم . فإن التفعيل يجرى على غير فعل كقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً^(١) ، فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل . كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدهرم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . فالتأويل هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه . والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويؤول إلى حقيقته التى هى عين المقصود به ، كما قال بعض السلف فى قوله : لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٢) . قال : حقيقة . فإن كان خبراً فإلى الحقيقة الخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإلا لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً

(١) [٧٣ / الزمل / ٨] ونصها : وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٧] .

فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول. كما روى عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ ذُنَابًا مِنْ فَوْفِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا^(١). قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في التشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو التشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم ، وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول - من قال إن هذا من التشابه وأنه لا يفهم معناه . ما الدليل على ذلك ؟ فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من التشابه الداخل في هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم . ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه . وإنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة . قالوا في أحاديث الصفات : تمرّ كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردّها وأبطالوها . التي مضمونها تعطيل النصوص على مادلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطون تأويلات الجهمية ، ويقررون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات : تمرّ كما جاءت في

(١) [٦ / الأنعام / ٦٥] ... وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

أحاديث الوعد . مثل : من غشنا فليس منا^(١) . وأحاديث الفضائل . ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلًا ، بالعرف التأخير . فتأويل هؤلاء التأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد في كتاب الرد على الزنادقة الجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن . وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعمدون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره . بل يبين ويفسر . فاتفق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين ، والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل : إن هذا هو التأويل المذكور في الآية ، وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلًا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله . وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردّها ، لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني . لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمي نفسه في القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزیز والجبار والعليم والقدير والرؤوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، و : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، و : إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، و : الْمُقْسِطِينَ ، و : الْمُحْسِنِينَ ، وأنه : يَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٦٤ ونصه : عن أبي هريرة أن

رسول الله ﷺ قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

و: لَمَّا اسْتَفُونَا اِنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَاعْرِفْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ^(١). ذَٰلِكَ بِاَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ^(٢). وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ^(٣). الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى^(٤). ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ^(٥). يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ^(٦). وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٧). إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^(٨). إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ^(٩).

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٨] ونصها : ذَٰلِكَ بِاَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

(٣) [٩ / التوبة / ٤٦] ونصها : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٦) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٧) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] .

(٨) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ .

(٩) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ^(١) . مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ^(٢) .
بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ^(٣) . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٤) .
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^(٥) . وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي^(٦) . إلى أمثال ذلك . فيقال لمن ادعى في هذا أنه
متشابه لا يعلم معناه : أقول هذا في جميع ما سمي الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟ فإن
قلت هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ،
بل كفر صريح . فإننا نفهم من قوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معنى . ونفهم من قوله :

- (١) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .
(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ
بِيدَيَّ ، اُسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .
(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ هُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَالْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، وَلَيَسَّوُنَ فِي الْأَرْضِ فسادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ .

- (٤) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .
(٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] ونصها : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا
تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .
(٦) [٢٠ طه / ٣٩] ونصها : أَنْ أَقْدِفَ فِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفَ فِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ
عَلَى عَيْنِي .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ^(١) . معنى . ونفهم من قوله : إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ^(٢) ، معنى . وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا .

وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب مع اتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الرحيم العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ . يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم . وهذا الغلو في الظاهر ، من جنس غلو القرامطة في الباطن . لكن هذا أليس وذاك أ كفر .

ثم يقال لهذا الماعند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، أو على حق موجود ، أم لا؟ فإن قال : لا ، كان معطلاً محضاً . وما أعلم مسلماً يقول هذا . وإن قال : نعم قيل له : فهل فهمت منها دلالتها على نفس الرب ، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم ، وكلاهما في الدلالة سواء؟ فلا بد أن يقول : لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث . بخلاف الذات . فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سندكره . وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض . فيقال له : ما الفرق بين ما أثبتته وبين ما نفيتة أو سكنت عن إثباته ونفيه؟ فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة ، بخلاف الآخر . أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] ونصها : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعْدَهُ رُسُلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .

باطل في أكثر المواضع ، أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحن رحيم ودود سميع بصير على عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته . وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر : لم نفيت ، مثلاً ، حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه . قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه . وكذلك محبته . وإن قال (وهو حقيقة قوله) : لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل . وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين . لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم . والتخصيص دل على الإرادة . قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها - أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإيداء . وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص ، وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

الثاني - يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا ، فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفي به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضائق أعظم ، ودلالته أتم ، فلا شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة ؟ مع أن النصوص تفرق . فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها في إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث - يقال له : إذا قال لك الجهمي : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة . فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم . ولا يقولون بتجدد صفة له ، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم . مع تناقضهم .

فصاروا حزينين :

البغداديون - وهم أشد غلوًا في البدعة في الصفات وفي القدر ، نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي : لا معنى لها إلا نفس الفعل ، إذا تعلق بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلق بطاعة عباده .

البصريون - كأبي عليّ وأبي هاشم . قالوا : تحدث إرادة لافي محل ، فلا إرادة . فالتزموا حدوث حدث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقل معلوم الفساد بالبديهية . كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها ، والفعل أيضاً . فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو العقل ، جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بهم أثبتتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني ، وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب مقررناه في غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويُلزِمُون بوجود الرب الخالق المعلوم بالضرورة العقلية ، والضرورة العقلية ، والقواطع العقلية ، واتفاق الأمم ، وغير ذلك من الدلائل . ثم يطالبون بوجود من جنس مانعهده ، أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول في سائر ما سمي ووصف به نفسه ، كالقول في نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة ، لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى ، وانتفاء المانع . وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتضى ولا مانع ، فيُبين له أن المقتضى فيما نفاء قائم ، كما أنه فيما أثبتته قائم . إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقاً ، فكذلك هنا . وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا . وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاء من جنس المانع الذى تخيله فيما أثبتته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهاً ، وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى ، ولا سبيل إلى النفى فتعين الإثبات . فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة .

فإن قال مَنْ أثبت هذه الصفات التى هى فىنا أعراض كالْحياة والعلم والقدرة ، ولم يثبت ما هو فيها أبعاد كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاد تستلزم التركيب والتجسيم . قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسى . فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاداً أو تسميتها تركيباً وأبعاداً لا يمنع ثبوتها .

فإن قال : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض . فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية ، قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال . ففارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .
 فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز ، وإن لم يكن له في الشاهد نظير ،
 قيل له : فاعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له في الشاهد نظير . فإن نفى عقل
 هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق ، لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع .
 ولهذا كانت العطفة الجهمية تنفي الجميع لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفي الذات ، ومن أثبت هذه
 الصفات الخبرية من نظير هؤلاء ، صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس
 هو معقول النص ، ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست في الكتاب ولا في السنة ، وهي ألفاظ مجملة . مثل
 متحيز ومحدد وجسم ومركب ، ونحو ذلك ، ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم
 مسلمة ، ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في إثبات
 حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء ، فوجب
 طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك
 لمعارض راجح ، فأروا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية
 أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يفتلون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة
 يفتلون القياس الثاني ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضي ، فإنه قد قيل : أول ما
 تُكلم في الجسم نفيًا وإثباتًا من زمن هشام بن الحكم وأبي الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل
 ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس وعارضهم هشام وأثبت الجسم
 لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون
 بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة
 إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من

عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^(١) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه . ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى . فهذا أحد الوجهين . وهو منع أن تكون هذه من التشابه .

الوجه الثاني : أنه إذا قيل هذه من التشابه ، أو كان فيها ما هو من التشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمي بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، إما التشابه ، وإما الكتاب كله كما تقدم . ونفى علم تأويله ليس نفي علم معناه كما قدمناه

في القيامة وأمور القيامة . وهذا الوجه قوى إن ثبت حديث ابن إسحق في وفد نجران ، أنهم احتجوا على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إنا ونحن » ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً ، وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك في مسائل المعاد وأولى ، فإن نفي التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفي التشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا ، وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفي علم التأويل ليس نفيًا لعلم المعنى ، وزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ^(٢) وقال

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ

غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٧ و ٢٨] .

تعالى : آلَ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ^(١) فَأَخْبِرْ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ لِيَعْقِلُوهُ ، وَأَنَّهُ طَلَبَ تَذَكُّرَهُمْ . وَقَالَ أَيْضًا : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ^(٢) فحُضِّضَ عَلَى تَدْبِيرِهِ وَفَقَّهَهُ وَعَقَلَهُ وَالتَّذَكُّرَ بِهِ وَالتَّفَكُّيرَ فِيهِ ، وَلَمْ يَسْتَنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا . بَلْ نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه ، مثل قوله : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ^(٣) وقوله : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ^(٤) ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر . وقال على عليه السلام ^(٥) لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا ! والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ،

(١) [١٢ / يوسف / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٢١] وأولها : لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ،

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] .

(٤) [٤ / النساء / ٨٢] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٢٤ - باب العاقلة . ونصه :

عن أبي جُحَيْفَةَ قَالَ : سَأَلْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ؟ (وَقَالَ مَرَّةً : لَيْسَ عِنْدَ النَّاسِ) فَقَالَ : وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ! مَا عِنْدُنَا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ ، إِلَّا فَهْمًا يُعْطَى رَجُلًا فِي كِتَابِهِ . وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ . قُلْتُ : وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ ؟ قَالَ : الْعَقْلُ ، وَفِكَائِكَ الْأَسِيرِ ، وَأَنْ لَا يَقْتُلَ مُسْلِمٌ بَكَافِرٍ .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا^(١) . وقال النبي ﷺ^(٢) : رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال^(٣) : بلغوا عني ولو آية . وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ، آيات الصفات وغيرها . وفسروها بما يوافق دلالتها . ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن . وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم ، مثل عبد الله ابن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أعلم بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأتيته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧٩] ونصها : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٣٢ - باب الخطبة أيام منى . ونصه : عن أبي بكرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر . قال « أتدرون أى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال « أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال « أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى . قال « فإن دماءكم وأموالكم على حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم . ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم ! اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلغ أوعى من سامع . فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل

ونصه :

عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، كاناها وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السידين ، بل وثالثهما في عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلاله ، أصحاب زيد بن ثابت ، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر ، وابن عمر ، وابن عباس . ولو كان معاني هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه، لم يكن ربانيّو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه . ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل . وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية . كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك ربيعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول . فليس في أهل السنة من ينكره . وقد بين أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟ ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون : لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجرى ماهيته في مقال . ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية . فإن قيل : معنى قوله (الاستواء معلوم) أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه ، قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا

من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن ، وقد تلا الآية ، وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء في القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة . وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء ، لا العلم بنفس الاستواء ، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه . لو قال في قوله : إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى^(١) ، كيف يسمع وكيف يرى ؟ قلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول . ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ قلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم . وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرّون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من التشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية . ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى . وهذه ثابتة عن السلف . وقد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخره ، في (كتاب الرد على الجهمية)^(٢) .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك ، فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضاً قد ثبت أن اتباع التشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري^(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٤٦] وأولها : قَالَ لَا تَخَافَا ،

(٢) كتاب الرد على الجهمية من صحيح البخاري هو : ٩٧ - كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١ - باب مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : هُوَ الَّذِي أُنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ =

أن النبي ﷺ قال لعائشة : يا عائشة ! إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابهه منه ، فأولئك الذين سمي الله ، فاحذريهم ، وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا^(١) ، فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن ، حتى رآه عمر ، فسأل عمر عن : الدَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا^(٢) فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألحَّ عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول : ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام^(٣) : إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابهه منه . وكما قال تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، فعاقبهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن . وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال^(٤) : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم

= زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ - إلى قوله : أُولُوا الْأَلْبَابِ . قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي سمي الله فاحذروهم » .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٩٩ من الجزء الأول ، ففيها تفصيل ذلك .

(٢) [٥١ / الداريات / ١] .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٧٨١ .

(٤) أخرجه ابن ماجة في : المقدمة ، ١٠ - باب في القدر ، حديث ٨٥ (طبعنا) ونصه :

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يفتقأ في وجهه حب الرمان ، من الغضب . فقال « بهذا أُمِرتم أو لهذا خُلِقتُم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلك الأمم قبلكم » .

قال فقال عبد الله بن عمرو : ما غبظت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ =

ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ، ومطلوبهم متعذراً ، مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها^(١) . ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات . وقد تكلم الصحابة في تفسيرها مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سألها عنها ، كره سؤاله ، لما رآه من قصده . لكن علي كان رعيته ملتوية عليه ، لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس في اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر . وكذلك في الجاريات والقسمات ، فهذا لا يعلمه إلا الله تعالى . وكذلك في قوله « إنا ونحن » ونحوها من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعته النصراني ، فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني بمنزلة الأسماء المتعددة ، مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى واحد ، ومعاني الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع . وأما التأويل الذي اختص الله به ، فحقيقة ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل : هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

= ما غبطت نفسى بذلك المجلس وتخلقى عنه .

قال في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي)

ونصه :

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات .

قال الأوزاعي : الغلوطات شداد المسائل وصعابها .

فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس^(١) : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله . وهذا كقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ^(٢) وقوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ^(٣) فإن المراد تأويل الخبر الذي فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي ينتظر ويأتي ، ولما يأتهم . وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعن مضي إن أدخل في التأويل لا ينتظر ، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق . انتهى كلام الشيخ تقي الدين . وإنما سقته بطوله لما أن هذا البحث من المارك المهمة التي قل من حررها ونهج فيها منهج الحق كالشيخ قدس سره . مع ما في خلال البحث من القواعد الجلية في فن التفسير . فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(١) أخرجه ابن ماجة في : المقدمة ، ١١ - باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ١٦٦ (طبعنا) ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ . وقال « اللهم ! علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٣) [١٠ / يونس / ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

وقال الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني في كتاب « إيثار الحق على الخلق »
 في بحث سبب الاختلاف الشديد بين الفرق مانصه :
 وأما الأصل الثاني وهو السميّ فهو اختلافهم في أمرين :
أحدهما - في معرفة الحكم والمتشابه أنفسهما والتمييز بينهما حتى يردّ التشابه إلى المحكم ،
وثانيهما - اختلافهم هل يعلمون تأويل المتشابه ، ثم اختلافهم في تأويله على تسليم أنهم
 قد عرفوا المتشابه .

ولنذكر سبب وقوع التشابه على العقول من حيث الحكمة والدقة في كتب الله تعالى أولاً ،
 والمشهور أن سببه الابتلاء بالزيادة في مشقة التكليف لتعظيم الثواب ، وهذا أنسب بالتشابه
 من حيث اللفظ . وأما أنا فوقع لي أن سببه زيادة علم الله على علم الخلق ، فإن العوائد
 التجريبية ، والأدلة السمعية ، دلت على امتناع الاتفاق في تفاصيل الحكم ، وتفاصيل التحسين
 والتقبيح ، ولذلك وقع الاختلاف بين أهل العصمة من الملائكة والأنبياء ، كما قال تعالى
 حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ
 يَخْتَصِمُونَ ^(١) وحكي الله تعالى اختلاف سليمان وداود ، وموسى وهرون ، وموسى
 والخضر . وصح في الحديث ^(٢) اختلاف موسى وآدم ، واختلاف الملائكة في حكم قاتل

(١) [٣٨ / ص / ٦٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣١ - باب وفاة موسى وذكره بعد ،

حديث ١٦٠٤ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت
 آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته
 وبكلامه ثم تلوّمني على أمرٍ قدّر عليّ قبل أن أخلق ؟ » فقال رسول الله ﷺ « فخرج آدم
 موسى » مرتين .

الملة نفس^(١) ، إلى أمثال لذلك قد أفردتها لبيان امتناع الاتفاق في نحو ذلك ، وإن علة الاختلاف التفاصيل في العلم ، فوجب من ذلك أن يكون في أحكام الله تعالى وحكمه ما تستبجحه عقول البشر ، لأن الله تعالى لو ماثلنا في جميع الأحكام والحكم دل على مماثلته لنا في العلم المتعلق بذلك وفي مؤداه ولطائفه وأصوله وفروعه ، ولذلك تجد الأمثال والنظراء في العلوم أقل اختلافاً ، خصوصاً من المقلدين . وإنما عظم الاختلاف بين الخضر وموسى لما خص به الخضر عليهما السلام . وهذه فائدة نفيسة جداً ، وبها يكون ورود التشابه أدل على الله تعالى وعلى صدق أنبيائه ، لأن الكذابين إنما يأتون بما يوافق الطباع ، كما هو دين القرامطة والزنادقة . وقد أشار السمع إلى ذلك بقوله تعالى : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^(٢) . وقال في رسول الله ﷺ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ^(٣) . وكيف يستنكر اختلاف الإنسان الظلوم الجهول وعلام الغيوب الذي جمع معارف

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ،

حديث ١٦٢٩ ونصه :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً . ثم خرج يسأل . فأتى راهباً فسأله . فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا . فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدرة نحوها . فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه : أن تقرّبي . وأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقرب بشبر . فغفر له . »

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١] ونصها : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .

(٣) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ =

العارفين في علمه مثل ما أخذ العصفور في منقاره من البحر الأعظم ؟ بل كيف لا يختص هذا الرب الأعظم بمعرفة ما لا نعرفه من الحكم اللطيفة التي يستلزم تفرد بمعرفتها أن يتفرد بمعرفة حسن ما تعلقت به وتأويله ، وبهذا ينشرح صدر العارف للإيمان بالمتشابه ، والإيمان بالغيب في تأويله . ولنذكر بعد هذا كل واحد من الأمرين المقدم ذكرهما على الإيجاز .

أما الأمر الأول - وهو اختلافهم في ماهيتهما . فمنهم من قال : المحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى . فهؤلاء رجعوا بالمحكم إلى النص الجلي ، وما عداه متشابه . وعزاه الإمام يحيى إلى أكثر المتكلمين وطوائف من الحشوية . ومنهم من قال : المحكم ما كان إلى معرفته سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى معرفته بحال ، نحو قيام الساعة والحكمة في العدد المخصوص في حملة العرش ، وخزنة النار . ومنهم من قصر التشابه على آيات مخصوصة . ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : هي الحروف القطعة في أوائل السور ، ومنهم من قال آيات الشقاوة والسعادة ، ومنهم من قال : المنسوخ ، ومنهم من قال : القصص والأمثال ، ومنهم عكس فقال : المحكم آيات مخصوصة ، وهي آيات الحلال والحرام وما عداها متشابه ، إلى غير ذلك - حكى الجميع الإمام يحيى في (الحاوي) - واختار أن المحكم ما علم المراد بظاهره بدليل عقلي أو نقلي ، والمتشابه به ما لم يعلم المراد منه لا على قرب ولا على بعد ، مثل قيام الساعة والأعداد المبهمة . وقد ترك الإمام والشيخ ابن تيمية وجهاً آخر من التشابه الذي يحتاج إلى التأويل مما لا يعلمه إلا الله على الصحيح ، وذلك وجه المحكم المعينة فيما لا تعرف العقول وجه حسنه ، مثل خلق أهل النار ، وترجيح عذابهم على العفو مع سبق العلم وسعة الرحمة وكمال القدرة على كل شيء ، والدليل على أن الحكمة الخفية فيه تسمى تأويلاً له ، ما ذكره الله تعالى في قصة موسى والخضر ، فإن قوله : سَأَنْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا كَمْ

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا^(١) صريح في ذلك ، وهذا مراد في الآية ، لأن الله وصف الذين في قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك ، وهم لا يبتغون علم العاقبة ، عاقبة الخبر عن الوعد والوعيد ، وما يؤول إليه ، على ما فسرہ الشيخ ، فهم لا يبتغون الجنة والنار والقيامة وذات الرب سبحانه كما يبغيها طالب العيان ، إنما يستقبحون شيئاً من الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معاني كثيرة يختلفون فيها ، وكل منهم يتفرد بمعنى من غير حجة صحيحة إلا مجرد الاحتمال ، وربما خالف ذلك التأويلُ المعلوم من النشروع فتأولوه ، وربما استلزم الوقوع في أعظم مما فروا منه ، والذي وضع لي في هذا وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمور :

أحدها - أن الكلام في ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة على حد علم الله ، كلاهما باطل ، بل من التشابه الممنوع الذي لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا^(٢) ولقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^(٣) وإنما تُتَصَوَّرُ المخلوقات وما هو نحوها . ولما روى من النهى عن التفكير في ذات الله ، والأمر في التفكير في آلاء الله ، ولما اشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن ذلك مذهبه ، حتى رواه عنه الخصوم . ومن أشهر ما حفظ عنه عليه السلام في ذلك قوله في امتناع معرفة الله عز وجل على العقول : امتنع منها بها ، وإليها حاكمها . ومن التفكير في الله والتحكم فيه والدعوى الباطلة على العقول والتسكف

(١) [١٨ / الكهف / ٧٦] وأولها : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذَرُوكُم فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

لتعريفها مالا تعرفه ، حدثت هنا البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وأسمائه . ومن البدع في هذا الوضع بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضاً ، فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والأسماء . الجميع ، ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية . ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض . فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أتوا من تعاطى علم ما لا يعلمون . ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الإيمان بما ورد من غير تشبيه لسلّموا . فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم ادعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير مظانه ، بل طلبوا علم مالا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضاً في الأدلة السمعية . فالشبهة ينسبون خصومهم إلى رد آيات الصفات ويدعون فيها ما ليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الإسلام جميعاً إلى التشبيه ، ويدعون في تفسيره مالا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصاح الآثار . وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه بإسناده من حديث زيد بن أسلم أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة فقال : يا أمير المؤمنين ! هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟ فغضب عليه السلام ونادى (الصلاة جامعة) فحمد الله وأثنى عليه إلى قوله : فكيف يوصف الذي عجزت الملائكة مع قربهم من كرسى كرامته ، وطول وطهرهم إليه ، وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس كلهم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(١) . فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدّمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأتم به واستضي بنور هدايته ، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها . فخذ مأوتيت وكن من الشاكرين ، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ،

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] .

ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك . وقد روى السيد في الأملى أيضاً الحديث المشهور في كتاب الترمذى عن على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ^(١) : ستكون فتنة ! قات : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، فهو الفاصل بين الحق والباطل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله إلى قوله : من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . ورواه في أماليه بسند آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٤ - باب ما جاء في فضل القرآن ، ونصه : عن الحارث قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث . فدخلت على عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما إنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إنها تكون فتنة » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

خذها إليك يا أعور !

(قال أبو عيسى) هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي

الحارث مقال .

ورواه ابن الأثير في (الجامع) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول ، ولكن المبتدعة يرون تصانيفهم أهدى منه ، لبيانهم فيها ، على زعمهم ، المحكم من التشابه . ففهم من صرح بذلك وقال : إن كلامه أنفع من كلام الله تعالى ، وكتبه أهدى من كتب الله ، وهم الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العناني . وقد حملة الإمام المطهر بن يحيى على الجنون ، وقيل : لم يصح عنه . ومنهم من يلزمه ذلك وإن لم يصرح به . فهذا الأمر الأول من التشابه وهو التحكم بالنظر في ذات الله تعالى . وما يؤدي إليه .

الأمر الثاني - من التشابه الواضح تشابهه والمنع منه ، هو النظر في سر القدر السابق في الشرور مع عظيم رحمة الله تعالى وقدرته على ما يشاء . وقد ثبت في كتاب الله تعالى تحير الملائكة الكرام عليهم السلام في ذلك وسؤالهم عنه بقولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(١) ثم ساق خبر آدم وتعليمه الأسماء وتفصيله في ذلك عليهم إلى قوله : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ^(٢) وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما سيأتى بيانه من أن مراد الله بالخلق هم أهل الخير ، فالخلق كلهم كالشجرة ، وأهل الخير ثمرة تلك الشجرة ، وإليه الإشارة بقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ^(٣) وفي حديث الخليل عليه السلام حين دعا على العصاة ، قال

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] وأولها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، ...

(٢) [٢ / البقرة / ٣٣] وأولها : قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ ...

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

الله: كفَّ عن عبادي. إن مصير عبدي مني إحدى ثلاث : إما أن يتوب فأَتوب عليه ، أو يستغفرني فأغفر له ، أو أخرج من صلبه من يعبدني - رواه الطبراني - .

وقال الإمام الغزالي في كتاب العلم في (الإحياء) في أقسام العلوم الباطنة : ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرًا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش وكما يضر ريح الورد بالجمل . وكيف يبعد هذا ، وقولنا : إن كل شيء بقضاء من الله وقدر - حق في نفسه ، وقد أضر سماعه بقوم حيث أُوهم ذلك عندهم دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة ، والرضا بالقبيح والظلم . وأحد ابن الراوندي وطائفة من المخدولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى أُوهم عند أكثر الخلق عجزًا ، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم . وقال في شرح (أسماء الله الحسنى) في شرح الرحمن الرحيم : والآل إن خطر لك نوع من الشر لا ترى فيه خيراً ، أو إن تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فاتهم عقلك القاصر في كلا الطرفين ، فإنك مثل أم الصبي التي ترى الحجامه شرًّا محضاً ، والغبي الذي يرى القصاص شرًّا محضاً ، لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول ، وأنه في حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدري أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، لا ينبغي لحكيم أن يهمله . هذا أو قريب من هذا . وفي بعض كلامه نظر قد أوضحت في (العواصم) والسر في ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرًا قطعاً ، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال : **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ** (١) ، وكما صح في الحدود والمصائب أنها كفارات ، فهذا هو سر القدر في الجملة ، وإنما الذي خفي تفصيله ومعرفته في عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء ، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنى التحسين والتقييح ، فصرحوا بنى حكمة الله تعالى ، وهم غلاة الأشعرية ، إلا بمعنى إحكام المصنوعات في تصويرها لا سواء ، ومن الناس من أداه ذلك إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

القول بالجبر ، ونفى قدرة العباد واختيارهم ، ومنهم من جمع بينهما . ومن الناس من جعل الوجه في تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم ، وهم جمهور المعتزلة ، لكنهم يعتدرون عن تسميته عجراً ، ويسمون غير مقدور . ومنهم من جعل العذر في ذلك أن الله لا يعلم الغيب ، وهم غلاة القدريّة ، نفاة الأقدار . وقد تقصيت الردود الواضحة عليهم ، والبراهين الفاضحة لهم في (العواصم) ، وجمعت في ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه ، في علمي . فتمت هذه المسألة في مجلد ضخيم ، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدّر اثنين وسبعين ، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين ، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثاً من غير الآيات القرآنية ، والأدلة البرهانية . وصنف ابن تيمية في بيان الحكمة في العذاب الأخرى ، وتبعه تلميذه ابن قيم الجوزية ، وبسط ذلك في كتابه (حادى الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك في جزء لطيف ، وزدت عليه . ومضمون كلامهم أنه لا يجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لكونه شراً ، بل لابد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه ، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى . وطرّدوا ذلك في شرو الدارين معاً . ونصر ذلك الغزاليّ في شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد في ذلك حديثاً واحداً ، مما يدل على المنع من الخوض في تعيين الحكمة في ذلك فنقول : قال البيهقيّ في كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس : لما بعث الله موسى وكله قال : اللهم! أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت في ذلك تعصى ، فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه أنى لا أسأل عما أفعل ، وهم يسألون . فأنتهى موسى .

ورواه الهيثميّ في مجمع الزوائد ، وعزاه إلى الطبرانيّ ، وزاد فيه : فلما بعث الله عزيراً سأل الله مثل ما سأل موسى ، ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرّ صرّة من الشمس ؟ قال : لا . قال : أتستطيع أن تجيء بمكيال من الريح ؟ قال : لا . قال : أتستطيع

أن تجيء بمثقال أو بغيرا من نور ؟ قال : لا . قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . أما أنى لا أجعل عقوبتك إلا أنى أحو اسمك من الأنبياء ، فلا تذكر فيهم . فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته سأل عن ذلك ، كموسى . وأجيب عليه بمثل ذلك ، وقال الله تعالى : لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، فجمع عيسى من معه فقال : القدر سر الله تعالى فلا تكلفوه .

وروى الطبراني عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر؟ فقال: وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر في شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد تحيراً . قلت : ويشهد لهذه الآيات ما جاء في كتاب الله من قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا^(١) . والجواب الجلى عليهم كما مر . وأما أحاديث النهي عن الخوض في القدر فعشرة أحاديث ، رجال بعضها ثقات ، وبعضها شواهد لبعض ، كما أوضحته في (العواصم) وأقل من هذا مع شهادة القرآن والبرهان لذلك ، يكفي المنصف . وما حدث بسبب الخوض من الضلالات زيادة عبرة وحيرة .

الأمر الثالث - من التشابه : الحروف المقطعة أوائل السور ، فإن الجهل بالمراد بها معلوم ، كالآلَم والصحة . والفرق بينها وبين أقيموا الصلاة ، ونحو ذلك ضرورى . ودعوى التمكن من معرفة معانيها تستلزم جواز أن ينزل الله سورة كلها كذلك أو كتاباً من كتبه الكريمة ، ويستلزم جواز أن يتخاطب العقلاء بمثل ذلك ، ويلوموا من طلب منهم بيان مقاصدهم ، ونحو ذلك . وهذا هو اختيار زيد بن علي عليه السلام ، والقاسم والهادى عليهما السلام ، وهو نص في تفسيرها المجموع . وكذلك الإمام يحيى عليه السلام ، ذكره في (الحاوى) وقولهم :

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنا مخاطبون بها فيجب أن نفهمها - مقاب . وصوابه : أن لا نفهمها فيجب أن لا نكون
مخاطبين بفهمها . وقد ذكرت في الحجة على أنها غير معلومة أكثر من عشرين حجة
في تكميلة ترجيح أساليب القرآن .

الأمر الرابع - من التشابه : المجل الذي لا يظهر معناه بعلم ولا ظن ، سواء كان بسبب
الاشتراك في معناه ، أو لغزابه ، أو عدم صحة تفسيره في اللغة والشرع ، أو غير ذلك . فقد
وقع الوهم في المجل لنوح عليه السلام ، كيف لغيره ؟ وذلك قوله : إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ
وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ^(١) .
وأما المحكم فهو ما عدا التشابه ، وغالبه النص الجلي ، والظاهر الذي لم يعارض ،
والمفهوم الصحيح الذي لم يعارض ، والخاص والمقيد وإن عارضهما العام والمطلق . ويلحق
بهذا فوائد .

الأولى - الصحيح في قوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » الوقف على الله ، بدليل
ذم مبتغى تأويل التشابه في الآية . وهو اختيار الإمام يحيى في (الحاوى) واحتج بأن «أما»
للتفصيل على بابها ، والتقدير و «أما الراسخون» بدليل قوله تعالى « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » كما تقول : أما زيد فعالم وعمرئو جاهل ، أى وأما عمرو فجاهل ، يوضحه أن
المخالف مسلم أن هذا هو الظاهر منها ، لكنه يقول : إنه يجب تأويلها على أن المراد ذمهم
بابتغاء تأويله الباطل ، فيقيد إطلاق الآية بغير حجة ، ويجعلها من التشابه ، مع أنها الفارقة
بين المحكم والتشابه ، وهذا خلف .

(١) [١١ / هود / ٤٥ و ٤٦] ونصهما : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ
أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ،
إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ .

وقد روى الحاكم عن ابن عباس أنه قرأ « ويقول الراسخون » وقال : صحيح . ورواه الزمخشري في كشفه قراءة عن أبي وغيره ، ورواه الإمام أبو طالب في أماليه عن علي عليه السلام . ولم يتأوله ولم يطعن فيه ، وهو في (النهج) أيضاً ، وهو نص لا يمكن تأويله ، فإن لفظه عليه السلام : اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق ، فيما لم يكلفهم البحث عنه ، رسوخاً . فاقصر على ذلك . انتهى بحروفه .

وأيضاً فلا يجب علم جميع المكلفين بذلك عند الخصوم ، إذ في المتكلفين الأئمة والعجمي ونحوهم . وإذا كان علم البعض يكفي ويخرج الخطاب بذلك عن العبث ، جاز أن يكون ذلك البعض هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن شاء الله من ملائكته وخواص عباد . والله سبحانه أعلم .

الفائدة الثانية - إذا تعارض العام والخاص ، فالحكم هو الخاص والبناء عليه واجب ، وفيه الجمع بينهما ، وفي العكس طرح الخاص مع رجحانه بالنصوصية . وهي قاعدة كبيرة فاحفظها . ولا خلاف فيها في الاعتقاد ، لعدم القاعدة في التاريخ فيه ، ولذلك أجمعوا على إثبات الخلة للمتقين ، وتأويل نفي الخلة المطلق ، فتأمل ذلك .

الفائدة الثالثة - إذا كان التحسين العقلي مع بعض السمع فهو المحكم ، والمتشابه مخالفه ، لما وضع من تأويل الخضر بموافقة العقل ، وفي مخالفة هذه القاعدة عناد بين وضلال كبير ، فاعرفها واعتبر مواضعها ترشده . إن شاء الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ،

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » من مقال الراسخين ، أى لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمنا عليه ، ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم « وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » ثبت بها قلوبنا « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » كثير النعم والإفضال ، جزيل العطايا والنوال . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبلة تعالى . وعن عائشة رضى الله عنها^(١) قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قلت : يا رسول الله ! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه - وهو فى الصحيح والسنن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » وهذا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٩ - باب حدثنا أبو موسى الأنصارى ونصه : عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ، أم المؤمنين : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : قلت يا رسول الله ! ما أكثر دعائك : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ! قال « يا أم سلمة ! ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ (أحد رجال السند) : رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .

من تنمة كلام الراسخين في العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيف، وأن يخصهم بالهداية والرحمة ، فكأنهم قالوا : ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا ، فإنها منقضية منقرضة . وإنما الغرض الأعظم منه ، ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآل . فإننا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزء في يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفاً ، فمن زاع قلبه بقي هناك في العذاب أبداً، ومن منحتة الرحمة والهداية بقي هناك في السعادة والكرامة أبداً. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ، ما يتعلق بالآخرة - أفاده الرازي - ثم قال : احتج الجبائي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال : وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد بدليل قوله تعالى : **أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** ^(١). والوعد والموعود والميعاد واحد. وقد أخبر في هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد. فكان هذا دليلاً على أنه لا يخلف في الوعيد . والجواب : لانسلم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقاً ، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد. أما قوله تعالى : **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** . قلنا : لم لا يجوز أن يكون ذلك ، كما في قوله : **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ^(٢).

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] ونصها : **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَاذْنِ مُؤَدِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** . و [٩ / التوبة / ٣٤] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَا كُفَرَاءٌ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ =**

وقوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(١) . وأيضاً لم لا يجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله ، فكان المراد من الوعد تلك المنافع .
وذكر الواحدى فى (البسيط) طريقة أخرى فقال : لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء ، دون وعيد الأعداء ، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب . قال : والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك ، قال الشاعر :

إذا وعد السراء أنجز وعده وإن أوعد الضراء فالعفو مانعه
وروى المناظرة التى دارت بين أبى عمرو بن العلاء ، وبين عمرو بن عبيد . قال أبو عمرو ابن العلاء لعمرو بن عبيد : ما تقول فى أحباب الكبراء ؟ قال : أقول إن الله وعدوعداً وأوعد إيعاداً ، فهو منجز إيعاده كما هو منجز وعده ، فقال أبو عمرو بن العلاء : إنك رجل أعجم ، لا أقول أعجم اللسان ، ولكن أعجم القلب . إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرمًا ، وأنشد :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لكذب إيعادى ومنجز موعدى
واعلم أن المعتزلة حكوا أن أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام ، قال له عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ؟ فهل يسمى الله مكذب نفسه ؟ فقال : لا ، فقال عمرو بن عبيد فقد سقطت حجبتك ، قالوا : فانقطع عمرو بن العلاء .

وعندى أنه كان لأبى عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول : إنك قست الوعيد على الوعد ، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البايين ، وذلك لأن الوعد حق عليه ، والوعيد حق له ، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجوذ والكرم ، ومن أسقط حق غيره

= الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٤] .

(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

فذلك هو اللؤم ، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد ، وبطل قياسك . وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق . فأما قولك : لو لم يفعل لصار كاذباً ومكذباً نفسه ، فجوابه أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزماً من غير شرط ، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو ، فلا يلزم من تركه دخول الكذب فى كلام الله تعالى . فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ » التى يبدلونها فى جلب المنافع ودفع المضار « وَلَا أَوْلَادُهُمْ » الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة « مِنَ اللَّهِ » أى من عذابه تعالى « شَيْئًا » من الإغناء ، أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه . يقال : ما أغنى فلان شيئاً ، أى لم ينفع فى مهم ، ولم يكف مؤنة . ورجل مغن أى مجزى كاف - قاله الأزهري . ونظير هذه الآية قوله تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ^(١) « وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » بفتح الواو أى حطبها ، وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها ، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد ، والفتح للحطب . وقال الزجاج : المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح . وهذا كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ^(٢) » .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٨ و ٨٩] .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَذَّابِ ٱلْـٔٱلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

« كَذَّابِ ٱلْـٔٱلِ فِرْعَوْنَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى دأب هؤلاء في الكفر كذاب آل فرعون . والدأب (بالسكون ، ويحرك) مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه ، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله ، مجازاً . يقال : هذا دأبك أى شأنك وعملك ، قال الأزهري عن الزجاج في هذه الآية : أى كأمر آل فرعون ، كذا قال أهل اللغة . قال الأزهري : والقول عندى فيه - والله أعلم - أن دأبهم هنا اجتهدهم في كفرهم وتظاهروا على النبي ﷺ ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ؛ يقال : دأبت أدأب دأباً ودؤوباً إذا اجتهدت في الشيء - انتهى - قال أبو البقاء : وفي ذلك تخويف لهم لعلمهم بما حل بآل فرعون « وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، فالوصول في محل جر عطف على ما قبله « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال المقدر « فَٱخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ » أى عاقبهم وأهلكهم بسببها . « وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى الأخذ بالذنب . فيه تهويل للمواخذة وزيادة تخويف للكفرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بهذا الدين وهم اليهود (للرواية الآتية) أو نصارى نجران ، لأن السورة نزلت لإحقاق الحق معهم ، أو أعم « سَتُغْلَبُونَ » أى في الدنيا « وَتُحْشَرُونَ » أى يوم القيامة « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » الفراش ، أى فكفركم ككفر آل فرعون بموسى ، وقد فعل بقرش بكفرهم مارأيتم ، فسيفعل بكم ما فعل بهم ،

وهو أنكم تغلبون كما غلبوا . وقد صدق الله وعده بقتل قريظة^(١) ، وإجلاء بني النضير^(٢) ، وفتح خيبر^(٣) ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة . وقد روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : يا معشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً ، فقالوا : يا محمد ! لا يفرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا ، فأنزل الله « قُلْ لِلَّذِينَ ... » إلى قوله « لِأُولَى الْأَبْصَارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا، فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ » أيها الكافرون المتقدم ذكرهم « آيَةٌ » عبرة ودلالة على أنكم ستغلبون ، وعلى أن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله ، ومُعَلِّ أمره « فِي فِئَتَيْنِ » أي فئتين « الَّذِينَ اتَّقَوْا » يوم بدر للقتال « فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي طاعته ، وهم النبي وأصحابه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٠ - باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٤ - باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر .

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. معهم فرسان وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » وهم مشركو قريش وكانوا قريبا من ألف « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ » أى يرى المشركون المسلمين مثل عدد المشركين قريبا من ألفين ، أراهم الله إياهم، مع قلتهم، أضعافهم ليهابوهم، ويحببوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله تعالى ، كما أمدهم بالملائكة . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال : وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ^(١) قلت : قللوا أولاً فى أعينهم حتى اجترأوا عليهم ، فلما لا قوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين . ونظيره فى الحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ^(٢) . وقوله تعالى : وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ^(٣) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم ، أبلغ فى القدرة وإظهار الآية - كذا فى الكشف - قلت : أو يجاب بأنهم كثروا أولاً فى أعينهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلوع ، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمراً كان مفعولاً « رَأَى الْعَيْنِ » يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات - كذا فى الكشف - « وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ » أى يقوى « بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى التكثير والتقليل ، وغلبة القليل ، مع عدم العدة ، على الكثير الشاكي السلاح « لَعِبْرَةٌ » أى لاعتباراً وآية وموعظة « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » لذوى العقول والبصائر .

- (١) [٨ / الأنفال / ٤٤] ونصها : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمَيُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .
- (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٩] .
- (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ)

« زَيْنَ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها ، وتزهيد الناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها . والمراد بالناس الجنس - قاله أبو السعود - « حُبُّ الشَّهَوَاتِ » أى الشهوات ، وعبر عنها بذلك مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوباً فيها ، أو تحسيساً لها ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالهيمية ، « مِنَ النِّسَاءِ » فى تقديمهن إشعار بعراقتهن فى معنى الشهوة إذ يحصل منهن أتم اللذات « وَالْبَنِينَ » للتكثير بهم ، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم ، والتفاخر والزينة « وَالْقَنَاطِيرِ » أى الأموال الكثيرة وقوله « الْمُقَنْطَرَةِ » مأخوذ منها للتوكيد كقولهم ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة ، وإبل مؤبلة ، ودراهم مدرهمة « مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال الرازى : وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلتا من جميع الأشياء ، فالكهها كالملك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هى القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب - لا جرم كانا محبوبين « وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ » أى المرسلة إلى المرمى ترى حيث شئت ، أو التى عليها السيمياء - أى العلامة - قال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غراً محجلة « وَالْأَنْعَامِ » جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم لتحصيل الأموال النامية « وَالْحَرْثِ » أى الأرض المتخذة للغراس والزراعة « ذَلِكَ » أى المذكور « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يتمتع به فيها ثم يفنى « وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ » أى المرجع وهو الجنة ، فينبغى الرغبة فيه دون غيره . وفى إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها ، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله ، وترهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة .

تنبية :

فى تزيين هذه الأمور المذكورات للناس إشارة لما تضمنته من الفتنة :

فأما النساء ، فى الصحيح أنه ﷺ قال (١) : ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء . وأما البنون ، فى مسند أبي يعلى عن أبي سعيد مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخله محزنة ، أى يحزن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، ويمتنع أبوه من الإنفاق فى الطاعة خوف فقره ، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته ، وقد قال تعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (٢) ، وقيل لبعض النساء : ما بالك لا تبتغى ما كتب الله لك ؟ قال : سمعاً لأمر الله . ولا مرحباً بمن إن عاش فتنى ، وإن مات أحرزنى . يريد قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) .

وأما القناطر المنقطرة فيها الآية قبل ، وقوله تعالى : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْنَى (٤) ، وقال تعالى : وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ (٥) ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٧ - باب ما يتق من شؤم المرأة ، حديث ٢١٠٩ ، عن أسامة بن زيد .

(٢) [٦٤/التغابن/١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٦٤/التغابن/١٥] .

(٤) [٩٦/العلق/٧٦] .

(٥) [١٧/الإسراء/٨٣] ونصها : وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا .

فما يورث البطر مثل الغنى . وبه تستجمع أسباب السؤدد والرئاسة والمجد والتفاخر .
وأما الخيل فقد تكون على صاحبها وزراً : إذا ربطها نحرّاً ورياءً ونواء لأهل الإسلام ،
كما في الصحيح ^(١) وفي مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً : الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ،
وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن فالذى يربط في سبيل الله ، فعمله
وروثه وبوله وذكر ما شاء الله ؛ وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس
الإنسان فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها فهي تستر من فقر .

وأما الفتنة بالأنعام والحراث في معنى ما تقدم . والله أعلم .
ولما ذكر تعالى ما عنده من حسن المكاب إجمالاً ، أشار إلى تفصيله مبالغة في الترغيب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أُوْبِتُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بَالْعِبَادِ)

« قُلْ أُوْبِتُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ » أى الشهوات المزينة لكم « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » الله
ولم ينهمكوا في شهواتهم « عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » من أنواع الأشربة
من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر ، و « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر المبتدأ الذى هو « جَنَّاتٌ » و « تَجْرِي » صفة لها ،
و « عِنْدَ » إما متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار ، وإما صفة للجنان في الأصل ،

= و [٤١ / فصلت / ٥١] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو دُعَاءً عَرِيضٌ .

(١) في المسند فقط رقم ٣٧٥٦ (طبعة المعارف) .

قدّم فانتصب على الحال . والعندية مفيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها « خَالِدِينَ فِيهَا » أى ما كثين فيها أبد الآباد لا يبعثون عنها حولا « وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الأرجاس والأدناس البدنية والطبيعية مما لا يخلو عنه نساء الدنيا غالباً « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ » التنوين للتفخيم أى رضوان وأى رضوان لا يقدر قدره . وهذه اللذة الروحانية تنمة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها . كما قال تعالى فى آية براءة : « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » ^(١) أى أعظم ما أعطاهم من النعيم القيم . روى الشيخان ^(٢) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً . « وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ » أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهّدوا فيما زهّد بهم فيه من أمور الدنيا . ثم وصف سبحانه الذين اتقوا ففازوا بتلك الكرامات بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله ، ثم يدعو . ويؤيده

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار ،

حديث ٢٤٥٨ .

ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار^(١) ، وتوسل كل منهم بصالح عمله ، ثم تفرج الباري تعالى عنهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

« الصَّابِرِينَ » أى على البأساء والضراء وحين البأس « وَالصَّادِقِينَ » فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم « وَالْقَانِتِينَ » المطيعين لله الخاضعين له « وَالْمُنْفِقِينَ » أموالهم فى سبيل الله تعالى من الأرحام والقربات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » جمع سحر (بفتحين وفتح وسكون) وهو الوقت الذى قبيل طلوع الفجر آخر الليل . وتسحر إذا أكل فى ذلك الوقت . قال الحرالى : وفى إفهامه تهجدهم فى الليل كما قال تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُمُونَ * وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(٢) . وقال الرازى : واعلم أن المراد منه من يصلى بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء ، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك . فقوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل - انتهى - وقد روى ابن أبى حاتم أن عبد الله بن عمر كان يصلى من الليل ، ثم يقول : يانافع ! هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة . وروى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك ، وهذا السحر . فاعفروا . فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى الصحيحين^(٣) وغيرها من المسانيد والسنن

(١) انظر صحيح البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٩٨ - باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١٧ و ١٨] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٤ - باب الدعاء والصلاة من آخر الليل حديث ٦٢٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ - ١٧٢ .

من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا ، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ وفي رواية لمسلم : ثم يسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟ وفي رواية : حتى ينفجر الفجر .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطني في ذلك جزءا على حدة . فرواه من طرق متعددة . وروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بني ! لا يكن الديك أحسن منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة في تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية ، والألطاف السبحانية ، وعند ذلك تكون العبادة أشق ، والنية خالصة ، والرغبة وافرة ، مع قربته ، تعالى وتقدس ، من عباده . قال السيوطي : في الآية فضيلة الاستغفار في السحر ، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازي : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان ، وفي كمال العبودية .

الأول - أن وقت السحر يطلع نور الصباح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصباح كان الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام ، والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير ، يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب .

والثاني - أن وقت السحر أطيب أوقات النوم ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل .

والثالث - نقل عن ابن عباس «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» يريد المصلين صلاة الصبح ، انتهى . وهذا الثالث أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم . وعليه ، فإنما سميت الصلاة استغفارا لأنهم طلبوا بفعالها المغفرة .

لطيفة :

قال الزمخشري : الواو المتوسطة بين الصفات ، للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى علم وأخبر أو قال أو بين أنه لا معبود حقيق سوى ذاته العلية . وشهد بذلك « وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » بالإقرار ، وهذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم في التوحيد بالملائكة المشرفين ، بعطفهم على اسم الله عز وجل « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » أى بالعدل فى أحكامه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله « الْعَزِيزُ » فلا يزال جنابه عظيمة « الْحَكِيمُ » فلا يصدر عنه شئ إلا على وفق الاستقامة - كذا فى جامع البيان - .

وقال فى الانتصاف : هذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده ، وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » وهو التنزيه . فطال الكلام بذلك فجدد التوحيد تلو التنزيه ، لئلى قوله : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » . ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم . كالمنقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به . والله أعلم .

لطيفة :

قال الرازى : فإن قيل : المدعى للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعى شاهداً ؟ الجواب : من وجوه : الأول : وهو أن الشاهد الحقيق ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة . ثم بعد نصب تلك الدلائل ، هو الذى وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، فهو تعالى وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد . وإذا كان

الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ » ^(١) - ثم ساق بقية الوجوه فانظره .

وقال العارف الشعرائي ، قدس سره ، في كتاب (الجواهر والدرر) : سألت أخى أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال رضى الله عنه : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه . فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر في الأدلة كاللبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلي الإلهي ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا في الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم في الوسط ، فاعلم ذلك ، انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أى لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشرعة الشريفة - قاله أبو السعود - وفى الآية الأخرى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٢) . « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » مطلقاً ، أو اليهود ، فى دين

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

الإسلام « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه . ولم يكن اختلافهم شبهة عندهم بل « بَغْيًا بَيْنَهُمْ » أى حسداً كائناً بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ » المنزلة « فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » قائم مقام جواب الشرط . علة له . أى : فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب . فإنه سريع الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ » فى الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » أى اتقدت لآياته المنزلة ، وأخلصت نفسى وعبادتى له ، لا أشرك فيها غيره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ، وجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة ، وبه يحصل التوجه إلى كل شىء « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » عطف على الضمير المتصل .

لطيفة :

هل قوله تعالى : قل أسلمت وجهى لله ، إعراض عن الحاجة ، أو هو محاجة وإظهار للدليل ؟ فمن قائل بالأول ، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنية ، وكان قد أظهر لهم المعجزات الجملة بالقرآن وغيره ، فبعد هذا قال : فإن حاجوك فقل أسلمت الخ . يعنى إننا بالغنا فى تقرير الدلائل وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد وتمسكنم بها كنتم مهتدين . وإن أعرضتم ، فإن الله

تعالى من وراء مجازاتكم . وهذا التأويل طريق معتاد في الكلام . فإن الحق إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالاً بعد حال ، فقد يقول في آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعني فمنقادون للحق مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذي أنا عليه بعد هذه الدلائل التي ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد . فهذا طريق قد يذكره المحتج الحق مع المبطل المصّر في آخر كلامه . ومن قائل بالثاني ، أعنى أنه محاجة ، وفي كيفية الاستدلال منها ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني ، وهو أن اليهود والنصارى وعبداء الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقاً في قوله ، صادقاً في دينه . فأمر الله تعالى محمداً ﷺ بأن يتبع ملته فقال : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١) ، ثم إنه تعالى أمر محمداً ﷺ في هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٢) ، فقول محمد ﷺ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ . كقول إبراهيم عليه السلام : وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ، أى أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة ، وأخلصت له . فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد في هذه التفاصيل فقل أنا مستمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة . فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلاً تحت قوله : وَجَادِلْهُمْ بِلَاَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ^(٣) - نقله الرازي - « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ » أى الذين

(١) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٩] .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

لا كتاب لهم كشركي العرب «أَسْلَمْتُمْ» لهذه الآيات كما أسلمت ، أم أنتم بعدُ على الكفر . قال الزخشرى : يعنى أنه قد أناكم من البينات ما يوجب الإسلام ، ويقتضى حصوله لاحالة ، فهل أسلمتم ، أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن خلصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البينات والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها ؟ ومنه قوله عز وعلا : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^(١) . بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام استقصار وتعير بالمعاند وقلة الإنصاف ، لأن النصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداً بينه وبين الإذعان . وكذلك في (هل فهمتها) توبيخ بالبلادة وكلة القريحة ، وفي (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعطى المنهى عنه . انتهى . « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا » أى خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم « وَإِنْ تَوَلَّوْا » عن هداك وهديك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى تبليغ آيات الله ، لا الإكراه إذا عاندوك ، إذ ليس عليك هداهم « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » وعد ووعد . قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً^(٢) ، وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا^(٣) . وفي

(١) [٥ / المائدة / ٩١] ونصها : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْأَمَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

الصحيحين^(١) وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بني آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميرهم ، امتثالاً لأمر الله بذلك.

(١) انظر ، في ذلك ، ما يأتي :

البخاريّ في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٠١ - باب دعوة اليهودي والنصرانيّ ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب النبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال . وفيه كتابه إلى كسرى .

والبخاريّ في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليان ، وفيه كتابه إلى قيصر . وأبوداود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢١ - باب ماجاء في سهم الصفيّ ، حديث ٢٩٩٩ . وفيه كتابه إلى بني زهير .

وأبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢٧ - باب ماجاء في حكم أرض اليمن ، حديث ٣٠٣٧ . وفيه كتابه إلى بعض رؤساء اليمن .

وفي طبقات ابن سعد ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، بالصفحة ١٧ و ٢٠ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث وجيلة وأمرأ غسان .

وبالصفحة ١٩ و ٢٧ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هَجَرَ .

وبالصفحة ٢١ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أساقفة نجران .

وبالجزء الأول ، بالقسم الأول بالصفحة ٣٥ كتابه إلى أهل نجران .

وبالجزء الأول ، القسم الثاني بالصفحة ٢١ و ٣٣ كتابه إلى أقيال حضرموت .

وبالصفحة ١٥ كتابه إلى النجاشي .

وبالصفحة ١٦ كتابه إلى المقوقس .

وبالصفحة ٢٥ كتابه إلى مسيلة .

وبالصفحة ٢٨ و ٣٨ كتابه إلى يهود مَقْنَا ... الخ الخ.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ^(١) : والذي نفسى بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أهل النار . رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) : بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال ^(٣) : كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعنا) .
ونصه : عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أمة وأسود . وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا . فأما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان . ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة » .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قوله : فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا .

حديث ٢٣١ . ونصه :

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبل . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » وهم اليهود. قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا

حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهاه عن منكر فعله ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى

ابن مريم عليهما السلام. ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم.

وقوله تعالى : بِغَيْرِ حَقٍّ ، إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق ، في اعتقادهم أيضاً ، فهو

أبلغ في التشنيع عليهم « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى بطلت أعمالهم التى عملوها

من البر والحسنات فى الدارين ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن والخرى ، ويدخل

فيه ما ينزل بهم من القتل والسبى وأخذ الأموال منهم غنيمة ، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك

من النذل والصغار الظاهر فيهم . وأما حبوطها فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم .

« وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ينصرونهم من عذاب الله . وقد دلت الآية على عظم حال من

يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرّن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه . وأن ذلك

يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين. وفى الحديث ^(١) : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .

(١) أخرجه أبوداود فى : ٣٦ - كتاب الملاحم ، ١٧ - باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٤٤ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ » التوراة . والمراد بهم أحمبار اليهود « يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ » وهو القرآن « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ » استبعاد لتوليهم بعد علمهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجب ، إذ قامت عليهم الحجج الدالة على تنزيله « وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » حال من فريق ، أى معرضون عن قبول حكمه . أو اعتراض ، أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل . ومن المفسرين من حمل قوله « يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ » على التوراة ، وأن الآية إشارة إلى قصة^(١) تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان ، فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم ، فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم ، فرجما ، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٦ - باب قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال « لا تجدون في التوراة الرجم ؟ » فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتهم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم . فنزع يده عن آية الرجم . فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد .

فرايت صاحبها يجنأ عليها ، يقيمها الحجارة .

قال بعض المفسرين : وللاية ثمرتان :

الأولى - أن من دعى إلى كتاب الله وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة . وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** وَلِئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(١) .

الثمرة الثانية - أن الإسلام ليس بشرط في الإحصان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين ، ونزلت الآية مقررّة له . انتهى - أى على القول بذلك ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى التولى والإعراض « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ » أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم « وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » من قولهم ذلك . وفى التعبير بالفرور والافتراء إعلام بأن ماحدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون . ثم رد قولهم المذكور ، وأبطل ما غرهم باستعظام ما أعدّ لهم ، وتهويله ، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فى دفعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« فَكَيْفَ » يصنعون ، وكيف تكون حالتهم « إِذَا جُمِعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ » أى فى يوم

« لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك ، وهو يوم القيامة « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » أى جزاء ما عملت من خير أو شر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الضمير لكل نفس على المعنى . لأنه فى معنى كل إنسان . أى لا يظلمون بزيادة عذاب ، أو بنقص ثواب . ثم علم تعالى نبيه ﷺ كيف يدعوه ويمجده بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ » أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء . إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . وتعذيباً وإثابة . من غير مشارك ولا ممانع « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك ، وتحقيق لا اختصاصها به تعالى حقيقة ، وكون مالكية غيره بطريق المجاز ، كما ينبىء عنه إيثار (الإيتاء) الذى هو مجرد الإعطاء على (التمليك) المؤذن بثبوت المالك حقيقة - أفاده أبو السعود - وفى التعبير : (مَنْ) العامة للعلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله ، وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينزل ملك فارس والروم العرب ، كما وقع منه ماوقع ، وينتهى منه ما بقى ، إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها ، من سائر الأمم الذين دخلوا فى هذه الأمة من قبائل الأعاجم ، وصنوف أهل الأفطار ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض بظهور ملك يوم الدين - كذا فى البقاعى - « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِبَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

«تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ» أى تدخل أحدها في الآخر، إما بالتعقيب أو بالزيادة والنقص «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» كالحيوان من النطف والنطف منه ، والبيض من الطير وعكسه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس . قال القفال : والكلمة محتملة للكل ، أما الكفر والإيمان فقال تعالى : أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ^(١) . يريد كان كافراً فهديناه ، فجعل الموت كفوفاً والحياة إيماناً ، وسعى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعلها قبل ذلك ميتة ، فقال : يُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٢) . وقال : فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٣) . وقال : كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٤) . «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أى رزقاً واسماً غير محدود .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ونصها : أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَلِكَ لَمَخْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٩] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » جمع وليّ ، ومعانيه كثيرة. منها المحب والصديق والنصير . قال الزمخشريّ : نهوا أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر . وقد كرر ذلك في القرآن : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ^(١) . لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ^(٢) . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . الآية^(٣) - والمحبة في الله ، والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان. وقوله تعالى « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » حال. أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » أى ومن يوال الكفرة فليس من

(١) [٥ / المائدة / ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

تود عدوى ثم تزعم أني صديقك . ليس النوك عنك بعازب
- أفاده الزمخشري - « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » أى تخافوا منهم محذوراً ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال ^(١) : إنا لنكثير في وجوه أقوام وقلوبنا تلغهم . وأصل « تقاة » وقية ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة وقلت الياء ألفاً . وفي المحكم : تقاة يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن في القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » ^(٢) ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص في موالاتهم لأجلها . فتجاوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : في الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة ، انقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعارض التي ليست بكذب . وقال الصادق : التقية واجبة ، وإنى لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فأستتر عنه بالسارية لئلا يراني . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٨٢ - باب المداراة مع الناس ونصه :

ويذكر عن أبي الدرداء : إنا لنكثير في وجوه قوم ، وإن قلوبنا تلغهم .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٨] ونصها : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

واعلم أن الموالاة ، التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم في أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . في سبب نزول الآية أنه ﷺ منع عبادة بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش ، وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش ، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم ، وقد ذكر الراضى بالله أنه يجوز الاستعانة بالفساق على حرب الباطلين ، قال : وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدّ ﷺ الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب - والله أعلم - أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها . ويحمل على هذا استعانة الرسول ﷺ لليهود . ومنوعة مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للؤمنين والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس في تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الرخشريّ أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالاة للكافر والفاسق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى المودة ، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفراً . كفر . وإن كانت فسقاً ، فسق . وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً ، لم يكفر ولم يفسق . وإن كانت الموالاة بمعنى المخالفة والناصرّة ، فإن كانت مخالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويخالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يخالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكّم عليهم ، فهذه معصية

بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليد لهم عليه أو لقراءة أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يُروَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة ^(١) .

(١) هذه هي حادثة حاطب بن أبي بلتعة يرويها الإمام البخاري في صحيحه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٤١ - باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة ومعها كتاب نخذوه منها .

فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالطعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامى من كتاب . فقلنا : لتُخرجي الكتاب ، أو لنُلقيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب : ما هذا ؟ » .

قال : يا رسول الله ! لا تعجل عليّ . إني كنت امرأة ملصقا في قريش - ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن آخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ « لقد صدقكم » .

قال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . قال « إنه شهيد بداراً . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال الراضى بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر . لأنه ﷺ قال للعباس : ظاهرنا علينا . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا يستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يضيق لضيقه فى قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غلب فارس الروم . فصار تحقيق المذهب أن الذى يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من الموالى الرضا بالكفر . والذى يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم . وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البنى والظلم . فإن قيل : حكى عن المهديّ على بن محمد عليه والسلام أنه كفر من تجند مع سلطان اليمى وقضى برده ، قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التفكير بدليل قطعى ، وإن ساء أن تقول ذلك اصطلاحاً لأمر الإمام كما رد الهادى عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملاً - انتهى كلامه رحمه الله .

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف ، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليمانى فى كتابه (إيثار الحق على الخلق) فقال ما نصه :

وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما - خوف العارفين ، مع قتلهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برح الحق عدواً لأكثر الخلق . وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال فى ذلك المصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١) وعائين فأما أحدهما فبثنته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . وما زال الأمر فى ذلك

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث ١٠٣ .

يتفاحش . وقد صرح الغزاليّ بذلك في خطبة (المقصد الأسنى) ولوح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك في شرح (الرحمن الرحيم) فأثبت حكمة الله ورحمته ، وجوّد الكلام في ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه في موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكاء النظار .
وأشار إلى النقية الجوينيّ في مقدمات (البرهان) في مسألة قدم القرآن . والرازيّ في كتابه المسمى (بالأربعين في أصول الدين) - إلى آخر ما ساقه المرتضى فانظره .
« وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » أى ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاته أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح . وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة « وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » أى التقلب والرجع ليجازى كل عامل بعمله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذا توعّد . وأراد إخفاء مودة الكفار وموالاتهم وإظهارها . أو تكذيب النبيّ صلى الله عليه وآله ، أو الكفر . وفي هذه الآية تنبيه منه تعالى لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، فإنه عالم بجميع أمورهم وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يهمل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » بصور تناسبه ، أو في صف الملائكة ، أو المعنى جزاء ما عملت « وَ » تجد « مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ » أى عملها السوء « أَمَدًا بَعِيدًا » أى غاية بعيدة لا يصل أحدهما إلى الآخر ، و (تود) في موضع الحال. والتقدير : وتجد ما عملت من سوء محضراً ، وادّة ذلك « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » كرهه ليكون على بالٍ منهم لا يففلون عنه - كذا في الكشف - .

وقال أبو السعود : تكرير لما سبق وإعادة له ، لكن لالتأكيد فقط ، بل لإفادة ما يفيد قوله عز وجل « وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، ورحمته الواسعة ، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنياً على تناسي صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه تلك ، حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٠ - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبي ﷺ . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا » أَعْرَضُوا عَنِ الطاعة « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)
« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ » أى اختار بالنبوة « آدَمَ » نخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ،
وعلمه أسماء كل شىء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة « وَ » اصطفى
« نُوحًا » فجعله أول رسول إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطاناً ونجى من اتبعه فى السفينة وأغرق من عصاه « وَ » اصطفى « آلَ إِبْرَاهِيمَ »
أى عشيرته وذوى قرباه ، وهم إسماعيل وإسحق والأنبياء من أولادها الذين من جملتهم النبى ﷺ ،
وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفاؤهم بطريق الأولوية . وعدم التصريح
به للإيدان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلقة ، وكونه إمام الأنبياء وقُدوة الرسل عليهم
الصلاة والسلام ، وكون اصطفاء آلِه بدعوته بقوله : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ^(١)
- الآية - ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : أنا دعوة أبى إبراهيم « وَ » اصطفى « آلَ عِمْرَانَ »
إذ جعل فيهم عيسى عليه الصلاة والسلام الذى أوتى البينات وأيد بروح القدس ، والمراد
بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى على زمانهم . أى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] ونصها : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه . قال السيوطي في (الإكليل) : يستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم في العالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذُرِّيَّةٌ » أى نسلاً . نصب على البدلية من الآلئ ، أو على الحالية منهما .

لطيفة :

الذرية مثلثة ، ولم تسمع إلا غير مهموزة . اسم لنسل الثقلين . وقد تطلق على الآباء والأصول أيضاً . قال الله تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . (١) قال الصاغاني : وفي اشتقاقها وجهان : أحدهما أنها من الذرء ووزنها فعولة أو فعيلة . والثاني : أنها من الذر بمعنى التفريق لأن الله ذرهم في الأرض ووزنها فعيلة أو فعولة أيضاً . وأصلها ضرورة قلبت الراء الثالثة ياء كما في تقضت العقاب . كذا في القاموس وشرحه (٢) .

(١) [٣٦ / يس / ٤١] .

(٢) جاء في اللسان . مادة ذراً ما يأتى :

قال ابن برى : جعل الجوهريّ الذرية أصلها ذُرِّيَّةٌ بالهمز . تخففت همزتها . وألزم التخفيف .

قال : ووزن الذرية ، على ما ذكره ، فُعَيْلةٌ ، من ذراً الله الخلق . وتكون بمنزلة مُرِّيقةٍ وهي الواحدة من العصف .

وغير الجوهريّ يجعل الذرية فُعَلِيَّةً من الذرّى . وفُعْلولة ، فيكون الأصل ذُرْوَرَة . ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال . ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، وكسر ما قبل الياء ، فصارت ذُرِّيَّة .

« بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » في محل النصب على أنه صفة لذرية . أى اصطفى الآلئ حال كونهم ذرية متسلسلة البعض من البعض في وراثة الاصطفاء « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » لأقوال العباد « عَلِيمٌ » بضائرهم وأفعالهم . وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلًا . ونظيره قوله تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ^(١) . وقوله : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي،
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ » في حيز النصب على المفعولية ، بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران ، وبيان كيفيته . أى اذ كر لهم وقت قولها الخ . وامرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام .
فائدة :

قال العلامة النورى في (غيث النفع) : (امراة عمران) رسمت بالتاء ، وكل ما في كتاب الله جل ذكره من لفظ (امرأة) فبالهاء . إلا سبع مواضع ، هذا الأول ، والثانى والثالث بيوسف (امراة العزيز تراود) (امراة العزيز الآن) والرابع بالقصص (امراة

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرُمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

فرعون) ، الخامس والسادس والسابع بالتحريم (امرأت نوح وامرأت لوط وامرأت فرعون)
فلو وقف عليها ، فالمكيّ والنحويان يقفون بالهاء ، والباقون بالتاء - انتهى ^(١) .
« رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » أى مخلصاً للعبادة (عن الشعبي)
أو خادماً يخدم في متعبداتك . حرره جعله نذيراً في خدمة العبد ما عاش ، لا يسعه تركه في
دينه (عن الزجاج) . وفي الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها ، وأن للأم الانتفاع بالولد
الصغير لمنافع نفسها ، لذلك جعلته للغير . والمعنى : نذرته وفقاً على طاعتك ، لا أشغله بشيء
من أموري . قال أبو منصور في (التأويلات) : جعلت ما في بطنها لله خالصاً لم تطلب منه

(١) هذا بيان المواضع الستة التي كتبت فيها (امرأت) بالتاء .

١ - [١٢ / يوسف / ٣٠] ونصها : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ
فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، فَدَسَّغَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

٢ - [١٢ / يوسف / ٥١] ونصها : قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ
قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا
رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

٣ - [٢٨ / القصص / ٩] ونصها : وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ،
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

٤ ، ٥ - [٦٦ / التحريم / ١٠] ونصها : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ
نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ .

٦ - [٦٦ / التحريم / ١١] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ
فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

الاستئناس به ولا ما يطمع الناس من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر عز وجل . وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذي طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » ^(١) وما سأل إبراهيم « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » ^(٢) وكقوله : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » ^(٣) هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم - انتهى - : « فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أي تقبل مني قرباني وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا » الضمير لما في بطنى ، وإنما أنت على المعنى ، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله ، أو على تأويل النفس أو النسيئة « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » أى وكنت رجوت أن يكون ذكراً ، وإنما تحسرت أو اعتذرت إذ جهلت قدرها « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ » قرئ في السبع بسكون التاء وضمها ، فعلى القراءة الأولى تكون الجملة المعترضة من كلامه تعالى ، إما لدفع ما يتراءى من أن قولها « رَبِّ وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » قصدت بها إعلام

(١) [٣ / آل عمران / ٣٨] ونصها : هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٤] .

الله تعالى عن أن يحتاج إلى إعلامها ، فأزيلت الشبهة بقوله « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ » هذا ما يترأى لى . وإما لما ذكره من أن الاعتراض تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، وتفخيم لشأنه ، وتجهيل لها بقدره ، أى والله أعلم بالنفس التى وضعها ، وما علق بها من عظام الأمور ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك . وعلى القراءة الثانية أعنى ضم التاء ، فلا اعتراض من كلامها . إما للوجه الأول من الوجهين السابقين كما استظهرته ، أو لما ذكره من قصد الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته ، أو تسليمة نفسها على معنى : لعل الله تعالى فيه سرّاً وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى » جملة معترضة أيضاً ، إما من كلامه تعالى قصد به معذرتها فى التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى ، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها ، سيما فى هذا المقام أعنى مقام قصد إخلاص النذير للعبادة . فإن الذكر يفضلها من وجوه منها : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك فى الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان . ومنها : أن الذكر يصلح لقوته وشدة للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة . ومنها : أن الذكر لا يلحقه عيب فى الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى . ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى . فهذه الوجوه تقتضى فضل الذكر على الأنثى فى هذا المقام . واللام فى (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ ، للجنس - كذا ظهر لى - وعلى قولهم اللام للمعبد فيهما أى ليس الذكر الذى طلبته وتخلت فيه كالأنا ، قصاره أن يكون كواحد من الأخبار ، كالأنثى التى وهبت لها . فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا ، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها ، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية ، وصلاحيه خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك ، فاللام للجنس .

لطيفة :

قيل : قياس كونه من قولها أن يكون « وليست الأنثى كالذكر » فإن مقصودها تنقيص

الأنثى بالنسبة إلى الذكر . والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل ، لا العكس . قال الناصر في (الاتصاف) وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت عين ما قيل . ألا ترى إلى قوله تعالى : لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ^(١) ، فنفي عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبي ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران ، والله أعلم . ومنه أيضاً : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٢) . انتهى . « وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ » قال المفسرون : هي في لغتهم بمعنى العابدة ، سُمِّيَها بذلك رجاءً وتفاؤلاً أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها . لكن رأيت في تأويل الأسماء الموجودة في التوراة والإنجيل أن مريم معناه مرارة أو مر البحر . فليُنظر . قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لا يتعين يوم السابع ، لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع ، كما فيها مشروعية التسمية للأم ، وأنها لا تختص بالأب . ثم طلبت عصمتها فقالت : « وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ » أي أُجِيرُهَا بِحِفْظِكَ « وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أي المطرود لمخالفتك ، فلا تجعل عليها وعلى ذريتها له سلطاناً يكون سبباً لطردها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » أي قبلها أو تكفل بها ، ولم يقل (بِتَقَبُّلٍ) ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] ونصها : يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ،
إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

(٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة. قال المهايى : بقبول حسن يجعلها فوق كثير من الأولياء « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا » يجعل ذريتها من كبار الأنبياء - انتهى - وقال الزمخشري : نباتها مجاز عن التربة الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها ، أى كالصلاح والسداد والعفة والطاعة « وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا » أى ضمها إليه ، وقرئ بالتشديد. ونصب زكريا ممدود أو مقصوراً والفاعل الله . أى جملة كافلاً لها وضامناً لمصلحتها ، وقائماً بتدبير أمورها . وقد روى أن أمها أخذتها وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها إذ كانت بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وأحب كل أن يحظى بتربيتها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها . عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم . على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها ، فطفأ قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى آية أخرى : إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (١) . فأخذها زكريا ورباها فى حجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء ، انزوت فى محرابها تتعبد فيه وصارت بحيث « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . فى الآية مسائل :

الأولى - فى معنى المحراب : فى القاموس وشرحه ما نصه : والمحراب : الغرفة والموضع العالى ، نقله الهروى فى غريبه عن الأصمعى ، قال وضاح اليمى :
ربة محراب إذا جثتها لم ألقها أو أرتقى سلماً
وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

وعن الأصمعيّ : العرب تسمى القصر محراباً لشرفه . وقال الأزهريّ : المحراب عند العامة الذي يفهمه الناس مقام الإمام من المسجد . قال ابن الأنباريّ : سمي محراب المسجد لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم . ومنه يقال : فلان حرب لفلان إذا كان بينهما بعد وتباغض . وفي الصباح : ويقال هو مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه ، ثم قال : ومحارب بني إسرائيل هي مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها . انتهى .

الثانية - في الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند خبيب^(١) ابن عديّ الأنصاريّ رضي الله عنه المستشهد بمكة ، قطفُ عنب . كما في البخاريّ . وفي الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة . ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانيّ في (اليواقيت) عن العارف أبي الحسن الشاذليّ قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام كان يتعرف إليها في بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقليل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، انتهى .

الثالثة - قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ » الخ تعليل لكونه من عند الله . إمام من تمام كلامها فيكون في محل نصب . وإمام من كلامه عز وجل فهو مستأنف . ومعنى (بغير حساب) أي بغير تقدير لكثرته . وإمام بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى .

الرابعة - زكريا المنوه به هنا هو والد يحيى عليهما السلام . ومعنى زكريا تذكّار الرب . كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل .

(١) انظر في صحيح البخاريّ في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٧٠ - باب هل يستأمر الرجل ، ومن لم يستأمر ، ومن ركع ركعتين عند القتل ، تجد فيه قصة خبيب ومقتله مسرودة بتفصيل واف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ،

إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سقت في تضاعيف حكاية مريم ، لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما في إيرادها من تقرير ما سقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران . فإن فضائل بعض الأقباء أدلة على فضائل الآخرين . و « هنا » ظرف مكان ، أى في ذلك المكان ، حيث هو عند مريم في المحراب ، أو ظرف زمان أى في ذلك الوقت ، إذ يستعار (هنا و تمت و حيث) للزمان ، دعا زكريا ربه لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب في أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها في النجابة والكرامة على الله تعالى . وإن كانت عاقراً عجوزاً - كذا في أبي السعود - والذرية هنا الولد ، قال الزخشرى : تقع على الواحد والجمع ، وقد سبق الكلام عليها قريباً عند قوله تعالى « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقوله « طَيِّبَةً » بمعنى مطيعة لك ، لأن ذلك طلبه أهل الخصوص كما سبق إيضاحه في آية « رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ... » الخ. وقوله تعالى « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه ، وقد أجابه الحق تعالى ، فأرسل إليه الملائكة بمبشرة كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ » أى على ألسنتنا « بِيَحْيَى » وقد قرئ في السبع بكسر « إن » وفتحها ، ولفظ (يحيى) معرب عن (يوحنا)

اسمه في العبرانية . ومعنى يوحنا نعمة الرب . كما في تأويل أسماء التوراة والانجيل « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ » أى بنى خلق بكلمة (كن) من غير أب . يرسله الله إلى عباده فيصدقوه هو . وذلك عيسى عليه السلام « وَسَيِّدًا » أى يسود قومه ويفوقهم « وَحَصُورًا » أى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها عن الشهوات عفة وزهداً واجتهاداً في الطاعة « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ناشئاً منهم لأنه من أصلابهم . أو كائناً من جملتهم . كقوله : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ^(١) . ولما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قَالَ رَبِّ اِنِّى يَكُونُ لِىْ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَامْرَاَتِى عَاقِرٌ ، قَالَ كَذٰلِكَ اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ)

« قَالَ رَبِّ اِنِّى » أى كيف أو من أين « يَكُونُ لِىْ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ » أى أدركنى الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفى « وَامْرَاَتِى عَاقِرٌ » أى ذات عقر ، فهو على النسب ، وهو فى المعنى مفعول أى معقورة ، ولذلك لم يلحق تاء التأنيث « قَالَ كَذٰلِكَ » يكون لك الولد على الحال التى أنت وزوجتك عليها لأن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب بل « اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ » لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر . وفى إعراب « كذلك » أوجه . منها : أنه خبر لمحذوف أى الأمر كذلك . وقوله تعالى « اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ » بيان له . ومنها أن الكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف . أى الله يفعل ما يشاء فعلاً من ذلك الصنع العجيب الذى هو خلق الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٠] ونصها : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ اِبْرٰهِيْمَ اِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاْهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« قَالَ » زكريا « رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً » أى علامة أعرف بها حصول الحمل . وإنما سألها لكون العلوق أمراً خفياً لا يوقف عليه . فأراد أن يعلمه الله به من أوله ليتلقى تلك النعمة بالشكر من أولها ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً « قَالَ » الله تعالى « آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » أى أن لا تقدر على تكليمهم « ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » أى إشارة بيد أو رأس . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه . وقيل : كان ذلك عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه - حكاه القرطبي - عن أكثر المفسرين - « وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا » أى ذكراً كثيراً « وَسَبِّحْ » أى وسبحه « بِالْعِشِيِّ » وهو آخر النهار . ويقع العشي أيضاً على ما بين الزوال والغروب « وَالْإِبْكَارِ » وهو الغدوة أو من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية الحث على ذكر الله تعالى وهو من شعب الإيمان . قال محمد بن كعب : لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لذكرى لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر - أخرجه ابن أبي حاتم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ » شروع في تنمة فضائل آل عمران . قال المهابي : فيه إشارة إلى جواز تكليم الملائكة الولي ، ويفارق النبي في دعوى النبوة « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ » بالتقريب والمحبة « وَطَهَّرَكِ » عن الرذائل ليدوم انجذابك إليه « وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »

بالتفضيل وبما أظهره من قدرته العظيمة حيث خلق منك ولداً من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . وفي (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال بنبوة مريم . كما استدل بها من فضلها على بنات النبي ﷺ وأزواجه . وجوابه : أن المراد على زمانها - قاله السدي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ » أى اعبديه شكراً على اصطفاؤه « وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » أى لترددي بكثرة السجود والصلاة قرباً . قال البقاعي : الظاهر أن المراد بالسجود هنا ظاهره ، وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدي مصلية ، ولتكن صلاتك مع المصلين ، أى فى جماعة ، فإنك فى عداد الرجال لما خصصت به من الكمال . ثم قال : وإنما قلت هذا لأنى تتبع التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع فى صلاة إبراهيم ولا من بعده من الأنبياء عليهم السلام ، ولا أتباعهم إلا فى موضع واحد ، لا يحسن جمعه فيه على ظاهره . ورأيت ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول - إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثانى - إطلاق لفظ السجود مجرداً ، والثالث - إطلاقه مقروناً بركوع أو جبو أو خرو أو على الوجه . ونحو ذلك . ثم ساق البقاعي ما وقع من النصوص فى ذلك . وقال بعد : فالذى فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعلٍ هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك ، وحينئذ يسمى صلاة . وإلا كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم . وذلك موافق للغة ، قال فى القاموس : سجد خضع ، والخضوع التطامن ، وأما المكان الذى ذكر فيه الركوع فالظاهر أن معناه فعل الشعب كله ساجداً لله ، لأن الركوع يطلق فى اللغة على معان ، منها الصلاة يقال : ركع أى صلى ، وركع إذا انحنى كثيراً ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره لأنه لا يمكن فى حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن تأويل مما ذكرته .

في الركوع - والله أعلم - واحتججت باللغة لأن مترجم نسخة التوراة ، التي وقعت لي ، في عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها . على أني سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البنويّ صرح في قوله تعالى . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ^(١) . بأن صلاتهم لا ركوع فيها ، وكذا ابن عطية وغيرها . انتهى كلام البقاعي .
لطيفة :

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية دليل على أن الجماعة مطلوبة في الصلاة ، وعلى أن المرأة تندب لها الجماعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما سبق « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » أي من الأنباء المغيبة عنك « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » مطابقاً لما في كتابهم . وتذكير الضمير في « نُوحِيهِ » بجعل مرجعه ذلك « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » أي وما كنت معاً لفعلمهم وما جرى من أمرهم في شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أي سهامهم التي جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على جهة القرعة « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بسببها تنافساً في كفالتها . وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم . فأقيم ثبت في جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ، فإنه ثبت ، ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء - والله أعلم - قال أبو مسلم : معنى يلقون

(١) [٢ / البقرة / ٤٣] ونصها : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

أفلامهم ، مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى : فَسَاهِمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ^(١) ، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً . وقال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في استعمال القرعة عند التنازع . وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أنه يجوز التخاضع لطلب الفضل حتى يتميز واحد بمزية ، ودلت على أن التمييز يحصل بالقرعة في الأمر الملبس .

لطيفة :

قال الزحشرى : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها ، وهو موهوم ؟ قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحى ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهى فى غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهم بالمنكرين للوحى ، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة . ونحوه : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ^(٢) ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ^(٣) ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ^(٤) - انتهى - وبالجملة ، فالنفي تقرير وتحقيق لكون تلك الأنباء وحياً على طريقة التهم بمنكريه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤١] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

(٣) [٢٨ / القصص / ٤٦] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٢] ونصها : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » شروع في قصة عيسى عليه السلام « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ » أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب « اسْمُهُ » ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر . أى اسمه الذى يميزه لقباً « الْمَسِيحُ » وعلماً « عِيسَى » معرب يسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها (يشوع) بالمعجمة ، إلا أنها عبرانية كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل . وفيها أن المسيح بمعنى المسوح أو المدهون . قال البقاعي : وأصل هذا الوصف أنه كان في شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلاً للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسخ . انتهى . وإنما قال « ابْنُ مَرْيَمَ » مع كون الخطاب لها ، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين « وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى سيداً ومعظماً فيهما « وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى من الله عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ » في محل النصب على الحال « وَكَهْلًا » عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلاً وكهلاً ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لاشك أنه غاية في المعجز . وفي ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلاً . والمهد الموضع الذى يهيا للصبي ويوطأ لينام فيه . والكهل من وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى

الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابي : يقال للغلام مراهق ، ثم محتم ، ثم يقال : تخرج وجهه ، ثم اتصلت لحيته ، ثم مجتمع ، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . قال الأزهري : وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكال قوته . وقوله تعالى « وَمِنَ الصَّالِحِينَ » قال ابن جرير : يعنى من عدادهم وأوليائهم . لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« قَالَتْ » مخاطبة لله الذى بعث إليها الملائكة « رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ » أى لست بذات زوج « قَالَ كَذَلِكِ » أى على الحالة التى أنت عليها من عدم مس البشر « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولا يحتاج إلى سبب ، ولا يعجزه شيء . وصرح ههنا بقوله « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولم يقل (يَفْعَلُ) كما فى قصة زكريا ، لما أن الخلق النبىء عن الأحداث للمكوّن أنسب بهذا المقام لثلا يبق لمبطل شبهة ، وأكّد ذلك بقوله : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ^(١) . « فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب كقوله : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ^(٢) . أى إنما نأمر مرة واحدة لا ثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلع البصر . وتقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة .

(١) [٣٦ / س / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ » أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية « وَالْحِكْمَةَ » أى تهذيب الأخلاق « وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » إفرادها بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، لزيادة فضلها وإنافتها على غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على (يعلمه) أى ويجعله رسولا إلى جميع الإسرائيليين . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة « أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ » معمول لـ (رسولا) لما فيه من معنى النطق . أى رسولا ناطقا بأنى قد جئتكم « بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالا أى متلبسا ومحتجا بآية « أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ » الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المائل لحيأة الطير « فَيَكُونُ طَيْرًا » حقيقياً ذا حياة « بِإِذْنِ اللَّهِ » أى أمره ، لا باستقلال منى « وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ » الذى ولد أعمى « وَالْأَبْرَصَ » المبتلى بالبرص وهو بياض يظهر فى البشرة لفساد مزاج . وفى (الإكليل) : هذه الآية أصل لما يقوله الأطباء : إن الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص لا يمكن برؤهما كإحياء الموتى « وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ » لا باستقلال منى . نفياً لتوهم

الألوهية ، فهذه معجزات قاهرة فعلية « وَأُنَبِّئُكُمْ » أى أخبركم « بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَاتَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » مما لم أعينه « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى دلالة « لَكُمْ » على صدق فى دعوى الرسالة « إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » مصدقين بآيات الله . وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام ردّ بصر أعمى فى كفرناحوم ، وأعمى فى بيت صيدا ، ورجل ولد أعمى فى أو رشلیم ، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة ، وأبرأ أبرص فى كفرناحوم ، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين ، وأحيا ابنة جيروس فى كفرناحوم ، والعاذر فى بيت عينا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

« وَمُصَدِّقًا » حال معطوفة على قوله (بآية) أى جئتكم بآية ومصدقاً « لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ » أى مقررأ لها ومثبتاً « وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين . ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : « وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ »^(١) . والله أعلم - انتهى - أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبوت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسأله : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

ولا يمسه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الحروف ؟ فإذا نحل فعل الخير في السبوت ، ثم أقرأ ذلك المريض - كذا في الأصحاح الثاني عشر - من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى - وفيه في الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل - انتهى - وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ومن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفع عنهم ، إذا أكله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه ، وأغناهم بشرعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذي جاء لإكماله المسيح . فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة في الناموس الموسوي ، فنسخت حرمتها في الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس ، إذ قال لهم : لاشئ نجس العين . كما في رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكماً أبدياً في الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملاً واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة ، ومنه حكم الختان الذي كان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنى ، كما بين في (إظهار الحق) ، في الباب الثالث في إثبات النسخ . وقد أسلفنا جملة جلييلة في هذا الشأن في سورة البقرة عند قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا^(١) . فانظرها . « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » كرره تأكيذاً وليبني عليه قوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٥] ونصها : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .
« إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا » أى ما أمركم به « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ » أى من بنى إسرائيل « الْكُفْرَ » أى علمه ووجده منهم « قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ » جمع نصير . والجار متعلق بمحذوف وقع حالا . أى من أنصارى متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » وهم طائفة من بنى إسرائيل انتدبت للإيمان بالمسيح عليه السلام فوازره ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه - جمع حوارى - وهو الناصر أو المبالغ فى النصرة والوزير والخليل والخالص كما فى (التوشيح) « نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى أنصار دينه ورسوله « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى منقادون لرسالتك . ولما أشهدوه عليه السلام أشهدوا الله تعالى الأمر بما أنزل من الإيمان به وبأوامره فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ » فأشهدناك على ما نحن عليه من تصديقنا دعواه « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى جزاء على إشهدانا إياك « مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى مع الذين يشهدون بيوحدانيتك . وهم المتقدمون فى آية (شَهِدَ اللَّهُ) أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم .

لطيفة :

جاء في إنجيل متى في الأصحاح العاشر ما يأتي :

(١) ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف .

(٢) وأما أسماء الاثني عشر رسولا فهي هذه . الأول سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخوه . يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه .

(٣) فيلبس وبرثولماوس . توما ومتى العشائر . يعقوب بن حلفى ولبائوس الملقب تدائوس .

(٤) سمعان القانوي ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه .

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام . لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعوهم إلى الحق الذي جاء به ، فبذلوا الجهد في بثه وانتشاره وإقامته ، إلى أن جاء بولس فسلمهم ، بخداعه ، دين المسيح الصحيح ، فلم يسمعوا له بعد من خبر ، ولا وقفوا له على أثر ، وطمس لهم رسوم التوراة ، وحلل لهم كل محرم ، كما بين ذلك في غير هذا الموضع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَمَكْرُوا » أي الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هوا بالفتك به وإرادته بالسوء ، حيث تماثلوا عليه ووشوا به إلى ملكهم « وَمَكَرَ اللَّهُ » أي بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم « وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أي أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب . وقال البقاعي كغيره في قوله تعالى (وَمَكَرَ اللَّهُ) : أي بأن رفعه إليه . وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صابوه ، وإنما صابوا أحدهم ، ويقال إنه الذي دلهم ، وأما هو عليه السلام ، فصانه عنده بعد رفعه

إلى محل أوليائه وموطن قدسه ، لينزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم
الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر ، فكان تدميرهم فى تدميرهم ،
ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَحْتُ لَكَ الْقُرْآنَ وَرَأَيْتُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَحْتُ لَكَ الْقُرْآنَ وَرَأَيْتُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى مستوفى مدة إقامتك بين قومك . والتوفى ، كما
يطلق على الإماتة ، كذلك يطلق على استيفاء الشيء . كفى كتب اللغة . ولو ادعى أن التوفى حقيقة
فى الأول ، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فنقول : لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام باتباعه
وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة . وهذا الوجه ظاهر جدا ، وله نظائر فى الكتاب
العزيز ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ^(١) . قال
الزخشرى : يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى يتوفاها حين تنام تشبيهاً
للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ^(٢) . حيث لا يميزون ولا

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك - انتهى كلامه - ثم بين سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال : « وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مكرهم وخبت صحبتهم ؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(١) . وقوله تعالى : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(٢) . وقوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ^(٣) . وقوله تعالى : ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ^(٤) . وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبي في كتاب (الملوك) . قال أبو الوليد بن رشد في (مناهج الأدلة) : لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفى العترة ، ثم تبهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبي المعالى ومن اقتدى بقوله - إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين ، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ . وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول . وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفى الجهمية ومن وافقهم - إلى أن قال : فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل . وأن إبطاله إبطال الشرائع . قال الدارمي : وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته . وقد بسط نصوص السلف الحافظ الذهبي في كتاب (الملوك) فانظره ،

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٥] ونصها : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

(٤) [٦٧ / الملك / ١٦] .

هذا ، ولما كان لدوى الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال ، بشره تعالى في ذلك بما بشره فقال « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد « ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ثم فسر الحكم الواقع بين الفريقين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »
أى يبنفضهم ، فإن هذه الكناية فاشية في جميع اللغات ، جارية مجرى الحقيقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وهو مبتدأ وخبره « تَتْلُوهُ عَلَيْكَ » أى من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . وقوله تعالى « مِنَ الْآيَاتِ » حال

من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر « وَالَّذِي كَرَّمُ الْحَكِيمِ » أى المشتغل على الحكم، أو المحكم المعصوم من تطرق الخلل إليه، والمراد به القرآن .

تنبيه :

فى قوله : إِنِّى مُتَوَفِّىكَ . وجوه فى التأويل كثيرة ، إلا أن الذى فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم ، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا ، لإفادتها وفاته عليه السلام ، أى بالصلب ، ثم رفعه إلى السماء أعنى قيامه حياً بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن فى أول ساعة من ليلة السبت ، وأقام فى القبر إلى صبيحة الأحد ، ثم انبعث حياً وترأى للنسوة اللاتى جئن إلى قبره زائرات . وقد استندوا فى هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع ، وشهادة تلاميذه الشفاهية فى العالم ، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً . ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه فى معنى الآية مما لا يبق معه أدنى ارتياب . وقد بين علماءنا بطلان معتقدهم هذا فى تأليف وتحارير فائضه فى (حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنْ مَثَلَ عِيسَى » أى شأنه العجيب فى إنشائه بالقدرة من غير أب « عِنْدَ اللَّهِ » أى فى تقديره وحكمه « كَمَثَلِ آدَمَ » أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مراتب « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » جملة مفسرة للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما . وحسم لمادة شبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه السلام بغير أب وأم ، مما لا يكاد يصح - قاله أبو السعود - وقوله (خَلَقَهُ) أى صور

جسد آدم من تراب ثم قال له (كن) أى بشراً كاملاً روحاً وجسداً فإن أمره تعالى يفيد قوة التكون . قال البقاعي : وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء في (فيكون) دون الماضي ، وإن كان التبادر إلى الذهن أن المعنى عليه حكاية للحال وتصويراً لها إشارة إلى أنه كان الأمر من غير تخلف ، وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الأمر أصلاً كما تقدم التصريح به في آية : إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .

لطيفة :

قال الرازي : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :
الأول - ليكون متواضعاً ، الثاني - ليكون ستاراً ، الثالث - ليكون أشد التصاقاً بالأرض . وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(١) . الرابع - أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، الخامس - خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب - انتهى ملخصاً -

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى الذى قصصنا عليك من نبأ عيسى الحق ، وقيل : الحق مبتدأ ، والظرف خبر ، أى الحق المذكور . وقيل : الحق فاعل لمضمر ، أى جاءك الحق . وفي (الحق) تأويلان : الأول - قال أبو مسلم : المراد أن هذا الذى أنزلت

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لما قالت النصارى واليهود . فالنصارى قالوا إن مريم ولدت إلهاً ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فאלله تعالى بين أن هذا الذى أنزل فى القرآن هو الحق . ثم نهى عن الشك فيه .

والقول الثانى - أن المراد أن الحق فى بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل ، وهو قصة آدم عليه السلام ، فإنه لا بيان أقوى منها . والله أعلم .

« فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ » خطاب إماللنبى صلى الله عليه وسلم على طريقة التهيج لزيادة الثبات ، أو لكل سامع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

« فَمَنْ حَاجَّكَ » أى جادلِكَ من النصارى بإيراد حجة « فِيهِ » أى فى شأن عيسى . زعماً منهم أنه ليس على الشأن المتلو « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى الذى أنزلناه إليك ، وقصصناه عليك فى أمره . وللفاضل الميامى فى هذه الآية أسلوب لطيف فى التأويل حيث قال (الْحَقُّ) أى الثابت الذى لا يقبل التأويل جاء (مِنْ رَبِّكَ) الذى ربك بالاطلاع على الحقائق (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ) بما ورد فى الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله فإنه إطلاق مجازى لأنه لماحدث منه كان كأييه . وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام (فَمَنْ حَاجَّكَ) أى جادلِكَ (فِيهِ) لإثبات ابنيته بطواهر الإنجيل (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) القطعى الموجب لتأويله . « قُلْ » لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة « تَعَالَوْا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يُعرف فيه علو الحق وسفول

الباطل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ » أى يدع كل من ومنكم نفسه ، وأعزة أهله ، وأصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ويحارب دونهم ، ويحملهم على المباهلة « ثُمَّ نَبْتَهِلْ » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد في دعاء اللعنة « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ » أى إبعاده وطرده « عَلَى الْكَافِرِينَ » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين ، فلا يبق العناد الباقي عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأيد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله في العالم العنصرى ، فيكون انفعال العالم العنصرى منه كانه فعال بدنا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر في أحوال المعشوق ، وغير ذلك من تحريك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم . وانفعال النفوس البشرية منه كانه فعال حواسنا وسائر قوانا من هيات أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسى به كان تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالى تأثير ما يتصل به ، فتتفاعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد . ألم ترى كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف ، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت المودعة بقبول الجزية؟

الثانى - قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجمعوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر ، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم : ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفي القصة أن النبي ﷺ لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم !

دعنا ننظر في أمرنا ، ثم تأتيت بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى ! لقد عرفتم إن محمداً نبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبياً قط ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ورجع على ديننا ، فلم يلاعنهم ﷺ ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبي عن جابر قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فعدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقراه بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : والذي بعثني بالحق ، لو قالوا : لا ، لأمطر عليهم الوادي ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : ندعُ أبنَاءَنَا ... الآية - قال جابر : أنفسنا وأنفسكم : رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ، وأبنائنا : الحسن والحسين ، ونسائنا : فاطمة ، وهكذا - رواه الحاكم في مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال .

وقد رواه أبوداود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مراسلاً ، وهذا أصح . وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخاري^(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد ، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابتعث معنا

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٧٢ - باب قصة أهل نجران .

رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً، حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة . ورواه مسلم والنسائي أيضاً وغيرهم .

وروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : قال أبو جهل - قبحه الله - : إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مآلاً ولا أهلاً .

قال ابن كثير : وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة في (زاد المعاد) وأعقبها بفصل مهم في فقها . فليراجع .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت ما كان دعاؤه إلى الباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وعن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت الباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن تمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الطمأن في الحروب لتمتعهم من الحرب . ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مُفَدَّون بها . وفيه دليل ، لا شيء أقوى منه ، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ . لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، حديث ٢٢٢٥ (طبعة المعارف) .

الرابع - استنبط من الآية جواز المحاجة في أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلتة اقتداء بما أمر به ﷺ . والمباهلة الملاعنة .

قال الكازرونى في تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدوانى قدس الله سره في جواز المباهلة بعد النبى ﷺ ، فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجّة والسعى في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان في تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيم، رحمه الله، من خلفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة . وتام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بـ (التونية) - انتهى - وقد ذكر في (زاد المعاد) في فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السّنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعى سفيان الثورى في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجّة - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنْ هَذَا » أى المتقدم من شأن عيسى عليه السلام « لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » الذى

لا معدل عنه ، دون أقاصيص النصارى . والقصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها . في معنى قص الأثر ، وهو اتباعه ، حتى ينتهي إلى محل ذى الأثر - أفاده الحراتي - . قال البقاعي : ولما بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحدايته مستدلاً على ذلك بأنه الحى القيوم صريحاً ، ختم ذلك إشارة وتلويحاً فقال ، عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى عبد الله ورسوله ، مُعَمِّماً للحكم : « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ » فصرح فيه بـ (من) الاستغرافية ، تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فلا يشاركه أحد في العزة والحكمة ، ليشاركة في الألوهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » أى بهم فيجازيهم على إفسادهم . والتعبير عنهم بذلك إشارة إلى أنهم ، مفسدون اعتقادهم واعتقاد غيرهم في الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك ، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى « أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » أى لا نرى غيره مستحقاً للعبادة فنشركه معه ، بل نفرد العبادة لله وحده ، لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ^(١) .
 وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^(٢) .
 « وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا » أى كعزير والمسيح والأخبار والرهبان الذين كانوا يحلون
 لهم ويحرمون ، كما روى الترمذى ^(٣) عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ :
 اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال : إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم
 كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

قال الكيا المراسى : فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل
 شرعى ، وعلى من قال : يجب قبول قول الإمام فى التحليل والتحریم ولو دون إبانة مستند شرعى .
 قال البقاعى : ولما كان الرب قد يطلق على العلم والمرتبى بنوع تربية ، به على أن المحذور
 إنما هو اعتقاد الاستبداد والاجترأ على ما يختص به الله فقال : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » الذى
 اختص بالكمال « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن هذه الكلمة السواء المتفق عليها « قَقُولُوا » أى
 تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وامتنالاً لوصيته إذ قال :
 وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى لزمتمكم الحجة فوجب
 عليكم أن تعترفوا بأننا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو
 غيرها : اعترف بأنى أنا الغالب ، وسلم لى الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ،
 ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره - كذا فى
 الكشف - .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : . . . ، فَنَهَمُ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ
 عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسن

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ » أى تجادلون فيه فيدعيه كل من فريقكم « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ » أى المقرر كل منهما لأصل دين منتحل منكم « إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » أى الأشخاص الحق « حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر محمد ﷺ إذله ذكر في كتابكم فأمكنكم تغييره لفظاً ومعنى ، أو من أمر موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مما نطق به التوراة والإنجيل « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر إبراهيم لكونه لم يذكر في كتابكم بما حاججتم ، فلا يمكنكم فيه التغيير « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » فيبينه لنيبه « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا » أى كما ادعى اليهود « وَلَا نَصْرَانِيًّا » كما ادعى النصارى « وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا » سبق معنى الحنيف عند قوله تعالى : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . فى البقرة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بأنهم مشركون بقولهم : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ،
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ » أى أخصهم به وأقربهم منه . من (الْوَلِي) وهو القرب
« لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ » أى فى دينه من أمته وغيرهم « وَهَذَا النَّبِيُّ » يعنى خاتم الأنبياء محمداً ﷺ
« وَالَّذِينَ آمَنُوا » به فعملوا بشريعته الموافقة لشريعة إبراهيم « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »
بالنصر والمعونة والمجبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ)

« وَدَّتْ » أى تمت « طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ » بالرجوع إلى دينهم
حساداً وبنياً « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » أى وما يتخطاها الإضلال ، ولا يعود وباله إلا عليهم ،
إذ يضاعف به عذابهم « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى أن وزره خاص بهم . ونظير هذه الآية قوله تعالى :
« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ ^(١) . وقوله : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ^(٢) .

- (١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا
وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .
- (٢) [٤ / النساء / ٨٩] ونصها : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)
« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى المنزلة على محمد ﷺ « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى تعلمون حقيتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة « وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى الذى لا يقبل تمويهاً ولا تحريفاً « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى عالين بما تكتُمونه من حقيقته وقد كانوا يعلمون ما فى التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس فى ذاك ، كدأبهم فى غيره . وفى الآية دلالة على قبح كتمان الحق ، فيدخل فى ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة ؛ وعلى قبح التلبس . فيجب حل الشبهة وإبطالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ » أى أوله « وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » هذه الآية حكاية لنوع آخر = سَوَاءٌ ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

من تلبسائهم . وهى مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم . فيظن الضعفاء أنه لاغرض لهم إلا الحق ، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد ، وهم أولو علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم ، ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الإسلام كما رجعتهم .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة فى إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :
الأول - أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً .
الثانى - أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف .
الثالث - أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتليس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » من تمتة كلامهم أى ولا تصدقوا إلا نبياً تابعا لشريعتهم ، لا من جاء بغيرها ، أو ولا تؤمنوا ذلك الإيمان المتقدم ، وهو إيمانهم وجه النهار ، إلا لأجل حفظ أتباعكم وأشياعكم وبقائهم على دينكم « قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ » أى الذى هو

الإسلام وقد جئكم به ، وما عداه ضلال فلا ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف ولا تقدرون على إضلال أحد منا بعد أن هدانا الله . ثم وصل به تقرعهم فقال « أَنْ » بعد الألف على الاستفهام، في قراءة ابن كثير . وتقديرها في قراءة غيره. أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلم ما قلمت ودبرتموه ألأن « يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » من الشرائع والعلم والكتاب، « أَوْ » كراهة أن « يُحَاجُّوكُمْ » أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتهم « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتهم بعد البيان الواضح فيفضحكم « قُلْ إِنْ أَلْفُ نَفْسٍ شَهِدَتْ بِكَ وَاحِدٌ نَكَرَ » أى يأنزل الآيات وغيرها « يَبْدِ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » فلا يمكنكم منعه « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » كثير العطاء « عَلِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

«يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ» فيزيده فضلا عليكم «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

(٧٥) (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » بالمطالبة والترافع وإقامة البينة ، فلا يبعد منه الخيانة مع الله بكمكان ما أمر بإظهاره طمعاً في إبقاء الرئاسة والرشا عليه. ثم استأنف علة الخيانة بقوله « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب عقاب ومؤاخذه

فهم يخونون الخلق « وَيَقُولُونَ » أى فى الاعتذار عنه « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » بادعائهم ذلك وغيره فيخونونه أيضا « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنه كذب محض وافتراء لتحريم الغدر عليهم . كما هو فى التوراة . وقد مضى نقله فى البقرة فى آية : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا^(١) . فارجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » اعلم أن (بلى) إما لإثبات مانفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل ، فالوقف حينئذ على (بلى) وقف التمام ، وقوله « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ » جملة مقررّة للجملة التى سدت (بلى) مسدّها ؛ وإما لابتداء جملة بلا ملاحظة كونها جواباً للنفي السابق ، فإن كلمة (بلى) قد تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعدها - كما نقله الرازى - وهذا هو الذى أرتضيه . وإن اقتصر الكشف ومقلدوه على الأول . وقد ذكروا فى (نعم) أنها تأتى للتوكيد إذا وقعت صدرا . نحو : نعم هذه أطلالهم ، فلتكن (بلى) كذلك ، فإنهما أخوان ، وإن تخالفا فى صور ، وعلى هذا فلا يحسن الوقف على (بلى) . والضمير فى « بِعَهْدِهِ » إما لاسم (الله) فى قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » على معنى إن كل من أوفى بعهد الله واتقاه فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه . وإما لـ « مَنْ أَوْفَىٰ » على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقاه فإنه يحبه .

قال الزمخشري : فإن قلت فهذا عام . يخيل أنه ولو وفى أهل الكتاب بمهودهم وتركوا

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل. لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسولٍ مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لانتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كله - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » أى يستبدلون « بِعَهْدِ اللَّهِ » أى بما أخذهم عليه في كتابه. أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم « وَأَيْمَانِهِمْ » أى التى عقدوها بالتزام متابعة الحق على السنة الرسل « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الدنيا الزائلة الحقيرة التى لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ » أى لا نصيب ثواب « لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أى ولا يثنى عليهم كما يثنى على أوليائه ، أو لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى بالنار. واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

الأولى - قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن أمن نقض عهداً لله لغرض دنيوى ، أو حلف كاذباً ، فإنه قد ارتكب كبيرة .

الثانية - فى الجمع بين قوله تعالى هنا : وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ . وقوله : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(١) . قال القفال: المقصود من هذه الآية بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره

كلامه فإنما ذلك بسخطٍ عليه ، وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أكلك . وقد يأمر بحجبه عنه ، ويقول : لأرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب ، نعوذ بالله منه . ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريعاً عالياً يختص به أوليائه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة . ومنهم من قال : معنى الآية لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والكل حسن .

الثالثة - روى الشيخان^(١) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان . قال عبدالله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وفي رواية قال : من حلف على يمين صبر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق ذلك : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... الآية . فدخل الأشعث بن قيس الكندي فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا : كذا وكذا ، فقال : صدق ، في نزلت ، كان بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : شاهدك أو يمينه ، قلت : إنه إذا يحلف ولا يبالي ، فقال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية .

وأخرجه الترمذي وأبو داود وقالوا : إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودي .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٣ - باب
إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... الخ .
ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٢٠ و ٢٢١ (طبعنا) .

وروى البخارى^(١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رجلاً أقام سلمة وهو فى السوق. خلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعطه، ليوثق فيها رجلاً من المسلمين ، فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وقدما فى مقدمة التفسير، فى بحث سبب النزول ، وفى سورة البقرة أيضاً عند آية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ^(٢)، ما يعلم به الجمع بين مثل هذه الروايات، وأنه لا تنافى . فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى عن اليهود ، عليهم لعائن الله ، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ليوهوا الجملة بأنه فى كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله ، ولهذا قال تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وقال مجاهد والشعبيّ والحسن وقتادة والربيع بن أنس : يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٣ - باب

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ =

بِالْكِتَابِ يَحْرَفُونَهُ. وهكذا روى البخاري عن ابن عباس^(١) أنهم يحرفون: ويزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلها الله تعالى لم يغير منها حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول . رواه ابن أبي حاتم . قال ابن كثير: فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش . وهو من باب تفسير المعرب المعرب ، وفهم كثير منهم فاسد ؛ وأما إن عني كتب الله التي هي كتبه من عنده، فذلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء - انتهى - وقد قدمنا الكلام على ذلك في مقدمة التفسير عند الكلام على الإسرائيليات، وفي سورة البقرة أيضاً عند قوله تعالى^(٢): أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ .. الآية فليراجع .

ولما بين تعالى كذبهم عليه - جل ذكره - بين افتراءهم على رسله إذ زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه رباً ، فردّ سبحانه عليهم بقوله :

= يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

(٢) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ » أى ماصح ولا استقام . وفى التعبير بـ « بشر » إشعار بعلّة الحكم ، فإن البشرية منافية لما اقروه عليهم « أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ » أى الفهم والعلم أو الحكمة « وَالنُّبُوَّةَ » وهى الخبر منه تعالى ليدعو الناس إلى الله بترك الأنداد « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » أى الذين بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى عبادته وحده « كُونُوا عِبَادًا لِي » أى اتخذونى ربًّا « مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ » يقول لهم « كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أى منسوبين إلى الرب لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالين عاملين معلمين تالين لكتب الله . أى كونوا عابدين مرئيين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات ، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة - أفاده القاشانى - « بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » أى بسبب مشاركتكم على تعليم الناس الكتاب ودراسته ، أى قراءته . فإن ذلك يجركم إلى الله تعالى بالإخلاص فى عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ » أى بالعود إليه وقد بعث لحو الشرك « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى بعد استقراركم على الإسلام .

تنبيهات :

الأول - إذا كان ما ذكر في الآية لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فَلَاَنْ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم، بطريق الأولى والأخرى . ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا المؤمن ، أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال الله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية^(١) - وفي جامع الترمذي^(٢) - كما سيأتي - أن عدى بن حاتم قال : يارسول الله ما عبدوهم . قال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . فالجبهة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ . بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغته إياه رسله الكرام - قاله ابن كثير -

الثاني - في هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . والدراسة مذاكرة العلم والفقه . فدلّت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً، فمن اشتغل بها، لاهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء موقنة بمنظرها، ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ﷺ^(٣) : نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع - كذا في فتح البيان والرازي .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٧٣ =

الثالث - قرئ في السبع « وَلَا يَأْمُرُكُمْ » بالرفع على الاستثناف أى ولا يأمركم الله أو النبي ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم . ومن جلتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية . وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسي تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة في تشهير أمره . ولا يمنعهم ما هم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ في السبع بفتح اللام من : لِمَاءَ اتَّيْتُكُمْ . وكسرهما ، فعلى الأول هي موطئة القسم ، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و«مَا» حينئذ تحتل الشرطية ، و«لَتُؤْمِنَنَّ» ساد مسد جواب القسم والشرط . وتحتل الموصولة بمعنى «لَلَّذِي اتَّيْتُكُمْوهُ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ» وعلى الثاني ، أعنى كسر اللام في «مَا» إمامصدرية أى لأجل إيتائي إياكم الكتاب ثم لحى رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفي قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : تأكيد عليهم . ومن أئمن في نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ في شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فعلى أهمهم أولى . وقد روى عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً ، وهو حي ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضاد ما قاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس - انتهى -

ومن أثر عليّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبيينا ﷺ كما نقل القاضي عياض في (الشفاء) عن أبي الحسن القاسبيّ قال : استخص الله تعالى محمداً بفضله لم يؤت غيره أبانه به . وهو ما ذكره في هذه الآية - انتهى - وقد علمت المراد . بقى أن الإمام أبا مسلم الأصفهانيّ ذهب إلى أن في قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أهمهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك^(١) ، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض ، فكذا هنا . وقال : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٢) وقال في صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٣) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم : لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ^(٤) وبأنهم : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(٥) . فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا هنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولي ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ،

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤-٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .

وقد ذكر تعالى على سبيل الفرض والتقدير في قوله : لَئِنْ أَشْرَكَ كُنْتَ لَيْحَابَظَنَّ عَمَلُكَ فَكُذَّاهُنَا - نقله الرازي - .

ولما بين تعالى أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم شرعٌ شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً ديناً غير دين الله .
فلهذا قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »
أى استسلم له من فيهما بالخضوع والالتحاق لمراذه والجرى تحت قضائه ، كما قال تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) . وقال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّوْظَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٢) . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣) . فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم له كرها . فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع - أفاده ابن كثير « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ، والجملة سبقت للتهديد والوعيد .

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٤] (قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » أى أولاد يعقوب « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كدأب اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » أى منقادون فلا نتخذ أرباباً من دونه .

لطيفة :

نكتة الجمع في قوله « ءَامَنَّا » بعد الأفراد في « قُلْ » كون الأمر عامًا ، والأفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والإيدان بأنه أصل في ذلك . أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة . والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك .

ثانية :

عدى (أنزل) هنا بحرف الاستعلاء ، وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين . إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر ، وقال صاحب (الباب) : الخطاب في البقرة للأمة لقوله : قولوا . فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً . وهنا قال (قل) ، وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته ، فكان اللائق به (على) لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيها .

وفيه نظر ، لقوله تعالى : ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ^(١) - أفاده النسق - .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَمَنْ يَتَّبِعْ » أى يطلب « غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا » أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى . كدأب المشركين صريحاً . والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين . « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » لأنه لم ينقد لأمر الله . وفي الحديث الصحيح ^(١) : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ « وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » لضلالة وجوه الهداية في الدنيا .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع ، واقع في الخسران ، يبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها . وفي ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أظفع وأقبح - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استبعاد لأن يرشدهم الله للصواب ويوفقهم . فإن الحائذ عن الحق ، بعد ماوضح له ، منهمك في الضلال ، بعيد عن الرشاد . وقيل : نفي وإنكار له ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

= بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) أخرجه البخاري في ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٠ - باب إذا أخطأ العامل أو الحاكم .

طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ . والمعنى بهذه الآية إما أهل الكتاب والمراد كفرهم بالرسول ﷺ حين جاءهم ، بعد إيمانهم به قبل مجيئه ، إذ رأوه في كتبهم وكانوا يستفتحون به على الشركين . وبعد شهادتهم بحقيقة رسالته لكونهم عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، وجاءهم البينات على صدقه التي آمنوا مثلها ولما دونها بموسى وعيسى عليهما السلام . فظلموا بحقه الثابت بيناته وتصديقه الكتب الساهية . وإما المعنى بالآية من ارتدّ بعد إيمانه . على ما روى في ذلك كما سند كره . ثم بين تعالى الوعيد على كلِّ بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) «أُولَئِكَ» أى الموصوفون بما تقدم «جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ» أى طرده وغضبه «وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» المراد بالناس إما المؤمنين أو العموم ، فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ، فقد لعن نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) «خَالِدِينَ فِيهَا» أى فى اللعنة أو العقوبة أو النار ، وإن لم يجر ذكرها لدلالة السلام عليهما . والتخليد فى اللعنة على الأول بمعنى أنهم يوم القيامة لا يزال تألمهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم فى النار ، فلا يخلو شئ من أحوالهم من أن يلعنهم لأعن من هؤلاء ، أو بمعنى الخلود فى أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبّر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَخْمَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَرًا * خَالِدِينَ فِيهِ^(١) ، أفاده الرازى - «لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» أى لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتدروا ، أو لا ينظر نظر رحمة إليهم .

(١) [٢٠ / طه / ١٠٠ و ١٠١] ... وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى الكفر بعد الإيمان « وَأَصْلَحُوا » أى وضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة . وفيه أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم . وهذا من لطفه وبره ورأفته وعائده على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه . وقد روى ابن جرير^(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأرسل إليه قومه فأسلم . وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال^(٢) : جاء الحرث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ، ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزله الله فيه : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ . قال فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحرث : إنك والله ، ما علمت ، لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة . قال : فرجع الحرث فأسلم فحسن إسلامه .

قال ابن سلامة : فصارت فيه توبة ، وفي كل نادم إلى يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية . ثمرة الآية جواز لعن الكفار ، وسواء كان الكافر معيناً

(١) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٠

والنسائي في : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ١٥ - باب توبة المرتد .

(٢) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٣

أوغير معيّن ، على ظاهر الأدلة . وقد قال النووي : ظاهر الأحاديث أنه ليس بجرام . وأشار الغزاليّ إلى تحريمه إلا في حق من أعلنّا الله أنه مات على الكفر . كأيّ لُهب وأبي جهل وفرعون وهامان وأشباههم . قال : لأنه لا يدرى بما يحتمّ له . وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم يجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر . وأما ما ورد في الترمذيّ^(١) عنه ﷺ : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي . فقيل : اللعان مثل الضراب للمبالغة ، والمعنى لا يعتاد اللعن حتى يكثر منه . ومن ثمرات الآية صحة التوبة من الكافر والعاصي بالردة وغيرها ، وذلك إجماع . إلا توبة المرتد ففيها خلاف شاذ . فعند أكثر العلماء أن توبته مقبولة لهذه الآية وغيرها . وعند ابن حنبل لا تقبل توبته - رواه عنه في (شرح الإبانة) قيل وهو غلط . لهذه الآية ولقوله تعالى في سورة النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا^(٢) . فأثبت إيماناً بعد كفر تقدمه إيمان . ولو تكررت منه الردة صحت توبته أيضاً عند جمهور العلماء ، لقوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآذٍ سَلَفَ^(٣) . وقال إسحق بن راهويه : إذا ارتد في الدفعة الثالثة لم تقبل توبته بعد ذلك . أي لظاهر آية النساء - انتهى - قلت : وفي (زاد المستقنع) و (شرحه) : من فقه الحنابلة ما نصه : ولا تقبل توبة من تكررت رده بل يقتل . لأن ذلك يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام - انتهى - وهو قريب من مذهب إسحق . وحكى في (فتح الباري) مثله عن الليث وعن أبي إسحق المروزيّ من أئمة الشافعية .

(١) الترمذيّ في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٨ - باب ما جاء في اللعنة .

(٢) [٤ / النساء / ١٣٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ

كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

(٣) [٨ / الأنفال / ٣٨] ... وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الضَّالُّونَ » أى الذين ضلوا سبيل الحق وأخطأوا منهاجه . وقد أشكل على كثير قوله تعالى
« لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما فى الآية قبلها ، وقوله سبحانه :
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ^(١) . وغير ذلك . فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت .
قال الواحدى فى (الوجيز) : لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت ، وتلك التوبة
لا تقبل - انتهى - ، أى كما قال تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا
خَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ ^(٢) الآية . وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون .
كقوله : أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٣) . وإنما كنى بذلك تغليظاً فى شأنهم
وإبرازاً لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً
لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقي للمفسرين وجوه أخرى ، هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

(١) [٤٢/الشورى/ ٢٥] ... وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

(٢) [٤/النساء/ ١٨] ... قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٣) [٢/البقرة/ ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و [٣٦/يس/ ١٠] ونصها : وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا^(١) الخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردة لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحق وأحمد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه في الكفر . وقد أشار القاشاني إلى أن هذه الآية مع التي قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان في باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا : أنكر تعالى هدايته لقوم قد هدامم أولاً بالنور الاستعدادي إلى الإيمان ثم بالنور الإيماني إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم (كذا) . وانضم إليه الاستدلال العقلي بالبينات ، ثم ظهرت نفوسهم بعد هذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأماراة عليهم الذي هو غاية الظلم فقال : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم في البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان : قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأماراة على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا في النفي والاستشراء ، وتمادوا في البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول ؛ وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم ريناً ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستحيوا بحكم غريز العقول . فأشار إلى القسم الأول بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى آخره ، وإلى الثاني بقوله : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ)
« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا »

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٨٨٣ .

وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ « هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١) . وقد روى الإمام أحمد والشيخان ^(٢) عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أ كنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ! وفي رواية للإمام أحمد ^(٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ! خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات - لما يرى من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل . فيرد إلى النار . ولهذا قال « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

في قوله تعالى « وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ » قال صاحب الانتصاف : إن هذه الواو المصاحبة للشرط

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

(٢) أخرجه ، في قريب من هذا اللفظ ، البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار .

ومسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، بالجزء الثالث ، صفحة ٢٠٨ (طبعة الحلبي) .

تستدعى شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقررة به ضرورة. والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى. مثاله : قولك أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نهيت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ^(١) . معناه - والله أعلم - لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً . لان قوله : وَلَوْ افْتَدَى بِهِ . يقتضى شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى . وهذه الحال المذكورة ، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً ، هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الزمخشري الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلا ن يتنفي فيما عدا هذه الحالة أولى ؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فمفسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله . فنقول : قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها - أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . . . أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ومنها - أن يقول المفتدى في التقدير : أفدى نفسى بكذا - وقد لا يفعل -
ومنها - أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ،
وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى
بملء الأرض ذهباً افتداءً محققاً ، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ،
ومع ذلك لا يقبل منه . فجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجرى هذا المجرى بطريق
الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثمَّ أحوالاً آخر لا ينفع فيها
القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى :
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١) - والله أعلم - وهذا كله تسجيل بأنه
لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فن المعلوم أنهم أعجز عن الفلاس في ذلك اليوم .
ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها
إلى في يدي هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولى التوفيق - انتهى - .
وتمت وجه ثان وهو أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به في تلك الآية ، فالمعنى
لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك :
ضربته ضرب زيد ، زيد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة : تريد مثله . وقضية ولا
أبا حسن لها ، أى ولا مثل أبى حسن . كما أنه يراد في نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ،
تريد : أنت . وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسد الآخر ، فكانا في حكم شيء واحد ، وعلى هذا
الوجه يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم
قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

(١) [٥ / المائة / ٣٦] .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل (ملء الأرض) أولاً على الافتداء بل على التصديق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى : لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وضمير « به » للمال من غير اعتبار وصف التصديق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم ، إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار . بناءً على أن تعريف البر للجنس . أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته ، إذا كان للعهد ، حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون ، أى تهوونه ويمجّبكم من كرائم أموالكم ، كما في قوله تعالى : أَفْنَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ^(١) ؛ وقد روى الشيخان^(٢) عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبله المسجد ، وكان رسول الله ﷺ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤٤ - باب الزكاة على الأقارب ،

حديث ٧٧٦ .

ومسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب أموالى إلى يبرحاء ، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضمها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله ﷺ : بخ بخ . ذلك مال راجح ، ذلك مال راجح ، وقد سمعت ماقلت . وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين ، قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه - (ويروى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها والماء والقصر ، وهو اسم حديقة بالمدينة - وفي الفائق : إنها فيعلى من البراح ، وهو الأرض الظاهرة . وبخ بخ كلمة استحسان ومدح كررت للتأكيد ، وراجح بالوحدة أى ذو ربح ، وبالمثناة التحتية أى يروح عليك نفعه وثوابه) .

وفي الصحيحين^(١) أن عمر قال : يا رسول الله ! لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخير ، فأتأمرنى به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة .

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » فذكرت ما أعطانى الله ، فلم أجد شيئا أحب إلى من جارية لى رومية ، فقلت : هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شيء جعلته لله ، لنكحتها . يعنى تزوجتها .

تنبيه :

قال القاشانى ، فى هذه الآية : كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ، ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبرؤ عما سواه ، فمن أحب شيئا فقد حجب عن الله تعالى به ، وأشرك شركا خفيا ، لتعلق محبته بغير الله ، كما قال تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ

(١) أخرجه فى المسند حديث ٥١٧٩ (طبعة المعارف) .

كَحَبِّ اللَّهِ^(١) وآثر نفسه به على الله ، فقد بعد من الله بثلاثة أوجه . وهي محبة غير الحق ، والشرك ، وإيثار النفس على الحق ؛ فإن آثر الله به على نفسه وتصدق به وأخرجه من يده فقد زال البعد ، وحصل القرب ، وإلا بقي محجوباً ، وإن أنفق من غيره أضعافه ، فما نال برّاً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره .

« وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى فجازيكم عليه ، قليلاً كان أو كثيراً ، جيداً أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ » قال الزمخشري : المعنى أن الطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم ، لم يحرم منها شئ قبل ذلك غير الطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه ، فتبعوه على تحريمه .

تنبيهات :

الأول - روى ، فيما حرمه إسرائيل على نفسه ، أنه لحوم الإبل والبانها ، رواه الإمام أحمد فى قصة ، والترمذى وقال : حسن غريب . وروى عن ابن عباس والضحاك والسدى وغيرهم موقوفاً عليهم أنه العروق . قالوا : كان يعتره عرق النساء بالليل فيزجه ، فنذر لئن عوفى لا يأكل عرقاً ، ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى إخراج العروق من اللحم
(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

استثنائه ، واقتداء بطريقه . قال الرازي : ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بُرْدًا إلى أخيه عيسو إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه وقال : إن عيسو هو ذا يتلقاتك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، وذكر القصة ، إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ، ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فخدرت تلك العصبية وجفت ، فن أجل هذا لا يأت كل بنو إسرائيل العروق - انتهى - قلت : والقصة مسوقة في سفر التكوين من التوراة في الأصحاح الثاني والثلاثين .

الثاني : التحريم المذكور ، على الرواية الأولى ، أعني لحوم الإبل وألبانها ، فكان تبرراً وتعبداً وتزهداً وقهراً للنفس ، طلباً لمرضاة الحق تعالى . وعلى الثانية فإموافاء بالنذر وإماتداوياً وإمأكونه يمجء نفسه تمافه - والله أعلم - فالتحريم بمعنى الامتناع .

الثالث : قال الزمخشري : الآية رءء على اليهود وتكءذب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى : فَيَظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . إلى قوله تعالى : عَذَابًا أَلِيمًا^(١) وفي قوله : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ، إلى قوله : ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ^(٢) . وجءوء ما غاظهم واشمأزوا منه ، وامتمعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيمهم وظالمهم . فقالوا لسنأ بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قءيم ، كانت محرمة

(١) [٤ / النساء / ١٦٠ و١٦١] . . . وَبَصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدَّ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . . . إِلَّا مَا سَحَكَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبنى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم - انتهى - .

« قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم أنه تحريم قديم . وفى أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم وبيكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم حادث لا قديم ، كما يدعونه - أعظم برهان على صدقه وكذبهم إذ لم يجسروا على إخراج التوراة . فبهتوا واقلبوا صاغرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَمَنْ افْتَرَىٰ » أى تعدد « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » أى فى أمر المطاعم وغيرها « مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لتعرضهم إلى أن يهتكهم تعالى ويعذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » أى ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ . ومن آمن معه والتى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وأزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولن تبعه « حَنِيفًا » أى مائلًا عن الأديان الزائفة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بما فى اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلهية عيسى ، فكيف يزعمون أنهم على ملته ، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وهو الذى بُعِثَ به محمد ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)
 « إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » أى لنسكهم وعباداتهم « لَلَّذِي بِبَكَّةَ » أى
 للبيت الذى ببكة، أى فيها . وفى ترك الموصوف من التفضيم مالا يخفى . وبكة لغة فى مكة ،
 فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم (ضَرْبَةٌ لَازِبٌ وَلَازِمٌ) و (النَّمِيطُ
 وَالنَّبِيطُ) فى اسم موضع بالدهناء ، وقولهم (أَمْرٌ رَاتِبٌ وَرَاتِمٌ) و (أَغْبَطْتُ
 الْحِمَى وَأَغْطَمْتُ) . وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك لدقها أعناق
 الجبابرة ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من « بَكَّةُ » إذا
 فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كأن مكة من « مَكَّةُ » أهلكته ونقصه . لأنها تهلك من ظلم فيها
 وألحد وتنقص الذنوب أو تنفيها - كما فى القاموس - وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هى
 (ميشا) أو (ماسا) المذكورة فى التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ عن اسم واحد من أولاد
 إسماعيل وهو (مسّا) . « مُبَارَكًا » أى كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه ، واعتمره
 واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » لأنه
 قبلتهم ومتعبدتهم .

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولاً فى الوضع والبناء ، ورووا فى ذلك
 آثاراً . منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها أنه تعالى بعث
 ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها أنه
 أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألنى عام .
 وليس فى هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد أول بيت وضع مسجداً . كما
 بينه رواية ابن أبى حاتم عن على رضى الله عنه فى هذه الآية قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه

أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفي الصحيحين^(١) عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، ثم أين أدر كنتك الصلاة بعد فصلته . فإن الفضل فيه .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى . وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا المقدار - انتهى - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)
« فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » وهو الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت .

قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطواف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى^(٢) ، وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الترخيب

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٠ - حدثنا موسى بن إسماعيل ،

حديث ١٥٨٩ .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١ (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا =

في زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفه بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا . أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه في صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف سنة ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة (آية بينة) على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها في قوة أن يقال « وأمن من دخله » فتكون ، بحسب المعنى والمآل ، معطوفة على مقام إبراهيم ، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداها دلالة على كثرتها - أفاده أبو السعود - قال المهيمن : « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » رمى الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتمجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعا تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها . النازل بمنزلة الكل ، مقام إبراهيم ، الحجر الذي قام عليه عند رفعه قواعد البيت ، كلما علا الجدار ارتفع الحجر في الهواء ، ثم لين ، ففرقت فيه قدماء ، كأنهما في طين ، فبقى أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره اه .

= وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١) ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا^(٢) ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب . وعن عمر رضي الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج عنه اه .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعي الذي وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . ففي الصحيحين^(٣) ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم فتح مكة^(٤) : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعصده شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقْطَتَهُ ، إلا من عرفها ، ولا يحتلى خلالها . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر . ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ؛

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . . . أَفْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٢٧ - باب وجوب النفير ، حديث ٧١٠

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ١٠ - باب لا يحل القتال بمكة ،

حديث ٧١٠ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعنا) .

ولهما^(١)، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ، ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناني ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح : ما قال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أباشريح . إن الحرم لا يعيد عاصياً ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخربة^(٢) .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد)^(٣) : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا ، هذا التحريم لسفك الدم المحتص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرماً ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلأها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

أحدهما :

وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله ، أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقا تل لاسيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير . فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٧ - باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب ،

حديث ٨٩ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أي بسبب السرقة .

(٣) انظر الجزء الثاني ، صفحة ١٧٧ .

في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيد عاصياً ، فيقال له : هو لا يعيد عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعِده من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى آدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيد العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعِدْ مِقْسَسَ بنِ صُبَابَةَ وابنَ خُطَلٍ ومن سَمِيَ معهما لأنه في تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلاً ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب في جاهليتها ، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم فلا يهيجهُ ، وكان ذلك بينهم خاصة الحرم التي صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك ، وعلى هذا فن أتى حدّاً أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر ما بدته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبي في الحرم ماهجته حتى يخرج منه ، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافة . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم كما يستوفى منه في الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة^(١) ، وبما يروى

(١) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ١٨ - باب دخول الحرم ومكة

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) : إن الحرم لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم ولا بخربة ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعده الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حداً أو قصاصاً لم يعده الحرم ولم يمنعه من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده ، فلم يفرق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيح قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ^(٢) : خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم . فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة - وهي فسقهن - ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمة ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمة في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

= عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر . فلما نزع جاء رجل فقال : إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة . فقال « اقتلوه » .

(١) هذا القول ليس قوله صلى الله عليه وسلم وإنما هو قول عمرو بن سعيد . انظر

الحاشية رقم ١ ص ٨٩٨ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ٧ - باب ما يقتل المحرم من

الدواب ، ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب

كلهن فاسق يقتلن في الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعنا) .

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١). وقوله تعالى: وَقَالُوا إِنَّ نَبَّيْعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ^(٢).

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: من دخله كان آمناً من النار ، وقول بعضهم: كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فكم ممن دخله وهو في قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل زمان ومكان فيقال أولاً : لا تعرض في تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لا يدل عليها بوضعه ، ولا يتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول مَحْصَلٌ إن قوله تعالى: وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ^(٣) . مخصوص بالنكوح في عدتها أو بنفي إذن وليها ، أو بنفي شهود ، فهكذا النصوص العامة في استيفاء الحدود والقصاص لا تعرض فيها لزمانه ولا مكانه ولا شرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لئلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والرضع والمريض الذي يرجى برؤه ، والحال المحرمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها كلنا لكم هذا الصاع

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . . . رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ،

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

سواء بسواء . وأما قتل ابن خطل فقد تقدم أنه كان في وقت الحل ، وإن النبي ﷺ قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله ﷺ : وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، صريح في أنه إنما أحل له سفك دم حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالاً في كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهذا صريح في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيد عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق ، يردّ به حديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الكعبيّ هذا الحديث ، كما جاء مبيناً في الصحيح ، فكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وأما قولكم : لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعيده الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله ، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونها ، ومن فرق قال سفك الدم إما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه في الحرم تحريم مادونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجري مجرى التأديب ، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها في ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام في الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يُقَمَّ عليه الحد حتى يخرج منه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينما بينهما في الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولكم إن الحرم لا يعيد من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل في الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل في الحرم أقيم عليه في الحرم . وذكر الأثر من

ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً في الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شيء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل في الحرم فقال « وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه :
أحدها :

أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجنابة فيه ، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه ممظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .
الثاني :

أن الجاني فيه بمنزلة الفساد الجاني على بساط الملك في داره وحرمه ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمه ثم دخل إلى حرمه مستجيراً .
الثالث :

أن الجاني في الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمه فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع :
أنه لو لم يتم الحد على الجنابة في الحرم لم الفساد وعظم الشر في حرم الله ، فإن أهل الحرم كغيرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد في حق من ارتكب الجرائم في الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .
والخامس :

أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره ، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمة .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم إنه حيوان مفسد فأبيح قتله في الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمي فالأصل فيه الحرمة وحرمة

عظيمة ، فإنما أبيع لعارض فأشبهه الصائل من الحيوانات المباحة من الماء كولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضاً فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب المقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعادها الحرم لعظم عليهم الضرر بها - انتهى . (من الجزء الثانى من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٨٠) .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه أردفه بذكر إيجاب الحج فقال « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » اللام فى البيت للعهد . وحجه : قصده للزيارة بالنسك المعروف . وكسر الحاء وفتحها لفتان ، وهما قراءتان سبعيتان ، وفى الآية مباحث :

الأول :

فى إعرابها قال أبو السعود فى صدر الآية : جملة من مبتدأ هو « حِجُّ الْبَيْتِ » وخبر هو « لِلَّهِ » وقوله تعالى « عَلَى النَّاسِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار ، والعامل فيه ذلك الاستقرار ، ويجوز أن يكون « عَلَى النَّاسِ » هو الخبر ، و « لِلَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر . ثم قال فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فى محل الخبر على أنه بدل من « النَّاسِ » بدل البعض من الكل مخصص لعمومه ، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف ، أى « من استطاع منهم » ، وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة ، أى هم من استطاع ، وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى .

الثانى :

هذه الآية هى آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل هى قوله « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ »^(١) ، والأول أظهر . وفى فتح البيان : اللام فى قوله « لِلَّهِ » هى التى يقال لها

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « عَلَى » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان على كذا . فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً .

الثالث :

يجب الحج على المكلف في العمر مرة واحدة . بالنص والإجماع ؛ روى الإمام أحمد ومسلم^(١) وغيرها عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وروى الإمام أحمد وأبو داود^(٢) والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ! إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

== مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعنا) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ، حديث ٢٣٠٤ .

وأبو داود في : ١١ - كتاب المناسك ، ١ - باب فرض الحج ، حديث ١٧٢١ .

الرابع :

استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء في قوله تعالى « مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضاً ، فملى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة ، الحج . على ظاهر الآية . قال : وروينا عن عكرمة أنه قال : الاستطاعة/الصحة . وقال الضحاك : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يتقضى نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبوّاً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة الزاد والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة - رواه الترمذى - وفي إسناده الخوزى فيه مقال . قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عز وجل : مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . فقيل : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس :

قال الإمام ابن القيم الدمشقى رضى الله عنه في (زاد المعاد) في سياق هديه صلى الله عليه وسلم في حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهي حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟

وروى الترمذى^(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : حج النبي ﷺ ثلاث حجج : حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر ، معها عمرة . قال الترمذى : هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً - يعنى البخارى - عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى . وفى رواية : لا يعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعالى : **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ، فإنها ، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء . فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة . ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع . وبعث الصديق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلى رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

« **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** » إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى ، لا تعلق له بما قبله ، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه ، وهو أظهر وأبلغ . والكفر ، على هذا ، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقدم الأمر به . ونظيره فى السنة ما رواه

(١) أخرجه الترمذى فى : ٧ - كتاب الحج ، ٦ - باب ما جاء : كم حج النبي ﷺ .

النسائي والترمذي^(١) عن بريدة مرفوعاً : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر . وعن عبد الله بن شقيق قال^(٢) : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة - أخرجه الترمذي - ولأبي داود^(٣) عن جابر مرفوعاً : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . ولفظ مسلم^(٤) : بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وروى الترمذي^(٥) عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من ملك زاداً وراحلة تبغله إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن عمر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضي الله عنه . وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين . قال السيوطي في (الإكمال) : وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر : من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج ، كان سيأه بين عينيه كافر ، ثم تلا هذه الآية .

(١) أخرجه النسائي في : ٥ - كتاب الصلاة ، ٨ - باب الحكم في تارك الصلاة .

والترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ٩ - باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ٩ - باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٥ - باب الدليل على الزيادة والنقصان ،

حديث ٤٦٧٨ .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٣٤ (طبعنا) .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٧ - كتاب الحج ، ٣ - باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج .

تنبيه :

هذه الآية السكريمة حازت من فنون الاعتبارات العربية عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه ، فمنها الإتيان بـ (اللام وعلى) في قوله : **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ** . يعنى أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده ؛ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه (من استطاع إليه سبيلاً) ، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما - أن الإبدال ثنية للمراد وتكريره .

والثاني - أن الإيضاح بعد الإيهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين .

ومنها قوله « **وَمَنْ كَفَرَ** » مكان « **من لم يحج** » تغليظاً على تارك الحج . ومنها ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : **عَنِ الْعَالَمِينَ** ، ولم يقل : عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه - أشار لذلك الزمخشري - ثم عنف تعالى كفره أهل الكتاب على عنادهم للحق بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)**

« **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** » أى الدالة على نبوة محمد ﷺ

وقوله : « **وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ** » حال مفيدة لتشديد التوبيخ . وإظهار الجلالة في موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب . وصيغة المبالغة في (شَهِيدٌ) لتأكيد الوعيد ، وكل ذلك موجب لعدم الاجترار على ما يأتونه . ثم عقب تعالى الإنكار عليهم في ضلالهم توبيخهم في إضلالهم فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام « مَنْ آمَنَ » مفعول (تصدون) قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به « تَبْغُونَهَا » على الحذف والإيصال ، أى تبغون لها ، أى لسبيل الله التى هى أقوم السبل « عِوَجًا » أى اعوجاجاً وزيفاً وتحريفاً . قال ابن الأنبارى : البغى يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أى وهبت لك درهماً ، ومثله صدتك ظبياً ، أى صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حماراً
أراد : أصيد لكم .

قال الرازى : وفى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون (عوجاً) فى موضع الحال . والمعنى تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين فى (الاتصاف) وجهاً آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هى المفعول به ، و(عوجاً) حال وقع فيها المصدر الذى هو (عوجاً) موقع الاسم ، وفى هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج . على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم - والله أعلم -

« وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ » بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى بحسن اعتقادكم فيهم لكونهم أهل الكتاب « يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بالتوحيد والنبوة « كَافِرِينَ » لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ .. (١) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« وَكَيفَ تَكْفُرُونَ » معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب . والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر ؟ « وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ » وهى القرآن المعجز الذى هو أجل من الآيات المتلوة عليهم « وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ، وقد هداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الجهالة « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى من يتمسك بدينه الحق الذى بينه بآياته على لسان رسوله ، وهو الإسلام والتوحيد ، المعبر عنه بسبيل الله ، فهو على هدى لا يضل متبعمه . قال الزخشرى : ويجوز أن يكون حشاً لهم على الالتجاء إليه فى دفع شرور الكفار ومكايدهم - انتهى - فالجملة حينئذ

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : ... مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تذييل لقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا... الخ ، لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف ضرورهم ومكايدهم ، فلا تخافوهم ، والتجئوا إلى الله في دفع ذلك ، لأن من التجأ إليه كفاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » أى حق تقواه ، وذلك بدوام خشيته ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها . وقد روى الحافظ ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود أنه قال فى معنى الآية : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعاً ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

قال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف - والله أعلم - .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى العبدُ اللهَ حقَّ تقاته حتى يخزن لسانه . وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : أن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم . ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . أقول : كل ما زوى ، مما تشمله الآية بعمومها ، فلا تنافى .

تنبيه :

زعم بعضهم أن هذه الجملة من الآية منسوخة بآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (١) متأولاً حق تقاته بأن يأتى العبد بكل ما يجب لله ويستحقه . قال : فهذا يعجز العبد عن الوفاء ، فتحصيله ممتنع . وهذا الزعم لم يصب المحز ، فإن كلامنا الآيتين سيق فى معنى خاص به ، (١) [٦٤ / التباين / ١٦] ونصها : ... وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فلا يتصور أن يكون في هذه الجملة طلب مالا يستطيع من التقوى ، بل المراد منها دوام الإنابة له تعالى وخشيته وعرفان جلاله وعظمته قلباً وقالباً ، كما بينا . وهذا من المستطاع لكل منيب . وقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . أمر بعبادته قدر الاستطاعة بلا تكليف لما لا يطاق ، إذ : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(١) . وظاهر أن من أتى بما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله ، وأخلص في أعماله ، وكان مشفقاً في طاعاته ، فقد اتق الله حق تقاته . « وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مخلصون نفوسكم لله تعالى . لا تعملون فيها شركة لما سواه أصلاً ، كما في قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ^(٢) . وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى لا تموتن على حال من الأحوال ، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه ، كما ينبيء عنه الجملة الاسمية . ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها . والعامل في الحال ما قبل (إلا) بعد النقص . وظاهر النظم الكريم ، وإن كان نهياً عن الموت القيد بقيد ، هو الكون على أى حال غير حال الإسلام - لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ . وحيث كان الخطاب للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت . وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة في النهى عن قيده المذكور . فإن النهى عن القيد في أمثاله ، نهى عن القيد ورفع له من أصله بالكلية ، مفيد لما لا يفيد النهى عن نفس القيد . فإن قولك : لا تصل إلا وأنت

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : ... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : ... وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

خاشع ، يفيد من المبالغة في إيجاب الخشوع في الصلاة ما لا يفيد قولك : لا تترك الخشوع في الصلاة . لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط ، وذاك نهى عنه وعما يقارنه ، ومفيد لكون الخشوع هو العمدة في الصلاة ، وأن الصلاة بدونها حقها أن لا تفعل . وفيه نوع تحذير عما وراء الموت - أفاده أبو السعود .

وقد مضى في سورة البقرة الكلام على لون آخر من سر البلاغة في هذه الجملة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» الجبل إما بمعنى العهد، كما قال تعالى في الآية بعدها: **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَتَمًّا نَقُفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ** ^(١) . أى بعهد وذمة، وإما بمعنى القرآن ، كما في صحيح مسلم ^(٢) عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال :

(١) [٣ / آل عمران / ١١٢] ... **وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .**

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٦ (طبعنا) ونصه :

عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم . فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت ، يا زيد ، خيراً كثيراً . رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه . لقد لقيت ، يا زيد ، خيراً كثيراً . =

ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو جبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة ... الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أى شرعه ودينه وكتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالجبل الذى يتمسك به خشية السقوط ، وقوله « وَلَا تَفَرَّقُوا » أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية ، متدابرين ، يعادى بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا

= حدثنا ، يا زيد ، ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا ابن أخى ، والله ! لقد كبرت سنى ، وقدم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أحمى من رسول الله ﷺ . فما حدثتكم فاقبلوا . وما لا ، فلا تكلفونه .

ثم قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، بماء يدعى حُجَّاء ، بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه . ثم قال « وأهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . »

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم : آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفى الحديث رقم ٣٧ قال « ألا وإني تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ، هو جبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » .

وفيه : فقلنا له : من هم أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا . وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يباه جامِعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام - أفاده الزمخشري - « وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » قال الزمخشري : كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، أَلَفَ اللهُ بين قلوبهم بالإسلام ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخواناً متراحين متناحسين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة في الله « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا » أى طرف « حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » بما كنتم فيه من الجاهلية « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » أى بالإسلام. قال ابن كثير : وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى : هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ^(١) ... الآية - وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هدام للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم في القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال ^(٢) : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن - انتهى -

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢ و ٦٣] ونصهما : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسَبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٥٦ - باب غزوة الطائف في شوال

سنة ثمان ، حديث ١٩٣١ ونصه :

=

لطيفة :

قال الزمخشري : الضمير في : منها . للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال ^(١) :

كما شرقت صدر القناة من الدم - انتهى -

= عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ ، يوم حنين ، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . فكانهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس . فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمن . قال « ما يمنكم أن تحببوا رسول الله ﷺ ؟ » قال كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن .

قال « لو شئتم قلتم : جئنا كذا وكذا . أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٣٩ (طبعنا) .

(١) قائله الأعشى . وصدره : وتشرق بالقول الذي قد أذعته

من قصيدة مطلعها :

ألا قل لتيّاً قبل مرّتها اسلمى تحية مشتاق إليها متيم

يهجو عمر بن عبد الله بن المنذر بن عبدان ، حين جمع بينه وبين جهنّم لهاجيه : يقول قبل البيت :

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهزّه وتعلم إني عنك لست بملجم

= وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ، لأنه المحدث عنه - انتهى -

وفي الانتصاف : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنتم إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التي يمتنُّ بالإيقاظ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإيقاظ من الشفا ، فلما استلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة ، فيكون الإيقاظ من الشفا إيقاظاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها . فإضافة النية إلى الإيقاظ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو عليّ في (التعليق) من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه في (الإيضاح) - نقله ابن يسعون -

وما حمل الزمخشريّ على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإيقاظ منها . وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإيقاظ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً ، لولا الإيقاظ الربانيّ . ألا ترى إلى قوله ﷺ (١) : الرائع حول الحمى يوشك أن يواقعه ؟ وإلى قوله تعالى : أَمْ مَنْ أَسْـَٔسَ

= يقول : لأن خربت الأرض فكنت في جب ثمانين قامة ، أو طرت في الفضاء فركبت أسباب السماء ، ليلفئك قولى وليتركك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام ، وتعلم أنى غير عاجز عن الانتقام وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم الرمح بالدم . أسباب السماء : مراقبها ، وقيل طرقها ونواحيها . استدرجه : خدعه وأدناه ، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض . تهرّه : تكرهه . تشرق : تفصّ . صدر القناة : أعلاها . من شرح الديوان للدكتور محمد حسين

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٢ - باب الحلال بين والحرام بين

وبينهما مشبهات :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال النبيّ ﷺ « الحلال بين والحرام بين =

«بُيِّنَ لَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١) . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله «هار» . والله أعلم - انتهى -

ثم قال الزمخشريّ : وشفا الحفرة وشفتها حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا فأنها في المذكر مقبولة ، وفي المؤنث محذوفة . ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبية - انتهى . وحكى الزجاج في ثنية شفا «شفوان» . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمالة عرف أنه من الواو ، لأن الإمالة من الياء - كذا في الصحاح .

ثم قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار ، فثلث حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار ، بالتمسك على حرفها مُشْفِينَ على الوقوع فيها .

قال الرازيّ : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة ، إلا ما بين طرف الشيء وبين ذلك الشيء .

«كَذَلِكَ» أى مثل ذلك البيان «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ» في كل مكان لإيقاظكم عن الضلال فيه «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» لرشدكم الدينيّ والديويّ فيه . ثم أشار إلى أنه كما أُنقذكم من النار والضلال بإرسال الرسل وإنزال الآيات ، فليكن فيكم من ينقذ إخوانه ، فقال :

= وبينهما أمور مشتبهة . فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك . ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصي حى الله . من يرتع حول الحصى يوشك أن يواقع .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٩] ونصها : أَفَعَنْ أَتَسَّسَ بُيِّنَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَتَسَّسَ بُيِّنَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » أى جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أى يقصدونها ويقتدون بها « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » وهو ما فيه صلاح ديني ودنيوي « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ » أى بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » أى عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة « وَأُولَئِكَ » الداعون الآمرون الناهون « هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح هو الظفر وإدراك البقية . فالدينوى هو إدراك السعادة التى تطيب بها الحياة ، والأخروى أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

قيل : عطف : (وَيَأْمُرُونَ) على ما قبله ، من عطف الخاص على العام - كذا قاله الزمخشري . وناقشه فى الانتصاف . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(١) . وكقوله : فِيهِمَا فَآكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ^(٢) . وكقوله : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى^(٣) . وشبه ذلك . لأن الاختصار على تخصيص ما يفرد بالذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ... وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

يفيده تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر ، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهى ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات ، فالأولى في ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ثم مفصلاً . وفي تنبيهه أن الذكر على وجهين مالا يخفى من العناية - والله أعلم - إلا أن يثبت عرف بخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذا ذاك يتم مراد الزمخشري ، وما أرى هذا العرف ثانياً - والله أعلم - انتهى -
تنبيه .

في الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها - كذا في فتح البيان -

قال الغزالي رضي الله عنه : في هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى « وَلْتَكُنْ » أمر . وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حصر وقال : أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين . إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ . فإذا ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره ؟ فالجواب : كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لا يؤثر ، لأنه عبث ، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام ، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبياني عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليرنوا عليها - ذكره الزمخشري - .

وتفصيل هذا البحث في (الإحياء) للغزالي قدس سره، وقد قال ، قدس سره ، في طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهيم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحي بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مدهانة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلاً بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الدائرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمرّاً في إحيائها ، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إقامتها ، ومستبداً بقرينة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود والنصارى في افتراقهم مذاهب ، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى ، وطاعة النفس ، والحسد ، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، ويدعو إلى ما ابتدعه في دينه ، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة ، المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة ، وهي كلمة الحق . فالنهي متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالةً ، وإلى أعقابهم تبعاً . وفي قوله

تعالى « وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » من التأكيد والمبالغة في وعيد المتفرقين ، والتشديد في تهديد المشبهين بهم ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول :

ذكر الفخر الرازي من وجوه قوله تعالى : اٰخْتَلَفُوا . أى بأن صار كل واحد منهم يدعى أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة - انتهى كلامه - وقوله (هذا الزمان) إشارة إلى أن هذا الحال لم يكن في علماء السلف ، وما زالوا يختلفون في الفروع وفي الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، وما أداه إليه اجتهادهم ، ولم يضل بعضهم بعضاً ، ولم يدّع أحدهم أنه على الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ، وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة للتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبيهم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثانى :

قال القاشانى : يعنى بـ « الآيات » الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائع وغلز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعادات وسيراً متفاوتة ، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام ، تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريكة الغم ، تكون للذنب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لابد للناس من إمام ، بر أو فاجر . ولم يرسلني الله ﷻ رجلين فصاعداً لسانٍ ، إلا وأمر أحدهما على الآخر ، وأمر الآخر بطاعته

ومتابعته ، ليتحد الأمر ، وينتظم ، وإلا وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله ﷺ ^(١) : من فارق الجماعة قيد شبر لم ير محبوباً الجنة . وقال ^(٢) : الله مع الجماعة . ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة . ولما نزل قوله تعالى : **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** ، خط رسول الله ﷺ خطأ فقال ^(٣) : هذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - باب قول النبي ﷺ : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، حديث ٢٥٤٦ ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٧ - باب ما جاء في لزوم الجماعة ، ونصه : عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يجمع أمتي ، (أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم) على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ إلى النار » .

(٣) أخرجه الدارمي في : المقدمة ، ٢٣ - باب في كراهية أخذ الرأي ونصه : عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ثم قال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » .

ثم تلا : **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** .

الثالث :

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، قدس سره، في أول كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) : ولعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته ، دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول ﷺ . ولكن إذا وجد لواحد منهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه ، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها - عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله ،

الثاني - عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ،

الثالث - اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تنفرع إلى أسباب متعددة - ثم أوسع المقال في ذلك - . وذكر قدس سره، في بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون: الأدلة بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر . وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ، ولم ير ما يعارضه ، عمل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطوؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطئ ، بل كل مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر ، فلمصيب واحد ، وله أجران . كما في المجتهدين في جهة الكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ،

كان أكمل من غيره ، والمؤمن ^(١) القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجراً بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ^(٢) . قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف : **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ^(٣) . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** * **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ^(٤) . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال ، في الأصول والفروع .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٧٦] ونصها : **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخَرَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٧٨ و٧٩] ونصهما : **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ** .

ثم قال : وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون - انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجتهدين في الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق ، بعد وضوحه ، برفضه ، وشتان ما بين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافات ، فما وجده أقوى دليلاً أخذ به ، وإلا تركه .

وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : **فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**^(١) . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم^(٢) في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول - إذا قام يصلي من الليل - اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . فإن الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) : يا عبادي كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدوني أهدكم - انتهى .

(١) [٣٩ / الزمر / ١٧ و ١٨] ونصهما : **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .**

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٥ (طبعتنا)

وها كوه بجملته :

عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادي ! إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . يا عبادي ! كلكم ضال =

الرابع :

ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روى من حديث (اختلاف أمتي رحمة) ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبراني والبيهقي في (المدخل) بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : وَلَا يَزَالُُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ^(١) . ونحوه قوله ﷺ : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم^(٢) وغيره من الأحاديث الكثيرة . والذي يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف - انتهى -

= إلا من هديته . فاستهدوني أهدكم . يا عبادي ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسوني أكسكم . يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . »

(١) [١١ / هود / ١١٨ و ١١٩] ونصهما : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٢٢ (طبعنا) .

عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يسمح منا كبنا في الصلاة ويقول =

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود^(١) بسندهما عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتائب افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها في النار إلا واحدة ، وهى الجماعة . وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه . لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله ! يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبىكم ﷺ كغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به . قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث من طرق - انتهى -

نبذة فى مبدأ الاختلاف فى هذه الأمة من أهل الأهواء :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى كتاب (الفرقان بين الحق والباطل) أن المسلمين كانوا فى خلافة أبى بكر وعمر ، وصدرأ من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان ففترق المسلمون بدم مقتل عثمان . ولما اقتتل المسلمون بصفيين وانفقوا على تحكيم حكيمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحدث فى أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختلفين بقولهم لا يظهرونه لعلّ وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف :

= « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم . ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافًا .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ١٠٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ١ - باب فى شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧ .

ونصه هنا عن السند .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار ؛

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبي السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه .

قيل إنه طلبه ليقنتله فهرب منه ؛

والثالثة : الفضلة الذين يفضلون على الشيخين ، وقد تواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة

بعد نبيا أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخارى في صحيحه .

ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة . ثم قال : وإن الناس

فى ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج .

ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من

أصحاب أحمد رضى الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالحلال ، وأبى عبد الله بن بطة

وأمثالها ، وكأبى الفرج المقدسى . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع .

وكالبخارى فى صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب

التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ثم قال قدس سره : إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث فى الأمة ما

حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم فى الباطن

ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون فى

التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك . ثم ماظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا

به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلائلها ،

ولم يستقصوا ما فى القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم فى نفس الأمر إلى غير ذلك ؛

والآيات التى تخالفهم يشروعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده

أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها . ثم قال قدس سره : فعلى كل

مؤمن أن لا يتكلم فى شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل

ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول ، فنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره في رسالته إلى جماعة الشيخ عديّ بن مسافر ما نصه : وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ^(١) فحتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . إلى قوله : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٢) . فمن الأمر بالمعروف الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى . ثم قال : ويجب على أولى الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمرائها ومشايخها أن يقوّموا عامتهم ويأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وقوله تعالى :

(١) [٥ / المائدة / ١٤] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٢-١٠٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » أى تبيض وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين لاتباعها الدين الحق الذى هو النور الساطع . وتسود وجوه كثيرة ، وهى وجوه الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، لاتباعها الضلالات المظلمة ، وليستدل بذلك على إيمانهم وكفرهم ، فيجازى كل بمقتضى حاله . وهذه الآية لها نظائر ، منها قوله تعالى : « يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » (١) . ومنها قوله تعالى : « وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ » (٢) . ومنها قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » (٣) . ومنها قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » (٤) . ومنها : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » (٥) . إلى غير ذلك . وللمفسرين فى هذا البياض والنضرة والغبرة والقتر وجهان :

أحدهما : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور . والسواد عن الغم . وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » (٦) . ويقال : فلان عندى يد بيضاء ، أى جلية سارة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٠] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٦] ونصها : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ » ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣٨-٤١] .

(٤) [٧٥ / القيامة / ٢٢-٢٥] .

(٥) [٨٣ / المطففين / ٢٤] . (٦) [١٦ / النحل / ٥٨] .

وتقول العرب لمن قال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه الاستبشار والتهلل . وعند التهئة بالسروور يقولون : الحمد لله الذى يبيض وجهك . ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربدَّ وجهه واغبرَّ لونه ، وتبدلت صورته . فعلى هذا معنى الآية : إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك ، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسودَّ وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ، وهذا قول أبى مسلم الأصفهاني .

والوجه الثاني : أن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب الصير إليه . ولأبى مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** ^(١) . فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار ، فلم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جملة مقابلاً له ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل - أفاده الرازي -

لطيفة :

(يوم) منصوب إما مفعول لمضمر خطوب به المؤمنون تحذيراً لهم عن عاقبة التفرق بعد مجي البينات ، وترغيباً في الاتفاق على التمسك بالدين . أى اذكروا يوم... الخ أو ظرف للاستقرار في (لهم) أو لـ (عظيم) أو لـ (عذاب) .

« فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ، وقوله تعالى : **أَكْفَرْتُمْ**

(١) [٨٠ / عيسى / ٣٨-٤١] .

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . على إرادة القول ، أى فيقال لهم ذلك ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم - أفاده أبو السعود - والمعنى : أ كفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان ، وهو الدلائل التى نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، وما يناجيكم به وجدانكم من صدق هذه الدعوى وحقيتها وشهادته بصحتها ، كما قال تعالى فيما قبل هذه الآية : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ^(١) : فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(٢) . فقوله تعالى هنا : أ كفرتم بعدَ إيمانكم ، محمول على ما ذكر ، حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وهى عامة فى حق كل الكفار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » المراد برحمة الله الجنة ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » الإشارة إلى ما تقدم من الوعد والوعيد « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ » أى لا يشاء أن يظلم عباده ، فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد فى عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . قال الرازى : إنما حسن ذكر الظلم ههنا

(١) [٣ / آل عمران / ٧٠] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٥] .

لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك ، وقال : إنهم ما وقعوا فيه إلا لسبب أفعالهم المنكرة ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب . وقال أبو السعود : وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ، كما في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(١).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى له تعالى وحده ، من غير شركة ، ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً إحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً « وَإِلَى اللَّهِ » أى إلى حكمه وقضائه « تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمورهم فيجازى كلّاً منهم بما وعده وأوعده ، فلا داعى له إلى الظلم ؟ لأنه غنى عن كل شيء ، وقادر على كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير ، و « كنتم » من (كان) التامة ، والمعنى وجدتم وخلقتم خير أمة ، أو (الناقصة) والمعنى كنتم في علم الله خير أمة ، أو في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة و « أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » صفة لأمة ، واللام متعلقة بـ « أُخْرِجَتْ » ، أى أظهرت لهم حتى تميزت وعرفت ، وفصل بينها وبين غيرها .

(١) [١٠ / يونس / ٤٤] .

ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم بقوله « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » فهذه الصفات فضلوها على غيرهم ممن قال تعالى فيهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(١) . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ^(٢) . قال أبو السعود : وتؤمنون بالله أى إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء . وإنما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون ، وللايذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة ، وأن ما خلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى فى شيء . قال تعالى : وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا^(٣) وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة ، لأن دالتهما على خيريتهما للناس أظهر من دلالته عليهما وليقترن به ، ما بعده - انتهى - روى ابن جرير^(٤) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى من الناس رِعةً^(٥) ، فقرأ هذه الآية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد .

(١) [٥ / المائدة / ٧٩] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٠ و ١٥١] ونصهما : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(٣) الأثر ٧٦١٢ من تفسيره (طبعة المعارف) .

(٤) رِعةٌ . أصلها من الورع . مثل (العدة) من الوعد . والرعة : الهدى وسوء الهيئة أو حسن الهيئة . أو هى بمعنى الشأن والأمر والأدب . وفى حديث الحسن : ازدحموا عليه فرأى منهم رعة سيئة . فقال : اللهم إليك . يريد بالرعة ههنا الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، أى لم يحسنوا ذلك .

شرط الله فيها . ونظير هذه الآية قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، أَى خِيَارًا ، لَتَسْكُوتُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ^(١) ، أى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد روى فى معنى الآية عن النبىؐ أحاديث وافرة ، منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى ^(٢) والحاكم عن معاوية بن حيدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : **ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل** . قال ابن كثير : وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى . وروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد ونحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يُعْطَهُ نبيّ قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله ، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وساق طريقه ومخرجه فأجاد رحمه الله تعالى . **« وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ »** أى بما أنزل على محمد ﷺ **« لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »** أى مما هم عليه ، إشارة إلى تسفيه أحلامهم فى وقوفهم مع ما منهم عن الإيمان من العوض القليل الفانى والرياسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم ، والعز الباهر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً **« مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ »** أى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ولكنهم قليل **« وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ »** ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة ، خفف سبحانه عن أوليائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] **(لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ)**
« لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى » أى بالسنتهم لا يبالى به من طعن وتهديد **« وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ »**
 (١) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
 والترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - حدثنا عبد بن حميد .

أى يوماً من الأيام « يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ » يعنى منهزمين مخذولين « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » يعنى لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً؟ لم يقاتلوا فى موطن إلا كانوا كذلك . قال ابن كثير : فإنهم يوم خير أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الداهرين . ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم ، وهم كذلك ، ويحكم بملء الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام - هـ .

لطائف :

قال الزمخشري :

فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً ، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خير .

فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت : جملة الشرط والجزاء . كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا . ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فما معنى التراخى فى (ثم) ؟

قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليئهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقى في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقى بدخول (ثم) دون (الواو) ، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة لافي الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمح في رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة - والله أعلم -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ » أى أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أبنا وجدوا ، وقوله : « إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ » فى محل النصب على الحال . بتقدير : إلا معتمدين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله ، وهو استثناء من أعمّ عام الأحوال ، والمعنى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال ، إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين ، أى لا غرّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية - كذا فى الكشف - « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » أى استوجبوه « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ » أى الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شئ فى الذل « ذَلِكَ » أى ضربت المسكنة والذلة والغضب « بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استكباراً وعتواً « وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ »

أَيُّ الْآتِينَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا. ولما كانوا معصومين ديناً ودنياً قال « بَغَيْرِ حَقٍّ » أى يبيح القتل « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة ، كما هو معلل بكفرهم وقتلهم الأنبياء ، فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل : ذلك إشارة إلى علة العلة ، وهو الكفر والقتل ، أى حصلاً منهم بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فإن الإقدام على المعاصى ، والاستهانة بمجاوزة الحدود يهون الكفر . قال الأصفهانيّ : قال أرباب المعاملات : من ابتلى بترك الآداب ، وقع فى ترك السنن . ومن ابتلى بترك السنن ، وقع فى ترك الفرائض . ومن ابتلى بترك الفرائض ، وقع فى استحقرار الشريعة . ومن ابتلى بذلك ، وقع فى الكفر .

قال برهان الدين البقاعيّ رحمه الله تعالى : والآية دليل على مؤاخذه الابن الراضى بذنب الأب وإن علا . وذلك طبق ما رأيته فى ترجمة التوراة التى بين أيديهم ، لأنه قال فى السفر الثانى : وقال الله جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذى أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التى مما فى السماء فوق وفى الأرض من تحت ومما فى الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها لأنى أنا الرب إلهك غيور آخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأجبارى وحافظى وصاياى - انتهى -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُمْ
اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

« لَيْسُوا سَوَاءً » جملة مستأنفة سيقت تمهيداً للشأن على من أقبل على الحق من أهل الكتاب وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً ، وتذكيراً لقوله تعالى : مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ . أى ليس أهل الكتاب متساوين ومتشاركين فى المساوىء . ثم استأنف قوله بياناً لعدم

استوائهم» مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .
في قوله تعالى « قَائِمَةٌ » وجوه :

الأول - أنها قائمة في الصلاة ، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(١) . وقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ^(٢) . وقوله : قُمِ اللَّيْلَ ^(٣) . وقوله : وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ^(٤) .
والثاني - أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له ، غير مضطربة في التمسك به ، كقوله : إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ^(٥) أى ملازمًا للاقتضاء ، ثابتًا على المطالبة . ومنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] .

(٢) [٧٣ / الزمل / ٢٠] ونصها : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عِلْمَ آلِ النَّحْشِ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٧٣ / الزمل / ٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ونصها : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى : قَائِمًا بِالْقِسْطِ ^(١) .

الثالث - أنها مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى استقام . والآناء الأوقات واحداها (إنا) مثل (معي) و (أمعاء) و (إني) مثل (نحى) و (آنحاء) وقوله تعالى « وَهُمْ يَسْجُدُونَ » جملة مستقلة مستأنفة ، وليست حالا من فاعل « يتلون » لما صح في السنة من النهي عن التلاوة في السجود ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم ^(٢) . فمعنى الآية أنهم يقومون تارده ويسجدون أخرى ، يبتغون الفضل والرحمة كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(٣) . وقوله : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ^(٤) . ويحتمل أن يكون المعنى : وهم يصلون ، والصلاة تسمى سجوداً وسجدة كما تسمى ركوعاً وركعة وتسبيحاً وتسبيحة . وعليه فالجملة يجوز فيها الوجهان ، وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده . ثم وصفهم تعالى بصفات آخر ، مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى على الوجه الذى نطق به الشرع . وظاهر أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله . والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] . (٤) [٣٩ / الزمر / ٧] .

المعاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ، ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » تعريض بمداهنة اليهود في الاحتساب ، بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ، فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وقوله تعالى « وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير . والمسارة في الخير فرط الرغبة فيه . وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها ، بل بمبادرتهم إلى الشرور « وَأُولَئِكَ » أى النعوتون بتلك الصفات الفاضلة « مِنَ الصَّالِحِينَ » أى من عداد من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه . والوصف بالصلاح دالّ على أكل الدرجات . فهو غاية المدح ، ولذا وُصفت به الأنبياء في التنزيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ » أى لن يعدموا ثوابه . وإيثار صيغة المجهول للجري على سنن الكبرياء . وقرئ الفعلان بالخطاب « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » فيوفيههم أجورهم . وهؤلاء الموصوفون هم المذكورون فى آخر السورة : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية (١).

تنبيه :

قال البقاعى : أرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات . وقال الرازى : لما قال تعالى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . كان تمام الكلام أن يقال : وَمِنْهُمْ

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ . إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر . وتحقيقه : أن الضدين يُعلَّمان معاً . فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر ، قال أبو ذؤيب^(١) :

دعاني إليها القلب . إني لأمره مطيع . فما أدري أرشدني طلائعها

أراد أم غي ، فكتفي بذكر الرشد عن الغي ، وهذا قول الفراء وابن الأنباري . وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأن ذكرها قد جرى قبل ، ولأننا قد ذكرنا أن العلم بالضدين معاً ، فذكر أحدهما مغن عن ذكر الآخر . كما يقال زيد وعمرو لا يستويان ، زيد عاقل دين ذكي ، فيغني هذا عن أن يقال : وعمرو ليس كذلك . فكذا ههنا . لما تقدم قوله : ليسوا سواء . أغنى عن ذلك الإضمار - انتهى ملخصاً - أقول : لا مانع من كون الآية الآتية هي الشق الثاني المقابل للأول . فإن عنوان الذين كفروا مقابل بمفهومه لما قبله كما لا يخفى - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ » أي لن تدفع عنهم « أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ »

(١) من قصيدته التي أولها :

أبا الصُّرْم من أسماء حدثك الذي جرى بيننا يوم استقلت ركابها

في الديوان (عصاني إليها) وفسرها بقوله : أي خطر إليها قلبي وذهب إليها ، فما أدري أرشد الذي وقعت فيه أم غي .

وعبارة الأصمعي : جعل لا يقبل مني . أي ذهب إليها قلبي سفها . وهي أوضح في معنى العصيان من عبارة الشارح هنا .

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا « أَى من عذاب الله ، وإن كان التصدق بالأموال يطفى غضب الرب فى حق المؤمنين ، ويغفر لهم بموت أولادهم ، أو استغفارهم « وَأَوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ولما بين تعالى أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوها فى وجوه الخيرات ، فيخطر فى البال أنهم ينتفعون بها ، فأزال تلك الشبهة ، وضرب لها مثلاً يذهبها هباءً منثوراً بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ)
« مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » من المكارم ويواسون فيه من المغارم « كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ » أى برد شديد كالصرصر « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » بالكفر والمعاصى فباؤوا بغضب من الله « فَأَهْلَكَتُهُ » فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه . فصار الظلم ريحاً لحصوله من هوى النفس ذات برودة شديدة لكونه ظلم الكفر الذى هو الموت المعنوى فأهلكته - قاله المهايى - « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » بإهلاك حرثهم بإرسال ريح من عنده « وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بإرسال ريح الظلم الكفرى على حرثهم الأخرى .

لطايف :

إن قيل : الغرض تشبيه (ما أنفقوا) فى ضياعه ، بالحرث الذى ضربته الصر ، وقد جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح ، فما وجه المطابقة للغرض ؟ أجيب : بأن هذا من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزائهما ، والمقصود تشبيه الحال بالحال ؛ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مَهْلَكِ ريح فتحصل المشابهة .

قال ناصر الدين في (الاتصاف) : والأقرب أن يقال أصل الكلام - والله أعلم - مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جلية . وهو تقديم ما هو أهم . لأن الريح التي هي مثل العذاب ، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عنايةً بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هذا ، في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة ، قوله تعالى : **فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . .** (١) الآية . ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه ، والأصل : **أَنْ تَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى** إن ضلت . وأن أدمع بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .**

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَذُوا مَاعِنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ » أى أصحاباً يستبطنون أمركم من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . قال الزمخشري : بطانة الرجل ووليجه خصيصه وصفية الذى يفضى إليه بشقوره ثقة به . شبه ببطانة الثوب . كما يقال : فلان شعارى - انتهى - ومن أمثال العرب فى سرار الرجل إلى أخيه ما يستره عن غيره : أفضيت إليه بشقورى - بضم الشين وقد تفتح - أى أخبرته بأمرى ، وأطلعته على ما أسره من غيره . وفى القاموس وشرحه : البطانة صاحب السر الذى يشاور فى الأحوال ، والوليجه وهو الذى يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وقال الزجاج : البطانة الدخلاء الذين ينبسط إليهم ويستبطنون ، يقال : فلان بطانة لفلان أى مداخل له مواس . وهؤلاء النهى عنهم ، إما أهل الكتاب ، كما رواه ابن جرير وابن إسحق عن ابن عباس : أنهم اليهود . وذلك لأن السياق فى السورة ، والسباق معهم . وقد كان بين الأنصار وبين مجاوريتهم من اليهود ما هو معروف من سابق الرضاع والحلف . وإما المنافقون لقوله بعد : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا ^(١)... الخ . وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى فى سورة البقرة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ^(٢)... الخ - وربما كان يغتر بعض المؤمنين بظاهر أقوال المنافقين

(١) [٣ / آل عمران / ١١٩] ونصها : هَا أَنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآنَمِلْ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ فَيُفْشُونَ إِلَيْهِمُ الْأَسْرَارَ . وَإِذَا جَمِيعُ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ وَقُوفًا مَعَ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى « مِنْ دُونِكُمْ » كَمَا قَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ^(١) . وَمَا يُوَكِّدُ ذَلِكَ مَارَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنْ هُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ نَصْرَانِيًّا ، حَافِظٌ كَاتِبٌ . فَلَوْ اتَّخَذْتَهُ كَاتِبًا ؟ فَقَالَ : قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَنْ بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

قال الرازي : فقد جعل عمر رضى الله عنه هذه الآية دليلاً على النهى من اتخاذ النصراني بطانة .

وقال الحافظ ابن كثير : ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استمالة في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين ، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

وقال السيوطي في (الإكليل) : قال الكيا الهراسي : في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستمالة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين - انتهى -

ووجه ذلك ، كما قال القاشاني ، أن بطانة الرجل صفيه وخليصه الذي يبطنه ويطلع على أسرارهِ ، ولا يمكن وجود مثل هذا الصديق إلا إذا اتحدوا في المقصد واتفقا في الدين والصفة ، متحابين في الله لا لغرض . كما قيل في الأصدقاء : نفس واحدة في أبدان متفرقة . فإذا كان من غير أهل الإيمان ، فبأن يكون كاشحاً أخرى . ثم بين نفاقهم واستبطنهم العداوة .

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

بقوله : « لَا يَأْلُوَنَكُمُ خَبَالًا » أى لا يقصرون بكم فى الفساد . قال القاشانى : لأن المحبة الحقيقية الخالصة لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة . فلا تكون فى غيرهم لكونهم فى عالم التضاد . بل ربما تتألفهم الجنسية العامة الإنسانية لاشتراكهم فى النوع والمنافع والملاذ واحتياجهم إلى التعاون فيها . والمنافع الدنيوية والذات النفسانية سريعة الانقضاء فلا تدوم المحبة عليها . بخلاف المحبة الأولى فإنها مستندة إلى أمر لا تغير فيه أصلاً . قال الزمخشري : يقال : ألا فى الأمر ، يألو : إذا قصر فيه . ثم استعمل معدى إلى مفعولين . فى قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً ، على التضمنين . والمعنى : لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه . والخبال الفساد « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » أى عَنَتَكُمْ ، على أن (ما) مصدرية ، والعنت شدة الضرر والمشقة ، أى تَمَنَّوْا ما يهلككم « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى ظهر البغض الباطن حتى خرج من أفواههم لأنهم لا يتألمون ، مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها ، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين . وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفتلت اللسان « وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » مما ظهر . لأن ظهوره ليس عن روية واختيار بل فلتة . ومثله يكون قليلاً « قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى سُوءِ اتِّخَاذِكُمْ إِيَّاهُمْ بَطَانَةً لِّتَمْتَعُوا بِهَا فَتَخَلَّصُوا فِي الدِّينِ وَتَوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَادُوا الْكَافِرِينَ » « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العقل . أو تعقلون ما بين لكم فعملتم به . قال الزمخشري : فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل ؟ قلت : يجوز أن يكون (لا يألوكنكم) صفة للبطانة . وكذلك (قد بدت البغضاء) . كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالاً ، بادية بغضاؤهم . وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ . وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة . ثم بين تعالى خطأهم فى موالاتهم حيث يبدلونها لأهل البغضاء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ » أى تخالطونهم وتُفَشون إليهم أسراركم ولا يفعلون مثل ذلك بكم. وقوله « وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » الواو للحال وهى منتصبه من ضمير المفعول فى (لا يحبونكم) والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتبهم فلا تنكرون منه شيئاً، فليس فيكم ما يوجب بغضهم لكم. فما بالكم تحبونهم وهم يكفرون بكتابكم كله ؟

ولم تجمل الواو للعطف على (ولا يحبونكم) أو (تحبونهم) كما ارتضاه أبو حيان لأنه فى معرض التخطئة . ولا كذلك الإيمان بالكتاب فإنه محض الصواب . وإن اعتذر له بأن المعنى : يجمعون بين محبة الكفار والإيمان وهما لا يجتمعان ، لبعده . والحالية مقررة للخطأ فتأمل ، نقله الخفاجى .

قال الزمخشري : فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم . ونحوه : فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^(١) . « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا » نفاقاً وتغريراً « وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » أى من أجله ، تأسفاً وتحسراً . حيث لم يجدوا إلى الشفئ سبيلاً . وعضُّ الأنامل عادة النادم العاجز والمفناظ إذا عظم حزنه على فوات مطلوبه . ولما كثر هذا الفعل من الغضببان صار ذلك كناية عن

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغضب . حتى يقال في الغضبان : إنه يعض يده غيظاً ، وإن لم يكن هناك عض « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ » دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله . وما لهم في ذلك من الدل والخزي والتبار . كذا في الكشاف « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنق . وهو يحتمل أن يكون من (المقول) أى وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً . وأن يكون خارجاً عنه بمعنى : قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم . وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ بطيب النفس ، وقوة الرجاء ، والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك - أفاده أبو السعود - ثم بين تعالى تنهاى عداوتهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) « إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً » بظهوركم على العدو ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم ، وتتابع الناس في دينكم « تَسَوْهُمْ » وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ « بإصابة العدو منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جذب أو بلية « يَفْرَحُوا بِهَا » ولا يعلمون ما لله تعالى في ذلك من الحكمة .

لطيفة :

الس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مساً . والتعبير به في جانب الحسنة ، وبالإصابة في جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله : إِنْ تُصِيبْكَ

حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ ^(١) . وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ^(٢) . وقال : إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ^(٣) .

قال ناصر الدين في (الاتصاف) : يمكن أن يقال : المس أقل تمسكاً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكان الكلام - والله أعلم - إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسوهم ويحسدوكم عليها . وإن تمسكت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها ، فهم لا يربون لكم ولا ينفكون عن حسدكم ، ولا في هذه الحال . بل يفرحون ويسرون . والله أعلم - انتهى -

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم في السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى . وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثي له الشامت فهم لا يرجي موالاتهم أصلاً . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعي : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : « وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا » أي تصبروا على ما يتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب وثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم في أموركم والالتجاء إلى ولايتهم « لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستعين به لا بغيره : ظافر في طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءه ربه . والمستعين بغيره : مخدول موكل إلى نفسه ، محروم عن نصره ربه . أفاده القاساني .

(١) [٩ / التوبة / ٥٠] ونصها : إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

(٣) [٧٠ / المعارج / ٢١ و ٢٠] .

وقيل : المراد بنى الضرر عدم المبالاة به ، لأن التدريب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . و (السكيد) الاحتيال على إيقاع الغير في مكروه « إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » قرىء بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم من السكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازى : إطلاق لفظ (المحيط) على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جازَ في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ^(١) . - انتهى -

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف التكلم بالخطاب ، لا من الوضع المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التى جاءت فى القرآن موضوعة لمعانى ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعانى . وتتمة هذا البحث تقدمت فى تفسير (الرحمن الرحيم) من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
« وَإِذْ غَدَوْتَ » أى خرجت « مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى تنزل « الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ » أى أما كن ومراكز يقفون فيها « لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ذهب الجمهور وعلماء المغازى إلى أن هذه الآية نزلت فى وقعة أُحُد ، والسر فى سوق هذه الوقعة الأُحُدِيَّة وإيلاؤها البدرية ،
(١) [٨٥ / البروج / ٢٠] .

هو تقرير ما سبق . فإن المدعى فيما قبلها المساءة بالحسنة والمسرة بالمصيبة وسنة الله تعالى فيهم في باب النصر والمعونة ودفع مضار العدو ، إذا هم صبروا واتفقوا ، والتغيير إذا غيروا . أى اذكر لهم ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين لم يصبروا فى أحد ، فأصيبوا وسرت الأعداء مصيبتكم ، وحين صبروا واتبعوا فنصروا وساء العدو نصرهم . وفى توجيه الخطاب إليه ﷺ تهيج لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل ، من غير أدنى وقوف مع المألوف - كذا يستفاد من تفسير البقاعى - .

وهذه الآية هى افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير فى هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى هذه الواقعة ، كما سيذكر ، وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشرف قريش بيدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلا ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاءوا إلى أطراف المدينة فى غزوة السويق ، ولم ينل ما فى نفسه ، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجوع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحاييش . وجاءوا بنسائهم لثلاثي ففروا ليحاموا عنهن . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريبا من جبل أحد ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيجرج إليهم أم تمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأرزقة ، والنساء من فوق البيوت ، ووافق على هذا رأى عبد الله بن أبى ، وكان هو الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فهض ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج عليهم وقد اثنى عزم أولئك الملحقين ، وقالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج . فقالوا : يارسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبئنى لنبي ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وهو بالمدينة : رأى أن في سيفه ثلثة ، ورأى أن بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة . فتأول الثلثة في سيفه رجل يصاب من أهل بيته ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . فخرج يوم الجمعة ! فلما صار بالشَّوْط ، بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس ، مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام . فتبعهم عبد الله بن عمرو ، والد جابر ، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبهم ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، وسلك حرّة بني حارثة ، ومري بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بني حارثة يدل به ، حتى نزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال وهو في سبعمائة . فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً وأمر على الرماة عبد الله بن جبير . وأمره وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر . وكانوا خلف الجيش . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لثلاثاً يأتوا المسلمين من ورائهم . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يومئذ ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فردّ من استصغره عن القتال . منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد ابن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزام . وأجاز من رآه مطيقاً . منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة . فقيل : أجاز من أجاز ، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، وردّ من رد لصغره عن سنّ البلوغ ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك . قالوا : وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآني مطيقاً أجازني .

وتعبت قريش للقتال ، وهم في ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة ، وكان شجاعا بطالا يخالع عند الحرب ، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد بن عمرو بن صيفي ، وكان يسمى (الراهب) لترهبه وتنسكه في الجاهلية ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاسق) . وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقي من المسلمين . فنادى قومه وتعرف إليهم . قالوا : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق ! فقاتل المسلمين قتالا شديدا ، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديدا ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهمزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم . فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مراكزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة ، ففكر المشركون وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورأيهم وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ . وقاتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل ، وجرح رسول الله ﷺ في وجهه ، وكسرت ربايعيته اليمنى السفلى بجحر ، وهشمت البيضة في رأسه ، يقال : إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قتيبة الليثي . وشد حظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأسود الليثي ، من شعوب ، فقتله . وكان جنبا . فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته .

وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هناك ، فأخذ على يديه ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ، والد أبى سعيد ، ونسبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانزعهما أبو عبيدة بن الجراح . فندرت ثنيتاه فصار أهتم . ولحق المشركون برسول الله ﷺ . وكرّ دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون . وأبو دجانة بلى النبي ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصابت عين قتادة بن النعمان . فرجع وهى على وجنته . فردها عليه السلام بيده فصحت . وكانت أحسن عينيه . وانتهى الضر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا ، وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل ، ووجد به سبعون ضربة . وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فخرج منها . وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم . ونادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل . لأن عمرو بن قيثبة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي صلى الله عليه وسلم . ووهن المسلمون لصرخ الشيطان . ثم إن كعب بن مالك الشاعر ، من بنى سلمة ، عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنادى بأعلى صوته يبشر الناس . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنصت . فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، وأدركه أبى بن خلف في الشعب ، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة وطعنه بها في عنقه . فكرّ أبى منهزماً . وقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله ! لو بصق على لقتلى ، وكان ﷺ قد توعد بالقتل . فمات عدو الله بسرف ، مرجعهم إلى مكة . ثم جاء على رسول الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض . فاستوى على صخرة من الجبل . وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً . وغفر الله للمنهزمين من المسلمين . ونزل : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (١) . الآية

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٥] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واستشهد نحو من سبعين . معظمهم من الأنصار . وقتل من المشركين اثنان وعشرون .
ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة . ويقال إنه قال لعليّ : لا يصيب المشركون منا مثلاً
حتى يفتح الله علينا .

هذا ملخص هذه القصة . وقد ساقها بأطول من هذا أهل السير . وفيما ذكر كفاية .
وأما ما اشتملت عليه من الأحكام والفقه والحكم والغايات المحمودة ، فقد تكفل ببيانها
الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فارجع إليه .

تنبيه :

فسر أكثر العلماء (غدوت) بأصلها ، وهو الخروج غدوة أى بكرة . ثم استشكلوا
أنه ﷺ خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير ، فكيف المطابقة ؟
فمنهم من أجاب بأن المراد غدوة السبت ، وأنه كان في صباحه التبوؤ للمقاعد إلا أنه
لا يساعده (من أهلك) لأنه لم يكن وقتئذ أهله معه .

ومنهم من قال : المراد غدوة الجمعة أى : اذكر إذ غدوت من أهلك صبيحة الجمعة إلى
أصحابك في مسجدك تستشيرهم في أمر المشركين ، ثم قال : وبني من (غدوت) حالاً
إعلاماً بأن الشروع في السبب شروع في مسببه ، فقال (تبوؤ المؤمنين) أى صبيحة
يوم السبت .

وكان يخطر لي أن الأقرب جعل الغدو بمعنى الخروج غير مقيد بالبكرة ، وكثيراً ما يستعمل
كذلك .

ثم رأيت في فتح البيان ما استظهرته فحمدت الله على الموافقة ونصه : وعبر عن الخروج
بالغدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة ، لأنه قد يعبر بالغدوة
والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناها ، كما يقال (أضحي) وإن لم يكن
في وقت الضحى - انتهى -

قال البقاعي : ولما كان رجوع عبد الله بن أبي المنافق ، كما يأتي في صريح الذكر آخر القصة ، من الأدلة على أن المنافقين ، فضلاً عن المصالحين بالمصارمة ، متصفون بإخبار الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء ، مع أنه كان سبباً في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل - كان إيلاء هذه القصة للنهي عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فساد ، في غاية المناسبة . ولذلك افتتحها سبحانه بقوله مبدلاً من (إذ غدوت) دليلاً على ما قبله من أن بطانة السوء لا يألونهم خبلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ،
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ » أى بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس « أَنْ تَفْشَلَا » أى تكسلا وتجبنا وتضعفا لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فقصمهما الله ، فضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا » ناصرهما ، ومتولى أمرهما ، فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، « وَعَلَى اللَّهِ » وحده دون ما عداه استقلالاً أو اشتراكاً « فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » فى جميع أمورهم ، فإنه حسبهم . (والتوكل : تفعل) من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فى كفايته عليه ، ولم يتوله بنفسه . وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . روى الشيخان ^(١) عن جابر رضى الله عنه قال : فىنا نزلت . إذ همت

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٨ - باب
إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .

ومسلم فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ (طبعنا) .

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما - قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنهما لم تنزل لقوله تعالى: والله وليهما . أى لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف ببناء الله تعالى وإزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وإن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لما

ذكر تعالى قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر . وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا فى غاية الضعف عدداً وعدداً ، والكفار كانوا فى غاية الشدة والقوة . ثم إنه تعالى نصر المسلمين على الكافرين ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى والصبر والتقوى هو النصر والمعونة والتأييد . و (بدر) موضع بين الحرمين ، إلى المدينة أقرب ، يقال هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً . أو اسم بئر هناك حفرها رجل اسمه بدر ، وقوله « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقواكم من نصرته . وقد أشير فى مواضع من التنزيل إلى غزوة بدر ، وكانت فى شهر رمضان ، السنة الثانية من الهجرة ، وكان سببها أن النبى ﷺ بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة . معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش ، عبيدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاصى ، ومخرمة بن نوفل . فندب ﷺ إلى هذه العير . وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج . ولم يحتفل فى الحشد . لأنه لم يظن قتالاً . وخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها . واتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الفقارى ، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لغيرهم . فنفروا وأوعبوا ، وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ودفع إلى

على راية ، وإلى رجل من الأنصار راية أخرى ، يقال كآتنا سوداوين . وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة . وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ ، فسلخوا ثياب المدينة إلى ذي الحليفة ، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء ، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء ، وبعث ﷺ قبلها بسبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبي سفيان وعيره ، ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادي دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، وفهموا ذلك ، فتكلم سعد بن معاذ ، وكان فيما قال : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله . فسر بذلك وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر . فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما ، وهو ﷺ قائم يصلي ، وقالوا : نحن سقاة قريش ، فكذبوها ، كراهية في الخبر ، ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤنة ، فجعلوا يضربونهما فيقولان : نحن من العير . فسلم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ، وقال للغلامين : أخبراني أين قريش ؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً ، فقال ﷺ : القوم ما بين التسعمئة والألف . وقد كان بسبس وعدى مضياً يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا في شئ لهما ، ومجدي بن عمرو من جهينة بقربهما . فسمع عدى جارية من جوارى الحى تقول لصاحبها : العير تأتي غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم وأقضيك الذي لك ، وجاءت إلى مجدي بن عمرو ، فصدقها . فرجع بسبس وعدى بالخبر . وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر . فقال لمجدي : هل أحسست أحداً ؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل ، فاستقيا الماء ونهضا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، وقتت من أبعاد رواحلهما . فقال : هذه ، والله ، علائف يثرب . فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا . وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً ،

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة ، وكان حليفهم ومطاعاً فيهم وقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت ، فارجعوا . وكان بنو عدى لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدرًا من قريش عدوى ولا زهري . وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وبَلُّهُ مما يليهم ، وأصاب مما يلي المسلمين دھس الوادى ، وأعانهم على السير . فنزل صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فقال له الحباب بن المنذر : الله أنزلك بهذا المنزل فلا تتحول عنه ، أم قصدت الحرب والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو الرأى والحرب . فقال : يا رسول الله ! ليس هذا بمنزل ، وإنما أتى أدنى ماء من القوم ، فنزله وبني عليه حوضاً ، ونملؤه ونُعَوِّرَ الْقَلْبَ كلها ، فنكون قد منعناهم الماء ، فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه النصر من ربه ، ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً . ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يحذر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرهم وانصرف وخبرهم الخبر . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا يكون الحرب ، فأبى أبو جهل ، وساعده المشركون ، وتوافقت الفئتان ، وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ، ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلج ، وأبو بكر يقاوله . ويقول في دعائه : اللهم ! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، اللهم ! أنجز لى ما وعدتنى . وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اتبعه ، فقال : أبشر يا أبا بكر ! فقد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس . ورمى في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شأهت الوجوه . ثم تراحفوا . نخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز ، نخرج إليهم عبدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، فقتل حمزة وعلى شيبة والوليد ، وضرب عتبة عبدة ، فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلى إلى عتبة فقتلاه ،

وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم .
وجال القوم جولة . فهزم المشركون . وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا . وأسر سبعون .
واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً . ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة ، وقسم
الغنائم في الصفراء ، ودخل المدينة لثمان بقين من رمضان . وبسط القصة في السير . ومن
أبدعها سيافاً وقفها (زاد المعاد) فليرجع إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ)

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ » لتقويتكم ونصركم
ودفع أعدائكم « بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ » من سمائه لقتال أعدائه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

« بَلَىٰ » إما من تنمة مقوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أو ابتداء خطاب من الله تعالى
تأييداً لقول نبيه وزيادة على ما وعدهم تكريماً وفضلاً . أى : نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة
آلاف ولكنه يزيدكم « إِنْ تَصْبِرُوا » على قتالهم « وَتَتَّقُوا » الفرار عنهم « وَيَأْتُوكُمْ
مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا » أى ساعته هذه فلا تنزعجوا بمفاجأتهم « يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم « مُسَوِّمِينَ » بكسر
الواو أى معلمين أنفسهم بأداة الحرب على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها . وقرئ

بفتح الواو أى معلّمين من قبله تعالى . روى البخارى^(١) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

تنبيه :

فى وعده صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالإمداد بقوله « إِذْ يَقُولُ » وجهان :
الأول - أنه كان فى يوم بدر ، فإن سياق ما قبله يدل عليه وهو قوله « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » فـ (إِذْ) ظرف لـ (نصركم) ، أى نصركم وقت قولك للمؤمنين وقد أظهروا المعجز واستغاثوا ربهم . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، على هذا الوجه ، وبين قوله فى سورة الأنفال فى قصة بدر : إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ^(٢) ؟

فالجواب : أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافى الثلاثة آلاف فما فوقها ، لقوله (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم أوف آخر مثلهم ، وذلك أنهم لما استغاثوا أمدهم بألف ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واثقوا ، وكان هذا التدرىج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لتقويتهم ، وأسرهما من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، وزوله مرة بعد مرة . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، ومما يؤيد هذا الوجه أن سياق بدر فى الأنفال من قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . .^(٣) الآيات شبيه بهذا السياق هنا . كما يذوقه من تدبره .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرًا ،

حديث ١٨٥٥ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٩] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها : وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ =

الوجه الثاني :

أن هذا الوعد كان يوم أُحُد ، فإن القصة في سياق أُحُد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها ؛ ليدكرهم بنعمته عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، وإنه كذلك هو قادر على نصرهم في سائر المواطن . ثم عاد إلى قصة أُحُد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ...** الآية . ثم وعدهم أنهم إن صبروا واثقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والامداد الذي يبدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف . وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذاك مطلق ، والقصة في هذه السورة هي قصة أُحُد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً . والقصة في الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق هنا غير السياق في الأنفال - أشار لذلك ابن القيم في (زاد المعاد) .

وقد انتصر للوجه الأول العلامة أبو السعود ، وبين ضعف الثاني بأوجه وجيهة . فليرجع إليه .

وقتل الخازن عن ابن جرير أنه قال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟** فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واثقوا الله .

ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يُمدُّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك . ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذي يثبت أنهم أمدُّوا بالثلاثة الآلاف . ولا بالخمسة الآلاف .

= **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .**

وغير جائز ، أن يقال في ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم به الحجة . ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله :
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِينَ .
[٨ / الأنفال / ٩] .

فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يُمدُّوا أبين منها في أنهم أمدوا . وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يهزموا ، وينال منهم ما نيل منهم .
فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره .

(هذا هو نص ابن جرير . صفحة ١٨٠ و ١٨١ من الجزء السابع (طبعة المعارف) .
فإن قلت : فما تصنع بحديث سعد بن أبي وقاص المروي في الصحيحين أنه قال ^(٣) : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعني جبريل وميكائيل ؟ قلت : إنما كان ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد - انتهى .
فائدة :

الإمداد ، لغة الإعانة . والمراد هنا إعانة الجيش . وهل إعانة الملائكة للجيش بالقتال معهم للحديث السابق . ولحديث عائشة في الصحيحين ^(٣) قالت : لما رجع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٨ - باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، حديث ١٨٧٣ .
ومسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ٤٧٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٠ - باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم ، حديث ٣٠٨ .
ومسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أنه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ! قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا - وأشار إلى بني قريظة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم - أو هي بتكثير سواد المسلمين وثبتت قلوبهم ، كما قال تعالى في الأنفال (١) : **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . أَوْ بِهِمَا مَعًا . وَهُوَ الظَّاهِرُ .** وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش ، رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عبادته . والله فاعل الجميع - انتهى -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ

إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ » أى ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوة قلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم « وَلِتَطْمَئِنَّ » أى تسكن « قُلُوبُكُمْ بِهِ » أى فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وحده لا من الملائكة ولا من غيرهم ، فالأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير ، وفيه توثيق للمؤمنين ، وعدم إفناط من النصر عند فقدان أسبابه وأماراته « الْعَزِيزِ » أى الذى لا يقالب فى حكمه « الْحَكِيمِ » الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته الباهرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

« لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ليهلك وينقص طائفة منهم بالقتل والأسر ،

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ... فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

كما كان يوم بدر، مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْرَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ ، واللام متعلقة ، إما بقوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ . وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان لكيفية وقوعه - وإما بما تعلق به الخبر في قوله تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . من الثبوت والاستقرار « أَوْ يَكْتَبَتُهُمْ » أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين « فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » أى فيرجعوا منقطعى الآمال . وإنما أوقع بين المعطوف والمعطوف عليه فى أثناء الكلام قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فىرى نفسه تأثيراً فى بعض هذه الأمور فيحتجب عن التوحيد ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، كيفما كان ، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار . إن عليك إلا البلاغ ، إنما أمرهم إلى الله - أفاده القاشانى - وفى الاعتراض تخفيف من حزنه لكفرهم ، وحرصه على هدايتهم ، كما قال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وقوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم للإسلام بعد الضلالة « أَوْ يُعَذِّبُهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم « فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » أى يستحقون ذلك لاستمرارهم على العناد .

روى البخارى^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قَنَتَ بعد الركوع ، فرمما قال ، إذا قال سمع الله لمن حمده: اللهم ! ربنا ولك الحمد : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، اللهم ! اشد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسنى يوسف ، يجر بذلك ،

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - باب لَيْسَ لَكَ

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ٤٨٣ .

وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً (لأخياء من العرب)
حتى أنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية .

وقد أسند ما علقه عن ابن عمر^(١) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر ، يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً .
بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده وربنا ولك الحمد . فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ...
الآية - ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً ولفظه : اللهم ! العن فلانا وفلانا . اللهم العن
الحارث بن هشام . اللهم العن سهيل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت هذه
الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فيتب عليهم كلهم .

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله
عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف
يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ، فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . الآية - انفرد به مسلم . ورواه البخاري تعليقا . وقد تقدم
لنا في مقدمة التفسير تحقيق معنى سبب النزول ، وأن الآية قد تذكر استشهاداً في مقام ،
لكونها مما تشمله . فيطلق الراوى عليها النزول فيه ، ولا يكون قصده أن هذا كان سبباً
لنزولها . والحكمة في منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً .
والإلحاح في الدعاء مظنة الإجابة ، لا سيما من أشرف خلقه . فاقترض حكيمته تعالى إمهالهم
إلى أن يتوبوا لسابق علمه فيهم . وفيه طلب التفويض في الأمور الملمة ، لما في طيها من
الأسرار الإلهية .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - باب لَيْسَ لَكَ
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ١٨٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

لطيفة :

قوله تعالى : **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** . منصوب بإضمار (أن) في حكم اسم معطوف بـ (أَوْ) على (الأمر) أو على (شيء) ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم ، أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم .
أقول: **جَعَلُ** « **أَوْ يَتُوبَ** » منصوباً بالعطف على (يكبتهم) - بعيد جداً . وإن قدمه بعض المفسرين على الوجه المتقدم . وذلك لأن قوله تعالى « **لَيْسَ لَكَ** » كلام مستأنف على ما صرحت به الروايات في سبب النزول . وهى المرجع فى التأويل - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ، **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ، **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)

« **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** » تقرير لما قبله من قوله : **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ، أى له ما فيها ملكاً وأمراً « **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** » فيحكم فى خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل « **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** » تذييل مقرر لمضمون قوله : **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ** ، مع زيادة . وفى تخصيص التذييل به دون قرينة ، من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى - أفاده أبو السعود - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه ، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محلّه يقول : إما أن تقضى حتى أو تربى وأزيد في الأجل . وفى ندائهم باسم (الإيمان) إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا . وقد تقدم في البقرة من المبالغة في النهى عنه ما يروع من له أدنى تقوى . ويوجب ، لمن لم يتركه وما يقاربه ، الضمان بالخذلان في كل زمان : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(١) . أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ^(٢) . وقوله « أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » أى زيادات متكررة ، وليس لتقييد النهى به ، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ، بل مراعاة عادتهم كما بينا . ومحله النصب على الحالية من الربا . وقرئ (مضعفة) « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما تنهون عنه « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » بإيفاء حقوقكم وصونكم عن أعدائكم ، كما صنتم حقوق الأشياء . ومما يعلم به حكمة نظم هذه الآية في سلك قصة أحد ، ما رواه أبو داود ^(٣) عن أبي هريرة أن عمرو بن أقيش رضى الله عنه كان له رباً في الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أحد ، فقال : أين بنو عمى ؟ قالوا بأحد . قال : أين فلان ؟ قالوا : بأحد . قال : فأين فلان ؟ قالوا :

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٩] ... وَإِنْ تَبُتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٦] .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٣٧ - باب فيمن يسلم ويقتل مكانه

في سبيل الله عز وجل ، حديث ٢٥٣٧ .

بأُحْد . فلبس لَأُمَّتَهُ ، وركب فرسه ، ثم توجه قِبَلَهُمْ ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال لأخته : سليه : حمية لقومك وغضباً لهم أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله ﷺ ، فات ، فدخل الجنة ، وما صلى الله عز وجل صلاة .

قال الدينورى : وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ! فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بنى عبد الأشهل .

وعند ابن إسحق : فذكر لرسول الله ﷺ فقال : إنه لمن أهل الجنة - هذا ملخص ما أورده البقاعى رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » بالتحرز عن متابعتهم فى الربا ونحوه . روى عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول : هى أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » أى فى ترك الربا ونحوه « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ » أى إلى ما يؤدى إليهما من الاستغفار

والتوبة والأعمال الصالحة . وقوله « عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » أى كعرضهما ، كما قال في سورة الحديد : سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(١) . وفي العرض وجهان :

الأول - أنه على حقيقته . وتخصيصه بالذكر تنبيهاً على اتساع طولها . فإن العرض في العادة أدنى من الطول ، كما قال تعالى في صفة فرش الجنة : بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ^(٢) . أى فما ظنك بظواهرها ؟ فكذا هنا .

والثاني - أنه مجاز عن السعة والبسطة . قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة ، كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال : هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة . وقال الزمخشري : المراد وصفها بالسعة والبسطة . فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه تعالى وأبسطة - والله أعلم - « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ » أى في حال الرخاء واليسر « وَالضَّرَّاءِ » أى في حال الضيقة والعسر . وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شئ على النفس ، فمخالفتها فيه منقبة

(١) [٥٧ / الحديد / ٢١] . . . أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٥٤] ونصها : مُتَكِثِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

شاخه « وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » أى المسكين عليه فى نفوسهم ، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، اتقاء التعدى فيه إلى ما وراء حقه .

روى الإمام أحمد^(١) عن جارية بن قدامة السعدى أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولاً ينفعنى وأقلل على لعلى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه . حتى أعاد عليه مرارا . كل ذلك يقول : لا تغضب - انفرد به أحمد - وروى من طريق آخر أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصنى ، قال : لا تغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال النبى صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » أى ظلمهم لهم ، ولو كانوا قد قتلوا منهم ، فلا يؤاخذون أحداً بما يحنى عليهم ، ولا يبقى فى أنفسهم موجدة ، كما قال تعالى : وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ^(٢) . قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ماذم من فعل المشركين فى أكل الربا ، فهى المؤمنون عن ذلك ، وندبوا إلى العفو عن المعسرين . قال تعالى عقيب قصة الربا والتدابين : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٣) . ويحتمل أن يكون كما قال تعالى فى الدية : فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ^(٤) . إلى قوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . ويحتمل

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٨٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٧] ونصها : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٠] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَا إِلَى اللَّهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : لأمثلنَّ بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلَّة ، فكان تركه فعل ذلك عفواً . قال تعالى في هذه القصة : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ^(١) - انتهى - وظاهر أن عموم الآية مما يشمل كل ما ذكر . إذ لا تعين « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » اللام إما للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً . وإما للعهد ، عبر عنهم بالمحسنين إيداناً بأن النعوت المحدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى . وقد فسرهُ صلى الله عليه وسلم بقوله^(٢) : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها - أفاده أبو السعود -

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . ونصه : عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به . وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأُمّةُ رهياً . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . الآية .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

قال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» من السيئات الكبار «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أى باى نوع من الذنوب «ذَكَرُوا اللَّهَ» أى تذكروا حقه وعهده فاستحيوه وخافوه «فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» أى لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى .

قال البقاعي: ولما كان هذا مفهوماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب ، أتبعه بتحقيق ذلك ، ونفى القدرة عليه عن غيره ، مرغبا في الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين بقوله « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ » أى يحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها « إِلَّا اللَّهُ » أى الملك الأعلى . وقال أبو السعود « مَنْ » استفهام إنكارى . أى لا يغفر الذنوب أحد إلا الله ، خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لإيدانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطأ يعرف ذلك الانتفاء ، فيسارع إلى الجواب به . والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة ، والجملة معترضة بين المعطوفين ، أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه ، والإشعار بالوعد بالقبول .

وقال الزمخشري: في هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفرع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه ، وجب العفو والتجاوز . وفيه تطيب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة - انتهى .

وفي مسند الإمام أحمد^(١) عن الأسود بن سريع رضى الله عنه أن النبي ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبي ﷺ : عرف الحق لأهله . وفيه أيضاً^(٢) : عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

وفيه أيضاً^(٣) : عن عليّ رضى الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم حديثاً نفعتنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيرى استحلقتة ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له ، ورواه أهل السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم - قال الترمذى : حديث حسن « وَلَمْ يُبْصِرُوا » أى لم يقيموا « عَلَى مَا فَعَلُوا » أى ما فعلوه من الذنوب من غير استغفار « وَهُمْ يَمْلِكُونَ » حال من فاعل (بصروا) أى لم بصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه ، والنهى عنه ، والوعيد عليه . والتقيد بذلك ، لما أنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وقد روى أبو داود والترمذى^(٤) والبخارى وأبو يعلى عن مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه عن أبى بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ،

- (١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
- (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
- (٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم ٢ (طبعة المعارف) .
- ورواه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٨١ - باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة .
- (٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٦ - باب فى الاستغفار ، حديث ١٥١٤ والترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١٠٦ - باب حدثنا حسين بن يزيد الكوفى .

وإسناده لا بأس به . قال ابن كثير : وقول علي بن المديني والترمذي : ليس إسناد هذا الحديث بذلك - فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعي كبير ، ويكفيه نسبه إلى أبي بكر ، فهو حديث حسن - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

«أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بامر من الصفات الحميدة «جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ» أي ستر لذنوبهم «وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي من أنواع المشروبات «خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» الخصوص بالمدح محذوف ، أي ذلك . يعني ما ذكر من المغفرة والجنت . ثم عاد التنزيل إلى تفصيل بقية قصة أخذ ، بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

«قَدْ خَلَتْ» أي مضت «مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم «فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» أي وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال . والأمر بالسير والنظر . لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا في الاعتبار والروعة ، أقوى من أثر السماع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)

« هَذَا » أى القرآن أو ما تقدم من مؤاخذه المذكورين « بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى تخويف نافع « لِّلْمُتَّقِينَ » ثم شجع قلوب المؤمنين وسلاهم عما أصابهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منكم ، والحال أنكم الأعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » متعلق بالنهاى أوب(الأعلون) . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه . أى إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة ب صنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعْلَوْنَ ، فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة - أفاده أبو السعود -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ » بالفتح والضم قراءتان ، وهما لفتان ، كالضعف والضعف ، أى

إِنْ أَصَابَكُمْ يَوْمَ أَحَدٍ جَرَحٌ « فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » أَى يَوْمٍ بَدْرٍ وَلَمْ يَضْعَفُوا وَلَمْ يَجْبُنُوا فَأَنْتُمْ أَوَّلَى ، لَأَنْكُمْ مَوْعِدُونَ بِالنَّصْرِ دُونَهُمْ ، أَى فَقَدْ اسْتَوَيْتُمْ فِي الْأَلَمِ ، وَتَبَايَنْتُمْ فِي الرَّجَاءِ وَالثَّوَابِ ، كَمَا قَالَ : إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^(١) . فَمَا بِالْكُمْ تَهْنُونَ وَتَضْعَفُونَ عِنْدَ الْقَرْحِ وَالْأَلَمِ ، فَقَدْ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، وَأَنْتُمْ أَصَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ . وَقِيلَ : كَلَّا الْمَسِينُ كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ نَالُوا مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخَالَفُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ » أَى أَيَّامُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » أَى نَصَرَهَا بَيْنَهُمْ ، نَدِيلُ تَارَةٍ لِهَؤُلَاءِ ، وَتَارَةٍ لِهَؤُلَاءِ . فَهِيَ عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَقْسِمُهَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ . بِخِلَافِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ عَرَضَهَا وَنَصَرَهَا وَرَجَاءَهَا خَالِصٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

قال ابن القيم قدس الله سره (في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد) :

ومنها أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى ، لكن تكون لهم العاقبة . فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ، ولم يميز الصادق من غيره . ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة . فاقترضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين لِيَتَمِيزَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ لِلْحَقِّ وَمَا جَاؤُوا بِهِ ، مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى الظُّهُورِ وَالْغَلْبَةِ خَاصَّةً - انتهى -

وقوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » قال ابن القيم : حكمة أخرى وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس .

لطيفة :

في الآية وجهان :

أحدهما : أن يكون الملل محذوفاً معناه : وليعلم .. الخ فعلنا ذلك .

الثانى : أن تكون العلة محذوفة وهذا عطف عليه معناه : وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت ، وليعلم الله . وإنما حذف للإيدان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسلهم عما جرى عليهم وليبصرهم أن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه - أفاده الزخشرى -

تنبيه :

في هذه الآية بحث مشهور ، وذلك بأن ظاهرها مشعر بأنه تعالى إنما فعل ذلك ليكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظيرها في الإشكال قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ^(١) .. الخ وقوله : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٢) وقوله : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزْبَيْنِ أَحْصَى^(٣) .. الخ وقوله : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ^(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٣] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٢] ونصها : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزْبَيْنِ أَحْصَى

لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

(٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣١] .

وقوله: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ^(١) .

قال الرازي: وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها فقال: كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالماً بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

ولما كانت الدلائل القطعية دالة على أزلية علمه جل اسمه ، أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة : منها - أن هذا من باب التمثيل . فالتقدير في هذه الآية : ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها - أن العلم فيها مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها - أن العلم على حقيقته . إلا أنه معتبر من حيث تعلقه بالعلوم من حيث إنه واقع موجود بالفعل ، أى ليعلم الثابت واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع لأن المجازاة تقع على الواقع دون العلوم الذى لم يوجد ، وهذا ما اعتمده ابن القيم كما نقلناه أولاً .

ومنها - أن الكلام على حذف مضاف . أى ليعلم أولياء الله ، فأضاف إلى نفسه تفخيماً - والله أعلم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذ سبحانه منهم شهداء بقوله « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى تضحية النفس شهادة للحق ، واسماتة دونه ، وإعلاء لكلمته ، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده ، وقد أعد لهم أعلى

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

النازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة . وفي لفظ (الاتخاذ) النبيُّ عن الاصطفاء والتقريب ، من تشریفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قال ابن القيم : تنبيه لطيف الموقع جدا على أن كراهته وبغضه للمنافقين الذين انحزلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ، ولم يتخذ منهم شهداء ، لأنه لم يحبهم ، فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنون في ذلك اليوم ، وما أعطاه من استشهاد منهم ، فنبت هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياء وحزبه - انتهى .

فالتعريض بالمناققين . ويحتمل أن يكون بالكفرة الذين أدب لهم ، تنبيهاً على أن ذلك ليس بطريق النصر لهم ، بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين . ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

« وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لينقيهم ويخلصهم من الذنوب ومن آفات النفوس . وأيضاً فإنه خالصهم ومحصهم من المنافقين ، فتميزوا منهم . فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدو . ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بقوله « وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » أى يهلكهم ، فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا . فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، إذ جرت سنة الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقتهم . ومن أعظمها ، بعد كفرهم ، بغيتهم وطفيتهم في أذى أوليائهم ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم . والحق ذهاب الشيء بالكية حتى لا يرى منه شيء ، وقد محق الله الذي حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصرّوا على الكفر جميعاً ، ثم أنكر تعالى عليهم حسابهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ

وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ » أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه ، فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه - أفاده ابن القيم -

وفي الكشف « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ » بمعنى ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه ، لأنه منتف بانتهائه ، يقول الرجل : ما علم الله في فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و (لما) بمعنى (لم) ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفي الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله .

لطيفة :

قال أبو مسلم في (أَمْ حَسِبْتُمْ) : إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتي للتبكي . وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد ، وهو كقوله : أَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ^(١) . وافتتح الكلام بذكر (أَمْ) التى هى أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضريين ، يشك في أحدهما لابعينه . يقولون : أزيداً ضربت أماً عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا » كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أَمْ تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر . وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعها ، وبين وجوه الصالح فيها في الدين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠١] .

وفي الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة - انتهى - .

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ » أى الحرب، فإنها من مبادئه ، أو الموت على الشهادة « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ » أى تشاهدوه وتعرفوا هوله « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » أى ما تتمنونه من أسباب الموت ، أو الموت بمشاهدة أسبابه العادية ، أو قتل إخوانكم بين أيديكم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » حال من ضمير المخاطبين . وفي إثارة الرؤية على الملاقاة ، وتقييدها بالنظر ، مبالغة في مشاهدتهم له .

قال ابن عباس : لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة ، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه فيأحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم ، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزله الله تعالى « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ . . . » الآية - وقد ثبت في الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

(١) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٢ - باب كان النبي ﷺ إذا

لم يقاتل أول النهار ، أخر القتال حتى تزول الشمس . ونصه :

عن سالم أبي النضر ، مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبد الله ابن أبي أوفى رضى الله عنهما ، فقرأته أن رسول الله ﷺ ، في بعض أيامه التي لقي فيها ، =

قال أهل الغزاة: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، أقبل عبد الله بن قتيبة يريد قتل رسول الله ﷺ . فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وهو يومئذ صاحب رايته ، فقتله ابن قتيبة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع فقال : قد قتلت محمداً وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال . ففي ذلك أنزل الله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » والرسول منهم من مات ، ومنهم من قتل ، فلا منافاة بين الرسالة والقتل والموت ، إذ « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » فسيخلو كما خلوا « أَفَإِنْ مَاتَ » أى أتؤمنون به في حال حياته فإن مات « أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ » أى ارتددتم « عَلَى أَعْقَابِكُمْ » أى بعد علمكم بخلو الرسول قبله ، وبقاء دينهم ، متمسكاً به « وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا » وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب « وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » بالنصر والغلبة في الدنيا ، والثواب والرضوان في الآخرة ، وهم الذين لم ينقلبوا ، بل قاموا بطاعته ، وقاتلوا على دينه ، واتبعوا رسوله حياً وميتاً . وسماهم (شاكرين) لأنهم شكروا

= انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام في الناس قال « أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال « اللهم ! منزل الكتاب ، وجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم . »
ومسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٢٠ (طبعنا) .

نعمة الإسلام الذي هو أجل نعمة وأعز معروف . والمعنى أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يَفْتَرُ عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين ، وكما قال أنس^(١) (عم أنس بن مالك ، يوم أحد حين أُرْجِفَ بقتل رسول الله عليه السلام وشاع الخبر ، وانهزم المسلمون ، وبلغ إليه تقول بعضهم : ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . وقول المنافقين : لو كان نبياً ما قتل) : يا قوم ! إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد حي لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم ! إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل - أفاده القاشاني - .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٢ - باب قول الله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدْلًا . ونصه :

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر . فقال : يا رسول الله ! غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين ، لأن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم ! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، ورب النضر ! إني أجد ريحها من دون أُحُدٍ .

قال سعد : فما استطعت ، يا رسول الله ! ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ، ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم . ووجدناه قد قُتِلَ وقد مُثِّلَ به المشركون . فما عرفه أحد إلا أخته بيناته .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... الخ .

روى ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فزل « وَمَا مُحَمَّدٌ ... » الآية - رواه أبو بكر البيهقي في (دلائل النبوة) .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : ومنها - أى من الغايات في هذه الغزوة - أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل. بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويُقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت . فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لا هو ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لا بد منه ، فسواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقى . ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل ، فقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... الآية - والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة ، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا ، فظهر أثر هذا العتاب ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد على عقبيه ، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم ، وأظفرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم - انتهى - .

وثبت في الصحيح^(١) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية يوم موت النبي ﷺ ، وتلاها منه الناس كلهم ، والحديث مشهور . ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً ، لا بد أن تستوفيه وتلحق به ، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً ، وإن تنوعت أسبابه ، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، بقوله :

(١) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ،

٥ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بأمره وإرادته « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أى كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر . وفى الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » أى مانئاً أن نؤتيه ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بمن حضر لطلب الغنائم « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » ونظير هذه الآية قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ^(١) . وقوله سبحانه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ^(٢) .
واعلم أن الآية ، وإن كان سياقها فى الجهاد ولكنها عامة فى جميع الأعمال . وذلك لأن المؤثر فى جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعى ، لا ظواهر الأعمال . ثم نفى عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية ، عليهم السلام ، بقوله :

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ و ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ » أى كم من الأنبياء قاتل معهم ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، جماعتهم الأتقياء العباد «فَمَا وَهَنُوا» أى ضعفوا «لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» من الجراح وشهادة بعضهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسوله « وَمَا ضَعُفُوا » أى عن الجهاد أو العدو أو الدين « وَمَا اسْتَكَانُوا » للأعداء بل صبروا على قتالهم « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » على قتال أعدائه .

تنبيهات

الأول - (كَأَيِّنْ) بمعنى (كم) الخبرية ، وفيها لغات ، قرئ منها فى السبع : كَأَنَّ ممدوداً مهموزاً لابن كثير . والباقون بالتشديد . وفيها كلام كثير فى معناها ولغاتها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلاً ووقفاً ، وفى رسمها . فانظر مواد ذلك .

الثانى - قرئ فى السبع « قُتِلَ » بالبناء للمجهول ونائب الفاعل « رِيثُونَ » قطعاً . وأما احتمال أن يكون ضميراً لنبيٍّ ومعه ريثون حال ، أو يكون على معنى التقسيم والتأخير ، أى وكأئن من نبيٍّ معه ريثون قتل - فتكلف ينبو عن سليم الأفهام . وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله . وإن نقله القفال ، ونصره السهيليّ وبالغ فيه . فما كل سوداء تمرّة .

الثالث - (الريثون) بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرئ بضمها وفتحها ، فالفتح على القياس ، والكسر والضم من تغييرات النسب ، وهم الربانيون ، أى الذين يعبدون الرب تعالى . ثم أخبر سبحانه ، بعد بيان محاسنهم الفعلية ، بمحاسنهم القولية ، وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على عدوهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » أى هؤلاء الربانيين، مثل قول المنافقين ولا المعجيين . و « قولهم » بالنصب خبر لـ (كان) ، واسمها (أن) وما بعدها فى قوله تعالى « إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال ابن القيم : لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها . وأنها نوعان : تقصير فى حق ، أو تجاوز لحد . وأن النصر منوط بالطاعة ، قالوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى ، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يقدرُوا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يثبتوا ولم ينتصروا . فَوَقَّوْا المقامين حقهما : مقام المقتضى ، وهو التوحيد ، والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالة المانع من النصر ، وهو الذنوب والإسراف - انتهى -

قال القاضى : وهذا تأديب من الله تعالى فى كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن ، سواء كان فى الجهاد أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » من النصر والغنيمة ، وقهر العدو ، والثناء الجليل ، وانسراح الصدر بنور الإيمان ، وكفارة السيئات « وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ » وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم . وتخصيص وصف الحسن بثواب الآخرة للإيذان بفضله ومزيته ، وأنه المعتدُّ به عنده تعالى ، بخلاف الدنيا لقلتها وامتزاجها بالمضار ، وكونها منقطعة زائلة

« وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » إشارة إلى أن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان .

قال الرازي : فيه دققة لطيفة ، وهي أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا... الآية - سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسى حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز اه .

ثم حذرهم سبحانه ، إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء المفضى لسعادة الدارين ، من طاعة عدوهم . وأخبر أنه إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة . وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » أى إلى الشرك . والارتداد على العقب علم في انتكاس الأمر ، ومثله في الحور بعد الكور « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » لدين الإسلام ولحبة الله ورضوانه وثوابه الدنيوى والأخروى . فلا تعتقدوا أنهم يوالونكم كما توالونهم . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على أن على المؤمنين أن لا ينزلوا على حكم الكفار ولا يطيعوهم ولا يقبلوا مشورتهم خشية أن يستزلوهم

عن دينهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

«بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ» فأطيعوه «وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» ينصركم خيراً من نصرهم لو نصروكم ، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال، كما وعد بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

«سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» أى الذى يمنعهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم «بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ» أى بكونه إلهاً أو متصفاً بصفاته أو مستحقاً للعبادة «سُلْطَانًا» أى حجة قاطعة يبنى عليها الاعتقادات «وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» هى . والمثوى : المقر والمأوى والمقام . من (ثوى يثوى) .

لطائف

الأولى :

أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب . قال القاشانى : جعل إلقاء الرعب فى قلوب الكفار مسبباً عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات فى قوى النفس لتنورها بنور التوحيد ، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن فى توحيده . وأما المشرك فلا أنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذى لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل .

وقال القفال رحمه الله : كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أحد

إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك ، فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار .
ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع
الأديان والملل - انتهى -

وقد ثبت فى الصحيحين^(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض
مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبىؐ
يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة .

الثانية :

فى ذكر عدم تنزيل الحجة مع استحالة تحققها فى نفسها ، إشعار بنفيها ونفى نزولها جميعاً .
لأن ما لم ينزل به سلطاناً ، لا سلطان له .

الثالثة :

قال أبو السعود : فى الآية إيدان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى ، دون الآراء
والأهواء الباطلة .

وقد سبقه إلى ذلك الرازى حيث قال : هذه الآية دالة على فساد التقليد . وذلك لأن
الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلاً ، وهذا إنما يصح
إذا كان القول بإثبات ما لا دليل على ثبوته ، يكون باطلاً ، فيلزم فساد القول بالتقليد - انتهى -
ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى النصر على عدوه ، وهو الصادق الوعد ، وأنهم لو استمروا
على الطاعة ولزموا أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ، ولكن انخلعوا عن الطاعة ، وفارقوا
مركزهم ففارقهم النصر ، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم سوء عواقب
المعصية وحسن عاقبة الطاعة بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٦ - باب قول النبىؐ صلى الله عليه وسلم
« جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ » في قوله : « وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ . » « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ » أى تقتلونهم قتلاً كثيراً . من (حسه) إذا أبطل حسه « بِإِذْنِهِ » أى بتيسيره وتوفيقه « حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ » أى ضعفتم وتراخيتم بالليل إلى الغنيمة « وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى فى الإقامة بالمركز ، فقال أصحاب عبد الله ^(١) : الغنيمة . أى قوم ! الغنيمة . ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين - رواه الإمام أحمد -

و (الأمر) إما بمعنى الشأن والقصة ، وإما الذى يضاده (النهى) أى فيهم أمرتهم به من عدم البراح « وَعَصَيْتُمْ » أى أمر الرسول أن لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا ، فلا تعينونا - رواه البخارى - « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » أى من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدو . روى البخارى ^(٢) عن البراء قال : لقينا المشركين

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١٧ - باب غزوة أحد وقول الله

تعالى : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . الخ ، حديث ١٤٤٢ = وهذا نصه :

يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم - بلفظ ما تقدم - ثم قال البراء : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة .. الحديث « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أى الغنيمة فترك المركز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » فثبت فيه وهم الذين نالوا شرف الشهادة ، ومنهم أنس بن النضر الأسدالمقدام^(١) ، القائل وقتئذ : اللهم ! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به

= عن البراء رضى الله عنه قال : لقد لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبد الله وقال « لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فأخذوا يقولون : الغنيمة ! الغنيمة ! فقال عبد الله : عهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صرّف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلًا .

وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن أبي قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدوّ الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك .

قال أبو سفيان : أعلّ هُبْلٌ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجيبوا » قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجلّ » .

قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وتجدون مثلاً لم آمر بها ولم تسؤنى .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٩٨٧ .

المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقى سعد بن معاذ ، فقال أين ياسعد ؟ إني أجد ربح الجنة دون أحد ! ففضى فُقُتِلَ ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم - هذا لفظ البخارى - وأخرجه مسلم بنحوه ، فرضى الله عنه وأرضاه وقدس روحه الزكية « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ، ودالت الدولة . وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى « لِيَبْتَلِيَكُمْ » أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه ، وتستغفروه فيما خالقتم فيه أمره ، وملتم إلى الغنيمة . ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » أى تفضلاً عليكم لإيمانكم « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى فى الأحوال كلها ، إما بالنصرة وإما بالابتلاء ، فإن الابتلاء فضل ولطف خفى ، ليمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فى المواطن ، ويتمكنوا فى اليقين ، ويجعلوه ملكة لهم ، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ، ولا يذهلوا عن الحق ، وليكون عقوبة عاجلة للبعض ، فيتمحصوا عن ذنوبهم ، وينالوا درجة الشهادة ، فيلقوا الله ظاهرين - أفاده القاشانى - .

لطائف

الأولى :

(إذا) فى قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إما شرط ، أو ، لا . وعلى الأول فجوابها إما محذوف أو مذكور . فتقديره ، على كونه محذوفاً ، حتى إذا فشلت وتنازعت فى الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون ، منعكم الله نصره - لدلالة صدر الآية عليه - أو صرتم فريقين ، لأن قوله تعالى « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ . . . » الخ يفيد فائدته ، ويؤدى معناه . وعلى كونه مذكوراً فهو إما (وعصيتم) والواو صلة . وحكى هذا عن الكوفيين والفراء ، قالوا : ونظيره قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١) . والمعنى نادينه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ و ١٠٤] .

وبعض من نصر هذا الوجه زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو في جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا^(١)** . أى فتحت . وأجابوا عما أورد عليهم من لزوم تعليل الشيء بنفسه - إذ الفشل والتنازع معصية فكيف يكونان علة لها - بأن المراد من العصيان خروجهم عن ذلك المكان . ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عنه ، فلا لزوم . وإما قوله تعالى **« صَرَفَكُم عَنْهُمْ »** وكلمة (ثم) صلة - قاله أبو مسلم .

وعلى الثانى أعنى كونها ليست شرطاً فهى اسم و (حتى) حرف جر بمعنى إلى متعلقة بقوله تعالى **« صدقكم »** باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل : لقد نصركم الله (إلى) وقت فشلكم وتنازعكم .

الثانية :

فائدة قوله تعالى **« مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ »** التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام .

الثالثة :

ظاهر قوله تعالى : **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** . أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأنها لم تذكر ، فدل على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر .

الرابعة :

فى قوله تعالى : **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** . دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن ، فإن الذنب فى الآية كان كبيرة - والله أعلم - .
ثم ذكرهم تعالى بحالهم وقت الفرار بقوله :

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] ونصها : **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .**

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلُونَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِذْ تَصْعِدُونَ » متعلق بـ (صرفكم) أو قوله (ليبتليكم) ، أو بمقدر . والإصعاد الإبعاد في الأرض . أى تبعدون في الفرار ، وقرئ : تَصْعِدُونَ . من الثلاثي ، أى في الجبل « وَلَا تُلُونَا » أى لا تعطفون بالوقوف « عَلَىٰ أَحَدٍ » أى من قريب ولا بعيد ، من الدهش والروعة « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ » أى ساقتمكم وجماعتكم الأخرى ، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرّة عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت في مكانه في نحر العدو في نفر يسير وثوقاً بوعده الله ومراقبة له .

قال السديّ : لما اشتد الشركون على المسلمين بأحد ، فهزمومهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىّ عباد الله ! إلىّ عباد الله ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل - ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال : إذ تصعدون ... الخ - قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والريبع وابن زيد .

وفي حديث البراء رضى الله عنه في مسند الإمام أحمد^(١) أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً . وروى مسلم^(٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ضمن

حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ١٠٠ (طبعنا) ونصه : =

الأنصار ورجلين من قريش : « فَأَتَا بَكُمُ » أى جازاكم بهذا الهرب والفرار « غَمًّا بَغْمٍ » أى غمًّا متصلًا بغم ، يعنى غم الهزيمة والكسرة ، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدًا قُتِل . وقيل الباء بمعنى مع ، وقيل بمعنى على ، وهما قريبان من الأول . وقيل الباء للمقابلة والعوض ، أى أذاقكم غمًّا بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، وقيل : المعنى غمًّا بعد غم . أى غمًّا مضاعفًا . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى لتتَمَرَّنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فيها ، وتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة ، وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم ، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الحظوظ والمنافع . وقوله : « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقيل جازاكم غمًّا بما غمتم به رسوله بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذى حصل لكم جزاءً على الغم الذى أوقعتموه بنبية . والقول الأول أظهر لوجوه :
أحدها :

أن قوله لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ « تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح ، فنسوا بذلك السلب ، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

= عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهبوه قال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيق فى الجنة ؟ » . فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . ثم رهبوه أيضاً . فقال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيق فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » .

الثاني :

أنه مطابق للواقع ، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة ، ثم أعقبه غم الهزيمة ، ثم غم الجراح الذي أصابهم ، ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتام الابتلاء والامتحان .

الثالث :

أن قوله (بغم) من تمام الثواب ، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى أننا بكم غماً متصلًا بغم ، جزاء على ما وقع منكم من الحرب ، وإسلامكم نبيه ﷺ وأصحابه ، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم ، ومخالفتكم له في لزوم مركزكم ، وتنسازكم في الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غماً يخصه ، فترادفت عليهم الغموم ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم ، ورأفته ورحمته ، أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من أمور الطباع ، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة ، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل ، فيترتب عليها آثارها المكروهة ، فعلموا حينئذ أن التوبة منها ، والاحتراز من أمثالها ، ودفعها بأضدادها ، أمر متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشد حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير ، ويجوز أيضاً استعماله في الشر ، لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله ، أي رجع إليه . قال تعالى : **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ^(١)** . والمرأة تسمى (ثيباً) لأن الواطئ عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى (١) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .**

الفاعل من جزاء فعله ، سواء كان خيراً أو شراً ، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم ، كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف ، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ ^(١) - قاله الرازى - .

تنبيه :

قال المفضل : (لا) زائدة ، والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم ، كقوله : أَنْ لَا تَسْجُدَ ^(٢) ، و : لَيْسَ يَعْلَمَ ^(٣) ، أى أن تسجد وليعلم .
وعندى أنه بعيد ، لاسيما مع تكرار (لا) فى العطف ، واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها ، فالوجه ما سلف .

« وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » خيراً وشرّاً ، قادر على مجازاتكم ، وفيه أعظم زاجر عن
(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩ / التوبة / ٣٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ - ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ * وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لَيْسَ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الإقدام على المعصية . ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته ، وخفف عنهم ذلك الغم ، وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنا منه ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَشْفِي طَائِفَةً مِّنكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ ، يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً » أى أمناً . والأمانة (بتحريك الميم) مصدر، يقال : أمن أمناً وأماناً وأمناً وأمانة (محركتين) وفى حديث ^(١) نزول عيسى عليه السلام ، إ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٠٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ونصه: عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد . وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم . لأنه لم يكن بينى وبينه نبى . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل . فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام . فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام . ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال . وتقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والتمار مع البقر ، والذئباب مع الغنم . ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم . فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون .

وتقع الأمانة في الأرض ، أي الأمن . ومثله من المصادر العظيمة والغلبة ، وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى « نَعَّاسًا » بدل من « أمانة » وقيل : هو المفعول ، و « أمانة » حال أو مفعول له « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ » وهم المخلصون ، أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق ، الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس في حال الحرب دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ . . . (١) الآية . وروى البخاري (٢) في التفسير عن أنس عن أبي طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذي والنسائي والحاكم . ولفظ الترمذي (٣) : قال أبو طلحة : رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر ، ومامنهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجبته من النعاس . فذلك قوله تعالى : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا . وقد ساق الرازي لذلك النعاس فوائد : منها أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم . وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ، ويورثهم مزيد الوثوق بوعده الله تعالى - انتهى - ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو من أهمله نفسه ، لادينه ولا نبيه ولا أصحابه ، بقوله « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أي ما بهم إلا هم أنفسهم

(١) [٨ / الأنفال / ١١] ونصها : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١١ - باب أَمَنَةً نُّعَاسًا .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٥ - حدثنا

عبد بن حميد .

وقصد خلاصها ، فلم يَغْشَهُمُ النعاس ، من القلق والجزع والخوف « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه « ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » كما قال تعالى فى الآية الأخرى : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا^(١) ... الآية - وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيم فى (زادالمعاد) : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى فى سورة الفتح ، حيث يقول : وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٢) . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته البراءة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفردة بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه ، وكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجندة بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظهرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يدل

- (١) [٤٨ / الفتح / ١٢] ونصها : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .
(٢) [٤٨ / الفتح / ٦] .

الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالةً مستقرة يضمنحل معها التوحيد والحق اضمحلًا لا يقوم بعده أبدًا - فقد ظن بالله سوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به - فن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكاله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من قوتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثًا ، ولا خلقها باطلاً : ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ^(١) . وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن سوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماء وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن سوء . ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهى ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملاً كالأنعام ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقهم حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن

أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداء الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بنحبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضى بقبح أحدهما وحسن الآخر - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملفزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه ، والتأويلات التي هي بالألفاظ والأحاجي ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحاطهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان - فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته المعجز . وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يوهم ، بل يقع في الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد - فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وإن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره والتشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام التهوكين الحيارى هو الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به أن يكون في

ملكه ما يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه ، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان ربّي الأسفل ، كمن قال سبحان ربّي الأعلى - فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال : وبالجملّة فن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويعملونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ويخافونهم ، ويرجونهم - فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه ، أنه يخفيه ولا يعطيه ما سأله - فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله . ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه ولياً ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً ، حياً أو ميتاً ، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه - فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة في بعده من الله ، وفي عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته ، وابتلاء بهم لا يفارقونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبواهم حقهم ، وأذلّوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعداءهم

عليهم أبداً ، أو أنه لا يقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعهم في حضرته ، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت (كما تظنه الرافضة) - فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، سواء قالوا إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر ، أو أنه غير قادر على ذلك ، فهم قادحون في قدرته أو في حكمته وحمده ، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك ، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية يربهم . وكل مبطل وكافر ومبتدع ومقهور مستذل ، فهو يظن بربه هذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه . فأكثر الخلق ، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن قتش نفسه ، وتغلغل في معرفة دقائقها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامنًا كمن النار في الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارُهُ عما في زناده ، ولو قنشت من قنشته ، لرأيت عنده تعباً على القدر ، وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وقتش نفسك هل أنت سالم من ذلك :

فإن تنج منها تنج من ذى عزيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت ، من ظنه بربه ظن السوء . وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين ،

الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء ، فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه . فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك . وأفعاله كذلك ، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل . وأسماءه كلها حسنى . والمقصود ماساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى : وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل بقوله : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » أى هل لنا من أمر التدبير والرأى من شىء ، استفهام على سبيل الإنكار . أى مالنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا^(١) . وذلك أن عبد الله بن أبى لما شاوره النبي ﷺ فى هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي ﷺ فى أن يخرج إليهم ، كما تقدم : ولما رجع عبد الله بن أبى بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بنى الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شىء ؟ يعنى أن محمداً ﷺ لم يقبل قولى حين أمرته بأن يبق فى المدينة ولا يخرج منها « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » أى التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له .

قال الإمام ابن القيم قدس الله روحه : ليس مقصودهم بقولهم : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ . وقولهم : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا . إثبات القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ، لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] ونصها : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لهم . فأَكْذِبَهُمُ اللَّهُ عز وجل في هذا الظن الباطل ، الذي هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأَكْذِبَهُمُ اللَّهُ بقوله : قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولا بد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أم لم يشأوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم في بيوتكم ، وقد كتب القتل على بعضكم ، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد . سواء أن يكون لهم من الأمر شيء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة ، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشأه الله ، وأن يشاء ما لا يقع - انتهى - « يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ » أي يضمرون فيها ، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية « مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ » لكونه لا يرضاه الله تعالى . ثم بين ذلك بعد إجماله فقال « يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ » أي المسموع « شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا » أي ما غلبنا ، أو ما قتل من قتل منا ، لأننا كنا نملك في المدينة ولا نخرج إلى العدو . ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلاً منهم ، ظناً أن الحذر يغني عن القدر ، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ » أي أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون « لَبَرَزَ » أي خرج « الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » في اللوح المحفوظ « إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ » أي التي قدر الله قتلهم فيها ، ولم يثبتوا في ديارهم ، لأنه يوقع في قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذي لا يقع خلافه ولا يرد ، لقوله : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ^(١) . وفيه مبالغة في رد مقالهم الباطلة ، حيث لم يقتصر على تحقيق

نفس القتل ، بل عين مكانه أيضا . وفي التعبير بـ (مضاجعهم) من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم . « وَلَيَبْتَغِيَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » أى ليعاملكم معاملة المتحن ، ليستخرج ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ليجعله حجة عليكم ، فالؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما ، والمنافق ومن فى قلبه مرض لا بد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه ؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية ، للإيدان بكثرتها . كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح حجة وليبتلى ... الخ ، أو لفعل مقدر بعدها ، أى : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين . وجعلها عللا لـ « برز » يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض - أفاده أبو السعود - ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله « وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخاطبها بغلبة الطوائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة - ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى . فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه . فاقترضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضى لها من الحن والبلاء ، ما يكون كاللدواء الكريه لمن عرض له داء . إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأيدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا - أفاده ابن القيم .

وقال القاشانى : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفياتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكِّلا بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله ﷺ بيانا لفضله : ما أودى نبي مثل ما أوديت . كأنه قال : ما صنئ نبي مثل ما صفت . ولقد أحسن من قال :

لله در النائبات فإنها صدأ اللثام وصيقل الأحرار
إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما في مكمن استعداده .
« وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعد . ثم أخبر تعالى
عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ » أى عن القتال ومقارعة الأبطال « يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ »
أى جمع المسلمين وجمع المشركين « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » أى حملهم على الزلل بمكر منه .
مع وعد الله بالنصر « بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » أى بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب ،
كترك المركز ، والميل إلى الغنيمة ، مع النهى عنه ، فمنعوا التأييد وقوة القلب . قال ابن
القيم : كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه .
ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من
حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه .
فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر . والعبد لا يشعر ، أو يشعر ويتعامى .
ففرار الإنسان من عدوه ، وهو يطيقه ، إنما هو بجند من عمله ، بعنه له الشيطان واستزله
به . ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » أى بالاعتذار والندم
لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ، ولا شك أنه كان عارضاً عفا الله عنه ، فمادت شجاعة
الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » أى يغفر الذنب ويحلم عن
خلقه ، ويتجاوز عنهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا» وهم المنافقون القائلون : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا. «وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ» أى سافروا فيها للتجارة فأصيبوا بفرق أو قتل «أَوْ كَانُوا» أى إخوانهم «غُزًى» جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل «لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا» أى مقيمين «مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا» قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول ، بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول: بل الآية تفيد الأمرين. أعنى حفظ الاعتقاد المقصود أولاً وبالذات، وحفظ النطق مما يوقع فى إضلال الناس، ويخل بالمقام الإلهى ، كما بينته السنة ، وسند كره فى التنبيه الآتى . وقوله «لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ» أى القول «حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» متعلق بـ (قالوا) على أن اللام لام العاقبة ، مثلها فى ^(١) (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم . والراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما ، على ذلك أصلاً «وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ» رد لقولهم الباطل، إثر بيان غائلته . أى هو المؤثر فى الحياة والمات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك ، فإنه تعالى قد يحى السافر والغازى مع اقتحامهما موارد الخوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد ابن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : ما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء! «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» تهديد للمؤمنين فى مماثلة من ذكر .

(١) [٢٨ / القصص / ٨] .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفراً . وفيها أيضاً دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ الشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فصلاً في هديه ﷺ في حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان ﷺ يتخير في خطابه ، ويختار لأتمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه ﷺ^(١) عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أتى فعلت كذا وكذا . وقال : إنها تفتح عمل الشيطان . وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل . وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقبل عثرته بـ (لو) . وفي ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإن ما وقع مما يمتنى خلافه ، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشئته . فإذا قال : لو أتى فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف المقدّر المقضي محال . فقد تضمن كلامه كذباً وجهلاً ومحالاً . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أتى فعلت لدفعت

(١) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أتى فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ماقدر علىّ. فإن قيل : ليس في هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها أيضاً من القدر ، فهو يقول : لو وقت لهذا القدر لاندفع به عنى ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر. قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى مالا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانى الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما . وهو مفتاح كل شر ، وبصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها (لو) ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، فالتمنى من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المني رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصي كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التي تعرضه عن المعاصي ، ويحول بينها وبينه ، فيقع في المعاصي . فجمع في هذا الحديث الشريف ، في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه ومبادئه وغاياته وموارده ومصادره وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منها قرينتان فقال : أعوذ بك من الهم والحزن ، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن ماضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضا والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد :

قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم . بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه ، فلا يجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهفته اللاتمة ، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به رباً في كل شيء ، ولا يرضى به رباً فيما يحبّ دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به رباً على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق . فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة ، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه ، وجدّ في سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهو السائر ، بل إن عاقبه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده ، انتفع به من هذا الوجه ، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب الممرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والأنس به ، والفرار إليه ، والانتقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والنموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم في معادها ، ولا تزال في هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، والأنس به ، وجعل محبته في محل ديب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولى على القلب الغالب عليه ، الذي متى فقد ، فقد قوّته ، الذي لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه ، وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هياً له ،

فنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد . وإذا أقامه في مقام ، أى مقام كان ، فبحمده أقامه فيه ، وحكمته أقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواء ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا يمنع عبده حقاً هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالماً ، بل منعه ليتوسل إليه بحجابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ، ويتملقه ويعطى فقره إليه حقه . بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده . فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه ، بخلاً منه ولا نقصان من خزائنه ولا استثنائاً عليه بما هو حق للعبد . بل منعه ليرده إليه وليعزّه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه ، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوة الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، ويوليه بمزله أشرف الولايات ، وليشده حكمته في قدرته ، ورحمته في عزته ، وبره ولطفه في قهره . وأن منعه عطاء وعزله تولية وعقوبته تأديب وامتنحانه محبة وعطية وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذى لا يليق به سواء ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت في سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)
« وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ » أى فيه من غير قتال « لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ »
أى لذنوبكم تنالكم « وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى الكفرة من منافع الدنيا
وطيباتها الفانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّلَّهِ تُحْشَرُونَ)

« وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ » على أى وجه كان حسب القضاء السابق « لِّلَّهِ » أى الذى هو متوفيكم لا غيره « تُحْشَرُونَ » فيجزىكم بأعمالكم .

لطائف :

الأولى : أطل نحاة المفسرين فى قوله تعالى « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا » الخ . من الوجوه النحوية فى (إذا) هنا ، وإنه ربما يتبادر أن الموقع ل (إذ) لالهـا حيث إن متعلقها وهو (قالوا) ماض . و(إذا) ظرف لما يستقبل . فن قائل بأن (إذا) لحكاية الحال الماضية، ومن قائل بأنها للاستمرار . وقيل : إن (كفروا) و (قالوا) مراد بهما المستقبل . وفى كل مناقشات وتعسفات . والحق أنها تكون للمضى أيضا . قال المجد الفيروزبادى : وتجيء (إذا) للماضى كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا . فلا إشكال . ونقل الرازى عن قطرب : أن كلمة (إذ) و (إذا) يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى . قال الرازى : وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، وذلك لأننا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول ، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى . ثم قال : وكثيرا أرى النحويين يتحيزون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم . فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وقفه دليلا على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى، انتهى .

الثانية : المجهور على ضم الميم فى قوله تعالى : أَوْ مُتُّمٌ . وهو الأصل لأن الفعل منه يموت . ويقرأ بالكسر وهو لغة طائفة . يقال مات يمات مثل خاف يخاف فكما تقول خفت تقول ميت .

الثالثة : قدم القتل على الموت فى الأولى لأنه أكثر ثوابا وأعظم عند الله . فترتب المغفرة والرحمة عليه أقوى . وقدم الموت فى الثانية لأنه أكثر . وهما مستويان فى الحشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ » أى الذين تولوا عنك حين عادوا إليك بعد الانهزام ، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^(١) . و (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة . و (رحمة) بدل منها مبيّن لإيهامها . والتنوين للتفخيم ، أى ما لنت هذا الدين الخارق للعادة ، مع ما سبّب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة ، سيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به ، إلا بسبب رحمة عظيمة « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا » أى سيء الخلق خشن الكلام « غَلِيظَ الْقَلْبِ » أى قاسيه وشديده . تعاملهم بالعنف والجفا « لَا نَفْضُوا » أى تفرقوا « مِنْ حَوْلِكَ » فلم يسكنوا إليك فلا تم دعوتك . ولكن الله جعلك سهلاً سمحاً طليفاً بارئاً رءوفاً رحيماً . « فَاعْفُ عَنْهُمْ » أى فيما فرطوا في حقك كما عفا الله عنهم « وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ » إتماماً للشفقة عليهم « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الحرب وغيره تودداً إليهم وتطيئاً لنفوسهم واستظهاراً بآرائهم وتمهيداً لسنة المشاورة في الأمة . وقد ساق العلامة الرازى وجوهاً أخرى في فائدة أمره تعالى له عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم . منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان أكمل الناس عقلاً ، إلا أن علوم الخلق متناهية . فلا يبعد أن يخطئ بالإنسان من وجوه الصالح ما لا يخطئ به . لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا . فإنه ﷺ قال^(٢) : أنتم أعرف

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] ونصها : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٦ - كتاب الرهون ، ١٥ - باب تلقيح النخل ، حديث

==

(٢٤٧٠) (طبعتنا) ونصه :

بأمور دنياكم. ومنها : أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم في الأمر اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الأصح في تلك الواقعة فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصح الوجه فيها ، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله . وهذا هو السر عند الاجتماع في الصلوات ، وهو السر في أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد . انتهى .

وقد ثبت مشاورته ﷺ لأصحابه في عدة أمور: منها أنه شاورهم في يوم بدر^(١) في الذهاب

= عن طلحة بن عبيد الله قال : مررت مع رسول الله ﷺ في نخل . فرأى قوماً يلحقون النخل . فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى . قال « ما أظن ذلك يغني شيئاً » فبلغهم فتركوه . فنزلوا عنها . فبلغ النبي ﷺ فقال « إنما هو الظن إن كان يغني شيئاً فاصنعوه . فإنما أنا بشر . وإن الظن يخطيء ويصيب . ولكن ما قلت لكم : قال الله - فليأكلن الله » .

وحدیث ٢٤٧١ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة أن النبي ﷺ سمع أصواتاً ، فقال « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها . فقال « لو لم يفعلوا لصلح » فلم يؤبروا عامئذ ، فصار شيصاً . فذكروا للنبي ﷺ فقال « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشانكم به . وإن كان من أمور دينكم ، فإلى » .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبي سفيان . قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عباد فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرأ ووردت عليهم روايا قريش ... الخ .

إلى العير . فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغنادر لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ^(١) : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن نقول : اذهب فحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وشمالك مقاتلون . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو . فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ . فأبى ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عباد فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال .

وقال ﷺ في قصة الإفك ^(٢) : أشيروا عليّ ، معشر المسلمين ، في قوم أبناوا أهلي

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن ، بألمانيا) وصفحة ٢٦٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

والبخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٤ - باب قول الله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ ... الآية ونصه :

عن ابن مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً ، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به . أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين . فقال : لا نقول كما قال قوم موسى . اذهب أنت وربك فقاتلا . ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلقك . فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه . يعني قوله .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٤ - باب حديث الإفك .

وهو حديث جليل القدر . وفيه نزلت براءة سيدتنا أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها من السماء . وسنسرده بطوله في تفسير سورة النور ، إن شاء الله تعالى .

ورمواهم . وإيم الله ماعلمت على أهلى من سوء . وأبنوهم بمن ، والله ، ما علمت عليه إلاخيرا . واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها . فكان ﷺ يشاورهم فى الحروب ونحوها . أفاده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال الخفاجى : فى الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه بحضرة ﷺ . وقال الرازى : دلت على أنه ﷺ كان مأمورا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي . والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة ، فلهذا كان مأمورا بالمشاورة ، انتهى .

وقال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف . « فَإِذَا عَزَمْتَ » أى بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » فى الإعانة على إمضاء ما عزمته ، لا على المشورة وأصحابها . قال الرازى : دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه ، كما يقول بعض الجهال . وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن راعى الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ » كما نصركم يوم بدر « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » كما فعل يوم أحد « فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » استفهام إنكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة . وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله ، وترغيب فى الطاعة ، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد . وتحذير من العصية ، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان . كذا فى الكشاف . « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى وليخص

المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه ، لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَّ » قرئ بالبناء للمعلوم ، أى ماصح وما تأتى لنبي من الأنبياء أن يخون في المنعم ، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل ، وعن تأثير دواعي النفس والشيطان فيهم ؛ وبالبناء للمجهول ، أى ما صح أن ينسب إلى الغلول ويخون .

روى أبو داود والترمذي^(١) عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ما كان لنبي أن يغل ، في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأُنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية . قال الترمذي : حسن غريب . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً ، ولفظه : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقد ، فأُنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية - وهذا تنزيه لقامه ﷺ الرفيع وتنبيه على عصمته . ثم أشار إلى وعيد الغلول بقوله « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى بعينه ، حاملأله على ظهره ، ليفتضح في المحشر ، كما روى الشيخان^(٢) عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ -

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٧ -

حدثنا قتيبة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٢٤ (طبعنا) .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حميمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثناء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تحنق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت - لفظ مسلم . وروى البخاري^(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) مات ، فقال رسول الله ﷺ : هو في النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلّها - وعن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غلّ في سبيل الله ، ففتشنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين - أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي - وروى عبد الله بن الإمام أحمد^(٣) عن عباد بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من الغنم فيقول : مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم منه . إياكم والغلول ، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك . وجاهدوا في سبيل الله القريب والبعيد في الحضر والسفر . فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . إنه لينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم . وأقيموا حدود الله في

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٩٠ - باب القليل من الغلول .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٣٣ - باب في تعظيم الغلول ،

حديث ٢٧١٠ .

(٣) أخرجه في السند بالصفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القريب والبعيد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم . وروى ابن ماجة بعضه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا : فلان شهيد . فلان شهيد . حتى أتوا على رجل فقالوا : فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة . ثم قال رسول الله ﷺ : يا ابن الخطاب ! اذهب فناد في الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم ^(١) والترمذي . وروى أبو داود ^(٢) عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غم غنيمه أمر بلالاً فينادي في الناس فيجوزوا بفنائهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمه . فقال : أسمعت بلالاً ينادي ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجيء ؟ فاعتذر . فقال : كُن أنت تجيء به يوم القيامة . فلن أقبله منك .

تنبيه :

من المفسرين من جعل الإتيان بالفلول يوم القيامة مجازاً عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غلّ عما لزمه من الإثم مجازاً . قال أبو مسلم : المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الفلول ويعززه عليه يوم القيامة ويجازيه لأنه لا يخفى عليه خافية . وقال أبو القاسم الكعبي : المراد أنه يشتهر بذلك ، مثل اشتها من يحمل ذلك الشيء . وناقشهما الرازي بأن هذا التأويل يحتمل ، إلا أن الأصل المتعبر في علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنع منه ، وههنا لا مانع من الظاهر ، فوجب إثباته - انتهى . ومما يؤيده قوله ﷺ « له رغاء ، له حمحة ... » الخ الظاهر في الحقيقة زيادة في النكال .

(١) أخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو في ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٣٤ - باب

في الفلول إذا كان يسيراً يتركه الإمام ولا يحرق رحله ، حديث ٢٧١٢ ، بهذا النص .

وأخرجه في المسند أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، حديث ٦٩٩٦ (طبعة المعارف) .

« ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » تعطى جزاء ما كسبت وافيًا ، وإنما عمم الحكم ولم يقل : ثم يوفى ما كسب ، ليكون كالبرهان على المقصود ، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيًا بعمله ، فالغالب ، مع عظم جرمه بذلك أولى « وَهُمْ » أى الناس المدلول عليهم بكل نفس « لَا يُظْلَمُونَ » فلا ينقص ثواب مطيعهم ، ولا يزداد في عقاب عاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ » بالطاعة « كَمَنْ بَاءَ » رجع « بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ » بسبب المعاصى كالغالب ومن شاكله « وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ » أى طبقات متفاوتة ، تشبيهه بليغ ، ووجهه ما بينهم من تباين الأحوال فى الثواب والعقاب ، كالدرجات فى تفاوتها علوًا وسفلاً .

قال القاشانى : أى كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات ، أو هم مختلفون اختلاف الدرجات .

« وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ » أى أنعم « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى من جنسهم ، عربياً مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته ، والانتفاع به . ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خُصوا بالذكر ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم إحسان إلى العالمين ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^(١) . « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعنى القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شئ من الوحي « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى القرآن « وَالْحِكْمَةَ » أى السنة « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتزكيتهم « لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ظاهر من عبادة الأوثان ، وأكل الخبائث ، وعدوان بعضهم على بعض ، وسواها ، فَنَقَلُوا بِعِثَتِهِ ﷺ مِنَ الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة ، فعظمت المنّة لله تعالى عليهم بذلك . قال الرازى : وفى قوله تعالى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وجه آخر من المنّة ، وذلك لأنه صار شرفاً للعرب ، ونخراً لهم ، كما قال سبحانه : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ^(٢) . وذلك لأن الاختيار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه بين اليهود والنصارى والعرب ، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل . فساكن للعرب ما يقابل ذلك . فلما بعث الله محمداً ، وأنزل عليه القرآن ، صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم اه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا» الهمزة للتقريع والتقريع ، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أحد ، أو على محذوف مثل : أفعلتم كذا وقلم . و « لما » ظرفه المضاف إلى أصابتكم ، أى حين أصابتكم مصيبة ، وهى قتل سبعين منكم يوم أحد ، والحال أنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين : من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر « قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » أى مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز ، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والطاوعة . قال ابن القيم : وذكر سبحانه هذا يعينه فيما هو أعم من ذلك فى السورة المكية فقال : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ^(١) . وقال : وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ^(٢) فالحسنة والسيدة ههنا النعمة والمصيبة ، فالنعمة من الله من بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ، فالأول فضله ، والثانى عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » بعد قوله : قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . إعلالاً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادل قادر ، وفى ذلك إثبات القدر والسبب . فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم ، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه ، فالأول

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

ينفي الجبر ، والثاني ينفي القول بإبطال القدر ، فهو شا كل قوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(١) وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة ، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولا تتكلموا على سواء . وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ « جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد » فَيَاذَنْ لِلَّهِ « أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، فلا إذن هنا هو الإذن الكونى القدرى ، لا الشرعى الدينى » ، كقوله فى السحر : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ^(٢) . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير بقوله : وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) [٨١ / التكويد / ٢٨ و ٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَبْلِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَا كُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » أى ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً « وَقِيلَ لَهُمْ » عطف على (نافقوا) داخل معه في حيز الصلة. أو كلام مبتدأ « تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا » يعنى إن لم تقاتلوا لوجه الله تعالى فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأموالكم « قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَا كُمْ » أى لكنه ليس إلا إلقاء النفس في التهلكة « هُمْ » أى بهذا القول « لِلْكَفْرِ » في الظاهر « يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ » في الظاهر مع أنه لا إيمان لهم في الباطن أصلاً .

فائدتان :

الأولى - قال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان .

الثانية - قال الواحدي : هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر ، ولم يطلق القول بتكفيره . لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم ، مع أنهم كانوا كافرين ، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله - انتهى .

« يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » أى يظهرن خلاف ما يضمرون ، لا تواطى قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وقوله « بِأَفْوَهِهِمْ » تأكيد على حدة : وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ^(٢) . « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » .

(١) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ » أى من أجل أقاربهم من قتلى أحد « وَقَعَدُوا » أى وال حال قد قعدوا عنهم خذلاناً لهم « لَوْ أَطَاعُونَا » أى فى الرجوع « مَا قُتِلُوا » كما لم تقتل « قُلْ » كأنكم تزعمون ادعاء القدرة على دفع الموت « فَادْرَءُوا » أى ادفعوا « عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » أى فإنها أقرب إليكم من أنفسهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أن الموت يغنى منه حذر ، والمعنى أن عدم قتلهم كان بسبب أنه لم يكن مكتوباً عليكم ، لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود ، مع كتابته عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه .

قال ابن القيم : وكان من الحكمة تقديره تعالى فى هذه الواقعة تكلم المنافقين بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم ، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق ، وما يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة . فله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ، ليس مما يحذر ، بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون ، إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى ، أى لا تحسبنهم أَمْوَاتًا تعطلت أرواحهم « بَلْ » هم « أَحْيَاءٌ » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عِنْدَ رَبِّهِمْ »

إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم في ذلك ، بل بمعنى أنهم « يُرْزَقُونَ » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنوياً ، بل حقيقياً . كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ^(١) : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ، ولا يتركوا عن الحرب . فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الخ . هكذا رواه الإمام أحمد ؛ ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه . وأخرج مسلم ^(٢) عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... » الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم أطّلا فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق - نهر بباب الجنة - فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية - تفرد به أحمد - ورواه ابن جريج بإسناد جيد .

قال ابن كثير : وكان الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك وراح - والله أعلم - ثم قال : وقد روينا في مسند الإمام أحمد^(١) حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه . قوله : يعلق أى يأكل . وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء ، فكما تقدم ، في حواصل طير خضر ، فهي كاللكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان ، أن يمتتنا على الإيمان - انتهى - .

تنبيه :

قال الواحدى : الأصح في حياة الشهداء ، ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وقال البيضاوى : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتأمله والتذاده ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . الآية^(٢) - . وحديث : أرواح الشهداء في أجواف طير .. الخ .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

قال الشهاب : يعنى ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو فى الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهى جوهر مدرك لذاته ، أى من غير احتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقتها بالتنعم ونحوه - انتهى .

وقال أبو السعود : فى الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتأله والتذاه . ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول : المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيوراً خضراً أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر - انتهى .

وقد أسلفنا فى سورة البقرة ، فى مثل هذه الآية ، زيادة على ذلك . فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

«فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان الذين لا يغم فيه بسلبه «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ» أى بإخوانهم المجاهدين الذين «لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» لم يقتلوا فيلحقوا بهم «مِنْ خَلْفِهِمْ» متعلق بـ «يَلْحَقُوا» والمعنى : أنهم بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم . أو لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» بدل من (الذين) ، بدل اشمال مبين أن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم ، والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين . وهوائهم يبعثون آمين يوم القيامة ، بشرهم الله بذلك ، فهم مستبشرون به . وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على الجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » أى يسرون بما أنعم الله عليهم ، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ، وتوفير أجرهم عليهم .

قال أبو السعود : كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة ، لا يقادر قدرها ، وهى ثواب أعمالهم . ثم قال : والمراد بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة . وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ، ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم ، وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين - انتهى - .

وقال ابن القيم : إن الله تعالى عزّى نبيه وأوليائه عن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاهها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : وَلَا تَحْسَبَنَّ... الآيات - فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته ، وذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو أعظم مننه ، ونعمه عليهم ، التى قابلوا بها كل محنة تناههم وبلية تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهى منتّه عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال ، الذى كانوا فيه قبل إرساله ، إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم . فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له ، أمر يسير جداً فى جنب الخير الكثير . كما ينال الناس بأذى المطر ، فى جنب ما يحصل لهم به من الخير . وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ، ليحذروا ، وأنها بقضائه

وقدره ليوحدوه ويتكلموا عليه ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بماله فيها من الحكم ، لئلا يتهموا في قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه . وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة ، وعزّاهم عن قتالهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوا فيه ، ولا يحزنوا عليهم ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغي لسكرم وجهه ، وعزّ جلاله .

ثم قال ابن القيم : ولما انقضت الحرب ، انكفأ المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذرائع والأموال ، فشق ذلك عليهم ، فقال النبي ﷺ لعلّ بن أبي طالب : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن هم جنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسى بيده ! لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأنجزهم فيها . قال عليّ : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولما عزموا على الرجوع إلى مكة ، أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : موعدكم الموسم بيدر . فقال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : قولوا نعم قد فعلنا . قال أبو سفيان : فذلكم الموعد . ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان في بعض الطريق ، تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ! أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنأدى في الناس ، وندبهم إلى السير إلى لقاء عدوهم ، وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبيّ : أركب معك ، قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله وقال : يا رسول الله ! إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته فأذن لي أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل

معبدين أبي معبد الخزاعيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم . فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذه ، فلحقه بالروحاء - ولم يعلم بإسلامه - فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة - انتهى - وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » أى دعوة الله ورسوله إلى الخروج في طلب أبي سفيان إرهاباً له « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » بأحد « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ » بطاعته « وَاتَّقُوا » مخالفته « أَجْرٌ عَظِيمٌ »^(١) روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها في هذه الآية قالت لعروة : يا ابن أختي ! كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما . لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : من يذهب في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير ، قال ابن هشام^(٢) : ولما ثنى معبد أبا سفيان ومن معه ، كما تقدم ، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٢٥ - باب الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .

(٢) السيرة الصفحة ١٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) و صفحة ٥٩٠ (طبعة جوتنجن) .

قالوا : نريد المدينة ؛ قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فرّ الرك برسول الله صلى عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى فى ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» أى الركب المستقبل لهم «إِنَّ النَّاسَ» أى أبا سفيان وأصحابه «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» أى الجموع ليستأصلوكم «فَاخْشَوْهُمْ» ولا تأتوهم «فَزَادَهُمْ» أى ذلك القول «إِيمَانًا» أى تصديقاً بالله وبقيناً . والمعنى : أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا ، بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه . وفى الآية دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً ، فإن ازدياد اليقين بتناصر الحجج ، وكثرة التأمل ، مما لا ريب فيه «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ» أى كافينا أمرهم من غير عدة لنا ولا عدد «وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» أى الموكل إليه والمفوض إليه الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَاتَّقَلَّبُوا نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

«فَاتَّقَلَّبُوا» أى رجعوا من حمراء الأسد «نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» يعنى : العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب فى الدين «لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ» أى لم يصيبهم قتل

ولا جراح « وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ » أى فى طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » حيث تفضل عليهم بالعافية وما ذكر معها ، وبالحفظ عن كل ما يسوءهم . وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

فائدة :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى قوله تعالى « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

تنبيه :

حمل الآية على غزوة حراء الأسد ، هو ما قاله الحسن وقتادة وعكرمة وغير واحد . وروى أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى . قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فى قوله تعالى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . » الآية - أن أباسفيان قال ، لما انصرف من أحد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ! فقال النبي ﷺ : عسى ! فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرًا ، فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ، فذلك قوله تعالى « فَأَتَقَبَّلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ . . . » الآية - قال : وهى غزوة بدر الصغرى - رواه ابن جرير - وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال : لما عهد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان ، فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم (يكيدونهم بذلك ، يريدون أن يرعبوهم) فيقول المؤمنون « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » حتى قدموا بدرًا ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد .

وروى البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « فَأَتَقَبَّلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن غيراً مرت فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

قال ابن القيم فى (الهدى) : إن أباسفيان قال عند انصرافه من أحد : موعدكم وإيانا العام القابل بيدر ، فلما كان شعبان ، وقيل ذو القعدة من العام القابل ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على ابن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، فأنهى إلى بدر ، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين ، وخرج أبو سفيان بالمشركون من مكة ، وهم ألفان ، ومعهم خمسون فرساً ، فلما انتهوا إلى مر الظهران ، مرحلة من مكة ، قال لهم أبو سفيان : إن العام عام جذب ، وقد رأيت أن أرجع بكم . فأنصرفوا راجعين ، وأخلفوا الموعد ، فسميت هذه بدر الموعد ، وتسمى بدر الثانية - انتهى - .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية نزلت في شأن غزوة حمراء الأسد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ » أى قول الشيطان « يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ » أى يخوفكم بقوله أوليائه الكفار ، حينئذ فأوليائه ثانى مفعولى يخوف ، والأول محذوف ، أى يخوفكم أوليائه ، كما قرئ كذلك ، وقيل : لا حذف فيه ، والمعنى يخوف من يتبعه ، فأما من توكل على الله فلا يخافه « فَلَا تَخَافُوهُمْ » أى أوليائه « وَخَافُونِ » فى مخالفة أمرى ورسولى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا ،

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله . وقرئ فى السبع « يُحْزِنُكَ » بضم الياء وكسر الزاى

« إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » قال عطاء : يريد أولياء الله . نقله الرازي . قال أبو السعود : تعليل للنهي ، وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم أبداً ، أى لن يضرُوا بذلك أولياء الله البتة . وتعليق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم والإيدان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه ، وفيه مزيد مبالغة في التسلية .

وقال الميمني : أى لن يضرُوا أولياء الله ، لأنهم يحميمهم الله ، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجزهم إياه عن حمايتهم ، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئاً بل « يُرِيدُ اللَّهُ » أن يضرهم الضرر الكلى وهو « أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ » أى نصيباً من الثواب في الآخرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية أنه لا يجب الاغتم من معصية العاصين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا » أى استبدلوا « الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم ، كأنه قيل : وإنما يضرّون أنفسهم . فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه ، إما بأخذه بدلاً من الإيمان الحاصل بالفعل ، كما هو حال المرتدين ، أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة ، كما هو شأن اليهود ومناقبيهم . فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيد ، ببيان علته ، بتغيير عنوان الموضوع ، فإن ما ذكر في حين الصلة من الاشتراء المذكور صريح في لحوق ضرره بأنفسهم ، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلاً ، كيف وهو علم في الخسران الكلى ، والحرمان الأبدي ، دال على كمال سخافة عقولهم ، وركاكة آرائهم ، فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ، ووزانة الرأي ، وورصانة

التدبير ، من مضارة حزب الله تعالى ، وهى أعز من الأبلق الفرد ، وأمنع من عقاب الجو . وإن أجرى الموصول على عموميه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له ، الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق ، وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، كما هو دأب جميع الكفرة ، فالجمله مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا للقواعد الكلية ، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام - أفاده أبو السعود - ثم قال : وقوله تعالى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم ، بذكر غاية إيلاهم ، بعد ذكر نهاية عظمه ، قيل : لما جرت العادة باغترباط المشتري بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وتأمله عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلاهم مراعاة لذلك - انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ » أى بتطويل أعمارهم وإمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلا « خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ » بل هو سبب مزيد عذابهم ، لأنه « إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » بكثرة المعاصى فيزدادوا عذابا « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ مُّهِينٌ » ذو إهانة فى أسفل دركات النار .

لطائف

الأولى :

فى (ما) - من قوله تعالى « إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ » الأولى - وجهان : أن تكون مصدرية أو موصولة ، حذف عائدها . أى إملاؤنا لهم أو الذى نمليه لهم .

الثانية :

كان حق (ما) في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ، ولكنها وقعت في الإمام متصلة ، فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف .

الثالثة :

(ما) الثانية في « إِنَّمَا نُمَلِّى » الخ متصلة لأنها كافة .

الرابعة :

في قوله تعالى « مُهَيَّنٌ » سر لطيف ، وهو أنه لما تضمن الإماماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها ، وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر ، وصف عذابهم بالإهانة ، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد ، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب . فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمنين والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتُمونه ، وظهر نخبآتهم ، وعاد تلويحهم صريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا ، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَأَمِّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)
« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ » أى يترك « الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » من الالتباس

بالمناققين ، بل لا يزال يتتبعكم «حَتَّى يَمِيزَ» المنافق «الْخَبِيثَ مِنْ» المؤمن «الطَّيِّبِ وَ» لا يميز إلا بهذا الابتلاء لأنه «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ» أى الذى يميز به ما فى قلوب الخلق من الإيمان والكفر «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ» باطلاعه على الغيب ، كما أوحى إلى النبي ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال ، حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من سوء جوارهم . قال ابن القيم : هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، كما قال (١) «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» فظنكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله ، فإن آمنتم به واتيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة ، كما قال تعالى «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» الذين اجتباهم للاقتداء بهم فى الاعتقادات والأعمال «وَإِنْ تَوَمَّنُوا» فتصححوا الاعتقادات «وَتَتَّقُوا» فتصلحوا الأعمال «فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» وههنا :

لطائف

الأولى :

فى التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما ، بما يليق به ، وإشعار بعلّة الحكم .

الثانية :

إفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكرره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع ، للإيدان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما ، كما فى مثل قوله تعالى «ذَلِكَ أَدْنَى»

(١) [٧٢ / الجن / ٢٦ و ٢٧] . . . فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

أَلَّا تَعُولُوا»^(١) ونظيره قوله تعالى « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »^(٢) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .

الثالثة :

تعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق ، مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وإفرازهم عن المنافقين ، لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف في المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى ، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان ، وإن ظهر مزيد إخلاصهم ، لا بالتصرف فيهم ، وتغييرهم من حال إلى حال أخرى ، مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ، ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه في قوله تعالى « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »^(٣) .

الرابعة :

إنما لم ينسب عدم الترك إليهم ، لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب إليه ، فإن المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة ، كما يشهد به الذوق السليم .

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢] ونصها : يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُم ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الخامسة :

التعرض للاجتناء في قوله « يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ ... » الخ للإيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل، تقاصرت عنه همم الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم ، وتعميم الاجتناء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب أمر متين ، له أصل أصيل ، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام .

السادسة :

تعميم الأمر في قوله تعالى « فَأَمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ » مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهانيّ، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل ، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولاً أولياً .

هذا ما اقتبسناه من تفسير العلامة أبي السعود رحمه الله . وقد استقرب حمل هذه الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم . فالعنى : ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك إلى الآن ، لسر يقتضيه ، بل يفرز عنهم المنافقين ، ولذلك فعله يومئذ ، حيث خلى الكفرة وشأنهم ، فأبرز لهم صورة الغلبة ، فأظهر من في قلوبهم مرض ، ما فيها من الخبائث واقتضحوا على رؤوس الأشهاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ » اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة ، شرع ههنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه ، وإيراد ما بخلوا به بعنوان (إيتاء الله تعالى إياه من فضله) للمبالغة في بيان سوء صنيعهم ، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله كما في قوله تعالى : « وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ^(١) » . « بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ » لاستجلاب العقاب عليهم ، والتنصيص على شرئته لهم ، مع انقضاءها من نفي خيريته ، للمبالغة في ذلك . والتنوين للتفخيم « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل ، أى سيلزمون وبأل ما بخلوا به لزوم الطوق . وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره ، وأنه نوع من العذاب الأخروي المحسوس . وأيدوه بما روى البخارى ^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - معنى شقيقه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ... » إلى آخرها .

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] ونصها : ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٣ - باب إثم مانع الزكاة ، حديث ٧٤٦ .

وروى الإمام أحمد^(١) والنسائي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل الله عز وجل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زيبتان ، ثم يلزمه بطوقه يقول : أنا كنزك ، أنا كنزك .

وروى الإمام أحمد^(٢) والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه ، يفر منه وهو يتبعه ، فيقول : أنا كنزك . ثم قرأ عبد الله مصداقه في كتاب الله : سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع ، له زيبتان ، يتبعه . فيقول : من أنت ويلك؟ فيقول : أنا كنزك الذي خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلغمه يده فيقضمها ، ثم يتبع سائر جسده . قال الحافظ ابن كثير : إسناده جيد قوى ، ولم يخرجوه ، وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبدالله البجلي . ورواه ابن جرير^(٣) والحافظ ابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يأتي رجل مولاة فيسأله من فضل مال عنده ، فيمنعه إياه ، إلا دُعِيَ له يوم القيامة شجاعٌ يتلمظ فضله الذي منع .

وروى ابن جرير^(٤) مرفوعاً : ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه . ورواه أيضاً موقوفاً ومرسلاً .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٩٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٧٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ٨٢٨٤ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ٨٢٨٢ .

والشجاع (كغراب وكتاب): الحية مطلقاً ، أو الذكر منها ، أو ضرب منها دقيق ، وهو أجرؤها - كذا في القاموس وشرحه - .

ثم أشار تعالى إلى أنهم ، وإن لم ينفقوا أموالهم في سبيله ، فهي راجعة إليه بقوله « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فلهم يدخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه في سبيله . ونظيره قوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ^(١) فلميراث على هذا على حقيقته ، أو المعنى : أنه يفنى أهل السموات والأرض ويصير أملاك أهلها بعد فنائهم إلى خالص ملكه ، كما يصير مال المورث ملك الوارث ، فخرى ما هنا مجرى الوراثة ، إذ كان الخلق يدعون الأملاك ظاهراً ، وإلا فالكل له ، وعلى هذا فهو مجاز .
قال الزجاج رحمه الله : أى أن الله تعالى يفنى أهلها ، فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك ، فخطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون ، ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً ، ملكاً له « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فيجازيكم على المنع والبخل .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٨١] (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْشُبُ

مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » روى الحفاظ

ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ^(٢) . قالت اليهود : يا محمد ! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ

لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وروى محمد بن إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال^(١) : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه جبر يقال له (أشيع) فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده ! لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! أبصر ما صنع بي صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . »^(٢) الآية - ولما كان مثل هذا القول ، سواء كان عن اعتقاد ، أو استهزاء بالقرآن والرسول - وهو الظاهر - لا يصدر إلا عن تمرد

= و [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٠٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

عظيم لكونه في غاية العظم والهول ، أشار إلى وعيده الشديد بقوله « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا »
 أى ما قالوه من هذه العظيمة الشنءاء في صحائف الحفظلة « وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ »
 إنما نظم مع ما قبله إيداناً بسوابقهم القبيحة ، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها ، وأن من
 اجتراً على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام « وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى يقال لهم ذلك تقريباً
 وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، بسبب هتكهم حرمة الله ، وحرمة كلامه وأنبيائه المبلغين له .

لطائف

الأولى :

إيراد صيغة الجمع في الآية مع كون القائل واحداً ، كما روى ، لرضا الباقيين بذلك ،
 ونظائره في التنزيل كثيرة .

الثانية :

إضافة عذاب الحريق بيانية . أى العذاب الذى هو الحريق .

الثالثة :

الذوق إدراك الطعموم ، ثم اتسع فيه لإدراك سائر المحسوسات والحالات ، وذكره ههنا
 لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان
 إليه لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال
 - أفاده البيضاوى - .

الرابعة :

تقديم الأيدى عملها ، لأن من يعمل شيئاً يقدمه ، والتعبير بالأيدى عن النفس من حيث

أن عامة أفاعيلها إنما تزاوّل بهنّ ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذى مدار جلّ العمل عليه .

الخامسة :

إن قيل « ظلام » صيغة مبالغة من الظلم ، تفيد الكثير ، ولا يلزم من نفي الظلم الكثير نفي الظلم القليل ، فلو قيل : بظالم ، لكان أدل على نفي الظلم قليله وكثيره . فالجواب عنه من أوجه :

أحدها - أن الصيغة للنسب من قبيل (بزّاز) و (عطار) لا للمبالغة ، والمعنى لا ينسب إلى الظلم .

الثانى - أن (فعّالا) قد جاء . لا يراد به الكثرة ، كقول طرفة ^(١) :

ولستُ بحلال التّلاعِ مخافةً ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أُرْفِدِ

لا يريد ههنا أنه قد يحلّ التلاع قليلاً ، لأن ذلك يدفعه قوله : متى يسترفد القوم أرفد . وهذا يدل على نفي البخل فى كل حال ، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة .

والثالث - أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلام لعبيده ، فالصيغة للمبالغة كمّا لا كيفاً .

(١) من معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

نحولة أطلال بيرة ثهمد تلوح كباق الوشم فى ظاهر اليد

قال التبريزى : التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . والمعنى : إني لست ممن يستتر فى القلاع . أى لا أزلها مخافة فتوارينى من الناس حتى لا يرانى ابن السبيل والضيف . ولكن أزل الفضاء وأرفد من يسترفدنى وأعين من استعاننى . والرّفد العطية . والرّفد المعونة .

و (مخافة) ينتصب على أنه مفعول له ، أو على المصدر .

الرابع - أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة . لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضرر ، كان للظلم القليل المنفعة أترك .

الخامس :

إن المبالغة لتأكيد معنى بديع ، وذلك لأن جملة : وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ - اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ، أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم . والتعبير عن ذلك بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها . وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آَلَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا » نصب بتقدير (أعنى) أو رفع على الذم بتقدير (هم الذين قالوا) : « إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا » أى أمرنا « أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ » أى تبكيئنا لهم ، وإظهاراً لكذبهم « قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ » أى المعجزات الواضحة « وَبِالَّذِى قُلْتُمْ » بعينه من تشريع القران الذى تأكله النار « فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » أى فلم قابلتهم بالكذب والمخالفة والمعاندة وقتلتهم « إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أنكم تبعون الحق وتنقادون للرسول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ

وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » أى بعد بطلان عذرهم المذكور « فَقَدْ كُذِّبَ » أى فلا تحزن وتسلف فقد كذب « رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » جمع زبور أى الكتب الموحاة منه تعالى « وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ » أى الواضح الجلى . والزبور والكتاب : واحد فى الأصل ، وإنما ذكرنا لاختلاف الوصفين . فالزبور فيه حكم زاجرة ، والكتاب المنير هو المشتغل على جميع الشريعة .

فائدة

فى قربان أهل الكتاب وتشريعه عندهم

اعلم أن القربان (بضم القاف) معناه ، لغةً ، ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلةً لمرضاته . قال فى مرشد الطالبين : كانت ذبائح العبرانيين عديدة جداً ، وكان المستعمل لهذه الذبيحة ، بتعيين الله ، الثيران والنعاج والمز والحمام واليمام . وكانت الذبائح نوعين عامين : إحداها كانت تقرب لتكفير الخطايا ، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته .

ثم قال : فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً ، وهى خروف بلا عيب ، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا ، وذلك مرتان صباحاً ومساءً ، طول مدة السنة ، فالتى فى الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلاً ، والتى فى المساء عن خطاياهم نهاراً . وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم ، وبهذا كان ينقل الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه ، ثم يذبح ويقرب وقوداً . وفى غضون ذلك تسجد الجماعة فى الدار ، وتبخر الكهنة على المذابح الذهبية ، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب . وأما فى يوم السبت ، فكانت تتضاعف الذبيحة ، ويقرب فى كل دفعه خروفان .

ثم قال : يوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية ، وهي أنه بعد أن يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ما عزان كفارة لخطايا الشعب - انتهى - .

وقد أشير لكيفية ذبح القربان وحرقة في مواضع من التوراة. منها سفر الخروج في الفصل التاسع والعشرين ، ومنها في الفصل الأول من سفر الأخبار السمين باللاويين ونصه : ودعا الرب موسى وخطبه من خباء المحضر قائلاً : خاطب بني إسرائيل وقل لهم: أى إنسان منكم يقرب قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم يقربون قراينهم إن كان قربانه محرقة من البقر ، فذكرها صحيحاً يقربه عند باب خباء المحضر يقربه للرضوان عنه ، ويضع يده على رأس المحرقة ، ويترضى به ليغفر له ، ثم يذبح الثور ويقرب الكهنة بنو هرون الدم وينضحون الدم على المذبح ، وما أحاط به في باب قبة الشهادة - يعنى التابوت الذى كان فيه لوحا التوراة المسماة شهادة - ثم يسلخون المحرقة ، ويقطعونها قطعاً ، ثم يوقدون ناراً على المذبح ، وينضدون الحطب على النار ، ثم يعملون الأعضاء المقطعة الرأس والشحم على الحطب الذى على النار على المذبح ، ويفسلون أكارعه وجوفه بالماء ، ثم يصعده الكاهن ويجعله على المذبح وقوداً وقرباناً لرضا الرب ... الخ .

وفي الفصل السادس من سفر الأخبار : وكلم الرب موسى قائلاً : مُرُّ هرون وبنيه ، وقل لهم : هذه شريعة المحرقة ، تكون المحرقة على وقيدة المذبح طول الليل إلى الغداة ، ونار المذبح متقدة عليه ، ويلبس الكاهن قيصه من الكتان ، وسراويلات من الكتان على بدنه ، ويرفع الرماد الذى آلت إليه نار المحرقة على المذبح ، ويجعله إلى جانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثياباً آخر ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ، وتبقى النار على المذبح متقدة لا تطفأ ، ويضع عليها الكاهن حطباً في كل غداة ... الخ .

قال بعضهم : زعم الربانيون أن النار التى كانت في هيكل سليمان ، والتي أمر اليهود بحفظها دون أن تطفأ البتة ، كان أصلها من النار التى نزلت من السماء بعد مقدمة هرون وأبنائه المحرقات ، وأنها بقيت إلى أيام خراب الهيكل على يد مجتئصر ، إلا أنه ليس في التوراة ما يصرح بذلك - انتهى -

وهذه النار التي نزلت من السماء جاء ذكرها في الفصل التاسع من سفر الأحبار وملخصه:
أن موسى أمر هرون عليهما السلام أن يذبح قرباناً ، فذبح عجلاً وأحرق لحمه وجلده خارج
المحلة ، وأما شحمه وكليتاه وزيادة كبده فقترها على المذبح ، ثم قرب تيساً وثوراً وكبشاً
بكيفية خاصة ، ثم دخل موسى وهرون خباء المحضر ، فخرجت نار من عند الرب ، فأكلت
المحرقة والشحوم التي على المذبح ، فنظر جميع الشعب وهتفوا مسبحين وسجدوا - انتهى -
إذا علمت ذلك ، فقوله تعالى « تَأْكُلُهُ النَّارُ » بمعنى أنه يذبح على الكيفية المعروفة ،
ثم تنزل نار من السماء فتأكله ، وتكون معجزة وآية كما حصل في عهد موسى وهرون من
نزول النار وأكلها المحرقة ، كما ذكرنا . وفي عهد سليمان أيضاً . فقد جاء في الفصل التاسع
من سفر أخبار الأيام الثاني : أن سليمان لما أتم الدعاء هبطت النار من السماء وأكلت المحرقة
والذبايح ، وكان جميع بني إسرائيل يعاينون هبوط النار - انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ
زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ)
« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » كقوله : كَلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(١) . وفي هذه الآية تعزية لجميع الناس ، ووعد ووعيد للمصدق
والمكذب « وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أي تعطون جزاء أعمالكم وافيّاً يوم
القيامة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . قال الزخشرى : فإن قلت : فهذا يوم نبي ما يروى
أن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار !^(٢) قلت : كلمة التوفية تزيد هذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و ٢٧] .

(٢) أخرجه الترمذى في ٣٥ - كتاب القيامة ، ٢٦ - ياب حدثنا محمد بن أحمد بن مديويه =

الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

وقال الرازى : بين تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي مكفرة بالغموم والهموم ، وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .

= ونصه : عن أبي سعيد قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكشرون . قال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت . فأكثرُوا ذكر هادم اللذات ، الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود .

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا . أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلى . فإذا وليتكَ اليوم وصرتَ إلى ، فسترى صنيعى بك .

قال : فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة .

وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا . أما إن كنت

لأبغض من يمشى على ظهرى إلى . فإذا وليتكَ اليوم وصرتَ إلى ، فسترى صنيعى بك .

قال : فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه .

قال : قال رسول الله ﷺ بأصابه . فأدخل بعضها في جوف بعض .

قال : ويقبض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً

ما بقيت الدنيا .

فينهشونه ويخدشونه حتى يفضى به إلى الحساب .

قال : قال رسول الله ﷺ « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وكذا القول في العقاب ، فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحت وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة ، نعوذ بالله منه . « فَمَنْ زُحِرِحَ » أى أبعد « عَنْ النَّارِ » التى هى مجمع الآفات والشور « وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ » الجامعة للذات والشور « فَقَدْ فَازَ » أى حصل الفوز العظيم ، وهو الظفر بالبغية ، أعنى النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ ، ونيل رضوان الله والنعيم الخلد . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه . وأخرجه مسلم أيضا « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى لذاتها « إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » المتاع : ما يتمتع وينتفع به ، والغرور (بضم الغين) مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٦١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وهو جالس فى ظل الكعبة . فسمعتة يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر ، إذ نزل منزلا . فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جشيره ومنا من ينتضل ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة . قال فاجتمعنا . قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال « إنه لم يكن نبى قبلى إلا دل أمته على ما يعلمه خيرا لهم ، ويحذرهم ما يعلمه شرا لهم . وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها . وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد وأمور تنكرونها . تبحى فتن يرقق بعضها لبعض . تبحى الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى . ثم تنكشف . ثم تبحى الفتنة فيقول المؤمن : هذه ، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه .

ومن بابع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » .

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء ، وأمل الدوام ، فتخدعه ثم تصرعه . قال بعض السلف : الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويَزول . نخدوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« لَتُبْلَوْنَ » أى لتختبرن « فِي أَمْوَالِكُمْ » بما يصيبها من الآفات « وَأَنفُسِكُمْ » بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد . وهذا كقوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ... إلى آخر الآيتين ^(١) - أى لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده . أو أهله . وفي الحديث ^(٢) : يبتلى المرء على قدر دينه . فإن كان في دينه صلابة ، زيد في البلاء . « وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥ و ١٥٦] ... ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء ونصه : عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاءً ؟ قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلاباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .

كثيْرًا» بالقول والفعل «وَإِنْ تَصَبَّرُوا» على ذلك «وَتَتَّقُوا» أى مخالفة أمره تعالى «فَإِنَّ ذَلِكَ» أى الصبر والتقوى «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» أى من معزومات الأمور التى يتنافس فيها المتنافسون . أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال الزية والشرف . أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه . يعنى : أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى ، لا بد أن تصبروا وتتقوا . وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية، من إظهار كمال اللطف بالعباد، ما لا يخفى - أفاده أبو السعود .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب الصبر . وأن الجهاد لا يسقط مع سماع ما يؤذى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» وهم علماء اليهود والنصارى «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ» أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته ﷺ . وفى قوله تعالى «وَلَا تَكْتُمُونَهُ» من النهى عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان، مبالغة فى إيجاب المأمور به «فَنَبَذُوهُ» أى الميثاق «وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» أى طرحوه ولم يراعوه . ونبذ الشيء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به ، والإعراض عنه بالسلبية . كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به «وَاشْتَرَوْا بِهِ» أى استبدلوا به «ثَمَنًا قَلِيلًا» أى شيئاً حقيراً من حطام الدنيا «فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ» بتغيير كلام الله ونبذ ميثاقه .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانها ، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره . وقد تقدم هذا ، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة . ويدخل فى الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين حيث تعذر الأخذ إلا منها .

وقال العلامة الزخشرى عليه الرحمة : كفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطبيب لنفوسهم ، واستجلاب لسايرهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمانة ، أو لبخل بالعلم ، وغيره أن ينسب إليه غيرهم - انتهى - .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار - أخرجه الترمذى ^(١) - ولأبي داود ^(٢) : من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء . ثم تلا : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ... الآية .

لطيفة :

قال العلامة أبو السعود : في تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ، لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ ، والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشتري الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون ، مصحوباً بـ (الباء) الداخلة على الآلات والوسائل - من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنيء الحقير ، على الشريف الخطير ، وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة ، والوسيلة مقصداً - ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعته مكانه - انتهى -

ثم أشار تعالى أنهم لا يرون قبح ذلك بل يفرحون به فقال :

- (١) أخرجه الترمذى في : ٣٩ - كتاب العلم ، ٣ - باب ما جاء في كتمان العلم .
(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٤ - كتاب العلم ، ٩ - باب كراهية منع العلم ، حديث

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » أى بما فعلوا من اشتراء الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالى « وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ » أى بمنجاة « مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بكفرهم وتدليسهم .

روى الإمام أحمد^(١) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، أن مروان قال : اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب - إلى قوله : وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال ابن عباس : سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتبوه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتابهم إياه ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخارى في التفسير ، ومسلم والترمذى والنسائى في تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه بنحوه . ورواه البخارى^(٢) أيضاً عن علقمة بن وقاص ، أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس - فذكره - وروى البخارى^(٣) عن أبى سعيد الخدرى أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٦ - باب

لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٨ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٦ - باب

لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٧ .

إلى الغزو وتحلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فنزلت « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الآية - وكذا رواه مسلم بنحوه .

ولا منافاة بين الروایتين لأن الآية عامة في جميع ما ذكر ، ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك ، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها . كما حققناه غير مرة .

تنبيه :

هذه الآية ، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم ، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل . ويدخل في ذلك المراءون المتكثرون بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة . وفي الصحيحين ^(٢) أيضاً : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور . فليحذر من يأتي بما لا ينبغي ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى .

فائدة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني ، وفاعل الأول (الذين يفرحون) . وأما مفعولاه فحذوفان اكتفاء بمفعولى « تَحْسَبَنَّهَمْ » لأن الفاعل

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧٦ (طبعتنا) ونصه : عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال « ليس على رجل نذر فيما لا يملك . ولعن المؤمن كقتله . ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة . ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة . ومن حلف على يمين صبر فاجرة » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٠٦ - باب المتشبع بما لم ينل . ومسلم في : ٣٧ - كتاب اللباس ، حديث ١٢٦ و١٢٧ (طبعتنا) .

فيهما واحد . فالفاعل الثاني تأكيد للأول، وحسن لما طال الكلام المتصل بالأول . والفاء زائدة ، إذ ليست للعطف ولا للجواب ، وثمت وجوه أخرى .

لطيفة :

تصدير الوعيد بنهيهم عن الحساب المذكور، للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة ، وقطع أطعاهم الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة ، كما نجوا به من المؤاخذه الدنيوية ، وعليه كان مبنى فرحهم . وأما نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسابهم المذكور ، لا لاحتمال وقوع الحساب من جهته عليه الصلاة والسلام - أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو قادر على عقابهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ

لِأُولَى الْأَلْبَابِ)

« إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى في إيجادها على ما هما عليه من الأمور الدهشة ، تلك في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثواب وبحار ، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع ، وثمار وحيوان ، ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى في تعاقبهما ، وكون كل منهما خليفة للآخر ، بحسب طلوع الشمس وغروبها ، أو في تفاوتهما بزيادة كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه

بازدياده « لَا يَأْتِ » أى : لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته ، وباهر حكيمته . والتفكير بالتفخيم كمّا وكيفاً ، أى كثرة عظيمة « لِأُولَى الْأَلْبَابِ » أى لذوى العقول المجلّوة بالتزكية والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ» أى فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر فى تصفية الباطن . فالمراد تعميم الذكر للأوقات ، وعدم الغفلة عنه تعالى . وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ، ليس لتخصيص الذكر بها ، بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالباً « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إنشائهما بهذه الأجرام العظام ، وما فيهما من عجائب المصنوعات ، وغرائب المبتدعات ، ليدلّهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى . كما قيل :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

روى ابن أبى الدنيا فى (كتاب التوكل والاعتبار) عن الصوفى الجليل الشيخ أبى سليمان الدارانىّ قدس الله سره أنه قال : إني لأخرج من منزلى ، فما يقع بصرى على شيء إلا رأيت لله علىّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة . وإنما خصص التفكير بالخلق ، للنهى عن التفكير فى الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته .

خرج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن سلام : لا تفكروا فى الله ، ولكن تفكروا فيما خلق ، وله شواهد كثيرة .

قال الرازى : دلائل التوحيد محصورة في قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس ، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال تعالى : لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ^(١) . ولما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السموات والأرض ، لأن دلائلها أعجب ، وشواهدا أعظم ، وكيف لا نقول ذلك ، ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقاً واحداً ممتداً في وسطها ، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخرى ، حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر ، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة ، وأسراراً عجيبة ، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذاءها من قعر الأرض ، ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق ، حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة ، جزءاً من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم . ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة ، وكيفية التدبير في إيجادها ، وإيداع القوى الغذائية والنامية فيها ، لعجز عنه . فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة ، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات ، مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم . وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان . عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء ، كالعدم . فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير ، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السموات والأرض ، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام ، لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواسفين ومعارف العارفين . بل يسلم أن كل ما خلقه ففیه حکم بالغة ، وأسرار عظيمة ، وإن كان لا سبيل إلى معرفتها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » على إرادة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

القول ، بمعنى يتفكرون قائلين ذلك . وكلمة «هذا» متضمنة لضرب من التعظيم ، أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً ، عارياً عن الحكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحكم جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ، ووجوب طاعتك ، واجتناب معصيتك ، وأن يكون مداراً لمعيش العباد ، ومناراً يرشدكم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد .

لطيفة :

قال أبو البقاء : (باطلاً) مفعول من أجله . والباطل ، هنا ، فاعل بمعنى المصدر ، مثل العاقبة والعافية . والمعنى : ما خلقتكما عبثاً . ويجوز أن يكون حالاً . تقديره : ما خلقت هذا خالياً عن حكمة . ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلاً - انتهى - . وقوله «سُبْحَانَكَ» أى تنزيهاً لك من العبث ، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قال السيوطي : فيه استحباب هذا الذكر عند النظر إلى السماء . ذكره النووي في (الأذكار) اهـ . وفيه تعليم العباد كيفية الدعاء ، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولاً ، كما دل عليه قوله «سُبْحَانَكَ» ثم بعد الثناء يأتي الدعاء ، كما دل عليه «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» . وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته ، لم يمجّد الله تعالى ، ولم يصل على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه ، ثم يصل على النبي ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء - رواه أبو داود^(١) والترمذي وقال : حديث صحيح . واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم في طاعة الله ، وقلوبهم في التفكير في دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزي ، بقولهم :

(١) أخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث ١٤٨١ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)
 « رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » أى أهنته وأظهرت فضيحتة لأهل الموقف .
 وسر هذا الإتيان عظم موقع السؤال ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ،
 كانت داعيته في ذلك الدعاء أكمل ، وإخلاصه في طلبه أشد ، والدعاء لا يتصل بالإجابة ،
 إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص ، وهذا أيضاً تعليم من الله تعالى فناً آخر من آداب الدعاء
 « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ، ببيان خلود عذابهم ،
 بفقدان من ينصرهم ، ويقوم بتخليصهم . وغرضهم تأكيد الاستدعاء . ووضع (الظالمين)
 موضع ضمير المدخلين ، لذهمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ، ووضعهم الأشياء
 في غير مواضعها . وجمع (الأنصار) بالنظر إلى جمع الظالمين ، أى ما لظالم من الظالمين نصير
 من الأنصار . والمراد به من ينصر بالمداغة والقهر . فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة ،
 على أن المراد بالظالمين هم الكفار - أفاده أبو السعود - .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ،
 رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا » حكاية لدعاء آخر لهم ، وتصدير مقدمة الدعاء بالدعاء لإظهار
 كمال الضراعة ، والابتهاال . والتأكيـد للإيمان بصـدور المـقال عنهم بوفور الرغبة ، وكمال
 النشاط . والمراد بالمنادى الرسول ﷺ ، والتنوين للتفخيم ، وهذا كقوله تعالى : وَدَاعِيَا
 إِلَى اللَّهِ ^(١) . وفي وصفه ﷺ بـ (المنادى) دلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوى وتبليغها إلى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٦] ونصها : وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

الدانى والقاصى ، لما فيه من الإيذان برفع الصوت « يُنَادِ لِلْإِيمَانِ » أى لأجل الإيمان بالله . فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين (المنادى) و (ينادى) ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيماً لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من منادٍ ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مهرت بهادٍ يهذى للإسلام ، وذلك أن المنادى إذا أطلق ، ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهذى للطريق ، ويهذى لسداد الرأى ، وغير ذلك . فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهذى للإسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى ، ونخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه : هداه للطريق وإليه . وذلك أن معنى انتهاء الغاية ، ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً - أفاده الزمخشري - .

« أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » أى فامتثلنا أمره ، وأجبنا نداءه ، و« أَنْ » إِمَاتِيسِيرِيَّةٌ ، أى آمَنُوا ، أو مصدرية ، أى : بَأَن آمَنُوا « رَبَّنَا » تكرير للتضرع ، وإظهار كمال الخضوع « فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » أى استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ، وأذهب عنا سيئاتنا بتبديلها حسنات « وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى معدودين فى جملتهم حتى نكون فى درجتهم يوم القيامة . والأبرار جمع بارٍّ أو برٍّ وهو كثير البرِّ (بالكسر) أى الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ

لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » أى على تصديق رسلك والإيمان بهم . أو على ألسنة رسلك . وهو الثواب . وهذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله . وتكرير

النداء لما مرَّ « وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » قصدوا بذلك تذكير وعدمه تعالى بقوله : يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ^(١) . بإظهار أنهم ممن آمن معه.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي » أى بَأْنِي « لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » بيان لـ (عامل) وتأكيد لعمومه « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم . وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال ، فيما وعد الله عباده العاملين . وروى الحافظ سعيد بن منصور فى سننه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشيء ، فأُنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » الآية - وقالت الأنصار : هى أول طعينة قدمت علينا - ورواه الترمذى^(٢) ،

(١) [٦٦ / التحريم / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغَفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٩ - حدثنا

ابن أبى عمر . ونصه : عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة ، فأُنزل الله تعالى : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ .

والحاكم في (مستدرکه) وقال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه . وروى ابن مردويه عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » إلى آخرها . وعن جعفر الصادق رضي الله عنه : من حَزَبَهُ أمر فقال : خمس مرات (رَبَّنَا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد . وقرأ الآيات .

« فَالَّذِينَ هَاجَرُوا » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية وهي الهجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة « وَأَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » أي التي ولدوا فيها ونشأوا « وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي » أي من أجله وبسببه ، يريد سبيل الإيمان بالله وحده ، وهو متناول لكل أذى نالهم من المشركين « وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا » أي غزوا المشركين واستشهدوا « لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جملة قسمية ، خبر المبتدأ الذي هو الموصول ، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه ، بعد ما وعد ذلك عموماً « وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحت قصورها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » في موضع المصدر المؤكد لما قبله ، فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة ، في معنى الإثابة . وأضافه إليه تعالى ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلًا كثيرًا . كما قيل (١) :

إِنْ يَمَاقِبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَهْ طِرْ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يَسَالِي

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» أي حسن الجزاء لمن عمل صالحًا . ثم بين تعالى قبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا ، وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها ، إثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب ، بقوله :

(١) قائله الأعشى ، من قصيدة مطلقها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي . فهل تردّ سؤالي

الغرام : الشر الدائم . ومنه قوله تعالى : إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . أي هلاكًا ولزامًا لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

« لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » أى تصرفهم فيها بالتاجر والمكاسب ،
أى لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق ودرك العاجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« مَتَاعٌ قَلِيلٌ » أى هو متاع قليل ، لقصر مدته ، وكونه بُلْغَةً فانية ، ونعمة زائلة ،
فلا قدر له في جنب ما أعد الله للمؤمنين .

وفي صحيح مسلم^(١) عن النبي ﷺ : والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم
إصبعه في اليم ، فليُنظر بم يرجع ؟

« ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » أى مصيرهم الذى إليه يأوون « وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى الفراش هـى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا »
نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ « بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، غيب بيان وتكريره له ، إثر تقرير ،
مع زيادة خلودهم فى الجنات ليستم بذلك سرورهم ، ويزداد تبجحهم ، ويتكامل به سوء حال
الكفرة . والنزل (بضمتين ، وضم فسكون) المنزل ، وما هـى للزئيل أن ينزل عليه « وَمَا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ،

حديث ٥٥ (طبعتنا) عن المستورد ، أخى بنى فهر .

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ « أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل . والتعبير عنهم بـ (الأبرار) للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر ، كما أنها من قبيل التقوى .

روى الشيخان ^(١) - واللفظ للبخارى - عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ ، فإذا هو فى مشربة ، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوه ليف ، وعند رجله قرظ مصبور ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٢ - باب : تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، حديث ٧٦ . وها كوه بنصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله ، هيبة له . حتى خرج حاجا فخرجت معه . فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له . فوقف له حتى فرغ . ثم سرت معه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة . قال : فقلت : والله ! إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل . ما ظننت أن عندى من علم فأسألى . فإن كان لى علم خبرتك به .

قال ثم قال عمر : إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . قال : فبينما أنا فى أمر أتأمره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . قال فقلت لها : مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى : عجبا لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنية ! إنك لتراجمين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله ! إنا لتراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ! لا تغرنك هذه التى أعجبها حسنُها حب رسول الله ﷺ إياها (يريد عائشة) .

فبكيت ! فقال : ما يبكيك ؟ قلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

وروى ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من نفس برة ولا فاجرة ، إلا الموت خير لها . لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالى « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ »

= قال : ثم خرجتُ حتى دخلتُ على أم سلمة ، لقرايتي منها . فكلمتها . فقالت أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟

فأخذتني ، والله ! ، أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد . فخرجت من عندها . وكان لي صاحب من الأنصار ، إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر . ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا . فقد امتلأت صدورنا منه . فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب . فقال : افتح ، افتح . فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك . اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . فقلت : رَغِمَ أنفُ حفصة وعائشة . فأخذت ثوبي ، فأخرج حتى جثت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة له يرقى عليها بعجلة . وغيلام لرسول الله ﷺ ، أسود ، على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لي .

قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث . فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلى حصير ، ما بينه وبينه شيء . وتحت رأسه وسادة من أديمٍ حشوها ليف . وإن عند رجليه قرطاً مصبوباً . وعند رأسه أهْبُ معلقة . فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ؟ فقال « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ٣١٩٣٠ (طبعتنا) .

وَقْرَأْ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ^(١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » ويقول « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ ... » الآية - وأخرج نحوه رزين عن ابن عباس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »
جملة مسأفة سقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حُكِيتَ هَنَاتِهِمْ مِنْ نَبَذِ الميثاق ، وتحريف الكتاب وغير ذلك . بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أى مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا ، أى لا يكتُمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ . وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى ، وقد قال تعالى فى سورة القصص : « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا^(١) . الآية، وقال تعالى
وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ^(٢) وقال تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً ،
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ^(٣) . وهذه
الصفات توجد في اليهود ، ولكن قليلاً ، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من
أجبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس . وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ،
كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ،
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ
وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ
مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا
لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ *
فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ^(٤) .

وهكذا قال هنا « أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

وقد ثبت في الحديث^(٥) أن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة (كهيعص)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٤] . . . وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٣] .

(٤) [٥ / المائدة / ٨٢-٨٥] .

(٥) هو جزء من حديث الهجرة إلى الحبشة أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم ١٧٤٠

(طبعة المعارف) وصفحة ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) فلا يفتك نصه الطويل

فإنه حديث جليل من الوجهة التاريخية .

بمحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطارقة والقساوسة ، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحامه .

وثبت في الصحيحين ^(١) أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه ، وقال : إن أخاكم بالحبشة قدمات فصلوا عليه ، نخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه .
وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك قال : لما توفي النجاشي ، قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر للعج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية - ورواه عبيد بن حميد أيضاً مسلاً ^(٢) . ورواه ابن جرير عن جابر ، وفيه : فقال المنافقون : يصلى على عالج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت .

وروى الحاكم في (مستدركه) عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاء المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لَدَا بَنَصْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، خير من دواء بنصرة الناس . قال وفيه نزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية - ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : وإن من أهل الكتاب ، يعنى مسلمة أهل الكتاب .
وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن قول الله : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ،

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤ - باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه ، حديث ٦٦٨ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٦٢ و ٦٣ عن أبي هريرة ، وحديث ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ عن جابر ، وحديث ٦٧ عن عمران بن حصين (طبعنا) .

(٢) الأثر ٨٣٧٦ و ٨٣٧٧ .

الآية - قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله أجر اثنين : للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمدًا ﷺ - رواه ابن أبي حاتم - .

وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ، فذكر منهم رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي - أفاده ابن كثير - .

ثم إن الإخبار ، في آخر الآية ، بكونه تعالى : سَرِيعُ الْحِسَابِ . كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفّيها كل عامل على ما ينبغي ، وقدر ما ينبغي . ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها . ولكونه من لوازمها أشبه التأكيد ، فلذا لم يعطف عليه - والله أعلم - .

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣١ - باب تعليم الرجل أمته وأهله ، حديث ٨٢ ونصه :

عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا » أى على مشاق الطاعات وما يمسكم من الكاره والشدائد « وَصَابِرُوا » أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد . لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . والمصابرة باب من الصبر . ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً ، لشدته وصعوبته - كذا فى الكشف - « وَرَابِطُوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد والاستعداد لحربهم ، وارتباط الخيل . قال الله تعالى : وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ^(١) ، والرباط فى الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل معدّ لصاحبه ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً ، وقد يتجاوز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر ، فتسمى رباطاً ومرابطة .

قال الفارسيّ : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقد وردت الأخبار بالترغيب فى الرباط ، وكثرة أجره . فنها ما رواه البخارى^(٢) فى صحيحه عن سهل

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٣ - باب فضل رباط يوم

فى سبيل الله .

ابن سعد الساعديّ أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم في سبيل الله ، خير من الدنيا وما عليها .

وروى مسلم^(١) عن سلمان الفارسيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملهُ ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذيّ وقال : حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً . وبقيت أحاديث أخر ساقها الحافظ ابن كثير في تفسيره .

هذا ومن الوجوه في قوله تعالى « رَابِطُوا » أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فقد روى مسلم^(٣) والنسائيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط . فشبهه ﷺ ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط . وروى الحاكم في (مستدرکه) والحافظ ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال :

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٦٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة العشرين من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

ورواه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٥ - باب في فضل الرباط ، حديث ٢٥٠٠ .

والترمذيّ في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ٢ - باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً .

(٣) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٤١ (طبعنا) .

أقبل على أبو هريرة يوماً فقال : أتدرى، يا ابن أخي ! فيم نزلت هذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاحِبُوا ؟ » قلت : لا ! قال : أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها . فعليهم أنزلت « اصْبِرُوا » أى على الصلوات الخمس ، « وَصَابِرُوا » أنفسكم وهو اكم ورابطوا فى مساجدكم . « وَارْتَقُوا اللَّهَ » فيما عليكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بما يغتبط به . و (لعل) لتغيب المال . لئلا يتسكروا على الآمال .

خاتمة

فيما ورد في الآيات الأواخر من هذه السورة ، وفي فضل هذه السورة بتمامها قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده .

روى البخاري^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر ، قعد فنظر إلى السماء ، فقال « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَاتِ لِأُولَى الْأَبَابِ » ثم قام فتوضأ ، واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح - وهكذا رواه مسلم - ورواه البخاري^(٢) من طريق أخرى بلفظ : حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يسمح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ... الحديث - وهكذا أخرجه الجماعة من طرق .

وروى ابن مردويه بسنده عن عمدة الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ . وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة ، حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيري ، قام فمرّ بي فقال : من هذا ؟ عبد الله ؟ قلت : نعم ! قال : فله ؟ قلت : أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة ، قال : فالحق ، الحق .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٧ - باب إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

(٢) في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٢٠ - باب : رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ .

فلما دخل قال : افرش . عبد الله ! فأتى بوسادة من مسح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطة ، ثم استوى على فراشه قاعداً ، قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الملك القدوس (ثلاث مرات) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً في ذلك أيضاً .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل ، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة ، ثم قال : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، ومن بين يدي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، ومن فوق نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وأعظم لي نوراً يوم القيامة ^(١) . وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضي الله عنه .

وروى ابن مردويه وعبد بن حميد حديثاً عن عائشة ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى قوله « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

وماورد في فضل هذه السورة ما أخرجه مسلم ^(٢) والترمذي من حديث النواس بن سمعان : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ، ما نسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان ، بينهما شَرْقٌ (أى ضياء ونور) ، أو كأنهما حِرْقان من طير صوافٍ تُحَاجَّانِ عن صاحبهما . والله سبحانه الموفق .

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا) .

تمّ تفسير هذه السورة صباح الجمعة في ١١ ذى القعدة الحرام
سنة (١٣١٨) وذلك في حرم جامع السنانية
في الشباك القبليّ من السدة اليمنى العليا
بمسجد جامع الفقير محمد
جمال الدين القاسميّ
الدمشقيّ غفرله
ولواليه
والمؤمنين
آمين

(ويليه الجزء الخامس وفيه تفسير سورة النساء)

ملاحظة : يتضح من الأصل أن المؤلف رحمه الله ، أعاد النظر على هذا الجزء بعد عام ١٣٢٩
وإن لم يشر إلى ذلك ، لأن طريقة التصويب والتصحيح والشطب والتحشية، التي
لوحظت في الأصل، مطابقة لما ورد في الجزء الثاني .

ظافر القاسميّ

استدراك الجزء الثالث من « محاسن التأويل »

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٣	١٩	في الآخرة	« في الآخرة »
٣٦٥	٣	بقية	« بقية »
٣٨٧	٩	على البر	« البر »
٣٩٧	٩	لم يرصوا	لم يرصوا
٤١٦	١١	كما كُتب	« كُتب »
٤٢٣	١٥	فليطعمان	كذا في اليونينية (باللام) وسقطت من الفرع كغيره (شارح)
٤٢٨	١٩	ليكون	« لِيَكُونَ »
٤٣٠	٥	استجاب به	استجاب به
٤٣٢	٢١	أزواجاً	« أزواجاً »
٤٤٢	١٤	لأنها	لا أنها
٤٥٠	٣	عبد الله ابن عمرو	عبد الله بن عمرو
٤٥١	١٧	من نفس	« مِنْ نَفْسٍ »
٤٦٦	١١	الى الحُكَّامِ	« إلى الحُكَّامِ »
٤٧٢	١٣	وأن بعد	وأن يَعدَّ
٤٧٨	١	حتى لا تكون	« حَتَّى لَا تَكُونَ »
٤٨٣	٧	والعمرة	« وَالْعُمْرَةَ »
٤٩١	١١	لمن يسق	لمن لم يسق

تصويب أخطاء الجزء الثالث

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٨	١٥	لِيُفْسِدَ	« لِيُفْسِدَ »
٥٩٩	٦	إِنَّ وَأَنَّ	وَأَنَّ
٥١٣	١٨	فَإِنَّمَا	ف : إِنَّمَا
٥١٤	١	وَأِنَّمَا	و : إِنَّمَا
٥١٧	١٦	وما في والأرض	« وما في الأرض »
٥١٧	١٩	في إيمانها	في إيمانها
٥١٨	٢١	صفات الخلقين	الخلقين
٥٢٤	١٣	إلى بكم	« إِلَى رَبِّكُمْ »
٥٢٥	٢٠	من الكفار	« مِنَ الْكُفَّارِ »
٥٢٧	١١	فيها ما تشتهي الأنفس	« وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ »
٥٢٨	٩	أتحرفوا	أتحرفوا
٥٥٨	٩	والمُحْصَنَاتِ	« وَالْمُحْصَنَاتُ »
٥٦٩	١٣	والنساء	« وَالنَّسَاءُ »
٥٨٣	١	إِبْطَالًا	إِبْطَالًا
٥٨٥	١٠	أبو بكر ابن شيبة	بن أبي شيبة
٥٨٥	١٨	بما فضل الله به بعضهم	« بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ »
٦٠٤	١١	ثلاث معانٍ	ثلاثة
٦٠٦	٧	أحدهما	أحدها
٦٠٦	٨	ثلاث قُروء	ثلاثة قُروء
٦٠٦	١٦	تطلقتين	تطلقتين
٦١٠	٢٠	تَرْضَاهُ	تَرْضَاهُ
٦١١	٣	« وَلَا مَوْلُودٌ »	« وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ »

تصويب أخطاء الجزء الثالث

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٢٧	٩	قَانَتَيْنِ	« قَانَتَيْنِ »
٦٤١	٦	أَتَبِعَهُ جَمَلَهُ	جَمَلَهُ
٦٤١	٧	أَيُّ يَضِيقُ عَلَى	أَيُّ يَضِيقُ عَلَى
٦٤٧	٢٠	كَثْرَةً	« كَثِيرَةً »
٦٧٨	١	هَذِ الْآيَةِ	هَذِهِ الْآيَةِ
٦٨٣	١٠	سِيَمَا	لَاسِيَمَا
٦٨٤	١٦	سِيَمَا	لَاسِيَمَا
٦٨٩	٤	فِي الْأَرْضِ	« فِي الْأَرْضِ »
٦٨٩	١٩	لَأَرَيْنَا كَهْمُ	« لَأَرَيْنَا كَهْمُ »
٦٩١	٢	وَلَا شَفِيعٌ	وَلَا شَفِيعٍ
٦٩١	١٦	لَا يَسْأَلُونَ	« لَا يَسْأَلُونَ »
٦٩٤	٢	ثَلَاثَ مَعَانِي	ثَلَاثَةٌ
٧٠٠	٣	مَنْ خَلَّاهُ	مَنْ خَالَطَهُ
٧٠٢	١١	فِي الْهَوَاءِ	فِي الْهَوَاءِ
٧٢٥	١٢	الْأَصْفَانِي	الْأَصْفَهَانِي
٧٣٣	١٢	لِهَذِهِ الْمَعْنَى	لِهَذَا

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّتَذْكُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسيحي

مَحَاسِنُ التَّائِيْدِ

تَأْلِيفُ عَلَامَةِ الشَّيْخِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِمِيُّ

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

وفيه تفسير سورة النساء بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

بَارِئُ الْحَيَاءِ الْكُنَى الْعَرَبِيَّةُ
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٩٥٧م — ١٤٣٧هـ]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراخ إليه ضماؤها ، وتعتقد عليه
خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد النار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين
هَدَى السلف ، والارتقاء المدني الذي
يقتضيه الزمن »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

روى العوفي عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقد زعم النحاس أنها مكية . مستنداً إلى أن قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ بِالْآيَةِ (١)** نزلت بمكة اتفاقاً في شأن مفتاح الكعبة . وذلك مستند واهٍ . لأنه لا يلزم من نزول آية أو آيات من سور طويلة ، نزل معظمها بالمدينة ، أن تكون مكية . خصوصاً أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة مدني . ومن راجع أسباب نزول آياتها عرف الرد عليه . ومما يرد عليه أيضاً ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت : ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . ودخولها عليه كان بعد الهجرة اتفاقاً . وقيل : نزلت عند الهجرة . وآياتها مائة وسبعون وخمس وقيل ست وقيل سبع . كذا في الإتيان . وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (٢)** ، **وَأَنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ (٣)** ،

(١) [٤ / النساء / ٥٨] ونصها : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ، **إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ** ، **إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** .

(٢) [٤ / النساء / ٤٠] ونصها : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ، **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** .

(٣) [٤ / النساء / ٣١] ونصها : **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا** .

و إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ^(١) ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ^(٢) . الآية . وروى عبد الرزاق عنه أيضاً قال : خمس آيات من النساء لمن أحب إلى من الدنيا جميعاً : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . وقوله : وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا . وقوله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ^(٣) . وقوله : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٤) . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء ، خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت . أولهن : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(٥) ، والثانية : وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ^(٦) ، والثالثة : يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ^(٧) ثم ذكر قول ابن مسعود سواء . يعنى في الخمسة الباقية .

لطيفة : إنما سميت سورة النساء ، لأن ما نزل منها في أحكامهن أكثر مما نزل في غيرها .

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ٦٤] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

(٣) [٤ / النساء / ١١٠] .

(٤) [٤ / النساء / ٢٦] .

(٥) [٤ / النساء / ٢٧] .

(٦) [٤ / النساء / ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ » أى اخشوه أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه . ثم نههم على اتصافه بكمال القدرة الباهرة ، لتأييد الأمر بالتقوى وتأکید إيجاب الامتثال به على طريق الترغيب والترهيب ، بقوله تعالى « الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أى فرعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم . وخلقهُ تعالى إياهم على هذا النمط البديع مما يدل على القدرة العظيمة . ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء . ومنه عقابهم على معاصيهم . فالنظر فيه يؤدي إلى الاتقاء من موجبات تقمته . وكذا جعلهُ تعالى إياهم صنوئاً مفرعة من أرومة واحدة من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة . كما ينبىء عنه ما يأتى من الإرشاد إلى صلة الأرحام ، ورعاية حال الأيتام ، والعدل فى النكاح وغير ذلك . وقد ثبت فى صحيح مسلم^(١) من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٦٩ (طبعنا) ونصه :

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار . قال فجاءه قوم حفاة عمراء مجتأى النمار أو العباء (أى لابسيها خارقين أو ساطها مقوّرين . والنمار جمع نَمْرَة وهى ثياب صوف فيها تنمير) متقلدى السيوف . عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر . فتمعر (أى تغير) وجه رسول الله ﷺ ، لما رأى يهيم من الفاقة . فدخل ثم خرج . =

أولئك نفر من مضر ، وهم مجتابو النار (أى من عريهم وقهرهم) قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ. ثُمَّ قَالَ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْتَظِرُوا نَفْسُ مَا قَدَمْتُ لِنَدِي^(١) .
ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من ديناره . من درهمه . من صاع بره . من صاع تمره . وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود . فى خطبة الحاجة . وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ . الْآيَةَ . «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أى من نفسها . يعنى من جنسها ليكون بينهما ما يوجب التآلف والتضام . فإن الجنسية علة الضم . وقد أوضح هذا بقوله تعالى : وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^(٢) « وَبَثَّ مِنْهُمَا » أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها ، بطريق التوالد

= فأمر بلائاً فأذنب وأقام . فصلى ثم خطب فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [٤ / النساء / ١] إلى آخر الآية : إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا . وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ : اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْتَظِرُوا نَفْسُ مَا قَدَمْتُ لِنَدِي وَاتَّقُوا اللَّهَ [١٨ / ٥٩] تصدق رجل من ديناره . من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . (حتى قال) ولو بشق تمره .

قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها . بل قد عجزت . قال ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلل كأنه مذهبة^(٣) (أى فضة مذهبة ، فهو أبلغ فى حسن الوجه وإشراقه) .

فقال رسول الله ﷺ « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

(١) [٥٩ / الحشر / ١٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

والتناسل . « رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً » أى كثيرة . وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » تكرر للأمر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به . فإن سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا : أسألك بالله وأنشدك الله ، على سبيل الاستعطاف ، يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه . وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بترية المهابة وإدخال الروعة . ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته . و « تساءلون » أصله تتساءلون . فطرح إحدى التاءين تخفيفاً . وقرئ بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس . وقرئ تسألون (من الثلاثي) أى تسألون به غيركم . وقد فسر به القراءة الأولى والثانية . وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع . كما فى قولك رأيت الهلال وتراءىنا - أفاده أبو السعود - . وقوله تعالى « وَالْأَرْحَامَ » قرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور . والباقيون بالنصب عطفاً على الاسم الجليل . أى اتقوا الله والأرحام أن تقطعوها . فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى . أو عطفاً على محل الجار والمجرور . كقولك مررت بزيد وعمراً . وينصره قراءة « تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل . ويقولون : أسألك بالله وبالرحم . ولقد نبه سبحانه وتعالى ، حيث قرنهما باسمه الجليل ، على أن صلتها بمكان منه . كما فى قوله تعالى : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^(١) . وقال تعالى : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ^(٢) .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ =

وقد روى الشيخان^(١) عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال : الرحم معلقة بالعرش . تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله . ورويا^(٢) أيضاً عن جبير بن مطعم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يدخل الجنة قاطع . قال سفيان في روايته : يعنى قاطع رحم . وروى البخارى^(٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي ﷺ : ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها . ورويا^(٤) عن أبي هريرة رضى الله عنه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه . والأحاديث فى الترغيب بصلة الرحم والترهيب من قطيعتها كثيرة .

تنبيه :

دلت الآية على جواز المسئلة بالله تعالى . كذا قاله الرازى . ووجهه أنه تعالى أقرهم على هذا التساؤل . لكونهم يعتقدون عظمتهم . ولم ينكره عليهم . نعم من أداه التساؤل باسمه تعالى إلى = وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا .

- (١) انفرد به مسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٧ (طبعتنا) .
- (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١ - باب إثم القاطع ، حديث ٢٣١١ .
- ومسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٨ و ١٩ (طبعتنا) .
- (٣) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٥ - باب ليس الواصل بالمكافئ ، حديث ٢٣١٦ .

- (٤) الحديث الذى انفرد به البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٢ - باب من بسط الله فى الرزق بصلة الرحم ، حديث ٢٣١٢ ، هذا نصه :
- عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه » .

التساهل في شأنه وجعله عرضة لعدم إجلاله ووسيلة للأبواب الساسانية، فهذا محذور قطعاً .
وعليه يحمل ما ورد من لعن من سأل بوجه الله . كما سند كره . وقد ورد في هذا الباب أحاديث
وافرة . منها عن ابن عمر قال ^(١) قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم
بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ومن أتى عليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه
فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم .
وروى الإمام أحمد وأبو داود ^(٢) عن ابن عباس مرفوعاً : من استعاذ بالله فأعيذوه
ومن سألكم بوجه الله فأعطوه . وعن ابن عمر مرفوعاً : من سئل بالله فأعطى كتب له سبعون
حسنة . رواه البيهقي بإسناد ضعيف . وفي البخاري ^(٣) عن البراء بن عازب : أمرنا رسول الله
ﷺ بسبع . وذكر منها : وإبرار القسم . وروى أبو داود ^(٤) والضياء في (المختارة) بإسناد صحيح عن

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٦٨ من الجزء الثاني بهذا النص (طبعة الحلبي).

وأبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٠٨ - باب في الرجل يستعيز من الرجل ،
حديث ٥١٠٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٠٨ - باب في الرجل يستعيز من
الرجل ، حديث ٥١٠٨ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٢ - باب الأمر باتباع الجنائز ،
حديث ٦٦٢ . وهذا نصه :

عن البراء رضي الله عنه قال : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع
الجنائز وعيادة المريض وإجابة الداعي ونصر المظلوم وإبرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس .
ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسى والإستبرق .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٧ - باب كراهية المسألة بوجه الله ،
حديث ١٦٧١ .

جابر مرفوعاً : لا يستل بوجه الله تعالى إلا الجنة . وروى الطبراني عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً : ملعون من سأل بوجه الله . و ملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هُجْراً . قال السيوطي : إسناده حسن . وقال الحافظ المنذري : رجاله رجال الصحيح إلا شيخه (يعني الطبراني) يحيى بن عثمان بن صالح . وهو ثقة وفيه كلام . وهُجْراً (بضم الهاء وسكون الجيم) أي ما لم يسأل أمراً قبيحاً لا يليق . ويحتمل أنه أراد ما لم يسأل سؤالاً قبيحاً بكلام قبيح . انتهى . وعن أبي عبيدة ، مولى رفاعه ، عن رافع أن رسول الله ﷺ قال : ملعون من سأل بوجه الله و ملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله . رواه الطبراني . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : إلا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسئل بوجه الله ولا يعطى . رواه الترمذي . وقال : حسن غريب . والنسائي وابن حبان في صحيحه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إلا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الذي يسأل بالله ولا يعطى « إن الله كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » أي مراقباً لجميع أحوالكم وأعمالكم . يراها ويعلمها فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . كما قال : والله على كل شيء شهيد . وفي الحديث ^(٢) : اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وهذا إرشاد وأمر بمراقبة تعالى . فعلى المرء أن يراقب أحوال نفسه ويأخذ حذره من أن ينتهز الشيطان منه فرصة فيهلك على غفلة .

(١) أخرجه الترمذي في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ١٨ - باب ما جاء أي الناس

خير ، ونصه :

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « ألا أخبركم بخير الناس ؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله . ألا أخبركم بالذي يتلوه ؟ رجل معتزل في غنيمة له يؤدي حق الله فيها . ألا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسأل بالله بوجه الله ولا يعطى به » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبي ﷺ

عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه :
=

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)

« وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ » شروع في تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمراً ونهيًا . وتقديم ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم وللملابستهم بالأرحام . إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلم تفوض الوصاية إلى الأجانب . واليتيم من مات أبوه . من اليتيم ، وهو الانفراد . ومنه الدرة اليتيمة . والقياس الاشتقاق يقتضى وقوعه على الصغار والكبار . وقد خصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم . كما روى أبو داود ^(١) بإسناد حسن عن علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ : لا يَتِمُّ بعد احتلام . وفي الآية وجوه : الأول - أن يراد باليتامى الكبار الذين أونس منهم الرشد مجازاً . باعتبار ما كان ، أوثر لقرب العهد بالصغر . والإشارة إلى

= عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان ، أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تناول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » . ثم تلا النبي ﷺ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية [٣١ / لقمان / ٣٤] .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٩ - باب متى ينقطع اليتيم ،

حديث ٢٨٧٣ .

وجوب المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم حينئذ . حتى كأن اسم اليتيم باق بعد ، غير زائل .
 الثانى - أن يراد بهم الكبار حقيقة ، واردة على أصل اللغة . الثالث - أن يراد بهم الصغار .
 وبـ (الإيتاء) ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة . لادفعها إليهم . وفيه بُعد .
 الرابع - أن يراد بهم ما ذكر . وبـ (إيتائهم) الأموال ، أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء
 ولالة السوء وقضائه ويكفوا عنها أيديهم الحافظة حتى تؤتى اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة .
 فالتجوز في الإيتاء حينئذ باستعماله في لازم معناه وهو تركها سالمة لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت
 كذلك . قال الناصر في (الانتصاف) : هذا الوجه قوى بقوله بعد آيات : وَابْتَلُوا الْيَتَامَى
 حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، دل على أن
 الآية الأولى في الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم . والثانية في الحض على
 الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ والرشد . ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى : وَلَا تَبَدَّلُوا الْخ
 فهذا كله تأديب للوصى ما دام المال بيده واليتيم في حجره . وأما على الوجه الأول فيكون
 مؤدى الآيتين واحداً وهو الأمر بالإيتاء حقيقة . ويخلص عن التكرار بأن الأولى
 كالجملة ، والثانية كالمبينة لشرط الإيتاء : من البلوغ وإيناس الرشد . والله أعلم .
 « وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ » أى ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو
 مالكم ، وما أبيع لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه « وَلَا
 تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه . أى لا تأكلوها
 مضمومة إلى أموالكم مخلوطة بها للتوسعة « إِنَّهُ » أى الأكل « كَانَ حُومًا » أى ذنباً

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ
 مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ
 كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
 فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا .

عظيماً . وقرىء بفتح الحاء . وقوله تعالى « كَبِيرًا » مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور .
كأنه قيل من كبار الذنوب .

تنبيه :

خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيراً لقوله تعالى : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . كذا قاله البيضاوي وتابعه أبو السعود . وعندي أنه لا حاجة إلى تخصيص هذا النهي بالفقير في هذه الآية لأنها في الغنى ، لقوله : إِلَى أَمْوَالِكُمْ . فلا يشمل مساقها الفقير . وسنوضح ذلك .

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم . فلم ورد النهي عن أكله معها ؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنيين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطعمون فيها ، كان القبح أبلغ والذم أحق . ولأنهم كانوا يفعلون كذلك . فنهى عنهم فعملهم وسَمِعَ بهم ليكون أزجر لهم . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) أهل البيان يقولون : النهي متى كان درجات فطريق البلاغة النهي عن أدائها تنبيه على الأعلى . كقوله تعالى : فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ ^(١) . وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته يبادى الرأي مخالفاً . لها إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهي أن يأكله وهو غني عنه . وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه . فكان مقتضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه حتى يلزم نهى الغنى عنه من طريق الأولى . وحينئذ فلا بد من تمهيد أمر يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهي في هذه الآية . فنقول : أبلغ الكلام

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

ما تعددت وجوه إفادته . ولا شك أن النهى عن الأدنى ، وإن أفاد النهى عن الأعلى ، إلا أن للنهى عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جلية ، لا تؤخذ من النهى عن الأدنى . وذلك أن النهى كما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد . ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل . فخصص بالنهى تشنيعاً على من يقع فيه . حتى إذا استحکم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً . ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم . ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع في هذه الصورة مُعينة على الاجتناب ، كإعانتها عليه في الصورة الأولى . ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه بالأكل . مع أن تناول مال اليتيم ، على أى وجه كان ، منهى عنه . كان ذلك بالادخار أو بالتباس أو ببذله في لذة النكاح مثلاً ، أو غير ذلك . إلا أن حكمة تخصيص النهى بالأكل أن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل . وتمدّ البطن من البهيمية . وتعيب على من اتخذها ديدنه . ولا كذلك سائر الملاد . فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدون منه زينة الدنيا . فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاد خص النهى به . حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملاد أو غيرها ، أكلاً أو غيره . ومثل هذه الآية في تخصيص النهى بما هو أعلى قوله تعالى : لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً^(١) . فخص هذه الصورة لأن الطبع عن الانتهاء عنها أعون . ويقابل هذا النظر في النهى نظر آخر في الأمر . وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى . وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب . ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ^(٢) الآية ، كيف خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم . وذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٠] ... وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٨] ... مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال . فلو أمر بإسعاف الأرقاب واليتامى من المال الموروث ولم يذكر حالة حضورهم القسمة، لم تكن الأنفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم . بخلاف ما إذا حضروا . فإن النفس يرقّ طبعها وتنفر من أن تأخذ المال الجزل وذو الرحم حاضر محروم ، ولا يسعف ولا يساعد . فإذا أمرت في هذه الحالة بالإسعاف هان عليها امتثال الأمر واثتلافها على امتثال الطبع . ثم تدربت بذلك على إسعاف ذى الرحم مطلقاً . حضر أو غاب . فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يُلَفَى إلا في الكتاب العزيز . ولا يكثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق . نسأل الله أن يسلك بنا في هذا النمط . فنحذ هذا القانون عمدة . وهو : أن النهى ، إن خص الأدنى فلفائدة التنبيه على الأعلى . وإن خص الأعلى ، فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأفبح . ومثل هذا ، النظر في جانب الأمر . والله الموفق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا)

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا » أى أن لا تعدلوا « فِي الْيَتَامَىٰ » أى يتامى النساء . قال الزخشرى : ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور ، وهو جمع يتيمة ، على القلب . كاقيل أياى . والأصل أيأثم ويتأثم « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى من طبن لنفوسكم من جهة الجمال والحسن أو العقل أو الصلاح منهم « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » ومعنى الآية : وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن ، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق ، فانكحوا غيرهن من الغريات فإنهن كثير ولم يضيق الله عليكم . فالآية للتحذير من التورط

في الجور عليهن والأمر بالاحتياط . وإن في غيرهن متسعاً إلى الأربع . وروى البخاري^(١) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عَدَقٌ (أى نخله) وكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شيء . فنزلت فيه : وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى . أحسبه قال : كانت شريكته في ذلك العَدَق وفي ماله . ورواه مسلم وأبو داود والنسائي . وفي رواية لهم عن عائشة^(٢) هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويمجبه ماله وجماله . فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيهامثل ما يعطيها غيره . فنها عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سُنتِهِنَّ في الصداق . فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأَنزل الله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ [١٢٧/٤] . قالت عائشة : وقول الله تعالى في آية أخرى : وَتَرَوْنَهُنَّ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ [١٢٧/٤] ، رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فنها أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن ، إذا كن قليات المال والجمال .

وفي رواية^(٣) في قوله تعالى : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ... إلى آخر الآية . قالت عائشة رضي الله عنها : هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١ - باب قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ، حديث ١٢٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١ - باب قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ، حديث ١٢٣٤ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٣٧ - باب إذا كان الولي هو المخاطب ، حديث ١٢٣٤ .

ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها . فهاهم الله عن ذلك . زاد أبو داود^(١) رحمه الله تعالى : وقال ربعة في قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى . قال يقول : اتركوهنَّ إِنْ خِفْتُمْ فَقَدْ أَحَلَّتْ لَكُمْ أَرْبَعًا .

لطائف :

الأول : (ما) في قوله تعالى : ما طاب لكم ، موصولة . وجاء بـ (ما) مكان (من) لأنهما قد يتعاقبان . فيقع كل واحد منهما مكان الآخر . كما في قوله تعالى : وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا^(٢) وقوله : وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ^(٣) . وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ^(٤) . قال بعضهم : وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء ، وهن ناقصات العقول .

الثانية - في إظهار الأمر بنكاحهن على النهي عن نكاح اليتامى ، مع أنه المقصود بالذات ، حميدٌ لطف في استنزاهم عن ذلك . فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه . كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذي أشير إليه ، فيه مبالغة في الاستمالة إليهن والترغيب فيهن . وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى - أفاده أبو السعود - .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ١٢ - باب ما يكره أن يجمع بينهن

من النساء ، حديث ٢٠٦٥

(٢) [٩١ / الشمس / ٥] .

(٣) [١٠٩ / الكافرون / ٥] .

(٤) [٢٤ / النور / ٤٥] ونصها : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ

يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الثالثة :

اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له . وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في يتأى أن ينكح أكثر من واحدة .

الرابعة :

مثنى وثلاث ورباع معدولة عن أعداد مكررة . ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل (طاب) مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن ، والاستمالة إليهن ، بتوسيع دائرة الإذن . أى فانهكحوا الطيبات لكم ، معدودات هذا العدد . ثنتين ثنتين . وثلاثاً ثلاثاً . وأربعاً أربعاً . حسبما يريدون . فإن قلت : الذى أطلق للنكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؟ قلت : الخطاب للجميع . فوجب التكرير ليصيب كل نكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له . كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم ، درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى . فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون (أو) . قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حدوته لك . ولو ذهبت تقول : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ، أعلمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة . وليس لهم أن يجمعوا بينها . فيجعلوا بعض القسم على ثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربع . وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو . وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاءوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك . أفاده الزمخشري .

بحث جليل :

قال الرازى : ذهب قوم سدى (حتى . موضع قرب زييد باليمن اه قاموس) إلى أنه يجوز الزوج بأى عدد أريد . واحتجوا بالقرآن والخبر . أما القرآن فقد تمسكوا بهذه الآية من

ثلاثة أوجه : الأول - أن قوله تعالى : فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إطلاق في جميع الأعداد . بدليل أنه لا عدد إلا ويصح استثناءه منه . وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلاً . والثاني - أن قوله : مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، لا يصلح تخصيصاً لذلك العموم ، لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينفي ثبوت الحكم في الباقي . بل نقول : إن ذكر هذه الأعداد يدل على رفع الحرج والحجر مطلقاً . فإن الإنسان إذا قال لولده : افعل ما شئت . اذهب إلى السوق وإلى المدينة وإلى البستان ، كان تنصيماً في تفويض زمام الخيرة إليه مطلقاً . ورفع الحجر والحرج عنه مطلقاً . ولا يكون ذلك تخصيصاً للإذن بتلك الأشياء المذكورة . بل كان ذلك إذناً في المذكور وغيره . فكذا هنا . وأيضاً ، فذكر جميع الأعداد متعذر . فإذا ذكر بعض الأعداد بعد قوله : فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، كان ذلك تنبيهاً على حصول الإذن في جميع الأعداد . الثالث - أن الواو للجمع المطلق . فقوله : مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يفيد حل هذا المجموع . وهو يفيد تسعة . بل الحق أنه يفيد ثمانية عشر . لأن قوله : مَثْنَى ليس عبارة عن اثنين فقط ، بل عن اثنين اثنين . وكذا القول في البقية .

وأما الخبر فن وجهين : الأول - أنه ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع . ثم إن الله تعالى أمرنا باتباعه فقال : فَاتَّبِعُوهُ ، وأقل مراتب الأمر الإباحة . الثاني - أن سنة الرجل طريقته . وكان الزوج بالأكثر من الأربع طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام . فكان ذلك سنة له . ثم إنه عليه السلام قال ^(١) : فمن رغب عن سنتي فليس مني . فظاهر هذا الحديث

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ،

حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ . فلما أخبروا ، كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

يقتضى توجه اللوم على من ترك الزوج بأكثر من الأربعة. فلا أقل من أن يثبت أصل الجواز. واعلم أن معتمد الفقهاء في إثبات الحصر على أمرين : الأول - الخبر . وهو ما روى أن غيلان أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال الرسول ﷺ : أمسك أربعاً وفارق باقيهن . وروى أن نوفل بن معاوية أسلم وتحتة خمس نسوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : أمسك أربعاً وفارق واحدة .

واعلم أن هذا الطريق ضعيف لوجهين : الأول - أن القرآن لما دل على عدم الحصر بهذا الخبر كان ذلك نسخاً للقرآن بخبر الواحد وأنه غير جائز . والثاني - وهو أن الخبر واقعة حال . فلعلة عليه الصلاة والسلام إنما أمره بأمساك أربع ومفارقة البواق لأن الجمع بين الأربعة وبين البواق غير جائز، إما بسبب النسب أو بسبب الرضاع . وبالجملة فهذا الاحتمال قائم في هذا الخبر فلا يمكن نسخ القرآن بمثله (الطريق الثاني) وهو إجماع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع. وهذا هو المعتمد، وفيه سؤالان : الأول - أن الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ. فكيف يقال : الإجماع نسخ هذه الآية ؟ . الثاني - أن في الأمة أقواماً شذاذاً لا يقولون بحرمة الزيادة على الأربع . والإجماع ، مع مخالفة الواحد والاثنين ، لا ينمقد .

(والجواب عن الأول) أن الإجماع يكشف عن حصول الناسخ في زمن الرسول ﷺ . (وعن الثاني) أن مخالف هذا الإجماع من أهل البدعة. فلا عبرة بمخالفته، انتهى كلام الرازي، وقوله (من أهل البدعة) لا يجوز أخذه على عمومته لما ستره .

= قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في (وبل الغمام) : الذي نقله إلينا أئمة اللغة والإعراب وصار كالجمع عليه عندهم، أن العدل في الأعداد يقيد أن العدود لما كان متكرراً يحتاج استيفاءه إلى أعداد كثيرة كانت صيغة العدل المفردة في قوة تلك الأعداد . فإن كان مجيء القوم مثلاً اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وكانوا ألوفاً مؤلفة ، فقلت : جاءني القوم مثني ، أفادت هذه الصيغة أنهم جاءوا اثنين اثنين ، حتى تكاملوا . فإن قلت : مثني وثلاث ورباع ، أفاد ذلك أن القوم جاءوك تارة اثنين اثنين ، وتارة ثلاثة ثلاثة ، وتارة أربعة أربعة . فهذه الصيغ بينت مقدار عدد دفعات المجيء لا مقدار عدد جميع القوم ، فإنه لا يستفاد منها أصلاً . بل غاية ما يستفاد منها أن عددهم متكرر تكثر تشق الإحاطة به . ومثل هذا إذا قلت : نكحت النساء مثني . فإن معناه نكحتهن اثنتين اثنتين . وليس فيه دليل على أن كل دفعة من هذه الدفعات لم يدخل في نكاحه إلا بعد خروج الأولى . كما أنه لا دليل في قولك : جاءني القوم مثني ، أنه لم يصل الاثنان الآخران إليك إلا وقد فارقك الاثنان الأولان . إذا تقرر هذا فقول الله تعالى « مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » يستفاد منه جواز نكاح النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . والمراد جواز تزوج كل دفعة من هذه الدفعات في وقت من الأوقات . وليس في هذا تعرض لمقدار عددهن . بل يستفاد من الصيغ الكثرة من غير تعيين . كما قدمنا في مجيء القوم . وليس فيه أيضاً دليل على أن الدفعة الثانية كانت بعد مفارقة الدفعة الأولى . ومن زعم أنه نقل إلينا أئمة اللغة والإعراب ما يخالف هذا، فهذا مقام الاستفادة منه، فليتفضل بها علينا . وابن عباس ، إن صح عنه في الآية أنه قصر الرجال على أربع فهو فرد من أفراد الأمة . وأما القعقة بدعوى الإجماع فإهونها وأيسر خطبها عند من لم تفرعه هذه الجلبة . وكيف يصح إجماع خالفته الظاهرية وابن الصباغ ، والعمرائي ، والقاسم بن إبراهيم ، نجم آل الرسول ، وجماعة من الشيعة ، وثلة من محققي التأخرين ، وخالفه أيضاً القرآن الكريم ، كما بيناه . وخالفه أيضاً فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما صح

ذلك تواتراً ، من جمعه بين تسع أو أكثر في بعض الأوقات . « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » (١) . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢) . قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (٣) ودعوى الخصوصية مفتقرة إلى دليل . والبراءة الأصلية مستصحبة لا ينقل عنها إلا ناقل صحيح تنقطع عنده العاذير .

وأما حديث (٤) أمره صلى الله عليه وسلم لغيلان ، لما أسلم وتحتة عشر نسوة ، بأن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن ، كما أخرجه الترمذى وابن ماجه وابن حبان ، فهو وإن كان له طرق ، فقد قال ابن عبد البر : كلها معولة . وأعله غيره من الحفاظ بعلل أخرى . ومثل هذا لا ينهض للنقل عن الدليل القرآنى والفعل المصطفوى الذى مات ﷺ عليه والبراءة الأصلية . ومن صحح لنا هذا الحديث على وجه تقوم به الحجة ، أو جاءنا بدليل فى معناه ، فجزاه الله خيراً . فليس بين أحد وبين الحق عداوة . وعلى العالم أن يوفى الاجتهاد حقه لاسيما فى مقامات التحرير

(١) [٥٩ / الحشر / ٧] رخصها : مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] ... لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٣١] ... وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٣٣ - باب ماجاء فى الرجل يسلم وعنده عشر نسوة .

وابن ماجة فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٠ - باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة ، حديث ١٩٥٣ (طبعنا) .

والتقرير. كما نفعله في كثير من الأبحاث . وإذا حاك في صدره شيء فليكن تورعه في العمل لا في تقرير الصواب . فإياك أن تحامى التصريح بالحق الذي تبلغ إليه ملكتك ، لقليل وقال . ولا سيما في مثل مواطن يجبن عنها كثير من الرجال . فإنك لا تسئل يوم القيامة عن الذي يرتضيه منك العباد بل عن الذي يرتضيه المعبود . وإذا جاء نهر الله بطل نهر^(١) معقل . ومن ورد البحر استقل السواقياء . انتهى .

وقال الشوكاني قدس سره أيضا في (نيل الأوطار) : حديث قيس بن الحرث (وفي رواية الحرث بن قيس) في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وقد ضعفه غير واحد من الأئمة . قال أبو القاسم البغوي : ولا أعلم للحرث بن قيس حديثاً غير هذا . وقال أبو عمرو التمرى : ليس له إلا حديث واحد ولم يأت به من وجه صحيح . وفي معنى هذا الحديث غيلان الثقفي وهو عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال : أسلم غيلان الثقفي وتحتته عشر نسوة ، في الجاهلية . فأسلمن معه . فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً . رواه أحمد وابن ماجه والترمذي . وحكم أبو حاتم وأبو زرعة بأن المرسل أصح . وحكى الحاكم عن مسلم أن هذا الحديث مما وهم فيه معمر بالبصرة . قال : فإن رواه عنه ثقة خارج البصرة حكما له بالصحة . وقد أخذ ابن حبان والحاكم والبيهقي بظاهر الحكم ، وأخرجوه من طرق عن معمر من حديث أهل الكوفة وأهل خراسان وأهل اليمامة عنه . قال الحافظ : ولا يفيد ذلك شيئاً . فإن هؤلاء كلهم ، إنما سمعوا منه بالبصرة . وعلى تقدير أنهم سمعوا منه بغيرها ، فحديثه الذي حدث به في غير بلده مضطرب . لأنه كان يحدث في بلده من كتبه على الصحة . وأما إذا رحل فحدث من حفظه

(١) أما نهر معقل ، فقال في (مراصد الاطلاع) : منسوب إلى معقل بن يسار المزني الصحابي . فهو معروف بالبصرة فمعه عند فم الإجابة . ومعقل هو الذي تولى حفرة في ولاية أبي موسى الأشعري بأمر عمر رضي الله عنه . وقيل : في زمن زياد وبأمر معاوية . أما المثل فلا أدري متى قيل ولأية مناسبة قيل . وفوق كل ذي علم عليم .

بأشياء وهم فيها . اتفق على ذلك أهل العلم . كابن المدينيّ والبخاريّ وابن أبي حاتم ويعقوب بن شيبة وغيرهم . وحكى الأثر من أحد أن هذا الحديث ليس بصحيح . والعمل عليه . وأعله بتفرد معمر في وصله وتحديثه به في غير بلده . وقال ابن عبد البر : طرقة كلها معولة . وقد أطال الدارقطنيّ في (الملل) تخريج طرقة . ورواه ابن عيينة ومالك عن الزهريّ مرسلًا . ورواه عبد الرزاق عن معمر كذلك . وقد وافق معمرًا على وصله بحر بن كنيز السقاء عن الزهريّ . ولكنه ضعيف . وكذا وصله يحيى بن سلام عن مالك . ويحيى ضعيف . وفي الباب عن نوفل بن معاوية ، عند الشافعيّ ، أنه أسلم وتحتة خمس نسوة . فقال له النبيّ ﷺ : أمسك أربعماء فارق الأخرى . وفي إسناده رجل مجهول . لأن الشافعيّ قال : حدثنا بعض أصحابنا عن أبي الزناد عن عبد المجيد بن سهل عن عوف بن الحرث عن نوفل بن معاوية قال : أسلمت ، فذكره . وفي الباب أيضاً عن عمرو بن مسعود وصفوان بن أمية عند البيهقيّ . وقوله : اختر منهن أربعماء ، استدلل به الجمهور على تحريم الزيادة على أربع . وذهبت الظاهرية إلى أنه يحل للرجل أن يتزوج تسعاً . ولعل وجهه قوله تعالى : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . ومجموع ذلك لا باعتبار ما فيه من العدل ، تسع . وحكى ذلك عن ابن الصباغ والعمرانيّ وبعض الشيعة . وحكى أيضاً عن القاسم بن إبراهيم . وأنكر الإمام يحيى الحكاية عنه . وحكاها صاحب البحر عن الظاهرية ، وقوم مجاهيل . وأجابوا عن حديث قيس بن الحرث المذكور بما فيه من المقال المتقدم . وأجابوا عن حديث غيلان الثقفيّ بما تقدم فيه من المقال . وكذلك أجابوا عن حديث نوفل بن معاوية بما قدمنا من كونه في إسناده مجهول . قالوا : ومثل هذا الأصل العظيم لا يكتفى فيه بمثل ذلك . ولا سيما وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قد جمع بين تسع أو إحدى عشرة ، وقد قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ^(١) . وأما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] ... لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ

اللَّهَ كَثِيرًا .

دعوى اختصاصه بالزيادة على الأربع فهو محل النزاع . ولم يقم عليه دليل . وأما قوله تعالى :
 مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فالواو فيه للجمع لا للتخيير . وأيضاً لفظ مثنى معدول به عن اثنين
 اثنين . وهو يدل على تناول ما كان متصفاً من الأعداد بصفته الاثنينية . وإن كان في غاية
 الكثرة البالغة إلى ما فوق الألوف . فإنك تقول جاءنى القوم مثنى أى اثنين اثنين . وهكذا
 ثلاث ورباع . وهذا معلوم في لغة العرب لا يشك فيه أحد . فالآية المذكورة تدل بأصل
 الوضع على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً .
 وليس من شرط ذلك أن لا تأتى الطائفة الأخرى في العدد إلا بعد مفارقتها للطائفة التي قبلها .
 فإنه لا شك أنه يصح ، لغة وعرفاً ، أن يقول الرجل ، لألف رجل عنده : جاءنى هؤلاء اثنين .
 اثنين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة . حينئذ الآية تدل على إباحة الزواج بعدد من النساء كثير .
 سواء كانت الواو للجمع أو للتخيير . لأن خطاب الجماعة بحكم من الأحكام بمنزلة الخطاب به
 لكل واحد منهم . فكأن الله سبحانه وتعالى قال ، لكل فرد من الناس : انكح ما طاب
 لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . ومع هذا فالبراءة الأصلية مستصحة . وهى بمجرد هذا
 كافية في الحل حتى يوجد ناقل صحيح ينقل عنها . وقد يجاب بأن مجموع الأحاديث المذكورة ،
 في الباب لا تقصر عن رتبة الحسن لغيره ، فتنهض بمجموعها للاحتجاج . وإن كان كل واحد
 لا يخلو عن مقال . ويؤيد ذلك كون الأصل في الفروج الحرمة . كما صرح به الخطابى .
 فلا يجوز الإقدام على شيء منها إلا بدليل . وأيضاً هذا الخلاف مسبوق بالإجماع على عدم
 جواز الزيادة على الأربع . كما صرح بذلك في (البحر) .

وقال في (الفتح) اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع
 بينهما . وقد ذكر الحافظ في (الفتح) و (التلخيص) الحكمة في تكثير نسائه ﷺ
 فليراجع ذلك . انتهى .

وقال قدس سره في تفسيره (فتح القدير) : وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع .

ويعينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة . وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد . كما يقال للجماعة : اقتسموا هذا المال . وهو ألف درهم (أو هذا المال الذي في البكرة) درهمين درهمين . وثلاثة ثلاثة . وأربعة أربعة . وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته ، أو عين مكانه . أما لو كان مطلقاً ، كما يقال : اقتسموا الدراهم ، ويراد بها ما كسبوه ، فليس المعنى هكذا . والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول . على أن من قال لقوم يقتسمون ما لا معيناً كبيراً : اقتسموه مثني وثلاث ورباع ، ققسموا بعضه بينهم درهمين درهمين . وبعضه ثلاثة ثلاثة . وبعضه أربعة أربعة . كان هذا هو المعنى العربي . ومعلوم أنه إذا قال القائل : جاءني القوم مثني ، وهم مائة ألف ، كان المعنى أنهم جاءوه اثنين اثنين . وهكذا : جاءني القوم ثلاث ورباع . والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . كما في قوله تعالى : اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ، أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، ونحوها . ومعنى قوله « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . هذا ما تقتضي لغة العرب . فالآية تدل على خلاف ما استدلوا به عليه . ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . فإنه وإن كان خطاباً للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن . وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة وكأنه قال : انكحوا مجموع هذا العدد المذكور ، فهذا جهل بالمعنى العربي . ولو قال : انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه . وأما مع المجيء بصيغة العدل فلا . وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون (أو) لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره . وذلك ليس بمبرر من النظم القرآني .

أخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي ، عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتته عشر نسوة . فقال له النبي ﷺ : اختر منهن

(وفي لفظ أمسك منهم) أربعاً وفارق سائرهن . وروى هذا الحديث بألفاظ من طرق .
وعن نوفل بن معاوية الديليّ قال : أسلمت وعندى خمس نسوة . فقال رسول الله ﷺ : أمسك
أربعاً وفارق الأخرى . أخرجه الشافعيّ في مسنده .

وأخرج ابن ماجة والنحاس في (تاريخه) عن قيس بن الحرث الأسديّ قال : أسلمت
وكان تحتي ثمان نسوة . فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته . فقال : اختر منهم أربعاً وخل سائرهن .
ففعلت . وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقيّ .

وقال قدس سره أيضاً في كتابه (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) : أما
الاستدلال على تحريم الخامسة وعدم جواز زيادة على الأربع بقوله عن رجل : مَشْنَى وَثَلَاثَ
وَرُبَاعَ ، فغير صحيح . كما أوضحته في (شرحى للمنتقى) وقد قدمناه . ولكن الاستدلال
على ذلك بحديث قيس بن الحرث وحديث غيلان الثقفيّ وحديث نوفل بن معاوية هو الذى
ينبنى الاعتماد عليه . وإن كان فى كل واحد منها مقال . لكن الإجماع على ما دلت عليه
قد صارت به من الجمع على العمل عليه . وقد حكى الإجماع صاحب (فتح البارى) والمهدىّ
فى (البحر) والنقل عن الظاهرية لم يصح . فإنه قد أنكر ذلك منهم من هو أعرف
بمذهبهم . انتهى .

تمّة :

روى الدارقطنى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ينكح العبد امرأتين ويطلق
تطليقتين وتعتد الأمة حيضتين .

قال الشوكانى فى (نيل الأوطار) قد تمسك بهذا من قال : إنه لا يجوز للعبد أن يتزوج
فوق اثنتين . وهو مروى عن علىّ وزيد بن علىّ والناصر والحنفية والشافعية . ولا يخفى أن
قول الصحابىّ لا يكون حجة على من لم يقل بحجّيته . نعم ، لو صح إجماع الصحابة على ذلك
لكان دليلاً عند القائلين بحجّية الإجماع . ولكنه قد روى عن أبى الدرداء ومجاهد وربيعه

وأبى ثور والقاسم بن محمد وسالم ؛ أنه يجوز له أن ينكح أربعاً كالحر . حتى ذلك عنهم صاحب (البحر) فالأولى الجزم بدخوله تحت قوله تعالى : فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ . والحكم له وعليه بما للأحرار وعليهم . إلا أن يقوم دليل يقتضى المخالفة . كما فى المواضع المعروفة بالتخالف بين حكميهما انتهى .

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا » أى بين هذه الأعداد « فَوَاحِدَةً » أى فاختاروها . وقرئ بالرفع أى فحسبكم واحدة « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من الإماء ، بالغة ما بلغت من مراتب العدد . لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم فى الحرائر . ولا قسم لهن . و (أو) للتسوية . أى التخيير . والعدد يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة . قال الزخشرى : سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد . ولعمري إنهن أقل تبعاً وأقصر شغباً وأخف مؤنة من المهائر . لا عليك ، أكرت منهن أم أقلت . عدلت بينهن فى القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل . انتهى .

« ذَٰلِكَ » أى الاقتصار على واحدة أو على التسرى « أَذْنَىٰ » أى أقرب « أَلَّا تَعُولُوا » أى من أن لا تميلوا ولا تجوروا . لا تنفائه رأساً بانتفاء محله فى الأول . وانتفاء خطره فى الثانى . بخلاف اختيار العدد فى المهائر . فإن الميل المحذور متوقع فيه لتحقيق المحل والخطر . هذا إن قدر (تعولوا) مضارع عال ، بمعنى جار ومال عن الحق . وهو اختيار أكثر المفسرين . ومن الوجوه المحتملة فيه كونه مضارع عال بمعنى كثر عياله . قال فى القاموس : وعال فلان عولاً وعيالة : كثر عياله ، كأعول وأعيل . انتهى . وعلى هذا الوجه اقتصر الإمام المهايى ، قدس سره ، فى تفسيره حيث قال : أى أقرب من أن لا تكثر عيالك . فيمكن معه القناعة بحيث لا يضطر إلى الجور فى أموال اليتامى . انتهى . وروى هذا التأويل عن زيد بن أسلم وسفيان ابن عيينة والشافعى . وأما قول ابن كثير فى هذا التفسير : ههنا نظر ، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراى - فجوابه (كما قال الرازى) من

وجهين : الأول - مذكروه القفال رضى الله عنه . وهو أن الجوارى إذا كثرن فله أن يكلفهن الكسب . وإذا اكتسبن أنفقن على أنفسهن وعلى مولاتهن أيضاً . وحينئذ تقل العيال . أما إذا كانت المرأة حرة ، لم يكن الأمر كذلك . فظهر الفرق . الثانى - أن المرأة إذا كانت مملوكة ، فإذا عجز المولى عن الإنفاق عليها باعها وتخلص منها . أما إذا كانت حرة فلا بد له من الإنفاق عليها . والعرف يدل على أن الزوج ما دام يمسك الزوجة فإنها لا تطالبه بالمهر . فإذا حاول طلاقها طالبت به بالمهر فيقع الزوج في المحنة . انتهى .

تنبيهات

الأول - قال بعض المفسرين : دلت الآية على أنه يجب بالنكاح حقوق . وتدل على أن من خشى الوقوع فيما لا يجوز ، قبح منه ما دعا إلى ذلك القبيح . فلا يجوز لمن عرف أنه يخون مال اليتيم إذا تزوج أكثر من واحدة ، أن يتزوج أكثر . وكذا إذا عرف أنه يخون الودعة ولا يحفظها ، فإنه لا يجوز له قبول الودعة . وتدل على أن العدل واجب بين الزوجات . وأن من عرف أنه لا يعدل فإنه لا تحل له الزيادة على واحدة . وتدل على أن زواجه الصغيرة من غير أبيها وجدها جائز . وللفقهاء مذاهب في ذلك معروفة .

الثانى - فى سرّ ما تشير إليه الآية من إصلاح النسل . قال بعض علماء الاجتماع من فلاسفة المسلمين فى مقالة عنوانها (الإسلام وإصلاح النسل) ما مثاله : ما زال البشر يسعى منذ ألوف من السنين وراء إصلاح ما يقتنيه من خيل وبقر وغنم ليكثر انتفاعه به . فيختار لإناث هذه الحيوانات أحفلاً كريّة ، هى على ما يرومه من الصفات ، ليحصل منها على نسل أنفع له من أمهاته . وقد زادت رغبة الناس بهذا العصر فى إصلاح النوع النافع من الحيوان . فضرّبوه ورقوه باختيار الأفحل المناسبة ، حتى حصلوا على صنف من الخيل الجياد تسابق الرياح فتجرى (١٦) متراً فى الثانية من الزمن . وعلى صنف من البقر تحلب فى اليوم الواحد خمسين أقة . وعلى صنف من المعزى والغنم شعره أو صوفه مثل الحرير نعومةً . ولم يقصر

إصلاحهم على الحيوان ، بل تجاوز إلى النبات . فحصلوا بفضلهم على أشجار كثيرة الثمر لذيدته . وانتفعوا انتفاعاً كبيراً ، ما تيسر لأسلافهم . نعم إن البشر افكروا في إصلاح الحيوان والصابم والنبات ، وعلما ما فيه من الفوائد ، فسعوا إليه السعى الذى يرضاه العلم ، وجنوا ثمار ذلك السعى . ولكنهم ما افكروا في إصلاح ما هو أهم من كل ذلك : فى إصلاح الحيوان الذكى ، والشرير أكثر من الصالح ، والجبان أكثر من الشجاع ، والكاذب أكثر من الصادق ، والكسلان أكثر من أخى الجد النشيط . ولو أنهم أصلحوا نسلهم لما وجد فى الناس من يولد مريضاً ويعيش مريضاً . فلا ينتفع بوجوده المجتمع ، وهو كثير . قام من بين هذا الجيل فيلسوفان : ألماني وإنكليزي . وأخذا يعلمان بكتابتهما المبنية على البراهين وجوب إصلاح الإنسان لنسل الإنسان . ويعددان فوائد هذا الإصلاح لنوعه . ويبينان للملأ أن الرقى المطلوب لا يتم إلا به . وطفقا يلومان الناس على اعتنائهم بإصلاح البواشى وإهمالهم إصلاح أنفسهم . الأمر الذى هو أهم من ذلك كثيراً . وذكرنا لذلك طرقات : (منها) منع أصحاب العاهات والأمراض المزمنة وأولى الجرائم الكبيرة من الزواج لينقطع نسلهم الذى يجرى غالباً على شاكلتهم . (ومنها) إباحة تعدد الزوجات للناغبين من الرجال ليكثر نسلهم . وقالوا : إذا جرى المجتمع على هذا الانتخاب الصناعى قروناً عديدة كان نسل الإنسان الأخير ، بحكم ناموس الوراثة ، سالماً من الأمراض . حسن الطوية . ليس فيه ميل إلى الشر . قوياً . ذكى الفؤاد . نابغاً فى العلوم التى يتعلمها . كأنه نوع أرقى من الإنسان الحاضر . وكانت أهم طريقة أبدىها للارتقاء المنتظر للبشر فى المستقبل ، هى طريقة تعدد الزوجات فى الحاضر للناغبين من الناس . فإن منع أصحاب الأمراض المزمنة والجناة من الزواج إنما يفيد فى تقوية النسل وجعله ميالاً بالفطرة إلى الخير ليس إلا . لا فى جملة أذكى من آباءه وأسمى مدارك . وتعدد الزوجات للناغبين من المسلمين ، قد جاء به الإسلام قبل هذين الفيلسوفين بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة . فقد أباح لهم تعددهن إلى أربع . ليكثر نسلهم ،

فيكثر عدد النابغين، الذين بهم وحدهم تم الأعمال الكبيرة في هذه الدنيا . فهو من مكتشفات هذا الدين الاجتماعية . وقد جعل رضاهن بذلك شرطاً له لئلا يكون فيه إجحاف بحقهن . والمقالة من النساء تفضل أن تكون زوجة لنابغة من الرجال - وإن كان ذا زوجات آخر - على أن تكون زوجة لرجل أحمق ، وإن اقتصر عليها . لأنها تعلم أن أولادها من الأول ينجبون أكثر منهم من الثاني . وأما غير النابغين منهم فإن الدين يمنعهم من نكاح أكثر من واحدة ، لئلا يكثر نسلهم . قال الله تعالى في كتابه المبين يخاطب المؤمنين « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » الخطاب في هذه الآية لعموم الأمة . فهي تأذن لكل أحد من المسلمين أن يتزوج بأكثر من واحدة من النساء إلى أربع . إذا آنس من نفسه القدرة على العدل بينهن . وإلا وجب عليه الاقتصاد على واحدة لئلا يجور عليهن . والقدرة على العدل بين أربع من النساء ، متوقف على عقل كبير وسياسة في الإدارة وحكمة بالغة في المعاملة ، لا تتأتى إلا لمن كان نابغة بين الرجال ، ذا مكانة من العقل ترفعه على أقرانه . والرجل النابغة ، إذا تزوج بأكثر من واحدة، كثر نسله فكثر النوابع . والشعب الذي يكثر نوابغه أقدر على الغلبة في تنازع البقاء من سائر الشعوب . كما يدلنا عليه التاريخ . ثم خاطب الله ، في مكان آخر ، الخائفين أن لا يعدلوا بين النساء ؛ وهم غير النوابع من المسلمين، بقوله : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فأمرهم في هذه الآية ، التي هي في المعنى تنمة للأولى ، أن لا يقتربوا بأكثر من واحدة لأنهم في درجة من العقل هي دون درجة النابغين ، لن يستطيعوا معها إتيان العدل بين النساء ، المتوقف على عقل كبير يسهل لصاحبه أن يرضيهن جماعاً . كما يأتيه النابغون والدهاة من الناس . وحرّم على هؤلاء ، الذين لم يحوزوا القدرة على العدل ، الزواج بأكثر من واحدة . لئلا يقع الظلم من الرجال على النساء . وهو كثير الصدور من الأوساط ومن كان دونهم في سلم الارتقاء . ولئلا يكثر نسل غير النابغين . وهو الأهم . فتبقى الأمة في مكانها من الانحطاط .

وقد تقدم أن الخطاب في قوله تعالى « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » في الآية الأولى لعموم الأمة . غير أن الشرط بالعدل جعله خاصاً بالعادلين منهم . وهم النابغون الذين يقتدرون على إثبات العدل بين النساء لوفور عقلمهم . والغاية من أمر هذا الصنف من المسلمين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إلى أربع ، هو تكثير نسلهم ليستفيد من كثرة أمثالهم المجتمع ، كما أسلفنا . ولكن النابغة لا يأتي نسله في الغالب نوابغ ، بمجرد تعدد الزوجات . فإن الزوجة المتوسطة أو المنحطة يكون أولادها في الغالب أوساطاً أو منحطين . وإن كان أبوهم راقياً . فلا تحصل الفائدة المطلوبة من تعدد الزوجات وهي إصلاح النسل . بل يجب للحصول على هذا المطلب الأسنى أن يقترن النابغون بالنابغات . ليكون أولادهم مثلهم نبوغاً أو أنبغ منهم . بحكم سنة الوراثة . وذلك إنما يتم إذا أحسن النابغون اختيار الأزواج . فنكحوا ما طاب لهم . والنابغة لا يطيب له أن يقترن إلا بمن جمعت نبوغاً مثل نبوغه ، إلى حسن رائع . فإن معاشرة الحفماء ليس مما يطيب للمعاقل الراق . وإن الخير يطلب عند حسان الوجوه . ولذلك قال تعالى « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » ولم يقل وانكحوا من النساء . وفي قوله تعالى « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » إشارة إلى مراتب نبوغ الرجل ، الثلاث . فكأنه أراد أن لا يتجاوز الذي قلّ نبوغه ، الاقتران باثنتين . وأن لا يتجاوز ، الذي نبوغه متوسط ، الاقتران بثلاث . وأن يحل ، للذي نبوغه أعلى من الأولين ، الاقتران بأربع .

وأما الخائفون أن لا يعدلوا فيجب أن لا يتجاوزوا الاقتران بواحدة . لأنهم أناس لن يستطيعوا ، مع كل حرصهم ، أن يعدلوا بين النساء . لقصور عقلمهم في سياسة المنزل وعدم نبوغهم . وهناك إنسان نبوغه أكبر من كل نبوغ . هو محمد ﷺ . الذي اختاره الله لوفور حكمته رسولاً منه إلى البشر . قد أحل له أن يقترن بأكثر من أربع لقدرته على العدل

بينهن .

وأظنك ، بعد قراءة ما أوردت ، تعترف ، إن كنت من النصفين ، أن الإسلام جاء ،

قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بسنة الزواج، عليها وحدها يتوقف إصلاح نسل البشر، الذى أخذ في هذا القرن أفراد من فلاسفة الغرب يحضون عليه. تلك السنة هي تعدد الزوجات بعد أن كان رأى العام في الغرب يعيبه عليها. هذا هو الإسلام يقرر أكبر قاعدة للترقى. وهو إباحة تعدد الزوجات، اللاتي يطبن لوفور جماهن وعقلهن، لأفراد نابغين من المسلمين. لا يخافون لوفور عقلهم أن لا يعدلوا بينهم. ولكن المسلمين لم يأتمروا بأمر الله. فأباحوا هذا التعدد لكل أحد من المسلمين. للخائفين أن لا يعدلوا. ولغير الخائفين. ففسد النسل. والذى أعان على فساد هو كون القدرة عليه أصبحت، بحكم الجهل، منحصرة في المال الذى يجمعه الغاصب والسارق والكاسب. فكثر نسل الظالمين وقل نسل العادلين من أهل العقل الراجح. انتهى كلامه. وهو استنباط بديع.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا)

«وَأَتُوا» أى أعطوا «النساء» أى اللاتي أمر بنكاحهن «صَدُقَاتِهِنَّ» أى مهورهن (جمع صدقة كَسَمَرَةٍ) وهى المهر «نِحْلَةً» أى عطاء غير مسترد بحيلة تلجهن إلى الرد. والنحلة (بكسر النون وضمها، على ما رواه ابن دريد) اسم مصدر لـ (نحل) . والمصدر النحل (بالضم) وهو العطاء بلا عوض. والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة، مع كونها واجبة على الأزواج، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر.

فأدتان :

الأولى - هذا الخطاب إما للأزواج، كما روى عن علقمة والنخعي وقتادة، واختاره الزجاج. فإن ما قبله خطاب للنكحين وهم الأزواج. وإما لأولياء النساء. وذلك لأن العرب

كانت في الجاهلية لا تعطى النساء من مهرهن شيئاً . ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت : هنيئاً لك الناجفة . ومعناه إنك تأخذ مهرها إبلاً فتضمها إلى إبلك فتفجع مالك أى تعظمه . وقال ابن الأعرابي : الناجفة ما يأخذها الرجل من الخوان إذا زوج ابنته . فنهى الله تعالى عن ذلك وأمر بدفع الحق إلى أهله . وهذا قول الكلبي وأبي صالح . واختيار الفراء وابن قتيبة .

الثانية - قال القفال رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون المراد من الإتياء المناولة . ويحتمل أن يكون المراد الالتزام . قال تعالى : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ^(١) . والمعنى حتى يضمونها ويلتزموها . فعلى هذا الوجه الأول ، كان المراد أنهم أسروا بدفع المهور التي قد سموها لهن . وعلى التقدير الثاني كان المراد أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلزم . سواء سمي ذلك أولم يسمى . إلا ما خص به الرسول صلى الله عليه وسلم في الموهوبة . ثم قال رحمه الله : ويجوز أن يكون الكلام جامعاً للوجهين معاً . والله أعلم .

« فَإِنْ طِينَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » الضمير للصدقات . وتذكيره لإجرائه مجرى ذلك . أى فإن أحللت لكم من المهر شيئاً بطيبة النفس ، جلباً لمودتكم ، لالحياء عرض لهن منكم أو من غيركم . ولا لاضطراهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم . « فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » أى فخذوه وتصرفوا فيه تملكا . وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية . وهنيئاً مريئاً : صفتان من (هنيئاً الطعام ومرئاً) إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه . وقيل : الهنيء ما أتاك بلا مشقة ولا تبعة . والمرىء حميد المغبة . وهما عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة . لأنهن كالرجال في التصرفات والتبرعات .

(١) [٩/ التوبة / ٢٩] ونصها : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : للآية ثمرات: منها أنه لا بد في النكاح من صداق . ومنها أنه حق واجب للمرأة كسائر الديون . ومنها أن لها أن تتصرف فيه بما شاءت . ولم تفصل الآية بين أن تقبضه أم لا . ولذا قال بعض الفقهاء : لها يبيع مهرها قبل قبضه . ولبعضهم : لا تتبعه حتى تقبضه ، كالملك بالشراء . ومنها أنه يسقط عن الزوج بإسقاطها مع طيب نفسها . وقد رأى شريح إقالتها إذا رجعت ، واحتج بالآية . روى الشعبي أن امرأة جاءت مع زوجها شريحاً في عطية أعطتها إياه . وهي تطلب الرجوع . فقال شريح : رد عليها . فقال الرجل أليس قد قال الله تعالى : فَإِنْ طِئْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ ؟ فقال : لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه . وروى عنه أيضاً أقيلها فيما وهبت ولا أقيله . لأنهن يُخدعن . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته : أن النساء يعطين رغبة ورهبة . فأيا امرأة أعطته ثم أرادت أن ترجع فذلك لها . نقله الرازى .

أقول: ما رآه شريح وروى عن عمر ، هو الفقه الصحيح والاستنباط البديع . إذ الآية دلت على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط . حيث بنى الشرط على طيب النفس . ولم يقل : فإن وهبن لكم ، إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة . ورجوعها يظهر عدم طيب نفسها . وذلك بين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » اعلم أن في الآية وجوهاً يحتملها النظم الكريم .

الأول : أن يراد بالسفهاء اليتامى . كما روى عن سعيد بن جبير . والخِطَابُ حينئذٍ للأولياء .
 نهوا أن يؤتوا اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها لقلة عقولهم . لأن السفه هو الخفيف الحلم .
 وإنما أضيفت للأولياء ، وهى لليتامى ، تزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها
 بالأولياء . فكان أموالهم عين أموالهم . لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسى والنسبى .
 مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها . كما فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » ^(١) . أى لا
 يقتل بعضكم بعضاً . حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم ، مبالغة فى زجرهم عن قتلهم . فكان
 قتلهم قتل أنفسهم . وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها منافعاً لمعاش أصحابها بجعلها منافعاً
 لمعاش الأولياء ، بقوله تعالى : الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا . أى جعلها الله شيئاً تقومون
 وتنتعشون . فلو ضيعتموها لضعتم . وقوله تعالى « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » أى
 اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم . بأن تتجروا وترجوا . حتى تكون نفقاتهم من الأرباح
 لا من صلب المال . وقوله سبحانه « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » أى كلاماً ليناً طيب به
 نفوسهم . ومنه أن يعدهم عدة جميلة ، بأن يقول وليهم : إذا صلحتم ورشدتم ، سلمنا إليكم أموالكم .
 (الوجه الثانى) أن يراد بالسفهاء النساء والصبيان . روى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود
 وغيرهما . فالخِطَابُ عام والنهى لكل أحد أن يعتمد إلى ما خوله الله تعالى من المال فيعطيه
 امرأته وأولاده . ثم ينظر إلى أيديهم . وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقلهم واستهجاناً لجعلهم
 قواماً على أنفسهم . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول : لا تعتمد إلى مالك وما خولاك
 الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما فى أيديهم . ولكن أمسك مالك
 وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . (الوجه الثالث) أن

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ
 بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ،
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

يراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفي بحفظ المال . فيدخل فيه النساء والصبيان والأيتام وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة . قال الرازي : وهذا القول أولى . لأن التخصيص بغير دليل لا يجوز . قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية الحجر على السفهية . وأنه لا يمكن من ماله . وأنه ينفق عليه منه ويكسى ، ولا ينفق في التبرعات . وأنه يقال له معروف . ك(إن رشتد دفعنا إليك مالك . وإنما يحتاط لنفكك) .

واستدل بعموم الآية من قال بالحجر على السفهية البالغ . سواء طرأ عليه أم كان من حين البلوغ . ومن قال بالحجر على من يُخدع في البيوع . ومن قال بأن من يتصدق على محجور ، وشرط أن يترك في يده ، لا يسمع منه في ذلك .

لطيفة :

في قوله تعالى « الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » حث على حفظ الأموال وعدم تضييعها . قال الزمخشري : كان السلف يقولون : المال سلاح المؤمن . ولأن أترك مالا يحاسبني الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس . وعن سفيان ، وكانت له بضاعة يقلبها : لولاها لتمدد بي بنو العباس . وعن غيره (وقيل له : إنها تدنيك من الدنيا) : لأن أدتنى من الدنيا لقد صاتني عنها . وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا . فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . وربما رأوا رجلاً في جنازة ، فقالوا له : اذهب إلى دكانك . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَابْتَئُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ » أى اختبروا عقولهم ومعرفتهم بالتصرف « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » أى بآن يحتلموا أو يبلغوا خمس عشرة سنة. لما فى الصحيحين^(١) عن ابن عمر قال : إن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى . قال نافع : قدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة خدمته هذا الحديث فقال : إن هذا لحدٌّ بين الصغير والكبير . وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة . وكذا نبات الشعر الخشن حول العورة ، لما رواه الإمام أحمد^(٢) وأهل السنن عن عطية القرظى قال : عُرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل . ومن لم ينبت خلّى سبيله . فكنت فيمن لم ينبت . نخلّى سبيلى . قال الترمذى : حسن صحيح . « فَإِنْ ءَانَسْتُمْ » أى شاهدتم وتبينتم « مِنْهُمْ رُشْدًا » أى صلاحاً فى دينهم وحفظاً لأموالهم . قاله سعيد بن جبیر ، وروى عن ابن عباس والحسن وغير واحد من الأئمة « فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أى من غير تأخير . وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالمعجز أو بالفسق ، لا يسلم إليه ماله لأنها مفسدة للمال « وَلَا تَأْكُلُوهَا » أيها الأولياء « إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » أى مسرفين ومبادرين كبرهم . أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم . تفرطون فى إنفاقها وتقولون : ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا « وَمَنْ كَانَ » من الأولياء « غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ » أى يتنزه عن أكل مال اليتيم . فإنه عليه كاليتة والدم . وليقتنع بما آتاه الله تعالى من الرزق « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا » يمنعه اشتغاله بمال اليتيم عن الكسب . وإهماله يفضى إلى تلفه عليه « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته . كما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ١٨ - باب بلوغ الصبيان وشهادتهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

حيث قالت : فليأكل بالمعروف بقدر قيامه عليه . ورواه البخاري^(١) أيضاً . قال ابن كثير : قال الفقهاء : له أن يأكل أقل الأمرين أجره مثله . وقدر حاجته . وهل يرد إذا أيسر ؟ وجهان : أحدهما لا يرد لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً . وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي . لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . وروى الإمام أحمد^(٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس لي مال ولي يتيم . فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالاً . ومن غير أن تقي مالك ، (أو قال تفدي مالك بماله) ورواه ابن أبي حاتم ولفظه : كل بالمعروف غير مسرف . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه . وروى ابن حبان في (صحيحه) وابن مردويه في (تفسيره) عن جابر : أن رجلاً قال : يا رسول الله ! مما أضرب يتيمي ؟ قال : مما كنت ضارباً منه ولدك . غير وافي مالك بماله . ولا متأثل منه مالاً . وروى عبد الرزاق عن الثوري عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال : جاء أعرجي إلى ابن عباس فقال : إن في حجرى أيتاماً . وإن لهم إبلاً . ولي إبل وأنا أمنح من إبل فقراء . فإذا يحل لي من ألبانها ؟ فقال : إن كنت تبغى ضالتها ، وتهنأ جرباها ، وتلوط حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك في الحلب . ورواه مالك في موطأه^(٣) . وبهذا القول ، وهو عدم أداء البدل ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٢ - باب : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، حديث ١١٠٩ . ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها ، في قوله تعالى : وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ؛ إنها نزلت في والي مال اليتيم إذا كان فقيراً أنه يأكل منه ، مكان قيامه عليه ، بمعروف .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢١٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٤٩ - كتاب صفة النبي ﷺ ، حديث ٣٣ (طبعة تنا) =

يقول عطاء بن أبي رباح وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطية العوفي والحسن البصري .
والوجه الثاني - يردّ . لأن مال اليتيم على الحظر . وإنما أبيع للحاجة . فيردّ بدله .
كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . وقد روى ابن أبي الدنيا عن حارثة بن مضرب قال :
قال عمر رضي الله عنه : إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والى اليتيم . إن استغنيت استعفت .
وإن احتجت استقرضت . فإذا أيسرت قضيت . وروى سعيد بن منصور في (سننه) : حدثنا
أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن البراء قال قال لي عمر رضي الله عنه : إنما أنزلت نفسي من
مال الله بمنزلة والى اليتيم إن احتجت أخذت منه . فإذا أيسرت رددته . وإن استغنيت
استعفت . قال ابن كثير : إسناد صحيح .

وروى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس ، في قوله « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » يعني القرض . قال وروى
عن عبيدة وأبي العالية وأبي وائل ، وسعيد بن جبير (في إحدى الروايات) ومجاهد والضحاك
والشعبي والسديّ نحو ذلك . قال الفخر الرازي : وبعض أهل العلم خص هذا الإقراض
بأصول الأموال من الذهب والفضة وغيرها . وأما تناول من ألبان المواشي واستخدام العبيد
وركوب الدواب فباح له إذا كان غير مضر بالمال . وهذا قول أبي العالية وغيره . واحتجوا
بأن الله تعالى قال : فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، فحكم في الأموال بدفعها إليهم . انتهى .
أقول : الكل محتمل . إذ لا نص من الأصول على واحد منها . ولا يخفى الورع .
« فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أي بعد البلوغ والرشد « فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ » أي عند

= وهذا نصه : عن القاسم بن محمد قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عباس فقال له : إن لي
يتيماً وله إبل ، أفأشرب من لبن إبله ؟ فقال ابن عباس : إن كنت تبني ضالة إبله ، وتنهأ
جرّ باها ، وتلطّ حوضها ، وتسقيها يوم وريدها ، فأشرب غير مضرّ بنسل ، ولا ناهك
في الحلب .

الدفع بأنهم قبضوها. فإنه أنقى للثمة وأبعد من الخصومة . قال السيوطي : فيه الأمر بالإشهاد ندياً . وقيل : وجوباً . ويستفاد منه أن القول في الدفع قول الصبي ، لا الولي . فلا يقبل قوله إلا بينة . « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا » أى كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض . أو محاسباً . فلا تخالفوا ما أمركم به . ولا يخفى موقع هذا التذييل هنا . فإن الوصي يحاسب على ما في يده . وفيه وعيد لوليّ اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره . لئلا ينوى أو يعمل في ماله ما لا يحل ، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلى أن يصل إليه ماله . وقد ثبت في صحيح مسلم ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم .

ثم ذكر تعالى أحكام الموارث بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)

« لِلرِّجَالِ » أى الأولاد والأقرباء « نَصِيبٌ » أى حظ « مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » أى المتوفون « وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ » أى المال « أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا » أى مقطوعاً واجباً لهم . وإيراد حكم النساء على الاستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكام الرجال ، بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن ، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين ، والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية . فإنهم كانوا لا يورثون النساء والأطفال . ويقولون ، لا يرث إلا من طاعن بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الفنيمة . وقد استدل بالآية على توريث ذوى الأرحام لأنهم من الأقربين . وهو استدلال وجيه . ولا حجة لمن حاول دفعه .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ » أى قسمة التركة « أُولُو الْقُرْبَىٰ » ذوو القرابة ممن لا يرث . قدمهم لأن إعطاءهم صدقة وصلة « وَالْيَتَامَىٰ » الضعفاء بفقد الآباء « وَالْمَسَاكِينُ » الضعفاء بفقد ما يكفيهم من المال « فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ » أى أعطوهم من الميراث شيئاً « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » بتلطيف القول لهم والدعاء لهم بمثل : بارك الله عليكم . قال ابن كثير فى هذه الآية: المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين ، قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تشوق إلى شىء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ ، وهذا يأخذ ، وهم يأسون لا يُعْطَوْنَ شيئاً . فأمر الله تعالى ، وهو الرؤوف الرحيم أن يُرضخ لهم شىء من الوسط ، يكون براً بهم وصدقة عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم كما قال الله تعالى : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ^(١) . وذم الذين ينقلون المال خفية ، خشية أن يطلع عليهم المحاييج وذوو الفاقة ، كما أخبره عن أصحاب الجنة : إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ^(٢) . فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * | أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٦٨ / القلم / ١٧] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .

مُسْكِينٌ^(١) . دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا^(٢) . فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أغر ما يملكه . ولهذا جاء في الحديث: ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته . أى منعها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية . انتهى . وقد روى البخارى^(٣) عن ابن عباس ، في الآية قال : هى محكمة وليست بمنسوخة . وفى لفظ عنه : هى قأمة يعمل بها . وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين، فى هذه الآية : أنها واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم . وروى عبد الرزاق فى (مصنفه) أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن ، وعائشة حية . فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه . وتلا : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ الْآيَةَ . وأخرج سميد بن منصور عن يحيى بن يعمر قال : ثلاث آيات مدينيات محكمات ضيمن كثير من الناس : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ، وآية الاستئذان : وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ، وقوله : إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، الآية . وقد ذكر ههنا كثير من المفسرين آثاراً عن بعض السلف بأن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وهى من الضعف بمكان . ولقد أبعد القائل بالنسخ عن فهم سر الآية فيما نذبت إليه من هذه المكرمة الجليلة . وهى إسعاف من ذكر من المال الموروث، والنفس الأبية تنفر من أن تأخذ المال الجزل، وذو الرحم حاضر محروم، ولا يسعف ولا يساعد . فالآية بينة بنفسها، واضحة فى معناها وضوح الشمس فى الظهيرة ، لا تنسخ أو تقوم الساعة .

(١) [٦٨ / القلم / ٢٣ و ٢٤] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٠] ونصها : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٣ - باب : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ - الآية ، حديث ١٣٢٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » في الآية وجوه : الأول - أنها أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم . الثاني : أنها أمر لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم . فلا يتركوه أن يضرّ بهم بصرف المال عنهم : الثالث : أنها أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين ، متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم . هل يجوزون حرمانهم ؟ الرابع : أنها أمر للموصيين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية . كما ثبت في الصحيحين ^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال : يا رسول الله ! إني ذومال ولا يرثني إلا ابنة . أفأتصدق بثلاثي مالي ؟ قال : لا . قال : فالشطر ؟

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣٧ - باب رثى النبي ﷺ سعد

ابن خولة ، حديث ٥٠ ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعودني في عام حجة الوداع من وجع اشتد بي . فقلت : إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال . ولا يرثني إلا ابنة . أفأتصدق بثلاثي مالي ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثالث . والثالث كبير (أو كثير) إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها . حتى ما تجعل في امرأتك » .

قال : لا . قال : فالثالث . قال : الثالث . والثالث كثير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .

وفي الصحيح^(١) عن ابن عباس قال : لو غرض الناس إلى الربع ؟ لأن رسول الله ﷺ قال الثالث : والثالث كثير (أو كبير) .

والوجه الأول حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس . قال ابن كثير : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً .

ونقل الرازي عن القاضي : إن هذا الوجه أليق بما تقدم وتأخر من الآيات الواردة في باب الأيتام . فجعل تعالى آخرهما دعاهم إلى حفظ مال اليتيم أن ينهبهم على حال أنفسهم وذريتهم إذا تصوروها . ولا شك أنه من أقوى الدواعي والبواعث في هذا المقصود .

قال الزمخشري : والقول السديد من الأوصياء أن لا يؤذوا اليتامى . ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب . ويدعوهم بـ (يا بني) ويا ولدي . ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له ، إذا أراد الوصية : لا تسرف في وصيتك فتجحف بأولادك . مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : إنك أن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويحمله للناظرين .

لطيفة :

لا بد من حمل قوله تعالى (تركوا) على المشاركة . ليصح وقوع (خافوا) خبراً له . ضرورة أنه لا خوف بعد حقيقة الموت وترك الورثة . ونظيره : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ

(١) أخرجه البخاري في : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٣ - باب الوصية بالثالث ،

بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ^(١). أى شارفنى بلوغ الأجل . ولهذا المجاز ، فى التعبير عن المشاركة على الترك ، بالترك ، سرّاً بديع . وهو التخويف بالحالة التى لا يبق معها مطمع فى الحياة ، ولا فى الذبّ عن الذرية الضعاف . وهى الحالة التى ، وإن كانت من الدنيا ، إلا أنها أقربها من الآخرة ، ولصوقها بالمفارقة ، صارت من حيزها ، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك . كذا فى الانتصاف .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : إنه يجب أن يحب الإنسان لأخيه ما يجب لنفسه . ويجب لذرية غيره من المؤمنين ما يجب لذريته . وأن على ولىّ اليتيم أن لا يؤذى اليتيم . بل يكلمه كما يكلم أولاده بالأدب الحسن والترحيب . ويدعو اليتيم : يا بنى ، يا ولدى . وقد جاء فى الرقة على الأيتام آثار كثيرة . اهـ .

وفى الآية إشارة إلى إرشاد الآباء ، الذين يخشون ترك ذرية ضعاف ، بالتقوى فى سائر شؤونهم حتى تحفظ أبنائهم وتغاث بالعناية منه تعالى . ويكون فى إسمارها تهديد بضيايع أولادهم إن فقدوا تقوى الله تعالى . وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع . وأن الرجال الصالحين يحفظون فى ذريتهم الضعاف . كما فى آية : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا^(٢) ، إلى آخرها . فإن الغلامين حفظا ، بركة صلاح أبيهما ، فى أنفسهما ومالهما .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظَمِكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .
(٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

وَيَصِلُونَ سَعِيرًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا » أى على وجه الظلم من الورثة ، أو أولياء السوء وقضاته ، بخلاف أكل الفقير الناظر في أموالهم بقدر أجرته ، كما تقدم « إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » أى ما يجرّ إلى النار ويؤدى إليها « وَيَصِلُونَ » أى في القيامة « سَعِيرًا » أى نارا مستعرة . روى ابن حبان في (صحيحه) وابن مردويه وابن أبي حاتم عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ قال : يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا . قيل : يا رسول الله ! من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ، الآية .

لطيفة :

قال الزخشرى : في بطونهم ، أى ملء بطونهم . يقال : أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه . قال الشاعر (١) :

كلوا في بعض بطنكمو تمغوا فإن زمانكم زمن خيص

قال الناصر : ومثله : قد بدت البغضاء من أفواههم أى شرقوا بها وقالوها بلاء أفواههم . ويكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير . ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتم في ماله ، خص الأكل . لأنه أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها . والله أعلم .

= فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

(١) قال في الأساس : ومن المجاز : زمن خيص ، أى ذو مجاعة .. وأنشد البيت .

تنبيه :

روى أبو داود^(١) والنسائي والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل له الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد . فاشتد عليهم ذلك . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ^(٢) . الآية . فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . وقد مضى ذلك في سورة البقرة .

قال الرازي رحمه الله : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك . وهو بعيد . لأن هذه الآية في المنع من الظلم . وهذا لا يصير منسوخاً . بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى ، إن كان على سبيل الظلم ، فهو من أعظم أبواب الإثم . كما في هذه الآية . وإن كان على سبيل التربية والإحسان ، فهو من أعظم أبواب البر ، كما في قوله : وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ .

وقال رحمه الله قبل ذلك : ما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته تعالى وكثرة عفوه وفضله . لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى . وقوله تعالى :

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٧ - باب مخالطة اليتيم في الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ، وَلَا لِوَلَدِهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ، أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا، فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ» شروع في تفصيل أحكام الموارث المجملة في قوله تعالى : لِلرِّجَالِ انْصِيبُ الخ . قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض . وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . انتهى . والمعنى : يأمركم الله ويمهد إليكم في شأن ميراث أولادكم بعد موتكم «لِلَّذِ كَرِ» أي منهم «مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ» أي نصيبهما اجتماعاً وانفراداً . أما الأول فانه يعدّ كل ذكر بأثنين . في مثل ابن مع بنتين . وابن ابن مع بنتي ابن . وهكذا في السافلين . فيضعف نصيبه ويأخذ سهمين . كما أن لها سهمين . وأما الثاني فإن له الكل وهو ضعف نصيب البنت الواحدة . لأنه جعل لها في حال انفرداها النصف . فافتضى ذلك أن للذكر ، عند انفرداه ، مثلي نصيبها عندا انفرداها ، وذلك الكامل . فالذكر هنا ميراث الذكر مطلقاً . مجتمعاً مع الإناث ومنفرداً . كما حققه صاحب (الانتصاف) .

تنبيه :

قال السيوطي : استدلل بالآية من قال بدخول أولاد الابن في لفظ (الأولاد) للإجماع على إرثهم ، دون أولاد البنت .

لطائف :

الأولى :

وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاونة التجارة والتكسب وتحمل المشاق . فهو إلى المال أحوج . ولأنه لو كمل نصيبها ، مع أنها قليلة العقل ، كثيرة الشهوة لأتلفته في الشهوات إسرافاً . ولأنها قد تنفق على نفسها فقط ، وهو على نفسه وزوجته .

الثانية :

لم يقل : للذكر ضعف نصيب الأنثى ، لأن الضعف يصدق على المثليين فصاعداً . فلا يكون فصاً . ولم يقل : للأنثيين مثل حظ الذكر ، ولا للأنثى نصف حظ الذكر ، تقديماً للذكر بإظهار مزيته على الأنثى ، ولم يقل : للذكر مثلاً نصيب الأنثى ، لأن المثل في المقدار لا يتعدد إلا بتعدد الأشخاص . ولم يعتبر ههنا .

الثالثة :

إيثار اسمي (الذكر والأنثى) على ما ذكر أولاً من الرجال والنساء ، للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين في الاستحقاق ، من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلاً . كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال ، كالنساء .

الرابعة :

استنبط بعضهم من هذه الآية أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها . حيث أوصى الوالدين بأولادهم . فلم أنه أرحم بهم منهم . كما جاء في الحديث الصحيح^(١) وقد رأى امرأة

(١) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن عمر بن الخطاب أنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي . فإذا امرأة من السبي ، تبتنغي ، إذا وجدت صبياً في السبي ، أخذته فألصقته بطنها وأرضعته . فقال لنا =

من السبي، فرق بينها وبين ولدها فجعلت تدور على ولدها . فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أَتُرَوْنَ هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ قالوا: لا . يا رسول الله . قال: فوالله ! لله أرحم بعباده من هذه بولدها . « فَإِنْ كُنَّ » أى الأولاد . والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى « نِسَاءً » يعنى بنات خلصاً ليس معهن ذكر « فَوْقَ اثْنَتَيْنِ » خبر ثان أو صفة لنساء . أى نساء زائدات على اثنتين « فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ » أى المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام .

تنبيه :

ظاهر النظم القرآنى أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً حيث لا ذكر معهن . ولم يسم للبنتين فريضة . وقد اختلف أهل العلم في فريضتهما . فذهب الجمهور إلى أن لهما ، إذا انفردتا عن البنين ، الثلثين . وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف . احتج الجمهور بالقياس على الأختين . فإن الله سبحانه قال في شأنهما : « فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ » فألحقوا البنتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين . كما ألحقوا الأخوات ، إذا زدن على اثنتين ، بالبنات ، في الاشتراك في الثلثين . وقيل : في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين . وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث ، كان للابنتين ، إذا انفردتا ، الثلثان . هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش والمبرّد . قال النحاس : وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط . لأن الاختلاف في البنتين إذا انفردتا عن البنين . وأيضاً للمخالف أن يقول : إذا ترك بنتين وابناً فللبنتين النصف . فهذا دليل على أن هذا فرضهما . ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنات الواحدة النصف إذا انفردت ، بقوله : « وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ » ، كان فرض البنتين ، إذا انفردتا ، فوق فرض الواحدة . وأوجب القياس على الأختين

= رسول الله ﷺ « أَتُرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا ، والله ! وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ « لله أرحم بعبده من هذه بولدها » .

الاقتصار للبنتين على الثلثين . وقيل إن (فوق) زائدة . والمعنى : إن كن نساء اثنتين . كقوله تعالى : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ^(١) ، أى الأعناق . ورد هذا النحاس وابن عطية . فقالا : هو خطأ . لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى . قال ابن عطية : ولأن قوله (فوق الأعناق) هو الفصيح وليست (فوق) زائدة بل هى محكمة المعنى . لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام فى المفصل دون الدماغ . كما قال دريد بن الصمة : اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم . فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال . انتهى . وأيضاً لو كان لفظ (فوق) زائداً كما قالوا ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، ولم يقل : فلهن ثلثا ما ترك . وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى^(٢) وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن حبان

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ونصها : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَمَڪُم فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٢٧ - كتاب الفرائض ، ٣ - باب ما جاء فى ميراث البنات . وهذا نصه .

أما أبو داود فأخرجه فى : ١٨ - كتاب الفرائض ، ٤ - باب ما جاء فى الصلب ، حديث ٢٨٩١ وهاكم نصه :

عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى جئنا امرأة من الأنصار فى الأسواق . فجاءت المرأة بابنتين فقالت : يا رسول الله ! هاتان بنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد . وقد استفاء عهدهما مالهما وميراثهما كله . فلم يدع لهما مالا إلا أخذه . فما ترى يا رسول الله ! فوالله ! لا تنكحان أبداً إلا ولهما مال . فقال رسول الله ﷺ « يقضى الله فى ذلك » قال ونزلت سورة النساء : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ .. الآية . فقال رسول الله ﷺ « ادعوا الى المرأة وصاحبها » فقال لعمرهما « أعطهما الثلثين . وأعط أمهما الثمن . وما بقى فلك » . (قال أبو داود) : أخطأ فيه . ها ابنتا سعد بن الربيع . وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة .

والحاکم والبيهقيّ في (سننه) عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابتيتها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! هاتان ابنتا سعد بن الربيع . قتل أبوهما معك يوم (أُحُد) شهيداً . وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . ولا تنكحان إلّا ولهما مال . فقال : يقضى الله في ذلك . فنزلت آية الميراث . فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك . أخرجوه من طرق ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال الترمذيّ : هذا حديث صحيح لانعرفه إلّا من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل . وقد رواه شريك أيضا عن عبد الله بن محمد بن عقيل من حديثه . كذا في (فتح البيان) « وَإِنْ كَانَتْ » أى المولودة « وَاحِدَةً » أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت « فَلَهَا النِّصْفُ » أى نصف ماترك . ولم يكمل لها لأنها ناقصة . ولذلك لم يُجعل لها الثلثان اللذان هما نصيب الابن معها . ثم ذكر ، بعد ميراث الأولاد ، ميراث الوالدين فقال « وَلِأَبَوَيْهِ » أى الميت . وهو كناية عن غير مذکور . وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه . والمراد بالأبوين الأب والأم . والتشنية على لفظ الأب للتغليب « لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ » من المال « إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ » للميت « وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » أى ثلث المال مما ترك . والباقي للأب . للذكر مثل حظ الأنثيين . لكن قرر لها الثلث تنزيلا لها منزلة البنت مع الابن ، لا منفردة ، خطأ لها عن درجتها ، لقيام البنت مقام الميت في الجملة . قاله الهامى « فَإِنْ كَانَ لَهُ » أى للميت « إِخْوَةٌ » من الأب والأم . أو من الأب أو من الأم ، ذكورا أو إناثا « فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ » يعنى لأم الميت سدس التركة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ » خبر مبتدأ محذوف . أى هذه الفروض المذكورة إنما تقسم للورثة من بعد إنفاذ وصية يوصى بها الميت إلى الثلث . ومن بعد قضاء دين على الميت . وقرئ في (السمع) : يوصى مبنيًا للمفعول وللفاعل .

قال الحافظ ابن كثير : أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية .
وروى أحمد والترمذي^(١) وابن ماجه وأصحاب التفسير من حديث ابن إسحق عن الحرث
ابن عبد الله الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنكم تقرأون هذه الآية : من
بعد وصية يوصي بها أو دين . وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية . وإن أعيان
بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات . الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه .

ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الحرث . وقد تكلم فيه بعض أهل العلم .
لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب . فالله أعلم .

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية أن الميراث إنما يقسم بعد قضاء الدين وتنفيذ
الوصايا . وفيها مشروعية الوصية . واستدل بتقديمها في الذكركر من قال بتقديمها على الدين
في التركة . وأجاب من آخرها بأنها قدمت لثلاثهاون بها . واستدل بعمومها من أجاز
الوصية بما قل أو أكثر ، ولو استغرق المال . ومن أجازها للوارث والكافر ، حريياً أو ذمياً .
واستدل بها من قال . إن الدين يمنع انتقال التركة إلى ملك الوارث . ومن قال إن دين الحج
والزكاة مقدم على الميراث ، لعموم قوله : أو دين . انتهى .

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه^(٢) بسند صحيح عن سعد بن الأطول إن أخاه مات
وترك ثلاثمائة درهم . وترك عيالاً . فأردت أن أنفقها على عياله . فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : إن أخاك محتبس بدينه فاقض عنه . فقال : يا رسول الله ! قد أديت عنه . إلا دينارين
ادعتهما امرأة وليس لها بينة . قال : فأعطها فإنها محقة .

(١) أخرجه الترمذي في : ٢٧ - كتاب الفرائض ، ٥ - باب ماجاء في ميراث الإخوة
من الأب والأم .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١٥ - كتاب الصدقات ، ٢٠ - باب أداء الدين عن الميت ،
حديث ٢٤٣٣ (طبعنا) .

لطيفة :

(فائدة) وصف الوصية بقوله : يوصى بها ، هو الترغيب في الوصية والندب إليها . وإيثار (أو) المفيدة للإباحة في قوله : أو دين ، على (الواو) للدلالة على تساويهما في الوجوب . وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين . وتقديم الوصية على الدين ، ذِكْرًا مع تأخيرها عنه حكمًا ، ما قدمنا من إظهار كمال العناية بتنفيذها ، لكونها مظنة التفريط في أدائها ، ولا طرأدها . بخلاف الدين - أفاده أبو السعود « ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا » أى لا تعلمون مَنْ أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم . والمعنى : فرض الله الفرائض ، على ما هو ، على حكمة . ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم . فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة . والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع . وأنتم لا تدرون تفاوتها . فتولى الله ذلك فضلًا منه . ولم يكلها إلى اجتهدكم لمجزكم عن معرفة المقادير . وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لأمر القسمة ، ورد لما كان في الجاهلية .

قال السمرقندى : ويقال : معنى الآية أن الله تعالى علمكم قسمة الموارث . وأنكم لا تدرون أيهم أقرب موتًا فيرث منه الآخر . انتهى . « فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ » نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف . أى فرض الله ذلك فرضًا . أو لقوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ . فإنه في معنى : يأمركم ويفرض عليكم « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا » أى بالمصالح والرتب « حَكِيمًا » أى في كل ما قضى وقدر . فيدخل فيه بيان أنصاء الذكور والأنثى ، دخولًا أوليًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ » ذكرنا أني، منكم أو من غيركم « فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ » على نحو ما فصل « فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ » من المال . والباقي لباقي الورثة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » أي من بعد استخراج وصيتهن وقضاء دينهن « وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ » ذكرنا أني، منهن أو من غيرهن « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ » على النحو الذي فصل « فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » السلام فيه كما تقدم . وفي تكرير ذكر الوصية والدين، من الاعتناء بشأتهما، ما لا يخفى .

لطيفة :

في الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء . لأنه تعالى حيث ذكر الرجال، في هذه الآية،

ذكرهم على سبيل المخاطبة . وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل الغيبة . وأيضاً خاطب

الله الرجال في هذه الآية سبع مرات . وذكر النساء فيها على سبيل الغيبة أقل من ذلك .

وهذا يدل على تفضيل الرجال على النساء ، كما فضلوها عليهن في النصيب . كذا يستفاد من

الرازى. «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ» أى تورث كذلك «وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا» أى الإخوة والأخوات من الأم «أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أى من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ» يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم . قال المجد فى (القاموس) : الكلالة : من لا ولد له ولا والد . أو ما لم يكن من النسب لحاً . أو من تكلل نسبه بنسبك . كابن العم وشبهه . أو هى الإخوة للأم . أو بنو العم الأبعد . أو ما خلا الوالد والولد . أو هى ، من العصبية . من ورث منه الإخوة للأم . فهذه سبعة أقوال محكية عن أئمة اللغة . وقال ابن برى^(١) : اعلم أن الكلالة فى الأصل هى مصدر (كل الميت يكل كلاً ، وكلالة) فهو كلٌ إذا لم يخلف ولداً ولا والداً يرثانه . هذا أصلها . قال : ثم قد تقع الكلالة على العين دون الحدث . فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت فى الأصل اسماً للحدث . على حد قولهم : هذا خلق الله . أى . مخلوق الله . قال : وجاز أن تكون اسماً للوارث على حد قولهم : رجل عدل أى عادل . وماء غور أى غائر . قال : والأول هو اختيار البصريين من أن الكلالة اسم للموروث . قال : وعليه جاء التفسير فى الآية ، أن الكلالة الذى لم يخلف ولداً ولا والداً . فإذا جعلتها للميت ، كان انتصابها فى الآية على وجهين : أحدهما - أن تكون خبر (كان) تقديره : وإن كان الموروث كلالة ، أى كلاً ليس له ولد ولا والد . والوجه الثانى - أن يكون انتصابها على الحال من الضمير فى (يورث) أى يورث وهو كلالة . وتكون (كان) هى التامة التى ليست مفترقة إلى خبر . قال : ولا يصح أن تكون الناقصة ، كما ذكره الحوفى ، لأن خبرها لا يكون إلا الكلالة . ولا فائدة فى قوله (يورث) . والتقدير : إن وقع أو حضر رجل يموت كلالة ، أى يورث وهو كلالة ، أى كل . وإن جعلتها للحدث دون العين ، جاز انتصابها على ثلاثة أوجه : أحدها - أن يكون انتصابها على المصدر ، على تقدير حذف مضاف ، تقديره : يورث وراثته كلالة . كما قال الفرزدق^(٢) : ورثتم قناة الملك لا عن كلالة . أى ورثتموها

(١) اللسان ، الصفحة ٥٩٣ من المجلد الحادى عشر (طبع بيروت) .

(٢) البيت :

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ الْمَلِكِ غَيْرَ كَلَالَةٍ عَنْ ابْنِ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ

وراثه قرب ، لا وراثه بعد . وقال عامر بن الطفيل :
وما سَوَّدَتْنِي عَمْرٌ عَنْ كِلَالَةٍ أَبَى اللَّهُ أَنْ أَسْمُو بِأَمٍّ وَلَا أَبٍ
ومنه قولهم : هو ابن عمِّ كلاله ، أى بعيد النسب . فإذا أرادوا القرب قالوا هو ابن عمِّ دنيّة .
والوجه الثانى - أن تكون الكلاله مصدرّاً واقعاً موقع الحال . على حد قولهم : جاء زيد
ركضاً ، أى راكضاً . وهو ابن عمى دنية ، أى دانياً . وابن عمى كلاله أى بعيداً فى النسب .
والوجه الثالث - أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف مضاف . تقديره : وإن كان الموروث
ذا كلاله . قال : فهذه خمسة أوجه فى نصب الكلاله . أحدها - أن تكون خبر (كان)
والثانى - إن تكون حالاً . الثالث - أن تكون مصدرّاً ، على تقدير حذف مضاف . الرابع -
أن تكون مصدرّاً فى موضع الحال . الخامس - أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف
مضاف . فهذا هو الوجه الذى عليه أهل البصرة والعلماء باللغة . أعنى أن الكلاله اسم للموروث
دون الوارث . قال : وقد أجاز قوم من أهل اللغة ، وهم أهل الكوفة ، أن تكون الكلاله
اسماً للوارث . واحتجوا فى ذلك بأشياء : منها قراءة الحسن : وإن كان رجل يورث كلاله .
(بكسر الراء) . فالكلاله ، على ظاهر هذه القراءة ، هى ورثة الميت . وهم الإخوة للأم .
واحتجوا أيضاً بقول جابر أنه قال : يارسول الله ! إنما يرثنى كلاله . فإذا ثبت حجة هذا الوجه ،
كان انتصاب كلاله أيضاً على مثل ما انتصبت فى الوجه الخامس من الوجه الأول . وهو أن
تكون خبر (كان) ويقدر حذف مضاف ، ليكون الثانى هو الأول ، تقديره : وإن كان رجل
يورث ذا كلاله ، كقول ذا قرابة ، ليس فيهم ولد ولا والد . قال : وكذلك إذا جملة حالاً
من الضمير فى (يورث) تقديره : ذا كلاله . قال : وذهب ابن جنى ، فى قراءة من قرأ

= قائله الفرزدق من قصيدة مطلعها :

تَحَنُّنٌ بِزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي حَنِينٌ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوَّ رَائِمِ

الديوان صفحة ٨٥٢

يورث كلاله ويورث كلاله ، أن مفعولى (يورث ويورث) محذوفان أى يورث وارثه ماله . قال : فملى هذا يبق (كلاله) على حاله الأولى التى ذكرتها . فيكون نصبه على خبر (كان) أو على المصدر . وتكون (الكلاله) للموروث لا للوارث . قال : والظاهر أن الكلاله مصدر يقع على الوارث وعلى الموروث . والمصدر قد يقع للفاعل تارة وللمفعول أخرى . والله أعلم . وقال ابن الأثير : الأب والابن طرفان للرجل . فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه . فسمى ذهاب الطرفين كلاله .

وفى الأساس : ومن المجاز كلّ فلان كلاله ، إذا لم يكن ولداً ولا والدأ . أى كلّ عن بلوغ القرابة الماسة .

وقال الأزهرى : ذكر الله الكلاله فى سورة النساء فى موضعين : أحدهما - قوله : وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ . والموضع الثانى قوله تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، الآية^(١) . فجعل الكلاله هنا الأخت للأب والأم ، والإخوة للأب والأم . فجعل للأخت الواحدة نصف ما ترك الميت وللأختين الثلثين . وللإخوة والأخوات جميع المال بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . وجعل للأخ والأخت من الأم ، فى الآية الأولى ، الثلث . لكل واحد منهما السدس . فبين بسياق الآيتين أن الكلاله تشتمل على الإخوة للأم مرة ، ومرة على الإخوة والأخوات للأم والأب . ودل قول الشاعر . أن الأب ليس بكلاله ، وأن سائر الأولياء من العصبه بعد الولد كلاله ، وهو قوله :

فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلاله لا يفضب

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] ونصها : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم . وموالى الكلالة ، وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يفضون للمرء غصب الأب . انتهى .

وروى ابن جرير^(١) وغيره عن الشعبي قال : قال أبو بكر رحمة الله عليه : إني قد رأيت في الكلالة رأيا . فإن كان صوابا فن الله وحده لاشريك له . وإن يك خطأ فني ومن الشيطان . والله بربى منه . أن الكلالة ما خلا الولد والوالد .

تنبيه .

اتفق العلماء على المراد من قوله تعالى : وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ - الأخ والأخت من الأم . وقرأ سعد بن أبي وقاص وغيره من السلف : وله أخ أو أخت من أم . وكذا فسرهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيما رواه قتادة عنه . قال الكرخي : القراءة الشاذة تكبر الآحاد . لأنها ليست من قبل الرأي . وأطلق الشافعي الاحتجاج بها ، فيما حكاه البويطي عنه ، في باب (الرضاع) وباب (تحريم الجمع) وعليه جمهور أصحابه . لأنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيتهما ، انتفاء خصوص خبريتهما . وقال القرطبي : أجمع العلماء على أن الإخوة ههنا هم الإخوة لأم . قال : ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم ، أو للأب ، ليس ميراثهم هكذا . فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في قوله تعالى : وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ - هم الإخوة لأبوين ، أو لأب .

لطيفة :

إفراد الضمير في قوله تعالى : وَلَهُ أَخٌ . إما لعوده على الميت المفهوم من المقام ، أو على واحد منهما ، والتذكير للتغليب . أو على الرجل ، واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍ » حال من

ضمير « يُوصَى » (على قراءته مبنيًا للفاعل) أى غير مدخل الضرر على الورثة . كأن يوصى بأكثر من الثلث . ومن فاعل فعل مضمّر يدل عليه المذكور (على قراءته مبنيًا للمجهول) وتخصيص هذا القيد بهذا المقام ، لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم . وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير ^(١) عن ابن عباس مرفوعاً : الضرار في الوصية من الكبار . ورواه النسائي في (سننه) عن ابن عباس موقوفاً . وهو الصحيح كما قال ابن جرير « وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ » مصدر مؤكد لفعل محذوف . وتنوينه للتفخيم . كقوله : فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ . أو منصوب بـ (غير مضار) على أنه مفعول به . فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال . أو منى معنى . فيعمل في المفعول الصريح . ويعضده القراءة بالإضافة . أى غير مضار لوصية الله وعهده في شأن الورثة « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » بالمضار وغيره « حَلِيمٌ » لا يعاجل بالعقوبة ، فلا يغتر بالإمهال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« تِلْكَ » الأحكام « حُدُودُ اللَّهِ » أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها . « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » في قسمة الموارث وغيرها « يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساكنها « خَالِدِينَ فِيهَا » لا يموتون ولا يخرجون « وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » النجاة الوافرة بالجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » في قسمة الموارث وغيرها « وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ » بتجاوز أحكامه وفرائضه بالليل والجور « يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » أى لكونه غيرَ ماحكم الله به، وضاد الله في حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به . ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وقد روى أبو داود^(١) في باب (الإضرار في الوصية) من (سننه) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الرجل ليعمل ، تأو المرأة ، بطاعة الله ستين سنة . ثم يحضرها الموت فيضارّان في الوصية . فتجب لها النار . وقرأ أبو هريرة : من بعد وصية .. حتى بلغ ، ذلك الفوز العظيم . ورواه الترمذى وابن ماجه . ورواه الإمام أحمد^(٢) بسياق أتم ولفظه : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة . فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله ، فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة . فيعدل في وصيته ، فيختم له بخير عمله . فيدخل الجنة . قال ثم يقول أبو هريرة : وافرؤا إن شئتم : تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ . إلى قوله : عَذَابٌ مُهِينٌ . ثم بين تعالى بعضاً من الأحكام المتعلقة بالنساء ، إثر بيان أحكام الموارث بقوله :

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٣ - باب ماجاء في كراهية الإضرار

في الوصية ، حديث ٢٨٦٧

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٧٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ اَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَاِنْ شَهِدُوا فَاَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ » أى الخصلة البليغة فى القبح ، وهى الزنى ، حال كونهن « مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ » أى فاطلبوا من القاذفين لهن « اَرْبَعَةً مِنْكُمْ » أى من المسلمين « فَاِنْ شَهِدُوا » عليهن بها « فَاَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ » أى احبسوهن فيها . ولا تمكنوهن من الخروج ، صونا لهن عن التعرض بسببه للفاحشة « حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ » أى يستوفى ارواحهن . وفيه تهويل للموت وإبراز له فى صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها . أو يتوفاهن ملائكة الموت « اَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » أى يشرع لهن حكما خاصا بهن . ولعل التعبير عنه (ب) السبيل (للايذان بكونه طريقا مسكوكا . قاله أبو السعود .

وقد بينت السنة أن الله تعالى أنجز وعده ، وجعل لهن سبيلا . وذلك فيما رواه الإمام أحمد . ومسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل الوحي كربله وتربده وجهه . وإذا سرى عنه قال : خذوا عني خذوا عني (ثلاث مرار) قد جعل الله لهن سبيلا . الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة والرجم . والبكر جلد مائة ونفى سنة . هذا لفظ الإمام أحمد^(١) وكذا رواه أبو داود الطيالسي^(٢) ولفظه عن عبادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا نزل عليه الوحي ، عرف ذلك فيه . فلما نزلت « اَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » وارتفع الوحي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوا حذركم . قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة . والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى مسنده . الحديث رقم ٥٨٤

القول في تأويل قوله تعالى :
[١٦] (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

« وَاللَّذَانِ » : بتخفيف النون وتشديدها « يَأْتِيَانِيَا » أى الفاحشة « مِنْكُمْ » أى الرجال « فَأَذُوهُمَا » بالسب والتعير ، ليندما على ما فعلا « فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا » أى أعمالهما « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا » بقطع الأذية والتوبيخ ، وبالإغماض والستر . فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب « إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا » أى على من تاب « رَحِيمًا » واسع الرحمة . وهو تعليل للأمر بالإعراض .

تنبيه :

هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ ، بعضه بالكتاب وبعضه بالسنة . قال الإمام الشافعى فى الرسالة فى (أبواب الناسخ والمنسوخ) بعد ذكره هاتين الآيتين [٣٧٦] : ثم نسخ الله الحبس والأذى فى كتابه فقال : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . [٣٧٧] فدلّت السنة على أن جلد المائة للزانيين البكرين (لحديث عبادة بن الصامت المتقدم) .

ثم قال : [٣٨٠] فدلّت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جلد المائة ثابت على البكرين الحرّين ، ومنسوخ عن الثيبين . وأن الرجم ثابت على الثيبين الحرّين . ثم قال : [٣٨١] لأن قول رسول الله ﷺ : خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام . والثيب بالثيب جلد مائة والرجم - أوّل ما نزل . فنسخ به الحبس والأذى عن الزانيين . [٣٨٢] فلما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً ولم يجلد له ، وأمر أنيساً أن يغدو على امرأة الأسلمي ، فإن اعترفت رجماً - دل على نسخ الجلد عن الزانيين الحرّين الثيبين . وثبت الرجم عليهما . لأن كل شيء [أبداً] بعد أول فهو آخر . انتهى ^(١) .

(١) رسالة الشافعى بتحقيق أحمد محمد شاكر . وهذه أرقام فقرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ » استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه ، كما ينبغي عنه وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً . بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم . قوله تعالى « التَّوْبَةُ » مبتدأ وقوله تعالى « لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ » خبره . وقوله تعالى « عَلَى اللَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار . ومعنى كون التوبة عليه سبحانه ، صدور القبول عنه تعالى . وكلمة (على) للدلالة على التحقق البتة بحكم سبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه . والمراد بالسوء المعصية ، صغيرة أو كبيرة - كذا في أبي السعود . « بِجَهَالَةٍ » متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل (يَعْمَلُونَ) أى متلبسين بها . أى جاهلين سفهاء . أو بـ (يَعْمَلُونَ) على أن الباء سببية . أى يعملونه بسبب الجهالة . والمراد بالجهل السفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل . لاعدم العلم . فإن من لا يعلم لا يحتاج إلى التوبة . والجهل بهذا المعنى حقيقة واردة في كلام العرب . كقوله ^(١) : فنجهل فوق جهل الجاهلينا . « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » أى من زمان قريب . وظاهر الآية اشتراط وقوع التوبة عقب المعصية بلا تراخ . وإنما بذلك تنال درجة قبولها الحتم تفضلاً . إذ بتأخيرها وتسويقها

(١) البيت : ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قال التبريزي : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله . فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى . وهى تخالفها في المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأحضر من اختلافهما .

وهذا البيت آخر معلقة عمرو بن كلثوم التى أولها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبق خمر الأندرينا

يدخل في زمرة المصيرين . فيكون في الآية إرشاد إلى المبادرة بالتوبة عقب الذنب . والإنابة إلى المولى بعده فوراً . ووجوب التوبة على الفور مما لا يستتراب فيه . إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان . وهو واجب على الفور . وتمتته في (الإحياء) .

إذا عرفت هذا ، فما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد من قوله تعالى (من قريب) ما قبل حضور الموت - بعيد من لفظ الآية وسرها التي أرشدت إليه . أعنى البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان ، عياداً بالله تعالى . (فإن قيل) : من أين يستفاد قبول التوبة قبل حضور الموت ؟ (قلنا) يستفاد من الآية التي بعدها ، ومن الأحاديث الوافرة في ذلك . لا من قوله تعالى (مِنْ قَرِيبٍ) بما أولوه . وذلك لأن الآية الثانية وهي قوله تعالى : وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ - صريحة في أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة . فبقى ما وراءه في حيز القبول . وقد روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . ورواه ابن ماجة والترمذى وقال : حسن غريب .

وروى أبو داود^(٢) الطيالسى عن عبدالله بن عمرو قال : من تاب قبل موته بعام تيب عليه . ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه . ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . (قال أيوب) . فقلت له إنما قال الله عز وجل : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ . فقال : إنما أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى نحوه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وابن مردويه . وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى

(١) السند بالصفحة ١٢٣ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في مسنده ، الحديث ٢٢٨٤

(٣) أخرجه في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

الحاكم مرفوعاً : من تاب إلى الله قبل أن يغرغر قبل الله منه . وروى ابن ماجه عن ابن مسعود بإسناد حسن^(١) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقوله تعالى « فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً) « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ » عند النزاع « قَالَ » عند مشاهدة ما هو فيه « إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه « وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فلا ينفعهم ندمهم ولا توبتهم لأنهم بمجرد الموت يعانقون العذاب . روى الإمام أحمد^(٢) عن أبى ذرأن رسول الله ﷺ قال : إن الله يقبل توبة عبده ويغفر لعبده ما لم يقع الحجاب . قيل : يا رسول الله ! وما الحجاب ؟ قال : أن تموت النفس وهى مشركة . ولهذا قال تعالى « أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا » أى أعدنا « لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ آبَتِهِنَّ وَلَا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

(١) أخرجه فى : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٣٠ - باب ذكر التوبة ، حديث ٢٥٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا» نهى عما كان يفعلُه أهل الجاهلية بالنساء من الإيذاء والظلم . روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما^(١) قال : كانوا ، إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحق بامرأته . إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم زوجوها ، فهم أحق بها من أهلها . فنزلت هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ . الآية . ورواه أبو داود والنسائى وغيرهم ، ولفظ أبى داود عن ابن عباس : أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته . فيعضلها حتى تموت ، أو ترد إليه صداقها : فأحكم الله عن ذلك . أى نهى عنه .

قال السيوطى : ففيه أن الحر لا يتصور ملكه ولا دخوله تحت اليد . ولا يجرى مجرى الأموال بوجه . وكرها (بفتح الكاف وضما) قراءتان . أى حال كونهن كارهات لذلك ! أو مكرهات عليه . والتقيد (بالكراهة) لا يدل على الجواز عند عدمه . لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ماعداه . كما فى قوله : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ^(٢) . « وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ » الخطاب للأزواج . كما عليه أكثر المفسرين . روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس^(٣) أن الآية فى الرجل تكون له المرأة . وهو كاره لصحبته . ولها عليه مهر . فيضرها لتفتدى به . والعضل الحبس والتضييق .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٦ - باب لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣١] ونصها : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ فَرْزُهُمْ وَإِنَّا كُفَّارٌ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خِطَاءً كَبِيرًا .

(٣) الأثر ٨٨٨٤ من تفسير ابن جرير . ونصه :

عن ابن عباس قوله « وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ » يقول لا تقهرهن لتذهبن ما آتيتنهن . يعنى : الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبته ، ولها عليه مهر ، فيُضِرُّ بها لتفتدى .

أى : ولا يحل لكم أن تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . أى من الصداق . بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذه منهن « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ » أى زنى . كما قاله جماعة من الصحابة والتابعين . يعنى إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك ، وتحالها . كما قال تعالى فى سورة البقرة : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ^(١) . الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وغيره : الفاحشة الميينة النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعنى ذلك كله : الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك . يعنى أن هذا كله يبيح مضاجعتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ، ويفارقها . قال ابن كثير : وهذا جيد ، والله أعلم . قال أبو السعود : (مبينة) على صيغة الفاعل من (يَبِّ) بمعنى تبين وقرئ على صيغة المفعول . وعلى صيغة الفاعل من (أَبَانَ) بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإبداء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة . وبعضه قراءة أبى : إلا أن يفحشن عليكم . انتهى . وفى (الإكليل) استدلل قوم بقوله : بَبَعْضٍ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ - على منع الخلع بأكثر مما أعطاهما انتهى .

ثم بين تعالى حق الصحبة مع الزوجات بقوله « وَعَاشِرُوهُنَّ » أى صاحبوهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بالإنصاف فى الفعل والإجمال فى القول حتى لا تكونوا سبب الزنى بتركهن . أو سبب النشوز أو سوء الخلق . فلا يحل لكم حينئذ .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية وجوب المعروف من توفية المهر والنفقة والقسم

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

واللين في القول وترك الضرب والإغلاظ بلا ذنب . واستدل بعمومها مَنْ أوجب لها الخدمة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها « فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ » يعنى كرهتم الصحبة معهن « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » أى ولعله يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهن ولداً صالحاً يكون فيه خير كثير . وبأن ينيلكم الثواب الجزيل في العقبى بالإففاق عليهن والإحسان إليهن ، على خلاف الطبع . وفي (الإكليل) قال الكيا المراسى : في هذه الآية استحباب الإمساك بالمعروف وإن كان على خلاف هوى النفس . وفيها دليل على أن الطلاق مكروه .

وقد روى مسلم ^(١) في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يفرك مؤمن مؤمنة . إن كره منها خلقاً رضى منها آخر . و (يفرك) بفتح الياء والراء ، معناه ينفض .

لطيفة :

قال أبو السعود: ذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه ، وانحصر العلية في الثانى ، للتوسل إلى تميم مفعوله - ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه . بل هو سنة إلهية جارية على الإطلاق ، حسب اقتضاء الحكمة . وإن ما نحن فيه مادة من موادها . وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ، مالا يخفى .

تنبيه جليل في الوصية بالنساء والإحسان إليهن :

كنى في هذا الباب هذه الآية الجليلة الجامعة . وهى قوله تعالى : وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . قال ابن كثير : أى طيبوا أقوالكم لهن . وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم . كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله . كما قال تعالى :

(١) أخرجه في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث ٦١ (طبعنا) .

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ^(١). وقال رسول الله ﷺ : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي .
رواه الترمذى عن عائشة ، وابن ماجه^(٢) عن ابن عباس ، والطبرانى عن معاوية . وقال ﷺ :
خيركم خيركم للنساء . رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال ﷺ : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم
لأهلى . ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم . رواه ابن عساكر عن على عليه السلام .
وعن عمر بن الأحوص رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول ،
بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : ألا واستوصوا بالنساء خيرا .
فإنما هنّ عوانٍ عندكم . ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن
فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن
سبيلا . ألا إن لكم على نسائكم حقا . ولنسائكم عليكم حقا . فحقكم عليهن إن لا
يوطئن فرشكم من تكرهون . ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون . ألا وحقن عليكم
أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن . رواه الترمذى^(٣) وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله (عوان) أى أسيرات . جمع عانية .

وعن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٨] ونصها : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،
وَيَعْمَلْنَ لَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ،
وَلِلرِّجَالِ عَلَى نِسَائِهِمْ دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٥٠ - باب حسن معاشره النساء ، حديث
١٩٧٧ (طبعنا) .

(٣) الترمذى فى : ١٠ - كتاب النكاح ، ١١ - باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها .

قال أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبّح ولا تهجر إلا في البيت . رواه أبو داود ^(١) .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ليس ^(٢) من اللهو إلا ثلاث : تأديب الرجل فرسه ، ورميه بقوسه ونبله ، ومداعبة أهله . رواه أبو داود . وفي رواية له : كل شيء يلهو به الرجل باطل ، إلا تأديبه فرسه ورميه عن قوسه ومداعبته أهله .

قال ابن كثير : وكان من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقة ، ويضاحك نساءه . حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، يتودد إليها بذلك . قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته . وذلك قبل أن أحمل اللحم . ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني . فقال : هذه بتلك . وكان ﷺ يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها . وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد . يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار . وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام . يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . انتهى .

(١) أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤١ - باب في حق المرأة على زوجها ،

حديث ٢١٤٢

(٢) الحديث رواه الترمذي في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ١١ - باب ما جاء

في فضل الرمي في سبيل الله .

ونصه : عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسن أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ، ثلاثة ، الجنة : صانعه يحتسب في صنيعته الخير ، والرامي به ، والممدّ به » وقال « ارموا واركبوا ، ولأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا . كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل . إلا رمية بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهنّ من الحق » .

ثم قال : عن عقبة بن عامر الجهني ، عن النبي ﷺ ، مثله .

وقال الغزاليّ في (الإحياء) في (آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح) : الأدب الثاني - حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ، ترحم عليهن ، لقصور عقولهن . قال الله تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ : وقال في تعظيم حقهن : وَأَخْذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا^(١) . وقال تعالى : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ^(٢) . قيل : هي المرأة .

ثم قال : واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ . فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل . وراجعت امرأة عمر^{رضي الله عنه} فقال : أتراجعيني؟ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه ، وهو خير منك^(٣) . وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة^(٤) : إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبي . قالت . فقلت : من أين تعرف ذلك؟ فقال : أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين : لا . ورب محمد ! وإذا كنت غضبي قلت : لا . ورب إبراهيم ! قالت قلت : أجل . والله ! يا رسول الله ! ما أهرج إلا اسمك .

(١) [٤ / النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا .

(٣) هذه القطعة جزء من حديث طويل رواه ابن عباس عن عمر بن الخطاب في سؤاله له : من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما : إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ؟ وقد أخرجه البخاريّ في : ٤٦ - كتاب المظالم ، ٢٥ - باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة . فلا تفتك مطالعته بإمعان .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٠٨ - باب غيره النساء ووجدته .

ثم قال الغزالي : الثالث - أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة. فهي التي تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال . حتى روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً وسبقها في بعض الأيام . فقال ﷺ : هذه بتلك .

قال العراقي : رواه أبو داود^(١) ، والنسائي في (الكبرى) وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح .

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عيد . فقال لي رسول الله ﷺ : أتجبن أن ترى لعبهم ؟ قالت قلت : نعم . فأرسل إليهم فجاءوا . وقام رسول الله ﷺ بين البابين . فوضع كفه على الباب ووضعت رأسي على منكبه . وجعلوا يلعبون وأنظر . وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك ! وأقول : لا تعجل . (مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : يا عائشة ! حسبك . فقلت نعم . وفي رواية للبخاري^(٢) قالت : رأيت النبي ﷺ يسترن بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد . حتى أكون أنا الذي أسأم . فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن ، الحريصة على اللهو .

وقال عمر رضي الله عنه : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي . فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً .

وقال لقمان رحمه الله تعالى : ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي . وإذا كان في القوم وجد رجلاً .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٦١ - باب في السبق على الرجل ،

حديث ٢٥٧٨

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١١٤ - باب نظر المرأة إلى الحبش

وغيرهم من غير ريبة .

وقال ﷺ^(١) لجابر : هَلَا بَكَرًا تَلَاعِبُهَا وتَلَاعِبُكَ؟ رواه الشيخان . ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله! لقد كان ضحوكا إذا ولج ، سكوتا إذا خرج ، آكلًا ما وجد ، غير سائل عما فقد . انتهى بتصرف .

ثم نهى تعالى عن أخذ شيء من صدق النساء مَنْ أراد فراقهن ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

« وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ » أى تزوج امرأة ترغبون فيها « مَكَانَ زَوْجٍ » ترغبون عنها بأن تطلقوها « وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ » أى إحدى الزوجات . فإن المراد بالزوج الجنس . « قِنطَارًا » أى مالا كثيرا مهرا « فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » أى يسيرا ، فضلا عن الكثير « أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا » أى باطلا « وَإِثْمًا مُبِينًا » بينا . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى تأخذونه باهتين وآثمين .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٢٢ - باب تستحد المغيبة وتمشط . ونصه : عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي ﷺ في غزوة فلما قفلنا كنا قريبا من المدينة تعجلت على بعير لى قطوف . فلاحقنى راكب من خلفى فنخس بعيرى بعثرة كانت معه . فسار بعيرى كأحسن ما أنت راء من الإبل . فالتفتُ فإذا أنا برسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله ! إني حديث عهد بعرس . قال « أتزوجت؟ » قلت : نعم . قال « أبكراً أم ثيباً » قال قلت : بل ثيباً . قال « فهلا بكراً تلعابها وتلعابك؟ » قال فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال « أمهلوا حتى تدخلوا ليلا (أى عشاء) كي تمشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

القول في تأويل قوله تعالى .

[٢١] (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ » إنكار لأخذه إثر إنكار، وتنفير عنه غب تنفير، على سبيل التعجب .
أى بأى وجه تستحلون المهر « وَقَدْ أَفْضَىٰ » أى وصل « بَعْضُكُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ » فأخذ عوضه « وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا » أى عهداً وثيقاً مؤكداً مزيداً تأكيد، يعسر معه نقضه . كالثوب الغليظ يعسر شقه .

قال الزمخشري : الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة . ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه .
فقد قالوا : صحبة عشرين يوماً قرابة . فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟
انتهى .

قال الشهاب الخفاجي : قلت بل قالوا :

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

أو الميثاق الغليظ ما أوثق الله تعالى عليهم فى شأنهم بقوله تعالى : فَأِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ^(١) . أو قول الولي عند العقد: أنكحتك على ما فى كتاب الله: من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

تنبيهه فى فوائد :

الأولى - فى قوله تعالى « وَءَاتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » دليل على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى عن كثرتة ثم رجع عن ذلك . كما روى الإمام أحمد^(٢) عن أبى العجفاء السلمى قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغلوا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٥٨ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

صدق النساء . ألا لا تغلوا صدق النساء . فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاً كم بها النبي ﷺ . ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته ، أكثر من اثنتي عشرة أوقية . وإن الرجل ليتلى بصدقة امرأته (وقال مرة : وإن الرجل ليغلي بصدقة امرأته) حتى تكون لها عداوة في نفسه . وحتى يقول : كلفت إليك عرق القربة . ورواه أهل السنن . وقال الترمذی : هذا حديث صحيح .

وروى أبو يعلى عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ! ما إكثاركم في صدق النساء ! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك . ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلا عرفني ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم . قال ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين ! نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم . قال : نعم . فقالت أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأى ذلك ؟ قالت : أما سمعت الله يقول : **وَأَيَّتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا** . الآية . قال فقال : اللهم ! غفرأ . كل الناس أوقفه من عمر . ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس ! إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمئة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب .

قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل . إسناده جيد قوى . قاله ابن كثير . وفي (الحجة البالغة) ما نصه : لم يضبط النبي ﷺ المهر بحد لا يزيد ولا ينقص . إذ العادات في إظهار الاهتمام مختلفة . والرغبات لها مراتب شتى . ولهم في المشاحة طبقات . فلا يمكن تحديده عليهم . كما لا يمكن أن يضبط ثمن الأشياء المرغوبة بحد مخصوص . ولذلك قال : **التمس ولو خائماً من حديد** ^(١) . غير أنه سن في صداق أزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشأ . أي نصفاً ، انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٤٠ - باب السلطان ولي ، لقول النبي ﷺ « زوجنا كها بما معك من القرآن » .

وقد ورد ما يفيد النذب إلى تخفيفه وكراهة المغالاة فيه . أخرج أبو داود والحاكم ، وصححه ، من حديث عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) خير الصداق أيسره .

وفي صحيح مسلم ^(٢) عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : إني تزوجت امرأة من الأنصار . فقال له النبي ﷺ : هل نظرت إليها ؟ فإن في عيون الأنصار شيئاً . قال : قد نظرت إليها . قال : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق . فقال له النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : على أربع أواق ! كأنما تنتحتون الفضة من غرض هذا الجبل . ما عندنا ما نعطيك . ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه . قال فبعث بعثاً إلى بني عبس ، بعث ذلك الرجل فيهم .

الثانية - خص تعالى ذكر من آتى القنطار من المال بالنهي ، تنبيهاً بالأعلى على الأدنى . لأنه إذا كان هذا ، على كثرة ما بذل لامراته من الأموال ، منهياً عن استعادة شيء يسير حقير

= ونصه : عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إني وهبت من نفسي . فقامت طويلاً . فقال رجل : زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة . قال « هل عندك من شيء تُصدقها ؟ » قال : ما عندي إلا إزارى . فقال « إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك . فالتمس شيئاً » فقال : ما أجده شيئاً . قال « التمس ولو خاتماً من حديد » فلم يجد . فقال « أملك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم . سورة كذا وسورة كذا . لسور سماها . فقال « زوجناكها بما معك من القرآن » .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣١ - باب فيمن تزوج ولم يسم صداقا حتى مات ، حديث ٢١١٧ .

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، ١٢ - باب نذب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها ، حديث ٧٥ (طبعنا) .

منها ، على هذا الوجه ، كان من لم يبذل إلا الحقير منهياً عن استعادته بطريق الأولى . ومعنى قوله « وَءَاتَيْتُمْ » والله أعلم : وكنتم آتيتم . إذ إرادة الاستبدال ، في ظاهر الأمر ، واقعة بعد إيتاء المال واستقرار الزوجية - كذا في الانتصاف .

الثالثة .

اتفقوا على أن المهر يستقر بالوطء . واختلفوا في استقراره بالخلوة المجردة . ومنشأ ذلك : أن (أفضى) في قوله تعالى : وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ . يجوز حملها على الجماع كناية ، جرياً على قانون التنزيل من استعمال الكناية فيما يستحي من ذكره . والخلوة لا يستحي من ذكرها فلا تحتاج إلى كناية : ويجوز إبقاؤها على ظاهرها .

قال ابن الأعرابي : الإفضاء في الحقيقة الانتهاء . ومنه : وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ . أى انتهى وآوى . هذا ، والكناية أبلغ وأقرب في هذا المقام . ومما يرجحها أنه تعالى ذكر ذلك في معرض التعجب فقال : وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض . والتعجب إنما يتم إذا كان هذا الإفضاء سبباً قوياً في حصول الألفة والمحبة ، وهو الجماع ، لا مجرد الخلوة . فوجب حمل الإفضاء إليه - ذكره الرازي - من وجوه . ثم قال : وقوله تعالى « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ » كلمة تعجب . أى لأى وجه ولأى معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك وجعلت ذاتها لذتك وتمتعك ، وحصلت الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً بذله لها بطيبة نفسه ؟ إن هذا لا يليق بمن له طبع سليم وذوق مستقيم .

الرابعة : في (الإكليل) استدل بهذه الآية من منع الخلع مطلقاً . وقال : إنها ناسخة لآية البقرة . وقال غيره : إن هذه الآية منسوخة بها . وقال آخرون : لا ناسخ ولا منسوخ بل هي في الأخذ بغير طيب نفسها . انتهى .

أقول: إن القول الثالث متعين. لأن كلاً من آيتي البقرة وهذه في مورد خاص يعلم من مساق النظم الكريم. وذلك لأن قوله في البقرة: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ^(١) - صريح في أن الزوجة إذا كرهت خلق زوجها أو خلقه أو نقص دينه أو خافت إثماً بترك حقه ، أبيض لها أن تفتدى منه وحلّ له أخذ الفداء مما آتاها ، لقوله تعالى ثُمَّ: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ الْخ^(٢) . والحكمة في حل الأخذ ظاهرة . وهى جبر الزوج مما لحقه من ضمة اختلاعها له وهيمتها حينئذ عليه ، واسترداد مالو أخذ منه ، لكان في صورة المظلوم. لأنه لم ينجح للفراق ولا رغب فيه . فكان من العدل الإلهي أن لا يجمع عليه بين خسارتي التمتع والمال . وأما هذه الآية فهى في حكم آخر . وهو ما إذا أراد استبدال زوجته لطموح بصره إلى غيرها من غير أن تفتدى منه ، أو رغب في خلع نفسها منه ، فيضن بما آتاها ويأسف لأن تحوزه وهو لا يريد لها وليس لها في نفسه وقع ، فعزم عليه أن لا يأخذ مما أصدقها شيئاً قط بعد الإفضاء. لأنه لو أبيض له الأخذ حينئذ لكان ظالماً واضحاً . لأنه أخذ بلا جريرة منها . فكان في إبقاء ما في يدها مما آتاها جبر لما نابها من ألم الإعراض عنها واطراحها ، رحمة منه تعالى ، وعدلاً في القضيتين . فالقائل بالنسخ فاته سر الحكمين . وليت شعري ماذا يقول في الحديث الصحيح المروي في البخاري^(٣) وغيره ، وهو قوله ﷺ لامرأة

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِجِيْ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في: ٦٨ - كتاب الطلاق، ١٢ - باب الخلع وكيف الطلاق منه،

=

حديث ٢١٥٣ ونصه:

ثابت : أتردين عليه حديقته ! فقالت : نعم . فقال ﷺ لزوجها : اقبل الحديقة وطلقها . ولا يقال : لعل القائل بنسخ الخلع اعتمد فيه قوله تعالى : وَكَيْفَ تَأْخُذُوهُ . الخ . وفيه ما فيه من تهويل الأخذ والتنفير عنه كما أسلفنا . لأننا نقول إن دلائل الأحكام الناسخة أو المنسوخة إنما تؤخذ من الجمل التامة في الأصلين . فلا تؤخذ من شرط بلا جوابه مثلاً . وبالعكس . ولا من مبتدأ بدون خبره وبالعكس . ولا من مؤكد بدون مؤكده . وهكذا . وما نحن فيه لو أخذ عموم تحريم الأخذ من قوله : وَكَيْفَ تَأْخُذُوهُ - لكان كالا استدلال من المؤكد بدون ملاحظة مؤكده . وهذا ساقط . لأن قوله : وَكَيْفَ - تنفير عما تقدم ، متعلق به . وما قبله خاص . ولو زعم القائل بالنسخ أن قوله : وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ، عام في المختوعة وَمَنْ أَرِيدَ طَلَقَهَا - نقول هذا باطل وفساد . لأن مورد الآية في إرادته ، هو فراغها مبتدئاً . فلا يصدق على المختوعة . لأنه لا يراد الاستبدال بغيرها ابتداءً من جانب الزوج . وبالجملة فكل من قرأ صدر الآيتين علم أن كلا في حكم على حدة . لاتعلق فيها له بالآخر . والنسخ لا يصار إليه بالرأى . وقد كثرت المتأخرين دعوى النسخ في الآيات هكذا بلا استناد قوى . بل لما يترأى ظاهراً بلا إمعان . فتثبت هذا .

وفي الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين ، بعد فراغهما من تلاعهما : الله يعلم أن أحداً كاذب . فهل منكما تائب؟ قالها ثلاثاً . فقال الرجل : يا رسول الله : مالى؟

= عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! ثابت ابن قيس ، ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر في الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم .

قال رسول الله ﷺ : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣٢ - باب صداق الملائنة ، حديث

=

٢١٦٤ ونصه :

يعنى ما أصدقها . قال : لا مال لك . إن كنت صدقت فهو بما استحلتت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها . وفي سنن أبى داود^(١) وغيره ، عن بصرة بن أكرم أنه تزوج امرأة بكرةً فى خدرها . فإذا هى حامل من الزنى . فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له . ففضى لها بالصداق وفرق بينهما . وأمر بجلدها . وقال : الولد عبد لك ، والصداق فى مقابلة البضع .

ثم بين تعالى من يحرم نكاحهن من النساء ، ومن لا يحرم . فقال سبحانه :

= عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عمر : رجل قذف امرأته ؟ فقال : فرق النبي ﷺ بين إخوى بنى عجلان . وقال « الله يعلم أن أحداً كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . وقال : « الله يعلم أن أحداً كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . فقال « الله يعلم أن أحداً كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا ففرق بينهما

وفى : ٣٣ - باب قول الإمام للمتلاعنين : أحداً كاذب فهل منكما تائب ؟ زاد : قال (الرجل) : مالى ؟ قال « لا مال لك . إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها ، فذاك أبعد ذلك .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٧ - باب فى الرجل يتزوج المرأة فيجدها حبلى ، حديث ٢١٣١ ونصه :

عن سعيد بن المسيب عن رجل من الأنصار يقال له بصرة (بن أكرم) قال : تزوجت امرأة بكرةً فى سترها . فدخلت عليها فإذا هى حبلى . فقال النبي ﷺ : « لها الصداق بما استحلتت من فرجها . والولد عبد لك . فإذا ولدت فاجلدها » . وفى رواية : (فاجلدها) وفى أخرى : (فخذوها) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » بنكاح أو ملك يمين . وإن لم يكن أمهاتكم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى سوى ما قد مضى فى الجاهلية فإنه مغفور لكم ولا تؤاخذون به « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً » أى خصلة قبيحة جداً ، لأنه يشبه نكاح الأمهات « وَمَقْتًا » أى بغضاً عند الله وعند ذوى المروآت . ولذا كانت العرب تسمى هذا النكاح : نكاح المقت . وتسمى ذلك المتزوج ، مقتياً . قاله ابن سيده . وقال الزجاج : المقت أشد البغض . ولما علموا أن ذلك فى الجاهلية كان يقال له المقت ، أعلموا أنه لم يزل منكراً ممقوتاً . « وَسَاءَ سَبِيلًا » أى بئس مسلكاً . إذ فيه هتك حرمة الأب . وقد روى ابن أبى حاتم أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت ، وكان من صالحى الأنصار ، نخطب ابنه ، قيس ، امرأته ، فقالت : إنما أعدك ولداً ، وأنت من صالحى قومك ، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : إن أبا قيس توفى . فقال : خيراً . ثم قالت : إن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعدّه ولداً . فما ترى ؟ فقال لها : ارجعى إلى بيتك . فنزلت : وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ . الآية . وروى ابن جرير عن ابن عباس^(١) قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين . فأنزل الله : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . (وأن تجمعوا بين الأختين) [٢٣/٤] .

لطيفة :

قال الرازى : مراتب القبح ثلاثة : القبح فى القول وفى الشرائع وفى العادات . فقوله تعالى : إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ، إشارة إلى القبح العقلى . وقوله : وَمَقْتًا ، إشارة إلى القبح الشرعى . (١) الأثر رقم ٨٩٣٨ (طبعة المعارف) .

وقوله . وَسَاءَ سَبِيلًا ، إشارة إلى القبح في العرف والعادة . ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه ، فقد بلغ الغاية في القبح . والله أعلم .

قال ابن كثير : فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيثا لبيت المال . كما رواه الإمام أحمد^(١) وأهل السنن ، من طرق ، عن البراء بن عازب . وفي رواية عن عمه أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، أن يقتله ويأخذ ماله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّاءُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم
مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » من النسب أن تنكحوهن . وشملت الجدات من قبل

(١) هذا نص الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

عن البراء بن عازب قال : مرّ بنا ناس منطلقون . فقلنا : أين تذهبون ؟ فقالوا : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل فأتى امرأة أبيه ، أن يقتله .

وفي الرواية الأخرى ، عن البراء بن عازب قال ، مرّ بي عمي الحارث بن عمرو ، ومعه لواء قد عقده له النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت : أي عم ! أين بعثك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه ، فأمرني أن أضرب عنقه .

الأب أو الأم « وَبَنَاتُكُمْ » من النسب. وشملت بنات الأولاد وإن سفلن « وَأَخَوَاتُكُمْ » من أم أو أب أو منهما « وَعَمَّاتُكُمْ » أى أخوات آبائكم وأجدادكم « وَخَالَاتُكُمْ » أى أخوات أمهاتكم وجداتكم « وَبَنَاتُ الْأَخِ » من النسب ، من أى وجه يكن « وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » من النسب من أى وجه يكن . ويدخل فى البنات أولادهن « وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ » قال المهايى : لأن الرضاع جزء منها وقد صار جزءاً من الرضيع ، فصار كأنه جزؤها فأشبهت أصله . انتهى .

ويعتبر فى الإرضاع أمران : أحدهما القدر الذى يتحقق به هذا المعنى . وقد ورد تقييد مطلقه وبيان محله فى السنة بخمس رضعات . لحديث عائشة^(١) عند مسلم وغيره : كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرّ من . ثم نسخن بخمس معلومات . فتوفى رسول الله ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن . والثانى أن يكون الرضاع فى أول قيام الهيكل وتشبه صورة الولد . وذلك قبل الفطام . وإلا فهو غذاء بمنزلة سائر الأغذية الكائنة بعد التشبه وقيام الهيكل . كالشباب يأكل الخبز .

عن أم سلمة^(٢) قالت : قال رسول الله ﷺ : لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام . رواه الترمذى وصححه . والحاكم أيضاً . وأخرج سعيد بن منصور والدارقطنى والبيهقى عن ابن عباس مرفوعاً : لا رضاع إلا ما كان فى الحولين . وصحح البيهقى وقفه . قال السيوطى فى (الإكليل) : واستدل بعموم الآية من حرم برضاع الكبير . انتهى . وقد ورد الرخصة فيه

(١) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، ٦ - باب التحريم بخمس رضعات ، حديث ٢٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ١٠ - كتاب الرضاع ، ٥ - باب ما جاء ما ذكر أن الرضاعة لا تحرّم إلا فى الصغر دون الحولين .

لحاجة تعرض . روى مسلم^(١) وغيره عن زينب بنت أم سلمة قالت : قالت أم سلمة لعائشة : إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذى ما أحب أن يدخل على . فقالت عائشة : أما لك فى رسول الله ﷺ أسوة ؟ وقالت : إن امرأة أبى حذيفة قالت : يا رسول الله ! إن سالما يدخل على وهو رجل . وفى نفس أبى حذيفة منه شيء . فقال رسول الله ﷺ : أرضعيه حتى يدخل عليك . وأخرج نحوه البخارى من حديث عائشة أيضا .

وقد روى هذا الحديث ، من الصحابة : أمهات المؤمنين وسهلة بنت سهيل وزينب بنت أم سلمة . ورواه من التابعين جماعة كثيرة . ثم رواه عنهم الجمع الجم . وقد ذهب إلى ذلك على وعائشة وعروة بن الزبير وعطاء بن أبى رباح والليث بن سعد وابن علية وداود الظاهرى وابن حزم . وذهب الجمهور إلى خلاف ذلك .

قال ابن القيم : أخذ طائفة من السلف بهذه الفتوى . منهم عائشة . ولم يأخذ به أكثر أهل العلم . وقدموا عليها أحاديث توقيت الرضاع المحرم ، بما قبل الفطام ، وبالصغر ، وبالحولين . لوجوه : أحدها - كثرتها وانفراد حديث سالم . الثانى - أن جميع أزواج النبي ﷺ سوى عائشة فى شق المنع . الثالث - أنه أحوط . الرابع - أن رضاع الكبير لا ينبت لحماً ولا ينشأ عظماً . فلا يحصل به البعضية التى هى سبب التحريم . الخامس - أنه يحتمل أن هذا كان مختصاً بسالم وحده . ولهذا لم يجر ذلك إلا فى قصته . السادس - أن رسول الله ﷺ^(٢) دخل على عائشة وعندها رجل قاعد . فاشتد ذلك عليه وغضب . فقالت : إنه أخى من الرضاعة . فقال : انظرن إختوكن ! من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة . متفق عليه . واللفظ لمسلم .

(١) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، ٧ - باب رضاعة الكبير ، حديث ٢٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، ٨ - باب إنما الرضاعة من المجاعة ،

حديث ٣٢ (طبعنا) . وهذا نصه : عن مسروق قال : قالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وعندى رجل قاعد . فاشتد ذلك عليه ورأيت الغضب فى وجهه . قالت فقلت : يا رسول الله ! إنه أخى من الرضاعة . قالت فقال « انظرن إختوكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة » .

وفي قصة سالم مسلك . وهو أن هذا كان موضع حاجة . فإن سالماً كان قد تبناه أبو حذيفة ورباه . ولم يكن له منه ومن الدخول على أهله بدٌّ . فإذا دعت الحاجة إلى مثل ذلك فالقول به مما يسوغ فيه الاجتهاد، ولعل هذا المسلك أقوى المسالك . وإليه كان شيخنا يجنح . انتهى . يعنى تقي الدين بن تيمية رضى الله عنهما .

«وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ» . قال الرازى : إنه تعالى نص في هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة . إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن . لأنه ﷺ قال ^(١) : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات . وذلك لأنه تعالى لما سمي المرضة أما ، والمرضة أختاً ، فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب . وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعة : اثنتان منهاهما المنتسبتان بطريق الولادة ، وهما الأمهات والبنات . وخمس منها بطريق الأخوة ، وهن الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك في أحوال الرضاع ، ذكر من هذين القسمين صورة واحدة تنبهاً بها على الباقي . فذكر من قسم قرابة الولادة ، الأمهات . ومن قسم قرابة الأخوة ، الأخوات . ونبه بذلك هذين المثالين ، من هذين القسمين ، على أن الحال في باب الرضاع كالحال في النسب . ثم إنه ﷺ أكد هذا البيان بصريح قوله : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . فصار صريح الحديث مطابقاً لمفهوم الآية . وهذا بيان لطيف . انتهى .

لطيفة :

تعرض بعض المفسرين في هذا المقام لفروع فقهية مسندها مجرد الأفيسة . قال الرازى : من تكلم في أحكام القرآن وجب أن لا يذكر إلا ما يستنبطه من الآية .

(١) أخرجه البخارى في : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٧ - باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم ، حديث ١٢٨٤ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بنت حمزة « لا تحلّ لى . يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . هى بنت أخى من الرضاعة » .

فأما ما سوى ذلك فإنما يليق بكتب الفقه « وَأَمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » أى أصول أزواجكم « وَرَبَائِبُكُمْ » جمع ربيبة، بمعنى مربوبة . قال الأزهري : ربيبة الرجل بنت امرأته من غيره . انتهى . سميت بذلك لأنه يربها غالباً ، كما يربّ ولده « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » جمع حجر (بفتح أوله وكسره) أى فى تربيتكم . يقال فلان فى حجر فلان ، إذا كان فى تربيته . والسبب فى هذه الاستعارة أن كل من ربى طفلاً أجلسه فى حجره ، فصار الحجر عبارة عن التربية . وسر تحريمهن كونهن حينئذ يشبهن البنات . إلا أنه إنما يتحقق الشبه إذا كن « مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمُ بِهِنَّ » لأنهن حينئذ بنات موطوءاتكم ، كبنات الصلب . والدخول بهن كناية عن الجماع . كقولهم : بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب . أى أدخلتموهن السر . والباء للتعدي « فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى فلا حرج عليكم فى أن تزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن أو متن .

تنبيهات :

(الأول) ذهب بعض السلف إلى أن قيد الدخول فى قوله تعالى : اللَّاتِي دَخَلْتُمُ بِهِنَّ - راجع إلى الأمهات والرباب . فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها . لقوله : فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ . وروى ابن جرير^(١) عن على بن رضى الله عنه فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها : أيتزوج بأمرها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وروى أيضاً عن زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وابن جبير وابن عباس . وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابوني ، فيما نقله الرافعي عن العبادي . وقد روى عن ابن مسعود مثله ، ثم رجع عنه . وتوقف فيه معاوية . وذلك فيما رواه ابن المنذر عن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف . قال : فلم أجمعها حتى توفى عمى عن أمها . وأمها ذات مال كثير . فقال أبى : هل لك فى أمها ؟

(١) الأثر رقم ٨٩٥١ (طبعة المعارف) .

قال فسألت ابن عباس وأخبرته . فقال: انكح أمها . قال وسألت ابن عمر فقال : لاتنكحها . فأخبرت أبي بما قالوا، فكتب إلى معاوية . فأخبره بما قالوا . فكتب معاوية : إني لا أحل ما حرم الله . ولا أحرم ما أحل الله . وأنت وذاك . والنساء سواها كثير . فلم يَنْهَ ولم يأذن لي . فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحنيها .

وذهب الجمهور إلى أن الأم تحرم بالعقد على البنت ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم . قالوا : الاشتراط إنما هو في أمهات الربائب . وروى في ذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها . وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها . وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها . دخل بها أو لم يدخل . أخرجه الترمذى ^(١) .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الخبر غريب ، وفي إسناده نظر . وقال الزجاج : قد جعل بعض العلماء (اللَّائِي دَخَلْتُمُ بِهِنَّ) وصفاً للنساء المتقدمة والمتأخرة . وليس كذلك . لأن الوصف الواحد لا يقع على موصوفين مختلفي العامل . وهذا ، لأن النساء الأولى مجرورة بالإضافة . والثانية بـ (من) ولا يجوز أن تقول : مررت بنساءك وهربت من نساء زيد الطريقات ، على أن تكون الطريقات نعتاً لهؤلاء النساء ولهؤلاء النساء .

(١) أخرجه الترمذى في : ٩ - كتاب النكاح ، ٢٦ - باب ما جاء فيمن يتزوج المرأة

ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، هل يتزوج ابنتها ، أم لا ؟

(قال أبو عيسى) : هذا حديث لا يصح من قبل إسناده .

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، قالوا : إذا تزوج الرجل امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، حل له أن ينكح ابنتها . وإذا تزوج الرجل الابنة فطلقها قبل أن يدخل بها ، لم يحل له نكاح أمها ، لقول الله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق .

قال الناصر في (الاتصاف) : والقول المشهور عن الجمهور ، إيهام تحريم أم المرأة ، وتقييد تحريم الريبة بدخول الأم . كما هو ظاهر الآية . ولهذا الفرق سر وحكمة . وذلك لأن المتزوج بابنة المرأة لا يخلو بعد العقد وقبل الدخول من محاورة بينه وبين أمها ، ومحادثات ومساكرات . فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم ليقطع شوقه من الأم فيعاملها معاملة ذوات المحارم . ولا كذلك العاقد على الأم فإنه بعيد عن مخاطبة بنتها قبل الدخول بالأم . فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة . وأما إذا وقع الدخول بالأم فقد وجدت مظنة خلطة الريبة . فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما . والله أعلم .

الثاني - استدل بقوله تعالى « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » من لم يحرم نكاح الريبة الكبيرة والتي لم يربها . روى ابن أبي حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندى امرأة فتوفيت وقد ولدت لى . فوجدت عليها . فلقينى على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : مالك؟ فقلت : توفيت المرأة . فقال : لها ابنة ؟ قلت : نعم . وهى بالطائف . قال : كانت فى حجرك؟ قلت : لا . هى بالطائف . قال : فانكحها . قلت : فأين قول الله « وَرَبَّابُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » ؟ قال : إنها لم تكن فى حجرك . إنما ذلك إذا كانت فى حجرك .

قال الحافظ ابن كثير : إسناده قوى ثابت إلى على بن أبى طالب ، على شرط مسلم . وإلى هذا ذهب الإمام داود بن على الظاهرى وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعى عن مالك رحمه الله تعالى . واختاره ابن حزم . والجمهور على تحريم الريبة مطلقاً . سواء كانت فى حجر الرجل أم لم تكن . قالوا : والخطاب فى قوله « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » خرج مخرج الغالب . فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكنّ فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن . ولم يرد كونهن كذلك بالفعل . وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها . كما أنها النكته فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء . فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن ، وفى شرف التقلب فى حجورهم ، وتحت حمايتهن وتربيتهن ، مما يقوى الملازمة والشبه بينهما وبين أولادهم .

ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم . لا تقييد الحرمة بكونهن في حجبورهم بالفعل - كذا قرره أبو السعود - .

وفي (الاتصاف) : إن فائدة وصفهن بذلك ، هو تخصيص أعلى صور النهي عنه ، بالنهي . فإن النهي عن نكاح الربيبة المدخول بأمرها عام . في جميع الصور . سواء كانت في حجب الزوج أو بئنة عنه في البلاد القاصية . ولكن نكاحه لها وهي حجبها أقبح الصور . والطبع عنها أنفر . فخصت بالنهي لتساعد الجيلة على الاقبياد لأحكام الملة . ثم يكون ذلك تدريجاً وتدرجاً إلى استقباح المحرم في جميع صورته . والله أعلم .

وفي الصحيحين^(١) أن أم حبيبة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ! انكح أختي بنت أبي سفيان (وفي لفظ لمسلم : عذرة بنت أبي سفيان) فقال : أوتحين ذلك ؟ قالت : نعم . لست لك بمخلية . وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي . فقال النبي ﷺ : إن ذلك لا يحل لي . قلت : فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة . قال : بنت أم سلمة ؟ قلت : نعم . فقال : لو أنها لو لم تكن ربييتي في حجبوري ، ما حلت لي . إنها لابنة أخي من الرضاعة . أرضعتني وأبا سلمة ثويبة . فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن . (وفي رواية للبخاري : لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي) .

قال ابن كثير : فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة . وحكم بالتحريم بذلك . الثالث - اشتهر أن المراد من الدخول في قوله تعالى « دَخَلْتُمُ بَيْتَهُ » معناه الكنائس . وهو الجماع . لأنه أسلوب الكتاب العزيز في نظائره بلاغة وأدبا . ولذا فسره ابن عباس وغير

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٢٠ - باب وَأُمَمَّاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ ، حديث ٢١١٠ .

ومسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، ٤ - باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، حديث ١٥ (طبعنا) .

واحد . فمدلول الآية صريح حينئذ في كون الحرمة مشروطة بالجماع . فلا تناول غيره من اللمس والتقبيل والنظر لمتاعها . ومن أثبت تحريم الريبة بذلك لحظ أن معنى الدخول أوسع من الجماع . لأنه يقال : دخل بها ، إذا أمسكها وأدخلها البيت . وفي (فتح البيان) : الذي ينبغى التعويل عليه في مثل هذا الخلاف ، هو النظر في معنى الدخول شرعاً أو لغة . فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به ، من لس أو نظر أو غيرها . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك . انتهى . و (في شرح القاموس للزبيدي) : ودخل بامرأته كناية عن الجماع . وغلب استعماله في الوطء الحلال . والمرأة مدخول بها . قلت : ومنه الدخلة ، الليلة الزفاف . انتهى . « وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ » أي موطآت فروعكم بنكاح أو ملك يمين . جمع حليلة . سميت بذلك لحملها للزوج . وقوله تعالى « الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ » لإخراج الأديعاء الذي كانوا يتبنونهم في الجاهلية . كما قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ^(١) . وقال تعالى : وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ^(٢) . فالسر في التقييد هو إحلال حليلة المتبنى ، ردًا لمزاعم الجاهلية ، لا إحلال حليلة الابن من الرضاع وأبناء الأبناء . كأنه قيل : بخلاف من تبنيتموهم ، فلمكم نكاح حلائلهم .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

« وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » في حيز الرفع، عطفًا على ما قبله من المحرمات . أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين في الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » في الجاهلية فإنه معفو عنه « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » تعليل لما أفاده الاستثناء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَالْمُحْصَنَاتُ » أى وحرمت عليكم الزوجات « مِنَ النِّسَاءِ » حرائر وإماء ، مسلمات ، أو لا . لثلاث تحتلط المياه فيضيع النسب « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من اللأى سبعين ولهن أزواج في دار الكفر . فهن حلال لفراة المسلمين ، وإن كن محصنات . لأن السبي لهن يرفع نكاحهن ويفيد الحل بعد الاستبراء . روى الإمام أحمد ومسلم^(١) وأبو داود والترمذى

(١) أخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، ٩ - باب جواز وطء المسيية بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج انفسخ نكاحها بالسبي ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين ، بعث جيشاً إلى أوطاس . فلقوا عدوا . فقاتلوهم . فظهروا عليهم . وأصابوا لهم سبايا . فكان ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرجوا من غسيانهم ، من أجل أزواجهن من المشركين . فأنزل الله عز وجل في ذلك : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . أى فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن .

والنساءى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبائا من سبى أو طاس. ولهن أزواج. فكرهنا أن تقع عليهن ولهن أزواج . فسألنا النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فاستحللنا فروجهن .

تنبيه :

استدل بعموم الآية من قال : إن انتقال الملك يبيع أو إرث أو غير ذلك يقطع النكاح . عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها . وعنه : بيع الأمة طلاقها. وروى ذلك أيضاً عن أبى بن كعب وجابر وابن عباس رضى الله عنهم قالوا : يبيعها طلاقها. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست : يبيعها طلاقها، وعقها طلاقها، وهبتها طلاقها ، وبرأتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها .

كذا قرأته في تفسير ابن كثير. ولا يخفى أن المعداد خمسة. ولعل السادس يبيع زوجها. حيث قال بعد ذلك : وروى عوف عن الحسن يبيع الأمة طلاقها ويبيعه طلاقها. فهذا قول هؤلاء من السلف. وحجتهم عموم الاستثناء في قوله تعالى « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » والجمهور على أن يبيع الأمة ليس طلاقاً لها . واحتجوا بحديث بريرة المخرج في الصحيحين^(١) وغيرها . فإن عائشة أم المؤمنين اشتريتها وأعتقها ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث . بل خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفسخ والبقاء، فاخترت الفسخ، وقصتها مشهورة. فلو كان

(١) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٢٢ - باب إذا أسلم على يديه

الرجل ، حديث ٣٠٢ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : اشتريت بريرة . فاشتري أهلها ولاءها . فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « أعتقها فإن الولاء لمن أعطى الورك » . قالت : فأعتقها. قالت فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيرها في زوجها ، فقالت : لو أعطاني كذا وكذا مابت عنده . فاخترت نفسها .

بيع الأمة طلاقها لما خيرت . وتخيرها دال على أن المراد من الآية المسبيات فقط . وبالجمله ، فالجهور قصروا الآية على السبب الذى نزلت فيه .

قال الرازى : وهو يرجع إلى تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . أى وهو مقبول ومعمول به فى غير ما موضع . كنصاب السرقه . وفى التنبيه الآتى زيادة لهذا فتأثره .

فائدة :

اتفق القراء على فتح الصاد فى (المحصنات) هنا . ويقرأ بالفتح والكسر فى غير هذا الموضع . وكلاهما مشهور . فالفتح على أنهم أحصن بالأزواج أو بالإسلام . والكسر على أنهم أحصن فزوجهن أو أزواجهن . واشتقاق الكلمة من الإحصان وهو المنع « كِتَابَ اللَّهِ » مصدر مؤكد . أى كتب الله « عَلَيَّكُمْ » تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً ، فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده وشرعه « وَأَحِلَّ لَكُمْ » عطف على (حرمت عليكم) « مَا وَرَاءَ ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة . أى أحل لكم نكاح ما سواهن « أَنْ تَبْتَغُوا » مفعول له . أى أحل لكم إرادة أن تبتغوا . أو بدل من (ما) أى ابتغاء النساء « بِأَمْوَالِكُمْ » أى يصرفها إلى مهورهن « مُحْصِنِينَ » حال من فاعل (تبتغوا) والإحصان : العفة ، وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » غير زانين ، والسفاح الزنى والفجور . من السفح وهو الصب . لأنه لا غرض للزانى إلاّ سفح النطفة . وكان أهل الجاهلية ، إذا خطب الرجل المرأة ، قال : انكحيتنى . فإذا أراد الزنى قال : سافحتنى . قال الزجاج : المسافحة أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح .

تنبيه :

قوله تعالى : « وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ » - عام مخصوص بمحرمات أخر دلت عليها دلائل أخر . فمن ذلك ، ماصح عن النبى ﷺ من النهى عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها . وقد حكى الترمذى المنع من ذلك عن كافة أهل العلم . وقال : لانعلم بينهم اختلافاً

فى ذلك . ومن ذلك ، نكاح المعتدة . ومن ذلك ، أن من كان فى نكاحه حرة ، لا يجوز له نكاح الأمة . ومن ذلك ، القادر على الحرية لا يجوز له نكاح الأمة . ومن ذلك ، من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة . ومن ذلك ، الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن أبداً . فالآية مما نزل عاماً ودلت السنة ومواضع من التنزيل على أنها مخصصة بغيرها .

قال الإمام الشافعى فى الرسالة :

[٢٤٤] فرض الله عز وجل على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٤٥] فقال فى كتابه : رَبَّنَا وَابْتِ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

[٢٥٠] وقال : وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

فى آيات نظائرها .

قال الشافعى :

[٢٥٢] فَذَكَرَ اللَّهُ عز وجل الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٣] وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

[٢٥٤] لأن القرآن ذُكِرَ وَاتَّبَعَتْهُ الحكمة ، وَذَكَرَ اللَّهُ جل ثناؤه مِنْهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز ، والله أعلم ، أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٥] وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحثَّ على الناس اتباع أمره - فلا يجوز أن يقال لقول : فرض ، إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٦] لما وصفنا من أن الله تعالى جل ثناؤه جعل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم مقروناً بالإيمان به .

[٢٥٧] وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينة عن الله عز وجل معنى ما أراد - دليلاً على خاصه وعامه . ثم قرن الحكمة بها بكتابه ، فأتممها إياه . ولم يجعل هذا لأحد من خلقه ، غير رسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وإنما أوردنا هذا تزييفاً لزعم الخوارج أن حديث (لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)^(١) المروى في الصحيحين وغيرها ، خبر واحد . وتخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لا يجوز . كما نقله عنهم الرازي . وأورد من حججهم أن عموم الكتاب مقطوع المتن ظاهر الدلالة . وخبر الواحد مظنون المتن ظاهر الدلالة . فكان خبر الواحد أضعف من عموم القرآن . فترجيحه عليه بمقتضى تقديم الأضعف على الأقوى . وأنه لا يجوز . انتهى .

وقد توسع الرازي هنا في الجواب عن شبهتهم . ومما قيل فيه : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها مأخوذ من قوله تعالى « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » .

قال العلامة أبو السعود : ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها . فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله . وذلك متحقق في الجمع بين هؤلاء . بل أولى . فإن العممة والحالة بمنزلة الأم . فقوله ﷺ : لا تنكح المرأة الخ ، من قبيل بيان التفسير . لا بيان التغير . وقيل : هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب . وقال أيضاً : ولعل إيثار اسم الإشارة (يعني في قوله : مَاوَرَاءَ ذَلِكُمْ) المتعرض لوصف المشار إليه وعنوانه ، على الضمير المتعرض للذات فقط - لتذكير ما في كل واحدة منهن من العنوان الذي عليه يدور حكم الحرمة . فيفهم مشاركة مَنْ في معانها لمن فيها بطريق الدلالة . فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها ، وبينها وبين خالتها ، ليست بطريق العبارة ، بل بطريق الدلالة ، كما سلف . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٢٧ - باب لا تنكح المرأة على عمتها ، حديث ٢١١٢ ونصه : عن جابر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها .

وفي (تنوير الاتباس) : ويقال في قوله تعالى « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ » أن تطلبوا بأموالكم تزوجهن وهي التمتع . وقد نسخت الآن . انتهى . وسيأتى الكلام على ذلك . « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى من تمتعتم به من المنكوحات بالجماع « فَأَتُوهُنَّ » فأعطوهن « أَجُورَهُنَّ » مهورهن كاملة « فَرِيضَةً » أى من الله عليكم أن تعطوا المهر تاماً . و (فريضة) حال من الأجور . بمعنى مفروضة . أو نعت لمصدر محذوف . أى إيتاء مفروضاً . أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » لا حرج عليكم « فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ » أنتم وهن « مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها بالتراضى « إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » فيما شرع من الأحكام .

تنبيه :

حمل قوم الآية على نكاح التمتع . قالوا : معنى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى فن جامعتموهن ممن نكحتموهن نكاح التمتع ، فأتوهن أجورهن . قال الحافظ ابن كثير : وقد استدل بموم هذه الآية على نكاح التمتع . ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة . وهو رواية عن الإمام أحمد . وكان ابن عباس وأبي ابن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرؤون : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى ، فأتوهن أجورهن فريضة . وقال مجاهد : نزلت في نكاح التمتع . ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت في الصحيحين^(١) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح التمتع وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . وفي صحيح مسلم^(٢)

(١) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ - باب لحوم الحمر الإنسية ، حديث ١٩٠٨ ونصه : عن علي رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التمتع ، عام خيبر ، ولحوم حمر الإنسية .

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، ٣ - باب نكاح التمتع ، حديث ٢١ (طبعنا) .

عن الربيع بن سبرة الجهنيّ عن أبيه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ! إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء . وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة . فمن كان عنده منهن شيء فليُخَلِّ سبيله . ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . انتهى .

وفي (الكشاف) : قيل نزلت هذه الآية في المتعة . كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً . ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً . بثبوت أو غير ذلك . ويقضى منها وطره ثم يسرحها . سميت متعة لاستمتاعه بها ، أو لتمتيعه لها بما يعطيها .

وقال الخفاجيّ : روى أن سعيد بن جبير قال لابن عباس رضي الله عنهما : أتدري ما صنعت بفتواك ؟ فقد سارت بها الركبان وقيل فيها الشعر . كقوله :

قد قلت للشيخ لما طال مجلسه يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس؟

هل لك في رخصة الأطراف آنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس؟

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . والله ! ما بهذا أفيت ولا أحلت ، إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم .

وقال الإمام شمس الدين بن القيم رضوان الله عليه في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الفتح من الفقه ، ما نصه : ومما وقع في هذه الغزوة إباحة متعة النساء . ثم حرمها صلى الله عليه وسلم قبل خروجه من مكة . واختلف في الوقت الذي حرمت فيه المتعة على أربعة أقوال : أحدها - إنه يوم خيبر . وهذا قول طائفة من العلماء . منهم الشافعيّ وغيره . والثاني - إنه عام فتح مكة . وهذا قول ابن عيينة وطائفة . والثالث - إنه عام حنين . وهذا في الحقيقة هو القول الثاني - لاتصال غزاة حنين بالفتح . والرابع - إنه عام حجة الوداع . وهو وهم من بعض الرواة . سافر فيه وهمه من فتح مكة إلى حجة الوداع . وسفر الوهم من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ومن واقعة إلى واقعة ، كثيراً ما يعرض للحفاظ فمن

دونهم . والصحيح أن المتعة إنما حُرمت عام الفتح . لأنه قد ثبت في صحيح مسلم ^(١) أنهم استمتعوا عام الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه . ولو كان التحريم زمن خير لزم النسخ مرتين . وهذا لا عهدة بمثله في الشريعة البتة . ولا يقع مثله فيها . وأيضاً ، فإن خير لم يكن فيها مسلمات . وإنما كن يهوديات . وإباحة نساء أهل الكتاب لم تكن تثبت بعد . وإنما أُبْحِنَ بعد ذلك في سورة المائدة لقوله : **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ^(٢) . وهذا متصل بقوله : **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ^(٣) . وبقوله : **الْيَوْمَ يَتُيَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ** . وهذا كان في آخر الأمر بعد حجة الوداع ، أو فيها . فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة من خير . ولا كان للمسلمين رغبة في الاستمتاع . ونساء عدوهم قبل الفتح وبعد الفتح ، استرق من استرق منهم

(١) أخرجه في صحيحه في : ١٦ - كتاب النكاح ، ٣ - باب نكاح المتعة ، حديث ١٣ (طبعنا) ونصه : عن جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله ﷺ فقال : **إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا . يعني متعة النساء .**

(٢) [٥ / المائدة / ٥] ... **إِذَا عَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .**

(٣) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبَحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكَمْ فِسْقٌ ،** **الْيَوْمَ يَتُيَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

وصرن إماء المسلمين . فإن قيل : فما تصنعون بما ثبت في الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خير وعن أكل لحوم الحرم الإنسية ؟ وهذا صحيح صريح . قيل : هذا الحديث قد صحت روايته بلفظين : هذا أحدهما . والثاني الاقتصار على نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحرم الأهلية يوم خير ، هذه رواية ابن عيينة عن الزهري . قال : قال قاسم بن أصبغ : قال سفيان بن عيينة : معنى أنه نهى عن لحوم الحرم الأهلية زمن خير لاعتنا نكاح المتعة . ذكره أبو عمر في (التمهيد) ثم قال : على هذا أكثر الناس . انتهى ، فتوهم بعض الرواة أن (يوم خير) ظرف لتحريمهن فرواه : حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خير والحرم الأهلية . واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث فقال : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خير . فجاء بالغلط البين . فإن قيل : فأى فائدة في الجمع بين التحريمين إذا لم يكونا قد وقعوا في وقت واحد ؟ وأين المتعة من تحريم الحرم ؟ قيل : هذا الحديث رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه محتجاً به على ابن عمه ، عبد الله بن عباس في المسألتين . فإنه كان يبيح المتعة ولحوم الحرم . فناظره علي بن أبي طالب في المسألتين وروى له التحريمين . وقيد تحريم الحرم بزمن خير . وأطلق تحريم المتعة وقال : إنك امرؤ تائه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة وحرم لحوم الحرم الأهلية يوم خير . كما قاله سفيان بن عيينة . وعليه أكثر الناس . فروى الأمرين محتجاً عليه بهما ، لا مقيداً لهما بيوم خير . والله الموفق .

ولكن ههنا نظر آخر . وهو أنه هل حرمها تحريم الفواحش التي لا تباح بحال ، أو حرمها عند الاستغناء عنها وأباحها للمضطر ؟ هذا هو الذي نظر فيه ابن عباس وقال : أنا أباحتها للمضطر كالهيئة والدم . فلما توسع فيها من توسع ولم يقف عند الضرورة ، أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلّها ورجع عنه : وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها ويقرأ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٧ .

طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^(١) . في الصحيحين^(٢) عنه : كنا نفزو مع النبي صلى الله عليه وسلم . وليس لنا نساء فقلنا : ألا نختصي ؟ فنهانا عن ذلك فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ثم قرأ عبد الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^(٣) . وقراءة عبد الله الآية عقيب هذا الحديث تحتل أمرين : أحدهما - الرد على من يجرمها وأنه لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني - أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقاً ، وأنه معتد . فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة عند الحاجة في الفزو ، وعند عدم النساء وشدة الحاجة إلى المرأة . فمن رخص فيها في الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح العتاد فقد اعتدى والله لا يحب المعتدين . فإن قيل : فما تصنعون بما روى مسلم^(٤) في صحيحه من حديث جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لكم أن تستمتعوا (يعني متعة النساء) قيل : هذا كان زمن الفتح قبل التحريم ثم حرمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم^(٥) في صحيحه عن سلمة بن الأكوع قال : رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام أوطاس ، في المتعة ثلاثاً . ثم نهى عنها . وعام أوطاس هو وعام الفتح واحد . لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة . فإن قيل : فما تصنعون بما رواه مسلم

(١) [٥ / المائدة / ٨٧] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٩ - باب قوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، حديث ١٩٩٨ .

ومسلم في : ١٦ - كتاب النكاح ، ٣ - باب نكاح المتعة ، حديث ١١ (طبعتنا) .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٩ .

(٤) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، ٣ - باب نكاح المتعة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

في صحيحه^(١) عن جابر بن عبد الله قال : كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق ، الأيام ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر . حتى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث . وفيما ثبت عن عمر أنه قال^(٢) : تمتعان كائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا أنهى عنهما : متعة النساء ومتعة الحج ؟ قيل : الناس في هذا طائفتان : طائفة تقول : إن عمر هو الذي حرمها ونهى عنها . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع ما سنه الخلفاء الراشدون . ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سبرة بن معبد في تحريم المتعة عام الفتح . فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده . وقد تكلم فيه ابن معين . ولم ير البخاري إخراج حديثه في صحيحه مع شدة الحاجة إليه ، وكونه أصلاً من أصول الإسلام . ولو صح عنده لم يصبر عن إخراجها أو الاحتجاج به . قالوا : ولو صح حديث سبرة لم يخف على ابن مسعود حتى يروى أنهم فعلوها ويحتج بالآية . قالوا أيضاً : ولو صح لم يقل عمر : إنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنها وأعاقب عليها . بل كان يقول : إنه صلى الله عليه وسلم حرمها ونهى عنها . قالوا : ولو صح لم يفعل على عهد الصديق ، وهو عهد خلافة النبوة حقاً . والطائفة الثانية رأت صحة حديث سبرة . ولو لم يصح فقد صح حديث علي رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم متعة

(١) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، ٣ - باب نكاح المتعة ، حديث ١٦ (طبعتنا).

(٢) في المسند ، حديث رقم ٣٦٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن أبي نضرة قال : قلت لجابر بن عبد الله : إن ابن الزبير ينهى عن المتعة ، وإن ابن عباس يأمر بها ؟ قال فقال لي : على يدي جرى الحديث : تمتعنا مع رسول الله ﷺ ، ومع أبي بكر ، فلما ولي عمر خطب الناس فقال : إن القرآن هو القرآن . وإن رسول الله ﷺ هو الرسول . وإنهما كائنا ، تمتعان على عهد رسول الله ﷺ : إحداهما متعة الحج ، والأخرى متعة النساء .

النساء . فوجب حمل حديث جابر على أن الذي أخبر عنه بفعلها لم يبلغه التحريم ، ولم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر رضى الله عنه . فلما وقع فيها ظهر واشتهر . وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها ، وبالله التوفيق . انتهى .

هذا ، والذين حملوا الآية على بيان حكم النكاح قالوا: المراد من قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ » الخ أنه إذا كان المهر مقدراً بمقدار معين فلا حرج في أن تحط عنه شيئاً من المهر ، أو تبرئه عنه بالكلية ، بالتراضي ، كما تقدم . وهو كقوله تعالى « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » وقوله « إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ آؤُا يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » .

وقد روى ابن جرير^(١) عن حضرمي أن رجلاً كانوا يقرضون المهر. ثم عسى أن تُدرك أحدهم العسرة . فقال الله « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ » الخ. يعنى إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ . وأما الذين حملوا الآية على بيان المتعة ، قالوا : المراد من نفى الجناح أنه إذا انقضى أجل المتعة لم يبق للرجل على المرأة سبيل البتة . فإن قال لها: زيدينى فى الأيام وأزيدك فى الأجرة - كانت المرأة بالخيار . إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . فهذا هو المراد من قوله : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ » أى من بعد المقدار المذكور أولاً من الأجر والأجل . أفاده الرازى .

قال السدى : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى . يعنى الأجر الذى أعطاها على تمتعها بها قبل انقضاء الأجل بينهما . فقال : أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا . فإن شاء زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضى المدة . وهو قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ » قال السدى : إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل . وهى منه بريئة . وعليها أن تستبرئ ما فى رحمها . وليس بينهما ميراث . فلا يرث واحد منهما صاحبه .

(١) الأثر رقم ٩٠٤٥ (طبعة المعارف) .

قال ابن جرير الطبري : أولى التأويلين في ذلك بالصواب ، التأويل الأول . لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله ﷺ . انتهى .
قال المهايغي : ثم أشار تعالى إلى نكاح ما يستباح للضرورة كنكاح المتعة . لكنهم ضرورة مستمرة لا تنقطع بكثرة الإسلام فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ » أى لم يقدر « مِنْكُمْ » أيها الأحرار ، بخلاف العبيد ، أن يحصل « طَوْلاً » أى غنى يمكنه به « أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ » أى الحرائر المتعففات ، بخلاف الزواني . إذ لا عبرة بهن « الْمُؤْمِنَاتِ » إذ لا عبرة بالكوافر « فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى فله أن ينكح بعض ما يملكه أيمان إخوانكم « مِنْ فَتَيَاتِكُمُ » أى إمائكم حال الرق . « الْمُؤْمِنَاتِ » لا الكتابية . لأنه لا يحتمل مع عار الرق عار الكفر . وقد استفيد من سياق هذه الآية أن الله تعالى شرط في نكاح الإماء شرائط ثلاثة : اثنان منها في النكاح والثالث في المنكوحة . أما اللذان في النكاح فأحدهما أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق . وهو معنى قوله « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ »

الْمُؤْمِنَاتِ « فعدم استطاعة الطول عبارة عن عدم ما ينكح به الحرة. فإن قيل : الرجل إذا كان يستطيع الزواج بالأمة ، بقدر على الزوج بالحرة الفقيرة ، فمن أين هذا التفاوت ؟ قلنا : كانت العادة في الإماء تخفيف مهورهن ونفقتهن لاشتغالهن بخدمة السادات . وعلى هذا التقدير يظهر التفاوت . وأما الشرط الثاني فهو المذكور في آخر الآية وهو قوله « ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ » أى الزنى بأن بلغ الشدة في العزوبة. وأما الشرط الثالث المعتبر في المنكوحه ، فإن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة . فإن الأمة إذا كانت كافرة كانت ناقصة من وجهين : الرق والكفر . ولا شك أن الولد تابع للأم في الحرية والرق . وحينئذ يعلق الولد حقاً على ملك الكافر . فيحصل فيه نقصان الرق ونقصان كونه ملكاً للكافر . وما ذكرناه هو المطابق لمعنى الآية . ولا يخلو ما عداه عن تكلف لا يساعده نظم الآية .

قال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ كان نكاح الأمة منحصراً عن نكاح الحرة ؟ قلت : لما فيه من اتباع الولد الأم في الرق ، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها . ولأنها ممتحنة مبتدلة خراجة ولاجة . وذلك كله نقصان راجع إلى النكاح ، ومهانة . والعزة من صفات المؤمنين . وسيأتى مزيد لهذا عند قوله تعالى « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » وقوله تعالى « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ » إشارة إلى أنه لا يشترط الاطلاع على بواطنهن . بل يكفي بظاهر إيمانهن . أى فاكتموا بظاهر الإيمان . فإنه تعالى العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان . فرب أمة تفضل الحرة فيه . وقوله تعالى « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » اعتراض آخر جىء به لتأنيسهم بنكاح الإماء حالئذ . أى أنتم وأرقاؤكم متناسبون ، نسبكم من آدم ودينكم الإسلام « فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » أى مواليهن لا استقلالاً . وذلك لأن منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له « وَءَاتُوهُنَّ » أعطوهن « أَجُورَهُنَّ » أى مهورهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بلا مظل وضرار وإلجاء إلى الاقتضاء . واستدل الإمام مالك بهذا على أنهن أحق بمهورهن . وأنه لا حق فيه للسيد .

وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد . وإنما أضافها إليهن لأن التادية إليهن ، تاديةٌ إلى سيدهن لكونهن ماله « مُحْصَنَاتٍ » حال من مفعول (فَانْكِحُوهُنَّ) أى حال كونهن عفاف عن الزنى « غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ » حال مؤكدة . أى غير زانيات بكل من دعاهن « وَلَا مُتَخَذَاتٍ أَخْدَانٍ » أى أخلة يتخصصن بهم فى الزنى . قال أبو زيد : الأخدان الأصدقاء على الفاحشة . والواحد خدن وخدين . وقال الراغب : أكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة نفسانية . ومن لطائف وقوع قوله تعالى : مُحْصَنَاتٍ . الخ . إثر قوله : وَءَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ - الإشعار بأنهن لو كن إحدى هاتين ، فلكن المناقشة فى أداء مهورهن ليفتدين نفوسهن « فَإِذَا أَحْصِنَ » أى بالتزويج . وقرئ على البناء للفاعل أى أحسن فروجهن أو أزواجهن « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ » أى فعلن فاحشة وهى الزنى « فَعَلَيْهِنَّ » أى فثابت عليهن شرعاً « نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ » أى الحرائر « مِنَ الْعَذَابِ » أى من الحد الذى هو جلد مائة . فنصفه خمسون جلدة . لا لالرجم . قال المهايى : لأنهن من أهل المهانة . فلا يفيد فيهن المبالغة فى الجزر .

تنبيه :

قال ابن كثير : مذهب الجمهور أن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة . سواء كانت مسلمة أو كافرة . مزوجة أو بكراً . مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك . فأما الجمهور فقالوا : لاشك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة فى إقامة الحد على الإماء . فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك ما رواه مسلم^(١) فى صحيحه عن على رضى الله عنه أنه خطب فقال : يا أيها الناس أقيموا على أرقامكم الحد من أحسن منهن ومن لم يحصن : فإن أمةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت . فأمرنى أن أجلدها . فإذا هى حديث عهد بنفاس . فخشيت ، إن أنا جلدها ، أن أقتلها .

(١) أخرجه فى : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٣٤ (طبعنا) .

فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : أحسنت : أتركها حتى تمأكل . وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه (فإذا تعافت من نفاسها فاجلدوها خمسين) . وعن أبي هريرة^(١) قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليعبها ولو بجبل من شعر . ولمسلم^(٢) : إذا زنت ثلاثاً . ثم ليعبها في الرابعة . وروى مالك^(٣) عن عبد الله بن عياش الخزومي قال : أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قریش فجلدنا ولأئد من ولأئد الإمارة خمسين خمسين ، في الزنى .

الجواب الثاني - جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلاحد عليها . وإنما تضرب تأدياً . وهو المحكي عن ابن عباس رضى الله عنه . وإليه ذهب طاوس وسعيد ابن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن علي الظاهري (في رواية عنه) وعمدتهم مفهوم الآية . وهو من مفاهيم الشرط . وهو حجة عند أكثرهم . فقدم على العموم عندهم . وحديث^(٤) أبي هريرة وزيد بن خالد : أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟ قال : إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم يبيعوها ولو بضيف . قال ابن شهاب : لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة ، أخرجه في الصحيحين .

وعند مسلم ، قال ابن شهاب : الضيفر الحبل . قالوا فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة ،

(١) أخرجه البخاري في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ١١٠ - باب بيع المدبر ، حديث ١٠٨٨ ومسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٣٠ (طبعنا) .

(٢) مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٣١ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في : ٤١ - كتاب الحدود ، حديث ١٦ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣٥ - باب إذا زنت الأمة ،

حديث ١٠٨٨ و١٠٨٩

وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات . فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك . والله أعلم .

وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس مرفوعاً : ليس على أمة حد حتى تحصن . يعني تزوج . فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات . ورواه ابن خزيمة مرفوعاً أيضاً . وقال : رفعه خطأ . إنما هو من قول ابن عباس . وكذا رواه البيهقي ، وقال مثل قول ابن خزيمة .

قالوا : وحديث علي وعمر قضيا أعيان . وحديث أبي هريرة عنه أجوبة : أحدها - إن ذلك محمول على الأمة المزووجة ، جمعاً بينه وبين هذا الحديث . الثاني - أن لفظة الحد في قوله : فليقم عليها الحد ، مقحمة من بعض الرواة . بدليل . الجواب الثالث - وهو أن هذا من حديث صحابين وذلك من رواية أبي هريرة فقط . وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضاً فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم من حديث عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بديراً : إن رسول الله ﷺ قال : إذا زنت الأمة فاجلدوها . ثم إذا زنت فاجلدوها ثم إذا زنت فاجلدوها . ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضمير . الرابع - أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ (الحد) في الحديث على (الجلد) . لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه جلد . أو أنه أطلق لفظ (الحد) على التأديب . كما أطلق (الحد) على ضرب من زنى من المرضى بعشكال نخل فيه مائة شراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها ، مائة . وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه . كأحمد وغيره من السلف . وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة ورجم الثيب ، انتهى . وله تنمة سابقة .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : وحكم في الأمة إذا زنت ولم تحصن بالحد . وأما قوله تعالى في الإماماء : فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، فهو نص في أن حدها بعد التزويج نصف حد الحرة من الجلد . وأما قبل التزويج فأمر بجلدها . وفي هذا الحد قولان :

أحدها - أنه الحد . ولكن يختلف الحال قبل التزويج وبعده . فإن للسيد إقامته قبله .
وأما بعده فلا يقيمه إلا الإمام .

والقول الثاني - إن جلدّها قبل الإحصان تعزيرٌ لا حدٌّ . ولا يبطل هذا ما رواه مسلم^(١) .
بني صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، يرفعه: إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يعيرها،
ثلاث مرات. فإن عادت في الرابعة فليجلدها وليعيرها ولو بضعير (وفي لفظ فليضربها بكتاب
الله) وفي صحيحه أيضاً^(٢) من حديث عليّ كرم الله وجهه إنه قال : أيها الناس ! أقيموا على
تأرقائكم الحد . من أحصن منهن ومن لم يحصن . فإن أمة رسول الله ﷺ زنت فأمرني أن
أجلدها . الحديث .

فإن التعزير يدخل فيه لفظ (الحد) في لسان الشارع . كما في قوله ﷺ : لا يضرب
فوق عشرة أسواط إلا في حدٍّ من حدود الله تعالى . وقد ثبت التعزير بالزيادة على العشرة جنساً
وقدرًا، في مواضع عديدة لم تثبت نسخها ولم تجتمع الأمة على خلافها . وعلى كل حال، فلا بد
أن يخالف حالها بعد الإحصان حالها قبله . وإلا لم يكن للتقييد فائدة . فإما أن يقال قبل
الإحصان : لا حد عليها ، والسنة الصحيحة تبطل ذلك . وإما أن يقال : حدّها قبل الإحصان
حد الحرة، وبعده نصفه ، وهذا باطل قطعاً ، يخالف لقواعد الشرع وأصوله . وإما أن يقال :
حدّها قبل الإحصان تعزير، وبعده حدٌّ ، وهذا أقوى . وإما أن يقال : الافتراق بين الحالين

(١) الذي في صحيح مسلم هو ما روينا عنه بالحاشية رقم ٢١ و ١١٩٧ . وجاء فيه أيضاً
ما يأتي :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟ قال « إن زنت
فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم يعيها ولو بضعير » .

أخرجه في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٣٢ (طبعنا) فن أين هذا النص الوارد
في الكتاب ؟

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٩٦ .

في إقامة الحد لا في قدره وإنه في إحدى الحالتين للسيد وفي الأخرى للإمام . وهذا أقرب .
ما يقال .

وقد يقال: إن تنصيبه على التنصيف بعد الإحصان لثلاثتهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف ويصير حدها حد الحرة . كأن الجلد عن البكر يزال بالإحصان وانتقل إلى الرجيم ، فبقى على التنصيف في أكل حالتها وهي الإحصان ، تنبها على أنه إذا اكتفى به فيها في ما قبل الإحصان أولى وأحرى . والله أعلم « ذَلِكَ » أى إباحة نكاح الإماء « لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ » أى المشقة في التحفظ من الزنى « مِنْكُمْ » أيها الأحرار « وَأَنْ تَصِرُوا » على تحمل تلك المشقة متعفين عن نكاحهن « خَيْرٌ لَكُمْ » من نكاحهن ، وإن سبقت كلمة الرخصة ، لما فيه من تعريض الولد للرق . قال عمر رضى الله عنه : أيما حرّ تزوج بأمة فقد أرقّ نصفه . ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرّ ، ولأن المولى يقدر على استخدامها كيف يريد في السفر والحضر ، وعلى بيعها للحاضر والبادى . وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه . ولأنها ممتنة مبتدلة خراجة ولأجرة . وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى النكاح . والعزة هي اللاتقة بالمؤمنين . ولأن مهرها لمولاهها . فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج . فلا ينتظم أمر المنزل . كذا حرره أبو السعود . وقد قيل :

إذا لم يكن في منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

قال في (الإكليل) : في الآية كراهة نكاح الأمة عند اجتماع الشروط . بقوله تعالى : وَأَنْ تَصِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ

عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يُرِيدُ اللَّهُ » أى في تحريم ما حرم من النساء وتحليل ما أحل بالشرائط « لِيُبينَ »

لَكُمْ « أَى شرائعه » وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ « أَى يرشدكم إلى طرائق مَنْ تقدم من أهل الكتاب فى تحريم ما حرمه ، لتأسوا بهم فى اتباع شرائعه التى يحبها ويرضاها . وفى الآية دليل على أن كل ما بينَ تحريمه لنا من النساء ، فى الآيات المتقدمة ، فقد كان الحكم كذلك فى الملة السابقة .

وقد قرأت فى سفر الأخبار اللاويين ، من التوراة ، فى (الفصل الثامن عشر) ما يؤيد ذلك . عدا ما رفعه تعالى عنا من ذلك مما فيه حرج « وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ » أَى يتجاوز عنكم ما كان منكم فى الجاهلية ، أو يرجع بكم عن معصيته التى كنتم عليها إلى طاعته « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أَى فيما شرع لكم من الأحكام « حَكِيمٌ » مراعى فى جميع قضائه الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

« وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ » أَى من المآثم والمحارم . أَى يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحب ويرضى . وفيه بيان كمال منفعة ما أَراده الله تعالى ، وكال مضرة ما يريده الفجرة . كما قال سبحانه « وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ » أَى ما حرمه الشرع ، وهم الزناة « أَنْ تَمِيلُوا » عن الحق بالمعصية « مَيْلًا عَظِيمًا » يعنى بإتيانكم ما حرم الله عليكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

« يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ » أَى فى شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم . ولهذا أباح نكاح الإماء بشروطه . ونظير هذا قوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ^(١) . وقوله : مَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ^(٢) . « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا » أى عاجزاً عن دفع دواعى شهواته . فناسبه التخفيف لضعف غزمه وهيمته وضعفه فى نفسه . فالجمله اعتراض تذييل مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف فى أحكام الشرع . وفى (الإكليل) : قال طاووس : ضعيفاً أى فى أمر النساء لا يصبر عنهن . وقال وكيع : يذهب عقله عندهن . أخرجهما ابن أبى حاتم . ففيه أصل لما يذكره الأطباء من منافع الجماع . ومن مضار تركه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم » أى لا يأكل كل بعضكم أموال بعض « بِالْبَاطِلِ » أى بآلئ تبحه الشريعة كالربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة ،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

وما جرى مجرى ذلك من صنوف الحيل « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً » أى معارضة محضة كالبيع « عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » فى المحاباة من جانب الآخذ والمأخوذ منه . وقرئ (تجارة) بالرفع على أن (كان) تامة ، وبالنصب على أنها الناقصة . والتقدير : إلا أن تكون المعاملة أو التجارة أو الأموال ، تجارة .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية تحريم أكل المال الباطل بغير وجه شرعى . وإباحة التجارة والربح فيها . وأن شرطها التراضى . ومن ههنا أخذ الشافى رحمه الله اعتبار الإيجاب والقبول لفظاً . لأن التراضى أمر قلبى فلا بد من دليل عليه . وقد يستدل بها من لم يشترطهما إذا حصل الرضا . انتهى .

أى لأن الأقوال ، كما تدل على التراضى ، فكذلك الأفعال تدل فى بعض المحال قطعاً . فصح بيع المعاوضة مطلقاً .

وفى (الروضة الندية) : حقيقة التراضى لا يعلمها إلا الله تعالى . والمراد ههنا أمارته . كالإيجاب والقبول ، وكالتعاطى عند القائل به ، وعلى هذا أهل العلم . لكونه لم يرد ما يدل على ما اعتبره بعضهم من ألفاظ مخصوصة ، وأنه لا يجوز البيع بغيرها . ولا يفيدهم ماورد فى الروايات من نحو : (بعت منك وبعثك) فإننا لا ننكر أن البيع يصح بذلك . وإنما النزاع فى كونه لا يصح إلا بها . ولم يرد فى ذلك شئ . وقد قال الله تعالى : تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ . فدل ذلك على أن مجرد التراضى هو المناط . ولا بد من الدلالة عليه بلفظ أو إشارة أو كتابة ، بأى لفظ وقع ، وعلى أى صفة كان وبأى إشارة مفيدة ، حصل . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » فيه وجهان : الأول - أن المعنى لا تقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين . فإن كلهم كنفس واحدة . والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم ، بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل . والثانى - النهى عن قتل الإنسان نفسه . وقد احتج بهذه الآية عمرو بن العاص على مسألة التيمم للبرد . وأقره النبى صلى الله عليه وسلم

على احتجاجه. كما رواه الإمام أحمد وأبو داود. ولفظ أحمد^(١) عن عمرو بن العاص أنه قال : لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد . فأشفقت ، إن اغتسلت ، أن أهلك . فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح . قال فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له . فقال : يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ قال قلت: نعم يا رسول الله! إني احتلمت في ليلة باردة ، شديدة البرد . فأشفقت ، إن اغتسلت ، أن أهلك . وذكرت قول الله عز وجل : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . فتيمنت ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً .

وهكذا أورده أبو داود^(٢) . قال ابن كثير وهذا، أى المعنى الثانى ، والله أعلم، أشبه بالصواب . وقد توافرت الأخبار فى النهى عن قتل الإنسان نفسه والوعيد عليه .

روى الشيخان^(٣) وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا . ومن تحسّى سمًا فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٤ - باب إذا خاف الجنب البرد أيتيم؟ حديث ٣٣٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب الطب ، ٥٦ - باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه ، حديث ٧٢١ .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧٥ (طبعتنا) .

ورد فى البخارى : يجأ ، وفى مسلم : يتوجأ (ومعناه يطعن) .

وأخرج الشيخان^(١) عنه رضى الله عنه قال : شهدنا خير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرجل ممن معه يدعى الإسلام : هذا من أهل النار .

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة . فكاد بعض الناس يرتاب . فوجد الرجل ألم الجراحة . فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه . فاشتد رجال من المسلمين فقالوا : يا رسول الله ! صدق الله حديثك . انتحر فلان قتل نفسه . فقال : قم ، يا فلان ، فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن . إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر . وهذا لفظ البخارى .

وروى أبو داود^(٢) عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : أخبر النبي ﷺ برجل قتل نفسه فقال : لا أصلى عليه .

وفي الصحيحين^(٣) من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح . فجزع فأخذ سكيناً فحز بها يده . فما رقا الدم حتى مات . قال الله عز وجل : بادرنى عبدي بنفسه ، حرمت عليه الجنة . ولهذا قال تعالى :

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٨ - باب غزوة خيبر ، حديث ١٤٥١ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧٨ (طبعتنا) وفيه : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنيناً . وقال القاضى عياض : صوابه خير .

(٢) الحديث لم أجده في سنن أبي داود . ووجدته في صحيح مسلم في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) ونصه : عن جابر بن سمرة قال : أتى النبي ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص (والمشاقص سهام عراض ، واحدها مشقص) فلم يصل عليه .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث ٧٢٠ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٨٠ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا أَنَا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ،

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ » أى القتل « عُدُوًّا أَنَا وَظُلْمًا » أى متعمداً فيه ، ظالماً فى تعامله ، أى عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه « فَسَوْفَ نُصْلِيهِ » أى ندخله « نَارًا » أى هائلة شديدة العذاب « وَكَانَ ذَلِكَ » أى إصلاؤه النار « عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » هيناً عليه ، لا عسر فيه ولا صارف عنه . لأنه تعالى لا يعجزه شئ .

قال النسفى : وهذا الوعيد فى حق المستحل للتخليد . وفى حق غيره ، لبيان استحقيقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)

« إِنْ تَجْتَنِبُوا » أى تتركوا « كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ » أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها ، مما ذكر ههنا ومما لم يذكر « نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » أى صفائر ذنوبكم ، ونعفها عنكم ، وندخلكم الجنة . كما قال تعالى « وَنُدْخِلَكُمْ » فى الآخرة « مُدْخَلًا كَرِيمًا » أى حسناً وهى الجنة . و (مدخلًا) قرئ بضم الميم ، اسم مكان أو مصدر ميمى . أى إدخالاً مع كرامة . وبفتح الميم ، وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر . وفى الآية دليل على أن الصفائر تكفر باجتنب الكبائر . وردُّ على من قال : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنه لا صغيرة .

قال الإمام ابن القيم فى (الجواب الكافى) : قد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة ،

والتابعين بعدهم ، والأئمة ، على أن من الذنوب كبائر وصغائر . قال الله تعالى : **إِنْ تَجَتَبَوُا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** . وقال تعالى : **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ**^(١) . وفي الصحيح^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات : إحداها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها . بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية . الثانية - أن تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شيء من الكبائر . الثالثة - أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفيرها بعض الكبائر . فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة .

وفي الصحيح^(٣) عنه عليه السلام أنه قال : **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟** قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : **الإشراك بالله وعقوق الوالدين** . وجلس وكان متكئاً فقال : **أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ (ثلاثاً)** .

وروى في الصحيح^(٤) عنه عليه السلام : **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ** قالوا : وما هن ؟ يا رسول الله !

(١) [٥٣ / النجم / ٣٢] ونصها : **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ١٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه ، في : ٥٢ - كتاب

الشهادات ، ١٠ - باب ما قيل في شهادة الزور ، حديث ١٢٩١ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٢٣ - باب قول الله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ، حديث ١٣٢٥ وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٥ (طبعنا) .

قال : الإِشْرَاقُ باللهِ والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وفي الصحيح^(١) عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب عند الله أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندًا وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك . قال : وزلت هذه الآية تصديقًا لقول رسول الله ﷺ : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^(٢) الآية .

ثم ساق الخلاف في تعدادها . اهـ

وعندى أن الصواب هو الوقوف في تعدادها على ما صحت به الأحاديث . فإن رسول الله ﷺ مبين لكتاب الله عز وجل ، أمين على تأويله . والمرجع في بيان كتاب الله تعالى إلى السنة الصحيحة . كما أن المرجع في تعريف الكبيرة إلى العدد دون ضبطها بحد . كما تسكفه جماعة من الفقهاء ، وطالت المناقشة بينهم في تلك الحدود . وإن منها ما ليس جامعًا . ومنها ما ليس مانعًا . فكله مما لا حاجة إليه بعد ورود صحاح الأخبار في بيان ذلك .

وقد ساق الحافظ ابن كثير ههنا جملة وافرة منها وجود النقل عن الصحابة والسلف والتابعين . فانظره فإنه نفيس .

ثم نهى تعالى عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من المال ونحوه ، مما يجرى فيه التنافس بقوله :

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٥ - سورة الفرقان ، ٢ - باب

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤١ و ١٤٢ (طبعنا) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] . . . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا »
أى أصابوا وأحرزوا « وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ » أى أصبن وأحرزن. أى لكل فريق نصيب مما اكتسب في نعيم الدنيا قبضاً أوبسطاً، فينبغي أن يرضى بما قسم الله له .

وقد روى الإمام أحمد عن مجاهد أن أم سلمة قالت: يارسول الله يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزله الله تعالى: وَلَا تَتَمَنَّوْا الْآيَةَ. ورواه الترمذى^(١) وقال: غريب. ورواه الحاكم في مستدركه وزاد: ثم أنزل الله^(٢): أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى. الآية فإن صح هذا فالعنى: لكل أحد قدر من الثواب يستحقه بكماله الله ولطفه. فلا تتمنوا خلاف ذلك. ولا مانع من شمول الآية لما يتعلق بأحوال الدنيا والآخرة. فإن اللفظ محتمل. ولا منافاة. والله أعلم « وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » أى من خزائن نعمه التى لا نفاد لها . وقد روى الترمذى^(٣) وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - حدثنا ابن أبى عمر .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا أَكْفُرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١١٥ - باب في انتظار الفرج وغير ذلك .

سلوا الله من فضله . فإن الله عز وجل يحب يُسأل . وأفضل العبادة انتظار الفرج . «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» ولذلك جعل الناس على طبقات رفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية . قاله أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

«وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» أى : ولكل شئ مما ترك الوالدان والأقربون من المال جعلنا ورثة وعصبة يلونه ويحرزونه . وهم يرثونه . دون سائر الناس . كما ثبت في الصحيحين^(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما بق فهو لأولى رجل ذكر . أى اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض . فما بق بعد ذلك فأعطوه للعصبة . ف (مما) تبين ا (كل) .

قال ابن جرير : والعرب تسمى ابن العم مولى . كما قال الفضل بن العباس^(٢) : مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا لا يظهرن بيننا ما كان مدفونا

(١) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٥ - باب ميراث الولد من أبيه وأمه . وأخرجه مسلم في : ٢٣ - كتاب الفرائض ، حديث ٢ (طبعنا) .

(٢) البيت مطلع حماسية أبى تمام الخامسة والخمسين ونصه :

مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

قال المرزوقى : المهمل والمهمل والمهله تتقارب فى أداء معنى الرفق والسكون . ويقال :

لا مهل لك ، ومالك من مهل .

يقول : رفقا يا بنى عمنا ، رفقا موالينا . وهذا التكرار يريد به التأكيد . ويجوز =

وفي (القاموس) و (شرحه تاج العروس) : والمولى : القريب كابن العم ونحوه . قال ابن الأعرابي : ابن العم مولى . وابن الأخت مولى . وقول الشاعر^(١) :

هم المولى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزور

قال أبو عبيدة : يعنى الموالى ، أى بنى العم . وقال اللّهبىّ يخاطب بنى أمية :

مهلاً بنى عمنا ، مهلاً موالينا امشوا رويداً كما كنتم تكونونا

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » مبتدأ ضمن معنى الشرط فوق خبره مع الفاء وهو قوله « فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ » ويقرأ (عاقدت) بالالف . والمفعول محذوف أى عاقبتهم .

ويقرأ بغير ألف والمفعول محذوف أيضاً هو والعائد . تقديره عقدت حلفهم أيمانكم . والمقد الشدّ والربط والتوكيد والتغليظ . ومنه : عقد العهد يعقده : شده . والأيمان جمع يمين إما بمعنى اليد اليمنى لوضعهم الأيدي فى العهود ، أو بمعنى القسم وهو الأظهر ، لأن العقد خلاف النقض . وقد جاء مقروناً بالحلف فى قوله تعالى : وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا^(٢) .

= أن يكون هذا الكلام تهكماً . ويجوز أن يكون رآهم ابتدؤا فى أمر لم يأمن معه ، من تفاقم الشأن واستفحال الخطب ، ما لا يقدر معه على تلافيه ، فاسترقفهم لذلك .

وقوله « لا تنبشوا » أى لا تثيروا ما كان مستوراً من السرّ . وذكر الدفن والنبش استعارة فى الإظهار والكتمان .

(١) قال فى اللسان (١٥ / ٤٠٨ بيروت) قائله عامر الخصىّ من بنى خصفة . قال أبو عبيدة : يعنى الموالى أى بنى العم ، وهو كقوله تعالى : [٤٠ / ٦٧] ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . قال الطبرىّ (٤٠٥ / ٣) : جنف الرجل على صاحبه يحنف ، إذا مال عليه وجار ، جنفا . وقال محققه محمود محمد شاكر : وزور جمع أزور ، وهو المائل عن الشىء . يقول : هم أبناء عمنا ونحن نكره أن نلاقهم فنقاتلهم ، لما لهم من حق الرحم .

(٢) [١٦ / النحل / ٩١] ونصّها : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

وفى قوله : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ^(١). وفى هذه الآية محامل كثيرة ووجوه للسلف والخلف . أظهرها لسلف المفسرين رضوان الله عليهم . وهو أن المعنى بالموصول ، الحلفاء . وهو المروى عن ابن عباس فى البخارى كما سيأتى : قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والحسن وابن المسيب وأبى صالح وسليمان بن يسار والشعبى وعكرمة والسدى والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان ، أنهم قالوا : هم الحلفاء . انتهى .

وزاد أيضا : على ابن أبى طلحة .

وكان الحلفاء يرثون السدس من محالفيهم . وروى الطبرى^(٢) من طريق قتادة : كان الرجل يعاقد الرجل فى الجاهلية فيقول : دى دمك . وترثنى وأرثك . وتطلب بى وأطلب بك . فلما جاء الإسلام بقى منهم ناس . فأمروا بأن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس . ثم نسخ ذلك بالميراث ، فقال (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) .

ولذا قال سعيد بن جبير : فأوتوهم نصيبهم من الميراث . قال : وعاقدا أبو بكر مولى فورثه . قال الزمخشري : والمراد . (بالذين عاقدت أيمانكم) موالى الموالاة . كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دى دمك . وهدى هدمك . ونارى نارك . وحربى حربك . وسلمى سلمك . وترثنى وأرثك . وتطلب بى وأطلب بك . وتعقل عنى وأعقل عنك . فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف . انتهى .

(١) [٥ / المائدة / ٨٩] ... فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٧٠

وعلى هذا ، فعنى الآية : والذين عاقدتموهم على المؤاخاة والموالاته ، وتحالفتم بالآيمان المؤكدة أنتم وهم على النصر والإرث ، قبل نزول هذه الآية ، فآتوهم نصيبهم من الميراث وفاء بالعقود والعهود . إذ وعدتموهم ذلك في الآيمان المغلظة .

وروى ابن أبي حاتم : كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول . وترثني وأرثك . وكان الأحياء يتحالفون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل حلف في الجاهلية ، أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده الإسلام إلا شدة . ولا عقد ولا حلف في الإسلام .

وروى الإمام أحمد ومسلم^(١) والنسائي عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة . وروى الإمام أحمد^(٢) عن قيس بن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف ؟ قال فقال : ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به . ولا حلف في الإسلام . ورواه أيضا^(٣) عن عمرو

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٩٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) وحديث ١٦٥٥ (طبعة المعارف) ونصه :

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال : شهدت حلف المطييين مع عمومتى وأنا غلام . فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته .

قال الزهري : قال رسول الله ﷺ « لم يصب الإسلام حلفا إلا زاده شدة ، ولا حلف في الإسلام » وقد ألف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٢٠٦ (طبعتنا) ونصه : عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية ، لم يزد الإسلام إلا شدة » .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٦١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) حديث رقم ٦٩١٧ (طبعة المعارف) ونصه :

« كل حلف في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة ، ولا حلف في الإسلام » .

ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح ، قام خطيباً في الناس ، فقال : يا أيها الناس ! ما كان من حلف في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة . ولا حلف في الإسلام .

قال ابن الأثير : الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ : لا حلف في الإسلام . وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه ﷺ : وأما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا ، أي التوارث بالحلف ، في ابتداء الإسلام . ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاهدوا ولا ينشئوا بعد هذه الآية معاقدة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ » فكان الرجل قبل الإسلام يعاهد الرجل ويقول : وترثني وأرثك . كان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ : كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده إلا شدة . ولا عقد ولا حلف في الإسلام . فنسخها هذه الآية : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ^(١) .

وروى أبو داود ^(٢) عن ابن عباس في هذه الآية : كان الرجل يحالف الرجل و ليس بينهما

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه في : ١٨ - كتاب الفرائض ، ١٦ - باب نسخ ميراث العقد بميراث الرحم ،

حديث ٢٩٢١ .

نسب . فبرث أحدهما الآخر . فنسخ ذلك في الأنفال فقال : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ، الْآيَةِ .**

وروى ابن جرير^(١) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر . فأنزل الله تعالى : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا .** يقول : إلا أن توصوا لأوليائهم الذين عاقدوا ، وصية . فهو لهم جاز من ثلث مال الميت . وذلك هو المعروف . وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ، الْآيَةِ .**

أقول : على ما ذكر ، تكون الآية محكمة في صدر الإسلام ، منسوخة بعده : وثمت وجه آخر فيها . وهو أنها ناسخة لميراث الحليف بتأويل آخر . وهو ما رواه البخاري^(٢) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : **(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا) ورثة (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) .** كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى دون ذوى رحمة ، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم . فلما نزلت **« وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا »** نسخت : ثم قال : **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ .** من النصر والرفادة والنصيحة . وقد ذهب الميراث ويوصى له .

وقد فهم بعضهم من هذا الأثر أن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل ، وحكم الحلف الماضي أيضاً . وأنه لا توارث به . والصحيح ما أسلفناه من ثبوت التوارث بالحلف السابق على نزول الآية في ابتداء الإسلام ، كما حكاه غير واحد من السلف . وكما قال ابن عباس : كان المهاجرون يرث الأنصارى دون ذوى رحمة حتى نسخ ذلك .

وقد حاول الحافظ ابن حجر في (فتح الباري)^(٣) الجمع بين الروايات المتقدمة ورواية

(١) الأثر رقم ٩٢٦٨

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٧ - باب **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا** مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... الآية .

(٣) انظر الجزء الثامن ، ص ١٨٦ و ١٨٧ (طبعة بولاق) .

البخارى بإحتمال أن يكون النسخ وقع مرتين : الأولى - حيث كان المعاهد يرث وحده دون العصابة ، فنزلت : **وَلِكُلِّ جَعَلْنَا** . فصاروا جميعاً يرثون . ثم نسخ ذلك آية الأحزاب وخص الميراث بالعصابة وبقي للمعاهد النصر والإرثاد ونحوها . والله أعلم .

هذا وثمة روايات أخر في سبب نزولها . منها ما روى أبو داود^(١) وابن أبي حاتم عن داود ابن الحصين . قال : كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع . وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقرأت : **وَالَّذِينَ عَاقَدْتُ أَيْمَانُكُمْ** . فقالت : لا نقرأ هكذا ولكن : **وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَانُكُمْ** . إنما أنزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن رضي الله عنهما حين أبي الإسلام . خلف أبو بكر لا يورثه . فلما أسلم أمره الله تعالى أن يورثه نصيبه .

ومنها ما روى ابن جرير^(٢) عن الزهري عن ابن المسيب قال : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم يورثونهم . فأنزل الله فيهم . فجعل لهم نصيباً في الوصية ورد الميراث إلى المولى في ذى الرحم والعصابة . وأبي الله أن يكون للمدعّين ميراثاً ممن ادعاهم وتبناهم . ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية .

واعلم أن هذه الوجوه السلفية المروية في نزول الآية ، كلها مما تصدق عليها الآية وتشملها وينطبق حكمها عليها : ولا تنافي بينها . لما أسلفناه في مقدمة التفسير . فراجعها ولا تغفل عنها . هذا ولأبي على الجبائي تأويل آخر في الآية . قال : تقدير الآية : ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون والذين عاقدت أيمانكم موالى ، ورثة ، فآتوهم نصيبهم . أى فآتوا الموالى والورثة نصيبهم . فقوله : **وَالَّذِينَ عَاقَدْتُ أَيْمَانُكُمْ** . معطوف على قوله : **وَالْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ** . والمعنى : إن ما ترك الذين عاقدت أيمانكم فله وارث هو أولى به . وسمى الله تعالى الوارث مولى . والمعنى : لا تدفعوا المال إلى الخليف بل إلى المولى والوارث .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٨ - كتاب الفرائض ، ١٦ - باب نسخ ميراث العقد

بميراث الرحم ، حديث ٢٩٢٣ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٨٨ .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : المراد بـ (الَّذِينَ عَاقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ) الزوج والزوجة . والنكاح يسمى عقدا . قال تعالى : وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ^(١) . فذكر تعالى الوالدين والأقربين وذكر معهم الزوج والزوجة . ونظيره آية الموارث ، في أنه لما بين ميراث الولد والوالدين ، ذكر معهم ميراث الزوج والزوجة .

أقول : هذا التأويل المذكور وما قبله طريقة من لا يقف مع الآثار السلفية في التفسير . ويرى مزاحمتهم في الاجتهاد في ذلك . ذهاباً إلى أن ما لم يتواتر في معنى الآية ، من خبر أو إجماع ، فلاحجة في الروى منه آحاداً ، مرفوعاً أو موقوفاً ، وإن صح . وهذه الطريقة سبيل طائفة قصّرت في علم السمع وأقلت البحث عنه . فنشأ من ذلك النقص من الدين والزيادة فيه بالرأى المحض .

ومذهبنا أن لا غنى عن الرجوع إلى تفسير الصحابة رضي الله عنهم . لما ثبت من الثناء عليهم في الكتاب والسنة . ولأن القرآن أنزل على لغتهم . فالغلط أبعد عنهم من غيرهم . لاسيما تفسير حبر الأمة وبجرها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . فمضى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجاهير . لوجوه متعددة : منها أنه رضي الله عنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار وفي رواية (بغير علم) رواه أبو داود في العلم ، والنسائي والترمذي ^(٢) . فإذا جزم رضي الله عنه بأمر كان دليلاً على رفعه . كما أسلفنا في المقدمة . « إن

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] ونصها : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

(٢) رواه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١ - باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه .

عنه عن النبي ﷺ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ « من الأشياء التي من جملتها الإتياء والمنع » شَهِيدًا » أَيْ عَالِمًا . ففِيهِ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا)

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » جمع قوام ، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب . أَيْ مَسْلُطُونَ عَلَى أَدَبِ النِّسَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهِنَّ ، آمِرِينَ نَاهِينَ ، قِيَامُ الْوَلَاةِ عَلَى الرِّعَايَةِ . وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ : وَهَبِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . أَشَارَ لِلأَوَّلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى « بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » وَالضَّمِيرُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا . يَعْنِي إِنَّمَا كَانُوا مَسْطَرِينَ عَلَيْهِنَّ بِسَبَبِ تَفْضِيلِ اللَّهِ بَعْضَهُمْ ، وَهُمْ الرِّجَالُ ، عَلَى بَعْضٍ ، وَهُمْ النِّسَاءُ . وَقَدْ ذَكَرُوا ، فِي فَضْلِ الرِّجَالِ ، الْعَقْلَ وَالْحِزْمَ وَالْعِزْمَ وَالْقُوَّةَ وَالْفُرُوسِيَّةَ وَالرِّمَى . وَإِنْ مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَفِيهِمُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَالْجِهَادُ وَالْأَذَانُ وَالْخُطْبَةُ وَالشَّهَادَةُ فِي مَجَامِعِ الْقَضَايَا وَالْوَلَايَةُ فِي النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ وَعَدَدُ الْأَزْوَاجِ وَزِيَادَةُ السَّهْمِ وَالتَّعْصِيبُ . وَهُمْ أَصْحَابُ اللَّحَى وَالْعَائِمُ . وَالْكَامِلُ بِنَفْسِهِ لَهُ حَقُّ الْوَلَايَةِ عَلَى النَّاقِصِ . وَأَشَارَ لِلثَّانِي بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » فِي مَهْوَرِهِنَّ وَنَفَقَاتِهِنَّ فَصَرْنَهُنَّ كَالْأَرْقَاءِ . وَلَكُونِ الْقَوَّامِينَ فِي مَعْنَى السَّادَاتِ وَجِبَتْ عَلَيْهِنَّ طَاعَتُهُمْ . كَمَا يَجِبُ عَلَى الْعَبِيدِ طَاعَةَ السَّادَاتِ ، وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ . أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَامْرَأَةٍ . فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ زَوْجَهَا فَلَانَ بَنَ فَلَانَ الْأَنْصَارِيَّ . وَإِنَّهُ ضَرَبَهَا فَأَثَرٌ فِي وَجْهِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ .

فأنزل الله تعالى : الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ . في الأدب . فقال رسول الله ﷺ أردت أمراً وأراد الله غيره . ورواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم مرسلًا من طرق .

قال السيوطي : وشواهد يقوى بعضها بعضاً . وقال علي بن أبي طلحة في هذه الآية عن ابن عباس : يعني أمراء عليهن . أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعة . وطاعته أن تكون محسنة لأهلها حافظة لماله .

وروى الترمذي^(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . « فَالصَّالِحَاتُ » أى من النساء « قَانِتَاتٌ » أى مطيعات لله في أزواجهن « حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ » قال الرخشي : الغيب خلاف الشهادة . أى حافظات لمواجب الغيب . إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن ، حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال النية ، من الفروج والأموال والبيوت « بِمَا حَفِظَ اللَّهُ » أى بحفظ الله إياهن . وعصمتن بالتوفيق لحفظ الغيب . فالحفوظ من حفظه الله . أى لا يتيسر لهن حفظ إلا بتوفيق الله . أو المعنى : بما حفظ الله لهن من إيجاب حقوقهن على الرجال . أى عليهن إن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن . حيث أمرهم بالعدل عليهن وإمساكهن بالمعروف وإعطائهن أجورهن . فقوله : بما حفظ الله ، يجرى مجرى ما يقال : هذا بذاك . أى في مقابلته . وجعل المهايى الباء للاستعانة حيث قال : مستعينات بحفظه مخافة أن يغلب عليهن نفوسهن وإن بلغن من الصلاح ما بلغن . انتهى .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً : خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت حفظتك في نفسها ومالك . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، إلى آخرها .

(١) الأثر رقم ٩٣٠٤

(٢) أخرجه الترمذي في : ١٠ - كتاب النكاح ، ١٠ - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة .

وروى الإمام أحمد^(١) عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ضلّت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها : ادخلي الجنة من أى الأبواب شئت .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) في قوله تعالى (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) : إن الزوج يقوم بتربية زوجته وتأديبها ومنعها من الخروج وإن عليها طاعته إلا في معصية . وإن ذلك لأجل ما يجب لها عليه من النفقة . ففهم العلماء من هذا أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواماً عليها ، وسقط ماله من منعها من الخروج . واستدل بذلك من أجاز لها الفسخ حينئذ . ولأنه إذا خرج عن كونه قواماً عليها فقد خرج عن الغرض المقصود بالنكاح . واستدل بالآية من جعل للزوج الحبر على زوجته في نفسها ومالها . فلا تتصرف فيه إلا بإذنه . لأنه جعله (قواماً) بصيغة المبالغة . وهو الناظر في الشيء الحافظ له . واستدل بها على أن المرأة لا تجوز أن تلي القضاء كالإمامة العظمى . لأنه جعل الرجال قوامين عليهن ، فلم يجوز أن يقمن على الرجال . انتهى . « وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ » أى عصيانهن وسوء عشرتهن وترفعهن عن مطاوعتهن ، من (النشز) وهو ما ارتفع من الأرض يقال : نشزت المرأة بزوجه وعلى زوجها : استعصت عليه ، وارتفعت عليه وأبغضته ، وخرجت عن طاعته « فَمَطُوهُنَّ » أى خوفوهن بالقول . كاتق الله ، واعلمى أن طاعتك لى فرض عليك ، واحذرى عقاب الله فى عصياني . وذلك لأن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته . وحرم عليها معصيته ، لماله عليها من الفضل والإفضال . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . رواه الترمذي^(٢) عن أبي هريرة والإمام أحمد

(١) أخرجه فى السند بالصفحة ١٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) وحديث رقم ١٦٦١ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذي فى : ١٠ - كتاب النكاح ، ١٠ - باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة .

عن معاذ ، والحاكم عن بريدة . وروى البخاري^(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح . ورواه مسلم ، ولفظه : إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح « وَاهْجُرُوهُنَّ » بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة « فِي الْمَضَاجِعِ » أى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف . ولا تباشروهن . فيكون كناية عن الجماع . قال حماد ابن سلمة البصرى : يعنى النكاح . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الهجر هو أن لا يجامعها ، ويضامعها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد . وزاد آخرون منهم السدى والضحاك وعكرمة وابن عباس (فى رواية) : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها . وقيل : المضاجع المبات . أى لا تباتوهن . وفى السنن والمسند^(٢) عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يارسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال . أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت « وَاضْرِبُوهُنَّ » إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ، ضرباً غير مبرح ، أى شديد ولا شاق . كما ثبت فى صحيح مسلم^(٣) عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع : واتقوا الله فى النساء .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٩

ومسلم فى : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ - ١٢٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤١ - باب حق المرأة على زوجها ،

حديث ٢١٤٢

والمسند فى الصفحة الخامسة من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، ١٩ - باب حجة النبي ﷺ ، حديث ١٤٧

(طبعتنا) .

فإنهن عوانٍ عندكم . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح .

قال الفقهاء : هو أن لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ولا يؤثر شيناً ويحتجب الوجه لأنه مجمع المحاسن . ويكون مفرقاً على بدنّها . ولا يوالى به في موضع واحد لئلا يعظم ضرره . ومنهم من قال : ينبغي أن يكون الضرب بمندبل ملفوف . أو بيده ! لا بسوط ولا عصا . قال عطاء : ضرب بالسواك .

قال الرازى : وبالجملّة ، فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه . والذي يدل عليه أنه تعالى ابتداءً بالوعظ . ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع . ثم ترقى منه إلى الضرب . وذلك تنبيه يجرى مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف ، وجب الاكتفاء به ، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق . وهذه طريقة من قال : حكم هذه الآية مشروع على الترتيب . فإن ظاهر اللفظ ، وإن دل على الجمع ، إلا أن خوى الآية يدل على الترتيب .

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : يهجرها في المضجع . فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح . ولا تكسر لها عظماً . فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية . وقال آخرون : هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز . أما عند تحققه فلا بأس بالجمع بين الكل .

وعن النبي ﷺ : علقوا السوط حيث يراه أهل البيت ، فإنه آدب لهم . رواه عبد بن حميد والطبرانى عن ابن عباس ، وأبونعيم في الحلية عن ابن عمر « فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً » أى إذا رجعن عن النشوز عند هذا التأديب إلى الطاعة في جميع ما يراد منهن مما أباحه الله منهن ، فلا سبيل للرجال عليهن بعد ذلك بالتوبيخ والأذية بالضرب والهجران « إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً » فاحذروه . تهديد للأزواج على ظلم النسوان من غير سبب . فإنهن ، وإن ضعفن عن دفع ظلمكم ، وعجزن عن الانتصاف منكم ، فالله سبحانه على قاهر كبير قادر ، ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . فلا تغفروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة

منهن . فإن الله أعلى منكم وأقدر منكم عليهن . فَخَتَمُ الآية بهذين الاسمين ، فيه تمام المناسبة .
ولما ذكر تعالى حكم النفور والنشوز من الزوجة ، ذكر ما إذا كان النفور من الزوجين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا » أصله شقاقا بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف . إما على
إجرائه مجرى المفعول به اتساعاً . كقوله : بل مكر الليل والنهار^(١) . أصله بل مكر في الليل
والنهار . أو مجرى الفاعل يجعل البين مشاقاً والليل والنهار ما كرين . ككافي قولك : نهارك صائم .
والضمير للزوجين . ولم يجر ذكرهما لجري ما يدل عليهما ، وهو الرجال والنساء . أى إن علمتم
مخالفة مفرقة بينهما ، واشتبه عليكم أنه من جهته أو من جهتها ، ولا يفعل الزوج الصلح ولا
الصفح ولا الفرقة ، ولا تؤدى المرأة الحق ولا الفدية « فَأَبْعَثُوا » أى إلى الزوجين لإصلاح
ذات البين وتبيين الأمر « حَكَمًا » رجلاً صالحاً للحكومة والإصلاح ومنع الظالم من الظلم
« مِنْ أَهْلِهِ » أى أقارب الزوج « وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » على صفة الأول . فإن الأقارب
أعرف ببواطن الأحوال . وأطلب للإصلاح . فيلزمهما أن يَخْلُوا ويستكشفوا حقيقة الحال
فيعرفا أن رغبتهما في الإقامة أو الفرقة « إِنْ يُرِيدَا » أى الحكمان « إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ
بَيْنَهُمَا » أى يوقع بينهما الموافقة فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان في طلب الوفاق
حتى يحصل الغرض ويتم المراد . أو الضمير الأول للحكمين ، والثانى للزوجين . أى إن قصدا

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكْرُ الْمَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ .

إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما ، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة ، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » بطواهر الحكيم وبواطنهما . إن قصدا إفساداً يجازيهما عليه . وإلا يجازيهما على الإصلاح . روى ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل ومثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء . فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته وقصروه على النفقة . وإن كانت المرأة هي السيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جاز . فإن رأيا أن يجمعا ، فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذي رضى يرث الذي لم يرض . ولا يرث الكاره الراضى . وروى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكيم . قال : معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما إن رأيتهما أن تجمعا جمعا . وإن رأيتهما أن تفرقا ففرقا . (وأسند) عن ابن أبي مليكة^(٢) أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إليّ وأنفق عليك . فكان إذا دخل عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ؟ فقال : على يسارك في النار إذا دخلت . فشدت عليها ثيابها . فجاءت عثمان فذكرت له ذلك . فضحك . فأرسل ابن عباس ومعاوية . فقال ابن عباس : لأفرقن بينهما . فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبدمناف . فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما . فرجما .

(١) الأثر رقم ٩٤١٨ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ٩٤٢٧ من تفسير الطبري ونصه : أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة ابنة عتبة . فكان بينهما كلام . فجاءت عثمان فذكرت ذلك له ، فأرسل ابن عباس ومعاوية . فقال ابن عباس : لأفرقن بينهما . وقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شيخين من بني عبدمناف . فأتياهما وقد اصطالحا .

وأُسند عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها . مع كل واحد منهما فثام من الناس . فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً . فقال عليّ للحكمين : أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتهما أن تجعما جعما . فقالت المرأة . رضيت الله لى وعلى . وقال الزوج : أما الفرقة فلا . فقال عليّ : كذبت . والله ! لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة . حتى قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاثاً ، فعلا . وهو رواية عن مالك . وقال الحسن البصري : الحكمان يحكان في الجمع لا في التفرقة . وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم . وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور ودادود . ومأخذهم قوله تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) ولم يذكر التفريق . وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف . انتهى . وفي (الإكليل) : أخرج ابن منصور أن المأمور بالبعث الحكام . وعن السدي : إنه الزوجان . فعلى الأول استدل به من قال : إنهما موثيان من الحاكم . فلا يشترط رضا الزوجين عما يفعلانه من طلاق وغيره . وعلى الثاني استدل من قال : إنهما وكيلان من الزوجين . فيشترط .

وقال ابن كثير : الجمهور على الأول . أعنى أنهما منصوبان من جهة الحاكم . لقوله تعالى . (فَابْتَغُوا حَكَمًا) الخ ، فسماهما حكمين : ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه . وهذا ظاهر الآية .

وذهب الشافعي وأبو حنيفة إلى الثاني . لقول عليّ رضي الله عنه للزوج ، (حين قال : أما الفرقة فلا) - فقال : كذبت . حتى تقر بما أقرت به .

قالوا : فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج . والله أعلم .

وفي الآية تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه ، وفقه الله تعالى لمبتغاه .

تنبيه :

قال الحاكم: في الآية دلالة على أن كل من خاف فرقة وفتنة جازله بعث الحكيم . وقد استدلل بها أمير المؤمنين على الخوارج فيما فعل من التحكيم . قال مشايخ المعتزلة : لأن المصاحف لما رفعت ، فظهرت الفرقة في عسكره ، وخاف على نفسه ، جازت المحاكمة ، بل وجبت . ولهذا صالح عليه السلام يوم الحديبية . وعلى هذا يحمل صلح الحسن عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا)

«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» يأمر تعالى بعبادته وحده وبالإخلاص فيها بقوله (وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) كما قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١) . لأنه تعالى هو الخالق الرازق النعم التفضل على خلقه في جميع الأوقات والحالات . فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من الشرك . الجلى والخفى . للنفس وشهواتها . وما يتوصل به إليها من المال والجاه . وهذه العبادة حق الله علينا . كما في الصحيحين^(٢) عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له : يا معاذ ! أتدرى ما حق الله على

(١) [٩٨ / البينة / ٥] ونصها : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٤٦ - باب اسم الفرس والحمار ،

حديث ١٣٧١ ونصه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت ردف النبي ﷺ على حمار ، يقال له عُفَيْر ، =

العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

ثم أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ، إثر تصدير ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها ، تنبيهاً على جلالة شأن الوالدين بنظمها في سلكها بقوله « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقد كثرت مواقع هذا النظم في التنزيل العزيز كقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ^(١) . وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ^(٢) . أَى أَحْسَنُوا بِهِمَا إِحْسَانًا يَفِي بِحَقِّ تَرْبَتِهِمَا . فَإِنْ شَكَرْهُمَا يَدْعُوا إِلَىٰ شُكْرِ اللَّهِ الْمَقْرَبِ إِلَيْهِ . مع ما فيه من صلة أقرب الأقارب الموجب لوصلة الله ، وقطعها لقطعه . ثم عطف ، على الإحسان إليهما ، الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، بقوله « وَبِذِي الْقُرْبَىٰ » أى الأقارب . وقد جاء في الحديث الصحيح عن سلمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة على المسكين صدقة . وهى على ذى الرحم اثنتان : صلة وصدقة . رواه الإمام أحمد ^(٣) والترمذى

= فقال « يا معاذ ! هل تدري حق الله على عباده وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس ؟ قال « لا تبشروهم فيتكلوا » .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٤٨ - ٥١ (طبعتنا) .

(١) [٣١ / لقمان / ١٤] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَنْتَحِنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٣) أخرجه فى السند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

والنساء والحاكم وابن ماجه . ثم قال تعالى « وَالْيَتَامَىٰ » وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم . فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم ، تنزلاً لرحمته عز وجل « وَالْمَسَاكِينَ » وهم المحاويج الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم . فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تم به كفائتهم ، وتزول به ضرورتهم « وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ » أى الذى قرب جواره . أو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين « وَالْجَارِ الْجُنُبِ » أى الذى جواره بعيد . أو الأجنبي . وقال نوف البكالى : الجار ذى القربى . يعنى الجار المسلم . والجار الجنب يعنى اليهودى والنصرانى .

وقد ورد فى الوصية بالجار أحاديث كثيرة . منها قوله ﷺ : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . أخرجاه فى الصحيحين^(١) عن ابن عمر . ومنها ما رواه الإمام أحمد^(٢) والترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال : خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره . وروى الإمام أحمد^(٣) عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا يشبع الرجل دون جاره . قال ابن كثير : تفرد به أحمد .

وعن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ماتقولون فى الزنى ؟ قالوا : حرمه الله ورسوله . فهو حرام إلى يوم القيامة . قال فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : لأن يزنى

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٨ - باب الوصاة بالجار ، حديث ٢٣٢٥

ومسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٤١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) وحديث رقم ٦٥٦٦

(طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) وحديث

رقم ٣٩٠ (طبعة المعارف) .

الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره . قال فقال : ما تقولون في السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله . فهي حرام . قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات ، أيسر عليه من أن يسرق من جاره .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد^(١) . وله شاهد في الصحيحين^(٢) من حديث ابن مسعود . قال : سألت (أو سئل) رسول الله ﷺ : أي الذنب عند الله أكبر؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلي أريد النبي ﷺ . فإذا أنا به قائم ورجل معه مقبل عليه . فظننت أن لهما حاجة . قال فقال الأنصاري : والله ! لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي لرسول الله ﷺ من طول القيام . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ! لقد قام بك الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام . قال : ولقد رأيته ؟ قلت : نعم . قال : أتدري من هو ؟ قلت : لا . قال : ذاك جبريل . ما زال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . ثم قال : أما إنك لو سلمت عليه ردّ عليك السلام .

ورواه عبد بن حميد عن جابر عن عبد الله قال : جاء رجل من العوالي ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلي على الجنائز . فلما انصرف قال الرجل : يا رسول الله ! من هذا الرجل الذي رأيت يصلي معك ؟ قال : وقد رأيته ؟ قال : نعم . قال : لقد رأيت خيراً كثيراً . هذا جبريل ما زال يوصيني بالجار حتى رأيت إنه سيورثه .

قال ابن كثير : تفرد به من هذا الوجه . وهو شاهد للذي قبله .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٥ - سورة الفرقان ، ٢ - باب

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٢ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وروى البزار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقاً . وجار له حقان . وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقاً . فأما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك ، لا رحم له ، له حق . وأما الجار الذي له حقان ، فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار . وأما الذي له ثلاثة حقوق . فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم .

وروى الإمام أحمد والبخاري^(١) عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين . فإلى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً

وروى الإمام مسلم^(٢) عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر ! إذا طبخت مرققة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك .

وفي رواية قال : إذا طبخت مرققا فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف .

وروى الشيخان^(٣) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . قيل : ومن ؟ يا رسول الله ! قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه .

ولمسلم^(٤) : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

والبوائق : الغوائل والشُرور .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٢ - باب حق الجوار في قرب

الآبواب ، حديث ١١٢٨

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٤٢ و ١٤٣ (طبعتنا) .

(٣) لم يرو هذا الحديث إلا البخاري ، ورواه عن أبي شريح ، لا عن أبي هريرة .

أخرجه في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٩ - باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه ، حديث ٢٣٢٦

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعتنا) عن أبي هريرة

وروي عنه^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : يانساء المؤمنات ! لا تحقرن جارة لجارتها ، ولو فرسن شاة .

معناه : ولو أن تهدي لها فرسن شاة . وهو الظلف المحرق . وأراد به الشيء الحقير .
وروي عنه^(٢) أن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره .
وقوله تعالى « وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ » قال سعيد بن جبیر : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جلسك في الخضر ورفيقك في السفر . أى فإنه كالجار . وأوضحه الزمخشري بقوله : هو الذى صحبتك بأنت حصل بجانبك . إماريقاً في سفر . وإما جاراً ملاصقاً . وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة . وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمّت بينك وبينه . فعليك أن تراعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان .
وروى عن عليّ وابن مسعود قالا : هى المرأة . أى لأنها تكون معك وتضعج إلى جنبك « وَابْنِ السَّبِيلِ » أى ابن الطريق . أى المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله ، وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به . نُسِبَ إلى السبيل الذى هو

(١) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٠ - باب لا تحقرن جارة لجارتها ، حديث ١٢٥٤ .

ومسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٩٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٣ - باب حفظ اللسان ، حديث ٢١٣٢ ونصه :

قال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٧٥ (طبعتنا) .

الطريق لمروره عليه وملابسته له. أو الذي يريد البلد غير بلده ، لأمر يلزمه . وقال ابن عرفة : هو الضيف المنقطع به ، يعطى قدر ما يتبلغ به إلى وطنه . وقال ابن برّي : هو الذي أتى به الطريق . كذافي (تاج العروس) . ولم يذكر السلف من المفسرين وأهل اللغة (السائل) في معنى ابن السبيل . لأنه جاء تابعاً لابن السبيل في البقرة ، في قوله تعالى (لَيْسَ الْبِرُّ - إلى قوله - وَابْنُ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ) .

قال بعضهم في (ابن السبيل) :

ومنسوب إلى ما لم يلبه كذاك الله نَزَلَ في الكتاب «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يعنى المالك . فإنهم ضعفاء الحيلة . أُسْرِى في أيدي الناس كالمساكين . لا يملكون شيئاً . وقد ثبت عن عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته في مرض الموت ، يقول : الصلاة . الصلاة . اتقوا الله فيما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . رواه أبو داود وابن ماجه^(١) وهذا لفظ أبي داود .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن المقدم بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة . وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة . وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة . ورواه النسائي . قال الحافظ ابن كثير . وإسناده صحيح والله الحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا . قال : فانطلق فأعطهم . فإن رسول الله ﷺ قال : كفى بالمرء إثمًا أن يجبس ، عن يملك قوته . رواه مسلم^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٢٤ - باب في حق المملوك ، حديث ٥١٥٦ .

وابن ماجه في : ٢٢ - كتاب الوصايا ، ١ - باب هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ حديث ٢٦٩٨ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٤٠ (طبعنا) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : للمملوك طعامه وكسوته . ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق . رواه مسلم ^(١) أيضا .

وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال : إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناولها كلة أو أكلتين أو لقمة أو لقمتين . فإنه ولي حره وعلاجه . أخرجه ^(٢) . ولفظه للبخاري .
وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هم إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم . أخرجه ^(٣) « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا » أى متكبرا عن الإحسان إلى من أمر بيره « فَخُورًا » يعدد مناقبه كبرا . وإنما خص تعالى هذين الوصفين بالذم ، في هذا الموضع ، لأن المختال هو التكبر . وكل من كان متكبرا فإنه قلما يقوم برعاية الحقوق . ثم أضاف إليه ذم الفخور لئلا يقدم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء والسمعة . بل لحض أمر الله تعالى .

(١) أخرجه في : ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ٤١ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٠ - كتاب الأطعمة ، ٥٥ - باب الأكل مع الخادم ، حديث ١٢٥٢ .

ومسلم في : ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ٤٢ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصي من أمر الجاهلية ، حديث ٢٨ ونصه :

عن المعرور قال : لقيت أبا ذر في الربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك ؟ فقال : إني ساببت رجلا فغيرته بأمه . فقال لي النبي ﷺ « يا أبا ذر ! أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم » . وأخرجه مسلم في : ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٨ (طبعنا) .

روى أبو داود^(١) والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: الكبر من بطر الحق وغمط الناس .

وروى ابن جرير^(٢) عن أبي رجاء الهروي قال . لا تجد سىء المَلَكَةِ (المَلَكَةُ) إلا وجدته مختلاً غفوراً . وتلا (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...) الآية ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً . وتلا (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)^(٣) وقد ورد في ذم الخيلاء والفخر ما هو معروف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« الَّذِينَ يَبْخُلُونَ » أى بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به فيما تقدم « وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » أى ولا يكونون سبب الإحسان . بل يبخلون بذات أيديهم وبما فى أيدي غيرهم .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ - كتاب اللباس ، ٢٦ - باب ما جاء فى الكبر ،

حديث ٤٠٩٢ ونصه :

عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، وكان رجلاً جميلاً ، فقال : يا رسول الله ! إنى رجل حبيب إلى الجمال . أعطيت منه ما ترى . حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نملى (بشسع نملى) أفن الكبر ذلك ؟ قال « لا . ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

(٢) الأثر رقم ٩٤٩٢ من التفسير .

(٣) [١٩ / مريم / ٣٢] .

فَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَبْخُلُوا بِهِ مَقْتًا لِلْإِسْخَاءِ مِنْ وَجْدٍ . وَفِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ : أَبْخَلَ مِنَ الضَّئِينِ بِنَائِلٍ غَيْرِهِ . قَالَ (١) :

وإن امرأً اُضنَّتْ يداه ، على امرئٍ
بنيْل يدٍ من غيره ، لبخيل

قال الزمخشريّ بعد حكاية ما تقدم : ولقد رأينا ممن بلى بداء البخل ، مَنْ إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد ، شخص به ، وحل حبوته واضطرب ، ودارت عيناه في رأسه . كأنما نهبر حله ، وكسرت خزائنه ، ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده . انتهى « وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أي من المال والغنى . فيوهمون الفقر مع الغنى والإعسار مع اليسار والعجز مع الإمكان « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » وضع الظاهر موضع المضمّر إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى . ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه ، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء .

فائدة :

قال أبو البقاء : في قوله تعالى (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) وجهان : أحدهما - هو منصوب بدل من (مَنْ) في قوله (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) وجمع على معنى (مَنْ) ويجوز أن يكون محمولاً على قوله (مُخْتَالًا فَخُورًا) وهو خبر (كَانَ) وجمع على المعنى أيضاً ، أو على إضمار : أذم . والثاني - أن يكون مبتدأ والخبر محذوف تقديره : مبغضون . ودل عليه ما تقدم من قوله (لَا يُحِبُّ) ويجوز أن يكون الخبر : معذبون . لقوله (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

(١) قائله أبو تمام من قصيدة يعاتب موسى بن إبراهيم الرافقيّ ، في ضنه عليه بحاجة .
(ديوانه صفحة ٤٠٨) ومطلعيها :

وإني لأستحيي يقيني أن يُرى لشكّي في شيء عليه دليلٌ
واليد الثانية : النعمة .

ويجوز أن يكون التقدير : هم الذين . ويجوز أن يكون مبتدأ (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ) معطوف عليه ، والخبر (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ) أى يظلمهم .
ثم قال : والبخل والبخل لفتان . وقد قرىء بهما . وفيه لفتان أخران البخل بضم الخاء والباء ، والبخل بفتح الباء وسكون الخاء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)

« وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ » أى قصد رؤية الخلق إياه ، غفلة عن الخالق قدس ، وعماية عنه ، ليقال : ما أسخاهم وما أجودهم « وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » أى الذى يتقرب إليه وحده ويتحرى بالإتفاق رضاه « وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى هو يوم الجزاء « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا » معيناً فى الدنيا « فَسَاءَ قَرِينًا » فبئس القرين والصاحب الشيطان . لأنه يضله عن الهدى ويحجبه عن الحق . وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان ، تقريباً لهم على طاعته . والمعنى : من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله . ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار .

لطيفة :

قوله تعالى (وَالَّذِينَ) عطف على (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) أو (عَلَى الْكَافِرِينَ) وإنما شاركهم فى الذم والوعيد لأن البخل كالإتفاق رياءً ، سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم . ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفى بجرى التغاير الذاتى . كما فى قوله (١) :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت وبیت آخر معه وهو :

وذا رأى حين تغمّ الأمو ر بذات الصليل وذات اللحم ،

أو مبتدأ خبره محذوف . يدل عليه قوله تعالى (وَمَنْ يَكُنْ) الخ أى : فقريهم الشيطان . وإنما حذف للإيذان بظهوره واستغناؤه عن التصريح به . أو التقدير : فلا يقبل إحسانهم لأن رياءهم يدل على تفضيلهم الخلق على الله ، ورؤيتهم على ثوابه .

وقد روى مسلم^(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه .

وروى ابن أبي حاتم ، في سبب نزول الآية ، عن سعيد بن جبير قال : كان علماء بني إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم . فأمر الله : الَّذِينَ يَبْخُلُونَ . الآية .

وأخرج ابن جرير^(٢) من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس ، أن رجلاً من اليهود

= قال حفظه الله :

معاني القرآن للفراء ١ : ١٠٥ ، والإنصاف : ١٩٥ ، وأمالى الشريف ١ : ٢٠٥ ،
وخزانة الأدب ١ : ٢١٦ . والقرم : السيد المعظم المقدم في المعرفة وتجارب الأمور . والمزدهم :
حومة القتال حيث يزدحم السكاة ، يمدحه بالجرأة في القتال . وغم الأمر يغم (بالبناء للمجهول) :
استعجم وأظلم ، وصار المرء منه في لبس لا يهتدى لصوابه . والصليل صوت الحديد . يعنى
بذات الصليل كتيبة من الرجالة يصلّ حديد بيضتها وشكته وسلاحها . وذات اللجم :
كتيبة من الفرسان . يذكر ثباته واجتماع نفسه ورأيه حين تطيش العقول في صليل السيوف
وكرر الخيول في معركة الموت . فقوله « بذات الصليل » متعلق بقوله « تغم الأمور » .

تفسير الطبري طبعة المعارف ، (ج ٣ ص ٣٥٣)

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٩٥٠١ من التفسير وهذا نصه :

عن ابن عباس قال : كان كروم بن زيد ، حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، =

كَانُوا يَأْتُونَ رَجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ يَنْتَصِحُونَ لَهُمْ . فَيَقُولُونَ : لَا تَنْفَقُوا أَمْوَالَكُمْ . فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكُمْ الْفَقْرَ فِي ذَهَابِهَا . وَلَا تَسَارِعُوا فِي النِّفْقَةِ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا يَكُونُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ . الْآيَةَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا)

« وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ » أى فلم يرجحوا الخلق عليه « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بالبعث والجزاء فلم يرجحوا تعظيمهم وحطامهم على ثوابه « وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » أعطاهم الله من المال ، أى طلباً لرضاء وأجر آخرته .

قال العلامة أبو السعود : وإنما لم يصرح به تعويلاً على التفصيل السابق ، واكتفاءً بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر . فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لا ابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة . أى : وما الذى عليهم . أو : وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والإنفاق فى سبيله؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة ، والاعتقاد فى الشيء بخلاف ما هو عليه ، وتحريض على التفكير

= ونافع بن أبى نافع ، وبحرى بن عمرو ، وحى بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن تابوت ، يأتون رجالاً من الأنصار - وكانوا يخالطونهم وينتصحون لهم - من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم . فإننا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها . ولا تسارعوا فى النفقة ، فإنكم لا تدرُونَ ما يكون . فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ « الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَكَتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى من النبوة (من التوراة ، كما فى ابن هشام) التى فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » إلى قوله « وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا » .

لطلب الجواب . لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة . وتنبه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ، ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً . فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى . وتقديم الإيمان بهما ، لأهميته في نفسه ، ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه . وأما تقديم (إنفاقهم رياء الناس) على عدم إيمانهم بهما ، مع كون المؤخر أقبح من المقدم ، فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به . انتهى « وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا » وعيد لهم بالعقاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى لا يبخس أحداً من ثواب عمله ولا يزيد في عقابه شيئاً مقدار ذرة ، وهى النملة الصغيرة ، فى قول أهل اللغة . قال ثعلب : مائة من الذر زنة حبة شعير . وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء . والمعنى : إن الله تعالى لا يظلم أحداً شيئاً ، قليلاً ولا كثيراً . فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » أى وإن تك مثقال ذرة حسنة يضاعف ثوابها . وإنما أنت ضمير المثقال لتأنيث الخبر . وأولإضافته إلى الذرة « وَيُؤْتِ » أى زيادة على الأضعاف « مِنْ لَدُنْهُ » مما يناسب عظمته على نهج التفضل « أَجْرًا عَظِيمًا » أى عطاءً جزيلاً . وقد ورد فى معنى هذه الآية أحاديث كثيرة . منها ما فى الصحيحين^(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث

(١) هذا حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث ٢١ .
ومسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعنا) .

الشفاعة الطويل : وفيه : فيقول الله عز وجل : ارجعوا . فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار . وفي لفظ : أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقول أبو سعيد : اقرؤا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) .

وقد روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال : فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة . أى بحسنه . ولا يخرج من النار أبداً .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يستدل له بالحديث الصحيح ^(١) إن العباس قال : يا رسول الله ! هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضبك ؟ قال : نعم . هو في ضحضاح من نار . ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار .

وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار . بدليل ما رواه أبو داود ^(٢) الطيالسي في مسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة . يثاب عليها الرزق في الدنيا . ويمجى بها في الآخرة . وأما الكافر فيظلم بها في الدنيا . فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة . انتهى .

ورواه مسلم ^(٣) أيضاً عن أنس أيضاً مرفوعاً . ولفظه : إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها في الدنيا ويمجى بها في الآخرة . وأما الكافر فيظلم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم يكن له حسنة يمجى بها .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٥ - باب كنية المشرك ، حديث ١٨١٤

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٥٧ (طبعنا) .

(٢) الحديث رقم ٢٠١١ .

(٣) أخرجه في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »

قال الرازي : وجه النظم هو أنه تعالى بين أن في الآخرة لا يجري على أحد ظلم وأنه تعالى يجازي المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه . فبين تعالى في هذه الآية أن ذلك يجري بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على المسمى أبليغ . والتبكيته له أعظم . وحسرتة أشد . ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول وأظهر الطاعة أعظم . ويكون هذا وعيداً للكفار الذين قال الله فيهم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) ووعداً للمطيعين الذين قال الله فيهم (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) .

ثم قال : من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه : كيف بك إذا كان كذا وكذا ، وإذا فعل فلان كذا ، أو إذا جاء وقت كذا ؟ فعنى هذا الكلام : كيف ترون يوم القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها . واستشهدك على هؤلاء . يعنى قومه المخاطبين بالقرآن الذين شاهدتم وعرف أحوالهم . ثم إن أهل كل عصر يشهدون على غيرهم ممن شاهدوا أحوالهم . وعلى هذا الوجه قال عيسى عليه السلام : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ^(١) . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ^(٢) . الخ .

(١) [٥ / المائدة / ١١٧] ونصها : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

وروى الشيخان^(١) وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ :
 اقرأ على . فقلت : يا رسول الله ؟ اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم . إني أحب أن أسمع
 من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء . حتى أتيت إلى هذه الآية : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ
 كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا . فقال : حسبك الآن . فإذا عيناه تذرفان .
 زاد مسلم : شهيداً ما دمت فيهم . أو قال ما كنت فيهم . شك أحد رواه .
 وروى ابن جرير عن ابن مسعود في هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : شهيد عليهم
 ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ
 وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)

« يَوْمَئِذٍ » أى يوم القيامة « يَوَدُّ » أى يتمنى « الَّذِينَ كَفَرُوا » بالله « وَعَصَوُوا
 الرَّسُولَ » بالإجابة « لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ » أى يهلكون فيها . أى يدفنون . فتسوى
 بهم الأرض كما تسوى بالموتى . إذ هو أعز لهم من الهوان الذى يلحقهم من فسادهم .
 كقوله : يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ... الآية . ف(تسوى) بمعنى : تجعل مستوية . والباء
 للملابسة . أى تسوى الأرض متلبسة بهم . وقيل : الباء بمعنى (على) وفى (الدر المصون) :
 وتسوية الأرض بهم أو عليهم : دفنهم . أو أن تنشق وتبلمهم . أو أنهم يبقون تراباً على أصلهم
 من غير خلق . وقوله تعالى « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » عطف على (يود) أى ويعترفون

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٩ - باب

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، حديث ١٩٩٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٤٧-٢٤٩ (طبعنا) .

بجميع ما فعلوه . لا يقدرّون على كتمانهم . لأن جوارحهم تشهد عليهم . أو (الواو) للحال .
أى يودّون أن يدفنوا في الأرض وحالهم أنهم لا يكتُمون من الله حديثاً . ولا يكذبونه بقولهم :
وَاللهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . كما روى ابن جرير ^(١) عن الضحاك أن نافع بن الأزرق أتى
ابن عباس فقال : يا ابن عباس ! قول الله تعالى . وَلَا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا . وقوله : وَاللهِ
رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . فقال له ابن عباس : إني أحسبك قت من عند أصحابك فقلت :
ألقى على ابن عباس متشابه القرآن . فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة
في بقيع واحد . فيقول المشركون : إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده . فيقولون
تعالوا نَقُلْ . فيسألهم فيقولون : وَاللهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . قال فيختم على أفواههم
ويستنطق جوارحهم فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك تمنّوا لو أن
الأرض سويت بهم ولا يكتُمون الله حديثاً .

وروى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم . واعتمده الإمام أحمد في كتاب
(الرد على الجهمية) في باب (بيان ما ضلت فيه الزنادقة من متشابه القرآن) وساق مثل ما تقدم
عن ابن عباس . ثم قال : فهذا تفسير ما شكّت فيه الزنادقة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا
مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ
عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنْ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »

(١) الأثر ٩٥٢٢ من التفسير .

نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر في جماعة كانوا يشربونها ثم يصلّون. أى من مقتضى إيمانكم الحياء من الله . ومن الحياء منه أن لا تقوموا إلى الصلاة وأنتم سكارى لاتعلمون ما تخاطبون . فالحياء من الله يوجب ذلك . وتصدير الكلام بحرفي النداء والتنبيه ، للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهى . وتوجيه النهى إلى قربان الصلاة ، مع أن المراد هو النهى عن إقامتها ، للمبالغة في ذلك .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا النهى قبل تحريم الخمر . كما دل عليه الحديث الذى ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ^(١) . الآية . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها على عمر . فقال : اللهم ! بين لنا في الخمر بيانا شافيا . فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه . فقال : اللهم ! بين لنا في الخمر بيانا شافيا . فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات . حتى نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(٢) . إلى قوله تعالى : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . فقال عمر : انتهينا . انتهينا .

ولفظ أبى داود ^(٣) عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر فذكر الحديث . وفيه : فنزلت الآية التى فى النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٩١ و ٩٠] ونص الآية ٩١ : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

(٣) أخرجه فى : ٢٥ - كتاب الأشربة ، ١ - باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

مَا تَقُولُونَ . فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ، ينادى : لا يقربن الصلاة سكران .

وروى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن سعد رضى الله عنه قال : نزلت في أربع آيات : صنع رجل من الأنصار طعاماً فعدا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار . فأكلنا وشربنا حتى سكرنا . ثم افتخرنا . فرفع رجل لحي يعير ففرز بها أنف سعد فكان سعد مغروراً لأنف وذلك قبل تحريم الخمر . فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . الآية . والحديث بطوله عند مسلم^(١) ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه .

وروى أبو داود^(٢) والنسائي عن علي رضى الله عنه ، أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر . فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . فخلط فيها . فنزلت : لَا تَقْرَبُوا . الآية .

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضى الله عنه : قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فعدا ناوسقانا من الخمر . فأخذت الخمر منا . وحضرت الصلاة . فقدموا فلاناً . قال : فقرأ قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبّدون . فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا . الآية . وكذا رواه الترمذى^(٣) وقال : حسن صحيح « وَلَا جُنْبًا » عطف على قوله (وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) إذ الجملة في موضع النصب على الحال . والجنب الذى أصابته الجنابة . يستوى فيه المذكور والمؤنث ، والواحد والجمع . لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الإجناب « إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ » أى مارّين بلا لبث « حَتَّىٰ تَفْتَسِلُوا » من الجنابة : أى لا تقربوا موضع الصلاة ، وهو المسجد ، وأنتم جنب ، إلا مجتازين فيه . إلا للخروج منه أول الدخول فيه .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في : ٢٥ - كتاب الأثرية ، ١ - باب في تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧١ .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٢ - حدثنا سويد .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في معنى الآية قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل . قال : تمر به مرّاً ، ولا تجلس . ثم رواه عن كثير من الصحابة . منهم ابن مسعود وثلة من التابعين .

وروى ابن جرير^(١) عن الليث قال حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن قول الله عز وجل : **وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ** . أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء . ولا يجدون ممراً إلا في المسجد . فأمر الله تعالى : **وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ** .

قال الحافظ ابن كثير : ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب رحمه الله ، ما ثبت في صحيح البخاري^(٢) أن رسول الله ﷺ قال : سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر . وهذا قاله ﷺ في آخر حياته . علماً منه أن أبا بكر . رضى الله عنه سقى الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين . فأمر بسد الأبواب الشارعة

(١) الأثر رقم ٩٥٦٧ من التفسير .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٣ - باب قول النبي ﷺ « سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر ، حديث ٣١١ ونصه :

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناس ، وقال « إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله » قال فبكى أبو بكر . فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير ، فكان رسول الله ﷺ هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ « إن من أمن الناس على في صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر . ولكن أخوة الإسلام ومودته . لا يبقين في المسجد باب إلا سد . إلا باب أبي بكر » .

إلى المسجد إلا بابه رضى الله عنه ومن روى: إلا باب عليّ، كإوقع في بعض السنن، فهو خطأ والصواب ما ثبت في الصحيح .

ومن هذا التأويل احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد . ويجوز له المرور . وثمة تأويل آخر في قوله تعالى (إِيَّاهُ يَدْعُونَ سَبِيلًا) وهو أن المراد منه المسافرون . أى لا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال إلا حال كونكم مسافرين . فيكون هذا الاستثناء دليلاً على أنه يجوز للجنب الإقدام على الصلاة عند العجز عن الماء . وقد روى ابن أبي حاتم عن زر بن حبیش عن عليّ في هذه الآية ، قال : لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة ، فلا يجد الماء ، فيصلّى حتى يجد الماء . ثم رواه من وجه آخر عن عليّ : ورواه عن جماعة من السلف أيضاً : أنه في السفر .

قال ابن كثير : ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١) وأهل السنن

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) وهاكوه .
بنصه لنفاسته :

عن رجل من بني عامر قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام . وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع ذلك فى نفسى . وقد نعت لى أبو ذر . فخرجت فدخلت مسجد منى ، فعرفته بالنعت . فإذا شيخ معروق آدم عليه حلة قطرى . فذهبت حتى قمت إلى جنبه وهو يصلى . فسلمت عليه فلم ردّ عليّ . ثم صلى صلاة أتمها وأحسنها وأطولها . فلما فرغ ردّ عليّ . قلت : أنت أبو ذر ؟ قال : إن أهلى يزعمون ذلك . قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام وأهمنى دينى ، وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع ذلك فى نفسى . قال : أتعرف أبا ذر ؟ قلت : نعم . قال : فإنى اجتويت المدينة ، فأمر لى رسول الله ﷺ بدود من إبل وغنم . فكنت أكون فيها . فكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع فى نفسى أنى قد هلكت . فقعدت على بعير منها . فأنهيت إلى رسول الله ﷺ نصف =

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : الصعيد الطيب طهور المسلم . وإن لم تجد الماء عشر حجج ، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير لك . وفي هذا التأويل بقاء لفظ الصلاة على معناها الحقيقي في الجملتين المتعاطفتين . وفي التأويل السابق تكون الصلاة ، في الجملة الثانية محمولة على مواضعها .

قال في (فتح البيان) : وبالجملة ، فالحال الأولي أعنى قوله (وَأَنْتُمْ سُكَارَى) تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقي ، من دون تقديره مضاف . وسبب نزول الآية السابق يقوى ذلك . وقوله (إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ) يقوى تقدير المضاف . أى لا تقربوا مواضع الصلاة . ويمكن أن يقال : إن بعض قيود النهى (أعنى لا تقربوا وهو قوله : وَأَنْتُمْ سُكَارَى) يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقي . وبعض قيود النهى (وهو قوله : إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ) يدل على أن المراد مواضع الصلاة . ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه . ويكون ذلك بمنزلة نهين مقيد كل واحد منهما بقيد . وهما : لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى . ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم المسجد من جانب إلى جانب . وغاية ما يقال في هذا إنه من الجمع بين الحقيقة والمجاز . وهو جائز بتأويل مشهور .

وقال ابن جرير^(١) (بعد حكايته للتأويلين) : وأولى القولين بالتأويل لذلك ، تأويل من تأوله

= النهار وهو جالس في ظل المجلس في نفر من أصحابه فنزلت عن البعير وقلت : يا رسول الله ! هلك . قال « وما أهلكك » ؟ فحدثته فضحك . فدعا إنساناً من أهله . فجاءت جارية سوداء بعس فيه ماء ، ما هو بملآن ، إنه ليتخضخض . فاستترت بالبعير . فأمر رسول الله ﷺ رجلاً من القوم فسترني . فاغتسلت ثم أتيت به . فقال « إن الصعيد الطيب طهور ، ما لم تجد الماء ، ولو إلى عشر حجج . فإذا وجدت الماء فأمسس بشرتك » .

(١) تفسير ابن جرير ، جزء ثامن ، صفحة ٣٨٤ (طبعة المعارف) .

«وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ» ، الإجتازى طريق فيه . وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء . وهو جنب ، فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) إلى آخره . فكان معلوماً بذلك أن قوله (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك .

وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة ، مصلين فيها ، وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل . قال : و (العابر السبيل) المجتازه مرّاً وقطعاً . يقال منه : عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً . ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجازه . ومنه قيل ، للناقة القوية على الأسفار : هى عبّ أسفار . وعبّ أسفار ، لقوتها على الأسفار . اهـ

قال ابن كثير : وهذا الذى نصره (يعنى ابن جرير) هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها . وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهى الجنابة المباعدة للصلاة ولحلها أيضاً . والله أعلم . وقوله تعالى (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) غاية للنهى عن قربان الصلاة ومواضعها ، حال الجنابة . والمعنى : لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا . إلا حال عبورك السبيل .

تنبيهات

الأول - فى الآية تحريم الصلاة على السكران حال سكره حتى يصحو . وبطلانها وبطلان الاقتداء به . وعلى الجنب حتى يغتسل إلا أن يكون مسافراً . فيباح له التيمم .

الثانى - تمسك بالآية من قال : إن طلاق السكران لا يقع لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد . وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة والليث بن سعد

وإسحق وأبو ثور والمزني واختاره الطحاوي . والمسألة مبسوبة في (زاد المعاد) للإمام ابن القيم .

الثالث - في الآية دليل على أن ردة السكران ليست بردة : لأن قراءة سورة الكافرين ، بطرح اللاءات ، كفر . ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان . وما أمر النبي ﷺ بالتفريق بينه وبين امرأته . ولا بتجديد الإيمان . ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً ، لا يحكم بكفره . قاله النسفي .

الرابع - استدل بأحد التأويلين السابقين على تحريم دخول المسجد على السكران . لما يتوقع منه من التلويت وفحش القول . فيقاس به كل ذي نجاسة يخشى منها التلويت والسباب ونحوه . كذا في (الإكليل) .

الخامس - استدل ابن الفرس بتوجيه الخطاب لهم في الآية على تكليف السكران ودخوله تحت الخطاب . وفيه نظر . لأن الخطاب عام لكل مؤمن . وعلى تقدير أنه قصد به الذين صلوا في حال السكر ، فإنما نزل بعد صحوهم . كذا في (الإكليل) .

السادس - في قوله تعالى (حَتَّى تَغْتَسِلُوا) رد على من أباح جلوس الجنب مطلقاً إذا توضأ . لأن الله تعالى جعل غاية التحريم الغسل . فلا يقوم مقامه الوضوء . كذا في (الإكليل) . أقول : إنما يكون هذا حجة لو كانت الآية نصاً في تأويل واحد . وحيث تطرق الاحتمال لها ، على ما رأيت ، فلا .

وقد تمسك المبيح ، وهو الإمام أحمد ، بما روى هو وسعيد بن منصور في (سننه) بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك .

قال سعيد بن منصور في (سننه) : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، هو الدراوردي ، عن هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار قال : رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون ، إذا توضأ وضوء الصلاة . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

السابع - قال العلامة أبو السعود : لعل تقديم الاستثناء على قوله (حَتَّى تَغْتَسِلُوا) للإيذان ، من أول الأمر ، بأن حكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق ، كما في صورة السكر ، تشويقاً إلى البيان ، وروماً لزيادة تقررهِ في الأذهان .

الثامن - قال أيضاً : في الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلي حقه أن يتحرز عما يليه ويشغل قلبه ، وأن يزكى نفسه عما يندسها ، ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية ، عند إمكان أعالها .

التاسع - أشعر قوله تعالى (حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) بالنهي عن الصلاة حال النعاس . كما روى الإمام أحمد والبخاري^(١) والنسائي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينعرف ولينم حتى يعلم ما يقول . وفي رواية : فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه .

وقد روى ابن جرير^(٢) عن الضحاك في الآية قال : لم يعن بها سكر الخمر . وإنما عني بها سكر النوم .

قال ابن جرير^(٣) : والصواب أن المراد سكر الشراب .

(١) هذا نص حديث أنس الذي أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٥٣ - باب الوضوء من النوم ، حديث ١٦٤ ونصه : عن النبي ﷺ قال « إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينع حتى يعلم ما يقرأ » .

وهذا نص حديث عائشة الذي أخرجه البخاري في الباب نفسه ، حديث ١٦١ . « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه » .

وقريب منه في المسند بالصفحة ٥٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) الأثر رقم ٩٥٣٤ .

(٣) التفسير ، الصفحة ٣٧٨ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قال الرازى : ويدل عليه وجهان :

الأول - أن لفظ السكر حقيقة في السكر من شرب الخمر . والأصل في الكلام الحقيقة .
والثانى - أن جميع المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية إنما نزلت في شرب الخمر . وقد ثبت
في أصول الفقه أن الآية إذا نزلت في واقعة معينة ، ولأجل سبب معين ، امتنع أن لا يكون
ذلك السبب مراداً بتلك الآية .

العاشر - قال الحافظ ابن كثير : قد يحتمل أن يكون المراد من الآية التعريض بالنهى
عن السكر بالكلية . لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات ، من الليل والنهار .
فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً . والله أعلم .
وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١) . وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة
لأجل ذلك . انتهى .

الحادى عشر - قال الرازى : قال بعضهم : هذه الآية ، أى (لَا تَقْرُبُوا) الخ منسوخة
بآية المائدة . وأقول: الذى يمكن ادعاء النسخ فيه أن يقال: نهى عن قربان الصلاة حال السكر
ممدوداً إلى غاية أن يصير بحيث يعلم ما يقول . والحكم الممدود إلى غاية ، يقتضى انتهاء ذلك
الحكم عند تلك الغاية . فهذا يقتضى جواز قربان الصلاة مع السكر إذا صار بحيث يعلم
ما يقول . ومعلوم أن الله تعالى لما حرم الخمر بآية المائدة ، فقد رفع هذا الجواز . فثبت أن آية
المائدة ناسخة لبعض مدلولات هذه الآية . هذا ما حضر ببالى فى تقرير هذا النسخ .

والجواب عنه : أنا بينا أن حاصل هذا النهى راجع إلى النهى عن الشرب الموجب للسكر
عند القرب من الصلاة . وتخصيصُ الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه إلا على سبيل
الظن الضعيف . ومثل هذا لا يكون نسخاً . انتهى . « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ » أى ولم تجدوا

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] .

بقربكم ماءً تستعملونه . ومنه قَدْ من يناوله إياه ، أو خشيته الضرر به « أَوْ عَلَى سَفَرٍ » لا تجدونه فيه « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ » أى أو كنتم محدثين . والغائط هو المكان المنخفض . فالجىء منه كناية عن الحدث . لأن المعتاد أن من يريد يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس .

قال الخازن : كانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث . فكنوا به عن الحدث . وذلك أن الرجل منهم ، كان إذا أراد قضاء الحاجة ، طلب غائطاً من الأرض ، يعنى مكاناً منخفضاً منها يحجبه عن أعين الناس . فسمى الحدث بهذا الاسم . فهو من باب تسمية الشيء باسم مكانه . انتهى . وإسناد الجىء إلى واحد مبهم من مخاطبين دونهم ، للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به . كذا قاله أبو السعود . ثم قال : وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل « أَوْ لَا مَسْتُمْ النَّسَاءَ » على التصريح بالجماع . قال الشهاب : وفي ذكر (أحد) دون غيره إشارة إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة كما هو دأبه وأدبه « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً » قال المهايى : أى فلا تستحيوا من الله ، بل اعتذروا إليه « فَتَمِمُّوا » أى اقصوا « صَعِيدًا » أى تراباً أو وجه الأرض « طَبِيبًا » أى طاهراً « فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا » تعليل للترخيص والتيسير ، وتقرير لهما . فإن من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين ، لا بد أن يكون ميسراً لا معسراً . وفي هذه الآية مسائل :

الأولى - الظاهر أن قوله تعالى (فَلَمْ تَجِدُوا) راجع إلى جميع ما قبلها وحينئذ لا يجوز التيمم في الكل إلا عند عدم الماء . وأما ما قيل أنه راجع إلى قوله تعالى (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسْتُمْ النَّسَاءَ) لأنه قد وجد المانع ههنا من تقييد السفر والمرض ، بعدم الوجود للماء ، وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل في غير هذا الموضع كالصوم - فلا يفيد . لأن عدم الوجود معتبر فيهما لإباحة التيمم قطعاً . إذ ليس السفر بمجرد مبيحاً . وكذلك المرض .

وأما ما يقال من أنه قد يباح للمريض التيمم مع وجود الماء إذا خشى الضرر به ، فعدم الوجود في حقه إذن غير قيد . فالجواب : أن هذا داخل تحت عدم الماء لأن من تعذر عليه استعماله هو ، عدم له ، إذ ليس المراد الوجود الذي لا ينفع . فمن كان يشاهد ماء في قعر بئر ، يتعذر عليه الوصول إليه بوجه من الوجوه ، فهو عدم له . وهكذا خوف السيل الذي يسلك إلى الماء . وهكذا من كان يحتاجه للشرب فهو عدم له . ولئن سلمنا ، تنزلاً ، أن المراد مطلق الوجود فنقول : المدعى أنه تعالى جوز التيمم للمريض إذا لم يجد الماء . وليس فيه دلالة على منعه من التيمم عند وجوده لعارض يمنعه من الماء . فإن قيل : من أين تستدلون حينئذ على إباحة تيممه ؟ قلنا : من التحقيق الذي ذكرناه وهو أن المتعذر استعماله معدوم شرعاً وكذا من قوله تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)^(١) وقوله (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)^(٢) وقوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) ومما أخرجه أبو داود^(٣) وابن ماجه والدارقطني من حديث جابر رضي الله عنه قال : خرجنا في سفر . فأصاب رجلاً منا حجر فشججه في رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فات . فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك . فقال : قتلوه ، قتلهم الله ؛ ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال . إنما كان يكفيه أن

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٥ - باب في المجرع يتيمم ،

حديث ٣٣٦ .

يتيم ، ويعصر (ويعصب) على جرحه ، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده . ومما رواه أحمد وأبو داود^(١) وابن حبان والحاكم والدارقطني عن عمرو بن العاص قال : احتملت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت ، أن أهلك . فتيمنت ثم صليت بأصحابي الصبح . فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : يا عمرو ! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت : إني سمعت الله يقول (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . فهذا وما قبله يدل على جواز العدول إلى التيمم خشية الضرر .

قال محمد الدين ابن تيمية : في حديث عمرو ، من العلم ، أن التمسك بالعمومات حجة صحيحة . انتهى .

وقد روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى) قال : نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ . ولم يكن له خادم فيناوله . فأثنى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فأمر الله هذه الآية . قال ابن كثير : هذا مرسل .

الثانية - ما يصدق عليه مفهوم عدم الوجود المقيد بالقيام إلى الصلاة ، هو المعتبر في تسويغ التيمم . كما هو الظاهر من الآية . لا عدم الوجود مع طلب مخصوص ، كما قيل : إنه يطلب في كل جهة من الجهات الأربع في ميل أو ينتظر إلى آخر الوقت حتى لا يبقى إلا ما يسع الصلاة بعد التيمم . إذ لا دليل على ذلك . فإذا دخل الوقت المضروب للصلاة ، وأراد المصلي القيام إليها فلم يجد حينئذ ما يتوضأ به ، أو يقتسل في منزله أو مسجده ، أو ما يقرب منهما ، كان ذلك عذراً مسوغاً للتيمم . فليس المراد بعدم الوجود في ذلك أن لا يجده بعد

(١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٢٤ - باب إذا خاف الجنب البرد ، أيتيم ؟

الكشف والبحث وإحفاء السؤال . بل المراد أن لا يكون معه علم أو ظن بوجود شيء منه هنالك ، ولم يتمكن في تلك الحالة من تحصيله بشراء أو نحوه . فهذا يصدق عليه أنه لم يجد الماء عند أهل اللغة . والواجب حمل كلام الله تعالى على ذلك ، مع عدم وجود عرف شرعي . وقد وقع منه ﷺ ما يشعر بما ذكرناه . فإنه تيمم في المدينة من جدار . كما ثبت ذلك في الصحيحين^(١) من دون أن يسأل ويطلب . ولم يصح عنه في الطلب شيء تقوم به الحجة . فهذا ، كما يدل على وجوب الطلب ، يدل على عدم وجوب انتظار آخر الوقت ، ويدل على ذلك حديث الرجلين اللذين تيمما في سفر ثم وجد الماء . فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر : فقال ﷺ للذي لم يعد : أصبت السنة . أخرجه أبو داود^(٢) والحاكم وغيرها من حديث أبي سعيد . فإنه يرد

(١) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ٣ - باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء ، حديث ٢٣٢ ونصه :

عن حميد الأعرج ، قال : سمعت عميراً مولى ابن عباس ، قال : أقبلت أنا وعبد الله بن يسار ، مولى ميمونة ، زوج النبي ﷺ حتى دخلنا على أبي جهيم بن الحارث بن الصمة الأنصاري . فقال أبو جهيم : أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جل . فلقيه رجل فسلم عليه . فلم يرد عليه النبي ﷺ . حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم رد عليه السلام . وأخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١١٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٦ - باب التيمم يجد الماء بعدما يصلي في الوقت ، حديث ٣٣٨ ونصه : عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رجلان في سفر ، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء . فتيما صعيدا طيبا . فصليا . ثم وجدا الماء في الوقت . فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء . ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له . فقال للذي لم يعد « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » وقال للذي توضأ وأعاد « لك الأجر مرتين » .

قول من قال بوجوب الانتظار إلى آخر الوقت على التيمم . سواء كان مسافراً أو مقيماً .
كذا في (الروضة الندية) .

الثالثة - دلت الآية على أن المسافر إذا لم يجد الماء تيمم . طال سفره أو قصر .

الرابعة - قرئ في السبع (لاستم ولستم) والملازمة واللمس يردان ، لغةً ، بمعنى الجس باليد ، وبمعنى الجماع . قال المجد في (القاموس) لمسه يلمسه ويلمسه : مسّه بيده . والجارية جامعها . ثم قال : والملازمة الماسة والجماعة . ومن ثمة اختلف المفسرون والأئمة في المعنى بذلك هنا . فمن قائل بأن اللمس حقيقة في الجس باليد ، مجاز في غيره . والأصل حمل الكلام على حقيقته لأنه الراجح ، لاسيما على قراءة (لستم) إذ لم يشتهر في الواقع كالملازمة . وروى عن ابن مسعود من طرق متعددة أنه قال ^(١) : الملازمة ما دون الجماع . وعنه ^(٢) : القبلة من المس وفيها الوضوء . رواها ابن جرير .

وروى الطبراني بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ، ومن اللمس بيده ، ومن القبلة . وكان يقول في هذه الآية (أَوْ لَا مَسْتُمُ النِّسَاءِ) : هو الغمز . وروى ابن جرير ^(٣) عن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة . ويرى فيها الوضوء . ويقول : هي من اللّماس . وذكر ابن أبي حاتم أنه روى عن كثير من التابعين نحو ذلك . قالوا : ومما يؤيد بقاء اللمس على معناه الحقيقي قوله تعالى ^(٤) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) أي جسّوه . وقال ﷺ ^(٥) لما عز ، حين أفر بالزنى ، يعرض له بالرجوع

(١) الأثر رقم ٩٦٠٦ .

(٢) الأثر رقم ٩٦٠٧ .

(٣) الأثر رقم ٩٦١٧ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٧] ... لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٥) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٨ - باب قول الإمام للهقر : =

عن الإقرار : لعلك قبلت أو لمست ؟ وفي الحديث الصحيح ^(١) : واليد زناها اللمس . وقالت عائشة ^(٢) : قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا . فيقبل ويلمس . ومنه ما ثبت في الصحيحين ^(٣) : أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة . وهو يرجع إلى الجس باليد . واستأنسوا أيضاً بالحديث الذى رواه أحمد ^(٤) عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ! ما تقول فى رجل لقي امرأة لا يعرفها ، فليس يأتى الرجل من امرأته شيئاً إلا أتاه منها غير أنه لم يجامعها . قال فأنزله الله عز وجل هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ

= لعلك لمست أو غمزت ؟ حديث ٢٥١٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ ، قال له « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ » قال : لا ، يا رسول الله ! قال « أَنْكِهْتَهَا ؟ لا يكفى . قال فعند ذلك أمر برجمه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٤٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ونصه : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « كل ابن آدم أصاب من الزنى لا محالة . فالعين زناها النظر . واليد زناها اللمس . والنفس تهوى وتحدث . ويصدق ذلك ويكذبه الفرج . »

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) ونصه : عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ ، مامن يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً ، امرأة امرأة . فيدنو ويلمس من غير مسيس . حتى يفضى إلى التى هو يومها ، فيبيت عندها .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٦٢ - باب بيع الملامسة ، حديث ٢٤٣ ونصه : عن أبى سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلبه أو ينظر إليه . ونهى عن الملامسة . واللامسة لمس الثوب لا ينظر إليه .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) :

النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ) (١) الآية . قال فقال له النبي ﷺ : تَوْضَأُ ثُمَّ صَلِّ . قال معاذ : فقلت : يا رسول الله ! أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : بل للمؤمنين عامة . ورواه الترمذی (٢) وقال : ليس بمتصل . والنسائی مرسلًا . قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها .

فصل

ومن قائل : أن المعنى باللمس هنا الجماع . وذلك لوروده في غير هذه الآية بمعناه . فدل على أنه من كنيات التنزيل . قال تعالى (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) (٣) . وقال تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) (٤) . وقال في آية الظهار (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا) (٥) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس (١) [١١ / هود / ١١٤] ... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرُ لِلَّذِينَ كَرِهُوا .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٥ - حدثنا عبد بن حميد .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٧] ونصها : وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

(٥) [٥٨ / المجادلة / ٣] ونصها : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ، ذَلِكَمُ تَوَعُّظٌ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

في هذه الآية (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) قال : الجماعة . وروى ابن جرير^(١) عنه . قال : إن اللمس والمس والمباشرة : الجماعة . ولكن الله يكتفى ما شاء بما شاء . وقد صح من غير وجه عن ابن عباس أنه قال ذلك . وقد تقرر أن تفسيره أرجح من تفسير غيره ، لاستجابة دعوة الرسول ﷺ فيه بتعليمه تأويل الكتاب^(٢) . كما أسلفنا بيان ذلك في مقدمة التفسير . ويؤيد عدم النقض بالمس ما رواه مسلم^(٣) والترمذي وصححه عن عائشة قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد . وهما منصوبتان . وهو يقول : اللهم ! إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أئنتيت على نفسك . وروى^(٤) النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليصلي وإني لمعرضته بين يديه اعتراض الجنابة . حتى إذا أراد أن يوتر مسني برجله .

قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص) : إسناده صحيح . وقوله في (الفتح) : يحتمل أنه كان بجائل أو أنه خاص به ﷺ ، تكلف ، ومخالفة للظاهر . وعن إبراهيم التيمي عن عائشة رضي الله عنها . أن النبي ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ . رواه أبو داود^(٥) والنسائي : قال أبو داود : هو مرسل . إبراهيم التيمي

(١) الأثر رقم ٩٥٨١ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ١٧ - باب قول النبي ﷺ « اللهم علمه الكتاب » . حديث ٦٥ ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ وقال : « اللهم علمه الكتاب » .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعنا) .

(٤) أخرجه النسائي في : ١ - كتاب الطهارة ، ١١٩ - باب ترك الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة .

(٥) رواه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٦٨ - باب الوضوء من القبلة ، =

لم يسمع من عائشة : وقال النسائي : ليس في هذا الباب أحسن من هذا الحديث ، وإن كان مرسلًا . وصححه ابن عبد البر وجماعة . وشهد له ماتقدم وما رواه الطبراني في المعجم الصغير من حديث عمرة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة . فقلت : إنه قام إلى جاريته مارية . فقامت ألتبس الجدار فوجدته قائمًا يصلي . فأدخلت يدي في شعره لأنظر : أغتسل أم لا ؟ فلما انصرف قال : أخذك شيطانك يا عائشة . وفيه محمد بن إبراهيم عن عائشة . قال ابن أبي حاتم : ولم يسمع منها .

قال ابن جرير^(١) : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عن الله بقوله (أَوْ لَا مَسْتَمُ النَّسَاءِ) الجماع دون غيره من معاني اللبس . لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ . ثم أسنده من طرق . وبه يعلم أن حديث عائشة قرينة صرفت إرادة المعنى الحقيقي من اللبس ، وأوجب المصير إلى معناه المجازي . وأما ما روى عن ابن عمر وابن مسعود ، فنحن لا ننكر صحة إطلاق اللبس على الجس باليد . بل هو المعنى الحقيقي . ولكننا ندعى أن المقام محفوف بقرائن توجب المصير إلى المجاز . وأما قولهم : بأن القبلة فيها الوضوء ، فلا حجة في قول الصحابي . لاسيما إذا وقع معارضا لما ورد عن الشارع . ويؤيد ذلك قول اللغويين . أن المراد بقول بعض الأعراب للنبي ﷺ : إن امرأته لا ترد يد لامس ، الكناية عن كونها زانية . ولهذا قال له ﷺ : طلقها .

وأما حديث معاذ الذي استأنسوا به فلا دلالة فيه على النقص . لأنه لم يثبت أنه كان متوضئاً قبل أن يأمره النبي ﷺ بالوضوء . ولا ثبت أنه كان متوضئاً عند اللبس ، فأخبره النبي ﷺ أنه قد انتقض وضوؤه . كذا في (نيل الأوطار) .

= حديث ١٧٨ ونصه : عن عائشة أن النبي ﷺ قبلها ولم يتوضأ .

والنسائي في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢١ - باب ترك الوضوء من القبلة . ونصه نص المتن .

(١) التفسير بالصفحة ٣٩٦ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

وقال ابن كثير : هو منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ . فإنه لم يلقه . ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة ، كما تقدم في حديث الصديق^(١) : ما من عبدي ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له . وهو مذكور في سورة آل عمران عند قوله (ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ)^(٢) الآية .

الخامسة - التيمم ، لغةً ، القصد . يقال : تيممته وتأممته ويعمته وآممته أى قصدته . وأما الصعيد فهو فعيل بمعنى الصاعد . قال الزجاج : الصعيد وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . لا أعلم اختلافاً بين أهل اللغة في ذلك . وفي (المصباح) الصعيد في كلام العرب يطلق على وجوه : على التراب الذى على وجه الأرض . وعلى وجه الأرض . وعلى الطريق وفي (القاموس) : الصعيد التراب أو وجه الأرض .

قال الأزهري : ومذهب أكثر العلماء أن الصعيد من قوله تعالى (صعيداً طيباً) هو التراب . انتهى .

واحتجوا بما في صحيح مسلم^(٣) عن حذيفة بن اليان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً . وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء . وفى لفظ : وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء . قالوا : نخففص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان . فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره

(١) أخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٢٦ - باب في الاستغفار ،

حديث ١٥٢١ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٣٥] ونصها : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٤ (طبعنا) .

معه . قالوا: وحديث جابر^(١) المتفق عليه : جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، خصصه ما قبله لأن الخاص يحمل عليه العام . واحتجوا أيضاً بأن الطيب لا يكون إلا تراباً . قال الواحدى: إنه تعالى أوجب فى هذه الآية كون الصعيد طيباً . والأرض الطيبة هى التى تنبت بدليل قوله تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يُادِئُ رَبِّهِ)^(٢) فوجب فى التى لاتنبت أن لاتكون طيبة . فكان قوله (فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا) أمراً بالتيمم بالتراب فقط . وظاهر الأمر للوجوب . واحتجوا أيضاً بآية المائدة . قالوا : الآية ههنا مطلقة ولكنها فى سورة المائدة مقيدة وهى قوله سبحانه وتعالى (فَاَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَاَيْدِيكُمْ مِنْهُ)^(٣) وكلمة (من) للتبعض وهذا لايتأتى فى الصخر الذى لاتراب عليه .

(١) أخرجه البخارى فى: ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَاَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ، ونصه :
عن جابر أن النبي ﷺ قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الفنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .
(٢) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يُادِئُ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا ، كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .
(٣) [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَاَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ =

قال الزمخشري : وقولهم إن (من) لا ابتداء الغاية ، قول متعسف . ولا يفهم أحد من العرب ، من قول القائل : (مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب) إلا معنى التبعيض . ثم قال : والإذعان للحق أحق من المراء . انتهى .

وأجاب القائلون ، بجواز التيمم بالأرض وما عليها ، عن هذه الحجج - بأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض لأنه ما صعد أى علا وارتفع على وجه الأرض . وهذه الصفة لا تختص بالتراب . ويؤيد ذلك حديث : جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . وهو متفق عليه من حديث جابر وغيره . ومثبت في رواية بلفظ (وتربها طهوراً) كما أخرجه مسلم من حديث حذيفة - فهو غير مستلزم لاختصاص التراب بذلك عند عدم الماء . لأن غاية ذلك أن لفظ التراب دل بمفهومه على أن غيره من أجزاء الأرض لا يشاركه في الطهورية . وهذا مفهوم لقب لا ينتهض لتخصيص عموم الكتاب والسنة . ولهذا لم يعمل به من يعتد به من أئمة الأصول . فيكون ذكر التراب ، في تلك الرواية من باب التنصيص على بعض أفراد العام . وهكذا يكون الجواب عن ذكر التراب في غير هذا الحديث . ووجه ذكره أنه الذى يغلب استعماله في هذه الطهارة . ويؤيد هذا ما ثبت من تيممه ﷺ من جدار . وأما الاستدلال بوصف الصعيد بالطيب ، ودعوى أن الطيب لا يكون إلا تراباً طاهراً منبتاً لقوله تعالى (١) (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) - فغير مفيد للمطلوب إلا بعد بيان اختصاص الطيب بما ذكر . والضرورة تدفعه . فإن التراب المختلط بالأزبال أجود إخراجاً للنبات . كذا في (الروضة الندية) .

وَأَيِّدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

وأما الاستدلال بآية المائدة وظهور التبويض في (من) فذاك إذا كان الضمير عائدا إلى الصعيد .

قال الناصر في (الانتصاف) : وثمة وجه آخر وهو عود الضمير على الحدث المدلول عليه بقوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى) إلى آخرها فإن المفهوم منه : وإن كنتم على حدث في حال من هذه الأحوال : سفر أو مرض ، أو مجيء من الغائط ، أو ملامسة النساء فلم تجدوا ماء فتطهرون به من الحدث ، فتيمموا منه . يقال : تيممت من الجنابة . قال : وموقع (من) على هذا مستعمل متداول . وهي على هذا الإعراب إما للتعليل أو لابتداء الغاية . وكلاهما فيها متمكن . والله أعلم .

السادسة - أفاد قوله تعالى (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) أن الواجب في التيمم عن وضوء أو غسل هو مسح الوجه واليدين فقط . وهذا إجماع . إلا أن في اليدين مذاهب للأئمة . فمن قائل بأنهما يمسحان إلى المرفقين ، لأن لفظ اليدين يصدق في إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين . كما في آية الوضوء . وعلى ما يبلغ الكفين كما في آية السركة (فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا) . وقالوا : وحمل ما أطلق ههنا ، على ما قيد في آية الوضوء ، أولى لجامع الطهورية .

وروى الشافعي عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال : مررت على النبي ﷺ وهو يبول . فسلمت عليه فلم يرد علي . حتى قام إلى الجدار فحنته بعصا كانت معه . ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه . ثم رد علي .

وهذا الحديث منقطع . لأن الأعرج ، وهو عبد الرحمن بن هرمز ، لم يسمع هذا من ابن الصمة . وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة . وكذا هو مخرج في الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال : دخلنا على أبي جهيم بن الحرث . فقال أبو جهيم : أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل . فلقبه رجل فسلم عليه . فلم يرد النبي ﷺ ، حتى أقبل على الجدار . فوضع يده على الحائط . فمسح بوجهه ويديه . ثم رد عليه السلام .

ولأبي داود^(١) عن نافع قال: انطلقت مع ابن عمر في حاجة إلى ابن عباس. ففضى ابن عمر حاجته. فكان من حديثه يومئذ أن قال: مر رجل على رسول الله ﷺ في سكة من السكك. وقد خرج من غائط أو بول. فسلم عليه فلم يرد عليه. حتى إذا كاد الرجل أن يتواري في السكة، ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه. ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه. ثم رد على الرجل السلام. وقال: إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام، إلا أني لم أكن على طهر. وفي رواية: فمسح ذراعيه إلى المرفقين. فهذا أجود ما في الباب. فإن البيهقي أشار إلى صحته. كذا في (لباب التأويل).

قال ابن كثير في حديث أبي داود ما نصه: ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي. وقد ضعفه بعض الحفاظ. ورواه غيره من الثقات فوقه على فعل ابن عمر. قال البخاري، وأبو زرعة وابن عدي: هو الصحيح.

وقال البيهقي: رَفَعُ هذا الحديث منكر.

قال ابن كثير: وذكر بعضهم مارواه الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: التيمم ضربتان: ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين. ولكن لا يصح. لأن في إسناده ضعفاً لا يثبت الحديث به. انتهى.

وذلك لأن فيه على بن ظبيان. قال الحفاظ ابن حجر: هو ضعيف، ضعفه القطان وابن معين وغير واحد. وبه يعلم أن ما استدل به على إيجاب الضربتين، مما ذكر، ففيه نظر. لأن طرقها جميعها لا تخلو من مقال. ولو صحت لكان الأخذ بها متعيناً لما فيها من الزيادة.

(١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٢ - باب التيمم في الحضر ،

حديث ٣٣٠.

فصل

ذهب الزهريّ إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين . ويدل على ذلك ما روى عن عمار بن ياسر قال : تمسحوا وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصعيد لصلاة الفجر . ففرضوا بأ كفهم الصعيد ثم مسحوا وجوههم مسحة واحدة . ثم عادوا ففرضوا بأ كفهم الصعيد مرة أخرى . فمسحوا بأيديهم كلها إلى المناكب والآباط من بطون أيديهم . أخرجه أبو داود ^(١) .

قال الحافظ في (الفتح) : وأما رواية الآباط فقال الشافعيّ وغيره : إن كان ذلك وقع بأمر النبي ﷺ فكل تيمم صح للنبيّ صلى الله عليه وسلم بعده فهو ناسخ له . وإن كان وقع بغير أمره فالحجة فيما أمر به .

فصل

والحق الوقوف في صفة التيمم على ما ثبت في الصحيحين ^(٢) من حديث عمار ، من الاختصار على ضربة واحدة للوجه والكفين .

- (١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢١ - باب التيمم ، حديث ٣١٨ .
- (٢) أخرجه البخاريّ في : ٧ - كتاب التيمم ، ٤ - باب التيمم هل ينفخ فيهما ؟ حديث ٢٣٣ ونصه :

عن عبد الرحمن بن أبيزى قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني أجنب فلم أصب الماء . فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب : أما تذكر أنا كنا في سفر ، أنا وأنت . فأما أنت فلم تصل . وأما أنا فتممكت فصليت . فذكرت للنبي ﷺ . فقال النبي ﷺ « إنما كان يكفيك هكذا » فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه وكفيه .

وأخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١١٢ (طبعنا) .

قال عمار : أجنبتم فلم أصب الماء . فتممكت في الصعيد وصليت . فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : إنما كان يكفيك هكذا . وضرب النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه . متفق عليه . وفي لفظ : إنما كان يكفيك أن تضرب بكفيك في التراب ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك إلى الرسغين . رواه الدارقطني .
وروى الإمام أحمد وأبو داود^(١) عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم قال في التيمم ضربة للوجه واليدين . وفي لفظ : إن النبي ﷺ أمره بالتيمم للوجه والكفين . رواه الترمذي^(٢) وصححه .

قال ابن عبد البر : أكثر الآثار المرفوعة عن عمار ضربة واحدة . وما روى عنه من ضربتين فكلاهما مضطربة . وأما الجواب عن التفق عليه من حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب ، وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم - فتكلف واضح ، ومخالفة للظاهر .

وقد سرى هذا إلى العلامة السندی في (حواشي البخاري) حيث كتب على حديث عمار مانصه : قد استدلل المصنف (يعني البخاري) بهذا الحديث على عدم لزوم الذراعين في التيمم في موضع . وعلى عدم وجوب الضربة الثانية في موضع آخر ، وكذا سيجي في روايات هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قدم في هذه الواقعة الكفين على الوجه . فاستدل به القائل لعدم لزوم الترتيب . فلعل القائل بخلاف ذلك يقول : إن هذا الحديث ليس مسوقاً لبيان عدد الضربات ولا لبيان تحديد اليد في التيمم ولا لبيان عدم لزوم الترتيب . بل ذلك أمر مفوض إلى أدلة خارجة ، وإنما هو مسوق لرد ما زعمه عمار من أن الجنب يستوعب البدن كله ، والقصر في قوله : (إنما كان يكفيك) معتبر بالنسبة إليه . كما هو القاعدة أن القصر

(١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢١ - باب التيمم ، حديث ٣٢٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ١ - كتاب الطهارة ، ١١٠ - باب ما جاء في التيمم .

يعتبر بالنظر إلى زعم المخاطب . فالمعنى : إنما يكفيك استعمال الصعيد في عضوين : وهما الوجه واليد . وأشار إلى اليد بـ (الكف) . ولا حاجة إلى استعماله في تمام البدن . وعلى هذا يستدل على عدد الضربات وتحديد اليد ولزوم الترتيب أو عدمه بأدلة أخرى . كحديث : التيمم ضربة للوجه وضربة للذراعين إلى المرفقين . وغير ذلك . فإنه صحيح كما نص عليه بعض الحفاظ . وهو مسوق لمعرفة عدد الضربات وتحديد اليد ، فيقدم على غير المسوق لذلك . والله تعالى أعلم . انتهى كلامه .

وقوله : فإنه حديث صحيح ، فيه ما تقدم .

وقد قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في (فصل هديه ﷺ بالتيمم) مانصه : كان صلى الله عليه وسلم يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين . ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين . قال الإمام أحمد : من قال : إن التيمم إلى المرفقين فإنما هو شيء زاده من عنده . وكذلك كان يتيمم بالأرض التي يصل عليها . ترابا كانت أو سبخة أو رملاً . وصح عنه أنه قال : حيثما أدركت رجلاً من أمتي الصلاة فعنده مسجده وطهوره . وهذا نص صريح في أن من أدركته الصلاة في الرمل فالرمل له طهور . ولما سافر ﷺ هو وأصحابه في غزوة تبوك ، قطعوا تلك الرمال في طريقهم ، وماؤهم في غاية القلة . ولم يرو عنه أنه حمل معه التراب ، ولا أمر به ، ولا فعله أحد من أصحابه . مع القطع بأن في الفاو ، الرمال أكثر من التراب . وكذلك أرض الحجاز وغيره . ومن تدبر هذا قطع بأنه كان يتيمم بالرمل . والله أعلم . وهذا قول الجمهور .

وأما ما ذكر في صفة التيمم من وضع بطون أصابع يده اليسرى على ظهور اليمنى ، ثم إمرارها إلى المرفق ، ثم إدارة بطن كفه على بطن الذراع ، وإقامة إبهامه اليسرى كالموذن إلى أن يصل إلى إبهامه اليمنى ، فيطبقها عليها . فهذا مما يعلم قطعاً أن النبي ﷺ لم يفعله . ولا علمه أحداً من أصحابه . ولا أمر به ولا استحسنة . وهذا هديه . إليه التحاكم . وكذلك لم يصح عنه التيمم لكل صلاة . ولا أمر به . بل أطلق وجعله قائماً مقام الوضوء . وهذا يقتضي أن يكون حكمه حكمه ، إلا فيما اقتضى الدليل خلافه . انتهى .

السابعة - ذكر هنا الحافظ ابن كثير سبب مشروعية التيمم قال : وإنما ذكرنا ذلك ههنا ، لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة . وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر . والخمر إنما حرم بعد أحدٍ ييسر . في محاصرة النبي ﷺ لبنى النضير . وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل . ولا سيما صدرها . فناسب أن يذكر السبب هنا . وبالله الثقة . قال الإمام أحمد^(١) حدثنا ابن نمير حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة . أنها استعارت من أسماء قلابدة . فهلكت . فبعث رسول الله ﷺ رجلاً في طلبها . فوجدوها . فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء . فصلوا بغير وضوء . فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل التيمم . فقال أسيد بن الحضير ، لعائشة : جزاك الله خيراً . فوالله ! ما نزل بك أمر تركه هينه ، إلا جعل الله لك والمسلمين فيه خيراً .

(طريق أخرى) قال البخاري^(٢) : حدثنا عبد الله بن يوسف قال : أنبأنا مالك عن عبد الرحمن ابن القاسم عن أبيه ، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، في بعض أسفاره : حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . وليس معهم ماء . فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي ، قد نام . فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ؟ قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول . فجعل يطعنني بيده في خصرتي . فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي . فقام رسول الله ﷺ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٥٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى : فَلَمْ تَجِدُوا

مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣٠ .

حتى أصبح على غير ماء . فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيمَمِ . فَتَيَمَّمُوا . فقال أسيد بن الحضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر .

قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا القعد تحته .

وقد رواه البخاري^(١) أيضاً عن قتيبة بن سعيد عن مالك .

ورواه مسلم^(٢) عن يحيى بن يحيى عن مالك . انتهى كلام ابن كثير .

وأورد الواحدى^(٣) فى (أسباب النزول) هذا الحديث عند ذكر آية النساء أيضاً . وقال ابن

العربى : لا نعلم أى الآيتين عنت عائشة . قال ابن بطال : هي آية النساء أو آية المائدة . وقال

القرطبي : هي آية النساء . ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء ، وآية النساء لا ذكر

فيها للوضوء ، فيتجه تخصيصها بآية التيمم .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وخفى على الجميع ما ظهر للبخارى^(٤) من أن

(١) أخرجه فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، ٥ - باب قول النبى ﷺ :

« لو كنت متخذاً خليلاً » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١٠٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٣ - باب قوله :

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، حديث ٢٣٠ ، حدثنا يحيى بن سليمان ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : سقطت قلادة لى بالبدياء ونحن داخلون المدينة . فأناخ

النبى ﷺ ونزل . فثنى رأسه فى حجرى راقدا . أقبل أبوبكر فلكرنى لكزة شديدة وقال :

حبست الناس فى قلادة . فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ وقد أوجعنى . ثم إن النبى ﷺ

استيقظ وحضرت الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد . فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

إِلَى الصَّلَاةِ ... الآية .

فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم .

المراد بها آية المائدة بغير تردد . لرواية عمرو بن الحرث . إذ صرح فيها بقوله : فنزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) الآية .

وقال الحافظ قبل : استدل به (أى بحديث عائشة) على أن الوضوء كان واجباً عليهم قبل نزول آية الوضوء . ولهذا استعظموا نزولهم على غير ماء . ووقع من أبى بكر فى حق عائشة ما وقع . قال ابن عبد البر : معلوم عند جميع أهل المغازى أنه ﷺ لم يصلّ منذ افترضت الصلاة عليه إلا بوضوء . ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند ، قال : وفى قوله فى هذا الحديث (آية التيمم) إشارة إلى أن الذى طرأ عليهم من العلم حينئذ حكم التيمم لا حكم الوضوء ، قال : والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ، ليكون فرضه متلوّاً بالتنزيل .

قال السيوطى فى (لباب النقول) بعد تصويب هذا الكلام : فإن فرض الوضوء كان مع فرض الصلاة بمكة . والآية مدنية . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر أيضا فى قول أسيد (ماهى بأول بركتكم) : يشعر بأن هذه القصة كانت بعد قصة الإفك . فيقوى قول من ذهب إلى تعدد ضياع العقد . ومن جزم بذلك محمد بن حبيب الأخبارى فقال : سقط عقد عائشة فى غزوة ذات الرقاع وفى غزوة بنى المصطلق . وقد روى ابن أبى شيبه من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع ... الحديث . فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بنى المصطلق . لأن إسلام أبى هريرة كان فى السنة السابعة ، وهى بعدها بلا خلاف قال : وسيأتى فى المغازى أن البخارى يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبى موسى ، وقدومه كان فى وقت إسلام أبى هريرة . ومما يدل على تأخر القصة أيضا عن قصة الإفك ، مارواه الطبرانى من طريق عباد بن عبد الله ابن الزبير عن عائشة قالت : لما كان من أمر عقدى ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا ، خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى حتى حبس الناس على التماسه . فقال لى أبو بكر : يا بنية ! فى كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً على الناس ؟ فأنزل الله عز وجل الرخصة

في التيمم . فقال أبو بكر : إنك لمباركة (ثلاثاً) . وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وفيه مقال . وفي سياقه من الفوائد بيان عتاب أبي بكر الذي أبهم في حديث الباب ، والتصريح بأن ضياع المقد كان مرتين في غزوتين . والله أعلم . انتهى كلام الحافظ .

وقال الإمام شمس الدين ابن القيم في (زاد المعاد) في (غزوة المريسيع ، وهي غزوة بني المصطلق) : إنها كانت في شعبان سنة خمس . وبعد ذكرها قال : قال ابن سعد : وفي هذه الغزوة سقط عقد لعائشة فاحتبسوا على طلبه ، فزات آية التيمم . ثم ساق حديث الطبراني المتقدم وقال : هذا يدل على أن قصة المقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة . وهو الظاهر . ولكن فيها كانت قصة الإفك بسبب فقد المقد والتماسه . فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى . انتهى .

وقد روى سبب نزول الآية المذكورة أيضا عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ^(١) قال : إن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة فانقطع عقد لها من جزع ظفاري ^(٢) فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء . فتغيظ عليها أبو بكر . وقال : حبست الناس وليس معهم ماء ! فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم رخصة التطهر بالصعيد الطيب . فقام المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئا . فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط . ورواه أيضا ابن جرير عن أبي اليقظان رضي الله عنه ^(٣) قال :

(١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢١ - باب التيمم ، حديث ٣٢٠ .

(٢) في القاموس : الجزع : الخرز اليماني الصيني ، فيه سواد وبياض . تشبه به الأعين .

وقال في اللسان : وظفار مثل قطام ، مبنية . موضع . وقيل : هي قرية من قرى حمير

إليها ينسب الجزع الظفاري .

(٣) الأثر ٩٦٧٠ من التفسير .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلك عقد لعائشة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضاء الصبح . فتغيظ أبو بكر على عائشة . فنزلت عليه الرخصة ، المسح بالصعيد . فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لباركة. نزل فيك رخصة . فضر بنا بأيدينا : ضربة لوجوهنا وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في سبب نزولها وجهاً آخر عن الأسلع بن شريك رضى الله عنه قال : كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصابني جنابة في ليلة باردة . وأراد رسول الله ﷺ الرحلة فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب. وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض. فأمرت رجلاً من الأنصار فرحله ثم رصفت أحجاراً فأسخت بهاماً واغتسلت . ثم لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال: يا أسلع! ما لي أرى رحلتك قد تغيرت؟ قلت: يا رسول الله! لم أرحلها. رحلها رجل من الأنصار. قال: ولم؟ قلت: إني أصابني جنابة فخشيت القرّ على نفسي، فأمرت أن يرحلها ورصفت أحجاراً فأسخت بهاماً فاغتسلت به . فأنزل الله عز وجل (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا) .

قال ابن كثير : وقد روى من وجه آخر، عنه .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

« أَلَمْ تَرَ » من رؤية القلب . وضمن معنى الانتهاء . أى: ألم ينته علمك إليهم . أو من رؤية البصر . أى: ألم تنظر « إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ » أى حظاً من علم التوراة . وهم أحبار اليهود . قال العلامة أبو السعود : المراد بالذى أوتوه ، ما بين لهم فيها من الأحكام والعلوم التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي ﷺ وحقية الإسلام . والتعير عنه بالنصيب ،

النبي عن كونه حقاً من حقوقهم، التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها ، للإيدان بكمال ركاة آرائهم حيث ضيعوه تضييعاً . وتوينه تفخيماً مؤيد للتشجيع عليهم ، والتعجيب من حالهم . فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على كمال شناعتهم . والإشعار بمكان ما طوى ذكره في المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذي هو أحد العوضين « يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ » وهو البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة الرسول ﷺ ، وأنه هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل . أى يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهدى ليشتروا ثمناً قليلاً من حطام الدنيا .

وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر . لاسيما بعد الإشعار المذكور . والتعبير عن ذلك بالاشتراء ، الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها بدلاً منه ، أخذاً ناشئاً عن الرغبة فيها والإعراض عنه - للإيدان بكمال رغبتهم فى الضلالة ، التى حقها أن يعرض عنها كل الإعراض . وإعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون . وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم ، وغاية ركاة آرائهم - ما لا يخفى . حيث صورت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز . قاله أبو السعود « وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ » أى لا يكتفون بضلal أنفسهم بل يريدون بما فعلوا ، من كتمان نعوته صلى الله عليه وسلم ، أن تضلوا أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوا ، ويودون لو تكفرون بما أنزل عليكم من الهدى والعلم النافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)

« وَاللَّهُ أَعْلَمُ » أى منكم « بِأَعْدَائِكُمْ » أى وقد أخبركم بعداوتهم لكم ، وما يريدون بكم ، فاحذروهم . ولا تستنصحوهم فى أموركم ، ولا تستشيروهم « وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا » بلى أموركم « وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا » ينصركم . أى : فثقوا بولايته ونصرته دونهم .

ولا تتولوا غيره . أو : ولا تبالوا بهم وبما يسومونكم من سوء . فإنه تعالى يكفكم مكرهم
وشرهم . ففيه وعد ووعد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » بيان للموصول وهو (الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) فإنه
متناول لأهل الكتابين . وقد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع
والتعجيب والمسارة إلى تنفير المؤمنين منهم ، وتحذيرهم عن مخالطتهم ، والاهتمام بحملهم
على الثقة بالله عز وجل ، والاكتفاء بولايته ونصرته . وقوله تعالى « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ » هو وما عطف عليه بيان لاشتراءهم المذكور ، وتفصيل لفنون ضلالهم .
فقد روعيت في النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإيهام ، والتفصيل إثر الإجمال . رومًا لزيادة
تقرير يقتضيه الحال . أفاده أبو السعود .

قال الإمام ابن كثير : قوله : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) أى يتناولونه على غير
تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ، قصدًا منهم وإفراء .

وقال العلامة الرازى : في كيفية التحريف وجوه : أحدها - إنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ
آخر . ثم قال : والثانى - أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف
اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية . كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا ،
بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، وهذا هو الأصح . والثالث - أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ ،
ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به . فإذا خرجوا من عنده حرّفوا كلامه . انتهى .

وقال الإمام ابن القسيم رحمه الله تعالى في (إغاثة اللهيان) : قد اختلف في التوراة التي بأيديهم . هل هي مبدلة أم التبديل وقع في التأويل دون التنزيل ؟ على ثلاثة أقوال : قالت طائفة : كلها أو أكثرها مبدل . وغلا بعضهم حتى قال : يجوز الاستجار بها . وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام : إنما وقع التبديل في التأويل . قال البخاري^(١) في (صحيحه) : يحرفون يزيلون . وليس أحذيزيل لفظ كتاب من كتب الله . ولكنهم يتأولونه على غير تأويله . وهو اختيار الرازي أيضاً .

وسمعت شيخنا يقول : وقع النزاع بين الفضلاء . فأجاز هذا المذهب ووهى غيره . فأنكر عليه . فأظهر خمسة عشر نقلاً به . ومن حجة هؤلاء ، أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها . وانتشرت جنوباً وشمالاً . ولا يعلم عدد نسخها إلا الله . فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ ، حتى لا تبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة . وهذا مما يحيله العقل . قالوا : وقد قال الله لنبيه (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قالوا : وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم . ولم يمكنهم تغييرها من التوراة . ولذا لما قرئوها على النبي ﷺ وضع القاري يده على آية الرجم . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فإذا هي تلوح تحتها . وتوسط طائفة فقالوا : قد زيد فيها وغير أشياء يسيرة جداً . واختاره شيخنا في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) قال : وهذا كما في التوراة عندهم : إن الله سبحانه قال لإبراهيم : اذبح إبنك بركك أو وحيدك ، إسحق . ثم قال : قلت والزيادة باطلة من وجوه عشرة . ثم ساقها فارجع إليه . وقد نقلها عنه هنا الإمام صدق خان . فانظره في تفسيره (فتح الرحمن) .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى :
بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف قيل ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفي المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) ؟ قلت : أما (عَنْ مَوَاضِعِهِ) فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها ، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه . وأما (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) فالعنى أنه كانت له مواضع ، هو قَمِينٌ بأن يكون فيها . فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه . والمعنيان متقاربان .

وقال الرازى : ذكر الله تعالى ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفي المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) والفرق : أنا إذا فسرنا التحريف بالتأويلات الباطلة ، فههنا قوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) معناه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص . وليس فيه بيان أنهم يخرجون تلك اللفظة من الكتاب . وأما الآية المذكورة في سورة المائدة ، فهي دالة على أنهم جمعوا بين الأمرين . فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظ أيضاً من الكتاب . فقوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ) إشارة إلى التأويل الباطل . وقوله (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) إشارة إلى إخراجه عن الكتاب .

وقال الناصر في (الانتصاف) : الظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد به ، في هذه الصورة ، مثل (غَيْرَ مُسْمَعٍ) و (رَاعِنًا) ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام . وتوسطها بين الكلمتين ، بين قوله (يُحَرِّفُونَ) وبين قوله (لَيًّا بِالسِّنَتِهِمْ) والمراد أيضاً تحريف مشاهد بين على أن المحرفها وأمثالها . وأما في سورة المائدة فالظاهر ، والله أعلم ، أن المراد فيها بـ (الكلم) الأحكام . وتحريفها تبديلها . كتبديلهم الرجم بالجلد . ألا تراه عقبه بقوله (يَقُولُونَ إِنْ أُورِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتُوهُ فَاَحْذَرُوا) ؟ ولاختلاف المراد بالكلم في السورتين . قيل في سورة المائدة : يحرفون الكلم من بعد مواضعه . أى ينقلونه عن الموضع الذى وضعه الله فيه ، فصار وطنه ومستقره ، إلى غير الموضع . فبقى كالغريب التأسف على الذى يقال فيه هذا غريب من بعد مواضعه ومقارّه . ولا يوجد هذا المعنى في مثل (راعنا) و (غير مسموع) وإن وجد

على بعد فليس الوضع اللغويّ مما يعبأ بانتقاله عن موضعه كالوضع الشرعيّ. ولولا اشتغال هذا النقل على الهزء والسخرية لما عظم أمره. فلذلك جاء هنا (يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) غير مقرون بما قرّن به الأول من صورة التأسف . والله أعلم . انتهى .

وقال العلامة أبو السعود : والمراد بالتحريف ههنا، إما ما في التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه، ومما سيحكي عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم في أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى « وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا » وما بعده، على ما قبله عطفاً تفسيريّاً . لأنه يستدعي اختصاص حكم الشرطية الآية وما بعدها بهنّ من غير تعرض لتحريفهم التوراة . مع أنه معظم جناياتهم المعدودة فقولهم (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) ينبئ أن يجري على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة. بل وأن يحمل على ما هو أعم من القول الحقيقيّ ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم. أي يقولون في كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحض النبيّ صلى الله عليه وسلم أو لا، بلسان المقال أو الحال: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) عناداً أو تحقيقاً للمخالفة. انتهى .

قال ابن كثير : ويقولون سمعنا أي: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسرّه مجاهد وابن زيد، وهو المراد. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عاقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة. « وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ » عطف على (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) داخل تحت القول أي: ويقولون ذلك في أثناء مخاطبته عليه الصلاة والسلام خاصة. وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر. بأن يحمل على معنى (اسمع)، حال كونك غير مسمع كلاماً أصلاً. بصم أو موت. أي مدعواً عليك بلا سمعت . أو غير مسمع كلاماً ترضاه. وللخير بأن يحمل على: اسمع منا غير مسمع مكرهاً. كانوا يخاطبون به النبيّ صلى الله عليه وسلم استهزاءً به (عليهم اللعنة) مظهرين له إرادة المعنى الأخير وهم مضمرّون المعنى الأول مطمئنون به « وَرَاعِنَا » عطف على ما قبله. أي ويقولون في أثناء خطابهم له ﷺ هذا أيضاً. وهي كلمة ذات وجهين أيضاً محتملة للخير

بجملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك. وللشر بجملها على شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابقون بها. أو على السب بالرعونة أى الحق. وبالجملة فكانوا، سخرية بالدين وهزواً برسول الله صلى الله عليه وسلم، يكلمونه بكلام محتمل بنوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام « لِيَا بَالْسِنْتِهِمْ » أى فتلاً بها وصرفاً للكلام من وجه إلى وجه وتحريفاً. أى يفتلون بالسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون (رَاعِنَا) موضع (انظُرْنَا) و (غَيْرَ مُسْمَعٍ) موضع (لا أَسْمَعُ مَكْرُوهَا) أو يفتلون بالسنتهم ما يضرهم من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً. فإن قلت: كيف جاؤا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء. ويجوز أن يقولوه فيما بينهم ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. كذا فى الكشف .

وأصل (لِيَا) لَوِيًّا لأنه من لويت أدغمت الواو فى الياء لسبقها بالسكون. ومثله (الطى) « وَطَعْنَا فِي الدِّينِ » أى قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصاهما على العلية لـ (يَقُولُونَ) باعتبار تعلقه بالقولين الآخرين. أى يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والظمن فى الدين. أو على الحالية. أى: لاوين وطاعين فى الدين. أفاده أبو السعود .

« وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا » أى عند ما سمعوا ما يتلى عليهم من أوامره تعالى « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » أى بدل قولهم (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) والقول هنا كسابقه أعم من أن يكون بلسان المقال أو بلسان الحال « وَاسْمَعْ » أى لو قالوا عند مخاطبة النبي ﷺ بدل قولهم (اسمع) فقط بلا زيادة (غَيْرَ مُسْمَعٍ) المحتمل للشر « وَانظُرْنَا » يعنى بدل قولهم (راعنا) المحتمل للمعنى الفاسد كما سلف « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ » فى الدنيا بحقق دماهم وأموالهم وعلو رتبهم بإحاطة الكتب السماوية . وفى الآخرة بضعف الثواب. أفاده المهايى .

قال أبو السعود : وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل فى الفضل عليه بناءً على اعتقادهم. أو بطريق التهكم . وإما بمعنى اسم الفاعل « وَلَكِنْ لَنَنْهَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ »

أى: ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فطردهم الله عن رحمته وأبعدهم عن الهدى ، بسبب كفرهم « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » منصوب على الاستثناء من (لنهم) أى ولكن لنهم الله إلا فريقاً قليلاً منهم . آمنوا فلم يلعنوا . أو على الوصفية لمصدر محذوف . أى : إلا إيماناً قليلاً أى ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به . فإنهم كانوا يؤمنون بالله والتوراة وموسى ، ويكفرون ببقية المرسلين وكتبهم المنزلة . ورجح أبو على الفارسيّ هذا . قال : لأن (قليلاً) لفظ مفرد : ولو أريد به (ناس) لجمع نحو قوله : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ^(١) . ويمكن أن يجاب عنه بأنه قد جاء فيل مفرداً . والمراذبه الجمع قال تعالى : وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ^(٢) . وقال : وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيًّا ^(٣) يبصرونهم . أفاده الرازي . وقد جوز على هذا أن يراد بالقلة العدم بالسكينة . كقوله ^(٤) :

قليل التشكى لهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . (٣) [٧٠ / المارج / ١٠] .

(٤) قائله تأبط شرا ، حساسة أبى تمام رقم ١٣ . ومطلعها :

إنى لمهد من ثنائى فقاصد به لابن عم الصدق شمس بن مالك

قال المرزوق فى شرح البيت :

المهم يجوز أن يكون من المهم الذى هو الحزن ، ويجوز أن يكون من المهم الذى هو القصد . يقول : هو صبور على النوائب والعلات ، لا يكاد يتألم مما يعرفه من الملمات . واستعمل لفظ (القليل) والقصد إلى نفي الكل . وهذا كما يقال : فلان قليل الاكتراث بوعيد فلان ، والمعنى : لا يكثر . وعلى ذلك قولهم : قلّ رجل يقول كذا ، وأقلّ رجل يقول كذا ، والمعنى معنى النفي .

أى هو كثير المم مختلف الوجوه والطرق لا يقف أمه على فن واحد بل يتجاوزه إلى فنون مختلفة. صبور على النوائب لا يكاد يتشكى منها . فاستعمل لفظ (قَلِيل) وأراد به نفي الكل . أو منصوب على الاستثناء من فاعل (لَا يُؤْمِنُونَ) أى : فلا يؤمن منهم إلا نفر قليل . وأما قول الخفاجى : كان الوجه فيه الرفع على البدل لأنه من كلام غير موجب . وأبى السعوى : بأن فيه نسبة القراء إلى الاتفاق على غير المختار - فردود بأن النصب عربى جيد . وقد قرئ به فى السبع فى (قَلِيلٌ) من قوله تعالى : مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ^(١) وفى (امرأتك) من قوله تعالى : وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَآتَكَ^(٢) كما قاله ابن هشام فى التوضيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا قَاسِيَةً فَتَرْدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا » يعنى القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ »

= وقوله (كثير الهوى) طابق القليل بقوله (كثير) من حيث اللفظ ، لا أنه أثبت بالأول شيئاً نزراً فقابله بكثير .

(١) [٤ / النساء / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا .

(٢) [١١ / هود / ٨١] ونصها : قَالُوا يَا لَوِطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَاسْرِبْ بِهِ هَذَا فَاصْطَلْ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَآتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

أى موافقاً للتوراة « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا » أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم . وقال العوفى عن ابن عباس: طمسها أن تعمي « فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا » أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء مطموسة مثلها جزاء على الكفر . فالقاء للتسبيب . أو نكسها بعد الطمس فتردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها . وقد اكتفى بذكر أشدهما . فالقاء للتعقيب .

قال الرازى: وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الحلقة والمثلة والفضيحة . لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة « أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ » أى: أو نعمل بهم أبلغ من ذلك . وهو أن نطردهم عن الإنسانية بالمسخ السكى جزاء على اعتدائهم بترك الإيمان . كما أخرجنا به أوائلهم أصحاب السبت جزاء على اعتدائهم على السبت بالحيلة على الاصطياد . فسخرناهم قردة « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ » أى ما أمر به « مَفْعُولًا » أى نافذاً كائنا لا محالة . هذا وفى الآية تأويل آخر . وهو أن المراد من طمس الوجوه مجازة . وهو صرفهم عن الحق وردمهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة . يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم . قال ابن كثير : وهذا كما قال بعضهم فى قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ^(١) : أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ، يقول: عن صراط الحق . فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ، أى فى الضلال . قال ابن أبى حاتم : وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا . قال السدى : فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا : فنمنعها عن الحق ، نرجعها كفاراً .

قال الرازى: والقصود على هذا بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات . ونظيره قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،

(١) [٣٦ / يس / ٩٨] .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ^(١) . تحقيق القول فيه أن الإنسان في مبدأ خلقته أَلَفَ هذا العالم المحسوس . ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم العقولات . فقدمه عالم العقولات ، ووراءه عالم المحسوسات . فالخذول هو الذي يرد عن قدمه إلى خلفه . كما قال تعالى في صفتهم : نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ^(٢) . ثم قال الرازي : قال عبد الرحمن بن زيد : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى . وتأول ذلك في إجلاء قريظة والنضير إلى الشام . فرد الله وجوههم على أديبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء ، من أرض الشام . كما جاءوا منها و(طمس الوجوه) على هذا التأويل يحتمل معنيين : أحدهما - تقبيح صورتهم . يقال : طمس الله صورته ، كقوله : قبيح الله وجهه . والثاني - إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها . وثمة تأويل آخر . وهو : أن المراد بالوجوه الوجهاء . على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير . أي من قبل أن نغير أحوال وجهائهم ، فنسلب إقبالهم ووجاهتهم ، ونكسوم صغاراً وإدباراً .

وقال بعضهم : الأظهر حمل قوله (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) الخ على اللعن المتعارف . قال : ألا ترى إلى قوله تعالى : قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ^(٣) . ففصل تعالى بين اللعن وبين مسخهم قردة وخنازير .

وأقول : لا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات ، غير الأول ، لا يساعده مقام تشديد

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] .

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٠] وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ

عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

الوعيد ، وتعميم التهديد . فإن المتبادر من اللفظ الحقيقة . ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها . ولا تعذر هنا . كما أن المتبادر من اللعن ، المشبه بلعن أصحاب السبت ، هو المسخ . وهو الذى تقتضيه بلاغة التنزيل . إذ فيه الترقى إلى الوعيد الأقطع . ولا ننكر أن تكون هذه التأويلات مما يشمله لفظ الآية . وإنما البحث فى دعوى إرادتها دون سابقها . فالحق أن المتبادر من النظم الكريم هو الأول . لأنه أدخل فى الزجر . ويؤيده ما روى ، أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية . رواه ابن جرير^(١) وابن أبى حاتم ولفظه بعد إسناده: عن أبى إدريس عائذ الله الخولانى قال : كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب . وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله ﷺ . قال فبعثه إليه ينظر أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة . فإذا تال يقرأ القرآن ، يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلٍ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا . فَاغْتَسَلْتَ ، وَإِنِّى لَأَمْسُ وَجْهِي خَافَةَ أَنْ أَطْمِسَ . ثم أسلمت .

وروى ، من غير طريق ، نحوه أيضاً .

فإن قيل : قرينة المجاز عدم وقوع التوعد به . فالجواب : أن عدم وقوعه لا يعين إرادة المجاز . إذ ليس فى الآية دلالة على تحتم وقوعه إن لم يؤمنوا . ولو فهم منها هذا فهما أولياً ، لكان إيمانهم بعدها إيمان إلقاء واضطرار . وهو يناقى التكليف الشرعى . إذ لم تجر سنته تعالى بهذا . بل النظم الكريم فى هذا المقام محتمل ابتداء للقطع بوقوع التوعد به . ولو وقع معلقاً بأمره تعالى ومشيئته بذلك ، وهو المراد . كما ينبى عنه قوله تعالى : وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا^(٢) : أى ما يأمر به ، ويريد وقوعه . وإذا كان الوعيد منوطاً بأمره سبحانه ، فله أن

(١) الأثر رقم ٩٧٢٥ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ قَوْلُ لِّلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ =

يمضيه على حقيقته وله أن يصرفه لما هو أعلم به . إلا أن ورود نظم الآية بهذا الخطاب المتبادر في الوقوع غير المعلق ، ليكون أدخل في الترهيب ، ومزجرة عن مخالفة الأمر . هكذا ظهر لنا الآن . وهو أقرب مما نحاه المفسرون هنا من أن العقاب منتظر ، أو ، أنه مشروط بعدم الإيمان . إلى غير ذلك . فقد زيفها جميعها العلامة أبو السعود . ثم اختار أن المراد من الوعيد الأخرى . قال : لأنه لم يتضح وقوعه . وهذا فيه بُعدٌ أيضاً ، لنبوّ مثل هذا الخطاب عن إرادة الوعيد الأخرى . لاسيما والجملة الثانية التي هددوا بها ، أعنى لعنهم كأصحاب السبت ، كان عقابها دنيوياً . فالوجه ما قرناه . وما أشبه هذه الآية ، في وعيدها ، بآية يس . أعنى قوله تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ^(١) . بل هذه عندي تفسير لتلك . والقرآن يفسر بعضه بعضا . فبرح الخفاء والحمد لله .

لطيفة :

الضمير في (نلعنهم) لأصحاب الوجوه . أو (للذين) على طريقة الالتفات أو (للوجوه) إن أريد بها الوجهاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » قال أبو السعود : كلام مستأنف مسوق لتقرير

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .
(١) [٣٦ / يس / ٦٦ و ٦٧] .

ما قبله من الوعيد ، وتأكيده وجوب الامتنال بالأمر بالإيمان ، ببيان استحالة المغفرة بدونه .
 فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطعمون في المغفرة . كما في قوله تعالى :
 فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ^(١) . يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى (أى على التحريف)
 وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا . والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولاً . فإن
 الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة . وقضى بخلود أصناف الكفرة في النار .
 ونزوله في حق اليهود ، كما قال مقاتل ، وهو الأنسب بسباق النظم الكريم . وسياقه لا يقتضى
 اختصاصه بكفرهم ، بل يكفي اندراجهم فيه قطعاً . بل لا وجه له أصلاً . لاقتضائه جواز
 مغفرة مادون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر . أى لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة
 وإيمان . لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر . وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدي
 إلى فتحه . ولأن ظلمات الكفر والمعاصي إنما يسترها نور الإيمان . فمن لم يكن له إيمان لم يغفر
 له شيء من الكفر والمعاصي . انتهى .

قال الشهاب : الشرك يكون بمعنى اعتقاد أن لله شريكاً ، وبمعنى الكفر مطلقاً ، وهو
 المراد هنا . وقد صرح به في قوله تعالى في سورة (لم يكن) بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ^(٢) . فلا يبق شبهة في عمومها . انتهى .
 وقال الرازى : هذه الآية دالة على أن اليهودى يسمى مشركاً ، في عرف الشرع . ويدل عليه
 وجهان : الأول - أن الآية دالة على أن ماسوى الشرك مغفور . فلو كانت اليهودية مغيرة للشرك
 لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية . وبالإجماع هي غير مغفورة . فدل على أنها داخلية

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٩] . . . وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ
 عَلَيْهِمْ مِثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ
 خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٢) [٩٨ / البينة / ٦] . . . أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

تحت اسم الشرك . الثاني - إن اتصال هذه الآية بما قبلها ، إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود . فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك ، وإلا لم يكن الأمر كذلك . فإن قيل : قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا...** إلى قوله : **وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ^(١) . فَعَطَفَ المشرك على اليهودي ، وذلك يقتضى المغايرة - قلنا المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوي . والاتحاد حاصل بسبب المفهوم الشرعي . ولا بد من المصير إلا ما ذكرناه ، دفعاً للتناقض . انتهى .

لطيفة :

قال أبو البقاء : الشرك أنواع : شرك الاستقلال وهو إثبات إلهين مستقلين . كشرك المجوس . وشرك التبعية ، وهو تركيب الإله من آلهة كشرك النصارى . وشرك التقريب ، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى ، كشرك متقدمى الجاهلية . وشرك التقليد ، وهو عبادة غير الله تبعاً للغير . كشرك متأخرى الجاهلية . وشرك الأسباب . وهو إسناد التأثير للأسباب العادية ، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك . وشرك الأغراض ، وهو العمل لغير الله . فحكم الأربعة الأولى الكفر بإجماع . وحكم السادس المعصية من غير كفر بإجماع . وحكم الخامس التفصيل . فمن قال في الأسباب العادية إنها تؤثر بطبعها فقد حكي الإجماع على كفره . ومن قال إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها فهو فاسق . انتهى . « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » أى ما دون الشرك من المعاصي ، صغيرة كانت أو كبيرة « لِمَن يَشَاءُ » تفضلاً منه وإحساناً . قال ابن جرير ^(٢) : وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل . إن شاء

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] ونصها : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) الصفحة رقم ٤٥٠ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

عفائه وإن شاء عاقبه عليه. ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عز وجل اه. وظهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه ورحمة. وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة. وقيد ذلك العزلة بالتوبة. وقد تقدم قوله تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** (١). وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر. فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته. ولذا قال الرازي: هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. ثم جود وجوه الاستدلال. ومنها: أن ماسوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة. ومنها أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به وغير معلق على المشيئة. فوجب أن يكون الغفران المذكور، في هذه الآية، هو غفران الكبيرة قبل التوبة. وهو المطلوب.

وأول الزمخشري هذه الآية على مذهبه: بأن الفعل المنفي والمثبت جميعاً، موجّهان إلى قوله تعالى (**لِنْ يَشَاء**) على قاعدة التنازع. كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء مادون الشرك. على أن المراد بالأول من لم يتب وبالتالي من تاب. قال: ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. انتهى.

قال ناصر الدين في (الانتصاف): عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور البتة. وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له. هذا مع عدم التوبة. وأما مع التوبة فكلاهما مغفور. والآية إنما وردت فيمن لم يتب ولم يذكر فيها توبة كما ترى. فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة الشرك وأثبت مغفرة مادونه مقرونة بالمشيئة، كما ترى. فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة. وأما القدريّة فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين مادونه من الكبائر. في أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة، ولا شاء الله أن يغفرها إلا للتائبين. فإذا

(١) [٤ / النساء / ٣١] ... وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

عرض الرّخشريّ هذا المعتقد على هذه الآية رده ونبت عنه . إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب ، فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة في أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقاً . إذ هما سيّان في استحالة المغفرة . وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال في الشرك (إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ) والتائب من الشرك مغفور له . وعند ذلك أخذ الرّخشريّ يقطع أحدهما عن الآخر . فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ومع الكبائر التوبة . حتى تنزل الآية على وفق معتقده فيحملها أمرين لا تحمل واحدا منهما : أحدهما - إضافة التوبة إلى المشيئة وهي غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر . وأيضاً لو كانت مرادة لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلاً . ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل . فكيف يليق السكوت عن ذكر ماهو العمدة والموجب ، وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الرديّ ؟ الثاني - أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر . وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى . نعوذ بالله من ذلك .

وأما القدريّة فهم بهذا المعتقد يقع عليه بهم المثل السائر (السيد يعطى والعبد يمنع) . لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة للمصرّ على الكبائر ، إن شاء . وهم يدفعون في وجه هذا التصريح ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصلاح ، التي هي بالفساد أجدر وأحق . انتهى .
فائدة :

وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة :

الأول - عن عائشة^(١) قالت : قال رسول الله ﷺ : الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئاً . وديوان لا يترك الله منه شيئاً . وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان

(١) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

الذى لا يغفره الله فالشرك بالله . قال الله عز وجل : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** الآية . وقال : **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** ^(١) . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه ، أو صلاة تركها . فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز ، إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة . رواه الإمام أحمد . وقد تفرد به .

الثانى - عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : **الظلم ثلاثة** : ظلم لا يغفره الله . وظلم يغفره الله . وظلم لا يترك الله منه شيئاً . فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك . وقال : **إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ^(٢) . وأما الظلم الذى يغفره الله ، فظلم العباد لأنفسهم ، فيما بينهم وبين ربهم . وأما الظلم الذى لا يتركه ، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض . رواه أبو بكر البزار فى مسنده .

الثالث - عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **كل ذنب عسى الله أن يغفره . إلا الرجل يموت كافراً . أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً** . رواه الإمام أحمد ^(٣) والنسائى .

الرابع - عن أبى ذر ^(٤) : أن رسول الله ﷺ قال : **ما من عبد قال : لا إله إلا الله ،**

(١) [٥ / المائدة / ٧٢] ونصها : **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** .

(٣) أخرجه فى السند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه أحمد فى السند بالصفحة ١٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وأخرجه البخارى فى : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٢٤ - باب الثياب البيض ، حديث ٦٦٠ ومسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعنا) .

ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر .

قال نخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر . وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول : وإن رغم أنف أبى ذر . أخرجه الإمام أحمد والشيخان .

وفى رواية لهما عن أبى ذر : قال عليه السلام : قال لى جبريل : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قلت : يا جبريل ! وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن شرب الخمر . الخامس - عن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما الموجبتان؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به دخل النار . أخرجه مسلم ^(١) وعبد بن حميد فى مسنده .

السادس - عن أبى سعيد الخدرى ^(٢) قال : قال رسول الله ﷺ : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . رواه الإمام أحمد . السابع - عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : من علم أنى ذوقه مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى . رواه الطبرانى .

الثامن - عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له . ومن توعد على عمل عقاباً ، فهو فيه بالخيار . رواه البزار وأبو يعلى . التاسع - عن ابن عمر ، قال : كنا ، معشر أصحاب النبى ﷺ ، لانشك فى قاتل النفس ،

(١) أخرجه مسلم فى ١ - كتاب الإيمان حديث ١٥١ (طبعنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وَأَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ ، وشاهد الزور ، وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فأمسكنا عن الشهادة . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) .

وفي رواية لابن أبي حاتم: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل .
العاشر - عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ما في القرآن أحبّ إلى من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . رواه الترمذي^(٢) وقال: حديث حسن غريب .

الحادي عشر - عن أنس^(٣) رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم ! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي . يا ابن آدم ! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي . يا ابن آدم ! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأنتيك بقرابها مغفرة . رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . لانعرفه إلا من هذا الوجه .

وروى نحوه الإمام أحمد عن أبي ذر^(٤) ولفظه عن رسول الله ﷺ ، قال : إن الله عز وجل يقول : يا عبدي ! ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك . يا عبدي ! إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي ، لقيتكم بقرابها مغفرة .
والأحاديث في ذلك متوافرة . ويكفي هذا المقدار .

(١) الأثر رقم ٩٧٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٢٣ - حديثنا خلاصته .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا » أى افترى واختلق، مرتكباً إثمًا لا يقادر قدره . ويستحققر دونه جميع الآثام . فلا تتعلق به المغفرة قطعاً .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه (الجواب الكافى) : الشرك بالرب تعالى نوعان : شرك به فى أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه . وشرك به فى معاملته . وهذا الثانى قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره . وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم ، فى خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب ، فقد نازع الله ، سبحانه وتعالى ، ربوبيته وملكوته . وجعل له ندّاً . وهذا أعظم الذنوب عند الله . ولا ينفع معه عمل .

وقال بعد ذلك : وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال : إن الله عز وجل أرسل رسوله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ، ليُعرف ويُعبد ويُوحّد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له ، والدعوة له . كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ^(١) . وقال تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ^(٢) . وقال تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ^(٣) . وقال تعالى : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغِبْقَةَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(٤) . فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ،

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٥ / الحجر / ٨٥] . . . وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ .

(٣) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٧] .

وَأَن يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض . كما قال تعالى ^(١) :
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .
فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل . ومن أعظم
القسط التوحيد . بل هو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك ظلم عظيم . كما قال تعالى ^(٢) :
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . فالشرك أعظم الظلم . والتوحيد أعدل العدل . فما كان أشد منافاة
لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر . وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له . وما كان أشد
موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق
التأمل واعتبره تفاصيله ، تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، فيافرض على عباده وحرمة
عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي . فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود ،
وكان أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرّم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله لأهل
التوحيد ، وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل
من مشرك عملاً ، أو يقبل فيه شفاعاً ، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة ، أو يقبل له فيها عثرة .
فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً ، وذلك غاية الجهل به . كما أنه
غاية الظلم منه . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه . ووقعت مسألة : وهى أن المشرك
إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى . وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائل
والشفعاء . كحال الملوك . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية . وإنما قصد تعظيمه .
وقال : إنما أعبد هذه الوسائل لتقربنى وتدخلنى عليه . فهو المقصود . وهذه وسائل وشفعاء .

- (١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ... وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .
- (٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً في النار وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وترتب على هذا سؤال آخر: وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقريب إليه بالشفعاء والوسائط؟ فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول، يمتنع أن تأتي به شريعة، بل جاءت بتقرير مافي الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب؟ كما قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** . فتأمل هذا السؤال . واجمع قلبك وذهنك على جوابه . ولا تسهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار . فنقول (وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نستمد المعونة والتسديد . فإنه من يهدي الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادي له . ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع) : الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله . وشرك في عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . والشرك الأول نوعان : أحدهما - شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك . كشرك فرعون إذ قال ^(١) **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ؟ وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال ^(٢) : **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ *** **أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا** . فالشرك والتعطيل متلازمان . فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك . لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع إليها هو التعطيل . وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه . وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] وانصها : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] ... وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ

السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد . ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، الذين يقولون : مائمه خالق ومخلوق ، ولا ههنا شيان . بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته . وإنه لم يكن معدوماً أصلاً . بل لم يزل ولا يزال . والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائل اقتضت إيجادها . يسمونها العقول والنفوس . ومن هذا أشرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة . فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة . بل جعلوا المخلوق أكمل منه . إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثاني . شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته . كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة . فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلهاً . ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة . ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه ، وإنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته . ولهذا كانوا من أشباه المجوس . ومن هذا شرك الذى حاج إبراهيم فى ربه : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ^(١) . فهذا جعل نفسه ندّاً لله ، يحيى ويميت بزعمه . كما يحيى الله ويميت . فألزمه إبراهيم ، عليه السلام ورحمة الله وبركاته ، أن طرد قولك ، أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى الله بها منها . وليس هذا

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

انتقلاً كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً . ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم . كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم . ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم . ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة . ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة . ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه، أقبل إليه واعتنى به . ومنهم من يزعم أنه معبودهم الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه . والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه . حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه . فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمراً . فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله . وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته . بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة . ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فله من عمله وسعيه نصيب . ولنفسه وحظه وهواه نصيب . وللشيطان نصيب . وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس . وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه^(١) : الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . قالوا : وكيف نتجو منه ؟ يارسول الله ! قال : قل : اللهم ! إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم .

فالرياء كله شرك . قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٤٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

أى كما أنه إله واحد ، لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده . فكما تفرّد بالإلهية ، يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء ، المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اللهم ! اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً . ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وهذا الشرك فى العبادة يبطل العمل . وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر . فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة . قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ ^(١) . فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به . بل الذى أتى به ، شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه . ويقول الله تعالى ^(٢) : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه . وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور . وأكبر وأصغر . والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شىء منه مغفورا . فنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب المخلوق كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله . وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ^(٣) الآية .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم : تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٤) . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة . وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوَّى مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ ؟ وكيف يسوَّى

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . . . وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعمتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا

لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٩٨ و ٩٧]

العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم - بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أفتبح من هذا ؟ وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ^(١) . فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . فمالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !!

فصل

ويتبع هذا الشرك ، الشرك به سبحانه فى الأقوال والأفعال والإرادات والنيات . فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار ، غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها . فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدونها من دون الله . وفى الصحيحين^(٢) عنه أنه قال : لعنة الله على اليهود والنصارى . اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وفى الصحيح^(٣) عنه :

(١) [٦ / الأنعام / ١] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٥ - حدثنا أبو اليمان ، حديث

٢٨٥ و ٢٨٦ .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٩ (طبعنا) .

(٣) رواه أحمد فى المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) . =

إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء . ومن يتخذ القبور مساجد .
وفي الصحيح^(١) أيضاً عنه : إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا
القبور مساجد . فإني أنهاكم عن ذلك . وفي مسند الإمام أحمد^(٢) رضى الله عنه وصحيح
ابن حبان عنه عليه السلام : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .
وقال : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقال^(٣) : إن من كان قبلكم ،
إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور . أولئك شرار
الخلق عند الله يوم القيامة .

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر . فكيف حال من سجد للقبر بنفسه ؟
وقد قال النبي ﷺ^(٤) : اللهم ! لا تجعل قبري وثناً يعبد . وقد حمى النبي جانب التوحيد

= وهو في البخاريّ في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٥ - باب ظهور الفتن ، حديث ٢٥٥٠ .

وفي مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث ١٣١ (طبعنا) .

وليس فيهما محل الشاهد وهو (والذين يتخذون القبور مساجد) .

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٢٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، حديث ٢٨١ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها
تصاویر . فذكرتا للنبي ﷺ فقال « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على
قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ومسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٦ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مالك في : ٩ - كتاب قصر الصلاة في السفر ، حديث ٨٥ (طبعنا) .

أعظم حماية حتى نهى ^(١) عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها .
 لئلا يكون ذريعة إلى التشبيه بمباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين . وسد الذريعة
 بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون
 فيهما للشمس . وأما السجود لغير الله فقال ^(٢) : لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله .
 و (لا ينبغي) في كلام الله ورسوله ﷺ - للذي هو في غاية الامتناع شرعاً . كقوله تعالى :
 وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ^(٣) . وقوله : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ^(٤) .
 وقوله : وَمَا تَزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ^(٥) . وقوله عن الملائكة : مَا كَانَ يَنْبَغِي
 لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ^(٦) .

(١) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٣١ - باب لا يتحرى الصلاة
 قبل غروب الشمس ، حديث ٣٧٩ ونصه : عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ
 يقول « لا صلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس ، ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس » .
 (٢) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٤ - باب حق الزوج على المرأة ،
 حديث ١٨٥٣ (طبعنا) ونصه : عن عبد الله بن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام
 سجد للنبي ﷺ . قال « ما هذا ؟ يا معاذ ! » قال : أتيت الشام فوجدتهم يسجدون
 لأساقفتهم وبطارقتهم . فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك . فقال رسول الله ﷺ
 « فلا تفعلوا . فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .
 والذي نفس محمد بيده ! لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها . ولو سألها نفسها ،
 وهي على قتب ، لم تمنعه » .

(٣) [١٩ / مريم / ٩٢] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٩] ... إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ و ٢١١] ... وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .

(٦) [٢٥ / الفرقان / ١٨] ونصها : قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ =

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ . كالحلف بغيره . كما رواه أحمد^(١) وأبو داود عنه عليه السلام ، أنه قال : من حلف بشيء دون الله فقد أشرك . وصححه الحاكم وابن حبان . ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت . كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت . قال : أجعلتنى لله ندًّا ؟ قل : ما شاء الله وحده . وهذا ، مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة ، كقوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ^(٣) - فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك ؟ وأنا في حسب الله وحسبك ؟ ومالي إلا الله وأنت ؟ وهذا من الله ومنك ؟ وهذا من بركات الله وبركاتك ؟ والله لى في السماء وأنت لى في الأرض ؟ أو يقول : والله ! وحياة فلان . أو يقول : ندًّا لله وفلان . وأنا تائب لله وفلان . وأرجو الله وفلانًا ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أخش ؟ يتبين لك أن قائلها أولى لجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة . وأنه إذا كان قد جعله ندًّا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الأشياء ، بل لعله أن يكون من أعدائه ، ندًّا لرب العالمين . فالسجود والعبادة ، والتوكل والإنابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار

= مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) ونصه : عن

ابن عباس أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أجعلتنى والله عدلاً ؟ بل ما شاء الله وحده » .

(٣) [٨١ / التكوير / ٢٨] .

وحلق الرأس ، خضوعاً وتعبدًا ، والطواف بالبيت ، والدعاء - كل ذلك محض حق الله . لا يصلح ولا ينبغي لسواه ، من ملك مقرب ولا نبي مرسل . وفي مسند الإمام أحمد^(١) أن رجلاً أتى به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنباً . فلما وقف بين يديه قال : اللهم ! إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال : قد عرف الحق لأهله .

فصل

وأما الشرك في الإرادات والنيات ، فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقل من ينجو منه . فمن أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك في نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هي الحنيفية ، ملة إبراهيم ، التي أمر الله بها عباده كلهم . ولا يقبل من أحد غيرها . وهي حقيقة الإسلام . وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٢) . وهي ملة إبراهيم عليه السلام ، التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور . فنقول (ومن الله وحده تستمد الصواب) : حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به . وهذا هو التشبيه في الحقيقة . لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصف بها رسول الله ﷺ . فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيماً وطاعة . فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية . فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والمطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق . وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، أفضل من غيره . تشبيها بمن له الأمر كله . فآزمة الأمور كلها بيده ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد . وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنى بالذات . ومن خصائص الألوهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده . والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبه له ولا ند له . وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب مع غاية الذل . وهذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه . وهذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع . وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطراً أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، واجتالتهم عنها . ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى . فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم . فازدادوا بذلك نوراً على نور . يهدى الله لنوره من يشاء .

إذا عرف هذا ، فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل . فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها التوبة . فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما

في جانب التشبه به، فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى إطرانه في المدح والتعظيم، والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءً، والتجاء واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته . وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان . وبذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه . وفي الصحيح^(١) عنه عليه السلام قال: يقول الله عز وجل: العظمة إزارى والكبرياء رداً. فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة. وإذا كان المصور، الذى يصنع الصورة بيده، من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، لتشبهه بالله في مجرد الصنعة - فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٢): أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون. يقال لهم: أحيوا ما خلقتم . وفي الصحيح^(٣) عنه عليه السلام أنه قال :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ٣٨ - باب تحريم الكبر، حديث ١٣٦ (طبعنا) ونصه :

عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى عذبتة » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٧٥ - باب ما يجوز من الغضب والسدة لأمر الله ، حديث ١٢٢٣ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت قرام فيه صور . فتلون وجهه ، ثم تناول الستر فتهكه . وقالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يصورون هذه الصور » .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٩٠ - باب نقض الصور ، حديث ٢٣٠٨ ونصه :

عن أبي زُرعة قال : دخلت مع أبي هريرة داراً بالمدينة . فرأى أعلاها مصوراً يصور . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة » .

قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً تكلّف؟ فليخلقوا ذرة . فليخلقوا شعيرة .
ففيه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر . والقصود أن هذا حال من تشبه به
في صنعة صورة . فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟ وكذلك من تشبه به في الاسم
الذي لا ينبغي إلا لله وحده . كملك الأملاك وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت في الصحيح^(١)
عنه ﷺ أنه قال : إن أخنع الأسماء عند الله رجل يتسمى بشاهان شاه ملك الملوك . ولا ملك
إلا الله . وفي لفظ : أغبط رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك . فهذا مقت الله وغضبه
على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له . فهو سبحانه ملك الملوك وحده . وهو حاكم
الحكام وحده . فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم كلهم ، لا غيره .

تنبيه :

حيثما وقع في حديث : من فعل كذا فقد أشرك . أو فقد كفر - لا يراد به الكفر
المخرج عن الملة ، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجرى عليه أحكام الردة ،
والعياذ بالله تعالى . وقد قال البخاري^(٢) : باب كفران العشير وكفر دون كفر .

قال القاضي أبو بكر ابن العربي في (شرحه) : مراده أن يبين أن الطاعات ، كما
تسمى إيماناً ، كذلك المعاصي تسمى كفرأ . لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد عليه الكفر
المخرج عن الملة . فالجاهل والخطيئ من هذه الأمة ، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٤ - باب أبغض الأسماء إلى الله ،
حديث ٢٣٦٧ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنع الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى
بملك الأملاك » .

قال سفيان (أحد رجال السند) : يقول غيره تفسيره : شاهان شاه .

(٢) صحيح البخاري : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢١ - باب كفران العشير وكفر دون كفر .

صاحبه مشركا أو كافراً، فإنه يعذر بالجهل والخطأ ، حتى تتبين له الحجة ، الذى يكفر تاركها، بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله . وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً . يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل . كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى. ولم يخالف فى ذلك إلا أهل البدع. قال الشيخ تقي الدين فى (كتاب الإيمان) : لم يكفر الإمام أحمد الخوارج ولا المرجئة ولا القدرية . وإنما النقول عنه وعن أمثاله تكفير الجهمية . مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية . ولا كل من قال : أنا جهمي - كفره . بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم ، وامتنحوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة . ولم يكفرهم أحمد وأمثاله بل كان يمتد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم ويرى لهم الائتمام بالصلاة خلفهم، والحج والغزو معهم ، والمنع من الخروج عليهم بما يراه لأمثالهم من الأئمة . وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذى هو كفر عظيم . وإن لم يعلموا هم أنه كفر . كان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان . فيجمع بين طاعة الله ورسوله ﷺ فى إظهار السنة والدين وإنكار بدع الجهمية للمحدثين ، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأئمة ، وإن كانوا جهالاً مبتدعين . وظلمة فاسقين . انتهى كلام الشيخ . فتأمله تأملاً خالياً عن الميل والحيف .

وقال الشيخ تقي الدين أيضاً : من كان فى قلبه الإيمان بالرسول وبما جاء به ، وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ولو دعا إليها ، فهذا ليس بكافر أصلاً . والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأئمة وتكفيراً لها . ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم ، لاعتى ولا غيره . بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين . كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع . وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة ، من كان منهم منافقاً فهو كافر فى الباطن . ومن كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى الباطن . وإن كان أخطأ فى التأويل كائناً ما كان خطؤه . وقد يكون فى بعضهم شعبة من النفاق . ولا يكون فيه

النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار. ومن قال: إن الثنتين والسبعين فرقة، كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة. بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة. فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين والسبعين فرقة. انتهى.

وقال ابن القيم فى طرق أهل البدع: الموافقون على أصل الإسلام ولكنهم يختلفون فى بعض الأصول، كالخوارج والمعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية وغلاة المرجئة - فهؤلاء أقسام: أحدها - الجاهل المقلد الذى لا بصيرة له. فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى. وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان. القسم الثانى - متمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق. ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياء ورياسته ولذاته ومعاشه. فهذا مفرط مستحق للععيد، آثم بترك ما أوجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته. فهذا، إن غلب ما فيه من البدعة والهوى، على ما فيه من السنة والهدى، ردت شهادته. وإن غلب ما فيه من السنة والهدى، على ما فيه من البدعة والهوى، قبلت شهادته. الثالث - أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويترك، تعصباً أو معاداة لأصحابه. فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً. وتكفيره محل اجتهد. انتهى كلامه. فانظره وتأمله. فقد ذكر هذا التفصيل فى غالب كتبه. وذكر أن الأئمة وأهل السنة لا يكفرونهم. هدامع ما وصفهم به من الشرك الأكبر، والكفر الأكبر. وبين فى غالب كتبه مخازيهم. ولندكر من كلامه طرفاً تصديقاً لما ذكرنا عنه. قال رحمه الله فى (المدارج): المثبتون للصانع نوعان: أحدهما - أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلهيته. كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية. فإنهم يثبتون مع الله إلهاً آخر. والمجوسية القدرية تثبت مع الله خالقاً للأفعال. ليست أفعالهم مخلوقة لله ولا مقدورة له. وهى صادرة بغير مشيئته تعالى وقدرته. ولا قدرة له عليها. بل هم الذين جعلوا أنفسهم فاعلين مرئيين شيائين. وحقيقة قول هؤلاء: إن الله ليس رباً خالقاً للأفعال الحيوان. انتهى كلامه. وقد ذكرهم بهذا الشرك فى سائر كتبه. وشبههم

بالمجوس الذين يقولون : إن للعالم خالقين . وانظر لما تكلم على التكفير هو وشيخه ، كيف حكيا عدم تكفيرهم عن جميع أهل السنة . حتى مع معرفة الحق والمعاندة . قال : كفره محل اجتهد . كما تقدم كلامه قريباً .

وقال ابن تيمية ، وقد سئل عن رجلين تكلمتا في مسألة التكفير . فأجاب وأطال . وقال في آخر الجواب : لو فرض أن رجلاً دفع التكفير عن معتقد أنه ليس بكافر ، حماة له ونصراً لأخيه المسلم ، لكان هذا غرضاً شرعياً حسناً . وهو إذا اجتهد في ذلك فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر . وقال رحمه الله : التكفير إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة . أو بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها . وسئل أيضاً ، قدس الله روحه ، عن التكفير الواقع في هذه الأمة ، مَنْ أَوَّلُ مَنْ أحدثه وابتدعه ؟ فأجاب : أول من أحدثه في الإسلام المعتزلة . وعنهم تلقاه من تلقاه . وكذلك الخوارج هم أول من أظهره . واضطرب الناس في ذلك . فمن الناس من يحكي عن مالك فيه قولين . وعن الشافعي كذلك . وعن أحمد روايتان . وأبو الحسن الأشعري وأصحابه لهم قولان . وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قديكون كفراً . فيطلق القول بتكفير قائله . ويقال : من قال كذا فهو كافر . لكن الشخص المعين الذي قاله لا يكفر حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، من تعريف الحكم الشرعي ، من سلطان ، أو أمير مطاع . كما هو المنصوص عليه في كتب الأحكام . فإذا عرفه الحكم وزالت عنه الجهالة قامت عليه الحجة . وهذا كما هو في نصوص الوعيد من الكتاب والسنة . وهي كثيرة جداً . والقول بموجبها واجب على وجه العموم . والإطلاق ، من غير أن يعين شخص من الأشخاص ، فيقال : هذا كافر أو فاسق أو ملعون أو مغضوب عليه أو مستحق للنار ، لاسيما إن كان للشخص فضائل وحسنات - فإن ماسوى الأنبياء يجوز عليهم الصفات والكبائر . مع إمكان أن يكون ذلك الشخص صديقاً أو شهيداً أو صالحاً . كما قد بسط في غير هذا الموضع . من أن موجب الذنوب تتخلف عنه بتوبة أو باستغفار أو حسنات ماحية

أَوْ مَصَائِبَ مَكْفُورَةٍ أَوْ شَفَاعَةً مَقْبُولَةٍ أَوْ لِحْضَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ . فَإِذَا قُلْنَا بِمَوْجِبِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ^(١) الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ^(٢) . وَقَوْلِهِ : وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ^(٣) الْآيَةَ . وَقَوْلِهِ : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ^(٤) الْآيَةَ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ ، وَقُلْنَا بِمَوْجِبِ قَوْلِهِ ﷺ : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ^(٥) أَوْ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ ^(٦) أَوْ مَنْ غَرَبَ مَنَارَ الْأَرْضِ ^(٧) أَوْ مَنْ ذَبَحَ لِنَفْسِهِ أَوْ لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ أَوْ لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ

(١) [٤ / النساء / ٩٣] ونصها : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] .

(٣) [٤ / النساء / ١٤] ... يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٣٠] ... فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٢٥ - كتاب الأشربة ، ٢ - باب العنب يعصر للخمر ،

حديث ٣٦٧٤ .

(٦) أخرجه البخاري في : ٥٢ - كتاب الشهادات ١٠ - باب ما قيل في شهادة الزور ،

حديث ١٢٩١ ونصه : عن أبي بكرة رضى الله عنه قال : قال النبي ﷺ « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ

الْكِبَائِرِ ؟ » (ثلاثا) قالوا : بلى ، يا رسول الله ! قال « الإِثْرَاكُ بِاللَّهِ وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ »

وَجَلَسَ وَكَانَ مَتَكِّئًا فَقَالَ « أَلَا ، وَقَوْلُ الزُّورِ » قَالَ فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

ولم أعر على حديث فيه لعن عاق والديه . وإذا كان العقوق من أكبر الكبائر فأقل ما يستحقه

العاق هو اللعن .

(٧) أخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ٤٣ (طبعتنا) وهذا نصه : =

أو لعن الله لاوى الصدقة والمتعدى فيها أو من أحدث^(١) فى المدينة حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، إلى غير ذلك من أحاديث الوعيد - لم يجوز أن تعين شخصاً، ممن فعل بعض هذه الأفعال، وتقول: هذا الملعون قد أصابه هذا الوعيد. لإمكان التوبة وغيرها من مسقطات العقوبة . إلى أن قال : ففعل هذه الأمور ممن يحسب أنها مباحة باجتهاد أو تقليد ونحو ذلك ، وغايته أنه معذور من لحوق الوعيد به لمانع ، كما امتنع لحوق الوعيد بهم لتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك. وهذه السبيل هى التى يجب اتباعها. فإن ماسواها طريقان خبيثان : أحدهما - القول بلحوق الوعيد بكل فرد من الأفراد بعينه . ودعوى أنها عمل بموجب النصوص . وهذا أقبح من قول الخوارج المكفرين بالذنوب ،

= عن أبى الطفيل عامر بن واثلة قال : كنت عند على بن أبى طالب ، فأتاه رجل فقال : ما كان النبي ﷺ يسرّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبي ﷺ يسرّ إلى شيئا يكرهه الناس . غير أنه قد حدثني بكلمات أربع . قال فقال : ما هن ؟ يا أمير المؤمنين ! قال : قال « لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من غير منار الأرض » .

وحديث ٤٤ رواية أخرى ونصها :

سمعت يقول « لعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من لعن والديه . ولعن الله من غير منار الأرض »

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٩ - كتاب فضائل المدينة ، ١ - باب حرم المدينة ، حديث ١٧٤ عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا (انظر تحقيق معنى : من كذا إلى كذا ، فى تعليقنا على صحيح مسلم بالصفحة ٩٩٥ ، طبعتنا) لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

والمعتزلة وغيرهم . وفساده معلوم بالاضطرار . وأدلتته معلومة في غير هذا الموضع . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق . لكن الشخص المعين الذي فعله لا يشهد عليه بالوعيد . فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لقوات شرط أو لحصول مانع . وهكذا الأقوال الذي يكفر قائلها . قد يكون القائل لها لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق . وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده . أو لم يتمكن من معرفتها وفهمها . أو قد عرضت له شبهات يعذر الله بها . فمن كان مؤمناً بالله وبرسوله ، مظهراً للإسلام ، محباً لله ورسوله ، فإن الله يغفر له لو قارف بعض الذنوب القولية أو العملية . سواء أطلق عليه لفظ الشرك أو لفظ المعاصي . هذا الذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجماهير أئمة الإسلام . لكن المقصود أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل ، بالفرق بين النوع والعين . بل لا يختلف القول عن الإمام أحمد وسائر أئمة الإسلام كمالك وأبي حنيفة والشافعي ، أنهم لا يكفرون المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل . ونصوصهم صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم . وإنما كان الإمام أحمد يطلق القول بتكفير الجهمية لأنه ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم ، وأنه يدور على التعطيل . وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كانوا يكفرون أعيانهم . فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقوله ولا يدعو إليه . والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط . والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقب . ومع هذا فالذين من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق . وإن الله لا يرى في الآخرة . وإن ظاهر القرآن لا يحتاج به في معرفة الله ، ولا الأحاديث الصحيحة . وإن الدين لا يتم إلا بما زخرفوه من الآراء والخيالات الباطلة والعقول الفاسدة . وأن خيالاتهم وجهالاتهم أحكم في دين الله من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وأن أقوال الجهمية والمعتلة من النفي والإثبات أحكم في دين الله . بسبب ذلك امتحنوا المسلمين وسجنوا الإمام أحمد وجلدوه وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين . ومع ذلك لا يطلقون أسيراً ولا يعطون من بيت

المال إلا من وافقهم ويُقرّ بقولهم. وجرى على الإسلام منهم أمور مبسطة في غير هذا الموضع. ومع هذا التعطيل الذي هو شر من الشرك ، فالإمام أحمد رحمهم عليهم واستغفر لهم ، وقال : ما علمت أنهم مكذبون للرسول ﷺ ، ولا جاحدون لما جاء به . لكنهم تأولوا فأخطأوا . وقلدوا من قال ذلك . والإمام الشافعي لما ناظر حفص الفرد ، من أئمة المعتلة ، في مسألة (القرآن مخلوق) قال له الإمام الشافعي : كفرت بالله العظيم . فكفره ولم يحكم برده بمجرد ذلك . ولو اعتقد رده وكفره لسمي في قتله . وأفتى العلماء بقتل دعائهم مثل غيلان القدرى والجعد بن درهم وجهم بن صفوان إمام الجهمية وغيرهم . وصلى الناس عليهم ودفنهم مع المسلمين . وصار قتلهم من باب قتل الصائل . لكف ضررهم ، لا لردتهم . ولو كانوا كفاراً لرآهم المسلمون كغيرهم . وهذه الأمور مبسطة في غير هذا الموضع . وقال ابن القيم في (شرح المنازل) : أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة ، من وجهين مختلفين . ويكون محبوباً لله ومبغوضاً من وجهين . بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب من الآخر . فيكون إلى أهله كما قال تعالى : هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ^(١) . وقال : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . فأثبت لهم ، تبارك وتعالى ، الإيمان مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان . وإن كان تصديق برسله وهم يرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسول واليوم الآخر - فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر . وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَوْا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاِتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَالَا تَبْعُنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

ودخلهم الجنة ، لِمَا قام بهم من السيئين . قال : وقال ابن عباس ، في قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)^(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بكفر ينقل عن الملة . إذا فعله فهو به كفر . وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر . وكذلك قال طاوس وعطاء . انتهى كلامه .

وقال الشيخ تقي الدين : كان الصحابة والسلف يقولون : إنه يكون في العبد إيمان ونفاق . وهذا يدل عليه قوله عز وجل : هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ^(٢) . وهذا كثير في كلام السلف . يبينون أن القلب يكون فيه إيمان ونفاق . والكتاب والسنة يدل على ذلك . ولهذا قال النبي ﷺ^(٣) : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فعمل أن من كان معه من الإيمان أقل قليل لم يخلد في النار . وإن كان معه كثير من النفاق ، فهذا يعذب في النار على قدر ما معه ثم يخرج . إلى أن قال : وتام هذا أن الإنسان قد يكون فيه

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .
(٣) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث ٢١ .

وهو حديث طويل جدا ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ، فلا يفتك الاطلاع عليه فإنه قمينٌ بذلك .

شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر وشعبة من شعب النفاق . وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية . كما قال الصحابة ، ابن عباس وغيره : كفر دون كفر . وهذا عامة قول السلف . انتهى .

فتأمل هذا الفصل وانظر حكايتهم الإجماع من السلف . ولا تظن أن هذا فى الخطأ . فإن ذلك مرفوع عنه إثم خطئه كما تقدم مراراً عديدة .

وقال الشيخ تقى الدين فى كتاب (الإيمان) : الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن . وإن المنافقين الذين قالوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ^(١) ، هم فى الظاهر مؤمنون يصلون مع المسلمين ويناحونهم ويوارثونهم . كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ . ولم يحكم النبي ﷺ فيهم بحكم الكفار المظهرين الكفر لا فى مناعتهم ولا فى موارثهم ولا نحو ذلك . بل لما مات عبد الله بن أُبَيٍّ ، وهو من أشهر الناس فى النفاق ، ورثه عبد الله ابنه ، وهو من خيار المؤمنين . وكذلك سائر من يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون . وإذا مات لهم وارث ورثوه مع المسلمين . وإن علم أنه منافق فى الباطن . وكذلك كانوا فى الحدود والحقوق كسائر المسلمين . وكانوا يغزون مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من هم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . ومع هذا ، فى الظاهر ، تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان . إلى أن قال : ودماؤهم وأموالهم معصومة ولا يستحل منهم ما يستحل من الكفار . والذين يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الإيمان ، فإنه ﷺ قال^(٢) : أمرت أن أقاتل الناس

(١) [٢ / البقرة / ٨] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٩٥ - باب على ما يقاتل المشركون ،

حديث ٢٦٤١ وهذا نصه :

حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها . وحسابهم على الله . وكما قال لأسامة^(١) : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال : فقلت : إنما قالها تعوذاً . قال : هل شققت عن قلبه ؟ وقال^(٢) : إني لم أوامر أن أقرب عن

= عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يستقبلوا قبلتنا ، وأن يأكلوا ذبيحتنا ، وأن يصلوا صلاتنا . فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها : لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٥٨ (طبعنا) ونصه : عن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية . فصبتنا الحُرقات من جهينة . فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله . فطعنته ، فوقع في نفسى من ذلك . فذكرته للنبي ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « أقال : لا إله إلا الله وقتلته ؟ » قال قلت : يا رسول الله ! إنما قالها خوفاً من السلاح قال : « أشققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال يكررها حتى تمتعت أنى أسلمت يومئذ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٦١ - باب بعث على بن أبى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضى الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع ، حديث ١٤٨١ ونصه : عن أبى سعيد الخدرى قال : بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبية في أديم مقروظ ، لم تحصل من ترابها . قال فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل . والرابع ، إما علقمة ، وإما عامر بن الطفيل . فقال رجل من أصحابه : كننا نحن أحق بهذا من هؤلاء . قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ، يأتينى خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ » قال فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوقة الرأس ، =

قلوب الناس ولا أشق بطونهم . وكان إذا استؤذن في قتل رجل يقول : أليس يصلي ؟ أليس يشهد ؟ فإذا قيل له : إنه منافق ، قال ذلك . فكان حكمه في دمائهم وأموالهم حكمه في دماء غيرهم ولا يستحل منها شيئاً مع أنه يعلم نفاق كثير منهم . انتهى كلام الشيخ .

وقد أوضح حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه في (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) الكفر المخرج عن الملة، والعياذ بالله تعالى ، بعدمقدمته المدهشة بقوله : لعلك تشهى أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين . فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض . ولكنني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان في أهل الإسلام . وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقين بها غير مناقضين لها . فأقول : الكفر هو تكذيب الرسول عليه السلام في شيء مما جاء به . والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به . قاله يهودي والنصراني كافرين لتكذيبهما للرسول عليه السلام . والبرهمن كافر بالطريق الأولى . لأنه أنكر ، مع رسولنا ، سائر المرسلين . والدهري كافر بالطريق الأولى ، لأنه أنكر ، مع رسولنا المرسل ، سائر الرسل . وهذا لأن الكفر حكم شرعي كالرق والحرية مثلاً .

= مشعر الإزار، فقال : يا رسول الله ! اتق الله . قال « ويلك ! أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ » قال ثم ولى الرجل .

قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه ؟ قال « لا . لعله أن يكون يصلي » فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لم أؤمر أن أقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم » .

قال ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال : « إنه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم . يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (وأظنه قال) لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » .

إذ معناه . إباحة الدم والحكم بالخلود في النار . ومدركه شرعى فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص . وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى . والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية . وكلهم مشركون . فإنهم مكذبون للرسول . فكل كافر مكذب للرسول ، وكل مكذب فهو كافر . فهذه هي العلامة المطردة للنعكسة .

وتمة هذا البحث في هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه فاضل . فارجع إليه . وعض

بنواجذك عليه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ » تعجب من تمادحهم بالزكية التى هى التطهير والتبرئة من القبيح فعلاً وقولاً ، المنافية لما هم عليه من الطغيان والشرك الذى قصه تعالى عنهم قبل . فالمراد بهم اليهود . وقد حكى تعالى عنهم أنهم يقولون : نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ (١) . وحكى عنهم أيضاً أنهم قالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (٢) . وأنهم قالوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى (٣) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس

(١) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ، قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

قال: كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله: إني لأظهر ذا ذنب بأخر لا ذنب له. وأزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ. أَى انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكيا عند الله تعالى مع ما هم فيه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادعائهم تكفير ذنوبهم مع استحالة أن يُغْفَرَ للكافر شيء من كفره أو معاصيه. وقوله تعالى « بَلِ اللَّهُ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » تنبيه على أن تركيته هي المعتد بها دون تركية غيره. فإنه العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبيح. وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين .

تنبيه :

قال الزمخشريّ : يدخل في الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١): والله! إني لأمين في السماء، أمين في الأرض؟ قلت: إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل في القسمة، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه. وشتان من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم اهـ.

وقد ورد في ذم التماذج والتزكية أحاديث كثيرة. منها عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال^(٢): سمع النبي ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه في المدح فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل. متفق عليه.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه^(٣) أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً

(١) انظر تفصيل ذلك بالحاشية رقم ٢ ص ١٣١٧.

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٥٤ - باب ما يكره من التماذج ،

حديث ١٢٩٣ .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٥٤ - باب ما يكره من التماذج ،

حديث ١٢٩٤ .

فقال النبي ﷺ : ويحك ! قطعت عنق صاحبك (يقوله مراراً) إن كان أحدكم مادحاً ، لامحالة ، فليقل : أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك . وحسيبه الله . ولا يركى على الله أحدًا . متفق عليه . وعن همام بن الحرث عن المقداد رضي الله عنه^(١) أن رجلاً جعل يمدح عثمان رضي الله عنه . فعمد المقداد فجثا على ركبتيه . فجعل يحثو في وجهه الحصباء . فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم الزراب . رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبي هند قال : قال عمر بن الخطاب : من قال : أنا مؤمن فهو كافر . ومن قال : هو عالم ، فهو جاهل . ومن قال : هو في الجنة فهو في النار . ورواه ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة عن طلحة بن عبيد الله بن كرز عن عمر أنه قال : إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه . فمن قال إنه مؤمن فهو كافر . ومن قال هو عالم فهو جاهل . ومن قال هو في الجنة فهو في النار .

وروى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال : كان معاوية قلماً كان يحدث عن النبي ﷺ . قال : وكان قلماً يدع ، يوم الجمعة ، هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ ، يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . وإن هذا المال حلو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه . وإياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن ماجه عنه^(٣) : إياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن جرير بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال^(٤) : إن الرجل ليفقدو بدينه ثم

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٩ (طبعتنا) .

(٢) لم أعثر عليه في المسند . فمن ظفر به فليثبتته ههنا .

(٣) أخرجه في : ٣٣ - كتاب الأدب ، ٣٦ - باب المدح ، حديث ٣٧٤٣ (طبعتنا) .

(٤) الأثر رقم ٩٤٧٧ .

يرجع ومامعه منه شيء . يلقى الرجل ليس يملك له نفعا ولا ضرراً فيقول له : والله ! إنك لذيت وذيت فلعله أن يرجع ولم يَحُلْ من حاجته بشيء ، وقد أسخط الله عليه ، ثم قرأ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ...الآية « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » عطف على جملة قد حذفت ، تعويلا على دلالة الحال عليها وإيذاناً بأنها غنية عن الذكر . أى يعاقبون بتلك الفعل القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً ، أى أدنى ظلم وأصغره . والفetil الخيط الذى فى شق النواة أو ما يفتل بين الأصابع من الوسخ . يضرب به المثل فى القلة والحقارة . وقيل : التقدير ، يُثَابُ المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً . ولا يساعدهم مقام الوعيد . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب » أى فى تركيبتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ^(١) وقولهم : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ^(٢) واتكلمهم على أعمال آبائهم الصالحة . وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئاً ، فى قوله : تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ^(٣)... الآية .

(١) [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أُمَمٌ مِّمَّنْهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ، قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٣٤] ونصها : تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

قال العلامة أبو السعود : (كيف) نصب إما على التشبيه بالظرف أو بالحال . والعامل (يفترون) وبه تتعلق (على) أى : فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب . والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها . والجملة فى محل نصب بعد نزع الخافض (والنظر) متعلق بهما . وهو تعجيب إثر تعجيب . وتنبيه على أن ما ارتكبه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب : ادعائهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه . وافترائهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضائه إياهم . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . ولكون هذا أشنع من الأول جرماً ، وأعظم قبحاً لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه - وَجَّهَ النظر إلى كيفيته تشديداً للتشنيع وتأكيذاً للتعجيب . والتصريح بالكذب ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ، للمبالغة فى تقبيح حالهم « وَكَفَىٰ بِهِ » أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتركيب أنفسهم وسائر آثامهم العظام « إِنْثَامًا مُّبِينًا » ظاهراً بيناً كونه إثماً . والمعنى : كفى ذلك وحده فى كونهم أشد إثماً من كل كفَّار أثيم . أو فى استحقاقهم لأشد العقوبات . ثم حكى تعالى عن اليهود نوعاً آخر من المكر . وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين ، تعصباً وعناداً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ » أى علماً بالتوراة الداعية إلى التوحيد وترجيح أهله . والكفر بالجبت والطاغوت . ووصفهم بما ذكر ، من إيتاء النصيب ، لآمر من منافاته

لما صدر عنهم من القبائح « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الجبت يطلق ، لفة ، على الصنم والكاهن والساحر والسحر والذى لا خير فيه وكل ما عبد من دون الله تعالى . وكذا الطاغوت. فيطلق على الكاهن والشیطان وكل رأس ضلال والأصنام وكل ما عبد من دون الله ومردة أهل الكتاب . كما فى القاموس . « وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى أشركوا بالله ، وهم كفار مكة ، أى لأجلهم وفى حقهم « هَؤُلَاءِ » يعنونهم « أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله وحده « سَبِيلًا » أى أرشد طريقة . وإبرادهم بعنوان الإيمان ليس من قبل القائلين ، بل من جهة الله تعالى ، تعريفًا لهم بالوصف الجميل ، وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » أى أبعدهم عن رحمته وطردهم « وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ » أى ييمده عن رحمته « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » يدفع عنه العذاب دنيويًا كان أو آخرويًا . لا بشفاعاة ولا بغيرها .

قال الرازى : إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذى ذكره من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجرى مجرى المكابرة . فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالًا ممن لا يرضى بمعبود غير الله ؟ ومن كان دينه الإقبال بالسكينة على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، كيف يكون أقل حالًا ممن كان بالصد فى كل هذه الأحوال ؟ وقد روى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، قال : أنتم خير . قال فنزلت فيهم : إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ^(١) .

(١) [١٠٨ / الكوثر / ٣] .

ونزل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ - إلى - نَصِيرًا .

وقال الإمام ابن إسحق رضى الله عنه : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حُتَيْب بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبي الحقيق وأبو عامر ووحوش ابن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوش وأبو عامر وهودة فن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير . فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أجبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن اتبعه . فأنزل الله عز وجل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ... إلى قوله عز وجل : وَءَاتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا . وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجأوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا)

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » . لما ذم سبحانه اليهود بتركيتهم أنفسهم وتفضيلهم المشركين على الموحدين ، شرع في تفصيل بعض آخر من مثالبهم . وهو وصفهم بالبخل والحسد اللذين هما شر خصلتين . و (أَمْ) منقطعة . والمهزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ، والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف . أى لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحدًا مقدار نقير لفرط بخلهم . و (النقيير) النقرة في ظهر النواة

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] .

وهو مثل في القلة والحقارة . كالفتيل والقطمير . والمراد بالملك إما ملك أهل الدنيا وإما ملك الله . كقوله تعالى : قُلْ لَوْ أَتَمَّ تَمَلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (١) .

وقال أبو السعود : وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم . وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ؟ ويجوز أن لا تكون الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه . أي لعدده منكرا غير لائق بالوقوع . على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى : أَلْهَمْ نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك تقيراً ؟ كما تقول لغيري لا يراعى أباه : أَلَك هذا القدر من المال فلا تنفق على أهلك شيئاً ؟ وفائدة (إذن) تأكيد الإنكار والتوبيخ . حيث يجعلون ثبوت النصيب سبباً للمنع مع كونه سبباً للإعطاء . وهي ملغاة عن العمل . كأنه قيل : فلا يؤتون الناس إذن : وقرئ : (فإذن لا يؤتوا) بالنصب على إعمالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)

« أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ » منقطعة أيضاً مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق ، أعنى البخل ، إلى توبيخهم بالحسد . وهما شر الرذائل كما قدمنا . وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً . واللام في (الناس) للمهد والإشارة إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين . وروى الطبراني بسنده عن ابن عباس في هذه الآية قال : نحن الناس دون الناس . والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٠] ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا .

قال الرازي : وإنما حسن ذكر الناس لإرادة طائفة معينة من الناس . لأن المقصود من الخلق إنما هو القيام بالعبودية كما قال تعالى ^(١) : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . فلما كان القاعون بهذا المقصود ليس إلا محمداً ﷺ ومن كان على دينه - كان هو وأصحابه كأهمهم كل الناس . فلهذا حسن إطلاق لفظ (الناس) وإرادتهم على التعيين « عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وهو النبوة والكتاب والرشد وإزدياد العز والنصر يوماً فيوماً . وقوله تعالى « فَقَدْ آتَيْنَا » تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم . وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم ، المبينين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتي من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابر أعن كابر . وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر . والمعنى : أن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان . فإننا قد آتيناه من قبل هذا « آلاء إبراهيم » الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء أعمامه « الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » النبوة « وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا » لا يقادر قدره . فكيف يستبعدون نبوته ويحسدونه على إتيانها ؟ أفاده أبو السعود .

قال الرازي : إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة . فكما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم . ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين . ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد صلى الله عليه وسلم وضم إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أنصاراً وأعواناً . فلما كانت هذه النعم سبباً لحسد هؤلاء ، بين تعالى ما يدفع ذلك فقال : فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . والمعنى : أنه حصل في أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك وأنتم لاتعجبون من ذلك ولا تحسدونهم . فلم تعجبون من حال محمد صلى الله عليه وسلم ولم تحسدونه ؟

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)

« فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ » حكاية لما صدر عن أسلافهم . أى : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم . ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه . وهو منهم ومن جنسهم . أى من بنى إسرائيل . وقد اختلفوا عليهم . فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل ؟ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك وأبعد عما جئتهم به من الهدى والحق المبين . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك ديدنهم المستمر « وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا » أى ناراً مسعرة يعذبون بها على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله . ثم أخبر تعالى عما يُعاقبُ به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا » أى عظمة هائلة « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ » أى احترقت احتراقاً تاماً « بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » أى ليدوم لهم . وذلك أبلغ في العذاب للشخص . لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذى لم يحترق ، أبلغ من إحساسه لعملها في المحترق .

تنبيه :

لهم في التبديل وجهان : الأول - أنه تبديل حقيقى مادى . فيُخلق مكانها جلودٌ آخر جديدة مغيرة للمحترقة . الثانى - أنه تبديل وصفى : أى أعدنا الجلود جديدة مغيرة للمحترقة

صورة . وإن كانت عينها مادة . بأن يزال عنها الاحتراق ليعود إحساسها للعذاب . فلم تبدل إلا صفتها ، لا مادتها الأصلية . وفيه بُعد . إذ يأباه معنى التبديل .

وقال الرازي : يمكن أن يقال : هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع . كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام : كلما انتهى فقد ابتدأ . وكما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله . فكذا قوله (كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ) الآية . يعنى : كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك ، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة . بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا . فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه . انتهى .

وهذا أبعد مما قبله . إذ ليس لنا أن نعدل في كلام الله تعالى عن الحقيقة إلى المجاز ، إلا عند الضرورة . لاسيما وقد روى عن السلف ، صحابةً وتابعين ، أنهم يبدلون في اليوم أو الساعة مرات عديدة . كما رواه ابن جرير^(١) وغيره مفصلاً . « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا » لا يمتنع عليه ما يريد « حَكِيمًا » فيما يقضيه . ومنه هذا التبديل . إذ لا يتم تخليد العذاب الموعود ، على الكفر الذي لا ينجرون عنه ، بالعذاب المنقطع . وعداً لا بد من إيفائه . ثم بين مآل أهل السعادة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا) « وَالَّذِينَ آمَنُوا » أى بمحمد ﷺ والقرآن وجملة الكتب والرسل « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم بالإخلاص « سَنُدْخِلُهُمْ » أى فى الآخرة « جَنَّاتٍ » أى بساتين « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » أى من تحت شجرها وقصورها « الْأَنْهَارُ »

(١) انظر الصفحة ٤٨٥ وما بعدها من الجزء الثانى من التفسير (طبعة المعارف) .

أى أنهار الخمر واللبن والعسل والماء « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها « لَهُمْ فِيهَا » أى الجنة « أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة « وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا » أى كِنًّا كَنِينًا لا تنسخه الشمس ، ولا حرّ فيه ولا برد. و (ظليل) صفة مشتقة من لفظ (الظل) لتأكيد معناه ، كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم . وفى الصحيحين^(١) عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : إن فى الجنة لشجرة يسير، الراكب الجواد المضمّر السريع، مائة عام ما يقطعها . وفيهما^(٢) أيضاً من رواية أبى هريرة رضى الله عنه قال : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » هذه الآية من أمهات الآيات المستملة على كثير من أحكام الشرع .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٦١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٨ - باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ١٥٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة » . وقرأوا إن شئتم : وَظِلِّ تَمْدُودٍ [٥٦ / الواقعة / ٣٠] .

قال أبو السعود : في تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار ، من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه . وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة . كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذمهم : من حقوق الله تعالى وحقوق العباد . سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية . وإن ورد في شأن عثمان بن طلحة . انتهى .

أى لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . كما تقرر في الأصول . وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها . الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر . وفي حديث سمرة^(١) : إن رسول الله ﷺ قال : أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم . أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة ، هو وخالدين الوليد وعمرو بن العاص . وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذ كافراً . وإنما نبهنا على هذا النسب لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا . وسبب نزولها فيه : لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم

(١) قال الأخ الأستاذ أحمد محمد شاكر في حاشية عمدة التفسير ، بالصفحة ٢٠٢ من

الجزء الثالث ما نصه :

هكذا قال الحافظ ابن كثير . وأرى أنه وهم رحمه الله . فإنني لم أجده من حديث سمرة قط . لا في المسند ولا في غيره . ولكن رواه أبو داود : ٣٥٣٥ . والترمذي ٢ : ٢٥١ - ٢٥٢ . (أعني في : ١٢ - كتاب البيوع ، ٣٨ - باب حدثنا أبو كريب) من حديث أبي هريرة... الخ .

الفتح ثم رده عليه. قال محمد^(١) بن إسحاق (في غزوة الفتح) : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له . فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى ، فهو تحت قدمي هاتين : إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ . إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد . فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده . فقال : يا رسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية . صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له . فقال : هاك مفتاحك ، يا عثمان ! اليوم يوم بُرِّ وفاء .

وروى ابن جرير^(٢) عن ابن جريج، في الآية قال : نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . قبض منه النبي ﷺ مفتاح الكعبة . ودخل به البيت يوم الفتح . فخرج وهو يتلو هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . فدعا عثمان إليه . فدفع إليه المفتاح . قال : وقال عمر بن الخطاب (لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة وهو يتلو هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) : فداء أبي وأمي . ماسمته يتلوها قبل ذلك . قال السيوطي : ظاهر هذا أنها نزلت في جوف الكعبة . انتهى .

(١) انظر سيرة ابن هشام الصفحة ٥٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) وصفا

٨٢٠ و٨٢١ (طبعة جوتنجن) .

(٢) الأثر رقم ٩٨٤٦

وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أن هذه الآية نزلت في الأمراء .
يعنى الحكام بين الناس .

وقال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية وجوب رد كل أمانة من وديعة وقراض وقرض وغير ذلك . واستدل المالكية ، بعموم الآية ، على أن الحربى إذا دخل دارنا بأمان فأودع وديعة ثم مات أو قتل ، إنه يجب رد وديعته إلى أهله . وأن المسلم إذا استدان من الحربى بدار الحرب ثم خرج ، يجب وفاؤه . وأن الأسير إذا ائتمنه الحربى على شيء لا يجوز له أن يخونه . وعلى أن من أودع مالا وكان المودع خانه قبل ذلك ، فليس له أن يجرده كما جرده . ويوافق هذه المسألة حديث : أد الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تخن من خانك .
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، في هذه الآية قال : مبهمة للبر والفاجر .
يعنى عامة .

وقد أخرج ابن جرير^(١) وغيره أنها نزلت في شأن مفتاح الكعبة . لما أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان بن طلحة . واختار مارواه على وغيره أنها خطاب لولاة المسلمين . أمروا بأداء الأمانة لمن ولوا عليه . فيستدل بالآية على أن على الحكام والأئمة ونظار الأوقاف أداء الحقوق المتعلقة بدمهم من تولية المناصب وغيرها إلى من يستحقها . كما أن قوله تعالى : وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . أمرهم بإيصال الحقوق المتعلقة بدمهم الغير إلى أصحابها . وحيث كان المأمور به ههنا مختصاً بوقت المرافعة ، قيد به . بخلاف المأمور به أولاً . فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقاً . وأصل العدل هو المساواة في الأشياء . فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلاً .

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص^(٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا .

(١) انظر الصفحة ٤٩٢ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعنا) .

وروى الترمذى عن أبي سعيد الخدرى^(١) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلساً : إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً : إمام جائر . وروى الحاكم والبيهقى بسند صحيح عن ابن أبي أوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى مع القاضى ما لم يجر . فإذا جار تبرأ الله منه وألزمه الشيطان .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه فى رسالته (السياسة الشرعية) بعد الخطبة : هذه الرسالة مبنية على آية الأمراء فى كتاب الله تعالى . وهى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الآية . قال العلماء : نزلت فى ولادة الأمور ، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . ثم قال : وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها : والحكم بالعدل ، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة . ثم قال : أما أداء الأمانات ففيه نوعان : أحدهما - الولايات وهو كان سبب نزول الآية . فإن النبى ﷺ لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بنى شيبه وطلبها العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت فأنزل الله هذه الآية . فرد مفاتيح الكعبة إلى بنى شيبه . فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل . قال النبى ﷺ : من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . رواه الحاكم فى صحيحه . وفى رواية : من قلد رجلاً عملاً على عصابة ، وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار ، من الأمراء الذين هم نواب ذى السلطان والقضاة . ومن أمراء الأجناد ومقدمى

(١) أخرجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام . ٤ - باب ما جاء فى الإمام العادل .

العساكر الكبار والصغار وولاية الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستتيب ويستعمل أصلح من يجده ، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمرء الحاج والبرء وخزان الأموال وبقعاء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق . على كل من ولى شيئاً من أمور المسلمين من الأمراء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده ، في كل موضع ، أصلح من يقدر عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلباً أو سبقاً في الطلب . بل ذلك سبب المنع . فإن في الصحيح^(١) عن النبي ﷺ : أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال : إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه .

وقال^(٢) لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن ! لاتسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . أخرجه في الصحيحين .

(١) جاء في معناه حديث رواه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٧ - باب ما يكره من الحرص على الإمارة ، حديث ١١٢٩ ونصه :

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ ، أنا ورجلان من قومي . فقال أحد الرجلين : أمّرنا يا رسول الله ! وقال الآخر مثله . فقال « إنا لا نولى هذا من سأل ولا من حرص عليه » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٥ - باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها . و ٦ - باب من سأل الإمارة وكل إليها ، حديث ٢٤٨٨ ونصه :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبي ﷺ « يا عبد الرحمن ! لا تسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها . وإذا خلقت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير » .

وقال^(١) : من طلب القضاء واستعان عليه وُكِّلَ إليه . ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل الله إليه ملكاً يسدده . رواه أهل السنن . فإن عدل عن الأحق الأصح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أو ولّاه عتاقة أو صداقة أو موافقة في مذهب أو بلد أو طريقة أو جنس ، كالعربية والفارسية والتركية والرومية . أو لرشوة يأخذها منه من ماله أو منفعة . أو غير ذلك من الأسباب . أو لضغن في قلبه على الأحق . أو عداوة بينهما - فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٢) .

ثم قال الله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ^(٣) . فإن الرجل لحبه لولده أو عتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته . وكذلك قد يؤثر زيادة حفظه أو ماله بأخذ ما لا يستحقه أو محابة مَنْ يُدَاهِنُهُ في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته . ثم إن المؤدى الأمانة ، مع مخالفة هواه ، يشبهه الله فيحفظه في أهله وماله بعده . والمطيع لهواه يعاقبه بنقيض قصده . فيذل أهله ويذهب ماله . وفي ذلك الحكاية المشهورة : إن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدث بما أدرك . فقال : أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ! أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركهم فقراء لا شيء لهم . وكان في مرض موته ، فقال : أدخلوهم عليّ . فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً . ليس فيهم بالغ . فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : والله ! يا بني ! ما منعكم حقاً هو لكم . ولم أكن بالذي

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ٣ - باب في طلب القضاء والتسرع

إليه ، حديث ٣٥٧٨ . عن أنس بن مالك .

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٧] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٢٨] .

أخذ أموال الناس فأدفعها إليكم . وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين . وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله . قوموا عنى .

قال : ولقد رأيت بعض ولده حمل على مائة في سبيل الله . يعنى أعطاه لمن يغزو عليها .

قلت : هذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بالأندلس وغيرها من جزيرة قبرص وثغور الشام والعوامم كطرسوس ونحوها ، إلى أقصى اليمن . وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً ، يقال أقل من عشرين درهماً .

قال : وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه . فأخذ كل واحد ستمائة ألف دينار . ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس ، أى يسألهم بكفه . وفى هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة فى الزمان ، والسموعة عما قبله ، عبرة لكل ذى لب . وقد دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة يجب أدائها ، فى موضع مثل ما تقدم . ومثل قوله لأبى ذر رضى الله عنه فى الإمارة : إنها أمانة وإنها يوم القيامة حسرة وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه . فيما رواه مسلم ^(١) .

وروى البخارى ^(٢) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : إذا

(١) أخرجه فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٦ (طبعنا) ونصه :

عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ! ألا تستعملنى ؟ قال فضرب بيده على منكبى ثم قال « يا أبا ذر ! إنك ضعيف . وإنها أمانة . وإنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

(٢) أخرجه فى : ٣ - كتاب العلم ، ٢ - باب من سئل علماً وهو مشغول فى حديثه فأتى الحديث ثم أجاب السائل ، حديث ٥٢ ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث . فقال بعض القوم : سمع ما قال =

ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يا رسول الله ! وما إضاعتهما ؟ قال : إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة .

وقد أجمع المسلمون على هذا .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله : القسم الثاني - أمانات الأموال كما قال الله تعالى في الديون : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ^(١) . ويدخل في هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة . مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك . وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبديل القرض وصدقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك . وقد قال الله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * - إلى قوله - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ^(٢) . وقال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيمًا^(٣) . أى لاتخاصم عنهم .

= فكره ما قال . وقال بعضهم : بل لم يسمع . حتى إذا قضى حديثه قال « أين أراه السائل عن الساعة ؟ » قال : هأنا يا رسول الله ! قال « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتهما ؟ قال « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة » .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا فَرِهَانَ مَبْهُوثَةٍ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

(٢) [٧٠ / المارج / ١٩ - ٣٢] .

(٣) [٤ / النساء / ١٠٥] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم^(١): المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه . والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله . وهو حديث صحيح ، بعضه في الصحيحين وبعضه في سنن الترمذی . وقال النبي صلى الله عليه وسلم^(٢): من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدائها الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله . رواه البخاری .

(١) جاء في الترمذی في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٢ - باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وجاء في النسائي في : ٤٧ - كتاب الإيمان ، ٨ - باب صفة المؤمن ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

وجاء في ابن ماجه في : ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢ - باب حرمة دم المؤمن وماله ، حديث ٣٩٣٣ (طبعنا) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « كل المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه . وحديث ٣٩٣٤ عن فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال « المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

وجاء في البخاری في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٤ - باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، حديث ١٠ ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال « المسلم من سلم المسلمون من يده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »

وجاء في الترمذی في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ٢ - باب ما جاء في فضل من مات مرابطا ، عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المجاهد من جاهد نفسه » .

(٢) أخرجه البخاری في : ٤٣ - كتاب الاستقراض وأداء الديون ، ٢ - باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ، حديث ١١٨٨ ، عن أبي هريرة .

وإذا كان الله تعالى قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق ، ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم. وكذلك أداء العارية . ولينظر تمة هذا البحث في الرسالة المذكورة . فإن الوقوف عليها من المهمات . « إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ » أى نعم ما يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة . و(ما) إما منصوبة موصوفة بـ (يعظكم) أو مرفوعة موصولة . كأنه قيل نعم شيئا يعظكم به . أو نعم الشيء الذى يعظكم به . والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعائهم إلى الامتثال بالأمر « إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا » لأقوالكم فى الأمانات والأحكام «بَصِيرًا» بأفعالكم فيهما . فإن سمع ورأى خيراً جازاكم عليه خير الجزاء . وإن سمع ورأى شراً جازاكم عليه . فهو وعد ووعد . وروى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى يونس قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا - إِلَى قَوْلِهِ - سَمِيعًا بَصِيرًا . ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ويقول : هكذا سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقرأها ويضع إصبعه .

وقال أبو زكريا : وصفه لنا المقرئ ووضع أبو زكريا إبهامه الأيمن على عينه اليمنى . والتي تليها على الأذن اليمنى . وأرانا ، فقال : هكذا . وهكذا رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه وابن مردويه فى تفسيره . وأبو يونس هذا مولى أبى هريرة . واسمه سليم بن جبير . أفاده ابن كثير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ »

اعلم أنه تعالى ، لما أمر الرعاة والولاة بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل ، أمر الرعية من الجيوش وغيرهم بطاعة أولى الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك . إلا أن يأمرؤا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال الرازي : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة . فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا . وقد روى الطبري^(١) بسند صحيح عن أبي هريرة : إن أولى الأمر هم الأمراء . واحتج له الشافعي بأن قريشاً ومن يليها من العرب كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير . فأمرؤا بالطاعة لمن ولي الأمر ، والالتقياد له إذا بعثهم في السرايا ، وإذا ولاهم البلاد . فلا يخرجوا عليهم ولا يمتنعوا عليهم ، لثلا تفرق الكلمة . ولذلك قال^(٢) صلى الله عليه وسلم : من أطاع أميري فقد أطاعني . متفق عليه . وفي البخاري^(٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية .

قال ابن كثير : وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وقال الترمذي : حديث حسن غريب . ولا نعرفه إلا من حديث ابن جريج .

(١) الأثر رقم ٩٨٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في ٩٣ - كتاب الأحكام ، ١ - باب قول الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١١ - باب قوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٩٩١ .

وروى الطبري^(١) عن السديّ أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد . وكان خالد أميراً . فأجار عمار رجلاً بغير أمره . فتخاصما وارتقعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأجاز أمانَ عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير .

قال ابن كثير : وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق عن السديّ مرسلًا . ورواه ابن مردويه عن السديّ عن أبي صالح عن ابن عباس . فذكره بنحوه . اهـ .
ولا تنافي بين الروایتين لما أسلفناه في مقدمة التفسير في بحث سبب النزول . فندكر .

(١) الأثر ٩٨٦١ ونصه :

حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط ، عن السديّ : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » قال : بعث رسول الله ﷺ سرية عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر . فساروا قبل القوم الذين يريدون . فلما بلغوا قريبا منهم عرّسوا . وأنهم ذو العيمتين (الجاسوس) فأخبرهم فأصبحوا قد هربوا . غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد . فسأل عن عمار ابن ياسر فأتاه فقال : يا أبا اليقظان ! إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت . فهل إسلامي نافعي غدا ، وإلا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم . فأقام . فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدا غير الرجل . فأخذه وأخذ ماله . فبلغ عمارا الخبر . فأتى خالد فقال : خلّ عن الرجل فإنه قد أسلم ، وهو في أمان مني . فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟ فاستبأ وارتقعا إلى النبي ﷺ . فأجاز أمان عمار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير . فاستبأ عند رسول الله ﷺ فقال خالد : يا رسول الله ! أتترك هذا العبد الأجدع يسبني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا خالد ! لا تسب عمارا فإنه من سب عمارا سبه الله . ومن أبغض عمارا أبغضه الله . ومن لعن عمارا لعنه الله . »
فغضب عمار فقام . فقتبه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضى عنه .
فأنزل الله تعالى قوله : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

وقال الزمخشريّ : المراد بأولى الأمر منكم ، أمراء الحق . لأن أمراء الجور ، الله ورسوله بريئان منهم . فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم . وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما . كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان . وكان الخلفاء يقولون : أطيعوني ما عدلت فيكم . فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم . وفي الصحيحين ^(١) عن عليّ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما الطاعة في المعروف . وروى الإمام أحمد ^(٢) عن عمران بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : لا طاعة في معصية الله . لطيفة :

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : النكتة في إعادة العامل في الرسول دون أولى الأمر ، مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى - كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف هما القرآن والسنة . فكان التقدير : وأطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن ، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة . والمعنى : أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته . وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن .

- (١) أخرجه في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٤ - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، حديث ١٩٣٣ ونصه . عن عليّ رضي الله عنه قال : بعث النبيّ ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار . وأمرهم أن يطيعوه . ففضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبيّ ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى . قال : قد عزمت عليكم لما جمعتهم خطباً وأوقدتهم ناراً ثم دخلتم فيها . فجمعوا خطباً فأوقدوا (ناراً) فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض . قال بعضهم : إنما تبعنا النبيّ ﷺ فراراً من النار ، أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه . فذكر للنبيّ ﷺ فقال « لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً . إنما الطاعة في المعروف » .
- (٢) أخرجه في السند بالصفحة ٤٢٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بنى أمية . لما قال له : أليس الله أمركم أن تطيعونا في قوله : (وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) ؟ فقال له : أليس قد نزعت عنكم ، بمعنى الطاعة ، إذا خالفتم الحق بقوله : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ؟

قال الطيبي : أعاد الفعل في قوله (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة . ولم يعمد في أولى الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته . ثم بين ذلك بقوله : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ . كأنه قيل فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم وردُّوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله . انتهى . (ج ١٣ ص ٩٩)

تنبيه :

يشمل عموم قوله (وَأُولَى الْأَمْرِ) العلماء . كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه يعني أهل الفقه والدين . وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية . وهذا ليس قولاً ثانياً في الآية بل هو مما يشمله لفظها . فهي عامة في كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء وإن نزلت على سبب خاص . وقد كثرت الأوامر بطاعة العلماء كالأمراء . قال تعالى : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ^(١) . وقال تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(٢) . وقال تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ^(٣) . وفي الحديث

- (١) [٥ / المائدة / ٦٣] ونصها : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ ، لَيْشَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .
 (٢) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .
 (٣) [٤ / النساء / ٨٣] .

الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(١) : من أطاعني فقد أطاع الله . ومن عصاني فقد عصى الله . ومن أطاع أميري فقد أطاعني . ومن عصى أميري فقد عصاني . وروى أبو داود^(٢) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وروى البخاري^(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشيّ كان رأسه زبيبة . والأحاديث في هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الحسبة في الإسلام) : وقد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام . فلهذا كان أولو الأمر صنفين : العلماء والأمراء . فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٤) (للأحمسية لما سألتها مابقاؤنا

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٠٩ - باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقى به ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني . وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويُتقى به . فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا . وإن قال بغيره فإن عليه منه .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٨٧ - باب في الطاعة ، حديث ٢٦٢٦

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ٤ - باب السمع والطاعة للإمام ما لم

تكن معصية ، حديث ٤٣٤

(٤) أخرج الدارمي في مسنده : المقدمة ، ٢٣ - باب في كراهية أخذ الرأي . ونصه : =

على هذا الأمر ؟) قال : ما استقامت لكم أمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان وكل من كان متبوعاً فإنه من أولى الأمر . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى عنه . وعلى كل واحد ممن له عليه طاعة أن يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حين تولى أمر المسلمين وخطبهم ، فقال في خطبته : أيها الناس ! القوى فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم القوى عندي حتى آخذ له الحق . أطيعوني ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ » أى اختلفتم أنتم وأولو الأمر « فِي شَيْءٍ » من الأحكام « فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ » أى فارجعوا فيه إلى كتابه « وَالرَّسُولِ » بالسؤال منه في زمانه صلى الله عليه وسلم والرجوع إلى سننه بعده لا إلى ما تهوون ولا إلى ما يهواه الحكماء « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » الواضع لشرائع العدل « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى يجازى فيه الموافق والمخالف لتلك الشرائع « ذَلِكَ » أى الرد إلى كتاب الله وسنة الرسول، والرجوع إليهما في فصل النزاع

= عن أبي زرعة بن عمرو عن حبة بنت أبي حبة قالت : دخل علينا رجل بالظهيرة . فقلت : يا عبد الله : من أين أقبلت ؟ قال : أقبلت أنا وصاحب لي في بغاء لنا . فانطلق صاحبي يبغي ودخلت أنا أستظل بالظل وأشرب من الشراب .

فقممت إلى بُيْتَةٍ حامضة فسقيته منها فشرب وشربت .

قالت وتوسمته فقلت : يا عبد الله ! من أنت ؟ فقال : أنا أبو بكر . فقلت : أنت أبو بكر ، صاحب رسول الله ﷺ الذى سمعتُ به ؟ قال : نعم .

قالت فذكرت غزونا خثما وغزوة بعضنا بعضا في الجاهلية وما جاء الله به من الألفة وأطناب الفساطيط . فقلت : يا عبد الله ! حتى متى ترى أمر الناس هذا ؟ قال : ما استقامت الأمة . قلت : ما الأمة ؟ قال : أما رأيت السيد يكون في الحِواء (بيوت مجتمعة على الماء) فيتبعونه ويطيعونه ؟ فما استقام أولئك .

« خَيْرٌ » أى لكم ولحكمكم وأصلح « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلاً ، كما قاله السدى وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء . وهو قريب .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شئ تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه ، أن يردّ التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . كما قال تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ^(١) . فإحكام به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق . وماذا بعد الحق إلا الضلال . ولهذا قال تعالى : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أَى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله . فتحاكما إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . فدل على أن من لم يتحاكم ، فى محل النزاع ، إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما فى ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر . انتهى .

تنبيهات

الأول - قال البيضاوى : إن قوله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ ، يؤيد أن المراد بأولى الأمور الأمراء لا العلماء . قال : إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه بخلاف المرئوس . ثم قال : إلا أن يقال : الخطاب لأولى الأمر ، على طريقة الالتفات . وتابعه أبو السعود .

قال الخفاجى : وجه التأييد أن للناس والعامة منازعة الأمراء فى بعض الأمور وليس لهم منازعة العلماء . إذ المراد بهم المجتهدون . والناس ممن سواهم لا ينازعونهم فى أحكامهم . والمراد بالمرئوس (على وزن المفعول) العامة التابعة للرئيس والرئيس . فإذا كان الخطاب فى (تَنَازَعْتُمْ) لأولى الأمر على الالتفات صح إرادة العلماء . لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضاً مجادلة ومحاكمة . فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل . انتهى . وفى قوله : (إذ ليس للمقلد الخ) ما ستره .

(١) [٤٢ / الشورى / ١٠] ... ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

الثانى - فهم كثير من الناس والمفسرين أيضاً أن طاعة أولى الأمر العلماء ، تقليدهم فيما يفتون به . وهو غلط . قال الإمام ابن القيم (أعلام الموقعين) فى :

فصل

فى عقد مجلس مناظرة بين مقلد وبين صاحب حجة منقاد للحق حيث كان .
قال المقلد : وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر - وهم العلماء . أو العلماء والأمراء - وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به ، فإنه لولا التقليد ، لم يكن هناك طاعة تختص بهم . قال : وجوابه أن أولى الأمر ، قيل : هم الأمراء . وقيل : هم العلماء . وهما روايتان عن الإمام أحمد . والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين . وطاعتهم من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . لكن خفى على المقلدين أنهم يطاعون فى طاعة الله إذا أمروا بأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . فآين فى الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار التقليد عليها ؟ ثم قال ابن القيم : إن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالاً للتقليد . وذلك من وجوه : أحدها - الأمر بطاعة الله التى هى امتثال أمره واجتناب نهيه . الثانى - طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يكون العبد مطيعاً لله ولرسوله حتى يكون عالماً بأمر الله تعالى ورسوله . وأما من هو مقلد فيها لأهل العلم لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم البتة . الثالث - أن أولى الأمر قد نهوا عن تقليدهم ، كما صح ذلك عن معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة . وذكرناه عن الأئمة الأربعة وغيرهم . وحينئذ فطاعتهم فى ذلك إن كانت واجبة بطل التقليد . وإن لم تكن واجبة بطل الاستدلال . الرابع - أنه سبحانه وتعالى ، قال فى الآية نفسها : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وهذا صريح فى إبطال التقليد والمنع من رد التنازع فيه إلى رأى أو مذهب أو تقليد . فإن قيل : فما هى طاعتهم المختصة بهم ؟

فإن كانت الطاعة فيما يخبرون به عن الله تعالى ورسوله ﷺ ، كانت الطاعة لله ورسوله ﷺ لا لهم . قيل : هذا هو الحق . وطاعتهم إنما هي تبع لاستقلال . ولهذا قرن بها بطاعة الرسول . وأعاد العامل لثلاثتهم أنه إنما يطاع تبعاً كما يطاع أولو الأمر تبعاً . وليس كذلك . بل طاعته واجبة استقلالاً . كان ، ما أمر به أو نهى عنه في القرآن ، أو لم يكن . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى قبل ذلك : إن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وهدى أصحابه وأحوال أئمتهم . وسلكوا ضد طريق أهل العلم . أما أمر الله تعالى ، فإنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله . والمقلدون قالوا : إنما نردّه إلى من قلده . وأما أمر رسوله فإنه ﷺ أمر عند الاختلاف بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين ، وأمر أن يتمسك بها ويعض عليها بالنواجذ . وقال المقلدون : بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلده ونقدمه على كل ما عده . وأما هدى الصحابة رضى الله عنهم فمن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن شخص واحد يقلد رجلاً في جميع أقواله ويخالف من عده من الصحابة بحيث لا يرد من أقواله شيئاً ولا يقبل من أقوالهم شيئاً . وهذا من أعظم البدع وأقبح الحوادث . وأما مخالفتهم لأئمتهم فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم وحذروا منه . كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال خلفائه الراشدين . فما وافق ذلك منها قبلوه ودانوا الله تعالى به . وقضوا به وأفتوا به . وما خالف ذلك منها لم يلتفتوا إليه وردوه . وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائفة الاتباع لا واجبة الاتباع . من غير أن يلزموا بها أحداً ولا يقولوا إنها الحق دون ما خالفها . هذه طريقة أهل العلم سلفاً وخلفاً . وأما هؤلاء الخلف فمكسوا الطريق وقلبوا أوضاع الدين . فزيفوا كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ وأقوال خلفائه وجميع أصحابه ، وعرضوها على أقوال من قلده ، فما وافقها منها قالوا : لنا ؛ وانقادوا له مدعين . وما خالف أقوال متبوعهم منها قالوا : احتج الخصم

بكذا وكذا . ولم يقبلوه ولم يدينوا به . واحتال فضلاؤهم في ردها بكل ممكن . وتطلبوا لها وجوه الحيل التي يرونها . حتى إذا كانت موافقة لمذهبهم ، وكانت تلك الوجوه بعينها قائمة فيها ، شنعوا على منازعهم وأنكروا عليهم ردها بمثل تلك الوجوه بعينها . وقالوا : لا تُردُّ النصوص بهذا . ومن له همة تسمو إلى الله وممرضاته ، ونصر الحق الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين كان ومع من كان ، لا يرضى لنفسه بمثل هذا المسلك الوخيم والخلق الذميم . انتهى .

الثالث - إن قيل : لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بقوله (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) أى فوضوا علمه إلى الله واسكتوا عنه ولا تتعرضوا له ؟ وأيضاً ، لِمَ لا يجوز أن يكون المراد : فردوا هذه الأحكام إلى البراءة الأصلية ؟ قلنا : أما الأول فمدفوع . وذلك لأن هذه الآية دلت على أنه تعالى جعل الوقائع قسمين : منها ما يكون حكمها منصوفاً عليه . ومنها ما لا يكون كذلك . ثم أمر في القسم الأول بالطاعة والانقياد . وأمر في القسم الثانى بالاجتهاد فيه ، وهو الرد إلى الله وإلى الرسول . ولا يجوز أن يكون المراد بهذا الرد السكوت . لأن الواقعة ربما كانت لا تحتل ذلك . بل لا بد من قطع الشغب والخصومة فيها ، بنفى أو إثبات . وإذا كان كذلك امتنع حمل الرد إلى الله ، على السكوت عن تلك الواقعة . وأما السؤال الثانى - فجوابه أن البراءة الأصلية معلومة بحكم العقل . فلا يكون رد الواقعة إليها رداً إلى الله بوجه من الوجوه . أما إذا رددنا حكم الواقعة إلى الأحكام المنصوص عليها ، كان هذا رداً للواقعة على أحكام الله تعالى . فكان حمل اللفظ على هذا الوجه أولى : أفاده الرازى .

الرابع - استدل مثبتو القياس بقوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ) الخ قالوا : معنى الآية : فإن تنازعتم فى شىء حكمه غير مذكور فى الكتاب والسنة ، فردوا حكمه إلى الأحكام المنصوصة فى الوقائع المشابهة له . وذلك هو القياس . قالوا : ولو كان المراد من قوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) طلب حكمه من نصوص الكتاب والسنة - لكان داخلاً تحت

قوله (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وهو إعادة لعين ماضى (كذا) وهو غير جائز . وقد توسع الرازى فى تقرير ذلك ههنا ، كما توسع فى أن قوله تعالى (وَأُولِ الْأَمْرِ) إشارة إلى الإجماع . فتكون الآية ، بزعمه ، دلت على الأصول الأربع . ولا يخفى ما فى هذا التعمق من دقيق الاستنباط .

الخامس - قدمنا رواية البخارى فى سبب نزول هذه الآية . وأن ابن عباس قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة .

قال الداودى (شارح الصحيح) : هذا وهم على ابن عباس . فإن عبد الله بن حذافة خرج على جيش فغضب عليهم . فأمرهم أن يوقدوا ناراً ويقتحموها . فامتنع بعض وهم بعض أن يفعل .

قال : فإن كانت الآية نزلت قبل ، فكيف يخص عبد الله بن حذافة بالطاعة دون غيره ؟ وإن كانت نزلت بعد ، فإنما قيل لهم : إنما الطاعة فى المعروف ، وما قيل لهم : لِمَ لم تطيعوه ؟ انتهى .

وأجاب الحافظ ابن حجر : أى المقصود فى قصته قوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ) لأنهم تنازعوا فى امتثال ما أمرهم به . وسببه أن الذين هموا أن يعطوه وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة . والذين امتنعوا عَارَضَهُ عندهم الفرار من النار . فناسب أن ينزل فى ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع . وهو الرد إلى الله وإلى رسوله . أى : إن تنازعتم فى جواز الشئ وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة . والله أعلم .

ولما أوجب تعالى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله ورسوله ، آثرها بأن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه ، وإنما يريدون حكم غيره ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » يعنى القرآن « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » يعنى التوراة . ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله ، لتأكيد العجيب من حالهم وتشديد التوبيخ والاستقبح ، ببيان كمال المبينة بين دعواهم المقتضية حتماً للتحاكم إلى الرسول ، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ » الداعى إلى الطغيان بالحكم على خلاف المنزل إليك والمنزل على من قبلك . وتقدم قريباً معانى الطاغوت . والمراد به هنا ما سوى كتاب الله وسنة رسوله ، من الباطل « وَقَدْ أُمِرُوا » فى جميع تلك الكتب « أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » أى يتبرؤا منه . لأنه تحاكم على خلاف ما أنزل الله فى كتبه فيعصونه ويطيعون الشيطان « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ » أى من الجن والإنس « أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » عن الحق والهدى . وقوله (ويريد الخ) عطف على (يريدون) داخل فى حكم التعجيب . فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم ، أعجب من كل عجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ » أى : إلى حكم ما أنزل الله فى القرآن الذى تدعون الإيمان به « وَإِلَى الرَّسُولِ » أى : حكمه « رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ » أى يمتنعون

خصوصهم فيبعدونهم « عَنْكَ صُدُودًا » بليغاً ليتمكنوا مما يريدونه بالرشوة . وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ) تكملة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله ، إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت . وإظهار (المناقين) في مقام الإضرار للتسجيل عليهم بالنفاق . وذهمهم به . والإشعار بعلّة الحكم .
تنبيه - في سبب نزولها .

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه . فتنافر إليه ناس من المسلمين . فأُنزل الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا - إِلَى قَوْلِهِ - إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) .
أقول : ثم أسلم أبو برزة وصحب النبي صلى الله عليه وسلم . واسمه نضلة بن عبید .
قال الحافظ ابن حجر في (التقریب) : صحابي مشهور بكنيته . أسلم قبل الفتح . وغزا سبع غزوات . ثم نزل البصرة . وغزا خراسان ومات بها سنة خمس وستين على الصحيح . انتهى .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة ، أو سعيد ، عن ابن عباس قال : كان الجلاس ابن الصامت ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، وبشرٌ يدعون الإسلام . فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين ، في خصومة كانت بينهم ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . فدعوههم إلى الكهان ، حكام الجاهلية . فأُنزل الله فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...) الآية .
وأخرج ابن جرير^(١) عن الشعبي قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فقال اليهودي : أحاكمك إلى أهل دينك ، أو قال : إلى النبي صلى الله عليه وسلم . لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة في الحكم . فاختلعا . واتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة . فنزلت . وَلَا تَعَارِضَ . لما أسلفناه في المقدمة في بحث سبب النزول . فتذكر .

(١) الأثر رقم ٩٨٩١ .

قال أبو مسلم الأصفهاني : ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقاً من أهل الكتاب .
 مثل : إنه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النفاق . لأن قوله تعالى (يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ
 ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) إنما يليق بمثل هذا المنافق . انتهى .
 أقول : ما استظهره مناف لما أسلفناه مما روى في نزولها . على أن توصيفهم بالإيمان بـ (ما
 أنزل من قبل) لا يؤدي ما ذكره . لأن هذا كثيراً ما يذكر تنويهاً به وتثبيتاً لركنيتها في الإيمان .
 وتذكيراً له . كما لا يخفى على من سبر قاعدة التنزيل في أمثاله . فاعرفه .

مباحث

الأول - قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية إنكار من الله عز وجل على من يدعى
 الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين . وهو مع ذلك ، يريد أن يتحاكم ،
 في فصل الخصومات ، إلى غير كتاب الله وسنة رسوله . كما ذكر في سبب نزول هذه الآية .
 ثم ساق ما قدمناه وقال : الآية أعم من ذلك كله . فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة
 وتحاكموا إلى ما سواها من الباطل . وهو المراد بـ (الطاغوت) ههنا ، وأعرضوا كالمستكبرين
 كما قال تعالى عن المشركين (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ
 مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)^(١) وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...)^(٢) الآية
الثاني - قال القاضي : يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر . وعدم
 الرضا بحكم محمد صلى الله عليه وسلم كفر . ويدل عليه وجوه : الأول - أنه تعالى قال
 (يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) فجعل التحاكم

(١) [٢ / البقرة / ١٧٠] ... أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .

(٢) [٢٤ / النور / ٥١] ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

إلى الطاغوت يكون إيماناً به . ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله . كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله . الثاني - قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحَكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . إلى قوله : وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(١) وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث - قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٢) وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة . وفي هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الإسلام . سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد . وذلك يوجب صحة ما ذهب الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعي الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم . نقله الرازي .

الثالث - قال بعض المفسرين : في هذه الآية وجوب الرضا بقضاء الله سبحانه . والرضا بما شرعه . وتدل على أنه لا يجوز التحاكم إلى غير شريعة الإسلام . قال الحاكم : وتدل على أن من لم يرض بحكمه كفر . وما ورد من فعل عمر وقتله المنافق يدل على أن دمه هدر . لا قصاص فيه ولا دية .

وهنا فرع . وهو أن يقال : إذا تحاكم رجلان في أمر فرضي أحدهما بحكم المسلمين وأبى الثاني . وطلب المحاكمة إلى حاكم الملاحدة . فإنه يكفر . لأن في ذلك رضا بشعار الكفرة . انتهى .

الرابع - في قوله تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا) دقيقة بديمة . قال أبو السعود :

- (١) [٤ / النساء / ٦٥] ونصها : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحَكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .
 (٢) [٢٤ / النور / ٦٣] ونصها : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ...

الاقتصار في معرض التعجب والاستعجاب على ذكر إرادة التحاكم، دون نفسه، مع وقوعه أيضاً -
للتنبية على أن إرادته مما يقضى منه العجب ولا ينبغي أن يدخل تحت الوقوع ، فما ظنك
بنفسه ؟

الخامس - قال المفسرون : إنما صد المنافقون عن حكم الرسول ﷺ لأنهم كانوا ظالمين .
وعلموا أنه لا يأخذ الرشا . وأنه لا يحكم إلا بمرّ الحكم . وقيل : كان ذلك الصدّ لعداوتهم
في الدين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)

« فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » متصل بما قبله ، مبين غائلة
جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها . أى كيف يكون حالهم إذا ساقتهم التقادير إليك ،
في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، التى منها المحاكمة إلى الطاغوت والكرهية لحكمك ،
 واحتاجوا إليك فى ذلك « ثُمَّ جَاءُوكَ » للاعتذار عما صنعوا من القبائح « يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ »
كذباً « إِنْ أَرَدْنَا » أى ما أردنا بذلك التحاكم « إِلَّا إِحْسَانًا » أى فصلاً بالوجه الحسن
« وَتَوْفِيقًا » بالصلح بين الخصمين . ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك . فلا تؤاخذنا
بما فعلنا . وهذا وعيد لهم على ما فعلوا . وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم . ولا يغنى
عنهم الاعتذار .

قال الرازى : ذكروا فى تفسير قوله تعالى (أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ) وجوها : الأول -
إن المراد منه قتل عمر صاحبهم الذى أقرّ أنه لا يرضى بحكم الرسول عليه السلام . فهم جاؤا
إلى النبي ﷺ ، فطالبوا عمر بدمه . وحلفوا أنهم ما أرادوا بالذهاب إلى غير الرسول إلا المصلحة .
وهذا اختيار الزجاج .

قلت : واختياره غير مختار . لأن قصة قتل عمر لم ترو من طريق صحيح ولا حسن .
فهي ساقطة عند المحققين . واستدلال الحاكم ، الذي قدمناه ، مسلم . لو حجت . الثاني - قال
أبو علي الجبائي : المراد من هذه المصيبة ما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه
لا يستصحبهم في الغزوات . وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرده عن حضرته . وهو قوله
تعالى (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَاقْتُلُوا
تَقْتِيلًا)^(١) وقوله (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا)^(٢) وبالجملة ، فأمثال هذه الآيات توجب لهم
الذل العظيم . فكانت معدودة في مصائبهم . وإنما يصيبهم ذلك لأجل نفاقهم .

الثالث - قال أبو مسلم الأصفهاني : إنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا في حكم
الطاغوت وكرهوا حكم الرسول ، بَشَّرَ الرسول ﷺ أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه
وإلى أن يظهروا له الإيمان به ، وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق . قال : ومن
عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا : كيف أنت إذا كان كذا وكذا؟ ومثاله . قوله تعالى
(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)^(٣) وقوله (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ
لَا رَيْبَ فِيهِ)^(٤) . ثم أمره تعالى ، إذا كان منهم ذلك ، أن يُعرض عنهم ويعظمهم . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٠ و ٦١] .

(٢) [٩ / التوبة / ٨٣] ونصها : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٤١] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا .

(٤) [٣ / آل عمران / ٢٤] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المنافقين « الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » من النفاق والميل إلى الباطل وإن أظهروا إسلامهم وعذرهم بحلفهم « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم ولا تزد على كفهم ، بالموعظة والنصيحة عما هم عليه « وَعِظْهُمْ » أى ازجرهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر « وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » أى مؤثراً واصلاً إلى كنه المراد . فإن قيل : بم تعلق قوله تعالى (فِي أَنْفُسِهِمْ) ؟ فالجواب : بقوله (بَلِيغًا) على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف . أى قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يفتنون به اغتماماً . ويستشعرون منه الخوف استشعاراً . وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرّنه . وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق ، معلوم عند الله . وإنه لا فرق بينكم وبين المشركين . وما هذه المكافأة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر وإضماره . فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف . أو يتعلق بقوله (قُلْ لَهُمْ) أى : قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق ، قولاً بليغاً . وإن الله يعلم ما في قلوبكم . لا يخفى عليه . فلا يغنى عنكم إبطانه . فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق . وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك ، من انتقامه ، وشرّاً من ذلك وأغلظ . أو قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ، ليس معهم غيرهم ، مساراً لهم بالنصيحة ، لأنها في السر أنجع وفي الإحاض أدخل (قَوْلًا بَلِيغًا) يبلغ منهم ويؤثر فيهم . كذا يستفاد من الكشف .

قال الناصر في (الانتصاف) ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة . أما الأول - فلأن حاصله أمره بتهديدهم على وجه مبلغ صميم قلوبهم . وسياق التهديد في قوله (فَكَيْفَ

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ (يشهد له . فإنه أخبر بما سيقع لهم على سبيل التهديد . وأما الثانى - فيلأءه من السياق قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) يعنى ما انطوت عليه من الخبث والمكر والحيل . ثم أمره بوعظهم والإعراض عن جرائمهم حتى لا تكون مؤاخذتهم بها مانعة من نصحتهم ووعظهم . ثم جاء قوله (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) كالشرح للوعظ ولذكر أهم ما يعظهم فيه . وتلك نفوسهم التى علم الله ما انطوت عليه من المذام . وعلى هذا يكون المراد الوعظ وما يتعلق به . وأما الثالث - فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام فى كتم عناد المناققين ، والتجافى عن إفصاحهم والستر عليهم ، حتى عُدَّ حذيفة رضى الله عنه ، صاحب سره عليه الصلاة والسلام . لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم وتسميتهم له بأسمائهم . وأخباره فى هذا المعنى كثيرة .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : وثمرة الآية قبح الرياء والنفاق واليمين الكاذبة والعذر الكاذب . لأنهم اعتذروا بإرادتهم الإحسان . وذلك كذب . ثم قال : ودلت الآية على لزوم الوعظ والمبالغة فيه . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ » كلام مبتدأ . جاء به تمهيداً لبيان خطئهم فى ترك طاعة الرسول ، والاشتغال بسر جناتهم بالاعتذار بالباطيل وعدم تلافئها بالتوبة . أى : وما أرسلنا رسولاَ إلا ليطاع فيما حكم ، لا ليطالب الحكم من غيره . فطاعته فرض على من أرسل إليهم . وإنكار فرضيتها كفر .

وقوله (يا ذن الله) أى : بسبب إذنه فى طاعته ، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه ، لأنه مؤدٍ عن الله . فطاعته طاعة الله . ومعصيته معصية الله (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ويجوز أن يراد : بتيسير الله وتوفيقه فى طاعته « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » هذا الظلم العظيم غاية العظم ، إذ عرضوها لعذابٍ ، على عذاب النفاق ، بترك طاعتك والتحاكم إلى الطاغوت « جَاءُوكَ » تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا « فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ » من ذلك وتابوا إليه تعالى من صنعهم « وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ » أى دعا لهم بالمغفرة ، فكان استغفاره شفاعَةً لقبول استغفارهم « لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا » أى قابلاً لتوبتهم « رَحِيمًا » أى متفضلاً عليهم بالرحمة وراء قبول التوبة .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : ولم يقل : واستغفرت لهم ، وَعَدَلَ عنه إلى طريقة الالتفات ، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبهها على أن شفاعَةً مَنْ اسْمُهُ الرسول ، من الله بمكان . قال فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من الالتفات خصوصية . وهى اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه . وذلك زائد على الالتفات بذكر الأعلام الجامدة .

تنبيهات

الأول - دلت الآية على أن توبة المنافق مقبولة عند الله وفاقاً . وأما فى الظاهر فظاهر الآية قبولها . لأنه جعل النبىّ صلى الله عليه وسلم مستغفراً لهم وشافعاً . وعن الراضى بالله فى (الباطنية) : إن أظهرها شبههم وما يعتادون كتمه ، دل ذلك على صدق توبتهم . فيقبل وإلا فلا . ودلت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى : (تَوَّابًا) وذلك يبنى عن التكرار . كذا فى بعض التفاسير .

الثانى - قال الرازى : لقائل أن يقول : أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح ، لكانت توبتهم مقبولة ؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم : قلنا : الجواب

عنه من وجوه : الأول - أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله . وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغیره . فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم . الثانى - إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ، ظهر منهم ذلك التمرد . فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد . وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه الاستغفار .

الثالث - لعلمهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل ، فإذا انضم إليها استغفار الرسول . صارت مستحقة للقبول . انتهى .

أقول : وثمة وجه رابع - وهو التنويه بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن طاعته طاعته تعالى ، فرضاء رضاه وسخطه سخطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى السر ولا يستحقون اسم الإيمان فى السر « حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ » يجعلوك حاكماً وبترافعوا إليك « فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ » أى فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس « ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ » فى قلوبهم « حَرَجًا » أى ضيقاً « مِّمَّا قَضَيْتَ » بينهم « وَيُسَلِّمُوا » أى : يتقادوا لأمرك ويدعونا لحكمك « تَسْلِيمًا » تأكيد للفعل . بمنزلة تكريره . أى تسليماً تاماً بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . كما ورد فى الحديث (٢) : والذى نفسى بيده ! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

(١) قال السيّد أحمد محمد شاكر فى تعليقه على هذا الحديث بالصفحة رقم ٢١١ =

تنبيهات

الأول - روى البخاري^(١) عن الزهري عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصاري : يا رسول الله ! أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق يازبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر . ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري . وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .

قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) .

قال ابن كثير : هكذا رواه البخاري في (كتاب التفسير) في (صحيحه) من حديث

= بالجزء الثالث من (عمدة التفسير) ما نصه :

هو الحديث الحادي والأربعون من الأربعين النووية . ولكن ليس في أوله « والذي نفسى بيده ! » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . قال النووي : حديث حسن صحيح . رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح . يريد (كتاب الحجة) لأبي الفتح المقدسي .

وذكر ابن رجب في (جامع العلوم والحكم ، شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) أنه رواه أيضاً الحافظ أبو نعيم في (كتاب الأربعين) التي شرط فيها الصحة . وأنه رواه أيضاً الطبراني . ثم أطلال القول في تعليقه . وعندى أن تعليقه غير جيد . وأن الحديث صحيح . اهـ .
(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٢ - باب فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، حديث ١١٨٠ .

معمر . وفي كتاب (المساقاة) من حديث ابن جريج^(١) ومعمر^(٢) أيضاً . وفي كتاب (الصلح) من حديث شعيب بن أبي حمزة^(٣) . ثلاثهم عن الزهريّ عن عروة فذكره . وصورته صورة الإرسال وهو متصل في المعنى . وقد رواه الإمام أحمد^(٤) من هذا الوجه فصرّح بالإرسال فقال : حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب عن الزهريّ أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه كان يخاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا ، إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في شراج الحرّة . كان يستقيان بها كلاهما . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق : ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصاريّ وقال يارسول الله ! أن كان ابن عمّتك ؟ فتلون وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال للزبير : أسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر . فاستوعى النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قبل ذلك ، أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصاريّ . فلما أحفظ الأنصاريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استوعى النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم .

قال عروة : فقال الزبير : والله! ما أحسب هذه الآية أنزلت إلا في ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

- (١) أخرجه البخاريّ في : ٤٢ - كتاب المساقاة ، ٨ - باب شرب الأعلى إلى الكعابين .
- (٢) أخرجه البخاريّ في : ٤٢ - كتاب المساقاة ، ٧ - باب شرب الأعلى قبل الأسفل .
- (٣) أخرجه البخاريّ في : ٥٣ - كتاب الصلح ، ١٢ - باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم البين .

- (٤) أخرجه في المسند بالصفحة ١٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) الحديث ١٤١٩ (طبعة المعارف) .

(هكذا رواه الإمام أحمد وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه .
والذى يقطع به أنه سمعه من أخيه عبدالله . فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك
في (تفسيره) . فقال : حدثنا يونس بن عبد الأعلى . حدثنا ابن وهب . أخبرني الليث ويونس
عن ابن شهاب ؛ أن عروة بن الزبير حدثه ؛ أن عبدالله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام ؛
أنه خاصم رجلاً . . . الحديث) . قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائي^(١) من حديث
ابن وهب به . ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث به . وجعله أصحاب الأطراف
في مسند عبد الله بن الزبير . وهكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبدالله بن الزبير . والله أعلم^(٢) .
وروى ابن أبي حاتم عن الزهري عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال : نزلت في الزبير
ابن العوام وحاطب بن أبي بلتعة . اختصا في ماء . فقضى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى
ثم الأسفل .

قال ابن كثير : هذا مرسل . ولكن فيه فائدة تسمية الأنصارى . انتهى .
قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : وحكى الواحدى وشيخه الثعلبي والمهدوي
أنه حاطب بن أبي بلتعة . وتعقب بأن حاطباً ، وإن كان بدريةً ، لكنه من المهاجرين . لكن
مستند ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن عبد العزيز عن الزهري عن سعيد
ابن المسيب في قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...
الآية) قال : نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة . اختصا في ماء . . . الحديث .
وإسناده قوى مع إرساله . فإن كان سعيد بن المسيب سمعه من الزبير ، فيكون موصولاً .
وعلى هذا فيؤول قوله (من الأنصار) على إرادة المعنى الأعم . كما وقع ذلك في حق غير واحد
كعبد الله بن حذافة . وأما قول الكرماني بأن حاطباً كان حليفاً للأنصار - ففيه نظر .

(١) أخرجه النسائي في : ٤٩ - كتاب آداب القضاة ، ١٩ - باب الرخصة للحاكم
الأمين أن يحكم وهو غضبان ، و٢٧ - باب إشارة الحاكم بالرفق .

(٢) انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ٢١٣ من الجزء الثالث من (عمدة
التفسير) فقرأه وقرأه وقرأه ، ثم أقرأه فلن تملأ أبدا . ففيه مالا ينبغى لمؤمن أن يجمله .
بل ما ينبغى أن يعلمه علم اليقين .

وأما قوله (من بنى أمية بن زيد) فلعله كان مسكنه هناك ، كعمر . ثم قال : ويترشح بأن حاطباً كان حليفاً لآل الزبير بن العوام من بنى أسد وكأنه كان مجاوراً للزبير . والله أعلم . (ج ٥ ص ٢٦ و ٢٧) .

أقول : وقع في التفسير المنسوب لابن عباس ، ههنا ، ذكر حاطب بن أبي بلتعة وتلقيبه بالمنافق وإدراجه تحت قوله تعالى (رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ) . وفي صحة هذا عن ابن عباس نظر . وكيف ؟ وقد كان رضى الله عنه من البدرين . وقد اتفق النفاق عن شهداءه . قال التوربشتي : يحتمل أنه أصدر ذلك منه بادرة النفس . كما وقع لغيره ممن صحت توبته . إذ لم تجر عادة السلف بوصف المنافقين بصفة النصرة التي هي المدح ولو شاركهم في النسب . قال : بل هي زلة من الشيطان تمكن به منها عند الغضب ، وليس ذلك بمستنكر من غير المعصوم في تلك الحالة . انتهى .

ولما هم عمر رضى الله عنه بضرب عنقه في قصة الظعينة^(١) ، قال حاطب : لا تعجل عليّ

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٤١ - باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، حديث : ١٩٢٤ ، ونصه :
عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليّاً رضى الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ ، أنا والزبير والمقداد بن الأسود . قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا فعادى بنا خيلنا . حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة . فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معي من كتاب . فقلنا : لتُخرجن الكتاب أو لنُلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله ﷺ . فإذا فيه : من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب ! ما هذا ؟ » قال : يا رسول الله ! لا تعجل عليّ . إني كنت امرأةً ملصقةً في قريش . ولم أكن من أنفسها . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات =

يا رسول الله ! والله ! إني لمؤمن بالله ورسوله . وما ارتددت ولا بدلت . فأقرّه صلى الله عليه وسلم ، وكفّ عمر عنه . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر : إنه قد شهد بدرًا . وما يدريك ، يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فذرفت عينا عمر ... الحديث .

ولله در أصحاب الصحاح حيث أبهموا في قصة الزير اسم خصمه سترًا عليه كيلا بغض من مقامه . وهكذا ليكن الأدب . وكفانا أصلاً عظيماً في هذا الباب إبهام التنزيل الجليل في كثير من قصصه الكريمة . فهو بينوع المعارف والآداب على مرور السنين والأحقاب . هذا كله على الجزم بأنها نزلت في قصة الزير وخصمه . وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : والراجح رواية الأكثر . وأن الزير كان لا يجزم بذلك . ثم قال الحافظ ابن حجر : وجزم مجاهد والشعبيّ بأن الآية إنما نزلت فيمن نزلت فيه الآية التي قبلها وهي قوله تعالى (ألم تر أله اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ . لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة . ودعا المنافق اليهودي إلى حكاهم . لأنه علم أنهم يأخذونها . فأنزل الله هذه الآيات ، إلى ... ويسلموا تسليماً .

وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد ، نحوه .

= بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن آتخذ عندهم يداً يحمون بها قرايتي . وما فعلت كفرًا ولا ارتداداً ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد صدقكم » قال عمر : يا رسول الله ! دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال « إنه قد شهد بدرًا . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وروى الطبري^(١) بإسناد صحيح عن ابن عباس أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب .

وروى^(٢) بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد؛ أنه كعب بن الأشرف. انتهى .

وقال ابن كثير: ذكر سبب آخر غريب جداً. قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة . أخبرنا ابن وهب . أخبرني عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود قال : اختصم رجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى بينهما. فقال المقضي عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم. انطلقا إليه. فلما أتيا إليه، فقال الرجل: يا ابن الخطاب! قضى لي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا ، فقال : ردنا إلى عمر بن الخطاب فردنا إليك . فقال : أ كذاك ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما. فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذي قال : ردنا إلى عمر . فقتله . وأدبر الآخر . فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! قتل عمر ، والله ! صاحبي . ولولا أني أعجزته لقتلني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عمر من قتله . فكره الله أن يسن ذلك بعد . فأنزل : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) الآية وكذا رواه ابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود به ، وهو أثر غريب مرسل . وابن لهيعة ضعيف . والله أعلم .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم في (تفسيره) : حدثنا شعيب بن شعيب . حدثنا أبو المغيرة . حدثنا عتبة بن حمزة . حدثني أبي . أن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل . فقال المقضي

(١) لم أعر على هذا الأثر في نسخة التفسير التي بين يدي .

(٢) الأثر رقم ١٩١٥ .

عليه : لأرضى . فقال صاحبه : فما تريد؟ قال : أن نذهب إلى أبي بكر الصديق . فذهبا إليه . فقال الذى قضى له : قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لى . فقال أبو بكر : أنما على ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأبى صاحبه أن يرضى . فقال : نأتى عمر ابن الخطاب . فقال المقضى له : قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لى عليه . فأبى أن يرضى . فسأله عمر بن الخطاب ، فقال كذلك . فدخل عمر منزله وخرج والسيوف فى يده قد سله . فضرب به رأس الذى أبى أن يرضى . فقتله . فأنزل الله (فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : روى السكبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة . فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف . فذكر القصة . وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر الفاروق . وهذا الإسناد ، وإن كان ضعيفاً ، لكن تقوى بطريق مجاهد . ولا يضره الاختلاف . لإمكان التعدد . وأفاد الواحدى بإسناد صحيح عن سميد عن قتادة أن اسم الأنصارى المذكور قيس . ورجح الطبرى فى (تفسيره)^(١) وعزاه إلى أهل التأويل فى (تهذيبه) أن سبب نزولها هذه القصة . لبيتسق نظام الآيات كلها فى سبب واحد . قال : ولم يعرض بينها ما يقتضى خلاف ذلك . ثم قال : ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت فى أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية . والله أعلم . انتهى .

قال الرازى : أعلم أن قوله تعالى (فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) قَسَمٌ من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها - قوله تعالى (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمناً . الشرط الثانى -

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢٤ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) . واعلم أن الراضى بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب . فبين ، في هذه الآية ، أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب . واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر . فليس المراد من الآية ذلك . بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق . الشرط الثالث - قوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . واعلم أن من عرف بقلبه كونه ذلك الحكم حقاً وصدقاً ، قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول . فبين تعالى أنه ، كما لا بد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب ، فلا بد أيضاً من التسليم معه في الظاهر . فقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) المراد به الانقياد في الباطن . وقوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) المراد منه الانقياد في الظاهر . والله أعلم .

الثالث - قال الرازى : ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس . لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق . وأنه لا يجوز العدول منه إلى غيره . ومثل هذه المبالغة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف . وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس . وقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) مشعر بذلك . لأنه متى خطر بباله قياس يفضى إلى تقيض مدلول النص ، فهناك يحصل الحرج في النفس . فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه ، إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ، ويسلم النص تسليماً كلياً . وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف .

الرابع - (لا) في قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ) قيل إنها ردٌ لقدر . أى : تفيد نفى أمر سبق . والتقدير : ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك . ثم استأنف القسم بقوله (وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ) وقيل : مزيدة لتأكيد النفي الذى جاء فيما بعد . أعنى الجواب . لأنه إذا ذكر في أول الكلام وفي آخره كان أوكد وأحسن . وقيل : إنها مزيدة لتأكيد معنى القسم . وارتضاء الزخشرى . قال : كما زيدت

في (لثلا يعلم)^(١) لتأكيد وجوب العلم . قال في (الاتصاف) يشير إلى أن (لا) لما زيدت مع القسم ، وإن لم يكن القسم به ، دلّ ذلك على أنها إنما تدخل فيه لتأكيد القسم . فإذا دخلت حيث يكون القسم عليه نفيًا ، تعين جعلها لتأكيد القسم ، طردًا للباب . أو الظاهر عنده ، والله أعلم ، أنها هنا لتوطئة النفي المقسم عليه . والزمخشريّ لم يذكر مانعًا من ذلك . وحاصل ما ذكره مجيئها لغير هذا المعنى في الإثبات . وذلك لا يأتي مجيئها في النفي على الوجه الآخر من التوطئة . على أن في دخولها على القسم المثبت نظرا . وذلك أنها لم ترد في الكتاب العزيز إلا مع القسم حيث يكون بالفعل . مثل (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)^(٢) (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)^(٣) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ)^(٤) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)^(٥) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)^(٦) ولم تدخل أيضًا إلا على القسم بغير الله تعالى . ولذلك سرّ يأتي كونها في هذه الآية لتأكيد القسم . ويعين كونها للتوطئة : وذلك أن المراد بها في جميع الآيات التي عدناها تأكيد تعظيم المقسم به . إذ لا يقسم بالشئ إلا إعظامًا له . فكأنه بدخولها يقول : إن إعطائي لهذه الأشياء بالقسم بها ، كلا إعظام . يعني أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك . وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعا لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم ، وللاقسام بها . فيزاح هذا الوهم بالتأكيد ، في إبراز فعل القسم مؤكدا بالنفي

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَاقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٩٠ / البلد / ١] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١] .

(٤) [٨١ / التكوير / ١٥] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٧٥] .

(٦) [٦٩ / الحاقة / ٣٨ و ٣٩] .

الذكور . وقد قرر الزحشرى هذا المعنى فى دخول (لا) عند قوله (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ) على وجه مجمل ، هذا بسطه وإيضاحه . فإذا بين ذلك ، فهذا الوهم الذى يراد
إزاحته فى القسم بغير الله ، مندفع فى الإقسام بالله . فلا يحتاج إلى دخول (لا) مؤكدة للقسم .
فيتعين حملها على الموطئة . ولا تكاد تجدها ، فى غير الكتاب العزيز ، داخلة على قسم مثبت .
وأما دخولها فى القسم ، وجوابه نفي ، فكثير مثل :

فَلَا وَأَيُّكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنَّ أَفْرَ (١)

(١) استشهد به فى (معنى اللبيب) بالصفحة ٢٠١ من الجزء الأول . وقال الأمير فى
(حاشيته) : هو من قصيدة لامرئ القيس بن حجر ، على ما قال أبو عمرو وغيره . وزعم
أبو حاتم أنها لرجل من الين ، يقال له ربيعة بن جشم . ومطلعها :
أَحَارَ بْنَ عَمْرٍو كَأَنَّيْ مُخَرَّ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرُ
قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) :

قوله : أحار ، ترخيم حارث . ويجوز ضم الراء على من جملة اسماً على حاله . وفتحها على
الإتباع . وهذا الحرف من النداء لا ينادى به إلا من قرب . ولا يستعمل فيما بعد . وهذه
نكتة من العربية ذكرها المبرد . أعنى الإتباع فى الاسم المرحم .
والخر الذى قد خامره داء أو وجع ، أى خالطه . ويقال : أراد كأنه فى عقب خمار .
و (كأن) ههنا واجبة . أى هو خمر . كما قال :

فَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مَقْشَعَرَا كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هَشَامُ

قال المبرد : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ، فقد كان يجب من أجله أن
لا ينالها جذب .

ويعدو على المرء ، أى يصيبه وينزل به . وشرح يأتى : يهيم به ويعزم عليه . قال الله عز وجل :
وَأَتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ . أى هموا به واعتزموا عليه ، وليأمر بعضكم بعضاً به . =

وكقوله^(١) :

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةٌ بِاحْتِمَالٍ لِيَحْزُنَنِي ، فَلَا بِكَ مَا أَبَالِي

وقوله :

رَأَى بَرَقًا فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ فَلَا بِكَ مَا أَسْأَلُ وَلَا أَغَامَا

= وقال في شرح البيت المستشهد به :

(لا) ردّ لشيء سمعه . لأن البيت أول القصيدة . كأنه قيل له : فرت . فقال ، مجيباً : لا . ثم ابتداء فأقسم بقوله : وأبيك . ثم بين ذلك بقوله : لا يدعى القوم أنى أفر . والقوم ههنا بنو تميم .

(١) استشهد بهما ابن يعيش في شرحه على المفصل بالصفحة ١٢٩٨ (طبعة ليزج) . والبيت الأول استشهد به الزخشرى في (الكشاف) عند قوله تعالى : لَا أَقْسِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قال شارح الشواهد ، محب الدين أفندى : هو لغويّة بن سلمى . وأمامة اسم امرأة . والاحتمال : الارتحال . وما أبالي ، معناه ما أكرث وأحتفل . والتقدير : فبك ما أبالي . و (لا) زائدة . معنى أظهرت هذه المرأة نفسها ارتحالاً عنى لتجلب على حزنا . قيل : يخاطبها ويقول : لا وأبيك ما أبالي .

وهذه اليمين فيها تهكم . وقوله (لا بك) كقولك : لا بالله . و (ما أبالي) جواب القسم . والبيت الثانى استشهد به الجاحظ في كتاب الحيوان (١ / ١٨٦) .

وقائله : عمرو بن يربوع بن حنظلة ، كما في نوادر أبي زيد ص ١٤٦ .

إن سعادة أقامت في بنى تميم حتى ولدت فيهم . فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى ، حنّت وطارت إليهم . فقال شاعرهم :

رَأَى بَرَقًا فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ فَلَا بِكَ مَا أَسْأَلُ وَلَا أَغَامَا

الإيضاح : الإسراع في السير . والبكر : الفتى من الإبل . وأغامت السماء : كانت ذات غيم .

وقوله ^(١) :

فَحَالَفُ . فَلَا وَاللَّهِ تَهَيَّبْتُ لَعَلَّهٗ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا أَنْتَ لِلذَّلِّ عَارِفُ
وهو أكثر من أن يحصى . فتأمل هذا الفصل فإنه حقيق بالتأمل . انتهى .

الخامس - اعلم أن كل حديث صح عن رسول الله ﷺ ، بأن رواه جامعو الصحاح ، أو صححه من يرجع إليه في التصحيح من أئمة الحديث ، فهو مما تشمله هذه الآية . أعنى قوله تعالى (مِمَّا قَضَيْتَ) حينئذ يتعين على كل مؤمن بالله ورسوله الأخذ به وقبوله ظاهراً وباطناً . وإلا بأن التمس مخارج لرده أو تأويله ، بخلاف ظاهره ، لتمذهب بقلده وعصية ربي عليها ، كما هو شأن المقلدة أعداء الحديث وأهله - فيدخل في هذا الوعيد الشديد المذكور في هذه الآية . الذي تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة .

قال الإمام الشافعي ^(٢) في الرسالة التي أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدي : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه قال : أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا . فذهبت معه إلى عمر . فسأل عن وليدة من ولائد الجاهلية . فقال : أما الفراش فلفلان . وأما النطفة فلفلان . فقال : صدقت . ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش .

قال الشافعي : وأخبرني من لا أتهم عن ابن أبي ذئب قال : أخبرني مخلد بن خفاف قال :

(١) استشهد به سيهويه في (الكتاب) بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول .

قال السنتمرى :

الشاهد فيه حذف (لا) وجاز ذلك لأن الموجب تلزمه اللام والنون ، فلم يشكل حذفها . ويقوى الحذف ، هنا ، ذكر (لا) في صدر البيت .

والتلعة ما انحدر من الأرض ، وهي أيضاً ما ارتفع . يقول : حالف من تعز بجلفه ، وإلا عرفت الذل حيث توجهت من الأرض .

(٢) إيقاظ هم أولى الأبصار للفلاني (ص ٦ وما بعدها) .

ابتعت غلاماً فاستغلته . ثم ظهرتُ منه على عيب فخاصمت فيه إلى عمر بن عبد العزيز . فقضى لي برده . وقضى عليّ برد غلته . فأتيت عروة فأخبرته فقال: أروح إليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله ﷺ قضى في مثل هذا ، أن الخراج بالضمان . فمجلت إلى عمر فأخبرته بما أخبرني به عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر بن عبد العزيز : **فَمَا أَيْسَرَ عَلَيَّ مِنْ قَضَاءِ قَضِيَّتِهِ** ، واللهُ يَملَأُني لم أرد فيه إلا الحق - فبلغتني فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فراح إليه عروة فقضى لي أن آخذ الخراج الذي قضى به عليّ له .

قال الشافعيّ: وأخبرني من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعيد بن إبراهيم على رجل . بقضية ، برأى ربيعة بن أبي عبد الرحمن . فأخبرته عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بخلاف ما قضى به . فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة ، يخبرني عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف ما قضيت به . فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك . فقال سعد : **وا عجباً** . أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأردّ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بل أردّ قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدعى سعد بكتاب القضية فشقه ، فقضى للمقضى عليه .

قال الشافعيّ: أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابيّ . قال . حدثني ابن أبي ذئب عن المقبريّ عن أبي شريح الكعبيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ^(١) قال عام الفتح :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٨ - باب من قتل له قتيل فهو بخير

النظرين ، حديث ٩٦ ونصه :

عن أبي هريرة أنه ، عام فتح مكة ، قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية . فقام رسول الله ﷺ فقال « **إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين** . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي . ولا تحل لأحد بعدى . ألا وإنها أحلت لي ساعة من نهار =

من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود . قال أبو حنيفة : فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا ، يا أبا الحرث ؟ ف ضرب صدرى وصاح على صياحاً كثيراً ، ونال منى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ؟ نعم . آخذ به . وذلك الفرض على وعلى من سمعه . إن الله تبارك وتعالى اختار محمداً صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه . فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين داخرين . لا يخرج لمسلم من ذلك .

وما سككت حتى تمنيت أن يسكت . إنتهى .

قال الإمام الفلاني في (إيقاظ الهمم) بعد نقل مامر : تأمل فعل عمر بن الخطاب وفعل عمر بن عبد العزيز وفعل سعد بن إبراهيم ، يظهر لك أن المعروف عند الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعند سائر العلماء المسلمين ، أن حكم الحاكم المجتهد ، إذا خالف نص كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب نقضه ومنع نفوذه . ولا يعارض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسانية والعصبية الشيطانية ، بأن يقال : لعل هذا المجتهد قد اطلع على هذا النص وتركه لعله ظهرت له . أو أنه اطلع على دليل آخر . ونحو هذا ، مما لهج به فرق الفقهاء المتعصبين ، وأطبق عليه جهلة المقلدين فافهم . انتهى .

= ألا وإنها ساعتي هذه حرام . لا يختل شوكتها ولا يعضد شجرها ولا يكتقط ساقطتها إلا منشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما يؤدى ، وإما يقاد .

فقام رجل من أهل اليمن ، يقال له : أبو شاه . فقال : اكتب لى يا رسول الله ! فقال له رسول الله ﷺ « اكتبوا لأبى شاه » .

ثم قام رجل فقال : يا رسول الله ! إلا الإذخر ، فإنما نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال رسول الله ﷺ « إلا الإذخر » .

وقال ولي الدين التبريزي في (مشكاة المصابيح) في (الفصل الثالث عشر) من (باب الجماعة وفضلها) : وعن بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه^(١) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمتنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم . فقال بلال : والله ! لنمتنعن . فقال عبد الله : أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقول أنت : لنمتنعن ؟ (وفي رواية سالم عن أبيه) قال : فأقبل عليه عبد الله فسيبه سباً ماسمعت سبه مثله قط . وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول : والله ! لنمتنعن . رواه مسلم . وعن مجاهد عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) قال : لا يمتنعن رجل أهله أن يأتوا المساجد . فقال ابن لعبد الله بن عمر : فإننا نمتنعن . فقال عبد الله : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول هذا؟ قال فما كلفه عبد الله حتى مات . رواه الإمام أحمد . وقال الطيبي شارح (المشكاة) : عجبت ممن سمى بالسني ، إذا سمع من سنة رسول الله وله رأى ، رجح رأيه عليها . وأى فرق بينه وبين المبتدع ؟ أما سمع (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؟ وها هو ابن عمر ، وهو من أكابر الصحابة وفقهائها ، كيف غضب لله ورسوله وهجر فلذة كبده لتلك الهنة ، عبرة لأول الألباب . وروى الإمام مسلم في^(٣) (صحيحه) في (كراهة الحذف) قبيل (كتاب الأضاحي) ، عن

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

وحديث رقم ٥٦٤٠ (طبعة المعارف) .

ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

وحديث رقم ٤٩٣٣ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي بريدة قال : رأى عبد الله بن المغفل رجلاً من أصحابه يحذف . فقال له : =

سعيد بن جبير أن قريبا لعبد الله بن مغفل خذف . قال فنهاه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، وقال : إنها لا تصيد صيدا ولا تنكأ عدوا ، ولكنها تنكسر السن وتفقأ العين . فقال فعاد . فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف . لا أكلمك أبداً .

قال النووي : فيه جواز هجران أهل البدع والفسوق . وأنه يجوز هجرانهم دائماً . فالنهي عنه فوق ثلاثة أيام إنما هو في هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا . وأما هجر أهل البدع ، فيجوز على الدوام . كما يدل عليه هذا مع نظائر له ، لحديث كعب بن مالك .

قال السيوطي : وقد ألفت مؤلفاً سمّيته (الزجر بالهجر) لأني كثير الملازمة لهذه السنة . اهـ . أقول : حديث الخذف ساقه الحافظ الدارمي^(١) في (سننه) تحت باب (تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه ولم يوقره) ورواه من طرق متنوعة . وفي بعضها : أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الخذف ثم تخذف ؟ والله ! لا أشهد لك جنازة ولا أعودك في مرض ولا أكلمك أبداً . وأسند الدارمي في هذا الباب عن قتادة عن ابن سيرين ؛ أنه حدث رجلاً بحديث عن النبي ﷺ . فقال رجل : قال فلان وفلان : كذا وكذا ! فقال ابن سيرين : أحدثك عن النبي ﷺ وتقول : قال فلان وفلان ؟ لا أكلمك أبداً . وأسند أيضاً فيه عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل إلى سعيد بن المسيّب يودعه

= لا تخذف . فإن رسول الله ﷺ كان يكره . أو قال ينهى عن الخذف - فإنه لا يصطاد به الصيد ، ولا ينكأ به العدو . ولكنه يكسر السن ويفقأ العين .

ثم رآه بعد ذلك يخذف . فقال له : أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره - أو ينهى عن الخذف - ثم أراك تخذف ! لا أكلمك كلمة كذا وكذا .

(١) أخرجه في مسنده في المقدمة ، ٤٠ - باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث ، فلم يعظمه ولم يوقره .

بحج أو عمرة . فقال له : لا تبرح حتى تصلّي . فإن رسول الله ﷺ قال لا يخرج بعد النداء من المسجد إلا منافق . إلا رجل أخرجه حاجة وهو يريد الرحمة إلى المسجد . فقال : إن أصحابي بالحرة . قال فخرج . قال فلم يزل سعيد يولّع بذكره حتى أخبر أنه وقع من راحلته فأنكسرت فخذه .

وذكر الدارمي رضي الله عنه قبل هذا الباب (باب ما يتق من تفسير حديث النبي ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ) وأسند^(١) عن معتمر عن أبيه عن ابن عباس أنه قال : أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم أن تقولوا : قال رسول الله ، وقال فلان . قال الإمام شمس الدين بن القسيم في (أعلام الموقعين) : ترى كثيراً من الناس إذا جاء الحديث يوافق قول من قلده ، وقد خالفه راويه يقول : الحجة فيما روى لافي قوله . فإذا جاء قول الراوي موافقاً لقول من قلده ، والحديث يخالفه قال : لم يكن الراوي يخالف مارواه إلا وقد صح عنده نسخه . وإلا كان قدحاً في عدالته . فيجمعون في كلامهم بين هذا وهذا . بل قد رأينا ذلك في الباب الواحد . وهذا من أقبح التناقض ، والذي ندين الله به ، ولا يسعنا غيره ، أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ، ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه ، أن الغرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك كل ما خالفه . ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائناً من كان . لا راويه ولا غيره : إذ من الممكن أن ينسى الراوي الحديث ولا يحضره وقت الفتيا . أو لا يتفطن لدلالته على تلك المسئلة . أو يتأول فيه تأويلاً مرجوحاً . أو يقوم في ظنه ما يمارضه ولا يكون معارضاً في نفس الأمر . أو يقلد غيره في فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه ، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه . ولو قدر انتفاء ذلك كله ، ولا سبيل إلى العلم بانتفاءه ولا ظنه ، لم يكن الراوي معصوماً . ولم توجب مخالفته ، لما رواه ، سقوط عدالته . حتى تغلب سيئاته حسناته . وبخلاف هذا الحديث الواحد لا يحصل له ذلك اهـ .

(١) أخرجه في مسنده في المقدمة ، ٣٩ - باب ما يتق من تفسير حديث النبي ﷺ ، وقول غيره عند قوله ﷺ .

وقال الثَّلَاثِيَّ رحمه الله تعالى في (الإيقاظ) قال عثمان بن عمر : جاء رجل إلى مالك بن أنس فسأله عن مسألة فقال له : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا . فقال الرجل : أرايتَ؟ فقال مالك : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قال مالك : لم تكن من فتيا الناس أن يقال لهم : لم قلت هذا ؟ كانوا يكتفون بالرواية ويرضون بها .

قال الجنيد رضي الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتنى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم اهـ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (فتوى له) قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله . ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه، في كل ما أمر به ونهى عنه ، إلا رسوله ﷺ . حتى كان صديق الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ ورضي عنه يقول : أطيعوني ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ . وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدكم في كل ما يقولونه . وذلك هو الواجب . وقال أبو حنيفة : هذا رأيي . وهذا أحسن ما رأيت . فمن جاء برأي خير منه قبلناه . ولهذا ، لما اجتمع أفضل أصحابه ، أبو يوسف بإمام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، وسأله عن مسألة الصاع ، وصدقة الخضر اوات ، ومسئلة الأحباس ، فأخبره مالك رضي الله عنه بما دلت عليه السنة في ذلك - فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله . ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت .

ومالك رحمه الله كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فأعرضوا قولي على الكتاب والسنة . أو كلام هذا معناه .

والشافعي رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط .
وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق فهي قولي .

ثم قال ابن تيمية : وإذا قيل لهذا المستغنى المسترشد : أنت أعلم أم الإمام الفلاني ؟
كانت هذه معارضة فاسدة . لأن الإمام الفلاني قد خالفه في هذه المسألة من هو نظيره من
الأئمة . ولست من هذا ولا من هذا . ولكن نسبة هؤلاء الأئمة إلى نسبة أبي بكر وعمر
وعثمان وعلى وابن مسعود وأبي ومعاذ ونحوهم إلى الأئمة وغيرهم . فكما أن هؤلاء الصحابة
بعضهم لبعض أكفاء في موارد النزاع ، فإذا تنازعوا في شيء رددوه إلى الله وإلى
رسوله ، وإن كان بعضهم قد يكون أعلم في مواضع أخر . وكذلك موارد النزاع بين الأئمة .
وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في مسألة تيمم الجنب . وأخذوا بقول
أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وغيره ، لما احتج بالكتاب والسنة . وتركوا قول عمر
رضي الله عنه في دية الأصابع ، وأخذوا بقول معاوية بن أبي سفيان ، لما كان من السنة أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذه وهذه سواء . وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس رضي الله
عنهما في المتعة . فقال له : قال أبو بكر وعمر . فقال ابن عباس : يوشك أن ينزل عليكم
حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر .
وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما ، لما سأله عنها ، فأمر بها فعارضوه بقول عمر . فبين لهم أن
عمر لم يرد ما يقولونه . فألحوا عليه فقال لهم . أرسول الله أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس
بأن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم . ولو فتح هذا الباب لأوجب أن
يمرض عن أمر الله ورسوله ، وبقي كل إمام في أتباعه بمنزلة النبي في أمته . وهذا تبديل للدين وشبيهه
بما عاب الله به النصاري في قوله ^(١) : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . والله
سبحانه أعلم . انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في خطبة (زاد المعاد) : فإله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته . فلا تباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة . ومخالفه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة . وقد أقسم صلى الله عليه وسلم ^(١) بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين . وأقسم سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره ، ثم رضى بحكمه ، ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ، ثم يسلم له تسليماً ، وينقاد له انقياداً . وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ^(٢) . فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله . فليس لمؤمن أن يختار شيئاً

(١) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٨ - باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، حديث ١٤ ونصه :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسى بيده ! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفي : ٨٣ - كتاب الإيمان والنذور ، ٣ - باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ، حديث ١٧٣٦ ونصه :

عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب . فقال له عمر : يا رسول الله ! لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى .

فقال النبي ﷺ « لا . والذي نفسى بيده ! حتى أكون أحب إليك من نفسك » .

فقال له عمر : فإنه الآن ، والله ! لأنت أحب إلي من نفسى .

فقال النبي ﷺ « الآن ، يا عمر ! » .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ... وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا .

بعد أمره ﷺ . بل إذا أمر فأمره حتم . وإنما الخيرة في قول غيره ، إذا خفي أمره ، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته . فهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع ، لا واجب الاتباع . فلا يجب على أحد اتباع قول أحدٍ سواه . بل غايته أنه يسوغ له اتباعه . ولو ترك الأخذ بقول غيره ، لم يكن عاصياً لله ورسوله . فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله . فلا حكم لأحد معه . ولا قول لأحد معه . كما لا تشريع لأحد معه . وكل حتى سواه ، فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه . فكان مبلغاً محضاً ومُخبراً ، لامنشئاً ومؤسساً . فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد ، بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به . فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة ، قبلت حينئذ . وإن خالفته وجب ردها واطراحها . وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين ، جعلت موقوفة . وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها . وأما أنه يجب ويتعين ، فَكَلَّا . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا)

« وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » . قال الرازي : اعلم أن هذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق . والمعنى : إنا لو شددنا التكليف على الناس ، نحو أن نأمرهم بالقتل والخروج عن الأوطان ، لصعب ذلك عليهم ، ولما فعله إلا الأقلون . وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم .

فلما لم نفعل ذلك ، رحمة منا على عبادنا ، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور السهلة ، فليقبلوها بالإخلاص ، وليتركوا التمرد والعناد ، حتى ينالوا خير الدارين . انتهى .

ونقله فيما بعد عن ابن عباس . وعليه فرجع الضمير في (عَلَيْهِمْ) إلى المنافقين . وثمة وجه آخر . وهو عوده إلى الناس كافة . ويكون المراد بـ (القليل) المؤمنين . وأما الضمير في قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا) فهو مختص بالمنافقين . ولا يبعد أن يكون أول الآية عامًّا وآخرها خاصًّا . قرره الرازي . روى ابن جريج بسنده إلى أبي إسحق السبيعي قال : لما نزلت : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ . . . الآية . قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : إن من أمتي لرجالاً ، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي . ورواه ابن أبي حاتم نحوه . وأسند عن السدي قال : افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود . فقال اليهودي : والله ! لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا . فقال ثابت : والله ! لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا . فنزلت الآية . وأسند أيضاً عن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو نزلت لكان ابن أم عبدٍ منهم . وأسند أيضاً عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : لو أن الله كتب ذلك ، لكان هذا من أولئك القليل .

تنبيهات

الأول - قال بعض المفسرين : أراد حقيقة القتل والخروج من الديار . وقيل : أراد التعرض للقتل بالجهاد . وأراد الهجرة بالخروج من الديار . والمعنى : لو أمر المنافقون ، كما أمر المؤمنون ، ما فعلوه . انتهى . والقول الثاني بعيد . لأنه لا يمدل عن الحقيقة إلا لضرورة . ولمنافاته للآثار المذكورة الصريحة في الأول .

الثاني - الضمير في (فعلوه) للمكتوب الشامل للقتل والخروج . لدلالة (كتبنا) عليه . أو هو عائذ على أحد مصدرى الفعلين . قال الخفاجي : وللعطف (أو) لزم توحيد الضمير . انتهى .

أقول : ذكر الشيخ خالد في (التصريح) أن أفراد الضمير في العطف بـ (أو) رأى البصريين. والتثنية رأى الكوفيين . فأفاد جواز الوجهين. قال محشيه العلامة يس: الذي نص عليه ابن مالك أن (أو) التي للشك والإبهام يفردها الضمير . والتي للتنوين يطابق . نحو قوله تعالى: **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا**^(١) . ونص على ذلك ابن هشام في (الغنى) في (بحث الجملة المعترضة) فقال (في قوله تعالى : **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا**) : الظاهر أن الجواب : **فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا** . ولا يرد ذلك تثنية الضمير كما قد توهموا . لأن (أو) هنا للتنوين . وحكمها حكم (الواو) في وجوب المطابقة. نصّ عليه الأبدى . وهو الحق . انتهى . وبه يعلم أن ما اشتهر من أنه إذا ذكر متعاطفان بـ (أو) فإنه يعاد الضمير إلى أحدهما . ليس على عمومه .

الثالث - قرأ ابن عامر (قليلا) بالنصب على الاستثناء . والباقون بالرفع بدلا من الضمير المرفوع « **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ** » أي : من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهر أو باطنا . وسميت أوامره ونواهيهِ مواعظ ، لا قترانها بالوعد والوعيد « **لَكَانَ** » أي : فعلهم ذلك « **خَيْرًا لَهُمْ** » في عاجلهم وآجلهم « **وَأَشَدُّ تَنبِيْهًا** » أي لا يمانهم ، وأبعد من الاضطراب .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَزُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .**

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)

« وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا » أى : من عندنا « أَجْرًا » أى ثواباً « عَظِيمًا »
يعنى الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا « أى لثبتناهم فى الدنيا على دين قويم نرضيه، وهو الإسلام .
ثم بين تعالى فضل الطاعة وأن ثمرتها مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده . فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)

« وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » ولم يذكر
المنعم به إشعاراً بقصور العبارة عن تفصيلة وبيان « مِنَ النَّبِيِّينَ » الذين أنعم الله أكل
الاعتقادات والأحكام . وأمرهم بإنبائها الخلق ، كلاً بمقدار استعداده « وَالصِّدِّيقِينَ »
(جمع صديق) وهو المبالغ فى صدق ظاهره بالمعاملة ، وباطنه بالمراقبة . أو الذى يصدق قوله
بفعله . كذا فى (المدارك) .

قال الرازى : المفسرين (فى الصديق) وجوه : الأول - أن كل من صدق بكل الدين
لا يتخالجه فيه شك فهو صديق . والدليل عليه قوله تعالى « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ »^(١) . الثانى - قال قوم : الصديقون أفاضل أصحاب النبى عليه الصلاة

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ =

والسلام . الثالث - أن الصديق اسم لمن سبق إلى تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام . فصار في ذلك قدوة لسائر الناس . وإذا كان الأمر كذلك ، كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أولى الخلق بهذا الوصف . ثم جود الرازى الكلام في سبقه رضى الله عنه إلى التصديق ، وفي كونه صار قدوة للناس في ذلك . فانظره . «وَالشَّهَدَاءُ» الذين استشهدوا في سبيل الله تعالى «وَالصَّالِحِينَ» الذين صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم «وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ» إشارة إلى النبيين والصديقين وما بعدهما «رَفِيقًا» يعنى في الجنة . والرفيق الصاحب . سمي رفيقاً لارتفاقك به وبصحبه . وإنما وحد (الرفيق) وهو صفة الجمع ، لأن العرب تعبر به عن الواحد والجمع . كالصديق والخليط . والجملة تذييل مقرر لما قبله ، مؤكداً للترغيب والتشويق . قال الزمخشريّ : فيه معنى التعجب . كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقاً ! ولا استقلاله بمعنى التعجب قرئ (وحسن) بسكون السين .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : ليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين ... الخ - كون الكل في درجة واحدة . لأن هذا يقتضى التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضل . وأنه لا يجوز . بل المراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر ، وإن بعد المكان . لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً . وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه . فهذا هو المراد من هذه المعية .

الثانى - دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة في الفضل والعلم إلا هذا الوصف . وهو كون الإنسان صديقاً . ولذا أبنا ذكر في القرآن الصديق والنبيّ لم يجعل بينهما واسطة .

= الصَّدِّيقُونَ ، وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

كما قال تعالى في وصف إسماعيل: **إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ** ^(١) . وفي صفة إدريس: **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** ^(٢) . وقال (في هذه الآية) : **مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ** . يعني إنك إن ترقيت من الصديقية وصلت إلى النبوة . وإن نزلت من النبوة وصلت إلى الصديقية . ولا متوسط بينهما . وقال في آية أخرى: **وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ** ^(٣) . فلم يجعل بينهما واسطة . وكما دلت هذه الدلائل على نفي الواسطة ، فقد وفق الله هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة ، حتى جملوا الإمام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام أبابكر ، على سبيل الإجماع . ولما توفي رضوان الله عليه دفنوه إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما ذاك إلا أن الله تعالى رفع الواسطة بين النبيين والصديقين في هذه الآية . فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما في الوجوه التي عددناها . أفاده الرازي .

الثالث - روى الطبري في سبب نزولها عن سعيد بن جبير قال: جاء ^(٤) رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا فلان ! مالي أراك محزوناً ! فقال: يا نبي الله ! شيء فكرت فيه . فقال : ماهو ! قال نحن نفدو عليك وزوج ننظر إلى وجهك ونجالسك . غداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك . فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً . فأتاه جبريل بهذه الآية : **وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ الْخَيْرَ** . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلًا عن مسروق وعن عكرمة

(١) [١٩ / مريم / ٥٤] ونصها : **وَإِذْ كُرِّ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا** .

(٢) [١٩ / مريم / ٥٦] ونصها : **وَإِذْ كُرِّ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٣٣] ونصها : **وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** .

(٤) الأثر رقم ٩٩٢٤ .

وعامر الشعبي وقتادة وعن الربيع بن أنس . وهو من أحسنها سنداً : قال الطبري^(١) : حدثني
 المثني قال : حدثنا إسحق قال : حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قال (في هذه الآية) : إن
 أصحاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبي ﷺ فضلته على من آمن به في درجات الجنة . ممن
 اتبعه وصدقته . فكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ؟ فأنزل الله في ذلك هذه
 الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل .
 منهم فيجتمعون في رياضها فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه . وينزل لهم أهل
 الدرجات فيسمعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به . فهم في روضة يحبرون ، ويتنعمون فيه .
 ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً عن عائشة . قالت : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه
 وسلم فقال : يا رسول الله ! إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي وأحب إلي من
 ولدي . وإنى لأكون في البيت فأذكرك . فأصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك . وإذا
 ذكرت موتي وموتك عرفت أنك ، إذا دخلت الجنة ، رفعت مع النبيين . وإن دخلت
 الجنة خشيت أن لا أراك . فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه : وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ ... الآية . وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في (صفة الجنة)
 بإسناد قال فيه : لأرى به بأساً .

الرابع - روى في السنة في معنى هذه الآية أخبار وافرة . منها : في صحيح مسلم^(٢) عن
 ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيت
 بوضوء وحاجته فقال لي : سل : فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . فقال : أو غير ذلك ؟
 قلت : هو ذاك . قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود . ومنها في مسند الإمام أحمد^(٣)

(١) الأثر رقم ٩٩٢٨

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٦ (طبعنا) .

(٣) جاء في (عمدة التفسير) بالصفحة ٢١٧ من الجزء الثالث . قال الأستاذ أحمد محمد

شاكر معلقاً على هذا الحديث ما يأتي : خفي على مكانه من السند . وبقوله أقول .

عن عمرو بن مرة الجهنيّ : قال . جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وصليت الخمس وأديت زكاة مالي ، وصمت شهر رمضان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على ذلك كان مع النبيين والشهداء يوم القيامة هكذا (ونصب أصبعيه) ما لم يعقّ والديه .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد . ومنها ما رواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ألف آية في سبيل الله تبارك وتعالى كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . إن شاء الله تعالى . ومنها ما رواه الترمذي^(٢) عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :
التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء .

قال ابن كثير : وأعظم من هذا كله بشاره ، ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرها من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ١٢ - كتاب البيوع ، ٤ - باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٦ - باب علامة حب الله عز وجل لقوله : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، حديث ٢٣٥٧ ونصه :
قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم . فقال رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » .
وأخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) ونصه :
عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! متى الساعة؟ =

قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث .
 وفي رواية عن أنس أنه قال : إني لأحب رسول الله ﷺ . وأحب أبا بكر وعمر .
 وأرجو أن يمعنى معهم ، وإن لم أعمل كعملهم .
 وعن أبي سعيد الخدري^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهل الجنة ليتراءون أهل
 الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدريّ الغابر من الأفق ، من المشرق أو المغرب ،
 لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى .
 والذي نفسى بيده ! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين . أخرجاه في الصحيحين من حديث
 الإمام مالك . واللفظ لمسلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا)

« ذَلِكَ » مبتدأ . إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومراقبة النعم عليهم .
 أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم . فالشار إليه إما جميع ما قبله أو ما يليه .
 « الْفَضْلُ » صفة « مِنَ اللَّهِ » خبره . أى : ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره .
 = قال « وما أعددت للساعة ؟ » قال : حب الله ورسوله . قال « فإنك مع من أحببت » .
 قال أنس : فما فرحنا ، بعد الإسلام ، فرحاً أشدّ من قول النبي ﷺ « فإنك مع من
 أحببت » .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله ، وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم
 أعمل بأعمالهم .

(١) أخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ١١ (طبعنا) .
 وأخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٨ - باب ما جاء في الجنة وأنها مخلوقة ،

حديث ١٥٤٠ .

أو (الْفَضْلُ) خبر ، و (مِنْ اللَّهِ) حال . والعامل فيه معنى الإشارة . أى : ذلك الثواب ، لكمال درجته ، كأنه هو الفضل . وإن ماسواه ليس بشيء موجوداً وكائناً من الله تعالى . لأن أعمال المكلفين توجبه .

قال الناصر في (الاتصاف) : معتقداً ، معاشراً أهل السنة ، أن الطاعات والأعمال التي يتميز بها هؤلاء الخواص ، خلقُ الله تعالى وفعله . وإن قُدْرَهُم لا تأثير لها في أعمالهم . بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات ويشيهم عليها . فالطاعة إذاً من فضله . فله الفضل على كل حال . والمنة في الفاتحة والمآل . وكفى بقول سيد البشر في ذلك حجة وقودة . فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام^(١) : لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قيل : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتعمدني الله بفضله منه وبرحمته . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . اللهم ! اختم لنا باقتفاء السنة . وأدخلنا بفضلك المحض الجنة . انتهى كلام الناصر . والحديث المذكور أخرجه الشيخان عن أبي هريرة . « وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً » بجزء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله .

قال الرازي : وله موقع عظيم في توكيد ما تقدم من الترغيب في طاعة الله . لأنه تعالى نبه بذلك على أنه يعلم كيفية الطاعة وكيفية الجزاء والتفضل . وذلك مما يرغب المكلف في كمال الطاعة ، والاحتراز عن التقصير فيه . ثم أعاد تعالى ، بعد الترغيب في طاعته وطاعة رسوله ، الأمر بالجهاد الذي تقدم ، لأنه أشق الطاعات وأعظم الأمور التي يحصل بها تقوية الدين ، فقال سبحانه :

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ١٨ - باب القصد والمداومة على العمل ، حديث ٣٥ ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لَنْ يَنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ » قالوا : ولا أنت ، يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا . إلا أن يتعمدني الله برحمته . سدّدوا وقاربوا واعدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة . والقصد القصد تبلغوا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمسكونه من أنفسكم . يقال : أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من الخوف . كأنه جعل الحذر آلهة التى يقي بها نفسه . ويطلق الحذر على ما يحذر به ويصون . كالسلاح والحزم . أى : استعدوا للعدو . والحذر على هذا حقيقة . وعلى الأول من الكناية والتخييل . بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية . قال فى (الإكليل) : فيه الأمر باتخاذ السلاح . وأنه لا ينافى التوكل . قال بعض المفسرين : دلت الآية على وجوب الجهاد وعلى استعمال الحذر ، وهو الحزم ، من العدو ، وترك التفريط . وكذلك ما يحذرونه وهو استعمال السلاح على أحد التفسيرين . فتكون الرياضة بالمسابقة والرهان فى الخيل ، من أعمال الجهاد « فَانْفِرُوا » أى اخرجوا إلى الجهاد « ثُبَاتٍ » جمع (ثبة) بمعنى الجماعة . كما فى القاموس . أى جماعات متفرقين ، سرية بعد سرية ، وفرقة بعد فرقة إظهاراً للجراءة « أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا » أى مجتمعين كلهم كوكبة واحدة . إيقاعاً للمهابة بتكثير السواد ، ومبالغة فى التحرز عن الخطر . قال الحاكم : اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهد الإمام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا)

« وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أى : ليتأقن وليتخلف عن الجهاد والخروج مع الجماعة لنفاق . أو معناه : ليبتطن غيره . كما كان المنافقون يبتطون غيرهم . وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبى . وهو الذى ثبت الناس يوم أُحُد . وقد روى عن كثير من التابعين أن الآية

نزلت في المنافقين . فإن ما حكي عنهم هو دأبهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين وقوفاً مع صدر الآية . فإنه قال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا . ثم قال : وَإِنَّ مِنْكُمْ . وقد قال تعالى في المنافقين : مَا هُمْ مِنْكُمْ .

قال الحاكم : والتقدير على القول الأول : وَإِنَّ مِنْكُمْ ، على زعمه ، في الظاهر أو في حكم الشرع « فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ » كهزيمة ، وشهادة ، وغلب العدو لكم ، لما لله في ذلك من الحكمة « قَالَ » أى : المبطى فرحاً بصنعه ، ومعجباً برأيه « قَدْ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ » بالعود « إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا » أى حاضراً في المعركة . فيصينى ما أصابهم . يعد ذلك من نعم الله عليه . ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر ، أو الشهادة إن قتل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)

« وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ » كفتح ، وغنيمة ، ونصر ، وظفر . ونسبة إصابة الفضل إلى جنبه تعالى ، دون إصابة المصيبة ، من العادات الشريفة التنزيلية . كما في قوله تعالى : وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ^(١) . « لَيَقُولَنَّ » ندامة على تثبطه وقعوده ، وتهالكاً على حطام الدنيا ، وتحسراً على فواته « كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ » أى : صلة في الدين ، ومعرفة بالصحبة « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » فأصيب غنائم كثيرة ، وحظاً وافراً . وقوله تعالى : كَأَن لَّمْ . الخ ، اعتراض بين الفعل وهو (لَيَقُولَنَّ) ومفعوله وهو (يَا لَيْتَنِي الخ) للتنبيه على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لم تتقدم له معكم موادة . لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر . وإن كانوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٠] .

يبعون لهم الغوائل في الباطن . وفيه تعجيب أيضاً من قولهم المذكور . قال بعض المفسرين :
ثمرة ذلك تأكيد وجوب الجهاد وتحريم التثبيط عنه . انتهى .

ولما ذم تعالى المبطلين عن الجهاد ، رغب المؤمنين فيه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ

يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » أى : يبيعونها بها .

وهم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بها . والمعنى : إن صدّ الذين
في قلوبهم مرض ، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة . ويقال : عنى بالموصل
المنافقين المبطلين . أى الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة . فيكون وعظماً لهم بأن يبدلوا
التثبيط بالجهاد « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ » أى يستشهد « أَوْ يَغْلِبْ » أى : يظفر
على العدو « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » نعطيهِ « أَجْرًا عَظِيمًا » ثواباً وافراً . روى الشيخان
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج في سبيله . لا يخرج إلا
جهاداً في سبيل . وإيماناً بى . وتصديقاً برسلى . فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه
إلى مسكنه الذى خرج منه . نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة (لفظ مسلم)^(١) .

(١) أخرجه في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٠٣ (طبعنا) ونصه :

... «والذى نفس محمد بيده ! مامن كلّم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته

حين كلّمه ، لونه لون دم وريحه مسك . والذى نفس محمد بيده ! لولا أن يشق على المسلمين ،
ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا . ولكن لا أجد سعة فأحملهم . ولا يجدون
سعة . ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده ! لوددت أنى أغزو في سبيل الله
فأقتل . ثم أغزو فأقتل . ثم أغزو فأقتل » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » خطاب للمأمرين بالقتال ، على طريقة الالتفات ، مبالغة في التحريض عليه ، وتأكيذاً لوجوبه . وقوله تعالى (وَالْمُسْتَضْعَفِينَ) مجرور ، عطفاً على اسم الله . أى : في سبيل المستضعفين الذين هم كأفئسكم . وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو . أو على السبيل ، بحذف المضاف . أى في خلاص المستضعفين . أو منصوب على الاختصاص . يعنى : وأختص من سبيل الله خلاص المستضعفين . لأن سبيل الله عام في كل خير . وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه .

قال في (الانتصاف) : وفي النصب مبالغة في الحث على خلاصهم من جهتين : إحداهما - التخصيص بعد التعميم . فإنه يقتضى إضمار الناصب الذى هو أختص . ولولا النصب لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذکر . ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم ، بأن أخرجه إلى النطق . « مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » بيان للمستضعفين . أحوال منهم . وهم المسلمون الذين صدّهم المشركون عن الهجرة . فبقوا بمكة مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد . وكان النبي ﷺ يدعو لهم فيقول ^(١) : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . كما في الصحيح .

(١) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٢٨ - باب يهوى بالتكبير حين

يسجد ، حديث ٢٥٢ ونصه :

==

وإنما ذكر (الولدان) معهم، تكميلاً للاستعطف واستجلاب الرحمة، وتنبيهاً على تنامي ظلم المشركين . بحيث بلغ أذاهم الصبيان . وإيذاناً بإحابة الدعاء الآتى بسبب مشاركتهم في الدعاء « الَّذِينَ يَقُولُونَ » من إيذاء أهل مكة وإذلالهم إياهم ، متبرئين من المقام بها « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا » أى: بالشرك الذى هو ظلم عظيم . وبأذية المسلمين . وهى مكة . و (الظالم) صفتها . وتذكيره لتذكير ما أسند إليه . فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أُجرى على غير من هو له، كان كالفعل فى التذكير والتأنيث ، بحسب ما عمل فيه . قاله أبو السعود . « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » أى: سخر لنا من عندك حافظاً يحفظ علينا ديننا « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » ناصراً يدفع عنا أذيات أعدائنا . أو المعنى : واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة . أى: لتكن أنت ولينا وناصرنا . وقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة . وجعل لمن بقى منهم خير وليٍّ وأعزَّ ناصر . ففتح مكة على نبيه ﷺ . فتولاهم أى تولّى ، ونصرهم أية نصره ، حتى صاروا أعزَّ أهلها . وروى البخارى^(١) بالسند إلى ابن عباس قال : كنت أنا وأُمى من المستضعفين . وبه إليه قال^(٢) : كانت أُمى ممن عذر الله .

عن أبي هريرة قال : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول « سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد » يدعو لرجال يسميهم بأسمائهم فيقول « اللهم ! أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة ابن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين . اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٤ - باب قوله : وَمَا كُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ٧١٥ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - باب إِنْ لَا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، حديث ٧١٥ .

قال الرازي : معنى الآية : لا عذر لكم في ترك المقاتلة . وقد بلغ حال المستضعفين من المسلمين إلى ما بلغ في الضعف . فهذا حث شديد على القتال ، وبيان العلة التي صار لها القتال واجباً . وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة . لأن هذا الجمع إلى الجهاد يجري مجرى فكك الأسير اه . انتهى

تنبيه :

قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية تأكيد لزوم الجهاد . لأنه تعالى ونح على تركه . وتدل الآية على لزوم استنقاذ المسلم من أيدي الكفار . ويأتى مثل هذا استنقاذه من كل مضرة ، من ظالم أو لص وغير ذلك . ووجه مأخذ ذلك ، أنه تعالى جعل ذلك كالعلم للانقطاع إليه . وتدل على أن حكم الولدان حكم الآباء ، لأن الظاهر أنه أراد الصغار .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالرجال والنساء ، الأحرار والحرائر . وبالولدان ، العبيد والإماء . لأن العبد والأمة يقال لهما : الوليد والوليدة . وقيل (للولدان والولائد) : الولدان . لتغليب الذكور على الإناث . كما يقال : الآباء والإخوة . وتدل الآية على أن للداعي حقاً عند الله . لأنه جعل ذلك اختصاصاً لنصرته . وتدل على لزوم الهجرة من ديار الكفر . وأن المؤمن لا يذل نفسه بجمعه مستضعفاً . لأنه تعالى أوجب المقاتلة لزوال الغلبة عليهم . وفي الآيات هذه تأكيدات متتابعة على لزوم الجهاد .

لطيفة :

قال ناصر الدين في (الانتصاف) : وقفت على نكتة في هذه الآية حسنة . وهي أن كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز ، فالظلم ينسب إليها بطريق المجاز . كقوله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً - إلى قوله - فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ^(١) . وقوله : وَكَمْ

(١) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا^(١) . وأما هذه القرية (في سورة النساء) فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة . لأن المراد بها مكة . فوُفرت عن نسبة الظلم إليها ، تشریفاً لها ، شرفها الله تعالى . ثم شجع تعالى المؤمنين ورغبهم في الجهاد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » بمعنى في طاعته لإعلاء كلمته . فهو وليهم وناصرهم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ » في طاعة الشيطان الأمر بغاية الطغيان . كإيذاء المستضعفين من المؤمنين وقتال أقويائهم « فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ » أي : جنده . قال أبو السعود : وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم في سبيل الشيطان ، والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم في سبيله . وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين في القتال وتقوية عزائمهم عليه . فإن ولاية الله تعالى علم في العزة والقوة . كما أن ولاية الشيطان مثل في الذلة والضعف . كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك ، فقاتلوا ، يا أولياء الله ! أولياء الشيطان . ثم صرح في التعليل فقيل « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » أي : في حد ذاته . فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى . ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ، إيذاناً بظهورها . قالوا : فائدة إدخال (كان) في أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان ، كان كذلك . فالعنى : إن كيد الشيطان منذ كان ، كان موصوفاً بالضعف . انتهى . (والكيده) : السعى في فساد الحال على جهة الاحتيال عليه . يقال : كاده يكيده ، إذا سعى في إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه . أفاده الرازي .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٨] . . . فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَدْرِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ أَلَّا آخَرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ » وهم المؤمنون عند استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال ، قبل أن يؤمروا به « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » أى : عن القتال . فإنكم لم تؤمروا به « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » أى : أتموا الصلوات الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها ، وما يجب فيها من مواقيتها . وأعطوا زكاة أموالكم « فَلَمَّا كُتِبَ » أى فرض « عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » أى الجهاد في سبيل الله حين قوى حالهم « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة منهم وهم المنافقون . وإدخالهم مع المؤمنين لما كانوا يظهرونه من أنفسهم أنهم منهم « يَخْشَوْنَ النَّاسَ » أى : يخافون أهل مكة الكفار أن يقتلوه « كَخَشْيَةِ اللَّهِ » أى كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه « أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » أى : أكثر خوفاً منه .

فإن قيل : ظاهر قوله (أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) يوم الشك . وذلك على علام الغيوب محال . (أجيب) بأن (أو) إما بمعنى (بل) أو هى للتنويع . على أن معنى : أن خشية بعضهم تكشية الله ، وخشية بعضهم أشد منها . أوللايهام على السامع . بمعنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة والشدة . وهو قريب مما في قوله تعالى : « أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »^(١) .
يعنى أن من يبصرهم يقول : إنهم مائة ألف أو يزيدون .

تنبيه :

حكى المفسرون هنا رواية عن ابن عباس ، أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] .

المهاجرين وأنهم كانوا يلقون من مشركي مكة ، قبل الهجرة ، أذى شديداً . فيشكون ذلك إلى النبي ﷺ ، ويقولون: ائذن لنا في قتالهم . فيقول لهم النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم: كفوا أيديكم . فإنني لم أؤمر بقتالهم . واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة . ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، لما أمروا بقتالهم في وقعة بدر ، كرهه بعضهم ، فنزلت الآية .

وعندى أن هذه الآية كسوابقها نزلت في المناققين ، تقريباً لهم وتحذيراً للمخلصين ، من شاكلتهم . والقول بنزولها في بعض المؤمنين لا يصح لوجوه : منها - أن في إسنادها عن ابن عباس من ليس على شرط الصحيح . ومنها - أن طلبهم للجهاد وهم في مكة ، مع قلة العدد والعدد ، وممالة العدو عليهم من كل جانب - في غاية البعد . ومنها - أن السياق في المناققين . وقد ابتدئ الكلام في شأنهم من قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ - إلى قوله تعالى الآتي - فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ... الآية . كما يظهر من التدبر الصادق . ومنها - أن هذا السياق اشتمل على أمور تدل على أنها مختصة بالمناققين . لأنه تعالى قال في وصفهم : يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . ولا يكون هذا الوصف إلا لكافر أو منافق . وحكى تعالى عنهم أنهم قالوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ . ولم يعهد هذا عن المؤمنين ، بل المحفوظ مبادرتهم للجهاد . كما روى ابن إسحق في (السيرة) ^(١) أن النبي ﷺ استشار الناس في غزوة بدر . فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله ﷺ ! امض لما أراك الله . فنحن معك . والله ! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ^(٢) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ! لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة ٢٦٦ و ٢٦٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

و ص ٤٣٤ و ٤٣٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] .

ثم قال سعد بن معاذ : امض ، يا رسول الله ! لما أردت، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هذا البحر نخضته لخصناه معك . ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ في اللقاء . ومنها - أنه تعالى ذكر بعد ذلك قوله : **إِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ** ^(١) . ولا شك أن هذا من كلام المنافقين . ثم صرح تعالى في آخر الكلام عليهم بقوله : **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ** . فزال اللبس وبرح الخلفاء .

وما أشبه هذه الآيات بقوله تعالى في (سورة محمد) ^(٢) : **وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ** . أى : تأمرنا بالجهاد ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكرَ فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك... إلى قوله تعالى : **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** « وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ » أى الجهاد فى سبيلك « لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى : هلا عافيتنا وتركنا حتى نموت بأجلانا « قُلْ » أى : زهيداً لهم فيما يؤملونه بالعود من المتاع الفانى ، وترغباً فيما ينالونه بالجهاد من النعيم الباقى « **مَتَاعُ الدُّنْيَا** » أى ما يتمتع وينتفع به فى الدنيا « **قَلِيلٌ** » سريع التقضى ، وشيك الانصرام . وإن أخرتم إلى ذلك الأجل « **وَالْآخِرَةُ** » أى : ثوابها الذى من جملة الثواب المنوط بالجهاد « **خَيْرٌ** » أى : لكم من ذلك المتاع الفانى ، لكثرتة وعدم انقطاعه ، وصفائه عن الكدورات . وإنما قيل « **لِمَنْ اتَّقَى** » حثاً لهم على اتقاء العصيان والإخلال بموجب التكليف . « **وَلَا تَظْلَمُونَ فَتِيلًا** » عطف على مقدر . ينسحب عليه الكلام . أى :

(١) [٤ / النساء / ٧٨] ونصها : **أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا .**

(٢) [٤٧ / محمد / ٢٠-٢٩]

تَجْزُونَ فِيهَا وَلَا تَنْقُصُونَ أَذَى شَيْءٍ مِنْ أَجْوَاعِ أَعْمَالِكُمْ ، الَّتِي مِنْ جَهْلَتِهَا مَسْعَاكُمْ فِي شَأْنِ الْقِتَالِ . فَلَا تَرْغَبُوا عَنْهُ . (وَالْقَتِيلُ) مَا فِي شَقِ النَّوَاتِ مِنَ الْخَيْطِ . يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ . وَقُرِئَ (يَظْلَمُونَ) بِالْيَاءِ ، إِعَادَةً لِلزَّمِيرِ إِلَى ظَاهِرِ (مَنْ) . أَفَادَهُ أَبُو السَّعُودِ .

روى ابن أبي حاتم قال: قرأ الحسن : قل متاع الدنيا قليل . قال : رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك . وما الدنيا كلها ، أولها وآخرها ، إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم اتبته . وقال ابن معين : كان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيب
فإن تُعْجِبَ الدنيا رجلاً فإنها متاع قليل والزوال قريب
ثم بين تعالى أنه لا ينفعهم الفرار من الموت . لأنه لا خلاص لهم منه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)
« أَيْنَمَا تَكُونُوا » أى : فى أى مكان تكونوا عند الأجل « يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ » أى : الذى لأجله تسكرهون القتال ، زعما منكم أنه من مظانه . وتحبون القعود عنه ، على زعم أنه منجاة منه . أى : وإذا كان لابد من الموت ، فبأن يقع على وجه يكون مستقبلاً للسعادة الأبدية ، كان أولى من أن لا يكون كذلك . ونظير هذه الآية قوله تعالى : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا^(١) . « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٦] .

بُرُوجٍ « أى حصون » مُشِيدَةٍ « أى : مرفوعة مستحكمة . لا يصل إليها القاتل الإنسانى . لكنها لا تمنع القاتل الإلهى » . كما قال زهير بن أبى سلمى ^(١) :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم
وقد ذكر ابن جرير ^(٢) وابن أبى حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد . والشاهد منها
هنا : أنها كانت أخبرت بأنها تموت بالعنكبوت . فاتخذ لها زوجها قصراً منيعاً شاهقاً ليجرزها
من ذلك . فبينما هم يوماً فإذا العنكبوت فى السقف . فأراها إياها فقالت : أهذه التى تحذرها
على ؟ والله ! لا يقتلها إلا أنا . فأزلولها من السقف . فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلها فقتلتها .
فطار من سمها شيء فوق بين ظفرها ولحمها . واسودت رجلها . فكان فى ذلك أجلها .
فماتت .

ولما حكى تعالى عن المنافقين كونهم متشاقلين عن الجهاد . خائفين من الموت ، غير راغبين
فى سعادة الآخرة ، أتبع ذلك بخلة لهم أشنع ، بقوله سبحانه « وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ »
نخصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحوها « يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى من قبيله ،

(١) هو البيت التاسع والأربعون من معلقته التى أولها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلَّمْ بِخُومَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْتَلَثَلَمْ
قال التبريزى : ويروى :

ومن يبع أطراف الرماح ينلنه ولورام أن يرقى السماء بسلم
يقول : من تعرض للرمح نالته . ورام معناه حول . والأسباب النواحى . وإنما عنى بها
من يهاب كراهة أن تناله . لأن المنايا تنال من يهابها ومن لا يهابها . ونظير هذا قوله عن
وجيل : قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَدَى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . والموت يلاقى من فرّ ومن
لا يفر .

(٢) الأثر رقم ٩٩٥٨

لما علم فينا الخير « وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ » كقحط وجذب ، وغلاء السعر ، ونقص في الزرع والثمار ، وموت أولاد ونتاج ، ونحو ذلك « يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » يعنون : من شوئك . كما قال تعالى عن قوم فرعون : فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ^(١) . وعن قوم صالح : قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ^(٢) .

قال أبو السعود : فأمر النبي ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ، ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال . إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى ، خلقاً وإيجاداً ، من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منها بوجه من الوجوه كما تزعمون . بل وقوع الاولى منه تعالى بالذات تفضلاً . ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة . كما سيأتى بيانه . فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل ، ردّاً على أسلافهم من قوله تعالى : أَلَا إِنَّمَا طَأْتُرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، أى إنما سبب خيرهم وشرهم ، أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم ، عند الله تعالى لا عند غيره . حتى يسندوها إليه ويطيروا به « فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ » يعنى النافقين « لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » أى قولاً . والجملة اعتراضية مسوقة لتعيرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم . إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا مما يوعظون به ، أن الله هو القابض الباسط . وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان . والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] أَلَا إِنَّمَا طَأْتُرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٤٧] ... قَالَ طَأْتُرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ،
وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ » أى : نعمة « فَمِنَ اللَّهِ » أى : فمن نعمته وتفضله ابتداءً « وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ » أى : بليّة « فَمِنْ نَفْسِكَ » أى : من شؤمها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها . وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى ، نازلة من عنده عقوبة ، كقوله تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ^(١) .

روى ابن عساكر عن البراء رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : مامن عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم . وما يفر الله أكثر .

وروى الترمذى ^(٢) عن أبي موسى الأشعرى عن النبي ﷺ قال : لا يصيب عبداً نكته فما فوقها أو دونها ، إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر . قال وقرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٢ - سورة الشورى ، ٢ - حدثنا عبد بن حميد . ونصه : عن عبيد الله بن الوازع : حدثني شيخ من بني مرة قال : قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة . فقلت : إن فيه لمعترا . فأثبته وهو محبوس في داره التي كان قد بنى . قال وإذا كل شيء منه قد تغير ، من العذاب والضرب . وإذا هو في قشاش (لقطة) فقلت : الحمد لله ، يا بلال ! لقد رأيتك وأنت تمرّ بنا ، تمسك بأنفك من غير غيار . وأنت في حالك هذا اليوم !

فقال : ممن أنت ؟ فقلت : من بني مرة بن عباد . فقال : ألا أحدثك حديثا عسى الله أن ينفعلك به ؟ قلت : هات . قال : حدثني أبي ، أبو بردة عن أبيه ، أبي موسى ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . . .

لطيفة :

الخطاب في (أَصَابِكَ) عام لكل من يقف عليه . لا للنبي ﷺ . كقوله (١) :

* إذا أنت أكرمت الكريم ملكته *

ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً . وجوز أن يكون الخطاب له ﷺ ، كما قبله وما بعده ، لكن لا لبيان حاله ﷺ ، بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير . ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم ، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلاذتهم بمعزل من استحقاق الخطاب . لاسيما يمثل هذه الحكمة الأنيفة . قرره أبو السعود .

قال بعض المفسرين : وثمره الآية رد التطير والتشاؤم .

« وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا » بيان لجلالة منصبه ﷺ ومكانته عند الله عز وجل .

بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة والسلام . بناءً على جهلهم بشأنه الجليل . وتعريف (الناس) للاستغراق . أفادة أبو السعود . أي : فمن أين يتصور لك الشؤم وقد أرسلت داعياً للعموم إلى الخيرات ؟ فأنت منشأ كل خير ورحمة « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » أي : على رسالتك وصدقك ، بإظهار المعجزات على يديك . أي : وإذا ثبتت رسالتك ، فالؤمن في طاعتك ، والشؤم في مخالفتك .

(١) قائله المتنبى . من قصيدة له مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

ومعنى البيت ما قاله شارحه عبد الرحمن البرقوقي :

يقول : إن الكريم يقدر الإكرام حق قدره . فإذا أنت أكرمت الكريم صار كأنه مملوك لك . أما اللئيم ، فإنك إذا أكرمته ، زاد عتواً وجرأة عليك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا) « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » لأنه عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه . فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه وتعالى « وَمَنْ تَوَلَّىٰ » عن طاعته « فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا » أى كفيلا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها . إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ^(١) .

ولما بين تعالى وجوب طاعة الرسول ، تأثره بذكر معاملتهم معه . فقال :

القول في تأويل قوله تعالى

[٨١] (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) « وَيَقُولُونَ » أى : المنافقون ، إذا أمرتهم بشيء ، وهم عندك « طَاعَةٌ » بالرفع . أى : أمرنا وشأننا طاعة . ويجوز النصب بمعنى : أطعناك طاعة . كما يقول المنقاد : سمعاً وطاعة ، وسمع طاعة . قال سيبويه : سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له : كيف أصبحت ؟ فيقول : حمد الله وثناء عليه . كأنه قال : أمرى وشأنى حمد الله وثناء عليه . ولو نصب (حمد الله) كان على الفعل . والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها . « فَإِذَا بَرَزُوا » أى خرجوا « مِنْ عِنْدِكَ » أى : من مجلسك « بَيَّتَ » أى : دبر ليلاً « طَائِفَةٌ مِنْهُمْ » أى من القائلين المذكورين وهم رؤسائهم « غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ » أى : خلاف ما قالت لك ، من القبول وضمان الطاعة . لأنهم مصرون على الرد والعصيان . وإنما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق .

(٦) [١٣ الرعد / ٤٠] ونص الآية : وَإِنْ مَانُورِيْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّيْنِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

تنبيهان :

الأول - في (القاموس وشرحه) وبيّت الأمر : عمله أودبره ليلاً . وقال الزجاج : كل ما فكر فيه ، أو خيض بليل ، فقد بيّت . ويقال : بيّت بليل ودبر بليل بمعنى واحد . وفي الحديث : أنه كان ﷺ لا يبيت مالا ولا يقيه . أي : إذا جاءه مال لا يمسكه إلى الليل ولا إلى القائلة . بل يجعل قسمته ^(١) . انتهى .

ونقل الرازي عن الزجاج أيضاً : أن كل أمر تفكر فيه وتأمل في مصالحه ومفاسده كثيراً ، يقال فيه مبيت . وفي اشتقاقه وجهان : الأول - من البيتوتة لأن أصلح الأوقات للفكر أن يجلس الإنسان في بيته بالليل . فهناك تكون الخواطر أخلى ، والشواغل أقل . فلما كان الغالب أن الإنسان وقت الليل يكون في البيت ، والغالب أنه يستقصى الأفكار في الليل ، لا جرم سمي الفكر المستقصى مبيتاً . الثاني - اشتقاقه من أبيات الشعر . لأن الشاعر يدبرها ويسويها . قال الأخفش : العرب إذا أرادوا قرض الشعر بالغوا في التفكير فيه . فسموا المتفكر فيه ، المستقصى ، مبيتاً . تشبهاً له ببيت الشعر . من حيث إنه يسوى ويدبر .

الثاني - تذكير الفعل . لأن تأنيث (طائفة) غير حقيق . ولأنها في معنى الفوج والفريق . وإسناده إلى طائفة منهم ، لبيان أنهم المتصدون له بالذات . والباقون أتباع لهم في ذلك . لا لأن الباقيين ثابتون على الطاعة . « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ » أي : يثبتته في صحائف أعمالهم بما يأمر به حفظته الكتاتين الموكلين بالعباد فيجازيهم عليه .

قال ابن كثير : والمعنى في هذا التهديد ، أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم . وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه . وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة . وسيجزئهم على ذلك . انتهى .

وجوز أن يكون المعنى : والله يكتبه في جملة ما يوحى إليك في كتابه ، فيطلعك على أسرارهم . فلا يحسبوا أن إبطانهم يغني عنهم . فالقصد تهديدهم على الأول . وتحذيرهم من

(١) لم أقف على هذا الحديث .

النفاق لأن الله يظهره ، على الثاني . « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى تجاف عنهم ولا تعاقبهم « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أى ثق بالله فى شأنهم . فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا » كفيلاً بالنصرة والدولة لك عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ » إنكار واستقبح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان ، ليعلموا كونه من عنده تعالى ، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحي الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكى على ما هو عليه . وأصل التدبر التأمل والنظر فى أدبار الأمور وعواقبه خاصة . ثم استعمل فى كل تأمل ، سواء كان نظراً فى حقيقة الشئ وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعاقبه « وَلَوْ كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ » تعالى كما يزعمون « لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع . إذ لا علم بالأمور الغيبية ، ماضية كانت أو مستقبلية ، لغيره سبحانه . وحيث كانت كلها مطابقة للواقع ، تعين كونه من عنده تعالى . قال الزجاج : ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الإخبار بالغيب ، مما يسره المنافقون وما يبيتونه ، مختلفاً : بعضه حق وبعضه باطل . لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقال أبو بكر الأصم : إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر . وكان الله تعالى يُطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك . ويخبره بها مفصلة . فقل لهم إن ذلك ، لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرده الصدق فيه ، ولو وقع فيه الاختلاف . فلما لم يقع ذلك قط ، علم أنه بإعلامه تعالى . وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة ، فما لا يساعده السباق ولا السياق . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال . وعلى القول بفساد التقليد . لأنه تعالى أمر المناققين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته . أفاده الرازي .
وفي الآية ، أيضاً ، الحث على تدبر القرآن ليعرف إعجازه من موافقته للعلوم واشتماله على فوائد منها . وكال حجبته وبلاغته العليا . وموافقة أحكامه للحكمة . وأخباره الماضية لكتب الأولين ، والمستقبلية للواقع .

قال الحافظ ابن حجر : من أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظاً على ما جاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل ، وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك ، مقتصرًا على ما يصلح للحجة منها ، فإنه الذي يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم . انتهى .

وقد روى البخاري^(١) في صحيحه تعليقاً عن ابن عون (وهو عبد الله البصري ، من صغار التابعين) ، أنه قال : ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني : هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها . والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه . ويدعوا الناس إلّا من خير . وفي رواية (فيتدبروه) بدل (يتفهموه) .

قال الكرماني : قال في القرآن : يتفهموه ، وفي السنة : يتعلموها . لأن الغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره فلا يحتاج إلى الوصية بتعلمه . فلهذا أوصى بتفهم معناه وإدراك منطوقه . انتهى . وفي بقية الآية العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض . لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن . ثم ذكر تعالى عن المناققين نوعاً آخر من مفسداتهم . وهو إظهارهم أسرار رسول الله ﷺ ، ومبادرتهم بأخبار السرايا وإذاعتها ، بقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢ - باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ» أى: مما يوجب أحدهما «أَذَاعُوا بِهِ» أى: أفشوه . فتعود إذاعتهم مفسدة من وجوه : الأول - أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير . والثاني - أنه إن كان ذلك الخبر في جانب الأمن ، زادوا فيه زيادات كثيرة . فإذا لم توجد تلك الزيادات ، أورث ذلك شبهة للضعفاء في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . لأن المناققين كانوا يروون تلك الإرجافات عن الرسول . وإن كان ذلك في جانب الخوف ، تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده في الحيرة والاضطراب ، فكانت تلك الإرجافات سبباً للفتنة من هذا الوجه . والثالث - أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعي على البحث الشديد والاستقصاء التام . وذلك سبب لظهور الأسرار . وذلك مما لا يوافق مصلحة المدينة . والرابع - أن العدو الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار . فكل ما كان أمناً لأحد الفريقين كان خوفاً للفريق الثاني . فإن وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم ، أرجف المناققون بذلك . فوصل الخبر في أسرع مدة إلى الكفار . فأخذوا في التحصن من المسلمين ، وفي الاحتراز عن استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا في ذلك وزادوا فيه ، وألقوا الرعب في قلوب الضعفة والمساكين . فظهر من هذا أن ذلك الإرجاف كان منشأً للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله تعالى تلك الإذاعة وذلك التشهير ، ومنعهم منه . أفاده الرازى . « وَلَوْ رَدُّوهُ » أى ذلك الأمر الذى جاءهم « إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ » وهم كبراء الصحابة البصراء في الأمور رضى الله عنهم ، أو الذين يؤمرون منهم وكانوا كأن لم يسمعوا « لَعَلِمَهُ » أى : الأمر

« الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ » أى يستعلمونه ويتطلبونه وهم المنافقون المذيعون « مِنْهُمْ » أى من الرسول وأولى الأمر . يعنى لو أنهم قالوا : نسكت حتى نسمعه من جهة الرسول ومن ذكر معه ، ونعرف الحال فيه من جهتهم ، لعلموا صحته وأنه هل هو مما يذاع أولا ؟ وإنما وضع الموصول موضع الضمير ، يعنى لم يقل (لعلموه) زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام . أول ذمهم أو للتنبيه على خطأهم فى الفحص عن استخراج وإظهار خفى ذلك الأمر .

قال الناصر فى (الانتصاف) : فى هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع . وكفى به كذبا . وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين فى نحر العدو . وما أعظم الفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم ، خيرا أو غيره . انتهى . وقد روى مسلم^(١) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما يسمع . وعند أبى داود^(٢) والحاكم عنه : كفى بالمرء إثما . ورواه الحاكم أيضا عن أبى أمامة .

هذا ، ونقل الرازى وجهاً آخر فى الموصول . وهو أن المعنى به طائفة من أولى الأمر . قال : والتقدير : ولو أن المنافقين ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر لكان علمه حاصلا عند من يستنبط هذه الوقائع من أولى الأمر . وذلك لأن أولى الأمر فريقان : بعضهم من يكون مستنبطاً وبعضهم من لا يكون كذلك . فقوله (منهم) يعنى لعلمه الذين يستنبطون الخفيات من طوائف أولى الأمر . فإن قيل : إذا كان الذين أمرهم الله برد هذه الأخبار إلى الرسول وإلى أولى الأمر هم المنافقون ، فكيف جعل أولى الأمر منهم فى قوله (وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ) ؟ قلنا : إنما جعل أولى الأمر منهم على حسب الظاهر . لأن المنافقين

(١) فى المقدمة ، حديث رقم ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٨٠ - باب فى التشديد فى الكذب ،

يظهرون من أنفسهم أنهم يؤمنون . ونظيره قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ^(١) . وقوله : (مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) . انتهى .

وعلى هذا الوجه يحمل قول السيوطي^(٢) في (الإكليل) : قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ) ... الآية ، هذا أصل عظيم في الاستنباط والاجتهاد . وقول المهامبي^(٣) : فلو وجدوا في القرآن ما يوجب الاختلاف ، لوجب عليهم استفسار الرسول والعلماء الذين هم أولو الأمر ، ليعلمهم منهم المجتهدون في استنباط وجوه التوفيق . وقال بعض الإمامية : ثمرة الآية أنه يجب كتم ما يضر إظهاره المسلمين . وأن إذاعته قبيحة . وأنه لا يُخبرُ بما لم يعرف صحته . وتدل على تحريم الإرجاف على المسلمين . وعلى أنه يلزم الرجوع إلى العلماء في الفتيا . وتدل على صحة القياس والاجتهاد . لأنه استنباط . انتهى .

تنبيه :

ما نقله الزخسري^(٤) وتبعه البيضاوي^(٥) وأبو السعود وغيرهم ، من أن قوله تعالى (وَإِذَا جَاءَهُمْ) عني به طائفة من ضعفة المسلمين - فإن أرادوا بالضعفة المناققين ، فصحيح . وإلا فبعيد غاية البعد كما يعلم من سباق الآية وسياقها . وكذا مانوعوه من الأقوال في معناها . فكله لم يصب المرمى . والذي يعطيه الذوق السليم في الآية هو الوجه الأول . ولها إشعار بالوجه الثاني لا تأباه . فتبصر ولا تكن أسير التقليد . « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » بإرسال الرسول وإزال الكتاب « لَا تَبْعَتُمُ الشَّيْطَانَ » بالكفر والضلال « إِلَّا قَلِيلًا » أي : إلا قليلاً منكم ممن تفضل الله عليه بعقل صائب فاهتدى به إلى الحق والصواب ، وعصمه عن متابعة الشيطان . كمن اهتدى إلى الحق في زمن الفترة . كقس بن ساعدة وأضرابه . وهم عشرة . وقد أوضحت شأنهم في كتابي (إيضاح الفطرة في أهل الفترة) في (الفصل

(١) [٤ / النساء / ٧٢] ونصها : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا .

الرابع عشر) فانظروه . ونقل الرازيّ عن أبي مسلم الأصفهانيّ ، أن المراد بفضل الله ورحمته ، هنا ، هو نصرته تعالى ومعونته اللذان عناهما النافقون بقولهم : فأفوز فوزاً عظيماً . أي : لولا تتابع النصرة والظفر لا تبغى الشيطان وتوليم إلا القليل منكم من المؤمنين من أهل البصيرة الذين يعلمون أنه ليس مدار الحقيقة على النصر في كل حين . واستحسن هذا الوجه الرازيّ وقال : هو الأقرب إلى التحقيق . قال الخفاجي : لارتباطه بما بعده . هذا ، وزعم بعضهم أن قوله تعالى : (إِيَّاكَ قَلِيلًا) مستثنى من قوله (أَدْعَاؤُهُ) أو (لَعَلَّمَهُ) واستدل به على أن الاستثناء لا يتعين صرفه لما قبله . قال : لأنه لو كان مستثنى من جملة (اتبعتهم) فسد المعنى لأنه يصير عدم اتباع القليل للشيطان ليس بفضل الله . وهو لا يستقيم . وبيان لزومه أن (لولا) حرف امتناع لوجود . وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان . فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ، ضرورة . وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان وعصيان الشيطان بأنفسهم . ألا تراك إذا قلت (لمن تذكره بحقك عليه) : لولا مساعدتي لك لسلبت أموالك إلا قليلاً ، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً في بقاء القليل للمخاطب . وإنما مننت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله ، لا في كله . ومن المحال أن يعتقد مسلم أنه عصم في شيء من اتباع الشيطان ، إلا بفضل الله تعالى عليه . هذا ملخص ما قرره صاحب الانتصاف ، وهو في نفسه . ولا يخفى أن صرف الاستثناء إلى ما يليه ويتصل به لتبادره فيه ، أولى من صرفه إلى الشيء البعيد عنه . واللازم ممنوع . لأن المراد بالفضل والرحمة معنى مخصوص . وهو ما بيناه . فإن عدم الاتباع ، إذا لم يكن بهذا الفضل المخصوص ، لا ينافي أن يكون بفضل آخر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكِيلًا)
 « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » تلوين للخطاب ، وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بطريق الالتفات . وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم . أى : إذا كان الأمر ، كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم ، فقاتل أنت وحدك غير مكثر بما فعلوا . قاله أبو السعود .
 « لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ » أى : إلا فعل نفسك . بالتقدم إلى الجهاد . فإن الله هو ناصرك ، لا الجنود . فإن شاء نصرك وحدك ، كما ينصرك وحولك الألوف . أى : ومن نكل ، فلا عليك منه ولا تؤاخذ به .

قال الرازى : دلت الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال . لأنه تعالى ما كان يأمره بذلك إلا وهو صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الصفات . ولقد اقتدى به أبو بكر^(١) رضى الله عنه حيث حاول الخروج وحده إلى قتال

(١) جاء في صحيح البخارى في ٢٤ - كتاب الزكاة ، ١ - باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٣ و ٧٤٤ ما نصه : عن أبي هريرة قال : لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضى الله عنه . وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضى الله عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها ، فقد عصم ماله ونفسه ، إلا بحقه . وحسابه على الله » ؟

فقال : والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال : والله ! لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

مانعى الزكاة . ومن علم أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لا يحصل أمر من الأمور لا بقضاء الله ، سهل ذلك عليه . وروى ابن أبي حاتم عن أبي إسحق قال : سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل ، فيكون ممن قال الله فيه : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة؟ قال : قد قال الله تعالى لنبيه : (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) .

ورواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عنه قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو ممن أتى بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا . إن الله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . إنما ذلك في النفقة . « وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ » أى على الخروج معك وعلى القتال . ورغبهم فيه وشجعهم عليه . كما قال لهم^(٢) صلى الله عليه ، يوم بدر ، وهو يسوى الصفوف : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . وقد وردت

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٨١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) ما نصه :

عن أنس بن مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بُسَيْسَةَ عينا ينظر ما صنعت غير أبي سفيان . فجاء وما في البيت أحد غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فحدثه الحديث . قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إن لنا طلبه . فن كان ظهره حاضرا فليركب معنا : فجعل رجال يستأذنونهم في ظهراتهم في علو المدينة . فقال « لا . إلا من كان ظهره حاضرا »

فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر . وجاء المشركون . فقال رسول الله ﷺ « لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ » فدنا المشركون . فقال رسول الله ﷺ « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قال يقول عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ : يا رسول الله ! جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال « نعم » قال : بَخْ بَخْ . فقال رسول الله ﷺ « ما يملكك على قولك بَخْ بَخْ » ؟ قال : لا . والله ! يا رسول الله ! إلراجة أن أكون من أهلها . قال « فإنك من أهلها »

أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك . منها : مارواه البخاري^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله . بين كل درجتين كما بين السماء والأرض « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ » أى : يمنع « بَأْسَ » أى : قتال « الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم كفار مكة . أى : بتحريضك إياهم على القتال ، تبعث همهم على مناجزة الأعداء ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (عسى .. الخ) عِدَّةٌ منه سبحانه وتعالى محققة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروهم . فإن ما صدر بـ (لعل وعسى) مقرر الوقوع من جهته عز وجل . وقد كان كذلك . حيث روى في السيرة^(٢) أن رسول الله ﷺ واعدأبا سفيان ،

= فأخرج تمرات من قرْنِه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة .

قال فرمى بما كان معه من التمر . ثم قاتلهم حتى قُتِل .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٤ - باب درجات المجاهدين في سبيل الله حديث ١٣٣٥ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها » .

فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟

قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله . ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة . أراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة » .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) وبالصفحة ٦٦٦ (طبعة جوتنجن) .

بعد حرب أُحُد ، موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة . فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج .
وخرج فى شعبان سنة أربع فى سبعين راكباً . ووافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين
كفروا الرعب . فرجعوا من مرّ الظهران . انتهى ، بزيادة .

وقال فى ذلك عبد الله بن رواحة (وقيل كعب بن مالك) :

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد	لميعاده صدقًا وما كان وافيًا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبّت ذميا ، وافقت المواليا
تركنا به أوصال عُتبة وابنه	وعمرًا ، أبا جهل ، تركناه ثاويًا
عصيت رسول الله ، أفٍ لديكم	وأمركم السيئ ، الذى كان غاويًا
فإني ، وإن عنفتُموني ، لقائلٌ	فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه ، لم نعدله فينا بغيره .	شهابًا لنا فى ظلمة الليل هاديا

« وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا » أى : شدة وقوة من قريش « وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا » أى تعذيبًا

وعقوبة .

قال ابن كثير : أى : هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ذَلِكَ وَلَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْصَرَفَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ^(١) . انتهى .

قال الخفاجى : والقصد التهديد أو التشجيع . ثم أشار تعالى إلى أن التحريض على القتال
شفاعة فى تكفير الكبائر ورفع الدرجات فقال :

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٤] ونصها : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ
حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ فَشُدُّوا الْوُتُقَ فَامَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ،
ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْصَرَفَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

« مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً » أى يتوسط فى أمر فيرتب عليه خير من دفع ضرر ، أو جلب نفع ، ابتغاءً لوجه الله تعالى . ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار « يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا » وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها « وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً » وهى ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت فى أمر غير مشروع « يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا » أى : نصيب من وزرها الذى ترتب على سعيه ، مساوٍ لها فى المقدار من غير أن ينقص منه شىء .

فوائد

الأولى - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية مدح الشفاعة وذم السعاية . وهى الشفاعة السيئة ، وذكر الناس عند السلطان بالسوء . وهى معدودة من الكبائر .

الثانية - روى فى فضل الشفاعة أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه الشيخان ^(١) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب . وعن ابن عباس ^(٢) رضى الله عنهما فى

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٢١ - باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ، حديث ٧٦٥ . ونصه : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا جاءه سائل ، أو طُلبت إليه حاجة قال « اشفعوا تؤجروا » . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب شفاعة النبى ﷺ فى زوج بريرة ، حديث ٢١٥٤ . ونصه : عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبداً يقال له =

قصة بَريرة وزوجها قال : قال لها النبي ﷺ : لو راجعتِه ! قالت : يا رسول الله ! تأمرني؟ قال : إنما أنا أشفع . قالت : لا حاجة لي فيه . رواه البخارى .

الثالثة - قال مجاهد والحسن والكلبى وابن زيد : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض . فما يجوز في الدين أن يشفع فيه ، فهو شفاعة حسنة . ومالا يجوز أن يشفع فيه ، فهو شفاعة سيئة . ثم قال الحسن : من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر ، وإن لم يشفع . لأن الله تعالى يقول : من يشفع . ولم يقل : من يشفع . ويتأيد هذا بقوله عليه الصلاة والسلام ^(١) : اشفعوا تؤجروا . نقله الرازى .

الرابعة - قال الزمخشري : الشفاعة الحسنة هي التي روى بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر ، أو جلب إليه خير ، وابتغى بها وجهُ الله ، ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت في أمر جائز ، لا في حد من حدود الله ، ولا في حق من الحقوق . يعنى الواجبة عليه . والسيئة ما كان بخلاف ذلك . وعن مسروق : أنه شفع شفاعة . فأهدى إليه المشفوع جارية . فغضب وردها . وقال : لو علمتُ ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك . ولا أتكلم فيما بقي منها . انتهى .

= مغيث . كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ، ودموعه تسيل على لحيته . فقال النبي ﷺ لعباس « يا عباس ! ألا تعجب من حب مغيث برة ، ومن بغض برة مغيثاً ؟ » فقال النبي ﷺ « لو راجعتِه ! » قالت : يا رسول الله ! تأمرني؟ قال « إنما أنا أشفع » . قالت : لا حاجة لي فيه .

(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٢١ - باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ، حديث ٧٦٥ ونصه :

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا جاءه السائل ، أو طُلبت إليه حاجة ، قال « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء » .

وروى أبو داود^(١) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من شفع لأخيه بشفاعة ، فأهدى له هدية عليها ، فقبلها ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبار . وهذا الحديث أورده أيضاً المنذرى^(٢) في (كتاب الترغيب والترهيب) في ترجمة (الترغيب في قضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، وما جاء فيمن شفع فأهدى إليه) ثم ساق حديث الشيخين^(٣) وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم . لا يظلمه ولا يسلمه . ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كرب الدنيا يوم القيامة . ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة . وروى الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم ، فقد عرض تلك النعمة للزوال . وروى نحوه عن عائشة وابن عمر وابن عمرو . وروى الطبراني وابن حبان في (صحيحه) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ برٍّ أو تيسير عسير ، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام . وفي رواية للطبراني عن أبي الدرداء : رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة . وروى الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم . ورواه عن عمر مرفوعاً بلفظ : أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن . ورواه بنحو ذلك أيضاً عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم . انظر الترغيب .

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٨٢ - باب الهدية لقضاء الحاجة ، حديث ٣٥٤١ ، عن أبي أمامة .

(٢) أخرجه البخاري في : ٤٦ - كتاب المظالم ، ٣ - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسلمه ، حديث ١٢٠٢ .

الخامسة - نكتة اختيار النصيب في (الحسنة) والكفل في (السيئة) ما أشرنا إليه . وذلك أن النصيب يشمل الزيادة . لأن جزاء الحسنات يضاعف . وأما الكفل فأصله المركب الصعب . ثم استعير للمثل المساوي . فلذا اختير ، إشارةً إلى لطفه بعباده . إذ لم يضاعف السيئات بالحسنات . ويقال : إنه وإن كان معناه المثل لكنه غلب في الشر وندر في غيره . كقوله تعالى : **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ** ^(١) فلذا خص به السيئة تطرية وهرباً من التكرار . و(من) بيانية أو ابتدائية . أفاده الخفاجي « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتِبًا » أى : مقتدراً . من (أقات على الشيء) إذا اقتدر عليه كما قال ^(٢) :

وذى ضغنٍ كففتُ النفسُ عنه وكنتُ على مساءته مُّقْتِبًا
أى رب ذى حقد على كففتُ السوء عنه مع القدرة عليه . أو شهيداً حافظاً . واشتقاقه من (القوت) فإنه يقوى البدن ويحفظه . وقوله تعالى :

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٨] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

(٢) البيت استشهد به الطبرى في (ج ٨ ص ٥٨٤) ، والطبرى في (ج ٣ ص ٨٤) ، ومقاييس اللغة وفيه : على إساءته ، والزحشرى (ج ١ ص ٣٧٨) ونصه فيه :
وذى ضغنٍ نَفَيْتُ السوء عنه وكنت على إساءته مُّقْتِبًا
وجاء في اللسان حسب رواية الكتاب . ولكن قال في الحاشية ما يأتى :
قوله (على مساءته مُّقْتِبًا) تبع الجوهرى . وقال في التكملة : الرواية (أَقَيْتُ) قال :
والقافية مضمومة وبعده :

بيت الليل مرتقفاً ثقيلاً على فرش القناة وما أبيتُ
تَعَنَّ إلى منه مؤذياتُ كما تبرى الجذامير البروتُ
=

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ،

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)

« وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ » أى إذا سلم عليكم فدعى لسلامة حياتكم وصفاتكم التى بها كمال الحياة بتحية ، فقيل : السلام عليكم « فَحَيُّوا » أى : أداءً لحق المسلم عليكم « بِأَحْسَنَ مِنْهَا » أى : بتحية أحسن منها . بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله . ولو قالها المسلم ، زيد : وبركاته . قال الراغب : أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها . ثم استعملت فى كل دعاء . وكانت العرب ، إذا لقي بعضهم بعضاً ، يقول : حياك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام . وهى تحية الإسلام . قال الله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ^(١) . وقال : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ^(٢) . وقال : فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ^(٣)

= والبروت جمع برت ، فاعل تبرى كترى . والجذامير مفعوله على حسب ضبطه . اهـ .

والبرت : الفأس (يمانية) والجذمور : بقية كل شيء مقطوع ، عن ابن الأعرابي .

وجاء فى حماسة ابن الشجرى ص ٢٥ : وقائله هو أبو قيس ابن رفاعة ونصه فيها :

وذى ضغن كفت النفس عنه وإنى فى مساءته مقيت

وكذا فى طبقات الشعراء للجمحى ص ٢٤٣ وفيها : وكنت ، على مساءته مقيت .

وانظر تعليق السيد محمود محمد شاكر على هذا البيت .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٣] ونصها : وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] ونصها : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَرِيمًا .

(٣) [٢٤ / النور / ٦١] ونصها : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ =

قالوا : في السلام مزية على (حياك) لما أنه دعاء بالسلامة عن الآفات الدنيوية والدينية ، وهي مستلزمة لطول الحياة ، وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك . ولأن السلام من أسمائه تعالى . فالبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومنزته « أَوْ رُدُّوْهَا » أي : أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله . لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرره « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا » أي : فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التي من جملتها ما أمرتم به من التحية . لحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . وفي الآية فوائد شتى :

الأولى - نكتة نظمها مع آيات الجهاد هو التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقى إليهم السلام . في الحرب الآتي قريبا ، ببيان أن لكل مسلم حقا يؤدي إليه . وذلك لأن السلام نوع من الإكرام . والمكرم يقابل بمثل إكرامه أو أزيد . قال الرازي : إن الرجل في الجهاد كان يلقاه الرجل في دار الحرب أو ما يقاربها فيسلم عليه . فقد لا يلتفت إلى سلامه عليه ويقتله . وربما ظهر أنه كان مسلما . فنع الله المؤمنين عنه . وأمرهم أن كل من يسلم عليهم ويكرمهم بنوع من الإكرام يقابلونه بمثل ذلك الإكرام أو أزيد . فإنه إن كان كافرا لا يضر المسلم ، إن قابل إكرام ذلك الكافر بنوع من الإكرام ، أما إن كان مسلما ، وقتله ، ففيه أعظم المضار والفساد . ولذا قال : إن الله كان على كل شيء حسيبا . أي هو محاسبكم على كل أعمالكم . وكافٍ في إيصال جزاء أعمالكم إليكم . فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف . فهذا يدل على شدة العناية بحفظ الدماء . والنوع من إهدارها . وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال :

= وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُنَّ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه ، وإن كان مجوسياً . ذلك بأن الله يقول : فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . وقال قتادة : فحيوا بأحسن منها ، يعنى للمسلمين . أو ردوها ، يعنى لأهل الذمة . ومن هنا حكى الماوردى وجهها : إنه يقول فى الرد على أهل الذمة ، إذا ابتدئوا : وعليكم السلام . ولا يقول : ورحمة الله . نقله عنه النووى . وروى الزخشرى عن الحسن أنه يجوز أن يقال للكافر : وعليك السلام . ولا تقل : ورحمة الله . فإنها استغفار . وعن الشعبي أنه قال لنصرانى سلم عليه : وعليك السلام ورحمة الله . فقيل له فى ذلك . فقال : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ انتهى . والظاهر أنه لحظ الأخبار بذلك ولم يرد مضمون التحية . ومع هذا فالثابت فى الصحيحين^(١) عن أنس مرفوعاً : إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم . كما يأتى . قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية مشروعية السلام ووجوب رده . واستدل بها الجمهور على رد السلام على كل مسلم ، مسلماً كان أو كافراً . لكن مختلفان فى صيغة الرد .

الثانية - ورد فى إفشاء السلام أحاديث كثيرة . منها قول البراء بن عازب رضى الله عنهما : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، منها : إفشاء السلام . رواه الشيخان^(٢) . وعن أبى هريرة

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٢٢ - باب كيف يرد على أهل الذمة السلام ، حديث ٢٣٧٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٧١ - باب حق إجابة الوليمة والدعوة ، حديث ٦٦٢ ونصه :

عن البراء بن عازب رضى الله عنهما : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع . أمرنا بعبادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار القسم ونصر المظلوم وإفشاء السلام وإجابة الداعى . ونهانا عن خواتيم الذهب وعن آنية الفضة وعن الميائير والقسيّة والإستبرق والديباج .

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. رواه مسلم^(١). وعن عبدالله ابن سلام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال الترمذي^(٢) : حديث صحيح .

الثالثة - في كيفية السلام . قال الرازي^(٣) : إن شاء قال : سلام عليكم . وإن شاء قال : السلام عليكم . قال تعالى في حق نوح : يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا^(٤) . وقال عن الخليل : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي^(٥) . وقال في قصة لوط : قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ^(٥) .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٤٢ - باب حدثنا محمد بن بشار ،

ونصه :

عن عبدالله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه . وقيل : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت في الناس لأنظر إليه . فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . وكان أول شيء تسكلم به أن قال . . .

(٣) [١١ / هود / ٤٨] ونصها : قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٤) [١٩ / مريم / ٤٧] ونصها : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ

كَانَ بِي حَفِيًّا .

(٥) [١١ / هود / ٦٩] ونصها : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا

سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا آيَتُ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

وقال عن يحيى : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ^(١) . وقال عن محمد ﷺ : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ^(٢) . وقال عن الملائكة : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ وَسَلَامٌ عَلَيْهِمْ ^(٣) . وقال عن نفسه المقدسة : سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٤) . وقال : فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ ^(٥) . وأما بالألف واللام فقوله عن موسى عليه السلام : فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ^(٦) . وقال عن عيسى عليه السلام : وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ^(٧) فثبت أن الكل جائز . انتهى .

(١) [١٩ / مريم / ١٥] ونصها : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٩] ونصها : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٣ و ٢٤] ونصهما : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

(٤) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٥٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٦) [٢٠ / طه / ٤٧] ونصها : فَاتِيَاهُ قَقُولًا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ .

(٧) [١٩ / مريم / ٣٣] .

قال الإمام أبو الحسن الواحدى : أنت فى تعريف السلام وتنكيره بالخيار . انتهى .
ولكثره ورود التنكير فى القرآن ، على ما بيناه ، فضله بعضهم على التعريف .
الرابعة - فى فضله . روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود والترمذى والدارمى عن عمران بن
الحصين رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم . فرد عليه ثم جلس .
فقال النبى ﷺ : عشر . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فرد عليه فجلس فقال :
عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد عليه فجلس فقال :
ثلاثون . قال الترمذى حديث حسن . وفى الباب عن أبى سعيد وعلى وسهل بن حنيف .
وقال الزار : قد روى هذا عن النبى ﷺ من وجوه ، هذا أحسنها إسناداً . وفى رواية لأبى
داود^(٢) ، من رواية معاذ بن أنس رضى الله عنه زيادة على هذا . قال : ثم أتى آخر . فقال : السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته . فقال : أربعون . وقال : هكذا تكون الفضائل . وفيه رد على
من زعم أنه لا يزداد على (وبركاته) . لا يقال رواية (ومغفرته) عند أبى داود ، هى من
طريق أبى مرحوم واسمه عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن أبيه . وأبو مرحوم
ضعفه يحيى . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به - لأننا نقول : قد حسن الترمذى
روايته عن سهل بن معاذ . وصححها أيضاً هو وابن خزيمة والحاكم وغيرهم . قال النسائى لا
يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه .

عود

وروى الطبرانى عن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
من قال : السلام عليكم كتب له عشر حسنات ، ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله .

- (١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .
وأبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٢ - باب كيف السلام ، حديث ٥١٩٥ .
والترمذى فى : ٤٠ - كتاب الاستئذان والآداب ، ٢ - باب ما ذكر فى فضل السلام .
(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٢ - باب كيف السلام ، حديث ٥١٩٦ .

كتبت عشرون حسنة ، ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتبت له ثلاثون حسنة . وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً مرّ على رسول الله ﷺ وهو في مجلس فقال : سلام عليكم . فقال : عشر حسنات . ثم مرّ آخر فقال : سلام عليكم ورحمة الله فقال : عشرون حسنة . ثم مرّ آخر فقال : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال : ثلاثون حسنة . فقام رجل من المجلس ولم يسلم . فقال النبي ﷺ : ما أوشك مانسى صاحبكم . إذا جاء أحدكم إلى المجلس فليسلم . فإن بدا له أن يجلس فليجلس . وإن قام فليسلم . فليست الأولى بأحق من الآخرة . وروى الطبراني بإسناد جيد عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : أبخل الناس من بخل بالسلام . ورواه أيضاً عن أبي هريرة . ولأحمد^(١) والبزار نحوه عن جابر . وروى الطبراني عن حديفة بن ليث عن النبي ﷺ قال : إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده تناثرت خطاياهما كما تتناثر ورق الشجر . قال النذري : ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً . وروى البزار عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : إذا التقى الرجلان المسلمان فسلم أحدهما على صاحبه ، فإن أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه . فإذا تصافحا نزلت عليهما مائة رحمة : للبادئ منهما تسعون ، وللمصافح عشرة . وروى أبو داود^(٢) عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام .

(١) أخرجه أحمد في مسنده بالصفحة ٣٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) ونصه : عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم فقال : إن لفلان في حائطى عذقا ، وأنه قد آذاني وشقّ عليّ مكان عذقه . فأرسل إليه النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم فقال « بمعنى عذقت الذى في حائط فلان » قال : لا . قال « فيه لى » قال : لا . قال « فبعنيه بعنق في الجنة » قال : لا . فقال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم « ما رأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام » .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٣ - باب في فضل من بدأ بالسلام ،

حديث ٥١٩٧ .

الخامسة في بعض أحكامه المأثورة. روى أبو داود^(١) عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم . ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم . وفي الموطأ^(٢) عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: إذا سلم واحد من القوم أجراً عنهم . قال النووي: هذا مرسل صحيح الإسناد . وفي الصحيحين^(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قالت قلت: وعليه السلام ورحمة الله . ترى ما لا ترى (تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال النووي: ووقع في بعض روايات الصحيحين (وبركاته) ، ولم يقع في بعضها . وزيادة الثقة مقبولة . وفي سنن أبي داود^(٤) عن غالب القطان عن رجل قال: حدثني أبي عن جدي قال: بعثني أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائته فأقرئه السلام . فأتيته فقلت: إن أبي يقرئك السلام . فقال: عليك وعلى أبيك السلام . قال النووي: هذا وإن كان رواية عن مجهول ، فأحاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم . فيستفاد منه الرد على المبلغ كالمسلم . وروى أبو داود^(٥) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه .

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٤١ - باب ما جاء في رد الواحد عن الجماعة ، حديث ٥٢١٠ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٥٣ - كتاب السلام ، حديث ١ (طبعتنا) ونصه: عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يسلم الراكب على الماشي . وإذا سلم من القوم واحد أجراً عنهم » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ١٦ - باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال ، حديث ١٥١٩ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٥٤ - باب في الرجل يقول : فلان يقرئك السلام ، حديث ٥٢٣١ .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٥ - باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ حديث ٥٢٠٠ .

فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه . ففيه أن من سلم عليه إنسان، ثم لقيه على قرب، ندب التسليم عليه ثانياً وثالثاً. وروى الشيخان^(١) عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير .

وروى الشيخان^(٢) عن أنس : أنه مر على صبيان فسلم عليهم . وقال : كان رسول الله ﷺ يفعل . ولفظ أبي داود^(٣) أن رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلم عليهم . وعند ابن السنيّ فيه ، فقال : السلام عليكم يا صبيان . وروى أبو داود^(٤) عن أسماء بنت يزيد قالت : مرّ علينا النبي ﷺ في نسوة فسلم علينا . وروى الترمذي نحوه . وروى الشيخان^(٥) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم . ورويا^(٦) عن أسامة أن النبي ﷺ مرّ على مجلس فيه أخطا من المسلمين والمشرّكين عبدة

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٥ - باب تسليم الراكب على الماشي ، و ٦ - باب تسليم الماشي على القاعد ، حديث ٢٣٧٠ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ١٥ - باب التسليم على الصبيان .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٦ - باب في السلام على الصبيان ، حديث ٥٢٠٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٣٧ - باب في السلام على النساء ، حديث ٥٢٠٤ .

(٥) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٢٢ - باب كيف يرد على أهل الذمة السلام ، حديث ٢٣٧٥ .

(٦) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٢٠ - باب التسليم في مجلس فيه أخطا من المسلمين والمشرّكين ، حديث ١٤٢١ ونصه :

عن أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة =

الأوثان واليهود فسلم عليهم النبي ﷺ . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال (١) رسول الله ﷺ : لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه . قال النووي : رويناه في موطن ما لك أنه سئل عن سلم على اليهودي أو النصراني هل يستقبله ذلك؟ فقال : لا . قال أبو سعد المتولي الشافعي : لو أراد تحية ذي ، فعلها بغير السلام . بأن يقول : هداك الله أو أنعم الله صباحك . قال النووي : هذا الذي قاله أبو سعد لا بأس به . إذا

= فدكية . وأردف وراءه أسامة بن زيد ، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج . وذلك قبل وقعة بدر . حتى مرّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، عبدة الأوثان واليهود . وفيهم عبد الله بن أبي ، ابن سلول . وفي المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خرّ عبد الله بن أبي أنفه بردائه . ثم قال : لا تغبروا علينا . فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم . ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبي ، ابن سلول : أيها المرء ! لا أحسن من هذا . إن كان ما تقول حقاً . فلا تؤذنا في مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه . قال ابن رواحة : اغشنا في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك .

فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا . فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخففهم حتى ركب دابته . حتى دخل على سعد بن عباد فقال « أرى سعد ! ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ » يريد عبد الله بن أبي « قال : كذا وكذا » . قال : اعف عنه ، يا رسول الله ! واصفح . فوالله ! لقد أعطاك الله الذي أعطاك ، ولقد اصطاح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه ، فيعصبونه بالعصاة . فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شَرِقْ بذلك . فذلك فعل به ما رأيت . فمعا عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ١٣ (طبعتنا) .

احتاج إليه فيقول : صبحت بالخير أو بالسعادة أو بالعافية . أو صبحك الله بالسرور أو بالسعادة والنعمة أو بالمسرة أو ما أشبه ذلك .

السادسة - قال الحسن البصري : السلام تطوع والرد فريضة . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هو قول العلماء قاطبة : أن الرد واجب على من سلم عليه . فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله تعالى في قوله : فَخَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . انتهى . وفي ترك الرد إهانة وازدراء وهو حرام . ولذا ندب للجمع المسلم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهاراً للإكرام ومبالغة فيه . وإن كان الفرض يسقط ببعضهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى : ليمثلكم من قبوركم ويحشرنكم إلى حساب يوم القيامة فى صعيد واحد ، فيجازى كل عامل بعمله . قال الزخشرى : القيامة والقيام كالطالبة والطلاب . وهى قيامهم من القبور أو قيامهم للحساب . قال الله تعالى : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(١) . « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لاشك فى يوم القيامة أو فى الجمع « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى حديثه وخبره ووعدده ووعيده ، وبيان لاستحالاته . لأنه نقص وقبيح . إذ مَنْ كذب ، لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يجر منفعة بكذبه أو يدفع مضرة ، أو هو جاهل بقبحه ، أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب فى أخباره ، ولا يبالى بأيهما نطق . فظهر استحالة الكذب عليه جل شأنه . والغير ، وإن دلت الدلائل على صدقه ، فكذبه ممكن إذا لم ينظر إليها .

(١) [٨٣ / المطففين / ٦] .

فوائد .

الأولى - قال الرازي : في كيفية النظم وجهان : أحدهما إنا بينا أن المقصود من قوله : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، أن لا يصير الرجل المسلم مقتولاً . ثم إنه تعالى أكد ذلك بالوعيد في قوله : إن الله كان على كل شيء حسيباً . ثم بالغ في تأكيد ذلك الوعيد بهذه الآية . فبين في هذه الآية أن التوحيد والعدل متلازمان . فقوله : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . إشارة إلى التوحيد . وقوله : لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . إشارة إلى العدل . وهو كقوله : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ ^(١) . وكقوله ، في طه : إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ^(٢) . وهو إشارة إلى التوحيد . ثم قال : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ^(٣) . وهو إشارة إلى العدل . فكذا في هذه الآية ، بين أنه يجب في حكمه وحكمته أن يجمع الأولين والآخرين في عرصة القيامة . فينتصف للمظلومين من الظالمين . ولا شك أنه تهديد شديد . الوجه الثاني - كأنه تعالى يقول : من سلم عليكم وحياكم فاقبلوا سلامه وأكرموا وعاملوه بناءً على الظاهر . فإن البواطن إنما يعرفها الله الذي لا إله إلا هو . إنما تنكشف بواطن الخلق للخلق في يوم القيامة .

الثانية - قوله (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) إما خبر للمبتدأ و (ليجمعنكم الخ) . جواب قسم محذوف ، والجملة القسمية مستأنفة لا محل لها . أو خبر ثان . وإما اعتراض ، والجملة القسمية خبر .

الثالثة - تمدية (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) بـ (إلى) لكونه بمعنى الحشر كما بينا . أو لكون (إلى) بمعنى (في) كما أثبتته أهل العربية . وقوله تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا، أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ » أى : فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين « فِتْنَيْنِ » أى : فرقتين ولم تتفقوا على التبرؤ منهم . والاستفهام للإنكار . والنفي والخطاب لجميع المؤمنين . لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم . وذلك أن فرقة من المؤمنين كانت تميل إليهم وتذب عنهم وتواليهم . وفرقة منهم تباينهم وتماديهم . فهوا عن ذلك وأمروا بأن يكونوا على نهج واحد في التباين والتبرؤ منهم . لأن دلائل نفاقهم وكفرهم ظاهرة جلية . فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم . وقد قيل : إن المراد بهم هنا عبد الله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، ورجعوا بعسكرهم ، بعد أن خرجوا . كما تقدم في آل عمران . كما أوضحه مارواه الشيخان ^(١) والإمام أحمد والترمذى عن زيد بن ثابت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد . فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم . وفرقة تقول : لا . هم

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٥ - باب

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ ، حديث ٩٥٦ ونصه :

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ) رجع ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أحد . وكان الناس فيهم فرقتين : فريق يقول : اقتلهم . وفريق يقول : لا . فنزلت : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ . وقال « إنها طيبة تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة » .

والإمام أحمد في السند بالصفحة ١٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

المؤمنون . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهَا طَبِيبَةٌ وَإِنَّهَا تَنْفَى الْخُبْثَ كَمَا يَنْفَى الْكَبِيرُ خُبْثَ الْحَدِيدِ . هَذَا لَفْظُ أَحْمَدَ .

وقد ذكر الإمام محمد بن إسحاق^(١) في وقعة أحد : أن عبد الله بن أبيّ ، بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيوش : رجع بثلاثمائة وبقى النبيّ صلى الله عليه وسلم في سبعمائة .

وثمة في نزول الآية رواية أخرى أخرجها الإمام أحمد^(٢) في مسنده عن عبد الرحمن بن عوف : أن قوماً من العرب أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأسلموا وأصابهم وباء المدينة وحمّاهما . فأركسوا . فخرجوا من المدينة . فاستقبلهم نفر من أصحابه . يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقالوا لهم : ما لكم رجعتُمْ ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة . فقالوا : أما لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ؟ فقال بعضهم : نأفقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ ... الآية . وهذه الرواية هي الأقرب لنظم الآية كما سنبينه في التنبيه الثاني « وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ » أى نكسهم وردهم إلى الكفر « بِمَا كَسَبُوا » أى : بسبب ما كسبوه من لحوقهم بالكفار « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى : تعدّوهم من جملة المهتدين . قال أبو السعود : تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين ،

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٩ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٦٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ١٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عوف أن قوماً من العرب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأسلموا . وأصابهم وباء المدينة : حمّاهما . فأركسوا فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحابه (يعنى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم) فقالوا لهم : ما لكم رجعتُمْ ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتونا المدينة . فقالوا : أما لكم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ؟ فقال بعضهم : نأفقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا هم مسلمون . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا .. الآية .

وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك ، وإشعار بأنه يؤدي إلى محاولة المحال الذي هو هداية من أضله الله تعالى . وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم ، وهم بمعزل عن ذلك ، سعى في هدايتهم وإرادة لها . ووضع الوصول موضع ضمير المناقنين لتشديد الإنكار وتأكيده استحالة الهداية بما ذكر في حير الصلة ، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها . بأن يقال : أنهم دون الخ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته ، فضلاً عن إمكان نفسه « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » عن دينه « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أي : طريقاً إلى الهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَليًا وَلَا نَصِيرًا)

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا » كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم في الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم ، إثر بيان كفرهم وضلالهم في أنفسهم . أي : تمنوا أن تكفروا ككفرهم بعد الإيمان « فَتَكُونُونَ سَوَاءً » أي : في الكفر والضلال « فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ » في العون والنصرة لئلا يفضى إلى كفركم ، وإن أظهروا لكم الإيمان طلباً لمواالاتكم « حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا » من دار الكفر « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فتتحققوا إيمانهم « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أي عن الهجرة . فهم ، وإن أظهروا لكم الإسلام مع قدرتهم على الهجرة ، فافعلوا بهم ما تفعلون بالكفار . لأنه زال عنهم حكم النفاق بلحق دار الكفر « فَخُذُوهُمْ » أي : أسروهم^(١) « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » في الحل والحرم « وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَليًا وَلَا نَصِيرًا » أي : لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك .

(١) افعل من (يسر) والمراد أسروهم . كذا قاله الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

تنبيهان

الأول - قال الرازى : دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد . وهذا متأكد بعموم قوله تعالى ^(١) : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . والسبب فيه أن أغز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين . لأن ذلك هو الأمر الذى يتقرب به إلى الله تعالى ويتوسل به إلى طلب السعادة فى الآخرة . وإذا كان كذلك ، كانت المداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع المداوة . وإذا كان كذلك ، امتنع طلب المحبة والولاية فى الموضع الذى يكون أعظم موجبات المداوة حاصلًا فيه . والله أعلم .

الثانى - يظهر لى أن الأقرب فى سبب نزول هذه الآيات أعنى قوله تعالى : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ . الخ ، رواية عبد الرحمن بن عوف . كما يدل عليه سبر هذه الآيات وتدبرها بصادق النظر والإيمان . وقد اهتدى إلى ذلك الفاضل المهابتى فى تفسيره . فاقصر على هذا الوجه فقال : وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى البسود لاجتواء المدينة . فلم يزالوا يرتحلون مرحلة بعد أخرى حتى لحقوا المشركين . انتهى . وقول السيوطى : فى إسناد رواية عبد الرحمن بن عوف عند أحمد تدليس وانقطاع - لا يقدح فى إصابتها كبد الحقيقة . لأنها وجدت فيها قرينة تلحقها بالقبول وهو موافقتها لألفاظ الآية بلا تكلف . وحينئذ فقول زيد بن ثابت : فنزلت فيما تقدم بمعنى أنها تشمل ما وقع من النخزلين عن أخذ وما جرى من اختلاف المؤمنين فى شأنهم . لا أن ما وقع كان سببًا لنزولها . واستعمال النزول بذلك معروف كما بيناه فى المقدمة . وإلا لأشكل قوله تعالى : إِيَّا أَنْ يُهَاجِرُوا . إذ لم تطلب المهاجرة إلا من النائين عن المدينة . وأولئك ، أعنى الذين انحلزوا عن المسلمين فى أحد ، كانوا بها . فيحتاج إلى جعل المهاجرة بمعنى خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، صابرين محتسبين مخلصين . كما قاله بعض المفسرين . وهذا المعنى لم يشع فى المهاجرة . ولأشكل أيضًا قوله تعالى : فَخَذُّوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . فإنه يفيد بأنهم ليسوا من منافقى

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] .

أهل المدينة . وإنه يتوقع الظفر بهم . وإلا فنافقوها بين ظهرانيهم ليلاً ونهاراً . فالظاهر في هذا المقام رواية ابن عوف . وفي آخر رواية زيد ما يشعر بها حيث قال : إنها طيبة وإنها تنفي الخبث . إشارة إلى أن المدينة نفت هؤلاء الذين نزحوا عنها بعد إسلامهم . والله أعلم . ثم استثنى عن أسر المرتدين وقتلهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُونَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ ، فَإِنْ اعْتَذَرُوا كُفُّوا فَمَا عَلَى اللَّهِ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) .

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ » يلجئون « إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أى : عهد بهدنة أو أمان . فاجعلوا حكمهم كحكمهم لئلا يفضى إلى قتال من وصلوا إليهم فيفضى إلى نقض الميثاق « أَوْ جَاءُوكُمْ » عطف على الصلة أى : والذين جاؤكم « حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » حال ياضمار (قد) أى : ضاقت واقتبضت نفوسهم « أَنَّهُمْ يُقَاتِلُوكُمْ » لإرادتهم المسألة « أَوْ يُقَاتِلُونَهُمْ » أى : معكم من أجلكم لكان القرابة منهم . فهم لا لكم ولا عليكم . قال أبو السعود : استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان : أحدهما - من ترك المحاربين ولحق بالمهادنين . والآخر : من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين . وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . أن سراقه بن مالك المدلجى حدثهم قال : لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأخذ ، وأسلم من حولهم ، قال : بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج . فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي . وأنا أريد أن توادعهم . فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام . وإن لم يسلموا لم يحسن تغليب قومك عليهم . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد .

فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن أسلمت قريش أسلموا معهم. وأنزل الله : **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ . فكَانَ مِنْ وَصْلِ إِلَيْهِمْ كَانَ مَعَهُمْ عَلَىٰ عَهْدِهِمْ .** وفي قوله تعالى « **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ** » إشعار بقوتهم في أنفسهم ، وأن في التعرض لقتلهم إظهاراً لقوتهم الخفية . فهذه الجملة جارية مجرى التعليل لاستثنائهم من الأخذ والقتل « **فَإِنْ اغْتَرَزُوكُمْ** » أى تركوكم « **فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ** » مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل « **وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ** » أى : الاتقياد والاستسلام « **فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا** » أى طريقاً بالأسر أو القتل . إذ لا ضرر منهم في الإسلام . وقتالهم يظهر كمال قوتهم .

لطيفة :

قال الخفاجي : **(إِلسَلَمُ)** بفتح السين : الاتقياد . وقرئ بسكون اللام مع فتح السين وكسر ها . وكان إلقاء السلم استعارة . لأن من سلم شيئاً ألقاه وطرحه عند السلم له . وعدم جعل السبيل مبالغة في عدم التعرض لهم ، لأن من لا يمر بشيء كيف يتعرض له ؟

تنبيه :

ظاهر النظم الكريم أن الفريقين المستثنين من الكفار . وحاول أبو مسلم الأصفهاني كونهما من المسلمين حيث قال : إنه تعالى لما أوجب الهجرة على كل من أسلم ، استثنى من له عذر . فقال : **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** قصدوا الرسول للهجرة والنصرة . إلا أنهم كان في طريقهم من الكفار ما لم يجدوا طريقاً إليه خوفاً من أولئك الكفار . فصاروا إلى قوم بين المسلمين وبينهم عهد . وأقاموا عندهم إلى أن يمكنهم الخلاص . واستثنى بعد ذلك من صار إلى الرسول ، ولا يقاتل الرسول ولا أصحابه . لأنه يخاف الله تعالى فيه . ولا يقاتل الكفار أيضاً ، لأنهم أقاربه . أو لأنه أبقى أولاده وأزواجه بينهم . فيخاف ، لو قاتلهم ، أن يقتلوا أولادهم وأصحابه . فهذان الفريقان من المسلمين لا يحل قتالهم . وإن كان لم يوجد منهم الهجرة ولا مقاتلة الكفار . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩١] (سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا كُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« سَتَجِدُونَ » أقواماً « ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ » بإظهار الإسلام لكم « أَنْ يَأْمَنُوا كُمْ » أى: على أنفسهم « وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ » بإظهار الكفر « كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ » أى: دعوا إلى الارتداد والشرك « أُرْكِسُوا فِيهَا » أى: رجعوا إليها منكوسين على رؤوسهم « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ » أى: يتنحوا عنكم جانباً ، بأن لم يكونوا معكم ولا عليكم . « وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ » أى: ولم يلقوا الاقياد « وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ » أى: عن قتالكم « فَخَذَوْهُمْ » أى: اتسروهم « وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ » أى: وجدتموهم في داركم أو دارهم « وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » أى: حجة واضحة في الإيقاع بهم قتلاً وسبياً . لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والفدر، وإضرارهم بأهل الإسلام . أو تسلطاً ظاهراً، حيث أذن لكم في أخذهم وقتلهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن كثير : هؤلاء الآخرون، في الصورة الظاهرة، مكن تقدمهم . ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك . فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دماءهم وأموالهم وذرياتهم . ويصانعون الكفار في الباطن . فيعبدون معهم ما يعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم . وهم في الباطن مع أولئك . كما قال تعالى : وَإِذَا خَلَوْا

إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ^(١) الآية. وحكى ابن جرير^(٢) عن مجاهد ؛ أنها نزلت في قوم من أهل مكة . كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسَلِّمون رياء . ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان . يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا . فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

الثانى - قال الرازى : قال الأكثرون : فى الآية دلالة على أنهم إذا اعتزلوا قتلنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن إيذائنا ، لم يجوز لنا قتلهم ولا قتلهم . ونظيره قوله تعالى : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ^(٣) . وقوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ^(٤) . نقص الأما
بالقتال لمن يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً » أى ما جاز ولا صح ولا لاق لمؤمن

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٠٧٨ .

(٣) [٦٠ / المتحنة / ٨] ... وَتُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٠] ... وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

قتل أخيه المؤمن . فإن الإيمان زاجر عن ذلك . إلا على وجه الخطأ . فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية . قال الزخشرى : فإن قلت : بهم انتصب خطأ ؟ قلت : بأنه مفعول له . أى : ما ينبغى له أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده . ويجوز أن يكون حالاً . بمعنى لا يقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ . وأن يكون صفة للمصدر : إلا قتلاً خطأً . والمعنى : إن من شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداءً ، البتة . إلا إذا وجد منه خطأً من غير قصد . بأن يرى كافراً فيصيب مسلماً . أو يرى شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم . انتهى . « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً » أى : بما ذكرنا . فهو ، وإن عفى عنه ، لكنه لا يخلو عن تقصير فى حق الله ، ولا يهدر دم المؤمن بالكلية « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » أى : فالواجب عليه ، لحق الله ، إعتاق نفس محكوم عليها بالإيمان ، ولو صغيرة . ليعتق الله عنه بكل جزء منها جزءاً منه من النار . وقد روى الإمام أحمد ^(١) عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار ؛ أنه جاء بأمة سوداء . فقال : يا رسول الله ! إن على عتق رقبة مؤمنة . فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها . فقال لها رسول الله ﷺ : أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ قالت : نعم . قال : أتشهدين أنى رسول الله ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟ قالت : نعم . قال : أعتقتها . وهذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضره .

وفى موطأ مالك ^(٢) ومسنند الشافعى وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ - كتاب العتق والولاء ، حديث ٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ - كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ عن عمر بن الحكم

أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : إن جارية كانت ترعى غنماً لى . فجئتها وقد فقدت شاة من الغنم . فسألها عنها فقالت : أكلها الذئب فأسفت عليها ، =

معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . أفاده ابن كثير .

لطيفتان :

الأولى - قال الزمخشري : التحرير الإعتاق . والحر والعتيق : الكريم . لأن الكريم في الأحرار ، كما أن اللؤم في العبيد . ومنه عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامتها . وحرّ الوجه أكرم موضع منه . وقولهم للثيم : عبد ، وفلان عبد الفعل ، أي : لثيم الفعل . والرقبة عبارة عن النسمة ، كما عبر عنها بالرأس في قولهم : فلان يملك كذا رأساً من الرقيق .

= وكنت من بني آدم فلطمت وجهها . وعلى رقبة أفاًعتقها ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أين الله ؟ » فقالت : في السماء . فقال « من أنا ؟ » فقالت : أنت رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « أعتقها »

وأخرجه أحمد في المسند (ضمن حديث طويل) بالصفحة ٤٤٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . وفيه قال « أعتقها فإنها مؤمنة » وقال مرة « هي مؤمنة فأعتقها » .

وأخرجه مسلم كذلك في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) . وكذلك في أبي داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٦٧ - باب تسميت العاطس في الصلاة ،

حديث ٩٣٠ .

وكذلك في النسائي ، ١٣ - كتاب السهو ، ٢٠ - باب الكلام في الصلاة .

كل هؤلاء عن معاوية بن الحكم ما عدا الموطأ . ففيه عن عمر بن الحكم .
ولقد قال الإمام الزرقاني هنا معقبا :

قال ابن عبد البر : كذا قال مالك ، وهو وهم عند جميع علماء الحديث . وليس في الصحابة عمر بن الحكم ، وإنما هو معاوية بن الحكم . كما قال كل من روى هذا الحديث عن هلال أو غيره . ومعاوية بن الحكم معروف في الصحابة . وحديثه هذا معروف . وأما عمر بن الحكم فتابعي أنصاري مدني معروف . يعني فلا يصح .

الثانية - قيل في حكمة الإعتاق : إنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار . لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها . من قِبَل أن الرقيق ملحق بالأموات . إذ الرق أثر من آثار الكفر . والكفر موت حكماً : أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ^(١) . ولهذا منع من تصرف الأحرار . وهذا مشكل . إذ لو كان كذلك لوجب في العمد أيضاً . لكن يحتمل أن يقال : إنما وجب عليه ذلك ، لأن الله تعالى أبى للقاتل نفساً مؤمنة حيث لم يوجب القصاص . فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة . أفاده النسفي . « وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ » أى : والواجب عليه أيضاً ، لحق ورثة المقتول ، عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم ، دية مؤداة إلى ورثته . يقتسمونها اقتسام الميراث . وقد بينت السنة مقدارها . وذلك فيما رواه النسائي^(٢) وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً . وفيه : إن في النفس الدية ، مائة من الإبل . وفيه : وعلى أهل الذهب ألف دينار . وروى أبو داود^(٣) عن جابر عن النبي ﷺ ؛ أنه فرض في الدية على أهل الإبل مائة من الإبل . وعلى أهل البقر مائتي بقرة . وعلى أهل الشاء أثنى شاة . وعلى أهل الحلل مائتي حلة . وفي الموطأ^(٤) أن عمر بن الخطاب قوّم الدية على أهل القرى فجعلها على أهل الذهب ألف دينار . وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل ، لا في ماله .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ... وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٥ - كتاب القسامة ، ٤٧ - باب ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف الناقلين له .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ١٦ - باب الدية كم هي ؟ حديث ٤٥٤٣

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٤٣ - كتاب العقول ، حديث ٢ (طبعتنا) .

قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة . وفي الصحيحين ^(١) عن أبي هريرة قال : اقتتل امرأتان من هذيل . فرمت إحداها الأخرى بحجر . فقتلتها ، وما في بطنها . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقضى أن دية جنينها غرة : عبدٌ أو أمةٌ . وقضى بدية المرأة على عاقلتها . ورواه أبو داود ^(٢) عن جابر بلفظ : أن امرأتين من هذيل قتلت إحداها الأخرى . ولكل واحدة منهما زوج وولد . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دية المقتولة على عاقلة القتالة . وبرأ زوجها وولدها ، قال فقال عاقلة القتالة : ميراثها لنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . ميراثها لزوجها وولدها . و(العاقلة) القرابات من قبل الأب وهم عَصَبَتُهُ . وهم الذين كانوا يملكون الإبل على باب وليّ المقتول . وسميت الدية عقلاً تسمية بالمصدر . لأن الإبل كانت تعقل بفناء وليّ المقتول . ثم كثر الاستعمال حتى أطلق العقل على الدية ، ولو لم تكن إبلاً . وتضمن العاقلة مخالف لظاهر قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ^(٣) . فتكون الأحاديث القاضية بتضمن العاقلة مخصصة لمعوم الآية . لما في ذلك من المصلحة . لأن القاتل لو أخذ بالدية لأوشك أن تأتي على جميع ماله . لأن تتابع الخطأ لا يؤمن . ولو ترك بغير تعريم لأهدر دم المقتول . كذا في (نيل الأوطار) .

قال المهايي : تجب الدية على كل عاقلة القاتل . وهم عَصَبَتُهُ غير الأصول والفروع . لأنه لما عفى عن القاتل فلا وجه للأخذ منه . وأصوله وفروعه أجزاؤه . فالأخذ منهم أخذ منه .

(١) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٢٥ - باب جنين المرأة ، حديث ٢٢٦٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ١٩ - باب دية الجنين ، حديث ٤٥٧٥ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ١٨] . . . وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

ولا وجه لإهدار دم المؤمن . فيؤخذ من عاقلته الذين يرثونه بأقوى الجهات وهي العصبية . لأن الغرم بالغنم . فإن لم يكن له عاقلة ، أو كانوا فقراء ، فعلى بيت المال . انتهى .
وقد خالف أبو بكر الأصم وجهور الخوارج . فأوجبوا الدية على القاتل لا على عاقلته . واحتجوا بوجوه خمسة عقلية . ساقها الفخر الرازي . هنا . وكلها مما لا يساوى فلساً . إذ هي من معارضة النص النبوي بالرأى المحض .

اللهم : إنا نبرأ إليك من ذلك . وقد غفلوا عن حكمة الشريعة على العاقلة التي بيناها
دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

تنبيهه :

يشمل قوله تعالى (فديةً مُسَلَّمَةً) تسليمها حالة ومؤجلة . إلا أن الإجماع قد وقع على أن دية الخطأ مؤجلة على العاقلة . ولكن اختلفوا في مقدار الأجل . فذهب الأكثر إلى أن الأجل ثلاث سنين . وقال ربيعة : إلى خمس . وحكى في (البحر) عن بعض الناس بعد حكايته للإجماع السابق : أنها تكون حالة . إذ لم يرو عنه عليه السلام تأجيلها . قال في (البحر) قلنا : روى عن علي رضي الله عنه أنه قضى بالدية على العاقلة في ثلاث سنين . وقاله عمر وابن عباس . ولم ينكر . انتهى .

قال الشافعي في (المختصر) : لا أعلم مخالفاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة في ثلاث سنين .

قال الرافعي : تكلم أصحابنا في ورود الخبر بذلك . فمنهم من قال : ورد . ونسبه إلى رواية علي عليه السلام . ومنهم من قال : ورد أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة . وأما التأجيل فلم يرد به الخبر . وأخذ ذلك من إجماع الصحابة .

وقال ابن المنذر : ما ذكره الشافعي لا نعرفه أصلاً من كتاب ولا سنة . وقد سئل عن ذلك أحمد بن حنبل فقال : لا نعرف فيه شيئاً . فقيل : إن أباعد الله ، يعني الشافعي ، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : لعله سمعه من ذلك الدني . فإنه كان حسن الظن به .

يعنى إبراهيم بن أبي يحيى . وتعقبه ابن الرفعة : بأن من عرف حجة على من لم يعرف . وروى البيهقي من طريق ابن لهيعة عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : من السنة أن تنجم الدية في ثلاث سنين . وقد وافق الشافعي ، على نقل الإجماع ، الترمذي في (جامعه) وابن المنذر . فحكي كل واحد منهما الإجماع . كذا في (نيل الأوطار) . وقوله تعالى : «إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا» أي : إلا أن يتصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل فلا تجب عليه . وسمى العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبهاً على فضله . قال السيوطي في (الإكليل) : فيها (أي : هذه الآية) تعظيم قتل المؤمن والائتم فيه ، ونفيه عن الخطأ ، وأن في قتل الخطأ كفارة ودية . لا قصاص . وأن الدية مسلمة إلى أهل المقتول . إلا أن يصدقوا بها ، أي : يبرؤا منها . ففيه جواز الإبراء من أهل الدية . مع أنها مجهولة . وفي قوله (مسلمة) دون (يسلمها) إشارة إلى أنها على عاقلة القاتل . ذكره سعيد بن جبير . أخرجه ابن أبي حاتم واستدل بقوله : إلى أهله ، على أن الزوجة ترث منها . لأنها من جملة الأهل خلافاً للظاهرية . واحتج بها من أجاز إرث القاتل منها . لأنه من أهله . واحتج الظاهرية بقوله : «إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا» . على أن المقتول ليس له العفو عن الدية . لأن الله جعل ذلك لأهله خاصة . وعموم الآية شامل للإمام إذا قتل خطأ . خلافاً لمن قال : لا شيء عليه ولا على عاقلته . واستدل بمومها أيضاً من قال : إن في قتل العبد الدية والكفارة . وإن على الصبي والمجنون ، إذا قتل ، الكفارة . وإن المشارك في القتل عليه كفارة كاملة . انتهى . «فَإِنْ كَانَ» أي : المقتول خطأ «مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ» أي : محاربين «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فلم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه ، بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم ، أو بأن أتاهم بعد ما فارقهم لمهم من المهمات «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» أي : فعلى قاتله الكفارة ، لحق الله دون الدية . فإنها ساقطة . إذ لا إرث بينه وبين أهله . لأنهم محاربون . وقال الإمام زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام : لا تؤدي الدية إليهم لأنهم يتقوون بها . ومعلوم أن سقوط الدية لمن هذه حاله أخذنا من إيجاب الله تعالى على قاتله الكفارة ، ولم يذكر الدية كما ذكرها في أول الآية

وأخرها ، وقد روى الحاكم وغيره عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان الرجل يأتي النبي ﷺ ثم يرجع إلى قومه وهم مشركون. فيصيبه المسلمون في سرية أو غزاة . فيعتق الذي يصيبه رقية (وَإِنْ كَانَ) أى: المقتول خطأ (مِنْ قَوْمٍ) أى: كفرة (بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) أى: عهد من هدنة أو أمان . أى : كان على دينهم ومذهبهم (فَدِيَّةٌ) أى: فعلى قاتله دية (مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ) إذ هم كالمسلمين في الحقوق «وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» لحق الله تعالى . وتقديم الدية هنا مع تأخيرها فيما سلف ، للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشياً عن توهم نقض الميثاق .

قال السيوطي : روى الحاكم وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى : وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَالْخ. قال: هو الرجل يكون معاهداً . ويكون قومه أهل عهد . فتسلم إليهم الدية ويعتق الذي أصابه رقية .

قال السيوطي . ففيه أن المقتول إذا كان من أهل الذمة والعهد ففيه دية مسلمة إلى أهله مع الكفارة . وفيه رد على من قال : لا كفارة في قتل الذمي . والذين قالوا ذلك قالوا: إن الآية في المؤمن الذي أهله أهل عهد . وقالوا : إنهم أحق بديته لأجل عهدهم . ويرده تفسير ابن عباس المذكور، وأنه تعالى لم يقل فيه : وهو مؤمن ، كما قال في الذي قبله . انتهى .

تنبيه :

استدل بالآية من قال: إن دية المعاهد حريباً أو كتابياً ، كالمسلم . لأنه تعالى ذكر في كل منهما الكفارة والدية . فوجب أن تكون ديتهما سواء كما أن الكفارة عنهما سواء . إذ إطلاق الدية يفيد أنها الدية المهودة . وهى دية المسلم . وقد أخرج الترمذي^(١) عن ابن عباس وقال: غريب ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم ودَى العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية

(١) أخرجه الترمذي في : ١٤ - كتاب الديات ، ١٢ - باب حدثنا أبو كريب .

الضمرى ، وكان لهما عهد من النبي صلى الله عليه وسلم لم يشعر به عمرو ، بدية المسلمين . وأخرج البيهقي عن الزهري أنها كانت دية اليهودي والنصراني في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مثل دية المسلم . وفي زمن أبي بكر وعمر وعثمان . فلما كان معاوية ، أعطى أهل المقتول النصف وألقى النصف في بيت المال . قال : ثم قضى عمر بن عبد العزيز بالنصف وألقى ما كان جعل معاوية . وأخرج أيضاً عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم ودَى ذميّاً دية مسلم . وفي أثرى البيهقي المذكورين مقال . إذ علل الأول بالإرسال . والثاني بأن في إسناده أبا كرز . وهو متروك . وروى أحمد^(١) والنسائي والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : عقل الكافر نصف دية المسلم . وأخرج أبو داود^(٢) عنه بلفظ : دية المعاهد نصف دية الحر . وفي لفظ : قضى أن عقل أهل الكتابين نصف عقل المسلمين . وهم اليهود والنصارى . رواه أحمد والنسائي وابن ماجه .

وعندي : لا تنافي بين هذه الروايات المذكورة . لأن الظاهر أن الفرض في دية الكافر إنما هو النصف . ولا حرج في الزيادة عليه ، إلى أن يبلغ دية المسلم تبرعاً وتفضلاً . وبه يحصل الجمع بين الروايات . والاستدلال بالآية على تماثل ديتي المسلم والكافر المتقدم - غير ظاهر . لما في الدية من الإجمال المرجوع في بيانه إلى السنة ، وقد بينته وصح فيها أنه النصف فريضة . والله أعلم « فَمَنْ لَمْ يُجِدْ » أي : رقبة ليحررها . بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها « فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » أي : فعليه صيام شهرين متواصلين لإفطار بينهما . بحيث لو صام تسعة وخمسين ، وتعمد بإفطار يوم ، استأنف الجميع . لأن الخطأ إنما نشأ منكدورة النفس . وهذا القدر يزيلها ويفيد التزكية . قاله المهايغي . « تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ » أي : قبولاً من الله ورحمة منه .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٨٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

والحديث ٦٦٩٢ (طبعة المعارف) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ٢١ - باب دية الذمي ، حديث ٤٥٨٣ .

من (تاب عليه) : إذا قبل توبته . (فتوبة) منصوب على أنه مفعول له . أى : شرع لكم ذلك توبة منه . أو مصدر مؤ كد محذوف . أى : تاب عليكم توبة منه « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا » بجميع الأشياء التي منها مقدار كدورة هذا الخطأ العظيم « حَكِيمًا » في دواء إزالتها . قال المهايى : وإذا كان للخطأ هذه الكدورة مع العفو عنه ، فأين كدورة العمد ؟ أى : وهى التي ذكرت في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » لقتله « فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ » إذ قتل وليه عمداً « وَلَعْنَهُ » أى أبعد عن الرحمة « وَأَعَدَّ لَهُ » وراء ذلك « عَذَابًا عَظِيمًا » أى : فوق عذاب سائر الكبائر ، سوى الشرك .

قال الإمام ابن كثير : هذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم . الذى هو مقرون بالشرك بالله ، في غير ما آية في كتاب الله . حيث يقول سبحانه في سورة (الفرقان) : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... الآية (١) . وقال تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... الآية (٢) . والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً . فمن ذلك ما ثبت

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] ... وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥١] ... وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

في الصحيحين^(١) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء . وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود^(٢) عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن مُعِنّاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً . فإذا أصاب دماً حراماً بَلَحَ . وفي حديث^(٣) آخر : لَزَوَالُ الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجل مسلم . قلت : رواه الترمذی والنسائي عن ابن عمرو . وفي الحديث الآخر : لو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض على قتل رجل مسلم لكبهم الله في النار . قلت : رواه الترمذی^(٤) عن أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ : لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله عن وجل في النار . وفي الحديث الآخر^(٥) : من أعان على قتل مسلم ولو بشر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله . قلت : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة . وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً .

(١) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ١ - باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٤٥٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٤ - كتاب الفتن والملاحم ، ٦ - باب في تعظيم قتل المؤمن ، حديث ٢٤٧٠ .

(معنقا : أى : خفيف الظهر ، سريع السير . بَلَحَ : أى أعيا وانقطع) .

(٣) أخرجه الترمذی في : ١٤ - كتاب الديات ، ٧ - باب ماجاء في تشديد قتل المؤمن .

(٤) أخرجه الترمذی في : ١٤ - كتاب الديات ، ٨ - باب الحكم في الدماء .

(قلت : المعروف في اللغة : كبهم : كبه فأكب هو . المجرد متعدي ، والمزيد لازم .

هكذا نصوا عليه . وقال في اللسان : هذا من النوادر أن يقال : أفعلتُ أنا وفعلتُ غيري) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في : ٢١ - كتاب الديات ، ١ - باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً ،

حديث ٢٦٢٠ (طبعتنا) .

وقال البخارى^(١) : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا الغيرة بن النعمان قال : سمعت ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة . فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأله عنها . فقال : نزلت هذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وكذا رواه هو أيضاً ومسلم والنسائي من طرق عن شعبة ، به . ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدي عن سفيان الثوري عن مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . فقال : ما نسخها شيء . وقال ابن جرير^(٢) : حدثنا ابن بشار ، قال حدثنا ابن أبي عدي ، عن سعيد عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قال لي عبد الرحمن بن أبيزى : سئل ابن عباس عن قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ... الآية . فقال : لم ينسخها شيء . وقال في هذه الآية : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) إلى آخرها قال : نزلت في أهل الشرك . وروى ابن جرير^(٣) أيضاً عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . قال : إن الرجل إذا عرف الإسلام ، وشرائع الإسلام ، ثم قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ، ولا توبة له . فذكرت ذلك لمجاهد فقال : إلا من ندم . وروى الإمام أحمد^(٤) عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس ؛ أن رجلاً أتى إليه فقال : رأيت رجلاً قتل رجلاً عمداً ؟ فقال : جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ... الآية . قال : لقد نزلت من آخر ما نزل . ما نسخها

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٦ - باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ .

(٢) الأثر رقم ١٠١٩٢ .

(٣) الأثر رقم ١٠١٨٧ .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٢١٤٢

(طبعة المعارف) .

شئ حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ . قال :
أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنتى له بالتوبة ؟ وقد سمعت رسول الله
ﷺ يقول : ثكلته أمه . رجل قتل رجلاً متعمداً يجيئ يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو
بيساره ، أو آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله ، تشخب أوداجه دمًا قبل العرش يقول : يارب !
سل عبدك فيم قتلنى ! ورواه النسائى وابن ماجه . وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق
كثيرة . ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف ، زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن
عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم . نقله ابن
أبى حاتم . وفى الباب أحاديث كثيرة . فن ذلك ما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن
ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : يجيئ المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة ، آخذاً رأسه بيده
الأخرى ، فيقول : يارب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول : قتلته لتكون العزة لك . قال :
فإنها لى . قال ويجيئ آخر متعلقاً بقاتله فيقول : رب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول :
قتلته لتكون العزة لفلان . قال : فإنها ليست له . بوء يأثمه . قال ، فيموى به فى النار سبعين خريفاً .
ورواه النسائى ^(١) . وأخرج الإمام أحمد والنسائى ^(٢) عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : كل ذنب عسى الله أن يفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً . وقال
الإمام أحمد ^(٣) : حدثنا النضر . حدثنا سليمان بن المغيرة . حدثنا حميد قال : أتانى أبو العالية
أنا وصاحب لى : فقال لنا : هلمما فأنتم أشب سنًا منى ، وأوعى للحديث منى . فانطلق بنا إلى
بشر بن عاصم . فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك . فقال : حدثنا عقبه بن مالك
الليثى ، قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فأغار على قوم . فشد مع القوم رجل

(١) أخرجه النسائى فى : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ٢ - باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ١ - باب تحريم الدم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٨٩ بالجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ السَّرِيَّةِ شَاهِرًا سَيْفَهُ . فَقَالَ الشَّاذُّ مِنَ الْقَوْمِ : إِنِّي مُسْلِمٌ . فَلَمْ يَنْظُرْ فِيهَا قَالِ . فَضْرِبَهُ فَقَتَلَهُ . فَنَمَى الْحَدِيثُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ فِيهِ قَوْلًا شَدِيدًا . فَبَلَغَ الْقَاتِلُ . فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَاطِبُ إِذْ قَالَ الْقَاتِلُ : وَاللَّهِ ! مَا قَالَ الَّذِي قَالَ إِلَّا تَعَوَّذًا مِنَ الْقَتْلِ . قَالَ فَأَعْرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ وَعَمَّنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّاسِ . وَأَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : يَا رَسُولُ اللَّهِ ! مَا قَالَ الَّذِي قَالَ إِلَّا تَعَوَّذًا مِنَ الْقَتْلِ . فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَعَمَّنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّاسِ وَأَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ . ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ حَتَّى قَالَ الثَّلَاثَةَ : وَاللَّهِ ! يَا رَسُولُ اللَّهِ مَا قَالَ الَّذِي قَالَ إِلَّا تَعَوَّذًا مِنَ الْقَتْلِ . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَعَرَّفَ الْمَسَاءَةَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَبِي عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا . (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلْفَهَا . أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ . فَإِنْ تَابَ وَأَنَابَ وَخَشَعَ وَخَضَعَ ، وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، بَدَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ ، وَعَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاءَ عَنْ ظُلَامَتِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ^(١) الْآيَةَ . وَهَذَا خَبَرٌ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ . وَحَمَلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَحَمَلُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ - خِلَافُ الظَّاهِرِ . وَيَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ^(٢) . الْآيَةَ . وَهَذَا عَامٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ : مِنْ كُفْرٍ وَشُرْكَ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ وَقَتْلِ وَفَسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ . كُلٌّ مِنْ تَابَ مِنْ أَىِّ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ^(٣) . فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشُّرْكَ . وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَبْلَهَا ، لَتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨-٧٠] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ... إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٣) [٤ / النساء / ٤٨ و ١١٦] .

وثبت في الصحيحين^(١) خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه . فهاجر إليه فمات في الطريق . فقبضته ملائكة الرحمة . وإذا كان هذا في بني إسرائيل فَلَاَنْ يكون في هذه الأمة، التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى . لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم . وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا .. الآية ، فقد قال أبوهريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه . وقد رواه ابن مردويه بإسناده مرفوعاً . ولكن لا يصح . ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه . وكذا كل وعيد على ذنب . لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ، على قول أصحاب الموازنة والإحباط . وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد . والله أعلم بالصواب . وبتقدير دخول القاتل في النار ، إمام على قول ابن عباس ومن وافقه ، أنه لا توبه له . أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به - فليس بمخلد فيها أبداً . بل الخلود هو المكث الطويل . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ،

حديث ١٦٢٩ .

ومسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعنا) .

(٢) انظر حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ،

حديث ٢١ .

والحديث الذي أخرجه أيضاً عن أنس بن مالك في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٦ - باب

كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، حديث ٤٠ .

احرص عليهما كل الحرص ، ولا يفوتك قراءتهما ودراستهما والتمتع بما فيهما .

وأخرج الحديث الأول مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعنا) .

ثم قال ابن كثير : وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه من حقوق الآدميين . وهى لا تسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم . ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والغصب منه والمغبون والمقذوف وسائر حقوق الآدميين . فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم فى صحة التوبة . فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة . لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة . إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول ، أو بعضها . ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة . أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك . والله أعلم . انتهى . وقال النووي (فى شرح مسلم) فى شرح حديث الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس : استدل به على قبول توبة القاتل عمداً . وهو مذهب أهل العلم وإجماعهم . ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس . وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا ، فراد قائله الزجر والتوبة . لا أنه يعتد بطلان توبته . وهذا الحديث وإن كان شرع من قبلنا ، وفى الاحتجاج به خلاف ، فليس هذا موضع الخلاف . وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقديره . فإن ورد كان شرعاً لنا بلا شك . وهذا قد ورد شرعنا به . وذلك قوله تعالى : **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِلَّا لَا مَن تَاب... الآية (١)** . وأما قوله تعالى : **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا... الآية** . فالصواب فى معناها : أن جزاء جهنم . فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره . وقد لا يجازى بل يعفى عنه . فإن قتل عمداً مستحلاً بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد . يخلد فى جهنم بالإجماع . وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاص . مرتكب كبيرة ، جزاؤها جهنم خالداً فيها . لكن تفضل الله تعالى وأخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها . فلا يخلد هذا . ولكن قد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلاً . وقد لا يعفى عنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] ونصها : **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .**

بل يعذب كسائر عصاة الموحدين . ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد في النار . قال : فهذا هو الصواب في معنى الآية . ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة ، أن يتحتم ذلك الجزاء . وليس في الآية إخبار بأنه يخلد في جهنم . وإنما فيها أنها جزاؤه . أى : يستحق أن يجازى بذلك . وقيل : وردت الآية في رجل بعينه . وقيل : المراد بالخلود طول المدة ، لا الدوام . وقيل : معناها : هذا جزاؤه ، إن جازاه . وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة . لمخالفتها حقيقة لفظ الآية . فالصواب ما قدمناه . انتهى .

وقال علاء الدين الخازن : اختلف العلماء في حكم هذه الآية . هل هي منسوخة أم لا ؟ وهل لمن قتل متعمداً توبة أم لا ؟ فرؤى^(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : أَلَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا متعمداً من توبة ؟ قال : لا . فتلوت عليه الآية التي في الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ^(٢) . إلى آخر الآية . قال : هذه آية مكية . نسختها آية مدنية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . وفي رواية^(٣) ، قال : اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن . فرحلت إلى ابن عباس .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٥ - سورة الفرقان ، ٢ - باب قوله : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، حديث ١٨٠٩ ونصه : عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ، فقرأت عليه : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها على فقال : هذه مكية . نسختها آية مدنية . التي في سورة النساء .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٣) أخرجه البخارى في الباب السابق أيضا .

فقال : نزلت في آخر ما نزل . ولم ينسخها شيء . وفي رواية أخرى^(١) ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالمدينة : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . . إلى قوله مُهَانًا . فقال المشركون : وما يُعني عنا الإسلام ، وقد عدلنا بالله ، وقد قتلنا النفس التي حرم الله ، وأتينا الفواحش ؟ فأنزل الله تعالى : إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا . . . إلى آخر الآية^(٢) . زاد في رواية : فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له . أخرجه في الصحيحين . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس في هذه الآية فقال : من أين لك أنها محكمة ؟ فقال ابن عباس : تكاثف الوعيد فيها .

وقال ابن مسعود : إنها محكمة ، وما تزداد إلا شدة . وعن خارجة بن زيد قال : سمعت زيد ابن ثابت يقول : أنزلت هذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، بعد التي في الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، بستة أشهر . أخرجه أبو داود والنسائي . وزاد النسائي ، في رواية : بثمانية أشهر .

وقال زيد بن ثابت : لما نزلت هذه الآية في الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

(١) أخرجه البخاري أيضاً في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٥ - سورة الفرقان ، ٣ - باب قوله : يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهَا مُهَانًا . ونصها : عن سعيد ابن جبير قال : قال ابن أبيزى : سئل ابن عباس في قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، وقوله : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . . حتى بلغ إِلَّا مَنْ تَابَ . فسأله فقال : لما نزلت قال أهل مكة : فقد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأتينا الفواحش . فأنزل الله : إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا - إلى قوله - غَفُورًا رَحِيمًا .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

ءَاخَرًا ، عَجِبْنَا مِنْ لِينِهَا . فَلَبِثْنَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ نَزَلَتْ الْغُلِيظَةُ بَعْدَ اللَّيْنَةِ . فَنَسِخَتْ اللَّيْنَةَ .
وَأَرَادَ بِالْغُلِيظَةِ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ . وَبِاللَّيْنَةِ آيَةَ الْفِرْقَانِ . وَذَهَبَ الْأَكْثَرُونَ مِنْ
عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ . وَاخْتَلَفُوا فِي نَاسِخِهَا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ :
نَسَخَتْهَا الَّتِي فِي الْفِرْقَانِ . وَلَيْسَ هَذَا بِالْقَوِيِّ . لِأَنَّ آيَةَ الْفِرْقَانِ نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ النِّسَاءِ .
وَالْمُتَقَدِّمُ لَا يَنْسَخُ الْمُتَأَخِّرُ . وَذَهَبَ جُمْهُورٌ مِمَّنْ قَالَ بِالنَّسْخِ إِلَى أَنَّ نَاسِخَهَا الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ
أَيْضًا . وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ^(١)
وَأَجَابَ ، مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ ، عَنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ الْمُخْرَجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ :
ب أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ خَبَرٌ عَنْ وَقُوعِ الْعَذَابِ بِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ . وَالنَّسْخُ
لَا يَدْخُلُ الْأَخْبَارَ . وَلَئِنْ سَأَلْنَا أَنَّهُ يَدْخُلُهَا النَّسْخُ ، لَكِنْ الْجَمْعُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ مُمْكِنٌ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ
بَيْنَهُمَا تَعَارُضٌ . وَذَلِكَ بِأَنَّ يَحْمِلُ مَطْلُقَ آيَةِ النِّسَاءِ عَلَى تَقْيِيدِ آيَةِ الْفِرْقَانِ . فَيَكُونُ الْمَعْنَى :
فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ إِلَّا مَنْ تَابَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّشْدِيدِ
وَالْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْرِ عَنِ الْقَتْلِ . فَهُوَ كَمَا رَوَى عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ : إِنْ لَمْ يَقْتُلْ يَقَالُ لَهُ :
لَا تَوْبَةَ لَكَ . وَإِنْ قَتَلَ ثُمَّ نَدِمَ وَجَاءَ تَائِبًا يَقَالُ لَهُ : لَكَ تَوْبَةٌ .

وقيل : إنه قد روى عن ابن عباس مثله . وروى عنه أيضاً أن توبته تُقبل . وهو قول
أهل السنة . ويدل عليه الكتاب والسنة . أما الكتاب فقوله تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ
وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ^(٢) . وقوله : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ^(٣) . وأما السنة
فما روى عن جابر بن عبد الله قال : جاء أعرابيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ !

(١) [٤ / النساء / ٤٨] .

(٢) [٢٠ / طه / ٨٢] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

ما الموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار . أخرجه مسلم^(١) . وروى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال^(٢) : كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال : تباعون على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . وفي رواية : ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه . فبايعناه على ذلك . انتهى .

وقال العلامة أبو السعود : تمسكت الخوارج والمعتزلة بها في خلود من قتل المؤمن عمداً في النار . ولا متمسك لهم فيها . لا لما قيل من أنها في حق المستحل ، كما هو رأى عكرمة وأضرابه . بدليل أنها نزلت في مقيس بن صُبابَةَ الكِنَانِيّ المرتد . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام . لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً . وكذا ما روى عن سفيان : أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى في التشديد والتغليظ . وعليه يحمل ما روى عن أنس رضى الله تعالى عنه : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : أبتى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . وقال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله وأبو صالح : المعنى هو جزاؤه إن جازاه . قالوا : قد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب . ثم إن لم يجازاه بذلك لم يكن ذلك منه كذباً .

(١) أخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٥١ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في ٢ - كتاب الإيمان ، ١١ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٨ .

ومسلم في ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٤١ (طبعنا) .

قال الواحدى : والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد ، وأن امتنع أن يخلف الوعد . والتحقيق أنه لا ضرورة إلى تفريع مانحن فيه على الأصل المذكور . لأنه إخبار منه تعالى أن جزاءه ذلك . لا بأنه يجزيه بذلك . كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا)^(١) . ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها ، لعارضه قوله تعالى (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)^(٢) . انتهى .

وقال العلامة الشوكانى فى (نيل الأوطار) : وأما بيان الجمع بين هذه الآية وما خالفها فنقول : لا نزاع أن قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا) من صيغ العموم الشاملة للتائب وغير التائب . بل للمسلم والكافر . والاستثناء المذكور فى آية الفرقان . أعنى قوله تعالى : إِلَّا مَنْ تَابَ^(٣) . بعد قوله تعالى : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ^(٤) - مختص بالتائبين . فيكون مخصصاً للعموم قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا) . أما على ماهو المذهب الحق من أنه ينبى العام على الخاص مطلقاً ، تقدم أو تأخر أو قارن - فظاهر ، وأما على مذهب من قال : إن العام المتأخر ينسخ الخاص المتقدم ، فإذا سلمنا تأخر قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا) على آية الفرقان ، فلا نسلم تأخرها من العمومات القاضية بأن القتل مع التوبة من جملة ما يغفره الله . كقوله تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا^(٥) . وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] ونصها : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١) . ومن ذلك ما أخرجه مسلم^(٢) عن أبي هريرة . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وما أخرجه الترمذى^(٣) وصححه من حديث صفوان بن عسال . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : باب

(١) [٤ / النساء / ١١٦] .

(٢) أخرجه مسلم في ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٣ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب في فضل التوبة والاستغفار

وما ذكر من رحمة الله لعباده . ونصه :

عن زر بن حبیش قال : « أتيت صفوان بن عسال المرادى أسأله المسح على الخفين ؟ فقال : ما جاء بك يا زر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، رضا بما يطلب . فقلت : إنه حك في صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرءاً من أصحاب النبي ﷺ . فحُتُّ أسألك : هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سفراً أو مسافرين ، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا مع النبي ﷺ في سفر . فبينما نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهورى : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحوه من صوته « هاؤم » وقلنا له : ويحك . اغضض من صوتك ، فإنك عند النبي ﷺ ، وقد نهيت عن هذا . فقال : والله ! لا أغضض . قال الأعرابي : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم . قال النبي ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » .

فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قبل المغرب مسيرة سبعين عاماً . عرضه ، أو يسير الراكب في عرضه ، أربعين أو سبعين عاماً .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام « خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً (يعني للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » .
(قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

من قِبَلِ الْمَغْرِبِ يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة . خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض . مفتوح للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . وأخرج الترمذى^(١) أيضاً عن ابن عمر . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرر . وأخرج مسلم^(٢) من حديث أبي موسى ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . ونحو هذه الأحاديث مما يطول تعداده - لا يقال : إن هذه العمومات مخصصة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا .. الآية . لأننا نقول : الآية أعم من وجه ، وهو شمولها للتائب وغيره . وأخص من وجه ، وهو كونها في القاتل . وهذه العمومات أعم من وجه ، وهو شمولها لمن كان ذنبه القتل ولمن كان ذنبه غير القتل . وأخص من وجه ، وهو كونها في التائب . وإذا تعارض عموماً لم يبق إلا الرجوع إلى الترجيح . ولا شك أن الأدلة القاضية بقبول التوبة مطلقاً أرجح لكثرتها . وهكذا أيضاً يقال : إن الأحاديث بخروج الموحدين من النار وهى متواترة المعنى ، كما يعرف ذلك من له إلمام بكتب الحديث ، تدل على خروج كل موحد . سواء كان ذنبه القتل أو غيره . والآية القاضية بخروج من قتل نفساً هى أعم من أن يكون القاتل موحداً أو غير موحد . فيتعارض عموماً . وكلاهما ظنى الدلالة . ولكن عموم آية القتل قد عورض بما سمعته . بخلاف أحاديث خروج الموحدين ، فإنها إنما عورضت بما هو أعم منها مطلقاً . كآيات الوعيد للعصاة الدالة على الخلود الشاملة للكافر والمسلم . ولا حكم لهذه المعارضة ، أو بما هو أخص منها مطلقاً . كالأحاديث القاضية بتخليد بعض أهل المعاصى . نحو : من قتل نفسه . وهو يبنى العام على الخاص . وبما قررناه يلوح لك انتهاض القول بقبول توبة القاتل إذا تاب ،

(١) أخرجه الترمذى في الباب السابق .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعدم خلوده في النار إذا لم يتب . ويتبين لك أيضاً أنه لا حجة فيما احتج به ابن عباس من أن آية الفرقان مكية منسوخة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً . . . الآية . كما أخرج ذلك عنه البخاريّ ومسلم وغيرهما . وكذلك لا حجة له فيما أخرجه النسائيّ^(١) والترمذيّ^(٢) عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ينجى المقتول متعلقاً بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً . يقول : يارب ! قتلتني هذا . حتى يدنيه من العرش . وفي رواية للنسائيّ^(٣) فيقول : أي رب ! سل هذا فيم قتلتني ؟ لأن غاية ذلك وقوع المنازعة بين يدي الله عز وجل . وذلك لا يستلزم أخذ التائب بذلك الذنب . ولا تخليده في النار ، على فرض عدم التوبة . والتوبة النافعة ، ههنا ، هي الاعتراف بالقتل عند الوارث ، إن كان له وارث . أو السلطان ، إن لم يكن له وارث . والندم على ذلك الفعل ، والعزم على ترك العود إلى مثله . لا مجرد الندم والعزم ، بدون اعتراف . وتسليم للنفس أو الدية إن اختارها مستحقها . لأن حق الآدمي لا بُدّ فيه من أمر زائد على حقوق الله . وهو تسليمه أو تسليم عوضه بعد الاعتراف به . فإن قلت : فعلى مَ تحمل حديث أبي هريرة وحديث معاوية المذكورين في أول الباب ؟ فإن الأول يقضى بأن القاتل أو المُعين على القتل يلقي الله مكتوباً بين عينيه : الإياس من الرحمة . والثاني يقضى بأن ذنب القتل لا يغفره الله - قلت هما محمولان على عدم صدور التوبة من القاتل . والدليل على هذا التأويل ، ما في الباب من الأدلة القاضية بالقبول عموماً وخصوصاً . ولو لم يكن من ذلك إلا حديث الرجل القاتل للمائة ، الذي تنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . وحديث عبادة بن الصامت المذكور قبله . فإنهما يلجئان إلى المصير إلى ذلك التأويل . ولا سيما مع ما قدمنا من تأخر تاريخ حديث عبادة .

(١) أخرجه النسائيّ في : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ٢ - باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٥ - حدثنا

الحسن بن محمد الزعفرانيّ .

ومع كون الحديثين في الصحيحين . بخلاف حديث أبي هريرة ومعاوية . وأيضاً في حديث معاوية نفسه ما يرشد إلى هذا التأويل . فإنه جعل الرجل القاتل عمداً مقترناً بالرجل الذي يموت كافراً . ولا شك أن الذي يموت كافراً مصرّاً على ذنبه غير تائب منه ، من المخلدين في النار . فيستفاد من هذا التقييد أن التوبة تمحو ذنب الكفر . فيكون ذلك القرين الذي هو القاتل أولى بقبولها .

وقد قال العلامة الزمخشريّ في (الكشاف) : إن هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ . قال : ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى ، من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة . وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد : وإلا فكل ذنب محوٌّ بالتوبة . وناهيك بمحو الشرك دليلاً .

ثم ذكر حديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ، وهو عند النسائي^(١) من حديث بريدة ، وعند ابن ماجه^(٢) من حديث البراء . وعند النسائي^(١) أيضاً من حديث ابن عمرو . وأخرجه أيضاً الترمذي^(٣) انتهى . كلام الشوكاني .

وقال الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) : لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقيسط - كان (أى الظلم) من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه : وكان قتل الإنسان المؤمن من أقبح الظلم وأشده . ثم قال : ولما

(١) أخرجه النسائي في : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ٢ - باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٢١ - كتاب الديات ، ١ - باب التغليظ في قتل المسلم ، حديث ٢٦١٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الترمذي في : ١٤ - كتاب الديات ، ٧ - باب ماجاء في تشديد قتل المؤمن .

كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْقَتْلِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ^(١) .

ثم قال : وفي صحيح البخاري ^(٢) عن سمرة بن جندب قال : أول ما ينتن من الإنسان بطنه . فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل . ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل . وفي جامع الترمذي ^(٣) عن نافع قال : نظر عبد الله

(١) [٥ / المائة / ٣٢] ... وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٩ - باب من شاق شق الله عليه ، حديث ٢٤٣٩ ونصه :

عن طريف أبي تيمية قال : شهدت صفوان وجندبا وأصحابه وهو يوصيهم . فقالوا : هل سمعت من رسول الله شيئاً ؟ قال : سمعته يقول « من سمع سمع الله به يوم القيامة » قال « ومن يشاقق يشقق الله عليه يوم القيامة » فقالوا : أوصنا . قال : إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه . فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهرقه فليفعل .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٨٥ - باب ما جاء في تعظيم المؤمن ، ونصه :

عن نافع عن ابن عمر قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال : « يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفِضِ الإيمان إلى قلبه ! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم : فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته . ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله .

ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمة منك . قال الترمذی هذا حديث حسن . وفي صحيح البخاری^(١) أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً . وذكر البخاری^(٢) أيضاً عن ابن عمر قال : من ورطات الأمور التي لا يخرج لمن أوقع نفسه فيها ، سفك الدم الحرام بغير حله : وفي الصحيحين^(٣) عن أبي هريرة يرفعه : سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر . وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم^(٤) : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . وفي صحيح البخاری^(٥) عنه صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً . هذه عقوبة قاتل عدو الله ، إذا كان معاهداً في عهده وأمانه . فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟

== قال : ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت ، أو إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

(١) أخرجه البخاری في : ٨٧ - كتاب الديات ، ١ - باب قول الله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٢) أخرجه البخاری في : ٨٧ - كتاب الديات ، ١ - باب قول الله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٣) أخرجه البخاری في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٦ - باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، حديث ٤٤ .

(٤) أخرجه البخاری في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٣ - باب الإنصات للعلماء ، حديث ١٠٤ .

(٥) أخرجه البخاری في : ٥٨ - كتاب الجزية ، ٥ - باب إثم من قتل معاهداً بغير

جرم ، حديث ١٤٩٦ .

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار ، في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً ، فرآها النبي صلى الله عليه وسلم في النار والهرة تحبسها في وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم ؟ وفي بعض السنن عنه عليه السلام ^(١) : لروال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق .

وقال ابن القيم أيضاً قبل ذلك : وقد جعل الله سبحانه وتعالى جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً ، الخلود في النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل ، طوعاً واختياراً ، مانع من نفوذ ذلك الجزاء . وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف . وهما روايتان عن أحمد . والذين قالوا : لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفى له في دار العدل . قالوا : فما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله ، من استيفائه والعفو عنه . وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ وهذا أصح القولين في المسألة . إن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث . وهي وجهان لأصحاب الشافعي وأحمد وغيرها . ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث . فإن التوبة تهدم ما قبلها . والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده . قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم ، وجعلهم من خيار عباده . ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة .

(١) أخرجه النسائي في : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ٢ - باب تعظيم الدم .

وابن ماجة في : ٢١ - كتاب الديات ، ١ - باب التغليظ في قتل المسلم ، حديث ٢٦١٩ (طبعنا) .

والترمذي في : ١٤ - كتاب الديات ، ٧ - باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن .

وقال تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . وهذا في حق القاتل . وهي تناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه . قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه . ولا يمكن تسليمها إلى المقتول . فأقام الشارع وليه مقامه . وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه . فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث . والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله ، وحق للمظلوم المقتول ، وحق للولي . فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ، ندماً على ما فعل ، وخوفاً من الله ، وتوبة نصوحاً - ققطع حق الله بالتوبة ، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا .

فصل

ومن العلماء من اختار التوقف في هذا المقام . منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن المرتضى الباني . فإنه قال في كتابه (إيثار الحق) في (بحث الوعد والوعيد) . ما نصه : لا شك أن الاستثناء من الوعد والوعيد ، وتخصيص العمومات بالأدلة المتصلة والمنفصلة مقبول . إما على وجه الجمع ، ولا شك في جوازه وصحته وحسنه ، والإجماع على ذلك وكثرة وقوعه من سلف الأمة وخلفها . بل لا شك في تقديمه في الرتبة والبداءة بذلك قبل الترجيح . فإن تعذر الجمع فالترجيح . فإن وضع عمل به . فإن لم يتضح وجب الوقف لقوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ^(٢) . ولذلك اخترت الوقف في حكم قاتل المؤمن . بعد الانتصاف منه للمظلوم

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣]

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] ... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ

عَنْهُ مَسْئُولًا .

والقطع على أنه فاسق ملعون ، واجب قتله والبراءة منه . والقطع أن جزاءه جهنم خالداً فيها ، كما قال تعالى على ما أراد . وإنما وقفت في محل التعارض الذي أوضحت في (العواصم) . لا على حسب ما قيل في أن الله تعالى في هذه الآية ، هل يبين جزاءه الذي له أن يفعله إن شاء ؟ أو يبين جزاءه الذي تختار له في تنجيذه حين لم يبق إلا حقه بعد استيفاء حق المظلوم المقتول ؟ والله سبحانه أعلم .

فمن رجع الجمع بين وعيد القاتل وبين قوله تعالى : وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١) ، وسائر آيات الرجاء وأحاديثه - قال بالأول . ومن رجع وعيد القاتل في هذه الآية ، وفي الأحاديث المخصصة لقتل المؤمن ، بقطع الرجاء ، كما أوضحته في (العواصم) - رجع وعيد القاتل . ومن تعارضت عليه ولم ير في تنجيز الاعتقاد مصلحة ولا له موجباً ولا إليه ضرورة - رجع الوقف . والله عند لسان كل قائل ونيته . ولا شك في ترجيح النص الخاص على العموم وتقديمه . وعليه عمل علماء الإسلام في أدلة الشريعة . ومن لم يقدمه في بعض المواضع لم يمكنه الوفاء بذلك في كل موضع . واضطر إلى التحكم والتلون من غير حجة بيّنة . وقد أجمع من يعتد به من المسلمين على تخصيص الصغائر من آيات الوعيد العامة على جميع المعاصي ، متى كان أهل الصغائر من المسلمين . ولم يلزم من ذلك خلف في آيات الوعيد ولا كذب ولا تكذيب لشيء منها . فكذلك سائر ما صح من أحاديث الرجاء ليس فيه مناقضة لعمومات آيات الوعيد ، ولا يستلزم تجويز الخلف على الله تعالى . وذلك باب واحد . ولذلك اشتهرت أحاديث الرجاء في عصر الصحابة والتابعين . ولم ينكرها أحد . بل رواها أكابرهم وأئمتهم . وفي (العواصم) من ذلك عن علي عليه السلام بضعة عشر أثراً . بل المخصصات للعمومات في ذلك قرآنية . وعمومات الوعد مانعة قبل تخصيص الوعيد من الجزم على وقوع عمومته دون عموم الوعد . على أن الخلف

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

عند جماعات كثيرة لا يكون إلا في عدم الوفاء بالوعد بالخير . وأما الوعيد بالشر فقد اختلف في تركه . وأجمعوا على أنه يسمى عفواً . كما قال كعب بن زهير ^(١) :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

وإنما اختلفوا ، مع تسميته عفواً ، هل يسمى خلفاً أم لا ؟ ومن منع من ذلك ، منع صحة النقل له لغة . واحتج على امتناعه بأنه لا يصح اجتماع اسم مدح واسم ذم على مسمى واحد . انتهى .

فصل

تشرع الكفارة في قتل العمد . لما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: فليعتق رقبة. يفدى الله بكل عضو منها

(١) مطلع القصيدة :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفدَ مكبول

قال ابن هشام عند هذا البيت : جميع ما تقدم توطئة لهذا البيت . فإن غرضه من القصيدة التنصل والاستعطاف . ومعنى (أُنْبِئْتُ) أخبرت خبراً صادقاً . وترك ذكر الفاعل هنا لأمرين : أحدهما أنه لا يتعلق بتعيينه غرض . ومثله : إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا . وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا . وَإِذَا حَيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ . والثاني أن مقام الاستعطاف يناسبه تمريض الخبر بالوعيد . كأن تقول : رُؤِيَ كَذَا ، لا تحقيقه . والوعد في الخير والإيعاد في الشر . ولهذا قال بعض فصحاء العرب في دعائه : يا من إذا وعد وَفَى . وإذا أُوعد عفا

وفي البيت إعادة ذكر الرسول ﷺ لإظهار التفضيم والتعظيم .

ويذكر أنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما سمع هذا البيت قال « العفو عند الله » .

عضواً منه في النار . ورواه أيضاً بسند آخر عنه . قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب ، قال : أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار . وهذا رواه أبو داود^(١) والنسائي . ولفظ أبي داود : قد أوجب (يعني النار) بالقتل .

قال الشوكاني في (نيل الأوطار) : في حديث واثلة دليل على ثبوت الكفارة في قتل العمد . وهذا إذا عني عن القاتل أو رضى الوارث بالدية . وأما إذا اقتصر منه فلا كفارة عليه بل القتل كفارته . لحديث عبادة المذكور في الباب . ولما أخرجه أبو نعيم في (المعرفة) : أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : القتل كفارة . وهو من حديث خزيمة بن ثابت . وفي إسناده ابن لهيعة . قال الحافظ : لكنه من حديث ابن وهب عنه فيكون حسناً . ورواه الطبراني في الكبير عن الحسن بن علي موقوفاً عليه .

ثم حذر تعالى عما يؤدي إلى القتل العمد من قلة المبالاة في الأمور بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٨ - كتاب العتق ، ١٣ - باب ثواب العتق ، حديث ٢٩٦٤ ونصه : عن الغريف بن الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع . قلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان . فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص . قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من النبي ﷺ . قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا أوجب - يعني النار - بالقتل . فقال « أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ » أى : ذهبتم « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » إلى أرض العدو للغزو « فَتَبَيَّنُوا » أى : اطلبوا بيان كل ما تأتون وما تدرّون . ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَقْتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به ، وتعين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين . أى : لا تقولوا (لمن أظهر الانقياد لدعوتكم فقال : لا إله إلا الله ، أو سلّم عليكم فحيّاكم بتحية الإسلام) : لست مؤمناً في الباطن . وإنما قلته باللسان لطلب الأمان . بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه « تَبْتَغُونَ » أى : تطلبون بقتله « عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى : ماله الذي هو سريع النفاد . والجملة حال من فاعل (لَا تَقُولُوا) منبئة عما يحملهم على العجلة وترك التأني . وقوله تعالى « فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » تعليل للنهي عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمني . كأنه قيل : لا تبتغوا ماله ، فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها ، فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه . أفاده أبو السعود . ثم قال : وقوله تعالى « كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » . تعليل للنهي عن القول المذكور . أى : مثل ذلك الذي ألقى إليكم السلام ، كنتم أنتم أيضاً . في مبادئ إسلامكم . لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم ، من تحية الإسلام ونحوها . فمن الله عليكم ، بأن قبل منكم تلك الرتبة ، وعصم بها دماءكم وأموالكم ، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم . والفاء في قوله تعالى « فَتَبَيَّنُوا » فصيحة . أى : إذا كان الأمر كذلك ، فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم . وافعلوا به ما فعل بكم . في أوائل أموركم . من قبول ظاهر الحال ، من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن « إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فلا تهافتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك .

قال ابن كثير (في سبب نزولها) : أخرج الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال : مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرعى غنماً له . فسلم عليهم . فقالوا : ما يسلم علينا إلا ليتعوذ منا . فعمدوا إليه فقتلوه . وأتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وسلم .

فنزلت هذه الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إلى آخرها. ورواه الترمذی^(١) ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن أسامة بن زيد .

ورواه الحاكم وصححه. وروى البخاری^(٢) عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رجل في غنيمة له. فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم . فقتلوه ، وأخذوا غنيمة . فأنزل الله في ذلك ... إلى قوله: عرض الحياة الدنيا : (تلك الغنيمة) .

وقال البخاری^(٣) : قال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد : إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل . هكذا رواه البخاری معلقاً مختصراً .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار مطولاً موصولاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود . فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا . وبقي رجل له مال كثير لم يبرح . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . وأهوى إليه

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٦ - حدثنا

عبد بن حميد ، ونصه : عن ابن عباس قال : مرّ رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ . ومعه غنم له . فسلم عليهم . قالوا : ما سلم عليكم إلا لیتموذ منكم . فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه . فأتوا بها رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا .

(٢) أخرجه البخاری في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٧ - باب وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا .

(٣) أخرجه البخاری في : ٨٧ - كتاب الديات ، ١ - باب قول الله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢٢ .

المقداد فقتله . فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله ! لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ! إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد . فقال : ادعوا لي المقداد . يا مقداد ! أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ! فكيف لك بـ (لا إله إلا الله) غداً ؟ قال : فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا - إلى قوله - كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ... الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد : كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار . فأظهر إيمانه فقتلته . وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل .

قال ابن كثير : فقله تعالى : كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، أى : قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يُسرّ إيمانه ويخفيه من قومه . كما تقدم فى الحديث المرفوع ، وكما قال تعالى : وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ... الآية ^(١) . وهذا وجه آخر فى مرجع الإشارة ، غير ما سلف ، وهو الأدق . وبالقبول أحق .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : يُستفاد من هذه الرواية (أى : رواية البزار) تسمية القاتل . وأما المقتول ، فروى الثعلبى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وأخرجه عبد بن حميد من طريق قتادة نحوه . واللفظ للكلبي : أن اسم المقتول مرداس بن نهيك . من أهل فندك . وأن اسم القاتل أسامة بن زيد . وأن اسم أمير السرية غالب بن فضالة الليثي . وأن قوم مرداس لما انهزموا بقى هو وحده . وكان ألجأ غنمه بجبل . فلما لحقوه قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة بن زيد . فلما رجعوا نزلت الآية . وكذا أخرج الطبرى ^(٢) من طريق السدى نحوه . وفى آخر رواية قتادة : لأن تحية

(١) [٨ / الأنفال / ٢٦] ونصها : وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢٢١ .

المسلمين السلام ، بها يتعارفون . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال : أنزلت هذه الآية في مرداس . وهذا شاهد حسن . وأسند ابن أبي حاتم أن أسامة حلف لا يقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله ، بعد ذلك الرجل ، وما لقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

قال بعض المفسرين من أئمة الزيدية : وبهذا اعتذر إلى علي عليه السلام حتى تخلف عنه ، وإن كان عذراً غير مقبول . لأن القتال مع الإمام واجب عند خروج البغاة ويكفر يمينه .

قال الحاكم : إلا أن أمير المؤمنين أذن له . انتهى .

وروى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن أبي حنبل رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم . فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربي ، ومسلم بن جثامة بن قيس . فخرجنا حتى إذا كنا بيطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له . معه مئتيه له (تصغير متاع . وهو السلعة) ووطب من لبن . فلما مر بنا سلم علينا . فأمسكنا عنه . وحمل عليه مسلم بن جثامة فقتله ، لشيء كان بينه وبينه . وأخذ بعيره ومئتيه . فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر ، نزل فينا القرآن : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - إلى قوله تعالى - خَيْرًا . ورواه ابن جرير^(٢) عن ابن عمر وزاد : فجاء مسلم في بردين . فجلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال رسول الله ﷺ : لا يغفر الله لك . فقام وهو يتلقى دموعه بيرديه . فما مضت له سابعة حتى مات . ودفنوه في الأرض . فلفظته الأرض ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له . فقال إن

(١) أخرجه في السند بالصفحة ١١ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) وابن جرير :

الأثر رقم ١٠٢١٢ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢١١ .

الأرض تقبل من هو شرٌّ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم. ثم طرحوا بين صدقني جبل، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت .

وروى أئمة السير؛ أنه لما كان عام خير، جاء عيينة بن بدر يطلب بدم عامر وهو سيد قيس . وكان الأقرع بن حابس يردّ عن محمّد وهو سيد خندف ، فقال رسول الله ﷺ لقوم عامر : هل لكم أن تأخذوا منا الآن خمسين بعيراً، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟ فقال عيينة بن بدر: والله ! لا أدعُهُ حتى أذيق نساءه من الحرّ مثل ما أذاق نسائي . فلم يزل به حتى رضى بالدية .

قال ابن إسحق : وحدثني سالم بن النضر قال : لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس فخلا بهم . فقال : يا معشر قيس ! سألكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلاً تركونه ليصلح به بين الناس فمنعتموه إياه . أفأنتم أن يغضب عليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيغضب عليكم الله لغضبه ؟ أو يلعنكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلعنكم الله بلعنته ؟ والله ! لتسلمنّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآتين بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط . فلا بطلني دمه . فلما قال ذلك أخذوا الدية .

وأخرج ابن منده عن جزء بن الحدرجان قال : وقد أخى، قدادٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن . فلقيته سرية النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : أنا مؤمن . فلم يقبلوا منه وقتلوه . فبلغني ذلك . فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ ... الآية . فأعطاني النبي صلى الله عليه وسلم دية أخى .

قال القفال : ولا منافاة بين هذه الروايات . فلعلها نزلت عند وقوعها بأسرها . فكان كل فريق يظن أنها نزلت في واقعه . انتهى .

وتقدم لنا في مقدمة التفسير في سبب النزول ما يدفع التنافي في نحو هذا . فارجع إليه .

تنبيه :

قال الرازي : اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالثبّت فيه، لئلا يسفكوا دمًا حراماً بتأويل ضعيف . وفي (الإكليل) : استدل بظاهرها

على قبول توبة الزنديق إذا أظهر الاستسلام . وعلى أن الكافر يحكم له بالإسلام إذا أظهر ما ينافي اعتقاده، على قراءة (السلام) وفي الآية وجوب الثبوت في الأمور ، خصوصاً القتل ووجوب الدعوة قبل القتال . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : في الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحلّ دمه حتى يختبر أمره . لأن الإسلام تحية المسلمين . وكان تحيتهم في الجاهلية بخلاف ذلك . فكانت هذه علامة . وأما على قراءة (السلام) بفتحين ، أو بكسر فسكون، فالمراد به الاقياد . وهو علامة الإسلام . انتهى .

وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية الكريمة وجوب الثبوت والثاني فيما يحتمل الخطر والإباحة . لقوله : فَتَبَيَّنُوا (بالنون) وهذا قراءة الأكثر . وحجة والكسائي قراءتهما : (فتثبتوا) من (الثبات) . ويدخل في هذا أحكام كثيرة من الاعتقادات والأخبار والأفعال من الأحكام وسائر الأعمال، فهذا حكم . والحكم الثاني أنه يجب الأخذ بالظاهر . فن أظهر الإسلام أو شيئاً من شعائر الإسلام ، لا يكذب بل يقبل منه . ويدخل ، في هذا ، الملاحدة والمنافق . وهذا هو مذهبنا والأكثر . ويدخل في هذا قبول توبة المرتد ، خلافاً لأحمد . وقبول توبة الزنديق . وهذا قول عامة الأمة .

وقال مالك : لا تقبل ، لأن هذا عين مذهبهم أنهم يظهرن خلاف ما يبطنون . قال الرازي بالله والإمام يحيى : إن أظهرنا ما يعتادون إخفاءه قبلت توبتهم . وإلا فلا . قال علي خليل : تقبل توبتهم ، ولو عرفنا من باطنهم خلاف ما أظهرنا . كما قبل النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين ، وقد أخبر الله تعالى بكفرهم .

وقال أبو مضر : تقبل ما لم يعرف كذبهم . وهذا الخلاف في الظاهر . وأما عند الله ، إذا صدق ، فهي مقبولة وفاقا . قال الحاكم : وتدل على أن التوصل بالسبب المحرم إلى المال لا يجوز . وقد ذكر العلماء صوراً في التوصل إلى المباح بالمحظور، مختلفة . ذكرت في غير هذا

الموضع . والحجة هنا من قوله تعالى (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . لأن الذى قصد هنا أخذه، محذور . لأن إظهار الإسلام يحقق النفس والمال . فذلك توصل بمحذور إلى محذور . وقوله تعالى : لِمَنِ أُلْقِيَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا . قرئ (السلم) وهذه قراءة نافع وحزمة وابن عامر بغير ألف وهو الاستسلام . وقيل : إظهار الإسلام . وقرأ الباقر : (السلام) بألف وهو التحية . انتهى .

وقال أبو منصور فى (التأويلات) : فيه الأمر بالتثبت عند الشبهة ، والنهى عن الإقدام عندها . وهكذا الواجب على المؤمن الوقف عند اعتراض الشبهة فى كل فعل وكل خبر . لأن الله تعالى أمر بالتثبت فى الأعمال بقوله : فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أُلْقِيَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا . وقال فى الخبر : إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا^(١) . أمر بالتثبت فى الأخبار عند الشبهة ، كما أمر فى الأفعال لنبيه صلى الله عليه وسلم : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ^(٢) . وفى الآية دليل فساد قول المعتزلة . لأنه نهام أن يقولوا (لن قال : إني مسلم) لست مؤمناً . وهم يقولون : صاحب الكبيرة ليس بمؤمن . وهو يقول ألف مرة (على المثل) أنى مسلم . فإذا نهى أن يقولوا : ليس بمؤمن . أمرهم أن يقولوا : هو مؤمن . فيقال لهم : أنتم أعلم أم الله ؟ على ما قيل لأولئك . انتهى .

وقال الرازى : قال أكثر الفقهاء : لو قال اليهودى والنصرانى : أنا مؤمن ، أوقال : أنا مسلم ، لا يحكم بهذا القدر بإسلامه . لأن مذهبه أن الذى هو عليه هو الإسلام . وهو الإيمان . ولو قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعند قوم لا يحكم بإسلامه ، لأن فيهم من يقول : إنه رسول الله إلى العرب ، لا إلى الكل . ومنهم من يقول : إن محمداً الذى هو الرسول الحق ،

- (١) [٤٩ / الحجرات / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .
- (٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

بعدُ ماجاء ، وسيجيء بعد ذلك . بل لابد وأن يعترف بأن الدين الذي كان عليه باطل، وأن الدين الموجود فيما بين المسلمين هو الحق والله أعلم . انتهى .

أقول: كل من قال : أنا مؤمن أو أنا مسلم ، من المحاربين ، مظهرًا الانقياد لنا، وأنه من ملتنا ، فإنه يحكم بإسلامه ، ويكف عن قتله وأخذ ماله . كتابيًا كان أو مشركا . وهذا هو المقصود من الآية . وأما مسألة من أراد الدخول في الإسلام وهو على عقيدة فاسدة، وأنه لابد في صحة إسلامه من تبرئه عنها ، ونبذها ظهريًا ، وأنه لا يكتفى بقوله : أنا مسلم - فذاك بحث آخر مسلم . لكن ليس مما تشمله الآية . كما أن من أظهر الإسلام وأتى بالشهادتين ولم يَدِنْ بشرائع الإسلام وإقامة شعائره ، كبعض القبائل البادية الجافية ، فإنه يجب على الإمام قتالهم . ولا يقال: إن الآية تشملهم لما ذكرنا . وظاهر أن مدار النهي في الآية إنما هو على سفك الدماء ابتغاء عرض الدنيا . لقوله (تبتغون) . وهو حال كما أسلفنا . والحال قيد لعاملها . فما ذكره الرازي عن الفقهاء ليس مما تشمله الآية . لأن البحث ليس في القدر الذي يصير به الكافر مسلمًا ، بل في الكف عن قتل المنقاد لنا . فافهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »

بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم في الجهاد ، بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ، ليأنف القاعد عنه ويرفع بنفسه عن انحطاط رتبته ، فيهنّز له رغبة في ارتقاء طبقته . قاله أبو السعود .

وأصله للزخشرى حيث قال : فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان . فما فائدة نفي الاستواء ؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم واليون البعيد . ليألف القاعد ويرفع بنفسه عن انحطاط منزلته ، فيهتز للجهاد ويرغب فيه ، وفي ارتفاع طبقته . ونحوه : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(١) . أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم . انتهى .

والمراد بهم ، وقت النزول ، القاعدون عن غزوة بدر والخارجون إليها . كما رواه البخارى^(٢) والترمذى عن ابن عباس . وقوله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، خرج لذوى الأعدار المبيحة لترك الجهاد : من العمى والعرج والمرضى ، عن مساواتهم للقاعدين . فإنهم مساوون للمجاهدين بالنية . ولا يمتد بزيادة أجر العمل لهم لعظم أمر النية . كما روى الإمام أحمد والبخارى^(٣) وأبو داود عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعهم من وادٍ إلا وهم معكم فيه . قالوا : وهم بالمدينة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . حبسهم العذر . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ياراحلين إلى البيت العتيق لقد سرتهم جسوماً ، وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقننا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] ونصها : أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَأً مَا يُحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٨ - باب لا
يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٨٤١
(٣) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٣٥ - باب من حبسه العذر عن العدو ،
حديث ١٣٦٠ .

وروى البخارى^(١) عن البراء قال : لما نزلت : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها . فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته . فأُنزل الله : غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ . وفي رواية للبخارى^(٢) عن زيد : جاءه ابن أم مكتوم وهو يميلها على . قال : يا رسول الله ! والله ! لو أستطيع الجهاد لجاهدت . وكان أعمى . فأُنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان نخذه على نخذي ، فنقلت على حتى خفت أن ترض نخذي . ثم سرى عنه فأُنزل الله : غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ . وقوله تعالى « يَا مَوَالِيهِمْ » أى : التى ينفقونها على أنفسهم فى الجهاد أو على مجاهد آخر « وَأَنْفُسُهُمْ » أى : التى هى أعز عليهم من كل شىء . وإن أنفق عليهم غيرهم إذا لم يكن عندهم مال .

قال أبو السعود : وإيرادهم ، يعنى الغزاة ، بعنوان المجاهدين ، دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه ، كما وقع فى عبارة ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا تقييد المجاهدة بكونها فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، - لمدحهم بذلك والإشعار بعلّة استحقاقهم لعلو المرتبة ، مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود . انتهى .

وظاهر أن نفي المساواة يستلزم التفضيل . إلا أنه للاعتناء به ، وليتمكن أشد تمكن ، لم يكتف بما فهم ضمناً ، بل صرح به فقال « فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ » . لأنهم رجحوا جانبه « يَا مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ » أى : غير أُولَى الضَّرَرِ « دَرَجَةً » فى القرب ممن رجحوا جانبه « وَكُلًّا » أى : كل واحد من القاعدين والمجاهدين « وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى » أى : المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم . والجملة اعتراض جىء به تداركاً

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٨ - باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٦ .
- (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٨ - باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٧ .

لما عسى يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضل « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ » بالجهاد « عَلَى الْقَاعِدِينَ » أى بغير عذر « أَجْرًا عَظِيمًا » . أى : ثواباً وافراً فى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« دَرَجَاتٍ مِنْهُ » بدل من (أَجْرًا) بدل الكل . مبين لكمية التفضيل و (مِنْهُ) متعلق بمحذوف وقع صفة لـ (دَرَجَاتٍ) دالة على نخامتها وجلالة قدرها . قاله أبو السعود . وقد ثبت فى الصحيحين^(١) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : من رعى بسهم فله أجره درجة . فقال رجل : يا رسول الله ! وما الدرجة ؟ فقال : أما إنها ليست بعتبة أمك : ما بين الدرجتين مائة عام « وَمَغْفِرَةً » أى : لذنوبهم « وَرَحْمَةً »

(١) الحديث ليس لأبى سعيد وإنما هو لأبى هريرة . وهو من ضمن حديث طويل أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٤ - باب درجات المجاهدين فى سبيل الله ، حديث ١٣٣٥ وهذا نصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » . فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟ قال « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، أراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تتفجر أنهار الجنة » .

(٢) الحديث فى سنن النسائى فى : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٢٦ - باب ثواب من رعى بسهم فى سبيل الله عز وجل . ولكن عن كعب بن مرة .

فوق الأجر ودرجاته « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة .
وههنا فوائد :

الأولى - دلت الآية على أن الجهاد ليس بفرض عين . إذ لو كان فرضاً من فروض الأعيان لم يكن للقاعد فضل ، ولكن تفاوت الفضل بينه وبين المجاهد ، وقال : وكلا وعد الله الحسنى .

الثانية - دلت أيضاً على أن الجهاد أفضل من القرب التي يفعلها القاعد . لأنه فضله على القاعد مطلقاً . ويؤيد هذا قوله ﷺ : الجهاد سنام الدين . وقد فرّع العلماء على هذا أن رجلاً لو وقف ماله على أحسن وجوه البر ، أو أوصى أن يصرف في أحسن وجوه البر ، فإنه يصرف في الجهاد . خلاف ما ذكره أبو علي أنه يصرف في طلب العلم . كذا في بعض التفاسير .

الثالثة - قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية تفضيل المجاهدين على غيرهم . وأن المعنورين في درجة المجاهدين ، واستدل بقوله (بِأَمْوَالِهِمْ) على تفضيل المجاهد بماله نفسه على المجاهد بماله يعطاه من الديون أو نحوه .

الرابعة - قال الرازي : لقائل أن يقول : إنه تعالى قال : إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ . فقدم ذكر النفس على المال . وفي الآية التي نحن فيها وهي قوله : وَالْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . قدم ذكر المال على النفس ، فما السبب ؟ وجوابه : أن النفس أشرف من المال . فاشتري قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد . والبائع آخر ذكرها تنبيها على أن المضايقة فيها أشد . فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب .

الخامسة - قال أبو السعود : لعل تكرير التفضيل بطريق العطف النبيء عن المغيرة ، وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات ، مع اتحاد المفضل والمفضل عليه ، حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام - إما لتزليل الاختلاف العنوائى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات

منزلة الاختلاف الذاتي تمهيداً لسلوك طريق الإيهام، ثم التفسير رَوْماً لمزيد التحقيق والتقرير . كما في قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ عَلِيظٍ^(١) . كأنه قيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادِرُ قدرها ، ولا يبلغُ كنهها . وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موها لحرمان القاعدين ، قيل : وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإيهام ، بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة ، فقيل ما قيل . والله درّ شأن التنزيل . وإما للاختلاف بالذات بين التفضيليين وبين الدرجة والدرجات ، على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجليل الحقيقي بكونه درجة واحدة ، وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العالية الفاتنة للحصر ، كما ينبىء عنه تقديم الأول وتأخير الثاني ، وتوسيط الوعد بالجنة بينهما ، كأنه قيل : وفضلهم عليهم . في الدنيا درجة واحدة وفي الآخرة درجات لا تحصى . وقد وسط بينهما في الذكر ما هو متوسط بينهما في الوجود ، أعنى الوعد بالجنة ، توضيحاً لحالهما ومسارة إلى تسلية المفضل . والله سبحانه أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » روى البخارى^(١) عن ابن عباس

(١) [١١ / هود / ٥٨] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١٩ - باب إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... الآية ، حديث ١٩٩٣

أَنَّ نَاسًا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الشَّرْكَينَ يَكْتُمُونَ سَوَادَ الْمَشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيَصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ . أَوْ يُضْرِبُ فَيُقْتَلُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ ... الآية . وأُخْرِجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَسَمِيَ مِنْهُمْ (فِي رَوَايَتِهِ) قَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْغَيْرَةِ ، وَأَبَا قَيْسِ بْنِ الْفَاكِ بْنِ الْغَيْرَةِ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَعَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ سَفْيَانَ ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ . وَذَكَرَ فِي شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ . فَلَمَّا رَأَوْا قَلَّةَ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَهُمْ شَكٌّ وَقَالُوا : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ . فَقَتَلُوا بَيْدَرَ . وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَزَادَ : مِنْهُمْ الْحَرْثُ بْنُ زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ ، وَالْعَاصِمُ بْنُ مَنْبَةَ بْنِ الْحِجَّاجِ . وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ قَوْمٌ بِمَكَّةَ قَدْ أَسْلَمُوا . فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَرِهُوا أَنْ يَهَاجَرُوا ، وَخَافُوا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، إِلَى قَوْلِهِ : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ . وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ أَسْلَمُوا . وَكَانُوا يَخْفَوْنَ الْإِسْلَامَ . فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ . فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ . فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : هَؤُلَاءِ كَانُوا مُسْلِمِينَ ، فَأَكْرَهُوا فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ . فَزَلَتْ : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ... الآية . فَكَتَبُوا بِهَا إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، وَإِنَّهُ لَاعْذَرُ لَهُمْ ، فَخَرَجُوا . فَلَحِقَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ فَفَتَنُوهُمْ فَرَجَعُوا . فَزَلَتْ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ^(١) . فَكَتَبَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ فَتَحْزَنُوا . فَزَلَتْ : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا .. الآية ^(٢) . فَكَتَبُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ فَخَرَجُوا . فَلَحَقَهُمْ . فَتَجَا مِنْ نَجَا وَقَتْلَ مِنْ قَتْلٍ .

- (١) [٢٩ / العنكبوت / ١٠] ... وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .
- (٢) [١٦ / النحل / ١١٠] ... ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

وأخرج ابن جرير^(١) من طرق كثيرة نحوه. كذا في (لباب النقول). قال المهايي : ولما أُوهم ما فهم مما تقدم ، من تساوى القاعدين أولى الضرر والمجاهدين ، أن من قعد عن الجهاد لكونه في دار الكفر محسوب منهم ، وإن عجز عن إظهار دينه ، فإن لم يحسب فلا أقل من أن يحسب من القاعدين غير أولى الضرر ، الموعود لهم الحسنى - أزيل ذلك الوهم بأنهم بترك الهجرة من مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم ، مع إمكان الخروج عنه ، صاروا ظالمين مستحقين لتوبيخ الملائكة ، بل لعذاب جهنم ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أَى : في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة عن مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم مع القدرة عليها وبمواقفة الكفار . و (توفاهم) يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ : (توفاهم) ومضارعاً بمعنى تتوفاهم . بمعنى أن الله يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها . أى : يمكنهم من استيفائها فيستوفونها . كذا في (الكشف) . و (الظلم) قد يراد به الكفر كقوله تعالى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(٢) . وقديرادبه المعصية كقوله : فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ^(٣) . ويصح إرادة المعنيين هنا كما أشرنا . روى أبو داود^(٤) عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله . « قالوا » أى : الملائكة للمتوفين ، تقريراً لهم بتقصيرهم وتوبيخاً لهم « فِيمَ كُنْتُمْ » أى : في أى شيء كنتم من أمور دينكم « قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ » أى : أرض الأعداء . قال الزمخشري : كيف صح وقوع قوله (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) جواباً عن قولهم (فِيمَ كُنْتُمْ) وكان حق الجواب : كنا في كذا

(١) الأثر رقم ١٠٢٦١-١٠٢٦٩ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَمْطُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٣٢]

(٤) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٧٠ - باب في الإقامة بأرض الشرك ،

حديث ٢٧٨٧ .

١٤٨٨

أو لم نكن في شيء ؟ قلت معنى (فيم كنتم) التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا . فقالوا : كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به ، واعتلالاً بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء . فبكتهم الملائكة بقولهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » أرادوا : إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة . وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب ، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة - حقت عليه الهجرة . انتهى . « فَأُولَئِكَ » أي : النفر المذكور « مَاوَاهُمْ » أي : مصيرهم « جَهَنَّمَ » لأنهم الذين ضعفوا أنفسهم إذ لم يلجئهم الأعداء إلى مساكنة ديارهم « وَسَاءَتْ مَصِيرًا » أي : جهنم . بدل المصير إلى دار الهجرة . ثم استثنى سبحانه ما أهل الوعيد ما بينه بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)

« إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ » لعمى أو عرج أو مرض أو هرم أو فقر « وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ » أي : الصبيان فإنهم معذورون في ترك الهجرة لأنهم « لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً » في الخروج ، إذ لا قوة لهم على الخروج ولا نفقة « وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا » أي : لا يعرفون طريقاً إلى دار الهجرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا)
« فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » أن يتجاوز عنهم بترك الهجرة . قال الرازي :

ههنا سؤال . وهو أن القوم لما كانوا عاجزين عن الهجرة ، والعاجز عن الشيء غير مكلف به ، وإذا لم يكن مكلفاً به لم يكن عليه في تركه عقوبة - فلم قال : عسى الله أن يعفو عنهم ؟ والعفو لا يتصور إلا مع الذنب . وأيضاً (عسى) كلمة الإطاع . وهذا يقتضى عدم القطع بحصول العفو في حقهم . والجواب عن الأول : أن المستضعف قد يكون قادراً على ذلك الشيء مع ضرب من المشقة . وتمييز الضعف الذى يحصل عنده الرخصة ، عن الحد الذى لا يحصل عنده الرخصة ، شاق ومشتبه . فربما ظن الإنسان بنفسه أنه عاجز عن الهجرة ، ولا يكون كذلك ، ولا سيما في الهجرة عن الوطن . فإنها شاقة على النفس . وبسبب شدة النفرة قد يظن الإنسان كونه عاجزاً . مع أنه لا يكون كذلك . فلهذا المعنى كانت الحاجة إلى العفو شديدة في هذا المقام . والجواب عن الثانى - بأن الفائدة في (عسى) الدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه . حتى إن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول : عسى الله أن يعفو عني . فكيف الحال في غيره ؟ هذا ما ذكره صاحب (الكشاف) .

والأولى في الجواب ما قدمناه . وهو أن الإنسان لشدة نفرة عن مفارقة الوطن ، ربما ظن نفسه عاجزاً عنها . مع أنه لا يكون كذلك في الحقيقة . فلهذا المعنى ذكر العفو بكلمة (عسى) لا بالكلمة الدالة على القطع . انتهى . وقال أبو السعود : جئ بكلمة (الإطاع) ولفظ (العفو) إيذاناً بأن الهجرة من تأكيد الوجوب بحيث ينبغي أن يعد تركها ، ممن تحقق عدم وجوبها عليه ، ذنباً يجب طلب العفو عنه ، رجاءً وطمعاً . لا جزماً وقطعاً . وقال المهايى : فيه إشعار بأن ترك الهجرة أمر خطير . حتى إن المضطر حقه أن يترصد الفرصة ويعلق قلبه بها . وإن الصبي إذا قدر فلا محيص له عنه . وإن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم . ثم أكد الإطاع لئلا يأسوا فقال « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » وفي إقحام (كان) إشارة إلى اتصافه تعالى بهذه الصفة قبل خلق الخلق . أو أن هذه عادته تعالى ، أجراها في حق خلقه . ووعده بالعفو والمغفرة مطلقاً مما يدل على أنه تعالى قد يعفو عن الذنب قبل التوبة .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : استدلل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر ، إلا على من لم يطبقها . وعن مالك : الآية تقتضي أن كل من كان في بلد تُفَكَّر فيه السنن ، فينبغي أن يخرج منه . انتهى .

وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية وجوب الهجرة من دار الكفر . ولا خلاف أنها كانت واجبة قبل الفتح . ولذلك قال الله تعالى في سورة الأنفال : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ ^(١) . قيل : ونسخت بعد الفتح . والصحيح عدم النسخ . وقوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) : لا هجرة بعد الفتح ، معناه من مكة .

قال جابر الله : وهذا يدل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب ، وعلم أنه في غير بلده أقوم بحق الله ، حقت عليه الهجرة . ثم قال رحمه الله : قال في التهذيب : وعن القاسم بن إبراهيم : إذا ظهر الفسق في دار ، ولا يمكنه الأمر بالمعروف ، فلهجرة واجبة . وهذا بناء على أن الدور ثلاث : دار إسلام ، ودار فسق ، ودار حرب . وهذا التقسيم هو مذهب الهادي والقاسم ، وابن أبي النجم في كتاب

(١) [٨ / الأنفال / ٧٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١ - باب فضل الجهاد والسير ،

حديث ٧١٠ ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا » .

(الهجرة والدور) عن الراضى بالله وجعفر بن مبشر وأبى على. وذهب الإخوان وعامة الفقهاء وأكثر المعتزلة إلى النفي لدار الفسق. واعلم أن من حُمِلَ على معصية أو ترك واجب أو طالبه الإمام بذلك ، فالذهب وجوب الهجرة مع حصول الشروط المعتبرة . وقد قال الراضى بالله : إن من سكن دار الحرب مستحلاً ، كفر . لأن ذلك رد لصريح القرآن . واحتج بهذه . وقد حكى الفقيه حسام الدين حميد بن أحمد عن القاسم والهادى والراضى بالله : التكفير لمن ساكن الكفار فى ديارهم . وفى (مذهب الراضى بالله) : يكفر إذا جاورهم سنة . قال الفقيه شرف الدين محمد بن يحيى ، حاكياً عن الراضى بالله : إنه يكفر بسكنى دار الحرب وإن لم يستحل ؛ لأن ذلك منه إظهار الكفر على نفسه . والحكم بالتكفير محتمل هنا . ثم قال : وإنما استثنى تعالى الولدان ، وإن كانوا غير داخلين فى التكليف ، بيانا لعدم حيلتهم . والهجرة إنما تجب على من له حيلة . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : الهجرة الترك . والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره . وفى الشرع : ترك ما نهى الله عنه . وقد وقعت فى الإسلام على وجهين : الأول - الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن . كما فى هجرى الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة . الثانى - الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقرّ النبي ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه مَنْ أمكنه ذلك من المسلمين . وكانت الهجرة ، إذ ذاك ، تختص بالانتقال إلى المدينة . إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص . وبقى عموم الانتقال من دار الكفر ، لمن قدر عليه ، باقياً . انتهى . وقد أفصح ابن عمر بالمراد . فيما أخرجه الإسماعيلى بلفظ : انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار . أى : ما دام فى الدنيا دار كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن على دينه . وقد روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة . أخرجها مجد الدين بن تيمية فى (منتقى الأخبار) فى ترجمة (باب بقاء الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وأن لا هجرة من دار

أسلم أهلها) ثم قال : عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) : من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله . رواه أبو داود . وعن جرير بن عبد الله أن رسول الله ^(٢) صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل . فبلغ النبي ﷺ . فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنابرىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قالوا : يا رسول الله ! لم ؟ قال : لا تراءى نارها . رواه أبو داود والترمذي . وعن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . رواه أحمد ^(٣) وأبو داود ^(٤) . وعن عبد الله بن السعدى أن رسول الله ﷺ قال ^(٥) : لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو . رواه أحمد والنسائي .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٧٠ - باب في الإقامة بأرض الشرك ، حديث ٢٧٨٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٩٥ - باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود ، حديث ٢٦٤٥ .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه : عن أبي هند البجلي قال : كنا عند معاوية ، وهو على سريرته وقد غمض عينيه . فتذاكرنا الهجرة . والقائل منا يقول : قد انقطعت . والقائل منا يقول : لم تنقطع . فاستنبه معاوية . فقال : ما كنتم فيه ؟ فأخبرناه . وكان قليل السرد على النبي ﷺ . فقال : تذاكرنا عند رسول الله ﷺ فقال « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » .

(٤) وأخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢ - باب في الهجرة هل انقطعت ؟ ، حديث ٢٤٧٩ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال ^(١) : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية . رواه الجماعة إلا ابن ماجه . وعن عائشة ، وسئلت عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم . كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن . فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام . والمؤمن يعبدربه حيث شاء . رواه ^(٢) البخارى . وعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ فقال : هذا مجالد . جاء يبائعك على الهجرة . فقال : لا هجرة بعد فتح مكة . ولكن أبيامه على الإسلام والإيمان والجهاد . متفق عليه ^(٣) . ولما تضمنت ترجمة المجد، رحمه الله ، شقين،

(١) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١ - باب فضل الجهاد والسير ،

حديث ٧١٠ .

ومسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٨٥ (طبعنا) .

وأبوداود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢ - باب في الهجرة ، هل انقطعت؟ حديث ٢٤٨٠ .

والترمذى في : ١٩ - كتاب السير ، ٣٢ - باب ما جاء في الهجرة .

والنسائى في : ٣٩ - كتاب البيعة ، ١٥ - باب ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٣ - باب وقال الليث ،

حديث ١٤٥٧ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٣ - باب وقال الليث ،

حديث ١٤١٣ و١٤١٤ .

ومسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٨٣ و٨٤ (طبعنا) .

وهذا نص البخارى :

عن أبي عثمان قال : حدثني مجاشع قال : أتيت النبي ﷺ ، بأخى ، بعد الفتح . قلت :

يا رسول الله ! جئت بك بأخى لتبائعه على الهجرة . قال « ذهب أهل الهجرة بما فيها » فقلت :

على أى شىء تبائعه ؟ قال « أبيامه على الإسلام والإيمان والجهاد » .

فلقيت أبا معبد بعد ، وكان أكبرهما . فسأله فقال : صدق مجاشع .

أورد لكلِّ أحاديث ، فن قوله : لاهجرة بعد الفتح . الخ ، جميعه للشق الثاني . وهو قوله :
وأن لا هجرة من دار أسلم أهلها ، إشارة للجمع بين هذه الأحاديث . وهو ظاهر . ثم رغب
تعالى في المهاجرة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ،
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » في طاعته « يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا » أى : طريقاً
يراعم فيه أنوف أعدائه القاصدين إدراكه « كَثِيرًا وَسَعَةً » أى : في الرزق ، أو في إظهار
الدين ، أو في الصدر ، لتبديل الخوف بالأمن « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ » بمكة « مُهَاجِرًا
إِلَى اللَّهِ » إلى طاعته ، أو إلى مكان أمراء الله « وَ » إلى «رَسُولِهِ » بالمدينة « ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ »
أى : في الطريق قبل أن يصل إلى المقصد « فَقَدْ وَقَعَ » أى : ثبت «أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى : فلا يخاف
فوات أجره الكامل ، لأنه نوى مع الشروع في العمل . ولا تقصير منه في عدم إتمامه « وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التي جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت
الخروج . ويرحمه بإكمال ثواب هجرته .

تنبيهات

الأول - فيما روى في نزول الآية . أخرج ابن أبي حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن
عباس قال : خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً . فقال لأهله : احمولوني فأخرجوني من
أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى في الطريق قبل أن يصل إلى النبي
صلى الله عليه وسلم . فنزل الوحي : ومن يخرج من بيته... الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد

ابن جبير عن أبي ضمرة الزرقى ، الذى كان مصاب البصر ، وكان بمكة . فلما نزلت : **إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً** ، فقال : إني لغنى وإني لذو حيلة . فتجهز يريد النبى صلى الله عليه وسلم . فأدركه الموت بالتنعيم . فنزلت هذه الآية : **وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... إِلَى آخَرِهَا** . وأخرج ابن جرير ^(١) نحو ذلك من طرق ، عن سعيد ابن جرير وعكرمة وقتادة والسدى والضحاك وغيرهم . وسمى فى بعضها ضمرة بن العيص ، أو العيص بن ضمرة . وفى بعضها جندب بن ضمرة الجندعى . وفى بعضها الضمرى . وفى بعضها رجل من بنى ليث . وفى بعضها من بنى كنانة . وفى بعضها من بنى بكر .

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ؛ أن جندع بن ضمرة الضمرى كان بمكة . فرض . فقال لبنيه : أخرجوني من مكة فقد قتلنى غمها . فقالوا : إلى أين ؟ فأوماً بيده نحو المدينة . يريد الهجرة . فخرجوا به . فلما بلغوا أضاة بنى غفار ، مات . فأُنزل الله فيه : **وَمَنْ يَخْرُجْ ... الْآيَة** .

وأخرج الأموى فى (مغازيه) عن عبد الملك بن عمير قال : لما بلغ أ كثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يأتيه . فأبى قومه أن يدعوه . قال : فليأت من يبلغه عني ويبلغني عنه . فانتدب له رجلان . فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أ كثم بن صيفى وهو يسألك : مَنْ أَنْتَ؟ وما أَنْتَ؟ وبم جئت؟ قال أنا محمد بن عبد الله . وأنا عبد الله

(١) عن سعيد بن جبير الأثر رقم ١٠٢٨٢ ورقم ١٠٢٨٣ .

وعن عكرمة الأثر رقم ١٠٢٨٧ و ١٠٢٩١ و ١٠٢٩٢ .

وعن قتادة الأثر رقم ١٠٢٨٥ و ١٠٢٨٦ .

وعن السدى الأثر رقم ١٠٢٩٠ .

وعن الضحاك الأثر رقم ١٠٢٨٩ .

ورسوله . ثم تلا عليهم : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... الآية (١) . فأتيا أكرم فقالا له ذلك . قال : أى قوم ! إنه يأمر بمكارم الأخلاق . وينهى عن ملأها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساً ولا تكونوا فيه أذناناً . فركب بعيره متوجهاً إلى المدينة ، فمات فى الطريق . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... الآية . قال السيوطى : مرسل . إسناده ضعيف . وأخرج أبو حاتم فى كتاب (المعمرين) من طريقين عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال : نزلت فى أكرم بن صيفى . قيل : فأين الليثى ؟ قال : هذا قبل الليثى بزمان . وهى خاصة عامة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن منده والباوردى فى (الصحابة) عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن الزبير بن العوام قال : هاجر خالد بن حرام إلى أرض الحبشة . فنهشته حية فى الطريق فمات . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ ... الآية .

قال الزبير : فسكنت أتوقمه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة . فما أحرزنى شيء حزن وفاته حين بلغتنى . لأنه قلَّ أحدٌ هاجر من قريش إلا ومعه بعض أهله ، أو ذوى رحمه . ولم يكن معى أحد من بنى أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا الأثر غريب جداً . فإن هذه القصة مكية . ونزول الآية مدنى . فلمعله أراد أنها تعم حكمه مع غيره ، وإن لم يكن ذلك سبب النزول . والله أعلم .
الثانى - ثمرة الآية ، أن من خرج للهجرة ، ومات فى الطريق فقد وجب أجره على الله . قال الحاكم : لكن اختلف العلماء . فقيل : أجر قصده . وقيل : أجر عمله دون أجر الهجرة . وقيل : بل له أجر المهاجرة ، وهو ظاهر فى سبب نزول الآية .

(١) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

قال الحاكم : وقد استدل بعض العلماء أن الغازي يستحق السهم وإن مات في الطريق .
قال : وهو بعيد . لأن المراد بالآية أجر الثواب .

قال الزخشريّ ، حكاية عن المفسرين : إن كل هجرة لغرض دينيّ من طلب علم أو حج أو جهاد ، أو فراراً إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة ، أو زهداً في الدنيا ، وابتغاء رزق طيب ، فهي هجرة إلى الله ورسوله . وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله .

ووقع في كلام الزخشريّ على الآية السابقة هذا الدعاء . وهو : اللهم ! إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بديني ، فأجعلها سبباً في خاتمة الخير ، ودرك المرجو من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصِلْ جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك في دار كرامتك ، يا واسع المغفرة .

وكلامه ، رحمه الله ، بناء على أنه يستحب للإنسان أن يدعو الله بصالح عمله .
وقد ذكر البخاريّ^(١) ومسلم حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانسد عليهم بصخرة .
وصوبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعا كل واحد منهم بصالح عمله . وانفجرت عنهم الصخرة .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٩٨ - باب إذا اشترى شيئاً لغيره .
بغير إذنه فرضي ، حديث ١١١١ .
وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ١٠٠ (طبعتنا) .
وهذا نصه من البخاريّ :

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر . فدخلوا في غار في جبل . فأنحطت عليهم صخرة . قال فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه . فقال أحدهم : اللهم ! إني كان لي أبوان شيخان كبيران . فكنت أخرج فأرعى -

وقد اقتضت الآية لزوم الهجرة ولو ببذل مال كالحج . وفيما سبق من حديث الذي حمل من مكة وقد قال : احملوني فإنني لست من المستضعفين - إشارة إلى أنها تجب الهجرة إذا تمكن من الركوب ولو مضطجماً في الحمل . لأنه حمل على سرير . وقد ذكر المتأخرون (في الحج) أن الصحيح الذي يلزمه أن يمكنه الثبات على الحمل ، قاعداً لا مضطجماً ، لأن أحداً لا يعجز عن ذلك . فيحتمل أن يسوى بين المسألتين . وأنه يجب الحج ولو مضطجماً .

ثم أجيء فأحلب . فأجيء بالحلاب فأتى به أبوى فيشربان . ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى . فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان . قال فكرهت أن أوقظهما . والصبية يتضاغون عند رجلى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر . اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء . قال ففرج عنهم .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى . كأشد ما يحب الرجل النساء . فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطىها مائة دينار . فسمعت فيها حتى جمعها . فلما قعدت بين رجلها قالت : اتق الله ولا تفُضْ الخاتم إلا بحقه . فقمتم وتركها . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة .

قال ففرج عنهم الثلثين .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً بفرق من ذرة . فأعطيته . فأبى ذاك أن يأخذ . فعمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشترت منه بقرأ وراعيها . ثم جاء فقال : يا عبد الله ! أعطنى حقى . فقلت : انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك .

فقال : أستهزى بى ؟

قال فقلت : ما أستهزى بك . ولكنها لك .

اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا . فكشِف عنهم .

وأُنهما لا يجبان مع الاضطجاع . وفعل ضميرة على سبيل الشذوذ . ويحتمل أن يفرق بينهما وتجعل الهجرة أغلظ . لأن فعل المحذور ، وهو الإقامة ، أغلظ من ترك الواجب . وهذا يحتاج إلى تحقيق . كذا في تفسير بعض الزيدية .

الثالث - روى في معنى هذه الآية أحاديث وافرة . منها ما في الصحيحين^(١) والسنن والمانيد : عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . قال ابن كثير : وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال .

ومنه الحديث الثابت في الصحيحين^(٢) في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكل ، بذلك العابد ، المائة . ثم سأل عالماً : هل له من توبة ؟ فقال له : ومن يحول بينك

(١) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ١ - باب حدثنا الحميدي ، حديث ١ . ومسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٥٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - حدثنا أبو اليمان ، حديث

. ١٦٢٩

ومسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعنا) .

ونصه عن البخاري :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً . ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا . فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدرة نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب : فأوحى الله إلى هذه أن : تقربني . وأوحى الله إلى هذه أن : تباعدني وقال : قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقرب بشبر . فعُفِرَ له .

وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقال هؤلاء : إنه جاء تائباً . وقال هؤلاء : إنه لم يصل بعد . فأمروا إن يقيسوا ما بين الأرضين . فإلى أيهما كان أقرب فهو منها . فأمر الله هذه أن تقترب من هذه وهذه أن تبعد . فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر . فقبضته ملائكة الرحمة . وفي رواية : أنه لما جاء الموت نأى بصدرة إلى الأرض التي هاجر إليها .

وروى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن عتيك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله ، فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا)

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : سافرت « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى : إنم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه :

عن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله عز وجل (ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث الوسطى والسبابة والإبهام فجمعهن وقال : وأين المجاهدون) فخرّ عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله تعالى . أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله . أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله عز وجل » (والله ! إنها الكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ) فمات فقد وقع أجره على الله تعالى . ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب .

« أَنْ تَقْصُرُوا » أى : تنقصوا شيئاً « مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمْ » أى : يقاتلكم الذين كفروا « فِي الصَّلَاةِ » إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا إِلَيْكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا » ظاهر العداوة . فلا يراعون حرمة الصلاة لعداوتهم .

تنبيه : في مسائل تتعلق بالآية :

الأولى - ذهب الجمهور إلى أن الآية عني بها تشريع صلاة السفر . وإن معنى قوله تعالى : « أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ » هو قصر الكمية ، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية . قالوا : وحكمها للمسافر في حال الأمن حكمها في حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقاً . روى الترمذى ^(١) والنسائى وابن أبي شيبة عن ابن عباس . أن النبي صلى الله عليه وسلم : خرج من المدينة لا يخاف إلا الله رب العالمين . فصلى ركعتين . وروى البخارى ^(٢) وبقيّة الجماعة عن حارثة بن وهب قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن ما كان ، بمنى ، ركعتين . وروى البخارى ^(٣) والبقية عن أنس قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . قلت : أقم بمكة شيئاً ؟ قال : أقنأ بها عشرأ .

وحينئذ فقوله تعالى : (إِنْ خِفْتُمْ) خرج مخرج الغالب ، حال نزول الآية . إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة في مبدئها خوفاً . بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو سرية خاصة ، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله . والمنطوق ، إذا خرج مخرج الغالب .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤ - كتاب الجمعة ، ٣٩ - باب ما جاء في التقصير في الصلاة .

(٢) أخرجه البخارى في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ٢ - باب الصلاة بمنى ،

حديث ٥٩٧ .

(٣) أخرجه البخارى في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١ - باب ما جاء في التقصير

وكم يقيم حتى يقصر ؟ حديث ٥٩٥ .

فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله: **إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**. - ونحن ءامنون؟
فقال: سنة رسول الله ﷺ.

وروى ابن مردويه عن أبي الوداك قال: سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر؟ فقال:
هي رخصه نزلت من السماء. فإن شئتم فردوها.

قالوا: فهذا يدل على أن القصر المذكور في الآية هو القصر في عدد الركعات.
وإن ذلك كان مفهوماً عندهم من معنى الآية. قالوا: ومما يدل على أن لفظ (القصر) كان مخصوصاً
في عرفهم بنقص عدد الركعات. ولهذا المعنى، لما صلى النبي ﷺ الظهر ركعتين، قال له
ذو اليمين: أقصرت الصلاة أم نسيت؟^(١)

هذا، وذهب كثير من السلف، منهم مجاهد والضحاك والسدي، إلى أن هذه الآية نزلت
في صلاة الخوف. وأن المعنى بالقصر هو قصر الكيفية لا الكمية. لأن عندهم كمية صلاة المسافر
ركعتان. فهي تمام غير قصر. كما قاله عمر وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم. قالوا: ولهذا
قال تعالى: **(إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** وقال تعالى بعدها **(وَإِذَا كُنْتَ
فِيهِمْ فَاقْصِرْ لَهُمُ الصَّلَاةَ...)** الآية. فبين المقصود من القصر هنا. وذكر صفته وكيفيته.
ولهذا لما عقد البخاري (كتاب صلاة الخوف) صدره بقوله تعالى: **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...** إلى قوله: **إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا**. وهكذا قال جوبير عن الضحاك في قوله: **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا
مِنَ الصَّلَاةِ**، قال: ذاك عند القتال. يصلي الرجل الركبتين حيث كان وجهه. وقال

(١) أخرجه البخاري في: ٢٢ - كتاب السهو، ٤ - باب من لم يشهد في سجدة السهو،
حديث ٣٢٠ ونصه. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين.
فقال له ذو اليمين: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ يارسول الله! فقال رسول الله ﷺ: أصدق
ذو اليمين؟ فقال الناس: نعم. فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم. ثم كبر
فسجد مثل سجوده أو أطول. ثم رفع.

أسباط عن السديّ، في هذه الآية : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام التقصير . لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ، يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان . والمشركون بضجنان فتوافقوا . فصلّى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات . بركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعاً . فهم بهم المشركون أن يُغيروا على أمتهم وأثقالهم . روى ذلك ابن أبي حاتم . ورواه ابن جرير^(١) عن مجاهد والسديّ ، وعن جابر وابن عمر . واختار ذلك أيضاً . فإنه قال ، بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك : وهو الصواب . ثم روى عن أمية أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر . فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به . فقد سمي صلاة الخوف مقصورة . وحمل الآية عليها ، لا على قصر صلاة المسافر . وأقره ابن عمر على ذلك . واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع . لا بنص القرآن . وأصرح من هذا مارواه أيضاً عن سماك الحنفيّ قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر ؟ فقال : ركعتان تمام غير قصر . إنما القصر في صلاة المخافة . فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال . يصلي الإمام بطائفة ركعة . ثم يجيئ هؤلاء إلى مكان هؤلاء . ويجيئ هؤلاء إلى مكان هؤلاء . فيصلّي بهم ركعة . فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

هذا ما نقله ابن كثير . وهو موافق لما نقله بعض مفسري الزيدية عن الهادوية والقاسمية ؛ أن الآية واردة في صلاة الخوف ، وأن المراد بالقصر في الآية قصر الصفة . بمعنى أن المأموم يقصر ائتمامه فيأتيهم بركعة . ويصلي منفرداً في ركعة . انتهى .

(١) عن مجاهد ، الأثر رقم ١٠٣٢١ و ١٠٣٢٢ و ١٠٣٢٣ .

وعن السديّ ، الأثر رقم ١٠٣٢٦ .

وعن جابر ، الأثر رقم ١٠٣٢٥ .

وعن ابن عمر ، الأثر رقم ١٠٣٢٧ .

قال العلامة أبو السعود : إن هذه الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته . وفي حق ما يتعلق به من الصلوات . وفي مقدار مدة الضرب الذي نيط به القصر . فكل ماورد عنه ﷺ من القصر في حال الأمن ، وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف ، وبالضرب في المدة المعينة - بيان لإجمال الكتاب .

المسألة الثانية - إذا حمل القصر على قصر العدد ، وأن الرباعية تكون ركعتين ، فاحكم هذا القصر؟ قلنا : في هذا مذاهب أربعة : الأول - أن القصر رخصة والإتمام أفضل . الثاني - أنه حتم ، الثالث - أنه سنة غير حتم . الرابع - أنه خير كما يخير في الكفارات . وأنها ، أعنى القصر والإتمام ، واجبان . وهاك بيان متعلق بهذه المذاهب . تعلق أهل القول الأول بقوله تعالى : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ . وهذه الكلمة تستعمل فيما هو مباح جائز ، لا فيما هو فرض . نحو : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ^(١) . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ ^(٢) . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ^(٣) . إن قيل : قد يستعمل ذلك في الواجب

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٠] ونصها : فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] ونصها : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَتَعْتَمِدُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

مثل : فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا^(١) . أجابوا بأن ذلك على سبيل المجاز . ومن جهة السنة ، ماروى عن عائشة قالت : اعتمرت مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة . حتى إذا قدمت مكة قلت : يا رسول الله ! بأبي وأمي أنت ! قصرت وأتممت . وصمت وأفطرت . فقال : أحسنت ، يا عائشة ! وما عاب علي . وكان عثمان يقصر ويتم .

ومن جهة المعنى ، أن المعقول والمفهوم من لفظ (القصر) إنما هو الرخصة لأجل مشقة المسافر . كما رخص له في الإفطار . وفي الحديث : تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته . تعلق أهل المذهب الثاني بأن قالوا : حملنا لفظ الجناح على الفرض ، وإن كان مجازاً ، لما روى عن ابن عباس^(٢) قال : فرضت الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين . وعن عمر^(٣) : صلاة الجمعة ركعتان وصلاة السفر ركعتان . تمام غير قصر . على لسان نبيكم . وكانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره ركعتين . وأقام بمكة ثمانية عشر يوماً يقصر ويقول : أتموا ، يا أهل مكة ! فإننا قوم سفر . وعن الشعبي : من أتم في السفر فقد رغب عن ملة إبراهيم . وروى أن عثمان أتم الصلاة بمكة . فأنكر عليه عبد الله بن مسعود . وقال : صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين . وخلف أبي بكر ركعتين . منفصلتين . فاعتذر عثمان بضروب من الأعذار . منها أنه قد تأهل . وقيل : أتم لأن مذهبه أن القصر لمن لم يكن له زاد ولا راحلة . وهو مذهب سعد بن أبي وقاص . فيكون قولنا : قصرت

(١) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ - باب تقصير الصلاة في السفر ، حديث ١٠٦٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ - باب تقصير الصلاة في السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

الصلاة، مجازاً ، لأنها تامة إذا نقص من الأربع . ويقولون : هذه الأخبار تعارض ما يفهم من معقولية التسهيل . ومتعلق أهل القول الثالث والرابع بالجمع بين الروايات ، وسائر الوجوه التي تعلق بها أهل القولين الأولين . فكان واجباً تحييراً . ومن قال : إنه سنة ، فلا ن المشهور عنه ﷺ القصر في الأسفار، كذا في تفسير بعض الزيدية .

أقول : حديث عائشة المذكور . رواه النسائي والدارقطني والبيهقي . واختلف قول الدارقطني فيه ، فقال في (السنن) : إسناده حسن . وقال في (العلل) : المرسل أشبه . وقال ابن حزم : هذا حديث لا خير فيه . وطعن فيه . وقال ابن النجوى (في البدر المنير) : في متن هذا الحديث نكارة . وهو كون عائشة خرجت مع النبي ﷺ في عمرة رمضان . والمشهور أن عمره كلهن في ذى القعدة . وأطال في ذلك .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : وكا ﷺ يقصر الرباعية . فيصلها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلى أن يرجع إلى المدينة . ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في سفره البتة . وأما حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتم ، ويفطر ويصوم ، فلا يصح . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هو كذب على رسول الله ﷺ . انتهى .

وقد روى (كان يقصر وتم) الأول بالياء آخر الحروف . والثاني بالتاء المثناة من فوق . وكذلك (يفطر وتصوم) أي تأخذ هي بالعزيمة في الموضعين .

قال شيخنا ابن تيمية : وهذا باطل . ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله ﷺ وجميع أصحابه . فتصلي خلاف صلاتهم . كيف ؟ والصحيح عنها^(١) : أن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين . فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيدت في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن بها ، مع ذلك ، أن تصلي بخلاف صلاة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه؟

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ١ - كيف فرضت الصلوات في

الإسراء ، حديث ٢٣٦ .

ثم قال ابن القيم : قلت : وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ . قال ابن عباس وغيره : إنها تأولت كما تأول عثمان . وإن النبي ﷺ كان يقصر دائماً . فركب بعض الرواة من الحديثين حديثاً وقال : فكان رسول الله ﷺ يقصر ويتم هي . فنلط بعض الرواة فقال : كان يقصر ويتم . أي : هو . والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه . فقيل : ظنت أن القصر مشروط بالخوف والسفر . فإذا زال سبب الخوف زال سبب القصر . وهذا التأويل غير صحيح . فإن النبي ﷺ سافر آمناً . وكان يقصر الصلاة . والآية قد أشكلت على عمر رضي الله عنه وغيره . فسأل عنها رسول الله ﷺ فأجابه بالشفاء . وأن هذا صدقة من الله وشرع شرعه للأمة . وكان هذا بيان أن حكم المفهوم غير مراد . وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الأمن والخائف . وغايته أنه نوع تخصيص للمفهوم ، أو رفع له . وقد يقال : إن الآية اقتضت قصرأ يتناول الأركان بالتخفيف . وقصر العدد بنقصان ركعتين . وقيد ذلك بأمرين : الضرب في الأرض والخوف . فإذا وجد الأمران ، أبيح القصر . فيصلون صلاة تامة كاملة . وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده . فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفى العدد . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق في الآية . فإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفى الأركان ، وسميت صلاة أمن . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق . وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة ، باعتبار نقصان العدد . وقد تسمى تامة ، باعتبار إتمام أركانها ، وأنها لم تدخل في قصر الآية . والأول اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين . والثاني يدل عليه كلام الصحابة . كمائشة وابن عباس وغيرهما . قالت عائشة : فرضت الصلاة ركعتين . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع . وإنما هي مفروضة كذلك . وأن فرض المسافر ركعتان . وقال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً . وفي السفر ركعتين . وفي الخوف ركعة . متفق على

حديث عائشة . وانفرد مسلم^(١) بحديث ابن عباس .

وقال عمر بن الخطاب^(٢) : صلاة السفر ركعتان . والجمعة ركعتان . والعيد ركعتان .

تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وقد خاب من افترى . وهذا ثابت عن عمر رضي الله عنه . وهو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما بالنا نقصر وقد أمنا ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته . ولا تناقض بين حديثيه . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أجابه بأن هذه صدقة الله عليكم ، ودينه اليسر السمح ، علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد ، كما فهمه كثير من الناس ، فقال : صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر . وعلى هذا فلا دلالة في الآية على أن قصر العدد مباح ، منى عنه الجناح . فإن شاء المصلي فعله وإن شاء أتم . وكان رسول الله ﷺ يواظب في سفره على ركعتين ركعتين ولم يربع قط إلا شيئاً فعله في بعض صلاة الخوف . كما سنذكره هناك ، ونبين ما فيه إن شاء الله تعالى . وقال أنس^(٣) : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة . وكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . متفق عليه .

ولما بلغ^(٤) عبد الله بن مسعود أن عثمان بن عفان صلى بمئى أربع ركعات ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . صليت مع رسول الله ﷺ بمئى ركعتين . وصليت مع أبى بكر بمئى

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ - باب تقصير

الصلاة في السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارى في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١ - باب ما جاء في التقصير

وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

(٤) أخرجه البخارى في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ٢ - باب الصلاة بمئى ،

حديث ٤٩٨ .

ركعتين وصليت مع عمر ركعتين . فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان . متفق عليه . ولم يكن ابن مسعود ليسترجع من فعل عثمان أحد الجائزين الخير بينهما . بل الأولى على قول . وإنما استرجع لما شاهده من مداومة النبي ﷺ وخلفائه على ركعتين . وفي صحيح البخاري^(١) عن ابن عمر رضي الله عنه قال : صحبت رسول الله ﷺ . فكان في السفر لا يزيد على ركعتين . وأبا بكر وعمر وعثمان (يعني في صدر خلافة عثمان) . وإلا فثمان قد أتم في آخر خلافته . وكان ذلك أحد الأسباب التي نكرت عليه . وقد خرج لفعله تأويلات : أحدها - أن الأعراب كانوا قد حجوا تلك السنة . فأراد أن يعلمهم أن فرض الصلاة أربع ، لثلاث يتوهما أنها ركعتان في الحضر والسفر . ورد هذا التأويل بأنهم كانوا أخرى بذلك في حج النبي ﷺ . فكانوا حديثي عهد بالإسلام ، والعهد بالصلاة قريب . ومع هذا فلم يربع بهم النبي ﷺ . الثاني - أنه كان إماماً للناس . والإمام حيث نزل فهو عمله ومحل ولايته . فكان أنه وطنه . ورد هذا التأويل بأن إمام الخلائق على الإطلاق رسول الله ﷺ ، كان هو أولى بذلك . وكان هو الإمام المطلق ولم يربع ، التأويل الثالث - أن منى كانت قد بنيت وصارت قرية كثر فيها المساكن في عهده . ولم يكن ذلك في عهد رسول الله ﷺ . بل كانت فضاء . ولهذا قيل له : يا رسول الله ! ألا تبني لك بمنى بيتا يظلك من الحر ؟ فقال : لا . منى مناخ من سبق . فتأول عثمان أن القصر إنما يكون في حال السفر . ورد هذا التأويل بأن النبي ﷺ أقام بمكة عشرًا يقصر الصلاة . التأويل الرابع - أنه أقام بها ثلاثاً . وقد قال^(٢) النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : يقيم المهاجر بعد نسكه ثلاثاً . فسماء مقيماً . والمقيم غير مسافر . ورد هذا التأويل بأن هذه إقامة مقيّدة في أثناء السفر ، ليست بالإقامة التي هي قسيم

(١) أخرجه البخاري في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١١ - باب من لم يتطوع

في السفر برب الصلاة وقبلها ، حديث ٦٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٢ (طبعنا) ونصه : عن

العلاء بن الحضرمي قال : قال رسول الله ﷺ « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ، ثلاثاً » .

السفر . وقد أقام صلى الله عليه وسلم بمكة عشرا يقصر الصلاة . وأقام بمكة بعد نسكه ، أيام الجمار الثلاث ، يقصر الصلاة . التأويل الخامس - أنه كان قد عزم على الإقامة والاستيطان بمكة ، واتخاذها دار الخلافة . فلماذا أتم . ثم بدا له أن يرجع إلى المدينة . وهذا التأويل أيضاً مما لا يقوى . فإن عثمان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين . وقد منع صلى الله عليه وسلم المهاجر من الإقامة بمكة بعد نسكه . ورخص له ثلاثة أيام فقط . فلم يكن عثمان ليقم بها وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك . وإنما رخص فيها ثلاثاً . وذلك لأنهم تركوها لله . وما ترك لله فإنه لا يعاد فيه ولا يسترجع . ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم من شراء المتصدق لصدقته . وقال لعمر^(١) : لا تشتريها ولا تعد في صدقتك . فجعله عائداً في صدقته مع أخذها بالثمن . التأويل السادس - أنه كان قد تأهل بمكة . والمسافر إذا أقام في موضع وتزوج فيه أو كان له به زوجة ، أتم . ويروى في ذلك حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم . فروى عكرمة عن إبراهيم الأزدى عن أبي ذياب عن أبيه قال : صلى عثمان بأهل منى أربعاً وقال : يا أيها الناس ! لما قدمت تأهلت بها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا تأهل الرجل ببلدة فإنه يصلي بها صلاة مقيم . رواه الإمام أحمد^(٢) في (مسنده) وعبد الله ابن الزبير الحميدى في (مسنده) أيضاً . وقد أعله البيهقي باقتطاعه وتضعيف عكرمة .

(١) أخرجه البخارى في : ٥١ - كتاب الهبة ، ٣٧ - باب إذا حمل رجل على فرس

فهو كالعمرى والصدقة ، حديث ٧٩٧ ونصه :

عن زيد بن أسلم قال : سمعتُ أبي يقول : قال عمر رضي الله عنه : حملت على فرس في سبيل الله . فرأيت به بيع . فسألت رسول الله ﷺ فقال : « لا تشتري . ولا تعد في صدقتك »

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٦٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٤٤٣

(طبعة المعارف) ونصه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي ذياب عن أبيه : أن عثمان ابن عفان صلى بمكة أربع ركعات . فأنكره الناس عليه . فقال : يا أيها الناس ! إنى تأهلت بمكة منذ قدمت . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من تأهل في بلد . فليصل صلاة المقيم » .

قال أبو البركات ابن تيمية : ويمكن المطالبة بسبب الضعف . فإن البخاري ذكره في تاريخه ولم يطعن فيه . وعادته ذكر الجرح والمجروحين . وقد نص أحمد ، وابن عباس قبله ، أن المسافر إذا تزوج لزمه الإتمام . وهذا قول أبي حنيفة ومالك وأصحابهما . وهذا أحسن ما اعتد به عن عثمان . وقد اعتذر عن عائشة أنها كانت أم المؤمنين . فحيث نزلت فكان وطنها . وهو أيضاً اعتذار ضعيف . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أبو المؤمنين . وأمومة أزواجه فرع على أبوته . ولم يكن يتم لهذا السبب . وقد روى هشام بن عروة عن أبيه أنها كانت تصلي في السفر أربعاً . فقلت لها : لو صليت ركعتين ؟ فقالت : يا ابن أختي ! لا يشق عليّ .

قال الشافعي رحمه الله : لو كان فرض المسافر ركعتين ، لما أتمها عثمان ولا عائشة ولا ابن مسعود . ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم . وقد قالت عائشة : كل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ . أتم وقصر . ثم روى عن إبراهيم عن محمد عن طلحة بن عمر عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة قالت : كل ذلك فعل النبي ﷺ . قصر الصلاة في السفر ، وأتم .

قال البيهقي : وكذلك رواه المغيرة بن زياد عن عطاء . وأصح إسناد فيه ما أخبرنا أبو بكر الحازمي عن الدارقطني عن المحاملي : حدثنا سعيد بن محمد بن أيوب . حدثنا أبو عاصم . حدثنا عمر بن سعيد عن عطاء ، عن عائشة ، أن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة في السفر ويتم . ويفطر ويصوم . قال الدارقطني : وهذا إسناد صحيح . ثم ساق من طريق أبي بكر النيسابوري عن عباس الدوري : أنا أبو نعيم . حدثنا العلاء بن زهير . حدثني عبد الرحمن ابن الأسود عن عائشة ، أنها اعتمرت مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة . حتى إذا قدمت مكة قالت : يا رسول الله ! يابى أنت وأمي ! قصرت وأتممت وصمتُ وأفطرت . قال : أحسنت ، يا عائشة !

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا الحديث كذب على عائشة . ولم تكن عائشة تتصلي بخلاف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الصحابة . وهي تشهدهم يقصرون

ثم تمّ وحدها بلا موجب . كيف وهى القائلة : فرضت الصلاة ركعتين . فزيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن أنها تزيد على ما فرض الله ؟ وتحالف رسول الله ﷺ وأصحابه ؟

قال الزهرى لعروة ، (لما حدثه عن أبيه عنها بذلك) : فاشأنها ؟ كانت تتم الصلاة . فقال : تأولت كما تأول عثمان . فإذا كان النبي ﷺ قد حسن فعلها وأقرها ، فما للتأويل حينئذ وجه . ولا يصح أن يضاف إتمامها إلى التأويل على هذا التقدير . وقد أخبر ابن عمر أن رسول الله ﷺ لم يكن يزيد فى السفر على ركعتين ولا أبو بكر ولا عمر . أفيظن بمأشئة أم المؤمنين مخالفتهم وهى تراهم يقصرون ؟ وأما بعد موته ﷺ فإنها أتمت . كما أتم عثمان . وكلاهما تأول تأويلاً . والحجة فى روايتهم لا فى تأويل الواحد منهم . مع مخالفة غيره له . والله أعلم .

وقد قال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن . ولا نجد صلاة السفر فى القرآن . فقال له ابن عمر : يا أخى ! إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً . فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل . وقد قال أنس ^(١) : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين . حتى رجعنا إلى المدينة . وقال ابن عمر : صحبت رسول الله ﷺ . فكان لا يزيد فى السفر على ركعتين . وأبا بكر وعمر وعثمان رضى عنهم . وهذه كلها أحاديث صحيحة . انتهى كلام ابن القيم .

قال الإمام الشوكانى فى (نيل الأوطار) : وقد استدلل ، بحديثي عائشة ، القائلون بأن القصر رخصة . ويمجاب عنهم بأن الحديث الثانى لاحجة لهم فيه . لما تقدم من أن لفظ (تم وتصوم) بالفوقانية . لأن فعلها ، على فرض عدم معارضته لقوله وفعله صلى الله عليه وسلم ، لا حجة فيه . فكيف إذا كان معارضاً للثابت عنه من طريقها وطريق غيرها من الصحابة ؟ وأما الحديث الأول ،

(١) أخرجه البخارى فى : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١ - باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

فلو كان صحيحاً ، لكان حجة . لقوله صلى الله عليه وسلم في الجواب عنها : أحسنت . ولكنه لا ينتهز لمعارضة ما في الصحيحين وغيرها من طريق جماعة من الصحابة . وهذا بعد تسليم أنه حسن ، كما قال الدارقطني . فكيف ؟ وقد طعن فيه بتلك المطاعن المتقدمة . فإنها بمجرد ما توجب سقوط الاستدلال به عند عدم المعارض . انتهى .

المسألة الثالثة - استدلل بعموم الآية من جواز القصر في كل سفر طويلاً أو قصيراً . ووجهه أن قوله تعالى (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) يصدق على كل ضرب . ولكنه خرج الضرب أي : المشي لغير السفر ، لما كان يقع منه ﷺ من الخروج إلى بيع الغرقد ونحوه ، ولا يقصر . ولم يأت في تعيين قدر السفر الذي يقصر فيه المسافر شيء . فوجب الرجوع إلى ما يسمى سفراً لغة وشرعاً . ومن خرج من بلده قاصداً إلى محل ، يعد في مسيره إليه مسافراً ، قصر الصلاة . وإن كان ذلك المحل دون البريد . ولم يأت من اعتبر البريد واليوم واليومين والثلاث وما زاد على ذلك ، بحجة نيرة . وغاية ما جاءوا به حديث^(١) : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثة أيام بغير ذي محرم . وفي رواية : يوماً وليلة . وفي رواية : بريداً . وليس في هذا الحديث ذكر القصر ولا هو في سياقه . والاحتجاج به مجرد تخمين . وأحسن ما ورد في التقدير ما رواه شعبة عن يحيى بن زيد الهنائي قال : سألت أنساً عن قصر الصلاة ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ ، صلى ركعتين . والشك من شعبة . أخرجه مسلم وغيره . فإن قلت : محل الدليل في نهى المرأة عن السفر تلك المسافة بدون محرم ، هو كونه صلى الله عليه وسلم سمي ذلك سفراً . قلت : تسميته سفراً لاتفاق

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٢٣ (طبعنا) ونصه :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً ، إلا ومعها أبوها أو ابنها أو زوجها أو أخوها أو ذو محرم منها » .

تسمية ما دونه سفرًا . فقد سمي النبي صلى الله عليه وسلم مسافة الثلاث سفرا . كما سمي مسافة البريد سفرا ، في ذلك الحديث باعتبار اختلاف الرواية . وتسمية البريد سفرا لا ينافي تسمية مادونه سفرًا . فإن قلت : أخرج الدارقطني والبيهقي والطبراني من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : يا أهل مكة ! لا تقصروا في أقل من أربعة برد . من مكة إلى عسفان - قلت : هو ضعيف لا تقوم به الحجة . فإن في إسناده عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر . وهو متروك . وفي المسألة مذاهب هذا أرجحها . والحاصل أن الواجب هو الرجوع إلى ما يصدق عليه اسم السفر شرعاً أو لغة . كذا في (الروضة الندية) . (وفي الصباح) : سفر الرجل سفرا مثل طلب ، خرج للارتحال . وفي (القاموس) : قوم سفر وسافرة وأسفار وسفار : ذوو سفر ، لضد الحضر .

هذا وللقصر مباحث مقررة في شروح السنة .

ولما كان النص السابق الوارد في مشروعية القصر مجملًا بَيَّنَّ كيفيته بصورة في مزيد الحاجة إليها ، ويكتفي فيما عداها ببيان السنة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)
« وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ » أى : مع أصحابك شهيداً وأنتم تخافون العدو « فَأَقَمْتَ لَهُمُ »

الصَّلَاةَ» أى: أردت أن تقيم بهم الصلاة بالجماعة التى ، لو فور أجرها، بتحمل مشاقها «فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ» فى الصلاة . أى بعد أن جعلتهم طائفتين . ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم . وإنما لم يصرح به لظهوره « وَلِيَأْخُذُوا » أى الطائفة التى قامت معك « أَسْلَحَتْهُمْ » معهم لأنه أقرب للاحتياط « فَإِذَا سَجَدُوا » أى : القاءون معك ، سجدتى الركعة الأولى وأتموا الركعة ، فارقوك وأتموا صلاتهم . وتقوم إلى الثانية منتظراً . فإذا فرغوا « فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ » أى : فليُنصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة « وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا » وهى الطائفة الواقعة تجاه العدو « فَلْيُصَلُّوا » ركعتهم الأولى « مَعَكَ » وأنت فى الثانية . فإذا جلست منتظراً ، قاموا إلى ثانیتهم وأتموها ثم جلسوا ويسلموا معك . ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الرابعة الباقية لكل من الطائفتين اكتفاءً ببيانہ صلى الله عليه وسلم لهم . كما يأتى « وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ » أى : يقيظهم . لأن العدو يتوهمون فى الأولى كون المسلمين قاعين فى الحرب . فإذا قاموا إلى الثانية ظهر لهم أنهم فى الصلاة . فهنا ينتهزون الفرصة فى الهجوم عليهم . فلذا خص هذا الموضع بزيادة تحذير فقال : وليأخذوا حذرهم وجعله كالآلة ، فأمر بأخذه وعطف عليه « وَأَسْلَحَتْهُمْ » قال الواحدى : فيه رخصة للخائف فى الصلاة بأن يجعل بعض فكره فى غير الصلاة . قال أبو السمود : وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر ، لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن غيرها ، ومثنة لهجوم العدو . كما ينطق به قوله تعالى « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى تمنوا « لَوْ تَفْغُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ » فتضعونها « وَأَمْتِعْتِكُمْ » أى : حوَّأجكم التى بها بلاغكم « فَيَمِيلُونَ عَلَىكُمْ مِثْلَ وَاحِدَةٍ » أى يحملون حملة واحدة فيقتلونكم . فهذا علة الأمر بأخذ السلاح . والأمر بذلك للوجوب . لقوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى لا حرج ولا إثم عليكم « إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ » يثقل معه حمل السلاح « أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى » يثقل

عليكم حمله « أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ » أخرج البخاري^(١) عن ابن عباس قال : نزلت :
 إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ ، في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً .
 ثم أمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط . فقيل « وَخُذُوا حِذْرَكُمْ » لئلا يهجم عليكم
 العدو غيلة « إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » أي : يهانون به . ويقال : شديداً .
 قال أبو السعود : هذا تعليل للأمر بأخذ الحذر . أي : أعد لهم عذاباً مهيناً . بأن يخذلهم
 وينصرهم عليهم . فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب . كي يحل بهم عذابه بأيديكم .
 وقيل : لما كان الأمر بالحذر من العدو موهماً لتوقع غلبته واعترازه ، نفى ذلك الإيهام بأن الله
 تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ،
 فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)
 « فَإِذَا قُضِيَتِمْ » أي : أتمتم « الصَّلَاةَ » أي : صلاة الخوف ، على ما فصل « فَاذْكُرُوا
 اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » أي : فداوموا على ذكره تعالى في جميع الأحوال .
 فإن ما أتم عليه من الخوف والحذر مع العدو جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع إليه .
 قاله الرازي . وقال ابن كثير : أمر تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعاً
 مرغبا فيه أيضاً بعد غيرها . ولكن هنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة
 في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى (في الأشهر

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٢٢ - باب قوله :
 وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ،
 حديث ١٩٩٤ .

الحرم) : فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ^(١) . وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها ، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمها . « فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ » أى : سكنت قلوبكم بالأمن « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى : على الحالة التي كنتم تعرفونها . فلا تغيروا شيئًا من هيأتها « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » أى : فرضًا موقتًا ، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها وإن لزومها نقائص في رعايتها .

فصل

في أحكام تتعلق بهذه الآية . الأول - في هذه الآية مشروعية صلاة الخوف وصفتها . وأنه لا يجب قضاؤها . وأنه يطلب فيها حمل السلاح إلا لعذر . الثانى - تعلّق بظاهر قوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ) مَنْ لَمْ يَرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . زاعماً أنها خاصة ببعده صلى الله عليه وسلم . لاشتراطه كونه فيهم . ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه قوام بما كان يقوم به . فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له صلى الله عليه وسلم . كما في قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً^(٢) . وقد قال صلى الله عليه وسلم^(٣) : صلوا كما رأيتموني أصلى .

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٢) [٩ / التوبة / ١٠٣] ونصها : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٣) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٨ - باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة ، والإقامة ، حديث ٤٠٢ ونصه : عن مالك بن الحويرث : أتينا النبي صلى الله عليه وسلم =

وعوم منطوق هذا الحديث مقدم على ذلك المفهوم . وقد روى أبو داود^(١) والنسائي والحاكم وابن أبي شيبه وغيرهم ، عن سعيد بن العاص أنه قال (في غزوة ومعه حذيفة) : أيكم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فأمرهم حذيفة فلبسوا السلاح ثم قال : إن هاجمكم هيج فقد حل لكم القتال . فصلى بإحدى الطائفتين ركعة . والأخرى مواجهة العدو ثم انصرف هؤلاء . فقاموا مقام أولئك . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أخرى . ثم سلم عليهم . وكانت الغزوة بطبرستان . قال بعضهم : وكان ذلك بحضرة الصحابة رضي الله عنهم . فلم ينكره أحد . فحل الإجماع . وروى أبو داود^(٢) أن عبد الرحمن بن سمرة صلى ، بكابل ، صلاة الخوف . الثالث - روى الإمام أحمد^(٣) وابن أبي شيبه وسعيد بن منصور وأبو داود والنسائي وغيرهم (في نزول الآية عن أبي عباس رضي الله عنه)

= ونحن شبكة متقاربون . فأقنا عنده عشرين يوما وليلة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيا رفيقا . فلما ظن أننا قد اشتبهنا أهلنا ، أو قد اشتقنا ، سألنا عن تركنا بعدنا . فأخبرناه . قال « ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلوهم ومروهم » وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها « وصلوا كما رأيتموني أصلي . فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحداكم ، وليؤمكم أكبركم » . (١) أخرجه أبو داود في : ٤ - كتاب الصلاة ، ١٨ - باب من قال يصلي بكل طائفة ركعة ولا يقضون ، حديث ١٢٤٦ .

والنسائي في : ١٨ - كتاب صلاة الخوف ، ١ - أخبرنا إسحاق بن إبراهيم .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤ - كتاب الصلاة ، ١٧ - باب من قال يصلي بكل طائفة

ركعة ، ثم يسلم ... الخ . حديث ١٢٤٥ .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأبو داود في : ٤ - كتاب الصلاة ، ١٢ - باب صلاة الخوف ، حديث ١٢٣٦ .

والنسائي في : ١٨ - كتاب صلاة الخوف ، ٢١ - باب أخبرنا محمد بن المنى ومحمد بن بشار .

قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان . فاستقبلنا المشركون ، عليهم خالد بن الوليد . وهم بيننا وبين القبلة . فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر . فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم . فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر : وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ... فحضرت الصلاة . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح . فصفنا خلفه صفين . ثم ركع فركعنا جميعاً . ثم رفع فرفعنا جميعاً . ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم . فلما سجدوا وقاموا ، جلس الآخرون . فسجدوا في مكانهم . ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء . ثم ركع فركعوا جميعاً . ثم رفع فرفعوا جميعاً . ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم . فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا . ثم سلم عليهم . وروى عبد الرزاق عن الثوري عن هشام ، مثل هذا ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . إلا أنه قال : نكص الصف المقدم القهقري حين يرفعون رؤسهم من السجود . ويتقدم الصف المؤخر فيسجدون في مصاف الأولين . وروى عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير^(١) عن أبي نجيح قال : قال مجاهد (في قوله تعالى : إِنَّ خِيفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : نزلت يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا . فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أربعاً . ركعهم وسجدتهم وقيامهم معاً جميعهم ، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم ويقاتلوهم ، فأنزل الله عليهم : فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ . فصلى النبي صلى الله عليه وسلم العصر وصف أصحابه صفين وكبر بهم جميعاً . فسجد الأولون بسجوده والآخرين قيام لم يسجدوا . حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم والصف الأول . ثم كبر بهم وركعوا جميعاً . فقدموا الصف الآخر واستأخروا . فتعاقبوا السجود كما فعلوه أول مرة . وقصر النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الأثر رقم ١٠٣٢١ .

صلاة العصر ركعتين . وفي هذه الأحاديث أن صلاة الطائفتين مع الإمام جميعاً . واشترا كهف في الحراسة . ومتابعته في جميع أركان الصلاة إلا السجود . فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى . ثم تسجد . وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفة المتقدمة . وتأخرت المتقدمة . (فإن قلت) : لا ينطبق ما في الآية على هذه الروايات التي حكمت سبب نزولها . وذلك لأنه قيل في الآية : فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يَصَلُّوا ... الآية . وفي هذه الروايات أنهم قاموا جميعاً مع ﷺ في الصلاة . وإنما ينطبق ما فيها على ما رواه ^(١) الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرى مواجهة للعدو . ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو . وجاء أولئك . ثم صلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم ركعة ثم سلم . ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وما رواه عن صالح بن خوات عن صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع ؛ أن الطائفة صفت معه وطائفة وجاء العدو . فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً . فأتعوا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاء العدو . وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته . فأتعوا لأنفسهم فسلم بهم - (قلت) : بمراجعة ما أسلفناه في المقدمة من قاعدة سبب النزول يندفع الإشكال . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ضجنان وعسفان . فقال المشركون : لِهَؤُلَاءِ صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم . وهي العصر . فأجمعوا أمرهم فويلوا عليهم مينة واحدة . وأن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يقسم أصحابه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣١ - باب غزوة ذات الرقاع ،

حديث ١٨٨٩ .

ومسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٥ و ٣٠٦ (طبعنا) .

شطين . فيصلى بهم وتقوم طائفة أخرى وراءهم . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . فتكون لهم ركعة وللنبي صلى الله عليه وسلم ركعتان . أخرجه أصحاب السنن ^(١) .

ثم رأيت القرطبي بحث في (تفسيره) نحو ما سبق لي حيث قال : وما ذكرناه من سبب النزول في قصة خالد بن الوليد . لا يلائم تفريق القوم إلى طائفتين . ثم قال (بعد رواية حديث أبي هريرة المذكور) قلت : ولا تعارض بين هذه الروايات . فلعله صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة أخرى مفترقين . انتهى . الرابع - ظاهر الآية الكريمة الترخيص لكل طائفة بركعة واحدة . لأنه لم يبين فيها حال الركعة الباقية . وقد روى النسائي ^(٢) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بنذى قرَد فصَف الناس خلفه صفين : صفًا خلفه و صفًا موازى العدو . فصلى بالذين خلفه ركعة . ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم يقضوا ركعة . وكذا روى أبو داود والنسائي ^(٣) أيضاً عن حذيفة أنه صلى بطبرستان بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا . وروى أحمد ومسلم ^(٤) وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فرض الله الصلاة على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، في الحضر ، أربعاً . وفي السفر ركعتين . وفي الخوف ركعة . فهذه الأحاديث تدل على أن من صفة صلاة الخوف ، الاختصار على ركعة لكل طائفة .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وبالاقتصار على ركعة واحدة في الخوف ، يقول الثوري وإسحق ومن تبعهما . وقال به أبو هريرة وأبو موسى الأشعري وغير واحد من التابعين .

(١) أخرجه النسائي في : ١٨ - كتاب صلاة الخوف ، ١٦ - باب أخبرنا العباس بن عبد العظيم .

(٢) أخرجه النسائي في : ١٨ - كتاب صلاة الخوف ، ٥ - باب أخبرنا محمد بن بشار .

(٣) أخرجه النسائي في : ١٨ - كتاب صلاة الخوف ، ٢ - باب أخبرنا عمرو بن علي .

(٤) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعنا) .

ومنهم من قيّد بشدة الخوف . وقال الجمهور : قصر الخوف قصر هيئة لا قصر عدد . وتأولوا هذه الأحاديث بأن المراد بها ركعة مع الإمام وليس فيها نفي الثانية . ويرد ذلك قوله في حديث ابن عباس وحذيفة : (ولم يقضوا ركعة) وكذا قوله في حديث ابن عباس الثاني : (وفي الخوف ركعة) وأما تأويلهم قوله (لم يقضوا) بأن المراد منه لم يعيدوا الصلاة بعد الأمن - فبعيد جداً . كذا في (نيل الأوطار) نعم . وقع في حديث ابن عمر المتفق عليه وقد قدمناه : ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وعند أبي داود من حديث ابن مسعود : ثم سلم ، وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة . ثم سلموا ثم ذهبوا . ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وبالتحقيق ، كل ماروى هو من صورها الجائزة . ولما ذكر الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) هديه صلى الله عليه وسلم في أدائها ، قال في آخر صورة : وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعة فتذهب ولا تقضى شيئاً . وتجيء الأخرى فيصلين بهم ركعة ولا تقضى شيئاً . فيكون له صلى الله عليه وسلم ركعتان . ولهم ركعة ركعة . وهذه الأوجه كلها يجوز الصلاة بها .

قال الإمام أحمد : كل حديث يروى في باب صلاة الخوف فالعمل به جائز . انتهى . وقال ابن كثير : صلاة الخوف أنواع كثيرة . فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة . وتارة يكون في غير صوبها . ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتجم الحرب فلا يقدرّون على الجماعة . بل يصلون فرادى مستقبل القبلى وغير مستقبلها . ورجالاً وركباً . ولهم أن يمشوا والحالة هذه ، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم ، وبه قال أحمد بن حنبل .

قال المنذرى : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحامد . وإليه ذهب طاوس والضحاك . وقد حكى أبو عاصم العبادى عن محمد بن نصر المروزى أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف . وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال إسحق بن راهويه : أما عند المسابقة

فيجزيك ركمة واحدة توى بها إيماء . فإن لم تقدر فسجدة واحدة . لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة . فلعله أراد ركمة واحدة . كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه . وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة والسدي . ورواه ابن جرير . ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة . كما هو مذهب إسحق بن راهويه . وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه . يعنى بالنية . رواه سعيد بن منصور في (سننه) عن إسماعيل بن عياش عن شعيب بن دينار عنه . قاله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة . كما أخر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب الظهر والعصر ، فصلاهما بعد الغروب . ثم صلى بعدها المغرب ثم العشاء . وكما قال بعدها ، يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش : لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة . فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق . فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير . ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق . وآخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب . ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الفريقين . فاحتج في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة ، اليهود . وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تسكن نزلت بعد . فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . وهذا أبين في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي رحمه الله وأهل السنن . ولكن يشكل عليه ما حكاه البخاري^(١) في (صحيحه) حيث قال (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعي : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدر على الصلاة صلوا إيماء . كل امرئ لنفسه . فإن لم يقدر

(١) أخرجه البخاري في : ١٢ - كتاب صلاة الخوف ، ٤ - باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو .

على الإيماء أخرجوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين. فإن لم يقدرُوا صلوا ركعة وسجدةً. فإن لم يقدرُوا فلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول. وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تُستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدرُوا على الصلاة. فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار. فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتّحَ لنا. وقال أنس : وما يسرني، بتلك الصلاة، الدنيا وما فيها. انتهى. ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ثم بحديث^(١) أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. وكأنه كالمختار لذلك. والله أعلم. ولمن جرح له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً. وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب. ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة. والله أعلم. قال هؤلاء : وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي. وممن نص على ذلك محمد بن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمد بن سعد، كاتبه وخليفة بن الحياط وغيرهم. وقال البخاري^(٢) وغيره : كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى. وما قدم إلا في خير. والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في : ١٢ - كتاب صلاة الخوف ، ٥ - باب صلاة الطالب والمطالب ، حديث ٥٤٩ ونصه :

عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ لنا ، لما رجع من الأحزاب ، « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق . فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلي . لم يرد منا ذلك .

فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحداً منهم .

(٢) البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣١ - باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة مُحَارِبِ خَصْفَةَ من بني ثعلبة من غطفان . فنزل نَحْلًا . وهي بعد خير . لأن أبا موسى جاء بعد خير .

الحكم الخامس - استدل بقوله تعالى (طَائِفَةٌ) على أنه لا يشترط استواء الفريقين في العدد . لكن لابد أن تكون التي تحرس تحصل الثقة بها في ذلك .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : والطائفة تطلق على القليل والكثير حتى على الواحد . فلو كانوا ثلاثة ووقع لهم الخوف . جاز لأحدهم أن يصلي بواحد . ويحرس واحد . ثم يصلي الآخر . وهو أقل ما يتصور في صلاة الخوف جماعة .

السادس - استدل بالآية على عظم أمر الجماعة بل على ترجيح القول بموجبها . لارتكاب أمور كثيرة لا تغتفر في غيرها . ولو صلى كل امرئ منفرداً لم يقع الاحتياج إلى معظم ذلك . أفاده الحافظ ابن حجر في (الفتح) .

قال ابن كثير : وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة . حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة . فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

السابع - قال بعض المفسرين : اختلف في الأمور بأخذ السلاح في قوله تعالى (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فقيل : هم الطائفة الذين يواجهون العدو . وهذا ظاهر . وقيل : بل هم الطائفة المصلون . وأراد ما لا يشغل عن الصلاة من الدرع والخنجر والسيف ونحو ذلك . وقيل : للطائفتين . وهو قول القاسم . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : والظاهر أن المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون . إذ من لم يصل إنما أعد للحرس . فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك وتنبههم عليه . وهم إنما أخذوا الصلاة لذلك . أما المصلون فهم في مظنة طرح الأسلحة لأنهم لم يعتادوا حملها في الصلاة . فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة وإن كانوا في الصلاة . لضرورة الخوف وخشية الغرة . وأيضاً فمضيق الآية يمتلئ ذلك . لأنه قال (فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ) وعقب ذلك بقوله (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فالظاهر رجوع الضمير إليهم . وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة العود إليهم ، بدلالة قوة الكلام عليهم ، وإن لم يذكر . وناقش

الناصر أيضاً ، الزمخشري في جعله المراد بقوله تعالى (فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا) غير المصلين . فقال : الظاهر أن معنى السجود ههنا الصلاة ، وقد عبر عنها بالسجود كثيراً . والمراد : فإذا صلت الطائفة ، (أي أتمت صلاتها) فليكونوا من ورائكم . انتهى .

الثامن - قال أبو علي الجرجاني صاحب النظم : قوله تعالى (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) يدل على أنه كان يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي بصلاة الخوف على جهة يكون بها حاذراً ، غير غافل عن كيد العدو . والذي نزل به القرآن في هذا الموضع هو وجه الحذر . لأن العدو يومئذ بذات الرقاع كان مستقبل القبلة . فالمسلمون كانوا مستدبرين القبلة . ومتى استقبلوا القبلة صاروا مستدبرين لعدوهم . فلا جرم ، أمروا بأن يصيروا طائفتين : طائفة في وجه العدو ، وطائفة مع النبي صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة . وأما حين كان النبي صلى الله عليه وسلم بمسغان وبيطن نخل ، فإنه لم يفرق أصحابه طائفتين . وذلك لأن العدو كان مستدبر القبلة . والمسلمون كانوا مستقبلين لها . فكانوا يرون العدو حال كونهم في الصلاة . فلم يحتاجوا إلى الاحتراس إلا عند السجود . فلا جرم ، لما سجد الصف الأول بقي الصف الثاني يحرسونهم . فلما فرغوا من السجود وقاموا ، تأخروا وتقدم الصف الثاني وسجدوا . وكان الصف الأول حال قيامهم يحرسون الصف الثاني . فثبت بما ذكرنا أن قوله تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . يدل على جواز كل هذه الوجوه . والذي يدل على أن المراد من هذه الآية ما ذكرناه ، أنا لو لم نحملها على هذا الوجه لصار تكراراً محضاً من غير فائدة . ولوقع فعل الرسول بمسغان وبيطن نخل على خلاف نص القرآن . وإنه غير جائز . نقله الرازي .

وقال الخطابي : صلاة الخوف أنواع صلاحها النبي صلى الله عليه وسلم في أيام مختلفة وأشكال متباينة . يتحرى في ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة والأبلغ في الحراسة . فهي مع اختلاف صورها متفقة المعنى . انتهى . وأنواعها مبينة في شروح السنة . ثم حمهم تعالى على الجهاد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ » أى : لاتضعفوا في طلب عدوكم بالقتال بل جدوا فيهم واقعدوا لهم كل مرصد . ثم ألزمهم الحجة بقوله سبحانه « إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ » أى : ليس ماتجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم . كما قال تعالى : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ^(١) . ثم زاد في تقرير الحجة ، وبين أن المؤمنين أولى بالمصابرة على القتال من المشركين بقوله تعالى : « وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » يعنى وتأملون من القرب من الله واستحقاق الدرجات من جناته وإظهار دينه ، كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام ، ما لا يأملونه ، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأجدر بإقامة كلمة الله « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى : فلا يكلفكم إلا بما يعلم أنه سبب لصلاحكم في دينكم ودنياكم . فجدوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية وجوب الجهاد وأنه لا يسقط لما يحصل من المضرة بالجراح ونحوه . وأن التجلد وطلب ما يقوى لازم ، وما يحصل به الوهن لا يجوز فعله . وتدل على جواز المعارضة والحجاج لقوله (فإنهم يألمون) وتدل على أن للمجاهد أن يجاهد لطلب الثواب لقوله (وتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) فجعل هذا سبباً باعثاً على الجهاد . هذا معنى كلام الحاكم . ونظير هذا : لو صلى لطلب الثواب أو السلامة من العقاب . وقد ذكر في ذلك خلاف . فعن الراضى بالله : يجزى ذلك . وقواه الفقيه يحيى بن أحمد . وعن أبى مضر : لا يجزى . لأنه لم ينو الوجه الذى شرع الواجب له . انتهى .

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠]

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)

[١٠٦] (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[١٠٧] (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا)

[١٠٨] (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا)

[١٠٩] (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا » .

« وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ ، كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

« وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا » .

« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى

مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » .

روى الحافظ ابن مردويه في سبب نزولها من طريق العوفي عن ابن عباس^(١) : أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته . فسرقت درع لأحدهم . فَأَظَنَّ (أى : اتهم) بها رجلاً من الأنصار . فَأَتَى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى . فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل برى . وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده . فانطلقوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ليلاً فقالوا : يا نبي الله ! إن صاحبنا برى وإن صاحب الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علماً . فاعذر صاحبنا على رؤس الناس وجادل عنه . فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رؤس الناس . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ . . . الآية . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى - للَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِينَ بِالْكَذِبِ - : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين . ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا . . . الآية . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب . ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . يعنى السارق والذين جادلوا عن السارق .

قال ابن كثير : وهذا سياق غريب . وقد ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد وغيرهم (في هذه الآية) أنها نزلت في سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم ، وهي متقاربة .

وقد روى هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق مطولة . ورواها عنه ، من طريقه ، أبو عيسى الترمذى في (جامعہ) في كتاب التفسير ، عن قتادة بن النعمان رضى الله عنه ، قال :

(١) تفسير الطبرى ، الأثر رقم ١٠٤١٣ .

كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أيرق : بِشْرُ وَبَشِير (قال أبو ذرّ الحشنيّ : بشير بن أيرق . كذا وقع هنا : بشير بفتح الباء . وقال الدارقطنيّ : إنما هو بُشَيْر بضم الباء) ومبشّر . وكان بشير رجلاً منافقاً . وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينحله إلى بعض العرب . ثم يقول : قال فلان كذا أو قال فلان كذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : والله ! ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث . فقال :

أو كلما قال الرجال قصيدة أضْمُوا^(١) وقالوا : ابن الأيرق قالها !

قال : وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام . وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك^(٢) ، ابتاع الرجل منها نخص به نفسه . فأما العيال ، فإنما طعامهم التمر والشعير . فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملاً من الدرمنك فجعله في مشربة له^(٣) . وفي المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما وما يصلحهما . فعُدِيّ عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمى رفاعة فقال : يا ابن أخي ! تعلم أنه قد عُديّ علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بسلاحنا وطعامنا .

(١) (أضمو) أى غضبوا عليه وحقدوا .

(٢) الضافطة : كانوا قومًا من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرها . ثم قالوا ، للذي يجلب الميرة والتناع إلى المدن ، والمكارى الذى يكرى الأحمال : الضافطة والضفاط . والدرمك : الدقيق النقيّ الحواريّ .

(٣) المشربة (بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها) وهى الغرفة ، أو العلية ، أو الصفة بين يدى الغرفة . والمشارب : العلى .

قال : فتحسستُ في الدار^(١) وسألنا فقيلاً لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى ، فيما نراه ، إلا على بعض طعامكم .

قال : وقد كان بنو أبيرق قالوا : ونحن نسأل في الدار : والله ! ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل . رجلاً منا له صلاح وإسلام . فلما سمع بذلك لبيد اختلط سيفه^(٢) ثم أتى بني أبيرق فقال : والله ! ليخالطنكم هذا السيف ولتبيتنَّ السرقة . قالوا : إليك عنا أيها الرجل . فوالله ! ماأنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها . فقال عبي : يا ابن أخي ! لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرتُ ذلك له ، فقلت : يا رسول الله ! إن أهل بيت منا أهل جفاء . عمدوا إلى عبي رفاة فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه . فليردوا علينا سلاحنا . وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظرُ في ذلك . فلما سمع بذلك بنو أبيرق ، أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة . فكلّموه في ذلك . واجتمع إليه ناس من أهل الدار . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا ، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة في غير بينة ولا ثبّت^(٣) . قال قتادة : فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمته . فقال عمدتُ إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبّت ؟ قال فرجعت . ولوددتُ أني خرجت من بعض مالى

(١) الدار ، هنا ، المحلة التى تنزلها القبيلة أو البطن منها . ويعنى بها القبيلة أو البطن . كما جاء في الحديث « ألا أنبئكم بخير دور الأنصار؟ دور بني النجار ، ثم دور بني عبد الأشهل ، وفى كل دور الأنصار خير » . يعنى القبيلة المجتمعة في محلة مسكنها .

(٢) اختلط سيفه : سله من غمده .

(٣) الثبت (بفتحيتين) : الحجة والبينة والبرهان .

ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . فأتيت عمى رفاة ، فقال : يا ابن أخى ! ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسولى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِضِينَ حَصِيماً » يعنى : بنى أبيرق . « وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ » أى : مما قلت لقتادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى : بنى أبيرق « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » إلى قوله « ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً » أى : إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً » قولهم للبيد « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ » يعنى : أسيرا وأصحابه « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِؤُنَكَ مِنْ شَيْءٍ * وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » إلى قوله « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » .

فلما نزل القرآن : أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاة .

قال قتادة : فلما أتيت عمى بالسلاح ، وكان شيخاً قد عسا^(١) فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً^(٢) ، فلما أتيت به بالسلاح ، قال : يا ابن أخى ! هو فى سبيل الله . قال فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

(١) عسا فى الجاهلية : أى : كبر وأسن . من قولهم : عسا العود ، أى : بيس واشتد

وصلب .

(٢) مدخولاً : من (الدخل) وهو العيب والفساد والغش . يعنى أن إيمانه كان فيه نفاق .

ورجل مدخول ، أى فى عقله دخل فساد .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين . فنزل على سلافة ابنة سعد بن شهيد . فأُنزل الله فيه « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » .

فلما نزل على سلافة ، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر^(١) . فأخذت رحله فوضعت على رأسها ، ثم خرجت فرمت به في الأبطح^(٢) ، ثم قالت : أهديت إلى شعر حسان ! ما كنت تأتيني بخير^(٣) .

وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني . وروى يونس بن بكير وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مراسلاً . لم يذكروا فيه : عن أبيه عن جده^(٤) .

ورواه ابن أبي حاتم عن هاشم بن القاسم الحراني عن محمد بن سلمة به ، يعضه . ورواه

(١) وهذه هي أبيات حسان . ذكرت في الديوان طبعة ليدن في ص ٣٠ ، وطبعة مصر بشرح البرقوق في ص ٢٧١ ، وفي الروض الأنف للسهيلي في : ج ٢ ص ٢٩ . وهاكموها برواية الروض :

وما سارق الدرعين ، إذ كنت ذا كراً ، بدى كرم من الرجال أودعه
وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ينازعها جار استها وتنأزعه
ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم وفيكم نبي عنده الوحي واضعه
في الديوان : جلد استها . وقال البرقوق : قوله ينازعها جلد استها ، لعله يريد يضايقها في مجلسها . والجلد (بفتح الجيم واللام) واللام هنا ساكنة ، وبكسر الجيم ، واحد الجلود . أى الجلد الذى يجلس عليه . وفي هذا التفسير من التكلف ما فيه . أما رواية الروض فلا حاجة إليه البتة . فهي واضحة فاضحة مفضوحة .

(٢) الأبطح هو أبطح مكة ، أو بطحاء مكة ، وهو مسيل واديتها .
(٣) وأخرجه الإمام الطبري في تفسيره ، الأثر رقم ١٠٤١١ والوارد في المتن هو نص الطبري .
(٤) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ سورة النساء ، ٢٢ - حدثنا الحسن ابن أحمد بن أبي شعيب أبو مسلم الحراني .

ابن المنذر في (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة . فذكره بطوله . ورواه أبو الشيخ الأصفهاني في (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة به . ثم قال في آخره : قال محمد بن سلمة : سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحق بن إسرائيل . ورواه الحاكم في كتابه (المستدرک) بسنده عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بمعناه ، أتم منه ، وفيه الشعر . ثم قال : وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . كذا نقله ابن كثير . قال السيوطي في (اللباب) : وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال : عدا بشير بن الحرث على عليّة رفاعة بن زيد ، عم قتادة بن النعمان . فنقبها من ظهرها وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما . فأقى قتادة النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك . فدعا بشيراً فسأله فأنكر . ورمى بذلك لبيد ابن سهل ، رجلاً من أهل الدار ذا حسب ونسب . فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...** الآيات . فلما نزل القرآن في بُشير وعثر عليه ، هرب إلى مكة مرتدّاً . فنزل على سلافة بنت سعد . فجعل يقع في النبي صلى الله عليه وسلم وفي المسلمين . فنزل فيه : **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ...** (١) الآية . وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع . وكان ذلك في شهر ربيع سنة أربع من الهجرة . انتهى .

وأما إيضاح ألفاظ الآيات وثمراتها فنقول : قوله تعالى : **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ** الله . أى : بما عرفك وأعلمك وأوحى به إليك . سمى ذلك العلم بالرؤية . لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب يكون جاريّاً مجرى الرؤية ، في القوة والظهور .

قال الزمخشري : وعن عمر رضي الله عنه : لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله . فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم . ولكن ليجهّد رأيه . لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً . لأن الله كان يريه إياه . وهو منا الظن والتكاف . قلت : روى هذا الأثر البيهقي في (المدخل) وابن عبد البر ، بنحو ما ذكر . قال ابن الفرس : في هذه الآية إثبات الرأي والقياس . وتعبه السيوطي بما أخرجه

ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: إياكم والرأى . فإن الله تعالى قال لنبيه : لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . ولم يقل : بما رأيت . ثم قال السيوطي : وقال غيره : يحتمل قوله (بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) . الوحي والاجتهاد معاً . انتهى .

وقال ابن كثير : احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية . وبما ثبت في الصحيحين^(١) عن أم سلمة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته . فخرج إليهم فقال : ألا إنما أنا بشر . وإنما أقضى بنحو مما أسمع . ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له . فن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار . فليحملها أو ليزرها .

ورواه الإمام أحمد^(٢) عنها أيضاً بلفظ : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست . ليس بينهما بينة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلي . وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم ألحن بحجته (أو قد قال : لحجته) من بعض . فإني أقضى بينكم على نحو ما أسمع . فن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار . يأتي بها إسطاماً^(٣) في عنقه يوم القيامة . فبكي الرجلان وقال كل منهما : حق لأخي . فقال رسول الله ﷺ : أما إذ قلتما ، فاذهبا فاقتما . ثم توخيا الحق بينهما . ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه .

وقد رواه أبو داود^(٤) وزاد : إني إنما أقضى بينكما برأى . فيما لم ينزل عليّ فيه . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٤٦ - كتاب المظالم ، ١٦ - باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه . حديث ١٢١٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأقضية ، حديث ٥٠٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٢٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) الإسطام : الحديدية التي تحرك بها النار وتُسعر .

(٤) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الأقضية ، ٧ - باب في قضاء القاضي إذا أخطأ ، حديث ٣٥٨٥ .

قال السيوطي : وفي الآية الرد على من أجاز أن يكون الحاكم غير عالم . لأن الله تعالى فَوَضَّ الْحُكْمَ إِلَى الْجَهَادِ . ومن لا علم عنده كيف يجتهد ؟ انتهى . وقوله تعالى : وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ . أى : لأجلهم والذنب عنهم . وهم طعمة ومن يعينه من قومه على ما تقدم « خصياً » أى مَخَاصِمًا . وفيه أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق . وقوله تعالى : وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ . أى مما قلت لقتادة ، كما تقدم مفسراً .

قال الرازي : تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء . وقالوا : لو لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب للأمر بالاستغفار . ثم أجاب عن ذلك بوجوه . وقال القاضي عياض في (الشفا) : إن تصرف الأنبياء عليهم السلام بأموال لم يُنْهَوْا عنها ولا أمروا بها ، ثم عوتبوا بسببها ، أو أتوها على وجه التأويل - إنما هي ذنوب بالإضافة إلى على منصبهم وإلى كمال طاعتهم . لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم . وأطال في هذا المقام وأطاب . ثم قال : وأيضاً ، فإن في التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفاً أشار إليه بعض العلماء . وهو استدعاء محبة الله . قال الله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(١) . انتهى . وقوله تعالى : « وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى : يخونونها بالمعصية . جعلت معصية المعصاة خيانة منهم لأنفسهم . كما جعلت ظمناً لها لرجوع ضررها إليهم .

قال الرازي : واعلم أن في الآية تهديداً شديداً . وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما مال طبعه قليلاً إلى جانب طعمة ، وكان في علم الله أن طعمة كان فاسقاً ، فأنه تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة الذنب . فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ، ثم يعينه على ذلك الظلم ، بل يحمل عليه ويرغبه فيه أشد الترغيب ؟ اهـ . وإنما قيل للخائنين

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(ويختانون) مع أن الخائن واحد، لأن المراد به هو ومن عاونه من قومه ، وهم يعلمون أنه سارق . أو ذكر بلفظ الجمع ليتناولوه وكل من خان خيائته . كما أنه لما ذكر بلفظ المبالغة في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) لأنه تعالى علم منه أنه مفرط في الخيانة وركوب المآثم . ويدل له أنه هرب إلى مكة وارتد . كما أسلفنا . قيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات . وعن عمر رضى الله عنه ، أنه أمر بقطع يد سارق . فجاءت أمه تبكي وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه . فقال : كذبت . إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة .

وقوله تعالى « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » أى : يستترون حياء منهم وخوفاً من ضررهم « وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ » فلا يستحيون منه « وَهُوَ مَعَهُمْ » أى : وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرهم .

قال الزمخشري : وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم ، إن كانوا مؤمنين ، أنهم في حضرته لا ستره ولا غفلة ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح .

وقوله تعالى « إِذْ يَبْيِئُونَ مَا لَا يُرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ » أى : يدبرون ويزورون الحلف الكاذب ورمى البرى وشهادة الزور . وقوله تعالى « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » ... الآية . المجادلة : أشد المخاصمة . والمعنى هبوا أنكم خاضتم عن السارق وقومه في الدنيا ، إن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ وقوله تعالى « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وانتقامه .

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآيات وجوب الحكم من غير محاباة ولا ميل ، والنهى عن التعصب والمجادلة عن كل خائن وعاص . ويدل تقييد النهى عن الجدال بالذين يختانون أنفسهم ، على إباحة المجادلة . انتهى .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في هذا الباب ، أتبمه بالدعوة إلى التوبة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا » أى : قبيحاً متعمداً . يسوء به غيره ، كما فى القصة « أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ » فيخصصها بالمعصية « ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ » بالتوبة الصادقة « يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا » لذنوبه كائنة ما كانت « رَحِيمًا » أى متفضلاً عليه .

قال أبو السعود : وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار . لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ » أى فليتحرز عن تعريضها للعقاب . « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

« وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا » الخطيئة الذنب ، أو ما تعمد منه . والإثم الذنب أيضاً . وأن يعمل مالا يحل له (كذا فى القاموس) . قال الراغب : الإثم أعم من العدوان . وقال غيره : هو فعل مبطل عن الثواب « ثُمَّ يَرْمِ بِهِ » أى : يقذف به « بَرِيثًا » أى : بما رماه به ، كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ، ذلك الرجل الصالح ، وهو ليبيد بن سهل . كما تقدم . وقد كان بريثاً « فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا » وهو الكذب على الغير بما يهت منه « وَإِثْمًا مُبِينًا » أى بيناً فاحشاً . لأنه بكسب الإثم ، آثم . وبرى البرى ، باهت . فهو جامع بين الأمرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ » بإعلامك ما هم عليه بالوحي وتنبيهك على الحق « لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ » برى البرىء والمجادلة عن الخائنين . يعنى أسير ابن عروة وأصحابه . يعنى بذلك لما أثنوا على بنى أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان فى كونه اتهمهم وهم صلحاء براءء . ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » لأن وبالاه عليهم « وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ » لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك . ولما أنزل تعالى فصل القضية وجلّاه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، امتنّ عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال بقوله « وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » أى : القرآن والسنة « وَعَلَّمَكَ » من أمور الدين والشرائع « مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » أى : قبل نزول ذلك عليك . كقوله : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ . . . الآية^(١) . وقال تعالى : وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ^(٢) . ولهذا قال تعالى : « وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » أى : فيما علمك وأنعم عليك .

قال الرازى : هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب . ثم أشار تعالى إلى ما كانوا يتناجون فيه حين يبيتون ما لا يرضى من القول . بقوله سبحانه :

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . . . وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٦] . . . فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » أى : مساررتهم . والسياق ، وإن دل على مناجاة بعض قوم ذلك السارق مع بعض ، إلا أنها فى المعنى عامة . والمراد : لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث . ثم استثنى النجوى فى أعمال الخير بقوله سبحانه « إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ » أى : إلا فى نجوى من أمر ، بخفية عن الحاضرين ، بصدقة ليعطيها سرًا ، يستر به غار المتصدق عليه « أَوْ مَعْرُوفٍ » أى : بطاعة الله . وأعمال البر كلها معروف . وسر التناجى فيه أن لا يأنف المأمور عن قبوله لو جهر به « أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » يعنى الإصلاح بين المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع . على ما أذن الله فيه وأمر به . وسر النجوى فيه أنه لو ظهر أولاً ربما لم يتم .

قال المهيمن : قيل فى الحصر : الخير إما نفع جسماني وهو فى الأمر بالصدقة . أو روحاني وهو فى الأمر بالمعروف . وإما دفع وهو فى الإصلاح . ويمكن أن يقال : الخير إما نفع متمدد من المأمور وهو الصدقة . أو لازم له وهو المعروف . أو دفع ضرر متمدد أو لازم له ، وهو الإصلاح . وإنما تم خيريتها إذا ابتغى بها رضاء الله تعالى كما قال « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ » أى : طلب « مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » يعنى فى الآخرة « أَجْرًا عَظِيمًا » يساوى أجر الفاعل أو يفوقه . وقد دلت الآية على الترغيب فى الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس . وقد أكد تعالى الترغيب بقوله (عَظِيمًا) وأن النية فيها شرط لنيل الثواب . لقوله تعالى

(ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) وعلى أن كلام الإنسان عليه لا له . إلا ما كان في هذا ونحوه . كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه بسنده إلى محمد بن يزيد بن حنیش قال : دخلنا على سفیان الثوريّ نعوذه . فدخل علينا سعيد بن حسان ، فقال له الثوريّ : الحديث الذي كنتَ حدثتنيهِ عن أم صالح اردُّهُ عليّ . فقال : حدثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة ، عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : كلام ابن آدم كله عليه لا له . إلا ذكر الله عز وجل . أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر . فقال سفیان : أو ما سمعتَ الله في كتابه يقول : لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ؟ فهو هذا بعينه . أو ما سمعتَ الله يقول : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ؟^(١) فهو هذا بعينه . أو ما سمعتَ الله يقول في كتابه : وَالْمَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ^(٢) ، الخ . فهو هذا بعينه .

وقد روى هذا الحديث الترمذی^(٣) وابن ماجه^(٤) من حديث ابن حنیش عن سعيد ابن حسان به . ولم يذكر أقوال الثوريّ إلى آخرها . ثم قال الترمذی : حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن حنیش . قلت : هو مقبول ، كما في (التقريب) لابن حجر . فحسن حديثه .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

(٢) [١٠٣ / العصر / ٢٥١] .

(٣) أخرجه الترمذی في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٦٣ - باب منه ، حدثنا محمد بن بشار .

(٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٢ - باب كف اللسان في الفتنة ،

حديث ٣٩٧٤ (طبعتنا) .

وروى الجماعة^(١) عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيسمى خيراً أو يقول خيراً . وقالت : لم أسمعته يرخص فى شيء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب . والإصلاح بين الناس . وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها .

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود^(٣) والترمذى^(٤) عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله ! قال : إصلاح ذات البين . قال : وفساد ذات البين هى الحالقة . قال الترمذى : حسن صحيح .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ - كتاب الصلح ، ٢ - باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس ، حديث ١٣٠٢ .

ومسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٠١ (طبعتنا) .
وأبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٥٠ - باب فى إصلاح ذات البين ، حديث ٤٩٢١ .
والترمذىّ فى : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٢٦ - باب ما جاء فى إصلاح ذات البين .
(٢) الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٤٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٥٠ - باب فى إصلاح ذات البين ،

حديث ٤٩١٩ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ - كتاب الزهد ، ٥٦ - باب حدثنا أبو يحيى محمد بن

عبد الرحيم البغدادىّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ » أى يخالفه ويمعديه « مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ » أى
انضح له الحق « وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » أى غير ما هم مستمرون عليه من عقد
وعمل ، وهو الدين القيم « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ » أى. نجعله والياً مرجحاً ما تولاه من المشاقة
ومتابعة غير سبيلهم فزينه له تزين الكفر على الكفرة ، استدراجاً له ليكون دليلاً على شدة
المقوبة فى الآخرة . كما قال تعالى : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ^(١) . وقال تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ^(٢) . وقال سبحانه : وَنَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٣) « وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ » أى ندخله إياها « وَسَاءَتْ مَصِيرًا » وجعل النار
مصيره فى الآخرة . لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة . كما
قال تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ^(٤) ... الآية . وقال تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا^(٥) .

(١) [٦٨ / القلم / ٤٤] .

(٢) [٦١ / الصف / ٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي
وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٠] ونصها : وَثَقَلَبُ أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٢] ... وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ .

(٥) [١٨ / الكهف / ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى (وَتَبِعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) هذا ملازم للصفة الأولى . ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً . فإنه قد ضمنت لهم العصمة ، في اجتماعهم ، من الخطأ ، تشريعاً لهم وتعظيماً لنبيهم . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته ، هذه الآية الكريمة . بعد التروى والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها . وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . انتهى .

وقال بعض مفسري الزيدية : الآية دلت على أن مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة . وقد تبلغ إلى الكفر . ودلت على أن الجهل عذر . لقوله : مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى . ودلت على أن مخالفة الإجماع كبيرة . وأنه دليل كالكتاب والسنة . لكن إنما يكون كبيرة إذا كان نقله قطعياً ، لا أحادياً . انتهى .

وقال المهامبي : في الآية دليل على حرمة مخالفة الإجماع . لأنه عز وجل رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومخالفة الإجماع ، فهو إما لحرمة أحدهما وهو باطل . إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد ، إذ لا دخل لأكل الخبز فيه . أو لحرمة الجمع بينهما وهو أيضاً باطل . لأن مشاقة الرسول حرام وإن لم يضم إليها غيرها . أو لحرمة كل واحد منهما وهو المطلوب . انتهى .

ونقل الخفاجي قصة استدلال الشافعي من هذه الآية عن الإمام المزني قال : كنت عند الشافعي يوماً . فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا . فلما رآه ذامهابة استوى جالساً ، وكان مستنداً لأسطوانة ، فاستوى وسوى ثيابه . فقال له : ما الحجة في دين الله ؟ قال : كتابه قال : وماذا ؟ قال : سنة نبيه . قال وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو في كتاب الله ؟ فتدبر ساعة ساكناً . فقال له الشيخ : أجلبت لك ثلاثة أيام بلياليهن . فإن جئت بآية ، وإلا فاعتزل الناس .

فكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج في اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد تغير لونه . فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس . وقال : حاجتى . فقال : نعم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله عز وجل : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ - إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . لَمْ يُصْلِهِ جَهَنَّمُ ، عَلَى خِلافِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَّا وَاتِّبَاعِهِمْ فَرَضٌ . قال : صدقت . وقام وذهب .

وروى عنه أنه قال : قرأت القرآن في يوم وفي كل ليلة ثلاث مرات . حتى ظفرت بها .

وأورد الراغب عليه ، أنه لا حجة فيها على ما ذكره . بأن كل موصوف علق به حكم فالأمر باتباعه يكون في مأخذ ذلك الوصف . فإذا قيل اقتد بالمصلى فالمراد في صلاته . فكذا سبيل المؤمنين ، يعنى به سبيلهم في الإيمان ، لا غير . فلا دلالة في الآية على اتباعهم في غيره . وردَّ بأنه تخصيص بما ياباه الشرط الأول . ثم إنه إذا كان مألوف الصائمين الاعتكاف ، تناول الأمر باتباعهم ذلك أيضاً . فكذلك يتناول ما هو مقتضى الإيمان فيما نحن فيه . فسبيل المؤمنين ، وإن فسر بما هم عليه من الدين ، يعنى الأصول والفروع ، الكل والبعض . على أن الجزء مرتب على كل من الأمرين المذكورين في الشرط ، لا على المجموع . للقطع بأن مجرد مشاققة الرسول كافية في استحقاق الوعيد ، معنى على أن ترك اتباع سبيل المؤمنين اتباع لغير سبيل المؤمنين . لأن المكاف لا يخلو من اتباع سبيل ، البتة . انتهى . ورأيت للإمام تقي الدين بن تيمية في كتابه (الفرقان بين الحق والباطل) مقالة بديعة في هذه الآية والإجماع . أجال فيها جواد قلمه وأجاد . وأطال وأطاب . قال رحمه الله : ما يسميه ناس الفروع والشرع والفقهاء ، فهذا قدينبه الرسول أحسن بيان . فابق مما أمر الله به وأنهى عنه أو حمله أو حرمه ، إلا بين ذلك . وقد قال تعالى : الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ^(١) .

(١) [٥ / المائة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكَُمْ فِسْقٌ ، =

وقال تعالى : مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ^(١). وقال تعالى : وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ^(٢). وقال تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ^(٣). وقال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^(٤). فقد بين للمسلمين جميع ما يتقونه . كما قال : وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ^(٥) . وقال تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ^(٦) . وهو الرد إلى كتاب الله ،

= الْيَوْمَ يَشْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] ونصها : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ

أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ...

(٣) [٤٢ / الشورى / ١٠] .

(٤) [٩ / التوبة / ١١٥] ... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١١٩] ونصها : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ

عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

(٦) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

أو إلى سنة الرسول ، بعد موته . وقوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ) شرط . والفعل نكرة في سياق الشرط .
فأى شيء تنازعوا فيه ردّوه إلى الله والرسول . ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلاً للنزاع
لم يؤمروا بالرد إليه . وقد جاء عنه ﷺ أنه قال ^(١) : تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها
لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا .
والحاصل أن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين . وأما إجماع الأمة فهو في نفسه حق .
لا تجتمع الأمة على ضلالة . وكذلك القياس الصحيح حق . فإن الله بعث رسله بالعدل وأنزل

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، ١ - باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ٥
(طبعنا) ونصه :

عن أبي الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوّفه ، فقال
« أَلْفَقَرٌ تَخَافُونَ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَتُصَبَّنَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ
إِزَاغَةً إِلَّا هَيْهَ . وَايْمُ اللَّهِ ! لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ » .
قال أبو الدرداء : صدق ، والله ، رسول الله ﷺ . تركنا ، والله ، على مثل البيضاء
ليلها ونهارها سواء .

قال السدّي : هذا الحديث مما انفرد به المصنف .

وأخرجه في : ٦ - باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، حديث ٤٣ (طبعنا) ونصه :
عن العرياض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها
العيون ووجلت منها القلوب . فقلنا : يا رسول الله ! إن هذه موعظة مودّع ، فإذا تعهد إلينا ؟
قال « لقد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها : لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك .
من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء
الراشدين المهديين . عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ . وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ . وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا . فَإِنَّمَا
الْمُؤْمِنُ كَالْجَلَلِ الْأَفِيفِ ، حَيْثُمَا قِيدَ بِقَادٍ » .

الميزان مع الكتاب . والميزانُ يتضمن العدل وما يعرف به العدل . وقد فسروا إنزال ذلك بأنَّ أُلهم العباد معرفة ذلك . والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح ، وقد ضرب الله في القرآن من كل مثل . وبين بالقياس الصحيح ، وهي الأمثال المضروبة ، ما بينه من الحق . لكن القياس الصحيح يطابق النص . فإن الميزان يطابق الكتاب . والله أمر نبيه أن يحكم بالعدل . فهو أنزل الكتاب . وإنما أنزل الكتاب بالعدل . قال تعالى : وَأَنَّ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ^(١) . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ^(٢) . وأما إجماع الأمة فهو حق . لا تجتمع الأمة ، والله الحمد ، على ضلالة . كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة . فقال تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ^(٣) . وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه . وقال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا^(٤) . والوسط العدل الخيار . وقد جعلهم الله شهداء على الناس

(١) [٥ / المائدة / ٤٩] ... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٠] ... وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] ... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ =

وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت في الصحيح ^(١) أن النبي ﷺ مر عليه بجنائز فأتوا عليها خيراً . فقال : وجبت . ثم مر عليه بجنائز فأتوا عليها شراً . فقال : وجبت . قالوا : يا رسول الله ! ما قولك وجبت ؟ قال : هذه الجنائز أثنيتم عليها خيراً . فقلت : وجبت لها الجنة . وهذه الجنائز أثنيتم عليها شراً . فقلت : وجبت لها النار . انتم شهداء الله في الأرض .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض . وقال تعالى : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ^(٢) . والأمة منيئة إلى ربها فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى : وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ^(٣) .

== مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِمَّا نَكُم ، إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٥ - باب ثناء الناس على الميت ،

حديث ٧٢٣ ونصه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرُّوا بجنائز . فأتوا عليها خيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » . ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً . فقال « وجبت » . فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت ؟ قال « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة . وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار . انتم شهداء الله في الأرض » .

وأخرجه مسلم في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ (طبعنا) .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ^(١) . فرضى عن اتبع
السابقين إلى يوم القيامة . فدلّ على أن متابعتهم عامل بما يرضى الله . والله لا يرضى إلا بالحق
لا بالباطل . وقال تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ، والشافعى ، رضى الله عنه ،
لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع . كما كان يسمع هو وغيره من مالك .
ذكر ذلك عن عمر بن عبد العزيز . والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين ، مستحق
للععيد . كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، مستحق للععيد . ومعلوم أن هذا
الوصف يوجب الوعيد بمجرد . فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى
ذكره . وهنا للناس ثلاثة أقوال : قيل : اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة
فى الآية . وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم . فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم .
وقيل : بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية . لكن هذا لا يقتضى
مفارقتة للأول بل قد يكون مستلزماً له . فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر
مشاق للرسول . وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين . وهذا كما فى طاعة الله
والرسول . فإن طاعة الله واجبة . وطاعة الرسول واجبة . وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول
موجب للذم . وهما متلازمان . فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وفى الحديث الصحيح^(٢)
عن النبي ﷺ قال : من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى . ومن
عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] . . . وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٠٩ - باب يقاتل من وراء الإمام
ويُتقى به ، حديث ١٤٠٩ .

ومسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٣٢ (طبعنا) .

ثم قال تقي الدين رحمه الله (بعد ثلاثة أوراق) : ومن الناس من يقول : إنها لاتدل على مورد النزاع . فإن الدم فيها لمن جمع الأمرين . وهذا لانزاع فيه . أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين . وهي متابعة الرسول . وهذا لانزاع فيه . أو إن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة . وهذا لانزاع فيه . فهذا ونحوه قول من يقول : لاتدل على محل النزاع . وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقاً . وتكلفوا لذلك ما تكلفوه . كما قد عرف كلامهم . ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية . والقول الثالث الوسط : إنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم . ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى . وهو يدل على ذم كلٍّ من هذا وهذا . كما تقدم . لكن لا ينفي تلازمهما . كما ذكر في طاعة الله والرسول . وحينئذ يقول : الدم إما أن يكون حقاً لمشاقة الرسول فقط ، أو باتباع غير سبيلهم فقط ، أو أن يكون الدم لا يلحق بواحد منهما . بل بهما إذا اجتمعا . أو يلحق الدم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر ، أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر . والأولان باطلان . لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط ، كان ذكر الآخر ضائعاً لافائدة فيه . وكون الدم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعاً . فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عن اتبعه . ولحوق الدم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية . فإن الوعيد فيها إنما هو على المجموع . بقى القسم الآخر وهو أن كلا من الوصفين يقتضى الوعيد . لأنه مستلزم للآخر . كما يقال مثل ذلك في معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والإسلام . فيقال : من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل النار . ومثله قوله : وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . فإن الكفر بكل واحد من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره . فمن كفر بالله كفر بالجميع . ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسول ، فكان كافراً بالله . إذ كذب رسوله وكتبه .

وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسول . فكان كافراً . وكذلك قوله :
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) .
ذمهم على الوصفين . وكل منهما مقتض للذم . وهما متلازمان . ولهذا نهى عنهما جميعاً
في قوله (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإنه من
لبس الحق بالباطل فقطاه به ، فنلط به ، لزم أن يكتم الحق الذي تبين أن هذا باطل ، إذ لو بينه
زال الباطل الذي لبس به الحق . فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين . من شاقه ،
فقد اتبع غير سبيلهم . وهذا ظاهر . ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضاً فإنه قد جعل له
مدخلاً في الوعيد . فدل على أنه وصف مؤثر في الذم . فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير
سبيلهم قطعاً ، والآية توجب ذم ذلك . وإذا قيل : هي إنما ذمته مع مشاقة الرسول . قلنا :
لأنهما متلازمان . وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوباً عن الرسول .
فالمخالف لهم مخالف للرسول . كما أن المخالف للرسول مخالف لله . ولكن هذا يقتضي أن كل ما أجمع
عليه الرسول قد بينه الرسول . وهذا هو الصوب . فلا يوجد مسألة قط مجمع عليها إلا وفيها
بيان من الرسول ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس . ويعلم الإجماع فيستدل به . كما أنه
يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص . وهو دليل ثان مع النص ، كالأمثال المضروبة في
القرآن . وكذلك الإجماع دليل آخر . كما يقال : قد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع .
وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها . فإن ما دل عليه الإجماع فقد دل عليه
الكتاب والسنة . وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ . فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ
عنه . ولا توجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص . وقد كان بعض الناس يذكر
فيها الإجماع بلانص كالمضاربة . وليس كذلك . بل المضاربة كانت مشهورة بينهم في الجاهلية ،
لا سيما قريش . فإن الأغلب كان عليهم التجارة . وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال .

(١) [٣ / آل عمران / ٧١] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غيره قبل النبوة كما سافر بمال خديجة . والعير التي كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبي سفيان وغيره . فلما جاء الإسلام أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة . ولم ينه عن ذلك . والسنة قوله وفعله وإقراره . فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة . والأثر المشهور فيها عن عمر الذي رواه مالك في الموطأ^(١) ، ويعتمد عليه الفقهاء ، لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه وأتجرا فيه وربحا . وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش . فقال له أحدهما : لو خسر المال لكنا علينا . فكيف يكون الربح وعلينا الضمان ؟ فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربة . فجعله مضاربة .

(١) أخرجه في الموطأ في : ٣٢ - كتاب القراض ، حديث ١ (طبعنا) ونصه :

عن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : خرج عبدالله وعبيد الله ، ابنا عمر بن الخطاب ، في جيش إلى العراق . فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري ، وهو أمير البصرة . فرحب بهما وسهّل . ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت . ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله . أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين . فأسلفكما . فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق . ثم تبيعانه بالمدينة . فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين . ويكون الربح لكما . فقالا : وددنا ذلك . ففعل . وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال . فلما قدما باعاً فأربحجا . فلما دفعا ذلك إلى عمر ، قال : أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا . فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين . فأسلفكما . أدّيا المال وربحه .

فأما عبد الله فسكت . وأما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك ، يا أمير المؤمنين ! هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه . فقال عمر : أدّياه . فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين ! لو جعلته قراضاً ! فقال عمر : قد جعلته قراضاً . فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه . وأخذ عبد الله وعبيد الله ، ابنا عمر بن الخطاب ، نصف ربح المال .

وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم . والعهد بالرسول قريب . لم يحدث بعده . فلم أنها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول . كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والحرازة . وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص . لكن كان النص عند غيرهم . وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول . مع قولهم بصحة القياس . ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى ، كما نقل الأخبار ، ولكن استقرينا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة . وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة . كما أنه قد يحتج بقياس ، وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع . وكما يكون في المسألة نص خاص وقد استدلل فيها بمموم . كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله تعالى : **وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ^(١) . وقال ابن مسعود ^(٢) : سورة النساء القصرى نزلت بعد الطولى . أى : بعد البقرة . وقوله : **أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : **وَاللَّائِي يَئُسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .**

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٢ - باب **وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ** ، حديث ٢٠٦١ ونصه :

عن أيوب عن محمد قال : كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلي . وكان أصحابه يعضونه . فذكر آخر الأجلين . فحدثتُ بحديث سُبَيْعَةَ بنت الحارث ، عن عبد الله بن عتبة . قال فضمر لي بعض أصحابه . قال محمد : ففطنت له . فقلت : إني إذا جرىء إن كذبتُ على عبد الله بن عتبة ، وهو في ناحية الكوفة . فاستحيا وقال : لكن عمه لم يقل ذاك . فقلت =

يقتضى انحصار الأجل في ذلك . فلو أوجب عليها أن تستد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها . وعلى ابن عباس وغيرهما أدخلوها في عموم الآيتين . وجاء النص الخاص في قصة^(١) سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود . وكذلك . لما تنازعوا في المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل ، أفتى ابن مسعود فيها برأيه أن لها مهر المثل . ثم روي حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك . وقد خالفه عليّ وزيد وغيرهما . فقالوا : لا مهر لها . فثبت أن بعض المجتهدين قديفتي بعموم أو قياس ، ويكون في الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه . ولا يُعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها . بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص وأولئك يحتجون بنص . كالمتوفى عنها الحامل . هؤلاء احتجوا بشمول الآيتين

= أبا عطية مالك بن عمر . فمأثته فذهب يحدثني حديث سبيعة . فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ نزلت سورة النساء القصوى بعد الطولي : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٢ - باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ ، حديث ٢٠٦١ .

عن يحيى قال : أخبرني أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، وأبو هريرة جالس عنده . فقال : أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي (يعني : أبا سلمة) فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها .

فقلت : قُتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى . فوضعت بعد موته بأربعين ليلة . فخطبت . فأنسكحها رسول الله ﷺ . وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

لها . والآخرون قالوا : إنما تدخل في آية الحمل فقط ، وإن آية الشهور في غير الحامل . كما أن آية القروء في غير الحامل . وكذلك لما تنازعوا في الحرام احتج من جملة عيّنًا بقوله : لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْصَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ^(١) . وكذلك تنازعوا في المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى . احتج هؤلاء بحديث فاطمة ^(٢) وبأن السكنى التي في القرآن للرجعية . وأولئك قالوا : بل هي لهما . ودلالات النصوص قد تكون خفية . فخص الله بفهمها بعض الناس . كما قال علي ^(٣) : إِنْ لَا فِهْمَا

(١) [٦٦ / التحريم / ٢١] . . . وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ٣٦ (طبعنا) وهذا نصها : عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة . وهو غائب . فأرسل إليها وكيله بشعير . فسخطته . فقال : والله ! مالك علينا من شيء . فجاءت رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له . فقال « ليس لك عليه نفقة » فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك . ثم قال : تلك امرأة يغشاها أصحابي . اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى . تضعين ثيابك . فإذا حلت فأذنيني . قالت : فلما حلت ذكرت له ؛ أن معاوية بن أبي سفيان وأباهم خطباني . فقال رسول الله ﷺ « أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . انكحى أسامة بن زيد » . فسكرهته . ثم قال « انكحى أسامة » فنكحته فجعل الله فيه خيراً ، واغتبطت .

وأخرجها بطرق أخرى في الأحاديث رقم ٣٧-٥١ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٩ - باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ونصه : عن أبي جحيفة قال : قلت لعليّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا . إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قال قلت : فما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

يؤتيه الله عبداً في كتابه . وقد يكون النص بيتاً ويذهل المجتهد عنه ، كتييم الجنب . فإنه بين في القرآن في آيتين . ولما ^(١) احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك قال الحاضر : ما درى عبد الله ما يقول ، إلا أنه قال : لو أرحصنا لهم في هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمم . وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : إن المطلقة في القرآن هي الرجعية بدليل قوله : لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ^(٢) وأى أمر يحدثه بعد الثلاثة ؟ وقد احتج طائفة على وجوب العمرة بقوله : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٣) . واحتج بهذه الآية من منع

(١) أخرجه البخارى في : ٧ - كتاب التيمم ، ٧ - باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش ، تيمم ، حديث ٢٣٣ ونصه :
عن شقيق بن سلمة قال : كنت عند عبد الله وأبي موسى . فقال له أبو موسى : أرأيت ، يا أبا عبد الرحمن ! إذا أجنب فلم يجد ماءً كيف يصنع ؟ فقال عبد الله : لا يصلح حتى يجد الماء . فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمار ، حين قال له النبي ﷺ « كان يكفيك » ؟ قال : ألم تر عمر لم يقنع بذلك ؟ فقال أبو موسى : فدعنا من قول عمار . كيف تصنع بهذه الآية ؟
فما درى عبد الله ما يقول .

فقال : إنا لو رخصنا لهم في هذا ، لأوشك ، إذا برد على أحدهم الماء ، أن يدعه ويتيمم .
(قال الأعمش) : قتل لشقيق : فإنما كره عبد الله لهذا ؟ قال : نعم .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

الفسخ . وآخرون يقولون : إنما أمر بالإتمام فقط . وكذلك أمر الشارع أن يتم . وكذلك في الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها . أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه فإنه شرع ﷺ أصحابه عام حجة الوداع . وتنازعوا في الذي بيده عنده النكاح وفي قوله : أَوْ لَا مَسْتَمُ النِّسَاءُ ^(١) . ونحو ذلك مما ليس بهذا موضع استقصائه . وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي ، فهذا ما أعرفه . والجد ، لما قال أكثرهم : إنه أب ، استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله ^(٢) : كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَدِّ ، لما قال أكثرهم : إنه أب ، استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله ^(٢) : كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

نَسَبِكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ، فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) [٤ / النساء / ٤٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِن اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

و [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٧] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا =

الْجَنَّةِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ كَانَتِ الْجَنَّةُ تَطْنُ أَنْ الْإِنْسَ تَسْمَى أَبَا الْأَبِ جَدًّا لَمَا قَالَتْ: وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا^(١). نقول: إنما هو أب، لكن أب أبعد من أب. وقد روى عن عليٍّ وزيد أنهما احتجا بقياس، فمن ادعى إجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقاً فقد غلط. ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط. بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من السام. فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها. ومن رأى دلالة الميزان ذكرها. والدلائل الصحيحة لا تتناقض. لكن قد يخفى وجه اتفاقهما أو ضعف أحدهما على بعض العلماء. وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين. كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين. فإنهم شهدوا التنزيل وعايروا الرسول. وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك. فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس. ومن قال من المتأخرين: إن الإجماع مستند معظم الشريعة، فقد أخبر عن حاله. فإنه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك. وهذا كقولهم: إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها. فإنما هذا من قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالاتهما على الأحكام. وقد قال الإمام أحمد رضي الله عنه: إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها. فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام، حدثت جميع أجناس الأعمال. فتكلموا فيها بالكتاب والسنة. وإنما تكلم بعضهم بالرأى في مسائل قليلة. والإجماع لم يكن محتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه. إذ هم أهل الإجماع، فلا إجماع قبلهم. لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شرح: أقض بما في كتاب الله. فإن لم نجد، فما في سنة رسول الله. فإن لم نجد، فما قضى به الصالحون قبلك. وفي رواية: فما أجمع

= أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

(١) [٧٢ / الجن / ٣] . . . مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

عليه الناس . فقدم عمر الكتاب ثم السنة : وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر . قدّم الكتاب ثم السنة ، ثم الإجماع . وكذلك ابن عباس كان يفتي بما في الكتاب ثم بما في السنة ثم بسنة أبي بكر وعمر . لقوله ^(١) : اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر . وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء . وهذا هو الصواب . ولكن طائفة من التأخرين قالوا : يبدأ المجتهد ينظر أولاً في الإجماع . فإن وجده لم يلتفت إلى غيره . وإن وجد نصّاً خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه . وقال بعضهم : الإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف . وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذاك منسوخ . فأمّا أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة ، وحفظت النص المنسوخ ، فهذا لا يوجد قط . وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نهيت عن اتباعه . وإضاعة ما أمرت باتباعه . وهي معصومة عن ذلك . ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراً وأغالباً . فن الذي يحيط بأقوال المجتهدين ؟ بخلاف النصوص ، فإن معرفتها ممكنة متيسرة . وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولاً . لأن السنة لاتنسخ الكتاب . فلا يكون في القرآن شيء منسوخاً بالسنة . بل إن كان فيه منسوخ ، كان في القرآن ناسخه . فلا يقدم غير القرآن عليه . ثم إذا لم يجد ذلك طلبه في السنة . ولا يكون في السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته . لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره . ولا تعارض السنة بإجماع . وأكثر ألفاظ الآثار . فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة . مع أنه فيها . وكذلك

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١٦ - في مناقب أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما . ونصه : عن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال : « إني لا أدري ما بقائى فيكم ، فاقصدوا باللذين من بعدي » وأشار إلى أبي بكر وعمر .

في القرآن . فيجوز له إذا لم يجده في القرآن أن يطلبه في السنة . وإذا كان في السنة لم يكن مافي السنة معارضاً لما في القرآن . وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة . انتهى كلامه قدس الله روحه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» قدم الكلام على هذه الآية الكريمة في أوائل هذه السورة مطولاً . قالوا : تكريرها إما تأنيدياً وتشديداً أو لتكميل قصة طعنة ، وقد مر موته كافراً . أو إن لها سبباً آخر في النزول . على ما رواه الثعلبي عن ابن عباس قال : جاء شيخ ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إني شيخ منهمك في الذنوب . إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به . ولم آتخذ من دونه ولياً . ولم أوقع المعاصي جراءة . وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً . وإني لنادم نائب . فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى ؟ فنزلت . واستظهر بعضهم الوجه الأخير قال : لأن التأنيدي ، مع بعد عهده ، لا يقتضي تخصص هذا الموضع ، فلا بد له من مخصص . وأغرب المهايمي حيث جعلها مشيرة إلى شق الآية الكريمة ، حيث قال : ثم أشار إلى أن وعيد مشاقة الرسول جازم دون مخالفة الإجماع . لأن مشاقة الرسول دليل تكذيبه . وهو مستلزم للشرك بالله . إذ خلق المعجزات لا يكون إلا لكامل القدرة . ولا يكون إلا لإله . فإذا نفاها عن الله فقد أثبت له شريكاً وأن الله لا يغفر أن يشرك به . ومخالفة الإجماع يجوز أن تكون مغفورة . لأنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، إذ لا تنتهي إلى الشرك . وكل هذه المناسبات دالة دون ذلك قطعاً على دلالة هذه الآية ، على أن ماسوى الشرك مغفور قطعاً . سواء حصلت التوبة أو لم تحصل .

وقد روى الترمذى^(١) عن عليّ رضى الله عنه أنه قال : مافى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . الآية «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» .
أى : عن الحق . فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة . وإنما ذكر فى الآية الأولى (فَقَدْ افْتَرَى) لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب . ومنشأ شركهم كان نوع افتراء . وهو دعوى التبنى على الله تعالى بقولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) قاله القاضى .
وفى (السمين) : ختمت الآية المتقدمة بقوله (فَقَدْ افْتَرَى) وهذه بقوله (فَقَدْ ضَلَّ) لأن الأولى فى شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع . ومع ذلك فقد كابروا فى ذلك وافتروا على الله . وهذه فى شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم . فناسب وصفهم بالضلال . وأيضاً قد تقدم هنا ذكر الهدى وهو ضد الضلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا)

« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » ما يعبد مشركو مكة ونحوهم من دون الله « إِلَّا إِنَانَا » قال الرازى : (يدعون) بمعنى (يعبدون) لأن من عبد شيئاً فإنه يدعو عند احتياجه إليه . انتهى .

وقد روى الإمام أحمد^(٢) وابن أبى شعبة وأصحاب السنن وغيرهم ، عن النعمان بن بشير ؛

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٢٣ - حدثنا

خلاد بن أسلم .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه : عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال « إِنْ الدِّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ » ثم قرأ : ادْعُونِ اسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٤٠/ غافر/ ٦٠] .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء هو العبادة . ورواه أبو يعلى عن البراء . ورواه الترمذى ^(١) عن أنس بلفظ : الدعاء منح العبادة .
وفى قوله تعالى (إِلَّا إِنَاءً) وجوه :

الأول - ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : يعنى أوثاناً . وعليه فرجع التسمية بالإِنَاء كون أسماء غلبها مؤنثة . كمناء والعزى واللآت ونحوها . ولأنهم كانوا يلبسونها أنواع الخلى ويزينونها على هيات النسوان . وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبي مالك والسدى ومقاتل نحو ما لعائشة .

الوجه الثانى - أنه عنى الملائكة . لأن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقولون عنها : بنات الله . روى ابن جرير ^(٢) عن الضحاك فى الآية : قال المشركون ، للملائكة : بنات الله . وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى . قال : فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جوارى فحكوا وقلدوا وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذى نعبدن . يعنون الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ) ^(٣) الآيات وقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً) ^(٤) ... الآية . وقال (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا) ^(٥) انتهى .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ) .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة : ١٦ - حدثنا هناد .

(٢) الأثر رقم ١٠٤٣٧ ونصه : عن الضحاك ، فى قوله : « إِنَّ يَدْعُونَ إِلَّا إِنَاءً »

قال : الملائكة . يزعمون أنهم بنات الله .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٧] .

(٤) [٤٣ / الزخرف / ١٩] أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

(٥) [٣٧ / الصافات / ١٣٧] وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

الوجه الثالث - ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في الآية قال: مع كل صنم جنية.
 الرابع - قال علي بن أبي طلحة والضحاك عن ابن عباس والحسن : إناثاً يعني موتى .
 قال الحسن : الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح . إما خشبة يابسة وإما حجر يابس . رواه
 ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) . وفي (القاموس . وشرحه) : الإناث جمع الأنثى . وهو خلاف
 الذكر من كل شيء . والموات الذي هو خلاف الحيوان . كالشجر والحجر والخشب ، عن
 اللحياني . وعن الفراء : تقول العرب اللات والعزى وأشباههما من الآلهة المؤنثة . انتهى .
 وقال الإمام أبو البقاء : قوله تعالى (إِنْ لَّا إِنْثَاءٌ) هو جمع أنثى على (فمال) ويراد به كل
 مالا روح فيه من صخرة وشمس ونحوها . ويقراً (أنثى) على الأفراد . ودل الواحد على
 الجمع . ويقراً (أنثاً) مثل رسل فيجوز أن تكون صفة مفردة مثل امرأة جنب ، ويجوز أن
 يكون جمع أنثى كقلب وقُلب . وقد قالوا : حديد أنثى ، من هذا المعنى . ويقراً أنثا والواحد
 وثن وهو الصنم وأصله وثن ، في الجمع كما في الواحد إلا أن الواو قلبت همزة لما انضمت ضمماً
 لازماً وهو مثل أسد . وأسد . ويقراً بالواو على الأصل جمعاً . ويقراً بسكون الثاء مع الهمزة والواو .
 انتهى . قال البيضاوي : ولعله تعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً .
 لأنه يفعل ولا يفعل . ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل ، ليكون دليلاً على
 تنهاى جهلهم وفرط حماقتهم « وَإِنْ يَدْعُونَ » أى : ما يعبدون من دون الله « إِنْ لَّا شَيْطَانًا
 مَّرِيدًا » وهو إبليس لعنه الله لطاعتهم له في عبادتها . وإذا أطاعوه فيما سؤل لهم فقد عبدوه .
 كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ)^(٢) وقال تعالى (بَلْ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)^(٣) والمريد المتمرد العاتى الطاغى .

- (١) الأثر رقم ١٠٤٣٦ ونصه: عن الحسن « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِنْ لَّا إِنْثَاءٌ » قال :
 و « الإناث » كل شيء ميت ليس فيه روح : خشبة يابسة : أو حجر يابس . قال الله تعالى :
 « وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا » إلى قوله : « فَلَیَبْتَکُنَّ آدَانُ الْأَنْعَامِ » .
 (٢) [٣٦ / یس / ٦٠] إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .
 (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] ونصها : قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (لَعْنَةُ اللَّهِ . وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

« لَعْنَةُ اللَّهِ » صفة ثانية لِـ (شَيْطَانًا) أى : أبعد الله عن رحمته . فأراد إبعاد مَنْ أبعد بسببه « وَقَالَ » حين أبعد « لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ » أى : الذين أبعدتني بسببهم أى : لأجعلن لي منهم « نَصِيبًا » أى : حظًا « مَفْرُوضًا » أى : مقطوعاً ومقدراً من عبادتهم بأن يعبدوا غيرك ، أو يراؤا فيها ، أو يعجبوا بها ، أو يتلفوها في الظالم ، أو يحبطوها بالكفر بعدها . قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (وَقَالَ) الخ عطف على الجملة المتقدمة أى : شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله ، وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن . ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها يتفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً . وذلك ينافي الألوهية غاية النفاة . ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفضع الضلال من وجوه ثلاثة : الأول - أنه منهمك في الغي لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدى . فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الحق . والثاني - أنه ملمون لضلاله . فلا تستتبع مطاعته سوى اللعن والضلال . والثالث - أنه في غاية السعى في إهلاكهم وإضلالهم . فوالاة من هذا شأنه غاية الضلال ، فضلاً عن عبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيُبَيِّتْ كُنَّ إِذْ أَمَرَ الْأَنْعَامَ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

« وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ » أى : عن الهدى « وَلَا مَنِّينَهُمْ » أى : الأمانى الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال . قال الرازى : إن الشيطان لما ادعى أنه يضل الخلق قال (وَلَا مَنِّينَهُمْ)

وهذا يشعر بأنه لا حيلة له في الإضلال أقوى من إلقاء الأمانى في قلوب الخلق . وطلب ما يورث شيئين : الحرص والأمل . والحرص والأمل يستلزم أكثر الأخلاق الذميمة . وما كالأمرين اللازمين لجوهر الإنسان . قال ^(١) صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص والأمل . والحرص يستلزم ركوب أهوال الدنيا وأهوال الدين . فإنه إذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق . وإذا طال أمله نسي الآخرة وصار غريباً في الدنيا . فلا يكاد يقدم على التوبة ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ فيصير قلبه كالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً « وَلَا مَرْثَهُمْ » أى على خلاف أمرِك إضلالاً لهم « فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ » أى : فليقتطعنها ويشقنها سِمَةً وعلامة للبحائر والسواحب ليحرموها ، بعد ما أحللتها . قال الواحدى رحمه الله : التبتيك ، ههنا ، هو قطع آذان البحيرة ، بإجماع المفسرين . وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، وجاء الخامس ذكراً ثم تسيب . وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها . فأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح . ولا يردونها عن ماء ولا مرعى . وإذا لقيها المعبي المنقطع به لم يركبها . وسوّ لهم إبليس أن هذا قربة ، وهى البحيرة . قال ابن سيده : بحر الناقة والشاة يبحرها : شق أذنها بنصفين . وقل بنصفين طولاً « وَلَا مَرْثَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ » أى : دين الله عز وجل . رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وكثيرين . وهذا كقوله تعالى (فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) ^(٢) على قول من جعل ذلك أمراً . أى : لا تبدلوا فطرة الله ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١١٥ (طبعتنا) ونصه : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر » .

(٢) [٣٠ / الروم / ٣٠] ... ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء . هل تجدون بها من جدعاء ؟ وفي صحيح مسلم ^(٢) عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٩٣ - باب ما قيل في أولاد المشركين ، حديث ٧١٦ . ونصه .

عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء ؟ » .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا) ونصه :

عن عياض بن حمار المجاشعي : أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم في خطبته : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم مما جهلتم مما علمنى ، يومى هذا . كل مال نحلته عبداً ، حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى ، ما لم أنزل به سلطاناً . وإن الله نظر إلى أهل الأرض ففقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا . فقلت : رب ! إذا يثاغفوا رأسى (أى : يشدخوه ويشقوه) فيدعوه خبزة (أى : كما يشدخ الخبز) قال : استخرجهم كما استخرج جوك . واغزهم نُغْرَكَ (أى : نعينك) وأنفق فسننق عليك . وابعث جيشاً نبث خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق . ورجل رحيم رقيق =

وروى الإمام أحمد^(١) والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعيَّ يجر قُصْبَهُ في النار . وكان أول من سبَّ السوائب وبجرَ البحيرة .

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قعدة ابن خندف ، أبو خزاعة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : أنه عني بالآية خصى الدواب . وقال أنس : منه الخصا . وقد روى ابن عساكر عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الإخصاء . ورواه الإمام أحمد^(٢) أيضاً عنه بلفظ : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خصاء الخيل والبهايم . وروى الطبراني عن ابن مسعود : نهى النبي ﷺ أن يخصى أحد من ولد آدم . وروى

= القلب لكل ذي قربى ، ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبرَ له (أى : لا عقل له يزره ويمنعه مما لا ينبغي) الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالاً . والخائن الذي لا يخفى له طمع ، وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » . وذكر البخل أو الكذب « والسُنْطِيز : الفحاش » .

(١) أخرجه في السند بالصفحة ٢٧٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) ونصه : عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعيَّ يجر قُصْبَهُ (يعني الأمعاء) في النار . وهو أول من سبَّ السوائب » .

وفي البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٩ - باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٧ . ومسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في السند بالصفحة ٢٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) ونصه : عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن إخصاء الخيل والبهايم . وقال ابن عمر : فيها نماء الخلق .

البيهقيّ عن ابن عباس : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صبر الروح وخصاء البهائم . وقال الحسن : عنى بالآية الوشم (بالشين المعجمة) أخرجه ابن أبي حاتم . روى الإمام أحمد^(١) عن أبي هريرة : نهى رسول الله ﷺ عن الوشم . وفي الصحيح^(٢) عن ابن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل . ثم قال : أَلَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ وهو في كتاب الله عز وجل ؟ يعني قوله (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : فيستدل بالآية على تحريم الخصاء والوشم وما يجري مجراه ، من الوصل في الشعر . والتفليج ، وهو تفريق الأسنان . والتنميص ، وهو تنف الشعر من الوجه . انتهى .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣١٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٧ - سورة الحديد ، ٤ - باب وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، حديث ٢٠٥٥ ونصه :

عن علقمة عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب . فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت . فقال : وما لي ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو في كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لأن كنت قرأتيه لقد وجدتيه . أما قرأت : وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟ قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنني أرى أهلك يفعلونه . قال : فاذهبي فانظري . فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً . فقال : لو كانت كذلك ما جامعتنا .

قال بعض الزيدية : ويلحق بالوشر ما يفعل في الخدّ من الشرط للزينة . وحكى الزجاج عن بعضهم ، في معنى الآية : إن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها ، فحرموها على أنفسهم كالبحائر والسواشب والوصائل . وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرة للناس ينتفعون بها ، فعبدوها المشركون فغيروا خلق الله . ولا يخفى أن عموم الآية يصدق على جميع المعاني . إذ كلها من تغيير خلق الله . فلا مانع من حمل الآية عليها . قال البيضاوي : قوله (فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) أى : عن وجهه وصورته ، أو صفته . ويندرج فيه ما قيل من فقء عين الحامى ، وخصاء العبيد ، والوشم والوشر ، واللواط ، والسحق ، ونحو ذلك . وعبادة الشمس والقمر ، وتغيير فطرة الله تعالى التى هى الإسلام . واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى . انتهى .

وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالاً أوحالاً . وما فيها من (اللامات) كلها للقسم . والمأمور به فى الموضوعين محذوف ، ثقةً بدلالة النظم عليه . ثم حذر تعالى عن متابعتة فقال « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ » بإيثار ما يدعو إليه ، مجاوزاً ولاية الله ، بترك ما يدعو إليه « فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » أى : بيناً لمصيره إلى النار المؤبدة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

« يَعِدُّهُمْ » بأنهم الفأزون « وَيُمْنِيهِمْ » أى : مالاينا لونه « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » باطلاً وضلالاً ، وإيهام نفع مما ليس فيه إلا الضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)

« أُولَئِكَ » أى : أولياء الشيطان « مَاوَاهُمْ » مصيرهم وما لهم يوم القيامة « جَهَنَّمُ »

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا « معدلاً ومفرّاً . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » أى : صدقت قلوبهم « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى : عملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات « سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت غرفها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » أنهار الخمر والماء واللبن والعسل « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين فى الجنة . لا يموتون ولا يخرجون منها « أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا » صدقاً واقعاً لا محالة . وكيف لا يكون وعد الله حقاً « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا » وعداً وخبراً . وهو استفهام بمعنى النفي . أى : لأحد أصدق منه قِيلًا . لا إله إلا هو ولا رب سواه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (١) فى خطبته : إن أصدق الحديث كلام الله . وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها . وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . وكل ضلالة فى النار . والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرآنه ، بوعد الله الصادق لأوليائه . والمبالغة فى توكيده ترغيباً للعباد فى تحصيله . (والاقيل) مصدر ، كالقال والقول .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٢٣] (لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ » أى : ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام « وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ » ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا :

(١) أخرجه مسلم فى : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ فِي الْأَيْمَانِ كَذِبًا) (١) (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) (٢) «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» . أى : من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله « وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » وهذا وعيد للكفار لأنه قال بعده :

القول فى تأييل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » جملة حالية . (و من) الأولى زائدة عند الأخفش . وصفة عند سيبويه . أى : شيئاً من الصالحات « فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » أى : لا ينقص من حسناتهم قدر نقير . وهو النقرة التى على ظهر النواة . وهذا على سبيل المبالغة فى نفي الظلم . ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان . والراجع فى (وَلَا يُظْلَمُونَ) لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً . وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره عند الآخر . وقوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) وقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) بعد ذكر تمنى أهل الكتاب كقوله سبحانه (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ) (٣) وقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عقيب قوله (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) .

(١) [٥/ المائدة/ ١٨] ونصها: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢/ البقرة/ ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢/ البقرة/ ٨١] فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

تنبيه :

ما قدمناه من أن الخطاب في قوله تعالى (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ) للمشركين وأن قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) أى : من أهل الكتاب والمشركين - هو الذى يدل عليه سياق الآية ونظمها الكريم كما بينا . ورواه الطبرى^(١) عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن . قال الأولان رضى الله عنهما: (السوء) ههنا هو الشرك . وقال الحسن : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) هو الكافر . ثم قرأ (وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) .

ولما كان لعموم هذا الخطاب روعة ، وأى روعة ، أشفق كثير من الصحابة لأجله . قال ابن كثير : وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة . قال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا عبد الله بن نثير . حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهير قال: أخبرنا أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يارسول الله ! كيف الفلاح بعد هذه الآية (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك ، ياأبا بكر ! ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللاؤاء ؟ قال : بلى . قال : هو مما تجزون به .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) شق ذلك على المسلمين . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدّدوا وقاربوا . فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها . رواه سعيد بن منصور

(١) عن ابن عباس ، الأثر رقم ١٠٥١٨ ، وعن سعيد بن جبير ، الأثر رقم ١٠٥١٩ ، وعن الحسن ، الأثر رقم ١٠٥١١ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٨ - ٧١ (طبعة المعارف) .

وأحمد^(١) ومسلم^(٢) والترمذى والنسائى .

وقال عطاء بن يسار عن أبي سعيد وأبي هريرة ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن ، حتى الهم يهمله إلا كفر الله عن سيئاته . أخرجاه^(٣) .

وروى ابن مردويه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال قيل : يا رسول الله ! من يعمل سوءا يجز به ؟ قال : نعم . ومن يعمل حسنة يجز بها عشرا . فهلك من غلب واحدته عشراته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » أى : أخلص نفسه له تعالى فلم يتخذ ربا سواه . « وَهُوَ مُحْسِنٌ » أى آت بالحسنات تارك للسيئات . أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى . وقد فسر النبي^(٤) صلى الله

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث ٧٣٨٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١ - باب ما جاء فى كفارة الرض

حديث ٢٢٣٥ و ٢٢٣٦ . ومسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبي^ﷺ

عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه :

عليه وسلم الإحسان بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك « وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها وقبولها « حَنِيفًا » أى : مائلاً عن الشرك قصداً . أى : تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية ، لا يصد عنه صاد ، ولا يرد عنه راد .

قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً ، شرح الإيمان وبين فضله من وجهين : أحدهما - أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والالتقياد لله تعالى . والثانى - أنه الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام . وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الإسلام . أما الوجه الأول فاعلم أن دين الإسلام مبنى على أمرين : الاعتقاد والعمل . أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) وذلك لأن الإسلام هو الالتقياد والخضوع . والوجه أحسن أعضاء الإنسان . فالإنسان إذا عرف بقلبه ربه ، وأقر ربوبيته وعبودية نفسه ، فقد أسلم وجهه لله . وأما العمل فإليه الإشارة بقوله (وَهُوَ مُحْسِنٌ) ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات . فتأمل في هذه اللفظة

= عن أبى هريرة قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسوله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراتها : إذا ولدت الأمة ربتها . وإذا تناول رعاة الإبل البهائم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » . ثم تلا النبي ﷺ : إن الله عنده علم الساعة . . . الآية . ثم أدبر .

فقال : « ردوه » فلم يروا شيئاً . فقال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض . وأيضاً فقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله . وهذا تنبيه على أن كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق ، وإظهار التبرىء من الحول والقوة . وأيضاً ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله . فإن المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . والدهرية والطبيعويون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبائع وغيرها . واليهود كانوا يقولون في دفع عقاب الآخرة عنهم : إنهم من أولاد الأنبياء . والنصارى كانوا يقولون : ثالث ثلاثة . فجميع الفرق استعانوا بغير الله . وأما الوجه الثاني في بيان فضيلة الإسلام فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وقد اشتهر عند كل الخلق أن إبراهيم ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى كما قال (إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) ^(١) وما كان يدعو إلى عبادة فلك ولا طاعة كوكب ولا سجدة لصنم ولا استعانة بطبيعة . بل كان ديدنه الدعوة إلى الله والإعراض عن كل ماسوى الله . وهكذا دعوة محمد ﷺ . ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الكل . وذلك لأن العرب لا يفتخرون بشيء كافتخارهم بالانساب إلى إبراهيم . وأما اليهود والنصارى فلا شك في كونهم مفتخرين به . وإذا ثبت هذا لزم أن يكون شرع محمد مقبولاً عند الكل « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » أى : صديقاً خالص المحبة له . وإظهاره ، عليه السلام ، في موضع الإضمار ، لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه المدوح . وسر هذه الجملة الترغيب في اتباع ملته عليه الصلاة والسلام . فإن من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغاً مصححاً لتسميته خليلاً ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ ، أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم، وأشرف ما يرمى نحوه أحداق الأمم . فإن درجة الخلّة أرفع مقامات المحبة . وماذا لك إلا لكثرة طاعته لربه . كما وصفه به في قوله : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)^(١) قال كثير من علماء السلف : أى : قام بجميع ما أمر به ، وفى كل مقام من مقامات العبادة . فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير . ولا كبير عن صغير . وقال تعالى (وَإِذَا بَتُلَىٰٓ إِِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ..)^(٢) الآية . وقال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...)^(٣) الآية . والخليل ، لغةً ، الصديق المختص . وقال ابن الأعرابي : الخليل الصادق . وقال الزجاج : هو الحب الذى لا خلل فى محبته . وبه فسر الآية . أى : أحبه محبة تامة لا خلل فيها . وقال ابن دريد : الخليل من أصنى المودة وأصحّها . قال : ولا أزيد فيه شيئاً لأنها فى القرآن . انتهى .

قال الرازى : ذكروا فى اشتقاق الخليل وجوهاً : منها أن خليل الإنسان هو الذى يدخل فى خلال أموره وأسراره . والذى دخل حبه فى خلال أجزاء قلبه . ولا شك أن ذلك هو الغاية فى المحبة . قيل : لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ، ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله ، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلم للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيقات ، جملة الله إماماً للخلق ورسولاً إليهم ، وبشره بأن الملك والنبوة فى ذريته . فلهذه الاختصاصات سماه خليلاً ، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه . انتهى . وقوله : (لأن محبة الله لعبده الخ منزع كلامي لا سلفي) .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٤] قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

ثم قال الرازي : وعندى وجه آخر . وهو أن جوهر الروح ، إذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ، ثم انضاف إلى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف ، أعمال تزيد صقالة عن الكدورات الجسمانية ، وأفكار تزيد استنارة بالعارف القدسية والجلال الإلهية ، صار مثل هذا الإنسان متوغلاً في عالم القدس والطمارة ، متبرئاً عن علائق الجسم والحس . ثم لا يزال هذا الإنسان يتزايد في هذه الأحوال الشريفة إلى أن يصير بحيث لا يرى إلا الله ، ولا يسمع إلا الله ، ولا يتحرك إلا بالله ، ولا يسكن إلا بالله ، ولا يمشي إلا بالله ؛ فكأن نور جلال الله قد سرى في جميع قواه الجسمانية . وتخلل فيها وغاص في جواهرها . وتوغل في ماهياتها . فمثل هذا الإنسان هو الموصوف ، حقاً ، بأنه خليل . لما أنه تخللت محبة الله في جميع قواه . وإليه الإشارة بقول (٣) النبي ﷺ ، في دعائه : اللهم ! اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي عصبي نوراً . انتهى .

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ (طبعنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : بت ليلة عند خالتي ميمونة . فقام النبي ﷺ من الليل . فأتى حاجته . ثم غسل وجهه ويديه . ثم نام . ثم قام فأتى القربة فأطلق شِناقها (الشناق هو الخيط الذي تربط به في الوتد . وقيل : هو الوكاء) ثم توضأ وضوءاً بين الوضوءين . ولم يكثر . وقد أبلغ . ثم قام فصلى . فقامت فتمطيت كراهة أن يرى أنى كنت أتنبه له . فتوضأت . فقام فصلى . فقامت عن يساره . فأخذ بيدي فأدارني عن يمينه . فتنامت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة . ثم اضطجع . فنام حتى نفخ . وكان إذا نام نفخ . فنام بلال فأذنه بالصلاة . فقام فصلى ولم يتوضأ . وكان في دعائه « اللهم ! اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وعظم لي نوراً » .

قال الإمام العلامة شمس الدين بن القيم في كتابه (الجواب الكافي) : الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها . بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه . وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما . وهذا المنصب خاصة للخليئين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد . كما قال ﷺ (١) : إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . وفي الصحيح (٢) عنه ﷺ : لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صاحبكم خليل الله . وفي حديث (٣) آخر : إني أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولما سأل إبراهيم عليه السلام

(١) هذا الحديث لم أجده في كتاب من كتب السنة التي تحت يدي . وأخيراً وجدت الحافظ ابن حجر ذكر في (الفتح) عند الكلام على حديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » ، قال : وقد تواردت هذه الأحاديث على نفي الخلة من النبي ﷺ لأحمد بن الناس . وأما ما روى عن أبي بن كعب قال : إن أحدث عهدى بنبيكم قبل موته بخمس . دخلت عليه وهو يقول : « إنه لم يكن نبيّ إلا وقد اتخذ من أمته خليلاً . وإن خليلي أبو بكر . ألا وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » أخرجه أبو الحسن الحرابي في (فوائده) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ٥ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً ، حديث ٣١٢ ونصه : عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر . ولكن أخي وصاحبي » .

وفيه أيضاً عنه ، قال : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، ١١ - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ٩٣ ، ونصه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إني أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . إن صاحبكم خليل الله » .

الولد ، فَأَعْطِيهِ ، فتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره . فأمر بذبحه . وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحاناً . ولم يكن المقصود ذبح الولد . ولكن المقصود ذبحه من قلبه . ليخلص القلب للرب . فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود . فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم . فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً . بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله . كما أبقى شريعة الفداء . وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة . وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين ، وأبقى ثوابها . وقال : مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ^(١) . هي خمس في الفعل وخمسون في الأجر . ثم قال ابن القيم قدس سره : وأما ما يظنه بعض الظانين ؛ أن المحبة أكمل من الخلقة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله ، فمن جهله . فإن المحبة عامة والخلقة خاصة . والخلقة نهاية المحبة . وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا . ونفى أن يكون له خليل غير ربه . مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم . وأيضاً فإن الله سبحانه يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ^(٢) وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(٣) وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ ^(٤) وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ^(٥)

(١) [٥٠ / ق / ٢٩] ... وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ .

(٢) (٢ / البقرة / ٢٢٢) ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٢] .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٥) [٢ / البقرة / ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ^(١)، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^(٢). وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام. والشاب الثائب حبيب الله. وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. انتهى . وقد تمسك من زعم أن المحبة أصفى من الخلقة بما رواه ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه . فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتدأكرون. فسمع حديثهم . وإذا بعضهم يقول : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً . فإبراهيم خليله . وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً . وقال آخر : فميسى روح الله وكلته . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وتعجبكم . أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك . وموسى كلمه . وعيسى روحه وكلته . وآدم اصطفاه الله . وهو كذلك . وكذلك محمد ﷺ . قال : ألا وإنى حبيب الله . ولا نفر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا نفر . وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله لى ويدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا نفر . وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا نفر .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها . انتهى .

قلت : ورواه الترمذى^(٣) أيضاً فى جامعه فى فضائله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هذا حديث غريب .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٦] ونصها : يَلٰٓئِىْ مَنْ اَوْفٰٓى بِعَهْدِهٖ وَاَتَّقٰٓى فَاِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ .

(٢) [٦٠ / المتحنة / ٨] ونصها : لَا يَنْهٰكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِيْنَ لَمْ يُقَاتِلُوْكُمْ فِى الدِّيْنِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ اَنْ تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوْا اِلَيْهِمْ ، اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١ - باب فى فضل النبي ﷺ ، حدثنا

وظاهر أن قوله ﷺ : ألا وإني حبيب الله، لا يدل على أن درجة المحبة أرفع . لأنه لم يورد للتفاضل بينهما . وإنما سيقّت هذه الجملة مع ما بعدها للتعريف بقدره الجسيم ، وفضله العظيم . وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق . وما يُدّان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق . (لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَانًا)^(١) وروى ابن أبي حاتم عن إسحق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا ألقى في قلبه الوجل . حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء . وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل ، إذا اشتد غليانها ، من البكاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ ، وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا)

« وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ » جملة مبتدأة . سيقّت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ، ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات ، له تعالى خلقاً وملكاً . لا يخرج عن ملكوته شيء منها . فيجازى كلّاً بموجب أعماله خيراً وشرّاً . وقيل : لبيان أن اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك في شأن من شأنه كما هو دأب الآدميين . فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض في مصالحهم . بل لجرد تكريمته وتشريفه عليه السلام . وقيل : لبيان أن الخلّة لا تخرجه عن رتبة العبوديّة .

(١) [٧٤ / المذثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ .

وقيل : لبيان أن اصطفاؤه عليه السلام للخلة، بحض مشيئته تعالى . أى : له تعالى ما فيها جميعاً .
يختار منهما ما يشاء لمن يشاء . أفاده أبو السعود .

« وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا » يعنى عالمًا عِلْمَ إحاطة . لا تخفى عليه خافية من عباده ،
ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّى النِّسَاءَ اللَّاتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ » أى : ويسألونك الإفتاء في النساء . والإفتاء تبين المبهم ،
« قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » ذكروا في (ما) وجوهاً :
المختار منها أنها في موضع رفع بالعطف على المبتدأ ، وهو لفظ الجلالة . أى : والمتلو في الكتاب
يفتيكم فيهن أيضاً . أو بالعطف على ضميره في (يُفْتِيكُمْ) وساغ ، لكان الفصل بالمفعول
والجار والمجرور . وذلك المتلو في الكتاب هو قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ)
فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ قال الرازي : وحاصل الكلام أنهم كانوا قد سألوا عن

(١) [١٠ / يونس / ٦١] ونصها : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ
رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

أحوال كثيرة من أحوال النساء . فما كان منها غير مبين الحكم ، ذكر أن الله يفتيهم فيها . وما كان منها مبين الحكم في الآيات المتقدمة ، ذكر أن تلك الآيات المتلوة تفتيهم فيها . وجعل دلالة الكتاب على هذا الحكم إفتاءً من الكتاب . ألا ترى أنه يقال في المشهور : إن كتاب الله بين لنا هذا الحكم . وكما جاز هذا ، جاز أيضاً أن يقال : إن كتاب الله أفتى بكذا . قال أبو السعود : وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها و (في الكتاب) إما متعلق بـ (يتلى) أو محذوف وقع حالاً من المستكن فيه . أى يتلى كأننا فيه « في يتامى النساء » متعلق بـ (يتلى) أى : ما يتلى عليكم في شأنهن . وهذه الإضافة بمعنى (من) لأنها إضافة الشيء إلى جنسه . وقيل : من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : النساء اليتامى « اللَّاتِي لَا تَوْنُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ » أى : ما وجب لهن من الميراث وغيره « وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنَكِّحُوهُنَّ » روى البخارى^(١) ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت ، في هذه الآية : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها . فأشركته في ماله حتى في المدق . فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بمأشركته . فيعضلها . فنزلت هذه الآية . وعنها^(٢) أيضاً قالت : وقول الله عز

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٤ - باب قوله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ ، الحديث ١٢٣٤ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ١ - باب وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ، حديث ١٢٣٤ ونصه :

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ، فقالت : يا ابن أختي ! هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله وبمحبته مالها وجمالها . فيريد وليها أن يزوجه بغير أن يقسط في صداقها فيعطيا مثل ما يعطيا غيره . فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق . =

وجل (وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره . حين تكون قليلة المال والجمال . فهو أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط . من أجل رغبتهن عنهن . وهذا المروي عن عائشة يدل على أن الآية نزلت في العدة . وأن الجار المقدّر مع (أن) هنا هو (عن) . وقد تأولها سعيد بن جبير على المعنيين . أى تقدير (عن) و (فى) فقال : نزلت في العدة والغنية .

قال الحافظ ابن حجر : والمروي عن عائشة أوضح ، في أن الآية الأولى ، أى : التي في أول السورة ، نزلت في الغنية . وهذه الآية نزلت في العدة . قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزوجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله أن يمهّرها ، أسوة أمثالها من النساء . فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء . فقد وسع الله عز وجل . وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة . وتارة لا يكون له فيها رغبة ، لدمامتها عنده ، أو في نفس الأمر . فهناك الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها . كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، وهى قوله (فِي يَتَامَى النِّسَاءِ) الآية : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً . فإن كانت

فأمرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ :

قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأَنزل الله : وَيَسْتَفتُونَكَ فِي النِّسَاءِ .

قالت عائشة : وقول الله في آية أخرى : وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ : رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فهو أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال .

جميلة وهَوِيَهَا تَزَوَّجَهَا وَأَكَلَ مَالَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ ذَمِيمَةً مَنَعَهَا الرِّجَالُ أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ . فَإِذَا مَاتَتْ وَرَثَهَا . فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهُ .

تنبيه :

ما ذكرناه عن ابن جبير من حمل الآية على العنيين ، أى : أن حرف الجر المقدر مع (أن) هو (عن) و(فى) ، وأن كلامهما مراد منها على سبيل البدل لصلاحيتها لهما بالاعتبارين المتقدمين . قال الخفاجى : مثله لا يعدّ لبساً بل إجمالاً . كما ذكره بعض المحققين . انتهى . قلت : وهذا بناء على أن اللبس هو أن يدل اللفظ على غير المراد . والإجمال أن لا تتضح الدلالة . وبعبارة أخرى : إيراد الكلام على وجه يحتمل أموراً متعددة . وقد نظم بعضهم الفرق بينهما فقال :

والفرق بين اللبس والإجمال	مما به يُهَيَّمُ فى الأقوال
فاللفظ ، إن أفهم غير القصد ،	فاحكم على استعماله بالرد
لأنه اللبس . وأما المجمل	فربما يفهمه من يعقل
وذاك أن لا تفهم المخالفا	ولا سواء بل تصوير واقفا
وحكمه القبول فى الموارد	فاحفظه نظماً أعظم الفوائد

« وَالْمُسْتَضَعَفَيْنِ مِنَ الْوُلْدَانِ » عطف (على يتامى النساء) . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى (يُوصِيكُمُ اللَّهُ ...) الخ . وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون النساء . وإنما يورثون الرجال القوَّام . قال ابن عباس ، فى الآية : كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله (لَا تَوْرَثُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ) فهى الله عن ذلك . ويّين لكل ذى سهم سهمه . فقال (لِلَّذِي كَرِهَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ نَثَيْنٍ) صغيراً أو كبيراً . وكذا قال سعيد بن جبير « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ » بالجر ، عطف على ما قبله . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى (وَلَا

تَتَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ^(١) ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر . قال سعيد بن جبير : المعنى : كما أنها إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال وجمال ، فانكحها واستأثر بها . والخطاب للولاة ، أو للأولياء والأوصياء .

تنبيه :

استنبط من الآية أحكام : الأول - جواز نكاح الصغيرة . لأن اليتيم : الصغير الذي لم يبلغ . وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال : لا يتم بعد احتلام . رواه أبو داود^(٢) . وعن الأصم : أراد البوالغ قبل التزوج . وسماهن باليتيم لقرب عهدهن باليتيم . والأول أظهر . لأنه الحقيقة . قالوا : قد يطلق اليتيم على البالغة . بدليل قوله عليه السلام^(٣) : تستأمر اليتيمة في نفسها . فإن سكنت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها . رواه أهل السنن . والاستثمار لا يكون إلا من البالغة . وقد ورد قول الشاعر :

إن القبور تنكح الأباي النسوة الأراامل اليتامى

(١) [٤ / النساء / ٢] ونصها : وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .
(٢) أخرجه في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٩ - باب ما جاء متى ينقطع اليتيم ، حديث ٢٨٧٣ ونصه :

عن علي بن أبي طالب قال : حفظت عن رسول الله عليه السلام « لا يتم بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم إلى الليل » .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٢٣ - باب في الاستثمار ، حديث ٢٠٩٣ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه السلام « تستأمر اليتيمة في نفسها . فإن سكنت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها » .

فسمى البالغات يتامى ، لانفرادهن عن الأزواج . وكل شيء منفرد لا نظير له يقال له يتيم . كقولهم : درة يتيمة . وهذه المسألة فيها أقوال للعلماء : الأول - جواز نكاح الصغيرة لجميع الأولياء . وهذا مذهب الهادوية ومالك وأبي حنيفة وصاحبيه . الثانى - للناصر والشافعى : لا يجوز ذلك إلا للأب والجد . والثالث - لا يجوز ذلك إلا للأب فقط . وهذا قول الأوزاعى . ومروى عن القاسم . دليل الأولين ، ما اقتضاه قوله تعالى (وَتَرَعَبُونَ أَنَّ تَنْكِحُوهُنَّ) وهى نزلت فى شأن اليتيمة ينكحها وليها ولا يقسط لها فى المهر . فهى من ذلك وأمرها أن يقسطوا فى المهر بقوله فى سورة النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) واليتم الحقيقى مع الصغر . وغيره مجاز . وأذى الأولياء الذى يجوز له النكاح ، ابن المم . فإذا صح فيه صح . وحجة القول الثانى قوله ﷺ : تستأمر اليتيمة . الحديث المتقدم . والإذن لا يكون إلا بعد البلوغ . وروى الإمام أحمد والدارقطنى : أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه ، وكان وصيها ، ممن أبنته . فرفع ذلك إلى النبى ﷺ . فقال : هى يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها . كذا ذكره بعض مفسرى الزيدية . وتخريج الأحاديث من زيادى . وما نقله من أن الإذن لا يكون إلا بعد البلوغ يحتاج إلى دليل . إذ لا يدل عليه الخبر بمنطوقه ولا مفهومه .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وفى حديث : لا تنكح الأيتام حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن : ظاهر الحديث اشتراط رضا المروجة . بكراً كانت أو ثيباً . صغيرة أو كبيرة . انتهى .

قال الترمذى^(١) فى (جامعه) : قال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ . وقال

(١) أخرجه الترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ١٩ - باب ما جاء فى إكراه اليتيمة

على التزويج :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اليتيمة تستأمر فى نفسها . فإن صمتت =

أحمد وإسحاق: إذا بلغت اليتيمة سبع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت . واحتجا بحديث عائشة أن النبي ﷺ بنى بها وهي بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهي امرأة . انتهى .

الحكم الثاني - أنه يجوز أن يتولى طرفي العقد واحد في النكاح . لقوله (وَتَرْغُبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) وقد روى ابن سعد من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد بن خالد ، أن أم حكيم بنت قارظ قالت لعبد الرحمن بن عوف : إنه قد خطبني غير واحد . فزوجني أيهم رأيت . قال : وتعملين ذلك إلى ؟ فقالت : نعم . قال : قد تزوجتك . قال ابن أبي ذئب : فجاز نكاحه . وروى عبد الرزاق ووكيع والبيهقي أن المغيرة بن شعبة أراد أن يتزوج امرأة وهو وليها . فأمر أبعد منه ، فزوجه .

وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : امرأة خطبها ابن عم لها ، لا رجل لها غيره . قال : فلتشهد أن فلاناً خطبها ، وإني أشهدكم أني قد نكحته . ولتأمر رجلاً من عشيرتها .

= فهو إذن . وإن أبت فلا جواز عليها « يعني إذا أدركت فردّت جاز .

قال : وفي الباب عن أبي موسى وابن عمر وعائشة .

(قال أبو عيسى) : حديث أبي هريرة حديث حسن . واختلف أهل العلم في تزويج اليتيمة . فرأى بعض أهل العلم أن اليتيمة إذا زوجت فالنكاح موقوف حتى تبلغ . فإذا بلغت فلها الخيار في إجازة النكاح أو فسخه . وهو قول بعض التابعين وغيرهم . وقال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ ، ولا يجوز الخيار في النكاح . وهو قول سفيان الثوري والشافعي وغيرهما من أهل العلم . وقال أحمد وإسحاق : إذا بلغت اليتيمة تسع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت . واحتجا بحديث عائشة أن النبي ﷺ بنى بها وهي بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهي امرأة .

أخرج هذه الآثار الثلاثة البخاري^(١) في (صحيحه) تعليقا في (باب إذا كان الولي هو الخاطب) أي: هل يزوج نفسه أو يحتاج إلى ولي آخر .

قال ابن المنير : ذكر في الترجمة ما يدل على الجواز والمنع معاً ، ليكل الأمر في ذلك إلى نظر المجتهد .

قال الحافظ ابن حجر : لكن الذي يظهر من صنيعه أنه يرى الجواز . فإن الآثار التي فيها أمر الولي غيره أن يزوجه - ليس فيها التصريح بالمنع من تزويجه نفسه .

ثم قال : وقد اختلف السلف في ذلك . فقال الأوزاعي وربيعة والثوري ومالك وأبو حنيفة وأكثر أصحابه : يزوج الولي نفسه . ووافقهم أبو ثور . وعن مالك : لو قالت الثيب لوليها : زوجني بمن رأيت ، فزوجها من نفسه ، أو ممن اختار ، لزمها ذلك . ولو لم تعلم عين الزوج . وقال الشافعي : يزوجهما السلطان أو ولي آخر مثله ، أو أقدم منه . وواقفه زفر وداود . وحجتهم أن الولاية شرط في العقد . فلا يكون النكاح منكحاً ، كما لا يبيع من نفسه . انتهى .

الحكم الثالث - أنه يجوز للأولياء التصرف في المال . لأن القيام بالقسط لا يتم إلا بذلك « وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ » لاسيما في حق الضمفاء من حفظ أموالهم والقيام بتدبيرهم والإقساط لهم « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً » فيجزئكم به .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٣٧ - باب إذا كان الولي هو

الخطاب . ونصها :

وخطب الغيرة بن شعبة امرأة هو أولى الناس بها . فأمر رجلا فزوجه .

وقال عبد الرحمن بن عوف لأم حكيم بنت قارظ : آتبعين أمرك إلى ؟ قالت : نعم .

فقال : قد تزوجتك .

وقال عطاء : ليشهد أني قد نكحتك . أو ليأمر رجلا من عشيرتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا » أى : زوجها « نُشُوزًا » أى : تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها ، بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها « أَوْ إِعْرَاضًا » أى : تطليقاً . أو أن يقلّ محادثتها ومجالستها . كراهة لها أو لطموح عينه إلى أجل منها « فَلَا جُنَاحَ » أى لا إثم « عَلَيْهِمَا » حينئذ « أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا » بحطّ شئ من المهر أو النفقة . أو هبة شئ من مالها أو قسمها ، طلباً لبقاء الصحبة إن رضيت بذلك . وإلا فعلى الزوج أن يوفىها حقها أو يفارقها . قال فى (الإكليل) : الآية أصل فى هبة الزوجة حقها من القسم وغيره . استدل به من أجاز لها بيع ذلك « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى من الفرقة والنشوز والإعراض . قال ابن كثير : بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود^(١) وابن ماجه^(٢) عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق . قال بعض مفسرى الزيدية : وفى هذه الآية حث على الصبر على نفس الصحبة . لقوله تعالى « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى : من الفرقة وسوء المشرة . أو خير من الخصومة . أو خير من الخيور . كما أن الخصومة شر من الشرور . وقد كان من كرم

(١) أخرجه فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٣ - باب فى كراهية الطلاق ، حديث ٢١٧٨ .

(٢) أخرجه فى : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١ - باب حدثنا سويد بن سعيد ، حديث

٢٠١٨ (طبعتنا) .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم^(١) أنه كان يكرم صواحب خديجة بعد موتها. وعنه صلى الله عليه
وسلم^(٢): إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه . وهذا فيه صبر . وفي الصبر ما لا يحصر من

(١) أخرجه البخارى في: ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار، ٢٠ - باب تزويج النبي ﷺ

خديجة ، وفضلها رضى الله عنها ، حديث ١٧٨٩ وها هو بطرقه الثلاث :

١ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ،
هلكت قبل أن يتزوجني ، لما كنت أسمعه يذكرها . وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب .
وإن كان ليزبح الشاة فهدى في خللها منها ما يسمعن .

٢ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، من كثرة
ذكر رسول الله ﷺ إياها . قالت : وتزوجني بعدها بثلاث سنين . وأمره ربه عز وجل ،
أوجبريل عليه السلام ، أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب .

٣ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت
على خديجة . وما رأيتها . ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء
ثم يبيعها في صدائق خديجة . فربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول
« إنها كانت وكانت . وكان لى منها ولد » .

(٢) أخرجه مسلم في: ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب، ٤ - باب فضل صلة أصدقاء.

الأب والأم ، ونحوها ، حديث ١١ (طبعنا) ونصه :

عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة .
فسلم عليه عبد الله . وحمله على حمار كان يركبه . وأعطاه عمامة كانت على رأسه .

فقال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير .

فقال عبد الله : إن أبا هذا كان وُدًّا (أى: صديقاً من أهل مودته) لعمر بن الخطاب .

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » .

المحاسن والفضائل . والصلح فيه من أنواع الترغيب . روى عنه صلى الله عليه وسلم : من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد . وعن أنس : من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة . انتهى . وفي (الإكليل) : قوله تعالى (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) عام في كل صلح ، أصل فيه . وفي الحديث ^(١) : الصلح جائز بين المسلمين . إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . واستدل بعموم الآية من أجاز الصلح على الإنكار والمجهول ^(٢) « وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ » بيان لما جبل عليه الإنسان . أى : جعلت حاضرة له مطبوعة عليه ، لا تنفك عنه أبداً . فلا تكاد المرأة تسمح بالنشوز ، والإعراض ، وحقوقها من الرجل . ولا الرجل في إمساكها مع القيام بحقوقها على ما ينبغي ، إذا كرهها أو أحب غيرها . والجملة الأولى للترغيب في المصالحة . والثانية لتهديد العذر في المشاحة وللحث على الصلح . فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبليّة بغير استمالة ، مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالاته . وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشيء يسير ، ولا يكلفها بذل الكثير ، فيتحقق بذلك الصلح « وَإِنْ تُحْسِنُوا » في العشرة « وَتَقْوُوا » النشوز والإعراض ونقص الحق « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ » من تحمل المشاق في ذلك « خَيْرًا » فيجازيكم ويثيبكم . قال أبو السعود : وفي خطاب الأزواج بطريق الالتفات ، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ، ولفظ (التقوى) النبيء عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه ، وترتيب الوعد الكريم عليه - من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة ، مالا يخفى .

وما قدمنا في تفسير الآية هو زبدة ما نقل عن السلف ، صحابة وتابعين في معناها .

قال ابن كثير : ولا أعلم في ذلك خلافاً . وفي البخارى ^(٣) عن عائشة ، في هذه الآية

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٣ - كتاب الأقضية ، ١٢ - باب في الصلح ، حديث ٣٥٩٤

(٢) أخرجه في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٩٥ - باب وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا

نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ، حديث ١٢٠٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا . =

قالت : الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها . يريد أن يفارقها ، فتقول : أجمعك من شأني في حل . فنزلت هذه الآية . وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن عروة قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام . فسأله عن قول الله عز وجل : وَإِنْ امْرَأَةٌ... الآية ، قال علي : يكون الرجل عنده المرأة . فتنبو عينه عنها من دمايتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قدزها ، فتكره فراقه . فإن وضعت له من مهرها شيئاً ، حل له . وإن جعلت له من أيامها ، فلا حرج . وكذا رواه أبو داود الطيالسي^(١) وابن جرير . وروى ابن جرير^(٢) أيضاً عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية فقال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنّها . فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها . فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وروى سعيد بن منصور عن عروة قال : أنزل في سودة وأشباهها : (وَإِنْ امْرَأَةٌ) الآية وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت . ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ . وضنت بمكانها منه . وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه . فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة . فقبل ذلك رسول الله ﷺ . وروى نحوه أبو داود^(٣) الطيالسي والترمذي عن ابن عباس . وروى الحاكم عن عروة عن عائشة أنها قالت له : يا ابن اختي ! كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم في مكثه عندنا . وكان قلّ يوم إلا وهو بطوف علينا . فيدون من كل امرأة من غير مسيس ، حتى يبلغ إلى من هو يومها .

== قالت : هي المرأة تكون عند الرجل ، لا يستكثر منها . ف يريد طلاقها ويتزوج غيرها . تقول له : أمسكني ولا تطلقني ثم تزوج غيري . فأنت في حل من النفقة على والقسم لي . فذلك قوله تعالى : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ .

(١) الأثر رقم ١٠٥٧٥ .

(٢) الأثر رقم ١٠٥٧٩ .

(٣) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٢٦ - حديثي محمد بن المنني .

فبيّنت عندها . ولقد قالت سودة بنت زمعة ، حين أسنّت وفِرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ! يومى هذا لعائشة . فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها . قالت : تقول فى ذلك أنزل الله تعالى ، وفى أشباهها ، أراه قال : (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا . . .) الآية . وكذلك رواه أبو داود^(١) . وفى الصحيحين^(٢) عن عائشة قالت : لما كبرت سودة بنت زمعة ، وهبت يومها لعائشة . فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة . ولا يخفى أن قبوله ﷺ ذلك من سودة ، إنما هو لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازِهِ . فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام .

وقول بعض المفسرين فى هذه القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عزم على طلاق سودة - باطل وسوء فهم من القصة . إذ لم يُرَوَ عزمه ﷺ على ذلك . لافى الصحاح ولا فى السنن ولا فى المسانيد . غاية ما روى فى السنن ؛ أن سودة خشيت الفراق لكبرها . وتوهمت . وجلى أن للنساء فى باب الغيرة أوهاماً متنوعة . فتقدمت للنبي ﷺ بقبول ليلتها لعائشة . فقبل منها . وما رواه ابن كثير عن بعض المعاجم من كونه صلى الله عليه وسلم بعث إليها بطلاقها ، ثم ناشدته فراجعها - فهو (زيادة عن إرساله وغرابته ، كما قاله) فيه نكارة لا تخفى .

لطيفة :

حكى الزخشرى هنا ؛ أن عمران بن حطان الخارجى كان من آدم بنى آدم . وامرأته من أجملهم . فأجالت فى وجهه نظرها يوماً . ثم تابعت الحمد لله . فقال : مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة . قال : كيف ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرت . ورزقت مثلك فصبرت . وقد وعد الله الجنة ، عباده الشاكرين والصابرين . انتهى .

(١) أخرجه فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٨ - باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ، ٩٨ - باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها . وكيف يقسم ذلك ؟ حديث ١٢٦٦ .

قلت : عمران المذكور ممن خرّج له البخارى في صحيحه . ولما مات سئلت زوجته عن ترجمته ؟ فقالت : أوجز أم أظن ؟ فقيل : أوجزى . فقالت : ما قدمت له طعاماً بالنهار ، وما مهدت له فراشاً بالليل . تعنى أنه كان صوّاماً قوّاماً رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَظْهَرُوا كَالْمَعْلُوقَةِ ، وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ » أى : تساوا بينهن فى جميع الوجوه ، بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن ، فى شأن من الشؤون . فإنه وإن وقع القسم الصورى ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع . كما قاله ابن عباس وغيره « وَلَوْ حَرَصْتُمْ » أى على إقامة العدل ، وبانغم فى ذلك . لأن الميل يقع بلا اختيار فى القلب . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا قسمى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب . رواه الإمام أحمد^(١) وأهل السنن « فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ » أى : إذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا فى الميل إليها . وقال المهيئ :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

وفى أبى داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤٨ - باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٤ .

والترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٢ - باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر .

والنسائى فى : ٣٦ - كتاب عشرة النساء ، ٢ - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه

دون بعض .

وابن ماجة فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٧ - باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٧١

(طبعتنا) .

فلا تملوا ، أى عن امرأة كل الميل ففتركوا المستطاع من القسط « فَتَذَرُوهَا » أى : التى ملتم عنها « كَالْمُعَلَّقَةِ » بين السماء والأرض . لا تكون فى إحدى الجهتين . لا ذات زوج ولا مطلقة . وروى أبو داود^(١) الطيالسى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداها ، جاء يوم القيامة وأحد شديقه ساقط . كذا رأيته فى (ابن كثير) شديقه ، بشين معجمة ثم دال .

ورواية أصحاب السنن المنقولة : وشقه (بمعجمة ثم قاف) ساقط . وفى رواية : مائل « وَأَنْ تُصْلِحُوا » أى نفوسكم بالتسوية والقسمة بالعدل فيما تملكون « وَتَتَّقُوا » الخيف والجور « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » فيغفر لكم ما سلف من ميلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)

« وَإِنْ يَتَفَرَّقَا » أى الزوج والمرأة بالطلاق ، بأن لم يتفق الصلح بينها ، فاختارا الفرقة

(١) رواه فى مسنده ، حديث ٢٤٥٤ وروايته (شقيه) وفى ابن كثير بالصفحة ٥٦٤ من الجزء الأول طبعة سنة ١٩٣٧ م (شقيه) وهو الصواب بخلاف النسخة التى نقل عنها شيخنا المؤلف .

وفى سنن النسائى فى : ٣٦ - كتاب عشرة النساء ، ٢ - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض .

وابن ماجة فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٧ - باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٦٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٨ - باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٣ والترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٢ - باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر .

« يُفْنِ اللَّهُ كُلًّا » أى: منهما . أى يجمعه مستغنياً عن الآخر « مِنْ سَعَتِهِ » أى: غناه وجوده وقدرته . وفيه زجر لهما عن المفارقة رغماً لصاحبه ، وتسلية لهما بعد الطلاق « وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا » أى: واسع الفضل « حَكِيمًا » فى جميع أفعاله وأقذاره وشرعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » جملة مستأنفة منبهة على كمال سمته وعظم قدرته . أى: كيف لا يكون واسعاً وله ما فيهما من الخلائق والأرزاق وغيرها ؟ فله أن يعطى ما شاء منهما لمن شاء من عباده . وعلى هذا، فهي متعلقة بما قبلها . أو أتى بها تمهيداً لما بعدها من العمل بوصيته ، إعلماً بأنه مالك ما فى السموات والأرض والحاكم فيهما . ولهذا قال « وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : من الأمم السابقة . (والكتاب) اسم جنس يتناول الكتب السماوية « وَإِيَّاكُمْ » معطوف على (الذين) « أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ » أى: وصيناكم كلاً منكم ومنهم بالتقوى . وهى عبادته وحده . لا شريك له . والمعنى : أن وصيته قديمة ما زال يوصى الله بها عباده ، ولستم بها مخصوصين . لأنهم بالتقوى يسعدون عنده « وَإِنْ تَكْفُرُوا » أى: بالله « فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى : فهو مالك الملك كله . لا يضره كفركم . لفناء المطلق . فما الوصية إلا لصلاحكم رحمة بكم . كما فى الآية الأخرى (إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) ^(١) وقال تعالى:

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)^(١) « وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا » عن عباده « حَمِيدًا » أى : محموداً
فى ذاته ، حمدوه أو لم يحمدوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ذكره ثالثاً ، إما لتقرير كونه تعالى غنياً حميداً فإن جميع المخلوقات تدل ، بحاجتها على غناه . وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات ، على كونه حميداً . وإما تمهيداً للاحقه من الشرطية . وهو بيان كونه تعالى قادراً على جميع المقدورات . أى : له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقاً وملاكاً . فهو قادر على الإفناء والإيجاد . فإن عصيتموه ، أيها الناس ، فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالسكية . وعلى أن يؤجِدَ قوماً آخرين يشتغلون بعبادته وتعظيمه . فذكر هذه الكلمات فى هذا المقام ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور فى سياقها . كما بينا . قال الرازى : إذا كان الدليل الواحد دليلاً على مدلولات كثيرة ، فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات . ثم يذكر مرة أخرى ليستدل به على الثانى . ثم ثالثاً ليستدل به على المدلول الثالث . وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة . لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر فى الذهن ما يوجب العلم بالمدلول . فكان العلم بالحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى . فظهر أن هذا التكرير فى غاية الحسن والكمال . وأيضاً ، فإذا أعدته ثلاث مرات ، وقرئت عليه فى كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله ، تنبّه الذهن حينئذ لكون تخليق السموات والأرض دالاً على أسرار شريفة ومطالب جليلة . فعند ذلك يجتهد الإنسان فى التفكير فيها والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى . ولما كان

(١) [٦٤ / التغابن / ٦] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ .

الغرض الكلى من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام ، عن الاشتغال بغير الله ، إلى الاستغراق في معرفة الله ، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكد به - لا جرم كان في غاية الحسن والكمال . انتهى . « وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى : ربًّا حافظًا . توكل بالقيام بجميع ما خلق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا)

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » أى : يُفْنِكُمْ ويستأصلكم بالمرّة « أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ » أى : ويوجد ، دفعةً مكانكم ، قومًا آخرين من البشر . أو خلقًا آخرين مكان الإنس . يعنى أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم . لا لمجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا » أى : إهلاككم بالمرّة وتخليق غيركم « قَدِيرًا » بليغ القدرة ، كما قال تعالى « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » ^(١) . وقال تعالى « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » ^(٢) . ففيه

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها : هَآئِثُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لَتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخْشَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ١٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .
و [٣٥ / فاطر / ١٦ و ١٧] .

تقرير لغناه وقدرته ، وتهديد لمن كفر به . قال بعض السلف ، مأهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره !

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » كالمجاهد يجاهد للغنيمة « فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى : فإله يطلب أحسهما . فليطلبهما ، أو الأثرف منهما . كما قال تعالى : فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^(١) . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ... الآية ^(٢) . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ... الآية ^(٣) . قال بعضهم : غنى بالآية مشركو العرب . فإنهم كانوا يقولون بالله تعالى خالقهم ، ولا يقولون بالبعث يوم القيامة . وكانوا يتقربون إلى الله تعالى ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها « وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » فلا يخفى عليه خافية . ويجازى كلاً بحسب قصده .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٠-٢٠٢] فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، ...

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٠] ... وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١٨] ... ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ؕ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرُضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » أى مقتضى إيمانكم بالمبالغة والاجتهاد فى القيام بالعدل والاستقامة . إذ به انتظام أمر الدارين الموجب لثوابهما . ومن أشده القيام بالشهادة على وجهها . فكونوا « شُهَدَاءَ لِلّٰهِ » أى : مقيمين للشهادة بالحق ، مؤدين لها لوجهه تعالى ، ولو كانت الشهادة « عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » فاشهدوا عليها بأن تقرؤا بالحق عليها ولا تكتموا « أَوْ » على « الْوَالِدَيْنِ » أى الأصول « وَالْأَقْرَبِينَ » أى الأولاد والإخوة وغيرهم . فلا تراعيهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم . فإن الحق حاكم على كل أحد « إِنْ يَكُنْ » أى : من تشهدون عليه « غَنِيًّا » يبتنى فى العادة رضاء ويتقى سخطه « أَوْ فَقِيرًا » يترحم عليه غالبًا . أو يخاف من الشهادة عليه أن يلجئ الأمر إلى أن يعطى ما يكفيه « فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا » أى : من الشهود عليه ، واعلم بما فيه صلاحهما . فلو أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها . لأنه أنظر لمبادءه من كل ناظر « فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا » أى : إرادة العدول عن أمر الله الذى هو مصلح أموركم ، وأمور المشهود عليهم ، لو نظرتم ونظروا إليه .

قال ابن كثير : أى : لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل فى شؤونكم . بل الزموا العدل على أى حال كان . كما قال تعالى : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ . (٥) ومن هذا قول

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ =

عبد الله بن رواحة^(١) ، لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله ! لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى . ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير . وما يحملني حيي إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض « وَإِنْ تَلَوْا » أى : تحرفوا ألسنتكم عن الشهادة على وجهها « أَوْ تُعْرِضُوا » أى : عنها بكتمها « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فيجازيكم على ذلك . قال تعالى^(١) : وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتِيهِمْ قَلْبُهُ .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : لهذه الآية ثمرات . هى أحكام : الأول - وجوب العدل

= بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ يَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٦٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) ونصه :

عن جابر بن عبد الله أنه قال : أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ . فأقرهم رسول الله ﷺ كما كانوا . وجعلها بينه وبينهم . فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم . ثم قال لهم : يا معشر اليهود ! أنتم أبغض الخلق إلى . قتلتم أنبياء الله عز وجل ، وكذبتكم على الله . وليس يحملني بغضى إياكم على أن أحيف عليكم . قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر . فإن شئتم فلحكم ، وإن أبيتم فلى . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . قد أخذنا . فاخرجوا عنا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مَقْبُوضَةٍ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتِيهِمْ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

على القضاة والولاة . وأن لا يعدل عن القسط لأمر تميل إليه النفوس وشهوات القلوب من غنى أو فقر أو قرابة . بل يستوى عنده الدنى والشريف والقريب والبعيد . ويروى أن عمر أقام حدًّا على ولده . فذاكره في حق القرابة . فقال : إذا كان يوم القيامة شهدت عند الله أن أباك كان يقيم عليك الحدود . الحكم الثانى - أنه يجب الإقرار على من عليه الحق ولا يكتمه . لقوله تعالى : (وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) والمراد بالشهادة على النفس الإقرار . وهذا ظاهر . وقيل المعنى : ولو كانت الشهادة وبألاً ومضرة على أنفسكم وآبائكم . بأن تكون الشهادة على سلطان ظالم . وهذه المسألة فيها خلاف بين الفقهاء إذا خشى مضرة دون القتل ، هل يجب عليه الشهادة أم لا ؟ ف قيل : يجب لأنه لا يحفظ ماله بتلف مال غيره . وعن الشافعية والمتكلمين ، وصحح للمذهب ، أنه لا يجب . لأن الشهادة أمر بمعروف ، وشرطه أن لا يؤدى إلى منكر . ولكن إنما يسقط عنه أداء الشهادة بحصول الظن لمضرته ، لا بمجرد الخشية . وقد قال المؤيد بالله فى (الإفادة) : على الشاهد أن يشهد وإن خشى على نفسه وماله . لأن الذى يخشاه مظنون . ولعله غير كائن . يؤول على أن مراده مجوز لا أنه قد ظن حصول المضرة . وهذا يجوز له الشهادة مع الخشية على نفسه ، قال فى (شرح الإبانة) : يجوز إذا كان قتله إعزازاً للدين . كالنهى عن المنكر . أمّا لو كنتم لغير عذر فلا إشكال فى عصيانه . وعن ابن عباس : ذلك من الكبائر . الحكم الثالث - يتعلق بقوله تعالى (شُهِدَاءُ لِلَّهِ) أى : تشهدون لوجه الله كما أمركم . وفى هذا دلالة على أن أخذ الأجرة على تأدية الشهادة لا يجوز . لأنه لم يقمها الله . وقد استثنى أهل الفقه صوراً جوزوا أخذ الأجرة على تأدية الشهادة . منها : إذا طلب إلى موضع . لأن الخروج غير واجب عليه . ومنها : إذا كان غيره يشهد وبحصل به الحق ، فإن شهادته غير لازمة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ، وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا » أى : اثبتوا على إيمانكم « بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ » حمد صلى الله عليه وسلم . يعنى القرآن « ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ » على الرسل ، بمعنى الكتب « وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » أى : خرج عن الهدى وبعد عن القصد كل البعد . أما الكفر باللّٰه فظاهر . وأما بالملائكة فلائهم المقربون إليه . وأما بالكتب فلائها الهادية إليه . وأما بالرسل فلائهم الداعون إليه . وأما باليوم الآخر فلائ فيه نفع وإقامته وضرر تركه . فإذا أنكر لزم إنكار النفع الحقيقي والضرر الحقيقي . فهو الضلال البعيد . ثم الكفر بالملائكة كفر بمظاهر باطنه . وبالكتب كفر بمظاهر صفة كلامه . وبالرسل كفر بأتم مظاهره . وباليوم الآخر كفر بدوام ربوبيته وعده . ثم الكفر بالملائكة يدعو إلى الإيمان بالشياطين . وبكتب الله إلى الإيمان بكتب الكفرة . وبالرسل إلى تقليد الآباء ، وباليوم الآخر إلى الاجترأ على القبائح . وكل ذلك ضلال بعيد . أفاده المهايى . ولما أمر تعالى بالإيمان ورغب فيه ، بين فساد طريقة من يكفر بعد الإيمان ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا

لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا » فى الآية وجوه : الأول - أن المراد الذين تكرّر منهم الارتداد ، وعهد

منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه ، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف ، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله . لأن قلوب أولئك ، الذين هذا ديدنهم ، قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة . وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى . وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ، ونصحت توبتهم ، لم يقبل منهم ولم يغفر لهم . لأن ذلك مقبول . حيث هو بذل للطاقة واستفراغ الوسع . ولكنه استبعاد له واستغراب . وإنه أمر لا يكاد يكون . وهكذا نرى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ، ثم يتوب ثم يرجع ، فإنه لا يكاد يرجى منه الثبات . والغالب أنه يموت على الفسق . فكذا هنا . الثاني - قال بعضهم : هم اليهود . آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا حين عبدوا العجل . ثم آمنوا بعد عوده إليهم ثم كفروا بعميسى والإنجيل . ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ . وقد أورد على هذا الوجه أن الذين ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ ليسوا مؤمنين بموسى . ثم كافرين بالعجل ، ثم مؤمنين بالعود ، ثم كافرين بعميسى . بل هم إما مؤمنون بموسى وغيره ، أو كفار لكفرهم بعميسى والإنجيل . والجواب : أن هذا إنما يرد لو أريد قوم بأعيانهم : كالوجودين وقت البعثة . أما لو أريد جنس ونوع ، باعتبار عدة ماصدر من بعضهم كأنه صدر من كلهم ، فلا إيراد . والمقصود حينئذ استبعاد إيمانهم لما استقر منهم ومن أسلافهم . الثالث - قال آخرون : المراد المنافقون . فالإيمان الأول إظهارهم الإسلام . وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم . وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم . والإيمان الثاني هو أنهم كلما لقوا جماعاً من المسلمين قالوا إنا مؤمنون . والكفر الثاني هو أنهم إذا ^(١) خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وازديادهم في الكفر هو جدهم واجتهادهم في استخراج أنواع السكر والكيد في حق المسلمين .

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ .

وإظهارُ الإيمانِ قد يسمى إيماناً . قال تعالى : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ^(١) : قال القفال رحمه الله : وليس المراد بيان هذا العدد . بل المراد تردهم . كما قال : مُدْبَذٌ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ وَلَا إِلَى هُوَ^(٢) . قال : والذي يدل عليه ، قوله تعالى بعد هذه الآية : بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ . الرابع - قال قوم : المراد طائفة من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المسلمين فكانوا يظهرُونَ الإيمان تارة والكفر أخرى . على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(٣) وقوله (ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا) معناه أنهم بلغوا في ذلك إلى حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام .

نقل هذه الوجوه الزمخشري والرازي وغيرها . وكلها مما يشمله لفظ الآية .

تنبيه :

في الآية مسائل :

الأولى - قال في (الإكليل) : استدل بها من قال : تقبل توبة المرتد ثلاثاً . ولا تقبل في الرابعة .

وقال بعض الزيدية في (تفسيره) : دلت على أن توبة المرتد تقبل . لأنه تعالى أثبت إيماناً بعد كفر ، تقدمه إيمان .

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] . . . وَلَا أَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ ءَابَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

وأقول : دلالتها على ذلك في صورة عدم تكرار الردة . وأما معه ، فلا . كما لا يخفى .

ثم قال : وعن إسحق : إذا ارتد في الدفعة الثالثة لم تقبل توبته . وهي رواية الشعبي عن علي عليه السلام . انتهى .

وذهبت الحنابلة إلى أن من تكررت ردة لم تقبل توبته . كما أسلفنا ذلك في آل عمران في قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا ... الآية^(١) . وقوله بعدها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا ... الآية^(٢) وذكرنا ، ثمة ، أن هذه الآية كتلك الآية . وأن ظاهرهما يشهد لما ذهب إليه إسحق وأحمد . وأما الوجوه المسوقة هنا فهي من تأويل أكثر العلماء القائلين بقبول توبة المرتد ، وإن تكررت . وبعد . فال مقام دقيق . والله أعلم .

الثانية - دلت على أن الكفر يقبل الزيادة والنقصان . فوجب أن يكون الإيمان نصًّا كذلك . لأنهما ضدان متنافيان . فإذا قبل أحدهما التفاوت ، قبله الآخر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ » من باب التهكم « بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » فإنهم آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن . ويدل على مقارنة إيمانهم للكفر ترجيحهم جانب الكفرة في المحبة إذ هم :

(١) [٣ / آل عمران / ٨٦] ونصها : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٠] ... لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)

« الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أى : يتخذونهم أنصاراً مجاوزين موالاة المؤمنين « أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ » أى : يطلبون بموالاتهم القوة والغلبة. وهذا إنكار لرأيهم وإبطال له . وبيان لخيبة رجائهم . ولذا علله بقوله « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : له الغلبة والقوة . فلا نصرة لهم من الكفار . والنصرة والظفر كله من الله تعالى . وهذا كما قال تعالى في آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

قال ابن كثير : والمقصود ، من هذا ، التهييج على طلب العزة من جناب الله ، والإقبال على عبوديته ، ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبي ربحانة . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزاً وكرماً ، فهو عاشرهم في النار . تفرد به أحمد (٢) .

وأبوربحانة هذا هو أزدى واسمه (شعون) بالمعجمة فيما قاله البخارى . وقال غيره : بالمهمله والله أعلم .

تنبيه :

قال الحاكم : دلت الآية على وجوب موالاة المؤمنين ، وانتهى عن موالاة الكفار . قال : والمنهى عن موالاتهم في الدين فقط . وقد ذكر المؤيد بالله ، قدس الله روحه ، معنى هذا . وهى : أن تحبه لما هو عليه . وهذا ظاهر . وهو يرجع إلى الرضا بالكفر ، وما أحبه لأجله .

(١) [٦٣/المنافقون/٨] ونصها : يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٣٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

فأما الخلطة فليست مولاة . وقد جوز العلماء رحمهم الله نكاح الفاسقة . وكذلك الإحسان .
فقد مدح الله من أطعم الأسارى . وجوز كثير منهم الوصية لأهل الذمة . وكذلك الاغتمام
بغمه في أمر ، كإغتمام المسلمين لغلب فارس للروم . كذا في تفسير بعض الزيدية .

القول في التأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا
وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا
مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » قال المفسرون : إن الشركين بمكة كانوا في
مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به . فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم
بقوله : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ ^(١) . وهذه الآية من سورة الأنعام . وهى مكية . فامتنع المسلمون عن القعود معهم .
ولما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والنفاقين . وكان اليهود يستهزئون بالقرآن . فنزلت
هذه الآية (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ) . يعنى في سورة الأنعام « أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ
يُكْفَرُ بِهَا » يعنى يجحد بها « وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ » وفيها دلالة على أن المنزل على النبي ﷺ ، وإن خوطب به خاصة ، منزل على الأمة .
وأن مدار الإعراض عنهم ، هو العلم بخوضهم في الآيات . ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية
وأخرى بالسماع . وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم . لا الإعراض
بالقلب أو بالوجه فقط « إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ » أى : إذا قعدتم معهم دل على رضاكم بالكفر

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] ... وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

بِالْآيَاتِ وَالْأَسْهَازِ بِهَا . فَتَكُونُونَ مِثْلَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَاسْتِتْبَاعِ الْعَذَابِ . فَاجْتَمَعُوا بِهِمْ ههنا سبب اجتماعكم في جهنم . كما قال « إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا » لأنهم لما شاركوهم في الكفر ، واجتمعوا على الاستهزاء بالآيات في الدنيا ، جمعهم الله في عذاب جهنم يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : اعلم أنه لا خلاف في تحريم القعود والمخالطة ، إذا كان ذلك يوم بأن القاعد راض . ولا خلاف أنه يحرم إذا خشي الافتتان . ولا خلاف أنه يجوز القعود للتنكير عليهم والدفع لهم .

قال الحاكم : ولذلك يحضر العلماء مع أهل الضلالة يناظرونهم . ولهم بذلك الثواب العظيم . وأما إذا خلا عما ذكرنا ، وكان لا يومهم بالرضا ولا يفتن ولا ينكر عليهم ، فاختلف العلماء في ذلك . فمنهم من أوجب المثل . لظاهر الآية .

قال الحاكم : روى ^(١) أن قوماً أخذوا على شراب في عهد عمر بن عبد العزيز . فأمر بضربهم الحد . فقيل : فيهم صائم . فتلا قوله تعالى : فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ - إلى قوله - إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ . وهذا أيضا ظاهر حديث : لا يحل لعين ترى الله يُعصى ، فتطرف حتى تغير و تنتقل .

وقال أبو علي وأبو هاشم : إن أنكر بقلبه لم يجب عليه أكثر من ذلك . و جاز له القعود ، يعني مع عجزه عن الإنكار باليد أو باللسان ، وعدم تأثير ذلك . أقول : ماقالاه مخالف لظاهر الآية . فلا عبرة به .

وقال القاضي والحاكم : أما لو كان له حق في تلك البقعة ، فله أن لا يفارق . كمن يحضر الجنائز مع النوح ، أو الولائم . فيسمع المنكر فيسمعه أن يقعد . والتكير على قدر الإمكان واجب عليه .

(١) الأثر رقم ١٠٧٠٩ من تفسير الطبري .

وعن الحسن : لو تركنا الحق للباطل لبطل الشرع . وقد كان خرج إلى جنازة ، خرجت النساء فيها فلم يرجع . ورجع ابن سيرين . انتهى .

أقول : من له حق في البقعة ، فعليه أن يفارق كغيره . إذ ليس في مفارقتها ضياع حقه . وعموم الآية يشملها ، ولا تخصيص إلا بمخصص . والمسألة القيس عليها غير ما نحن فيه . على ما فيها من الخلاف . كما حكى . ولا قياس مع النص . وقد حكى الحاكم أقوالاً كلها ترجع إلى تخصيص الآية . ولا مستند فيها إلا الرأي ، والاحتمال . فلذا أعرضنا عنها .

قال أبو علي : تحريم القعود في المجلس لما فيه من الإبهام . فإذا أظهر الكراهة جاز القعود في مكان آخر ، وإن قرب . وأما إذا خاضوا في حديث غيره ، جاز القعود . بمفهوم الآية . ثم إن الآية محكمة عند الجمهور . وروى عن الكلبي ، أنها منسوخة بقوله تعالى : وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ^(١) . وهو مردود . فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها .

قال الحاكم : دلت الآية على أن الراضى بالاستهزاء بالرسول والدين ، كافر . لأنه تعالى قال (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ) ودلت على أن الرضا بالكفر كفر .

وقال السمرقندي : في هذه الآية دليل على أن من جلس في مجلس معصية ، ولم ينكر عليهم ، فيكون معهم في الوزر سواء . وينبغي أن ينكر عليهم ، إذا تسكلموا بالمعصية أو عملوا بها . فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية . وروى ابن جرير عن الضحاك أنه قال : دخل في هذه الآية كل محدث في الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

وقال في (فتح البيان) : وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب ، دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء ،

(١) [٦ / الأنعام / ٦٩] ... وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

للدلالة الشرعية . كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة . ولم يبق في أيديهم سوى (قال إمام مذهبنا : كذا) و (قال فلان من أتباعه بكذا) أو إذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي ، سخروا منه ، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً ، ولا بالوا به بالة . وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع . وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع . مع أن الأئمة ، الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم ، براء من فعلهم . فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم . انتهى .
وفي (الإكليل) : قال ابن الفرس . استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اجتناب أهل المعاصي والأهواء . وفي هذه الآية أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر في مكان آخر ، والتنبيه عليه . انتهى . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

« الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ » إما بديل من (الَّذِينَ يَتَخَذُونَ) وإما صفة للمنافقين : أى : ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو هزيمة « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ » أى : نصروا تأييد وظفر وغنيمة « قَالُوا » لكم « أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » أى : مظاهرين لكم ، فلنأخذكم في فتحكم ، فليكن لنا شركة في غنيمتكم « وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ » أى : إداة على المؤمنين في بعض الأحيان ، كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبطل ثم تكون لها العاقبة « قَالُوا » أى : الكفرة توددوا إليهم ، ومصانعة لهم ، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم

لضعف إيمانهم « أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ » أى : ألم نغلبكم وتتمكن من قتلكم وأسرکم فأبقينا عليكم « وَنَمَتَّعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بأن نبطناهم عنكم ، وتوآبننا في مظاهرتهم حتى انتصرتهم عليهم . وإلا لكنتم نهباً للنواذب . وتسمية (ظفر المسلمين) فتحاً ، و(مال الكافرين) نصيباً ؛ لتعظيم شأن المسلمين وتخصيس حظ الكافرين .

قال فى (الاتصاف) : وهذا من محاسن نكت القرآن . فإن الذى كان يتفق للمسلمين فيه ، استئصال لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤها . وأما ما كان يتفق للكفار فقتل الغلبة والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً . فالتفريق بينهما أيضاً مطابق للواقع . والله أعلم .

قال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على وجوب محبة نصرة المؤمنين وكراهة أن تكون اليد عليهم . وتحريم خذلانهم . وإن المنافق لا سهم له . لأن فى الآية إشارة إلى أنهم طلبوا لما منعوا ، فقالوا : ألم نكن معكم ؟ ثم قال . يجوز التأليف من الغنيمة للمنافقين ، كما فعل الرسول ﷺ يوم حنين . حتى أعطى الواحد منهم مائة ناقة ، والواحد من المسلمين الشاة أو البعير . « فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب . أى : فلا يفتقر المنافقون بحقق دمائهم فى الدنيا لتلفظهم بالشهادة . لئلا تعالى فى ذلك من الحكمة . فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم . وقوله تعالى « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ردُّ على المنافقين فيما أمْلَوْهُ ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين . وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم ، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم . كما قال تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ - إلى قوله - نَادِمِينَ^(١) . أى : لن يسلط الله الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكلية . وإن حصل

(١) [٥ / المائة / ٥٢] ... يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَسَى اللَّهُ أَنْ

يَأْتِ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ .

لهم ظفر حيناً ما . أغاده ابن كثير وهذا التأويل روعي فيه سابق الآية ولاحقها ، وأن السياق في (المنافقين) وهو جيد . ويقرب منه ما في تفسير ابن عباس من حمل (الكافرين) على يهود المدينة . ومن وقف مع عمومها ، قال : المراد بالسبيل الحجة . وتسميتها (سبيلاً) لكونها موصلاً للقلبة . أو المراد : مادام المؤمنون عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهي عن المنكر . كما قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ^(١) . قال : فلا يراد أنه قد يُدال للكافرين .

تنبيه :

قد يستدل بهذه الآية على أن الكافر لا يفسح مؤمنة . وأنه لا يلي على مؤمنة في نكاح ولا سفر . وأن الكافر لا يشفع المؤمن . وهذا قول الهادي في (الأحكام) والنفس الزكية والراضي بالله . وروى مثله عن الحسن والشعبي وأحمد . وقال في (المنتخب) والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : له الشفعة . لموم أدلة الشفعة . وبالقياص على رد المغيب فيما شرى من مسلم . ويستدل بأن المرتد تبين منه امرأته المسلمة . والخلاف : هل بنفس الردة كما يقول الحنفية ، أو بانقضاء العدة كما يقول المؤيد بالله والشافعية ؟ وكذلك يبيع العبد المسلم من الذمي . أجزاه الحنفية ومنعه المؤيد والشافعية . لكن على الأول ، يجبر على بيعه ، فلا يستخدمه . قيل : والأمة مجمع على تحريم بيعها من الكافر إذا كانت مسلمة . ولا خلاف أن الآية مخصوصة بأمور . منها : الدين يثبت للكافر على المؤمن . ومنها : أنه ينفق المؤمن على أبويه الكافرين ونحو ذلك . وإذا خص العموم فقد اختلف الأصوليون : هل تبقى دلالة على الباقى حقيقة أم مجازاً ؟ انتهى . وزاد بعض المفسرين : إن الكافر لا يرث المسلم . وإن المسلم لا يقتل بالذمي .

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] ... وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » أى: يفعلون ما يفعل الخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر . والله يفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع . حيث تركهم معصوى الدماء والأموال في الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ » أى: أتوها « قَامُوا كُسَالَى » أى: متثاقلين كالسكره على الفعل . قال ابن كثير: هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها . وهي الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها . لأنهم لانية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ، ولا يعقلون معناها . كإروى ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان . ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح . فإنه ينجى الله ، وإن الله تجاهه ، يغفر له ويحييه إذا دعاه . ثم يتلو هذه الآية : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى » انتهى .

قال الحاكم : وفي الآية دلالة على أن من علامات المنافق الكسل في الصلاة . والكسل: التثاقل عن الشيء لمساقته . فهذه الآية في صفة ظواهرهم كما قال (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)^(١) ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال « يُرَاءُونَ النَّاسَ » أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ليحسبهم مؤمنين . لا لإخلاص ومطاوعة أمر الله . ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَوْنَ فيها غالباً . كصلاة المشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في

(١) [٩ / التوبة / ٥٤] ونصها : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

وقت الفلاس . كما ثبت في الصحيحين ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام . ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس . ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار . وفي رواية ^(٢) : والذي نفسي بيده ! لو يعلم أحدكم أنه يجد عرقاً سميناً أو مَرَمَاتين حسنتين لشهد العشاء . ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرق عليهم بيوتهم .

وروى الحافظ وأبو يعلى عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة . استهان بها ربّه عز وجل . وقوله « وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا » فيه وجوه : الأول - معناه ولا يصلون إلا قليلاً . لأنهم إنما يصلون رياءً مادام من يرقبهم . فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا . وتأويل (الذكر) بالصلاة ، روى في غير ما آية عن السلف . الثاني - ولا يذكرون الله في صلاتهم إلا قليلاً . لأنهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون . بل هم في صلاتهم ساهون لاهون . وقد روى الإمام مالك ^(٣) عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : تلك صلاة

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٥٢ (طبعنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٢٩ - باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه في الموطأ في : ١٥ - كتاب القرآن ، حديث ٤٦ (طبعنا) ونصه :

عن العلاء بن عبد الرحمن قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر . فقام يصلي العصر . فلما فرغ من صلاته ، ذكرنا تعجيل الصلاة ، أو ذكرها ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . يجلس أحدكم حتى =

المنافق . تلك صلاة المنافق . تلك صلاة المنافق . يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى . الثالث - معناه : ولا يذكر الله بالتهليل والتسبيح إلا ذكرًا قليلًا في الندرة . على أن الذكر بمعناه المتبادر منه . وعليه ، فمن علامات النفاق استغراق الأوقات بحديث الدنيا ، وقلة ذكره تعالى بتحميد أو تهليل أو تسبيح . كما أن من صفات المؤمنين ذكر الله تعالى كثيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (مُذَبِّينَ يَنْزِلُ إِلَيْكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَلَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ ۚ) وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ

فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا

« مُذَبِّينَ يَنْزِلُ إِلَيْكَ » حال من فاعل (يراؤن) أو منصوب على النعم (ذلك) إشارة إلى الإيمان والكفر . المدلول عليهما بمعونة المقام . أو إلى (المؤمنين والكافرين) ، فيكون ما بعده تفسيراً له . أى : مرددين بينهما متحيرين قد ذنبهم الشيطان والهوى . وحقيقة المذبذب الذى يُذَبِّبُ عن كلا الجانبين . أى : يذاد ويدفع ، فلا يقر فى جانب واحد . إلا أن الذنبه فيها تكرير ليس فى الذنب . كأن المعنى كلما مال إلى جانب ذنب عنه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ » أى : لا منضمين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين . ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين . وقال مجاهد : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ ، يعنى أصحاب محمد ﷺ . وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ ، يعنى اليهود . « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » عن دينه وحجته « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أى : طريقاً إلى الصواب والهدى . روى الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال (١) :

= إذا اصفرّت الشمس ، وكانت بين قرني الشيطان ، أو على قرن الشيطان ، قام فنقر أربعاً . لا يذكر الله فيها إلا قليلاً .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٧ (طبعتمنا) .

مثل المنافق كمثل الشاة المأثرة بين الغنمين : تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة : (المأثرة المتحيرة المترددة لا تدرى لأى الغنمين تتبع).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا » هذا نهى عن موالاته الكفرة . يعنى مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناسحتهم ، وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم . كما قال تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (١) . أى : يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه . ولهذا قال ههنا (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) أى : حجة عليكم فى عقابكم بموالاتكم إياهم . وقد دلت الآية على تحريم موالاته المؤمنين للكافرين . قال الحاكم : وهى الموالاته فى الدين والنصرة فيه . لالمخالقة والإحسان . قال الرمنشبرى : وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له : خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر . فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن . وأنه يحق عليك أن تخالص المؤمن . قال أبو السعود : وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال : أتجعلون... الخ ، للمبالغة فى إنكار ذلك ، وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته ، فضلا عن صدور نفسه . كما فى قوله عز وجل : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ (٢) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] ... وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٨] ونصها : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

لطيفة :

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : كل سلطان في القرآن حجة . وكذا قال غيره من أئمة التابعين . قال محمد بن يزيد : هو من (السليط) . وهو دهن الزيت لإضاءته . أى : فإن الحجة من شأنها أن تكون نيرة . وفي (البصائر) إنما سمي الحجة سلطاناً لما يلحق من الهجوم على القلوب . لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ » قرئ بسكون الراء وفتحها « الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » أى الطبقة الذى فى قعر جهنم . والدرك كالدرج . إلا أنه يقال باعتبار الهبوط . والدرج باعتبار الصعود . وإنما عوتبوا بذلك لأنهم أخبث الكفرة . إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين .

قال الرازى : وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام ، يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك . فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين . فلهذه الأسباب عوتبوا بذلك . ونقل عن ابن الأنبارى أنه قال^(١) : إنه تعالى أخبر عن آل فرعون بقوله : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وعن المنافقين بما فى هذه الآية . فأيهما أشد عذاباً ؟ فأجاب : بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون فى الدرك الأسفل . وقد اجتمع فيه الفريقان . والله أعلم . روى الترمذى^(٢) عن الحسن قال : قال عتبة بن غزوان على منبر البصرة ، إن النبىّ ﷺ قال : إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاماً ، وما تفضى

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٣٧ - كتاب صفة جهنم ، ٢ - باب ما جاء فى صفة قعر جهنم .

إلى قرارها . وكان عمر رضى الله عنه بقول : أكثروا ذكر النار . فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد وإن مقامها حديد . وروى الترمذى^(١) عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره « وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » أى : ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ

مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى : عن النفاق « وَأَصْلَحُوا » أى : أعمالهم « وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ » أى : وثقوا به بترك موالاة الكفار « وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ » فلم يبق لهم فيه تردد . ولم يريدوا بطاعتهم إلا وجهه سبحانه ، لا رياء الناس كما كانوا قبل . « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة . وما فيه من معنى البعد ، للإيدان ببعد المنزلة وعلو الطبقة . أى : لعلوربتهم بهذه الأمور لا يكونون فى درك من النار فضلاً عن الأسفل ، بل مع المؤمنين المستمرين على الإيمان بلا نفاق . أى : معهم فى درجات الجنان . وقد بين ذلك بقوله سبحانه « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثواباً وافراً فى الجنة . فيشار كونهم فيه ويساهمونهم . وحذفت (الياء) فى الخط هنا اتباعاً للفظ . لسكونها وسكون اللام بعدها . ومثله : يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ^(٢) . وَسَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ^(٣) وَيَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ^(٤)

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢١ - سورة الأنبياء ، ١ - حدثنا

عبد بن حميد .

(٢) [٥٤ / القمر / ٦] ونصها : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ . يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ١٨] .

(٤) [٥٠ / ق / ٤١] ونصها : وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ .

ونحوها . فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين . فجاء الرسم تابعاً للفظ . والقراء يقفون عليه دون ياء ، اتباعاً للخط الكريم . إلا يعقوب والكسائي وحمة . فإنهم يقفون بالياء ، نظراً إلى الأصل . كذا في (الفتح) .

تنبيه .

قال الزمخشري : فإن قلت : من المنافق ؟ قلت : هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر . وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به (ب) (المنافق) فللتغليظ ، كقوله ^(١) : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهاراً . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ^(٢) : ثلاث من كن فيه فهو منافق . وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان . وقيل لحذيفة رضي الله عنه : من المنافق ؟ فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به . وقيل لابن عمر : ندخل على السلطان وتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه . فقال : كنا نعهده من النفاق : انتهى كلامه .

أقول : قول الزمخشري (فللتغليظ) يوجد مثله لثلة من شراح الحديث وغيرهم . وقد بحث فيه بعض محقق مشايخنا بقوله : هذا الجواب لا يرتضيه من عرف قدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) قال في (الجامع الصغير) : رواه الطبراني في (الأوسط) عن أنس . وقال المزني : إسناده حسن .

(٢) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، عن أبي هريرة . وهذه نصوصه :

الحديث رقم ١٠٧ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

والحديث رقم ١٠٨ « من علامات المنافق ثلاثة : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

والحديث رقم ١٠٩ « آية المنافق ثلاث . وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

أما حديث بصورة ما في المتن ، فلم أهتد إليه .

عليه وسلم . وكأنهم غفلوا عما يستلزمه هذا الجواب مما لا يرتضيه أدنى عالم أن ينسب إليه . وهو الإخبار بخلاف الواقع لأجل الزجر . انتهى . وقال بعض المحققين : عليك أن تقرأ الأحاديث كما وردت ، لتنجو من معرة الخطر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ » قال أبو السعود : هو استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم ، وجوداً وعدمًا ، إنما هو كفرهم . لشيء آخر . فيكون مقررًا لما قبله من إثابهم عند توبتهم . و (ما) استفهامية مفيدة للنفي على أبلغ وجه وآكده . أى : أى شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم ؟ أيتشقى به من الغيظ ؟ أم يدرك به الثار ؟ أم يستجلب به نفعا ؟ أم يستدفع به ضررا ؟ كما هو شأن الملوك . وهو الغنى تعالى عن أمثال ذلك . وإنما هو أمر يقتضيه كفرهم . فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر ، انتفى التعذيب لا محالة . وتقديم (الشكر) على (الإيمان) لما أنه طريق موصل إليه . فإن الناظر يدرك أولا ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكرا مبهما . ثم يترقى إلى معرفه النعم فيؤمن به . وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه « وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » الشكر منه تعالى المجازاة والثناء الجميل . كما في (القاموس) . ويرحم الله ابن القيم حيث يقول في (الكافية الشافية) :

هو الشكور .	فلن يضيع سعيهم	لكن يضاعفه بلا حساب
ما للعباد عليه	حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل	لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعضه	أو نعموا	فبفضله ، والحمد للرحمن

القول في تأويل قوله تعالى

[١٤٨] (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ، وَكَانَ اللَّهُ

سَمِيعًا عَلِيمًا)

«لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» أى: لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالقبيح من القول «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» إلا جهر المظلوم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء . فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، حتى إنه يجب دعاءه . ومعلوم أن أنواع الظلم كثيرة . فما نقل عن السلف هنا من ذكر نوع منه ، فليس المراد حصر معنى الآية فيه . بل القصد تنبيه المستمع على النوع . فمن ذلك ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(١) في الآية ، يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً . فإنه قد أُرخص له أن يدعو على من ظلمه . وذلك قوله (إِلَّا مَنْ ظَلِمَ) وإن صبر فهو خير له . ومن ذلك ما رواه عبد الرزاق وابن إسحاق وهناد بن السرى عن مجاهد قال : هى فى رجل أضاف رجلاً فأساء قراه ، فتحول عنه . فجعل يثنى عليه بما أولاه . فرخص له أن يثنى عليه بما أولاه . وفى رواية عنه : هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول : أساء ضيافتي ولم يحسن . وفى رواية : هو الضيف المحول رحله . فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول .

قال ابن كثير: وقد روى الجماعة (سوى النسائي والترمذي) عن عقبة بن عامر^(٢) قال: قلنا: يا رسول الله! إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف ، فاقبلوا . فإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف

(١) تفسير الطبري ، الأثر رقم ١٠٧٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٨٥ - باب إكرام الضيف وخدمته

إياه بنفسه ، حديث ١٢١٣ .

الذى ينبغي لهم . وروى الإمام أحمد^(١) عن القدام بن أبي كريمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيما مسلم ضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا ، فإن حقًا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله . وروى هو وأبو داود^(٢) عنه أيضًا . سمع رسول الله ﷺ يقول : ليلة الضيف واجبة على كل مسلم . فإن أصبح بفنائهم محرومًا كان ديننا عليه . فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه . ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة ؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : أن لى جاراً يؤذيني . فقال له : أخرج متاعك فضعه على الطريق . فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق . فكل من مرّ به قال : مالك؟ قال جارى يؤذيني . فيقول : اللهم ! العنه . اللهم ! أخزه . قال فقال الرجل : ارجع إلى منزلك . والله ! لا أوديك أبداً . ورواه أبو داود^(٣) فى كتاب الأدب .

وقال عبد الكريم بن مالك الجزرى ، فى هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه . ولاكن إن افترى عليك فلا تفتّر عليه . لقوله تعالى (وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)^(٤) . وقال قطرب : معنى الآية : إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول ، من كفر أو نحوه . فهو مباح له . وسئل المرتضى عنها فقال : لا يجب الله ذلك ولا يجيزه لفاعله . إلا من ظلم . وذلك مثل ما كان من مرّة قريش وفعلهم بأصحاب رسول الله ﷺ ، من العقاب والضرب ، ليشتموا رسول الله ﷺ ويتبرؤا منه . ففعل ذلك عمار نخلوه وصلبوا صاحبه . فأطلق لمن فعل به هكذا أن يتكلم بما ليس فى قلبه . وفى عمار

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٢٣ - باب فى حق الجوار ،

حديث ٥١٥٣ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤١] .

وصاحبه نزل قول الله^(١) في سورة النحل : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فكانت هذه الآية مبينة لما في قلب عمار من شحنه بالإيمان . انتهى .

وكل هذا مما تشمله الآية بعمومها . وما نقله السمرقندى وغيره عن الفراء في قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ ظَلِمَ) أن (إِلَّا) بمعنى (لا) يعنى : ولا من ظلم - فهذا من تحريف الكلم عن مواضعه : فإن الآية صريحة في أنه يجوز للمظلوم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء في جانب من ظلمه . ويؤيده الحديث الذى رواه الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم ، عن الشريد بن سويد عن رسول الله ﷺ أنه قال^(٣) : لى الواحد يحلّ عرضه وعقوبته . وأما من لم يظلم فجهره بالسوء داخل في الغيبة المحظورة .

فوائد :

قال بعض مفسرى الزيدية : أفادت الآية جواز الجهر بالدعاء على الظالم والجهر بمساويه . ودلت على أن من جهر بكلمة الكفر مكرها ، لم يكفر . لأنه مظلوم . وإذا ثبت بطلان حكم لفظ (الكفر) مع الظلم ، فكذا يلزم في سائر الأحكام من البيع والعناق والطلاق والإقرار . ثم قال : والمحبة ههنا بمعنى الإباحة . لا أن ذلك يريده الله تعالى . أقول : هذه نزغة اعتزالية .

ثم قال : وتسميته سوءا ، لكونه يسوء القول فيه . وإلا فليس بقبيح في هذه الحال . ثم قال : وقول من قال (إلا) هنا بمعنى (الواو) أى : ومن ظلم ، مثل : وكل أخ مفارقة أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

تخلاف الظاهر . انتهى .

وقد نقل في معنى هذه الآية حكم ونوادير بديعة . قال الشعبي : يعجبني الرجل إذا سيم

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٢٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه البخارى في : ٤٣ - كتاب الاستقراض ، ١٣ - باب لصاحب الحق مقال .

هوناً ، دعتة الأنفة إلى المكافأة . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فبلغ كلامه الحجاج فقال :
لله دره ! أى رجل بين جنبيه ! وتمثل :

ولا خير فى عرض امرئ لا يصونه ولا خير فى حلم امرئ ذل جانبه
وقال أعرابي لابن عباس رضى الله عنهما : أتخاف على جناحاً إن ظلمنى رجل فظلمته ؟
فقال له : العفو أقرب للتقوى . فقال : وَلَكِنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ
سَبِيلٍ .

وقال المتنبي (١) :

مِنَ الْجِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْجِلْمِ طُرُقُ الْمَظْلَمِ
لطيفة :

الاستثناء فى قوله تعالى (إِلَّا مَنْ ظَلِمَ) إما متصل أو منقطع . فعلى الأول فيه وجهان :
الأول - قول أبى عبيدة : هذا من باب حذف المضاف ، أى : إلا جهر من ظلم . فحذف المضاف
وأقيم المضاف إليه مقامه . والثانى - قول الزجاج : المصدر ههنا بمعنى الفاعل . أى : لا يجب
الله المجاهر بالسوء إلا من ظلم . وعلى أنه منقطع ، فالمعنى لكن المظلوم له أن يجهر بظلامته .

(١) من قصيدة مطلعها :

أَنَا لَأَمَى إِنْ كُنْتُ وَقْتُ اللَّوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بَيْنَ تِلْكَ الْعَالَمِ

قال البرقوق شارح الديوان :

الحلم : الأناة والعقل . والجهل هنا تقيض الحلم . والمظالم جمع المظلمة (بكسر اللام)
وهى الظلم . يقول : إِذَا كَانَ حِلْمُكَ دَاعِيًا إِلَى ظُلْمِكَ فَإِنَّ مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَجْهَلَ . لأن الحلم إنما
يُلْجَأُ إِلَيْهِ لِتَدَارِكِ الشَّرَّ . فإذا تفاقم الشر ، ولم يُتدارك الشر إلا بالجهل ، كان الجهل حِلْمًا :
فلا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادى تحمى صفوه أن يكدَّرَا
وهذا معنى قديم تداوله الشعراء وغير الشعراء .

وقوله تعالى « وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا » فيه وعد للمظلوم بأنه تعالى يسمع شكواه ودعاه ويعلم ظلم ظالمه . كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ^(١) . ووعد له أيضاً بأن يتعدى في الجهر المأذون فيه . بل ليقبل الحق ولا يقذف بريئاً بسوء فإنه بصير عاصياً لله بذلك . ثم حث سبحانه على العفو بعدما جاوز الجهر بالسوء وجهله محبوباً ، حثاً على الأحب إليه والأفضل عنده . وإلا دخل في الكرم والتخشع والعبودية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) « إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا » أى : طاعة وبراً « أَوْ تُخَفُّوهُ » أى : تعملوه سرّاً « أَوْ تُعْفُوا » أى : تتجاوزوا « عَنْ سُوءٍ » أى : ظلم « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » أى : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام . فعليكم أن تقتدوا بسنة الله بالعفو مع القدرة . فثمرة هذه الآية الحث على العفو ، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء ، وإن كان على وجه الانتصار ، حملاً على مكارم الأخلاق . وإنما كان المقصود العفو لأن ما قبلها في ذكر السوء والجهر به . ففقتضى السياق : لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم . فإن عفا المظلوم عنه ، ولم يدعُ على ظالمه ويتظلم منه ، فإن الله عفوٌ قدير . وإنما ذكر قبله إبداء الخير وإخفاءه توطئة للعفو عن السوء . لأنه يعلم من مدح حالى الخير : السر والملائية ، أن السوء ليس كذلك جهراً وإخفاءً . فينبغى العفو عنه وتركه . وإنما عطف (العفو) بـ (أو) مع دخوله في الخير بقسميه ، للاعتداد به ، والتنبيه على منزلته ، وكونه من الخير بمكان مرتفع . وليس المراد أنه حينئذ هو المقصود وأنه من قبيل : وَمَلَأْنَاهُ رِجْرِيلًا ^(٢) . لأن مثله يعطف بالواو لا بـ (أو) ولذا حمل الخير

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] ... إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

على الطاعة والبر مما هو عبادة وقربة فعلية . لتغاير العفو . فالمراد بالتوبة ذكر ما هو مناسب وقدم عليه . كذا في (العناية) .

قال ابن كثير . ورد في الأثر : أن حملة العرش يسبحون الله . فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك . ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح ^(١) : ما نقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

وقال الرازي : اعلم أن معاقب الخير على كثرتها محصورة في أمرين : صدق مع الحق وخلق مع الخلق والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين : إيصال نفع إليهم ، ودفع ضرر عنهم . فقوله : (إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ) إشارة إلى إيصال النفع إليهم . وقوله (أَوْ تَعْفُوا) إشارة إلى دفع الضرر عنهم . فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر . ثم نزل في اليهود إلى أواخر السورة قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) « إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » قال ابن عباس : يعني كعباً وأصحابه « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ » أى في الإيمان « وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ » من الرسل « وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ » منهم . كما قالوا : نؤمن بموسى والتوراة ، ونكفر بما وراء ذلك . وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله ، وتفريق بين الله تعالى ورسله في الإيمان . لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بكل نبي يأتي مصدقاً لما معهم ، ونصره . ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، وبالله تعالى من حيث لا يحتسب . لأنهم لما تساوا في المعجزات والدعوة إلى الحق ، والقيام بالخيرات في أنفسهم ، كان الكفر بواحد منهم كفراً بالكل . بل وبالله .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعنا).

إذ يعتقدون فيه أنه صدق الكاذب بخلق المعجزات . كذا في (التبصير) « وَيُرِيدُونَ »
أى : بقولهم ذلك « أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ » أى بين الإيمان ببعض ، والكفر ببعض
« سَبِيلًا » دينًا يسلكونه . مع أنه لا واسطة بينهما قطعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا » أى الذين كفروا كفراً ثابتاً لا ريب فيه . فلا عبرة
بمن ادعوا الإيمان به . لأنه ليس شرعياً . إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله ، لآمنوا
بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا »
يهانون به . وهو عذاب جهنم . أى : كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم
به عن الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا . وإما بكفرهم به ، بعد علمهم بنبوته ،
كما كان يفعله كثير من أخبارهم فى عهده عليه السلام . حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة
العظيمة . وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه . فسلط الله عليهم الذل الدنيوىّ الوصول بالذل
الأخروىّ . وضربت عليهم الذلة والمسكنة . وباؤا بغضب من الله فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » كلهم « وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » يعنى بهم
أمة محمد عليه السلام . فإنهم يؤمنون بكل نبي بعثه الله . ولا يفرقون بين أحدهم ، بأن يؤمنوا ببعضهم
ويكفروا بآخرين . كما فعله الكفرة « أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ » أى : يعطيهم « أَجْرُهُمْ »

ثواب إيمانهم بالله ورسله في الآخرة « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أى: لما فرط منهم « رَحِيمًا » مبالغة في الرحمة عليهم ، بتضعيف حسناتهم .

ثم بين تعالى ما جيل عليه اليهود من اللجاج والعناد ، والبعد عن طريق الحق ، بقوله :

القول في التأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ، وَإِيتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ » قال ابن عباس : كعب وأصحابه « أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ » أى: كما نزلت التوراة على موسى جملة في الألواح. مع أنه لاجابة لهم إلى طلب ذلك بعد ما وضحت البراهين على نبوتك ، لاسيما بإعجاز ما نزل عليك من الفرقان. إلا أن الذى حملهم على سؤالهم هو التعمت والكفر . كما قال قبلهم كفار قريش نظير ذلك : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ... الْآيَات (١) . ولهذا قال تعالى « فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ » أى : مما سألوكم « فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » أى : رؤية ظاهرة « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » أى النار النازلة من السماء « بِظُلْمِهِمْ » أى : جراءتهم على الله وعتوهم وعنادهم . إذ لا يرون آية إلا يطلبون أكبر منها . حتى روا آية ملجئة إلى الإيمان . بحيث لا يفيد الإيمان معها . فلا يكادون يؤمنون إيماناً يفيدهم أصلاً ، ولا يبعد منهم الكفر ، بعد رؤية الآيات. فإنهم رأوا آيات موسى « ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » أى : إلهاء عبوده « مِنْ بَعْدِ

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ « أَى : الدلائل القاطعة على نفي الشرك . ثم تابوا عنه » فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ « أَى : تركناهم ولم نستأصلهم » وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا « أَى : حجة بينة وتسلطاً ظاهراً على إهلاك . من خالفه . وفي ذلك بشاره للنبي صلى الله عليه وسلم بنصره ، وإن بالغوا في العناد والإلحاد . ثم أشار إلى أنهم مع رؤيتهم الآيات ، لم ينقادوا لأوامر موسى . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا

لَهُمْ لَا تَعْمَدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

« وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ » أَى : الجبل ليتحملوا التكليف « بِمِيثَاقِهِمْ » أَى : بسبب

أخذ ميثاقهم . ليخافوا فلا ينقضوه .

قال ابن كثير : وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء على ما جاءهم به موسى عليه السلام ، رفع الله على رؤوسهم جبلاً . ثم أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا ، وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رؤوسهم ، خشية أن يسقط عليهم . كما قال تعالى : وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ... الآية (١) « وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » أَى : ادخلوا باب إيلياء مطأطين ، عند الدخول ، رؤوسكم . خالفوا ما أمروا به . وقد تقدم في سورة البقرة إيضاح هذه الآيات مفصلاً « وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْمَدُوا فِي السَّبْتِ » أَى : وصيناكم بحفظ السبت والتمام ما حرم الله عليهم مادام مشرعوهم « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أَى : عهداً شديداً . خالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل . كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧١] ... وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ . . . الْآيَاتِ ^(١) . ثم بين تعالى ما أوجب لعنهم وطردهم ومسخهم من مخالفتهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) « فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ » (ما) مزيدة للتأكيد ، أو نكرة تامة . (و) نقضهم بدل منها . والباء متعلقة بفعل محذوف . أى فبسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ عليهم ، فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسح وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم ، أو على أعقابهم « وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى : حججه وبراهينه والمعجزات التى شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام « وَقَتْلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ » كزكريا ويحيى عليهما السلام .

قال العلامة البقاعى : وهو أعظم من مطلق كفرهم . لأن ذلك سد لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم . لأن الأنبياء سبب الإيمان . ولما كان الأنبياء معصومين من كل نقيصة ، ومبرأين من كل دنية ، لا يتوجه عليهم حق لا يؤدونه ، قال تعالى « بَغْيِرِ حَقٍّ » أى : كبير ولا صغير أصلاً . وهذا الحرف لكونه فى سياق طعنهم فى القرآن ، الذى هو أعظم الآيات ، وقع التعبير فيه بأبلغ مما فى آل عمران . لأن هذا مع جمع الكثرة ، وتنكير الحق ، عبر فيه بالمصدر ، المفهم لأن الاجترار على القتل صار لهم خلقاً وصفة راسخة . بخلاف ما مضى . فإنه بالمضارع الذى ربما دل على العروض . ثم ذكر أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظامهم إلى الله تعالى فقال « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ » جمع (أغاف) أى : هى مغشاة

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] . . . إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

بأغشية جَبَلِيَّةٍ لَا يَكَادُ يَصِلُ إِلَيْهَا مَا جَاءَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى :
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . . . الْآيَةُ (١) . أَيْ : فَلَا ذَنْبَ لَنَا : لِأَنَّ قُلُوبَنَا
خَلَقَتْ بَعِيدَةً عَنْ فَهْمِ مَا يَقُولُ الْأَنْبِيَاءُ . وَذَلِكَ سَبَبُ قَتْلِهِمْ وَرَدِّ قَوْلِهِمْ . وَهَذَا بَعْدَ أَنْ كَانُوا
يَقْرُونَ بِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالرَّسَالَةِ ، وَبِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَصِفُونَهُ بِأَشْهُرِ
صِفَاتِهِ وَيَتَرَقَّبُونَ إِتْيَانَهُ . لَا جَرَمَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ ، عَطْفًا عَلَى مَا تَقْدِيرُهُ (وَقَدْ كَذَبُوا)
لَأَنَّهُمْ وَلَدُوا عَلَى الْفِطْرَةِ كَسَاءُ الْوُلْدَانِ . فَلَمْ تَكُنْ قُلُوبُهُمْ فِي الْأَصْلِ غُلْفًا « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » أَيْ : لَيْسَ كُفْرُهُمْ ، وَعَدَمُ وَصُولِ الْحَقِّ إِلَى قُلُوبِهِمْ لَكُونِهَا غُلْفًا
بِحَسَبِ الْجَبَلَةِ . بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ . حَيْثُ خَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ . لِأَنَّهُ خَلَقَهَا أَوَّلًا عَلَى
الْفِطْرَةِ مَتَمَكِّنَةً مِنْ اخْتِيَارِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . فَلَمَّا أَعْرَضُوا بِمَا هِيَ قُلُوبُهُمْ لَهُ مِنْ قَبُولِ النِّقْصِ
عَنِ الْخَيْرِ ، وَاخْتَارُوا الشَّرَّ بِاتِّبَاعِ شَهْوَاتِهِمُ النَّاشِئَةِ مِنْ نَفْسِهِمْ ، وَتَرَكُوا مَا تَدْعُو إِلَيْهِ
عَقُولُهُمْ ، طَبَعَ سَبْحَانَهُ عَلَيْهَا فَجَعَلَهَا قَاسِيَةً مَحْجُوبَةً . وَلِذَا سَبَبَ عَنْهُ قَوْلُهُ « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا » مِنْهُمْ . كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَضْرَابِهِ . أَوْ : إِلَّا إِيْمَانًا قَلِيلًا لَا يَعْصِي بِهِ لِمَنْ قُلُوبُهُمْ
عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ .

القول في تأييل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرِّيمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)

« وَبِكُفْرِهِمْ » أَيْ : بِعَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَهُوَ عَطَفَ عَلَى (قَوْلِهِمْ) وَإِعَادَةَ الْجَارِ لَطُولِ
مَا بَيْنَهُمَا . وَقَدْ جُوزَ عَطْفُهُ عَلَى (بِكُفْرِهِمْ) فَيَكُونُ هُوَ وَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ الطَّبَعِ . وَقِيلَ
هَذَا الْمَجْمُوعُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَجْمُوعٍ مَاقْبَلِهِ . وَتَكَرَّرَ الْكُفْرُ لِلْإِذْنَانِ بِتَكَرُّرِ كُفْرِهِمْ . حَيْثُ كَفَرُوا
بِمُوسَى ثُمَّ بِعَيْسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . كَذَا فِي أَبِي السَّعُودِ « وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرِّيمَ
(١) [٤١ / فَصَلَتْ / ٥] . . . وَفِي إِذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ
إِنَّنَا عَامِلُونَ .

بُهْتَانًا عَظِيمًا» أى : مع قولهم الذى يَحْتَرُونَ به على مريم عليها السلام، بعد ظهور كراماتها وإبرهاصات ولدها ومعجزاته ، يبهتونها به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٧] (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ » .

قال أبو السعود : نظم قولهم هذا فى سلك سائر جنائياتهم التى نعت عليهم ، ليس لمجرد كونه كذباً ، بل لتضمنه لاتبهاجهم بقتل النبى عليه السلام والاستهزاء به . فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام . كما فى قوله تعالى : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ الْحُجْ (١) . ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح ، على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجليل من جهته تعالى ، مكان ذكرهم القبيح . وقيل : هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى . مدحاً له ، ورفعاً لمحلّه ، وإظهاراً لغاية جراتهم ، فى تصديهم لقتله ، ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك .

لطيفة :

قال الراغب : سى عيسى بالمسيح لأنه مسحت عنه القوة الذميمة ، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة . كما أن الدجال مسحت عنه القوة الحمودة من العلم والعقل والحلم والأخلاق الحميدة . وقال شمر : لأنه مسح بالبركة . وهو قوله تعالى : وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ (٢) . أولأن الله مسح عنه الذنوب . وذكر المجد فى كتابه

(١) [١٥ / الحجر / ٦] ... إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٣١] ... وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

(البصائر) في اشتقاقه ستة وخمسين قولاً . وتطرف شارح القاموس لبعضها . فانظره « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » أى : لا يصح لهم الفخر بقتله . لأنهم ما قتلوه . ولا متمسك لهم فيما يزعمونه من صلبهم إياه . لأنهم ما صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبهه « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » أى : في شأن عيسى « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أى : من قتله . وسنبينه بعد « مَا لَهُمْ بِهِ » أى : بقتله « مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنَّ » استثناء منقطع . أى : لكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه « وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا » أى : قتلاً يقيناً بمعنى متيقنين أنه عيسى عليه السلام ، بل فعلوه شاكّين فيه . أو المعنى : اتفق قتله انتفاء يقيناً بمعنى انتفائه على سبيل القطع . قال البرهان البقاعى : وهو أولى لقوله :

القول في تأيل قوله تعالى :

[١٥٨] (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » ردٌّ وإنكارٌ لقتله . وإثبات لرفعه . أى : اليقين إنما هو في رفعه إليه « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى : لا يبعد رفعه على الله . لأنه عزيز لا يغلب على ما يريد . وحكيم اقتضت حكمته رفعه . فلا بد أن يرفعه . وعى حفظه لتقوية دين محمد ﷺ ، حين انتهائه إلى غاية الضعف بظهور الدجال ، فيقتله . أفاده المهاجى .

تنبيه :

لا خفاء في أن هذه الآية الكريمة لتكذيب اليهود في دعوى الصلب التى تابعهم عليها أكثر النصارى ، ولتبرئة ساحة مقام عيسى عليه السلام مما توهموه في ذلك . ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمتين ، ومعارك الفرقتين - أردت بسط الكلام في هذا المقام . انتهاجاً للحق . وأخذاً بناصر الصدق . ورداً بأباطيل المكذبين . وتزييف أقوال الملحدين . نورد أولاً مازعموه وروؤوه . مما نقاه التنزيل الكريم . ثم بطلان الروى عندهم وتهافتهم بالحجج الدامغة .

ثم ما رواه أئمة سلفنا رضى الله عنهم في هذه القصة . ثم رد زعمهم أن إلقاء الشبه سفسطة . ثم سقوط دعواهم التواتر في الصلب . ثم تزييف تفسير بعض النصارى لهذه الآية ، وأنها مطابقة لمعتقدهم على زعمه . مع ذكر من رفض عقيدة الصلب من فرق النصارى . وذكر ماروى في إنجيل خامس يوافق عقيدة المسلمين ، ويطابق هذه الآية . ونختم هذه المباحث بما قاله شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رضى الله عنه في هذه الآية ، وأبدع ، على عادته قدس سره . فهذه المطالب ينبغي معرفتها لكل طالب . إذ تفرعت إلى مباحث فائقة . وفوائد شائقة . فنقول وبالله التوفيق :

ذكر ما زعموه ورووه مما نقاه التنزيل الكريم

جاء في الفصل الثانى والعشرين من إنجيل لوقا ما نصه :

٢ - كان رؤساء الكهنة والكتبة يلتمسون كيف يقتلون يسوع لكنهم كانوا يخافون من الشعب .

٣٨ - أى لأن الشعب كلهم كانوا يبكرون إليه في الهيكل (وهو الكنيسة) ليستمعوه .

يحمل بنا أن نسوق هنا النص الحرفى منقولاً عن نسخة الكتاب المقدس . أى : كتب العهد القديم والعهد الجديد ، المطبوعة في بيروت (الطبعة الرابعة) سنة ١٨٧٥ مسيحية . (وهى الطبعة المتداولة المترجمة من اللغة اليونانية) .

إنجيل لوقا

الأصحاح الحادى والعشرون

(٣٧) وكان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبث في الجبل الذى يدعى جبل الزيتون .

(٣٨) وكان كل الشعب يبكرون إليه في الهيكل لسمعوه .

- ٣٧ - وكان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل السمي جبل الزيتون . كما ذكر لوقا قبل الفصل .
- ٣ - فدخل الشيطان في يهوذا الملقب بالأسخريوطي وهو أحد الاثني عشر .
- ٤ - فضى وفاوض رؤساء الكهنة والولاة كيف يُسلمه إليهم .
- ٥ - ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .
- ٦ - فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم بمعزل عن الجمع .
- ٧ - وبلغ يومُ الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح .
- ٨ - فأرسل بطرس ويوحنا قائلاً : امضيا فأعدا لنا الفصح لنا كل .
- ٩ - فقالا له : أين تريد أن نُعدَّ .
- ١٠ - فقال لهما : إذا دخلتما المدينة بلقا كما رجل حامل جرة ماء . فاتبعاه إلى البيت الذي يدخله .

الأصحاح الثاني والعشرون

- (١) وقرب عيد الفطير الذي يقال له الفصح .
- (٢) وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه . لأنهم خافوا الشعب .
- (٣) فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الاثني عشر .
- (٤) فضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم .
- (٥) ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .
- (٦) فواعدهم . وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلواً من جمع .
- (٧) وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح .
- (٨) فأرسل بطرس ويوحنا قائلاً اذهبا وأعدا لنا الفصح لنا كل .
- (٩) فقالا له أين تريد أن نُعدَّ .
- (١٠) فقال لهما إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء . اتبعاه إلى البيت حيث يدخل .

١١ - وقولا لرب البيت : المعلم يقول لك أين يكون المنزل الذي آكل فيه الفصح مع تلاميذى .

١٢ - فهو يريكما غرفة كبيرة مفروشة . فأعدا هناك .

١٣ - فانطلقا فوجدا كما قال لهما وأعدا الفصح .

١٤ - ولما كانت الساعة اتكأ هو والرسل الاثنا عشر معه .

١٥ - فقال لهم : لقد اشتهيت شهوة أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتالم .

١٦ - فإني أقول لكم : إني لا آكله بعد حتى يتم في ملكوت الله .

١٧ - ثم تناول كأساً وشكر وقال : خذوا فاقسموا بينكم .

١٨ - فإني أقول لكم : إني لا أشرب من عصير الكرمة حتى يأتي ملكوت الله .

١٩ - وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً : هذا هو جسدى الذى يُبذل لأجلكم .

اصنعوا هذا لذكرى .

(١١) وقولا لرب البيت يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى .

(١٢) فذاك يريكما عليّة كبيرة مفروشة . هناك أعدا .

(١٣) فانطلقا ووجدا كما قال لهما . فأعدا الفصح .

(١٤) ولما كانت الساعة اتكأ والاثنا عشر رسولا معه .

(١٥) وقال لهم شهوةً اشتيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتالم .

(١٦) لأنى أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتى يُكمل في ملكوت الله .

(١٧) ثم تناول كأساً وشكر . وقال خذوا هذه واقسموها بينكم .

(١٨) لأنى أقول لكم إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله .

(١٩) وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدى الذى يُبذل عنكم .

اصنعوا هذا لذكرى .

٢٠ - وكذلك الكأس من بعد العشاء قائلاً : هذه هي الكأس العهد الجديد بدمي الذي يسفك من أجلكم .

٢١ - ومع ذلك فما إن يدَّ الذي يُسلمني معي على المائدة .

٢٢ - وابنُ البشر ماضٍ كما هو محدود ولكن الويلُ لذلك الرجل الذي يُسلمه .

٢٣ - فطفقوا يسألون بعضهم بعضاً : من كان منهم مزمماً أن يفعل ذلك .

٢٤ - ووقعت بينهم مجادلة في أيهم يُحسب الأكبر .

٢٥ - فقال لهم : إن ملوك الأمم يسودونهم والسيّاطين عليهم يُدعون محسنين .

٢٦ - وأما أنتم فليستم كذلك . ولكن ليكن الأكبر فيكم كالأصغر . والذي يتقدم

كالذي يخدم .

٢٨ - وأنتم الذين ثبتتم معي في تجاربي .

(٢٠) وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً هذه للكأس هي العهد الجديد بدمي

الذي يُسفك عنكم .

(٢١) ولكن هوذا يدُّ الذي يسلمني هي معي على المائدة .

(٢٢) وابن الإنسان ماضٍ كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان الذي يسلمه .

(٢٣) فابتدأوا يتساءلون فيما بينهم من ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا .

(٢٤) وكانت بينهم أيضاً مشاجرة من منهم يُظن أنه يكون الأكبر .

(٢٥) فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم والسيّاطون عليهم يُدعون محسنين .

(٢٦) وأما أنتم فليس هكذا . بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر والتقدم كالخادم .

(٢٧) لأن من هو الأكبر . الذي يتكبر أم الذي يخدم . أليس الذي يتكبر . ولكن

أنا بينكم كالذي يخدم .

(٢٨) أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي .

- ٢٩ - فَأَنَا أُعِدُّ لَكُمْ الْمَسْكُوتَ كَمَا أُعِدَّةَ لِي أَبِي .
- ٣٠ - لَتَأْكُلُوا وَتَشْرَبُوا عَلَى مَائِدَتِي فِي مَسْكُوتِي وَتَجْلِسُوا عَلَى كُرَاسِيِّ تَدِينُونَ أَسْبَاطَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْاِثْنَى عَشَرَ .
- ٣١ - وَقَالَ يَسُوعُ : سَمْعَانُ سَمْعَانُ هُوَذَا الشَّيْطَانُ سَأَلَ أَنْ يُغَرِّبَ لَكُمْ مِثْلَ الْحِنْطَةِ .
- ٣٢ - لَكِنِّي صَلَّيْتُ مِنْ أَجْلِكَ لئَلَّا يَنْقُصَ إِيمَانُكَ وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ فَثَبَّتْ إِخْوَانُكَ .
- ٣٣ - فَقَالَ لَهُ : أَنَا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَمْضِيَ مَعَكَ إِلَى السَّجْنِ وَإِلَى الْمَوْتِ .
- ٣٤ - قَالَ : إِنِّي أَقُولُ لَكَ يَا بَطْرُسُ إِنَّهُ لَا يَصِيحُ الدِّيكُ الْيَوْمَ حَتَّى تَنْكَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَعْرِفُنِي .
- ٣٩ - ثُمَّ خَرَجَ وَمَضَى عَلَى عَادَتِهِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ وَتَبِعَهُ التَّلَامِيذُ .
- ٤٠ - فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْمَسْكَنِ قَالَ لَهُمْ : صَلُّوا لئَلَّا تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ .
- ٤١ - ثُمَّ فَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمِيَةِ حَجَرٍ وَخَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى .
-
- (٢٩) وَأَنَا أَجْعَلُ لَكُمْ كَمَا جَعَلْتُ لِي أَبِي مَسْكُوتًا .
- (٣٠) لَتَأْكُلُوا وَتَشْرَبُوا عَلَى مَائِدَتِي فِي مَسْكُوتِي وَتَجْلِسُوا عَلَى كُرَاسِيِّ تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الْاِثْنَى عَشَرَ .
- (٣١) وَقَالَ الرَّبُّ سَمْعَانُ سَمْعَانُ هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يَغْرِبَ لَكُمْ كَالْحِنْطَةِ .
- (٣٢) وَلَكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لَا يَفْنَى إِيمَانُكَ . وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبَّتْ إِخْوَانُكَ .
- (٣٣) فَقَالَ لَهُ يَا رَبِّ إِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَمْضِيَ مَعَكَ حَتَّى إِلَى السَّجْنِ وَإِلَى الْمَوْتِ .
- (٣٤) فَقَالَ أَقُولُ لَكَ يَا بَطْرُسُ لَا يَصِيحُ الدِّيكُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ تَنْكَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَعْرِفُنِي .
- (٣٩) وَخَرَجَ وَمَضَى كَالْعَادَةِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ . وَتَبِعَهُ أَيْضًا تَلَامِيذُهُ .
- (٤٠) وَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَسْكَنِ قَالَ لَهُمْ صَلُّوا لِكَيْ لَا تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ .
- (٤١) وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمِيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى .

- ٤٢ - قائلًا : يارب إن شئت فأجز عني هذه الكأس لكي لا تكن مشيئتي بل مشيئتك .
- ٤٣ - وتراى له ملاك من السماء يشدّده .
- ٤٤ - ولما أخذ في النزاع أطال في الصلاة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .
- ٤٥ - ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .
- ٤٦ - فقال لهم : ما بالكم نائمين . قوموا فصلوا لئلا تدخلوا في تجربة .
- ٤٧ - وفيما هو يتكلم وإذا بجمع يتقدمهم المسمى يهوذا أحد الاثني عشر فدنا من يسوع ليقبله .
- ٤٨ - فقال له يسوع : يا يهوذا أبقلة تسلم ابن البشر .
- ٤٩ - فلما رأى الذين حوله ما سيحدث قالوا له : أنضرب بالسيف .
- ٥٠ - وضرب أحدهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .
-
- (٤٢) يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس . ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك .
- (٤٣) وظهر له ملاك من السماء يقوّيه .
- (٤٤) وإذا كان في جهاد كان يصلى بأشدّ لَجَاجَة ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .
- (٤٥) ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .
- (٤٦) فقال لهم : لماذا أنتم نيام . قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة .
- (٤٧) وبينما هو يتكلم إذا بجمع ، والذي يدعى يهوذا أحد الاثني عشر يتقدمهم . فدنا من يسوع ليقبله .
- (٤٨) فقال له يسوع : يا يهوذا أبقلة تسلم ابن الإنسان .
- (٤٩) فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يا رب أنضرب بالسيف .
- (٥٠) وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .

- ٥١ - فأجاب يسوع وقال : قفوا لاتزيدوا. ثم لمس أذنه فأبرأه .
٥٢ - ثم قال يسوع للذين جاؤا إليه من رؤساء الكهنة وولاة الهيكل والشيوخ: كأنما خرجتم إلى لص بسيوف وعصى .
٥٣ - إني كل يوم كنت معكم في الهيكل ولم تمدوا على أيديكم ولكن هذه ساعتكم وهذا سلطان الظلمة .

- حينئذ تركه تلاميذه وهربوا .
٥٤ - فارتموا على يسوع فقبضوا عليه وقادوه إلى بيت رئيس الكهنة .
وكان الكتبة والرؤساء مجتمعين . وهناك أعطى يهوذا الخواري الثلاثين درهما التي أخذها رشوة على تسليم المسيح .
وكان بطرس يتبعه من بعيد ...

- ٥٤ - فجلس داخلاً مع الخدام لينظر الغاية .
٥٥ - وأضرمو ناراً في وسط الدار وجلسوا حولها فجلس بطرس بينهم .
٥٦ - فرأته جارية جالساً عند الضوء ففترست فيه ثم قالت: إن هذا أيضاً كان معه .

- (٥١) فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا . ولس أذنه وأبرأها .
(٥٢) ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه :
كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى .
(٥٣) إذ كنت معكم كل يوم في الهيكل لم تمدوا على الأيادي . ولكن هذه ساعتكم
وسلطان الظلمة .

- (٥٤) فأخذوه وساقوه وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة . وأما بطرس فتبعه من بعيد .
(٥٥) ولما أضرمو ناراً في وسط الدار وجلسوا معاً فجلس بطرس بينهم .
(٥٦) فرأته جارية جالساً عند النار ففترست فيه وقالت: وهذا كان معه .

٥٧ - فكفر أمام الجمع وأنكره قائلاً: إني لست أعرفه.

٥٨ - وبعد قليل رآه آخر فقال: أنت أيضاً منهم. فأخذ بطرس يحلف لا أعرف هذا الرجل

ولست منهم .

٥٩ - وبعد نحو ساعة أكد عليه آخر قائلاً: في الحقيقة هذا أيضاً كان معه فإنه جليلي

٦٠ - فقال بطرس: يا رجل لا أدري ما تقول .

قال مفسروهم: إن خطأ بطرس هذا كان ثقیلاً : لأن المسيح قال: من ينكرني أمام الناس

أنكره أمام أبي الذي في السموات .

٦٠ - وفي الحال بينما هو يتكلم صاح الديك .

٦١ - فالتفت يسوع ونظر إلى بطرس فتذكر كلامه إذ قال: إنك قبل أن يصيح الديك .

تنكرني ثلاث مرات .

٦٢ - فخرج بطرس وبكى بكاءً مرّاً .

٦٣ - وكان الرجال الذين قبضوا عليه يهزأون به ويضربونه .

(٥٧) فأنكره قائلاً: لست أعرفه يا امرأة .

(٥٨) وبعد قليل رآه آخر وقال: وأنت منهم. فقال بطرس: يا إنسان لست أنا .

(٥٩) ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً: بالحق إن هذا أيضاً كان معه لأنه

جليلي أيضاً .

(٦٠) فقال بطرس: يا إنسان لست أعرف ما تقول . وفي الحال بينما هو يتكلم

صاح الديك .

(٦١) فالتفت الرب ونظر إلى بطرس . فتذكر بـطرس كلام الرب كيف قال له: إنك

قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات .

(٦٢) فخرج بطرس إلى خارج وبكى بكاءً مرّاً .

(٦٣) والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه .

- ٦٤ - وغطوه وطفقوا يلطمونه ويسألونه قائلين : تنبأ من الذى ضربك .
- ٦٥ - وأشياء أخر كانوا يقولونها عليه مجدفين .
- ٦٦ - ولما كان النهار اجتمع شيوخ الشعب ورؤساء الكهنة عليه ليميتوه وأحضروه إلى محفلهم
- ٦٧ - وقالوا : إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم : إن قلت لكم لا تؤمنون .
- ٦٨ - وإن سألتكم لا تجيبوني ولا تطلقوني .
- ٦٩ - ولكن من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله .
- ٧٠ - فقال الجميع : أفأنت ابن الله . فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو .
- ٧١ - فقالوا ما حاجتنا إلى شهادة إنا قد سمعنا من فمه .
- فأوثقوه . وأما يهوذا الأسخريوطى الدافع ، لما رأى يسوع قد دينَ ندم ومضى فأعاد الثلاثين الفضة إلى رؤساء الكهنة قائلاً : لقد أخطأت بتسايىمى دماً زكياً . فقالوا له : ما علينا أنت أخبر .
- فطرح الفضة فى الهيكل وذهب فخنق نفسه ، وأما رؤساء الكهنة فأخذوا الفضة وقالوا لا يحل لنا أن نضعها فى بيت التقدمة لأنها ثمن دم .
-
- (٦٤) وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين تنبأ . من هو الذى ضربك .
- (٦٥) وأشياء أخر كثيرة كانوا يقولون عليه مجدفين .
- (٦٦) ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم .
- (٦٧) قائلين إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم : إن قلت لكم لا تصدقون .
- (٦٨) وإن سألت لا تجيبوننى ولا تطلقوننى .
- (٦٩) منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله .
- (٧٠) فقال الجميع : أفأنت ابن الله . فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو .
- (٧١) فقالوا ما حاجتنا بعدُ إلى شهادة لأننا نحن سمعنا من فمه .

- ١ - ثم ذهب جميع جمهورهم ومضوا ليسوع إلى بيلاطس .
- ٢ - وطفقوا يشكونه قائلين : إنا وجدنا هذا يفسد أمتنا ويمنع من أداء الجزية لقيصر ويدعى أنه هو المسيح الملك .
- ٣ - فسأله بيلاطس قائلاً : هل أنت ملك اليهود؟ فأجابه قائلاً : أنت قلت .
- ٤ - فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة وللجموع : إني لم أجد على هذا الرجل علة .
- ٥ - فاجتوا وقالوا : إنه يهيج الشعب إذ يعلم في اليهودية كلها مبتدئاً من الجليل إلى هنا .
- ٦ - فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل : هل الرجل جليلي .
- ٧ - ولما علم أنه من إيلة هيرودس أرسله إلى هيرودس وكان في تلك الأيام في وأورشليم .
- ٨ - فلما رأى هيرودس يسوع فرح جداً لأنه من زمان طويل كان يشتهي أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة ويرجوان يعاين آية يصنعها .

الأصحاح الثالث والعشرون

- (١) فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس .
- (٢) وابتدؤا يشكون عليه قائلين : إنا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك .
- (٣) فسأله بيلاطس قائلاً : أنت ملك اليهود . فأجابه وقال : أنت تقول .
- (٤) فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع : إني لأجد علة في هذا الإنسان .
- (٥) فكانوا يشددون قائلين : أنه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا .
- (٦) فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل هل الرجل جليلي .
- (٧) وحين علم أنه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضاً تلك الأيام في وأورشليم .
- (٨) وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تُصنع منه .

- ٩ - فسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .
- ١٠ - وكان رؤساء الكهنة والكتبة واقفين يشكونه بلجاجة .
- ١١ - فازدراه هيرودس مع جنوده وهزأ به وألبسه ثوباً لامعاً وردّه إلى بيلاطس .
- ١٢ - وتصادق هيرودس وبيلاطس في ذلك اليوم وقد كانا من قبل متعادين .
- ١٣ - فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .
- ١٤ - وقال لهم : قد قدمتم إلىّ هذا الرجل كأنه يفتن الشعب . وها أنا قد فحسته أمامكم فلم أجد على هذا الرجل علة مما تشكونه به .
- ١٥ - ولا هيرودس أيضاً لأنى أرسلتكم إليه وهوذا لم يُصنع به شيء من حكم الموت .
- ١٦ - فأنا أؤدبه وأطلقه .
- ١٧ - وكان لا بد له أن يطلق لهم في كل عيد رجلاً .

- (٩) وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .
- (١٠) ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشكون عليه باشتداد .
- (١١) فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً وردّه إلى بيلاطس .
- (١٢) فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما .
- (١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .
- (١٤) وقال لهم : قد قدمتم إلىّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب . وها أنا قد فحست قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشكون به عليه .
- (١٥) ولا هيرودس أيضاً . لأنى أرسلتكم إليه . وها لا شيء يستحق الموت صُنِعَ منه .
- (١٦) فأنا أؤدبه وأطلقه .
- (١٧) وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحداً .

- ١٨ - فصاحوا كلهم جملة قائلين: ارفع هذا وأطلق لنا برّ أبّا .
- ١٩ - كان ذاك قد ألقى في السجن لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل .
- ٢٠ - فناداهم بيلاطس مرة أخرى وهو يريد أن يطلق يسوع .
- ٢١ - فصرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه .
- ٢٢ - فقال لهم مرة ثالثة: وأى شر صنع هذا ؟ إني لم أجد عليه علة للموت فأنّا أؤدبه وأطلقه .
- ٢٣ - فألحوا عليه بأصوات عالية طالبين أن يصلب واشتدت أصواتهم .
- ٢٤ - فحكم بيلاطس أن يُجرى مطلبهم .
- ٢٥ - فأطلق لهم الذى طلبوه ذاك الذى ألقى في السجن لأجل فتنة . وجلد يسوع بالسياط وأسلمه ليصلب .
- قال مفسروهم : ولذا يظهر أن اللصين اللذين صلبا معه جلدا أيضاً والجلادون كانوا ستين نفراً . وأرشاهم اليهود ليميتوه بالجلد خشية أن يطلقه بيلاطس ونزعوا ثيابه وألبسوه لباساً
-
- (١٨) فصرخوا بجملة قائلين: خذ هذا وأطلق لنا باراباس .
- (١٩) وذاك كان قد طرح في السجن لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل .
- (٢٠) فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع .
- (٢١) فصرخوا قائلين: اصلبه اصلبه .
- (٢٢) فقال لهم ثالثة: فأى شر عمل هذا ؟ إني لم أجد فيه علة للموت . فأنّا أؤدبه وأطلقه
- (٢٣) فكانوا يلجئون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب . فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة .
- (٢٤) فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم .
- (٢٥) فأطلق لهم الذى طرح في السجن لأجل فتنة وقتل الذى طلبوه وأسلم يسوع لمشيئتهم .

قرمزياً وضمفروا إكليلاً من شوك العوسج ووضعوه على رأسه، وأنشبوا في رأسه عنفاً أشواكه الحادة. ومن هنا أخذت الكنيسة المادة على إبقاء إكليل من شعر في رأس الكهنة تذكيراً لإكليل المسيح الشوكي. ثم جثوا على ركبهم مستهزئين به وقائلين: السلام ياملك اليهود. وتناولوا قصبة يضربون بها رأسه. ولما هزؤا به نزعوا عنه ذلك اللباس وألبسوه ثيابه واستاقوه ليصلب. وكان يتقدمه مَبُوق يدعو الشعب إلى هذا المنظر بحسب عادة اليهود. وخشبة الصلب على منكبيه.

٣٢ - وانطلق معه بآخرين مجرمين ليُقتلوا.

ولما بلغوا إلى المكان المسمى الجمجمة صلبوه هناك هو والمجرمين، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار...

وتناولوه خلاً مخلوطاً بمرارة أو خمرًا ممزوجاً بعلقم بعد أن طلب الماء فذاقه ولم يشرب. ولما صلبوه بالمسامير وبالحبال معها. وكانت المسامير في راحة اليدين والرجلين، ضربوا جنبه بالحربة فنفذت من صدره. وفي الصليب محل يسند إليه رجله. واقتسموا ثيابه بالقرعة وهي ثلاثة: القميص والرداء والجبّة. ولم يكن يلبس السروال كمادة تلك البلاد. وجلسوا هناك يحرسونه لئلا يسرقه أحد.

وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء يسخرون منه معهم قائلين: قد خلص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو مسيح الله المختار.

(٣٢) وجاءوا أيضاً باثنين آخرين مذنبين ليُقتلوا معه.

(٣٣) ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره.

(٣٥) وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء أيضاً معهم يسخرون به قائلين: خلّص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله.

٣٦ - وكان الجند أيضاً يهزأون به .

٣٧ - وقائلين : إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك .

٣٨ - وكان عنوان فوقه مكتوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية : هذا هو ملك

اليهود .

٤٤ - ولما كان نحو الساعة السادسة حدثت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .

٤٥ - وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه .

٤٦ - ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً : إيل إيل لم شبعتنى ؟ أى : إلهى إلهى لم ذا تركتنى ؟

فكان أناس من القائلين يقولون : دعوا ننظر هل يأتى إيليا فيخلصه . ثم صرخ أيضاً بصوت

عالى وأسلم الروح .

٤٧ - فلما رأى قائد المئة ما حدث مجدّد الله قائلاً : فى الحقيقة كان هذا الرجل صديقاً .

٤٨ - وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين على هذا المنظر ، لما عاينوا ما حدث ، رجعوا وهم

يقرعون صدورهم .

(٣٦) والجند أيضاً استهزأوا به وهم يأتون ويقدمون له خلا .

(٣٧) قائلين : إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك .

(٣٨) وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية : هذا هو ملك اليهود .

(٤٤) وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .

(٤٥) وأظلمت الشمس ، وانشق حجاب الهيكل من وسطه .

(٤٦) ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : يا ابتاه فى يديك أستودع روحى . ولما قال هذا

أسلم الروح .

(٤٧) فلما رأى قائد المائة ما كان مجدّد الله قائلاً : بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً .

(٤٨) وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون

صدورهم .

٤٩ - وكان جميع معارفه والنساء اللواتي تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

٥٠ - وإذا برجل اسمه يوسف وهو صالح صديق .

٥١ - ولم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم .

٥٢ - فدنا إلى بيلاطس وسأله جسد يسوع فأعطاه إياه .

٥٣ - فأنزله ولفه في كتان ووضع في قبر منحوت لم يكن وضع فيه أحد .

٥٤ - وكان يوم الهيئة أى : الجمعة وقد أخذ السبت يلوح ...

وفي يوم السبت اجتمع عظماء الكهنة عند بيلاطس قائلين له : قد تذكرنا أن ذاك المضل كان يقول وهو حى : إني أقوم بعد ثلاثة أيام . فرأى يحرسوا القبر حتى اليوم الثالث .
لئلا يأتى تلاميذه فيسرقوه ليلاً ويقولوا للشعب : إنه قام من بين الأموات . فتكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى . فأمر لهم بجنود يحرسون وحصنوا القبر وختموا الحجر مع الجنود .
وفي عشية السبت السفر صباحه عن الأحد أتت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظر القبر .

قال مفسروهم : إن هذه الآية أتمت العلماء في تفسيرها والتوفيق بين أجزاءها وبين أقوال باقى الإنجيليين . انتهى .

(٤٩) وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

(٥٠) وإذا برجل اسمه يوسف وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً .

(٥١) هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم . وهو من الرامة مدينة اليهود . وكان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله .

(٥٢) هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع .

(٥٣) وأنزله ولفه بكتان ووضع في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط .

(٥٤) وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح .

وإذا بزللة عظيمة قد صارت لأن ملك الرب أنحدر من السماء. وكان الملك جبريل ظهر بهيئة شاب وجاء فدحرج الحجر عن باب القبر وجلس فوقه . وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج . ومن الخوف منه اضطرب الحراس وصاروا كالأموات . فقال للنسوة : لا تخفن . فقد عرفت أنكن تطلبن يسوع المصلوب . إنه ليس ههنا . فإنه قد قام .
وقال لوقا :

٥٥ - كانت النساء اللواتي أتين معه من الجليل : يتبعن . فأبصرن القبر وكيف وضع فيه جسده .

٥٦ - ثم رجمن وأعددن حنوطاً وأطياباً . وفي السبت قررن على حسب الوصية .
١ - وفي أول الأسبوع باكراً جسداً أتين إلى القبر وهن يحملن الحنوط الذي أعدناه .

٢ - فوجدن الحجر قد دُحرج عن القبر .

٣ - فدخلن فلم يجدن جسد يسوع .

٤ - وبينما هن متحيرات في ذلك إذا برجلين قد وقفا عندهن بلباس براق .

(٥٥) وثبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضع جسده .

(٥٦) فرجمن وأعددن حنوطاً وأطياباً . وفي السبت استرحن حسب الوصية .

الأصحاح الرابع والعشرون

(١) ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعدده ومعهن أناس .

(٢) فوجدن الحجر مدحرجاً عن القبر .

(٣) فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع .

(٤) وفيما هن محتارات في ذلك إذا رجالان وقفا بهن بثياب براق .

٥ - وإذ كن خائفات ونكسن وجوههن إلى الأرض قالا لهن : لماذا تطلبن الحي بين الأموات .

٦ - إنه ليس ههنا لكنه قام . إذ كن كيف كن كن وهو في الجليل .

٧ - إذ قال إنه ينبغي لابن البشر أن يسلم إلى أيدي أناس خطأ ويصلب ويقوم في اليوم الثالث .

فذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقيين بهذا كله .

وقلن لهم : قد أخذوا يسوع من القبر ولا نعلم أين وضعوه .

١٠ - ومريم المجدلية وحنة ومريم أم يعقوب وآخر معهن هن اللواتي أخبرن الرسل بهذا .

فكان عندهم هذا الكلام كالهذيان ولم يصدقوهن .

(٥) وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قال لهن : لماذا تطلبن الحي بين الأموات .

(٦) ليس هو ههنا لكنه قام . إذ كن كيف كن كن وهو بعد في الجليل .

(٧) قائلًا إنه ينبغي أن يسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطأ ويصلب وفي اليوم

الثالث يقوم .

فتذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقيين بهذا كله .

(١٠) وكانت مريم المجدلية ويونّا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتي كان هذا

للسل .

(١١) فترأى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن .

١٢ - فقام بطرس وأسرع إلى القبر وتطلع فرأى الأكفان موضوعة على حدة فانصرف متعجباً في نفسه مما كان .

١٣ - وإن اثنين منهم كانا سائرين في ذلك اليوم إلى قرية اسمها عَمَّاوُسُ بعيدة عن أورشليم ستين غلوة .

١٤ - وكانا يتحادثان عن تلك الحوادث كلها .

١٥ - وفيما هما يتحادثان ويتساءلان دنا منهما يسوع نفسه وكان يسير معهما .

١٦ - ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

١٧ - فقال لهما : ما هذا الكلام الذي تتحاوران فيه وأنتما سائران مكثَّين .

١٨ - فأجاب أحدهما : أفأنت غريب في أورشليم ولم تعلم ما حدث بها في هذه الأيام .

١٩ - فقال لهما : وما هو؟ قال له ما يخص يسوع الناصري الذي كان رجلاً نبياً ذا قوة

في العمل والقول أمام الله والشعب كله .

(١٢) فقام بطرس ورخص إلى القبر ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجباً في نفسه مما كان .

(١٣) وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عَمَّاوُس .

(١٤) وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث .

(١٥) وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب منهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما .

(١٦) ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

(١٧) فقال لهما : ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين .

(١٨) فأجاب أحدهما الذي اسمه كَلْيُوبَاسُ وقال له : هل أنت متغرب وحدك في أورشليم

ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها هذه الأيام ؟

(١٩) فقال لهما : وما هي؟ فقالا : المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً

في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب .

- ٢٠ - وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .
- ٢١ - واليوم هو اليوم الثالث لحدوث ذلك .
- ٢٢ - إلا أن نساء منا أدهشنا لأنهن بكرن إلى القبر .
- ٢٣ - فلم يجدن جسده فأتين وقلن : إنهن رأين مظهر ملائكة قالوا إنه حي .
- ٢٤ - فضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا كما قالت النساء لكنهم لم يروه .
- ٢٥ - فقال لهما : يا قليلي الفهم وبطبيء القلب في الإيمان بكل ما نطق به الأنبياء .
- ٢٦ - أما كان ينبغي للمسيح أن يتألم هذه الآلام ثم يدخل إلى مجده .
- ٢٧ - ثم أخذ يفسر لهما ، من موسى ومن جميع الأنبياء ، ما يختص به في الأسفار كلها .
- ٢٨ - فلما اقتربوا من القرية التي كانا يقصدانها تظاهر بأنه منطلق إلى مكان أبعد .
- ٢٩ - فالزماء قائلين : امكث معنا لأن المساء مقبل وقد مال النهار . فدخل ليكث معهما .
-
- (٢٠) كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .
- (٢١) ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل . ولكن مع هذا كله ، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك .
- (٢٢) بل بعض النساء منا حيرنا إذ كن باكرًا عند القبر .
- (٢٣) ولما لم يجدن جسده أتين قائلات : إنهن رأين منظر ملائكة قالوا : إنه حي .
- (٢٤) ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء . وأما هو فلم يروه .
- (٢٥) فقال لهما : أيها الغبيان والبطيئ القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء .
- (٢٦) أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده .
- (٢٧) ثم ابتداءً ، من موسى وجميع الأنبياء ، يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب .
- (٢٨) ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد .
- (٢٩) فالزماء قائلين : امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار . فدخل ليكث معهما .

٣٠ - ولما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما .

٣١ - فانفتحت أعينهما وعرفاه فغاب عنهما .

٣٢ - فقال أحدهما للآخر: أما كانت قلوبنا مضطربة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق

ويشرح لنا الكتب .

٣٤ - وقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم فوجدا الأحد عشر والذين معهم

مجتمعين .

وهم يقولون: لقد قام يسوع في الحقيقة وتراءى لسمعان .

٣٥ - فأخذا يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .

٣٦ - وبينما هم يتحدثون بهذه وقف يسوع في وسطهم وقال لهم: السلام لكم . أنا هو

لاتخافوا .

٣٧ - فاضطربوا وخافوا وظنوا أنهم يرون روحاً .

(٣٠) فلما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما .

(٣١) فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما .

(٣١) فقال بعضهما لبعض: ألم يكن قلبنا ملتبها فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح

لنا الكتب .

(٣٣) فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين

معهم .

(٣٤) وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان .

(٣٥) وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .

(٢٦) وبينما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم .

(٣٧) فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً .

- ٣٨ - فقال لهم: ما بالكُم مرتعدين ولماذا ثارت الأوهام في قلوبكم .
- ٣٩ - انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو جسُّوني وانظروا فإن الروح لالحم له ولا عظام كما ترون لي .
- ٤٠ - ثم أراهم يديه ورجليه .
- ٤١ - وإذ كانوا غير مصدقين بعدُ من الفرح ومتعجبين قال : أعندكم ههنا طعام .
- ٤٢ - فأعطوه قطعة من سمك مشوى وشهد غسل .
- ٤٣ - فأخذ وأكل أمامهم .
- ثم أخذ الباقي وأعطاهم ...
- وبعد مفاوضته معهم .
- ٥٠ - خرج بهم إلى بيت عَنياً ورفع يديده وباركهم .
- ٥١ - وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء .

(٣٨) فقال لهم : ما بالكُم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم .

(٣٩) انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو . جسُّوني ، وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي .

- (٤٠) وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه .
- (٤١) وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم: أعندكم ههنا طعام ؟
- (٤٢) فناولوه جزءاً من سمك مشوى وشيئاً من شَهِد غسل .
- (٤٣) فأخذ وأكل قدامهم .
- (٥٠) وأخرجهم خارجاً إلى بيت عَنياً ورفع يديه وباركهم .
- (٥١) وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء .

هذا ما جاء في إنجيل لوقا ممزوجاً ببعض تفاسيرهم . وإنما آثرت النقل عنه لضعفهم أن كلامه أصح وأفصح ، وأشد انسجاماً من كلام باقي مؤلفي العهد الجديد . كما في (ذخيرة الألباب) من كتبهم .

فصل

في بطلان ما رووه وتهافته بالحجج الدامغة

اعلم أن في كتبهم الموجودة من التضارب في هذه القصة ما يقضى بالمعجب ويبرهن على عدم الوثوق بها . كما قال تعالى : مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ ^(١) . قال البرهان البقاعي رحمه الله في (تفسيره) بعد (أن ساق أزيد مما سقناه عن أناجيلهم ، وقال : أحسن ما رُدَّ على الإنسان بما يعتقده) ما نصه : فقد بان لك أن أناجيلهم كلها اتفقت على أن علمهم في أمره انتهى إلى واحد . وهو الأسخريوطي . وأما غيره من الأعداء فلم يكن يعرفه . وأنه إنما وضع يده عليه ولم يقل بلسانه إنه هو . وأن الوقت كان ليلاً . وأن عيسى نفسه قال لأصحابه : كلّم تشكّون في هذه الليلة . وأن تلاميذه كلهم هربوا فلم يكن لهم علم بعد ذلك بما اتفق في أمره . وإن بطرس إنما تبعه من بعيد . وإن الذي دل عليه خنق نفسه . وإن الناقل لأن الملك قال إنه قام من الأموات ، إنما هو نسوة كن عند القبر في مدى بعيد . وما يدرى النسوة الملك من غيره . ونحو ذلك من الأمور التي لا تنفيذ غير الظن . وأما الآيات التي وقعت فعلى تقدير تسليمها لا يضرنا التصديق بها . وتسكون لجرائمهم على الله بصلب من يظنونه المسيح . وهذا كله يصادق القرآن في أنهم في شك منه . ويدل على أن المصلوب ، إن صح أنهم صليبه ، من ظنوه إياه ، هو الذي دل عليه .

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

قال بعض العلماء : إنه ألقى شبهه عليه . ويؤيد ذلك قولهم إنه خنق نفسه . فالظاهر أنهم لما يروه بعد ذلك ظنوا أنه خنق نفسه : فجزموا به . والله أعلم . انتهى .

وقال العلامة خير الدين الآلوسی فی (الجواب الفسیح) : اعلم أن ما ذكره هذا النصراني من أن المسيح عليه السلام مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أُنزل ودفن . ، وأقام في القبر إلى صبيحة يوم الأحد ، ثم انبعث حيًّا بلاهوته وتراءى للنسوة اللاتي جئن إلى قبره زائرات ، وظهر بعد حواريه ... إلى آخر ما قاله - هو ما أجمع عليه النصارى . ويرد ذلك العقل والنقل . وإن صدقهم اليهود في قتله . فاستمع من المنقول ما يتلى عليك بإذن داعيه . وخذ ما يأتيك من المعقول بالدلائل الهادية . على أن المقتول هو الشبه . وأن الحال عند صالبيه اشتبه . وأن المسيح رفعه الله تعالى ، قبل القتل ، إليه . لشرفه عنده ومسكانته لديه . قال الله تعالى في بيان حال اليهود : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ .. الآية . وفي الإنجيل أن رئيس الكهنة أقسم على المأخوذ بالله أنت المسيح بن الله ؟ فقال له : أنت قلت . ولم يجبه بأنه المسيح . فلو كان القسم عليه هو المسيح لقال له : نعم . ولم يُورَّ ولم يتلعم . وهو محافَّ بالله . لا سيما وهو بزعمهم الإله . الذي نزل لخلاص عباده بإفداء نفسه ودخول الجحيم ولأواه .

وقال لوقا في الفصل التاسع من إنجيله .

٢٨ - إن المسيح صعد قبل الصلب إلى جبل الخليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا .

٢٩ - فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه وصارت تلعب

كالبرق .

الأصحاح التاسع

(٢٨) وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام ، أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل

ليصلي .

(٢٩) وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًا لامعًا .

٣٠ - وإذا موسى بن عمران وإيليا .

٣١ - قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلمتهم .

٣٢ - وأما الذين كانوا مع المسيح فوقع عليهم النوم فناموا .

وهذا من أوضح الدلالات على رفعه وحصول الشبه الذى نقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيليا ووقوع النوم على أحبابه إلا رفعه . ألا ترى أن اليهود كانوا يسمعون منه ، عليه السلام ؛ أن إيليا يأتى . فلما رفعوه على الخشبة ، كما فى الأنجيل ، قالوا : دعوه حتى نرى أن إيليا يأتى فيخلصه . فصاروا فى شك يريدون تحقيقه . فإن أتى إيليا فما رفعوه هو المسيح . وإن لم يأت فهو غيره كما فى ظنهم . فلما لم يأت ازدادوا ريبة فى أمره . ومن رآه الحواريون بعد يقظتهم ، يجوز أن يكون طوراً من أطوار روحه . لأنه عليه السلام لا يبعد أن يكون له قوة التطور . وتشكل الروح بعد الموت أمر ممكن . لاسيما وقد صدرت على يديه معجزات أعظم من ذلك . كإحياء الموتى وكثرة الخبز والحيتان وإبراء الأكمه والأبرص . وقال يوحنا التلميذ .

١ - كان يسوع مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فى طلبه .

(٣٠) وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا .

(٣١) اللذان ظهرا بمجد وتكلمتا عن خروجه الذى كان عتيذا أن يكمله فى أورشليم .

(٣٢) وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تنقلوا بالنوم . فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين

الواقفين معه .

إنجيل يوحنا

الأصحاح الثامن عشر

(١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادى قدرون حيث كان بستان دخله

هو وتلاميذه .

٤ - فخرج إليهم يسوع وقال لهم : من تريدون ؟
قالوا: يسوع . (وقد خفي شخصه عنهم) . فقال : أنا يسوع . وفعل ذلك مرتين وقد أنكروا صورته .

فانظر أيها العاقل كيف اعترف هنا أنه يسوع لما علم أن الله تعالى تولى حراسته منهم ، وأنهم لا يقدرّون أن ينالوه بسوء . وكيف لم يعترف بأنه المسيح لما سألّه رئيس الكهنة عن نفسه . فعدم اعترافه هناك واعترافه هنا دليل واضح أيضاً على أن ما قاله الله سبحانه في القرآن العظيم هو الحق .

ثم من الأدلة على عدم قتله ما اشتملت عليه الأنجيل من اختلاف المباني والمعاني والمقاصد والاضطراب في حكاية هذه الواقعة والتناقص في ألفاظها . كدعواهم الألوهية مع قوله عليه الصلاة والسلام (عند صلبه بزعمهم) : إلهي ! إلهي ! لم تركتني . وقوله كما في الفصل السادس والعشرين من إنجيل متى :

يا ابتاه إن كان لا يمكنك أن تفوتني هذه الكاس أي: الموت ولا بد لي أن أشربها فلتكن مشيئتك . وقام يصلي . وقوله لرئيس الكهنة : إنكم من الآن لاترون ابن الإنسان حتى ترونه جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء . يريد بالقوة الباري تعالى شأنه . وفي الفصل السابع من إنجيل يوحنا : إن المرسيين ورؤساء الكهنة أرسلوا شرطاً ليقبضوا على المسيح (يعني ليقتلوه كما قال مفسروهم) قال أنا ما كُت أيضاً معكم زماناً . ثم

- (٤) فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم : من تطلبون .
- (٥) أجابوه يسوع الناصري . قال لهم يسوع : أنا هو . وكان يهوذا مسامُهُ أيضاً واقفاً معهم .
- (٦) فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض .
- (٧) فسألهم أيضاً من تطلبون ، فقالوا: يسوع الناصري .
- (٨) أجاب يسوع قد قلت لكم إني أنا هو . فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون .

أنطلق إلى من أرسلني وتطلبوني فلا تجدوني . وحيثما أكن فلا تستطيعون إليه سبيلاً . قال اليهود في ذواتهم : فإلى أين ؟ هذا عتيد أن ينطلق حتى لانجده نحن ، قال مفسروهم أى : يصعد إلى السماء . وغير ذلك مما لو أردنا ذكره والتنقيص عنه لطال البحث .

ثم نقل خير الدين نحواً مما أسلفناه عن أناجيلهم وقال بعد ذلك : فَأَجَلٌ فِي تَنَاقُضِهَا قَدَاحٌ فَكَّرُكَ . وفي تهافتها خيول ذهنك . ترى في هذه القصة ما يدلك على وقوع الشبه ونجاة المسيح عقلاً ونقلاً . كما قال تعالى : وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وليتبين لك عبوديته ورسالته عليه السلام . فإن ذلك ظاهر من العبارات . ولزددك في البيان وضوحاً بما ننهبك عليه بكلمات يسيرة مقدوحاً ومشروحاً .

منها : قولهم إنه صلب قبل غروب يوم الجمعة ودفن مساءها . ولما جاءت النسوة عشية السبت المسفر صباحه عن الأحد ، وجدنه فارغاً ، وقد قام منه المدفون . مع أن النصارى يزعمون ، كما في أناجيلهم ، أنه يبقى في قبره ثلاثة أيام . كما بقي يونان ، أى : يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها ، فما هذا إلا دليل على الاختلاق والتهافت في هذا الأمر . ومنها : سؤالة اليهود مرتين من تطلبون ؟ وهم يقولون : يسوع الناصرى . فلم يعرفوه وهو يقول لهم : أنا .

ومنها : أن يهوذا ارتشى ليدلم عليه . وجعل العلامة على تعيينه لهم تقبيل يده . فلو كان معالوماً لهم لعرفوه بلا دالة وبلا سؤال . مع أنه كان بين أظهرهم وفي غالب الأيام في هيكلمهم .

ومنها : أنه لما أقسم عليه رئيس الكهنة أنه هو المسيح لم يقل له : أنا المسيح . بل قال له : أنت قلت .

ومنها : إنكار بطرس له وهو من أعظم رسله . وإنكاره كفر .
ومنها : أنه لما سأله الوالى : أنت هو ؟ لم يرد له جواباً . فلو كان هو لاعترف وأقر .
ومنها : أنه لما كان أخذه ليلاً ، وقد شوهت صورته وتغيرت محاسنه بالضرب والنكال ،
فهى حالة توجب اللبس بين الشئ وخلافه . فكيف بين الشئ وشبهه ؟ فمن أين يحصل
القطع بأنه هو ؟ لا سيما والنصارى قد حكموا أن المسيح عليه السلام قد أعطى قوة التحول
من صورة إلى صورة . ويحتمل أن المسيح ذهب فى الجماعة الذين أطلقهم الأعوان ، وكان
المتكلم معهم تلميذاً أراد أن يبيع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح . فأتى الله تعالى عليه
الشبه . وأتباع الأنبياء يفدون أنفسهم لأنبيائهم . وهذا فدى نفسه لإلهه ، بزعم النصارى .
ومنها : أنه يحتمل أن الأعوان ارتشوا على إطلاقة كما ارتشى يهودا على الدلالة عليه .
وأخذوا غيره ممن يريد أن يفدى نفسه للمسيح . والدليل عليه عدم اعترافه بأنه المسيح .
ومنها : قوله عليه السلام الذى تقدم آنفاً : أنا ما كنت معكم زماناً . ثم أنطلق إلى من
أرسلنى . فتطلبونى فلا تجدونى . وحيثما أكن فلا تستطيعون إليه سبيلاً . فهذا صريح فى
أنهم سيطلبونه ولا يجدونه ولا ينالون منه شيئاً ، لأنه سيصعد إلى السماء . ومثله ما فى الفصل
الثانى عشر من (إنجيل يوحنا) ما لفظه : قال له الجموع : نحن سمعنا من الناموس أن المسيح
يمكث إلى الأبد . فكيف تقول أنت أن ابن البشر سوف يرتفع . من هو هذا ابن البشر ؟
قال لهم يسوع : إن النور معكم زماناً آخر يسيراً . امشوا مادام لكم النور . لئلا يدرككم
الظلام . ومن يمش فى الظلام فلا يدري أين يذهب . آمنوا بالنور مادام لكم النور . قال
يسوع هذا وذهب متواريًا عنهم . انتهى .

فى هذا الكلام أدلة كثيرة مؤيدة لقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ (١) .
منها : أن اليهود قالوا لعيسى : إن المسيح المذكور فى العهد القديم يمكث إلى الأبد .

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

أى: فإن كنت أنت المسيح فأنت لا تموت فى هذا الزمان . بل تبقى إلى قيام الساعة . ولم يكذبهم فى قتلهم ذلك . والمسلمون يقولون: إنه رفع حياً إلى السماء وهو الآن حيٌّ فيها . وسينزل آخر الزمان عند قرب الساعة . ويقتل الدجال ويحكم بالشرعة المحمدية . ويتوفى ويدفن عند عند النبي صلى الله عليه وسلم . فهو حيٌّ إلى الأبد، يعنى إلى قرب قيام الساعة . ونزوله وموته من أمارات الساعة الكبرى . وفى هذا القول دلالات ظاهرات أيضاً على أنه ليس بإله : أحدها - أنه قال : ابن البشر . يعنى لا تظنوا أنى أدعى الألوهية وإن أحييت الموتى . لأن ذلك معجزة خلقها الله تعالى على يده للإيمان بنبوته .

ثانيها . لو كان إلهاً لما توارى منهم خائفاً من قتلهم له . لأن الإله هو خالق لهم ولعلمهم . وعالم بزمان قدرتهم عليه . فكيف يفرّ وهو يعلم وقت موته ؟ وهو خالق الموت والحياة ؟ ثم إنه يحتمل أن الله تعالى ألقي شبهه على شيطان أو مارد من مردة الجن ليخلص نبيه ورسوله من أيدي أعدائه ، ويرفعه إليه محفوظاً مكرماً . كما أجرى على يديه إحياء الموتى ، وخلقَه من غير أب ، وأبرأ الأكمه والأبرص . لاسيما وهو بزعمهم إله العالم وخالق الإنس والجن وبني آدم . فأى ضرورة تدعو لإثبات أنواع الإهانة والعذاب، على ما زعموا، لرب الأرباب . مع وجود التناقض فيما نقلته أناجيلهم فى هذا الفصل والباب .

عجباً للمسيح بين النصارى وإلى أى والد نسبوه

أسلموه إلى اليهود وقالوا : إنهم بعد ضربه صلبوه

فإذا كان ما يقولون حقاً وصحيحاً ، فأين كان أبوه ؟

حين خلى ابنه رهين الأعادى . أترام أرضوه أم أغضبوه ؟

فلئن كان راضياً بأذاهم فاحمدوهم لأنهم عذبوه

ولئن كان ساخطاً فأتركوه واعبدوهم لأنهم غلبوه

وفى كتاب (الفاصل بين الحق والباطل) ما نصه : وفى الذى اتخذتموه شهيداً على صلبه من

كلام عاموص النبي . أن الله تعالى قال على لسانه : ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل . والرابعة لا أقبلها . بيعهم الرجل الصالح - حجة عليكم لا لكم . لأنه لم يقل بيعهم إياي . ولا قال بيعهم إلهًا متساويا معي .

ويجرى تأويل ذلك على وجهين : إما أن يكون عنى بالمبيع عيسى كما تزعمون فقولوا حينئذ إنه (الرجل الصالح) كما قال عاموص ، وليس بالإله المعبود . وإما أن يريد بالمبيع غيره وهو الذى شبه لليهود فابتاعوه واصلبوه . ويلزمكم وقتئذ إنكار صلوئية عيسى عليه السلام . كيف لا ونصوص الإنجيل والكتب النصرانية متضاربة دالة على عدم الصلب لعيسى عليه السلام . ووقوع الشبه على غيره . وذلك من وجوه : أحدها - يوجد فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا . فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق . وإذا بموسى بن عمران وإيليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلمتهم . فوقع النوم على الذين معه . فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود . وإنما قد اختلفتم فى نقلها كما اختلفتم وتناقضتم فى غير ذلك . وغيرتم الكلام عن مواضعه . وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلاً ظاهراً على الرفع إلى السماء وعدم الصلب . وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات . وثانيها - ما فى الإنجيل أيضاً أن المصابوب قد استسقى اليهود فأعطوه خلاً مضافاً بمر . فذاقه ولم يشربه . فنادى : إلهى إلهى لم خذلتنى ؟ والأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوماً وأربعين ليلة . ويقول للتلاميذ : إن لى طعاماً لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوماً وليلة كيف يظهر الحاجة والمذلة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد ؟ هذا لا يفعله أدنى الناس ، فكيف بخواص الأنبياء ؟ أو كيف بالرب على ما تدعونه ؟ فيكون حينئذ المدعى للعطش غيره . وهو الذى شبه لكم . وثالثها - قوله : إلهى إلهى لم خذلتنى وتركتنى ؟ هو كلام يقتضى عدم الرضا بالقضا ، وعدم

التسليم لأمر الله تعالى . وعيسى عليه السلام منزّه عن ذلك . فيكون المصلوب غيره . لاسيما وأتمّ تقولون: إن المسيح عليه السلام إنما نزل ليؤثر العالم على نفسه ، ويخلصه من الشيطان ورجسه . فكيف تروون عنه ما يؤدى إلى خلاف ذلك، مع روايتكم في توراتكم أن إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون، عليهم السلام، لما حضرهم الموت كانوا مستبشرين بقاء ربهم، فرحين بانقلابهم إلى سعيهم، لم يجزعوا من الموت ولم يستقبلوا منه . ولم يهابوا مذاقه . مع أنهم عبيده . والمسيح بزعكم وَلَدٌ وَرَبٌّ . فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم . ولما لم يكن كذلك دلّ على أن المصلوب غيره ، وهو الذى شبه لكم .

فصل

فما روى عن سلفنا الكرام رضى الله عنهم في تفسير هذه الآية

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقيّ رحمه الله تعالى في (تفسيره) هنا ما نصه : وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات . التي كان يرى بها الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله . ويصورّ من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل . إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم . حتى جعل نبيّ الله عيسى عليه السلام لا يسكنهم في بلدة . بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام . ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان ، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان ، وأنهموا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه . فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور . وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه . وكيف أذاه عن الناس . فلما وصل الكتاب

امتثل والى بيت المقدس ذلك ، وذهب هو ووظيفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام . وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفرًا . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت . فحصره هناك . فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيق فى الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم . فكأنه استصغره عن ذلك . فأعادها ثانية وثالثة . وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب . فقال : أنت هو . وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو . وفتحت روزنة من سقف البيت . وأخذت عيسى سنةً من النوم فرفع إلى السماء . وهو كذلك كما قال الله تعالى : **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ...** الآية .

فلما رفع ، خرج أولئك نفر . فلما رأى أولئك النفر ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه . وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك . وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك ، لجهلهم وقلة عقلهم . ما عدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه . وأما الباقيون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم . حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت . ويقال إنه خاطبها . والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة . وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم ، المؤيد بالمعجزات والبيّنات ، والدلائل الواضحات ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : **وَرَبِّ الْعَالَمِينَ** المطلع على السرائر والضمائر ، الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، العالم بما كان ويكون ، ومالم يكن لو كان كيف يكون : **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** ^(١) . أى : رأوا شبهه فظنوا أنه إياه . ولهذا قال : **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ**

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعُ الظَّنَّ^(١). يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى. كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر. ولهذا قال : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا^(٢). أى : وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكّين متوهمين : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا^(٣) : أى : منيع الجنب لا يرام جنبه ولا يضام من لاذ بيا به. حَكِيمًا أى : في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان. حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحوارين. يعنى فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء. فقال : إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرْ بِي اثْنِي عَشْرَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ آمَنْ بِي. قال ثم قال : أَيْكُمْ يَلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلْ مَكَانِي وَيَكُونَ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال له : اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك . فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه . فكفر به بعضهم اثني عشر مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق . فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما . فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ورواد النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية نحوه . وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم : أَيْكُمْ يَلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلْ مَكَانِي وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٨] .

وقال ابن جرير^(١) حدثنا ابن حميد. حدثنا يعقوب القمي عن هرون بن عنترة عن وهب ابن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت. فأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى. فقالوا لهم: سحرتونا. لتبرز لنا عيسى أو لنقتلكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منك اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم وقال: أنا عيسى. وقد صوره الله على صورة عيسى. فأخذه فقتلوه وصلبوه. فمن ثم شبه لهم فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى. وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى. ورفع الله عيسى من يومه ذلك. قال ابن كثير: وهذا سياق غريب جداً. ثم قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول وهو^(٢) ما حدثني الثني. حدثنا إسحق. حدثنا إسماعيل عن عبد الكريم. حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه. فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاءهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه. فتعاضموا ذلك وتكأهوه. فقال: ألا من رد على الليلة شيئاً مما أصنع فليس مني ولا أنا منه. فأقره حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم في أسوة. فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعاضم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي الليلة التي استعنتكم عليها، فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً. فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها. فقالوا: والله! ما ندرى ما لنا؟ لقد كنا نسمر فتركنا السمر

(١) الأثر رقم ١٠٧٧٩ من تفسير ابن جرير.

(٢) الأثر رقم ١٠٧٨٠ من تفسير ابن جرير.

وما نطيق الليلة سمرًا . وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه . فقال : يُذهب بالراعى وتتفرق الغنم . وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى نفسه . ثم قال : الحق ، ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات . وليبيعننى أحدكم بدرهم يسيرة وليأكلن ثمنى ! فخرجوا فتفرقوا . وكانت اليهود تطلبه . وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هذا من أصحابه . فجدد وقال : ما أنا بصاحبه . فتركوه . ثم أخذه آخرون فجدد كذلك . ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجمعون لى إن دلتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً . فأخذها ودلهم عليه . وكان شبهً عليهم قبل ذلك . فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل . فجعلوا يقودونه ويقولون له : أنت كنت تحيى الموتى وتنهر الشيطان وتبرىء المجنون ، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك . حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها . فرفعه الله إليه . وصلبوا ما شبه لهم . فسكت سبماً . ثم إن أمه والمرأة التى كان يدواها عيسى عليه السلام فأبراها الله من الجنون ، جاء تابكيان حيث المصلوب . فجاءها عيسى فقال : علام تبكيان ؟ فقالتا : عليك . فقال : إني قد رفعنى الله إليه ولم يصبنى إلا خير . وإن هذا شئ شبه لهم . فأمر الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا . فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر . وفقد الذى كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع ، فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يُحنى . فقال : هو معكم ، فانطلقوا فإنه يصبح كل إنسان يحدث بلغة قوم . فلينذرهم وليدعهم .

قال ابن كثير : سياق غريب جداً . وقال ابن جريج عن مجاهد : صلبوا رجلاً شبه بميسى . ورفع الله عن وجل عيسى إلى السماء حياً .

فصل

في رد زعم النصارى أن إلقاء الشبه يفضى إلى السفسطة

قال خير الدين في (الجواب الفسيح) قال النصارى : القول بإلقاء الشبه على عيسى عليه السلام قول يفضى إلى السفسطة ، والدخول في الجهالات ، ومالا يليق بالعقلاء . لأننا إذا جوزنا ذلك فينبغي إذا رأى الإنسان ولده أو زوجته لم يثق بأنه ولده أو زوجته . وكذلك سائر المعارف . لا يثق الإنسان بأحدهم ولا يسكن إليه . ونحن نعلم بالضرورة أن الإنسان يقطع بأن ولده هو ولده . وإن كل واحد من معارفه هو ، من غير شك ولا ريب . بل القول بالشبه يمنع من الوثوق بمدينة الإنسان ووطنه إذا دخله . ولعله مكان آخر ألقى عليه الشبه . بل إذا غمض الإنسان عينه عن صديقه بين يديه لحظة ، ثم فتحها ، ينبغى أن لا يقطع بأنه صديقه . لجواز إلقاء الشبه على غيره . وكل ذلك خلاف الضرورة . فالقول بإلقاء الشبه على غير عيسى خلاف الضرورة . كالقول بأن الواحد نصف العشرة مثلاً ، فلا يسمع .

والجواب عنه من وجوه : أحدها - أن هذا تهويل ليس عليه تعويل . بل البراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة قائمة على أن الله تعالى خلق الإنسان وجملة أجزاء العالم . وإن حكم الشيء حكم مثله : فما من شيء خلقه الله تعالى في العالم إلا هو قادر على خلق مثله . لتعذر خلقه في نفسه . فيلزم أن يكون خلق الإنسان مستحيلاً . بل جملة العالم . وهو محال بالضرورة . وإذا ثبت أن الله تعالى قادر على خلق مثل لكل شيء في العالم ، فجميع صفات جسد عيسى عليه السلام لها أمثال في حيز الإمكان في العدم ، يمكن خلقها في محل آخر غير جسد المسيح . فيحصل الشبه قطعاً . فالقول بالشبه قول بأمري ممكن . لا بما هو خلاف الضرورة . ويؤنس ذلك أن التوراة مصرحة بأن الله تعالى خلق جميع ما للحية في عصا موسى عليه السلام . وهو أعظم من الشبه . فإن جعل حيوان يشبه حيواناً ، وإنسان يشبه إنساناً - أقرب من

جعل نبات يشبه حيواناً . وقلب المصا مما أجمع عليه اليهود والنصارى . كما أجمعوا على قلب النار برداً وسلاماً . وعلى قلب لون يد موسى عليه السلام . وعلى انقلاب الماء خيراً وزيتاً للأَنْبياء عليهم السلام . وإذا جوزوا مثل هذا فيجوز إلقاء الشبه من غير استحالة . على أن عيسى عليه السلام قد خولفت عادة الله تعالى الأغلبية في خلقه من ماء واحد . ونفخ جبريل في جيب مريم . فجعلُ شبهه على غيره ليس بأبعد عن العادة ، من خلقه . على أن إحياءه للموتى وإبراءه للأبرص والأكمة أعظم من إلقاء شبهه على غيره . على أن عروجه إلى السماء بناسوته وخرق السماء والثامها ، ليس بأهون من ذلك . على أن رد الشمس ليوشع بن نون ، ومشى عيسى وحواريه على الماء ، وسائر معجزات أنبياء بنى إسرائيل ، ليس بأهون مما هنالك . وإذا صح عند النصارى انقلاب الخبز إلى جسد المسيح ، وانحدر إلى دمه في العشاء السرى ، لم لا يمكن أن يقع شبهه على أحدهم ؟ كما لا يخفى .

وثانيها - أن الإنجيل ناطق بأن المسيح عليه السلام نشأ بين ظهراني اليهود . وحضر مراراً عديدة في مواسمهم وأعيادهم وهياكلهم . يعظمهم ويعلمهم وبنظرهم . ويتعجبون من براعته وكثرة تحصيله . حتى إنهم (كما في الإنجيل) يقولون : أليس هذا ابن يوسف ؟ أليست أمه مريم ؟ أليس إخوته عندنا ؟ فمن أين له هذه الحكمة ؟ وإذا ، كان في غاية الشهرة والمعرفة عندهم . وقد نص الإنجيل على أنهم عنسد إرادة الصلب لم يحققوه ، حتى دفعوا لتلميذه ثلاثين درهماً ليدلهم عليه . فما حاجتهم حينئذ أن يكتروا رجلاً من تلاميذه ليعرفهم شخصه ؟ لولا وقوع الشبه الذى نقول به . وثالثها - أنه كما تقدم في الأناجيل ، أخذ في حندس من الليل المظلم في حالة شوّهت صورته وغُيِّرَت محاسنه وهيئته ، بالضرب والسحب وأنواع النكال الموجبة لتغير الحال . ومثل ذلك يوجب اللبس بين الشيء وخلافه . فكيف بين الشيء وشبهه ؟ حتى إن رئيس الكهنة عند إحضاره أقسم عليه هل هو يسوع المسيح ابن الله ؟ فلم يجبه . ولو كان هو لأجابه . فمن أين للنصارى واليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى

عليه السلام دون شبهه ؟ بل إنما يحصل الظن والتخمين كما قال تعالى في كتابه المبين : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ .

رابعها - قد تقدم في الأناجيل أنه لما جاء اليهود إلى محله خرج إليهم وقال : من تريدون؟ قالوا : يسوع . وقد خفي شخصه عليهم . ففعل ذلك مرتين وهم ينكرون صورته . وهذا دليل الشبهه ، ورفع عيسى عليه السلام . ولا سيما وقد نقل غير واحد من العلماء عن بعض النصارى القول بأن المسيح عليه السلام كان قد أعطى قوة التحول من صورة إلى صورة .

خامسها - قول متى في (الفصل الخامس والعشرين) من (إنجيله) ما لفظه : حينئذ قال لهم يسوع كلكم تشكون في هذه الليلة . لأنه مكتوب إني أضرب الراعي فتبتدد خراف الرعية . ولاكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل . فأجاب بطرس وقال له : وإن شك فيك الجميع فأنا لاشك أبداً . قال له يسوع : الحق أقول لك . إنك هذه الليلة ، قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات . انتهى .

فقد شهد عليهم بالشك . بل خيرهم بطرس الذي هو خليفة عليهم ، شك . فقد أنخرمت الثقة بأقوالهم . وصح قوله تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .

سادسها - إن في (الفصل السابع والعشرين) من (إنجيل متى) ما لفظه : حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ . قائلاً : قد أخطأت إذ سلمت دماريئاً . فقالوا : ما علمنا . أنت أبصر . فطرح الفضة في الهيكل وانصرف . ثم مضى وخنق نفسه . انتهى .

فهذه الأناجيل ليست قاطعة في صلبه . بل فيها اختلافات . فيحتمل أن يهوذا كذب عليهم في قوله (هو هذا) ويدل على وقوع ذلك ، ويقرُّ به ظهور ندمه بعد هذا . ولا سيما

وهو من جملة الاثني عشر الذين شهد لهم المسيح بالسعادة الأبدية . والسعيد لا يتم منه مثل هذا الفساد العظيم . فيلزم إما أن يهودا مادل عليه ، أو كون المسيح ما شهد لهم بالسعادة الدائمة . أو إن أنجيلهم محرفة مبدلة . ويحتمل أن أحد أتباع المسيح باع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح عليه السلام . وادعى أنه هو . ومثل هذا كثير في أتباع الأنبياء . حيث يريدون أن يقدوا أنفسهم بدل أنبيائه . ويحتمل أن الأعوان أخذوا عليه رشوة وأطلقوه ، وأخذوا بدله . كما أن يهودا ، مع أنه صديقه ورسوله ، أخذ رشوه ودلهم عليه . ويحتمل أن الله تعالى أرسل شيطاناً على صورته وصلبوه . ويحتمل أن الملك الذي نزل عليه ليقويه ، كما تقدم في إنجيل لوقا بزعمهم ، صار فداءً له . ويحتمل أن هذا الذي نزل إيمانزل لرفعه . لأنه لو كان نازلاً لتقويته لقواه . فلما لم نر أنه قواه فيقتضى أنه رفعه إلى السماء ، أو فدى نفسه له .

وقال بعض الأفاضل : ومن الأدلة على رفعه وصلب شبهه ما في الفصل التاسع من (إنجيل لوقا) ما لفظه : أن المسيح ضمد إلى جبل ليصلى وأخذ بطرس ويوحنا ويعقوب معه . وفيما هو يصلى صارت هيئته ووجهه متغيرة ، ولباسه مضيئاً لامعاً . الخ .

فهذا فيه دلالة على رفعه وحصول الشبه الذي تقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيلياء ، ووقوع النوم على أصحابه ، وتغير وجهه وإضاءة لباسه ، إلا رفعه . ورؤيتهم له بعد ذلك ، إنما هو من تطور روحه . لأنه عليه السلام كان له قوة التطور : وهذا من أحكام الروح والنفس .

ولئن قلنا إنه لا يدل على الرفع بالوجه التام ، غير أننا ننزل ونقول : ما دام في هذه المرة تغيرت هيئته ووجهه ولباسه ، واجتمع بالأنبياء وسمع من الغمامة هذا الصوت ، فلا أقل من أن يكون ذلك مقدمة لرفعه ومقياساً ، ومبدأً لتقويته وإيناساً . واليهود لم يتحققوا من أنفسهم أنه هو المسيح . بل اعتمدوا على قول يهودا كما تقدم لك . ويهودا قوله قول فرد ، وغير صالح للاحتجاج . للاحتجالات والأدلة التي ذكرناها لك . فلم يبق في قول الفرقتين حجة

أن المصلوب هو المسيح عليه السلام ، لا شبهه . وأنجيلهم حالها معلوم لديك . وبيان اشتباههم المحكى لك في القرآن ، لا يخفى عليك . انتهى .

وهنا سؤال يورده بعض النصارى وهو: أن عيسى عليه السلام إذا كان لم يصلب حقيقة ، وإنما صلب رجل أُلقي عليه شبهه ، ورفع هو إلى السماء ، فلمَ لم يخبر الحواريين بذلك قبل رفعه أو بعده ؟

والجواب : أن عيسى عليه السلام لم يخبر بذلك لعله بأن إناساً سيفترون عليه ويقولون بالوحيته . فأبهم الأمر ليكون ذلك أدل على كونه عبداً من عبيد الله . لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر . بخلاف ما لو أخير بأنه لا يصلب ، أو لم يصلب ، وأن المصلوب شبهه ، فإنه ربما كان ذلك مقويّاً لشبهة أولئك الجماعة . ولعدم كون هذه المسألة من المسائل الاعتقادية في الأصل . إذ لو اعتقد أحدٌ ، قبل إرسال نبينا عليه الصلاة والسلام ، بصلب عيسى ، لم يضره ذلك . لكن لما ورد نبينا الذي لا ينطق عن الهوى ، أبان خطأ النصارى في الوجهين : أحدهما - اعتقاد أن عيسى إله . والآخر - اعتقاد أنه قد قتل وصلب . وإبان أنه عبد من عبيد الله تعالى تولاه بالرسالة ، واصطفاه وحفظه من أيدي أعدائه وحماه ، كذا في (منية الازدكاء في قصص الأنبياء) .

فصل

في سقوط دعواهم التواتر في أمر الصلب

قال القرافى : اعلم أن النصارى قالوا: إنهم واليهود أمتان عظيمتان طبقوا مشارق الأرض ومغاربها . وكلهم يخبر أن المسيح عليه السلام صلب . وهم عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب . والإنجيل أيضاً مخبر عن الصلب . فإن جوزتم كذبهم ، وكذب ما يدعى أنه الإنجيل ، وإن مثل هؤلاء ممكن تواطؤهم على الكذب - لزم المحال من وجوه : أحدها - أنه يتعذر عليهم أيها المسلمون ، جعل القرآن متواتراً . وثانيها - أن قاعدة التواتر تبطل بالكلية .

فإن غاية خبر التواتر يصل إلى مثل هذا . وثالثها - أن إنكار الأمور المتواترة . جحد للضرورة ، فلا يسمع . فلو قال إنسان : الخبر عن وجود بغداد ودمشق كذب ، لم يسمع ذلك منه ، وعدة خارجاً عن دائرة العقلاء . وحينئذ يتعين أن القول بالصلب حق وأن إخبار المسلمين والقرآن عن عدم ذلك ، مشكل .

والجواب من وجوه : أحدها - أن جميع النصارى واليهود يوردون هذا السؤال ولا يعلمون حقيقة التواتر ولا شروطه . وإنما فهم ذلك وغيره هذه الأمة المحمدية والملة الإسلامية ! لعلو قدرها وشرفها واختصاصها بمعاقد العلوم وأزمته . دون غيرها . كما هو مسلم عند كل درى (كذا) منصف . وهانحن نوضح ذلك إن شاء الله تعالى فنقول : إن التواتر له شرط : الشرط الأول - أن يكون الخير عنه أمراً محسوساً . ويدل على اعتبار هذا الشرط ، أن الأمة العظيمة قد تخبر عن القضايا الجسيمة وهي باطلة . كإخبار المظلة عن عدم الصانع والفلاسفة عن قدم العالم . مع بطلان ذلك عند أمم كثيرة . وسببه أن مجال النظر يكثر فيه وقوع الخطأ . فلا يثق الإنسان بالخبر عن العقليات ، حتى ينظر فيجد البرهان العقلي يعضد ذلك الخبر . فحينئذ يقطع بصحة ذلك الخبر . أما الأمور المحسوسة ، مثل المبصرات ونحوها فشديدة البعد عن الخطأ . وإنما يقع الخلل من التواطؤ على الكذب . فإذا كان المخبرون يستحيل تواطؤهم على الكذب حصل القطع بصحة الخبر . الشرط الثاني - استواء الطرفين والواسطة . وتحرير هذا الشرط أن المخبرين لنا ، إذا كانوا يستحيل تواطؤهم على الكذب وكانوا هم المباشرين لذلك الأمر المحسوس ، المخبر عنه ، حصل العلم بخبرهم . وإن لم يكن المخبر لنا هو المباشر لذلك الأمر المحسوس ، بل ينقلون عن غيرهم أنه أخبرهم بذلك ، فلا بد أن يكون النير المباشر عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب ، فإنه إن جاز الكذب عليه ، وهو أصل هؤلاء المخبرين لنا ، فإذا لم يبق الأصل لم يبق الفرع عليه . فلا يلزم من كون المخبر لنا يستحيل تواطؤهم على الكذب حصول العلم بخبرهم . لجواز فساد أصلهم

المتعدين عليه . فيتمين أن يكون الأصل عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب . فهذا معنى قولنا : (استواء الطرفين) في كونهما عدداً يستحيل تواطؤهما على الكذب - شرط . فإن كان الخبر لنا عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وأصلهم الذى ينقلون عنه كذلك ، لكن أصلهم لم يباشر ذلك الأمر المحسوس ، بل ينقل عن غيره أيضاً ، فأصل ذلك الأصل يجب أن يكون عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب أيضاً . لما تقدم . وفي هذه الصورة حصل طرفان وواسطة . فالطرفان الخبر لنا . والمباشر الأول الواسطة الذى بينهما . فيجب استواء الطرفين والواسطة . والوسائط تكثرت في كونهم عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب . فينقسم ، بهذا التحرير ، التواتر إلى طرف فقط ، وإلى طرفين بلا وساطة ، وإلى طرفين وواسطة . والثلاثة أقسام مشتركة في هذا الشرط . فإذا تقرر حقيقة التواتر فنقول : الحس إنما يتعلق بأن هذا مصلوب على هذه الخشبة . وأما أنه عيسى عليه السلام نفسه أو غيره ، فهذا لا يفيد الحس البتة . بل إنما يعلم بقرائن الأحوال إن وجدت ، أو بأخبار الأنبياء عليهم السلام عن الله تعالى الذى أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . والذى يدل على أن الحس لا يفرق بين التماثلات ، أنا لو وضعنا في إناء رطلا من الماء مثلاً . وأرينا إنساناً ، ثم رفعنا ذلك الماء ووضعنا فيه رطلاً آخر من ذلك الماء ثم أرينا ذلك الإنسان . وقلنا له : هذا الماء هو عين الماء الأول أو مثله ؟ فإنه إذا أنصف يقول : الذى أدركه بحسنى أن هذا ماء بالضرورة . أما أنه عين الأول أو غيره مماثلاً له ، فلا أعلم . لكون الحس لا يحيط بذلك . هذا في المائعات . وكذلك كفت من تراب أو أوراق الأشجار أو أنواع الحبوب . كالخنطة مثلاً . إذا أخذ منها حفتان ونحو ذلك . وكذلك الحيوانات الوحشية والطيور شديدة الالتباس على الحس . إذا اتحد النوع في اللون والسن والغلظ . وإنما كثرت الفروق في الحيوانات الإنسانية كالفرس ونحوها .

مطلب :

وسر ذلك أن أسباب النشأة في الوحشية مشتركة بالمياه والمراعى والبرارى . والحيوان

الإنسيّ يختلف ذلك فيه ، بحسب مقتنيه ، اختلافاً كثيراً . فينشأ بحسب دواعي بني آدم في السعة والضيق ، وإيثار نوع من العلف على غيره ، ومكان مخصوص على غيره ، وإلزام الحيوان أنواعاً من الأعمال والرياضة دون غيرها ، فيختلف الحيوان الإنسيّ بحسب ذلك . ثم يتصل ذلك بالنطف في التوليد . مضافاً إلى ما يحصل للولد من داعية مربية فيمظّم الاختلاف . والحيوان الوحشيّ سلم عن جميع ذلك . فتشابهت أفراد نوعه . ولا يكاد الحس يفرق بين اثنين منه البتة . فإذا تقرر أن الحس لا سلطان له على الفرق بين المثليين ، ولا التمييز بين الشئيين ، فيجب القطع أن كون المصلوب هو خصوص عيسى عليه السلام دون شبهه أو مثله - ليس مدركا بالحس . وإذا لم يكن مدركا بالحس ، جاز أن يخرق الله تعالى العادة لعيسى عليه السلام شبهه في غيره . كما خرق له العادة في إحيائه الموتى وغيره . ثم يرفعه ويصونه عن إهانة أعدائه . وهو اللائق بكريم آلائه . في إحسانه لخاصة أنبيائه وأوليائه . وإذا جوز العقل مثل هذا مع أن الحس لا مدخل له في ذلك ، بقي إخبار القرآن الكريم عن عدم الصلب سالماً عن المعارض . مؤيداً بكل حجة . وسقط السؤال بالكلية . وثانيها - سلمنا أن الحس يتعلق بالترفة بين المثليين . والتمييز بين الشبهين . لكن لا نسلم أن العدد المباشر للصلب كانوا بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب . ويدل على أنهم ليسوا كذلك ، أن الحواريين فرّوا عنه . لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود . فحينئذ عدد التواطؤ متعذر من جهة شيعة النصارى عن أسلافهم . لا يفيد علماً بل هو ظن وتخمين لا عبرة به . لذلك قال الله سبحانه في قرآنه المبين : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ . أى : هم لا يتيقنون ذلك . بل يحزرون بالظن والتخمين . وأما من جهة الملة اليهودية ، فلأن المباشر منهم للصلب إنما هو الوزعة وأعوان الولاة . وذلك في مجرى العادة يكون نقرأ قليلاً . كالاثنين أو الثلاثة ونحوها . يجوز عليهم الكذب ولا يفيد خبرهم العلم بكون العادة وخرج الصلب عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب يقتدر إلى نقل متواتر . فإنه لو وقع ونقل بأخبار الآحاد لم يحصل لنا

علم بالصلب . فإن التواترات إذا نقلت بأخبار الآحاد ، سقط اعتبارها في إفادة العلم . لجواز كذب الناقل . فلا يكون عدد التواتر حاصلًا في نفس الأمر . والنصارى واليهود إنما يعتمدون على التوراة والإنجيل . ولا يوجد يهودى ولا نصرانى على وجه الأرض يروى التوراة والإنجيل ، عدلاً عن عدل ، إلى موسى وعيسى عليها السلام . وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل ، فأولى أن يتعذر التواتر . ولم يبق في الكتابين إلا أخبار وتواريخ بعيدة الزمان جداً . بحيث إن التواريخ الإسلامية أصح منها ، لقرب عهدها . مع أنه لا يجوز الاعتقاد في فروع الديانات على شيء من التواريخ . فضلاً عن أصول الأديان . وإذا ظهر أن مستند هاتين الأمتين العظيمتين في العدد ، في غاية الضعف - كانت أخبارها في نفسها في غاية الضعف . لأن الفرع لا يزيد على أصله . ونالها - أن نصوص الإنجيل مشعرة بعدم صلب عيسى عليه السلام بخصوصه . كما نقلنا بعضها آنفاً .

وقال في (تنجيل الأناجيل) : فيقال للنصارى : ما ادعيتموه من قتل المسيح وصلبه ، أتقولونه تواتراً أم آحاداً ؟ فإن زعموا أنه آحاد لم يقم بذلك حجة ، ولم يثبت العلم الضروري . إذ الآحاد لم يأمن عليهم فيها السهو والغفلة والتواطؤ على الكذب . وإذا كان الآحاد يعرض عليهم ذلك ، فلا يحتج بهم في القطعيات . وإن عَزَوْا ذلك إلى التواتر ، قلنا لهم : شرط التواتر استواء الطرفين فيه والوسط . وهو أن ينقل الجرم الفغير عن الجرم الفغير الذين شاهدوا المشهود به ، وهو المصابوب . وعلموا أنه هو ضرورة . فإن اختلف شيء من ذلك فلا تواتر . فإن زعم النصارى أن خبرهم في قتل المسيح وصلبه بهذه الصفة ، أكذبهم نصوص أناجيلهم التي بأيديهم . إذ قال لهم نقلتها الذين دونوها لهم وعليها معولهم : إنه لما أخذ فقتل كان في شزيمة يسيرة من تلاميذه . فلما أقبل عليه هربوا بأسرهم . ولم يتبعه إلا بطرس من بعيد . ولما دخل الدار حيث اجتمعوا نظرت جارية منهم إلى بطرس فعرفته . فقالت : هذا كان مع يسوع . فخلف أنه لا يعرف يسوع بقوله . وخادعهم حتى تركوه . وذهب ولم يكذب يذهب .

وأن شاباً آخر تبعه وعليه إزار فتعلقوا به . فترك إزاره بأيديهم وذهب عرياناً . فهؤلاء
أصحابه وأتباعه ، لم يحضر منهم ولا رجل واحد بشهادة أناجيلهم . وأما أعداؤه اليهود ،
الذين تزعم النصراني أنهم حضروا الأمر ، فلم يبلغوا عدد التواتر . بل كانوا آحاداً وأفراداً .
لأن عموم الناس الذين حضروا لا يرون إلا شخصاً على خشبة ومعه لسان مصلوبان . ولا شك
أن هيئتهم وصفتهم متغيرة عن الحالة التي قبل أخذهم . وأما المشايخ ونحوهم فلم يعرفوه أيضاً .
ففي الأصحاح الثاني والعشرين من (إنجيل لوقا) ما لفظه : فلما كان النهار اجتمع مشايخ
الشعب ورؤساء الكهنة وأدخلوه إلى مجمعهم . وقالوا له : إن كنت أنت المسيح فقل لنا .
قال لهم : إن قلت لكم لم تؤمنوا لي . وإن سألتكم لم تجيبوني ولم تخلوني . انتهى .

وهذا يحتمل أنهم يسألونه عن ذاته أو عن رسالته . على أن لو سلمنا كثرة عددهم
وصدق معرفتهم فيمكن تواطؤهم على الكذب . لأنهم لما لم يجدوه هو ، ولم يعلموا محل المسيح ،
وكان ذلك من تلاميذه ، واستحلوا قتله أيضاً ، أشاعوا أنه هو المسيح ليرك الناس متابعتهم ،
ولئلا يتخذوا المسيح نبياً . وصمموا ، أنهم إذا وجدوا المسيح بعد هذا أيضاً ، يعملون به
كما عملوا بصاحبه . ويؤيد هذا أنهم جعلوا على القبر حراساً لئلا يُنبس القبر ويُرى أنه غير
المسيح . ومما يزيد الأمر وضوحاً قول (إنجيل متى) في (الأصحاح الثامن والعشرين) : أن
مريم لما جاءت لزيارة القبر رأت ملكاً قد نزل من السماء برجة عظيمة . فدَحَرَجَ الحجر
عن فم القبر . وجلس عنده . فكاد الحراس أن يموتوا من هيئته . وبادروا من فورهم إلى
المشايخ فأعلموهم بالقصة . فأرشاهم المشايخ برشوة أن يسترُوا القصة وأن يشيعوا أن التلاميذ
سرقوه ونحن نيام . فما يؤمنكم أن تكون هذه المصيبة من اليهود . كما أنهم سترُوا الآية التي
ذكرتم ، صلبوا شخصاً من أتباعه وأوهوا الناس أنه المسيح . فإذا تبين عدم الاحتجاج بإجماع
اليهود والنصارى الآن على صلبه ، فترجع إلى القرائن العقلية والنقلية . فأما العقل فلا يجوز
أن الإله القادر على كل شيء يقتله أذل عباده ، وهم اليهود . ويضربونه ويعملون به ما هو محرر

في أناجيل النصارى المضطربة المحرفة المكتوبة بعد رفعه بسنين عديدة وأعوام مديدة . مع أنه يفرّ منهم مرات كثيرة ويستغيث ويطلب من الله تعالى تأخير أجله بقوله : أجزّ عنى هذه السكاس . ويصرخ ويقول : إلهي ! إلهي ! لم تركتني ؟ ويسلم روحه . وعند الصلب يطلب منهم الماء لكثرة عطشه . فيعطوه خلّابله . وأى خلاص لعباده في هذه الحالة ، وهو بزعمهم أتى ليخلص العالم من الخطيئة . بل صار موقعاً لهم في الإثم بسبب عدم إيمانهم به . فكيف يكون مخلصاً بنفسه ؟ وأما النقل ، فقد تبين لك تهافت أناجيلهم واضطرابها ، والدلالة على عدم المعرفة به ، وعدم وجوده في قبره . والأعظم من ذلك عند كل ذى عقل سليم قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وأما قول متى في (الأصحاح السابع والعشرين) : فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح ، وإذا حجاب الهيكل قدانشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت والقبور تفتحت ، وقام كثير من الأجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا للكثيرين - فهو قول بهت ومحال . لا يخفى بطلانه على ذوى العقول من النساء والرجال . لأنه لو كان صحيحاً لأطبق الناس على نقله . ولم يتفق إخفاء مثله . ولزال الشك عن تلك الجموع في أمر يسوع . فحيث داموا على الجحْد له والتكذيب ، دلّ على كذب ما نقله عباد الصليب . وإذا كان اليهود أعطوا دراهم رشوة ، كما علمت سابقاً ، لحراس القبر حتى لا يخبروا القائد وسائر الناس بملك نزل من السماء على قبر يسوع ، كي لا يظن براءته مما نسب إليه أعداؤه ، فكيف تكون هذه الآيات العظيمة ؟ وتقوم الأموات من قبورها ؟ ويدخلون المدينة ؟ ولا يكون ذلك حجة على من لا يؤمن به إذ ذاك ؟ وأيضاً ، ماعنى تفتح القبور وقيام القديسين من قبورهم ؟ فهل كان استبشاراً بمصابه ؟ فهم إذ ذاك ليسوا من أحبابه . أو كان جزعاً على مماته ؟ وخرجوا إعانة له قبل فواته ؟ فواعجباً لرب أحيائهم بعد أن كانوا رفات . ولم يعينوه حتى قضى ومات . وأحيى الرمم ، وصرخ عند تسليم الروح .

ولم يقدر على إبراء مافيه من جروح . وليت شعري ما عمل هؤلاء القديسون ؟ أبقوا في المدينة المقدسة ؟ أم كروا إلى قبورهم فهم راجعون ؟ وهل التأم الهيكل والصخور ؟ أم دامت على انشقاقها إلى كثير من الدهور ؟ فإن قيل : إنما لم يشتهر ذلك ، لأن أصحاب المسيح لم يحضر منهم أحد خوفاً من اليهود ، والذين شاهدوا هذه الآيات من اليهود تواطؤوا على الكتمان حسداً وبغياً . قلنا : مثل هذه الآيات العظيمة إذا وقعت ، علمها من حضر ومن غاب ، من الأعداء والأحباب . لأنها آيات نهائية . ومعجزات تشتهر في البرية . ويتناقلها أهل البلدان . وتبقى مؤرخة بكل لسان . في سائر الملل بكل أرض وزمان . فعلم بالضرورة أن هذه الأقوال . مما اخترعها وحررها أئمة الضلال . ليخدعوا بها ضعفاء العقول . ويتوصلوا إلى جذب الدنيا بالكذب على هذا الرسول . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في كتابه (الملل) عند الكلام على النصارى : ومما يعترض به علينا اليهود والنصارى ، ومن ذهب إلى إسقاط الكواف (جمع كافة) من سائر الملحدين ، أن قال قائلهم : قد نقلت اليهود والنصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل . وجاء القرآن بأنه ﷺ لم يقتل ولم يصلب . فقولوا لنا : كيف كان هذا ؟ فإن جوزتم على هذه الكواف العظام المختلفة الأهواء والأديان والأزمان والبلدان والأجناس ، نقل الباطل فليست بذلك أولى من كافتكم التي نقلت أعلام نبيكم وشرائعهم وكتابه . فإن قلتم : اشتبه عليهم فلم يتعمدوا نقل الباطل ، فقد جوزتم التلبيس على الكواف . فلعل كافتكم أيضاً ملتبس عليها . فليس سائر الكواف أولى بذلك من كافتكم ، وقولوا لنا : كيف فرض الإقرار بصلب المسيح عندكم قبل ورود الخبر عليكم ببطلان صلبه وقتله ؟ فإن قلتم : كان الفرض على الناس الإقرار بصلبه ، وجب من قولكم الإقرار أن الله فرض على الناس الإقرار بالباطل . وأن الله تعالى فرض على الناس تصديق الباطل والتدين به . وفي هذا مافيه . وإن قلتم : كان الفرض عليكم الإنكار لصلبه ، فقد أوجبتم أن الله تعالى فرض على الناس تكذيب

الكواف . وفي هذا إبطال قول كافتكم . بل إبطال جميع الشرائع . بل إبطال كل خبر كان في العالم ، عن كل بلد وملك ، ونبى وفيلسوف وعالم ، ووقعتم . وفي هذا ما فيه . قال أبو محمد رضى الله عنه : هذه الإلزامات كلها فاسدة في غاية الحوالة والاضمحلال بحمد الله تعالى . ونحن مبينون ذلك بالبراهين الضرورية بياناً لا يخفى على من له أدنى فهم . بحول الله تعالى وقوته . فنقول وبالله التوفيق : إن صلب المسيح لم يقله قط كافة . ولا صح بالخبر قط . لأن الكافة التى يلزم قبول نقلها هى إما الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ ، لتنازطهم ، وعدم التقائهم ، وامتناع اتفاق خواطرها ، على الخبر الذى نقلوه عن مشاهدة ، أو رجوع إلى مشاهدة ، ولو كانوا اثنين فصاعداً . وإما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق فى الطبيعة على التماضى على سنن ما تواطؤوا عليه ، فأخبروا بخبر شاهده ، ولم يختلفوا فيه ، فانقلوه أحد أهل هاتين الصفتين على مثل إحداها . وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة . فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلها ، ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه . وسواء كانوا عدولاً أو فساداً أو كفاراً . ولا يقطع على صحته إلا بربهان . فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام ، فوجدناه كوافاً عظيمة . صادقة بلا شك فى نقلها جيلاً بعد جيل . إلى الذين ادّعوا مشاهدة صلبه . فإن هناك تبدلت الصفة ورجعت إلى شرط مأمورين مجتمعين . مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل . والنصارى مقرّون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهراً خوف العامة . وأنهم أخذوه ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح . وأنه لم يبق فى الخشب إلا ست ساعات من النهار . وأنه أنزل أثر ذلك . وأنه لم يصلب إلا فى مكان نازح عن المدينة . فى بستان فخّار متملك للفخّار . ليس موضعاً معروفاً بصلب من يصلب . ولا موقوفاً لذلك . وأنه بعد هذا كله رُشِيَ الشرطُ على أن يقولوا إن أصحابه سرقوه . ففعلوا ذلك . وإن مريم المجدلانية ، وهى امرأة من العامة ، لم تقدم على حضور موضع صلبه . بل كانت واقفة على بعد تنظر . هذا كله فى نص الإنجيل عندهم . فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة . بل بخبر يشهد ظاهره

على أنه مكتوم متواطئ عليه . وما كان الحواريون ليلتئذ ، بنص الإنجيل ، إلا خائفين على أنفسهم ، غُيباً عن ذلك الشهيد . هارين بأرواحهم مستترين . وإن شمعون الصفاغرّ ودخل دارقيقان الكاهن أيضاً بضوء النهار . فقال له : أنت من أحبابه ؟ فانتفى وجحد وخرج هارباً عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحدٌ تطيب النفس عليه . على أن نظن به الصدق . فكيف أن ينقله كافة . وهذا معنى قوله تعالى : وَلَكِنْ شَبَّهُ لَهُمْ . إنما عني تعالى أن أولئك الفساق ، الذين دبّروا هذا الباطل ، وتواطؤا عليه ، هم شبهوا على من قلدتم . فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه . وهم كاذبون في ذلك . عالمون أنهم كذبة . ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذى حاسة سليمة ، لبطلت النبوات كلها . إذ لعلها شبت على الحواس السليمة . ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها . ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس . وفيمن يجالس . وفي حيث هو فلعله نائم ، أو مشبه على حواسه . وفي هذا خروج إلى السخف وقول السفسطائية والحقافة . وقد شاهدنا نحن مثل ذلك . وذلك أننا أنذرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر . فرأيت أنا وغيرى نعثاً فيه شخص مكفن . وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة ، في بيت . وخارج البيت أبي رحمه الله وجماعة عظماء البلد . ثم صلينا في ألوف من الناس عليه . ثم لم يلبث شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيّاً . وبويع بعد ذلك بالخلافة . ودخلت عليه أنا وغيرى وجلست بين يديه . ورأيت . وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

قال أبو محمد رضى الله عنه : وأما قوله : قد جوزتم التمره على الكافة ، فقد بينا أنها لم تكن كافة قط . وحتى لو صح أنها كافة فكيف لا يجوز ذلك في كل آية تحيل الطبائع والحواس ؟ فهو ضرورة لا يحمل على الممكنات . فلو صح أنها كانت كافة ، لكان خبر الله تعالى أنه شبه لهم ، حاكماً على حوامهم ومحيلاً لها . كخروج النبي ﷺ لیسلة هاجر بحضرة مائة رجل من قريش . وقد حجب الله سبحانه أبصارهم عنه فلم يروه . وأما ما لم يأت خبر عن

الله عز وجل بأنه شبه على الكافة ، فلا يجوز أن يقال ذلك . لأنه قطع على المحال وإحالة طبيعة . وإحالة الطبائع لا تدخل في الممكن . إلا أن يأتي بذلك يقين عن الله عز وجل ، فيلزم قبوله . وأما التشبيه على الواحد والاثنين ونحو ذلك فإنه جائز . وكذلك فقد العقل والسخافة يجوز ذلك على الواحد والاثنين ونحو ذلك . ولا يجوز على الجماعة كلها . وقوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، إنما هو إخبار عن الذين يقولون تقليداً لأسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل وصلب . فهؤلاء شبه لهم القول . أى : أدخلوا في شبهة منه . وكان المشبهون لهم شيوخ السوء في ذلك الوقت . وشراطهم المدعون أنهم قتلوه . وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك . وإنما أخذوا من أمكنهم قتلوه وصلبوه في استتار ومنع من حضور الناس . ثم أنزلوه ودفنوه توبيهاً على العامة التي شبه الخبر لها .

ثم نقول لليهود والنصارى ، بعد أن بينا بحول الله وقوته بيان ما شنعوه في هذه المسألة : إن كوافكم قد نقات عن بعض أنبياءكم فسوقاً ووطء إماء . وهو حرام عندكم . وعن هارون عليه السلام أنه هو الذى عمل العجل لبني إسرائيل وأمرهم بعبادته والرقص أمامه . وقد نزه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام عن عبادة غيره . وعن الأمر بذلك ، وعن كل معصية ورذيلة . فإذا جوزوا كلهم هذا على أنبياء ، منهم موسى عليه السلام وسائر أنبيائهم - كان كل ما أمرهم به ، مع جنس عمل العجل والرقص والأمر بعبادته . ومن جنس وطء الإماء وسائر ما نسبوه إلى داود وسليمان عليهما السلام وسائر أنبيائهم . لا سيما وهم يقرون بأن العجل كان يحور بطبعه . وأما نحن فجوابنا في هذا كله بأن ليس شيء منه نقل كافة . ولكن نقل آحاد كذبوا فيه . وأما خوار العجل فإنما هو على ما رويناه عن ابن عباس رضى الله عنه ، من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره . لا أنه خار بطبعه قط . وحتى لو صح أنه خار بطبعه ، لكان ذلك من أجل القوة التي كانت في القبضة التي قبضها السامري من أثر جبريل عليه السلام . والذي يمتد عليه فهو قول ابن عباس رضى الله عنه الذى ذكرناه . وبالله تعالى التوفيق .

وأما قوله : كيف كان الفرض قبل ورود النص ببطلان صلبه ؟ الإقرار بصلبه أم الإنكار له ؟
فهذه قسمة فاسدة شغبية . قد حذر منها الأوائل كثيراً . ونبه عليها أهل المعرفة بمحدود
الكلام . وذلك أنهم أوجبوا فرضاً ثم قسموه على قسمين : إما فرض بإنكار ، وإما فرض
بإقرار . وأضربوا عن القسم الصحيح فلم يذكروه . وهذا لا يرضى به لنفسه إلا جاهل أو
سخيف مغابط غاب لنفسه ، غاش لمن اغترّ به . وإنما الحقيقة ههنا أن يقول . هل يلزم
الناس ، قبل ورود القرآن ، فرض بالإقرار بصلب المسيح ، أو بإنكار صلبه ، أو لم يلزمهم فرض
بشيء من ذلك ؟ فهذه هي القسمة الصحيحة والسؤال الصحيح . وحق الجواب أنه لم يلزم الناس
قط ، قبل ورود القرآن ، فرض بشيء من ذلك . لا بإقرار ولا بإنكار . وإنما كان خبراً لا
يقطع العذر ولا يوجب العلم الضروري . ممكن صدق قائله . فقد قتل أنبياء كثيرة
وممكن أن يكون ناقله كذب في ذلك . وهو بمنزلة شيء مغيب في دار . فيقال لهذا التعرض
بهذا السؤال الفاسد : ما الفرض على الناس فيما في هذه الدار ؟ الإقرار بأن فيها رجلاً
أم الإنكار لذلك ؟ فهذا كله لا يلزم منه شيء . ولم ينزل الله عز وجل كتاباً قيل القرآن بفرض
إقرار بصلب المسيح ﷺ ولا بإنكاره . وإنما ألزم الفرض بعد نزول القرآن بتكذيب الخبر
بصلبه . فإن قالوا : قد نقل الحواريون صلبه وهم أنبياء وعدول . قيل لهم وبالله التوفيق :
الناقلون لنبوتهم وأعلامهم ولقولهم بصلبه عليه السلام ، هم الناقلون عنهم الكذب في نسبه
والقول بالتثليث الذي من قال به فهو كاذب على الله تعالى ، مفتر عليه ، كافر به . فإن كان
الناقل لذلك عنهم صادقاً أو كانوا كافة ، فما كان يوحنا ومتى وبولس إلا كفاراً كاذبين . وما
كانوا قط من صالحى الحواريين . وإن كان ناقل ما ذكرنا عنهم كاذباً ، فالكاذب لا يقوم بنقله
حجة . فبطل التوبة المتقدم . والحمد لله رب العالمين .

فصل

أخذ بعض نصارى هذا العصر يتذبذب في الاعتقاد . فطفق يرد على المسيحيين قولهم بتثليث الآلهة . وأنه مضاد لصريح نصوص الوحي . أخذ يسلم بحقية القرآن وكذا التوراة والإنجيل الموجودين وأنهما لم يحرفا تحريفاً جوهرياً . واعتقد بصلب المسيح يقيناً . وصار يناقش المفسرين فيما فسروا به الآية المذكورة ، أعنى آية الصلب . زاعماً أن المنى عن اليهود فيها هو نسبة الفعل لهم توبيخاً لتهكمهم وازدراءهم . وردَّ فعل الصلب إليه تعالى . وقد توسع في هذا الموضوع وألف كتاباً سماه (المعتقد الصحيح في صلب السيد المسيح) ولما كان مبحثه غريباً جداً ، أردت أن أورد هنا بعض تمويهاته في رسالته . وأعقبها بما فوقَّ عليه من سهام ردود تهافته .

قال في أول رسالته : إن التباس فهم آية الصلب هو غالباً في تقدير نائب الفاعل لفعل (شُبِّهَ لَهُمْ) فإننا إن قدرنا نائب الفاعل مصدراً مأخوذاً من الفعل السابق المذكور في الآية (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ) وكان التقدير: شبه لهم أنهم قتلوه وأنهم صلبوه . أو شبه لهم قتلهم له وصلبهم إياه . والمعنى أنه مثل أو خيّل لهم أنهم كانوا هم القاتلين وهم الصالبين - انحلت المسألة تقريباً . وزالت كل صعوبة تأويل . حيث أن السيد المسيح لم يقتل أصلاً . ولا صلب قهراً . أو مات جبراً . أو اضطراراً . بل هو من نفسه (على زعمه) قدم ذاته للصلب عن رغبته واختياره ورضاه . فكان اليهود لم يفعلوا شيئاً بقدرتهم ومجرد إرادتهم . حتى يحق لهم الافتخار بأنهم قتلوه . وأما إن قدر المسيحي نائب الفاعل لـ (شبه) تعقدت المسئلة وضاع السياق اللغوي . لأنه لا وجه ، لغوياً ، في الآية يثبت وقوع الصلب على رجل آخر غيره . إذ لم يذكر صريحاً ولا إشارة .

ثم ذكر في الفصل السادس أن القرآن العزيز لم يؤنب النصارى ، ولا مرة ، على ضلال

اعتقادهم بصلب المسيح وموته وقيامته . ولا كذب الإنجيل أو الحواريين . ولا لام الذين آمنوا بصلب المسيح . حال كونه نهبهم مراراً على غير ضلالات عندهم .
 وذكر فيه أيضاً : لم ترد أحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بنفى صلبه .
 وفيه أيضاً : أن هذه الآية يصح تأويلها إيجابياً طبقاً لما في الإنجيل . بما أن عدة آيات أخرى قرآنية مجانسة لها أولت بخلاف ظاهرها اللفظي . كأفعال المايمة والرمي والموت والحياة . وما أشبه ذلك . التي نسبت صريحاً لغير فاعلها الظاهر .

وقال في الفصل العاشر : أما قولنا إن القرآن العزيز قصد نفي نسبة فعل الصلب لليهود وإسناده لله حقيقة ، فهو استناد على قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ^(١) وقوله : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ^(٢) فهنا الفاعل الظاهر حساً وفعلًا إنما هو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن الفاعل الحقيقي إنما هو الله الفاعل كل شيء في الكل .

ثم قال : وربما يعترض أنه ذكر في الآية نفسها أن الله رمى ، وأنه تعالى هو المبايع ، فنقول : كذلك في آي الصلب وإخباره مراراً عديدة صرح في الإنجيل أن الفاعل والمسلم والبازل والحاكم والآذن في أمر الصلب إنما هو الله جل جلاله .

ثم قال : نقول أخيراً : إن آية الصلب القرآنية هي صحيحة في ذاتها تماماً وكلاً . ومطابقة أشد المطابقة لما ورد في نفس القرآن بهذا الشأن . ولكل فحوى أسفار الميثاقين أو المهددين .

(١) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ

إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

فَسِوَرَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

بكل بيان . إنمّا تفسيرها بمطلق النفي كان وما زال غلطاً وضدّ الحقيقة والذوق اللغوي .
 وضد ما جانسها في الآي الأخرى من نفس القرآن . ومن نصوص سائر الكتب المنزلة .
 ولا سيما الإنجيل ، الذي زبدته وروحه وقوامه وخلاسته هي كون المسيح صلب ومات وقام
 وعرج إلى السماء . وأرسل البارقليط الآخر الرسول محمداً مبلغ القرآن العظيم ، الحاوي روح
 الصدق والحق ، والمذكّر بكل ما قال المسيح في الإنجيل الشريف .

ثم قال : إن إنكار أمر الصلب أو إتياته ليس من الأركان في الدين عند المحمديين . ولا هو
 محرّم قطعاً الاختلاف في تفسير بعض آيات . وقد وجد ويوجد عدة اختلافات عند اليهود
 والنصارى والمسلمين . وليس ذلك محرماً إلا إذا آل لإنكار أو لإفساد نفس الآيات .
 أو إيقاع الشبهة على ذات نصوص الوحي . ففي آية الصلب ليس شيء من ذلك . بل بالعكس
 تأييد كل النصوص الإلهية .

هذا خلاصة ما أورده في رسالته . وقد رد عليه من الفضلاء المسلمين عدد وافر ، في
 تأليف بدبعة . منها كتاب (السيوف البتّارة) اعتمد مؤلفها في إيراد حججها على التواريخ
 الإفريقية الممول عليها . فإن الإفرنج أعرف من غيرهم بحقيقة ما يهيمهم ، وأبعد عن مظنة
 التشييع في شهادتهم على أنفسهم ، في أمر دينهم .

قال رعا الله : يعلم الواقف على حقائق التاريخ أن مسألة الصلب من أهم المسائل التي ولدت
 الشقاق والنفرة فيما بين النصارى عموماً ونصارى مصر والشام في الأجيال الأولى خصوصاً .
 فإنهم كانوا غالباً يرفضون حصول الصلب رفضاً باتاً . لأن بعضهم كان يعتبره إهانة لشرف
 المسيح ، ونقصاً فاضحاً . والبعض الآخر كان يمجده ارتكناً على الأدلة التاريخية . وهؤلاء
 الجاحدون للصلب طوائف كثيرة . منها : الساطرنيوسيون والمركيون والبارديسيانيون
 والثاتيانيسيون والكاربوكراتيون والمانيسيون والبارسكاليونيون والبوليسيون . إذ كلهم
 اعتقدوا ، مع كثيرين غيرهم ، بأنه لا يمكنهم أن يسلموا بنوع من الأنواع ، أن المسيح ستمر

فعلا ، أو مات على الصليب حقيقة . حتى استخفوا بالصليب والصلب . وقال بعض المؤرخين الأفاضل : إن الخلاف الذى وقع بين النصارى فى مبدأ الأمر كان سبباً فى انسلاخ جملة طوائف وتشتتها واعتبارها فى رأى آخرين مارقة من الدين . ولكن هذه الطوائف المضطهدة المضطهدة كانت أفكارها منطبقة على الأصول النصرانية عقلاً ونقلاً . بخلاف أفكار مضطهديهم ، فإن هذه الطوائف بنت على ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام أنه لا يجوز أن يتمن . واستنتجت من هذا أنه لم يصلب قطعاً . وأن ألفاظ التوجع والتضجر ، التى نسبتها إليه كتب النصارى المتأخرين ، لم يتفوّ بها ولا تصح نسبتها إليه . وبالمجمل إن الشخص المصوب غير عيسى قطعاً . وأنه عليه الصلاة والسلام لم تسلط عليه أيدي مضطهديه . بل رفع إلى السماء . ومن القائلين . بهذه الأفكار الدوسيتية والرسيونية والفلنطانيائية . وغير خاف أنه حتى على فرض البنوة فقط ، لا يمكن عقلاً أن يتصور صلبه . انتهى .

ويؤيد هذا ما قاله الباحث الشهير الموسيو إدوار سيوس ، أحد أعضاء (الانستيتو دى فرنس)^(٢) فى باريس . المشهور بمعارضته المسلمين فى كتابه (عقيدة المسلمين فى بعض المسائل النصرانية) صحيفة (٤٩) : إن القرآن ينفى قتل عيسى وصلبه . ويقول بأنه ألقى شبهه على غيره . فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه . وإن ما قاله القرآن موجود عند طوائف النصرانية منهم الباسيليديون . كانوا يعتقدون ، بغاية السخافة ، أن عيسى وهو ذاهب لمحل الصلب ، ألقى شبهه على سيمون السيرناى تماماً . وألقى شبه سيمون عليه . ثم أخفى نفسه ليضحك استهزاء على مضطهديه الفالطين . ومنهم السيرتونيون ، فإنهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل عيسى . وقد عثر على فصل من كتب الحواريين . وإذا كلامه نفس كلام الباسيليديين . وقد صرح (إنجيل القديس برنابا) باسم الذى صلب بدل عيسى فقال : إنه يهوذا . انتهى .

ولم يرد المؤرخ ، المترجم كلامه ، على هذا الإنجيل ، إلا بدعوى أنه كلام لا يعول

عليه . وهذا الرد من رجل صدر نفسه للرد على المسلمين غير كاف . فيستفاد من جميع ما ذكر أن جمًّا غفيراً من طوائف النصارى ذوات البال والأهمية ، كانت تنبذ عقيدة صلب المسيح نبذاً ، وتقننها تقنيداً . وما زالوا كذلك حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه أفواجا . لإنكار القرآن . وما أنكروه من الصلب وغيره . وبالجملة فإن أغلب الشعوب الشرقية ، قبل الفتح الإسلامي ، رفضت القتل والصلب . حتى قال ياسيليوس الباسليدي : إن نفس حادثة القيامة ، المدعى بها بعد الصلب الموهوم ، هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب . ومن المعلوم أن نصارى الشام هم الذين وقعت هذه الحادثة بينهم . فهم أقرب الناس إلى العلم بحقيقتها . وكذلك من جاورهم من نصارى المصريين وغيرهم . لحصول الجوار وقرب المسافة . فكيف لا تكون شهادتهم هي عين الصواب ؟ وبذلك يتبين أن دعوى (صاحب جريدة شهادة الحق) الإجماع على الصلب وانفراد القرآن الشريف بنفيه - غير مسلمة ، مع وجود هذه الطوائف المنازعة في الصلب . وقد صرح القرآن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بعث لتصديق ما بين يديه من الحق وتبيين ما اختلف فيه طوائف النصارى مع اليهود ، والنصارى مع بعضهم بعضاً . ولو حكمنا التاريخ لشهد لهؤلاء الناس وبرر أقوالهم . وذلك أن أهل فلسطين كانوا يعمدون الأوثان ويخالفون بني إسرائيل في ديانتهم . فكان من مبادئهم ، العاملين عليها في سياستهم العمومية ، بذل المجهود وإفراغ الوسع في معاكسة عقائد اليهود . لإدخالهم في الديانة الوثنية وتقويض دعائم الشريعة الموسوية . والضغظ على شعائرهم المليية . يشهد لهذا أقوال الكاتب الشهير (أرنت رنان) العضو في (الأكاديمية الفرنسية) المنفرد بالإجادة والشهرة ، في رسالة نشرت في جريدة المالمين في ١٥ مارس ١٨٩٣ . معنونة بـ (اليهود تحت حكم الرومان) حيث قال : إن كل المناصب ذوات المرتب الباهظ كانت تعطى غنيمة باردة لليهود الذين يطرحون دينهم ظهرياً . ويجعلون شعائرهم المليية شيئاً . ويعتقون ديانة الرومان الوثنية . فكان من

ضغط الرومان ومن تزلف اليهود إليهم ، ومن أطاعهم إلى الرتب والألقاب ، أن ارتد غالب سواد اليهود وعبدوا جوبيتر الألومبي . وكان الواحد منهم يخفي الاختتان بعملية شاقة جداً (ذكرها سلس المؤرخ الروماني الشهير) ثم يتزين بزى الرومان ويسحب ذيوله تيهاً وإعجاباً بنفسه وبعوائد الرومان . وازدراء واحتقاراً لبني جلدته وذوى ملته . فرحاً بلقمة يلتقمها . وأمرتبه يتربع في دستها . وما زالت اليهود تترومن حتى أن الأخبار غادروا الهيكل والمجامع . واشتغلوا بملاعب الرومان الرياضية . وأخيراً آل الأمر ، قبل وجود عيسى عليه السلام ، إلى إدخال صنمهم الأكبر ووضعهم في محل تقرب القربان نفسه . بحيث أن القربانات كانت تعمل أمامه . حتى كادت معالم اليهودية أن تنمحى من صحيفة الوجود . ووقع ذلك سيئ الوقوع وأثر أردأ تأثير في نفوس البقية القليلة من اليهود التي اعتصمت بدينها . انتهى .

وبهذا يعلم مقدار ضغط الرومان على اليهود لمحو آثار دينهم من الوجود . فليس من المعقول أن الحكومة ، وهي على ما ترى من الكراهة الدينية لليهود ، تجهيهم إلى ما طلبوا من تنفيذ أمر الصلب . أو تعيره أذى ذرة من الأهمية . خصوصاً والحاكم الروماني على فلسطين في ذاك الوقت ، كان يكره اليهود كما يكره أن يلقى في النار . وهم يكرهونه أشد من ذلك . دليلنا على ذلك ما كتبه السيورنان المذكور في كتابه المشهور المسمى (حياة المسيح) حينما تكلم على شكاية اليهود من عيسى بدعوى أنه غير التوراة . وكان ذلك على زعمهم ليستوجب قتله . حيث قال : إن حاكم فلسطين المسمى (بونسيوس) الملقب (بيلاطس) - أظهر عدم عنايته بمنازعات اليهود الداخلية وشكاويهم وخصوماتهم . بل كان يعتبر أن هذه الأعمال صادرة عن عقول مختلة وأفكار معتلة . وبالإجمال ، كان يكره اليهود وهم يكرهونه أشد من كراهته لهم . لأنهم كانوا يجدونه قاسياً ذا أنفة وكبر . غير مكترث بهم . ولقد رموه وعابوه بجنائيات لا يسمعها عقل عاقل . والمتمسكون بدينهم منهم رأوا أن غرض بيلاطس هذا ، سحق أثر الشريعة الموسوية سحقاً ومحوها محواً . وتعصبهم الأعشى وكراهتهم

الدينية له جعله يأنف من أفكارهم . فانه كان يميل كل الميل إلى الأحكام الوضعية الرومانية . التي كانت نهاية فخر كل روماني في ذلك الحين . وكان يرى أفكار اليهود سخيفة تقهقرية . لأنه كلما هم بجلب النافع العام ، وسن مشروع يضمن الراحة والرفاهية ، قام الأخبار عن آخرهم وعارضوه بتفسير التوراة التي كانت تسد في وجهه أبواب التحسين والتغيير . فلم يمتن بجرح حواسهم ومس شرفهم ومعالمهم الدينية . وعاملهم بالقسوة والكبر وعدم تنفيذ رغباتهم . فانشعب الأمر ودام الفشل . وأخيراً اضطرت الحكومة إلى إقالته من منصبه بسبب قيامة اليهود عليه . ولقد كانت نفس بيلاطس تضيق ، وصدره يخرج عند مجيء شكوى ضد عيسى عليه الصلاة والسلام . حيث كان لا يسمح بتنفيذ أمر القتل عليه . وعيسى ضد اليهود ، ويعيب التوراة كما يقولون . فكان ذلك عن رغبة الحاكم . وجل مايشئ . فكيف يكون هو الأمر والنفذ لقتله ؟ مع أنه كان قادراً على تنفيذ رغباته المضادة لليهود على خط مستقيم . والحقيقة أن بيلاطس كان ميالاً كل الميل لخلاص السيد المسيح من هؤلاء الظامة . ولعله رأى ما فيه من جميل الشيم والأخلاق الكريمة الطاهرة . فراقه ذلك ، زيادة عن كراهته لليهود . فعمل على خلاصه من الصلب . كما يتضح من إنجيل متى ٢٧ و٢٤ . ولوقا ٢٣ و ١٢ . ويوحنا ١٣ و ٢٣ . وفي بعض آيات الإنجيلين أن عيسى سوعد من زوجة بيلاطس الحاكم القائلة (كما هو مذكور في إنجيل متى ٢٧ و ١٩) : إياك وهذا البار . لأنني تأملت اليوم كثيراً في حلم من أجله . ولعلها رأته فيهرها كاله ووقاره وحشمته وبلوغه الغاية في الأدب والشامل الطاهرة . والظاهر أنها رأت هذا الشاب البريء المبجل من إحدى نوافذ قصرها المطل على أفنية هيكل سليمان عليه السلام . فظهر لها بكاله الحقيقي . فاستفظت إهدار دم هذا البريء الوقور . وكيفما كان السبب ، فالذي لايشك فيه أحد ، أن بيلاطس كان محباً لعيسى عليه السلام حباً شديداً . ولذلك سأله بكال اللطف والأدب ليفرغ ما في وسعه لتبرئته . انتهى .

فيؤخذ من كلام (رنان) أن الحاكم المنوط به الأمر والتنفيذ ، كان مضاداً للصلب . فلا غرابة في عدم حصوله للمسيح عليه السلام ، وتبديله بآخر . وكرهه هذا الحاكم لليهود مشهورة لا تحتاج لزيادة إيضاح . حتى إن ترتوليانوس ، أحد آباء الكنيسة النصرانية ، جزم بأن بيلاطس الحاكم كان نصرانياً في الباطن . وفي الجزء الأول من تاريخ الديانة النصرانية لمؤلفه (ملمن) : إن تنفيذ الحكم كان في وقت الفلس وإسدال ثوب الظلام . فيستنتج من ذلك أيضاً إمكان استبدال السيد المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس ، منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم . كما اعتقد بعض الطوائف . وصدقهم القرآن . ولقد جرى على هذا الرأي جماعة من المؤرخين المهمين (كالمسيوشارل بيكار) و (أرنست دي بونس) وغيرها . فإن الأول قال : إن مسألة صلب المسيح كلها مبتكرة مخترعة لا غير . لتوافق اعتقادات قديمة . مآلها أن الله لا يسكن غضبه إلا بسفك دم القربان من بني آدم . وكانت اليهود تقدم أولادها قرباناً للذبح استجلاباً لإسكان غضب الخالق وجلب رضاه . ويقول : إنهم ربما أكلوا لحوم القربان الآدمي وشربوا دمه . ولما قامت الأنبياء في بني إسرائيل واضطهدت هذه العادة الشنعاء ، بدّل ذبح الآدمي قرباناً بذبح الحيوان . وأطال المسيو (بيكار) في شرح ارتباط تضحية سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مع هذه العوائد القديمة : فأفاد أن نفس الصليب كان مستعملاً رمزاً عن شيء عندهم اسمه (النجام) وهو عبارة عن خشبتين متصلبتين متداخلتين في بعضهما .

وأما المسيو (أرنست دي بونس الألماني) فإنه قال في كتابه المسمى بـ (النصرانية الحقة) صحيفة ١٤٢ ما معناه : إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء ، هو من مبتكرات ومخترعات بولس ومن شابهه ، من الذين لم يروا المسيح عليه الصلاة والسلام . لامن أصول النصرانية الأصلية .

فوضح وضوح الشمس لدى عيني أن التاريخ ، فضلاً عن كونه لم يُثبت مسألة الصلب

والقتل ، يرجح نفي حصوله رجحاناً لا يكاد يفارق اليقين الحقيقي . ومعلوم أن أخذ الأمور التاريخية في هذا الصدد عن طوائف مصر والشام أولى ، لأنهم أبناء جلدتها ، وأدرى بحوادث بلادهم الحقيقية . فيؤخذ من كل ذلك : أولاً - أن كافة الظروف التي حصل فيها تنفيذ الحكم كانت مساعدة لتخليص المسيح عليه الصلاة والسلام . وبالأخص اضطهاد الحكومة الرومانية للعقائد الموسوية . وعدم الاعتناء بها لا يسهل تنفيذها . ثانياً - وقت الغلس الذي حصل فيه ذلك الصلب الموهوم .

وكان يمكننا لدرس هذا الموضوع التكلم على جملة مسائل تفند دعوى الصلب تفنيدياً لا مزيد عليه . ومن ضمنها ، أن نصارى اليوم تدعى أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام حكم عليه من مجمع اليهود بالقتل بسبب تغييره لأحكام التوراة . ومن المعلوم أن الحكم ، في ذلك الموضوع ، الرجم لا الصلب . فهذا مما يرتكبن عليه مثل الموسيو (شارل بيكار) في ادعائه أن النصارى الحديثين احتاجوا لعلامة الصليب رمزاً لبعض عقائد كانوا يريدون إدخالها في الديانة . وهي مسألة الفدا . انتهى كلام صاحب السيوف البتارة .

ولما اطلع عليها ذلك النصراني المذبذب المردود عليه ، أعياه الرد من الطريقة التاريخية ، فأخذ يرد عليها تشبهاً بأسباب واهية . فعدّ ، كل من رفض الصلب من نصارى الأيام الأولى ، هرطوقيا . أى : مارقاً من الدين . ورمى أصحاب التواريخ من أهل أوروبا الذين وافقوا المسلمين في عدم حصول الصلب بأنهم كفرة الإفرنج . ثم تمسك بالأنجيل الأربعة الرسمية وقال : إنه لا يمكنه أن يزيف شيئاً منها مادامت شاهدة من أولها إلى آخرها بحصول الصلب حقيقة . وأنه يلزم حينئذ تأويل ما جاء في القرآن المجيد حتى يصل للوافق .

فعماد صاحب (السيوف البتارة) وألف رسالة ثانية في شهادة علماء الإفرنج بحفظ القرآن وتحريف ماسواه . تكملة للأول . فتوسع جزاء الله خيراً في هذا الموضوع ثم قال (في الكلام على الإنجيل) ما لفظه : أما الإنجيل فإنه أبعد عن الصحة من التوراة بكثير . إذ

لا يفهم أحد لآن كيف تعدد الإنجيل الأصلي إلى نسخ شتى متباينة. ولأى مرجح استحسنت منها النصارى الحاليون أربعة أناجيل ، مختلفة كل الاختلاف ، متضاربة كل التضارب . ولا يدري لماذا عدلوا عن (إنجيل برنابا) مثلاً الذى وافق القرآن قبل ظهوره فى المسائل التى أثبتها السكتب الحالية . فإننا نجد هذا الإنجيل يخبر أن السيد المسيح نبى ، عبد ، مخلوق . ليس بإله . وأنه لم يصاب . وفيه البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكوراً بلفظه (كذا) . وهالك ما قاله السيد المسيح فى الإنجيل المذكور (وإنى وإن كنت برياً ، لكن بعض الناس لما قالوا فى حقى إنه الله وابن الله ، كره الله هذا القول وافتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة على ولا يستهزؤن . فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا . ويظن كل شخص أنى صلبت . لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقىان إلى أن يحيى محمد رسول الله . فإذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط . وترفع هذه الشبهة من قلوب الناس .

وقد استشهد العلامة (سيل) الإنكليزى ، المشهور فى أوروبا بترجمة المصحف الشريف ، بهذه الآية الإنجيلية ، تفسيراً لقوله تعالى فى سورة آل عمران (وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ^(١) وإنجيل برنابا أثبتته العلماء قبل الإسلام بنحو ثلاثمائة سنة . حتى أن العالم الإنكليزى (تولاند) قال : وعلى النصرانية السلام ، بمجرد رؤيته هذا الإنجيل . ثم قال : قال العلامة (هيردر) وجماعة آخرون : إن الإنجيل الأصلى كان واحداً . إلا أنه لم يكتب . بل قاله المسيح مشافهة . ورواه الحواريون عنه للناس شفاهياً أيضاً . فحفظ الخلق منه بعض أقوال أضافوا إليها ما استحسناه من السير والقصص . ونقصوا منها ما لم يوافق أذواقهم . وما زالت تنتقل الروايات المختلفة من شخص إلى آخر ، ومن زمن إلى غيره حتى تشعبت ، وكتب أخيراً منها أناجيل شتى ، فاختارت الكنائس منها أربعة جعلتها الرسمية .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

ثم قال مؤلف (السيوف البتارة): فوضح وضوحاً تاماً لدى بصيرة، أن الحجة على دعوى صلب المسيح قد سقطت سقوطاً لا تقوم بعده أبداً. سواء من جهة التاريخ الصحيح الذي دحضها وخذل مدعيها بأجلى برهان ، أو من جهة الأناجيل المعتبرة عندهم. لذهاب أصلها أدراج الرياح ، بثبوت التحريف والتغيير لها .

ثم قال : وأما قوله (يعنى المذبذب) . بأن طوائف النصارى الرافضة للصلب هراطقة - فغريب . لأنهم مثله في العقيدة لا يمتازون إلا بإنكارهم الصلب الحقيقي للمسيح . وهل الاقتصار ، في الرد من باحث ، على قوله (كفرة) يعد من باب نقض الدليل بالدليل وتزييف الحجة بالحجة؟ أو من باب المسكارة في المحسوس والانتطاع عن المناظرة للعجز الواضح . وإذا جاز إطلاق (كفرة) على هؤلاء وهم أمناء النصرانية واليهودية - جاز أن تصف بهذه الصفة كل يهودي ونصراني . وحينئذ لا يصح احتجاجك بإجماعهم ولا بشيء من آرائهم . وتكون في ردك بكلمة (هراطقة . كفرة) أشبه بمن اقتصر في مناظرة خصمه على كلمة (لا) فقط . فهو يكررها ولا يسأم من الرد بها .

ثم قال : فقد برح الخفاء وانكشف الغطاء وبان للقراء أن لا إجماع بين النصارى أنفسهم على حصول الصلب منذ تكلم الناس فيه حتى الآن . وتفرقت فيه آراؤهم أبدي سباً . وذهبوا فيه كل مذهب . فلا تكاد تجد قولاً لأحدهم في أي عصر إلا وهو مضاد لأقوال آخرين منهم على خط مستقيم . حتى لا ترى إلا غوغاء وجلبة المناقضات . فلم يتفقوا على كيفية الصلب ولا على معناه ولا على المراد منه . ولا اجتمع فيه رأيان . كان ذلك من باب التقليد والتسليم ، الذي لا يقام عليه دليل أعظم من أن يقال : إن الدين ينبغي أن لا يفهم ولا يدخل معناه السري تحت تصور . هذا مع أن الصاب عند النصارى هو قلب دينهم (كما يقولون) وأساس معتقدتهم . حتى كأنه بمنزلة التوحيد عند المسلمين . ومع أن نفي الصلب عندنا ليس من الأصول التي انبنى عليها ديننا في شيء ، بل لا تخرج مسألته عن كونها من قصص الأولين ، كالإخبار عن

نوح وإبراهيم وموسى ، مما سيق لنحو الوعظ والاعتبار - فلم يهجنس بخلد مسلم منذ وجد الإسلام إلى يومنا هذا أن عيسى صلى الله عليه وسلم صلب أو قتل . ولم يخرق إجماع المسلمين على ذلك واحد منهم في كل عصر ومكان . وما ذلك إلا لضبط القرآن الكريم وصيانيته . ولو حكمنا غير متدين في هذه المسألة ، ونظر لأهميتها عند النصارى ، مع عدم قدرتهم على إثباتها ، ولفرعيتها عند المسلمين ، مع إجماعهم على نفيها إجماعاً لا مثيل له في العالم - لا نهر من همة المسلمين في ضبط وحفظ كتابهم ، وثباتهم في صغير الأمر وكبيره . وتمنى أن تتدلى الأنجم الزهر ليصوغ منها عقود ثناء ومدح لهم ، على عنايتهم بدينهم إلى هذا الحد الذى لا نظير له . ولم يسمعه إلا أن يقلب أ كف الأسف ، وبعض بنان الندم على زرع دين غيرهم . لدرجة أن أعظم أصل فيه لا يثبت إلا في خيالات بعض المقلدين . من غير استناد على دليل نقل صحيح . أو عقل مسلم ، حتى قام عقلاؤهم نافضين غبار التقليد ، ناشدين الحقيقة . فأنجحت ، لكثير منهم ، عن تدمير هذا البناء التقليدى . والرجوع إلى مائت بالدليل في ديانة غيرهم . ومما هو جدير بالتنبه له أن بولس الذى عزا إليه كل محقق التاريخ من الإفرنج وغيرهم ، أنه وحده المخترع لمسائل الصلب والفداء ، وألوهية عيسى إلى غير ذلك - قد أبان أن الصلب والقتل ليسا حقيقتين . كما جاء في رسالته لأهل غلاطية . حيث قال : أتم الذين رسم يسوع المسيح بينكم مصلوباً . وقال في رسالته لأهل رومية : نحن نقوم بشبه موته . إلى أن قال : فدنا معه بالمعمودية ، لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته ، نصير أيضاً بارتفاعه ، عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه الخ . فيستفاد من مجموع أقوال بولس هذه أن المسيح لم يصلب ولم يقتل حقيقة . وإنما ذلك مجاز عن الشبه المقتول المصلوب . كما جاء في إنجيل برنابا . وقد يدعوك حب التمسك بهذه المسألة إلى أن تؤول كلام بولس بما لا يحتمله اللفظ والسياق . وأنت لاه عن أنه متى وقع الاحتمال سقط الاستدلال . وإنما أئتنا بكلامه تزللاً معك على التسليم الجدلى بصحة ما روى عنه في رسالته لأهل غلاطية . فنقول : حتى على

فرض صحة ما روى عن بولس نفسه ، فإنه يشهد لنفى الصاب والقتل . لالحصولها حقيقة . هذا ولو قارنت دعوى الصلب والفداء بما جاء فى التوراة من قولها (الشرير فدية الصديق) لكان معناه ، على مقتضى زعمك ، أن عيسى شريراً بالإضافة لكل أحد . وهذا لا يجوز لاعتقلاً ولا شرعاً . فوجب ، أخذاً من عبارة التوراة ، أن يكون المصلوب شريراً فداء لصديق ، هو عيسى عليه الصلاة والسلام . كما جاء فى إنجيل بانايا . انتهى ملخصاً .
ولن يعدم الحق أنصاراً ، والباطل خزيًا وانكساراً .

فصل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه فى كتابه (الفرقان) وهو من آخر مصنفاته . صنفه بقلمه دمشق ، ما لفظه : (فإن قيل) فإذا كان فى كتب الأنجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم ، وقال لهم : أنا المسيح . ولا يقولون إن الشيطان تمثل على صورته - فالشيطان ليس هو لحم وعظم . وهذه أثر المسامير . أو نحو هذا الكلام - فأين الإنجيل الذى قال الله عز وجل فيه : وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ^(١) . وقال قبل هذا : وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(٢) . وقال قبل هذا : وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاءِ نِوُونَ

(١) [٥ / المائة / ٤٧] .

(٢) [٥ / المائة / ٤٦ و ٤٧] .

وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ^(١) . وقال أيضاً : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^(٢) . وقال أيضاً : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَئِنْ يَدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(٣) . وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب ، الذين بعث إليهم ، وهو من كان في وقتهم ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة . لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم . وكذلك قوله : وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ^(٤) ، إخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله . وكذلك قوله : وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ^(٥) ، هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل . ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل قبل هذا : إنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل بل ذلك مبدل . فإن التوراة انقطع تواترها . والإنجيل إنما أخذ عن أربعة . ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله . ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب وإنما حرّفوا معانيها بالتأويل . وهذان القولان ، قال كلاهما كثير من المسلمين . والصحيح القول الثالث ، وهو أن في الأرض

- (١) [٥ / المائة / ٤٣ و ٤٤] ... فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .
- (٢) [٥ / المائة / ٦٦] ... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ .
- (٣) [٥ / المائة / ٦٨] .
- (٤) [٥ / المائة / ٤٣] ... ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .
- (٥) [٥ / المائة / ٤٧] ... وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبي ﷺ، ونسخاً كثيرة محرفة . ومن قال : إنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه . ومن قال : جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ . والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ويخبر أن فيهما حكماً . وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ . وإذا كان كذلك فبقول : هو سبحانه قال : وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ^(١) . وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح . فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام . ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل ، من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ، ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى . بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما . وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمرا به في حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس . وكذلك^(٢) : لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . وقوله^(٣) : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . فإن إقامة الكتاب ، العمل بما أمر الله به في الكتاب ، ومن التصديق بما أخبر به على لسان الرسول .

وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله

(١) [٥ / المائدة / ٤٧] ... وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٨] ونصها : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِّن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٦] ... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

الله على الرسول ، ولا مما أمر به ، ولا أخبر به . وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة . يصنّف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه ، في آخره ، عمر المصنف ونسبه وسنه . ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف . ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن . وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن . فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ولا (آين) . ولا غير ذلك . والمصاحف القديمة والتي كتبها أهل العلم ، على هذه الصفة . وفي المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء . وكتب في آخر المصحف تصديقه . ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك . وليس هذا من القرآن . فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ، ليس هو مما قاله المسيح ، وإنما هو مما رآه من بعده . والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله . فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب ، وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل والدين ، فقد دخلت الشبهة .

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء ، إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة في كلام الأنبياء . وما سوى ذلك فوقوف على الحجة . إن كان حقاً قيلَ ولم لا يُردّ . ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله . لاسيما المتواتر ، كالقرآن وكثير من السنن . وأما ما قالوه ، فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم . وما تنازعوا فيه ، رُدّ إلى الله والرسول . وعُمُرُ قد كان أوّلاً أنسكر موت النبي ﷺ . حتى ردّ ذلك عليه أبو بكر . وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث (٣) الذي رواه . وتنازعوا في

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ١٦ - كتاب الجنائز ، الحديث ٢٧ (طبعنا)

ونصه :

حدثني يحيى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين ، ودفن يوم الثلاثاء . وصلى عليه الناس أفذاذا . لا يؤمهم أحد . فقال ناس : يدفن عند المنبر . وقال آخرون : =

تجهيز جيش أسامة . وتنازعوا في قتال^(١) مانعي الزكاة . فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ . والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح . ولم يشهد أحد منهم صلبه . فإن الذي صُلب إنما صلبه اليهود . ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً . وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح . وقد قيل إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح . ولكن هم كذبوا وشبهوا على الناس . والأول هو المشهور وعليه جمهور الناس . وحينئذ

= يدفن بالبقيع . فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « مادفن قط نبي إلا في مكانه الذي توفى فيه » .

خفر له فيه . فلما كانوا عند غسله ، أرادوا نزع قميصه فسمعوا صوتاً يقول : لا تنزعوا القميص . فلم يُنزع القميص . وغُسل وهو عليه ﷺ . اهـ .

قال ابن عبد البر : هذا الحديث لا أعلمه يروى على هذا النسق بوجه من الوجوه ، غير بلاغ مالك هذا . ولكنه صحيح من وجوه مختلفة ، وأحاديث شتى ، جمعها مالك

(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ١ - باب وجوب الزكاة ، حديث

٧٤٣ و٧٤٤ ونصهما :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ . وكان أبو بكر رضى الله عنه . وكفر من كفر من العرب . فقال عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه . على الله » ؟

فقال : والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . والله ! لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

فليس عند النصارى خبر عن يصدقونه بأنه صلب. لكن عمدتهم على ذلك ، الشخص الذى جاء الشيطان بعد أيام وقال . أنا المسيح . وذاك شيطان . وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تنجى ويدعى (كذا) إنه نبي أوصالح . ويقول . أنا فلان النبي والصالح . ويكون شيطانا . وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه جاء وقال : أنا المسيح . جئت لأهديك . فعرف أنه الشيطان . فقال . أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها . فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم تقبل منك . فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب . كما قال تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ^(١) . وأضاف الخبر عن قتله ، إلى اليهود بقوله : وقولهم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ^(٢) فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة . إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح . ومن جواز قتله فهو كمن قتله . فهم فى هذا القول كاذبون . وهم آثمون . وإذا قالوه نخرأ لم يحصل لهم الفخر . لأنهم لم يقتلوه . وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه . وقد قال النبي^(٣) ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يا رسول الله ! فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :
عن الأحنف بن قيس قال : ذهبت لأنصر هذا الرجل . فلقيني أبو بكره فقال : أين تريد ؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال : ارجع . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وقوله: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَنِي شَكٍّ مِنْهُ: قيل هم اليهود والنصارى. والآية تعم الطائفتين. وقوله: لَنِي شَكٍّ مِنْهُ. قيل: من قتله. وقيل: منه، أى: فى شك منه. هل صلب أم لا؟ كما اختلفوا فيه. فقالت اليهود: هو ساحر. وقالت النصارى: إنه إله. فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا؟ وهم فى شك من ذلك ما لهم به من علم. فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح؟

فإن قيل: كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا فى إيمانهم، فأين المؤمنون به الذين قال فيهم: وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١). وقوله: فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ^(٢). (قيل) ظنُّ من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى إيمانه. إذا كان لم يحرف ماجاء به المسيح. بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه - فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى إيمانه. فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين. وغاية الصلب أن يكون قتلاً له. وقتل النبى لا يقدح فى نبوته. وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء. وقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ...^(٣)

(١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخِمْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

(٢) [٦١ / الصف / ١٤] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، فَمَا مَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ، فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ.

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.

الآية. وقال تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ^(١). وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلهم . هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم في اليقظة . فإنهم لا يكفرون بذلك . بل هذا كان يمتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة وأتباعاً لها . وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره . وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره . فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح ، لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه . وعمر لما كان يمتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت^(٢) ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه - لم يكن

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٣] ... وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنُيَضِرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٥ - باب قول النبي ﷺ « لو كنت متخذاً خليلاً » حديث ٦٦٤ و٦٦٥ وهذا نصهما :
عن عائشة رضي الله عنها ، زوج النبي ﷺ ، أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح (يعني بالعالية) فقام عمر يقول : والله ! ما مات رسول الله ﷺ .
قالت : وقال عمر : والله ! ما كان يقع في نفسي إلا ذاك . وليبعثنه الله فليقطعن أيدي

رجال وأرجلهم .
جاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله . قال : بأبي أنت وأمي . طبت حياً وميتاً . والذي نفسي بيده ! لا يذيقك الله الموتين أبداً . ثم خرج فقال : أيها الخالف ! على رسلك .

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . وقال : =

هذا قادحاً في إيمانه . وإنما كان غلطاً ورجع عنه . وقوله تعالى : مَا لَهُمْ بِهِ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . انتهى كلام ابن تيمية رضى الله عنه .
ولإمام الأدباء ، شرف الدين البوصيرى رحمه الله ، قصيدة في هذا المقام . نظمها في سلك ما تقدم تكملة للمرام . قال قدس سره .

جاء المسيح من الإله رسولاً	فأبى أقبل العالمين عقولاً
قوم رأوا بشراً كريماً فادَّعَوْا	من جهلهم لله فيه حلولاً
وعصاة ماصدقته وأكثرت ،	بالإفك والبهتان ، فيه القيلا
لم يأت فيه مفرط ومفرط	بالحق تجريحاً ولا تعديلاً
فكأنما جاء المسيح إليهم	ليكذبوا التوراة والإنجيلا
فاعجب لأتمته التي قد صيرت	تنزيهاً للإله التكيلا
وإذا أراد الله فتنة معشر	وأضلهم ، رأوا القبيح جميلا
هم يجلوه بباطل فابتزه	أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم	زمرأ . ألم ترَ عقدها محلولا
هو آدم في الفضل إلا أنه	لم يُعطَ حال النفخة التكميلا
أسمتموا أن الإله لحاجة	يتناول المشروب والمأكولا ؟
وبنام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حرّ الهجير مقيلا
ويعشه الألم الذي لم يستطع	صرفه عنه ولا تحويلاً

تَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [٣٩ / الزمر / ٣٠] وقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَانِ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [٣ / آل عمران / ١٤٤]
قال : فنشج الناس يهبكون . . . الخ

يأليت شعري ، حين مات بزعمهم من كان بالتدبير عنه كفيلاً ؟
هل كان هذا الكون دبر نفسه من بعده أم أثر التعطيل ؟
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه . وأراه كان القاتل المقتولا .
أجزؤا اليهود بصلبه خيراً . ولا تجزوا (يهوداً) إلاخذ البرطيل
أ يكون قوم في الجحيم ويصطفى منهم كايماً ربناً ، وخليلاً
وإذا فرضتم أن عيسى ربكم ، أفلم يكن لفدائكم مبدولاً ؟
وأجلّ روحاً قامت الموتى به عن أن يرى بيد اليهود قتيلاً
فدعوا حديث الصلب عنه ودونكم من كتبكم ما وافق التنزيلاً
شهد الزبور بحفظه ونجاته . أفتجعلون دليله مدخولاً ؟
أ يكون من حفظ الإله مضيماً أو من أشيد بنصره مخدولاً ؟
أيجوز قول منزه لإلهه : سبحانه قاتل نفسه مقتولاً ؟
أوجلّ من جعل اليهود بزعمكم شك القتاد لرأسه إكليلاً
ومضى لحبل صليبه مستسلماً للموت مكتوف اليدين ذليلاً
كم ذا أبكتكم ولم تستنكفوا أن تسمعوا التبكيت والتخجيلاً
ضل النصارى في المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلاً
وهي سابغة الذيل ، كلها من هذا النفس البديع .

واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم . وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام ، وبين أنه ما حصل لهم ذلك المقصود ، وأنه حصل لعيسى أعظم الناصب وأجل المراتب - بين تعالى تحقيق ما أثبتته في الآية السابقة ، من القطع بكذبهم . مثبتاً أنهم في مبالغتهم في عداوته ، سيكونون من أتباعه المصدقين بجميع أمره ، الذي منه التصديق بمحمد ﷺ . مؤكداً له أشد تأكيداً لما عندهم من الإنكار له ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

« وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ » أى : ما أحد من أهل الكتاب يدرك نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، إلا ليؤمنن به قبل موته . أى : موت عيسى عليه السلام . أى : لا يموت حتى ينزل في آخر الزمان يؤيد الله به دين الإسلام . حتى يدخل فيه جميع أهل الملل . إشارة إلى أن موسى عليه السلام ، إن كان قد أيد الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زماناً طويلاً ، فالنبي الذي ينسخ شريعة موسى ، وهو عيسى عليهما السلام ، هو الذي يؤيد الله به هذا النبي العربي ، في تجديد شريعته ، وتمهيد أمره ، والدود عن دينه . ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة ، وأتباع مستكثرة . أمر قضاء الله تعالى في الأزل . فاقصروا أيها اليهود . فمعنى الآية إذن ، والله أعلم : إنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين في عيسى عليه السلام على شك ، إلا وهو يوقن بعيسى عليه السلام قبل موته ، بعد نزوله من السماء ، أنه ما قتل وما صلب . ويؤمن به عند زوال الشبهة أفاده البقاعي .

(روى البخاري^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ! ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحزبة ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً له من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : واقرؤا إن شئتم : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٩ - باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، حديث ١١١٥ .

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . وأخرجه مسلم^(١) أيضاً وابن مردويه وزاد بعد قوله (قبل موته) : موت عيسى ابن مريم . ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

ورواه الإمام أحمد^(٢) عن حفظة عن أبي هريرة أيضاً مرفوعاً ولفظه : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما .

قال وتلا أبو هريرة : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ... الآية . فزعم حفظة أن أباهريرة قال : يؤمن به قبل موت عيسى . فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة .

ورواه أحمد^(٣) أيضاً عن عبد الرحمن عن أبي هريرة . وفيه : ويهلك الله في زمانه الملل كلها

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٢ - ٢٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) ونصه :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلات . دينهم واحد وأمهاتهم شتى . وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي » . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . فإنه رجل مربع إلى الحمرة والبياض . سبط . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل . بين مَمَصَّرَتَيْنِ (المصرة من الثياب التي فيها صُفرة خفيفة) فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل . حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام . ويهلك الله في زمانه المسيح الكذاب . وتقع الأمانة في الأرض . حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً . والنمور مع البقر . والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضاً . فيمكث ما شاء الله أن يمكث . ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه » .

غير الإسلام . ويمتلك أربعين ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . وفي حديث النّوّاس بن سميان عند مسلم^(١) : فينزل عند المنارة شرق دمشق .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير ، هنا ، الأحاديث المتواترة في نزوله عليه السلام ، من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنّوّاس بن سميان وعبدالله بن عمرو ابن العاص ومجّمع بن جارية وأبي سريحة حذيفة بن أسيد رضى الله عنهم . وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية . وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح .

قال ابن كثير : وقد بنيت في هذه الأعصار ، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، منارة للجامع الأموي ، بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . وكان أكثر عمارتها من أموالهم . وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا من إخبار النبي ﷺ بذلك . انتهى .

قلت : وقد اشتهرت هذه المنارة بمئذنة عيسى .

وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في (تاريخه) عن بعض السلف : أن عيسى عليه السلام ، بعد نزوله ، يدفن مع النبي ﷺ في حجرتة . فإله أعلم .

والتأويل المذكور في الآية رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير^(٢) والوفى^(٣) ، كلاهما عن ابن عباس .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث ١١٠ (طبعنا) .

وهو حديث طويل وجليل ، من علامات النبوة ، ينبغى الاطلاع عليه ودراسته دراسة عميقة .

(٢) عن سعيد بن جبير ، الأثر رقم ١٠٧٩٤ و ١٠٧٩٥ من التفسير .

(٣) عن الوفى ، الأثر رقم ١٠٨٠٧ من التفسير .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك عن ابن عباس في الآية قال : يعني اليهود خاصة .
وبه إلى الحسن : يعني النجاشي وأصحابه .
وبه إليه قال : إن الله رفع إليه عيسى وهو باعنه قبل يوم القيامة ، مقاماً يؤمن به البر
والفاجر .

وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد .

قال ابن كثير : وهذا القول هو الحق . وروى عن ابن عباس أيضاً ومحمد بن الحنفية
ومجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين والضحاك وجوير ؛ أن المعنى : وإن من أهل الكتاب
إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي عند الغررة . حين لا ينفعه الإيمان . ذهاباً
إلى أنه إذا عين عليم الحق من الباطل . لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين
له الحق من الباطل في دينه .

قال عكرمة : قال ابن عباس : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله .
ولو عجل عليه بالسلاح .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ قلت : فائدته
الوعيد . وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب ، عند المعاينة ، وأن ذلك
لا ينفعهم - بعناً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به . وليكون إلزاماً
للحجة لهم . انتهى .

قال الأصمهاني : ويدل على صحة هذا التأويل قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه (إلا ليؤمنن)
به قبل موتهم (بضم النون وإلحاق ميم الجمع .

والأسانيد إلى ابن عباس في هذا التأويل كلها صحيحة . كما قاله ابن كثير .

وثمة وجه آخر وهو أن الضمير الأول للنبي صلى الله عليه وسلم . والثاني للكتابي .
رواه ابن جرير^(١) : عن عكرمة قال : لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ

(١) الأثر رقم ١٠٨١٣ من التفسير .

وتلا الآية . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول . وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب ، بعد نزول عيسى عليه السلام ، إلا آمن به قبل موته أى : قبل موت عيسى عليه السلام .

قال ابن كثير : ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح . لأنه المقصود من سياق الآى ، فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصرارى الجبهة ذلك . فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك . وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه . وهم لا يتبينون ذلك . ثم إنه رفعه إليه . وإنه باق حتى . وإنه سينزل قبل يوم القيامة . كما دلت عليه الأحاديث المتواترة . فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية (يعنى لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف) .

فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ . ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم .

ثم قال : فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى : أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما السلام - فهذا هو الواقع . وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلا به فيؤمن به . ولكن لا يكون ذلك إيمانا نافعا له ، إذا كان قد شاهد الملك . كما قال تعالى : فى أول هذه السورة : وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ... الآية (١) . وقال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . . . الآية « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ » أى : عيسى عليه السلام « عَلَيْهِمُ » أى : على أهل الكتاب « شَهِيدًا » أى بأعمالهم التى شاهدوها منهم قبل رفعه إلى السماء

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وبعد نزوله إلى الأرض . قال قتادة : يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله ، وأقرّ بعبوديته لله عز وجل . وهذا كقوله تعالى : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . إلى قوله العزيز الحكيم ^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ
عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا)

« فَبِظُلْمٍ » أى : بسبب ظلم عظيم ؛ فالتنوين للتفخيم . وهو جامع لتفصيل نقض الميثاق وما عطف عليه مما استحلوه ، بعد أن حرّمته التوراة « مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا » أى تلبسوا باليهودية . وفيه تعظيم ظلمهم أيضاً . إذ صدر عنهم بعدما ادعوا أنهم من أهل التوراة والرجوع إلى الحق « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » قال ابن كثير : هذا التحريم قد يكون قد رُبَّما . بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم . فخرموها على أنفسهم تضيقاً وتنطعاً . ويحتمل أن يكون شرعياً . بمعنى أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك . كما قال تعالى : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ^(٢) . أى : ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، من لحوم الإبل والبأنها . ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة . كما قال في سورة الأنعام : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا

- (١) [٥ / المائدة / ١١٦] . . . اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .
- (٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] . . . قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ^(١) . أى : إننا حرمانا عليهم ذلك ، لطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه .

ولما ذكر ظلمهم ذكر مجامع من جزئياته بقوله تعالى « وَبَصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : الذى لا أوضح منه ولا أسهل ولا أعظم « كَثِيرًا » أى : ناسًا كثيرًا . أو صدًا كثيرًا . فهم صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق . وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه . ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقًا من الأنبياء . وكفروا بعميسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ،
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ » أى : فى التوراة « وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ » أى : من اليهود المصرين على الكفر . لالمن تاب وآمن من بينهم « عَذَابًا أَلِيمًا » وجيمًا يخلص إلى قلوبهم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ أَجْرًا عَظِيْمًا)

« لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ » أى : الثابتون في العلم المستبصرون فيه . كعبد الله بن سلام .

قال الرازى : الراسخون في العلم : الثابتون فيه . وهم في الحقيقة المستدلون . لأن القلد يكون بحيث إذا شُكِّكَ يَشُكُّ . وأما المستدل فإنه لا يتشكك ، البتة . فالراسخون هم المستدلون « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى : من الأئمين اللاحقين بهم في الرسوخ ، بصحبة رسول الله ﷺ « يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » من القرآن « وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » على سائر الأنبياء لاطلاعهم على كمالات المنزل عليك وأنه صدق ما أنزل من قبلك . فلا بد من الإيمان به أيضاً « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قال ابن كثير : هكذا هو في مصاحف الأئمة . وكذا هو في مصحف أبي بن كعب .

قال الزمخشري : ارتفاع (الراسخون) على الابتداء . و (يؤمنون) خبره و (المقيمين) نصب على المدح . لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد . ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب ، والمهم في النصب على الاختصاص من الافتتان . وغبي عليه أن السابقين الأولين ، الذين مثَّلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام ، وذب المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله ثامة ليسدها من بعدهم . وخرقا يرفوه من يلحق بهم .

وقيل : هو عطف على (بما أنزل إليك) أى يؤمنون بالكتاب والمقيمين الصلاة وهم الأنبياء . وفي مصحف عبد الله (والمقيمون) بالواو . وهى قراءة مالك بن دينار والجحدري وعيسى الثقفى . انتهى .

وجوز عطف (المقيمين) على الضمير فى (منهم) وعطفه على الضمير فى (إليك) . والكتاب أنزل للنبي ولأتباعه . قال تعالى ^(١) : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . كذا فى حواشى الشذور . وقد أشار الزمخشري بقوله (كانوا أبعد همة) إلى رد ما نقل ، أن عثمان رضى الله عنه ، لما فرغ من المصحف أتى به إليه . فقال : قد أحسنتم وأجملتم . أرى شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها . ولو كان المملى من هذيل ، والكتاب من قريش ، لم يوجد فيه هذا .

قال الحافظ السخاوى : هذا الأثر ضعيف . والإسناد فيه اضطراب وانقطاع . لأن عثمان رضى الله عنه جعل للناس إماماً يقتدون به . فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقييمه العرب بألسنتها ؟ وقد كتب مصاحف سبعة وليس فيها اختلاف قط ، إلا فيما هو من وجوه القراءات . وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع ، كيف يقيمه غيرهم ^(٢) ؟

(١) [١٠ / يونس / ٥٧] . . . وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) وقد نقل ابن هشام فى شرح شذور الذهب عن الإمام تقي الدين أبى العباس أحمد ابن تيمية رحمه الله أنه قال :

وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إن هذان) لحن . وأن عثمان رضى الله عنه قال : إن فى المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها . وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه : أحدها - أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته .

والثانى - أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقبح فى الكلام ، فكيف =

وتأول قوم اللحن في كلامه (على تقدير صحته عنه) بأن المراد الرمز والإيماء كافي قوله (٣)
مَنْطِقٌ رَائِعٌ وتلحن أحياناً . وخير الكلام ما كان لحناً

== لا يستقبحون بقاءه في المصحف ؟

والثالث - أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والمجمل .

والرابع - أنه قد ثبت في (الصحيح) أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش .

ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ (عتي حين) على لغة هذيل - أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلامه ماخصاً (قاله ابن هشام) .

(١) قائله مالك بن أسماء .

قال ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) : كان مالك شاعراً غزلاً (ظريفاً) .

وهو القائل في جارية له :

أَمَغَطَىٰ مِنِّي عَلَىٰ بَصْرَىٰ بِالْحُسْبِ أَمْ أَنْتِ أَكَلِ النَّاسِ حَسَنًا
وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا يَشْتَهِي النَّاعَتُونَ يُوزَنُ وَزَنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا نَا وَأَحْلَى الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

وقال المرباني : إنما أراد وصفها بالظرف والفتنة وأنها تورى عما قصدت له وتنكب

التصريح .

وعلى هذا فبعيد جداً تأول اللحن ، في القول المزعوم نسبته إلى عثمان ، بهذا المعنى . إذ لا يستقيم مع قوله : ستقيمه العرب بألسنتها . وإنما تقيم العرب بألسنتها اللحن الذي هو الخطأ في الإعراب ، وهو ضد الصواب .

أى: المراد به الرمز . بحذف بعض الحروف خطأ . كآلف (الصّابرين) مما يعرفه القراء إذا رأوه . وكذا زيادة بعض الحروف . كذا في (عناية الراعى) « وَالْمُؤْمِنُونَ الزَّكَاةَ » رفعه بالمطف على (الرَّاسِخُونَ) أو على الضمير في (يُؤْمِنُونَ) أو على أنه مبتدأ ، والخبر (أُولَئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ) . والوجه المذكورة تجرى في (الْمُقِيمِينَ) على قراءة الرفع « وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » يعنى : والمصدقون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب . وإنما قدم الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع ، لأنه المقصود في هذا المقام . لأنه لبيان حال أهل الكتاب وإرشادهم . وهم كانوا يؤمنون ببعض ذلك ويتركون بعضه . فبين لهم ما يلزمهم ويجب عليهم « أُولَئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » يعنى الجنة . لجمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

لطيفة :

في الآية وجوه من الإعراب . أحسنها ما اعتمده أبو السعود ، من أن جملة (أُولَئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ) الخ خبر للمبتدأ الذى هو (الرَّاسِخُونَ) وما عطف عليه . وأن جملة (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ) الخ حال من (الْمُؤْمِنُونَ) مبينة لكيفية إيمانهم . أو اعتراض مؤكدة لما قبله . قال : وهذا أنسب بتجاوب طرفي الاستدراك حيث أُوْعِدَ الأولون بالعذاب الأليم ووُعد الآخرون بالأجر العظيم . كأنه قيل إثرَ قوله تعالى (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) لسكن المؤمنين منهم سنوتهم أجراً عظيماً . وأما ما جنح إليه الجمهور من جعل قوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ) الخ خبراً للمبتدأ ، ففي كمال السداد ، خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » اعلم أنه تعالى لما حكى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وذكر تعالى بعده أنهم لا يسألون استرشاداً ، ولكن للتعنت واللجاج ، وبين أنواعاً من فضائحهم - أشار إلى رد شبهتهم . فاحتج عليهم بأنه ليس بدعاً من الرسل . وأمره في الوحي كسائر الأنبياء الذين يوافقون على نبوتهم . ولم ينزل على كل واحد منهم كتاب بتمامه مثل ما أنزل على موسى . وإذا لم يكن هذا من شرط النبوة ، وَضَحَ أن سؤالهم محض تعنت .

تنبيه :

قيل : بدأ بنوح لأنه أول نبي شرع الله تعالى على لسانه الأحكام ، والحلال والحرام . وفي (العناية) بدأ به تهديداً لهم . لأنه أول نبي عوقب قومه . لا أنه أول مشرع ، كما توهم . وظاهر الآية يدل على أن من قبل نوح لم يكن يوحى له كما أوحى لنبينا ﷺ . لا أنه غير موحى إليه أصلاً ، كما قيل . انتهى . « وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » وهم أولاد يعقوب عليهم السلام « وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)

« وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى : فى السور المسكية « وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ » أى : لم نسّمهم لك فى القرآن . وقد أحصى بعض المدققين أنبياء اليهود والنصارى ورسالهم فوجد عددهم لا يتجاوز الخمسين . روى فى عدتهم أحاديث تُكَلِّمُ فى أسانيدها . منها حديث أبى ذر : إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر . صححه ابن حبان . وخالفه ابن الجوزى فذكره فى (موضوعاته) واتهم به إبراهيم بن هاشم . وقد تكلم فيه غير واحد « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » يعنى خاطبه مخاطبة من غير واسطة . لأن تأكيد (كَلَّمَ) بالمصدر يدل على تحقيق الكلام . وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك . لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر . فلا يقال: أراد الحائط يسقط إرادة . وهذا رد على من يقول: إن الله خلق كلاماً فى محل . فسمع موسى ذلك الكلام . قال الفراء : العرب تسمى كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً ، بأى طريق وصل . لكن لا تحققه بالمصدر . وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام . فدل قوله تعالى (تَكْلِيمًا) على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة . قال بعضهم : كما أن الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحاً فى نبوة غيره من الأنبياء ، فكذلك إزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً فى نبوة من أنزل عليه كتابه منجماً من الأنبياء . كذا فى (الباب) .

تنبية :

يحسن فى هذا المقام إيراد عقيدة السلف الكرام فى مسألة الكلام . فإنها من أعظم مسائل الدين . وقد تحيرت فيها آراء أهل الأهواء من المتقدمين والمتأخرين . واضطربت فيها الأقوال . وكثرت بسببها الأهوال . وأثارت فتناً وجلبت محناً . وكم سجت إماماً . وبكت

أقواماً . وتشعبت فيها المذاهب . واختلفت فيها المشارب . ولم يثبت إلا قول أهل السنة والجماعة . المقتفين لأثر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضى الله عنهم . فنقول : قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية عليه رحمة الرحيم السلام ، في كتابه إلى جماعة العارف عدى بن مسافر ما نصه :

فصل

ومن ذلك الاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان . مثل الكلام في القرآن . وسائر الصفات ، فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود . هكذا قال غير واحد من السلف . روى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار وكان من التابعين الأعيان قال : ما زلت أسمع الناس يقولون ذلك . القرآن الذى أنزله الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذا القرآن الذى يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم . وهو كلام الله لا كلام غيره . وإن تلاه العباد وبلغوه بحركاتهم وأصواتهم . فإن الكلام لمن قاله مبتدئاً ، لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً . قال الله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (١) . وهذا القرآن في المصاحف . كما قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢) . وقال تعالى : يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) . وقال : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٤) . والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه . كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله . وإعراب الحروف هو من تمام الحروف . كما قال النبي ﷺ :

(١) [٩ / التوبة / ٦] . . . ثُمَّ أبلغه مأمته ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٨٥ / البروج / ٢١ و ٢٢] .

(٣) [٩٨ / البينة / ٣ و ٢] ونصهما : رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ . . .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ و ٧٨] .

من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات . وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحبُّ إلينا من حفظ بعض حروفه .

ثم قال رحمه الله : والتصديق بما ثبت عن النبي ﷺ ، أن الله يتكلم بصوت وينادي آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث . فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة . وقال أئمة السنة : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، حيث تلى ، وحيث كتب . فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة . لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل . ولا يقال غير مخلوقة ، لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد . ولم يقل قط أحد من أئمة السلف : إن أصوات العباد بالقرآن قديمة . بل أنكروا على من قال (لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق) وأما من قال : إن المداد قديم - فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة . قال الله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا . فأخبر أن المداد يكتب به كلماته . وكذلك من قال (ليس القرآن في المصحف . وإنما في المصحف مداد وورق وحكاية وعبرة) فهو مبتدع ضال . بل القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو ما بين الدفتين . والكلام في المصحف على الوجه الذي يعرفه الناس ، له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء . وكذلك من زاد على السنة فقال : إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة ، فهو مبتدع ضال . كمن قال : إن الله لا يتكلم بحرف ولا صوت - فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة . وكذلك من زاد وقال : إن المداد قديم - فهو ضال . كمن قال : ليس في المصاحف كلام الله . وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون : إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط ، كلام الله - فهو بمنزلة من يقول : ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه . هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفي . وكلاهما خارج عن السنة والجماعة . وكذلك أفراد الكلام في النقطة والشكلة بدعة ، نفياً وإثباتاً . وإنما حدث

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٩] .

هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل . فإن من قال : إن المداد الذى تنقط به الحروف وتشكل به ، قديم - فهو ضال جاهل . ومن قال : إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن - فهو ضال مبتدع . بل الواجب أن يقال . هذا القرآن العربى هو كلام الله . وقد دخل فى ذلك حروفه بإعرابها . كما دخلت معانيه . ويقال : وما بين اللوحين جميعه كلام الله . فإن كان المصحف منقوفاً مشكولاً أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله . وإن كان غير منقوط ولا مشكول ، كما لمصاحف القديعة التى كتبها الصحابة ، كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله . فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث وزاع لفظي لا حقيقة له . ولا يجوز أن يحدث فى الدين ما ليس منه .

وسئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت . وقال أحدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن . وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن . فما الصواب فى ذلك ؟

فأجاب رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس . ويخلطون الحق بالباطل . فالذى قال : إن القرآن حرف وصوت ، إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذى يُقرأ للمسلمين هو كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبیین والمرسلين ، وأن جبرئيل سمعه من الله ، والنبي ﷺ سمعه من جبرئيل ، والمسلمون سمعوه من النبي ﷺ ، كما قال تعالى : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (١) . وقال : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (٢) - فقد أصاب فى ذلك .

- (١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ... لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .
 (٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها. والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع. ومن قال : إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبرئيل أو غيره ، عبّره عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعريّ ومن وافقهما - فهو قول باطل من وجوه كثيرة . فإن هؤلاء يقولون : إنه معنى واحد قائم بالذات . وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد . وإنه لا يتعدد ولا يتبعض . وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وبالعبرانية كان تورا . وبالسريانية كان إنجيلًا . فيجعلون معنى آية الكرسي ، وآية الدين ، وقل هو الله أحد ، وتبت يدا أبي لهب ، والتوراة والإنجيل وغيرها - معنى واحداً . وهذا قول فاسد بالعقل والشرع . وهو قول أحدثه ابن كلاب . لم يسبقه إليه غيره من السلف . وإن أراد قائل بالحرف والصوت ، أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي - أخطأ . وابتدع ، وقال ما يخالف العقل والشرع . فإن النبي ﷺ قال (١) : زينوا القرآن بأصواتكم . فبين أن الصوت صوت القارئ . والكلام كلام الباري . كما قال تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (٢) . فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٢ - باب قول النبي ﷺ «الماهر بالقرآن مع سفره الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم» .

قال الحافظ في (الفتح) : هذا الحديث من الأحاديث التي علقها البخاريّ ولم يصلها في موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه في كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء ، بهذا .

وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائيّ وابن ماجه والدارميّ ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما من هذا الوجه .

(٢) [٩ / التوبة / ٦] ... ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَتَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

كلام الله لا كلام غيره . كما ذكر الله ذلك . وفي السنن ^(١) عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال : ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي . قالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم (الْمُ غُلِبَتِ الرُّومُ) : هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي . ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلغوا كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢) كقوله : إنما الأعمال بالنيات - يعلمون أن الحديث الذي يسمعون حديث النبي ﷺ . تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه . والحديث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي ﷺ . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله ، إذا بلغته الرسل عنه ، وقرأه الناس بأصواتهم . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه . ونادى موسى بصوت نفسه . كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف . وصوت العبد ليس هو صوت الرب . ولا مثل صوته . فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وقد نص أئمة الإسلام ، أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة : من أن الله ينادي بصوت . وإن القرآن كلامه تكلم بحروفٍ وصوتٍ . ليس منه شيء كلاماً لغيره . لا جبرئيل ولا غيره . وأن العباد يقولونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم . فالصوت المسموع من المبدع صوت القاري . والكلام كلام الباري . وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ٢٠ - باب في القرآن ، حديث ٤٧٣٤

(٢) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ١ - باب كيف كان بدء الوحي إلى

رسول الله ﷺ ، حديث ١ .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

بين صوت العبد وصوت الرب . بل يجعل هذا هو هذا . فينفيهما جميعاً . ويثبتهما جميعاً . فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربى كلام الله ، وأن يكون منادياً لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذى يقرؤه المسلمون كلام الله . كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله . ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً . لا فرق بين القديم والحادث . وهذا مصيب فى هذا الفرق دون ذاك الثانى ، الذى فيه نوع من الإلحاد والتعطيل . حيث جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق . وإذا أثبت ، جعل صوت الرب هو صوت العبد ، أو سكت عن التمييز بينهما ، مع قوله : إن الحروف متعاقبة فى الوجود ، مقترنة فى الذات ، قديمة أزلية الأعيان ، فجعل عين صفة الرب تحمل فى العبد ، ويتحد بصفته ، فقال فى نوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل . وقد علم أن نفى الفرق والمباينة ، بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته ، خطأ وضلال . لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد . ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ . حروفه ومعانيه . وأنه ينادى عباده بصوته . ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد . وعلى أنه ليس بشيء من أصوات العباد ، ولا مداد المصاحف ، قديماً . بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين . مقروء بالسنتهم . محفوظ بقلوبهم . وهو كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط . لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون . ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها . فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز . وإن كتبت بنقط وشكل جاز . ولم يكره ، فى أظهر قولى العلماء . وهو إحدى الروايتين عن أحمد . وحكم النقط والشكل حكم الحروف فإن الشكل يبين إعراب القرآن ، كما يبين النقط الحروف . والمداد الذى يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط ، مخلوق . وكلام الله العربى الذى أنزله وكتب فى المصاحف بالشكل والنقط ، وبغير شكل ونقط ، ليس بمخلوق . وحكم الإعراب حكم الحروف . لكن الإعراب لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف المنقوطة . والشكل والنقط لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف

المرسومة . فلهذا لا يحتاج لتجريدتها وإفرادها بالكلام . بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام الله : معانيه وحروفه وإعرابه . والله تكلم بالقرآن العربى الذى أنزله على محمد ﷺ . والناس يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم ، والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله . وهو القرآن العربى الذى أنزل على نبيه . سواء كتب بشكل ونقط ، أو بغير شكل ونقط . والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق . والقرآن الذى كتب فى المصحف بالمداد هو كلام الله منزل ، غير مخلوق . والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين . لأن كلام الله مكتوب فيها . واحترام النقط والشكل ، إذا كتب المصحف مشكلاً منقوطة ، كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين . كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه النقطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه . فجميعه كلام الله . فلا يقال : بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله . وهو سبحانه نادى موسى . بصوت سمعه موسى . فإنه قد أخبر أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن . كما قال تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى^(١) . والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا^(٢) . فقد فرق الله بين إيجائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى . فن قال : إن موسى لم يسمع صوتاً ، بل ألهم معناه - لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال تعالى :

(١) [٧٩ / النازعات / ١٦ و ١٥] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٣ و ١٦٤] .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ^(١) ، وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ^(٢) . فقد فرق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب . كما كلم الله موسى . فمن سوى بين هذا وهذا ، كان ضالًّا . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته . يتكلم بشيء بعد شيء . كما قال تعالى : فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ^(٣) . فناده حين أتاه ولم يناده قبل ذلك . وقال تعالى : فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ^(٤) . فهو سبحانه ناداهما حين ذاقا الشجرة . ولم ينادهما قبل ذلك . وكذلك قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ^(٥) . بعد أن خلق آدم وصوره . ولم يأمرهم قبل ذلك . وكذا قوله : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٦) . فأخبر أنه قال له : كُنْ فَيَكُونُ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١] .

(٤) [٧ / الأعراف / ٢٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١١] فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(٦) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

بعد أن خلقه من تراب . ومثل هذا الخبر في القرآن كثير . يخبر أنه تكلم في وقت معين . ونادى في وقت معين . وقد ثبت في الصحيحين ^(١) عن النبي ﷺ ؛ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ** ^(٢) . قال : نبدأ بما بدأ الله به . فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين . ثم قالت طائفة : هو معنى واحد . وهو الأمر بكل مأمور والنهي عن كل منهي والخبر بكل مخبر . إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا . وهذا القول مخالف للشرع والعقل . وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، لازمة لذات الله ، لم تزل لازمة لذاته . وأن الباء والسين واليم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً . أزلاً وأبداً . لم تزل ولا تزال . لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل . وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته . وإنه في الأزل كان متكلماً بالنداء الذي سمعه موسى . وإنما تجدد استماع موسى . لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس . بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى . ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق ، في أصل قولهم . فإن أصل قولهم : إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وقالوا : هذه حوادث . والرب لا تقوم به الحوادث . فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، ١٩ - باب حجة النبي ﷺ ، حديث

١٤٧ (طبعنا) .

وهي قطعة من حديث جابر الطويل في صفة الحجة النبوية . ولم يخرجها البخاري .

(٢) [٢ / البقرة / ١٥٨] . . . **فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا . وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** .

واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم . وأخطأوا في ذلك . فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا . وادعوا أن الرب لم يكن قادراً في الأزل على كلام يتكلم به ، ولا فعل يفعله . وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً . بغير أمر حدث . أو يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً . لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً . وإن الفعل صار ممكناً له ، بعد أن صار ممتنعاً عليه . من غير تجديد شيء . وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الأزل على ما يمكن ، فيما لا يزال على ما لا يمكن في الأزل . فيجمعون بين النقيضين . حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم . ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل ، وبين عينه . كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا . بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه . فضلوا في ذلك وخالفوا صريح العقول وصحيح المنقول . فإن الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم . بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث . بعد أن لم يكن . إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته . كما تدل على ذلك الدلائل القطعية . والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازماً ، بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء . بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته . ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين ، له . ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة . فكيف بالفاعل بالإرادة ؟ وما يذكر بأن المعلول يقارن علته ، إنما يصح فيما كان من الملل يجري مجرى الشروط . فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على الشروط . بل قد يقارنه . كما تقارن الحياة العلم . وأما ما كان فاعلاً ، سواء سمي علة أو لم يسم ، فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين . والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته . ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلتزمه مفعول معين . وقول القائل (حركت يدي فتحرك الخاتم) هو من باب الشروط لا من باب الفاعلين . ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجبا بذاته في الأزل . ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه . ولو كان كذلك لم يحدث شيئاً من الحوادث . وهذا خلاف المشاهدة . وإن كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل . بل لم يزل متكهما

إذا شاء ، فاعلاً لما يشاء . ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام .
والعالم فيه من الأحكام والإتيان مادل على علم الرب . وفيه من الاختصاص مادل على
مشيئته . وفيه من الإحسان مادل على رحمته . وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته .
وفيه من الحوادث مادل على قدرة الرب تعالى . مع أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته ، فإنه
مستحق لكل كمال ممكن للوجود . لا نقص فيه . منزّه عن كل نقص . وهو سبحانه ليس
له كفو في شيء من أموره . فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل . منزّه فيها
عن التشبيه والتمثيل . ومنزه عن النقائص مطلقاً . فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل . وكاله
من لوازم ذاته القدسة . لا يستفيد من غيره . بل هو النعم على خلقه بالخلق والإنشاء .
وما جعله فيهم من صفات الأحياء . وخلق صفات الكمال أحق بها من لا كفو له فيها .
وأصل اضطراب الناس في مسألة كلام الله ، أن الجهمية والمعتزلة ، لما نظرت الفلاسفة في
مسألة حدوث العالم ، اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا
حادثاً . بناء على أن ما لا يتناهى لا يمكن وجوده . والتزموا أن الرب كان في الأزل غير
قادر على الفعل والكلام . بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلاً عن ذلك . وقد يعبرون عن
ذلك بأنه كان قادراً في الأزل على الفعل فيما لا يزال ، مع امتناع الفعل عليه في الأزل . فيجمعون
بين النقيضين . حيث يصفونه بالقدرة في حال امتناع المقدور لذاته . إذ كان الفعل يستلزم أن
يكون له أولاً . والأزل لا أول له . والجمع بين إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين . ولم
يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث . وهو الفعل المعين والمفعول المعين . وبين
ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام . بل هذا يكون دائماً . وإن كان كل من آحاده
حادثاً . كما يكون دائماً في المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانياً . بخلاف خالق يلزمه
مخلوقه المعين دائماً ، فإن هذا هو الباطل في صريح العقل وصحيح النقل . ولهذا اتفقت فطر
العقلاء على إنكار ذلك . لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة ، كابن سينا وأمثاله .

الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره . نخالفوا في ذلك جماهير العقلاء . مع مخالفتهم لسلفهم ، أرسطو وأتباعه ، فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك . وإن قالوا بقديم الأفلاك . وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين . بناءً على إثبات علة غاية لحركة الفلك . بتحريك الفلك للنسبة بها . لم يثبتوا له فاعلاً مبتدعاً . ولم يثبتوا ممكنًا قديماً واجباً بغيره . وهم ، وإن كانوا أجهل بالله وأكفر من متأخريهم ، فهم يسلمون لجمهور العقلاء ، أن ما كان ممكنًا بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقاً بالعدم . فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق منفصل عنه . وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له . لكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه في الأزل لم يكن متكلماً ، بل ولا كان الكلام مقدوراً له . ثم صار متكلماً بلا حدوث حادث ، بكلام يقوم به . وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم . وطائفة قالت : إذا كان القرآن غير مخلوق ، فلا يكون إلا قديم العين ، لازماً لذات الرب . فلا يتكلم بمشيئته وقدرته . ثم منهم من قال : هو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض . ومنهم من قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات . وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم أنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته . وأنه لا تقوم به الأمور الاختيارية . وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض . ولن يأتي يوم القيامة . ولم يناد موسى حين ناداه . ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات . ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا في قوله ^(١) : وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، ونحو ذلك ، أنه لا يراها إذا وجدت . بل إما أنه لم يزل رائيًا لها . وإما أنه لم يتجدد شيء موجود ، بل تعلق معدوم . إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة . مع مخالفة صريح العقل . والذي أجهلهم لذلك ، موافقتهم للجهمية على أصل قولهم : في أنه سبحانه

(١) [٩ / التوبة / ١٠٥] . . . وَسَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام . وخالفوا السلف والأئمة في قولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء . ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية . والحدوثية . والاتحادية . والافتراضية . وشر من هؤلاء الصائبة والفلاسفة . الذين يقولون : إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته . لا قديم النوع ولا قديم العين . ولا حادث ولا مخلوق . بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله . وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات . فإنه إنما يعلمها على وجه كلي . ويقولون ، مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله . وقولهم (يعلم نفسه ومفعولاته) حق ، كما قال تعالى : **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ^(١) . لكن قولهم ، مع ذلك (إنه لا يعلم الأعيان المعينة) جهل وتناقض . فإن نفسه المقدسة معينة . والأفلاك معينة . وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات . إذ الكلليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان . فمن لم يعلم إلا الكلليات لم يعلم شيئاً من الموجودات : تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وهم ، إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارئ تعالى . إن هؤلاء يقولون : إن الحوادث تقوم بالقديم . وإن الحوادث لا أول لها . لكن نفوا ذلك عن البارئ . لاعتقادهم أنه لا صفة له . بل هو وجود مطلق . وقالوا : إن العلم نفس عين العالم . والقدرة نفس عين القادر . والعالم والعالم شيء واحد . والمريد والإرادة شيء واحد . فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى . وجعلوا الصفات هي الموصوف . ومنهم من يقول : بل العلم كل المعلوم . كما يقوله الطوسي صاحب (شرح الإشارات) فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه . وابن سينا أقرب إلى الصواب . لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف ، وكل صفة هي الأخرى . ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والإلحاد ممن يقول : معاني الكلام شيء واحد . لكنهم

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

أَلْزَمُوا قَوْلَهُمْ لِأَوَّلِكَ فَقَالُوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً ، جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه . ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى ، جاز أن تكون الصفة هي الموصوف . فجاء ابن عربي وابن سبعمين والقونوي ونحوهم ، فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف ، جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق ، هو الموجود الممكن المحدث الخلق . فقالوا: إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق . وقالوا: الوجود واحد . ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين . كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع . وكان منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام ، إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد . الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات . كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه ، وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا : أولاً إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين ، بل لما نادى موسى فقال : **إِنَّ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي** . **إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ، كانت الهمزة والنون وما بينهما موجوداً في الأزل ، يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله . ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان : قديم ومحدث . وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلي . وحكى عن بعضهم أنه قال : السداد قديم أزلي . وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه . بل منهم من يظن أنه قديم في علمه . ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره . ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق . ومنهم من لا يميز بين ما يقول . فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات . ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في الذات والصفات . وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل . والصواب في هذا الباب وغيره ، مذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه

سبحانه لم يزل متكلمًا إذا شاء . وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لانهائية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى . لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم . وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال - باطلة . وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات - باطلة . وهذه الأمور مبسوبة في غير هذا الموضع . وقد بسطناها في (الواجب الكبير) . والله أعلم بالصواب . (وقال تقي الدين أيضًا في مقالة له في هذا البحث) : أول من أظهر إنكار التكليم والمُخَالَاة الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية . وأمر علماء الإسلام ، كالحسن البصري وغيره ، بقتله . فضحى به خالد بن عبد الله القسري ، أمير العراق بواسط . فقال : أيها الناس ضحوا . تقبل الله ضحاياكم . فإني مضحّ بالجعد بن درهم . إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا . ولم يكلم موسى تكليمًا . تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا

ثم نزل فذبحه . وأخذ ذلك عنه الجهم بن صفوان . فأنكر أن يكون الله يتكلم . ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الكلام وقال : كلامه يخلق في محل كالهواء وورق الشجر . ودخل بعض أهل الكلام أو الجدل ، من المنتسبين إلى الإسلام ، من المعتزلة ونحوهم ، في بعض مقالة الصابئة والمشرّكين . متابعة للجعد والجهم . وكان مبدأ ذلك أن الصابئة في الخلق على قولين : منهم من يقول : إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن . كما أخبر بذلك الرسل وكتب الله تعالى . ومنهم من ابتدع فقال : بل هي قديمة أزلية . لم تزل موجودة بوجود الأول واجب الوجود بنفسه . ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية . ولهم مقالات كثيرة الاضطراب ، في الخلق والبعث والمبدأ والمعاد . لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل من الله تعالى

يجمعهم . والظنون لا تجمع الناس في مثل هذه الأمور . التي تعجز الآراء عن درك حقائقها إلا بوحى من الله تعالى . وهم إنما ينظر بعضهم بعضا بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية . وقوى الطبائع الموجودة في التراب والماء والهواء والحیوان والمعدن والنبات . ويريدون بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله ، وعلم ما فوق السموات . وأول الأمر وآخره . وهذا غلط بين . اعترف أساطينهم بأن هذا غير ممكن . وأنهم لا سبيل لهم إلى إدراك اليقين . وأنهم إن يتبعون إلا الظن . فلما كان حال هذه الصائبة المبتدعة الضالة ومن أضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهتد بهدى الله الذى بعث به رسله ، من أهل الكلام والجدل - صاروا يريدون أن يأخذوا ما أخذهم . كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقواه^(١) : لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا يارسول الله ! فارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا فارس والروم ؟ فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصائبة . وهو الكلام في الأجسام والأعراض . بأن تثبت الأعراض ثم تثبت لزومها للأجسام . ثم حدوثها . ثم يقال : مالا يسبق الحوادث فهو حادث . واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في إثبات حدوث العالم . فلما رأوا أن الأعراض ، التي هي الصفات ، تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض - التزموا نفيها عن الله . لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم الذي اعتقدوا أن لا دليل سواه . بل ربما اعتقدوا أنه لا يصح إيمان أحد إلا به -

(١) أخرجه البخارى في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٤ - باب قول النبي ﷺ

« لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حديث ٢٥٨٩ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فقيل : يارسول الله ! كفارس والروم ؟ قال « ومن الناس إلا أولئك » ؟

معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . وهؤلاء يخالفون الصابئة الفلاسفة الذين يقولون بعدم العالم وبأن النبوة كمال يفيض على نفس النبي . لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقاً وأتبع للأدلة العقلية والسمعية ، لما تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن . وإن كانوا قد ضلوا في كثير مما جاء به الرسل . لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها . فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم . كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات . ورأوا أن إثباته متكلاً يقتضى أن يكون جسماً . والجسم حادث . لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف . بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره . لأنه يفتقر من الخارج إلى ما لا يفتقر إليه غيره . ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس في غيره . ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم ، والقرآن مملوء من إثبات ذلك - صاروا تارة يقولون : متكلم مجازاً لا حقيقة . وهذا قولهم الأول لما كانوا في بدعتهم على الفطرة . قبل أن يدخلوا في المائدة والمجود . ثم إنهم رأوا هذا شنيعاً فقالوا : بل هو متكلم حقيقة . وربما حكى بعض متكلميهم الإجماع . وليس عندهم كذلك . بل حقيقة قولهم وأصله ، عند من عرفه وابتدعه : إن الله ليس بمتكلم . وقالوا : المتكلم مَنْ فعل الكلام ، ولو في غل منفصل عنه . ففسروا المتكلم في اللغة بمعنى لا يعرف في لغة العرب ولا غيرهم ، لا حقيقة ولا مجازاً . وهذا قول من يقول : القرآن مخلوق . وهو أحد قولى الصابئة الذين يوافقون الرسل في حدوث العالم . وهو وإن كفر بما جاءت به الرسل ، فليس هو في الكفر مثل القول الأول . لأن هؤلاء لا يقولون : إن الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً ، وأن ينزل عليه هذا الكلام الذى خلقه . وأنكروا أن يكون متكلاً على الوجه الذى دلت عليه الكتب الإلهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة . ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة ، وبين المؤمنين أتباع الرسل ، الخلاف . فسكف هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم . واختلفوا في كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . واتبع المؤمنون ما أنزل إليهم من ربهم من أن الله تكلم بالقرآن . وأنه

كلم موسى تكليماً . وأنه يتكلم . ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون . بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الإيمان ، الذي علموا به مراد الرسل من أخبارهم برسالة الله وكلامه . وتبعوا هذا القرآن والحديث وإجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر أتباع الأنبياء . وعلموا أن قول هؤلاء أخبث من قول اليهود والنصارى . حتى كان ابن المبارك إمام المسلمين يقول : إننا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . وكان قد كثرت ظهور هؤلاء ، الذين هم فروع المشركين ، ومن اتبعهم ، من مبدلة الصابئين ثم مبدلة اليهود والنصارى في أوئل المائة الثانية وأوائل الثالثة ، في إمارة أبي العباس الملقب بالمأمون ، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين . الذين كانوا قبل النصارى ، ومن أشبههم من فارس والهند . وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم . وقد تقدم أن أهل الكلام المبتدع في الإسلام هم من فروع الصابئين . كما يقال : المعتزلة مخانث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة في أهل العلم والكلام . وفي أهل السيف والإمارة . وصار في أهلها من الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء ، ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . الذين اتبعوا ما أزل إليهم من ربهم . ولم يبدلوا وابتدعوا . وذلك لقصور وتفريط من أكثرهم ، في معرفة حقيقة ما جاء به الرسول وأتباعه .

فصل

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية الذين نصرروا أن الله له علم وقدرة وبصر وحياة ، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية . وفرّقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضاً . لأن المرض ما لا يدوم وما لا يبقى . أو ما يقوم بتمحيض أو جسم . وصفات الرب لازمة دأمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام . وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية ، فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة في كثير من أمورهم . وأثبتوا الصفات التي قد يستدل بالقياس العقلي عليها . كالصفات

السبع . وهى الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام . ولهم نزاع فى السمع والبصر والكلام . هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخيرية السمعية ؟ ولهم اختلاف فى البقاء والقدم . وفى الإدراك الذى هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات . ولهم أيضاً اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخيرية . كالوجه واليد . فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها . وكثير من متأخريهم لا يثبتها . وأما ما لا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ما عارضها من القياس العقلى عنده . ومنهم من يفوض معناها . وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات . وإنما المقصود القول فى رسالة الله وكلامه الذى بلغته رسله . فكان هؤلاء ، بينهم وبين أهل الوراثة النبوية ، قدر مشترك بما ملكوه من الطرق الصائبة فى أمر الخالق وأسمائه وصفاته . فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثة . لبسوا حق وريثة الأنبياء بباطل وريثة أتباع الصابئة . كما كان فى مذهب أهل الكلام المحض المبتدع كالمعتزلة ، تركيب . وليس بين الأئمة النبوية وبين الأئمة الصابئة . لكن أولئك أشد اتباعاً للأئمة النبوية ، وأقرب إلى مذاهب أهل السنة ، من المعتزلة ونحوهم ، من وجوه كثيرة . ولهذا وافقهم فى بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف ، لوجوه : أحدها - كثرة الحق الذى يقولونه وظهور الأئمة النبوية عندهم . الثانى - لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع فى الإسلام . واستيلاء ما فى ذلك من الشبهات عليهم . وظنهم أنه لم يكن التمسك بالأئمة النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه . الثالث - ضعف الأئمة النبوية الدافعة لهذه الشبهات والموضحة لسبيل الهدى عندهم . الرابع - المعجز والتفريط الواقع فى المنتسبين إلى السنة والحديث . تارة يرون ما يعلمون صحته . وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور . فلما كان هذا منهاجهم ، وقالوا : إن القرآن غير مخلوق ، لما دل على ذلك من النصوص وإجماع

السلف . ولمّا رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرروه في الصفات ، ورأوا أن التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقليّ ، لا يستقيم إلا أن يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى كسائر الصفات . كما جعله الأولون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديماً كسائر الصفات . ورأوا أنه ليس إلا مخلوقاً أو قديماً ، فإن إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضي حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ويبطل للدلالة حدوث العالم ، ثم رأوا أنه لا يجوز أن يكون معاني كثيرة ، بل إما معنى واحداً عند طائفة ، أو معاني أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام ، بل دالة عليه . فتسمى باسمه إما مجازاً عند طائفة أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة . وإما مجازاً في كلام الله ، حقيقة في غيره عند طائفة . وخالفهم الأولون وبعض من يستن أيضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والأصوات ، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه ، أو الإرادة ونوعها . فصار النزاع بين الطائفتين . وادعى هؤلاء أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام إضافية . ليست أنواعاً له وأقساماً . وأن كلام الله معنى واحد . إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن . وبالعبرية فهو تورا . وبالسريانية فهو إنجيل . وقال لهم أكثر الناس : هذا معلوم الفساد بالضرورة . كما قال الأولون : إنه خالق الكلام في الهواء فصار متكلماً به . وإن المتكلم من أحدث الكلام ولو في ذاتٍ غير ذاته . وقال لهم أكثر الناس : إن هذا معلوم الفساد بالضرورة . وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً . كما أن الإنسان المتكلم اسم للروح والجسم جميعاً . وإنه إذا أطلق على أحدهما بقرينة . وإن معاني الكلام متنوعة ليست منحصرة في العلم والإرادة ، كتنوع ألفاظه . وإن كانت المعاني أقرب إلى الاتحاد والاجتماع . والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرق . والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة . وإن لم يكن عندهم المعنى الذي هو كلام الله مخلوقاً . وفرّقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا : كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق . وكلام الله

هو معناها غير مخلوق . وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذى قال الأولون : إنه مخلوق . واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت فى الهواء أو فى نفس جبرئيل أو أن جبرئيل هو الذى أحدثها أو محمد ؟ وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل وما جاء عنهم من الكتب والأثر من العلم . وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً . لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين . وهو أن القرآن كله كلام الله . لا يجمعون بمضه كلام الله وبمضه ليس كلام الله . والقرآن هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن . حروفه ومعانيه . والأمر والنهى . هو اللفظ والمعنى جميعاً . ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة والفقهاء ، إذا تكلموا فى الأمر والنهى ، ذكروا ذلك ، وخالفوا من قال : إن الأمر هو المعنى المجرد . ويعلمون أهل الأثر النبوية أهل السنة والحديث وعامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة ؛ أن قوله تعالى : أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ^(١) . ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره . وكلام الله هو ما تكلم به ، لا ما خلقه فى غيره ولم يتكلم هو به . (وسئل تقي الدين أيضاً) ما تقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين ، فيمن يقول : الكلام غير المتكلم والقول غير القائل . والقرآن والقروء والقارى كل واحد منها له معنى . يبينوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد . أئنا بكم الله بمنه .

(فأجاب رحمه الله) : الحمد لله . من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، وأراد أنه مبائن له ومنفصل عنه ، فهذا خطأ وضلال . وهو من يقول : إن القرآن مخلوق . فإنهم يزعمون أن الله لا تقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره . ويوهمون الناس بقولهم : العلم غير العالم ، والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان

(١) [٢ / البقرة / ٢١] ... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .

غير الله فهو مخلوق . وهذا تلبيس منهم . فإن لفظ (الغير) يراد به ما يجوز مباثنته للآخر ومفارقته له . وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علم الله غيره ولا كلامه غيره . ولا يقال : إن الواحد من العشرة غيرها . وأمثال ذلك . وقد يقال بلفظ (الغير) ما ليس هو الآخر . وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف . ولكن على هذا المعنى ، لا يكون ماهو غير ذات الله الموصوفة بصفاته - مخلوقاً . لأن صفاته ليست هي الذات . لكن قائمة بالذات . والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله . وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها . بل يتمتع وجود ذات لا صفات لها . والصواب في مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم . والقول صفة القائل . وكلام الله ليس مباثناً منه . بل أسمع لجبرئيل ونزله به على محمد صلى الله عليه وآله وسلم . كما قال تعالى : **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .** ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته وانقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود . فقولهم (منه بدأ) رد على من قال (إنه مخلوق في بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق ابتداءً) فبينوا أنه الله هو المتكلم به . ومنه بدأ ، لا من بعض المخلوقات . (وإليه يعود) أى : فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف . وأما القرآن فهو كلام الله . فمن قال : إن القرآن ، الذى هو كلام الله ، غير الله - فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال : إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن الله له مقروء غير القرآن الذى تكلم به ، فخطؤه ظاهر . وكذلك : أن القرآن الذى يقرؤه المسلمون غير المقروء الذى يقرؤه المسلمون - فقد أخطأ . وإن أراد بالقرآن مصدر (قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا) وقال : أردت القراءة غير المقروء ، فلفظ القراءة مجمل قديراد بالقراءة القرآن ، وقديراد بالقراءة المصدر ، فمن جعل القراءة التى هى المصدر ، قال : القارئ غير المقروء . كما يجعل التكلم الذى فعله غير الكلام الذى هو يقول ، وأراد ب(الغير) أنه ليس هو إياه - فقد صدق . فإن الكلام الذى يتكلم به الإنسان يتضمن فعلاً كالحركة ، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف

والمعاني . ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسيما منه أخرى . فالأول كما يقال : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) : إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم . ومنه قوله تعالى : **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ^(٢) . ومنه قوله تعالى : **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَأَوَّاهُ مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ** ^(٣) . وأمثال ذلك فيما يفرق فيه بين القول والعمل . وأما دخول القول في العمل ففي مثل قوله تعالى : **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ^(٤) . وقد فسروه بقوله : لا إله إلا الله . ولما سئل ^(٥) : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله .

(١) أخرجه البخارى في : ٨٣ - كتاب الإيمان والنذور ، ١٥ - باب إذا حثت ناسياً في الإيمان ، حديث ١٢٤٢ ، عن أبي هريرة .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ، **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** .

(٣) [١٠ / يونس / ٦١] ... **إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ، **وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** .

(٤) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٥) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٢ - باب أى الرقاب أفضل ، حديث

١٢٤١ ونصه :

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » قلت : فإن لم أفعل ؟ قال « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » .

مع قوله^(١) : الإيمان بضع وسبعون . والحياة شعبة من الإيمان . أفضلها وأعلاها قول : لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ونظائر ذلك متعددة . وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً ، إذا قال قولاً كالقراءة ، هل يحنت ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره . بناء على هذا . فهذه الألفاظ التي فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ، وإلا وقع فيها نزاع واضطراب ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام تقي الدين رحمه الله تعالى .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب (الرد على الجهمية) : سألت أبي عن قوم يقولون (لا كلم الله موسى) : لم يتكلم بصوت . فقال أبي : بلى . تكلم جل ثناؤه بصوت . هذه الأحاديث تزويها كما جاءت . وقال أبي : حديث ابن مسعود^(٢) : إذا تكلم الله تعالى سمع له صوت

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٤ - باب في رد الإرجاء ، حديث ٤٦٧٦ .

(٢) لم أعر على حديث في هذا الموضوع وبهذا اللفظ لعبد الله بن مسعود ، وإنما وقفت على حديث لأبي هريرة .

أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٤ - سورة سبأ ، ١ - باب حتى إذا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، حديث ٢٠١٥ ونصه :

عن عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان . فإذا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا (للذي قال) الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

فيسمعا مسترق السمع ومسترق السمع ، هكذا بعضه فوق بعض . . .

فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ثم يلقها الآخر إلى من تحته حتى يلقها على لسان =

كرر السلسلة على الصفوان . قال : وهذه الجهمية تنكره . وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس . ثم قال : حدثنا المحاربى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عميد الله قال : إذا تكلم الله تبارك وتعالى بالوحى ، سمع صوته أهل السماء فيخرون سجداً .

وقال السفارينى فى (شرح العقيدة) : روى فى إثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثاً . وأخرج الإمام أحمد غالبها ، واحتج به . وأخرج الحافظ ابن حجر أيضاً فى (شرح البخارى) واحتج بها البخارى وغيره من أئمة الحديث . على أن الحق سبحانه يتكلم بحرف وصوت . وقد صححوا هذا الأصل واعتقدوه ، واعتمدوا على ذلك ، منزهي الله تعالى عما لا يليق بجلاله . من شبهات الحدوث وسمات النقص . كما قالوا فى سائر الصفات ، معتمدين على ما صح عندهم من صاحب الشريعة المصوم فى أقواله وأفعاله ، الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال الإمام الواسطى ابن شيخ الحرمين الشافعى فى (عقيدته) : إننى كنت برهة من الدهر متحيراً فى ثلاث مسائل : مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية ، ومسألة الحرف والصوت فى القرآن المجيد . وكنت متحيراً فى الأقوال المختلفة الموجودة فى كتب أهل العصر فى جميع ذلك . من تأويل الصفات وتحريفها ، أو إمرارها والوقوف فيها . أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل . فأجد النصوص فى كتاب الله وسنة رسوله ناطقة بمبينة لحقائق هذه الصفات . وكذلك فى إثبات العلو والفوقية ، وكذلك فى الحرف والصوت . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين فى كتبهم ، منهم من تأول الاستواء بالقهر والاستيلاء . وتأول

== الساحر أو الكاهن . فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها . وربما ألقاها قبل أن يدركه . فيكذب معها مائة كذبة .

فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟

فيصدق بتلك الكلمة التى سمع من السماء .

النزول بنزول الأمر . وتأول اليدين بالنعمتين والقدرتين . وتأول القدم بقدم صدق عندهم .
وأمثال ذلك . ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله معنى قائماً بالذات ، بلا حرف ولا صوت
ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم . ومن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها
قوم لهم في صدرى منزلة . مثل بعض فقهاء الأشعرية الشافعيين . لأننى على مذهب الشافعى
رحمه الله تعالى ، عرفت فرائض دينى وأحكامه . فأجد مثل هؤلاء الأجلة يذهبون إلى مثل
هذه الأقوال . وهم شيوخى . ولى فيهم الاعتقاد التام . لعلمهم وفضلهم . ثم إننى مع ذلك
أجد فى قلبى من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبى إليها . وأجد الكدر والظلمة منها .
وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها . فكنت كالتحجير . المضطرب فى تحيره . المتململ
من قلبه فى تقلبه وتغيره . وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول ،
مخافة الحصر والتشبيه . ومع ذلك ، فإذا طالعت النصوص الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله
أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعانى . وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها
خبراً عن ربه ، واصفاً له بها . ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص ويؤولها كما تأولها هؤلاء
الفقهاء المتكلمون . ثم قال : والذين أولوا ما أولوا ، هو أنهم ما فهموا فى صفات الرب إلا ما يليق
بالخلقين . فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه ، وعطلوا ما وصف الحق به نفسه . ولو علموا
أن هذه الصفات هى كلها ثابتة له ، كما يليق بجلاله وعظمته ، لا على ما نعقل من صفات
المخلوقين ، لسلموا من التشبيه والتأويل المؤدى إلى التعطيل .

ثم قال : وسأله الحرف والصوت تساق هذا المساق . فإن الله تعالى قد تكلم بالقرآن
المجيد بجميع حروفه . فقال تعالى : ألمص^(١) . وقال : ق ، والقرءان المجيد^(٢) . وكذلك

(١) [٧ / الأعراف / ١] .

(٢) [٥٠ / ق / ١] .

جاء في الحديث ^(١) : فينادى يوم القيامة بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب . وفي الحديث : لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف . فهؤلاء ما فهموا

(١) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٢ - باب قول الله تعالى :
وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ
رَبُّكُم قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . ونصه :

عن جابر عن عبدالله بن أنيس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : يحشر الله العباد فيناديهم
بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب : أنا الملك ، أنا الديان .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : أخرجه بتمامه في الأدب المفرد . وكذا أخرجه
أحمد وأبو يعلى والطبراني ، كلهم من طريق هام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي
عن عبد الله بن محمد بن عقيل .

وهاكم نص الحديث في الأدب المفرد ، رقم ٩٧٠ (بتحقيقنا) :

عن ابن عقيل أن جابر بن عبدالله حدثه أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ .
فابتعت بعيراً ، فشددت إليه رحلي شهراً حتى قدمت الشام . فإذا عبد الله بن أنيس . فبعت
إليه أن جابراً بالباب . فرجع الرسول فقال : جابر بن عبدالله ؟ قلت : نعم . فخرج فاعتنقني .
قلت : حديث بلغني لم أسمعه . خشيت أن أموت أو تموت . قال : سمعت النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم
يقول « يحشر الله العباد - أو الناس - عراة غُرلاً بهما » قلنا : ما بهما ؟ قال « ليس معهم
شيء . فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد (أحسبه قال : كما يسمعه من قرب) : أنا الملك .
لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة . ولا ينبغى لأحد
من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة » .

قلت : وكيف ؟ وإنما نأتى الله عراة بهما ؟ قال « بالحسنات والسيئات » .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

من كلام الله إلا ما فهموه من كلام المخلوقين . فقالوا : إذا قلنا بالحرف فإن ذلك يؤدي إلى القول بالجوارح واللهوات . وكذلك إذا قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الحلق والخنجرة . فعملوا بهذا من التخبيط كما عملوا فيما تقدم من الصفات . والتحقيق هو أن الله تعالى تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فإنه قادر - والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات . وكذلك له صوت يليق به يُسمع . ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والخنجرة . فكلام الله كما يليق به ، وصوته كما يليق به . ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه ، لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات . فإنهما في جناب الحق لا يفتقران إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله : هذا عبارة عن ذلك . فإن قيل : هذا الذي يقرؤه القارئ هو عين قراءة الله وعين تكلمه هو؟ قلنا : لا . بل القارئ يؤدي كلام الله . والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً ، لا إلى من قاله مؤدباً مبلغاً . ولفظ القارئ في غير القرآن مخلوق ، وفي القرآن لا يتميز اللفظ المؤدى عن الكلام المؤدى عنه . ولهذا منع السلف من قول (لفظي بالقرآن مخلوق) لأنه لا يتميز . كما منعوا عن قول (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فإن لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه . كيلا يؤدي الكلام في ذلك إلى القول بخلق القرآن . وما أمر السلف بالسكوت عنه ، يجب السكوت عنه . والله الموفق والمعين .

تنبيه :

قال في (العناية) : القراءة المشهورة في الآية رفع الجلالة الشريفة . وقرئ بنصبها في الشواذ . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ أبو بكر بن مردويه أن رجلاً جاء إلى أبي بكر ابن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ : وكلم الله موسى تكليماً . فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على

أبي عبد الرحمن السلمي ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا .

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش ، رحمه الله ، على من قرأ كذلك ، لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه . وكأن هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن الله كلم موسى عليه السلام ، أو يكلم أحداً من خلقه . كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ : وكلم الله موسى تَكْلِيمًا . فقال له : يا ابن الحنا ! كيف تضع بقوله تعالى ^(١) : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ،

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« رُسُلًا » أي : كل هؤلاء النبيين أرسلناهم رُسُلًا « مُبَشِّرِينَ » بالجنة لمن آمن « وَمُنْذِرِينَ » من النار لمن كفر « لِئَلَّا » لكيلا « يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ » يوم القيامة أي : معذرة يعتذرون بها قائلين : لولا أرسلت إلينا رسولاً فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك ، لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح ، وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها . كما في قوله عز وجل : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ... الآية ^(٢) . وإنما سميت حجة ،

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ... قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٣٤] ... مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِي .

مع استحالة أن يكون لأحد عليه، سبحانه، حجة في فعل من أفعاله ، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء - للتنبيه على أن العذرة في القبول عنده تعالى ، بمقتضى كرمه ورحمته لعباده ، بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مرد لها . ولذلك قال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ^(١) . أفاده أبو السعود .

وفي الصحيحين ^(٢) عن المغيرة : لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ مِنَ اللَّهِ . ومن أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين . وقوله تعالى «بَعْدَ الرُّسُلِ» أى : بعد إرسار الرسل وإنزال الكتب .

(١) [١٧ / الإبراء / ١٥] ونصها : مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ...

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث ٣٥ (طبعنا) ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ليس أحد أحبَّ إليه المدح من الله عز وجل . من أجل ذلك مدح نفسه . وليس أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش . وليس أحد أحبَّ إليه العذر من الله . من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » .

وأخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٧ - باب لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفي : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧ - سورة الأعراف ، ١ - باب إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفي : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٠٧ - باب المغيرة .

وفي : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٥ - باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ .

الحديث ٢٠٠٣ وكل طريق من هذه الطرق تنقص القطعة التي أوردها المؤلف وأخرجها مسلم ، ضمن الحديث .

متعلق بـ (حجة) أو بمحذوف وقع صفة لها . وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل . كما قال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ^(١) . وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى ، لا تثبت إلا بالسمع « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا » يعنى فى انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله « حَكِيمًا » فى بعث الرسل للإنذار .

تنبيه :

أشارت الآية إلى بيان حاجة البشر إلى إرسال الرسل ، وإلى وظيفتهم عليهم السلام . قال العلامة السيد محمد عبده ، مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى هذا البحث : أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ، الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعَدُّ لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ؟ وهو أعلم حيث يجعل رسالته . يميزهم بالفطر السليمة و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه . والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم ، لفاضت له نفسه أو ذهبت بمقله جلالته وعظمه . فيشرفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العاملين . نهاية الشاهد وبداية الغائب . فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها . ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى على العقول من شؤون حضرته الرفيعة ، بما يشاء أن يعتقد العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سماعتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه . معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد عن متناول أفهامهم . وأن يبلغوا عنه شرائع عامة . تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعامهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

السكون الغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله . ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة . ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات . حتى تقوم بهم الحجة ويتم الإقناع بصدق الرسالة . فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه ، مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وجاد على كل حي بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه - يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره - أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط في أهم حياته والضلال في أفضل حاله .

يقول قائل : ولِمَ لَمْ يودع في الغرائز ما تحتاج إليه من العلم ، ولم يضع فيها الاقياد إلى العمل ، وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث . وهو النوع الإنساني . ذلك النوع ، على ما به ، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراد ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال . فلو ألهم حاجته كما تلهم الحيوانات ، لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إمّا حيواناً آخر ، كالنحل والنمل ، أو ملكاً من الملائكة . ليس من سكان هذه الأرض .

ثم قال : إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملة ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً ، من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فكره يتصرف فيه ، كما فطر على الشعور بقاها تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفض عليه ، مع ذلك الشعور ، عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقي به في مطارح النظر تحمله الأفكار في مجاريها . وترى به إلى حيث يدرى ولا يدرى . وفي كل ذلك الويل على جامعته ،

والخطر على وجوده . أقهل مُنىَ هذا النوع بالنقص ، ورزى بالقصور عن مثل ما بلغه
أضعف الحيوانات وأحاطها في منازل الوجود ؟ نعم . هو كذلك . لولا ما أتاه الصانع الحكيم
من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملوكوت ، ويطاول بفسكره
أرفع معالم الجبروت . ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم . ثم
يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع ، متى عرض له أمرٌ ما ،
لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه . ذلك لسرِّ عرفه المستبصرون . واستشعرته نفوس الناس
أجمعين .

من ذلك الضعف قيد إلى هواه . ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته . أكل
الواهبُ الجوادُ لجلته ، ما اقتضته حكمته في تخصيص نوعه ، بما يميزه عن غيره ، أن ينقص من
أفراده . وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس ، لينظر في طاب اللقمة ، وستر العورة
والتوق من الحر والبرد - جاد على الجملة بما هو أمسّ بالحاجة في البقاء ، وآثر في الوقاية من
غوائل الشقاء . وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالإجماع . من عليه بالنائب الحقيقي
عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التي أفقرت منها . لم يخالف سنته فيه ، من بناء كونه
على قاعدة التعليم والإرشاد . غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهي جهة الخضوع
والاستكانة . فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين . وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم
لا يشرّكهم فيها سواهم . وأيد ذلك ، زيادة في الإقناع ، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ
الطريق على سوابق العقول . فيستخذي الطامح . ويذل الجامع . وبصطدم بها عقل العاقل
فيرجع إلى رشده . وينهر لها بصر الجاهل فيرتدّ عن غيه . يطرِّقون القلوب بقوارع من أمر الله .
ويدهشون المدارك ببواهر من آياته . فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له . ويستوى
في الركون لما يحيئون به المالك والملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والفضول

والفاضل . فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراريّ منه بالاختياريّ النظريّ . يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم . وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته . وأولئك هم الأنبياء والرسلون . فبعثة الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، من ممتات كون الإنسان . ومن أهم حاجاته في بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله : لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (١) .

ثم قال ، في الكلام على وظيفة الرسل عليهم السلام : تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنسانيّ إلى الرسل ، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه . ولكنها حاجة روحية ؛ وكل ما لامس الحس منها ، فالتقص فيه إل الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة وتقويم ملكاتها . أو إبداعها مافيه سعادتها في الحياتين . أمّا تفصيل طرق المعيشة ، والخذق في وجوه الكسب ، وتناول شهوات العقل إلى درك ما أُعِدَّ للوصول إليه ، من أسرار العلم - فذلك مما لا دخل للرسالات فيه . إلا من وجه العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً علماً حكماً متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته . وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال . وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشراً في نفسه أو عرضه أو ماله ، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة ، على ما حدد في شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته . ويبينون الحد الذي يجب

(١) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً .

أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان . على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقله بما آتاه الله من القوة . يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده . ويُنهضون نفوسهم إلى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات ؛ ويدكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات ، فيما اختلف من الأوقات . تذكره لمن ينسى . وتركية مستمرة لمن يخشى . تُقَوَّى ما ضعف منهم . وتزبد المستيقن يقيناً .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع . ويؤيدون ، بما يلبغون عنه ، ما تقوم به المصالح العامة . ولا تفوت به المنافع الخاصة . يَعُودُونَ بالناس إلى الألفة . ويكشفون لهم سر المحبة . ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة . ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ، ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفندتهم . يعلمونهم لذلك أن يرعى كلُّ حق الآخر ، وإن كان لا ينفل حقه . وأن لا يتجاوز في الطلب حده . وأن يعين قوتهم ضعيفهم . ويمد غنيهم فقيرهم . ويهدي راشدهم ضالهم . ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة . يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم . كاحترام الدماء البشرية إلا بحق . مع بيان الحق الذي تهدر له . وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق . مع بيان الحق الذي يبيع تناوله . واحترام الأعراض . مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع . ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على المهود والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحمونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسب أمرهم الله جل شأنه . يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم .

ثم يحيطون ببيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعدَّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى . لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره ، وتجنب الوقوع في محظوراته . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لمعباده في العلم به ؛ مما لو صعب على العقل اكتناحه ، لم يشقَّ عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس وتتلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الأجر . أو إرضاءً لمن بيده الأمر . وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني . لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم .

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات . فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكنَّ من طبقات الأرض ؛ ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها . ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في إبقاء أشخاصها وأنواعها ... وغير ذلك مما وضعت له العلوم . وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم . فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هَدَى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . يزيد في سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين . ولكن كانت سنة الله في ذلك ، أن يتبع طريقة التدرج في الكمال . وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعدَّ الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض - فإنما يقصد منه ، النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى القوص لإدراك أسرارهِ وبدائِهِ . وحالهم ، عليهم الصلاة والسلام ، في مخاطبة أممهم ، لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون . وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم . ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق إلى العامة ، بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة . وكذلك ما وجه إلى الخاصة ، يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة . وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم .

على كل حال ، لا يجوز أن يقام الدين حجةً بين الأرواح ، وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان . بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان . مطالباً لها باحترام البرهان . فراضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديه من العوالم . ولكن مع التزام القصد ، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين . انتهى .

ولما تضمن قوله تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... الآية ، إثبات نبوته والاحتجاج على تمنعهم عليه ، بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء ، كأنه قيل : إنهم لا يشهدون بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ » من القرآن المعجز الناطق بنبوتك . قال الزمخشري : معنى شهادة الله بما أنزل إليه ، إثباته لصحته ، بإظهار المعجزات . كما ثبتت الدعاوى بالبينات . إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب ، بالمعجزة « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » أى : وهو عالم به ، رقيب عليه . فالظرف حال من الفاعل . والجملة كالتفسير لما قبلها « وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » أى : بذلك « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » على صحة نبوتك وإن لم يشهد غيره . وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بما شهد الله بإزاله، مع اطلاعهم على إعجازه « وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » وهو دين الإسلام ، مَنْ أَرَادَ سَلُوكَهُ « قَدْ ضَلُّوا » أى بما فعلوا « ضَلَالًا بَعِيدًا » لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا » أى الخلائق بإضلالهم « لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا » لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة . التى هى طريق الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

« إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ » أى : المؤدى إليها . وهو اكتسابهم الأعمال السيئة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » أى : هينًا لا يمسر عليه ولا يستعظمه . ولما قرر أمر النبوة ، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ، ووعد من أنكرها ، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعيد على الرد ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : بالهدى ودين الحق والبيان الشافى الذى يجب قبوله « فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ » أى : إيمانًا خيرًا لكم . أو اثبتوا أمرًا خيرًا لكم من تقليد المعاندين « وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : فهو قادر على تعذيبكم لعظم ملكوته . أو فهو غنى عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم . كما قال تعالى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ^(١) « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » فى صنعه . ولما أجاب تعالى عن شبهات اليهود وألزمهم الحجة ، جرد الخطاب للنصارى ، زجرًا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ » أى : بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَى ...

وادعاء الوهيته . فإنه تجاوزَ فوق المنزلة التي أُوتِيَهَا . وهي الرسالة . واستفيد حرمة الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد . وفي الصحيح ^(١) عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله . وقال الإمام أحمد ^(٢) : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد ! يا سيدنا وابن سيدنا ! وخيرنا وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس ! عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله . والله ! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل .

قال ابن كثير : تفرد به من هذا الوجه . « وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ » أي : لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد . بل نزوهه عن جميع ذلك « إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه به من كونه ابناً لله تعالى « رَسُولُ اللَّهِ » خبر المبتدأ أعنى المسيح . أي : مقصور على مقام الرسالة لا يتخطاه « وَكَلِمَتُهُ » أي : مكوّن بكلمته وأمره الذي هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة « أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » أي : أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام « وَرُوحٌ مِنْهُ » أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة . وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم . كما يقال : بيت الله ، وناقة الله . وقيل : الروح هو نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم . فحملت بإذن الله . سمي النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح . وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمره تعالى وإذنه .

قال أبو السعود : (من) لا ابتداء الغاية مجازاً ، لا تبعيضية ، كما زعمت النصارى . يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشد ، ناظر على بن حسين الواقدي الروزي ذات يوم ، فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى . وتلا هذه الآية . فقرأ الواقدي : وَسَخَّرَ

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذا كرفي الكتاب مريم ،

حديث ١٢١٤

(٢) قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في (عمدة التفسير) : إنه الحديث رقم ١٢٥٧٨ .

لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ^(١) . فقال : إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جبراً منه ، تعالى علواً كبيراً . فانقطع النصراني وأسلم . وفرح الرشيد فرحاً شديداً ، ووصل الواقدي بصلة فاخرة . وقيل : سمي روحاً ، لإحيائه الموتى بإذن الله . وقيل : لإحيائه القلوب . كما سمي به القرآن لذلك ، في قوله تعالى^(٢) : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا . وقيل : أريد بالروح الوحي الذي أوحى إلى مريم بالبشارة . وقيل : جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة ، قالوا : إنه روح . فلما كان عيسى عليه السلام متكوّناً من النفخ ، لا من النطفة ، وصف بالروح . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله في الذكر ، مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه ، في الوجود - لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل ، وتعيين مآل ما يحتمله ، وسدّ باب التأويل الزائغ . انتهى . « فَاَمِنُوا بِاللَّهِ » وخصوه بالالوهية « وَرُسُلِهِ » أي : جميعهم وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلسلهم بوصفه بالالوهية « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » أي : الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم . كما ينبي عنه قوله تعالى^(٣) : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وقد ذكر السيد عبد الله الهندي في مناظرته مع قسيس الهند حكاية عن مناظره ؛ أنه

- (١) [٤٥ / الجاثية / ١٣] ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .
 (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ... مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
 (٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

حكى أن فرقة من النصارى تسمى (كولى رى دينس) كانت تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم. قال : ولعل هذا الأمر كان مكتوباً فى نسخهم، لأن القرآن كذبهم . انتهى .

أو التقدير: ولا تقولوا: الله ثلاثة. أى ثلاثة أقانيم . وى تعاليمهم المدرسية المطبوعة الآن مانصه : أخص أسرار المسيحية سر الثالث. وهو إله واحد فى ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس. والأب هو الله والابن هو الله وروح القدس هو الله. وليسوا ثلاثة آلهة. بل إله واحد موجود فى ثلاثة أقانيم متساوين فى الجوهر ومتميزين فيما بينهم بالأقنومية. وذلك لأن لهم جوهرها واحدا ولاهوتها واحدا وذاتا واحدة. وليس أحد هذه الأقانيم الثلاثة أعظم أو أقدم أو أقدر من الآخرين . لكون الثلاثة متساوية فى العظمة والأزلية والقدرة وفى كل شىء . ماعدا الأقنومية. ولا نقدر أن نفهم جيداً هذه الحقائق لأنها أسرار فائقة العقل والإدراك البشرى . انتهى كلامهم فى تعليمهم المدرسى المطبوع فى بيروت سنة (١٨٧٦) مسيحية . فانظر إلى هذا التناقض والتمويه . يعترفون بأن الثلاثة آلهة . ثم يناقضون قولهم وينكرون ذلك .

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه (إظهار الحق) عن صاحب (ميزان الحق) النصرانى أنه قال : نحن لا نقول : إن الله ثلاثة أشخاص أو شخص واحد . بل نقول بثلاثة أقانيم فى الوحدة . وبين الأقانيم الثلاثة وثلاثة أشخاص بُعد السماء والأرض . انتهى .

قال رحمة الله : وهذه مغالطة صرفة . لأن الموجود لا يمكن أن يوجد بدون الشخص . فإذا فرض أن الأقانيم موجودون وممتازون بالامتياز الحقيقى ، كما صرح هو بنفسه فى كتبه ، فالقول بوجود الأقانيم الثلاثة هو بعينه القول بوجود الأشخاص الثلاثة . على أنه وقع فى الصحيفة التاسعة والعشرين من كتاب الصلاة، الرائج فى كنيسة انسكرترة ، المطبوع سنة (١٨١٨) ما ترجمته : أيها الثلاثة المقدسون والباركون والعالون منزلةً ، الذين هم واحد . يعنى ثلاثة أشخاص وإلهها واحداً . فوقع فيه ثلاثة أشخاص صريحاً . وكذلك مملوءة بعبارات

مصرحة بأن عيسى ابن الله، وأنه الله، وأن مريم أم الله وزوجة الله . ويسجدون لها ولصورتها السجود المحرّم في كتبهم لغير الله، كما يسجدون لله . نسأله سبحانه وتعالى الحفظ . ونعوذ به من الخذلان وتسويلات الشيطان .

ولقد شفى الغليل الأستاذ الجليل الشيخ رحمة الله في (إظهار الحق) فساق ، في الباب الرابع منه، إبطال التثليث بالبراهين الدامنة والحجج البالغة . كما رد عليهم من المسلمين وممن أسلم منهم عدد وافر بقوت الحصر . وقد انتشر ، والله الحمد ، في ذلك مؤلفات نافعة . بل رد عليهم فرق كثيرة منهم . فقد جاء في كتاب (الرأي الصواب وفصل الخطاب) للقس جبارة ماصورته : إن المسيحيين الموحدين الذين ظهروا منذ (٨٠) سنة في أميركا ولهم الآن ثلاثمائة كنيسة والدرجة الأولى في المعارف والمدارس والاجتماعات الأدبية ، وكذلك لهم في انكلترا ثلاثمائة كنيسة وتآليف عديدة معتبرة ، ويعتبرون القرآن كما يعتبرون الإنجيل والتوراة كتباً إلهية - لا يؤمنون بتثليث الآلهة . أى إنهم لا يعتقدون بكون السيد المسيح أو الروح القدس هو إله حقيقى . كالله الواجب الوجود . بل يعتقدون أن الله وحده هو الإله الحق . انتهى . وفيه أيضاً ما لفظه : كل الكتب المنزلة تعلم بالوحدانية وتنفي تثليث الآلهة . أو كون الله

ثلاثة . وتعلن صريحاً بأوضح العبارة : أن الله واحد أحد . وأنه لا إله حقاً سواه . انتهى .

وفي كتاب (سوسنة سليمان) ذكر فرق منهم متعددة صارت إلى إنكار ألوهية المسيح والروح القدس . وهذا الكتاب ساق من فرقهم العتيقة والحديثة واختلافهم ما يقضى بالعجب . مما يؤيد ما قاله الحافظ ابن كثير، من أن لهم آراء مختلفة وأقوالاً غير مؤلفة . ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً . انتهى .

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في (الرسالة القبرصية) : ففترق النصارى في التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتيتاً لا يقرّ به عاقل ولم يجرى نقل . إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب . قد بينها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله . كلها تنطق

بعبودية المسيح وعبادته لله وحده . ودعائه وتضرعه . ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله ، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله . فأرباب التثليث في الوجدانية ، والاتحاد في الرسالة ، قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة الله التي فطر الناس عليها ، وبكتب الله التي أنزلها . انتهى .

وقد اجتمع لدى ، بحمده تعالى ، حين كتابة هذه السطور عشرون مؤلفاً في الرد عليهم . وكلها ، والله الحمد ، مطبوعة منتشرة . فلا حاجة للإطالة بالنقل عنها . لسهولة الوقوف عليها . قال الماورديّ في (أعلام النبوة) : فأما النصارى فقد كانوا ، قبل أن تنصر قسطنطين الملك ، على دين صحيح في توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام . ثم اختلفوا في عيسى بعد تنصر قسطنطين . وهو أول من تنصر من ملوك الروم . أى لأن الروم كانوا صابئة . ثم قهرهم على التنصر قسطنطين لما ملكهم . فقال أوائل النسطورية : إن عيسى هو الله . وقال أوائل اليعاقبة : إنه ابن الله . وقال أوائل الملكانية : إن الآلهة ثلاثة . أحدهم عيسى . ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر ، حين استنكرته النفوس ، ودفعته العقول ، فقالوا : إن الله تعالى جوهر واحد . هو ثلاثة أقانيم : أقنوم الأب . وأقنوم الابن . وأقنوم روح القدس . وأنها واحدة في الجوهرية . وأن أقنوم الأب هو الذات . وأقنوم الابن هو الكلمة . وأقنوم روح القدس هو الحياة . واختلفوا في الأقانيم . فقال بعضهم : هي خواص . وقال بعضهم : هي أشخاص . وقال بعضهم : هي صفات . وقالوا : إن الكلمة اتحدت بعيسى . واختلفوا في الاتحاد .

ثم قال : وليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول . وفسادها ظاهر في المعقول . وقوله تعالى « انتهوا » أى : عن التثليث « خَيْرًا لَكُمْ » أى : انتهاء خيرا . أو اقصدوا خيراً من التثليث وهو التوحيد « إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ » أى : بالذات . لا تعدد فيه بوجه ما . وبقوله « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » تنزيه لمقامه جل شأنه ، عما زعموه من نبوة عيسى

حيث قالوا : إنه الله وابن الله . والذي أوقعهم في هذه المهلكة الوخيمة ، والورطة الجسيمة ، ما ورد موهماً من ألفاظ الإنجيل كالآب والابن . فلم يحملوها على ما أريد منها . وحملوها على ظاهرها . فضلوا وأضلوا . وفي (منية الأذكياء) ما نصه : وأما ما ورد في الإنجيل الموجود الآن ، من إطلاق ابن الله على عيسى عليه السلام ، فهو - إن لم يكن مما حرّف - يكون مجازاً ، بمعنى ابن المحبة . كما يقال : فلان من أبناء الدنيا . ونظير ذلك قول عيسى عليه السلام لليهود ، حين ادعوا أن لهم أباً واحداً هو الله : (لو كان الله أباً لكم لكنتم تحبونني) . ثم قال لهم : (أنتم من أب هو إبليس . وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) . ادعت اليهود أن الله تعالى أبوهم . أي أنهم مطيعون له إطاعة الابن للآب . فكذبهم عيسى عليه السلام وجعلهم أبناء الشيطان . أي أنهم مطيعون له . ولا يخفى أن الابن والآب هنا مجازان . وقد كثر إطلاق اسم الآب على الله تعالى . واسم الابن على العبد الصالح ، في الكتب السالفة . فهو إما من الخبط في الترجمة . وإما مؤول بما ذكرنا ، فلا تغفل . لكن قد منع من هذا الإطلاق في الملة المحمدية بالكلية ، تحرزاً من الإيهام والوقوع في شرك الأوهام . وهذا هو الطريق الرشيد . وقوله تعالى « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تعليل لتنزهه مما نسب إليه . بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه . فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه ؟ إذ البنوة والملك لا يجتمعان « وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أي : إليه بكل خلق أمورهم . وهو غني عنهم . فأنّى يتصور في حقه اتخاذ الولد ، الذي هو شأن العجزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)

« لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه . أى : لن يأنف من أن يكون عبداً لله . فإن عبوديته شرف يتباهى به «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » من أن يكونوا عبيداً له تعالى . واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء . قال الزمخشري : أى : ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً . وهم الملائكة الكروبيون . الذين حول العرش . جبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومن في طبقتهم .

ثم قال : فإن قلت : من أين دل قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) على أن المعنى : ولا من فوقه ؟ قلت : من حيث إن علم المعاني لا يقتضى غير ذلك . وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوتهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية . فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية . ولا من هو أرفع منه درجة . كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية . فكيف بالمسيح ؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بيّنة ، تخصيص المقربين . لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلامهم منزلة . ومثاله قول القائل ^(١) .

وما مثله ممن يُجَاوِدُ حَاتِمٌ ولا البحر ذوالأمواج يَلْتَجِ زَاخِرُهُ
لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذى الأمواج ، ما هو فوق حاتم في الجود . ومن كان له

(١) لم أعر على هذا البيت في غير هذا الموضع فلا أعلم قائله . ممن يجاود أى : ممن يجاوده حاتم . والمجاودة مفاعلة من الجود . وزخر البحر يزخر زخراً وزخوراً : طماً وتملاً . والتج البحر : تلاطمت أمواجه .

ذوق فليدق، مع هذه الآية قوله : وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى^(١) ، حتى يعترف بالفرق بين . انتهى .

قال البيضاوى : وجوابه أن الآية : للرد على عبدة المسيح والملائكة . فلا يتجه ذلك . وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالمطف البالغة باعتبار التكثير دون التكبير . كقولك : أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤس . وإن أراد به التكبير فغاياته تفضيل المقربين من الملائكة ، وهم الكروبيون ، الذين هم حول العرش ، أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة ، على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه . انتهى .

قال ناصر الدين في (الانتصاف) : وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة . فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء . وذهب القاضى أبوبكر ، مناه ، والحليمى وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة . واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم في تفضيل الملائكة . من حيث الوجه الذى استدل به الزمخشري . ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية . فنقول : أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة . أحدها - أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام . فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح ، أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام . وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء ، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة . وبين طائفتنا في هذه الطرف خلاف (السؤال الثانى) أن قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) صيغة جمع . تتناول مجموع الملائكة . فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح .

(١) [٢ / البقرة / ١٢٠] ونصها : وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ، وَلَنْ إِتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح . وفي هذا السؤال أيضا نظر . لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة ، فقد يقال يلزمه القول بأنه أفضل من الكل . كما أن النبي عليه الصلاة والسلام ، لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء ، كان أفضل من كلهم . ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل ، والتفضيل على الجملة أحد ممن صنف في هذا المعنى . وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين ، وادعى أنه لا يلزم منه ، على التفصيل ، تفضيل على الجملة . ولم يثبت عنه هذا القول . ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف . وهو : أن التفضيل المراد ، جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة . والأحاديث متوافرة بذلك . وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم ، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه . لا سبيل إلى الأول . لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل . فتمين الثانى وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع ، ضرورة . فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم ، قطعاً . الثالث أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو . وهى لا تقتضى ترتيباً . وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أن الثانى أبداً يكون أعلى رتبة ، فعارض بأمثلة لا تقتضى ذلك . كقول القائل : ما عابنى على هذا الأمر زيد ولا عمرو . قلت : وكقولك لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً . فإن هذا الترتيب وجه الكلام . والثانى أدنى وأخفض درجة . ولو ذهبت تعكس هذا ، فقلت : لا تؤذ ذمياً ولا مسلماً ، ليجعل الأعلى ثانياً ، لخرجت عن حد الكلام وقانون البلاغة . وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرر . ولكن الحق أولى من المراء . وليس بين المثاليين تعارض . ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء . فنقول : النسبة في الترتيب في المثاليين الموهوم تعارضهما واحدة . وهى توجب في مواضع تقديم الأعلى ، وفي مواضع تأخيرها . وتلك النسبة مقتضى البلاغة التناؤى عن التكرار والسلامة عن النزول . فإذا اعتمدت ذلك فهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة

إلى أوله ، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول ، قد أقاده . وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، واستثناءً لفائدة لم يشتمل عليها الأول. مثاله الآية المذكورة . فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة ، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه . لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح ، على هذا التقدير ، عبداً لله غير مستنكف من العبودية - لزم من ذلك أن من دونه في الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله ، وهم الملائكة على هذا التقدير . فلم يتجدد إذاً بقوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) إلا ما سلف أول الكلام . وإذا قدرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة ، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له ، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك . وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل . فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة . إذ لم يستلزم الأول الآخر . فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتزايد . وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز . لأنه الغاية في البلاغة . وبهذه النكتة يجب أن نقول : لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً . فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في الآية . لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم ، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام . فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر السلوبة عنه هذه الخصوصية . فإذا قلت : ولا ذمياً - فقد جددت فائدة لم تكن في الأول . وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى ، إلى النهي عن أكثر منه . ولو رتب هذا المثال كترتيب الآية ، فقلت : لا تؤذ ذمياً ، فهم النهي أن أذى المسلم أدخل في النهي . إذ يساوى الذم في سبب الاحترام وهو الإنسانية مثلاً ، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم وهو الإسلام . فيقمنه هذا النهي عن تجديده نهى آخر عن أذى المسلم . فإن قلت : ولا مسلماً ، لم تجدد له فائدة . ولم تعلمه غير ما علمه أولاً . فقد علمت أنها نكتة واحدة ، توجب أحياناً تقديم الأعلى ، وأحياناً تأخيره . ولا يميز لك ذلك إلا السياق . وما أشك أن سياق الآية يقتضى تقديم الأدنى وتأخير الأعلى . ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة

قوله تعالى : فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ ^(١) . استغناءً عن نهيه عن ضربهما فما فوقه . بتقدير الأدنى . ولم يلق بيلاعة الكتاب العزيز أن يريد نهياً عن أعلى من التأفيف والإنهار (كذا) . لأنه مستغنى عنه . وما يحتاج التدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ^(٢) . ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة ، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد لذلك ، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف . وذلك أن تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاعتدار . قال : وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية . لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام . مستندين إلى كونه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ^(٣) . وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة . فناسب ذلك أن يقال : هذا الذي صدرت على يديه الخوارق ، لا يستكف عن عبادة الله تعالى . بل من هو أكرم خوارق وأظهر آثاراً . كالملائكة القربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام . وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه . فقلب عاليها

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ، مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .
(٣) [٣ / آل عمران / ٤٩] ونصها : وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَابْتَئِشْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

سافلها. فيكون تفضيل الملائكة ، إذًا ، بهذا الاعتبار . لا خلاف أنهم أقوى وأبطش وأن خوارقهم أكثر . وإنما الخلاف في التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء . وليس في الآية عليه دليل . ولما كان أكثر مالبس على النصارى في ألوهية عيسى كونه مخلوقًا ، أى : موجودًا من غير أب ، أنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب ، لا يستنكف من عبادة الله . بل ولا الملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم . فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى . ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام . فنظر الغريب بالأغرب . وشبه العجيب من قدرته بالعجب . إذ عيسى مخلوق من أم . وآدم من غير أم ولا أب . ولذلك قال ^(١) : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . ومدار هذا البحث على النكتة التي نهت عليها . فتى استقام احتمال المذكور أيًا ما على فائدة ، لم يشتمل عليها الأول بأى طريق كان ، من تفضيل أو غيره ، من الفوائد - فقد استند النظر وطابق صيغة الآية والله أعلم . وعلى الجملة فالسألة سمعية . والقطع فيها معروف بالنص الذى لا يحتمل تأويلًا . ووجوده عسر ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . انتهى . « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ » أى : يأنف منها ويمتنع « وَيَسْتَكْبِرْ » أى : يتعظم عنها ويرفع « فَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا » أى : فيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذى وعدهم ، ويفصل بينهم بحكمه العدل .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] ونصها : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيِّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » فلم يستكبروا عن عبوديته « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فلم يستنكفوا عن عبادته « فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ » أى ثواب أعمالهم من غير أن ينقص منها شيء « وَزَيِّدُهُمْ » أى على أجورهم شيئاً عظيماً : « مِنْ فَضْلِهِ » بتضعيفها أضعافاً مضاعفة ، مبالغة في إعزازهم « وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا » أى : عن عبادة الله عز وجل « فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » هو عذاب النار « وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا » يوالهم ليعزهم « وَلَا نَصِيرًا » ينصرهم ويدفع عنهم العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ » لما بين تعالى بطلان ما عليه الكفرة على طبقاتهم من فنون الكفر والضلال ، عم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وسماه برهاناً لما أوتيته من البراهين القاطعة التي شهدت بصدقه . ففيه تنبيه لهم على أن الحجة قد تمت ببعثته . فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل . قال أبو السعود : التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير مخاطبين ، لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتريتهم وتكميلهم « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا » أى : ضياءً واضحاً على الحق . يهتدى به من ظلمات الضلال . وهو القرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ » أى : عصموا به أنفسهم مما يُرديها من زبغ الشيطان « فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ » وهى الجنة « وَفَضْلٍ » يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة . كالنظر إلى وجهه الكريم وغيره من مواهبه الجليلة « وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا » فيسلكهم ، بتمسكهم بالبرهان والنور المبين ، الطريق الواضح المقصد . وهو الإسلام . وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة ، على الوعد بالهداية إليها ، على خلاف الترتيب في الوجود بين الموعودين - للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلي . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ

وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِيهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِن كَانَتَا

اِثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ

حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ، وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« يَسْتَفْتُونَكَ » أى : في ميراث الكلاله . استغنى عن ذكره لوروده في قوله سبحانه « قُلِ

اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وقدم تفسيرها في مطلع السورة الكريمة . والمستفتى

جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما . روى الشيخان^(٢) وغيرها عن جابر بن عبد الله قال :

دخل على النبي ﷺ وأنا مريض . فتوضأ فصب علىّ . أو قال : صبوا عليه . فمقلت فقلت : لا يرثني

(١) أخرجه البخارى في : ٧٥ - كتاب المرضى ، ٢١ - باب وضوء المائد للمريض ،

إلا كلاله . فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض « **إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا** » أى : مات . واختصاص الملاك بميتة السوء عُرِفَ طارىء لا يعتد به . بدليل ما لا يحصى من الآى والأحاديث . ولطرو هذا العرف قال الشهاب فى (شرح الشفاء) : إنه يمنع إطلاقه فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولا يعتد بأصل اللغة القديمة ، كما لا يخفى عن له مساس بالقواعد الشرعية والله أعلم . كذا فى (تاج العروس) . « **لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ** » أى : الميت ، من المال .

قال ابن كثير : تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الوالد ، بل يكفى فى وجود الكلاله انتفاء الولد . وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير^(١) عنه بإسناد صحيح . ولكن الذى يرجع إليه ، قول الجمهور . وقضى الصديق رضى الله عنه ؛ أنه الذى لا ولده ولا والد . وبدل على ذلك قوله (**وَلَهُ أُخْتٌ**) ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع . فدل على أنه من لا ولده بنص القرآن ، ولا والد بالنص أيضاً ، عند التأمل أيضاً . لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد . بل ليس لها ميراث بالكلية . وروى الإمام أحمد^(٢) عن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم ؟ فأعطى الزوج النصف والأخت النصف . فكلم فى ذلك فقال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بذلك . وقد نقل ابن جرير^(٣) وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان (فى الميت ترك بنتاً وأختاً) : أنه لا شىء للأخت لقوله (**إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا**) **لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**) قال : فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً . فلا شىء للأخت . وخالفهما الجمهور فقالوا (فى هذه المسألة) : للبنت النصف بالفرض . وللأخت النصف الآخر بالتعصيب . بدليل غير هذه الآية . وهذه نقصت أن يفرض لها فى هذه الآية . وأما ورائتها بالتعصيب .

(١) الأثران : ٨٧٤٨ و ٨٧٦٧ .

(٢) المسند بالصفحة ١٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة ٤٤٣ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

فلما رواه البخارى^(١) من طريق سليمان عن إبراهيم الأسود قال : قضى فينا معاذ بن جبل ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النصف للبنت والنصف للأخت . ثم قال سليمان (قضى فينا) ولم يذكر (على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفي صحيح البخارى^(٢) أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال : سئل أبو موسى الأشعري عن بنت ، وبنت ابن ، وأخت ؟ فقال . للبنت النصف وللأخت النصف ، وائت ابن مسعود فسيتابعني . فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . أفضى فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم : النصف لبنت . ولبنت الابن السدس ، تكملة للثلاثين . وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ » أى : والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله ، وليس لها ولد . أى : ولا والد . لأنها لو كان لها ولد لم يرث الأخ شيئاً . فإن فرض أن معه من له فرض ، صرف إليه فرضه . كزوج أو أخ من أم . وصرف الباقي إلى الأخ . لما ثبت في الصحيحين^(٣) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر . وقوله تعالى « فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَاهُمَا الثُلثَانِ مِمَّا تَرَكَ » أى : فإن كان ، لمن يموت كلاله ، أختان - فرض لهما الثلثان . وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما . ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين . كما استفيد حكم الأخوات من البنات ،

(١) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٦ - باب ميراث البنات ،

حديث ٢٤٩٧ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٨ - باب ميراث ابنة ابن مع

ابنة ، حديث ٢٤٩٨ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٥ - باب ميراث الولد من أبيه

وأمه ، حديث ٢٤٩٦ .

ومسلم في : ٢٣ - كتاب الفرائض ، حديث ٣٠٢ (طبعنا) .

في قوله : (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)^(١) . وقوله تعالى « وَإِنْ كَانُوا »
 أى : من يرث بطريق الاخوة « إِخْوَةً » أى مختلطة « رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِي كَرِ » أى منهم
 « مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ » أى مثل نصيب اثنتين من أخواته الإناث « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ
 تَضِلُّوا » أى : كراهة أن تضلوا في ذلك . أو على تقدير (اللام ولا) في طرفي (أَنْ) أى
 لثلاثاوا . وقيل : ليس هناك حذف ولا تقدير . وإنما هو مفعول (يبين) أى : يبين لكم
 ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم . لتحتزروا عنه وتتحروا خلافه .
 ورجحه بعضهم بأنه من حسن الختام ، والاتفات إلى أول السورة وهو^(٢) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 اتَّقُوا رَبَّكُمْ) فإنه أمرهم بالتقوى . وبين لهم ما كانوا عليه في الجاهلية . ولما تم تفصيله
 قال لهم : إني بينت لكم ضلالكم فاتقوني كما أمرتكم . فإن الشر إذا عرف اجتنب .
 والخير إذا عرف ارتكب .

قال العلامة أبو السعود : وأنت خير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى على طريقة
 تعيين مواقع الخطأ والضلال ، من غير تصريح بما هو الحق والصواب . وليس كذلك .

(١) [٤ / النساء / ١١] ونصها : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي كَرِ مِثْلُ حَظِّ
 الْأُنثِيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
 النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْمِثْلِثِ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمِثْلِثِ الشُّدُسُ ، مِنْ
 بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
 نَفْعًا ، فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
 الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

« وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا » من الأشياء التي من جاتها أحوالكم المتعلقة بحياكم ومماتكم « عَلِيمٌ »
مبالغ في العلم . فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم .

تنبيهات

الأول - اعلم أنه تعالى لما بين في أول السورة أحكام الأموال ، ختم آخرها بذلك أيضاً ،
ليكون الآخر مشاكلاً للأول . وأما وسط السورة فقد اشتمل على المناظرة مع الفرق
المخالفة للدين .

الثاني - نزل في الكلاله آيتان : إحداهما في الشتاء ، وهي التي في أول هذه السورة .
والأخرى في الصيف وهي هذه الآية . ولهذا تسمى هذه الآية آية الصيف .

الثالث - روى البخاري^(١) ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : آخر
سورة نزلت براءة . وآخر آية نزلت : يَسْتَفْتُونَكَ . والله سبحانه وتعالى أعلم .
وهو الموافق والمعين .

وقد تم بحمده تعالى ما تيسر من (محاسن تأويل) هذه السورة الكريمة . ضحوة

الجمعة ، غرة صفر الخير عام (١٣٢٠) . في السدة اليمنى العليا من جامع السنانية .

على يد كاتبه وجامعه العبد الضعيف الذليل الجهول ، محمد جمال

الدين القاسمي ، غفر المولى له وأعانه على الإتمام

بمنه وكرمه

وبليه الجزء السادس . وأوله : (سورة المائدة)

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٢٧ - باب

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ، حديث ١٩٤١ .

ومسلم في : ٢٣ - كتاب الفرائض ، حديث ١٠ - ١٣ (طبعنا) .

جدول

بيان الخطأ والصواب الذي جاء بالجزء الرابع

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار، حفظه الله .

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٧٥٢	١٧	ثلاثة معانٍ
٧٦١	١٢	لا يُعلم معناها
٧٦٥	•	« تَرْزَقَانِه »
٧٦٦	٣	تعويلا
٧٧١	١٦	« وَاصِرٌ »
٧٧٣	١١	أحدها
٧٧٤	٤	غلوًا
٧٧٨	•	« أَفْقَالَهَا »
٧٧٩	٧	« يُسَبِّحَنَّ »
٧٨٤	٣	القرآن
—	٦	تأويله
٧٨٥	١٢	« مِنْ عِلْمٍ »
٧٨٦	١٠	يُسْتَنْكَرُ
٧٨٧	١٢	لعله : ومنهم مَنْ عَكَسَ
٧٩٨	١٩	« بِالْقِسْطِ »
٨٠١	١٤	تخويف
٨٠٢	١٠	« التَّقَاتَا »
٨١١	١٢	« مَا جَاءَهُمْ »
—	١٩	« مِمَّا تُشْرِكُونَ »

تصويب أخطاء الجزء الرابع

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨١٣	٢٠	« رَبِّكَ »
٨١٩	١٥	باستعظام
٨٢٠	٩	وإماتة
٨٢٠	١٢	المالكية
٨٢٢	١٨	« كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »
٨٢٤	١٠	على هذا
٨٢٦	١٠	التكفير
٨٣١	١٤	سبعة مواضع
٨٣٣	١٦	« رَبِّ إِيَّيْ »
٨٣٤	٩	لاسيما
٨٣٦	٥	ممدوداً
٨٤٠	٨	تعالى
٨٤٠	١١	« وَالْإِنِّكَارِ »
٨٤٣	٢٠	« رَحْمَةً »
٨٤٨	٣	السابعة عشرة
٨٤٨	٣	لا تظنوا
٨٥٣	١٦	قوله تعالى
٨٥٧	١	منا ومنكم
٨٦٣	١١	في كتابكم
٨٧٢	١١	« يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ »
٨٧٨	١٤	« لَا يَسْتَكْبِرُونَ »
٨٨٩	٩	« البرّ »
٨٩٠	٣١	البرّ

تصويب أخطاء الجزء الرابع

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨٩٧	١١	خلاها
٨٩٨	١٤	أحدها
٩١٥	٦	كبرت
٩١٦	٢٠	(٢)
٩٢١	٥	يخصّ
٩٢١	٦	ثابتا
٩٢١	١٢	« وَأُولَئِكَ »
٩٢٨	٥	(٢)
٩٣٩	١٥	ثلاث
٩٣١	٩	« أَخَذْنَا »
٩٣٢	١١	« إِلَى رَبِّهَا »
٩٣٣	آخر سطر - عيس	
٩٤١	١٧	« عَلَى الصَّلَوَاتِ »
٩٤٣	١٢	وإينار
٩٥٤	١٤	يمكث
٩٦٥	٢٠	« تَكُونُ »
٩٦٦	١٠	(١)
٩٨٠	١٥	الأمسين
٩٨٠	١٩	« فِي ابْتِغَاءِ »
٩٨١	١٣	« أَنْ تَدْخُلُوا »
٩٨١	١٦	[٣ / آل عمران / ١٤٢] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
		تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
		مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

تصويب أخطاء الجزء الرابع

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٩٨٩	١٦	نَعَى عَلَيْهِم
٩٩٩	•	أَوْ يَقُولُهُ
١٠٠٧	١٩	التشبيه
١٠١٧	٩	على ظهر
١٠١٧	١٤	معاصيها
١٠٢٠	٨	لا سيما
١٠٢٤	١١	« وَمَا كَانَ »
١٠٢٨	٩	« وَيُرَكِّبُهُمْ »
١٠٢٩	٩	ضعفها
١٠٢٩	١٢	بمينه
١٠٢٩	١٣	« مَا أَصَابَكَ »
١٠٣٩	٣	واقتموه
١٠٦٣	١٠	« وَإِذْ »
١٠٧٦	٢	« مُهَيَّنٌ »
١٠٧٦	١٣	مستأنفة
١٠٨٢	٢	« اصْبِرُوا »

وجزى الله مولانا الأستاذ خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين
النافعين . آمين .

كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٢٩/٣٨/ص]

تفسير الفاسمي

المسمى

مَحَاسِنُ التَّائُوْدِ

تَأليف علامه الشَّام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء السادس

وفيه تفسير سورتي المائدة والأنعام

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد رفيع عبد الحفيظ

دار الخيال الكنتون الحريمية

عيسى البابی الحلبی وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

«هو علامة الشام، ونادرة الأيتام،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين
هذى السلف ، والارتقاء المدنى الذى
يقتضيه الزمن»

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع
فهما ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنقذ عليه
خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سميت بها لأن قصتها أعجب ما ذكر فيها . لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم على من آمن . وعنّف شديد على من كفر . فهو أعظم دواعي قبول التكليف ، المفيدة عقدة المحبة من الاتصال الإيماني ، بين الله وبين عبّيده . أفاده المهايمي .
وهذه السورة مدنية . وآياتها مائة وعشرون .

قال الشهاب الخفاجي : السورة مدنية ، إلّا قوله تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . الخ . فإنها نزلت بمكة . انتهى .
أقول : في كلامه نظران :

الأول - إن هذا بناء على أن المكيّ منازل بمكة ولو بعد الهجرة . والمدنيّ منازل بالمدينة . وهو اصطلاح لبعض السلف . ولكن الأشهر كما في (الإتيقان) : أن المكيّ ما نزل قبل الهجرة . والمدنيّ ما نزل بعدها . سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار .

والثاني - بقى عليه ، لو مشى على ذاك الاصطلاح ، آيات أخر .
قال السيوطي في (الإتيقان) : في (النوع الثاني معرفة الحضريّ والسفريّ) للسفريّ أمثلة .

منها : أول المائدة . أخرج البيهقي في (شعب الإيمان) عن أسماء بنت يزيد ؛ أنها نزلت بمعنى . وأخرج في (الدلائل) عن أم عمرو ، عن عمها ؛ أنها نزلت في مسير له . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب قال : نزلت سورة المائدة في حجة الوداع ، فيما بين مكة والمدينة .

ومنها : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)^(١) في الصحيح عن عمر : أنها نزلت عشية عرفة ، يوم الجمعة ، عام حجة الوداع . وله طرق كثيرة . لكن أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري : أنها نزلت يوم غدير خم . وأخرج مثله من حديث أبي هريرة . وفيه : إنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، مرجعه من حجة الوداع . وكلاهما لا يصح .

ومنها : آية التيمم فيها : في الصحيح^(٢) عن عائشة : أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة .

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتَةُ الدِّمِّ وَلَحْمُ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث ٢٣٠ ونصه :

عن عائشة زوج النبي ﷺ ، قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على نخذي ، قد نام . فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول . وجعل يطعنني بيده في خاصرتي ، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على نخذي . فقام رسول الله ﷺ ، حين أصبح ، على غير ماء .

ومنها : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ...) (١) الآية نزلت بيطن نخل .

ومنها : (وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ) (٢) نزلت في ذات الرقاع . انتهى .
وسياتى إن شاء الله تعالى بسط هذه الروايات ، عند هذه الآيات .

قال ابن كثير : روى الإمام أحمد (٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لأخذه بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها . فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وروى الإمام أحمد (٤) أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، لم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها . تفرد به أحمد . وروى الحاكم عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لى : يا جبير ! تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت . فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه . وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

= فأنزل الله آية التيمم فتيمموا .

فقال أسيد بن الحضير : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .
قالت : فبعثنا البعير الذى كنا عليه ، فأصبنا المقد تحتة .

(١) [٥ / المائدة / ١١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) أخرجه فى السند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه فى السند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٤٣ (طبعة المعارف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَخْصِمُ مَا يُرِيدُ) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ » روى ابن أبي حاتم ؛ أن رجلاً أتى عبد الله ابن مسعود فقال : اعهد إلى ! فقال : إذا سمعت الله يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) فأرעה سمعك . فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه .

(و) (الوفاء) ضد العذر ، كافي (القاموس) وقال غيره : هو ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء . يقال : وفى بالعهد وأوفى به .

قال ناصر الدين في (الانتصاف) : ورد في الكتاب العزيز (وفى) بالتضعيف في قوله تعالى : وَءِبراهيمَ الَّذِي وَفَّى^(١) . وورد (أوفى) كثيرا . ومنه : أوفوا بالعقود . وأما (وفى) ثلاثيا ، فلم يرد إلا في قوله تعالى : وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ^(٢) . لأنه بنى أفعال التفضيل من (وفى) إذ لا يبنى إلا من ثلاثي .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٩ / التوبة / ١١١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

و (المقود) جمع عقد وهو العهد الموثق . شبه بعقد الجبل ونحوه ، وهى عقود الله التى عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف . قال على بن طلحة : قال ابن عباس : معنى باليهود ما أحلّ الله وما حرم ، وما فرض ، وما حصدّ فى القرآن كلّهُ ، ولا تنفروا ولا تنكثوا . وقال زيد بن أسلم : المقود ستة : عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين . قال الزخشرى : والظاهر أنها عقود الله عليهم فى دينه ، من تحليل حلاله وتحريم حرامه . وأنه كلام قديم مجمل . ثم عقب بالتفصيل . وهو قوله : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةُ الْأَنْعَامِ » البهيمة ما لا عقل له مطلقاً ، من ذوات الأرواح أو ذوات الأربع . قال الراغب : خص فى المتعارف بما عدا السباع والطيور . وإضافتها للأنعام ، للبيان . كثوب الخبز . وإفرادها لإرادة الجنس . أى : أحلّ لكم أكل البهيمة من الأنعام . جمع (نَم) محرّكة وقد تسكن عينه . وهى الإبل والبقر والشاة والمز « إِلَّا مَا يُقْتَلُ عَلَيْكُمْ » معنى : رخصت لكم الأنعام كلها . إِلَّا ما حرم عليكم فى هذه السورة ، وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك . وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة والبحيرة . فأخبر الله تعالى أنهم حلالان ، إِلَّا ما بين فى هذه السورة ، ثم قال « غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ » معنى : أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون . ذ (غير) نصب على الحالية من ضمير (لكم) . قال فى (العناية) : ولا يرد ما قيل : إنه يلزم تقيد إحلال بهيمة الأنعام بحال انتفاء حل الصيد وهم حرم . وهى قد أحلت لهم مطلقاً . ولا يظهر له فائدة ، إِلَّا إذا عنى بالبهيمة الظباء وحمر الوحش وبقره . لأنه - مع عدم اطراد اعتبار المفهوم - يعلم منه غيره بالطريق الأولى . لأنها إذا أحلت فى عدم الإحلال لغيرها ، وهم محرمون لدفع الحرج عنهم ، فكيف فى غير هذه الحال ؟ فيكون بياناً لأنعام الله عليهم بما رخص لهم من ذلك . وبياناً لأنهم فى غنية عن الصيد وانتهاك حرمة الحرم . وفى (الإكليل) : فى الآية تحريم الصيد فى الإحرام والحرم . لأن « حرماً » بمعنى محرمين ، ويقال : أحرم أى : بحجّ وعمره . وأحرم : دخل فى الحرم . انتهى .

قال بعض الزيدية : والمراد بالصيد المحرم على المحرم ، هو صيد البر . لقوله في هذه السورة :
 (أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ
 حُرُمًا)^(١) هذا إذا جعل (حرم) جمع (محرم) وهو الفاعل للإحرام . وإن جعل للداخل في
 الحرم ، استوى تحريم البحري والبري . وذلك حيث يكون في الحرم نهر فيه صيد فيحرم ،
 لقوله تعالى^(٢) : وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . لأنه يقال لمن دخل الحرم ، أنه محرم . كما يقال :
 أعرق وأجد : إذا دخل العراق ونجدًا . ويكون التحريم في مكة وحرم المدينة لما ورد من الأخبار
 في النهي عن صيد المدينة وأخذ شجرها . نحو : المدينة^(٣) حرم من غير إلى ثور . انتهى .
 « إِنَّ اللَّهَ يَعْزِمُ مَا يُرِيدُ » من تحليل وتحريم . وهو الحكيم في جميع ما يأمر به
 وينهى عنه .

- (١) [٥ / المائدة / ٩٦] ونصها : أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ
 وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ .
 (٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] .
 (٣) أخرجه البخاري في : ٢٩ - كتاب فضائل المدينة ، ١ - باب حرم المدينة ،
 حديث ٩٤٣ ونصه :

عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا . لا يقطع
 شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .
 ورواه أيضاً في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٦ - باب إثم من آوى محدثاً . ونصه :
 حدثنا عاصم قال : قلت لأنس : أحرّم رسول الله ﷺ المدينة ؟ قال : نعم . ما بين كذا
 إلى كذا . لا يقطع شجرها . من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .
 و (ما بين كذا إلى كذا) معناه : من غير إلى ثور .

وانظر ، في ذلك ، البحث التاريخي الذي حررناه ورددنا فيه على ثلاثة من الأئمة الكبار
 المتقدمين . ومن تابعهم من إخواننا المعاصرين . انظر صحيح مسلم (طبعتنا) عند الكلام على
 صحيفة الإمام علي بن أبي طالب ، صفحة (٩٩٥) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنَّ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ » أى : معالم دينه . وهى المناسك . وإحلالها أن يتهاون بحرمتها ، وأن يحال بينها وبين التنسكين بها . وقد روى ابن جرير ^(١) عن عكرمة

(١) ابن جرير : الأثر ١٠٩٥٨ عن السدى ، والأثر : ١٠٩٥٩ عن عكرمة .

وسنسوق الأثرين بنصهما وبتحقيقهما بقلم السيد محمود محمد شاكر ، لاختلاف نصوصهما عن نص المؤلف :

الأثر ١٠٩٥٨ - حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدثنا أسباط عن السدى قال : أقبل الحطيم بن هند البكرى ، ثم أحد بنى قيس بن ثعلبة ، حتى أتى النبي ﷺ وحده . وخلف خيله خارجة من المدينة . فدعاه . فقال : إلام تدعو ؟ فأخبره = وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه « يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ! » فلما أخبره النبي ﷺ ، قال : أنظر ، ولعل أسلم ، ولى من أشاوره .

نخرج من عنده . فقال رسول الله ﷺ « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر » .

فرّ بسرح من سرح المدينة فساقه . فانطلق به وهو يرتجز :

قد لفها الليلُ بسواقٍ حُطَمَ	ليس براعى إبلٍ ولا غنمٍ
ولا يجزّأرٍ على ظهر الوَضَمِ	باتوا نياماً ، وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلامٌ كالزَّلمِ	خدلجُ الساقين ممسوحُ القدمِ

وَالسَّيِّئَاتِيَّ قَالَا: نَزَلَتْ فِي الْحُطَمِ، واسمه شريح بن هند البكري . أتى المدينة وَخَدَهُ . وَخَلَفَ خِيْلَهُ خارج المدينة . ودخل على النبي ﷺ فقال له: إلامَ تدعو الناس ؟ قال ﷺ : إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة . فقال : حسن . إلامَ أن لي أمراء لا أقطع أمرا دونهم . ولعلي أسلم وأتوني بهم . فخرج من عنده . وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان . فلما خرج شريح قال النبي ﷺ :

= (قال السيد محمود محمد شاكر : وقبل هذا الرجز :

* هذا أوان الشدِّ فاشتدَّى زَيْمٌ *

و (زيم) : اسم فرس . وقوله (حطم) : شديد الحطم ، فقالوا للسائق الذي لا يُبقي شيئا من السير والإسراع : (حطم) . و (الوضم) ما يوقى به اللحم عند تقطيعه ، من خشب أو غيره . و (الزلم) بفتح الزاي واللام ، أو بضم الزاي ، واحد (الأزلام) وهي قذاح الميسر . يعني كالقدح في صلابته ونحافته وملاسته . و (خدلج الساقين) : ممتلي الساقين ، وهذا غير حسن في الرجال . وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي :

* مُهْفَهْفُ الْكَشْحَيْنِ خَفَاقُ الْقَدَمِ *

أى : ضامر الخصر . و (خفاق القدم) لأقدامه خفق متتابع على الأرض من سرعته وهو يحدو بالإبل . ورواية الطبري (ممسوح القدم) أى : ليس لباطن قدمه أخمص . فأسفل قدمه مستو أملس لين ، ليس فيهما تكسر ولا شقاق . وقد جاء في صفة رسول الله ﷺ (مسيح القدمين) اهـ . ولنرجع إلى باقي الأثر :

ثم أقبل من عام قابل حاجا قد قلَّد وأهدى . فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية ، حتى بلغ . . . وَلَا ءَامِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ .

قال له ناس من أصحابه : يا رسول الله ! خلّ بيننا وبينه ، فإنه صاحبنا ! قال « إنه قد قلَّد » قالوا : إنما هو شيء كنا نصنعه في الجاهلية ! فأبى عليهم . فنزلت هذه الآية . =

لقد دخل بوجه كافر، وخرج بقفاغادر . وما الرجل بمسلم . فر بسرح من سراح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول :

قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمَ لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ
وَلَا يَجْزَأُ عَلَى ظَهْرِ الْوَضَمِ بَاتُوا نِيَامًا وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ
بَاتَ يُقَاسِمُهَا غَلَامٌ كَأَنَّ لَمْ خَدَلَجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ الْقَدَمِ

فتبعوه فلم يدركوه . فلما كان العام القابل، خرج شريح حجاج بكربن وائل، من اليمامة . ومعه تجارة عظيمة . وقد قلّد الهدى . فقال المسلمون : يا رسول الله ! هذا الحطم قد خرج حاجًّا نَحَلَّ بيننا وبينه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه قد قلّد الهدى . فقالوا : يا رسول الله ! هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية . فأبى النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ . قال ابن عباس : هي المناسك . كان المشركون يحجون ويهدون . فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم . فنهاهم الله عن ذلك . وعن ابن عباس أيضاً : لا تحلوا شعائر الله : هي أن تصيد وأنت محرم . ويقال : شعائر الله، شرائع دينه التي حدّها لعباده . وإحلالها الإخلال بها . وظاهر أن عموم اللفظ يشمل الجميع .

= وأما الأثر رقم ١٠٩٥٩ فما كوه بنصه :

حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثني حجاج عن ابن جريج عن عكرمة قال : قدم الحُطَمُ ، أخو بني ضبيعة بن ثعلبة البكرى ، المدينة في غير له يحمل طعاما ، فباعه . ثم دخل على النبي ﷺ فبايعه وأسلم . فلما ولى خارجاً ، نظر إليه فقال لمن عنده « لقد دخل على بوجه فاجر ، وولى بقفا غادر » .

فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام . وخرج في غير له تحمل الطعام في ذى القعدة، يريد مكة . فلما سمع به أصحاب رسول الله ﷺ ، تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقطعوه في غيرهِ ، فأنزل الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ... الآية . فاتتهى القوم .

«وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ» المراد به الجنس . فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم . وهى أربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب . أى لا تحلوها بالقتال فيها . وقد كانت العرب تحرم القتال فيها فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام لم يَنْقُضْ هذا الحكم . بل أكده . كذافى (لباب التأويل) .

قال ابن كثير : يعنى بقوله : وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال . كما قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)^(١) . وقال تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) الآية^(٢) . وفى صحيح البخارى^(٣) عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ - باب قوله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، حديث ٥٩ ونصه : عن أبى بكرة عن النبى ﷺ قال : إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

قال ، في حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرا . منها أربعة حرم... الحديث وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت . كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، في قوله تعالى (وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) : يعنى لا تستحلوا القتال فيه . وكذا قال مقاتل وعبد الكريم بن مالك الجزرى . واختاره ابن جرير أيضاً . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ . وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم . واحتجوا بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ^(١) . والمراد أشهر التسيير الأربعة . قالوا : فلم يستثن شهرا حراما من غيره . انتهى . وفي كتاب (الناسخ والمنسوخ) لابن حزم : إن الآية نسخت بآية السيف . ونقل بعض الزيدية في (تفسيره) عن الحسن أنه ليس في هذه السورة منسوخ . وعن أبي ميسرة : فيها ثمانى عشرة فريضة . وليس فيها منسوخ . (انتهى) .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد الماد) في (فصل سرية الخطب) كان أميرها أبا عبيدة ابن الجراح . وكانت في رجب ، فيما ذكره الحافظ بن سيد الناس في (عيون الأثر) . ثم قال ، في فقه هذه القصة : إن فيها جواز القتال في الشهر الحرام . إن كان ذكر التاريخ فيها رجب ، محظوظاً . والظاهر ، والله أعلم ، أنه وهم غير محفوظ . إذ لم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه غزا في الشهر الحرام ، ولا أغار فيه ، ولا بعث فيه سرية . وقد عيّر

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

المشركون المسلمين لقتالهم فيه في أول رجب ، في قصة العلاء بن الحضرمي ، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام . وأنزل الله في ذلك : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ^(١) . الآية . ولم يثبت ما ينسخ هذا بنص يجب المصير إليه ، ولا اجتمعت الأمة على نسخه . وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحرام بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ^(٢) . ولا حجة في هذا . لأن الأشهر الحرم ههنا هي أشهر التسيير التي سیر الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها . وكان أولها يوم الحج الأكبر ، عاشر ذى الحجة . وآخرها عاشر ربيع الآخر . هذا هو الصحيح في الآية لوجوه عديدة ، ليس هذا موضعها . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا الْهَدْيَ » أي : لا تحلوه بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله . والهدى : ما أهدى إلى السكبة من إبل أو بقر أو شاة . وفي (الإكليل) : هذا أصل في مشروعية الإهداء إلى البيت . وتحريم الإغارة عليه . وذبحه قبل بلوغ محله . واستدل بالآية أيضاً على منع الأكل منه .

« وَلَا الْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهي ما يقلد به الهدى ، من نعل أو لحاء شجر ، ليعلم أنه هدى ، فلا يتعرض له . والمراد النهي عن التعرض لذوات القلائد من الهدى . وهي البدن . وعطفها على (الهدى) مع دخولها فيه ، لمزيد التوصية بها ، لمزيتها على ما عداها . إذ هي أشرف الهدى . كقوله : وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(٣) عطفًا على الملائكة . كأنه قيل : والقلائد منه ، خصوصاً . أو النهي عن التعرض لنفس القلائد ، مبالغة في النهي عن التعرض

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٧ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٨ .

(٣) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

لأصحابها . على معنى : لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها . كما نهى عن إبداء الزينة بقوله تعالى : وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ^(١) . مبالغة في النهى عن إبداء مواقعها . كذا لأبي السعود .

وقال الحافظ ابن كثير : معنى لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام . فإن فيه تعظيم شعائر الله . ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام . ولعلم أنه هدى إلى الكعبة . فيجتنبها من يريد بها سوء . وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها . فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذى الحليفة . وهو وادى العقيق . فلما أصبح طاف على نسائه ، وكن تسمي . ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين . ثم أشعر هديه وقلده . وأهل للحج والعمرة ، وكان هديه إبلا كثيرة تُذيف على الستين ، من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى^(٢) : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

(١) [٢٤ / النور / ٣١] ونصها : وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ تَفْلِحُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] .

قال بعض الساف : إعظامها استحسنها واستسماها . قال علي بن أبي طالب ^(١) : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف المين والأذن . رواه أهل السنن . وقال مقاتل : ولا القلائد ، فلا تستحلوه . وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم ، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر . وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره ، فيأمنون به . رواه ابن أبي حاتم .

وقال عطاء : كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون . فنهى الله عن قطع شجره . وكذا قال مطرف بن عبدالله . وأمانهم بذلك منسوخ . كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد وقوله ^(٢) : فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . وبسنده إلى ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا . « وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ » أى : لا تحلوا قوما قاصدين زيارة المسجد الحرام بأن تصدوهم أو تقاتلوهم أو تؤذوهم ، لأنه من دخله كان آمناً . وقوله تعالى : « يَتَتَفَعُونَ فُضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا » حال من المستكن في (ءَامِينَ) أى : قاصدين زيارته حال كونهم

(١) أخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٦ - باب ما يكره من الضحايا ،

حديث ٢٨٠٤ ونصه :

عن علي قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف المين والأذنين ، ولا نضحى بعوراء ، ولا مقابلة ، ولا مداراة ، ولا خرقاء ، ولا شرقاء .

والترمذي في : ١٧ - كتاب الأضاحي ، ٦ - باب ما يكره من الأضاحي .
والنسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٩ - باب المدابة وهي ماقطع من مؤخر أذنها .
وابن ماجة في : ٢٦ - كتاب الأضاحي ، ٨ - باب ما يكره أن يضحى به ، حديث ٣١٤٢ .
(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّعْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

طالبين التجارة ورضوان الله بحجهم . ونقل ابن كثير عن ثمانية من سلف المفسرين أنه عني بالفضل طلب الرزق بالتجارة . قال : كما تقدم في قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ^(١) . وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن الآية نزلت في الحطام ابن هند البكري . وتقدمت قصته . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : كان المؤمنون والمشركون يحجون ، فهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا من مؤمن أو كافر . ثم أنزل الله بعدها : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا^(٢) ... الآية . وقال تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ^(٣) . وقال : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^(٤) . فنفى المشركين من المسجد الحرام . وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن قتادة في قوله (وَلَا الْقَلَائِدُ وَلَا ءَامِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ) قال : منسوخ . كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج ، تقلد من الشجر ، فلم يعرض

(١) [٢ / البقرة / ١٩٨] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٢٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ١٧] ونصها : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٩ / التوبة / ١٨] ونصها : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ .

له أحد . فإذا رجع تقلد قلادة من شعر ، فلم يعرض له أحد . وكان المشرك يومئذ لا يصدّ عن البيت . فأمرُوا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت . فنسخها قوله ^(١) : فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله (وَلَا الْقَلَائِدَ) بمعنى أن من تقلد قلادة من الحرم ، فأمّوه . قال : ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك . قال الشاعر ^(٢) :

أَلَمْ تَقْتُلَا الْحِرَّ جَيْنَ إِذَا غَوَّرَا كَمَا يُمِرَّانِ بِالْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمُضَفَّرَا

أفاده ابن كثير . وهذه الروايات توضح أنه عني : (الآمين) : المشركين خاصة . إذ هم

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) استشهد به الطبري بالصفحة ٤٧٠ من الجزء التاسع .

قال السيد محمود محمد شاكر : ذكر الطبري أن الشعر في رجلين قتلا رجلين ، وروى : أَلَمْ تَقْتُلَا . والذي في المراجع : أَلَمْ تَقْتُلُوا . وهو الذي يدل عليه سياق الشعر . فإن أوله قبل البيت : أَلَا أُبَلِّغُكُمْ جُلَّ السَّوَارِي وَجَابِرَا وَأُبَلِّغُ بَنِي ذِي السَّهْمِ عَنِّي وَيَعْمَرَا وَقَوْلَا لَهُمْ عَنِّي مَقَالَةَ شَاعِرٍ أَلَمْ يَقُولِ ، لَمْ يَحَاوِلْ لِيَفْخَرَا لَعَلَّكُمْ لِمَا قَتَلْتُمْ ذَكَرْتُمْ وَلَنْ تَتْرَكُوا أَنْ تَقْتُلُوا ، مِنْ تَعْمَرَا فَالشعر كله بضمير الجمع . وسببه أن جندباً ، أخو البرقي بن عياض اللحياني ، قتل قيساً وسالماً ابني عامر بن عريب الكنانيين ، وقتل سالم جندباً ، اختلفا ضربتين .

وقال :

رواية أبي جعفر (الطبري) كما شرحها « أعوراكما » ورواية الديوان « أعورالكما » . وقال الطبري في شرح البيت : الحِرَّ جانها الرجلان المقتولان . وكانا تقلدا لحاء الشجر ليأمنّا على أنفسهما . ومعنى (أعوراكما) أمكنّا كما من عورتهما .

الاحتاجون إلى نهى المؤمنين عن إحلالهم وما يفيد التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم . وكذا الرضوان من تشريفهم ، والإشعار بحصول مبتغاهم . فالسرّ فيه تأكيد النهى والمبالغة في استنكار النهى عنه . قال الزخشرى وأبو السعود : قد كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم . وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى . فوسفهم الله تعالى بظنهم . وذلك الظن الفاسد ، وإن كان بمنزل من استتباع رضوانه تعالى ، لكن لا بُدّ في كونه مداراً لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية ، وخلاصهم عن المسكاره العاجلة . لا سيما في ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره . ونقل الرازى عن أبي مسلم الأصفهاني : أن المراد بالآية ، الكفار الذين كانوا في عهد النبي ﷺ . فلما زال العهد بسورة براءة ، زال ذلك الخطر ، ولزم المراد بقوله تعالى : فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا^(١) . انتهى .

« وَإِذَا حَلَلْتُمْ » أى خرجتم من الإحرام ، أخرجتم من الحرم إلى الحل « فَاصْطَادُوا » أى : فلا جناح عليكم في الاصطياد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ » أى : لا يحملنكم على الجريمة ، شدة بغض قوم « أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . أى لأن صدوكم عن زيارته والطواف به للعمرة . وقرئ بكسر الهمزة من (إن) على أنها شرطية « أَنْ تَعْتَدُوا » أى : عليهم . قال أبو السعود : وإنما حذف ، تعويلاً على ظهوره ، وإيماء إلى أن المقصد الأصلي من النهى ، منع صدور الاعتداء عن المخاطبين ، محافظة على تعظيم الشعائر . لا منع وقوعه على القوم ، مراعاة لجانبهم . وهو ثانى مفعولى (يَجْرِمَنَّكُمْ) أى : لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم ، لصدهم إياكم عن المسجد الحرام ، اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي .

تنبيهات

الأول - قال ابن كثير : أى : لا يحملنكم بغض قوم ، قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وذلك عام الحديبية ، على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلماً

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٨٠٢ .

وعدوانا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . وهذه الآية كما سيأتي من قوله : **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ^(١) أى : لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل . فإن العدل واجب على كل أحد ، في كل أحد ، في كل حال . وقال بعض السلف : معاملة من عصى الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل ، به قامت السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا سهل بن عفان ، حدثنا عهد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم ، قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه ، حين صدهم المشركون عن البيت . وقد اشتد ذلك عليهم . فربهم ناس من المشركين من أهل المشرق ، يريدون العمرة . فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم . فأنزل إليه هذه الآية .

الثاني - قوله : **« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ »** نهى عن إحلال قوم من الآمين ، خصوا به مع اندراجهم في النهي عن إحلال الكل كافة ، لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لإحلالهم ، داعية إليه .

الثالث - لعل تأخير هذا النهي عن قوله تعالى : **وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا** ، مع ظهور تعلقه بما قبله ، للإيدان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الإحرام ، كانهاء حرمة الاصطياد به . بل هى باقية ما لم تنقطع علامتهم عن الشعائر بالكلية . وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض بسائر الآمين ، بالطريق الأولى . أفاده أبو السعود .

الرابع - دلت الآية على أن المضاربة ممنوعة . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام ^(٢) : لا ضرر

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .**

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٧ - باب من بنى في حقه مايضر

بجاره ، حديث ٢٣٤٠ و ٢٣٤١ (طبعتنا) .

ولا ضرار في الإسلام. وقوله عليه الصلاة والسلام^(١): أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُثِمَتْكَ وَلَا تَخْنُ مِنْ خَانِكَ . ذكره بعض الزيدية. وفي (الإكليل) : في الآية النهي عن الاعتداء ، وأنه لا يؤخذ أحد بذنب أحد .

الخامس - (جرم) جار مجرى (كسب) في المعنى وفي التعدى إلى مفعول واحد ، وإلى اثنين . يقال : جرم ذنباً ، نحو كسبه . وجرمته ذنباً ، نحو كسبته إياه . خلا أن (جرم) يستعمل غالباً في كَسَبَ مالا خير فيه . وهو السبب في إيثاره ههنا على الثاني . وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثاني . فيقال : أجرمته ذنباً وأكسبته إياه . وعليه قراءة من قرأ (يُجْرِمَنَّكُمْ) بضم الياء . أفاده أبو السعود .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون ، أمروا ، إثر ما نهوا عنه ، بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى . فدخل فيه ما نحن بصده من التعاون على العفو والإغضاء عما وقع منهم ، دخولا أولياً . ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي . فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهاني : أفاده أبو السعود .

قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله . والعدوان : جواز ما حذر الله في الدين ، ومجاوزة ما فرض الله في النفس والغير . وفي معنى الآية أحاديث كثيرة . منها ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الدال على الخير كفاعله . رواه البزار . وعن أبي مسعود البدرى قال : قال رسول الله ﷺ^(٢) : من دل على خير فله مثل أجر فاعله . رواه مسلم . وعن

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٧٩ - باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ، حديث ٣٥٣٥ عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٣٨ - باب فضل إعانة النازي =

أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(١) : مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ . لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا . وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ . لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا . رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ^(٢) ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَوْمَ خَيْبَرَ : فَوَ اللَّهِ ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

= فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَرْكُوبٍ وَغَيْرِهِ ، وَخِلَافَتِهِ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ ، حَدِيثٌ ١٣٣ (طَبَعْتُنَا) وَنُصِّه : عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي أُبَدِّعُ بِي (أَيْ : هَلَسْتُ دَابَّتِي وَهِيَ مَرْكُوبِي) فَاحْتَنَى . فَقَالَ « مَا عِنْدِي » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي : ٤٧ - كِتَابُ الْعِلْمِ ، حَدِيثٌ ١٦ (طَبَعْتُنَا) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٥٦ - كِتَابُ الْجِهَادِ ، ١٠٢ - بَابُ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى

الْإِسْلَامِ وَالنَّبُوءَةِ ، حَدِيثٌ ١٤٠٥ وَنُصِّه :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ « لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ » .

فَقَامُوا يَرْجُونَ لَذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى . فَفَدُّوا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى . فَقَالَ « أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ » فَقِيلَ : يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ . فَأَمَرَ فُدُّعَى لَهُ . فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَانَهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ . فَقَالَ : نَقَاتْلَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ « عَلَى رِسْلِكَ ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ . ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ . فَوَ اللَّهِ ! لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » . (٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٤٦ - كِتَابُ الْمَظَالِمِ ، ٤ - بَابُ أَعْنِ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا .

حَدِيثٌ ١٢٠٣ وَنُصِّه :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » . =

وسلم : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل : يا رسول الله ! هذا أنصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم . فذاك نصرته إياه . رواه الإمام أحمد والشيخان . وعن يحيى بن وثاب عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : المؤمن الذي يخاطب الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذي لا يخاطب الناس ولا يصبر على أذاهم . رواه الإمام أحمد ^(١) . وروى الطبراني والضياء المقدسي عن أوس بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال : من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام . وعن النّوّاس ^(٢) ابن سمان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : البر حسن الخلق . والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . رواه مسلم .

تنبيه في فروع مهمة .

قال بعض الزيدية : من ثمرات الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأنه = وفي الباب نفسه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله ! هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ قال « تأخذ فوق يديه » . ورواه ثالثة في : ٨٩ - كتاب الإكراه ، ٨ - باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه ، إذا خاف عليه القتل . ونصه :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل : يا رسول الله ! أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرايت إذا كان ظالماً ، كيف أنصره ؟ قال « تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » . أما النص الذي ساقه المؤلف فلم أعثر عليه وإن كان قريباً جداً من هذا النص الأخير . (١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٣ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٠٢٢ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٥ (طبعنا) .

لا يجوز إعانة متعدّ ولا عاص. فيدخل في ذلك تكثير سواد الظلمة بوجهه ، من قولٍ أو فعلٍ أو أخذ ولايةٍ أو مساكنةٍ . وفي (الإكليل) : استدل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه ، لجل خمر ونحوه ، وبيع العنب لعاصره نخراً ، والسلاح لمن يعصى به ، وأشباه ذلك . انتهى . وهو مُتَّجِهٌ .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) : ولا يحل للرجل أن يكون عوناً على ظلم . فإن التعاون نوعان : نوع على البر والتقوى ، من الجهاد وإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وإعطاء المستحقين . فهذا ما أمر الله به ورسوله . ومن أمسك عنه خشية أن يكون من أعوان الظلمة ، فقد ترك فرضاً على الأعيان أو على الكفاية ، متوها أنه متورع . وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع ، إذ كل منهما كف وإمساك .

والثاني - تعاون على الإثم والعدوان . كالإعانة على دم معصوم ، أو أخذ مال معصوم ، وضرب من لا يستحق الضرب ، ونحو ذلك . فهذا الذي حرمه الله ورسوله . نعم ، إذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق ، وتعذر ردها إلى أصحابها ، ككثير من الأموال السلطانية . فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين ، كسداد الثغور ونفقة القاتلة ، ونحو ذلك ، من الإعانة على البر والتقوى . إذ الواجب على السلطان في هذه الأموال ، إذا لم يمكن معرفة أصحابها وردها عليهم ولا على ورثتهم - أن يصرفها مع التوبة ، إن كان هو الظالم ، إلى مصالح المسلمين . وإن كان غيره قد أخذها فعليه أن يفعل بها ذلك . وكذلك لو امتنع السلطان من ردها ، كان الإعانة على إنفاقها في مصالح أصحابها ، أولى من تركها بيد من يضيعها على أصحابها وعلى المسلمين . فإن مدار الشريعة على قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(١) .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا

وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

المفسر لقوله : **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** ^(١) وعلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . أخرجاه في الصحيحين ^(٢) . وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها ، وتبطليل المفسد وتقليلها . فإذا تعارضت ، كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها ، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها - هو المشروع . والمعين على الإنم والعدوان من أعان ظالماً على ظلمه . أما من أعان المظلوم على تخفيف الظلم عنه ، أو على أداء المظلمة ، فهو وكيل المظلوم لا وكيل الظالم . بمنزلة الذي يقرضه أو الذي يتوكل في حمل المال له إلى الظالم . مثال ذلك : وليّ اليتيم والوقف ، إذا طلب ظالم منه مالاً ، فاجتهد في دفع ذلك ، بدفع ما هو أقل منه إليه أو إلى غيره بعد الاجتهاد التام في الدفع - فهو محسن ، وما على المحسنين من سبيل . وكذلك ، وكيل السالك من المتأدين والكتّاب وغيرهم ، الذي يتوكل لهم في العقد والقبض ودفع ما يطلب منهم ، لا يتوكل للظالمين في الأخذ . وكذلك لو وضعت مظلمة على أهل قرية أو درب أو سوق أو مدينة ، فتوسط رجل محسن في الدفع عنهم بغاية الإمكان ، وقسّطها بينهم على قدر طاقتهم ، من غير محاباة لنفسه ولا لغيره ، ولا ارتشاء ، بل توكل لهم في الدفع عنهم والإعطاء - كان محسناً . لكن الغالب أن من يدخل في ذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ** .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢ - باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الله تعالى : **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ، حديث ٢٥٨٥ ونصه : عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « دعوني ما تركتكم . إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٣٠ (طبعتنا) .

يكون وكيل الظالمين محاييا مرتشياً مخفراً لمن يريد ، وأخذاً ممن يريد. وهذا من أكبر الظلمة الذين يحشرون في توايت من نارهم وأعوانهم وأشباههم ، ثم يقذفون في النار . انتهى . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : اخشوه فيما أمركم ونهاكم « إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » . يعنى لمن خالف أمره . ففيه وعيد وتهديد عظيم . ثم بين تعالى المحرمات التى أشير إليها بقوله تعالى : **إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُيِّجَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَنصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » وهى مفارقة الروح بغير سبب خارجي . لأنها تنجست بمفارقته من غير مطهر ، من ذكر اسم الله تحقيقاً أو تقديرًا ، كإسلام الذابح . كذا فى (التبصير) . وقد خص من (الميتة) السمك بالسنة : فإنه حلال . مات بتذكية أو غيرها . لما رواه مالك فى موطأه ، والشافعي وأحمد فى مسنديهما ، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة فى سننهم ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما ، عن أبى هريرة ^(١) أن رسول الله صلى

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ١٢ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ١ - كتاب الطهارة ، ٤١ - باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ =

الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر؟ فقال : هو الطهور مأؤه، الحل ميتته. وهكذا الجراد . لما سيأتي. قال الرازي : تحريم الميتة موافق لما في القول . لأن الدم جوهر لطيف جداً . فإذا مات الحيوان حُتِفَ أنفه احتبس الدم في عروقه ، وتمغن وفسد ، وحصل من أكله مضار عظيمة . انتهى .

أخرج ابن منده في كتاب (الصحابة) من طريق عبد الله بن جبلة بن حبان بن حجر عن أبيه عن جده حبان قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة . فأنزل تحريم الميتة فاكفأت القدر « وَالْدَمُ » أي : المسفوح منه . لقوله تعالى في الأنعام ^(١) : أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا . وقدروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال؟ فقال : كلوه . فقالوا : إنه دم . فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وكذا رواه حماد ابن سلمة عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة قالت : إنما نهى عن الدم السافح .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) : أحل لنا ميتتان ودمان . فأما الميتتان فالسمك والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال . وكذا رواه أحمد بن حنبل

= والترمذي في : ١ - كتاب الطهارة ، ٥٢ - باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور . والنسائي في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٧ - باب ماء البحر .

وابن ماجة في : ١ - كتاب الطهارة ، ٣٨ - باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٣٨٦ (طبعنا) . وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) وحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

وابن ماجة في : ٢٨ - كتاب الصيد ، ٩ - باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعنا) .

وابن ماجة والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهو ضعيف . قال الحافظ البيهقي : ورواه إسماعيل بن أبي إدريس ، عن أسامة ، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر ، مرفوعا . قال الحافظ ابن كثير : وثلاثهم كلهم ضعفاء . ولكن بعضهم أصح من بعض . وقد رواه سليمان ابن بلال ، أحد الأثبات ، عن زيد بن أسلم عن ابن عمر . فوقفه بعضهم عليه . قال الحافظ أبو زرعة الرازي : وهو أصح . نقله ابن كثير .

أقول : أقوى مما ذكر في الحجة ، ما في الصحيحين^(١) وغيرها من حديث ابن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد . وفيهما أيضاً من حديث^(٢) جابر : إن البحر ألقى حوتا ميتا فأكل منه الجيش . فلما قدموا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : فقال : كلوا رزقا أخرج الله لكم . أطعمونا منه إن كان معكم . فأتاه بعضهم بشيء . وفي البخاري^(٣) عن عمر في قوله تعالى^(٤) : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . قال : صيده ما اصطيد . وطعامه ما رمى به . وفيه عن ابن عباس قال : طعامه ميتته .

قال ابن كثير : روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة وهو صدق بن عجلان قال : بعثني

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٣ - باب أكل الجراد ، حديث ٢٢٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٦٥ - باب غزوة سيف البحر ، حديث ١٢٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٢ - باب قول الله تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٦] .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام . فأتيتهم . فبينما نحن كذلك ، إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها . فقالوا : هلم ، يا صدي ! فكل . قال ، قلت : ويحكم . إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم . فأقبلوا عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ... الآية . ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه . وزاد بعد هذا السياق قال : فجعلت أدعوهم إلى الإسلام ويأبون علي . فقلت : ويحكم ! اسقوني شربة من ماء فإني شديد العطش . قال ، وعلى عباتي . فقالوا : لا . ولكن ندعك حتى تموت عطشاً . قال : فاغتممت وضربت برأسي في العباء . ونمت على الرمضاء في حرٍّ شديد . قال ، فأتاني آت في منامى بقدرح من زجاج . لم ير الناس أحسن منه . وفيه شراب لم ير الناس ألد منه . فأمكنني منه فشربته . فلما فرغت من شرابي استيقظت . فلا ، والله ! ما عطشت ولا عربت (عرب كفرح فسدت معدته . قاموس) بعد تيك الشربة .

ورواه الحاكم في مستدركه عن علي بن حماد ، عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبي أمامة . وزاد بعد قوله (بعد تيك الشربة) : فسمعتهم يقولون : أنا كم رجل من سراة قومكم فلم تُمِجْمَوْهُ^(١) بمذقة ؟ فأتوني بمذقة فقلت : لا حاجة لي فيها . إن الله أطعمني وسقاني . وأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم . انتهى .

قال الزنجشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها . والفصيد ، وهو الدم في المباعر ، يشوونها ويقولون : لم يُحَرِّم من فُزِدَ له^(٢) .

(١) تمجموه : المجمع أكل التمر اليابس . ومَجَّعَ يَجْجَعُ مَجْجاً : أكل التمر باللبن ممّا .

(٢) جاء في هامش الكشف ، الجزء الأول ص ٤٠٣ (طبعة بولاق عام ١٣١٨ هـ)

ما نصه : قوله : في المباعر . أي : مواضع البعر وهي الأمعاء . وقوله : فُزِدَ ، بضم الفاء وسكون الزاي آخره دال مهملة . ويروى : فُصِدَ ، بسكون الصاد تخفيفاً ، أي : لم يحرم القرى من فصدت له الراحلة ، فخطى بدمها . اه من القاموس . اه مصححه .

وتقدم السلام^(١) على ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى : **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ . . . الآية**^(٢) .

قال المهايى : حرم الدم لأنه متعلق الروح بلا واسطة . فأشبهه النجس بالذات ، لا يؤثر فيه الطاهر . « وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ » لأنه نجس في حياته بصفاته الذميمة . وهى ، وإن زالت بالموت ، فهو منجس ولم يقبل التطهير . لأنه لما كان نجسا حال الحياة والموت ، أشبه النجس بالذات . فكأنه زيد تنجيسه بالموت . وإنما ذكر اللحم إشارة إلى أنه ، وإن لم يكن موصوفاً فى الحياة بالصفات المنجسة لروحه ، كان متنجسا بنجاسة روحه ، ثم بزوال الروح . انتهى .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : **وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ** . يعنى إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم . كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد . وفى صحيح مسلم عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ رضى الله عنه قال^(٣) : قال رسول الله ﷺ من لعب بالتردشير ، فكأنما صبغ يده فى لحم الخنزير ودمه . فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتفدى به ؟ وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفى الصحيحين^(٤) : أن رسول الله ﷺ قال : **إن الله حرم بيع الخمر**

(١) انظر الصفحة رقم (٣٧٩) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤١ - كتاب الشعر ، حديث ١٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١١٢ - باب بيع الميتة والأصنام ،

حديث ١١٢١ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، عام الفتح ، وهو بمكة « **إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام** » =

والميتة والخنزير والأصنام : فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا . هو حرام « وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ »
 أى : نودى عليه بغير اسم الله ، كما فى (الصحاح) وأصل الإهلال رفع الصوت . وكان العرب فى الجاهلية ، يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح . فحرم الله ذلك بهذه الآية . وبقوله (١) : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

قال ابن كثير فى الآية : أى ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام . لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم . فمن عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية ، إما عمدا أو نسيانا . كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام ، إن شاء الله تعالى .

وروى ابن أبى حاتم عن الجارود بن أبى سبرة قال : كان رجل من بنى رباح يقال له : ابن نائل . وكان شاعرا . نافر غالباً ، جدّ الفرزدق بماء بظهر الكوفة . على أن يعقر هذامائة من إبله ، إذا وردت الماء . فلما وردت الماء ، قاما بسيفهما فجعلتا يكشفان عراقيبها . قال : فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم . وعلى بالكوفة . قال : فخرج على . على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو ينادى : يا أيها الناس ! لاتأكلوا من لحومها . فإنما أهل بها لغير الله . هذا أثر غريب .

فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة ، فإنها يطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال « لا . هو حرام » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « قاتل الله اليهود . إن الله لما حرّم شحومها ، جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن ابن عباس^(١) قال : نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب . ثم أسند عن عكرمة^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتبارين أن يؤكل . أفاده ابن كثير .

وفى (القاموس وشرحه) : وعاقره : فاخره وكارمه فى عقر الإبل . ويقال : تعاقرا إذا عقرا إبلهما ، يتباريان بذلك ، ليرى أيهما أعقر لها . ومن ذلك معاقرة غالب بن صعصعة ، أبى الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحي لما تعاقرا بصوآر . فعقر سحيم خمسا ثم بدا له . وعقر غالب مائة .

وفى حديث ابن عباس : لا تأكلوا من تعاقر الأعراب . فإنى لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله .

قال ابن الأثير : هو عقرهم الإبل . كان الرجلان يتباريان فى الجود والسخاء . فيعقر هذا وهذا . حتى يعجز أحدهما الآخر . وكانوا يفعلونه رياء وسمعة وتفاخرا . ولا يقصدون به وجه الله تعالى . فشبهه بما ذبح لغير الله تعالى . انتهى .

وروى الإمام مسلم عن علي^(٣) رضى الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله . لعن الله من لعن والديه . لعن الله من آوى محدثا . لعن الله من غير منار الأرض .

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ١٤ - باب ما جاء فى أكل

معاقرة الأعراب ، حديث ٢٨٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٧ - باب فى طعام المتبارين ،

حديث ٣٧٥٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك ؟ يا رسول الله ! قال : مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب قال : ليس عندي شيء أقرب . قالوا له : قرب ولو ذباباً . فحلب ذباباً ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه . فدخل الجنة . وفي هذه القصة ترهيب من وجوه : منها كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم . ومنها معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم . مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر . ومنها أن في هذا شاهد للحديث الصحيح ^(١) : الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك . كذا في كتاب (التوحيد) .

« وَالْمُنْخَنَقَةُ » وهي التي تموت بالخنق إما قصداً وإما اتفاقاً . بأن تتخبل في وثاقها فتموت به . قال الحسن وغيره : هي التي تختنق بحبل الصائد أو غيره . وبأى وجه اختنقت فهي حرام . وقال ابن عباس : كانت الجاهلية يخنقون الشاة ، حتى إذا ماتت أكلوها . والمنخنقة من جنس الميتة . لأنها لما ماتت ، وما سال دمها ، كانت كالمت حنف أنفه . إلا أنها فارقت الميتة بكونها تموت بسبب انمصار الحلق بالخنق ، بخلاف الميتة فإنها بلا سبب .

قال المهيبي : المنخنقة ، وإن ذكر اسم الله عليها فقد عارضه سريان خبائث الخناق إليها ، مع تنجسها بالموت « وَالْمَوْقُودَةُ » يعني المقتولة بالخشب . وكان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصى . حتى إذا ماتت أكلوها . وفي (القاموس وشرحه) الوقذ شدة الضرب . وقذه يقذه وقذاً : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت . وشاة وقيد وموقودة قتلت بالخشب . وقال أبو سعيد : الوقذ الضرب على فأس القفا . فيصير هديتها إلى الدماغ ، فيذهب

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٩ - باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ، حديث ٢٤٣٣ ، عن عبد الله بن مسعود .

العقل . فيقال : رجل موقوذ . وفي الصحيح ^(١) أن عدى بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ! إني أرمى بالمراض الصيد ، فأصيب . قال : إذا رميت بالمراض نخزق فكله . وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد ، فلا تأكله « وَالْمَرْدِيَّةُ » هي الساقطة من جبل أو في بر ، فتموت . والتردى السقوط في مهواة . وهذه الثلاثة في معنى الميتة . فإنها ماتت ولم يسلم دمها . « وَالنَّطِيحَةُ » هي التي نطحتها أخرى فماتت . فهي حرام . وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها . وإن أرسل إنسان الناطح بذكر اسم الله . لأنه لما لم يكن بطريق الصيد المشروع ، لم تخل من خبائة .

فائدة :

قال التبريزي في (تهذيبه) وابن قتيبة في (أدب الكاتب) : ما كان على فعل ، نعتا للمؤنث وهو في تأويل مفعول ، كان بغيرهاء . نحو كف خضيب وملحفة غسيل . وربما جاءت بالهاء يُدْهَبُ بها مذهب الأسماء . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع . وقالوا : ملحفة جديد . لأنها في تأويل مجدودة أى مقطوعة . وإذا لم يجز فيه مفعول فهو بالهاء . نحو مريضة وظريفة وكبيرة وصغيرة . وجاءت أشياء شاذة . فقالوا : ربح خريق ونانة سدس وكثيبة خصيف .

وقال ابن السكيت : قد تأتي فعيلة بالهاء وهي في تأويل مفعول بها . تخرج مخرج الأسماء ولا يُدْهَبُ بها مذهب النعوت . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ، ومرت بقتيلة بنى فلان .

وقال الجوهري : إنما جاءت النطيحة بالهاء ، لغلبة الاسم عليها . وكذلك الفريسة والأكيلة والرمية . لأنه ليس هو على (نَطَحْتُهَا ، فهي منطوحة) وإنما هو الشيء في نفسه مما يُنطَحُ والشيء مما يفرس ويؤكل .

(١) أخرجه البخاري في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٣ - باب تفسير المشبهات ، حديث ١٤١ وأخرجه أيضاً في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٣ - باب ما أصاب المراض بعرضه .

« وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ » أى ماعدا عليها فأكل بعضها . قال قتادة : كان أهل الجاهلية ، إذا جرح السبع شيئا فقتله أو أكل منه ، أكلوا ما بقى منه . فخرمه الله تعالى .
قال المهايى : هو ، وإن أشبه الصيد ، لكنه لما أكله قصد بذلك نفسه ، فسرت خباثته فيها . انتهى . و (السبع) بضم الباء وفتحها وسكونها : المفترس من الحيوان . مثل الأسد والذئب والنمر والفهد . وما أشبهها مماله ناب ، ويمدو على الناس والدواب فيفترسها . وسعى بذلك لتام قوته . وذلك أن (السبع) من الأعداد التامة ، وفي الآية محذوف تقديره : وما أكل السبع بعضه . كما ذكرنا . لأن ما أكله فَقَدْ فَقِدَ . فلا حكم له ، إنما الحكم للباقي منه . وقوله تعالى « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » أى ما أدركتم ذكاته من هذه الذكورات المنخقة فما بعدها . بحيث ينسب موتها إلى الذبح دون غيره ، فإنه يتحقق فيه الطهر ، ولا يؤثر فيه السابق . لأن اللاحق ينسخه . بل هو واقع قبل تأثير السابق . إذ لا يتم التأثير إلا بالموت . أفاده المهايى .

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : أى : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح ، فكلوه فهو ذكى . وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن والسدى . وروى ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على ، في الآية قال : إن مصعت ^(١) بذنها ، أو ركضت برجلها ، أو طرفت بعينها ، فكل . وروى ابن جرير ^(٢) عن الحرث عن على أيضا قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة ، وهى تحرك يدا أو رجلا ، فكلها . وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد ؛ أن الذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح ، فهى حلال . وهذا مذهب جمهور الفقهاء . أفاده ابن كثير . وفى الموطأ ^(٣) : سئل مالك عن شاة تردت فتكسرت ، فأدركها صاحبها فذبحها ،

(١) فى (اللسان) : ومصعت الدابة بذَنِبِهَا مَضْعًا : حرَّ كَتَمَ من غير عَدُوٍّ .

(٢) الأثر رقم ١١٠٣٦ .

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢٤ - كتاب الذبائح ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فسال الدم منها ولم تتحرك ؟ فقال مالك : إذا كان ذبحها ونفسها يجري وهي تطرف ، فليأكلها .
 والتذكية الذبح ، كالذكا والذكاة . قال الراغب : حقيقة التذكية إخراج الحرارة الغريزية .
 لكن خص في الشرع بإبطال الحياة على وجه دون وجه . أى وهو قطع الحلقوم والرئتين .
 بمُنْهَرٍ للدم : من سكين وسيف وزجاج وحجر وقصب ، له حد يقطع كما يقطع السلاح المحدد .
 ما لم يكن سنناً وظفراً . لحديث رافع بن خديج في الصحيحين^(١) وغيرها قال : قلت يا رسول الله ! إنا لاقو العدو غدا . وليس معنا مدى . أفندبح بالقصب ؟ فقال : ما أنهرَ الدم وذُكر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السن والظفر . وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فمعظم . وأما الظفر فمدى الحبشة .

وأما حديث أبي العشاء عن أبيه : قلت : يا رسول الله ! أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبّة^(٢) ؟ قال : لو طعنت في فخذها لأجزأك ، أخرجه أحمد وأهل السنن - في إسناده مجهولون .

(١) أخرجه البخاري في : ٤٧ - كتاب الشركة ، ٣ - باب قسمة الغنم ، حديث

١٢٣٠ ونصه :

عن عَباية بن رفاع بن رافع بن خديج عن جده قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بذى الحُلَيْمَةِ . فأصاب الناس جوعٌ . فأصابوا إبلا وغنماً . قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم في أخريات القوم . فمجلوا وذبحوا ونصبوا القدور . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقدور فأكفئت . ثم قسم فعدل عشرة من الغنم بيعير . فندّ منها بغير . فطلبوه فأعيامهم . وكان في القوم خيل يسيرة . فأهوى رجل منهم بسهم فخبسه الله . ثم قال « إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش ، فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا » .

فقال جدى : إنا نرجو أو نخاف العدو غدا ، وليست مُدَى . أفندبح بالقصب ؟ قال « ما أنهرَ الدم وذُكر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السن والظفر . وسأحدثكم عن ذلك .

أما السن فمعظم . وأما الظفر فمدى الحبشة » .

(٢) في (اللسان) واللبّة : موضع الذبح

وأبو المشراء لا يعرف من أبوه . ولم يرو عنه غير حماد بن سلمة . فهو مجهول . كذا في (الروضة) .
وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص) : أبو المشراء مختلف في اسمه وفي اسم أبيه . وقد
تفرد حماد بن سلمة بالرواية عنه على الصحيح . ولا يعرف حاله .
وقال في (التقريب) : أعرابي مجهول .

قال الترمذي في جامعه ، بعد سوجه لهذا الحديث : قال أحمد بن منيع : قال يزيد بن
هرون : هذا في الضرورة . وفي الباب عن رافع بن خديج . انتهى .
وقال ابن كثير : وهذا الحديث صحيح . ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق
واللبة . انتهى .

وتصحيحه له ، مع جهالة راويه المذكور ، فيه نظر . فإن حد الصحيح كما في (التقريب)
ما اتصل بإسناده بالمدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة . قال (شارحه السيوطي) : نخرج
بقيد (المدول) ما نقله مجهول عيناً أو حالاً . أي : فليس بصحيح بل ضعيف .

وفي (النخبة) أن خبر الآحاد مقبول ومردود ، والثاني إما لسقط من إسناده أو طعن
في راوٍ . والطعن إما لكذب أو تهمة بذلك . إلى أن قال : أو جهالته بأن لا يعرف فيه تعديل
ولا تجريح معين . فتبصر .

« وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » قال الزخري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت .
يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها . يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها . تسمى الأنصاب .
قال ابن كثير : فهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح ،
حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله . لما في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله
ورسوله . انتهى .

وقد ورد النهى عن الذبح لله بمكان يذبح فيه لنيره تعالى . فروى أبو داود^(١) ، بإسناد

(١) أخرجه أبو داود في : ٢١ - كتاب الإيمان والنذور ، ٢٢ - باب ما يؤمر به =

على شرط الشيخين ، عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا بيوانة . فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذر . فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله . ولا فيما لا يملك ابن آدم .

ففيه ، أن المعصية قد تؤثر في الأرض . وكذلك الطاعة . وفيه المنع من النذر إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله . أو عيد من أعيادهم ، ولو بعد زواله أيضاً . وأنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية . وفيه الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ، ولو لم يقصده . كذا في (كتاب التوحيد) .

لطيفة :

(النُّصْب) بضم نين ، وضم فسكون ، إما جمع ، واحده نَصَاب . ككتاب وكتب . أو مفرد جمعه أنصاب كعُنُق وأعناق . وَقُفْل وأقفال . وفي (القاموس وشرحه) : النُّصْبُ : كل ما نصب وجعل علماً . وكل ما نُصِبَ فعبد من دون الله تعالى . والأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيَهْلُ عليها ويذبح لغير الله تعالى . وقال الفتيبي : النصب صنم أو حجر . وكانت الجاهلية تنصبه تذبح عنده ، فيحمرّ بالدم . ومنه حديث ^(١) أبي ذر في إسلامه قال :

= من الوفاء بالنذر ، حديث ٣٣١٣ ونصه :

عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا بيوانة . فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت أن أنحر إبلا بيوانة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَدُ » ؟ قالوا : لا . قال « هل كان فيها عيد من أعيادهم » ؟ قالوا : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوف بنذر . فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٣٢ (طبعنا)

وهو حديث طويل .

نُفِرَتْ مَغْشِيًّا عَلَىٰ ثُمَّ ارْتَفَعَتْ كَأَنَّى نُصَبُّ أَحْمَرُ . يريد أنهم ضربوه حتى أدهموه . فصار كالنصب المحمر بدم الذبائح . انتهى .

قال ابن جريج : كانت النصب ثلاثمائة وستين نصبا . وكانوا يذبجون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت ، بدماء تلك الذبائح . ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب .
« وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ » أى : وحرم عليكم ، أيها المؤمنون ، الاستقسام بالأزلام .
أى : طلب القسم والحكم بها . والأزلام جمع زلم (محرّكة) . و (كضرد) وهى : قداح ثلاثة كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . مكتوب على أحدها : (افعل) وعلى الآخر (لا تفعل) والثالث غفل ، ليس عليه شىء . وقد زلّمت وسوّيت ووضعت فى الكعبة . يقوم بها سدنة البيت . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً ، أتى السادن وقال : أخرج لى زلماً . فيجلبها ثم يخرج زلماً منها . فإذا خرج قدح الأمر ، مضى على ما عزم عليه . أو النهى فقد عما أراد . أو الفارغ أعاد .

قال الأزهري (فى معنى الآية) : أى : تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين . فعنى الاستقسام هو طلب معرفة ما قسم له من الخير والشر ، مما لم يقسم له بواسطة ضرب القداح . وذكر محمد بن إسحق وغيره ؛ أن أعظم أصنام قريش ، صنم كان يقال له هُبَل . منصوب على بئر داخل الكعبة ، فيها توضع الهدايا ، وأموال الكعبة فيه . وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكون فيه مما أشكل عليهم . فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه .
وفى (الباب) : كانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها : (أمرنى ربى) وعلى واحد : (نهانى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد : (ملصق) وعلى واحد : (العقل) وعلى واحد غفل . أى ليس عليه شىء . وكانت العرب ، فى الجاهلية ، إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو نكاحاً ، أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل ، أو تحمل عقل ، أو غير ذلك من الأمور العظام - جاءوا إلى هُبَل . وكانت أعظم صنم لقريش بمكة . وجأوا بمائة

درهم . وأعطوها صاحب القداح حتى يحيلها لهم . فإن خرج (أمرنى ربى) فعلوا ذلك الأمر .
 وإن خرج (نهانى ربى) لم يفعلوه . وإن أجالوا على نسب ، فإن خرج (منكم) كان وسطاً فيهم .
 وإن خرج (من غيركم) كان حلفاً فيهم . وإن خرج (ملصق) كان على حاله . وإن اختفلوا فى العقل ،
 وهو الدين ، فمن خرج عليه قدح العقل تحمله . وإن خرج غفل أجالوا ثانياً . حتى يخرج المكتوب
 عليه . ففهم الله عن ذلك وحرمة وسماء فسقا . كباياتى : وثبت فى الصحيحين ^(١) أن النبي ﷺ
 لما دخل السكبة ، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها . وفى أيديهما الأزلام . فقال :
 قائلهم الله . لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً . وفى الصحيح ^(٢) أن سراقه بن مالك
 ابن جهم ، لما خرج فى طلب النبي ﷺ وأبى بكر ، وها ذاهبان إلى المدينة . مهاجرين ، قال :
 فاستقسمت بالأزلام : هل أضرتهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره : لا تضرهم . قال فعصيت
 الأزلام واتبعتهم . ثم استقسم بها ثانية وثالثة . كل ذلك يخرج الذى يكره : لا تضرهم .
 وكان كذلك . وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك . ثم أسلم بعد ذلك .

وروى ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يلج
 الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً « ذَلِكُمْ فِسْقٌ » أى خروج عن
 الأخذ بالطريق المشروع . والإشارة إلى الاستقسام . أو إلى تناول ما حرم عليهم . لأن
 المعنى : حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا . فإن قلت : لم كان استقسام المسافر وغيره
 بالأزلام ، لتعرف الحال - فسقاً ؟ قلت : لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ

اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، عن ابن عباس . حديث ٢٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٥ - باب هجرة النبي

صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، حديث ١٨٢٢ .

وقال : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ^(١) . واعتقاد أن إليه طريقاً وإلى استنباطه . وقوله : أمرني ربي ونهاني ربي - افتراء على الله . وما يدر به أنه أمره أو نهاه ؟ والكهنة والمنجمون بهذه المثابة . وإن كان أراد بالرب الصنم ، فقد روى أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم - فأمره ظاهر . كذا في الكشاف .

تنبيه :

في (الإكليل) : استدل بهذه الآية على تحريم القمار والتنجيم والرمل وكل ما شاكل ذلك . وعداه بعضهم إلى منع القرعة في الأحكام ، وهو مردود . انتهى . أى لتبائن القصد فيهما . فإن القرعة في قسمة الغنائم وإخراج النساء ونحوها ، لتطيب نفوسهم والبراءة من التهمة في إظهار البعض . ولو اصطالحوا على ذلك جاز من غير قرعة . كما (في العناية) .

قال الحاكم : وتدل على تحريم التمسك بالفأل والزجر والتطير والنجوم . فأما التفاؤل بالخير فباح . قال الأصم : ومن هذا قول المنجم : إذا طلع نجم كذا فاخرج ، وإن لم يطلع فلا تخرج .

قال الرازي بالله : ومن عمل بالأيام في السعد والنحس ، معتقداً أن لها تأثيراً ، كفر . وإن لم يعتقد أئيم . وقد روى أبو داود^(٢) والنسائي وابن حبان عن قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

قال عوف أحد رواة : العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط بالأرض . وفي (القاموس) عِفْتُ الطير عيافة : زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها ، فتتسعد أو تتشأم ، وهو من عادة العرب كثيراً .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٥] . . . وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ٢٣ - باب في الخط وزجر الطير ،

حديث ٣٩٠٧ .

وقال أبو زيد : : الطرق أن يخط الرجل في الأرض بإصبعين ثم بإصبع .
 وقال ابن الأثير . : الطرق الضرب بالخصى الذى تفعله النساء . وقيل : هو الخط بالرمل .
 والجبت : كل ما عبد من دون الله تعالى . وقد روى مسلم في صحيحه ^(١) ، عن بعض أزواج
 النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه ، لم تقبل له صلاة
 أربعين يوما . وروى الإمام أحمد ^(٢) وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :
 من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .
 وعن عمران بن حصين مرفوعا : ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ،
 أو سحر أو سحر له . ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ الله .
 رواه البزار بإسناد جيد . ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس .
 دون قوله : وَمَنْ أَتَى الْخ .

قال البغوى : العراف الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق
 ومكان الضالة ونحو ذلك . وقيل : هو الكاهن . والكاهن هو الذى يخبر عن الغيبات في
 المستقبل . وقيل : الذى يخبر عما فى الضمير . وقال أبو العباس بن تيمية : العراف اسم للكاهن
 والمنجم والرمال ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق . وقال ابن عباس (فى
 قوم يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم) : ما أرى من فعل ذلك ، له عند الله من خلاق .
 وفى الأحاديث السابقة من الترهيب ما فيها من التصريح بأنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ١٢٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه فى السند بالصفحة ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) وهذا نصه :
 عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضا ، أو امرأة فى دبرها ،
 أو كاهنا فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام » .

الإيمان بالقرآن ، والتصريح بأنه كفر . وعن ابن مسعود مرفوعاً^(١) . الطيرة شرك . الطيرة شرك . ومامننا إلا... ولكن الله يذهب به بالتوكل . رواه أبو داود والترمذي وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد^(٢) من حديث ابن عمر : من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم ! لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك . وعن أنس قال : قال^(٣) رسول الله ﷺ : لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة . رواه الشيخان .

ولأبي داود^(٤) بسند صحيح عن عروة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً . فإذا رأى أحدهم ما يكره فليقل : اللهم ! لا يأتي بالحسنات إلا أنت . ولا يدفع السيئات إلا أنت . ولا حول ولا قوة إلا بك . فائدة :

قال الحافظ : ابن كثير : قد أمر الله المؤمنين ، إذا ترددوا في أمورهم ، أن يستخيروه ، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه . كما رواه الإمام أحمد والبخاري^(٥)

- (١) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ٢٤ - باب في الطيرة ، حديث ٣٩١٠ .
- (٢) أخرجه في السند بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) حديث ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

- (٣) أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤٤ - باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ . ومسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ١١٢ (طبعتنا) .

- (٤) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ٢٤ - باب في الطيرة ، حديث ٣٩١٩ .

- (٥) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ٢٥ - باب ما جاء في التطوع

مثنى مثنى ، حديث ٦٣٧ .

وأهل السنن من طرق عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . ويقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم ! إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه باسمه) خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال عاجل أمري) وآجله فاعده لي ، ويسره لي ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ، ومعاشي ، وعاقبة أمري ، فاصرفني عنه واصرفه عني ، واقدري الخير حيث كان ثم رضني به . هذا لفظ الإمام أحمد . « الْيَوْمَ يَنْسَى » أى : قنط « الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ » روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : معنى : يؤسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روى عن عطاء بن أبي رباح والسدّي ومقاتل بن حيان . وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم . نقله ابن كثير . وعليه (من) تعليلية . أى : يؤسوا من مراجعة دينهم لأجل دينكم الذي ضم إليه جمهور الأمة العربية من أذناها إلى أقصاها . ودخلوا فيه أفواجا .

وللزخشرى تأويل بدیع ، تابعه عليه من بعده ، ونحن نسوقه أيضاً . قال رحمه الله : لم يرد بقوله تعالى : (الْيَوْمَ) يوم بعينه . وإنما أريد به الزمان الحاضر ، وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية . كقولك : كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب . فلا تريد (بالأمس) اليوم الذي قبل يومك ولا (باليوم) يومك . وقيل : أريد يوم زولها . وقد زلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة ، بعد العصر في حجة الوداع . وقوله تعالى : يَنْسَى الْخ. أى يؤسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث ، بعد ما حرمت عليكم . وقيل :

(١) أخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٦٥ (طبعتنا).

يُسُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ يَغْلِبُوهُ . لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَفَّى بَوَعْدِهِ مِنْ إِظْهَارِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .
 « فَلَا تَخْشَوْهُمْ » بعد إظهار الدين ، وزوال الخوف من الكفار ، وانقلابهم مغلوبين
 مقهورين ، بعدما كانوا غالبين « وَآخِشُونَ » وأخلصوا إلى الخشية . انتهى كلامه .
 وأوضح الوجه الأول ، الرازى فقال : ليس المراد باليوم هو ذلك اليوم بعينه ، حتى يقال :
 إنهم ما يسوا قبله بيوم أو يومين ، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان ، معناه :
 لا حاجة بكم الآن إلى مداينة هؤلاء الكفار ، لأنكم الآن صرتم حيث لا يطمع أحد من
 أعدائكم في توهين أمركم .

ثم بين تعالى أكبر نعمه وأعظم مننه على هذه الأمة وهو : إكماله لهم دينهم ، فلا
 يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جعله تعالى
 خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرّمه ،
 ولا دين إلا ما شرعه . فلما أكل لهم الدين تمت عليهم النعمة . ولهذا قال « الْيَوْمَ
 أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » يعنى أحكامه وفرائضه ، فلا زيادة بعده . ولم ينزل بعد هذه الآية
 حلال ولا حرام . هذا ما روى عن ابن عباس . وقال سعيد بن جبيرة قتادة : معنى (الإكمال)
 أنه لم يحج معهم مشرك . وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين . وقيل :
 معناه كفائتهم أمر العدو ، وجعل اليد العليا لهم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكل
 لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم . وبما ذكرنا أولاً - من أن المراد بالإكمال عدم الزيادة -
 يندفع ما يتوهم من ثبوت النقص أولاً . ولذا قال ابن الأنبارى (فى الآية) : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
 لَكُمْ شُرَائِعَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِ نَقْصَانٍ كَانَ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ . وذلك أن الله تعالى كان يتعبد
 خلقه بالشيء فى وقت ثم يزيد عليه فى وقت آخر . فيكون الوقت الأول تاماً فى وقته .
 وكذلك الوقت الثانى تاماً فى وقته . فهو كما يقول القائل : عندى عشرة كاملة ، ومعلوم أن
 العشرين أكل منها .

والشرائع التي تعبد الله عز وجل بها عباده، في الأوقات المختلفة، مختلفة . وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها . فأكمل الله عز وجل الشرائع في اليوم الذي ذكره - وهو يوم عرفة - ولم يوجب ذلك ، أن الدين كان ناقصاً في وقت من الأوقات .
وللإمام القفال نحو ذلك ، نقله عنه الرازي واختاره . قال : إن الدين ما كان ناقصاً البتة ، بل كان أبداً كاملاً . يعني : كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت . إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه . فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت . وكان يزيد بعد العدم .
وأما في آخر زمان المبعث فأُنزل الله شريعة كاملة ، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة . فالشرع أبداً كان كاملاً . إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص . والثاني كمال إلى يوم القيامة .
فلأجل هذا قال : **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** . « وَأَنْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » يعني بإكمال الدين والشريعة . لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام . أو بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين . وهدم منار الجاهلية ومناسكهم ، وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أو بإنجاز ما وعدهم بقوله : **وَلَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ** . فكان من تمام النعمة فتح مكة وما ذكرنا . « **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** » يعني : اخترته لكم من بين الأديان ، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده . **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** ^(١) أو معناه : الانقياد لأمرى فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم . ومعلوم أن الإسلام لم يزل مرضياً للحق تعالى منذ القدم ، إلا أن المعنى به ، في الآية ، الصفة التي هو اليوم بها . وهي نهاية الكمال والبلوغ به أقصى درجاته . أي : فالزموه ولا تفارقوه : **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ^(٢) !!

- (١) [٣ / آل عمران / ٨٥] . . . **وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٩] . . . **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** .

روى البخويّ بسنده عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال جبريل : قال الله عز وجل : هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموا بهما ما صحبتموه .

فوائد

الأولى : روى الإمام أحمد والشيخان^(١) وغيرهم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنكم تقرأون آية في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود ، نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : قوله : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . فقال عمر : والله ! إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في يوم الجمعة .

قال ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن عمر . وروى ابن جرير^(٢) عن قبيصة ابن أبي ذئب قال : قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه . فقال عمر : أى آية يا كعب ؟ فقال : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت ، والمكان الذي أنزلت فيه . نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة . وكلاهما بحمد الله لناعيد^(٣) . وروى ابن جرير القصة أيضاً عن ابن عباس ، وأنه قال : نزلت يوم عيدين اثنين . يوم عيد ويوم الجمعة ... وروى ابن مردويه عن ابن الحنفية عن عليّ قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٢ - باب قوله الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، حديث ٤١ .

(٢) الأثر رقم ١١١٠٠

(٣) الأثر رقم ١١٠٩٨

عليه وسلم وهو قائم عشية عرفة : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . ورواه أيضاً عن سمرة .
وروى ابن جرير نحوه عن معاوية^(١) . وروى عن السدي^(٢) قال : نزلت هذه الآية يوم
عرفة ، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأت . فقالت^(٣)
أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة . فبينما نحن نسير
إذ تجلّى له جبريل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . فلم تطق الراحلة من ثقل
ما عليها من القرآن . فنزلت . فأتيته فسجيت عليه برداً كان على .
وقال ابن جرير^(٤) وغيره : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يوم عرفة بأحد
وثمانين يوماً .

وقال ابن جرير^(٥) : حدثنا سفيان بن وكيع : حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عفرة
عن أبيه قال : لما نزلت : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ - وذلك يوم الحج الأكبر -
بكى عمر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قال : أبكاني أنّا كنّا في زيادة من
ديننا . فأما إذ كمل ، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص . فقال : صدقت .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً
فطوبى للغرباء . انتهى .

قلت : والحديث المذكور رواه مسلم^(٦) عن أبي هريرة . والترمذي عن ابن مسعود .

(١) الأثر رقم ١١١٠٨

(٢) الأثر رقم ١١٠٨١

(٣) الأثر رقم ١١٠٨١

(٤) ابن جرير ، الصفحة ٥١٨ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

(٥) الأثر رقم ١١٠٨٣

(٦) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٣٢ (طبعنا) ونصه : عن أبي هريرة

قال : قال رسول الله ﷺ « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً . فطوبى للغرباء » .

وابن ماجه عنهما أيضاً وعن أنس . والطبراني عن سلمان وسهل وابن عباس .
هذا ، وروى ابن جرير^(٢) من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية قال : ليس ذلك بيومٍ
معلومٍ عند الناس . ومن طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال : نزلت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى حجة الوداع . وروى ابن مردويه من طريق أبي هارون
العبدى عن أبي سعيد الخدرى ؛ أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدیرخم ،
حين قال لعليّ : من كنتُ مولاه فعلىّ مولاه . ثم رواه عن أبي هريرة وفيه : إنه اليوم الثامن عشر
من ذى الحجة - معنى مرجعه عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع .

قال ابن كثير : ولا يصح لا هذا ولا هذا . بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية ،
أنها نزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة . كما قدمنا عن عمر وعلى ومعاوية وابن عباس وسمرة رضى
الله عنهم ، وعن ثلثة من التابعين .

الثانية : استدلت نفاة القياس بهذه الآية ، على أن القياس باطل . وذلك لأن الآية
دلت على أنه تعالى قد نصّ على الحكم في جميع الوقائع . إذ لو بقى بعضها غير مبين الحكم
لم يكن الدين كاملاً ، وإذا حصل النص في جميع الوقائع ، فالقياس - إن كان على وفق ذلك
النص - كان عبثاً . وإن كان على خلافه كان باطلاً .
وأجاب عنه مثبتو القياس بما بسطه الرازى . فانظروه .

الثالثة : قال صاحب (فتح البيان) : لا معنى للإكمال في الآية إلا وفاء النصوص بما
يحتاج إليه الشرع . إمّا بالنص على كل فردٍ فرد ، أو باندراج ما يحتاج إليه تحت العمومات
الشاملة . ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ^(٢) . وقوله :

(١) الأثر رقم ١١١١٣

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ
يَجْنَحُهُ إِلَّا أَمَمْنَاهُ أَمْثَالَكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^(١) وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٢) : تركتكم على الواخحة ، ليلها كنهارها . وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين . وبما يفيد هذا المعنى ، ويصحح دلالته ، ويؤيد برهانه ، ويكفي في دفع الرأى ، وأنه ليس من الدين - قول الله تعالى هذا . فإنه إذا كان الله قد أكل دينه قبل أن يقبض إليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، فما هذا الرأى الذى أحذثه أهله بعد أن أكل الله دينه ؟ لأنه إن كان من الدين - فى اعتقادهم - فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم ، وهذا فيه ردّ للقرآن . وإن لم يكن من الدين ، فأى فائدة فى الاشتغال بما ليس منه ؟ وما ليس منه فهو ردّ بنص السنة المطهرة - كما ثبت فى (الصحيح) - وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأى أن يدفعوه بدافع أبدا . فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصكّ به وجوه أهل الرأى ، وترغم به آنافهم ، وتدحض به حجّتهم . فقد أخبرنا الله فى محكم كتابه أنه أكل دينه . ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل . فمن جاء بشيء من عند نفسه

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] ونصها : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١ - باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث ٥ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى الدرداء قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه . فقال « آلفقر تخافون ؟ والذى نفسى بيده ! لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبّا ، حتى لا يُزْبِغَ قلب أحدكم إِلَّا هَيْمَةً . وإيم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها سواء » .

وزعم أنه من ديننا قلنا له : إن الله أصدق منك : وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ^(١) . اذهب
لا حاجة لنا في رأيك . وليت المقلدة فهموا هذه الآية حق الفهم حتى يستريحوا ويربحوا .
وقد أخبرنا الله في محكم كتابه أن القرآن أحاط بكل شيء فقال : مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
شَيْءٍ ^(٢) . وقال : نَبِيَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً ^(٣) . ثم أمر عباده بالحكم بكتابه
فقال : وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ^(٤) . وقال : لَتَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ^(٥) . وقال : إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ^(٦) .

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٨٣٤ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ
أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ نَبِيَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ
وَهْدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٩] ونصها : وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمَ أَنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٠٥] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ
بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا .

(٦) [٦ / الأنعام / ٥٧] ونصها : قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ،
مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ .

وقال : وَمَنْ لَمْ يَخْشَ كُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ^(١) . وفي آية ... هُمْ الظَّالِمُونَ^(٢) . وفي أخرى... هُمُ الْفَاسِقُونَ^(٣) . وأمر عباده أيضاً في محكم كتابه باتباع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا^(٤) . وهذه أعم آية في القرآن ، وأبينها في الأخذ بالسنة المطهرة ، وقال : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ^(٥) . وقد تكرّر هذا في مواضع من الكتاب العزيز .

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَخْشَ كُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَخْشَ كُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٥] ونصها : وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَخْشَ كُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٧] ونصها : وَلِيَخْشَ كُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَخْشَ كُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَدَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

وقال : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ^(١) . وقال : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ^(٢) . والاستسكان من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتي بمائدة ، ولا فائدة زائدة ، فليس أحد من المسلمين يخالف في ذلك . ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين . وإنما أوردنا هذه الآيات الكريمة ، والبيئات العظيمة ، تليقاً بقلب المقلد الذي قد جمد ، وصار كالجمد . فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية ، ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، طاعة لأوامره . فإن هذه الطاعة ، وإن كانت معلومة لكل مسلم ، لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر الحمديدية . فإذا ذكر بها ذكرٌ . ولا سيما من نشأ على التقليد ، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير مترشحين عنه . فإنه يقع في قلبه : أن دين الإسلام هو هذا الذي هو عليه . وما كان مخالفاً له فليس من الإسلام في شيء . فإذا راجع نفسه رجع .. ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب ، ثم سمع - قبل أن يتمرد بالعلم ويعرف ما قاله الناس - خلاف ذلك المؤلف ، استنكره وأباه قلبه ، ونفر عنه طبعه . وقد رأينا وسمعنا من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر . ولكن إذا وزن العاقل بعقله ، بين من اتبع أحد أئمة المذاهب في مسألة من مسائله التي رواها عنه المقلد - ولا مستند لذلك العالم فيها ، بل قالها بحض الرأى لعدم وقوفه على الدليل - وبين من تمسك في تلك المسألة بخصوصها بالدليل الثابت في القرآن والسنة ؛ أفاده العقل بأن بينهما مسافات تنقطع فيها اعتناق الإبل ، لا جامع بينهما . لأن من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به ، واتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة : أولها وآخرها ،

(١) [٢٤ / النور / ٥١] ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] ... لَعَنَ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ

اللَّهُ كَثِيرًا .

وحيّها وميتها ..! والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره . والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة ، واسترواء النص ، وكيف حكم الله في محكم كتابه أو على لسان رسوله في تلك المسألة . فيفيدونه النص إن كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها ، أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها . فهم رواية وهو مسترور ، وهذا عامل بالرواية لا بالرأى ؛ والمقلد عامل بالرأى لا بالرواية . لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة . وذلك في سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأى ، فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه . وهما من هذه الحثيثة متقابلان ؛ فانظر كم الفرق بين المنزلتين ؟ والكلام في ذلك يطول ويستدعى استغراق الأوراق الكثيرة ، وهو مبسوط في مواطنه ، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ ، وبالله التوفيق . انتهى كلامه .

الرابعة : قال بعض الزيدية : ثمرة الآية تعظيم هذا اليوم المذكور ، وأنه يلزم الشكر لله تعالى على التمسك بملة الإسلام .

وقوله تعالى « فَمَنْ اضْطُرَّ » متصل بذكر المحرمات . وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه . وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل ، والنعمة التامة ، والإسلام المرضي . ومعناه : فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات : الميتة وما بعدها ، أي : أصيب بالضر الذي لا يمكنه الامتناع معه من الميتة وما بعدها « فِي مَخْمَصَةٍ » أي : مجاعة يخاف معها الموت أو مبادئه - و (المخمصة) : مصدر مثل المَغْصَبَة والمَغْصَبَة . يقال : خمسه الجوع خمصاً وخمصة ، وخص البطن (مثلثة الميم) خلا . « غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ » أي : غير منحرف إليه بالأكل فوق الضرورة ، أو العصيان بالسفر . كقوله تعالى : غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ^(١)

(١) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لتناوله الحرام - فلا يؤاخذ به « رَحِيمٌ » أى : بإعطائه الرخصة فيه لعلّه بحاجة عبده المضطر ، وافقتاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له . وفى (المسند)^(١) و(صحيح) ابن حبان عن ابن عمر - مرفوعاً - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته . لفظ ابن حبان . وفى لفظ لأحمد^(٢) : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة . ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان . وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها . وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً ، بحسب الأحوال . واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال . وليس من شرط تناول الميتة أن يعضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً - كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم - بل متى اضطر إلى ذلك جاز له . وقد روى الإمام أحمد^(٣) عن أبى واقد الليثى : أنهم قالوا : يا رسول الله ! إنا بأرض تصيبنا بها المحمصة . فتنحل لنا بها

= و [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و [١٦ / النحل / ١١٥] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٨٧٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٣٩٢ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

الميتة ؟ فقال : إذا لم تصطبحووا ولم تغتبقوا ولم تحتفتوا بقل^(١) ، فأنكم بها . إسناده صحيح على شرط الشيخين ؛ والاصطباح : شرب اللبن بالغداة فإدونه القائلة ، وما كان منه بالعشي فهو الاغتباق ؛ ومعنى لم تحتفتوا : أى تقتلوا . وفي اللفظة عدة روايات . وروى أبو داود عن الفجيع العامري^(٢) : أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنا من الميتة ؟ قال : « ما طعناكم ؟ » قلنا : نصطبج ونغتبق ! قال أبو نعيم : فسر له لى عقبه : قدح غدوة وقدح عشية ، قال : ذاك ، وأبى ! الجوع . فأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبو داود . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم . فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم . وقد يحتاج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حدّ الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسدّ الرمق ، والله أعلم . وروى أبو داود^(٣) عن جابر بن سمرة أن رجلاً نزل الحرّة ومعه أهله وولده . فقال رجل :

(١) فى اللسان : احتفى البقل : اقتلعه من الأرض . وقال أبو حنيفة : الاحتفاء : أخذ البقل بالأظافر من الأرض .

قال أبو عبيد : هو من (الحفا) مهموز مقصور ، وهو أصل البردى الأبيض الرطب منه . الأزهرى : وقال أبو سعيد : صوابه (تحتفوا) بتخفيف الفاء من غير همز . وكل شئ استؤصل فقد احتُفِيَ . قال : واحتفى البقل : إذا أخذه من وجه الأرض بأطراف أصابعه ، من قصره وقتلته .

قال : ومن قال (تحتفتوا ، بالهمز ، من الحفا البردى) فهو باطل . لأن البردى ليس من البقل . اهـ . (من اللسان)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٣٦ - باب فى المضطر إلى الميتة ،

حديث ٣٨١٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٣٦ - باب فى المضطر إلى الميتة ،

حديث ٣٨١٦ .

إن ناقة لي ضلت . فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدتها فلم يجد صاحبها فرضت . فقالت له امرأته : انحرها ! فأبى ، فنفقت ، فقالت اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله ، فقال : حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتاه ، فسأله ، فقال له : هل عندك غنى يغنيك ؟ قال : لا ! قال : فكلوها ! قال : لجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك ! تفرد به .

وقد يحتج به من يجوز الأكل والشمع والتزود منها مدة ، يغلب على ظنه الاحتياج إليها . والله أعلم . أفاده ابن كثير . وقوله : (فَنَفَقَتْ) . أى ماتت . (من باب نصر وفرح) قال ابن برى : أنشد ثعلب^(١) .

فما أشياء نشرها بمال فإن نفقت فأكسدا تكون ؟

تنبيه : قال بعض المفسرين : ليس في هذه الآية بيان لتقديم أحدها . والفقهاء يقولون : يقدم الأخف تحريماً ، فبئس المأكول على ميتة غيره . انتهى .

وفي (رحمة الأمة) أن المضطر إذا وجد ميتة وطعام النير ، وماله كغائب ، أن له أكله بشرط الضمان ، دون الميتة . عند مالك وأكثر أصحاب الشافعي وجماعة من الحنفية . وعند أحمد وآخرين : يأكل الميتة .

قال ابن كثير : قد استدلل بقوله تعالى (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي . والله أعلم .

(١) استشهد به اللسان في مادة (ن ف ق) صفحة ٣٥٧ من المجلد العاشر (طبعة بيروت) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ » أى : من المطاعم « قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ » أى : ما ليس بجديد منها . وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة . و (الطيب) فى اللغة هو المستلذ . و (الحلال) المأذون فيه ، يسمى طيباً تشبيهاً بما هو مستلذ . لأنها اجتماعاً فى انتفاء المضرة « وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ » عطف على (الطيبات) بتقدير مضاف . أى : وصيد ما علمتموه . أو مبتدأ ، على أن (ما) شرطية وجوابها (فكلوا) . و (الجوارح) : الكوااسب من سباع البهائم والطيور - كالكلب والفهد والعقاب والصقر والبازى والشاهين - لأنها تجرح لأهلها أى تكسب لهم . الواحدة جارحة . تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أى : كسبهم خيراً . وفلان لا جرح له . أى : لا كاسب . ومنه قوله تعالى : وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ^(١) . أى : كسبتم . وقيل : سميت (جوارح) لأنها تجرح الصيد عند إمساكه . وقوله تعالى « مُكَلِّبِينَ » أى : معلمين لها أن تستشلى إذا أشليت ، وتزجر إذا زجرت ، وتجتنب عند الدعوة ، ولا تنفر عند الإرادة ، فتصير كأنها وكلاؤكم لتعلمن . إلا إذا قتلت بأنفسها من غير تعاميم ، فلا يحل صيدها .

قال الزخشرى : (المكلب) مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها ورائضها

(١) [٦ / الأنعام / ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

لذلك ، بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف . واشتقاقه من (السكب) لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب . فاشتق من لفظه لكثرة في جنسه . أو لأن السبع يسمى كلباً . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك . فأكله الأسد . (الحديث حسن ، أخرجه الحاكم) ، أو من السكب الذي هو بمعنى الضراوة ، يقال : هو كلب بكذا إذا كان ضارباً به . وانتصاب (مكلبين) على الحال من (علمتم) . فإن قلت : ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بـ (علمتم) ؟ قلت : فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريراً في علمه ، مدرباً فيه ، موصوفاً بالتكليب . وقوله تعالى « تَعَلَّمُونَهُنَّ » حال ثانية أو استئناف ، وفيه فائدة جلية . وهى أن على كل آخذٍ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً ، وأنحرهم دراية ، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه . وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكلاد الإبل . فكم من آخذٍ ، عن غير متقن ، قد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله « مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ » أى : من علم التكليب . لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل . أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه . وانزجاره بزجره . وانصرافه بدعائه . وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه . انتهى .

وقال الناصري (الانتصاف) : وفي الآية دليل على أن البهائم لها علم . لأن تعليمها ، معناه لغة ، تحصيل العلم لها بطرقه . خلافاً لمنكرى ذلك .
« فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ » أى : صيدن لكم وإن قتلته بأن لم يأكل منه « وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » الضمير يرجع إلى (ما علمتم من الجوارح) أى : سمواعليه عند إرساله ، كما بينه حديث أبي ثعلبة وعدى الآتى . وجوز رجوعه إلى (ما أمسكن) على معنى : وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى بالأكل مما فقد فيه شرط من هذه الشرائط استعجالاً إليها « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى : المجازاة على كل ما جلّ ودق .

تنبيهات

الأول : روى ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، عن عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين . سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ! قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ؛ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم ؛ وقال مقاتل : ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه ، وهو الحلال من الرزق . وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوى؟ فقال : ليس هو من الطيبات ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن وهب : سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس؟ فقال : ليس هو من الطيبات . وروى ابن أبي حاتم في سبب نزولها أثراً آخر ، عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ، فسكت . فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ... الآية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه ، فليأكل مما لم يأكل .

وعند ابن جرير ^(١) عن أبي رافع قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليستأذن عليه ، فأذن له . فقال : قد أذن لك يا رسول الله ! قال : أجل . ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب . قال أبو رافع : فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة . حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبس عليها فتركته رحمة لها . ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته . فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجأؤوا فقالوا : يا رسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ قال ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأنزل الله عز وجل : يَسْأَلُونَكَ... الآية .

ورواه الحاكم في (مستدركه) وقال : صحيح ولم يخرجاه .

وروى ابن جرير^(١) أيضاً عن عكرمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالى . فجاء عاصم بن عدى وسعيد بن خيثمة وعويمر بن ساعدة فقالوا : ماذا أحلّ لنا يا رسول الله ؟ فنزلت الآية . ورواه الحاكم أيضاً عن عكرمة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى في سبب نزولها : أنه في قتل الكلاب - أفاده ابن كثير .

قال بعض المفسرين : لما نزلت الآية ، أذن صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها . وأمر بقتل العقور وما يضر . انتهى .

أقول : روى الإمام أحمد ومسلم^(٢) عن جابر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب . حتى أن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النقطتين فإنه شيطان .

وروى الشيخان^(٣) عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب . إلا كلب صيدٍ أو كلب غنم أو ماشية .

وعن عبد الله بن المغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها . فاقتلوا منها كل أسود بهيم . رواه أبو داود^(٤) والدارمي ، وزاد

(١) الأثر رقم ١١١٣٥ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ٤٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ٤٦ (طبعنا) .

(٤) أخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢١ - باب في اتخاذ الكلب

للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

الترمذى^(١) والنسائى^(٢) : وما من أهل بيت يرتبطون كلباً إلا نقص من عملهم كل يوم قيراط. إلا كلب صيد أو كلب حرث أو كلب غنم. وظاهر هذه الأحاديث، أنه صلى الله عليه وسلم كان أمر بقتلها كلها. ثم رخص في استبقائها. إلا الأسود فإنه مستحق القتل .

وقول إمام الحرمين : ثم استقر الشرع على النهى عن قتل جماع الكلاب حيث لا ضرر فيها حتى الأسود البهيم- يحتاج إلى برهان .

قال ابن عبد البر : فى هذه الأحاديث إباحة اتخاذ الكلب للصيد والماشية . وكذلك للزرع . لأنها زيادة حافظ . وكراهة اتخاذها لغير ذلك . إلا أنه يدخل فى معنى الصيد وغيره مما ذكر ، اتخاذها لجلب المنافع ودفع المضارّ قياساً ، فتمحض كراهة اتخاذها لغير حاجة ، لما فيه من ترويع الناس ، وامتناع دخول الملائكة إلى البيت الذى الكلاب فيه .

ثم قال : ووجه الحديث عندى ؛ أن المعانى التعبدية فى الكلاب . من غسل الإماء سبعاً ، لا يكاد يقوم بها المكلف ولا يتحفظ منها ، فربما دخل عليه باتخاذها ما ينقص أجره من ذلك. وروى أن المنصور بالله سأل عمرو بن عبيد عن سبب هذا الحديث ؟ فلم يعرفه . فقال المنصور : لأنه ينبغ الضيف ويروّع السائل . انتهى .

وقال الخطابى : معنى (قوله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الكلاب أمة من الأمم ... الخ). أنه صلى الله عليه وسلم كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جييل من الخلق ، لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة . يقول : إذا كان الأمر على هذا ، ولا سبيل إلى قتلهم ، فاقتلوا أشرارهم وهى السود البهيم . وأبقوا ماسواها لتنتفعوا بهم فى الحراسة .

(١) أخرجه الترمذى فى : ١٦ - كتاب الصيد ، ١٦ - باب ما جاء فى قتل الكلاب.

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٢ - كتاب الصيد ، ١٠ - باب صفة الكلاب التى أمر

بقتلها .

وقال الطيبي : قوله (أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ) إشارة إلى قوله تعالى . وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ ^(١) . أى : أمثالكُم في كونها دالة على الصانع ومسبحة له . قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ^(٢) . أى : يسبح بلسان التال أو الحال . حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عما لا يجوز عليه ، فبالنظر إلى هذا المعنى ، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء . ولكن إذا كان لدفع مضرة - كقتل الفواسق الخمس - أو جلب منفعة - كذبح الحيوانات المأكولة - جاز ذلك .

الثانى :

ذهب جمهور الصحابة والتابعين والأئمة إلى أن الجوارح التى يحل صيدها ، ما قبل التعلیم من ذى ناب (كالكلب والفهد والنمر) أو ذى مخلب (كالطيور المذكورة قبل) . قال فى (النهاية) : حتى الهرّ إن تعلّم ، واحتجوا بعموم الآية .

وروى أحمد ^(٣) وأبو داود عن مجالد عن الشعبي عن عدى بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : ما علّمت من كلبٍ أو بازٍ ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه ، فكل ما أمسك عليك . قلت : وإن قتل ؟ قال : وإن قتل ولم يأكل منه شيئاً . فإنما أمسكه عليك .

(١) [٦ / الأنعام / ٣٨] ... مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٥٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه : عن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ فعلمنى الإسلام . ونعت لى الصلاة وكيف أصل كل صلاة لوقها . ثم قال لى « كيف أنت يا ابن حاتم ! إذا ركبت من قصور الين =

قال البيهقي : تفرد مجالد بذكر الباز فيه ، وخالف الحفاظ .
أقول : روى ابن جرير بالسند المذكور إلى عدى قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيد البازي ؟ فقال : ما أمسك عليك فكل . وعن ابن عمر ومجاهد : لا يحل إلا صيد الكلب فقط . روى ابن جرير^(١) بسنده ، أن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير (والبراة من الطير) فما أدركت فهو لك . وإلا فلا تطعمه . وقال ابن أبي حاتم : كره مجاهد صيد الطير كله ، وقرأ قوله : وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ . أى : فإن قوله تعالى (مكلبين) يشير إلى قصر ذلك على الكلب . وقال الحسن البصري والنخعي وأحمد وإسحق : يحل من كل شيء إلا الكلب الأسود البهيم . لأنه قد أمر بقتله .

الثالث : قدمنا أن انتصاب (مكلبين) على الحال من (علمتم) . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو (الجوارح) أى : وما علمتم من الجوارح في حال = لا تخاف إلا الله حتى تنزل قصور الحيرة ؟ » قال قلت : يا رسول الله ! فأين مقاب طيء ورجالها ؟ قال « يكفيك الله طيئاً ومن سواها » قال قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب والبزاة . فما يحل لنا منها ؟ قال « يحل لكم ما علمتم من الجوارح تعلمونها مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه . فما علمت من كلب أو باز ، ثم أرسلت وذكرت اسم الله عليه ، فكل مما أمسك عليك . قلت : وإن قتل ؟ قال « وإن قتل ، ولم يأكل منه شيئاً . فإنما أمسكه عليك » . قلت : أفرأيت إن خالط كلابنا كلاباً أخرى حين نرسلها ؟ قال « لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك عليك » قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نرمي بالمراض ، فما يحل لنا ؟ قال « لا تأكل ما أصبت بالمراض ، إلا ما ذكيت » .

وأبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢٢ - باب في الصيد ، حديث ٢٨٥١ .

(١) الأثر رقم ١١١٥٥ .

كونهن مكلبات للصيد . وذلك أن تصيد بمخالبها وأظفارها . فيستدل بذلك ، والحالة هذه ، على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخالبه وظفره ، أنه لا يحل . كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء . ولهذا قال (تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ) وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا استشلاه استشلى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيئ إليه ، ولا يمسكه لنفسه . ولهذا قال تعالى : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ . فتي كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه - وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله - حلّ الصيد وإن قتله ، بالاجماع .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة . كما ثبت في (الصحيحين) (١)

(١) إني رأيت ، حرصاً على نص الحديث ، أن آتى بجميع طرقه ، منقولة من كتاب (جامع مسانيد البخاري) وهاهية :

٤ - كتاب الوضوء ، ٣٣ - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان .

عن عدى بن حاتم قال : سألت النبي ﷺ فقال « إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل . وإذا أكل فلا تأكل . فإنما أمسكه على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « فلا تأكل . فإنما سميت على كلبك ولم تسم على كلب آخر » .

٣٤ - كتاب البيوع ، ٣ - باب تفسير المشبهات .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن المعراض ؟ فقال « إذا أصاب بجمده فكل ، وإذا أصاب بعرضه فلا تأكل ، فإنه وقيد » قلت : يا رسول الله ! أرسل كلبى وأسمي ، فأجد معه على الصيد كلباً آخر لم أسم عليه ، ولا أدرى أيهما أخذ ؟ قال « لا تأكل . إنما سميت على كلبك ولم تسم على الآخر » .

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١ - باب التسمية على الصيد .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن صيد المعراض ؟ فقال =

عن عدى بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ! إني أرسل الكلاب المعلّمة وأذكر اسم الله ؟ فقال : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله ، فكل ما أمسك عليك . قلت : وإن قتلن ؟ قال : وإن قتلن ، ما لم يشر كها كلب ليس منها . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره . قلت له : فإني أرى بالمعروض الصيد ؟ فقال : إذا رميت بالمعروض الصيد فخرق فكله ، فإن أصابه بعرض ، فإنه وقيد ، فلا تأكله .

== « ما أصاب بحده فكل ، وما أصاب بعرضه فهو وقيد » وسأله عن صيد الكلب ؟ فقال « ما أمسك عليك فكل ، فإن أخذ الكلب ذكاة . وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره ، فخشيت أن يكون أخذه معه ، وقد قتله ، فلا تأكل . فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره . »

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢ - باب صيد المعروض .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن المعروض ؟ فقال « إذا أصبت بحده فكل ، فإذا أصاب بعرضه فقتل فإنه وقيد فلا تأكل » فقلت : أرسل كلبى ؟ فقال « إذا أرسلت كلبك وسميت فكل » قلت : فإن أكل ؟ قال « فلا تأكل ، فإنه لم يمسك عليك وإنما أمسك على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « لا تأكل . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على آخر » .

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٣ - باب ما أصاب المعروض بعرضه .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إنا نرسل الكلاب المعلّمة ؟ قال « كل ما أمسكن عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن » قلت : وإنا نرى بالمعروض ؟ قال « كل ما خرق ، وما أصاب بعرضه فلا تأكل » .

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٧ - باب إذا أكل الكلب .

عن عدى بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ قلت : إنا قوم نصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلّمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليكم وإن قتلن . »

وفي لفظٍ لهما : إذا أرسلت كلبك فاذا ذكر الله. فإن أمسك عليك فأدر كته حياً ، فاذبحه . وإن أدر كته قد قتل ولم يأكل منه ، فكله . وإن أخذ الكلب ذكاته . وفي رواية لهما : فإن أكل فلا تأكله . فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه . فهذا دليل للجمهور أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً . ولم يستفصلوا . كما ورد بذلك الحديث . وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يحرم مطلقاً . أكل أو لم يأكل .

= إلا أن يأكل الكلب . فإني أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه . وإن خالطها كلاب من غيرها ، فلا تأكل .

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٨ - باب الصيد إذا غاب عنه يومين أو ثلاثة .
عن عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « إذا أرسلت كلبك وسميت ، فأمسك وقتل ، فكل . وإن أكل فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه . وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن ، فلا تأكل . فإنك لا تدري أيها قتل . وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل . وإن وقع في الماء فلا تأكل . »
وعن عدى أنه قال للنبي ﷺ : يرمى الصيد ، فيقتفر أثره اليومين والثلاثة ثم يجده ميتاً ، وفيه سهمه ؟ قال « يأكل إن شاء . »

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٩ - باب إذا وجد مع الصيد كلباً آخر .
عن عدى بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ! إني أرسل كلبى وأسمى ؟ فقال النبي ﷺ « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فأكل ، فلا تأكل . فإنما أمسك على نفسه » قلت : إني أرسل كلبى ، أجد معه كلباً آخر لا أدري أيها أخذه ؟ قال « لا تأكل . » فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره .
وسأله عن صيد المعراض ؟ فقال « إذا أصبت بحده فكل . وإذا أصبت بعرضه فقتل ، فإنه وقيد ، فلا تأكل . »

روى ابن جرير^(١) عن سلمان الفارسيّ وأبي هريرة قالا : كُلُّ وإن أكل ثلثيه . وعن سعد بن أبي وقاص : ... وإن أكل ثلثيه . وعنه : ... وإن لم يبق إلا بضعة . وعن ابن عمر : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك . أكل أو لم يأكل . وحكاه عن عليّ وابن عباس وغير واحدٍ من التابعين .

وروى ذلك مرفوعاً أيضاً . أخرج أبو داود^(٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابياً ، يقال له أبو ثعلبة ، قال : يا رسول الله ! إن لي كلاباً مكلبة فأفتني في صيدها .

= ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ - باب ما جاء في التصيد .

عن عديّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ قلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فكل مما أمسكن عليك . إلا أن يأكل الكلب ، فلا تأكل . فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

٩٧ - كتاب التوحيد - ١٣ - باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها .

عن عديّ بن حاتم قال : سألت النبي ﷺ قلت : أرسل كلابي المعلمة ؟ قال « إذا أرسلت كلابك المعلمة ، فذكرت اسم الله فأمسكن فكل . وإن رميت بالمراض ، فخرق ، فكل » ورقم الحديث ١٤١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان ، حديث ١-٧ (طبعتنا)

(١) الأثر رقم ١١١٨٧ - ١١٩٣ عن سلمان الفارسيّ .

والأثر رقم ١١١٩٨ عن أبي هريرة .

والأثر رقم ١١١٩٥ عن سعد بن أبي وقاص .

والأثر رقم ١١٢٠٢ عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢٢ - باب في الصيد ، حديث ٢٨٥٧ .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسكن عليك . فقال : ذكى وغير ذكى ، وإن أكل منه ؟ قال : نعم وإن أكل منه . فقال : يا رسول الله ! أفتنى في قوسى ! فقال : كل ما ردت عليك قوسك . قال : ذكى وغير ذكى ؟ قال : وإن تغيب عنك مالم يَصِلْ أو تجد فيه أثرا غير سهمك . قال : أفتنى في آنية المجوس إذا اضطرونا إليها . قال : اغسلها وكُلْ فيها . هكذا رواه أبو داود وقد أخرجه النسائى . وكذا رواه أبو داود^(١) عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ثعلبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله ، فكل وإن أكل منه ، وكُلْ ما ردت عليك يدك .

وقد احتج بما ذكرنا من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه ، وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم . لحديث عدى ، وللملة التى أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم . وأما إن أمسكه ، ثم انتظر صاحبه ، فطال عليه ، وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لا يؤثر في التحريم . وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة . وهذا تفريق حسن ، وجمع بين الحديثين ، صحيح .

وقد تبنى الأستاذ أبو المعالى الجوينى في كتابه (النهاية) : أن لو فصل مفصل هذا التفصيل . وقد حقق الله أمنيته ، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب . أفاده ابن كثير .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وسلك الناس فى الجمع بين حديث عدى وأبى ثعلبة طرقاً منها للقائلين بالتحريم (الأولى) حمل حديث أبى ثعلبة الأعرابى على ما إذا قتله وخلاه ثم عاد فأكل منه ، و (الثانية) الترجيح ، فرواية عدى فى الصحيحين ورواية الأعرابى فى غيرهما . ومختلف فى تضعيفها . وأيضاً ، فرواية عدى صريحة مقرونة بالتعليل المناسب للتحريم . وهو خوف الإمساك على نفسه ، متأيد بأب الأصل فى الميتة التحريم . فإذا

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ - كتاب الأضاحى ، ٢٢ - باب فى الصيد ، حديث ٢٨٥٢

شككنا في السبب البيح، رجعنا إلى الأصل ولظاهر الآية المذكورة . فإن مقتضاها أن الذي تمسكه من غير إرسال لا يباح . ويتقوى أيضاً بالشواهد من حديث ابن عباس عند أحمد^(١) : إذا أرسلت الكلب فأكل الصيد، فلا تأكل . وإنما أمسك على نفسه . فإذا أرسلته فقتله ولم يأكل ، فكل . وإنما أمسك على صاحبه . وأخرجه البزار من وجه آخر عن ابن عباس . وابن أبي شيبه من حديث أبي رافع ، نحوه بمعناه . ولو كان مجرد الإمساك كافياً لما احتيج إلى زيادة (عليكم) في الآية . وأما القائلون بالإباحة ، فعملوا حديث عدى على كراهة التنزيه ، وحديث الأعرابي على بيان الجواز . قال بعضهم : ومناسبة ذلك أن عدياً كان موسراً . فاختير له الحمل على الأولى . بخلاف أبي ثعلبة ، فإنه كان بعكسه . ولا يخفى ضعف هذا التمسك ، مع التصريح بالتعليل في الحديث لخوف الإمساك على نفسه . وقد وقع في رواية لابن أبي شيبه : إن شرب من دمه فلا تأكل فإنه لم يعلم ما علمته . وفي هذا إشارة إلى أنه إذا شرع في أكله ، دلّ على أنه ليس يعلم التعليم المشروط .

الرابع : في الآية مشروعية التسمية . قال ابن كثير : قوله تعالى : اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أى عند إرساله له ، كما قال النبي ﷺ^(٢) لعدى بن حاتم : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر اسم الله فكل ما أمسك عليك . وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في (الصحيحين)^(٣) أيضاً :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٣١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) وحديث ٢٠٤٩

(طبعة المعارف)

(٢) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة ١٨٥٠ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب النبايح والصيد ٤ - باب صيد القوس ، حديث

٢١٩٨ ونصه :

عن أبي ثعلبة الخشني قال : قلت : يانبي الله ! إنا بأرض قوم أهل الكتاب . أفأكل في آيتهم ؟ وبأرض صيد ، أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم ، فما يصلح لي ؟ =

إذا أرسلت كلبك فاذا كرّاه الله . وإذا رميت بسهمك . ولهذا اشترط من الأئمة ، كالإمام أحمد رحمه الله ، في المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث . وهذا القول هو المشهور عند الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال . كما قال السدي وغيره . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، في هذه الآية : إذا أرسلت جارحك فقل : بسم الله . وإن نسيت فلا حرج . انتهى .

قال بعض الزيدية : والتسمية هنا كالتسمية على الذبيحة . فمن قائل بوجوبها على الذّاكر لا الناسي . لحديث^(١) : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان . ومن قائل بأنها مستحبة . ومن قائل بأنها شرط مطلقاً . والمشهور عن أحمد التفرقة بين الصيد والذبيحة . فذهب في الذبيحة إلى هذا القول الثالث . ثم قال : لقائل أن يقول : يحتمل أن يرجع قوله تعالى (وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) إلى الأكل . أي : فسموا عند الأكل . فدلالة الآية محتملة في وجوب التسمية . انتهى . وهذا الاحتمال حكاه ابن كثير ونصّه :

= قال « أما ما ذكرت من أهل الكتاب ، فإن وجدتم غيرهما فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا قاعسوها واكلوا فيها . وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله ، فكل . وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله فكل . وما صدت بكلبك غير معلم ، فأدركت ذكاته ، فكل . » وأخرجه أيضاً في : ١٠ - باب ما جاء في التصيد . وفي : ١٤ - باب آنية المجوس والميتة .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان ، حديث^(٨) (طبعتنا) . (١) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المسكره والناسي ، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكروها عليه . »

وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل . كما ثبت في (الصحيحين)^(١) ؛ أن رسول الله ﷺ علم ربيبه ، عمر بن أبي سلمة ، فقال : سم الله وكل يمينك وكل مما يليك . وفي (صحيح البخاري)^(٢) عن عائشة ؛ أنهم قالوا : يا رسول الله ! إن قوماً يأتوننا ، حديث عهد بكفر ، بلحمان ، لا ندرى أذكروا اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : سموا الله أنتم وكلوا أنتم . وقال الترمذي : حسن صحيح .

الخامس : في الآية جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة . لأن التعليم قد يحتاج إلى ذلك . كذا في (الإكليل) . وتقدم عن الزخشرى والناصر ما في الآية أيضاً من الأخذ عن التحرير ، وأن البهائم لها علم . واستدل بالآية على إباحة اتخاذ الكلب للصيد والحراسة ، بالسنة . كما تقدم .

-
- (١) أخرجه البخاري في : ٧٠ - كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين ، حديث ٢١٧٣ ونصه :
- عن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ « يا غلام ! سم الله وكل يمينك وكل مما يليك » . فما زالت تلك طعمتي بعد .
- (٢) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ - باب ذبيحة الأعراب ونحوهم . حديث ١٠٣٨ ونصه :
- عن عائشة رضي الله عنها ؛ أن قوماً قالوا لرسول الله ﷺ : إن قوماً يأتونا باللحم ، لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا عليه أنتم وكلوه » . قالت : كانوا حديثي عهد بكفر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

وقوله تعالى «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» أى : من الذبائح والصيد . تكريره تأكيد للمنة . قال أبو السعود : قيل المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد . وإنما كرر للتأكيد . ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره . والمراد بالطيبات ما مر .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : دلت الآية على جواز أكل العالى من الأطعمة والأصباغ . قال فى (الروضة والغدير) : وإن كان التقنع بالأدون هو الأولى ، كما فعله على عليه السلام وغيره من الفضلاء . فقد روى أن علياً عليه السلام كان يطعم الناس أطيب الطعام . فرأى بعض أصحابه طعامه . وهو خبز شعير غير منخول ، وملح جريش ، وهو مختوم عليه لثلا يبدل . ومن كلامه عليه السلام : والله ! لأروضن نفسى رياضة تهش إلى القرص إن وجدته مطعوماً ، وإلى الملح إن وجدته مأدوماً . ولما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى كراهة الإدامين مجتمعين . انتهى .

« وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » قال ابن عباس وأبو أمامة وبجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعنى ذبائحهم .

قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ؛ أن ذبائحهم حلال للمسلمين . لأنهم

يمتقدون تحريم الذبج لغير الله ولا يذكرون على ذبائهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه ما هو منزله عنه، تعالى وتقدس . انتهى .

قال المهايغي : وإن لم يمتد بذكرهم اسم الله ، لكنهم لما ذكروه ، أشبه ما يمتد بذكره ، فأشبهه طعامهم الطيبات .

مباحث

الأول : ما ذكرناه من أن المعنى بالطعام الذبائح ، هو الذي قاله أئمة السلف : صحابة كابن عباس وأبي أمامة ، وأتباعاً كجهاهد وثمانية غيره . كما في ابن جرير ^(١) وابن كثير . وفي (الباب) : أجمعوا على أن المراد بـ (طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ذبائهم خاصة . لأن ما سوى الذبائح فهي محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم . فلا يبق لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة . ولأن ما قبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح . فحمل هذه الآية عليه أولى . لأن سائر الطعام لا يختلف ، من تولاه من كتابي أو غيره . وإنما تختلف الذكاة . فلما خص أهل الكتاب بالذكر ، دلّ على أن المراد بطعامهم ذبائهم . انتهى .

الثاني : استدل بالآية على جميع أجزاء ذبائهم . وهو قول الجمهور .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وعن مالك وأحمد ، تحريم ما حرم الله على أهل الكتاب كالشحوم . قال ابن القاسم : لأن الذي أباحه الله طعامهم . وليس الشحوم من طعامهم . ولا يقصدونها عند الذكاة وتمقب بأن ابن عباس فسّر (طعامهم) بذبائهم . وإذا أبيحت ذبائهم لم يحتج إلى قصدهم أجزاء المذبوح . والتذكية لا تقع على بعض أجزاء المذبوح دون بعض . وإن كانت التذكية شائعة في جميعها دخل الشحم لا محالة . وأيضاً فإن الله تعالى نص بأنه حرم عليهم كل ذي ظفر . فكان يلزم ، على قول هذا القائل ، إن اليهودي ، إذا ذبح ماله ظفر ، لا يحل للمسلم أكله . ثم قال ابن حجر : وقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ)

(١) الآثار من رقم ١١٢٣٦ - ١١٢٥١ .

يستدل به على الحل . لأنه لم يخص لحماً من شحم ، وكون الشحوم محرمة على أهل الكتاب لا يضر ، لأنها محرمة عليهم لا علينا . وغايته بعد أن يتقرر أن ذبائحهم لنا حلال ، أن الذي حرم عليهم منها مسكوتٌ في شرعنا عن تحريمه علينا . فيكون على أصل الإباحة . انتهى .
وفي (الصحيح)^(١) عن عبيد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : كنا محاصرين قصر خيبر . فرمى إنسان بجراب فيه شحم . فنزوت لآخذه . فالتفت فإذا النبي ﷺ فاستحييت منه . وفي رواية : أدلى بجراب من شحم يوم خيبر . فحضنته وقلت : لأعطي اليوم من هذا أحداً . والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم .

قال الحافظ ابن حجر : فيه حجة على من منع ما حرم عليهم كالشحوم . لأن النبي ﷺ أقر ابن مغفل على الانتفاع بالجراب المذكور . وفيه جواز أكل الشحم ، مما ذبحه أهل الكتاب ، ولو كانوا أهل حرب . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : استدل على المالكية الجمهور بهذا الحديث . وفي ذلك نظر . لأنه قضية عين . ويحتمل أن يكون شحماً يمتقدون حله ، كشحم الظهر والحوايا ونحوها . والله أعلم .

وأجود منه في الدلالة ما ثبت في (الصحيح)^(٢) أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٢ - باب ذبائح أهل الكتاب وشحومها من أهل الحرب وغيرهم ، حديث ١٤٨٨ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، ٧ - باب إذا غدر المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟ حديث ٢٤٩٨ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر ، أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم . فقال النبي ﷺ « اجمعوا إلي من كان ههنا من يهود » فجمعوا له . فقال « إني سائلكم عن شيء . فهل أنتم صادقون عنه » ؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبي ﷺ « من أبوكم » ؟ =

شاة مصلية . وقد سَمُوا ذراعها - وكان يعجبه الذراع - فتناوله فنهش منه نهشةً . فأخبره الذراع أنه مسموم . فَلَفَظَهُ وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي ثَنَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبْهَرِهِ . وأكل معه منها بشر ابن البراء بن معرور ، فمات . فقتل اليهودية التي سَمَّتها ، وكان اسمها زينب . ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ؟ وفي الحديث الآخر : إن رسول الله ﷺ أضافه يهودى على خبز شعير وإهالة سنخة . يعنى ودكا زنجاً .

الثالث : تمسك ابن العربى - من أئمة المالكية - بهذه الآية على حل ما يقتله الفرنج ، وإن رأينا ذلك ، لأنه من طعامهم . نقله عنه الشيخ خليل فى (توضيحه) واستبعده . وقال الإمام ابن زكرى : صنف ابن العربى فى إباحة مذكى النصرانى بغير وجه ذكائنا . والمحققون على تحريمه . وقد أوضح ذلك الفقيه محمد الدليمى السومى المالكى فى (فتاويه) ، وقد سئل عن ذبيحة الكتابى : هل تحل المذكى كيف كانت . سواء وافقت ذكائنا أم لا ؟ بقوله مجيباً :

== قالوا : فلان . فقال « كذبتُم ، بل أبوكم فلان » قالوا : صدقت . قال « فهل أنتم صادقون عن شيء ، إن سألت عنه » ؟ فقالوا : نعم . يا أبا القاسم ! وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته فى أيينا . فقال لهم « من أهل النار » ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها . فقال النبى ﷺ « اخسؤا فيها . والله ! لا تخلفكم فيها أبداً » ثم قال « فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه » ؟ فقالوا : نعم . يا أبا القاسم ! قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سمّاً » ؟ قالوا : نعم . قال « ما حملكم على ذلك » ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريح . وإن كنت نبياً لم يضر .

وأخرجه أبو داود ، بمعناه ، فى : ٣٨ - كتاب الديات ، ٦ - باب فيمن سقى رجلاً سمّاً أو أطعمه ، فمات ، هل يقاد منه ؟ حديث ٤٥٠٨ عن أنس و ٤٥٠٩ وعن أبى هريرة ، حديث ٤٥١٠ و ٤٥١١ و ٤٥١٢ .

قال الإمام ابن العربي : إذا سلّ النصرانيّ عنق دجاجة حلّ للمسلم أكلها . لأن الله تعالى أحلّ لنا أكل طعامهم الذي يستحلونه في دينهم . وكل ما ذكوه على مقتضى دينهم ، حلّ لنا أكله . ولا يشترط أن تكون ذكأتهم موافقة لذكأتنا . وذلك رخصة من الله تعالى وتيسير منه علينا . ولا يستثنى من ذلك إلّا ما حرّم الله تعالى على الخصوص . فإنه ، وإن كان طعامهم الذي يستحلونه ، فلا يحلّ لنا أكله . انتهى .

الرابع : قال الرازيّ : نقل عن بعض أئمة الزيدية ؛ أن المراد بـ (الطعام) في الآية ، الخبز والفاكهة وما لا يحتاج فيه إلى الذكاة . انتهى .

وقد اطّعت على قطعة من تفسير بديع لبعض الزيدية قال فيه : اختلف العلماء من الأئمة والفقهاء : ما أريد بـ (الطعام) ؟ فقال القاسم والهادي ومحمد بن عبد الله ، ورواية عن زيد : إن ذبائح أهل الكتاب وجميع الكفار لا تجوز . لقوله تعالى (إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ) وهذا خطاب للمسلمين . والرواية الثانية عن زيد وعامة الفقهاء من الحنفية والشافعية والمالكية والجعفرية والإمامية . واختاره الأمير حـ والأمير يحيى : جواز ذبائح أهل الكتاب . ويفسرون (الطعام) بالذبائح وغيرها . وهذا مروى عن الحسن والزهرى والشعبيّ وعطاء وقتادة وأكثر المفسرين . وأخذوا بالعموم في إطلاق (الطعام) . فأجاب الأولون بأن (الطعام) يطلق على الحبوب يقال : سوق الطعام . قال القاضي : الأقرب الحِلّ . لأن ذلك بفعلهم يصير طعاماً . ولأنه خص أهل الكتاب . أجيب : بأنه خصهم لثلا يظن أن طعامهم الذي لم يذكّوه محرم . ثم عند الهادي والقاسم ، عليهما السلام ، تنجس رطوباتهم . لقوله تعالى ^(١) : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . فيحرم ما حصل فيه رطوبتهم ، إلّا مأخذناه قهراً . وعند المؤيد بالله ومن معه : إن رطوبتهم طاهرة . والخلاف في الرطوبة عامة في الكفار . انتهى .

وفي (الروضة الندية) ما نصه : وأما ذبيحة أهل الذمة ، فقد دلّ على حلّها القرآن الكريم بهذه الآية . ومن قال : إن اللحم لا يتناول (الطعام) فقد قصر في البحث ، ولم

(١) [٩ / التوبة / ٢٨]

ينظر في كتب اللغة ، ولا نظر في الأدلة الشرعية المصروفة بأن النبي صلى الله عليه وسلم أكل ذبائح أهل الكتاب . كما في أكله ^(١) صلى الله عليه وسلم للشاة التي طبختها يهودية وجعلت فيها سمًا ، والقصة أشهر من أن تحتاج إلى التنبيه عليها . ولا مستند للقول بتحريم ذبائحهم إلا مجرد الشكوك والأوهام التي يبتلى بها من لم يرسخ قدمه في علم الشرع . فإن قلت : قد يذبحونه لغير الله ، أو بغير تسمية ، أو على غير الصفة المشروعة في الذبح . قلت : إن صح شيء من هذا ، فالكلام في ذبيحته ، كالكلام في ذبيحة المسلم إذا وقعت على أحد هذه الوجوه . وليس النزاع إلا في مجرد كون كفر الكتابي مانعًا ، لا كونه أخذ بشرط معتبر . انتهى .

الخامس : أريد بـ (أَهْلَ الْكِتَابِ) اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . وأما من دخل في دينهم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم - وهم متنصرو العرب من بني تغلب - فلا تحل ذبيحته . روى عن علي بن أبي طالب قال : لا تأكل من ذبائح نصارى بني تغلب . فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر . وبه قال ابن مسعود . وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب ؟ فقال : لا بأس به . ثم قرأ ^(٢) : وَمَنْ يَقُولْهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا قول الحسن وعطاء والشعبي وعكرمة وقتادة والزهرى والحكم وحامد - كذا في (اللباب) .

قال ابن كثير : وأما المجوس فإنهم - وإن أخذت منهم الجزية تبعًا وإلحاقًا لأهل الكتاب - فإنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم . خلافاً لأبي ثور ، إبراهيم بن خالد الكلبي (أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي ، وأحمد بن حنبل) ولما قال ذلك ، واشتهر عنه ، أنكر عليه الفقهاء ذلك . حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه - يعني في هذه المسألة - وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(٣) : سنوا بهم سنة أهل الكتاب .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ١٨٦٠ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥١]

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في : ١٧ - كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعنا) .

ولكن لم يثبت بهذا اللفظ . وإنما الذي في (صحيح) البخارى^(١) عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر . ولو سلم صحة هذا الحديث ، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) فدلّ بمفهومه مفهوم المخالفة ، على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل !..

السادس : قيل : هذه الآية تقتضى إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً ، وإن ذكروا غير اسم الله تعالى . وعن ابن عمر : لو ذبح يهودى أو نصرانى على غير اسم الله تعالى ، لا يحل ذلك . وهو قول ربيعة . وسئل الشعبي وعطاء ، عن النصرانى يذبح باسم المسيح ؟ فقال : يحل . فإن الله تعالى قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون . وقال الحسن : إذا ذبح اليهودى أو النصرانى وذكر غير اسم الله ، وأنت تسمع ، فلا تأكل . وإذا غاب عنك فكل . فقد أحله الله لك . كذا في (اللباب) . وقول الحسن - في هذا البحث - هو الحسن .

وفي (النهاية) من كتب الزيدية : أما إذا ذبح أهل الذمة لأعيادهم وكنائسهم ، فكرهه مالك ، وأباحه أنهم ، وحرمه الشافعى . وذلك لتعارض عموم قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وعموم قوله تعالى (وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ)^(٢) فتخصيص

(١) أخرجه البخارى في : ٥٨ - كتاب الجزية ، ١ - باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩٢ ونصه :

عن بجالة قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية ، عم الأحنف . فأتانا كتاب عمر بن الخطاب ، قبل موته بسنة : فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس .

ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

كل واحد للآخر محتمل . ثم قال : والجمهور على تحريم ذبيحة المرتد . وأجازها إسحق ، وكرهها الثوري . وسبت الخلاف : هل المرتد يتناول اسم (الكتاب) أم لا ؟ قال : وهكذا منشأ الخلاف في ذبائح بني تغلب ، هل اسم (الكتاب) يتناول المنتصر واليهود من العرب ، كما روى عن ابن عباس ؟ أو لا يتناول ، كما روى عن علي عليه السلام . انتهى .

وقوله تعالى «وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ» يعني : ذبائحكم حلال لهم . فتأكل اليهود والنصارى ذبيحة المسلمين . كذا في (التفسير) النسوب لابن عباس .

ونقل بعض مفسري الزيدية عن ابن عباس وأبي الدرداء ، وبقيّة التابعين السالف ذكرهم ، وأكثر المفسرين والفقهاء ، أن المراد ذبائح المسلمين .

وقال الزجاج : تأويله : حلّ لكم أن تطعموهم . لأن الحلال والحرام والفرائض إنما تعتد على أهل الشريعة .

وقال ابن كثير : أي ويحلّ لكم أن تطعموهم من ذبائحكم . وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم . اللهم ! إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه . سواء كان من أهل ملّتهم أو غيرها . والأول أظهر في المعنى . أي : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم . وهذا من باب المكافأة والمجازاة . كما ألبس^(١)

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٨ - باب هل يُخرج الميت من القبر والحد لعله ؟ حديث ٦٧٦ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبيّ ، بعدما أدخل حفرته . فأمر به فأخرج . فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه . فأنه أعلم . وكان كسا عباساً قميصاً .

وقال أبو هريرة : وكان على رسول الله ﷺ قميصان . فقال له ابن عبد الله : يا رسول الله ! ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك .

قال سفيان : فَيَرَوْنَ أن النبي ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع .

النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبيّ، ابن سلول حين مات ودفنه فيه . قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه . فجازه النبي ﷺ ، ذلك بذلك . فأما الحديث (١) الذي فيه (لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ) فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم . انتهى .

وقال الرازي : أى : ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم . لأنه لا يمتنع أن يحرم الله أن تطعمهم من ذبائحتنا . وأيضاً ، فالفائدة في ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة في الجانبين ، وإباحة الذبائح كانت حاصلة في الجانبين . لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين . انتهى .

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره) : وقوله تعالى (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) أى : تناوله لحاجتكم إلى مخالطتهم ، للإذن في إقرارهم على دينهم بالجزية . ولما كان هذا مشعراً بإبقائهم على ما اختاروا لأنفسهم ، زاده تأكيداً بقوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) أى : فلا عليكم في بذله لهم ، ولا عليهم في تناوله . انتهى .

وفي (أمالي) الإمام السهيلي رحمه الله تعالى : قيل : ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار لا يحتاجون إلى بياننا ؟ فعنه جوابان : أحدهما أن المعنى : انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم ، فإن أطعموكموه فكلوه ، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم . فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم . ثم نسخ ذلك في شرعنا . والآية بيان لنا لا لهم . أى : اعلّموا أن ما كان محرماً عليهم ، مما هو حلال لكم ، قد أحل لهم أيضاً . ولذلك لو أطعمونا خنزيراً أو نحوه وقالوا :

(١) أخرجه الدارمي في : ٨ - كتاب الأطعمة ، ٢٣ - باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء .

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٣٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) عن أبي سعيد الخدري .

هو حلال في شريعتنا، وقد أباح الله لكم طعامنا - كذبناهم وقلنا : إن الطعام الذي يحل لكم هو الذي يحل لنا، لا غيره . فالعنى : طعامهم حل لكم، إذا كان الطعام الذى أحلته لكم . وهذا التفسير معنى قول السدى وغيره .

الثانى : للنحاس والزجاج والنقاش وكثير من التأخرين ؛ أن المعنى : جاز لكم أن تطعموهم من طعامكم . لا أن يبين لهم ما يحل لهم في دينهم . لأن دينهم باطل . إلا أنه لم يقل : وإطعامكم، بل (طعامكم) - والطعام المأكول - وأما الفعل فهو الإطعام . فإن زعموا أن (الطعام) يقوم مقام (الإطعام) توسعاً ، قلنا : بقى اعتراض آخر . وهو الفصل بين المصدر وصلته بخبر المبتدأ . وهو ممتنع بالإجماع . لا يميزون (إطعام زيد حسن للمساكين) ولا (ضربك شديد زيداً) فكيف جاز (وطعامكم حل لهم) ؟ انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة . لأن التحليل حكم وقد علقه بهم فى قوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) كما علق الحكم بالمؤمنين . وهذه الآية آيين فى الاستللال بها من قوله ^(١) : لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . فإن لقائل أن يقول : فى تلك الآية نفى الحكم ليس بحكم . ولا يستطيع ذلك فى آية (المائدة) هذه . لأن الحكم فيها مثبت ، والله أعلم .

ثم قال : ولما استشعر الزمخشري دلاتها على ذلك، وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة - أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى : لا جناح عليكم - أيها المسلمون ! - أن تطعموا أهل الكتاب . انتهى .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ » عطف على (الطيبات) أو مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه . أى : حل لكم . والمراد بـ (المحصنات) العفيفات عن الزنى . كما قال تعالى ^(٢) فى الآية الأخرى : مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . وهو المروى عن الحسن والشعبي وسفيان وإبراهيم ومجاهد . وحكى ابن جرير رواية أخرى عن مجاهد أنه قال :

(١) [٦٠ / المتحنة / ١٠] (٢) [٤ / النساء / ٢٥]

المحصنات الحرائر . فقيل : عني بهن غير الإماء . وقيل : أراد بهن العفيفات ، كقول الجمهور . وذلك لأن الحرَّ يطلق على خلاف العبد ، وعلى خيار كل شيء ، كما في (القاموس) .

قال الزمخشري : وتخصيصهن بعثٌ على تخيير المؤمنين لنطفهم . والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق . وكذلك نكاح غير العفاف منهن . انتهى .

أقول: جواز نكاح الأمة موقوف على خوف العنت وعدم طول الحرية، لآية^(١) : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً ... الخ . وأما نكاح غير العفيفة فأجازه الأكثرون . وذهب الإمام أحمد إلى تحريم نكاح الزانية على زانٍ وغيره ، حتى تتوب وتنقضي عدتها . لقوله تعالى : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . ولما أخرجه أحمد^(٢) بإسناد رجاله ثقات ، والطبراني في (الكبير) و (الأوسط) من حديث عبد الله بن عمرو : أن رجلاً من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في امرأة يقال لها أم مهزول ، كانت تسافح وتشتري له أن تنفق عليه . فقرأ عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . وأخرج أبو داود^(٣) والنسائي والترمذي وحسنه ، من حديث ابن عمر : أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى بمكة . وكان بمكة بنى يقال لها عناق . وكانت صديقه . قال : فحُت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت : يا رسول الله ! أنكح عناقاً ؟ قال ، فسكت عني . فنزلت الآية : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ^(٤) فدعاني فقرأها علي وقال : لا تنكحها .

(١) [٤ / النساء / ٢٥]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٠٩٩ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤ - باب في قوله تعالى (الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) حديث ٢٠٥١ .

(٤) [٢٤ / النور / ٣] ونصها : الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وأخرج أحمد وأبو داود^(١) بإسناد رجاله ثقات ، من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله . قال ابن القيم : أخذ بهذه الفتاوى - التى لا معارض لها - الإمام أحمد ومن وافقه - وهى من محاسن مذهبه - فإنه لم يجوز أن ينكح الرجل زوجاً تحبه . ويعضد مذهبه بضعة وعشرون دليلاً قد ذكرناها فى موضع آخر .

وأخرج ابن ماجه^(٢) والترمذى وصححه ، من حديث عمرو بن الأحوص ، أنه شهد حجة الوداع مع النبى صلى الله عليه وسلم . فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : استوصوا فى النساء خيراً . فإنما هنّ عندكم عوان . ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك . إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن ، فاهجروهنّ فى المضاجع ، واضربوهنّ ضرباً غير مبرح ، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . وأخرج أبو داود^(٣) والنسائى ، من حديث ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى لا تمنع يد لأمس ، قال : غرّبها ، قال : أخاف أن تتبعها نفسى . قال : فاستمتع بها . قال النذرى : ورجال إسناده محتج بهم فى الصحيحين .

قال ابن القيم : عورض بهذا الحديث التشابه ، الأحاديث المحكمة الصريحة فى الننع من تجويز البغايا . واختلفت مسالك الحرّمين لذلك فيه . فقالت طائفة : المراد بـ (اللامس)

(١) أخرجه أبوداود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٤ - باب فى قوله تعالى : الزانى لا ينكح

إلا زانية ، حديث ٢٠٥٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٣ - باب حق المرأة على الزوج ،

حديث ١٨٥١ (طبعنا) .

والترمذى فى : ١٠ - كتاب الرضاع ، ١١ - باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣ - باب فى تزويج الأبكار ،

حديث ٢٠٤٩ .

وأخرجه النسائى فى : ٣٧ - كتاب الطلاق ، ٣٤ - باب ما جاء فى الخلع .

ملتمس الصدقة لا ملتمس الفاحشة . وقالت طائفة : بل هذا في الدوام غير مؤثر . وإنما المانع ورود العقد على الزانية ، فهذا هو الحرام . وقالت طائفة : بل هذا من التزام أخف المفسدين لدفع أعلاهما . فإنه لما أُمرَ بمفارقتها خاف من أن لا يصبر عنها فيواقعها حراماً ، فأمره حينئذٍ بإمسائها . إذ مواقعها بعقد النكاح أقل فساداً من مواقعها بالسفاح . وقالت طائفة : بل الحديث ضعيف لا يثبت . وقالت طائفة : ليس في الحديث ما يدل على أنها زانية . وإنما فيه أنها لا تمنع ممن يمسها أو يضع يده عليها أو نحو ذلك ، فهي تعطى اللين لذلك . ولا يلزم أن تعطيه الفاحشة الكبرى . ولكن هذا لا يؤمن معه إجابتها الداعي إلى الفاحشة . فأمره بفراقها ، تركاً لما يريبه إلى ما لا يريبه . فلما أخبره بأن نفسه تتبعها ، وأنه لا صبر له عنها ، رأى مصلحة إمساكها أرجح المسالك . والله تعالى أعلم . وتتمة البحث في ذلك يأتي إن شاء الله تعالى في سورة النور .

فائدة :

أفتى جابر بن عبد الله وعاصم الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها ، أنه يفرق بينهما وتردّ عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : هن أيضاً حلّ لكم . والجمهور : على أن المراد به (المحصنات) العفائف عن الزنى ، كما قدمنا .

قال ابن كثير : وهو الأشبه . لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمّية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل ، حشفاً وسوء كيلة .

وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف - ممن فسر (المحصنات) بالعفيفات ؛ أن الآية تم كل كتابية عفيفة . سواء كانت حرة أو أمة . ومن فسر بها (الحرائر) قال : لا يصح نكاح الأمة الكتابية بحال ، إذ لا يحتمل عار الكفر مع عار الرق ، على أنه يؤدي إلى استرقاق الكافر ولد المسلم .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية . وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين . ورواية عن زيد والصادق والباقر ، واختاره الإمام يحيى وقال : إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة ، وأنّ عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه ، وهى نصرانية . وأنّ طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية . كذا نقله المفسرون .

وروى البيهقيّ وعبد الرزاق وابن جرير عن عمر أنّه قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانيّ المسلمة . وروى عبد الرزاق أيضاً عن سعيد بن المسيب : أن عمر بن الخطاب كتب إلى حذيفة بن اليمان وهو بالكوفة ، ونكح امرأة من أهل الكتاب ، فكتب : أن فارّقها فإنك بأرض المجوس . فإنّي أخشى أن يقول الجاهل : قد تزوج صاحب رسول الله ﷺ كافراً ! ويحلل الرخصة التي كانت من الله عز وجل فيتزوجوا نساء المجوس ... ففارّقها .

وروى عبد الرزاق والبيهقيّ عن قتادة : أن حذيفة نكح يهودية . فقال عمر : طلقها فإنها جمة . فقال : أحرام هي ؟ قال : لا ، ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن ..

وروى عبد الرزاق عن زيد بن وهب قال : كتب عمر بن الخطاب : إن المسلم ينكح النصرانية ، والنصرانيّ لا ينكح المسلمة . وروى أيضاً عن جابر قال : نساء أهل الكتاب لنا حلّ ، ونساؤنا عليهم حرام . وروى أيضاً عن معمر عن الزهريّ قال : نكح رجل من قومي في عهد النبي ﷺ امرأة من أهل الكتاب . وروى عن ابن عمر كراهية ذلك . ويحتج بقوله تعالى (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ) ^(١) وكان يقول : لا أعلم شركاً

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] ونصها : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ، وَلَا مَـؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

أعظم من قولها: إن ربها عيسى . وأجاب الجمهور بأنه عامّ خص بهذه الآية، إن قيل بدخول الكتابيات في عموم الشركات ، وإلا ، فلا معارضة بين الآيتين . لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع . كقوله تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ^(١) . وكقوله : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ اسْلَمْتُمْ ^(٢) .

الثاني : استدل بمعموم الآية من جواز نكاح الحريات الكتابيات . وروى عن ابن عباس : أن الإذن في الذميات خاصة ، ويقرأ : قَاتِلُوا الَّذِينَ - إلى قوله - حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ . قال : فمن أعطى ، حل . ومن لا ، فلا . وهذا الاستدلال دقيق جداً . فليتأمل !

الثالث : قال المهايمي : لما اعتبر في طعام أهل الكتاب شبهه بالطيب - كما قدمنا - اعتبر في باب النكاح ، فأحلّ المحصنات منهم . واحتمل كفرهنّ لأنه إنما لم يحتمل كفر غيرهم لأنهم يدعون إلى النار . وهؤلاء لما اعترفوا بأصل النبوة ، ولا شبهة لهم في نفي أمر نبوة محمد ﷺ ، فضلاً عن حجة ، ضمفت دعوتهم إليها ، فلم يعتد بها . على أن الرجل مستولٍ على المرأة . فلا تؤثر فيه تأثير الرجل ، فلذلك لم يصح تزويج المسلمة بالكتابي . على أن فيه إذلالاً للمسلمة فلا تحتمل .

الرابع : ذهب ثلث من العترة الطاهرة إلى أن المراد من (المحصنات) المؤمنات منهن . ذهاباً إلى تحريم نكاح الكافرة . قال بعض مفسري الزيدية ، بعد أن ساق مذهب الأكثرين المتقدم : وقال القاسم والهادي والنفس الزكية ومحمد بن عبد الله وعامة القاسمية - وهو مروي

(١) [٩٨ / البينة / ١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ اسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

عن ابن عمر : إنه لا يجوز لسلّم نكاح كافرة ، كتائية كانت أو غيرها . واحتجوا بقوله في سورة البقرة : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ^(١) . قالوا - يعني الأكثرين - : هذا في المشركات لا في الكتائيات ؛ قلنا : اسم الشرك ينطلق على أهل الكتاب بدليل قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . إلى قوله : سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) . وعن ابن عمر : لا أعلم شركاً أعظم من قول النصرانية : إن ربها عيسى . وعن عطاء : قد كثر الله المسلمات . وإنما رخص لهم يومئذٍ . قالوا : إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فدلّ على أنهما غيرَين ، حيث قال تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ^(٣) ؛ قلنا : هذا كقوله تعالى : الْوَصِيَّةُ لِلْأَدِثِ وَالْأَقْرَبِينَ^(٤) . قالوا : الآية مصرحة بالجواز في قوله : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . قلنا : في سورة النور : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ^(٥) . وقوله في سورة النساء : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^(٦) .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٨٧١ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [٩٨ / البينة / ١] . . . مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٨٠] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَدِثِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

(٥) [٢٤ / النور / ٢٦] ونصها : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

(٦) [٤ / النساء / ٢٥] . . . مِنْ فَتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، =

فشرط الإيمان في هذا بقضى بالتحريم . فتتأول هذه الآية : أنه أراد المحصنات من أهل الكتاب اللاتي قد أسلمن ، لأنهم كانوا يتكروهون ذلك ، فساهنّ باسم ما كنّ عليه . وقد ورد مثل هذا في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ^(١) . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ^(٢) . وقوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ^(٣) . قالوا : سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز . وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول : قوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) ^(٤) عامّ نخصّه بقوله تعالى (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ؛ أو نقول : أراد بـ (الْمُشْرِكَاتِ) الوثنيات وبـ (الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ما أفاده الظاهر . أو يكون قوله (وَالْمُحْصَنَاتُ ...) ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ . قلنا : نقابل ما ذكرتم بما روى ؛ أن كعب بن مالك

= بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٦] ... وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ

لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٢١] .

أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية . فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال : إنها لا تحصن ماءك ؛ وروى أنه نهاء عن ذلك . وبأننا نتأول قوله تعالى : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . فنجمع ونقول : تخصيص المشركات بـ (الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) متراخ ، والبيان لا يجوز أن يتراخى ! قالوا : روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : أحلّ لنا ذبائح أهل الكتاب وأحلّ لنا نساؤهم . وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا . قال في (الشفا) : قال علماؤنا : هذا حديث ضعيف النقل . قالوا : قوله صلى الله عليه وسلم في المجوس : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) الخبر أفاد جواز ذبائحهم ونكاح نساءهم . قلنا : الجواز منسوخ بأدلة التحريم . ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس فنقول : كافرة فأشبهت الحربية ، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة . أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس . قالوا : لا حكم للاعتبار مع الأدلة . انتهى بحروفه . وهو فقه غريب .

وقوله تعالى « إِذَا عَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورُهُنَّ » أى : أعطيتموهنّ مهورهنّ . وتقييد الحلّ بإيتائها ، لتأكيد وجوبها والحثّ على ما هو الأوّلى ، مبادرة لفرار الذمة . فإن شغل الذمة بحق الآدمى أشدّ من شغلها بحق الله تعالى « مُحْصِنِينَ » متعففين « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى : غير مجاهرين بالزنى « وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ » مسرّين به ، و (الخدن) الصديق . يقع على الذكر والأنثى . وحمل المسافحة على إظهار الزنى لظهور مقابله فى الإسرار ، لتبادره من الخدن وهو الصديق . وقيل : الأول نهى عن الزنى ، والثانى نهى عن مخالطتهن . كذا فى (العناية) . قال ابن كثير : كما شرط الإحصان فى النساء - وهى العفة عن الزنى - كذلك شرطها فى الرجال . وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً . ولهذا قال (غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردّون أنفسهم عنّ جاءهم (وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ) أى : ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلّا معهنّ ، كما تقدم فى سورة النساء ، سواء . ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى أنه لا يصحّ نكاح المرأة البغى حتى تتوب ،

ومادامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف . وكذلك لا يصحّ عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنى ، لهذه الآية وللحديث : لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله .

وروى ابن جرير^(١) : أن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشةً في الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين ! الشرك أعظم من ذلك . وقد يقبل منه إذا تاب .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » يريدُ بـ (الإيمان) شرائع الإسلام . على أنه مصدر أريد به المؤمن به . كـ (درهمٌ ضربُ الأمير) . و (الكفر) الإباء عنه وجحوده . والآية تذييل لقوله : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ... تعظيماً لشأن ما أحله الله وما حرّمه ، وتغليظاً على من خالف ذلك . كذلك في (العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

(١) الأثر رقم ١١٢٦٧ .

الْمَرَّاقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ « لما كان من جملة الإيفاء بالمعقود التي افتتحت به هذه السورة إقامة الصلاة ، وكانت مشروطة بالطهارة ، بين سبحانه في هذه الآية كيفيتها .

قال بعض المفسرين : نزلت في عبدالرحمن وكان جريحاً . وقيل : لما احتبس ﷺ في سفره ليلاً - بسبب عقدٍ ضاع لعائشة ، وأصبحوا على غير ماء . انتهى .
والثاني رواه البخاري - كما في (أسباب النزول) للسيوطي - وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة النساء^(١) في (آية التيمم) ثمة . فانظرو .

ولهذه الآية ثمرات هي أحكام شرعية

الأولى : وجوب الوضوء وقت القيام إلى الصلاة أى إرادته . فقوله تعالى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ . كقوله : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ^(٢) . وكقولك : إذا ضربت غلامك فهوّن عليه ، في أن المراد إرادة الفعل . قال الزحشرى : فإن قلت : لم جازأن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل ؟ قلت : لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له ، وهو قصده إليه وميله وخلص دأيه . فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم : الإنسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر ، أى : لا يقدران على الطيران والإبصار . ومنه قوله تعالى : نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . يعنى : إنا كنا قادرين على الإعادة - كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل . وذلك لأن الفعل مسبب عن القدرة والإرادة . فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما . ولا يجوز الكلام ونحوه ، من إقامة المسبب مقام السبب ، قولهم : كما تدين تدان . عبّر عن الفعل المبتدأ - الذى هو سبب الجزاء - بلفظ الجزاء الذى هو مسبب عنه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧١ .

(٢) [١٦ / النحل / ٩٨] ... مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

الثانية : ظاهر الآية وجوب الوضوء على كل قائمٍ إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً . نظراً إلى عموم (الَّذِينَ آمَنُوا) من غير اختصاص بالمحدثين . والجمهور على خلافه لما روى الإمام أحمد^(١) ومسلم وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله ! إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله . قال : إني عهداً فعلته يا عمر . وروى البخاري^(٢) عن سويد بن النعمان قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام خيبر . حتى إذا كنا بالصهباء صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر . فلما صلى دعا بالأطعمة . فلم يؤت إلا بالسويق . فأكلنا وشربنا . ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم إلى المغرب . فضمض ثم صلى لنا المغرب ولم يتوضأ . وروى الإمام أحمد^(٣) وأبو داود عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وقد سئل عن وضوء أبيه عبد الله ، لكل صلاة ، طاهراً أو غير طاهر ، عن هو ؟ قال : حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب ؛ إن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر . فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث . فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك . كان يفعله حتى مات . قال ابن كثير : وفي فعل ابن عمر هذا ، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة ، دلالة على استحباب ذلك . كما هو مذهب الجمهور .

- (١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٣٥٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
- (٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٥١ - باب من مضمض من السويق ولم يتوضأ ، حديث ١٥٨ .
- (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . وأبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٢٥ - باب السواك ، حديث ٤٨ .

وقد روى ابن جرير^(١) عن ابن سيرين ، أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة . وعن
عكرمة : أن علياً - رضي الله عنه - كان يتوضأ عند كل صلاة ، ويقرأ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ... الآية ؛ وعن النزال بن سبرة قال : رأيت علياً صلى الظهر . ثم قعد
للناس في الرحبة . ثم أتى بماء فغسل وجهه وبديه . ثم مسح برأسه ورجليه وقال : هذا وضوء
من لم يحدث ، وفي رواية : إنه توضأ وضوءاً فيه تجوز فقال : هذا وضوء من لم يحدث ؛
وكذا حكى أنس عن عمر أنه فعله . والطرق كلها جيدة . وأما ماراه أبو داود الطيالسي عن
سعيد بن المسيب أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء - فهو غريب عنه . ثم هو محمول على
من اعتقد وجوبه . وأما مشروعيته استحباً فقد دلت السنة على ذلك . روى الإمام أحمد
عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . قيل له : فأنتم كيف
تصنعون ؟ قال : كنا نصلّي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث ! ورواه البخاري^(٢)
وأهل السنن أيضاً . وروى أبو داود^(٣) والترمذي وابن ماجه وابن جرير عن ابن عمر مرفوعاً :
من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات . وضعفه الترمذي .
وإذ دلت هذه الأحاديث على أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث ، فالوجه في الخروج
من ظاهر الآية ، أن الخطاب فيها خاص بالمحدثين .

(١) الأثر رقم ١١٣٢٤ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٥٤ - باب الوضوء من غير حدث ،

حديث ١٦٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٣٢ - باب الرجل يحدد الوضوء من

غير حدث ، حديث ٦٢ .

والترمذي في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٤ - باب الوضوء لكل صلاة .

وابن ماجه في : ١ - كتاب الطهارة ، ٧٣ - باب الوضوء على الطهارة ، حديث ٥١٢ (طبعنا) .

وفي (العناية) : الإجماع صرفها عن ظاهرها . فأما أن تكون مقيدة - أى وأتم محدثون - بقرينة دلالة الحال ، ولأنه اشترط الحدث في البذل وهو التيمم - فلو لم يكن له مدخل في الوضوء ، مع المدخلة في التيمم ، لم يكن البذل بدلاً . وقوله (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً) صريح في البدلية . وقيل : في الكلام شرط مقدر . أى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ .. إن كنتم محدثين . وإن كنتم جنباً فاطهروا . وهو قريب جداً . انتهى .

وزعم بعضهم : أن الوجوب على كل قائم للصلاة كان في أول الأمر ثم نسخ . واستدل على ذلك بحديث عبد الله بن حنظلة المتقدم . ونظر فيه بحديث : (المائدة من آخر القرآن نزولاً) وأجيب بأن الحافظ العراقي قال : لم أجده مرفوعاً . هذا ، وقال الزمخشري : لا يجوز أن يكون الأمر في الآية شاملاً للمحدثين وغيرهم - لهؤلاء على وجه الإيجاب ، ولهؤلاء على وجه الندب - لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية . وفي (الانتصاف) : من جَوَزَ أن يراد بالمشارك كل واحدٍ من معانيه على الجمع ، أجاز ذلك في الآية . ومن المجوزين لذلك الشافعي - رحمه الله تعالى - وناهيك بإمام الفن وقودته . وإذا وقع البناء على أن صيغة (أفعل) مشتركة بين الوجوب والندب ، صحّ تناولها في الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين . وتناولها للمتطهرين من حيث الندب ، والله أعلم .

الثالثة : قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : تمسك بهذه الآية مَنْ قال : إنَّ الوضوء أول ما فرض بالمدينة ، فأما ما قبل ذلك ، فنقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أن غسل غسل الجنابة إنما فرض على النبي ﷺ وهو بمكة . كما فرضت الصلاة . وأنه لم يصل قط إلا بوضوء . قال : وهذا مما لا يجمله عالم .

وقال الحاكم في (المستدرک) : وأهل السنة بهم حاجة إلى دليل الرد على من زعم أن الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة . ثم ساق حديث ابن عباس : دخلت فاطمة على النبي ﷺ وهي تبكي ، فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تماهدوا ليقتلوك ! فقال : ائمنوني بوضوء فتوضأ ... الحديث .

قال ابن حجر : وهذا يصلح ردًا على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة ، لا على من أنكر وجوبه حينئذٍ . وقد جزم ابن الحكم المالكيّ بأنه كان قبل الهجرة مندوباً ؛ وجزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلّا بالمدينة ، وردّ عليهما بما أخرجه ابن لهيعة في (الغازي) التي يرويها عن أبي الأسود - يقيم عمرو - عنه ؛ أن جبريل علّم النبي ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحي . وهو مرسل ؛ ووصله أحمد^(١) من طريق ابن لهيعة أيضاً . لكن قال : عن الزهريّ عن عمرو عن أسامة بن زيد عن أبيه ، وأخرجه ابن ماجه^(٢) من رواية رشدين ابن سعد ، عن عقيل ، عن الزهريّ ، نحوه . لكن لم يذكر زيد بن حارثة في السند ؛ وأخرجه الطبرانيّ في (الأوسط) من طريق اللبث عن عقيل موصولاً ، ولو ثبت لكان على شرط الصحيح ، لكن المعروف رواية ابن لهيعة . انتهى .

أى : وابن لهيعة يضعف في الحديث .

الرابعة : قيل : في الآية دلالة على أن الوضوء لا يجب لغير الصلاة . وأيدّ بما رواه أبو داود والنسائيّ^(٣) والترمذيّ عن عبد الله بن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا : أَلَا نأتيك بوضوء ؟ فقال : إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة . قال الترمذيّ : حديث حسن .

وروى مسلم^(٤) عن ابن عباس قال : كنا عند النبي ﷺ . فأتى الخلاء . ثم إنه رجع فأتى بطعام . فقيل : يا رسول الله ! ألا تتوضأ ؟ فقال : لم أصلّ فأتوضأ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١ - كتاب الطهارة ، ٥٨ - باب ما جاء في النضح بعد

الوضوء ، حديث ٤٦٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه النسائيّ في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٠٠ - باب الوضوء لكل صلاة .

(٤) أخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ١١٨-١٢١ (طبعتنا) .

وأما اشتراط الوضوء للطواف وسجدة التلاوة وصلاة الجنازة ومسّ المصحف - عند من أوجبه - فمن أدلةٍ أخر مقررّة في فقه الحديث .

الخامسة : (وجوب غسل الوجه) والغسل إمرار الماء على المحل حتى يسيل عنه ، هذا هو المحكيّ عن أكثر الأئمة . زاد بعضهم : مع ذلك . وعن النفس الزكية : أن مجرد الإمسّاس يكفي وإن لم يجز . وحدّ الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولاً . ومن الأذن إلى الأذن عرضاً . وقد ساق بعض المفسرين هنا مذاهب ، فيما يشملها الوجه ومالا يشملها ، ومحلها كتب الخلاف .

السادسة : (وجوب غسل اليدين) :

وهذا مجمع عليه ؛ وأما الرفقان ، ثنية مرفق (كَمَنْبَرٍ وَمَجْلِسٍ) موصل الذراع في المضد ، فالجمهور على دخولها في الغسل ؛ وحكى عن زفر وبعض المالكية وأهل الظاهر عدم دخولها . وسبب الخلاف أن المغيّب (إلى) تارةً يتضح دخوله في الغاية ، وطوراً لا ، وآونةً يحتمل .

قال الزمخشري : (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقاً ، فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل ، فما فيه دليل على الخروج قوله : فَنَظَرَتْهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ ^(١) لأن الإعسار علة الإنظار ، وبوجود الميسرة زول العلة ، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظرّاً في كلتا الحالتين ، معسراً وموسراً ، وكذلك : ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ^(٢) لو دخل الليل لوجب الوصال ؛

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٠] ونصها : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٧] ونصها : أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَلَا نَبَأَ بِشِرُّوهُنَّ وَابْتِغَاؤِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَامْرَبُوا =

ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره ، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه قوله تعالى : **مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** ^(١) لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله ؛ وقوله (**إِلَى الْمَرَاقِرِ**) و (**إِلَى الْكَعْبَيْنِ**) لا دليل فيه على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط . فحكموا بدخولها في الغسل ، وأخذ زفر وداود بالتيقن ، فلم يدخلوها . انتهى .

قال الرضى : **الأكثر عدم دخول حدى الابتداء والانهاء في الحدود** . فإذا قلت : اشترت من هذا الموضع إلى ذلك الموضع ، فلوضعان لا يدخلان ظاهراً في الشراء . ويجوز دخولهما فيه مع القرينة ؛ وقال بعضهم : ما بعد (إلى) ظاهر الدخول فيما قبلها . فلا تستعمل في غيره إلا مجازاً . وقيل : إن كان ما بعدها من جنس ما قبلها نحو : أكلت السمكة إلى رأسها ، قالظاهر الدخول وإلا فلا ، نحو : أتموا الصيام إلى الليل . والمذهب هو الأول . ثم قيل : بأنها في الآية بمعنى (مع) كقوله تعالى ^(٢) : **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ** . قال الرضى : والتحقيق أنها بمعنى الانتهاء . أى تضيفوها إلى أموالكم ، ومضافة إلى المرافق . انتهى .

قال صاحب (النهاية) : وقول من لم يدخل المرافق من جهة الدلالة اللفظية أرجح ، وقول من أدخلها من جهة الأثر أبين . لأن في حديث مسلم ^(٣) مما رواه أبو هريرة :

== حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ١] ونصها : **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ**

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

(٢) [٤ / النساء / ٢]

(٣) أخرجه مسلم في ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

أنه غسل يده اليمنى حتى أشرع في المضد . ثم اليسرى . ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق . ثم اليسرى كذلك . واحتج أهل المذهب بحديث جابر : أنه صلى الله عليه وآله كان يدير الماء على مرفقيه . قالوا : ودلالة الآية محجمة . وهذا بيان للمجمل . وبيان المجمل الواجب يكون واجباً . انتهى .

وقال المجد ابن تيمية في (المنتقى) : يتوجه من حديث أبي هريرة وجوب غسل المرفقين . لأن نص الكتاب يحتمله . وهو مجمل فيه . وفعله صلى الله عليه وآله بيان للمجمل الكتاب ، وبما وزته للمرفق ليس في محل الإجمال ، ليجب بذلك . انتهى .

وأجابوا بأن حديث جابر رواه الدارقطني والبيهقي . وفي إسناده متروك . وقد صرح بضعه غير واحد من الحفاظ . وحديث أبي هريرة فعل لا ينتهض بمجرد على الوجوب . وقولهم (هو بيان للمجمل) فيه نظر . لأن (إلى) حقيقة في انتهاء الغاية - كما قدمنا - فلا إجمال . والله أعلم .

السابعة : قال الرازي : يقتضى قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) تحديد الأمر ، لا تحديد الأمور به . يعنى أن قوله (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) أمر بغسل اليدين إلى المرفقين ، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحد . فبقى الواجب هو هذا القدر فقط ، أما نفس الغسل فغير محدود بهذا الحد ، لأنه ثبت بالأخبار أن تطويل الغرة سنة مؤكدة . انتهى .

الثامنة : أشعر أيضاً قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) أن ينتهى في غسل اليدين بها ، ويبدأ بالأصابع . قال الحاكم : وقد وردت السنة بذلك ، وهو الذى عليه الفقهاء ، ولدلالة لفظ (إلى) لأنها للغاية ، وغاية الشيء آخره . وقالت الإمامية : السنة أن يبتدىء بالمرفق . وقالوا : إن (إلى) هنا بمعنى (من) قال الحاكم : هذا تقدير فاسد .

التاسعة : ذهب الجمهور إلى أن تقديم اليمين على الشمال سنة ، مَنْ خالفها فاته الفضل وتم وضوؤه . وذهب العترة والإمامية - كما في (البحر) للمهدى - إلى وجوبه . واحتج عليهم

بأن الآية لانفيذ ذلك ، فتي غسلهما مرتباً أو غير مرتب - قدم اليمنى أو اليسرى - فقد امتثل الأمر . وأجابوا بأن الدلالة على الوجوب من السنة ، فقد روى أحمد وأبو داود^(١) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا لبستم وإذا توضأتم فابدأوا بأيامنكم ! وأجيب : بأن الأمر للندب لقوله : إذا لبستم وإذا توضأتم . فقرن بينه وبين اللبس . فإذا يدل على وجوب التيامن في اللبس كما يدل عليه في الوضوء ، وهم لا يقولون به . وأيضاً فقد روى عن علي عليه السلام أنه قال : ما أبالي بدأت بيمينى أو بشمالى إذا أكلت الوضوء . رواه الدارقطنى . وروى نحوه البيهقى وابن أبى شيبه . وروى أبو عبيد في الطهور : أن أبا هريرة كان يبدأ بيمينه . فبلغ ذلك علياً فبدأ بيماسره . ورواه أحمد بن حنبل عن علي . قال الحافظ ابن حجر : وفيه انقطاع . وهذه الطرق يقوى بعضها بعضاً . وكذلك الحديث المقترن بالتيامن في اللبس ، المجمع على عدم وجوبه ، صالح لجعله قرينة تصرف الأمر إلى الندب . ودلالة الاقتران - وإن كانت ضعيفة - لكنها لا تقصر عن الصلاحية للصرف . لاسيما مع اعتضاها بقول علي عليه السلام وفعله .

العاشرة : ذهب بعض العترة إلى أنه لا مسح على الجبائر . ففي (الأحكام) من كتبهم : إذا جبر على جرح أو كسر وخشى من نزع الجبائر ضرراً ، لا يشرع المسح . قال : لأن الآية تقتضى غسل اليد دون ما عليها . والجمهور منهم ومن غيرهم : أنه يمسح ، لحديث جابر : إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويفسل سائر جسده . رواه أبو داود^(٢) والدارقطنى . وصححه ابن السكن .

- (١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٤١ - باب في الانتعال ، حديث ٤١٤١ وابن ماجه في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٢ - باب التيمن في الوضوء ، حديث ٤٠٢ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٥ - باب في الجروح يتيمم ،

حديث ٣٣٦ ونصه :

الحادية عشرة : (وجوب مسح الرأس) :

والمسح إمساس المحل الماء بحيث لا يسيل ، والباء في قوله تعالى (بِرُءُوسِكُمْ) تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق ، فكأنه قيل : وألصقوا المسح برؤوسكم . قال الزمخشري : وماسح بعض الرأس ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه . أى : فيكون الواجب مطلق المسح كلاً أو بعضاً - وأياً ما كان - وقع به الامتثال . والسنة الصحيحة وردت بالبيان ، وفيها ما يفيد جواز الاختصار على مسح البعض في بعض الحالات كما في صحيح مسلم^(١) وغيره من حديث المغيرة ؛ أنه صلى الله عليه وسلم أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه

= عن جابر قال : خرجنا في سفر . فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشججه في رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فات .

فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (أو يعصب) على جرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويفسل سائر جسده » .

(١) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٨١ (طبعتنا) ونصه :

عن المغيرة قال : تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخلفت معه . فلما قضى حاجته قال « أمعك ماء » ؟ فأنيته بمِطْطَرة . ففسل كفيه ووجهه . ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كمّ الجبة . فأخرج يده من تحت الجبة . وألقى الجبة على منكبيه . وغسل ذراعيه . ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه . ثم ركب وركبت . فأنهينا إلى القوم وقد قاموا في الصلاة . يصلي بهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة . فلما أحسّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ذهب يتأخر . فأومأ إليه . فصلّى بهم . فلما سلّم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقت . فركعنا الركعة التي سبقتنا .

ولم ينقض العمامة . وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة^(١) ؛ أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر . وهذه هي الهيئة التي استمرَّ عليها صلى الله عليه وسلم . فافتضى هذا أفضلية الهيئة التي كان صلى الله عليه وسلم يداوم عليها . وهي : مسح الرأس مقبلاً ومدبراً . وإجزاء غيرها في بعض الأحوال . ولا يخفى أن الآية لاتفيد إيقاع المسح على جميع الرأس . كما في نظائره من الأفعال . نحو : ضربت رأس زيد ، وبرأسه . وضربت زيدا وضربت يد زيد . فإنه يوجد المعنى اللغوي في جميع ذلك ، بوجود الضرب على جزء من الأجزاء المذكورة . وهكذا ما في الآية . وليس النزاع في مسمى الرأس لغة ، حتى يقال : إنه حقيقة في جميعه . بل النزاع في إيقاع المسح عليه . وعلى فرض الإجمال ، فقد بينه الشارع تارةً بمسح الجميع ، وتارةً بمسح البعض . بخلاف الوجه . فإنه لم يقتصر على غسل بعضه في حال من الأحوال ، بل غسله جميعاً . وأما اليدان والرجلان فقد صرح فيهما بالغاية . فإن قلت : إن المسح ليس كالضرب الذي مثلت به . قلت : لا ينكر أحد من أهل اللغة أنه يصدق قول من قال (مسحت الثوب أو بالثوب . أو مسحت الحائط أو بالحائط) على مسح جزء من أجزاء الثوب أو الحائط . وإنكار مثل هذا مكابرة . كذا في (الروضة) .

(١) أخرجه في البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٣٨ - باب مسح الرأس كله لقول الله تعالى : **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ** ، حديث ١٤٦ ونصه : أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد (وهو جد عمرو بن يحيى) : أتستطيع أن تربني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم . فدعا بماء فأفرغ على يديه فغسل مرتين . ثم مضمض واستنثر ثلاثاً . ثم غسل وجهه ثلاثاً . ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين . ثم مسح رأسه بيديه . فأقبل بهما وأدبر . بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه . ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه . ثم غسل رجليه .

قال شمس الدين بن القيم في (الهدى) : ولم يصح عنه عليه السلام في حديث واحد، أنه اقتصر على مسح بعض رأسه البتة . ولكن كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة . فأما حديث أنس الذي رواه أبو داود ^(١) : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وعليه عمامة قطرية ، فأدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة - فهذا مقصود أنس به أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقض عمامته حتى يستوعب مسح الرأس الشعر كله . ولم ينف التكميل على العمامة . وقد أثبتته المغيرة بن شعبه وغيره . فسكوت أنس عنه لا يدل على نفيه . انتهى .

قال الشوكاني : ليس النزاع إلا في الوجوب . وأحاديث التعميم ، وإن كانت أصح ، وفيها زيادة وهي مقبولة - لكن أين دليل الوجوب ؟ وليس إلا مجرد الفعل . وهو لا يدل على الوجوب . ثم قال : وبعد هذا ، فلا شك في أولوية استيعاب المسح لجميع الرأس وصحة أحاديثه . ولكن دون الجزم بالوجوب ، مفاوز وعقاب .

فصل

وأما قوله تعالى : وَأَرْجِلَيْكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . فقرأه بالنصب نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويمقوب . وبالجر الباقون ، ومن هاتين القراءتين تشعبت المذاهب في صفة طهارة الرجلين . فمن ذهب إلى أن طهارتهما الغسل . ومن ذهب إلى أنها المسح . ومن تخير بينهما . ولكل من هذه المذاهب حجج وتأويلات وأجوبة ومناقشات نسوق شذرةً منها .

فنعول : قال الأولون : قراءة النصب ظاهرها يفيد الغسل . وقراءة الجر ظاهرها يفيد المسح . إلا أنه لما وجد ما يرجح الغسل تأولنا ما أفادته قراءة الجر في الظاهر . والمرجح للغسل أمور .

(١) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٥٨ - باب المسح على العمامة ،

حديث ١٤٧ .

منها : ما في (الصحيحين)^(١) و (السنن) عن عثمان وعليّ وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والقداد بن معديكرب ؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه ، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً . على اختلاف رواياتهم . وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله ﷺ توضأ ففسل قدميه ثم قال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به .
وفي (الصحيحين)^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفره . فأدركنا وقد أرهقنا العصر . فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا . قال ، فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار . مرتين أو ثلاثاً . وكذلك هو في (الصحيحين)^(٣) عن أبي هريرة . وفي (صحيح مسلم)^(٤) عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : أسبغوا الوضوء . ويل للأعقاب من النار . وروى البيهقي والحاكم ، بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الحرث بن جزء ؛ أنه

(١) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٢٢ - باب الوضوء مرة مرة ، حديث ١٢٨ عن ابن عباس .

و ٢٣ - باب الوضوء مرتين مرتين ، حديث ١٢٩ عن عبد الله بن زيد .

و ٢٤ - باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً ، حديث ١٣٠ عن عثمان بن عفان .

(٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٢٧ - باب غسل الرجلين ، ولا يمسح

على القدمين ، حديث ٥٣ .

ومسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٢٦ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٢٩ - باب غسل الأعقاب ،

حديث ١٣٢ .

ومسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٢٨ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٢٥ (طبعنا) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار . وروى الإمام أحمد^(١) وابن ماجه^(٢) وابن جرير^(٣) عن جابر بن عبد الله قال : رأى النبي ﷺ في رجلٍ رجلٍ مثل الدرهم لم يفسله ، فقال : ويل للأعقاب من النار .

قال ابن كثير : ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة . وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك ، لما تواعد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل . بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف . وروى الإمام أحمد^(٤) عن خالد بن معدان عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم ، لم يصبها الماء . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء . زاد أبو داود : والصلاة . وروى الإمام أحمد^(٥) عن أبي أمامة قال : حدثنا عمرو بن عَبَسَةَ قال : قلت : يا رسول الله ! أخبرني عن الوضوء ، قال : مامنكم من أحدٍ يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر ، إلّا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٩٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . وأخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٦٦ - باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥ ، عن خالد عن بعض أصحاب النبي ﷺ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١ - كتاب الطهارة وسننها ، ٥٥ - باب غسل العراقيب ، حديث ٤٥٤ (طبعنا) .

(٣) الأثر رقم ١١٥١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٦٦ - باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (من حديث طويل) بالصفحة رقم ١١٤ من الجزء

الرابع (طبعة الحلبي) .

حين ينتثر . ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء .
ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله . ثم يمسح رأسه إلا
خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء . ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمر الله
إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء . ثم يقوم فيحمد الله ويثنى بالذي هو له
أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال أبو أمامة : يا عمرو ! انظر ما تقول . سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
أيمطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ قال عمرو بن عبسة : يا أبا أمامة ! لقد كبرسني ورق عظمي
واقترأ أجلى . وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لو لم أسمع
من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً . لقد سمعته سبع مرات أو أكثر
من ذلك ... قال ابن كثير : وإسناده صحيح وهو في (صحيح مسلم)^(١) من وجه آخر ، وفيه :
ثم يغسل قدميه كما أمره الله . فدلّ على أن القرآن يأمر بالغسل . وهكذا روى أبو إسحق
السبيعي عن الحرث عن علي رضي الله عنه أنه قال : اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم .
ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
رش على قدميه الماء وهما في النعلين فداكهما . إنما أراد غسلاً خفيفاً وهما في النعلين . ولا
مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها . ويكون في هذا ردّ على المتعمقين والمتنطعين من
الموسوسين . وهكذا مرواه ابن جرير^(٢) عن حذيفة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
سباطة قوم فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه . وهو حديث صحيح . وقد أجاب
ابن جرير عنه : بأن الثقات الحفاظ رووه عن حذيفة : فبال قائماً ثم توضأ ومسح على
خفيه . قال ابن كثير : ويحتمل الجمع بينهما . بأن يكون في رجله خفان وعليهما نعلان .

(١) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٩٤ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٢٨ .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١) عن أوس بن أبي أوس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة . ورواه أبو داود^(٢) عنه بلفظ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه . ثم قال الجمهور : إن قراءة الجرّ محمولة على الجوّ الجوّارى . ونظيره كثير في القرآن والشعر . كقوله تعالى : عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ^(٣) . وَ: حُورٍ عِينٍ^(٤) بالجرّ في قراءة حمزة والكسائي عطفاً على (بِأَسْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ)^(٥) والمعنى مختلف . إذ ليس المعنى : يطوف عليهم ولدان مخلدون بحور عين . وكقولهم : جحر ضبّ خرب ، وللنحاة باب في ذلك . حتى تعدوا ، من اعتباره في الإعراب ، إلى التثنية والتأنيث وغير ذلك . وقد ساق شذرة من أشباهه ونظائره أبو البقاء هنا . فانظره . وما قيل بأن حرف العطف مانع من الجوار (زعماً بأنه خاص بالنعت والتأنيث) مردود بأنه ورد في العطف كثيراً في كلام العرب . قال الشاعر^(٦) :

لم يبق إلا أسير غير منفلتٍ وموثقٍ في عقال الأسر مكبول
نخفّض (موثقاً) بالمجاورة للمنفلت . وحقه الرفع عطفاً على (أسير) . وقال^(٧) :
فهل أنت - إن ماتت أتانك - راحلٌ إلى آل بسطام بن قيس نخاطبٍ

- (١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .
(٢) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٦٢ - باب المسح على الجوربين ، حديث ١٦٠ .

(٣) [١١ / هود / ٢٦] .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٢٢] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ١٨] .

(٦) لم أعرف اسم هذا الشعر . ولم أعثر على هذا البيت في مكانٍ .

(٧) لم أعرف اسم هذا الشاعر . ولم أعثر على هذا البيت في مكانٍ .

فجرّ (مخاطب) للمجاورة . وحقه الرفع عطفاً على (راحل) . وكفى في الردّ قراءة (وحوّر) بالجرّ كما قدّمنا . قالوا : وشرط حسن الجرّ الجوارىّ عدم الإلباس مع تضمن نكتة . وهنا كذلك . فإن الغاية دلت على أنه ليس بمسوح . إذ المسح لم تضرب له غاية في الشريعة . والنكتة فيه الإشارة إلى تخفيفه حتى كأنه مسح .

قال الناصر في (الانتصاف) : والوجه فيه أن الفسل والمسح متقاربان ، من حيث إن كل واحد منهما إمساس بالعضو . فيسهل عطف المغسول على المسوح من ثمّ - كقوله : متقلداً سيفاً ورعماً . وعلقتها تبناً وماء بارداً - ونظائر كثيرة . وبهذا وجه الخذاق . ثمّ يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلّة التقارب ؟ وهلاً أسند إلى كل واحد منهما الفعل الخاصّ به على الحقيقة ؟ فيقال : فائدته الإيجاز والاختصار وتوكيد الفائدة - بما ذكره الزخشرى - أى : من أن الأرجل لما كانت مظنة للإسراف المذموم النهى عنه ، فعمطت على الرابع المسوح ، لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها . ثمّ قال الناصر : وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلاً : واغسلوا أرجلكم غسلًا خفيفًا لا إسراف فيه كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع المسوح . ونبه بهذا التشريك ، الذى لا يكون إلّا في الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدًّا ، على أن الفسل المطلوب في الأرجل ، غسل خفيف يقارب المسح . وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة . انتهى .

وأما من أوجب الجمع بين المسح والغسل فأخذًا بالجمع بين القراءتين . ومراد من ذهب إلى

هذا بالمسح ، هو الدلك . كما تقدم عن النفس الزكية .

قال ابن كثير : من نقل عن ابن جرير - أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية - فلم يحقق مذهبه في ذلك ، فإن كلامه في تفسيره إنما يدلّ على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين ، من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك ، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح ، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد

وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما . فحكاه من حكاه كذلك . ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء ، وهو معذور . فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه . وإنما أراد ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله « وَأَرْجُلَيْكُمْ » خفضاً على المسح وهو الدلك ، ونصباً على الغسل ، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه . انتهى .

وأما من قال : الوجب هو المسح ، فتمسك بقراءة الجر ، وهو مذهب الإمامية . وأجابوا عن قراء النصب بأنها مقتضية للمسح أيضاً . وقد وقفت على كتاب (شرح المقنعة) من كتبهم فوجدته أطنب في هذا البحث ، ووجه اقتضاء النصب للمسح بأن موضع الرأس موضع نصب لوقوع الفعل ، الذي هو المسح . عليه . قال : وعلى هذا لا ينكر أن يعطف الأرجل على موضع الرأس لا لفظها فينصب ، والعطف على الموضع جائز مشهور في لغة العرب . ثم ساق الشواهد في ذلك وقال بعد : فإن قيل : ما أنكرتم أن تكون القراءة بالنصب لا تقتضي الغسل ، فلا تحتل المسح . لأن عطف الأرجل على موضع الرأس في الإيجاب توسع وتجوز . والظاهر والحقيقة يوجبان عطفها على اللفظ لا الموضع . قلنا : ليس الأمر على ما توهمتم ، بل العطف على الموضع مستحسن في لغة العرب ، وجائز لأعلى سبيل الاتساع والعدول عن الحقيقة . فالتسليم خير بين حمل الإعراب على اللفظ تارة ، وبين حمله على الموضع أخرى . قال : وهذا ظاهر في العربية مشهور عند أهلها ، وفي القرآن والشعر له نظائر كثيرة . ثم قال : على أننا لو سلمنا أن العطف على اللفظ أقوى ، لكان عطف الأرجل على موضع الرأس أولى ، مع القراءة بالنصب . لأن نصب الأرجل لا يكون إلا على أحد وجهين : إما بأن يعطف على الأيدي والوجوه في الغسل ، أو يعطف على موضع الرأس فينصب ، ويكون حكمها المسح . وعطفها على موضع الرأس أولى . وذلك أن الكلام إذا حصل فيه عاملان ، أحدهما قريب والآخر بعيد ، فإعمال الأقرب أولى من إعمال الأبعد . وقد نص أهل العربية على هذا في باب التنازع . انتهى . فتأمل جدلهم .

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى عن طائفة من السلف القول بالمسح . فروى ابن^(١) جرير عن حميد قال : قال موسى بن أنس ونحن عنده : يا بأحمزة ! إن الحجاج خطبنا بالأهواز ، ونحن معه . فذكر الطهور فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم . وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه . فاغسلوا بطونهما وظهورها وعراقيبهما . فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج . قال الله تعالى : **وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ** . قال : وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما .

قال ابن كثير : إسناده صحيح إليه .

وروى ابن جرير^(٢) أيضاً عن عاصم عن أنس قال : نزل القرآن بالمسح ، والسنة بالفعل . وإسناده صحيح أيضاً .

وأُسند^(٣) أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان ومسحتان . وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : **(وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)** ، قال : هو المسح . ثم قال : وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن عليّ والحسن (في إحدى الروايات) وجابر بن زيد ومجاهد (في إحدى الروايتين) نحوه .

وروى ابن جرير^(٤) عن أبوب قال : رأيت عكرمة يمسح على رجله . وعن الشعبي^(٥) قال : نزل جبريل بالمسح . ألا ترى أن التيمم ، أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً ؟

(١) الأثر رقم ١١٤٧٥

(٢) الأثر رقم ١١٤٧٦

(٣) الأثر رقم ١١٤٧٤

(٤) الأثر رقم ١١٤٨٦

(٥) الأثر رقم ١١٤٨٠

وأما من ذهب إلى التخيير ، فقال: لما جاءت القراءة بما يوجب الغسل وبما يوجب المسح ، دلّ على أنه مخير . قال في (الشفا) : القراءتان لا توجبان الجمع ، بل تثبتان التخيير . ولا يخفى أن ظاهر الآية صريح في أن واجبهما المسح . كما قاله ابن عباس وغيره . وإثبات غسلهما في المأثور عنه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو للتزيد في الفرض والتوسع فيه حسب عادته صلى الله عليه وسلم ، فإنه سنّ في كل فرض سنناً تدعمه وتقويه . في الصلاة والزكاة والصوم والحج . وكذا في الطهارات كما لا يخفى . ومما يدلّ على أن واجبهما المسح ، تشريع المسح على الخفين والجوربين . ولا سند له إلا هذه الآية ، فإن كل سنة أصلها في كتاب الله ، منطوقاً أو مفهوماً ، فاعرف ذلك واحتفظ به ، والله الهادي .

فصل

فيما قاله الصوفية - قدس الله سرهم - من أسرار طهارة هذه الأعضاء :

فأما الوجه ، فإنما وجب غسله لأن فيه أكثر الحواس الظاهرة التي ينتفع بالمحسوسات بواسطتها ، فلا بدّ من تطهيره عند ظهور آثار حدثت عنها ، ولسبق الإحساس على العمل ، قدم ما فيه أكثر الحواس الظاهرة أي غير السمع . ثم أمر بتطهير الآلة الفاعلية للأفعال التي منها تلك الآثار - وهي الأيدي إلى المرافق - لأن العمل بالأصابع يحتاج إلى تحريك الكف التي لا تتحرك غالباً إلا بتحريك المرافق ؛ ثم أمر بمسح الرأس لأنه جامع للحواس الباطنة ، فأشبهه جامع الحواس الظاهرة ، وأخره عن غسل اليدين لأنه مخزن الصور المدركة بالحواس الظاهرة من أعماله وغيرها . ولم يأمر بغسله لأنه يضر بصاحب الشعر ، ولا بد منه في الزينة . لاسيما للمرأة ، نخفف بالمسح . ثم أوجب غسل آلة السمع لمشاكلة آلة العمل وهي الأرجل ، ولما كانت حركتها توجب حركة جميع البدن ، اقتصر على أدنى الغايات . أعني : الكعبين ، لئلا تبطل فائدة تخصيص الأعضاء ، وفي الفصل بين المغسولات بالمسوح إيحاء إلى وجوب الترتيب ، والسرّ فيه ما أشرنا إليه . كذا في تفسير (المهايي) .

وذكر الشعراني - قدس سره - في سرّ ذلك . أن الوجه به حصول المواجهة في حضرة الله تعالى عند خطابه ؛ والشرع قد تبع العرف في ذلك . وإلا فكل جزء من بدن العبد - ظاهراً وباطناً - ظاهر للحق تعالى من العبد . أمر الله تعالى العبد بالتوبة فوراً ، مسارعة للتطهير من النجاسة المعنوية . لأن الماء لا يصل إلى القلب . فافهم . ثم وجه قول الجمهور بدخول المرفقين في اليدين بأنهما محل الارتفاق . وتكمل الحركة بهما في فعل المخالفات . ووجه قول زفروداود ، بأنهما لم يتمحضاً للذراعين ، لأنهما مجموع شيئين : إبرة الذراع ورأس العظمين . ثم وجه مسح جميع الرأس ، بالأخذ بالاحتياط . فيمسح جميع محل الرياسة التي عند المتوضىء ليخرج عن الكبر الذي في ضمنها ، ويمكن من دخول حضرة الله تعالى في الصلاة . فإن من كان عنده مثقال ذرة من كبر لا يمكن من دخوله الجنة يوم القيامة ، كما ورد . إذ هي الحضرة الخاصة . وكذلك القول في حضرة الصلاة . ثم وجه غسل القدمين بمؤاخضة العبد بالمشي بهما في غير طاعة الله عز وجل ، وكونهما حاملين للجسم كله . وممدّين له بالقوة على المشي ، فإذا ضعفا بالخالفّة أو الغفلة سرى ذلك فيما حملاه ، كما يسرى منهما القوة إلى ما فوقهما إذا غسل ، فإنهما كمروق الشجرة التي تشرب الماء وتمدّ الأغصان بالأوراق والثمار . فتعين فيهما الغسل دون المسح . ثم ذكر سرّ من ذهب إلى وجوب الموالاة في طهارة أعضاء الوضوء ، بأن الغالب على المتطهرين ضعف أبدانهم من كثرة المعاصي ، أو الغفلات ، أو أكل الشهوات . وإذا لم يكن موالاة جفت الأعضاء كلها قبل القيام إلى الصلاة ، مثلاً . وإذا جفت فكأنها لم تغسل ولم تكتسب بالماء انتعاشاً . ولا حياة تقف بها بين يدي ربها . فخاطبت ربها بلا كمال حضور ولا إقبالٍ على مناجاته . وهذا حكم غالب الأبدان . أما أبدان العلماء العاملين وغيرهم من الصالحين ، فلا يحتاجون إلى تشديدٍ في أمر الموالاة لحياة أبدانهم بالماء . ولو طال الفصل بين غسل أعضائهم . فيحمل قول من قال بوجوب الموالاة على طهارة عوام الناس . ويحمل قول من قال بالاستحباب على طهارة علمائهم وصالحهم .

وسمعت سيدى علياً الخواص ، رحمه الله تعالى ، يقول : نِعَمَ قول من قال بوجوب الموالاة في هذا الزمان . فإن من لم يوجبها يؤدي قوله إلى جواز طول الفصل جداً . وزيادة البطء في زمن الطهارة . وفوات أول الوقت . كأن يغسل وجهه في الوضوء للظهر بعد صلاة الصبح . ثم يغسل يديه ربع النهار . ثم يمسح رأسه بعد زوال الشمس . ثم يغسل رجله قبيل العصر . مع وقوع ذلك المتوضىئ مثلاً ، في الغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية والضحك والغفلة . وغير ذلك من المعاصي والمكروهات . أو خلاف الأولى إن كان ممن يؤاخذ به كما يؤاخذ بأكل الشهوات . فمثل هذا الوضوء ، وإن كان صحيحاً في ظاهر الشرع - من حيث إنه يصدق عليه إنه وضوء كامل - فهو قليل النفع لعدم حصول حياة الأعضاء به بعد موتها أو ضعفها أو فتورها . ففات بذلك حكمة الأمر بالموالاة في الوضوء - وجوباً أو استحباباً - وهي إنعاش البدن وحياته قبل الوقوف بين يدي الله تعالى للمناجاة . ثم لو قدر عدم وقوع ذلك المتوضىئ ، الذي لم يوال ، في معصية أو غفلة في الزمن المتخلل بين غسل الأعضاء ، فالبدن ناشف كالأعضاء التي عتمتها الغفلة والسهو والملل والسامة . فلم يَصِرْ لها داعية إلى كمال الإقبال على الله تعالى حال مناجاته . اهـ .

وقد كل أسرار السنن بما بهج ، فليُنظر في (ميزانه) رحمه الله تعالى .

وفي كلام الله تعالى من الفوائد والأسرار واللطائف ، ما تضيق عنه الأسفار .

وقوله تعالى « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا » أى : بخروج منى أو التقاء ختانين « فَأَطَهِّرُوا » أى : بالماء ، أى : اغتسلوا به . قال المهيأى : أى : بالغوا في تطهير البدن لأنه يتلذذ به الجميع تلذذاً أغرقه في غير الله ، فأثر فيه بالحدث « وَإِنْ كُنْتُمْ » جنباً « مَرْضَى » تخافون من استعمال الماء « أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أى رجع من مكان البراز « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » أى : اقصدوا « صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » تذليلاً للعضوين الشريفين . وقد مرّ تفسير هذا وأحكامه في سورة

النساء. « مَا يُرِيدُ اللَّهُ » أى ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة ، أو بالأمر بالتيمم « لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » أى ضيقٍ فى الامتثال أو فى تحصيل الماء « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ » أى عن الذنوب ، أو ليجعلكم فى حكم الطاهرين بالتذلل بالتراب . فإنه لما رفع التكبر فكأنما رفع الحدث الذى ينشأ عن أمثاله « وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » أى : بشرعه ما هو مطهر لأبدانكم ومنعش لها مما لحقها ، ومكفر لذنوبكم ، أوليتم برخصه إنعامه عليكم بتمكينكم من عبادته بكل حالٍ ، حتى حال الحدث « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » نعمته ورخصته فيثيبكم .

وقد روى ابن^(١) جرير عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه . ورواه مسلم^(٢) وأصحاب السنن عن أبى هريرة مفصلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » بالهداية لهذا الدين القويم لتذكركم النعم وترغيبكم

(١) الأثر رقم ١١٥٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٣٢ (طبعنا) ونصه :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا توضأ العبد المسلم (أو المؤمن) فغسل وجهه ، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء (أو قال مع آخر قطر الماء) فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) حتى يخرج نقياً من الذنوب » .

في شكره « وَمِيثَاقَهُ » أى عهده الوثيق « الَّذِي وَاتَّقَكُم بِهِ » أى : أؤكد عليكم بقبوله « إِذْ قُلْتُمْ » أى : لرسول الله ﷺ « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » حين يابيعتموه على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى نقض شئ من عهوده ولو بالقلب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى : بخفياتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ » أى : مقتضى إيمانكم الاستقامة ، فكونوا مبالغين فى الاستقامة باذلين جهدكم فيها لله . وهى إنما تتم بالنظر فى حقوق الله وحقوق خلقه فكونوا « شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » أى : العدل . لا تتركوه لحجة أحد ولا لعداوة أحد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ » أى : لا يحملنكم « شَنَاَنُ » أى : شدة عداوة « قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا » فى حقهم . قال المهايى : أى : فإننا لا نأمركم به من حيث ما فيه من توفية حقوق الأعداء ، بل من حيث ما فيه من توفية حقوق أنفسكم فى الاستقامة « اْعْدِلُوا هُوَ » أى : العدل - « أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » أى : لحفظ الأنفس أن تتجاوز حد استقامتها « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : أن تبطلوا حقوقه أو حقوق عباده ولو بطريق توهمون فيه العدل « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » من الأعمال فيجازيكم بذلك . وقد ثبت فى (الصحيحين) (١)

(١) أخرجه البخارى فى : ٥١ - كتاب الهبة ، ١٢ - باب الهبة للولد ، حديث ١٢٦٣ . وفى : ١٣ - باب الإشهاد فى الهبة .

وفى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٩ - باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد . وأخرجه مسلم فى : ٢٤ - كتاب الهبة ، حديث ٩ - ١٨ (طبعتنا) .

عن النعمان بن بشير أنه قال : نَحَلْنِي أَبِي نَحْلًا . فقالت أمي : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ . فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكلَّ ولدك نَحْلَت مثله ؟ قال : لا . فقال : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . وقال : إني لا أشهد على جور . قال ، فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالقسط . يدخل فيه الشهادة بالعدل والحكم به . وكذلك الفتوى . وأن قول الحق لا يترك وجوبه بعمد ولا صديق . ولا يجوز اتباع الهوى .
قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله ، إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)
« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » التي من جملتها العدل والتقوى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » يعنى ثواباً وافراً في الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)
« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » التي منها ما تلى من الأمر بالعدل والتقوى .
« أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أهل النار . ثم بين تعالى أن من مقتضى الإيمان ملازمة شكره على ذكر نعمه ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى : فى حفظه إيّاكم عن أعدائكم « إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ » أى : بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك « فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » أى : منعها أن تمتد إليكم ، وردّ مضرّتها عنكم .

قيل : الآية إشارة إلى ما روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن أبى سلمة عن جابر : أن النبىّ ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس فى العشاء يستظلون تحتها . وعلق النبىّ ﷺ سلاحه بشجرة . فجاء أعرابىّ إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه . ثم أقبل على النبىّ ﷺ فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله عزّ وجلّ . قال الأعرابىّ مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك منى ؟ والنبىّ ﷺ يقول : الله . قال : فشام الأعرابىّ السيف . فدعا النبىّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابىّ ، وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه .

وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ، ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ . فأرسلوا هذا الأعرابىّ . وتأول هذه الآية .

وأخرج أبو نعيم فى (دلائل النبوة) من طريق الحسن عن جابر بن عبد الله ؛ أن رجلاً من محارب يقال له غورث بن الحرث قال لقومه : أقتل لكم محمداً . فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه فى حجره فقال : يا محمد ! أنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم . فأخذه فاستله وجعل يهزه ويهم به فيكبته الله تعالى . فقال : يا محمد ! أما تخافنى ؟ قال : لا . قال : أما تخافنى والسيف فى يدي ؟ قال : لا . يمنعنى الله منك . ثم غمد السيف وردّه إلى رسول الله . فأنزل الله الآية .

وقصة هذا الأعرابي ثابتة في (الصحيح)^(١) .

وأخرج ابن جرير^(٢) عن عكرمة ويزيد بن أبي زيادة واللفظ له : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود بنى النصير ، يستعينهم في عقل أصابه . فقالوا : نعم . اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا ، فجلس . فقال حيّ بن أخطب لأصحابه : لا ترونه أقرب منه الآن . اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شرّاً أبداً ، فجأوا إلى رحي عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم ، حتى جاء جبريل فأقامه من تحت . فأنزل الله الآية . وروى نحوه ابن أبي حاتم .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٨٣ - باب من علق سيفه بالشجر

في السفر عند القائلة ، حديث ١٣٩٣ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أخبر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّل نجد . فلما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قفلنا معه . فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاء . فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة وعلق بها سيفه . ونمنا نومة . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابي . فقال « إن هذا اخترط على سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً . فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله . ثلاثاً » ولم يعاقبه وجلس .

وأخرجه أيضاً في ٨٧ - باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة .

وفي : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣١ - باب غزوة ذات الرقاع .

وفي : ٣٢ - باب غزوة بنى المصطلق .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣١١ (طبعنا) .

وفي : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٣ (طبعنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٥٧ .

قال ابن كثير : ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم ، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم . انتهى .

وعلى هذه الروايات ، فالمراد من قوله تعالى (اذْ كُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر والمكرهه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من أعظم المحن . وذكر الرخصى ، ومن بعده ، من وجوه إشارات الآية ، ما كان بمسئفان من حفظه تعالى لهم من أعدائهم ، لما هموا بقتلهم عند اشتغالهم بصلاة العصر ، بعد ما رأوهم يصلون الظهر . فندموا على أن لا أكبوا عليهم . فرد كيد أعدائهم إذ أنزل عليهم صلاة الخوف . انتهى . ولفظ الآية محتمل لذلك ، بيد أنى لم أره الآن مسنداً عن أئمة الأثر .

«وَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فى رعاية حقوق نعمته ولا تحلّوا بشكرها «وَعَلَى اللَّهِ» خاصة دون غيره «فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ كُلُّ الْمُؤْمِنُونَ» فإنه الكافى فى إيصال الخير ودفع الشر لمن توكل عليه .

قال أبو السعود : والجملة تذييل مقرر لما قبله . وإيثار صيغة أمر الغائب ، وإسنادها إلى المؤمنين ، لإيجاب التوكل على مخاطبين بالطريق البرهاني ، وللايذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان ، داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى ، وازع عن الإخلال بهما .

بحث جليل فى التوكل

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله سره - فى بعض مصنفاته : قد ظن طائفة من تكلم فى أعمال القلوب ، أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل ما كان مقدراً بدون التوكل ، فهو مقدر مع التوكل . ولكن التوكل عبادة يشاب عليها من جنس الرضا بالقضا . وذكر ذلك أبو عبد الله بن بطة فيما صنفه فى هذا الباب . وقول هؤلاء يشبه قول من قال : إن الدعاء لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل هو عبادة يشاب عليها كرمي الجمار . وآخرون يقولون : بل الدعاء علامة وأمرة . ويقولون ذلك فى جميع

العبادات . وهذا قول من ينفي الأسباب في الخلق والأمر ، ويقول : إن الله يفعل عندها ، لا بها . وهو قول طائفة من متكلمي أهل الإثبات للقدر - كالأشعرى وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية . وأصل هذه البدعة من قول جهم . فإنه كان غالباً في نفي الصفات وفي الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفي الصفات ، ففي تمام توحيد الأفعال نفي الأسباب . حتى أنكر تأثير قدرة العبد ، بل نفي كونه قادراً . وأنكر الحكمة في التوكل والرحمة . وكان يخرج إلى الجذمي فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ يعني أنه يفعل بمحض المشيئة بلا رحمة . وقوله في القدر ، قد تقرب إليه الأشعرى ومن وافقه من الطوائف . والذي عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام إثبات الأسباب . كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة ، مع دلالة الحسّ والعقل . والكلام على هؤلاء مبسوط في مواضع أخرى . والمقصود هنا الكلام على التوكل . فإن الذي عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله ، من جلب المنفعة ودفع المضرة ، ما لا يحصل لغيره . وكذلك الدعاء . والقرآن يدل على ذلك في مواضع كثيرة . ثم هو سبب عند الأكثرين ، وعلامة عند من ينفي الأسباب : قال الله تعالى ^(١) : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . والحسب : الكافي . فبين أنه كافٍ مَنْ توكل عليه . وفي الدعاء : يا حسيب المتوكلين ! فلا يقال : هو حَسْبُ غير المتوكل كما هو حَسْبُ المتوكل ، لأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع في مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه . ولأنه

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣٠٢] ونصهما : فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَمَنْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

رتب الحكم على الوصف المناسب له . فعلم أن توكله هو سبب كونه حسيباً له ، ولأنه ذكر ذلك في سياق الترغيب في التوكل ، كما رغب في التقوى . فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية مالا يحصل لغيره ، لم يكن ذلك مرغباً في التوكل . كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب . وقال تعالى : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(١) . فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل ، والوكيل لا يستحق المدح إذا لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ولم يدفع عنه مضرة . والله خير من توكل العباد عليه . فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كل شر . وقال تعالى : وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَغِلْ إِلَيْهِ تَبْتِغِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا^(٢) . وقال : وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا^(٣) . فأمر أن يُتَّخَذَ وكيلاً ونهى أن يتخذ من دونه وكيلاً . لأن الخلق لا يستقل بجميع حاجات العبد ، والوكالة الجائزة أن يتوكل الإنسان في فعلٍ يقدر عليه ، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه . فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله . وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله وقدرته . فليس له أن يتوكل عليه ، وإن وكله . بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه ، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله ، يحصل وإن توكل على غيره ، ويحصل بلا توكل ، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً . وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد . لأن التوكل على الخلق يشهد نفعه . وقال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٤) أي : الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين . فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول - سواء اتبعوه أو لم يتبعوه - لم يكن للإيمان واتباع الرسول أثر في هذه

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .

(٢) [٧٣ / الزمل / ٩٠٨] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٢] .

(٤) [٨ / الأنفال / ٦٤] .

الكفاية . ولا كان لتخصيصهم بذلك معنى . وكان هذا نظير أن يقال : هو خالقك وخالق من اتبعك . ومعلوم أن المراد خلاف ذلك . وإذا كان الحسب معنى يختص بعض الناس ، علم أن قول المتوكل : (حَسْبِيَ اللَّهُ) وقوله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أمر مختص لامتشارك . وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص ، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعده أو خص أهله بكرامة ، فلا بد أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة . وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر . فقد يكفي الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال . لكن لا بد أن يكون للمتوكل أثر في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين . فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا ، وإن عدم التوكل . وقد قال تعالى : وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ لِيَأْخُذَهُمُ اللَّهُ فِي سُلُوكِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأُنْزِلَ السَّمَاءُ سَمُومًا * فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ عَن ذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^(١) فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل ، بحرف (الفاء) . وهى تفيد السبب . فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل . وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل . وفي الأثر ^(٢) : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ، لم يكن التوكل أقوى من غيره . وقال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ^(٣) . وقال فى أثناء السورة : وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣ و ١٧٤] .

(٢) قال السيوطى فى (الجامع الصغير) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب (التوكل)

وقال شارحه : إسناده حسن .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١ - ٣] .

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا^(١) . فأمره سبحانه بتقواه واتباع ما يوحى إليه وأمره بالتوكل . كما جمع بين هذين الأصلين في غير موضع . كقوله : فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ^(٢) . وقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا^(٣) . وقوله : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ^(٤) . وقوله : رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا^(٥) . وقوله : هُوَ رَبِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ^(٦) . وقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٧) . وقوله في الفاتحة :

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٧٣ / الزمل / ٩٨] .

(٤) [٤٢ / الشورى / ١٠] ونصها : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

(٥) [٦٠ / المتحنة / ٤] ونصها : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

(٦) [١٣ / الرعد / ٣٠] ونصها : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .

(٧) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٠٥ .

إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ^(١) . وعلم القرآن مجتمع في الفاتحة ، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه . وإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل . فإنه من عبادة الله . كقوله : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ^(٢) . وقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٣) . وإذا قرن به التوكل كان مأموراً به بخصوصه . وهذا كلفظ الإسلام والإيمان . والإيمان والعمل ، ولفظ الصلاة مع العبادة ومع اتباع الكتاب . ولفظ الفحشاء والبهني مع المنكر . وافتراض ذلك متعددة . يكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً . وقد يعطف بعض تلك الأنواع عليه فيكون مأموراً به لخصوصه . ثم قد يقال : إذا عطف لم يدخل في المعطوف عليه . وقد يقال : بل الأمر به خاص وعام ، كما في قوله^(٤) : وَمَلَأْنِيكَ وَجْهِي بِرَبِّكَ وَمِيكَالَ . وإذا كان الله أمره بالتوكل على الله ، ثم قال : وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ، علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه . كما يقال في الخطب والدعاء : الحمد لله كافي من توكل عليه . وإذا كان (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فهذا يختص به سبحانه ليس غيره من الموجودات (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فإن من يتخذ وكيلاً من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور ، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله ، وهو عاجز عن أكثر المطالب . فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) علم أنه يفعل بالتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره من جلب المنافع ودفع المضار . إذ لو بقي شيء لم يكن (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) وهذا نقيض قول من ظنَّ أنَّ التوكل عليه لا يحصل له بتوكله جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل يجري عليه من القضاء ما كان يجري لولم

(١) [١ / الفاتحة / ٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١] ... الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) [٥١ / النازيات / ٥٦] .

(٤) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

يتوكل عليه . والذين ظنوا ، أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئاً فلا بد أن يكون ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق علمه فهو كائن لا محالة - صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه ، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع . وهذا غلط عظيم ضلّ فيه طوائف : طائفة قالت : لا حاجة إلى الأعمال المأمور بها . بل من خلق للجنة فهو يدخلها وإن لم يؤمن . ومن خلق للنار فهو يدخلها وإن آمن ولم يكفر . وهذه الشبهة سئل عنها النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) لما قال : ما منكم من أحدٍ إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار قالوا : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ! اعملوا ، فكلٌ ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسر لعمل أهل الشقاء . وهذا المعنى قد ثبت عن النبي ﷺ في (الصحيح) في مواضع تبين أن ما سبق به الكتاب سبق بالأسباب التي تفضي إليه ، فالسعادة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به سعيداً ، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به شقيماً . فالقدر تضمن الغاية وسبيلها . لم يتضمن غايةً بلا سبب . كما تضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج ويطأ المرأة ، وهذا تثبت أرضه بأن يزدرع ويسقى الزرع . وأمثال ذلك . وكذلك

(١) الحديث أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٢ - سورة الليل ،

٧ - باب فسئسره للعسري ، حديث ٧١٨ ونصه :

عن علي رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ في جنازة . فأخذ شيئاً فجعل يسكت به الأرض . فقال « ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » قالوا : يا رسول الله ! أفلا نتكل على كتابنا ندع العمل ؟ قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة ، فييسر لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاء ، فييسر لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ... الآية .

في (السنن) ^(١) أنه قيل له : يا رسول الله ! أرأيت أدويةً تتداوى بها ، ورقى نسترق بها ، وتقاةً تنتفيها ، هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله . فبين أن الأسباب التي تدفع بها المكروه هي من القدر ، ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب . وكذلك قول من قال : (إن الدعاء لا يؤثر شيئاً والتوكل لا يؤثر شيئاً) هو من هذا الجنس ، لكن إنكار ما أمر به من الأعمال أمر ظاهر ، بخلاف تأثير التوكل . لكن الأصل واحد . وهو النظر إلى القدور مجرداً عن أسبابه ولوازمه . ومن هذا الباب : (أن المقتول يموت بأجله) عند عامة المسلمين . إلا فرقة من القدرية قالوا : إن القاتل قطع أجله . ثم تسكلم الجمهور : لولم يقتل ؟ قال بعضهم : كان يموت لأن الأجل قد فرغ ؛ وقال بعضهم : لا يموت لانتفاء السبب . وكلا القولين قد قال به من ينسب إلى السنة ، وكلاهما خطأ . فإن القدر سبق بأنه يموت بهذا السبب لا بغيره . فإذا قدر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما في القدور ، ولو كان القدور أنه لا يموت بهذا السبب ، أمكن أن يكون القدور أنه يموت بغيره ، وأمكن أن يكون القدر أنه لا يموت . فالجزم بأحدهما جهل فيما تعددت أسبابه . لم يجزم بعده عند عدم بعضها ، ولم يجزم بثبوته إن لم يعرف له سبب آخر . بخلاف ما ليس له إلا سبب واحد . مثل دخول النار . فإنه لا يدخلها إلا من عصى . فإذا قدر أنه لم يعص لم يدخلها . وقال تعالى : فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ^(٢)

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٣١ - كتاب الطب ، ١ - باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، حديث ٣٤٣٧ (طبعتنا) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥٩ و ١٦٠] ونصها : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * . . .

فَأَمْرَهُ إِذَا عَزَمَ ، أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ؛ فَلَوْ كَانَ التَّوَكُّلُ لَا يَعِينُهُ عَلَى نَيْلِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَكُنْ لِأَمْرِهِ بِهِ عِنْدَ الْعَزْمِ فُتْدَةٌ . بَيَّنَّ أَنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ النَّاصِرُ دُونَ غَيْرِهِ وَقَالَ : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ^(١) . فَهِيَ عَنِ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَمْرٌ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ لِيَحْصُلَ لِلْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ النَّصْرُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَإِلَّا فَالتَّوَكُّلُ عَلَى غَيْرِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمَطْلُوبَ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَذِكْرِ انْفِرَادِهِ بِالنَّصْرِ مَعْنَى ؛ فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ : نَصْرُهُ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَنَصْرِهِ لِمَنْ لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ . وَهَذَا يَنَاقِضُ مَقْصُودَ الْآيَةِ . بَلْ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : قَدْ يَنْصُرُ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ وَلَا يَنْصُرُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مَقْرُونًا بِقَوْلِهِ : إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * ... - إِلَى قَوْلِهِ - قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ^(٢) فَيَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ يَكْفِي عَبْدَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ ، الَّذِي هُوَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، الَّذِي هُوَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ ، الَّذِي هُوَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ^(٣) . وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ^(٤) . وَقَوْلُهُ : وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ^(٥)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٦-٣٩] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

(٤) [١٧ / الإسراء / ١] .

(٥) [٧٢ / الجن / ١٩] ... كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

وقوله : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا^(١) . ونظائر ذلك متعددة . ثم أمره بقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٢) . وقال تعالى : وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ^(٣) . وكذلك قال عن هود لما قال قومه : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٤) * فهذا من كلام المرسلين، مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه. فنوح يقول : إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... الآية . فدعاهم، إذا استعظموا ما يفعله كارهين له، أن يجتمعوا ثم يفعلون به ما يريدونه من الإهلاك . وقال : فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . فلولا أنه بحقيقة هذه الكلمة - وهو توكله على الله - يمجزم عما تحداهم به من مناجزته ، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه . وهذا لا يجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم . فدل على أنه - بتوكله على الله - يمجزم عما تحداهم به . وكذلك هود ، يُشهد الله تعالى وإياهم أنه بريء مما يشركون بالله . ثم يتحداهم ويمجزم بقوله : فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا يبين أنه توكل على من أخذ بنواصي الإنس وسائر الدواب . فهو يدفعكم عنى لأنى متوكل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

(٣) [١٠ / يونس / ٧١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٤ - ٥٦] .

عليه . ولو كان وجود التوكل كعدمه في هذا ، لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ، إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل في وصول العذاب إليه . وهم كانوا أكثر وأقوى منه . فكانوا يهملونه . وهو لو قال : فإن الله مولاي وناصري - ونحو ذلك - لعلم أنه خبر أن الله تعالى يدفعهم ، وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ، ولأنه عبده ورسوله . فالله مع رسله وأوليائه ، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين ، علم أن العبد يقوم به أعمال باطنة وظاهرة ، تجلب بها المنفعة وتدفع بها المضرة . والتوكل من أعظم ذلك . وعلم أن من ظن أن القدور من المنافع والمضار ، ليس معانقاً بالأسباب ، بل يحصل بدونها ، فهو غلط . وكذلك من جعل ذلك مجرد أمانة وعلامة ، لا قتران هذا بهذا ، فقد أخطأ . فإن الله أخبر أنه فعل هذا بهذا في غير موضع من القرآن ، في خلقه وأمره . كقوله : فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ^(١) . وقوله : كُلُوا وَامْرَئُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ^(٢) . وقوله : بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٣) ، وأنكر على من ظن وجود الأسباب كعدمها في مثل قوله : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ^(٤) . وقوله : أَفَنَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ^(٥) . وأمثال ذلك . وهؤلاء يقولون بالجبر . قالوا : والأمر والنهي حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالعاصي بمحض المشيئة لا لسبب ونحوه ، ولا بحكمة . فقبلوا حقيقة الأمر والنهي إلى الجبر . كما أبطلوا الأسباب

(١) [٧ / الأعراف / ٥٧] .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢٤] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٢] .

(٤) [٦٨ / القلم / ٣٥] .

(٥) [٣٨ / ص / ٢٨] .

والحكمة . وأبطلوا قدرة العباد . وهم ، وإن كانوا يردون على القدرية ويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية ، فقد ردوا باطلاً بباطل ، وقاتلوا بدعة ببدعة . كره اليهود على النصراني والنصارى على اليهود ، مقاتلهم في المسيح ، وكلتا المقاتلتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة في عليّ باطل ، ونظائرهم متعددة . انتهى . فاحفظه ينفعلك في مواضع كثيرة . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل - من الخيانة ونقض الميثاق - وما أدى إليه ذلك من التبعات ، مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذي واثقهم به . وتحذيرهم من نقضه . أو لتقرير ما ذكر من هم بني قريظة بالبطش . وتحقيقه حسبا مرة من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم - أفاده أبو السعود .

زاد الرازي : تقرير الإلزام بالتكليف بأنه سنة الله في الذين خلوا .

« وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » رئيساً . سمي بذلك لأنه يفتش حال القوم ويعلم دخيلة أمرهم « وَقَالَ اللَّهُ » أي : لهم . وفي الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد « إِنِّي مَعَكُمْ » أي : بالعلم والقدرة والنصرة « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ »

وَأَمْنْتُمْ بِرُسُلِي « أَيْ : الَّذِينَ يَحْيِيُونَ إِلَيْكُمْ » وَعَزَّرْتُمُوهُمْ « أَيْ : أَعْنَتُمُوهُمْ وَنَصَرْتُمُوهُمْ
بِالسَّيْفِ عَلَى الْأَعْدَاءِ » وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ « أَيْ : بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ » قَرْضًا حَسَنًا « بِأَمْنٍ
وَلَا طَلَبِ رِجْحٍ دُنْيَوِيٍّ ، مِنْ رِبَاءٍ وَسَمْعَةٍ « لَا كُفْرَانَ » أَيْ : لَا حُوقَ « عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ » ذُنُوبِكُمْ « وَلَا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » أَيْ : تَطَرَّدَ مِنْ تَحْتِ
شَجَرِهَا وَمَسَاكِنِهَا « الْأَنْهَارُ » أَنْهَارُ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ وَالْحَمْرِ وَالْعَسَلِ « فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَيْ : بَعْدَ اخْتِذَاكِ الْمِيثَاقِ وَالْإِقْرَارِ بِهِ « مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أَيْ : وَاضَحَ السَّبِيلِ ،
الْمَوْصِلَ إِلَى كُلِّ مَطْلَبٍ عَالٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ » (الباء) سببية و (ما) مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه
في النفس . أَيْ : بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ . أَوْ نَكْرَةً ، أَيْ : بِشَيْءٍ عَظِيمٍ صَدَرَتْ مِنْهُمْ مِنْ نَقْضِهِمْ
مِيثَاقَهُمُ الْمُؤَكَّدَ ، الْمَوْعُودَ عَلَيْهِ النَّصْرُ وَالْمَغْفِرَةُ وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ « لَعَنَّاهُمْ » أَيْ : أَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ
رَحْمَتِنَا « وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً » بِحَيْثُ لَا تَلِينُ لِرُؤْيَةِ آيَاتِ وَالنَّذْرِ ، وَلَا تَتَعَطَّ بِمَوْعِظَةٍ ،
لِنَظَرِهَا وَقَسَاوَتِهَا لِعُضْبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقَسَاوَةُ وَاللَعْنَةُ فِي ذُرِّيَّتِهِمْ « يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ » أَيْ : كَلَّمَ اللَّهَ فِي التَّوْرَةِ ، بِصَرْفِ أَلْفَاظِهِ أَوْ مَعَانِيهِ « عَنْ مَوَاضِعِهِ » الَّتِي أُنْزِلَتْ .
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ : فَسَدَتْ فَهْمُهُمْ ، وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ
عَلَى غَيْرِ مَا أُنْزِلَ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مَرَادِهِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا يَظُنُّ . عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَالْجُمْلَةُ اسْتِثْنَاءٌ لِبَيَانِ مَرْتَبَةِ قَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا مَرْتَبَةَ أَعْظَمَ مِمَّا

يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل ، والافتراء عليه . وقيل : حال من مفعول (لعنهم) .

« وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » أى : تركوا نصيباً وافراً مما أمروا به فى التوراة ، ترك الناسى للشئ لقلة مبالاته بحيث لم يكن لهم رجوع عليه . أو من أتباع محمد ﷺ « وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ » أى : خيانة . على أنها مصدر (لاغية وكاذبة) . أو طائفة خائنة . يعنى : أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم ، بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتُمونها . فلا تزال ترى ذلك منهم .

قال مجاهد . وغيره . يعنى بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ .
« إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » وهم المؤمنون منهم « فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ » أى لا تعاقبهم .
قال ابن كثير :

هذا موجب النصر والظفر . كما قال عمر : ما علمت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا ، يحصل لهم تأليف وجمع على الحق . ولعل الله يهديهم .
ولهذا قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » يعنى به الصفح عمن أساء ، فإنه من باب الإحسان .

تنبيه :

قال بعض المفسرين :

فى هذا دلالة على جواز التحليف على الأمور المستقبلية . وأخذ الكفيل على الحق الذى يفعل فى المستقبل . وفى قوله تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) الخ ، دليل على تأكيد الميثاق ، وقبح نقضه ، وأنه قد يسلب اللطف المبعد من المعاصى ، ويورث النسيان . ولهذا قال تعالى : وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وعن ابن مسعود : قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ » بعبادة الله وحده ، وأن لا يشركوا به شيئاً ، وحفظ شرعة عيسى عليه السلام . وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم - دون أن يقال (ومن النصارى) - إيداناً بأنهم في قولهم (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) ^(١) بمزله من الصدق . وإنما هو تقوّل محض منهم . وليسوا من نصرته الله تعالى في شيء . أو إظهاراً لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم . فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه . أقاده أبو السود .

قال الناصر في (الانتصاف) : وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضع بإسناد النصرانية إلى دعواهم . ولم يتفق ذلك في غيره . ألا ترى إلى قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ؟ ^(٢) فالوجه في ذلك - والله أعلم - أنه لما كان المقصود في هذه الآية

(١) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنًا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَامْتَنَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ =

ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرته الله تعالى ، ناسب ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصره . وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصره وقولها دون فعلها . والله أعلم .

قال الشهاب الخفاجي : الموجود في كتب اللذنة والتاريخ أن النصارى نسبت إلى بلدة (ناصرة) أى التى حُبل فيها المسيح وتربى فيها . ولذلك كان يدعى عليه السلام (ناصرياً) . ثم قال : فلو قيل في الآية : إنهم على دين النصرانية وليسوا عليها لعدم عملهم بموجبها ومخالفتهم لما في الإنجيل من التبشير بنبينا ﷺ - لكان أقرب من وجه التسمية الذى ذكره .

« فَاسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا » أى ألقينا « بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى : يتعادون ويتباغضون إلى قيام الساعة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة ، وآراؤهم الزائفة المؤدية إلى التفرق فرقاً متباينة ، يلعن بعضها بعضاً ، ويكفر بعضها بعضاً « وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ » يخبرهم الله فى الآخرة « بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » من المخالفة وكتمان الحق والعداوة والبغضاء ، ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به . وهذا وعيد شديد بالجزاء والعذاب .

لطيفة :

تطرف البقاعى - رحمه الله تعالى - فى (تفسيره) هنا إلى ذكر نقباء بنى إسرائيل بأسمائهم . وأن عدتهم طابقت عدة نقباء النصارى - وهم الحواريون - كما طابقت عدة نقباء (١) الأنصار

= وَأَحْيَاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .
(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٩٣ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٨١ من الجزء

الثانى (طبعة الحلبي) .

ليلة العقبة الأخيرة ، حين بايع النبي ﷺ الأنصار على الحرب ، وأن يمنموه إذا وصل إليهم ، وقال لهم : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً - كما اختار موسى من قومه - فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وذكر البقاعي : أن بعث النقباء من بني إسرائيل كان مرتين : الأول لما كلم تعالى موسى في بركة سيناء في اليوم الأول من الشهر الثاني من السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر . وقد فصلت في الفصل الأول من سفر (العدد) . والمرة الثانية : بعثوا لجسّ أرض كنعان . وفصلت أيضاً في الفصل الثالث عشر من سفر (العدد) ثم ذكر البقاعي : أن نقباء اليهود في جسّ الأرض لم يوف منهم إلا يوشع بن نون وكالب بن يفتنا . وأما نقباء النصارى ، فخان منهم واحد - وهو يهوذا - كما مضى عند قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ . وأما نقباء الأنصار فكلهم وفّوا وبرّ بتوفيق الله تعالى .

وقد اقتصر البقاعي أسماء نقباء الفرق الثلاث ، ولمعة من نبئهم . فانظره ، والله أعلم . ثم خاطب تعالى الفريقين من أهل الكتاب إثر تشديد التذكير عليهم بتحريف كتبهم وبندهم الميثاق ، ودعاهم إلى الحنيفية حتى يكونوا على نورٍ من ربهم . فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من نحو بعثته ﷺ ، وآية الرجم في التوراة ، وبشارة عيسى به ، إظهاراً للحقّ « وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » أى : مما تخفونه . لا يبينه . مما لاضرورة في بيانه ، صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح . أو يعفو فلا يؤخذ . وفي هذه الآية بيان معجزة له ﷺ . فإنه

لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد ، فأخبره بأسرار ما في كتابهم إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » يريد القرآن . لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانتها ما كان خافياً على الناس من الحق . أولاً لأنه ظاهر الإعجاز . أو النور ، محمد ﷺ لأنه يهتدى به ، كما سمي سراجاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ » أى رضاه بالإيمان به « سُبُلَ السَّلَامِ » أى : طرق السلامة والنجاة من عذاب الله « وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى : ظلمات الكفر والشبه إلى نور الإيمان والدلائل القطعية « بِإِذْنِهِ » أى : بتوفيقه وإرادته « وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الدين الحق السوى فى الاعتقادات والأعمال ، العرى عن الإفراط والتفريط فيها . ثم أشار إلى إفراط بعض النصارى فى حق عيسى ، وتفريطهم فى حق الله جل شأنه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » فى هذه الآية وجهان :

الأول : إن ما أفادته من الحصر - وإن لم يصرحوا به - إلا أنه نسب إليهم لأنه لازم مذهبهم لأن معتقدتهم مؤدّ إليه .

قال الرازى : لأنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة اتحاد بعيسى عليه السلام . فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة . فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول . وإن قلنا : إن الأقنوم عبارة عن الصفة ، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول . ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى ، يلزم خلوه ذات الله عن العلم . ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً . فحينئذ يكون الإله هو عيسى على قولهم . فثبت أن النصارى - وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول - إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك . انتهى .

وبطلان الاتحاد معلوم بالبداهة .

قال العلامة العضد في (الموقف الثاني) : المقصد الثامن : الاثنان لا يتحدان . وهذا حكم ضرورى . فإن الاختلاف بين الماهيتين والهويتين باختلاف بالذات فلا يعقل زواله . وهذا ربما زاد توضيحه فيقال : إن عدم الهويتان فلا اتحاد ، بل وحدث أمر ثالث غيرها - وإن عدم أحدها - فلا يتحد المعدوم بالموجود ، وإن وجدا فهما اثنان كما كانا ، فلا اتحاد أيضاً . انتهى .

الوجه الثانى : إنه غنى بهذه الآية قوم يقولون بأن حقيقة الله هو المسيح لا غير .

قال الزمخشري : قيل : كان في النصارى قوم يقولون ذلك . انتهى .

قال الإمام الشهرستاني في (الملل والنحل) عند ذكر فرق النصارى :

ومنهم اليعقوبية أصحاب يعقوب . قالوا بالأفانيم الثلاثة - كما ذكرنا - إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو . وعنهم أخبرنا القرآن الكريم : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . فمنهم

من قال : المسيح هو الله . ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق . لا على طريق حلول جزء فيه . ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو . وهذا كما يقال : ظهر الملك بصورة الإنسان ، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان .. الخ .

وذكر الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) : إن أوائل النسطورية قالوا : إن عيسى هو الله . انتهى .

وذكر الإمام ابن إسحق^(١) في (السيرة) : إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ﷺ ، كانوا من النصرانية على دين ملكتهم . مع اختلاف من أمرهم . يقولون هو الله . ويقولون هو ولد الله . ويقولون هو ثالث ثلاثة - يعنى هو تعالى وعيسى ومريم - وكذلك قول النصرانية . ثم قال : ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن .

« قُلْ » - أى : تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لفساد قولهم - « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » أى : من يستطيع إمساك شئ من قدرته تعالى « إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » أى : يُمِيتَهُ « وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » أى : فضلاً عن آحادهم . احتج بذلك على فساد قولهم . وتقريره : أن المسيح حادث بلا شبهة . لأنه تولد من أم . ولذا ذكرت الأم للتنبيه على هذا . ومقهور قابل للفناء أيضاً كسائر المكنات . ومن كان كذلك كيف يكون إلهاً ؟

قال أبو السعود : وتعميم إرادة الإهلاك للكل - مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح - تهويل الخطب وإظهار كمال العجز ، ببيان أن الكل تحت قهره تعالى وملكوته . لا يقدر أحد على دفع ما أريد به . فضلاً عن دفع ما أريد بغيره . وللايذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للإهلاك . كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية .

(١) لم أهتد إلى محلها في سيرة ابن هشام .

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» من الخلق والعجائب - وهذا تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى ، إثربان انتفاءها عن غيره «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعترافهم من الشبهة في أمر المسيح - لولادته من غير أب ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص - أى : يخلق ما يشاء من أنواع الخلق كما شاء بأبٍ أو بغير أب !..

قال السمرقندى : وإنما قال (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) لأن النصارى أهل نجران كانوا يقولون : لو كان عيسى بشراً كان له أب . فأخبرهم الله تعالى أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب . «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» من خلق الخلق ، والثواب لأوليائه ، والعقاب لأعدائه - «قَدِيرٌ» .

القول فى تأييل قوله تعالى :

[١٨] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة . وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحدهما . أى قالوا : نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء فى المنزلة والكرامة . ونحن أحبائهم لأننا على دينه .

قال ابن كثير : ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبيده إسرائيل : أنت ابنى بكرى . فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه . وقد ردّ عليهم غير واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم . وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشرىف والإكرام . كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ، يعنى ربى وربكم . ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البنوة

ما ادعوها في عيسى عليه السلام . وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه ، وحظوتهم عنده ... انتهى .

وقال الجلال الدواني في (شرح عقائد المضد) : وما تُقِلَّ عن الإنجيل - فعلى فرض صحته وعدم التحريف - يكون إطلاق الأب عليه بمعنى المبدأ . فإن القدماء كانوا يسمون المبادئ بالآباء . وأنت تعلم أن التشابهات في القرآن وغيره من الكتب الإلهية كثيرة . ويردّها العلماء بالتأويل إلى ما علم بالدليل . فلو ثبت ذلك لكان من هذا القبيل . انتهى .

وقال الدهلوي في (الفوز الكبير) : إن الله عزّ وجلّ شرف الأنبياء وتابعهم في كل ملة بلقب المقرب والمحبوب . وذم الذين ينكرون الملة بصفة البغوضية . وقد وقع التسكّم في هذا الباب بلفظ شائع في كل قوم ، فلا عجب أن يكون قد ذكر الأبناء مقام المحبوبين . فظنّ اليهود أن ذلك التشريف دأب مع اسم اليهوديّ والعبريّ والإسرائيليّ . ولم يعلموا أنه دأب على صفة الانقياد والخضوع وتمشية ما أراد الحقّ سبحانه ببعثة الأنبياء لا غير . وكان ارتكز من هذا القبيل في خاطرهم كثير من التأويلات الفاسدة المأخوذة من آباؤهم وأجدادهم . فأزال القرآن هذه الشبهات على وجه أتمّ . انتهى .

« قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » أي : لو كنتم أبناءه وأحبّاءه لَمَا عَذَّبَكُمْ ، لكنّ اللازم منتفٍ إذ عَذَّبَكُمْ في الدنيا بالقتل والأسر والمسح ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودة .

لطيفة :

قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه ، فتلا عليه الصوفيّ هذه الآية : قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ . وهذا الذي قاله حسن . وله شاهد في (المسند) للإمام أحمد^(١) حيث قال : حدثنا ابن أبي عديّ ،

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٠٤ والصفحة ٢٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

عن حميد ، عن أنس قال : مرَّ النبي ﷺ في نفرٍ من أصحابه ، وصبى في الطريق . فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسمى وتقول : ابني ابني ! وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ! ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار . قال : نخفضهم النبي ﷺ فقال : لا ، ولا يلقي الله حبيبه في النار . قال ابن كثير : تفرّد به أحمد . انتهى .

وقال السمرقندي : في الآية دليل أن الله تعالى إذا أحب عبده يغفر ذنوبه ولا يعذبه بذنوبه . لأنه تعالى احتج عليهم فقال : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ لَوْ كُنْتُمْ أَحِبَّاءَ إِلَيْهِ ؟ وقد قال (١) في آية أخرى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . ففيها دليل أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم ، ولا المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله (٢) : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْصُوصًا .

وقوله تعالى « بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ » عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أى : لستم كذلك بل أنتم بشر « مِمَّنْ خَلَقَ » أى : من جنس من خلقه من غير مزية لكم عليهم « يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ » لمن تاب من اليهودية والنصرانية « وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » من مات على اليهودية والنصرانية « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى : المرجع ، مصير من آمن ومن لم يؤمن . فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .
(٢) [٦١ / الصف / ٤] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٩] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ » أى : ما أمرتم به وما نهيتهم عنه « عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أى : جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل ، وانقطاعٍ من الوحي . إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسولٌ . ومدة الفترة بينهما خمسائه وتسع وستون سنة . « أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ » تعليل للجحى الرسول بالبيان على حذف المضاف . أى : كراهة أن تعتذروا بذلك يوم القيامة ، وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ - بعد ما درس الدين - يبشرنا لنرغب فنعمل بما يسعدنا فنفوز . وينذرنا لنرهب فنترك ما يشقينا فنسلم . وقد كان اختلط في تلك الفترة الحق بالباطل - كما سنبينه - « فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » متعلق بمحذوف تنبيه عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به . أى : لا تعتذروا (بما جاءنا) فقد جاءكم بشير أى بشير ، ونذير أى نذير . « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » من إرسال الرسل ، والثواب لمن أجاب الرسل ، والعقاب لمن لم يُجِبْهُمْ .

قال البقاعي : وفي الختم بوصف القدرة ، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من المز بالنبوة والملك ، بعد ما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل ، إشارة إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل عليه السلام نبى ، يلزم منه إنكارهم للقدرة .

تنبيه :

قال ابن كثير : كانت الفترة بين عيسى ابن مريم - آخر أنبياء بنى إسرائيل - وبين محمد

خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق . كما ثبت في (صحيح البخارى) ^(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : أنا أولى الناس بابن مريم ليس بينى وبينه نبي . وهذا فيه ردّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبيّ يقال له خالد بن سنان . كما حكاه القضاعى وغيره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح البارى) : استدل به - يعنى بحديث أبى هريرة - على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلا نبيّنا ﷺ . وفيه نظر . لأنه ورد ^(٢) أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية - المذكورة قصتهم في سورة « يس » - كانوا من أتباع عيسى . وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيّين ، وكانا بعد عيسى . والجواب : أن هذا الحديث يضعف ما ورد من ذلك . فإنه صحيح بلا تردد . وفي غيره مقال . أو المراد : إنه لم يبعث بعد عيسى نبيّ بشريعة مستقلة . وإنما بعث بعده ، مَنْ بُعِثَ ، بتقرير شريعة عيسى . وقصة خالد ابن سنان أخرجها الحاكم في (المستدرک) من حديث ابن عباس . ولها طرق جمعها في ترجمته في كتابي في (الصحابة) . انتهى .

وقد ذكرت في كتابي (إيضاح الفطرة في أهل الفترة) (*) في الباب الحادى عشر مَنْ كان في الفترة من الأنبياء على ما روى . فارجع إليه .

قال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية ، أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ .

ومسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣ (طبعنا) .

(٢) يشير إلى قوله تعالى في [٣٦ / يس / ١٤ و ١٣] وَاصْطَبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ .

(*) كتاب مخطوط للمؤلف رحمه الله .

وطموسٍ من السبل ، وتغيّر الأديان ، وكثرة عباد الأوثان والنيران والصلبان . فكانت
النعمة به أتمّ النعم ، والحاجة إليه أمر عام ، فإن الفساد كان قد عمّ جميع البلاد ، والطغیان
والجهل قد ظهر في سائر العباد . إلّا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين .
كما روى أحمد^(١) عن عياض الجاشميّ - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ خطب ذات يومٍ

(١) أخرجه بالصفحة ١٦٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأخرجه مسلم في صحيحه في : ٥١ - كتاب الجنة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) وهاكموه
نسوقه بنصه الكامل لما فيه من الفوائد الجليلة :

عن عياض بن حمار الجاشميّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم في خطبته « ألا إن
ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، يومى هذا . كل مال نحلته عبداً حلال . وإنى
خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم (أى استخفوهم فذهبوا بهم
وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل) عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم .
وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فقتهم ، عربهم
وعجمهم . إلّا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت
عليك كتاباً لا يفسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله أمرني أن أحرّق قريشاً . فقلت :
ربّ ! إذا يئلفوا رأسى (أى : يشدخوه ويشجّوه ، كما يشدخ الخبز ، أى يكسر) فيدعوه
خُبْزَةً .

قال : استخرجهم كما استخرجوك . واغزهم نُفْرَكَ (أى نُعِينِكَ) وأنفق فسنفق عليك .
وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك .

قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفّق . ورجل رحيم رقيق القلب ،
لكل ذى قربى ومسلم . وعفيف متمفّف ذو عيال .

قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له (أى لا عقل له يزبره ويمنعه =

فقال في خطبته : وإن ربّي، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني في يومى هذا . كلّ مالٍ نخلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلّهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فأولتّهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا . ثم إن الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم . عجمهم وعربهم . إلّا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرّوه نائماً ويقظاناً ... انتهى .

وقال الاستاذ التحرير الشيخ محمد عبده مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث رسالة نبينا ﷺ ما نصّه : ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلّم بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة ، فى زمن البعثة المحمدية ، لبنين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسّة إلى قارعة تهزّ عروش الملوك ، وترزّل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفّض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء ، إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء . وإلى نارٍ تنقض من سماء الحقّ على أدّم الأنفس البشرية لتأكل ما عاشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول . وصيحةٍ فصحي تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الزاهلين ، وتنبّه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارّين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشدٍ يقيم الإنسان على الطريق التى سنّها الإله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)^(١) ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أعدّ فى الدارين له . ولكننا نستعير من التواريخ كلمةً يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرّخو ذلك العهد ، نظراً إيمانٍ وإنصافٍ .

= مما لا ينبغى) الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع ، وإن دقّ إلا خانته . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك .
وذكر البخل والكذب .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣] .

كانت دولتنا العالم (دولة الفرس في الشرق، ودولة الرومان في الغرب) في تنازعٍ وتجادل مستمرٍّ دماء بين العالمين مسفوكةً ، وقوى منهوكةً ، وأموال هالكةً ، وظُلم من الإحن حالكةً . ومع ذلك ، فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغةً حدًّا ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء ، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شرُّ هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدٍّ . فزادوا في الضرائب ، وبالغوا في فرض الإتاوات ، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم . وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما بيد الضعيف . وفكّر العاقل ، في الاحتيال لسلب الغافل ؛ وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والنذل والاستكانة والخوف والاضطراب ، لفقد الأمن على الأرواح والأموال . غمرت مشيئة الرؤساء إرادةً من دونهم . فعاد هؤلاء كأشباح اللاعبين . يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي ، وظنّ أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذّاتهم ، كما هو الشأن في العجاوات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها . ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها . فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهي ، الذي يخالط الفطر الإنسانية ، قد يفتق الغُلف التي أحاطت بالقلوب ، ويمزّق الحجب التي أسدلت على العقول . فتهتدى العامة إلى السبيل ، ويشور الجمل الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن يُنشئوا سجباً من الأوهام . ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها في عقول العامة . فيغلظ الحجاب ، ويمظم الرّين . ويختنق بذلك نور الفطرة . ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرّح الدين ، بلسان رؤسائه ، أنه عدوّ العقل وعدوّ كل ما يثمره النظر . إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس . وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد . هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معاشهم . عبيد أذلاء ،

حيارى فى جهالة عمياء . اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت إلى بعض الأذهان . ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر . ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام . مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين . فاستولى الاضطراب على المدارك . وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشرعة معاً . وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك وبلاً عليها ، فوق ما رزئت به من سائر الخطوب . وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات . خاضعة للشهوات . نخر كل قبيلة فى قتال أختها . وسفك دماء أبطالها . وسبى نساءها . وسلب أموالها . تسوقها المطامع ، إلى المعامع . ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات . وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدًا صنعوا أصنامهم من الحاوى ثم عبدوها . فلما جاعوا أكلوها . وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن . أو تنصلاً من نفقات معيشتهن . وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة . وبالجملّة : فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة . وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدّبهم برجلٍ منهم يوحى إليه رسالته ؟ ويمنحه عنايته ؟ ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف نك الغم . التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم ، كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى . ثم أشار إلى تقريظهم فى أمر الله الوارد على لسان موسى ، وتقريظهم فى حقه مع حنه وإيابه على شكر الله . ليسارعوا إلى امتثال أمره ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى : التى هى فوق نعمه على من سواكم . فلا تفرطوا فى أمره إذ لم يفرط فى حكمكم « إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ » أى : وهم أكمل الخلائق ومكملوهم ، ولم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا » يعنى : وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدي القبط مملوكين ، فأنتدكم الله . فسمى إتيانهم ملكاً « وَءَاتَاكُمْ » أعطاكم « مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » من أنواع الإكرام التى خصكم بها - كفلق البحر لهم ، وإهلاك عدوهم ، وتوريثهم أموالهم ، وإزال المن والسلوى عليهم ، وإخراج المياه العذبة من الحجر ، وإظلال الغمام فوقهم ... - فقتضى هذه النعم المبادرة إلى امتثال أوامر النعم ، شكرآ له .

ثم أخبر تعالى عن تحريض موسى عليه السلام لقومه على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى استحوذ عليه الجبارة ، وأنهم نكلوا وعصوا أمره ، فموقبوا بالتيه لتفريطهم ، فقال سبحانه مخبراً عن موسى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ » يعنى : أرض بيت المقدس التى كانت مقدسة بمساكنة من مضى من الأنبياء . ثم تلوت بمساكنة الأعداء من جبارة الكنعانيين . فأراد تطهيرها بإخراجهم وإسكان قومه « الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » أى : التى وعدكموها على لسان

أيكم إبراهيم، بأن تكون ميراثاً لولده بعد أن جعلها مهاجرة «وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ»
 أى : لا تنكسوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجسارة جبناً وهلماً «فَتَقَلَّبُوا خَاسِرِينَ»
 أى : فترجعوا مغبونين بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا
 فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ » أى : متغلبين ليس لنا مقاومتهم « وَإِنَّا
 لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا » أى : من غير صنع من قبلنا فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم
 منها « فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا » أى : بسبب من الأسباب التى لاتعلق لنا بها « فَإِنَّا دَاخِلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَننَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
 فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« قَالَ رَجُلَانِ » هما يوشع بن نون وكالب بن يفتنا « مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ » أى :
 يخافون الله تعالى دون العدو، ويتقونه فى مخالفة أمره ونهيه .

وقال العلامة البقاعى : أى من الذين يوجد منهم الخوف من الجبارين . ومع ذلك لم يخافا .
 « أَننَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أى : بالتثيت والثقة بوعده تعالى ومعرفة مقام أوامره تعالى
 « ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ » أى : باب بلدهم ، أى : باغتوهم وامنعوهم من البروز إلى الصحراء ،
 لئلا يجدوا للحرب مجالاً « فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ » - أى : باب بلدهم - « فَإِنَّكُم غَالِبُونَ »
 عليهم « وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمَا » أى : لا على قوة أنفسكم « إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى :
 بكمال قدرته ووعده النصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا » - أى : الجبارة - « فِيهَا فَادْهَبْ

أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ » أى : موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد ، على طريقة البث

والحزن والشكوى إلى الله تعالى « رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ » أى : أحداً أُلْزِمَهُ قِتَالَهُمْ « إِلَّا نَفْسِي

وَأَخِي » هرون . قال المهايى : أى : وَمَنْ يُوَاقِنِي وَيُوْشِعْ كِهْرُونَ وَيُوشِعْ وَكَلْب .

« فَافْرُقْ » أى : فاحكم بما يميز بين الحق والمبطل لتفرق « بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »

أى : الخارجين عن أمرك ، وهو فى معنى الدعاء عليهم . وقد استجاب الله دعاءه ، وفرق

بأن أضلهم ظاهراً كما ضلوا باطناً . كما بينه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ

عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ فَإِنَّهَا » أى الأرض المقدسة « مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ » أى : بسبب أقوالهم هذه

وأفعالهم . لا يدخلونها ولا يملكونها ، ممن قال هذه المقالة أو رضىها أحد ، فالتحريم تحريم منع لا تحريم تعبد « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ » أى : يترددون في البرية متحيرين في الأرض حتى يهلكوا كلهم ، و (التيه) المفاضة التي يتيه فيها سالكها فيفضل عن وجهه مقصده « فَلَا تَأْسَ » أى : تحزن « عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين من قيد الطاعات .

قال العلامة البقاعي : ثم بعد هلاكهم أدخلها بنهم الذين ولدوا في التيه . وفي هذه القصة أوضح دليل على نقضهم للعهد التي بنيت السورة على طلب الوفاء بها ، وافتتحت بها ، وصرح بأخذها عليهم في قوله ^(١) : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... الآيات ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ فيما يفعلونه معه ، وتذكير له بالنعمة على قومه بالتوفيق ، وترغيب لمن أطاع منهم ، وترهيب لمن عصى . ومات في تلك الأربعين ، كل من قال ذلك القول أو رضىه حتى النقباء العشرة . وكان الغمام يظلمهم من حرّ الشمس . ويكون لهم عمود من نور بالليل يضيء عليهم . وغير هذا من النعم . لأن المنع بالتية كان تأديباً لهم . لا غضب . إذأنهم تابوا . ثم ساق البقاعي - رحمه الله - شرح هذه القصة من التوراة التي بين أيديهم بالحرف . ونحن نأتى على ملخصها تأثراً له ، فنقول :

جاء في سفر (العدد) في الفصل الثالث عشر : إن شعب بنى إسرائيل لما ارتحلوا من حصيروت ونزلوا بركة فاران ، كلم الرب موسى بأن يبعث رجلاً يحسبون أرض كنعان . من كل سبط رجلاً واحداً . وكلهم يكونون من رؤساء بنى إسرائيل ؛ فأرسلهم موسى وأمرهم أن ينظروا إلى الأرض ، أجيصة أم رديثة ؟ وإلى أهلها ، أشديدون أم ضعفاء ؟ قليلون أم كثيرون ؟ وأن يوافوه بشيء من ثمرها . فساروا واجتسوا الأرض من بركة صين إلى رخب عند مدخل حماة ، ثم رجعوا بعد أربعين يوماً . وكان موسى وقومه في بركة فاران في قادش ، فأروهم ثمر الأرض ، وقصّوا عليهم ماشاهدوه من جودة الأرض ، وأنها تدر لبناً وعسلاً . ومن

(١) [٥ / المائدة / ١٢] .

شدة أهلها وقوتهم وتحصن مدنها ؛ فاضطرب قوم موسى . فأخذ كالبُ - أحد النقباء - يسكتهم عن موسى ويقول : نصعد وراث الأرض فإننا قادرون عليها . وخالفه بقية النقباء وقالوا : لا نقدر أن نصعد إليهم لأنهم أشد منا . وهوتلوا على بني إسرائيل الأمر وقالوا : شاهدنا أناسا طوال القامات، سيبا بنى عناق . فصرنا فى عيوننا كالجراد . وكذلك كنا فى عيونهم . فعند ذلك ضجّ قوم موسى ورفعوا أصواتهم وبكوا وقالوا : ليتنا متنا فى أرض مصر أو فى هذه البرية ، ولا نكون نساؤنا وأطفالنا غنيمةً للجبابرة . وخبرنا أن نرجع إلى مصر . وقالوا : لنقيمُ لنارئيساً ونرجع إلى مصر . فلما شاهد موسى ذلك منهم وقع هو وأخوه هرون على وجوههما أمام الإسرائيليين . ومزق ، من النقباء، يوشع بن نون وكالب ، ثيابهما . وكلما بنى إسرائيل قائلين : إن الأرض التى مررنا فيها جيدة ، وإذا كان ربنا راضياً عنا فإنه يدخلنا إياها . فلا تتمرّدوا ولا تخافوا أهلها فسيكونون طعمة لنا . إذ الرب معنا . فلما سمع بنو إسرائيل كلام يوشع وكالب قالوا : ليرجمّا بالحجارة ، وكاد حينئذ أن يحقق ببني إسرائيل العذاب الإلهي ، لولا تضرع موسى إلى ربّه بأن يعفو عنهم ، كيلا يكونوا أحدوثة عند أعدائهم المصريين . فعفا تعالى عنهم . وأعلم موسى ؛ أنّ قومه لن يروا الأرض التى أقسم عليها لأبائهم . وأنهم يموتون جميعاً فى التيه . إلّا كالباً . فإنه لحسن إتياده سيدخل الأرض ، وكذلك يوشع ؛ وأعلمه تعالى أيضاً بأن أطفال قومه الذين سيهلكون فى التيه يكونون رعاة فيه أربعين سنة بعدد الأيام التى تجسس النقباء فيها أرض الكنعانيين . كل يوم وزره سنة ليعرفوا انتقامه، عزّ سلطانة . ثم هلك النقباء العشرة، الذين شنّوا لدى قومهم تلك الأرض ، بضربة عجلت لهم . ثم همّ قوم موسى بالصعود إلى الكنعانيين لما أخبرهم موسى بما أعلمه تعالى . فنهاهم موسى وقال لهم : لا فوز لكم الآن بالنصر الرباني . وإن فعلتم فإن العدو يهزمكم وتسقطون تحت سيفه . فتجبروا وصعدوا إلى رأس الجبل . فنزل العالقه والكنعانيون عليهم فضرّبوهم وحطّموهم ، ثم بعد انقضاء الأربعين سنة فتحت الأرض المقدسة على يد يوشع ، كما شرح فى (سفره) ، والله أعلم .

تنبيهات

الأول : قوله تعالى (أَرْبَعِينَ سَنَةً) ظرف متعلق بـ (يتيهون) . واحتمال كونه ظرفاً لـ (محرمة) كما ذكره غير واحد - لا يصح إلا بتكلف ؛ لما شرحناه من سياق القصة .

الثاني : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) على أن من لحقه عذاب الله لا يجوز أن يحزن عليه لأن ذلك حكمه ، بل يحمد الله تعالى إذا أهلك عدوًّا من أعدائه .

الثالث : قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل ، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام . وأن طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع . تحرير الحساب . وهذا شيء يستحي من ذكره . ثم هو مخالف لما ثبت في (الصحيحين) : أن رسول الله ﷺ قال : إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن . ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته . وهذا كذب وافتراء ، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا ^(١) . وقال تعالى : فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ^(٢) . وقال تعالى : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ^(٣) ؛ وإذا كان ابن نوح ، الكافر ، غرق ، فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافو وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع . ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق ، نظر . والله أعلم .

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] ونصها : وَقَالَ نُوحٌ ...

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١١٩ و ١٢٠] .

(٣) [١١ / هود / ٤٣] ونصها : قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ .

الرابع : قال ابن كثير : تضمنت هذه القصة تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتها فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجادلتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيّه من خلقه في ذلك الزمان . وهو يعدمهم بالنصر والظفر بأعدائهم . - هذا ، مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوّهم ، فرعون ، من العذاب والنكال والفرق له ولجنوده في اليمّ وهم ينظرون ، لتقرّ به أعينهم (وما بالعهد من قدم) . ثم ينكرون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازن عشر المشار في عدة أهلها وعددهم . وظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام . وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل . وقال - رحمه الله - قبل ذلك : وما أحسن ما أجاب به الصحابة^(١) - رضي الله عنهم - يوم بدرٍ رسول الله ﷺ حين

(١) أخرجه مسلم في ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعنا) ونصه :
عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبي سفيان . قال ، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال : إيانا تريد ؟ يا رسول الله ! والذي نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد (موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل) لفعلنا . قال ، فندب رسول الله ﷺ الناس . فانطلقوا حتى نزلوا بدرا . ووردت عليهم روايا قريش (أى إبلهم التي كانوا يستقون عليها . فهي الإبل الحوامل للماء . واحداً راوية) وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج فأخذوه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه ؟ فيقول : مالى علم بأبى سفيان . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف . فإذا قال ذلك ضربوه . فقال : نعم . أنا أخبركم . هذا أبو سفيان . فإذا تركوه فسألوه فقال : مالى بأبى سفيان علم . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف في الناس . فإذا قال هذا أيضاً ضربوه .

استشارهم في قتال النفيير الذين جاءوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان . فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفيير ، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب . فتكلم أبو بكر - رضى الله عنه - فأحسن . ثم تكلم ، من الصحابة ، من المهاجرين . ورسول الله ﷺ يقول : أشيروا على أيها المسلمون ! وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار . لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ . فقال سعد بن معاذ : كأنك تمرض بنا يا رسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته ، لخضناه معك . ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء . لعل الله أن يرريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه لذلك .

وروى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه ، أحب إلي مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله ! يا رسول الله ! لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

= ورسول الله ﷺ قائم يصلى . فلما رأى ذلك انصرف . قال « والذي نفسى بيده ! لتضربوه إذا صدقكم ، وتتركوه إذا كذبكم » .

قال ، فقال رسول الله ﷺ « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ، ههنا وههنا فما ط (أى تباعد) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٨٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٦٩٨ (طبعة المعارف) .

فرايت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك . وسره ذلك . وهكذا رواه البخارى^(١) في (الغازى) .

الخامس : استنبط العمرانيون من هذه الآية أنّ من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل ، والالتقياد لسواهم .

قال الحكيم ابن خلدون في (مقدمة العبر) في الفصل ١٩ تحت العنوان المذكور : إن المذلة والالتقياد كاسران لسورة العصبية وشدها . فإنّ اتقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها ، فارتعوا (ألفوا) للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ، ومن عجز عن المدافعة ، فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة . واعتبر ذلك في بنى إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام ، وأخبرهم أنّ الله قد كتب لهم ملكها ، كيف عجزوا عن ذلك ، قالوا^(٢) : إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . أى : يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا ، وتكون من معجزاتك يا موسى ، ولما غزم عليهم لجأوا وارتكبوا المصيان وقالوا^(٣) له : اذهب أنت وربك فقاتلا . وما ذلك إلّا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة ، كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها ؛ وذلك بما حصل فيهم من خلق الالتقياد ، ومارعوا من الذلّ للقبط أحقاباً حتى ذهب العصبية منهم جملة . مع أنهم

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب الغازى ، ٤ - باب قول الله تعالى :
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِينَ ... الخ
الآيات [٨ / الأنفال / ٩ - ١٣] .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٢] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ
نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ،
فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

لم يؤمنوا حقَّ الإيمان بما أخبرهم به موسى ، من أن الشام لهم ، وأن العاقلة الذين كانوا بأريحاء فريستهم ، بحكم من الله قدره لهم . فأقصرُوا عن ذلك وعجزوا ، تعويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة ، لما حصل لهم من خلق المذلة . وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به . فعاقبهم الله بالتيه . وهو أنهم تاهوا في قفرٍ من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنةً . لم يأووا فيها لعمران ، ولا نزلوا مصرأ ، ولا خالطوا بشراً ، كما قصه القرآن ، لغلظة العاقلة بالشام والقيط بمصر عليهم ، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه . ويظهر من مساق الآية ومفهومها : أن حكمة ذلك التيه مقصودة . وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلَّقوا به . وأفسدوا من عصيتهم ، حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يُسَام بالمدلة . فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ؛ ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنةً أقلّ ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحانه الحكيم العليم . وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية . وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة . وأن من فقدوها عجز عن جميع ذلك كله . اهـ .

ثم بين تعالى وخيم عاقبة البني والحسد ، في جزاء ابني آدم لصلبه . تعريضاً باليهود . وأنهم إن أصروا على بغيهم وحسدهم فسيرجمون بالصفة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ » أي : على هؤلاء البغاة الحسدة من اليهود وأشباههم « نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ » هابيل وقايل ، ملتبساً « بِالْحَقِّ » أي : الصدق والصحة موافقاً لما في كتبهم « إِذْ

قَرَبًا قُرْبَانًا « أَى : ما يتقرب به إلى الله تعالى من نسيكته أو صدقة . وكان هايبيل راعى غنم ، وقايل يحرث الأرض . فقدم هايبيل شيئاً من أبقار غنمه ومن سمانها . وقدام قايل شيئاً رديئاً من ثمر الأرض « فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا » وهو هايبيل « وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ » وهو قايل « قَالَ » قايل لهايبيل « لَأَقْتُلَنَّكَ » على قبول قربانك « قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أَى : إنما أتيت من قبل نفسك ، لانسلاخها من لباس التقوى . لامن قبلى . فلم تقتلنى ؟ ومالك لا تعانب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعانٍ ؛ وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقى ، فما أنماه على أكثر العاملين أعمالهم !

وعن عامر بن عبد الله : أنه بكى حين حضرته الوفاة : فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال : إني أسمع الله يقول : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . كذا فى (الكشاف) . وروى ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل قال : يحبس الناس فى بقيق واحد فينادى مناد : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة . فيمرون إلى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ،
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

« لَئِنْ بَسَطْتَ » أَى : مددت « إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي » أَى : ظمناً « مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ » أَى : دفعا « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أَى : من أن أصنع كما تريد أن تصنع .

وفي (الصحيحين) ^(١) : عن النبي ﷺ أنه قال : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل . فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

وروى الإمام أحمد ^(٢) وأبو داود والترمذي في حديث سعد بن أبي وقاص قال : قلت : يا رسول الله ! أرايت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : كن كابن آدم - وتلا - : لَنْ يَبْسُطَ ... الآية .

(١) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :

عن الأحنف بن قيس قال : ذهبت لأنصر هذا الرجل ، فلقيني أبو بكر فقال : أين تريد ؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال : ارجع فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وأخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث ١٤ و ١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٨٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) وحديث ١٦٠٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن بُسر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال ، عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني ؟ قال « كن كابن آدم » .

وأخرجه أبو داود في : ٣٤ - كتاب الفتن والملاحم ، في النهي عن السعي في الفتنة ، حديث ٤٢٥٧ .

وأخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٢٩ - باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم .

قال المهاجى فى تفسير هذه الآية : أى : إنى - وإن لم أكن فى الدفع ظالماً - أخاف الله أن يكره منى هدم بنيانه الجامع ليظهر فيه من حيث كونه رب العالمين . انتهى . وهو منزع صوفى لطيف .

وقال أبو السعود : فيه من إرشاد قاييل إلى خشية الله تعالى ، على أبلغ وجه وآكده ، مالا يخفى . كأنه قال : إنى أخافه تعالى إن بسطت يدى إليك لأقتلك ، أن يعاقبنى . وإن كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى . فما ظنك بحالك وأنت البادى العادى ؟ وفى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف . قيل : كان هابيل أقوى منه . ولكن تخرج عن قتله واستسلم خوفاً من الله تعالى . لأن القتل للدفع لم يكن مباحاً حينئذ . وقيل : تحريماً لما هو الأفضل ، حسبما قال ^(١) عليه الصلاة والسلام : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . ويأباه التعليل بخوفه تعالى ، إلا أن يدعى أن ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة ، مبالغة فى التنزه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبْوَءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« إِنِّى أُرِيدُ » أى : باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك « أَنْ تَبْوَءَ » أى : ترجع إلى الله ملتبساً بإثمى » أى : بإثم قتلى « وَإِثْمِكَ » أى : الذى كان منك قبل قتلى ، وألذى من أجله لم يتقبل قربانك « فَتَكُونَ » أى : بالإثمين « مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » .

قال الناصر فى (الاتصاف) : فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه : إنى لا أريد أن

(١) لم أهد إلى هذا الحديث .

أفتلك فأعاقب . ولما لم يكن بدٌّ من إرادة أحد الأمرين؛ إمّا إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإمّا إثم أخيه بتقدير أن يستسلم - وكان غيرَ مریدٍ للأول ، اضطر إلى الثاني . فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل - ولم تكن حينئذٍ مشروعة - فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا ، كما يتمنى الإنسان الشهادة . ومعناها أن يموء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم ؛ ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضمناً وتبعاً . والذي يدل على ذلك؛ أنه لا فرق في حصول درجة الشهادة وفَضِيلَتِهَا بين أن يموت القاتل على الكفر وبين أن يحتم له بالإيمان ، فيحبط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيداً . أعنى بقى الإثم على قاتله ، أو حبط عنه . إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيداها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمتنى باعتبار بقاءه وإحباطه ، فدلّ على أنه أمر لازم تبع ، لا مقصود . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » أى : رخصت وسهلت له نفسه . والتصريح بأخوته لكمال تقييح ما سولته نفسه . أى : الذى حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على نفسه « فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ديناً ، إذ صار كافراً حاملاً للدماء إلى يوم القيامة . ودنياً ، إذ صار مطروداً مبغضاً للخلائق .

وقد أخرج الجماعة - غير أبي داود - عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (١) : لا تقتل نفس ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها . لأنه كان أول من سن القتل . انتهى . ولما قتله لم يدر ما يصنع به من إفراط حيرته .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١ - باب خلق آدم صلوات الله عليه

وذريته ، حديث ١٥٧٤ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَاصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

« فَبَعَثَ » أى : أرسل « اللَّهُ غُرَابًا » جاء « يَبْحَثُ » أى : يحفر بمنقاره ورجله متعمقاً « فِي الْأَرْضِ » .

قال القتيبي : هذا من الاختصار . ومعناه : بعث غراباً يبحث التراب على غراب ميت . وكذا رواه السدي عن الصحابة : أنه تعالى بعث غرابين اقتتلا . فقتل أحدهما الآخر . فحفر له . ثم حتى عليه حياً .

« لِيُرِيَهُ » الضمير المستكن إما لله تعالى أو للغراب . والظاهر ، للقاتل أخاه « كَيْفَ يُوَارِي » أى : يستر فى التراب « سَوْءَةَ أَخِيهِ » أى : جسده الميت . وسمى سؤة لأنه مما يسوء ناظره « قَالَ يَا وَيْلَتَى » كلمة جزع وتحسر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم . والويل والوبلة الهلكة « أَعْجَزْتُ » أى : أضعفت عن الحيلة « أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ » أى : الذى هو من أخس الحيوانات . والاستفهام للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب « فَأُوَارِيَ » أى : أعطى « سَوْءَةَ أَخِي فَاصْبَحَ » أى : صار « مِنَ النَّادِمِينَ » أى : على حيرته فى مواراته حيث لم يدفنه حين قتله . فصار أجهل من الحيوانات العجم وأضل منها وأدنى .

وفى (التنوير) : ولم يكن نادماً على قتله .

وقال أبو الليث عن ابن عباس : لو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً منه .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، وأنه تعلم ذلك من الغراب . ولا مانع من ذلك . إذ مثله مما يجوز خفاؤه . لاسيما والعالم ، في أول طور النشأة ، وأنه أول قتيل ، فيكون أول ميت .

ونقل الرازىّ احتمال أن يكون عالماً بكيفية دفنه، قال : فإنه يبعد في الإنسان أن لا يهتدى إلى هذا القدر من العمل ، إلا أنه لما قتله تركه بالعراء استخفافاً به ، ولما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر ، رق قلبه ولم يرض أن يكون أقل شفقة منه . فواراه تحت الأرض ، والله أعلم .
الثاني : في الآية دلالة على أن الندم ، إذا لم يكن لقبح المعصية ، لم يكن توبة .

قال الرازىّ : ندم على قساوة قلبه وكونه دون الغراب في الرحمة . فكان ندمه لذلك ، لا لأجل الخوف من الله تعالى ، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم .

الثالث : الآية أصل في دفن الميت .

الرابع : قال ابن جرير^(١) : زعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله : يا قابيل ! أين أخوك هابيل ؟ قال : ما أدري . ما كنت عليه رقيباً . فقال الله : إن صوت دم أخيك لينادي من الأرض ، الآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها فبلعت دم أخيك من يدك . فإذا أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها ، حتى تسكون فزعا تأمها في الأرض . انتهى .

الخامس : روى ابن جرير^(٢) بسنده عن عليّ بن أبي طالب قال : لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم فقال :

(١) الأثر رقم ١١٧٦٥ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٧٢١ من التفسير .

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا فَلَوْ أَنَّ الْأَرْضَ مَغْبَرَةٌ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ وَقُلْ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
فَأَجِيبْ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

أَبَا هَابِيلَ ! قَدْ قُتِلَا جَمِيعًا وَصَارَ الْحَيُّ كَالْمَيِّتِ الذَّبِيحِ
وَجَاءَ بِشِيرَةٍ قَدْ كَانَ مِنْهَا عَلَى خَوْفٍ ، فَجَاءَ بِهَا يَصِيحُ
أَقُولُ : قَدْ اشتهر البيتان الأولان . وقد فندت نسبتهما إلى آدم غير واحد .

قال الزخشرى : روى أن آدم رثاه بشعر . وهو كذب بحت . وما الشعر إلا منحول ملحون ، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر . انتهى .

قال الشراح : (المليح) فى النظم المذكور ، إن رفع فخطأ . لأنه صفة الوجه المجرور ، وإن خفض فإقواء وهو عيب قبيح ، وإن كثر . وقول من قال (الوجه فاعل قل . وبشاشة منصوب على التمييز بحذف التنوين ، إجراء للوصول مجرى الوقف) أَلْحَنُ . وقيل : إن آدم عليه الصلاة والسلام رثاه بكلام منثور بالسريانى . فلم يزل ينقل إلى أن وصل إلى يعرب بن قحطان - وهو أول من خط بالعربية - فقدم وأخر وجمله شعراً عربياً . انتهى .

قال الخفاجى . لاشك أن لوائح الوضع عليه رائحة لركا كته ، لكن ما استصعبوه من الإقواء ، وترك التنوين ، ليس بصعب . لما فى أشعار الجاهلية والشعراء من أمثاله . مع أنه قد يخرج بأنه نعت جرى على المحل . لأن الوجه فاعل المصدر ، وهو بشاشة .

السادس : حكمة تخصيص الغراب كون دأبه المواراة .

قال أبو مسلم : عادة الغراب دفن الأشياء . فجاء غراب فدفن شيئاً فتمل ذلك منه . انتهى .

والغراب هو الطائر الأسود المعروف . وقسموه إلى أنواع . وفى الحديث : أنه ﷺ غير اسم غراب لما فيه من البعد . ولأنه من أخبث الطيور . والعرب تقول : أبصر من غراب ،

وأحذر من غراب ، وأزهي من غراب ، وأصفي عيشاً من غراب ، وأشدّ سواداً من غراب ، وهذا بأبيه أشبه من الغراب بالغراب . وإذا نعتوا أرضاً بالخصب قالوا : وقع في أرض لا يطير غرابها . ويقولون : وَجَدَ تمرَ الغراب ، وذلك أنه يتبع أجود التمر فينتقيه . ويقولون : أشأم من غراب ، وأفسق من غراب . ويقولون : طار غراب فلان ، إذا شاب رأسه . وغراب غاربٌ على المبالغة . كما قالوا : شعر شاعر ، وموت مائت . قال ^(١) روبة :

* فازجر من الطير الغراب الغاربا *

قالوا : وليس شيء في الأرض يُتشاءم به إلا والغراب أشأم منه . وللبديع ^(٢) الهمذانيّ فصل بديع في وصفه . ذكره في (المضاف والمنسوب) وأورد ما يضاف إليه الغراب ويضاف إلى الغراب . والأبيات في غراب البين كثيرة ، ملئت بها الدفاتر . وحقق الإمام أبو عبد الله الشريف الغرناطيّ - قاضي غرناطة - في «شرح على (مقصورة حازم) أن غراب البين في الحقيقة هو الإبل التي تنقلهم من بلاد إلى بلاد . وأنشد في ذلك مقاطيع منها :

غَلَطَ الَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ بِجَهْلٍ	يَلْحَوْنَ كُلَّهُمْ غَرَابًا يَنْعَقُ
مَا الذَّنْبُ إِلَّا لِلْأَبْعَرِ إِنَّهَا	مِمَّا يَشْتَتُّ جَمْعَهُمْ وَيَفْرُقُ
إِنَّ الْغَرَابَ بِيَمْنِهِ تَدْنُو النُّوَى	وَتَشْتَتِ الشَّمْلَ الْجَمِيعَ الْأَيْنُقُ

(١) استشهد به في اللسان ، بالصفحة ٦٤٦ من المجلد الأول (طبعة بيروت) .

(٢) هذا ما رواه الثعالبيّ في (كتاب ثمار القلوب ، في المضاف والمنسوب) بالصفحة

٣٦٣ ونصه :

ما أعرف لفلان مثلاً إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموماً على أي جنب وقع ، إن طار فقسّم الضمير ، وإن وقع فروّع بالنذير . وإن حجل نخشية الأمير ، وإن صاح فصوت الحمير ، وإن أكل فدبرة البعير . (والدبرة : قرحتُهُ) .

وأنشد ابن المناوى لابن عبد ربه :

زعم الغراب قتل : أكذب طائر إن لم يصدقه رغاء بعير
كذا في « تاج العروس » شرح القاموس .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ)

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ » أى : بسبب قتل قاييل هابيل ظلماً « كَتَبْنَا » أى فرضنا وأوجبنا
« عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ » وإنما خُصوا بالذكر لأنهم أول من تعبدوا بذلك . وقوله تعالى :
« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاد « أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ » أى : أو بغير فساد يوجب إهدار دمه - كالإكفر مع الحراب ، والارتداد ، وقطع
الطريق الآتى بعد ، وزنا المحسن - « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » أى : من حيث إنه هتك
حرمة الدماء ، وسنّ القتل ، وجراً للناس عليه . أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع
سواء ، فى استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم « وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » أى : ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ
من بعض أسباب الهلكة ، فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً . والمقصود منه : تعظيم قتل النفس
وإحيائها فى القلوب ترهيباً عن التعرض لها ، وترغيباً فى المحاماة عليها . أفاده البيضاوى .
وقال أبو مسلم فى معنى الآية : من قتل نفساً وجب على المؤمنين معاداته . وأن يكونوا

خصومه، كما لو قتلهم جميعاً . لأن المسلمين يدُّ واحدة على من سواهم . ومن أحيأ وجب موالاته عليهم ، كما لو أحيأهم . انتهى .

وقيل للحسن البصري^(١) : هذه الآية لنا كما كانت لبنى إسرائيل ؟ فقال : إى والذي لا إله غيره ! كما كانت لهم . وَمَا جَمَلَ دِمَاءَهُمْ أَكْرَمَ مِنْ دِمَائِنَا .

أقول : القاعدة فى ذلك ؛ أن جميع ما يحكى فى القرآن من شرائع الأولين وأحكامهم ، ولم ينبّه على إفسادهم واقتراءهم فيه ، فهو حقّ . وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبى^(٢) فى (الموافقات) فانظره فإنه مهمّ .

وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال^(٣) : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئتُ لأنصركَ . وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ! فقال : يا أبا هريرة ! أيسرُك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم ؟ قلت : لا ! قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً . فانصرف مأذوناً لك ، مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! اجعلنى على شىء أعيش به . فقال رسول الله ﷺ : يا حمزة ! نفس تحيىها أحب إليك أم نفس تميتها ؟ قال : بل نفس أحيىها . قال : عليك بنفسك .

(١) الأثر رقم ١١٨٠٠ من تفسير ابن جرير .

(٢) قال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر معلقاً عليه فى الصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) قال حفظه الله :

هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرجه . وقد رواه ابن سعد فى الطبقات (٤٨/١-٤٩) وإسناده صحيح جداً . وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٧٧) ولم ينسبه لغير ابن سعد .
(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) وحديث ٦٦٣٩ (طبعة المعارف) .

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ » يعنى : بنى إسرائيل « رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » أى : الآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم ، تأكيذاً لوجوب مراعاته ، وتأيداً لتحتم المحافظة عليه .
« ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من بنى إسرائيل « بَعْدَ ذَلِكَ » أى : بعد ما كتبنا عليهم ، وبعد مجئ الرسل بالآيات والزجر المسموع منهم « لَمُسْرِفُونَ » يعنى : بالفساد والقتل .
لا يبالون بعظمة ذلك .

قال ابن كثير : هذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها . كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية . ثم إذا وضعت الحرب أوزارها قَدَّوْا من أسروه ، وَوَدَّوْا من قتلوه . وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك فى (سورة البقرة) حيث يقول : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ... الآيات (١) .

وقال الرازى : المقصود من شرح هذه المبالغة - يعنى قوله تعالى (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ...) الآية - أن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل ، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى . ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام فى الواقعة التى ذكرنا أنهم عزموا

(١) [٢ / البقرة / ٨٤ و ٨٥] ونصهما : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

على الفتك برسول الله ﷺ وبأكابر أصحابه - كان تخصيص بني إسرائيل في هذه القصة، في هذه المبالغة العظيمة، مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود .

ولما ذكر تعالى تغليظ الإثم في قتل النفس بغير قتل نفس ولا فساد - أتبعه ببيان الفساد المبيح للقتل بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَا جَزَاءُ » أى - كفأة « الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى : يخالفونهما ويمصون أمرهما « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أى : يعملون في الأرض بالمعاصي وهو القتل وأخذ المال ظلماً « أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ » أى : أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى « أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » أى : يطردوا منها وينجّوا عنها . وهو التغريب عن المدن، فلا يقرّون فيها « ذَلِكَ » أى : الجزاء المذكور « لَهُمْ خِزْيٌ » ذل وفضيحة « فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى من المحاربين « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وفي هذه الآية مسائل :

الأولى - روى ابن جرير^(١) وأبوداود والنسائي عن ابن عباس ؛ أنها نزلت في المشركين . وروى ابن جرير عن أبي ، أنها نزلت في قومٍ من أهل الكتاب نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ . وظاهر أنها عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . كما روى الشيخان^(٢) وأهل السنن وابن مردويه وهذا لفظه : عن أنس بن مالك ؛ أن ناساً من عرينة قدموا المدينة فاجتووها . فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها ففعلوا فصحتوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي وساقوا الإبل . فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم ، فنجى بهم . فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمر أعينهم وألقاهم في الحرة . قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً ، حتى ماتوا . ونزلت : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... الآية . ولمسلم^(٣) عن أنس قال : إنما سمل النبي ﷺ

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٣ - باب ما جاء في المحاربة ، حديث

٤٣٧٢ ونصه :

عن ابن عباس قال : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) إلى قوله (غُفُورٌ رَحِيمٌ) نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يُقدَّر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يُقام عليه الحد الذي أصابه .

(٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٦ - باب أبوال الإبل والدواب

والنعم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

وأخرجه مسلم في : ٢٨ - كتاب القسامة ، حديث ٩ - ١٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٢٨ - كتاب القسامة ، حديث ١٤ (طبعتنا) .

أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء . وعند البخاري : قال أبو قلابة ^(١) : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله .

الثانية - زعم بعضهم أن الآية نزلت نسخاً لعقوبة العرنيين المتقدمة .

قال ابن جرير ^(٢) : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : ذا كرت الليث ابن سعد : ما كان من سمل النبي ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا . فقال : سمعت محمد ابن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلمه عقوبة مثلهم من القطع والقتل والنفي ، ولم يسمل بعدهم غيرهم . قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأنكر أن تكون نزلت معاتبة ، وقال : بلى . كانت عقوبة أولئك النفر بأعينهم . ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . فرفع عنهم السمل . وروى ^(٣) ابن جرير أيضاً في القصة عن سعيد بن جبير قال : فامثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد ، قال :

(١) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٦ - باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

(٢) الأثر رقم ١١٨١٨ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨١٠ من التفسير ونصه :

عن عبد الكريم = وسئل عن أبوال الإبل = فقال : حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال : كان ناس أتوا النبي ﷺ فقالوا : نبايعك على الإسلام . فبايعوه ، وهم كذبة ، وليس الإسلام يريدون . ثم قالوا : إنا نجتوي المدينة . فقال النبي ﷺ « هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح ، فاشربوا من أبوالها وألبانها » . قال ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء الصريح ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال : قتلوا الراعي وساقوا النعم . فأمر نبي الله ﷺ فندى في الناس : أن « يا خيل الله اركبي » قال ، فركبوا ، لا ينتظر فارس فارساً . قال ، فركب رسول الله ﷺ على أثرهم . فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمئهم . فرجع صحابة رسول الله ﷺ =

ونهى عن المثلة، قال ^(١): لَا تُمَثِّلُوا بِشْيءٍ . والنهى عن المثلة مروى في الصحيح والسنن.
الثالثة - احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء، في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي
 السبلات على السواء. لقوله : وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . وهذا مذهب مالك والأوزاعي
 والليث بن سعد والشافعي وأحمد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولو شهروا السلاح في البنيان لا في الصحراء لأخذ المال،
 فقد قيل : إنهم ليسوا محاربين بل هم بمنزلة المنتهب . لأن المطلوب يدركه الغوث إذا استغاث
 بالناس . وقال الأكثرون : إن حكم من في البنيان والصحراء واحد ، بل هم في البنيان
 أحق بالعقوبة منهم في الصحراء ، لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة ، ولأنه محل تناصر
 الناس وتعاونهم ، فأقدامهم عليه يقتضى شدة المحاربة والمغالبة ، ولأنهم يسلبون الرجل في
 داره جميع ماله ، والمسافر لا يكون معه غالباً إلا بعض ماله ؛ وهذا هو الصواب .

حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه: إن
 هذه محاربة . ودمه إلى السلطان لا إلى وليّ المقتول . ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل .

= وقد أسروا منهم ، فأتوا بهم النبي ﷺ ، فأزل الله : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ . . . الآية . قال فكان نفيتهم أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمئهم وأرضهم ، ونفوهم
 من أرض المسلمين . وقتل نبي الله منهم ، وصلب ، وقطع ، وسمل الأعين .
 قال ، فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد .

قال : ونهى عن المثلة وقال « لَا تُمَثِّلُوا بِشْيءٍ » .

قال : فكان أنس بن مالك يقول ذلك ، غير أنه قال : أحرقتهم بالنار بعد ما قتلهم .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث (٣) (طبعتنا) وهو ضمن

حديث طويل كان يوصى به ﷺ ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية .

وإنما كان ذلك محاربة ، لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرةً ، كلاهما لا يمكن الاحتراز منه ، بل قد يكون ضرر هذا أشدّ ، لأنه لا يدري به .

وقيل : إنّ المحارب هو المجاهر بالقتال ، وإنّ هذا المقتال يكون أمره إلى وليّ أمر الدم . والأول أشبه بأصول الشريعة .

الرابعة - ظاهر الآية : أن عقوبة المحاربين المفسدين أحد هذه الأنواع . فيفعل الإمام منها ما رأى فيه صلاحاً .

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، في الآية^(١) : من شهر السلاح في قبة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه ، فأبام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله . وكذا قال سعيد بن المسيّب^(٢) ومجاهد^(٣) وعطاء^(٤)

(١) الأثر رقم ١١٨٥٠ من تفسير ابن جرير . وكان في الأصل (فئة الإسلام) فصححها الأستاذ محمود شاكر وجعلها (قبة الإسلام) وقال : و (قبة الإسلام) يعني في ظله ، وحيث مستقر سلطانه . ولذلك سمو البصرة : قبة الإسلام . قال الشاعر :

بنت قبة الإسلام قيس لأهلها ولو لم يقيموها لطلالتواؤها

وأصل القبة خيمة من أدم مستديرة . وذلك كقولهم أيضاً (دار الإسلام) بهذا المعنى الذي بينته .

وقال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ١٣٥ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) : وفي المطبوعة (فئة الإسلام) وكذلك كانت في طبعة الطبري القديمة ، وهي لا معنى لها . وكلمة (قبة الإسلام) واضحة الرسم والنقط في مخطوطي ابن كثير . ومضبوطة بالشكل في إحداها .

(٢) الأثر رقم ١١٨٥١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٤٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١١٨٤٨ و ١١٨٤٩ من التفسير .

والحسن البصري^(١) وإبراهيم النخعي^(٢) والضحاك . كما رواه ابن جرير ، وحكى مثله عن أنس .

قال ابن كثير : ومستند هذا القول ظاهر . وللتخيير نظائر من القرآن . كقوله^(٣) في جزاء الصيد : فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا . وقوله^(٤) في كفارة الترفه : فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ . وقوله^(٥) في كفارة اليمين : إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ . هذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وقال

(١) الأثر رقم ١١٨٤٦ و ١١٨٤٧ و ١١٨٥٢ و ١١٨٥٣ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٤٥ من التفسير .

(٢) [٥ / المائدة / ٩٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ، فَإِذَا أَتَيْتُمْ مَعَ الْفِدْيَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٥ / المائدة / ٨٩] ونصها : لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّعْنِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ =

الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال . أخرج الشافعي عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس ، في قطاع الطريق : إذا قَتَلُوا وأَخَذُوا المَالَ قَتَلُوا وَصَلَبُوا . وإذا قَتَلُوا ولم يأخذوا المَالَ قَتَلُوا ولم يصلبوا ، وإذا أَخَذُوا المَالَ ولم يقتلوا ، قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ من خلاف ، وإذا أَخَفُوا السَّبِيلَ ولم يأخذوا المَالَ نُفُوا من الأرض . وقد رواه ابن أبي شيبه عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن حجاج ، عن عطية عن ابن عباس بنحوه . وعن أبي مجاز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة . انتهى .

وفي (النهاية) من فقه الزيدية : يرجع في المحارب إلى رأى الإمام ، فإن كان له رأى قتلـه أو صلبـه - لأن القطع لا يدفع المضرة - وإن كان لا رأى له لكنه ذو قوة قطعه من خلاف ، وإن عدم القوة والرأى ضُرب ونُقِي ؛ وهذا معنى التخيير بين هذه الأمور ، أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام ، على ما ذكر . انتهى .

ورأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية فصلاً مهماً في المحاربين في كتابه (السياسة الشرعية) وقد مثلهم بقطاع الطريق الذين يعترضون الناس بالسلاح في الطرقات ونحوها ليفصّبوهم المَالَ مجاهرةً ، من الأعراب أو التركمان أو الأكراد أو الفلاحين ، أو فسقة الجند أو مرّدة الحاضرة أو غيرهم . ثم ساق رواية الشافعي المتقدمة عن ابن عباس وقال :

هذا قول كثير من أهل العلم - كالشافعي وأحمد رضي الله عنهما - وهو قريب من قول أبي حنيفة - رحمه الله - . ومنهم من قال : للإمام أن يجتهد فيهم فيقتل من رأى قتله

= يُوَأْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا إِيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

مصلحة فيهم وإن كان لم يقتل مثل أن يكون رئيساً مطاعاً فيهم . ويقطع من رأى قطعه مصلحة وإن كان لم يأخذ المال . مثل أن يكون ذا جلدٍ وقوةٍ في أخذ المال . كما أن منهم من يرى أنه إذا أخذوا المال قُتِلُوا وقُطِعُوا وصلُّوا . والأول قول الأكثر . فمن كان من المحاربين قد قُتِلَ فإنه يقتله الإمام حداً لا يجوز العفو عنه بحال ، بإجماع العلماء . ذكره ابن المنذر . ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول . بخلاف ما لو قتل رجل رجلاً لعداوةٍ بينهما ، أو لخصومة ، أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة . فإن هذا دمه لأولياء المقتول . إن أحبوا قتلوا . وإن أحبوا عَفَوْا . وإن أحبوا أخذوا الدية لأنه قتله لغرض خاص . وأما المحاربون فإنما يُقتلون لأخذ أموال الناس ، فضررهم عام بمنزلة الشَّرَاق . فكان قتلهم حداً الله . وهذا متفق عليه بين الفقهاء . حتى لو كان المقتول غير مكافٍ للقاتل . مثل أن يكون القاتل حرّاً والمقتول عبداً ، أو القاتل مسلماً والمقتول ذمياً أو مستأمناً . فقد اختلف الفقهاء : هل يقتل في المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل للفساد العام حداً ، كما يقطع إذا أخذ أموالهم . وكما يحبس بحقوقهم . وإذا كان المحاربون الحرامية جماعة ، فالواحد منهم باشر القتل بنفسه والباقيون له أعوان وردّ له ، فقد قيل : إنه يقتل المباشر فقط . والجمهور على أن الجميع يقتلون ولو كانوا مائة . والردء والمباشر سواء . وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين . فإن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قتل ريثة المحاربين . والريثة هو الناظر الذي يجلس على مكانٍ عالٍ ينظر منه لهم من يجيء . ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته . والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض ، حتى صاروا ممتنعين ، فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين . فإن النبي ﷺ قال ^(١) : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويردّ

(١) أخرجه البخارى في : ٨٥ - كتاب الفرائض ، ٢١ - باب إثم من تبرأ من مواليه ،

حديث ٩٥ ونصه :

قال على رضى الله عنه : ما عندنا كتاب نقرؤه ، إلا كتابُ الله ، غير هذه الصحيفة =

مُتَسَرِّبِهِمْ عَلَى قَاعِدَتِهِمْ . يعنى : أن جيش المسلمين إذا تسرّت منه سرية فغنمت مالا ، فإن الجيش يشاركها فيما غنمت . لأنها بظهره وقوته تمكنت . لكن تُنْفَلُ عنه نفلا . فإن النبي ﷺ كان ينقل السرية ، إذا كانوا في بدايتهم ، الربع بعد الخمس . فإذا رجعوا إلى أوطانهم وتسرّت سرية ، نقلهم الثلث بعد الخمس . وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركته السرية ، لأنها في مصلحة الجيش . كما قسم النبي ﷺ لطلحة والزبير يوم بدر ، لأنه كان قد بعثهما في مصلحة الجيش . فأعوان الطائفة المتمنعة وأنصارها منها ، فيما لهم وعليهم . وهكذا المقتتلون على باطل لا تأويل فيه ، مثل المقتتلين على عصبية ودعوى جاهلية . كقيس وعمن ونحوها ، هما الظالمان . كما قال النبي ﷺ ^(١) : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل : يا رسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه أراد قتل صاحبه . أخرجاه في (الصحيحين) وتضمن كل طائفة ما أتلفته الأخرى من نفس ومال وإن لم يعرف عين القاتل . لأن الطائفة الواحدة المتمنعة بعضها ببعض كالشخص الواحد . وأما إذا أخذوا المال فقط ولم يقتلوا - كما قد يفعله الأعراب كثيرا - فإنه يقطع من كل واحد يده اليمنى ورجله اليسرى عند أكثر العلماء . كآبى حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم . وهذا معنى قوله تعالى : أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ . تقطع اليد التي يبطش بها ، والرجل التي يمشى عليها ، وتحسم يده ورجله

== قال ، فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل . قال ، وفيها « المدينة حرم ما بين غيري إلى ثور » . فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه ، يوم القيامة صرف ولا عدل . ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . وذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . »

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٤٤ .

بالزيت المغلى ونحوه ، لينحسم الدم فلا يخرج فيُفَضَّى إلى تلفه . وكذا تحسم يد السارق بالزيت . وهذا الفعل قد يكون أضر من القتل . فإن الأعراب وفسقة الجند وغيرهم ، إذا رأوا دائماً من هو بينهم مقطوع اليد والرجل ، ذكروا بذلك جرمه ، فارتدعوا . بخلاف القتل ، فإنه قد يُنسى . وقد يؤثر بعض النفوس الأبية قتله على قطع يده ورجله من خلاف ، فيكون هذا أشد تنكيلاً له ولأمثاله . وأما إذا شهروا السلاح ولم يقتلوا نفساً ولم يأخذوا مالاً ، ثم أغمدوه ، أو هربوا ، وتركوا الحراب ، فإنهم يُنفَوْنَ . فقيل : (نفيم) تشريدهم . فلا يتركون يأوون في بلد . وقيل : هو حبسهم . وقيل : هو ما يراه الإمام أصلح من نفي أو حبس أو نحو ذلك . والقتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه . لأن ذلك أَوْحَى (أى : أسرع) أنواع القتل . وكذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الآدميين والبهائم إذا قدر عليه على هذا الوجه . قال النبي ﷺ ^(١) : إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ . وليُحْدِ أحدكم شفرته ، وليُريح ذبيحته . رواه مسلم . وقال ^(٢) : إن أعف الناس قِتْلَةً أهل الإيمان . وأما الصلب المذكور فهو رفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم ، وهو بعد القتل ، عند جمهور العلماء . ومنهم من قال : يُصَلَّبُونَ ثم يقتلون وهم مصلوبون . وقد جوز بعض الفقهاء قتلهم بغير السيف حتى قال : يتركون على المكان العالي حتى يموتوا حتف أنوفهم بلا قتل .

الخامسة : تنمة الآية . أعنى قوله تعالى (ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) تدل على أن المحاربين يعاقبون في الدنيا والآخرة مطلقاً . ولا يكون الحد المذكور طهرة لهم ، ولو كانوا مسلمين .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٧ (طبعنا) عن شداد ابن أوس .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١١٠ - باب في النهي عن المثلة ، حديث ٢٦٦٦ .

قال السيوطي في (الإكليل) : قال ابن الفرس : ظاهره أن عقوبة المحارب لا تكون كفارة له ، كما تكون في سائر الحدود .

وقال العارف الشعرائي في (ميزانه) : سمعت شيخنا ، شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لم يرد لنا أن أحداً يؤخذ بذنبه في الدنيا والآخرة معاً ، إلا المحاربين ، لقوله تعالى فيهم: ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ... الآية .

وقال ابن كثير : هذا يرجح رواية نزولها في المشركين . فأما أهل الإسلام في (صحيح مسلم)^(١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أخذ على النساء ، ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يعصنه بعضنا بعضاً . فن وفي منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أتى منكم حداً فأقيم عليه فهو كفارته ، ومن ستره الله فأمره إلى الله . إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

السادسة : دلّ قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) على أن توبة المحاربين ، قبل الظفر بهم ، تسقط عنهم حدّ المحاربين المذكور في الآية . سواء كانوا مشركين أو مسلمين . وهو مروى عن عليّ وأبي هريرة والسدي وغيره . وقد قال الهادي : إذا تاب المحارب قبل الظفر به ، سقط عنه كل تبعة من قتل أو دين ، لعموم الآية .

قال ابن كثير : أما على قول من قال : إنها في أهل الشرك ، فظاهر . أي : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم ، سقط عنهم جميع الحدود المذكورة . فلا يطالبون بشيء مما أصابوا من مالٍ أو دمٍ . قال أبو إسحق : جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التي وجبت عليهم في كفرهم ، ليكون ذلك داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام . وأما المحاربون المسلمون ، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحتم القتل والصلب وقطع الرجل . وهل يسقط قطع اليد ؟ فيه قولان للعلماء . وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

(١) أخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

كما روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة - وكان قد أفسد في الأرض وحارب - فكلّم رجلاً من قريش منهم : الحسن بن عليّ وابن عباس وعبدالله بن جعفر . فكلّموا عليّاً فيه فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الحمدانيّ ، فخلفه في داره ثم أتى عليّاً فقال : يا أمير المؤمنين ! أرايت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً - فقرأ حتى بلغ « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ » . فقال : اكتب له أماناً . قال سعيد بن قيس : فإنه جارية بن بدر . وكذا رواه ابن جرير^(١) من غير وجه عن مجالد عن الشعبي ، فقال حارثة بن بدر :

أَلَا أَبْلَغَا هَمْدَانِ إِمَّا لِقَيْتَهَا عَلَى النَّأْيِ لَا يَسْلَمَ عَدُوٌّ يَعْيبُهَا
لَعَمْرُ أَبِيهَا إِنْ هَمْدَانِ تَتَّقِي الْإِلَهَ وَيَقْضِي بِالْكِتَابِ خَطِيئَتَهَا .

وروى ابن جرير^(٢) - من طريق سفيان الثوري عن السديّ ، ومن طريق أشعث - كلاهما . عن عامر الشعبي قال : جاء رجل من مراد إلى أبي موسى - وهو على الكوفة في إمرة عثمان رضي الله عنه - بعد ما صلى المكتوبة فقال : يا أبا موسى ! هذا مقام العائذ بك . أنا فلان بن فلان المراديّ . كنت حاربت الله ورسوله ، وسعيت في الأرض فساداً ، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ . فقام أبو موسى فقال : إن هذا فلان بن فلان . وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ، وإنه تاب من قبل أن يُقدّر عليه ، فن لقيه فلا يعرض له إلا بخير ، (فإن يك صادقاً فسبيل من صدق . وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه) . فأقام الرجل ما شاء الله ، ثم إنه خرج فأدركه الله بذنوبه فقتله . ثم قال^(٣) ابن جرير : حدثني عليّ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : قال الليث . وكذلك حدثني موسى بن إسحق المدنيّ ، وهو الأمر عندنا ،

(١) الأثر رقم ١١٨٧٩ و ١١٨٨٠ و ١١٨٨١ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٨٤ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٨٩ من التفسير .

أَنْ عَلِيًّا الْأَسَدِيَّ حَارِبٍ وَأَخْفَ السَّبِيلِ ، وَأَصَابَ الدَّمَ وَالْمَالَ ، فَطَلَبَهُ الْأُتَمَّةُ وَالْعَامَّةُ ، فَامْتَنَعَ وَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ تَائِبًا . وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(١) . فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَعِدْ قِرَاءَتَهَا . فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ . فَغَمَدَ سَيْفَهُ ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنَ السَّحَرِ . فَاعْتَثَلَ . ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَصَلَّى الصُّبْحَ ثُمَّ قَعَدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فِي غِمَارِ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا أَسْفَرَ عَرَفَهُ النَّاسُ فَقَامُوا إِلَيْهِ . فَقَالَ : لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيَّ . جِئْتُ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيَّ . فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : صَدَقَ . وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ حَتَّى أَتَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ - فِي إِمْرَتِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي زَمَنِ مَعَاوِيَةَ - فَقَالَ : هَذَا عَلَيٌّ جَاءَ تَائِبًا وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا قَتْلَ . قَالَ ، فَتَرَكَ مِنْ ذَلِكَ كُلَّهُ .

قَالَ : وَخَرَجَ عَلَيَّ تَائِبًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْبَحْرِ . فَلَقُوا الرُّومَ . فَقَرَّبُوا سَفِينَتَهُ إِلَى سَفِينَةٍ مِنْ سَفِينِهِمْ . فَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّومِ فِي سَفِينَتِهِمْ . فَهَزِمُوا مِنْهُ إِلَى سَفِينَتِهِمْ الْأُخْرَى . فَالَتْ بِهِمْ وَبِهِ . فَفَرَقُوا جَمِيعًا .

هَذَا ، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ الزُّيْدِيَّةِ - نَقْلًا عَنْ زَيْدٍ وَالنَّفْسِ الزُّكِيَّةِ وَالْمُؤَيَّدِ بِاللَّهِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيَّ - أَنَّ تَوْبَةَ الْمُحَارِبِ تُسْقَطُ الْحُدُودُ لِلَّهِ ، دُونَ حَقُوقِ بَنِي آدَمَ مِنْ قَتْلِ أَوْ مَالٍ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ^(٢) وَقَوْلِهِ : وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٨] وَنَصَّهَا : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ^(١) وقوله تعالى: وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا^(٢) وقوله صلى الله عليه وسلم: على اليد ما أخذت حتى ترد^(٣) وقوله عليه الصلاة والسلام^(٤) « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه » . قال في (شرح الإبانة) : وروى زيد بن علي بإسناده إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام ؛ أن قاطع الطريق ، إذا تاب قبل أن يؤخذ وظفر به الإمام ، ضمن المال واقتص منه . ثم قال : أما الكافر فلا خلاف أن توبته تسقط عنه جميع الحدود . انتهى .

وأخرج أبو داود^(٥) والنسائي عن ابن عباس قال : نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل .
وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد ، إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله .

(١) [٥ / المائدة / ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٣] ونصها : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا .
(٣) أخرجه الترمذي في : ١٢ - كتاب البيوع ، ٣٩ - باب ما جاء في أن العارية مؤداة ، ونصه :

عن سمرة عن النبي ﷺ قال « على اليد ما أخذت حتى تؤدى » .

(٤) لم أهدأ إلى هذا الحديث .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٣ - باب ما جاء في المحاربة ،

حديث ٤٣٧ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا » - أى اطلبوا - « إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » أى : القربة - كذا فسرّه ابن عباس ومجاهد وأبو وائل والحسن وزيد وعطاء والثورى وغير واحد . وقال قتادة : أى تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد : أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة ، لا خلاف بين المفسرين فيه . وفى (القاموس وشرحه) : الوسيلة والواسطة ، المنزلة عند الملك والدرجة والقربة والوصلة . وقال الجوهرى : الوسيلة ، ما يتقرب به إلى الغير . والتوسيل والتوسل واحد . يقال : وسّل إلى الله تعالى توسيلاً ، عمل عملاً تقرب به إليه ، كتوسل . و (إلى) يجوز أن يتعلق بـ (ابتغوا) وأن يتعلق بـ (الوسيلة) . قدم عليها للاهتمام به « وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بسبب المجاهدة فى سبيله . وقد بين كثير من الآيات أن المجاهدة بالأموال والأنفس .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير (الوسيلة) هو المعول عليه . وقد أوضحه إيضاحاً لا مزيد عليه ، تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة فى (كتاب الوسيلة) فرأينا ثقل شذرة منه ، إذ لا غنى للمحقّق فى علم التفسير عنه .
قال رحمه الله بعد مقدّمات :

إن لفظ الوسيلة والتوسل ، فيه إجمال واشتباه ، يجب أن تعرف معانيه ويعطى كلّ ذى حقّ حقه . فيعرف ماورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه . وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه . فإن كثيراً من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ماوقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها ،

حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب . فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ . وفي قوله تعالى : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ^(١) . فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه ، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك ، سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً . فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب واستحباب . وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجمع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها ، هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

و (الثاني) لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) : سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة . وقوله : من قال حين يسمع النداء ^(٣) : اللهم ! رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ! آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة . فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٦ و ٥٧] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبعنا) عن عبد الله بن عمرو .

ابن العاص .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٨ - باب الدعاء عند النداء ، حديث .

٣٩٢ ، عن جابر بن عبد الله .

خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة . وأخبرنا أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله . وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول صلى الله عليه وسلم . وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة . لأن الجزء من جنس العمل . فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعوا هو أهم . فإن الشفاعة نوع من الدعاء . كما قال ^(١) : إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرة . وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله والتوجه به في كلام الصحابة، فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به . كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يمتقدون فيه الصلاح . وحينئذ، فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين . ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة . فأما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء ، فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته . والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم . فهذان جائزان بإجماع المسلمين . ومن هذا قول عمر بن ^(٢) الخطاب : اللهم ! إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا . أي : بدعائه وشفاعته . وقوله تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) أي : القربة إليه بطاعته . وطاعة رسوله طاعته ؛ قال ^(٣) تعالى : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين . وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما قال عمر - فإنه توسل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس ؛

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبمتنا) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه البخاري في : ١٥ - كتاب الاستسقاء ، ٣ - باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢ .

(٣) [٤ / النساء / ٨١] ... وَمَنْ تَوَكَّلْ فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا .

ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس . فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته . بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له ، فإنه مشروع دائماً . فلفظ التوسل يراد به ثلاث معان : (أحدها) التوسل بطاعته . فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به . و (الثاني) التوسل بدعائه وشفاعته . وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته . و (الثالث) التوسل به . بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته . فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لافي حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره . ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم . وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة . أو عن من ليس قوله حجة ، وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ إنه لا يجوز . ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بـ (شرح الكرخي) في باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو إلا به . وأكره أن يقول : بمعاهد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله . فلا أكره هذا . وأكره أن يقول : بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشرع الحرام .

قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز . لأنه لا حق للخلق على الخالق . فلا تجوز وفاقاً .

وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه - من أن الله لا يسأل بمخلوق - له معنيان : أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالخلق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلا ينبغي أن يقسم على الخالق بمخلوق ، أولى وأحرى . وهذا بخلاف

إقسامه سبحانه بمخلوقاته - كاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى^(١)، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا^(٢)، وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا^(٣)، وَالصَّافَّاتِ صَفًّا^(٤) - فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ، ما يحسن معه إقسامه . بخلاف المخلوق ، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها . كما في (السنن) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٥) : من حلف بغير الله فقد أشرك . وقد صححه الترمذی وغيره . وفي لفظ : فقد كفر . وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في (الصحيحين)^(٦) أنه قال : من كان حالفا فليحلف بالله . وقال : لا تحلفوا بآبائكم . فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . وفي (الصحيحين) عنه أنه

(١) [٩٢ / الليل / ٢١] ونصها : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى .

(٢) [٩١ / الشمس / ١] .

(٣) [٧٩ / النازعات / ١] .

(٤) [٣٧ / الصافات / ١] .

(٥) أخرجه الترمذی في : ١٨ - كتاب النذور ، ٩ - حدثنا قتيبة ، ونصه :

عن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا ، والكعبة ! فقال ابن عمر : لا يحلف بغير الله . فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٦) أخرجه في البخاری في : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٢٦ - باب أيام الجاهلية ،

حديث ١٢٩٨ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ألا من كان حالفاً ، فلا يحلف إلا بالله » وكانت قريش تحلف بآبائها ، فقال « لا تحلفوا بآبائكم » . وأخرجه مسلم في : ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

قال^(١) : من حلف بالللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله . وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بال مخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمة - كالعرش والكرسى والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وسراويل الفتوة وغير ذلك . . . لا ينمقد يمينه ، ولا كفارة في الحنث بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وأحد القولين في مذهب الشافعى وأحمد . وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » من الأموال وغيرها « جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ » أى ليفادوا به أنفسهم « مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم ، وإنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه .

(١) أخرجه البخارى في : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ٥ - باب لا يُحْلَفُ بالللات

والعزى ولا بالطواغيت ، حديث ٢٠٥٢ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « من حلف فقال في حلفه : بالللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله . ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ، فليصدق » . وأخرجه مسلم في : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ٥ (طبعنا) .

وقد روى البخارى عن أنس قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أ كنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك : أن لا تشرك بى . فيؤمر به إلى النار . ورواه مسلم ^(٢) وغيره بنحوه .

القول فى تأييل قوله تعالى :

[٣٧] (يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » دائم لا ينقطع . وهذا كما قال تعالى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ... الآية ^(٣) . روى ابن مردويه ، عن يزيد بن صهيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله ﷺ قال : يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة . قال ، فقلت لجابر بن عبد الله ؛ يقول الله : يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا . قال : اتل أول الآية : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ ... الآية ، ألا إنهم الذين كفروا .

(١) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٤٩ - باب من نوقش الحساب عذب ، حديث ١٥٧٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ و ٥٢ (طبعنا) .
(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٠] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَاهُمْ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم^(١) هذا الحديث من وجه آخر . عن يزيد الفقير ، عن جابر وهذا أبسط سياقاً .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٠ (طبعنا) ونصه :
عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفني رأى من رأى الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوى عدد يزيد أن نخرج . ثم نخرج على الناس . قال فررنا على المدينة . فإذا جابر بن عبد الله يحدث القوم ، جالس إلى سارية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فإذا هو قد ذكر الجهنميين . قال فقلت له : يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذى تحدثون ؟ والله يقول : إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [٣ / آل عمران / ١٩٢] و : كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [٣٢ / السجدة ٢٠] فما هذا الذى تقولون ؟ قال فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام ؟ (يعنى الذى يبعثه الله فيه) قلت : نعم . قال : فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذى يُخرج الله به مَنْ يُخرج . قال ثم نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه . قال ، وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك . قال غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال يعنى فيخرجون كأنهم عیدان السامسم . قال : فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه . فيخرجون كأنهم القراطيس . فرجعنا قلنا : ويحكم ! أترون الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فرجعنا . فلا ، والله ! ما خرج منا غير رجل واحد .

[قال فى النهاية : عیدان السامسم هو جمع سمس . وعیدانه تراها ، إذا قلت وتركت فى الشمس ليؤخذ حبها ، دقاقاً سوداء كأنها محترقة . فشبها هؤلاء . قال : وطالما تطلبت هذه اللفظة ، وسألت عنها فلم أجدها فيها شافياً . قال : وما أشبه أن تكون اللفظة محرقة ، وربما كانت عیدان السامسم ، وهو خشب أسود كالأبنوس اه . وأما القاضى عياض فقال : لا يعرف معنى السامسم هنا . قال : ولعل صوابه عیدان السامسم ، وهو أشبه ، وهو عود أسود . وقيل : هو الأبنوس . قال النووى : والختار أنه السمس .]

زاد ابن أبي حاتم : قال جابر : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قد جمعت قال : أليس الله يقول : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ^(١) ؟ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحبس أقواماً بخطاياهم في النار ماشاء ، لا يكلمهم . فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم .

ولما أوجب تعالى - في الآية المتقدمة - قطع الأيدي والأرجل عند أخذ المال على سبيل المحاربة - بين أن أخذ المال على سبيل السرقة يوجب قطع الأيدي والأرجل أيضاً ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالسَّارِقُ » أى : من الرجال « وَالسَّارِقَةُ » أى من النساء « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » يعنى يمين كل منهما . والقطع الرسغ ، كما بينته السنة « جِزَاءً بِمَا كَسَبَا » أى : يقطع الآلة الكاسبة « نَكَالًا » أى : عقوبة « مِنَ اللَّهِ » أى : على فعل السرقة المنهى عنه من جهته تعالى ، لا في مقابلة إتلاف المال ، فإنه غير السرقة . فلذلك لا يسقط بعفو المالك ، بخلاف العفو عن المال . ولا يبالى فيه بمرّة السارق ، لأنه تعالى غالب على أمره يمضيه كيف يشاء ، كما قال : « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أى : فلا يبالى - مع عزته الموجبة لامتناع أمره - عزة من دونه « حَكِيمٌ » في شرائعه ، فيختل أمر نظام العالم بمخالفة أمره ، إذ فيه نفع عام للخلائق .

وفي الآية مسائل

الأولى - قال أبو السعود : لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال ، صرح بالسارقة أيضاً ، مع أن المهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة . لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر . انتهى .

ولما كانت غلبة السرقة في الرجال ، لقوتهم بدأ بالسارق . كما أن غلبة الزنى لما كانت في النساء لفرط شهوتهن - قال في آية الزنى : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .

الثانية - قال ابن كثير : روى الثوريّ بسنده إلى ابن مسعود ؛ أنه كان يقرؤها : والسارق والسارقة فاقطعوا أيماهما . وهذه قراءة شاذة . وكان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها لا بها ، بل هو مستفاد من دليل آخر ؛ وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام ، وزيدت شروط آخر كما سند كره إن شاء الله تعالى . كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه ، وزيادات هي من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش ، قطعوا رجلاً يقال له (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة ، كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال : سرقة قوم فوضعوه عنده .

الثالثة : ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلاً أو كثيراً ، لعموم هذه الآية : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . فلم يعتبروا أنصَاباً ولا حرزاً . بل أخذوا بمجرد السرقة .

وقد روى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفيّ قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . أخاص أم عام ؟ فقال : بل عام . . وهذا يحتمل أن يكون موافقة لابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل ذلك ، فالله أعلم .

(١) الأثر رقم ١١٩١٤ في التفسير .

وتمسكوا بما ثبت في (الصحيحين)^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده .

وأما الجمهور فاعتبروا النصاب ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره . فعند الإمام مالك^(٢) : النصاب ثلاثه دراهم مضروبة خالصة . فتنى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه ، وجب القطع . واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم . أخرجه^(٣) في (الصحيحين) . قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه في أربعة قوت بثلاثة دراهم . وهو أحب ما سمعت في ذلك .

قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر . فن مثله يحكى الإجماع السكوتى . وفيه دلالة على القطع في الثمار ، خلافاً للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق برقع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان^(٤) من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة

(١) أخرجه البخارى في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٧ - باب لعن السارق إذا لم يسم ، حديث ٢٥٠٩ .

ومسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٧ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في الموطأ في : ٤١ - كتاب الحدود ، حديث ٢١ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ١٣ - باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٢ .

ومسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٦ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ١٣ - باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٠ .

ومسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ١-٣ (طبعنا) .

رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً . ولمسلم^(١) عنها أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً . قال الشافعية : هذا الحديث فاصل في المسألة ، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ماسواه . قالوا : وحديث ثمن المجن ، وإن كان ثلاثة دراهم ، لا ينافي هذا . لأنه إذ ذاك كان الدينار بائني عشر درهما . فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق . ويروى هذا المذهب عن عمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم . وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث والأوزاعي وإسحق (في رواية عنه) وأبو ثور وداود الظاهري ، رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد وإسحق (في رواية) إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي . فمن سرق واحداً منهما أو مائساويه قطع ، عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة . ووقع في لفظ عند الإمام أحمد^(٢) عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك . وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم ، والدينار اثني عشر درهما . وفي لفظ للنسائي^(٣) : لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن . قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه ، وكذا سفيان الثوري ، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

(١) أخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٨٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٦ - كتاب السارق ، ٩ - باب ذكر الاختلاف على الزهري .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجنّ . وكان ثمن المجنّ عشرة دراهم . قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجنّ . فلا احتياط الأخذ بالأكثر ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمة واحد منهما . يحكى هذا عن عليّ وابن مسعود وإبراهيم النخعيّ وأبي جعفر الباقر ، رحمهم الله تعالى .

وقال بعض السلف : لا تقطع الخمس إلّا في خمس . أى في خمسة دنانير أو خمسين درهماً . وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله .

وقد أجاب الجمهور - عما تمسك به الظاهرية من حديث^(١) أبي هريرة : يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجبل فتقطع يده - بأجوبة : (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة . وفي هذا نظر لأنه لا بد من بيان التاريخ . و (الثانى) أنه مؤول ببيضة الحديد وجبل السفن . قاله الأعمش فيما حكاه البخارى^(٢) وغيره عنه . و (الثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده . ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في الكثير والقليل . فلمن السارق يبدل يده الثمينة في الأشياء المهمة .

وقد ذكروا أن أبا العلاء المرسى ، لما قدم بغداد ، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم في ذلك شعراً فقال :

يد بخمس مئين عسجد وُديتْ ما بالها قطعت في ربع دينار ؟

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٧ - باب لعن السارق إذا لم يسم . ونصه : قال الأعمش : كانوا يرون أنه بيض الحديد . والجبل ، كانوا يرون أنه منها ما يسوى دراهم .

وقد أجابه الناس في ذلك ؛ فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أنه قال : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة . ولما خانت هانت ، ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة . فإن في باب الجنایات ، ناسب أن تَعْمُطَ قيمة اليد بخمسمائة دينار ، لثلاثي يحنى عليها . وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع ربع دينار لثلاثي يسارع الناس في سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الألباب . ولهذا قال : جَزَاءُ مِمَّا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى : مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذها أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استماتا به في ذلك . كذا في تفسير ابن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس سره في كتابه (السياسة الشرعية) : وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالكتاب والسنة والإجماع . قال الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ... الآية . ولا يجوز ، بعد ثبوت الحدّ عليه بالبينة أو الإقرار ، تأخيره . لا بحبس ولا مال يفتدى به ولا غيره . بل تقطع يده في الأوقات المظلمة وغيرها . فإن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد في سبيل الله . وينبغى أن يعرف أن إقامة الحدّ رحمة من الله بعباده . فيكون الوالى شديداً في إقامة الحدّ ، لا تأخذه رأفة في دين الله فيمطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات ، لا إشفاء غيظه وإرادة العلوّ على الخلق . بل بمنزلة الوالد إذا أدب ولده . فإنه لو كف عن تأديب ولده ، كما تستر به الأم رقة ورأفة ، لفسد الولد . وإنما يؤدبه رحمة وإصلاحاً بحاله . مع أنه يؤدّ ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب . وبمنزلة الطبيب الذى يسقى المريض الدواء الكريه . وبمنزلة قطع العضو المتأكّل والحجم وقطع العروق بالفصاد ونحو ذلك . بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه ، وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة . فكذلك شرعت الحدود . وهكذا ينبغى أن تكون نية الوالى في إقامتها ، فإن من كان قصده صلاح الرعية والنهي عن المنكرات ، يجلب النفعة لهم ورفع المضرة عنهم وابتغائه بذلك وجه

الله تعالى وطاعة أمره - ألان الله القلوب وتيسرت له أسباب الخير . وكفاه العقوبة اليسيرة . وقد يرضى المحدود إذا قام عليه الحد . وأما إذا كان غرضه الموت عليهم وإقامة بأسه ليعطوه أو ليلذلوا له ما يريد من الأموال - انعكس عليه مقصوده .

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، قبل أن يلى الخلافة كان نائباً للوليد بن عبد الملك على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد ساسهم سياسة صالحة ، فقدم الحجاج من العراق وقد ساءهم سوء العذاب ، فسأل أهل المدينة عن عمر : كيف هيئته فيكم ؟ قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه هيبة له ! قال : كيف محبتكم له ؟ قالوا : هو أحب إلينا من أهلنا ! قال : فكيف أدبه ؟ قالوا : ما بين الثلاثة الأسواط إلى العشرة .. قال : هذه هيئته وهذه محبته وهذا أدبه ! هذا أمر من السماء .

وإذا قطعت يده حسمت . ويستحب أن تعلق في عنقه . فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثاً أوروباً ، ففيه قولان للصحابة ومن بعدهم من العلماء : (أحدهما) تقطع أربعته في الثالثة والرابعة ، وهو قول أبي بكر ، وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه ، والكوفيين وأحمد في إحدى الروايتين . و (الثانى) : أنه يحبس . وهو قول على رضى الله عنه والكوفيين وأحمد في روايته الأخرى . وتتممة مباحث السرقة مقررة في كتب السنة .

الرابعة - قرأ الجمهور برفع (السارق والسارقة) على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : وفيما يتلى عليكم - أو وفيما فرض عليكم - السارق والسارقة ، أى : حكمهما . أو الخبر قوله تعالى (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . إذ المعنى : الذى سرق والذى سرقت . وقرأ عيسى بن عمر بالنصب ، وفضلها سيويه على قراءة الرفع ، لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بتأويل وإضمار ، كذا اشتهر عن سيويه .

قال الناصر فى (الانتصاف) : المستقرأ من وجوه القراءات أن العامة لا تتفق فيها أبداً

على العدول عن الأفصح . وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لا يخلو من الأفصح ، وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدافها . وسيبويه يحاشي من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح واشتماله على الشاذ الذي لا يعدّ من القرآن . ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل . قال سيبويه في ترجمة (باب الأمر والنهي) بعد أن ذكر المواضع التي يختار فيها النصب : وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر ، فذاك موضع اختيار النصب . ثم قال كالوضح لامتياز هذه الآية عما اختار فيها النصب : وأما قوله عز وجل : السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ... الآية ، وقوله ^(١) : وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا ... فإن هذا لم يبن على الفعل ولكنه جاء على مثال قوله ^(٢) : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ . ثم قال بعد : فيها كذا وكذا . يريد سيبويه تمييز هذه الآي عن المواضع التي يبن اختيار النصب فيها . ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنيًا على الفعل . وأما في هذه الآي فليس بمبني عليه . فلا يلزم فيه اختيار النصب .

عاد كلامه قال : وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده . فذكر أخباراً وقصصاً . فكأنه قال : ومن القصص : مثل الجنة . فهو محمول على هذا الإضمار . والله أعلم . وكذلك

(١) [٢٤ / النور / ٢] ونصها : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ .

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) لما قال جل ثناؤه: سُورَةُ^(١) أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . قال في جملة الفرائض: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي - ثم جاء - فَأَجْلِدُوا . بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه: لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئاً .

عاد كلامه قال كجاء^(٢): وَقَائِلِهِ خَوْلَانُ فَنَكِحَ فَتَاتَهُمْ * فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمَر ؛ وكذلك (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) وفيما فرض عليكم السارقة والسارق ، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث . وقد قرأ ناس وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ . بالنصب ، وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلا الرفع .

يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قوياً بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم . وليس معنى أنه قوى بالنسبة إلى الرفع ، حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ؛ فإنه قد بين أن ذلك يخرج من الباب الذي يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه . والباب مع القراءتين مختلف ؟ وإنما يقع الترجيح بعد التساوى في الباب . فالنصب أرجح من الرفع حيث يبنى الاسم على الفعل . والرفع متعين (لا أقول أرجح) حيث بنى الاسم على كلام متقدم .

ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار . ولو كان كما ظنّه الزخشرى ، لم يحتج سيبويه إلى تقدير بل كان يرفعه على الابتداء ، ويجعل الأمر خبره . فالملخص على هذا : أن النصب على وجه واحد . وهو بناء الاسم على فعل الأمر . والرفع على وجهين: أحدهما ضعيف وهو الابتداء وبناء الكلام على الفعل . والآخر قوى بالغ كوجه النصب - وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دلّ عليه السياق . وحيثما تعارض لنا وجهان

(١) [٢٤ / النور / ١] ونصها : سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

(٢) انظر : سيبويه ص ٧٠ جزء أول .

في الرفع ، أحدهما قوى والآخر ضعيف ، تعين حمل القراءة على القوى كما أعربه سيبويه رضي الله عنه . والله أعلم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ)

« فَمَنْ تَابَ » أى : رجع من الشَّرَاقِ إلى الله « مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ » أى : سرقته « وَأَصْلَحَ » أى : عمله « فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ » أى : يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : مبالغ في المغفرة ولذلك يقبل توبته . وهو تعليل لما قبله . قال أبو السعود : وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلّة الحكم وتأيد استقلال الجملة . وكذا في قوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتها . والاستفهام لتقرير العلم . والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتي من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه . أى : ألم تعلم أن له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » وتقديم التعذيب لأن السياق للوعيد . فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ومنه التعذيب والمغفرة .

تنبيه :

ذهب الجمهور إلى أن توبة السارق تُسقط عنه حدود الله . وأما حقّ الآدمي من القطع وردّ المال أو بدله فلا يسقط بتوبته .

وقال أبو حنيفة : متى قطع ، وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها . وقد بينت السنة أنه إن عفى عنه قبل الرفع إلى الإمام ، سقط القطع .

روى ابن ماجه^(١) عن ثعلبة الأنصاري : أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! إني سرقت رجلاً فلان فطهرني . فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا افتقدنا رجلاً لنا . فأمر به فقطعت يده . قال ثعلبة (أحد رجال السند) : أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهرني منك . أردت أن تدخل جسد النار . وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن عمرو : أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا . يارسول الله ! إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها (يعني أهلها) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقطعوا يدها . فقطعت يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل لي من توبة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك . فأُتِل الله عز وجل في سورة المائدة : فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ... « الآية .

قال ابن كثير: وهذه المرأة هي الخزومية التي سرقت . وحديثها ثابت في الصحيحين^(٣)

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٢٠ - كتاب الحدود ، ٢٤ - باب السارق يعترف ، حديث ٢٥٨٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٧٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٥٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٥٣ - باب وقال الليث ، حديث ١٢٨٧ وأخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٩٠٨ (طبعتنا) .

من رواية الزهري عن عائشة أن امرأة سُرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح . ففرغ قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة : فلما كَلِهَ أسامة فيها ، تلَوْن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتُكَلِّمُنِي في حد من حدود الله ؟ قال أسامة : استغفر لي ، يا رسول الله !

فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد . فإِنَّمَا أَهْلُكَ النَّاسُ بِكُلِّمِ أَنْهَمُ كَانُوا إِذَا سُرِقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سُرِقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سُرِقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك . وتزوجت .

قالت عائشة : فكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، وهذا لفظ مسلم . وفي لفظ له ^(١) عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتبجده ، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها . وعن ابن عمر . قال : كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتبجده . فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها . رواه الإمام أحمد ^(٢) وأبو داود والنسائي ، وهذا

(١) أخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ١٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٣٨٣ (طبعة المعارف) .

وأبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ١٦ - باب في القطع في المارية إذا ججحت ، حديث ٤٣٩٧ .

والنسائي في : ٤٦ - كتاب السارق ، ٥ - باب ما يكون حرزاً وما لا يكون .

لفظه . وفي لفظ له ^(١) : إن امرأة كانت تستعير الخيل للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا بلال ! فخذ بيدها فاقطعها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ » نهى . قال أبو البقاء : والجيد فتح الياء وضم الزاى .
ويقرأ بضم الياء وكسر الزاى من (أحزنى) وهى لغة . « الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ »
أى : فى إظهاره بما يلوح منهم آثار الكيد للإسلام ومن موالات الكافرين « مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ » أى بالسنتهم . متعلق بـ (قالوا) « وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ » وهم المنافقون ، أى : لا تبال بهم فإنى ناصرك عليهم « وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا » عطف على (من) الَّذِينَ قَالُوا) وهم يهود بنى قريظة ، كعب وأصحابه « سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ » خبر لمحدوف ، أى : هم سماعون . واللام إما لتقوية العمل ، وإما لتضمين السماع معنى القبول ، وإما لام كي ، والمفعول محذوف ؛ والمعنى : هم مبالغون فى سماع الكذب الذى افترته أخبارهم أو فى قبوله . أو سماعون أخباركم ليكذبوا عليكم بالزيادة والنقص إرجافاً وتهويلاً .

(١) أخرجه النسائى فى : ٣٦ - كتاب السارق ، ٥ - باب ما يكون حرزاً وما لا يكون .

وفي (الإكليل) : أن قوله تعالى (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ) يدل على أن سامع المحذور كقائله في الإثم .

« سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ » أى : لم يحضروا مجلسك وتجاوزوا عنه إفراطاً في البغضاء . أى : قابلون من الأخبار ومن أولئك المفرطين في العدواة الذين لا يقدر أن ينظروا إليك . قيل : هم يهود خيبر . والسماعون ، بنو قريظة « يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ » أى : كالم التوراة في الأحكام « مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » أى : التي وضعه الله عليها .

قال ابن كثير : أى يتناولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . « يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا » أى : إن أوتيتم هذا المحرف المزال عن مواضعه من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام « فَخُذُوهُ » أى : اعملوا به فإنه الحق « وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ » بأن أفتاكم الرسول بخلافه « فَاحْذَرُوا » أى : من قبوله ، وإياكم وإياه ! فإنه الباطل والضلال . قال ابن كثير : قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد . فإن حكم بالدية فاقبلوه . وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه . والصحيح أنها نزلت في اليهوديين الذين زنيا . وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحسن منهم . فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين . فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه . فإن حكم بالجلد والتحميم نخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله . ويكون نبيًا من أنبياء الله قد حكم بذلك . وقد وردت الأحاديث بذلك : فروى مالك عن نافع عن ابن عمر قال ^(١) : جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ

(١) أخرجه في الموطأ في : ٤١ - كتاب الحدود ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

ماقبلها وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا : صدق ، يا محمد ! فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا . فقال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقبها الحجارة . وأخرجاه في الصحيحين^(١) . وهذا لفظ الموطأ . وروى الإمام أحمد^(٢) عن البراء بن عازب قال : مرَّ على رسول الله ﷺ يهودىٍّ محمَّم مجلود . فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا : نعم . فدعا رجلاً من علماءهم فقال : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ! هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا ، والله ! ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم . ولكنه كثر فى أشرافنا . فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقننا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والضعيف . فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال النبى ﷺ : اللهم ! إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قال : فأمر به فرجم قال : فأنزل الله عز وجل . يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ - إلى قوله - يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ . أى يقولون : إيتوا محمداً . فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه . وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا . قال الحافظ ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم^(٣)

(١) أخرجه البخارى فى : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣٧ - باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام ، حديث ٧٠٤ .

ومسلم فى : ٢٩ - كتاب الحدود ، ٦ - باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى ، حديث ٢٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٨٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢٩ - كتاب الحدود ، ٦ - باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى ، حديث ٢٨ (طبعنا) .

دون البخارى . وأبو داود^(١) والنسائى وابن ماجه^(٢) . وكذا روى أبو بكر الحميدى فى (مسنده) نحوه فى سبب نزولها عن جابر . وأبو داود أيضاً ، عن ابن عمر .
 « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ » أى : ضلالته « فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً » أى : فى دفع ضلالته « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ » أى : من دس الفتنة ووضر الكفر لانهما كهم فيهما ، وإصرارهم عليهما ، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى : فضيحة وهتك ستر ، بظهور نفاقهم بالنسبة للمنافقين . وذل وجزية واقتضاح ، بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة بالنسبة لليهود .
 « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

« سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ » أى الباطل . خبر لمخدوف . وكرر تأكيذاً لما قبله وتمهيداً لقوله « أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » أى : الحرام . وهو الرشوة كما قال ابن مسعود . قال الزمخشري : السحت كل ما لا يحل كسبه . وهو من (سَحَتُهُ) إذا استأصله .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٢٥ - باب فى رجم اليهوديين ،

حديث ٤٤٤٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٢٠ - كتاب الحدود ، ١٠ - باب رجم اليهودى واليهودية ،

حديث ٢٥٥٨ (طبعنا) .

لأنه مسحوت البركة . كما قال تعالى : يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاَ^(١) . والربا باب منه . وقرئ (السحت) بالتخفيف والتثقيل ، و(السحت) بفتح السين على لفظ المصدر من (سحته) ، و(السحت) بفتحيتين، و(السحت) بكسر السين . وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام . انتهى . وفي (اللباب) : السحت كله حرام تحمل عليه شدة الشره . وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة ولا يأخذه مروءة ويكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة . ومعلوم أن حال الرشوة كذلك ، فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم . عن أبي هريرة^(٢) : أن رسول الله ﷺ لعن الراشئ والمرتشئ في الحكم . أخرجه الترمذى . وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

قال ابن مسعود : الرشوة في كل شيء . فمن شفع شفاعاة ليردّ بها حقاً أو يدفع بها ظلماً ، فأهدى بها إليه ، قبل ، فهو سحت . ف قيل له : يا أبا عبد الرحمن ! ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم ؟ فقال : الأخذ على الحكم كفر ! قال الله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

« فَإِنْ جَاءُوكَ » يعنى اليهود لتحكم بينهم « فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ » لأنهم اتخذوك حكماً « أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم ، أى : فأنت بالخيار . وقد استدل بالآية من قال : إن الإمام مخير في الحكم بين أهل الذمة أو الإعراض عنهم . وعن بعض السلف : إن التخيير المذكور نسخ بقوله تعالى : وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ . والتحقيق أنها محكمة ، والتخيير باق . وهو مروى عن الحسن

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٦] ونصها . . . وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

(٢) أخرجه الترمذى في ١٣ - كتاب الأحكام ، ٩ - باب ما جاء في الراشئ والمرتشئ

في الحكم .

والشعبي والنخعي والزهري ، وبه قال أحمد . لأنه لا منافاة بين الآيتين . فإن قوله تعالى : (فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) فيه التخيير . وقوله تعالى (وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) فيه كيفية الحكم ، إذا حكم بينهم « وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا » أى : فلن يقدروا على الإضرار بك ، لأن الله تعالى عاصمك من الناس « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » ، أى : بالعدل الذى أمرت به ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى : العادلين فيما ولّوا وحكموا .

روى مسلم^(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولّوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

« وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ » تعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه . مع أن الحكم منصوص فى كتابهم الذين يدعون الإيمان به . قال بعضهم : معنى (فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ) أى : فى المسألة التى تحاكموا فيها إلى النبى صلوات الله عليه . وهو حكم الله بحسب اعتقادهم أو بحسب الحقيقة . قال : وجود هذا الحكم الخاص فيها ، لا ينافى القول بوجود أشياء أخرى كثيرة فيها محرفة . وسمّاها التوراة : إما باعتبار عرفهم ، أو باعتبار أصلها ، أو لا شأنها على أشياء كثيرة من التوراة الحقيقية . ولولا ذلك ماصح أن تسمى بذلك ، كالأنجيل ، مع اعتقاد تحريفها وتبديلها وعدم صحة كثير من أجزائها وكتبها ... اهـ .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعنا) .

« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى : من بعد البيان فى التوراة ، وحكمك الموافق لما فى كتابهم « وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى : بالتوراة كما يزعمون .

قال الحاكم : وفى الآية دلالة على أنه لا يجوز طلب الرخصة بترك ما يعتقده حقاً إلى ما يعتقده غير حق . وقوله تعالى (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) يدل على أن التولى عن حكم الله يخرج عن الإيمان .

قال بعض الزيدية : إذا كره حكم الشرع وطلب حكم النزع ، هل ذلك يخرج عن حكم الإيمان ؟ وهذا ينبغى أن يفصل فيه ، فيقال : إن اعتقد صحته ، أو رأى له مزية أو تعظيماً ، أو استهان بحكم الإسلام ، فلا إشكال فى كفره . وإن لم يحصل ذلك منه ، بل اعتقد أنه باطل خسيس ، وأنه يعظم شرع الإسلام ، ولكن يميل إلى هوى نفسه ، فهذا لا يكفر على الظاهر . إذ الكفر يحتاج إلى دليل قاطع .

وفى كلام الحاكم ما تقدم : أنه يخرج عن الإيمان . فإن أوهم أنه حق أو أنه أصلح من شرع الإسلام ، فهذا محتمل للكفر . لأن كفر إبليس اللعين ، بكونه اعتقد أن أمر الله تعالى له بالسجود لآدم ، غير صلاح . لكونه خلقه من طين ، وإبليس من النار . انتهى . ثم أشار تعالى إلى حالة اليهود الذين كانوا لا يبالون بالتوراة ويحرقونها ، ويقتلون النبيين ، بأنهم خالفوا ما أمرهم الله فى شأنها من الهداية بها وصونها عن التحريف ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ
شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى » أى : إرشادٌ إلى الحق « وَنُورٌ » أى : إظهار لما
أنبهم من الأحكام « يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ » من بنى إسرائيل « الَّذِينَ أَسْلَمُوا » أى :
الذين كانوا مسلمين من لدن موسى إلى عيسى عليهم السلام . وسندكر سرّ هذه الصفة
« لِلَّذِينَ هَادُوا » وهم اليهود . و (هاد) بمعنى تاب ورجع إلى الحق .

قال المهابي : (لِلَّذِينَ هَادُوا) أى : لا لمن يأتى بعدهم . ولم يختص بالحكم بها
الأنبياء بل يحكم بها « الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهاد العبّاد « وَالْأَحْبَارُ » أى : العلماء الفقهاء
« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » أى : بسبب الذى استودعوه من كتاب الله أن يحفظوه
من التغير والتبديل وأن يقضوا بأحكامه . والضمير فى (اسْتُحْفِظُوا) للأنبياء والرّبانين
والأحبار جميعاً . ويكون الاستحفاظ من الله ، أى : كلفهم حفظه . أو للرّبانين والأحبار ،
ويكون الاستحفاظ من الأنبياء « وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » أى : رقباء يحمونه من أن يحوم
حوله التغير والتبديل بوجه من الوجوه . أو بأنه حق وصدق من عند الله . فعلموا اليهود
وعلمائهم الصالحون لا يفتنون ولا يقضون إلا بما لم ينسخ من شريعتهم وما لم يحرف منها ،
لشيوعه وتداوله وتواتر العمل به .

لطيفة :

قال الزمخشري : قوله تعالى (الَّذِينَ أَسْلَمُوا) صفة أجريت على النبيين على سبيل

المدح . كالصفات الجارية على القديم سبحانه . لا للتفصلة والتوضيح . وأريد بإجرائها التعريض باليهرد ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث ، وأن اليهودية بمعزل منها . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح ، أن الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها . فذكر النبوة يستلزم ذكرها . فمن ثم حملها على المدح ، وفيه نظر . فإن المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التي يتميز بها المدوح عن دونه . والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم . ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي ﷺ أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً ؟ فإن أقل متبعيه كذلك . فالوجه - والله أعلم - أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوّه بها إذا وصف بها عظيم القدر . كما يكون ثبوتها بقدر موصوفها . فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها . وعلى هذا الوصف جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ^(١) وأمثاله . تنوياً بمقدار الصلاح . إذ جعل صفة الأنبياء . وبعثاً لأحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته . وكذلك قيل في قوله تعالى : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا^(٢) . فأخبر ، عن الملائكة القربين ، بالإيمان . تعظيماً لقدر الإيمان وبعثاً للبشر على الدخول فيه ، ليساوا الملائكة القربين في هذه الصفة . وإلا فن العلوم أن الملائكة مؤمنون ليس إلا . ولهذا قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا) يعني من البشر لثبوت حق الأخوة

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

في الإيمان بين الطائفتين . فكذلك - والله أعلم - جرى وصف الأنبياء في هذه الآية بالإسلام تنويهاً به . لقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف ، والناظم في مدحه عليه الصلاة والسلام :

فلئن مدحتُ محمدًا بقصيدتي فلقد مدحتُ قصيدتي بمحمدٍ

والإسلام ، وإن كان من أشرف الأوصاف ، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز في حقه ، إلا أن النبوة أشرف وأجل ، لاستعمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة . فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبوة ، في سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز ، وفي كلام العرب الفصيح ، وهو الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، لا النزول على العكس . ألا ترى أن أبا الطيب ^(١) كيف ترحزح عن هذا المهييع في قوله :

شمس ضحاها هلال ليلتها درّ تقاصيرها زبرجدها !

فنزّل عن الشمس إلى الهلال ، وعن الدر إلى الزبرجد في سياق المدح . فضغت الألسن عرض بلاغته ، ومزقت أديم صيفته . فعلينا أن نتدبر الآيات المعجزات ، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوّها في البلاغة المهود لها . والله الموفق .

وقوله تعالى « فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ » قال الزّخشرى : نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم فيها ، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم ، أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء .

(١) من قصيدة مطلعها :

أهلاً بدارٍ سبّاكٍ أعيدُها أبعدُ ما بآنَ عنك خردُها

يمدح محمد بن عبيد الله العلوى المشطّب .

قال شارحه البرقوقى : التقاصير : القلائد التي تعلق على القصرة ، والقصرة أصل العنق .

يقول : هو فيما بينهم كالشمس في النهار ، والهلال في الليل ، والدر والزبرجد في القلادة .

أى : هو أفضلهم وأشهرهم ، وبه زينتهم وخرمهم .

وقال أبو السعود : خطاب لرؤساء اليهود وعلماهم بطريق الالتفات . وأماحكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة . والفاء لترتيب النهى على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام، ومن يقتدى بهم من الربانيين والأحبار المتقدمين عملاً وحفظاً . فإن ذلك مما يوجب الاجتناب عن الإخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأى وجه كان . فضلاً عن التحريف والتغيير . ولما كان مدار جرائهم على ذلك، خشية ذى سلطان أو رغبة فى الخطوط الدنيوية ، نهوا عن كل منهما صريحاً ، أى إذا كان شأنها كإذ كر فلا تخشوا الناس كائنًا من كانوا ، واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياهم «وَإِخْشَوْنِ» فى مخالفة أمرى والإخلال بحقوق مراعاتها «وَلَا تَشْتَرُوا» أى تستبدلوا «بِأَيِّ شَيْءٍ» أى التى فيها ، بأن تركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلاً منها «ثَمَنًا قَلِيلًا» من الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، فإنها - وإن جلت - قليلة مستردة فى نفسها ، لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» أى كائنًا من كان ، دون المخاطبين خاصة ، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً . أى : من لم يحكم بذلك مستهيناً به ، منكرًا له كما يقتضيه ما فعلوه اقتضاءً بيناً «فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» لاستهانتهم به . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير عن الإخلال به أشد تحذير . حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى . فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ؟ لا سيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا . قاله أبو السعود .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ) دلالة على أن على الحاكم أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

الثانى : فى قوله تعالى (وَلَا تَشْتَرُوا . . .) الخ دلالة على تحريم الرشا على التبديل

وكتبان الحق ، وأنّ فعلَ ذلك ، لغرضٍ دينويٍّ من طلب جَاه ، أو مال - محرّم .
الثالث : في قوله (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ . . .) الآية ، تغليظ في الحكم
 بخلاف النصوص عليه ، حيث علق عليه الكفر هنا ، والظلم والفسق بعدُ .

الرابع : ما أخرجه مسلم ^(١) عن البراء : أن قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)
 الثلاث الآيات في الكفار كلها . وكذا ما أخرجه أبو داود عن ابن عباس : أنها في اليهود
 خاصة ، قريظة والنضير - لا ينافي تناولها لغيرهم ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص
 السبب ، وكلمة « مَنْ » وقعت في معرض الشرط فتكون للعموم .

الخامس : كفر الحاكم بغير ما أنزل بقيد الاستهانة به والجحود له ، هو الذي نجاه
 كثيرون وأثروه عن عكرمة وابن عباس .

وروى الحاكم وابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن ابن عباس وطاوس : أن من لم يحكم
 بما أنزل الله ، هي به كفر ، وليس بكفر ينقل عن الملة . كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله
 واليوم الآخر . ونحو هذا روى الثوري ، عن عطاء قال : هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ،
 وفسق دون فسق . رواه ابن جرير ^(٢) .

ونقل في (اللباب) عن ابن مسعود والحسن والنخعي : أن هذه الآيات الثلاث عامة
 في اليهود وفي هذه الأمة ، فكل من ارتشى وبطل الحكم فحكم بغير حكم الله ، فقد كفر وظلم
 وفسق . وإليه ذهب السدّي . لأنه ظاهر الخطاب . ثم قال : وقيل : هذا فيمن علم نص حكم الله
 ثم رده عياناً عمداً ، وحكم بغيره . وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل ، فلا يدخل
 في هذا الوعيد .. انتهى .

(١) أخرجه في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

(٢) عن ابن عباس : الأثر ١٢٠٥٣ و١٢٠٥٤ و١٢٠٥٥

وعن طاوس : الأثر ١٢٠٥٢ و١٢٠٥٦

وعن عطاء : الأثر ١٢٠٤٧

وقال اسمعيل القاضي في (أحكام القرآن) : ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا - يعني اليهود - واخترع حكماً يخالف به حكم الله ، وجعله ديناً يعمل به ، فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور ، حاكماً كان أو غيره .

السادس : روى سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات .

أخرج الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : إن الله أنزل (وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، وَ) (أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) و (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) في الطائفتين من اليهود . وكانت إحداها قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة . فذلت الطائفتان كلتاها لمقدم رسول الله ﷺ . ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو في الصلح . فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً . فأرسلت العزيرة إلى الذليلة : أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان في حين قط ، دينهما واحد ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنا إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم . فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك . فكدت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم . ثم ذكرت العزيرة فقالت : والله ! ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منهم . ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم . فدسوا إلى محمد من يخبركم رأيه . إن أعطاكم ما تريدون حكمتوه ، وإن لم يعطكم حذرتهم فلم تحكموه . فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ . فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله ﷻ رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم

٢٢١٢ (طبعة المعارف) .

- إلى قوله - الْفَاسِقُونَ . ثم قال : فيهما ، والله ! نزلت ، وإياهم عنى الله عز وجل . ورواه أبو داود بنحوه .

وروى ابن جرير^(١) من طريق أخرى عن ابن عباس قال : إن الآيات في المائدة قوله : (فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ - إلى - الْمُقْسِطِينَ) إنما أنزلت في الدية في بنى النضير وبني قريظة . وذلك أن قتلى بنى النضير ، وكان لهم شرف يؤدى الدية كاملة . وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية . فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله ذلك فيهم . فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك ، فجعل الدية في ذلك سواء . ورواه أحمد وأبو داود والنسائي بنحوه .

وروى ابن جرير^(٢) أيضاً عن ابن عباس قال : كانت قريظة والنضير . وكانت النضير أشرف من قريظة . فكان إذا قتل القرطبي رجلاً من النضير قُتل به . وإذا قتل النضيرى رجلاً من قريظة ، وُدِيَ بمائة وسق من تمر . فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجلاً من النضير رجلاً من قريظة . فقالوا : ادفعوه إليه . فقالوا : بيننا وبينكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ . ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في (المستدرک) بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل ابن حيان وغير واحد .

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، كما تقدمت الأحاديث بذلك . وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد . فنزلت هذه الآيات في ذلك كله ، والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

(١) الأثر رقم ١١٩٧٤ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٩٨٥ من التفسير .

وقد أسلفنا في (المقدمة) في بحث سبب النزول، ما يزيل الإشكال في تعدد السبب . فتذكر .
ومما يقوى أن سبب النزول قضية القصاص - كما قال ابن كثير - قوله تعالى بعد ذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » أى : فرضنا على اليهود فى التوراة « أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ -
أى : مقتولة بها إذا قتلها بنفسى حق « وَالْعَيْنَ » مفقوعة « بِالْعَيْنِ » وَالْأَنْفَ » مجدوع
« بِالْأَنْفِ » وَالْأُذُنَ » مقطوعة « بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ » مقلوعة « بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ » أى : ذات قصاص ، أى : يقتص فيها إذا أمكن . كاليد والرجل والذكر ونحو
ذلك وإلا - ككسر عظم وجرح لحم مما لا يمكن الوقوف على نهايته - فلا قصاص ، بل
فيه حكومة عدل .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية مما وُجِّعَتْ به اليهود أيضاً وقُرِّعَتْ عليه . فإن عندهم فى نص التوراة
أن النفس بالنفس . وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً . فأقادوا النضرى من القرطى ، ولم
يُقيِّدوا القرطى من النضرى . وعدلوا إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن ،
وعدلوا إلى ما اصطالحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال -
ههنا - فى تنمة الآية (فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر

الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه . فخالقوا وظلموا ، وتمدوا على بعضهم بعضاً - أفاده ابن كثير .

الثانى - قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) والمعطوفات بعده ، كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) لأن المعنى : وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء (كتبنا) مجرى (قلنا) وإما لأن معنى الجملة التى هى قولك (النَّفْسُ بِالنَّفْسِ) مما يقع عليه (الكتب) كما تقع عليه (القراءة) ، تقول : كتبت الحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها . ولذلك قال الزجاج : لو قرئ (إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) بالكسر لكان صحيحاً . كذا فى (الكشاف) . وقد توسع الخفاجى فى (العناية) فى بحث الرفع - هنا - على عادته فى النحويات . فانظره إن شئت .

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى^(١) والحاكم عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ) نصب النفس ورفع العين . قال الترمذى : حسن غريب . وقال البخارى : تفرد ابن المبارك بهذا الحديث .

الثالث : استدل كثير من ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا - إذا حكى مقررأ ولم ينسخ ؛ كما هو المشهور عن الجمهور ، وكما حكاه الشيخ أبو إسحق الأسفرايينى عن نص الشافعى وأكثر أصحابه - بهذه الآية . حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصرى : هى عليهم وعلى الناس عامة . رواه ابن أبى حاتم . وقد حكى الإمام أبو منصور بن الصباغ فى كتابه (الشامل) اجتماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على مادلت عليه .

الرابع : قال ابن كثير :

احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة . بعموم هذه الآية الكريمة . وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٣ - كتاب القراءات ، ١ - حدثنا على بن حجر .

كتب في كتاب عمرو بن حزم^(١) : أن الرجل يقتل بالمرأة .

(١) هذه حكاية الكتاب الذي كتبه سيدنا وولانا محمد رسول الله ﷺ إلى عمرو بن حزم :

ذكر منه الإمام مالك في الموطأ : ١٥ - كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، الحديث رقم ١ (طبعنا) قوله : أن لا يمسه القرآن إلا طاهر .

وفي : ٤٣ - كتاب العقول ، حديث رقم ١ (طبعنا) أخرج منه هذه القطعة :
أن في النفس مائة من الإبل ، وفي الأنف إذا أوعى جدعا مائة من الإبل ، وفي المأمومة ثلث الدية ، وفي الجائفة مثلها ، وفي العين خمسون ، وفي اليد خمسون ، وفي الرجل خمسون ، وفي كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل ، وفي السن خمس ، وفي المؤخخة خمس .
وذكر الإمام السيوطي في (تنوير الحوالك) ما يأتي :

(عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أنه في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أنه لا يمسه القرآن إلا طاهر) قال الباجي : هذا أصل في كتابة العلم وتحصيله في الكتب .

وقال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث . وقد روى مسنداً من وجه صالح . وهو كتاب مشهور عند أهل السير . معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بها في شهرتها عن الإسناد ، لأنه أشبه المتواتر في مجيئه ، لتلق الناس له بالقبول .

قلت (أي السيوطي) : أخرج البيهقي في (دلائل النبوة) من طريق ابن إسحاق . قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا ، الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن ، يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم . فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه أمره . فكتب ... الخ (ثم ساقه السيوطي) .

= قال البيهقي : وقد روى سلمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده هذا الحديث موصولاً بزيادات كثيرة في الزكوات والديات وغير ذلك ، ونقصان عن بعض ما ذكرناه .

قلت (أي السيوطي) : وسأسوقه في كتاب (العقول) .

وفي كتاب (العقول) لم يسقه ، كما وعد هنا .

وقال الزرقاني عند ذكر القطعة التي رواها الإمام مالك في (العقول) ما يأتي : وهو كتاب جليل فيه أنواع كثيرة من الفقه في الزكاة والديات والأحكام وذكر الكبار والطلاق والعناق وأحكام الصلاة في الثوب الواحد والاحتباء فيه ، ومس المصحف وغير ذلك . وأخرجه النسائي وابن حبان موصولاً من طريق الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات وبعث به مع عمرو بن حزم . فقدم به إلى اليمن . وهذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال ، والحارث بن عبد كلال . ونعيم بن عبد كلال ، قيل ذى رعين ومعايير وهمدان . أما بعد . فذكر الحديث بطوله . أقول : وقد بحثت عن هذا الكتاب الجليل ، كي أثبته بتمامه في هذا التفسير الجليل ، حتى عثرت عليه في سيرة ابن هشام ، التي لخصها من سيرة ابن إسحاق ، بالصفحة ٩٦١ (طبعة جوتنجن) وبالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ووقفت عليه أيضاً في سنن النسائي ، في : ٤٥ - كتاب القسامة ، ٤٧ - باب حديث

عمرو بن حزم في العقول واختلاف النافلين له .

وها نحن نسوقه بسنده كما رواه الإمام النسائي :

أخبرنا عمرو بن منصور قال : حدثنا الحكم بن موسى ، قال : حدثنا يحيى بن حمزة عن

سليمان بن داود قال : حدثني الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه ، عن جده : =

= أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم . فقرئت على أهل اليمن . وهذه نسختها :

« من محمد النبي ﷺ إلى شُرَحْبِيل بن عبد كلال ، ونُعَيْم بن عبد كلال ، والحارث بن « عبد كلال ، قِيلَ ذِي رُعَيْنٍ وَمُعَا فَرٍ وَهَمْدَان . أما بعد »

وكان في كتابه :

« أن من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة ، فإنه قَوْدٌ . إلا أن يرضى أولياء المقتول . وأن »

« في النفس الدية مائةً من الإبل . وفي الأنف إذا أُوعِبَ جَدْعُهُ الديةُ . وفي اللسان الديةُ . »

« وفي الشفتين الديةُ . وفي البيضتين الديةُ . وفي الذِّكْر الديةُ . وفي الصُّلب الديةُ . وفي »

« العينين الديةُ . وفي الرجل الواحدة نصف الدية . وفي المأمومة ثلثُ الدية . وفي الجائفة »

« ثلث الدية . وفي المنقلة خمس عشرة من الإبل . وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل »

« عشر من الإبل . وفي السن خمس من الإبل . وفي الموضحة خمس من الإبل . »

« وأن الرجل يقتل بالمرأة . وعلى أهل الذهب ألف دينار . »

خالفه محمد بن بكّار بن هلال .

أخبرنا الهيثم بن مروان بن الهيثم بن عمران العنسي قال : حدثنا محمد بن بكّار بن بلال .

قال : حدثنا يحيى . قال : حدثنا سليمان بن أرقم . قال : حدثني الزهري عن أبي بكر بن محمد

ابن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب ، فيه

الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم . فقرئ على أهل اليمن . هذه نسخته .

فذكر مثله ، إلا أنه قال :

« وفي العين الواحدة نصف الدية . وفي اليد الواحدة نصف الدية . وفي الرجل الواحدة »

نصف الدية » .

= قال أبو عبد الرحمن : وهذا أشبه بالصواب ، والله أعلم .

= وسليمان بن أرقم متروك الحديث .

وقد روى هذا الحديث يونسُ عن الزهريّ مرسلًا :

أخبرنا أحمد بن عمرو بن السرح . قال : حدثنا ابن وهب . قال : أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال : قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ ، الذي كتبه لعمر بن حزم ، حين بعثه على نجران .

وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم .

فكتب رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

وكتب الآيات منها حتى بلغ : إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . ثم كتب :

« هذا كتاب الجراح ، في النفس مائة من الإبل » نحوه .

أخبرنا أحمد بن عبد الواحد . قال : حدثنا مروان بن محمد . قال : حدثنا سميد ، وهو

ابن عبد العزيز ، عن الزهريّ قال : جاءني أبو بكر بن حزم بكتاب في رقعة من آدم ، عن رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

فتلا منها آيات . ثم قال :

« في النفس مائة من الإبل . وفي العين خمسون . وفي اليد خمسون . وفي الرجل خمسون . »

« وفي المأومة ثلث الدية . وفي الجائفة ثلث الدية . وفي المنقلة خمس عشرة فريضة . »

« وفي الأصابع عشرٌ عشرٌ . وفي الأسنان خمسٌ خمسٌ . وفي الموضحة خمس . »

قال الحارث بن مسكين ، قراءة عليه وأنا أسمع ، عن ابن القاسم . قال : حدثني مالك عن

عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم في (المقول) :

=

وفي الحديث الآخر^(١) : المسلمون تنكافأ دماؤهم . وهذا قول جمهور العلماء . وعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وحكي عن الحسن وعثمان البستي ، ورواية عن أحمد ؛ أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب ديتها . وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بموم هذه الآية ، على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحرّ بالعبد . وقد خالفه الجمهور فيهما .
ففي (الصحيحين)^(٢) عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن في النفس مائة من الإبل . وفي الأنف ، إذا أوعى جدعاً ، مائة من الإبل . »
« وفي المأمومة ثلث النفس . وفي الجائفة مثلها . وفي اليد خمسون . وفي العين خمسون . »
« وفي الرجل خمسون . وفي كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل . وفي السن خمس . »
« وفي الموضحة خمس . »

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٨ - كتاب الديات ، ١١ - باب أيقاد المسلم بالكافر ؟ ، حديث ٤٥٣٠ ونصه . عن قيس بن عباد قال : انطلقت أنا والأشتر إلى عليّ عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا ما في كتابي هذا . قال ، فأخرج كتاباً من قراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تنكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسى بذمتهم أدناهم ، ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده ، من أحدث حدثاً فعلى نفسه . ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٩ - باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ، ونصه :

عن أبي جحيفة قال ، قلت لعليّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة .
قال : قلت : فما في هذه الصحيفة ؟ قال « العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر » ولم يخرج مسلم هذه القطعة .

لا يقتل مسلم بكافر . وأما العبد ، ففيه عن السلف آثار متعددة . إنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر ، ولا يقتل حرّ بعبد . وجاء في ذلك أحاديث لا تصح . وحكى الشافعي الإجماع . على خلاف قول الحنفية في ذلك . انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية مشروعية القصاص في النفس والأعضاء والجروح بتقدير شرعنا . كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث أنس ^(٣) : كتاب الله القصاص ؛ واستدل بموم (النفس بالنفس) من قال بقتل المسلم بالكافر ، والحرّ بالعبد ، والرجل بالمرأة . وأجاب ابن الفرس بأن الآية أريد بها الأحرار المسلمون . لأن اليهود المكتوب ذلك عليهم في التوراة كانوا ملة واحدة ليسوا منقسمين إلى مسلم وكافر ، وكانوا كلهم أحراراً لا عبيد فيهم . لأن عقد الذمة والاستعباد إنما أبيض للنبي صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء . لأن الاستعباد من الغنائم . ولم تحلّ لغيره . وعقد الذمة لبقاء الكفار . ولم يقع ذلك في عهد نبي . بل كان المكذبون يهلكون جميعاً بالعذاب . وآخر ذلك في هذه الأمة رحمة . وهذا جواب مبين .

وقوله (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ) استدل به في كل جرح قيل بالقصاص فيه - كاللسان والشفة وشجاج الرأس والوجه وسائر الجسد - وعلى أن تنف الشعر والضرب لأفصاص فيه ، إذ ليس بجرح . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٣ - كتاب الصلح ، ٨ - باب الصلح في الدية ، حديث

١٣٠٦ ونصه :

عن أنس أن الرُّبَيْعَ ، وهي ابنة النضر ، كسرت ثنية جارية . فطلبوا الأرش . وطلبوا العفو فأبوا . فاتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص .

فقال أنس بن النضر : أتكسرُ ثنية الرُّبَيْعِ ؟ يا رسول الله ! لا . والذي بعثك الحق ! لا تكسرُ ثنيتهما . فقال « يا أنس ! كتاب الله القصاص » .

فرضى القوم وعفوا .

فقال النبي ﷺ « إن من عباد الله ، مَنْ لو أقسم على الله لأبره » .

وقال بعض الزيدية في (تفسيره) : مذهب أئمة أهل البيت ومالك والشافعي ؛ أنه لا يقتل المسلم بالكافر . وقال أبو حنيفة : يقتل به . لا بالحربي ولا بالمستأمن من الحريين أخذاً بعموم الآية . قلنا : هي مخصصة بقوله في سورة الحشر : لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . وهذا يقتضي نفى المساواة عموماً . قالوا : أراد (في الآخرة) . قلنا : قال الله : وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ^(١) . قالوا : ليس هذا على عمومه فإن له أخذ الدين منه ، وذلك سبيل . قلنا : قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) : لا يقتل مؤمن بكافر . فعم . قالوا : أراد بكافر حربي . بدليل أن في آخر الخبر : ولا ذو عهد في عهده . والمعنى : لا يقتل المؤمن ولا الكافر الذي عوهد ، بالكافر الذي لا عهد له . قلنا : قدمت الجملة الأولى وهي قوله عليه السلام : لا يقتل المؤمن بكافر . وأما قوله : ولا ذو عهد في عهده ، فهذه جملة أخرى . يريد : لا يقتل ما دام في العهد . مع أن الحديث إن احتمل أنها جملة واحدة فالمراد : لا يقتل مؤمن بأحد من الكفار عموماً . وكذلك المأهـد لا يقتل بأحد من الكفار عموماً . فقامت الدلالة على أن المأهـد ، يقتل ببعض الكفار . وبقي المؤمن على عمومه . وما قلنا مروى عن علي عليه السلام وعمر وعثمان وزيد بن ثابت . وقد رجع عمر إلى هذا لما أنكر عليه علي عليه السلام وزيد . وهذه الخصصات تخصص ماورد من العمومات في هذه المسألة . انتهى .

(١) [٤ / النساء / ١٤١] ونصها : الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذَوْكُمْ عَلَيْكُمْ وَنَنْصَحْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٠٠٨ .

الخامس : - عموم قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) كعموم قوله تعالى (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) فما خصص ذلك العام ، خصصه هنا ، لكن ننبه على أطراف :

منها - : أن اليسرى لا تؤخذ باليمنى ، والوجه عدم المساواة .

ومنها - : عين الأعور تؤخذ بعين الصحيح على ما نصه في (الأحكام) ، وإليه ذهب أبو حنيفة والشافعي لعموم الآية . وقال في (المنتخب) ومالك : لا تؤخذ ، لأن نورها أكثر فتطلب المساواة . واحتجوا بأنه مروى عن علي عليه السلام وعمر وابن عمر وعثمان ؛ قال في (الشرح) : وكان الإمام يحبي لا يصحح هذه الرواية عن علي عليه السلام .

ومنها - : في كيفية القصاص . فإن قلعت العين ثبت القصاص بالقلع . وإن ضرب حتى ذهب بصره ثبت القصاص . قال في (التهذيب) : فقليل بالقلع . وقيل : تحمي حديدة ثم تقرب من عينه .

وأما قوله تعالى (وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ) فالكلام في عموميه كما تقدم . ويذكر هنا تنبيهه ، وهو أن القصاص إنما يكون إذا استؤصلت . لأن ذلك كالفصل ، لا إذا قطع بعضها . والعموم في قوله تعالى (وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ) أيضاً كما تقدم . والقصاص : إذا قطعت من أصلها لا إذا قطع البعض . ولا تؤخذ أذن الصحيح بأذن الأصم .

وكذا عموم قوله تعالى (وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ) والقصاص : إذا قلع من أصله . ولا بد من المساواة . فلا يؤخذ الصحيح بالأسود ولا بالكسور . ولا الثانية بالضرر . ونحو ذلك . كما لا تؤخذ اليمنى باليسرى .

وأما قوله تعالى (وَالْجُرُوحَ) فهذا فيما يُمكن فيه المساواة ، ويؤمن على النفس لتخرج الأمة .

كذا في (تفسير بعض الزيدية) . وتنمة فقه هذه الآية يرجع فيه إلى مطولات كتب السنة وشروحها .

وقوله تعالى « فَمَنْ نَصَّدَقَ » أى : من المستحقين « بِهِ » أى : بالقصاص . أى :
 فمن عفا عن الجانى . والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب « فَهُوَ » أى : التصدق
 « كَفَّارَةٌ لَهُ » أى : للمتصدق يكفر الله بها ذنوبه . وقيل : فهو كفارة للجانى ، إذا تجاوز
 عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه . وهذا التأويل الثانى روى عن كثير من السلف .
 كما أخرجه ابن أبى حاتم . واللفظ محتمل . إلا أن الأخبار الواردة فى فضل العفو تشهد
 للأول .

روى الإمام أحمد^(١) عن الشعبي ؛ أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ
 يقول : ما من رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما نصدّق به .
 ورواه النسائى أيضاً .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : من أصيب بشىء من جسده
 فتركه لله ، كان كفارة له .

وروى الإمام ابن جرير^(٣) عن أبى السفر قال : دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار ،
 فاندقت ثنيتته . فرفعه الأنصارى إلى معاوية . فلما ألح عليه الرجل قال معاوية : شأنك
 وصاحبك . قال ، وأبو الدرداء عند معاوية . فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ
 يقول : ما من مسلم يصاب بشىء من جسده ، فيهبه ، إلا رفعه الله به درجةً وحطّ عنه به
 خطيئة . فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته أذنأى ووعاه قلبى .
 نفلى سبيل القرشى . فقال له معاوية : مروا له بمال .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) لم أهتم إلى هذا الحديث .

(٣) الأثر رقم ١٢٠٨٠ من التفسير .

ورواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن أبي السفر قال: كسر رجل من قریش سن رجل من الأنصار. فاستعدى عليه معاوية. فقال القرشي: إن هذا دق سني، فقال معاوية: كلاً. إنا سنرضيه. قال فلما ألح عليه الأنصاري، قال معاوية: شأنك بصاحبك - وأبو الدرداء جالس - فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من مسلم يصاب بشيء من جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة وحوط عنه بها خطيئة. قال فقال الأنصاري: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال: نعم. سمعته أذناي ووعاه قلبي. يعني فعفا عنه الأنصاري. وهكذا رواه الترمذي وقال: غريب، ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء.

« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لأنهم حكموا بخلاف حكم الله العدل. وتقدم في أول التنبيهات الخمس، قريباً، سرّ التعبير ههنا بـ (الظالمون) وقبله بـ (الكافرون) فتذكر.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَفَقِينَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَإِيتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

« وَفَقِينَا » أي أتبعنا « عَلَىٰ آثَارِهِمْ » يعني أنبياء بني إسرائيل « بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أي: أرسلناه عقبهم « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ » أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها « وَإِيتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى » أي إلى الحق « وَنُورٌ » أي: بيان للأحكام « وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ » أي: لما فيها من الأحكام. وتكرير ذلك لزيادة التقرير.

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٤٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

وأخرجه الترمذي في : ١٤ - كتاب الديات ، ٥ - باب ما جاء في العفو .

قال ابن كثير : أى متبعاً لها غير مخالف لما فيها ، إلا فى القليل . مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح . أنه قال لبني إسرائيل : وَلِأَحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . ولهذا كان المشهور من قول العلماء : إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة .

« وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى : زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم « لِلْمُتَّقِينَ » أى : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه . وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين ، لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجوداه .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ » أمر مبتدأ لهم ، بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها : دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام ، وشواهد نبوته . وقيل : هو حكاية للأمر الوارد عليهم . بتقدير فعلٍ مَعْطُوفٍ عَلَى (ءَاتَيْنَاهُ) : وقلنا ليحكم أهل الإنجيل . وقرئ (وليحكم) بالنصب على أن اللام (لام كي) أى : آتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم .

قال بعض المحققين : وإنما خص أهل الإنجيل بالذكر ، لبيان أن الإنجيل لم ينزله الله للأمم كافة وأن شريعته ليست باقية لكل زمان . لأن بعثة عيسى عليه السلام كانت خاصة بالأمّة اليهودية . « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق .

تنبيه :

في هذه الآية والآيتين المتقدمتين ، من الوعيد ما لا يقادر قدره . وقد تقدم أن هذه الآيات ، وإن نزلت في أهل الكتاب ، فليست مختصة بهم . بل هي عامة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويدخل فيه السبب دخولاً أولاً . وفي (فتح البيان) في تفسير هذه الآيات ، مباحث نادرة سابعة الذيل . فلترجع . ولما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كلمه ، وأثنى عليها وأمر باتباعها ، ثم ذكر الإنجيل ومدحه وأمر باتباعه - شرع في التنويه بالقرآن العظيم الذي أنزل على رسوله الكريم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أى : الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق . لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى . وتفوقه على بقية أفراد ، وهو القرآن الكريم . فاللام للعهد . أفاده أبو السعود .

« بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ » بيان ل (ما) . و (اللام) للجنس . يعنى : أنه يصدق جميع الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه من قبله . وإنما قيل (لما قبل الشئ) : هو بين يديه ، لأن ما تأخر عنه

يكون وراءه وخلفه . فأتقدم عليه يكون قدمه وبين يديه « وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ » أى : مؤتمناً عليه وشهيداً وحاكماً على ما قبله من الكتب .

قال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل .

« فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أى : بين أهل الكتاب إذا ترفعوا إليك « بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : بما بين الله لك في القرآن .

قال فى (الإكليل) : هذا ناسخ للحكم بكل شرع سابق . ففيه أن أهل الذمة إذا ترفعوا إلينا يحكم بينهم بأحكام الإسلام ، لا بمعتقدهم . ومن صور ذلك عدم ضمان الخمر ونحوه . انتهى .

« وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » نهى أن يحكم بما حرفوه أو بدّلوه اعتماداً على قولهم . ضمن (وَلَا تَتَّبِعْ) معنى (ولا تنحرف) فلذا عدى بـ (عن) فكأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم . أو التقدير : عادلاً عما جاءك . « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً » أى : شريعة موصلة إلى الله « وَمِنْهَا جَاءَ » أى : طريقاً واضحاً فى الدين ، تجرون عليه .

قال ابن كثير : هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام ، المتفقة فى التوحيد . كما ثبت فى (صحيح البخارى) ^(١) عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات . ديننا واحد . يعنى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذكروا فى الكتابِ مريمَ إذ انتبذت من أهلها ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة . والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

بذلك ، التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله . كما قال تعالى :
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (١) .
وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (٢) ...
الآية .

وقال أبو السعود : قوله تعالى (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) كلام مستأنف
جىء به لحل أهل الكتابين ، من معاصريه عليه الصلاة والسلام ، على الانقياد لحكمه بما
أنزل إليه من القرآن الكريم ، ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين ،
وإنما الذى كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة . والخطاب بطريق
التلويح والالتفات للناس قاطبة ، لكن لا للموجودين خاصة ، بل للماضين أيضاً بطريق التغليب .
والمعنى : لكل أمة كائنة منكم ، أيها الأمم الباقية والخالية ، جعلنا - أى عينا ووضعنا - شرعة
ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة . لاتسكاد أمة تتخطى شرعتها التى عيّنت لها . فالأمة التى كانت
من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهما التوراة . والتى كانت من مبعث
عيسى إلى مبعث النبي عليهما الصلاة والسلام شرعتهما الإنجيل . وأما أنتم أيها الموجودون
فشرعتمكم القرآن ليس إلا . فآمنوا به واعملوا بما فيه .

وفى (الإكليل) : استدلل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا .
وبقوله : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ... الآية ، من قال : إنه شرع لنا ما لم يرد ناسخ . واستدل بالآية
أيضاً من قال : إن الكفر ملل لا ملة واحدة ، ولم يورث اليهود من النصارى شيئاً . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ،
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

قال النسفي : ذكر الله إزال التوراة على موسى عليه السلام . ثم إزال الإنجيل على عيسى عليه السلام . ثم إزال القرآن على محمد ﷺ . ويين أنه ليس للسمع فحسب ، بل للحكم به . فقال في الأول : (يَحْكُمُ بِهِا النَّبِيُّونَ) وفي الثاني : (وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ) وفي الثالث : (فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى : جماعة متفقة على شريعة واحدة « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » متعلق بمحذوف يستدعيه النظام . أى : ولكن جعلكم أمماً مختلفة ليختبركم فيما أعطاكم من الشرائع المختلفة . هل تتركون ما ألقم منها لِمَا أحدث منها مدعين له ، متقدين أن خلافه لها بمقتضى المشيئة الإلهية المبنية على أساس الحكم البالغة ، والمصالح النافعة لكم فى المعاش والمعاد ؟ أو تزيفون عن الحق ، وتتبعون الهوى ، وتستبدلون المضرة بالجدوى ، وتشترون الضلالة بالهدى ؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء . بل العمدة فى ذلك ما أشير إليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً ، كما يذيع عنه قوله تعالى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أى : إذا كان الأمر كما ذكر ، فسارعوا إلى ما هو خير لكم فى الدارين من العقائد الحققة والأعمال الصالحة المندرجة فى القرآب الكريم ، وابتدروها انتهازاً للفرصة وإحرازاً لسابقة الفضل والتقدم . ففيه من تأكيد الترغيب فى الإذعان للحق ، وتشديد التحذير عن الزيف ، ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله : « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » استئناف مسوق لمساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد . أى : مصيركم ومعادكم - أيها الناس - إليه يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى : فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفرطكم فى العمل . كذا فى (الكشاف) .
فالإنباء مجاز عن المجازاة ، وإنما عبر عنها به ، لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التى هى وظيفة الإنباء .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٩] (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

« وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ » عطف على (الكتاب) أى : أنزلنا إليك الكتاب والحكم بما فيه . أو على (الحق) أى : أنزلناه بالحق وب (أن احكم) ويجوز أن يكون جملة ، بتقدير : وأمرنا أن احكم . وفي التعليل لعنوان إنزاله تعالى إياه ، تأكيد لوجوب الامتثال ، وتمهيد لما يعقبه من قوله « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ » أى : يصرفوك عنه . وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتحويل الخطب . كإعادة (ما أنزل الله) « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى : عن الحكم المنزل وأرادوا غيره « فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » بمعنى بذنب التولى عن حكم الله ، وإرادة خلافه ، فوضع (ببعض ذنوبهم) موضع ذلك . وأراد : أن لهم ذنوباً جمّة كثيرة العدد . وأن هذا الذنب - مع عظمه - بعضها وواحد منها . وهذا الإيهام لتعظيم التولى ، واستسرافهم في ارتكابه ، ونحو (البعض) في هذا الكلام مافى قول لبيد^(١)

(١) هو البيت السادس والخمسون من معلقته التى مطلعها :

عَفَى الدَّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بِعَمْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

وقال التبريزى ، فى شرح البيت المستشهد به :

يقول : أترك الأمكنة إذا رأيت فيها ما يُكره . إلا أن يدركنى الموت فيحبسنى .

وأراد به (النفوس) نفسه .

(أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامُهَا ..!) أراد نفسه ، وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإيهام . كأنه قال : نفساً كبيرة ونفساً أى نفس . فكما أن التكثير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فكذلك إذا صرح ببعض . كذا في (الكشاف) .

وفي (الحواشي) : ومثل هذا قوله تعالى : وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ^(١) أراد محمداً ﷺ ؛ وقيل : ذلك من الخصوص الذي أريد به العموم ؛ وقيل : أراد العذاب في الدنيا . وأما في الآخرة فإنه يعذب بجميع الذنوب . ولقد تطف القائل : وأقول بعض الناس عنك كناية * خوف الوشاة ، وأنت كلُّ الناس .

«وَأِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» أى : لمتوردون في الكفر معتدون فيه ؛ وهذا تسجيل عليهم بالخالفه . يعنى : إن التولى عن حكم الله من التردد العظيم والاعتداء في الكفر . والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله . ونظيرها قوله تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ^(٢) وقوله تعالى : وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^(٣) .

روى ابن جرير^(٤) وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد ، وابن صلوما ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] ونصها : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٦] إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

(٤) الأثر رقم ١٢١٥٠ من التفسير .

وعبد الله بن سوريا ، وشاس بن قيس ؛ بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعنا نفته عن دينه . فأتوه فقالوا : يا محمد ! إنك قد عرفت أننا أجباريهود وأشرافهم وساداتهم . وأنا - إن اتبعناك - اتبعنا يهود ، ولم يخالفونا . وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله عز وجل فيهم : وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (أَفْحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« أَفْحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ » أى : يريدون منك .

قال أبو السعود : إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم . و (الفاء) للعطف على مقدر يقتضيه المقام . أى : أتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية . وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجب . لأن التولي عن حكمه عليه الصلاة والسلام ، وطلب حكم آخر ، منكر عجيب . وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب . والمراد بـ (الجاهلية) إما الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى ، الموجبة لليل والمداينة في الأحكام ، فيكون تمييزاً لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم ، يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى . وإما أهل الجاهلية ، وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتل . انتهى .

« وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا » أى : قضاء « لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى : ينظرون بنظر اليقين إلى العواقب . والاستفهام إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساوياً له .

قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم - المشتغل على كل خير ، الناهي عن كل شر - وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها

الرجال بلا مستند من شريعة الله ؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ؛ وكما يحكم به التتار من السياسات الملسكية المأخوذة عن جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها . وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبهاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله . فلا يحكم سواء في قليل ولا كثير . قال الله تعالى : **أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . أَى : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ، (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أَى : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ؟ فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء .** روى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . وكان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدى في النحل ؟ قرأ : **أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ .. الآية .** وروى الطبراني : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : **أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرئ بغير حقٍ ليريق دمه .** ورواه البخاري^(١) بزيادة . انتهى كلام ابن كثير .

قال بعض مفسري الزيدية : اشتمل قوله تعالى : **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ..** إلى قوله : **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ،** على عشرين وجهاً من التأكيد في

(١) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٩ - باب من طلب دم امرئ

بغير حق ، حديث ٢٥٢٥ ونصه :

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم ، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومُطَلَبُ دم امرئ بغير حق ليهريق دمه » .

ملازمة شريعة نبينا ﷺ التي أنزلها الله تعالى ، واختارها لأمته ، واستأثر بكثيرٍ من أسرارها فلم يُطْلَع عليها ، وما أشد امتثال ما تضمنته ؟ وكيف الخروج عن عهده خصوصاً على الأئمة والحكام ؟ ولن يحصل ذلك حتى يلجم نفسه بلجام الحق ، ويمزل عن نفسه مطالعة الخلق ، لهذه الجملة . لا يقال : إنه صلى الله عليه وسلم معصوم لا يتبع أهواءهم ، فكيف نهى عما يعلم الله أنه لا يفعله ؟ قال الحاكم : ذلك مقدور له ، فيصح النهي وإن علم أنه لا يفعله . وقيل : الخطاب له والمراد غيره . كذلك لا يقال : قوله (فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) يخرج من ذلك القياس . لأن ذلك - إن جعل خطاباً له عليه الصلاة والسلام - فلم يكن متعبداً بالقياس . وإن كان خطاباً لكل فالقياس ثابت بالدليل فهو بمثابة المنزل . هكذا ذكر الحاكم والأكثر : أنه يجوز منه عليه الصلاة والسلام الاجتهاد ، ومنعه آخرون . وقوله تعالى : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) قد يستدل به على أن الواجبات على الفور . وهو محتمل . لأن المراد قبل أن يسبق عليكم الموت . انتهى .

وفي (الإكليل) : استدللّ به على أن تقديم العبادات أول وقتها أفضل من تأخيرها . انتهى .

وقد روى مسلم^(١) عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبرّ الوالدين .

وروى أبو داود^(٢) والترمذي والحاكم عن أم فروة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٩ - باب في المحافظة على وقت الصلوات ،

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ » أى : لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ، بمعنى : لا تصافوهم ولا تعاضروهم مصافاة الأحاب ومعاشرتهم .
قال المهايى : إذا كان تودد أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقصد افتتانه عن بعض ما أنزل الله مع غاية كماله ، فكيف حال من يتودد إليهم من المؤمنين ؟ انتهى .

ووصفهم بعنوان (الإيمان) لحلمهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه . فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين ، من أقوى الزواجر عن موالاتهما . « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إيماء إلى علة النهى . أى : فإنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم فى الدين . وإجماعهم على مضادكم . فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم !!
« وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » أى : من جملتهم ، وحكمه حكمهم وإن زعم أنه مخالف لهم فى الدين ، فهو بدلالة الحال منهم لدالاتها على كمال الموافقة .

قال الزمخشرى : وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين واعتزاله . كما قال (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تراءى ناراهما . ومنه قول عمر

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٩٥ - باب على ما يقاتل المشركون ، حديث ٢٦٤٥ ونصه :

عن جرير بن عبد الله قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل .

قال ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأمر لهم بنصف العقل . وقال « أنا برى من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله ! لم ؟ قال « لا تراءى ناراهما » .

رضي الله عنه لأبي موسى في كتابه النصراني : لا تكرموهم إذا هانهم الله . ولا تأمنوهم إذا خوتهم الله . ولا تُدَنُوهم إذ أقصاهم الله . وروى أنه قال له أبو موسى : (لا قوام للبصرة إلا به) فقال : مات النصراني والسلام . يعني : هب أنه قد مات ، فما كنت تكون صانعاً حينئذ ، فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » يعني : الذين ظلموا أنفسهم بموالاته الكفرة . روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر . قال . فظنناه يريد هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... الآية .

ثم بين تعالى كيفية توليهم . وأشعر بسببه وبما يؤول إليه أمره . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَهَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى : نفاقٌ وشكٌّ في وعد الله لإظهار دينه « يُسَارِعُونَ فِيهِمْ » أى : في مودتهم في الباطن والظاهر ، من غير نظرٍ فيما يلحقهم من الضرر في دين الله ، والفضيحة بالنفاق « يَقُولُونَ » أى : في عذرهم « نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ » أى : من دوائر الزمان ، وصرف من صروفه ، فتسكون الدولة لهم ، فنحتاج إليهم ، فنحن نتحفظ عن شرهم . ولا يتفكرون في أن الدائرة ربما تصيب من يوالونهم . والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها . وأصلها : الخط المحيط بالسطح . استعيرت لنوائب الزمان ، بملاحظة إحاطتها واستعمالها في المكروه . و (الدولة) ضدها ، وقد ترد بمعنى (الدائرة) أيضاً ، لكنه قليل . كذا في (العناية) .

ثم ردّ تعالى عَلَيْهِمُ الباطلة ، وقطع أطاعهم الفارغة ، وبشر المؤمنين بالظفر بقوله سبحانه « فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ » أى : فتح مكة ، عن السدى . أو فتح قرى اليهود من خيبر وفدك ، عن الضحاك . وقال قتادة ومقاتل : هو القضاء الفصل بنصره ﷺ على أعدائه ، وإظهار المسلمين « أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ » يقطع شأفة اليهود ، ويجليهم عن بلادهم « فَيُضْبِحُوا » أى : المنافقون « عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ » من الشك في ظهور الإسلام ، أو من النفاق « نَادِمِينَ » لافتضاحهم بالنفاق مع الفريقين . وتعليق الندامة بما كانوا يكتُمونه - لا بما كانوا يظهرونه من موالاته الكفرة - لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاته ويفريهم عليها . فدلّ ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ ءِيمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » قال الزمخشري : قرئ بالنصب عطفًا على (أَنْ يَأْتِيَ) ، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ . أى : ويقول الذين آمنوا فى ذلك الوقت . وقرئ (يقول) بغير (واو) وهى مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك . على أنه جواب قائل يقول : فإذا يقول المؤمنون حينئذٍ ؟ فقيل : يقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا ؟ (فإن قلت) : لمن يقولون هذا القول ؟ (قلت) : إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجبًا من حالهم ، واغتيالًا بما من الله عليهم من التوفيق فى الإخلاص « أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ ءِيمَانِهِمْ » أى : حلفوا لكم بأغلاظ الإيمان « إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ » أى : إنهم أولياؤكم ومعاضدكم على الكفار . وإما أن يقوله لليهود ، لأنهم حلفوا لهم بالمعاودة والنصرة . كما حكى الله عنهم : وَلَئِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ . أى : فقد تباعدوا عنكم . فيظهر أنهم لم يكونوا مع المؤمنين

ولا مع اليهود « حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » أى : فى الدنيا ، إذ ظهر نفاقهم عند الكل . وفى الآخرة ، إذ لم يبقَ لهم ثواب .
قال الرخشرى : هذه الجملة من قول المؤمنين . أى : بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم ! أو من قول الله عز وجل ، شهادة لهم بحبوط الأعمال ، وتعجباً من سوء حالهم .. انتهى .
وفيه من الاستهزاء بالنافقين والتقريع للمخاطبين ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول - : فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة .

روى عن السدى^(١) ، أنها نزلت فى رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحُدٍ : أما أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودى فأواليه وأتهود معه لعله ينفعى إذا وقع أمر أو حدث حادث . وقال الآخر : وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام فأواليه وأت نصر معه . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ... الآيات .

وقال عكرمة : نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة . فسأله : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أى : إنه الذبح . رواه ابن جرير^(٢) .
وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى ، ابن سلول .

روى ابن جرير^(٣) عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن لى موالى من يهود كثير عددهم . وإنى

(١) الأثر رقم ١٢١٥٩ من تفسير ابن جرير .

(٢) الأثر رقم ١٢١٦٠ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢١٥٦ فى التفسير .

أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود . وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبيّ : إني رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية مواليّ . فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبيّ : يا أبا الحباب ! ما بخلتَ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه . قال قد قبلت فأَنْزَلَ اللهُ عز وجلّ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ... الْآيَتِينَ .

ثم روى ابن جرير^(١) عن الزهريّ قال : لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللهُ بِيَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ .. فقال مالك بن صيف : غرّمَ كم إن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ! أما لو أَمَرْنَا الْعَزِيزَةَ أَنْ نَسْتَجْمَعَ عَلَيْكُمْ ، لم يكن لكم يدٌ أَنْ تَقَاتِلُونَا . فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله ! إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ، ولا مولى لي إلا الله ورسوله .. فقال عبد الله بن أبيّ : لكفى لا أبرأ من ولاية يهود . إني رجل لا بدّ لي منهم . فقال رسول الله ﷺ : يا أبا الحباب ! رأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه . فقال إذا أقبل ! قال : فَأَنْزَلَ اللهُ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ ... - إلى قوله - وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

وقال محمد^(٢) بن إسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . فقسم إليه عبد الله بن أبيّ ، ابن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ! أحسن في مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج - قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ . فقال : يا محمد ! أحسن في مواليّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : أرسلني . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظملاً ، ثم

(١) الأثر رقم ١٢١٥٧ من التفسير .

(٢) السيرة بالصفحة رقم ٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) والصفحة رقم ٥٤٦

(طبعة جوتنجن) .

قال : ويحك ! أرسلني . قال : لا ، والله ! لا أرسلك حتى تحسن في موالى . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدكم في غداة واحدة ؟ إني امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله ﷺ : هُمْ لَكَ .

قال محمد^(١) بن إسحق : فحدثني أبي ، إسحق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ، وقام دونهم . ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ - وكان أحد بني عوف من الخزرج ، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي - فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل ، وإلى ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ! أتولى الله ورسوله والمؤمنين . وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم .. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ - إلى قوله - فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبي نعوذه ، فقال له النبي ﷺ : قد كنت أنهاك عن حب يهود . فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات . وكذا رواه أبو داود .

الثاني : قال بعض مفسري الزيدية : ثمرات الآية أحكام .

(الأول) - أنه لا يجوز موالاة اليهود ولا النصارى . قال الحاكم : والمراد موالاة في الدين . وجعل الزمخشري الموالاة في النصره والمصافاة ، وبين وجوب المجانبة للمخالف في الدين ، كما تقدم . والبعد والمجانبة استحباب ، إذ قد جازت المخالطة في مواضع بالإجماع ، وذلك حيث لا يؤم محبتهم ولا بأنهم على حق .

(١) السيرة بالصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) والصفحة رقم ٥٤٦

(طبعة جوتنجن) .

(٢) أخرجه في السند بالصفحة ٢٠١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(الحكم الثاني) - أن للإمام أن يسقط الحدّ إذا خشى ، أو يؤخره . وقد ذكر هذا ، الأمير يحيى والراضى بالله والحاكم . وهذا مأخوذ من سبب النزول ، وترك النبي ﷺ بنى قينقاع لعبد الله بن أبيّ .

(الحكم الثالث) - صحة الموالاة منهم لبعضهم بعضاً . وقد قال عليّ بن موسى القمّيّ : الآية تدل على أنهم ملة واحدة : فتصح المناكحة بينهم والمواريثة . والمذهب خلاف ذلك . والدلالة على ما ذكر محتملة . لأنها تحتل أن المراد : بعضهم أولياء بعض في معاداة المسلمين ؛ أو يعنى : بعض اليهود وليّاً لبعض اليهود .

(الحكم الرابع) - أن من تولاهم فهو منهم . ولا خلاف في أنه صار عاصياً لله كما عصوه . ولكن أين تبلغ حد معصيته ؟ وقد اختلف في ذلك ، فقيل : معنى قوله (فإنه منهم) أى : حكمه حكمهم في الكفر ، وهذا حيث يقرّهم على دينهم . فكأنه قد رضيه . وقيل : من تولاهم على تكذيب رسول الله ﷺ . وقيل : المراد أنه منهم في وجوب عداوته والبراءة منه . قال الحاكم : ودلالة الآية مجملة . فهي لا تدل على أنه كافر إلا أن يحمل على الموافقة في الدين .

(الحكم الخامس) - ذكره الحاكم ، أنه لا يجوز الاستعانة بهم . قلنا : ذكر الراضى بالله : أنه ﷺ قد حالف اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب ، وجدد صلى الله عليه وآله الحلف بينه وبين خزاعة . حتى كان ذلك سبب الفتح . وكانت خزاعة عيّنة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مسلمهم وكافرهم . قال الراضى بالله : وهو ظاهر قول آبائنا عليهم السلام . وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . واستعان صلى الله عليه وآله وسلم بالمنافقين . قال الراضى بالله : ويجوز الاستعانة بالفساق على حرب المبطلين . فتكون هذه الاستعانة غير موالاة .

التنبيه الثالث - في التفسير المتقدم مانصه : وفي الآية الكريمة زواج عن موالاة اليهود والنصارى من وجوه : (الأول) - النهي بقوله : لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . وسائر الكفار لاحق بهم . (الثاني) - قوله تعالى : بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . والمعنى : أن الموالاة من بعضهم لبعض لا تحادهم بالكفر ، والمؤمنون أعلى منهم . (الثالث) - قوله تعالى : وَمَنْ يَقُولْهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا تغليظ وتشديد ومبالغة . مثل قوله صلى الله عليه وآله ^(١) : لا تراءى ناراهما . ومثل قوله عليه السلام ^(٢) : لا تستضيئوا بنار المشركين . (الرابع) - ما أخبر الله به أنه لا يهديهم . (الخامس) - وصفهم بالظلم ، والمراد : الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار . (السادس) - أنه تعالى أخبر أن الموالاة لهم من دين الذين في قلوبهم مرض ، أى : شكّ ونفاق . (السابع) - ما أخبر الله تعالى به من علة الموالين ، وأن ذلك خشية الدوائر . لا أنه يأذن من الله ولا من رسوله . (الثامن) - قطع الله لِمَا زينه لهم الشيطان من خشية رجوع دولة الكفر فقال تعالى : فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ . (وعسى) في حق الله تعالى لواجب الحصول بالفتح لمكة أو لبلاد الشرك . (التاسع) - ما بشر الله تعالى به من إهانتهم بقوله : أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . قيل : إذلال الشرك بالجزية . وقيل : قتل قريظة وإجلاء النضير . وقيل : أن يورث المسلمين أرضهم وديارهم . (العاشر) - ما ذكره الله تعالى من الأمر الذي يؤول إليه حالهم ، وأنهم يصبحون نادمين على ما أمرّوا في أنفسهم

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٠٢ .

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٨ - كتاب الزينة ، ٥١ - باب قول النبي ﷺ « لا تنقشوا

على خواتيمكم عربيا » ونصه :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا

على خواتيمكم عربيا » .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

من غشهم للمسلمين ونصحهم للكافرين . وقيل : من نفاقهم . وقيل : من معادتهم للكفار ، وذلك حين معاينتهم للعذاب . وقيل : في الدنيا ، بما صاروا فيه من الذلة والصغار . (الحادى عشر) - ما ذكره الله تعالى من تعجب المؤمنين من فضيحة أعداء الله وخبثهم في إيمانهم بقوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ ... الآية . (الثانى عشر) - ما أخبر الله من حالهم بقوله تعالى : حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . وقيل : خسروا حظهم من مواليتهم . وقيل : أهلكوا أنفسهم . وقيل : خسروا ثواب الله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » لما نهى تعالى - فيما ساف - عن موالاة اليهود والنصارى ، وبين أن مواليتهم مستدعية للارتداد عن الدين بقوله : (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) وقوله : (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) - شرع فى بيان حال المرتدين على الإطلاق . ونوه بقدرته العظيمة . فأعلم أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيبديل به من هو خير له منه ، وأشد منه ، وأقوم سبيلاً . كما قال تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ^(١) . وقال تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها : هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخِرِينَ^(١) . وقال تعالى : إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ^(٢) *
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . أى : بممتنع ولا صعب .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال المحققون : هذه الآية من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها .
وقد وقع الخبرُ به على وقتها . فيكون معجزاً . فقد روى أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة
فرقة : ثلاث فى عهد رسول الله ﷺ .

(بنو مدلج) ورئيسهم ذو الحمار - بحاء مهملة وضبطه بعضهم بالمعجمة - وهو الأسود
العنسى - بالنون نسبة إلى عنس قبيلة باليمن - وكان كاهناً ثم تنبأ باليمن ، واستولى على بلاده ،
وأخرج عمال رسول الله ﷺ ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن .
فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي . بَيْتُهُ فَقْتَلَهُ . وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلة قُتِلَ .
فسُرَّ المسلمون . وقُبِضَ رسول الله ﷺ من الغد فى آخِر شهر ربيع الأول .

و (بنو حنيفة) قوم مسيلمة^(٣) : تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله

(١) [٤ / النساء / ١٣٣] ونصها : إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخِرِينَ ،
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٧١٦] .

(٣) جاء فى سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) والصفحة
٩٦٥ (طبعة جوتنجن) ما يأتى :

وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله إلى
محمد رسول الله . سلام عليك . أما بعد ، فإنى قد أشركتُ فى الأمر معك ، وإن لنا نصف
الأرض ، ولقريش نصف الأرض . ولكن قريشاً قوم يعتدون .

إلى محمد رسول الله . أما بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك . فأجاب عليه الصلاة والسلام :
من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده
والعاقبة للمتقين .. فخاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين ؛ وقُتِلَ على يَدَيْ وحشى ،
قاتل حمزة ، وكان يقول : قتلْتُ خير الناس فى الجاهلية ، وشرَّ الناس فى الإسلام . أراد : فى
جاهليتي وإسلامي .

و (بنو أسد) قوم طليحة بن خويلد : تنبأ فى حياة النبي ﷺ ، وكثر جمعه ، ومات

= فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب .

قال ابن إسحاق : فحدثني شيخ من أشجع ، عن سَلَمَةَ بن نَعِيم بن مسمود الأشجعيّ ،
عن أبيه نعيم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما ، حين قرأ كتابه « فما تقولان أنما؟ »
قالا : نقول كما قال . فقال « أما ، والله ! لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .
ثم كتب إلى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .
السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين » .

وجاء فى طبقات ابن سعد بالصفحة ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت) ما يأتى :
قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب ، لعنه الله ، يدعوه إلى الإسلام .
وبعث به مع عمرو بن أمية الضمريّ . فكتب إليه مسيلمة جواب كتابه ، ويذكر فيه أنه
نبيّ مثله ، ويسأله أن يقاسمه الأرض ، ويذكر أن قريشاً قوم لا يمدلون . فكتب إليه
رسول الله ﷺ ، وقال : العنوه لعنه الله ! وكتب إليه : بلغنى كتابك الكذبُ والافتراء
على الله . وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع
الهدى .

قال ، وبعث به مع السائب بن العوام ، أخى الزبير بن العوام .

ﷺ وهو على ذلك . فبعث إليه أبو بكر خالداً رضى الله عنهما فقصده . فانهزم طليحة بعد القتال إلى الشام . ثم أسلم وحسن إسلامه .

وسبغ في عهد أبي بكر رضى الله عنه :

(فزاره) قوم عُيَيْنَةَ بن حصن ؛

و (غطفان) قوم قرّة بن سلمة القشيريّ ؛

و (بنو سليم) قوم الفجاءة بن عبد ياليل - بيائين - ولا مين كهابيل - صنم سمي

هذا به .

و (بنو ربوع) قوم مالك بن نورية .

و (بعض تميم) قوم سجاح بنت المنذر . كانت كاهنة ثم تنبأت وزوجت نفسها مسيلمة

الكذاب ثم أسلمت وحسن إسلامها .

و (كندة) قوم الأشعث بن قيس .

و (بنو بكر بن وائل) بالبحرين ، قوم الحطم - كزفر - بن زيد . وكفى الله أمرهم

على يدي أبي بكر رضى الله عنه .

وفرقّة واحدة في عهد عمر رضى الله عنه :

(غسان) قوم جبلة بن الأيهم ، نصرته اللطمة وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه .

والجمهور : على أنه مات على رده . وقيل : إنه أسلم .

وروى الواقدي^(١) : أن عمر رضى الله عنه كتب إلى أحبار الشام - لما لحق بهم -

(١) وهذا ماجاء في طبقات ابن سعد ، بالصفحة ٢٦٥ من المجلد الأول (طبعة بيروت) :

قالوا : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى جبلة بن الأيهم ، ملك غسان ، يدعوه

إلى الإسلام . فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهدى له هدية .

ولم يزل مسلماً حتى كان في زمن عمر بن الخطاب . فبينما هو في سوق دمشق إذ وطئ =

كتاباً فيه : أن جبلة ورد إلى في سراة قومه ، فأسلم فأكرمته . ثم سار إلى مكة فطاف فوطى إزاره رجل من بنى فزارة ، فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه . (وقيل : قلع عينه ، وبذل له ما سياتي) فاستمدى الفزاري على جبلة إلى . فحكمت إما بالعفو أو بالقصاص . فقال : أتقتصّ مني وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقلت : شمالك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعمافية . فسأل جبلة التأخير إلى الغد . فلما كان من الليل ركب مع بنى عمه ولحق بالشام مرتدّاً . وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تَنْصَرْتُ بَعْدَ الْحَقِّ عَاراً لِلطَّمَةِ	ولم يك فيها ، لو صبرت لها ، ضرر
فَأَدْرَكْنِي فِيهَا لِحَاجِ حِمِيَةٍ	فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي	صبرت على القول الذي قاله عمر

هذا ما في (الكشاف) و (العناية) .

وقال الخطابي أهل الردة كانوا صنفين : صنفاً ارتدوا عن الدين وناذبوا الملة وعدلوا إلى الكفر . وهذه الفرقة طائفتان : (إحداهما) أصحاب مسيمة الكذاب من بنى حنيفة وغيرهم

= رجلاً من مزينة . فوثب الزني فلطمه . فأخذ وانطلق به إلى أبي عبيدة بن الجراح . فقالوا : هذا لطم جبلة . قال : فليطمه . قالوا : وما يُقتل ؟ قال : لا . قالوا : فما تقطع يده ؟ قال : لا ، إنما أمر الله ، تبارك وتعالى ، بالقود . قال جبلة : أو ترون أني جاعل وجهي ندّاً لوجه جدّي جاء من عمّق ! (عمق : أرض لمزينة . اللسان) بئس الدين هذا ! ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم .

فبلغ ذلك عمر ، فشقّ عليه وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد ! أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً ؟ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ولم ؟ قال : لطمه رجل من مزينة ، قال : وحقّ له .

فقام له عمر بالدرة فضربه بها .

الذين صدقوه على دعواه في النبوة ، وأصحاب الأسود العنسى ومن استجابه من أهل اليمن . وهذه الفرقة بأسرها منكفرة لنبوة نبينا محمد ﷺ ، مدعية النبوة لغيره . فقاتلهم أبو بكر حتى قتل مسيلمة باليمامة ، والعنسي بصنعاء ، وانقضت جموعهم وهلك أكثرهم . و(الطائفة الأخرى) ارتدوا عن الدين . فأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين . وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله في الأرض إلا في ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس .

قال ؛ والصنف الآخر : هم الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها إلى الإمام ، وهؤلاء ، على الحقيقة ، أهل البغي وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمن خصوصاً ، لدخولهم في غمار أهل الردة ، وأضيف الاسم في الجملة إلى أهل الردة ، إذ كانت أعظم الأمور وأهمها .

انظر تنمة هذا المبحث في (نيل الأوطار) في كتاب الزكاة .

قال الشوكاني : فأما مانعو الزكاة منهم ، المقيمون على أصل الدين ، فإنهم أهل بنى . ولم يسموا على الانفراد كفاراً ، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعه من حقوق الدين ، وذلك أن الردة اسم لغوى . فكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه ، فقد ارتد عنه . وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق . وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح ، وعلق بهم الاسم القبيح ، لمشاركتهم القوم الذين كان ارتدادهم حقاً .

الثانية : قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) .

مذهب السلف في المحبة المسندة له تعالى ، أنها ثابتة له تعالى بلا كيف ولا تأويل ، ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها . كما تقدم في الفاتحة في (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) . فتأويل مثل الزخشرى لها - بإثابته تعالى لهم أحسن الثواب ، وتمظيمهم والثناء عليهم

والرضا عنهم - تفسير باللائم ، منزع كلاميّ لاسلفيّ . وقد أنكر الزمخشريّ أيضاً كون محبة العباد لله حقيقة ، وفسرها بالطاعة وابتغاء المرضاة . فردّه صاحب (الاتصاف) بأنّه خلاف الظاهر . وهو من المجاز الذى يسمى فيه المسبب باسم السبب ، والمجاز الذى لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة بالقواعد ، لينظر : أهى ثابتة للعبد متعاقبة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة ، لغة ، ميل المتصف بها إلى أمر ملذ . واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحسن : كلذة الذوق فى المطبوع ، ولذة النظر واللمس فى الصور المستحسنة ، ولذة الشم فى الروائح العطرية ، ولذة السمع فى النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل : كلذة الجاه والرياسة والعلوم ومايجرى مجراها . فقد ثبت أن فى اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها ، وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث . فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات ، فليس معلوم أكل ولا أجمل من المعبود الحق . فاللذة الحاصلة فى معرفته تعالى ، ومعرفة جلاله وكماله ، تكون أعظم . والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بشت على الطاعات والمواقفات . فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ - كتاب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص القرشىّ المدوىّ رضى الله عنه ، حديث ١٧٣٤ ونصه :
عن أنس رضى الله عنه ؛ أن رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الساعة ؟ قال
« وماذا أعددت لها ؟ » قال : لا شيء ، إلا أنى أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .
فقال « أنت مع من أحببت » .

قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبيّ ﷺ « أنت مع من أحببت » .
قال أنس : فأنا أحب النبيّ ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأجو أن أكون معهم بحبى إياهم ،
وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .

ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك ، وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لغةً ، وكانت الطاعة والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابي^(١) الذي سأل عن الساعة ؟ فقال النبي ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل . ولكن حب الله ورسوله . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابي نفاه وأثبت الحب ، وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك . ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغةً ، فالمحبة في اللغة ، إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ، وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته - فلا تمنع أن تسمى محبته عشقاً ، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . انتهى .

الثالث : قوله تعالى « أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

قال ابن كثير : هذه صفات المؤمنين الكمل ، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه ، متمعزاً على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ^(١) .

قال الزخشري : فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين ؟ قلت فيه وجهان : (أحدها) أن يضمن النل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التدلل والتواضع .

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لَيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

و (الثنائي) أنهم - مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين - خافضون لهم أجنحتهم .
وقرى (أذلة وأعزة) بالنصب على الحال .

وفي (الحواشي) : أن قوله تعالى : « أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » تكميل . لأنه لما وصفهم بالتذلل ، ربما توهم أن لهم في أنفسهم حقارة ، فقال : ومع ذلك هم أعزة على الكافرين ، كقوله :

جُلُوسٌ فِي مَجَالِسِهِمْ رِزَانٌ^(١) وَإِنْ ضَيْفُ الْمَلِكِ بِهِمْ خُفُوفٌ

واستدل بالآية على فضل التواضع للمؤمنين والشدة على الكفار .

الرابعة : قوله تعالى : وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

قال الزمخشري : يحتمل أن تكون (الواو) للحال على معنى : أنهم يجاهدون ، وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود . فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم ؛ وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط . وأن تكون للعطف على أن من صفتهم المجاهدة في سبيل الله . وأنهم صلاب في دينهم . إذا شرعوا في أمر من أمور الدين - إنكار منكر أو أمر بمعروف - مضوا فيه كالمساير المحمات ، لا يربهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم . يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم . و (اللومة) المرة من اللوم . وفيها وفي التنكير مبالغة . كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحدٍ من اللوام . انتهى .

وفيه وجوب التمسك بالحق وإن لاه لائم . وإنه مع تمسكه به ، صيره محله أعلى ممن تمسك به من غير لوم . لأنه تعالى مدح من هذا حاله . وفيه أيضاً ، أن خوف الملامة ليس عذراً في ترك أمر شرعي .

(١) رزان جمع رزين . خفاف جمع خف . والخف هو الخفيف ، كما جاء في اللسان .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبي ذرّ قال : أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع : أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوق ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرّت ، وأمرني أن لأسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإنهنّ كنز من تحت العرش .

وروى الإمام أحمد^(٢) أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله ﷺ : ألا ، لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحقّ إذا رآه أو شهد . فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق أن يقول بحقّ أو أن يذكر بعظيم .

وروى أيضاً عنه^(٣) قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحقرن أحدكم نفسه ، أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة : مامنك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس ، فيقول : إياي أحقّ أن تخاف .

وروى الشيخان^(٤) عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٤٣ - باب كيف يبايع الإمام

الناس ، حديث ٢٥٤٧ ، وهذا لفظه .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) وهذا لفظ مسلم :

قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

على السمع والطاعة في النشاط والمكره . وأن لانتازع الأمر أهله . وأن نقول بالحق حينما كنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

الخامسة : قوله تعالى (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

الإشارة إلى ما ذكر من حب الله إياهم ، وجهبهم لله وذلتهم للمؤمنين ، وعزتهم على الكافرين ، وجهادهم في سبيل الله ، وعدم مبالاتهم للوم اللوام . فالذكر كله فضل الله الذي فضل به أوليائه .

قال المهايي : أما المحبتان فظاهر . وكذا العزة على الكفار والجهاد . وأما الذلة على المؤمنين فلأنه تواضع موجب للرفع . وأما عدم خوف الملامة فلما فيه من تحقيق المودة مع الله . وقوله تعالى « بُوئْتِهِ مَنْ يَشَاءُ » أي : ممن يريد به مزيد إكرام من سعة جوده ، « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » أي : كثير الفواضل ، جلّ جلاله .

ولمّا نهى عن موالاته اليهود والنصارى ، أشار إلى من يتعين للموالاته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ » المفيض عليكم كل خير « وَرَسُولُهُ » الذي هو واسطة الفيض « وَالَّذِينَ آمَنُوا » الممّينون في موالاته الله ورسوله بأفعالهم ، لأنهم « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » التي هي أجمع العبادات البدنية « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » القاطعة بحبة المال الجالب للشهوات « وَهُمْ رَاكِعُونَ » حال من فاعل الفعلين ، أي : يعملون ما ذكر - من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة - وهم خاشعون ومتواضعون لله ومتذلّلون غير معجبين . فإن رؤيتهم تؤثر فيمن يواليهم بالعمون في موالاته الله ورسوله .

القول في تأيل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)
« وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » فيعينهم وينصرهم « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » في العاقبة على أعدائه .

تنبيهات :

الأول : إنما أفرد (الولي) ولم يجمع ، مع أنه متعدد ، للإيدان بأن الولاية لله أصل ، ولغيره تبع لولايته عز وجل . فالتقدير : وكذلك رسوله والذين آمنوا .

الثاني : ثمرة هذه الآية تأكيد موالاته المؤمنين والبعد عن موالاته الكفار .

الثالث : قال ابن كثير : توهم بعض الناس أن هذه الجملة - معنى قوله تعالى (وَهُمْ رَاكِعُونَ) - في موضع الحال من قوله (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى في ركوعهم . ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح . وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمهم من أئمة الفتوى . وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب ، أن هذه الآية نزلت فيه : إنه مرة به سائل في حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه . ثم روى ابن كثير الأثر المذكور عن ابن أبي حاتم وابن جرير^(٢) وعبد الرزاق وابن مردويه ، ثم قال : وليس يصح شيء منها بالكلية . لضعف أسانيدھا وجهالة رجالھا .. انتهى .

وقد اقتصر ذلك الخفاجي في (حواشي البيضاوي) عن الحاكم وغيره بطول . ثم أنشد أبياتاً لحسان بن ثابت فيها . ولوائح الضعف بل الوضع لا تحفى عليها . لا سيما ونفس حسان ابن ثابت ، العريق في العربية ، بعيد مما نسب إليه . وأى حاجة للتنبؤ به بفضل علي عليه السلام بمثل هذه الواهيات . وفضله أشهر من نارٍ على علم .

(١) الأثر رقم ١٢٢١٠ من التفسير .

قال البغوي^(١) : روى عن عبد الملك بن سليمان قال : سألت أبا جعفر ، محمد بن علي الباقر عن هذه الآية (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) من هم ؟ فقال : المؤمنون . فقلت : إن ناساً يقولون هو علي . فقال : علي من الذين آمنوا .

قال ابن كثير : وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها ، أن هذه الآية كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، حين تبرأ من حلف يهود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

الرابع : ذهب من رأى أن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام وأنه تصدق بخاتمته وهو رابع - كما قدمنا - إلى أن العمل القليل في الصلاة لا يبطلها ، وإن صدقة النفل تسمى زكاة . نقله السيوطي في (الإكليل) عن ابن الفرس .

وقال بعض الزيدية : ثمرة الآية تأكيد موالاة المؤمنين ، وبيان فضل من نزلت فيه . وأنه يجوز إخراج الزكاة في الصلاة ، وتنوى . وكذا نية الصيام في الصلاة تصح . وإن الفعل القليل لا يفسد الصلاة . قال : وهذا مأخوذ من سبب نزولها ، لا من لفظها . ومتى قيل إن علياً عليه السلام لم يجب عليه زكاة ؟ قلنا : إذا صح ما ذكر أنها نزلت فيه ، كان أولى بالصحة ، وأنها قد وجبت عليه .

قال في (النياضة) : إن قيل : قد روى أنه كان من ذهب ، والذهب محرّم على الرجال ؛ أجب بأن ذلك كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، أو أن هذا من خواص علي عليه السلام . انتهى .

قال الزخشرى : فإن قلت : كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه ، واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جيء به على لفظ الجمع ، وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ، ليرغب الناس في مثل فعله فيتناكوا مثل ثوابه . ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية

من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء . حتى إن لزّهم أمرٌ لا يقبل التأخير - وهم في الصلاة - لم يؤخروه إلى الفراغ منها . انتهى .

وإنما أوردنا هذا ، على علته ، تعجيباً من غرائب الاستنباط . وقد توسع الرازي ، عليه الرحمة ، في المناقشة مع الشيعة هنا ، فليراجع فإنه بحث بديع .

الخامس : قوله تعالى (فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) معناه : فإنهم هم الغالبون . فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى (من) دلالة على علة الغلبة . وهو أنهم حزب الله . فكأنه قيل : ومن يتولّ هؤلاء فهم حزب الله . وحزب الله هم الغالبون . وتنوياً بذكرهم وتعليقاً لشأنهم وتشريعاً لهم بهذا الاسم ، وتعريضاً لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان . وأصل (الحزب) القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُمْ . وقيل : الحزب جماعة فيهم شدة . فهو أخص من الجماعة والقوم .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة غيرهم ، إن كانت لجرّ نفع ، فضررها أعظم . وإن كانت لدفع ضرر ، فالضرر الحاصل بها لا يفي بالمدفع ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى : مقتضى إيمانكم حفظ تعظيم دينكم « لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ » أى : الذى هو رأس مالِ كلاتكم ، الذى به انتظام معاشكم ومعادكم ، وهو مناط سعاداتكم الأبدية ، وسبب قربكم من ربكم « هُزُؤًا » أى : شيئاً مستخفّاً « وَلَعِبًا » أى : سخريّةً وضحكاً ، مبالغة في الاستخفاف به حتى لعبوا بقول أهله .

ثم بين المستهزئين وفصلهم بقوله تعالى « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ » قرى بالنصب والجر ، يعنى المشركين كما فى قراءة ابن مسعود (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) « أَوْلِيَاءَ » فى العون والنصرة . وإنما رتب النهى على وصف اتخاذهم الدين هزواً ولعباً ، تنبيهاً على العلة ، وإيداناً بأن من هذا شأنه ، جدير بالبعضاء والشتان والمنازعة . فكيف بالموالاتة ؟ « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى ذلك ، بترك موالاتهم ، أو بترك المناهى على الإطلاق . فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولاً أولياً « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى : حقاً ، فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة .

ثم بين استهزاءهم بحكم خاص من أحكام الدين ، بعد استهزائهم بالدين على الإطلاق ، إظهاراً لكمال شقاوتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » أى : دعوتهم إليها بالأذان « اتَّخَذُوهَا » أى : الصلاة أو المناداة « هُزُوءًا وَلَعِبًا » بأن يستهزئوا بها ويتضحكوا « ذَلِكَ » أى الاتخاذ « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أى : معانى عبادة الله ، فإن السفه يودى إلى الجهل بمحاسن الحق والجزاء به ، ولو كان لهم عقل فى الجملة لما اجترأوا على تلك المظيمة . فإن الصلاة أكمل القربات ، وفى النداء معان شريفة من تعظيم الله باعتبار ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . ومن ذكر توحيده باعتبار ذاته ، وباعتبار عدم مغايرة أسمائه وصفاته ، ومن تعظيم رسوله باعتبار قيامه بمصالح المعاش والمعاد ، ومن الصلاة من حيث هى وصلة ما بين العبد وبين الله ، ومن حيث إفادتها معالى الدرجات ، ومن تعظيم مقصده وهو الفلاح فى الظاهر والباطن ، وما هو غاية مقصده من القرب من الله باعتبار عظمة ظاهره وباطنه ، ومن الوصول إلى توحيده الحقيقى . أفاده المهيأ .

تنبيهات :

الأول : في آثار رويت في هذه الآية :

روى أبو الشيخ ابن حبان عن ابن عباس قال : كان رفاة بن زيد بن التابوت ، وسويد بن الحارث ، قد أظهر الإسلام وناقفا ، وكان رجل من المسلمين يوادهما ، فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... » الآية.

وروى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم عن السدي في قوله « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَكِبَاءً » قال : كان رجل من النصارى بالمدينة ، إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : حُرِّقَ الكاذب. فدخلت خادمه ليلة من الليالي بنار، وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله .

وذكر محمد^(٢) بن إسحق بن يسار في (السيرة) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن . وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة . فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً . لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى . فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : قد علمت الذي قلتم . ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله . والله! ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك.

وروى الإمام أحمد^(٣) عن عبد الله بن محيرز - وكان يتيماً في حجر أبي مخنف - قال :

(١) الأثر رقم ١٢٢١٨ من التفسير .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) والصفحة

٨٢٢ (طبعة جوتنجن) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

قلت لأبي محذورة : يا عم ! إني خارج إلى الشام . وأخشى أن أسأل عن تأذيتك . فأخبرني ؛ أن أبا محذورة قال له : نعم ! خرجت في نفر فكنا يبعض طريق حنين ، فقفل رسول الله صلى عليه وسلم من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعض الطريق . فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون . فصرخنا نحكيه ونستهزئ به . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوت فأرسل إلينا ، إلى أن وقفنا بين يديه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع ؟ فأشار القوم كلهم إلى ، وصدقوا . فأرسل كلهم وحبسني فقال : قم فأذن . فقممت ، ولا شيء . أكره إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرني به ، فقممت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو نفسه فقال : قل : الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . ثم قال لي : ارجع فامدد من صوتك . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح . الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة . ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة . ثم أمرها على وجهه مرتين . ثم مرتين على يديه . ثم على كبده . ثم بلغت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّة أبي محذورة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيك . فقلت : يا رسول الله ! مرني بالتأذين بمكة . فقال : قد أمرتك به . وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدمت على عتّاب بن أسيد ، عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : دلت الآية على وجوب موالاته المؤمنين ومعاداة الكفار . والمراد به في أمر الدين ، كما تقدم .

الثالث : دلت على أن الهزء بالدين كفر ، وأن هزله بكبد .

قال في (الإكليل) : الآية أصل في تكفير المستهزئ بشيء من الشريعة .

الرابع : دلت على أن للصلاة نداء وهو الأذان ، فهي أصل فيه .

قال الزمخشري : قيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب ، لا بالنام وحده .

ولما نهى تعالى عن تولي المستهزئين ، أمر أن يخاطبوا بأن الدين منزّه عما يصحح صدور

ما صدر عنهم من الاستهزاء ، ويظهر لهم سبب ما ارتكبوا ويلقمو الحجر ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ » وصفوا بذلك تهيداً لتبكيهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ،

أى : يا أصحاب الكتاب ، العالمين بالنقائص والعيوب ، التي يستحق على تحققها وفقدائها

الاستهزاء ، « هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا » أى : ما تعيبون وتنكرون منا « إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ »

وهو رأس العيوبات « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق

« وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ » وهو يشهد لما أنزل إلينا « وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ » أى :

متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر .

لطائف

الأولى : إنما فسر (تنقمون) بـ (تعيبون) و (تنكرون) لأن النعمة معناها الإنكار

باللسان أو بالعقوبة - كما قاله الراغب - لأنه لا يعاقب إلا على المنكر فيكون على حد قوله :

* واشتمت بالأفعال لا بالآل - كالم * فلذا حسن (انتقم منه) مطاوعه ، بمعنى عاقبه وجزاه ،

وإلا فكيف يخالف المطاوع أصله؟ فافهم . و (نقم) ورد كالم يعلم وضرب يضرب ،

وهي الفصحى ، ويمدّى بـ (من) و (على) . وقال أبوحيان : أصله أن يتمدى بـ (على) . ثم (افتمل) المبني منه ، يمدى بـ (من) لتضمنه معنى الإصابة بالمكروه ، وهنا (فعل) بمعنى (افتمل) . كذا في (العناية) .

الثانية : في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكلال المكارة والتعكيس ، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر ، موجبا لنقمه ، مع كونه في نفسه موجبا لقبوله وارتضائه . فمعنى الآية : ليس شيء ينقم من المؤمنين . فلا موجب للاستهزاء . وهذا مما تقصد العرب في مثله ، تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء ، وذلك الشيء لا يقتضى إثباته ، فهو منتفٍ أبداً . ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس ، فمن الأول (١) نحو : ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهمُ بهنٌ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ ومن الثاني هذه الآية وشبهها . أى : ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئاً إلا هذا ، وهذا

(١) قائله النابغة الذبياني ، من قصيدة مطلعها :

كِلَيْنِي لَهْمٌ ، يَا أُمَيْمَةَ ، ناصبٍ وليلٍ أفاსيه بطيء الكواكب
قالها يمدح عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بالأعرج ، ابن الحارث الأكبر بن أبي شمر . حين هرب إلى الشام ، لما بلغه أن مرة بن ربيع بن قريع وشى به إلى النعمان ، في أمر المتجردة . وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي في شرح البيت المستشهد به :
الفلول : الثلوم . والقراع : المجالدة . وقوله (لا عيب فيهم غير أن سيوفهم) هذا الاستثناء سماه ابن المعتز تأكيد المدح . لأن انفلالها من قراع الكتائب ، عند التحصيل ، فخر وفضل . ومثل هذا قول الشاعر :

ففي كملت أخلاقه غير أنه جواد ، فما يُبقى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذي يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال . وبهذا الاستثناء زاد كمالا ، وتأكّد حسنا .

لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً ، فليس شيء ينقمونه ، فينبغي أن يؤمنوا به ولا يكفروا .
وفيه أيضاً التعريض بكفرهم ، وتقريع بسوء الصنيع في مقابلة الإحسان .

الثالث : إسناد الفسق إلى أكثرهم ، لأن من قال منهم ما قال ، وحمل غيره على العناد ، طلباً للرياسة والجاه وأخذ الرشوة ، إنما هو أكثرهم . ولئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ » المخاطب بكاف الجمع أهل الكتاب المتقدم ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، أو المؤمنون . والمشار إليه أكثر الفاسقون . وتوحيد اسم الإشارة لكونه يُشار به إلى الواحد وغيره ، أو لتأويله بالذكور ونحوه . وفي الكلام مقدر أي : بشر من حال هؤلاء . وقيل : المشار إليه المتقدمون الذين هم أهل الكتاب ، يعني أن السلف شر من الخلف . وجمله الزمخشري إشارة إلى المنقوم .

وقد جود في إيضاحه العلامة أبو السعود بقوله : لما أمر عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم ، ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضاً ، وكفرهم بما هو مسلم لهم - أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكيتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ، ما هم عليه من الدين المحرف . وينعى عليهم في ضمن البيان جنائياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها ، على منهاج التعريض . لئلا يحملهم النصريح بذلك على ركوب

متن المكابرة والعناد . ويخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن المبتن ، ويستدعى إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى الخبر به ، والتنبئة المشعرة بكونه أمراً خطيراً ، لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر . وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقةً أو اعتقاداً ، وكان مجرد النقم غير مقيد لشريته البتة ، قيل (بشر من ذلك) ولم يقل : بأنقم من ذلك ، تحقيقاً لشرية ما سيذكر وزيادة تقرير لها . وقيل : إنما قيل ذلك ، لوقوعه فى عبارة المخاطبين . حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام : أومن بالله وما أنزل إلينا ... - إلى قوله - وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام ، قالوا : لا نعلم شراً من دينكم . وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين - وهو منزّه عن شائبة الشرية بالسكينة - مجارة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ، ليثبت أن دينهم شرّ من كل شرّ . أى : هل أخبركم بما هو شرّ فى الحقيقة مما تعتقدونه شراً ، وإن كان فى نفسه خيراً محضاً ؟ انتهى .

وقوله : « مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ » أى جزاء ثابتاً عند الله . قال الراغب : الثواب ما رجع إلى الإنسان من جزاء أعماله . سعى به بتصور أن معاملته يرجع إليه ، كقوله ^(١) (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) ولم يقل : ير جزاءه . والثواب يقال فى الخير والشر ، لكن الأكثر المتعارف فى الخير . وكذا المثوبة ، وهى مصدر ميمي بمعناه . وعلى اختصاصها بالخير استعملت هنا فى العقوبة على طريقة ^(٢) :

* تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَرَجِيعٌ *

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

(٢) هذا من أبيات الكتاب (٣٦٥/١) وصدره : وخيل قد دَلَقَتْ لها بجيل .

قال الشنتمرى : قائله عمرو بن معدى كرب .

والشاهد فيه جعل الضرب تحية ، على الانساع . وإنما ذكر هذا تقوية لجواز البذل =

في التهم . ونصبها على التمييز من (بشر) .
 وقوله تعالى « مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ » بدل
 من (شر) على حذف مضاف ، أى : بشر من أهل ذلك من لعنه الله ، أو بشر من ذلك
 دين من لعنه الله . أو خبر محذوف . أى : هو من لعنه الله وهم اليهود ، أبعدهم الله من رحمته
 وسيخط عليهم بكفرهم وانهما كهم في المعاصي بعد وضوح الآيات ومسح بعضهم قرده وخنازير ،
 وهم أصحاب السبت . كما تقدم بيانه في سورة البقرة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » عطف على صلة
 (مَنْ) والمراد من الطاغوت : العجل ، أو السكينة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى
 « أُولَئِكَ » أى : الملعونون المسوخون « شَرُّ مَكَانًا » إثبات الشرارة للمكان كناية عن
 إثباتها لأهله ، كقولهم : (سلام على المجلس العالى) و(المجد بين برديه) كأن شرهم أثر في مكانهم
 أو عظم حتى صار متجسما ! وقيل : المراد بالمكان محل السكون والقرار الذى يؤول أمرهم إلى
 التمكن فيه ، كقوله ^(١) « شَرُّ مَكَانًا » وهو مصيرهم ، يعنى جهنم . « وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »
 أى : أكثر ضلالا عن الصراط المستقيم .
 ثم بين تعالى علامات كمال شرهم وضلالهم بقوله :

= فيما لم يكن من جنس الأول . يقول : إذا تلاقوا في الحرب ، جعلوا ، بدلا من تحية
 بعضهم لبعض ، الضرب الوجيع .

ومعنى (دلفت) زحفت . والدليف مقاربة الخطو في المشى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ

أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ » يعنى سفلة اليهود ، ويقال : المنافقون « قَالُوا ءَامَنَّا » أى : بك
ونعتك ، أنه فى كتابنا « وَقَدْ دَخَلُوا » إليكم متلبسين « بِالْكَفْرِ » بكفر السرّ « وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا » أى : من عندكم متلبسين « بِهِ » أى : بكفر السر ، فهم مستمرّون عليه
« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ » أى من الكفر ، وفيه وعيد لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ ،
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى اليهود « يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ » أى : الحرام ، كالـكذب
والعصيان من غير مبالاة من الله ولا من الناس « وَالْعُدْوَانِ » أى : الظلم والاعتداء على
الناس « وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ » أى الحرام كالرشا . وخصه بالذكر مع اندراجة فى الإثم
للمبالغة فى التقييح ، وفيه دلالة على تحريم الرشا ، لأن ذلك ورد فى كبرائهم أنهم يسترشون
فى تغيير الحكم « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » مما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ ،
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« لَوْلَا » أى هلا « يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهاد منهم والعباد « وَالْأَحْبَارُ »

أى العلماء « عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ » أى الكذب « وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ » أى الرشوة ، المفسدة أمر العالم كله « لِبَيْسَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » من ترهبهم وتعلمهم لغير دين الله . أو من تركهم نهيم . وهذا الذم المقول فيهم ، أبلغ مما قيل فى حق عامتهم . أولاً : لأنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل فى قوله (لبئس ما كانوا يعملون) ، وعبر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة فى قوله (لبئس ما كانوا يصنعون) - كان هذا الذم أشد . لأنه جمل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة ، هم فيها أمكن من أصحاب المناكير فى أعمالهم ..

وهذا معنى قول الزمخشري : كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة ، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وكأن المعنى فى ذلك ؛ أن مَوَاقِعَ المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها . وأما الذى ينهيه ، فلا شهوة معه فى فعل غيره . فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالاً من المواقيع . ثم قال الزمخشري : ولعمري ! إن هذه الآية مما يَقْدُ السامع وينعى على العلماء توانيمهم . انتهى . وفى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب النهى عن المنكر على العلماء ، واختصاص ذلك بهم .

وقال البيضاوى : فيها تخصيص لعلمائهم على النهى عن ذلك ، فإن (لولا) إذا دخل على الماضى أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .
 روى ابن^(١) جرير عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية .
 وقال الضحاك^(٢) : ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .
 وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب على بن أبى طالب ، فحمد الله وأثنى

(١) الأثر رقم ١٢٢٣٩ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٣٨ من التفسير .

عليه ثم قال : أيها الناس ! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار . فلما تبادوا أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم . واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً .

وروى ^(١) الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي ، هم أعزّ منه وأمنع ، ولم يغيروا ، إلا أصابهم الله منه بعداب .

ولفظ أبي داود ^(٢) عنه ، مرفوعاً : ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيروا ، إلا أصابهم الله بعداب قبل أن يموتوا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا إِيْمًا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » أخرج الطبراني وابن إسحق عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق . فنزلت .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٦ - كتاب الملاحم ، ١٧ - باب الأمر والنهي ،

حديث ٤٣٣٩ .

وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه : نزلت في فنحاص ، رأس يهود قينقاع ؛ وتقدم أنه الذي قال : إن الله فقير ونحن أغنياء . فضربه أبو بكر الصديق رضى الله عنه .
 فيكون أريد بالآية هنا ، ما حكى عنه بقوله المذكور . والله أعلم .
 ولما لم ينكر على القائل قومه ورضوا به ، نُسِبَتْ تلك المظيمة إلى الكل ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً ، وإنما القاتل واحد منهم . و (غلّ اليد وبسطها) : مجاز مشهور عن البخل والجود . ومنه قوله تعالى ^(١) : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ قَالُوا : وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ يَدَ آلَةَ لِأَكْثَرِ الْأَعْمَالِ . لِأَسِيَا لِدَفْعِ الْمَالِ وَلِإِنْفَاقِهِ . فَاطْلُقُوا اسْمَ السَّبَبِ عَلَى الْمَسْبَبِ . وَأَسْنَدُوا الْجُودَ وَالْبَخْلَ إِلَى الْيَدِ وَالْبَنَانِ وَالْكَفِّ وَالْأَنَامِلِ . فَقِيلَ لِلْجَوَادِ : فَيَاضَ الْكَفِّ ، مَبْسُوطُ الْيَدِ ، وَسَبَطُ الْبَنَانِ نَزَهُ الْأَنَامِلِ . وَيُقَالُ لِلْبَخِيلِ : كَزَّ الْأَصَابِعِ ، مَقْبُوضُ الْكَفِّ ، جَعَدَ الْأَنَامِلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ » دَعَاءٌ عَلَيْهِم بِالْبَخْلِ أَوْ بِالْفَقْرِ وَالْمَسْكِنَةِ ، أَوْ بِغَلِّ الْأَيْدِي حَقِيقَةً . يَغْلَوْنَ أَى : تَشَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَنْعَاقِهِمْ أَسَارَى فِي الدُّنْيَا وَمَسْحُوبِينَ إِلَى النَّارِ فِي الْآخِرَةِ « وَلَعِنُوا » أَى : أَبْعَدُوا عَنْ الرَّحْمَةِ فَلَا يَوْفِقُونَ لِلتَّوْبَةِ « بِمَا قَالُوا » مِنَ الْكَلِمَةِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي لَا تَصَحُّ فِي حَقِّ اللَّهِ حَقِيقَةً وَلَا مَجَازاً « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » أَى : بِأَنْوَاعِ الْعَطَايَا الْمُخْتَلِفَةِ . وَتَنَى (الْيَدِ) مَبَالِغَةً فِي الرَّدِّ وَنَفَى الْبَخْلَ عَنْهُ تَعَالَى ، وَإِثْبَاتاً لِّغَايَةِ الْجُودِ ، فَإِنْ غَايَةَ مَا يَبْذُلُهُ السَّخِيُّ مِنْ مَالِهِ أَنْ يَعْطِيَهُ بِيَدَيْهِ « يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ » تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ ، مِنْهُ عَلَى أَنْ يُنْفِقَهُ تَابِعٌ لِمَشِئَتِهِ ، الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْحِكْمِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يَدُورُ أَمْرُ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ .

وَههنا مباحث

الأول : ما زعمه الزنخريّ ومن تابعه - من أن إثبات اليد لا يصحّ حقيقة له تعالى - فإنه نزغة كلامية اعتزالية .

قال الإمام ابن عبد البرّ في (شرح الموطأ) : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات

(١) [١٧ / الإسماء / ٢٩]

الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ولا يحدّون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع ، الجهمية والمعتزلة كلها ، والخوارج ، فكلهم ينكروها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة . ويزعم أن من أقرّ بها شبهة . وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله . وهم أئمة الجماعة .

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب (إبطال التأويل) : لا يجوز ردّ هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها . والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله ، لا تشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتد التشبيه فيها . ثم قال : ويدل على إبطال التأويل ، أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين ، حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها ، ولو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق . لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى في كتاب (الإبانة) في باب (الكلام في الوجه والعين والبصر واليد) وذكر الآيات في ذلك ، ورد على التأويلين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته . مثل قوله :

فإن سئلنا : أتعولون لله يدان ؟ قيل : نقول ذلك ؛ وقد دل عليه قوله ^(١) (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وقوله ^(٢) (لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) وروى ^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٦ - باب في القدر ، حديث ٤٧٠٣ =

إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية . وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ^(١) صلى الله عليه وسلم : أن الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده . وليس يجوز في لسان العرب ، ولا في عادة أهل الخطاب ، أن يقول القائل : عملت كذا بيدي ، ويعنى به النعمة . وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري في مفهومها في كلامها ، ومعمولا في خطابها ، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل : فعلت بيدي ، ويعنى به النعمة - بطل أن يكون معنى قوله عز وجل (يَبْدَى) النعمة . وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (الإبانة) له :

= ونصه :

عن مسلم بن يسار الجهني : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ) .

فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه . فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » .

فقال رجل : يا رسول الله ! ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار .

(١) لم أقف على هذا الأثر .

فإن قال : فما الدليل على أن الله وجهاً وبدناً ؟ قيل له : (وَيَقَمَى ^(١) وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وقوله تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ) ^(٢) فأثبت لنفسه وجهاً وبدناً : فإن قال : فما أنكرتم أن يكون وجهه وبده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهاً وبدناً إلا جارحة ؟ قلنا : لا يجب هذا كما لا يجب - إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً - أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه ..

وقال الشيخ تقي الدين في (الرسالة المدنية) .

مذهب أهل الحديث - وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف - أن هذه الأحاديث تمرُّ كما جاءت ويؤمن بها وتصدق وتصلح عن تأويل يفضى إلى تعطيل ، وتكليف يفضى إلى تمثيل . وقد أطلق غير واحدٍ ممن حكى إجماع السلف - منهم الخطابي - مذهب السلف أنها تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها . وذلك ، أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يحتذى حدوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .. انتهى .

ويرحم الله الإمام يحيى الصرصري الأنصاري حيث يقول من قصيدة :

إن المقال بالاعتزال لخطّة	عمياء حلّ بها الغواة المرّدة
هجموا على سبل الهدى بعقولهم	ليلاً فمأثوا في الديار وأفسدوا
صمّ ، إذا ذكر الحديث لديهم	نقروا ، كأن لم يسمعه ، وغردوا
واضرب لهم مثل الحمير إذا رأته	أسدّ العرين فمنّ منهم شرّده

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ من الصفحة ٢٠٥٨ .

إلى أن قال :

يدعو من اتبع الحديث مشبهًا هيهات ليس مشبهًا من يُسند

لكنه يروى الحديث كما أتى من غير تأويل ولا يتأود

الثاني : روى الإمام^(١) أحمد والشيخان^(٢) في معنى الآية عن أبي هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ : إن بين الله ملائ لا يغيبها نفقة . سحاء الليل والنهار . أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يخض ما في يمينه . وكان عرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض وقال : يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك .

الثالث : في هذه الآية دلالة على جواز لعن اليهود ، ولا إشكال أن ذلك جائز .

الرابع : هذه الآية أصل في تكفير من صدر منه ، في جناب الباري تعالى ، ما يؤذن

بنقص .

وقوله تعالى « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى من اليهود « مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » من جوامع الخيرات « طُغْيَانًا » أى : عدوانًا على الناس ، أو تماديًا فى الجحود « وَكُفْرًا » أى : فى أنفسهم بعد كفرهم وطغيانهم بالحريف وأخذ الرشوة أولًا . وهذا من إضافة الفعل إلى السبب . أى : يزدادون طغيانًا وكفرًا بما أنزل ، كما^(٣) قال : فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم

٧٢٩٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٢ - باب قوله

وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠١٢ . ومسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٣٦ (طبعتنا) .

(٣) [٩ / التوبة / ١٢٥] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا

إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .

قال الحافظ ابن كثير : أى يكون ما آتاك الله ، يا محمد ، من النعمة نعمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم . فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً ، يزداد به الكافرون ، الحاسدون لك ولأمتك ، طغياناً - وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء - وكفراً أى تكديباً . كما قال ^(١) تعالى : قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُ عَلَيْهِمْ عَمًى . وقال تعالى ^(٢) : وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » فكلمتهم أبدأً مختلفة وقلوبهم شتى ، لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد .

وقد ذكر الشهرستاني أنهم اختلفوا نيفاً وسبعين فرقة . ولما قدم النبي ﷺ المدينة ، كان اليهود ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . وبسط ماجرياتهم ، وهديه ﷺ في شأنهم ، مبسوط في (زاد المعاد) لابن القيم . فراجعه .

قال الرازي : واعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها ، هو أنه تعالى بين أنهم إنما ينكرون نبوته بعد ظهور الدلائل على صحتها ، لأجل الحسد ولأجل حب الجاه والتبع والمال والسيادة . ثم إنه تعالى بين أنهم ، لما رجحوا الدنيا على الآخرة ، لا جرم أن الله تعالى ، كما حرهم سعادة الدين ، فكذلك حرهم سعادة الدنيا . لأن كل فريق منهم بقى مصرّاً على مذهبه ومقالته . يبالغ في نصرته ويظعن في كل ماسواه من المذاهب والمقالات . تعظيماً لنفسه وترويجاً لمذهبه . فصار ذلك سبباً لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم . وانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفر بعضاً ، ويغزو بعضهم بعضاً .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وفي الآية وجهان : (أحدهما) ما بين اليهود والنصارى ، لأنه جرى ذكرهم في قوله تعالى ^(١) (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) ، وهو قول الحسن ومجاهد . لأنهم المحدث عنهم في قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ . (والثاني) ما بين فرق اليهود خاصة .

أقول : وهو الظاهر . فإن قلت : فهذا المعنى حاصل أيضاً بين فرق المسلمين ، فكيف يكون ذلك عيباً على الكتابيين حتى يذموا به ؟ قلت : بدعة التفرق التي حصلت في المسلمين ، إنما حدثت بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين . أما في الصدر الأول فلم يكن شيء من ذلك حاصل بينهم ؛ فَحَسُنَ جَعَلُ ذلك عيباً على الكتابيين في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن .

« كَلِمًا أَوْ قُدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » أي : كلما أرادوا حرب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإثارة شر عليه ، ردهم الله سبحانه وتعالى ، بأن أوقع بينهم منازعةً كف بها عنه شرهم ، أو : كلما أرادوا حرب أحد ، غلبوا وقهروا ، ولم يبق لهم نصر من الله تعالى على أحد قط . فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب ، لأنه كان عادتهم ذلك . ونيران العرب مشهورة ، منها هذه . وإطفاء النار على الأول عبارة عن دفع شرهم ، وعلى الثاني غلبتهم . (وللحرب) إمالة (أوقدوا) ، أو متعلق بمحذوف وقع صفة (ناراً) أي : كائنة للحرب . « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أي : للفساد أو مفسدين ، أي : يجتهدون في السكيد للإسلام وأهله وتمويق الناس عنه وإثارة الفتن « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » أي : من كان الإفساد صفته . (اللام) أما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أولياً ؛ أو للمهد ، ووضع المظهر موضع المضمحل للتعليل ، وبيان كونهم راسخين في الإفساد .

(١) [٥ / المائدة / ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ » أى : مع ما عددنا من سيئاتهم « ءَامَنُوا » برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به « وَاتَّقَوْا » مباشرة الكبراء « لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى ذنوبهم « وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ » فى الآخرة مع المسلمين . وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص ، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى ، وأن الإسلام يَجِبُ ماقبله وإن جلّ . وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم . قال الزمخشري : وفيه أن الإيمان لا ينجى ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى ، كما قال الحسن : هذا العمود ، فأين الأطناب ؟ انتهى .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : هو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجمله دليلاً على قاعدته ، فى أن مجرد الإيمان لا ينجى من الخلود فى النار ، حتى ينضاف إليه التقوى . لأن الله تعالى جعل المجموع فى هذه الآية شرطاً للتكفير ولإدخال الجنة . وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير ولا دخول الجنة . وأنى له ذلك ؟ والإجماع والاتفاق من الفريقين - أهل السنة والجماعة ، والمعتزلة - على أن مجرد الإيمان يَجِبُ ماقبله ويمحوه كما ورد النص . فلو فرضنا موت الداخل فى الإيمان عقيب دخوله فيه ، لكان كيوم ولدته أمه - باتفاق - مكفراً الخطايا محكوماً له بالجنة . فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط ، هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال . وإن كانت التقوى - على أصل موضعها - الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبراء ، وحينئذ لا يتم للزمخشري منه غرض .

وما هذا إلا إلحاح ولجاج في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله^(١) عليه الصلاة والسلام :
من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى أو سرق . كررها النبي صلى الله عليه وسلم
مراراً ، ثم قال : وإن رغم أنف أبي ذر . لمّا راجعه رضى الله عنه في ذلك ؛ ونحن نقول :
وإن رغم أنف القدرية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا
مِنْ فَوَاقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ
مَا يَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » أى : أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما
من نعت رسول الله ﷺ . وأصل الإقامة الثبات في المكان . ثم استعير إقامة الشيء لتوفية
(١) أخرجه البخارى في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٢٤ - باب الثياب البيض ، حديث
٦٦٠ ونصه :

عن أبي ذر قال : أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم . ثم أتيته وقد استيقظ
فقال « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة » قلت : وإن
زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى
وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق ، على رغم أنف أبي ذر . »
وكان أبو ذر إذا حدث بهذا ، قال : وإن رغم أنف أبي ذر .

قال عبد الله (أى البخارى) : هذا عند الموت أو قبله ، إذا تاب وندم وقال : لا إله
إلا الله ، غفر له .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعنا) .

حقه « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ » أى : يبتئوا ما بين لهم ربهم فى التوراة والإنجيل .
ويقال : أفروا بجملة الكتب والرسل من ربهم ، ويقال : هو القرآن « لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » لوسّع عليهم أرزاقهم ، بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض ،
ويكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع . أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار ، فيجتنونها من رأس
الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض . وَجَعَلُ (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) بمعنى
الأمطار والأنهار التى تحصل بها أقواتهم - بعيدٌ من الأكل . والأقرب الوجوه الثلاثة
المتقدمة . ونبه تعالى بذلك على أن ما أصابهم من الضنك والضييق ، إنما هو بشؤم معاصيهم
وكفرهم ، لا لقصورٍ فى فيض الكريم ، تعالى . ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى
سبب لسعة الرزق ، وهو كقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (١) . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ (٢) . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ... الآيات (٣) . وَأَنْ لَّوِ
اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (٤) .

(١) [٧ / الأعراف / ٩٦] ... وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٣٢] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ
بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ
جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٣) [٧١ / نوح / ١٠] .

(٤) [٧٢ / الجن / ١٦] .

روى الإمام ^(١) أحمد عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال : وذلك عند ذهاب العلم قال ، قلنا : يا رسول الله ! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : تكلتك أمك يا ابن أم لبيد ! إن كنتُ لأراك من أئقّه رجل بالمدينة . أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ، لا ينتفعون مما فيهما بشيء .

وفي رواية ابن أبي حاتم : أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى ؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ؟ ثم قرأ : لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ... الآية .
« مِنْهُمْ أُمَّةٌ » أى طائفة « مُقْتَصِدَةٌ » أى : عادلة مستقيمة ، وهم من آمن بالنبي ﷺ ، كعبد الله بن سلام والنجاشيّ وسلمان « وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ » أى : بُسُ « مَا يَمْكُونُ » أى : من تحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة . والآية كقوله ^(٢) تعالى : وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)
« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » نودى صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة تشریفاً له وإيذاناً بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ « بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » مما يفصل مساوئ الكفار ، ومن قتالهم ، والدعوة إلى الإسلام ، غير مراقب في التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه « وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ » أى : ما تؤمر به من تبليغ الجميع ، سترأ لبعض

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

مساوئهم « فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ » أى : شيئاً مما أرسلت به . لما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض . فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً . كما أن من لم يؤمن ببعضها ، كان كمن لم يؤمن بأكملها .

قال فى (الانتصاف) : ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمراً معلوماً عند الناس ، مستقرّاً فى الأفهام أنه عظيم شنيع ، ينقم على مرتكبه ، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع ، فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول - استغنى عن ذكر الزيادات التى يتفاوت بها الشرط والجزاء ، للصوقها بالجزاء فى الأفهام . وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة ، فهم ماوراءه من الوعيد والتهديد . وحسن هذا الأسلوب فى الكتاب العزيز بذكر الشرط عامّاً بقوله (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) ولم يقل : فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة . حتى يكون اللفظ متغيراً ؛ وهذه المغايرة اللفظية - وإن كان المعنى واحداً - أحسن رونقاً وأظهر طلاوةً ، من تكرار اللفظ الواحد فى الشرط والجزاء . وهذا الفصل كاللباب من علم البيان .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » عِدَّةٌ منه تعالى بحفظه من لحوق ضرر بروحه الشريفة ، باعث له على الجِدِّ فيما أمر به من التبليغ وعدم الاكتراث بعداوتهم وكيدهم « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » تعليل لعصمته ، أى : لا يهديهم طريق الإساءة إليك ، فما عذرُك فى مراقبتهم ؟

تنبيهات

الأول : لاختفاء فى أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قد بلغ البلاغ التام ، وقام به أتم القيام ، وثبت فى الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب ، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهدد الصياصي . وهو ، مع الضعف ، يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى . ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحذقوا بجنباته ، وصار بإثخانته فى الأعداء محذوراً ، وبالرعب منه منصوراً ، حتى أصبح سراج الدين وهاجباً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

روى البخارى^(١) ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها، قالت لمسروق : من حدثك أن محمداً كنتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، والله يقول : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية .

وفى (الصحيحين)^(٢) عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من القرآن لكنتم هذه الآية : وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .

وروى البخارى^(٣) وغيره عن أبي جحيفة قال : قلت لعل بن أبي طالب رضى الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ! إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وقال البخارى^(٤) : قال الزهري : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٧ - باب يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

(٢) هذه القطعة من الحديث لم يروها إلا مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٨ (طبعتنا) .

ومارواها قط البخارى في صحيحه عن عائشة .

(٣) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٧١ - باب فكاك الأسير ، حديث ٩٥ .

(٤) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٤٦ - باب قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ .

قال ابن كثير : وقد شهدت له صلى الله عليه وسلم أمته بإبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً . كما ثبت في (صحيح مسلم)^(١) عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله

(١) هذا أطول وأصح حديث في وصف حجته صلى الله عليه وسلم . وقد آثرت إثباته هنا برمته ، وذلك لقيمته ولتيسير الاطلاع عليه .

أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، ١٩ - باب حجة النبي ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعنا) ونصه :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم . جميعاً عن حاتم . قال أبو بكر : حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : دخلنا على جابر بن عبد الله . فسأل عن القوم حتى انتهى إلى . فقلت : أنا محمد بن علي بن حسين . فأهوى بيده إلى رأسي فزع زري الأعلى (أي أخرجه من عروته لينكشف صدرى عن القميص) ثم زرع زري الأسفل . ثم وضع كفه بين ثديي وأنا يومئذ غلام شاب . فقال : مرحباً بك ، يا ابن أخي ! سل عما شئت . فسألته ، وهو أعمى . وحضر وقت الصلاة فقام في نِسَاجَةٍ (في النهاية : هي ضرب من الملاحف منسوجة) ملتحفاً بها . كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاًها إليه من صفرها . ورداؤه إلى جنبه على المشجب (هو عيدان تظم رؤوسها ويفرج بين قوائمها ، توضع عليها الثياب) فصلى بنا . فقات : أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ . فقال بيده (أي : أشار بها) فعدت سماعاً ، فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج . ثم أذن في الناس في العاشرة ؛ أن رسول الله ﷺ حاج . فقدم المدينة بشر كثير . كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله . فخرجنا معه . حتى أتينا ذا الحليفة . فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر . فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع ؟ قال « اغتسلي واستنفرى (الاستنفرار هو أن تشد في وسطها شيئاً ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على =

صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يومئذ : أيها الناس ! إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟
 = محل الدم وتشد طرفيها ، من قدامها ومن ورائها ، في ذلك المشدود في وسطها . وهو
 شبيه بشفر الدابة الذي يجعل تحت ذنبها (بثوب وأحرمي) .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، ثم ركب القصواء . حتى إذا استوت به
 ناقته على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصرى بين يديه . من راكب وماش . وعن يمينه مثل ذلك .
 وعن يساره مثل ذلك . ومن خلفه مثل ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا .
 وعليه ينزل القرآن . وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شيء علمنا به . فأهلّ بالتوحيد
 « لبيك اللهم ! لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك . والملك لا شريك لك » .
 وأهلّ الناس بهذا الذي يهلون به . فلم يردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً منه .
 ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تليّيته .

قال جابر : لسنا ننوي إلا الحج . لسنا نعرف العمرة . حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم
 الركن . فرمّل (الرمل إسماع في المشى مع تقارب الخطأ ، وهو الخبب) ثلاثاً ومشى أربعاً .
 ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام . فقرأ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
 [٢ / البقرة / ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان أبي يقول (ولا أعلمه ذكره
 إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم) : كان يقرأ في الركعتين : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . وَقُلْ يَا أَيُّهَا
 الْكَافِرُونَ .

ثم رجع إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من الباب إلى الصفا . فلما دنا من الصفا قرأ :
 إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ [٢ / البقرة / ١٥٨] « أبدأ بما بدأ الله به » .
 فبدأ بالصفا . فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة . فوحد الله وكبّره . وقال
 « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا
 الله وحده . أنجز وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده » .

=

ثم دعا بين ذلك . قال مثل هذا ثلاث مرات .

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع رأسه ويرفع يده إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : اللهم ! هل بلغت ؟ .

= ثم نزل إلى الروة ففعل على الروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على الروة فقال « لو أئى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلّ ، وليجعلها عمرة » .
فقام سراقه بن مالك بن جُعشم فقال : يا رسول الله ! ألعامننا هذا أم لأبدي ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة فى الأخرى . وقال « دخلت العمرة فى الحج مرتين » لا . بل لأبدي أبدي » .

وقدم على من اليمين بُدْن النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حلّ ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت . فأنكر ذلك عليها . فقالت : إن أبى أمرنى بهذا .
قال ، فكان على يقول ، بالمراق : فذهبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محرّشاً على فاطمة للذى صنعت . مستفتياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرتُ عنه : فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها . فقال « صدقتُ . صدقتُ . ماذا قلت ، حين فرضت الحج ؟ » قال ، قلت : اللهم ! إنى أهلّ بما أهلّ به رسولك . قال « فإن معى الهدى فلا تحلّ »
قال فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمين ، والذى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مائة .

قال ، فحلّ الناسُ كلهم وقصّروا . إلا النبي صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدى .
فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى . فأهلّوا بالحج . وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس . وأمر بقبّة من شعَرٍ تضرب له بِنَمِرَةٍ (موضع يجنب عرفات)
فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تشكّ قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام . كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

= فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمْرَةٍ^(١) ، فنزل بها . حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له . فأتى بطن الوادى ، فخطب الناس فقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا . فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هُذَيْل . وربا الجاهلية موضوعة . وأول ربا أضع ربانا . ربا عباس بن عبد المطلب . فإنه موضوعة كله . فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحلتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فىكم مالن تصلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهد . اللهم ! اشهد » ثلاث مرات .

ثم أذن . ثم أقام فصلى الظهر . ثم أقام فصلى العصر . ولم يصل بينهما شيئا . ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن نافته القصواء إلى الصخرات (هى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة) وجعل جبل المشاة بين يديه (جبل المشاة أى مجتمعهم) واستقبل القبلة . فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص . وأردف أسامة خلفه . ودفع رسول الله ﷺ وقد شق للقصواء الزمام . حتى إن رأسها ليصيب مؤرك رحله . ويقول بيده اليمنى « أيها الناس ! السكينة السكينة » . كلما أتى جبلا من الجبال (الجبل هو التل اللطيف من الرمل الضخم) أرخى لها قليلا ، حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة . فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين . ولم يسمح =

(١) قال ياقوت : ناحية بعرفة .

وروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة

= بينهما شيئاً . ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر . وصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى الشعر الحرام . فاستقبل القبلة . فدعاه وكبره وهللّه ووحدّه . فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً . فدفع قبل أن تطلع الشمس . وأردف الفضل بن عباس . وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً . فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به طعنٌ يجزين . فطفق الفضل ينظر إليهن . فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر . فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل . يصرف وجهه إلى الشق الآخر ينظر .

حتى أتى بطن مُحَسَّر . فحرك قليلاً . ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرّة الكبرى . حتى أتى الجمرّة التي عند الشجرة . فرماها بسبع حصيات . يكبرُ مع كل حصاة منها . حصى الخَذْف .

رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بيده . ثم أعطى عليّاً ، فنحر ما غبر . وأشركه في هديه . ثم أمر من كل بدنة يَبْضَعَة ، فَجُمِعَتْ في قِدْر ، فطُبِخَتْ . فأكلوا من لحمها وشربوا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت . فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم . فقال « انزعوا ، بنى عبد المطلب ! فلولاً أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم » .

فناولوه دلوّاً فشرب منه .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٠٣٦ (طبعة المعارف) .

الوداع : يا أيها الناس ! أيّ يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : أيّ بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال فأيّ شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال : فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام ، حرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا . ثم أعادها مراراً . ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : اللهم ! هل بلغت ؟ مراراً (قال ابن عباس : والله ! إنها لوصية إلى ربه عز وجل) ثم قال : ألا فليبلغ الشاهد الغائب . لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .. ! » . وقد روى البخاري^(١) نحوه .

الثاني : تضمن قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعِصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) معجزة كبرى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الماوردي في كتابه (أعلام النبوة) في الباب الثامن في معجزاته . عصمته ﷺ . ما نصه :

أظهر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم من أعلام نبوته بُعد ثبوتها بمعجز القرآن ، واستغنائها عما سواه من البرهان ، ما جعله زيادة استبصار يُحجّج بها من قلت فطنته ، ويدعن لها من ضعف بصيرته ، ليكون إعجاز القرآن مُدرّكاً بالخواطر الثاقبة تفكروا واستدلّالا ، وإعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطاً واستظهاراً ، فيكون البليد مقهوراً بوجهه وعيانه ، واللبيب محجوجاً بفهمه وبيانه . لأن لكل فريق من الناس طريقاً هي عليهم أقرب ، ولهم أجنب ، فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلاً ، وأعم دليلاً . فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير ، والعدد الكثير ، وهم على أتم حنق عليه ، وأشد طلب لنفسه . وهو بينهم مسترسل قاهر ، ولهم مخالط ومكاثر ، ترمقه أبصارهم شزرا ، وترتد عنه أيديهم ذعرا ، وقد هاجر عنه أصحابه حذرا ، حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة . ثم خرج عنهم

(١) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٣٢ - باب الخطبة أيام منى ،

سليماً لم يُكَلِّمْ فِي نَفْسٍ وَلَا جَسَدٍ . وما كان ذلك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققتها حيث يقول : **وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ** . فعصمه منهم .

ثم قال الماوردي رحمه الله تعالى : وإن قريشاً^(١) اجتمعت في دار الندوة . وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة ، وكان زعيم القوم . وساعده عبد الله بن الزُّبَيْرِ وكان شاعر القوم . فحضرهم على قتل محمد صلى الله عليه وسلم وقال لهم : الموت خير لكم من الحياة . فقال بعضهم : كيف نصنع ؟ فقال أبو جهل : هل محمد إلا رجل واحد ؟ وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش ؟ فليس فيكم من يزهّد في الحياة فيقتل محمداً ويريح قومه ؟ وأطرق ملياً . فقالوا : من فعل هذا ساد . فقال أبو جهل : ما محمد بأقوى من رجل منا . وإني أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر . **فَإِنْ قُتِلْتُ** أرحّت قومي ، وإن بقيت فذاك الذي أوثر . فخرجوا على ذلك . فلما اجتمعوا في الحطيم ، خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : قد جاء . فتقدم من الركن فقام يصلي . فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود ، فقال أبو جهل : إني أقوم فأريحكم منه ، فأخدمه راساً عظيماً . ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لا يلتفت ولا يهابه ، وهو يراه . فلما دنا منه ارتعد وأرسل الحجر على رجله . فرجع وقد شذخت أصابعه وهو يرتعد ، وقد دوخت أوداجه . ورسول الله ﷺ ساجد ، فقال أبو جهل لأصحابه : خذوني إليكم . فالتزموه وقد غشى عليه ساعة . فلما أفاق قال له أصحابه : ما الذي أصابك ؟ قال : لما دنوت منه ، أقبل على من رأسه خل فاغر فاه . فحمل على أسنانه . فلم أملك . وإني أرى محمداً محجوباً . فقال له بعض أصحابه : يا أبا الحكم ! رغبت وأحببت الحياة ورجمت . قال : ما تفرّوني عن نفسي . قال النضر بن الحرث : فإن رجع غداً فأنا له . قالوا له : يا أبا سهم ! لئن فعلت هذا لتسودن . فلما كان من الغد اجتمعوا في الحطيم منتظرين رسول الله ﷺ . فلما أشرف عليهم قاموا

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والصفحة رقم ١٩٠ (طبعة جوتنجن) .

بأجمعهم فواثبوه . فأخذ حفنة من تراب وقال : شأهت الوجوه . وقال : حم لا ينصرون ، ففرقوا عنه .

وهذا دفع إلهي وثق به من الله تعالى . فصبر عليه حتى وقاه الله ، وكان من أقوى شأهه على صدقه .
(ومن أعلامه) : أن معمر بن يزيد ، وكان أشجع قومه ، استغاثت به قريش وشكوا إليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه وتطيع أمره ، فلما شكوا إليه قال لهم : إني قادم إلى ثلاث وأريحكم منه . وعندى عشرون ألف مُدَجِّج^(١) فلا أرى هذا الحى من بنى هاشم يقدر على حربى . وإن سألتنى الدية أعطيتهم عشر ديات ، ففى مالى سعة . وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار فى عرض شبر ، وقصته فى العرب مشهورة بالشجاعة والبأس . فلبس ، يوم وعده قريشاً ، سلاحه وظاهر بين درعين . فوافقهم بالخطيم ورسول الله ﷺ فى الحجر يصى . وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزعزع ولا قصر فى الصلاة . فقيل له : هذا محمد ساجد . فأهوى إليه ، وقد سل سيفه وأقبل نحوه . فلما دنا منه رمى بسيفه وعاد . فلما صار إلى باب الصفا عثر فى درعه فسقط فقام ، وقد أذى وجهه بالحجارة ، يعدو كأشد العدو . حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلف . فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم وقالوا : ماذا أصابك ؟ قال : ويحكم ! المغرور من غررتموه . قالوا : ماشأنك ؟ قال : مارأيت كاليوم . دعونى ترجع إلى نفسى . فتركوه ساعة وقالوا : ما أصابك ؟ يا أبا الليث ! قال : إنى لمادنوت من محمد ، فأردت أن أهوى بسيفى إليه ، أهوى إلى من عند رأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران ، وتلمع من أبصارها . فعدوت . فما كنت لأعود فى شىء من مساءة محمد .
(ومن أعلامه) : أن كلدته بن أسد ، أبا الأشد ، وكان من القوة بمكان ، خاطر قريشاً يوماً فى قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله ﷺ فى الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل وعقال . فجاء كلدته ومعه المزراق . فرجع المزراق فى صدره . فرجع فزعماً . فقالت له قريش : مالك ؟ يا أبا الأشد ! فقال : ويحكم !

(١) الشاك فى السلاح ، أى : الداخلى « قاموس » - المؤلف .

ما ترون الفحل خلفي ؟ قالوا : ما نرى شيئاً . قال : ويحكم ! فإني أراه . فلم يزل يعدو حتى بلغ الطائف . فاستهزأت به ثقيف ، فقال : أنا أعذرکم ، لو رأيتم ما رأيتم لهلكتم . (ومن أعلامه) : أن أبا لهب خرج يوماً ، وقد اجتمعت قريش فقالوا له : يا أبا عتبة ! إنك سيدنا وأنت أولى بمحمدنا . وإن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه . ولو قتلته لم ينكر أبو طالب ولا حمزة منك شيئاً . وأنت برئ من دمه فنؤدى نحن الدية وتسود قومك . فقال : فإني أكفيكم ! ففرحوا بذلك ومدحته خطبائهم . فلما كان في تلك الليلة وكان مشرفاً عليه ، نزل أبو لهب ، وهو يصلي . وتسلفت امرأته أم جميل الحائض ، حتى وقفت على رسول الله ﷺ ، وهو ساجد . فصاح به أبو لهب فلم يلتفت إليه ، وهما كانا لا يتقلان قدماً ولا يقدران على شيء حتى تفجر الصبح . وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو لهب : يا محمد ! أطلق عنا . فقال : ما كنت لأطلق عنكما أو تضمنا إلى أنكما لا تؤذيانى . قالا : قد فعلنا . فدعا ربه فرجعا .

(ومن أعلامه) : أن^(١) قريشاً اجتمعوا في الحطيم . فخطبهم . عتبة بن ربيعة فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نفص علينا عيشنا وفرق جماعتنا وبدد شملنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل آباءنا . وكان في القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحرث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج ، وأمّية وأبى ابنا خلف ، في جماعة من صناديد قريش . فقالوا له : قل ماشئت فإننا نطيعك . قال : سأقوم فأكلمه . فإن هو رجع عن كلامه وعما يدعو إليه ، وإلا رأينا فيه رأينا . فقالوا له : شأنك يا أبا عبد شمس ! فقام وتقدم إلى النبي ﷺ وهو جالس وحده . فقال : أنعم صباحا يا محمد ! قال : يا عبد شمس ! إن الله قد أبدلنا بهذا ، السلام ، تحية أهل الجنة . قال : يا ابن أخي ! إني قد جئتكم من عند صناديد قريش

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والصفحة رقم ١٨٥ و ١٨٦ (طبعة جوتنجن) .

لأعرض عليك أمورهم . إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ولنافيةا الفسحة ! ثم قال : يا ابن عبد المطلب !
أنا زعيم قريش فيما قالت . قال : قل . قال : يا ابن عبد المطلب ! إنك دعوت العرب إلى أمر
ما يعرفونه فأقبل مني ما أقول لك . قال : قل . قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكا
فإننا نملكك علينا من غير تعب وتتوجك ، فارجع عن ذلك . فسكت . ثم قال له : وإن كان
ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك . فقال : لا قوة إلا بالله ! ثم قال له :
وإن كان ما تتكلم به تريد مالا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش .
فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفرق جماعتنا . وإن كان ما تدعو إليه جنونا داويناك
كما تداوى قيسُ بنى ثعلبة مجنونهم . فسكت النبي ﷺ . فقال : يا محمد ! ما تقول ؟ وبم أرجع
إلى قريش ؟ فقال النبي ﷺ : حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فِيمَ لَا يَسْمَعُونَ * - حتى بلغ إلى
قوله - فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . قال عتبة : فلما تكلم بهذا
الكلام ، فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من أعجازها . وقام فزعاً يجر
رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض المصفور . وقام النبي ﷺ يصلى . فقالت
قريش : لقد ذهب من عندنا نسيطاً ورجعت فزعاً مرعوباً فما وراءك ؟ قال : ويحكم ! دعونى .
إنه كلمنى بكلام لا أدرى منه شيئاً . ولقد رعدت على الرعدة حتى خفت على نفسى ، وقلت :
الصاعقة قد أخذتنى ... فندموا على ذلك .

(ومن أعلامه) : أنه لما أراد الهجرة ، خرج من مكة ومعه أبو بكر . فدخل غاراً في
جبل ثور ليستخفى من قريش . وقد طلبته وبذلت لمن جاء به مائة ناقة حمراء ، فأعانه الله تعالى
بإخفاء أثره . وأثبت على باب الغار ثمامة (وهى شجرة صغيرة) . وألهمت العنكبوت فنسجت

(١) [٤١ / فصلت / ١ - ١٣] .

على باب النار نسج سنين في طرفة عين . وأُدغ^(١) أبو بكر هذه الليلة غير لدغة . نفرت ثيابه وجعلها في الشقوق . وسدّ بعضها بقدمه اتقاءً لرسول الله ﷺ . وأقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه . فلقبه^(٢) سراقه بن مالك بن جعشم . وهو من جملة من توجه لطلبه ، فقال له أبو بكر : هذا سراقه قد قرب . فقال رسول الله ﷺ : اللهم ! اكفنا سراقه . فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها . فقال سراقه : يا محمد ! ادع الله أن يطلقني ولك على أن أردّ من جاء يطلبك ، ولا أعين عليك أبداً ! فقال اللهم ! إن كان صادقاً فأطلق عن فرسه . فأطلق الله عنه . ثم أسلم سراقه وحسن إسلامه .

هذا ما أورده المارودي من الأعلام قبل الهجرة ؛ ثم أورد ما وقع بعدها ؛ وسندناها عن ابن كثير ، فإنه قال في هذه الآية :

ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً ، بما خلقه الله من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة . فصانه في ابتداء الرسالة بعمة أبي طالب . إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش . وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ ، لا شرعية . ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها . ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر ، هابوه واحترموه . فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً . ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحمل إلى دارهم ، وهي المدينة . فلما صار إليها منعه من الأحمر والأسود . وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والصفحة رقم ٣٢٨ و ٣٢٩ (طبعة جوتنجن) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والصفحة رقم ٣٣١ و ٣٣٢ (طبعة جوتنجن) .

كيدِه عليه . كما كاده اليهود^(١) بالسحر ، فخافه الله منهم وأنزل عليه سورتي المودتين دواءً لذلك الداء . ولما سمَّه^(٢) اليهود في ذراع تلك الشاة بخير ، أعلمه الله به وحماه منه . ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها . فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة :

فقال ابن جرير^(٣) : حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة ، فيقيم تحتها . فأتاه أعرابي فاختلط سيفه ثم قال : من يمنعك مني ؟ قال : الله عز وجل . فرُعِدَتْ يد الأعرابي وسقط السيف منه . قال : وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأَنْزَلَ الله عز وجل : **وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** .

وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما غزا رسول الله ﷺ بني

(١) انظر صحيح البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤٧ - باب السحر وقول الله تعالى : **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ** . و ٤٩ - باب هل يستخرج السحر و ٥٠ - باب السحر .

وفي : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٥٦ - باب إن الله يأمركم بالعدل والإحسان .

وفي : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٥٧ - باب تكرير الدعاء .

والحديث رقم ١٤٩٩ عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ٧ - باب إذا غدر

المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟

وفي : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٤١ - باب الشاة التي سُمِّت للنبي ﷺ بخير .

وفي : ٧٦ - كتاب الطب ، ٥٥ - باب ما ذكر في سَمِّ النبي ﷺ .

والحديث رقم ١٤٩٨ عن أبي هريرة .

(٣) الأثر رقم ١٢٢٧٨ من التفسير .

أَمَّا، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل . فبينما هو جالس على رأس بُرٍ قد دَلَّى رجله ، فقال الوارث من بنى النجار : لأقتلنَّ محمداً . فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له أعطني سيفك ، فإذا أعطانيه قتلته به . قال : فأتاه فقال : يا محمد ! أعطني سيفك أشيمه . فأعطاه إياه . فرعدت يده حتى سقط السيف من يده . فقال رسول الله ﷺ : حال الله بينك وبين ما تريد . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ثم قال : وقصة غورث بن الحرث مشهورة في الصحيح . يريد ما أخرجه الشيخان ^(١) عن جابر قال : غزونا مع رسول الله ﷺ قبل نجد . فلما قفل رسول الله ﷺ أدركتهم القائلة في واد كثير العضاء . فنزل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم تحت شجرة . فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة . فإذا رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابي فقال : إنَّ هذا اخترط على سيفي وأنا نائم . فاستيقظت وهو في يده صلتاً . فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله . ثلاثاً . ولم يعاقبه وجلس .

وفي رواية أخرى قال جابر : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع . فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ . فجاء رجل من المشركين ، وسيف رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٨٤ - باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة و٨٧ - باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر . والحديث رقم ١٣٩٣ .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣١١ و٣١٢ (طبعتنا) .

وسلم معلق بالشجرة . فاختطره فقال : تخافني ؟ فقال : لا ! فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله .
فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ .

وزاد البخاري في رواية له : إن اسم ذلك الرجل غورث بن الحرث .

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها ، فينزل تحتها . فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها . فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد ! من يمنعك مني ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله يمنعني منك . ضع السيف . فوضعه . فأنزل الله عز وجل : **وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** . وكذا رواه ابن حبان في (صحيحه) .

وروى الإمام أحمد^(١) عن جمعة بن خالد بن الصمة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يرمي إلى بطنه بيده ويقول : لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك . قال : وأتى النبي صلى الله عليه وسلم برجل فقالوا : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم ترع ، لم ترع . ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علي .

الثالث : كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ ، كما روى الإمام أحمد^(٢) عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة ! قالت : فيينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك . فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك ، يا رسول الله ! قال : فسممت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه . أخرجه في (الصحيحين)^(٣) :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٤ - كتاب التمني ، ٤ - باب قول النبي ﷺ =

وفي لفظ : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة ، يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة ، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم : أيها الناس ! انصرفوا فقد عصمى الله . أخرجه الترمذى ^(١) والحاكم وابن أبى حاتم وابن جرير ^(٢) .

وقد روى ابن جرير ^(٣) عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس . فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجلا من بنى هاشم يحرسونه . حتى نزلت عليه هذه الآية : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : إن الله قد عصمى من الجن والإنس . ورواه الطبرانى أيضا . وروى ابن جرير نحوه أيضا عن جابر ^(٤) .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب ، وفيه نكارة . فإن هذا الآية مدنية ، بل هى من أواخر ما نزل بها ، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية ، والله أعلم ! انتهى .

أقول : بمراجعة ما أسلفنا فى (المقدمة) من قاعدة أسباب النزول يرتفع الإشكال ، فتذكر .

= « ليت كذا وكذا ، حديث ١٣٨٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٠٣٩ (طبعنا) .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٤ - حدثنا

عبد بن حميد .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٧٦ من التفسير .

(٣) هذان الأثران ذكرهما ابن كثير فى تفسيره عن ابن مردويه (ج ٢ ص ٧٨)

ولم أجدهما فى الطبرى .

الرابع : قال العلامة أبو السعود : إيراد هذه الآية الكريمة في تضاعيف الآيات الواردة في حق أهل الكتاب ، لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ، ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشا فہتم بها ، وخصوصاً مايتلوها من النص الناعى عليهم كمال ضلالتهم ، ولذلك أعيد الأمر فقیل خطاباً للفريقين :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِّن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى : من الدين « حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » أى تراعوها وتحافظوا على ما فيها من الأمور التي من جملتها دلائل نبوة النبي ﷺ واتباعه .

قال بعض المحققين :

معنى قوله تعالى (حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) أى : تعملوا طبق الواجب بأحكامهما ، وتحبوا شرائعهما ، وتطيعوا أوامرها ، وتنتهوا بنواهيها . فإن الإقامة هي الإتيان بالعمل على أحسن أوجهه ، كإقامة الصلاة مثلاً . أى فعلها على الوجه اللائق بها . ولا يدخل في ذلك القصص التي فيها ولا العقائد ونحوها فإنها ليست عملية . والمراد أن يعملوا بما بقي عندهم من أحكام التوراة والإنجيل على علته وعلى ما به من نقص وتحريف وزيادة ، فإن شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هي أقل أقسامها تحريفاً ، وأكثر التحريف في القصص والأخبار والعقائد وما مائلها ، وهي لا تدخل في الأمر بالإقامة . ولا شك أن أحكام التوراة والإنجيل وما فيها من شرائع ومواعظ ونصائح ونحوها ، لا تزال فيها أشياء كثيرة لا عيب

فيها ، ونافعة للبشر ، وفيها هداية عظيمة للناس ، فهي مما يدخل تحت قوله تعالى ^(١) (وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ) فإذا أقام أهل الكتاب أحكامهما على علاقتها كانوا لاشك على شيء يعتد به ويصح أن يسمى ديناً . وإذا لم يقيموها وجروا على خلافهما ، كانوا مجردين من كل شيء يستحق أن يسمى ديناً . وكانوا مشاغبين معاندين ، وبدنيهم غير مؤمنين إيماناً كاملاً . وهذا معنى صحيح ، وهو المتبادر من الآية . فأى شيء في هذا المعنى يدل على عدم تحريف التوراة والإنجيل وعلى وجودهما كاملين ، كما يدعى ذلك المكابرون من أهلها ، وخصوصاً بعد قوله تعالى ^(٢) (وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) ؟

ثم قال : ولك أن تقول : معنى قوله تعالى : لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . الحقيقيين ، وذلك يستلزم البحث والتنقيب والجد والاجتهاد في نقد ما عندهم منهما نقداً عقلياً تاريخياً صحيحاً ، حتى يستخلصوا حقيقتها من باطلها بقدر الإمكان . ونتيجة ذلك العناء كله ، أن يكونوا على شيء من الدين الحق ، وهذا أمر لاشبهة فيه . ولو اتبعوا القرآن لأراحوا واستراحوا . ولكنهم - كما أخبر تعالى عنهم - لا يزيدهم القرآن إلا طغياناً وكفراً وحسداً وعناداً فلا يؤمنون به . ولا يهتم جمهورهم بإصلاح دينهم من المفسد وتنقيته من الشوائب . فلم يدركوا خير هذا ولا ذاك . فكان الآية تريهم أنهم إذا لم يتبعوا القرآن يجب عليهم القيام بعبء ثقيل جداً من البحث والتحصيل ، وبعد ذلك يكونون على شيء من الحق لا على الحق

(١) [٣ / آل عمران / ٤٣] ونصهما : نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

كله ولو أقاموا التوراة والإنجيل الحقيقين غاية الإقامة ، فما بالك إذا كان ذلك مستحيلًا لعدم وجودهما على حقيقتيهما ؟ فهم ليسوا على شيء مطلقًا . ولا يمكن أن يكونوا عليه . فإن كتبهم قد صارت خلقةً بالية . لذلك قال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه ، حينما رأى ورقةً من التوراة بيده : ألم آتكم بها ببضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حيًا ما سمعه إلا أتباعي . (فإن قيل) : وكيف يحثهم الله على العمل بأى شيء من دينهم ، ومنه ما جاء القرآن ناسخًا له ؟ (قلت) : لاشك عند كل عاقل أنه خير لأهل الكتاب أن يعملوا بشرائع دينهم الأصلية ، فإنهم حينئذٍ يتجنبون الكذب والتحريف والعناد والأذى والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل والثرى ، وغير ذلك مما يعمل به الناس . فراد القرآن على التفسير الأول للآية حثهم - إن أصروا على عدم الإيمان به - على العمل بدينهم على الأقل ليستريح النبي وأتباعه من أكثر ضرورهم ورذائلهم . ولكن بعد العمل بدينهم لا يكونون على الدين الحق الكامل ؛ بل الذى يفهم من الآية أنهم يكونون على شيء من الدين ، وهو - ولا شك - خير من لا شيء . ولا يفهم أنهم يكونون على الحق كله وعلى الدين الكامل الذى لا غاية أعظم منه ، فإن ذلك لا يكون إلا بالإسلام (أَفَظِيرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) ^(١) . انتهى .

ولا يخفى أنهم إذا أقاموا التوراة والإنجيل ، آمنوا بمحمد صلوات الله عليه وسلم . لما تنقضى إقامتهما بالإيمان به . إذ أكثر ما جاء فيهما من البشارات به والتنويه باسمه ودينه . فأقامتهما على وجوههما تستدعى الإسلام البتة ، بل هى هو ، والله الموفق ...
« وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : القرآن المجيد بالإيمان به . وفى التعبير بقوله تعالى (لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ) من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه . كما تقول : هذا ليس بشيء ! تريد غاية تحقيره وتصغير شأنه . وفى أمثاله : أقل من لا شيء . أى : لستم على دين يعتد به حتى يسمى شيئًا ، لفساده وبطلانه .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

ثم بين تعالى غلوهم في العناد وعدم إفادة التبليغ فقال : « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا » أى تمادياً « وَكُفْرًا » أى ثباتاً على الكفر « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى : فإذا بالغت في تبليغ ما أنزل إليك ، فرأيت مزيد طغيانهم وكفرهم ، فلا تحزن عليهم لغاية خبثهم في ذواتهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفي المؤمنين غنى عنهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » فيما يستقبلهم من العذاب « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : في الآخرة إذا خاف المقصرون وحزنوا على تضييع العمر ..

لظائف

الأولى : (الصابثون) رفع على الابتداء . وخبره محذوف . والنية به التأخير عما في حيز (إن) من اسمها وخبرها . كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . والصابثون كذلك ، وأنشد سيبويه^(١) شاهداً له :

وإِلَّا فاعلموا أَنَّا وأنتم بُعَاةٌ مَا يَقِينَا فِي شِقَاقٍ

(١) جاء في (شواهد الكشاف) ما يأتي :

إذا جُرَّت نواصي آل بدرٍ فَأَدَوَهَا وَأَسْرَى فِي الْوِثَاقِ
وإِلَّا فاعلموا أَنَّا وأنتم بُعَاةٌ مَا يَقِينَا فِي شِقَاقِ

أى : فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك . ثم قال الزمخشري : فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح . فما الظن بغيرهم ؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المصدودين ضللاً وأشدّهم غيياً ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صباؤا عن الأديان كلها . أى : خرجوا . كما أن الشاعر قدم قوله (وَأَنْتُمْ) تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغية من قومه . حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو (بغاة) لئلا يدخل قومه في البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) :

ثمة سؤال ، وهو أن يقال : لو عطف (الصابئين) ونصبه - كما قرأ ابن كثير - لأفاد أيضاً دخولهم في جملة المتوب عليهم ، وَلَفْهَمُ من تقديم ذكرهم على (النصارى) ما يفهم من = في سورة المائدة عند قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى ، حكمهم كذا ، وَالصَّابِئُونَ كذلك . ف (الصابئون) مرفوع للتأخير عما في خبر (إن) كقوله : * وإنى وقيارٌ بها لغريب *

وأنشد سيبويه شاهداً له : وإلا فاعلموا أنا وأنتم ... الخ .

أى : فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك .

والبيت لبشر بن أبي خازم ، وقبلة : إذا جُرِّت ... الخ .

وسبب هذا الشعر أن قوماً من آل بدر جاؤا إلى بنى طيء . فعمد بنو طيء فجزّوا نواصيهم ، وقالوا : قد مَنَّنَّا عليكم ولم تقتلكم . وآل بدر حلفاء بنى أسد . فغضب بنو أسد لأجل ما صنع بالبدرين . فقال بشر بن أبي خازم هذه القصيدة يذكر فيها ما صنع بآل بدر . ويقول للطائيين : إذا جززتم نواصيهم ، فاحملوا إلينا وأطلقوا من أسرتم منهم . فإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغىكم ونبق أبداً معاندين ، يبنى بعضنا على بعض .

الرفع من أن هؤلاء الصابئين - وهم أوغل الناس في الكفر - يتأب عليهم ، فما الظن بالنصارى ؟
ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً ، والعطف إفرادي . فلم عدل إلى الرفع وجعل
الكلام جملتين ؟ وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادي ؟ ويجب أن هذا السؤال
بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف . لأن الأصناف كلها معطوف
بعضها على بعض عطف الفردات . وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد . وأما مع الرفع
فينقطع عن العطف الإفرادي وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به . ويكون خبر
هذا الصنف المنفرد بمنزلة . تقديره مثلاً (والصابئون كذلك) فيجىء كأنه مقيس على بقية
الأصناف وماحق بها . وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة ،
فكانوا أحقاء بجعلهم تبعاً وفرعاً مشبهين بمن هم أقدم منهم بهذا الخبر ، وفائدة التقديم على
الخبر أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر ، بين الجزأين ، أدل على الخبر المحذوف من
ذكره ، بعد تقضى الكلام وتماه ، والله أعلم .

الثانية - فإن قات : إن قوله تعالى (مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ) كيف يقع خبراً عن (الَّذِينَ
ءَامَنُوا) أو بدلاً ، وهو يقتضى انقسام المؤمنين إلى مؤمنين وغير مؤمنين ؟
أجيب : بأن المراد بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا) الذين آمنوا باللسان فقط . وهم المنافقون .
فاللحن : الذين آمنوا باللسان ومن معهم ، من أحدث منهم إيماناً خالصاً . أو يؤول (مَنْ ءَامَنَ)
بمن ثبت على الإيمان . فيصح في حق المؤمنين الخالص . وفي هذا شبه جمع بين الحقيقة والمجاز ،
ودفع بأن الثبات على الإيمان ليس غير الإيمان ، بل هو وإحداثه فردان من مطلقه . والوجه
الأول . إذ في ضم المؤمنين إلى الكفرة إخلال بتكريمهم ، قاله الخفاجي .

قال أبو السعود : أما على تقدير كون المراد بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا) مطلق المتدينين بدين
الإسلام ، المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بـ (مَنْ ءَامَنَ) من انصف منهم بالإيمان الخالص على
الإطلاق ، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه - كما هو شأن المخلصين . أو بطريق

إحداثه وإنشائه - كإهو حال من عداهم من المناقطين وسائر الطوائف . وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة في ترغيب الباقيين في الإيمان ، ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير مخلّ بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الأعلام . انتهى .

الثالثة : قال الرازى : لما بين تعالى أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا ، بين أن هذا الحكم عام في الكل ، وأنه لا يحصل لأحد فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، وذلك لأن الإنسان له قوتان : القوة النظرية والقوة العملية . أما كمال القوة النظرية فليس إلا بأن يعرف الحق . وأما كمال القوة العملية فليس إلا بأن يعمل الخير . وأعظم المعارف شرفاً معرفة أشرف الموجودات وهو الله سبحانه وتعالى . وكمال معرفته إنما يحصل بكونه قادراً على الحشر والنشر ؛ فلا جرم كان أفضل المعارف هو الإيمان بالله واليوم الآخر . وأفضل الخيرات في الأعمال أمران : المواظبة على الأعمال المشعرة بتعظيم المعبود ، والسعى في إيصال النفع إلى الخلق . ثم بين تعالى أن كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل ، فإنه يرد يوم القيامة من غير خوف ولا حزن . والفائدة في ذكرها : أن الخوف يتعلق بالمستقبل ، والحزن بالماضى ، فقال : (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بسبب ما فاتهم من طيبات الدنيا ، لأنهم وجدوا أموراً أعظم وأشرف وأطيب . (فإن قيل) : كيف يمكن خلو المكلف ، الذي لا يكون معصوماً ، عن أهوال يوم القيامة ؟ فالجواب من وجهين : الأول - أنه تعالى شرط ذلك بالعمل الصالح . ولا يكون آتياً بالعمل الصالح إلا إذا كان تاركاً لجميع المعاصي . والثاني - أنه إذا حصل خوف ، فذلك عارض قليل لا يعتد به . انتهى .

ثم بين تعالى بعضاً آخر من جنباياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ » أى : على الإيمان بالله ورسوله « وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا » ليقفوه على ما يأتون وما يذرون في دينهم « كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ » أى : بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من الأحكام الحقة . مع أن وضع الرسالة ، الدعوة إلى مخالفة الهوى « فَرِيقًا » منهم « كَذَّبُوا » مع ظهور دلائل صدقهم « وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » بعد التكذيب . سدًا لدعوتهم إلى ما يخالف أهويتهم .

لطيفتان

الأولى : قال الزمخشريّ : جواب الشرط محذوف يدل عليه قوله (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه .

قال الناصر في (الانتصاف) : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهرًا في الآية الأخرى ، وهي توأمة هذه ، قوله تعالى ^(١) : أَفْكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . فأوقع قوله (اسْتَكْبَرْتُمْ) جوابًا . ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض . فلو قدر الزمخشريّ ههنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى ، لدلالة مثله عليه .

(١) [٢ / البقرة / ٨٧] ونصها : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفْكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ .

الثانية: قال الرخشريّ: فإن قلت: لم جىء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً؟ قلت: جىء (يَقْتُلُونَ) على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة، للتعجيب منها.

قال في (الانتصاف): أو يكون حالا على حقيقته. لأنهم داروا حول قتل محمد ﷺ. وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في (البقرة)؛ وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضي، وتمثيله بقوله تعالى^(١): أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. فعدل عن (فأصبحت) إلى (فتصبح) تصويراً للحال واستحضاراً لها في ذهن السامع، ومنه^(٢):

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صححان
فأضربها بلا دهش نخرت صريعاً لليدين وللجربان
وأمثاله كثيرة. انتهى.

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] .

(٢) ضم إليها صاحب شواهد الكشاف قبلهما هذا البيت:

فمن ينكر وجود الغول، إنى أخبر عن يقين بل عيان

ثم قال:

أنشدها المؤلف في سورة الملائكة عند قوله تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ. حيث قال (فتثير) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده، ليحكي الحال التي يقع فيها إثارة الرياح السحاب، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية. وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهتم المخاطب، أو غير ذلك كما في قول تأبط شرا: بأنى قد لقيت الغول تهوى الخ لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها (بزعمه) على ضرب الغول. كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة، للتعجب من جراته على كل هول، وثباته عند كل شدة.

قال الخفاجي : اقتصر العلامة هنا على حكاية حال أسلافهم ، لقرينة ضمائر الغيبة ، وترك تلك الآية - يعني آية البقرة - على الاحتمالين لقرينة ضمائر مخاطبين . ليكون توبيخاً وتعميراً للناظرين بفعل آبائهم . ولذا عقب هذه الآية بقصة عيسى عليه الصلاة والسلام . فتأمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى : ظن بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل « فَعَمُوا وَصَمُوا » عطف على (حسبوا) ، و (الفاء) للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها ؛ أى : آمنوا بأس الله تعالى ، فتمادوا فى فنون النفاق والفساد ، وعموا عن الدين ، بعد ما هدام الرسل إلى معالمة الظاهرة ، وصموا عن استماع الحق الذى ألقوه عليهم ، ولذلك فعلوا ما فعلوا « ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى : مما كانوا فيه . قال العلامة أبو السعود : لم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى

= وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بعد موتها . لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل : فسقناه ، فأحييناه . معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص ، وأدل عليه .

والقول : السعالى . والعرب تسمى كل داهية غولا .

واختلف فى وجوده . فمنهم من أنكر وجوده أصلاً .

والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى . أى : تهبط . بسهب ، أى : فضاء

بعيد من الأرض . والصحيفة : الكتاب . وقاع صحصحان أو صحصمان ، أى : مستو .

والجران : مقدم العنق من مذبحه إلى منحره .

والصمم، تجافياً عن التصريح بنسبة الخير إليهم. وإنما أشير إليها في ضمن بيان توبته تعالى عليهم ، تمهيداً لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى :

« ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا » كَرَّةً أُخْرَى « كَثِيرٌ مِنْهُمْ » بدل من الضمير في الفعلين أو خبر محذوف ، أى : أولئك كثير منهم « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى : بما عملوا ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ورعايةً للفواصل . والجملة تدبيل أشير به إلى بطلان حسابهم المذكور . ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا ، إشارة إجمالية ، اكتفى بها تعويلاً على ما فصل نوع تفصيل في سورة (بنى إسرائيل)^(١) - أفاده أبو السعود . وهو مأخوذ من كلام القفال ، كما سيأتى :

تنبيه :

في هذه الآية إشارة إلى ما اكتنف بنى إسرائيل من الفتنة وعذاب الله الذى حاق بهم قبل عيسى وبعده . وذلك أن أنبياءهم قبل عيسى كانوا يوبخون رؤساءهم الأشرار وشعبهم على خطاياهم . ولا سيما فى عبادتهم الأوثان . وينصحونهم أن يرجعوا إلى الله . وينذرونهم بعقابه تعالى الشديد ودمارهم إن لم يتوبوا . كما أنبأهم إرميا عليه السلام بخراب بلدهم ، وقضائه تعالى الهائل عليهم ، إن أصروا على طغيانهم . فما استمعوا له . حتى روى أنه ختم له بالشهادة . إذ رجسته اليهود بمصر عتوا واستكباراً . ثم سلط الله عليهم بختنصر ، ملك بابل ، وسبى شعبهم وهدمت جنوده مدينتهم بيت المقدس وهيكلها . وصارت تلال خراب . وذلك لاستئصال كفرهم وشروهم ، وتطهير هيكلهم من نجاسة أوثانهم . فخلّ عليهم من البابلية الشقاء والويل . وأخذوا أسرى إلى ما وراء الفرات . ولم يترك منهم إلا الفقراء فقط . وبذلك انتهى ملكهم . وكان ذلك قبل ولادة عيسى عليه السلام بنحو خمسمائة وثمان وثمانين سنة . ثم تاب الله عليهم ورحمهم من سبهم ، وأعادهم برحمته إلى مدينتهم بيت المقدس . بعد أن أقاموا فى بابل سبعين سنة . وابتدأوا ببناء هيكلهم ثانية . وأرجعوا العبادة إليه . وقام حزقيال عليه

(١) هى سورة الإسراء .

السلام بوعظهم وتهذيبهم ودعوتهم إلى التوبة وتذكيرهم بما مضى ليعتبروا . وهكذا كل نبي فيهم ، لم يزل يندرهم ويدعوهم إلى الله إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام . فعموا عن الاهتداء به وصموا عن وعظه ، وكان ما كان من همهم بقتله . فدمرهم الله بعد ذلك وأباد مملكتهم . وطردوا من أرضهم بعد رفع عيسى عليه السلام بنحو أربعين سنة . وأخذ الرومانيون مدينتهم وهدموها مع الهيكل . وحلت عليهم نقمة الله ففترقوا شذر مذر .

هذا ، وما قيل بأن قوله تعالى (فَعَمُوا وَصَمُوا) إشارة إلى عبادتهم العجل - فإنه بعيد . لأنها ، وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم ، لكنها في عصر موسى عليه السلام . ولا تعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار . وكذا ما قيل بأن قوله تعالى (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا) إشارة إلى طلبهم الرؤية - فبعيد أيضاً ، لما ذكرنا . وفنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تنهاى . خلا أن انحصار ما حكى عنهم ههنا في المرتين ، وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام ، يقضى بأن المراد ما ذكرناه . والله عنده علم الكتاب . كذا أفاده أبو السعود ، ونحن نواقفه على ما رآه . بيد أن ماسقناه في التنبيه أظهر في ماجرياتهم ، وأشد مطابقة لما في توارخهم ، مما ساقه هنا . فتثبت .

ويرحم الله الإمام القفال حيث قال : ذكر الله تعالى في سورة (بنى إسرائيل) ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال ^(١) : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . فهذا في معنى (فعموا وصموا) ثم قال : فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا . فهذا في معنى قوله (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) انتهى .

ثم بين تعالى كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد المبين لأصل دعوة عيسى عليه السلام ، من التوحيد الخالص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)
« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ »

قال الرازى : هذا قول اليعقوبية منهم . يقولون : إن مريم ولدت إلهاً . قال : ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله تعالى حلّ فى ذات عيسى واتحد بها ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقد سبق الكلام على مثل هذه الآية فى هذه السورة مفصلاً ، فتذكر .

ثم بين تعالى أنهم صمّوا عن مقالات عيسى الداعية إلى التوحيد ، كما عمّوا عما فيه من أمارات الحدوث ، بقوله سبحانه « وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ » ولم يقل اعبدوني . ثم صرح بقوله « رَبِّي وَرَبَّكُمْ » قلماً لمادة توهم الاتحاد « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ » كيف والشرك أعظم وجوه الظلم « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى : ما لهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار ، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة . والجمع لمراعاة المقابلة بـ (الظالمين) ؛ و (اللام) إما للعهد، والجمع باعتبار معنى (من) ، كما أن الأفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها . وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً . ووضعه على الأول موضع الضمير ، للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق . والجملة تذييل مقرر لما قبله . وهو إمّا من تمام كلام عيسى عليه السلام ، وإمّا وارد من جهته تعالى ، تأكيداً لمقاتلته عليه السلام ، وتقريراً لمضمونها . أفاده أبو السعود .

ثم بين تعالى كفر طائفةٍ أخرى منهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ،

وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » أى : أحد ثلاثة آلهة ، بمعنى واحد

منها ، وهم الله ومريم وعيسى .

قال بعضهم : كانت فرقة منهم تسمى (كولى رى دينس) تقول : الآلهة ثلاثة : الأب

والابن ومريم .

وجاء في كتاب (علم اليقين) : أن فرقة منهم تسمى (المرَيميين) قال : يعتقدون أن

المريم والمسيح إلهان . قال : وكذلك البربرانيون وغيرهم . انتهى .

وأسلمنا عن ابن إسحق أن نصارى نجران ، منهم من قال بهذا أيضاً .

أو المعنى : أحد ثلاثة أقانيم كما اشتهر عنهم . أى هو جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم :

أب وابن وروح القدس . وزعموا ، أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد . كما قدمنا عنهم في قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ .

قال الرازى رحمه الله : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببيدیه العقل . فإن الثلاثة لا تكون

واحداً ، والواحد لا يكون ثلاثة . ولا يرى في الدنيا مقالة أشدّ فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة

النصارى . انتهى .

وقد صنفت عدة مصنفات في تزيف معتقدهم هذا ، وهى شهيرة متداولة ، والمحمد لله .

لطيفة :

اتفق النحاة واللغويون على أن معنى قولهم (ثالث ثلاثة ورابع أربعة ... ونحو ذلك

أحد هذه الأعداد مطلقاً . لا الوصف بالثالث والرابع .

وفي (التوضيح وشرحه) : لك في اسم الفاعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما أن تستعمله على سبعة أوجه : (أحدها) أن تستعمله مفرداً عن الإضافة ، ليفيد الاتصاف بمعناه . فتقول : ثالث ورابع ، ومعناه حينئذٍ واحد موصوف بهذه الصفة وهي كونه ثالثاً ورابعاً .

(الوجه الثاني) أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه ، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير . فتقول : خامس خمسة أي : واحد من خمسة لا زائد عليها ، ويجب حينئذٍ إضافته إلى أصله . كما يجب إضافة البعض إلى كله . ك : يد زيد ، قال تعالى : إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ^(١) . وقال تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وزعم الأخفش وقطرب والكسائي وثعلب أنه يجوز إضافة الأول إلى الثاني ، ونصبه إياه . فعلى هذا يجوز ثالث ثلاثة بجر « ثلاثة » ونصبها . كما يجوز في (ضارب زيد) .

(الوجه الثالث) أن تستعمله مع مادون أصله الذي صيغ منه بمرتبة واحدة ، ليفيد معنى التصيير ، فتقول : هذا رابع ثلاثة أي : جاعل الثلاثة بنفسه أربعة ؛ قال تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ^(٢) . أي : إلا هو

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مصيّرهم أربعة ومصيرهم ستة . ويجوز حينئذٍ إضافته وإعماله ، كما يجوز الوجهان في جاعل ومصير ونحوها .

وانظر تمة الأوجه .

وبما ذكرناه يعلم ردّ ما ذهب إليه الجاهل في (شرح الكافية) من اعتبار الصفة في نحو (ثالث ثلاثة) حيث قال في شرح قول ابن الحاجب (ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) : أى أحدها . لكن لا مطلقاً . بل باعتبار وقوعه في المرتبة الثالثة . قال : وإلّا يلزم جواز إرادة الواحد الأول من عشر العشرة وذلك مستبعد جداً . انتهى .

فكتب عليه بعض المحققين ما نصّه : الظاهر من عبارة (التوضيح) ومن كلام المصنف أنه لا يعتبر الوقوع في المرتبة الثانية أو الثالثة وهكذا ... إذ يبعد في الآيتين كون المراد بـ « ثَانِي اثْنَيْنِ وَثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » كونه في المرتبة الثانية أو الثالثة بل المراد أنه بعض تلك العدد ، بلا نظر لكونه في المرتبة الثانية أو الثالثة . إلّا أن يكون هذا باعتبار الوضع ، وإن كان الاستعمال بخلافه . ولذا كتب العلامة عبد الحكيم على قوله (وذلك مستبعدٌ جداً) أى : عند العقل ، وإلّا فالاستعمال بخلافه . انتهى .

« وَمَا مِنْ إِلَهٍ » في نصّ الإنجيل والتوراة وجميع الكتب السماوية ودلائل العقل « إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ » لا يتعدد أفراداً ولا أجزاءً « وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ » من هذا الافتراء والكذب ، بعد ظهور الدلالة القطعية ، متمسكين بمتشابهات الإنجيل التي أوضحتها محكماته « لِيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » في الآخرة . من عذاب الحريق والأغلال والنكال .

قال الزخشريّ : ولم يقل (ليسّتهم) لأن في إقامة الظاهر مقام المضمّر فائدة . وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا) وفي البيان فائدة أخرى . وهي الإعلام في تفسير (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ) أنهم بمكان من الكفر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ » بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمشابهات إلى القطعيات. فلاستفهام للإنكار الواقع واستبعاذه، فيه تعجيب من إصرارهم. ومدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء والتوبة معاً. أو معناه : ألا يتوبون - بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيد الشديد - مما هم عليه . فدارها عدم التوبة عقب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة .

قال ابن كثير: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه . مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . فكل من تاب إليه تاب عليه . كما قال « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم .

قال أبو السعود : الجملة حالية من فاعل (يَسْتَغْفِرُونَهُ) مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار . أى: والحال أنه تعالى مبالغ في المغفرة. فيغفر لهم عند استغفارهم ، ويمنحهم من فضله .

ثم أشار تعالى إلى بطلان التمسك بمعجزات عيسى وكرامات أمه على إلهيتهما ، بأن غايتهما الدلالة على نبوته وولايتها ، استنزالاً لهم عن الإصرار على ما تقولوا عليهما ، وإرشاداً لهم إلى التوبة والاستغفار فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« مَا الْمَسِيحُ » أى : المعلوم حدوثه من كونه « ابْنُ مَرْيَمَ » بالحوارق الظاهرة على

يديه « إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ » أى : مضت « مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » أولو الخوارق الباهرة .
 فله أسوة أمثاله . كما قال تعالى : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ^(١) » . أى : ما هو إلا رسول
 من جنس الرسل الذين خلوا قبله ، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها . إن أبرأ الله الأبرص
 وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسمى وفلق بها البحر على يد موسى .
 وهو أعجب . وإن خلقه من غير أب ، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم . وهو أغرب منه .
 وفي الآية وجه آخر : أى مضت من قبله الرسل ، فهو يعضى مثلهم . فالجملة - على كل -
 منبئة عن اتصافه بما ينافى الألوهية « وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » أى : مبالغة فى الصدق . ووقع اسم
 الصديقة عليها لقوله تعالى : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ » . والوصف بذلك مشعر بالإغراق
 فى العبودية والقيام بمراسمها . فن أين لهم أن يصفوها بما يباين وصفها ؟

تنبيه :

قال ابن كثير :

دلت الآية على أن مريم ليست بنبيّة . كما زعمه ابن حزم وغيره - ممن ذهب إلى نبوة
 سارة أم إسحق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى - استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة
 ومريم وبقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ » . وهذا معنى النبوة . والذى عليه الجمهور
 أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
 نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ^(٢) » . وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري ، رحمه الله ، الإجماع
 على ذلك . انتهى .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٩] ... وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٩] ... أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَذَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

فائدة (في حقيقة الصديق والصدق) :

قال العارف القاشاني قدس الله سره في (لطائف الأعلام) :

الصديق الكثير الصدق . كما يقال : سكيت وصرّيع إذا كثر منه ذلك . والصديق من الناس من كان كاملاً في تصديقه لما جاءت به رسل الله علماً وعملاً ، قولاً وفعلًا . وليس يعلو على مقام الصديقية إلا مقام النبوة . بحيث إن من تخطى مقام الصديقية حصل في مقام النبوة . قال الله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ... الآية^(١) . فلم يجعل تعالى بين مرتبتى النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما . ثم بين قدس سره صدق الأقوال ، وصدق الأفعال ، وصدق الأحوال . (فالأول) هو موافقة الضمير للنطق . قال الجنيد : حقيقة الصدق أن تصدق في موطنٍ لا ينجيك فيه إلا الكذب . و (صدق الأفعال) هو الوفاء لله بالعمل من غير مداينة . قال المحاسبى : الصادق هو الذى لا يبالي لو خرج كل قدرٍ له في قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه . ولا يجب اطلاع الناس على مناقيل الذر من حسن عمله . ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من حاله . لأن كراهته لذلك دليل على أنه يجب الزيادة عندهم . وليس هذا من أخلاق الصديقين . و (صدق الأحوال) اجتماع الهم على الحق ، بحيث لا يحتاج في القلب تفرقة عن الحق بوجه .

وقوله تعالى : **« كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »** استئناف مبين لما قبله من أنهما كسائر البشر في الافتقار إلى الغذاء . وفيه تبعيد عما نسب إليهما .

قال الزمخشري : لأن من احتاج إلى الاعتداء بالطعام ، وما يتبعه من الهضم والنفص ، لم يكن إلا جسمًا مركبًا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة ، مع شهوة وقرمٍ وغير ذلك ... مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كثيره من الأجسام .

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] ... **مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ، إذا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

لطيفة :

إنما آخر في الاستدلال على بطلان مذهب النصارى ، حاجتهما للطعام عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام ، ترقيا في باب الاستدلال من الجلىّ للأجلى ، على ما هو القاعدة في سوق البراهين لإلزام الخصم ، حتى إذا لم يسلم في الجلىّ لغموضه عليه ، يورد له الأجلى تعريضا بغاوته ، فيضطر للتسليم ، إن لم يكن معاندا ولا مكابرا .
هذا ما ظهر لى في سر التقديم والتأخير .

وأما قول الخفاجىّ - ملخصاً كلام البيضاوى - في سر ذلك : أنه تعالى بين أولاً أقصى مراتب كلهما ، وأنه لا يقتضى الألوهية ، وقدمه لثلا يواجههما بذكر نقائص البشرية الموجبة لبطلان ما ادعوا فيها ، على حد قوله تعالى : عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ . حيث قدم العفو على الماتبة له ﷺ انتهى - فبعد .

وقياسه على الآية قياس مع الفارق لاختلاف المقامين . فالأظهر ما ذكرناه ، والله أعلم بأسرار كتابه .

« انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ » أى : على توحيد الله ، وبطلان الاتحاد وإلهية عيسى وأمه ، وبطلان شبهاتهم ! « ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى : كيف يصرفون عن التأمل فيها إلى الإصرار على التمسك بالشبهات الظاهرة البطلان . !

قال أبو السعود : وتكرير الأمر بالنظر ، للمبالغة في التمجيب من حال الذين يدعون لها الربوبية ، ولا يراعون عن ذلك ، بعد ما بين لهم حقيقة حالها بياناً لا يحوم حوله شائبة ريب ، وثم لإظهار ما بين المعجبين من التفاوت . أى : إن بياننا للآيات أمر بديع في بابه ، بالغ لأقصى الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح . وإعراضهم عنها - مع انتفاء ما يصححه بالمرّة ، وتعاوض ما يوجب قبولها - أعجب وأبدع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » هذا دليل آخر على فساد قول النصارى ، والموصول كناية عن عيسى وأمه . أى : لا يستطيعان أن يضراكم بمثل ما يضركم به الله من البلى والمصائب فى الأنفس والأموال . ولا أن ينفعاكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب . ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع ، بإقدار الله وتمكينه ، فكأنهما لا يملكان منه شيئاً . وإثبات (ما) على (من) لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأساً ، ببيان انتظامهما فى سلك الأشياء التى لا فدره لها على شىء أصلاً ؛ أى : وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته . وإنما قدم (الضر) لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع . « وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » بالأفوال والعقائد . فيجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهو وعد ووعد .

تنبيهات :

الأول . جمل ابن كثير الخطاب فى قوله تعالى (أَتَعْبُدُونَ) عاماً للنصارى وغيرهم ، أى : قل لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم . وفى (تنوير المقباس) أن (ما) عبارة عن الأصنام خاصة . وكلاهما مما يباه السباق والسياق .

الثانى : قال فى (فتح البيان) : إذا كان هذا فى حق عيسى النبىؑ ، فما ظنك بولى من الأولياء ؟ فإنه أولى بذلك .

الثالث : جمل أكثر المفسرين (ما) كناية عن عيسى عليه السلام فقط ، والمقام أنها كناية عنه وعن أمه عليهما السلام ، كما أوضحه المهايمى واعتمده .

الرابع^١: دلت الآية على جواز الحجاج في الدين ؛ فإن كان مع الكفار وأهل البدع ،
فذلك ظاهر الجواز ؛ وإن كان مع المؤمن جاز بشرط أن يقصد إرشاده إلى الحق ، لا إن قصد
العلو فمحذور. وحكي عن الشافعي أنه كان إذا جادل أحداً قال : اللهم ! ألق الحق على لسانه.
أفاده بعض الزيدية .

ولما أقام تعالى الأدلة القاهرة على بطلان ما تقوله النصارى ، أرشدهم إلى اتباع الحق
ومجانبة الغلو الباطل ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ
قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ » أى : الذى هو ميزان العدل « لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ » أى : لا تتجاوزوا الحد في تعظيم عيسى وأمه ، وترفعوهما عن رتبتهما إلى ما تقولتم
عليهما من المظيمة ، فأدخاتم في دينكم اعتقاداً غير الحق بلا دليل عليه ، مع تظاهر الأدلة
على خلافه . ونصب (غير) على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : غلوّاً غير الحق . يعنى غلوّاً
باطلاً . أو حال من ضمير الفاعل أى : مجاوزين الحق . و (الغلو) نقيض التقصير ، ومعناه
الخروج عن الحد ؛ وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط ، ودين الله بين الغلو
والتقصير .

تنبيه :

دلت الآية على أن الغلو في الدين غلوٌّان : (غلوٌّ حق) كأن يفحص عن حقائقه ويفتش
عن أباعد معانيه ويجهد في تحصيل حججه ؛ و (غلوٌّ باطل) وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه
بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه .

قال بعض الزيدية : دلت الآية على أن الغلو في الدين لا يجوز ، وهو المجاوزة للحق إلى الباطل . ومن هذا ، الغلو في الطهارة مع كثير من الناس ، بالزيادة على ما ورد به الشرع لغير موجب . انتهى .

ومن هذا القبيل الغلو في تعظيم الصالحين وقبورهم حتى يصيرها كالأوثان التي كانت تعبد . وروى ^(١) الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس ؛ أن النبي ﷺ قال : إيتاكم والغلو في الدين . فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين . وعن عمر ^(٢) ؛ أن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله . أخرجه .

ولسلم ^(٣) عن ابن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : هلك المتنطعون ! قالها ثلاثاً . ثم نهامهم تعالى عن اتباع سلفهم وأئمتهم الضالين بقوله سبحانه : « وَلَا تَتَّبِعُوا » قال المهايي : أي : تقليداً « أَهْوَاءَ قَوْمٍ » تمسكوا بخوارقهما على إلهيتهما . فإن نظروا إلى سبقتهم فغايتهم أنهم « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ » إلى كثرة أتباعهم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٨٥١ (طبعة المعارف) .

والنسائي في : ٢٤ - كتاب مناسك الحج ، ٢١٨ - باب التقاط الحصى . وابن ماجه في : ٢٥ - كتاب المناسك ، ٦٣ - باب قدر حصي الرمي ، حديث ٣٠٢٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاري عن عمر رضي الله عنه ، في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، حديث ١٢١٤ . وليس في مسلم .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فغايتهم أنهم « أَضَلُّوا كَثِيرًا » ممن شايعهم على التثليث « وَ » إلى تمسكهم بمتشابهات الإنجيل ، فغايتهم أنهم « ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » إذ لم يردوها إلى المحكمات .

تنبيهات :

الأول : قال الرازي :

الأهواء - ههنا - المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجّة . قال الشعبي : ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه . قال : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) . وَاتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَى ^(٢) . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ^(٣) . أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ^(٤) . قال أبو عبيدة : لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر . لا يقال : فلان يهوى الخير . إنما يقال : يريد الخير ويحبه . وقال بعضهم : الهوى إله يعبد من دون الله . وقيل : سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في النار . وأنشد في ذم الهوى :

إنّ الهوى لهُو الهوانُ بعينه
فإذا هويتَ فقد لقيتَ هواناً

وقال رجل لابن عباس : الحمد لله الذي جعل هواي على هواك ، فقال ابن عباس : كل هوى ضلالة .

(١) [٣٨ / ص / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَخُذْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٦] ونصها : فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرْدَى .

(٣) [٥٣ / النجم / ٣] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٤٣] ... أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا .

الثاني : قال الرازي أيضاً :

إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا . ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى ، من هذه الحالة . نعوذ بالله منها . ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم ، في ذلك الإضلال ، أنه إرشاد إلى الحق . ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين ، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة . انتهى .

وهذه الوجوه - مع ما أسلفناه عن المهايي - كلها مما يصح إرادتها من الآية لتصادقها جميعاً عليهم .

الثالث : دلت الآية على أن مالهؤلاء الكفرة من الأباطيل - مع مخالفتها للعقول ومزاحمتها للأصول - لا مستند لها ولا معول لهم فيها غير التقليد لأسلافهم الضالين ، الذين أحدثوا القول بالتثليث بعد نحو ثلاثمائة سنة من رفع المسيح عليه السلام . وقرروه في تعاليمهم بعد جدال واضطراب . وتمسكوا في ذلك ، بطواهر الألفاظ التي لا يحيطون بها علماً ، مما لأصل له في شرع الإنجيل ، ولا مأخوذ من قول المسيح ولا من أقوال حوارتيه . وهو مع ذلك مضطرب متناقض متهافت ، يكذب بعضه بعضاً ، ويعارضه ويناقضه ، كما تبين من الكتب المصنفة في الرد عليهم .

الرابع : جاء في (تنوير المقباس) :

إن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ . وبقوله (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) العاقب والسيد . والأول - كما قال ابن إسحق - كان أمير القوم وذا رأيهم . والثاني صاحب رحلهم ومجتمعهم .

والأظهر أن المعنى بـ (أهل الكتاب) عموم النصارى . والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أولياً .

الخامس : ذكر كثير من المفسرين : أن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : اليهود والنصارى . وأن كليهما غلا في عيسى عليه السلام : أما غلوّ اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رِشْدة . وأما غلوّ النصارى فمعلوم . وأن الخطاب في قوله تعالى (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ . فهو عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم . انتهى .

وظاهر أن ما نسب للفريقين - من الغلوّ والابتداع - مسلم . بيد أن الأقرب للسباق الداحض لشبهات النصارى ، أن تكون هذه الآية فيهم زجراً لهم عما سلكوه ، إثر إبطاله بالبراهين الدامغة . على أن الغلوّ ألصق بالنصارى منه باليهود ، كما لا يخفى . والله أعلم . ثم أخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما السلام . بسبب عصيانهم وما عدّد من كبائرهم . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى : لعنهم الله عز وجل « عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أى : لسانيهما . وأفرد لعدم اللبس ، إن أريد باللسان الجارحة . وقيل : المراد به الكلام وما نزل عليهما . كذا في (العناية) .

« ذَلِكَ » أى : لعنهم الهائل « بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » بقتل الأنبياء واستحلال

المعاصي .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٩] (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » أى : لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المآثم والمحارم . ثم ذمهم على ذلك ليحذر من ارتكاب مثل الذى ارتكبهوه فقال « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » مؤكداً بلام القسم . تعجبياً من سوء فعلهم ، كيف وقد أدام إلى ما شرح من اللعن الكبير .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية على جواز لعنهم .

الثانى : دلت الآية أيضاً على المنع من الذرائع التى تبطل مقاصد الشرع . لما رواه أكثر المفسرين ؛ أن الذين لعنهم داود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه . وستأتى قصتهم فى (الأعراف) .

الثالث : دلت أيضاً على وجوب النهى عن المنكر .

قال الحاكم : وتدل على أن ترك النهى من الكبائر .

الرابع : روى الإمام أحمد^(١) فى معنى الآية عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٧١٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٦ - حدثنا عبدالله

ابن عبد الرحمن .

وأبو داود فى : ٣٦ - كتاب الملاحم ، ١٧ - باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٣٦ .

وابن ماجة فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢٠ - باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

حديث ٤٠٠٦ (طبعتنا) .

ﷺ : لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءؤهم فلم ينتهوا ، فجالسواهم في مجالسهم ، أو في أسواقهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . وكان رسول الله ﷺ متكئاً جالس فقال : لا ، والذي نفسى بيده ! حتى تأطروهم على الحق أطراً . أى : تعطفوهم عليه . ورواه الترمذى وقال : حسن غريب .

وأخرجه أبو داود عنه فقال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا ! اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقيه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقميده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. - إلى قوله - فَاسِقُونَ . ثم قال : كلا والله ! لتأمرن بالمعروف . ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو تقصرنه على الحق قصرأ .

زاد في رواية : أول يضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم . وكذا رواه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه .

والأحاديث في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كثيرة ، ومما يناسب منها هذا المقام :

ما رواه الإمام أحمد^(١) والترمذى عن حذيفة بن اليمان : أن النبي ﷺ قال : والذي نفسى بيده ! لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليؤشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

والترمذى في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٩ - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفى (الصحيحين)^(١) عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبأسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن عدى بن عميرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم . وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه . فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

وروى ابن ماجه^(٣) عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عبداً حجته قال : يارب ! رجوتك وفرت الناس .

قال الحافظ ابن كثير : تفرّد به ابن ماجه . وإسناده لا بأس به .

وروى الإمام^(٤) أحمد والترمذى عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه . قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء ما لا يطيق . قال الترمذى : حسن غريب .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٧٨ (طبعنا) .

وليس فى البخارى .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ ، حديث ٤٠١٧ (طبعنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

والترمذى فى : ٣١ - كتاب الفتن ، ٦٧ - باب حدثنا محمد بن بشار .

وروى ابن ماجه^(١) عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ! متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم . قلنا : يا رسول الله ! وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في رذالتكم .

قال زيد بن يحيى الخزازي ، أحد رواة : معنى قول النبي ﷺ (والعلم في رذالتكم) إذا كان العلم في الفساق .

تفرد به ابن ماجه . وله شاهد في حديث أبي ثعلبة يأتي إن شاء الله عند قوله تعالى (لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) - أفاده ابن كثير .

أقول : هذه الأحاديث إنما يتروح بها الضعفة ، من نحو العلماء والقادة . وأما من كان لهم الكلمة النافذة والوجهة التامة فهيئات أن تغنى عنهم ، وهذه المواعيد الهائلة تخفق فوق رؤوسهم .. ولذا قال العلامة الزخشرى : فياحسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المنكر ، وقلة عبئهم به . كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء . مع ما يتلون من كتاب الله ، وما فيه من المبالغات في هذا الباب . وقد مر عند قوله تعالى (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ رَبِّي لَكُنُومٌ) ^(٢) ما يؤيد ما هنا ، فتذكر .

الخامس : قال الزخشرى : فإن قلت : كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء ؟ قلت : من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي . فكان الإخلال به معصية ، وهو اعتداء .

ولما وصف تعالى أسلافهم بما مضى ، وصف الحاضرين بقوله :

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، حديث ٤٠١٥ (طبعتنا) .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٣] ... وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ ، لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ

أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

« تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من أهل الكتاب « يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى :

يوالون المشركين ، بغضاً لرسول الله ﷺ .

قال الرازى : والمراد منهم كعب بن الأشرف وأصحابه ، حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ . وذكرنا ذلك في قوله تعالى (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا) .

« لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ » أى : لبئس شيئاً قدموا لمعادهم . وقوله تعالى : « أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » هو المخصوص بالذم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد ، ومبالغة في الذم . والمعنى : لبئس زادهم في الآخرة موجب سخطه تعالى عليهم « وَفِي الْعَذَابِ » أى : عذاب جهنم « هُمْ خَالِدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ

وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَوْ كَانُوا » أى : هؤلاء الذين يتولون عبدة الأوثان من أهل الكتاب « يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ » أى : نبيهم موسى عليه السلام « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ » أى : من التوراة

« مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ » إذ الإيمان بالله يمنع من تولي من يعبد غيره « وَلَكِنَّ كَثِيرًا

مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » خارجون عن دينهم ، أو متمردون في نفاقهم . يعنى : أن موالاتهم

للمشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم ، وأن إيمانهم ليس بإيمان ، لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام . فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام ، بل مرادهم الرياسة والجاه ، فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه ، فلهذا وصفهم تعالى بالفسق .

وفي الآية وجه آخر : وهو أن يكون المعنى : ولو كانوا - أي مناققو أهل الكتاب المدّعون للإيمان - يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن حق الإيمان ، ما ارتكبوا ما ارتكبوه ، من موالاة الكافرين في الباطن .

والوجه الأول أقوم ، والله أعلم .

ثم أكد تعالى ماتقدم من مثالب اليهود بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيَّيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » وإنما عاداهم اليهود لإيمانهم بعميسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء - أشار إليه المهايى .

وقال غيره : لشدة إباؤهم ، وتضاعف كفرهم ، وانهما كهم في اتباع الهوى ، وكونهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرّسهم على التمرّد والاستعصاء على الأنبياء ، والاجترار على تكذيبهم ، ومناصبتهم لهم . ولهذا قتلوا كثيراً منهم حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وسموه ، وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين . وفي تقديم (اليهود) على (المشركين) ، بعد لزّهما في قرن واحد ، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة ، كما أن

في تقديمهم عليهم في قوله تعالى^(١) (وَاتَّجِدْتَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إذنا بتقدمهم عليهم في الحرص . « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى » للين جانبهم وقلة غلّ قلوبهم .

قال ابن كثير : وما ذاك إلا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح ، من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى^(٢) : وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً . وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً في ملّتهم . انتهى . ولأن من مذهب اليهود ، أنه يجب إبطال الشر إلى من خالف دينهم بأي طريق كان ، من القتل ونهب المال ونحوها . وهو عند النصارى حرام . فحصل الفرق .

وقد روى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً : ما خلا يهودى بمسلم إلا همّ بقتله .
ولسكرة اهتمام النصارى بالمسلم والترهب ، ما يدعو إلى قلة البغضاء والحسد ، ولين المعريكة ، كما أشير إليه بقوله تعالى : « ذَلِكَ » أى : كونهم أقرب مودة للمؤمنين « بَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ » أى : بسبب أن منهم « قسيسين » أى علماء « وَرُهْبَانًا » أى عبداً متجردين « وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى : يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود . وفي الآية دليل على أن الإقبال على العلم ، والإعراض عن الشهوات ، والبراءة من الكبر - محمود . وإن كان ذلك من كافر .

(١) [٢ / البقرة / ٩٦] . . . وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٧] ونصها : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

لطيفة :

قال الناصر في (الانتصاف) :

إنما قال تعالى : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) ولم يقل (النَّصَارَى) تعريضا بصلافة اليهود في الكفر والامتناع من الامتثال للأمر ، لأن اليهود قيل لهم : ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم . فقابلوا ذلك بأن قالوا (٢) : فاذهب أنت وربك فقالتا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ . والنصارى قالوا (٣) : نحن أنصار الله . ومن ثم سُموا نصارى . وكذلك أيضاً ورد أول هذه السورة (٤) . ومن الذين قالوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . فأسند ذلك إلى قولهم ، والإشارة به إلى قولهم : (نحن أنصارُ

(١) [٥ / المائدة / ٢١] ونصها : يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ١٤] ونصها : وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

الله (لكنه ههنا ذكر تنبيهاً على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله . وفي الآية الثانية ذكر تنبيهاً على أنهم أقرب حالا من اليهود . لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالردّ مكافحة اليهود . بل قالوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ . واليهود قالت: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ... الآية ، فهذا سره . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » عطف على (لا يستكبرون) . قال أبو البقاء : ويجوز أن يكون مستأنفاً في اللفظ وإن كان له تعلق بما قبله في المعنى . يعني : وإذا سمعوا القرآن « تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ » أى : تنصب « مِنَ الدَّمْعِ » الحاصل من اجتماع حرارة الحب والخوف ، مع برد اليقين « مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » أى من كتابهم ، فوجدوه أكمل منه وأفضل ، أو من الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحق ، أو من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعمته في كتابهم « يَقُولُونَ » أى : من عدم استكبارهم « رَبَّنَا آمَنَّا » أى : بك وبما أنزلت وبرسولك محمد « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى : الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته . روى الحاكم ، وصححه ، عن ابن عباس قال : أى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته هم الشاهدون . يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ ، ولرسل أنهم قد بلغوا .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

« وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ » إنكار استبعاد لا انتفاء الإيمان مع قيام موجب - وهو الطمع - في إتمام الله عليهم بصحبة الصالحين « وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ » أى . وبما جاءنا من القرآن . وفي إعرابه وجه آخر يأتى ، « وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ » يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أو المعنى : أن يدخلنا ربنا الجنة مع الأنبياء والمؤمنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

« فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا » أى : بما تكلموا به من قولهم (رَبَّنَا آمَنَّا) الصادر عن اعتقاد وإخلاص واعتراف بالحق « جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » يعنى أنهار الماء واللبن والحمر والعسل « خَالِدِينَ فِيهَا » أى : مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها « وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » يعنى المؤمنين الموحدين المخلصين فى إيمانهم .

تنبيهات

الأول : اتفق المفسرون على أن هذه الآيات الأربع نزلت فى النجاشى وأصحابه رضوان

الله عليهم .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب وأبى بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضميرى وكتب معه كتاباً إلى النجاشى . فقدم

على النجاشي . فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل إلى الرهبان والقسيسين . ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم . فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع . فهم الذين أنزل الله فيهم : وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً . . . إلى قوله - فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : بعث النجاشي ثلاثين رجلاً من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا ، فنزلت فيهم الآية . وأخرج النسائي^(١) عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) .

وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه ، بأبسط منه .

- كذا في (أسباب النزول للسيوطي) -

وقال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه ، الذين ، حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن ، بكوا حتى أخضبوا لحاهم . قال ابن كثير : وهذا القول فيه نظر . لأن هذه الآية مدنية ، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة . انتهى .

أقول : إن نظره مدفوع ، فإنه حكى في هذه الآية بعد الهجرة ما وقع قبلها ، ونظارته في التنزيل كثيرة ، ولا إشكال فيه . . وظاهر أن المقصود بهذه الآية التمييز بعناد اليهود الذين كانوا حول المدينة . وهم يهود بني قريظة والنضير . وبعناد المشركين أيضاً ، وقساوة قلوب الفريقين ، وأنه كان الأجدر بهما أن يعترفوا بالحق كما اعترف به النجاشي وأصحابه . وقال ابن كثير : هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

(١) لم أهدت إلى محل هذا الحديث في سنن النسائي .

الْكِتَابِ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ (١) ... الآية ،
 وهم الذين قال (٢) الله فيهم : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا
 يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ... - إلى
 قوله - لَا تَبْتَغِيَ الْجَاهِلِينَ « . انتهى .

وكان سبب هجرة الصحابة إلى أرض الحبشة؛ أن قريشاً اتهمت أن يفتنوا المؤمنين عن
 دينهم ، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فأدوهم وعذبوهم ، فافتتن من افتتن منهم ، وعصم
 الله من شاء منهم .

قال ابن (٣) إسحق رحمه الله تعالى : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من
 البلاء ، وما هوفيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن ينعمهم
 مما هم فيه من البلاء - قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده
 أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة . وفروا
 إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ
 لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٢ - ٥٥] ... أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا
 صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِيَ الْجَاهِلِينَ .

(٣) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والصفحة
 رقم ٢٠٨ (طبعة جوتنجن) .

فكان^(١) جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها - ثلاثةً وثمانين رجلاً ، إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه .

ثم روى ابن إسحق^(٢) بسنده إلى أم سلمة - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي . أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدَيْن . وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم . فجمعوا له أدماً كثيراً . ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص . وأمروها بأمرهم ، وقالوا لها : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي فيهم . ثم قدما إلى النجاشي هداياه . ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي - ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار - فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : إنه قد سوى - أي لجأ - إلى بلد الملك منا ، غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم . فإن قومهم أعلى بهم عينا . (أي أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لها : نعم .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والصفحة

رقم ٢١٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والصفحة

رقم ٢١٧ و٢١٨ (طبعة جوتنجن) .

ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشيّ فقبلها منهما ، ثم كآماه بما كلّما كلّ بطريق .
 قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع
 كلامهم النجاشيّ . قالت : فقالت بطارفته حوله : صدّقاً . أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عينا
 وأعلم بما عابوا عليهم . فأسألهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم . فقالت : فغضب النجاشيّ
 ثم قال : لاها الله ! إذا لا أسألهم إليهما . ولا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني
 على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم . فإن كانوا كما يقولان
 أسألتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم . وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنّت جوارهم
 ما جاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم
 رسوله اجتمعوا . ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جثتموه ؟ قالوا : نقول والله !
 ما علمنا . وما أمرنا به نبينا ، كماثنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاؤوا - وقد دعا النجاشيّ
 أسأفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم
 تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب
 فقال له : أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى
 الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسئ الجوار . وبأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك
 حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه . فدعانا إلى الله لنوحده
 ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق
 الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن
 الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده
 لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . - قالت : فعدّد عليه أمور الإسلام -
 فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ،

وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فمذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيعوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجعنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . ! قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه علي . قالت : فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت : فبكى ، والله ! النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم . ثم قال النجاشي : إن هذا ، والذي جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، فلا ، والله ! لا أسلمهم إليك ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله ! لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم (أي شجرتهم التي منها تفرعوا) .

قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله ! لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم . ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول ، والله ! ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشي يده إلى

الأرض فأخذ منها عودًا ، ثم قال : والله ! ما عدا عيسى ابن مريم ، مما قلت ، هذا العود .
 قالت : فتناخرت بطارفته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن نخرتم ، والله ! اذهبوا فأنتم
 شيوم بأرضي - والشيوم الآمنون - مَنْ سَبَّكُمْ ، غريم . قالها ثلاثًا .
 ثم قال : ما أحب أن لي دبرًا - والدبر الجبل - من ذهب وأني آذيت رجلًا منكم .
 ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحَيْن مردودًا عليهما ما جاء به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ
 مع خير جارٍ .

ثم روى ابن اسحق في قصته : أن النجاشيّ عمّد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن
 لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته
 ألقاها إلى مريم . انتهى .

وإسلام النجاشيّ معروف . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما مات ، صلى عليه مع
 تباعد الديار .

وذكر شمس الدين ابن القيم في (زاد المعاد) : أنه كان مخرجهم إلى الحبشة في السنة
 الخامسة من المبعث .

التنبيه الثاني :

في الآية دليل على أن المشروع عند قراءة القرآن الخشوع والبكاء . وفي الخبر : ابكوا
 فإن لم تجدوا بكاءً فتبًا كوا . أخرجه المنذريّ في (الترغيب والترهيب) عن عبد الله بن عمرو .
 وقال : رواه الحاكم مرفوعاً وصحّحه . والمراد إشراب القلب والخوف المهابة لله تعالى .
 الثالث : في قوله تعالى (يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا) وقوله (فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا) دليل
 على أن الإقرار داخل في الإيمان كما هو مذهب الفقهاء . وتعلقت الكرامية في أن الإيمان مجرد
 القول بقوله (رَبَّنَا قَالُوا) ، لكن الثناء بفيض الدمع في السباق ، وبالإحسان في السياق ، يدفع

ذلك ؛ وأنى يكون مجرد القول إيماناً وقد قال الله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ أنى الإيمان عنهم ، مع قولهم (ءَامَنَّا بِاللّهِ) لعدم التصديق بالقلب . وقال أهل المعرفة : الموجود منهم ثلاثة أشياء : البكاء على الجفاء ، والدعاء على العطاء ، والرضا بالقضاء . فمن ادعى المعرفة ، ولم يكن فيه هذه الثلاثة ، فليس بصديق في دعواه ... أفاده النفسى .

وقال الخازن : إنما علق الثواب بمجرد القول ، لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا . وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب . لأن القول إذا اقترن بالمعرفة فهو الإيمان الحقيقى الموعود عليه بالثواب . وقال الرازى : لما حصلت المعرفة والإخلاص وكمل الانقياد ، ثم انضاف إليه القول ، لا جرم كمل الإيمان .

الرابع : قوله تعالى (وَمَا جَاءَنَا) يجوز أن يكون فى موضع جرّ ، أى : وبما جاءنا ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال من الفاعل المستتر ، أو لغو متعلق بـ (جَاءَ) أى : وبما جاءنا من عند الله . ويجوز أن يكون مبتدأ و (مِنَ الْحَقِّ) الخبر ، والجملة فى موضع الحال . وقوله تعالى (وَنَطْمَعُ) يجوز أن يكون معطوفاً على (نُؤْمِنُ) أى : وما لنا لا نطمع . ويجوز أن يكون التقدير : ونحن نطمع ، فتكون الجملة حالاً من ضمير الفاعل فى (نُؤْمِنُ) - أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى : الذين جحدوا الحق الذى جاءهم وكذبوا بحجج الله وبراهينه أولئك أصحاب الجحيم ، أى : النار الشديدة الحرارة ، جزاء وفاقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا،
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » أى : ما طاب ولذّ منه .
كأنه - لما تضمن ما سلف مدح النصارى على الترهّب ، والحث على كسر النفس ، ورفض
الشهوات - عقّبه النهى عن الإفراط فى ذلك بتحريم اللذائذ من المباحات الشرعية . ثم أشار
إلى أنه اعتداء بقوله سبحانه « وَلَا تَعْتَدُوا » أى : عمّا حدّ الله سبحانه وتعالى يجعل الحلال
حراماً . أو : ولا تعتدوا فى تناول الحلال فتجاوزوا الحدّ فيه إلى الإسراف كما قال تعالى
(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...) الآية (١) . وقال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا
وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (٢) . أو : ولا تعتدوا على النفس والأهل بمنع الحقوق .
أو : ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »
فى كل ما ذكر ، وهو تعليل لما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

« وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا » أى : كلوا ما حل لكم وطاب ما رزقكم
الله . فيكون (حَلَالًا) مفعول (كُلُوا) و (مِمَّا) حال منه ، أو متعلقة بـ (كُلُوا) ، أو هو
المفعول و (حَلَالًا) حال من (مَا) أو من عائده المحذوف ، أو صفة لصدر محذوف ، أى :

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصّها : يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ

مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] .

أَكْلًا حَلَالًا . وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » تأكيداً للتوصية بما أمر به ، وزاده تأكيداً بقوله : « الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » لأن الإيمان به يوجب التقوى ، في الانتهاء إلى ما أمر به وعما نهى عنه .

قال المهاييم : مقتضى إيمانكم أن لا تغيروا شيئاً من أحكام دينكم ، وأن لا تعارضوا في أحكامه ولو بكرهاة من أنفسكم ، وأن تقوه في وضع قواعد تخالف قواعد الشرع ، بل غاية ما يجوز أخذ معان من علم الشريعة مؤكدة لمقتضاء .

تنبيهات .

الأول : فيما روى في سبب نزولها :

أخرج الترمذى^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمتُ على اللحم . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا . . الآية .

وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : نقطع هذا كيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فأرسل إليهم ، فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وأنكح النساء . فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني . وروى ابن مردويه نحوه .

وفي (الصحيحين)^(٢) من حديث عائشة رضى الله عنها : أن ناساً من أصحاب

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٤ - حدثنا

عمرو بن علي أبو حفص الفلاس .

(٢) الحديث عن أنس .

رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ؟ فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ؟ لكنني أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم . وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني .

وروى ابن أبي حاتم ؛ أن عبد الله بن مسعود جاءه معقل بن مقرن فقال : إني حرمت فراشي . فتلا عليه هذه الآية .

وأخرج أيضاً عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود . فجاء بضرع فتنحى رجل . فقال عبد الله : ادن . فقال : إني حرمت أن آكله . فقال عبد الله : ادن فاطعم وكفر عن يمينك . وتلا هذه الآية . ورواه الحاكم أيضاً .

= أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ، حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن حميد بن أبي حميد ، الطويل ؛ أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ . فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله ! إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وأخرجه عن أنس ، مسلم أيضاً في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث ٥ (طبعتنا) .

الثاني - قال بعض الزيدية : ثمرة الآية النهى عن تحريم الطيبات من الحلال . وذكر الحاكم : أن هذا النهى يحتمل وجوهاً لا مانع من الحمل على جميعها : أحدها لا تعتقدوا التحريم . ومنها : لا تحرموا على غيركم بالفتوى والحكم . ومنها : لا تجروه مجرى المحرمات في شدة الاجتناب . ومنها : لا تلتزموا تحريمه بنذر أو غيره .

وقال القاضي : لا تحرموا الحلال بفعل يصدر منكم ، كالبياعات الربوية وخلط الحلال بالمنصوب والطاهر بالنجس .

ثم قال : ويتعلق بهذا أمران : الأول إذا حرم الحلال، هل يجب عليه الحنث والرجوع ؟ قلنا : ظاهر الآية يدل على ذلك، ويلزم مع ذلك التوبة . الأمر الثاني : هل يلزمه في ذلك كفارة ؟ قلنا : هذه الآية قد يستدل بها على اللزوم ، لأن النهى يقتضى فساد النهى عنه . وهذه المسألة فيها خلاف بين العلماء . انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب الشافعي إلى أنه من حرّم ما كَلَّأ أو ملبساً أو شيئاً ، ما عدا النساء، أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً . لإطلاق هذه الآية . ولأن الذي حرم اللحم على نفسه - كما في الحديث المتقدم - لم يأمره النبي ﷺ بكفارة .

وذهب آخرون - منهم الإمام أحمد - إلى أن من حرم شيئاً - مما ذكر - فإنه يجب عليه كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين . فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إزاماً له بما التزمه ، كما أفنى بذلك ابن عباس ، وكما في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١) . ثم قال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ^(٢) ... الآية ، وكذلك هنا . لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدلّ على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير . والله أعلم .

(١) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٢] ... وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وفي (زاد المعاد) لابن القيم فصل مهم في حكم من حرم أمته أو زوجته أو متاعه .
تنبني مراجعته .

الثالث : هذه الآية أصل في ترك التنطع والتشدد في التبعّد - كذا في (الإكليل) .

قال ابن جرير : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء ، مما أحل الله لعباده المؤمنين ، على نفسه من طيبات الطعام والملابس والمناكح ، ولذلك ردّ النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون . فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحلّه الله لعباده . وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله إليه عباده ، وعمل به رسول الله ﷺ وسنّه لأمته ، واتبعه على منهاج الأئمة الراشدين . إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ... فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، إذا قدر على لباس ذلك من حمله . وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره - حذراً من عارض الحاجة إلى النساء .. قال : فإن ظنّ ظان أن الفضل في غير الذي قلنا - لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل منهما من القيمة إلى أهل الحاجة - فقد ظنّ خطأً . وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربّها ، ولا شيء أضرّ على الجسم من الطعام الرديئة . لأنها منسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبيلاً إلى طاعته .. انتهى .

وللرازي هنا مبحث جيّد في حكمة هذا النهي ، مؤيد لما ذكر . فليراجع فإنه نفيس .

وقد أخرج الترمذی^(١) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الخلواء والعسل .

وله^(٢) عن أبي هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ بلحمٍ فرُفِعَ إليه الذراع - وكانت تعجبه -

(١) أخرجه الترمذی في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٢٩ - باب ما جاء في حب النبي

ﷺ الخلواء والعسل .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٣٤ - باب ما جاء في أي اللحم

كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

فنهش منها . قالت ^(١) عائشة : ما كان الذراع أحبّ إلى رسول الله ﷺ . ولكن كان لا يجد اللحم إلّا غبّا ، وكان يعجل إليه الذراع لأنه أعجلها نضجاً . أخرجه الترمذی .
وحكى الزنجشیری عن الحسن أنه دعى إلى طعامٍ ومعه فرقدٌ السَّبَخِيُّ وأصحابه . فقدموا على المائدة - وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك - فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن : أهو صائم ؟ قالوا : لا ولكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه وقال : يا فريق ! أترى لعاب النحل ، بلباب البر ، بخالص السمن ، يعميه مسلم . ؟
وعنه : أنه قيل له : فلان لا يأكل الفالوذ ويقول : لا أؤدى شكره قال : أفيشرب الماء البارد ؟ قالوا نعم ، قال : إنه جاهل . إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ .

وعنه : أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم . قال الله ^(٢) تعالى (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ) . ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا .. ولا عذر قوماً زواها عنهم فمعصوه .

الرابع : قال الرازى : لم يقل تعالى : كُلُوا مَا رَزَقَكُم ، ولكن قال (مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) وكلمة (مِنْ) للتبميز . فكأنه قال : اقتصروا في الأكل على البعض واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات ، لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال (وَلَا تُسْرِفُوا) -

(١) أخرجه الترمذی في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٣٤ - باب ما جاء في أى اللحم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٧] ونصها : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » تقدم الكلام على اللغو في اليمين في (سورة البقرة) وإنه ما يسبق إليه اللسان بلا قصد الحلف ، كقول الإنسان : لا، والله! وبلى والله! والمراد بالموأخذه : مؤاخذه الإثم والتكفير ، أى : فلا إثم في اللغو ولا كفارة « وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ » أى : بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها عليه بأن حلفتُمْ عن قصدٍ منكم ، أى : إذا حنثتم . أو بنكت ما عقدتم ، فحذف للعلم به . وقرئ بالتخفيف ، وقرئ (عاقدتُمْ) بمعنى عقدتم « فَكَفَّارَتُهُ » أى : فكفارة نكته ، أى الخصلة الماحية لإثمه « إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ » يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ » أى : لا من أجوده فضلاً عما تخصونه بأنفسكم . ولا من أردأ ما تطعمونهم فضلاً عن الذى تطونه السائل « أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » أى : عتقها « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » أى : شيئاً ما ذكر « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » كفارته « ذَلِكَ » أى : المذكور « كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ » أى : التى اجترأتم بها على الله تعالى « إِذَا حَلَفْتُمْ » أى : وحنثتم « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » أى : عن الإكثار منها - أو عن الحنث - إذا لم يكن ما حلفتُمْ عليه خيراً ، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم « كَذَلِكَ » أى : مثل هذا البيان الكامل « يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ ءَايَاتِهِ « أَى : أعلام ثرائمه « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أَى : نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج .

قال المهايى : أَى : تشكرون نعمه بصرفها إلى ما خلقت له ، ومن جملتها صرف اللسان ، الذى خلق لذكر الله وتعظيمه ، إلى ذلك . فإذا فات صرف بعض مملكته إلى بعض ما يجبره ليقوم مقام الشكر باللسان ، إذ به يتم تعظيمه . فإذا لم يجد كسر هوى النفس من أجله فهو أيضاً من تعظيمه . فافهم .

وفى هذه الآية مباحث :

الأول : معنى : (أو) التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث . فإذا لم يجد انتقل إلى الصوم .

فأما الإطعام فليس فيه تحديد بقدر . لا فى وجبة ولا وجبتين ، ولا فى قدر من الكيل .

ولذا روى عن الصحابة والتابعين فيه وجوه . جميعها مما يصدق عليه مسماء ، فبأيها أخذ أجزاءه . فمنها ما رواه ابن بى حاتم عن عليّ رضى الله عنه قال : يغديهم وبعشيم . كأنه ذهب - رضى الله عنه - إلى المراد بالإطعام الكامل - أعنى قوت اليوم وهو وجبتان - وإلا فالإطعام يصدق على الوجبة الواحدة .

ولذا قال الحسن ومحمد بن الحنفية : يكفيه إطعامهم أكلة واحدة خبزاً ولحماً . زاد الحسن : فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخبلاً حتى يشبعوا . وعن عمر وعلى أيضاً وعائشة وثلة من التابعين : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر أو نحوهما .

وعن ابن عباس : لكل مسكين مدّ من برّ ومعه إدامه .

وفي (فتح القدير) من كتب الحنفية : يجوز أن يغديهم ويمشيهم بخبز. إلا أنه إن كان يُرأى لا يشترط الإدام ، وإن كان غيره فيإدام .

وحكى عن الهادى : اشتراط الأكل لإشعار (الإطعام) بذلك .

والأكثر : أن الأكل غير شرط . لأنه ينطلق لفظ (الإطعام) على التملك .

الثانى : إطلاق (المساكين) يشمل المؤمن والكافر الذمى والفاسق . فبعضهم أخذ

بعموم ذلك . ومذهب الشافعية والزيدية : خروج الكافر بالقياس على منع صرف الزكاة إليه ،

وأما الفاسق فيجوز الصرف إليه مهما لم يكن فى ذلك إعانة له على المنكر . ولم يجوز

الهادى . وظاهر الآية اشتراط العدد فى المساكين . وقول بعضهم : إن المراد إطعام طعام

يكفى العشرة ، مفرعاً عليه جواز إطعام مسكين واحد عشرة أيام - عدول عن الظاهر ، لا يثبت إلا بنص .

الثالث : لم يبين فى الآية حد الكسوة وصفتها ؛ فالواجب حينئذ الحمل على ما ينطلق عليها اسمها .

قال الشافعى ، رحمه الله : لو دفع إلى كل واحدٍ من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة - من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة - أجزأه ذلك .

وقال مالك وأحمد بن حنبل : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلّى فيه ؛ إن كان رجلاً أو امرأة ، كل بحسبه .

وقال العوفى عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة .

وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت .

وعن ابن المسيّب : عمامة يلفّ بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها .

وعن الحسن وابن سيرين : ثوبان ثوبان .

وروى ابن مردويه عن عائشة عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (أَوْ كِسْوَتُهُمْ) قال :

عباءة لكل مسكين . قال ابن كثير : حديث غريب .

أقول : لا يخفى الاحتياط والأخذ بالأكل والأفضل في الإطعام والسكوة .
 الرابع : قال الرازي : المراد بـ (الرقبة) الجملة . قيل : الأصل في هذا المجاز أن الأسير
 في العرب كان يجمع يده إلى رقبته بحبل . فإذا أطلق حلّ ذلك الحبل . فسمي (الإطلاق
 من الرقبة) فكّ الرقبة . ثم جرى ذلك على العتق . وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال :
 تجزى الكافرة كما تجزى المؤمنة . وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة .
 وأخذ تقييدها من كفارة القتل لاتحاد الموجب ، وإن اختلف السبب . ومن حديث معاوية
 ابن الحكم السلمي - الذي هو في (موطأ مالك)^(١) و (مسند الشافعي) و (صحيح مسلم)^(٢) -

(١) أخرجه في الموطأ في : ٣٨ - كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا)

وسندسوقه بنصه الكامل :

عن معاوية بن الحكم السلمي قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل
 من القوم فقلت : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم . فقلت : وائكل أميأه . ما شأنكم ؟
 تنظرون إلي ! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم يصمّتونني . لكن سكّ .
 فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه .
 فوالله ! ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني . قال « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من
 كلام الناس . إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » . أو كما قال رسول الله ﷺ . قلت :
 يا رسول الله ! إني حديث عهد بجاهلية . وقد جاء الله بالإسلام . وإن منا رجالاً يأتون
 الكهّان . قال « فلا تأتهم » قال : ومنا رجال يتطيرون . قال « ذاك شيء يجدونه في
 صدورهم . فلا يصدّتهم » قال قلت : ومنا رجال يخطون . قال « كان نبي من الأنبياء يخط ،
 فمن وافق خطه فذاك » .

قال : وكانت لي جارية ترمي غملاً لي قبل أهد والجوانية . فاطلعت ذات يوم فإذا =

أنه ذكر أنه عليه عتق رقبة . وجاء معه بجارية سوداء . فقال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . . . الحديث بطوله .

قال الشعراني ، قدس سره ، في (الميزان) : قال العلماء : عدم اعتبار الإيمان في الرقبة مشكل . لأن العتق ثمرته تخليص رقبة لعبادة الله عز وجل . فإذا أعتق رقبة كافرة فإنما خلصها لعبادة إبليس . وأيضاً فإن العتق قرينة ، ولا يحسن التقرب إلى الله تعالى بكافر . انتهى .
الخامس : للعلماء في حد الإعسار الذي يبيح الانتقال إلى الصوم أقوال . وظاهر الآية هو أن لا يملك قدر إحدى الكفارات الثلاث - من الإطعام أو الكسوة أو العتق - فإن وجد قدر إحداها كان ذلك مانعاً من الصوم ، اللهم إذا فضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك .

وقد روى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام ، وإلا صام .

السادس : إطلاق قوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) صادق على المجموعة والمفرقة . كما في قضاء رمضان . لقوله (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)^(١) . ومن أوجب التتابع استدلالاً بقراءة

= الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكنني صككتها صكة . فأنت رسول الله ﷺ . فعظم ذلك علي . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « اتني بها » فأنت بها . فقال لها « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال « من أنا ؟ » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] ونصها : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . =

أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود أنهما كانا يقرءان (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِّمَّا بَعَثَ) وقرأتهم لا تتخلف عن روايتهما .

قال الأعمش : كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك .

قال ابن كثير : وهذه ، إذا لم يثبت كونها قرآنًا متواترًا ، فلا أقل أن يكون خبر واحد أو تفسيرًا من الصحابة . وهو في حكم المرفوع .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة : يا رسول الله ! نحن بالخيار ؟ قال : أنت بالخيار . إن شئت أعتقت . وإن شئت كسوت . وإن شئت أطعمت . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جدًا .

ونقل بعض الزيدية ، رواية عن ابن جبير ، أنه كان يصلي تارة بقراءة ابن مسعود وتارة بقراءة زيد .

السابع : قال الناصر في (الاتصاف) : في هذه الآية - يعني قوله تعالى (ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) - وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث ، وهو المشهور من مذهب مالك . وبيان الاستدلال بها أنه جعل ما بعد الحلف ظرفًا لوقوع الكفارة المعتبرة شرعًا . حيث أضاف (إذا) إلى مجرد الحلف ؛ وليس في الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث . فتعين تقديره مضافًا إلى الحلف . بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار . إذ لا يعطى قوله (ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ) إيجابًا ، إنما يعطى صحة واعتبارًا . والله أعلم .

= و [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وهذا انتصار على منع التكفير قبل الحنث مطلقاً ، وإن كانت اليمين على برّ .
والأقوال الثلاثة في مذهب مالك ، إلا أن القول المنصور هو المشهور . انتهى .
وقال الرازي : احتج الشافعي بهذه الآية على أن التكفير قبل الحنث جائز . لأنها
دلت على أن كل واحد من الثلاثة كفارة لليمين عند وجود الحلف . فإذا أداها بعد الحلف ،
قبل الحنث ، فقد أدى الكفارة . وقوله (إِذَا حَلَقْتُمْ) فيه دققة . وهي التنبيه على أن تقديم
الكفارة قبل اليمين لا يجوز . انتهى .

وفي (الصحيحين)^(١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لي رسول الله ﷺ :
إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير . وعند
أبي داود : فكفر عن يمينك ثم أت الذي هو خير .

الثامن قال السيوطي في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) استحباب
ترك الحنث إلا إذا كان خيراً ، أي : لما تقدم من حديث ابن سمرة . وهذا على أحد وجهين
في الآية . والآخر النهي عن الإكثار من الحلف كما سبق . قال كثير^(٢) :
قليل الألياً حافظٌ ليمينه وإن سبقت منه الأليّة برّت !

(١) أخرجه البخاري في ٨٣ - كتاب الإيمان والنذور ، ١ - باب قول الله تعالى :
لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث رقم ٢٤٨٨ وهاكموه بتمامه :
عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبي ﷺ « يا عبد الرحمن بن سمرة ! لا تسأل الإمارة
فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها . وإذا
حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير .
وأخرجه مسلم في ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

(٢) استشهد به في اللسان . ولم ينسبه . وقال : الألية على فميلة : اليمين . والجمع ألياً .
وبرّت يمينه : صدقت .

التاسع : حكمة تقديم الإطعام على العتق - مع أنه أفضل - من وجوه : (أحدهما) :
التنبيه من أول الأمر على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب . وإلا لبدىء
بالأغلظ (ثانيها) : كون الطعام أسهل لأنه أعمّ وجوداً ، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى
يراعى التخفيف والتسهيل في التكاليف و (ثالثها) : كون الإطعام أفضل ، لأن الحرّ الفقير
قد لا يجد الطعام ، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام ، فيقع في الضرر . أما العبد فإنه يجب
على مولاه إطعامه وكسوته ، أفاده الرازي .

العاشر : سرّ إطعام العشرة ، أنه بمنزلة الإمساك عن الطعام عشرة أيام العدد الكامل ،
الكاسرة للنفس المجترئة على الله تعالى . وسرّ الكسوة كونه يحجز بستر العورة سرّ العصية .
وسرّ التحرير فكّ رقبة عن الإثم . وسرّ صوم الثلاثة ، أن الصيام لما كان ضيراً بنفسه اكتفى
فيه بأقلّ الجمع . أفاده المهايي ، قدس سره .

= وأنشده في (الألفاظ الكتابية) ، ولم ينسبه وقد أخطأ فيه خطاين قال : سُبِقَتْ وقال :
بُرَّت .

وقصيدة كثير التي يظن أن منها هذا البيت رواها :

في مذهب الأغاني بالصفحة ١٦٠ من الجزء الثالث .

وفي أمالي المرتضى ، الطبعة الأولى ، بالصفحة ١٤٠ من الجزء الرابع .

وفي رغبة الآمل بالصفحة ٢٠٦ من الجزء الثالث .

وفي أمالي القالي بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثاني .

وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة بالصفحة ٤٧٥ .

وفي شواهد الكشاف بالصفحة ٢٥ .

كل أولئك لم أجد في شيء منها هذا البيت المستشهد به .

الحادى عشر : قال شمس الدين بن القيم فى (زاد المعاد) :

« كان ﷺ يستثنى فى يمينه تارة ، ويكفرها تارة ، ويمضى فيها تارة . والاستثناء يمنع عقد اليمين . والكفارة تحلها بعد عقدها . ولهذا سماها الله (تَحْلَةً) . وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً . وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع : فقال تعالى : (وَبَسْتَنِيْثُوكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِلَىٰ وَرَبِّىَّ إِنَّهُ لَحَقٌّ) ^(١) وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَأَتِيَنَّكُمْ) ^(٢) وقال تعالى : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَىٰ إِلَهِ يَسِيرٌ ^(٣) . وكان إسماعيل بن إسحق القاضى يذكر أبا بكر بن داود الظاهرى ولا يسميه بالفقيه . فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له . فتوجهت اليمين على أبى بكر بن داود . فتهيأ للحلف . فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ؟ وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه . قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم .. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ » أى : الشراب الذى خامر العقل ، أى خالطه

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] ... وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] ... عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٣) [٦٤ / التباين / ٧] .

فستره « وَالْمَيْسِرُ » أى : القمار « وَالْأَنْصَابُ » أى : الأصنام المنصوبة للمعبادة « وَالْأَزْلَامُ » أى : القداح « رَجِسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » أى : خبيث من تزيين الشيطان ، وقدر تعاف عنه المقول .

قال المهايى : لأن الخمر تضيع العقل ، وما دون السكر داع إلى ما يستكمله ، فأقيم مقامه في الشرع الكامل . والميسر يضيع المال . والأنصاب تضيع عزة الإنسان بتدليله لما هو أدنى منه . والأزلام تضيع العلم للجهل بالثمن والتمن . انتهى .
وما ذكره هو شذرة من مفسدها « فَاجْتَنِبُوهُ » أى : تركوه ، معنى : ما ذكر .
أو (الرجس) الواقع على الكل « لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » أى : رجاء أن تنالوا الفلاح فتنجوا من السخط والعذاب وتأمّنوا في الآخرة .
ثم أكد تعالى تحريم الخمر والميسر ببيان مفسدها الدنيوية والدينية . فالأولى في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ » أى : المشاتمة والمضاربة والمقاتلة « وَالْبَغْضَاءَ » القاطعة للتعاون الذى لابد للإنسان منه في معيشته « فِي الْخَمْرِ » أى إذا صرتم نشاوى « وَالْمَيْسِرِ » إذا ذهب مالكم . وقد حكى أنه ربما قام الرجل بأهله وولده فإذا أخذه الخصم وقعت العداوة بينهما أبداً . ثم أشار إلى مفسدها الدينية بقوله : « وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » إذ يغلب السرور والطرب على النفوس والاستغراق في الملاذ الجسمانية فيلهي عن ذكر الله . والميسر ، إن كان صاحبه غالباً انشرفت نفسه ومنعه حب الغلبة والفهر عن ذكر الله . وإن كان مغلوباً ، مما حصل من الاقتباس أو الاحتيال إلى أن يصير غالباً ،

لا يخطر بباله ذكر الله « وَعَنِ الصَّلَاةِ » أى : ويصدكم عن مراعاة أوقاتها . وقوله تعالى « فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ » من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع . فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم ترجروا ؟ أفاده الزمخشري .

تنبيهات :

الأول : سبق الكلام على الخمر والميسر في سورة البقرة في قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) وسلف أيضاً معنى الأنصاب والأزلام في أول هذه السورة عند قوله : (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ) فتذكر .

الثاني : إنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً ، ثم أفردا آخرأ ، وخصصا بشرح ما فيهما من الوبال - للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما . وذكر الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة . كأنه لامباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين من شرب خمرأ أو قامر .

روى الحارث بن أبي أسامة في (مسنده) عن ابن عمرو مرفوعاً : شارب الخمر كعابد وثن ، وشارب الخمر كعابد اللات والعزى . وإسناده حسن .

وتخصيص الصلاة بالإفراد ، مع دخولها في الذكر ، للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان ، لما أنها عماده .

الثالث : هذه الآية دالة على تأكيد تحريم الخمر والميسر من وجوه :

(منها) : تصدير الجملة بـ (إنما) وذلك لأن هذه الكلمة للحصر ، فكأنه تعالى قال : لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا الخمر والميسر وما ذكر معهما .
(منها) : أنه قرنها بعبادة الأوثان .

و (منها) : أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)^(١) .
 و (منها) : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت .
 و (منها) : أنه أمر بالاجتناب ، وظاهر الأمر للوجوب .
 و (منها) : أنه جعل الاجتناب من الفلاح . وإذا كان الاجتناب فلاحاً ، كان الارتكاب خيبة ومحقة .

و (منها) : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال - وهو وقوع التعادى والتباغض - وما يؤدى إلى من الصدّة عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة .
 و (منها) : إعادة الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف بقوله سبحانه (فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ) فأذن بأن الأمر فى الزجر والتحذير ، وكشف ما فيهما من المفسد والشرور قد بلغ الغاية . وأن الأعداء قد انقطعت بالكلية .
 و (منها) : قوله تعالى بعد ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ » أى : فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه « وَاحْذَرُوا » أى : مخالفتهما فى ذلك . فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الحر والميسر دخولاً أولياً .

و (منها) : قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى : إن أعرضتم عن الامتثال

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] ونصها : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر ، فقد قامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار .
والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ إذ آذاه بما لا مزيد عليه . فما بقى بعد ذلك إلا العقاب .
وفيه تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف وأعرض عن حكم الله وبيانه .

الرابع : قال الرازي : اعلم أن من أنصف وترك الاعتساف ، علم أن هذه الآية نصّ صريح في أن كل مسكر حرام . وذلك لأنه تعالى رتب النهي عن شرب الخمر على كونها مشتملة على تلك المفاصد الدينية والدنيوية . ومن المعلوم في بدائمه القول أن تلك المفاصد إنما تولدت من كونها مؤثرة في السكر . وهذا يفيد القطع بأن علة قوله (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) هي كون الخمر مؤثراً في الإسكار . وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن كل مسكر حرام .
قال : ومن أحاط عقله بهذا التقرير ، وبقى مصرّاً على قوله ، فليس لعناذه علاج . انتهى .
ثم بين تعالى رفع الإثم عمن مات وهو يشرب الخمر قبل التحريم - كما سنفصله - بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا
وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ)

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ » أي إثم « فِيمَا طَعِمُوا » مما
حرّم بعد تناولهم « إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا
وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

وهنا مسائل

الأولى : قال بعض المفسرين : إن قيل : لم خصّ المؤمنين بنبي الجناح في الطيبات إذا

ما اتقوا ، والكافر كذلك ؟ قال الحاكم : لأنه لا يصح نفي الجناح عن الكافر ، وأما المؤمن فيصح أن يطلق عليه ، ولأن الكافر سدّ على نفسه طريق معرفة الحلال والحرام . انتهى .
وفي (العناية) : تعليق نفي الجناح بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها ، فإن عدم الجناح في تناول المباح الذي لم يحرم لا يشترط بشرط . بل على سبيل المدح والتناء والدلالة على أنهم بهذه الصفة .

قال الزمخشري : ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح ؟ فتقول - وقد علمت أن ذلك أمر مباح - ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً ؛ تريد : إن زيدا اتقى مؤمناً محسناً ، وإنه غير مؤاخذ بما فعل .

وقال العلامة أبو السمود : ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجليلة المذكورة ، لا دخل لها في انتفاء الجناح . وإنما ذكرت في حيز (إذا) شهادةً باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ، ومدحاً لهم بذلك ، وحمداً لأحوالهم . وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعاً للاتقاء في كل مرة تميزاً بينها وبين ماله دخل في الحكم ، فإن مساق النظم الكريم بطريق العبارة - وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعمت فيما سيأتى بقضية كلمة (إذا ما) - لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم في حقهم في ضمن التشريع الكلي على الوجه البرهاني بطريق دلالة النص بناءً على كمال اشتغالهم بالاتصاف بها ، فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا كانوا في طاعته تعالى . مع مآلهم من الصفات الحميدة - بحيث كلما أمروا بشيء تلقوه بالامتثال - وإنما كانوا يتعاطون الحرج واليسر في حياتهم لعدم تحريمهما إذ ذاك . ولو حرّما في عصرهم ، لاتقوها بالمرّة .

وقال الطيبي : المعنى أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات . وإنما المطلوب منهم الترقى في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال . وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك ، وعلى الإيمان بما يجب

الإيمان به ، وعلى الأعمال الصالحة لتحقيق الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقى إلى مرتبة المشاهدة ومعارج (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وهو المعنى بقوله تعالى: وَأَحْسِنُوا... الخ وبه ينتهى للزنى عند الله ومحبته . والله يحب المحسنين .

قال الخفاجي : وهذا دفع للتكرير وأنه ليس لمجرد التأكيد ، لأنه يجوز فيه العطف بـ (ثم) كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ^(١) . بل به باعتبار تباين ما علق به مرة بعد أخرى . والله أعلم .

الثانية : الإحسان المذكور في الآية : إما إحسان العمل ، أو الإحسان إلى الخلق ، أو إحسان المشاهدة المتقدم ؛ ولا مانع من الحمل على الجميع .

الثالثة : روى في سبب نزولها عن أنس قال^(٢) : كنت ساق القوم في منزل أبي طلحة . فنزل تحريم الخمر . فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى . فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال ، فخرجت فقلت : هذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لي : اذهب فأهرقها . قال ، فَجَرَّتْ في سكك المدينة .

قال ، وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ . فقال بعض القوم : قتل قوم وهى في بطونهم .

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٤٣] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، ٢١ - باب صب الخمر في

الطريق ، حديث ١٢١٦ وهذا نصه :

عن أنس رضى الله عنه : كنت ساق القوم في منزل أبي طلحة . وكان خمرهم يومئذ الفضيخ . فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادى « ألا إن الخمر قد حرمت » .

قال ، فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها . فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة .

فقال بعض القوم : قد قُتِل قوم وهى في بطونهم .

فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا . . . الآية .

قال ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآية . رواه البخارى^(١) فى (التفسير) .
وروى الترمذى^(٢) عن البراء بن عازب قال : مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم
يشربون الخمر . فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب النبي ﷺ : فكيف بأصحابنا الذين
ماتوا وهم يشربونها ؟ قال ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . وقال : حسن صحيح .
وعن ابن عباس قال^(٣) : قالوا : يا رسول الله ! أرايت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟
(لما نزل تحريم الخمر) ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . أخرجه الترمذى وقال : حديث
حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله ﷺ

(١) هذا نص البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٠ - باب
قوله : إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : ما كان لنا خمر غير فضيحكم هذا الذى تسمونه
الفضيخ . فإنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً ، إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخمر ؟
فقالوا : وما ذاك ؟ قال : حرمت الخمر . قالوا : أهرق هذه القلال ، يا أنس !

قال : فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل .

وفى : ١١ - باب قوله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ...
إلى قوله : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ونصه كنص المتن .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١١ - حدثنا

بذلك بन्दار .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٢ - حدثنا

عبد بن حميد .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . فسألو رسول الله ﷺ عنهما ؟ فأنزل الله على نبيه ﷺ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^(١) ... إلى آخر الآية . فقال الناس : ما حرّم علينا . إنما قال : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ . وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين . أم أصحابه في المغرب . خلط في قراءته فأنزل الله^(٢) آية أغلظ منها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك^(٣) : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... إلى قوله - فَهَلْ أَتَمُّ مُنْتَهَوْنَ . ؟ فقالوا : انْتَهَيْنَا . رَبَّنَا ! فقال الناس : يا رسول الله ! ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً ومن عمل الشيطان ؟ فأنزل الله تعالى : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآية ، فقال النبي ﷺ : لو حرّمت عليهم ، لتركوها كما تركتم . قال ابن كثير : انفرد به أحمد .

وعن^(٤) أبي ميسرة قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهم ! بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا . فنزلت الآية التي في البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية ، فدعى عمر

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٣] .

(٣) [٥ المائدة / ٩٠] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

وأبو داود في : ٢٥ - كتاب الأشربة ، ١ - باب في تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

والترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ سورة المائدة ، ٨ - باب حدثنا عبد بن حميد .

فقرئت عليه فقال : اللهم ! بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا . فنزلت الآية التي في سورة النساء :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . فكان منادى رسول الله ﷺ -
إذا قال : حيَّ على الصلاة - نادى : لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه فقال :
اللهم ! بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا . فنزلت الآية التي في المائدة . فدعى عمر فقرئت عليه .
فلما بلغ قول الله تعالى (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال عمر : انتهينا ! انتهينا ! رواه الإمام أحمد
وأصحاب السنن .

وروى البيهقي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من
قبائل الأنصار . شربوا فلما أن تملى القوم عبث بعضهم ببعض . فلما أن صحوا جعل الرجل
يرى الآخر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بي هذا أخى فلان . وكانوا إخوة ليس في
قلوبهم ضغائن ، فيقول : والله ! لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا . حتى وقعت الضغائن
في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . إِنَّمَا الْخَمْرُ . . . إلى قوله - فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ .

فقال ناس من المتكلفين : هي رجس وهي في بطن فلان وقد قتل يوم أُحُد . فأنزل الله تعالى :
لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . ورواه النسائي في (التفسير) .

وأخرج أبو بكر البزار عن جابر رضى الله عنه قال : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ
ثم قتلوا شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم .
فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . قال البزار . إسناده صحيح .

قال ابن كثير : هو كما قال .

وقد ساق ابن كثير - هنا - أحاديث كثيرة في تحريم الخمر مما رواه أصحاب الصحاح
والسنن والمسانيد ، فمن شاء فليرجع إليه . ولا يخفى أن تحريمها معلوم من الدين
بالضرورة .

وقد روى السيوطي في (الجامع الكبير) عن ابن عساكر بسنده إلى سيف بن عمر عن الربيع وأبي المجالد وأبي عثمان وأبي حارثة قالوا : كتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما : إن نفرًا من المسلمين أصابوا الشراب . منهم ضرار وأبو جندل . فسألناهم فتأولوا وقالوا : خيرنا فآخترنا . قال : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ ولم يعزم . فكتب إليه عمر : فذلك بيننا وبينهم (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) يعني : فانتهاوا . وجمع الناس فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة ويضمنوا النفس ، ومن تأول عليها بمثل هذا ، فإن أبي قتل . وقالوا : من تأول على ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، يجر بالفعل والقتل . فكتب عمر إلى أبي عبيدة : أن ادعهم . فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم . وإن زعموا أنها حرام فاجلدوهم ثمانين . فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الأشهاد فقالوا : حرام . فجلدوهم ثمانين . وحدد القوم ، وندموا على لجأهم ، وقال : ليحدثن فيكم - يا أهل الشام ! - حادث ، فحدث^(٣) الرمادة .

ورواه سيف بن عمر أيضاً عن الشعبي والحكم بن عيينة .

(١) قال الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (الفاروق عمر) بالصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول ما نصه :

وسبب المجاعة أن أمسك المطر في شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة . وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات . فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب . فإذا تحركت الرياح سَفَتْ رمادا . ولذا سُمِّيَ هذا العام عام الرمادة . ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوعٌ أهلكت الناس والأنعام . فقد فنى كثير من قطعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها ، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبجها ، رغم جوعه وبلواه .

من ثم أفقرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع ويشترى ، وأصبحت الأموال في أيدي أصحابها لا قيمة لها . إذ لا يجدون إزاءها ما يسد رمقهم . وطال الجهد واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع والجردان ، يخرجون ما فيها . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ » أى : يرسله إليكم وأنتم محرمون « تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ » لتأخذه ، وهو الضعيف من الصيد وصغيره « وَرِمَاحُكُمْ » لتطعنوه ، وهو كبار الصيد « لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » فيمتنع عن الاصطياد القوة لإيمانه .

قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية . فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون . قال ابن كثير : معنى أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرّاً وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ، كما قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ^(١) . وقوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَىٰ » أى : بالصيد « بَعْدَ ذَلِكَ » يعنى بعد الإعلام والإيذار « فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » لمخالفته أمر الله وشرعه .

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير في قوله (بِشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ) ؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين - كالاتلاء بينل الأرواح والأموال - وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده ، فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه ..؟

(١) [٦٧ / الملك / ١٢] .

قال الناصر في (الاتصاف) : قد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة في قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ^(١) . فَلَا خفاء في عظم هذه البلايا والحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر عظيم . فقول الزخشرى : إنه قليل وصغر تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام - مدفوعٌ باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها . والظاهر - والله أعلم - أن المراد بما أشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعضٌ من كلٍّ ، بالنسبة إلى مقدور الله تعالى . وإنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلمهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول . وأنه مهما اندفع عنهم ممّا هو أعظم في المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل ، لطفاً بهم ورحمةً . ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر ، وحاملاً على الاحتمال . والذي يرشد إلى أن هذا مرادٌ ، أن سبق التوعد بذلك لم يكن إلّا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه . فيكون أيضاً باعثاً على تحمله . لأن مفاجأة المكروه بفتنة أصعب . والإنذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه . وحاصل ذلك لطف في القضاء ... فسبحان اللطيف بعباده . وإذا فكّر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد التدفع عنه منها أكثر ، إلى ما لا يقف عند غاية . فنسأل الله العفو والعافية واللاطف في المقدور ... انتهى .

وللزخشرى أن يجيب بأن آية (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) شاهدة له لا عليه . لأنه المقصود فيه أيضاً التحقير بالنسبة إلى ما دفعه الله عنهم - كما صرح به الناصر - مع أنه لا يتم دفعه بالآية إلّا إذا كان (وَنَقْصٍ) معطوفاً على مجرور (من) ، ولوعطف على (شيء) لكان مثل هذه الآية بلا فرق ... كذا في (العناية) .

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذِيًّا بِالْعِ كْهَبَةِ أَوْ كِفَّارَةُ طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ » أى : محرمون بحجٍّ أو عمرة . قال المهاييمى : لأن قتله تجبر . والحرم فى غاية التذلل . انتهى .

وذكر القتل ، دون الذبح والذكاة ، للتعميم . أو للإيدان بكونه فى حكم الميتة . و (الصيد) ما يصاد مأكولاً أو غيره . ولا يستثنى إلا ما ثبت فى (الصحيحين) ^(١) عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وفى رواية : (الحية) بدل (العقرب) .

قال زيد بن أسلم وابن عيينة : انكسب العقور يشمل السباع المادية كلها . ويستأنس لهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبى لهب قال : اللهم ! سلط عليه كلبك . فأكله السميع بالزرقاء . « وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ » أيها المحرمون « مُتَعَمِّدًا » ذاكراً

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ٧ - باب ما يقتل المحرم من

الدواب ، حديث ٩٢٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن النبى ﷺ قال « خمس من الدواب ، كلهن فاسق يُقتلن فى الحرَم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) وفيه (الحية) عوضاً

عن العقرب .

لإحرامه « فَجَزَاءٌ » بالتثنية ورفع ما بعده ، أى : فعليه جزاء هو « مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النِّعَمِ » أى : شبهه فى الخلقة . وفى قراءة بإضافة (جزاء) « يَحْكُمُ بِهِ » أى : بالمثل مجتهدان « ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ » لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به . وقد حكم ابن عباس وعمر وعلى رضى الله عنهم فى النعامة ببذنة . وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة . وابن عمر وابن عوف فى الظبي بشاة . وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرها فى الحمام ، لأنه يشبهها فى العب « هَدْيًا » حال من (جزاء) « بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ » أى : يبلغ به الحرم . فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه . فلا يجوز أن يذبح حيث كان « أَوْ » عليه « كَفَّارَةً » غير الجزاء . وإن وجده . هى « طَعَامُ مَسَاكِينَ » من غالب قوت البلد ما يساوى قيمة الجزاء . لسكل مسكين مد . وفى قراءة بإضافة (كفارة) لما بعده ، وهى للبيان « أَوْ » عليه « عَدْلٌ » مثل « ذَلِكَ » الطعام « صِيَامًا » بصوم ، عن كل مد ، يوماً « لِيَذُوقَ » أى : هاتك حرمة الله « وَبَالَ أَمْرِهِ » أى : شدة وثقل هتكه لحرمة الإحرام . و (ليندوق) متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور . أى : فعليه جزاء ليندوق . أو بفعل يدلّ عليه الكلام . أى : شرع ذلك عليه ليندوق « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفَ » من قتل الصيد قبل تحريمه . « وَمَنْ عَادَ » إليه « فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » بطاب الجزاء فى الدنيا والمعاينة فى الآخرة . وكيف يترك ذلك « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » غالب على أمره . ومقتضى عزته الانتقام من هاتك حرمة ، فهو لا محالة « ذُو انْتِقَامٍ » ممن عصاه .

تنبيهات :

الأول - روى ابن أبى حاتم عن طاوس قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً .

قال ابن كثير : وهذا مذهب غريب . وهو تمسك بظاهر الآية .

ورأيت فى بعض تفاسير الزيدية نسبة هذا القول إلى ابن عباس وعطاء ومجاهد وسالم وأبى ثور وابن جبير والحسن (فى إحدى الروايتين) ، والقاسم والمهادى والناصر وغيرهم . انتهى .

والجمهور : أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه .
 وقال الزهري : دلّ الكتاب على العامد . وجرت السنة على الناسي .
 الثاني - إذا لم يكن الصيد مثلياً حكم ابن عباس بثمنه يحمل إلى مكة . رواه البيهقي .
 الثالث - ذهب معظم الأئمة إلى التخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام ، لأنه
 جى بلفظ (أو) وحقيقتها التخيير .
 وعن بعض السلف أن ذلك على الترتيب . قالوا : إنما دخلت (أو) لبيان أن الجزاء لا
 يمدو أحد هذه الأشياء ؛ ولأننا وجدنا الكفارات من الظهار والقتل على الترتيب . قلنا :
 هذا معارض بكفارة اليمين وبدم الأذى ، فلا يخرج عن حقيقة اللفظ وهو التخيير .
 الرابع - تعلق بظاهر قوله تعالى (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) من قال : لا كفارة على
 العائد . لأنه تعالى لم يذكرها . وهو مروى عن ابن عباس وشريح . والجمهور : على وجوبها
 عليه . لأن وعيد العائد لا ينافي وجوب الجزاء عليه . وإنما لم يصرح به لعله فيما مضى . مع
 أن الآية يحتمل أن معناها : من عاد بعد التحريم إلى ما كان قبله .
 الخامس - قال الحاكم : كما دلت الآية على الرجوع إلى ذوى العدل في المائلة . ففي ذلك
 دلالة على جواز الاجتهاد وتصويب المجتهدين . وجواز تعليق الأحكام بغالب الظن . وجواز
 رجوع العائى إلى العالم ، وأن عند التنازع في الأمور يجب الرجوع إلى أهل البصر ... انتهى .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ
 صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« أَحِلَّ لَكُمْ » خطاب للمؤمنين « صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ » قال المهيمن : إذ ليس فيه
 التجبر المنافي للتذلل الإحرامى . (وَصَيْدُ الْبَحْرِ) ما يصاد منه طريقاً ، و (طَعَامُهُ) ما يزود

منه مملحاً يابساً ، كذا في رواية عن ابن عباس . والشهور عنه أن صيده ما أخذ منه حياً ، وطعامه ما لفظه ميتاً . قال ابن كثير : وهذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم ، وعن غير واحد من التابعين . روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر قال : طعامه كل ما فيه .

وعن ابن المسيب : طعامه ما لفظه حياً أو حسر عنه فمات .
« مَتَاعًا لَكُمْ » أي : تمتعاً للمقيمين منكم يأكلونه طرياً « وَلِلسَّيَّارَةِ » منكم يتزودونه قديداً .

و (السيارة) القوم يسرون . أنث على معنى الرقعة والجماعة .

تنبيهان :

الأول : قال ابن كثير . استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية ، وبما رواه الإمام مالك^(١) عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل . فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة - قال وأنا فيهم - قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش . فجمع ذلك كله فكان مزودى تمر ، قال : فكان يقاتلنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ولم نصبنا إلا تمر تمر ، فقلت : وما تنفي تمر ؟ فقال : لقد وجدنا فقدناها حين فقدت . قال ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب . فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة . ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا . ثم أمر براحلة فرحلت ، ثم مرت تحتها ولم تصبها .

وهذا الحديث مخرج من (الصحيحين)^(٢) وله طرق عن جابر . وفي (صحيح مسلم)^(٣)

(١) أخرجه في الموطأ في : ٤٩ - كتاب صفة النبي ﷺ ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٤٧ - كتاب الشركة ، ١ - باب الشركة في الطعام ، حديث ١٢٢٦

ومسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

عن جابر : وتزودنا من لحمه وشائق . فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم . هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله .

وفي بعض روايات مسلم^(١) : أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة .

فقال بعضهم : هي واقعة أخرى . وقال بعضهم : هي قضية واحدة ، ولكن كانوا أولاً مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة . فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة . والله أعلم .

وعن أبي هريرة^(٢) : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء . فإن توضأنا به عطشنا . أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . رواه مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم .

(١) لم أقف على هذه الرواية .

(٢) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤١ - باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ .

والترمذي في : ١ - كتاب الطهارة ، ٥٢ - باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور .

والنسائي في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٦ - باب ماء البحر .

وابن ماجة في : ١ - كتاب الطهارة ، ٣٨ - باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٣٨٦ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال^(١) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال . رواه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي ، وله شواهد . وروى موقوفاً . فهذه حجج الجمهور .

الثاني : احتج بهذه الآية أيضاً من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . وقد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع ، وأباح ماسواها ، لما رواه الإمام أحمد^(٢) وأبو داود عن أبي عبد الرحمن التيمي ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع . وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيها تسبيح .

« وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا » أي : محرمين ؛ فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثمَ وَغَرِمَ ، أو مخطئاً غرم وحرّم عليه أكله . لأنه في حقه كالميتة « وَانْقُوا اللَّهَ » في الاصطیاد في الحرم أو في الإحرام ، ثم حذرهم بقوله سبحانه : « الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أي : تبعثون فيجازيكم على أعمالكم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٧٢٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه ابن ماجه في : ٢٨ - كتاب الصيد ، ٩ - باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٥٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . وأخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٥ - باب في قتل الضفدع ، حديث ٥٢٦٩ .

والنسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٣٦ - باب الضفدع .

لطيفة :

قال المهايى : إنما حرّم الصيد على المحرم ، لأنه قصد الكعبة التى حرّم صيدُ حرمها ، فجعل كالواصل إليه . وإنما حرم صيد حرمها لأنها مثال بيت الملك ، لا يتعرض لما فيه أو فى حرمه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ » أى : مداراً لقيام أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبى ثمرات كلّ شيء إليه . قال المهايى : جعله الله مقام التوجه إليه فى عبادته للناس المتفرقين فى العالم ، ليحصل لهم الاجتماع الموجب للتآلف ، الذى يحتاجون إليه فى تمدنهم ، الذى به كمالُ معاشهم ومعادهم ، لاحتياجهم إلى المعاونة فيهما .

« وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ » بمعنى الأشهر الحرم - ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب - قياماً لهم بأمنهم من القتال فيها . لأنه حرم فيها ليحصل التآلف فيها « وَالْهَدْيَ » وهو ما يهدى إلى مكة « وَالْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهى ما يجعل فى عنق البدنة التى تهدى وغيره . والمراد بـ (القلائد) ذوات القلائد وهى البدن . خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر . والمفعول الثانى محذوف ، ثقةً بما مرّ ، أى : جعل الهدى والقلائد أيضاً قياماً لهم . فإنهم كانوا يأمنون بسوق الهدى إلى البيت الحرام على أنفسهم . وفيه قوام لمعيشة الفقراء ثمت . وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوها أو قلدوا أنفسهم ، عند الإحرام ، من لحاء شجر

الحرم . فلا يمرض لهم أحد « ذَلِكَ » أى : الجعل المذكور « لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فإن جعله ذلك لجلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل وقوعها ، دليل على علمه بما هو في الوجود وما هو كائن .

وقد جود الرازى تقرير هذا المقام فأبدع ، فليُنظر .

وقوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تعميمٌ إِرْ تخصيصٍ للتأكيد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك « وَأَنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وعده لمن حافظ على مراعاة حرمانه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

« مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » معنى : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، إلا

تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج . وفى الآية تشديدٌ فى إيجاب القيام بما

أمر به . وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ . وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم

الطاعة ، فلا عذر لكم فى التفريط « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » من الخير

والشر ، فيجازيكم بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » حكم عام في نفى المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال ، وجييدها . قصد به الترغيب في صالح العمل وحلال المال « وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » فإن العبرة بالجودة والرداءة ، دون القلة والكثرة . فإن الحمود القليل خير من المذموم الكثير . والخطاب عام لكل معتبر - أى : ناظر بعين الاعتبار - ولذلك قال « فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ » أى : فاتقوه في تحرى الخبيث وإن كثر . وآثروا الطيب وإن قل « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بمنازل القرب عنده تعالى الممدد للطيبين .

تنبيهان

الأول - قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما زجر عن المعصية ورغب في الطاعة بقوله : اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . . الآية ثم بما بعدها أيضاً - أتبمه بنوع آخر من الترغيب والترهيب بقوله : قُلْ لَا يَسْتَوِي . . . الآية . وذلك لأن الخبيث والطيب قسمان : أحدهما الذى يكون جسائياً وهو ظاهر لكل أحد . والثانى الذى يكون روحانياً . وأخبت الخبائث الروحانية الجهل والمعصية . وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعته . وذلك لأن الجسم الذى يلتصق به شئ من النجاسات يصير مستقذراً عند أرباب الطباع السليمة . فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل بالله والإعراض عن طاعته تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة . وأما الأرواح العارفة بالله تعالى ، المواظبة على خدمته ، فإنها تصير مُشْرِقةً بأنوار المعارف الإلهية ، مبتهجةً بالقرب من الأرواح المقدسة الطاهرة . وكما أن الخبيث والطيب

في عالم الجسمانيات لا يستويان ، فكذلك في عالم الروحانيات لا يستويان . بل المبينة بينهما في عالم الروحانيات أشدّ لأنّ مضرة خبث الخبيث الجسمانيّ شيء قليل ومنفعة طيبة مختصرة . وأمّا خبث الخبيث الروحانيّ فمضرته عظيمة دأمة أبدية . وطيب الطيّب الروحانيّ فمفعته عظيمة دأمة أبدية . وهو القرب من جوار ربّ العالمين ، والانخراط في زمرة الملائكة المقربين ، والمرافقة مع النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين . فكان هذا من أعظم وجوه الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية .

الثاني - قال بعض المفسّرين : من ثمرة الآية أنّه ينبغي إجلال الصالح وتمييزه على الطالح . وأنّ الحاكم إذا تحاكم إليه الكافر والمؤمن ، ميّز المؤمن في المجلس . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا » أى : نبيّكم « عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَّ » أى : تظهر
« لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » لما فيها من المشقة « وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ »
أى : وإن تسألوا عن أشياء نزل القرآن بها مجلّة ، فتطلبوا بيانها ، تبين لكم حينئذ لا حتياجكم إليها . هذا وجه في الآية . وعليه فـ (حين) ظرف لـ (تسألوا) .

وتمت وجه آخر : وهو جعل (حين) ظرفاً لـ (تبد) ، والمعنى : وإن تسألوا عنها .
تُبَدَّ لكم حين ينزل القرآن .

قال ابن القسيم : والمراد بـ (حين النزول) زمنه المتصل به ، لا الوقت المقارن للنزول .
وكأنّ في هذا إذناّ لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إزاله . ففيه رفع لتوهم النع
من السؤال عن الأشياء مطلقاً . ثم قال : وتمت قول ثانٍ في قوله تعالى : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا ...
الخ ، وهو أنّه من باب التهديد والتحذير ، أى : ما سألتكم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم

بيان ما سألتهم عنه بما يسوءكم : والمعنى : لا تتعرضوا للسؤال عما يسوءكم ببيانها ، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدى لكم . انتهى .

وقال بعضهم : إنه تعالى ، بين أولاً أن تلك الأشياء - التي سألوا عنها - إن أبديت لهم ساءت لهم . ثم بين ثانياً أنهم إن سألوا عنها أبديت لهم . فكان حاصل الكلام إن سألوا عنها أبديت لهم ، وإن أبديت لهم ساءت لهم ، فيلزم من مجموع القدمتين أنهم ، إن سألوا عنها ، ظهر لهم ما يسوءهم ولا يسرهم .

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ) صفة للأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها . وحيث كانت المساءة في هذه الشرطية معلقة بإبدائها ، لا بالسؤال عنها ، عقببت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور قطعاً . ف قيل : وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ . أى : تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحي ، كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين النزول . والمراد بها : ما يشق عليهم ويغتمهم من التكاليف الصعبة التي لا يطيقون بها ، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها ، ونحو ذلك مما لا خير فيه . فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبِع لإبدائها ، كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبِع لإيجابها عليهم بطريق التشديد ، لإساءتهم الأدب واجترأهم على المسئلة والمراجعة ، وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل ، من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته . أى : لا تكثرُوا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعنيتكم من نحو تكاليف شاقة عليكم - إن أفئناكم بها وكلّفكم إيّاها حسبما أوحى إليه - لم تطيقوا بها ، ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها .

« عَفَا اللَّهُ عَنْهَا » أى : عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم توسعةً عليكم . أو : عفا الله عن بيانها لثلاث يسوءكم ببيانها . فالجمله في موضع جر صفة أخرى لـ (أشياء) . أو المعنى : عفا الله عن مسائلكم السالفة ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بمسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها . فالجمله حينئذٍ مستأنفة مبيّنة لأن نهيتهم عنها لم يكن لمجرد

صيانتهم عن المساءة . بل لأنها في نفسها معصية مستتبعة للوإخذة وقد عفا عنها . وفيه من حثهم على الجِدَّة في الانتهاء عنها ما لا يخفى « وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » اعتراض تذييلي مقرر لعفوه تعالى ، أى : مبالغ في مغفرة الذنوب . ولذا عفا عنكم ولم يؤخذكم بما فرط منكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)

« قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : سألوا هذه المسئلة ، لكن لا عيناها ، بل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال . وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير « ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ » أى : بسببها . حيث لم يمتثلوا ما أجيّبوا به ، ويفعلوه . وقد كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا . والمعنى : احذروا مشابهيهم والتعرض لما تعرضوا له .

تنبيهات

الأول : روى البخارى^(١) في سبب نزولها في (التفسير) عن أبي الجويرية عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً . فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل ، تفضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا... حتى فرغ من الآية كلها .

وأخرج^(٢) أيضاً عن موسى بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله صلى

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٢ - باب قوله :

لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ، حديث ٢٠٠١ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٢ - باب قوله :

لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ، حديث ٨٠ .

الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ... قال : ففطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ، لهم خنين . فقال رجل : من أبى ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسْؤُكُمْ .

وروى البخارى^(١) أيضاً فى كتاب (الفتن) عن قتادة : أن أنساً حدثهم قال : سألتوا النبى ﷺ حتى أحفوه بالمسئلة . فصعد النبى ﷺ ذات يوم المنبر فقال : لا تسألونى عن شىء إلا بينت لكم . فجعلت أنظر يميناً وشمالاً ، فإذا كل رجل رأسه فى ثوبه يسكى . فأنشأ رجل - كان إذا لحي يدعى إلى غير أبيه - فقال : يا نبى الله ! من أبى ؟ فقال : أبوك حذافة . ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . نعوذ بالله من سوء الفتن .

فقال النبى ﷺ : ما رأيت فى الخير والشر كالיום قط . إنه صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط .

فكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ .

وفى رواية : قال قتادة يذكر - بالبناء للمجهول - هذا الحديث ... الخ .

وروى البخارى^(٢) أيضاً فى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) فى باب ما يكره من كثرة السؤال ، عن الزهرى قال : أخبرنى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر . فلما سلّم قام إلى المنبر فذكر الساعة . وذكر أن بين يديها أموراً عظيماً ، ثم قال : من أحب أن يسأل عن شىء فليسأل عنه ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٢ - كتاب الفتن ، ١٥ - باب التعمّد من الفتن ، حديث ٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٣ - باب ما يكره من كثرة السؤال

وتسكف ما لا يعنيه ، حديث ٨٠ .

فوالله ! لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي هذا . قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : سلوني . فقال أنس : فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي ؟ يا رسول الله ! قال : النار . فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبي ؟ يا رسول الله ! قال : أبوك حذافة . قال : ثم أكثر أن يقول : سلوني .

فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ! لقد عرضت على الجنة والنار أنفا في عرض هذا الحائط وأنا أصلي . فلم أركليوم في الخير والشر .

وعند مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعتُ بابنِ قطّ أعقّ منك . أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية ، فتفضحها على أعين الناس ؟ قال عبد الله بن حذافة : والله ! لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وروى ابن جرير^(٢) عن السديّ قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام فقام خطيبا فقال : سلوني . - نحو ما تقدم - وزاد : فقام إليه عمر فقيل رجله وقال : رضينا بالله ربا ... الخ .

وزاد : وبالقرآن إماما ، فاعف عنا عفا الله عنك . فلم يزل به حتى رضى . وأخرج أيضا عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمّار وجهه حتى

(١) أخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٣٦ (طبعنا) .

(٢) الأثر رقم ١٢٨٠١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٢ من التفسير .

جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا؟ قال : في النار . - نحو مامرّ - وفيه : فنزلت : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا... الآية .**

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وبهذه الزيادة - أى على ما في البخارى - من قول رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أين أنا؟ قال : في النار . - يتضح أن هذه القصة سبب نزول : **لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ... الآية** ، فإن المساءة في حق هذا جاءت صريحة ، بخلافها في حق حذافة فإنها بطريق الجواز ، أى : لو قدر أنه في نفس الأمر لم يكن لأبيه ، فبين أباه الحقيقي ، لافترضت أمه ، كما صرحت بذلك أمه حين عاتبته على هذا السؤال . انتهى .

وروى الإمام أحمد^(١) والترمذى^(٢) عن أبي البخترى عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) قالوا : يا رسول الله ! أفى كل عام؟ فسكت ، فقالوا : أفى كل عام؟ فسكت ، قال ثم قالوا : أفى كل عام؟ . فقال : لا . ولو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت لما استطعتم . فأُتِيَ اللهُ : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ... الآية .**

قال الترمذى : غريب . وسمعت البخارى يقول : أبو البخترى لم يدرك علياً .
وروى ابن جرير نحوه عن أبي هريرة^(٣) وأبى أمامة^(٤) ، وكذا عن ابن عباس^(٥) ،

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٩٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٥ - حدثنا أبو سعيد الأشج .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١٢٨٠٧ من التفسير .

(٥) الأثر رقم ١٢٨٠٨ من التفسير .

قال في الآية : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتفليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا .
فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه اه .
قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل . إما
على سبيل الاستهزاء أو الامتحان ، وإما على سبيل التعمت عن الشيء الذي لو لم يسئل عنه
لكان على الإباحة .

الثاني - قال ابن كثير : ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها
الشخص ساءته . فالأولى الإعراض عنها وتركها . وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام (١)
أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ
شيئاً . فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . ورواه أبو داود (٢) والترمذي (٣) .

الثالث - قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) :
لم ينقطع حكم هذه الآية . بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه .
بل يستعفى ما أمكنه ، ويأخذ بعفو الله . ومن ههنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
يا صاحب الميزاب ! لا تجربنا . لما سأل رقيقه عن مائه : أظاهر أم لا ؟
وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدى له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره .
فلعله يسوءه إن أبدى له . فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله . فإنه سبحانه يكره
إبداءها ، ولذلك سكت عنها . اه .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث
رقم ٣٧٥٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٢٨ - باب في رفع الحديث من المجلس ،
حديث رقم ٤٨٦٠ .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٣ - باب فضل أزواج النبي ﷺ .

وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها . وأما المقصود أولاً وبالذات - كما يفيد -
تمتتها - فهو النهي عن السؤال بما يسوء إبداءه في زمن الوحي .
وبدل له ، مارواه البخاري^(١) عن سعد بن أبي وقاص : أن النبي ﷺ قال : إن أعظم
المسلمين جرماً ، مَنْ سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته .
فإن مثل ذلك قد أمن وقوعه .

وعن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ذروني ما تركتكم . فإنما هلك
مَنْ كان قبلكم بكمثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما
استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه رواه^(٢) الإمام أحمد ومسلم والنسائي .
وعن أبي ثعلبة الخشني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى فرض فرائض فلا
تضيعوها . وحدّ حدوداً فلا تعتدوها . وحرم أشياء فلا تقربوها . وترك أشياء ، من غير نسيان ،
فلا تبحثوا عنها .. رواه الدارقطني وأبو نعيم .
وعن سلمان الفارسي^(٣) قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال :

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٣ - باب ما يكره
من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ، حديث ٢٥٨٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٧٣٦١ (طبعة المعارف) .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

والنسائي في : ٢٤ - كتاب الحج ، ١ - باب وجوب الحج .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٢٢ - كتاب اللباس ، ٦ - باب ما جاء في لبس الفراء .

وابن ماجة في : ٢٩ - كتاب الأطعمة ، ٦٠ - باب أكل الجبن والسمن ، حديث

٣٣٦٧ (طبعتنا) .

الحلال ما أحلّ الله في كتابه . والحرام ما حرّم الله في كتابه . وما سكت عنه فهو مما قد عفاه عنه ، فلا تتكفّوا . رواه الترمذیّ والحاكم وابن ماجة .

وأخرج الشيخان^(١) عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء . وكان يعجبنا أن يجيء الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وفي قصة^(٢) اللعان من حديث ابن عمر : ففكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها .

(١) هذا الحديث لم يروه البخاريّ وهاكموه بنصه الكامل كما أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٠ (طبعنا) .

عن أنس بن مالك قال : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء . فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية ، الغافل ، فيسأله ونحن نسمع . فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمد ! أنا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال « الله » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال « الله » قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آله أرسلك ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا . قال « صدق » قال : فبالذي أرسلك ! آله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال « صدق » قال : فبالذي أرسلك ! آله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال « صدق » قال : فبالذي أرسلك ! آله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال « صدق » .

قال ثم ولى . قال : والذي بعثك بالحق ! لا أزيد عليهم ولا أنقص منهم .

فقال النبي ﷺ « لئن صدق ، ليدخلن الجنة » .

(٢) انظرها في البخاريّ في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٤ - سورة النور ، =

ولمسلم^(١) عن النّوّاس بن سيمان قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بالمدينة ، ما يمنعني من الهجرة إلّا المسألة . كان أحدنا ، إذا هاجر ، لم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم .

ومرادّه : أنه قدم وافداً ، فاستمر بترك الصورة ليحصل المسائل ، خشية أن يخرج من صفة الوفد إلى استمرار الإقامة ، فيصير مهاجرًا ، فيمتنع عليه السؤال .

وفيه إشارة إلى أن المخاطب بالهوى عن السؤال غير الأعراب ، وفودًا كانوا أو غيرهم . وأخرج أحمد^(٢) عن أبي أمامة قال : لما نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ...) الآية ، كنّا قد اتقينا أن نسأله ﷺ . فأتينا أعرابياً فرشناه برداءً وقلنا : سل النبي ﷺ .

ولأبي يعلى عن البراء : إن كان ليأتى على السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهمّيب . وإن كنا لنتمنى الأعراب - أى قدومهم - ليسألوا ، فيسمعوهم أجوبة سوالات الأعراب ، فيستفيدوها .

وأما ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة ، فيحتمل أن يكون قبل نزول الآية ،

= ١ - باب قوله عز وجل : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ ، حديث ٢٧٩ .

وفي مسلم في : ١٩ - كتاب اللعان ، حديث ١ (طبعتنا) .

والحديث من رواية سهل بن سعد ، لا من رواية ابن عمر .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث ١٥ (طبعتنا)

وتمة الحديث :

قال : فسألته عن البرّ والإثم ؟ فقال رسول الله ﷺ « البرّ حُسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(٢) من حديث طويل . في السند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

ويحتمل أن النهي في الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه ، أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة : كالسؤال عن الذبح بالقصَب . والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة . والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن . والأسئلة التي في القرآن : كسؤالهم عن الكلاله والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك ...

لكن الذين تعلقوا بالآية في كراهية كثرة المسائل عما لم يقع، أخذوه بطريق الإلحاق، من جهة أن كثرة السؤال ، لما كانت سبباً للتكليف بما يشق ، فحفظها أن تجتنب . وقد عقد الإمام الدارمي^(١) في أوائل (مسنده) لذلك باباً . وأورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثاراً كثيرة في ذلك ، منها :

عن ابن عمر : لا تسألوا عما لم يكن . فإني سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن . وعن عمر : أخرج عليكم أن تسألوا عما لم يكن . فإن لنا فيما كان شغلاً . وعن زيد بن ثابت ؛ أنه كان إذا سئل عن شيء ؟ يقول : كان هذا ؟ فإن قيل : لا ! قال : دعوه حتى يكون .

وعن أبي بن كعب ، وعن عمار نحو ذلك . وأخرج أبو داود في (المراسيل) : عن أبي سلمة ومعاذ مرفوعاً : لا تعجلوا بالبليسة قبل نزولها . فإنسكم إن تفعلوا لم يزل في المسلمين من إذا قال سُدد - أو وفق - وإن عجّلتهم تشتتت بكم السبل .

وعن أشياخ الزبير بن سعيّد مرفوعاً : لا يزال في أمتي من إذا سئل سُدد ، حتى يتساءلوا عما لم ينزل .

قال بعض الأئمة : والتحقيق في ذلك ؛ أن البحث عما لا يوجد فيه نص ، على قسمين :

(١) أخرج هذه الآثار الدارمي في المقدمة في : ١٨ - باب كراهية الفتيا .

(أحدهما) أن يبحث عن دخوله في دلالة النصّ على اختلاف وجوهها ؛ فهذا مطلوب لا مكروه . بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين . (ثانيهما) - أن يدقق النظر في وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردى مثلا . فهذا الذي ذمه السلف . وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه : هلك المتنطعون ... أخرجه مسلم ^(١) ، فأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته .

ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، وهي نادرة الوقوع جدا ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه في غيرها أولى ، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه . وأشد من ذلك - في كثرة السؤال - البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كقيمتها . ومنها لا يكون له شاهد في عالم الحس . كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة ... إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف . والكثير منه لم يثبت فيه شيء ، فيجب الإيمان به من غير بحث . وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة . قال بعضهم : مثال التنطع في السؤال حتى يفضى بالمسؤول إلى الجواب بالمنع بعد أن يفتى بالإذن - أن يسأل عن السلع التي توجد في الأسواق : هل يكره شراؤها ممن هي في يده من قبل البحث عن مصيرها إليه أو لا ؟ فيجيبه بالجواز . فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهب أو غصب ، ويكون ذلك الوقت قد وقع شيء من ذلك في الجملة ، فيحتاج أن يجيبه بالمنع . وبقيد ذلك إن ثبت شيء من ذلك حرم ، وإن تردد كره أو كان خلاف الأولى . ولو سكنت السائل عن هذا التنطع لم يزد الفتى على جوابه بالجواز . وإذا تقرر ذلك ، فمن يسدّ باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها ، فإنه يقل فهمه وعلمه ؛ ومن توسع في تفريع

(١) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعنا) عن عبد الله بن مسعود.

المسائل وتوليدها - ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر ، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباحة والمغالبة - فإنه يذم فعله ، وهو عين الذي كرهه الساف . ومن أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظاً على ما جاء في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل . وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك ، مقتصرًا على ما يصلح للحجة منها ، فإنه الذي يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم . - كذا في (فتح الباري) - .

ثم رأيت في (موافقات) الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى ، في أواخرها - في هذا الموضوع - مبحثاً جليلاً ، قال في أوله :

الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام الساف الصالح . من ذلك قوله تعالى ... - وساق هذه الآية وما أسلفناه من الآثار وزاد أيضاً عما نقلنا - ثم قال : ... والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية ، مذموم . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وعظوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه . وكانوا يحبون أن يجي الأعراب فيسألون حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم . . ثم قال : ويتبين من هذا أن لكرهية السؤال مواضع ، نذكر منها عشرة مواضع :

(أحدها) : السؤال عما لا ينفع في الدين ، كسؤال^(٢) عبد بن الله بن حذافة : من أبي ؟ وروى في (التفسير) أنه عليه السلام سئل : ما بال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط ثم لا يزال ينمو

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٢٩ - باب من برك على ركبته عند الإمام أو المحدث ، حديث ٨٠ عن أنس بن مالك .

حتى يصير بدراً ثم ينقص إلى أن يصير كما كان ؟ فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ... (١)
الآية ، فإنما أجب بما فيه من منافع الدين .

و (ثانيها) : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته ، كما سأل الرجل عن الحج^(٢) : أكل عام ؟ مع أن قوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) (٣) قاض بظاهره أنه للأبد ، لإطلاقه . ومثله سؤال بنى إسرائيل بعد قوله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. (٤)
و (ثالثها) : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ، وكأن هذا - والله أعلم - خاص

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] وانصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ
لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ،
وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس ! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل : أكل عام؟ يا رسول الله ! فسكت . حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله ﷺ
« لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال « ذروني ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] وانصها : فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٦٧] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ^(١) . وقوله : وسكت عن أشياء رحمةً بكم ، لا عَنْ نسيان ، فلا تبحثوا عنها .

و (رابعها) : أن يسأل عن صعب المسائل وشرارها ، كما جاء في النهي^(٢) عن الأغلوطات .

و (خامسها) : أن يسأل عن علة الحكم - وهو من قبيل التعبدات ، أو السائل ممن لا يليق به ذلك السؤال - كما في حديث^(٣) قضاء الصوم دون الصلاة .

و (سادسها) : أن يبلغ بالسؤال إلى حدِّ التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدلّ قوله

تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ^(٤) ؛ ولا سئل الرجل^(٥) :

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢١٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٤ - كتاب العلم ، ٨ - باب التوقي في الفتيا ، حديث

٣٦٥٦ ونصه :

عن معاوية أن النبي ﷺ نهى عن الغلوطات .

(الغلوطات) بفتح الغين المعجمة وضم اللام - هي المسائل التي يغالط بها العلماء لينزلوا

فيها فيهيج بذلك شر وفتنة . وهي جمع غلوطة - بالفتح - ثم قيل : هي مثل حلوبة وركوبة ،

إذا جملا اسمين . وقيل: أصلها أغلوطة ، خففت بطرح الهمزة . كما تقول : لجر . وأنت تريد

(الأحمر) . اه محمد محي الدين عبد الحميد .

(٣) أخرجه مسلم في : ٣ - كتاب الحيض ، حديث ٦٩ (طبعتنا) ونصه :

عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟

فقلت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بحرورية ، ولكني أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك

فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٤) [٣٨ / ص / ٨٦] .

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ١٤ (طبعتنا) =

يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإننا نرد على السباع وترد علينا .

و(سابعها) : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأى ، ولذلك قال سميد : أعراق أنت ؟ وقيل للملك بن أنس : الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة . فإن قبلت منه ، وإلا سكت .

و (ثامنها) : السؤال عن التشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى ^(١) : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ... الآية . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أسرع التنقل . ومن ذلك سؤال من سأل ^(٢) مالكا عن الاستواء ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

= ونصه : عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج في ركب ، فيهم عمرو بن العاص . حتى وردوا حوضاً . فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإننا نرد على السباع وترد علينا .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .

(٢) جاء في كتاب (العلو) للذهبي ما يأتي :

وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبد الله وطائفة قالوا : جاء رجل إلى مالك فقال : يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد (أى غضب) في شيء كوجوده من مقالته . وعلاه =

و (تاسمها) : السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عمر بن عبدالعزيز عن قتال أهل صِفَيْن؟ فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن أطيح بها لسانی .

و (عاشرها) : سؤال التعمت والإخام وطلب الغلبة في الخصام . وفي القرآن في ذم نحو هذا ^(١) : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ .. « وقال ^(٢) : بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، وفي ^(٣) الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم .

هذه جملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ماسواها ، وليس النهي فيها = الرُحْضَاءُ (يعني العرق) وأطرق القوم . فسُرِّي عن مالك وقال : السكيف غير معقول . والاستواء منه غير مجهول . والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وإني أخاف أن تكون ضالا .

وأمر به فأخرج .

وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشدبني عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء . ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة . أخرجه . اه
كلام الإمام الذهبي .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٤] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٨] ونصها : وَقَالُوا ءِلهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٧ - باب وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، حديث ١٢١١ عن عائشة .

واحدًا ، بل فيها ما تشدد كراهيته ، ومنها ما يخف ، ومنها ما يحرم ، ومنها يكون محلّ اجتهاد . وعلى جملة ، منها يقع النهى عن الجدل في الدين كما جاء : إن المراء في القرآن كفر . وقال تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ... الآية ^(١) . وأشبه ذلك من الآي والأحاديث ... فالسؤال في مثل ذلك منهى عنه ، والجواب بحسبه . انتهى كلامه .

التنبيه الرابع :

قال بعض المفسرين : لا بد من تقييد النهى في هذه الآية (بما لا تدعو إليه حاجة) . لأن الأمر الذى تدعو إليه الحاجة في أمور الدين قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(٢) . وقال ﷺ ^(٣) : قاتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا . فإنما شفاء العي السؤال ... انتهى .

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] ... حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٥ - باب في الجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ ونصه :

عن جابر قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم وبصر (يعصب) على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » .

ولا يخفى أن الآية بقيدها - أعنى (إِنْ تُبَدَّ . . . الخ) - غنية عن أن تقيّد بقيدٍ آخر كما ذكره البعض . لأن المراد بها ما يشق عليهم من التكاليف الصعبة وما يقتضون به - كما أسلفنا - مما هو خوض في الفضول ، وشروع فيما لا حاجة إليه . وفيه خطر الفسدة . والشئ الذي لا يحتاج إليه ويكون فيه خطر الفسدة ، يجب على العاقل الاحتراز عنه .

وأما ما تدعو إليه الحاجة فلا تشمل الآية - كما يتضح من نظمها الكريم - مع ما بينته السنة في سبب النزول ، وتخرج الصحابة عن المسائل المارّ ببيانها - معلومٌ أنه فيما لا ضرورة إليها . وإلا ففسادهم في الضروريات والحاجيات طفحت بها كتب السنة ، مما يبيّن أن هذه الآية في موضوع خاص .

وقد كان عليه السلام يكره فتح باب كثرة المسائل ، خشية أن تفضى إلى حرج أو مساءة أو تمتت .

روى الشيخان^(١) عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية : أن النبي ﷺ كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٢ - باب ما يكره من قيل وقال ، حديث ٥٠٠ ونصه :

عن ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة؛ أن معاوية كتب إلى المغيرة أن اكتب إلى بحديث سمعته من رسول الله ﷺ . قال فكتب إليه المغيرة : إني سمعته يقول ، عند انصرافه من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ثلاث مرات .

قال : وكان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنع وهات ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث ١٢ و ١٣ و ١٤ (طبعنا) .

وروى أحمد وأبو داود : أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات - وهي صعاب المسائل - والآثار في ذلك كثيرة .

ثم بين تعالى بطلان ما ابتدعه أهل الجاهلية - من تحريم بعض بهيمة الأنعام - بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ » أى ماضع وما وضع . (من) مزيدة لتأكيده . والبحيرة (كسفينة) فميلة بمعنى المفعول من (البحر) وهو شق الأذن . يقال : بحر الناقة والشاة ، يبحرها : يشق أذنهما . وفى البحيرة أقوال كثيرة ساقها صاحب القاموس وغيره .

قال أبو إسحق النحوى : أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة : أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، فكان آخرها ذكرا ، بحروا أذنهما (أى : شقوها) وأعفاوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ترده ولا من مرعى . وإذا لقيها المعى المنقطع به ، لم يركبها « وَلَا سَائِبَةٍ » وهى الناقة كانت تسب فى الجاهلية لنذر أو لطواغيهم . أى ترك ولا تركب ولا يحمل عليها كالبحيرة . أو كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث ، ليس بينهن ذكر ، سبيت فلم تركب ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ولدوها أو الضيف . أو كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد ، أو برى من علة ، أو نجت دابته من مشقة أو حرب ، قال : هى (أى ناقتى) سائبة « وَلَا وَصِيلَةٍ » كانوا إذا ولدت الشاة ستة أبطن عناقين عناقين . وولدت فى السابع عناقا وجديا ، قالوا : وصلت أخاها . فلا يذبحون أخاها من أجلها . وأحلوا لبنها للرجال وحرموه على النساء . والعناق (كسحاب) الأنثى من أولاد المعز .

وقيل : الوصيلة كانت في الشاة خاصة ، إذا ولدت الأنثى فهي لهم ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم . وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبجوا الذكر لآلهتهم « وَلَا حَامٍ » وهو الفحل من الإبل يضرب الضراب الممدود . فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس ، وسيبوه للطواغيت . وقيل : هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن . ثم هو حام حمى ظهره . فيترك فلا ينتفع منه بشيء ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وحكى أبو مسلم : إذا نتجت الناقة عشرة أبطن ، قالوا : حمت ظهرها .

وقد روى في تفسير هذه الأربعة ، أقوال آخر . ولا تنافي في ذلك . لأن أهل الجاهلية لهم في أضاليلهم تفنّنات غريبة .

هذا وروى ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن أبيه مالك بن نضلة ، قال : أتيت النبي ﷺ في خلقان من الثياب . فقال لي : هل لك من مال ؟ فقلت : نعم . قال : من أي المال ؟ قال فقلت : من كل المال : الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا أتاك الله مالا كثيرا فكشّر عليك . ثم قال : تنتج إبلك وافية آذانها ؟ قال قلت : نعم . قال : وهل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال : فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها ، وتقول : هذه حرم ؟ قلت : نعم . قال : فلا تفعل . إن كل ما آتاك الله لك حل . ثم قال : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

أما البحيرة فهي التي يجدهون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها . فإذا ماتت اشتركوا فيها . وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم يذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن . فإذا ولدت السابع جدعت وقطعت قرننها فيقولون : قد وصلت ، فلا يذبجونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض .

قال ابن كثير : هكذا ذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث . وقد روى من وجه آخر

عن أبي الأحوص من قوله ، وهو أشبه . وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد^(١) عن مالك ابن نضلة . وليس فيه تفسير هذه . والله أعلم .

« وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

أى : ما شرع الله هذه الأشياء ، ولاهى عنده قربة . ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

وفى البخارى^(٢) أن التبجير والتسييب وما بعدهما ، كله لأجل الطواغيت . يعنى أصنامهم ،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) وهذا نصه :

عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وأنا قشيف الهيئة . فقال « هل لك مال » ؟ قال قلت : نعم . قال « فما مالك » ؟ فقال : من كل المال ، من الخيل والإبل والرقيق والغنم . قال « فإذا آتاك الله عزّ وجلّ مالا ، فليَرَ عليك » فقال « هل تنتج إبل قومك صحاحاً آذانها ، فتعتمد إلى موسى فتقطعها أو تقطمها وتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول : هذه حرم ، فتجرمها عليك وعلى أهلك » ؟ قال قلت : نعم . قال « كلُّ ما آتاك الله عزّ وجلّ لك حلٌّ ، وساعد الله أشدّ ، وموسى الله أحدٌ » وربما قالها وربما لم يقلها . وربما قال « ساعد الله أشدّ من ساعدك ، وموسى الله أحد من موساك » قال قلت : يا رسول الله ! رجل نزلتُ به فلم يَقْرِن ولم يكرمنى . ثم نزل بى ، أفريه أو أجزيه بما صنع ؟ قال « بل اقره » .

(٢) الذى وجدته فى البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ،

١٣ - باب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، هذا نصه (الحديث ١٦٥٧) :

عن سعيد بن المسيّب قال : البحيرة التى يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة كانوا يسيّبونها لأهلهم لا يحمل عليها شئ .

وفي الصحيحين^(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار . وكان أول من سب السوائب وبحر البحيرة وغير دين إسماعيل . لفظ مسلم .
زاد ابن جرير : وحي الحامي .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أول

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار . كان أول من سب السوائب » .

والوصيلة الناقة المبكر تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تُثنى بعدُ بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر .

والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعداد ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي .

وهذا نصه في مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٠ (طبعنا) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحي بن قمة بن خندف ، أبا بني كعب هؤلاء ، يجر قصبه في النار » .
حديث رقم ٥١ (طبعنا) .

عن ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يجلبها أحد من الناس . وأما السائبة التي كانوا يسيبونها لآلهم ، فلا يحمل عليها شيء .

وقال ابن المسيب : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت عمرو ابن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار . وكان أول من سب السيوب » .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤٢٥٨ (طبعة المعارف) .

من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر . وإني رأيته يجر أمتعاه في النار . قال ابن كثير : عمرو هذا هو ابن لُحَيِّ بن قَمْعَةَ أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرْهم . وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل . فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاء من الناس إلى عبادتها والتقرب بها . وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها . كما ذكره الله تعالى في (سورة الأنعام) عند قوله تعالى ^(١) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ... الآيات . انتهى .

لطيفة .

قال الرازي : فإن قيل : إذا جاز إعتاق العبيد والإماء ، فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذئب والإتماب والإيلام ؟ قلنا : الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته . فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادته تعالى ، فكان ذلك قرينة مستحسنة . وأما هذه الحيوانات فإنها مخلوقة لمنافع الناس . فإلها يقتضى فوات منفعة على مالها وعلى غيره . أى وهو خلاف الحكمة التى خلقت هى لأجلها . على أن الرقيق إذا أعتق قدَرَ على تحصيل مصالح نفسه ، بخلاف البهيمة . فى تسيبها إيقاع لها فى أنواع من المحنة والمشقة .

قال المهايى : قاسوه (يعنى التبخير) على عتق الإنسان مع ظهور الفرق . لما فى عتق الإنسان من تملك التصرفات ، ولا تصرف للحيوانات المعجم .

ثم قال : الأول كالعتق بلا نذر . والثانى كالعتق بالنذر . والثالث مشبه بما يشبه العتق . والرابع ملك النفس بلا تملك . ولا معنى للتمليك فى الحيوانات المعجم ، فهذه الأمور غير معقولة ظاهراً وباطناً ، فلا يفعلها الحكيم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ... فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية تحريم هذه الأمور . واستنبط منه تحريم جميع تعطيل النافع . ومن صور السائبة : إرسال الطائر ونحوه . واستدل ابن الماجشون بالآية على منع أن يقول لعبده : أنت سائبة . وقال : لا يمتق . انتهى .
وقال بعض مفسري الزيدية : قال الحاكم : استدل بعضهم على بطلان الوقف بالآية الكريمة . لأن الملك لا يخرج عن ملك صاحبه إلا إلى مالك آخر . وأعلى وجه القربة إلى الله . كتحريم الرقاب .

قال الحاكم : وليس بصحيح . لأن الوقف قربة كالعتق . ولقائل أن يقول : يستدل بالآية على نظير ذلك . وهو ما يلقي في الأنهار والطريق وقرب الأشجار ، من طرح البيض والفراريج ونحو ذلك . فلا يجوز فعله ، ولا يزول ملك المالك . ويحتمل أن يقال : قد رغب عنه وصيره مباحاً . وأما كسر البيض على المارة والطريق والأبواب ، فالظاهر عدم الجواز . لأن في ذلك إضاعة مال ، ولم يرد بفعله دليل . انتهى .

ولما بين تعالى أن أكثرهم لا يعقلون أن تحريم هذه الأشياء افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق ، وإنما يقلدون قدماءهم - أشار إلى عنادهم واستعصائهم حينما هتدوا إلى الحق ، وإلى ضلالهم ببقائهم في أسر التقليد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)
« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ » من الكتاب المبين للحلال والحرام « وَإِلَى الرَّسُولِ » أي : الذي أنزل هو عليه ، لتقفوا على حقيقة الحال ، وتميزوا بين الحرام والحلال ،

فترضوا تقليد القدماء المقتريين على الله الكذب بالضلal « قَالُوا » أى : لا إفراط جهلهم وانهما كهم فى التقليد « حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » أى كافينا ذلك . و (حَسْبُنَا) مبتدأ والخبر (مَا وَجَدْنَا) و (مَا) بمعنى الذى . والواو فى قوله تعالى « أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ » لالحال . دخلت عليها همزة الإنكار . أى : أحسبهم ذلك ولو كان آبائهم « لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا » أى لا يعرفون حقاً ولا يفهمونه « وَلَا يَهْتَدُونَ » أى : إليه . قال الزمخشري : والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى . وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة . انتهى . وقال الرازى : واعلم أن الاقتداء إنما يجوز بالعالم المهتدى . وإنما يكون عالماً مهتدياً إذا بنى قوله على الحجة والدليل . فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالماً مهتدياً . فوجب أن لا يجوز الاقتداء به . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية قبح التقليد ووجوب النظر واتباع الحجة . ثم قال : وقد فسر التقليد بأنه قبول قول الغير من غير حجة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ » أى الزموا أن تصالحوها باتباع كتاب الله وسنة رسوله « لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ » أى ممن قال (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) أو أخذ بشبهة . أو عاند فى قول أو فعل « إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » أى إلى الإيمان . وكأن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار فى كفرهم وضلالهم . فقيل لهم : عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها والشئ بها فى طريق الهدى . لا يضركم ضلال الضالين وجهل الجاهلين ،

إذا كنتم مهتدين . كما قال عز وجل ^(١) لنبية صلى الله عليه وسلم : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ .

قال الزمخشري : وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ولا يزال يذكر معاصيهم ومناكيرهم ، فهو مخاطب بهذه الآية « إِيَّاكَ اللَّهُ مَرْجِعُكُمْ » بعد الموت « جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال . فهو وعد ووعد للفريقين . وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره .
تنبيه :

لا يستدل بالآية على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لأن الظاهر من الآية أن ضلال الغير لا يضر ، وأن المطيع لربه لا يكون مؤاخذا بذنوب المعاصي . وإلا فمن تركهما مع القدرة عليهما ، فليس بمهتد . وإنما هو بعض الضلال الذى فصلت الآية بينهم وبينه .
قال الحاكم : ولو استدل على وجوبها بقوله تعالى (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) كان أولى . لأنه يدخل فى ذلك كل ما لزم من الواجبات . أى كما فعل المهاجى فى تفسيره حيث قال : عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ . أى الزموا أن تصالحوها باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله . والعقليات المؤيدة بها ، ودعوة الإخوان إلى ذلك . بإقامة الحجج ودفع الشبه . وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بما أمكن من القول والفعل . لا تقصروا فى ذلك . إذ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، بدعوتهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول وإقامة الحجج لهم ، ودفع الشبه عنهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بما أمكن من القول والفعل . ولا تقصروا فى ذلك . إذ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ، من التقصير أو الإيفاء قولاً وفعلًا ، فى حق أنفسكم أو غيركم . انتهى .

(١) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

ونقل الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإنه قال (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) يعني عليكم أهل دينكم . ولا يضركم من ضل من الكفار . وهذا كقوله (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)^(١) يعني أهل دينكم . فقوله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) يعني بأن يعظ بعضكم بعضا ، ويرغب بعضكم بعضا في الخيرات وينفّر عن القبائح والسيئات . والذي يؤكّد ذلك ما بينا أن قوله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) معناه : احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب . فكان ذلك أمرا بأن تحفظ أنفسنا . فإذا لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان ذلك واجبا . انتهى .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرأون هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . إلى آخر الآية . وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس ، إذا رأوا المنكر ، ولا يعرفونه ، يوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه .

ورواه أصحاب السنن وابن حبان في صحيحه وغيرهم .

وروى الترمذي^(٣) عن أبي أمية الشعباني . قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له :

(١) [٢ / البقرة / ٥٤] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٦ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه الترمذي في ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٨ - باب حدثنا

سعيد بن يعقوب .

كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قال: أما والله! لقد سألت عنها خبيراً. سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام. فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً، يعملون مثل عملكم.

قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة: قيل يا رسول الله! أجر خمسين رجلاً منهم أو منهم؟ قال: لا، بل أجر خمسين منكم.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير^(١) وابن أبي حاتم.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال: إن هذا ليس بزمانها. إنها اليوم مقبولة. ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها. تأمرن فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم. فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل.

ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً. فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس. حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه. فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك. فإن الله يقول (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...) الآية. قال، فسمعها ابن مسعود فقال: مه. لم يجيء تأويل هذه بعد. إن القرآن أنزل حيث أنزل. ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن. ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومنه آى

(١) الأثر رقم ١٢٨٦٢ من التفسير.

قد وقع تأويلهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم يسير . ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيئا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمرُوا وانهموا . وإذا اختلفت القلوب والأهواء والبستم شيئا وذاق بعضكم بأس بعض فأمر نفسك . وعند ذلك جاء تأويل هذه الآية . أخرجه ابن جرير .

وأخرج أيضا ^(١) أنه قيل لابن عمر : لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصْرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال ابن عمر : إنها ليست لى ولا لأصحابى . لأن رسول الله ﷺ قال : ألا فليبلغ الشاهد الغائب . فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب . ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا . إن قالوا لم يقبل منهم .

وقد ضعف الرازى ما روى عن ابن مسعود وابن عمر مما سقناه . قال : لأن قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) خطاب عام، وهو أيضا خطاب مع الحاضرين . فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب ؟ انتهى .

أقول : ليس مراد ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما، إخراج الحاضرين عن الخطاب، وأنه لم يعم بها إلا الغيب . وإنما مرادها الرد على مَنْ تأولها بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فأعلماء بأنه لا يسوغ الاستشهاد بها فى ترك ذلك ، والاسترواح لظاهرها ، إلا فى الزمن الذى بيننا . وحاصله : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ما قبلًا . فإن ردًا فى مثل ذلك الزمن فليقرأ : عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ . هذا مرادها . والله أعلم .

(١) الأثر رقم ١٢٨٥١ من التفسير .

القول في تأيل قوله تعالى :

[١٠٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ » أى : ظهرت أماراته « حِينَ الْوَصِيَّةِ » بدل من الظرف ، لا ظرف (للموت) ولا لحضوره . فإن في الإبدال تنبيهاً على أن الوصية من المهمات التى لا ينبغي التهاون بها . وقوله تعالى « اثْنَانِ » خبر (شَهَادَةُ) بتقدير مضاف . أى شهادة بينكم حينئذ ، شهادة اثنين . أوفاعل (شَهَادَةُ) على أن خبرها محذوف . أى : فيما نزل عليكم ، أن يشهد بينكم اثنان « ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ » أى من المسلمين « أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » أى من أهل الذمة « إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى سافرتم فيها « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا » أى : توقفوهما للتحليف « مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ » أى صلاة العصر . كما قاله ابن عباس وثلة من التابعين . وعدم تعيينها ، لتعيينها عندهم بالتحليف بعدها . لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار . واجتماع طائفتى الملائكة ، فيه تكثير للشهود منهم على صدقه وكذبه . فيكون أقوى من غيره وأخوف . وعن الزهرى : بعد أى صلاة للمسلمين كانت . وذلك لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور ، كما قال الله تعالى :

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ^(١) . فالتعريف في (الصَّلَاة) إما للعهد أو للجنس .
 « فَيُقْسِمَانِ » أى : يحلفان « بِاللهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ » أى : شككتم فيهما بخيانة وأخذ شيء من
 تركه الميت . وقوله تعالى « لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا » جواب للقسم . أى : يقولان : لا نأخذ
 لأنفسنا بدلًا من الله . أى : من حرمة عَرْضًا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف
 الكاذب . أى لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال « وَلَوْ كَانَ » أى : من قسم له ونشهد
 عليه ، المدلول عليه بفحوى الكلام « ذَا قُرْبَى » أى : قريبًا منا . تأكيد لتبرئهم من الحلف
 كاذبًا . ومبالغة في التنزه عنه . كأنهما قالا : لا نأخذ لأنفسنا بدلًا من حرمة اسمه تعالى مالا .
 ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء . فكيف إذا لم يكن كذلك؟ « وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ »
 أى : الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها . وإضافتها إلى الاسم الكريم تشرية لها وتعتيها
 لأمرها « إِنَّا إِذَا » إن كتمناها « لَمِنَ الْآثِمِينَ » أى : الممدودين من المستقرين في الإثم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَتُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعتَدَيْنَا
 إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« فَإِنْ عَثَرَ » أى اطلع بعد التحليف « عَلَى أَنَّهُمَا » أى : الشاهدين الوصيين « اسْتَحَقَّا »
 إثمًا « أى : فعلا ما يوجب من خيانة أو غلول شيء من المال الموصى به إليهما « فَأَخْرَانِ »
 يَتُومَانِ مَقَامَهُمَا » أى : فرجلان آخران يقومان مقام الذين عثر على خيانتهم أى : في توجه

(١) [٢٩ / المنكوبت / ٤٥] ونصها : اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ
 الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 مَا تَصْنَعُونَ .

اليمين عليهما لإظهار الحق وإبراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما في أيديهما « مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ » أى : من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان ، أى : الأقربان إلى الميت ، الوارثان له ، الأحقَّان بالشهادة ، أى : اليمين . ذ (الْأَوْلِيَانِ) فاعل (اسْتَحَقَّ) . ومفعول (اسْتَحَقَّ) محذوف ، قدره بعضهم (وصيتهما) وقدره ابن عطية (ما لهم وتركهم) ، وقدره الزمخشري أن يجردوها للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين . وقرئ على البناء للمفعول أى : من الذين استحق عليهم الإثم . أى : جنى عليهم . وهم أهل الميت وعشيرته . ذ (الْأَوْلِيَانِ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . كأنه قيل : ومن هما ؟ فقيل : الأوليان . أو هو بدل من الضمير في (يَقُومَانِ) أو من (آخِرَانِ) وقد جوزا ارتفاعه (اسْتَحَقَّ) على حذف المضاف . أى : استحق عليهم نذب الأوليين منهم للشهادة . وقرئ الأولين جمع (أول) على أنه صفة للذين ، مجرور أو منصوب على المدح . ومعنى الأوليَّةِ التقديم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها . وقرئ الأوليين ، على التثنية . وانتصابه على المدح . أفاده أبو السعود .

وقرئ الأولين تثنية (أول) نصبا على ما ذكر . كما في البيضاوى .

قال أبو البقاء : وقرأ الأوليين وهو جمع (أولى) وإعرابه كإعراب الأولين . وقرأ الأولان، تثنية (الأول) وإعرابه كإعراب (الأوليان) « فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ » عطف على (يقومان) « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ » أى : بالقبول « مِنْ شَهَادَتِهِمَا » أى : لقولنا : إنهما خانا وكذبا فيما ادعيا من الاستحقاق ، أحق من شهادتهما المتقدمة . لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم « وَمَا اعْتَدَيْنَا » أى : ما تجاوزنا الحق فيها أو فيما قلنا فيهما من الخيانة « إِنَّا إِذَا » أى : إن اعتدينا « كَلِمَ الظَّالِمِينَ » أى أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه ، بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى . أو من الواضعين الحق في غير موضعه .

ومعنى الآية الكريمة أن الرجل إذا حضرته الوفاة في سفر ، فليشهد رجلين من المسلمين .

فإن لم يجدهما ، فرجلين من أهل الكتاب . يوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه . فإذا قدما بتركته ، فإن صدقهما الورثة وعرفوا ما لصاحبهم ، قُبِلَ قولهما وتركوا . وإن اتهموها ، رفعوها إلى السلطان فحلفا بعد صلاة العصر بالله ، ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا . فإن اطلع الأوليان على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء ، فحلفا بالله ؛ أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد . فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء . هكذا روى ابن جرير ^(١) عن ابن عباس وابن جبير وغيرها .

قال الإمام ابن كثير : وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولها ، والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول ، إذا ظهر لوث في جانب القاتل . فيقسم المستحقون على القاتل . فيدفع برمته إليهم . كما هو مقرر في (باب القسامة) . وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ ..) إلى آخرها قال : برىء الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام . فأتيا الشام لتجارتهما . وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل (بدال أو زاي مصغرا . وضبطه بالثانية ابن ماكولا) ابن أبي مريم بتجارة ، معه جام من فضة يريد به الملك . وهو أعظم تجارته . فرض فأوصى إليهما . وأمرها أن يبلغا ما ترك أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم . واقتسمناه أنا وعدى . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا . وفقدوا الجام فسألونا عنه . فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره .

قال تميم : فلما أسلمت ، بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك . فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم . وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها . فوثبوا

(١) الأثر رقم ١٢٩٧٩ من التفسير .

عليه . فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه . خلف فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ - إلى قوله - فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم خلفا . فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء .

وهكذا رواه الترمذى^(١) وابن جرير^(٢) عن محمد بن إسحق به ، فذكره .

وعنده : فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا . فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه خلف . فأنزل الله هذه الآية . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر خلفا . فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء .

ثم تكلم الترمذى على إسناده . وأسند^(٣) بعد ذلك هذه القصة مختصرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء . فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم . فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة نحو صاً بذهب . فأحلفهما رسول الله ﷺ . ثم وجد الجام بمكة . فقيل : اشتريناه من تميم وعدى . فقام رجلان من أولياء السهمى خلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما . وأن الجام لصاحبهما . وفيهم نزلت هذه الآية . وكذا رواه أبو داود . ثم قال الترمذى : حديث حسن غريب ! وأقول : أخرجه البخارى^(٤) أيضاً فى كتاب (الوصايا) تحت باب عقده لهذه الآية بخصوصها .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٩ - حدثنا الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرائى .

(٢) الأثر رقم ١٢٩٦٧ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٢٠ - حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٣٥ - باب قوله الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... الآية ، حديث ١٣٣٠ .

و (الجلم) الإناء ، وتخويصه أن يجعل عليه صفائح من ذهب نخوص النخل .
قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين . منهم عكرمة ومحمد
ابن سيرين وقتادة . وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر . رواه ابن جرير . وكذا
ذكرها مرسله مجاهد والحسن والضحاك . وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها .
ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما رواه ^(١) ابن جرير بإسنادين صحيحين ، وأبو داود بإسناد
رجاله ثقات - عن الشعبي : أن رجلاً من المسلمين حضرته الصلاة بدقواء ^(٢) ، قال : فحضرته
الوفاة - ولم يجد أحداً من المصلين يُشْهده على وصيته - فأشهد رجلين من أهل الكتاب ؛
قال : فقدا الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري رضي الله عنه فأخبراه . وقدا الكوفة
بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ . قال :
فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلاً ولا كتباً ولا غيراً ، وإنها لو وصية الرجل
وتركته . قال : فأمضى شهادتهما .

وقوله (هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ) الظاهر - والله أعلم -
أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بداء .

(١) الأثر رقم ١٢٩٦٨ من التفسير .

(٢) قال ياقوت في (معجم البلدان) : هي مدينة بين إربل وبنداد معروفة . لها ذكر
في الأخبار والفتوح . وكان بها وقعة للخوارج ، فقال الجعدى بن أبي صمام الذهلي يرثيهم :
شباب أبطعوا الله حتى أحبهم ، وكلهم شارب يخاف ويطمع
فلما تبوءوا من دقوفا بمنزل لميعاد إخوان تداعوا فأجمعوا
دعوا خصمهم بالحكمات وبيتوا ضلاتهم ، والله ذو العرش يسمع
بنفسى قتلى في دقوفا غودرت وقد قطعت منها رؤوس وأذرع
لتبك نساء المسلمين عليهم ، وفي دون ما لاقين مبكى ومجزع

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ
بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

ثم بين وجه الحكمة والمصلحة المتقدم تفصيله بقوله :

« ذَلِكَ » أى : الحكم المذكور « أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا » أى : أقرب
إلى أن يؤدي الشهود - أو الأوصياء - الشهادة في نحو تلك الحادثة على حقيقتها من غير تغيير
لها ، خوفاً من العذاب الأخرى . ف (الوجه) بمعنى الذات والحقيقة .

قال أبو السعود : وهذه - كما ترى - حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور
وقوله تعالى « أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ » بيان لحكمة شرعية رد اليمين
على الورثة ، معطوف على مقدر يبنى عنه المقام ؛ كأنه قيل : ذلك أذن أن يأتوا بالشهادة على
وجْهِها ، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة . أو يخافوا أن رد اليمين على المدعين
بعد أيمانهم ، فيفضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ، ويفرموا فيمتنعوا من ذلك .
« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : في مخالفة أحكامه التي منها هذا الحكم ، وهو ترك الخيانة والكذب
« وَاسْمَعُوا » أى : ما تؤمرون به سماع قبول « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى :
الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته ، أى : إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم .

وقد استفيد من الآية أحكام :

الأول - لزوم الوصية حال الخوف من الموت وحضور قرائنه . لأنه تعالى قال (حِينَ
الْوَصِيَّةِ) أى : وقت أن تحق الوصية وتلزم .
الثاني - قال بعضهم : دلّ قوله تعالى (ائْتَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) على أن الحكم
شرطه أن يشهد فيه اثنان عدلان . وهذا إطلاق لم يفصل فيه بين حق الله وحق غيره ،

ولا بين الحدود وغيرها ، إلا شهادة الزنى . فلقوله تعالى في النور (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)^(١) وهذا جمع عليه . اهـ .

قال ابن القيم في (أَعْلَامُ الْمُوقَعِينَ) : إنه سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود ولم يذكر أن الأحكام لا يحكمون إلا بذلك . فليس في القرآن نفي الحكم بشاهد ويمين ، ولا بالنكول ، ولا باليمين الردودة ، ولا بأيمان القسامة ، ولا بأيمان اللعان وغير ذلك مما يبين الحق ويظهره ويدل عليه . والشارع - في جميع المواضع - يقصد ظهور الحق بما يمكن ظهوره به من البينات التي هي أدلة عليه وشواهد له . ولا يرد حقاً قد ظهر بدليله أبداً . فيضيع حقوق الله وحقوق عباده ويعطلها . ولا يقف ظهور الحق على أمر معين لا فائدة في تخصيصه به مع مساواة غيره في ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحاً لا يمكن جرده ودفعه . وقد أطلال في ذلك بما لا يستغنى عن مراجعته .

الثالث - في قوله تعالى (وَآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) دلالة على صحة شهادة الذمي على المسلم عموماً . لكن خرج جوازها فيما عدا وصية المسلم في السفر بالإجماع . قال بعض المفسرين : ذهب الأكثر إلى أن شهادة الذميين قد نسخت . وعن الحسن وابن أبي ليلى والأوزاعي وشريح والرازي بالله وجده الإمام عبدالله بن الحسين : أنها صحيحة ثابتة . وكذا ذهب الأكثر إلى أن تحليف الشهود منسوخ . وقال طاوس والحسن والهادي : إنه ثابت . انتهى .

أقول : لم يأت من ادعى النسخ بحجة تصلح لذكرها وتستدعي التعرض لدفعها . قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) :

أمر تعالى في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد عدلين من المسلمين أو آخرين من

(١) [٢٤ / النور / ٤] ونصها : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَّانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

غيرهم . وغير المؤمنين هم الكفار . والآية صريحة في قبول شهادة الكافرين على وصية في السفر عند عدم الشاهدين المساهين . وقد حكم به النبي ﷺ والصحابة بعده ، ولم يجرى بمدّها ما ينسخها ، فإنّ (المائدة) من آخر القرآن نزولاً وليس فيها منسوخ ، وليس لهذه الآية معارض البتة . ولا يصح أن يكون المراد بقوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) من غير قبيلتكم ؛ فإنّ الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الآية . ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) أيّها القبيلة . والنبي ﷺ لم يفهم هذا من الآية . بل إنما فهم منها ما هي صريحة فيه ، وكذلك أصحابه من بعده . اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) :

واستدلّ بالآية على جواز شهادة الكفار بناءً على أن المراد بال (غير) الكفار . وخصّ جماعة القبول بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذٍ . منهم : ابن عباس وأبو موسى الأشعري ، وسعيد بن المسيّب ، وشريح ، وابن سيرين ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبو عبيد ، وأحمد . وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية - وقوى ذلك حديث الباب - بمعنى حديث ابن عباس المتقدم - فإن سياقه مطابق لظاهر الآية . وقيل : المراد بال (غير) العشيرة . والمعنى (منكم) أي : من عشيرتكم (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) أي : من غير عشيرتكم ، وهو قول الحسن واحتجّ له النحاس بأن لفظ (آخر) لا بدّ أن يشارك الذي قبله في الصفة ، حتى لا يسوغ أن تقول : مررت برجل كريم ولثيم آخر . فعلى هذا فقد وصف (الاثنان) بالعدالة . فيتعيّن أن يكون (الآخران) كذلك . وتعقب بأن هذا - وإن ساغ في الآية الكريمة - لكن الحديث دلّ على خلاف ذلك . و الصحابي إذا حكى سبب النزول كان ذلك في حكم الحديث المرفوع اتفاقاً . وأيضاً ، ففي ما قال ردّ المحتلف فيه بالمختلف فيه . لأن اتّصاف الكافر بالعدالة يختلف فيه . وهو فرع قبول شهادته ، فمن قبلها وصفه بها ، ومن لا ، فلا . واعترض أبو حيّان على المثال الذي ذكره النحاس بأنه غير مطابق . فلو قلت : جاءني رجل مسلم وآخر

كافر ، صح . بخلاف ما لو قلت : جاءني رجل مسلم وكافر آخر . والآية من قبيل الأول لا الثاني . لأن قوله (أو آخران) من جنس قوله (اثنان) ، لأن كلا منهما صفة (رجلان) ، فكأنه قال : فرجلان اثنان ورجلان آخران . وذهب جماعة من الأئمة إلى أن هذه الآية منسوخة . وأن ناسخها قوله تعالى (يَمُنُّ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) واحتجوا بالإجماع على رد شهادة الفاسق . والكافر شر من الفاسق . وأجاب الأولون : بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال ، وأن الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما . وبأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن . حتى صح عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجمع من السلف ؛ أن سورة المائدة محكمة . وعن ابن عباس ؛ أن الآية نزلت فيمن مات مسافراً وليس عنده أحد من المسلمين ، فإن اتهم استحلها . أخرجه الطبري بإسناد رجاله ثقات .

وأنكر أحمد على من قال : إن هذه الآية منسوخة .

وصح عن أبي موسى الأشعري أنه عمل بذلك بعد النبي ﷺ كما تقدم . ورجح الفخر الرازي - وسبقه الطبري - لذلك ؛ أن قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب للمؤمنين . فلما قال (أو آخران) وضع أنه أراد غير المخاطبين . فتهين أنهما من غير المؤمنين . وأيضاً : فجواز استشهاد المسلم ليس مشروطاً بالسفر . وأن أبا موسى حكم بذلك فلم ينكره أحد من الصحابة . فكان حجة . انتهى كلام الحافظ .

وفي (فتح البيان) : الحق أن الآية محكمة لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ . وأما قوله تعالى (يَمُنُّ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) وقوله (وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ) فهما عامتان في الأشخاص والأزمان والأحوال . وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين . ولا تعارض بين خاص وعام . انتهى .

وقد أطنب الرازي في (تفسيره) في الاحتجاج على عدم نسخها بوجوه عديدة ، وجود الكلام - في أن المراد من (غيركم) أي : من غير ملتكم - تجويداً فائقاً .

الرابع : قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) :

ذهب السكرايبي ثم الطبري وآخرون إلى أن المراد بالشهادة في الآية اليمين . قال :
وقد سمي الله اليمين شهادة في آية اللعان . وأيدوا ذلك بالإجماع على أن الشاهد لا يلزمه أن يقول :
أشهد بالله . وأن الشاهد لا يمين عليه أنه شهد بالحق . قالوا : فالمراد بالشهادة اليمين لقوله
(فَيُؤَسِّمَانِ بِاللَّهِ) أى : يحلفان . فإن عرف أنهما حلفا على الإثم رجعت اليمين على الأولياء .
وتمقب بأن اليمين لا يشترط فيها عدد ولا عدالة ، بخلاف الشهادة . وقد اشترطا في هذه
القصة ، فقوى حملها على أنها شهادة . وأما اعتلال من اعتل في ردّها بأنها تخالف القياس
والأصول - لما فيها من قبول شهادة الكافر وجنس الشاهد وتحليفه وشهادة المدعى لنفسه
واستحقاقه بمجرّد اليمين - فقد أجاب من قال به بأنه حكم بنفسه مستغنٍ عن نظيره . وقد
قبلت شهادة الكافر في بعض المواضع ، كما في الطب . وليس المراد بالحبس السجن . وإنما
المراد : الإمساك لليمين ليحلف بعد الصلاة . وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة
عند قيام الريبة . وأما شهادة المدعى لنفسه واستحقاقه بمجرّد اليمين ، فإن الآية تضمّنت نقل
الآيمان إليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيين . فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا ، كما يشرع
لمدعى الدم في القسامة أن يحلف ويستحق . فليس هو من شهادة المدعى لنفسه ، بل من باب
الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه . وأى فرق بين ظهور اللوث في صحة الدعوى
بالدم ، وظهوره في صحة الدعوى بالمال؟ وحكى الطبري : أن بعضهم قال : المراد بقوله (اثْنَانِ
ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الوصيان . قال : والمراد بقوله (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) معنى الحضور لما يوصيهما
به الموصى . ثم زيف ذلك . انتهى كلام (الفتح) .

ولا يخفأك أن الآية بنفسها - مع ماورد في نزولها - غنيّة عن تكلف إدخالها تحت
القياس والقواعد والتجمل لتأويلها .

الخامس : في قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) دلالة على تغليظ اليمين .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) وبعض المفسرين :

ذهب الجمهور إلى وجوب التغليظ بالزمان والمكان . فأما في الزمان فبعد العصر . وأما في المكان : ففي المدينة عند المنبر ، وبمكة بين الركن والمقام ، وفي بيت المقدس عند الصخرة ، وبغيرها بالمسجد الجامع . واتفقوا على أن ذلك في الدماء والمال الكثير ، لا في القليل . انتهى . وذهبت الزيدية والحنفية والحنابلة إلى أن اليمين لا تغلظ بزمان ولا بمكان . وأخذوا بعموم قوله ^(١) ﷺ : البينة على المدعى واليمين على من أنكر ، ولم يفصل . قالوا : وقوله تعالى في هذه الآية (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) يحتمل أن ذكره لأنهم كانوا لا يعتادون الحكم إلا في ذلك الوقت .

قال بعض الزيدية : وهل التغليظ في المكان والزمان على سبيل الوجوب أو الاستحباب ؟ قال الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة : المختار ، التغليظ في الأيمان لفساد أهل الزمان . وذلك مروى عن أمير المؤمنين المرتضى وأبي بكر وعمر وعثمان وابن عباس ومالك والشافعي . قال : والمختار أنه مستحب غير واجب . انتهى .

وفي كتاب (الشهادات) من (صحيح البخاري) بابان في هذه المسألة . فليراجع مع شروحه .

السادس : قال ابن أبي الفرس : في قوله تعالى (فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ) دليل على أن (أقسم بالله) يمين ، لا (أقسم) فقط .

السابع : في قوله تعالى (وَلَا نَسْكُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ...) الآية دليل على تحريم كتمان الشهادة . وذلك لا إشكال فيه .

الثامن : قال السيوطي : تخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة (يعني على قراءة الأوليان) لخصوص الواقعة التي نزلت لها . ثم ساق رواية البخاري السابقة . أي : وللإشارة إلى الاكتفاء باثنين من أقرب الورثة أيضاً وإن كان فيهم كثرة .

(١) قال في (الجامع الصغير) : أخرجه البيهقي في (الشعب) وابن عساكر ، عن ابن عمرو

غريبة :

قال مكيّ في كتابه المسمّى بـ (الكشف) :

هذه الآيات الثلاث - عند أهل المعاني - من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنىً وحكماً وتفسيراً . ولم يزل العلماء يستشكّلونها ويكفّون عنها .

قال : ويحتمل أن يبسط ما فيها من العلوم في ثلاثين ورقة أو أكثر ، وقد ذكرناها مشروحة في كتاب مفرد .

قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له النتاج في تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله تعالى - يعني من كتاب مكيّ - .

قال القرطبيّ : ما ذكره مكيّ ، ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً .

قال السعد في (حاشيته على الكشف) : واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً ... انتهى .
أقول :

هذه الآية الكريمة غنيّة بنفسها - مع ما ورد في سبب نزولها ، وما قاله خبر الأمة وترجمان القرآن في معناها - عن التشكيك فيها ، والتكلف لإدخالها تحت القواعد ، والتمحّل لتأويلها . فخذ ما نقلناه من محاسن تأويلها وكن من الشاكرين .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ

عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« يَوْمَ » منصوب بـ (اذْكُرُوا) أو (احذَرُوا) « يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ » وذلك يوم القيامة ، وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم . كيف لا ؟ وذلك

يوم مجموع له الناس ، بل لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم ، بناءً على ظهور كونهم أتباعاً لهم « فَيَقُولُ » أى : للرسول « مَاذَا أُجِبْتُمْ » أى : ما الذى أجابكم من أرسلتم إليهم ؟ ففيه إشعار بخروجهم عن عهدة الرسالة . إذ لم يقل : هل بلغت رسالاتي ؟ وفى توجيه السؤال إليهم ، والعدول عن إسناد الجواب إلى قومهم بأن يقال : ماذا أجابوا - من الإنباء عن شدة الغضب الإلهي - ما لا يخفى .

وفى (الصحيح)^(١) فى حديث الشفاعة : إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله .

« قَالُوا » من هيئته تعالى ، وتفويضاً للأمر إلى علم سلطانه وتأديباً بليغاً فى ذلك الموقف الجلالى « لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى : وَمَنْ عِلْمَ الْخَفِيَّاتِ ، لم تخف عليه الظواهر التى منها إجابة أممهم لهم .

تنبيهات :

الأول : قال الرازى : اعلم أن عادة الله تعالى جارية فى هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام ، أتبعها إمّا بالإلهيات ، وإمّا بشرح أحوال الأنبياء ، أو بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع . فلا جرم ، لما ذكر - فيما تقدم - أنواعاً كثيرة من الشرائع ، أتبعها بوصف أحوال القيامة .

الثانى : قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم . كما كان

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣ - باب قول الله عز وجل :
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، حديث ١٥٧٩ عن أبى هريرة .
وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٧ و ٣٢٨ (طبعنا) .

سؤال الموءودة توبيخاً للوائد . فإن قات : كيف يقولون : لا علم لنا ، وقد عادوا بما أُجيبوا ؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكون الأمر إلى عامه ، وإحاطته بما مُنوا به منهم ، وكابدوا من سوء إجاباتهم ، إظهاراً للتشكي واللاجأ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة ، وأفت في أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم . إذ اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم . ومثاله : أن ينكب بعض الخوارج على السلطان ، خاصة من خواصه نكبةً ، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها ، وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجى ؟ (وهو عالم بما فعل به) يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بي ، تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالا عليه ، وإظهاراً للشكاية ، وتعظيماً لما حلّ به منه . انتهى .

واستظهر الرازى أن نفي العلم لهم على حقيقته عملاً بما تقرر من أن العلم غير الظن . قال : لأن الحاصل من حال الغير عن كل أحد إنما هو الظن لا العلم . وفي الحديث : نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، وقال ^(١) ﷺ : إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار . فلا أنبياء قالوا : لا علم لنا البتة بأحوالهم . إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن . والظن كان معتبراً في الدنيا . وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن . لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور . فلهذا السبب قالوا : لا علم لنا . ولم يذكروا ما معهم من الظن . لأن الظن لا عبرة به في القيامة . والله أعلم .

الثالث : دلت الآية على جواز إطلاق لفظ (المالام) عليه . كما جاز إطلاق لفظ (الخلق)

(١) أخرجه البخارى في : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٢٧ - باب من أقام البينة بعد اليمين ، حديث ١٢١٢ عن أم سلمة .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث ٦٥٥٤ (طبعنا) .

عليه . وأما العلامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقه في حقه . ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث . أفاده الرازي .

على أن المختار أن أسماء تعالى توقيفية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين ، من المفاوضة ، على التفصيل . إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ، ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين . وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان ، تفصيلاً بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام ، مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسول - لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعمت عليهم في السورة الكريمة جناباتهم . فتفصيله أعظم عليهم وأجاب لحسرتهم وندامتهم ، وأدخل في صرفهم عن غيهم وعنادهم . أفاده أبو السعود . « اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ » أي : منّتي عليك « وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ » بما طهرها واصطفاهما على نساء العالمين « إِذْ أَيَّدْتُكَ » أي : قوّيتك « بِرُوحِ الْقُدُسِ » أي : بجبريل عليه السلام

لتثبيت الحجة . أو بجمل روحك طاهرة عن الملائق الظلمانية . بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر ، فيشهد ببراءتك وبراءة أمك . ومن ذلك التأييد قوت نفسك الناطقة . لذلك « تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » أى : فى أضعف الأحوال وأقواها . بكلام واحد من غير أن يتفاوت فى حين الطفولة وحين الكهولة . الذى هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد . قال ابن كثير : أى جعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك . فانطقتك فى المهد صغيراً . فشهدت ببراءة أمك من كل عيب . واعترفت لى بالعبودية . وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتك إلى عبادتى . ولهذا قال (تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) أى : تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك . وضمن (تكلم) تدعو ، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب . انتهى .

« وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ » أى : الخط وظاهر العلم الذى يكتب « وَالْحِكْمَةَ » أى : الفهم وباطن العلم الذى لا يكتب ، بل يخص به أهله « وَالتَّوْرَةَ » وهى المنزلة على موسى الكليم عليه السلام « وَالْإِنْجِيلَ » وهو الذى أنزله عليه، صلى الله وسلم عليه « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر وتصور منه صورة مماثلة لهيئة الطير « بِإِذْنِي » أى : لك فى ذلك « فَتَنْفُخُ فِيهَا » أى : فى تلك الهيئة المصورة « فَتَكُونُ » أى : فتصير تلك الهيئة « طَيْرًا » لحصول الروح من نفختك فيها « بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ » أى : الذى يولد أعمى مطموس البصر « وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى » أى : من القبور أحياء « بِإِذْنِي » فهذا مما فعل به من جرّ المنافع . ثم أشار إلى مادفع عنه من المضار ، فقال سبحانه « وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ » أى : منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء وسعوا فى قتلك وصلبك ، فنجيتك منهم ورفعتك إلى وطهرتك من دنسهم « إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى : المعجزات التى توجب انقيادهم لك لتعاليمها عن قوى البشر فلا يتوهم فيها السحر « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى : ما هذا الذى يرينا إلا سحر ظاهر .

لطيفة :

إن قيل: إن السياق في تعديد نعمه تعالى على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه، إن هذا إلا سحر مبين ، ليس من النعم بحسب الظاهر. فما السر في ذكره ؟ فالجواب: إن من الأمثال المشهورة : إن كل ذى نعمة محسود . فطعن اليهود فيه بهذا الكلام يدل على أن نعم الله تعالى في حقه كانت عظيمة . فحسن ذكره عند تعديد النعم ، للوجه الذى ذكرناه. أفاده الرازى .

ولما بين تعالى النعم اللازمة ، تأثرها بنعمه عليه المتعدية ، فقال سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِذْ أُوحِيَْتُ إِلَى الْخَوَارِجِينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

« وَإِذْ أُوحِيَْتُ إِلَى الْخَوَارِجِينَ » أى: بطريق الإلهام والإلقاء فى القلب « أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى » أى: عن دعوته « قَالُوا ءَامَنَّا » وأكدوا إيمانهم بقولهم « وَاشْهَدْ » أى: لتؤيدها عند ربك « بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » أى: منقادون لكل ما تدعوننا إليه . وههنا لطائف :

الأولى - إيمان قدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب. والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع

فى الظاهر . يعنى آمننا بقلوبنا وانقصدنا بظواهرنا .

الثانية - إنما ذكر تعالى هذا فى معرض تعديد النعم . لأن صيرورة الإنسان مقبول القول

عند الناس ، محبوبا فى قلوبهم ، من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان . كذا قاله الرازى .

وقال المهايى : ليحصل له رتبة التكميل وثواب رشد هم .

الثالثة - قال الرازى : إن قيل: إنه تعالى قال فى أول الآية (اذْ كُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

وَالِدَتِكَ) ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه تعلق بشيء منها . قلنا : كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية ، فهو حاصل ، على سبيل التضمن والتبع للأم . ولذلك قال تعالى : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (١) . فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر . انتهى .

وقال بعضهم : قيل : أريد بالذكر في قوله تعالى (اذْ كُرُ نِعْمَتِي) الشكر . ففي ذلك دلالة على وجوب شكر النعمة . وإن النعمة على الأم نعمة على الولد . والشكر يكون بالقول والفعل والاعتقاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته ، ليستقل بإزال المائدة « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال : سورة المائدة . وههنا قراءتان : الأولى (يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) بالياء على أنه فعل وفاعل و (أَنْ يُنْزِلَ) المفعول . والثانية - بالتاء و (رَبُّكَ) نصب أى سؤال ربك . فحذف المضاف . والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه ؟ وهى قراءة على وعائشة وابن عباس ومعاذ رضى الله عنهم . وسعيد بن جبير والكسائي ، فى آخرين .

قال أكثر المفسرين : الاستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز . إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا فى قدرة الله تعالى . لكنه كما يقول الرجل لصاحبه :

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٠] . . . وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

هل تستطيع أن تقوم معي ؟ مع علمه بأنه بقدر عل القيام ، مبالغة في التقاضي . وإنما قصد بقوله (هَلْ تَسْتَطِيعُ) هل يسهل عليك ، وهل يخف أن تقوم معي ؟ فكذلك معنى الآية . لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ، ومعترفين بكامل قدرته . وسؤالهم ليس لإزالة شك ، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة . كما قال إبراهيم عليه السلام ^(١) (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي) ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب . ولهذا السبب قالوا (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) وحاصله أن (هَلْ تَسْتَطِيعُ) سؤال عن الفعل دون القدرة عليه ، تعبيراً عنه بلازمه . أو عن المسبب بسببه . وقيل المعنى : هل يطيع ربك ؟ أى هل يستجيب دعوتك إذا دعوته ؟ (فيستطيع) بمعنى (يطيع) وهما بمعنى واحد . والسين زائدة . كاستجاب وأجاب واستجب وأجب و (يطيع) بمعنى (يجيب) مجازاً ، لأن الجيب مطيع .

وذكر أبو شامة أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد أبا طالب في مرض . فقال له : يا ابن أخي ! ادع ربك أن يعافيني . فقال : اللهم ! اشف عني . فقام كأنما نشط من عقال . فقال : يا ابن أخي ! إن ربك الذي تعبد ليطيعك . فقال : يا عم ! وأنت لو أعطته لكان يطيعك . أى يجيبك لمقصودك .

وحسنه في الحديث المشاكلة ، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى . قال الخازن : وقال بعضهم : هو على ظاهره . وقال : غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم . وكانوا بشرّاً ، فقالوا هذه المقالة . فرد عليهم غلطهم بقوله « قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » يعني اتقوا الله أن تشكوا في قدرته . والقول الأول أصح . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ =

وعليه فمعنى (اتَّقُوا اللَّهَ) من أمثال هذا السؤال ، وأن توقفوا لإيمانكم على رؤية المائدة إن كنتم به وبرسالتى (مُؤْمِنِينَ) فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات .

لطيفة :

فى المائدة قولان : الأول - أنها الطعام نفسه ، من (ماد) إذا أفضل . كما فى (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم . أى : وإن لم يكن معه خوان . كما فى (التقريب) و (اللسان) وصرح به ابن سيده فى (المحكم) .

قال الفاسى : والآية صريحة فيه ، قاله أرباب التفسير والغريب . والثانى - أنها الخوان عليه الطعام . قال الفارسى : لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام ، وإلا فهى خوان ، وصرح به فقهاء اللغة ، وجزم به الثعالبى وابن فارس . واقتصر عليه الحريرى فى (درة الغواص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص . وذكر الفاسى فى (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرداً عن الطعام ، باعتبار أنه وضع أو سيوضع . وقال ابن ظفر : ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها . كما قيل (لقحة) بعد الولادة . وقال أبو عبيد : المائدة فى المعنى مفعولة ، ولفظها فاعلة . وهى مثل عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وقيل : من (ماد) إذا أعطى . يقال : ماد زيد عمرًا ، إذا أعطاه . وقال أبو إسحق : الأصل عندى فى (مائدة) أنها فاعلة . من (ماد يعيد) إذا تحرك . فكأنها تميد بما عليها . أى : تتحرك . وقال أبو عبيد : سميت (مائدة) لأنها مِيدَ بها صاحبها . أى : أُعْطِيَهَا وَتُفَضِّلَ عَلَيْهِ بِهَا . وفى (العناية) : فكأنها تعطى من حولها مما حضر عليها . وفى (المصباح) : لأن المالك

= فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ،
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

مادها للناس . أى : أعطاهم إياها . ومثله فى كتاب (الأبنية لابن القطاع) : ويقال فى المائدة مَيِّدَة . قاله الجرمي^(١) وأنشد :

وَمَيِّدَة كَثِيرَة الْأَلْوَانِ تُصْنَعُ لِلْإِخْوَانِ وَالْجِيرَانِ
كَذَا فى (القاموس وشرحه) . وَالْإِخْوَانُ بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام
كما فى (القاموس) . معرَّب كما فى (الصحاح) و (العين) . وقيل : إنه عربى مأخوذ من (تخونه)
أى نقص حقه . لأنه يؤكل عليه فينقص . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا
وَنَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا » أى آمننا . لكننا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا
عن عبادة الله تعالى « وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا » أى فلا تعترينا شبهة لا يؤمن من ورودها ، لولا
مثل هذه الآية . فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب قوة اليقين « وَنَعْلَمَ
أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا » أى فى دعوى النبوة ، وفيما تعدنا من نعيم الجنة ، مع أنها سماوية « وَنَكُونَ
عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ » أى فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، ليزداد
المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة و يقينا . ويؤمن بسببها كفارهم . أو من الشاهدين للعين دون
السامعين للخبر .

ثم لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً فى ذلك ، وأنهم لا يقلعون عنه ، أزمع على استدعائها
واستنزالها .

(١) استشهد به فى اللسان ، فى مادة (م ي د) بالصفحة رقم ٤١٣ من المجلد الثالث

(طبعة بيروت) .

روى ابن أبي حاتم ؛ أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه ، فصلّى ما شاء الله . فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة ، وصفّ قدميه ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره وطأطأ برأسه ، خشوعاً . ثم أرسل عينيه بالبكاء . فما زالت دموعه تسيل على خديه ، وتقطر من أطراف لحيته ، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه ، من خشوعه . فعند ذلك دعا الله تعالى فقال : اللهم ! ربنا . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا » أى : يا الله المطلوب لكل منهم ، الجامع للكمالات ، الذى ربانا بها . ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية ، إظهاراً للغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » أى التى فيها ما تعدنا من نعم الجنة « تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا » أى يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ونسربه ، نحن الذين يدركونها . ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوون فى دينهم . و (العيد) العائد . مشتق من (العود) لعوده فى كل عام بالفرح والسرور . وكل ما عاد عليك فى وقت فهو عيد ، قال الأعشى (١) :

فوا كبدي من لالعج الحب والهوى إذا اعتاد قلبي من أميمةَ عيدُها
كذا فى (العناية) .

وفى (القاموس) (العيد) بالكسر ، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه .

(١) ليس فى ديوان الأعشى ، فهو ليس من قوله . وبحث عنه فى ما بين يديّ من المصادر الأدبية واللغوية ، فلم أهد إليه .

وكل يوم فيه جمع « وَآيَةٌ مِنْكَ » أى : على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياى « وَارْزُقْنَا » أى : أعطنا ما سألناك « وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى : خير من يرزق . لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » إجابة لدعوتكم « فَمَنْ يَكْفُرْ » أى : بى وبرسولى « بَعْدُ » أى بعد تنزيلها ، المفيد للعلم الضرورى بى وبرسولى « مِنْكُمْ » أيها المذممون بها « فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » أى من عالمى زمانهم . أو من العالمين جميعاً .

روى^(١) ابن جرير بسنده إلى قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ) الخ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

وروى^(٢) منصور بن زاذان عن الحسن أيضا . أنه قال ، فى المائدة : أنها لم تنزل .

وروى^(٣) ابن أبى حاتم وابن جرير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : هو مَثَلٌ ضربه الله ولم ينزل شئ . أى مثل ضربه الله لخلقه ، نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبياؤه .

قال الحافظ ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن . وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى . وليس هو فى كتبهم . ولو كانت قد نزلت ، لكان ذلك

(١) الأثر رقم ١٣٠٢٠ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٠٢١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٣٠١٩ من التفسير .

مما يتوفر الدواعي على نقله . وكان يكون موجوداً في كتبهم متواتراً . ولا أقل من الآحاد . والله أعلم .

ثم قال : ولكن الجمهور أنها نزلت . وهو الذي اختاره ابن جرير . قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى (إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) ووعده الله ووعيده حق وصدق . وهذا القول هو ، والله أعلم ، الصواب . كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف

وغيرهم . اهـ

ومن الآثار ما أخرجه الترمذی^(١) عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأمروا أن لا يحنونوا ولا يدخروا لعد . فخانوا وادخروا ورفعوا لعد . فسخوا قرده وخنازير . قال الترمذی : وقد روى عن عمار ، من طريق ، موقوفاً وهو أصح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ؛ أن عيسى ابن مريم ، قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقد ساق ابن كثير آثاراً في نزولها لا تخلو عن غرابة ونسكارة في سياقها ، كما لا يخفى .

روى الإمام أحمد^(٢) عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك . قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم : قال فدعاه ، فأتاه جبريل

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٢١ - حدثنا الحسن بن قزعة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢١٦٦ (طبعة المعارف) .

فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة .
ورواه الحاكم في مستدرکه وابن مردويه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسول (مَاذَا أُجِبْتُمْ) توبيخ من تمرد من أمهم . وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى ، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام . لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد . فلا جرم ، ذكر تعالى أنه يمدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، إشعاراً بعبوديته . فإن كل واحدة من تلك النعم الممدودة عليه ، تدل على أنه عبد وليس بإله . ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره ، عليه السلام ، على رؤوس الأشهاد ، بالعبودية ، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل . إكذاباً لهم في افتراءهم عليه ، وتثبيتاً للحجة على قومه ؛ فهذا سر سؤاله تعالى له ، مع علمه بأنه لم يقل ذلك . وكل ذلك لتنبية النصارى الذين كانوا في وقت نزول الآية ومن تأثرهم ، على قبح مقالاتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم .

تنبيهات :

الأول : روى عن قتادة : أن هذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى (هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)^(١) . وقال السدي : هذا الخطاب والجواب ، في الدنيا . وصوبه ابن جرير ، قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء . واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين : (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضى ؛ و (الثاني) قوله : إِنْ تُعَذِّبُهُمْ . وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ . قال الحافظ ابن كثير : وهذان الدليلان فيهما نظر . لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ...) الآية : التبرؤ منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله تعالى . وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه . كما في نظائر ذلك من الآيات . فالذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر . فالله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد .

وقد روى بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه ، أني موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممهم . ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرّبها فيقول : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ . . . الآية ، ثم يقول : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ » فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيُسْأَلُونَ فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك ! قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام . فيأخذ كل ملك من الملائكة بشمعة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطق بهم إلى النار ! قال ابن كثير : وهذا حديث غريب عزيز !

(١) الأثر رقم ١٣٠٣٧ من التفسير .

الثاني : إشار قوله تعالى (أُمِّي) على (مَرِيَمَ) توبيخ للمتخذين، على توبيخ . أى مع أنك بشر ولد وتولد قبل هذا .

الثالث : توهم بعضهم أن كلمة (من دون الله) تفيد أن النصارى يعتقدون أن عيسى وأمه ، عليهما السلام ، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلاً عن الله تعالى . كما يقال : اتخذت فلاناً صديقاً من دونى . فإن معناه أنه استبدله به ، لا أنه جعله صديقاً معه . وهم لم يقولوا بذلك . بل ثلثوا . فأجاب : بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى . لأنه وحده لا شريك له ، منزّه عن ذلك . فأقراره بالله كلا إقرار . فيكون (من دون الله) مجازاً عن (مع الله) . ولا يخفى أن هذا تسكف . لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحاً لا بما يلزمه بضرب من التأويل . فالصواب أن المراد اتخاذها بطريق إشارا كهما به سبحانه . كقافي قوله تعالى^(١) (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا) وقوله عز وجل^(٢) (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - إلى قوله... سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) إذ به يتأتى التوبيخ ، ويتسنى التفريع والتبكيث . هذا ما حققوه هنا .

وأقول: إن كلمة (دون) في هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كالحققة اللغويون. ولا تفيد،

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] ... يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٨] ... قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥٥] ونصها: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا .

وضعا ، الاستقلال والبدلية ، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشراكة . لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه . مع أنهم لا يعتقدون ذلك . ولا يفهم من نحو (أَتَّخَذْتُ صَدِيقًا مِنْ دُونِي) الاستبدال . فذاك من قرينة خارجية . وإلا فالتمال لا يعينه . لجواز إرادة اتخاذه معه كما لا يخفى . فتبصر « قَالَ سُبْحَانَكَ » أى أنزهك نزيها لا تمقا بك من أن يقال هذا ويُنتق به « مَا يَكُونُ لِي » أى ما يتصور منى بعد إذ بعثتنى لهداية الخلق « أَنْ أَقُولَ » أى فى حق نفسى « مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ » أى ما استقر فى قلوب العقلاء عدم استحقاقى له مما يضلهم « إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام ، بالطريق البرهاني . فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا . فحيث انتفى علمه تعالى به ، انتفى صدوره عنه حتما . ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم اللزوم . قاله أبو السعود « تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي » استئناف جار مجرى التعليل لما قبله . كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه فى نفسى . فكيف بما أعلنه ؟ وقوله تعالى « وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » بيان للواقع ، وإظهار لقصوره . أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود « إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ » أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به . وإنما قيل : (مَا قُلْتُ لَهُمْ) نزولا على قضية حسن الأدب ، ومراعاة لما ورد فى الاستفهام . وقوله تعالى « أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ » تفسير للمأمور به « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ »

فِيهِمْ» أَى : رَقِيبًا أُرَاعَى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك، ويتأتى لى نهيمهم عما أشاهده
فيهم مما لا ينبغي « فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي » أَى : بالرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ
وَرَأْفِعُكَ إِلَىَّ)^(١) والتوفى : أخذ الشيء وافيًا . والموت نوع منه . قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى
الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)^(٢) وسبق فى قوله تعالى (يَا عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ هَذَا) (آل عمران) زيادة إيضاح على ما هنا . فتذكر « كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ »
أَى : الناظر لأعمالهم . فنمت من أردت عصمته من التفوه بذلك . وخذلت من خذلت
من الضالين ، فقالوا ما قالوا « وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » اعتراض تذييل مقرر لما قبله .
وفيه إيدان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل ، حين كونه عليه السلام فيما بينهم .

تنبيه :

دلت الآية على أن الأنبياء ، بعد استيفاء أجلهم الدينوى ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون
أعمال أمتهم . وقد روى البخارى^(٣) هنا عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضى الله عنهما
قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس ! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً .
ثم قال : كما بدأنا أول خلقٍ نعيمُهُ وَعَذَابٌ عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ... إلى آخر الآية . ثم قال :

- (١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ هَذَا وَرَأْفِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا ، فِيمَ سِكَاتِ الْقَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَرُسُلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) أخرجه البخارى فى أبواب متعددة من صحيحه وأولها ما جاء فى : ٦٠ - كتاب

الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ .

ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب اأصحباني . فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل . فإنه الفعال لما يشاء . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ^(١) . ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله . وجعلوا لله ندا وصاحبة وولدا . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . انتهى . أى . إن تعذيبهم فإنك تعذب عبادك ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه . وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك . وإن تغفر لهم فلا عجز ولا استعجاب . لأنك القادر القوى على الثواب والعقاب . الذى لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب . فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم . فإن عذبت فعدل ، وإن غفرت ففضل . وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد . فلا امتناع فيه لذاته ، ليمتنع الترييد والتعليق به (إن) . أفادة البضاوى .

يعنى أن المغفرة ، وإن كانت قطعية الانتفاء بحسب الوجود ، لكنها لما كانت بحسب العقل ، تحتمل الوقوع واللاوقوع ، استعمال فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم ، مع أنه قطعى الوجود ، كيف استعمال فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٣] .

وفي كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلاً عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة .
لأن العقاب حق الله على المذنب ، وليس في إسقاطه مضرة .

وبالجملة : فليس قوله تعالى (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) تعريضاً بسؤاله العفو عنهم . وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد ، وعلى مقتضى حكمه وحكمته . ولذا قال : إنك أنت العزيز الحكيم ، تنبيهاً على أنه لا امتناع لأحد عن عزته ، فلا اعتراض في حكمه وحكمته .

قال الرازي : قال قوم : لو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم . فلما قال : فإنك أنت العزيز الحكيم ، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالسكينة إلى الله تعالى ، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه .

وفي (العناية) ما ملخصه : أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر (الغفور الرحيم) بدل (العزيز الحكيم) كما وقع في مصحف عبد الله بن مسعود - فقد غاب عنه سر المقام .
لأنه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط ، لكونه جوابه . وليس كما توهم . بل هو متعلق بهما .
ومن له الفعل والترك عزيز حكيم . فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام ، أو هو متعلق بالثاني ،
وإنه احتباس ، لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لمعجز ينافي القدرة ، أو لإهمال ينافي الحكمة .
فبين أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية لها شأن عظيم ونبا عجيب . وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها .

روى الإمام (١) أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة . فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (إِنْ تَعُدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فلما أصبح قلت : يا رسول الله ! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت . تركع

(١) أخرجه في السند بالصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

بها وتسجد بها ؟ قال : إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي ؛ فأعطانها . وهي نائلة ، إن شاء الله ، لمن لا يشرك بالله شيئاً .
وأخرجه النسائي أيضاً .

وروى الإمام أحمد^(١) أيضاً عن أبي ذر قال : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة المشاء . فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون . فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله . فلما رأى القوم قد أخذوا المسكان رجع إلى مكانه فصلى . فنجت قممت خلفه فأومأ إلى يمينه ، قممت عن يمينه . ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله . فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه ، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو . وقام بآية من القرآن يرددها ، حتى صلى الغداة . فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود : أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ؟ فقال ابن مسعود : لأسأله عن شيء حتى يحدث إلى ، فقلت : بأبي وأمي ! قمت بآية من القرآن ومعك القرآن . لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه . قال : دعوت لأمتي . قلت : فإذا أجبت ؟ أو ماذا رد عليك ؟ قال : أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة ، تركوا الصلاة . قلت : أفلا أبشر الناس ، قال : بلى . فانطلقت مُعِنّاً قريباً من قذفة بحجر . فقال عمر : يا رسول الله ! إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة . فناده أن ارجع . فرجع .

وتلك الآية (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم (رَبِّ إِنِّي أَنْتَنَ أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي . . . الآية)^(٢) وقول عيسى (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . . . وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فرفع يديه وقال : اللهم ! أمتي أمتي . وبكى . فقال الله تعالى : يا جبريل ! اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فاسأله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل ! اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

ثم ختم تعالى حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، مع الإشارة إلى نتيجة ذلك ومآله بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) « قَالَ اللَّهُ هَذَا » أى : يوم القيامة « يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » لأنه يوم الجزاء . والمراد بـ (الصَّادِقِينَ) المستمرون على الصدق في الأمور الدينية ، التي معظمها التوحيد ، الذي الآية في صدره . وفيه شهادة بصدق عيسى عليه السلام فيما قاله ، جواباً عن قوله : أَعَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . الآية . وقوله تعالى « لَهُمْ جَنَّاتٌ » تفسير للنفع المذكور . ولذا لم يعطف عليه ، أى : لهم بساتين من غرس صدقهم « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها وسررها « الْأَنْهَارُ » أنهار الماء واللبن والحمر والعسل « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين لا يموتون ولا يخرجون « أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » لصدقهم « وَرَضُوا عَنْهُ » تحقيقاً لصدقهم . فلم يسخطوا لقضائه في الدنيا « ذَلِكَ » أى : الخلود والرضوان « الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى : الكبير الذي لا أعظم منه . كما قال تعالى (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)^(١) وكما قال (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)^(٢) وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٦١] .

(٢) [٨٣ / المطففين / ٢٦] ونصها : خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ » تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في المسيح وأمه . وذلك من تقديم الظرف . لأنه المالك لا غيره ، فلا شريك له . « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : مبالغ في القدرة . فالجميع مملوكه وتحت قهره وقدرته ومشيتته . فلا نظير له ولا وزير . لا إله غيره ولا رب سواه .

روى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة . أخرجه الترمذى^(١) والحاكم . وأخرجنا أيضاً عن عائشة قالت : آخر سورة نزلت المائدة والفتح - كذا في (الإتقان) - .

كمل ما قدره تعالى على عبده من محاسن تأويل هذه السورة الشريفة

بعد عصر يوم الجمعة في ١٩ رمضان عام ١٣٢٠

في السدة الميمنية العليا من جامع السنانية .

والحمد لله رب العالمين .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ٢٣ - حدثنا قتيبة

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦ - سورة الأنعام

وهي مكية . وهي مئة وخمس وستون آية

روى العوفي وعكرمة وعطاء عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هي مكية ، نزلت جملة واحدة ، نزلت ليلاً ، وكتبوها من ليالتهم ، غير ست آيات منها ، فإنها مدنيات ، وهي قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي... (١) إلى آخر الثلاث آيات . وقوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١-١٥٣] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

قَدَرِهِ ... (١) الآية . وقوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... (٣) إلى آخر الآيتين .

وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين ، وهما قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ ... (٣) الآية . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ... (٤) الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا : إنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة ، قوله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِ (٥) . وقوله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ... (٦) الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهَا قُرْآنًا يَسْتَكْبِرُونَ بِهَا وَيَخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٢ ، ٢١] ونصهما : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ائِنَّا شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبِعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٥) انظر الحاشية رقم ١ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ =

قال البيهقي في (الدلائل) : في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة ، فألحقت بها . وكذا قال ابن الحصار : كل نوع من المكّي والمدنيّ ، منه آيات مستثناة . قالوا : إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل . ثم ناقش في استثناء هذه الآيات ، قال : ولا يصح به نقل ، خصوصاً ما ورد أنها نزلت جملة .

ورد عليه السيوطيّ بأنه صح النقل عن ابن عباس ، باستثناء : قُلْ تَعَالَوْا... (١) الآيات الثلاث ، والبواقي : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٢) ، لما أخرجه ابن أبي حاتم أنها نزلت في مالك بن الصيف . وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (٣) . نزلتا في مسيلة . وقوله : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ (٤) . وقوله : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (٥) .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبيّ قال : نزلت الأنعام كلها بمكة ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود ، وهو الذي قال : مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٦) - كذا في (اللباب) و (الإتقان) . ومن خصائص هذه السورة ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً ، جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك ، يجأرون بالتسبيح .

== مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُنْشَاهَا وَغَيْرَ مُنْشَاهُ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣١ .

(٤) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٢٢٣١ .

(٥) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٢٣١ .

(٦) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

وروى السدي عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة .
وروى نحوه من وجه آخر عنه أيضاً .

وروى الحاكم في (مستدرکه) عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال : لقد شيع هذه السورة من الملائكة ماسد الأفق . ثم قال : صحيح على شرط مسلم .
وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت سورة الأنعام معها موكب الملائكة سدّ ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : سبحان الله العظيم ! سبحان الله العظيم !

وأخرج أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد .

قال الرازي : قال الأصوليون : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة :

أحدها - أنها نزلت دفعة واحدة .

والثاني - أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين . وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة . وأيضاً فإنزال ما يدل على الأحكام ، قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم ، وبحسب الحوادث والنوازل . وأما ما يدل على علم الأصول ، فقد أنزله الله جملة واحدة ، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور ، لا على التراخي . اهـ
وأخرج (١) الدارمي في (مسنده) عن عمر رضي الله عنه قال : الأنعام من نواجب القرآن . وفي القاموس : نجائب القرآن أفضله ومحضه . ونواجبه لبابه . انتهى .

وسميت (سورة الأنعام) ، لأن أكثر أحكامها ، وجهالات الشركين فيها ، وفي التقرب بها إلى أصنامهم - مذكورة فيها .

(١) أخرجه الدارمي في (مسنده) في : ٢٣ - كتاب فضائل القرآن ، ١٧ - باب فضائل

الأنعام والسور : عن عمر قال : الأنعام من نواجب القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ،
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى جميع المحامد ، بما حمد به نفسه أو خلقه ، أو حمد به الخلق ربهم ،
أو بعضهم ، مخصوص به . ثم أخبر عن قدرته الكاملة ، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد بقوله :
« الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم المخلوقات ، فيما يرى
العباد ، وفيهما العبر والمنافع ، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات
والفاسدات التى هى مظاهر الكمالات الإلهية . والأرض مشتملة على قوايل الكون والفساد
التى هى المسببات .

« وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أى : أوجدتهما منفعة لعباده ، فى ليلهم . ونهارهم .

وهنا :

لطائف

الأولى - أن المقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسم هو الحقيق بالحمد
والعبادة ، دون ما سواه .

الثانية - لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كما هنا ؛ وإلى
مفعولين إذا كان بمعنى (صير) كقوله ^(١) : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا .
والفرق بين (الخلق) و (الجعل) : أن (الخلق) فيه معنى التقدير ، و (الجعل) معنى
التضمين ، كأنشاء شئ من شئ أو تصيير شئ شئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك :

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٩] .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا^(٢) . وإنما حَسَّنَ لفظ (الجعل) ههنا، لأن النور والظلمة لما تماقبا ، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر - قاله الرازي - وسبقه إليه الزمخشري .

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد وردت (جَعَلَ) و (خَلَقَ) موردًا واحدًا . فورد: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(٣) . وورد: وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(٤) . وذلك ظاهر في الترادف . إلا أن للخاطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري . ويؤيده أن (جَعَلَ) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما (خَلَقَ) . وفي إضافة (الخلق) في هذه الآية إلى السموات والأرض ، و (الجعل) إلى الظلمات والنور ، مصداق للمير بينهما - والله أعلم - .

الثالثة - إن قيل : لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى : وَمِنْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

و [٣٩ / الزمر / ٦] ونصها : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَآفَى تُصْرَفُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ^(١) ، وفي الحديث^(٢) : هل تدرون ما هذه ؟ قالوا : هذه أرض . هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، وبينهما مسير خمسمئة عام ، حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة عام - أخرجه الترمذی ، وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؟ .

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

(٢) أخرجه الترمذی فی : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٧ - سورة الحديد ، ونصه :
عن أبي هريرة قال : بينا نبيّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبيّ الله ﷺ « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها مسيرة خمسمئة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمئة سنة » حتى عدّ سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذي تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذي تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمئة سنة » حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة سنة . ثم قال « والذي نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلاً بجبل إلى الأرض السفلى لهُبَطَ على الله » .
ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

فالجواب : لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات ، مختلفة بالحقيقة ، بخلاف الأرضين - كما قاله البيضاوى - .

وقال الرازى : إن السماء جارية مجرى الفاعل . والأرض مجرى القابل . فلو كانت السماء واحدة لَتَشَابَهَ الأثر ، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم . أما لو كانت كثيرة اختلفت الانصالات الكوكبية ، فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم . أما الأرض فهي قابلة للأثر ، والقابل الواحد كاف في القبول . انتهى .

وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها .

الرابعة - الظاهر في (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر . والذي يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما . والأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض ، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان . ونقل عن بعض السلف أنه عني بهما الكفر والإيمان . ورجح الرازى الأول لما ذكر .

وجه بعضهم الثانى بأن المعنى : أنه لما خلق السموات والأرض ، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده . ثم بين طرق الضلال ، وطريق الهدى ، بإنزال الشرائع والكتب السماوية . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، فناسب المقام (ثم) الاستبعادية ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل ، اختيار الباطل . انتهى .

وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر . لأن الهدى واحد ، والضلال متعدد ، كما قال في آخر هذه السورة ^(١) : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ، فإن لكل جرم ظلمة ،
وليس لكل جرم نور . وأما تقديمها فلسبقها في التقدير والتحقيق ، على النور .
وفي الأثر^(١) : إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره .
وقوله تعالى : « تُمُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » معطوف على الجملة السابقة الناطقة
بما مر من موجبات اختصاصه تعالى ، بالحمد المستدعي لاقتصار العبادة عليه . مسوق لإنكار
ما عليه الكفرة ، واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها ، واجترأهم على ما يقضى بيطلانه بديهة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن الدليمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط له بالطائف ،
يقال له الوهط ، وهو مخاصر فتى من قريش ، يُزَنّ بشرب الخمر . فقلت له : بلغني عنك
حديثٌ : أن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحا . وأن الشقي من شقى
في بطن أمه ، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم
ولدت أمه .

فلما سمع الفتى ذكر الخمر ، اجتنب يده من يده ، ثم انطلق .
ثم قال عبد الله بن عمرو : إني لا أحلّ لأحد أن يقول على ما لم أقل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل خلق الخلق في ظلمة ، ثم ألقى عليهم
من نوره يومئذ . فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول :
جف القلم على علم الله عز وجل » .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

ورواه الترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٨ - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة .

المقول. والمعنى أنه تعالى يختص باستحقاق الحمد والعبادة ، باعتبار ذاته ، وباعتبار ما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه . ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ، ويعبدون به سبحانه . أى : يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر ، الذي رأسه الحمد ، مع كون كل ما سواه مخلوقا له ، غير متصف بشيء من مبادئ الحمد .

وكلمة (ثم) لا استبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ، القاضية ببطلانه . و (الباء) متعلقة بـ (يعبدون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى ، لزيادة التشنيع والتقبيح . والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمصارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد ، والمحافظة على الفواصل . وترك المفعول لظهوره ، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل ، بتنزيله منزلة اللازم ، إذباناً بأنه المدار في الاستبعاد ، لا خصوصية المفعول . هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل - أفاده أبو السعود - .

ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه . فانظره .
وأصل (المدل) مساواة الشيء بالشيء . والمعنى : أنهم يجعلون له عدلاً من خلقه ، مما لا يقدر على شيء ، فيعبدون الحجارة ، مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض . وقال النضر بن شميل : (الباء) بمعنى (عن) أى : عن ربهم يعبدون وينحرفون ، من العدول عن الشيء .

لطيفة :

قال ابن عطية رحمه الله : (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين . ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : أعطيتك وأحسنيت إليك ، ثم تشتمني ؟ ولو وقع العطف في هذا ونحوه بـ (الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثم) . انتهى . أى : ففيها الدلالة على التوبيخ والإنكار ، كالتعجب أيضاً .

قال أبو حيان : هذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ . والزخشرى من أنها للاستبعاد - مفهوم من سياق الكلام ، لا من مدلول (ثم) . انتهى .
وإنما لم تحمل (ثم) على التراخى ، مع استقامته ، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام ، لأن التراخى الزمانى معلوم فيه ، فلا فائدة في ذكره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَحْتَرُونَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث ، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشرأ كههم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده . وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكره من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها ، كما ورد في قوله تعالى ^(١) : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » - لما أن محل النزاع بعثهم . فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشؤون أنفسهم أعرف ، والتعاضى عن الحجة النيرة أقبح . والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ . أى : ابتداء خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر . وإنما نسب هذا الخلق إلى مخاطبين ، لا إلى آدم عليه السلام ، وهو المخلوق منه حقيقة ، بأن يقال : هو الذى خلق أباكم ... الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه ، في إيجاب الإيمان بالبعث ، وبطلان الامتراء - لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة في إزاحة الاشتباه والالتباس . مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية : هي أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ، عليه السلام ، منه ،

(١) [٣٦ / يس / ٨١] ... بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجاً منظوياً على فطرة سائر
آحاد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، مستتبهاً لجريان آثارها على الكل . فَكَانَ خَلْقُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مِنَ الطِّينِ خَلْقًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ فُرُوعِهِ مِنْهُ . ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع
أفراد ذريته ، أبدع من أن يكون ذلك مقصوراً على نفسه ، كما هو المفهوم من نسبة الخلق
المذكور إليه ، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم ، وكمال علمه وحكمته ، وكان ابتداء حال
المخاطبين أولى بأن يكون معياراً لانتهائها - فعل ما فعل . ولله در شأن التنزيل ! وعلى هذا
السر مدار قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . . (١) الخ . وقوله تعالى : وَقَدْ
خَلَقْتُكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا (٢) . كما سيأتى .

وقيل : المعنى خلق أباكم منه ، على حذف المضاف . وقيل : معنى خلقهم منه ، خلقهم من
الطينة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض . وأياً ما كان ، ففيه من وضوح الدلالة على كمال
قدرته تعالى على البعث ، مالا يخفى . فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط ، كان على
إحياء ما قاربها مدة أظهر قدرة - أفاده أبو السعود - .

وفى (العناية) : أن فى الآية التفاتاً ، لأن الخطاب - وإن صح كونه عاماً - لكنه خاص
بالذين كفروا ، كما يقتضيه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) . ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى
الناظر من دليل الآفاق الذى فى الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب . وقد أشير فى كل من
الدليلين إلى المبدأ والمعاد ، وما بينهما . انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١١] . . . ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .
(٢) [١٩ / مريم / ٩] ونصها : قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ
خَلَقْتُكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا .

أخرج أبو داود^(١) والترمذى عن أبي موسى الأشعرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهل والحزن ، والحديث والطيب . وقوله تعالى : « ثُمَّ قَضَى أَجَلًا » أى: كتب لموت كل واحد منكم أجلاً خاصاً به . أى : حداً معيناً من الزمان يفنى عند حلوله . أو كتب ، لما بين أن يولد كل منكم إلى يوم أن يموت ، أجلاً .

« وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أى : وحدّ معين لبعثكم جميعاً ، مثبت معين فى علمه ، لا يقبل التغيير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد . كقوله تعالى^(٢) : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يَجْلِيهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ . فَعْنَى (عِنْدَهُ) أَنَّهُ مُسْتَقِلُّ بِعِلْمِهِ . وَ (أَجَلَ) مُبْتَدَأٌ لِتَخْصِيصِهِ بِالصِّفَةِ ، وَلَوْ قَوْعُهُ فِي مَوْقِعِ التَّفْصِيلِ . وَتَنَوِينُهُ لِتَفْخِيمِ شَأْنِهِ ، وَتَهْوِيلِ أَمْرِهِ ، وَلِذَلِكَ أَوْثَرُ تَقْدِيمِهِ عَلَى الْخَبَرِ الَّذِى هُوَ (عِنْدَهُ) ، مَعَ أَنَّ الشَّائِعَ فِي مِثْلِهِ التَّأْخِيرُ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَأَيَّ أَجَلَ مَعِينٍ فِي عِلْمِهِ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ لَا بِجَمَلٍ وَلَا مَفْصَلًا . وَأَمَّا أَجَلَ الْمَوْتِ فَعِلْمُهُ إِجْمَالًا وَتَقْرِيبًا ، بِنَاءً عَلَى ظُهُور أَمَارَاتِهِ ، أَوْ عَلَى مَا هُوَ الْمُتَعَادِ فِي أَعْمَارِ الْإِنْسَانِ .

« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث ، بعد معاينتهم لما ذكر

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنّة ، ١٦ - باب فى القدر ، حديث ٤٦٩٣

وأخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١ - حدثنا محمد

ابن بشار .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

من الحجج الباهرة الدالة عليه . أى : تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه ، مع مشاهدتكم فى أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء . فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها ، وإبقائها ما يشاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » أى المعبود فيهما ، « يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » أى من الأقوال أو الدواعى والصوارف القلبية وأعمال الجوارح ، « وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » أى : ما تفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجه فيما سبق ، على التفسير الثانى للسر والجرى - لإظهار كمال الاعتناء به لأنه الذى يتعلق به الجزاء ، وهو السر فى إعادة (يعلم) .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وما هاتان الآيتان الكريمتان - معنى هذه الآية وآية الزخرف ، وهى قوله تعالى (١) : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ - إِلَّا تَوَاضَعَا » . فإن التمدح فى آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به ههنا من القدرة على الإعادة والاستثناء بمسلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين فى هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول ، القائلين - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فالأصح من الأقوال أنه المدعو فى السموات وفى الأرض ، أى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

يعبدوه ويوحده ويقرّ له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَعْبًا وَرَهْبًا^(١) إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية - على هذا القول - كقوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ . أَيْ : هو إله من في السماء وإله من في الأرض . وعلى هذا ، فيكون قوله : (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبراً أو حالا .

والقول الثاني - إن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر . فيكون قوله (يَعْلَمُ) متعلقاً بقوله (فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات ... الخ .

والقول الثالث - إن قوله : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) وهذا اختيار ابن جرير . انتهى .
ورجح ابن عطية في الآية : أنه الذي يقال له (الله) فيهما . قال : وهذا عندي أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات . فجمع هذه كلها في قوله (وَهُوَ اللَّهُ - الَّذِي لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا - فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) كأنه قال : وهو الخالق والرازق والحفي والميت فيهما .

تنبيه :

قال الرازي : الآية تدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرر - والله أعلم - .

(١) يشير إلى قوله تعالى في : [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهْبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ » يعنى : ما يظهر لكفار مكة دليل من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ، أو معجزة من المعجزات ، أو آية من آيات القرآن ، التى من جملتها الآيات السالفة ، الناطقة ببدائع صنعه وقدرته على البعث « إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » أى : على وجه التكذيب والاستهزاء ، لقلة خوفهم وتدبرهم ، فى العواقب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » يعنى : القرآن الذى تُحَدِّثُوا به ، فمعجزوا عنه « فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى : مصداق أنباء الحق الذى كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء . وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة . فهو وعيد شديد لهم بأنه لا بد لهم أن يذوقوا وبالهم . وقد ذاقوه يوم بدر وغيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

« أَلَمْ يَرَوْا » أى : ألم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر ، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم ، أنباءهم مرارا كثيرة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » ، أى من أمة ، فلم ينبق منها

أحدا ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم الماضية ، والقرون الحالية . « مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : قررناهم وثبتناهم في الأرض ، « مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » أى : ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار ، يأهل مكة ! « وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ » أى المطر . قال المهايى : هو أبلغ من (أَنْزَلْنَا) في الدلالة على الكثرة ، « عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا » أى كثيراً ، « وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ » أى من تحت أشجارهم ، فعاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار ، وسقيا الغيث المذرار ، « فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى : بسبب ذنوبهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسلمهم ، وجعلناهم أحاديث ، فأغنى عنهم ما كانوا فيه . أى وسيحل بهمؤلا مثل ما حل بهم من العذاب . « وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » أى : بدلا من الهالكين . يعنى : فلا يتعاضمه تعالى أن يهلك هؤلاء ، ويخلق ديارهم منهم ، ويذشىء أمة سواهم ، فاهم بأعز على الله منهم . والرسول الذى كذبوه أكرم على الله من رسلمهم . فهم أولى بالعذاب ، ومفاجأة العقوبة ، لولا لطفه وإحسانه .

ثم بين تعالى شدة مكابرتهم ، إثر إعراضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ » أى مكتوباً فى ورق ، « فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » أى : فسوه ، « لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا » أى : ليس هذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ، « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » تمنناً وعناداً . وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـ (الأيدى) لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله (١) : وَأَنَا كَمَسْنَا السَّمَاءَ - أفاده البيضاوى .

(١) [٧٢ / الجن / ٨] . . . فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا .

قال الناصر في (الانتصاف) : والظاهر أن فائدة زيادة لمسه لهم بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أى : فقرءوه وهو في أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ^(١) . ولقوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَائِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى : ليكون معه فيكلمنا أنه نبي ، كقوله ^(٣) : لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .

« وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَائِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ » جواب لمقترحهم ، وبيان لما نهى ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حثفه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته ، وهى آية لا شىء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ، ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا

(١) [١٥ / الحجر / ١٥١٤] .

(٢) [٥٢ / الطور / ٤٤] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧] ونصها : وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .

إِذَا مُنْظَرَيْنَ^(١) . وقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ^(٢) .
« ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ » أى : لا يميلون بعد نزوله طرفه عين ، فضلا عن أن ينذروا به .
ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار . جعل عدم الإنظار . أشد من
قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

ذكر الزخشرى وجهاً ثانياً فى تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه يزول
الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكمهم ، وفى (الكشف) الاختيار قاعدة
التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا^(٣) .
فوجب إهلاكمهم ، لثلا يبق وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف ،
وهو لا يبق مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى .
وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأن وجه إشكاله أنه وقع فى القرآن ، والواقع
ما ينافيه ، كما فى قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ... الآية^(٤) - كذا فى (العناية) -

(١) [١٥ / الحجر / ٨] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] ... وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

(٣) [٤٠ / الفتح / ٨٥] ... سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْكَافِرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ
كَمْ كَبِيتَ ، قَالَ كَبِيتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ كَبِيتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ عِظَامِكَ كَيْفَ
نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وذكر أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته ، زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون .

قال في (الانتصاف) : ويقوى هذا الوجه قوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا . قال ابن عباس . ليمكنوا من رؤيته ، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته . انتهى .

وهذا الوجه آثره أبو السعود في التقديم حيث قال : أى لو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا ترى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالسكية ، واستحال جملة نذيراً ، وهو - مع كونه خلاف مطلوبهم - مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع . وقد قال سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ^(١) . انتهى .

وفي (العناية) أن الوجه الثالث لا يناسب قوله (ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ) ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتكلف .

هذا ، وقال الناصر في (الانتصاف) : على الوجه الأول لا يحسن أن يجعل سبب مناجرتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك . فإنه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمتهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح ، وليس الأمر كذلك . فالوجه - والله أعلم - أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص ،

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .

فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة - والله أعلم -

قال المهامبي : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت ، فلا يملون ، لأن الإهمال للنظر . والمعجزة - وإن أفادت علماً ضرورياً - لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولا خفاء مع انكشاف عالم الملكوت ، فلا وجه للإهمال للنظر ، فلا يقبل الإيمان معه ، فلا بد من المواخذة عقيبها . انتهى - فليتأمل -

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » جواب ثان . أى : ولو جعلنا النذير الذى اقترحوه ملكاً لثنا رجلاً ، لاسم من عدم استطاعة الآحاد ، لمعينة الملك على صورته ، من النور . وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية . « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » جواب محذوف . أى : ولو جعلناه رجلاً لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ ، بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك . ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز ، الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق - لكذبوه ، كما كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام . ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر .

تنبيهات

الأول - فى إثبات (رَجُلًا) على (بَشَرًا) إيدان بأن الجمل بطريق التمثيل ، لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل .

الثانى - فى الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه ، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

رُسُلًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُوا بِمَعْضَى بَعْضٍ، وَلِيَكُنْ مِنْهُمْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ، لِيُذَكِّرَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، يَقُولُ عَلَيْهِمْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْبُدُوا اللَّهَ، فَمَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ. (١) الآية . وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَائًا رُسُلًا (٢) .

الثالث - التعبير عن تمثيله تعالى (رُجُلًا) باللبس إما لكونه في صورة اللبس ، أو لكونه سبباً للبسهم ، أو لوقوعه في صحبته بطريق المشاكلة . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً ، كأنه قيل : لو فعلناه لفعلناه ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم - أفاده أبو السعود .

الرابع - جوز بعضهم وجهاً ثانياً في قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً) وهو أن يكون جواب اقتراح ثان ، على أن الضمير عائد للرسول ، لا لمقرحه السابق . قال : لأنهم تارة يقولون : لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وتارة يقولون : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً (٣) . والمعنى : ولو جعلنا الرسول ملكاً لمثلناه رجلاً . والظاهر هو الوجه الأول .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٥] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٤] ونصها : إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

وقوله تعالى : « وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » . تسليية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر ، والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . و (حاق) بمعنى نزل وحل . ولا يكاد يستعمل إلا في الشر . أى : فنزل بهم وبال استهزائهم ، أو العذاب الذى كانوا يسخرون من التخويف به ، إذ هلكوا في الدنيا على أقبح الوجوه ، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الآبدين . وجعل الرسل في أعلى منازل القرب من رب العالمين .

ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول في الأرض إن ارتابوا فيما تواتر ، أو تعاموا عما رأوا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أى : سيروا في الأرض لتعرف أحوال أولئك الأمم ، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا ، فتعرفوا صحة ما توعظون به . وفي السير في الأرض ، والسفر في البلاد ، ومشاهدة تلك الأنار الخاوية على عروشها - تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أى : فلا تغفروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفي هذه الآية تكملة للتسليية ، بما في ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحقيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين . وقد أنجز ذلك يوم بدر أى إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا (ثُمَّ انْظُرُوا) . وفي النمل ^(١) : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا . وكذا في العنكبوت ^(٢) . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم) ، كما هو مبسوط في (العناية) ، مع ما عليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارةً ، نظراً لآخره ، وبـ (ثم) نظراً لأوله ، ولا فرق بينهما .

وفي (الانتصاف) : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً في النظر ، حيث دخلت الفاء ، فلاظهار السببية . وحيث دخلت (ثم) ، فلتنبية على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ، لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)
« قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي : خلقاً وملاكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع ، « قُلْ لِلَّهِ » تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أي : هو الله ، لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما في قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن في موضع يكون فيه الجواب قد بلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر

(١) [٢٧ / النمل / ٦٩] ... كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] ... كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

على إنكاره منكراً ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تناقلوا في الجواب ، مع تعيينه ، لكونهم محجوجين .

وقوله تعالى « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » جملة مستقلة داخلية تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول مملكه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالمقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ماسبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإزالة الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلاً ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ^(١) . ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : (كتب الرحمة على نفسه) أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة ، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلاً . وفي التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى ، وإن أريد به الذات ، إلا مشاكلة . لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا - أفاده أبو السعود - .

وقوله تعالى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشراركهم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله (قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ) . ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .

لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ في حكمته أن يسوى بين الطيع والعاصي قيل : (ليجمعنكم) جواب لقوله : (كُتِبَ) ، لأنه يجري مجرى القسم .

وقيل : (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) بدل من الرحمة ، بدل البعض .

قال المهايى : كمال الرحمة في الجزاء ، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء في دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

و (إلى) بمعنى اللام ، كقوله ^(١) : إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى في اليوم ، أو في الجمع .

« الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية ، والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحي ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

« فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك في التقليد ، وإغفال النظر ، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى ، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

روى في معنى هذه الآية عن أبي هريرة ^(٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله

(١) [٣ / آل عمران / ٩] ونصها : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ،

إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

(٢) يضطرنا هذا السياق إلى سرد جميع روايات هذا الحديث كما جاءت في كتابنا =

الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي - رواه الشيخان -
وفي البخاريّ : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو
مكتوب عنده ، فهو العرش .

وفي رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

= (جامع مسانيد صحيح البخاريّ) والحديث رقم ١٥٠٩ في الصحيح ورقم ٢٣٤ من مسند
أبي هريرة ، فيها كموها بنصها الكامل :
٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ .

حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد ، عن الأعرج ،
عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه
فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٥ - باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ .

حدثنا عبدان عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ
قال « لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش :
إن رحمتي تغلب غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب : وكان عرشه على الماء . وهو رب العرش العظيم .

حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب . حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن
النبي ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٨ - باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .

حدثنا إسماعيل . حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛
أن رسول الله ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ؛ إن رحمتي سبقت غضبي » . =

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق ، كتب في كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده .
زاد البخاري : على عرش . ثم اتفقا : إن رحمتي تغلب غضبي .

وسند كره ، إن شاء الله ، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ) قريباً .

قال أبو السمود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً
إليهم ، مع أنها من مقتضيات الذات المفضية للخير .

= ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ
مَحْفُوظٍ .

وقال لي خليفة بن خياط . حدثنا معتمر . سمعت أبي عن قتادة ، عن أبي رافع ، عن
أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده : غلبت (أو قال
سبقت) رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ
مَحْفُوظٍ .

حدثني محمد بن أبي غالب . حدثنا محمد بن إسماعيل . حدثنا معتمر . سمعت أبي يقول :
حدثنا قتادة ؛ أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله
كتب كتاباً قبل أن يُخلق الخلق ؛ إن رحمتي سبقت غضبي . فهو مكتوب عنده فوق العرش » .
وأخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، رقم ١٥١٤ و ١٦ (طبعنا) .

الحديث رقم ١٤ ؛ أن النبي ﷺ قال « لما خلق الله الخلق ، كتب في كتابه ، فهو عنده
فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

الحديث رقم ١٥ ؛ عن النبي ﷺ « قال الله عز وجل ، سبقت رحمتي غضبي » .
الحديث رقم ١٦ ؛ قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه على نفسه ،
فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«وَلَهُ» أى : والله عز وجل ، «مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى ما استقر وحلّ ، من (السكنى) بمعنى (الحلول) . كقوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^(١) . والمعنى : له تعالى كل ما حصل فى الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت . شبه الاستقرار بالزمان ، بالاستقرار فى المكان ، فاستعمل استعماله فيه . أو (سكن) من (السكون) ، مقابل الحركة . أى : ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكثف بأحد الضدين عن الآخر ، كما فى قوله : سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ^(٢) ، لأن ذلك يعرف بالقرينة . وعليه ، فإنما اكثف بالسكون عن ضده دون العكس . لأن السكون أكثر وجوداً ، والنعمة فيه أكثر .

قال بعضهم : لا حاجة لدعوى الاكتفاء ، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات ، إذ ليس شئ منها غير متصف بالسكون ، حتى المتحرك ، حال حركته ، على ما حقق فى الكلام : من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلّة السكنات المتخللة وكثرتها .

لطيفة .

قال أبو مسلم الأصفهانيّ : ذكر تعالى فى الآية الأولى السموات والأرض ، إذ لا مكان سواهما . وفى هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما . فالزمان والمكان طرفان

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٥] . . . وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات . وهذا بيان في غاية الجلالة .

وقال الرازي : ههنا دقيقة أخرى . وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات . وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها . « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » يسمع كل مسموع ، ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوكان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ » أى لكفار مكة المبكّتين بما تقدم : « أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا وَلِيًّا » أى معبوداً . كقوله تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . والمعنى : لا اتّخذ وليّاً إلا الله وحده . « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . بالجر ، صفة للجلالة ، مؤكدة للإنكار ، « وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » أى : يرزق ولا يرزق . أى : المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . أى : فيجب اتخاذه وليّاً ليعبد شكراً على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض . قيل : المراد بالطعم الرزق ، بمعناه اللغوى . وهو كل ما ينتفع به ، بدليل وقوعه مقابلاً له في قوله تعالى : مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا^(١) . فمبر بالخاص عن العام مجازاً ، لأنه أعظمه وأكثره ، لشدة الحاجة إليه . واكتفى به عن العام ، لأنه يعلم ، من نقي ذلك ، نقي ما سواه .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٧] .

«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ». أى : وجهه لله مخلصاً له ، لأصير متبوعاً للباقيين . كقوله : وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١) . وكقول موسى : سُبْحَانَكَ تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ^(٢) .

«وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى : وقيل لى : (وَلَا تَكُونَنَّ) . فهو معطوف على (أُمِرْتُ) بمعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك صريحاً مؤكداً ، بعد النهى فى ضمن الأمر . ونهى المتبوع نهى التابعين . ويجوز عطفه على (قُلْ) . وفى الآية إرشاد إلى أن كل أمر ينهى أن يكون عاملاً بما أمر به ، لأنه مقتداً . قيل : هذه الآية للتحريض ، كما يأمر الملك رعيته بأمر ، ثم يقول : وأنا أول من يفعل ذلك ، ليحملهم على الامتثال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» أى : بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان . فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولياً . «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى : عذاب يوم القيامة ، الذى تظهر فيه عظمة القهر الإلهي . وفى الآية مبالغة أخرى فى قطع أطاعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم . ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء ، بـ (إِنْ) التى تفيد الشك تعريضاً . وجيء بالماضى إبرازاً له فى صورة الحاصل على سبيل الفرض ، تعريضاً

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ . . .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرََانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرََانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

بمن صدر عنهم ذلك . وحيث كان تعريضا لهم ، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك - لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ، مع أنه معصوم . كما لا يتوهم مثله في قوله : **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ^(١) . وحينئذ فلا حاجة إلى ما أُجيب عن ظاهر دلالاته على ما ذكر ، بأن الخوف تعلق بالمعصيان الممتنع الوقوع امتناعاً عادياً ، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان . وهذا لا يدل على حصول الخوف .

قال بعضهم : لا يقال على تقدير العصيان ، يكون الجواب هو استحقاق العذاب ، لا الخوف . لأننا نقول : لا منافاة بينهما . فالخوف إما على حقيقته ، أو كناية عن الاستحقاق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] **(مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)**

« مَنْ يُصْرِفْ » بالبناء للمفعول ، أى العذاب ، « عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أى : نجاه وأنعم عليه ، أو أدخله الجنة ، لقوله : **فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ** ^(٢) ، وقوله : **يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ** ^(٣) والجملة مستأنفة ، مؤكدة تهويل العذاب .
« وَذَلِكَ » أى الصرف أو الرحمة ، « الْفَوْزُ الْمُبِينُ » أى : الظاهر .
ثم ذكر تعالى دليلاً آخر ، فى أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ ولياً غير الله تعالى ، بقوله :

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : **وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ..**
(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] ونصها : **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ**
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعُ الْغُرُورِ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٨] ونصها : **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ**
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

انقول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » أى ببلية ، كفقير ومرض ونحوها . و(الضر) : اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه ، « فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » أى : فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده . « وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ » من عافية ورخاء ونحوها : و(الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له ، « فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : ومن جملته ذلك ، فيقدر عليه ، فيمسك به ، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد . كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ^(١) . وكقوله سبحانه : مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ^(٢) .

وفى الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

(١) [١٠/يونس/١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .
(٢) [٣٥/فاطر/٢] ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٥٥ - باب الذكر بعد الصلاة ، حديث رقم ٥٠٠ وهذا نصه :

عن وَرَّاد ، كاتب المغيرة بن شعبة قال : أُملى على المغيرة بن شعبة ، فى كتاب إلى معاوية : أن النبى ﷺ كان يقول فى دُبُر كل صلاة مكتوبة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه^(١) قال : كنت خلف النبي ﷺ فقال : يا غلام ! إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك . رقت الأفلام ، وجفت الصحف - رواه الترمذى - وقال : حسن صحيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » أى : هو الغالب بقدرته ، المستعلى فوق عباده ، يدبر أمرهم بما يريد ، فيقع فى ذلك ما يشق عليهم ويثقل وينم ويحزن ، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .

قال أبو البقاء : فى (فوق) وجهان :

أحدهما - فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (القاهر) أى : مستعليا وغالبا .
والثانى - فى موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ لِلشَّهَادَةِ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِّئُ مِمَّا تُشْرِكُونَ)
« قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً » أى بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه « قُلِ اللَّهُ »

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٥٩ - باب حدثنا بشر بن هلال البصرى .

أى : أكبر شهادة ، إذ لا احتمال لطروء الكذب فى خبره أصلاً ، جل شأنه . وأمره ﷻ بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيدان بتعيينه ، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره ، أولاً أنهم ربما يتلثمون فيه ، لا لترددهم فى أنه تعالى أكبر من كل شيء ، بل فى كونه شهيداً فى هذا الشأن .

وقوله تعالى « شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » خبر لمخدوف ، أو خبر عن لفظ الجلالة . ودل على جواب (أئى) من طريق المعنى ، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبر شيء شهادة ، شهيداً له . فيكون من الأسلوب الحكيم ، لأنه عدل عن الجواب المتبادر - إليه ، ليدل على أن أكبر شيء شهادة شهيد للرسول ، فإن الله أكبر شيء شهادة ، والله شهيد له ، فينتج الأكبر شهادة شهيد له . والقياس المذكور من الشكل الثالث ، لأن الحد الأوسط موضوع فى المقدمتين ، لا من الثانى ، كما وقع للشهاب فى (العناية) وهو من بديهيات الميزان .

قال بعضهم : الغرض من السؤال بـ (أئى شيء أكبر شهادة) أن شاهدى أكبر شهادة . فقوله (شَهِيدٌ ...) الخ تنصيص له ، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب ، لكونه معلوماً بيئاً عند الخصم ، فحاصله أن الله الذى هو أكبر شهادة ، شهد بذلك . انتهى . ومعنى (شَهِيدٌ) مبالغ فى الشهادة على نبوتى ، بحيث يقطع النزاع بينى وبينكم ، إذ شهد سبحانه بالقول فى الكتب التى أنزلها على الأولين ، وبالفعل فيما ظهر على يدي من المعجزات ، لا سيما معجزة القرآن ، كما قال تعالى :

« وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنُ » أى : الجامع للعلوم التى يحتاج إليها فى المعارف والشرائع ، فى ألفاظ يسيرة ، فى أقصى مراتب الحسن والبلاغة ، معجزة شاهدة بصحة رسالتى . لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء ، وقدعجزتم عن معارضته « لَأَنْذِرَكُمْ بِهِ » ، أى بما فيه من الوعيد ، « وَمَنْ بَلَغَ » عطف على ضمير مخاطبين . أى : لأنذركم به ، يا أهل مكة ! وسائر من بلغه

من الناس كافة ، فهو نذير لكل من بلغه ، كقوله تعالى : وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ^(١) .

« أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى » تقرير لهم مع إنكار واستبعاد .
« قُلْ لَا أَشْهَدُ » بما تشهدون ، « قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ » أى : بل أشهد أن لا
إله إلا هو ، لا يشارك في إلهيته ، ولا في صفات كماله « وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »
يعنى : الأصنام .
وفي هذه الآية :

مسائل :

الأولى - استبدل الجمهور بقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ) في جواب (أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)
على جواز إطلاق (الشىء) عليه تعالى . وكذا بقوله سبحانه وتعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ^(٢) ، فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه ، وذلك لأن الشىء أعم العام
- كما قال سيبويه - لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه . واختار الزمخشري شموله حتى
للمستحيل . وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالوجود ؛ وضعفوا من أطلقه على المدوم ،
بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك ، كما علم باستقراء كلامهم ، وبنحو . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ
وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ
الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٨] ونصها : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إِلَّا وَجْهَهُ ، إِذِ الْمُدُومُ لَا يَتَصَفُّ بِالْهَلَاكِ ، وَبَنَحُوا: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ^(١) .
إِذِ الْمُدُومُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُ التَّسْبِيحُ .

قال الناصر في (الاتصاف) : هذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار ما ، وأما
هذا البحث فلفنوي ، والتحاكم فيه لأهل اللغة . وظاهر قولهم : غضبت من لا شيء . و
* إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا ^(٢) *

- أن الشيء لا ينطلق إلا على الوجود ، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم ، عدماً كان
أو وجوداً ، أو ممكناً أو مستحيلاً ، لما صدق على أمرٍ ما أنه ليس بشيء ، والأمر في ذلك
قريب . انتهى .

(١) [١٧ / الإسرائ / ٤٤] وَنُصِبَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا .
(٢) صدر البيت :

* وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ *

من قصيدة لأبي الطيب التنبّي ، قالها في صباه ، يمدح سعيد بن عبد الله بن الحسن
ابن الكلّابي المنبجّي .
ومطلعها :

أَحْيَا ! وَأَيْسَرُ مَا لَاقَيْتُ مَا قَتَلَا وَالْبَيْنُ جَارٌ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

قال الواحدى : يعنى لشدة ما لحقهم من الخوف ضاقت عليهم الأرض ، فلم يجدوا مهرباً
- كقوله تعالى : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - وهاربهم إذا رأى غير شيء يعبأ به
أو يفكر في مثله ، ظنه إنساناً يطلبه . وكذا عادة الهارب الخائف . كقول جرير :
ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكرّ عليهم ، ورجلاً

هذا ، وتمسك مَنْ منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا^(١) . والاسم إنما يحسن لحسن مسماه ، وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال ، ونعت من نعوت الجلال . ولفظ (الشيء) أعم الأشياء ، فيكون مسماه حاصلًا في أحسن الأشياء وفي أردناها . ومتى كان كذلك ، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال ، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم ، لأنه ليس من الأسماء الحسنى ، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها . وأجيب : بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى ، لكونها توقيفية ، وكونه لا يدعى به لعدم وروده - لا ينافي شموله للذات العلية ، شمول العام . والمراد بإطلاقه عليه تعالى (فيما تقدم) شموله ، لا تسميته به . وبالجملة ، فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى ، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًا ، كيف ؟ وهو الموضوعات العامة . والتحكم للغويين في ذلك - كما قدمنا - .

الثانية - ما أسلفناه من أن المعنى بالشهادة هو شهادته تعالى في ثبوت النبوة له ﷺ ، هو الذى جنح إليه الأكثر . وكأن مشركى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وسلم شاهداً على نبوته . فقيل لهم : أكبر شئ شهادة هو الله تعالى ، وقد شهد لى بالنبوة ، لأنه أوحى إلى هذا القرآن ، وتحدّاكم بمعارضته ، فمجزتم ، وأنتم أنتم فى مقام البلاغة . وإذ كان معجزاً ، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواى ، شهادةً منه على صدق فى النبوة .

ولبعضهم وجه آخر ، وهو أن المعنى ، شهادته تعالى فى ثبوت وحدانيته ، وتنزهه عن الأنداد والأشباه . ويرشحه تنمة الآية ، وهو قوله : (أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ . . .) الخ وقوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . . .)^(٢) الآية ، وقوله (فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مَمَّهُمْ^(١) ، مما يدل على أن الشهادة إنما عنى بها ، في موارد التنزيل ، ثبوت الوجدانية .
والقرآن يفسر بعضه بعضا - والله أعلم - .

الثالثة - إنما اقتصر على الإنذار في قوله (لَا نُذِرْكُمْ بِهِ) لكون الخطاب مع كفار مكة ، وليس فيهم من يبشّر . أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ (سَرَّائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)^(٢) .

الرابعة - استدل بقوله تعالى (لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، وإلى الجن .

الخامسة - استدل به أيضاً على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة في الكل - عند الحنابلة - وبالإجماع عندنا في غير الموجودين ، وفي غير المكلفين يومئذ - أفاده أبو السعود - .

السادسة - روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله (وَمَنْ بَلَغَ) : من بلغه القرآن ، فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه . ورواه ابن جرير^(٣) عنه بلفظ : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٠] ونصها : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

(٣) الأثر رقم ١٣١٢٤ من التفسير .

وروى ^(١) عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله .

وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ ، أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ ، وأن يندر بالذي أنذر .

السابعة - دلّ قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) وقوله (وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان ، وأبلغ وجوه التأكيـد . لأن (إنما) تفيد الحصر ، (الواحد) صريح في نفي الشركاء . ثم صرح بالبراءة عن إثبات الشركاء . وقد استحب الشافعي لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين ، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام ، لقوله (وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) عقب التصريح بالتوحيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

وقوله تعالى « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » يعني : اليهود والنصارى « يَعْرِفُونَهُ » أى : يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعمته الثابت في الكتابين « كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » بحلاهم ونعوتهم ، لا يخفون عليهم ، ولا يلتبسون بغيرهم .

قال المهايـمى : لأنه ﷺ ذكر في الكتاب نعمته . وهو ، وإن لم يفد تعيـنه باللون والشكل والزمان والمكان ، تعيـن بقرائن المعجزات . فبقاء الاحتمال البعيد فيه ، كبقائه في الولد ، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته ، أو يكون من الفجور ، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور . فهو ، كما يعرفون أبناءهم في ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها .

(١) الأثر رقم ١٣١١٩ من تفسير ابن جرير .

قال الزخشرى : وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب ، وبصحة نبوته .
ثم بين تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه ، ولما أمروا بالدين به بقوله « الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ » أى : من المشركين « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى
بشرت به الأنبياء ، وتوّهت به ، لأنه مطبوع على قلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقولهم : الملائكة بنات الله^(١) ،
وهؤلاء شفعائنا عند الله . قال تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ
أَمْرًا نَّابِهًا^(٢) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] ونصها : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا
لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ .
و [١٦ / النحل / ٥٧] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .
و [١٧ / الإسراء / ٤٠] ونصها : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا .

و [٣٧ / الصافات / ١٥٠] ونصها : أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ .
و [٤٣ / الزخرف / ١٩] ونصها : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ، سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْتَلُونَ .

و [٥٣ / النجم / ٢٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ الْمَلَائِكَةَ
تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٨] ونصها : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا =

« أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى : القرآن والمعجزات ، حيث سموها سحرًا . وإنما ذكر (أو) مع أنهم جمعوا بين الأمرين ، تنبيهاً على أن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس . فكيف ؟ وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبتته . « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بمطلوب . وإذا كان حال الظالمين هذا ، فكيف بمن لا أحد أظلم منه ؟

تنبيه :

ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن الشركين هو الظاهر ، لأن السورة مكية ، والخطاب مع مشركي أهلها . وجعله البيضاوى لهم ، ولأهل الكتاب ، وقوفاً مع عموم اللفظ . والمهايمى : « لأهل الكتاب خاصة ، ربطاً للآية بما قبلها . والظاهر الأول ، لما قلنا . وعبرة المهايمى : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بتفويت ما أوتوا من الكتاب ، وما أمروا به ، فهم لا يؤمنون . وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون ، وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون ، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظاً أو معنى ، فيفترون على الله الكذب ، ويكذبون آيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض ما في كتابهم ، وهو أيضاً تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لا يتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور . وقال في قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ ...) الآية : لأنهم بالتحريف يدعون إلهية أنفسهم ، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله ، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة . وإنما قلنا : كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لا يفلح . كما قال تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أى : لا يفلحون في الدنيا بانقطاع الحجة عنهم ، وظهور المسامحين عليهم . وفيه إشارة إلى أن مدعى الرسالة ، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله ، فلا يكون مفلحاً ، فلا يكون سبباً لصلاح العالم ، ولا محلاً لظهور المعجزات . انتهى .

وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » أى : الإنس والجن والشياطين . منصوب بمضمر تهويلًا للأمر . « جَمِيعًا » ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح ، ويظهر المفلحون بكمال الإعزاز . « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى مضوا على الشرك ، بأن ماتوا عليه ، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى « أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ » أى الذين جعلتموهم شركاءنا ، وهم شركاؤكم في العبودية - كذا قاله المهايمى - وعليه ، فالإضافة على بابها .

وفى (المنية) : الإضافة فيه لأدنى ملابس ، كما أشار إليه القاضى بقوله : أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ، لأنه لا شركة بينهم ، وإنما سموهم شركاء ، فلهذه الملابس أضيفوا إليهم .

قيل : قوله تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) يقتضى حضورهم معهم فى المحشر ، و (أين) يسأل بها عن غير الحاضر ؟ أوجب بأنه بتقدير مضاف . أى : أين نفعهم وشفاعتهم ، أو أنهم بمنزلة الغيب ، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة . وعلى كلِّ ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر فى نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأیوس منه . وذلك تنبيه لهم فى دار الدنيا على فساد هذه الطريقة . وقوله تعالى « الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : تزعمونها شركاء من عند أنفسكم . أى : فقصدتم بذلك فعل الفاتنين فى الملكة بجعلها لغير من هى له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » أى : جواب ما اعترض به على فتنهم التى هى شهادة أن مع الله آلهة أخرى . وعبر عن جوابهم بالفتنة ، لأنه كذب « إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » اعتدروا عن أصنامهم بنفيها مؤكداً بالقسم بالاسم الجامع ، مع نسبة الربوبية إليه تعالى ، لا إلى ما سواه ، مبالغة في التبرؤ من الإشراك . فكان هذا العذر ذنباً آخر مؤكداً لافتراءهم بالإشراك الذى نفوه . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » أى : بنى الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود « وَضَلَّ » أى : وكيف ضاع وغاب « عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)^(١) ف (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها - للمبالغة في أمرها ، كأنها نفس المفتري .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٧] ونصها : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرِينَ .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه من أنه عبر عن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل : الفتنة بمعنى المذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والمذر يخلص من الذنب ، فاستعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتن به ويمجيك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنون شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، أدعاء .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرف العرب في ذلك . وذلك أن الله تعالى بين كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهاككين على حبه . فأعلم في هذه الآية ، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه ، فخلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

قال الخفاجي - بعد نقله ما ذكر - : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع .

الثاني - ما بيناه من أن (ما) في قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم - هو الموافق للآية الثانية التي سبقناها . وجوز كونها مصدرية . أى : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك ، حتى نفوا صدوره عنهم بالسكينة ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر في (الانتصاف) (ضَلَّ) بمعنى سَلَبُوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهاءاً . وهو بعيد ، لعدم ملاقاته للآية الأخرى . والتزبل يفسر بعضه بعضاً . وعبارته :

في الآية دليل بين على أن الإخبار بالشئ على خلاف ما هو به، كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره بمخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبريتهم كذباً ؟ مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أى : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرة ودهشاً . ألا تراهم يقولون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ^(١) ؟ وقد أيقنوا بالخلود ، ولم يشكوا فيه . وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ^(٢) ، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدا ، وحمل قوله : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) معنى في الدنيا - فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عي وإفحام . لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بترجم عنه ، ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشد النبوة . وما أدري ما يصنع ، مَنْ ذَلِكَ تفسيره ، بقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(٣) بعد قوله : وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا . انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذي ناقش فيه ، أصله لأبي على الجبائي والقاضي . فإنهما

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧٧] قَالَ إِنَّكُمْ مَا كِتُوبُونَ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازي .
فلتنظر ثمت ، فإنا لا نسود وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل .

ثم بين تعالى بعض ما كان يصدر من مشركي مكة ، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » أى : يصنى حين تتلو القرآن ، ولا يجزى عنه شيئا ،
لأنه لا يتدبر فيه حتى يطلع على إعجازه ، ويؤثر فيه الإرشاد « وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى
حجباً ، جمع كنان . كغطاء وأغطية ، لفظاً ومعنى « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى : كراهة أن يفهموا ، ببواطن
قلوبهم ، بواطنه التى بها إعجازه وإرشاده ، بإقامة الدلائل ورفع الشبه . « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »
أى : وجعلنا فى آذانهم ، التى هى طريق الوصول إلى بواطن القلوب ، صمماً مانعاً من وصول
السمع النافع . وقد مرّ فى أول البقرة تحقيق ذلك . فتذكر !

وقوله تعالى « وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا » إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر
منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصوراً فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق
الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر . لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ،
فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ^(١) .

« حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ » أى : بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك
يحاجونك وينظرونك فى الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

(١) [٨ / الأنفال / ٢٣] ... وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ « أَيْ : أَبَاطِيلُهُمْ وَأَحَادِيثُهُم الَّتِي لَا نِظَامَ لَهَا . وَعَدُّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَصْدَقَهُ ، مِنْ قَبِيلِ الْأَبَاطِيلِ (وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) - رَتَبَهُ مِنَ الْكُفْرِ لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» أَيْ : لَا يَقْنَعُونَ بِمَا ذَكَرَ مِنْ تَكْذِيبِهِ ، بَلْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ اسْتِمَاعِهِ . قَالَ الْمَهَاسِنِيُّ : وَهُمْ ، لِرُؤْيَيْهِمْ حِلَاوَةَ نَظْمِهِ فَوْقَ ثَرَمِ وَشَعْرِهِمْ ، مَعَ مَتَانَةِ مَعَانِيهِ ، يَعْرِفُونَ أَنَّ التَّدْبِيرَ فِيهِ يَفِيدُ التَّطَلُّعَ عَلَى إِعْجَازِهِ . فَيَخَافُونَ تَأْثِيرَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلَائِقِ . لِذَلِكَ يَنْهَوْنَ عَنْهُ . أَيْ : عَنْ قِرَائَتِهِ وَاسْتِمَاعِهِ ، لِثَلَا يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّدْبِيرِ فِيهِ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ أَغْرَاضَهُمُ الْفَاسِدَةَ . «وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ» أَيْ : يَتَّبَاعِدُونَ عَنْهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، إِظْهَارًا لِقَايَةِ نَفُورِهِمْ عَنْهُ ، وَتَأْكِيدًا لِنَهْيِهِمْ عَنْهُ . فَإِنْ اجْتَنَبَ النَّاهِي عَنِ الْمُنْهَى عَنْهُ ، مِنْ مَتَمِّمَاتِ النَّهْيِ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ السَّرُّ فِي تَأْخِيرِ (النَّائِي) عَنِ (النَّهْيِ) - أَفَادَهُ أَبُو السَّعُودِ - .

وَلَا أَسْخَرُ ذَلِكَ بِكَوْنِهِمْ يَبْغُونَ الْفَوَائِلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، خَوْفًا مِنْ قُوَّةِ تَأْثِيرِ التَّنْزِيلِ فِي الْقُلُوبِ ، أَتْبَعَهُ بِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الْمَطْلُوبُ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَتَمُّ نُورِهِ ، وَمُظْهَرُ دِينِهِ ، وَإِنْ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : «وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» بِتَعْرِيزِهَا لِأَشَدِّ الْعَذَابِ عَاجِلًا وَآجِلًا «وَمَا يَشْعُرُونَ» أَيْ بِذَلِكَ .

تَلْبِيهِ :

رَوَى الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ ، عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ ، كَانَ يَنْهَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُؤَذَى ، وَيَنْأَى عَنْهُ فَلَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَجَمِيعَتُهُ حِينَئِذٍ ، بِاعْتِبَارِ اسْتِتْبَاعِهِ لِاتِّبَاعِهِ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَمْعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عُمُومَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانُوا عَشْرَةً ،

فكانوا أشد الناس معه في الملانية ، وأشدهم عليه في السر . ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه ، وهو المراد بالنزول - كما أسلفنا مراراً - وقد قال أبو طالب يخاطب النبي ﷺ :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب ديننا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذلك وقرّ منه عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصح ولقد صدقت وكنت ثم أميناً
وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية ديناً
لولا اللامة أو حذارى سبة لوجدتني سمحاً بذلك مييناً
وفي (ينون) و (يتاؤن) تجنيس بديع .

ولما أخبر تعالى أنهم يهلكون أنفسهم ، شرح كيفيته مع بيان ما سيصدر عنهم في الآخرة من القول المناقض لعقدهم الدنيوى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ » أى : اطلعوا عليها فما ينوها . يقال : وقف فلان على ذنبه : أطلعه عليه . أو أدخلوها فعرفوا ما فيها من العذاب . يقال : وقفت على ما عند فلان ، تريد : فهمته وتبينته . والوقف عليها مجازى ، أو هو حقيقى بمعنى القيام . و (عَلَى) إما على حقيقة . أى : أقيموا واقفين فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم . أو هى بمعنى (فى) ، أى : أقيموا فى جوف النار و غاصوا فيها ، وهى محيطة بهم . وصحح معنى الاستعلاء حينئذ ، كون النار دركات وطبقات ، بعضها فوق بعض .

« فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، حين لا رجوع ، واعدن أن لا يكذبوا بما جاءهم ، وأن يكونوا من المؤمنين ، أى : بآياته ، العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل . أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب ، الفائزين بحسن المكاب .

تنبيه :

جواب (لو) محذوف ، تفخيماً للأمر ، وتمظيماً للشأن . وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم . وحذف الجواب في ذلك أبلغ في المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لنلامك : والله! لئن قتُ إليك . وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر ، وعظم الخوف ، ولم يدر أى الأقسام تبغى . ولو قلت : لأضربنك ، فأتيت بالجواب لآمن غير الضرب ، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواء . فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف - أفاده الرازى - وملخصه : أن حذف الجواب ثقة بظهوره ، وإندانا بقصور العبارة عن تفصيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ » إضراب عما يدل عليه تمنيه الباطل من الوعد ، بالتصديق والإيمان ، أى : ليس ذلك عن عزم صحيح ، وخلوص اعتقاد ، بل هو بسبب آخر ، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشرك ، بقولهم : (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشرهم ، فتمنوا لذلك ،

أو بشهادة جوارحهم عليهم ، أو ما كانوا يكتُمون في أنفسهم في الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كقوله تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ... (١) الآية - وقوله تعالى (٢) مخبراً عن فرعون وقومه : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين ، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه . ولا ينافي هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة . لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق في سورة مكية وهي (المنكبات) فقال : وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (٣) . هذا ما ذكره مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه . وقد ناقش في ذلك كله العلامة أبو السعود ، واعتمد أن المراد بـ (مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي الدُّنْيَا) النارُ التي وقفوا عليها ، إذ هي التي سيق الكلام تهويل أمرها ، والتعجب من فظاعة حال الموقفين عليها ، و (بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشيء كفر به ، وإخفاء له لا محالة . وإشارته على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل : (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) (٤) وقوله تعالى : (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (٥) ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم :

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٢] ... وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٤] ... فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) [٢٩ / المنكبات / ١١] .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .

(٥) [٥٢ / الطور / ١٤] .

(وَلَا نُكْذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا)^(١) لمرعاة ما في مقابلته من البدو . هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم .

ثم قال فى الوجوه المقدمة : إنه بعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال ، لا سبيل إلى شىء من ذلك أصلا ، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتحويل أمر النار ، وتفضيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها ، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف . ورتب عليه تمنيمهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية ، وهى نفسها أدهى الدواهى ، وأزجر الزواجر ، وإسنادها إلى شىء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر ، مع عدم جريان ذكرها ، ثمت - أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله . وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون ، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها ، وأبوابها مفتوحة . فتأمل .

أقول : لا ريب فى بلاغة ما قرره ونفاسته ، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره ، مما هو غير ظاهر فيه ، وليس له نظائر فى التنزيل الكريم . فجازيته حينئذ من قبيل المعى . وفى الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف ، وشمله لها - غير بعيد . لأن فى كل منها ما يؤيده ، كما بيناه . غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع . وأما كونه المراد لا غير ، فدونه خبط القتاد - والله أعلم بأسرار كتابه - .

« وَلَوْ رُدُّوا » أى عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه ، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال « لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » من الكفر والشرك « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فى وعدهم بالإيمان ، أو ديدنهم الكذب فى أحوالهم .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

« وَقَالُوا » عطف على (لما دعوا) أو استئناف ، « إِن هِيَ » أى ما الحياة ، فالضمير لما بعده ، « إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى : ليست الحياة التى يتوهم فيها البعث ، والتى يتوهم فيها الرد إلا حياتنا الأولى « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » أى : بعد مفارقتنا هذه الحياة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ » قال الجلال : أى عرضوا عليه . وقال ابن كثير : أى وقفوا بين يديه . « قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا » أى المعاد « بِالْحَقِّ » تقريباً لهم ، ورداً لما يتوهمون عند الرد « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا » أى : إنه لحق ، وليس يباطل ، كما كنا نظن . أكدوا اعترافهم بالبين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته ، وإيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً فى نفعه . « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى : يبلوغ الآخرة وما يتصل بها ، أو هو مجرى على ظاهره ، لأن منكر البعث منكر للرؤية - قاله النسفى - والثانى هو الصواب ، وإن

اقتصروا كثيرين على الأول ، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبدٍ قدم على سيده بعد مدة ، وقد أطلع السيد على أحواله . فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله ، أو يسخط لما يسخط منها - فإنه نزعة اعتزالية . ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة .

وفي كلام النسفي إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية ، وهو ما في القاموس . قال شارحه الزبيدي : وهو مما نقدوه ، وأطالوا فيه البحث ، ومنعوه . وقالوا : لا يلزم من الرؤية اللقي ، كالعكس .

وقال الراغب : هو مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، ويعبر به عن كل منهما . ويقال ذلك في الإدراك بالحس والبصر .

لطيفة :

قال الخفاجي في (العناية) : قيل : روى عن علي رضي الله عنه أنه نظم أبياتاً على وفق هذه الآية ، وفي معناها وهي :

زعم النجم والطبيب ، كلاهما لا تُحْشَرُ الأجساد . قلت : إليكما
إن صح قولكما فليست بخاسر . أو صحّ قولي ، فالحسار عليكما

قال الخفاجي : لأدري من أيهما أعجب ؟ الرواية أم الدراية ؟ فإن هذا الشعر لأبي الملاء المعري في ديوانه وهو :

قال النجم والطبيب ، كلاهما : لا تُحْشَرُ الأجسادُ . قلت : إليكما
إن صحّ قولكما فليست بخاسر . أو صحّ قولي ، فالحسار عليكما
أضحى الثقي والشري صطرعان في الدّنيا . فأيهما أبرّ لديكما
طهرت ثوبتي للصلاة وقبله . فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربّي في الضمائر مؤنساً . خلدني بذاك ، فأوحشاً خلدنيكما

وبكرت في البردين^(١) أبغى رحمة منه ، ولا ترعان في برديكما
إن لم تعد بيدي منافع بالذي آتى ، فهل من عائد بيديكما
برؤ التقى ، وإن تهلهل نسجه ، خير ، بعلم الله ، من برديكما

قال ابن السيد في (شرح) . هذا منظوم مما روى عن علي رضي الله عنه؛ أنه قال لعمض
من تشكك في البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة ، فقد تخلصنا جميعاً . وإن
لم يكن الأمر كما تقول ، فقد تخلصنا وهلكنا . فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده . وهذا
السلام ، وإن خرج مخرج الشك ، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه ، وقله أخذه بالنظر
والاحتياط لنفسه . مع أن المناظر على ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل .
وقوله : (إليكما) كلمة يراد بها الردع والجزر . ومعناها : كُفَّا عما تقولان ، وحقيقته:
قولكما مصروف لكما ، لا حاجة لى به . انتهى .

ومن له معرفة بقرض الشعر ، يعلم أنه شعر مولد .
ثم نبه الخفاجي على أن هذا النوع يسمى استدراجاً .
قال في (المثل السائر) : الاستدراج نوع من البلاغة استخرجته من كتاب الله تعالى ،
وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال ، يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن ،

(١) البردان : الغداة والعشي :

ومنه الحديث الشريف المروي في الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعري ، رقم ٣٦٩
(اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان) ونصه :
« من صلى البردين دخل الجنة » .

أي : من صلى صلاة الفجر والمصر ، لأنهما في بردي النهار ، أي طرفيه ، حين يطيب
الهواء وتذهب سورة الحر .

وترعان من ورع يرع . قال في اللسان : الورع الكف عن المحارم والتحرج .

وهو قريب من المغالطة ، وليس منها . كقوله تعالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)^(١) . ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله : (إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه ، وإن يصدق يصيبكم بعض ما وعدكم به) ، ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى ، فإنه نبي صادق ، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به ، لا بعضه ، لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم ، لما فيه من الملاحظة في النصح ، بكلام منصف غير مشتط مشدد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ، ويحام عنه ، حتى لا ينفروا عنه . ولذا قدم قوله (كَاذِبًا) ، ثم ختم بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي . . .) الخ يعني : أنه نبي على الهدى ، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى . انتهى .

وقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أي : جاءتهم القيامة فجأة . وسميت القيامة (ساعة) ، لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى . والمعنى : جاءتهم منيبتهم . على أن المراد بالساعة ، الصغرى . قال الراغب : الساعة الكبرى بعث الناس للمحاسبة ، والصغرى موت الإنسان . فساعة كل إنسان موته ، وهي المشار إليها بقوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) . ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته . انتهى .

و (بغتة) مصدر في موضع الحال ، أي : مباغتة . أو مصدر محذوف ، أي : تبغتهم . أو للمذكور . فإن (جاءتهم) ، بمعنى (بغتتهم) .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] ونصها : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

« قَالُوا » يعنى : منكرى البعث ، وهم كفار قريش ، ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد . « يَاحْسِرَتْنَا » أى : يا ندامتنا ! والحسرة : التلهف على الشيء الفائت . وذكرت على وجه النداء للمبالغة . والمراد : تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة . « عَلَى مَافَرَطْنَا » أى : قصرنا « فِيهَا » أى : فى الحياة الدنيا . أضمرت وإن لم يجر ذكرها ، للعلم بها . أى : على ما ضيعنا فيها ، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا . أو الضمير للساعة ، أى : على ما فرطنا فى شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة .

وقال ابن جرير^(١) : الضمير يعود إلى الصفقة التى دل عليها قوله (قَدْ خَسِرَ ...) الخ إذ الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرت . قال : والمعنى : قد وُكِّس الذين كذبوا بقاء الله ، ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به من الله رضوانه وجنته ، بالكفر الذى يستوجبون به منه سَخَطُهُ وعقوبته . ولا يشعرون ما عليهم من الخسران فى ذلك ، حتى تقوم الساعة . فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم ، قالوا حينئذ تندما : (يَاحْسِرَتْنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا) .

وقوله تعالى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » حال من فاعل (قَالُوا) ، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون ، مع ذلك ، تحمل الأوزار النقال . والإيحاء إلى أن تلك الحسرة من الشدة ، بحيث لا تزول ولا تُنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات - قاله أبو السعود - .

والأوزار : جمع وزر ، وهو فى الأصل : الحمل الثقيل ، سمي به الذنب لثقله على صاحبه . قيل : جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية ، مثل لزومها لهم ، على وجه لا يفارقهم ، بذلك . وخص الظهر ، لأنه الممهود حمل الأثقال عليه . كما عهد الكسب بالأيدي .

(١) تفسير ابن جرير (طبعة المعارف) بالصفحة ٣٢٥ من الجزء الحادى عشر .

وقيل : هو حقيقة ، لما روى عن السدّي^(١) أنه قال : ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره ، إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسود اللون ، مُنْتِن الريح ، عليه ثياب دَنَسَة ، حتى يدخل معه قبره . فإذا رآه قال له : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان عملك قبيحاً . قال : ما أنتن ويحك ! قال : كذلك كان عملك منتناً . قال : ما أدنس ثيابك ! قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال : من أنت ؟ قال : أنا عملك . قال : فيكون معه في قبره . فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملني . قال : فيركب على ظهره فيسوقه ، حتى يدخله النار . فذلك قوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ ...) الآية .

قال الخفاجي : ولعل هذا تمثيل أيضاً . وقريب منه ما قيل : من قال بالميزان ، واعتقد وزن الأعمال ، لا يقول إنه تمثيل . انتهى .

« أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » أى : بئس ما يحملونه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ » أى : هزل ، وعمل لا يجدى نفعا « وَلَهْوٌ » أى : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الإنسان عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضى .

« وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضار والآلام .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي ، ولا تؤثرن الأدنى الفاني ، على الأعلى الباقي . وههنا

(١) الأثر رقم ١٣١٨٨ من تفسير ابن جرير .

لطائف

الأولى: قال الرازى : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا ، وتحصيل لذاتها. فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركابتها. واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الآخروية إلا فيها . فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان :

الأول - أن المراد منه حياة الكافر. قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة ، فلا تكون لعباً ولهوّاً .

والقول الثانى - إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة في هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة في هذه الحياة ، وإنما سماها (اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان، حال اشتغاله باللعب واللهو، يلتذ به. ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة. فكذلك هذه الحياة، لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

الثانية : قال الخفاجى : جمع اللهو واللعب في آيات. فتارة يقدم اللعب، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما في العنكبوت^(١) . ولهذا التفتن نكتة مذكورة في (درة التأويل) ملخصها : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعنى العاقل ويهمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ؛ أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستماع الملاحى لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل السرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] ونصها : وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللهو ، إذا أطلق ، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس ^(١) :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرتُ وأن لا يحسنُ اللهو أمثالى
وقال قتادة : اللهو ، فى لغة اليمى (المرأة) . وقيل : اللعب طلب : المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به . واللهو : صرف الهم بما لا يصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردًا على الكفرة فى إنكار الآخرة ، وحصر الحياة فى الحياة الدنيا ، وليس فى اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية - قدم اللعب الدال على ذلك ، وتم باللهو . وأما فى المنكوبات فلمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة . ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير . والاشتغال باللهو ، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

وليلةٍ إحدى الليالى الزُّهرِ لم تك غير شفقٍ وفجرٍ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

ألا عِمَّ صباحًا أيها الطللُ البالى وهل يعمَّن من كان فى العُصرِ الخالى
قال السندوبى : بسباسة إحدى صواحباته التى يتغزل بهن .

لا يحسن اللهو (وىروى : لا يحسن السر) وهو ما يكون بين الرجل والمرأة .
وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب :

وىروى السر ، وهو النكاح .

وأمثال جمع مثل ، أراد أمثالى من الرجال .

ومعنى البيت : أنه لما عيَّرتَه وقالت له : كبرتَ وشغلتَ عن اللهو . ولا يحسن أمثالك من الرجال اللهو ، وإذا لم يحسنه أمثالك فأنت لا تحسنه .

وإذا قالت العرب (مثلك لا يحسن كذا) فإنما هو على طريقة التعظيم أن يذكروا مثله ولا يذكروه .

الثالثة :

في قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين ، لعب ولهو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ)

وقوله تعالى « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ » قرئ بفتح الياء وضمها ، « الَّذِي يَقُولُونَ »

أى : يقولونه فيك ، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لتسليته ﷺ عن الحزن الذى يعتريه ، مما حكى عن

الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من

الله عز وجل ، وأن ما يفعلونه فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم أشد

انتقام . وكلمة (قَدْ) لتأكيد العلم بما ذكر ، المفيد لتأكيد الوعيد .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ »

الفاء للتعليل ، لأن قوله تعالى : (قَدْ نَعْلَمُ) بمعنى لا تحزن ، كما يقال فى مقام المنع والزجر :

نعلم ما تفعل ! وجه التعليل فى تسليته له ﷺ بأن التكذيب فى الحقيقة لى ، وأنا الحليم

الصبور ، فتخلق بأخلاقى .

قال أبو السعود : وهذا يفيد بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ، ورفعة المحل ،

والزلى من الله عز وجل ، إلى حيث لا غاية وراءه ، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه

الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه ، على طريقة قوله تعالى (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

اللَّهَ)^(١) ، بل نفى تكذيبهم عنه ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ

(١) [٤ / النساء / ٨٠] . . . وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ^(١) إِذَا مَا بِكُلِّ الْقَرْبِ ، وَاضْمَحَلَّ شَوْؤُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي شَأْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَفِيهِ اسْتِعْظَامُ لُجْنَاتِهِمْ ، مَنبًى عَنْ عَظَمِ عَقُوبَتِهِمْ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، عُنَادًا أَوْ مَكَابِرَةً . وَيَعْضُدُهُ مَارِوِي سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ نَاجِيَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ ، وَلَكِنْ نَكْذِبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ) الْآيَةُ - رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ^(٢) عَنِ السَّيِّدِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرَ ، خَلَا الْأَخْنَسُ بِأَبِي جَهْلٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ ! أَخْبَرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ، أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَهُنَا مِنْ قُرَيْشٍ غَيْرِي وَغَيْرِكَ يَسْتَمْعُ كَلَامَنَا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَيْحَكَ ! وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيٍّ بِاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنَّبُوءَةِ ، فَاذَا يَكُونُ لِسَارِ قُرَيْشٍ ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فَأَيَّاتِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ .

قَالَ الرَّازِيُّ : وَهَذَا الْقَوْلُ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى^(٣) فِي قِصَّةِ مُوسَى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ لِأَنَّكَ عِنْدَهُمُ الصَّادِقُ الْمُسَوِّمُ بِالْصَّدَقِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . كَمَا يَرَوِي أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا نَكْذِبُكَ ، وَإِنَّكَ عِنْدَنَا لَصَادِقٌ ، وَلَكِنَّا نَكْذِبُ مَا جِئْتَنَا بِهِ .

(١) [٤٨ / الْفَتْحُ / ١٠] ... يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) الْأَثَرُ رَقْمُ ١٣١٩٣ مِنَ التَّفْسِيرِ .

(٣) [٢٧ / النُّزْلُ / ١٤] ... فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

قال أبو السعود : وكان صدق المخبر عند الخبيث ، بمطابقة خبره لاعتقاده . والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية . وقرئ « لَا يُكْذِبُونَكَ » من (أ كذبه) ، بمعنى وجده كاذباً ، أو نسبته إلى الكذب ، أو بين كذبه ، وقال : أ كذبه وكذبه بمعنى - كذا في القاموس وشرحه - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين . وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام ، فى الصبر على ما أصابهم من أمهم ، من فنون الأذية . وعدة ضمنية له ﷺ بمثل ما منحوه من النصر . وتصدير الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير - أفاده أبو السعود - .

قال الزحشرى : فى قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ) دليل على أن قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لفلانك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانونى ! انتهى .

وناقشه الناصر فى (الاتصاف) بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤلف مع نفي التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أى : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف ، كاترى ، بالتفسيرين جميعاً . ولكنه من غير الوجه الذى استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها

في نحو قوله تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) فسلاؤه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبياهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالنظائر - والله أعلم - .

« فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا » أى على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأس بهم « حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى : لمواعيده ، من قوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)^(١) ، وقوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)^(٢) .

« وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ » أى من خبرهم في مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إهلاكهم لإهلاكهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ » أى : شق وثقل ، « عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ » أى : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ، « فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ » أى سَرَبًا ومنفذًا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون

(١) [٣٥ / فاطر / ٤] . . . وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧١ و ١٧٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . . . إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بها ، « أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ » أى مصعدا تخرج به فيها ، « فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ » أى : مما اقترحوه ، فافعل . وحسن حذف الجواب لعلم السامع به . أى : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى » أى : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه ، « فَلَا تَكُونَنَّ » أى : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم « مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختيارا ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطرارا ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار .

تنبيهات

الأول - فى هذه الآية مالا يخفى من الدلالة على المبالغة فى حرصه ﷺ على إسلام قومه ، وتراميه عليه ، إلى حيث لو قدر أن يأتيتهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء ، لأتى بها . رجاء إيمانهم ، وشفقة عليهم .

الثانى - قال الناصر فى (الانتصاف) : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم على الهدى ، إذا إنما كان لامتناع المشيئة . فنتم ترى الزخشرى يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة ، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكانه فاحذرها - والله الموفق - .

الثالث - لم يقل (لَا تَكُنْ جَاهِلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه ﷺ

بأن لم يُسند الجهل إليه ، للمبالغة في نفيه عنه . وما فيه من شدة الخطاب ، سرُّه تبعيد جنباه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ في مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

وقوله تعالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » تقرير لما مرّ من أن على قلوبهم أكنة ، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى ، لا يتصور منهم الإيمان البتة . أى : إنما يستجيب لك ، بقبول دعوتك إلى الإيمان ، الأحياء الذين يسمعون ما يلقى إليهم ، سماع تفهم ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم . كقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ)^(١) وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية ، أموات بالنسبة إلى الإنسانية ، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق الرديئة .

و (الْمَوْتَىٰ) مبتدأ . يعنى : الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، يبعثهم الله يوم القيامة ، ثم إليه يرجعون ، فيجزئهم بأعمالهم . فالموتى مجاز عن الكفرة كما قيل :

لَا يُعْجِبَنَّ الْجَهْلَ بِزَّتُهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ ثِيَابُهُ كَفَنٌ

قيل : فيه رمز إلى أن هدايتهم كبحث الموتى ، فلا يقدر عليه إلا الله . ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم . وفي تسميتهم (موتى) من التهمك بهم ، والإزراء عليهم ، ما لا يخفى .

(١) [٢٧ / النمل / ٨٠] ... وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا » : معنى : مشركى مكة ، بيان لنوع آخر من تعنتهم ، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخرّ لها صمّ الجبال ، « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : خارق ، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يبتغون . كقولهم ^(١) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ...) الآيات .

« قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى : إن اقتراحها جهل ، لما أن فى تنزيلها قلماً لأساس التكليف ، المبني على قاعدة الاختيار . أو استئصالا لهم بالسكية ، فإن من لوازم جحد الآية للجنة ، الهلاك ، جريا على سنته تعالى فى الأمم السالفة . وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم ، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال ، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ » أى : مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها « وَلَا طَائِرٍ » يرتفع عنها إذ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » أى : أصناف مصنفة فى ضبط أحوالها ، وعدم إهمال شئ منها ، وتدير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ » أى : ما تركنا ، وما أغفلنا ، فى لوح القضاء المحفوظ ، « مِنْ شَيْءٍ » أى : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على مايجرى فى العالم ، لم يهمل فيه أمر شئ : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتديره . كقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(١) أى : مفسح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها . « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » يعنى : الأمم كلها ، من الدواب والطيور ، فينصف بعضهم من بعض ، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماة من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء ، لإجرائها مجراهم .

تنبيهات

الأول - قال الرمحشري : إن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتديره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .
وقال الرازى : المقصود أن عناية الله لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة ، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .
وقال القاضى : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار ، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بيّن بعده بقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ ..) إلخ ، أن البعث حاصل فى حق البهائم أيضاً .
الثانى - زيادة (مِنْ) فى قوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) لتأكيد الاستغراق .
و (فى) متعلقة بمحذوف هو وصف (دَابَّةٍ) مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من
(١) [١١ / هود / ٦] .

أفراد الدواب يستقر في قطر من أفطار الأرض . وكذا زيادة الوصف في قوله : (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

قال في الانتصاف : في وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : (فِي الْأَرْضِ) و (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) موقع الوصف العام - وصفة العام عامة - ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافت صفتان عامتان .

الثالث - قال الزمخشري : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطار ؟ قلت : لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ) دَالًّا عَلَى مَعْنَى الْاسْتِغْرَاقِ ، وَمَعْنِيًّا عَنْ أَنْ يَقَالَ : وَمَا مِنْ دَوَابٍّ وَلَا طَيْرٍ ، حَمَلَ قَوْلُهُ : (إِلَّا الْأُمَمُ) عَلَى الْمَعْنَى .

الرابع - دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء في الحديث : لولا أن الكلاب أمة من الأمم ، لأمرت بقتلها - رواه أبو داود^(١) والترمذي عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه - .

الخامس - ما ذكرناه في معنى مماثلة الأمم لنا ، من تديره تعالى لأمرها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شيء منها ، مما يبين شمول القدرة ، وسعة العلم - هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . . .)^(٢) الآية - والقرآن يفسر بعضها بعضاً . ونقل الواحدي عن ابن عباس أن المماثلة هي في معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ جُحْمُهُ)^(٣) ، وقوله :

(١) أخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢٢ - باب في اتخاذ الكلاب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

والترمذي في : ١٦ - كتاب الصيد ، ١٦ - باب ما جاء في قتل الكلاب .

(٢) [١١ / هود / ٦] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ جُحْمُهُ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ^(١) .

وعن أبي الدرداء قال : أبهت عقول البهائم عن كل شيء ، إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه .
وقيل : المائلة في أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك في صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق الثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُعمده عدم ملاقاته للآية الأخرى . فالأمر ، تأييداً للنظر ، ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .
السادس - ما بيناه في معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ في العرش ، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام - هو الأظهر ، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييداً للنظر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه ، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) ^(٢) .
قال الخفاجي : قيل : حملة على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بمضه أخذ بحجز بعض بلا شبهة .

وقال أبو السعود : أي ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراعاة لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب في قول البيضاوي (فإنه قد دون فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً

(١) [٢٤ / النور / ٤١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَاقَاتٍ ، كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

أو مجلًا) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله ^(١) : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) إلى القياس . وقوله (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) ^(٢) إلى السنة . بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبع الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى ^(٣) (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) انتهى .

واستظهر الرازي أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى اليهود السابق ، والمهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقابل أن يقول : كيف قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أنه ليس فيه تفاصيل علم

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَثِيرٌ لَا يَسْكَونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع ؟ .

والجواب : أن قوله : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول - أن لفظ (التفريط) لا يستعمل نفيًا وإثباتًا ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحداً لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثاني - أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوماً من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولاً على ذلك المقيّد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه ، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه . فأما روايات المذاهب ، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأما تفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة في الشريعة . فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة ، كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن .

وذكر الواحدى رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول - روى أن ابن مسعود^(١) كان يقول : مالى لا ألن من لعنه الله في كتابه؟

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ٤ - باب وَمَا أَنَا كُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .

عن عبد الله قال : لعن الله الواشحات والموتشحات والتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب .

يعنى : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة ،

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته ، فقالت : يا ابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لمن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدت فيه ، قال الله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وإن ما آتانا به رسول الله أنه قال : لمن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازى : وأقول : يمكن وجدان هذا المعنى فى كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال فى سورة النساء (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ) (١) فحكم

== فجاءت فقالت : إنه بلغنى إنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

قال : لئن كنت قرأتيه ، لقد وجدته . أما قرأت : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟

قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبى فانظرى .

فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامعتنا .

وأخرجه مسلم فى : ٣٧ - كتاب اللباس والزينة ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١١٧ ، ١١٨] ونصها : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَا... .

عليه باللعن ، ثم عدد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله ^(١) (وَلَا مَرْهَمٌ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ) . وظاهر هذه الآية يقتضى أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

قلت : وتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشحات والمستوشحات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله - رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود ^(٢) . -

ثم قال الرازى :

المثال الثانى - ذكر أن الشافعى رحمه الله كان جالساً فى المسجد الحرام فقال : لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول فى المحرم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شىء عليه . فقال : أين هذا فى كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ثم ذكر إسناداً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحدى : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

وأقول . ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل فى أموال المسلمين المعصمة . قال تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ^(٣) . وقال : (لَا يَسْأَلُكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَا ضِلْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْهَمٌ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٠١ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

أَمْوَالِكُمْ^(١) وقال (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)^(٢) فهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضى أن لا يجب على المحرم الذى قتل الزنور شىء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة .

المثال الثالث - قال الواحدى : روى فى حديث العسيف الزانى^(٣) أن أباه قال للنبي ﷺ : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده ! لأقضى بينكما بكتاب الله .

= إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٦] ونصها : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

(٣) أما حديث العسيف فهاكموه بنصه الكامل :

فقد أخرجه البخارى فى : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣٠ - باب الاعتراف بالزنى ، حديث

١١٥٥ و ١١٥٤ .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد قالوا : كنا عند النبي ﷺ ، فقام رجل فقال : أنشدك الله

إلا قضيت بيننا بكتاب الله .

فقام خصمه ، وكان أقره منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى .

قال « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته . فافتديت منه بمائة شاة وخادم .

ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت. قال الواحدى: وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب. وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ فهو عين كتاب الله. قال الرازى: وهذا حق، لأنه تعالى قال: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هذه الآية. انتهى.

وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة، والمجموع فيه أمور كليات، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها، وجدناها قد تضمنها القرآن على السكال. وقد جود البحث في هذه المسألة المهمة، العلامة الشاطبي في (الموافقات) في الطرف الثانى، في الأدلة على التفصيل. فارجع إليه.

وقد نقلنا شذرة منه في مقدمة هذا التفسير. فتذكر!

السابع - قال أبو البقاء: (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْ شَيْءٍ) زائدة. (وشىء) هنا واقع موقع المصدر. أى: تفريطاً. وعلى هذا التأويل لا يبقى في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شىء صريحاً. ونظير ذلك: لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً^(٣). أى:

== ثم سألت رجلاً من أهل العلم فأخبرونى: أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام، وعلى امرأته الرجم.

فقال النبي ﷺ «والذى نفسى بيده! لأقضين بينكما بكتاب الله، جلّ ذكره. المائة شاة والخادم ردّ. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغد، يا أنيس! على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها».

فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها.

وأخرجه مسلم في: ٢٩ - كتاب الحدود، حديث ٢٥ (طبعتنا).

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٠] ونصها: إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ =

ضررا . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون (شَيْئًا) مفعولا به ، لأن (فَرَطْنَا)
تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر ، وقد عدت بـ (في) إلى (الْكِتَابِ) ، فلا تتعدى بحرف آخر .
ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا في الكتاب من شيء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان
أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجي : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (في) وقد ضمن هنا معنى
(أَغْفَلْنَا وَتَرَكْنَا) . فـ (مِنْ شَيْءٍ) في موضع المفعول به ، و (مِنْ) زائدة . والمعنى :
ما تركنا في الكتاب شيئا يحتاج إليه من دلائل الألوهية والتكاليف .

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزنجشري ، وعدل عنه البيضاوي . لأنه لا يتعدى . فجعل
التقدير (تفریطاً) فحذف المصدر ، وأقيم (شيئاً) مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ اختار
هذا ، وأورد عليه في (الملل) أنه ليس كما ذكر ، لأنه إذا تسلط النفي على المصدر ، كان
منفياً على جهة العموم ، ويلزمه نفي أنواع المصدر ، ونفي جميع أفرادها ، وليس بشيء ، لأنه
يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفریط منفية عن القرآن ، وهو ما لا شبهة فيه ، ولا
يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن
نفي تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمنين ، كما مر . وأما ما قيل : إن (فرط)
يتعدى بنفسه ، لما وقع في القاموس (فرط الشيء) ، وفرط فيه تفریطاً ضيعة وقدم العجز فيه وقصر) فلا
نسلم أنه يتعدى بنفسه . وتفرد صاحب القاموس بأمر ، لا يسمع في مقابلة الزنجشري وغيره .
مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمنين
- انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ما للمجد في القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ،

تُصَبِّكُم سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ،
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

لا الاجتهاد . وهوازنته بين الزمخشري وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذى الصواب عكسه . على أنه ليس فى (الكشاف) ما يقتضى مازعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيديّ شاهدا على تعديته بنفسه ، تأييدا لكلام المجد ، قول صخر النى^(١) :

ذلك بزّى فلن أفرطه أخاف أن يُجزوا الذى وعدوا

قال ابن سيدة : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بزى ، أراد سلاحى . ثم قال الزبيديّ : وقال أبو عمرو : فرطتك فى كذا وكذا ، أى تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .
وأنشد أبو السعود قول ساعدة بن جُوَيّْة^(٢) :

* معه سقاء لا يفرط حمله *

أى : لا يتركه .

وبه يعلم سقوط ما لأبى البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (فى) ودعوى التضمن السابقة ، وتكلف كون (شئ) واقعا موقع المصدر .

هذا وقرئ (فرطناً) بالتخفيف ، وهو بمعنى الشدد . وإنما توسعنا فيما روى على القول الثانى فى معنى الكتاب ، لشهرة الآية فى هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم - والله أعلم - .

الثامن - دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أى : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)^(٣) .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا أخلفه فأتقدم عنه . وقال

ابن سيدة . يقول : لا أضيعه . وقيل : معناه لا أقدمه وأتخلف عنه .

(٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا يترك حمله ولا يفارقه .

(٣) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

تنتطحان ، فقال : يا أباذر ! هل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا . قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما . ورواه عبد الرزاق وابن جرير^(١) ، وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله ﷺ ، وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد^(٢) في مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : إن الجماء لتقص من القرناء يوم القيامة .

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في هذه الآية قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدواب والبهائم والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى تراباً ! فلذلك يقول الكافر : « يَا كَيْفَنِي كُنْتُ تُرَاباً » . وقد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد^(٣) ، والبخاري في (الأدب المفرد) ومسلم^(٤) والترمذي^(٥) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة للجماء ، من الشاة القرناء ، تنطحها .

(١) الأثر رقم ١٣٢٢٣ من التفسير .

وفي المسند بالصفحة ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٢٠ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٢٠٣ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٠ (طبعنا) .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٢ - باب ما جاء في شأن الحساب

والقصاص .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : حشرها الموت . وروى عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .
 التاسع - (في الإكليل) : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجها أبو الشيخ عن أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال : صدق ! وإن ذلك في كتاب الله . ثم تلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ» أى : مثلهم في جهلهم ، وعدم فهمهم ، وسوء حالهم ، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذى لا يسمع) والبكم (جمع أبكم ، وهو الذى لا يتكلم) . وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرون . فكيف يهتدى مثلهم إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل ، إعلالاً ببيان كمال غرقتهم في الجهل ، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية .

ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله « مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فهو المتصرف في خلقه بما يشاء ، فمن أحب هدايته ، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان . ومن شاء ضلالته تركه على كفره . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

ثم أمر تعالى رسوله بأن يبكتهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره ، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة ، فإنهم يفزعون إليه تعالى ، لا إلى الأصنام ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ » أى : أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ » أى : مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة ، « أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة « أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ » أى : فى كشف العذاب عنكم . وهذا محط التبكيث . أى : أنخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة ، بل لا تدعونها مع الله أيضاً « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » متعلق بـ (أَرَأَيْتَكُمْ) مؤكداً للتبكيث ، كاشف عن كذبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ » أى : تخصون بالدعوة « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » أى : إن شاء كشفه . والتقيد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطردة ، بل هى تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حكم استأثر بعلمها « وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » أى : تتركون ما تشركون تركاً كلياً لعلكم بأنهم لا تضر ولا تنفع . عطف على (تَدْعُونَ) ، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما ، وتأخر الكشف عنهما ، لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيدان بترتبه على الدعاء خاصة .

ثم بين تعالى أن من كفر الأمم السالفة من بلغوا فى القسوة إلى أن أخذوا بالشدائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى ، فلم يفعلوا . تسلياً لنبيه ﷺ فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ » أى : رسلاً ، فكذبوهم ولم يبالوا ، لكونهم فى الرخاء ، « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ » أى : الشدة والقحط ، « وَالضَّرَاءِ » أى : المرض ونقصان الأنفس والأموال « لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ » أى : يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم ، فالنفوس تتخشع عند زول الشدائد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » أى : بالتوبة والتسكن . ومعناه . نفى التضرع . كأنه قيل : فلم يتضرعوا . وجىء بـ (لَوْلَا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال « وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ » فلم يكن فيها ابن يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به ، « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من الشرك . فلا استدراك على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع ، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم المزينة لهم .

لطيفة :

إن قلت : قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان ، وأسنده إلى نفسه فى قوله : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ^(١) فهل هو حقيقة فيهما ، أوفى أحدهما ؟ قلت : وقع التزيين

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ =

في مواقع كثيرة : فتارة أسنده إلى الشيطان ، كالآية الأولى ، وتارة إلى نفسه كالثانية ، وتارة إلى البشر كقوله (زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)^(١) - في قراءة - وتارة مجهولاً غير مذكور فاعله كقوله (زَيْنَ لِلْمُشْرِكِينَ)^(٢) ، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة : أحدها : إيجاد الشيء حسناً مزيناً في نفس الأمر ، كقوله : (زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا) ، والثاني : جملة مزيناً من غير إيجاد ، كتزيين الماشطة المروس ، والثالث : جملة محبوباً للنفس ، مشتهى للطبع ، وإن لم يكن في نفسه كذلك . فهذا إن كان بمعنى خلق الميل في النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله ، لأنه الفاعل له حقيقة ، لإيجاده له ، ولغة ونحواً لا تصافه بخلقه . وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه ، كالوسوسة والإغواء ،

فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) [٦ / الأنعام [١٣٧] ونصها : وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٦] ونصها : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . و [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاحِبٍ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . و [٦٧ / الملك / ٥] ونصها : وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاحِبٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة ، وإنما يسند إلى البشر أو الشيطان . وإذا لم يذكر فاعله ، يقدر في كل مكان ما يليق به - كذا في (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أى : من البأساء والضراء ، أى تركوا الاتعاض به « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أى : من النعم ، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن ، وصنوف رغائبهم ، استدراجاً وإملاءً ومكرًا بهم ، عيادًا بالله من مكره ، « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا » من مطالبهم ورغائبهم ، مع الشرك « أَخَذْنَاهُمْ » أى : بالمذاب المستأصل ، « بَغْتَةً » أى : بخفة بلا تقديم مذكر ، إذ لم يفدهم في المرة الأولى ، « فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » متحسرون ، يئسون من كل خير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ما قبله . وهو من (دَبَرَهُ) إذا تبعه ، فكان في دُبُرِهِ . أى : خلفه . فالدابر ما يكون بعد الآخر ، ويطلق عليه تجوزًا . وقال أبو عبيد : دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعي : الدابر الأصل ، ومنه : قطع الله دابره ، أى : أصله .

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تحليل لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لاسيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم ، عليهم السلام .

تنبيهات

الأول - روى في هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد^(١) عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ... إلى .. هُمْ مُبْلِسُونَ » ورواه ابن جرير^(٢) وابن أبي حاتم عنه .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم (أَوْ فُتِحَ عَلَيْهِمْ) باب خيانة ، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذوا نائمهم بغتة ... الآية . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصرى : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يكر به ، فلا رأى له . ومن قتر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له . ثم قرأ . « فَلَمَّا نَسُوا ... » الآية - قال الحسن : مكر بالقوم ، ورب السكبة ! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون - روى ذلك ابن أبي حاتم -
الثانى - قال الرازى : قال أهل المانى : وإنما أخذوا فى حال الرخاء والراحة ليكون أشد ، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث - قال الزمخشري : فى قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أى : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

(١) أخرجه فى السند بالصفحة ١٤٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) الأثر رقم ١٣٢٤١ من التفسير .

قال الناصري (الانتصاف) : ونظيرها قوله تعالى ^(١) (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) فيمن وقف ههنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على (الْمُنْذَرِينَ) وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون . فعلى الأول يكون الحمد ختمًا ، وعلى الثاني فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعاً ، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحاً لما بعده ، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه ختمًا ، إذ لا يقتضي السياق غير ذلك . انتهى .

قلت : إذا جرينا على ما هو الأسد في الآي من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وإدعاء الأظهرية فيها ممنوع ، فإن التزويل يفسر بعضه بعضاً . فتأمل . ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيث عليهم . وثنية الإلزام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

بقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » بأن أصمكم وأعماكم ، « وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ » بأن غطى عليها ما يزول به عقلمكم وفهمكم « مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ » أي : بذلك المأخوذ . وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا .

« انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ » أي نورها بطرق مختلفة ، كتصريف الرياح . و(انظر)

يفيد التمجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة .

(١) [٢٧ / النمل / ٥٨ و ٥٩] ... ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

« ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » أى : بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها ، فلا يتأملون فيها ، عنادا وحسدا وكبرا .

تنبيهات

الأول - المراد بالآيات : إما مطلق الدلائل ، أو الدلائل القرآنية مطلقا ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله : **إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ... الآية .** ومن الترغيب بقوله : **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، والترهيب بقوله : إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ ... الآية .** ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين . ذهب إلى كلِّ بعض من المفسرين ، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع .

الثانى - قال بعض المفسرين من الزيدية : دلت الآية على جواز الاحتجاج فى أمر الدين . انتهى . وهو ظاهر .

الثالث - المقصود من هذه الآية : بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث ، وصونها عن الآفات ، ليس إلا الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم به هذه النعم العالية ، والخيرات الرفيعة ، هو الله تعالى . فوجب أن يقال : المستحق للتمظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى . وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة - قرره الرازى - .

ثم أشار تعالى إلى تبكيت لهم آخر يالجأهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ « لا إعراضكم عن الآيات بعد تصريحها « عَذَابُ اللَّهِ » أى : المستأصل لكم ، « بَغْتَةً » أى : فجأة من غير تقديم ما يشعر به ؛ إذ لم يفد ما تقدم ، « أَوْ جَهْرَةً » بتقديمه مبالغة فى إزاحة العذر . وقيل : ليلاً أو نهاراً ، كما فى قوله تعالى : بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا ، لما أن الغالب فيما أتى ليلاً البغته ، وفيما أتى نهاراً الجهره « هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ » أى : هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم ؟ وَوَضَعَ الظَّاهِرَ موضعه ، تسجيلاً عليهم بالظلم ، وإبداناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات ، موضع الإيمان

ثم أشار تعالى إلى وظيفة الرسل ، وتحقيق ما فى عهدهم ، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه ، **ﷻ** ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة ، « وَمُنْذِرِينَ » بالعقاب لأهل الكفر والمعاصى ، « فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ » للأعمال والأخلاق ، فهم أهل البشارة ، « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من العذاب الذى أنذروا به دنيوياً وأخروياً ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ » أى : الذى أنذروا به عاجلاً أو آجلاً « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » أى : عن أمر الله فى ترك الإيمان ، ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا ادعى أن خزائن رزق الله مفوضة إلى ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً ، وغير ذلك .
(والخزائن : جمع خزانة ، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء . وخزن الشيء إحرازه ، بحيث لا تناله الأيدي) .

« وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ » أى : من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوها .

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » أى : حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للمعادات مالا يطيقه البشر ، من الرقى فى السماء ونحوه ، أو تعدوا عدم اتصافهم بصفاتهم قادحا فى أمرى ، كما بنى عنه قولهم : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . والمعنى : إني لا ادعى شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا على ما هو من آثارها وأحكامها ،

وتجملوا عدم إجابتي إلى ذلك، دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لاتعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً . بل إنما هي عبارة عن تلقى الوحي من جهة الله عز وجل، والعمل بمقتضاه فقط ، كما ينبي عنه قوله تعالى :

«إِنْ أَنْتَبِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ» أى : ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إلى من جهته تعالى ، شرفنى بذلك وأنعم به علىّ ، إذ يكشف لى عن الملائكة فيخبروننى .
ثم كرر الأمر تذكيراً للتبكيك بقوله :

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ» مثل للضال والمهتدى على الإطلاق . والاستفهام إنكارى ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه من الإشعار بكال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء - ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .
وقوله تعالى : « أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر . أى : أفلا تفكرون فمهدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول - جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تبرؤاً من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى . قال : ولذا كرر فى الملكية لفظ (وَلَا أَقُولُ) . والمعنى : لا أدعى الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقتضونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقل : لا أقول لكم إني إله . كما قيل : ولا أقول لكم إني ملك . وأيضاً فى الكناية عن الألوهية بـ (عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا - كذا فى (العناية) - .
قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤاً عن دعوى الإلهية ، مما لا وجه له قطعاً .

الثاني - قال الجبائي : الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أَدعى منزلة فوق منزلتى . ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك .
قال القاضي : إن كان الغرض بما نقي طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، لم يدل على كونهم أفضل .

وقرر الرخشرى الأول تأييدا لمذهبه فقال فى تفسير الآية : أى لا أَدعى ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ، وهى قِسَمه بين الخلق وأرزاقه ، وعلم الغيب ، وإنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه . أى : لم أَدعِ إلهية ولا ملكية ، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها ، وإنما أَدعى ما كان مثله لكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر فى (الانتصاف) بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له ، فى تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها . ولخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردًا على الكفار فى قولهم : مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ...) الآية - فردّ قولهم : (مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ) بأنه بشر ، وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتمجب من أكله للطعام ، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لأنه لا خلاف أن الأنبياء ، يأكلون الطعام ، وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم (أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ) بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتينهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الرخصى في قوله (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملائكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزل الله فيه العبد من علو وغيره ، فإطلاقها على الإلهية تحريف . والله الموفق للصواب .

الثالث - قال الرازى : ظاهر قوله تعالى (**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**) يدل على أنه

ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكيم :

الأول - أن هذا النص يدل على أنه **ﷺ** لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام ، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**) .

الثاني - أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه **ﷺ** ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : (**فَاتَّبِعُونَهُ**) ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ**) وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال (**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**) والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين ، وأن لا يكون غافلاً عن معرفته . انتهى . وفي (فتح الرحمن) : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهد الأنبياء ، عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن

ومثله معه .

ثم لما أخبر تعالى : أن أولئك المشركين كالصم البكم العمى ، بل الموتى ، إذ لم يتعضوا بتصرف الآيات الباهرة ، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بما يوحى إليه ، أطراحاً لأولئك الفجار ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَأَنْذِرْ بِهِ » أى : بما يوحى ، المتقدم ذكره « الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » يعنى : من دون الله تعالى ، « وَلِيٌّ » أى : ناصر ينصرهم « وَلَا شَفِيعٌ » يشفع لهم وينجيهم من العذاب ، غيره تعالى (لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال الطالحة ، والأخلاق الرديئة .

قال فى (العناية) : خص بالذكر هؤلاء ، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار ، ويقودهم إلى التقوى . وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضاً . انتهى .
وجملة (لَيْسَ لَهُمْ) فى موضع الحال من (يُحْشَرُوا) ، فإن الخوف هو الحشر على هذه الحالة . والمراد بـ (الولي) و (الشفيع) الآلهة التى كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم ، وحينئذ فلا دلالة فى الآية على نفي الشفاعة للمسلمين ، لأن شفاعاة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى ، فكأنها منه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

روى الإمام مسلم^(١) عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزله الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... » الآية . وأخرج نحوه الحاكم وابن حبان في صحيحهما .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن ابن مسعود قال : مرّ الملا من قريش على رسول الله ﷺ ، وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى قوله « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » .

ورواه ابن جرير^(٣) عن ابن مسعود أيضاً قال : مرّ الملا من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦٥٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في السند بالصفحة ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم

٣٩٨٥ (طبعة المعارف) .

(٣) الأثر رقم ١٣٢٥٥ من التفسير .

وفيه : فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم تتبعك ! فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... » الآية .
ووراء ما ذكرنا ، روايات لا تصح ولا يوثق بها .

إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل ، وإنما هم يابعدهم عن مجلسه آن قدوم أولئك ، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فهما الله عن إمضاء ذلك لهم .

فما أورده الرازي من كونه ﷺ طردهم ، ثم أخذ بتكليف الجواب عنه ، لمنافاته العصمة على زعمه ، فبنا على وإ . والقاعدة المقررة أن البحث في الأثر فرع ثبوته ، وإلا فالباطل يكفى فيرده ، كونه باطلاً . وقد أوضحت ذلك في كتابي (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) . والمعنى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جالساً وأخصاءك .
كقوله (١) : (وَاصِرٌ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا) .

وقوله تعالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى يعبدونه ويسألونه ، « بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » قال سعيد بن المسيب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة .

وقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » المراد بالوجه الذات ، كما في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها ، والجملة حال من (يَدْعُونَ) أى : يدعون ربهم مخلصين له فيه ، وتقبيده به لتأكيد عليته لله ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام ، المضاد للطرد .

وقوله تعالى « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ » ،

كقول نوح عليه السلام في الذين قالوا^(١) : (اُنُؤْمِنَ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أى : إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس على من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء .

قال العلامة أبو السعود : الجملة اعتراض وسط بين النهي وجوابه ، تقريراً له ودفعاً لما عسى يتوهم كونه مسوغاً لطردهم من أقاويل الطاعنين في دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا . (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ) أى : ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة ، حتى تصدى له ، وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك ، حسبها هو شأن منصب النبوة ، اعتبار ظواهر الأعمال ، وإجراء الأحكام على موجبها . وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور ، كقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي) وذكر قوله تعالى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷻ ، بنظمه في سلك مالا شبهة فيه أصلاً ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام ، عليهم ، على طريقة قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)^(٢) وأما ما قيل من أن ذلك لتزليل الجملتين منزلة

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١١-١١٣] وهاكم نصها حسب الكتاب : قَالُوا اُنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ * قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ، لَوْ تَشْعُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٤] ونصها : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٠ / يونس / ٤٩] ونصها : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٦ / النحل / ٦١] ونصها : وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ =

جملة واحدة، لتأدية معنى واحد، على نهج قوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) فغير تحقيق بجملة شأن التنزيل . انتهى .

والقول المذكور للزخشرى ، حيث ذهب إلى أن الجملتين فى معنى جملة واحدة ، تؤدى مؤدى (وَلَا تَزِرُ) الآية ، وأنه لا بد منهما .

هذا ، وقيل : الضمير للمشركين ، والمعنى : لا يؤخذون بحسابك ، ولا أنت بحسابهم ، حتى يهلك إيمانهم ، ويجرك الحرس عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وأغرب المهايمى حيث قال : والمائة ، لكونهم أرباب شرف ومال ، يكرهون مجالستهم ، لقلة شرفهم ومالهم ، فقال عز وجل لأشرف الناس : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما يعود عليك من نقصهم فى الشرف والمال من شيء (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : وما يعود عليهم من كالك فى الشرف والمال عليهم من شيء ، فإذا لم يلحقك نقصهم ، ولم يأخذوا كالك بسلبه منك ، فلاوجه لطردهم . انتهى .

وفيه بعد ، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة . ولا يخفى مراعاة النظائر .

وفى (العناية) : قدم خطابه ﷺ فى الموضعين ، تشريفاً له . وإلا كان الظاهر (وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ) بتقديم (عَلَى) ومجرورها ، كما فى الأول . وفى النظم رد المجز على الصدر ، كما فى قوله : عادات السادات ، سادات والمادات .

وقوله تعالى : « فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ » الظلم : وضع الشيء فى غير محله ، أى : فلا تهم بطردهم منك ، فتضع الشيء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

« وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ » هم الشرفاء « بَبَعْضٍ » وهم المستضعفون ، بما

= مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

مننا عليهم بالإيمان . وقوله : « لَيَقُولُوا » أى : الشرفاء « أَهْوَلاءٌ » أى المستضعفون ، « مَنْ اللَّهٌ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا » أى : بشرف الإيمان ، مع أن الشرفاء على زعمهم ، أولى بكل شرف ، فلو كان شرفاً لا انعكس الأمر ، فهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق ، والسبق إلى الخير ، كقولهم : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)^(١) .

ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منَّ عليهم بنعمة الإيمان ، لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة ، فيشكرونها حق شكرها . وأما أولئك ، فلا يعرفون قدرها ، فلا يشكرونها ، بقوله سبحانه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » ؟ فهو ردُّ لقولهم ذلك ، وإبطال له ، وإشارة إلى أن مدار استحقاق الإنعام ، معرفة شأن النعمة ، والاعتراف بحق المنعم . كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن ، والتوفيق للإيمان ، شاكرون له تعالى على ذلك ، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله - مالا يخفى .

قال الحافظ ابن كثير : إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ ...)^(٢) الآية - وكما سأل هرقل^(٣) ملك الروم أباسفيان - حين سأله عن تلك المسائل - : (فأشراف الناس

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ .

(٢) [١١ / هود / ٢٧] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(٣) انظر صحيح البخارى في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث ٧ ، عن أبى سفيان لما أرسل إليه هرقل في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآذ فيها أباسفيان وكفار قريش ، فاتوه =

يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال : هم أتباع الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون
 عن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرعون عليه منهم ، وكانوا يقولون : (أَهْوَاءُ مَنْ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) كقوله : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ^(١) . وكقوله تعالى : وَإِذَا تُلِيَتْ
 عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ
 نَدِيًّا ^(٢) ؟ قال الله تعالى في جواب ذلك : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَمْثَلًا
 وَرِثِيًّا ^(٣) وقال في جوابهم هنا : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ، أى : له بأقوالهم وأفعالهم
 وضماؤهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم
 إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
 الْمُحْسِنِينَ ^(٤) .

وفي الحديث الصحيح ^(٥) : إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن
 ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

= وهم بإيلاء فدعاهم في مجلسه ... وهو حديث طويل يوجه فيه هرقل إلى أبي سفيان عما يعلمه
 أبو سفيان عن رسول الله ﷺ . لا يفت مسلماً الاطلاع على هذا الحديث فإن فيه خيراً كثيراً .
 (١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ
 خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٧٣] .

(٣) [١٩ / مريم / ٧٤] .

(٤) [٢٩ / المنكبات / ٦٩] .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٣٣ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم
 ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى صدره .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
 حديث رقم ٧٨١٤ (طبعة المعارف) .

وروى ^(١) ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم ابن عدي ، والحريث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف ، من الكفار ، إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعسقاؤنا - كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، وتصديقنا له . فأتى أبو طالب النبي ﷺ ، فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك ، حتى تنظر ما الذي يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ! فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) ^(٢) . إلى قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . قال : وكانوا : بلال وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وصبيح مولى أسيد . ومن الحلفاء : ابن مسعود ، والقناد بن عمرو ، ومسمود بن القاري ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمر بن عبد عمرو ذوالشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد = وأبو مرثد من غني ، حليف حمزة بن عبد المطلب = وأشباههم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ) ... الآية - فلما نزلت أقبل عمر ، فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ...) ^(٣) الآية .

تنبيهات وفوائد

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية :

١ - أن الواجب في الدعاء بالإخلاص به ، لأنه تعالى قال : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) - هكذا قال الحاكم - وهكذا جميع الطاعات ، لاتكون لغرض الدنيا . قال النفس الزكية عليه السلام :

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير .

(٢) [٦ / الأنعام / ٥١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٤] .

إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه، وجب عليه أن يسلم الأمر له . فإن لم يفعل ذلك فسق ، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا .

٢ - ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء ، فلذلك خصهما بالذكر .

٣ - ودلت على أن الفضل بالأعمال . وما خرج من المفاضلة من غير أمر الدين ، كالكفاءة في النكاح ، فذلك لمخصص ، نحو قوله عليه السلام ^(١) : العرب بعضها أكفاء للبعض .

٤ - ودلت على أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره ، وهي كقوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ^(٢) . وقد تقدم ما ذكر فيما ورد أن الميت ليمدّب بيبكاء أهله ، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك .

٥ - ودلت على أن حديث النفس لا يؤاخذ به ، لأنه قد روى أنه ﷺ قد همّ بذلك .

٦ - ودلت على أن الفقر لا يؤثر في حال المؤمن . وقد ورد في الحديث ^(٣) عنه ﷺ : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة . وروى أن آخر من يدخل الجنة

(١) أخرجه في الجامع الصغير ، عن عائشة في السنن للبيهقي . ونصه : العرب للعرب أكفاء . والموالى أكفاء للموالى ، إلا حائك أو حجام .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَاقِبَتَهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) أخرجه الترمذی في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٣٧ - باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء ، بخمسةائة عام ، نصف يوم » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من الصحابة عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله . وروى أن علياً عليه السلام لم يخلف شيئاً بعد وفاته - هكذا في التهذيب - انتهى .

أقول : الحديث الأول ، رواه الترمذی عن أبي هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وأما حديث : آخر من يدخل الجنة من الصحابة ... الخ فلم أجده بهذا اللفظ .

وقد روى البزار وأبو نعيم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف . والذي نفس محمد بيده ! لن يدخلها إلا جبراً . قال السيوطي : إسناده ضعيف - كذا في (منتخب كنز العمال) في ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، في (فضائل الصحابة) .

٧ - هذا ، وقال ابن الفرس : قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكر الناس بالله وأموال الآخرة في جامع أو طريق أو غيره . قال : وقد اختلف المتأخرون في مؤذن يؤذن بالأسحار ، ويتهل بالدعاء ، ردّد ذلك إلى الصباح ، وتأذى به الجيران ، هل يمنع ؟ واستدل (من قال : لا يمنع) بهذه الآية ، وبقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ^(١) ... الآية . انتهى .

٨ - قرأ ابن عامر « بالقدوة » بالواو وضم الغين ، هنا وفي سورة الكهف ، والباقون بالألف وفتح الغين . وهي قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء المطاردی وغيرهم . قال أبو عبيد : قرأ ابن عامر وأبو عبد الرحمن السلمي (بالقدوة) ، وقرأ العامة (بالفداء) وزاها قرأ ذلك اتباعاً للخط ، لأنها رسمت في جميع المصاحف بالواو ، كالصلاة والزكاة ،

(١) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وليس ، في إثباتهم الواو في الكتابة، دليل على أنها القراءة ، لأنهم قد كتبوا (الصلاة والزكاة) بالواو ، ولفظهما على تركها ، فكذلك (الغداة) ، على هذا وجدنا ألفاظ العرب . انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : الوجه قراءة العامة (بالغداة) ، لأنها تستعمل نكرة ، فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها . فأما (غدوة) فمعرفة ، وهو علم صيغله ، وحينئذ فيمتنع دخول لام التعريف عليه ، كسائر المعارف ، وكتابتها بالواو لا تدل على قولهم . انتهى .

قال الشهاب مجيباً ومناقشاً : إن (غدوة) وإن كان المعروف فيها أنها علم جنس ، ممنوع من الصرف ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته ، فلا تقول : غدوة يوم الخميس - كما قال الفراء - ولكنه سمع اسم جنس أيضاً ، منكراً مصروفاً ، فتدخله اللام ، وقد نقله سيبويه في كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو ، فلا عبرة بقول أبي عبيد أن من قرأ بالواو خطأ ، وأنه اتبع رسم الخط ، لأن الغداة تكتب بالواو ، كالصلاة والزكاة ، وهو علم جنس ، لا تدخله الألف واللام ، والمُخَطَّى مُخَطَّى ، لما مر . وقد ذكر المبرّد عن العرب تنكيره وصرفه ، وإدخال الألف واللام عليه ، إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوقوعه في القراءة المتواترة حجة ، فلا حاجة إلى ما قيل : إنه علم ، لكنه نكر ، لأن تنكير علم الجنس لم يعهد . ولا أنه معرفة ، ودخلته اللام لمشكلة العشي . كما في قوله : رأيت الوليد بن يزيد مباركاً ، إذ قال (اليزيد) المجاورة الوليد . ومنه تعلم أن المشكلة قد تكون حقيقة . انتهى .

٩ - في القاموس : الغدوة بالضم ، البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس كالغداة . والعشي والعشية : آخر النهار .

وفي الصحاح : من صلاة المغرب إلى العتمة .

وقال الأزهرى : يقع العشي على ما بين الزوال والغروب .

١٠ - جعل الزخشرى (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور ، حيث قال : ومثل ذلك

الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض ، أى: ابتليناهم بهم . وعبر عنه بذلك، إيداناً بتفخيمه . كقولك : ضربت زيداً ذلك الضرب . ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه ، لأن المثل ليس بمراد ، إنما جرى به مبالغة ، كما يقال (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة . يعنى: أن التشبيه كما يحمل كناية عن الاستمرار ، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله ، كما أشار إليه شراح الحماسة فى قوله :

هكذا يذهبُ الزمانُ وَيَفْتَنِي اله لمُ فيه ويدرسُ الأثرُ

والاستمرار يقتضى التحقق والتقرر ويستلزمه ، فجعل فى أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم . وكونه عظيماً مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة . ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه ، بل المراد لازمه الكنائى أو المجازى . والزخشرى ، لما فى هذا الوجه من البلاغة والدقة ، اختاره فيما ورد فيه كذلك - كذا فى (العناية) - .

وقال أبو السعود : (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل ، ومحلّه فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكّد محذوف . والتقدير : فتنا بعضهم ببعض فتوناً كائناً مثل ذلك الفتون ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، فصار نفس المصدر المؤكّد ، لا نعتاً له . والمعنى : ذلك الفتون الكامل فتناً .

قال الشهاب : هذا الإقحام للمبالغة، مطرد فى عُرف العرب والمعجم . انتهى .

وقيل : الكاف ليست بزائدة ، والمشار إليه هو المشبه به ، الأمر المقرر فى الذهن ، والمشبهه ما دل عليه الكلام من الأمر الخارجى ، والمبالغة إنما يفيدها الإيهام ذهنى والتفسير بقوله : (فتناً) ، وهو ما يعلمه كل أحد من الفتن من هو - انظر (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله تعالى «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام .

قال البيضاوي : وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن ، واتباع الحجج ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة ، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم ، أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم بسمعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهي عن طردهم ، إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل . ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد ، ويعز ولا يُذَل ، ويبشّر من الله بالسلامة في الدنيا ، والرحمة في الآخرة . انتهى .

وسلف عن ابن جرير^(١) أنها نزلت في عمر رضى الله عنه . وأخرج القرطبي وابن أبي حاتم عن ماهان ، قال : جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فاردّ عليهم شيئاً ، فأُتِل الله : (وَإِذَا جَاءَكَ ...) الآية . ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك ، وربما تعدد الوقائع المشتركة في حكم واحد ، فتُزل الآية بياناً لكل . وتقدم لنا في مقدمة هذا التفسير ، في بحث سبب النزول ، أن قول السلف : نزلت في كذا ، قديقهصدون به أن واقعة مما شملها لفظ الآية ، لنزولها إثرها ، فتذكره ، وأجل فكرك في أطرافه ، فإنه مهم جداً . وبمعرفته يندفع إشكال الرازي الذي قرره هنا .

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير (انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٢٩) .

وقوله تعالى : (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أى : أوجبها على ذاته المقدسة ، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً .

وقوله : (أَنَّهُ مِّنْ عَمَلٍ) الخ بدل من (الرَّحْمَةَ » . وقرئ بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف .

وقوله : (بِجَهَالَةٍ) فى موضع الحال ، أى : عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان : أحدهما - أنه فاعل فعل الجهلة ، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومنه ^(١) قول قول الشاعر :

على أنها قالت عشية زُرْتُهَا جهلت على عمدٍ ولم تكُ جاهلاً

والثانى - أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته - كذا فى الكشف - .

(١) استشهد به الزمخشريّ فى الكشف وقال :

وفيه معنيان : أحدهما أنه فاعل فعل الجهلة . لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر . أى : جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته .

وقال شارحه : ولا يشتري اللحم بالجهل ، ولا الأناة بالطيش ، ولا الرفق بالخرق ،

كما قال :

فإن تزعمنى كنت أجهل فيكم فإني شريت اللحم بعدك بالجهل

وإن لم يكن كذلك ، يصدق عليه أنه من أكبر الجهال ، والمار أفضل منه . انتهى .

فعلى الأول ، الجهل : بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب ، كما فى قوله ^(١) :

* فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ *

وكانت العرب تتمدح به ، فلا حاجة لتقدير مفعول .

وعلى الثانى ، المراد : الجهالة بمضار ما يفعله .

وقوله تعالى (وَأَصْلَحَ) أى : العمل . كقوله (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) ^(٢) .

وروى الإمام أحمد والشيخان ^(٣) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما قضى الله على الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى .

تنبيه :

نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال : دلت الآية على وجوب تعظيم المؤمنين .

(١) هذا البيت السادس والتسعون من معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو آخرها . وصدره :

* أَلَا ، لَا يَجْهَلُنْ أَحَدُهُ عَلَيْنَا *

قال التبريزى : معناه نهلك ونعاقيه بما هو أعظم من جهله .

فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية

على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأخصر من

اختلافهما .

ومطلع القصيدة :

أَلَا هُبِّىْ بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِ خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] ونصها : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .

فَأُولَئِكَ يَبْدَلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) بالصفحة ٢٢٥٥ وفيها سردنا جميع روايات هذا الحديث ،

كما جاءت فى كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخارى) .

ودلت على أنه ينبغي إنزال المسرة بالمؤمن ، لأنه أمر بأن يقول لهم (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ) لتطيب قلوبهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَكَذَٰلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ » أى : آيات القرآن ، فى صفة المطيعين والمجرمين . ومر قريباً الكلام على (كذلك) « وَلِتَسَتَّبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل . وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره ، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور ، لم يقصد تعليقه بها بعينها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر . أو علة لفعل مقدّر ، هو عبارة عن المذكور ، فيكون مستأنفاً . أى : ولتستبين سبيلهم فعمل ما نفع من التفصيل . وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متمم ، وتأوّه للخطاب . أى : ولتستوضح أنت ، يا محمد ! سبيل المجرمين ، فتعاملهم بما يليق بهم - أفاده أبو السعود - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : تعبدونه أو تسمونه آلهة . ثم كرر الأمر تأكيداً لقطع أطاعهم بقوله تعالى « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » أى : فى عبادة الأصنام ، وطرد من ذكر .

ثم قال البيضاوى : هو إشارة إلى الموجب للنهى . وعلة الامتناع عن متابعتهم ، واستجھالهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوى ، وليس بهدى . وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . انتهى .

« قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا » أى : إن اتبعت أهواءكم ، لخالفه الأمر الإلهي والعقل جميعاً .
« وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى : لاحق إن اتبعت ما ذكر . وفيه تعريض بأنهم كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ،
إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

« قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى ،
لا يمكن التشكيك فيها « وَكَذَّبْتُمْ بِهِ » استئناف أو حال ، والضمير للبينة . والتذكير
باعتبار المعنى المراد . أعنى : الوحي ، أو القرآن ، أو نحوها . « مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ »
أى : من العذاب .

قال أبو السعود : استئناف مبين لخطئهم فى شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بالبينة ،
وهو عدم مجيئ ما وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم (مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١) بطريق الاستهزاء ، أو بطريق الإلزام ، على زعمهم . أى : ليس
ما تستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن ، وتعملون تأخره ذريعة إلى تكذيبه ، فى حكمي
وقدرتي ، حتى أجىء به ، وأظهر لكم صدقه . أو ليس أمره بمفوض إلى .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى : لو كان عندي لكنت أنا الحاكم ، لكن ما الحكم فى ذلك
تمجيلاً وتأخيراً إلا لله ، وقد حَكَمَ بتأخيره ، لما له من الحكمة العظيمة ، لكنه عمق الوقوع
لأنه « يَقْضِ الْحَقُّ » أى : يبينه بياناً شافياً ، « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أى : القاضين بين
عباده .

(١) [١٠ / يونس / ٤٨] ونصها : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لطيفة :

قرئ « يَقْضِ الْحَقَّ » ^(١) بالضاد ، وانتصاب الحق على المصدرية ، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه . أو على المفعولية ، بتضمين (يقضى) معنى (ينفذ) ، أو هو متعمد من (قضى الدرع) إذا صنعها . قال الهذلي ^(٢) :

وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أوصنع السوابع تبّع

(١) قال الإمام النسفي في تفسيره (مدارك التنزيل) :
(يقص) حجازي وعاصم . أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره . من (قص أثره) .

الباقون (يقض الحق) أى : القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل .
فالحق صفة لمصدر (يقض) . وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين .

(٢) قاله أبو ذؤيب الهذلي من قصيدته التي مطلعها :
أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبُهَا تَتَوَجَّعُ والدهر ليس بمُعْتَبٍ مِنْ يَجْزَعُ
قالها وقد هلك له خمسة بنين في عام واحد ، أصابهم الطاعون .
وفي رواية : وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم ماتت فيه ، فهاكوا في يوم واحد .

الضمير في (وعليهما) عائد إلى بطلين سبق وصفهما قبل هذا البيت .
(مسرودتان) أى : درعان مخروزتان أو منسوجتان . من (السرد) وهو الخرز .
وقيل : النسج ، وهو تداخل الخلق بعضها في بعض .

تبّع من ملوك حير كانت تنسب إليه الدروع التبعية . وذكر الأصمعي ما يفيد أن أبا ذؤيب قد غلط في هذا ، فقال : إنه (أى أبا ذؤيب) سمع بالدروع التبعية فظن أن تبعا عملها . وكان تبّع أعظم شأنًا من أن يصنع شيئًا بيده . وإنما علمت بأمره وفي ملكه .
(قضاها) أى : فرغ منهما داود النبي عليه السلام .
(الصنّع) الحاذق بالعمل ، والمرأة صنعاء .

قال الرازى : واجتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قال :
والفصل يكون فى القضاء ، لاقى القصص . وأجاب أبو على الفارسى فقال : القصص ههنا
بمعنى القول ، وقد جاء الفصل فى القول . قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)^(١) . وقال
(أَحْكِمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّاتٌ)^(٢) ، وقال : (نَفَصِّلُ الْآيَاتِ)^(٣) . انتهى .
قال الشهاب : معنى (يقصه) أى يبينه بياناً شافياً ، وهو عين القضاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ)

« قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ » أى : لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تستعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً
إلى من قبلكم تعالى ، لقضى الأمر بينى وبينكم ، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم .
وفى (العناية) : قضى الأمر بمعنى قطع . وقضاؤه كناية عن إهلاكهم .

قال أبو السعود : وفى بناء الفعل للمفعول من الإيدان بتعيين الفاعل ، الذى هو الله تعالى ،
وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب - مالا يخفى . فاقيل فى تفسيره : لأهلكتمكم

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣] .

(٢) [١١ / هود / ١] ونصها : الر ، كِتَابُ أَحْكِمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّاتٌ مِنْ لَدُنْ
حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

عاجلاً ، غضباً لربي ، وافتصاصاً من تكديكم به ، ولتخلصت سريعاً - بمزل من توفية المقام حقه .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية ، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه ﷺ ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر ، وتعليل له . والمعنى : والله تعالى أعلم بحال الظالمين ، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج ، لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إلى ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب . انتهى .
تنبيه :

قال ابن كثير : فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين ^(١) عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ليلى بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن ^(٢) الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني . فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فناداني ملك الجبال ، وسلم عليّ ، ثم قال : يا محمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال . وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ! فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين في السماء ، فوافقت إحداها الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، الحديث رقم ١٥٢٥ .
وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

(٢) قال ياقوت في (معجم البلدان) :

وقال القاضي عياض : قرن المنازل ، وهو قرن الثعالب ، ميقات أهل نجد ، تلقاء مكة على يوم وليلة .

وهذا لفظ مسلم : فقد عرض عليه عذابهم واستئصأهم فاستأناهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلاهم من لا يشرك به شيئاً .

فالجواب : - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه ، حال طلبهم له ، لأوقمه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال ، أنه ، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة ، يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم ، وسأل الرفق لهم . انتهى .

ثم بين تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به ، من حيث العلم ، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » جمع (مفتاح بكسر الميم ، وهو المفتاح) وقرئ (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) شبه بالأمور الجليلة التي يستوثق منها بالأفعال ، وأثبت لها المفاتيح تخيلاً .

وقوله تعالى : « لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » تأكيد لمضمون ما قبله ، وإيدان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم . والمعنى : ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لي ، حتى أؤلمكم بتعجيله ، ولا معلوماً لدى لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً ، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم والمصالح - أفاده أبو السعود - .
ثم لما بين تعالى تعلق علمه بالغيبات ، تأثره بالمشاهدات ، على اختلاف أنواعها ، وتكثر أفرادها بقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » من الخلق والعجائب . ثم بالغ في إحاطة علمه

بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى : مكتوب ومحفوظ في العلم الإلهى .

تنبيهات

الأول - قال الحاكم : دلّ قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب . انتهى .

وفى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من مدعى الكشف والإلهام ، ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع الخذولة ، ولم يرجحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق عليه السلام^(١) : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد .

قال ابن مسعود : أوتى نبيكم كل شئ إلا مفاتيح الغيب .

قال ابن عباس : إنها الأقدار والأرزاق .

وقال الضحاك : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب .

وقال عطاء : هو ما غاب عنكم من الثواب والمقاب .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها ، أو كاهناً فصدقه ، فقد برىء مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام . وأخرجه ابن ماجه فى : ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٢ - باب النهى عن إتيان الحائض ، الحديث رقم ٦٣٩ (طبعتنا) .

وقيل : هو انقضاء الآجال ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم .
واللفظ أوسع من ذلك .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ^(١) : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها

(١) لتمدّد روايات هذا الحديث، ولاختلاف بعض ألفاظ فيها ، نأنا مضطرين إلى سرد

جميعها عن كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخاري) والحديث رقم ٥٧٩ . وهو برقم ٧٢ من
مسند عبد الله بن عمر . وهاكـو نصوص رواياته :

١٥ - كتاب الاستسقاء ، ٢٩ - باب لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله .

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون
في غد . ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام . ولا تعلم نفس ماذا تسكب غدا . وما تدرى
نفس بأى أرض تموت . وما يدرى أحد متى يجيء المطر » .

٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ١ - باب وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو .

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله . حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله
عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم
الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تسكب غدا وما
تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

٦٥ - كتاب التفسير ، ١٣ - سورة الرعد ، ١ - باب إن الله يعلم ما تحمّل كل أنثى .

حدثني إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن قال : حدثني مالك عن عبد الله بن دينار ، عن
ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها
إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر
أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . =

إلا الله تعالى . لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله . ولا يعلم أحدا ما يكون في الأرحام إلا الله . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يدري أحد متى يحيى المطر - أخرجه البخارى - وله ألفاظ . وفي رواية : ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله . انتهى .

الثانى - قرىء (ولا حبة ولا رطب ولا يابس) بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء ، وخبره (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار - كذا في الكشف - .

الثالث - ما أسلفناه في (الكتاب المبين) من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أيما ورد . وقيل : الكتاب المبين علم الله تعالى . والأظهر الأول .

قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق ، كما قال عز وجل : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) ^(١) وفائدة هذا الكتاب أمور :

= ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣١ - سورة لقمان ، ٢ - باب إن الله عنده علم الساعة .

حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر ؛ أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ : إن الله عنده علم الساعة .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٤ - باب قول الله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا .

حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .
(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أحدها - أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ ، لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم ، فيجدونه موافقاً له .

وثانيها - يجوز أن يقال : إنه تعالى ذكر ما ذكر ، من الورقة والحبة ، تنبيهاً للمكفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف ، فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها - أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام ، امتنع أيضاً تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كِتَابَةٍ جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجباتاً تاماً ، وسبباً كاملاً في أنه يمتنع تقدم ما تأخر ، وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه (١) : جف القلب بما هو كائن إلى يوم القيامة . انتهى .

الرابع - روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا) قال : مامن شجرة في بر ولا بحر ، إلا ملك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٨٥٤ م (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم في ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء ثم ألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأ يومئذ ضل . فلذلك قلت : جف القلم بما هو كائن » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ، ولا كغريز إبرة ، إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها . يبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت . وكذا رواه ابن جرير ^(١) .
وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي ، ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ...) إلى آخر الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)
« وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » أي : يُنِيمُكُمْ فِيهِ . استعير (التوفي) من الموت للنوم ، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ، فإن أصله قبض الشيء بتمامه .
« وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ » أي فيه . ويُخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب ، جرياً على المعتاد . « ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ » أي : يوقظكم . أطلق البعث ترشيحاً للتوفي « فِيهِ » أي : في النهار ، « لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى » أي ليمت مقدار حياة كل أحد .
« ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أي : رجوعكم بالبعث بعد الموت ، « ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أي : في ليلكم ونهاركم ، بالمجازاة عليه ، بمبالغة في عدله .
تنبيهان :

الأول - ظاهر الخطاب في الآية على العموم . وخصه في (الكشاف) بالكفرة ، ذهاباً إلى

أن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يدل على تهديد شديد ، لا يليق إلا

(١) الأثر رقم ١٣٣٠٨ من التفسير .

بالمعاندین الجاحدين ، وأن المقصود بیان حالهم المذمومة في الليل . كما أن قوله : (مَا جَرَحْتُمْ) بیان حالهم المذمومة في النهار . وحمل (البعث) لا على الإيقاظ ، بل على البعث من القبور . و (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك : فيم دعوتني ؟ فتقول : في أمر كذا . والمعنى : أنكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار . وأنه تعالى مطلع على أعمالكم ، يبعثكم من القبور في شأن ما قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ليقضى الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى ، وجزائهم على أعمالهم . والذي حمّله على ذلك ، زعمه أن قوله (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) دالّ على حال اليقظة ، وكسبهم فيها . وكلمة (ثم) تقتضى تأخير البعث عنها .

قال شراحه : ولا يخفى مافيه من التكلف ، وأنه لا حاجة إليه ، لأن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) إشارة إلى ما كسب في النهار السابق على ذلك الليل ، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفى ، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفى . وإن قولنا (يفعل ذلك التوفى لنقضى مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام .

الثانى - قال الشريف المرتضى في (الدرر والغرر) فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو (إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) : كيف ترجع إليه ، وهى لم تخرج من يده ؟ وأجاب : بأنه في دار التكليف قد يغير البعض ، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره ، فإذا انكشف الغطاء ، انقطعت حبال الآمال عن غيره ، فيرجع إليه . أو أن المراد أن الأمور في يده من غير خروج ورجوع حقيقى . فـ (رجع) بمعنى (صار) . تقول العرب : رجع على من فلان مكروه ، بمعنى صار ، ولم يكن سبق . فهو بمعنى المصير إليه ، كما تشهد به اللغة . أو أنه في دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهراً كالعبد لسيده ، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة ، زال ذلك ، ورجع الأمر كله إلى الله ، ظاهراً وباطناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » قد مرّ تفسيره ، وأنه المتصرف في أمورهم لا غيره ،

يفعل بهم ما شاء .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » أى : ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وهم الكرام الكاتِبُونَ^(١) ، كقوله : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) وقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)^(٢) الآية .

لطيفة :

الحكمة في ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي . وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدeme المطلقين عليه - أفاده القاضي - .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ » أى : أسبابه ومباده « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » أى : ملائكة موكلون بذلك ، « وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ » أى : بالتواني والتأخير . وقال ابن كثير : أى : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عز وجل ، إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار فى سجين .

(١) يشير إلى قوله تعالى : [٨٢ / الانفطار / ١٠ و ١١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *

كَرَامًا كَاتِبِينَ .

(٢) [٥٠ / ق / ١٧] ... عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

« ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ » أى : الذى يتولى أمورهم . و (الْحَقَّ) : العدل الذى لا يحكم إلا بالحق . قال ابن كثير : الضمير للملائكة . أو للخلائق المدلول عليهم (بأحد) . والإفراد أولاً ، والجمع آخرًا لوقوع التوفى على الانفراد ، والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)^(١) . وقال : (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)^(٢) إلى قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال (مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ) .

« أَلَا لَهُ الْحُكْمُ » يومئذ لا حكم فيه لغيره ، « وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » يحاسب الخلائق في أسرع زمان .

فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام^(٣) أحمد عن سعيد ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الميت تحضره

(١) [٥٦ / الواقعة / ٥٠ و ٤٩] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٧ - ٤٩] ونصها : وَيَوْمَ نُسَبِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

(٣) رواه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون ، مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث . اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ! فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث . ارجعي ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب .

الثانية - قال بعض أهل الكلام : إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم . فأما الروح التي تحيا بها النفس ، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل . والمراد بالأرواح ، الماني والقوى التي تقوم بالحواس ، ويكون بها السمع والبصر ، والأخذ والمشى والشم . ومعنى (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى : يوقظكم ، ويرد إليكم أرواح الحواس ، فيستدل به على منكرى البعث ، لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس ، ثم يردّها إليها . فكذا يحيي الأنفس بعد موتها - نقله النسفي - .

الثالثة - قال الخازن : فإن قلت : قال الله تعالى في آية : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)^(١)

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وقال في آية أخرى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)^(١) ، وقال هنا : (تَوَفَّيْتُهُ رُسُلُنَا) ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ .

قلت : وجه الجمع أن المتوفى في الحقيقة هو الله تعالى . فإذا حضر أجل العبد ، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، والملك الموت أعوان من الملائكة ، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده . فإذا وصلت إلى الحلقوم ، تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع .

قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت ، مثل الطشت ، يتناول من حيث شاء . وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم . انتهى .
ثم أمر تعالى أن يبيك المشركون بأخطايتهم عما زعموا لها ، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ » أى : شدائده ، كخوف العدو ، وضلال الطريق ، « وَالْبَحْرِ » كخوف الفرق ، والضلal ، وسكون الريح . استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتها في الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب . أى : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

« تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا » أى : تذللًا إليه ، تحقيقًا للعبودية ، « وَخُفْيَةً » بضم الخاء ،

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

وقرى بكسرها . أى : سرّاً ، تحقيقاً للإخلاص . « لَئِنْ أَنْجَيْنَا » حال من الفاعل بتقدير القول . أى : قائلين ، وعداً بالشكر ، لئن أنجيتنا « مِنْ هَذِهِ » أى : الشدة المبر عنها بالظلمات ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى : لك ، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثم أمره تعالى بالجواب تنبيها على ظهوره وتعينه عندهم ، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله : « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ » أى : من غير شفاعاة أحد ولا عون ، « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » أى : ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها ، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقاً بالقسم ، تشركون ، بعبادته والثناء عليه ، غيره . وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة ، إلى شفاعاة الشريك ، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر .

تنبيهات

الأول - ما قدمناه من أن ظلمات (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، هو ما قاله

المحققون .

قال الرازى : ومنهم من حمله على حقيقته فقال : أما ظلمات البحر ، فهى أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة ، والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص ، وعظم الخوف . وأما ظلمات البر ، فهى ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب . والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد ، لا يرجع

الإنسان إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً ، لأن الإنسان في هذه الحالة معظم إخلاصه في حضرة الله تعالى ، وينقطع رجأؤه عن كل ما سوى الله تعالى . وهو المراد من قوله (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) . فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة ، والخلقة الأصلية في هذه الحالة ، بأنه لا ملجأ إلا الله ، ولا تمويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ولكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب ، ويقدم على الشرك . ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن في إلهية الأصنام والأوثان .

ثم قال الرازي رحمه الله ، وأنا أقول : التعلق بشيء مما سوى الله في طريق العبودية ، يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، ولذلك فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفي . انتهى .

الثاني - قال بعض المفسرين : دل قوله تعالى : (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) على أن دعاء السرّ أفضل . قيل : وكان جهر النبي ﷺ بالدعاء ليعلم غيره . انتهى . وهذا بناء على أن قوله تعالى : (تَضَرُّعًا) تذلاً ، لا جهراً . وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهراً وسراً ، ولمسه الصواب . فإن الميان يؤيده ، إذ لا يمالك من اشتد عليه الأمر ، وأظلم عليه طريق الخلاص ، على الافتصار على دعاء السر وحده - والله أعلم - .

وفي القاموس وشرحه : تضرع إلى الله تعالى ، أي : ابتهل وتذلل . وقيل : أظهر الضراعة ، وهي شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى . ومنه قوله تعالى : (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) أي : مظهرين الضراعة ، وحقيقة الخشوع . انتهى .

الثالث - المراد بالكرب ما يعم ما تقدم ، ولا محذور في التعميم بعد التخصيص ، لكثرة وروده . أو ما يعتري المرء من العوارض النفسية التي لا تنهاى ، كالأمراض والأسقام ،

وما قيل : إن المراد بالأول كرب مخصوص ، أو الأولى نعمة رفع ، وهذه نعمة دفع ، وأنه من قبيل (متقلداً سيفاً ورحماً) - تكلف لا داعي له - كذا في (العناية) - .

الرابع - وضع (تشركون) ، موضع (لا تشكرون) الذي هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله : (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لأن إشرأكلهم تضمن عدم صحة عبادتهم ، وشكرهم لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه . إذ التوحيد ملاك الأمر ، وأساس العبادة ، فوضعه موضعه توبيخاً لهم ، لعدم الوفاء بالعهد . ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم ، تنبيهاً على استبعاد الشرك في نفسه - كذا في (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

« قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ » قال الهامى : أى : قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر : إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها ، لاستمرار منشأ الخوف ، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها . إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم ، كإمطار النار أو الحجارة ، أو إسقاط السماء .

« أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ » كالخسف والظوفان ، « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا » أى : يخلطكم فرقاً خلط اضطراب ، فيجعلكم متحزبين مختلفين فى القتال ، بأن يقوى أعداءكم « وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ » أى : شدة « بَعْضٍ » يعنى : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى : نحوّها من نوع إلى آخر . « لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ »
أى : يفهمون ويعتبرون ، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم .

تنبيهان :

الأول - روى البخارى^(١) عن جابر رضى الله عنه قال . لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك !
(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك ! (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هذا أهون ، أو هذا أيسر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس ما يفسر به حديث جابر ، ولفظه : عن النبي ﷺ قال : دعوت الله أن يرفع عن أمّتي أربعاً ، فرفع عنهم ثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيْعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين . فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ، ويسأس له أيضاً بقوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ)^(٢) .

وروى الإمام^(٣) مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية ، حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلىنا معه ، ودعا ربه طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة . سألت

- (١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٢ - باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية . الحديث رقم ٢٠٠٢
- (٢) [١٧ / الإسراء / ٦٨] ... حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا .
- (٣) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

ربى أن لا يهلك أمتى بالسنة ، فأعطانيها . وسألته أن لا يهلك أمتى بالفرق ، فأعطانيها .
وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فنعمنيها .

وروى الإمام أحمد^(١) من حديث أبي بصرة نحوه ، لكن قال (بدل خصلة الإهلاك) ،
أن لا يجمعهم على ضلالة^(٢) . وكذا الطبري^(٣) من مرسل الحسن .

قال الخفاجي : فإن قلت : كيف أجبت الدعويان ، وسيكون خسف بالشرق وخسف
بجزيرة العرب ؟ أى : كما رواه الترمذي^(٤) وغيره ؟

قلت : الممنوع خسف مستأصل لهم . وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ،
ولأنهم بعد تبليغه ﷺ لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله . انتهى .

وقد روى أحمد والترمذي^(٥) من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن هذه الآية : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ... » الخ ، فقال : أما إنها كائنة ، ولم يأت
تأويلها بعد . قال الحافظ ابن حجر : وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر ، بأن المراد بتأويلها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) الأثر رقم ١٣٣٧٥ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذي فى : ٣١ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب ما جاء فى الخسف ونصه :
عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن
نتذاكر الساعة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات :
طلوع الشمس من مغربها وبأجوج ومأجوج والدابة وثلاثة خسوف . خسف بالشرق
وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس (أو تحشر
الناس) فتبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

(٤) أخرجه الترمذي فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٣ - حدثنا

الحسن بن عرفة .

ما يتعلق بالفتن ونحوها . انتهى . أى : مما ستصدق عليها الآية ، ولما تقع بالمسلمين . فقوله : إنها كائنة ، أى : فى المسلمين ، لا أنها خطاب لهم ، وزولها فيهم - كما وهم - إذ يدفعه السياق والسباق ، وتتمة الآية - كما لا يخفى - وسنزيده بيانا .

الثانى - ماروى عن ابن عباس من أنه كان يقول فى قوله تعالى : (عَذَابًا مِّنْ قَوْفِكُمْ) يعنى أئمة السوء (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يعنى : خدم السوء . رواه ابن جرير^(١) وابن أبى حاتم . فإن صح عنه ، فراده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك . لأن العذاب كل مامر^(٢) (من المارة) على النفس ، وشق عليها ، لا أن ذلك هو المراد من الآية ، لنبوّه عن مقام التهويل ، فى شديد الوعيد ، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ ، ولعدم موافقته لنظائر الآية فى هذا الباب - كما لا يخفى - .

والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات فى بعض المقامات ، إشعاراً بأن معناها يحاكي تلك الوقعات ، لا أنها نزلت فى تلك القضايا . ومن ذلك قول أبى بن كعب ، قال فى هذه الآية : هن أربع خلال ، كلهن واقع ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين (أَلْبِسُوا شَيْعًا) و (ذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، وبقيت اثنتان لا بد منهما الرجم والخسف - رواه^(٣) أحمد وغيره - وقد أعلّ هذا الأثر بأن أياً لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، وكأن التقييد بذلك من كلام أبى العالية ، روايه عنه . وبالجملة ، فاستشهاد السلف بالآيات فى بعض الشؤون ، للإشعار المذكور - مما لا ينكر ، فافهم ذلك ، فإنه ينفعك فى مواطن كثيرة .

(١) الأثر رقم ١٣٣٤٩ من التفسير .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ » أى بالقرآن المجيد « وَهُوَ الْحَقُّ » أى الكتاب الصادق فى كل ما نطق به . « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى : لم يفوض إلىّ أمركم فأمّنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق . إنما أنا منذر ، وقد بلغت . وبعضهم أرجع الضمير فى (بِهِ) للعذاب . أى : كذب بالعذاب الموعود ، قَوْمُكَ الماعندون ، وهو الواقع لا محالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار ، لصدقه أو كذبه . « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : مستقر هذا النبأ ومآله ، وأن العاقبة له ، كما قال تعالى (وَتَعْلَمَنَ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ » أى : بالطمع والاستهزاء ، « فِي آيَاتِنَا » أى : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التى حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركى مكة ، فقد كان دينهم ذلك ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى فلا تجالسهم ، وقم عنهم ، « حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض فى آياتنا .

« وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ » بأن يشغلك فتنسى النهى عن مجالستهم ، « فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى : إن ينسيتك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهى ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالظمن فى الكلام المعجز ، عنادًا .

وفى الحديث ^(١) : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استسكروها عليه - رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعاً . وإسناده صحيح - وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ...) الآية ، لأن فى حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه ، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات . انتهى وقال الرازى : ومن الحشوية من استدلت بهذه الآية فى النهى عن الاستدلال والمناظرة فى ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض فى آيات الله ، والخوض فى آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض فى الآية ، الشروع فى الظمن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال - والله أعلم - .

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١١ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المسكرة والناسى ، حديث رقم ٢٠٤٥ (طبعنا) عن ابن عباس .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٠] ... إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أحكام :

الأول - وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ، ولرسول الله ﷺ . وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذاً ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذا كان وقوفه يوم عدم الكراهة .

الحكم الثانى - جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات . وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال : وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

الحكم الثالث - أن الناسى مرفوع عنه الحرج . فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلم أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر . فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النارقات ، يقال : إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله . واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدّثه الله في القلب . وقال أبوهاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروري الذى جرت العادة بحصوله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أي: وما يلزم التقين الذين يجالسونهم شيء عما يحاسبون عليه من خوضهم ، «وَلَكِنْ ذِكْرِي» أي: ولكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شيء من مطاعن المستهزئين في قلوبهم . «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أي : يبلغ مبلغ التوقى من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان

الأول - ما ذكرناه في معنى الآية ، هو ما قرره المهابي رحمه الله تعالى . وقيل : المعنى : ولكن على التقين أن يذكروهم ذكراً إذا سمعهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلا يمدون إليه . وجوزوا أن يكون الضمير (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ، أي : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزادوها . انتهى .
وما ذكرناه أسدً وأوجه .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر ، قال في الآية : أي ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك . أي : إذا تجنبتمهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالوصول كناية عن النبي ﷺ . التفت به تعظيماً وتكريماً .

الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ...) الخ على أن من جالس أهل النكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لكن آية النساء تدل على أنه آثم ، ما لم يفارقهم ، لأنه قال : (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ) ^(١) أي :

(١) [٤ / النساء / ١٤٠] ونصها : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ =

إن قعدتم فأنتم مثاهم فى الإثم، وهى متأخرة . فىحتمل أن تكون ناسخة لهذه ، كما ذهب إليه قوم منهم السدى . اهـ .

أقول : المنى فى الآية هو لحوق شىء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسهم المتقين ، فلا ىنافى ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلثة إذن فى مطلق الإثم ، وإن تباین (ماصدقه) فهما ، إذ لا قائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر . نعم ! لو قيل بأن المثلية محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجمله فاستدلال (الاكلیل) واه ، ولذا عبر بـ (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٧٠] (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » أى : الذى كلفوه ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، « لَعِبًا وَلَهْوًا » حيث سخروا به واستهزؤوا « وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » حيث اطمأنوا بها ، وزعموا أن لا حياة بعدها أبدًا ، وأن السعادة فى لذاتها . أى : أعرض عنهم ، ودعهم ، ولا تبال بتكذيبهم ، وأهلهم قليلًا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . « وَذَكَرَ بِهِ » أى : ذكر الناس بهذا القرآن « أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنكار الآخرة . يقال : أبسله لكذا : عرضه ورهنه ،

== ءآياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

أو أسلمه للهلكة . « لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ » ينصرها بالقوة « وَلَا شَفِيعٌ » يدفع عنها بالمسألة .

« وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا » أى : وإن تفد كل نوع من أنواع الفداء ، بما يقابل العذاب ، لا يقبل منها ، لبعدهم عن مقام الفداء . والعدل : الفدية ، لأن الفادى يعدل الفدى بمثله .

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهوياً « الَّذِينَ أُبْسِلُوا » أى : سلموا للهلاك ، بحيث لا يعارضه شيء ، « بِمَا كَسَبُوا » بهذا الاغترار من إنكار الآخرة معها ، والانهماك فى الشهوات المحرمة ، « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أى : ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ، « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بنار تشتعل بأبدانهم ، « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى : بسبب كفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
« قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » أى : أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا ، إن دعونا ، ولا ضررنا إن تركناه ، « وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا » عطف على (ندعو) ، داخل فى حكم الإنكار والنفي . أى : وزد إلى الشرك . والتعبير عنه بالرد على الأعقاب - لزيادة تقييده بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبت وراء الظهر - أفاده أبو السعود - .

(بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ » أى : للإسلام والتوحيد ، وأقننا من عبادة الأصنام ، فنصير

كالمستمر على الضلال ، بل « كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ » أى : استمالته عن الطريق الواضح مردة الجن ، « فِي الْأَرْضِ » القفر المهلكة ، « حَيْرَانَ » أى : تأنها ضالاً عن الجادة ، لا يدري كيف يصنع ، « لَهُ » أى : لهذا المستهوى « أَصْحَابٌ » أى : رفقة « يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » أى : إلى الطريق المستقيم ، « اثْنَيْنَا » على إرادة القول ، أى : يقولون اثنتا . أى : وهو قد اعتسف المهمة ، تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتهم . فشبه حال من خلص من الشرك ، ثم عاد له ، بحال من ذهبت به الردة في مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدري مقصده الذى هو سائر إليه ، مع وجود رفقة تناديه لتهديه ، وهو لا يسمع لهم . « قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ أَهْدَى اللَّهُ » أى : الذى أرسل به رسله ، « هُوَ الْهُدَى » أى : وما وراءه ضلال وغى ، « وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ)

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا » أى : فى مخالفة أمره . (وَأَنْ أَقِيمُوا) عطف على (لنسلم) . ومعناه : أن نسلم . فاللام فيه رديفة (أن) ، أو عطف عليه ؛ واللام تعليلية ، أى : للإسلام ، وإقامة الصلاة . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكياً بصيغته ، وورود (نسلم) محكياً بمعناه ، احتمال أن يكون صلى الله عليه وسلم حكى قول الله بمعناه ، دون لفظه . انظر (الاتصاف) .

تنبيه :

فى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع ، وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى - دليل على تفخيم أمرها ، وعظم شأنها - ذكره بعض الزيدية - . « وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة ، كقوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِاطِلَالٍ)^(١) .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ » بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع . والمراد بـ (القول) كلمة (كن) تحقيقاً أو تمثيلاً . فـ (قوله الحق) مبتدأ وخبر . و (يوم) ظرف لمضمون هذه الجملة . كقوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢) وكان قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ) الخ عقب قوله : (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) سيق للاحتجاج على قدرته تعالى على البعث ، ردّاً على منكرى ذلك من المشركين ، الذين السياق فيهم . وما أشبه الآية بقوله تعالى : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ...)^(٣) الآية .

ولا يخفى أن باستحضار النظائر القرآنية ، تنجلي الحقائق . وقد توسع المفسرون هنا في إعراب هذه الجملة ، بسرد وجوه ضاع الظاهر بينها - وقد علمته ، فاحرص عليه - .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] ... ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٣) [٣٦ / يس / ٨٢ و ٨١] .

« وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ » أى : فلا بد أن يفعل بالمطيع والمعصى فعل الملوك ، لمن يطيعهم أو يعصيههم . ذ (يوم) ظرف لقوله (وَلَهُ الْمُلْكُ) - قاله أبو السعود - وتقييد اختصاص الملك به تعالى ، بذلك اليوم ، مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات ، لغاية ظهور ذلك ، بانقطاع الملائق المجازية الكائنة فى الدنيا ، المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، كقوله تعالى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(١) . وقوله : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)^(٢) .

وقد زعم بعضهم أن المراد ب (الصور) هنا جمع صورة ، أى : يوم ينفخ فيها ، فتحي . قال ابن كثير : والصحيح أن المراد ب (الصور) القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وهكذا قال ابن جرير^(٣) : الصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال^(٤) : إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

وروى الإمام أحمد^(٥) عن عبد الله بن عمرو قال : إن أعرايبا سألا النبي ﷺ عن الصور؟

(١) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٦] ... وَكَانَ يَوْمًا عَلَى السَّكَافِرِينَ عَسِيرًا .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ٤٦٣ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

ونصه : عن أبى سعيد الخدرى أن النبي ﷺ كان يقول « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم الصور ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر » .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٨٠٥ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنّة ، ٢١ - باب فى ذكر البعث والصور ، =

فقال: قرن ينفخ فيه . ورواه أبو داود والترمذي والحاكم، عنه أيضاً .
 «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أى هو عالمهما، «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» ذو الحكمة فى
 سائر أفعاله . والعلم بالأمور الجليلة والخفية .
 ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكر لمن اتخذ دينه هزوا ولعبا إنكار إبراهيم عليه الصلاة
 والسلام- الذى يزعمون أنهم على دينه ، ويفتخرون به - على أبيه فى شركه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِزَّرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِزَّرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا» أى : صوراً مصنوعة ، «إِلَهَةً
 إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى : باعتقاد إلهيتها ، أو اتصافها بصفاته ، أو
 استحقاتها للعبادة ، لأن الإلهية بوجود الوجود بالذات . وهى ممكنة مصنوعة وأنى لها
 الاتصاف بصفاته ، وهى عاجزة عن النفع والضر، خالية عن الحياة والسمع والبصر، والعبادة
 غاية التذلل ، فلا يستحقها من لا يخلو عن هذه الوجوه من الذلة ، وإنما يستحقها من كان
 فى غاية العلو - أفاده المهايى - .

تنبيهات :

الأول - قرئ «آزَرَ» بالنصب ، عطف بيان ، لقوله : (لأبيه) وبالضم على النداء .

الثانى - الآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن

آزر عم إبراهيم ، لا أبوه ، على ما بسطه الرازى هنا ، وذلك لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ،
 ومثله لا يجزم به من غير نقل .

= حديث ٤٧٤٢ . أما الترمذى فلم يروه . إنما روى الحديث السابق عن أبى سعيد الخدرى فى :

٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٩ - سورة الزمر ، ٨ - حدثنا ابن أبى عمر .

الثالث - قال بعض مفسرى الزيدية : فى الآية دلالة على بطلان قول الإمامية : إن الإمام

لا يجوز أن يكون أبوه كافراً . لأنه إذا جاز نبى ، أبوه وزوجته كافران ، فالإمام أولى .

اشتمل كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذكر الحجة العقلية إجمالاً على فساد قول عبدة الأصنام ، بإنكاره اتخاذها آلهة ، وهى ما هى فى عجزها . وقد جاءت مفصلة فى سورة مريم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَنْ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مِلًّا ...) الآيات (١) .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيح (٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تمصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب ! إنك وعدتني أن لاتخزنى يوم يبعثون ، فأخزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ! انظر ماتحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فليق فى النار .
الرابع - قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين ، لا سيما للأقارب ، فإن من كان أقرب ، فهو أهم . ولهذا قال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [١٩ / مريم / ٤١-٤٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ

اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٦ .

الْأَفْرِينَ^(١) ، وقال تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)^(٢) . وقال ﷺ^(٣) :
ابداً بنفسك ثم بمن تعول . ولهذا بدأ ﷺ بعلى وخديجة وزيد ، وكانوا معه في الدار ،
فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب ، ثم بالموالي . وبدأ إبراهيم بأبيه ، ثم بقومه .
وتدل هذه الآية على أن النصيحة في الدين والذم والتوبيخ لأجله ، ليس من العقوق ، كالحجرة -
هكذا في التهذيب . انتهى .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٣) هذا الحديث (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) ملق من حديثين :

الأول (ابدأ بنفسك ثم تصدق عليها) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث
٤١ (طبعنا) ونصه :

عن جابر قال : أعتق رجل من بني عذرة عبداً له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ
فقال « ألك مال غيره » ؟ فقال : لا . فقال « من يشتريه مني » ؟ فاشتراه نعيم بن عبد الله
العدويّ بمائة درهم . فجاء بها رسول الله ﷺ . فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك
فتصدق عليها . فإن فضل شيء فلاهلك . فإن فضل عن أهلك شيء فلاذى قرابتك . فإن
فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » .

يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك .

والحديث الثاني (ابدأ بمن تعول) وأخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ،

١٨ - باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، حديث ٧٦٣ ونصه :

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « اليد العليا خير من اليد السفلى ،
وابداً بمن تعول . وخير الصدقة عن ظهر غنى . ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

« وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : نطلعه على حقائقهما ، ونبصره فى دلالتهما على شؤونه عز وجل ، من حيث إنهما بما فيهما ، مربوبان ومملوكان ، له تعالى . و(الملـكـوت) مصدر على زنة المبالغة ، كالرهبوت والجبروت ، ومعناه : الملك العظيم ، والسلطان القاهر . وقيل : ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما . وقد أسلفنا الكلام فى (وكذلك) قريباً عند قوله تعالى (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا)^(١) وأن مختار الرغشرى كونه إشارة إلى مصدر ما بعده ، والكاف مقحمة ، والتقدير : تلك الإراءة والتبصير البديع ، نريه ونبصره . فجدّبه عهداً . « وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » عطف على علة محذوفة لم تقصد بعينها ، إشعاراً بأن لتلك الإراءة فوائد جمّة ، من جملتها ما ذكر .

قال المهابمى فى الآية : (وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليعلم أن شيئاً من روحانيات الأفلاك والكواكب والشايع والشياطين لا يصلح للإلهية ، (وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة . وقيل : (وَلَيْكُونَ) علة لمقدر هو عبارة عن المذكور . أى : وليكون من الموقنين بالتوحيد ، فلما مافعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السموات والأرض .

لطائف

الأولى - قال الرازى : وههنا دقيقة عقلية ، وهى أن نور جلال الله تعالى لأخ غير

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية ، لا نصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك ، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب ، يحصل هذا التجلي . فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : (اَتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ماسوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب ، لا جرم تجلى له ملكوت السموات بالتمام . فقوله : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نورٌ تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وَكَذَلِكَ) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية .

الثانية - قال الرازى : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل . ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً ، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة ، وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل به ، فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت ، صارت سبباً لحصول اليقين . وذلك لوجوه :

الأول - أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة ، فلا تزال القوة تزايد حتى تنتهى إلى الجزم .

الثانى - أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة . فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد ، جارٍ مجرى تكرار الدرس الواحد . فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ التأكّد الذى لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث - أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جداً ، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول ، امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر

نورها في أول الأمر ، وهو الصبح ، فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم ، كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس ، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر ، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . إلا أن الفرق بين شمس العلم ، وشمس العالم ، أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين ، لا يمكن أن يزداد عليه في الصعود . وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها ، ولا غاية لازديادها . فقلوه (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة إلى مراتب الدلائل والبيّنات . وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) إشارة إلى درجات أنوار التجلي ، وشروق شمس المعرفة والتوحيد . انتهى .

الثالثة - ذكر تعالى الإراءة في هذه الآية مجملة ، ثم فصلها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِِبُّ
الْأَفْلِينَ)

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي » قال المهايي : لما رأى - بمعنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام - الملكوت ، وأيقن أن شيئاً منها لا يصلح للإلهية ، أراد الرد على قومه في اعتقاد إلهيتها لحسرتها ، باعتبار افتقارها في أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفل ، وإن كانت علوية ، وكذا في اعتقاد إلهية تلك الأجسام . كما رد عليهم في اعتقاد إلهية الأصنام ، فَلَتَظْهَرَ ظهور الكواكب التي كانوا يعبدونها . انتهى .

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام ، ووصوله إلى رتبة الإيقان . ومعنى (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل : الزهرة ، وقيل :

المشتري .

أقول : (الكوكب) لغة : النجم . قال الزبيدي في (شرح القاموس) : وكونه علماً بالغلبة على الزهرة غير معتد به ، وإنما هي الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينههم على الخطأ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم لقومه : (هَذَا رَبِّي) إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولاً ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشري : قول إبراهيم ذلك ، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل . يحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجي من الشغب . ثم يكرر عليه بعد حكايته ، فيبطله بالحجة .

« فَلَمَّا أَفْلَ » أي : غاب ، « قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ » أي : لا أحب عبادة من كان كذلك ، فإن الأفول دناءة تنافي الإلهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها ، فضلاً عن اتخاذه إلهاً أو معبوداً ، فضلاً عما يفتقر إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا » أي : طالماً منتشر الضوء « قَالَ هَذَا رَبِّي » على الأسلوب المتقدم « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » فإن مآرئته لا يليق بالإلهية لدنائه بمجوه .

قال الزمخشري : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً ، وهو نظير الكواكب في الأفول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .
وفي (الانتصاف) : التمرير بضالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) وإنما ترقى إلى ذلك ، لأنَّ الخصوم قد أقامت عليه ، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فاعترض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبليغ الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي » على نحو ما تقدم ، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر ، أولأنه أراد : هذا الطالع ، أو الذي أراه ، أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ليستدرجهم . إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعدم إصغائهم - وعلى الأخير اقتصر المهاييم - فقال : لم يؤنثه لثلاث عراض عظمته نقص الأنوثة ، ولو غير حقيقية ، وهي وإن كانت في الواقع لم يأت بها لفظاً ، لأنه قصد بذلك مساعدة الخصم أولاً .

وقوله تعالى : « هَذَا أَكْبَرُ » أي : أكبر الكواكب جرماً ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالإلهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة ، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر .

« فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ » صادعاً بالحق : « يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » أى من الأجرام المحدثنة المتغيرة من حالة إلى أخرى ، أو من إشراككم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ » أى : وجه قلبى وروحى فى المحبة والعبادة ، بل جعلته مسلماً « لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا » أى : مائلاً عن الأديان الباطلة ، والمقائد الزائفة ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وفى هذا المقام :

مباحث

الأول - توسع المفسرون هنا فى قوله : (هَذَا رَبِّي) :

فن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم (لأحب الآلين) .

وقيل : إنه إبراهيم ، وكان ذلك فى حال الطفولية ، قبل استحكام النظر فى معرفة الله تعالى

لقوله : (لَيْسَ لَكُم يَهْدِي رَبِّي ...) الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة ، إلا أنه أراد الاستفهام الإنكارى ، توبيخاً لقومه ،

خذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل : على إضمار القول أى : يقولون هذا ربى ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى فى زعمكم واعتقادكم .

وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء ... إلى أقوال أخر .

والقصد فى ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية

ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلمٌ بلا ريب ، ولكنَّ الأوجهَ من جميع ذلك كله ما أسلفناه أوَّلاً من أن قوله : (هَذَا رَبِّي) من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع ، وهو سوق مقدمة في الدليل لا يمتدُّها ، لكونها مسلمة عند غيره ، لأجل إزامه بها . وهو مصطلح أهل الجدل . وقد اقتصر الزمخشريُّ على هذا الوجه الفريد .

قال الناصر في (الانتصاف) : وذلك متعين . وقد ورد في الحديث الوارد في الشفاعة^(١) أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسي ! نفسي ! ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة هي أختي ، وإنما عني : في الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عني همَّ بقومه وبشر كههم والمؤمن يسقمه ذلك - وقوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدَّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلَّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على ما يقال ، من أن هذا الكلام محكي عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعمده ، وأعظم ، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكاً ، بل جزماً . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير^(٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلاً عليه بقوله : (لَيْنٌ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي) الآية . وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السَّرْب الذي ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه من عمرو بن كنعان ،

(١) حديث الشفاعة هذا أخرجه البخاري في مواضع . ومنها في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث ٤٠ عن أنس وفيه ذكره ، عليه السلام ، كذباته الثلاث .

(٢) الأثر رقم ١٣٤٦٢ من التفسير .

لما كان قد أُخِرَ بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سَرَبٍ ، ظاهرَ البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين .

ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين ، في المقام الأول مع أبيه ، خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاعة وأثر فتن عندهم ، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيع عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ، لئلا في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا النوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين في القمر ما بين في النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهم وموالاتهم ، وأخبر بأنه يعبد خالقهم ومسخرهم .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظراً في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)^(١) . وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٢ و ٥١] .

قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِلْأَنْعَمِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١) .

وقد ثبت في الصحيحين (٢) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة .

وفي صحيح مسلم (٣) عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء . وقال تعالى (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (٤) . ومعناه ، على أحد القولين ، كقوله (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . فإذا كان هذا في حق سائر الخائقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠ و ١٢١] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٠ - باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ؟ حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة كان يحدث قال النبي ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... الآية .

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعنا) .

وانظر نصه الكامل بالصفحة (١٥٦٩) من هذا التفسير .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ... شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

الذى جعله الله (أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ناظرًا في هذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ ، بلا شك ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك ، لا ناظرًا ، قوله تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ...) الآية الآتية . انتهى .

وممن جود هذا البحث الجليل ، ويين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مناظرًا لقومه ، العلامة الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ، ونحن نسوقه عنه تأييداً لهذا البحث المهم ، وتعرفاً بعمق قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من القوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة (أصحاب الهياكل والأشخاص) : هؤلاء من فرق الصابئة (وهم المتعصبون للروحانيين) ، وقد أدرجنا مقالهم في المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا تفصيلاً :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط من أن يُرى فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع ، فتعرفوا أولاً بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواصم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلاً يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتحتّموا بخاتمه المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخّروا بخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه ، الحاجة التي تستدعي من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به .

وكذلك رفع الحاجة التي تختص بالمشتري في يومه وساعته ، وجميع الإضافات التي

ذكرنا ، إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب ، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب ، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقريباً إلى الروحانيات - يعنى الملائكة - ويتقربون إلى الروحانيات ، تقريباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلَكاً ، فالهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهى أربابها ومدبراتها ، تتصرف فى أبدانها تدبيراً وتصرفاً وتحريراً ، كما يتصرف فى أبداننا . ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضى منهم العجب . وهذه الطائفة المذكورة فى الكتب والسحر والسكھانة والتخيم والتعزيم والخواتيم والصور ، كلها من علومهم . وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لابد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هى الوسائل ، لكننا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نحاط بها بالأسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهيئتها كلها ، ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى وقت ، لأن لها طوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار ، فلم يَصِفْ لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها ، ونتوسل بها إلى الهياكل ، فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص فى مقابلة هيكل ، وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل ، أعنى الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيئة التى تصدر أفعاله عنه ، وراعوا فى ذلك الزمان والوقت والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية ، من اتصال محمود يؤثر فى نجاح الطالب التى تستدعى منه ، فتقربوا إليه فى يومه وساعته ، وتبخروا بالبخور الخاص به وتحتموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزموا

بمزاعمه ، وسألوا حاجتهم منه ، فيقولون : كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها ، وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها - كما شرحنا - وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة في مقابلة آلهة أولئك السماوية ، وقالوا : (هَوَلَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)^(١) . وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِنْتِهَا إِِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . وتلك الحجة أن كسرهم قولاً بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) . ولما كان أبوه أزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه (إذ قَالَ لِأَبِيهِ أَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وقال : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)^(٢) لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً في مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمماً وبصراً ، وأن تغنى عنك ، وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، ، لأنك خلقت سمياً بصيراً ضاراً نافعاً . والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تسكفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ، إذ صار المصنوع بيدك ، معبوداً لك ، والصانع أشرف من المصنوع . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

(١) [١٠ / يونس / ١٨] ونصها : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَلَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أُنذِرُكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ . . .

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ (١) فلم يقبل حجته القولية ، فمدل عليه الصلاة والسلام إلى الكسر بالفعل ، فجعلهم جذاذًا ، إلا كبيرًا لهم (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (٢) (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) (٣) فأخضعهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أخضعهم بالقول ، حيث أحال الفعل منهم ، وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذبًا قط . ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفًا له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحًا لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريرًا أن السكال في الرجال ، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وإلا فما كان الخليل كاذبًا في هذا القول ، ولا مشركًا في تلك الإشارة . ثم استدل بالأفول والزوال والتغير والانتقال ، بأنه لا يصلح أن يكون ربًّا إلهًا ، فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير فاحتاج إلى مغير ، وهذا لو اعتقدتموه ربًّا قديمًا وإلهًا أزليًا ، ولو اعتقدتموه واسطة وقلة وشفيماً ووسيلة ، فالأفول والزوال أيضاً ، يخرجهم عن السكال . وعن هذا ما

(١) هذه هي الآيات الشريفة حسب ترتيبها وبنصها الكامل في الكتاب .

[١٩ / مريم / ٤٤-٤٦] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ

عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَنْ لَمْ تَنْتَعِرْ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٥٩] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣-٦٥] .

ما استدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته . وذلك أبلغ في الاحتجاج . ثم (لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) . فيا عجباً ! من لا يعرف رباً كيف يقول : (لَأِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون في مدارج البداية ؟ دع هذا كله خلف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف . فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج . وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هي الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشاريع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والكمال ، منوطة بتأخيرها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستاني رحمه الله تعالى . وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

* وما محاسن شيء كله حسن *

وقد قدم رحمه الله الكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بديعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعته فائدة كبرى . فجزاه الله خيراً .

الثاني - تبين مما ذكره الشهرستاني أن سر احتجاج الخليل عليه الصلاة والسلام بالأفول دون البزوغ ، مع كون كل منهما منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية - هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة - عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطباس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى . وهو لطيف ، إلا أن الأول أسد .

الثالث - لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذلك في أكبر الكواكب - (أعنى الشمس) - فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى - فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى - أفاده الرازي - .

الرابع - قال الرازي : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل ، لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ » أى جادلوه ، وأرادوا مغالبتة بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة ، واقفة في حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما . « قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ » أى : أتجادلونني في توحيدى ، وقد هداني لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نقي إلهية ما سواه ،

وقد ثبت أنها ناقصة في ذواتها ، فكالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كماله لا يكون مطلقاً . و (تحاجوني) بإدغام نون الجمع في نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى .

وقوله تعالى : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام في أثناء الحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومه : (إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)^(١) . وتخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر ، لكنه فهم من قوله : (وَلَا أَخَافُ) .

وقال ابن كثير : أى ومن الدليل على بطلان قولكم ؛ إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أبا لها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنتظرون . انتهى .

« إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا » أى : من إصابة مكروه بى من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلاً .

وفى (الانتصاف) : غاية خوف إبراهيم منها ، المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدره الله تعالى ، لا بها ، وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذى أثبتته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها - والله أعلم - .

وقوله تعالى : « وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » كأنه علة الاستثناء ، أى : أحاط بكل شيء علماً . فلا يبعد أن يكون فى علمه إزال الخوف بى من جهتها ، أى : كرجه بالنجوم . لأنه إذا أحيل شيء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفى الإظهار فى موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانتقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

(١) [١١ / هود / ٥٤] ... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

هذا ، وجعل المهيمن ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال في الآية :
ولا أخاف الضرر على نفسى من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى أن يجعل لهم شيئاً
من التأثير ، لكنه لا يشاء فى شأنى ، لأنه (وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) فعلم أنه لو أوجد
التأثير فيهم بما يضرّون به من بعثه لتوحيدّه ، صار محجوباً . انتهى - والأول أقرب - .
« أَفَلَا تَعْدُّوهُنَّ » أى : تعتبرون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع ،
وأن النافع الضار هو الذى خلق السموات والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ » أى : معبوداتكم ، وهى مأمونة الخوف ، « وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ » ، أى : بإشراككم « عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا »
أى : حجة . إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة . والمعنى : وما لكم تنكرون على الأمن
فى موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع أعظم المخوفات وأهلها . « فَأَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ » أى : فريق الموحدين والمشرّكين ، « أَحَقُّ بِالْأَمْنِ » أى : من لحوق الضرر ،
« إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : ما يحق أن يخاف منه . أو من أحق بالأمن أو من أولى العلم ؟
وجواب الشرط محذوف . أى : فأخبرونى .

ثم بين تعالى من له الأمن ، جواباً عما استفهم عنه الخليل عليه السلام بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ)
« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أى : بشرى ، كما يفعله الفريق المشركون ،

حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل، وأن عبادتهم للأصنام من تَمَات إيمانهم وأحكامه، لكونها لأجل التقريب والشفاعة، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(١). وهذا معنى اللبس - أفاده أبو السعود - وسيأتي زيادة لذلك .

« أَوَلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ » يوم القيامة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أى : إلى الحق ، ومن عداهم في ضلال .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عبدالله قال : لما نزلت (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)^(٢) - هذا لفظ رواية البخارى - .

ولفظ رواية الإمام أحمد عن عبدالله قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شقّ ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ! فأبنا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ إنما هو الشرك .

أقول : هذه الرواية توضح رواية البخارى السابقة - أعنى : قول ابن مسعود : فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ . . .) الخ - من جهة أن النزول أريد به تفسير الآية ، لا سبب نزولها ، وهو اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق ، ينبغى التنبيه له . وقد أشرنا له فى المقدمة . فجدد به عهداً . ولا بن أبى حاتم عن عبيد الله مرفوعاً (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك .

(١) [٣٩ / الزمر / ٣] ونصها : أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

قال : وروى عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو ابن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلمي ومجاهد وعكرمة والنخعي والضحاك وقتادة والسدي ، وغير واحد نحو ذلك . نقله ابن كثير . وبالجملة ، فلا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين في تفسير (الظلم) هنا بالشرك ، وقوفاً مع الحديث الصحيح في ذلك ، المبين لانظار القرآنية الموضح بعضها لما بهم في بعض . وتعرف تلك القاعدة من مثل هذا الحديث يكشف غمة أو هام كثيرة . ولو قيل : لا يلزم من قوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أن غير الشرك لا يكون ظلماً ، يجاب : بأن التنوين في (بظلم) للتعظيم ، فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم . ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد : لم يلبسوا إيمانهم بشرك ، أو أن المتبادر من المطلق أكل أفراد - كذا في العناية - .

قال الرازي : والدليل على أن هذا هو المراد ، أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

تنبيه :

حيث علم أن الصادق المصدوق ﷺ فسر الآية بما تقدم ، فليعض عليه بالنواجذ . وأما ما هذى به الزمخشري من قوله في تفسير الآية : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعضية تفسقهم ، وَأَبَى تفسير الظلم بالكفر ، لفظ (اللبس) أي : لأن لبس الإيمان بالشرك أي : خلطه به ، مما لا يتصور ، لأنهما ضدان لا يجتمعان - على زعمه - فمدفوع بأنه يلبسه . لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق ، سواء كان باللسان أو غيره ، فظاهر أنه يجامع الشرك كاللنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب ، لجواز أن يصدق بوجود الصانع ، دون وحدانيته ، لما في قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)^(١) وهو ما أشير إليه قبل .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٦] .

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرک ، بل تغطيته بالكفر ، وجعله مغلوباً مضمحلّاً ، أو اتصافه بالإيمان ، ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مراراً . وبعد تسليم ما ذكر ، فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذنين البتة ، بل خائفين ذلك ، متوقعين للاحتمال ، ورجحان جانب الوقوع - كذا في (شرح الكشف) .

وفي (الانتصاف) : إنما يروم الزخشرى بذلك تنزيهه على معتقده ، في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم في الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصي . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة ، هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون المذاب المؤقت ، وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما . انتهى .

وأما قول المعتزلة : حديث عبد الله المتقدم - إن صح - يكون خبراً واحداً ، في مقابلة الدليل القطعى ، ومثله لا يعمل به - فالجواب : بأنه صح بلا ريب ، لتخريج الشيخين له .
* وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل ^(١) *

وقولهم : في مقابلة الدليل القطعى ، بهتان عظيم . وبالله العجب من هؤلاء ، قابلوا السنة الصحيحة بكناسة الرأى ، ولم يستحيوا من الله تعالى ورسوله في هذه المخالفة ، فأين تذهب

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : نهر معقل منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله ابن معبر . . . ، صحب النبي ﷺ .

وهو نهر معروف بالبصرة ، فله عند فم نهر الإجانة .
ذكر الواقدي أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة ، وأن يُجرى على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب إليه .

به عقولهم ؟ إلى الحق أم إلى الباطل ؟ ولكن كما قال ابن سَهْل^(١) :
* فَاُضِيعَ الْبِرْهَانُ عِنْدَ الْمُقْلَدِ *

هذا ، وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي فقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ! لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى ، لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغت حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض ، فأعرض على . فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل . فآزدهمنا حوله ، فدخل خفًا بَسْكَرِهِ في بيت جردان ، فتردى الأعرابي ، فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ! والذي بعثني بالحق ! لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليتهدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغت حتى مآله من طعام إلا من خضر الأرض . أستمع بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً ؟ هذا منهم ! أستمع بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) ؟ فإن هذا منهم .
وفي لفظ قال : هذا عمل قليلاً وأجر كثيراً .

وروى نحوه الإمام أحمد^(٢) عن جرير بن عبد الله مطولاً ، وفيه بيان قوله : فأعرض على ، ولفظه : ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت .

(١) عجز مطلع قصيدة له وصدره :

* أَقْلَدَ وَجْدَى ، فَلْيَبْرَهْنْ مَفْنَدَى *

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعه الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، إِنَّ

رَبِّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى « وَتِلْكَ » أى : الدلائل المشار إليها فى قوله (اَنْتَخِذُواْ صُنَامًا ءَالِهَةً)
إلى ههنا « حُجَّتُنَا » أى : التى لا يمكن نقضها « آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » أى : أرشدناه إليها ،
وعلمناه إياها ، بلا واسطة معلّم « عَلَىٰ قَوْمِهِ » متعلق بـ (حُجَّتُنَا) إن جعل خبر (تِلْكَ) ،
وبمحذوف إن جعل بدله ، أى : آتيناه حجة ودليلا على قومه الكافرين ، ليغلب وحده .
« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ » معنى : فى العلم والحكمة ، وقرئ بالتنوين . « إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ » فى رفعه وخفضه ، « عَلِيمٌ » بحال من يرفعه واستعداد له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[٨٥] (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

[٨٦] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ » أى : لإبراهيم عوضاً عن قومه ، لما اعتزلهم وما يعبدون ، « إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ، وولد ولد ، لثغر عينه ببقاء العقب « كُلًّا هَدَيْنَا » أى : كلامهمها هديناه
الهداية الكبرى ، بلحقوقهما بدرجة أبيهما فى النبوة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَرَاهُمُ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا^(١) .

قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، وذلك بعد أن طعن في السن ، وأيس وامراته سارة ، من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروها بإسحاق ، فتمعجت المرأة من ذلك : قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ^(١) * قَالُوا أَنعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ^(٢) فبشروها فتمعجت ، وبشروها مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ^(٣) . وهذا أكل في البشارة ، وأعظم في النعمة . وقال : فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ^(٤) . أى : ويولد لهذا المولود وَلَدٌ في حياتكما ، فتقر أعينكما به ، كما قرّت بوالده ، وإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به ، ويولد اسمه يعقوب ، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكانت هذه المجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزع عنهم ، وهاجر من بلادهم ، ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين ، من صلبه ، على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... الآية ^(٥) . « وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ » أى : من قبله ، هديناه كما هديناه . وعدّه هداه نعمة على إبراهيم ، من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد .

(١) [١١ / هود / ٧٢] .

(٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [١١ / هود / ٧١] ونصها : وَامْرَأَتُهُ قَانِعَةٌ فَضَحِكَتْ ...

(٥) [١٩ / مريم / ٤٩] ونصها : ... مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ،

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

قال ابن كثير : كل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض ، إلا من آمن به ، وهم الذين صلبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ^(١) ... الآية . وقال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ^(٢) . وقال تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^(٣) .

وقوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الضمير لإبراهيم أو لنوح ، على ما يأتي ، « دَاوُدَ » عطف على « نُوحًا » أي : وهدينا داود ، وَسَلِّمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات ، وما قبلها ، وما يلحقها ، تعديد أنواع نعم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جزاء اعتزاله قومه وما يعبدون ، وقيامه بنصرة التوحيد ، ودحض الشرك . فذكر تعالى أولاً رفع درجته ، بإتيائه الحجة على قومه ، وتخصيصه بها ، ثم جعله عزيزاً في الدنيا ، حسباً ونسباً ، أصلاً وفرعاً ، لأنه تولد من نوح أول المرسلين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] وانصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٦] ... فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٨] .

رسالة عامة ، ووهبت له الذرية الطاهرة ، أنبياء البشر . ولذا ذهب الأكثرون إلى أن الضمير في (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) لإبراهيم ، لأن مساق النظم لبيان شؤونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته بعد ذلك إذ هدينا من ذريته داود . . . الخ ، فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات . وذكر نوح عليه السلام ، لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعتة كما تقدم . والغاية هي إلزام من ينتمى إليه من المشركين .

ولا يقال : إن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه ، لأنه يقال : إن العرب تجعل العمّ أباً ، كما أخبر تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ^(١) ، مع أن إسماعيل عم يعقوب ، ودخل في آبائه تغليباً .

وقال محي السنة رحمه الله تعالى : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أى : ذرية نوح ﷺ ، ولم يرد من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه ذكر في جملتهم يونس ﷺ ، وكان من الأسباط ، في زمن شعيباء ، أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى من الموصل .

وقال : إن لوطاً عليه السلام كان ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، آمن بإبراهيم ، وشخص معه مهاجراً إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم .

ومن قال : الضمير لإبراهيم ﷺ ، بقدر : ومن ذرية إبراهيم وداود وسليمان هدينا . لأن إبراهيم هو المقصود بالذكر . وذكر نوح لتعظيم إبراهيم . ولذلك ختم بيونس ولوط ، وجعلهما معطوفين على (نوحاً هديناً) من عطف الجملة على الجملة . وصاحب (الكشف) أخرج (إلياس) ﷺ . وليس كذلك . لما في (جامع الأصول) عن الكسائي ، أنهما من ذريته . فبقى لوط خارجاً . ولما كان ابن أخيه آمن به ، وهاجر معه ، أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب - كما ذكره الطيبي - .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وبالجملة ، فالآية المذكورة من المنن على إبراهيم على كلا الوجهين ، لأن شرف الذرية ، وشرف الأقارب شرف ، لكننه على الأول أظهر ، ويكون تطرية في مدح إبراهيم ﷺ بالعود إليه مرة بعد أخرى .

تنبيهات :

الأول - قال الحافظ ابن كثير : في ذكر عيسى عليه السلام ، في ذرية إبراهيم أو نوح (على القول الآخر) دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم عليهما السلام . وقد روى ابن أبي حاتم أن الحجاج أرسل إلى يحيى بن عمار فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ، تجده في كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟! قال : أليس تقرأ سورة الأنعام (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . حَتَّىٰ بَلَغَ : وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى) قال : بلى ! قال : أليس من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ! فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه ، وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا . وبنائنا بنوهنَّ أبناء الرجال الأبعد

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم، لما ثبت في صحيح البخاري^(١) أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في: ٩٢ - كتاب الفتن، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، حديث ١٣٠٧ ونصه : حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بالسكائب ، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولى حتى تدبر أхраها . قال معاوية: من لذراري المسلمين؟ قال الحسن: ولقد سمعت أبا هريرة قال: بينا النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن . فقال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» .

قال للحسن بن عليّ : إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . فسماه (ابنًا) فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوّز . انتهى .
وفي (العناية) : أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هذه الآية ، بأن عيسى عليه السلام ليس له أب ، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه ، فلا يظهر قياس غيره عليه . والمسألة تختلف فيها ، والقائل بها استدل بهذه الآية ، وآية المباهلة ، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما بعدما نزل : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ^(١) . إن لم نقل إنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم . انتهى .

الثاني - إن لم يذكر إسماعيل عليه السلام مع إسحاق ، بل أخر ذكره عنه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل ، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فلم يخرج من صلبه من الأنبياء إلا خاتمهم وأفضلهم ﷺ . ولا يقتضى المقام ذكره ﷺ لأنه أمر أن يحتج على العرب في نفي الشرك بأن إبراهيم لما ترك قومه وما يعبدون ، إلى عبادة الله وحده ، رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ، ومنها إيتاؤه أولادا أنبياء . فإذا كان المحتج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر في هذا المعرض . ولهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق - أفاده الرازي - .

الثالث - اعلم أنه تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيًا من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب ، لا بحسب الزمان ؛ ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضى الترتيب . ولكن هنا لطيفة في هذا الترتيب ، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنوع من الكرامة والفضل ، فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول

(١) [٣ / آل عمران / ٦١] ونصها : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الأنبياء ، وإليهم ترجع أنسابهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة ، بعد النبوة ، الملك والقدرة والسلطان . وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً . ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والحن والشدائد ، وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما ، وهو يوسف عليه السلام ، فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة . ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات ، وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر . ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا ، والإعراض عنها ، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين . ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء ، من لم يبق له أتباع ولا شريعة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه ، كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه - أفاده الخازن وأصله للرازي - .

الرابع - استدل بقوله تعالى (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائكة . لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملك .
الخامس - نكتة ذكر (الهداية) في قوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا) هو تعدد النعم على إبراهيم صلى الله عليه وسلم بشرف الأصول والفروع - كما أسلفنا - والولد لا يُعدّ نعمة ما لم يكن مهدياً .

السادس - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا) من أنكر إفادة التقديم الحصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ » عطف على (كُلًّا) أو (نُوحًا) أى : كلا منهم فضلنا ، وفضلنا بعض آبائهم ، أو هدينا من آبائهم ومن معهم للدين الخالص جماعات كثيرة ، فالفعول محذوف . « وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال ، فجعلت لهم هذه الفضائل أيضاً ، ولحق إبراهيم ، فإزداد ارتفاع درجته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ » إشارة إلى ما دانوا به ، « يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا » أى : هؤلاء مع عظمتهم « لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » من الأعمال المرضية . فكيف بمن عداهم ؟

قال ابن كثير: فيه تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم للملاسته ، كقوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . الآية (١) وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، كقوله : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٢) . وكقوله : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ... وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨١] .

فَاعْلَيْنَ^(١) . وكقوله : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَا صُطِفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمطوفين عليهم ، باعتبار انصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها . « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » أى : جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية . والراد بـ (إيتائه) التفهيم التام بما فيه من الحقائق . والتمكين من الإحاطة بالجلال والدقائق ، أعم من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً ، أو بالإيراث بقاءً . فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين - أفاده أبو السعود - .

« وَالْحُكْمَ » أى : الحكمة ، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب ، « وَالنُّبُوَّةَ » قال البيضاوى وأبو السعود : أى الرسالة . قال الخفاجى : النبوة وإن كانت أعم ، إلا أن المراد بها ما يشمل الرسالة ، لأن المذكورين رسل . انتهى .

« فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا » أى : بهذه الثلاثة ، « هَؤُلَاءِ » يعنى : قريشاً ، فإنهم بكفركم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، كفرون بما يصدقه جميعاً ، « فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا » أى : وفقنا للإيمان بها ، « قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وهم الأنبياء عليهم السلام ، المذكورون وأتباعهم . وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - وهو الأظهر - فى مقابلة

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤] .

كفار قريش . أى : فإن فى إيمانهم غنية عن إيمان الكفرة بها . وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها ، بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشيء ، ومراعاته - إيدان بفخامتها وعلوها ، وأنه مما ينبغى أن يقدر قدرها قياماً بحق الوكالة ، وعهد الاستحفاظ .

قال الرازى : دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعلياً على كل من عاداه ، قاهراً لكل من نازعه . وقد وقع هذا الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذا الموضع . فكان جارياً مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهْدَاهُمْ افْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى الأنبياء المذكورين « الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » أى : إلى الصراط المستقيم « فَبِهْدَاهُمْ افْتَدِهْ » أى : بطريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرقيقة ، اعمل .

تنبيهات

الأول - استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ .

الثانى - استدل بها ابن عباس رضى الله عنه على استحباب السجدة فى (ص) ، لأن داود عليه السلام سجد لها ، رواه البخارى وغيره - ولفظ البخارى ^(١) : عن العوام ، قال : سألت مجاهداً عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهْدَاهُمْ افْتَدِهْ) فكان داود

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ١ - حدثنا محمد

ابن بشر .

مَنْ أَمَرَ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ ، فَسَجَدَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

الثالث - قال الرازي : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وتقريره : أننا بينا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجماً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشربة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا ﷺ بأن يقتدى بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع - « اقْتَدِهِ » يُقْرَأُ بِسُكُونِ الْهَاءِ وَإِنْبَاتِهَا فِي الْوَقْفِ دُونَ الْوَصْلِ ، وَهِيَ عَلَى هَذَا هَاءُ السَّكْتِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبِتُهَا فِي الْوَصْلِ أَيْضًا لِشَبْهِهَا بِهَاءِ الْإِضْمَارِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْسِرُهَا فِيهِ وَهِيَ أَحَدُهُمَا هِيَ هَاءُ السَّكْتِ أَيْضًا ، شَبِهُتْ بِهَاءِ الضَّمِيرِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ . وَالثَّانِي هِيَ هَاءُ الضَّمِيرِ وَالْمُضْمَرِ الْمَصْدَرُ أَيْ : اقْتَدِ الْإِقْتِدَاءَ . وَمِثْلُهُ ^(١) :

هَذَا مُرَاقَةٌ لِلْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ وَالْمَرْءُ عِنْدَ ارْتِشَاءٍ ، إِنْ يَلْقَاهَا ذِيبٌ

(١) قال صاحب الخزانة (ج ٢ ص ٢ ، طبعة السلفية) ما نصه :

هو من شواهد سيبويه .

على أن الضمير في (يدرسه) راجع إلى مضمون يدرس . أي يدرس الدرس فيكون =

(فالحاء) ضمير (الدرس) لامفعول ، لأن (يدرس) قد تعدى إلى (القرآن) . وقيل : مَنْ سَكَنَ الهَاءَ جَمَلَهَا هَاءُ الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف - أفاده أبو البقاء - .
وأما قول الواحدى : الذين أثبتوا الهاءَ راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة في الخط ، فكروها مخالفة الخط في حالى الوقف والوصل ، فأثبتوا - فقد قال الخفاجى : إنه مما لا ينبغى ذكره ، لأنه يقتضى أن القراءة بغير نقل تقليدا للخط ، فمن قاله فقد وهم .
« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى : على القرآن أو التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرها ، « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول - فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .
الثانى - قال الخفاجى : قيل : الآية تدل على أنه يحلّ أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام . قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى .

= راجعاً للمصدر المدلول عليه بالفعل . وإنما لم يجز عوده للقرآن ، لئلا يلزم تمدى العامل إلى الضمير وظاهره معاً .
واستشهد به أبو حيان فى (شرح التسهيل) على أن ضمير المصدر قد يحىء مراداً به التأكيد ، وأن ذلك لا يختص بالمصدر الظاهر على الصحيح .
وأورده سيبويه على أن تقديره عنده : والمرء عند الرشا ذئبٌ إن يلقها .
وتقديره عند المبرّد : إن يلقها فهو ذئب .
وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يقف على قائلها أحد .
قال الأعمى : هجا هذا الشاعر رجلاً من القراء ، نسب إليه الرياء وقبول الرشا والحرص عليها .

وعكس بعض مفسرى الزيدية حيث قال : فى هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأن ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية دلت على نفى سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجرا ، كى لا يثقل عليهم الامتنال . وأما استفادة الحلال والتحريم منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لا أسألكم جملا تعففاً . أى : وإن حلّ لى أخذه . وبالثانى : لا أسألكم عليه أجرا لأنى حظرت من ذلك .

قال ابن القيم : أما الهدية للمفتى ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مفتٍ ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له ، لم يجز له قبول هديته . لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال ، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك . وإن كان غنياً عنه ، ففيه وجهان : وهذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم . فمن ألحقه بعامل الزكاة قال : النفع فيه عام ، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع . وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهذا حرام قطعاً ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملكه . انتهى .

وفى حديث عبد الرحمن بن شبل عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم قال : اقرؤوا القرآن ، ولا تغفلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به - أخرجه الإمام أحمد ^(١) رجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرج أحمد^(١) والترمذي - وحسنه - عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجىء قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به .

وأخرج ابن ماجه^(٢) والبيهقي عن أبي بن كعب قال : علّمت رجلاً القرآن ، فأهدى لي قوساً ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار . وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدلل على حظر أخذ الأجرة على التعليم . وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففي الصحيحين^(٣) عن عبدالله بن مسعود في قصة اللديغ من قوله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لي معكم سهماً .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١٢ - كتاب التجارات ، ٨ - باب الأجر على تعليم القرآن ، حديث رقم ٢١٥٨ (طبعتنا) .

(٣) هذا الحديث ليس عن عبد الله بن مسعود وإنما هو عن عبد الله بن عباس . وليس في الصحيحين بل هو من الأحاديث التي انفرد بها البخاري عن مسلم .

أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٤ - باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ، حديث رقم ٢٢٦٠ ونصه :

عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرّوا بماء فيهم لديغ (أو سليم) فعرض لهم رجل من أهل الماء . فقال : هل لديكم من راقٍ ؟ إن في الماء رجلاً لديغا (أو سليما) .

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء . فبرأ .

فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرًا ؟ !

قال العلامة الشوكانيّ: حديث (أحق ما أخذتم عليه أجرًا) عالمٌ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئًا ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلًا تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة في مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغي تحرير الكلام في المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أى : لأنه يصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق - والله الموفق - . ولما بين تعالى شأن القرآن العظيم ، وأنه نعمة كبرى على العالمين ، تأثره ببيان كفرهم بذلك ، على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب المنزلة ، فقال سبحانه :

= حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ! أخذ على كتاب الله أجرًا !!
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله » .
أما الحديث الذى فيه (اضربوا لى بسهم) فهو حقيقة فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدرىّ فى قصة مثل قصة الحديث السابق .
فقد أخرجه البخارىّ فى :

- ٣٧ - كتاب الإجارة ، ١٦ - باب ما يعطى فى الرقية .
- وفى : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٩ - باب فاتحة الكتاب .
- وفى : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٣ - باب الرق بقاتحة الكتاب .
- وفى : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٩ - باب النفث فى الرقية
- والحديث رقم ١١٣٢ .
- وأخرجه مسلم فى : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ، قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أى : ما عظموه حق تعظيمه و (حَقَّ) نصب على المصدرية ، وهو فى الأصل صفة للمصدر . أى : قَدَرَهُ الحقّ ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه . «إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ» أى : حين اجتروا على التفوه بهذه الجملة الشنعاء ، وذلك منهم مبالغة فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فالزموا بما لاسبيل لهم إلى إنكاره أصلاً ، حيث قيل فى جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم :

«قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا» حال من الضمير فى (بِهِ) أو من (الْكِتَابِ) ، «وَهُدًى لِلنَّاسِ» أى : ضياء من ظلمة الجهالة ، وبياناً يفرق بين الحق والباطل ، «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا» : يجرؤونه أوراقاً يبدونها للناس مما ينتخبونه . أى : فكيف ينسكروا إنزال شيء ، وهذا المنزل المذكور ظاهر للعيان . والعدول عن التوراة إلى ذكر الكتاب وصفته ، والحال بعده - لزيادة التقريع ، وتشديد التبكيت ، وإلزام الحجر . «وَتُخْفُونَ كَثِيرًا» معطوف على (تُبْدُونَهَا) ، والعائد محذوف . أى : كثيراً منها . أو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب . أى : وهم يخفون كثيراً . أى : ومع ذلك فالإلزام يكفى بما يبدونه ، المعترف لديهم بحقيقته . وفيه نوى على أهل الكتاب بسوء صنيعهم المذكور ، إذ ما يريدون بإخفاء كثير منها إلا تبديل الدين .

«وَعُلِّمْتُمْ» أى : على لسان محمد ﷺ «مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ» من المعارف

التي لا يرتاب في أنها تنزيل رباني ، « قُلِ اللَّهُ » أى : أنزل الله ، أو الله أنزل . أَمَرَهُ بِأَنْ يَجِيبَ عَنْهُمْ ، إشعاراً بِأَنَّ الْجَوَابَ مَتَمِّينَ لَا يُمْكِنُ غَيْرُهُ ، وَتَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُمْ بُهَتُوا ، بِحَيْثُ لَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ .

« ثُمَّ » بعد التبليغ وإلزام الحجة « ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ » أى : في باطلهم « يَلْعَبُونَ » أى : يفعلون فعل اللعب ، وهو ما لا يجرّ لهم نفعا ، ولا يدفع عنهم ضررا ، مع تضييع الزمان .

تنبيه :

في هذه الآية قولان :

الأول - أنها مكية النزول تبعا للسورة ، وأن القائل ذلك هم المشركون ، وإلزامهم إنزال التوراة ، لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ، وهذا هو الظاهر .

قال ابن كثير : قال ابن عباس ^(١) ومجاهد ^(٢) وعبد بن كثير : هذه الآية نزلت في قريش ، واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ ، لأنه من البشر ، كما قال تعالى : أَمْ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ^(٣) وكقوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ^(٤) . وكذا قالوا هنا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . فالزموا بإنزال

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٢ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٥٤١ من التفسير . وصوابه : عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا .

(٣) [١٠ / يونس / ٢] . . . وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٩٤] .

الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو التوراة التى علموا هم وكل أحد أن الله أنزلها على موسى تكذيباً لقولهم ، وإيقافاً على عنادهم . ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف ، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب ، وأنهم أعلم منهم لأجله ، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة ، وأنها منزلة من لدنه تعالى . وعلى هذا القول ، فالقراءة بالياء التحتية ظاهرة . وعلى قراءة الخطاب ، فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين . وهو التفات عند الأدباء - حكاة الخفاجي - وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة فى البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان . ثم القول بأن الخطاب فى (عَلَّمْتُمْ) لمؤمنى قريش . لا يقتضيه السياق ولا السباق ، وفيه تفكيك للنظم الجليل ، كالقول بأنه اعتراض للامتنان على النبي ﷺ وأتباعه ، لهدايتهم للمجادلة بالتي هى أحسن . بل الخطاب فيه كسابقه ، والمراد بتعليمهم ، وهم مشركون ، ما يسمعون ويثقفونه من النبي ﷺ وصحابته ، من فرائد الوحي وفوائده ، مما لا يرتاب فى تنزيلها ، كما أوضحناه قبل .

القول الثانى - إن هذه الآية مدنية النزول . ولا يرد أن هذه السورة مكية ، ومناظرات اليهود كانت فى المدينة ، لأن كثيراً من السور المكية ألحقت بها آيات مدنية ، وحينئذ فقولهم (هذه السورة مكية) أى : إلا ما استثنى مما ألحق بها ، كما أوضحه السيوطى فى (الإتيان) وساق له شواهد . وقد أشرنا إلى ذلك أول هذه السورة ، فتذكر ! ثم القائلون بأنها مدنية ، منهم من قال : نزلت فى طائفة من اليهود ، أو فى فنحاص ، أو فى مالك بن الصيف . أخرج ابن جرير^(١) من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فأُزلت .

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٠ من التفسير ونصه :

عن ابن عباس قوله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ =

وأخرج ابن أبي حاتم عن سمي بن جبير - مرسلًا - قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين - وكان حبراً سميناً - ؟ فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه : ويحك ! ولا على موسى ؟ فأنزل الله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

قال البغوي : وفي القصة أن مالك بن الصيف ، لما سمعت اليهود منه تلك المقالة ، عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ، فلم قلت : ما أنزل الله من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبني محمد ، فقلت ذلك ! فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ! فزعه عن الحبرية . وبعد الوقوف على ذلك ، فلا معنى لاعتراض بعضهم بأن مالك بن الصيف كان مفتخراً بكونه يهودياً متظاهراً بذلك ، ومع هذا المذهب لا يمكنه البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء ، لأنه تبين أنه قال ذلك متغيباً ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه عنادا ومكابرة ، توصلًا لدفع ما يريد . وقد يبلغ الحق بصاحبه إلى حدٍّ يتبرأ فيه من مذهبه ومعتقده ، إغاطة لخصمه على زعمه . وبوادٍ اللسان في حق المولى تعالى وتقدس ، مما لا تغتفر ، ولذا بين تعالى ذلك القائل بقوله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قال العلامة البقاعي : لأن من نسب ملكاً تام الملك إلى أنه لم يثأر أو امره في رعيته بما يرضيه ليفعلوه ، وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبته إلى نقص عظيم . فكيف إذا كانت تلك النسبة كذباً ؟ وإنما أسند إلى الكل - والقائل بعضهم - لأنهم لم يردوا على قائله ، ولم

= مِنْ شَيْءٍ . يعني بنى إسرائيل . قالت اليهود : يا محمد ! أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ! قالوا : والله ! ما أنزل الله من السماء كتاباً .

قال : فأنزل الله : « قُلْ » يا محمد ! « مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » إلى قوله « وَلَا آبَاءُكُمْ » قال : الله أنزله .

بما جلوه بالأخذ على يده ، تهويلاً للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ، ويتعرف أمورها . فن طعن فيها أخذ على يده بما تصل إليه قدرته ، فقال مشيراً إلى أن اليهود قاتلوا ذلك ، ملزماً لهم بالاعتراف بالكذب ، أو المساواة للأمة في التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ، ناعياً عليهم سوء جهلهم ، وعظيم بهتهم ، وشدة وقاحتهم ، وعدم حيائهم (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) ؟ أى : قل لهؤلاء السفهاء الذين تجرأوا على هذه المقالة ، غير ناظرين في عاقبتها ، وما يلزم منها ، توبيخاً لهم ، وتوقيفاً على شنيع جهلهم (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : أوراقاً مفرقة ، لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ، (تُبْدُونَهَا) لِلنَّاسِ أى : تظهرونها للناس ، (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) أى : منها مما تريدون به تبديل الدين . هذا على قراءة الفوقانية . وعلى قراءة التحتانية التفات مؤذن بشدة الغضب ، مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستحي من ذكره ، فكيف بفعله . وقوله (وَعَلَّمْتُمْ) أى : أيها اليهود بالكتاب الذى أنزل على موسى (مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ) أى : أيها اليهود من أهل هذا الزمان (وَلَا أَبَاؤُكُمْ) أى : الأقدمون . انتهى كلام البقاعى رحمه الله تعالى . وفى قوله (وَإِنَّمَا أَسْنَدُ إِلَى السَّكَلِ ...) إلى آخره ، نظر . لأن إسناده ليس إليهم ، لأنهم رضوا به ، لأن القصة السالفة تدل على خلافه .

وللبقاعى رحمه الله وجه آخر فى الآية . قال : ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه ﷺ فى أمر رسالته ، فاحتج عليهم بإرسال موسى عليه السلام ، وإنزال التوراة عليه . انتهى . وهو قريب وجيه جداً .

وبالجملة ، فالآية الكريمة متصادقة مع الأوجه المذكورة ، وتنزل فى التأويل ، على ما بينا فى كلّ تنزيلاً لا شائبة معه لإشكال ما . وقد استصعب الرازى تأويلها ، وأخذ يحاول أسئلة هى على طرف الثمام ، بعد النظر فيما بيننا ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا .

لطائف

الأولى - قال أبو السعود رحمه الله : ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط ، بل بإنزال القرآن أيضاً ، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقة به .

الثانية - قال أيضاً في قوله تعالى (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : تضعونه في قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة ، بحذف الجار ، بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم ، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة . وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة .

الثالثة - في قوله تعالى (يبدونها ويخفون كثيراً) دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الدينى عن يهتدى به . قاله بعض الزيدية .

ولما أبطل تعالى كلمتهم الشنعاء السالفة بتقرير إنزال التوراة ، بين تنزيل ما يصدقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

« وَهَذَا » يعنى : القرآن ، « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أى : كثير المنافع والفوائد ، لاشتماله على منافع الدارين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وما لا يتناهى من الفوائد .

قال الرازى : العلوم إما نظرية ، وإما عملية . فالأولى أشرفها . وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه . ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب . وأما الثانية : فالطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى

بطهارة الأخلاق ، وتزكية النفس . ولا تجدهذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب . ثم جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه ، والمتمسك به ، يحصل له عز الدنيا ، وسعادة الآخرة . انتهى . قال الخفاجي : وقد شوهد ذلك في كل عصر .

« مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » ، أى : من التوراة أو من الكتب التي أنزلت قبله ، في إثبات التوحيد ، والأمر به ، ونفى الشرك ، والنهي عنه . وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنسخ .

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ » بمعنى : مكة . سميت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنًا ، وغيرها كالتابع لها ، كما يتبع الفرع الأصل . وفي ذكرها بهذا الاسم ، النبي عما ذكر ، إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من أطراف الأرض ، شرقًا وغربًا . كما قال في الآية الأخرى : لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ^(١) . وقوله : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ^(٢) . وقال : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ^(٣) . وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ، إِلَهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ... الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ^(١) .

وثبت في الصحيحين ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يمطهن أحد من الأنبياء قبلي ، وذكر منهم : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر ، حتى يؤمن بالنبي والكتاب (والضمير يحتملهما) ويحافظ على الصلاة. والمراد بها إما الطاعة مجازاً ، أو حقيقتها. وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطراً .

قال الرازي : ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ ^(٣)

(١) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ ...

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى : فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صِمِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ونصه : عن جابر أن النبي ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يمطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لي الفنائم ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت للناس عامة » .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .
(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ =

أى: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متممدا فقد كفر. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام . انتهى

أقول : الحديث المذكور رواه الطبراني في الأوسط معاجمه عن أنس وصحح . وتماه : فقد كفر جهارا - كما في الجامع الصغير - .

أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق ، قال في هذه الآية : أى يحافظون على مواقيتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى : اختلق إفكا ، فجعل له شركاء أو ولدا ، أو أحكما في الحل والحرمه ، كعمرو بن لحي وأشباهه ، ممن جعل قوله قول الله . « أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ » ممن ادعى النبوة كذبا . وهذا يزيد على الافتراء في دعوى النبوة .

قال البقاعي : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كمادة القرآن الجليل ، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك ، كسيلة والأسود العنسي وغيرهما . ثم قال : رأيت في كتاب (غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود) لابن يحيى المغربي الذي كان من علمائهم في حدود = عَلَيْهِمْ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، ...

سنة ٥٦٠ م هداه الله للإسلام فبين فضائهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم في كل يوم مرات . ثم قال : إن الربانيين أكثرهم عددا ، يزعمون أن الله يخاطبهم في كل مسألة بالصواب . وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم في الأمم . انتهى .

« وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول ، كالنضر بن الحارث . وهذا كقوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » (١) الآية .

قال الملهامى : أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه . ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة ، فيعلم بالظالمين فيها ، المبين بقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ » . أى : شدايده وسكراته وكرباته ، « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » أى : بالضرب والمذاب ، كقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ » (٢) .

« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم ، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أى : فشبه فعل الملائكة في قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف في استيفاء حقه من غير إهمال . وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول حقيقة . قال الناصر فى (الانتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٣١] ... إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٥٠] ... وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالمذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتنفرك روحه في جسده ، وتمصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى) المتقدمة ، فإنها صريحة . ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد في باب التأويل .

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة - أخرجه ابن أبي حاتم - .

« الْيَوْمَ » أى : وقت الإمامة ، أو الوقت الممتد من الإمامة إلى ما لا نهاية له . « تُجَزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى ، الهوان الشديد ، « بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به - قاله المهايى - . « وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا » أى : للحساب والجزاء « فُرَادَىٰ » أى : منفردين عن الأموال والأولاد ، وما أرتموه من الدنيا . أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم . و (فرادى) جمع فريد ، كأسير وأسارى .

« كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : مشبهين ابتداء خلقكم ، حفاة عراة غرلاً (بمعنى قلفاً) .

روى الشيخان^(١) عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

وروي^(٢) أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : تحشرون حفاة عراة غرلاً . قالت عائشة : قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

وروى الطبرى^(٣) بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقالت : يا رسول الله ! واسوأناه ! إن الرجال والنساء يحشرون

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً » ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم . وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ! أصحابي ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول ، كما قال العبد الصالح : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ - إلى قوله : الْحَكِيمُ » .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٤٥ - باب كيف الحشر ،

حديث ٢٤٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١٣٥٧٠ من التفسير .

جميعاً ينظر بعضهم إلى سوءة بعض ؟ فقال رسول الله ﷺ : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض .
« وَتَرَكْتُمْ مَآ خَوَّلْنَاكُمْ » ما تفضلنا به عليكم في الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخلول « وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » يعنى : في الدنيا ، ولم تحملوا منه فقيراً . كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد في الآخرة .

وقد ثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وزاد في رواية : وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس .

« وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ » أى : لله في الربوبية ، واستحقاق العبادة ، « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » قرئ بالرفع . أى : شملكم . فإن البين من الأضداد ، يستعمل للوصل والفصل . وبالنصب على إضمار الفاعل ، لدلالة ما قبله عليه . أى : تقطع الأمر ، أو الاشتراك ، أو وصلكم بينكم . أو على إقامته مقام موصوفه . والأصل : لقد تقطع ما بينكم ، وقد قرئ به . أى : تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات . « وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : ذهب عنكم ما زعتم من رجاء الأنداد والأصنام ، كقوله تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يَرْبِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِبَخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ^(٢) . وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٣ و٤٤ (طبعنا) عن عبد الله بن الشخير .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٦ و ١٦٧] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا ^(١) . والآيات في هذا كثيرة جدًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى » شروع في بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته ، وعلمه وحكمته ، إثر تقرير شأن توحيده تعالى ، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله ، وأنه مبدع الأشياء وخالقها . ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ولتعريف خطئهم في الإشراك الذي كانوا عليه . والمعنى : أن الذي يستحق العبادة دون غيره ، هو الله الذي فلق الحب عن النبات ، والنواة عن النخلة .

وفي معنى (فالق) قولان :

أحدهما - أنه بمعنى خالق . وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه . وبه قال الضحاك ومقاتل . قال الواحدي : ذهبوا بـ (فالق) مذهب (فاطر) . وأنكر الطبري ^(٢) هذا ، وقال : لا يعرف في كلام العرب (فلق الله الشيء) ، بمعنى خلق . ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه . وكذا المجد في القاموس .

قال الرازي : (الفطر) هو الشق ، وكذلك (انفلق) . فالشيء قبل أن دخل في الوجود كان معدوماً محضاً ، ونفياً صرفاً . والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ،

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . . . وَمَا أَوَّكُنَا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

(٢) انظر الصفحة ٥٥٢ من الجزء الحادي عشر (طبعة المعارف)

ولا انفلاق ، ولا انشقاق . فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه ، وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق . فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمبدع .

والقول الثانى - وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق . وفى معناه وجهان :

أحدهما - مروى عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبله ، والنواة عن النخلة . وهو قول الحسن والسدى وابن زيد . قال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسة ، فيخرج منها ورقاً أخضر .

الوجه الثانى - وهو قول مجاهد : أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى .

وضعف بأنه لا دلالة فيه على كمال القدرة .

و (الحب) : ما ليس له نوى ، كالحنطة والشعير والأرز .

و (النوى) : جمع نواة ، وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والخواخوش وغيرهما . قال الإمام الرازى : إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ، ثم مرّ به قدر من المدة ، أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقاً ، ومن أسفلها شقاً آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ، المسماة بعروق الشجرة . وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الأرض .

ثم إن ههنا .

عجائب :

فأحداها - أن طبيعة تلك الشجرة ، إن كانت تقتضى الهوى فى عمق الأرض ، فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلما تولدت منها الشجرتان ، مع أن الحس والعقل

يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى - علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .

وثانيها - أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لا تنفذ المسئلة القوية فيه ، ولا يغوص السكين الحادّ القوىّ فيه . ثمّ إننا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللاطفة ، بحيث لودلـكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة ، لصارت كالماء ، ثمّ إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة ، والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصل هذه القوى الشديدة ، لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة ، لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها - أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإن قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة ، وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف، يشبه المهن النفوش . ثمّ إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ، ويتولد على الأغصان الأوراق أولاً ، ثمّ الأزهار والأثمار ثانياً ، ثمّ الفاكهة ثالثاً . ثمّ قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر، وتحتّه ذلك القشر الذي يشبه الخشب ، وتحتّه ذلك القشر الذي هو كالنشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحتّه ذلك اللب . وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف ، وهو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف ، وهو الدهن . وهو المقصود الأصلي . فتولد هذه الأجسام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها ، مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة ، والطبائع الأربع - يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر ، لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها - أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة ، فالأترنج : قشره حارّ يابس ، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس ، وبزره حار يابس . وكذلك العنب : قشره

وَيَجْمَعُهُ بَارِدٌ يَابِسٌ ، وَمَائِهِ وَلَحْمُهُ حَارٌّ رَطْبٌ . فتولدُ هذه الطبائع المتضادة ، والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة - لا بد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

وخامسها - أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون اللب في الداخل ، والقشر في الخارج ، كما في الجوز واللوز . وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة في الخارج ، وتكون الخشبة في الداخل ، كالخوخ والشمش . وبعضها يكون النواة لها لب ، كما في نوى الشمش والخوخ . وبعضها لا لب له ، كما في نوى التمر . وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل يكون كله مطلوباً ، كالتين . فهذه أحوال مختلفة في هذه الفواكه . وأيضاً هذه الحبوب مختلفة في الأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان انصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحنظل على وجه آخر . فهذه الأشكال المختلفة لا بد وأن تكون لأسرار وحكم ، عليم الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل . وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ، ومنفعة أخرى . وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاءً لحيوان ، وسمّاً لحيوان آخر . فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال ، مع اتحاد الطبائع ، وتأثيرات السكواكب ، يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها - أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة ، وجدت خطأ واحداً مستقيماً في وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان . وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة ، يمتد ويسرة ، في بدن الإنسان ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب آخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار ، بسبب الصغر . فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطاني خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج ، حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر . والخالق تعالى إنما فعل ذلك ، حتى إن القوى الجاذبة

المركوزة في جرم تلك الورقة ، تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجارى الضيقة . فلما وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة ، علمت أن عنايته في تخليق جملة تلك الشجرة أكل ، وعرفت أن عنايته في تكوين جملة النبات أكل . ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان ، علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكل . ولما عرفت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان ، علمت أن عنايته في تخليق الإنسان أكل . ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان في هذا العالم ليكون غذاءً ودواءً للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١) . فانظر أيها المسكين بعين رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقه تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها ، حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الأرواح البشرية ، فحينئذ يفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله في حقه غير متناهية ، كما قال : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا^(٢) . وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة . فهذا كلام مختصر في تفسير قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له . ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى كلام الرازي رحمه الله تعالى .

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » كالحيوان من النطفة ، والنبات من الغصن الطرى من الحب اليابس ، « وَخُجِرُ الْمَيِّتِ » كالنطفة والحب « مِنَ الْحَيِّ » كالحيوان والنبات .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] ونصها : وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

و [١٦ / النحل / ١٨] ونصها : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« ذَلِكُمُ اللَّهُ » أى : الفالق للحب والنوى ، والمخرج الحى من الميت وعكسه ، هو الله ، القادر العظيم الشأن ، المستحق للعبادة وحده .
« فَأَن تَوَفَّكُونَ » أى : تصرفون عنه إلى غيره .

قال الرازى : والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل ، يوم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . بل لابد وأن يكون بتقدير القدر الحكيم ، والمدبر العليم .

تنبيه :

ذهب الرخشرى ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) عطف على (فَالِقُ) لا على (يُخْرِجُ الْحَيَّ) ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان . وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله (صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ)^(١) . والصحيح أنه معطوف على (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) واشتماله على زيادة فيه ، لا يضر ذلك بكونه بياناً . كما أن (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبديل ، كقوله تعالى (يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)^(٢) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٩] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

و [٣١ / لقمان / ٢٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

قال في (الاتصاف) : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)^(١) وقوله (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)^(٢) فعطف أحد القسمين على الآخر، كثيراً دليل على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه ورده إلى (فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى) . فالوجه - والله أعلم - أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله (فَالِقُ الْغَيْبِ) و (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) و (جَاعِلُ اللَّيْلِ) و (مُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت ، واستحضاره في ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل .

= و [٣٥ / فاطر / ١٣] ونصها : يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ . وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ .
و [٥٧ / الحديد / ٦] ونصها : يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٤] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .
(٢) [١٠ / يونس / ٣١] ونصها : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فمدل عن الماضى المطابق لقوله (أَنْزَلَ) لهذا المعنى ، ومنه ما فى قوله (٣) :

بَأْنَى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّحَانَ
فَأَضْرُبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَالْجِرَانِ

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] . . . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٢) من شواهد الكشف . قال الشارح :

فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الريح السحاب ، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهمل المخاطب أو غير ذلك ، كما فى قول تأبط شرا : بأْنَى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى . . . الخ .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها ، بزعمه ، على ضرب الغول . كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل فسقناه فأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الفية إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليه .

والغول السعالى . والعرب تسمى كل داهية غولا . واختلف فى وجوده . فمنهم من ينكر وجوده أصلا ، والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى ، أى : تهبط . بسهب أى فضاء بعيد عن الأرض والصحيفة الكتاب . وقاع صحصان وصمصان أى مستوٍ . والجِرَانِ مقدّم العنق من مذبحه إلى منحره .

فعدل إلى المضارع لإرادة لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)^(٢) فعدل عن (مُسَبِّحَاتٍ) وإن كان مطابقاً (مَحْشُورَةً) لهذا السبب - والله أعلم - . ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحى من الميت أشهر في القدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول ما يبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحى بأن عنه ، فكان الأول جديراً بالتصديق والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر ؛ حسب ترتيبهما في الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسنه . أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه - والله أعلم - انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقوله تعالى « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » خبر آخر (إِنَّ) ، أو لمبتدأ محذوف . و (الْإِصْبَاحِ)

مصدر سمي به الصبح . قال امرؤ القيس^(٢) :

ألا أيها الليل الطويلُ ألا أنجلي بصُبحٍ وما الإصباحُ فيك بأُمثلٍ

(١) [٣٨ / ص / ١٨ و ١٩] ... كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ .

(٢) من مملقته التي أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحو مل

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرح البيت :

هذا البيت متعلق بما قبله . لأن تقديره : فقلت له : ألا أيها الليل الطويل ألا انجل . =

أى : شاقه عن ظلمة الليل « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » أى : صير الظلام يسكن إليه ، ويطمئن به ، استرواحاً من تعب النهار . أو يسكن فيه الخلق ، أى : يقرؤا ويهدؤا (من السكون) - وهو الأظهر لقوله (لَتَسْكُنُوا فِيهِ) - وقرئ (وَجَاعِلُ اللَّيْلِ) .
« وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا » أى : على أدوار مختلفة ، لتحسب بهما الأوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات . كما ذكره فى سورة يونس فى قوله ^(٢) (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ) .
« ذَلِكَ » أى التسيير بالحساب المعلوم « تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ » أى : الغالب على أمره ، « الْعَلِيمِ » بتدبيرها ، ومراعاة الحكمة فى شأنهما .

= أى انكشف بإقبال الصبح . ثم رجع فقال : وما الإصباح فيك بأمثل . أى إذا جاء الصبح فأنا مغموم كما كنت فى الليل . فليس الصبح بأمثل من الليل .
وقال الأصهبانى : معنى قوله (بأمثل) أن الصبح قد يجيء والليل مظلم . يقول : ليس الصباح بأمثل وهو فيك . أى أريد أن يجيء بجيئاً منكشفاً متجلياً ، لا سواد فيه . كما قال البحرى ، وإلى هذا أشار فقال :

فأزرق الفجر يأتى قبل أبيضه وأول الغيث طل ثم ينسكب

قال الأصهبانى : ولو أراد أن الصباح ليس بأمثل من الليل ، لقال : منك بأمثل . اه .
(١) [١٠ / يونس / ٦٧] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و [٢٨ / القصص / ٧٣] ونصها : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : قوله تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ...) الآية ، نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان . والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية . وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية . ثم قرر الحجة من وجوه عديدة ، وأجاد رحمه الله .

الثانى - قرئ (الْأُصْبَاحِ) بفتح الهمزة ، على أنه جمع صُبْح ، كقُفْل وأقْفال .

الثالث - فى (البحر الكبير) : أن السنة الشرعية قريبة لشمسية ، والشمسية مما حدث فى دواوين الخراج ، وإنما أضيف الحساب فى الآية إليهما ، لأن بطوع الشمس ومغيبها يعرف عدد الأيام التى تتركب منها الشهور والسنون ، فمن هنا دخلت - انتهى .

الرابع - قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعمة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(١) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فىهن فى أول سورة (حم السجدة) قال : (وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(٢) . انتهى .

وفى (العزة) معنى القهر ، أى : الذى قهرها بجعلها مسخرين ، لا يتيسر لها إلا ما أريد

(١) [٣٦ / يس / ٣٧ و ٣٨] .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

بهما ، كما قال : (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)^(١) ، ومعنى القدرة الكاملة أيضاً .

قال الرازى : (العَزِيزُ) إشارة إلى كمال قدرته ، و (الْعَلِيمُ) إشارة إلى كمال علمه . ومعناه : أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتِها المخصوصة وهياتِها المحدودة ، وحركاتِها المقسدة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار - والله أعلم - .

الخامس - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : (حُسْبَانًا) قال : يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وقال قتادة : يدوران في حساب . قال السيوطى : فالآية أصل في الحساب والميقات . انتهى .

ثم بين تعالى نعمته في الكواكب ، إثر بيان نعمته في النيران إعلالاً بكمال قدرته وحكمته ورحمته بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ،

قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى :

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَالِكِينَ .

في ظلمات الليل في طرق البر والبحر « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ » أى : بينا الآيات على قدرته تعالى وحكمته واليوم الآخر « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : وجه الاستدلال بها . وإنما خلقت للاستدلال التاثر بالعمل بموجبها ، ألا وهو الاستدلال بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه واستحقاقه العبادة وحده .

تنبيهان

الأول - ذكر تعالى في غير هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، وكونها رجوماً للشياطين . قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر - نقله ابن كثير - .

أقول : مراده اعتقاد منافي للعقد الصحيح لا اعتقاد حكم وإسرار غير الثلاث فيها ، إذ فوائد المكونات غير محصورة . وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها - فافهم !
الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في الميقات ، وأدلة العقليات - ثم بين تعالى نوعاً آخر من نعمه ، وأدلة قدرته الباهرة يقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » يعنى : آدم عليه السلام « فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ »

قرىء (مُسْتَقَرٌّ) بفتح القاف وكسر ها ، وأما (مُسْتَوْدَعٌ) فبفتح الدال لا غير . وهما ، على الأول ، إما مصدران ، أى : فلکم استقرار واستيداع ؛ أو اسماء مكان ، أى : موضع استقرار واستيداع . والاستقرار إما في الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعالى : (وَلَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ^(١) أَوْ فِي الْأَرْحَامِ ، لقوله تعالى : (وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ) ^(٢) أَوِ الْاِسْتِدَاعِ فِي الْأَرْحَامِ ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها ، لأنها تحصل في الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفي الرحم من قبل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأنّ الرجل أودعها ما كان عنده ، أَوْ فِي الْأَصْلَابِ ، أَوْ تَحْتَ الْأَرْضِ ، أَوْ فَوْقَهَا ، فإنها عليها ، أَوْ وَضَعَتْ فِيهَا لِتُخْرِجَ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى كقوله ^(٣) :

وَمَا لِلْمَالِ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وِدَائِعُ وَلَا بَدْيَ يَوْمًا أَنْ تَرَدَّ الْوِدَائِعُ

ونقل الرازي عن الأصمّ أن المستقرّ مَنْ خُلِقَ مِنَ النَّفْسِ الْأُولَى ، ودخل الدنيا واستقرّ فيها . والمستودع الذي لم يخلق بعد وسيخلق . وجعل أبو مسلم الأصفهاني (المستقر) كناية عن الذّكر ، و (المستودع) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذّكر بـ (المستقر) لأن النطفة إنما تتولد في صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعبر عن الأنثى بـ (المستودع) لأنّ رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة - والله أعلم - .

(١) [٢ / البقرة / ٣٦] ونصها : فَآزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . .

(٢) [٢٢ / الحج / ٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

(٣) قائله ليبد من قصيدته التي مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

وعلى قراءة (مستقر) بكسر القاف اسم فاعل ، أى : فذكم قارّ ، ومنكم مستودع .
 ووجه كون الأول معلوماً ، والثاني مجهولاً ، كون الاستقرار صادراً منادون الاستيداع .
 قال الرازى : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام .
 ثم اختلفوا فى المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية
 متساوية فى الجسمية ، ومختلفة فى الصفات التى باعتبارها حصل التفاوت فى المستقر والمستودع .
 والاختلاف فى تلك الصفات لابد له من سبب ومؤثر ، وليس السبب هو الجسمية
 ولوازمها ، وإلا لامتنع حصول التفاوت فى الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل
 المختار الحكيم . ونظير هذه الآية فى الدلالة قوله تعالى : (وَاخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ
 وَأَلْوَانِكُمْ)^(١) .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ إِيَّامٍ يَفْقَهُونَ » قال الزخشرى : فإن قلت ، لِمَ قيل (يعلمون)
 مع ذكر النجوم ، و(يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس
 واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتديرا . فكان ذكر الفقه الذى هو
 استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى - وهذا بناء على أن الفقه شدة الفهم
 والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم - قال : إنه تفنن ، حذرا من
 صورة التكرير .

قال الناصر فى (الانتصاف) : جواب الزخشرى صناعى ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت ،
 ولا سبيل إلى الحقيقة . قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهها على استقلال
 كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى
 ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسیناً للنظم ، واتساقاً فى البلاغة . ويحتمل

(١) [٣٠ / الروم / ٢٢] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
 أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه . وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ، ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس الناظر ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم في أطوار مختلفة ، وأحوال متغيرة ، فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك ، فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكير ، أبشع من جهله بالأموار الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نُفِيََ من أبشع القبيلين جهلاً ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة ، نخص به أسوأ الفريقين حالاً . (ويفقهون) ههنا مضارع فقه الشيء - بكسر القاف - إذا فهمه ، ولو أدنى فهم . وليس من (فقهه) بضم القاف ، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيهاً - قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن (فقهه) أنزل من (علم) - . وفي حديث سلمان ^(١) أنه قال ، وقد سأله امرأة جاءت به : فَقِهَتْ أَى : فَهِمَتْ ، كالمعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً . وكأن معنى قولك : (لا يفقه شيئاً) ليست له أهلية الفهم وإن فهم . وأما قولك (لا يعلم شيئاً) فمأنيته نفى حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلم . والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غيره قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) نخص التبصر

(١) هذا نصه كما جاء في اللسان :

أنه نزل على نَبِيٍّ بِالْعِراق ، فقال لها : هل هنا مكان نظيف أصلي فيه ؟
فقلت : طهر قلبك وصل حيث شئت .
فقال سلمان : فَقِهَتْ . أى فهمت وفطنت للحق والمعنى الذي أرادت .

في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً . وقولنا ، في أدراج الكلام : (إنه في العلم عن أحد الفريقين ، وفي الفقه عن الآخر) يعني : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقوم . فأشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ، ولا فقه - والله الموفق - فتأمل هذا الفصل ، وإن طال بعض الطول . فالنظر في الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر في الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه .

ثم بين تعالى حجة كبرى على كمال قدرته ، ومنة أخرى من جسيم نعمته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » أي : من السحاب ، لقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)^(١) وسمى السحاب سماءً ، لأن العرب تسمى كل ما علا سماءً .

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ » التفت إلى التسكيم إظهاراً لسكال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أي : فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء ، مع وحدته « نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ » أي : صنف من أصناف

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨ و ٦٩] .

النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان ، كقوله تعالى : (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ)^(١) .

« فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ » أى : من النبات ، يعنى أصوله « خَضِرًا » أى : شيئاً غضاً أخضر .
يقال : أخضر وخضِر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ،
« نُخْرِجُ مِنْهُ » صفة لـ (خضرا) وصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة ، لما فيها من
الغربة ، أى : نخرج من ذلك الخضر « حَبًّا مُتَرَاكِبًا » أى : متراكبا بعضه على بعض ، مثل
سنابل البر والشعير والأرز .

قال الرازى : ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر ، والمقصود من تخليقها
أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة .

ثم بين تعالى ما ينشأ عن النوى من الشجر ، إثر بيان ما ينشأ عن الحب من النبات بقوله
سبحانه : « وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ » الطلع : أول ما يبدو من ثمر النخيل
كالـكيزان يكون فيه العذق ، فإذا شق عنه كيزانه سمى عذقا (بكسر الميم وسكون الذال
المعجمة بعدها) - وهو القنو ، أى : المرجون ، بما فيه من الشماريح ، وجمعه قنوان - (مثلث
القاف) وهو ومثناه سواء ، لا يفرق بينهما إلا الإعراب .

قال الزمخشري : قنوان ، رفع بالابتداء ، و (من النخل) خبره ، و (من طلعمها) بدل
منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . انتهى . وجوز أن يكون (من النخل)
عطفاً على (منه) ، وما بعده مبتدأ وخبر . أى : وأخرجنا من النخل نخلا من طلعمها قنوان
دانية ، أى : ملتفة ، يقرب بعضها من بعض ، أو قريبة من المتناول ، وإنما اقتصر على

(١) [١٣ / الرعد / ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ
وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ذكرها لدلائلها على مقابليها ، أعني البعيدة ، كقوله تعالى : (سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)
ولزيادة النعمة فيها « وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ » عطف على (نبات كل شيء) أى : وأخرجنا
بهجنت ، أو على (خضرا) . وقال الطيبي : الأظهر أن يكون عطماً على (حباً) لأن قوله :
(نبات كل شيء) مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامى ، كأنه قال : فأخرجنا
بالنامى نبات كل شيء ينبت كل صنف من أصناف النامى . والنامى : الحب والنوى
وشبههما .

وقوله : (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) الخ تفصيل لتلك النبات . أى : أخرجنا منه
خضرا بسبب الماء ، فيكون بدلا من (فأخرجنا) الأول ، بدل اشتغال . ومن ههنا يقع التفصيل ،
فبعض يخرج منه السنابل ذات حبوب متكاثرة ، وبعض يخرج منه ذات قنوان دانية ،
وبعض آخر جنات معروشات ... الخ .

« وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ » العطف فيه كما تقدم « مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ » حال من
(الزيتون) ، اكتفى به عن حال ما بعده . أو من (الرمان) لقربه . والمخدوف حال الأول .
قال الزمخشري : يقال اشتبه الشيان وتشابهها ، كقولك : استويا وتساويا . والافتعال
والتفاعل يشتركان كثيرا . وقرئ : متشابهها وغير متشابه . والمعنى : بعضه متشابهها ، وبعضه
غير متشابهه في الهيئة والمقدار واللون والطعم ، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة
صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها .

« انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : ثم كل واحد من ذلك إذا أخرج ثمرة ، كيف
يكون ضئيلا ضعيفا ، لا يكاد ينتفع به ، « وَيَنْعَمِ » أى : وإلى حال ينعم ونضجه ، كيف
يعود شيئا جامعا لمنافع وملاذ . أى : انظروا إلى ذلك نظر اعتبار واستبصار واستدلال ، على
قدرة مقدره ومدبره وناقله ، على وفق الرحمة والحكمة ، من حال إلى حال ، فإن فيه آيات
عظيمة دالة على ذلك ، كما قال :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى : يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أو هو القادر على أن يحيى الموتى ويعيهم . قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث ، فاحتج عليهم بتصرف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى . فبين أنه تعالى كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ، ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة ، وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة ، غير متشابهة فى اللذة ، جزاء عليها . والله أعلم - .

لطيفة :

قال الرازى : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر ، لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة ، بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : فإنها خاقت من بقية طينة آدم . وإنما ذكر العنب عقيب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . فأول ما يظهر على الشجر ، يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم ، لذينة الطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم مشربة لطيفة المذاق ، نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكانه ألد الطبائخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو ألد الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ،

وهو في الحقيقة ألد الفواكه المدخرة ، ثم يبقى منه أنواع من المتناولات وهي الزبيب والدبس والخل ، ومنافع هذه لا يمكن ذكرها إلا في المجلدات . وأحسن ما في العنب عَجْمُهُ ، والأطباء يتخذون منه (جوارشنت) عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه .

وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع ، لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير ، عظيم النفع في الأكل ، وفي سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فحاله عجيب جداً ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشره وشحمه وعَجْمُهُ وماءه . أما الأقسام الثلاثة الأول وهي القشر والشحم والعَجْمُ فكلها باردة يابسة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات . وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألد الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدّها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه ، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين . فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة ، التي هي أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواق . انتهى .

أقول : حديث (أكرموا عمتكم النخلة) المذكور ، رواه أبو يعلى وابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وابن السني وأبو نعيم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه ، كافي الجامع الصغير ، ورمز عليه بالضعف .

ولما ذكر تعالى هذه البراهين ، من دلائل العالم العلوي والسفلي ، على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، واستحقاقه للألوهية وحده - عقبها بتوبيخ من أشرك به والرد عليه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ » أى : جعلوهم شركاءه فى العبادة . فإن قيل : فكيف عُبِدَتِ الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم بذلك . كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَا أَخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضِلَّتْ لَهُمْ وَلَا مِئْنَتُهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيُبَيِّتْ كُنَّ إِذْ أَمَرَ الْأَنْعَامَ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)^(١) . وكقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى ...)^(٢) الآية . وقال إبراهيم لأبيه : (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)^(٣) . وكقوله : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِى ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)^(٤) وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)^(٥) .

(١) [٤ / النساء] ١١٧-١١٩ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

(٣) [١٩ / مريم / ٤٤] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٠ و٦١] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٤١] وَقَالُوا ...

« وَخَلَقَهُمْ » حال من فاعل (جَعَلُوا) ، مؤكدة لما في جَعَلِهِمْ ، ذلك من كمال القباحة والبطلان ، باعتبار علمهم بضمونها . أى : وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن (وليس من يخلق كمن لا يخلق) ! وقيل : الضمير للشركاء . أى : والحال أنه تعالى خلق الجن ، فكيف يعملون مخلوقه شريكاً له ؟ كقول إبراهيم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)^(١) . أى : وإذا كان هو المستقل بالخالقية ، وجب أن يفرد بالعبادة ، وحده لا شريك له .

تنبيه :

ما ذكرناه من معنى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) أنهم أطاعوا الجن في عبادة الأوثان ، هو ما قرره ابن كثير ، وأيده بالنظائر المتقدمة ، ونقل عن الحسن ، فتكون الكناية لمشركى العرب .

وقيل : المراد بالجن الملائكة ، فإنهم عبدوهم وقالوا عنهم بنات الله . وكلا الأمرين موجب للشريك . أما الأول فظاهر . وأما الثانى فلا أن الولد كفء الوالد ، فيشاركه في صفات الألوهية . وتسمية الملائكة (جنّاً) حقيقة ، لشمول لفظ الجن لهم . وقيل : استعارة . أى : عبدوا ما هو كالجن ، في كونه مخلوقاً مستتراً عن الأعين .

وذهب بعض السلف - منهم الكلبي - إلى أنها نزلت في الثنوية القائلة بأن للعالم إلهين : أحدهما خالق الخير وكل نافع . وثانيهما خالق الشر وكل ضار . ونقله ابن الجوزي عن ابن السائب . وحكاه الفخر عن ابن عباس رضى الله عنه ، وأنه قال : نزلت في الزنادقة الذين قالوا : إن الله وإبليس أخوان . فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ؛ وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

قال الرازي : وقول ابن عباس المذكور أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية ، وذلك ،

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٦ و ٩٥] قَالَ ...

لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة .
وقوى ابن عباس قوله المذكور بقوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا) (١) .
وإنما وصف بكونه من الجن ، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة والروحانيون مستتر من العيون ، فلذلك أطلق لفظ الجن عليها .

قال الفخر : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بـ (الزند) ، والمنسوب إليه يسمى (زندي) ، ثم عُرِّبَ فُقِيل : (زنديق) ، ثم جمع فُقِيل : (زنادقة) . واعم أن المجوس قالوا : كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من (يزدان) ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من (اهرمن) (وهو المسمى بإبليس في شرعنا) ثم اختلفوا ، فالأكثر منهم على أن (اهرمن) محدث ، ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجبية . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلي . وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم ، نفيرات هذا العالم من الله تعالى ، وشروره من إبليس . فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وإنما جمع حينئذ في الآية ، لكونه مع أتباعه كأنهم معبودون .

ثم قال الرازي : وقوله تعالى (وَخَلَقَهُمْ) إشارة إلى الدليل القاطع على فساد كون إبليس شريكاً ، وتقريره أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم ، بل هو محدث . إذا ثبت هذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى . فهو لاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى . ولما كان إبليس أصلاً لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد . وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا : لا بد من إلهين ، فسقط قولهم . انتهى ملخصاً .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ... وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

وقوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ » أى : اختلقوا وافتروا له « بَنِينَ » كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير « وَبَنَاتٍ » كقول بعض العرب فى الملائكة .

قال الزحشرى : يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقتها والله ! ويجوز أن يكون من (خَرَقَ الثَّوبَ) إذا شقه : أى اشتقوا له بنين وبنيات . وقرئ (وَخَرَقُوا) بالتشديد للتكثير لقوله (بنين وبنيات) .

« بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، أو بغير علم بمرتبة ما قالوا ، وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادَرُ قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون بمجرد الرأى والهوى . وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ما جزم به ، وقام عليه الدليل .

ثم نزه ذاته العلية عما نسبوه إليه بقوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ » من أوصاف الحوادث الخسيسة من المشاركة والتوليد .

ثم استدل تعالى على بطلان ما اجتروا عليه بوجوه أربعة . بدأ منها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أُنِّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : مبدعهما بلا مثال سبق . وقيل : بمعنى عسديم النظير فيهما . قال أبو السعود : والأول هو الوجه . والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى ، بلا مادة ، فاعل على الإطلاق ، منزّه عن الانفعال بالمرّة . والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟

« أَأَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً » أى : من أين وكيف يكون له ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها ؟ ويستحيل ضرورة وجود الولد بلا والدة ، وإن أمكن وجوده بلا والد . وأيضاً ، الولد لا يحصل إلا بين متجانسين ، ولا بجانس له تعالى .

وقواه تعالى : (أَأَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ) جملة مستأنفة ، لتقرير تنزهه عنه ، والحالية بعدها مؤكدة للاستحالة المذكورة .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » جملة أخرى مستأنفة ، لتحقيق ما ذكر من الاستحالة . أو حال ثانية مقررة لها . أى : أنتى يكون له ولد والحال أنه خالق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من مجلتها ما سموه ولداً له تعالى . فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً خالقه ؟ - أفاده أبو السعود -

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى : مبالغ فى العلم أزلاً وأبداً . جملة مستأنفة أيضاً ، مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ، بطلان مقاتلهم الشنعاء . أى : أنه سبحانه لذاته عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد ، فلا بد أن يتصف بصفاته ، ومنها عموم العلم ، وهو لغيره تعالى منفى بالإجماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« ذَٰلِكُمُ » أى : الموصوف بما سبق ، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة ، إذ هو « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ » أى : بالإيمان به وحده ، فإن من جمع تلك الصفات استحق العبادة وحده . « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى : رقيب وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم بالليل والنهار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

وقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإما هي مؤكدة لما تقرر قبل من تنزهه وتعالى عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعهودة وهي أبصار أهل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره في (فتوحاته) : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم في الدنيا ضعف نشأة هذه الدار ، إلا لمن أمدّه الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى في المنام كون النوم أخص الموت . وفي الحديث إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشارع إلا رؤية الله في الدنيا يقظة . انتهى .

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة في الدنيا لا تدركه تعالى ، لأن هذه الأحداق مادامت تبقى على هذه الصفات التي هي موصوفة بها في الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفي الصحيحين^(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ

(١) ليس في الصحيحين . بل هو مما انفرد به مسلم عن البخاري . أخرجه في :

١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٩٣ (طبعتنا) وهذا نصه :

عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابہ النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

قال ابن كثير: وفي الكتب المتقدمة؛ أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ! إنه لا يراني حتى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (١) .

أقول : كون المنفى من الإدراك في هذه الآية هو الإدراك الديني خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان. ومن فهم من بعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفى هو الإدراك في الناشئين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله تعالى : (وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) (٢) . وأما السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلي (٣) قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث رقم ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها ، فافعلوا. ثم قرأ: **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.**

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريروصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ : أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات . انتهى

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأدلة السمع طائفة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك في الدنيا . إلا أنه اختلف في نبينا ﷺ . انتهى.

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤيا في الدار الآخرة ، وتنفيها في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى.

فمن مسروق^(١) قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمتاه ! هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قفّ شعري مما قلت ! أين أنت من ثلاث من حدثكهنّ فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَمَا كَانَ لِيَشْرَأَنَّ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**^(٢) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ١ - باب

حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

وأخرجه الترمذى بأطول من هذا السياق في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام .

٥ - حدثنا أحمد بن منيع .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ**

عَلَىٰ حَكِيمٍ .

فقد كذب، ثم قرأت^(١): وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت^(٢): يَأْتِيهَا الرَّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية . ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين - أخرجه الشيخان والترمذي - .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده . والمسألة تذكر مبسطة في أول سورة النجم إن شاء الله تعالى .

ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل هو معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالمعظم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون : الإدراك أخص من الرؤية ، وهو الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العالم بعدم العلم . قال تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا^(٣) .

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] ونصها : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] ... وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا .

وفي صحيح مسلم^(١) : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولا يلزم منه عدم الثناء ، فكذلك هذا . انتهى .

وقال النسفي : تشبثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفى هو الإدراك لا الرؤية ، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهاث ، يستحيل إدراكه ، لارؤيته ، فنزل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضي نفى العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفى إدراك ما تستحيل رؤيته . لا تمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفى الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم . انتهى .

وقد جود العلامة العصدي (المواقف) البحث في هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن ، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى - من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ :

١ - والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فمعنى قولك : أدركته يبصرى ، معنى رأيته . لا فرق إلا في اللفظ . أو هما أمران متلازمان لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعنا) ونصه :

عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش . فالتصت فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول « اللهم ! أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

فـلا يجوز : رأيتـه وما أدركـته بـصرى ولا عكـسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة ، في جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيد ما يقابله ، فلا يراه شىء من الأبصار ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، لما ذكرنا .

٢ - ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى ، فإنه ذكره في أثناء المدائح . وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يتمتع برؤيته ، وإعـا قلنا : (من الصفات) احترازاً عن (الأفعال) ، كالمفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثاني عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول في الاستدلال بالآية فمن وجوه :

الأول - أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئى ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و(إننا لمدركون) أى ملحقون ، و(أدركت الثمرة) أى : وصلت إلى حد النضج و(أدرك الغلام) أى بلغ . ثم نقـل إلى الرؤية المحيطة ، لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة ، أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفى المحيطة عن البارئ سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفى المطلقة عنه . وقوله (لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيتـه وما أدركـه بصرى . أى : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

الثانى - أن (تدركه الأبصار) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلى باللام الاستغرافية . وقد دخل عليها النفي فرفمها . ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية . وبالجملة فيحتمل قوله : (لا تُدركُهُ الأبصارُ) إسنادُ النفي إلى الكل ، بأن يلاحظ أولاً دخول النفي ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفى الإسناد إلى الكل بأن يعتبر العموم أولاً ، ثم ورود النفي عليه ، فيكون سالبة جزئية . ومع احتمال المعنى الثانى ، لم يبق فيه حجة لكم علينا .

لأن أبصار الكفار لا تدركه، إجماعاً . هذا ما نقوله : لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنَا أن الآية حجة لنا وقلنا : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سالبة مهمة في قوة الجزئية، فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى - لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهمة مرادفة للجزئية . وكونها في قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس في حيز النفي يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءني الرجل . وإنما الاحتمال للعموم السلب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذ تصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفي، كما أرجع المستدل قيد العموم، على تقدير الاستغراق، إليه. فتأمل ! - كذا في حواشي الحلبي والشرواني - .

الثالث - من تلك الوجوه أنها - أي الآية - وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لاتعم في الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دأمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لا يرى في الدنيا .

قال العلامة حسن حلبي : وما استدلل به الخصم سابقاً على أنها دأمة، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيد ما يقابله - فجوابه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعاً في العربية لمعينين متناقضين ، بل لهما محامل يحملهما المستعمل حسب ما يريد .

الرابع - منها أن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ، ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه، لجواز أن يكون ذلك النفي المذكور في الآية ، نفيّاً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً، كما هو العادة ، فلا يلزم نفي الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثاني وهو قوله : تمدح البارئ بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما

تقدم إلى دليله بأنه ذكر في أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً - قلت :
ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفى المبصرية ، لا بنفى الرؤية ، والفرق قد سبق في الجواب
الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضى أنه تمدح ، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ،
بل لنافيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لما حصل المدح بنفيها عنه ، إذ لا مدح
للمعدوم بأنه لا يرى ، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح في عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب
الكبرياء ، كما في الشاهد . انتهى .

وناقش الخيال قولهم : (لا مدح للمعدوم) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن
كل نقص أعنى : العدم ، فإن أصل المادح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن
الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشيء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفى الشريك ،
ونفى اتخاذ الولد في القرآن ، مع امتناعهما في حقه تعالى . انتهى .

ووافقه حسن جلبى في (حواشى شرح المواقف) ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضى
الكمال من جهات آخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافى المدح بغيرها . انتهى .
وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول - أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز
الرؤية .

الثانى - أن مبنى كلامه على العرف واللغة ، فإن أهلها إذا أرادوا مدح شيء يقولون هذا
الشيء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول
منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشيء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات
والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك

الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث - إنا قلنا : إن نفى الرؤية في مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفى كل شيء في مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشيء ، حتى يرد علينا النقض بنفى الشريك ، أو بنفى اتخاذ الولد في مقام المدح ، مع أن إمكان المنفى في صورة النقض نقص بنفى الألوهية ، وإمكان المنفى فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن حليبي : إن قيل : يلزم على ثبوت التمدح بنفى الرؤية ، تعزراً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى في الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدح بنفى الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أن خلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

وقد بيناه أولاً ، وسيأتى لذلك تنمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه (وَحُورٌ مِّمَّنْ نَّأْمُرُ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » أى : يرى جميع المرئيات ، وبصير جميع البصرات ، لا يخفى عليه شيء منها . « وَهُوَ اللَّطِيفُ » أى : الذى يعامل عباده باللطف والرأفة ، « الْخَبِيرُ » أى : العليم بدقائق الأمور وجلياتها . وجوز أن تكون الجملة تعليلًا لما قبلها ، على طريقة الف ، أى : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون (اللَّطِيفُ) مستعاراً من مقابل الكثيف ، فشبه به الخفى عن الإدراك . وهذا بناء على أنه فى ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم . والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد فى الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذى يحلّ عن إدراك البصائر ، فضلاً عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلاً عن الأفكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،

وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه في اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة - كذا حققه البهائي في (شرح الأسماء الحسنى) . وقول الخفاجي : (اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة) ، لا يظهر له مناسبة هنا - مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قَدْ جَاءَكُمْ بِصَارٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ)

وقوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بِصَارٍ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : الآيات والدلائل التى تبصرون بها الهدى من الضلالة . جمع (بصيرة) ، وهى الدلالة التى توجب البصر بالشيء ، والعلم به . وجوز أن يكون المعنى : قد جاءكم من الوحي ما هو كالْبصائر للقلوب ، جمع (بصيرة) وهى النور الذى يستبصر به القلب ، كما أن البصر نور تستبصر به العين .

« فَمَنْ أَبْصَرَ » أى : الحق بتلك البصائر وآمن به « فَلِنَفْسِهِ » أى : فلنفسه أبصر ، لأن نفعه لها ، « وَمَنْ عَمِيَ » أى : ضل عن الحق . والتعبير عنه بـ (العمى) للتقبيح له ، والتنفير عنه ، « فَعَلَيْهَا » أى : فعلى نفسه عمى ، وإياها ضر بالعمى . « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ » أى : بـ رقيب يرقبكم ، ويحفظكم عن الضلال ، بل أنا منذر ، والله يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى : نوردها على وجوه كثيرة في سائر المواضع ، لتكمل الحجة على المخالفين ، « وَلِيَقُولُوا » في ردها : « دَرَسْتَ » أى : قرأت على غيرك ، وتعلمت منه . وحفظت بالدرس أخبار من مضى . كقولهم (فَبِئْسَ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١) .

يقال : درس الكتاب يدرسه دراسة ، إذا أكثر قراءته وذلكلله للحفظ . قال ابن عباس : (وليقولوا) معنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) معنى : تعلمت من يسار وخير ، وكانا عبيدين من سبي الروم ، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ! وقال الفرءاء : معناه تعلمت من اليهود - كذا في (اللباب) - .

وقرىء (دَارَسْتَ) بالالف وفتح التاء . أى : دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية . كقولهم^(٢) (إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ...) الآية .

ويقراء « دَرَسْتَ » بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء . أى : مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، كما قالوا : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)^(٣) . وهذه القراءات الثلاث

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ...

(٢) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٥] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُوْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ لَوْكَ مُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٣١] ونصها : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [١٦ / النحل / ٢٤] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . =

متواترة . وقرىء في الشواذ (دُرِستَ) ماضياً مجهولاً . أى : تليت وعفيت تلك الآيات . وقرىء (دَرِستَ) مشدداً معلوماً ، وتشديده للتكثير أو للتعمية . أى : درّست غيرك الكتب . وقرىء مشدداً مجهولاً . وقرىء (دورست) بالواو مجهول دارس . ودارست بالتأنيث ، والضمير للآيات أول الجماعة : وقرىء « دُرِست » بضم الراء ، والإسناد للآيات مبالغة في محوه أو تلاوته ، لأن (فعل) المضموم للطبائع والفرائز . وقرأ أبى رضى الله عنه (درس) وفاعله ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الكتاب ، إن كان بمعنى انمحي . و (درس) بنون الإناث مخففاً ومشدداً . وقرىء (دارسات) بمعنى قديمت ، أو بمعنى ذات درس أو دروس ، كـ (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ^(١) . وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : هي دارسات .

« وَلِنُبَيِّنَهُ » أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً . أو الآيات ، لأنها في معنى القرآن .

« لِقَوْمٍ يَمْلِكُونَ » أى : الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه .

= و [٢٣ / المؤمنون / ٨٣] ونصها : لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

و [٢٧ / النمل / ٦٨] ونصها : لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٦٨ / القلم / ١٥] ونصها : إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨٣ / المطففين / ١٣] ونصها : إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢١] ونصها : فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

تنبيهان :

الأول - قيل : اللام الثانية حقيقة ، والأولى لام العاقبة والضرورة . أى : لتصير عاقبة أمرهم ، إلى أن يقولوا: درست ، كهى فى قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) ^(١) وهم لم يلتقطوه للعداوة ، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة . فكذلك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا: درست. ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات ، كما حصل التبيين ، فشمه به .

قال الخفاجى : وجوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره، لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء ، وهداية السعداء. قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) ^(٢) وقال : الرازى : حمل اللام على العاقبة بعيد . لأنه مجاز . وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور فى قوله تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا. قال ومما يؤكد هذا التأويل قوله (وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ، معنى : إنا ما بيناه إلا لهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون ، فسا بينا هذه الآيات لهم ، وإذ لم يكن بياننا لهم ثبت جعله ضلالا لهم . انتهى .

وقيل : هذه اللام لام الأمر ، ويؤيده أنه قرئ بسكونها ، كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون ، فإنه لا احتفال بهم ، ولا اعتداء بقولهم . وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم .

- (١) [٢٨ / القصص / ٨] . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .
 (٢) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

وفيه نظر ، لأن ما بعده يأباه ، إذ اللام في (لنبينه) نص في أنها لام كي . وأما تسكين اللام في القراءة الشاذة ، فلا دليل فيه ، لاحتمال أنها خففت لإجرائها مجرى كبد ، وكونها معترضة . و (لنبينه) متعلق بمقدر معطوف على ما قبله ، وإن صححه لا يخرج عن كونه خلاف الظاهر - كذا في (العناية) - .

الثاني - قال الشريف قدس سره : أفعاله تعالى يتفرع عليها حكم ومصالح متقنة هي ثمراتها ، وإن لم تكن عالمًا غائية لها ، حيث لولاها لم يقدم الفاعل عليها . ومن أهل السنة من وافق المعتزلة في التعليل والغرض الراجع منفعته إلى العباد ، وادعى أنه مذهب الفقهاء والمحدثين .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن حقيقة التعليل عند أهل السنة بيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل . وأما تفسيره بالباعث الذي لولاه لم يقدم الفاعل على الفعل ، أو عدم اشتراط ذلك ، فهو من تحقيقات المتكلمين ، لاتعلق له باللغة . وأما عند أهل اللغة فهو حقيقة في ذلك مطلقاً ، والفرق بينها وبين لام العاقبة ، أن لام العاقبة ماتدخل على ما يترتب على الفعل وليس مصلحة . وهل يشترط فيها أن يظنه المتكلم غير مترتب أم لا ، حتى يكون في كلامه تعالى من غير حكاية أم لا ، فيه خلاف - كذا في (العناية) - .

ولما حكى تعالى عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات ، أتبعه بالأمر بالثبات على ما هو عليه ، تقوية لقلبه ، وإزالة لما يحزنه ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ

عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أي : من تبليغ الرسالة ، التي هي الآيات

المصرفة ، مبالغة في إلزام الحجة . وقوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » اعتراض أكد به إيجاب

الاتباع ، أو حال مؤكدة من (ربك) ، بمعنى : منفرداً في الألوهية . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » قال أبو مسلم : أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة . وقال المهايي : أى لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر . فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بَوَكِيلٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » أى : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ، « وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا » أى : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان في فطرتهم ، وقد أبطأوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطرى ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصاحباً لاستعدادهم الفطرى . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر ، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعى لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوض إلى اختيارهم - أفاده المهايي - .

تنبيهان :

الأول - فى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريد منه ، لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والخشعى يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة ألبتة . قال النحرير : وهذه عكازته فى دفع مذهب أهل السنة .

الثانى - قال القاشانى في تفسير قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) : أى كل ما يقع ، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولا شك أن استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع . فإن آمنوا بذلك فبهداية الله ، وإلا فهوّن على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولا ينافى هذا ما قال فى تعييرهم فيما بعد بقوله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم قالوا ذلك عناداً ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقاداً . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً فى نفس الأمر ، لكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لو صدقوا لعلوا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولو علموا أن كل شئ لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيّرهم به ، لأنه ليس كذلك فى نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم فى الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم . فلم لا يجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالمادة ، وما وجدوا من آباءهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استعداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابهم ، ولأن قلبه فآمن ، ويكون ذلك توفيقاً له ، ولطفاً فى شأنه ، فإن عالم الحكمة يبتنى على الأسباب . وأما من كان من الأشقياء

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] ونصها: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقى إليه سمّاً . انتهى .
وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جداً ، وسيأتى بيانه في الآية الآتية إن شاء الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى :
لا تذكروا آلهتهم ، التى يعبدونها ، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع .
روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فهوا عنه لذلك .
وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون . انتهى .

ف (الَّذِينَ يَدْعُونَ) عبارة عن الآلهة ، والمائد مقدر ، والتعبير بـ (الَّذِينَ) على زعمهم
أنهم من أولى العلم ، أو بناء على أن سب آلهتهم سب لهم ، كما يقال : ضرب الدابة صفع
لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون
شفعاء عنده ، فكيف يسبونهم ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضى كلامهم إلى ذلك ،
كشتمهم له ولئن يأمره بذلك مثلاً . وقد فسر (بِغَيْرِ عِلْمٍ) بهذا ، وهو حسن جداً .
أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه
على التكلم بالكفر ؟!

و (عَدَوًّا) مصدر ، أى : ظلاماً وعدواناً . يقال : عدا عليه عدواً ، كـ (ضرباً) ،
و (عدواً) كـ (عتواً) ، و (عداً) كـ (عزاء) ، و (عدواناً) كـ (سبجان) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ (تسبوا) من معناه ، لأن السب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل (بَغَيْرِ عِلْمٍ) - كذا في العناية - .

تنبيه :

قال ابن الفرس في الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم، أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجوز أن يُسبوا ولا دينهم . قال : وهى أصل فى قاعدة سد الذرائع . قال السيوطى : وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن الحسن يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة .

قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدهما : أنها جماد لا ذنب لها .

والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسبب الله تعالى .

قال : والذى يجب علينا بيان بفضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسبب . ولهذا قال أمير المؤمنين (يوم صفين) : لا تسبوه ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزخشري : فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصي ؟ قلت : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لأنها طاعة . كالنهي عن المنكر ، هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر اقلب إلى معصية ، ووجب النهى عن ذلك ، كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع . فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسبب حضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سبب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لامحالة ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

وكذا قال الخفاجي : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها ، وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيراً ما يشتبهان . ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجل والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى . قال الرازي : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ « من الأمم الماضية على الضلال » عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ « أى : بالبعث بعد الموت ، » فَيُنَبِّئُهُمْ « أى : يخبرهم » بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ « في الدنيا . وذلك بالحاسبة والمجازاة عليه .

تنبيهات :

الأول - ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخاق الله تعالى . وقد بسط الرازي ذلك ، وساق تأويلات المستزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني - في قوله تعالى : (فَيُنَبِّئُهُمْ) الخ وعيد بالجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعدده : سأخبرك بما فعلت .

الثالث - فيه نكتة سرية ، مبنية على حكمة أبيّة ، وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة . فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كأنطقت بهذه الآية السكرية ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها أحسن الأحسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ^(١) : خُفَّتْ الجَنَّةُ بِالْكَارَةِ ، وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها ، لما أن كلاّ منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى . فليتدبر ! - أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » مصدر فى موقع الحال . أى : أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ، باذلين فى توثيقها طاقهم « لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ » أى : خارق كما اقترحوا ، « لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أى : أمرها فى حكمه وقضائه خاصة ، يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لاتتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته ، حتى يمكننى أن أنصدى لاستنزائها بالاستدعاء . وهذا سدّ لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ، ببيان صعوبة منالها ، وعلو شأنها - أفاده أبو السعود -

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ١ (طبعتنا) رواه أنس بن مالك .

« وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ » قرىء (إِنَّهَا) بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثانى محذوف ، كأنه قيل : وما يدريك إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال ، كأنه قيل : لم وُبِّخُوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون ! أو هو مبنى على قوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فإنه أُرِزَ في معرض المحتمل ، كأنه سأل عنه سؤال شاك ، ثم علل بقوله (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) جزماً بالطرف المخالف ، وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين في القسم عليه . وهذا نوع من السحر البياني ، لطيف المسلك . هذا على أن الخطاب للمؤمنين ، إذ كانوا يمتنون بحجى الآية طمعاً في إيمانهم . وقيل : هو للمشركين ، لقراءة : (لَا تُؤْمِنُونَ) ، فيكون فيه التفات . وقرىء (أَنَّهَا) بالفتح ، وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين ، حذف (لا) . وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك ، قلت في إنكاره : ما أدراك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، قلت في إنكاره : ما أدراك أنه لا يكافئنى ؟! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى حسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون ، فإثبات (لا) يعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت ، وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

منها - جعل (لا) صلة ، كقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ) ^(١) ، وقوله تعالى : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) ^(٢) أى : يرجعون . وضعف الزجاج هذا الوجه ، بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات ، وليس كذلك هنا ، فإن (لا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسيّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغواً على أحد التقديرين ، ومفيداً على التقدير الثاني ؟ انتهى .

ومنها - جمل (أن) بمعنى (لعل) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، أى لعلك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الواحدي : « أن » بمعنى « لعل » كثير في كلامهم ، قال ^(١) الشاعر :

أَرَبْنِي جَوَادًا مَاتَ هَزَلًا لِأَنِّي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بِخِيَلًا مَخْلَدًا
وقال عدى بن ^(٢) حاتم :

أَعَاذَلْ مَا يُدْرِيكَ أَنْ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ
ويؤيده أن (يشعركم) و (يدريكم) بمعنى . وكثيراً ما تأتي (لعل) بعد فعل الدراية ، نحو (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي) ^(٣) . وفي مصحف أبيّ (وَمَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ومنها - جمل (أن) بمعنى هل .

ومنها - جمل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن (إن) في جواب القسم يجوز فتحها . والذي ارتضاه الزمخشريّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره ، وأن الاستفهام

(١) استشهد به الطبري في التفسير ، (ج ٣ ص ٧٨ طبعة المعارف) .

قال : يعني بقوله « أَرَبْنِي » دليلى عليه وعرفيى مكانه ، ولم يمن به رؤية العين . واستشهد به مرة أخرى (ج ١٢ ص ٤٢ طبعة المعارف) قال : (لِأَنِّي) بمعنى لعلنى . كما استشهد به المؤلف هنا .

(٢) استشهد به الطبري في التفسير (ج ١٢ ص ٤١ طبعة المعارف) قال : بمعنى (لعلّ منيتى) .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣] .

في معنى النفي ، والإخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريككم أن الآية التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها . يعني : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون ذلك .

قال في (الانتصاف) : لما جاءت الآية تفهم ، يبادىء الرأى ، أن الله تعالى علم الإيمان منهم ، وأنكر على المؤمنين نفهم له ، والواقع على خلاف ذلك . اختلف العلماء (وساق نحو ما قدمنا في الوجوه) ثم قال : وأما الزخشرى فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطرادها في المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه في الآية ، فنقول : إذا حرمت زيدا لعلك بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علما . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافئ ؟ وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافئ قلت : وما يدريك أنه لا يكافئ ؟ يعني : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تحبر أمره خبرى . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول (لا) وتمين ، وتبين أن سبب الاضطراب التماس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى

وفي نفي السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة في نفي السبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجى : وفي نفي السبب بهذا الطريق مبالغة ليست في نفيها بدونها ، لأن في الكناية إثبات الشيء ببيينة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجيء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و (يشعركم وينصركم) ونحوه ، قرىء بضم خالص وسكون واختلاس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَتُكَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَتُكَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » عطف على (لا يؤمنون) ، داخل في حكم (ما يشعرهم) ، مقيد بما قيد به . أى : وما يشعرهم أنا قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه . وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لامع توجهها إليه ، واستعدادها لقبوله ، بل لكمال نبوتها عنه ، وإعراضها بالكلية . ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم ، إشعاراً بأصالتهم في الكفر ، وحسباً لتوهم أن عدم إيمانهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار - أفاده أبو السعود .

« كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ » أى : بما جاء من الآيات « أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : قبل سؤالهم الآيات التي افترحوها ، « وَنَذَرُهُمْ » أى : ندعهم « فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى : يترددون متحيرين ، لا نهديهم هداية المؤمنين .

قال أبو السعود (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) ، داخل في حكم الاستفهام الإنكارى ، مقيد بما قيد به ، مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ، ومغرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره ، بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق ، مع توجههم إليه ، واستعدادهم له بطريق الإجبار ، بل بأن يخليهم وشأنهم ، بعد ما علم فساد استعدادهم ، وفرط نفورهم عن الحق ، وعدم تأثير اللطف فيهم أصلاً ، ويطلع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم ، كما أشرنا إليه . انتهى

وفى (الباب) : فى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن

القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه ، فيقيم ما شاء منها ، ويزيغ ما أراد منها . ومنه قوله ﷺ^(١) : يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك . انتهى .

ثم بين تعالى كذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » أى : ولو أننا لم تقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة ، بل نزلنا إليهم الملائكة ، كما قالوا (لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)^(٢) .

« وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى » كما قالوا (فَأَنُؤَا بِأَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(٣) ، « وَحَشَرْنَا » أى : جمعنا « عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ » من الحيوانات والنباتات والجمادات ، « قُبُلًا » أى : كفلاء بصحة ما بشروا به وأنذروا « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » لغوهم فى التمرد والظفیان ، « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى : إيمانهم فيؤمنوا ، « وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ » أى :

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ما جاء أن القلوب بين

إصبعي الرحمن ، ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٣٦] .

إنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا ، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون .
أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

قال القاشاني : وفي الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات ، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس ، وإقرار باللسان ، وليس في القلب من معناه شيء ، كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (١) .

تنبيهان :

الأول - يقرأ (قُبْلًا) بضم القاف والباء ، وفيه وجهان : أحدهما : هو جمع قبيل بمعنى السكفيل ، مثل قليب وقُلب ؛ والآخر : أنه مفرد ، كقبُل الإنسان ودُبُرُه . وعلى كلا الوجهين هو حال من كل . ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة . ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء ، وانتصابه على الظرفية . كقولهم : لى قبل فلان حق . أو على الحالية ، وهو مصدر ، أى عياناً ومشاهدة .

الثانى - فى قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) حجة واضحة على المعتزلة ، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى ، حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وحمله شريعتها على أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وللمعتزلة تحيل فى المدافعة بحمل المشيئة المنفية ، على مشيئة القسر والاضطرار . وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء . وأما وهو القدوة والتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه ، فإلى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال . ثم سلى تعالى نبيه عما كان يقاسيه من قومه ، بتأسيه بمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] ... وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » أى : مثل ذلك الجمل الذى جعلناه فى حقك ، حيث جعلنا لك عدوًا يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبيٍّ تقدمك عدوًا من مَرَدَّةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَرْنَا قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ) ^(١) . وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ ^(٢) : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى .

« يُوحِي » أى : يلقى ويوسوس « بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ » أى : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ، « غُرُورًا » أى : للضمفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغارين ، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفى الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بفعل الله سبحانه وتعالى ، وخلقه . قال المهايى : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكل ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ » أى : ما فعلوا ذلك ، يعنى : معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف . وهو أيضاً دليل على المعتزلة . « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : من الكفر ، فسوف يملكون . ثم عطف على قوله (غُرُورًا) علة ثانية للإيحاء بقوله تعالى :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٣] . . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) هذه قطعة من الحديث الطويل الذى أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ،

١ - حدثنا عبد الله بن يوسف . روته سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

« وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ » أى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليغترهم به ، ولتميل إليه « أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » لمساعدته لهم على أهوائهم ، « وَلِيَرَوْهُ » أى : لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم ، « وَلِيَقْتَرِفُوا » أى : وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ، « مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » أى : من الآثام .

قال القاشانى : فتقوى غوايتهم ، ويتظاهرون ، ويخرج ما فيهم من الشرور إلى الفعل ، ويزدادوا طغياناً وتعدياً على النبىؐ ، فتزداد قوة كماله ، وتهيج أيضاً بسببه دواعى المؤمنين ، والذين فى استعدادهم مناسبة للنبىؐ ، فتنبعث حميتهم ، وتزداد محبتهم للنبىؐ ، ونصرهم إياه ، فتظهر عليهم كمالاتهم .

لطيفة :

إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة ، دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها ، وهم بها كفرون ، إشعاراً بما هو المدار فى صفو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات ، فالذين لا يؤمنون بها ، وبأحوال ما فيها ، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات ، ودون هذه الشهوات آلاماً ، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم فى الدنيا بادى الرأى ، فهم مضطرون إلى حب الشهوات ، التى من جملتها مزخرفات الأفاويل ، ومموّهات الأباطيل . وأما المؤمنون بها ، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ، ناظرين إلى عواقب الأمور ، لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعلمهم ببطلانها ، ووخامة عاقبتها - أفاده أبو السعود - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ،
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكْفِّرُهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَمَتِّنِينَ)

وقوله تعالى « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا » على تقدير القول ، كما في نظائره ، أى : قل
لهم : أغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ، ويفصل الحق منا من البطل . والمعنى : أطلب
معبودًا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم - وهذا عندى أظهر - ثم رأيت في (تنوير
المقباس) الاختصار عليه ، حيث قال (أَبْتَغِي حَكَمًا) أعبد ربًّا . وأما كون الآية واردة
على قولهم (اجعل بيننا وبينك حكمًا) فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك .
« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ » أى : القرآن المجز ، « مُفَصَّلًا » أى : مبينًا
فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم أمة أمية ، لا تدرون ما تأتون
وما تزدرون .
وفي الآية .

مسائل :

الأولى - قال في (الإكليل) : استدلل الخوارج بقوله تعالى (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)
على إنكارهم التحكيم . قال : وهو مردود ، فإن التحكيم المنكر أن يريد حكمًا يحكم بغير
ما حكم الله تعالى . انتهى .
قلت : هذا مبنى على الوجه الأول ، وقد عرفت أن الأظهر الوجه الثانى ، فلا استدلال ،
ولا رد .

الثانية - قالوا : الحكم أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، لما أنه لا يطلق إلا على
العادل ، وعلى من تكرر منه الحكم ، بخلاف الحاكم .

الثالثة - في الآية تنبيه على أن القرآن الكريم كافٍ في أمر الدين، مغنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » لما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، ولتصديقه ما عندهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ، ولم يخالط علماءهم . وهذا تقرير لكونه منزلاً من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته ونزوله من عنده تعالى .

« فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ » أى : في أنه منزل من ربك بالحق ، بسبب جحد أكثرهم وكفرهم به ، فيكون من باب التهيج والإلهاب ، كقوله تعالى (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ)^(١) .

قال ابن كثير : هذا كقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ)^(٢) . قال : وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه . ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ)

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » وقرئ (كلمات ربك) أى : بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده « صِدْقًا » في الأخبار والمواعيد « وَعَدْلًا » في الأقضية والأحكام .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤] ونصها : قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٤] .

وقال القاشاني : أى تم قضاؤه تعالى فى الأزل بما قضى وقدر من إسلام من أسلم ، وكفر من كفر ، ومحبة من أحب ، وعداوة من عادى ، قضاءً مبرماً ، وحكماً صادقاً ، مطابقاً لما يقع ، عادلاً بمناسبة كل قول وكل كمال وحال ، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له . انتهى .

« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أى : لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل . أو لأحد يقدر أن يحرّفها شيئاً دائماً ، كما فعل بالتوراة . على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها منه تعالى بالحفظ ، كقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١) .

وقال القاشاني : أى لا مبدل لأحكامه الأزلية . انتهى .

قال السيوطى فى (الإكمال) : يستدل به من قال إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل . انتهى - وهو رواية^(٢) عن ابن عباس - أخرجها البخارى فى آخر صحيحه . وبسط المقام فى ذلك الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) . وتقدم لنا فى سورة البقرة شذرة من هذا البحث ، تجدد به عهداً .

« وَهُوَ السَّمِيعُ » لما يظهرون من الأقوال « الْعَلِيمُ » أى بما يخفون .

ثم حذر تعالى من الركون إليهم والعمل بآرائهم بقوله :

(١) [١٥ / الحجر / ٩] ونصها : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(٢) أخرج البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قوله الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ .

وانظر فى ذلك ، وفى مثله ، كتابنا (معجم غريب القرآن ، مستخرجاً من صحيح البخارى) ففيه كل ما صح عن ابن عباس . ونصه : يحرّفون ، يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرّفونه يتأولونه على غير تأويله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ » أى : من الناس ، وهم الكفار « يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : عن الطريق الموصل إليه ، بزيينهم زخارفهم عليك ، ودعوتهم إليك إلى ما هم فيه من اتباع الهوى ، كما قال « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم يقلدونهم ، « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه ، وتحليل الميتة ، وتحريم البحائر . و (إِنْ) فيه وفيما قبله نافية . والخرص : الحزر والتخمين ، وقد يعبر به عن الكذب والافتراء ، وأصله القول بالظن ، وقول ما لا يستيقن ويتحقق - قاله الأزهري - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » تقرير لمضمون الشرطية ، وما بعدها . وتأكيده لما يفيد من التحذير . أى : هو أعلم بالفريقين ، فاحذر أن تكون من الأولين . - أفاده أبو السعود -

تنبية :

قال الرازي : تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : رأينا أن الله تعالى بالغ في ذم الكفار في كثير من آيات القرآن ، بسبب كونهم متبعين للظن . والشئ الذي يجعله الله تعالى موجبا لذم الكفار ، لابد وأن يكون في المعنى في أقصى مراتب الذم . والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرماً . لا يقال : لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة ، كان العمل به عملاً بدليل مقطوع ، لا بدليل مظنون . لأننا نقول : هذا مدفوع من وجوه :

الأول - أن ذلك الدليل القاطع إما أن يكون عقلياً ، وإما أن يكون سمعياً ، والأول باطل ، لأن العقل لا مجال له في أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لاسيما عند من ينكر تحسين العقل وتقييحه . والثاني أيضاً باطل ، لأن الدليل السمعي إنما يكون قاطعاً لو كان متواتراً ، أو كانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر ، سوى هذا المعنى الواحد . ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيه بين الأمة . فحيث لم يوجد ذلك ، علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثاني - هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن . وبيانه أن التمسك بالقياس مبنى على مقامين : الأول : أن الحكم في محل الوفاق معلل بكذا . والثاني : أن ذلك المعنى حاصل في محل الخلاف . فهذان المقامان ، إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين ، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء في صحته . وإن كان مجموعهما ، أو كان أحدهما ظنياً ، فحينئذ لا يتم العمل بهذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدالّ على أن متابعة الظن مذمومة . والجواب لم لا يجوز أن يقال : الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أماره ، وهو مثل اعتقاد الكفار . أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستنداً إلى أماره ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظناً ، وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

وقوله تعالى : « فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » أمر مرتب على النهي عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وذلك أنهم خاصموا المسلمين فقالوا : ما ذبح الله لنا تأكلونه ، وما ذبحتم أتم أكلتموه - أخرجه النسائي^(٣) عن ابن عباس -

(١) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٤٠ - باب تأويل قول الله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فنزلات الآية . والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه ، لرفعه تنجيس الموت إياه المانع من الأكل ، لا مما ذكر عليه اسم غيره ، أو مات حتف أنفه .

« إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ » فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهَا يَقْتَضِي اسْتِبَاحَةَ مَا أَحْلَاهُ سُبْحَانَهُ ، واجتناب ما حرمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

وقوله تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحار والسواحب . أى : وأى غرض لكم في أن تتخرجوا من أكله ، وما يمنعكم عنه ؟ « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » أى : بينه ووضحه .

قال بعض المفسرين : يعنى في آية المائدة في قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) ... الآية^(١) . ورد بأن المائدة من آخر ما نزل بالمدينة ، والأنعام مكية . فالصواب أن التفصيل إما

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

في قوله تعالى بعد هذه الآية (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...)^(١) الآية ، فإنه ذكر بعدُ يسير ، وهذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد ؛ وإما على لسان الرسول ، ثم أنزل بعد ذلك في القرآن . و (فصل) و (حرم) قرىء كل منهما معلوماً ومجهولاً . ومعنى الآية : لا مانع لكم من أكل ما ذكر ، وقد بين لكم المحرم أكله ، وهذا ليس منه .

« إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ » أى : مما حرم عليكم . أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة الحاجة ، فيباح لكم .
« وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ » قرىء بفتح الياء وضمها « بِأَهْوَائِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى : يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم ، من غير تعلق بشريعة .
« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » أى : المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

تنبيه :

قال الرازى : دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى .
وقال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على تحريم الفتوى والحكم بغير دلالة ، ولكن اتباع الهوى .

ولما بين تعالى أنه فصل المحرمات ، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية ، فقال سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ» أى : سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح «وَبَاطِنَهُ» أى : ما يستر منه بالقلب كالمقائد الفاسدة ، والعزائم الباطلة . أو ما يعلن من الذنوب وما يستر منها ، ويستتر فيه .

قال السدي : ظاهره الزنا مع البنات ذوات الرايات ، وباطنه مع الخيلة والصدائق والأخذان . ولا يخفى أن اللفظ عام في كل محرم ، ولذا قال قتادة : أى سره وعلايته ، قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره . كقوله تعالى ^(١) : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) .

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ» أى : يكتسبون . قال الشهاب : الاعتراف في اللغة الاكتساب ، وأكثر ما يقال في الشر والذنوب . ولذا قيل : الاعتراف يزيل الاعتراف . وقد ورد في الخير كقوله تعالى ^(٢) : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) انتهى .

وقد روى ^(٣) مسلم وغيره عن نواس بن سيمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] ... وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] ونصها : ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .
قال الحاكم : في الآية دلالة على أن العبد يؤاخذ بأفعال القلب ، كما يؤاخذ بأفعال الجوارح . اهـ .
أى : على التفسير الأول فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)
« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » أى : عند ذبحه . أى : بأن ذكر عليه اسم غيره ، معنى : ذبح لغيره تعالى . « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » والفسق ما أهل لغير الله به ، كما في الآية الآتية آخر السورة . قال المهايى . « (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) » أى : خروج عن الحسن إلى القبح ، بتناول ما تنجس بالموت بلا مانع عن تأثيره . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ » أى : يوسوسون « إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ » أى : من الكفار ، « لِيُجَادِلُوكُمْ » أى : فى تحليل الميتة ، « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ » أى : فى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل ، « إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » أى : لهم مع الله ، فيما يختص به من التحليل والتحرير .

تنبيهات

الأول - روى فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى ناس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ! إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله تعالى ، فأنزل الله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) إلى قوله : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » . أخرجه أصحاب السنن (٢) .

وفى رواية لأبى داود فى قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) [٦ / الأنعام / ١١٨ - ١٢١] .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ١٦ - كتاب الأضاحى ، ١٢ - باب فى ذبائح أهل الكتاب ،

لِيَجَادِلُوكُمْ) قال : يقولون ما ذبح الله - فلا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم فاكلوا ؟ فأنزل الله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) وفي أخرى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) ، فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) (١) .
وعند النسائي (٢) قال : خاصهم المشركون ، فقالوا : ما ذبح الله لا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؟ - كذا في تيسير الوصول .

الثاني - دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح ف قيل : باسم الله ، بهذا اللفظ الكريم . وقيل : بكل قول فيه تعظيم له كالرحمن ، وسائر أسمائه الحسنى ، لقوله تعالى : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) (٣) ولقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (٤) .

الثالث - ما قدمناه من حمل الآية على ما ذبح لغير الله تعالى هو الأظهر في تأويلها ، لقوله تعالى بعد : « أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ومراعاة النظائر في القرآن أولى ما يلتزم به المراد .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء قال : نزلت في ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ،

(١) في الباب السابق ، حديث ٢٨١٨ و ٢٨١٧

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٤٠ - باب تأويل قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . . . أَيَّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وذبائح الجوس . وقد حاول بعضهم أن يقويه فجعل الواو في قوله : (وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ) حالية ، لقبح عطف الخبر على الإنشاء . قال : والمعنى : لا تأكلوه حال كونه فسقاً . والفسق مجمل يفسره قوله : (أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) ، فيكون النهي مخصوصاً بما أهل لغير الله به ، فيبقى ما عداه حلالاً ، إما بالمفهوم ، أو بعموم دليل الحل ، أو بحكم الأصل . واعترض على هذا الحل بأنه يقتضى أن لا يتناول النهي أكل الميتة ، مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيـد بـ (إن) و (اللام) ينفي كون الجملة حالية ، لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحقيقه ألبتة ، والرد على منكر تحقيقاً أو تقديرًا (على ما بين في المعاني) ، والحال الواقع في الأمر والنهي مبناه على التقدير ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً ، فلا يحسن (وإنه لفسق) بل (وهو فسق) وأجيب عن الأول بأنه دخل بقوله : (وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ) (مَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ) وبقوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ . . .) إلخ الميتة ، فيتحقق أن هذا النهي مخصوص بما ذبح على النصب ، أو مات حتف أنفه . وعن الثانى بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله ، كان التأكيـد مناسباً ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق ، والمشركون ينكرونه - كذا في العناية .

ومما يقويه أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ) على أن المراد به الخروج عن طاعة الله تعالى ، وهو وجه ثان فيه ، وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) فإن من أكل الميتة ، أو ما ذبح على النصب فسق ، ومع الاستحلال يكفر ، بخلاف ما ذبحه المسلم ولم يسم عليه ، فإن آكله لا يفسق ولا يكفر إجماعاً - أشار له الرازى - وحينئذ فلا دلالة في الآية على تحريم ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها ، عمداً أو سهواً .

وقد روى أبو داود فى (مراسيله) عن الصلت السدوسى قال : قال رسول الله ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أولم يذكره ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله . قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ، فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى .

واحتج البهقي أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ، فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر - رواه البخارى^(١) والنسائى - قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها . وكذا قال الخطابى : فيه دليل على أن التسمية غير شرط على الذبيحة ، لأنها لو كانت شرطاً لم تستبح الذبيحة بالأمر المشكوك فيه ، كما لو عرض الشك في نفس الذبيحة ، فلم يعلم هل وقعت الذكاة المتبرة أم لا ؟ وهذا هو التبادر من سياق الحديث ، حيث وقع الجواب فيه : (سموا أنتم) ، كأنه قيل لهم : لا تهتموا بذلك ، بل الذى يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله وتأكلا . وهذا من الأسلوب الحكيم . وما يدل أيضاً قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)^(٢) فأباح الأكل من ذبائحهم ، مع وجود الشك في أنهم سموا أم لا . هذا ، وقد تمسك بظاهر الآية قوم فذهبوا إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، عمداً تركت التسمية أو نسياناً . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى في آية الصيد : (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)^(٣) ، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ،

(١) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ - باب ذبيحة الأعراب

ونحوهم ، حديث ١٠٣٨ .

(٢) [٥ / المائة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٣) [٥ / المائة / ٤] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ =

كحديثي عدى^(١) بن حاتم وأبي ثعلبة^(٢) : إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فكل ، وما في الصحيحين .

= الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .
(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ - باب ما جاء في التصيد ، حديث ١٤١ ونصه :

عن عدى بن حاتم رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .
(٢) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ - باب ما جاء في التصيد ، حديث رقم ٢١٩٨ ونصه :

عن أبي إدريس عائذ الله قال : سمعت أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه يقول : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إنا بأرض قوم أهل الكتاب ، نأكل في آنتهم . وأرض صيد أصيد بقوسى وأصيد بكلبي المعلم والذي ليس معلماً . فأخبرني ما الذي يحل لنا من ذلك . فقال « أما ما ذكرت أنك بأرض قوم أهل الكتاب تأكل في آنتهم ، فإن وجدتم غير آنتهم فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاعسلوها ثم كلوا فيها . وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد ، فما صدت بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك المعلم فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك الذي ليس معلماً ، فأدركت ذكاته ، فكل » .
وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعنا) .

وحديث رافع بن خديج^(١) : ما أنهر الدمَ وذُكر اسمُ الله فكلوه - في الصحيحين أيضاً - .
وحديث ابن مسعود^(٢) أن رسول الله ﷺ قال للجن : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه - رواه مسلم - .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٥ - باب التسمية على الذبيحة ، ومن ترك متعمداً ، حديث ١٢٣٠ .

عن عَبَّادَةَ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ عَنْ جَدِّهِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِدَى الْحَكِيفَةِ . فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ . فَأَصْبْنَا إِبِلًا وَغَنًا . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فَعَجَلُوا فَنَصَبُوا الْقُدُورَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ . فَأَمَرَ بِالْقُدُورِ فَأُكْفِتَتْ . ثُمَّ قَسَمَ فَعَدَلَ عَشْرَةَ مِنَ الْغَنَمِ بِبَعِيرٍ . فَتَدَّ مِنْهَا بَعِيرٌ . وَكَانَ فِي الْقَوْمِ خَيْلٌ يَسِيرَةُ فَطَلَبُوهَا فَأَعْيَاهُمْ . فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَجُلٌ بِسَهْمٍ فَخَبَسَهُ اللَّهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « إِنْ لِهَذِهِ الْبَهَائِمِ أَوَابِدٌ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ . فَمَا نَدَّ عَلَيْكُمْ فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا » .
قَالَ ، وَقَالَ جَدِّي : إِنَّا لَنَرَجُو (أَوْ نَخَافُ) أَنْ نَلْقَى الْعَدُوَّ غَدًا . وَلَيْسَ مَعَنَا مُدَى ، أَفَنَذِجُ بِالْقَصَبِ ؟ فَقَالَ « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَحُكِلَ . لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفَرُ . وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . أَمَا السِّنُّ فَعَظْمٌ ، وَأَمَا الظُّفَرُ فَمُدَى الْحَبْشَةِ » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ٢٠-٢٣ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٥٠ (طبعنا) ونصه :

عَنْ عَامِرٍ قَالَ : سَأَلْتُ عُلُقَمَةَ : هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجَنِّ ؟
قَالَ فَقَالَ عُلُقَمَةُ : أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجَنِّ ؟ قَالَ : لَا . وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ . فَفَقَدْنَاهُ . فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشُّعَابِ . فَقَلْنَا : اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ (مَعْنَى اسْتَطِيرَ : طَارَتْ بِهِ الْجَنُّ . وَمَعْنَى اغْتِيلَ : قُتِلَ سِرًّا . وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ خَفِيَّةً) .

وحديث جندب بن سفيان البجليّ قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : من ذبح قبل أن يصلي ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا ، فليذبح باسم الله - أخرجاه - .
قالوا : ففي هذه الأحاديث إيقاف الإذن في الأكل على التسمية ، والملق بالوصف ينتفى عند انتفائه ، عند من يقول بالمفهوم . والشرط أقوى من الوصف .

واحتجوا أيضاً بحديث عائشة المتقدم (سموا عليه أنتم وكلوا) . قالوا : إن القوم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح ، إن لم تكن وجدت . أي : قسميتكم الآن تستبيحون بها كل ما لم تعلموا أذكركموا اسم الله عليه

= قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .

فقال « أمانى داعى الجن فذهبت معه . فقرأت عليهم القرآن » .

قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال « أسكنكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم ، أوفر ما يكون لحماً . وكل بكرة علف لدوابكم » .

فقال رسول الله ﷺ « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

(١) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٧ - باب قول النبي ﷺ :

فليذبح على اسم الله ، حديث رقم ٥٦٢ ونصه :

عن جندب بن سفيان البجليّ قال : ضحينا مع رسول الله ﷺ أضحية ذات يوم . فإذا أناس قد ذبحوا ضحاياهم قبل الصلاة . فلما انصرف رآهم النبي ﷺ أنهم قد ذبحوا قبل الصلاة فقال « من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن كان لم يذبح حتى صلينا ، فليذبح على اسم الله » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ١-٣ (طبعنا) .

أم لا ، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إذا سمي . قالوا : وبستفاد منه أن كل ما يوجد في أسواق المسلمين محمول على الصحة ، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين ، لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية . انتهى .

وأجاب من حمل الآية على الوجه الأول؛ بأن الأمر في حديث عدى وأبي ثعلبة محمول على التنزيه، من أجل أنهما كانا يصيدان على مذهب الجاهلية ، فعلمهما النبي ﷺ أمر الصيد والذبح ، فرضه ومندوبه ، لثلا يوافقا شبهة في ذلك ، وليأخذا بأكمل الأمور . وأما الذين سألوا عن تلك الذبائح ، فإنهم سألوا عن أمر قد وقع لغيرهم ، فعرفهم بأصل الحل فيه . وقال ابن التين : يحتمل أن يراد التسمية هنا عند الأكل ، وبذلك جزم النووي .

وأما التسمية على ذبح تولاة غيرهم ، فلا تكلف عليهم فيه ، وإنما يحمل على غير الصحة إذا تبين خلافها .

وقال الملب : هذا الحديث أصل في أن التسمية ليست فرضاً . فلما نابت تسميتهم عن التسمية على الذبح ، دل على أنها سنة ، لأن السنة لا تنوب عن فرض . انتهى .

وذهب بعض من اشترط التسمية في الحل إلى جواز أكل ما تركت عليه سهواً لا عمداً . واحتج بما رواه البيهقي عن ابن عباس مرفوعاً : المسلم يكفيه اسمه ، إن نسي أن يسمى حين يذبح ، فلينكر اسم الله وليأكله . قال الحافظ ابن كثير : وَرَفَعَهُ خَطَأً . والصواب وقفه على ابن عباس ، من قوله . نص عليه البيهقي . واحتج أيضاً بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس ^(١) وأبي هريرة ^(٢) وأبي ذر ^(٣) وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو

(١) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٤ (طبعنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٣ (طبعنا) .

عن النبي ﷺ : إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .
ورواه الطبراني عن ثوبان مرفوعاً بلفظ : رفع عن أمتي الخطأ . . . الحديث .
وروى ابن عدي عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله !
أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ! فقال النبي ﷺ : اسم الله على كل مسلم .
قال ابن كثير : وإسناده ضعيف .

وقد علمت الأظهر في تأويل الآية أولاً - والله أعلم - .

الرابع - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حُكمها
شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عُنيَتْ به . وعلى هذا
قول مجاهد وعامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصري وعكرمة أنه تعالى نسخ من هذه الآية واستثنى قوله :
(وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً أنه
تعالى نسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم
ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ ههنا ، فإنما أراد
التخصيص . انتهى .

وقد قدمنا في المقدمة أنه علم من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون
النسخ بإزاء المعنى اللغوي ، الذي هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فعنى
النسخ عندهم إزالة بوض الأوصاف من الآية بآية أخرى . إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف
الكلام عن المعنى المتبادر إلى غيره ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عام ،
وغير ذلك مما أسلفنا ، فتذكر !

(١) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

الخامس - قال الزجاج : في قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك. وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . وهذا هو الشرك . انتهى .

وقال ابن كثير : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقد متم عليه غيره ، فهذا هو الشرك . كقوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . .) (١) الآية . وقد روى الترمذى (٢) في تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ! ما عبدوهم . قال : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم . فذاك عبادتهم إياهم . انتهى .

السادس - قال الكعبى : الآية حجة على أن (الإيمان) اسم لجميع الطاعات ، وإن كان معناه في اللغة التصديق ، كما جعل تعالى (الشرك) اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان في اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمي طاعة المؤمنين للمشركين ، في إباحة الميتة ، شركاً .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] . . . وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد الكوفى . ونصه :

عن عدى بن حاتم قال : أثبت النبي ﷺ وفي عنقى صليب من ذهب . فقال « يا عدى ! اطرَحْ عنك هذا الوثن » .

وسمعه يقرأ في سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

وتعقبه الرازي؛ بأنه لمَ لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً في الحكم والتكليف؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى .
ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر ، لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين ، إثر تحذيرهم عنها ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
« أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » مثل به من هداه الله بعد الضلالة ، وبصره بنور الحجج والآيات ، يتأمل بها في الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمهتدى والضال ، بمن كان ميتاً فأعطاء الحياة ، وما يتبعها من القوى المدركة والحركة . ومن بقى على الضلالة ، بالخابط في الظلمات ، لا ينفك منها ، ولا يتخلص ، فهو متحير على الدوام . « كَذَلِكَ » أى : مثل ذلك التزيين البليغ « زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من فنون الكفر والمعاصي ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصرروا عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أى : كما جعلنا بمكة كبراء ليمكروا على أتباعهم في تزيين الباطل ، وستر الحق - جعلنا في كل قرية ، أرسلنا إليها الرسل ، أكبرها المجرمين ، متصفين بصفات

الذكورين ، مزيّنًا لهم أعمالهم ، مصرين على الباطل ، مجادلين به الحق ، ليفعلوا المكر فيها على أتباعهم بالتلبيس ، ليتركوا متابعة الرسل .

قال ابن كثير : المراد بـ (المكر) ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف المقال والفعال ، كقوله تعالى إخبارًا عن قوم نوح : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا)^(١) ، وكقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ...)^(٢) الآية .

وقال الزمخشري : خص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال ، ولما كرون بالناس ، كقوله : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)^(٣) .

« وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » أي : ما يضررون بمكرهم إلا أنفسهم ، لأن وباله يحيق بهم ، كما قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ)^(٤) . وقال :

(١) [٧١ / نوح / ٢٢] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣١-٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] ونصها : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] . . . وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) ^(١) . قال الزمخشري :
هذه تسليية لرسول الله ﷺ ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .
اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ » أى : برهان وحجة قاطعة « قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ
مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ » أى : من الوحي والمعجزات المصدقة له . كقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...) ^(٢) الآية . وقوله سبحانه :
(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً) ^(٣) .

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفي
للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، فيليق للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ،
مما لو انكشف لغيره انكشافه له ، لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ،
فهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

وقد روى الإمام ^(٤) أحمد عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل ، بنى

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . . . لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٥٢] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

كفانة . واصطفى من بنى كنانة ، قريشاً ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم . واصطفاني من بنى هاشم . وانفراد بإخراجه مسلم ^(١) أيضاً .

وروى الإمام أحمد ^(٢) عن المطلب بن أبي وداعة عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل ، فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خير كم بيتاً ، وخير كم نفساً .

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ » أى : ذلة وهوان بعد كبرهم وعظمتهم «عِنْدَ اللَّهِ» أى : يوم القيامة ، جزاء على منازعتهم له تعالى في كبره برد آياته ورسالته ، واعتراضهم عليه في تخصيصه بالرسالة غيرهم ، « وَعَذَابٌ شَدِيدٌ » يعنى : فى الآخرة . « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فى الدنيا إضراراً بالأنبياء .

قال ابن كثير : لما كان المكر غالباً ، إنما يكون خفياً ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قبولوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ، جزاء وفاً . ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين ^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

(١) وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ١٧٨٨ (طبعة المعارف) ونصه :

قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس . قال فصمد المنبر فقال « مَنْ أَنَا ؟ قالوا :

أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير فرقة . وخلق القبائل ، فجعلني في خير قبيلة . وجعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً . فأنا خير كم بيتاً وخير كم نفساً » .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارى :

والحكمة في هذا، أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علماً
مذخوراً على صاحبه بما فعل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ
يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » أى : للتوحيد « يَشْرَحْ » أى : يوسع « صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ »
بتصقيله بنور الهداية ، فيقبل نور الحق ، كما قال تعالى : (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ) الأيمان
وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ^(١) .

= عن ابن مسعود وأنس في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ - باب إثم الغادر للبر
والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٣ و ١٥٠٤ .

وأخرجه عن ابن عمر في هذا الباب ، حديث رقم ١٥٠٥ .

وعن ابن عمر أيضاً في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٩ - باب ما يدعى الناس بأبائهم ،
من طريقين .

وفي : ٩٠ - كتاب الحيل ، ٩ - باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت .

وفي : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب إذا قال عند قوم شيئاً ، ثم خرج فقال بخلافه .

وأخرجها مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩-١٤ (طبعتنا) .

وفي هذه الأحاديث كلهن لم ترد (عند استه) .

أما الحديث الذي وردت به ، فهو ما انفرد به مسلم وأخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد ،
حديث ١٥ (طبعتنا) عن أبي سعيد الخدري .

(١) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ =

روى عبد الرزاق أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . ورواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم . قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » أى : شديد الضيق ، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة في الله ، والأمور الأخروية .

قال أبو البقاء : حرجاً (بكسر الراء) صفة لـ (ضيقاً) ، أو مفعول ثالث ، كما جاز في المبتدأ أن تخبر عنه بعدة أخبار . أو يكون الجميع في موضع خبر واحد ، كـ (حلو حامض) . وعلى كل تقدير ، هو مؤكد للمعنى . ويقرأ بفتح الراء ، على أنه مصدر . أى : ذا حرج . وقيل : هو جمع حرجة ، مثل قسبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة . انتهى .

وقوله تعالى « كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ » أى : يتكلف الصعود في جهة السماء ، وطبعه يهبط إلى الأرض ، فشبهه ، للمبالغة في ضيق صدره ، بمن يزاول أمراً غير ممكن . لأن صعود السماء مثل فيما يتمتع ويبعد من الاستطاعة ، وتضييق عنه المقدرة . وقيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق ، وتباعدًا في الحرب منه . وأصل (يَصْعَدُ) يتصعد من (الصعود) . « كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » في الاعتقادات والأخلاق . والرجس ما استقذر من العمل ، وسمى بذلك لمبالغة في ذمه .

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

(١) الأثر رقم ١٣٨٥٣ من التفسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَهَذَا » أى : البيان الذى جاء به القرآن ، أو طريق التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله
« صِرَاطُ رَبِّكَ » أى : طريقه الذى ارتضاه « مُسْتَقِيمًا » لا ميل فيه إلى إفراط وتفریط
فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال . أو لا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به .
« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » أى : المعارف والحقائق التى هى مسكوزة
فى استمدادهم ، فيهدوا بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ » أى : السلامة من المكاره ، وهى الجنة ، لكونهم فى مقام
القرب ، « عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ » يتولاهم بحبته ، ويجعلهم فى أمانه ، « بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » أى : بسبب أعمالهم الصالحة فى سلوكهم صراطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ

أُولِيَاءُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَنَا ،

قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا » أى : اذكروا يا محمد فيما تقصه عليهم ، وتذوكرهم به ، يوم
نحشرهم جميعاً ، يعنى : الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون
بهم ، وبطييعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ » أى : تقول : يا معشر الجن ! يعنى : الشياطين . قال المهايمى : خصهم بالنداء لأنهم الأصل فى السكر . « قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » أى : من إغوائهم وإضلالهم . أو منهم ، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصى ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتفريع .

« وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ » أى : الذين أطاعوهم وتولواهم « مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ » قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس . أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة ، على اللذات الغائبة « وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا » أى : بالموت ، أو بالمعاد الجسمانى على أفتح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهاراً للندامة عليها ، وتحسراً على حالهم ، واستسلاماً لربهم . ولعل الافتقار على حكاية كلام الضالين ، للإيذان بأن المضلين قد أغموا بالمرّة فلم يقدرُوا على التسكّم أصلاً . « قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ » أى : منزلكم ، كما أن دار السلام مثنوى المؤمنين .

« خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » قال القاشانى : أى إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجى منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخاً فى اعتقاده . وقال المهايمى : أى إلا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير ، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشري : أى يخلدون فى عذاب النار ، الأبد كلّهُ ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار ، إلى عذاب الزمهرير . فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول

الموتور الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه : أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله (إلا إذا شئت) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالوعد ، لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطاع . انتهى .

قال الخفاجى : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيبعد جعله شاملاً للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال (ما) للعقلاء قليل - وَجَّهُوهُ بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة فى الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفى إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه فى صورة الخروج وإطاعهم فى ذلك تهكماً وتشديداً للأمر عليهم . و (ما) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول . ورد الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلمى ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوى . وأجيب عنه بأنه لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعارض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله (مَثَوَاكُمْ) يقتضى ماذهب إليه المعارض بحسب الظاهر . ورد الأخير أبوحيان بأنه فى الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زیداً ، فعناه : إلا زیداً ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زیداً ما يقوم فى المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زیداً ، معناه : إلا زیداً فإنى لا أضربه فى المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زیداً فإنى ما ضربته قبل ، إلا إذا كان استثناء منقطعاً ، فإنه يسوغ ، كقوله : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى . فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل به ياتزم انقطاعه ، كما فى الآية التى ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله فى القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضى الدخول . انتهى .

وقال الناصر فى (الاتصاف) : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتاً قطعياً ، فمن ثم

اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية ، وفي أختها في سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين والكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون - وقد علمت بُعدُه - .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى : يخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يذيبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف ، إنما يظهر باليسر فقال : المراد - والله أعلم - إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبيّنه فنقول : العذاب - والعياذ بالله - على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم يخلدون في جنس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ، ومبايئتها لأنواع العذاب في الشدة ، تعدّ ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشئ إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالصد ، كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل بـ (رُبَّ) و (قَدْ) ، وهما موضوعان لصد الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب . وقد حام أبو الطيب^(١) حوله فقال :

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم للمنتهى ومن السرور بكاء

(١) نص البيت في ديوانه ، شرح اليازجى والبرقوق هكذا :

وَلَجَدْتُ حَتَّى كَدْتُ تَبْخُلُ حَاتِلًا لِّلْمُنْتَهَى ، وَمِن السَّرُورِ بَكَاءٌ =

فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا نَقِلُوا إِلَى غَايَةِ الْعَذَابِ ، وَنَهَايَةِ الشَّدَةِ ، فَقَدْ وَصَلُوا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَكَادُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ اسْمِ الْعَذَابِ الْمَطْلُوقِ ، حَتَّى يَسُوْغَ مُعَامَلَتَهُ فِي التَّعْبِيرِ بِمُعَامَلَةِ الْمَغَايِرِ . وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ لَا يَكَادُ يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الزَّجَاجِ إِلَّا بَعْدَ هَذَا الْبَسْطِ .
وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يُؤَيِّدُهُ . انْتَهَى .
وَفِي الْآيَةِ تَأْوِيلَاتٌ أُخَرُ :

مِنْهَا : مَا نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا أَنَّهُ تَعَالَى اسْتَثْنَى قَوْمًا قَدْ سَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنْهُمْ يُسَلِّمُونَ وَيُصَدِّقُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا مَبْنَى عَلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لَيْسَ مِنَ الْمُحْكَمِ ، وَأَنَّ (مَا) بِمَعْنَى (مَنْ) .

وقال اليازجى فى شرحه :
حائلاً أى متغيراً . والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء واللام متعلقة بـ (كدت) وقوله :
ومن السرور بكاءً ، مبتدأ وخبر .
يقول : قد جدت حتى لم تترك فى الجود غاية إلا انتهيت إليها . وحينئذ كدت تحول إلى البخل لأنك قد بلغت منتهى الجود ، كما يحول السرور عند اشتداده إلى البكاء .
وقال البرقوقى :

حائلاً متحولاً . وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر ، وبكاء مبتدأ . والجملة استثنائية . يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه . إذ ليس من شأنك أن تقف فى الكرم عند غاية . وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته . ومثل ذلك السرور ، إذا اشتد تحول إلى بكاء .
والبيت من قصيدة مطلعها :

أَمِنْ أَرْدِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرَّقْبَاءُ إِذْ حَيْثُ أَنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ
يُمَدِّحُ بِهَا أَبَا عَلِيٍّ ، هَرُونَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَوْرَاجِيَّ السَّكَاتِبِ . وَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى التَّصَوُّفِ .
فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَصِّهِ الَّذِي سَاقَهُ الزَّجَاجُ ، عَلَى مَا فِيهِ ؟؟

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله ^(١) : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . قال الشريف المرتضى في (الدر) : فإن قيل : أى فائدة في هذا الفعل ، وما وجه الحكمة فيه ؟ قلنا : وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم ، وأعظم في مكروهمهم ، وهو ضرب من العقاب الذي يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع في النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، وردّ إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه - كذا في العناية - .

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا وقت مشيئته فناءها ، وزوال عذابها .

قال السيوطي في (الدر المنثور) : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه : لو لبث أهل النار في النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه . وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن أيضاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . انتهى .

وقد انتصر لهذا القول جماعة . قالوا : وماورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج ، وأن عذابها مقيم ، كله حق مسلم لا نزاع فيه . وذلك يقتضى الخلود في دار العذاب مادامت باقية ، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس ، وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث في ذلك وجوده الإمام ابن القيم في كتابه (هادي الأرواح) ، ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً ، وذكر له خمسة وعشرين دليلاً ، لم يصححه ، حيث قال : أما أبدية الجنة ، وأنها لا تنفَى ولا

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٤] .

تبيد ، فما يعلم بالاضطرار ، ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به - كالجهمية - فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب ، وليس له في ذلك سلف . وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى .
وسياتى إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام في آية هود .

وقد روى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .
« إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فلا يعذب إلا على ما تقتضيه الحكمة ، « عَلِيمٌ » أى : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسبب أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَكَذَلِكَ نُوَكِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَكَذَلِكَ نُوَكِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ » أى : من الإنس « بَعْضًا » أى : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي .

قال الرازى : لأن الجنسية علة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها في الخبث . وكذا القول في الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية .

(١) الأثر رقم ١٣٨٩٢ من التفسير ، ونصه :

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : الآية معنى حديث (كما تكونون يوئى عليكم) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة من حديث أبي بكره . انتهى .
وأُسند في (الجامع الصغير) تخريجه إلى الديلمي في (الفردوس) عن أبي بكره ، وإلى البيهقي ، عن أبي إسحاق السبيعي مرسلا - ورمز له بالضعف - .
وأُسند في (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى :
(وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتهم يقولون :
إذا فسَدَ الناسُ أُمِرَ عليهم شرارهم .
وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقندي في (تفسيره) : ويقال في معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذله . قال : وهذا كلام تهديد الظالم ، لكي يمتنع عن ظلمه . ويدخل في الآية جميع من يظلم : من راع في رعيته ، وتاجر في تجارته ، وسارق ، وغيرهم .
قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم ، فقف وانظر فيه متمجباً . انتهى .
وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيتهم .

ثم بين تعالى ما سيكون من توبيخ الكفار من الفريقين يوم القيامة ، إثر بيان توبيخ الجن بإغواء الإنس وإضلالهم ، وأعلم أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ، وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ)

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى الدنيا « رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي » بالأمر والنهى « وَيُنذِرُونَكُمْ » يخوفونكم « لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » وهو يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه أفانين الأحوال . « قَالُوا » يعنى الجن والإنس . « شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا » أى : أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم ، وبتكذيب دعوتهم ، كما فصل فى قوله تعالى ^(١) : (قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

« وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا » أى : ما فيها من الزهرة والنعيم ، وهو بيان لما أدّاهم فى الدنيا إلى الكفر « وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى : فى الآخرة . قال المهايى : بعد شهادة جوارحهم « أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : فى الدنيا بما جاءتهم الرسل .

تنبيهات

الأول - استدلل بقوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَى الْجِنِّ رُسُلًا مِنْهُمْ . وحكاه ابن جرير ^(٢) عن الضحاك بن مزاحم ، والأكثرون على أنه لم يكن من الجن رسول ، وإنما كانت الرسل من الإنس فقط . نص على ذلك مجاهد وابن جرير وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

قال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذِرُوا . وأحابوا عن ظاهر الآية بأن فيها

(١) [٦٧ / الملك / ٩] .

(٢) الأثر رقم ١٣٨٩٦ من التفسير .

مضافاً . أى : من أحديكم ، وهم الإنس . أو من إضافة ما للبعض للكل ، كقوله تعالى :
(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللّٰهُوُّ وَالْمَرْجَانُ) ^(١) وإنما يخرجان من أحدهما ، وهو الملح دون العذب .
وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) ^(٢) وهو جائز في كل ما
اتفق في أصله . فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز ، مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد
الفريقين ، وهم الإنس . وهذا قول الفراء والزجاج .

وقال أبو السعود : المعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم ، لكن لا على أنهم من جنس
الفريقين معاً ، بل من الإنس خاصة . وإنما جعلوا منهما ، إمالئاً كيد وجوب اتباعهم ، والإيذان
بتقاربهما ذاتاً ، واتحادهما تكليفاً وخطاباً ، كأنهما من جنس واحد . ولذلك تمكن أحدهما
من إضلال الآخر . وإما لأن المراد بالرسول ما يعم رسل الرسل . وقد ثبت أن الجن استمعوا
القرآن ، وأنذروا به قومهم ، حيث نطق به قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ
الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ...) ^(٣) إلى قوله تعالى : (وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) ^(٤) .
انتهى .

وهكذا في عهد كل رسول لا يبعد أنه تعالى كان يلقي الداعية في قلوب قوم من جن عصره
فيسمعون كلامهم ، ويأتون قومهم من الجن ، ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل ، وينذرونهم به .
وقد سمي تعالى رسل عيسى رسل نفسه فقال : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ^(٥) وتحقيق القول
فيه : أنه تعالى إنما بكت الكفار بهذه الآية ، لأنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، بسبب أنه
أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين . فإذا وصلت البشارة والندارة إلى الكل بهذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ١٩] ونصها : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .

(٤) [٣٦ / يس / ١٤] ... فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ .

الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلًا -
كذا قرره الرازي - .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على أن الرسل من الإنس قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...)^(١) إلى قوله تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ لِقَلٍّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)^(٢) . وقوله تعالى عن إبراهيم :
(وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)^(٣) فخص النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته .
ولم يقل أحد : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم ، ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى :
(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)^(٤) .
وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)^(٥) .
ومعلوم أن الجن تتبع للإنس في هذا الباب . انتهى .

الثاني - إن قيل : ما السبب في أنهم أقرأوا في هذه الآية بالكفر ، وجحدوه في قوله :

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] ... وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] ... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٣) [٢٩ / المنكبات / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي
ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٤) [٢٥ / لقمان / ٢٠] ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ، وَكَانَ
رَبُّكَ بَصِيرًا .

(٥) [١٢ / يوسف / ١٠٩] ... أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(١) قلنا: يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرّون ، وأخرى يمحّدون . وذلك يدل على شدة خوفهم ، واضطراب أحوالهم ، فإن من عظم خوفه ، كثر الاضطراب في كلامه - أفاده الرازي - .

زاد الرّخشري : أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم .
 الثالث - إن قيل : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ أجيب : بأن الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؛ والثانية ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرّتهم الحياة الدنيا ، واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم ، واستيجاب عذابه . وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم - كذا في (الكشاف) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (ذَٰلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإزالة الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة بالإندار والتهديد . وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم لم تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه ، وينبهم على بطلانه ، لأنه ينافي الحكمة . وجوز في ذلك أن يكون خبراً المحذوف . أي : الأمر ذلك . أو مبتدأ وخبره محذوف . أي : كما ذكر . أو خبره (أَنْ لَّمْ يَكُنْ . . .) الخ . والمشار إليه إتيان الرسل ، أو ما قص من أمرهم ، أو السؤال المفهوم من قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) . واستظهر أبو السعود أن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، واستيجاب العذاب ، وأنه مبتدأ خبره ما بعده ، وأن (أَنْ) مصدرية ، و (اللام)

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

مقدرة قبلها . أو مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، و (يَظْلُمُ) متعلق بـ (مُهْلِكٌ) . أى : بسبب ظلم ، أو بمحذوف حالاً من (الْقُرَى) ، أى متلبسة بظلم . والمعنى : ذلك ثابت لا انتفاء كون ربك ، أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينهوا على بطلانه برسول .

تنبيه :

في الآية دليل على أنه لا تكليف قبل البعثة ، ولا حكم للعقل . كقوله ^(١) (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى : من المكلفين « دَرَجَاتٍ » أى : مراتب « مِّمَّا عَمِلُوا » أى : من أعمالهم ، يبلغونها ويثابون بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . واستدل بها ، على هذا التأويل ، بأن الجن يدخلون الجنة ويثابون .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يعود قوله (وَلِكُلِّ) لكافرى الجن والإنس . أى : ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) ^(٢) .
« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ

مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤]

« ذُو الرِّحْمَةِ » أى : يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلاً لهم ، ويمهلهم على المعاصى . وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ » أى : من الخلق يعملون بطاعته « كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ » ذهب بهم ثم بذريتهم ، لكنه أبقاكم ترحمًا عليكم . وهذا كقوله تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« إِنْ مَا تَوْعَدُونَ » أى : من البعث وأحواله « لَأْتِ » أى : لكائن لا محالة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى : بفائتين بمعجز عنكم . وهذا رد لقولهم : من مات فقد فات . أى : هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رفاتاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ » أى : على غاية تمكنكم واستطاعتكم . يقال : مكن مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن . أو على جهتم وحالتكم ، من قولهم : مكان ومكانة ، ك مقام ومقامة . والمعنى : اثبتوا على كفركم . « إِنِّي عَامِلٌ » أى : ما أمرت به من الثبات على الإسلام . « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى : التى

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَ ...

بنيت لعبادته تعالى وحده ، دون غيرهم ، هل تكون للعدل الذى يضع العبادة فى موضعها ، أو للظالم بوضعها فى غير موضعها . والمراد بالدار ، الدنيا . وبالعاقبة ، العاقبة الحسنى . أى : عاقبة الخير ، لأنها الأصل ، فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة المجاز إليها .
« إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ » أى : الكافرون . ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراداه ؟

لطائف

فى إيراد التهديد بصيغة الأمر ، أعنى : قوله (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) مبالغة فى الوعيد ، كأن المهدد يريد تعذيبه ، مجمعا عليه ، فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه . وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر ، كالأمر به الذى لا يقدر أن يتفصى عنه .
وفى قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع الإنذار ، إنصاف فى المقال ، وحسن الأدب ، حيث لم يقل (العاقبة لنا) وفوض الأمر إلى الله . وهذا من الكلام النصف ، كقوله تعالى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(١) .
وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه محق .
وفيه تبشير بأن العاقبة له .

قال ابن كثير : وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فكان له فى البلاد ، وحكمه فى نواحي مخالفه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه ونواؤه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين . كما

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٤] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللهُ ، ...

قال تعالى : (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(١) . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)^(٢) وقال تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)^(٣) وقال تعالى : (وَعد الله الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)^(٤) . وقد فعل تعالى ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة .

ثم بين تعالى نوعاً من جهالات مشركي مكة وضلالاتهم ، وهو ترجيحهم جانب الأصنام على جانبه سبحانه ، بعد تشريكهم إياه فيما اختص بخلقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ » أى : خلق « مِنَ الْحَرْثِ » أى : الزرع « وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا »

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١ و ٥٢] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ١٣ و ١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ

أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٥٥] ... وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أى : ولأصنامهم نصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة . وإنما لم يذكر اكتفاء بما بعده .

« فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ » بالفتح والضم (وقال الشهاب : الزعم مثلث كالود) .
أى : هذا مستقر له الآن ، من غير استقرار له في المستقبل لعارض . « وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا » وهو مستقر لهم ، بل يستقر لهم ما ليس لهم أيضاً ، فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أوفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، كما قال تعالى : « فَمَا كَانَ لَشُرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » أى : عند نمائه أو سقوطه فيها هو لله . أوهلاك ما هو لله لا يصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين . « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » أى : عند نمائه أو سقوطه فيها هو للأصنام ، أوهلاك ما لها ، فينفقون عليها ، بذبح نساك عندها ، والإجراء على سدتها ، ونحو ذلك . وعلموا ذلك بأن الله غنى ، وهى محتاجة « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : ما يقسمون ، لأنهم أولاً عملوا ما لم يشرع لهم ، وضلوا في القسم . لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذ رجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

وقال المهايى : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله ، بعلّة تقتضى ترجيح جانب الله لإلهيته ، وعدم صلاحيتها للإلهية مع الحاجة . وما ذكرناه في الآية هو الذى قاله أئمة التفسير .

فقد روى على بن أبى طلحة والعوف عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءاً ، وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ، ردّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئاً

جعلوه لله ، جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرت والثمرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله ، فسق ماسمى للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى ، فقال تعالى : (وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ ...) الآية . قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) « وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ » أى : مثل ذلك الزين ، وهو تزين الشرك في القسمة المتقدمة ، زين لهم أوليائهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً في باب القربان ، وهو قتل أولادهم خشية الإملاق ، وواد البنات خشية العار ، وإنما سميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ، فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم ، « لِيُرْدُوهُمْ » أى : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من (الإرداء . وهو ، لفة ، الإهلاك) ، « وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » أى : ليخلطوا عليهم ما هم عليه ، بدین إبراهيم في ذبح إسماعيل عليهما السلام . أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذى أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ » أى : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بعشيئة الله ، « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : لأن له فيما شاء حكماً بالنة^(١) (إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيُرْدَوْا دَاوُاْ إِنَّمَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(شُرَكَائِهِمْ) فاعل (زَيَّنَ) أخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالقدم ، واهتماماً به ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨]

لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأثم ، والذين هم بشأنه أَعْتَى . وقرأ ابن عامر (وَحْدَهُ) (زَيْن) على البناء للمفعول الذي هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه ، مفصلاً بينهما بمفعوله . وقد زيف الزخشرى ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبار كشفه حيث قال : **وَأَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ ، فَشَيْءٌ لَوْ كَانَ فِي مَكَانِ الضَّرُورَاتِ ، وَهُوَ الشَّعْرُ ، لَكَانَ سَمَجًا مَرْدُودًا ، كَمَا سَمِعَ وَرَدٌ^(١) :**

* زَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ *

(١) وصدر البيت :

* فَزَجَّجَتْهَا بِمَزَجَةٍ *

زججتها أى ضربتها بالزج . والزج كعب الرمح . والمزجة رمح قصير يسمى الزراق . والقلوص الشابة من الإبل كالفتى من الرجال . وأبو مزادة كنية رجل .

زججتها فعل وفاعل ومفعول . و (مزجة) متعلق به . وزج منصوب بنزع الخافض . أى زججتها زجاً كزج . والقلوص منصوب على أنه مفعول المصدر ، فصل به بين المتضايقين . وأبو مزادة ، جُرَّ بإضافة (زج) إليه .

والشاهد في الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور ، وهو المفعول . وهو جائز عند الكوفيين .

والبصريون ممنوا هذا . وقالوا : إن المتضايقين في قوة شيء واحد فلا يجوز الفصل بينهما . إلا أن العرب توسعت في الظروف والجار والمجرور ، ما لم تتوسع في غيرها . وأجابوا عن الشواهد الشعرية بأنها لم يعرف لها قائل ، فلا يصح الاحتجاج بها . وقال شارح شواهد الفصل : لم يسم أحد قائله ولا ذكر له سابقاً ولا لاحقاً .

وجاء في خزنة الأدب : وهذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه . حتى قال السيرافي : لم يثبت أحد من أهل الرواية ، وهو من زيادات أبي الحسن الأخفش في حواشي كتاب سيبويه ، فأدخله بعض النساخ في بعض النسخ .

فكيف به في الكلام المنشور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمهِ وجزالته ؟
قال : والذي حمّله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شُرَكَائِهِمْ) مكتوباً بالياء ،
ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة
عن هذا الارتكاب . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : لقد ركب الزخشرى متن عمياء ، وتناه في تيهاء ، وأنا أبرأ
إلى الله ، وأبرئ حملة كتابه ، وحفظه كلامه ، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه
السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهداً ، لا نقلاً وسماعاً ، فلذلك غلط ابن عامر
في قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في (شركائهم) ، فاستدل بذلك
على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً ،
فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ،
وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته
هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواء . ولم يعلم الزخشرى أن هذه القراءة
بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها ، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها
على جبريل ، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

= قال الزخشرى في (مفصله) : وما يقع في بعض نسخ (الكتاب) من قوله :

فَرَجَجْتُهَا بِمِزْجَةٍ زَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ

فسيبويه يرى من عهده .

وقال صاحب الخزانة معقّباً على قول الزخشرى :

أراد أن سيبويه لم يورد هذا البيت في كتابه ، بل زاده غيره في كتابه ، وإنما برأ سيبويه
من هذا ، لأن سيبويه لا يرى الفصل بغير الظرف . وإذا كان هذا مذهبه ، فكيف يورد
بيتاً على خلاف مذهبه ؟

يتناقضونها، ويقرؤون بها، خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالصاد عليه السلام. فإذا علمت العقيدة الصحيحة، فلا مبالاة بعدها بقول الزخشرى، ولا بقول أمثاله ممن لعن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشائين : أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولا يبعد من ذوى الفنين المذكورين، خيف عليه الخروج من ربة الدين. وإنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة، وزلة منكرة، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة، فيها ما ليس متواتراً، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل. وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر. وأما الزخشرى فظن أنها تثبت بالرأى، غير موقوفة على النقل، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين. وما حله على هذا الخيال إلا التناهي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية، حتى يرد ما خالفها. ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطردا، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه. وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وإن كان عسراً، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله، فهو مقدر بالفعل، وبهذا التقدير عمل. وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة. حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة، لذلك. فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر، وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره، لما يبناه من انفكاكه في التقدير، وعدم توغله في الاتصال، بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه، بما ليس أجنبيّاً عنه، وكأنه بالتقدير : فكّه بالفعل، ثم قدم المفعول على الفاعل، وأضافه إلى الفاعل، وبقى المفعول مكانه حين الفك. ويسهل ذلك أيضاً تمايز حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول. وقد ائتم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل، لوقوعه في غير مرتبته، إذ ينوب به التأخير، فكأنه لم يفصل. كما جاز تقدم المضمرة على الظاهر إذا حلّ في غير مرتبته، لأن النية به التأخير، وأنشد أبو عبيدة :

فَدَاسَهُمْ دَوَسَ الْحَصَادَ الدَّائِسَ

وَأُنْشَدَ أَيْضاً^(١) :

يَفْرُكُنْ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ بِالقَاعِ فَرَكَ الْقُطْنُ الْمَحَالِجِ

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوّى عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد ، منظره بشواهد من أقيسة العربية ، تجمع شمل القوانين النحوية ، لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما - والله الموفق - ومأجربناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التي يدل بإجماعها على أن الفصل غير منكّر في إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم نفرده في الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحضها لايسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة - والله الموفق - انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى^(٢) .

ثم بين تعالى نوعاً آخر من مفترياتهم بقوله :

(١) في اللسان : قال جندل بن المنثى :

* يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ *

وقال : الكنافج السمين الممتلئ . وسنبُل كنافجٌ مكْتَنَز . وقال ابن سيده : وقيل هو

الغليظ الناعم .

(٢) ويجدر بنا في هذا المقام أن نطلع القارئ الحصيف على رأى كبير المفسرين ، الإمام

محمد بن جرير الطبري ، قال رضى الله عنه :

وقرأ بعض قرأة الشام (وكذلك زَيْن) بضم الزاى (لكثير من الشركين قَتْلُ)

بالرفع (أولادهم) بالنصب (شركائهم) بالخفض بمعنى : وكذلك زَيْن لكثير من الشركين =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرُهَا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَقَالُوا هَذِهِ » إشارة إلى ما جعلوه لأهلهم ، والتأنيث للخبر « أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرُهَا » أى : حرام (والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم) فعل بمعنى مفعول ، كالذبح والطحن ، يستوى فى الوصف به الذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات .
أى : محرمة علينا ، أو محجرة علينا فى أموالنا للأوثان . ويقرأ بضم الحاء .

= قتل شركائهم أولادهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيه من الاسم .
وذلك فى كلام العرب قبيح غير فصيح .

وقد روى عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرت من قراءة أهل الشام ، رأيت رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهل العراق ينكرونه .

وذلك قول قائلهم :

فزججته متمكنا زجَّ القلوص أبى مزاده

قال أبو جعفر : والقراءة التى لا أستجيز غيرها (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) بفتح الزاى من (زين) ونصب (القتل) بوقوع (زين) عليه .
وخفض (أولادهم) بإضافة (القتل) إليهم ، ورفع (الشركاء) بفعلهم . لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم ، على ما ذكرت من التأويل .

وإنما قلت : (لا أستجيز القراءة بغيرها) لإجماع الحجة من القراءة عليه . وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد . فى ذلك أوضح بيان على فساد ما خالفها من القراءة .

« لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » قال في (المدا رك) : كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلئهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء . يعنون : خد م الأوثان ، والرجال دون النساء .
« بِرِزْقِهِمْ » حال من فاعل (قالوا) أى : متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

قال ابن كثير : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (١) .
« وَأَنْعَامٌ » أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام « حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » يعنون بها البحار والسواكب والحواى « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا » أى : حالة الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام « افْتَرَاءً عَلَيْهِ » أى : على الله ، وكذباً منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ، ولا رضيه منهم .
« سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : عليه ، ويسندون إليه . وفيه وعيد وتهديد .
ثم بين تعالى فناً آخر من ضلالهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)
« وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ » يعنون أجنة البحار والسواكب « خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » يعنون أنه حلال للذكور دون الإناث ، وإن ولد حيّاً لقوله سبحانه : « وَإِنْ يَكُنْ » أى : ما فى بطونها « مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ » فالذكور والإناث فيه سواء .

وفى رواية الموفى عن ابن عباس أن المعنى بـ (مَا فِي بُطُونِهَا) هو اللبن . كانوا يحرمونه

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] .

على إناثهم ، ويشربه ذكراهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .
وقال الشعبي : البهيمة ، لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وابن أسلم .

« سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أى : بالتحليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى .
« إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » أى : حكيم فى أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر ، وسيجزئهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : استدل مالك بقوله (خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك فى الهبة . انتهى .

لطائف

(التاء) فى (خَالِصَةٌ) إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن (الخالصة) مصدر كالمافية ، وقع موقع (الخالص) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أى : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناءً على أن (ما) عبارة عن الأجنة . والتذكير فى (محرم) باعتبار اللفظ . وقرئ (خَالِصَةً) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر (لِذُكُورِنَا) . ووصفهم واقع موقع مصدر (سَيَجْزِيهِمْ) بتقدير مضاف . أى : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى فى التحريم والتحليل من قوله تعالى : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)^(١) .

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] وانصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون : وصف كلامه الكذب ، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أى : ساحرة ، وقدّه يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغة . حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المرحى^(١) :
سَرَى بَرْقُ الْمَرْءِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ » يعنى : وأد بناتهم خشية السبى أو الفقر « سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » خلفه أحلامهم وجهالهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم « وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » من البحائر والسوائب ونحوها « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا » عن الصراط المستقيم . « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : إلى الحق والصواب .

قال الشهاب : وفي قوله (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعد قوله (قَدْ ضَلُّوا) مبالغة في نفى الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال ، بعد أن لم يكن . فلذا أورد بهذه الحال ، لبيان عراقتهم في الضلال ، وإنما ضلّاهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) من قصيدته في سقط زند . ومطلعها :

أَعْنُ وَخَدِ الْقِلَاصِ كَشَفَتْ حَالَا وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتَ مَالَا

قال شارح البيت :

بعد وهن أى بعد طائفة من الليل . ومعرة النعمان بلد بالشام . ورامة موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغربا نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام ، من صوب معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال . أى يشكو ضعفه لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

تنبيه :

حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمره ما خلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداءً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقاً ، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله ^(١) تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

روى الحافظ ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فافقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ...) الآية - وهكذا رواه ^(٢) البخاري في مناقب قريش من (صحيحه) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ » تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الأنعام . أى : هو الذى أنعم عليكم بأنواع النعم ، لتعبدوه وحده ، فخلق لكم بساتين من السكروم وغيرها معروشات ، أى : مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة . يقال : عرشت السكروم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان . (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) متروكات على وجه الأرض لم تعرش . « وَ » أنشأ « النَّخْلَ » الثمر لما هو فاكهة وقوت ،

(١) [١٠ / يونس / ٦٩ و ٧٠]

(٢) أخرجه البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ١٢ - باب قصة زمزم وجهل العرب .

« وَالزَّرْعَ » المحصل لأنواع القوت « مُخْتَلَفًا أَكُلُهُ » أى : ثمره وحبّه فى اللون والطعم والحجم والرائحة . « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا » فى اللون والشكل ، ورقهما « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر ، إذا أدرك .

قال الرازى : لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء ، ذكر ما هو المقصود الأصلي من خلقها ، وهو انتفاع المكافين بها ، فقال : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) واختلفوا ما الفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق ، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله ، لكان شركة المساكين فيه ، بل هذا هو الظاهر . فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل ، وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير . قال تعالى^(١) : (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) . انتهى .

« وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قرئ بفتح الحاء وكسرها . وهذا أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة - هكذا قال عطاء - أى : لأن السورة مكية ، والزكاة إنما قرضت بالمدينة . وكذا قال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه . وفى رواية عنه : عند الحصاد يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة . ويتبركهم يتبعون آثار الصرام . وهكذا روى عن نافع وإبراهيم النخعي وغيرهم . وعند هؤلاء أن هذا الحق

(١) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

باقٍ لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية . ومما يؤيده تعالى ذم الذي يصرمون ولا يتصدقون ، حيث قصّ علينا سوء فعلهم وانتقامه منهم . قال تعالى في سورة (ن) : (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنْوُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)^(١) أى : كالليل المدلهم ، سوداء محترقة . (فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرِّئِكُمْ * إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ...)^(٢) الآيات .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بآية الزكاة ، حكاه ابن جرير^(٣) عن ابن عباس وثلة من التابعين .

قال ابن كثير : في تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه «وبين مقدار المخرج وكيته . انتهى .

ولانظر ، لما عرفت في المقدمة من تسمية مثل ذلك نسخاً عند السلف ، ومرراً قريباً أيضاً ، فتذكر !

وذهب بعضهم إلى أن الآية مدنية ، ضمت إلى هذه السورة في نظائرهما ، بينها أول السورة ، وأن الحق هو الزكاة المفروضة . روى عن أنس وابن عباس وابن المسيب .

والأمر بإيتائها يوم الحصاد ، للمبالغة في العزم على المبادرة إليه . والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء . قال الحاكم : وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على الأرباب ، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله .

(١) [٦٨ / القلم / ١٧-٢٠] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...

(٢) [٦٨ / القلم / ٢١-٢٤] .

(٣) الأثران رقم ١٤٠٢٠ و ١٤٠٢١ من التفسير .

وقد روى العوفي عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا زرع فكان يوم حصاده ، لم يخرج مما حصد شيئاً ، فقال تعالى : (وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد ، وما يلقط الناس من سنبله .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) عن جابر بن عبد الله قال : أمر رسول الله ﷺ من كل جادّ عشرة أوسق من التمر ، بقنوي يعلق في المسجد للمسكين . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : استدل بالآية من أوجب الزكاة في كل زرع وثمر ، خصوصاً الزيتون والمان المنصوص عليهما . ومن خصها بالحبوب ، قال : إن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليها . وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أدائها قبل الحصاد . واستدل بها أيضاً على أن الاقتران لا يفيد التسوية في الأحكام ، لأنه تعالى قرن الأكل ، وهو ليس بواجب اتفاقاً ، بالابتاء ، وهو واجب اتفاقاً . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » النهي عن الإسراف ، إما في التصدق ، أي : لا تعطوا فوق المعروف . قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تبادروا فيه وأسرفوا ، فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) . وقال ابن جريح : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . جدّ نخلّ له فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت . ولذا قال السدي : أي : لا تعطوا أموالكم فتقعّدوا فقراء . وإما في الأكل قبل الحصاد ، وهذا عن أبي مسلم قال : ولا تسرفوا في الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بحس حق الفقراء . وإما في كل شيء ، قال عطاء : نهوا عن السرف في كل شيء .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٥٩ و٣٦٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٢ - باب في حقوق المال ، حديث ١٦٦٢

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله ، فهو سرف . واختار ابن جرير^(١) قول عطاء . قال ابن كثير : ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية ، حيث قال تعالى (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) أن يكون عائداً على الأكل . أى : لا تسرفوا في الأكل ، ما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...)^(٢) الآية .

وفي صحيح البخارى^(٣) تعليقاً : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة . وهذا من هذا - والله أعلم - انتهى .

وقد جنح إلى هذا الماهيى في تفسيره حيث قال : ولا تسرفوا في أكلها لئلا يطل، باستيفاء الشهوات ، معنى الزرعة .

ثم بين تعالى حال الأنعام ، وأبطل ما تقولوا عليه في شأنها بالتحريم والتحليل ، بقوله :

(١) الأثر رقم ١٤٠٤١ من التفسير ونصه :

عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : « وَلَا تُسْرِفُوا » يقول : لا تسرفوا فيما يأتي يوم الحصاد ، أم كل شيء ؟ قال : بلى ! في كل شيء ، ينهى عن السرف .

قال : ثم عاودته بعد حين فقلت : ما قوله « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ؟ قال : ينهى عن السرف في كل شيء . ثم تلا « لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » [٢٥ / الفرقان / ٦٧] .
(٢) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ١ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح (أى : يضجع) أو ينسج من وبره وصفه وشعره الفرش .

وعن ابن عباس : الحمولة الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش الصغير كالفصلان والمجاجيل والنم ؛ لأنها دانية من الأرض ، للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها . فعلى الوجهين الأولين : الفرش بمعنى المفروش ، وعلى الثالث : الكلام على التشبيه .

« كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الثمار والزروع والأنعام ، لحفظ الروح ، واستزادة القوة .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ » أى : أوامره في التحليل والتحريم ، كما اتبعها أهل الجاهلية ، فخرموا ما رزقهم الله افتراء عليه - كما مر - .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أى : ظاهر المداوة ، يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويزيد قوتكم ، ويدعوكم إلى الافتراء على الله إن نسبتموه إلى أمره ، أو إلى دعوى الإلهية لكم إن استقلتم به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (تَمَّا نِيةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالِ ذَاكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله تعالى « تَمَّا نِيةَ أَزْوَاجٍ » بدل من (حَمُولَةً وَفَرْشًا) أو مفعول (كُلُوا) .

(وَلَا تَبْسِعُوا) معترض بينهما ، أو فعل دل عليه ، أو حال من (ما) بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه . قال تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ). وقد يقال لمجموعهما ، والمراد الأول .

« مِنْ الضَّانِّ » زوجين « اثْنَيْنِ » السكس والنمجة « وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » التيس والمعز . « قُلْ » أى : تبكيتهما لهم ، وإظهاراً لانقطاعهم عن الجواب « الذَّكَرَيْنِ » من الضأن والمعز « حَرَّمَ » الله عليكم أيها المشركون « أَمْ الْأُنثَيَيْنِ » منهما « أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيَيْنِ » أى : أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ، كما قالوا : (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ ...) ^(٢) الآية .

« نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ » أى بدليل نقل من كتب أوائل الرسل ، أو عقل في الفرق بين هذين النوعين ، والنوعين الآتين - قاله المهايى - .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعوى التحريم .

وفى قوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ...) تكريرٌ للإلزام ، وتثنيةٌ للتبكي والإفحام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمِنْ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمِنْ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ » عطف على قوله تعالى (مِنْ الضَّانِّ اثْنَيْنِ) أى : وأنشأ من

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥]

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ

لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٍ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

الإبل اثنين هما الجمل والناقة . « وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » ذكرنا وأنتي . « قُلْ » أى : إلهاماً لهم أيضاً فى هذين النوعين « آلدَّ كَرَيْنَ » منهما « حَرَّمَ أَمْ الْإِثْنَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ » أى من ذينك النوعين . والمعنى إنكار أن الله سبحانه وتعالى حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك . وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها - للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افتراءهم . فإهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى . مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه . وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلد كور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث - لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والإلزام . أفاده أبو السمود . ثم كرر الإلهام بقوله تعالى « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » حاضرين « إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا » أى حين وصاكم بتحريم بعض وتحليله . وهذا من باب التهمك « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فنسب إليه تحريم مالم يحرم « لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى دليل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » قال ابن كثير : أول من دخل فى هذه الآية عمرو ابن لحي بن قعدة . لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سبب السوائب ووصل الوصيلى وحى الحامى . كما ثبت ذلك فى الصحيح (١) .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٣ - باب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، حديث ١٦٥٧ ونصه : قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجرّ قُصْبَهُ فى النار . كان أول من سبب السوائب . والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ، ثم تُثنى بعدُ بأنثى . وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداها بالأخرى ، ليس بينهما ذكر . =

وقال أبو السعود : المراد كبارؤهم المقرّون لذلك . أو عمرو بن لحيّ وهو المؤسس لهذا الشر . أو الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه ، سبحانه وتعالى .

لطيفة :

قال الزخشريّ : « فَإِنْ قُلْتَ : كيف فصل بين بعض العدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبيّ من العدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم . فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها . والاحتجاج على من حرّمها تأكيد وتسديد للتحليل . والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد . انتهى .

تنبيه :

دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام . وذلك معلوم من الدين ضرورة . وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب ، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود . وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم .

قال المؤيد بالله : ويدخل الإنسيّ والوحشيّ في قوله : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) . وردّ بأن قوله تعالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) بيان للأنعام . والأنعام لا تطلق على الوحشيّ . أفاده بعض مفسري الزيدية .

ثم أمر تعالى رسول الله ﷺ - بعد إلزام المشركين وتبسكيتهم وبيان أن ما يتقوّنونه في أمر التحريم افتراء بحتٌ - بأن يبين لهم ما حرّمه عليهم ، فقال سبحانه :

= والحامر فحل الإبل يضرب الضراب العدود فإذا قضى ضرابه ودّعوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » أى طعاما محرما من المطاعم « عَلَى طَاعِمٍ » أى : أى طاعم كان من ذكر أو أنثى . ردّا على قولهم (مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) وقوله « يَطْعَمُهُ » لزيادة التقرير « إِلَّا أَنْ يَكُونَ » أى ذلك الطعام « مَيْتَةً » . قال المهايى : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله ، أو كونه من الماء ، أو غيرها « أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » أى سائلا لا كبدا أو طحالا « أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ » لتعوده أكل النجاسات « أَوْ فِسْقًا » أى : خروجا عن الدين الذى هو كالحياة المطهرة « أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غير الله . وإنما سى (مَا أَهْلٌ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) فسقا ، لتوغله فى باب الفسق ومنه قوله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا مما لَمْ يُذَكِّرْ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) . « فَمَنْ اضْطُرَّ » أى : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر « غَيْرَ بَاغٍ » أى : على مضطر مثله ، تارك لمواساته « وَلَا عَادٍ » متجاوز قدر حاجته من تناوله « فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لا يؤاخذ . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم . وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها .

وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتوه ولم يحرمه تعالى ؟ وعلى هذا ، فلا ينفي تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا . كما جاء النهي عن لحوم الجر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير - انتهى - وبالجملة فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك في شيء آخر ، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها . وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً ، طارىء . قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما في الآية . فصحّ تحريم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمى هذا نسخاً بالمعنى السلبي . وقد يتناه مراراً .

قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية في تحليل لحم الجر الأهلية . وعائشة في لحوم السباع . وعكرمة في إباحة كل شيء سوى ما في الآية . وعن الشعبي ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية . لأنه تعالى بين ما يحرم في تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : احتج بها كثير من السلف في إباحة ما عدا المذكور فيها . فمن ذلك الجر الأهلية . أخرجه البخاري^(١) عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن مَحْرُ الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة . ولكن أبي ذلك البحر (ابن عباس) وقرأ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ) الآية . وأخرج أبو داود^(٢) عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ؟ فقرأ :

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ - باب لحوم الجر

الإنسية ، حديث ٢٢٠٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٩ - باب في أكل حشرات =

قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره ، بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير؟ تلت : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه : قُلْ لَا أَجِدُ الآية . انتهى .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدّرا . فبعث الله نبيه ﷺ وأزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفو . وتلا : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية .
وذكرنا ضعف التعلّق بهذه الآية على ما ذهبوا إليه .

قال في (فتح البيان) : معنى الآية أنه تعالى أمره ﷺ بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه محرّما غير هذه المذكورات . فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها ، لولا أنها مكّية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنة والموقوذة والمتريدة والنطيحة . وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع^(٢)

= الأرض ، حديث ٣٧٩٩ ونصه :

عن عيسى بن نميلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ؟ فتلا (قُلْ لَا أَجِدُ فِيْهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...) الآية . قال قال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبي ﷺ فقال « خبيثة من الخبائث » .

فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله ﷺ هذا ، فهو كما قال [مَا لَمْ نَدْرِ] .
(١) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الطعام ، ٣٠ - باب ما لم يذكر تحريمه ، حديث ٣٨٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٥٧ - باب ألبان الأتن ، حديث ٢٢٠٨ ونصه :
عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، قال : نهى النبي ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع .
وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ١٢ (طبعنا) .

وكل ذى غلب من الطير^(١) وتحريم الحر الأهلية^(٢) والسكاب، ونحو ذلك .
وبالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات، كما يدل عليه السياق
ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء
من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرمه الله من حيوان وغيره ،
فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس
وابن عمر وعائشة؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية . وروى ذلك عن مالك . وهو
قول ساقط ومذهب في غابة الضعف لا ستلزامه لإيهال غيرها ، مما نزل بعدها من القرآن ،
وإيهال ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب يقتضي
ذلك ولا موجب يوجب . وقول جابر (لكن أبي ذلك البحر ابن عباس) في رواية البخاري
المتقدمة، أقول : وإن أبي ذلك البحر ، فقد صح عن رسول الله ﷺ . والتمسك بقول صحابي
في مقابلة قول النبي ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . انتهى كلام الفتح .
وفي (نيل الأوطار) : الاستدلال بهذه الآية إنما يتم في الأشياء التي لم يرد النص
بتحريمها . وأما الحر الأنسية فقد توارت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم
على عموم التحليل وعلى القياس . وأيضا الآية مكية . انتهى .
وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سعيد بن منصور والإمام أحمد^(٣) وأبو داود^(٤) عن نائلة الفزاري قال : كنت

(١) أخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٦ (طبعنا) عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ - باب لحوم الحر

الأنسية ، حديث ٥٠٦ ونصه :

عن ابن عمر رضي الله عنهما : نهى النبي ﷺ عن لحوم الحر الأهلية ، يوم خير .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٣٤ .

عند ابن عمر ، وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : قل لا أجد... الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكرَ عند النبي ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال .

أى والخبائث محرمة بنص القرآن، فهو مخصص لمعوم هذه الآية .
وعن القدماء بن معدي كرب قال : قال رسول الله ﷺ : ألاهل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكى على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فواجدنا فيه حلالا استحلتناه . وما وجدنا فيه حراما حرمانه . وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذى^(١) وقال : حديث حسن غريب .

ولأبي داود^(٢) قال : قال رسول الله ﷺ : ألاإنى أوتيت الكتاب ومثله معه . لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فواجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لُقْطَةً معاهد ألا أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤوه . فإن لم يقرؤوه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أى يأخذ منهم عوضا عما حرموه من القرى) .

هذا والزخشرى فسر محرما بد (طعاما محرما من المطاعم التى حرمتها) وجعل الاستثناء منقطعا . أى لا أجد ما حرمتوه لكن أجد الأربعة محرمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالتصل فى الحصر . وغير الزخشرى لم يقيده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد . وأولوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغا . بمعنى : لا أجد

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٩ - كتاب العلم ، ١٠ - باب ما نهى عنه أن يقال عند

حديث النبي ﷺ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ٥ - باب فى لزوم السنة ، حديث ٤٦٠٤

شيئاً من المطاعم المحرمات في وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، إلا في وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة . فإنني أجد حينئذ محرماً . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من (أن والفعل) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالا ، لأنه معرفة . والله أعلم .

الثاني - في قوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إيدان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى . قال الشهاب : كنى بعدم الوجدان عن عدم الوجود . ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحي استظهره . ولذا قال : أوحى ولم يقل : أنزل .

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : استدلل النبي ﷺ بقوله (عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد^(١) وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة (يعني الشاة) فقال : فلو لا أخذتم مسكها ؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : إنما قال الله عز وجل : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خْتَرِيرٍ . فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به . فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قرربة ، حتى تحرقت عندها .

الرابع - استدلل بقوله تعالى (مَسْفُوحًا) على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان في حال الحياة ، أو عند الذبح - لا كالسكبد والطحال - وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عمران بن جذير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم ، وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٠٢٧ (طبعة المارف) .

وقال إبراهيم النخعي : لا بأس بالدم في عِرْقٍ أو مَخٍّ ، إلا السفوح .
وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتبعض المسلمون الدم من العروق ما تبعض اليهود .
ثم بين تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى غير هذه الأربعة ، تحقيقاً لافتراء المشركين
فيما حرّموه ، إذ لم يوافق شيئاً مما أنزله تعالى ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » أى : اليهود خاصة « حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ » قال سعيد بن جبير : هو الذى ليس منفرج الأصابع - كالجل والوبر والأرنب - فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة - أى المنفرجة - وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجتر من البهائم ، فلم يحرم عليهم .
« وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا » لا لحومهما « إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا »
يعنى : ما علق بالظهر من الشحوم « أَوِ الْحَوَايَا » أى : الأمعاء والمصارين - أى : ما حملته من الشحوم - « أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » كالخ والمصعص « ذَلِكَ » أى : تحريم تلك الأطايب عليهم « جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ » بسبب ظلمهم ، وهو قتلهم الأنبياء بنير حق ، وأكلهم الربا - وقد نهوا عنه - وأكلهم أموال الناس بالباطل ، كقوله تعالى ^(١) « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا » .

قال المهايى : أى : ولم يكن لغيرهم ذلك البنى ، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب فى أنفسها .

« وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى : فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ؛ وهو تخصيص

التحريم بهم ، لبغيتهم .

قال ابن جرير^(١) : لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرّمه على نفسه .

قال أبو السعود : ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ) ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » الضمير إما لليهود لأنهم أقرب ذكراً، ولذكّر المشركين بعد ذلك بمنوان الإشراك؛ وإما للمشرّكين، وإما للفريقين. أى: فإن كذبتك اليهود في التخصيص وزعموا أن تحريم الله لا ينسخ، وأصرّوا على ادعاء قدم التحريم؛ أو المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم، أو هما فيما ادّعى « قُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » يمهلكم على التكذيب فلا تفتروا بإمهاله فإنه لا يهمل « وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى: ومع رحمته فهو ذو بأس شديد. وفيه ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، وذلك في اتباع رضوانه، وترهيب من المخالفة .

وليعلم أن المشركين لما لزمتهم الحجة - ييطان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله - أخبر تعالى عنهم بما سيقولونه من شبهة يتشبثون بها لشركهم وتحريم ما حرّموا . وفائدة الإخبار بما سوف يقولونه ، توطين النفس على الجواب ، ومكافئتهم بالرد ، وإعداد الحجة قبل أوانها ، فقال تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٦ من الجزء الثاني عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » يعنى مشركى قريش والعرب « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ » يعنى ما حرموه من البحار والسواحب وغيرها « كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى : حتى أنزلنا عليهم العذاب « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » أى : أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم فتظهِروه لنا « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى : فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما حرّمتم « وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » تكذبون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات . ومنه : (إيمان بالغة) أى : مؤكدة . أو (البالغة) التى يبلغ بها صاحبها صحة دعواه فهى (كعيشة راضية) . « فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هداية بعض صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وضلال آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك ، من غير صارف يوليهم ولا عاطف يثنيهم ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه . قال الإمام أبو منصور المتريدى فى (تأويلاته) : قيل : الآية فى مشركى العرب . قالوا ذلك حين لزمهم المناقضة وانقطع حجاجهم فى تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا

ذلك إلى الله ، وهو صلة قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... - إلى قوله - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا) ^(١) ، فلما لزمهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ...) ^(٢) الآية ! انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أى : ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ، ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لأنه قادر . فلو لم يكن حقاً يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حق . وفي حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيان لنوع من كفرهم شنيع جداً !..

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها في التنزيل الكريم في عدة سور ، وهى من الآيات الجديدة بالتدبر لتمحيص الحق في المراد منها .

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصي والكفر ، كما تبجح بذلك منهم الطبرمسي الشيعي في (تفسيره) وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الرنخسرى في (تفسيره) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٣ و ١٤٤] ونصهما : ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَمْعُزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

ومعلوم أن عقيدة الفرقة الناجية، الإيمان بأن : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وهو خالق لأفعال العباد .. !

وقد خالف في ذلك عامة القدرية - الذين ستمهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة - فقالوا : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد. فعندهم أكثر ما يقع من أفعال العباد على خلاف إرادته تعالى. ولما كان قولهم هذا في غاية الشناعة، تبرأ منهم الصحابة. وأصل بدعتهم - كما قال ابن تيمية - كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيهِ . وسنبتن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم في هذه الآية وندممها - بمونه تعالى - بعدة وجوه فنقول :

(قالوا) : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى. ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا، ولما صدر عنا تحريم المحلات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى رد عليهم مقاتلهم وبين بطلانها وذمهم عليها وأوعدم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى في ذلك ، على ما تضيفون أنتم ، لم يكن يرد ذلك عليهم ويتوعدهم !

(قلنا) : إن المشيئة في الآية تتخرج على وجوه :

أحدها : ما قال الحسن والأصم - إن المشيئة ههنا الرضا - فرادهم : أن الله رضى بفعلنا وصنيعنا - حيث فعل آبائنا مثل ما فعلنا - فلم يحل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم ، ولا منعمهم عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعمهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلو بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والمذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أن الله رضى بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله . ولما كانت حججهم داحضةً باطلة - لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام - قال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى : بأن الله راضٍ عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة . وفى (الوجيز) : الحاصل أن المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضي والمشيئة ، كما اعتقدت المعتزلة ، فاحتجوا على حقيقة الإشراك . وينادى على ذلك قوله (كَذَلِكَ كَذَبَ ...) فإنه لو كان المراد أن ذلك ليس بمشيئة الله تعالى لقال (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف لا التشديد . وهذه الآية - عند من له أذن واعية - تصيح على المعتزلة بالويل والثبور ، لكن فى آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادى له . انتهى .

الوجه الثانى : إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أى : يقولون : إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا بَاءًنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فردّ تعالى عليهم بقوله : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

الوجه الثالث : إن قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دفماً لدعوته ﷺ ، وتملاً لعدم إجابته واتباعه ، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فاصدر عنهم ، كلمة حق أريد بها باطل . ولذلك ذمهم الله بالكذب لأنهم قصدوا به تكذيب النبي ﷺ فى وجوب اتباعه والتابعة ، فقال : (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتشديد ، ولم يذمهم بالكذب فى قولهم ذلك ، وإلا لقال (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف ، إشارة إلى أن ذلك الكلام فى نفسه حق وصدق .

وقال آخراً : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأشار إلى صدق مقالهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم ، إنما كان لاستهزائهم ،

كما ذكر في قوله تعالى ^(١) (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) هي كلمة حق . لكن قالها استهزاءً فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه المضد في (المواقف) وقرره أيضاً أبو منصور في (تأويلاته). قال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تمظيماً لله وإجلالاً له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لمّا عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجَدَلًا من غير معرفة بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إن في كلام المشركين مقدمتين : (إحداها) : أن الكفر بمشيئة الله تعالى . و (الثانية) : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبي ﷺ . وما ورد من الذم والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاءً إلى دار السلام ، وإن كان لا يهتدي إلا من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والتعوت . قال البقاعي في قوله تعالى (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى : بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة في قولهم : إذا كان الكل بمشيئة الله كان التكليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشيء ويعاقب عليه لأن ملكه تام ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشاني قدس سره ، في قوله تعالى (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عناداً وعتواً ، فعذبوا بكفرهم .

ثم قال في قوله تعالى (قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) : أى : إن كان لكم

علم بذلك وحجة ، فبينوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)
لأنهم لو قالوا ذلك عن علم ، لعلموا أن إيمان الموحدين وكل شيء ، لا يقع إلا بإرادة الله .
فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل وَالْوَهْم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمري إنهم
لو قالوا ذلك عن علم ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحدين . ولكنهم اتبعوا الظن في ذلك ،
وبنوا على التقدير والتخمين لفرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزاماً لهم
وإثباتاً لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون في مقام النفس . وأنى لهم اليقين ؟ ومن
أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أى : إن كان
ظنكم صدقاً في تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من
أهل دين ، لكون كل دين حينئذ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقهم وتصدقوهم ، بل لله
الحجة عليكم في وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم ، بمن لا يقع أمره إلا بإرادته ،
ما لا أثر لإرادته أصلاً . فأنتم أشقياء في الأزل مستحقون للبعد والعقاب . وقوله تعالى
(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بلى ، صدقتم . ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم
كلكم ، فبأى شيء علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهيج لمن عسى أن
يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

الوجه السادس : ما في (لباب التأويل) من أنه قيل في معنى الآية : أنهم كانوا يقولون
الحق بهذه الكلمة - وهو قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) - إلا أنهم كانوا يعدونه
عذراً لأنفسهم ، ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان . والرد عليهم في ذلك : أن أمر الله
يتمزج عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مرید لجميع الكائنات غير أمرٍ بجميع ما يريد ،
فعلَى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحدٍ
عليه في فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعت
الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالخلاص : أنه

تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الوجه السابع : ما قرره الناصر في (الانتصاف) : إن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإن إثمهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسوله بذلك . فرد الله قولهم وكذبهم في دعوائهم - عدم الاختيار لأنفسهم - وشبههم بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال . فكذب الرسل ، وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ، ورام إخماد الرسل بهذه الشبهة . ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وأن الحجة البالغة لا لهم ، بقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته ، وإنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) . والقصود من ذلك : أن يتمحض وجه الرد عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد ؛ وينصرف الرد إلى دعوائهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبرّت هذه وجدها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة . بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ (المجبرة) . والرخشريّ يقال في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية . فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة . وجماع الرد على المجبرة - الذين ميزناهم عن أهل السنة - في قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... - إلى قوله - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . وتتممة الآية ردّ صراح على (طائفة الاعتزال) القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم ! ووجه الرد : أن (لو) إذا دخلت على فعل

مثبت نفعه ؛ فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم . ولو شاءها لو قمت . فهذا تصريح بيطلاق زعمهم وعمل عقدهم . فإذا ثبت اشتغال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين - المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها - فاعلم أنها جامعة لمقيدة السنة منطبقة عليها . فإن أولها - كما بينا - يثبت للعبد اختياراً وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والمصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، خيراً أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم - كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة - يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتها قاطع لحجته ، ملازم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده . فهم - كما رأيت - تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالمقل والنقل ، والله الموفق . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقدر . فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... - إلى قوله - فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١) .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسيّ "المعتزلي" : لو كان الأمر على ما قاله أهل الجبر - من أن الله تعالى شاء منهم الكفر - لكانت الحجة للكفار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هي امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجة لله عليهم على قولهم ، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأى حجة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

وكذا قول الزنجشريّ : ما حكى عن المشركين كذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير : نعم ! هو كمذهبهم في كون كلّ كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجون بذلك على حقيقة

الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة لمشيئة التي تساوى معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأن كل ما هو مراد لله فهو ليس بمعصية منهي عنها . والمجبرة - وإن اعتقدوا أن الكل بمشيئة الله - لكنهم يعتقدون أن الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويمفون عن بعضها بحكم الوعد . فهم - في ذلك - يصدقون الله فيما دل عليه العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجري في ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذبونه في حقوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيم الدمشقي رحمه الله تعالى في كتابه (طريق الهجرتين) بعد أن أطل في سرد أحاديث القدر وآثاره ، ما نصّه :
فالجواب أن ههنا مقامين : مقام إيمان وهدى ونجاة ، ومقام ضلال وردى وهلاك ، زلت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة ، فمقام إثبات القدر والإيمان به ، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاء الناس . وهذه الآثار - التي كلها تحقق هذا المقام - تبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسوله .

وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك ! إياك ! أن تبتل بالماء

ويقول قائلهم :

دعاني وسدّ الباب دوني . فهل إلى دخولي سبيلٌ ؟ يَبْنُوا لِي قِصَّتِي
ثم ساق - رحمه الله - قصصاً غريبة في ذلك ، ثم قال :
وسمّعت - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - يقول :

القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر
وهم (القدرية الجوسية) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثَرَ كُنَّا
وهم (القدرية المشركية) . والمحاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية
الإبليسية) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : بِمَا أَعُوذُ بِكَ (١)
ولم يعترف بالذنب ويؤثر به كما اعترف به آدم . فن أقرّ بالذنب وبَاءَ به ونَزَّهَ ربه فقد أشبه أباه
آدم . ومن أشبه أباه فظالم . ومن برأ نفسه واحتجّ على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس . ولا ريب
أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نفّوه تنزيهاً للرب
وتعظيماً له أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه وبما قب . ونَزَّهَ هو أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد
فيه البتة . بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه .. ونحو ذلك . كما يحكي عن بعض الجبرية
إنه حضر مجلس بعض الولاة . فأتى بطرار (هو الذي يقطع الهامين أو الأحكام ويستل ما فيها)
أحول . فقال له الوالي : ما ترى فيه ؟ فقال : اضربه خمسة عشر - يعني سوطاً - فقال له
بعض الحاضرين - ممن ينفي الجبر - بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطاً : خمسة عشر لطره
ومثلها لحوله . فقال الجبري : كيف يضرب على الحول ولا صنع له فيه ؟ فقال : كما يضرب
على الطرّ ولا صنع له فيه ، عندك ... فُبِهُتَ الجبري .

(١) [٧ / الأعراف / ١٦] ونصها : قَالَ فَبِمَا أَعُوذُ بِكَ لَا أَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ .

و [١٥ / الحجر / ٣٩] ونصها : قَالَ رَبِّ بِمَا أَعُوذُ بِكَ لَا زَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَا أَعُوذُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ .

وأما (القدرية الإبليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسوله، لا يقرّ بأمر ولا نهى، وتلك وراثه عن شيوخه الذين قال الله فيهم: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ... (١) الآية، وقال (٢) تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وقال تعالى (٣): وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، وقال (٤): وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .
فهذه أربعة مواضع في القرآن، بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسول .

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين: (فرقة) كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد، بعد هذا، يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً! و(فرقة) صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على مالا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده. إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا:

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

(٤) [٣٦ / يس / ٤٧] .

هذه المقالة - التي حكاها الله عنهم - استهزاء منهم ، ولو قالوا - اعتقاداً للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته - لم ينكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إن هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد - لا على جهة الاستهزاء - فيكون للمشركين على الله الحجة ؛ وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها في إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة . إذ لو صحت المشيئة العامة - وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان - لكانوا قد قالوا الحق ، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم . فحيث وصفهم بالخرص - الذي هو الكذب - ونفى عنهم العلم ، دلّ على أن هذا الذي قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ؛ إذ لو كان علماً لكانوا صادقين في الإخبار به ، ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون في ملكه مالا يشاء ، وبشاء مالا يكون ، وإنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائكة ، ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقدر أن يضلّ أحداً ، ولا يهديه ، ولا يوقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والكفر ، ولا يلهمه رشدَه ، ولا يجعل في قلبه الإيمان ، ولا هو الذي جعل المصلّي مصلياً والبرّ برّاً والفاجر فاجراً والمؤمن مؤمناً والكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التي قبلها في إلقاء الحرب والمداوة بين الشرع والقدر . فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تحيزت إلى الشرع ، وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضلّ من الأخرى .

و (الفرقة الثالثة) : آمنت بالقضاء والقدر وأقرّت بالأمر والنهي . ونزلوا كل واحدٍ منزله : فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يُحتجّ به ، والأمر والنهي يُمتثل ويُطاع . فالإيمان بالقضاء والقدر - عندهم - من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله . والقيام بالأمر

واللهي موجب شهادة أن محمداً رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر ، ويقم بالأمر
واللهي فقد كذب بالشهادتين وإن نطق بهما بلسانه . ثم اختلفوا في وجه هذه الآيات فرقتين :
(فرقة) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه
ومحبته لذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له ، دليلاً على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرهه وأبغضه
لحال بينه وبينهم . فإن الحكيم إذا كان قادراً على دفع ما يكرهه ويبغضه ، دفعه ومنع من
وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه ، لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع في حق
الله . فلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

وقد وافق هؤلاء من قال : إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها . ولكن
خالفهم في أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم في نصف قولهم وخالفهم
في الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأن مشيئة الله تعالى العامة
وقضائه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ما شاء وقدره .

وهؤلاء الشركون - لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه - كذبهم وأنكر عليهم ، وأخبر
أنه لا علم لهم بذلك ، وأنهم خارصون مفترون . فإن محبة الله للشيء ورضاه به ، إنما يعلم بأمره به
على لسان رسوله ، لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده - وهم أعداؤه - وهو سبحانه
يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ... فهكذا في الأفعال . خلق خيراً وشراً وهو يحب خيراً
ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شراً وينهى عنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . والله الحكمة
البالغة التامة في خلقه ما يبغضه ويكرهه ، من الذوات والصفات والأفعال ، كل ما صادر عن
حكيمته وعلمه ، كما هو صادر عن قدرته ومشيئته ...

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ، ودفع الأمر بالمشيئة .
فلمّا قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر

إبطالاً لدعوة الرسل ، ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم في ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصي والذنوب في نصف أقوالهم ، وخالفوهم في النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهي .

فانظر كيف انقسمت هذه الموارث على هذه السهام ، وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما في جميع تركتهم ، وإما في كثير منها ، وإما في جزء منها . وهدى الله بفضلهم ورثة أنبيائه ورسله ليراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيتته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً والمصلح مصلحاً والتقي متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره ، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدي من يشاء بقضله ورحمته ، ويضل من يشاء ببدله وحكمته ، وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخلدناهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم - فإنه يحول بين المرء وقلبه - فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

و (القضاء والقدر) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى - علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية - كتابة ذلك في الذكركر عنده قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة - مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لسكائن عن مشيئته ، كما لا خروج

له عن علمه .

الرابعة - خلقه له وإيجاده وتكوينه . فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شيء .

فالخالق - عندهم - واحد وما سواه فخالق . ولا واسطة - عندهم - بين الخالق والمخلوق . ويؤمنون - مع ذلك - بحكمته ، وأنه حكيم في كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره - كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها - بل هي أمر وراء ذلك ، وهي الغاية المحبوبة له المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأمات وأحيى ، وأشقى وأصلّ وهدى ، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هي الغاية والفعل وسيلة إليها ، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفي للغايات ، وهو محال ، إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة . فنفي الوسيلة - وهي الفعل - لازم لنفي الغاية وهي الحكمة . ونفي قيام الفعل والحكمة به نفى لهما في الحقيقة ؛ إذ فعل لا يقوم بفاعله ، وحكمة لا تقوم بالحكيم - شئ لا يعقل . وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته . وهذا لازم لنفي ذلك ولا يحيد له عنه ، وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل ، لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائنًا ما كان .

والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم - لسكمال ميراثهم لنبيهم - آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره ، وقاموا - مع ذلك - بالأمر والنهي ، وصدقوا بالوعد والوعيد : فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة . وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ؛ فصدقوا بالخلق والأمر ولم ينفوها بنفي لوازمهما - كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر - وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبية في هذا الميراث النبوي ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة ، لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق

ولبّ العالم ، وليس الشأن في الإيمان بالآفاظ هذه المسميات وجحد حقائنها كما يفعل كثير من طوائف الضلال... فإن القدرية تؤمن بلفظ (القدر) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينيّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك (الحكمة) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهي - عندهم - وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته ... والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته، كما قالوا في كلامه وإرادته . فمؤولاء كلهم أقروا بلفظ (الحكمة) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك (الأمر) و (الشرع) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبعض شيئاً ، وجميع الكائنات محبوبة له ، ومالم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغيض . ولا فرق في نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجور والسجود للأصنام والشمس والقمر . ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهي بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونفقه ، وهم غلاتهم

الذين كفرهم الساف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيراً ، كقوله : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ أَدْنَى حَكِيمٍ عَلِيمٍ^(١) ، وقال : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٢) ، وقال : حَمْدٌ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ^(٣) ، وقال في (حَمْدُ فَصَلَتْ ، بعد ذكر تخليق العالم) : ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٤) ، وذكر نظير هذا في (الأنعام) فقال : فَأَلْقِ الْأَصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٥) . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضى أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضى إحاطته به وتقدمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضى وقوعه على أكل الوجوه وأحسنها ، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقهم وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا ، كان (الحكيم) من أسمائه الحسنى . فالحكمة من صفاته العلى ، والشرعية الصادرة عن أمره مبناه على الحكمة ، والرسول

(١) [٢٧ / النمل / ٦] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٢] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ

فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَافِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(٥) [٦ / الأنعام / ٩٦] .

المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هي سنة الرسول ، وهي تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفي الأثر ^(١) : الحكمة ضالة المؤمن . وفي الحديث ^(٢) : إنّ من الشمر حكمة . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيتته ، فكذا لا يخرج عن حكمته وحمده . وهو محمود على جميع ما في السكون من خيرٍ وشرٍّ حمداً استحقه لذاته ، وصدر عنه خلقه وأمره . فصدر ذلك كله عن الحكمة . فإنكار الحكمة إنكار لحمد في الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في خلال بعض فتاويه ، في حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء في توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لما أنكروا ما بعث به الرسل من الأمر والنهي ، وأنكروا التوحيد - الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له - وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء ، ما بقي عندهم من فرق ، من جهة الله تعالى ، بين مأمور ومحظور فقالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، وهذا حقّ . فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أئى فائدة لهم في هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدراً أن يكون

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٩ - كتاب العلم ، ١٩ - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها ، فهو أحق بها » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٠ - باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، حديث ٢٣٥٣ ، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال « إن من الشعر حكمة » .

محبوباً مرضياً لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضىه ، بل ليسوا في ذلك إلا على ظنٍّ وخرص . انتهى .

وقال بعض المحققين في حقيقة العقيدة :

ثبت بالبرهان أن قدرة الله تعالى متصرفة في الممكنات عن إرادة واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كل شيء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التي اقتضتها الحكمة والنظام وجود مخلوق ذي قدرة وإرادة وعلم ، يعمل بقدرته ما تنبث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه ، وهو الإنسان . وهذا - عند البعض - هو معنى كونه خليفة الله في الأرض بعمرها وبظهر حكمة الله وبدائع أسرارها فيها ، وقيم سننه الحكمية حتى يعرف كماله بعمره كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آنآ بعد آن ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلا الله تعالى . والمشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوى (في بيان أن كل نبي خليفة) : استخلفهم في عمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم - لا الحاجة به تعالى إلى من ينوبه - بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال : **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا** ^(١) . انتهى .

وكذلك إذا قلنا : إن كل النوع خليفة في العوالم الأرضية .

فعلم من كل من القولين ؛ أن في الإنسان معنى ليس في غيره . فإذا كانت خلقه المَلَك لا تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكل واحد التلقى منه ، فكذلك لا تساعد خلقته . وليس من وظيفتها ، إظهار خواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع

(١) [٦ / الأنعام / ٩] . . . وَلَلْبَشَرِ عَلَىٰ مَا يَلْبِسُونَ .

بها . ولو كان إيجاد مخلوق - على ما ذكرنا في خلق الإنسان - غير ممكن لما وجد . ولا ينكر كونه على ما ذكرنا إلا من ينكر الحس والوجدان ، وهما أصل كل برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطلب منه التصديق بشيء ما .

إذن ، معنا قضيتان قطعيتا الثبوت :

(إحداها) : كون الإنسان يعمل بقدرته وإرادة يبعثها علمه على الفعل أو الترك والكف ، وهي بديهية .

و (الثانية) : هي أن الله هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهي نظرية . ويتولد من هاتين القضيتين القطعيتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟ والجواب من وجوه :

(أحدها) : أن صفات الله قديمة بقدمه فهي ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة بمحدوثه وهي موهوبة له من الله تعالى كذاته .

(ثانيها) : أن علم الله محيط بكل شيء^(١) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وأما الإنسان فما أوتي من العلم^(٢) إلا قليلا وإرادة الله تعالى لا تتغير ولا تقبل الفسخ لأنها عن علم تام . بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردده في العلم بالشئ . وتفسخ لظهور الخطأ في العلم الذي بنيت عليه . وتتجدد لتجدد علم لم يكن له من قبل . وقدره الله تعالى متصرف في كل ممكن . فيفعل كل ما يعلم أن فيه الحكمة . وقدره الإنسان لا تصرف لها ولا كسب إلا في أقل القليل من الممكنات .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٤) يشير إلى قوله تعالى [١٧ / الإسراء / ٨٥] وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعة له وهو لا يقدر على القيام به .
(نالتها) : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنها
أزلية .

وبالجملة : إن المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنما هي في الاسم ، لا في
الجنس كما زعم بعضهم ، فبطل زعم من قال : إن إثبات كون الأفعال التي تصدر من الإنسان
هي بقدرته وإرادته - يقتضى أن يكون شريكاً لله تعالى ^(١) . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ .

المسألة الثانية : - وهي عضلة العقد ومحك المنتقد - أن القضاء عبارة عن تعلق علم الله تعالى
أو إرادته في الأزل ؛ بأن الشيء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر
وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق في الأزل .

ومن الأشياء التي يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق
القضاء المبرم - بأن زيدا يعيش كافراً ويموت كافراً - فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس في
طاقته ؟ ولا يمكن في الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه . لأنه في الحقيقة مجبور على الكفر في
صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافي أن يفعله
باختيار ، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطراً حركة الرتمش مثلاً . ولكن أفعال العباد الاختيارية
قد سبق في القضاء بأنها تقع اختيارية ، أي : بإرادة فاعليها لا رغماً عنهم . وبهذا صح التكليف
ولم يكن التشريع عبثاً ولا لغواً .

وتم وجه آخر في الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلاً يفعل كذا ،
يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبوراً على فعله ، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

أفعاله كلها . لأن العلم الأزليّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لا بد من وقوعه .

فتبين - بهذا - أن الجبرية ومن تلا تلوههم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطّلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله وليكنهم ما قدره حقّ قدره ، ولا فقهوا سرّ نهيه وأمره ، حيث جرّوا الجهال على التنصل من تبعمة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان . فيأعجبهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء ، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته ، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقاده بأن الله عليم بما يسر ويعلن ، ويظهر ويخفي ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى ^(٢) ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وأما الذين ضلوا السبيل ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ

عن الإيمان والإسلام والإحسان ، الحديث رقم ٤٦ ونصه :

عن أبي هريرة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بارزاً يومًا للناس . فأتاه جبريل

فقال : ما الإيمان ؟

قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » .

قال : ما الإسلام ؟

قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم

رمضان » .

قال : ما الإحسان ؟

واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عز وجل .
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية . فانظر كيف رماهم العليم
الحكيم بالجهل ، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .
وفي هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه ، والله عليم حكيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (قُلْ هَلْ سَأَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدُ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ هَلْ سَأَدَاءُكُمْ » أى : أحضروهم « الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ
هَذَا » يعنى ماتقولون من الأنعام والحرث . والمراد (شهادتهم) قدوتهم الذين ينصرون قولهم .
وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم ،

= قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : متى الساعة ؟

قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراتها : إذا ولدت الأمة
ربها . وإذا تناول رعاة الإبل البهْم في البنيان . في خمس لا يعلمهنّ إلا الله » .
ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية .
ثم أدبر .

فقال « ردوه » .

فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

كن يقدّم فيحق الحق ويبطل الباطل « فَإِنْ شَهِدُوا » أى: بعد حضورهم بأن الله حرم هذا « فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ » أى: فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لما علمت من اقترائهم على الله ومشيتهم مع أهويتهم .

وفى (العناية) : (فَلَا تَشْهَدْ) استعارة تسمية . وقيل مجاز مرسل ، من ذكر اللزوم وإرادة اللزوم . لأن الشهادة من لوازم التسليم . وقيل كناية . وقيل مشاكلة . « وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، أى سوى به الأصنام ، فهو متبع للهوى لا غير . لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات ، موحداً لله تعالى .

ولما بين تعالى فساد ما ادعوا من أن إشرائهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه ، بأمر الله ومشيتهم ، بظهور عجزهم عن إبراز ما يتمسك به في ذلك ، وإحضار شهداء يشهدون بذلك ، بعد ما كلفوه مراراً - أمر الرسول بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فقال تعالى « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » من الأوثان « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » أى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً . قال الحاكم :

والإحسان ما يخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا فوله تعالى : وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا^(١) . ولما كان إيجاب الإحسان تحريمًا لترك الإحسان ، ذكر في المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا - أعنى وضع (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) موضع (النهي عن الإساءة إليهما) - المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف في قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرها . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من أجل فقر ، ومن خشيته . والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية . فهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَائُهُمْ » لأن رزق العبيد على مولاهم « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ » يعنى : الزنى لقوله : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً^(٢) ؛ وإنما جئ بصيغة الجمع قصدًا إلى النهي عن أنواعه أو مبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر منه « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » يعنى : علانيته وسره « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها لإيمانها أو أمانها « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالعدل . يعنى بالقود والرجم والارتداد « ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ » تطفأ ورأفة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يعنى : لتعقلوا عظماء عند الله تعالى فتكفوا عن مباشرتها .

قال (المهايى) : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما في الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما في الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة ، وقربان الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى (مِنْ إِمْلَاقٍ) خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشى الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال (الحاكم) : فيدخل في ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام (يحيى) : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفي (الأحكام) يجب على من انقطع حيضها أن توق من الأدوية ما يخاف على الجنين منها ، إذا كانت من ذوات البمول . وفي قوله تعالى (ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ) تأكيد للزوم ما تقدم . انتهى .

لطيفة :

قال القاشاني : لما كان الكلام مع المشركين في تحريم الطيبات ، عدد المحرمات ليستدل بها على الحملات . فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهي عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي أشرفها . فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخوها من القوتين البهيمية والسبعية . فقال (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إذ الشرك من خطئها في النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تنلو معرفة الله في الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي إيجاده وربوبيته . ولهذا قال (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فمقوقهما يلي الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق ، وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر ، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجل . فأولاها لا تقع إلا من خطئها في معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها في معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا

يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛
وهذه الحجب أم الرذائل وأساسها . ثم بين رذيلة القوة الهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم
فقال : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ) . الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِمَهْدِ اللَّهِ آوَفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)
وقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » أى : بوجه من الوجوه « إِلَّا بِالَّتِي » أى :
بالخصلة التى « هِيَ أَحْسَنُ » يعنى أنفع له . كتميره أو حفظه أو أخذه قرضاً . لا بأكله ،
وإنفاقه فى مآربكم وإتلافه ، فإنه أخش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لولى اليتيم أو وصيه
فى قوله تعالى فى سورة النساء (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)^(١) وقد روى
(أبو داود)^(٢) عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ . الآية ، وإن

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ،
وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٧ - باب غلظة اليتيم فى الطعام ،

حديث ٢٨٧١ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى...^(١) الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُهُ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)^(٢) فخالطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره . فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماء ومقدمته ، وأمر بتنميته . « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أى قوته التى يقدر بها على حفظه واستنائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي ، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما في قوله تعالى : فَإِنْ عَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . والأشد جمع (شدة) كنعمة وأنعم ، أو شد ككلب وأكلب ، أو شد كصر وأصر . وقيل هو مفرد كأنك « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل والتسوية فى الأخذ والإعطاء . وقد توعد تعالى على تركه فى قوله^(٣) : وَيَلِلْ الْمُطْفَفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال . روى الترمذى^(٤)

عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لأصحاب الكيل والميزان) : إنكم

(١) [٤ / النساء / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ

مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٨٣ / المطففين / ١-٦] .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ١٢ - كتاب البيوع ، ٩ - باب ما جاء فى المكيال والميزان .

وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم . ثم ضعفه وصحح وقفه على ابن عباس . وروى نحوه ابن مردويه مرفوعاً ، ولفظه : إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بنحلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : الكيال والميزان .

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا » أى : عند الكيل والوزن « إِلَّا وُسْعَهَا » أى : جهدها بالعدل . وهذا الاعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحد من القسط ، الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، مما يجرى فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر بيلوغ الوسع ، وأن الذى ما وراءه معفو عنه . وقد روى ابن مردويه عن سميد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ : (أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها) : من أوفى على يده فى الكيل والميزان ، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ .

قال ابن المسيب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا مرسل غريب .

وفى (العناية) : يحتمل رجوع قوله تعالى (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلى ما تقدم .

أى جميع ما كلفناكم ممكن ، ونحن لا نكلف ما لا يطاق . انتهى . والأول أولى .

« وَإِذَا قُلْتُمْ » أى : فى حكومة أو شهادة ونحوها « فَأَعْدُوا » أى : فيها . أى : لا تقولوا إلا الحق « وَلَوْ كَانَ » أى : المقول له أو عليه « ذَا قُرْبَى » أى : ذا قرابة منكم . فلا تميلوا فى القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدُوا) أى اصدقوا فى مقاتلتكم .

قال : وهذه اللفظة من الأمور المعجبية فى عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمر كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل فى القول ، ولو كان القول له ذا قربى .

كقوله تعالى ^(١) : (وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ =

«وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» أى: ماعهد إليكم من الأمور المودودة، أو أى عهد كان. فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولياً . أو ماعاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور «ذَلِكُمْ» إشارة إلى ما ذكر في هذه الآيات «وَصَّاكُمْ بِهِ» أى أمركم بالعمل به في الكتاب «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أى تمعظون . وفي قوله تعالى (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ» يقرأ يفتح همزة (أَنْ) والتشديد. وعملها مع ما في حيزها الجرّ بحذف لام العلة . أى: ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأمر والنهى طريق ودينى الذى ارتضيته لعبادى قوياً لا اعوجاج فيه، فاعملوا به. وجوز أن يكون محلها مع ما في حيزها النصب على (ما حرم) أى: وأتلو عليكم أن هذا صراطى . وقرئ بكسر الهمزة على الاستثناف . «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» يعنى الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» أى: فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده . روى الإمام (أحمد)^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطباً ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه

= شُهداء لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٤١٤٢ (طبعة المعارف) .

سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا... الآية .
ورواه (الحاكم) وصححه .

لطائف

قال السكيا المراسي : في الآية دليل على منع النظر والرأى ، مع وجود النص .
قال ابن كثير : إنما وحّد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها
وتشعبها . كما قال تعالى ^(١) : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر أهل الملل وأهل
البدع والضلالات ، من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل
والخوض في الكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

قال قتادة : اعلموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس
استبدع سبلا متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصيرها إلى النار . وروى ^(٢) علي بن أبي طلحة عن
ابن عباس في هذه الآية وفي قوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ونحو هذا في القرآن ،
قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة . وأخبرهم أنه إنما هلك من كان
قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله .

« ذَلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل « وَصَّاكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أي اتباع سبل الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضا . روى ^(٣)
الترمذي وحسنه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول

(١) (٢ / البقرة / ٢٥٧) .

(٢) الأثر رقم ١٤١٦٦ من تفسير ابن جرير .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٧ - حدثنا

الفضل بن الصباح البغدادى .

الله ﷻ التي عليها خاتمته، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا - إِلَى قَوْلِهِ - لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب . ثم قرأ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآيات .

وروى الحاكم وصححه، وابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: أيكم يبأي على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) حتى فرغ من ثلاث آيات. ثم قال: ومن وفي بهن فأجره على الله. ومن انتقص منهن شيئاً، فأدركه الله في الدنيا، كانت عقوبته. ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

لطيفة :

قال النسفي : ذكر أولاً (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أي اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

« ثُمَّ آتَيْنَا » أى : أعطينا « مُوسَى الْكِتَابَ » يعنى التوراة « تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ » يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذِي) أى : تماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن . أى : على من كان محسناً صالحاً . يريد جنس المحسنين . وتدل عليه قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أى : تنمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به . أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشيء) إذا أجاد معرفته ، أى زيادة على علمه على وجه التتميم .

وعلى الأول ، ذ (تماماً) في موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لكونه في معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله (ءَاتَيْنَا) من معناه . لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أئتمنا النعمة إتماماً . ذ (تمام) بمعنى (إتمام) كنبات في قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . أو (أصله إيتاء تمام) . وعلى الوجه الثاني هو حال من الكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ) بالرفع أى : على الذى هو أحسن ، أو على الوجه الذى هو أحسن ما يكون عليه الكتب . ذ (تماماً) حال من الكتاب بمعنى (تماماً) أى حال كون الكتاب تاماً كائناً على أحسن ما يكون .

قال ابن جرير : هذه قراءة لا أستجيز القراءة بها . وإن كان في العربية لها وجه صحيح . « وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ » أى : وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين « وَهَدًى » لهم إلى ربهم في سلوك سبيله « وَرَحْمَةً » عليهم بإفاضة الفوائد « لَعَلَّهُمْ » أى : أهل الكتاب « يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ » يصدقون ببقائه للجزاء .

لطيفة :

قال السيوطى في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ ءَاتَيْنَا) مَنْ قَالَ إِنْ (ثُمَّ) لا تفيد الترتيب . انتهى .

قال ابن كثير و (ثُمَّ) ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وقال (أبو السعود) : و (ثُمَّ) للتراخي في الأخبار كما في قولك : بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس . أعجب . أو لل تفاوت في الرتبة كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً . ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة . فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى .

ثم أشار إلى أن التوراة ، وإن كانت تماماً على النهج الأحسن ، فالقرآن أتم منه وأزيد حسناً . فهو أولى بالمتابعة ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَهَذَا » أى : القرآن « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أكثر نفعا من التوراة ديناً ودنيا « فَاتَّبِعُوهُ » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام « وَاتَّقُوا » يعنى مخالفته واتباع غيره لكونه منسوخاً به « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : لترحموا بواسطة اتباعه ، وهو العمل بما فيه . وفيه إشارة إلى أنه لا رحمة بمتابعة المنسوخ وإن آمن صاحبها ببقاء ربه .

قال بعض الزيدية : وفي قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) دلالة على وجوب تعلم القرآن ليمكن الاتباع له . لكن هو كسائر العلوم فرض كفاية إلا ما يتعين على كل مكلف ، كتعلم ما لا تصح الصلاة إلا به ، فإنه يجب عليه . انتهى .

لطيفة :

قال ابن كثير : إنه تعالى كثيراً ما يقرن بين الكتابين كقوله : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا^(١) ، وقوله أول السورة : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى^(٢) ، ثم قال : وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية^(٣) ،

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْهَمْنَا فِئْتَانًا مِنْهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٩٢] ونصها : وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي =

وقوله تعالى خبراً عن المشركين : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى^(١) . وقوله تعالى خبراً عن الجن أنهم قالوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... الآية^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ

دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

« أَنْ تَقُولُوا » علة لـ (أُنْزِلْنَا) . أى : كراهة أن تقولوا يوم القيامة . أو لثلاث تقولوا « إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا » اليهود والنصارى « وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ » عن تلاوة كتابهم « لَغَافِلِينَ » لا علم لنا بشيء منها لأنها ليست بلفتنا . قال أبو السعود : ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافي عموم أحكامه . فلم يَلَمْ تَعْمَلُوا بأحكامه العامة ؟ والمعنى : وإن كنا لا ندرى ما فى كتابهم ، إذ لم يكن على لفتنا حتى نتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها ، وإن لم يكن منزلاً علينا . وبهذا تبين أن معذرتهم هذه ، مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتغالهما على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم ، كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتغاله أيضاً عليها ، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط . انتهى .

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨] ... أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٠] ... يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ » أى : كما أنزل عليهم « لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ »
 أى : إلى الحق وأسرع منهم إجابة للرسول لمزيد ذكائنا وجدانا في العمل « فَقَدْ جَاءَكُمْ » .
 قال أبو السعود : متعلق بمحذوف بنيء عنه الفاء الفصيحة ، إما ملل به ، أى : لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرط له . أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم ، فقد حصل ما فرضتم وجاءكم .
 « بَيِّنَةٌ » أى : كتاب حجة واضحة « مِنْ رَبِّكُمْ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أو بمحذوف صفة لـ (بَيِّنَةٌ) أى : بينة كائنة منه تعالى ، لا يتوهم فيه السحر « وَهُدًى » بإقامة الدلائل ورفع الشبه « وَرَحْمَةٌ » بإفاضة الفوائد وتسهيل طريقكم وتيسيرها إلى أشرف الكمالات « فَمَنْ أَظْلَمُ » . قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجيء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه . أى : وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ أَظْلَمُ « مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا » أى : صرَفَ الناس وصدَّهم عنها . فجمع بين الضلال والإضلال . والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له « سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ » الناس « عَنْ آيَاتِنَا » أى : التي لو لم يصدفوا عنها لعرفوا إعجازها « سُوءَ الْعَذَابِ » أى : العذاب السيئ « بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » وهذا كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ » يعنى قد أقمنا حجج الوحداية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يمتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟

قال البيضاوى : يعنى أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين . « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله تعالى (١) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، بِمَا فِيهِ كَفَايَةٌ . ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيف ، كما مرّ مراراً .

قيل : إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أى : ملائكة الموت لقبض أرواحهم « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ » وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من ذلك . كما روى البخارى (٢) فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن

(١) [٢ / البقرة / ٢١٠] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٩ - باب قوله : هَلْ يَنْظُرُونَ شُهَدَاءُكُمْ .

من عليها . فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً^(١) ،
ولمسلم^(٢) والترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً
إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ،
والدجال ، ودابة الأرض . « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ
ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ » صفة (نَفْسًا) « أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا » عطف على (ءَامَنَتْ)
والعنى أن بعض أشراف الساعة إذا جاء ، وهى آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف
عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات . أو مقدّمة الإيمان
غير كاسبة في إيمانها خيراً لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدى .

قال الطبرى : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمناً قبل الطلوع ، إيماناً بعد الطلوع .
ولا ينفع مؤمناً لم يكن عملاً صالحاً قبل الطلوع ، عملاً صالحاً بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان
والعمل الصالح حينئذ ، حكم من آمن أو عمل عند الفرقة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى :
فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا^(٣) . وكما ثبت في الحديث الصحيح^(٤) : إن الله
يقبل توبة العبد ما لم يفرغر . انتهى .

وبالجملة : فالعنى أنه لا ينفع من كان مشركاً بإيمانه . ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور
هذه الآية العظيمة التى تضطرمهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٨ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ (طبعنا) .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] . . . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْكَافِرُونَ .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب فى فضل التوبة والاستغفار
وما ذكر من رحمة الله لعباده ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنها حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمآنتهم الأهوال والشدائد ، التي تضطرم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم) ^(١) عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى (الترمذى) ^(٢) وصححه

(١) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٢

(طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب في فضل التوبة

والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ونصه :

عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي أسأله المسح على الخفين . فقال : ما جاء بك يا زر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب . فقلت : إنه حاك في صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرأة من أصحاب النبي ﷺ . فبحث أسألك : هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا سَفَرًا (أو مسافرين) أن لا نزرع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنّ إلا من جنابة . لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا =

عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله ﷺ : بابٌ من قبَل المغرب مسيرة عرضة (أو قال يسير الراكب في عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه . ولأبي داود^(١) والنسائي من حديث معاوية رفعه : لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

قال ابن حجر : سنده جيد . وأخرجه أحمد^(٢) والدارمي^(٣) وعبد بن حميد من حديثه أيضاً

= مع النبي ﷺ في سفر ، فبينما نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » .

وقلنا له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ ، وقد نهيت عن هذا . فقال : والله ، لا أغضض . قال الأعرابي : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبي ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قبَل المغرب مسيرة سبعين عاماً ، عرضه (أو يسير الراكب في عرضه) أربعين أو سبعين عاماً .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام . خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً . (يعني للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢ - باب في الهجرة هل انقطعت ؟

حديث رقم ٢٤٧٩ ونصه :

عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة .

ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

ونصه كما جاء في أبي داود .

(٣) أخرجه الدارمي في : ١٧ - كتاب السير ، ٧٠ - باب إن الهجرة لا تنقطع .

بلفظ : لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي : أن رسول الله ﷺ قال : لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقا تل . فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ﷺ قال : إن الهجرة خصلتان : إحداها أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله . ولا تنقطع ما تُقْبَلَتِ التوبة . ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب . فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه ، وكُفِيَ الناسُ العمل . قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة .

وَهُنَا مَسَائِلُ

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما في حديث الصحيحين^(١) السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم^(٢) : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها ... الحديث . وفي ثبوت ذلك بخروج الدجال نظر . لأن نزول عيسى ﷺ بعده . وفي زمنه خير كثير دنيوى وأخروى . فالإيمان مقبول وقتئذ . لأننا نقول : لا منافاة . وذلك لأن (البعض) في الآية ، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول ، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المعتبرين في الحديث ، لأنه أعظمها . كذا في (العناية) .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبي ﷺ بتخصيص مانع القبول بالطلوع ، في الحديث الصحيح ، لم يجز العدول عنه ، وتعين أنه معنى الآية . انتهى .

وقال القاضى عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها . والحكمة في ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوى . فإذا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٧٧ و ٢٥٧٨ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٧٨ .

شاهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمآينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند الفراغة . وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

الثانية : قال السيوطي في (الإكليل) : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . ففي الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل ، إيمانها حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيراً قبل ، توبتها حينئذ .

وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى في الآية إنه إذا أتى بعض الآيات لا ينفع نفساً كافراً ، إيمانها الذي أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب فيه خيراً . فقد علق نفي نفع الإيمان بأحد وصفين : إما نفي سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه مع نفي كسب الخير . ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده ، وكذا السابق ومعه الخير . ومفهوم الصفة قوى فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ، دليلاً عليهم .

وأجاب ابن النير في (الانتصاف) فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف) وأصله : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبل ، إيمانها بعد . ولا نفساً لم تكسب خيراً قبل ، ما تكسبه من الخير بعد ، فلف الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً إيجازاً . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهي بالرد على المعتزلة أولى من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب في (أماليه) : الإيمان قبل مجيء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره ، ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح ، لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر العلم .

وقل الطيبي كلام الأئمة في ذلك . ثم قال : المعتمد ما قال ابن النير وابن الحاجب . وبسطه :

أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ . .)^(١) الآية ، علل الإنزال بقوله (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ)^(٢) الخ إزالة للعدو وإلزاماً للحجة . وعقبه بقوله (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ) الخ تبكيتهما لهم وتقريرا لما سبق من طلب الاتباع . ثم قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ . .) الآية أى أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهدايا إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق ، ليجملوه زادا لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح . فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال (هَلْ يَنْظُرُونَ ...) الآية . أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذى يستأصل شأفتهم . كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها . فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شيء مما كان ينفعهم من قبل ، من الإيمان . وكذا العمل الصالح مع الإيمان . فسكانه قيل : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح في إيمانها حينئذ ، إذا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً من قبل . ففي الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى^(٣) : وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً .

قال : فهذا الذى عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام في البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك ، إيمانها من بعد ذلك ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٥] ... وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦] ... عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ

لَعَا فِلِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٧٢] ونصها : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، ...

ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة، لكن لم تعمل في إيمانها عملاً صالحاً قبل ذلك، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك. قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أى : لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة . وإن كان ماسبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه في الجملة .

ثم قال الطيبي : وقد ظفرت ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنى ولفظاً . من غير إفراط ولا تفريط . وهى : قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ... (١)

الآية . فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شيء أصلاً . والله أعلم . انتهى ملخصاً .
الثالثة : قال في (الوجيز) في قوله تعالى (أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ) أى لفصل القضاء بين خلقه . وإتيانه يؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

وفي حواشى (جامع البيان) : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعالى يوم القيامة ، وقد جاء في القرآن في عدة مواضع : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ (٢) . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٣) . إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (٤) ، وأى أمر أصرح منه في القرآن ؟

(١) [٧ / الأعراف / ٥٣ و ٥٢] ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [١٦ / النحل / ٣٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ

أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وروى الطبري^(١) في (تفسيره) عن ابن عباس مرفوعاً : إن في الغمام طاقات يأتي الله فيها، محفوفاً . وذلك قوله^(٢) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .

قال عكرمة : والملائكة حوله ، فهذا من صفات الله تعالى . يجب علينا الإيمان بظواهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى « قُلْ أَنْتَظِرُوا » أي : قل لهؤلاء الكافرين ، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي شيء تنتظرون . « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أي لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة . ثم بين تعالى أحوال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أي : اختلفوا فيه ، مع وحدته في نفسه ، فجعلوه أهواء متفرقة « وَكَانُوا شِيَعًا » أي : فرقا تشيع كل فرقة إماما لها بحسب غلبة تلك الأهواء . فلم يتعبدوا إلا بآبادات وبدع ، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع « لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أي : من عقابهم . أو أنت بري منهم محمي الجنب عن مذاهبهم . أو المعنى : أتركهم فإن لهم ما لهم . وقال القاشاني : أي : لست من هدايتهم إلى التوحيد في شيء . إذ هم أهل التفرقة

(١) الأثر رقم ٤٠٣٨

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

لا يجتمع همهم ولا يتحد قصدهم « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ » أى : فى جزاء تفرقهم ومكافأتهم ، لا إليك « ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ » يعنى إذا وردوا يوم القيامة « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى : من السيئات والتفرقة ، لتأبئة الأهواء . ويجازيهم على ذلك بما يماثل أفعالهم .

تنبيه :

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدى : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . وروى العوفى عن ابن عباس فى الآية ؛ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتنفروا . وحمل بعضهم الآية على أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة . وآخر على الخوارج . وأسندوا فى ذلك حديثاً رفعوه .

قال ابن كثير : وإسناد ذلك لا يصح . ثم قال : والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أى فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...) (١) الآية . وفى الحديث (٢) نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ديننا واحد . فهذا هو الصراط المستقيم ،

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ . باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أنا أولى الناس بابن مريم . والأنبياء أولاد علات . ليس بينى وبينه نبي » .

وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر. وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء. والرسل براء منها كما قال الله تعالى : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ؛ ثم قال : وقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَتَوْا إِنْ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(١) الآية. انتهى . وقد أخرج أبو داود ^(٢) عن معاوية قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً . وَإِنْ هَذِهِ الْمِلَّةُ سَتَفْتَرِقَ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ . ثَلَاثَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ . ورواه الترمذی عن عبد الله بن عمرو ، وفيه : قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي .

ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » أي جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » يعني عشر حسنات أمثالها في الحسن .

قال (المهايي) : كمن أهدى إلى سلطان عنقود غناب يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١ - باب شرح السنة ، حديث

العنقود. انتهى . والعشر أقل ما وعد من الأضعاف. وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ » أى بالأعمال السيئة « فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » في القبح .

قال المهايى : فمن كفر خلد في النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .
« وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى : بنقص الثواب وزيادة العقاب .

لطيفة :

قال القاشانى في قوله تعالى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذى يتلو مقام النفس في الارتقاء، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد . وأما في السيئة فلا أنه لا مقام أدون من مقام النفس . فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه في مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنور استمداده ويزداد قبوله لفيض الحق . فيتقوى على أضعاف ما فعل ويكتسب به أجوراً متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لا يعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ^(١) . وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضى المساواة . ومن فعل بالنفس ، إذا لم يعف عنه ، يجازى بالنفس سواء . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تنبيه :

وردت أحاديث كثيرة في معنى الآية . فروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يروى عن ربه تعالى : إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالك . ورواه البخاري^(٢) ومسلم^(٣) والنسائي . وروى الإمام أحمد^(٤) ومسلم^(٥) عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدَ . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر . ومن تقرب مني

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٥١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣١ - باب من هم بحسنة أو سيئة ،

حديث ٢٤٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٢

(طبعتنا) ونصه بالكامل :

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها ، أو أغفر . ومن تقرب مني شبرًا ، تقربت منه ذراعًا . ومن تقرب مني ذراعًا ، تقربت منه باعًا . ومن أتاني يمشي ، أتيته هرولة . ومن لقيني بقراب الأرض (قراب الأرض ما يقارب ملأها) خطيئة ، لا يشرك بي شيئًا ، لقيته بمثلها مغفرة » .

شبراً تقربت منه ذراعاً . ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أثيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة . وروى الشيخان^(١) عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجل فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة . لفظ البخارى . وروى الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وروى^(٢) الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله . ورواه النسائى والترمذى وزاد : فأُزِلَ الله تصديق ذلك فى كتابه : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، اليوم بعشرة أيام .

وبقيت أخبار آخر . وفيها ذكر كفاية .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر أولئك المفرقين دينهم بما أنعم سبحانه عليه ، من إرشاده إلى دينه القويم بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٥ - باب قول الله تعالى : يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، حديث ٢٦٠١ .

وأخرج فى معناه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده المخلصين « دِينًا » نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هداني صراطاً. بدليل قوله (وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ^(١) أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى عرفني دِينًا . أو مفعول (هداني) . و (هدى) يتعدى إلى اثنين « قِيمًا » صفة (دِينًا) يقرأ بالتشديد أى : ثابتاً أبداً لا تغيره الملل والنحل ، ولا تنسخه الشرائع والكتب ، مقوماً لأمر المعاش والمعاد . ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به . وأصله قَوْمٌ كَعَوْض . فَأَعْلَلْ لِعَالِ فَعْلُهُ كالتقيام . « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » المتفق على صحتها وهى التى أعرض بها عن كل ما سواه تعالى . عطف بيان لـ (دِينًا) « حَنِيفًا » حال من (إِبْرَاهِيمَ) أى مائلاً عن كل دين وطريق باطل ، فيه شركٌ ما ، وقوله تعالى « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل . أى ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً . صرح بذلك ردّاً على الذين يدعون أنهم على ملته من مشركى مكة واليهود والنصارى . أفاده أبو السمود .

تنبية :

قال ابن كثير : هذه الآية كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ^(٢) وليس يلزم من كونه أمرًا باتباع ملة إبراهيم الحنيفية ،

(١) [٤ / النساء / ١٧٥] ونصها : فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

أن يكون إبراهيم أكل منه فيها . لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال . ولهذا قال : أنا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق ، حتى الخليل عليه السلام . وروى ابن مردويه عن ابن أبيزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . وروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال قيل لرسول الله ﷺ : أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفية السمحة . وروى الإمام أحمد^(٢) عن عائشة قالت : وضع رسول الله ﷺ ذنبيه على منكبيه لأنظر إلى زفن الحبشة . حتى كنت التى مللت ، فانصرفت عنهم . وقالت عائشة : قال لى رسول الله ﷺ يومئذ : ليعلم يهود أن فى ديننا فسحة . إني أرسلت بحنيفية سمحة . وأعيد الأمر فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنْ صَلَاتِي » لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع ، وما سبق بأصولها . أى : إن صلاتى إلى الكعبة « وَنُسُكِي » أى : طوافى وذبحى للهدايا فى الحج والعمرة ، أو عبادتى كلها « وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي » أى : وما آتية فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح . أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى المات ، كالوصية والتدبير . أو الحياة والمات أنفسهما « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢١٠٧ (طبعة المعارف)

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

« لَا شَرِيكَ لَهُ » أى : خالصة لله لا أشرك فيها غيره « وَبِذَلِكَ » أى : القول

أولاً خلاص « أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » أى : من هذه الأمة . لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته .

قال ابن كثير : يأمر تعالى نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى ويذبحون

لغير اسمه ؛ أنه مخالف لهم في ذلك . فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم

بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ آبَنِي رَبًّا » فأشركه في عبادته . وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة

والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفي إثبات نفي البغية والطلب ، على نفي العبادة ، أبلغية لا تخفى

« وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » حال في موضع العلة للإنكار والدليل له . أى وكل ما سواه مربوب

مثل لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أى فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شئ ومليكه

وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التي

قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً . كقوله تعالى

مرشداً لعباده أن يقولوا : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وقوله ^(١) : فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

(١) [١١ / هود / ١٢٣] .

وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) ^(١) وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) ^(٢) وأشباه ذلك من الآيات .
« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

قال ابن كثير: إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعده؛ أن النفوس
إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد .
وهذا من عدله تعالى .

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . إما
بمعنى ليكتب علينا ما علمتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب
عليكم من الخطايا - فهذا رد له بالمعنى الأول . أى لا تكون جنابة نفس من النفوس إلا
عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما
ذكرتم . وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) رد له بالمعنى الثانى . أى : لا تحمل
يومئذ نفس حاملة، حمل نفس أخرى، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد . وقد
ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . أخرجه البخارى ^(٣) ، وأخرج

(١) [٦٧ / الملك / ٢٩] فَسَتَمْلِكُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٩] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣٣ - باب قول النبى صلى الله عليه

وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه . وسنسوقه بما فيه من الحوار الذى دار بين عبد
الله بن عمر رضى الله عنهما وبين سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

عن ابن جريج قال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال : توفيت ابنة =

ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى ؟ فقالت ليس عليه من خطيئة أبويه شيء . وتلت هذه الآية .

قال : الكيا المراسى : ويحتج بقوله : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) في عدم

= لعثمان رضى الله عنه ، بمكة . وجئنا لنشهدا . وحضرها ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم . وإنى لجالس بينهما (أو قال : جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبى) فقال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما ، لعمر بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله ﷺ قال « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » .

فقال ابن عباس رضى الله عنهما : قد كان عمر رضى الله عنه يقول بعض ذلك . ثم حدث قال : صدرت مع عمر رضى الله عنه من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو يركب تحت ظل سمرة . فقال : اذهب فانظر من هؤلاء الركب . قال فنظرت فإذا هو صهيب . فأخبرته فقال : ادعه لى . فرجعت إلى صهيب : فقلت : ارتحل فالحق أمير المؤمنين ، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاه واصحابه .

فقال عمر رضى الله عنه : يا صهيب ، أتبكي على وقد قال رسول الله ﷺ « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس رضى الله عنه : فلما مات عمر رضى الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها . فقالت : رحم الله عمر . والله ! ما حدث رسول الله ﷺ : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » وقالت : حسبكم القرآن : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى .

قال ابن أبي مليكة : والله ! ما قال ابن عمر رضى الله عنهما شيئا .

ورقم حديث ابن عمر ٦٨٤ وعمر ٦٨٥ وعائشة ٦٨٦ .

نفوذ تصرف زيد على عمرو إلا ما قام عليه الدليل . قال ابن القرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) يعنى فى أمر الآخرة . فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت بيبكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما فى أمر الدنيا ، فقد خص هذا بحديث العاقلة . وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى .

« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ » جمع خليفة . أى يخلف بضعكم بعضا

فيها ، فتعمرونها خلفا بعد سلف ، للتصرف بوجوده مختلفة « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » أى فوات بينكم فى الأرزاق والأخلاق والحاسن والمساوى والنظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)^(٢) وقوله

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٥ و ٢٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٢] ونصها : أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا =

سبحانه) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا^(١)
 وقوله تعالى « لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءَاتَاكُمْ » أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم ، أى
 امتحنكم ، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقر فى فقره ويسأله عن صبره .
 وفى صحيح مسلم^(٢) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا
 حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ،
 فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهّب تعالى من معصيته ورغب فى طاعته بقوله سبحانه « إِنْ رَبَّكَ سَرِيعُ
 الْعِقَابِ » أى : لمن عصاه وخالف رسله « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : لمن والاه واتبع رسله .

لطائف

الأولى : قال السيوطى فى (الإكليل) . استدل بقوله تعالى (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
 الْأَرْضِ) مَنْ أَجَازَ أَنْ يُقَالَ لِلْإِمَامِ: خَلِيفَةُ اللَّهِ . انتهى .

أى : بناء على وجه فى الآية . وهو أن المعنى : جعلكم خلائف الله فى الأرض تتصرفون فيها .
 ذكره المفسرون . وآثرت ، قبل ، غير هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية : قال القاضى : وصف العقاب ولم يصفه إلى نفسه ، ووصف ذاته بالمفطرة وضم إليه
 الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة - تنبيها على أنه سبحانه وتعالى غفور
 بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها . انتهى .

= بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
 بَعْضًا سَخِرِبًا، وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٩
 (طبعتنا) .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيرا ما يقرن في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)^(١) وقوله : (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)^(٢) . إلى غير ذلك من الآيات المستمثلة على الترغيب والترهيب . فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه . وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما . لينجع في كل بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، أنه قريب مجيب .

قد تم بحمد الله تعالى الكلام على (محاسن تأويل) سورة الأنعام . وذلك ضخوة الأربعاء في ٢٨ ربيع الأول . في شباك السدة المبنى العليا من جامع السنانية عام ١٣٢١ . وكان تخلل مدة شهر ونصف ، وقفت عن كتابة شيء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث في قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية ، لما رضى رحلتى إلى بيت المقدس

في ٢٨ محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن في ٨ ربيع الأول

بدأت من قوله تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ..) الآية ، في ٢٠ ربيع

الأول ، وتمت السورة في التاريخ المتقدم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ

هَدَانَا اللَّهُ . بقلم جامعته جمال الدين

القاسمي

- وبليه الجزء السابع - ويحتوى على تفسير سُور : ٧ - الأعراف ، ٨ - الأنفال ، ٩ - التوبة

(١) [١٣ / الرد / ٦] ونصها : وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ،

(٢) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] .

جدول

بيان الخطأ والصواب الذي جاء بالجزء الخامس

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد ، السيد محمد بهجة البيطار ، حفظه الله

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٠١	١٧	حوبا	حوبا
١١٠٦	٧	ومنهم	فمنهم
١١١١	٢١	نسوة	نسوة
١١٢٠	١٥	بقوله	بقوله (١)
—	بالحامش	(١) [٤ / النساء / ١٢٩]	
١١٢٣	٥	الايثاء	الإيثاء
١١٣٤	١٨	أجلهن	أجلهن
١١٤٥	٣	من بعد	من بعد
١١٤٨	١١	امرء	امرؤ
١١٤٩	٢٠	وصية	وصية
١١٥٨	٥	ان يخافا	أن يخافا
١١٦٤	١١	بهتانا	بهتانا
١١٧٤	٥	أرض نكم	أرضنكم
١١٧٩	٤	ومساررات	مساررات
١١٩٣	٨	عقدة	عقدة
١١٩٥	١	المؤمنات	المؤمنات
١١٩٥	٤	ذلك	ذلك

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩٥	١٣	{ وان تصيروا	وَأَنْ تَصِيرُوا
١٢٠٠	١٧ و ٧		
١٢٠٢	٨	لَا تَأْكُلُوا	لَا تَأْكُلُوا
١٢٠٣	١	معارضة	معاوضة
١٢٠٦	٤	عُدُّوَانَا	عُدُّوَانَا
١٢١٤	١٥	الْأَرْحَامِ	الْأَرْحَامِ
١٢١٥	١٢	وَلِكُلِّ	وَلِكُلِّ
١٢٣٢	٤	الْبَرِّ	الْبَرِّ
١٢٤٨	٦	تقديره مضاف	تقدير مضاف
١٢٥٤	١٠	من حرج	من حرج (٣)
—	وفى الهامش	(٣) أخرجه	(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨]
—		(٤) أخرجه	(٤) أخرجه
١٢٥٥	٢	احتملت	احتملت
١٢٦١	٨	أَوْ لَا مَسْتَمَ	أَوْ لَا مَسْتَمَ
١٢٧٩	٩	سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا	سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
١٢٨٥	٩	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
١٢٨٥	٢٠	انعم الله ..	أنعم الله عليه
١٢٩٠	٤	(إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ)	(إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ)
١٢٩٦	١٤	لَعَلِّي أَبْلُغَ	أَبْلُغُ
١٣٢٢	١٨	يَخْلِفَ	يُخْلِفَ
١٣٥٥	٢١	قد يعلم الذين	قد يعلم الله الذين
١٣٥٧	٦	لَا يَجَاوِرُنَكَ	لَا يَجَاوِرُونَكَ
١٣٥٧	٢٢	بِمَا كَسَبَتْ	مَا كَسَبَتْ

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٦٦	١٩	عنق	عنق
١٣٧٠	٨	(١)	(٥)
١٣٩١	٩	أن يتمدني	أن يتمدني
١٣٩٢	١٦	لَيَمِطُّنَّ	لَيَمِطُّنَّ
١٤٠١	٤	ان تصبهم	وإن
١٤٠٦	١١	افادة	أفاده
١٤٠٧	٦	إنما	فإنما
١٤١١	١٣	العدواة	العدواة
١٤١٦	١	لا بقضاء الله	إلا بقضاء الله
١٤٣٤	٧	والملائكة	والملائكة
١٤٣٦	١	في المناقون	في المناقون
١٤٣٧	٤	في حير	في حير
١٤٥٤	٩	متعلقا	متعلقا
١٤٥٩	١٥	ويخلد فيها	ويخلد فيه
١٤٦٢	٥	ويغفو	ويغفو
١٤٧٨	١	ثم طرحوا	ثم طرحوه
١٤٨٤	٦	درجات منه	درجات منه
١٤٨٦	٦	التفضيلين	التفضيلين
١٤٨٧	١٤	ءامنأ	ءامنأ
١٤٩٠	١٨	وبلق	وبلق
١٤٩١	٣	تغير	تغير
١٥٠٠	١	ضميرة	ضمرة
١٥٠٤	١٤	في الأرض	في الأرض

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٠٦	١٠	ولا جناح	و « لا جناح »
١٥٠٦	١١	ولا جناح عليهما	فلا جناح
١٥١٧	٣	وليأخذوا	وليأخذوا
١٥٢٠	٤	بإحدى الطائفتين	الطائفتين
١٥٢٠	٩	عن أبي عباس	عن ابن عباس
١٥٢٢	٦	لم يصلوا	لم يصلوا
١٥٢٢	٨	بإحدى الطائفتين	بإحدى الطائفتين
١٥٢٧	٤	حاز	جاز
—	٢٠	وليأخذوا	وليأخذوا
١٥٢٩	٧	قرح	قرح
١٥٣٩	١٦	هبوا	هبوا
١٥٤٢	٣	مرضاة	مرضات
١٥٤٤	١٢	الصوب	الصواب
١٥٥٨	٣	مرضاة	مرضات
١٥٦٥	١٧	ان يدعون إلا	إن يدعون من دونه
١٥٧١	٢٠	من من حاجتها	من حاجتها
١٥٧٨	١٠	إني برئ	وإني برئ
١٥٨٢	١٢	المتطهرين	المتطهرين
١٥٨٦	٥	وداومها	ودوامها
١٥٨٨	١٥	والستضعفين	والستضعفين
١٦١٥	١٨	نصيب	نصيب
١٦٢٣	٢١	وسندع الزبانية	و : سندع الزبانية
—	٢١	ويوم يناد	و : يوم

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٣٣	٣	ما جِيلَ	ما جُيِّلَ
—	٤	في التأويل قوله	في تأويل قوله
١٦٣٧	٨	التي نَعِيتْ	التي نُعِيتْ
١٦٣٨	١	وتطرف	وتطرَّق
١٦٥٤	٢٠	جسدَّ الرب	جسد الرب
١٦٦٢	١٦	رأوا مجده	رأوا مجده
١٦٦٦	٤	عند النبيَّ	عند النبيَّ
١٦٧٠	١	إلا اتباعُ الظن	إلا اتباعُ الظن
١٦٧٥	٧	إلى صوة	إلى صورة
—	١١	فأنا لأشك	فأنا لا أشك
١٦٧٧	١٧	عظمتان	عظيمتان
١٦٨٠	١٥	التوتر	التواتر
١٦٨١	٤	عليها	عليهما
١٦٩٠	٨	فَلَمْ	فَلَمْ
١٦٩٦	١٩	ومخترعات	ومخترعات
١٧٠١	٥	بانا با	بونا با
١٧٠١	١٣	مصدفا	مصدقا
١٧٠٧	١٥	القيامة	القيامة
١٧٠٩	١	ما لهم به إلا اتباع الظن	ما لهم به من علم
١٧١٠	١٩	وأجلَّ المراتبَ	وأجلُّ المراتبِ
١٧١١	٤	وإن من أهل أهل	وإن من أهل الكتاب
١٧١٧	١٠	وأكلهم أموالِ	أموالَ
١٧١٨	٥	الرَّسَخُون	الرَّاسِخُونَ

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧١٨	١٠	أُنْزِلْ	أُنْزِلْ
١٧٢٦	١١	القرآن	القرآن
١٧٢٦	١٦	رُوحُ	رُوحُ
١٧٣١	٦	فناده	فناداه
١٧٥٢	٦	تضع	تصنع
—	١٥	أَهْلًا كُنَاهُمْ	أَهْلًا كُنَاهُمْ
١٧٥٥	١٦	أَوْ مَلَكًا	أَوْ مَلَكًا
١٧٥٧	١٠	فالقصد فيه إلـ	إلى
١٧٦٠	١٦	شهِدَا	شهِدَا
١٧٦٣	١٩	طَبِييَا	طَبِييَا
١٧٦٤	٢	جَرَأْ	جَزَأْ
١٧٧٤	١٣	وَيَسْتَكْبِرْ	وَيَسْتَكْبِرْ
١٧٧٧	١٦	ليس له ولد ولا وله أخت	ولد وله أخت

وجزى الله مولانا خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسيحي

محاسن التأويل

تسألف علامة الشيام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء السابع

وفيه تفسير سورة : الأعراف

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد رفيع عبد الباقى

دار النشر : دار البحوث
مبنى البابى الجبلنى وشركاه

TV
BY W/

5

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع

فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدني

الذي يقتضيه الزمن »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧ - سورة الأعراف

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة ، قال : الأعراف مكية ، إلا آية (وَأَسْأَلُهُمْ
عَنِ الْقَرْيَةِ) وقال : من هنا إلى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) مدني .
وآياتها مائتان وست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَصَّ)

تقدم الكلام في أول سورة البقرة ، على حروف فوائح السور ، والمذاهب فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ
وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« كِتَبٌ » أى : هذا كتاب « أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ »
أى : لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه ، مخافة أن يكذبوك ، أو أن تقصر في القيام بحقه .
فإنه ﷺ كان يخاف قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ، وأذاهم . فكان يضيق صدره
من الأداء ، ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم .

قال الناصر : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ...) الآية (١)
« لِيُنْذِرَ بِهِ » أى : بالكتاب المنزل ، المشرىين ليؤمنوا « وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى :
عظة لهم . وتخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشرىين . وتقديم
الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

(١) [١١ / هود / ١٢] ... إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ (مَا أُنزِلَ) : القرآن والسنة . وقوفاً مع عمومه ، لقوله سبحانه (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)^(١).

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : استدلل به بعضهم على أن البياض مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا باتباعه - انتهى - .

وأقول : هذا غلو في الاستنباط ، وتعمق بارد . ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار بَرَصًا .

« وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى لا تتبعوا أولياء غيره تعالى ، من الجن والإنس . فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع « قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » أى ما تتعظون إلا قليلا ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتركون دينه تعالى ، وتتبعون غيره . ثم حذرهم تعالى بأسه ، إن لم يتبعوا المنزل إليهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

[٥] (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » أى أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم « فَجَاءَهَا

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥٣] .

بَأْسُنَا « أى : فجاء أهلها عذابنا « بَيْتًا » أى : بائتين ، كقوم لوط . والبيتوتة : الدخول فى الليل ، أى ليلاً قبل أن يصبحوا « أَوْهُمْ فَكَانُوا » أى قائلين نصف النهار ، كقوم شعيب . والمعنى : فجاءها بأسنا غفلة ، وهم غير متوقعين له . ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة . وكل ذلك وقت الغفلة . والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم ، من غير تقدم أمانة تدلهم على وقت نزول العذاب ؛ وفيه وعيد وتخويف للكفار . كأنه قيل لهم : لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة ، فإن عذاب الله إذا نزل ، نزل دفعة واحدة . ونظير هذه الآية قوله تعالى ^(١) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ) ؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوى ببيان عذابهم الآخرى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَنَنْسَلَنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَنْسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

« فَلَنَنْسَلَنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى : المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم كما قال : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ^(٢) » وَلَنَنْسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ « أى : عما أجابوا به ، كما قال سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ^(٣) . والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

« فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ » أى : على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم « بِعِلْمٍ » أى : عالين بأحوالهم الظاهرة والباطنة « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » أى : عنهم وعما وجد منهم .

(١) [٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . . . قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالْوِزَنُ يُوزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَالْوِزَنُ يُوزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ » أى : وزن الأعمال والتميز بين راجحها وخفيها ، يوم يسأل الله الأمم ورسلكم ، العدل . « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى : حسناته في الميزان « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى : الناجون من السخط والعذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا

بِأَيِّتِنَا يُظْلِمُونَ)

« وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » أى : حسناته في الميزان « فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » بالمعقوبة « بِمَا كَانُوا بِأَيِّتِنَا يُظْلِمُونَ » أى : يكفرون .

تنبيهات

الأول : قال السيوطي في (الإكمال) : في هذه الآية ذكر الميزان ، ويجب الإيمان به . انتهى . وقال الإمام الغزالي في (المضنون) : تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور . وبالموت ينكشف الغطاء ، كما قال تعالى (١) : فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهى مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يجرى سبباً يعرف الخلق في لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد . فحد الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله في العالم المحسوس مختلف ، فنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والاصطرلاب لحركات الفلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعروض لمقادير

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] ونصها : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ .

حركات الأصوات . فالميزان الحقيقي ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها . حقيقة الميزان وحده موجود في جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان . وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات . والتصديقُ بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثاني : الذي يوضع في الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً .

قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء في (الصحيح)^(١) أَنَّ الْبَقْرَةَ وَءَالَ عِمْرَانَ يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَابَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ . ومن ذلك في (الصحيح)^(٢) قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك . وفي حديث البراء^(٣)

(١) الحديث رواه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٥٢

(طبعتنا) ونصه :

عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان . أو كأنهما فرقان من طير صواف . تحاجان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة . ولا يستطيعها البطلة » .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٣٣ - كتاب الأدب ، ٥٢ - باب ثواب القرآن ، حديث

٣٧٨١ (طبعتنا) ونصه : عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ « يحجى القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب ، فيقول : أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك » .

(٣) هو حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٨٧ من الجزء الرابع

(طبعة الحلبي) .

في قصة سؤال القبر : فيأتى المؤمن شاباً حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح . وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية ، تبرز على هذا القول في النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . فالذنوب والمعاصي تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ^(١) ، وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا^(٢) . الآية - وكذا قوله ﷺ^(٣) في حق من يشرب من إنباء الذهب والفضة : إنما يجرجر في بطنه نار جهنم . ولا بعد في ذلك . ألا يرى أن العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن .

وقيل : صحائف الأعمال هي التي توزن ، ويؤيده حديث البطاقة . فقد أخرج أحمد^(٤)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٤] يَسْتَمِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ...

(٢) [٤ / النساء / ١٠] ... وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٤ - كتاب الأشربة ، ٢٨ - باب آنية الفضة ، حديث

٢٢٣٣ ونصه :

عن أم سلمة ، زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال « الذي يشرب في إنباء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٣ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٩٩٤ (طبعة المعارف) ونصه :

قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً . كل سجل مد البصر . ثم يقول له : أتفكر من هذا شيئاً ؟ أَظْلَمْتَكَ كَتَبْتَنِي الحافظون ؟ قال : لا ، يارب . فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فُيُبَيِّتَ الرجل . فيقول : لا ، يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة . =

والترمذى وصححه ، وابن ماجه والحاكم والبيهقى وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة . فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقول : أنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا ، يارب ! فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا . يارب فيقول : بلى . إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظم عليك اليوم . فيُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث ^(١) : يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ،

= لا ظم اليوم عليك .

فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول : أحضروه فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . قال فتوضع السجلات في كفة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يُثقلُ شيء باسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرجه الترمذى في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، حدثنا سويد بن نصر .

وأخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٣٥ - باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، حديث ٤٣٠٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - سورة الكهف ، ٧ - باب

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم =

فلا وزن عند الله جناح بعوضة . ثم قرأ (فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا)^(١) .
 وفي مناقب عبد الله^(٢) بن مسعود ؛ أن النبي ﷺ قال : أتعجبون من دقة ساقيه ؟
 والذي نفسى بيده ! لها في الميزان أثقل من أحد .
 قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً .
 فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم - انتهى - .
 قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوي ، والحكم العادل . وبه قال
 مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن
 في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية . قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل
 إلى معرفة مقادير الشيء . ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض
 قد فثت . وعلى تقدير بقائها ، لا تقبل الوزن - انتهى - وأصله للرازي .
 قال في (العناية) : فهم من أول الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل ، أو مقابلتها بجزائها .

= السمين يوم القيامة ، لا وزن عند الله جناح بعوضة .

وقال : اقرءوا : فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٨ (طبعنا) .
 (١) [١٨ / الكهف / ١٠٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
 فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ...

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
 والحديث رقم ٣٩٩١ (طبعة المعارف) ونصه :

عن زر بن حبیش عن ابن مسعود أنه كان يحتجني سواكاً من الأراك . وكان دقيق
 الساقين . فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه . فقال رسول الله ﷺ «م تضحكون ؟»
 قالوا : يابني الله ، من دقة ساقيه . فقال «والذي نفسى بيده ! لها أثقل في الميزان من أحد» .

من قولهم : وازنه ، إذا عادله . وهو إما كناية أو استعارة . بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقل ، بمعنى الكثرة والقلة . والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .
قال في (فتح البيان) : وأما المستبعدون لجل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة لأحد . فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كل ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . يعرف هذا كل منصف . ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصباح لعينيه . وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً^(١) . وقوله : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ^(٢) . وقوله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ^(٣) وقوله : وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ^(٤) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] ... وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنْتَبَأَ بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٢ و ١٠٣] .

(٣) [٤ / النساء / ٤٠] ... وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٨ و ٩] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً مذكورة في كتب السنة المطهرة . وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرها . فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه ، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغني عن الصباح - انتهى - .

وخلاصته ؛ أن الأصل في الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت ، ولا تعذر ههنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحكمة في وزنها ؟ قلت : فيه حكم :

- منها - إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .
- ومنها - امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى .
- ومنها - تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة .
- ومنها - إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ؛ أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظ الموكلين بيني آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى . كذا في (الباب) .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزّه عن الجور ، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها . وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة في الوزن ؟

أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بمحائثها على ما هي عليه ، وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك . وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا ، فلا يبقى لأحد من يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك - انتهى - .

وقد سبقه إلى نحوه الرازي .

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة - ذكرهم فنون نعمه ترغيباً في اتباع أمره ونهيهم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ » جمع معيشة ، وهى ما يعاش به من الطعام والمشارب وغيرها . أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » الكلام فيه كالذى في قوله (قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ) وقد مرّ قريباً . والتذليل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم ، أى ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم ، وترك متابعة من دوننا ، فتحصلوا معاش السعادات الأبدية . ثم بين تعالى نعمته على آدم التى سرت إلى بنيهِ ، وبين لهم عدواة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » هذا كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ^(١) وفي تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق ، كالتي قبلها ، إعلام بكمال العناية بمضمونها .

قال أبو السعود : وإنما نسب الخلق والتصوير إلى مخاطبين ، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حمًا ، توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيذا لوجوب الشكر عليهم ، بالرمز إلى أن لهم حظًا من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعًا ، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره . أي : خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير ، وأحسن تقويم ، سار إليكم جميعًا - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)

« قَالَ » سبحانه وتعالى « مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أي أن تسجد كما وقع في سورة (ص) . و (لا) مزيدة للتنبيه على أن الموضع عليه ترك السجود . ولتوكيد لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه ، كما في قوله تعالى^(٢) : (لَّسَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . وتوقف بعض المحققين في وجه إفادة (لا) النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكد مطلقًا ، بل إذا صحبت تقيًا مقدمًا أو مؤخرًا صريحًا أو غير صريح ،

(١) [١٥ / الحجر / ٢٨ و ٢٩] .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ... أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

كما في (غَيْرِ الْمَنْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وكما هنا ، فإنها تؤكد تعلق المنع به - انتهى - .

وقيل : (مامنعك) محمول على (ماحلك ومادعاك) مجازاً أو تضميناً . وقال الراغب : المنع ضد العطية ، وقد يقال في الحماية . والمعنى ماحاك عن عدم السجود . ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به ، للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبیره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام . كما أوضحه قوله تعالى : « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » قال ابن كثير . هذا من العذر الذي هو أكبر من الذنب - انتهى - . وإنما قال هذا ، ولم يقل (منعي كذا) مطابقة للسؤال . لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول ، مع ما في طيها من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلالى ، وهى من الأسلوب الأحق كما في قصة نمرود . وقد علل مادعاها من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانى ، وهو ظلماتى . ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى (مَانَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ)^(١) أى : بغير واسطة ، وباعتبار الصورة . كما نبه عليه بقوله (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)^(٢) وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه

(١) [٣٨ / ص ٧٥] ونصها : قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ

بِيَدَيَّ ، اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْغٰلِيْنَ .

(٢) [١٥ / الحجر ٢٩] ونصها : فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوحِيْ فَقَعُوْا لَهٗ

سٰجِدِيْنَ .

و [٣٨ / ص ٧٢] .

أمر الخلافة في الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره . وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة في آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلظه .
وفي (الباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهذا الذي حمّله ، مع سابقة شقائه ، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك . ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعي لآدم عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت ^(١) : قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم .

تنبيه :

روى ابن جرير ^(٢) بإسناد صحيح عن الحسن في قوله تعالى (خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وأخرج ^(٣) أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالقياس . ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد .

قال الرازي : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة (اسْجُدُوا لِآدَمَ) خطاب عام يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس ، وهو أنه مخلوق

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٠ (طبعنا) .

(٢) الأثر رقم ١٤٣٥٦ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٤٣٥٥ من التفسير .

من النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى ، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر ، ولا معنى للقياس إلا ذلك . وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم ، وما ذاك إلا لعدم جوازه . وأيضاً في الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : (فَأَهْطُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) فوصفه تعالى بكونه متكبراً ، بمد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله . ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد ، والإخراج من زمرة الأولياء . ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحدى في (البسيط) عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه ، فن قاس الدين بشيء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس - هذا ما نقله الواحدى في (البسيط) عن ابن عباس ، وأفاده الرازى .

وقد روى عن السلف آثار كثيرة في ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس . وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشيء ، فزلّ قدمي بعد ثبوتها . وعن الشعبي : إياكم والقياس ، وإنكم إن أخذتم به أحللتهم الحرام ، وحرمتهم الحلال ، ولأنّ أتغنى غنية ، أحب إليّ من أن أقول في شيء رأيي . وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر رحمه الله من هذا المعنى آثاراً وافرة في (جامع بيان العلم وفضله) وقال : احتج من نفي القياس بهذه الآثار ومثلها . وقالوا في حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة . وتسكلم داود في إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ، ولم يُسموا . قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العبدول ، وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول . ثم قال : وسائر الفقهاء وقالوا في هذه الآثار وما كان مثلها

في ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذي يردّ به أصل ، والقول في دين الله بالظن . ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأى الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا في ردّ الفروع إلى أصولها ، لا في ردّ الأصول بالرأى والظن . وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر ، بطل القياس (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ...) الآية (١) - وأي أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خلق منه آدم ، وما خلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعله ليست بمنفعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحل ولا يجوز . وأما القياس على الأصول ، والحكم للشيء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، بل كل من روى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً . لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف في الأحكام .

وقال مسروق الوراق :

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَعَةٍ حَتَّى ابْتُلِينَا بِأَصْحَابِ الْقَيَاسِ
قَامُوا مِنَ السُّوقِ إِذْ قُلْتُ مَكَاسِبُهُمْ فَاسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ عِنْدَ الْفَقْرِ وَالْبُؤْسِ
أَمَّا الْعُرَيْبُ فَقَوْمٌ لَا عَطَاءَ لَهُمْ وَفِي الْمَوَالِي عِلَامَاتُ الْمَفَالِيسِ
فَلَقِيَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فَقَالَ : هَجَوْنَا . نَحْنُ نَرْضِيكَ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِدِرَاهِمٍ فَقَالَ :

إِذَا مَا أَهْلُ مِصْرٍ بَادَهُوْنَا بِأَبْدَةٍ مِنَ الْفُتَيَا لَطِيفَةٍ
أَتَيْنَاهُمْ بِمَقْيَاسٍ صَحِيحٍ صَلِيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبِي حَنِيفَةٍ
إِذَا سَمِعَ الْفَقِيهَ بِهِ وَعَاةُ وَأَثْبَتَهُ بِحَبْرٍ فِي صَحِيفَةٍ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ... مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا .

الزمن ، فقال :

إذا ذُو الرأى خَاصَمَ عن قِياسٍ وجاء ببدعة منه سخيْفُه
أُتِيناهم بقولِ اللهِ فِيهَا وآثارٌ مبرزةٌ شريفةٌ

هكذا حكاه ابن عبد البر في (جامع فضل العلم) . وله فيه في (باب ما جاء في ذم القول في دين الله بالرأى والقياس على غير أصل) مقالات سابعة جديدة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا في أبي حنيفة ، وتجاوزوا الحد . قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأى والقياس على الآثار ، واعتبارها . وأكثر أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر . وكان ردّه لمارد من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأى : وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النخعي وأصحاب ابن مسعود . إلا أنه أغرق هو وأصحابه في تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم . فأتى منهم في ذلك خلاف كبير للسلف . ثم قال : وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل في آية ، أو مذهب في سنة ، رد من أجل ذلك المذهب سنة أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ . إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً ، وهو يوجد لغيره قليل . وعن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك ابن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ﷺ ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : ولقد كتبت إليه أعظه في ذلك . هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه : أنه روى عن عليّ وزيد أنهما احتججا بقياس ، فمن ادعى إجماعهم - أي الصحابة - على ترك العمل بالرأى والقياس ، مطلقاً فقد غلط ، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس ، فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم ، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها - انتهى - .

وقال ابن تيمية رحمه الله في فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم ، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأى ، ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً . والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر في الشرع ، كما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح ^(١) أنه سئل عن فأرة وقعت في سمن ، فقال : ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم . وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن ، فلهذا قال جماهير العلماء : إنه أي نجاسة وقعت في دهن من الأدهان كالفأرة التي تقع في الزيت ، وكالهر الذي يقع في السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التي وقعت في السمن . ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا في فأرة وقعت في سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبي ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استفتى عنها أفتى فيها ، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتي عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه بالحكم . ومثل هذا أنه سئل عن رجل ^(٢) أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمخة

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٣٤ - باب إذا وقعت الفأرة في السمن الجامد أو الذائب ، حديث ١٧٥ ونصه :

عن ابن عباس عن ميمونة رضي الله عنهم قالت : سئل رسول الله ﷺ عن فأرة سقطت في سمن ؟ فقال « ألقوها وما حولها ، وكلوه » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢ - باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، حديث ٨١٥ ونصه :

عن صفوان بن يعلى بن أمية ؛ أن يعلى كان يقول : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ! فلما كان النبي ﷺ بالجمرة ، وعليه ثوب قد أظلم عليه ، ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب . فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم =

بمخلوق فقال: انزع عنك الجبة المخلوق، واصنع في عمرتك ما كنت تصنع في حجك. فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثاني من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعانى ، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً . فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع. فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ . وإذا عرفنا مراده، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك . وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس . كما أننا علمنا أن الحج خص به الكعبة، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة، وأن المفروض من الصلوات خص به الخس، ونحو ذلك، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على النصوص غيره. وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة، كتممين الكعبة وشهر رمضان، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتممين القراءة في الصلاة، والركوع والسجود ، بل وتممين التكبير وأمّ القرآن ، فالحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ**

= في جبة بعد ما تضح بطيب ؟ فنظر النبي ﷺ ساعة . فجاءه الوحي . فأشار عمر إلى يعلى أن : تعال . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة . ثم سرى عنه فقال « أين الذي يسألني عن العمرة آنفا ؟ فالتمس الرجل فجىء به إلى النبي ﷺ . فقال « أما الطيب الذي بك فاعسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك » .

الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ^(١). وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا^(٢). وكذلك قياس^(٣) المشركين الذين قاسوا الميتة بالذكي وقالوا أَنَّا كُلُّونَا مَا قَتَلْتُمْ وَلَا أَنَّا كُلُّونَا مَا قَتَلَ اللَّهُ؟ قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ وَإِنَّا أُطْعَمُوهُمْ إِنَّكُم مَّشْرِكُونَ^(٤). فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فسادة فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص بخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس ما يعلم صحته، ومنه ما يعلم فسادة، ومنه ما لم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل. ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

(١) [٩ / التوبة / ٣٧] ... زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٢ البقرة / ٢٧٥] ونصها : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا، ٤٠ - باب تأويل قول الله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ونصه :

عن ابن عباس في قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قال : خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم أكلتموه .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ...

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته ، فقد استدل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لا يعلم عدالته . فالجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى ما يعلم صحته ، وإلى ما يعلم فساده ، وإلى ماهو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها . ولفظ النص يراد به تارة ألقاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالة قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين . ويراد بالنص مادلالته قطعية لا تحتمل النقيض ، كقوله : تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ^(١) . وَ: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ^(٢) ، فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل ، والقياس الصحيح من باب العدل ، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتقريب بين المختلفين . ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد . ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح ، ومن كان متبحراً في الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْمُعْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ وَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ، فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُم مَّتَمَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ وَ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٧] ونصها : اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ .

و [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفِعٌ لِّلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ وَ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بالنصوص وبالأقيسة، ثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، كما دل القرآن على هذا المعنى . وهذا المعنى موجود في جميع الأثرية المسكرة ، لافرق في ذلك بين شراب وشراب ، فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين التماثلين ، وخروج عن موجب القياس الصحيح ، كما هو خروج عن موجب النصوص . وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس ، لكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ؛ ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر . وغلطوا في فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم . ومعرفة عموم الأسماء الموجودة في النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، وقد قال تعالى (١) : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ . والكلام في ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا - والله أعلم - انتهى كلامه رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَ » تعالى لإبليس « فَاهْبِطْ مِنْهَا » أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي . وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة ، والإضمار قبل ذكرها لشبهة كونه من سكانها . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزل التي هو فيها من الملكوت الأعلى - انتهى - وعليه اقتصر المهايمى حيث قال : فاهبط منها أى : من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر . « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » أى : فما يصح ولا يستقيم ، فإنها (١) [٩ / التوبة / ٩٧] ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

مكان المطيعين الخاشعين « فَأَخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ، متفرّع على علته « إِنَّكَ مِنْ الصَّغِيرِينَ » أى : من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ)

« قَالَ أَنْظِرْنِي » أى : أمهلنى ولا تُمتننى « إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ » أى : آدم وذريته من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

« قَالَ » أى : الله له « إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » أى من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية . قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشئة التى لا تخالف ولا تمنع . ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمى اليمانيّ فى تفسيره (التهذيب)^(١) :

قال الأستاذ السيد ظافر القاسمى ، حفظه الله ، وَلَدُ الْمُؤَلَّفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وجد على غلاف الجزء السابع من هذا الكتاب بخط المؤلف رحمه الله ما نصه :

وقفت على الجزء الرابع من تفسيرٍ اشترى من اليمين ، يسمى « التهذيب » من الأعراف إلى براءة ، كتب عليه ما مثاله :

« تصنيف الشيخ الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمى رحمه الله عليه »

وترتيبه ، بعد أن يسوق آية أو آيتين أو ثلاثاً ، أن يقول :

١ - القراءة - ثم يذكر وجوه القراءات .

٢ - اللغة - ثم يذكر مفردات الآية ومعانيها اللغوية واشتقاقها .

ومتى قيل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية . ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذلك ، ويحتمل أنه أمر ملكاً فخاطبه به . ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الكافر ؟ قلنا : فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم - عن أبي عليّ - ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

= ٣ - الإعراب .

٤ - النظم .

٥ - المعنى .

٦ - الأحكام - يذكر فيها دلالة الآي على كذا وكذا الخ .

٧ - القصة - إن كانت حوت ذلك .

وهو ترتيب جميل .

انتهى ما كتبه المؤلف رحمه الله .

وقد سألت الأستاذ الشيخ حامد التقي ، من علماء دمشق ، وقد سبق له أن لازم المؤلف رحمه الله قرابة عشرين عاماً ، عن الكتاب ومؤلفه الجسمى فأجابني :

كان المرحوم غالب النائي رفيقاً للإمام القاسمي في طلب العلم ، وتجمعهما قرابة رحمية ، وقد كان موظفاً أيام الدولة العثمانية ، فنقل إلى البين ، وعاش فيها حول عشر سنوات ، عاد بعدها ، ومعه بعض الكتب المخطوطة ، وقد اطلع عليها المؤلف ، فوجد من بينها هذا الجزء من « التهذيب » وحده ، فاقتبس منه ما استحسنت اقتباسه . وقد توفي المرحوم غالب النائي عام ١٩٤٨ ، وبيعت مكتبته إلى أحد تجار الكتب ، ولم نعد نعرف شيئاً عن هذا الكتاب .
= انتهى كلام الأستاذ التقي .

الثاني : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضل - عن أبي بكر أحمد بن علي -
وليس بالوجه . ومتى قيل : إذا أنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ما الوقت
= ثم تجيء بعد هذا ترجمة الجشميّ وها هي :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما ترجمة الإمام أبي سعد المحسن بن كرامة الجشميّ ، فبعد البحث عثرت على ترجمة
مختصرة له في كتاب (تاريخ بيهق) المطبوع باللغة الفارسية طبع إيران وستراها في الصفحة
المقابلة فسلموها لظافر بك القاسميّ مع إبلاغه السلام .

ولعلك تفحص عن كتاب (التهذيب) في المكتبة الظاهرية إذا كان لا يوجد في مكتبة
ظافر بك ، فإنه على الظاهر تفسير حسن وصاحبه ينتمى إلى عليّ رضي الله عنه .
« ترجمة الحاكم الإمام أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقيّ »

تولد ونشأ في قصبة جشم - في إيران قريبة من بيهق ، وبيهق اسمها الآن سبزوار ،
وهي إلى سبزوار بالقرب من نيسابور في لواء خراسان - وله تصانيف في الأصول والفقه كثيرة .
مثل عيون المسائل وشرح العميون وغيرها . مثل تحكيم العقول . وله تفسير لطيف يقع في عشرين
مجلدًا - ولم يذكر المترجم أن اسمه التهذيب - وله طريقة لطيفة في التصنيف . تفقه في مجلس
القاضي أبي محمد الناصحيّ وكان يختلف في ذلك إلى الأمير أبي الفضل الميكاليّ . وقد روى
الحديث عن الإمام أبي عبد الرحمن السلميّ والإمام أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسيّ .
وقد مدحه الإمام عليّ بن أبي صالح الخواريّ بهذه الأبيات :

ألا يا ضارباً في الأرض أقصر	فما تبغيه عند ابن الكرامه
أقول لمن غدا يبنى مزيداً	عليه: علمت أنك في الكرامه
أليس يقابل الطلاب مهما	تلقوه ببرٍّ أو كرامه
أبا سعد بقيت فكل شخص	يروم الفضل حقاً منك رامه

=

المعلوم ، فلا يكون إغراء مع تجويزه هجوم الموت عليه ، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار ، ولمنه - علم أنه لا يختار الإيمان أبداً . ومتى قيل : ما فائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له ، لأنه يمكنه من استدراك أمره . وهل يضل به أحد ؟ قال أبو علي : لا ، لقوله تعالى : مَا أَنْتُمْ

= ومدحه أيضاً الإمام مسعود بن علي الصوابي بهذه الأبيات :

أبا سعد جزيت بلا نهايه أراك بلغت في التصنيف غايه
وخلصت القلوب الغلف حقاً وأوضحت الشريعة والهدايه
وفي سور المحامد والمساعي مناقبك الشريفة صرّن آيه

وهو الحاكم الإمام أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة بن محمد بن أحمد بن الحسن بن كرامة بن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عليه السلام . فبينه وبين جده ابن الحنفية عشرة آباء إلى علي رضي الله عنه أحد عشر ، وهو علوي ولكنه لم يكن معروفاً ولم يشتهر بهذا النسب . وله ولدان أحدهما الحاكم محمد توفي في شهر ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وخمسمائة . ولم يذكر المترجم تاريخ وفاة المترجم له ولا تاريخ ولادته . ولكن يعرف تاريخ وفاته على الإجمال من ملاحظة تاريخ وفاة ولده الحاكم محمد المذكور . نقلت هذه الترجمة عن كتاب (تاريخ بيهق) تأليف أبي الحسن بن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن فندق ، المطبوع باللغة الفارسية في إيران بتاريخ ١٣١٧ شمسية .

١٧ رجب سنة ١٣٧٦

وأقول أنا : ٢٦٣٤

لقد بحثت عن هذا التفسير حتى علمت أن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية في بلاد اليمن ، ذكرت في التقرير الذي قدمه إلى وزارة المعارف رئيسها الدكتور خليل يحيى ناصي بالصفحة رقم ١٨ منه ما يأتي : =

عَلَيْهِ يَفْتَنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ^(١). ولأنه لو ضل به أحد ، لكان بقاؤه مفسدة ، فكان الله تعالى لا ينظره . فأما أبو هاشم فيجوز أن يضل به أحد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً لنا من وجوه : أحدها أن المكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته ، والعاقل يجتهد في أن يغيظ عدوه ويغفمه ، وذلك إنما يكون بطاعة ربه ، ومن أطاعه فن قبل نفسه آتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشمي ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

« قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي » أى أضللتني عن الهدى ، أو حكمت بغوايتي . والباء للقسام ، كما في قوله تعالى : قَالَ فَمِعَزَتِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ^(٢). أى : فأقسم بإغوائك إياي . وقيل : هي بمعنى لام التعليل ، أى : لأجل إغوائك إياي « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ » أى : لأدم وبنيه ترصداً بهم ، كما يقعد القطاع للطريق على السابلة « صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : طريقك السوي ، وهو طريق الحق ، ومعناه لأفتر عن إفسادهم . وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجار .

= ٩ - كتاب التقريب المنزوع من كتاب (التهذيب) لأبي سعد الحسين بن كرامة الجشمي البيهقي - للفاضل محمد بن عامر الأصبهاني - رقم التصوير ١٧

١٠ - التهذيب في التفسير - للحاكم أبي سعد بن كرامة الجشمي البيهقي ، الموجود منه ثمانية مجلدات . رقم التصوير من ٨٧ - ٩٣ و ٢٧٠ . وهذا محفوظ بدار الكتب . انتهى .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٢ و ١٦٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

« ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ »
 أى من جميع الجهات الأربع . مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أى وجه يمكنه ، بإتيان العدو من الجهات الأربع التى يعتاد هجومه منها . ولذلك لم يذكر الفوق والتحت « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » أى مستعملين لقواهم وجوارحهم ، وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله . وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ، كقوله : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (١) . روى الإمام (٢)
 أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول . قال : فعصاه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد . فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم مات ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة .

وقال الحافظ : ورد فى الحديث استعاضة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

كلها ، فروى الإمام أحمد (١) وأبو داود (٢) والنسائي (٣) وابن ماجه (٤) وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم ! إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ؛ اللهم استر عورائي وآمن روعاتي ؛ اللهم ! احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوق وأعوذ بمعظمتك أن أغتال من تحتي . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة

قال الجسّميّ : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه . وتدل على شدة عداوته لبنى آدم وحرصه على إضلالهم . وتدل على أن أكثر بنى آدم غير شاكّرين . وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذهّبهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . - انتهى - والكلام في أمثالها معروف . ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرده والإبعاد عن محل الملأ الأعلى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤٧٨٥ (طبعة المعارف) .
(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٠١ - باب ما يقول إذا أصبح ، حديث ٥٠٧٤ .

(٣) أخرج النسائي قوله « اللهم إني أعوذ بمعظمتك أن أغتال من تحتي » في : ٥٠ - كتاب الاستعاذة ، ٦٠ - باب الاستعاذة من الخسف .

(٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٤ - كتاب الدعاء ، ١٤ - باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ، حديث رقم ٣٨٧١ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا » بالهمزة في القراءة المشهورة ، من (ذَأَمَهُ) إذا حقره وذمه ، وقرئ « مَذُومًا » بزال مضمومة وواو ساكنة ، وهي تحتمل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتل ، وكان قياسه (مذيم) كبيع . إلا أنه أبدلت الواو من الياء ، على حد قولهم (مكول) في مكيل ، و(مشوب) في مشيب . « مَذْهُورًا » مقصيًا مطرودًا « لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » اللام فيه ، لتوطئة القسم . وجوابه « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : لَمَنْ أطاعك من الجن والإنس ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ من كفاركم ، كقوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (١) .

قال الجشمي : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفساقهم ، الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره ، فجمعهم في الخطاب . ومتى قيل : لم ضيق جهنم ووسع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك . ومتى قيل : فما الفائدة في قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ) قلنا : لطفًا ليكون المكلف تبعًا للأنبياء دون الشياطين ، ولطفًا لإبليس وحزبه ، لأنه غاية في الزجر والنهي .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم . ولا بد فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أولا يكون معه طاعة أعظم . وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيرًا عن مثل حاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

وقوله تعالى : « وَيَا آدَمُ » أى : وقلنا يا آدم « اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » أى جنة الخلد ، أو جنة في الأرض .

قال الجشمي : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة في إعادتها أن القرآن نزل في بضع وعشرين سنة ، والعوارض تعرض ، والوفود تقدم ، فكانت القصة تعاد ، ليسمع من لم يسمع ، استصلاحاً ولطفاً . لأن في إعادة قصة واحدة ، في مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها في نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن . « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ » أى من كل مكان « شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

« فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » أى : إبليس بأكل الشجرة خيلاً لهما النفع « لِيُبْدِيَ لَهُمَا » أى : يظهر لهما « مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا » أى : عوراتهما ، واللام في (لِيُبْدِيَ) إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أى : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سؤاتهما ؛ أو للتعليل والغرض ، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريق ما .

تنبيه :

في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن في الطباع ، ولذلك سميت سوءة ، لأنه يسوء صاحبها .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان في شريعة آدم عليه السلام . قال القاضي : لا دليل في الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : في الآية دليل على أنهما كرها التعرّى ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففي ذلك دليل على قبح التعرّى ، وإن لم يكن مع التعرّى أحد ، إلا الحاجة .

« وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا » أى : إلا كراهة أن تكونا « مَلَكَئِنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » أى : من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين . وقد استدل بهذا من رأى تفصيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر . وأجاب ، من لم يرهذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم . ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهرًا نورانيًا - أشار له الرازي -

وقال الناصر : لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى . ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما ، إذ قال الله تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) فلعل تفصيله الملائكة على النبوة من جملة غروره - انتهى - .

قال السيوطي في (الإكليل) : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية . والكلام الذى فيها ، حكاه الله تعالى عن قول إبليس في معرض المنادة عليه بالكذب والفرور والزور والتدليس . وإنما يستدل من كلامه تعالى ، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه . وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقرأً له - انتهى - .

على أنه قرئ (مَلَكَئِنِ) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبي

كثير . قال الواحدى : إنما أتاها إبليس من جهة الملك . ويدل على هذا قوله تعالى (هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)^(١) - انتهى - .
والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للتواتر ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازى هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

« وَقَاسَمَهُمَا » أى أقسم لهما « إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » أى : فى هذا الأمر .
قال ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله - انتهى - .
وعن قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة ، أعنته ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ! فقال : من خدعنا بالله لنخدعنا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ » أى : أطمعهما . وأصله : الرجل العطشان يدلى فى البئر ليروى من مائها ، فلا يجدى فيها ماءً ، فيكون مدلياً فيها بغرور ، فوضعت التولية موضع الإطعام فيما لا يجدى نفعا . وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية ، إلى رتبة سافلة . فإن

(١) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّذَرُ هَلْ أَذُكَّ

عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . وقيل : معنى دلاهما جرأهما بفروره ، والأصل فيه (دلّهما) ، والدلّ والدالة الجرأة كما قال (١) :

أَظُنَّ الْحِلْمَ دَلًّا عَلَى قَوِيٍّ وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ
فأُبدل أحد حرفي التضعيف ياءً .

« فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا » أى : أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهاقت عنهما اللباس ، فظهرت لهما عوراتهما . قال السيوطي في (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصي - انتهى - وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا ، فإن الذوق وجود الطعم بالفم ، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير ، وهو المراد هنا ، لأنه وقع في آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ » أى : أخذتا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة « عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى : ليسترا به .

قال الجشمي : تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام . وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر . قال القاضي : وليس في الآية ما يوجب الوجوب ، إذ ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : وتدل على أن الستر من خلق آدم وحواء ، وأنهما كرها المرءى وإن لم يكن لهما ثالث ، ففي ذلك دليل على قبح التعمري إلا عند الحاجة .

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا » أى يذكرهما النهى السابق والأمر والتجنب عن الشيطان « أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ » أى : عن الأكل منها « وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

(١) قاله قيس بن زهير . وقد استشهد به في اللسان في مادة (دل ل) ج ١١ ص ٢٤٧

(طبعة بيروت) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » أى أضررناها بالمعصية « وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا » أى ماسلف « وَتَرْحَمْنَا » أى بالتوبة وقبولها « لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكلمات . قال الضحاك بن مزاحم (في قوله : رَبَّنَا ظَلَمْنَا ...) الآية - هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجشمي : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشق إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إِلَىٰ حِينٍ)

« قَالَ أَهْبِطُوا » أى من الجنة إلى ما عداها . وقال أبو مسلم : معناه اذهبوا . وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير : والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال في سورة طه : (قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ...) الآية (١) - وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم . ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان في تعيين تلك

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ،

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

البقاء فائدة ، تعود على المكلفين ، في أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها الله تعالى في كتابه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم - انتهى - « بِمُضْئِكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا » أي استقرار أو موضع استقرار . « وَمَتَّعَ » أي تمتع ومعيشة « إِلَىٰ حِينٍ » أي : إلى تقضي آجالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

« قَالَ فِيهَا » أي الأرض « تَحْيَوْنَ » تعيشون « وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » أي يوم القيامة للجزاء ، كقوله تعالى^(١) : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » . ثم ذكرهم سبحانه بنعمته في تبوئة الدار والمستقر في الأرض ، وكسوتهم لباساً يسترون به سوءاتهم ، بعد ما نزع عنهما لباس الجنة ، وذلك لما هم ، بعد الإهباط ، من الحاجة إلى اللباس والمعاش . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَبْنِيٰٓءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« يَبْنِيٰٓءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا » يعني ما يلبس من الثياب وغيره . قال الزخسري : جعل ما في الأرض منزلاً من السماء ، لأنه قضي ثمة وكتب ، أي قضي وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح المحفوظ . وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ما هو المسبب بمنزلة السبب - انتهى - .

(١) [٢٠ / طه / ٥٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام ، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ، وهذا - والله أعلم - معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام ، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأبواب والأشعار ، وينتفع به بنو آدم في اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

« يُؤَرِّى سَوْءَ تِكْمٍ » أى يستر عوراتكم التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرأ إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك « وَرِيْشًا » عطفه إمام من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوءة ، والزينة . فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه . وأما من عطف الشيء على غيره . أى أنزلنا لباسين : لباس مواراة ولباس زينة ؛ فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أى لباساً ريشاً أى ذاريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وحكاه البخارى^(١) عنه : الريش المال . وحكاه غير واحد من السلف . قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال ابن زيد : جبالاً . وقرئ : ريشاً . قال

(١) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب خلق آدم صلوات الله

عليه وذريته ونصه :

قال ابن عباس : لَمَّا عَلِمَهَا حَافِظٌ : إلا عليها حافظ . كَبَدٍ : في شدة خلق . وَرِيْشًا

(وريشاً) : المال .

وفي : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧ - سورة الأعراف . ونصه :

قال ابن عباس : وريشاً ، المال .

وانظر كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخارى) مادة (رى ش) ص ٧٧

ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع ، ما كان من لباس أو حشو من فراش أو دثار ،
والريش : المتاع والأموال ، وقد يكون في الثياب دون الأموال . وإنه لحسن الريش ، أى :
الثياب - انتهى - .

ويقال : راش فلان ، أى جمع الريش ، وهو المال والأثاث . وراش الصديق أطعمه
وسقاه وكساه ، وأصله من الريش ، كأن الفقير الملق لانهوض له ، كالمقصود منه الجناح وكل
من أوليته خيراً ، فقد رشته - كذا في تاج العروس - .

فائدة

روى الإمام أحمد^(١) عن أبي أمامة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : من استجدّ ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به
عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى
وفى جوار الله ، وفى كنف الله حياً وميتاً . ورواه الترمذى^(٢) وابن ماجه^(٣) . وروى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث
رقم ٣٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) وأخرجه الترمذى فى : ٢٢ - كتاب اللباس ، ٢٩ - باب ما يقول إذا لبس ثوباً
جديداً . ونصه :

عن أبي سعيد قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً
أو رداء) ثم يقول « اللهم ! لك الحمد . أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ما صنع له .
وأعوذ بك من شره وشر ما صنع » .

قال : وفى الباب عن عمر وابن عمر .

(٣) وأخرجه ابن ماجه فى : ٢٢ - كتاب اللباس ، ٢ - باب ما يقول الرجل إذا لبس
ثوباً جديداً ، حديث رقم ٣٥٥٧ (طبعنا) ونصه كنص المسند .

الإمام أحمد^(١) عن أبي مطر أنه رأى علياً رضي الله عنه أتى غلاماً حَدَثًا، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول وَلَبَسَهُ : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتى . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتى .

ولما بين تعالى ساتر الظاهر وزينته ، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : « وَلِبَاسُ التَّقْوَى » أى : خشية الله ، أو الإيمان ، أو السمات الحسن ، والكل متقارب ، ورفع بالابتداء ، خبره جملة « ذَلِكَ خَيْرٌ » أو خير ، وذلك صفته ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

قال المهايى : لأن الظاهر محل نظر الخلق ، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أخفى من العورات الظاهرة . وقال القاشانى : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس ، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع ، لأنه أصل الدين وأساسه ، كالحية في العلاج - انتهى - .

قال أبو على الفارسي : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به ، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذى يتجمل به . قال : وأضيف اللباس إلى التقوى ، كما أضيف إلى الجوع في قوله : فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ^(٢) . - انتهى -

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٣٥٤ (طبعة المعارف) .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أى : فهو استعارة مكنية وتخيلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والحشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل (لُجَيْنِ الْمَاءِ). وقرأ نافع وابن عامر والكسائي (وَلِبَاسَ التَّقْوَى) بالنصب ، عطفًا على (لباساً) .
« ذَلِكَ » أى إنزال اللباس « مِنْ ءَايَةِ اللَّهِ » الدالة على فضله ورحمته على عباده « لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ » أى : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشري : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات ، وخصف الأراق عليها ، إظهاراً للعنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التي عدها . وذهب علي بن موسى القمي إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة . وقال آخرون : لا تدل ، وليس في الظاهر إلا الإيناع به من حيث نفي الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد . ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه في شريعتنا إلى دليل مستأنف . وقد ثبت في هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى . وتدل على أنه تعالى ، كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين ، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح ، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التي بها يحصل الفوز بالثواب ، فتحصل نعمة الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَبْنِيْٓ اٰدَمَ لَا يَفْتِنٰكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْنٰكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اٰتِهِمَا ، اِنَّهٗ و يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَا۟ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ)
« يَبْنِيْٓ اٰدَمَ لَا يَفْتِنٰكُمْ الشَّيْطٰنُ » أى لا يخدعكم عن دخول الجنة ، ينزع لباس

الشرعة والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم « كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ » نعت لمصدر محذوف، أى لا يفتنكم فتنةً مثل إخراج أبويكم « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » أى الظاهر بسبب نزع لباس التقوى « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَمًا » أى الظاهرة الدالة على السوء الباطنة . وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج) ، أى : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً فى أن نزع عنهما ؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول - قال السيوطى فى (الإكليل) : استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة ، واستدل بالآيتين من قال : إن العورة هى السواتان خاصة - انتهى .

الثانى - قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان ، فقال : (يَبْنِىْءَ آدَمَ...) الآية - وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيد ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه ، إلى أن قدّر على إلقاء آدم فى الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة - فبأن يقدر على أمثال هذه المضار فى حق بنى آدم أولى . فبهذا الطريق حذر تعالى بنى آدم بالاحتراز عن وسوسته .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ وَرَثَتُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ » أى : جنوده من الشياطين « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » أى من مكان لا ترونهم فيه . والجملة استئناف لتعليل النهى ، وتأكيده التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو الداجى ، يكيدكم ويقتلكم من حيث لا تشعرون . عن مالك ابن دينار : إن عدوا يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيه .

قال السيوطى فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُروْنَ فهو كافر - انتهى - ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا

قال الزخشرى : فيه دليل يبين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة - انتهى -
وقال الجشمى : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه . ثم قال : ومتى قيل : أليس يُروَنَ زمن الأنبياء ، ويرى المعان الملك ؟ فجوابنا : أنه يزداد قوة الشعاع ، أو تتكاثر أبدانهم ، فيكون معجزة للنبي - انتهى -

وأجاب أهل السنة كما في (العناية) : بأنه قد ثبتت رؤيتهم ، بالأحاديث الصحيحة المشهورة ، وهي لا تعارض ما في الآية . لأن النفي فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال في فتح البيان : وقد استدلل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها أننا لا نراه أبداً ، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، في وقت رؤيته لنا ، لا يستلزم انتفاءها مطلقاً . والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض - انتهى - .

وقد أوضح الغزالي رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال في (الركن الثاني) : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافاً يكون بين الأنواع . ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر - أعني جواهر الملائكة - وإن كانت غير محسوسة . وهذه المشاهدة على ضربين : إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) ^(١) . وكما كان النبي عليه الصلاة والسلام ^(٢) ، يرى جبريل في صورة دحية الكلبي .

(١) [١٩ / مرقيم / ١٧] ونصها : فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم = ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ (طبعة المعارف) ونصهما :

والقسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا فى الجن والشياطين - انتهى - .

وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » قال الزجاج : يعنى سلطانهم عليهم : يزيدون فى غيهم - انتهى - والجملة تعليل آخر للنهى ، وفيه تحذير أبلغ من الأول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِافْحِشَاءَ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً » أى : ما تنهى قبحه من الذنوب ، كالشرك وكشف العورة فى الطواف

= عن يحيى بن يعمر . قلت لابن عمر : إن عندنا رجالاً يزعمون أن الأمر بأيديهم ، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا ؟ فقال : أخبرهم أى منهم برى . وأنهم منى براءء . ثم قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ فقال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال « نعم » قال : صدقت . فما الإحسان ؟ قال « تحشى الله تعالى كأنك تراه ، فإذا تسكن تراه فإنه يراك » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ؟ قال « نعم » قال : صدقت . فما الإيمان ؟ قال « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال « نعم » قال : صدقت .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثله . قال : وكان جبريل عليه السلام يأتى النبي صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية .

« قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » أى؟ إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها، فافتدوا بهم، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها، حيث أقرنا عليها، إذ لو كرهها لنقلنا عنها، وهما باطلان، لأن أحدهما تقليد للجهال، والتقليد ليس بطريق للعلم، والثانى افتراء على ذى الجلال.

قال الشهاب: فى قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَمَرَنَا): مضاف مقدر، أى أمر آبائنا، فلا يقال الظاهر أمرهم بها، والعدول عن الظاهر إشارة إلى ادعاء أن أمر آبائهم أمر لهم.

« قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » أى: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بحسن الأفعال والحث على مكارم الخصال « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه، يتضمن النهى عن الافتراء عليه تعالى، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط.

قال الشهاب: ولا دليل فى الآية لمن نقي القياس، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم، لأنه مخصوص فى عمومها بإجماع الصحابة ومن يمتد به، أو بدليل آخر.

تنبيه:

قال مجاهد^(١): كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبْلِهَا النَّسَمَةَ أو الشيء وتقول:

اليوم يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...) الآية - قال ابن كثير: كانت العرب، ما عدا قريشاً، لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش - وهم المحسن - يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحسنى ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحسنى ثوباً؛

(١) الأثر رقم ١٤٤٦٢ من تفسير الطبرى.

طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتجفل على فرجها شيئاً ليستره بعض
الستر ، فتقول : اليوم يبدو ... البيت - وأكثر ما كان النساء يظفن بالليل ، وكان هذا
شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى
أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطي في (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً ؛ أنها نزلت في طوافهم بالبيت عراة ،
رواه أبو الشيخ وغيره . قال : ففيها وجوب ستر العورة في الطواف .

تنبيهان :

الأول - ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولازمة له ، والفحشاء - أعنى
الشرور والمعاصي - غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .
وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ،
فلا تكون الإرادة تابعة له وجوداً . ومما يوضح أن الشيء قد يؤثر به ولا يكون مراداً ، أن
السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريد منه . ومنها
أن الأمر أمران : أمر تكويني يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب (كن) وهو تابع
للإرادة ، ويعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ،
ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعة والعصيان والثواب والعقاب . لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم .
وأمر تشريعي تدويني : أي شرعه الله لعباده ، وكلفهم به ، مما دون في كتب الشريعة
وُيِّن . وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط . والكفر
والمعاصي ليست مأمورة بهذا الأمر . والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر
والمعاصي لو كانت مراداً تعالى ، لكانت مأموراً بها ، وإتيان المأمور به طاعة ، فيكون الكافر
والفاسق مطيعين ، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول ، وليس مأموراً بهما بالأمر الثاني ،
حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتى : ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُوَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) ^(١) على ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعرى ومن تبعه ، فلا . انتهى - والمسألة مبسوسة في محالها المعروفة .

الثانى - قوله تعالى (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) جواب عن شبهتهم الثانية . ولم يذكر جواباً عن الأولى . قال الإمام : لأنها إشارة إلى محض التقليد . وقد تقرر في المعقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة . فلو كان التقليد حقاً ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة . فلما كان فسادها ظاهراً ، لم يذكره تعالى .

الثالث - قال فى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ) ^(٢) والقائلون : (وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق - لم يبق عليه . وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على يهوديته ، والنصرانى على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته . فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغى . وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص . ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٢) [٢٣ / الزخرف / ٢٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ...

الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم - انتهى - .

ولما نفي تعالى ما تقولوه عليه، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء، بين ما أمر به بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » أى : بالعدل . وللسلف فيه هنا وجوه : ما ظهر في القول كونه حسناً ، أو التوحيد ، أو كلمة الإخلاص . وعن أبي مسلم : جميع الطاعات . قال الحاكم : وهو الوجه : ولا يخفى أن الجميع مما يشمل (القسط) فلا منافاة . « وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » معطوف على الأمر الذي ينحل إليه المصدر مع (أن) . أى : بأن أقسطوا وأقيموا ، والمصدر ينحل إلى الماضي والمضارع والأمر ، كما نقله العرب . أو معطوف على (أَمَرَ رَبِّي) أى : قل أقيموا . قال الجرجاني : الأمر معطوف على الخبر ، لأن المقصود لفظه ، أو لأنه إنشاء معنى . انتهى - و (الوجوه) مجاز عن الذوات . ومسجد إما مصدر ، والوقت مقدر قبله ، و (عند) بمعنى (في) . أى : أقيموا ذواتكم في كل وقت سجود ، وذلك بمنعها عن الالتفات إلى الغير فيه ، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية ، أو باستقبال القبلة فيه . وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوي ، أى في كل وقت سجود أو مكانه . والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة ، أو المسجد هو المصطلح عليه . والمعنى : في أى مسجد حضرتم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . والأمر على هذا الوجه للندب . قيل : وهو لا يناسب المقام . وإما على ما قبله ، فهو للوجوب .

وهذه الوجوه مستفادة مما روى عن السلف . قال في (الباب) : معنى الآية في قول

مجاهد والسدي : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلي في مسجدي ، أو مسجد قومي . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً .

« وَأَدْعُوهُ » أى : اعبدوه « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى : الطاعة بتخصيصها له ، لأنه استحق عبادتكم بإيدائه إياكم ، ولا يسعكم تركها ، إذ إليه عودكم بالآخرة ؛ فإنه « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » أى : كما أنشأكم ابتداء ، يعيدكم إليه أحياء ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة . وإنما شبه الإعادة بالابتداء ، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« فَرِيقًا هَدَىٰ » بأن وفقهم للإيمان « وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » وهم الكافرون « إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ » أى : أنصاراً وأرباباً « مِنْ دُونِ اللَّهِ » حيث أطاعوهم فيما أمرهم به من الكفر والمعاصي « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » أى : أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا .

تنبيهان :

الأول - قال ابن جرير^(١) : قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها . لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى - فرق . وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية - انتهى - .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨٨ من الجزء الثاني عشر من تفسيره (طبعة المعارف) .

وحاصله ، كما قال القاضى : إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمعاذ سواء فى استحقاق الذم . قال القاضى : وللفارق أن يحملة على المقصر فى النظر ، أى : يحمل الضمير فى (اتَّخَذُوا) على الكافر المقصر فى النظر . وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعدون ، كما هو مذهب البعض - كذا فى (العناية) .

الثانى - قال الرازى : هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكتفى فى صحة الدين ، بل لابد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون بكونهم مهتدين . ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، لما ذمهم بذلك - انتهى - .

قال المهايى : ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان ، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة ، فطافوا عراة . وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام ، فقال عز وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (يٰٓبَنِيَّ ۖ اٰدَمُ خُذْوَ زَيْنَتَكَمۡ عِنۡدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۗ اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ)

« يٰٓبَنِيَّ ۖ اٰدَمُ خُذْوَ زَيْنَتَكَمۡ » أى : من اللباس « عِنۡدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » أى : بيت بنى للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مراداً به الصلاة والعبادة . فإن العبادة أولى أوقات التزين « وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا » أيام الحج تقويّاً على العبادة « وَلَا تُسْرِفُوْا » أى : إسرافاً يوجب الانهماك فى الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم « اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ » المعتدين .

تنبيهات :

الأول - كنا أسلفنا فى مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال . وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت فى ذلك .

فقد روى مسلم^(١) عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيَانَةٌ ، فتقول : من يعيرني تطوفاً؟^(٢) ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية (خُذُوا زِينَتَكُمْ ...) الآية . ونزلت (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ...) الآية .

وعند ابن جرير^(٣) عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت (خُذُوا زِينَتَكُمْ) . قال في (الباب) : وفي رواية أخرى عنه^(٤) : فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَلْبَسُوا ثِيَابَهُمْ وَلَا يَتَعَرَّوْا . وروى العوفي^(٥) عن ابن عباس أيضاً في الآية قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ ، والزينة اللباس ، وهو ما يوارى السوءة ، وما سوى ذلك من جيد البزّ والتناع ، فَأَمَرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أَمَرُوا بِلِبْسِ الثِّيَابِ ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة

(١) أخرجه مسلم في : ٥٤ - كتاب التفسير ، حديث ٢٥ (طبعنا) .

(٢) تطوفاً : هو ثوب تلبسه المرأة تطوف به . وكان أول الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبداً . ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى ، ويسمى اللقاء . حتى جاء الإسلام فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِسِتْرِ الْعَوْرَةِ ، فقال تعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وقال النبي ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » .

(٣) الأثر رقم ١٤٥٠٤ .

(٤) الأثر رقم ١٤٥٠٧ .

(٥) الأثر رقم ١٤٥٠٨ من تفسير ابن جرير .

من الزينة . وقال مجاهد : كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجاً أو معتمراً يقول : لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه ، فيقول : من يعيرني مثراً ؟ فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون : (خُذُوا زِينَتَكُمْ ...) الآية . وقال الزهري : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا المحس - وهم قريش وأحلافهم - فمن جاء من غير المحس ، وضع ثيابه ، وطاف في ثوب أحسّى ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه . فإن لم يجد من يعيره من المحس فإنه يلبس ثيابه ، ويطوف عرياناً . وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها ، إذا قضى طوافه وحرّمها ، أى جعلها حراماً عليه ؛ فلذلك قال تعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة . قال مجاهد : ما يوارى عوراتكم ، ولو عباءة - انتهى - قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير وقتادة والسدي ، والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها : أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة - انتهى - فظهر أن المراد بالزينة ما يستر العورة لأنه اللازم للمأمور به الذي بيّنه سبب النزول ، دون لباس التجميل المتبادر منه ، لأن الاستفادة من (خُذُوا) هو وجوب الأخذ ، ولباس التجميل مسنون - قاله الشهاب - وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص ، لغةً ، بالجيد من اللباس كما توهم . وبين ذلك العوفي عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفي (التهذيب) : الزينة اسم جامع لكل شيء يزين به . ومثله في (الصحاح) و (القاموس) وعبارته : الزينة ما يزين به .

وقال الحراني : الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله ، ولا في الدنيا ولا في الآخرة - انتهى - .

وقد نقل الرازي إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التي تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات . قال : وأيضاً إنه تعالى قال في الآية المتقدمة (قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيثًا) فبين أن اللباس الذى يوارى السوء من قبيل الرياش والزينة . ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية . فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذى تقدم ذكره في تلك الآية . وأيضاً فقوله (خُذُوا زِينَتَكُمْ) أمر ، والأمر للوجوب . فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان . ولا يقال : إن قوله (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) أمر إباحة ، فيكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف ، تركه في المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت في الصلاة في النعال . وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبي هريرة مثله . قال ابن كثير : وفي صحته نظر - والله أعلم - قلت : لا نظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا في المقدمة أن قولهم : (نزلت في كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوصة بنوعه ، فنعلم ما أشبهه ، فتدكر . والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً ، منها : عن أبي مسلمة ^(١) سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلى في نعليه ؟ قال : نعم (متفق عليه) . قال العراقي في (شرح الترمذى) : وممن كان يفعل ذلك - يعنى لبس النعل في الصلاة - عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفى ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء ابن يسار وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وطاوس وشريح القاضي وأبو مجلز وأبو عمر الشيباني والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعى وإبراهيم التيمى وعلى بن الحسين وابنه أبو جعفر . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٢٤ - باب الصلاة في النعال حديث رقم ٢٥٦ .

وقد أخرج أبو داود^(١) من حديث أبي سعيد الخدري أنه قال : قال ﷺ : إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليُنظر فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى فليمسحه وليصلّ فيهما . وحديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافياً ومنتملاً . أخرجه أبو داود^(٢) وابن ماجه^(٣) .

الثاني : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة في المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال : لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة ، فهم منها ، في الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن

(١) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب الصلاة في الفعل ، حديث ٦٥٠ ونصه :

عن أبي سعيد الخدري قال : بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه ، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره .

فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال « ما حملكم على إلقاءكم نعالكم » ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جبريل صلى الله عليه وسلم ، أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً » وقال « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليُنظر . فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى ، فليمسحه وليصلّ فيهما » .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب الصلاة في الفعل ، حديث ٦٥٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٦٦ - باب الصلاة في النعال ، حديث ١٠٣٨ (طبعنا) .

وجمال فيها . قال السكيا الهراسي : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذي يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف . وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة في مساجد القبائل بغير أزدية . واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين . كذا في (الإكمال) . والأخير من الغلو في النزاع . وقال ابن كثير : وهذه الآية وما ورد في معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد . والطيب لأنه من الزينة . والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وإن من خير أكل السك والإمء ، يحلوا البصر وينبت الشعر ولأحمد^(٤) وأهل السنن ، عن سمره بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم . وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تيمماً الداري اشترى رداءً بألف ، وكان يصلي فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب في قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) ما رواه السكبي أن بني عامر كانوا لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٢١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٤ - باب في الأمر بالكحل ، حديث ٣٨٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٨ - كتاب الجنائز ، ١٨ - باب ما يستحب من الأكفان .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍ (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) . وقال السدّي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم . فقال الله تعالى لهم : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا . . . الآية .
الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمي المينيّ في تفسيره (التهذيب) : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين :
أولهما : إنفاق في معصية كالغفّار واللعب والزنى والخمر ونحوها . وثانيهما : أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار . لأن من له قدر يسير ، لو أتقته في ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليه ، فهو سرف محرم . ومثله في الموسرين لا يفتح ولا يكون سرفاً . وتدل على أن الأشياء على الإباحة . والعقل يدل على ذلك . لأنه تعالى خلقه لمنافعهم . والسمع ورد مؤكداً . ولذلك قال : (مَنْ حَرَّمَ) مطالباً بدليل سمعيّ اهـ .
وقد روى الإمام أحمد^(١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال :
كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير غيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده . وأخرج النسائي^(٢) وابن ماجه^(٣) نحوه .
وقال البخاريّ^(٤) : قال ابن عباس : كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك اثنتان :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٨١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) الحديث رقم ٦٦٩٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٦٦ - باب الاختيال في الصدقة .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٣٢ - كتاب اللباس ، ٢٣ - باب البس ماشئت ، ما أخطأك سرف أو غيلة ، حديث رقم ٣٦٠٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ١ - باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

سرف أو مخيلة . ورواه ابن جرير ^(١) عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة . قال الشهاب : هذا (أى ما قاله ابن عباس) لا ينافي ما ذكره الثعالبي وغيره من الأدباء ؛ أنه ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي ، ويلبس ما يشتهي الناس ، كما قيل :

نصيحة نصيحة قالت بها الأكياس

كل ما اشتهيت والبس ن ما اشتهته الناس

فإنه لترك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه . و (المخيلة : الكبر) . و (ما) دوامية زمانية . و (أخطأتك) من قولهم : أخطأ فلان كذا ، إذا عده . وفي الأساس : من المجاز لن يخطئك ما كتب لك ، وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ، وتخطأته النبل : تجاوزته وتخطأته . انتهى .

وفي قوله تعالى : (إِنَّهُ وَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء . لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس - تناقل المفسرون وغيرهم ما قيل إن قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) الآية -

جمع الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشري والكرمانى في عجائبه ؛ أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعل بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) ، فقال النصراني : ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب ! فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال قوله ^(٢) : المعدة بيت الداء ، والحمية

(١) الأثر رقم ١٤٥٢٩ من التفسير .

(٢) قال في كشف الخفاء ، رقم ٢٣٢٠ ما يأتي :

قال في (المقاصد) : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ . بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره .

رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانيّ : ما ترك كتابكم ولا نبيكم
لجالينوس طبّاً .

قال في (العناية) : وترك بعضهم تمام القصة ، لأن في ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين .
وفي شعب الإيمان للبيهقيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا سحت المعدة ، صدرت العروق بالصحة ،
وإذا فسدت المعدة ، صدرت العروق بالسقم . - انتهى - .

أقول : إن سحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصرانيّ في سؤاله الثاني بالتفنيد
والفرية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثّر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم
يؤثر عن نبيّ قط . وللمحدثين ، في عهد السلف ، منه قسم كبير في جوامعهم ومسانيدهم . وأما
أعلام المتأخرين فقد اضطروهم وفرة ما روى في ذلك إلى تدوينه في أسفار مطولة ومختصرة
بعنوان (الطب النبويّ) . وقد بين الإمام ابن القيم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على
أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، في كتابه (زاد المعاد) ، بياناً يدهش الألباب ،
وفوق كل ذي علم عليم . قال ، عليه الرضوان ، في كتابه (زاد المعاد ، في هدى خير العباد) :

فصل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ في المغازي والسير والبعوث والسرايا والرسائل والكتب
التي كتب بها إلى الملوك ونوابهم ، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة في هديه في الطب الذي
تطب به ، ووصفه لغيره ، ونبين ما فيه من الحكمة التي يعجز أكثر عقول أكثر الأطباء عن
الوصول إليها ، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم ، فنحن نقول وبالله المستعان :
المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان . وهما مذكوران في القرآن . ومرض

القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى ؛ وكلاهما في القرآن . قال تعالى في مرض الشبهة : فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا^(١) ، وقال تعالى : وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا^(٢) . وقال تعالى في حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض : وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٣) .
فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى : يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنَآ كَآحِدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ، إِنَّ أَتَقَاتِينَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَّرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا^(٤) . فهذا مرض شهوة الزنى - والله أعلم .

وأما مرض الأبدان فقال تعالى^(٥) : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ . وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع ، يبين

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٨ - ٥٠] .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] .

(٥) [٢٤ / النور / ٦١] . . . وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ =

ذلك عظمة القرآن والاستغناء به ، لمن فهمه وعقله ، عن سواه . وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحماية عن المؤذي ، واستفراغ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة . فقال في آية الصوم: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ^(١) . فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ والمسافر، طلباً لحفظ صحته وقوته ، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجب من التحليل وعدم الغذاء الذي يخالف ما تحلل ، فتخور القوة وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها . وقال في آية الحج: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ^(٢) . فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قتل أو

= أَوْ يُبُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، . . . وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ وَفِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ وَ . . . ، فَإِذَا آمَنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ وَ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

حكمة أو غيرها ، أن يخلق رأسه في الإحرام استفراناً لمسادة الأبحرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر ، وإذا خلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبحرة منها . فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤدي انحباسه . والأشياء التي يؤدي انحباسها ومداومتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمني إذا سبغ ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داءً من الأدواء بحبسه . وقد نبه سبحانه ، باستفراغ أدناها وهو البخار المحقن في الرأس ، على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هي طريقة القرآن ؛ التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحمية ، فقال في آية الوضوء : وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ تُجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ^(١) . فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه . وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له ، من داخل أو خارج . فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب ، ومجامع قواعده ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم ، وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها ، وبأسماؤه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولحاجته ، متجنبية لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك . وإنما ذلك حياة نفسه

(١) [٤ / النساء / ٤٣] يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، . . . فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنْ أَلَّه كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها . وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بعزل . ومن لم يميز بين هذا وبين هذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات . وعلى نوره ، فإنه منغمس في بحار الظلمات - انتهى - :

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر في كتابه (طريق الهجرتين) نوره أيضاً لبداية أسلوبه . قال عليه الرحمة :

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعيّ بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالسكية كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ماهي عليه ، كما يدرك الحلو مرّاً ، والخبيث طيباً ، والطيب خبيثاً . وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة . فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدّ الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال ، إما فساد في الكمية أو في الكيفية فالأول إمانقص في المادة فيحتاج إلى زيادتها ، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها . والثاني إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعيّ ، فيداوى بمقتضى ذلك . ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي ، واستفراغ الموادّ الفاسدة . ونظرُ الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة . وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان ، ويقضي المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برأ ، حفظاً لقوتهما عليهما . فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً ، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، فالصوم يضعفها . فأما الحمية عن المؤذي ، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له

عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذي له في باطنه ؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة ، فإنه سبحانه أباح للمُحَرَّم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنَبَّه به على ما هو أحوج إليه منه .
وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال : والله ! لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة ، لكان سفرًا قليلًا - أو كما قال - انتهى .

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئًا من المأكّل والمشارب والملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، تأكيدًا لما سبق ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم « مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ » أى من الثياب وسائر ما يتجمل به « الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » من النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدرع . هكذا عمم المفسرون هنا . ووجهه أن تخصيصه يعنى عنه ما مرّ « وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » أى المستلذات من المأكّل والمشارب .

قال المهايى : يعنى إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذى هو العبادة ، فيحرمان منها ، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة ، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافى ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التي خلقها لتطيب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافى التلذذ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات

الأول - فسرت (الطيبات) : (الحلال ، وفسرت : (اللحم والدسم) الذي كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم ، وفسرت : (البحائر والسوائب) كما قال تعالى ^(١) : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا . وظاهر أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، لأنها إنما وردت نعيماً عليهم فيه ، والعبارة بعموم اللفظ .

قال الرازي : لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحلى (يعنى للنساء) . ثم قال : ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب . وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) على عثمان بن مظعون ، ما هم به من الاختصاص والتبطل .

الثاني - دلت الآية على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام في (مَنْ) لأنكار تحريمها على وجه بليغ ؛ لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث - في الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد في ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرّمه على غيره . وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري : لقد أخطأ

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] . . . قُلْ آلَهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ .

(٢) جاء في طبقات ابن سعد (ج ٣ ص ٣٩٤ ، طبعة بيروت) قال : أخبرنا سليمان ابن داود الطيالسي قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد ردّ رسول الله ﷺ ، على عثمان بن مظعون ، التبطل . ولو أذن له في ذلك ، لاختصى .

من آثر لباس الشعر والصوف ، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة - انتهى - .

الرابع - قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخز للرجال . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخز ، فقال له الناس : مثلك يلبس هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذي يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاووس أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا بالدبياج ، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا في (الإكمال) .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غنى عن البيان ، لأن ما خصه الدليل لا يتناول العام . والأحاديث في تحريم الحرير لا تحصى كثرة ، فاستنباط حله منها مردود على زاعمه .

« قُلْ هِيَ » أى زينة الله والطيبات ، مخلوقة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » بالأصالة ، والكفرة وإن شاركهم فيها فتبع « خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى : لا يشاركهم فيها غيرهم ؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين . وانتصابها على الحالية . وقرئ بالرفع ، أى على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المهايى : إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجأ لهم إلى الإيمان . فإذا ذهب هذا المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين ، وهو خلاف مقتضى الحكمة . وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير انهماك في الشهوات .

« كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى الحكمة في خلق الأشياء ، واستعمال

الأشياء على نهج ينفع ولا يضر . فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع في الكبر ،
والانهماك في الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قُلْ » إنيهما من المنافع الخالصة في أنفسهما . والإفشاء احتمال غير محقق . فإذا أفضى ،
فالحرام هو المفضي إليه بالذات لأنه « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ » أي : ما تفاحش قبجه
من الذنوب ، أي ترايد (وهي الكبائر) وهي ما يتعلق بالفروج « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »
أي : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ،
وما بطن من أفعال القلوب « وَالْإِثْمَ » أي : ما يوجب الإثم ، وهو عام لكل ذنب ،
وذكره للتعميم بعد التخصيص . ويقال : إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر ^(١) :

نهانا رسول الله أن تقرب الزنى وأن تشرب الإثم الذي يوجب الوزراً
وأنشد الأخفش ^(٢) :

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلي كذلك الإثم تذهبُ بالعقول

وهو منقول عن ابن عباس والحسن . وذكره أهل اللغة كالأصمعي وغيره . قال الحسن :
ويصدق قوله تعالى : قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ^(٣) . وقال ابن الأنباري : لم تسم العرب الخمر

(١) لم أقف على هذا البيت في محل ما ، ولم أعرف اسم هذا الشاعر .

(٢) استشهد به في اللسان ، مادة (ا ث م) بالصفحة رقم ٦ من المجلد الثاني عشر
(طبعة بيروت) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا =

إنما في جاهلية ولا إسلام ، والشعر المذكور موضوع . وردّ بأنه مجاز ، لأنه سبيه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا ، لأن السورة مكية ، ولم تحرم الحمر إلا بالمدينة بعد أخذ ، وقد سبقه إلى هذا غيره . وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليل . كذا في (العناية) « وَالْبَغْيَ » أى : الاستطالة على الناس وظلمهم . إنما أفردته بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة في الزجر عنه . وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضى أنه تَمَيَّزَ من بينها حتى عدّ نوعاً مستقلاً « بِغَيْرِ الْحَقِّ » متعلق بـ (البغى) ، مؤكداً له معنى . وقيل : البغى قد يخرج عن كونه ظاهراً إذا كان بسبب جائز في الشرع ، كالقصاص ، إلا أن مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة « وَ » قد حرّم « أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا » أى : برهاناً أى : ما لم يقم عليه حجة . قال الزخشرى : فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره . وفى (العناية) : إنما جاء التهم من حيث أنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرماً ، دلالة على تقليدهم فى الغى . والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ - انتهى - قال الرازى : وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وتبعه القاضى فقال : فى الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان « وَ » قد حرّم عليكم « أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : تقولوا عليه ، وتفتروا الكذب فى التحليل والتحريم ، أو فى الشرك .

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله (الْفَوَاحِشَ وَأَلْأَنَامَ) يشتمل على الصغير والكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقوال الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة . ودخل فى قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب

= إِنْهُمْ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

والخianات ، والمكر ، والخديعة . ودخل تحت قوله (وَالْبَغْيَ) كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله (وَأَنْ يُشْرِكُوا) تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله (وَأَنْ تَقُولُوا) كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه . فالآية جامعة في المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة في المباحات . وفيه تعليم للآداب، ديناً ودنياً ، وتدل على بطلان التقليد، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله (مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا) ، والسلطان الحجة . وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لا يجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله . انتهى .

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عنده سبحانه ، كما نزل بالأهم ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)
« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى : مدة أو وقت لنزول العذاب بهم « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ »
أى : ميقاتهم المقدر لهم « لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » أى : لا يتركون بعد الأجل شيئاً قليلاً من الزمان ، ولا يهلكون قبله كذلك . والساعة مثل في غاية القلة من الزمان .

لطائف

١ - وقع هذا التركيب في موضع من التنزيل ، وفيه بحث مشهور : وهو أنه لما كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوق وغيره ، أورد عليه أنه فاسد ، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلية لا الماضية ، والاستقدام حينئذ بالنسبة إلى مجلّ الأجل متقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدمه ؟ ويصير باب الإخبار

بالضرورة الذي لافائدة فيه ، كقولك : إذا قت فيما يأتي ، لم يتقدم قيامك فيما مضى . وأجيب بأن المراد بالحيء الدنو ، بحيث يمكن التقدم في الجملة ، كجىء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة فيه . وقيل : إن جملة (لَا يَسْتَقْدِمُونَ) مستأنقة . وقيل : إنها معطوفة على الشرط وجوابه ، أو على القيد والمقيّد . أو أن مجموع (لا يستأخرون ولا يستقدمون) كناية عن أنهم لا يستطيعون تغييره . والتحقيق أنه عطف على (يَسْتَأْخِرُونَ) لكن لا لبيان انتفاء التقدم ، مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، كما يتوهم ، بل للمبالغة في انتفاء التأخر . يعني أن التأخر مساوٍ للتقدم في الاستحالة ، ولذا نظمهم معه في سلك ، كافي قوله سبحانه ^(١) : (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوَتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً ، قد نظم في عدم القبول ، في سلك من سوفها إلى حضور الموت . إيذاناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة .

٢ - تقديم بيان انتفاء الاستئجار ، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب . وأما (ما) في قوله تعالى : (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) ^(٢) من سبق (السابق) في الذكر ؛ فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له ، حسبما ينبي عنه قوله تعالى : (ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ^(٣) . فالأهم هناك بيان انتفاء السابق .

٣ - صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك ، مع طلبهم له ، أفاده أبو السعود . ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يهدونهم ، وبشر وأنذر بقوله سبحانه :

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . أَوَلَيْسَ لَكَ أَعْدَاءُ كُفَرُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) [١٥ / الحجر / ٥] .

و [٢٣ / المؤمنون / ٤٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَبْنِيْٓءَ اٰدَمَ اِمًا يَّاٰتِيْنَكُمْ رُّسُلًا مِّنْكُمْ يَفْقَهُوْنَ عَلٰٓيَتِيْٓءَ اٰيٰتِيْ

فَمَنْ اٰتَقٰ وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ)

« يَبْنِيْٓءَ اٰدَمَ اِمًا يَّاٰتِيْنَكُمْ رُّسُلًا مِّنْكُمْ يَفْقَهُوْنَ عَلٰٓيَتِيْٓءَ اٰيٰتِيْ » شرط ذكره بحرف الشك ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب . وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة . والمراد ببني آدم جميع الأمم ، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم . وليس المراد بالرسل نبينا ﷺ وبني آدم أمته ، كما قيل ، فإنه خلاف الظاهر - كذا في (القاضى وحواشيه) - وجواب الشرط قوله تعالى «فَمَنْ اٰتَقٰ» أى التكذيب « وَأَصْلَحَ » أى عمله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من العذاب « وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ » فى الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآٰيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَاۤ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ

هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ)

« وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآٰيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا » أى تكبروا « عَنْهَا » فلم يؤمنوا بها
أُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ » :

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآية على وجوب اتباع الرسل ، وقبول ما يؤدّون . وتدل على أن الصلاح فى الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف ، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب . وتدل على أن الغرض بالرسول ما يؤدى من الأدلة ، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولا إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين :

بالأعمال الصالحة ، و اتقاء المعاصي ، فبطل قول المرجئة . وتدل على أن المؤمن في الآخرة لا يخاف ولا يحزن ، خلاف ما يقوله الأحسدة (كذا) والحشوية - هكذا قاله أكثر أصحابنا .
وقال أبو بكر أحمد بن علي : قوله (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعني أن أمره يؤول إلى العافية . وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً . وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً . وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد ، فبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله .

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ
نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ
تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)
« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ » أي ممن تقول على الله
كذباً بالتحليل والتحريم ، أو بنسبة الولد والشرىك ، أو كذب بآياته المنزلة « أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ
نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ » أي يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك . أي
مع ظلمهم وافتراءهم وتكذيبهم ، لا يُخَرَّمون ما قدر لهم من العمر والرزق إلى انقضاء آجالهم .
وفي الآية وجوه آخر ، هذا أظهرها وأقواها في المعنى ، وتمتة الآية تدل عليه ، وحينئذ تتلاقى
مع نظائرها ، كقوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعُ
فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ^(١) .

وقوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُمْ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا... (١) الآية - « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ » أى : ملائكة الموت تقبض أرواحهم « قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء ، فلا نراهم يخلصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد . وفائدة السؤال وجهاً : توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غمًا إلى غم ، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب . و (ما) وقعت موصولة بـ (أين) فى خط المصحف العثماني ، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة « قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » أى : غابوا عنا فلم يخلصونا من شيء « وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : عابدين لما لا يستحق العبادة . اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمده فى العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ » أى الله ، سبحانه ، لهم فى الآخرة « أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ » أى فى جملة أُمَمٍ قد مضت « مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ » يعنى كفار الأُمَم الماضية من النوعين « فِي النَّارِ » متعلق بـ (ادخلوا) « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ » أى فى النار « لَعَنَتْ أُخْتَهَا » أى التى

(١) [٣١ / لقمان / ٢٤ و ٢٣] ... ثُمَّ نَصْطَرِّهُم إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام^(١): «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ... الآية - «إِذَا أَدَّارَ كُؤًا فِيهَا جَمِيعًا» أى تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا فى النار» قَالَتْ أُخْرَاهُمْ» وهم الأتباع «لِأَوْلَاهُم» أى : لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه ، لامعهم . قال ابن كثير : أى قالت أخراهم دخولاً وهم الأتباع ، لأولاهم وهم المتبعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: «رَبَّنَا هَـؤُلَاءِ أَضَلُّونَا» أى سنّوا لنا الضلال ، ودعوا إليه ، فاقْتَدِينَا بِهِمْ «فَأَتَاهُمُ عَذَابٌ مُّضَاعَفٌ مِّنَ النَّارِ» أى مضاعفاً لأنهم ضلّوا وأضلّوا «قَالَ» أى تعالى «لِكُلِّ ضِعْفٍ» أى عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال . وأما الأتباع والسفلة ، فبالضلال وتقليد أهل الضلال ، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة «وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» أى مالكم ، أو مالكل فرقة . وقرئ بالياء . وعليها ، فهو تذييل لم يقصد إدراجه فى الجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَالَتْ أُولَٰهُمُ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

«وَقَالَتْ أُولَٰهُمُ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» أى لافضل لكم علينا فى ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم ، فقد ضلّتم كما ضللنا ، ففحن وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» من قول القادة ، أو من قول الله تعالى للفريقين ، وهو أظهر .

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٢٥] ونصها : وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ .

تنبيه :

قال الجسمي : تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة ، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم ، وتوادوا في الدنيا ، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم . وتدل على فساد التقليد ، والاعتراض بقول علماء السوء . وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضل . وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بمعذر له . وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة ، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا . وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم ، فيبطل قول المجبرة في المخلوق ، والهدى والضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُلَاحِظَ الْأَخِلْيَاطُ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » أي لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله . أي لا يقبل ذلك منهم ، لأنه ليس صالحاً ولا طيباً . وقد قال سبحانه : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (١) قال ابن عباس : أي لا يرفع لهم منها عمل صالح ، ولا دعاء رواه جماعة عنه . وقاله مجاهد وابن جبير . أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يفتنون ، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من السماء ، كما في قوله : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) (٢)

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا . . . وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ .
(٢) [٥٤ / القمر / ١١] .

أو المعنى : لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ما روى أن الجنة في السماء . أو المعنى لا تفتح لأرواحهم ، إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين - رواه الضحاك عن ابن عباس - ورواه ابن جرير ^(١) عن البراء : أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرّون على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! (بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . . .) الآية - قال ابن كثير : هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه الإمام أحمد ^(٢) مطولاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق .

(١) الأثر رقم ١٤٦١٤ من التفسير .

(٢) هأنذا أثبت هذا الحديث مطولاً . فقد رواه في المسند بالصفحتين ٢٨٧ و ٢٨٨ من

الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد . فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير . وفي يده عود ينسكت في الأرض فرفع رأسه فقال « استمعيدوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يحيى ملك الموت ، عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها . فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب

تنبيهات :

الأول - قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح - وارد في النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

= نفحة مسك وجدت على الأرض . قال فيصعدون بها . فلا يرون (يعنى بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا . فيستفتحون له فيفتح لهم . فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة . فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض . فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه مَلَكَان فيُجلِسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى . فافرشوه من الجنة والبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره .

قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كُنت توعده . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجرى بالخير . فيقول : أنا عمك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال ، وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مدّ البصر . ثم يجيء =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر في مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة .
والتنزيل الكريم ، إنما ورد على مناجٍ للعرب معروفة في لسانهم - والله أعلم .

= مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فقول : أيتها النفس الخبيثة ! اخرجي إلى سخط
من الله وغضب .

قال فتفرق في جسده . فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول . فيأخذها . فإذا
أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك الوسوح . ويخرج منها كأنن ريح
جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملاٍّ من الملائكة إلا
قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها
في الدنيا) حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح له فلا يفتح له .

ثم قرأ رسول الله ﷺ « لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ . » فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض
السفلى . فتطرح روحه طرحاً .

ثم قرأ : وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرَّيْحُ فِي مَسْكَانٍ سَحِيقٍ . « فتعاد روحه في جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له :
من ربك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري .
فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري . فينادى منادٍ
من السماء : أن كذب . فافرشوا له من النار . وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرّها
وسمومها . ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ،
منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك . هذا يومك الذي كنت تعد . فيقول : من أنت ؟
فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عمك الخبيث . فيقول : رب ! لا تُقم الساعة . »
وأخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنّة ، ٢٤ - باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ،

حديث ٤٧٥٣ .

الثانى - التضعيف فى (تفتح) لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .

الثالث - قرئ بالتخفيف فى (تفتح) وبالتخفيف ، والياء . وقرئ على البناء للفاعل ،

ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .

« وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ » أى يدخل « الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » أى ثقب

الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

لطائف

الأولى - قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير

قال الفراء : الجمل زوج الناقة . وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل

والناقة بمنزلة الرجل والمرأة . وقرئ فى الشواذ (الجَمَل) كسكَّر وصرَد وقُفِلَ وعُنُقُ وجَبِلَ

بمعنى جبل السفينة الغليظ الذى يقال له (القَلَس) .

وقال أبو البقاء : يقرأ فى الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف

المتنوع ضعيف ؛ ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الجبل الغليظ ، وهو جمع

مثل صُومَ وقُومَ ؛ ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أَسَدَ وأُسْدَ ؛ ويقرأ

كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم - انتهى - .

وذكر الكواشى أن القراءات المذكورة كلها لغات فى البعير ما عدا « جَمَلًا » كسكَّر

وقفِلَ ، ونوقش فى ذلك - انتهى - .

وقراءته (كسكَّر) على معنى الجبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ،

واختارها سعيد بن جبير .

قال الزمخشريّ : وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه

بالجمل ، أن الجبل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه . إلا أن

قراءة العامة أوقع ، لأن سمَّ الإبرة مثل فى ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خَرَّتِ الإبرة .

وقالوا للدليل الماهر (خَرَّيْتُ) للابتداء به في المضائق المشبهة بأخترات الإبر ؛ والجلُّ مثل في عظم الجرم ، قال ^(١) :

* جسم الجمال وأحلام العصافير *

إن الرجال ليسوا بجَزَرٍ تَراد منهم الأجسام ، فقيـل : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان ، الذي لا يلج إلا في باب واسع ، في ثقب الإبرة .. وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل؟ فقال : زوج الناقة، استجهاً للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف - انتهى - .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً في عظم الجسم ، لأنه أكبر الحيوانات جسماً عند العرب ، وخرق الإبرة مثلاً في الضيق ، ظهر التناسب . على أن في إثارة الجمل ، وهو مما ليس شأنه الولوج في سم الإبرة ، مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية - (السَّم) : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها ، لفتان - انتهى وصرح بالتمثيل فيه ، وفي القاتل المعروف ، صاحبُ القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور في الثقب الفتح كما في التنزيل . والأفصح في القاتل الضم .

(١) صدر البيت :

* لا بَأْسَ بالقوم من طُولٍ ومن عِظَم *

وقائله حسان بن ثابت الأنصاري ، ورواية العجز في الديوان :

* جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ *

قاله من قصيدة يهجو بها النجاشي الشاعر ومطلعها :

حَارِبِ بْنِ كَعْبٍ أَلَا أَحْلَامُ تَزْجُرُكُمْ عَنَا وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَّ آخِرِ

قوله : تزجركم عنا ، أي عن هجائنا . والجوف ، جمع أجوف ، وهو واسع الجوف . والجماهير جمع جمخور ، وهو الواسع الجوف أيضاً . والمراد الضعفاء المستريحون .

قال العلامة الفاسي : قال الزبيدي : لم أر من تعرض لكسرهما ، وكأنها عامية .
قلت : قال الزخشرى : وقرئ (فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً .
الثالثة - (الْخِيَاطِ) ككتاب ومنبر ، ماخبط به الثوب ، والإبرة - كذا في القاموس -
قال الزخشرى : وقرأ عبد الله (في سم الخيط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ،
كما ذكره المعرّب ، وهي قراءة شاذة .

الرابعة - قال السيوطي (الإكمال) : في قوله تعالى (حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ ... الخ)
جواز فرض الحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء - انتهى - .
والتعليق على الحال معروف في كلام العرب ، كقوله :
إذا شاب الغراب أُنيتُ أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب
وقوله تعالى « وَكَذَلِكَ » أى مثل ذلك الجزاء الفظيع « نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)
« لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ » أى : فرش من تحتهم « وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » أى أغشية ،
إذا حاطت بهم الخطيئة « وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالكفر ، وإنما عبر عنهم
بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى ، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بكل واحد
من ذينك الوصفين القبيحين . وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة ، والظلم مع
التعذيب بالنار الذى هو أشد من الحرمان المذكور - تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم .
ثم تأثر تعالى وعيده بوعده ، على سنته في تنزيله الكريم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » قال أبو البقاء : والذين آمنوا مبتدأ ، وفي الخبر وجهان : أحدهما - (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ، والتقدير (منهم) ، فحذف العائد ، كما حذف في قوله : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(١) .

والثاني - أن الخبر (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) و (لَا نُكَلِّفُ) معترض بينهما - انتهى - وعلى الثاني اقتصر غير واحد من المحققين . قالوا : وسر الاعتراض ، الترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ، وتيسير تحصيله . والذي حسنه سبق العمل الصالح قبله . أي وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع ، زادت الرغبة في ذلك الاكتساب ، لحصوله بما فيه يسر لا عسر .

لطيفة :

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمر . قاله الرازي ، أخذاً من قول معاذ في الآية (يسرها لا عسرها) قال : وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً . وغلط من ظن أنوسع بذل المجهود .

قلت : في القاموس : الوسع (مثلية) الجدة والطاقة كالسعة . وفيه : الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة - انتهى - .

قال ابن الأثير : الجهد (بالفتح) المشقة ، وقيل : المبالغة والغاية ، وبالضم الوسع والطاقة ،

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٣] .

وقيل : ها لغتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية ، فالفتح لا غير - انتهى -
وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازي قول للغويين ، ليس وفاقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ » أى : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة، أو نظيرها منها، حتى لا يكون بينهم إلا التواد والتعاطف. وصيغة الماضي للإيدان بتحقيقه وتقرره وتقرره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » أى لما جزأه هذا ، أى : لأسباب هذا العلو ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » أى ما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه ، لولا أن وفقنا الله بدلائله والطفه وعنايته « لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » أى : فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشري : يقولون ذلك ، أى (الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الخ) سروراً واعتباطاً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به ، لا تقرباً ولا تعبدًا ، كما ترى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ، ولا يبالك أن لا يقوله ، للفرح والتوبة « وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : أعطيتموها بسبب أعمالكم في الدنيا . فالإراث مجاز عن الإعطاء ، تجوز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً ، وإن كان سبباً بحسب الظاهر ، كما أن الإرث ملك بدون كسب ، وإن كان النسب مثلاً سبباً له . وعلى ما تقرر ، فلا يقال إنه معارض لما ثبت في الصحيحين^(١) من قوله ﷺ : واعلموا أن أحسكم لن يدخله عمله الجنة ! قالوا

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق، ١٨ - باب القصد والمداومة على العمل،

حديث ٢٤٢٧ ونصه :

==

ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل . ولا يحتاج إلى الجواب عنه ، ولا أن يقال الباء للعوض لا للسبب . وهذا تنجيز للوعد بإثابة المطيع ، لا بالاستحقاق والاستيجاب ، بل هو بمحض فضله تعالى ، كالإرث - كذا في العناية - .
 روى الإمام مسلم^(١) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً . فذلك قوله عز وجل (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ ...) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَاذْنِ مُؤَدِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ نَعْمَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ)

« وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ » أى إذا استقروا في منازلهم « أَصْحَبَ النَّارِ » توبيخاً

= عن عائشة عن النبي ﷺ قال « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة » .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٧٨ (طبعنا) .

(١) أخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٢٢ (طبعنا) ونصه :

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « ينادى منادٍ : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » .

فذلك قوله عز وجل : وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وتحسيراً لهم « أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » حيث نلنا هذه المراتب العالية « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » من تنزيلكم إلى أسفل سافلين ، لاستكباركم على الآيات والرسل « قَالُوا نَعَمْ » أى وجدناه حَقًّا « فَأَذَّنَ » أى نادى « مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ » أى بين الفريقين ليسمعهم ، زيادة في شتامة أحد الفريقين وندامة الآخر « أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذى بينه على السنة رسله لمعرفة وعمارة الدارين « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : يبتغون لها زيغاً وميلاً عما هى عليه ، حتى لا يتبعها أحد « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » أى وهم بقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون لا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون ، فيأتون المنكر من القول والعمل ، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَثِيرًا بِسَيِّئِهِمْ ، وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) « وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ » أى : بين الفريقين سور وستر ، أو بين الجنة والنار ، لينع وصول أثر إحداها إلى الأخرى . وقد سمي هذا الحجاب سوراً فى آية^(١) (فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا مِّنْ بَابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) وقوله تعالى « وَعَلَى الْأَعْرَافِ » (١) [٥٧ / الحديد / ١٣] ونصها : يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ...

رِجَالٌ» أى على أعراف الحجاب وشرفاته وأعالیه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عَرَفَ ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك . وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما انخفاض .

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أو هم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أودوا في سبيل الله ، فاطمعو على أعدائهم ليشتبوا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلموا على أهل الجنة . واللفظ ، لإيهامه ، يحتمل ذلك ، لأن السياق يدل على سمو قدرهم ، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف ، وهى الأعلى ، والشرف ، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك - والله أعلم - .

« يَعْرِفُونَ كَلًّا » أى من أهل الجنة والنار « بِسِيمَتِهِمْ » أى بعلامتهم التى أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة

السيا مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيما بكسر هـ العلامة . قال القاضى : السيمى فعلى من (سام إبله) إذا أرسلها فى المرعى معلمة . أو من (وسم) على القلب (كالجاء) من (الوجه) . انتهى . وعلى الثانى اقتصر ابن دريد « وَنَادَوْا » أى رجال الأعراف « أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى حين رأوهم من أعرفهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة « أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ » بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المسكاره . والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه عنه العوفى . قال رضى الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيمون أهل الجنة بالسلام « لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل (يَدْخُلُوهَا) ، أى نادوهم وهم لم يدخلوا الجنة بعد ، حال كونهم طامعين فى دخولها ، مترقبين .

قال الجشمي رحمه الله: قيل: إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلم تأخر دخولهم؟ قلنا: هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعداء، وإن تأخر دخولهم، لظهور فضلهم، وجلالة طريقهم إلى منازلهم اهـ.

ولا يبعد عندي أن يكون جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حالاً من (أصحاب الجنة) أى نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة، وعلو منازلهم على سواهم - والله أعلم - .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة، أى: نادى أهل الأعراف أصحاب الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها. وهو وجه جيد. فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحاب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ » أى: أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة .

قال الجشمي: وإنما قال (صُرِفَتْ) لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة . فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم . فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سروراً بهم ، فلا يحتاج إلى تكلف . وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بعداء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشمي: تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة في الدنيا، كيلا يكون معهم في الآخرة - انتهى - .

« تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ » أى: إلى جهنم « قَالُوا » من شدة خوفهم تعوذاً بالله « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى: في النار . وقال أبو السعود: في وصفهم

بالظلم - دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء - إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط ، بل ما يوجهه ويؤدى إليه من الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ

عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

«وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا» يعنى من عظماء أهل الضلالة «يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» أى : التى تدل على أعيانهم ، وإن تغيرت صورهم «قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ» أى : كثرتكم أو جمعكم للأموال التى تدفع بها الآفات «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» عن الحق ، أو على الخلق . وقرئ (تَسْتَكْبِرُونَ) من الكثرة ، أى : من الأتباع الذين يستعان بهم فى دفع الملل .

قال ابن القيم : يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجروكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إيمانى وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأخف . ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَهَـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ

عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

«أَهَـؤُلَاءِ» الضعفاء من المؤمنين «الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» برفع درجاتهم فى الآخرة ، فهام فى الجنة يتمتعون ويتنعمون ، وفى رياضها يُحَبَّرُونَ . وقوله تعالى : «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» أى : لا خوف عليكم من

العذاب النازل بالكفار ، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم ، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف ، يتألمون بينهم بدخول الجنة بعد تبيكيت أهل النار، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة ؛ وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين ، أى يقولون لهم : ادخلوا الجنة ، أو من تنمة مخاطبة أهل الأعراف للرجال ، كأنه قيل لهم : انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، كيف نالوها ، حيث قيل لهم من قِبَلِهِ تعالى : ادخلوا الجنة. وعلى كلِّ فالجمله مبنية على قول محذوف إيجازاً ، للعلم به .

لطيفة :

يَبِّينُ الْمُخْشِرَ سِرَّ حِسْبِهِمْ عَلَى الْأَعْرَافِ ، ثم إدخالهم الجنة أبعد بيان، فقال رحمه الله: يقال لأصحاب الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا مايقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع السيء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه ، وليعلم أن العصاة يؤخّرون كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً - انتهى - .

ثم يَبِّينُ تعالى ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، بعد التكبر عليهم ، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمته ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ

أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » أى : الذى

رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش . قال الجسمي : وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكاناً. « أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الأطعمة والفواكه « قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » أى : منعهما عنهم ، لأنه أنعم عليهم في الدنيا ، فلم يشكروه ، فنعمهم نعمه في الآخرة . فالتحريم تحريم منع ، لا تحريم تعبد . ثم وصف الكافرين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنَسُّهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

« الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا » أى : مما زينهم الشيطان . واللهو : كل ماصد عن الحق . واللعب : كل أمر باطل . أى : ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم ودينهم « وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا « فَالْيَوْمَ نَنَسُّهُمْ » أى : تركهم ترك النسي ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة « كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا » أى : كما فعلوا بقلائه ، فعل الناسين ، فلم يُحْطِطُوا بيبالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : (نَسَّاهُمْ) تمثيل . شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، وولفت إليه ، فينسى . لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، كما قال^(١) : (فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً في لسان العرب . ويصح هنا أيضاً ، فيكون استعارة تحقيقية ، أو مجازاً مرسلًا ؛ وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً ، لأنهم لم يكونوا ذا كرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامه بيبالهم ، وقلة مبالاتهم - بحال من عرف شيئاً ، ثم نسيه . وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً - انتهى .

(١) [٢٠ / طه / ٥٢] قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ...

وقال تعالى: « وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » أى وكما كانوا منكربين أنها من عند الله تعالى . روى الترمذى^(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالعبء يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرب ، وتركتك رأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاق يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى .

وفى حديث أبى هريرة عند مسلم^(٢) : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أى فل ! ألم أكرمك

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٦ - باب منه ، حدثنا سويد بن نصر .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ١٦ (طبعنا) ونصه :
عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فوالذى نفسى بيده ! لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد ، فيقول : أى فل ! ألم أكرمك وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك رأس وتربع ؟ فيقول : بلى . قال أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك رأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أى رب ! فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد على ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى . فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليُعذَر من نفسه .

وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه .

وَأَسْوَدَكَ وَأَزْوَاجَكَ وَأَسْخَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَتْرَكَكَ تَرَأْسَ وَتَرِيعَ ؟ فيقول : بلى يا رب !
 فيقول : أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مَلَاقٍ ؟ فيقول : إني أنساك كما نسيتني !
 ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أراح عليهم في الدنيا بإرسال الرسل ،
 وإنزال الكتب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ » أى بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية
 تفصيلاً مبيناً « عَلَىٰ عِلْمٍ » أى عالين كيف تفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ،
 حتى جاء محكماً قيماً غير ذى عوج ، وهذا كقوله تعالى : أَنْزَلَهُ وَبِعِلْمِهِ (١) . « هُدًى » أى
 دلالة ترشدهم إلى الحق ، وتنجيهم من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى ينجيهم من العذاب لما فيه
 من الدلائل ورفع الشبه « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » لأنهم المقتنون لفوائده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ

قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ

غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » أى ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره ، من تبين
 صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد . قال الشهاب : (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار)

(١) [٤ / النساء / ١٦٦] لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ وَبِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

لا بمعنى الرؤية . والتأويل بمعنى العاقبة ، وما يقع في الخارج ، وهو أصل معناه ، ويطلق على التفسير أيضاً . والمعنى : أنهم قبل وقوع ما هو محقق ، كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقة ما وعدوا به . فلا يقال : كيف ينتظرونه مع جحدهم ؟ فإنهم وإن جحدوه ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفي حكمهم ، من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة « يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ » يعني يوم القيامة ، لأنه يوم الجزاء ، وماتوّل إليه أمورهم « يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ » أي تركوه ترك النسي ، حين كان ينفهمهم الذكر ، فلم يؤمنوا به عند معارضة العذاب « قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » أي بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا » في إزالة العذاب « أَوْ نُرَدُّ » إلى مكان العمل « فَتَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » من الجحود واللغو واللعب وأعمال الدنيا . قال عز وجل : « قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » بصرف أعمالهم في الكفر « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أي ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله ، وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين .

ولما قدم سبحانه ذكر الكفار وعبادتهم غيره ، سبحانه ، احتج عليهم ، مبيناً بأفعاله أنه لا معبود سواه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أي إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذي يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذي أنشأ أعيان السموات والأرض في مقدار ستة أيام .

وفي هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم في اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالمعنى في ستة أوقات ، كقوله تعالى : وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ^(١) . وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالمعنى في مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف - انتهى - .

وفي شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثاني تعريف شرعي عند الأكثر . ونقل عن الفاسي شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدي : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه في قولهم : (أنا ، اليوم ، أفعل كذا) فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر . قال : وبه فسروا قوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)^(٢)

(١) [٨ / الأتفال / ١٦] ... إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِنَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ ، وَيَبْسُ الْمَصِيرُ .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث ^(١) : تلك أيام المهرج . أى وقته ولا يختص بالهار دون الليل - انتهى - .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر . والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقاً ، لغوى فيهما - كما نقله شارح القاموس - خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبت هذا .

الثانية - قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ؛ والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت ، وهو القطع . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ^(٢) في مسنده عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المسكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٥ - باب ظهور الفتن ، حديث رقم

٢٥٤٨ ونصه :

عن أبي وائل ، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال : بين يدي الساعة أيام الهرج . يزول العلم ويظهر فيها الجهل .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٢٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل - فقد رواه مسلم^(١) بن الحجاج في (صحيحه) والنسائي ، من غير وجه . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : في ستة أيام ، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً - والله أعلم - انتهى .

وقد بسطت الكلام فيه في شرحي على (الأربعين العجلونية) .

الثالثة - قال القاضي : في خلق الأشياء مدرجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة - دليل للاختيار . أي لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة . وفيه حث على التأني في الأمور .

وقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه : اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى^(٢) ، وبمعنى القصد ومنه^(٣) : ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ؛ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب : استوى إلى يخاصمني ، أي أقبل عليّ . ويأتي بمعنى الاستيلاء قال الشاعر^(٤) :

* قد استوى بشر على العراق *

(١) أخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٧ (طبعتنا) .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وِلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

(٤) عجزه : * من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقٍ *

استشهد به في اللسان ص ٤١٤ من المجلد الرابع عشر (طبعة بيروت) .

ويقيني أن هذا البيت مصنوع مصنوع .

وقال آخر^(١) :

فَلَمَّا عَلَوْنَا وَاسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمْ تَرَ كُنُفَهُمْ صَرَغَى لِنُفْسٍ وَكَاسِرٍ
ويأتى بمعنى العلو ، ومنه آية : فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ^(٢) : ومنه
هذه الآية .

قال البخارى فى آخر (صحيحه) ، فى كتاب الردّ على الجهمية ، فى باب قوله تعالى :
(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)^(٣) : قال مجاهد : استوى ، علا على العرش - انتهى - .
وفى كتاب (العلو) للحافظ الذهبيّ : قال إسحق بن راهويه : سمعت غير واحد من
المفسرين يقول : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(٤) أى ارتفع . ونقل ابن جرير^(٥) عن
الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع . وقال : إنه فى كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا
حاجة إلى الاستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان الكيف مجهولاً .
روى الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان ،
عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله فى السماء ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخلو
منه شيء .

(١) لم أعرف قائله ولم أجده فى مكان .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] ونصها : فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٣) [١١ / هود / ٧] ونصها : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) الأثر رقم ٥٨٨ من التفسير (طبعة المعارف) .

وروى البيهقي عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته الرُّحْضَاءُ ، ثم رفع رأسه فقال : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . (وكيف) عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة . وفي رواية قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبي في كتاب (العلو) - بعد ما ساق هذا - ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نفعلها بل نجعلها ، وأن استواءه معلوم ، كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا تتعمق ولا تتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نقياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل ، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسمعهم إقراره وإمراره ، والسكوت عنه . ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له في صفاته ، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم قال الذهبي : قال الإمام العلم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف الشهيرة ، في كتابه (مختلف الحديث) : نحن نقول في قول الله تعالى : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ) ^(١) أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإني معك ، يريد أنه لا يخفى على تقصيرك . وكيف يسوغ لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان ، على الحلول فيه ، مع قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أُسْتَوَى^(١) ومع قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)^(٢) كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم ، وما ركبت عليه ذواتهم ، من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العلى وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميها وعربيها يقول : إن الله في السماء ، ما تَرَكْتُ على فِطْرَها - انتهى .

ثم قال الذهبي أيضاً : عن يزيد بن هرون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : من الجهمية ؟ قال : من زعم أن (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى) على خلاف ما يقرّ في قلوب العامة ، فهو جهمي .

قال الذهبي : والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذي وفر في قلوبهم من الآية ، هو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(٣) هذا هو الذي وفر في فطرتهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة . ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوّ هوا به ، ولما أهملوه . ولو تأول أحد منهم الاستواء ، لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق - فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلم ، وما أظن أن أحداً من العامة يقرّ في نفسه ذلك - والله أعلم - انتهى .

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله روحه في كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عز وجل ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ وَ- إِلَّا اللَّهُ)^(١) : قال إسحاق : في العلم . إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله (إِلَّا اللَّهُ) . وقد روى ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما في السموات والأرض . إلى أن قال : ووقف جماعة من منكرى استواء الرب عز وجل على قوله (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ) وابتدأوا بقوله (أَسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) يريدون بذلك نفى الاستواء الذي وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

وقال في كتابه (الغنية) : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال إنه في السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(٢) وقوله (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ أَلَرَّحْمَنُ)^(٣) وقال تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ وَ- إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . (٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ونصها : الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، أَلَرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ^(١) والنبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) حكم بإسلام الأمة لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال النبي ﷺ ^(٣) (في حديث أبي هريرة رضي الله عنه) : لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي . وفي لفظ آخر : لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمهاسة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلو والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الاستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم حملة

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

عن معاوية بن الحكم السلمي . ونص هذه القصة ، قال :

وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبلَ أُحدٍ والجوَّانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكنني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فمظَّمت ذلك عليّ . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتنني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ، حديث ١٥٠٩ .

على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة ^(١) زوج النبي ﷺ في قوله عز وجل (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) ^(٢) : كيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في (صحيفته) ، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تُمرُّ كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضاً (في رواية بعضهم) : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيء من هذه الأماكن ، في كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبي ﷺ ، أو عن أصحابه رضى الله عنهم ، أو عن التابعين . فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال في صفات الرب عز وجل (كيف) ؟ و (لِمَ) ؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك . وقال أحمد رضى الله عنه (في في رواية عنه ، في موضع آخر) : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيّب ، عن كعب الأخبار ، قال ، قال الله تعالى في (التوراة) : أنا الله فوق عبادي ، وعرشي فوق جميع خلق ، وأنا على عرشي ، عليه أدبر عبادي ، ولا يخفى على شيء من عبادي . وكونه عز وجل على العرش المذكور في كل كتاب أنزل على كل نبيّ أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى - فيما يزل - موصوف بالعلو والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره . فلا يحمل الاستواء على ذلك . فالاستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكدته في سبع آيات من كتابه ، والسنة الماثورة به ، وهو صفة لازمة له ، ولا ثقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة ، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونسكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل ،

(١) لم أجد هذا الحديث .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله : كما وصف الله تعالى نفسه في كتابه ، فتفسيره قراءته . لا تفسير له غيرها ، ولم تنكف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والمافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام - انتهى كلام الجيلاني قدس سره - .

وروى أبو إسماعيل الأنصاري في (ذم الكلام وأهله) عن أبي زرعة الرازي : أنه سئل عن تفسير (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فغضب وقال : تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه ، وعلمه في كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأُسند عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار ، حجازاً وعراقاً ، ومصرّاً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائن من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً .

تنبيهات

الأول - في بطلان تأويل (استوى) : (استولى) :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى السكناني ، صاحب الشافعي رحمه الله تعالى ، في كتاب (الرد على الجهمية) : زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أنت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أنت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التي كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها . ثم ذكر كلاماً طويلاً في تقرير العلو والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة في كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود بن علي قال : كنا عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال : مامعنى قوله تعالى (أَلرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي) ؟ قال : هو على عرشه كما أخبر . فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى . فقال : اسكت . لا يقال : استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب ، قيل : استولى . والله تعالى لا مضاد له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة (١) :

إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمْدِ

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن أحمد بن النضر قال : كان ابن الأعرابي جارنا ، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبي دؤاد سأله : أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه ! وفي رواية : أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها

(١) قاله من قصيدته التي مطلعها :

يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعِلْيَاءِ فَالْسَّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

مية ، اسم امرأة . والعلياء مكان مرتفع من الأرض . والسند سند الوادي في الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أي يصعد . وأقوت خلت . والسالف الماضي . والأبد الدهر ، وجمعه آباد .

(معنى البيت) إنه لما وقف على الدار وتذكر من كان فيها من أحبة ، أقبل عليها يخاطبها استراحة منه إليها ، وتوجعاً على من ذهب عنها . ثم تحول من مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب اتساعاً ومجازاً . وكذلك تفعل العرب ، تحول مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب . قال الله عز وجل : حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ . إنما الكلام : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بریح طيبة . وكذلك البيت إنما كان : يادار مية أقويت وطال عليك سالف الأبد .

وفي البيت المستشهد به : استولى : غلب . والأمد : الغاية التي تجري إليها .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابي أبو عبد الله كان لغوى زمانه - كما قال الذهبي - .
وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه (الإبانة في أصول الديانة) ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذب عنه ، عند من يطعن عليه ، فقال :

فصل

في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون . قيل له : قولنا الذي نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائعين .

ثم قال في (باب الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ماتقولون في الاستواء؟ قيل له : نقول : إن الله مستو على عرشه ، كما قال (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وقد قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ^(٢) وقال (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ^(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٤ النساء / ١٥٨] ... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

وقال (يَذِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ)^(١) وقال حكاية عن فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَكَذِبًا)^(٢). كذب موسى في قوله: إن الله فوق السموات. وقال (ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ)^(٣) فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ ، لأنه مستو على العرش الذي هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ ، يعني جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات . ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا)^(٤) فلم يردأن القمر يملأهن ، وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم ، إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله على العرش الذي هو فوق السموات ، فلو لا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحيطونها ، إذا دعوا ، إلى الأرض .

ثم قال :

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل في كل مكان ،

(١) [٣٢ / السجدة / ٥] ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ وَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] ... وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ ، وَمَا كُنْذُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٦٧ / الملك / ١٦] ... فَإِذَا هِيَ تَمُورُ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦] ... وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا .

وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق . وذهبوا في الاستواء إلى (القدرة) ، فلو كان هذا كما ذكره ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شيء ، فالله قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل مافي العالم. فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء) ، وهو عز وجل مستولٍ على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء مستولٍ عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستولٍ على الحشوش والأخيلة ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء) ، الذي هو عام في الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يخص العرش دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل - انتهى - .

قلت: وكلام أبي الحسن الأشعري الأخير مأخوذ من كتاب رد الإمام أحمد على الجهمية، حيث قال في كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا : لِمَ أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(١) وقال : (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَسَّـلَ بِهِ خَيْرًا)^(٢) قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش ، وفي السموات ، وفي الأرض ، وفي كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان . وتلوا آيات من القرآن (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)^(٣) فقلنا : قد عرف المسلمون أما كن كثيرة ، وليس فيها من عظمة

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

(٣) [٦ / الأنعام / ٣] ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الله شيء ، فقالوا : أى مكان ؟ فقلنا : أحشأؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ؛ وقد أخبرنا أنه فى السماء ، فقال سبحانه : (ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ...) ^(١) الآية - وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ^(٢) وقال (وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ) ^(٣) وقال : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) ^(٤) وقال : (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ^(٥) وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ) ^(٦) وقال : (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) ^(٧) وقال : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) ^(٨) - فهذا أخبر الله أنه فى السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً . قال الله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ^(٩) . (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) ^(١٠) وقلنا لهم : أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه ،

(١) [٦٧ / الملك / ١٦] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٩] . . . لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ

إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٦) [١٦ / النحل / ٥٠] . . . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٧) [٧٠ / المعارج / ٤] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

(٨) [٦ / الأنعام / ١٨] .

(٩) [٤ / النساء / ١٤٥] . . . وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .

(١٠) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) ^(١) يقول : هو إله من في السموات ، وإله من في الأرض ، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله : (لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) ^(٢) .

قال : ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فله سبحانه - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فله سبحانه - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق .

قال أحمد رضي الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ...) إلى أن قال : (.. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لم قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ) يعني أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه - انتهى - .

(١) [٦ / الأنعام / ٣] ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١٢] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ...

ثم قال الإمام أحمد في آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله في كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا^(١) . لم تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه ، كما تزعمون ، لم يكن يتجلى لشيء . لكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه ، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا^(٢) . فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً ، قلنا : أخبرونا ، حين زعمتم أن الله في كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إذا زعمتم أن الله في كل مكان ؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء ؟ فمعد ذلك تبين كذبهم على الله . فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وترك دين الشيطان ، ودين جهم وشيعته - انتهى . وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) في شرح حديث^(٣) (ينزل ربنا

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَقَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ لِيكَ ، قَالَ لَنْ تَرَ سُنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَسَوَفَ تَرَ سُنِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] . . . وَوَضِعُ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالْنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ١٤ - باب الدعاء نصف الليل ، حديث رقم ٦٢٩ ونصه : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له ؟ » .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ (طبعتنا) .

كل ليلة . . .) الحديث - ما نصه : هذا الحديث ثابت من جهة النقل ، صحيح الإسناد ، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة . وهو حجبتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم : (إن الله في كل مكان ، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) ثم ساق عدة آيات في ذلك - وقال : هذه الآيات كلها واضحة في إبطال قول المعتزلة . وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل (اسْتَوَى) استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة . ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لا يغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد . ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تنفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عز وجل على الأشهر والأظهر من وجوهه ، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم . ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ، ماثبت شيء من العبادات . وجلّ الله أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطبتها مما يصح معناه عند السامعين . والاستواء معلوم في اللغة مفهوم ، وهو العلو والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتكن فيه . قال أبو عبيدة في قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(٢) قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أى استقر ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) ^(٣) انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن في شبابه مزيد . قال ابن عبد البر : الاستواء : الاستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال :

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ١٤] أَيْنِسَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) ^(١) وقال تعالى : (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى) ^(٢) وقال تعالى : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّك) ^(٣) وقال الشاعر ^(٤) :

فأوردتهم ماءً بفيفاءٍ ففَرَّةٍ وقد حلقَ النجمَ اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد (استوى) ، لأن النجم لا يستولى . وقد ذكر النضر ابن شميل - وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة - قال : حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : (استوا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابي إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفعوا ، فقال الخليل : هو من قول الله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) ^(٥) فصعدنا إليه . قال : وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٣] . . . وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاةَ أَقْلَمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] . . . فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٤) لم أعرف اسم الشاعر ولم أهتمد إلى هذا البيت في موضع .

والفيف والفيفاء : المفازة لا ماء فيها .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان - فالجواب : أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضى الله عنهما ، ونقلته مجهولة وضعفاء ؛ فأما عبد الله بن داود الواسطيّ وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان . وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد ، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث ، لو عقّلوا وأنصفوا ؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ^(٢) ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول : إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذبًا . قال الشاعر :

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ومن هو فوق العرش فرَدُّ مَوْحَدُ
ملكُ على عرش السماء مُهَيَّجُ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ
وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت . وفيه يقول في وصف الملائكة :

وَسَاجِدُهُمْ لا يرفع الدهرَ رأسَهُ يعظمُ رَبًّا فوقه وَيُمَجِّدُ
قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) ^(٣)
وبقوله تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) ^(٤) وبقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِنْ

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] . . . وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ^(١) ، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته - تبارك وتعالى جده - قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء ، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير . وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فلاختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر . وأما قوله في الآية الأخرى : (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بين أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع ، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كَرَبَهُمْ أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته . لأنه اضطراري لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم ، وقد قال ﷺ للأمة التي أراد مولاهم أن يعاقبها^(٢) ،

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣

(طبعتنا) وهو قطعة من حديث طويل ونصها :

عن معاوية بن الحكم السلمي قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أخذ الجوانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل =

إن كانت مؤمنة . فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فآكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ)^(١) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله . وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ)^(٢) قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا . قال : وبلغني عن سفیان الثوري مثله . قال سنيد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه في كل مكان ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم . ثم ساق من طريق يزيد بن هرون عن حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ،

= من بنى آدم . آسف كما يأسفون . لكنني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال « من أنا » ! قالت أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار) .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في (الرسالة المدنية) : إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ ، أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرابتهم - فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لا بد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربي ، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أي لفظ بأي معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء ، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بد من دليل قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف . وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة - فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض . وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها . ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلا بد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عيّنه أو لم يعيّنه ، لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نوراً وهدىً وبياناً للناس وشفاءً لما في الصدور ، وأرسل الرسول

ليبين للناس ما نزل إليهم^(١) ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه^(٢) ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل^(٣) . ثم هذا الرسول الأُمِّيّ العربيّ بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات . ثم الأمة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)^(٤) فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أُوتِيَتْ مِنْ جنس ما يؤتاه مثلها) . وكذلك قوله (خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٥) يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل في هذا العموم . أو سميّاً ظاهراً مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعضها الظواهر .

(١) يشير إلى [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) يشير إلى [٢ / البقرة / ٢١٣] ونصها : كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه ، وَمَا اختلف فيه إِلَّا الَّذِينَ أَوْتَوْهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٤) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٠٢] ونصها : ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعياً أو عقلياً، لأنه إذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخطب به الخلق كلهم ، وفهم الذكي والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ، ويعقلوه ويتفكروا فيه ، ويعتقدوا موجهه ، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئاً من ظاهره ، لأن هناك دليلاً خفياً يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره - كان تدليساً أو تدليساً ، وكان نقيض البيان ، وضد الهدى . وهو بالأنغاز والأحاجي أشبه منه بالهدى والبيان . فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفى على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفى شبهة ليس لها حقيقة ؟ - انتهى - .

الثانى - يتوهم كثير أن القول بالعلو والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رى بذلك كثير من المحدثين ، وممن رماهم بذلك الجلال الدوانى فى شرح العقائد المضنية حيث قال - عفا الله عنه - : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدثون . ولا بن تيمية أبى العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة ، ومبالغة فى القدح فى نقيها . ورأيت فى بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال : هو معدوم ، أو يقال : طلبته فى جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعميل . هذا مع علو كعبه فى العلوم العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ؛ أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق) ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها فى الدعاء . ولا يخفى أنه ليس فى هذا القدر غائلة أصلاً ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوز انتهى كلام الدوانى - .

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكورانيّ في حاشيته عليه المسماة (بمجلى المعاني) قال : إن ابن تيمية ليس قائلًا بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسمًا ، في رسالة تكلم فيها على حديث النزول . وقال في رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان ، أو إن الله تعالى بمائل شيئًا من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه . بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفى اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به في الرسالة القدريّة - انتهى - .

ومنهم : وليّ الله الدهلويّ قدس سره ، قال في كتابه (حجة الله البالغة) : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم بحسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المستترون بالبلسكة ، وقد وضع على وضوحًا بيّنًا أن استطالتهم هذه ليست بشيء ، وأنهم مخطئون في مقالاتهم رواية ودراية ، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى - انتهى - .

ومنهم : الشهاب الألوسيّ المفسر ، فإنه كتب على كلام الدوانيّ ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون - يعنى ابن تيمية - من المجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم . نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمعزل عن التجسيم . وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف . نقله عنه ابنه في (محاكمة الأحمدين) .

وأقول . إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه في فتاويه التي أوضح فيها الحق ، وأثار بها مذهب السلف قاطبة . وهالك شذرة من درره . قال رحمه الله في بعض فتاويه :

والأصل في هذا الباب أن كل ما ثبت في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به ، مثل علوّ الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك . وأما الألفاظ المبتدعة

في النفي والإثبات ، مثل قول القائل : هو في جهة ، أو ليس في جهة ، وهو متحيز ، أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التي تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول ﷺ ، ولا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة المسلمين - هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى في جهة ، ولا قال ليس هو في جهة ، ولا قال هو متحيز ، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوطة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ؛ والناطقون بها قد يزيدون معنى صحيحاً . فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولا منهم . وإن أرادوا معنى فاسداً يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم . فإذا قال القائل : إن الله تعالى في جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أتريد بذلك أنه سبحانه في جهة موجودة محصره وتحيط به ، مثل أن يكون في جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمراً عديمياً ، وهو ما فوق العالم شيء من المخلوقات . فإن أردت الجهة الوجودية ، وجعلت الله تعالى محصوراً في المخلوقات ، فهذا باطل ، وإن أردت الجهة العدمية ، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات ، بائن عنها ، فهذا حق ، وليس في ذلك أن شيئاً من المخلوقات حصّره ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالی علیها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ...) (١) الآية - وقد ثبت في الصحيح (٢) عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوى

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ... سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٤٤ - باب يقبض الله الأرض ،

حديث ٢٠٣٩ ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه . ثم يقول . أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ » .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، وما بينهن ، في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم . وفي حديث آخر أنه يرميها كما يرمي الصبيان السكر . فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، إلى هذا الحق والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟ ومن قال إن الله تعالى ليس في جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد ، ولا على عرشٍ إله ، ونبينا محمد ﷺ لم يرج به إلى الله تعالى ، والأيدى لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه - فهذا فرعوني معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقرَّب به فهو جاهل متناقض في كلامه . ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته في كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق . وإن قال : مرادى بقولى (ليس في جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب في هذا المعنى . وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات ، بائن عنها ، عال عليها ، فقد أصاب . ومن قال : (ليس بمتحيز) ، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد ليس بباين عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفي والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون :

وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفي والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مباين له ،

ولا حال فيه ، ولا فوق العالم ولا فيه ، ولا ينزل منه شيء ، ولا يصعد إليه شيء ،

ولا يتقرب إليه بشيء ، ولا يدنو إليه شيء ، ولا يتجلى لشيء ، ولا يراه أحد ، ونحو ذلك .

وهذا قول متكلمة الجهمية المعطلة ، كما أن الأول قول عباد الجهمية . فتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذي هو قول فرعون . وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقهما ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكونا دخلا فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخل فيهما ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل في هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، وما فطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان في الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى . وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح (١) : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٩ - باب إذا أسلم الصبي فأتاه هل يصل عليه ، حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .

وأخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ (طبعنا) .

فَطَرِ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (١) وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : عليك بدين الأعراب والصبيان في الكتاب ، عليك بما فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم ، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهاة ، لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وأصل ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها في كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين . كلفظ : المتحيز والجسم والجهة ونحو ذلك . فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بينهم ، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) (٢) . ومن تكلم في الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة ، فهو من الخائضين في آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه . وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام ، فيها شبهات أضلتهم ، ولم يهتدوا لجوابهم ، فإنهم يجدون في تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ما أراد بها

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٨] ونصها : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أحجامها ، فإن ذكر لفظ (الجسم) في أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ، ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر . ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فعناه في اللغة هو البدن . ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات ، فالعنى صحيح ، وإن كان اللفظ بدعة . وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يرى في الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربي ، بل القرآن العربي مخلوق ، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نقاه عنه . وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقة كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزّه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١) فقلوه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) رد على المثلة . وقوله تعالى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة - انتهى ملخصاً - .

وقال رضى الله عنه (في جواب على سؤال رفع إليه نصه : الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟) : ما نصه ملخصاً :

(١) [٤٢ / الشورى / ١١] .

القول في الاستواء والنزول كالقول في سائر الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى سمي نفسه بأسماء ، ووصف نفسه بصفات ، فالقول في بعض هذه الصفات ، كالقول في بعض . ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين . ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبتته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذا جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، لأنهم لا ينفون شيئاً من ذلك ، ولا يجدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عند من أقرّ بها ، نافون للمعبود ، لا مثبتون . والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الكتاب والسنة ، وهم أئمة الجماعة . هذا الذي حكاه ابن عبد البر .

ومن أنكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة ، فإنما أنكر ، لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين . وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق ، فيقال له : هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة ، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم العبد وسمعه وبصره . والله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين . والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفلك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق . فإن الله لا يفتقر إلى شيء ، ولا يحتاج إلى شيء ، بل هو

الغنى عن كل شيء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته^(١) وَ: يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا . فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستوٍ على عرشه حقيقة) يقتضى أن يكون استواءه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة ، يقتضى أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم ، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان فى غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته . فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازاً ؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى . فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالخالق أحق أن ينزه عنه ، ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بمخلقه ، ولا يمثل بهم ، ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا فى قياس . ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى ، بل صفات الكمال لازمة لذاته ، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له ، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريّة عن جميع الصفات ، وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع . فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدره الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، وزول الله ، ومحبة الله ، ونحو ذلك ، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات . وإذا قال . وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواءه وزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات

(١) [٣٥ / فاطر / ٤١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

الله تعالى . بل أبلغ من ذلك؛ أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والناكح والمساكن ما ذكره في كتابه . كما ذكر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وحريرا وذهباً وفضة وهورا وقصورا وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . فتلک الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه، والاسم يتناولهما حقيقة، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق، والمخلوق عن مشابهة الخالق . فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبتته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض، مع أن مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلك ، أو استواء السفينة على الجودي ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات . فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجنافاً ، وأصمخة وآذاناً ، وشفتين ولساناً ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد . وإذا قيل سَمِعَ اللهُ وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولاً لما يختص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين . وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله . لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويمطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ،

وخرجوا عن القياس العقليّ ، والنص الشرعيّ ، فلا يبق بأيديهم لامعقول صريح ، ولا منقول صحيح . ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبت به أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ، ونفوا البعض ، قيل لهم : ما الفرق بين ما أثبتموه وما نقيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة ، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلاً ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعاً وعقلاً . ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلاً للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضي نفي جميع أسماء الله وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً في قوله ، متهافتاً في مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد ، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح . وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك ، خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة - انتهى - .

فائدة

في منشأ هذا التعميل

ويبين رضي الله عنه ، في فتوى أخرى له في الصفات ، مورد هذا التعميل . حيث قال رضي الله عنه :

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشرّكين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة - أعني أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما (استوى)

استولى ونحو ذلك - أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها . فتنسب مقالة الجهمية إليه، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سيمان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ . وكان الجعد هذا - فيما قيل - من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النروذ الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم وكانوا يعبدون الكواكب ، ويننون لها الهياكل ، ومذهبهم في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً - فيما ذكره الإمام أحمد وغيره - من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يمجّدون من العلوم ما سوى الحسيّات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشرّكين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين ، وإما من المشرّكين . ثم لما عرّبت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم . ولما كان في حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ، وكلام الأئمة - مثل مالك رضى الله عنه وسفيان بن عيينة وأبي يوسف والشافعيّ وأحمد وإسحق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم - في بشر المريسيّ هذا كثيرٌ في ذمه وتضليله . وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس ، مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازيّ في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها في كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبي علي الجبائيّ وعبد الجبار بن أحمد الهمدانيّ وأبي الحسين البصريّ وابن عقيل وأبي حامد الغزاليّ وغيرهم . وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسيّ في كتابه . وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن في أشياء ، فإنما بيّنتُ أن عين

تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي . وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمن البخاري ، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله في التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي ، بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام ، إذا طالع العاقل الذكي ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم . ثم إذا رأى الأئمة - أئمة الهدى - قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفروهم ، أوضلوهم ، وعلم أن هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسي - تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضى الله عنه :

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فيمطلون أسماء الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله وآياته . وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالخلق . ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولاً ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان ، على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه

شيء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهرًا أو عرضًا ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . أو قوله : إذا كان مستويًا على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا . فإن كليهما مثل ، وكلاهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقي ، وامتاز الثاني بإثبات (استواء) هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن تثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا تثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أنه ليس في العقل الصحيح ، ولا في النقل الصحيح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها ، فذلك سهل يسير - انتهى كلامه - .
ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم . وفي هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معانٍ : السرير ، ومنه آية (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)^(١) .
والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)^(٢)
(١) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، =

وحدث (كالفنديل المعلق بالعرش) . أو البناء ، ومنه : (وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)^(١) أى يبنون . ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحد . قال فى القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحد - انتهى - .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح فى صفة حديث ، وكل ما روى فى ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقى فى كتاب (الأسماء والصفات) : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتاً ، وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة ، وفى أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفى الأخبار والآثار الواردة فى معناه دليل على صحة ذلك - انتهى - .

وقال الحافظ الذهبي فى كتاب (العلو) : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو

= قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٨ / الكهف / ٤٢] ونصها : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] ونصها : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَنِي بَرَكْنَا فِيهَا ، وَنَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .

أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)^(١) ثم ختم الآية بقوله : (أَلَلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)^(٢) ، فكان عرشها عظيماً بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته . ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من الشرر والقصور في الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذ العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته وقوَّاه ومَاهِيته وحملته الحافين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعلل ما يقال ، والجا إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة ، فالقرآن مشحون ، بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمنع أن يكون المراد به (الملك) . فدع المكابرة والمراء ، فإن المراء في القرآن كفر . آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . لا إله إلا الله الحليم الكريم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم . الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبي رحمه الله تعالى .

الرابع - سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كرى أم لا ، فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة ، فيقصد العلوّ دون غيره ، إذ لا فرق حينئذ بين قصد جهة العلوّ وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلوّ ، لا يلتفت بمنة ولا يسرة . فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها . فأجاب رحمه الله بقوله :

إن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكريّة ، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهياة ، فرأوا أن الأفلاك تسعة ، وأن التاسع ، وهو الأطلس ، محيط بها ، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧٣٧ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٢٦] .

فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيه والسموات السبع ، فقالوا (بطريق الظن) : إن العرش هو الفلك التاسع ، لا اعتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أنه هو الذى يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) . والأخبار تدل على أن العرش مبين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت في صحيح البخارى^(١) أنه ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم - كما في حديث^(٢) أبى سعيد : فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش . وقد استدلل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود^(٣) من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ،

(١) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين .
(٢) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢٥ - باب قول الله تعالى : وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ اٰثْنَيْنَ لَيْلَةً وَاتَّمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مَّيِّتَ رَبِّهِ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حديث رقم ١١٩٣ ونصه ، عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ﷺ قال « الناس يصمقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصمقة الطور » .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٨ - باب في الجهمية ، حديث رقم ٤٧٢٦ ونصه : عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسقى الله لنا =

وسمواته فوق أرضه هكذا - وقال بأصابه مثل القبة -) . وهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلو ، لا من جميع الجوانب ، إلا بدليل منفصل . ولفظ (الفلك) يستدل به على الاستدارة مطلقاً ، كما قال ابن عباس في : (كُلُّ فِي فَلَكَ)^(١) : في فلكة مثل فلكة الغزل . وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو .

واعلم أن العرش ، سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر ، كما قال تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) .

وفي الصحيحين^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال : يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة = فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك ! أتدري ما تقول » ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه . شأن الله أعظم من ذلك . ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سمواته هكذا » وقال بأصابه مثل القبة عليه « وإنه ليئط أطيط الرخل بالراكب » .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٩ - سورة الزمر ، ٢ - باب

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعنا) .

ويطوى السماء يمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ وفي الصحيحين^(١) عن عبد الله بن عمر، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيسده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟ وفي لفظ^(٢) : ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفي رواية أخرى قال: قرأ على المنبر: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ... الآية - قال : مطوية في كفه ، يرى بها كما يرى الغلام بالكرة . ففي هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون ، مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال في الجواب: فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميانه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف . وإذا كان كذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة. وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل . وبكل حال فهو مبين لها ، ليس بمجانِب لها . ومن

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٩ - باب قول الله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، حديث رقم ٢٦٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٤ و ٢٥ (طبعتنا) وهذا لفظ مسلم .

(٢) نصه في مسلم : حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو رسول الله ؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله) .

المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة ؛ إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالخلقوات ، كإحاطة الكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذي نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبعة بالنسبة إلى ماتحتها ، أو غير ذلك - فعلى التقدير يكون العرش فوق الخلقوات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد في توجهه إليه عز وجل ، يقصد العلوّ ، دون التحت .

وتمام هذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك ، ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكبرى . فإن كان الأول ، فمن المعلوم - باتفاق من يعلم هذا - أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط ، وهو المحدود ؛ وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلوّ والسفل فقط . وأما الجهات الست فهي للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذي شماله ، وجهة تحاذي يمينه ، وجهة تحاذي رأسه ، وجهة تحاذي رجليه . وليس لهذه الجهات في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لكن جهة العلوّ والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلوّ ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله تعالى للأنام ، وأرساها بالجبال ، هو الذي عليه الناس والبهائم وغيرها . فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قدر أن هناك أحداً ، لكان على ظهر الأرض ، ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ، ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً ، كان ارتفاع القطب عنده

ثلاثين درجة ، وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو (تحت) إضافي . كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجلاها تحاذيانه ، وكذلك من علق منكوسا ، فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه تلى السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة . وهذا كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ، فهو الذى عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين المناوى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهم . وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره . ومن ظن أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو . ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلاً من غير جهة العلو ، كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ! وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السموات السبع والأرض في يده أصغر من الحصاة في يد أحدنا . وأما قول القائل : إذا كان كرياً ، والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما الفائدة في التوجه إلى العلو دون التحت ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصد العلو ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط . فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ؛ وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

أرجلنا ، وألقى في الخرق شئاً ثقيلاً كالحجر ونحوه ، لسان ينتهى إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر ، لا لتقياً جميعاً في المركز ، الذى هو النقطة المتوسطة في كرة الأرض . ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر ، لالتقت رجلاهما ، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك . وإذا كان مطلوب أحدٍ ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلاً أو ملسكاً يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلي رأسه ، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالاً ثم يصعد . ولو أن رجلاً أراد مخاطبة القمر ، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شئ لا بأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى . وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادى الذى يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟

مطاب في حديث الإدلاء

إلى أن قال :

وحديث الإدلاء ، الذى رواه أبو هريرة وأبو ذر ، قد رواه الترمذى ^(١) وغيره من حديث

(١) رواه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٧ - سورة الحديد ، ونصه : عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون =

الحسن عن أبي هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقوّيه حديث أبي ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فعناه موافق لهذا . فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لو أدلى أحدكم بحبل لهُبط على الله ، إنما هو تقدير مفروض ، أى لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكن لا يمكن أن يدلى أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ، وإذا أهبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز . والمقصود ببيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بين أنه يقبض السموات ، ويطوى الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ في تمام الحديث : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١) . وهذا كله على

= ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدد سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فإن فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعد مثل ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى ، لهُبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال : ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة

(أقول) فى سماع الحسن من أبي هريرة ، انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر على الحديث

رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد (طبعة المعارف) .

(١) [٥٧ / الحديد / ٣] .

تقدير صحته، فإن الترمذى لما رواه قال: وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعض الحلوليه والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حال بذاته في كل مكان، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك. وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم، بل على تقدير ثبوته، فالمراد به الإحاطة، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم، وما لم نعلمه أمسكنا عنه. وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه في الدعاء إلى جهة العلو، وقال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا^(١). فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت في الصحيحين^(٢) أنه ﷺ قال: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه، فإن الله تعالى قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً، وليبصق عن يساره أو تحت رجله. وفي رواية: إنه أذن أن يبصق في ثوبه. وفي حديث^(٣) أبي رزين

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨ كتاب الصلاة ، ٣٣ - باب حك البزاق باليد من المسجد ، حديث ١٨٠ عن أنس .

و ٣٦ - باب لبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، حديث ٢٧٢ عن أبي سعيد الخدرى .

و ٣٨ - باب كفارة البزاق في المسجد ، حديث ٢٧١ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٧٤ (طبعنا) من حديث طويل في عدة معاني ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٩ - باب في الرؤية ، حديث ٤٧٣١

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، ١٣ - باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم ١٨٠

(طبعنا) ونصه : عن أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله ! أنرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « يا أبا رزين ! أليس كلكم يرى القمر مُخْلِياً به » ؟ قال قلت : بلى . قال « فالله أعظم ، وذلك آية في خلقه » . وكذا في أبي داود .

المشهور : لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رزين : كيف يسمنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى ، كلكم يراه غلياً به ، فالله أكبر . وفي الصحيحين^(١) : لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم . واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه . وروى محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٢) : فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده . فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلاً للفترة ، لأن الداعي المأمور بالذل ؛ لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه . خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر ، وقد قال تعالى : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ^(٣) . الآية - ثم بين تأويل^(٤) (الحجر الأسود يمين الله في الأرض فن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال : قد ظنوا^(٥) أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن

(١) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٢ - باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة ، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس . وليس في مسلم .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِفَعِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

(٤) نصه : الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده .

قال في الجامع الصغير : خط (أى الخطيب) وابن عساكر عن جابر بإسناد ضعيف .

(٥) في هامش المخطوطة : (أقول ممن ظله الغزالي في (فيصل التفرقة) ا هـ ج . ق) .

النبي ﷺ فإنه صريح في أن الحجر ليس هو من صفاته تعالى ، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله : (فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح في أن المصافح ليس مصافحاً له تعالى ، لأن المشبه ليس هو المشبه به .

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كرية العرش ، وأما إذا قدر أنه ليس بكرى الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض ، وأنه فوق الأفلاك الكرية ، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام ، فوق نصف الأرض الكرى ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه - فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله تعالى إلا إلى العلو ، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه . وعلى ما ذكرناه لا يلزم شيء من المحذور والتناقض . وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كرياً ، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته ، سبحانه عن مشابهة المخلوقين - وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كرياً ، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالملك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كرى لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها وأقذارها أو في صفاتها ، بل قد تبين أنه سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحصة في يد أحدنا . فإذا كانت الحصة مثلاً في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الإنسان كالملك ؟ فالله تعالى - وله المثل الأعلى - أعظم من أن يظن به ذلك . وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله ^(١) حق قدره والارض جميعاً قبضته و يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه و سبحته وتعالى عما يشركون . وإذا لم يكن كرياً . فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

(١) يشير إلى الآية [٣٩/الزمر/٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وإنما أشبعنا الكلام ، في هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تمارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا في إيراد التمحلات التي تأبأها فطرة الله أشد الإباء ، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين ، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تسكن من المترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : « يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ » أى يغطيه به ، يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً . قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيان للنهار نفسه ، فكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء ؛ أو شبه تغييب كل منهما ، بطريانه عليه ، بستر اللباس لللبسه انتهى .

ولم يذكر العكس للعلم به ، ولأن اللفظ يحتملهما ، ولذلك قرئ « يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ » بنصب الليل ، ورفع النهار « يَطْلُبُهُ وَحَيْثُ » أى يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء . قال الرازى : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان فى العَدْوِ الشديد الكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : « يَطْلُبُهُ وَحَيْثُ » ؛ « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهٖ » أى مذلات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه . قال الشهاب : وسماه (أمراً) على التشبيه ؛ إذ جعل هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره . ويصح حمله على ظاهره - انتهى - .

أى وهو الكلام ، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هذا العالم . وقد قرئ (وألشمس) وما بعده بالنصب عطفاً على (السموات) ونصب (مُسَخَّرَاتِم) على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء ، والخبر « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » أى هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسن إرادته ، وفمر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول استخرج سفيان بن عيينة ، من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق ، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فن جمع بينهما فقد كفر . يعنى أن من جعل الأمر الذى هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا فى (الباب) . قال فى (الإكليل) : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبي حاتم . لأن (الأمر) هو الكلام ، وقد عطفه على (الخلق) فاقضى أن يكون غيره ، لأن العطف يقتضى المغايرة ، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظي . انتهى .

الثانى : قال فى الباب : فى الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أى للحصر المستفاد من تقديم الظرف . فيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم .

« تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال فى (التاج) : سئل أبو العباس عن تفسير (تَبَارَكَ اللَّهُ) فقال : ارتفع - انتهى - .

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة ، ليفردوه بالألوهية ، أمرهم بأن يدعوه وحده متدللين مخلصين فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

«أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» نصب على الحال، أى: ذوى تضرع وخفية، والتضرع (تفعل) من (الضراعة) وهو الذل. والخفية (يضم الخاء وكسرها) مصدر خَفِيَ كَرَضِيَ بمعنى اختفى ، أى: استتر وتوارى. وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذى القدرة الباهرة، والرحمة الواسعة. وإذا حصل له ذلك، فلا بد من صونه عن الرياء، وذلك بالاختفاء، وتوصلاً للإخلاص.

فوائد:

في هذه الآية مشروعية الدعاء، بشرطيه المذكورين.

قال السيوطي في (الإكليل): ومن التضرع رفع الأيدي في الدعاء، فيستحب. وقد أخرج البزار عن أنس قال: رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا الابتهال. ثم خاضت الناقة، ففتح إحدى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى - انتهى - .

وفي الصحيحين^(١) عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذي تدعون سميع قريب... الحديث.

أخرجه البخاري في: ٥٦ - كتاب الجهاد، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ. فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا. فقال النبي ﷺ: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم. فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إنه سميع قريب. تبارك اسمه وتعالى جده».

وأخرجه مسلم في: ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٤ (طبعنا).

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل، ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر ، فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول : **أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** . وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال : **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَنَدَاءَ خَفِيًّا** (١).

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستسكانة .

وقال الناصر في (الانتصاف) : وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى. فكذا دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه. وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللفظ ويشتد، وتستك المسامع وتستد، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السفة الثابتة بالآثار. وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد، لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء. وفي خفض الصوت به، أوفر وأوفى وأزكى. فما أكثر التباس الباطل بالحق، على عقول كثيرة من الخلق. اللهم ! أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه - انتهى .

(١) [١٩ / مريم / ٣] .

وقد روى الحافظ أبو الشيخ في (الثواب) عن أنس مرفوعاً : دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية .

وقوله تعالى « إِنَّهُ وَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » أى : لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به في كل شيء ، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء دخولاً أولياً .

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية كراهية الاعتداء في الدعاء . وفسره زيد بن أسلم بالجهر ، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء ، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر . أخرج ذلك ابن أبي حاتم . ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شرّ كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء (وفي لفظ: يعتدون في الطهور والدعاء) ، وقرأ هذه الآية : اُدْعُوا رَبَّكُمْ . . . الآية - وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم! إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يا بنيّ ! سل الله الجنة ، وعُدْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٨٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٠ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٥ - باب الإصراف في الماء ، حديث رقم ٩٦

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ،
إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » قال أبو مسلم : أى لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، وبعث الرسل ، وبين الطريق ، وأبطل الكفر .
وقال أبو حيان : هذا نهى عن إيقاع الفساد فى الأرض ، وإدخال ماهيته فى الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان . ومعنى (بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) : بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المكلفين . انتهى .
« وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » أى : ذوى خوف من وييل العقاب ، نظراً إلى قصور أعمالكم ؛ وطمع فيما عنده من جزيل الثواب ، نظراً إلى سعة رحمته ، ووفور فضله وإحسانه .
« إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » أى : أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . . . الآية (١) .

لطائف

الأولى - قال فى (الباب) : إن قلت : قال فى أول الآية (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وقال هنا (وَادْعُوهُ) ، وهذا هو عطف الشيء على نفسه ، فما فائدة ذلك ؟
قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى (ادْعُوا رَبَّكُمْ) أى : ليسكن الدعاء مقزّوناً

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

بالتضرع والإخبات . وقوله (وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين ، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء . وقيل : معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ، ولا تطمعوا أنسكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء ، وإن اجتهدتم فيهما .

الثانية - في قوله تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ...) الآية - ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة ، وهو الإحسان في القول والعمل . قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .
الثالثة - تذكير (قريب) ، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أى أمر قريب ، أو على تشبيهه بـ (فاعيل) ، الذى هو بمعنى (مفعول) أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره ، فإنه يقال : فلانة قريبة منى لا غير ، وفى المكان وغيره يجوز الوجهان . أو لا اكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه . وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً .

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير - نبه تعالى على أنه الرزاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » أى قدام رحمته التى هى المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعها والجنوب تدره ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ)^(١) وقوله سبحانه : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ)^(٢) . قال الثعالبي : المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبوالبقاء : يقرأ (نُشْرًا) بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، وفى واحده وجهان أحدها (نُشُور) مثل صبور وصبر . فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل) ، أى : ينشر الأرض . ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب ، أى : منشورة بعد الطي ، أو مُنْشَرَّة أى مُحْيَاة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَر ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزْل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم . ويقرأ نُشْرًا بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نُشَرَ بعد الطي ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أى عاش . ونصبه على الحال ، أى ناشرة ، أو ذات نشر ، كما تقول : جاء ركضاً أى راكضاً .

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٨] ... وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٦] ... وَلَيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ويقراً : بُشراً بالباء وضمتين ، وهو جمع بشير ، مثل قليب وقلب . ويقراً كذلك إلا أنه يسكون الشين على التخفيف . ويقراً بشرى مثل حُبلى ، أى : ذات بشارة ويقراً بشراً بفتح الباء وسكون الشين ، وهو مصدر بَشَرْتَهُ - أى بالتخفيف - إذا بشرته - انتهى - .

« حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ » أى حملت « سَحَابًا ثِقَالًا » أى من كثرة ما فيها من الماء « سُفْنُهُ » أى : السحاب . قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعى ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كتمر وتمرّة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع . وأهل اللغة تسميه جمعاً ، فلذا روي فيه الوجهان ، فى وصفه وضميره - انتهى - . أى أرسلناه مع أن طبعه الهبوط « لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ » أى : لأجله ولنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و (ميت) قرىء مشدداً ومخففاً « فَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا الْمَاءَ » أى الضمير . والضمير فى (به) للبلد « فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد (بكل الثمرات) المعتادة فى كل بلد تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير فى (به) للماء أو للبلد . « كَذَلِكَ » أى مثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ » أى نحياها بعد صيرورتها رمياً يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الأرض « لَمَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ » أى إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لى تتذكروا ، من أحوال الثمرات التى أعيدت إلى حالها بعد تلفها ، أحوال الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمى : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكّر . وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخرجه من غير ماء . فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنها قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده . ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَابْذَنْ رَبِّيهِ ، وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِذَا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ » أى : الأرض الكريمة التربة « يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَابْذَنْ رَبِّيهِ » أى يخرج نباته وافياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره « وَالَّذِي خَبَثَ » أى كالحرة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود . وكالسبخة (بكسر الباء) وهى الأرض ذات الملح « لَا يَخْرِجُ » أى : نباته « إِلَّا نَكِذَا » أى : قليلاً ، عديم النفع . يقال : عطاء نكد ، أى قليل لا خير فيه ، وكذا رجل نكد . قال (١) :

فَاعْطِ مَا أُعْطِيَهِ طَيِّبًا لَا خَيْرَ فِي الْمَكُودِ وَالنَّكَدِ

وقال :

لَا تُنْجِزِ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ . وَإِنْ أُعْطِيَ ، أُعْطِيَ تَافَهُ نَكِذَا

تنبيه :

قال ابن عباس فى الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقال قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله ، وانتفع به . كالأرض الطيبة أصابها الغيث ، فأنبئت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا كما فى الصحيحين (٣) عن أبى موسى قال ، قال رسول الله ﷺ : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب

(١) قال فى اللسان : والنكد والنكد قلة العطاء ، وأن لا يهناه من يعطاه . وأنشد البيت :

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علم وعلم ، حديث ٦٨

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٥ (طبعنا) .

أرضاً ، فكانت منها نقيّة قبلت الماء فأُنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فُتِّه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

لطيفة :

قال أبو البقاء : يقرأ (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ) بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات . ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء ، على ما لم يسم فاعله . ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أى : فيخرج الله أوالماء . ثم قال : ويقرأ (نَكِدًا) بفتح النون وكسر الكاف ، وهو حال ، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر أى : ذا نكد . ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً ، وهولعة ويقرأ يُخْرِجُ بضم الياء وكسر الراء ، ونكداً مفعوله .

« كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى : نبين وجوه الحجج وزردها ونكررها « لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » يعنى كما ضربنا هذا المثل ، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية ، وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون الله تعالى على إناعامه عليهم بالهداية ، وأنَّ جَنَّبَهُمْ سبيل الضلالة . وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » اعلم أن الله تعالى ، لما ذكر فى أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت - أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما جرى لهم مع أممهم . قال الرازى : وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيّنات ، ليس من خواص قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسليّة للنبي ﷺ ، وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى ، وإن كان يعهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ ، لأنه كان أمياً ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً . فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى .

ونوح عليه السلام هو ابن لامك بن متوشلح بن أخنوخ بن يارد بن مهليل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا نسبه ابن إسحق وغير واحد من الأئمة ، وأصله من التوراة .

ومعنى (أرسلنا) بعثنا ، وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس . كذا في (الباب) . وإدريس هو أخنوخ - فيما يزعمون ، قاله ابن كثير - : قال محمد بن إسحق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح ، إلا نبي قتل . وقال يزيد الرقاشي : إنما سمى نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه - انتهى - . وفيه نظر . لأنه إنما يصح ما ذكره ، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره ، واللفظ عربياً ، لمناسبة الاشتقاق . أما وهو اسمه الوضعي ، واللفظ غير عربي ، فلا . وفي كتاب (تأويل الأسماء الواقعة في الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان ، فتثبت .

وكان ، قبل بعثة نوح عليه السلام ، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً في عائلة شيث عليه السلام ، ثم فسد نسل شيث أيضاً ، واختلطوا مع الأشرار ، وامتلاّت الأرض من جرائمهم ، وزاغوا عن الصراط المستقيم ، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ، ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمالى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسعوا بأسماء أولئك الصالحين : ودًّا وسواعا ويعقوثا ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له « فَقَالَ يَقَوْمُ » أى : الذين حقهم أن يشاركونى فى كبرياتى « أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ » أى : مستحق للعبادة فى الوجود « غَيْرُهُ » قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة لإله ، باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وبالجر على اللفظ ، وبالنصب على الاستثناء ، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا) ، أى : ما لكم من إله إلا إياه « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى : إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان . ووصف اليوم بـ (العظيم) لبيان عظم ما يقع فيه ، وتكميل الإنذار . قال الزمخشريّ : فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (أَعْبُدُوا اللَّهَ) قلت : الأولى - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية - بيان للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه ، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ » أى : الأشراف ، أو الجماعة ، أو ذوو الشارة والتجمع « إِنَّا لَنَرَاكَ » أى : بأمرك بعبادة الله ، وترك عبادة غيره وتخويف العذاب على ترك عبادة الله ، وعلى عبادة غيره « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى : فى ذهاب عن طريق الحق والصواب ، لكونه خلاف ما وجدنا عليه آبائنا . قال ابن كثير : وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ^(١) . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ^(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي » أى : ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة ، من الأوامر والنواهي ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والندائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه ، إدريس ، فهذا نكتة جمع (الرسالات) ، وإلا فرسالة كل نبيّ واحدة ، وهى مصدر ، والأصل فيه أن لا يجمع ، فجمع لما ذُكر

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٢] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

« وَأَنْصَحُ لَكُمْ » وأقصد صلاحكم بإخلاص « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا من طريق الوحي ، أشياء لا علم لكم بها ، وأعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه . قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات ، كما جاء فى صحيح مسلم ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جميعاً : أيها الناس ! إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

(١) من حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبي ﷺ . أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعنا) وهذا نصه ، فيما يتعلق بخطبته :
نخطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا العباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحلتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تُسألون عني . فما أنتم قائلون ؟ » .
قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكسها إلى الناس « اللهم ! اشهد . اللهم ! اشهد » ثلاث مرات ...

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ » أى : موعظة « مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى : من العذاب إن لم تؤمنوا « وَلِتَتَّقُوا » أى : وليوجد منكم التقوى ، وهى الخشية بسبب الإنذار « وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : ولترحموا بالتقوى إن وُجدت منكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » أى أصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل « فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » أى عن الحق ، فلم يستبصروا الحق ولم يستنبروا بنور الوحي الذى هو كالشمس ، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به ، على تكذيبهم . والعمى ذهاب بصر العينين ، وبصر القلب . يقال : عمى فهو أعمى وعمى . كما فى القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه ، لما أعرضوا عن الإيمان ، وتنادوا على العصيان ، وعبادة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه (لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ)^(١) وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٢) . فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح ! قد صرت نجارا بعد النبوة ! فقال : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

(١) [١١ / هود / ٣٦] ونصها : وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^(١) . فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة . ولما رأى فوران التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى في ابتداء الطوفان ، ركب في الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كل زوجين اثنين . وأمر الله تعالى السماء أن تمطر . والأرض أن تنفجر عيوناً ، وارتفع الماء في هذا الطوفان فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حياً غير أهل السفينة .

وفي التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجه الأرض ، وَعَلَتْ خَمْسَةُ عَشْرَ ذِرَاعًا فوق الجبال الشاخعة ، وهلك بالطوفان كل جسم حي . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك . وحين خروجه منه بنى مذبجاً للقرايين ، شكرًا لله تعالى ، وتناست الناس من أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحي إفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية - والله أعلم - .

تنبيه :

قال الجشمي : في الآيات فوائد . منها : أن نوحاً دعاهم أولاً إلى التوحيد . والرسول وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد . ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد ، فلذلك بدأ به . وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع . ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام ، بمكة ، في التوحيد - انتهى - .

وقال ابن كثير : بين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجي رسوله (١) [١١/هود/٣٨ و٣٩] ونصهما: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ ...

والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا** ^(١) . الآية - وهذه سنة الله في عبادته ، في الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالفرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين . قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملاءى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحازر .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٥] **(وَالِإِلَٰهَٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)**

« **وَإِلَىٰ عَادٍ** » متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى **(أَرْسَلْنَا)** في قصة نوح . أى وأرسلنا إلى عادٍ ، وهى قبيلة كانت تعبد الأصنام ، وكانت ذات بسطة وقوة ، قهروا الناس بفضل القوة .

قال الشهاب: (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحى فيجوز صرفه وعدمه ، كشمود - كما ذكره سيبويه - .

قال الليث : وعاد الأولى ، هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله .
قال زهير ^(٢) :

وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بَنَ عَادٍ وَعَادِيَا

(١) [٤٠ / غافر] ٥١ ... **وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .**

(٢) صدر البيت : * **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ بُعَاً ***

من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى من الأمرِ ، أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا =

وأما عاد الأخيرة ، فهو بنو تميم ، ينزلون رمال عالج^(١) .

وفي كتاب الأنساب : عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، كان يعبد القمر ، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف ، وأنه نكح ألف جارية ، وكانت بلادهم إرم المذكورة في القرآن ، وهي من عُمان إلى حضرموت . ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة - كذا في تاج العروس - .

وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم في الرمال وهي الأحقاف .

وقال ابن إسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت .

وقوله تعالى : « أَخَاهُمْ هُودًا » أى أخاهم في النسب ، لأنه منهم ، في قول النساين .

وقيل : الناس كلهم إخوة في النسب ، لأنهم ولد آدم وحواء . فالمراد صاحبهم ، وواحد في جملتهم ،

= يقول : هل يرى الناس من الرشد ما يرى ، أى يظهر لهم ما يظهر لى أن الناس يموتون ؟

وفي بيت الشاهد :

تُبَّعَ : ملك من ملوك حير . وعاد هو أبو لقمان . وعاديا أبو السموأل ، وكان له حصن

بتياء يقال له الأبلق ، وهو الذى استودعه امرؤ القيس أذراعه .

(١) في معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩ طبعة بيروت) .

عالج رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم . قال أبو عبيد الله السكوني : عالج رمال بين فيند

والقرىات ينزلها بنو بختر من طيمى وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر

أحد عليهم فيه ، وهو مسيرة أربع ليال ، وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت .

وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار .

قال ابن السكيت : إذا أكل البعير العكجان ، وهو نبت ، قيل : بعير عالج . وهو

شجر يشبه العلكندى وأغصانها صلبة ، الواحدة عكجانة . فيجوز أن يكون هذا الموضع سمي

بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج . أو يكون لصاوبته يعالج المشى فيه أى يمارس .

كما يقال : يأخا العرب ، للواحد منهم . وإنما أرسل منهم ، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره ، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب في اقتفائه .
قال الشهاب : اشتهر أن هوداً عربى ، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجمى ، ويشهد له ما قيل :
إن أول العرب يعرب - انتهى - .

وهود هو - على ما قال ابن إسحق - ابن شالح بن أرنخشد بن سام بن نوح . ويقال غير ذلك - والله أعلم - .

وروى ابن إسحق عن عامر بن وائلة ، قال : سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيراً أحمريخاطه مدرة حمراء ، ذأراك وسدر كثير ، بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ! والله إنك لتنعمته نعت رجل قد رآه ! قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمى . وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام - ورواه ابن جرير^(١) - . قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك . وقال : إنهم كانوا يأوون إلى الممد في البر ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ^(٢) . وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً ، أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ^(٣) . ولذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه ، كما قال تعالى « قَالَ » أى : هود « يَقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يكونوا مثلى « أَعْبُدُوا اللَّهَ » أى : وحده « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » أَفَلَا تَتَّقُونَ « أى : تخافون عذابه .

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٣ من التفسير .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٨٦] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّآ لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّآ لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ » أى : فى خفة حلم ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ؛ وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها « وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ » أى : فى ادعائك الرسالة ، إذ استبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) « قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى : إليكم ، لإصلاح أمر نسايتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) « أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ » أى : ناصح لكم فيما أمركم به من عبادته تعالى وحده ، وأمين على تبليغ الرسالة ، لا أكذب فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى :

أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ ، أَى : لاتعجبوا واحمدوا الله على ذلكم « وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أَى : خلفتموهم فى مساكنهم ، أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم ، فإن شدداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عاجل إلى شجر عُمان - كذا قالوا - « وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً » أى قامة وقوة « فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ » أى : فى استخلافكم ، وبسطة أجرامكم ، وماسواها من عطايها ، لتخصصوه بالعبادة « لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » أى تفوزون بالفلاح .

تنبيهان

الأول قال الزمخشري : فى إجابة الأنبياء عليهم السلام ، مَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المبالغة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهمهم - أدب حسن ، وخلق عظيم . وحكاية الله عز وجل ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم ، على ما يكون منهم - انتهى - .

وزاد القاضى : إن فى ذلك كمال النصيح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة قال : وهكذا ينبغى لكل ناصح - انتهى - .

الثانى - لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب ، بدون وضعها على محك النظر والنقد ، من المبالغة فى طول قوم عاد ، وضخامة أجسامهم ، وأن أطولهم كان مائة ذراع ، وأقصرهم كان ستين ذراعاً ، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلى ولا نقلى ، وهو وهم . وأما قوله جل شأنه مخاطباً لقوم عاد (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً) فإنه لا يدل على ما أرادوا ، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدها . وهذا من الأمور المعتادة . فإن الأمم ليست متساوية فى ضخامة الجسم وطوله وقوته ، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً . ومما يدل على أن أجسام من سلف كأجسامنا ، لاتتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً ، مساكنهم تُنمود

قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية . ومثله ، بل أعرق منه في الوهم ، ما ينقلونه في وصف عوج ابن عنق الجبار ملك ييسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب ، لا مزاج له من حر أو برد ، وإنما حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدّة حرارتها في الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع .

وقد أنكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك في (مقدمة تاريخه) ، وأبان أن الذي أدخل الوهم على الناس في طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسيمة ، ومصانهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك . والحال أن عظم هذه المصانع والآثار في أمة من الأمم ناشئ عن عظم ذواتها ، واتساع ممالكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين في فنّ جرّ الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره . وأنكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت في مدة ثلاثمائة سنة في صحارى عدن . بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة . وأنها لما تم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة ، فهلكوا كلهم ، وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِّ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ^(١) * ويزعمون أنها لم تزل باقية في بلاد اليمن ، وإنما حجبت عن الأبصار . وحيث إن ذلك لم يرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه ، ولا نلتفت إليه . وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة ، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بني إسرائيل ، ويقلّدونهم من غير برهان ودليل ، والله الهادى إلى سواء السبيل - كذا أفاده بعض المحققين - .

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، بقوله سبحانه :

(١) [٨٩ / الفجر / ٦ - ٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ،

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ » أى لنخصه بالعبادة « وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى فى الإخبار بنزول العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَدِّلُونِنِى

فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ،

فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ » أى عذاب . والرجس والرجز بمعنى ،

حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الاضطراب . يقال :

رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم فى رجوسة من أمرهم ، أى فى اختلاط

والتباس ، ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حلّ به . وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب

مجاز ، قل : لأنه حقيقة فى الشيء القدر ، فاستعير لجزائهم . وظاهر اللغة أنه حقيقة . ووجه التعبير

بالمضى عما سيقع ، تنزيل للتوقع كالواقع كما فى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)^(١) « وَغَضَبٌ » أى سخط

لإشراكهم معه من هو فى غاية النقص ، فى أعلى كلالته التى هى الإلهية « أَتُجَدِّلُونِنِى فِي

أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ » أى فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ،

(١) [١٦ / النحل / ١] ونصها : أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يُشْرِكُونَ .

لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحالٌ وجوده . وهذا كقوله تعالى :
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ^(١) كذا في الكشف - .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو إلا مجرد اسم . فالعنى : أتجادلوننى فى مسميات لها أسماء لا تليق بها ، فتوجه الدم للتسمية ، الخالية عن المعنى . والضمير حينئذ راجع لـ (أسماء) وهى المفعول الأول للتسمية ، والثانى آلهة ، ولو عكس لزم الاستخدام - انتهى - .

وقوله تعالى : « مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة ودليل على هذه التسمية ، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل ، وإنها لو استحققت لكان ذلك يجعله تعالى ، إما بإزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

قال الجسمى : دلت الآية على فساد التقليد ، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة . وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه . ويدل قوله (أَتُجَادِلُونَنِي) على أن المبطل مذموم فى جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضى : بين تعالى أن منتهى حججهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى ، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله ، إظهاراً لغاية جهالتهم ، وفرط غباوتهم .

« فَأَنْتِظِرُوا أَى : نزول العذاب الذى طلبتموه بقولكم (فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا) ، لأنه وضع الحق ، وأنتم مصرّون على العناد » إِىَّي مَمَّكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ « أى : لما يحل بكم .
قال المهايى : فجاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه ، بمجرى العادة ، أحد ، وجعل من قبيل الريح التى تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] ونصها : إِنْ أَلَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ وَبَرَحْمَةً مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ وَ » أى: من آمن به، على خرق العادة « بَرَحْمَةً مِنَّا » ليدل
على رحمتنا عليهم فى الآخرة « وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » أى استأصلناهم . قال
الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد فى الآفة إذا
أصاب الآخرة أن تمر على غيره، والشئ إذا امتد أصله أخذ برمته . والدابر بمعنى الآخر «وَمَا
كَانُوا مُؤْمِنِينَ » عطف على (كَذَبُوا) داخل معه فى حكم الصلة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم فى قوله : (وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)
مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد ، ومن
نجامع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من
آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبيّ : يعنى إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة
هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده - انتهى - .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أما كن آخر من القرآن ، بأنه
أرسل عليهم الريح العقيم^(١) * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ^(٢) . كما قال فى
الآية الأخرى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ
وَتَمَتَّعْنَاهُمْ أَتْيَامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نخلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ^(٣) لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل

(١) يشير إلى [٥١ / الذاريات / ٤١] وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٤٢] .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٦-٨] .

منهم ، فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتثقل رأسه حتى يُبَيِّنَهُ من جثته .
وقال محمد بن إسحق^(١) : كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هوداً ، الأحقافَ
قال : و (الأحقاف) الرملُ ، فيما بين عُمان إلى حضرموت ، فاليمين كله .

وكانوا مع ذلك قد فشا في الأرض كلها . وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله .
وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود)
وصنم يقال له (الهباء) : فبعث الله إليهم هوداً ، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً ،
فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما
يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك . فأبوا عليه وكذبوه . وقالوا^(٢) : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) .

واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتمون بإيمانهم . وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد
يقال له (مرثد بن سعد بن غفير) وكان يكتنم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا
نبيهم ، وأكثروا في الأرض الفساد ، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود
فقال^(٣) : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) .

(قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ)^(٤) أى : ما هذا الذي جئتنا به إلا

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٤ من تفسير ابن جرير الطبري .

(٢) [٤١ / فصلت ١٥] ونصها : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا
بِبِائِسَتِنَا يُجْحَدُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٢٨ - ١٣١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٣ - ٥٥] .

جنون أصابك به بعضُ آلهتنا هذالتى تعيب . (قَالَ إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنتِى بِرِىْ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ) إلى قوله ^(١) (صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

فلما فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون - حتى جهدهم ذلك .

وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منه ، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة ، مسلمهم ومشرِكهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم ، وكلهم معظم لمكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحق : وكان البيت فى ذلك الزمان معروفًا مكانه ، والحرم قائم فيما يذكرون ، وأهل مكة يومئذ العماليق - وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذين سام بن نوح) - وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلاً يقال له معاوية بن بكر ، وكان أبوه حيًّا فى ذلك الزمان ، ولكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من العماليق ، فيما يزعمون ، فى أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كلهدة ابنة الخبيري ، رجل من عاد . فلما قحط ^(٢) المطر عن عاد وجهدوا قالوا : جهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم ، فإنكم قد هلكتم ! فبعثوا قيل بن عذر ولقيم بن هزال بن هزيل ، وعتيل بن صد بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وكان مسلماً يكتُم إسلامه ، وجُلْهُمة بن الخبيري ، خال معاوية بن بكر أخو أمه .

(١) [١١ / هود / ٥٦] إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
(٢) فَحَطَّ الْمَطَرُ وَقُحِطَ : احتبس .

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا . فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم . وكانوا أخواله وصره . فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية بن بكر - وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا .

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتعمّدون بهم من البلاء الذي أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ! وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيفى نازلون على ! والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحى أن أمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعرا نغنيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

ألا يا قَيْلَ ، ويحك ! قم فهِئْنِي	لعل الله يُصَبِّحُنَا غَمَامًا (١)
فيسقى أرضَ عادٍ ، إنَّ عادًا	قد أَمْسَوْا لا يُبَيِّنُونَ الكلامَ (٢)
من العطش الشديد ، فليس نَرَجُو	به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَ
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أَمْسَتْ نساؤهم عِيَامِي (٣)

(١) القيل معناه السيد ، يطلق على كل من ملك حَيْرَ . ويحك كلمة ترحم . هيئ أمر من (الهيئة) وهو الصوت الخفى ، والمراد ادعُ .

(٢) قد أَمْسَوْا بنقل حركة الهمزة للدال الساكنة . لا يبينون الكلاما ، أى ضعفوا ومرضوا من القحط . اه من (العناية) .

(٣) أعام القوم هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . والعيمة شدة شهوة اللبن . وعام القوم قل لبنهم من القحط . ورجل عيان وامرأة عيمى والجمع عيام وعيامى .

وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادى سهما
وأنتم هاهنا فيما اشتبهتم نهاركم وليلكم التماما
فنبِّح وفدكم من وفد قومٍ ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنمهم به الجرادتان . فلما سمع القوم ماغننّا به ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، إنما بعثكم قومكم يعمودون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك . فقال لهم جُلْهمة بن الحبيرى خال معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به :

أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوى كرم وأمك من ثمود
فإنّا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ
أنا أمرنا لنترك دين رِفْدٍ ورملَ وآلَ صُدَّ والعُبودِ
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى، ونتبّع دين هودِ

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : احبسنا عنا مرثد بن سعد . فلا يقدم معنا مكة . فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد . فلما ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها ، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم ، قام يدعو الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شيء مما يدعوك به وفد عاد .

وكان قيل بن عذر رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قيسلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقان بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إني جئتكم وحدي في حاجتي ، فأعطني سؤلي .
وقال قَيْل بن عَزْر حين دعا : يا إلهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإننا قد هلكنا .
فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم ناداه مناد من السحاب :
يا قَيْل ! اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ،
فإنها أكثر السحاب ماء . فناده مناد : اخترتَ رَمَاداً رَمْدِداً^(١) ، لا تَبْقَى من آل عاد
أحداً ، لا والدا تترك ولا ولداً ، إلا جعلته هَمِداً^(٢) ، إلا بنى اللوذِيَّة المَهْدَى - وبنو اللوذية ،
بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد
بأرضهم ، فهم عاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد - وساق الله السحابة
السوداء ، فيما يذكرون ، التي اختارها قَيْل بن عَزْر بما فيها من النعمة إلى عاد ، حتى خرجت
عليهم من واد يقال له (المغيث) .

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) يقول الله (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ
بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)^(٣) أي كل شيء أُمِرَتْ به .
وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها
(مَهْدَد) فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعِقَتْ . فلما أفاقوا قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟
قالت : رأيت ريحاً فيها كَشْهَبُ النار ، أمامها رجال يقودونها !
ف(سَخَّرَهَا) الله (عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)^(٤) ، كما قال الله - والحسوم الداعة -

(١) رماد رَمْدِد أي متناه في الاحتراق والدقة .

(٢) هامد وَهَمِد وهيمد : ميت هالك .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٥ و ٢٤] فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقِيلًا أَوْدَتْهُمِ قَالُوا . . .
فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .
(٤) [٦٩ / الحاقة / ٧] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى
الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك . فاعتزل هود ، فيما ذكر لى ، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلد الأنفس .

وإنها لتمرّ على عاد بالظّعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .

فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة ، ثمسى نائلة فى مُصاب عاد . فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارت هوداً وأصحابه ؟ قال : فارتهم بساحل البحر .

فكانهم شكّوا فيما خدشهم به ، فقالت هزيمة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة . قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة . وقد قال الله تعالى : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَرَحِمَةً رَمْنَا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ^(١) .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فررت بالربذة ، فإذا بمجوز من بنى تميم منقطع بها ، فقالت لى : يا عبد الله ! إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها ، فأتيت المدينة . فإذا المسجد غاصّ بأهله ، وإذا راية سوداء تحفّق ، وإذا بلال مقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً . فجلست ، فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ قلت : نعم . قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بمجوز من بنى تميم منقطع بها ، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهامى بالباب ، فأذن لها ، فدخلت . فقلت : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجمل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يا رسول الله ! فإلى أين تضطر

(١) [١١ / هود ٥٨] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

مضرك ؟ قال قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : (معزاء حملت حقتها) حملت هذه ولا أشعر
أنها كانت لي خصماً . أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال هيه ، وما وافد عاد ؟
وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً حطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له
قَيْل ، فر بماوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريقان يقال لهما الجرادتان ،
فلما مضى الشهر ، خرج جبال تهامة فنادى : اللهم ! إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ،
ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم ! اسق عاداً ما كنت تسقيه ! فمرت به سحباب سود ، فنودي
منها : اختر ؛ فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رمداً رمداً ، لا تبقى من
عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا ، حتى
هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا :
لا تكن كوافد عاد - هكذا رواه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة
وابن جرير ^(١) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ،
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ)

«وَإِلَى ثَمُودَ» أي : وأرسلنا إلى ثمود . وهي قبيلة أخرى من العرب سموها باسم جدِّهم ثمود
ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عابر . وكذلك قبيلة طسم ، كل
هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة ، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ،

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٥ من التفسير .

ومسكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع - نقله ابن كثير - .
وعمود كعبور ، وتضم ثاؤه ، وقرى به أيضاً ، وقرى بصرفه ومنعه . أما الثانى فلاّنه اسم القبيلة ، فيه العلمية والتأنيث . وأما الأول فلاّنه اسم للحى ، أو لأنه لما كان اسمها الجد ، أو القليل من الماء كان مصروفاً ، لأنه علم مذكر ، أو اسم جنس ، فبعد النقل حُكى أصله . كذا فى (العناية) .

« أَخَاهُمْ صَاحِبًا » هو - على ما قاله علماء التفسير والنسب - : ابن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن عمرو « قَالَ يَلْقَوْنَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعوه الرسل أجمعون ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ^(١) . وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ^(٢) « قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتى « هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ » أى خلقها حجة وعلامة على رسالتى . وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً . كـ (بيت الله) ؛ أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى ، أو لأنها حجته عليهم فى أنهم ، إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقيها حفظوا ، وإن غدروا بها أهلكوا ، ولذا قال : « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ » أى التى لا يملكها غيره ، العشب « وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ » أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تربوها بشيء من الأذى ، ولو تأذت منها دوابكم ، إكراماً لآية الله « فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : فى الدارين لجرأتكم على آيات الله .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا اللَّهَ
وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ » قال الشهاب : لم يقل : خلفاء عاد ، إشارة إلى أن بينهما زمانًا طويلًا « وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : أنزلكم في أرض الحجر . والمباعدة المنزل . « تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا » أى : تبنيون في سهولها قصورًا لتسكنوها أيام الصيف . ف (من) بمعنى (في) ، كقوله تعالى (نُوْدِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)^(١) . أو هي ابتدائية ، أو تبعيضية ، أى : تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهي الطين . والسهل خلاف الحزن ، وهو موضع الحجارة والجبال « وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا » أى : لتسكنوها أيام الشتاء . والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نَحَتَ) معنى (اتخذ) ، أو منصوب بنزع الخافض ، على ما جاء في الآية الأخرى : والنحت معروف في كل صلب . ومضارعه مكسور الحاء . وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق : وقرئ تنحاتون بالإشباع ، كـ (ينباع) ، أفاده الشهاب .

بحث الإشباع في وسط الكلمة

أقول : بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع في وسط الكلمة لغة . ومثله (ينباع) المذكورة ، وهي من قول عنتره^(٢) :

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَلْبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .
(٢) استشهد به في اللسان (ج ٨ ص ٣٤٥ بيروت) قال :

أى ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب ، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن ، فتولدت من إشباعها ألف . ومثله قولنا (آمين) ، والأصل (أمين) فأشبع الفتحة ، فتولدت من إشباعها ألف - قاله الزوزنى - .

= فأما قول عنتره :

ينباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زِيَّافَةٍ ، مثل الفَنِيقِ المُكْدَمِ .
فإنما أراد (ينبع) فأشبع فتحة الياء للضرورة ، فنشأت بعدها (ألف) .

والبيت الرابع والثلاثون من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدِّمٍ أم هل عرفت الدارَ بعد توهُمٍ

ومعنى البيت كما قاله التبريزي :

قال ابن الأعرابي : ينباع ، ينفعل . من (باع يبيع) إذا مرّ مرّاً لِينًا ، فيه تَلَوٌ .
كقول الآخر :

* ثَمَتَ يِنْبَاعُ انْبِيَاءَ الشُّجَاعِ *

وأنكر أن يكون الأصل فيه (ينبع) .

وقال : ينبع : يخرج كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِدْ هذا . إنما أراد السيلان وتلويّه على رقبتها كتلوى الحية .

وقال غيره (كقول اللسان) : هو من (نبع ينبع) ثم أشبع الفتحة فصارت ألفا .

والذفران الحيدان الناتئان من الأذن ومنتهى الشعر . وأول ما يعمق من البعير الذفران .

والغضوب والغضبي واحد . وغضوب للتكثير .

والجسرة : الماضية فى سيرها ، وقيل : الجسرة : الضخمة القوية .

والزيافة السرعة .

والفنيق الفحل .

والمكدم بمعنى المكدم ، والكدم العض .

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة .
كما في (شرح الشافية) .

ومنه (عقّاب) - قال في (تاج العروس) : سمع العقّاب في اسم الجنس . قال ^(١) :
أعوذ بالله من العقّابِ الشائلاتِ عُقَدِ الأذنانِ
قال : وعند أهل الصرف ألف (عقّاب) للإشباع ، لفقدان (فعلال) بالفتح - انتهى - .
وقوله تعالى : « فَأَذْكُرُواْ الْآءَ اللّهِ » أى نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله
« وَلَا تَعْتَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بالمعاصي وعبادة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ لِمَنَ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ءَامِنُونَ)
« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ » أى عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات
الناصحة « مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ » أى استضعفهم رؤساء الكفار واستذلّوهم ، إذ
لم يكن لهم استكبار يمنعهم من الانقياد « لِمَنَ ءَامَنَ مِنْهُمْ » بدل من (الَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ)
بإعادة الجار ، بدل السكل ، إن كان الضمير لقومه ، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً
على المؤمنين . وبديل البعض إن كان الضمير (لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ) فيدل على أن المستضعفين
كانوا مؤمنين وكافرين . قال أبو السعود : والأول هو الوجه ، إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب
أولاً إلى جميع المستضعفين ، مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم . على أن الاستضعاف مختص
بالمؤمنين ، أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفهم واستذلّوهم « أَتَعْلَمُونَ » أى من آية الناقة
ومن الكلمات الناصحة « أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ » إلىكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له .

(١) لم أهتد إليه في كتاب . فمن كان على بيئة منه ، فليدلىنى عليه .

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، بل عدلوا عنه ، كما قال تعالى : « قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُمْتَنُونَ » عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى) ، مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه ، وإنما التحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به . أفاده أبو السعود .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ، تنبيهاً على أنه هو الذى ينبغى أن يسأل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » وإنما لم يقولوا : إنما بما أرسل به كافرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياهم ، ورداً لمقاتلتهم .

قال فى (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا :

إنما بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهم ، كما قال فرعون : « إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »^(١) ، فأثبت إرساله تهكماً ، وليس هذا موضع التهم ، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ، المؤمنين والكافرين ، عن حاله ، فلماذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة ، احتياطاً للكفر ، وغلوّاً فى الإصرار - انتهى - ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه فى إصابة العذاب عن مسها بالسوء . كما قال تعالى :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتِنَا إِمْمَا تَعِدُنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« فَعَقَرُوا النَّاقَةَ » أى نحروها . والعقر : الجرح ، وأثر كالحز في قوائم الفرس والإبل .
يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .

قال الأزهري : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يحمل النحر عقراً ، لأن
ناحر الإبل يعقرها : ثم ينحروها .

وفي اللسان : عقر الناقة وعقرها ، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينحروها مستمكناً
منها ، أى : لئلا تشرذ عند الفجر .

وفي الحديث^(١) : لا عقر في الإسلام .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أى ينحرونها ويقولون إن
صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كذا في
(تاج العروس) - .

وأُسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة
الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا في (الكشف) .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيمه ، بحيث أصابت غائلته الكل ، ما لا يخفى .
« وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر
من مسّ الناقة بسوء . وزادوا في الاستهزاء « وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتِنَا إِمْمَا تَعِدُنَا » أى : من
العذاب على عقر الناقة . والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأني ذلك ، ولذا قالوا :
« إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى فإن الله ينصر رسله على أعدائه .

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ - كتاب الجنائز ، ٧٠ - باب كراهية الذبح عند القبر ،

حديث رقم ٣٢٢٢

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

« فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ » أى : الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبديل حركتها عند نزع الروح « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » فى بلادهم أو مساكنهم « جِثِيمِينَ » أى : ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها . والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التى كانت رحمة فانقلبت عذاباً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ)

« فَتَوَلَّى » أى فأعرض صالح « عَنْهُمْ » وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي « المتضمنة لتخويف العذاب عنه « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » فأمرتكم بكل خير ، ونهيتكم عن كل شر « وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ » أى من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم . والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم ، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولى مُعْتَمِّ متحسر على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله (يَاقَوْمِ ...) إلخ كذا فى (الكشاف) . أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر حيث قال (١) :

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء فى عذاب القبر ،

حديث ٧٢٦ ونصه :

عن ابن عمر قال : اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ »

ف قيل له : تدعو أمواتاً ؟

فقال « ما أنتم بأسمع منهم . ولكن لا يجيبون » .

إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . - كما رواه البخاري - لا تحزنّا ، ولكن إعلاماً بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادة في حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولكن لا يتكلمون . كما في (الصحيح) . ويجوز عطف قوله (فتولّى) على قوله (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) ، فيكون الخطاب لهم حين أشرّفوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولى عنهم تولى ذاهب عنهم ، منكر لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأول لظهور الفاء في التعقيب - والله أعلم - .

تنبيهات

الأول : نأثر هنا ما رواه علماء التاريخ والنسب في بسط قصة ثمود ، لمكان العظة والاعتبار مفصلاً . وإلا ، فجلى أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك ، وما سككت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع به ، اللهم إلا لزيادة الاتعاض ، وتقوية العبرة ، ولذا صرح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) : حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . وخلاصة ما رواه عن ثمود أن عاداً لما هلك ، عمرت ثمود بلادها ، وخلفوهم في الأرض ، وكانوا في سعة ورخاء من العيش ، ففتوا على الله ، وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عشاء ، تمخض من صخرة صماء ، عيّنوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة في ناحية الجبل ، يقال لها (الكائبة) ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق : لأن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه . فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل ، فتحرّكت تلك الصخرة ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث ١٦٢٤ ونصه : عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : بلغوا غنى ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء ، يتحرك جنبها بين جنبها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والخباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلس . وكان لجندع بن عمرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فهناك أولئك الرهط فطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل ، رحمه الله :

وكانت عصبه من آل عمرو إلى دين النبي دَعَوْا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَهَمَّ بَأَن يَجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنِ الْغَوَاةَ مِنْ آلِ حَجْرٍ تَوَلَّوْا بَعْدَ رَشْدِهِمْ ذُبَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعت ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من برّها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأونهم ، كما قال في الآية الأخرى : وَنَبَّيْنَاهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ يُنْتَهَمُ ، كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ (١) وقال تعالى : هَذِهِ نَاقَةُ آلِهِمْ شَرِبُوا وَلَكُنَّ شَرِبُوا يَوْمَ مَعْلُومٍ (٢) . وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ، ومنظراً رائئاً ، إذا مرت بأنعامهم تفرّت منها . فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء في خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) (٣) ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] قَالَ . . .

(٣) [٩١ / الشمس / ١٤] .

وقال (وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) ^(١)، وقال (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) ^(٢)، فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضی جميعهم بذلك - والله أعلم - .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ^(٣)، وغيره من علماء التفسير، أن سبب قتلها، أن امرأة من ثمود يقال لها (عنزة بنت غنم بن مجلز، تسكنى بأم غنم، وهي من بني عبید بن المهمل، أخى رُميل بن المهمل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزا مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم -

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت الحيا بن دهر بن الحيا) سيد بني عبید وصاحب أوثانهم في الزمن الأول. وكان الوادي يقال له (وادي الحيا) وهو الحيا الأكبر، جد الحيا الأصغر أبي صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر .
وكانتا من أشد امرأتين في ثمود عداوة لصالح، وأعظمه به كفرا .

وكانتا تحتلان أن تعقر الناقة مع كفرهما به، لما أضرت به من مواشيهما .
وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنم بن هراوة بن سعد بن الطريف) من بني هلس، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح، حتى رَقَّ المال .

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] ونصها: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ، وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا.

(٢) [٧ / الأعراف / ٧٧] ونصها: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَعْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

(٣) انظر تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) الصفحة ٥٣١ من الجزء

الثاني عشر (طبعة المعارف) .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيتت ^(١) له . فأخذت بنيه وبناته منه فغيبتهم في بني عبيد ، بطنها الذي هي منه .

وكان صنم زوجها من بني هليل ، وكان ابن خالها . فقال لها : ردّي على ولدي . فقالت : حتى أنافركُ إلى بني صنمان بن عبيد أو إلى بني جندع بن عبيد . فقال لها صنم : بل أنافرك إلى بني مرداس بن عبيد . وذلك أن بني مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا في الإسلام وأبطن عنه الآخرون .

فقالت لا أنافرك إلا إلى من دعوتك إليه .
فقال بنو مرداس : والله لتعطينه ولده طائفة أو كارهة .
فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة مَحَلَّتَا ^(٢) في عقر الناقة للشقاء الذي نزل . فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها . فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مخرج بن الحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة . وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .
ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلا من أهل قُرُح .
وكان قدار رجلا أحمر أزرق قصيرا . يزعمون أنه كان لزنبة ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذي يدعى إليه . ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيتك أي بناتي شئت ، على أن تعقر الناقة .

- (١) بيتت له : فكرت في الأمر وخمرته ودبرته ليلا .
(٢) محل به : كاده واحتال في المكر به حتى يوقعه في الهلكة .

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود . وكان قدار عزيزا منيعا في قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، ومصدع بن مہرج ، فاستنفرا غواةً من ثمود . فاتبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر . أحد نفر الذين اتبعوها رجل يقال له ، (هويل بن مبلغ) خال قدار ابن سالف ، أخو أمه لأبيها وأُمها ، وكان عزيزا في أهل حجر . و (دعير بن غنم بن داعر) وهو من بني خلاوة بن المهل .

و (داب بن مہرج) أخو مصدع بن مہرج .
وخمسة لم تحفظ لنا أسماءهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى . فرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها . وخرجت أم غنم عنيزة وأمريت ابنتها ، وكانت من أحسن الناس وجها ، فأسفرت لقدار وأرته إياه . ثم ذمّرت^(١) فشدت على الناقة بالسيف نخشف^(٢) عرقوبها . فخرّت ورغّت رغاءً واحدة تحذر سقبها . ثم طعن في لبثها فنجحها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلا منيعا . ثم أتى صخرة في رأس الجبل فزعا ولاذ بها . وامس الجبل فيما يزعمون (صنو) - فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته . فاتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم (مصدع بن مہرج) فرماد مصدع بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جري برجله فأنزله ، ثم ألقوا لجه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهرون به : ومتى ذلك

(١) ذمّرتہ : شجّعتہ وحثّته وحرّضته .

(٢) خشف رأسه بالحجر : شدّخه . وكل ما شدّخ فقد خشف .

يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ - وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء - فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعني يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعني يوم الجمعة ، ووجوهكم حمرة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعني يوم السبت ، ووجوهكم مسودة . ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعني يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً . إن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدخين قد رُضِخوا بالحجارة . فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ! ثم هوا به . فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . وانفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعة الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى ^(١) (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) إلى قوله : (لَايَةَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا فيها عن صالح ، وجوههم مصفرة ، فأيقنوا بالعذاب . وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم ، فطلبوه ليقتلوه . وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له (نقيل) يكنى بأبي هذب ، وهو مشرك ، فغيبه ، فلم يقدروا عليه .

(١) [٢٧ / النمل / ٤٨ - ٥٢] .

فغدوا على أصحاب صالح فعذبوهم ليدلّوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (ميدع بن هرم) : يابني الله ، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك ، أفندلّهم عليك ؟ قال : نعم ، فدلّهم عليه (ميدع بن هرم) .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هذب فكلّموه فقال لهم : عندي صالح ، وليس لكم إليه سبيل . فأعرضوا عنه وتركوه . وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس ، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرة ، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة . حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام . فنزل رملة فلسطين . وتخلف رجل من أصحابه يقال له (ميدع بن هرم) فنزل قُرَح - وهي وادي القرى ، وبين القُرَح وبين الحجر ثمانية عشر ميلاً - فنزل على سيدهم رجل - يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يشرك في قتلها . فقال له ميدع ابن هرم : يا عمرو بن غنم ، أخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عمرو : ما شركت في عقرها ، وما برضيتُ ما صنّع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك . إلا جارية مُقعّدة يقال لها (الزُرَيْمَةُ) وهي الكلبة ابنة السلق . كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجلها بعدما عاينت العذاب أجمع . فخرجت كأمرع ما يُرَى شيء قط . حتى أتت أهل قُرَح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسقيت ، فلما شربت ماتت .

الثاني - قال الرازي : زعم بعض الملاحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهي الرجة والطاغية والصيحة . والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الماء به للمبالغة . فلميلهمون

يسمون الملك الماتى بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَى * أَنْ رَآهُ اسْتَكْفَى^(١). ويقال : طغى طغياناً، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: كَذَبَتْ ثُمُودٌ بِطَغْوِهَا^(٢) وقال فى غير الحيوان : إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ^(٣)، أى: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهى الزلزلة فى الأرض ، وهى حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها . وأما الصيحة ، فالغالب أن الزلزلة لاتنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة ، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ^(٤). فبطل ما زعمه ذلك البعض .

الثالث - قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحدٌ ، سوى صالح عليه السلام ، ومن تبعه رضى الله عنهم . إلا أن رجلاً يقال له أبو رغال . كان ، لما وقعت النقمة بقومه ، مقيماً إذ ذاك فى الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحلّ ، جاءه حجر من السماء فقتله .

روى الإمام أحمد^(٥) عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لاتسألوا الآيات ، فقد سأله قوم صالح ، فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعمتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها ، فأخذتهم صيحة أخذ الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله فقالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس فى شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم. وروى عبد الرزاق عن معمر : أخبرنى إسماعيل بن أمية : أن النبى ﷺ مرّ بقبر أبى رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر أبى رغال ،

(١) [٩٦ / الملق / ٧٠٦] . (٢) [٩١ / الشمس / ١١] . (٣) [٦٩ / الحاقة / ١١] .

(٤) [٧٩ / النازعات / ١٣ و ١٤] .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

رجل من ثمود ، كان في حرم الله ، ففنه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيا ففهم ، فبجثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روى مرفوعاً إلى النبي ﷺ - أخرجه أبو داود وغيره (١) .

الرابع - ذكرنا قبل ؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع ، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين ورجلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من ماءها . فروى الإمام أحمد (٢) عن ابن عمر قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، ففجئوا منها ، ونصبوا القدور بالحجم . فأمرهم النبي ﷺ ، فأهراقوا القدور ، وعلّقوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

وروى أحمد (٣) والبخاري (٤) ومسلم (٥) عن ابن عمر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء العذابين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والفتن ، ٤١ - باب ثبث القبور ، حديث رقم ٣٠٨٨ (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٩٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٢١١ (طبعة المعارف) . (٤) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ،

٨٠ - باب نزول النبي ﷺ الحجر ، حديث رقم ٢٨٤ .

(٥) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣٨ و ٣٩ (طبعنا) .

وللبخاري^(١) : أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا منها ، واستقينا . فأمرهم النبي ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس - قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَانَ حين حج قال : يا أبا بكر! أيّ واد هذا ؟ قال : هذا وادي عُسْفَانَ . قال : لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطْمُهَا اللَّيْف ، أَرْزُومُ الْعَبَاء ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النَّمَار ، يُلَبُّونَ ، يَحْجُونَ الْبَيْتَ الْعَتِيق . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرج أحد منهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

« وَلَوْطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطًا . ولفظه أعجمي معناه في العربية (ملفوف) أو (مرّ) ، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل - وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير - ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه إلى الشام ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٧ - باب قول الله تعالى : وَإِلَىٰ مُّوَدَّٰ أَخَاهُمُ صَلِحًا ، حديث رقم ١٥٩٥ -

ومسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٠ (طبعنا)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٠٦٧ (طبعة المعارف) .

وتوطنا بلد السكتعانيين من فلسطين ، وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردن ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها ، وإلى ما جاورها من القرى . فصار يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها ، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين ، من بنى آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور .

قال ابن كثير : وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنعه أهل سدوم ، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار : ما نرا ذكر على ذكر ، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

ثم بين تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ أَى الْفِعْلَةَ الْمُتَنَاهِيَةَ فِي الْقَبْحِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » أَى مَا عَمِلَهَا أَحَدٌ قَبْلَكُمْ ، والباء للتعدي ، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ^(١) : (سبقك بها عكاشة) . كذا في (الكشاف) .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ والتقريع . فإن مباشرة القبح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً لكيداً للإنكار السابق ، وتشديداً للتوبيخ بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

« إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ » أَى : الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، لا ليأتيهن الرجال .

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥٠ - باب يدخل الجنة سبعون ألفاً

بغير حساب ، حديث ١٦٠٥

وقرى بهمزين صريحتين، وبتلين الثانية، بغير مدّ، وبعْدَ أيضاً. وفي زيادة (إن) و (اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفي إيراد لفظ (الرجل) دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ وتأتون، من (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشري. وفي (تاج العروس) : أتى الفاحشة : تلبس بها ، ويكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتى أتى فيه ، ومنه قول بعض المولدين :
يأتى ويؤتى ليس ينكر ذا ، ولا هذا ، كذلك إبرة الخياط

انتهى .

وقوله تعالى «شَهْوَةٌ» مفعول له، أى للاشتهاء، أى لاحمل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة ، كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة ، غير ملتفتين إلى السجاسة . كذا في (الكشاف) «مَنْ دُونَ النِّسَاءِ» أى : مجاوزين عن موآاة النساء اللاتي خلقن لذلك . قال أبو السعود : ويجوز أن يكون المراد من قوله (شَهْوَةٌ) الإنكار عليهم ، وتقريعهم على اشتهاهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبى عنه قوله تعالى (مَنْ دُونَ النِّسَاءِ) أى : متجاوزين النساء اللاتي هن محال الاشتها كما ينبى عنه قوله تعالى (١) (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) . «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء . فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه. (٢) (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) . كذا في (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ،
إِنَّهُمْ أَنْفُسُ يَتَطَهَّرُونَ)

«وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ» أى : المستكبرين في مقابلة نصحه «إِلَّا أَنْ قَالُوا

(١) [١١ / هود / ٧٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٦]

أَخْرِجُوهُمْ « أى : لوطاً والمؤمنين معه » مِّن قَرَبِكُمْ « أى : بلدكم . قال الزخشرى : يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمه الإسراف الذى هو أصل الشر كله . ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجرًا بهم ، وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم . وقولهم « إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ » سخريتهم ، وبقتلهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارى . كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المترهد) .

قال ابن كثير : قال مجاهد : يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فيستدل به على تحريم أدبار النساء ، أى بناء على أن تفسير الصحابى له حكم المرفوع .

ورجح ابن القيم أنه فى حكم الوقوف .

والمسألة تقدمت مستوفاة فى قوله تعالى (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)^(١) فتذكر .

تنبيه :

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى كتابه (إغائة اللفاف) :

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطه بالنجاسة والخبث فى كتابه ، دون سائر الذنوب ، وإن كان مشتملاً على ذلك . لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)^(٢) ، وقوله تعالى فى حق اللوطية (وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرَارَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ)^(٣) ، وقالت اللوطية (أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرَبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ)^(٤) فأقروا ، مع شركهم وكفرهم ، أنهم هم الأخابث الأنجاس ، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٣) [٢٩ / الأنبياء / ٧٤] .

(٤) [٢٧ / النمل / ٥٦] .

باجتنابهم له . وقال تعالى في حق الزناة : (اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)^(١) ، وأما نجاسة الشرك فهي نوعان نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة . فالغلظة : الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يُشرك به . والمخففة : الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوقات والحلف به ، وخوفه ورجائه .

ثم قال : ونجاسة الزنى واللواط أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جداً . ولهذا ، أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكما كان الشرك في العبد أغلب ، كانت هذه النجاسة والنجاسات فيه أكثر . وكما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)^(٢) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبدها بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب ، وتمكن منه ، صار تقيماً ، والتتيم : التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يقلب حبه وذكره ، والشوق إليه ، والسعى في مرضاته ، وإيثار محابته ، على حب الله وذكره ، والسعى في مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالسكينة ، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور - كما هو مشاهد - فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله ، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله ، ويتجنب سخطه ، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير أثر عنده من ربه ، حبا وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكي الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذا ذاك مشركة ، فسكها قوى شرك العبد ، بُلى بعشق الصور ، وكما قوى توحيده صرف ذلك عنه . وإزاني واللواط ، كإل لذته إنما يكون مع العشق ، ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد ، ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تأله وتعبده فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية في تبعيد القلب من

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بعدد ممن هو طيب ، لا يصيبه إليه إلا طيب . وكما ازداد خبثاً ، ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح - فيما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) - : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى ، كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : (أَلَزَّائِي لَا يَنْسِكُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)^(١) .

ثم قال رحمه الله : والمقصود أن الله سبحانه وسمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالاً ، وسمى فاعله جنياً ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، ففزع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء ويغتسل ، وإذا كان حراماً ، يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية : (أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)^(٢) ، وقوله تعالى : (قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ)^(٣) ، وهكذا المشرك ، إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يشبها بآراء الرجال ، ولا بشيء مما خالفها . فصير الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خيراً له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقه أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بد من الصبر فاصبر على الحق . ذاك الصبر تُحَمَّدُ عُمَّالُهُ

- انتهى - .

(١) [٢٤ / النور / ٣] . (٢) [٨٥ / البروج / ٨] . (٣) [٥ / المائدة / ٥٩] .

ولما هم قوم لوط بإخراجه وتقيهم ومن معه من بين أظهرهم ، أخرجهم الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، كما أشار لذلك بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ » أى ومن يختص به من ذويه ، أو من المؤمنين لطيبهم . قال ابن كثير : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى ^(١) : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) « إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ » أى فإنها لم تنجها لخبثها . قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تماثلهم عليه ، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا ، لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله ، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول بل اتبعتمهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم . ولهذا قال ههنا (إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ) « كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أى من الذين غبروا فى ديارهم ، أى بقوا فهلكوا . وقيل : من الهالكين . وهو تفسير باللازم . والتذكير للتغليب ، وليبان استحقاتها لما يستحقه المبشرون للفاحشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) ^(٢) أى طين متحجر . قال المهايى : ولكفرهم بمطر الشرائع المحي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم فى صورة العقاب .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٥ و٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٤] .

وقرأت في التوراة العربية أن الملكين اللذين جاء لوطاً، عليه السلام، بخبرانه وينشرانه بهلاك قومه ، قالاً له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصحابك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإننا بمَشْنَأِ الرَّبِّ لنهلك هذه المدينة . ولما كان عند طلوع الفجر أُلْحِ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكاً بأيديهم جميعاً وصَيَّرَاهُم خارج المدينة وقالاً : لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل . ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سدُوم وعمُورة كبريتاً وناراً ، وَقَلَبَ تلك المدن ، وكل البقعة ، وجميع سكان المدن وَنَبَتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نُصْبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمُورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتون - انتهى - .

وقرأت في نبوة حزقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر ، في بيان إثم سدوم ما نصه :

إن الاستكبار والشبع من الخبز ، وطمانينة الفراغ ، كانت في سدوم وتوابها ، ولم تمض يد البائس والمسكين ، وتشاغلن وصنمن الرجس أُمَامِي ، فزعتمن ككرايت - انتهى - ، وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت ، أو بحيرة لوط . والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلاً ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدماً ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمُورة وأدمة وصبويم - انتهى - .

وقوله : « فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » أي هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم . والنظر تعجبياً من حالهم ، وتحذيراً من أعمالهم ، فإن من تستولى عليه رذيلة الدعارة ، تكبجه عن التوفيق نفساً وجسداً ، وتورده موارد الهلكة والبوار ، جزاء ما جنى لهم اتباع الأهواء .

تنبيه في حد اللوطي :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر ، ولو كان بكرا ، وكذلك المفعول به ، إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد ^(١) وأبي داود ^(٢) وابن ماجه ^(٣) والترمذي ^(٤) والحاكم والبيهقي ، قال : رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به . قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجه ^(٥) والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا - وإسناده ضعيف .

قال ابن الطلاع في (أحكامه) : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم في اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة - انتهى .

وأخرج البيهقي عن علي أنه رجم لوطياً .

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي بكر ؛ أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما تنكح النساء ، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولاً ، علي بن أبي طالب قال :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٢٣ . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٢٨ - باب فيمن عمل عمل قوم لوط ، الحديث رقم ٤٤٦٢ . (٣) أخرجه ابن ماجه في : ٢٠ - كتاب الحدود ، ١٢ - باب عمل قوم لوط ، حديث رقم ٢٥٦١ .

(٤) أخرجه الترمذي في : ١٥ - كتاب الحدود ، ٢٤ - باب ماجاء في حد اللوطي .

(٥) الذي وقفت عليه هو حديث للترمذي أخرجه في : ١٥ - كتاب الحدود ،

٢٤ - باب ماجاء في حد اللوطي ونصه : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « اقتلوا الفاعل والمفعول به » وليس فيه (أحصنا أولم يحصنا) .

هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ما قد علمتم ، ينوي أن يحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود ^(١) عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس : في البكر يؤخذ على اللوطية ، يرحم .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أيضاً : أنه سئل عن حد اللوطي فقال : ينظر أعلى بناء في القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذري : حرق اللوطية بالنار أبو بكر وعليّ وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وبالجملة ، فلما ثبت أن حده القتل بقي الاجتهاد في هيأته حرقاً أو تردية أو غيرها . وقال بعض المحققين : إن كان اللواط مما يصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره . وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ، ففي أدلته الخاصة له ما يشفى ويكفي - انتهى -

وقال الإمام الحشمي الميني : لو كان في اللواط حد معلوم لما خفي على الصحابة ، حتى شاؤهم في ذلك أبو بكر رضي الله عنه ، لما كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح - وقال الترمذي : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان عليّ كرم الله وجهه أشدهم في ذلك .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٢٨ - باب فيمن عمل عمل قوم لوط ،

حديث رقم ٤٤٦٣ .

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا في كيفية قتله . فقال أبو بكر الصديق : يرمى من شاهق . وقال عليّ كرم الله وجهه : يهدم عليه حائط . وقال ابن عباس : يقتل بالهجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا في كيفية قتله . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء في الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، فإنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه . وروى أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفي حديثه^(١) أيضاً بالإسناد : من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا معها . وهذا الحكم على وفق حكم الشارع ، فإن المحرمات كلها تغلظت ، تغلظت عقوبتها . ووطء من لا يباح بحال أعظم جرماً من وطء من يباح في بعض الأحوال ، فيكون حده أعظم . وقد نص أحمد في إحدى الروايتين عنه : أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حده حد الزاني . واختلف السلف في ذلك ، فقال الحسن : حده حد الزاني . وقال أبو سامة : يقتل بكل حال . وقال الشعبي والنخعي : يعزّر ، وبه أخذ الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوى الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر في تخریج أحاديث (الهداية) في دعوى إجماع الصحابة على قتل اللواط في رواية البيهقي : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم في ذلك قولاً عليّ ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جداً . ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجليّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند واللقن ، قطعيّ للدلالة . ولذا كان على الحاكم بذل جهده في ذلك استبراء لدينه - والله أعلم - .

(١) أخرجه الترمذی في : ١٥ - كتاب الحدود ، ٢٣ - باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » أى وأرسلنا إليهم . قال ابن إسحق : هم من سلالة

مدين بن إبراهيم . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين .

قال ابن كثير : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التى بقرب معان من طريق الحجاز

وهم أصحاب الأيكة .

« قَالَ يَبْقَوْمُ » أى : الذين أحب كلهم ديناً ودنياً « اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ

غَيْرُهُ » وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا « قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى مائتين

به الحق من الباطل . يعنى دعوته وإرشاده . ومن هنا قال بعضهم : عنى بالبينه بحى شعيب ،

وأنه لم تكن له آية إلا النبوة . ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً

إلى أن النبى لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله ، فلا بد من دليل يعلم صدقه به ، وما ذاك

إلا المعجزة - قال : إن معجزة شعيب لم تذكر فى القرآن ، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة

فى القرآن . ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم ، فكل من أبطلت شبهة ضلاله ،

وأظهرت له حجة الحق الذى يدعى إليه فقد جاءته البينة . لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق .

فاحفظه .

قال الجشمى : واختلفوا ، فقيل : لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع - عن أبى هاشم - .

وقيل : يجوز أن يدعو إلى ما فى العقل - عن أبى على - انتهى .

وقد دلت الآيات هذه على أن شعبياً ، عليه السلام ، دعاهم إلى التوحيد والشرائع ، على ما جرت به عادة الرسل ، فمنها قوله : « فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ » أى فأتوموها للناس بإعطائهم حقوقهم « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى : لا تنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس فى أموالهم ، وتأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص الكيل والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى^(١) : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ..) إلى قوله : (لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

يقال : بخسه حقه أى نقصه إياه ، وظلمه فيه .

قال الزحشرى : كانوا يبخسون الناس كل شئ فى مبيعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . قال زهير :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم
قال القاضى : وإنما قال (أشياءهم) للتعميم ، تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير - انتهى - .

والنهي عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء . فقيل : فى فائدة التصريح بالنهى عنه ، بيان لقبحه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُوا ...) الآية - قال : أى لاتسموا لهم شيئاً ، وتعطوا لهم غير ذلك . ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد فى صفة الكيل والوزن « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى : بالكفر والظلم « بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » أى : بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام « ذَلِكُمْ » إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه « خَيْرَ لَّكُمْ » فى الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحذوثة ، وفى المال « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى : مصدقين قولى .

(١) [٨٣ / المطففين / ١-٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَأَذْكُرُوكَ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

« وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ » نهى عن قطع الطريق الحسى . أى : لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس الغريباء ، تضربونهم وتخوفونهم ، وتأخذون ثيابهم ، وتتوعدونهم بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم . قال مجاهد : كانوا عشارين - أخرجه أبو الشيخ . وأخرج ابن أبي جاتم عن السدي مثله . وعن ابن عباس وغير واحد أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليقبعوه .

قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال (بِكُلِّ صِرَاطٍ) وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله « وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب ، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه ، ووصفها بما ينقصها لتغييرها « وَأَذْكُرُوكَ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ » بالعدد والعدد ، فاشكروا نعمة الله عليكم فى ذلك « وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أى : من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا » يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة « فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا »

أى : بين الفريقين بنصر المحتقن على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .
قال الشهاب : وخطاب (اصبروا) للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للفريقين ، أى ليصبر
المؤمنون على أذى الكفار ، والكفار على مايسوؤهم من إيمانهم . أو للكافرين . أى تربصوا
لتروا حكم الله بيننا وبينكم « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه منزّه عن الجور فى حكمه ،
فسيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)
« قَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى عن الإيمان « لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ » أى إلى ترك دعوى الرسالة ، والإقرار بها ،
داخلين « فِي مِلَّتِنَا » أى ملة المشركين .

قال الجشمى : الملة الديانة التى يجمع على العمل بها فرقة عظيمة . والأصل فيه تكرار
الأمر ، من قولهم : طريق ممل ومليل ، إذا تكرّر سلوكه حتى صار معاملاً . ومنه الملل :
تكرار الشيء على النفس حتى تضجر منه - انتهى .

« قَالَ » أى شعيب « أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ » أى : أنجبرونا على ذلك ، وإن كنا
كارهين له ؟ مع أنه لا فائدة فى الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقاً ، لم نكن بالإكراه
منقادين له ، وإن كان باطلاً ، لم نكن بالإكراه متصفين به ، لأنه بالحقيقة صفة القلب ، ولا
يسرى إكراهكم إليه . وكيف لانكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) « قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى اختلقنا عليه باطلا بأن له شريكا « إِنْ عُدْنَا » إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل « فِي مِلَّتِكُمْ » القائلة بأن له شريكا « بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا » فأرانا أنه كالإنجاء من النار « وَمَا يَكُونُ » أى ينبغي « لَنَا أَنْ نَعُودَ » أى عن دعوى الرسالة والإقرار بها فقصير « فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا » أى الذى يربينا بما علم من استعدادنا ؛ لأنه « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » أى فعمل استعداد كل واحد فى كل وقت، لكن « عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أى ليحفظنا عن المصير إليها « رَبَّنَا » إن قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم « افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فغلبنا عليهم « وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » أى خير الحاكمين ، فلا تغلب الظالمين وإن كثروا ، على المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول - اعلم أن ظاهر قوله تعالى (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وقوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا) يدل على أن شعبياً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته . ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبار ، فضلا عن الشرك .

وفى (المواظف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبمدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر . وجوّز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن إلقاء النفس فى التهلكة . ومثله فى (شرح التجريد) .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء في هذه الآية وجوه :

منها : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها .
والجار والمجرور حال . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين في ملتنا . وهذا الوجه اقتصر عليه المهابي ، وسائرناه فيه مع تفسير تنمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إليها ، كائنين في ملتنا . وعُدَى (عاد) بد(في) كأن الملة لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعث عن الإنكار عليهم
ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم . وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكاة .

ومنها : أن (لَتَعُوذُنَّ) بمعنى لتصيرن . إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار) ، فيعمل عمل (كان) . ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتلفة مثل (صار) . وكأنهم قالوا - والله أعلم - لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفاراً مثلنا .

قال الرازي : تقول العرب . قد عاد إلى من فلان مكروه ، يريدون : قد صار إلى منه المكروه ابتداءً . قال الشاعر (١) :

فإن تكن الأيام أحسن مدةً إلى فقد عادتَ لهنَّ ذُنُوبُ

أراد : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان - انتهى - .

ومنه حديث معاذ (٢) . قال له النبي ﷺ : (أَعُدْتَ فتاناً يا معاذ؟) أى صرت .

(١) لم أعرف اسمه ولم أقف على بيته .

(٢) استشهد به في اللسان ، نقلاً عن النهاية ، في مادة (ع و د) .

ومنه حديث خزيمة^(١) : عَادَ لَهَا النَّقَادُ مُجَرَّنَةً . أى صار .

وفى حديث كعب^(٢) : ووددت أن هذا اللبن يعود قَطِرَانًا ، أى يصير . فقليل له : لم ذلك؟ قال : تَتَبَّعْتُ قَرِيشَ أَذْنَابِ الْإِبِلِ ، وَتَرَكَوا الْجَمَاعَاتِ .

قال الشهاب : إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) إلا أن يقال بالتغليب فيه ، أو يقال : التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع في المكروه . ألا ترى إلى قوله (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) ^(٣) وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجاربردى وغير واحد . وأنشدوا قول الشاعر :

* وَعَادَ الرَّأْسُ مِنِّي كَالثَّغَامِ ^(٤)

ومعنى الآية : لتدخلن في ملتنا ، وقوله تعالى (إِنْ عُدْنَا) أى دخلنا - كذا فى تاج

العروس - .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها ، من استدعائها رجوع العائد ، إلى حال كان عليها قبل . كما يقال : عادله ، بعد ما كان أعرض عنه . إلا أن الكلام من باب التغليب . قال الزخمرى : لما قالوا (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ) فمطفؤا على ضميره ، الذين

(١) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى مادة (عود) وقال فى مادة (جرثم) :

النَّقَادُ : صغار الغنم . ومجرثنا : مجتمعنا متقبضا ، وإنما اجتمعت فى الجذب لأنها لم تجد مرعى تنشر فيه . وإنما لم يقل (مجرثمة) لأن لفظ (النقاد) لفظ الاسم الواحد . كالْحِذَارِ وَالْخِمَارِ .

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى ماد (ع و د) .

(٣) [٧ / الأعراف / ٨٣] و [٢٧ / النمل / ٥٧] . (٤) فى اللسان : الثَّغَامُ نبت

على شكل الحَلِىّ ، وهو أغلظ منه ، وأجلّ عودا ، يكون فى الجبل ينبت أخضر ثم يبيض إذا يبس ، وله سَمَّةٌ غليظة . ولا ينبت إلا فى قُتَّة سوداء ، وهو ينبت بنجد وتهيامة .

دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم - قالوا (لَتَعْمُدُنَّ) فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدین جميعاً ، إجراءً للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال (إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراءً لكلامه على حكم التغليب - انتهى .

ومنها : ما قاله الناصر في (الانتصاف) : إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق) ، ويحجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى (١) : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلي ، لم يدخل قط في نور الإيمان ، ولا كان فيه . ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراد ، فمبّر عن تمسك المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس في حق الكافر . وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى (٢) : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ، لإقامة حجة الله على عباده - والله أعلم - انتهى .

الثاني : في قوله : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا) ردّ إلى الله تعالى مستقيم . قال الواحدى : والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية : أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كنا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا . فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويسق من يشاء بالمعصية . وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشئته الله . ولم تزل الأنبياء والأكابر

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

يخافون العاقبة ، وانتقال الأمر . ألا ترى إلى قول الخليل ^(١) عليه الصلاة والسلام : (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) ؟ وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول ^(٢) : يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك .

وقال الزجاج : المعنى : وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها . وتصديق ذلك قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) ، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون ، من قبل أن يكون ، وما سيكون . وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء . فالسعيد من سعد في علم الله تعالى . والشقي من شقي في علم الله تعالى .

وقال الناصر في (الانتصاف) : موقع قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة . فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد . ولو وقع ، فبقدره الله ومشيئته المغيبة عن خلقه . فالخذر قائم ، والخوف لازم . ونظيره قول إبراهيم عليه السلام (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) ^(٣) لما ردا الأمر إلى المشيئة ، وهي مغيبة ، مجّد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات - والله أعلم .

وقال أبو السعود : معنى (وَمَا يَكُونُ لَنَا...) الآية - أى ما يصح لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال ، أو في وقت من الأوقات ، إلا أن يشاء الله . أى إلا حال مشيئة الله تعالى ، أو وقت مشيئته تعالى ، لعودنا فيها . وذلك مما لا يكاد يكون ، كما ينبغي عنه قوله تعالى : (رَبُّنَا...) فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم ، مما ينبغي عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً ، وكذا قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا آلَ اللَّهِ مِنْهَا) فإن تنجيته تعالى لهم منها ، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها . وقيل معناه : إلا أن يشاء الله خذلاننا . فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى . وأياً ما كان ، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيز الإمكان ، وخطر الوقوع ، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك . بل بيان استحالة وقوعها . كأنه

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] . (٢) أخرجه الترمذى في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ -

باب ما جاء أن القلوب بين أصبغى الرحمن . (٣) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيئات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له - انتهى - .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالة ، هو باعتبار الواقع ، وما يقتضيه منصب النبوة . وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية ، الذي هو من أعلى مقامات الخواص ، فيكون ما ذكرناه أولاً أدق ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم في (طريق المجرتين) : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)^(١) فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٢) وفي الصحيح^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إني أعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية . وفي لفظ آخر : إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتق . وكان صلى الله عليه وسلم^(٤) يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . وقد قال تعالى^(٥) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فكلما كان العبد بالله أعلم ، كأن له أخوف .

الثالث : قال الفراء^(٦) : أهل عُمان يسمون (القاضي) الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما كنت أدرى قوله (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) حتى سمعت ابنة ذى وزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أي أحاكك .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٧٢ - باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، حديث ٢٣٤٣ . (٤) أخرجه النسائي في : ١٣ - كتاب السهو ، ١٨ - باب البكاء في الصلاة . (٥) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٦) انظر معاني القرآن للفراء ، الصفحة ٣٨٥ من الجزء الأول (طبعة دار الكتب) .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهي لغة لِحَمِير ، أو لمراد ، والفتاحة (بالضم) عندهم الحكومة . أو هو مجاز بمعنى : أظهر وبيّن أمرنا ، حتى يكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز الحق من المبطّل . ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه ، تشبيهاً بفتح الباب وإزالة الأغلاق ، حتى يوصل إلى ما خلفها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَنٍ أَتَبَعْتُمْ سُعِيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَنٍ أَتَبَعْتُمْ سُعِيْبًا » أي فيما أمركم به وبينكم ، عنه « إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ » أي لجاهلون مغبونون ، لاستبدالكم ضلّالته بهذاكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من بحس الكيل والميزان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أي الزلزلة الشديدة .

قال ابن كثير : أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة ، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلّاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود ، فقال (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَرَخِمَ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ)^(١) والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم (أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ . . .) الآية^(٢) - فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال تعالى في الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابُ يَوْمِ عَظِيمٍ)^(٣) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ . . .)^(٤) الآية

(١) [١١ / هود / ٩٤] . (٢) [١١ / هود / ٨٧] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٨٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة . وقد اجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهي سحابة أظلمتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخذت الأجسام « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أى مدينتهم « جَثِيمِينَ » أى ساقطين ميتين ، لا ينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدھا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)

« الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتَيْنَا) وعقوبتهم بمقابلته . والموصول مبتدأ ، وخبره جملة (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) أى استؤصلوا بالمرّة ، وصاروا كأنهم ، لما أصابهم النعمة ، لم يقيموا بديارهم ، التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلا لقيلمهم السابق : « الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ » ديناً ودنيا ، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا .

قال أبو السعود : استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير . وإعادة الموصول والصلة كماهى ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة ، هو الذى استوجب العقوبتين . أى الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقاتلتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين ، لا المتبعون له ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائهم عليه الصلاة والسلام ، كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَ) .

وقال الزمخشري : فى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى ردّ مقالة الملأ لأشباعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

وفي (العنابة) : أن من عادة العرب الاستئفاف من غير عطف ، في الدم والتوبيخ .
فيقولون : أخوك الذي نهب مالنا ، أخوك الذي هتك سترنا . - انتهى - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

: « فَتَوَلَّى عَنْهُمْ » أي : أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم « وَقَالَ » أي : في الاعتذار
« يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي » أي بالأمر والنهي « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » أي :
حذرتكم من عذاب الله ، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين ، وبمنعكم
خسرانهما ، لكنكم كفرتم « فَكَيْفَ آسَىٰ » أي : أحزن حزناً شديداً « عَلَىٰ قَوْمٍ
كَافِرِينَ » أي بالله إن هلكوا ، فضلاً عن أن أشغل بشفاعتهم . يعني أنه لا يأسى عليهم ،
لأنهم ليسوا أحقاء بالآسى .

تنبيه :

قال الجشمي : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال ،
لما لم يقبلوا نصيحة نبيهم . فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين . وتدل على أنه لا يجوز
الحزن على هلاك الكفرة والظلمة ، بل يجب أن يحمد الله ويشكر . كما قال تعالى (فَاقْطِعْ
دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١)

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً ، عليه السلام ، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته ، وجزالة موعظته
وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا
ذاكر شعيباً يقول : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه .

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع ، وهى مجاز عن المحاورة . يقال : راجعه القول . وإنما عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر فى هذه السورة ، كما يعلم بالتأمل فيه . كذا فى (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالاً ، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلاً ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ » أى كذبه أهلها « إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا » أى قبل الإهلاك الكلى « بِالْبَأْسَاءِ » أى شدة الفقر « وَالضَّرَّاءِ » أى المرض ، لاستكبارهم عن اتباع ، نبينهم ، وتعززم عليه « لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ » ليتضرعوا ويتذللوا ، ويحطوا أردية الكبر والعزة ، فيؤمنوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ » أى أعطيناهم - بدل ما كانوا فيه من البلاء ، كالشدة والمرض - السمة والصحة « حَتَّىٰ عَفَوا » أى كثروا ونعوا فى أنفسهم وأموالهم . من قولهم : عفا النبات ، وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله ﷺ (١) (وأعفوا اللحي) « وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ » يعنى وأبطرهم النعمة وأشروا ،

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

والبخارى فى : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٦٥ - باب إعفاء اللحي ، حديث رقم ٢٢٩٢ .

فقالوا كفراً لها : هذه عادة الدهر . يعاقب في الناس بين الضراء والسراء ، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم ، فنحن مثلهم ، نقتدى بهم ، وما هو باهلاء من الله لعباده ، تصديقاً لوعد الرسل ، فازدادوا كفراً بعد الإلغام القولى والفعلى . والمعنى : أن الله تعالى ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه ، فما فعلوا . ثم بالحسنة ليثكروا ، فما فعلوا . وإذا لم ينجع فيهم هذا ولا ذاك ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقد فعل . كما قال سبحانه « فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى فأخذناهم أشد الأخذ وأظفله ، وهو أخذهم فجأة ، من غير شعور منهم ، ولا خطور شيء من المكار بهيأته ، كقوله تعالى (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِرِجْمَا أَوْ تَوَّأ...)^(١) الآية - وفي الحديث^(٢) (موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر) رواه الإمام أحمد والبيهقى عن عائشة . مرفوعاً .

تنبيه :

اعتقاد أن مناوبة الضراء والسراء عادة الدهر ، من غير أن يكون هناك داعية تؤدى إليها ، ولا حكمة فيهما ، هو من اعتقاد الكافرين .
قال ابن كثير : المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، فيشكر الله على السراء ، ويصبر على الضراء . ولهذا جاء في الحديث^(٣) : لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيماً من ذنوبه . والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا قيم أرسلوه - أو كما قال - . وفي الصحيحين^(٤) : عجبا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له .
وقوله تعالى :

- (١) [٦ / الأنعام / ٤٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) . (٣) لم أعثر على هذا النص فيما بين يدي من المصادر . (٤) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) . ولم يخرج البخاري .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ » أى القرى المهلكة « آمَنُوا » أى بالله ورسلم « وَاتَّقَوْا » أى الكفر والمعاصى « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » أى لو سمعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، التى بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض . ف (فتحننا) استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول . أو مجاز مرسل فى لازمه ، وهو التيسير . أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و (بركات الأرض) النبات والثمار « وَلَٰكِن كَذَّبُوا » أى الرسل « فَأَخَذْنَاهُم » أى عاقبناهم « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْ إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(١) أى : ما آمنت قرية بتأمرها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عابنوا من العذاب ، كما قال تعالى عنهم (فَأَمَّا يُونُسَ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(٢) .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَاعِمُونَ)

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ » أى : القرى المذكورة « أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا » أى : عذابنا ونكالنا « بَيِّنًا » أى : ليلاً ، أى وقت بيات « وَهُمْ نَاعِمُونَ » أى حال كمال الغفلة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ)

« أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ » أى : يخوضون في الباطل ويلهون من فرط الغفلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ » وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أى لا يأمن أحد أخذه تعالى العبد من حيث لا يشعر ، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذى خسروا عقولهم ، وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخس من البهائم . وفى قوله تعالى « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ » تكرير للنكير فى قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى) لزيادة التقرير .

قال الزمخشري : فعلى العاقل أن يكون فى خوف من مكر الله ، كالحارب الذى يخاف من عدوه الكمين ، والبيات ، والغيلة . وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت : ما لى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه ! إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا نَيْتًا) . - انتهى - .

وقال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق ، وجل خائف . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

تنبيه :

الآمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال فى المعاصى ، اتكالا على عفو الله - كما فى جمع الجوامع - .

وقال الحنفية : إنه كفر كاليأس ، لقوله تعالى : (إِنَّهُ وَ لَا يَأْنِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ) (١) (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (٢) .

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود (٣) رضى الله عنه (مِنَ الْكِبَائِرِ الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ) . وما ورد من أنه كفر ، محمول على التغليظ . كذا في (العناية) .

وروى ابن أبي حاتم والبراز عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل : مَا الْكِبَائِرُ ؟ فَقَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ . قال بعضهم : والأشبه أن يكون موقوفاً .

قال ابن حجر : وبكونه أكبر الكبائر ، صرح ابن مسعود . كما رواه عنه عبد الرزاق والطبراني .

قال السكال بن أبي شريف : عطفهما - يعنى الإيأس والأمن - في الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر ، ظاهر في أنهما غير الكفر .

وقال أيضاً . مراد الشافعية بكونه كبيرة ؛ أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها في حد الأمن من المكر ، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به في حد اليأس . وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر ، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه . فينبغي أن يكون كل منهما كافراً عند الشافعية أيضاً ، ويحمل عليه نص القرآن - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ

أَصْبَحْنَاهُمْ بَدُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« أَوْ لَمْ يَهْدِ » أى يبين « لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا » أى المأخوذين

(١) [١٢ / يوسف / ٨٧] . (٢) [الأعراف / ٩٩] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

« أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين « وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى نجثم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيماناً .

قال أبو البقاء : يقرأ (يهدى) بالياء وفاعله (أن لو نشاء) . و (أن) مخففة من الثقيلة . أى : أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا . ويقرأ بالنون . و (أن لو نشاء) مفعوله . وقيل : فاعل (يهدى) ضمير اسم الله تعالى - انتهى - .

ويؤيده قراءة النون . وجوز أن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم مما قبله ، أى : أو لم يهد ما جرى للأمم السابقة . وتعدي (يهدى) باللام ، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز ، أو التضمنين .

قال الشهاب : وإنما جعل بمعنى (يبين) ، وإن كان (يهدى) يتعدى بنفسه ، وباللام ويأى - لأن ذلك فى المفعول الثانى لا فى الأول ، كما هنا ، فهذا استعمال آخر . وقيل : لك أن تحمل اللام على الزيادة ، كما فى (رَدِفَ لَكُمْ)^(١) والمراد (بالثنتين) أهل مكة ومن حولها ، كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما - انتهى - .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

« تِلْكَ الْقُرَىٰ » أى المذكورة وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب « نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا » مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه .

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم، بأن يبين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة « بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم ، إذ تمرنوا على التكذيب ، فلم تقدم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنَقَلَبُ أُفُودَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...) الآية^(١) - ولهذا قال « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ » أى من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)
« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ » أى من وفاء عهد « وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » أى : خارجين عن الطاعة مارقين ، فلذلك أخذناهم .

قال الزمخشريّ : الضمير (للناس) على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد . يعنى : أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه فى الإيمان والتقوى . والآية اعتراض . ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا ، إذا عاهدوا الله فى ضرر وخافة ، لن أنجيئنا لنؤمنن ، ثم نجاهم ، نكثوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ، فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ » أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، وهم نوح وهود وصالح ولوط

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٩ و ١١٠] .

وشعيب، أو الأمم المحكيّة من بعدهلاكهم « مُوسَىٰ بِأَيَّتِنَا » وهي العصا، واليد البيضاء، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، حسبما يأتي مفصلاً « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وهو ملك مصر في عهد موسى « وَمَلَائِكَتِهِ » أي قومه « فَظَلَمُوا بِهَا » أي كفروا بها . أجرى الظلم مجرى التكفر في تعديته بالباء، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من واحد. (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ^(١). أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضييغاً، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان، لأنه أوتى الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به . فعكسوا، حيث كفروا فوضعوا الشيء في غير موضعه . أو الباء سببية، ومفعوله محذوف، أي ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد . أو ظلموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا، كما يشير له قوله تعالى « فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم، وآتاه أعداءهم، فأغرقهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أي : أُرسلني إليك

الذي هو خالق كل شيء وربّه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ » أي جدير بذلك وحرى به ، لما علمت

(١) [٣١ / لقان / ١٣] .

من حالى . والباء و (على) يتعاقبان . يقال : رميت بالقوس وعلى المقوس . وجاء على حال حسنة وبجمال حسنة . وقرأ أبى رضى الله عنه (حقيق بأن لا أقول) « قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى آية منه تشهد على صدق فيما جئتمكم به بالضرورة « فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ روى أنه تعالى أمره أن يأتى فرعون ويقول له : إن إلها أمرنا أن نسير ثلاثة أيام فى البرية ، ونقرب له قرايين ونعبده . وقد علم تعالى أن فرعون لا يدعهم يعضون ، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوه . فلما أتى موسى فرعون وكله فى أن يرسل معه قومه ، أنكر أمر الرب له ، وقال : لماذا نعطل الشعب عن أعماله ؟ وكانوا مسخرين لفرعون فى عمل اللبن ، وأمر بزيادة عملهم ، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم ، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون . ثم طلب فرعون من موسى آية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
« قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَأَلْقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)
« فَأَلْقَى عَصَاهُ » التى هى جاد « فَإِذَا هِيَ » أى من غير سترة ولا معالجة سبب « ثُعْبَانٌ » أى حية كبيرة هائلة ، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه « مُّبِينٌ » أى ظاهر لا متخيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)
« وَنَزَعَ يَدَهُو » أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه « فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ »

أى بياضاً بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها . فيدلّ على أنه يظهر على يديه شرائع تغلب أنوارها المعنوية الأنوار الحسية ، ويتقوى بها الحياة بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ » أى الأشراف الذين يكرهون شرف الغير عليهم ، فى دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ » أى ماهر فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

« يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » أى من أرض مصر بسحره ليمتلك عليها « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » أى تشيرون فى أمره . وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ ، أو مستأنف من قول فرعون ، تقديره فقال : ماذا تأمرون ؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

« قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » أى آخر أمرها ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور : والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا آخره ليتبين حاله للناس . وأصل (أَرْجِهْ) أرجئه ، كما قرئ كذلك . من (أَرْجَأْتُ) « وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ » أى مدائن الصعيد من نواحي مصر « حَاشِرِينَ » أى من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ)

« يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَجِرٍ » وقرئ (سَجَّار) « عَلِيمٍ » أى ماهر فى باب السحر ، ليعارضوا موسى بنظير ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجشمى : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى ، حتى نسبوه إلى السحر . وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه . فلذلك دعا فرعون بالسحرة . فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن ، لعارضوه . وتدل على أن الطريق فى المعجزات ، المعارضة بإتيال مثله ، ولذلك قال تعالى فى القرآن : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ)^(١) ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه . وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) فبدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس فى هذا الزمن . انتهى . ثم تسابقت شرط فرعون ، فحشروهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

« وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » ولما توثقوا من فرعون

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْتُ مُنْقِلٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْكَيْنِ)

« قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْتُ مُنْقِلٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْكَيْنِ » أى أول من أتى ، كما فى الآية الأخرى . قيل : خيروا موسى إظهارا للجلالة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره . وقال الزمخشري : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا ، كالتناظرين قبل أن يتخاضوا فى الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا للصراع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْثَرَهُبُهُمْ وَجَاءُوا

بِسِحْرِ عَظِيمٍ)

« قَالَ » أى : موسى لهم « أَلْقُوا » أى ما أنتم ملقون . وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصده من التأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا « فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ » أى خيلوا لها ما ليس فى الواقع « وَأَسْثَرَهُبُهُمْ » أى وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما فى الآية الأخرى ^(١) : (فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) « وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ » أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصي ثمايين .

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما فى وسعهم من التمويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الاشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ،

(١) [٢٠ / طه / ٦٨ و ٦٩] .

ما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك في وسع طبيب . وكان الغالب في زمن نبيينا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن وتحداهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الجبال والعصى متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء . ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلم ، وكان مثله متدورا لكل من يتعاطى صناعتهم ، عُلِمَ أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ، ويمكن إتيان مثلها ، ويخفى أمرها ، بخلاف المعجزة .

ثم قال : وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبممنهتهم لدفع مكروهه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)
« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ » أى تبتلع « مَا يَأْفِكُونَ »
أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
« فَوَقَعَ الْحَقُّ » أى ثبت الإعجاز « وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من السحر
لإبطال الإعجاز .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ)
« فَغُلِبُوا هُنَالِكَ » أى في مكان الوعد الذى اجتمع فيه أهل مصر بدعوته ، لظنه
غلبة السحرة « وَانْقَلَبُوا » أى رجعوا « صَغِيرِينَ » أى : ذليلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ)

« وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

« رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » .

قال الجشمي : دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر ، فآمنوا في الحال . وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة ، لذلك اعترفوا بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ

مَكْرُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا » أى الصنع « لَمَكْرٌ »

أى حيلة « مَكْرُهُمْ » أى دبرتموه أنتم وموسى « فِي الْمَدِينَةِ » أى فى مصر قبل الخروج

للميعاد « لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وعيد أجله ثم فصله بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ » أى من كل جانب ، عضواً مغايراً للآخر ،

كاليد من أحدهما ، والرجل من آخر .
قال الشهاب : (مَنْ خَلْفٍ) حال ، أى مختلفة . وقيل (مِنْ) تعليلية متعلقة بالفعل ،
أى لأجل خلافكم ، وهو بعيد .
« ثُمَّ لَا صَلْبَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ » أى تفضيحاً لكم ، وتفكيلاً لأمثالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

« قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أى فلا نبأى بما تهددنا به ، لأنه هو الذى يقربنا
إلى من آمننا به ، فيحيينا بحياة خير من الحياة الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ)

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا » أى ما تعيب منا
إلا الإيمان بآيات الله . أى وما عيبته وأنكرته هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ،
وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفيض علينا
صبراً واسماً لنثبت على دينك « وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ » أى ثابتين على الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَإِيَّاهُتَكَ ، قَالَ سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)
« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا

السحرة جاهدوا بالإسلام ، ولم يبالوا بالتوعد « أَنْذَرُ » أى أترك « مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى فى أرض مملكتك بتغيير الناس عنك « وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكَ » الآلهة جمع (إله) ، بمعنى المعبود . وكان المصريين آلهة كثيرة منها المسمى (أو سيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد فى الثور المسمى (أيبس) ، فيعبدونه أيضاً ، ويعبدون كثيراً من الحيوانات . وكانوا يعبدون الظلام أيضاً ، ويعبدون (بَعْلَزَ بوب) صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب . وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض . هكذا حكى عنهم بعض المدققين .

وقد ذكر الشهرستانى فى (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة ، ثم انحرف عن ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، إذ رأى فى نفسه قوة الاستعمال والاستخدام . انتهى .

وتقدم فى سورة البقرة بيان مذهب الصابئة . فتذكر .

وقال بعضهم : إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين ، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله ، وأنها لو حلت على هذا معنا ، لم يبعد ، ويكون المعنى : ويذرك وقضاتك وذوى أمرك ، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر ، وإلهاب قلب فرعون على موسى ، وإثارة غضبه . وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية فى القرآن ، كما نقله السيوطى فى النوع الثامن والثلاثين من (الإتيان) - انتهى - والأظهر ما قدمناه أولاً . « قَالَ سَنَقْتَلُ » قرئ ، بالتخفيف والتشديد « أَبْنَاءَهُمْ » المولودين « وَنَسْتَحْيِي » أى نستبق « نِسَاءَهُمْ » أى للاستخدام « وَإِلَّا فَوْقَهُمْ قَهَرُونَ » أى بالعلبة والقدرة عليهم ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

« قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » أى على أذاهم « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا » أى يعطيها « مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم . وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجى قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآيات على أن قوم فرعون ، لما عجزوا عن موسى في آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن ، التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ ، إلى القتال ، الذى لا يفيد ذلك - دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضالّ مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد . وتدل على أن عند الخوف من الظلمة يجب الفرع إلى الله تعالى ، والاستمانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا في هذين : وهو الانتطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع ، واللطف له في الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصي . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)
« قَالُوا » أى قوم موسى « أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » أى فعلوا

بنا من الهوان والإذلال من قبل بمثلك وبعدها. ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبل « قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ » أى فرعون وجنوده « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » أى فیری الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه ، وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم . ثم بين تعالى ما أحل فرعون وقومه من الضراء ، لما تأتى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ » أى بالجدب والقحط « وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى . وذلك لأن الشدة ترقق القلوب ، وترغب فى الزراعة إلى الله تعالى .

قال الجسمى: تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً فى الدين، لذلك قال : (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . اهـ

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد ، لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُكُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) « فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ » أى الصحة والخصب « قَالُوا لَنَا هَذِهِ » أى لأجلنا واستحقاقنا ، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم ، فيشكروه على إنعامه « وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ » شدة « يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ » أى يتشاءموا . وأصله (يتطيروا) . يعنى أنهم يقولون :

هذه بشؤمهم «أَلَا إِنَّمَا طَاسِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» أى شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر، عند الله ، لا عند غيره ، أى من قبله تعالى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى أن ما أصابهم من الله تعالى ، فيقولون ما يقولون ، مما حكى عنهم . ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوّهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)
« وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى بمصدقين بالرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ » أى على آل فرعون . وأما قوم موسى فلفظ تعالى بهم ، فلم ينلهم ولا محالهم سوء من الطوفان ولا غيره . والطوفان (لغة) هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به . فعمّ الطوفان الصحراء ، وأتلف عُشْبَهَا ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر « وَالْجُرَادَ » فأكل جميع عشب أرض مصر والثر ، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شئ من ثمرة ولا خضرة فى الشجرة ، ولا عشب فى الصحراء « وَالْقُمَّلَ » فعمّ أرض مصر ، وكان على الناس والبهايم ، وهو بضم وتشديد ك (سُكَّر) صفار الذرّ ، أو شئ صغير بجناح أحمر . أو دوابّ صفار من جنس القردان ، أو الدبى الذى لا أجنحة له ، وهو الجراد الصفار .

قال أبو البقاء : (القمل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون اليم . قيل : هما لفتان . وقيل : هما القمل المعروف فى الثياب ونحوها ، والمشدد يكون فى الطعام- انتهى .

ورد ابن سيده ، وتبعه الجدي (القاموس) القول بأن المراد به قل الناس . «وَالضَّفَادِعَ» فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطت أرض مصر «وَالدَّمَ» فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً «ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ» أى مبینات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته ، أو مفرقات بعضها إثر بعض . و (آيات) حال من المنصوبات قبل «فَأَسْتَكْبَرُوا» أى عن الإيمان ، فلم يؤمنوا بموسى ، ورسلاؤه بنى إسرائيل «وَكَانُوا قَوْمًا مُّخْرِجِينَ» أى عاصين كافرين .

قال الجشمى : تدل الآية على عناد القوم ، وإصرارهم على الكفر وجهلهم ، حيث عاهدوا فى كل آية يأتى بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بها . وليس هذا عادة من غرَضُه الحق . وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها . وتدل على وجوب التدبر فى الآيات . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ) «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ» أى نزل بهم العذاب المفصل «قَالُوا يَمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» أى بعهده عندك ، وهو النبوة . ف (ما) مصدرية .

قال الشهاب : سميت النبوة عهداً ، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها ، وعهدوا إليه تحمل أعبائها ، أو لأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ اليهود . أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى - انتهى - .

«لَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ» أى الذين أرسلت لطلبهم ، ليعبدوا ربهم تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)
 « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ » يعنى إلى الوقت الذى أَجَلَ لَهُمْ ،
 وهو وقت إهلاكهم بالفرق في اليمِّ « إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » أى ينقضون العهد الذى التزموه ،
 فلم ينفوا به . فإن فرعون كان كلما حلَّ بمصر نقمة مما تقدم ، يدعو موسى ، ويطلب منه أن يشفع
 إلى الله تعالى بكشفها . ويَعِدُّه أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى ، حتى إذا كشفت
 أخلف ما وعد ، وقسا قلبه . ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم ، أتهم النعمة القاضية ، كما
 قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

« فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » أى البحر « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 عَنْهَا غَافِلِينَ » أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكيرهم
 ومبالاتهم بها . وقد روى أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر ،
 أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر ، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا ، فارتحل بنو إسرائيل
 على عَجَلٍ لَيْلًا ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشي ، من عين شمس إلى « سُكُوت »
 وسلكوا طريق بركة البحر الأحمر . ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل ، من إطلاقهم
 من خدمته ، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم ، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ
 البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم :
 لا تخافوا ، إن الله معنا . ثم أمر تعالى موسى ، فدبده إلى البحر الأحمر ، فانشق ماؤه ، وصار
 فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فببس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ،

والماء عن يمينهم وشمالهم ، ففتحهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمد موسى يده ، بإذن الله ، على البحر ، فارتدّ ماؤه سريماً ، وغمر فرعون وجنوده ومراكبه ، ففرقوا جميعاً ، ثم طفت جيفهم على وجه الماء ، وانتقدت إلى الساحل ، فشهدها الإسرائيليون عياناً . هذا ملخص ما روى هنا .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أراح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة جزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَمَرِهَا
الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ » أي بالاستعباد وقتل الأبناء . وفي التعبير عنهم بهذا ، إظهار لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة « مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَمَرِهَا » أي الأرض المقدسة ، أي جوانبها الشرقية والغربية ، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالة ، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا . وقوله تعالى « الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا » أي بالخصب وسعة الأرزاق « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أي مضت واستمرت عليهم ، وهي وعده إياهم بالنصر والتسكين « بِمَا صَبَرُوا » أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه .

قال الزمخشري : وحسبك به حائثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وعن الحسن : عجبت ممن خفّ كيف خفّ ، وقد سمع قوله تعالى - وتلا الآية - ومعنى (خفّ) طاش جزءاً وقلة صبر ، ولم يرزأ أولى الصبر .

« وَدَمَرْنَا » أى خربنا وأهلكنا « مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ » أى ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور « وَمَا كَانُوا يَغْرُسُونَ » (بكسر الراء وضمها) أى من الجنّات . أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء ، كصرح هامان . وهذا كما قال تعالى (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (١) . وقال تعالى (كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (٢) .

قال الزمخشري : وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله ، وظالمهم ومعاصيهم . ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل ، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مُلكة فرعون ، واستعباده ، ومعابنتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر : من عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان وأنه ، كما وصفه ، (لَظَلُمُوا كَفَّارًا) (٣) جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (٤) وليسلى رسول الله ﷺ مما أرى من بنى إسرائيل بالمدينة ، فقال تعالى :

(١) [٢٨ / القصص / ٦٥] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٥ - ٢٨] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] . (٤) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) « وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ » أى الذى أغرق فيه أعداءهم ، وهو بحر القلزم (كقنفذ) ، بلد كان فى شرق مصر ، قرب جبل الطور ، أضيف إليه ، لأنه على طرفه ، ويعرف البلد الآن بـ (السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر ، فقد أخطأ ، كما فى (العناية) . « فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ » قرئ بضم الكاف وكسر ها « عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ » أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها « قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا » أى صنما نعكف عليه « كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » أى أصنام يعكفون عليها « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى شأن الألوهية وعظمتها ، وأنه لا يستحقها إلا الله وحده .

قال البغوى رحمه الله : ولم يكن ذلك شكاً من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ، وتتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى . وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك لشدة جهلهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) « إِنَّ هَؤُلَاءِ »

يعنى عبدة تلك التماثيل « مُتَّبِعُونَ » أى مهلك « مَا هُمْ فِيهِ » أى من الشرك « وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى عبادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازى : أجمع كل الأنبياء ، عليهم السلام ، على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد فى ذلك الغير كونه إلهاً للعالم ، أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى ، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة

والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها . والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشرّكين كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى (أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسى بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم - أخرجه الإمام أحمد^(١) والترمذي^(٢) وابن جرير وغيرهم . وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي : انظروا رحمكم الله أيما جدتم سدره أو شجرة يقصدها الناس ، ويمظّمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي ذات أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو شامة الشافعيّ الدمشقيّ في كتاب (البدع والحوادث) : وقد عم الابتلاء بترزين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظّم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ، فيعظّمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، بالنذر لها ، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر . ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التي في الحديث .

وروى ابن وضاح في كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويج تحتها النبي ﷺ فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، نخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تنمة مهمة في (إغاثة اللهفان) لابن القيم . فلتنظر .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« قَالَ » أى موسى ، مذكراً لقومه نعمه تعالى عليهم ، الموجبة لتخصيصه تعالى بالعبادة « أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا » أى أطلب لكم معبوداً . يقال : أبغاه الشيء طلبه له ، كـ (بغاه إياه) ، يتعدى إلى مفعولين ، وليس من باب الحذف والإيصال . وفي الحديث ^(١) : ابني أحجاراً أستطيب بها ، بهزمة القطع والوصل . وقال الشاعر ^(٢) :

وكم أمل من ذى غنى وقراءة لتبغيه خيراً وليس بفاعل
والاستفهام فى الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ « وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »
أى والحال ، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُقَتِّلُونَ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » أى : من فرعون وقومه « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ » أى يكلفونكم إياه ، أو يولونكم إياه ، يقال : سامه الأمر يسومه ، كلفه إياه

وجشمه وألزمه . أو أولاه إياه « يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ

مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى فنجاكم منه وحده ، من غير شفاعة أحد .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر .
وتدل على أن الحن في الأولاد والأهل بمنزلة الحن في النفس ، ويجرى مجراه . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٢٠ - باب الاستنجاء بالحجارة ،

حديث رقم ١٢٦ . (٢) استشهد به في اللسان في مادة (ب غ ي) بالصفحة رقم ٧٦ من الجزء

الرابع عشر (طبعة بيروت) . قال : وبغيتك الشيء : طلبته لك . ومنه قول الشاعر . وساق البيت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّةٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

« وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّةٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »
 روى أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا في برية طور سيناء ، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهرا ونصفا . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه ، وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . ثم أنجدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا يشاهدون على الجبل ضبابا ، وصوت رعود ، وبروقا . ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التي كتبها على قومه . فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغيام ، فدخل موسى في وسط الغمام وأقام في الجبل أربعين يوما ، لم يأكل ولم يشرب ، لِمَا أُمدَّ من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأوتى في برهتها الألواح التي كتبت فيها شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنو منه ، فجعل على وجهه برفعا ، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة ، رفعه ، وإذا أتاهم وضعه . والله أعلم .
 « وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ » أى حين توجه للمناجاة « أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » أى : كن خليفتي فيهم « وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » أى لا تتبع من سلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أنه استخلف هرون عند خروجه ، لا رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهرون وجوابه له كقوله :

(أَفَمَصَّيْتَ أَمْرِي) ^(١) وقول هرون (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي) ^(٢) (فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ) ^(٣) كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا في النبوة . والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ، لأنه المقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاء عن شيء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ، عظة له ، واعتباراً لغيره ، وتأكيذاً ومصالحة للجميع . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا» أى حضر الجبل لوقتنا الذى وقتناه وحددنا «وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» أى خاطبه من غير واسطة ملك «قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي» أى لن تطيق رؤيتي، لأن هذه البنية الآدمية فى هذه النشأة الدنيوية ، لا طاقة لها بذلك، لعدم استعدادها له . بل ما هو أكبر جرماً، وأشد خلقاً وصلابة - وهو الجبل - لا يثبت لذلك ، بل يندك . ولذا قال تعالى (وَلَٰكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ) أى الذى هو أقوى منك (فَإِنِ اسْتَقَرَّ) أى ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يترزل (فَسَوْفَ تَرَانِي) ، أى تثبت لرؤيتي ، إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة . وفيه من التلطيف بموسى ، والتكريم له ، والتنزل القدسى - ما لا يخفى «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» أى : ظهر له وبأن - قاله الزجاج - «جَعَلَهُ دَكًّا» أى : التجلى «دَكًّا»

(١) [٢٠ / طه / ٩٣] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٤] . (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٠] .

أى مَقْتَمًا ، فلم يستقر مكانه . فبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس في القرآن إشارة إليه « وَخَرَّ » أى وقع « مُوسَىٰ صَعِقًا » أى مغشىً عليه من هول ما رأى « فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ » أى من الإقدام على سؤالى الرؤية « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ في هذه النشأة .

قال فى (الانتصاف) : إنما سبج موسى عليه السلام لما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبج الله ، وقدر علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزلها مبرأً من كل ما ينحط به . ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (سيئات المقربين ، حسنات الأبرار) .
تنبيه :

قال المتكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول - أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها . لأن العاقل ، فضلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال . ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة . إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة . ولا ريب فى نبوة موسى عليه السلام ، وأنه من أولى العزم .

الثانى - أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن فى نفسه . والملق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به . والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة .

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروري ، فعنى قوله : (أَرِنِي) أى : اجعلنى عالماً بك علماً ضرورياً - خلاف الظاهر . فإن النظر الموصول : (إلى) نص فى الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال ، مع أن طلب العلم الضرورى لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول . وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام ، كان سألها لقومه ، حيث قالوا^(١) : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً) ، فسأل ليعلموا امتناعها - فإنه خلاف الظاهر ، وتكلف يذهب رونق المنظم ، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى فى الآخرة ، بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فلقوله تعالى^(٢) : « وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » ، وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة فى الحق الصراح ، عسر إقناعه مهما قوى الدليل وعظمت الحجة .

قال فى فتح البيان : رؤيته تعالى فى الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة . والجدال فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة . ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة - يوقع فى التعصب . والمتعصب ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مرتجأً ، وطريق الانصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

يَا أَيُّهَا الْفَتَىٰ إِنَّا اتَّبَعْنَا الْهَوَىٰ وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٌ

- انتهى - .

وهذا تمريض بالمعتزلة ، وفى مقدمتهم الزمخشري . وقد انتقل ، عفا الله عنه ، أخيراً إلى

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

هجاء أهل السنة بما أنشده :

لِجَمَاعَةٍ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سَنَةً وَجَمَاعَةً حُمِرُ لَعَمْرِي مُوكَفَةً
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شُنْعَ الْوَرَى فَتَسْتَرُّوْا بِالْبَلْكَفَةِ
وَالْبَلْكَفَةِ نَحْتُ ، كالبسمة ، أى بقولهم (بَلَا كَيْفَ) .

قال فى (الانتصاف): ولولا الاستئنان بحسّان بن ثابت الأنصارى، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره، والمنافع عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المتلقين: (العدلية) و(الناجين) سلاماً، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافع عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول :

وَجَمَاعَةٌ كَفَرُوا بِرُؤْيَا رَبِّهِمْ وَعَلَقَبُوا عَدْلِيَّةً . قُلْنَا : أَجَلُ
وَنَلَقَبُوا النَّاجِينَ . كَلَّا ! إِنَّهُمْ
حَقًّا وَوَعَدُ اللَّهِ مَا لَنْ يُخْلِفَهُ
عَدَلُوا بِهِمْ . فَحَسِبُهُمْ سَفَهًا
إِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي لُطَى فَعَلَى سَفَهٍ

وقال أبو حيان فى الرد عليه :

شَبَّهَ جَهْلًا صَدْرَ أُمَّةٍ أَحْمَدَ
وَجَبَّ الْخَسَارُ عَلَيْكَ . فَانْظُرْ مَنْصَفًا
أَتُرَى الْكَلِيمَ أَتَى بِجَهْلٍ مَا أَتَى
إِنْ الْوُجُوهَ إِلَيْهِ نَازِرَةً . بَذَا
نَطَقَ الْكِتَابُ وَأَنْتَ تَنْطِقُ بِالْهَوَى
فَهَوَى الْهَوَى بِكَ فِي الْمَاهَوَى الْمُتَلَفَةِ

وقال العلامة الجاربردى :

عَجِبًا لِقَوْمٍ ظَالِمِينَ تَسْتَرُّوْا بِالْعَدْلِ . مَا فِيهِمْ لَعَمْرِي مَعْرِفَةٌ
قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَهُ تَعْطِيلُ ذَاتِ اللَّهِ مَعَ نَفْيِ الصِّفَةِ

وقد ساق السبكي فى (طبقاته) فى ترجمة الجاربردى عدة قصائد ومقاطيع فى الردّ عليه .

ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)

« قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيتُكَ عَلَى النَّاسِ » أى اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم « بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي » أى: وبكلامي إياك « فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ » أى ما أعطيتك من شرف النبوة والنجاة « وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ » أى على النعمة فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

« وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » من الحلال والحرام « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » أى بعزم على العمل بما فيها « وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا » أى بما أمروا به دون ما نهوا عنه « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » وهى الأرض التى وعدوا بها من فلسطين ، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر ، وبقائهم فى البرية . فإن موسى عليه السلام ، لما مات ، خلفه يشوع بن نون ، فخارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان ، وفتح بلادهم ، وصارت ملكاً للإسرائيليين .

تنبيه :

قال الجسمى^(١) : تدل الآية على حدوث كلامه ، لأن قوله (أُصْطَفِيتُكَ) أى اختصصتك به ، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء ، ولما صح الاختصاص . ويدل (١) لاتنس قول المؤلف رضى الله عنه ، لما ساق أول ما نقله من كتاب (التهذيب) عن مؤلفه الجسمى ، لاتنس ما قاله بالصفحة رقم ٢٦٣٥ . ونصه (وهو جار على أصول المعتزلة) وهذا من هذا . فتنبه .

قوله (وَكُتِبْنَا) أنه أعطاه التوراة مكتوبة في الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقيين ، ليقع لهم العلم ضرورة . ويدل على أن في التوراة شرائع ، وجميع ما يحتاج إليه . ويدل قوله (بِقُوَّةٍ) أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل ، وأنه يفعل بقدرة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ» أى سامنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ، والمتكبرين على الناس . أى فكما استكبروا أذهم الله بالجهل ، كقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(١) . وقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)^(٢) . وقوله تعالى «بِغَيْرِ الْحَقِّ» إما صلة للفعل ، أى يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل . أو حال من فاعله ، أى يتكبرون غير محقين «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ» أى حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم «لَا يُؤْمِنُوا بِهَا» تكبراً عليها «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ» يعنى طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً «لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» لمغافاته أهويتهم «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ» أى الضلال عن الحق والهلاك «يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» أى طريقاً يميلون إليه «ذَلِكَ» أى الصرف عن الآيات، أو اتخاذهم السبيل «بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» أى : لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها . أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل . ثم بين وعيد المكذبين بقوله :

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] . (٢) [٦١ / الصف / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ » أى القيامة، وهى الكثرة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا « حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ » أى بطلت ، فلم تعقب نقعاً . والمراد جزاء أعمالهم ، لأن الحابط إنما يصح في المنتظر ، دون ما تَقَضَّى ، وهذا كقوله (لَيُرَوَّأُ أَعْمَلُهُمْ)^(١) « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى إلا جزاء عملهم من الكفر والمعاصي .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ) الخ كلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متصل بما سبق من قصصهم ، وهو (أَوَلَمْ يَهْدِ ...) الخ . وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار .

وقال الكسبي وأبو مسلم الأصمهانى : إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه . ومعنى صرفهم إهلاكهم ، فلا يقدرّون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو شبيه بقوله : (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ)^(٢) فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ، ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة . انتهى . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَئِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَئِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ » يخبر تعالى عن

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٦٧] .

ضلال من ضل من بنى إسرائيل ، في عبادتهم العجل الذى آخذهم لهم السامرى من حلى القبط ، الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه مجلاً ، جسداً لا روح فيه . وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أى صوت كصوت البقر . وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة (فَأِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْكُمْ بَعْدَكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)^(١) .

لطائف :

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل (وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى... عِجْلاً) والتخذ هو السامرى ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما - أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا يريدون لآخذه ، راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه .

والثاني - أن يراد : واتخذوه إلهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال (مِنْ خُلِيِّهِمْ) ولم يكن الخلى لهم ، إنما كانت عوارى في أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها في أيديهم عوارى ، كفى به ملابسة . على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين ، كما قال تعالى : (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)^(٢) انتهى .

قال النسفي : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعارها ، يحنث . وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها - انتهى .

والخلى بضم الحاء والتشديد ، جمع « حَلَى » بفتح فسكون ، (كَثَدَى وَثَدَى) وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة .

(١) [٢٠ / طه / ٨٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

وقوله «تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُوَ لَا يَكْلِفُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» تقرّيع على فرط ضلالهم وإخلاصهم بالنظر . والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلهًا ، أنه لا يقدر على كلام ، ولا على إرشاد سبيل ، كما حاد البشر ؟ فهو جاد لا ينفع ولا يضر . فكيف يكون إلهًا ؟
وقوله تعالى « اتَّخَذُوهُ » تكرير لتأكيد الذم ، أى : اتخذوه إلهًا وعبدوه . « وَكَانُوا ظَالِمِينَ » أى : واضعين الأشياء فى غير مواضعها . والجملة إما استثنائية ، أو اعتراض تذييل للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هذا منهم . أو حالية ، أى : اتخذوه فى هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، وأنه تعالى دلهم ، فى بطلان اتخاذ العجل إلهًا ، بأنه لا يتكلم ولا يهدى . وإنما ذكر الكلام لأن الحوار تنفذ فيه الخيلة ، ولا تنفذ فى الكلام . وتدل على أن إزالة الشبه فى الدين واجب ، كما أزالها الله تعالى . وتدل على أن القوم كانوا جهالًا غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل . وتدل على أن تلك الخلق كانت ملكا لبني إسرائيل ، لذلك قال (حُطِّيمٌ) . فإن ثبت أنهم استعاروه ، فيبدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بنى إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب . وتدل على أن الاتحاد فعلهم (١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أى : ندموا على عبادة العجل « وَرَأَوْا » أى علموا وأيقنوا « أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا » أى : عن الحق والهدى « قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا » أى بقبول توبتنا « وَيَغْفِرْ لَنَا » أى : ما قدمنا من عبادة العجل « لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى : بالعقوبة .
أى : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم .

(١) انظر : الصفحة رقم ٢٨٥٤ ، الحاشية رقم (١) .

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحَسِرَ على ما فَرَطَ منه (قد سَقَطَ في يده) و (أُسْقِطَ) مضمومتين - قاله الزجاج - .

وقال الفراء : يقال سَقِطَ في يده وأسقط ، من الندامة ، و (سَقِطَ) أكثر وأجود . وأنكر أبو عمرو (أُسْقِطَ) بالالف ، وجوزه الأخفش .

قال الزحشرى : من شأن من اشتد ندمه وحسرتة ، أن يعض يده غمًا ، فتصير يده مسقوطًا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم في أيديهم ، أى في قلوبهم وأنفسهم . كما يقال : حصل في يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون في اليد ، تشبيها لما يحصل في القلب وفي النفس ، بما يحصل في اليد ، ويرى بالعين - انتهى - .

وقال الفارسي : أى : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم . فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط .

وفي (العباب) : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط . وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب ، وأثره يظهر في اليد ، كقوله تعالى (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا)^(١) ولأن اليد هي الجارحة العظمى ، فربما يسند إليها ما لم تباشره ، كقوله تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ)^(٢) - انتهى - .

وعليه ، فيكون (سَقِطَ) من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :
كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ مَا لَفَعَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَلَعَ
وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ، ويضعه على يده ، معتمداً عليه ، وتارة

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٠]

يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيئة لو نزع يده لسقط على وجهه، فكانت اليد مسقوطةً فيها، لتمسك السقوط فيها. ويكون قوله (سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ) بمعنى سقط على أيديهم، كقوله (وَلَا صَلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ)^(١) أى عليها . و (سَقَطَ) عده بعضهم من الأفعال التي لا تنصرف ، كـ (نِعِمَّ وَبَشَ) . وقرئ (سَقَطَ) معلوماً ، أى الندم ، أو العجز ، أو الخسران ، وكله تمثيل . وقرئ (أَسْقَطَ) رباعى مجهول ، وهى لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا .

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات . وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ ثَمَّأَ خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَآتَى الْأَلْوَابَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَزْعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَدَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا » أى : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أى على ما فاته من مناجاة ربه « قَالَ ثَمَّأَ خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي » أى بثما عملتم خلفي ، أو قتم مقامى ، وكتم خلفائى من بعدى . والخطاب إما لعبدة العجل ، من السامري وأشياعه . أو لوجوه بنى إسرائيل ، وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله (أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي)^(٢) ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى : بثما خلفتمونى حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى - قاله الرازى « أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى : ميعاده الذى

(١) [٢٠ / طه / ٧١] . (٢) [٧ الأعراف / ١٤٢] .

وعنديه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها . وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك ، وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر - عبيداً بالله - . وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به « وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ » أى طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة ، بين يديه فتكسرت . وهى ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية . وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل . فإنه ، عليه السلام ، لما نزل من الجبل ، ودنا من محلتهم ، رأى العجل ورقصهم حوله ، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه . وكان هو فى نفسه حديداً ، شديد الغضب . وكان هرون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : استدلل ابن تيمية بقوله تعالى (وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ) على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض ، وهو غضبان ، لا يلام - انتهى - وهو ظاهر . « وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ » أى بشعره « يَجْرُهُوْا إِلَيْهِ » ظناً أن يكون قصر فى نهيمهم ، كما قال فى الآية الأخرى (قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي)^(١) . وقال ههنا : « قَالَ ابْنُ أُمِّ » قرئ بالفتح والكسر ، وأصله يا ابن أمى ، خفف بحذف حرف النداء والياء ، وذكر الأم ليرقه عليه . وقوله : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي » إزاحة لتوهم التقصير فى حقه . والمعنى : بذلتُ وسعى فى كفهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلى « فَلَا تُشْمِتْ بِنِى الْأَعْدَاءَ » أى بالإساءة إلى . والشامة سرور الأعداء بما يصيب المرء « وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى فى عقوبتك لى ، فى عدادهم . أولاً تعتقد أنى منهم ، مع براءتى وعدم تقصيرى .

(١) [٢٠ / طه / ٩٢-٩٤] .

قال الجشمي : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس ، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع . لذلك قال هرون (أَسْتَغْفِرُكَ) ، وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (يَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أي موسى عليه السلام ، متضرعاً إلى ربه ، استنزالاً لرحمته ، وتعوذاً بمغفرته من سخطه . ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وقال الزمخشري : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شماتة الأعداء قال (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي) ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه ، فلا تتم لهم شماتهم . واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » أي من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هاجت بهم البغال ، وطققت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) قال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أي ذنب كان ، ولو كفرًا بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا » إلى الله « وَءَامَنُوا » أى أخلصوا الإيمان « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : محاء لذنوبهم . منعم عليهم بالجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

« وَلَمَّا سَكَتَ » أى سكن « عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ » أى التى كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت « وَفِي نُسْخَتِهَا » أى فيما نسخ منها ، أى كتب . و (النسخة) فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة « هُدًى وَرَحْمَةً » بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح « لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يخشون .

لطيفتان :

الأولى - قال أبو السعود : فى هذا النظم الكريم ، يعنى قوله تعالى (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) ، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب ، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول ، منزلة الأمر بذلك ، المفرى عليه ، بالتحكم والتشديد ، والتعبير عن سكونه بالسكوت - مالا يخفى . انتهى .

وأصله للزخشرى حيث قال : هذا مثلٌ . كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرب رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق

صحيح - إلا لذلك ؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراد به بالمثل كونه استمارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخميلاً .

وعد بعض أهل العربية الآية من المقلوب ، أى من غط قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل (وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَى عَنِ الْغَضَبِ) كما فى خرق الثوب المسار .

قال فى (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لما فيه من المعنى البليغ ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى ، حتى كأنه كان يصرفه فى أوامره . ومثل هذه الفكته الحسناء ، لا تلى فى (خرق الثوب المسار) . انتهى .
وقرى سَكنَ وَسَكَتَ وأسكت ، أى أسكنه الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية - اللام فى (للذين) متعلقة بمحذوف ، صفة (لرحمة) أى كائنة لهم . أو هى لام الأجل ، أى هدى ورحمة لأجلهم : واللام فى (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبِرُونَ)^(١) أو هى أيضاً لام العلة ، والمفعول محذوف . أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ،

أَنْتَ وَآلِئِنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

«وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا» روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامريّ ما قال ، وحرّق العجل ، وذراه في اليمّ ، اختار من بنى إسرائيل سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعّل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود النعام حتى تغشّى الجبل كلّهُ ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كله الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، ف ضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم حتى إذا دخلوا في النعام وقموا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعّل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره ، وانكشف عن موسى النعام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ) ^(١) وهي الصاعقة التي يحصل منها الاضطراب الشديد ، فأتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي) قد سفهوا ، أهلك من ورأى من بنى إسرائيل ؟

وفي رواية السديّ : فقام موسى يبكي ويقول : يا رب ! ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلكت خيارهم ، (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي) .

وقال ابن إسحق : اخترت منهم سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معي رجل منهم واحد ، فما الذي يصدقونني أو يأمنونني عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتهم من قبل أن تبليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .

قال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه - أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم . يقول موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل . وهذا كمن واخذ سيدة بجرم يقول : لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعني عفوك أولاً ، فليسعني اليوم . ثم قال نبي الله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنباري وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد ، أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل . قال الفراء : ظن موسى أنهم أهل كوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم (أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً) . انتهى . واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرّد .

تنبيه :

قال في (الباب) : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة ، أى ثم أُخِيُوا . وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيأة ، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، راحهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدّم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

« إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ » أى ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فانت ابتليتهم وامتحانهم ، فالأمر كله لك وبيدك . لا يكشفه إلا أنت . كالم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فحن عائدون بك

منك ، ولا جئون منك إليك . يعنى إن الأمر إلا أمرك ، والحكم إلا لك ، فاشتت كان ،
تضل من تشاء ، وتهدى من تشاء .

قال الواحدى : هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية ، التى لا يبق لهم معها عذر .
« أَنْتَ وَلِئِنَّا » أى متولى أمورنا القائم بها « فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ،
قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى أنبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالعافية
والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة « وَفِي الْآخِرَةِ » أى حسنة أيضاً ، وهى الثوبة الحسنى
والجنة . « إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ » أى تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ،
فهو هائد . ولبعضهم : يارا كب الذنب هُدْ ، هُدْ واسجد كأنك هُدْ
وقال آخر : * إني امرؤ مما جَنَيْتُ هَائِدُ *

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من (هاد يهود) إذا تاب . وقرئ بكسرها ،
من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك ، أى حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل
الوجهين ، البناء للفاعل والمفعول ، بمعنى ملنا أو أملنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ،
أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

« قَالَ » استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فإذا قال تعالى
فى جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » أى تعذيبه من العصاة
« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة ،

كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) ^(١) ولعلها هي المراد هنا ، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل ، كما قبل الآية التي ذكرناها بقوله (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) ^(٢) والله أعلم . « فَسَاءَ كِتَابُهَا » أي هذه الرحمة « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أي الكفر والشرك والفواحش « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أي يعطون زكاة أموالهم « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا » أي بكتابتنا ورسولنا « يُؤْمِنُونَ » أي يصدقون .

تنبيه :

قال الجسمي : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) . وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ، فلذلك فصل . ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح عليه التمتع ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها . وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذي هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قول المرجئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« الَّذِينَ » بدل من الموصول الأول ، بدل الكل ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

عليه، أى أعنى الذين أوهم الذين «يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» أى الذى أرسل إلى الخلائق لتكليمهم «الَّتِيَّ» أى الذى نبى بأكل الاعتقادات والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحي «الْأُمِّيَّ» أى الذى لم يحصل علماً من بشر «الَّذِي يَجِدُونَهُ وَ مَكْتُوبًا» أى باسمه (محمد وأحمد) ونعوته «عِنْدَهُمْ» زيد هذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً «فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» يعنى الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع «وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» يعنى الكفر والشرك والمعاصي ومساوى الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكره «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ» أى التى حرمت عليهم لمعاصيهم «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» أى التى كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم- هذا فى باب المأكولات «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ» أى الأمر الذى يثقل عليهم من التكليف الشاقة «وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» جمع (غُلٌّ) بالضم ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أى يخفف عنهم ما كلفوه منها- وهذا فى باب العبادات «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» أى بالنبي الأمي وهو محمد ﷺ «وَعَزَّوهُ» أى عظموه ووقروه «وَنَصَرُوهُ» أى على أعدائه فى الدين فمنعواهم عنه «وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى (أُنْزِلَ مَعَهُ) ؟ لأن المراد أنزل مع نبوته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق بـ (اتبعوا) أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي ، والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيكون أمراً بالعمل بالكتاب والسنة ، أو هو حال ، أى اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له فى اتباعه . وفى التعبير عن القرآن بـ (النور) النبىء عن كونه ظاهراً بنفسه لإعجازه ، ومظهرًا لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع «أَوْ لَكُمْ هُمْ الْمُفْلِحُونَ» الفائزون بالرحمة ، والناجون من العقوبة.

تنبيهات :

الأول - يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى (قَالَ عَذَابِي . . .) الخ جواب لموسى عليه السلام ، وذلك أنه دعا بالغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنى الدنيا والآخرة لهم ، فأجيب أولاً بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برّاً أو فاجراً ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلاً . ولذلك قرأ الحسن وزيد بن علىّ هنا (لمن أساء) فعل ماضٍ من (الإساءة) ، وفي طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة هو من عذابه تعالى ، الذى شاء إصابتهم به لأفاعيلهم . وثانياً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، المتبعون للنبيّ الأُمّى ، فمن استقام على هذه الشرائط ، كتب له ذلك . ولا يقال - على هذا - كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأننا نقول : الاتباع أعم من الإتياع (بالقوة) ، وذلك بالإيمان به إجمالاً ، حسبما أشار له الكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته ، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته . وفيه تبشير لموسى بالنبيّ ﷺ ، وتعريف له بشأنه ، وإعلام بشأنه ، بأن كتابته الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيكون قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) بدلا من الموصول الأول ، بدل الكل . أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه . أى : أعنى الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن جواب موسى ينتهى إلى قوله تعالى (الَّذِينَ هُمْ بِأَيَّتِنَا يُوْءَمْنُونَ) وما بعده مستأنف ، فكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب ، يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجفة . وذو رحمة واسعة ، تكتب للمعتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أى فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشى على هذا الوصف المرقوم . ثم استأنف تعالى الإخبار عنّ يتبع النبيّ الأُمّى بأنهم المفلحون حقاً ، وعليه فيكون قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) مبتدأ خبره (أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، وتكون القصة استتبع أعقاب بنى إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبيّ الأُمّى ، كانوا هم المفلحين .

وجوز بمضمهم أن يكون قوله تعالى (قَالَ عَذَابِي) ارتجال خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه ، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم . وفي ذلك كله من التنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثاني - تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان - هذا ما ذكر في اللغة . وعندى أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) (١) بدليل المقابلة بقوله (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (٢) فلعل الرحمة في قوله تعالى هنا : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو منصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا . بها يتعيشون ويؤاخون ويوادون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة ، لاحظ للكافر فيها . وذلك قوله (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) (٣) أى : معصية الله ، والخلاف له ، (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) ، كقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ) (٤) جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لاحظ للكافر فيها . فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد في هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة في الآخرة ويحتمل قوله - والله أعلم - . (وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ) (٥) أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصي الله ومخالفته . انتهى .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٥٦] . (٤) [٧ / الأعراف / ٣٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٥٦] .

الثالث - إنما أفرد (الزكاة) بالذكر ، مع دخولها في التقوى قبل ، لعلها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها ثلاثاً يقرطوا فيها .
 الرابع - كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك في كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور^(١) ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازاً ، أو أنه صدر منه ذلك معجزة ؟ - انظر في (فتح الباري) تفصيله .
 و (الأمي) نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما في الحديث^(٢) : (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلا أن أهلها كانوا كذلك . أو إلى (أمم) كأنه على الحالة التي ولدته أمه عليها . وقيل : إنه منسوب (إلى الأم) - بفتح الهمزة - بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وضم الهمزة من تغيير النسب . ويؤيده قراءة يعقوب (الأمي) - بفتح الهمزة - ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً . وإنما وصفه تعالى به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته . فهي له مدح وعلو كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيري .

* كَفَّاكَ بِالْعَمْرِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجَزَةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفي غيره ذامة ، كذا في (الغنية) .
 الخامس - في قوله تعالى : «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» إشارة إلى بشار الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته ﷺ .
 قال الماوردي في (أعلام النبوة) في الباب الخامس عشر في بشار الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام :

(١) أخرجه البخاري في : ٥٤ - كتاب الشهادات ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ ورقم ٨٨٢ .
 (٢) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ «لا نكتب ولا نحسب» حديث رقم ٩٦٨ .

إن لله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناءً عن نواهيه ، فكان أن أنبياء الله تعالى معانوا على تأسيس النبوة ، بما تقدمه من بشارتها ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشراً ونذيراً ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم استمرار الحق . وقد تقدمت بشار من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد ﷺ ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحشاً على القبول . فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره . وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال وبقيناً بعد الارتياب ، ثم سرد الماورديّ البشار من نصوص كتبهم .

وجاء في (إظهار الحق) مانصه : إن الإخبارات الواقعة في حق محمد ﷺ ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب . ومن عرف أولاً طريق إخبار النبيّ المتقدم ، عن النبيّ المتأخر ، على ما عرفت في الأمر الثاني - يعني في كلامه - ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة .

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه - يعني من نسخهم الأخيرة - إلا أن ذلك لم يجد لهم نفعاً ، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان في اسم ، ويتمتع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ، ليبعد صدقها على النبيّ عليه الصلاة والسلام . فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولما قصد

به ، ولم يقدم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها .
وهأنحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : في الباب السادس عشر من سفر التكوين في حق هاجر هكذا :

١١ - وقال لها ملاكُ الربّ أَنْتِ حُبْلَى فتلدِينَ ابْنًا . وتدعين اسمه إسماعيل لأنّ الربّ قد سمع لمذلتك .

١٢ - وإنه يكون إنسانًا وحشيًا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمام جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد ﷺ ، لا بجده إسماعيل ، لأنّ إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص . بل في التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أخرجا من وطنهما مكرهين ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوة في بني إسحق ، وكان بنو إسماعيل في البرارى العطاش ، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله ﷺ ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدى بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كلِّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده . كما أن في مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب . فن ذلك قوله في السفر الخامس : (يَاإِمْرَأَةَإِيلُ ! أَلَا تَخْشَى اللَّهَ رَبَّكَ ، وَتَسْلُكُ فِي سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ) ؟ فهذا خطاب لبني إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : (اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل يحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة . فظهر أنه قد يذكر اسم الأب ، ويراد الابن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف في خبره تعالى .

ومنها : في الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

١ - وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته .

٢ - فقال : جاء الربّ من سيناء وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألاً من جبل فارانَ وأتى من ربّواتِ القدّسِ وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجيئ الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إزاله التوراة على موسى بطور سيناء - هكذا يفسره أهل الكتاب - والأمر كذلك فيجب أن يكون إشرافه من سعير عبارة عن إزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سعير بقرية تدعى (ناصرة) واسم النصارى مأخوذ منها . واستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إزاله القرآن على محمد في جبل فاران . وفاران هي مكة ، لا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب . ففي الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ - وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن في البريّة . وكان ينمو رامياً قوس .

٢١ - وسكن في برّية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه في مكة ، وفيها مات ، وبها دفن . وهذه البشارة صريحة في نبينا ﷺ ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر . فأى نبيّ ظهر في مكة بعد موسى غير محمد ، وانتشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الاستعلان المذكور في البشارة .

ومنها : في الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

١٧ - قال لى الربّ قد أحسنوا في ما تكلموا .

١٨ - أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى في فمهم فيسكلمهم بكل ما أوصيه به .

١٩ - ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .

هذا البشارة في حق نبينا ﷺ قطعاً ، لأنه من ذرية إسماعيل ، وذريته يسمون إخوة

لبنى إبراهيم ، بدليل ما ذكر في التوراة في حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب . وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعد بعيد ، إخوة

كما دعى فى القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وثمود ، مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام . وكما قيل فى سفر العدد فى الباب العشرين :

١٤ - وأرسل موسى رسلا من قَادَشَ إِلَى مَلِكِ أَدُومَ . هَكَذَا يَقُولُ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ قَدْ عَرَفْتَ كُلَّ الْمَشَقَّةِ الَّتِي أَصَابَتْنَا (مع أنهما أبناء أعمام على بعد بعيد) .

وليس هذه الشهادة فى حق أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وإلا ، لقال : وسوف أقوم لهم نبيا مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل (رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وكما قال تعالى فى خطاب بنى إسماعيل : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وأما مازعمته اليهود من أن المراد يوشع ، فبى موسى ، فهو باطل من وجوه :

١ - أن المشر به من إخوة بنى إسرائيل ، لا من نفس بنى إسرائيل ، ويوشع كان من نفس بنى إسرائيل .

٢ - أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما فى آخر سفر التثنية . (الأصحاح الرابع والعشرون) .

١٠ - ولم يقم بعد نبي في بنى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهاً لوجه . ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

٣ - أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير إليه بعبارة صريحة قبل هذه فى الباب الأول من هذا السفر .

٣٨ - يَشُوعُ بْنُ نُونٍ الْوَاقِفُ أَمَامَكَ هُوَ يَدْخُلُ إِلَى هُنَاكَ . شِدْدَةُ لَأَنَّهُ هُوَ يَقْسِمُهَا لِإِسْرَائِيلَ .

فأى مقتضى للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأى موجب لإدخال (سوف) الدالة على الاستقبال على فعل حاصل فى الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل ، لوجوه :

- ١ - أنه من بنى إسرائيل ، والمبشر به هنا من غيرهم .
- ٢ - أن موسى بشر بنبي مثله ، وهم يدعون أن عيسى إله ، وينسكرون كونه نبياً مرسلًا ، وإلا لزم اتحاد المرسل والمرسل ، وهو غير معقول . على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتحادها في أمور :

- ١ - كونهما ذَوَى والدَيْن - وأزواج ، بخلاف عيسى عليه السلام .
- ٢ - كونهما مأمورَيْن - بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام . وقد أشار في هذه البشارة بقوله : ١٩ - ويكون أى الإنسان الذى لا يسمع لكلامى ، الذى يتكلم به باسمى ، أنا أطلبه . إلى كون هذا النبي مأموراً بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والانتقام منه بسيفه البتار . وزعمت النصارى أن الانتقام هنا بمعنى العذاب الأخرى لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبي ، بل كل من أنكر ما جاء به نبي من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبي بالذكر حينئذ .

- ٣ - كون شريعتيهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذه كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام - على ما تقول النصارى - ونظائر ذلك كثيرة . وفي هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبي أمياً لا يقرأ ، حيث قال (يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى) وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ...) الآية التى نحن في صدددها . ومنها - في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه . وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم) . وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس

من يقوم مقامه ، وينوب في تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، مفاة ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد ﷺ . و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه اصطلاح أهل الكتابين . وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه ، يكون كاليت لا حراك له ، ولا انتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً في الأرض . ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام ، هو الذي أحى الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) . ولا شك بأن محمداً ﷺ هو الذي علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفي من الدقائق ، وذكر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى ، قربه إليه بالرسالة واصطفاه ، وأنه لم يدع لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتنزيهه وتمجيده . وقوله (باسمي) أي بالنبوة . ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتي فقال : (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون . حتى إذا كان ، تؤمنون) .

وفي الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : (فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينشق ، وهو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء) .

وفي الباب السادس عشر منه : (لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنني إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذلك ، فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وعلى بر ، وعلى حكم . أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي . وأما على البر فلأنني منطلق إلى الأب ، ولستم ترونني بعد . وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين . وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ، ولكنكم لستم تطيقون جملة . وإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عتده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتي ، وهو يمجدي ، لأنه يأخذ مما هو لي ، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لي . من أجل هذا قلت (إن مما هو لي يأخذ ويخبركم) . ومن آمن النظر في هذه

العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ ، فإنه هو الذى ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذى وبخ العالم ، سيما اليهود ، على الخطايا ، لاسيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام ، والطعن فى والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذى علم جميع الحقائق ، وهو الذى أبان من الأسرار ما لم تطلق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذى ، لا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَىٰ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَىٰ ^(١) .

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذى من الأب ينبثق) أى يصدر بكلام الله المنزل ، واستدل بقوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) ^(٢) والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذى يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة ، عما افترى عليه ، وبأنه روح الله وكلته وصفيه ورسوله ، كما شهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه . ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك ، فتمت أن يكون هو المراد .

وفى قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ (فارقليط) يونانى الأصل ، قيل : أصله باراكلى طوس ، بمعنى المعزى والمعين والوكيل أو الشافع . وقيل : بيركلوطوس ، فيكون قريباً من معنى محمد وأحمد .

معلوم أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم باللسان العبرانى ، الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانى ، لأنه كان عبرانياً ابن عبرانية ، نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقل أقواله فى هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى . فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقليط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جداً ، والحروف اليونانية

(١) [٥٣ / النجم / ٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

متشابهة . وأياً كان أصله ، فلا استدلال صحيح ، لصدق اللفظ بعمانيه كلها على النبي ﷺ صدقاً جلياً ، لا يخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشارة سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه في كتابه (تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب) .

وقد نبذ النصارى بعد الأناجيل المصرحة باسم (محمد) لكونها شجى في حلق أهوائهم ، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجيء محمد رسول الله) كما نقله في (إظهار الحق) .

وإذا كان حالهم في تراجعهم ، في لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم - فكيف يرجي منهم صحة بقاء لفظ (محمد أو أحمد) ؟ ! ألا إن سيف الحق أمضى ، وسهلم الصواب أتقذ ، فتممة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، مالا يبق معه وقفة لحائر .

هذا ، وفي كتبهم بشار كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردي : لعل ما لم يصل إلينا منها أكثر . وقد اقتصرنا على ما قدمنا ، رَوْماً للاختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل (أعلام النبوة للماوردي) و (إظهار الحق) وغيرها .

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله ، عليه رحمة الله : إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى في القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين ، مثل عبد الله بن سلام ، وابني سعية ، وبنيامين ، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود . ومثل بحيرا ونسطورا الحبشي ، وضفاطر ، وهو الأسقف الرومي الذي أسلم على يد دحية الكلبي وقت الرسالة فقتلوه . والجارود ، والنجاشي ، والسوس ، والرهبان الذي جاءوا مع جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وغيرهم من علماء النصارى . وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم

رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن سوريا ، وحُيَّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجَّهم في شأن عيسى عليه السلام وحجَّهم ، دعاهم إلى المباحلة بأمره تعالى ، فنكسوا على أعقابهم ، خوفاً من شؤم مغبتها ، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها (وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا)^(١) .

السادس - قوله تعالى (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ) يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسراً لـ (مَكْتُوبًا) أى لما كتب .

السابع - الطيبات أعم من الطيبات فى المأكول كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام . ومن الطيبات فى حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت . وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهلَّ لغير الله به ، أو ما خبث فى الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة . قيل : يستبعد إرادة ما طاب أو خبث فى الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمة ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرم ما يحكم بحرمة ، ولا فائدة فيه . وردوه بأنه يفيد فائدة وأى فائدة ! لأن معناه أن الحل والحكمة بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأى .

الثامن - فى قوله تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال^(٢) : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال ﷺ^(٣) لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى ، لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تمسرا ، وتطاوعا ولا تختلعا .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢٧ / النمل / ١٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) من حديث طويل رواه أبوأمامة عنه ﷺ . (٣) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٦٤ - باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصا إمامه ، حديث ١١٢٩ .

وقدّمنا أن (الإصر والأغلال) استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، فيها تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التي يعيّدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال . وكذلك عيد كل سبت ، لا يعمل فيه أدنى عمل . وكذلك سبت المزارع . ففي كل سنة سابعة سبت للأرض ، لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكرم ، بل تترك الأراضي عطلاً ، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية . ومنها أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حدًا . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل . ومن كان به جن أو تابة يرمي بالحجارة حتى يموت . ومن تزوج فتاة فادّعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبين كذبه ، جميعًا يقتل . وإذا أمسكت امرأة غورة رجل تقطع يدها . وإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات النطوح ، يرمي الثور ولا يؤكل لحمه . ومن اضطلع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم . ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها . وغير ذلك من الآثار التي تقدم بعضها في آخر سورة البقرة - فراجع - .

التاسع - قال الجشمي : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة . وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة . وهذا لا يختص بعصره . فجميع ذلك لازم إلى انتضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجّة ، ووضع الكتب فيه ، وحل شبه المخالفين ، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا (منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل) اهـ .

العاشر - قال العلامة البقاعي : لما ترأست الآي ، وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصبًا ، وأعظمهم رتبة - ساق سبحانه هذه الآيات ، هذا السياق ، على هذا

الوجه ، الذى بين أعلامهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذى خص برحمته من يؤمن به من خلقه ، قوة أو فعلاً . وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل ، اهتماماً به ، وتعجيلاً له ، مع ما سيذكر ، مما يظهر أفضاليته ، ويوضح أكليته ، بقصته مع قومه ، فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، فى سورة (الأنفال) و (براءة) بكاملها .

ثم قال البقاعى : لما تم ما نظمته تعالى فى أثناء هذه القصص ، من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم ، حث على الإيمان به ، إيجاباً له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف ، تقدم زمانه أو تأخر - أمراً سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه ، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه ، تحقيقاً لعموم رسالته ، وشمول دعوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأَخْبَرِ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
« قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » أى كافة « الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ » نعوت للفظ الجلالة ، أى الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربّه ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة . والآية نصّ فى عموم بعثته للأحر والأسود ، والعربى والعجمى . وفى الحديث : أعطيت خمساً لم يعطهن نبيّ قبلى - ولا أقولهن فخرأ - بُعثت إلى الناس كافة ، الأحر والأسود ؛ ونصرت بالرعب مسيرة شهر ؛ وأحلّت لى الفنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى ؛ وجُعِلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فَأَخْرُتْهَا لَأُمْتِ ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً . رواه الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٤٢ (طبعة المعارف) .

مرفوعاً، ورواه (١) أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهم أحد قبلي . أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان
من قبلي إنما يرسل إلى قومه ؛ ونصرت على العدو بالعرب ، ولو كان بيني وبينهم مستيرة شهر
للمي منه ربياً ؛ وأحلت لي الغنائم ، آكلها ؛ وكان من قبلي يُعَظَّمُونَ أكلها ، كانوا
يَحْرِقُونَهَا ؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتني الصلاة تَمَسَّحْتُ وُصَلَّيْتُ
وكان من قبلي يُعَظَّمُونَ ذلك ، إنما كانوا يضلون في بَيْعِهِمْ وكنائسهم ؛ والخامسة هي ما هي !
قيل لي : سل ، فإن كل نبي قد سأل ، فأخرتُ مسألتى إلى يوم القيامة ، فهي لكم ، ولن
يشهد أن لا إله إلا الله .

قال الحافظ ابن كثير : إسنادها جيد قوى .

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبي موسى ، وهو ثابت في الصحيحين (٢) عن

جابر .

وأخرج مسلم (٣) عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي
بيده ! لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار
« فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ » أي الذي نبي ما يرشد الخلائق كلهم ، مع
كونه أمياً . وفي نفعه بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين « الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ » أي ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه وُوحِيه
« وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

(١) أخرجه في المسند بالصحفة رقم ٢٢٢ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٧٠٦٨ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٦ -

باب قول النبي ﷺ « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » حديث رقم ٢٣١ .

ومسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْذِلُونَ)

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ « أى : موقنين ثابتين ، يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ، ويرشدونهم » وَبِهِ يَعْذِلُونَ « وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ، لا يجورون . والآية سمقت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كَتَبِ الرِّحْمَةِ والتقوى والإيمان بمتبعى رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام ، من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم . وقيل هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ . ويأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف . أفاده أبو السعود .

وهذه الآية كقوله تعالى (مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) ^(١) ، وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ^(٢)

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ

قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَطَعْنَاهُمْ » أى قوم موسى « أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا » أى صيرناهم قطعاً ، أى فرقاً ، وميزنا بعضهم من بعض . والأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة ، من اثنى عشر

(١) [٣ / آل عمران / ١١٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩٩] .

ولدًا ، من ولد يعقوب عليه السلام « أُمَّا » أى عظيمة وجماعة كثيفة العدد « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَمَهُ قَوْمُهُ » أى فى التيه « أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » فضر به « فَأَنْجَسَتْ » أى اتنجست « مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِمْنًا » بمد الأسباط « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ » أى سبط منهم « مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ » فى التيه من حر الشمس « وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » حيث أوجبوا لها العذاب الدائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ » يعنى بيت المقدس ، والقائل موسى عليه السلام ، دعاهم إلى دخول بيت المقدس . أو يوشع ، فإنه دعاهم ، بعد وفاة موسى ، إلى غزو بيت المقدس « وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ » أى قولوا حُطَّ عنا ذنوبنا ، وقيل : أمروا بكلمة إذا قالوها حط عنهم أوزارهم « وَادْخُلُوا الْبَابَ » أى باب القرية « سُجَّدًا » أى ساجدين أو خاضعين . أمروا بأن يدخلوها بالتواضع ، وكان ذلك شرطاً فى قبول فعلهم « نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

« فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا »

أى عذاباً «مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» وقد تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة^(١) بما يغنى عن إعادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَسَأَلُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

«وَسَأَلُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» هذا السياق هو بوسط لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)^(٢) . فقوله تعالى (وَسَأَلُهُمْ) عطف على (اذ كر) المقدر عند قوله (وَإِذْ قِيلَ) أى واسأل اليهود المعاصرين لك ، سؤال تقرير وتقرير ، بتقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله ، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى .

وقال ابن كثير : أى : واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها في كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم .

و (هذه القرية) هى أيلة ، بين مدين والطور ، وقيل هى متنا ، بين مدين وعينونا . ومعنى كونها (حَاضِرَةُ الْبَحْرِ) أنها قريبة منه ، رابكة لشاطئه .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢ / البقرة / ٥٩] صفحة رقم ١٣٣ من التفسير .

(٢) [٢ / البقرة / ٦٥] .

وقوله تعالى : (إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ) أى يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه ، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبت من عملٍ ما .

و (الحيتان) السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت ، في معنى السمكة .
و (شُرْعًا) جمع شارع ، من (شرع) بمعنى دنا . يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنا منا ، وأشرف علينا . وشرعت على فلان في بيته ، فرأيتة يفعل كذا ، وهو حال من (حيتانهم) أى تأتيتهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، قرية من الساحل ، ويوم لا يسبتون لا تأتيتهم أصلاً إلى السبت المقبل .

قرى (يُسَبِّتُونَ) ثلاثياً ، ومزیداً فيه ، من (أسبت) معلوماً ومجهولاً أيضاً ، بمعنى ، لا يدخلون في السبت ، ولا يدار عليهم .

وقوله تعالى (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء ، في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ، أى نعاملهم معاملة من نختبرهم ، بسبب فسقهم ، فيظهر عدوانهم ، فيستحقون المؤاخظة .

ثم بين تعالى تماميتهم في المدوان ، وعدم انزجارهم عنه ، بعد العظات والإنذارات ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ » أى جماعة من صلحائهم ، يحاورون فريقاً ممن دأب في عظمتهم « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ » أى : نخرتهم ومطهر الأرض منهم « أَوْ مُعَذِّبُهُمْ »

عَذَابًا شَدِيدًا « أَى بِل مَعَذِبِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِذْ مَجَرَّدَ الْإِهْلَاكَ قَدْ يَوْجَدُ مَعَهُ لَطْفٌ ، وَأَمَّا شِدَّةُ الْعَذَابِ فَتَلْكَ الْقَاصِمَةُ « قَالُوا » أَى : الْوَعَاظُ « مَعَذِرَةً إِلَى رَبِّكُمُ » أَى نَعِظُهُمْ مَعَذِرَةً إِلَيْهِ تَعَالَى ، لِثَلَاثٍ نَسَبَ إِلَى التَّفْرِيطِ فِي وَصِيَّتِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ . أَى مَوْعِظَتِنَا مَعَذِرَةٌ « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أَى وَرَجَاءُ فِي أَنْ يَتَّقُوا فَيَتَوَبُّوا فَيَنْجُوا مِنَ الْإِهْلَاكِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أَى فَلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِّرَ لَهُمْ بِصَلَحَائِهِمْ ، تَرَكُوا النَّاسِيَ لِلشَّيْءِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كَلِيمًا ، بِحَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاعِظِ أَصْلًا « أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أَى : الْمُرْتَكِبِينَ الْمُنْكَرَ . « بِعَذَابٍ بَئِيسٍ » أَى : شَدِيدٍ ، وَزَنَائِمٍ « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » بِفِعْلِ الْمُنْكَرِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ » أَى تَكَبَّرُوا وَأَبَوْا أَنْ يَتَرَكُوا مَا نُهُوا عَنْهُ « قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أَى صَاغِرِينَ أَذِلَّةً ، بُعْدَاءَ مِنَ النَّاسِ .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقول سميع .

وقال غيره : المراد بالأمر هو الأمر التكويني ، لا القولى ، أَى : التَّكْلِيفُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْمِهِمْ حَتَّى يُؤْمَرُوا بِهِ . وَفِي الْكَلَامِ اسْتِعَارَةُ تَخْيِيلِيَّةٍ . شَبَّهَ تَأْثِيرَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى فِي الْمَرَادِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ ، وَمِنْ غَيْرِ مَزَاوَلَةٍ عَمَلٍ وَاسْتِعْمَالِ آلَةٍ ، بِأَمْرِ الْمَطَاعِ لِلْمَطِيعِ ، فِي حَصُولِ الْأُمُورِ بِهِ ، مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ . كَذَا فِي (الْعِنَايَةِ) .

وظاهر الآية يقتضى أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعمتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً لما قبلها .

تنبيهات :

الأول - قال الجشمي : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت . وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله ، وهذا القدر يقتضيه الظاهر . ومتى قيل : أظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟ قلنا : اختلفوا فيه . فقيل : كان معجزة لنبي ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للملك أن يأتى الأنهار كثيراً في يوم واحد ، ولا يظهر في سائر الأيام . فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوى دواعي الحيتان يوم السبت ، فظهروا . وصرفهم في سائر الأيام ، فلم يظهروا ، فكانت معجزة . وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعملوا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد الدواب كثيراً من الأشياء . انتهى .

وقد روى في اعتدائهم في السبت روايات :

منها - أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الجبال والبرك قبل يوم السبت ، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة ، نشبت بتلك الجبال ، فلم تخلص منها يوماً ، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها - أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام ، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها . فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو بعض ما عنده من العذاب . فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قرود - رواه عبد الرزاق وابن جرير - وثمة روايات أخر .

وروى عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم - والله أعلم - .

الثاني - استدل بهذه القصة على تحريم الحيل .

قال الإمام ابن القيم في (إغاثة اللهفان) : ومن مكاييد الشيطان التي كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذي يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه . وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه . فإن الرأي رأيان : رأى يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذي اعتبره السلف ، وعملوا به . ورأى يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذي ذموه وأنكروه . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي ، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، فهذا الذي اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله . وقال في سادسها :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السب من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتماطى الحيل على المفاهي الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه ، وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها . ليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكديباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل . واحتتيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي أوصافه شبه منهم ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة . فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظواهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وفاقاً .

ثم روى في عاشرها عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (١) : لا تركبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأذى الحيل .

الثالث - دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتلوا على صيد السمك يوم السبت ، كما بينا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم . وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيمكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذاراً إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ثم نص تعالى على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكنتين ، لأن الجزء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من المالكين ، أو من الناجين ؟ على قولين . ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوه ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساء حلة .

الرابع - دل قوله تعالى (قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على أن النهي عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه . إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والاعتذار إليه تعالى ، إذ شدد في تركه - لكفاء فائدة -

ولما ذكر تعالى بعض مساوي اليهود ، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه :

(١) رواه أبو عبد الله بن بطة . انظر : الجزء الأول من (إغاثة اللهفان) ص ٣٤٨

(طبعة مصطفى الحلبي) عام ١٣٥٧ هـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى آذن ، (كتوعد بمعنى أوعده) . من (الإيذان) بمعنى

(الإعلام) أُجْرِىَ مجرى فعل القسم ، كعلم الله ، وشهد الله . ولذلك أُجِيبَ بما يجاب به القسم ، وهو قوله : « لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ » والمعنى : وإذ حتم ربك وحكم ، ليسلطن على اليهود « إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » كالأذلال وضرب الجزية وغير ذلك ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتياهم على المحارم . وقد بعث الله

تعالى ، بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر ملك بابل ، فحرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبي نساءهم وذرياتهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وجلا كثيرا منهم إلى بابل - قصبة مملكته - وأقاموا فيها سبعين سنة ، ثم تسلمت عليهم ملوك شتى ، ولبثوا زمانا طويلا يكابدون بلاء عنيفاً ، من تواتر الحروب على بلادهم ، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان ، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة ، واستؤصلوا من أرضهم ، وتفرقوا في البلاد شذرا مذر ، صاغرين مقهورين . ومن هاهنا ، استدلل من استدلل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز ، وباتصال ذلهم . « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ » لمن أقام على كفره ، ونبذ وصاياه « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

ثم أخبر تعالى عن تبددهم في الأقطار بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (وَطَعَنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ،

وَبَلَوْنَهُمْ بِالْأَحْسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَطَعَنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا » أى فرقنا بني إسرائيل في الأرض ، وجعلنا كل فرقة

منهم في قطر من أقطارها ، بحيث لا تخلو ناحية منها ، منهم ، تكملة لإدبارهم ، حتى لا تكون لهم شوكة « مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ » أى من ينحط عن درجة الصلاح ، لكفر أوفسق « وَبَلَّوْا نَفْسَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ » أى بالنعم والنقم التى هى أمثلة جزاء الصلاح والفسق « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء المذكورين « خَلْفٌ » أى بدل سوء . والمراد بهم الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ . و (الخلف) مصدر ، ولذا يوصف به المفرد وغيره ، وقد شاع فى الطالع ، ومفتوح اللام (الصالح) ، وربما جاء عكسه « وَرِثُوا الْكِتَابَ » أى التوراة من أسلافهم المختلفين ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي ، والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها كما قال : « يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى » أى حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا ، وما يتمتع به منها . وفى قوله (هَذَا الْأَدْنَى) تحسيس وتحقير . و (العَرَض) بفتح الراء ، ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون (العَرَض) لمقابل (الجوهر) . و (الأدنى) إما من الدنوّ ، بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى الآخرة . وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » أى يمتاضون عن بذل الحق ونشره ، بعرض الحياة الدنيا ، ويتحكون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا « وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ » الواو للحال ، أى يرجون المغفرة ، وهم مصرّون

عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين ، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه . « أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمْتَقُ الْكِتَابِ » أى الميثاق الوارد فيه « أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ » أى فلو صح ما تحكموا به على الله ، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى .

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله : « وَدَرَسُوا مَا فِيهِ » أى قرأوا ما فى الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة « وَالذَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ » أى من ذلك العرض الخسيس « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتمعنوا ذلك ، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب ، بالنعيم المخلد . وقرىء بالياء . وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

«وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ» أى يتمسكون به فى أمور دينهم . يقال : أمسك بالشئ وتمسك به . وقرىء يُمسكون ، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » من وضع الظاهر موضع المضمرة ، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمنايع من التضییع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لإصلاحهم . فإن قلت : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت ؟ أجيب : بأن أفرادها ، إظهارا لمزية الصلاة - لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان .

قال الجشمى : تدل الآية على وعيد العرض عن الكتاب ، ووعد من تمسك به ، تنبيهاً

لنا وتحذيراً عن سلوك طريقهم . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، وتغنى المغفرة لا ينفع حتى يكون معها التوبة والعمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» أى رفعناه «كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ» أى سحابة «وَوَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ» أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجو «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» أى وقلنا، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة «بِقُوَّةٍ» أى عزيزة وجد «وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ» أى بالعمل ولا تتركوه كالنسي «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى مساوئ الأعمال ، أو راجين أن تنظموا في سلك المتقين . وهذه الآية كقوله تعالى (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ) (١) . وقد روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى في فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرمينكم بهذا ! فخرؤا سجداً ، فرفاً من أن يسقط عليهم - رواه النسائي (٢) وسنيد - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى أخرج من أصلابهم

(١) [٤ / النساء / ١٥٤] . (٢) لم أعتد إليه .

نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقه ، ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سوياً حياً مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها . و (مِنْ ظُهُورِهِمْ) بدل من (بَنَى آدَمَ) بدل البعض . وقرئ (ذرياتهم) « وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذتين من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم ربوبيته التامة .

قال الجسمى : أى أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعته ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » على إرادة القول ، أى قائلاً : ألسنت بربكم ، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم ، فينظم استحقاق العبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى « قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا » أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصفة ، صاروا كأنهم قالوا (بلى) ، وإن لم يكن هناك قول باللسان . فالآية من باب التمثيل المعروف في كلام العرب . مثل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين ربوبيته شهادة لا يخالجهما ريب ، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعم أصلاً . والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)^(١) والفطرة هى معرفة ربوبيته .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] .

وفي الصحيحين ^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

والجدعاء سالمة الأذن ، والجدعاء مقطوعتها .

وفي صحيح مسلم ^(٢) عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ : يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم .
وروى الطبري عن الحسن بن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها .
قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ...) الآية -
رواه الإمام أحمد ^(٣) والنسائي ، بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية في إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ، ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم - فقير صحيحة الإسناد . وما جسن إسناده منها فقير صريح في ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير . قال رحمه الله :
ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد فطرتهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .
قالوا : ومعنى (أشهدهم) أى أوجدتهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالوا . والشهادة

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٠ - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، حديث ٧١٦ .

وأخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ - ٢٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في : ٥١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعنا)

ضمن حديث طويل . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

تارة تكون بالقول ، كقوله (قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا)^(١) الآية - وتارة تكون حالا كقوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)^(٢) أى حالهم شاهداً عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك . وكذا قوله تعالى (وَإِنَّهُ وَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)^(٣) كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : (وَءَاتَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)^(٤) .

قالوا : ومما يدل على أن المراد هذا ، أن جعل الإشهاد حجة عليهم في الإشراف ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

« أَنْ تَقُولُوا » أى كراهة أن تقولوا « يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى الذى يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد « إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا » أى عن ربوبيته وتوحيده « غَافِلِينَ » أى لم ننبه عليه . فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك . إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ، أَقْتَهِلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا » أى سنوا الإشراف واخترعوه « مِن قَبْلُ » أى من قبل زماننا « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ » أى فنشأنا على طريقتهم ، احتجاجاً بالتقليد ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٧] .

(٣) [١٠٠ / العاديات / ٧] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] .

وتعويلا عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيننا من الآيات « أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » أى أتواخذنا بما فعل آبائنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول ، وأقوال الرسل ؟ والاستفهام للإنكار ، أى أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل . والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو فى أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفترة أكبر دليل ، فهى تسد باب الاعتذار بوجه ما . لاسيما والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا مساغ له أصلا .

تنبيهات

الأول - وافق الإمام ابن كثير ، فى هذا المقام أيضا الجشمى فى تفسيره ، قال : ويروى أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلا للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألسنت بربكم؟ فقالوا : بلى طائعين . ثم أعادهم فى صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك . قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا فى الرواية ما نذكره . قالوا : فيما يدل على فساده وجوه .

منها : أنه لو كان حاله كما ذكروا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصاً إذا كان إلهاداً عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو على ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداء لا من شيء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حياً عاقلاً ، لأن تلك البنية ، لا تحمّل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع فى ظهر آدم .

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم يفكر التناسخ .

ومنها : أنه لا بد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجرى على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك ، فكيف يصح في ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :
منها : أنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) ولم يقل (من آدم) . وقال :
(مِنْ ظُهُورِهِمْ) ولم يقل (من ظهوره) . وقال (ذُرِّيَّتَهُمْ) ولم يقل (ذريته) .

ومنها : أنه قال : (أَنْ تَقُولُوا) يعني فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَفْلِينَ . وأى غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لا يذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : (إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك . وكل ذلك يبين فساد ما قالوا . ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قبلها ، بل ردها . غير أبي بكر أحمد بن علي ، فإنه جوز ذلك من غير قطع على صحته . غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراف الكريمة في شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية . كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة . قال : وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى . انتهى ما قاله الجشمي .

الثاني - تدل الآية على فساد التقليد في الدين ، وتدل على أنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، وبعدها لا يعذر أحد . ذكره الجشمي .

الثالث - استدلل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة في معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية ؛ قال تعالى ^(١) (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

(١) [١٤ / إبراهيم / ١٠] . (٢) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ). (قُلْ) (١) مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

وعن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ لأبي : يا حصين : كم تعبد اليوم ! قال أباي : سبعة
ستا في الأرض ، وواحداً في السماء ! قال : فأيهم تُعبدُ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في
السماء - رواه الترمذی (٢) - فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد ، حتى
من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً ، ما يخلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من
اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقى ابن تيمية : إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطريّ ضروريّ في نفوس الناس .
وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة
وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظر ؛ أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل
بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظر إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر
فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة ونحوهم . ولهذا
قال أبو جعفر السمّانيّ وغيره : إيجاب الأشعريّ النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من
الاعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذي يدل عليه كلام الأئمة والسلف - وهو اعتدال الأقوال - أن
النظر يجب في حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض التي تجب
على بعض الناس في بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة . والذين أوجبوا النظر ليس معهم
ما يدل على عموم وجوبه ، إنما يدل على أنه قد يجب ، كقوله تعالى (٣) : (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٨٦ و ٨٧] . (٢) أخرجه في : ٤٥ - كتاب الدعوات ،

٦٩ - باب حدثنا أحمد بن منيع . (٣) [١٠ / يونس / ١٠١] .

وَأَلَّا رُضِ (وقوله ^(١)) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) فإنه خطاب مع التكبرين الجاحدين ، أمروا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقرّوا به ، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .
قال أبو حيان التوحيدي في (مقابساته) في المقابلة الثانية والأربعين : قيل لأبي الخير : حدثنا عن معرفة الله ، تقدس وعلا ، ضرورة هي أم استدلال ؟ فإن التكلمين في هذا اختلفوا اختلافاً شديداً ، وتناذبوا عليه تناذباً بعيداً ، ونحب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الاختصار مع البيان .

فقال : هي ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس . ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل في المعقول ، أو بالحس في المحسوس ، ساء أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقوى بمؤازرة العقل ومظاهرتة وتحصيله . وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البريء من العاهة ، يبحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لا ثقة بالعقل . لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس . لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار ، وحمل وإكراه . وضرورة العقل لطيفة جداً . لأنه يعط ويلطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلاً لطيفاً ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالاضطرار ، لا ريب عنده في وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيراً ، ولا يثبت أصلاً ، فمن استدل ترقى من الجزئيات . ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكلّيات . وكلا الطريقين قد وضع بهذا الاعتبار ، وكفى مؤونة الخبط والإكثار . فأما ما ينظر منه في الجدال ، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والمصيبة . وهناك للهوى ولادة وحضانة ، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا ، وكفانا الهوى الذي يؤذينا - انتهى - .

وقوله تعالى :

(١) [٨٦ / الطارق / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى مثل ما ذكرنا ، نُبَيِّنُ الأدلة والحجج ، ليرجعوا إلى الحق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

« وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ » أى على قومك أو على اليهود « نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا » أى علم الكتاب ، فلفظ به حتى تعلم وفهم المعاني ، وصار علماً بها « فَأَنْسَخَ مِنْهَا » بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلودها « فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ » أى فالحقه وأدركه وصار قريباً له حتى أضله « فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ

مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا » أى لمظمنها بالعمل بها « وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ »

أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ

يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » وذلك لأنه استوى في حقه إيتاء الآيات ، والتسكين بها ،

والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك . كالكل يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أى

تشدد عليه وتهيجه ، أو تتركه غير متعرض له بالجل عليه ، فلهته موجود في الحالتين جميعاً
«ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا» أي من التوراة أو غيرها «فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)
«سَاءَ مَثَلًا» أي مامثل به «الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا» أي حيث شبهوا بالكلاب،
إما في استواء الحالتين في النقصان ، وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يعظوا كما قدمنا .
وإما في الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز
الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت في
الصحيح عنه عليه السلام قال ^(١) : ليس لنا مثل السوء . العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه .
«وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ» اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه
الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه ، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم ،
حيث قال : قوله (ءَايَاتِنَا ۖ ءَايَاتِنَا) أي بينهاها ، فلم يقبل ، وعرى منها . وسواء قولك : انسلخ
وعرى وتباعد . وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر . قال : ونظيره
قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكَيْفَ ءَامِنُوا ۖ إِنَّمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) ^(٢)
وقال في حق فرعون : (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى) ^(٣) . ومنهم من ذهب
إلى أن الموصول فيها أريد به معين ، فروى عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن

(١) أخرجه البخاري في : ٥١ - كتاب الهبة ، ٣٠ - باب لا يحل لأحد أن يرجع

في هبته وصدقته ، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٢٤ - كتاب الهبات ، حديث ٥ - ٨ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٤٧] . (٣) [٢٠ / طه / ٥٦] .

أسلم وأبى روق أنه أمية بن أبى الصلت ، فإنه كلن قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً فى ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام ، حسده ، ثم مات كافراً ، ولم يؤمن بالنبي ﷺ . وهو الذى قال فيه رسول الله (١) (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله فى شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

وقيل : نزلت فى أبى عامر الراهب ، الذى سماه النبي ﷺ (الفاسق) ، كان يترهب فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر النافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستنجده على النبي ﷺ ، فأت هناك طريداً وحيداً . وهو قول سمييد ابن المسيب .

وقيل نزلت فى منافق أهل الكتاب . كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه . عن الحسن والأصم .

وقيل : إنه فرعون . والآيات آيات موسى ، كأنه لما اقتص أبناء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل .

ومن الأقوال التى تناقلها المفسرون أنها نزلت فى بلعام بن بعور ، ويحكمون عنه قصة لم ترو فى جوامع الآثار الصحيحة عندنا ، ولا هى مطابقة لما عند أهل الكتاب . فقد ذكر نبؤه فى الفصل الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد ، من تاريخ التوراة ، بغير ما رويه المفسرون عنه . ثم رأيت الجشمى لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته : « وعن مجاهد قال : هو نبي يقال له بلعم . رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر . لأن ذلك ينقر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم

(١) فى كشف الخفاء رقم ١٩ ، رواه أبو بكر بن الأنبارى فى كتاب المصاحف ، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس . قال النابوى : وسند الحديث ضعيف .

في النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقه ، اصطفاهم . فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد «
- انتهى - وهو كذلك لأن من قرأ نبأه في السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقته
لبالاق ، ملك مؤاب ، على ما أراده منه - ما يبرئه عن ذلك .

تنبيه :

قال الجشمي : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟ قلنا : على القول بأنه عنى بها
فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بنى إسرائيل . وقيل لما نهى عن تقليد الآباء في الدين ، بين
في هذه الآية حال علماء السوء ، الذين يختارون الدنيا على الآخرة . نهياً عن تقليدكم واتباعهم ،
كما نهى عن تقليد الآباء . وقيل : لما تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات
فانسلخ منها ولم يتبعها . اهـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى ، وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

«مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قال أبو السعود:

لما أمر النبي ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثل ، ليعفروا
فيه ، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق - عقب ذلك بتحقيق
أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية
في حصول الاهتداء ، من غير تأثيرها فيه ، سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره نحو
تحصيله ، حسبما نيظ به خلق الله تعالى إياه ، كسائر أفعال العباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنُفْسٍ بَلٍ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » أى خلقنا « لِجَهَنَّمَ » أى لدخولها والتعذيب بها « كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ » وهم الكفار من الفريقين ، الموصوفون بقوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » أى آيات الله الهادية إلى الكالات « وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا » أى دلائل وحدته ، بَصَرَ اعتبار « وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا » أى الآيات والمواظع سماع تدبر واتعاظ ، يعنى أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية ، كما قال تعالى ^(١) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُتَّةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا فَتْدُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) . « أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنُفْسٍ بَلٍ هُمْ أَضَلُّ » أى السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها ، إلا فى الذى يقيتها ، كقوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ اللَّيْلِ يَتَمَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) ^(٢) أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . وقوله تعالى : « بَلٍ هُمْ أَضَلُّ » أى الأنعام ، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكالات ودفع تلك الغنائص . وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن الكالات ، وعن دفع أضدادها ، فكانوا أردأ حالاً منها ، لنقصهم مع وجود قوة الكمال فيهم . وأيضاً : الأنعام تبطن منافقها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره . وهؤلاء ، أكثرهم يعلم أنه معاند ، فيقدم على النار . وأيضاً : الأنعام قد تستجيب لراعيها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، وأيضاً : إنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف هؤلاء ؛ فإنهم خلقوا ليعبدوا الله ، ويوحده ،

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧١] .

فكفروا به وأشركوا «أَوْ لَآئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» أى عن تلك السمكالات والفقائص، ليهتموا لتحصيلها ودفعها ، اهتمامهم لجر النافع الدنيوية ، ودفع مضارها .

تنبيه :

قال أبو السعود : المراد بهؤلاء الذين ذرئوا لجهنم ، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، لكن لا بطريق الجبر ، من غير أن يكون من قبيلهم ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر . فهذا الاعتبار جعل خلقهم مغنياً بها ، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة ، وتمكنهم التام منها ، جعل خلقهم مغنياً بها . كما نطق به قوله تعالى ^(١) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى : القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » روى مقاتل أن رجلاً دعا الله فى صلاته ، ودعا الرحمن . فقال بعض المشركين : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فنزلت الآية . و (الحسنى) تأنيث (الأحسن) . والمعنى : لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها ، لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها « فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ » أى يعملون عن الإقرار بها ويحسدونها ، ويعبدون عنها كفرًا بها . كقوله تعالى ^(٢) : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أى زادهم ذكر الرحمن نفورًا . ولذا قال تعالى ^(٣) : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) . وقوله تعالى «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يعنى فى الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها .

(١) [٥١/الذاريات/٥٦] . (٢) [٢٥/الفرقان/٦٠] . (٣) [١٧/الإسراء/١١٠] .

تنبيهات

الأول - قال السيد محمد بن المرتضى اليماني في (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال هذا الرب الكريم . وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنی ، من تمام التوحيد ، الذي لا بد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنی ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عدّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام . فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً . فذموا الأمر الحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفي والجحد المحض . وضادوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) الآية . وقال ^(١) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) الآية - فما كان منها منصوصاً في كتاب الله ، وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله . فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به . انتهى .

الثاني - روى الشيخان ^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة ، والله وتر يحب الوتر . وفي رواية : من أحصاها . قال البخاري ^(٣) ؛ أحصيناه : حفظناه وأخرجه الترمذي ^(٤) وزاد سوق الأسماء معدودة :

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . (٢) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب

الدعوات ، ٦٨ - باب لله مائة اسم غير واحد ، حديث رقم ١٣١٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٦٥٥ (طبعنا) . (٣) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٢ - باب إن لله مائة اسم إلا واحداً .

(٤) أخرجه الترمذي في ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصري .

ثم قال : ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث . ورواه ابن ماجة^(١) أيضاً . فسرّد الأسماء بزيادة وتقصان .

قال الحافظ ابن كثير : والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ؛ أن سرّد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانيّ عن زهير ابن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغويّ . انتهى .

وقال النوويّ : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى . وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسمية والتسعين ، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصرها . ولهذا جاء في الحديث^(٢) الآخر : أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك . وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربيّ المالكيّ عن بعضهم ؛ أن لله ألف اسم . انتهى .

وقال السيد اليمانيّ^(٣) في (إيثار الحق) : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغي ترك شيء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم . ولو كان منها شيء لا ينبغي اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاريّ ومسلماً تركا تخريجاً مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده ، من إحصائها ، بالجنة كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماء سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر وقد

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٣٤ - كتاب الدعاء ، ١٠ - باب أسماء الله عز وجل ، حديث ٣٨٦٠ و ٣٨٦١ (طبعنا) (٢) من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحايّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) (٣) الصفحة رقم ١٦٩ .

ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن في كتاب الله أكثر من ذلك . وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال (١) : ما قال عبد أصابه هم أو حزن : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً - رواه أحمد ، وأبو عوانة في (صحيحه) وأبو يعلى والبخاري .

ثم أخذ اليماني يذكر ما وجدته من الأسماء منصوفاً ، غير معرّج على التشديد : فأنظره في (إيثار الحق) ، فإنه جوّد البحث بمنزعة شريف .

الثالث - قال بعض مفسري الزيدية في قوله تعالى (فَادْعُوهُ بِهَا) : المعنى سموه بها ، وفي ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى ، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك في الحديث عنه ﷺ . وإن أريد التسمية بما فيه مدح ، دون ما فيه إجلاد ، فذلك وجوب .

الرابع - قال السيد اليماني في (إيثار الحق) : هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى ؟ قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (٢) وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ، وكذلك جاء في كلام علي عليه السلام أنه قال : فعليك أيها السائل بمادل عليه القرآن من صفته - ذكره السيد أبو طالب في (الأمالي) بإسناده ، والسيد الرضي في (النهج) كلاهما في جوابه عليه السلام ، على الذي قال له :

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) . (٢) [١٦ / النحل / ٦٠] .

صف لنا نار ربنا - وهذا لا يعارض قوله عز وجل (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) ^(١) لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً ، حتى يعم الوصف الحسن ، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَا » أى للجنة ، لأنه فى مقابلة (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ) ^(٢) - قاله النسفى - « أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ » أى يدعون إليه « وَبِهِ يَعْدِلُونَ » أى يعملون ويقضون . وقد جاء فى الآثار ؛ أن المراد بالأمّة ، هذه الأمّة المحمدية . وقال قتادة : بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها . وعن الربيع بن أنس - فى هذه الآية - قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى قوماً على الحق ، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل . وفى الصحيحين ^(٣) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة . وفى رواية : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

قال الشهاب : استدل بالآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٠ - باب قول النبي ﷺ

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » حديث رقم ٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٧٤ و ١٧٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها ، أو نفتتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم ، ثم نهلكهم . وأصل الاستدرج : أن يتدرج إلى الشيء قليلاً قليلاً ، تشبيهاً بمن يرقى درجة درجة ، حتى ينتهى إلى العلو . وقيل : أصله من الدرج الذى يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة ، كما يطوى الدرج . وقيل : لأنه من الدرجة فيكون ، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهى إلى حال الهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (وَأْمُلِ لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأْمُلِ لَهُمْ » أى أمهلهم ليزدادوا إثمًا « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى قوى شديد . والمعنيون بهذا الخطاب كفار مكة . قال فى (التنوير) : هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون ، أخذهم الله بعذابه فى يوم (أحد) ، وأهلك كل واحد بهلاك غير هلاك صاحبه . انتهى . ويدل قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ » أى كما يختلفون . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى : أولم يتفكروا فى أنه ليس بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق ، شيء من جنّة . وجوز أن يكون الكلام تم عند قوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) إنكاراً لعدم تفكيرهم فى شأنه ، الموقف على صدقه ، وصحة نبوته . ثم ابتدأ نفى الجفّة عنه تعجبياً وتبكيّاً .

و(الْجَنَّةُ) مصدر ، كالجلسة ، بمعنى الجنون ، وليس المراد به الجن . كما في قوله تعالى (١) : (مَنْ أَلْجَأَ الْإِنْسَانَ إِلَى تَقْدِيرٍ مِثْلِهِ ، أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ مَكْنُوسًا) ، لأنه يجوز إلى تقدير مضاف ، أى مسجنة أو تخبطها . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيدان بأن طول مصاحبته لهم ، مما يطلعهم على نزاهته عما ذكر ، ففيه تأكيد للنكير ، وتشديد له « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى رسول يخوف « مُبِينٌ » أى موضح إنذاره ، مبالغة في الإعذار . ولما نعى عليهم تكبرهم في شأنه ﷺ ، أنكر إخلالهم في التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس ، الشاهدة بصحة الآيات المنزل ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا » أى نظر استدلال « فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » من الشمس والقمر والنجوم والسحاب . والملكوت : الملك العظيم « وَالْأَرْضِ » أى وفي ملكوت الأرض ، من البحار والجبال والدواب والشجر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » أى وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء) ، من أجناس لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف « وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ » عطف على (ملكوت) . أى فى احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ » أى القرآن « يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية . وفى هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأساً ، ونفى له بالسكينة .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على وجوب النظر في الأدلة ، وأنها طريق المعرفة . وتدل على أنه لا شيء ينظر فيه ، إلا ويعرف الله تعالى به ..

(١) [١١٤ / الناس / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى كفرهم يتخبطون .

يعنى أن من كتب عليه الضلالة ، فلا يهديه أحد ، ولا يغنيه النظر ، ولا الإنذار . كما قال تعالى ^(١) : (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٢) (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ) وَمِنْ اللَّهِ شَيْءٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ،

لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمُ

إِلَّا بَفْئَةٍ ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ » أى عن قيامها وحينها « أَيَّانَ مُرْسَاهَا » أى متى إرساؤها

أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها . والرسو يستعمل فى الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه

على المعانى ، تشبيها لها بالأجسام « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ »

أى لا يظهرها فى وقتها إلا هو « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى عظمت وكبرت على

أهلها لهُولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة . أو ثقل علم وقتها على أهلها . أو عظم وصفها

على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، وتسمير الجبال

« لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَفْئَةٍ » أى فجأة على حين غفلة منكم « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا »

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] .

أى عالم بها « قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن علمها عند الله ، لم يؤته أحداً من خلقه .

لطيقة :

قال الرغشري : فإن قلت . لم كرر (يَسْأَلُونَكَ) و (إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ) ؟ قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم ، لا يُخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصر في (الانتصاف) : وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا في الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذلك أن المهود في أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُنى على مقصد ، واعترض في أثناءه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول ، وقد بعد عهده ، طرأ بذكر المقصد الأول ، لتتصل نهايته ببدايته . وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها . فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله : (قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي) إلى قوله (بَفْتَةٍ) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله : (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطرأ ذكره تطرية عامة ، ولا نراه أبداً يطرأ إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول ، مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل : (يَسْأَلُونَكَ) ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملاً ، فقال : (قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ) . ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، تطرية للذكر ، قوله :

عَجَّلْ لَنَا هَذَا وَأَلْحَقْنَا بِذَا الشَّحْمِ إِنَّا قَدْ مَلَلْنَا بِعَجَلٍ

أى فقط ، فذكر الألف واللام ، خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى ، استبعد العهد بالأولى ، فطرأ ذكرها ، وأبقى الأولى في مكانها . ومن ثم استدلل ابن جنى .

على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء ، فهو بيت كامل ، وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن . قال : ولو كان بيتاً واحداً ، لم يكن عهد الأولى متباعداً ، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها . ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات ، وجعل آخر المصراع الأول (أَل) لم يعدها أول المصراع الثاني ، لأنها بيت واحد ، فلم ير عهدها بعيداً ، وذلك قول عبيد ابن الأبرص الأسدي :

يا خليلي أربعاً واستخبراً أَل مَنَزَلَ الدَّارِسَ عَنْ أَهْلِ الْجَلَالِ
مِثْلَ سَخِقِ الْبُرْدِ عَفَى بَعْدَكَ أَل قَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيلُ الشَّمَالِ

أربعاً : أقيماً . الحلال : اسم امرأة . سَخِقِ البرد : يريد مثل البرد المسحوق أى البالى . وعفى ، بالتشديد : عفا . القطر : المطر . مغناه . هو الموضع الذى كانوا يسكنونه . والشمال - بالفتح والكسر - من الرياح ، مأمّته من مطلع الشمس وبنات نعل . وهى لاتسكاد تهب ليلاً . وتأويلها : هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكتة ، كيف بالغت العرب فى رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً . فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان ، فى صناعتى العربية والبيان ، والله المستعان - انتهى - .

(والقصيدة بتمامها فى (مختارات ابن الشجرى) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة ، بما ينبئ عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لا أقدر ، لأجل نفسى ، على جلب نفعٍ ما ،

ولا على دفع ضرٍّ ما « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى تملكه لى من ذلك بأن يلهمنيهِ ، فيمكننى منه ، ويقدرنى عليه . وهذا كقوله تعالى فى سورة يونس ^(١) (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ). « وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » أى الفع ، بترتيب أسبابه ، فكنت مثلاً أعد للسنة المجذبة من المحضبة ، ولوقت الغلاء من الرخص « وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ » أى الضر ، للتوق عن أسبابه « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » أى عبد أرسلتُ نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب . وقوله تعالى « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » يجوز أن يتعلق بـ (نذيرٌ وبشيرٌ) جميعاً ، لأن المؤمنين هم المنتفعون بالنذارة والبشارة ، أو يتعلق بـ (بشيرٌ) وحده ، ومتعلق النذير محذوف ، أى للكافرين ، وحذف للعلم به . وقال الشهاب : ليظهر اللسان منهم . ثم بين تعالى عظم جناية الكفرة فى جرائتهم على الإِشراك ، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٩] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وهى نفس آدم عليه السلام « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها ، كقوله تعالى ^(٢) : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) « لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » أى ليطمئن إليها ويميل ، ولا ينفرد ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس . وإذا كانت بمضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان

(١) [١٠ / يونس / ٤٨ و ٤٩] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

إلى ولده ، ويحبه حبة لكونه بضعة منه . وَذُكِّرَ (لَيْسَكُنْ) بعد ما أنث في قوله (وَابْنَدَ)
و (مِنْهَا زَوْجَهَا) ذهاباً إلى معنى النفس ، ليعين أن المراد بها آدم ، ولأن الذكر هو الذي
يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى . أفاده الزمخشري . « فَلَمَّا
تَغَشَّيَهَا » أى وطئها . و (التَغَشَّى) كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان « سَحَلَتْ
سَحْلًا خَفِيًّا » أى خف عليها ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ، ثم
العلقة ، ثم المضغة « فَمَرَّتْ بِهِ » أى فاستمرت به خفيفة ، وقامت وقعدت « فَلَمَّا أَثْقَلَتْ »
أى صارت ذات ثقل ، لكبر الولد في بطنها « دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا » أى
ولداً سوياً قد صلح بدنه ، أو غلاماً « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى على نعمائك التى
منها هذه النعمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا » أى كما طلبا « جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا » أى أخلا
بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذ استبدلوه بالإشراك . وقوله تعالى :
« فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سبقت توبيخاً للمشركين فى جنائهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم ، فى جريهم
على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس
واحدة ، وجمل أزواجهم من أنفسهم ليأتسوا بهن . ثم إنشأه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين
فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة . ثم بين إعطاءهم المواثيق إن
آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون ، ليكون من الشاكرين . ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم
هذه النعم ، التى امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم فى إفراذه بالشكر ،

حيث أشركوا معه غيره في ذلك. ونظير هذه الآية، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفرة، قوله تعالى (١) في سورة يونس (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى روايتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير في (تفسيره). وتقبلُ ثلثه من السلف لها وتلقاها - لا يجدى في صحتها شيئاً. إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب، كما برهن عليه ابن كثير. وتهويلُ بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة، إذ أخرجها فلان وفلان، من تنميق الألفاظ لتزويق المعاني؛ فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته.

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف، أي جعل أولادها له شركاء، فيما آتى أولادها، وإما بأن المراد جعل أحدها وهو (حواء) من إطلاق الثني وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك - فإنه ذهب في غير مذهب.

وقد قرر ما ارتضيناه في معنى الآية غير واحد. قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. وفي رواية عنه: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم.

قال ابن كثير: والأسانيد إلى الحسن، في تفسير هذا، صحيحة، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية.

قال : ولو كان الحديث المرفوع ، في أنها في آدم وحواء ، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه - إن صح - موقوف على الصحابي ، لا مرفوع . انتهى .

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الكلام ، كما أنه تعالى يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لأن آتيتنا ولدًا صالحًا سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاها الله ولدًا صالحًا سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبايع ، كما هو قول الطبايعيين . وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول المنجمين . وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصر في (الانتصاف) - متعباً على الزخشرى - : الأسلم والأقرب ، والله أعلم ، أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معين . وكلن المعنى - والله أعلم - خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذي هو الأنثى ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلاً) يعني من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل .

فائدة :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال (فَلَمَّا أَتَمَّمْتُمْ) جعل حال الإثقال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادى إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ،

تنفذ من الثلث . وهو قول مالك والليث ، واحتجا بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال . وقال غيرها : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل في كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منه يجب الشكر عليها . انتهى .

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة ، واستقباح إشرائهم ، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوأ به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية ببطان ما اعتقدوه في حقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

« أَيُّشْرِكُونَ » أى بخالق الأشياء تعالى وتقدس « مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا » أى لا يقدر على خلق شئ ما ، كقوله تعالى^(١) : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ) أى : ومن هذه صفته كيف يعبد ؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لما بده لا محالة « وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل^(٢) عليه الصلاة والسلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ)

« وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ » أى لعبدتهم إذا حَزَّ بِهِمْ أمر « نَصْرًا » أى يجلب نفع ، أو دفع ضرر « وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ » إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى :

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٩٥] .

(وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) ^(١) وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجوح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أساما لما قدم النبي ﷺ المدينة ، وكانا شابين ، فسكنا يمدوان في الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليمتبر قومهما . وكان لعمر بن الجوح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيبه ، فسكنا يحيثان في الليل ، فينكسانه على رأسه ، ويلطخاناه بالمدرة . فيجىء عمرو بن الجوح ، فيرى ما صنع به ، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في جبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجوح ، ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تالله لو كنت إلهاً مُسْتَدَنٌ لم تك والسكب جميعاً في قرَن

(مستدن : ذليل مستعبد . والقرَن : الجبل) .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً ، رضى الله عنه وأرضاه .
(انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ طبعة الحلبي . وص ٣٠٣ طبعة جوتنجن) .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على صحة الحجاج في الدين ، لأن قوله : (أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ . . .) الآية - حجاج . وتدل على أن المستحق للعبادة الذي يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰمِتُونَ)

« وَإِنْ تَدْعُوهُمْ » أيها المشركون « إِلَى الْهُدَىٰ » أي إلى ما فيه رشاد « لَا يَتَّبِعُكُمْ » أي إلى مرادكم وطلبتكم « سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰمِتُونَ » يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم ^(١) : (يَسْأَلُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) . وجوز في الآية أن يكون المعنى : وإن تدعوه إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم ، كما تطلبون من الله ، الخير والشر ، لا يجيبوكم كما يجيبكم الله ، لقوله تعالى ^(٢) بمد : (فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة « عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » أي مخلوقات مماثلة لكم « فَادْعُوهُمْ » أمر تعجيز وتبكيث . أي فادعوهم لطلب نفع ، أو كشف ضرر « فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ » أي في زعمكم أنها آلهة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آَعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ)

« أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آَعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ،

(١) [١٩ / مريم / ٤٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

أَمْ لَهُمْ ءِذَا نُسَمِّمُونَ بِهَا « تَبَكَّيْتُ إِثْرَ تَبَكَّيْتُ ، مؤكدا لما يفيدُه الأمرُ التمجيزي ، من عدم الاستجابة ، ببيان فقدان آلتها بالكلية . فإن الاستجابة من الهياكل الحسائية ، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محرّكة . ومدرّكة . وما ليس له شيء من ذلك ، فهو بمنزل من الأفاعيل بالمرّة . كأنه قيل : ألهم هذه الآلات التي بها تتحقّق الاستجابة ، حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة ، تكريراً للتبكيّة ، وتثنيةً للتقريع ، وإشماراً بأن انتفاء كل واحدة منها بمحيائها ، كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة . أفاده أبو السعود .

ويقال : إنه لما جعلهم مثلهم ، كرّ على المثلية بالنقض بما ذكر ، لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص من هو مثله لا تليق ، فكيف من هو دونه .

تنبيه :

قال الرازي : تعلق بعض أغمار المشبهة وجهاً لهم بهذه الآية ، في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقالوا : إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء ، لهذه الأصنام ، دليلاً على عدم إلهيتها . فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى ، لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية ، وذلك باطل . فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى . . . الخ .

وأقول : الظاهر أن ملحظ مثبتتها هو أن عدمها يدل على النقص ، وهو محال على المولى تعالى ، إذ له كل صفة كمال . ومعلوم أن في إثباتها له تعالى من آيات أخر ، وأحاديث مشهورة ، ما يغني عن تكلف استثباتها له تعالى من مثل هذه الآية ، ولكن على المهاج السلفي ، وهو إثبات بلا تكييف ، إذ من كيف فقد مثل ، ومن نفى فقد عطل . فالمشبهة كالمطلّة ، والحق وراءها ، والمسألة شهيرة .

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون ، أمر تعالى رسوله ﷺ أن يناصهم للمحاجة ، ويكرر عليهم التبكيّة ، فقال سبحانه : « قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » أي استنصروا بها على « ثُمَّ كِيدُونِ » أي اعملوا أنتم وهم في هلاككم من حيث لا أشعر به ، حتى يمكنني دفعه .

« فَلَا تُنْظِرُونِ » أى عجّلوا فى كيدى ، فلا تمهلونى مدة أطلع فيها على كيدكم ، فإنى لا أبالى بكم . وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء فى (كِيدُونِ) ، والباقون حذفوها . ومثله فى قوله ^(١) : (وَلَا تُنْظِرُونِ) (ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ) ^(٢) قال الواحدى : والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافى ، وقد حذفوا هذه الياءات إذا كانت فى القوافى ، كقوله :
يلبسُ الأحلاسَ فى منزله يبيديه كاليهودى المصلِّ (وأصلها المصلّى)
والذين أثبتوها ، فلأن الأصل هو الإثبات .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

« إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ » تعليل لعدم المبالاة ، المنهم من السوق انهماماً جلياً . أى : الذى يتولى حفظى ونصرتى هو الله الذى أنزل الكتاب ، المشتغل على هذه العلوم العظيمة النافعة .

قال أبو السعود : ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب ، للإشعار بدليل الولاية ، والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة . كأنه قيل : لا أبالى بكم وبشركائكم ، لأن ولى هو الله الذى نزل الكتاب الناطق بأنه ولى وناصرى ، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فضلاً عن نصركم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » تذييل مقرر لما قبله . أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم . وفيه تعريض ، لمن فقد الصلاح ، بالخذلان والمحق .

قال الحسن البصرى : إن الشركين كانوا يخوفون الرسول ﷺ بأهتهم ، فقال تعالى (ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ . . .) الآية - ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلى ، بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال قومه (إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَاكَ

(١) [١٠ / يونس / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٥٥] .

يَمَعْنُ إِلَهَتَنَا بَسُوهُ ، قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ
فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ (...) الآية (١).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ» أى لا يتولون أحداً ، لأنهم
لا يستطيعون نصركم «وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» أى إذا قصد إضرارهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

«وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا» إذ ليس لهم سمع ، وإن صوّرت لهم الآذان .
كما أنه لا بصر لهم ، وإن صوّرت لهم الأعين . كما قال : «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ»
إذ صوّرت لهم الأعين «وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل ، فعبّر عنهم
بضميرهم ، لأنهم على صور مصورة كالإنسان . وهذا من تمام التعليل ، لعدم مبالاة بهم ،
فلا تكرار .

وقال السديّ: المراد بهذا (المشركون) وروى عن مجاهد نحوه. أى وإن كانوا ينظرون
إليك ، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية .

قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة . أى تفصيلاً من
التفكيك ، لأن الحديث عنهم الأصنام .

تنبيه :

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم في هذه الآية - والعبارة للجشمتي - ما مثاله : تدل

(١) [١١ / هود / ٥٤ - ٥٦] .

الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضى الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير رائيين .
قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال : فبطل قول من يقول : إن قوله تعالى (١) (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقتضى الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل في إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار ، ولذلك تتعاقب في هذا المعنى ، وتترادف كثيراً . وانفكاه عن الرؤية في هذه الآية لقرينة كون الحدث عنهم جاداً ، ولا قرينة في الآية لتقاس على ما هنا . دع ماصح من الأخبار في وقوعها ، مما هو بيان لها - فافهم - .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصفح عن المشركين ، إذا جادلوه في شركائهم بعد هذا البيان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

« خُذِ الْعَفْوَ » أى مكان الغضب ، ليكونوا أقبل للنصيحة « وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » أى بالجميل المستحسن من الأفعال ، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ، ولما كان الناصح لغيره ، كالمعرض لعدوانهم ، ثلث بما يحتاج إليه في ذلك فقال : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » أى المصرين على جهلهم ، فلا تسكف السفهاء بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم .

تنبيهان :

الأول - قال بعض العلماء : إن سر الشريعة في الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن

(١) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

ومحو المستقيح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَأُمِرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)
فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ما أنكرته واستقبحته . ذلك
لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات في
كل البلاد . اهـ .

الثاني - روى عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه قال : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم
الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب : هي يا ابن
الخطاب ! فوالله ، ماتطينا الجزل ، ولا نحكم فيما بالعدل ، فنضب عمر ، حتى هم أن يوقع
به . فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « خُذِ الْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعِزْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وإن هذا من الجاهلين .
قال ابن عباس : والله ! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقفاً عند كتاب الله
عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ » أي يصيبك من الشيطان وسوسة تشيع غضبك على
جهلهم وإساءتهم ، وتحملك على خلاف ما أمرت فيه من العفو والأمر بالمعروف . « فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ » أي استجبر به ، وادعه في دفعه « إِنَّهُ وَ سَمِيعٌ » أي لدعائك « عَلِيمٌ » أي باسئعائك .
قال الزخشرى : النزغ والنسغ : الفرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على
المعاصي . أي فشبهت وسوسته وإغراؤه بالفرز ، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧ - سورة الأعراف ، ٥١ - باب

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعِزْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، حديث : ٢٠٠٤ .

في الجلد ، كما يفعله السائق لحث الدواب . وجملُ النزع نازعًا مجاز بالإسناد ، لجعل المصدر فاعلاً ، كجد جدّه .

قال أبو السعود: وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبية على أنه من الفوائل الصعبة التي لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ » أى أصابهم « طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ » أى وسوسة وخطر منه « تَذَكَّرُوا » أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه « فَإِذَا هُمْ » أى بسبب ذلك التذكر « مُبْصِرُونَ » أى مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولا يتبعونه . وقرئ (طيف) على أنه مصدر ، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفاً) ، أو تخفيف (طيف) كآين وهين . وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى ، عند نزع الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

« وَإِخْوَانُهُمْ » معنى وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس . كقوله : (إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ) ^(١) ، وهم الذين لم يتقوا ؛ فلم يتأت لهم التذكر ، ولا ينفع فيهم الاستعاذة لأن الشياطين « يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ » أى يكونون مدداً لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل في الضلال ، معنى تساعد الشياطين على المعاصي ، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم

(١) [١٧ / الإسراء ٢٧] .

« ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » أى لا يمكثون عن إغوائهم ، حتى يصبروا ولا يرجعوا : يعنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية : وجوز عود الضمير لـ (الإخوان) ، أى لا يرجعون عن الفى ولا يقصرون ، وإن بولغ عليهم فى الوعظ بآيات الله ، وإقامة الدلائل ، ورفع الشبه ، وغير ذلك ، وجوز أيضاً أن يراد أيضاً بـ (الإخوان) الشياطين ، ويرجع الضمير إلى (الْجَاهِلِينَ) أى وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدون الجاهلين فى الفى .

قال الزمخشري : والأول أوجه ، لأن (إخوانهم) فى مقابلة (الَّذِينَ اتَّقَوْا) .

ثم بين تعالى ، من أنواع إغوائهم ، لجأهم فى طلب آيات معينة ، وتغنمهم فى اقتراحها ، مع أن لديهم المعجزة العظمى ، والحادثة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ

مِنْ رَبِّي ، هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ » أى مما اقترحوه « قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا » أى هلا تكلفتها

وأنشأتها من عندك « قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِنْ رَبِّي » أى فليست بمقتعل للآيات ،

ولا أتقدم إليه تعالى فى شيء منها . ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ،

وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبيّنات ، فقال سبحانه « هَذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ

مِنْ رَبِّكُمْ » أى بمنزلة البصائر للقلوب ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب . فالكلام

على طريقة التشبيه البليغ . أو سبب البصائر ، فهو مجاز مرسل . أو استعارة لإرشاده .

أو المعنى : حجج بينة ، وبراهين نيرة . وإنما جمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور ،

جعل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم - لتأكيد وجوب

الإيمان بها « وَهْدَى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى من المذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »
أى به ، فيتفكرون فى حقائقه .

تفسيه :

قال الجسمى : تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة ، لا بحسب اقتراحهم ،
لأن ذلك قد يكون فساداً . ويدل قوله : (هَذَا بَصَائِرُ) أن المعارف مكتسبة . وتدل أن
جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه ، لذلك قال : (أُنَبِّعُ مَا يُوحَى إِلَى) ،
ومتى قيل : هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟ قلنا : لا ! لأن القياس والاجتهاد
إذا كان متعبداً به ، فاتباعه اتباع الوحي . كالعالم يقبل من المفتى ، والعالم يجتهد ،
ويتبع الوحي ، كذلك هذا . والذي يدل عليه أن النبي ﷺ لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه
حتى يؤمر به - انتهى كلامه - وفى إطلاقه تفصيل له موضع آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لِمَلَكُمْ تَرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » أى عن حديث النفس وغيره
« لِمَلَكُمْ تَرْحَمُونَ » لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى
طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة . أى وإذا قرئ القرآن الذى ذكرت
خصائصه ، فاستمعوا له ، أى أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتدبروا مواظمه ،
وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى ، إعظاماً له واحتراماً ، لكي تفوزوا بالرحمة التى هى أعظم ثمراته ،
لا كما يعتمد كفار قريش من قولهم (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ)^(١) .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآية يقتضى وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصرى وأبى مسلم الأصفهاني . وقد روى مسلم^(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة . وروى الإمام أحمد^(٢) وأهل السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معى آتقاً ؟ قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : إني أقول : ما لي أنزع القرآن ؟ قال : فاتتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

قال الترمذى^(٣) : هذا حديث حسن . وصححه أبو حاتم الرازى . نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إني أراكم تقرأون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا : يا رسول الله ! إى والله . قال : لاتفعلوا إلا بأمر القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها - رواه أبو داود^(٤) والترمذى^(٥) - وفى لفظ : فلا تقرأوا بشئ من القرآن إذا جهرت

- (١) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٧٧ - ٨١ عن أنس و٨٢ عن عائشة و٨٦ عن أبى هريرة (طبعتنا) أما حديث أبى موسى فلم أهتمد إليه . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٢٦٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١١٦ - باب ما جاء فى ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٣١ - باب القراءة فى الفجر ، حديث ٨٢٣ . (٥) أخرجه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ٦٩ - باب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب .

به ، إلا بأمر القرآن - رواه أبو داود والنسائي ، والدارقطني وقال : رواه كلهم ثقات .
وأخرج ابن حبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أقرءون في صلاتكم خلف الإمام ، والإمام يقرأ ؟ فلا تفعلوا ، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه .
وأما حديث أبي هريرة المتقدم ، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً ، بل جهرراً .
لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم ، لا مع إسراره . ولو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان الاستفهام الإنكارى فيه عاماً لجميع القرآن ، أو مطلقاً في جميعه . وحديث عبادة خاص أو مقيد ، ولا تعارض بين عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، لا ابتناء الأول على الثاني .
وكذا يقال في عموم الآية . وفي هذا جمع بين دلالة الكتاب ، وصحيح السنة ، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثاني - روى عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة . وعن بعضهم : فيها وفي الخطبة يوم الجمعة . وعن بعضهم : فيهما وفي خطبة الأضحى والفطر . وقد قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم (نزلت هذه الآية في كذا) وبيننا أنه قد يراد بذلك ، أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها ، لا أنه سبب لنزولها ، وذلك في بعض المقامات ، وما هنا منه . وبتحقيق هذا يسقط ما للرازي هنا من أنه إذا قيل بنزولها في منع المأموم من الجهر بالقراءة ، يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إخمाम المشركين ، بأن يستمعوا لقراءته ، ليقفوا على إعجازه . وما للخازن ؛ بأن الآية مكية ، وخطبة الجمعة والعيدين شرعتا بالمدينة - فافهمه - .

الثالث - روى الإمام أحمد ^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة . قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى .
وقوله تعالى :

(١) أخرجه في السند بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٥] (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)

« وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْعُدُوِّ
وَالْأَصَالِ » خطاب للنبي ﷺ ، والمراد عام . أو المعنى : واذكر ربك أيها الإنسان .
والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبي ﷺ ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأمته .
وقد أوضح هذا آية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١) . والأمر بالذكر ، قال الزمخشري : هو عام في الأذكار من قراءة القرآن
والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك . وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ،
إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الاستحباب .
قال : وبكلٍ فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول - أن يكون في نفسه ، لأن الإخفا . أدخل في الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ،
وأبعد من الرياء .

الثاني - أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ،
ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث - أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة
الالهوية ، من المواخذة على التقصير في العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١ و ٤٢] .

الرابع - أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكير . قال ابن كثير : فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداء ولا جهرًا بليغًا . وفي الصحيحين ^(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ﷺ : يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا . إن الذين تدعون سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . قال الإمام : المراد أن يقع الذكر متوسطًا بين الجهر والخفة ، كما قال تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) ^(٢) .

الخامس - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله (وَدُونَ الْجَهْرِ) لأن معناه : ومتكلمًا كلامًا دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على (تَضَرُّعًا) ، أو هو معطوف على (فِي نَفْسِكَ) . أي اذكره ذكرًا في نفسك ، وذكرًا بلسانك دون الجهر .

السادس - أن يكون بالغدو والآصال ، أي في البكرة والعشي . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد . وما بينهما ، الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش . وقد روى : أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله « وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » أي من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية .

(١) أخرجه في البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير ، حديث ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤-٤٧ (طبعنا) . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

ثم ذكر تعالى ما يقوى دواعى الذكر، وينهض الهمم إليه، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل النهار ، لا يفترون ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)

(سجدة)

« إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » يعنى الملائكة الذين هم فى أعلى مقامات القرب « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ » أى لا يتعظمون عنها . وقوله « وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ » أى فينبغى أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم ، ففيه حث ولطف مرغب فى ذلك . لأنه إذا كان أولئك - وهم ما هم فى قرب المنزلة والمصمة - حالمهم فى عبادته تعالى وتسيبحه ما ذكر ، فكيف ينبغى أن يكون غيرهم .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية فى تفضيل الملائكة على البشر قال : لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...) الآية - أى فأنت أولى وأحق بالعبادة ، والمسألة مستوفاة فى كتب الكلام . واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية ؛ أنه ينبغى للعبد أن ينظر إلى من فوقه فى طاعة الله تعالى .

الثانى - قال الرازى : المشبهة تمسكوا بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...) وقالوا : لفظ (عِنْدَ) مشعر بالجهة . ثم أجاب بما هو معروف للخلف . ويعنى ، سامحه الله ، بالمشبهة الحنابلة ، وهم براء من التشبيه ، كما يعلمه من طالع عقائدهم ، واقفون على حدّ النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل ، ولم يفردوا بذلك ، فقد تقدمهم من لا يخصصى فى هذه المسألة . راجع كتاب (العلو للذهبي) تعلم ما ذكرنا .

الثالث - قال الجشمي : تدل الآية على كون الملائكة مكلفين . وتدل على أنهم سجدوا لله . وآدم كان قبلة السجود ، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له .

الرابع - هذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة^(١) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، أنه عدها في سجدة القرآن .

وروى الشيخان^(٢) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بمعنىنا موضعاً لمكان جبهته ، في غير وقت صلاة .

وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويلتا ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت ، فلي النار .

وروى مسلم^(٤) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة .

الخامس - السجدة المشروعة ، إن كانت لآية ، أمراً فيها بالسجود فللأمر ، أو حكى فيها

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٦ (طبعنا) . (٢) أخرجه البخاري في : ١٧ - كتاب سجود القرآن : ٨ - باب من سجد لسجود القاري ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٣٣ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٢٢٥ (طبعنا) .

استنكباف الكفرة عنه ، فلنضالفتهم وإرغامهم ، أو حكى فيها سجدود الأنبياء أو الملائكة ، فللتأسى بهم - كذا فى (العناىة) .

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف ، فله الحمد على هذا التسهيل والإسماف . ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام ، فإنه ذو الجلال والإكرام .

وكان الفراغ من ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء ، فى ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢٩ بشباك السدة العليا البنى من جامع السنانية . على يد الفقير جمال الدين القاسمى غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين .

تم الجزء السابع

ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الثامن

ويحتوى على تفسير سورتن الأتقال والتوبة

تنبيه :

كانت النية معقودة على إخراج (التفسير) على حسب تجزئة المؤلف . لكننا لما رأينا أن حجود الأجزاء غير متساوية ، ولتيسير الحصول عليها ، قررنا إخراج الأجزاء الباقية ، ابتداء من هذا الجزء ، فى حجم الأجزاء الأربعة الأولى . والله الموفق والمستعان .

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسمى

محاسن التاويل

تأليف علامة الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الثامن

وفيه تفسير سورتي : الأنفال والتوبة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد زكي عبد الباقى

دار الصحوة العامة
ميسى البابى الجلبى وشركاه

٥١٢٠١
٢١ ٧ ٩٦

٥

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأخبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

المؤلف ، رضى الله عنه

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد النار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدنى

الذى يقتضيه الزمن »

» وإنى لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع

فهما ترتاح إليه ضمائرهما ، وتمتعده عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأودد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيئة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨ - سُورَةُ الْأَنْفَالِ ^(١)

مدنية ، أو ، إَلَّا (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ . . .) الْآيَاتِ السَّبْعِ ، فَكِيَّة . وآياتها خمس وسبعون آية .
سميت بالأنفال لأنها مبدأ هذه السورة ، ومنتهى ما ذكر فيها من أثر أمر الحروب .

(١) بدأت بحاسن تأويل هذه السورة بعد عودتي من مصر بعد فجر الاثنين ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢١ (مؤلفه) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
 « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

روى البخارى^(١) عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرأ . فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون : وأقبلت طائفة على المسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن نقيمها عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا . نحن أهدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، واشتغلنا به - فنزلت : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية - فقسمها رسول الله ﷺ على فُواقٍ^(٣) من المسلمين .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، - باب قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، حديث رقم ١٨٦٩ . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٢٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٣) قال ابن الأثير : أى قسمها في قدر فُواقٍ ناقة ، وهو ما بين الحلبتين من الراحة . وتضم فاءه وتفتح .

وهذا الحديث رواه الترمذى^(١) أيضاً وحسنه ، ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وصححه الحاكم . ولفظ ابن إسحق عن عبادة قال : فينا ، أصحاب بدر ، نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء .

وروى أبو داود^(٢) والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا . فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغام ، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا رداء لكم ، لو انكشفتم لثبتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية - وهذا مما يفيد أن التشاجر كان متنوعاً ، وأن الآية نزلت لفصله .

والأنفال : هى المغام ، جمع (نفل) محركة ، وهو الغنيمة . أى كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . قال ابن تيمية : سميت بذلك ، لأنها زيادة فى أموال المسلمين . أى لأن النفل يطلق على الزيادة - كما فى (التاج) . ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة .

وقوله تعالى : (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) - قال المهايى : أى ليست هى فى مقابلة الجهاد ، وإنما مقابلة الأجر الأخرى ، وهذه زائدة عليه ، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله . والرسول خليفة يعطيها ، على ما أراه الله ، من يشاء . ولما أطلق له ﷺ الحكم فيها ، قسمها بينهم بالسوية ، ووهب من استوهمه . فروى الإمام أحمد^(٣) عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتل

(١) لم أجد هذا الحديث فى سنن الترمذى . (٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٤٤ - باب فى النفل ، حديث رقم ٢٧٣٧ . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٥٦ (طبعة المعارف) .

أخى عمير وقتلتُ سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأثبت به النبي ﷺ فقال : اذهب فاطرحه في القَبَض . قال ، فرجعت ، وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى ، وأخذ سلبي . قال ، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لى رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سلبك . وروى الإمام أحمد^(١) والترمذى - وصححه - عن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله ! قد شفى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، فقال : إن هذا السيف لآ لك ولآ لى ، ضعه . قال ، فوضعتهُ ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلأى . قال ، إذا رجل يدعونى من ورأى . قال ، قلت : قد أنزل الله فى شيئاً . قال : كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وإنه قد وهب لى ، فهو لك . قال ، وأنزل الله هذه الآية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ...) الآية .

تنبيهات

الأول - ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى .

قال ابن كثير : فيه نظر . ويرد عليه حديث على بن أبى طالب فى شأرفيه اللذين حصلا له ، من الخمس ، يوم بدر . فالصواب أنها مجملة محكمة ، بين مصارفها فى آية الخمس .

الثانى - روى عن عطاء أنه فسر (الأنفال) بما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو أمة أو متاع . قال : فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . قال ابن كثير : وهذا يقتضى أنه فسر (الأنفال) بالفاء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٣٨ (طبعة المعارف) .

قلت : صِدْقُ (النفل) عليه ، لا شك فيه ، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه ، فلا يساعده سبب نزولها المار ذكره ، لاسيما قوله : (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) المشير إلى التنازع المتقدم .

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ، أى ما يدفع إلى الغزى زائداً على سهمه من المغنم ، والكلام الذى قلته قبل ، يجرى هنا أيضاً .

ونقل الرازى عن القاضى ؛ أن كل هذه الوجوه تحتملها الآية . قال : وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض ، وإن صح فى الأخبار ما يدل على التعين ، قضى به . وإلا فالكل محتمل . وكما أن كل واحد منها جائز ، فكذلك إرادة الجميع جائزة ، فإنه لا تناقض بينها . أى لصدق (النفل) عليها .

الثالث - وقع عند الزخشرى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر ، لمن الحكم فيها اللهماجرين أم للأنصار ، أم لهم جميعاً ؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر الزخشرى أبو السمود فى سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماد له ، بتطويل ممل . ولا أدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها فى صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ، كابن إسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ولكن هو الراى (قاتله الله !) ونبذ كتب السنة ، والتقليد البحث ، الذى لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها مصداقاً ما ينطق به فقه ، غشاً كان أو سميحاً . اللهم نور بصيرتنا بفضلك .

وقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ) أى فى الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين فى الله . وقوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أى أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حق تكون أحوال ألفه ومحبة واتفاق .

وقوله تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى فى قسمه بينكم ، على ما أراه الله تعالى .
وقوله تعالى (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) متعلق بالأوامر الثلاثة .

قال الزمخشري : جعل التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ، من لوازم الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقف على التوفر عليها . فعنى قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى كمالى الإيمان .

ثم بين تعالى من أريد بالـ (مؤمنين) بذكر أوصافهم الجليلة ، المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث ، ترغيباً لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ » أى الكاملون المخلصون فيه « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ » أى حقه أو وعيده « وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فزعت لذكره ، وانشعرت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه ، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ، وبطشه بالمصاة وعقابه .

قال الجسسى : ومتى قيل : لِمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل والطمانينة فى قوله (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)^(١) فجوابنا فيه وجوه :

منها : أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه ، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه .

ومنها : أن قلوبهم تطمئن لمعرفه توحيده ، ووعده ، ووعيده ، فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه ، خوف التقصير فى الواجبات ، والإقدام على المعاصي ، والمستقبل بتغيير حاله . انتهى .
« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ » أى حججه وهى القرآن « زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » أى يقيناً وطمانينة نفس ، إلى ما عندهم ؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ، وأثبت لقدمه .

(١) / ١٣ / الرعد / ٢٨] .

وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها ، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة . بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد ، كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى لا يرجون سواه ، ولا يخشون غيره ، ولا يفوضون أمورهم إلى غيره .

ولما ذكر تعالى ، من أعمالهم الحسنة ، أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، أعقبه بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى المفروضة بمحدودها وأركانها ، فى أوقاتها . والموصول نعت للموصول الأول ، أو بيان له ، أو منصوب على المدح . وقوله « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » عام فى الزكاة ، وأنواع البر والقربات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » أى لا شك فى إيمانهم . و (حَقًّا) صفة لمصدر محذوف ، أى إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد للجمله ، أى حق ذلك حقاً ، كقولك . هو عبدالله حقاً . قال عمر بن مرة (فى هذه الآية) : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيّد حقاً ، وفى القوم سادة . وفلان تاجر حقاً ، وفى القوم تجار . وفلان شاعر حقاً ، وفى القوم شعراء . انتهى .

وكانه أراد الرد على من زعم أن (حقاً) من صلة قوله (لَهُمْ دَرَجَاتٌ) بعد ، تأكيداً له وأن الكلام تم عند قوله (الْمُؤْمِنُونَ) ، فإن هذا الزعم يصاب عنه أسلوب التنزيل الحكيم .

وقد تطرف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة . وهى : هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقاً .

قال الطوسى فى (نقد الحاصل) : المعتزلة ومن تبعهم يقولون : اليقين لا يحتمل الشك والزوال . فتقول القائل : (أنا مؤمنٌ إن شاء الله) لا يصح إلا عند الشك ، أو خوف الزوال . وما يوم أحدهما ؛ لا يجوز أن يقال للترك . انتهى .

والغزالي فى الإحياء ، بسط هذه المسألة ، وأجاب عن سوء ذلك بأجوبة :
منها : التخوف من الخاتمة ، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة .
ومنها : الاحتراز من تزكية النفس .

ومنها : غير ذلك . انظره بطوله .

وقال ابن حزم فى (الفِصَل) : القول عندنا فى هذه المسألة ؛ أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه ، فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ ، وبكل ما أنى به ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك ، كما أمر تعالى فى قوله : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (٢) . ولا نعمة أوكد ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى ، فى وقتى هذا . ولا فرق بين قوله (أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ) وبين قوله (أَنَا أَسْوَدٌ أَوْ أَنَا أَبْيَضٌ) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والمعجب فى شىء ، لأنه فرض عليه أن يحقن دمه بشهادة التوحيد . وقول ابن مسعود : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عندنا صحيح ، لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات ، وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع أن يقول المرء (إِنِّى مُؤْمِنٌ) بمعنى (مصدق) .

(١) [٩٣/ الضحى / ١١] .

وأما قول المانعين : (من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة) فالجواب : إنا نقول إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ ، وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نأمن مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ؛ ولا ندرى ما ذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى كلام ابن حزم رحمه الله ، ولقد أجاد فيما أفاد .

وقوله تعالى : « لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى منازل ومقامات عالياً في الجنة « وَمَنْفِرَةٌ » أى تجاوز لسيئاتهم « وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أشياء :

منها : أن الإيمان اسم شرعى لثلاث خصال : القول ، والاعتقاد ، والعمل . خلاف ما تقولهُ المرجئة . لأن الوجهُ وزيادة التصديق من فعل القلب ، والتدبر والتفكر كذلك ، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح ، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح . ثم بين في آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً .

ومنها : أنها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأن هذه الطاعات تزيد وتنقص ، وقد نص على ذلك في قوله (زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) .

ومنها : أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكر فيما أمر ونهى ، ووعد وأوعد ، لينجبر للارغبة والرغبة . وذلك حث على الطاعة ، وزجر عن المعاصي .

ومنها : وجوب التوكل عليه . والتوكل على ضربين : منها في الدنيا ، ومنها في الدين .

أما في الدنيا فلا بد من خصال :

منها : أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذى أتيح له ، ولا يطلب محرماً .

ومنها : إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرّم .

ومنها : ألا يظهر الجزع عند الضيق ، بل يسلك فيه طريق الصبر ، واعتقاد أن ما هو فيه مصلحة له .

ومنها : أن ما يرزق من النعم بعدها ، من جهته تعالى . إما بنفسه أو بواسطة .

ومنها : ألا يجبسه عن حقوقه خشية الفقر .

ومنها : ألا يسرف في النفقة ولا يقتر .

فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلاً .

فأما الذي يزعمه بعضهم : أن التوكل إهمال النفس ، وترك العمل - فليس بشيء . وقد أمر الله تعالى بالإنفاق ، وبالعمل . وثبت عن الصحابة - وهم سادات الإسلام - التجارة والزراعة والأعمال . وكذلك التابعين . وبهذا أجرى الله العادة . وقد أمر النبي ^(١) ﷺ الأعرابي " أن يقل ناقةه ويتوكل .

فأما التوكل في الدين فخصال :

منها : أن يقوم بالواجبات ، ويجتنب المحارم ، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة .

ومنها : أن يسأله التوفيق والمعصمة .

ومنها : أن يرى جميع نعمه منه ، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه .

ومنها : أن لا يثق بطاعته جملة ، بل يطيع ويجتنب المأصي ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف

عذابه . فعند ذلك يكون متوكلاً .

ثم قال الجشمي : وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً ، خلاف قول

المرجئة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه الترمذي في : ٣٥ - كتاب صفة القيامة والرفائق والورع ، ٦٠ - باب

حدثنا عمرو بن علي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ)

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ »
الكاف في (كَمَا) كاف التشبيه ، والعامل فيه يحتمل وجوها . فإما هو معنى الفعل الذي دل عليه (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ) ، تقديره نزع الأنفال من أيديهم بالحق ، كما أخرجك بالحق . وإما هو معنى الحق ، يعنى هذا الذ كر حق ، كما أخرجك بالحق . وإما أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أى حالهم هذه في كراهة تنفيل الغزاة ، كحال إخراجك من بيتك للحرب في كراهتهم له (كما سيأتى في تفصيل القصة) . وهذا هو قول الفراء ، فإنه قال : الكاف شبهت هذه القصة التى هى إخراجك من بيتك ، بالقصة المقدمة ، التى هى سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها ، مع أنها أولى بحالهم .

وقوله تعالى : (مِنْ بَيْتِكَ) أراد به بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مثواه . أى إخراجك إلى بدر . وزعم بعض أن المراد إخراجك ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة . وهو ساقط ، برده سياق القصة البدرية في الآيات بعد . وملخصها^(١) أن أبا سفيان قدم بعير من الشام في تجارة عظيمة ، فخرج النبي ﷺ وأصحابه ليغنموها ، فعملت قريش . فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليدبوا عنها ، وهم النفير . وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل ، فنجت . فقبل لأبي جهل : ارجع ، فأبى وسار إلى بدر . فشاور ﷺ أصحابه وقال لهم : إن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فوافقوه على قتال النفير ، وكره بعضهم ذلك ، وقالوا : لم نستعد له ، كما قال تعالى :

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي)
والصفحة رقم ٤٢٧ و ٤٢٨ (طبعة جوتنجن) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)
 « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ » وهو الجهاد وتلقى النفي « بَعْدَمَا تَبَيَّنَ » أى ظهر لهم
 أنهم يُنصرون فيه « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى يكرهون القتال
 كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، وكان ذلك أقله عددهم ، وعدم تأهبهم .
 إذ روى أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فيهم فارسان ، المقداد والزبير . وقيل الأول
 فقط . والمشركون ألف ، ذوو عِدَّة وعِدَّة وفيه تعريض بأنهم إنما يسار بهم إلى الظفر والغنيمة
 للوعد الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
 الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ
 دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

« وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ » العير أو النفي « أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ » أى
 تحبون « أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » وهو العير ، لا ذات الشوكة ، وهى النفي .
 والشوكة : السلاح أو حدته « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ » أى يشبته ويعليه ، وهو دعوة
 رسوله « بِكَلِمَاتِهِ » أى بآياته المنزلة ، وأوامره فى هذا الشأن « وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »
 أى يستأصلهم ، فلا يبقى منهم أحداً .

ثم بين تعالى الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ » أى ليثبت الدين الحق ، ويمحق الدين الباطل ،

باستئصال أهله ، مع ظهور شوكتهم « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى المشركون ذلك .
ثم ذكروهم تعالى التجاءهم إليه ، واستمدادهم منه النصر يوم بدر ، وإمداده حينئذ
بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » أى تطلبون منه الفوث ، وهو التخلص من الشدة ،
والعون بالنصر عليهم « فَاسْتَجَابَ لَكُمْ » أى الدعاء « أَنِّي مُمِدُّكُمْ » أى معينكم
« بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » بكسر الدال ، أى متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ،
أو مردفين غيرهم . وقرئ بفتحها على معنى أن الله أورد المسلمين بهم ، أو مردفين بغيرهم ،
أى من ملائكة آخرين . وقرئ (بآلاف) بالجمع ، كما يأتى .

روى مسلم^(١) عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ؛ نظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر
رجلا ؛ فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ؛ ثم مد يده ؛ فجعل يهتف بربه ويقول :
اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل
الإسلام ؛ لا تعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه .
فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداؤه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله !
كفأك مفادتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعنا) .

وروى البخارى^(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب .

وروى البخارى^(٢) عن معاذ بن رفاع ، عن رافع الزرق ، عن أبيه - وكان ممن شهد بدرأ - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسمين - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة .

تنبيهات :

الأول - قال الجسمى : تدل الآية على أن الملك يجوز أن يتشبه بالآدمى ، ولا يخرج من كونه ملكاً ، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التى صاروا بها أحياء والذى ينكر أن يقدر أحد على تغيير الصور ، بل نقول : إن الله هو الذى يقدر على ذلك . انتهى .

الثانى - قال الزمخشري : وعن السدى (بِالْآلِفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - على الجمع - ليوافق ما فى سورة آل عمران . فإن قلت : فيم يُعْتَدَر لمن قرأ على التوحيد ، ولم يفسر (المردفين) بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، و (المردفين) بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالآلف ، من قاتل منهم ، أو الوجوه منهم ، الذين من سواهم أتباع لهم . انتهى . وقال شمس الدين ابن القسيم فى (زاد المعاد) فى بحث غزوة بدر :

فإن قيل : ههنا ذكر أنه أمدهم بألف ، وفى سورة آل عمران قال^(٣) : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ * بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فكيف الجمع بينهما ؟

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرأ ، حديث رقم ١٨٥٥ . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرأ ، حديث رقم ١٨٥٣ . (٣) [٣ / آل عمران / ١٢٤ ، ١٢٥] .

قيل : اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف ، والذي بخمسة ، على قولين :
أحدهما : أنه كان يوم (أُحُد) ، وكان إمداداً معلقاً على شرط ، فلما فات شرطه ، فات الإمداد .
وهذا قول الضحاك ومقاتل . وإحدى الروایتين عن عكرمة .

والثاني : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرواية الأخرى عن
عكرمة واختاره جماعة من المفسرين . وحجة هؤلاء ؛ أن السياق يدل على ذلك . فإنه سبحانه قال ^(١) :
(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ
أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ * أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِمْدَادُ
وَتَتَّقُوا) إلى أن قال : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ) أي هذا الإمداد (إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُمْ بِهِ) . قال هؤلاء : فلما استغاثوا ، أمدهم بألف ، ثم أمدهم بثلاثمائة ألف ، ثم أمدهم
بثمان مائة ألف ، لما صبروا واتقوا . وكان هذا التدريج ، ومتابعة الإمداد ، أحسن موقفاً ،
وأقوى لتقويتهم وأمر لها من أن يأتي مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، ونزوله مرة
بمدرسة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق (أُحُد) وإنما أدخل ذكر (بدر) اعتراضاً في أثنائها ،
فإنه سبحانه قال ^(٢) : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
ثم قال ^(١) : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فذكره
نعمه عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ثم عاد إلى قصة (أُحُد) ، وأخبر عن قول رسوله لهم
(أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ) ثم وعدهم
أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والإمداد الذي ببدر من
قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذلك مطلق .
والقصة في سورة آل عمران ، هي قصة (أُحُد) مستوفاة مطولة ، و (بدر) ذكرت فيها اعتراضاً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٣ - ١٢٦] (٢) [٣ / آل عمران / ١٢١ و ١٢٢]

والقصة في سورة الأنفال قصة (بدر) مستوفاة مطولة ، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال . يوضح هذا أن قوله ^(١) (وَيَأْتُواكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قد قال مجاهد : هو يوم (أحد) ، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه ، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد ، والله أعلم . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ » أى هذا الإمداد « إِلَّا بُشْرَى » أى بشارة لكم بالنصر « وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ » أى من غير أن يكون فيه شركة لغيره « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » قال بعض الحكماء : ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر ، وأنه يريد بشرهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه ، وهو أدعى إلى قوة العزيمة . فإن العامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون : رفعت تلك الفكرة ، وجعلته أقوى الناس ، وأقدرهم على صعاب الأمور ، لا كما يظنه المتكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله ، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة ، فباؤا بغضب على غضب . انتهى .
ثم ذكرهم سبحانه بنعم أخرى جعلها سبباً لنصرهم ، وللعناية بهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفُوبَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)
« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ » أى يلقى عليكم النوم للأمن السائد منه تعالى ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٥] .

مما حصل لكم من الخوف من كثرة عدوكم . وقد كان أسهرهم الخوف ، فألقى تعالى عليهم النوم فأمّنوا واستراحوا . وكذلك فعل تعالى بهم يوم (أُخِذَ) ، كما قال جل ذكره ^(١) (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ) وقرى (يُغْشِيكُمْ) من الإغشاء ، بمعنى التغمية . والفاعل في الوجهين هو الله تعالى . وقرى (يَغْشَاكُمْ) على إسناد الفعل إلى النعاس . وفي الصحيح ^(٢) أن رسول الله ﷺ لما كان يوم (بدر) في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سِنَّةٌ من النوم ، ثم استيقظ متبسمًا ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل ، على ثغايه النقع . ثم خرج من باب العريش ، وهو يقولوا ^(٣) (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُّونَ الدُّبُرَ) .

ثم ذكرهم تعالى منة أخرى تدل على نصره إياهم بقوله سبحانه : « وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفَّكُمْ بِهِ » أى : من الحدث الأصفر والأكبر ، وهو تطهير الظاهر « وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيحَ الشَّيْطَانِ » أى وسوسته بأنكم على هذا الرمل لا تتمكنون من المحاربة ، ومع فقد الماء كيف تعملون ؟ فأزال تعالى بإنزاله ، ذلك . فكان لهم به طهارة باطنة ، فكملت لهم الطهارتان ، أى من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن « وَلِيَبْرِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » أى يقويها بالثقة ، بالأمن وزوال الخوف « وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » أى على الرمل . قال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر ، فأطفأ به الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ؛ وثبتت به أقدامهم .

قال الجشمي : قال القاضي : وهو أشبه بالظاهر . وقيل بالصبر وقوة القلب التي أفرغها عليهم ، حتى ثبوتوا لعدوهم . وقوله (به) يرجع إلى الماء المنزل ، أو إلى ما تقدم من البشارة والنصر . ثم أشار تعالى إلى نعمة خفية أظهرها تعالى لهم ليذكروها عليها بقوله :

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٤] (٢) لم أعتز على هذا الحديث بهذا النص ولكن وجدت حديثاً بهذا المعنى عن ابن عباس . أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٩ - باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٣) [٥٤ / القمير / ٤٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

« إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ » أى الذين أمدّ بهم المسلمين « أَنِّي مَعَكُمْ » أى بالعون والنصر .

قال الجشمى : يحتمل مع الملائكة ، إذ أرسلهم رداءً للمسلمين ، ويحتمل مع المسلمين ، كأنه قيل : أوحى إلى الملائكة أنى مع المؤمنين ، فانصروهم وثبتوهم .

وقوله تعالى : « فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بدفع الوسواس وبالقتال معهم والحضور مدداً وعاوناً « سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الخوف .

ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى : « فَأَضْرِبُوا » أمرٌ للمؤمنين أو للملائكة . وعليه ، ففيه دليل على أنهم قاتلوا « فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » أى أعلى الأعناق التى هى المذابح ، تطهيراً للرؤوس . أو أراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق « وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » أى أصابع . جمع (بنانة) قيل : المراد بالبنان ، مطلق الأطراف مجازاً ، تسمية لكل بالجزء ، لوقوعها فى مقابلة الأعناق والمقاتل . والمعنى : اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« ذَٰلِكَ » أى الضرب أو الأمر به « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى خالفوها فيما شرعا . وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » تقرير

لما قبله ، إن أريد بالعقاب ما وقع لهم في الدنيا ، أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة ، بمد ما حاق بهم في الدنيا ، وبيان لخسرانهم في الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

« ذَالِكُمْ » خطاب للكفرة على طريقة الالتفات « فَذُوقُوهُ » أى ذلك العذاب ، أيها الكفار ، في الدنيا « وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ » في الآخرة . ثم نهى تعالى عن الفرار من الزحف ، مبيناً وعيده بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاُدْبَارَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاُدْبَارَ » أى الظهور بالانهزام . و (الزحف) الجيش الكثير ، تسمية بالمصدر ، والجمع زحوف ، مثل فلس وفلوس . ويقال : زحف إليه ، أى مشى ، وزحف الصبي على استه قبل أن يقوم . شبه بزحف الصبيان مشى الجيش الكثير للقتال ، لأنه لكثرتة يرى كأنه يزحف ، أى يدب ديباً قبل التدانى للضراب أو الطعان .

قال أبو السعود : (زَحَفًا) منصوب ، إما على أنه حال من مفعول (لَقِيتُمُ) أى : زاحفين نحوكم ، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر ، هو الحال منه ، أى يزحفون زحفاً . وأما كونه حالاً من فاعله أو منه ، ومن مفعوله معاً كما قيل - فيأباه قوله تعالى (فَلَا تُولُوهُمْ الْاُدْبَارَ) إذ لا معنى لتقييد النهى عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدو ، أو بكثرتهم . بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعي إلى الإدبار عادة ، والحوج إلى النهى عنه .

وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين ، حيث تولّوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً - بعيدٌ .

والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال ، وهم كثير جمٌ ، وأنتم قليل ، فلا تولوهم أدباركم ، فضلاً عن الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم ، فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم .
قال الشهاب : عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقييحاً للانزمام ، وتفصيلاً عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ » أى يوم اللقاء « دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ » أى مائلاً له .
يقال : تحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل . وهذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء ، وإما بالفرّ للسكر ، بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليفره ، ويخرجه من بين أعوانه ، فيفرّ عنه ، ثم بكرّ عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه ، وهو باب من مكاييد الحرب « أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ » أى منضمّاً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم « فَقَدْ بَاءَ » أى رجع « بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى ما صار إليه من عذاب النار .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على وجوب مصابرة العدو ، أى الثبات عند القتال ، وتحريم الفرار منه يوم الزحف ، وعلى أنه من الكبائر . لأنه توعّد عليه وعيداً شديداً .
الثانى - ظاهر الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال ، إلا حالة التحرف أو التحيز ، وهو مروى عن ابن عباس ؛ واختاره أبو مسلم . قال الحاكم : وعليه أكثر الفقهاء .

وروى عن جماعة من السلف ؛ أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر) ، لقوله تعالى (وَمَنْ يُؤْلَمِهِمْ يَوْمَئِذٍ) وأجيب بأن الإشارة في (يَوْمَئِذٍ) إلى يوم لقاء الزحف كما يفيد السياق ، لا إلى يوم بدر .

الثالث - ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى (أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِئَةٍ) أى جماعة أخرى من المسلمين ، سوى التى هو فيها ، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت . وقد^(١) روى أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر رضى الله عنه : لو تحيز إلى لكانت له فئة . وفى رواية عنه : أيها الناس ! أنا فئتكم . وقال الضحاك : المتحيز إلى فئة ، الفار إلى النبي وأصحابه . وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه . وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال : من فرّ من سرية إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروى عند الإمام أحمد^(٢) وأبى داود^(٣) والترمذى^(٤) وغيرهم . قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فخاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع ؛ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالفضب ، ثم قلنا : لو دخلنا المدينة . فبتنا ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ! فأتينا قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا ، بل أنتم المكأرون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين ، قال : فأتينا حتى قبلنا يده . قال الترمذى : حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد - انتهى - . أى وقد تسكلم فيه غير واحد من الأئمة . قال الحاكم فى (مسألة الفرار) : إن

(١) انظر تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٢ و ٢٠٣ من الجزء التاسع والمكأرون : الكرأرون إلى الحرب . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٣٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبوداود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٩٦ - باب فى التولى يوم الزحف ، حديث ٢٦٤٧ (٤) أخرجه الترمذى فى : ٢١ - كتاب الجهاد ، ٣٧ - باب ما جاء فى الفرار من الزحف .

ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده . فإن ظن المقاومة لم يحلّ الفرار . وإن ظن الهلاك ، جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت ، إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات . وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور .

وعن الكرخي : أن الثبات والمصابرة واجب ، إذا لم يخش الاستئصال ، وعرف عدم نكايته للكفار ، والتجأ إلى مصر للمسلمين ، أو جيش ، وهكذا أطلق في (شرح الإبانة) فلم يبيح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه .

الرابع - روى عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى ^(١) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) قال الحاكم : إذا أمكن الجمع فلا نسخ وأقول : كنا أسلفنا أن السلف كثيراً ما ينفون بد (النسخ) تقييد المطلق ، أو تخصيص العام ، فلا ينافي كونها محكمة إطلاقهم للنسخ عليها . قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصابرة ، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة . لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى ^(٢) في السورة هذه : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة . لأنه خبر معناه الأمر . فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى ، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين ، فقال تعالى ^(٣) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) .

وعن ابن عباس : من فرّ من اثنين فقد فرّ ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ . وبالجملة ، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، فإن هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف .

وفي (المذهب) : إن زاد عددهم على مثلي عدد المسلمين ، جاز الفرار . لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون ، فالأفضل الثبات . وإن ظنوا الهلاك ، فوجهان : يلزم الانصراف

(١) [٨ / الأنفال / ٦٦] . (٢) [٨ / الأنفال / ٦٥] .

لقوله تعالى^(١) (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) . والثاني : يستحب ولا يجب ، لأنهم إن قُتلوا فازوا بالشهادة . وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين ، فإن لم يظنوا الهلاك ، لم يجز الفرار . وإن ظنوه فوجهان : يجوز لقوله تعالى^(١) (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ولا يجوز ، وصحوه لظاهر الآية .

ثم بين تعالى أن نصرهم يوم بدر ، مع قتلهم ، كان بحوله تعالى وقوته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ » أى بقوتكم « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » أى سبب في قتلهم بنصرتهم وخذلانهم وألقى الرعب في قلوبهم ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، وأذهب عنها الفزع والجزع « وَمَا رَمَيْتَ » أى أنت يا خاتم النبيين ، أى ما بلغت رمية الحصباء إلى وجوه المشركين « إِذْ رَمَيْتَ » أى بالحصباء ، لأن كثراً منها لا يعلأ عيون الجيش الكثير برمىة بشر « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » أى بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم . وقال أبو مسلم (في معنى الآية) : أى ما أصبت إذ رميت ، ولكن الله أصاب . والرمى لا يطلق إلا عند الإصابة ، وذلك ظاهر في أشعارهم .

وقد روى عن غير واحد ؛ أنها نزلت^(٢) في شأن القبض من التراب التي حصب بها النبي ﷺ وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش ، بعد دعائه ونصره واستكانته . فرماهم بها وقال (شاهد الوجوه) . ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أهين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، وأهزموا .

تنبيه :

قال الجسـمى : تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعوته

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] .

(٢) انظر تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٥ من الجزء التاسع .

وتمكينه . إذ معلوم أنهم قتلوا ، وأنه رمى ، ولذلك قال (إِذْ رَمَيْتَ) ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتية غلامه . وتدل على أن الإضافة بالعمونة والأمر ، صارت أقوى ، فلذلك قال (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) .

وقال في (العناية) : استدلل بهذه الآية والتي قبلها على أن أفعال العباد بخلقه تعالى ، حيث نفي القتل والرمي . والمعنى : إذ رميت أو باشرت صرف الآلات . والحاصل : ما رميت خلقاً إذ رميت كسباً . وأورد عليه أن المدعى ، وإن كان حقاً ، لكن لادلالة الآية عليه ، لأن التعارض بين النفي والإثبات الذي يترأى في بادئ النظر ، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع العيون ، وإن رميت حقيقة وصورة ، وهذا مراد من قال : (ما رميت حقيقة ، إذ رميت صورة) فالنفي هو الرمي الكامل ، والمثبت أصله ، وقدر منه . فالإثبات والنفي لم يردا على شيء واحد ، حتى يقال : (النفي على وجه الخلق ، والمثبت على وجه المباشرة) ولو كان المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها ، الذي هو سبب النزول ، من أنه أثبت له الرمي ، لصدوره عنه ، ونفي عنه ، لأن أثره ليس في طاقة البشر ، ولذا عدت معجزة له ، حتى كأنه لا مدخل له فيها أصلاً . فبني الكلام على المبالغة ، ولا يلزم منه عدم مطابقته للواقع ، لأن معناه الحقيقي غير مقصود . هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام ، إذ لو كان المراد ما ذكر ، لم يكن مخصوصاً بهذا الرمي ، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله . انتهى .

وهذا التحقيق جيد ، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) حيث قال : وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفي الفعل عن العبد وإثباته لله ، وأنه هو الفاعل حقيقة ، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة ، مذكورة في غير هذا الموضع . ومعنى الآية : أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ، ونفي عنه الإيصال الذي لم يحصل برمييه ، فالرمي يراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفي عنه الإيصال . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ » أى ليمنحهم من فضله « بَلَاءٌ حَسَنًا »

أى منحاً جميلاً ، بالنصر والغنيمة والفتح ، ثم بالأجر والثوبة ، غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره ، فيمروا حقه ويشكروه .

قال أبو السمود : واللام ، إما متعلقة بمحذوف متأخر ، فالواو اعتراضية ، أى وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة ، فعل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك ، مما لا يجديهم نفعاً . وإما ، برى ، فالواو للعطف على علة محذوفة ، أى ولكن الله رى ليمحق الكافرين وليبلى ... الخ . وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو ما اختاره المحققون من قولهم : (أبلاء الله ببليمة إبلاء حسناً) إذا صنع به صنعةً جميلاً ، وأبلاء معروفًا ، قال زهير (فى قصيدته التى مطلعها .

صحا القلبُ عن سَلَمَى وقد كادَ لَا يَسْلُو وأقفر من سَلَمَى التَّعَانِيقُ والثَّقْلُ
والتَّعَانِيقُ والثَّقْلُ : مواضع) :

جزى الله بالإحسان ما فعلًا بكم وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو
(أى إحسان فعلهما بكم . فأبلاهما خير البلاء ، أى صنع الله إليهما خير الصنيع الذى يتبلى به عباده . والإنسان يبلى بالخير والشر) أى صنع بهما خير الصنيع الذى يبلى به عباده . واستظهر الطيبي تفسيره بالإبلاء فى الحرب بدليل ما بعده . قال ابن الأعرابي : يقال : أبلى فلان إذا اجتهد فى صفة حرب أو كرم . ويقال : أبلى ذلك اليوم بلاء حسناً .
« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » أى لدعائهم واستغاثتهم « عَلِيمٌ » أى بمن يستحق النصر والقلب وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمى . ومحله الرفع . أى المقصود أو الأمر (ذلكم) . وقوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » معطوف عليه . أى

مضمف بأس الكافرين وحيالهم بنصر كم وخذلانهم ، أى أن المقصود إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين .

قال ابن كثير : هذه بشارة أخرى . مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضمف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنه فى تبار ودمار . أى : وقد وجد المخبر على وفق الخبر ، فصار معجزة للنبي ﷺ ، ولله الحمد والمنة .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِيتْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ » خطاب للمشركين ، أى إن تطلبوا الفتح ، أى القضاء وأن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم القضاء بما سأتم .
روى الإمام أحمد^(١) والنسائى والحاكم ، وصححه ، عن عبد الله بن ثعلبة . أن أباجهل قال ، حين التقى القوم : اللهم ! أقطمنا للرحيم . وآتانا بما لا نعرفه ، فَأَجِنَهُ - أى فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح .

وعن السدى^(٢) : أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر : أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا : اللهم ؟ انصر أعزّ الجندين ، وأكرمّ الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا . . .) الآية .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن هذه الآية إخبار عنهم بما قالوا (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٣١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) انظر تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء التاسع .

هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ...) الآية - قيل : في هذا الخطاب تهكم بهم ، يعنى في قوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) لأن الذى جاءهم الهلاك والذلة . كذا في (العناية) . وهو مبنى على أن الفتح بمعنى النصر ، وله معنى آخر وهو الحكم بين الخصمين والقضاء . وبهما فسر الآية أيضاً . « وَإِنْ تَنْتَهُوا » أى عن الكفر وعداوة الرسول « فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى في الدنيا والآخرة « وَإِنْ تَعُودُوا » أى لمحاربة الرسول « نَعُدْ » أى لنصره عليكم « وَلَنْ تُغْنِيَ » أى تدفع « عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ » شيئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصر . قرئ بكسر (إن) استئنافاً ، وفتحها ، على تقدير اللام .

تنبيه :

جَوُزُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) لِلْمُؤْمِنِينَ ، أى إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم ، فقد حصل لكم ذلك ، فاشكروا ربكم ، والزموا طاعته . وقوله تعالى (إِنْ تَنْتَهُوا) أى عن المنازعة في أمر الأنفال ، وعن طلب الفداء على الأسرى الذى عوتبوا عليه بقوله تعالى ^(١) (لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ) ، فقال تعالى : وَإِنْ تَلْتَهُوا - عن مثله - فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِعَاتِ نَعْدُ عَلَيْكُمْ بِالْإِنْكَارِ ، وَتَهْمِيحِ الْعُدُوِّ ؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة ، وترك المخالفة ، ثم لا تنفكم الفئة والكثرة ، إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فإنه مع الكاملين في إيمانهم . وهذا الوجه قرره الرازى ونقله عن القاضى .

قال البيضاوى : ويؤكد هذه الآية بعدد ؛ فإن المراد بها الأمر بطاعة الرسول ؛ والنهي عن الإعراض عنه ؛ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ تَحْتَهُ) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ » أى تعرضوا عنه

بمخالفة أمره « وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » أى القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواظب الزاجرة عن مخالفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا » أى ادعوا السماع « وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى سماع تدبر وانماط ، وهم المنافقون أو الشركون . فالنفي سماع خاص ، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم . وقيل : السماع مجاز عن التصديق .

قال الزمخشري : والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور ، من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كلاً تصديقاً ، وأشبه سماعكم سماعاً من لا يؤمن .

ثم بين تعالى سوء حال المشبه بهم ، بمبالغة في التحذير ، وتقريراً للنهي ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ » أى ما يدب على الأرض ، أو شر البهائم « عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ » أى عن سماع الحق « الضُّمُّ » أى عن النطق به « الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى لا يفهمونه . جعلهم تعالى من جنس البهائم ، لصرفهم جوارحهم عما خلقت له ، ثم جعلهم شرّاً لأنهم

عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفي ذكرهم في معرض التشبيه، بهذا الأسلوب، غاية في الذم . وقد كثر ، في التنزيل ، تشبيه الكافرين بنحو هذا ، كقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ) وقال تعالى ^(١) (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) ^(٢) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)
 « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ » أى فى هؤلاء الصم البكم « خَيْرًا » صدقاً ورغبة
 « لَأَسْمَعَهُمْ » أى الحجج والوعاظ ، سماع تفهم وتدبر ، أى لجعلهم سامعين حتى يسمعوا
 سماع المصدقين . أى ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك ، فخلوهم عنه بالرة ، فلم يسمعهم
 كذلك ، فخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة ، وإليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
 لَتَوَلَّوْا) أى : ولو أسمعهم سماع تفهم ، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالسكية ، لتولوا
 عما سمعوه من الحق « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن قبوله ججوداً وعناداً . قال الرازى : كل
 ما كان حاصلاً ؛ فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده ، من لوازم عدمه ، فلا جرم
 حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده .

تنبيه :

قد يتوهم أن الشرطيتين فى الآية مقدمتا قياس اقترانى . هكذا : لو علم فيهم خيراً
 لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا . ينتج : لو علم فيهم خيراً لتولوا . وفساده يتن . وأجيب :
 بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية ، وهو ممنوع . واعتراض بأن هذا المنع ،
 وإن صح فى قانون النظر ، إلا أنه خطأ فى تفسير الآية ، لا بتناؤه على أن المذكور قياس مفقود

(١) [٢ / البقرة / ١٧١] . (١) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

شرائط الإنتاج ، ولا مساع لحمل كلام الله عليه . وأجيب : بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياس ، لا انتفاء شرط ، لا أنه قياس فقد شرطه . كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً ، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد الأولى ، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع ، لعدم الخيرية فيهم ، ولو وقع الإسماع ، لا تحصل الخيرية فيهم ، لعدم قابلية المحل . كذا في (العناية) . وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطياً ، متحد الوسط ، صحيح الإنتاج ، بتقدير : لو علم فيهم خيراً في وقت ، لتولوا بعده .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَخْشَرُونَ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »
الاستجابة : بمعنى الإجابة . قال :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الدَّاعِ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
(يريد : فلم يجبه . وقائله كعب بن سعد الغنوي . والقصيدة في الأصمعيات رقم ١٤) .
والمراد بها الطاعة والامتثال . وإنما وحّد الضمير في قوله (دَعَاكُمْ) - أي الرسول -
لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى .

وقال الزمخشري : لأن استجابته ﷺ ، كاستجابته تعالى ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر
للتوكيد . وقوله (لِمَا يُحْيِيكُمْ) ، قال عروة بن الزبير - فيما رواه ابن إسحق - أي للحرب
التي أعزكم الله تعالى بها بعد النذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر
منهم لكم . وإنما سمي الجهاد حياة ، لأن في وهن عدوهم بسببه حياة لهم وقوة ، أو لأنه
سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة ،

كما قال تعالى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ)^(١) أى الحياة الدائمة ، فيكون مجازاً مرسلًا ، بإطلاق السبب على المسبب ، أو استعارة . وقيل : (لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى من العلوم الدينية التى هى مناط حياة القلب ، كما أن الجهل موته .

قال الشهاب : وإطلاق الحياة على العلم ، والموت على الجهل ، استعارة معروفة ، ذكرها الأدباء ، وأهل المعاني . وأنشد الزمخشري لبعضهم :

لا تمجنن الجهول خلته فذاك ميت ، وثوبه كفن

وقد ألم فيه بقول أبى الطيب ، من قصيدته التى أولها :

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

ومنها :

لا تمجنن مضيا حسن بزته وهل تروق دفيناً جودة الكفن

والأظهر أن يُعنى بـ (ما يحييكم) ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة . فيدخل فيه ما تقدم وغيره .

تنبيه :

استدل النبي ﷺ بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو فى الصلاة . روى البخارى^(٢) عن أبى سعيد بن المولى رضى الله عنه قال : كنت أصلى ، فقرأ فى النبى ﷺ ، فدعانى ، فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا . .) الآية .

وقوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » يحتمل وجوهاً من المعانى .

(١) [٢٩ / المنكوت / ٦٤] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ،

٨ - سورة الأنفال ، ٢ - باب : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِمَا يُحْيِيكُمْ ، حديث رقم ١٩٦١ .

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء ، فيحول بينه وبين الكفر ، إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان ، إن أراد ضلّالته . وهذا المعنى رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس ، وصححه ، وقاله غير واحد من السلف . ويؤيده ما روى ؛ أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك . فقيل : يا رسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى ، يقلبها - رواه الإمام أحمد ^(١) والترمذي ^(٢) عن أنس - ولفظ مسلم ^(٣) : إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم ! مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك - انفرد مسلم عن البخاري بإخراجه عن عبد الله بن عمرو - . وفي رواية : إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ، فإذا شاء أزاعه ، وإذا شاء أقامه - رواه الإمام أحمد ^(٤) عن عائشة - . وروى أيضاً مثله عن جابر وبلال والنوّاس ^(٥) بن سمان وأم سلمة ، كما ساقه ابن كثير . وعلى هذا المعنى ، فالآية استعارة تمثيلية ، لتمكنه من قلوب العباد ، فيصرفها كيف يشاء ، بما لا يقدر عليه صاحبها . شبه بمن حال بين شخص ومتاعه ، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه .

ثانيها : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة ، قبل حلول المنية . فغنى (يحول بينه وبين قلبه) يعيته ففقوته الفرصة التي هو واجدها ، وهي التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، وردّه سليماً ، كما يريد الله ، فاعتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله . فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه ، الذي به يعقل ، في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .

- (١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١١٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
- (٢) أخرجه الترمذي في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن .
- (٣) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .
- (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .
- (٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ثالثها : أنه مجاز عن غاية القرب من العبد ، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر . و (يحول) إما استعارة تبعية معناه يقرب . أو استعارة تمثيلية . وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال : الآية كقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ^(١) وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع ، من مكنونات القلوب ، على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها .

« وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى فيجزىكم بأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » الفتنة : إما بمعنى الذنب ، كإقرار المنكر ، واقتراق الكلمة والتكاسل فى الجهاد وإما بمعنى المذاب . فإن أريد الذنب فأصابته بإصابة أثره . وإن أريد المذاب ، فأصابته بنفسه . و (لَا تُصِيبَنَّ) جواب للأمر ، أى : إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم ، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم ، وتمدى رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) ^(٢) . قاله القاشانى .

وقد روى الإمام أحمد ^(٣) عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يفيروه ، إلا عمهم الله بعقاب . وروى نحوه عن عدى بن عميرة وحذيفة والتمان وعائشة وأم سلمة .

(١) [٥٠ / ق ١٦] . (٢) [٣٠ / الروم ٤١] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قال السكرخي : ولا يستشكل هذا بقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (١) ، لأن الناس ، إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيره ، إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة . هذا بفعله ، وهذا برضاه . وقد جعل تعالى ، بحكمته ، الراضى بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة . انتهى .

وذكر القسطلاني أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده ، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر ، فتممه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار . انتهى .

وعن ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم ، فيمهمهم الله بالعذاب . « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أي لن يخالف أوامره .

ثم نبه تعالى عباده المؤمنين السابقين الأولين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثروا ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، ورزقهم من الطيبات ، ليشكروهم بدوام الطاعة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

« وَاذْكُرُوا » أي يا معشر المهاجرين « إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » أي في العدد « مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » أي مقهورون في أرض مكة قبل الهجرة ، تستضعفكم قريش « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » أي أهل مكة . و (تخطفه) و (اختطفه) بمعنى استلبه وأخذه

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٤] و [١٧ / الإسراء / ١٥] و [٣٩ / الزمر / ٧] .

بسرعة « فَأَوَّاكُم » أى إلى المدينة « وَأَيَّدَكُمُ بِنَصْرِهِ » يعنى أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره ، وذلك بمظاهرة الأنصار ، وإمداد الملائكة ، والتثبيت الربانى « وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى الفنائم لأنها لم تطب إلا لهم « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى المولى على ما تفضل به وأولى . وما ذكرنا من كون الخطاب فى الآية للمهاجرين خاصة ، هو أنسب بالمقام والسياق والسياق يشمر به . وقيل : الخطاب للعرب كافة ، وعليه قول قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى هذه الآية : كان هذا الحى من العرب أذل الناس وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعرهأ جلوداً ، وأثبته ضللاً . والله ! ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أثر منزلاً منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فسكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله . انتهى .

وأقول : الأمر فى العرب ، وإن كان كما ذكر ، لكن فى تنزيل بمض ألفاظ الآية عليه تسكف لا يخفى فالظاهر ما ذكرنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » لما ذكرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليذكروه ، وكان من شكره الوقوف عند حدوده ، بين لهم ما يحذر منها ، وهو الخيانة . ويدخل فى خيانة الله تعطيل فرائضه ، ومجاوزة حدوده . وفى خيانة رسوله رفض سنته ، وإفشاء سره للمشركين . وفى خيانة أماناتهم الغلول فى المغانم ، أى السرقة منها ، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر ، وكل ما تعبدوا به .

وقد روى في نزول الآية شيء مما ذكرنا . ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره . ومن ذلك ^(١) ما رواه سعيد بن منصور عن عبد الله بن أبي قتادة قال : نزلت في أبي لبابة حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد ، فاستشار قريظة من أبي لبابة في النزول على حكم سعد ، وكان أهل أبي لبابة وأمواله فيهم ، فأشار إلى حلقه - أنه الذبح - قال أبو لبابة : ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله ، ثم حلف ألا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه . وانطلق إلى المسجد ، فربط نفسه بسارية ، فكث أياماً ، حتى كان يخرّ مغشياً عليه من الجهد ، ثم أنزل الله توبته ، وحلف لا يحله إلا رسول صلى الله عليه وسلم بيده ، فحله ، فقال ^(٢) : يا رسول الله ! إنني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة ، فقال : يجزيك الثلث أن تصدق به .

قال بعض المفسرين : دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية ، وإتباع النفس وتوبيخها ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أبي لبابة . ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة ، لأنه عليه السلام قال : يجزيك ثلث مالك ، وهذا سبيل قوله ^(٣) في هود (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) .

وفي قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره ، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله .

قال الرازي : ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبه تعالى على أنه يجب على الماقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال :

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦٨٦ و ٦٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٢٤٦ ، ٢٤٧ و ٢٤٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) انظر موطأ مالك : ٢٢ - كتاب النذور والأيمان ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود ١١٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أى محنة من الله ليميلوكم ، هل تقعون بهما فى الخيانة ، أو تتركون لها الاستجابة لله ورسوله ، أو لاتملون بهما عن ذكره ، ولا تعاضون بهما منه . فسموا (فتنه) اعتبارا بما يقال الإنسان من الاختبار بهما . ويجوز أن يراد (بالفتنة) الإثم أو العذاب ، فإنهم سبب الوقوع فى ذلك .

قال الحاكم : قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكير فى أحوالهما وزوالهما ، وقلة الانتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصى الله بسببهما .

وقوله تعالى : « وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لن آثر رضاه على جمع المال وحب الولد ، فلم يورط نفسه من أجلهما . وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع الترهيب الشديد فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ^(١) قيل : هذه الآية من جملة ما نزل فى أبى لبابة ، وما فرط منه لأجل ماله وولده .

ولما حذر تعالى ، فيه تقدم ، عن الفتنة بالأموال والأولاد ، بشر من انتقام فى الافتتان بهما ، وفى غيره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ »

(١) [٦٣ / المنافقون / ٩] .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» قال المهاييمى : أشار تعالى إلى أن من ترك الخيانة ، واستجاب لله ، فلا يخاف على أهله وماله وعرضه ، أى كما خاف أبو لبابة . فإن من اتقاء تعالى فلا يجترئ أحد على أهله وحوزته ، لأنه يؤتى فرقاناً يفارق به سائر الناس من المهابة والإعزاز . انتهى .

وقيل : « فرقاناً » أى نصراً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حظه ، والإسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ^(١) . وقيل : بياناً وظهوراً يشهر أمركم ، ويثبت صيغكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى طلع الفجر . وقيل : فصلاً بين الحق والباطل ، ومخرجاً من الشبهات . كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ^(٢) . والفرقان (كالفرق) ، مصدر (فرّق) ، أى فصل بين الشيئين ، سواء كان بما يدركه البصر ، أو بما تدركه البصيرة . إلا أن الفرقان أباح ، لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ،

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » لما ذكر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى :

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

(وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ) ذكر نبيه ﷺ نعمته عليه خاصة ، في حفظه من مكر قريش^(١) به ليشكره تعالى في نجاته من مكرهم ، واستيلائه عليهم . وذلك أن قريشاً ، لما أسلمت الأنصار ، وأخذ نور الإسلام في الانتشار ، فرقوا أن يتفاهم أمره ، فاجتمعوا في دار الندوة (وهي دار بناها قصي بن كلاب ليصلح فيها بين قريش . ثم صارت لمشاورتهم . وهي الآن مقام الحنفى . والندوة الجماعة من القوم ، وندا بالمكان اجتمع فيه ، ومنه النادى) ليتشاوروا في أمره صلى الله عليه وسلم . فقال أبو البختري بن هشام : رأي أن تحبسوه في بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا بابه ، غير كوة ، تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتربصوا به ريب المنون . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (لِيُثْبِتُوكَ) أى ليحبسوك ويوثقوك ، لأن كل من حبس شيئاً وربطه فقد جعله ثابتاً لا يقدر على الحركة منه . ثم اعترض هذا الراى شيخ نجدى دخل معهم ، فقال : بئس الراى ! يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم ! ثم قال هشام بن عمرو : رأي أن تحملوه على جمل ، وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحم . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (أَوْ يُخْرِجُوكَ) ، يعنى من مكة ، ثم اعترض النجدى أيضاً بقوله : بئس الراى ! يفسد قوماً غيركم ، ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل - لعنه الله - : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتمطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . وهذا ما ذكره تعالى بقوله : (أَوْ يَقْتُلُوكَ) . ثم قال النجدى اللعين : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً . فتفرقوا على رأى أبى جهل ، مجمين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ : وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن الله له في الهجرة . فأمر علياً ، فقام في مضجعه ، وقال له : انشع يبردى ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحات رقم ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ (طبعة جونتجن) والصفحات رقم ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

فإنه لن يخلص إليك أمر تسكره . ثم خرج ﷺ ، وأخذ قبضة من تراب ، فأخذ الله بأبصارهم عنه ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ : (يَسْ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ) إلى قوله (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)^(١) ومضى مع أبي بكر إلى الغار ، وبات المشركون يحرسون علياً ، يحسبون أنه النبي . فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه ، فراوا علياً ، فقالوا : أين صاحبك ؟ فقال : لا أدري ! فاتبعوا ، أثره فلما بلغوا الغار ، رأوا نسج العنكبوت على بابه ، فقالوا : لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر . وخيب الله سعيهم ، وأبطل مكرهم . ثم مكث ﷺ فيه ثلاثاً ، ثم خرج إلى المدينة .

روى ذلك عن ابن عباس من طرق عند ابن إسحاق والإمام أحمد والحاكم والبيهقي - دخلت روايات بعضهم في بعض - .

وقوله تعالى (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) أى يدبر ما يبطل مكرهم . وقوله : (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أى أعظمهم تأثيراً ، قاله المهايى وأفاد أيضاً في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها ؛ أن هذه تشير إلى أن المتقى كما يجمل الله له فرقاناً يمنع من الاجترار على أهله وماله وعرضه ظاهراً ، يحفظه من مكر من مكر به ، بل يمكر له على ما كره . انتهى .

ثم أخبر تعالى عن كفر قريش وعتوتهم وتغدهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا » أى مثل هذا « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا » أى التلو . وهذا غاية المسكارة ، ونهاية العناد . كيف لا ؟ ولو استقطاعوا شيئاً من ذلك ،

فما الذى كان يمنعهم من المشيئة ، وقد تُحدّثوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله ، وقرّعوا على العجز ، وذافوا من ذلك الأمرين ، ثم قورعوا بالسيف ، فلم يعارضوا سواه ، مع فرط أنفهم ، واستنكافهم أن يغلبوا ، خصوصاً فى باب البيان الذى هم فرسانه ، المالكون لأزمته ، وغاية ابتهاجهم به .

وقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سيطروه وكتبوه من القصص . قيل : (أساطير) لا واحد له ، وقيل : هو جمع أسطر وسطور وأسطار ، جموع سطر ، بسكون الطاء وفتحها ، فهو جمع الجمع . وقيل : هو جمع أسطورة ، كأحدثة وأحاديث . والأصل فى السطر الخط والكتابة . يقال : سطر : كتب ، ويطلق على الصف من الشئ كالكتاب والشجر . كذا فى القاموس وشرحه .

وقد روى أن قائل هذا . النضر بن الحارث من كلدية ، وأنه كان ذهب إلى بلاد فارس ، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار ، ولما قدم ووجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس ما قصه تعالى من أحاديث القرون . قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، فزعم أنه مثل ما تلقفه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من متلفاته ، ثم يقول : بالله ! أبنا أحسن قصصاً ، أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر ، وأمره المقداد ، ثم أمر ﷺ به ، فضربت عنقه . وإسناده قوله إلى الجميع ، إما لرضا الباقيين به أو لأن قائله كبير متبع . وقد كان اللعين قاصتهم الذى يعلمهم الباطل ويقودهم إليه ، ويفرهم بمثل هذه الجمعية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا

مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ

أَوْ اثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» هذا أسلوب من الجحود بليغ ، لأنهم عدوا حقية القرآن محالاً ، فلذا علقوا عليه طلب العذاب الذى لا يطلبه عاقل ، ولو كان ممكناً لفرّوا من تعليقه عليه . والمعنى ، إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل ، كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . وفى إطلاقهم (الحق) عليه ، وجعله من عند الله تهكم بمن يقول ذلك من النبي أو المؤمنين . وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً على الوجه ، بدعيه ﷺ ، وهو تنزيهه ، لا الحق مطلقاً ، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع ، غير منزل ، كالأساطير . فالتعريف للعهد . و(أَمْطِرُ) استعارة أو مجاز لـ (أَنْزِلُ) قال الزمخشري : وقد كثر الإمطار فى معنى العذاب . فإن قلت : ما فائدة قوله (من السماء) ، والإمطار لا يسكون إلا منها ؟ قلت : كأنه أريد أن يقال : فأمطر علينا السجّيل ، وهى الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) ، موضع (السجّيل) كما تقول : صبّ عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً . وقوله (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى سوى الإمطار المذكور ، أو من عطف العام على الخاص . وعن معاوية ، أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قوى قومك ! قالوا رسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . أى الذى هو الأصلح لهم ، ولكن لشدة جهلهم وعتوم وعنادهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا تقديم العقوبة ، كقوله تعالى (١) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (وَقَالُوا) (٢) رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) وقوله (٣) : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال (٤) قوم شعيب له : (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص / ١٦] .

(٣) [٧٠ / المارج / ١ - ٣] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

وعن عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أن قائل ذلك النضر بن الحارث ، صاحب القول السالف . قال عطاء : لقد أزل في النضر بضع عشرة آية ، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر . وروى البخاري^(١) عن أنس أن قائل ذلك أبو جهل .

وروى ابن مردويه عن بريدة قال : رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاحسف بي وبفرسى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » بيان للموجب لإمهالهم ، وعدم إجابة دعائهم . واللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم ، والنبي بين أظهرهم ، غير مستقيم في الحكمة ، لأن سنته تعالى ، وقضية حكمته ، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من كان فيه . وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم . وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ذكروا فيه ثلاثة أوجه : الأول - أن المراد استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين . قال الطيبي : وهذا الوجه أبلغ ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٣ - باب قوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِمَذَابٍ أَلِيمٍ ، حديث ٢٠٠٧ .

والثاني - أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة ، وقولهم : (غفرانك) في طوافهم بالبيت ، كما رواه ابن أبي حاتم ، فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه ، ولو من الكفرة .

والثالث أن المراد بالاستغفار التوبة ، والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره ، فيكون القيد منفيًا في هذا ، ثابتًا في الوجهين الأولين .

قال القاشاني : العذاب سورة الغضب وآثره ، فلا يكون إلا من غضب النبي ، أو من غضب الله المسبب من ذنوب الأمة . والنبي عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة ، لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)^(١) ولهذا لما كسروا ربايعيته قال (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا عَلَى الْأَرْضِ مِن الْكَافِرِينَ دَبَّارًا)^(٢) فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب ، وكذا وجود الاستغفار ، فإن السبب الأولي للعذاب لما كان وجود الذنب ، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته ، بل يوجب زواله ، فلا يتسبب لغضب الله ، فما دام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون . انتهى .

روى الترمذي^(٣) عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : أنزل الله على أمانين لأمتي (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ . . .) الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد^(٤) والحاكم وصححه ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إن إبليس قال لربه : بمزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بني آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال الله : فبمزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] . (٣) أخرجه الترمذي

في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٤ - باب حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وروى الإمام أحمد^(١) عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال : العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل .

ثم بين تعالى أنهم أهل للعذاب لولا المانع المتقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى وأى شىء لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، وحالهم الصد عن المسجد الحرام ، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية . ومن صدهم عنه إلقاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة .

قال القاشانى : أى ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم ، بل إنهم مستحقون بذواتهم ، لصدودهم ، وصددهم المستعدين ، وعدم بقاء الخيرية فيهم . ولكن يمنه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم . ثم قال : واعلم أن الوجود الإمكانى يتبع الخير القابل ، لأن الوجود الواجبى هو الخير المحض . فما رجع خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية ، وإذا غلب الشر لم تبق المناسبة ، فلزم استئصاله وإعدامه . فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً ، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب . وأما إذا تفرقوا فما بقى إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم ، كما وقع فى وقعة بدر . ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثانى فى قوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)^(٢) لنفلة الشرع على المجموع حينئذ . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » رد لما كانوا يقولون : نحن ولاية البيت والحرم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٥] .

نَصَدَّ مِنْ نِشَاءٍ ، وَنَدَخَلَ مِنْ نِشَاءٍ . أَيْ مَا كَانُوا مُسْتَحْقِينَ وَلَايَةِ أَمْرِهِ ، لِشُرَكَاهُمْ « إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » أَيْ مِنَ الشَّرِكِ ، فَلَهُمْ أَنْ يَصْدُوا الْمُفْسِدِينَ « وَآكِنَّا أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أَيْ أَنَّهُمْ لَا وَلَايَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً » أَيْ تَصْفِيراً « وَتَصَدِيَةً » أَيْ تَصْفِيقاً بِالْأَكْفِ .

روى ابن أبى حاتم أن ابن عمر رضى الله عنهما حكى فعلمهم ، فصفر ، وأمال خده ، وصفق بيديه .

وعن ابن عمر أيضاً قال : إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفقون . وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، يصفرون ويصفقون .

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلواته . وقال الزهرى : يستهزئون بالمؤمنين .

وهذه الجملة إما معطوفة على (وَهُمْ يَصُدُّونَ) ، فيكون لتقرير استحقاقهم للعذاب ، أو على قوله (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) ، فيكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحوه من قوله (أَيْ الْفِرْزْدَقِ) :

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أَدَاهِمَ سَوْدًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمْرًا

والمنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء . ووضعوا المكاء والتصديّة موضع الصلاة .

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون . وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته ، يخلطون عليه . ما كنت أخشى ، أى : ما كنت أعلم . وأدام : جمع (آدم) وهو الأسود من الحيات . والعرب تذكر (الأدم) وتريد به (القيد) كما فى قصة القبعثرى . والمدرجة : السياط . انتهى . « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » أى اعتقاداً وعملاً ، وفيه إشعار بأن هذا الفعل المبطل لحرمة البيت ، كفر ، للإستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها . والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، كما قاله غير واحد من الساف ، واختاره ابن جرير .
تنبيه :

قال ابن القيم فى (إغاثة اللامهان) : المتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق ، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة ، أشباه هؤلاء المشركين . قال ابن عرفة وابن الأنبارى : المساء والتصدية ليسا بصلاة ، ولكن الله تعالى . أخبر أنهم جعلوا ، مكان الصلاة التى أمروا بها ، المساء والتصدية . فالزمهم ذلك عظيم الأوزار . وهذا كقولك : زرتك فجعل جفائى صلى ، أى أقام الجفاء مقام الصلة . والمقصود أن الصفيق والصفارين فى براع أو مزمار ، ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم ، بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم . والله سبحانه لم يشرع التصفيق^(١) للرجال وقت الحاجة إليه فى الصلاة إذا نابههم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء . فكيف إذا فعلوه ، لا حاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصى قولاً وفعلًا . انتهى .

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذى رواه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ٤٨ - باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول ، فتأخر الآخر أو لم يتأخر جازت صلاته ، والحديث رقم ٤٢٩ عن سهل بن سعد الساعدى وهو حديث طويل ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم « من رابه شئ فى صلاته فليسبح . فإنه إذا سبَح التفت إليه . وإنما التصفيق للنساء » .

وقال قبله : ومن مكائد عدو الله ومصايدہ التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصدّ القلوب عن القرآن ، ويجملها عاكفة على الفسوق والمصيان .

وقال شيخه تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى ، في بعض فتاويه : وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك ، ديناً وطريقاً إلى الله وقربة ، فهذا ليس من دين الإسلام ، وليس مما شرعه لهم نبيهم محمد ﷺ ، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحسّن ذلك أحد من أئمة المسلمين . بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أصحابه ، ولا تابعيهم بإحسان ، ولا تابعي التابعين . بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع ، وإنما ابقدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة ، ولهذا قال الشافعي - لا رأى ذلك - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل عنه أحمد فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل ، أتجلس معهم ؟ قال : لا ! وكذلك كرهه سائر أئمة الدين ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه . فلم يحضره مثل إبراهيم بن آدم ، ولا الفضيل ابن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا أبو سليمان الداراني ولا أحمد بن أبي الحواري ، ولا السري السقطي ، وأمثالهم . والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين ، تركوه في آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر ، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ : وما ذكره الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه من إحداث الزنادقة ، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام . فإن هذا السماع لم يرغب فيه ، ويدعو إليه في الأصل ، إلا من هو متهم بالزندقة ، كابن الراوندي والفارابي وابن سينا وأمثالهم .

ثم قال رحمه الله : نعم ! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة ، ومن له نصيب في المحبة ، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا منبته . كما دخل قوم من الفقهاء في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته . ولا عرفوا منبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة لا يستقل به أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة .

ثم قال رحمه الله : ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ، ومعارفها وأذواقها ، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة ، إلا وفي ضمن ذلك من المفسدة ما هو أعظم منه . فهو للروح ، كالطمر للجسد ، يفعل في النفوس ، أعظم ما تفعله حياً الكؤوس .

ثم قال : وبالجمله فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة ، إلا وقد حدث به ، ولا شيئاً يبعد عن النار ، إلا وقد حدث به . وإن هذا السماع ، لو كان مصلحة ، لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (١) الآية . وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، لم يلتفت إليه . كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة ، لم يلتفت إليه انتهى . وقد سلف لنا شيء من هذا البحث عند قوله تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (٢) فليراجع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ

(١) [٥/ المائدة/ ٣] . (٢) انظر الصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الثاني من هذا التفسير .

تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » نزلت فيمن ينفق على حرب النبي ﷺ من المشركين ، وبيان سوء مغبة هذا الإنفاق . وقد ذهب الضحاك إلى أنه عني بها المطعمون منهم يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم عشرة جزر .

وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي سفيان ، ونفقته الأموال في (أُحُد) لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى ^(١) محمد بن إسحاق عن الزهري أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان يَمِيرُهُ ، مشى رجال من قريش أصيب آبؤهم وأبناءؤهم وإخوانهم ببدر ، فسلكوا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربته ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ، ففعلوا . قال : ففيهم ، كما ذكر عن ابن عباس ، أنزلت الآية .

ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك . واللام في (ليصدوا) لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعميل ، لأن غرضهم الصد عما هو سبيل الله بحسب الواقع ، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم . وسبيل الله طريقه وهو دينه ، واتباع رسوله . ولما تضمن الوصول معنى الشرط ، والخبر بمنزلة الجزاء ، وهو (فَسَيُنْفِقُونَهَا) اقترن بالفاء . و (ينفقون) إما حال ، أو بدل من (كفروا) وفي تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار ، التوبيخ على الإنفاق ، والإنكار عليه ، كما في قوله : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) ^(٢) . وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، الدلالة على كمال سوء الإنفاق ، كما في قوله ^(٣) : (إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ) وقولهم ^(٤) : من أدرك الصَّامَانَ فقد أدرك المرعى . والمعنى : الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله ، والصدّة عن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، سيمهلون عن قريب سوء

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٥ و ٥٥٦ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٦٤ وما بعدها من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (٤) الصمان : أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة ورياض ممشبة . وإذا أخضبت رعت العرب جميعها .

مغبة ذلك الإنفاق ، وانقلابه إلى أشد الخسران ، من القتل والأسر في الدنيا ، والنكال في
المعقبى : قال المغنبي :

إذا الجودُ لم يُرزَقْ خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المالُ باقياً
(والأذى هنا النّ)

وفي جمل ذات الأموال تصير (حسرة) أى ندماً وتأسفاً - وهى عاقبة أمرها - مبالغة .
والمراد بالغلبة فى قوله : (ثم يغلبون) الغلبة التى استقر عليها الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم
سجالاً قبل ذلك . فإن قلت : غلبة المسلمين متقدمة على تحسّرهم ، بالزمان ، فلم أخرت بالذّكر ؟
قلت : المراد أنهم يغلبون فى مواطن آخر بعد ذلك . كذا فى (العناية) .

تنبيه :

قال بعضهم ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية الله تعالى ، وأن الإنفاق فى ذلك معصية ،
فيدخل فى هذا معاونة الظلمة على حركاتهم فى البنى والظلم ، وكذلك بيع السلاح والكراع ،
من يستعين بذلك على حرب المسلمين .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ

فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح ،
واللام متعلقة بـ (يخشرون) أو (يغلبون) . أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله ﷺ ،
مما أنفقه المسلمون فى نصرته ، واللام متعلقة بقوله (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) « وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ » أى : فيجعله
ويضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ، أو يضم إلى الكافر ما أنفق ،

ليزيد به عذابه ، كمال الكافرين « أُولَئِكَ » إشارة إلى الخبيث ، لأنه مقدر بالفريق الخبيث ، أو إلى المفقين « هُمُ الْخَامِرُونَ » لخسرانهم أنفسهم وأموالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ الْأَوَّلِينَ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى أبا سفيان وأصحابه . فالتمريف فيه للعهد أو للجنس ، فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أولياً « إِنْ يَنْتَهُوا » أى عن الكفر وقاتل النبي صلى الله عليه وسلم « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » أى من الكفر والمعاصي « وَإِنْ يَعُودُوا » إلى قتاله « فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ الْأَوَّلِينَ » أى الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير ، أو الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر . وقوله (فقد مضت) الخ دلائل الجزاء . والتقدير : انتقمنا منهم فقد مضت الخ .

تنبيه :

استدل بالآية على أن الإسلام يجب ما قبله ، كما جاء في الحديث ^(١) ، وأن الكافر إذا أسلم ، لا يخاطب بقضاء مافات من صلاة أو زكاة أو صوم أو إنفاق مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله في المرتد إذا تاب ، لعدم الآية ، واستدلوا بها على إسقاط ما على الذمي من جزية وجبت عليه قبل إسلامه . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن وهب عن مالك : لا يؤخذ كافر بشيء صنعه في كفره إذا أسلم ، ولم يعد طلاقهم شيئاً ، لأن الله تعالى قال (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) كذا في (الإكليل) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

من حديث طويل ، عن عمرو بن العاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» أى شرك أو إضلال لغيرهم ، وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم «وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» أى يخلص التوحيد لله ، فلا يعبد غيرهم «فَإِنْ انْتَهَوْا» أى عن الكفر والمعاصي ظاهراً فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ أى ببواطنهم «بَصِيرٌ» أى فيجازيهم ، وعليه حسابهم ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا ببواطنهم . كقوله تعالى (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ...)^(١) الآية - وفى الآية الأخرى (فَأَخْرَأْنَاكُمْ فِي الدِّينِ)^(٢) . وفى الصحيحين^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل . وفى الصحيح^(٤) أن رسول الله ﷺ قال لأسماء : لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسماء : أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله ! إنما قالها تعوذاً ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه : مَنْ لك بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ قال أسماء : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى : ٤٥ - باب بمث النبي صلى الله عليه

وسلم أسماء بن زيد إلى الحرقات من جهينة ، حديث رقم ١٩٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٥٨ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ) « وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عارضوا عن الإيمان ولم ينتهوا « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ » أى ناصركم ومعينكم ، فثقوا بولايته ونصرته « نِعَمَ الْمَوْلَىٰ » فلا يضيع من تولاها « وَنِعَمَ النَّصِيرِ » فلا يغلب من نصره .

ثم بين تعالى مصرف ما أحله لهذه الأمة وخصها به ، وهو الغنائم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّبَقُّ الْجُمُعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى قل أو أكثر من الكفار « فَإِنَّ لِلَّهِ » أى الذى منه النصر المتفرع عليه الغنيمة « خُمُسَهُ » شكراً له على نصره وإعطائه الغنيمة « وَلِلرَّسُولِ » أى الذى هو الأصل فى أسباب النصر « وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » وهم بنو هاشم والمطلب « وَالْيَتَامَىٰ » أى من مات آباؤهم ولم يبلغوا ، لأنهم ضعفاء « وَالْمَسَاكِينِ » لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى « وَابْنِ السَّبِيلِ » وهو المسافر الذى قطع عليه الطريق ويريد الرجوع إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلغ به .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى - قال الفقهاء : (الغنيمة) المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، أى ما ظهر عليه المسلمون بالقتال . وهل هى والفيء والنفل شيء واحد أو لا ؟ وسنفصله فى آخر المسائل .

الثانية - « ما » في (أنما) بمعنى الذي ، والمائد محذوف ، وكان حقها ، على أصولهم ، أن تكتب مفصولة . قال الشهاب : وقد أجزى في (ما) هذه أن تكون شرطية .

الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ شَيْءٍ) ، بيان للموصول ، محله النصب ، على أنه حال من عائد الموصول ، قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة ، وألا يشذ عنها شيء ، أى ما غنمتموه كائناً ما كان يقع عليه اسم الشيء ، حتى الخيط والخيط .

الرابعة - (الخمس) بضم الميم ، وسكونها ، لغتان قد قرئ بهما .

الخامسة - أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى ، وقسمة الباقي بين الغانمين بالعدل ، لراجل سهم ، ولل فارس ذى الفرس العربى ثلاثة أسهم ، سهم له ، وسهمان لفارسه . هكذا قسم النبي ﷺ عام خيبر . ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مثونة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين . ومنهم من يقول : يسوى بين الفرس العربى والمهجين فى هذا . والمهجين يسمى البرذون والأكديش . ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يحابى أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقسمونها .

وفى صحيح البخارى^(١) أن سعد بن أبى وقاص رأى أن له فضلاً على من دونه ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضمفائكم ؟

وفى مسند أحمد^(٢) أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم ، يكون سهمه وأسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٦ - باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ، حديث رقم ١٣٨٤ . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٩٣ (طبعة المعارف) .

سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضمفائكم . كذا في (السياسة الشرعية) لابن تيمية .

وفي (زاد المعاد) لابن القيم : كان ﷺ إذا ظفر بعدوه ، أمر منادياً بجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاهم لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم . وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة . وقيل : بل كان النفل من الخمس . وجمع لسلمة بن الأكرع ، في بعض مغازيه ، بين سهم الراجل والفارس ، فأعطاه خمسة أسهم ، لعظم غنائه في تلك الغزوة .

قال ابن تيمية : وما زالت الغنائم تقسم بين الغانمين في دولة بني أمية وبني العباس ، لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر .

السادسة - ذهب الجمهور إلى أن ذكر الله تعالى في قوله : (فَإِنَّ لِلَّهِ) للتعظيم ، أي تعظيم الرسول ، كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)^(١) أو لبيان أنه لا بد في الخمسة من إخلاصها لله تعالى ، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه . وتمسك بعضهم بإظهار ذلك ، فأوجب سهماً سادساً لله تعالى ، يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ للكمبة قال : لأن كلام الحكيم لا يُعْرَى عن الفائدة ، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢) ، فكذا هنا . وهذا مروى عن أبي العالية ، والربيع والقاسم وأصحابه . ويؤيد مالا لجمهور ، ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبدالله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ! ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لله خمسة وأربعة أخماسها للجيش . قلت : فما أحد أولى به

(١) [٩ / التوبة / ٦٢] . (٢) [٩ / التوبة / ٦٠] .

من أحد؟ قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبيك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم .
ومن لطائف الحسن أنه أوصى بالخمسة من ماله وقال : ألا أرضى من مالى بما رضى الله
لنفسه ؟

السابعة - خمس النبي ﷺ الذى جعله الله له ، كان أمره فى حياته مفضلاً إليه ، يتصرف
فيه بما شاء ، ويرده فى أمته كيف شاء .

روى الإمام أحمد^(١) أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ! كلمات رسول الله
ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى
غزؤهم إلى بغير من القسم . فلما سلم قام رسول الله ﷺ ، فتناول وبرة بين أنملة يديه فقال :
إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ،
فأدوا الحيط والمحيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغفلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه
فى الدنيا والآخرة ، واجاهدوا الناس ، فى الله تبارك وتعالى ، القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله
لومة لائم ، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر ، واجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب
من أبواب الجنة . ينجى الله تبارك وتعالى به من النعم والمهم .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو دواد^(٢) والنسائى عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى
بغير من النعم ، فلما سلم أخذ وبرة من جيب البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم
مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم - واستدل به على أنه عليه الصلاة والسلام كان يصرفه
لمصالح المسلمين .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٤٩ - باب فى الإمام يستأثر بشئ .

من الفىء لنفسه ، حديث رقم ٢٧٥٥ .

وكان له صلى الله عليه وسلم من الفنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، رواه أبو داود^(١) عن محمد بن سيرين والشعبي - مرسلًا ، وأحمد والترمذي عن ابن عباس .

وللعلماء فيما يصنع بخمسه صلى الله عليه وسلم من بعده مذاهب : فمن قائل : يكون لمن يلي الأمر من بعده . قال ابن كثير : روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع . ومن قائل : يصرف في مصالح المسلمين . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجملان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح . ومن قائل : بأنه يصرف لقربته صلى الله عليه وسلم . ومن قائل : بأنه مردود على بقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . واختاره ابن جرير . وللمسألة حظ من النظر .

الثانية - أجمعوا على أن المراد بـ (ذَوِ الْقُرْبَى) قربته صلى الله عليه وسلم . وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوى القربى يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب خاصة . لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم في الجاهلية ، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية له . مسلمهم طاعة الله ورسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة ، وأئنة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا ابني عمهم ، فلم يوافقوهم ، بل حاربوهم وناذبوهم ، ومالوا بآطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذمهم أبو طالب^(٢) في قصيدته بقوله منها :

أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢١ - باب ما جاء في سهم الصفي ، الحديث رقم ٣٩٩١ عن عامر الشعبي ، والحديث رقم ٢٩٩٢ عن محمد ، بما يقارب هذا اللفظ . (٢) انظر القصيدة بتامها وعدتها ٩٤ بيتاً في ابن هشام بالصفحات ١٧٣ - ١٧٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات ٢٩١ - ٢٩٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا عَقُوبَةً شَرًّا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ

(نوفل : هو ابن خويلد . كان من شياطين قريش . قتله علي بن أبي طالب يوم بدر) .

بِمِيزَانٍ قِسْطٍ لَا يَخْخِيسُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ

(لا يخيس ، من قولهم : خاس بالمهد إذا نقضه وأفسده . والمائل : الحائر) .

لَقَدْ سَمَّهَتْ أَهْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَيْضًا بَنًا وَالنَّيَاطِلَ

(قَيْضًا : عوضًا . والنياطل : بنو سهم) :

وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ وَآلِ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

(الصميم : الخالص من كل شيء . والذرية : الجماعة العائلية ، وأصله الخصلة من شعر الرأس) .

وقال جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، إلى النبي صلى الله

عليه وسلم ، فقلنا : أعطيت بني المطلب من خمس خيبر ، وتركنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة

منك ؟ فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد - رواه مسلم ^(١) - ،

وفي رواية : أنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام - أفاده ابن كثير .

وقد روى عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوئ في العطاء بين غنيهم وفقيرهم ،

ذكورهم وإناثهم ، لأن اسم القرابة يشملهم ، ولأنهم عوضوه لما حرمت عليهم الزكاة ،

وقياساً على المال المقر به لبني فلان . واعتبر الشافعي أن سهمهم استحق بالقرابة ، فأشبهه

الميراث . قال : فلذلك كرمه مثل حظ الأنثيين . انتهى .

وقال في (النهاية) : إنه كان لعبد مناف ، جد النبي ﷺ خمس بنين : هاشم وعبد شمس

ونوفل والمطلب وأبو عمرو ، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو .

التاسعة - سهم اليتامى : قيل يخص به فقاوهم ، وقيل : يعم الأغنياء والفقراء .

(١) هذا الحديث لم يخرجهم مسلم وإنما هو من أفراد البخاري ، أخرجه في : ٦٤ - كتاب

المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر حديث رقم ١٤٨٢ .

حكاه ابن كثير . والأظهر الثاني . والسرّ فيه ما قدمناه في سورة البقرة ، فقد ذكره فإنه مهم .
 العاشرة - المساكين : المحاربون الذين لا يجدون ما يستحلّهم ويكفيهم . وابن السبيل :
 ذكرنا معناه أولاً .

الحادية عشرة - قال بعضهم : يقتضى ما ذكر في هذه الآية ، وما في صدر هذه السورة
 من الأنفال ، وما في سورة الحشر من قوله تعالى ^(١) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) الآية - أن
 القسمة في الأموال المظفورة بها ثلاثية : نفل : وغنيمة ، وفيء . ويقتضى إطلاق جمل النفل
 لله ولرسوله ، والغنيمة لمن ذكر خمسة ، والفيء لمن ذكر بلا قيد التخمين - أن لكل من
 الثلاثة حكماً يخالف الآخر ، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ما ليس لغيره ،
 وفاء لمَدَتِهِ بذلك ، قبل إحراز الغنيمة كالتسكّب . وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال ، سوى
 ما شرط التنفيل به ، لأنه لا بخمس . والفيء ما أخذ من الكفار بغير قتال ، كالأموال التي
 يصالحون عليها ، والجزية والخراج ، ونحو ذلك . وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور . وذهب
 بعضهم إلى اتحاد الثلاثة ، وعدم التفرقة بينها ، وإلى دخولها في الغنيمة ، وقال : ما أطلق
 في آية الأنفال ، وآية الحشر ، مقيد بآية الغنيمة هذه . وهذا هو مراد قول بعضهم : إنهما
 منسوختان بهذه ، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه . والله أعلم .

وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ » أى فاعملوا بما ذكر ، وارضوا بهذه القسمة
 فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم :

وقد جاء في الصحيحين ^(٢) من حديث عبد الله بن عباس ، في حديث وفد عبد القيس :
 أن رسول الله ﷺ قال لهم : وأمركم بأربع ، وأنها كم عن أربع : أمركم بالإيمان بالله .

(١) [٥٩ / الحشر / ٧٦] . (٢) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ،

٤٠ - باب أداء الخمس من الإيمان ، حديث رقم ٤٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٣ و٢٤ و٢٥ (طبعنا) .

ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من الغنم . الحديث - فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقد بَوَّب البخارى ^(١) على ذلك في باب الإيمان من صحيحه ، فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) وساق الحديث المذكور .

وقوله تعالى « وَمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا عَلَى رُسُلٍ مِنْ بَيْنِ أُمَّةٍ » معطوف على (بالله) أى إن كنتم آمنتم بالله وبالنزل « عَلَى عَبْدِنَا » أى محمد عليه الصلاة والسلام ، أى من الآيات والملائكة والنصر « يَوْمَ الْقُرْآنِ » أى يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل . و (الفرقان) بمعناه اللغوى ، والإضافة فيه للمهد « يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَمْعَانِ » يعنى جمع المؤمنين وجمع الكافرين . فالتمريف للمهد . وكان التقاؤهما يوم الجمعة . اسبوع عشرة مضت من رمضان ، والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والشركون مابين الألف والتسمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على سبعين ، وأمر منهم مثل ذلك « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فيقدر على نصر القليل على الكثير ، كما فعل بكم يوم بدر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوِّهِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَوِّهِ الْقُسُوفِ وَالرَّكْبُ اسْقَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« إِذْ أَنْتُمْ » بدل من (يَوْمَ الْقُرْآنِ) ، أو ظرف للحدث ، أى : إذ كروا إذ أنتم بامعشر المؤمنين « بِالْمُدَوِّهِ الدُّنْيَا » يعنى بشفير الوادى الأدنى من المدينة « وَهُمْ » يعنى

(١) انظر الباب رقم ٤٠ من كتاب الإيمان .

المشركين أبا جهل وأصحابه « بِالْعُدُوِّ الْقُصَوِّ » أى البُعْدَى عن المدينة ، مما بلى مكة « وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » أى العير التى فيها أبو سفيان ، بما معه من التجارة التى كان الخروج لأجلها ، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من (بدر) .
لطيفة:

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مرا كز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته ، وتمهيد أسباب الغلبة له ، وضمف شأن المسلمين ، والنتائج أمرهم ، وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ، ليست إلا صنعاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يقيس إلا بحوله وقوته ، وباهر قدرته . وذلك أن العدو القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها . ولا ماء بالعدو الدنيا ، وهى خَبَارٌ (ما لان من الأرض واسترخى) تسوخ فيه الأرجل ، ولا يعيش فيها إلا بقعب ومشقة . وكانت العير وراء ظهور العدو ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حمايتهم ، وتشجذ فى المقاتلة عنها نياتهم ؛ ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظمنهم وأموالهم ، ليعمهم الذب عن الحرم ، والغيرة على الحرب ، على بذل جهيداً فى القتال ، والا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ، ويضبط همومهم ، ويوطن نفوسهم ، على ألا يبرحوا موطنهم ، ولا يُخلُّوا مرا كزهم ، ويبذلوا منقضى نجاتهم ، وقصارى شدتهم . وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى أمراً كان مفعولاً ، من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، بمهمة غير مبينة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير ، راغبين فى الخروج ، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى تفروا ليمنعوا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدو الدنيا ، وهؤلاء بالعدو القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق ، وكان ما كان . انتهى .

قال الناصر في (الاتصاف) : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري ، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز .

وقوله تعالى « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَقَلْتُمْ فِي الْمِيعَادِ » أى ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضكم بعضاً ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم ، على الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسبب له . قاله الزمخشري .

وفى حديث كعب بن مالك^(١) قال : إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

وروى ابن جرير^(٢) عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل لينعمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ، وشهد الناس بعضهم إلى بعض .

« وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا » أى ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد ، ليقضى ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، من غير ملأ منكم . وقوله « كَانَ مَفْعُولًا » أى حقيقة بأن يفعل . وقيل : (كان) بمعنى (صار) أى صار مفعولاً ، بعد أن لم يكن . وقيل : إنه غير به عنه لتحققه حتى كأنه مضى .

وقوله تعالى « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » أى إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع حجة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فينثذرهلك من هلك ، أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه . ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة وبقين ، بأنه دين الحق ، الذى يجب

(١) انظر تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) بالصفحة رقم ١١ من الجزء العاشر .

الدخول فيه ، والتمسك به . وذلك أن ما كان من وقعة (بدر) ، من الآيات الغرّ المحجّلة ، التي من كفر بعدها ، كان مكابراً لنفسه ، مغالطاً لها .

لطائف :

الأولى - قوله تعالى (لِيَهْلِكَ) بدل من (لِيَقْضِيَ) أو متعلق بـ (مَفْعُولاً) .

الثانية - الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام ، وقرئ (لِيَهْلِكَ) بفتح اللام .

الثالثة - (حَتَّى) يقرأ بتشديد الياء ، وهو الأصل ، لأن الحرفين متماثلان متحرران ،

فهو مثل شدّ ومدّ . ومنه قول عبيد بن الأبرص :

عَمِيُوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَةُ

ويقرأ بالإظهار ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن الماضي حمل على المستقبل ، وهو (يحيا) فكما لم يدغم في المستقبل ، لم يدغم

في الماضي ، وليس كذلك شدّ ومدّ ، فإنه يدغم فيهما جميعاً .

والوجه الثاني - أن حركة الحرفين مختلفة ، فالأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ،

واختلاف الحركتين ، كاختلاف الحرفين ، ولذلك أجازوا في الاختيار : لحقت عليه ، وضنب

البلد ، إذاكثر ضنبه . ويقوى ذلك أن الحركة الثانية عارضة ، فكان الياء الثانية ساكنة ،

ولو سكنت لم يلزم الإدغام ، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن ، واليا أن أصل ، وليست

الثانية بدلاً من (واو) . فأما الحيوان ، فد (الواو) فيه بدل من (الياء) . وأما الحواء ،

فليس من لفظ (الحية) ، بل من (حوى يحوى) إذا جمع - قاله أبو البقاء - . « وَإِنَّ اللَّهَ

لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى بكفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن وثوابه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَاهُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

« إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا » منصوب بـ (اذكر) ، أو بدل آخر من (يوم الفرقان) . وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم في رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم « وَلَوْ أَرَأَاهُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ » أى لجنتم وهبتم الإقدام « وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الإقدام والإحجام ، فنفرت كلنفسكم « وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ » أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع بتأييده وعصمته « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجن والصبر والجزع . ولذلك دبر ما دبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَاذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلَاذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » وذلك تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ ، وليما ينو ما أخبرهم به ، فيزداد يقينهم ، ويحدوا ، ويثبتوا .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ! فأمرنا رجلاً منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ! - رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ^(١) (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) أى فى اليقظة ، حتى قال أبو جهل : إن محمداً وأصحابه أكلة جزور . مثل فى القلة ، كـ (أكلة رأس) أى أنهم لقلتهم يكفهم ذلك . و (أكلة) بوزن (كتبة) ، جمع آكل ، بوزن فاعل ، والجزور الداقة . كذا فى (النهاية) . « لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا » أى من إظهار الخوارق الدالة على صدق دين الإسلام ، وكذب دين الكفر « كَانَ مَفْعُولًا » أى كالواجب فعله على الحكيم ، لما فيه من الخير الكثير . قاله الهامى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء العاشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) .

لطائف :

الأولى - قال الزمخشري: فإن قلت : الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم ؟ قلت : قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتفل شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله ^(١) (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْآمِنِ) وثلاثا يستعدوا لهم ، ولیمعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قللهم أولاً وكثرتهم آخرأ .

الثانية - قال الزمخشري أيضاً : فإن قلت : بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً ؟ قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحوال يرى الواحد اثنين - وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة ؟ انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : وفي هذا - يعني كلام الزمخشري - دليل بين على أن الله تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة ، غير موقوف على سبب من مقابلة ، أو قرب ، أو ارتفاع حجب ، أو غير ذلك . إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً ، لما أمكن أن يستر عنهم البعض ، وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك . فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذن بين الرؤية ونقيضها في مقدرة الله تعالى ؟ وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً ، وأنها تستلزم الجسمية ، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تقتضي في جسم . فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم ، ولكنهم يعرون عليها وهم عنها معضون ، والله الموفق .

الثالثة - لا يقال : إن قوله تعالى (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) مكرر مع ما سبق .

(١) [٣ / آل عمران / ١٣] .

لأننا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدقه ﷺ ، والمقصود منه هاهنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم في أعين المشركين ، ثم تكثيرهم للحكمة المتقدمة .

وفي قوله تعالى : « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد .
ثم أرشد تعالى عباده المؤمنين إلى آداب اللقاء في ميدان الوغى ، ومبارزة الأعداء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا » أى إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقاءهم واصبروا على مبارزتهم ، فلا تفروا ولا تجبنوا ولا تنكسوا . وتفسير (اللقاء) بـ (الحرب) لغلبيته عليه ، كالنزاع ولم يصف الفئـة بأنها كافرة ، لأنه معلوم غير محتاج إليه « وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أى فى مواطن الحرب ، مستظهريـن بذكره مستنصرين به ، داعين له على عدوكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تظفرون بمرادكم من النصر والثوبة .

وقد ثبت فى الصحيحين^(١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه ، التى لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس ! لا تغمضوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٢ - باب كان النبى ﷺ إذا

لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، حديث رقم ١٣٤٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

ثم قال : اللهم ! منزل الكتاب ، ومجربى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم .

وفى الآية إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه ، أشغل ما يكون قلباً ، وأكثر ما يكون همّاً ، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ، ويقبل إليه بكلية ، فارغ البال ، وانقاً بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل ما يأمران به وينهيان ، وهذا عام ، والتخصيص بالذكر هنا فيه تأكيد « وَلَا تَنَازَعُوا » أى باختلاف الآراء ، أو فيما أُمِرتم به « فَتَفْشَلُوا » أى تجبنوا ، إذ لا يقوى بمضكم بيمض . « وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » أى قوتكم وغلبتكم ، ونصرتكم ودولتكم . شبه ما ذكر فى نفوذ الأمر وعشيقته ، بالريح وهبوبها . ويقال : هبت رياح فلان ، إذا دالت له الدولة ونفذ أمره ، قال :

إذا هبت رياحك فاغتممها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدرى السكون متى يسكون

« وَاصْبِرُوا » أى على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهويتكم الداعية إلى التنازع ، فالصبر مستلزم للنصر « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » أى بالنصر .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد كان للصحابة رضى الله عنهم ، فى باب الشجاعة والاثبات بما أمرهم الله ورسوله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم ، والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم . فإنهم بركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ،

من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بنى آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامقدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

تنبيه :

قال بعض المفسرين في قوله تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا) ، أى لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد ، بل ليتفق رأيكم . قال : ولقائل أن يقول : استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبر أمرهم . ويقطع اختلافهم ، فإن بلزوم طاعته ، ينقطع الاختلاف . وقد فعله صلى الله عليه وسلم في السرايا ، وقال ^(١) : اسمعوا وأطيعوا ، وإن أمر عليكم عبد حبشي . انتهى .
ولما أمر تعالى المؤمنين بالثبات والصبر عند اللقاء ، أمرهم بالإخلاص فيه ، بنهيم عن التشبه بالمشركين ، في انبعاثهم للرياء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا » أى نخرا بالشجاعة « وَرِئَاءَ النَّاسِ » أى طلباً للثناء بالسماحة والشجاعة « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى لا تكونوا كأبى جهل وأصحابه ، وقد أناتهم رسول أبى سفيان ، وهم بالجحفة : أن ارجعوا ، فقد سلمت غيركم . فأبوا وقالوا : لا ترجع حتى نأتى بدر ، فننحر بها الجزر ، ونسقى بها الخمر ، وتعزف علينا فيه القيان ، وتسمع بنا العرب . فذلك بطرم ورتاؤهم الناس بإطعامهم . فوافوها ، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوايح مكان القيان . أى : لا يكن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ما عند الناس ، وإخلصوا لله

(١) أخرجه البخارى في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٤ - باب السمع والطاعة للإمام مالم

تكن معصية ، الحديث رقم ٤٣٤ عن أنس . وفيه (اسْمِعُوا) عوضاً عن (أَمَرُوا) .

النية والحسبة ، في نصر دينكم ، ومؤازرة نبيكم ، لا تعملوا إلا لذلك ، ولا تطلبوا غيره .
(و) (الثناء) مصدر (رأى) ، إذا أظهر العمل للناس ليروه غفلة عن الخالق . وقد يقال راياه
مراية ورياء ، على القلب . و (بطراً ورناء) إما مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع
الحال . و (يصدون) إما حال ، بتأويل اسم الفاعل ، أو بجعله مصدر فعل هو حال ، وإما
مستأنف . ونكتة التعبير بالاسم أولاً ثم الفعل ، الإعلام بأن البطر والرياء دأبهم ، بخلاف
الصدفانه تجدد لهم في زمن النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ
وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئْتَانِ نَكَّصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى في معاداة الرسول والمؤمنين ، بأن وسوس
إليهم « وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ » أى من النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه « وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » أى مجير ومعين لكم « فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئْتَانِ » أى تلاقنا ،
وترأت كل واحدة صاحبتها ، فرأى الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين « نَكَّصَ عَلَى
عَقَبَيْهِ » أى ولى هارباً على قفاه « وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ » أى من عهد جواركم « إِنِّي
أَرَىٰ » أى من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين « مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » أى أن
يمدبنى قبل يوم القيامة « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى فلا يبعد مع إمهالي إلى القيامة ، أن
يمدبنى لشدة عقابه .

تنبيه :

ذكروا في التريين وجهين :

أحدهما : أن الشيطان وسوس لهم من غير تمثيل ، في صورة إنسان ، وهو مروى عن

الحسن والأصم . فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة . والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده :

وثانيهما : أنه ظهر في صورة إنسان ، لأنهم لما أرادوا السير إلى بدر ، خافوا من بني كنانة ، لأنهم كانوا قتلوا رجلاً ، وهم يطلبون دمه ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتمثل إبليس للعين في صورة سراقه الكناني ، وقال : أنا جاركم من بني كنانة ، فلا يصل إليكم مكروه منهم . فقله (إني جار لكم) على الحقيقة . وقال الإمام : معنى (الجار) هنا الدافع للضرر عن صاحبه ، كما يدفع الجار عن جاره . والعرب تقول : أنا جار لك من فلان ، أي حافظ لك ، مانع منه . وهذا القول الثاني ذهب إلى جمهور المفسرين .

روى مالك^(١) في الموطأ عن طلحة بن عبيد الله بن كريب ، مرسلًا : أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤى الشيطان يوماً هوفيه أصفر ولا أدهر ولا أحقر ولا أغيط ، منه في يوم عرفة . وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب المظالم . إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

قال الإمام : وكان في تغيير صورة (إبليس) إلى صورة (سراقه) معجزة عظيمة للرسول ﷺ ، وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا : هزم الناس سراقه ، فبلغ ذلك سراقه فقال : والله ما شعرت بمسيركم ، حتى بلغتني هزيمتكم . فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقه ، بل كان شيطاناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مُّغْرِبٌ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ » أي بالمدينة . و (إِذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً ، أو

(١) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٢٤٥ (طبعنا) ،

بـ (زين) « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يجوز أن يكون من صفة المنافقين ، وتوسّطت والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، لأن هذه صفة للمنافقين ، لا تنفك عنهم . قال تعالى ^(١) (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) . أو تكون الواو داخلة بين المفسّر والمفسّر نحو : أعجبني زيد وكرمه . ويجوز أن يراد : الذين هم على حرف ، ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام . وعن الحسن : هم المشركون . « غَرَّ هُوَ لَاءٌ » يعنون المؤمنين « دِينُهُمْ » فظنوا أنهم ينصرونهم به على أضعافهم « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أى من يعتمد عليه سبحانه وتعالى فإنه ينصره على أضعافه ، بالخير ما بلغوا ، لأنه عزيز غالب على ما أراد ، وهو يريد نصر أوليائه ؛ حكيم ، وحكمته تقتضى نصرهم . وهو جواب لهم من جهته تعالى ، وردلقاتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] . (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْ بَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقبض أرواحهم « الْمَلَائِكَةُ » أى ملائكة القهر والعذاب مما يناسب هيأت نفوسهم « يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » لإعراضهم عن الحق ، ولهيأت الكبر والمعجب والنخوة فيها « وَأَذْ بَارَهُمْ » ليملهم إلى الباطل ، وشدة انجذابهم إليه ، ولهيأت الشهوة والحرص والشره « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » عطف على (يضرّبون) بإضمار القول . أى : ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة . وجواب (لو) محذوف ، لتفطيم الأمر وتهويله .

وقال ابن كثير : وهذا السياق ، وإن كان سببه وقعة بدر ، ولكنه عام فى حق كل كافر . وفى سورة القتال مثل هذه الآية . وتقدم فى الأنعام نحوها ، وهو قوله تعالى ^(٢) : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْمُجْرِمُونَ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ) أى بالضرب فيهم بأمر ربهم .

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْمُتَّقِينَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب « بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ » أى ما كسبتم من الكفر والمعاصى « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْمُتَّقِينَ » أى بأن يأخذهم بلا جرم .
فإن قيل : ما سر التعبير بـ (ظلام) بالمبالغة ، مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفي للقيد ؟
وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهم جراً . فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلام) لذلك ، أى لكثرة الكمية فيه .
ومنها : أنه إذا اتقى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم ، يظلم للارتفاع بالظلم . فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه في حق من يحوز عليه النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً .

ومنها : أن (ظلاماً) للنسب ، كـ (مطار) ، أى لا ينسب إليه الظلم أصلاً .
ومنها : أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب ، فلو كان تعالى ظالماً ، كان ظلاماً ، فنفى اللازم ، لنفى الملزوم .

ومنها : أن نفى (الظلام) لنفى الظالم ، ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالاً من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث ، لولا الاستحقاق ، لكان المذهب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقه . فالمراد تنزيهه تعالى ، وهو جدير بالمبالغة .

وأيضاً : لو عذب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب ، لكان ظلاماً عظيماً ، لصدوره عن العدل الرحيم . كذا في (العناية) .

وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول :
إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . يا عبادى ! إنما هي أعمالكم
أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .
والحديث طويل جليل . معروف ، عند المحدثين ، بالحديث المسلسل بالمشقيين .
ثم بين تعالى أن سير المشركين المستمر ، وعادتهم الدأبة ، مع ما أرسل به النبي ﷺ ،
كسير الأمم السالفة مع رسلهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » خبر لقدر ، أى داب هؤلاء ، كذاب
آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم ، كقوم نوح ، وهو علمهم الذى دأبوا ، أى استمروا
عليه ، ثم فسره فقال : « كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ » أى قبل يوم القيامة
« بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أخذ هؤلاء ، لأنهم اجتروا على معاصيه بما رأوا لأنفسهم من القوة .
فصنفهم ، إظهاراً لقوته « إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » قال الهامى : تأخير العذاب إنما
يكون للرحمة ، لكنه لما اشتد عنادهم ، اشتد غضبه ، لأنه شديد العقاب لمن اشتد عناده
ممه ، فلا يكون في حقه رحمة .

(١) من حديث طويل نفيس ، قد أفردّه شيخ الإسلام بشرح قيم . أخرجه مسلم في :
٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذَلِكَ » أى التعذيب الذى علم كونه مؤاخذة بالذنوب « بِأَنَّ اللَّهَ » أى بسبب أنه تعالى « لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ » بتبديله إياها بالنقمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » من موجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو عمل . وهذا إخبار عن تمام عدله وقسطه فى حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى ^(١) : (إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

قال القاشانى . كل ما يصل إلى الإنسان هو الذى يقتضيه استعداد ، ويسأله بدعاء الحال ، وسؤال الاستحقاق . فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة لسلامة الاستعداد ، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداد ، وغير قبوله للصالح ، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذى فيه بالقوة إلى الشر ، لحصول الرين وارتكاف الظلمة فيه ، بحيث لم يبق له مناسبة للخير ، ولا إمكان لصدوره منه ، فيغيرها إلى النقمة عدلا منه وجودا ، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة ، لا ظلما وجورا . انتهى .

« وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فيغير إذا غيروا ، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَّبَ الَّذِينَ الْإِسْرَافِيُّونَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ) « كَذَّبَ الَّذِينَ الْإِسْرَافِيُّونَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » فكان مبدأ تغييرهم أنهم « كَذَّبُوا

(١) [١٣ / الرعد / ١١] .

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» أى الذى رباهم بالنعم ، فصرفوها إلى غير ما خلقت له بمقتضى تلك الآيات ، فكانت ذنوباً « فَأَهْلَكْنَاهُمْ » أى زيادة على سلبه النعم « يَذْنُو بِهِمْ » أى بما صرفوا بها النعم إلى غير ما خلقت له « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » لإغراقهم النعم فى بحر الإنكار بنسبتهم إلى فرعون حيث أقروا بإلهيته « وَكُلُّ » أى من الفرق المكذبة الكافرة ، أو من آل فرعون، ومن قبلهم ، وكفار قريش : « كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بصرف النعم إلى غير ما خلقت له ، وهو نوع من الإغراق لها فى بحر الإنكار لأنه مرجع التغيير لها . كذا أول المهايى .
وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار فى الآيتين ، بتغاير التشبيهين فيهما ، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد . فمعنى الأول : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى الكفر ، فأخذهم وآناهم المذاب . ومعنى الثانى : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى تغييرهم النعم ، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير ، وهو أنه أغرقهم . وقيل : إن النظم يأباه ، لأن وجه التشبيه فى الأول كفرهم المترتب عليه العقاب ، فينبغى أن يكون وجهه فى الثانى قوله (كذبوا) لأنه مثله ، إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيهه ، صالحة لأن تكون وجه الشبه ، فتحمل عليه ، كقوله تعالى (١) :
(إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وأما قوله : (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته . . .) فكالتعميل لحلول النكال ، معترض بين التشبيهين ، غير مختص بقوم ، فَجَمَلُهُ وَجْهًا لِلتشبيه بعمد عن الفصاحة . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى أصرّوا على كفرهم ورسخوا فيه فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ « أى فلا يتوقع منهم إيمان .

(١) [٣ / آل عمران ٥٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

« الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ » أى لا يخافون عاقبة الفدر ، ولا يبالون بما فيه من العار والنار .

تنبيهات :

الأول - قال المهايى : أشار تعالى إلى أنه كيف يترك نعمه على من غير أحواله التى كانت أسباب النعم ، وقد كان بها إنسانيته ، فبتغييرها لحق بالدواب ، وبإنكار النعم صار شرًا منها . والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها ، فكيف لا تسلب ممن ينكر النعم ؟ .

الثانى - دلت الآية على جواز تحقير العصاة ، والاستخفاف بهم ، حيث سماهم تعالى (دواب) وأخبر أنهم (شرّ الدواب) .

الثالث - قالوا : نزلت الآية في يهود بنى قريظة ، رهط كعب بن الأشرف ، فإن رسول الله ﷺ ، كان عاهدكم ألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فعاهدكم الثانية فنقضوا العهد أيضا . ومالأوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق . وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرابع - (الذين) بدل من الوصول الأول ، أو عطف بيان له ، أو نصب له على الذم . وضمن (عاهدت) معنى الأخذ ، حتى عدّى بـ (من) أى أخذت منهم عهدهم . وقيل : (من) صلة ، وقال أبو حيان : هى للتبويض ، لأن المباشر بالذات للماهدة بمض القوم ، وهم الرؤساء والأشراف .

الخامس - قوله : (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) ، حال من فاعل (ينقضون) ، أى يستمرون على النقض ، والحال أنهم لا يتقون العار فيه ، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتق

نقض العهد ، حتى يسكن الناس إلى قوله ، ويشقون بكلامه . فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد ، فهو شر من الدواب .

ثم شرع تعالى في بيان أحكام الناقضين ، بعد تفصيل أحوالهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ)
 « فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ » أى إما تصادفهم وتظفرون بهم « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ » أى فرق بهم من وراءهم من المحاربين . معنى : بأن تفعل بهم من النكال وتغليظ العقوبة ، ما يشرد غيرهم خوفاً ، فيصيروا لهم عبرة . كما قال : « لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ » أى لعل المشردين يتمطون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين ، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر . قال فى (التاج) : وقيل : معنى (فشرد بهم) فسمع بهم ، وقيل : فزع بهم ولا يخفى أن هذه المعانى متقاربة . وأصل التشريد الطرد والتفريق . ويقال . شرد به تشريداً ، سَمِعَ الناس بعميوبة . قال :

أَطَوُّ بِالْأَبَاطِحِ كُلِّ يَوْمٍ خَافَةَ أَنْ يُشَرِّدَ بِي حَكِيمُ
 معناه أَنْ يَسْمَعَ بِي وَ (حَكِيم) رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ كَانَتْ قَرِيشٌ وَلِئَهُ الْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ .

استشهد به فى اللسان فى مادة (ش ر د) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِمَّا نَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

« وَإِمَّا نَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً » بيان لأحكام المشركين إلى نقض العهد ، إثر بيان

الناقضين له بالفعل . و (الخوف) مستعار للعلم . أى : وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقضَ عهد فيما سيأتى ، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ، ومخايل الشرِّ « فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ » أى فاطرح إليهم عهدهم « عَلَى سَوَاءٍ » أى على طريق مستوٍ قصدي ، بأن تظهر لهم النقض ، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، ولا تنجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد ، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلاً ، وإن كانت في مقابلة خيانتهم .

وقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » تعليل للأمر بالنبذ ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيراً له ﷺ منها ، وإما باعتبار استتباعه للقتال ، فيكون حثاً له ﷺ على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه قيل . وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم من جملتهم ، لما علمت من حالهم . أفاده أبو السعود .
تنبيه :

دات الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحة ، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم أمارة الخيانة ، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك ، لئلا يعميوا علينا بنصب الحرب مع العهد .

روى أصحاب السنن^(١) أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم . فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر !

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٥٢ - باب في الإمام يكون بينه وبين المدّ عهد فيسير إليه ، حديث رقم ٢٧٥٩ .
وأخرجه الترمذى في : ١٩ - كتاب السير ، ٢٧ - باب ما جاء في الغدر .

الله أكبر ! وفاء لا غدر . فإذا هو عمرو بن عَبَسَةَ^(١) ، فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء : فرجع معاوية .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فسال لأصحابه : دعوني أدعوم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعومهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهداني الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلکم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها .

هذا ، وما ذكر من وجوب إعلامهم ، إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها ، كما هو منطوق الآية . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ^(٣) بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة رسول الله ﷺ ، فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ » قرئ بالياء والتاء « الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا » أى فاتوا وأفلتوا من

(١) يوجد في كثير من نسخ التفاسير « عبسة » بزيادة نون قبل الباء ، وهو تحريف ، ويفلظ به من لا علم له بأسماء الرجال . اهـ لمؤلفه .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٠٢ (طبعة جوتنغن) والصفحة رقم ٣١

وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

أن يظفر بهم « إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ » أى لا يفوتون الله من الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بعذاب النار . وقرئ بفتح (أن) على تقدير لام التعليل ، وهذا كقوله تعالى (١) : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقوله تعالى (٢) : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وقوله تعالى (٣) (لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ » أى لقتال ناقضى العهد السابق ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم « مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » أى من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها ، أطلق عليه القوة مبالغة .

قال الشهاب : وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم فى (بدر) استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يأتى فى كل زمان .

« وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » (الرباط) فى الأصل مصدر ربط ، أى شد ، ويطلق بمعنى مربوط مطلقاً ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . بالإضافة ، إما باعتبار عموم المفهوم الأصلى ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركاً بين معان أخر ، كانتظار الصلاة ، وملازمة

(١) [٢٩ / المنكوبت / ٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٥٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٦ و ١٩٧] .

ثغر العدو ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان ، كـ (عين الشمس) ومنه يعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركاً . وإذا كان من إضافة المطلق للعقيد ، فهو على معنى (من) التبعيضية . وقد يكون (الرباط) جمع ربيط ، كفصيل وفصال . قال في (التاج) : يقال : نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل . ثم إن عطفها على (القوة) مع كونها من جملة الإيذان بفضلها على بقية أفرادها ، كمطف جبريل وميكائيل على الملائكة « تُرْهِبُونَ بِهِ » أى تخوفون بذلك الإعداد « عَدُوُّ اللَّهِ » وهو المثبت له شريكاً ، المبطل لـ « كَلِمَتِهِ » « وَعَدُوُّكُمْ » أى الذى يظهر عداوتكم ، فتخوفونهم لئلا يحاربوكم باعتقاد القوة فى أنفسهم دونكم .

تنبيه :

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إثناء بأس العدو وهجومه . ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبى الضيم ، قوى القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأفطار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين السكافرين ، وزحزح سجون الظلم والاستعباد ، وعاش بنوه أحقاباً متتالية ، وهم سادة الأمم ، وقادة مشعوب ، وزمام الحول وال طول وقطب روحى العز والمجد ، لا يستكمنون لقوة ، ولا يرهبون لسطوة . وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية السكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضاً من فروض الإسكافية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض . ولذا تعانى اليوم من غصته ماتماني . وكيف لا يطمع العدو بالمالك الإسلامية ، ولا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشتري من بلاد العدو ؟ أما آن لها أن تنبه من غفلتها ، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درساً يجب أن تدبره ، وتقلقى ما فرطت به . قبل أن يداهم ما بقى منها بخيله ورجله ،

فيقضى - والعياذ بالله - على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار . وبالله الهداية .

وقوله تعالى « آخِرِينَ » أى وترهبون قوماً آخرين « مِنْ دُونِهِمْ » أى من دون من يظهر عداوتكم ، وهم المنافقون « لَا تَعْلَمُونَهُمْ » أى أنهم يعادونكم « اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » أى أنهم أعداؤكم ، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم . ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال فى إعداد القوة ، ورباط الخيل ، مبشراً لهم بقوفية جزائه كاملاً ، بقوله تعالى « وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى أوضحه الجهاد « يُؤْتِ إِلَيْكُمْ » أى فى الدنيا من النعم والغنيمة والجزية والخراج ، وفى الآخرة بالثواب المقيم « وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ » أى بترك الإثابة .
تنبيهات :

الأول - هذه الآية أصل فى كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات .

الثانى - فى قوله تعالى (تُرْهِبُونَ بِهِ) إشارة إلى التجافى عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء . وفى حديث الإمام مالك^(٢) عن أبى هريرة عن النبي ﷺ : الخيل ثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ولرجل وزر . فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنياً وتمغياً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها نخراً ورباً ونواء لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر .

الثالث - ما ذكرناه فى تأويل (الآخِرِينَ) من أنهم المنافقون ، يشهد له قوله تعالى^(٣) (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

ثم بين تعالى جواز مصالحة الكفار بقوله :

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢١ - كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعنا)

من حديث طويل . (٢) [٩ / التوبة / ١٠١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) «وَإِنْ جَنَحُوا» أى مالوا وانقادوا «لِلسَّلْمِ» بكسر السين وفتحها ، لفغان ، وقد قرئ بهما . أى الصلح والاستسلام ، بوقوع الرهبة في قلوبهم ، بمشاهدة ما بهم من الاستعداد ، وإعتاد المعتاد «فَاجْنَحْ لَهَا» أى قل إلى موافقتهم وصالحتهم وعاهدكم ، وإن قدرت على محاربتهم ، لأن الموافقة أدمى لهم إلى الإيمان . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . و (السلم) يذكر ويؤنث - كما في الفاموس - .
قال الزمخشري : (السلم) تؤنث تأنيث تقيضها ، وهى الحرب . قال العباس بن مرداس :
السُّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ والحربُ يَسْكُفُكَ مِنْ أَنْفَاسٍ جُرْعُ
« وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أى لا تحف في الصلح مكرهم ، فإنه يعصمك من مكرهم
« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » لأقوالهم « الْعَلِيمُ » أى بأحوالهم ، فيؤاخذهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم في نحورهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

«وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ» أى بالصلح لتسكت عنهم ظاهراً ، وفي نيتهم الغدر «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» أى كافيك بنصره ومعوته . قال مجاهد : يريد قريظة . ثم علل كفايته له ، بما أنعم عليه من تأييده ﷺ بنصره وبالمؤمنين ، فقال تعالى : «هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ» أى يوم بدر بعد الضعف ، من غير إعداد قوة ولا رباط «وَبِالْمُؤْمِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » أى جمع بين قلوبهم وكلمتهم ، بالهدى الذى بعثك الله به إليهم ، بعد ما كان فيها العصبية والعصبيّة « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » أى من الذهب والفضة « مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » إذ لا يدخل ذلك تحت قدرة البشر ، لكونه من عالم الغيب « وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » أى بين قلوبهم بدينه الذى جمعهم إليه « إِنَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن « حَكِيمٌ » أى فاقضت حكمته ذلك ، لما فيه من تأييد دينه ، وإعلاء كلمته .

قال الزمخشري رحمه الله تعالى : التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الآيات الباهرة . لأن العرب ، لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة ، فى أدنى شيء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأتلف منهم قلبان . ثم ائلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبهض فى الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد . وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك ساداتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويدم القحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ، ما آثرته أختها ، وتكرهه وتفتر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتضافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً ، وما ذاك إلا بلطف صنعه ، وبلغ قدرته . انتهى .

وإنما ضعف القول الثانى لأنه ليس فى السياق قرينة عليه . كذا فى (العناية) .
أقول : لـكن شهرة ما كان بين هذين البطنين من التعادى الذى تطاول أمده ، واستحال
قبل البعثة نضوب مائه ، يصلح أن يكون قرينة . ونقل علماء السيرة^(١) أن النبى صلى الله
عليه وسلم ، لما لقي فى الموسم الرهط من الخزرج ، ودعاهم إلى الله تعالى . فأجابوه وصدقوه ،
قالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجتمعهم
الله بك ، فسنقدم عليهم فنُدعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا
الدين ، فإن يجتمعهم الله عليه فلا رجل أعزُّ منك . رواه ابن إسحاق وغيره .
وفى الصحيحين^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار فى شأن غنائم
(حنين) قال لهم يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهذا كم الله بى ؟ وعالة فأغنناكم الله بى
وكنتم متفرقين فأنفكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمان .
لطيفة :

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله
إذا قارب بين القلوب لم يرحزها شيء . ثم يقرأ : (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ ...) الآية .
وعند البيهقي نحوه . وقال : ذلك موجود فى الشعر :

إذا بت ذو قربى إليك بزلة ففشك واستغنى فليس بذى رُحْمٍ
ولكن ذا القربى الذى إن دعوته أجاب ، وأن يرى العدو الذى ترى

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٢٨٦ و ٢٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة
رقم ٧٠ و ٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب
الغزاة ، ٥٦ - باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، الحديث رقم ١٩٣١ عن عبد الله
ابن زيد بن عاصم .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) .

قال : ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبتُ الناسَ ثم سبَّرتهم وبلوتُ ما وصلوا من الأسبابِ
فإذا القرابة لا تقربُ قاطماً وإذا المودة أقربُ الأسبابِ

قال البيهقي : لا أدري هذاموصولاً بكلام ابن عباس ، أو هو قول من دونه من الرواة .
قال الرازي : احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات ،
كلها من خلق الله تعالى . وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان
ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ولما بين تعالى كفايته لنبيه صلى الله عليه وسلم عند مخادعة الأعداء ، في الآية المقدمة ،
أعلمه بكفايته له في جميع أموره مطلقاً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » قال العلامة ابن القيم
في مقدمة (زاد المعاد) في تفسير هذه الآية : أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ،
فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهاهنا تقديران :

أحدها - أن تكون الواو عاطفة لـ (مَنْ) على الكاف المجرورة ، ويجوز المطف على الضمير
المجروح بدون إعادة الجار ، على المذهب المختار ، وشواهد كثيرة ، وشبه النع منه واهية .
والثاني - أن تكون الواو واو (مع) ، وتكون (من) في محل نصب عطفاً على الموضع
فإن (حسبك) في معنى كافيك ، أي الله يكفيك ، ويكفي من اتبعك ، كما يقول العرب :
حسبك وزيداً درهم ، قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقتِ العصا فحسبك والضحاك سيفٌ مُهندٌ

وهذا أصح التقديرين . وفيها تقدير ثالث ، أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء ،

أى ومن اتبعك من المؤمنين ، بحسبهم الله ؛ وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون (من) في موضع رفع عطفاً على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك . وهذا ، وإن قال به بعض الناس ، فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى ^(١) : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسَبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَبْذَلَ بَنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده . وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ، حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى ^(٢) : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَبُّنَا أَلْوَكِيلٌ) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه ، قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل . ونظير هذا قوله ^(٣) : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ؛ كما قال تعالى ^(٤) : (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جملة خالص حقه ، كما قال ^(٥) : (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) ولم يقل وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده . كما قال تعالى ^(٦) : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب ، لله وحده . كما أن العبادة والتقوى والسجود ، لله وحده . والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى . ونظير هذا قوله تعالى ^(٦) : (أَلَيْسَ اللَّهُ

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ٥٩] . (٤) [٥٩ / الحشر / ٧] .

(٥) [٩٤ / الشرح / ٧] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٣٦] :

يَكْفَى عَبْدُهُ) فـ (الحسب) هو (الكافي) ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كافٍ عبده ، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد ، أكثر من أن تذكرها هنا . انتهى .

قال الخفاجي (في العناية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفراء والكسائي رجّاه ، وما قبله وما بعده يؤيده . انتهى .

وأقول : هذا من الخفاجي من الولوج بالناقشة ، كما هو دأبه ، ولو أمعن النظر فيما برهن عليه ابن القيم وأيده بما لا يبق معه وقفة ، لما ضعفه . والفراء والكسائي من علماء العربية ، ولأعة التأويل فقه آخر . فتبصر ، ولا تكن أسير التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أى حثهم « عَلَى الْقِتَالِ » ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

في الآية مسائل .

الأولى - مشروعية الحَضّ على القتال ، والمبالغة في الحث عليه . وقد كان النبي ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدو ، كما قال لهم ^(١) يوم بدر ، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! فقال : بخ بخ . فقال : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : رجا أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

الثانية - ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) شرط في معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة . أى بالأبى يفرّ منهم .

روى البخارى ^(٢) عن ابن عباس قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) كتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ولا عشرون من مائتين . ثم نزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية - فكتب أن لا يفر مائة من مائتين .

وفي رواية أخرى ^(٣) عنه قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) شق ذلك على المسلمين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية - فلما خفف الله عنهم من العدة ، نقص عنهم من الصبر ، بقدر ما خفف عنهم .

- (١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه مسلم في : ٣٣ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعنا) عن أنس بن مالك . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٦ - باب يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، و ٧ - باب الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، الحديث رقم ٢٠٠٨ .

قال في (اللباب) : فظاهر هذا أن قوله تعالى : (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر . فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين ، فثقل ذلك على المؤمنين ، فنزلت (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ - أيها المؤمنون - وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) يعني في قتال الواحد للعشرة ، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة بغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . فردّ العشرة إلى الاثنين . فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفروا . فأبما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فرّ . انتهى .

قال في (العناية) : وذهب مكيّ إلى أنها مخففة لا ناسخة ، كتخفيف الفطر للمسافر . وثمره الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة ، فقتل ، هل يأثم أو لا ؟ فعلى الأول يأثم ، وعلى الثاني لا يأثم .

وقال الرازي : أنكر أبو مسلم الأصفهانيّ دعوى النسخ في الآية ، وقال : الأمر الذي فهم من الآية مشروط بكون العشرين قادرين على الصبر ، أي إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين ، فليشتغلوا بمقاومتهم . ثم دلّ قوله تعالى : (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) على أن ذلك الشرط غير حاصل منهم ، فلم يكن التكليف لازماً عليهم . وبالجمله ، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة ، فلم يثبت ذلك الحكم . وعلى هذا فلا نسخ . ولا يقال إن قوله تعالى (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليهم قبله ، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيب قبله ، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام ، كقوله تعالى ^(١) في ترخيصه للحرّ في نكاح الأمة «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ» وليس هناك نسخ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرّ . فكذاها هنا .

(١) [٤ / النساء / ٢٨] .

ومما يدل على عدم النسخ ذكر هذه الآية مقارنة للأولى . وجعلُ الناسخ مقارنا المنسوخ ، لا يجوز إلا بدليل قاهر .

قال الرازى ، بمد تقرير كلام أبى مسلم : إن ثبت إجماع الأمة قبل أبى مسلم على حصول النسخ فى الآية ، فلا كلام عليه ، وإلا فقول أبى مسلم صحيح حسن . انتهى .

الثالثة فى قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) إشارة إلى علة غلبة المؤمنين عشرة أمثالهم من الكفار ، فالظرف متعلق بـ (يَفْقَهُونَ) أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر ، لا يقاتلون احتساباً وامتناناً لأمر الله تعالى ، وإعلاء لكلمته ، وابتغاء لرضوانه ، كما يفعله المؤمنون ، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية ، واتباع خطوات الشيطان ، وإثارة نائرة البغى والمدوان ، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان . أفاده أبو السعود .

الرابعة - قال الرازى : احتج هشام على قوله (إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها) بقوله : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) إذ يقتضى أن علمه بضعفهم ما حصل إلا فى هذا الوقت . وأجاب المتكلمون بأن معناه : الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله . وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث . انتهى .

وقال الطيبي رحمه الله : معناه الآن خفف الله عنكم لما ظهر متعلق علمه تعالى ، أى كثرتم الموجهة لضعفكم بمد ظهور قلتكم وقوتكم .

الخامسة - فى (الضعف) لفتان : الفتح والضم ، وبهما قرئ . وهو يؤكّد كونهما بمعنى فيكونان فى رأى والبدن . وقيل : (الفتح) فى رأى والعقل ، (والضم) فى البدن . وهو منقول عن الخليل . وقرئ (ضعفاء) بصيغة الجمع .

السادسة - إن قيل : إن كفاية عشرين لماثنين تغنى عن كفاية مائة لألف وكفاية مائة لماثنين تغنى عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة فى الأولى ، وثبات الواحد لل اثنين فى الثانية ، فاسر هذا التكرير ؟ أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل

على الكثير لزيادة التكرير المفيد لزيادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لاتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين . وتغلب المائة الألف . وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .

قال في (الفتح) : وقد قيل ، في سر ذلك ، إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف .

السابعة - قال في (البحر) : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى . ولما كان الصبر شديد المطوية أثبت في جملة التخييف وحذف من الثانية ، لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) مبالغة في شدة المطوية . ولم يأت في جملة التخييف بقيد الكفر ، اكتفاء بما قبله .

قال الشهاب : هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك ، وبقي عليه أنه ذكر في التخييف (بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو قيد لهما . وقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) إشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب . وبقي فيها لطائف . فلهذا درّ التزليل ما أحلى ماء فصاحته ! وأنضر رونق بلاغته !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ » روى الإمام ^(١) أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر فقال : إن الله قد أمكنكم منهم

(١) أخرجه في السند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ . ثم عاد رسول الله ﷺ لمقاتله وقال : إنما هم إخوانكم بالأمس ، وعاد عمر لمقاتله ، فأعرض عنه ﷺ . فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ! نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبّل منهم الفداء .

وأخرج مسلم^(١) في (أفراده) من حديث عمر بن الخطاب ؛ قال ابن عباس : لما أسروا الأسارى . قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ! هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فمضى الله أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا ، والله ! يا رسول الله ! ما أرى الذي رأى أبو بكر . ولسكني أرى أن تمكفنا فنضرب أعناقهم ، فتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكّن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكّنني من فلان - نسب لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت . فلما كان من الفد جثت ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يا رسول الله ! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكي على أصحابك - من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة من نبي الله ﷺ - فأنزل الله عز وجل (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ...) الآية . ذكره الحميدى في (مسنده) عن عمر بن الخطاب ، من أفراد مسلم بزيادة فيه .

ومعنى (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ) ماصح له وما استقام . وقرئ (للنبي) على العهد . والمراد

(١) أخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعنا) وهو بمض من حديث طويل . فانظروا .

على كلِّ ، نَبِيُّنَا ﷺ ، وَإِنَّمَا نَكْرُ تَلَطُّفَاهُ ، حَتَّى لَا يُوَاجِهَ بِالْمَعْتَابِ . وَقُرِئَ (أُسَارَى) . وَمَعْنَى (يُثَخِّنُ فِي الْأَرْضِ) يَكْثُرُ الْقَتْلُ وَيَبَالِغُ فِيهِ ، حَتَّى يَبْذُلَ الْكُفْرَ ، وَيَقْلُعَ عِزَّهُ ، وَيَبْزِ الْإِسْلَامَ ، وَيَسْتَعْوِلَ أَهْلَهُ . يَقَالُ : أَتَخْنُ فِي الْمَدْوَةِ ، بِالْبَالِغِ فِي قَتْلِهِمْ . كَأَنَّ (الْأَسَاسَ) . وَأَتَخْنُ فِي الْأَرْضِ قِتْلًا إِذَا بَالِغٌ . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : أَتَخْنُ إِذَا غَلَبَ وَقَهَرَ .

قَالَ الرَّازِيُّ : وَإِنَّمَا حَمَلَهُ الْأَكْثَرُونَ عَلَى الْقَتْلِ ، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا تَقْوَى بِهِ . قَالَ الْمُتَنَبِّئِيُّ :

لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يَرِاقَ عَلَى جَوَارِيهِ الدَّمُ

وَلِأَنَّهُ يُوجِبُ قُوَّةَ الرَّعْبِ ، وَشِدَّةَ الْمَهَابَةِ ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى « تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّنْيَا » أَي مَقَاعَهَا الرَّائِلَ ، بِفِدَاءِ أُسَارَى بَدْرٍ . وَ(المرض) مَا لَا ثَبَاتَ لَهُ وَلَوْ جَسَمًا . وَمِنْهُ اسْتِعَارَ الْمُتَكَاثِمُونَ (المرض) الْمَقَابِلَ (لِلجَوْهَرِ) ، قَالَهُ الشَّهَابُ . « وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » أَي يُرِيدُ لَكُمْ نَوَابِهَا « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أَي غَالِبٌ عَلَى مَا أَرَادَ « حَكِيمٌ » أَي فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ عِبَادَتَهُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

[٦٨] لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

« لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ » أَي لِأَصَابِكُمْ « فِيمَا أَخَذْتُمْ » أَي بِسَبِيهِ ، وَهُوَ الْفِدَاءُ « عَذَابٌ عَظِيمٌ » أَي شَدِيدٌ ، بِقَدْرِ إِبْطَالِكُمُ الْحِكْمَةَ الْعَظِيمَةَ ، وَهِيَ قَتْلُهُمْ ، الَّذِي هُوَ أَعَزُّ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَهْيَبُ لِمَنْ وَرَاءَهُمْ ، وَأَفْلَسُ لَشُوكَتِهِمْ . وَالْمُرَادُ بِ(الْكِتَابِ) الْحَكْمُ ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ . وَلِأَنَّهُ التَّفْسِيرُ أَقْوَالٌ فِي تَفْسِيرِهِ . فَقِيلَ : هُوَ أَنَّهُ لَا يَمُذَّبُ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيمِ النَّهْيِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ نَهْيٌ عَنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : هُوَ أَنَّهُ لَا يَمُذَّبُ الْخَطِيءُ فِي اجْتِهَادِهِ . وَقِيلَ : هُوَ كَوْنُ أَهْلِ بَدْرٍ مَغْفُورًا لَهُمْ . وَقِيلَ : هُوَ حُلُّ الْمُنَافِقِ . وَلِلرَّازِيِّ مَنَاقِشَةٌ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ . وَاخْتَارَ أَنْ (الْكِتَابَ) هُوَ حَكْمُهُ فِي الْأَزْلِ بِالْعَفْوِ عَنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، لِأَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، وَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ .

أقول : لعل الأُمسَ في تهويل ما اكتسبوه ، تفسير (الكتاب) بما في قوله تعالى^(١) :
« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .
والله أعلم .

تنبيهات :

الأول - قال الرازي : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قليلين . فلما كثروا وقوى سلطانهم ، أنزل الله بعد ذلك في الأسارى^(٢) (حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُواهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مِنْهُمَا بِعَدُوٍّ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) .
وأقول : هذا الكلام يوم أن قوله (فَإِمَّا مِنْهُمَا بِعَدُوٍّ وَإِمَّا فِدَاءٌ) يريد حكم الآية التي نحن في تفسيرها . وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كليهما تدلّ على أنه لا بد من تقديم الإِثْنان ، ثم بعده أخذ الفداء . انتهى .

وقال بعضهم : لا تظهر دعوى النسخ من أصلها ، إذ النهي الضمني ، كما هنا ، مقيد ومُغَيَّرٌ بالإِثْنان . أى كثرة القتال اللازمة لها قوة الإسلام وعزته . وما في سورة القتال من التخيير ، محله بعد ظهور شوكة الإسلام بكثرة القتال ، فلا تعارض بين الآيتين ، إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا . نقله في (الفتح) .

الثاني - قال القاضي : في الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرّون عليه .

الثالث - قال ابن كثير : وقد استمرّ الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ؛ أن الإمام غيرَ فيهم ، إن شاء قتل ، كما فعل بيبي قريظة ، وإن شاء فادى بمال ، كما فعل بأسرى بدر ، وعن أسرى من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردها وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] . (٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة - وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر في موضعه .

الرابع - قال بعض مفسري الزيدية : في هذه الآية سؤال وهو أن يقال : إن كان فعلهم اجتهداً وخطأً ، فلم عوتبوا ؟ ويلزم أن لا معصية . وإن تمكنوا من العلم وقصروا ، فكيف أفرّهم الرسول ﷺ ؟ وجواب ذلك من وجهين :
الأول - عن أبي علي : أن ذلك كان معصية صغيرة . قال الحاكم : وكانوا متمكنين من العلم ، إذا ما عاتبهم .

وقيل : كان خطأً وقصروا فموتبوا على التقصير انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » أي كلوا بمضه ، بعد إخراج الخمس حلالاً ، أي مطلقاً عن العتاب والعقاب ، من (حل المقال) . (طَيِّبًا) أي لذبذاً هنيئاً . أو حلالاً بالشرع ، طيباً بالطبع . قيل : هذا الأمر تأكيد لحل الغنائم ، لأنه علم مما تقدم من قوله (وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ . . .) الآية - وإشارة لاندراج مال الفداء في عمومها ، فـ (مَا غَنِمْتُمْ) هنا ، إما الفدية ، لأنها غنيمة ، أو مطلق الغنائم . والراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . وجعل الفاء عاطفة على سبب مقدر ، أي أبحث لكم الغنائم ، فكلوها - قد يستغنى عنه بمطغه على ما قبله لأنه بمنه ، أي لا أوأخذكم بما أخذ من الفداء فكلوه . كذا في (العناية) . قال أبو السمود : والأظهر أنها للمطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي دعوه فكلوها مما غنمتم . ثم قال : وقيل (ما) عبارة عن الفدية ، فإنها من جملة الغنائم ، ويأباه انساق النظم الكريم وسياقه . انتهى . وهو متجه .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى فى مخالفة أمره ونهيهِ « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لكم ويرحمكم إذا اتقيتموه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ » أى لمن فى ملكتكم ، كان أيدىكم قابضة عليهم وذلك تخليصاً لهم من أسر الضلال بضمف الإيمان « إِنَّ يَعْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا » أى قوة إيمان وإخلاصاً فيه « يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ » أى من الفداء ، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضاعافه ، أو يثيبكم فى الآخرة « وَيَغْفِرَ لَكُمْ » وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِن يُرِيدُوا » أى الأسرى « خِيَانَتَكَ » أى نكت ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة ، أو منع ما ضمنوا من الفداء « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ » أى من قبل (بدر) بالكفر به « فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ » أى فأمكنتك منهم ، أى أظفرك بهم قتلا وأسرا ، كما رأيتم يوم بدر ، فسيتمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بما فى بواطنهم من إيمان وتصديق ، أو خيانة ونقض عهد . حكيم يجازى كلا بعمله ، الخير بالثواب ، والشر بالعقاب .

روى ابن هشام في (السيرة) أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له . فنّ رسول الله ﷺ عليه .
وقال ابن إسحاق : كان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس ، وذلك أنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً .

وفي صحيح البخاري^(١) عن أنس أن رجلاً من الأنصار قالوا : يا رسول الله ! ائذن لنا ، فلفتيك لابن أختنا عباس فداءه . قال : لا والله ! لا تذرّون منه درهما .
وروى ابن إسحاق^(٢) أن العباس قال : يا رسول الله ! قد كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهره فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل وحليفك عتبة . قال : ما ذاك عندي يا رسول الله ! قال : فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنته لبيّتي : الفضل وعبد الله وقثم ؟ قال : والله ! يا رسول الله ، إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا شيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل ، فاحسب لي ، يا رسول الله ، ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معي . فقال رسول الله ﷺ : لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك .

ففتدى نفسه وابني أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل فيه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ ...) الآية .

قال العباس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام ، عشرين عبداً كلهم في يده مال ، يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

(١) أخرجه في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٢ - باب حدثني خليفة ، حديث رقم ١٢٤٥

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٣٣١٠ (طبعة المعارف) .

وروى ابن إسحاق أيضاً أن العباس كان يقول : في نزلت ، والله ! حين ذكرت
لرسول الله ﷺ إسلامي .

وروى ابن جريج عن عطاء ابن عباس ؛ أن عباساً وأصحابه قالوا للنبي ﷺ : آمنا
بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحن لك على قومنا ، فأنزل الله تعالى (١) (إِنْ
يَمْلِكِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .) الآية . قال ، فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم
تنزل فينا ، وأن لي الدنيا ، لقد قال : (يَوْمَ تَكُونُ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) فقد أعطاني خيراً
مما أخذ مني مائة ضعف . وقال : (وَيَغْفِرَ لَكُمْ) وأرجو أن يكون قد غفر لي .

وروى البيهقي عن أنس (٢) قال : أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه
في مسجدى . قال ، وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت
إليهم ، فلما قضى الصلاة جاء مجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس
فقال : يا رسول الله ! أعطني ، فاديت نفسي ، وفاديت عقيلاً ، فقال رسول الله ﷺ : خذ !
فخفا في ثوبه ، ثم ذهب يقله ، فلم يستطع . فقال : مرّ بعضهم يرفعه إلى ، قال : لا ، قال :
فارفعه أنت علي ، قال : لا ! فنثر منه ، ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله
ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه ، عجباً من حرصه .

فما قام رسول الله ﷺ وشم منها درهم . وفي رواية : وما بعث إلى أهله بدرهم .
ورواه البخاري (٣) تعليقا .

وفي رواية : فجعل العباس يقول وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ،
وما ندري ما يصنع في الأخرى !

ثم ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين وأنصار فقال :

(١) [٨ / الأنفال / ٧٠] . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة

٤ - باب ما أقطع النبي ﷺ من البحرين وما وعد من مال البحرين ، حديث رقم ٢٧٧ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُكُمْ مِثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
 « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا » أى من مكة إلى المدينة لعمر الله ورسوله « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى طاعته « وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا » أى وطنوا المهاجرين وأزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم « أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى يتولى بعضهم بمصافى النصرة والمظاهرة ، ويقوم مقام أهله ونفسه ، ويكون أحق به من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق^(١) : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تأخوا أخوين أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبى طالب فقال : هذا أخى . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعم النبي ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى النبي ﷺ أخوين . وإليه أوصى حمزة يوم (أُحُد) حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت . وجعفر ذو الجناحين الطيار فى الجنة ومعاذ بن جبل أخوين . وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين . وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزيبر بن العوام وسلمة

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ (طبعة جوتنجن) والمصنعة رقم ١٥٠

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

ابن سلامة أخوين ، أو عبدالله بن مسعود وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين وطلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوين . ومصعب ابن عمير وأبو أيوب الأنصارى أخوين . وأبو حذيفة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفارى والمُنذر بن عمرو أخوين . وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين . وحاطب بن أبى بلتمه وعويم بن ساعدة أخوين . وبلال الحبشى وأبو رويحة الخثعمى أخوين :

ولما خرج بلال إلى الشام ، وأقام فيها مجاهداً ، قال له عمر : إلى من نجعل ديوانك ؟ قال : مع أبى رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوة التى كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبينى . فضم إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لكان بلال منهم . قال ابن إسحاق . فهؤلاء من سمى لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .
تأنيده :

نقل الواحدى عن ابن عباس وغيره ، أن المراد من هذه الولاية ، هى الولاية فى الميراث . قال ابن كثير : لما تكاثروا كانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث . ثبت ذلك فى صحيح البخارى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وفتادة وغير واحد .

قال الخفاجى : فكان المهاجرى يرثه أخوه الأنصارى ، إذ لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجرى . واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعد ، إذ لم تكن هجرة . و (الولى) القريب والناصر . لأن أصله القرب السكانى ، ثم جعل للمعنوى ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ ، فى أول الإسلام ، العناصر الدينى أخوة ، وأثبت لها أحكام الأخوة الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل إن هذا التفسير لا تساعد اللغة ، فالولاية على هذا ، الورثة المسببة عن القرابة الحكمة . انتهى .

ومراد به (ما قيل) ما ذكره الرازي في تضعيف تفسير الولاية بالوراثة ، حيث قال :
واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى ، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قرئناه
في مواضع من هذا الكتاب . ويقال : السلطان ولي من لا ولي له ، ولا يفيد الإرث . وقال
تعالى (١) : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا يفيد الإرث ،
بل الولاية تفيد القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً للبعض ،
مهماً بشأنه ، مخصوصاً بماوته ومناصرته . والقصود أن يكونوا يبدأ واحدة على الأعداء ،
وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه . وإذا كان اللفظ محتجلاً لهذا المعنى ،
كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، لاسيما وهم يقولون : إن ذلك الحكم صار منسوخاً
بقوله تعالى في آخر الآية : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) (٢) وأي حاجة تحملنا
على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به ، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى
مذكورة معه ؟ هذا في غاية البعد ، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد بذلك ،
حينئذ يجب التصير إليه . إلا أن دعوى الإجماع بعيدة . انتهى .

وأقول : لعموم هذا الخطاب ونظمه وجه في إثبات التوارث ، لا سيما وقد نفى تعالى
ولاية من لم يهاجرتقياً استغرق أقرب الأقارب حيث قال : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا »
أي بأن أقاموا في بواديهم « مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا » أي إلى
المدينة . وقوله تعالى : « وَإِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَمَلِكُكُمْ النَّصْرُ » أي إذا استنصركم
هؤلاء الأهراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم
المشركين ، لأنهم إخوانكم في الدين « إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أي عهد
ومهادنة إلى مدة ، فلا تميزونهم عليهم ، لئلا تخفروا ذمتكم ، وتنتقضوا عهدكم « وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فلا تخالفوا أمره .

(١) [١٠ / يونس / ٦٢] . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

تنبيهات :

الأول - احتج من ذهب إلى أن المراد من قوله تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ) أى من توليتهم في الميراث ، وأنه هو المراد في الآية السابقة أيضاً ، بقوله تعالى : (وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) فإن هذا موالاة في الدين ، فحينئذ لا يجوز حمل الموالاة المنفية ، على النصرة والمظاهرة ، لأنها لازمة لكل حال السكلا الفريقين . وأجاب الرازى بما معناه : إن الولاية هنا ليس المراد بها مطلق التولى حتى يرد ما ذكره ، بل عني بها معنى خاص ، وهو علاقة شديدة ، ومحبة أكيدة ، وإيثار قوى ، وأخوة وثيقة . ولا يلزم من النصر التولى . فقد ينصر المرء ذمياً لأمر ما ولا يتولاه ، ويدافع عن عبده أو أمته وبعينهما ولا يتولاهما - والله أعلم -

الثاني - يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطلب من كل من آمن من البادين أن يهاجر ، ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فتتقوى بألفتهم شوكتهم ، ولم يزل طلب الهجرة إلا بفتح مكة ، لقوله ﷺ : لا هجرة بعد فتح مكة . رواه البخاري^(١) عن مجاشع بن مسعود .

الثالث - شمل نفي الموالاة عن الذين لم يهاجروا وقتئذ ، حرمانهم من المغنم والفى . روى الإمام أحمد^(٢) عن بريدة بن الحصيْب الأسلمي رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ

(١) حديث مجاشع بن مسعود أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٠ - باب البيعة في الحرب ألا يفرّوا ، حديث رقم ١٤١٣ ورقم ١٤١٤ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٨٤٠٨ (طبعنا) . ونصه : قال : أتيت النبي ﷺ أبايه على الهجرة فقال « إن الهجرة قد مضت لأهلها » . وأما حديث « لا هجرة بعد الفتح » فقد رواه البخاري عن ابن عباس في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١ - باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبعث معه من المسلمين خيراً .
وقال : اغزوا بسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيت عدوك من المشركين
فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتها ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ادعهم
إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم من التحول من دارهم
إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ، أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على
المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم .
حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا
مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم ، وكف عنهم ،
فإن أبوا فاستمن بالله وقاتلهم .

قال ابن كثير : انقرد به مسلم^(١) ، وعنده زيادات أخر .

الرابع - قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو ، والباقون بفتحها .

قال الشهاب : جاء في اللغة : (الولاية) مصدراً بالفتح والكسر ، ف قيل : هما لغتان
فيه بمعنى واحد ، وهو القرب الحسى والمعنوى ، وقيل : بينهما فرق ، فالفتح ولاية مولى
النسب ونحوه . والكسر ولاية السلطان . قاله أبو عبيدة . وقيل الفتح من النصرة والنسب .
والكسر من الإمارة . قاله الزجاج . وخطأ الأصمعي قراءة الكسر ، وهو الخطأ لتواترها .
واختلفوا في ترجيح إحدى القراءتين . ولما قال المحققون من أهل اللغة : إن (فعالة) بالكسر
في الأسماء لا يحيط بشيء ، ويجعل فيه كالفاف والمهمة . وفي المصادر يكون في الصناعات
وما يزاو بالأعمال ، كالكتابة والخياطة - ذهب الزجاج ونسبه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها
إلى تمرن وتدريب شبهت بالصناعة ، فلذا جاء فيها الكسر ، كالإمارة . وهذا يحتمل أن
الواضع حين وضعها شبهها بذلك ، فتكون حقيقة . ويحتمل - كما في بعض شروح الكشاف -
أن تكون استمارة ، كما سموا الطب صناعة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد والمير ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى فلا يقولواهم إلا من كان منهم ، ففيه إشارة إلى نهى المسلمين عن موالاتهم . وإيجاب مباعدهم ومصارمتهم ، وإن كانوا أقارب وقد استدل به على أنه لا توارث بين المسلمين والكفار .

روى الحاكم فى (مستدركه) عن أسامة عن النبى ﷺ قال : لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . رواه الشيخان عنه ^(١) بلفظ : لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم .

وقوله تعالى : « إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل ، وتولى بعضكم بعضاً ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين مالم يصيروا يداً واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهراً ، والفساد زائداً ، فى الاعتقادات والأعمال .

وقيل : الضمير المنصوب للميثاق أو حفظه أو النصر أو الإثبات . وقيل إنه للإستنصار المفهوم من الفعل . والفتنة : إهمال لمؤمنين المستنصرين بنا ، حتى يسلط علينا الكفار . إذ فيه وهن للدين .

قال الشهاب : وفيه تكلف ، أى فالأوجه عوده للتولى والتواصل - كما بينا - .

قال الرازى : بيان هذه الفتنة والفساد عن وجوه :

الأول - أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار فى زمان ضعف المسلمين ، وقلة عددهم ، وزمان قوة الكفار ، وكثرة عددهم ، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار .

(١) الحديث رواه مسلم عن أسامة بن زيد فى : ٢٣ - كتاب الفرائض ، حديث رقم ١ (طبعنا) ولم يخرج به البخارى .

الثاني - أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم ، فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفار عليهم .
الثالث أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم في الزيادة في العدد والعدد صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ، ورغبة المخالف في الالتحاق بهم . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » عودٌ لذكر المهاجرين والأنصار ، للثناء عليهم ، والشهادة لهم ، مع الموعد الكريم . فلا تكرار ، لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم ، فذكرهم هاهنا لبيان تعظيم شأنهم ، وعلو درجاتهم .
قال الرازي : وبيانه من وجهين :

الأول - أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .
والثاني - وهو أنه تعالى أثنى عليهم هاهنا من ثلاثة أوجه :

أولها - قوله « أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فقله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يفيد الحصر ، وقوله (حَقًّا) يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محققين محققين في طريق الدين ، وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محققاً في دينه ، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين .
وثانيها - قوله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) والتذكير يدل على السكال ، أي مغفرة تامة كاملة .

وثالثها - قوله (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والمراد منه الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

وقد أثنى تعالى على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه الكريم .
والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ ،
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ » أى من جملةكم ،
أى المهاجرون والأنصار ، فى استحقاق ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة ، وكلال الإيمان
والمغفرة والرزق الكريم .

وهل المراد من قوله (مِن بَعْدُ) هو من بعد الهجرة الأولى ، أو من بعد الحديبية .
وهى الهجرة الثانية ، أو من بعد نزول هذه الآية ، أو من بعد يوم بدر ؟ أقوال - واللفظ
الكريم يعمها كلها ، والتخصيص بأحدها تخصيص بلا مخصص . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح ، أو فى القرآن ،
لأن (كتاب الله) يطلق على كل منها « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فيقضى بين عباده بما
شاء من أحكامه التى هى منتهى الصواب والحكمة والصلاح .

تنبيهات :

الأول إن هذه الآية ناسخة للميزات بالموالاة والمناصرة عند من فسر ما تقدم من قوله
(بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) وما بعده بالتوارث .

أخرج أبو داود^(١) من حديث ابن عباس قال : كان الرجل يحالف الرجل ، ليس بينهما

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ - كتاب الفرائض ، ١٦ - باب نسخ مبرات العقد

بمبرات الأرحام ، حديث رقم ٢٩٢١ .

نسب ، فيرث أحدهما من الآخر، فنسخ ذلك آية الأنفال فقال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ...) الخ
إلا أن في إسناده من فيه مقال .

وأما من فسر الموالة المتقدمة بالنصرة والمعونة والتعظيم ، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض . وذلك أن تلك الآية ، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث ، بين الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة ، إلا ما خصه الدليل ، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم .

قال الرازي : وهذا أولى . لأن تكثير النسخ ، من غير ضرورة وحاجة ، لا يجوز .
الثاني - استدل بالآية من ورث ذوى الأرحام ، وهم من ليسوا بمصبات ، ولا ذوى سهام . قال : وبعضه حديث^(١) : (الخال وارث من لا وارث له) . وأجاب من منع تورثهم بأن المراد من الآية من ذكر الله من ذوى السهام والمصبات . ومن الحديث : (من كان وارثه الخال فلا وارث له) . ورد بأنها عامة فلا موجب للتخصيص ، وبأن معنى الحديث : من كان لا وارث له غيره ، لحديث : (أنا عماد من لا عماد له) .

ثم إن الذين أثبتوا ميراثهم اختلفوا في أنهم هل يرثون بالقرب ، أو بالتزويل ، وهل يرث القرب مع البعيد ، وهل يفضل الذكر على الأنثى أو لا ؟ والآية محتملة . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

قال ابن كثير : ليس المراد بقوله : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا عصبية ، بل يدلون بوارث كالخال والخالة ، والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم ، كما يزعمه بعضهم ، ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة . بل الحق أن الآية عامة ، تشمل جميع القرابات ؛ كما نص عليه ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود في : ١٨ - كتاب الفرائض ، ٨ - باب في ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ عن المقدم السكندی .

ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث^(٢) : (إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك ، لم يكن وارثاً . انتهى .

ولا يخفى ضعف هذا الاستدلال ، إذ لا يلزم من ثبوت الحق تعيين الفرض . على أن معنى الحديث ، أعطى كل ذى حق حقه مفصلاً ومجماً ، وقد أعطاهم حق الأولوية العامة ، ووكل بيان ما يفهم من إجمال الإرث بعمومها لاستنباط الراسخين وفهمهم على قاعدة عمومات التنزيل .

وقد رأيت في هذه المسألة مقالة بديعة أوردها الحسن الصابئ في (تاريخ الوزراء) في أخبار وزارة أبي الحسن بن الفرات ، نأثرها هنا ، لأنها جمعت فأوعت ، قال رحمه الله : ونسخة ما كتب به أبو خازم إلى بدر المعتضدى جواب كتابه إليه في أمر الموارث : وصل كتاب الأمير ، يذكر أنه احتجج إلى كتابي بالذى أراه واجبا من مال الموارث لبيت المال ، وبالا أراه واجباً منه ، وتلخيص ذلك وتبيينه - وأنا أذكر للأمير الذى حضرني من الجواب في هذه المسألة والحجة فيما سأل عنه ليقف على ذلك إن شاء الله - .

الناس مختلفون في توريث الأقارب ، فروى عن زيد بن ثابت أنه جمل التركة - إذا لم يكن للمتوفى من يرثه من عصبه وذى سهم - لجماعة من المسلمين وبيت مالهم . وكذلك يقول في الفصل بعد الشَّهْمَانِ المسماة ، إذا لم تكن عصبية . ولم يرو ذلك عن أحد من الصحابة سوى زيد بن ثابت . وقد خالفه عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وجعلوا ما يفضل من الشَّهْمَانِ رداً على أصحاب السهم من القرابة ، وجعلوا

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٦ - باب ما جاء في الوصية للوارث ،

حديث رقم ٢٨٧٠ .

المال لدى الرحم إذا لم يكن وارث سواء . والسنة تعاضد ما روى عنهم ، وتحالف ما روى عن زيد بن ثابت وتأويل القرآن يوجب ما ذهبوا إليه . وليس لأحد أن يقول في خلاف السنة والتأويل بالرأى . قال الله تعالى (١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فصيّر القريب أولى من البعيد . وإلى هذا ذهب عمر وعليّ وعبد الله رضي الله عنهم ومن تابعهم من الأئمة ، وعليه اعتمدوا ، وبه تمسكوا - والله أعلم .

ولو كان في هذه المسألة ما يدل عليه شاهد من الكتاب والسنة ، لكان الواجب تقليد الأفضل والأكثر من السابقين الأولين ، وترك قبول من سواهم ممن لا يلحق بدرجتهم بسابقته . وإذا ردّ أمر الناس إلى التأخير من أقاويل السلف فهل يحيل أو يشكل على أحد أن زيداً لا يبقى علمه بلم عمر وعليّ وعبد الله ؟ وإذا فضلوا في السابقة والمهجرة ، فن أن وجب أن يؤخذ بما روى عن زيد بن ثابت ، وأطراح ما روى عنهم ، وقد استدلوا مع ذلك بالكتاب فيما ذهبوا إليه ، وبالسنة فيما أفتوا به ؟ والرواية نابعة عن النبي صلى الله عليه وسلم بتورث من لا فرض له في الكتاب من القرابة . فن ذلك ما ذكر لنا عن مساوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي عامر الهروي عن المقدم بن معدى كرب عن النبي ﷺ (٢) أنه قال : الخال وارث من لا وارث له يرث ماله ، ويمقل عنه . وكذلك بلغنا عن شريك ابن عبد الله عن ليث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله . وعن ابن جريج عن عمر بن سلم عن طاوس عن عائشة أن النبي ﷺ قال مثل ذلك . وذكر عن عبادة بن أبي عباد عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع ابن حبان قال : توفي ثابت بن أبي الدحداح ، فقال النبي ﷺ لعاصم بن عدي : أله فيكم نسب ؟

(١) [٨ / سورة الأنفال / ٧٥] . (٢) أخرجه أبو داود في : ١٨ - كتاب الفرائض ،

٨ .. باب في ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ .

قال : فدفع تركته إلى ابن أخته . فقد أوجب عليه السلام ، بمانقلته عنه هذه الرواية ، توريث من لا سهم له من القرابة مع عدم أصحاب السهمان الميئنة في الكتاب . وأعطى الجدة السدس من الميراث ، ولا فرض لها ، وفي ذلك الاتفاق ، وفيما صير لها من السدس ، دليل على أن من لا سهم له من القرابة في معناها ؟ إذا بطلت السهام ، ولم يكن من أهلها ، وأنه أولى بالميراث من الأجنبي .

والمرئى عن زيد بن ثابت أنه جعل الفضل عن سهام الفرائض ، وكل المال ، إذا سقطت السهام بعد أهلها ، لجماعة المسلمين . فجعلهم كلهم وارثا ، وجعل ما يصير لهم من ذلك - في خلاف مال النىء المصروف إلى الشحنة وأرزاق المقاتلة وإلى المصالح إذا كان ذلك - يكون فيها روى عنه للناس كانه ، وعددهم لا يحصى ، فغير ممكن أن يقسم ذلك فيهم وهم متفرقون في أقطار الأرض ، مشارقها ومغاربها . وإذا امتنع ذلك وخرج إلى ما ليس بممكن ، فسد وثبت ما قلناه من قول أكبر الأئمة . وقد تأول بعض المتأولين قول الله تعالى (١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فقال فيه : كان الناس يتوارثون بالهلف دون القرابة . فلما أوجب الله الموارث لأهلها من الأقارب ، مُنِعَ الحليف بما فرض من السهمان فغلطوا وصرفوا حكم الآية إلى الخصوص ، فذلك غير واجب مع عدم الدليل ، لأن مخرجها في السمع مخرج المموم .

وبعد ، فلو كان تأويلها ما ذهبوا إليه ، وكانت السهام التي نسخت ما يرثه الحليف قبل نزول الفرائض ، لوجب في بدء ، وما قالوا إذا كان لا وارث الميت من أصحاب السهام أن يكون الحليفان في التوارث على أول فرضهما ، وعلى المقدم من حكمهما ، لأن الذى منعهما إذا ثبت هذا التأويل (من له سهم) دون (من لا سهم له) ، فإذا ارتفع المانع ، رجع الحكم إلى بدئه . ولا اختلاف بين الفريقين أن الحليف لا يرث الحليف اليوم ، وإن كان لا وارث سواء ، وهذا يدل على فساد تأويلهم ، وعلى أن المراد في الآية التي أوجبت الحق للأقارب غير الذى ذهبوا إليه ، فإن الله سبحانه إنما أراد بمعناها اختصاص القريب بالإرث دون البعيد .

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

وقد يلزم من ذهب إلى الرواية عن زيد ، وترك الرواية عن عمر وعلى وعبد الله عليهم السلام جانباً ، وأسقط التعاقل بين الأجنبي والقريب ، أن يجعل ذا الرحم أولى ، لأنه لا يفضل الأجنبي بالقربة . وترتيب الموارث في الأصل يجري على من تقدمه من فضل غيره في المناسبة ، كالأخ للأب والأم ، والأخ للأب ، وابن المم للأب والأم ، وابن المم للأب ، واختصاصهما قرابة أولاهما بالميراث عند جمع الجميع . قال الله تعالى ^(١) : (يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ خَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) وولد الولد ، من سفلى منهم ومن ارتفع ، يعمهم هذا الاسم ، إلا أن الأقرب منهم ، في معنى الآية ، أحق من الأبعد . فإذا كان ذلك كذلك ، كان القريب أولى من الأجنبي بالتركة للرحم التي تقرب بها دونه .

وبعد ، فإن العلماء تقر يسير لا يعرفون الصواب في هذه المسألة ، إلا فيما روى عن الخليفين عمر وعلى صلوات الله عليهما ، وما روى عن ابن مسعود ، ثم لم يقتصرُوا في المبالغة والدليل في توريث ذى الرحم ، إلا على ما روى عن عبد الله بن عباس ، جد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وترجمان القرآن ، وبحر العلم ، ومن كان إذا تكلم سكت الناس ، ومن دعا له النبي ﷺ فقال ^(٢) : اللهم ! فقهه في الدين وعلمه التأويل . ودعوة النبي ﷺ مستجابة . ومن كان أعلم بتأويل القرآن فاتباعه فيه أوجب . وقد روى عن ابن عباس مثل ذلك من قول عمر وعلى

(١) [٤ / النساء / ١١] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ١٧ - باب

قول النبي ﷺ « اللهم ! علمه الكتاب » ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب .

وفي : ٤ - كتاب الوضوء ، ١٠ - باب وضع الماء عند الخلاء ، ونصه : اللهم فقهه في الدين .

وفي : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٢٤ - باب ذكر ابن عباس ، ونصه :

اللهم ! علمه الحكمة .

وفي : ٩٦ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب ،

والحديث رقم ٦٥ . أما النص الذي أورده المؤلف فلم أعثر عليه .

وعبد الله والجماعة . وما زالت الخلفاء من أجداد أمير المؤمنين ، أعزه الله ، يستقضون الحكم ، فيقضون رد الموارث على الأقارب ، ولا ينكرون ذلك على من قضى به من قضائهم ، ولا تردونه متجاوزاً للحق فيه ، وما عرفت الجماعة بغير هذا الاسم إلا منذ نحو عشرين سنة . وأمير المؤمنين أولى من اتبع آثار السلف ، واقتدى بخلفاء الله ، ومال إلى أفضل المذهبين ، وإلى الله الرغبة في عصمة الأمير ، وتسديده ، والحمد لله رب العالمين . انتهى .

ونقل أبو الحسن الصابي قبل نسخة أبي الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة في الموارث ، وفيها نقل ما كتبه عبد الحميد في كتاب موارث أهل الملة ، وأنه حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم ومن اتبهم من الأئمة الهادين رحمة الله عليهم ، رأوا أن يردّ على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل عن السهام المفترضة في كتاب الله تبارك وتعالى من الموارث ، إذا لم يكن للمتوفى عَصَبَةٌ يحوز باقي ميراثه ، وجعلوا ، رضى الله عنهم ، تركه من يتوفى ولا عَصَبَةٌ له لذوى رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم ، ممثلين في ذلك أمر الله سبحانه إذ يقول ^(١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . وسنة رسول الله ﷺ في توريثه من لا فرض له في كتاب الله تعالى من الخلال وابن الأخت والجدّة . انتهى .

الثالث - استدلل بالآية الإمامية ، على تقديم الإمام على كرم الله وجهه على غيره في الإمامة ، لاندراجها في عموم الأولوية . والجواب - على فرض صحة هذه الدلالة - أن العباس رضى الله عنه كان أولى بالإمامة ، لأنه كان أقرب إلى رسول الله ﷺ من عليّ رضى الله عنه .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٩ - سورة التوبة

هي مدنية بإجماعهم . قيل : سوى آيتين في آخرها ^(١) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ . . .) فإنهما نزلتا بحكمه . وفيه نظر . فقد روى البخاري ^(٢) عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، واستثنى بعضهم (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ . . .) ^(٣) الآية - لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي طالب : لأسئغنك لك ما لم أنه عنك . وهي مائة وتسع وعشرون آية وهذه السورة عشرة أسماء :

- ١ - براءة : سميت بها لافتتاحها بها ، ومرجع أكثر ما ذكر فيها إليها .
- ٢ - التوبة : لتكرارها فيها ، كقوله تعالى ^(٤) (فَإِنْ تَابْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) ^(٥) وقوله ^(٦) (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) وقوله ^(٧) (فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ) وقوله ^(٨) : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وقوله ^(٩) : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) ، وقوله ^(١٠) : (أَلَمْ يَمْلِكُوا أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) وقوله ^(١١) : (الْقَائِمُونَ الْعَائِدُونَ) وهما أشهر أسمائها .

٣ - الفاضحة : أخرج البخاري ^(١٢) عن سميد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة

- (١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ،
- ٩ - سورة التوبة ، ١ - باب قوله بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حديث ١٩٤١ . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٤) [٩ / التوبة / ٣] .
- (٥) [٩ / التوبة / ١١٥] . (٦) [٩ / التوبة / ٢٧] . (٧) [٩ / التوبة / ٧٤] .
- (٨) [٩ / التوبة / ١٠٢] . (٩) [٩ / التوبة / ١١٧] . (١٠) [٩ / التوبة / ١٠٤] .
- (١١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (١٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ،

٥٩ - سورة الحشر ، ١ - حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حديث رقم ١٨٦٩ .

التوبة ، قال : التوبة هي الفاضحة ، ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها .

٤ - سورة العذاب : رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

٥ - المقشقة : رواه أبو الشيخ عن ابن عمر ، والمقشقة معناها التبرئة ، وهي مبرئة من النفاق .

٦ - المقررة : أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير لأنها نقرت عما في قلوب المشركين . أى بحث .

٧ - البجوت : يفتح الباء ، صيغة مبالغة ، رواه الحاكم عن المقداد

٨ - الحافرة : ذكره ابن الفرس ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ، أى بحث عنها ، مجازاً

٩ - المثيرة : رواه ابن أبي حاتم عن قتادة لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم أى أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

١٠ - المبعثرة : لأنها بعثت أسرارهم أى أظهرتها .

١١ - الدمدمة : أى المهلكة لهم .

١٢ - المحزبة .

١٣ - المنكلة : أى المعاقبة لهم .

١٤ - المشردة : أى الطاردة لهم والفرقة جمعهم .

وليس في السور أكثر أسماء منها ومن الفاتحة .

تنبيهه :

للسلف في وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها أقوال :

١ - روى الحاكم في (المستدرک) عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب : لم

لَمْ تَكْتُبْ فِي (براءة) البسملة ؟ قال : لأنها أمان . وبراءة نزلت بالسيف . أى فتروها لرفع

الأمان الذي يأتي مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى، مشفوعاً بوصف الرحمة. ولذا قال ابن عيينة: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبد والحاربة. قال الله تعالى^(١): (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) قيل له: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب البسمة. قال: إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم، ولم ينبذ إليهم. ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى؟ فن دعى إلى الله عز وجل فأجاب، ودعى إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، فظهر الفرق. وكذا قال البرد: إن التسمية افتتاح للخير، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهد، فلذلك لم تفتتح بالتسمية.

٢ - عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأتقال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثني، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر البسمة، ووضعتموها في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضموا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية يقول: ضموا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت (الأتقال) من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وظننت أنها منها. وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها، من أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب البسمة، ووضعتما في السبع الطوال. أخرجه أبو داود^(٢) والترمذي^(٣) وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد^(٤) والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه. [١] (٤ / النساء / ٩٤).

١٢٢ - باب من لم يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، باب من جهر بها، حديث رقم ٧٨٦. (٣) أخرجه الترمذي في: ٤٤ - كتاب التفسير، ٩٠ - سورة التوبة، ١ - حدثنا محمد بن بشار. (٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٣٩٩ (طبعة المعارف) وعلى هذا الحديث تعليق بقلم شيخنا الأستاذ أحمد شاكر في الكلام على رجال سند هذا الحديث وفي تضعيفه. فانظره فإن البحث جليل جداً.

قال الزجاج : والشبه الذى بينهما أن فى (الأنفال) ذكر اليهود ، وفى (براءة) نقضها .
٣ - أخرج أبو الشيخ عن أبي روق قال : (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة . ونقل
مثله عن مجاهد ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن سفيان . وقال ابن لهيعة : يقولون إن (براءة) من
(الأنفال) ، ولذلك لم تكتب البسملة فى (براءة) ، وشبهتهم اشتباه الطرفين ، وعدم
البسملة . ويردّه تسمية النبي ﷺ كلا منهما .

وقال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : اشتهاها بهذه الأسماء - يعنى الأربعة عشر اسماً المقدمة - يقضى
بأنها سورة مستقلة ، وليست بمعضاً من سورة الأنفال ، وادعاء اختصاص الاشتها بالقاتلين
باستقلالها ، خلاف الظاهر . انتهى .

ونقل صاحب (الإقناع) أن البسملة ثابتة (لبراءة) فى مصحف ابن مسعود ، قال :
ولا يؤخذ بهذا .

وعن مالك : أن أولها لما سقط ، سقط معه البسملة ، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة
لطولها . كذا فى (الإتيان) .

ثم اعلم أن القراء أجمعوا على ترك قراءة البسملة فى أول هذه السورة اتباعاً لسقوطها فى
الرسم من مصحف الإمام ، إلا ابن منادر ، فإنه يسمي فى أولها ، كما فى مصحف ابن
مسعود .

وقال السخاوى فى (جمال القراء) : إنه اشتهر تركها فى أول براءة .

وروى عن عاصم التسمية فى أولها ، وهو القياس . لأن إسقاطها ، إما لأنها نزلت
بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة ، بل من الأنفال . ولا يتم الأول ، لأنه
مخصوص بمن نزلت فيه ، ونحن إنما نسمى للتبرك . وأما الابتداء بما بعد أول براءة ، فلا
نص للمتقدمين من أئمة القراء فيه ، وظاهر إطلاق كثير التخيير فيها ، واختار السخاوى

الجواز ، وقال : ألا ترى أنه يجوز بغير خلاف أن يقول : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ)^(١) وإلى منعها ذهب الجعبري ، وتمعبه السخاوي فقال : إن كان نقلاً فسلم ، وإلا فرد عليه ، لأنه تفريع على غير أصل .

وقال ابن الجزري في (النشر) : من اعتبر بقاء أثر الالة التي من أجلها حذفت البسملة أولها ، وهي نزولها بالسيف ، لم يبسم . ومن لم يعتبر ذلك ، أو لم يرها ، بسم بلا نظر . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ « خبر لمحدوف ، وتنوينه للتفخيم . أى هذه براءة . أو مبتدأ مخصص بصفة ، وخبره (إلى الذين) . و (البراءة) في اللغة انقطاع العصمة ، يقال : برئت من فلان براءة ، أى انقطعت بيننا العصمة ، ولم يبق بيننا علة .

فإن قيل : حق البراءة أن تنسب إلى المماهد ، فلم لم تنسب إليهم ، ونسبت إلى الله ورسوله ؟ أجيب : بأن (عاهدتم) إخبار عن سابق صدر من الرسول ﷺ والجماعة ، فنسب إلى الكل ، كما هو الواقع ، وإن كان يأذن الله أيضاً .

وأما البراءة فهي إخبار عن متجدد ؛ فكيف ينسب إليهم ، وهم لم يحدثوه بعد ، وإنما يسند إلى من أحدثه ؟ وقال الناصر : إن سر ذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله ﷺ في مقام نسب فيه النبذ إلى المشركين ، لا يحسن أدباً . ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

لأمرء السرايا حيث يقول لهم^(١) : إذا نزلت بحسن فطلبوا النزول على حكم الله ، فأنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أو لا ! وإن طلبوا ذمة الله ، فأنزلهم على ذمتك . فَلَا نَ تَحْفَرْ ذِمَّتَكَ ، خير من أن تحفر ذمة الله !

فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوفير ذمة الله ، مخافة أن تحفر ، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوفير عهد الله ، وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ منه الله ورسوله بالأل ينسب العهد المنبوذ إلى الله - أخرى وأجدر . فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه .

وقال الشهاب : ولك أن تقول : إنما أضاف العهد إلى المسلمين ، لأن الله علم أن لا عهد لهم ، فلذا لم يصف العهد إليه ، لبرائه منهم ، ومن عهدهم في الأزل . وهذا نكتة الإتيان بالجملة اسمية خبرية . وإن قيل : إنها إنشائية للبراءة منهم ، ولذا دلت على التجدد . انتهى . قال ابن إسحاق^(٢) . نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم ، ألا يصدّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك . وكانت بين ذلك عهدود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في (تبوك) ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى سراير أقوام كانوا يَسْتَخْفُونَ بغير ما يظهرون .

- (١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .
وأخرجه أبو داود في : ١٥٠ - كتاب الجهاد ، ٨٢ - باب في دعاء المشركين ، حديث رقم ٢٦١٢
وأخرجه الترمذی في : ١٩ - كتاب السير ، ٤٧ - باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال .
وأخرجه ابن ماجه في : ٢٤ - كتاب الجهاد ، ٣٨ - باب وصية الإمام ، حديث رقم ٢٨٥٨ (طبعنا)
(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩١٩ و ٩٢٠ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ١٨٨ و ١٨٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وقال ابن كثير : وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة (تبوك) ، وهم بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ، ليقم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركون ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس (براءة من الله ورسوله) ، فلما قفل ، أتبعه بعلي بن أبي طالب ، ليكون مبلغاً عنه ﷺ ، لكونه عصبة له ، كما سيأتي .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ)

«فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» أي فقولوا لهم : سيروا في الأرض بعد نبذنا العهد آمنين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر ، وذلك من يوم النحر إلى عشر يخلون من ربيع الآخر . والمقصود تأمينهم من القتل ، وتفكرهم واحتياطهم ، ليعلموا أنهم ليس لهم بعدها إلا السيف ، وليعلموا قوة المسلمين إذ لم يخشوا استعدادهم لهم . وهذه الأربعة الأشهر كانت عهداً آمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأنتم له . فأما من كان له عهد موقت ، فأجله إلى مدته ، مهما كانت ، لقوله تعالى ^(١) : (فَأَنقِصُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ) كما يأتي . روى هذا عن غير واحد ، واختاره ابن جرير ^(٢) . وقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ،

(١) [٩ / التوبة / ٤] . (٢) انظر تفسير الطبري بالصفحة رقم ٦٢ من الجزء العاشر

(طبعة الحلبي الثانية) .

ومن كان عهده بغير أجل خُذَّ بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك . ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن .

أقول : ولا يرد عليه إطلاق قوله تعالى (إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ) ، لأن له أن يجيب بأن الإضافة للعهد ، أى المدة المهددة وهى الأربعة الأشهر . والله أعلم .

« وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » يعنى أن هذا الإمهال ليس لمعجز عنكم ، ولكن لحكمة ولطف بكم . أى فلا تفوتونه . وإن أمهلكم « وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » أى مُذِلُّهُمْ بالقتل فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » (الأذان) بمعنى الإيذان ، وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . وارتفاعه كارتفاع (براءة) وهذه الجملة معطوفة على مثلها ، والفرق بين معنى الجملة الأولى والثانية أن تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما عُلقَت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس ، من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث . كذا فى (الكشف) .

ويوم الحج الأكبر : قيل يوم عرفة ، وقيل يوم النحر .

قال ابن القيم : وهو الصواب ، لأنه ثبت في الصحيحين^(١) أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما ، أذنا بذلك يوم النحر ، لا يوم عرفة .

وفي سنن أبي داود^(٢) بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهاال والاستقالة . ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة ، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة ، لأنهم قد طهروا هن ذنوبهم يوم عرفة ، ثم أذن لهم يوم النحر في زيارته ، والدخول عليه إلى بيته ، ولهذا كان فيه ذبح القرابين ، وحلق الرؤوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج وعمل يوم عرفة ، كالطهور والغتسال بين يدي هذا اليوم . انتهى .

تنبية

روى الأئمة هاهنا آثارا كثيرة ، نأتى منها على جوامعها :

قال ابن أبي نعيم عن مجاهد : قدم رسول الله ﷺ من (تبوك) حين فرغ ، فأراد الحج ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج . حتى لا يكون ذلك : فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا بالناس في (ذي الحجاز) وبأمكنهم التي كانوا يتبايمون بها ، وبالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر ، فهي الأشهر المتواليات ،

(١) أخرجه البخاري في . ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٢ - باب قوله : فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، و ٣ - باب قوله : وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، حديث رقم ٢٤٥ .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٣٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١١ - كتاب المناسك ، ٦٦ - باب يوم الحج الأكبر ،

حديث رقم ١٩٤٥ و ١٩٤٦ .

عشرون من ذى الحجة ، إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال ، إلى أن يؤمنوا .

وروى^(١) ابن إسحاق بسنده عن أبي جعفر محمد بن عليّ رضوان الله عليه قال : لما نزلت (براءة) على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ! لو بعثت بها إلى أبي بكر ؛ فقال : لا يؤدّي عني إلا رجل من أهل بيتي . ثم دعا عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمني ، أنه لا يدخل الجفة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . فخرج عليّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ (المضياء) حتى أدرك أبا بكر الصديق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ ، فقال : أيها الناس ! إنه لا يدخل الجفة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى ما منهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة . إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطاف بالبيت عريان . ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق^(٢) : فكان هذا من أمر (براءة) فيمن كان من أهل الشرك من أهل

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢١ (طبعة جونتجن) ورقم ١٩٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٢ (طبعة جونتجن) ورقم ١٩١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

المهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

وروى البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين . بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

قال حميد : ثم أردف النبي ﷺ بعلى بن أبى طالب ، فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة : فأذن معنا على في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي رواية أخرى للبخارى^(٢) ، قال أبو هريرة : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ويوم الحج الأكبر يوم النحر . وإنما قيل (الأكبر) من أجل قول الناس - للمعرة - الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حجّ فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخارى في (كتاب الجهاد) .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي هريرة قال : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ب (براءة) فقال : ما كنتم تفادون ؟ قال : كنا نقادى : أنه لا بدخل الجنة كافر ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله يرى من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك . قال : فكنت أنادى حتى سحبل صوتي (سحبل الرجل وسحبل صوته : سحج) .

(١) أخرجه البخارى في : ٢٥ - كتاب الحج ، ٦٧ - باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ، حديث رقم ٢٤٥ . (٢) أخرجه البخارى في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ١٦ - باب كيف ينبذ إلى أهل المهد ، حديث رقم ٢٤٥ . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٩٦٤ (طبعة المعارف) .

وقوله تعالى « فَإِنْ تَبُتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى فإن تبتم أيها المشركون ، من كفرتم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد ، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك رأس الضلال والفساد « وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان وأبَيْتُمْ إلا الإقامة على ضلالكم وشرككم « فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » أى غير فائتين أخذه وعقابه « وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم « بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى موجع يحل بهم . وفيه من التهكم والتهديد ما فيه ، كيلا يظن أن عذاب الدنيا ، لوفات وزال خلصوا من العذاب . بل العذاب الشديد مُعَدٌّ لهم يوم القيامة .

ثم استثنى تعالى من ضرب مدة التأجيل ، لمن له عهد مطلق بأربعة أشهر ، من له عهد مؤقت بتأجيله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا » أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط . قال أبو السمود : وقرئ بالمعجمة ، أى لم ينقصوا عهدكم شيئا ، من (النقص) ، وكلمة (ثم) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة « وَلَمْ يُظَاهِرُوا » أى لم يعاونوا « عَلَيْكُمْ أَحَدًا » أى عدوا من أعدائكم « فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ثم حرّض تعالى على الوفاء بذلك ، منبهاً على أنه من باب التتموى بقوله سبحانه « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه فى ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِذَا انْسَلَخَ » أى انقضى « الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ » أى التى أيسح للذين عاهدوا فيها
أن يسبحوا فى الأرض وحرّم فيها قتالهم « فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » أى
من حِلٍّ أو حَرَمٍ - كذا قاله غير واحد - قال ابن كثير : هذا عام ، والمشهور تخصيصه بغير
الحرم ، لتحريم القتال فيه ، لقوله تعالى ^(١) (وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) « وَخُذُواهُمْ » أى أسروهم « وَاحْصُرُوهُمْ »
أى احبسوهم فى المكان الذى هم فيه ، لئلا يتسوطوا فى سائر البلاد « واقْعُدُوا لَهُمْ » أى لقتالهم
« كُلَّ مَرْصِدٍ » أى طريق وممر « فَإِنْ تَابُوا » أى عن الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ » أى فاتركوا التعرض لهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يغفر لهم
ما سلف من الكفر والغدر .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه من أن المراد (بالأشهر الحرم) أشهر العهد ، هو الذى اختاره
الأكثر . سماها (حرما) لتحريم قتال المشركين فيها ودمائهم . فالأف واللام للعهد .
ووضع المظهر موضع المضمّر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمه ، تأكيداً لما ينبىء عنه إباحة
السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها . وقيل : المراد
(بالأشهر الحرم) : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ؛ روى ذلك عن ابن عباس
(١) [٢ / البقرة / ١٩١] .

والضحاك والباقر ، واختاره ابن جرير . وضعف بأنه لا يساعده النظم الكريم ، لأنه يأباه ترتيبه عليه (بالفاء) فهو مخالف للسياق الذى يقتضى توالى هذه الأشهر .

قال ابن القيم : (الحرم) هاهنا هي أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الحج الأكبر ، الذى وقع فيه التأذين بذلك ، وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وابست هي الأربعة المذكورة في قوله ^(١) (إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فإن تلك واحد فرد هو رجب ، وثلاثة سرد وهي ذو القعدة وتالياه . ولم يسر المشركون في هذه الأربعة ، فإن هذا لا يمكن ، لأنها غير متوالية ، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . انتهى .

وقالوا : يلزم على هذا بقاء حرمة تلك الأشهر . وتسكف الجواب بنسخها ، إما بانعقاد الإجماع عليه ، أو بما صح من أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من الحرم ، مع أن في هذا الإجماع كلاماً ، وقد خالف بعضهم في بقاء حرمتها ، إلا أنهم لم يعتدوا به كما قاله في (العناية) . وفيها : إن لك أن تقول : منع القتال في الأشهر الحرم في تلك السنة ، لا يقتضى منعه في كل ما شابهها ، بل هو مسكوت عنه ، فلا يخالف الإجماع ، ويكون حله معلوماً من دليل آخر .

وأقول : يظهر لى ترجيح هذا الثانى وأن المراد بالأربعة الأشهر هي المعروفة ، وأن قوله تعالى : (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) هي هذه الأربعة ، لأنها حينما أطلقت في التنزيل لا تنصرف إلا إليها ، فصرفها إلى غيرها يحتاج إلى برهان قاطع .

قال في (فتح البيان) ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم . وقد وقع الفداء والنبد إلى المشركين بعهدهم يوم

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

النحر ، فكان الباقي من الأشهر الحرم ، التي هي الثلاثة المسرودة ، خمسين يوماً ، تنقضي بانقضاء شهر الحرم ، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم . انتهى .

ولا يقال : إن الباقي من الأشهر الحرم ثمانون يوماً ، إذ الحج في تلك السنة كان في العاشر من ذي القعدة ، بسبب النسيء ، ثم صار في السنة المقبلة في العاشر من ذي الحجة ، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال ^(١) : إن الزمان قد استدار . . . الحديث - لأننا نقول : كان ذو القعدة عامئذ هو ذا الحجة بحسابهم ، لا في الواقع ، وكذلك ذو الحجة ، المحرم ، فعوملوا بحسابهم .

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) في قوله تعالى (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) : هذه آية السيف الناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة . انتهى .

وروى عن الضحاك أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة محمد ^(٢) : (فَأِمَّا مَنَّا بِمَدٍّ وَإِمَّا فِدَاءٍ) وردّه الحاكم بأنه لا شبهة في أن براءة نزلت بعد سورة محمد ؛ ومقتضى كلام الحاكم أنها لا ناسخة ولا منسوخة . قال : لأن الجمع ، من غير منافاة ، ممكن فحيث ورد في القرآن ذكر الإعراض ، فالمراد به إعراض إنكار ، لا تقرير . وأما الأسر والفداء ، فالمراد به أنه خیر بين ذلك ، لا أن القتل حتم ، إذ لو كان حتماً ، لم يكن للأخذ معنى بعد القتل . انتهى .

ويشمل عمومها مشركي العرب وغيرهم ، واستدل بقوله تعالى : (وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) على جواز حصارهم والإغارة عليهم وبياتهم .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ - باب قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، حديث رقم ٥٩ عن أبي بكرة .

(٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

الثالث - فهو من قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا . . .) الآية أن الأمر بتخليئة السبيل معلق على شروط ثلاثة : التوبة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فحيث لم تحصل جاز ماتقدم من القتل والأخذ والحصر . ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه ، في قتال مانعي الزكاة ، على هذه الآية السكرية وأمثالها .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يرحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه !
وفي الصحيحين^(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة : وروى الإمام أحمد^(٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . ورواه البخاري وغيره .

الرابع - ذكر ابن القيم خلاصة بديعة في سياق ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين ، من حين بعث ، إلى حين اتقى الله عز وجل ، مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذه السورة ، قال رحمه الله :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ)^(٣) فنبأه بقوله^(٤) (اقرأ) وأرسله بـ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم أمره أن ينذر عشيرته

(١) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٢٤ ، ١] . (٤) [٩٦ / الملق / ١] .

الأقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينفذ بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عن من لم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة (براءة) نزلت بيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلاة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فخاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسماً لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . فقتل الناقض لعده ، وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للعوف بعده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له

خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علايتهم، ويكِلَ سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم ، وأخبره أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين . انتهى .
وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» : أى وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم ، أى استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد ، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أى القرآن الذى تقرأه عليه ، وبقدره ، ويطلع على حقيقة الأمر ، وتقوم عليه حجة الله به ، فإن أسلم ثبت له مالمسلمين ، وإن أبى فإنه يرد إلى مأمنه وداره التى يأمن فيها ، ثم قاتله إن شئت . وقوله تعالى (ذَلِكَ) يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون ، أى جهلة ، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق ، ولا يبق لهم معذرة .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى ، وأنه يمكن من العود من غير غدر به ولا خيانة . ولذا ورد في التهريب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزرع أشد الزجر .

فروى البخارى في (تاريخه) والنسائى عن النبي ﷺ قال : من آمن رجلاً على دمه فقتله ،
فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافراً .

وروى أحمد والشيخان^(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لكل غادر لواء يعرف
به يوم القيامة .

قال ابن كثير : من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، في أداء رسالة أو تجارة ،
أو طلب صلح أو مهادنة ، أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو
نائبه أماناً أعطى ، ما دام متردداً في دار الإسلام ، إلى أن يرجع إلى مأمنه ووطنه .

قال الحاكم : وإنما يجاز ويؤمن إذا لم يعلم أنه يطلب الخداع والمكر ، لأنه تعالى علل
لزوم الإجارة بقوله (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) .

الثانى - قال الحاكم : تدل الآية على أنه يجوز للكافر دخول المسجد لسماع كلام الله .

الثالث - استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن كلام الله بحرف وصوت قديمين ، وهم
الحنابلة ، ومن وافقهم كالمضد . قالوا : لأن منطوق الآية يدل على أن كلام الله يسمعه الكافر
والمؤمن والزنديق والصديق ، والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات .
فدل ذلك على أن كلام الله ليس هذه الحروف والأصوات . والقول بأن كلام الله شيء مغاير
لها باطل . لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام الله) إلا لها ، وقد اعترف
الرازى بقوة هذا ، لإلزام من خالف فيه ، وقد مضى لنا في قوله تعالى^(٢) (وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيمًا) في آخر سورة النساء ، بسط لهذا فارجع إليه .

(١) أخرجه البخارى في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ - باب إثم الغادر للبر

والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٤ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤ (طبعنا) .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٤] .

الرابع - قال الرازي : دلت الآية على أن التقليد غير كاف في الدين ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً ، لوجب أن لا يعهل هذا الكافر ، بل يقال له : إيمان تؤمن ، وإيمان تقتلك . فلما لم يُقَلْ له ذلك ، بل أمهل وأزيل الخوف عنه ، ووجب تبليغه مأمنه - علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد في الدين ، وأنه لا بد من الحججة والدليل ، فلذا أمهل ليحصل له النظر والاستدلال .
ثم بين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظَرَتْهُ إِيَّاهُمْ أربعة أشهر ، ثم بمدّها السيوف المرفه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)
« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ » أى أمان « عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى وهم كفرون بهما ، فلاستفهام بمعنى الإنكار ، والاستبعاد لأن يكون لهم عهد « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » معنى أهل مكة الذين عاهدكم رسول الله ﷺ يوم الحديبية على ترك الحرب معهم عشر سنين « فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ » أى فسادوا مستقيمين على عهدهم ، مراعين لحقوقكم ، فاستقيموا لهم على عهدهم « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه في نقض عهد المستقيمين على عهدهم .

قال ابن كثير : وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العقد والمهنة مع أهل مكة من ذى القعدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر ، على خزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلهم معهم في الحرم أيضاً . فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ، ومكنه من نواصبيهم ، والله الحمد والمنة . فأطلق من أسلم منهم ، بعد القهر والغلبة عليهم ، فسموا الطلقاء ، وكانوا

قريباً من ألفين . ومن استقر على كفره ، وفر من رسول الله ﷺ ، بعث إليه بالآمان والتيسير في أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء . ومنهم صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هدام الله الإسلام .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَيْكُمْ » أى يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق « لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا » أى قرابة وعيناً « وَلَا ذِمَّةً » أى عهداً . وهذه الجملة مردودة على الآية الأولى ، أى كيف يكون لهم عهد ، وحالهم ما ذكر ؟ وفيه تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم ، لأن من كان أسير الفرصة ، مترقباً لها ، لا يرجى منه دوام العهد . قال الفاسر : ولما طال الكلام باستثناء الباقين على العهد ، أعيدت (كيف) تطرية للذكر ، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض . انتهى .

ثم استأنف تعالى بيان حالهم المنافيه لثباتهم على العهد بقوله « يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ » أى ما تنفوه به أفواههم « وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » أى متمردون ، لاعقيدة زعمهم ، ولا مروءة تردعهم . وتخصيص الأكثر ، لما في بعض الكفرة من التفادى عن الغدر ، والتعفف عما يجبر إلى أحدىة السوء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استبدلوا بها « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى من متاع الدنيا . يعنى

أهويتهم الفاسدة « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ » أى فعدلوا عنه أو صرفو غيرهم « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)
« لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » أى المجاوزون
الغاية فى الظلم والمساوىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ تَابُوا » أى عما هم عليه من الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ » أى فهم إخوانكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، فعاملوهم معاملة الإخوان .
وفيه من استمالهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه .
وقوله « وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » جملة معترضة للبحث على تأمل ما فصل
من أحكام المشركين الماهدين وعلى المحافظة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنتَهُونَ)

« وَإِنْ نَكَثُوا » أى نقضوا « أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ » أى فقاتلوهم . وإنما أوزر ما عليه النظم الكريم ، للإيدان بأنهم صاروا

بذلك ذوى رئاسة وتقدم فى الكفر ، أحقاء بالقتل والقتال . وقيل : المراد بالأئمة رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم ، أو للمنع من مراقبتهم ، لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم ، فإن قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم أفاده أبو السعود . « إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ » جمع يمين أى لا عهود لهم على الحقيقة ، حيث لا يراعونها ولا يمدون نقضها محذورا . فهم ، وإن تفوهوا بها ، لا عبرة بها . وقرئ (لا إيمان) بكسر الهمزة ، أى لا إسلام ولا تصديق لهم ، حتى يرتدعوا عن النقض والطمع « لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » أى عن الكفر والطمع ويرجعون إلى الإيمان .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل بهنـه الآية من قال إن الذمى يقتل إذا طعن فى الإسلام أو القرآن أو ذكر النبى ﷺ بسوء ، سواء شرط انتقاض العهد به أم لا . واستدل من قال بقبول توبته بقوله (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . انتهى .
ثم حض على قتالهم بهيميج قلوب المؤمنين وإغرائهم بقوله سبحانه .

[١٣] (أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
« أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » أى التى حلفوها فى المعاهدة « وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ، حسبما ذكر فى قوله تعالى (١) : (وَإِذْ يُمَكِّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فىكون نعيماً عليهم جنايتهم القديمة « وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى بالقتال يوم بدر ، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلّموا بذلك ، استمروا على وجوههم طلبا للقتال ، بنياً وتكبراً . وقيل : بنقضهم العهد ، وقتالهم مع حلفائهم

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠]

بنى بكر لخزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان . قاله ابن كثير .

وقال الزمخشري : أى وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولاً بالكتاب النير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة ، لعجزهم عنها ، إلى القتال ، فهم البادئون بالقتال ، والبادئ أظلم . فإي عنكم من أن تقاتلهم بمنله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم « أَتَخْشَوْنَهُمْ » أى اتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم « فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ » بخالفة أمره وترك قتالهم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بمن سواه ، كقوله تعالى^(١) : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) - قاله الزمخشري - وفيه من التشديد ما لا يخفى .

ثم عزم تعالى على المؤمنين الأمر بالقتال مبيناً لحكمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ » أى بالام الجراحات والموت « بِأَيْدِيكُمْ » أى تغليباً لكم عليهم « وَيُخْزِيهِمْ » أى بالأسر والاسترقاق ، فيجتمع فى حقهم العذاب الحسى والمعنوى « وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » أى : ممن لم يشهد القتال .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) « وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » أى بما كابدوا من الكاره والمكابد « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » أى فيحصل لكم أجرهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى فى أفعاله وأوامره . وقد أنجز الله سبحانه لهم هذه المواعيد كلها ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة دالة على صدقه وصحة نبوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا » أى على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالجهاد « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ » أى بطانة يفشون إليهم أسرارهم . والواو فى (ولم) حالية ، و (لا) للنفي مع التوقع ، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني ، إذ لو شتم راحة الوجود ، كعلم قطعاً . فلما لم يعلم لهم عدمه قطعاً . (ولم يَتَّخِذُوا) عطف على (جاهدوا) داخل فى حيز الصلة . والمعنى : أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه ، والحال أنه لم يتبين المخلص من المجاهدين منكم من غيرهم ، بل لابد أن تختبروا ، حتى يظهر المخلصون منكم ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ، لوجه الله ، ولم يتخذوا وليجة ، أى بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ ، والمؤمنين رضوان الله عليهم . ودلت (لا) على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن ، وإن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين . وفى الآية اكْتِفَاءُ بأحد القسمين ، حيث لم يمرض للمقصرين ، وذلك لأنه بمزول من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين ، وهذا كما قال (١) :

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

(١) قائله الْمُتَقَبُّ العبدى ، فى مفضلتيه السادسة والسبعين .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى^(١) : (أَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) . وقال تعالى^(٢) : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ ...) الآية - قال تعالى^(٣) : (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآية - وكلها تفيد أن مشروعية الجهاد اختبار الطابع من غيره .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ » أى ما صح لهم وما استقام « أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ » أى التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، أى يعمروا شيئاً منها ، فهو جمع مضاف فى سياق النفي ، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أولياً ، إذ نفى الجمع يدل على النفي عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكفاية . وقرئ* (مسجد الله) بالتوحيد ، تصريحاً بالمقصود ، وهو المسجد الحرام ، أشرف المساجد فى الأرض ، الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وأسسها خليل الرحمن .

قال فى (البصائر) : (يعمر) إما من العمارة التى هى حفظ البناء ، أو من العمرة التى هى الزيارة ، أو من قولهم : عمرت بمكان كذا أى أقت به . انتهى .

« شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ » أى بحالهم وقالهم ، وهو حال من الضمير فى

(١) [٢٩ / المنكوبوت / ١-٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] و [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٩] .

(يَمْمُرُوا) « أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ » وهذا كقوله تعالى (١) :
(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ،
إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) ولهذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)
« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ
وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ » أى لم يعبد إلا الله « فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »
أى إلى الجنة . وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية ، فى معرض التوقع ، لقطع
أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء ، والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى
ذلك محسنون ، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون . فإن المؤمنين ، ما بهم من هذه الكمالات ،
إذا كان أمرهم دائراً بين (لعل وعسى) ، فما بال الكفرة وهم هم ، وأعمالهم أفعالهم ! أوفيه لطف
للمؤمنين ، وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ، ورفض الاغترار بالله
تعالى - كذا حرره أبو السعود - .

وقال الناصر : وأكثرهم يقول : إن (عسى) من الله واجبة ، بناء منهم على أن
استمهاها غير مصروفة للمخاطبين . والحق أن الخطاب مصروف إليهم ، كما قال الزمخشري .
أى فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة ، والمأقبة عند الله معلومة ، والله عاقبة الأمور .

تنبيهات :

الأول - قال الزغشري : (العارة) تتناول رمّ ما استرمّ منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتمظيمها واعتيادها للعبادة والذكّر . ومن الذكّر درس العلم ، بل هو أجلّه وأعظمه . وصيانتها مما لم تبّن له المساجد من أحاديث الدنيا ، فضلاً عن فضول الحديث .

روى البخاري^(١) ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : من غدا إلى المسجد أو راح ، أعدّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح .

وروي^(٢) أيضاً عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله تعالى ، بنى الله له بيتاً في الجنة .

وأخرج الترمذي^(٣) عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى (إِنَّمَا يَمْشُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ...) الآية .

الثاني - إنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لدخوله في الإيمان بالله . فترك للمبالغة في ذكر الإيمان بالرسالة ، دلالة على أنهما كشىء واحد . إذا ذكر أحدهما فهم الآخر . على أنه أشير بذكر المبدأ والمعاد إلى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، ومن جملته رسالة ﷺ كما في قوله تعالى^(٤) (ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) . كذا في (العناية) .

(١) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٧ - باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح ، حديث ٤١٧ .

أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٨٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٥ - باب من بنى مسجداً ، حديث ٢٩٧ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٥٣٤ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ - حديثنا أبو كريب .

(٤) [٢ / البقرة / ٨] .

الثالث - في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر ، تفخيم لسانهما وحث على التنبه لهما .

الرابع - دلت الآيتان على أن عمل الكفار محبط لا ثواب فيه .

وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » روى العوفي

في (تفسيره) عن ابن عباس أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله ، وقيام على السقاية ، خير

ممن آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ، ويستكبرون به ، من أجل أنهم أهله وعماراه .

نخير الله الإيمان والجهاد مع رسوله ، على عمارة المشركين البيت ، وقيامهم على السقاية ،

ويبين أن ذلك لا يفهمهم مع الشرك ، وأنهم ظالمون بشركهم ، لا تغني عمارتهم شيئاً .

قال اللغويون : (السقاية) بالكسر والضم موضع السقي . وفي (التهذيب) : هو الموضع

المتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها . انتهى .

وفي (التاج) : سقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ،

وكان يليها العباس رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام . انتهى .

وروى الإمام مسلم^(١) عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبي ﷺ فقال رجل :

ما أبالي إلا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمّر المسجد الحرام ؛ وقال الآخر : الجهاد في

سبيل الله أفضل مما قلتم ؛ فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ وهو

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١١١ (طبعنا) .

يوم الجمعة . ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستغفرت فيه ما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل (أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ...) الآية .

ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) ولفظه : إن رجلاً قال : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ... الحديث .

قال بعضهم : فظاهر هذه الرواية أن المفاضلة كانت بين بعض المسلمين المؤثرين للسقاية والمهارة على الهجرة والجهاد ونظائرهما ، ونزلت الآية في ذلك ، مع أن الرواية السالفة عن ابن عباس تفاديه . وكذا تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به ، وكذا وصفهم بالظلم لأجل تسويتهم المذكورة .

وأقول : لا منافاة . وظاهر النظم الكريم فيما قاله ابن عباس لا يرتاب فيه ، وقول النعمان (فأنزل الله) بمعنى أن مثل هذا التحاور نزل فيه فيصل متقدم ، وهو هذه الآية ، لا بمعنى أنه كان سبباً لنزولها كما بيناه غير ما مرة . وهذا الاستعمال شائع بين السلف ، ومن لم يتفطن له تنقاض عنده الروايات ، ويحار في الخرج ، فافهم ذلك وتفتن له .

وتأييد أبي السعود نزولها في المسلمين بما أطال فيه ، ذهول عن سياق الآية وعن سياقها ، فيما صدعت فيه من شديد التهويل ، وعن لاحقها في درجات التفضيل ، وقصر الفوز والرحمة والرضوان على المشبه به .

لطيفة :

لا يخفى أن السقاية والمهارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين . أي أجمعتهم أهلها مكن آمن بالله . الخ ويؤيده قراءة من قرأ (سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام) أو : أجمعتموها كييمان من آمن ... الخ .

قال أبو البقاء : الجمهور على (سقاية) بالياء ، وصحت الياء لما كانت بعدها تاء التأنيث .

ثم بين تعالى مراتب فضل المؤمنين ، إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم ،

بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ » أى من أهل السقاية والهجرة ، وهم ، وإن لم يكن لهم درجة عند الله ، جاء على زعمهم ومدعاهم . قاله في (العناية) . « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى لائتم . أى المختصون بالفوز دونكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُثْقَمٌ) « يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُثْقَمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

ثم نهاهم تعالى عن موالاة المشركين ، وإن كانوا أقرب الأقربين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا إِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا إِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ » أى بطانة وأصدقاء ، تفشون إليهم أسراركم ، وتمدحونهم وتذبون عنهم « إِنِ اسْتَحَبُّوا » أى اختاروا « الْكُفْرَ »

عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ « أى نوصفهم الموالاة فى غير موضعها ، ولتعمديهم وتجاوزهم عما أمر الله به .

ثم أشار تعالى إلى أن مقتضى الإيمان ترك الميل الطبيعى إذا كان مانعاً من محبة الله ، ومحبة واسطة الوصول إليه ، ومحبة ما يملئ دينه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ » أى أقاربكم الأذنون ، أو قبيلتكم . قال أهل اللغة : عشيرة الرجل بنو أبيه الأذنون ، أو قبيلته ، كالعشير - بلا هاء - مأخوذة من (العشرة) أى المعاشرة ، لأنها من شأنهم ، أو من (العشرة) الذى هو العدد لأكملهم ، لأنها عدد كامل « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » أى اكتسبتموها « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » أى فوات وقت نفادها بفرافكم لها « وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا » أى منازل تدبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين « أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » أى المنعم بالكل « وَرَسُولِهِ » وهو واسطة نعمه « وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » أى مما يملئ دينه « فَتَرَبَّصُوا » أى انتظروا « حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » أى بقضائه ، وهو عذاب عاجل ، أو عقاب آجل ، أو فتح مكة . وهذا أمر تهديد وتخويف . أى فارتقبوا قهر الله بدعوى محبته بالإيمان ، وتكذيبها بترجيح محبة غيره « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة فى موالاته المشركين والمؤثرين لما ذكر على رضاه تعالى .

تنبيهات :

الأول - قال بعضهم : ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار ، ولو كانوا أقباء ، وأنها كبيرة لوصف متوليهم بالظلم ، ووجوب الجهاد ، وإثاره على كل هذه المشتبهات الممدودة طاعة لله ورسوله .

الثاني - قال الرازي : الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

الثالث - في هذه الآية وعيد وتشديد ، لأن كل أحد قلما يخلص منها ، فلذا قيل إنها أشد آية نعت على الناس كما فصله في (الكشاف) بقوله :

وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب جبل اليقين . فلينصف أروعُ الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ ويفويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ)

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » أى في مواقف حروب كثيرة، ووقعات شهيرة، كغزوة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة . وكانت عزوات رسول الله ﷺ

... على ما ذكر في الصحيحين^(١) - من حديث زيد بن أرقم ، تسع عشرة غزوة . زاد بريدة في حديثه : قاتل في ثمان منهن ويقال : إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون ، وقيل ثمانون . « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ » أي فاعتمدتم عليها ، حيث قلتم : لن نغلب اليوم من قلة « قَلِمَ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا » أي من أمر العدو ، مع قلتم « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أي برحبها وسعتها . والباء للملابسة والمصاحبة . أي ضاقت ، مع سعتها ، عليكم . وهو استعارة تبعية ، إما لعدم وجدان مكان يقرّون به آمنين مطمئنين من شدة الرعب ، أو أنهم لا يجلسون في مكان ، كما لا يجلس في المكان الضيق « ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِينَ » أي منهزمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أي ماسكنون به ، وثبتون من رحمته ونصره ، وانهمزام الكفار ، واطمئنان قلوبهم للكرّ بعد الفرّ « عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أي الذين انهزموا . وإعادة الجارّ للتنبية على اختلاف حالهما . أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا : أو على السكل ، وهو الأنسب . ولاضير في تحقق أصل السكينة في الثابتين من قبل ، والتعرض لوصف الإيمان بالإشعار بعملية الإنزال . أفاده أبو السعود . « وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » يعني الملائكة « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي بالقتل والأسر والسبي « وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لكفرهم في الدنيا .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١ - باب غزوة العشيرة أو المسيرة

حديث رقم ١٨٣٩ .

ومسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤٣ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ » أى منهم ، لحكمة تقتضيه . أى يوفقه للإسلام « وَاللَّهُ غَفُورٌ » أى يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي « رَحِيمٌ » أى يتفضل عليهم ويثيبهم .

تنبيهات :

الأول - فيما نزل في غزوة^(١) (حنين) ، وتسمى غزوة (أوطاس) ، وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة (هوازن) ، لأنهم الذين أنزلوا قتال رسول الله ﷺ وكانت هذه الوقعة بعد فتح مكة ، في شوال سنة ثمان من الهجرة ، فإن الفتح كان لعشر بقين من رمضان ، وبعده أقام رسول الله ﷺ بمكة خمسة عشر ليلة ، وهو يقصر الصلاة ، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له ، وهم عائدون إلى مكة ، وقد نزلوا (حنيناً) . وكانوا ، حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ بالمدينة ، يظنون أنه إنما يريدهم . فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني نصر ، وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن وبني جُشم بن معاوية وبني سعد بن بكر ، وناساً من بني هلال بن عامر ابن صعصعة بن معاوية والأحلاف وبني مالك بن ثقيف بن بكر . وفي جشم دريد بن الصمة رئيسهم وكبيرهم . شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وجميع أمر الناس إلى مالك بن عوف . فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ فتح مكة ، أقبلوا عائدِينَ إليه ، فأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، يرى أنه أثبت لموقعهم . فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس ، فقال دريد :

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٤٠ وما بعدها (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٨٠ وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بأى وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعمَ مجال الخيل ، لا حَزَنٌ ضِرْسٌ ، ولا سهلٌ دَهْسٌ . مالى أسمع رغاءَ البعير ، ونُهَاقَ الحَير ، ويُعَارُ الشاء وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس نساءهم وأموالهم وأبنائهم ليقاتلوا عنها ، فقال : راعى ضأنٌ والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسلاحه . وإن كانت عليك فُضِحَتْ فى أهلاك ومالك ! ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدا أحدٌ منهما . قال : غاب الحدَّ والجُدَّ ، لو كان يوم علاءٍ ورفعةٍ لم ينب عنهم كعب ولا كلاب ، ولودِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلوا . فمن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو وعوف ابنا عامر . قال : ذاك الجذعان ، لا ينفعان ولا يضران ! ثم أنكر على مالك رايه فى ذلك وقال له : لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، أرفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعليا قومهم ، ثم ألق الصبيان على متون الخيل شيئاً ، فإن كانت لك ، لحق بك من ورائك ، وإن كانت لغيرك ، كفت قد أحرزت أهلاك ومالك . قال : لا ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت ، وكبر عقلك . والله لتطيعننى يا معشر هوازن ، أو لأنكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! وكره أن يكون لدريد ابن الصمة فيها ذكر أو رأى . قالوا أطمعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتنى . ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيموفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد . وبمات عيوناً من رجاله فأتوه ، وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ! ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً ييضاً ، على خيل بُلقى : والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

فلما سمع بهم نبي الله ﷺ ، بعث عبد الله بن أبي حذرد الأسلمى يستعلم خبرهم ، فجاءه وأطلعه على جليلة الخبر ، وأنهم قاصدون إليه ، فاستمار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع - وقيل أربعمائة - وخرج فى اثني عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف الذين يحبوه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، ومضى لوجهه ، وفى جملة من اتبعه عباس بن مرداس والضحاك بن سفيان

الكلابي ، وجموع من عبس وذبيان ، ومزينة ، وبنى أسد . ومرّ في طريقه بشجرة سدر خضراء ، وكان لهم في الجاهلية مثلها ، يطوف بها الأعراب ويعظمونها ، ويسمون بها ذات أنواط . فقالوا : ^(١) : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال لهم : قلتم كما قال قوم موسى ^(٢) (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسى بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم . ثم نهض حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة ، وهو واد حزن فتوسطوه في غيش الصبح ، وقد كمنت هوازن في جانبه ، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لايلى أحد على أحد ، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر ، والفضل وقثم ابنا العباس ، وجماعة سوام ، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء (دليل) والعباس أخذ بشكائهم ، وكان جهير الصوت ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة ، (قيل : وبالمهاجرين) فلما سمعوا الصوت وذهبوا يرجعوا ، صدم ازدحام الناس عن أن يثنوا رواحلهم ، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم ، واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة ، فاستقبلوا هوازن ، والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب ، وحى الوطيس . ولما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل به وجوههم وقال : شامت الوجوه ! فابقى إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ، ثم صدق المسلمون الحملة عليهم ، وقذف الله في قلوب هوازن الرعب . فلم يملكوا أنفسهم ، فلولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس ، وأسرى هوازن مغلوله بين يديه ، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم ، واستحرقوا القتل في بنى مالك من ثقيف ، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً ، وانحازت طوائف هوازن إلى أوطاس ، واتبعتهم طائفة من خيـل

(١) أخرجه الترمذى في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - ما جاء : لتركبن سنن من كان

قبلكم ، عن أبى واقد الليثى . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٨] .

المسلمين الذين توجهوا من (نخلة) ، فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن ، أبا عامر الأشعري عم أبي موسى ، فقاتلهم ، وقتل بسهم رماء به سلمة بن دريد بن الصمة ، فأخذ أبو موسى الراية ، وشد على قاتل عمه ، فقتله ، وانهزم الشركون ، وانقضت جموع أهل هوازن كلها ، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة . ثم جُمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها ، فأمر بها ، فحبست (بالجرانة) بنظر مسعود بن عمرو الغفاري . وسار ﷺ من فوره إلى الطائف ، فحاصرها (ثقيف) خمس عشرة ليلة ، وقاتلوا من وراء الحصون ، وأسلم من كان حولهم من الناس ، وجاءت وفودهم إليه . ثم انصرف صلى الله عليه وسلم عن الطائف ، ونزل الجرانة فيمن معه من الناس وأتاه هناك وفد هوازن ، مسلمين راغبين ، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﷺ : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ومن لم تطب نفسه عوّضه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نصيبه ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم . وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وقسم صلى الله عليه وسلم الأموال بين المسلمين ، وتقل كثيرا من الطلقاء (وهم الذين من عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإطلاق يوم فتح مكة من الأسر ونحوه) يقالفهم على الإسلام ، مائة مائة من الإبل ، ومنهم مالك بن عوف النصري . فقال حين أسلم^(١) :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدي	ومتى يشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيائها	بالسمهري وضرب كل مهند
فكانه ليث على أشباله	وسط الهبأة خادري مرصد

(١) السيرة ص ٨٧٩ (طبعة جوتنجن) وج ٤ ص ١٣٤ (طبعة الحلبي) .

الثاني - قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في فصل جود فيه :

الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الفقرة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة ما نصه :

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ، وهو صادق الوعد ، أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس في دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ، ليظهر أمر الله ، وتعام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراً لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده ، قهره لهذه الشوكة العظيمة ، التي لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولنير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين . فاقترض حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة ، مع كثرة عددهم وعددهم ، وقوة شوكتهم ، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمة ، كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ؛ حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته أن أحل له حرمة وبلده ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده ، وليبين الله لمن قال : (لن تغلب اليوم عن قلة) ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه ، لا كثرتكم التي أعجبتكم ، فإنها لم تمن عنكم شيئاً ، فوليتهم مدبرين . فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خلع الجبر مع برید النصر^(١) (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزها على أهل الانكسار^(٢) . (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ

(١) [٩ / التوبة / ٢٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . ومنها أن الله سبحانه لا يمنع الجيش غنائم أهل مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبيّاً ولا أرضاً ، كما روى أبو داود^(١) عن وهب بن منبه قال : سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا !

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أصحاب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشيائهم ، وسبيهم معهم نزلاً وضيافة ، وكرامة لحزبه وجنده ، وتعم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر ، والاح لهم مبادئ النصر ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبرزت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ، ولا في نسائكم وذرائعكم . فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين ، فقيل : إن من شكران إسلامكم ، وإنيانكم ، أن ردّ عليكم نسائكم وأبنائكم وسبيكم^(٢) (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوه بغزوة حنين ، ولهذا ، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وهاتين الغزاتين طفئت جرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى خوفهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جميعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والفتوى ، ٢٥ - باب ما جاء في خبر مكة ، حديث ٣٠٢٣ . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٠] .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمه عليهم ، بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصرُوا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم . إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى . انتهى .

الثالث - قال بعضهم : دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى ، والاتكال عليه . ودل ما حكى في القصة على جواز ماورد حسنه من جواز التأليف ، وملاطفة المؤمنين والرمي بالخصا حالة الحرب ، والأصوات التي يرهب بها . انتهى .
ولابن القيم في (زاد المعاد) فصول حسنة في فقه هذه الوقعة . فليُنظر .

الرابع - قوله : (ويوم حنين) ، قيل : منصوب بمضمر معطوف على (نصركم) أى ونصركم يوم حنين . واستظهر عطفه على محل (فى مواطن) بحذف المضاف فى أحدهما ، أى ومواطن يوم حنين . أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين .
قال أبو مسعود : ولعل التفسير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر . انتهى .

قال الشهاب . فيكون عطف (يوم حنين) على منوال (ملائكته وجبريل) كأنه قيل : نصركم الله فى أوقات كثيرة ، وفى وقت إعجابكم بكثر تكلمكم . ولا يرد عليه ما قيل إن المقام لا يساعد عليه ، لأنه غير وارد ، لتفضيل بعض الوقائع على بعض . ولم يذكر المواطن توطئة ليوم حنين كالملائكة ، إذ ليس يوم حنين بأفضل من يوم بدر ، وهو فتح الفتوح ، وسيد الوقعات ، وبه نالوا القدر الملقى ، والدرجات العلى ، لأن القصد فى مثله إلى أن ذلك الفرد فيه من المزية ما صيرّه مغايراً لنفسه . لأن المزية ليس المراد بها الشرف ، وكثرة الثواب فقط ، حتى يقوم هذا . بل ما يشمل كون شأنه عجيبيّاً ، وما وقع فيه غريباً ، للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، إلى غير ذلك من المزايا . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة المشركين ، مع عدم إفاذتها التقوية المحصلة للنصر ، تضر
بسران نجاسة بواطنهم إلى بواطن المؤمنين الطاهرة ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » أى المطهرة بواطنهم بالإيمان « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » أى
ذوو نجس ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، فهو حجاز عن خبث الباطن ، وفساد
المقيدة ، مستعار لذلك . أو هو حقيقة ، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ، ولا يجتنبون
النجاسات ، فهى ملازمة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها .
« فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » أى لحج أو عمرة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية .
قال المهايى : لأن المسجد الحرام يجتمع فيه المتفرون فى الأرض ، ليسرى صفاء القلوب من
بعض إلى بعض ، وهاهنا يخاف سران الظلمات فى العموم « بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » أى بعد
حج عامهم هذا ، وهو عام تسع من الهجرة ، حين أمر أبو بكر على الموسم . وتقدم لنا أن
النبي ﷺ أتبع أبا بكر بعلى رضى الله عنهما ، ليفادى فى المشركين : ألا يحج بعد هذا
العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فأنتم الله ذلك ، وحكم به شرعاً وقدراً « وَإِنْ خِفْتُمْ
عَيْلَةً » أى فقراً بسبب منعهم من الحرم ، لا تقطاع أرفاق كانت لكم من قدومهم « فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ » أى من فتح البلاد ، وحصول المنافع ، وأخذ
الجزية ، وتوجه الناس من أقطار الأرض . قال ابن إسحاق : إن الناس قالوا : لنقطعن عنا
الأسواق ، فلتهلكن التجارة ، وليذهبن ما كننا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله تعالى

(وَإِنْ خِفْتُمْ عِمْلَهُ...) إلى قوله (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فموضعهم الله مما قطع عنهم بأمر الشرك، ما أعطاهم من أفاق أهل الكتاب من الجزية . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ » أى بما يصلحكم « حَكِيمٌ » أى فيما يأمر به وينهى عنه .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على نجاسة المشرك ، كما فى الصحيح ^(١) (المؤمن لا ينجس) وأما نجاسة بدنه ، فالجمهور على أنه ليس ينجس البدن واللذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب . وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم . وقال أشعث عن الحسن : من صافهم فليتوضأ ، رواه ابن جرير ، ونقله ابن كثير .

وأقول : الاستدلال بكونه تعالى أحل طعام أهل الكتاب غير ناهض ، لأن البحث فى المشركين وقاعدة التنزيل الكريم ، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب ، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه .

وقال بعض المفسرين البغداديين : مذهب القاسم والهادي وغيرهما : أن الكافر نجس العين ، أخذاً بظاهر الآية ، لأنه الحقيقة . ويؤيد ذلك حديث ^(٢) أبى ثعلبة الحشنى فإنه قال للنبي ﷺ إنا نأتى أرض أهل الكتاب فنسألهم آيتهم ، فقال ﷺ : اغسلوها ثم اطحروا فيها .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥ - كتاب الفسل ، ٢٤ - باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ، حديث رقم ٢٠٤ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣ - كتاب الحيض ، حديث رقم ١١٥ م (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٤ - باب صيد القوس ،

حديث رقم ٢١٩٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعنا) .

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : إن المشرك ليس نجس العين ، لأنه ﷺ تَوْضاً من مزادة مشرك ، واستعمار من صفوان دروعاً ولم يغسلها ، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبي ﷺ إلى الأسارى ولا تفسل ، وكان أصحاب النبي ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تفسل . وأولوا الآية بما تقدم من الوجوه ، وكلُّ متأولٍ ما احتج به الآخر . انتهى :

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) في قوله تعالى (١) « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » : إن الكافر يمنع من دخول الحرم ، وإنه لا يؤذن له في دخوله ، لا للتجارة ولا لغيرها ، وإن كان مصلحة لنا ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن ، فالمراد به الحرم كله ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء وغيرهم . واستدل بظاهر الآية من أباح دخوله الحرم سوى المسجد ، لقصره في الآية عليه . واستدل الشافعي بظاهر الآية على أنهم لا يمنعون من دخول سائر المساجد ، لقوله (الْحَرَامُ) . وقاس عليه غيره سائر المساجد . واستدل أبو حنيفة بظاهرها أيضاً على أن الكتابي لا يمنع من دخوله لتخصيصه بالمشرك . انتهى . وهو المتجّه .

قال الشهاب : وبالظاهر أخذ أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، إذ صرف المنع عن دخول الحرم للحج والعمرة ، بدليل قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم ، وهو ظاهر ، أي لأن موضع التجارات ليس عين المسجد . ونداء على كرم الله وجهه بقوله : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، بأمر النبي ﷺ ، يعينه . فلا يقال إن منطوق الآية يخالفه . انتهى .

الثالث - قال الناصر : قد يستدل بقوله تعالى (فَلَا يَقْرَبُوا . . .) الآية - من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وخصوصاً بالنهاهي ، فإن ظاهر الآية توجه النهي

إلى المشركين ، إلا أنه بعيد ، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي ، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبادهم عنه ، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمسكهم من قربانه . ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمون ، تصدير الكلام بخطابهم في قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وتضمنينه نصاً بخطابهم بقوله (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه ، وعلى ما المراد خلافه ، إذا كانت ثم ملازمة كقوله : لا أرينك ها هنا (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ^(١) . انتهى .

الرابع - (العيلة) مصدر من (عال) بمعنى افتقر . وقرئ (عائلة) . وهو إما مصدر

بوزن فاعلة ، أو اسم فاعل صفة لموصوف مؤنت مقدر ، أى حالاً عائلة ، أى مفقرة .

قال ابن جني : هذه من المصادر التي جاءت على فاعلة ، كالعاقبة والعافية . ومنه قوله تعالى ^(٢) (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغِيَّةً) ، أى لغواً . ومنه قولهم : مررت به خاصة ، أى خصوصاً وأما قوله تعالى ^(٣) (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) فيجوز أن يكون مصدراً ، أى خيانه ، وأن يكون على تقدير : نية أو عقيدة خائنة . وكذا ها هنا يقدر : إن خفتم حالاً عائلة انتهى .

الخامس - إن قيل : ما وجه التعليل بالشيئة في قوله تعالى (إِنْ شَاءَ) مع أن المقام وسبب النزول ، وهو خوفهم الفقر ، يقتضى دفعه بالوعد بإغنائهم من غير تردد ؟ فالجواب : أن الشرط لم يذكر للتردد ، بل لبيان أنه بإرادته لا سبب له غيرها ، فانتقموا إليه ، واقطعوا النظر عن غيره . ولينبه على أنه مفضل به ، لا واجب عليه ، لأنه لو كان بالإيجاب لم يוכל إلى الإرادة ، فلا يقال إن هذا لا حاجة إلى أخذه من الشرط ، مع قوله تعالى (مِنْ فَضْلِهِ) لأن قوله (مِنْ فَضْلِهِ) يفيد أنه عطاء وإحسان ، وهذا يفيد أنه بغير إيجاب ، وشتان بينهما ، وقيل إنه للتنبية على أنه بإرادته ، لا بسمى المرء وحيلته :

لَوْ كَانَ بِالْحِجَلِ الْغَنَى لَوَجَدْتَنِي بِنَجْمِ أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَلْقَى

كذا في (العناية) .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] . (٢) [٨٨ / الفاشية / ١١] (٣) [٥ / المائدة / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُرْمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُرْمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » علم أنه لما ذكر تعالى حكم المشركين في إظهار البراءة من عهدهم ، وفي إظهار البراءة عنهم في أنفسهم ، وفي وجوب مقاتلتهم ، وفي تبعيدهم عن المسجد الحرام ، وعدم الخوف من الفاقة المتوهمه من انقطاعهم - ذكر بعده حكم أهل الكتاب . هو أن يقاتلوا إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية ، منها في تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه السكلي ، مرشداً إلى سلوكه ابتغاء لفضله ، واستنجازاً لوعده .

قال مجاهد : نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بقتال الروم ، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك .

وقال السكبي : نزلت في قريظة والنضير من اليهود ، فصالحهم ، فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام ، وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين . انتهى .

ولا يخفى شمول الآية لكل ذلك بلا تخصيص .

قال ابن كثير : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ، ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ، ووقت قيط وحر . وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام

لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . انتهى .

والتعبير عن (أهل الكتاب) بالوصول المذكور ، الإيذان بعلمية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال ، فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، كما أمر تعالى ، إذ لديهم من فساد العقيدة ، فيما يجب له تعالى ، وفي البعث ، أعظم ضلال وزيف ، (وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ، يعني ما ثبت تحريمه في الكتاب والسنة . وقيل : المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه ، فالعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ، إذ قَبِلُوا وَبَدَّلُوا اتباعاً لأهوائهم .

قال الشهاب : فيكون المراد : لا يتبعون شريعنا ولا شريعتهم ، ومجموع الأميين سبب لتعاليمهم . وقوله تعالى (دِينَ الْحَقِّ) من إضافة الموصوف للصفة ، أو المراد بـ (الْحَقِّ) ، الله تعالى . وقوله تعالى (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ) أى ما تقرر عليهم أن يعطوه . قال ابن الأثير : الجزية المال الذي يعقد عليه الكتابى الذمة ، وهى (فِعْلَةٌ) من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتله .

وقال الراغب : سميت بذلك للاجتراء بها عن حقن دمهم ^(١) . وقال الشهاب : قيل مأخذها من (الجزاء) بمعنى القضاء . يقال : جزيته بما فعل ، أى جازيته . أو أصلها الهمز من (الجزء والتجزئة) ، لأنها طائفة من المال يعطى . وقيل : إنها معرب (كزيت) وهو الجزية . بالفارسية . انتهى .

وقوله تعالى (عَنْ يَدٍ) حال من فاعل (يُعْطُوا) . و (اليد) هنا إما بمعنى الاستسلام والالتقياد ، يقال : هذه يدي لك ، أى استسلمت إليك ، وانقدت لك ، وأعطى يده أى انقاد . كما يقال فى خلافه : نزع يده من الطاعة . لأن من أبى وامتنع ، لم يعط يده ، بخلاف المطيع

(١) عبارة النهاية ولسان العرب : « كأنها جزت عن قتله » وهى أوضح من عبارة الراغب .

المنقاد ، وإما بمعنى النقد ، أى حتى يعطوها نقداً غير نسيئة ، فيكون كـ (اليد) فى قوله ﷺ (١) : لا تبمعوا الذهب والفضة . . . إلى قوله (يدأ بيد) . وإما بمعنى الجارحة الحقيقية ، و (عن) بمعنى الباء ، أى لا يبعثون بها عن يد أحد ، ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ . وإما بمعنى : عن طيبة نفس ؛ قال أبو عبيدة : كل من انطاع لقاها بشئ أعطاه ، من غير طيب نفس به وقهر له ، من يد فى يد ، فقد أعطاه عن يد (مجاز القرآن ج ١ ص ٢٥٦) . وإما بمعنى الجماعة ، أنشد ابن الأعرابي :

أعطى فأعطاني يدأ ودَارَا وبَاحَةً حَوْهَا عَقَارَا

(الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ واللسان ج ١٥ ص ٤٢٥ ، بيروت) .

ومنه الحديث (٢) (وهم يدٌ على من سواهم) أى هم مجتمعون على أعدائهم ، يماون بمضهم بقضاً - قاله أبو عبيد - وإما بمعنى الذل - نقله ابن الأعرابي وحكاه وجهاً فى الآية - .

هذا إن أريد باليد يد المعطى . وإن أريد بها يد الآخذ ، فاليد إما بمعنى القوة ، أى عن يد قاهرة مستولية ويقولون : مالى به يد أى قوة . وإما بمعنى السلطان ، وهو كالذى قبله ، ومنه يد الريح سلطانها . قال لبيد :

* نَطَافُ أَمْرُهَا يَبِيدُ الشَّمَالُ *

(اللسان ج ١٥ ص ٤٢٢ . وصدره كما جاء فى الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ :

* أَضَلَّ صِوَارَهُ وَتَضَيَّفَتْهُ * وفيه : نُطُوفٌ) .

لما ملكت الريح تصريف السحاب ، جعل لها سلطان عليه . وإما بمعنى النعمة ، أى عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية ، وترك أنفسهم عليهم ، نعمة عليهم .

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٧٨ - باب بيع الفضة بالفضة و٧٩ -

باب بيع الدينار بالدينار نساً ، حديث رقم ١٠٩٧ عن أبي سعيد الخدرى .

وأخرجه مسلم فى : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ٧٦ (طبعنا) وانفرد مسلم بقوله (إلا

يدأ بيد) . (٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٢١ - كتاب الديات ، ٣١ - باب المسلون

تمسكافاً دماؤهم ، حديث رقم ٢٦٨٣ (طبعنا) عن ابن عباس .

قال الناصر في (الاتصاف) : وهذا الوجه أُملي بالفائدة .
 وإما بمعنى الغنى ، حكاه في (العناية) ، ونقله (التاج) من معاني اليد .
 وقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى أذلاء .

تنبيهات :

الأول - قوله تعالى (عَنْ يَدٍ) إما حال من الضمير في (يُعْطُوا) أو من الجزية أى مقرونة بالانقياد ، ومسلمة بأيديهم ، وصادرة عن غنى ، ومقرونة بالدالة ، وكائنة عن إنعام عليهم . كذا في (العناية) .

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) : هذه الآية أصل قبول الجزية من أهل الكتاب .

الثالث - قال أيضاً : استدل من قال بأن معنى اليد فيما تقدم ، الغنى ، أنها لا تجب على مُعسر . ومن قال بأنه لا يرسل بها ، على أنه لا يجوز توكيل مسلم بها ، ولا أن يضمها عنه ، ولا أن يحيل بها عليه .

الرابع - قال السيوطي أيضاً : استدل بقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) من قال إنها تؤخذ بإهانة ، فيجلس الآخذ ، ويقوم الذي يطأطأ رأسه ، ويحنى ظهره ، ويضمها في الميزان ، ويقبض الآخذ لحيته ، ويضرب لمزمتيه . قال : ويردّ به على النووي حيث قال : إن هذه سيئة باطلة . انتهى .

قلت : ولقد : صدق النووي عليه الرحمة والرضوان ، فإنها سيئة قبيحة ، تأبأها سماحة الدين ، والرفق المعلوم منه . ولولا قصد الرد على من قالها لما شوهت بنقلها ديباجة الصحيفة . ثم رأيت ابن القيم رد ذلك بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أصحابه . قال : والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجرّيان أحكام الله تعالى عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعي . انتهى .

ثم قال السيوطي : واستدل بالآية من قال : إن أهل الذمة يتركون في بلد أهل الإسلام ، لأن مفهومها الكف عنهم عند أدائها ، ومن الكف ألا يجلبوا . ومن قال لاحد لأقلها ، ومن قال هي عوض حقن الدم لا أجرة الدار . انتهى .

الخامس - روى أبو عبيد في كتاب (الأموال) عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب ، أهل نجران ، وكانوا نصارى .

السادس - قال أبو عبيد : ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب ، وعلى المجوس بالسنة .

وقال ابن القيم : لما نزلت آية الجزية أخذها ﷺ من ثلاث طوائف : من المجوس واليهود والنصارى ، ولم يأخذها من عباد الأصنام . فقيل : لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ، ومن دان بدينهم اقتداءً بأخذهم وتركه ، وقيل : بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وهم كبدة الأصنام من العجم ، دون العرب والأول قول الشافعي وأحمد (في إحدى روايتيه) ، والثاني قول أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى . وأصحاب القول الثاني يقولون : إنما لم يأخذها من مشركي العرب لأنها إنما نزلت فرضيتها بعد أن أسلمت دارة العرب ، ولم يبق فيها مشرك ، فإنها نزلت بعد فتح مكة ، ودخول العرب في دين الله أفواجاً ، فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه ، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الإسلام ، علم أن الأمر كذلك ، فلم تؤخذ منهم الجزية ، لعدم من يؤخذ عنه ، لأنهم ليسوا من أهلها . قالوا : وقد أخذها من المجوس فليسوا بأهل كتاب . ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع ، وهو حديث لا يثبت مثله ، ولا يصح سنده . ولا فرق بين عبادة النار ، وعبادة الأصنام . بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار . وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم مالم يكن في عباد النار ، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل . فإذا أخذت منهم الجزية ، فأخذها من

عباد الأصنام أولى . وعلى ذلك تدل سنة رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم ^(١) أنه قال : إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ، فأيتهم أجابوك إليها ، فاقبل منهم . وكف عنهم . ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم . وقال المنيرة لامل كسرى : أمرنا نبيّنا أن نقاتلكم حتى تعبد الله أو تؤدى الجزية . وقال رسول الله ﷺ لقريش ^(٢) : هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب ، وتؤدى للمسلمين بها الجزية ؟ قالوا : ما هي : قال : لا إله إلا الله .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن النبي ﷺ ^(٣) صالح أهل نجران على ألفي حلة ، النصف في صفر ، والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح ، بغزون بها ، والمسلمون ضامنون بها ، حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيدة أو غدرة . وعلى ألا يُهدم لهم بيعة ، ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ، ما لم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا . ولما وجه ﷺ ^(٤) معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل محتل ديناراً ، أو قيمته من ثياب . وفي هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس ، ولا القدر ، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً ، وتزيد وتقص بحسب حاجة المسلمين ، واحتمال من تؤخذ منه ، وحاله

(١) أخرجه مسلم في ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث ٣ (طبعنا) عن بريدة بن الحصيب .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ١ - حدثنا محمود

ابن غيلان .

وأخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) ، والحديث رقم ٢٠٠٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه أبو داود في ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والقي ، ٣٠ - باب في أخذ الجزية ، حديث ٣٠٤١ . (٤) أخرجه أبو داود في ٩ - كتاب الزكاة ، ٥ - باب في زكاة السائمة حديث رقم ١٥٧٦ .

في الميسرة ، وما عنده من المال . ولم يفرق رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والمجمر . بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب ، وأخذها من مجوس^(١) هَجَرَ . وكانت مدينة قاعدة البحرين ، وكان أهلها عرباً ، فإن العرب أمة ليس لها في الأصل كتاب . وكانت كل طائفة تدين بدين من جاورها من الأمم ، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس وتنوخ وبهرا . وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم . وكانت قبائل من اليمن يهود ، لمجاورتهم لليهود اليمن . فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية ، ولم يعقب آباءهم ، ولا متى دخلوا في أهل الكتاب ، هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده ، ومن أين يعرفون ذلك ، وكيف ينضببط ، وما الذي دل عليه ؟ وقد ثبت في السير والمغازي أن من الأنصار من تهود آبائهم بعد النسخ بشريمة عيسى ، وأراد آبائهم إكراههم على الإسلام ، فأنزل الله تعالى^(٢) : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) وفي قوله لمعاذ^(٣) : خذ من كلّ دينا راء ، دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة .

السابع - قال الإمام أبو يوسف رحمه الله في كتاب (الخراج) :

وليس في شيء من أموالهم ، الرجال منهم والنساء ، زكاة ، إلا ما اختلفوا به في تجارتهم ، فإن عليهم نصف العشر ، ولا يؤخذ من مال حتى يبلغ مائتي درهم ، أو عشرين مثقالاً من الذهب ، أو قيمة ذلك من المروض للتجارة ، ولا يضرب أحد من أهل الذمة في استيذائهم الجزية ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يحمل عليهم في أبدانهم شيء من المسكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ؛ ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفي منهم الجزية ، ولا يحل للوالي أن يدع أحداً من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة ، إلا أخذ منهم الجزية ، ولا يرخص لأحد منهم في ترك شيء من ذلك ، ولا يحل

(١) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ١ - باب الجزية والموادعة

مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩١ و ١٤٩٢ و ١٤٩٣ . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٥ - باب في زكاة السائمة ، حديث ١٥٧٦

أن يدع واحداً ويأخذ من واحد ، ولا يسع ذلك ، لأن دماءهم وأموالهم إنما أحرزت بأداء الجزية ، والجزية بمنزلة مال الخراج .

ثم قال أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد:

وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يُؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى ^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تسكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته ^(٢) : أوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بمهدم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سميد بن زيد أنه مرّ على قوم قد أقيموا في الشمس في بمض أرض الشام ، فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له أقيموا في الشمس في الجزية ! قال : فكره ذلك ، ودخل على أميرهم وقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من عذب الناس عذبه الله .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب مرّ بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس ، يصبّ على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقال : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعضون حتى يؤدوها ! فقال عمر : فما يقولون هم وما يمتدرون به في الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد ! قال : فدعهم لا تكلفهم ما لا يطيقون . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تعذبوا الناس ، فإن الذين يعضون الناس في الدنيا ، يعضهم الله يوم القيامة ، وأمر بهم نخلي سبيلهم .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والفيء والإمارة ، ٣٣ - باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالنجارات ، حديث ٣٠٥٢ . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٨ - باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه . حديث ٧٣٧

ثم قال : وحدثني عمير بن نافع عن أبي بكر قال : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية ، والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباه ، فواللّٰه ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نحذله عند الهرم (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) ^(١) ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . قال : قال أبو بكر : أنا شهدت ذلك من عمر ، ورأيت ذلك الشيخ . انتهى .

الثامن - فى الغرض من الجزية ورأفة المسلمين بمن أظلمهم بسيوفهم .
قال الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر فى كتاب (الإسلام والنصرانية) فى هذا المعنى ، تحت بحث المقاتلة بين الإسلام الحربى ، والسيحية السلمية ، ما نصه ص ٧٤ :
الإسلام الحربى ، كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس ، وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بحرية يدفعونها ، لتكون عوناً على صيانتهم ، والحفاظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعاييدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة . خلفاء المسلمين ، كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ؛ وكل من لم يُعِن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، لهم مالنسا ، وعليهم ما علينا ^(٢) ، ومن آذى ذمياً فليس منا . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين

(١) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٢) لم أف على هذا الحديث .

عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في الإسلام وضيق الصدر عن طبع الضعيف ، فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطبيعته .

السيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، ترأف أعمال أهلها ، وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر ، مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد المعجز عن إخراجهم من دينهم ، وتعميدهم ، أجلبتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استوات عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً ، لا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العبد ، أو شدة المضد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتوبه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التي يفلب على أرضها ، بشيء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوء ، لا يفكرون معه صفو الدولة ، ولا يتخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . انتهى .

وفي كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) في بحث إجلاء أهل نجران ما نصه :
إن أساس الدعوة إلى الإسلام التبليغ ، وأنه لا إكراه في الدين ، فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبي فعلية أن يخضع لسلطانهم ، وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه ، وأن لا يُفَنَّ عن دينه ، وأن تكون له الذمة والعهد أني حل ، وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام واقعاً بعهد ، مؤدياً لجزيقته ، لا يخون المسلمين ، ولا يعالي عليهم عدوهم . وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك في هذا الفصل ، خبر أهل نجران الذين ، وكانوا من الكتائبين ، تعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ، ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ، ما لم يخونوا أو ينفدروا .
وتحرير الخبر عنهم أنه كان وفد وفدهم على رسول الله ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ،

وسألوه الصلح ، وأن يقبل منهم الجزاء ، فصالحهم على شيء معلوم ، يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده ، وأن لا يفتنوا عن دينهم ، ومراتبهم فيه ، ولا يحشروا ، ولا يعشروا ، وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم وعيبرهم ، وبمئتهم وأمثالهم . لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا يبطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقاً فيمنهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ولهم على ذلك جوار الله ، وذمة رسوله أبداً ، حتى يأتي أمر الله ، ما نصحوا وأصلحوا . واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به .

ولما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، أقرهم على حالهم ، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ﷺ ، مع أنه كان يتخوفهم ، ويود إجلاءهم ، لما روى ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : لا يبقين في جزيرة العرب دينان .

ولما حضرت أبا بكر الوفاة ، أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم العهد بإصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبي ﷺ كان يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام ، قد عانى ﷺ ما عانى في جمع كلمتها ، وتوحيد وجهتها ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرائها قوم يدبون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام ، على حداثة عهدهم فيه ، وعدم تمكنهم بعد من أصوله الصحيحة . هذا من وجه ، ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ، ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ مراسلاً في : ٤٥ - كتاب الجامع ، الحديث رقم ١٧ و ١٨ ، ١٩ (طبعنا) .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٧٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) عن عائشة متصلاً .

اليمين ، الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ، ويؤذن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمتها تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجراتيين ، باستمرارهم على تعاظم الربا ، يحملون بعض من جوارهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا . ومع هذه الأسباب التي تلجئ إلى إكراه النجراتيين على الإسلام ، فإن النبي ﷺ لم يكرههم على ذلك ، لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام ، لهذا تركهم على دينهم ، بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ، ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت .

ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي ﷺ ، فلم يسمه في أمرهم إلا ما وسع الرسول ﷺ ، حتى إذا علم أنهم خانوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يُفتنوا في دينهم .

ولما استخلف عمر رضى الله عنه ، كان أول بمت بعته ، بمت أبى عبيد إلى العراق ، وبمت يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، وأن يعاملهم بالرافة ويشترى أموالهم ، ويخيرهم عن أرضهم في أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، لا أن يعاملهم معاملة القوى الغالب ، للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبمده ، حتى الآن ، في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها ، وتخضع لقوة سلطانها . فتمرقوا ، فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجراتية بناحية الكوفة ، وبهم سميت . ولم تقف العناية بهم في إجلائهم ، والمحافظة على ما بيدهم من العهد ، وتعميضهم عما تركوه من المقار والمال عندهذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق . من ذلك أنهم شكوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه - لما استخلف - ضيق أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليه

تخفيف جزيتهم ، فكتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامله على الكوفة ، كتاباً يوصيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم ، لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم . وروى البلاذري : أنه لما ولي معاوية ، أوزيد بن معاوية ، شكوا إليه تفرقهم ، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضروه كتاب عثمان بن عفان ، بما حطهم من الحلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصاً وضعفاً . فوضع عنهم مائتي حلة تقم أربع مائة حلة . فلما ولي الحجاج العراق ، وخرج ابن الأشعث عليه ، أتتهم والدهاقين بوالاته ، فرد جزيتهم إلى ما كانت عليه . فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، شكوا إليه ظلم الحجاج وتقصمهم ، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم ، فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط . فلما ولي يوسف بن عمر العراق ، في خلافة الوليد بن يزيد الأموي ، ردّهم إلى ما كانوا عليه ، عصبية للحجاج . فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف أبو العباس السفاح ، رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر ، فردّهم إلى مائتي حلة . ولما استخلف هارون الرشيد شكوا إليه تغت العمال معهم ، فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة ، وبالغ بالرفق بهم ، فأمر أن ينفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالخرصة ، كي لا يتمنتهم أحد من العمال .

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب . وقد رأيت مما مرّ مبلغ عناية عمر رضي الله عنه بهم ، لما لم ير بُدّاً من إجلائهم للأسباب التي مر ذكرها . وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام ، ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب ، وعامة سكان الجزيرة العربية ، طوعاً أو كرهاً . وإنما هو الشرع الإسلامي ، منع من إكراه غير مشركي العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد ، وخفر الذمة ، لإسبب مشروع . لهذا ، لما خان النجرايون عهدهم بتعاملهم بالربا ، وقد عاهدوا رسول الله ﷺ ألا يتعاملوا به في الجزيرة ،

ساخ لأمر المؤمنين إجلاؤهم إلى غيرها ، بعد أن عوّضهم عن المال والعقار بمثله . وما زال الخلفاء بعده - مبالغاً بالرفق بأهل الكتاب ، وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بم عهد الله والرسول - ياملون النجرائين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

ونتج من هذه القصة ثلاثة أمور :

الأمر الأول - عدم إكراه النجرائين على الإسلام ، مع تعيّن الخطر من وجودهم في جزيرة العرب ، لحداثة عهد أهلها بالإسلام . ذلك لأن عدم الإكراه من أصول الشريعة الإسلامية . والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة لا للإكراه ، إلا لاجهاد مشركي العرب يومئذ . فقد شرع لإرغامهم على الإسلام ، لأسباب حكيمة لا تخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب ، التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب ، من آسيا وأفريقيا وأوروبا ، بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها ، يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً ، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

والأمر الثاني - عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالمهود ، وتأكيدهم لعهد النجرائين ، الواحد تلو الآخر ، على ضعف هؤلاء وقاوتهم ، وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها . وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة ، وسلطان الإسلام ، من كل ملة ودين .

والأمر الثالث - حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قاعدة حماية الذي في نفسه وماله ، بتعويضه النجرائين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم ، لما قضت الضرورة بإجلاؤهم عن أرضهم ، إلى غير هامن بلاد المسلمين : وقد ذكر في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله

عنهم؛ ما فعله من هذا القبيل من أهل عَرَبَسُوسَ من ثغور الروم، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ، ونسكتهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يموتوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضغفين . وما زال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت ، والملك القديم ، للأقوام المغلوبين للمسلمين ، الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم . ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض . ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فحادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس في هذا ما يقدح في أصول الحكم الإسلامي الذي يأبى الظلم ، ويدعو إلى الرأفة والعدل . هذا شأن الإسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة . وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر ، إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى ، وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لا ما تدعو إليه شهوات الملك ، ورغبات الأمة الغالبة . وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم، وأن لأهل الذمة مالهم ، وعليهم ما عليهم ، فبالفوا في الرأفة بأهل جوارهم ، والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، لم ينافزعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضواً من أعضاء مجتمعتهم لا غنى عن مشاركتهم في العمل ، ومشاطرته أسباب السعادة المدنية ، والحياة الوطنية . يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج . وترجمة علوم اليونان، وتقريب الفابغين منهم في علوم الهندسة والطب ، إليهم . واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم . بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيأتهم الاجتماعية ، لا يجوز فصله في حال من الأحوال - أن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ،

ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة القنار في الشام ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير القنار (قطلوشاه) بإطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين ، وأبى أن يسمح له بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من اقتلاكك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . فأطلقهم له - انتهى - .

ومنه يعلم شأن الحكم الإسلامي في أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء والعلماء بهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » جملة مبتدأة ، سميت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه ، وانتظامهم بذلك في سلك المشركين . وقرئ (عزير) بالتثنية على الأصل ، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفاً . وهو مبتدأ وما بعده خبره ، ولهم أوجه أخرى في إعرابه ، والوجه ما ذكرناه .

وليعلم أن الذي دعا الفريقين إلى مقاليلهما هو الغلو في التعظيم . فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم ، تسكفل التنزيل الكريم بذكره مراراً ، ودحر شبهه . وأما اليهود في (عزير) فقاتلهم أو جهلهم يتفهون بهذه الكلمة الشفعاء ، وأما بقيتهم فيعتبرونه في مقام موسى ، ويحترمون دائماً ذكره ، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة . ولتجديد الملة الموسوية ، وإرجاعها إلى عهدها ، وإصلاح ما فسد من آدابها وعوائدها ، بإلهام ،

فإن نسخة التوراة الأصلية ، وبقية أسفارهم ، فقدت لما أغار أهل بابل ، جند (بخت نصر) على بيت المقدس ، وهدموه ، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل ، وأقاموا هناك سبعين سنة ، ثم لما نبغ فيهم (عزرا) واشتهر ، واستمعطف أحد ملوكهم في سراحهم ، فأطلق له الملك الإجازة ، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس ، وجدد ما اندثر من الشريعة الموسوية .

قال بعض الكتابيين في قاموس له : زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعا في عهد (عزرا) ، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم ، وضموإ إليه ما لم يكن فيه من قبل جلاء بابل .

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه : أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خبيرا بآثار وطنه وقدمها ، وماهرا بمعرفة الطقوس اليهودية ، وبارعا بالعلوم المقدسة ، هو أول من قرر هذا القانون ، وأثبت أجزاءه المختلفة ، بعد الأسر البابلي في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح ، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء ، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة ، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع ، وبذل أسماء الأماكن التي انتسخ ثم استعماؤها ، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم ، ونسق الكل نسقا محكما ، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبراني بحروف كلدانية ، ألف استعملها اليهود مدة أسره الذي استمر سبعين سنة . انتهى .

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابنا) . وفيه من الجراءة على المقام الرباني ما فيه . ولوزعموا إرادة المجاز في ذلك ، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم ، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى ، حتى بغفة اللسان ، عن النطق بما يؤهم نقصا في جانبه ، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقا ومن كل ما شاكلة . هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم ، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبي ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه ، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل ، مما شاع .

الطيفة :

قرى (عزير) بالتقوين على الأصل ، لأنه منصرف ، وقرى بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس ، لا لأنه أجمى غير منصرف للعلمية والعجمة ، كما قيل ، لأن ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصلي ، وهو (عزراء) أو (عزريا) ، لفظان عبرانيان ، معنى الأول ممين ، والثاني الله مساعد . أما وقد تصرف فيه العرب بالتصغير ، فلا . وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة ، لا تتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها ، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان ، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير . ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها ، إما منحوته من القديمة ، أو محرفة منها ، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية ، إلا ما بقى على وضعه الأول .

وقوله تعالى « ذَلِكْ » إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمنتين . وما فيه من معنى البعد ، للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة - قاله أبو السعود - « قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ » قال الزمخشري : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى (بِأَفْوَاهِهِمْ) ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما - أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحتته ، كالألفاظ المهملات التي هي أجراس ونغم ، لا تدل على ممان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر في القلب . وما لا معنى له ، مقول بالفم لا غير .
والثاني - أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم (قول أبي حنيفة) ، يريدون مذهبه ، وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم ، لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر في القلوب . وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ، لم تبق شبهة في انتفاء الولد . انتهى .

وتمت وجه ثالث شائع في مثله ، وهو التأكيد النسبة هذا القول إليهم ، مع التعجيب

من تصرّحهم بذلك المقالة العاسدة . قال بعضهم : القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة ،
والأول أبلغ .

« يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى يضاهي قولهم قول الذين كفروا
من قبلهم من الأمم ، فضلوا كما ضل أولئك . قيل : المراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) مشركو مكة ،
القاتلون بأن الملائكة بنات الله ، وهذا يتم إن أريد بـ (اليهود والنصارى) فى الآية ،
يهود المدينة ونصارى نجران فى عهده ﷺ ، وهو وجه فى الآية كما تقدم ، فإنهم سبقوا
من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام . وقيل : المراد بهم قداماؤهم ، يعنى أن من كان
فى زمنه عليه الصلاة والسلام منهم ، يضاهي قولهم قول قداماؤهم . والمراد عراقتهم فى الكفر ،
أى أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث .

قال أبو السعود : وفيه أنه لا تعدد فى القول ، حتى يتأتى التشبيه ، وجعله بين قولى
الفرعيين ، مع اتحاد المقول ، ليس فيه مزيد مزية . وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهي
قولهم (الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) قول اليهود (عَزَّيْرٌ ... الخ) لأنهم أقدم منهم .

قال أبو السعود : وهو أيضاً كما ترى ، فإنه يستدعى اختصاص الرد والإبطال بقوله
تعالى (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، بقول النصارى . انتهى .

والمضاهاة المشابهة ، يقال : ضاهيت ، وضاهات - كما قاله الجوهري - وقراءة العامة
(يضاهون) بهاء مضمومة بمدّها واو . وقرأ عاصم بهاء مكسورة بمدّها همزة مضمومة ،
وهما بمعنى . من المضاهاة ، وهى المشابهة ، وهما لفتان . وقيل : الياء فرع عن الهمزة ،
كما قالوا : قرئت وتوضيت وأخطيت « فَأَنلَهُمُ اللَّهُ » أى لنهم أو قتلهم ، أو عاداهم أو تعجب
من شناعة قولهم « أَتَيْنَا يُؤْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك . والأخبار علماء اليهود جمع (حزب) بكسر الحاء وفتحها ، وهو العالم بتجوير الكلام وتحسينه - كذا ذكره أئمة اللغة - قال بعضهم : (الخبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين ، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله ، ومرتبة وراثية في آل هارون ، يكون بكر أشيخ من فيها . انتهى .

و (الرهبان) جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد . وأصل الترهّب عند النصارى ، التخلّي عن أشغال الدنيا ، وترك ملاذّها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها . وفي الحديث ^(١) (لا رهبانية في الإسلام) . وقوله تعالى (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال الرازي : إلا كثرون

(١) لم أفق على هذا الحديث بهذا النص . وإنما أخرج الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) ضمن حديث طويل عن أبي سعيد الخدري وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام .

وبالصفحة ٢٦٦ من هذا الجزء عن أنس بن مالك « لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » .

وبالصفحة ٢٢٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) عن عائشة « يا عثمان ! إن الرهبانية لم تسكتب علينا . . . » .

وجاء في مسند الدارمي في : ١١ - كتاب النكاح ، ٣ - باب النهي عن التبتل ، عن سعد بن أبي وقاص « يا عثمان ! إني لم أؤمر بالرهبانية : »

من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم ، أى لما روى الترمذى ^(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنق صليب من ذهب ، فقال : يا عدى ! اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

وروى الإمام أحمد والترمذى ^(٢) وابن جرير ^(٣) من طرق ، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية فأمرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ ، على أخته ، وأعطائها ، فرجعت إلى أخيها ، فرغبت في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طي ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدى صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية (اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال : فقلت : إنهم لم يعبدوه ، فقال بلى : إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . وقال رسول الله ﷺ : يا عدى ! ما تقول ؟ أضرارك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يضررك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ١٠ - حديثنا

الحسين بن مرثد الكوفي . (٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة

التوبة ، ١٠ - حديثنا الحسين بن مرثد الكوفي . (٣) تفسير الطبري بالصفحة ١١٤ من

الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال فلقد رأيت وجهه استبشر . ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية ، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا .

وقال السديّ : استنصحو الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً في تفسير اتخاذهم أرباباً ، قال : بأن أطاعوهم بالسجود لهم .

قال الشهاب : والأول هو تفسير النبي ﷺ ، فينفى الاختصار عليه ، لأنه لما أتاه عدىّ ابن حاتم وهو يقرؤها قال له : إنا لم نعبدهم ، فقال : ألم تتبعوهم في التحليل والتحريم ؟ فهذه هي العبادة ، والناس يقولون : فلان يعبد فلاناً ، إذا أفرط في طاعته ، فهو استتارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة ؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة ، وهي طاعة مخصوصة على مطلقها ، والأول أبلغ . انتهى .

قال الرازيّ : قال الربيع : قلت لأبي العالمة : كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟ فقال : إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأخبار والرهبان ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى .

قال الرازيّ : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجاهدين رضي الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء ، قرأت عليهم آيات كثيرة في كتاب الله تعالى في بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلى كالتعجب ، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات ، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل المدينة . انتهى .

« وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم « إِلَّا لِيَمْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا » أى يطعموا أمره ، ولا يطعموا أمر غيره بخلافه ، وقوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » صفة ثانية لـ (إلهاً) ، أو استثناء مقرر للتوحيد « سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى به فى العبادة والطاعة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ » أى يخمّدوا حجته الدالة على وحدانيته ، وتقصدوه عن الولد ، أو القرآن ، أو نبوة محمد ﷺ « وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ » أى بإعلاء التوحيد ، وإعزاز الإسلام « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى بدلائل التوحيد ، ذلك . قال أهل المعانى : نور الله استعارة أصلية تصريحية لحجته أو ما بعدها ، لتشبيهه كل منها بالنور فى الظاهر . والإطفاء ترشيح ، أو هو استعارة تمثيلية ، شبه حالهم فى محاولتهم إبطال النبوة بالكذب ، بحال من يطلب إطفاء نور عظيم ، منبث فى الآفاق ، يريد الله أن يزيده بشفاعته .

لطائف :

الأولى - قال الشهاب : روى فى كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله . ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيماً ، فكيف يطفأ بنفخ الفم ، مع ما بين الكفر الذى هو ستر وإزالة للظهور ، والإطفاء من المناسبة .

الثانية - لا يخفى أن قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يُتِمَّ) استثناء مفرغ ، وهو في محل نصب مفعول به ، والاستثناء المفرغ يكون في الفعل النفي لا الموجب ، إلا أن يستقيم المعنى . وهنا صح التفريغ من الموجب وهو (وَيَأْتِي اللَّهُ) لأنه نفي في المعنى ، لأنه وقع في مقابلة (يُرِيدُونَ) وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة ، أى لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره ، فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلاً عن الإطفاء - أفاده أبو السمود .

وقال الزجاج : المستثنى منه محذوف تقديره (ويكره الله كل شيء إلا إتمام نوره) .
قال الشهاب : فالمعنى على العموم المصحح للتفريغ ، عنده ، فللناس في توجيه التفريغ هنا مسلكان . والحاصل أنه إن أريد كل شيء يتعلق بنوره بقرينة السياق ، صح إرادة العموم ، ووقوع التفريغ في الثابتات ، كما ذهب إليه الزجاج ، إذ مامق عام إلا وقد خصص ، فكل عموم نسبي ، لكنه يكتفى به ، ويسمى عموماً . ألا ترى أن مثاهم (قرأت إلا يوم كذا) قد قدروه كل يوم ، والمراد من أيام عمره ، لا من أيام الدهر . فإن نظر إلى الظاهر في أمثاله كان عاماً ، واستغنى عن النفي ، وإن نظر إلى نفس الأمر ، فهو ليس بعام ، فيؤول بالنفي ، والمعنى فيهما واحد وإنما أول به هنا عند من ذهب إلى تأويله ، لاقتضاء المقابلة له ، إذ مامق إثبات إلا ويمكن تأويله بالنفي ، فيلزمه جريان التفريغ في كل شيء ، وليس كذلك ما صرح به الرضى . ولذا قيل : الاستثناء المفرغ ، وإن اختص بالنفي ، إلا أنه قد يقال منع المعنى بمعونة القرائن ، ومناسبة المقامات ، فيجوز بعض الإيجابيات مجرى النفي في صحة التفريغ معها - ذكره الشهاب أيضاً .

الثالثة - قال أبو السمود : وفي إظهار (النور) في مقام الإخبار مضافاً إلى ضميره عز وجل - زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشارة بعلّة الحكم

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى القرآن الذى هو هدى للمتقين « وَدِينِ الْحَقِّ » أى التوحيد الثابت الذى لا يزول « لِيُظْهِرَهُ » أى الدين الحق « عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » أى على سائر الأديان « وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » أى أن يكون ذلك .
 وجواب (لو) فيهما محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وجملة (هُوَ الَّذِي) الخ بيان وتقرير لمضمون الجملة قبلها ، لأن المراد من إتمام نوره إظهاره ، ولكونه بحسب المال بمعنى ، ذيله بما ذيله به بعينه ، لكنه عبر عن الكافرين بالمشركون تفادياً عن صورة التكرار - كذا في العناية .

وفى الصحيح^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله زوى لى الأرض ، مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمى ما زوى لى منها .
 وروى الإمام أحمد^(٢) عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ - كتاب الفتن وأثرها الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا) عن ثوبان .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ - كتاب الفتن والملاحم ، ١ - باب ذكر الفتن ودلائلها ، حديث ٤٢٥٢ .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وأخرج أيضاً^(١) عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليملن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيراً ، ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر .

وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز . ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج أيضاً^(٢) عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبق على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعز عزيراً ، ويذل ذليلاً ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها .

وأخرج أيضاً^(٣) عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدى ! أسلم تسلم . فقلت : إني من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألت من الرّكوسية^(٤) ، وأنت تأكل مرباع^(٥) قومك ؟ قلت : بلى ! قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يمد أن قالها ، فتواضعت لها . قال : أما إني أعلم ما الذى يمنعك عن الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمته العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده !

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٤) الركوسية بالفتح قوم لهم دين بين النصارى والصابئين . وروى عن ابن الأعرابي

أنه قال : هذا من نعت النصارى ولا يعرب . اه قاموس وشرحه . (٥) المرباع : الربع ، كالمعشار بمعنى العشر ، ولم يسمع فى غيرها . وكان القوم يغزون بعضهم فى الجاهلية ، فيغنمون ، فيأخذ الرئيس ربع الغنيمة دون أصحابه خالصاً ، وذلك الربع يسمى المرباع . اه قاموس وشرحه .

ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الطعمينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ! كسرى ابن هرمز ، وليمذلن المال حتى لا يقبله أحد .

قال عدى بن حاتم : فهذه الطعمينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده ! لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى ^(١) مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تمعد اللات والعزى ، فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ . . .) الآية - إن ذلك تام ! قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله رجلاً طيبة ، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم .

قال في (الباب) : معنى الآية ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها ، وهو ألا يعبد الله إلا به . وكذا روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : هذا وعد من الله تعالى بأنه يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان ، وتعام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى . وكذلك قال الضحاك والسدي : لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام . وقال الشافعي : قد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها ، بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق ، وما خالفه من الأديان باطل ، وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ، ودين الأميين ، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً ، وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام ، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين ، وجرى عليهم حكمه . قال : فهذا هو ظهوره على الدين كله . انتهى .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث رقم ٧٢ (طبعنا) .

قلت : ما ذكره الشافعى هو من ظهوره ، والأدق ما تقدم ، من أنه سوف يمتنقه كل فرقة ، فإن ما تذهب إليه طوائف الإصلاح من الملل الأخرى لا يبعد الآن عن الإسلام إلا قليلاً .

ثم بين تعالى حال الأخبار والرهبان في إغوائهم لأرأذهم ، إثر بيان سوء حال الاتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطيعونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ

وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ

بِالْبَاطِلِ » أى بالطريق المنكر من الرشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع وغير

ذلك . و (الأكل) مجاز عن الأخذ ، بملافة الملية والمعلولية : لأنه الغرض الأعظم منه .

وفيه من التقييد لحالهم ، وتنفير السامعين عنه ما لا يخفى « وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » أى

عن دين الإسلام وحكمه ، واتباع الدلائل ، إلى ما يهودون . أو عن المسلك المقرر في التوراة

والإنجيل ، إلى ما افتروه وحرفوه .

ثم أشار إلى أن سبب ذلك هو إثمارهم حب المال وكنزه على أمر الله ، وتناسيهم وعيده

في الكنز بقوله سبحانه « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » أى يحفظونها حفظ

المدفون في الأرض « وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى هو الزكاة « فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَوْمَ يُخَمَّىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ)

« يَوْمَ يُخَمَّىٰ عَلَيْهَا » أى يوقد عليها « فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ » أى ويقال لهم ضمناً إلى ما عم فيه ، هذا ما كنتم « لَا تُفْسِكُمْ » أى لتلذذوا به ، فكان سبب تعذيبها « فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ » أى وباله ، وهو اله وشدته بالسكى .

وفي هذه الآية فوائد :

الأولى : قال بعضهم في قوله تعالى (أَيْمًا كُفُونًا) دلالة على تحريم الرشا على الباطل ، وقد ورد^(١) (لعن الله الراشئ والمرتشئ) . وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب . وفي جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف . رجح الجواز ليتوصل إلى الحق ، كاستفتاء . قال الحاكم يدخل في تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه ، وكل من حرّف شيئاً لغرض الدنيا . انتهى .

الثانية - في الآية - كما قال ابن كثير - تحذير من علماء السوء وعباد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح^(٢) (لتركبن سنن من كان قبلكم حذو)

(١) أخرجه الترمذى في : ١٣ - كتاب الأحكام ٩ - باب ما جاء في الراشئ والمرتشئ في الحكم .

(٢) نص الحديث في البخارى في ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، حديث ١٦٢٢ .

القذّة بالقذّة) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فن؟ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء؟ ثم أنشد لابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا اللو كُ ، وأخبار سوء ورهبانها

الثالثة - قوله تعالى (وَالَّذِينَ) مبتدأ ، والخبر (يَكْفُرُونَ) أو منصوب تقديره :

بشر الذين يكفرون . والتعريف في الموصول للمعد . والمهود ، إما الأخبار والرهبان ، وإما المسلمون الكافرون ، لجري ذكر الفريقين ، وإما ما هو أعم . والأول روى عن معاوية ، والثاني عن السدي ، والثالث عن ابن عباس وأبي ذر .

قال الزخشري : يجوز أن يكون الموصول إشارة إلى الكثير من الأخبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل ، وكثر الأموال والضي بها عن الإتيان في سبيل الله . ويجوز أن يراد المسلمون الكافرون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تمايظاً ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منهم طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم . انتهى .

قال في (الأنوار) : ويؤيد الثاني أنه لما نزل كبر على المسلمين ، قد كر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم - رواه (١) أبو داود والحاكم وصححه - وقوله ﷺ ما أدى زكاته فليس بكفر - أخرجه الطبراني والبيهقي -

= وفي مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ٦ (طبعنا) نصه هكذا : عن أبي سعيد الخدري : أن النبي ﷺ قال « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتهموه » ، قلنا : يارسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فن؟» أما الحديث الذي جاء فيه حذو القذة بالقذة فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه عن شداد بن أوس : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم ، أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » .

(١) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٢ - باب في حقوق المال ، حديث ١٦٦٤

أى ليس بالكفر المتوعد عليه فى الآية ، فإن الوعيد على الكفر مع عدم الإتيان فيما أمر الله أن ينفق فيه . وأما قوله ﷺ : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه ، فالمراد منها : ما لم يؤد حقها ، لقوله عليه الصلاة والسلام ، فيما أورده الشيخان : البخارى فى تاريخه ، ومسلم^(٢) فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره . انتهى .

وقد اشتهرت محاوراة معاوية لأبى ذر فى هذه الآية .

روى البخارى^(١) عن زيد بن وهب قال : سررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : كنت فى الشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب ؛ فقلت : نزلت فيما وفيهم . فكان بينى وبينه فى ذلك كلام ، فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها ، فكثرت على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تمنحيت ، فكنت قريباً . فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمر على عبد حبشى أسمعت وأطعت .

ولابن جرير^(٣) فى رواية (بعد قول عثمان له : تمنح قريباً) قلت : والله لن أدع ما كنت أقول .

وروى أبو يعلى أن أبا ذر كان يحدث ويقول : لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم ، إلا ما ينفقه فى سبيل الله ، أو يعده لغيره . فكتب معاوية إلى عثمان : إن كان لك بالشام

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ١٢ : - كتاب الزكاة حديث رقم ٢٤ (طبعاً) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته

فليس يكنز ، حديث رقم ٧٤٩ . (٣) انظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

حاجة ، فابعث إلى أبي ذر فكتب إليه عثمان أن أقدم على ، فقدم .
قال ابن كثير : كان من مذهب أبي ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة
العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحشم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ في خلافه . فنهاه معاوية
فلم ينته . فخشى أن يضر بالناس في هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن
يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم أنزله بالربذة ، وبها مات رضى الله عنه في خلافة
عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ، فبعث إليه بألف
دينار ، ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال : إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك
فأخطأت فهاك الذهب . فقال : ويحك ! إنها خرجت ، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به .
وقال ^(١) الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملا من قريش ، إذ
جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر السكاذين
برَضْف ^(٢) يحمى عليه في نار جهنم ، ثم يوضع على حلقة ثدى أحدهم حتى يخرج من نَفْض ^(٣)
كُتْفِهِ ، ويوضع على نَفْض كُتْفِهِ حتى يخرج من حلقة ثديه ، يتزلزل . قال : فوضع القوم
رؤوسهم ، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً . قال : وأدبر واتبعته حتى جلس إلى معاوية
فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يملكون شيئاً ، إنما
يجمعون الدنيا - رواه مسلم ، وللبخارى نحوه - .

وفي الصحيح ^(٤) أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ،

(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته فليس بكنز ،

حديث رقم ٧٥٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٣٤ (طبعنا) .

(٢) الرضف : الحجارة المحماة على النار . واحدها رَضْفَةٌ .

(٣) النفض : أعلى الكتف . وقيل : المظم الرقيق الذى على طرفه .

(٤) أخرجه البخارى في : ٤٣ - كتاب الاستقراض وأداء الديون ، ٣ - باب أداء

الديون ، حديث رقم ٦٦٠ .

يمر على ثلاثة أيام ، وعندى منه شيء ، إلا دينار أرصده لدين .
قال ابن كثير : فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا .
أى وما أخرجه الشيخان^(١) أيضاً عنه ، قال : انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس
في ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة ! قال : فجلست حتى جلست ،
فلم أبق حتى قمت فقلت : يا رسول الله ! فذاك أبى وأمى ، من هم ؟ قال : هم الأكثرون
أموالاً ، إلا من قال هكنا وهكنا وهكنا ، من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن
شماله ، وقليل ما هم .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه ، أنه كان مع أبى ذر ،
نخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضى حوائجها ، ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري
به فلوساً . قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك ، وللضيف ينزل بك . قال : إن خليلي
عهد إلى أن أيتما ذهب أو فضة أو كى عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه في سبيل الله
عز وجل إفراغاً .

قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة ، تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل
مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش ، فهو كثر يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت
في ذلك ، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على ما نعى الزكاة ، وأصبح
ما تمسكوا به حديث طالحة وغيره في قصة الأعرابي^(٣) حيث قال : هل على غيرها ؟ قال :
لا ، إلا أن تطوع . انتهى .

- (١) أخرجه البخارى في : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ٣ - باب كيف كانت عين
النبي ﷺ ، حديث ٧٧٥ . وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٣٠ (طبعنا) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في السند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
(٣) يشير إلى حديث البخارى الذى رواه عن طلحة بن عبيد الله في : ٢ - كتاب
الإيمان ، ٣٤ - باب الزكاة من الإسلام ، حديث ٤٢ .

وبالجملة فالجمهور على أن السكز المذموم ما لم تؤد زكاته . وقد ترجم لذلك البخاري^(١) في (صحيحه) فقال (باب ما أدى زكاته فليس بكفر) . ويشهد له حديث أبي هريرة^(٢) مرفوعا : إذا أدبت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك - حسنه الترمذي وصححه الحاكم - . وعن ابن عمر : كل ما أدبت زكاته ، وإن كان تحت سبع أرضين ، فليس بكفر وكل ما لا تؤدى زكاته فهو كفر ، وإن كان ظاهرا على وجه الأرض - أو دعه البهق - مرفوعا ، ثم قال : المشهور وقفه ، كحديث جابر : إذا أدبت زكاة مالك ، فقد أذهبت منك شره . أخرجه الحاكم ، والمرجح وقفه .

هذا وذهب ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه إلى أن الزكاة نسخت وهيد السكز . روى البخاري في (صحيحه)^(٣) أن أعرابيا قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) الآية - قال ابن عمر : من كتمها فلم يؤد زكاتها ، فويل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال : زاد ابن ماجه^(٤) : ثم قال ابن عمر : ما كنت أبالي لو كان لي مثل أحد ذهبا ، أعلم عدده ، أزيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى . ورواه أبو داود في كتاب (الناسخ والنسخ) . فهذا يشعر بأن التوفيد على الاكتناز - وهو حبس ما فضل عن الحاجة عن الموائسة به - كان في أول الإسلام ، ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة ، لما فتح الله الفتوح ، وقدّرت نصب الزكاة . ويشعر أيضا

- (١) أخرجه في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته فليس بكفر .
 (٢) أخرجه الترمذي في : ٥ - كتاب الزكاة ، ٢ - باب ما جاء إذا أدبت الزكاة فقد قضيت ما عليك . (٣) أخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته فليس بكفر ، حديث ٧٤٧ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٨ - كتاب الزكاة ، ٣ - باب ما أدى زكاته فليس بكفر ، حديث ١٧٨٧ (طبعنا) .

بأن فرض الزكاة كان في السنة التاسعة من الهجرة ، وجزم به ابن الأثير في (تاريخه) : وقواه بمضمهم بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ، ففيها لما أنزلت آية الصدقة بعث النبي صلى الله عليه وسلم عاملاً فقال : ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية . والجزية إنما وجبت في التاسعة .

وأقول : هذا الحديث ضعوفه . والأفوى منه كون هذه السورة التي فيها هذه الآية نزلت في السنة التاسعة كما قدمنا . فإذا نسخت بالزكاة كانت الزكاة في تلك السنة أو بعدها قطعاً .

قال ابن حجر في (الفتح) : والظاهر أن ذلك كان في أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر . واستدل له ابن بطال بقوله تعالى (٢) (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْو) أى ما فضل عن الكفاية ، فكان ذلك واجباً في أول الأمر ، ثم نسخ - والله أعلم - .

وفي المسند (٣) من طريق يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال : كان أبوذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة . ثم يخرج إلى قومه ، ثم يرخص فيه النبي ﷺ فلا يسمع للرخصة ، ويعلق بالأمر الأول .

وما سقناه من مذهب أبي ذر ، هو ما ساقه المفسرون وشرّاح الحديث . وزعم بعضهم أن الذي حدا أبا ذر لذلك ما رآه من استئثار معاوية بالنفء حيث قال : الذي صح أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يعتبرون النفء لكافة المسلمين ، يستوى فيه المقاتلون وغيرهم ، ولعله باعتبار أن القتال فريضة على كل المسلمين ، فكأنهم داخل تحت ذلك الحكم . قال : والذي يؤيد أنه لكافة المسلمين ، أن أبا ذر رضي الله عنه لما كان بالشام ، والوالى عليها ، من

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قَبِلَ الخليفة عثمان ، معاوية رضى الله عنهما ، ورأى من معاوية ما يشعر بحرصه على ادخار المال في بيت المال ، لمصرفه في وجوه المصالح التي يراها للمسلمين ، وكان أبو ذر مشهوراً بالودع شديد الحرص على حقوق المسلمين ، يقول الحق ولو على نفسه - أخذ يشكك بهذا الأمر بين الناس واتخذ له حزباً من أهل الشام يساعده على مطالبة معاوية برد المال للمسلمين ، وبيان عدم الرضا بكفزه في بيت المال ، لأى حال من الأحوال ، إلا لتوزيعه على كافة المسلمين لا اشتراكهم بما آفاه الله عليهم أجمعين . وتابعه على قوله جماعة كثيرون ، كانوا يجتمعون لهذا القصد سرّاً وجهرًا ، حتى كادت تكون فتنة ، فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان رضى الله عنهم أجمعين فنفاه إلى الربرة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه . انتهى .

ونقل ما يقرب منه ابن حجر في (الفتح) حيث قال : والصحيح أن إنكار أبي ذر كان على السلاطين الذين يأخذون المال لأنفسهم ولا ينفقونه في وجهه .

الرابعة - إنما قيل (وَلَا يَنْفَقُونَهَا) بضمير المؤنث ، مع أن الظاهر التثنية ، إذ المذكور شيان لأن المراد بهما دنائير ودرام كثيرة ، وذلك لأن الكثير منهما هو الذى يكون كثيراً ، فأتى بضمير الجمع للدلالة على الكثرة ، ولو ثنى احتمل خلافه . وقيل : الضمير عائذ على السكون أو الأموال المفهومة من الكلام ، فيكون الحكم عاماً ، ولذا عدل فيه عن الظاهر . وتخصيصهما بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب في الأموال للتخصيص . وقيل : الضمير للفضة ، واكتفى بها ، لأنها أكثر ، والناس إليها أحوج ، ولأن الذهب يعلم منها بالطريق الأولى ، مع قربها لفظاً .

الخامسة - في قوله تعالى (فَبَشِّرْهُمْ) نهكم بهم ، كما في قوله (١) :

* نَجِيَّةٌ يَنْجِيهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ *

(١) من شواهد الكتاب (ج ١ ص ٣٦٥) وصدره * وَخَيْلٌ قَدْ دَلَفَتْ لَهَا بِخَيْلٍ *

قال الشنقرى : البيت لمعرو بن معدى كرب . والشاهد فيه جيل الضرب تحية ، على الاتساع . يقول : إذا تلاقوا في الحرب جملوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضرب الوجيع . ومعنى (دلفت) زحفت .

وقيل : البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة ، لتأثيره في القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغم .

السادسة - قيل في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالسكى دون غيرها : بأن جمع ذويها وإمسأكتهم كان لطلب الواجهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية ، والملابس البهية ، فلو جاهدتهم ورئاستهم المعروفة بوجوههم ، كان السكى بجباهم . ولا متلاء جنوبهم بالطعام ككوا عليها . ولما لبسوه على ظهورهم كويت . وقيل : لأنهم إذا سألهم فقير تبدو منهم آثار الكراهة والمنع ، فكلم وجوههم ، وتقطب . ثم إذا كرر الطلب ازوروا عنه وتركوه جانباً ، ثم إذا ألح ولّوه ظهورهم واستقبلوا جهة أخرى ، وهي النهاية في الرد ، والغاية في المنع ، الدال على كراهية الإعطاء والبذل . وهذا دأب مانى البر والإحسان ، وعادة البخلاء ، فكان ذلك سبباً لسكى هذه الأعضاء . وقيل : لأن هذه الأعضاء أشرف الأعضاء الظاهرة ، إذ هي المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد . أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن وماخره وجنباه ، فيكون كفاية عن جميع البدن .

وقال القاشانى : جمع المال وكثره مع عدم الإتفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح ، وحب المال . وكل رذيلة لها كية يعذب بها صاحبها في الآخرة ويحزى بها في الدنيا . ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال ، كان الذى يحصى عليه في نار جهيم الطبيعية ، وهاوية الهوى ، فيكوى به . وإنما خصت هذه الأعضاء ، لأن الشح مركوز في النفس ، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات ، لا من جهة الملو التي هي جهة استيلاء الروح وممر الحقائق والأنوار ، ولا من جهة السفلى التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية ، لعدم تمكن الطبيعة من ذلك ، فبقيت سائر الجهات ، فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب ، كما تراه يعاب بها في الدنيا ، ويحزى من هذه الجهات أيضاً ، إما بأن يواجه بها جهرأ فيفضح ، أو يسار بها في جنبه ، أو يفتاب بها من وراء ظهره . انتهى .

السابعة - قال أبو البقاء (يَوْمَ) من قوله تعالى (يَوْمَ يُعْمَىٰ عَلَيْهَا) ظرف على المعنى .
 أى يمتد بهم فى ذلك اليوم . وقيل : تقديره عذاب يوم ، وعذاب بدل من الأول ، فلما حذف
 المضاف أقام (اليوم) مقامه . وقيل : التقدير اذكروا ؛ و (عليها) فى موضع رفع لقيامه
 مقام الفاعل . وقيل : القائم مقام الفاعل مضمرة ، أى يحصى الوقود أو الجمر ، و (بها) أى
 بالكفور . وقيل : هى بمعنى (فيها) أى فى جهنم . وقيل : (يوم) ظرف لمحذوف تقديره :
 يوم يحصى عليها يقال لهم هذا ما كنتم اء .

ولما بين تعالى فيما تقدم إقدام الأخبار والرهبان على تغيير أحكام الله تعالى إشاراً لحطوطهم ،
 أتبعه بما جراً عليه المشركون فى نظيره من تغيير الأشهر التى حرمها الله تعالى بنهرها . وهو
 النسيء الآتى ، ووقفاً مع شهواتهم أيضاً ، فنعى عليهم سميهم فى تغيير حكم السنة بحسب
 أهوائهم وآرائهم مما أوجب زيادة كفرهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا
 فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ،
 وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » أى عددها « عِنْدَ اللَّهِ » أى فى حكمه « اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا »
 وهى القمريّة التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية « فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى اللوح المحفوظ ،
 لو فيها أثبتته وأوجبه من حكمه . وقوله : « يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » متعلق بما
 فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار . أراد بـ (الكتاب) على أنه مصدر ، والمعنى : أن هذا
 أمر ثابت فى نفس الأمر ، منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة . أفاده أبو السعود

« مِنْهَا » أى من تلك الشهور الاثني عشر « أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ثلاثة سَرَدٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب « ذَلِكَ » أى تحريم الأشهر الأربعة المذكورة « الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ » أى المستقيم « فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ » أى بهتك حرمتها بالقتال فيها. وقال ابن إسحق : أى لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كما فعل أهل الشرك « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » أى جميعاً « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى بالنصر والإمداد .

ثم بين تعالى ثمة هذه المقدمة ، وهو تحريم تغيير ما عين تحريمه من الأشهر الحرم ، وإيجاب الخدوبها على ما سبق فى كتابه ، ناعياً على المشركين كفرهم ، بإهمالهم ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زِيَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« إِنَّمَا النَّسِيءُ » أى تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر . مصدر (نَسَاهُ) إذا أخره « زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ » لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله من أحكامه إذ يجمعون بين الحل والحرم فى شهر واحد « يُحْلُونَهُ عَامًا » أى : يحلون النسىء من الأشهر الحرم سنة ، ويحرمون مكانه شهراً آخر « وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا » أى يتركونه على حرمة القديمة ، ويحافظون عليها سنة أخرى ، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ، والتعبير عن ذلك بالتحريم ، باعتبار إحلالهم له فى العام الماضى ، والجلتان تفسير للضلال ، أو حال .

قال الزمخشري : النسىء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام ، وهم محاربون ، شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه

ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من أشق شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله تعالى « لِيُؤَاطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أي ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ، ولا يخالفوها ، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين ، وربما زادوا في عدد الشهور ، فيجعلونها ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت . ولذلك قال عز وعلا (إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) يعني من غير زيادة زادوها « فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » بتركهم التخصيص للأشهر بعينها « زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » فاعتقدوا قبيلتها حسناً « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .
اعلم أن في هاتين الآيتين مسائل :

الأولى - أن الأحكام تعلق بالأشهر العربية ، وهي شهور الأهلة ، دون الشهور الشمسية . قيل : جعل أول الشهور الهلالية المحرم ، حُدِّثَ في عهد عمر رضي الله عنه ، وكان قبل ذلك يؤرخ بعام الفيل . ثم أرخ في صدر الإسلام بربيع الأول . وقد نقل ابن كثير هنا عن السخاوي وجوه تسمية الأشهر بما سميت به ، ونحن نورد ذلك مأثوراً عن أمهات اللغة المعول عليها فنقول :

١ - المحرم : على زنة اسم المفعول ، هو أول الشهور العربية : أدخلوا عليه الألف واللام لَمَحًا للصفة في الأصل ، وجعلوها علماً بهما ، مثل النجم والديان ونحوها ، ولا يجوز دخولها على غيره من الشهور عند قوم ، وعند قوم يجوز على صفر وشوال . وجمع المحرم محرمات ، والمحرم شهر الله ، سمته العرب بهذا الاسم ، لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف إلى الله تعالى إعظافاً له ، كما قيل للكعبة (بيت الله) . وقيل : سمي بذلك ، لأنه من الأشهر الحرم . قال ابن سيده : وهذا ليس بقوى .

٢ - صفر : الشهر الذي بعد المحرم . قال بعضهم : إنما سمي لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع . وقيل : لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا . وروى عن رؤية أنه قال : سمو الشهر (صفرًا) ، لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل ، فيتركون من لقوا صفرًا من المتاع ،

وذلك أن صفرا بعد المحرم ، فقالوا : صفر الناس منا صفراً . قال ثعلب : الناس كلهم يصرفون صفرا إلا أبا عبيدة ، فمنه للملمية والتأنيث ، بإرادة الساعة ، يعنى أن الأزمنة كلها ساعات ، وإذا جمعه مع المحرم قالوا : (صفران) ، ومنه قول أبي ذؤيب :

أَقَامَتْ بِهِ كَقَامِ الْحَنِيْفِ شَهْرَيَّ مُجَادَى وَشَهْرَيَّ صَفَرٍ

(استشهد به في اللسان في مادة (صفر) وليس في ديوان الهذليين) .

قال ابن دريد : الصفران من السنة شهران ، سمي أحدهما في الإسلام المحرم ؛ وجمعه أسفار ، مثل سبب وأسباب ، وربما قيل (صفرات) :

٤٣ - الربيع شهران بعد صفر ، سمي بذلك لأهما خُداً في هذا الزمن ، فإزيمهما في غيره قالوا : لا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، بزيادة (شهر) وتووين (ربيع) ، وجعل (الأول) و(الآخر) وصفاً تابعاً في الإعراب ، ويجوز فيه الإضافة ، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند بعضهم ، لاختلاف اللفظين ، نحو حبّ الحصيد^(١) ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ^(٢) ، وحق اليقين^(٣) ، ومسجد الجامع^(٤) . قال بعضهم : إنما التزمت العرب لفظ (شهر) قبل (ربيع) لأن لفظ (ربيع) مشترك بين الشهر والفصل ، فالتزموا لفظ شهر (في الشهر) وحذفوه في (الفصل) للفصل .

قال الأزهرى أيضاً : والعرب تذكر الشهور كلها مجردة من لفظ (شهر) إلا شهرى ربيع ورمضان . ويثنى الشهر ويجمع ، فيقال شهر ربيع ، وأشهر ربيع ، وشهور ربيع . ٦٥ - مجادى الأولى والآخرة (كخُبَارَى) الشهران التاليان لشهرى ربيع . ومجادى

(١) [٤٠ / ق / ٩] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٠٩] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٩٥] و [٦٩ / الحاقة / ٥١] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه : هشام

عن محمد قال : دخلت مسجد الجامع ... الخ .

معرفة مؤنثة . قال ابن الأنباري : أسماء المشهور كلها مذكرة ، إلا جافيين ، فهما مؤنثان .
تقول مضت جافى بما فيها ، قال الشاعر ^(١) :

إِذَا مُجَادَى مَنَعَتْ قَطَرَهَا زَانَ جِفَائِي عَطَنُ مُغْضِفُ

ثم قال : فإن جاء تذكر جمادى في شعر ، فهو ذهاب إلى معنى الشهر . كما قالوا : هذه ألف درهم ، على معنى هذه الدراهم . والجمع على لفظها جماديات ، والأولى والآخرة صفة لها . فالآخرة بمعنى المتأخرة . قالوا : ولا يقال جمادى الأخرى ، لأن الأخرى بمعنى الواحدة فتتناول المتقدمة والمتأخرة ، فيحصل اللبس . فقيل الآخرة لتختص بالتأخرة . وإنما سميت بذلك لجود الماء فيها ، عند تسمية المشهور ، من البرد . قال ^(٢) :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ مُجَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةٍ لَا يُبْصِرُ السَّكْبُ مِنْ ظُلُمَاتِهَا الطُّنْبَاءُ
لَا يَنْبَحُ السَّكْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَكْفٍ عَلَى خُرْطُومِهِ الدَّانِيَاءُ

٧ - رجب : سمي به لتعظيمهم إياه في الجاهلية عن القتال فيه . يقال : رَجَبَ فلانا ، هابه وعظمه . كرجبه . منصرف وله جموع : أَرَجَابُ وأَرْجَبَةٌ وأَرْجُبُ ورجاب ورجوب وأراجب وأراجيب ورجبانات . وإذا ضموا له شعبان قالوا (رجبان) للتغليب . وفي الحديث ^(٣) : رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وقوله (بين جمادى وشعبان) تأكيد للنشأن وإيضاح لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر ، فيتحول عن موضعه الذي يختص به ، فبين لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا ما كانوا يسمونه على حساب النسب ، وإنما قيل : رجب

(١) استشهد به في اللسان في مادة (ج م د) قال : أراد به (العطن) هنا نخيله الراسخة في الماء ، الكثيرة الحمل ، وعطن مغضف : إذا كثر نعمته . (٢) قائلهما مرة بن محسنان ، الخامسة رقم ٦٧٥ . (٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة القوبة ، ٨ - باب قوله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، الحديث رقم ٥٩ عن أبي بكر .

مضر وإضافه إليهم ، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكانهم اختصوا به ، وذكر له بعضهم سبعة عشر اسماً .

٨ - شعبان : جمعه شعبانات وشمايين . من (تشعب) إذا تفرق كانوا يتشعبون فيه في طلب المياه . وقيل في الفارات . وقال ثعلب : قال بعضهم : إنما سمي شعبان لأنه شعب أى ظهر بين شهر رمضان ورجب .

٩ - رمضان : سمي به لأن وضعه وافق الرَّمَضَ (بفتحين) ، وهو شدة الحر ، وجمعه رمضانات وأرمضاء . وعن يونس أنه سمع رماضين ، مثل شمايين . وقيل : هو مشتق من (رمض الصائم يرمض) إذا اشتد حرّ جوفه من شدة العطش ، وهو قول الفراء . قال بعض العلماء : يكره أن يقال جاء رمضان وشبهه ، إذا أريد به الشهر ، وليس معه قرينة تدلّ عليه . وإنما يقال : جاء شهر رمضان ، واستعدل بحديث (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، واسكن قولوا شهر رمضان) . وهذا الحديث ضعفه البيهقي ، وضعفه ظاهر ، لأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، فلا يعمل به . والظاهر جوازه من غير كراهة ، كما ذهب إليه البخاري وجماعة من المحققين ، لأنه لم يصح في الكراهة شيء . وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ما يدل على الجواز مطلقاً ، كقوله ^(١) : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار وصفت الشياطين .

وحقق السهيلي أن لحذف (شهر) مقاماً يبين مقام ذكره ، يراعيه البليغ . وحاصله أن في حذفه إشعاراً بالعموم ، وفي ذكره خلاف ذلك ، لأنك إذا قلت شهر

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٥ - باب هل يقال : رمضان أو شهر رمضان ، حديث ٩٦٤ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث رقم ١ (طبعنا) عن أبي هريرة . وفي البخاري : وسلسلت الشياطين ، وفي مسلم : صفت .

كذا ، كان ظرفاً وزال الموم من اللفظ ، إذ المعنى فى الشهر ، ولذلك قال ﷺ (١) (من صام رمضان) ولم يقل (شهر رمضان) لىكون العمل فيه كله . انتهى . فليتأمل

١٠ - شوال : شهر عيد الفطر ، وأول أشهر الحج ، وجمعه شوالا وشوايل ، وقد

تدخله الألف واللام . قال ابن فارس : وزعم ناس أن الشوال سمي بذلك لأنه وافق وقتاً

تشول فيه الإبل ، أى ترفع ذنبها للقاح ، وهو قول الفراء . وقال غيره : سمي بتشويل ألبان

الإبل ، وهو توليه وإدباره ، وكذلك حال الإبل فى اشتداد الحر ، واقطاع الرطب وكانت

العرب تظير من عقد المناكح فيه وتقول : إن المنكوحة تمنع من ناكحها ، حتى تمنع طروقة

الجل إذا لقحت وشالت بذنبها . فأبطل النبي ﷺ طيرتهم . وقالت عائشة رضى الله عنها (٢) :

تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وبني بنى فى شوال ، وأى نساؤه كان أحظى عنده منى ؟

١١ - ذو القعدة : بفتح القاف ، والكسر لفة ، سمي به لأن العرب كانوا يقيمون فيه

عن الأسفار والغزو والميرة وطلب السكلا ، ويحجون فى ذى الحجة : والجمع ذوات القعدة ،

وذوات القعدات ، والثنية ذواتا القعدة وذواتا القعدتين ، فنثوا الاسمين وجموعهما ، وهو عزيز ،

لأن الكلمتين بمنزلة كلمة واحدة ، ولا تتوالى على كلمة علامتا ثنية ولا جمع .

١٢ - ذو الحجة : الشهر الذى يقع فيه الحج سمي بذلك للحج فيه ، والجمع ذوات الحجة ،

ولم يقولوا (ذوو) على واحده ، والفتح فيه أشهر من الكسر ، و (الحجة) بالكسر المرأة

الواحدة من الحج ، وهو شاذ لأن القياس فى المرة الفتح - انتهى .

وقد أوردنا هذا ملخصاً عن (المصباح) و (القاموس) و (شرحه) .

المسألة الثانية - قدمنا أن الأشهر الحرم الأربعة ، ثلاثة سرّذ أى متتابعة ، وواحد فرد

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٦ - باب من صام رمضان إيماناً

واحتمساباً ونية ، حديث رقم ٣٣ عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٣ (طبعنا) .

وكانت العرب لا تستحل فيها القتال ، إِلَّا حَيَّان : خنعم وطبي ، فإنهما كانا يستحلان الشهور . وكان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمننا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء الحلين ، فكانت العرب تستحل دماءهم خاصة في هذه الشهور . وكان لقوم من غطفان وقيس ، يقال لهم الهباآت ، ثمانية أشهر حرم ، يقال لها (البسل) يحرمونها تشدداً وتعمقاً .

الثالثة : قال ابن كثير : إنما كانت الأشهر الحرم أربعة : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء المناسك - الحج والعمرة - حرم ، قبل أشهر الحج ، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقيمون فيه عن القتال . وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون بأداء المناسك . وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجموا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتكاف به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

الرابعة - قال النووي في (شرح مسلم) : وقد اختلفوا في كيفية عدتها على قولين حكاهما الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكتاب) قال : ذهب السكوفيون إلى أنه يقال : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال : والكتاب يعلمون إلى هذا القول ليأتوا بهن من سنة واحدة . قال : وأهل المدينة يقولون : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وقوم ينكرون هذا ويقولون : جاؤوا بهن من سنتين . قال أبو جعفر : وهذا غلط بين ، وجهل باللغة ، لأنه قد علم المراد ، وأن المقصود ذكرها ، وأنها في كل سنة ، فكيف يقوم أنها من سنتين ؟ قال : والأولى والاختيار ما قاله أهل المدينة ، لأن الأخبار قد تظاهرت عن رسول الله ﷺ كما قالوا ، من رواية ابن عمر وأبي هريرة وأبي بكرة رضي الله عنهم ، قال : وهذا أيضاً قول أكثر أهل التأويل .

الخامسة - استنبط بعضهم من قوله تعالى : (فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ) أن الإنم

في هذه الأشهر الحرمه أكد وأبلغ في الإنم في غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضعف ، لقوله تعالى (١) : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عباس فيما رواه عنه علي ابن أبي طلحة : أنه تعالى اختص من الأشهر أربعة أشهر جعلها حراماً ، وعظم حرمتها ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم .

وقال قتادة : إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ، ولكن الله بعظم من أمره ما يشاء . وقال : إن الله اصطفى صفائاً من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالي ليلة القدر . فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم ، وأهل العقل - نقله ابن كثير - ثم ذكر أن ابن جرير اختار في قوله تعالى (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) ما قاله ابن إسحاق فيما تقدم .

أقول : وهو الظاهر المتبادر .

السادسة - قال المهيمن : إنما كان منها أربعة حرم ليكون ثلث السنة تفليماً للتحليل الذي هو مقتضى سمة الرحمة ، على التحريم الذي هو مقتضى الغضب فجعل أول السنة وآخرها وهو المحرم وذو الحجة . ولما لم يكن له وسط صحيح ، أخذ أول النصف الآخر وهو رجب ، فبقى من الثلث شهر ، فأخذ قبل الآخر وهو ذو القعدة ، ليكون مع آخر السنة المتصلة بأولها وترأ ، وبقى وترية رجب فتمت السنة على التحريم باعتبار أولها وآخرها ، وأوسطها ، مع تذكر وترية الحق المؤكد للتحريم . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

السابعة - استدل جماعة بقوله تعالى ^(١) (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم يفسخ . وكذا بقوله تعالى ^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شِمَازَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) وبقوله تعالى ^(٣) (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ..) الآية - وذهب آخرون إلى أن تحريم القتال فيها ، منسوخ بآية السيف ، بمعنى قوله تعالى ^(٤) : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) قالوا : ظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام ، لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، وبأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، كما ثبت في الصحيحين ^(٥) أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلقهم ، لجؤوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتتحها ، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام . وأجاب الأولون بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم ، كما في قوله تعالى ^(٦) : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ...) الآية - فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم ، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم ، للدلالة الواردة في تحريم القتال فيه . فقوله تعالى : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ...) الآية - من باب التهييج والتحفيز ، أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا كذلك لهم . أو هو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام ، إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى ^(٧) : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) وقال تعالى ^(٨) : (وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] . (٣) [٩ / التوبة / ٥] .

(٤) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٥) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ،

٥٦ - باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، حديث رقم ١٩٢٨ عن عبد الله بن عمر . وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٢ (طبعنا) .

(٦) [٩ / التوبة / ٥] . (٧) [٢ / البقرة / ١٩٤] (٨) [٢ / البقرة / ١٩١] .

الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ...) الآية - وهكذا الجواب من حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف ، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تقمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال ، فمنعها قصد رسول الله ﷺ كما تقدم . فلما تحصنوا بالطائف ، ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فقالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالثمانين وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداءه في شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام ، فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم ، لأنه يفتقر في الدوام مالا يفتقر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة . فالحرم هو ابتداء القتال في الأشهر الحرام ، لا إتمامه ، وبهذا يحصل الجمع ، ولذا قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح ؛ ما يحل للناس أن يفتزوا في الحرم ، ولا في الأشهر الحرم ، وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها .

الثامنة - قال في (الإكليل) في قوله تعالى (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ...) الآية - إن الله وضع هذه الأشهر ومماها وربها على ما هي عليه ، وأنزل ذلك على أنبيائه ، فيستدل به لمن قال : إن اللغات توقيفية .

الخامسة - في (الإكليل) أيضا : استدلل بقوله تعالى (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) من قال إن الجهاد في عهده ﷺ كان فرض عين .

السادسة - قال ابن إسحاق ^(١) : كان أول من نسا الشهور على العرب ، فأحل منها حرم الله ، وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القلمس) وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياسر بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم ابنه قلع ، ثم أمية بن قلع ، ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٣٠ - (طبعة جوتنجن) وصفيحة ٤٥ من الجزء الأول

(طبعة الحلبي) .

عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب ، إذا فرغت من حجها ، اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً ، وذا القعدة ، وذا الحجة . ويجعل (المحرم) عاماً ، ويجعل مكانه (صفر) ويحرمه عاماً ليوافق عدم ما حرم الله ، فيحل ما حرم الله ، بمعنى ويجرم ما أحل الله . انتهى .

و (القلمس) بقاف فلام مفتوحين ثم ميم مشددة . قال في (القاموس وشرحه) : هو رجل كنانى من نساء المشهور على ممد في الجاهلية ، كان يقف عند جرة العقبة ويقول : اللهم إني ناسي المشهور ، وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب . اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين ، وحرمت صفر المؤخر ، وكذا في الرجبين ، (يعني رجباً وشعبان) ثم يقول : اتفروا على اسم الله تعالى . قال شاعرهم :

* وفيما ناسي الشهر القلمس *

وقال عمير بن قيس المعروف بجذال الطمان^(١) :

لقد علمت معد أن قوى كرام الناس أن لهم كراما
السنا الناسين على معد مشهور الحيل نجمها حراما
فأى الناس فاتونا بيوتهم وأى الناس لم نملك لجاماً

وروى^(٢) أن أول من سن النسيء عمرو بن لحي ، والذي صح من حديث أبي هريرة

(١) في سيرة ابن هشام ص ٣٠ و ٣١ (طبعة جوتنجن) و ٤٦ و ٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) أن لهم كراما : أى آباء كراما وأخلاقا كراما . والوتر : طلب الثأر . لم نملك لجاماً : يريد لم تقدمهم ولم نكفهم كما يقصد الفرس بالاجام . تقول : أعلكت الفرس لجامه ، إذا رددته عن تنزعه فضع الاجام كالملك ، من نشاطه .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ٩ - باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٦ و ١٦٥٧ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٦١ - كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٠ (طبعنا)

وعائشة ؛ أن عمرو بن لحي أول من سب السواائب ، وقال فيه النبي ﷺ (رأيت عمرو ابن لحي يجر قصبة في النار) .

ثم خرض تعالى المؤمنين على قتال الكفرة ، إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ، وأشار إلى توجه العقاب والملامة إلى المتخلفين عنه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ائْتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ائْتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ » أى تهاقتم وتباطأتم . والاستفهام فى (مَا لَكُمْ) فيه معنى الإنكار والتوبيخ . وقوله (إِلَى الْأَرْضِ) متعلق بـ (ائْتَأْتَلْتُمْ) على تضمينه معنى الميل والإخلاد ، أى ائتاقتم ماثلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل ، وكرهتم مشاق الغزو ، المستتبعة للراحة الخالدة ، كقوله تعالى (١) : (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أو ماثلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم . وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استأنفروا لغزو الروم فى وقت عسرة وقحط وقبظ ، وقد أدركت غمار المدينة وطلابت ظلالها ، مع بُعد الشقة ، وكثرة المدو ، فشق عليهم .

وقوله تعالى « أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى الحظيرة الفانية « مِنَ الْآخِرَةِ » أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم « فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أظهر فى مقام الإيضاح لزيادة التقرير ، أى فما التمتع بلذائدها « فِي الْآخِرَةِ » أى فى جنب الآخرة أى إذا قيسست إليها ، و (فى)

هذه تسمى (في القياسية) لأن المقيس يوضع بجانب ما يقاس به « إِلَّا قَلِيلٌ » أى مستحققر لا يؤبه له .

روى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن السيورد قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا في الآخرة إلا كما يحمل أحدكم إصبعه هذه في اليم ، فلينظر بهم ترجع - وأشار بالسبابة - . ثم توعد تعالى من لم يفر إلى الغزو ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى لنصرة نبيه ، وإقامة دينه « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » لأنه الغنى عن العالمين ، أى وإنما تضررون أنفسكم . وقيل : الضمير للرسول ﷺ ، أى ولا تضرروه ، لأن الله وعده النصر ، ووَعْدُهُ كائن لا محالة . « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من التعذيب والتبديل ونصرة دينه بغيرهم . وفى هذا التوعد ، على من يتخاف من الغزو ، من الترهيب الرهيب ما لا يقدر قدره .

تذليله :

قال بعضهم : ثمرة الآية لزوم إجابة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دعا إلى الجهاد ، وكذا يأتى مثله فى دعاء الأئمة ، ويأتى مثل الجهاد ، الدعاء إلى سائر الواجبات ، وفى ذلك تأكيد من وجوه :

الأول - ما ذكره من التوبيخ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجفة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .

الثاني - قوله تعالى (اَتَاَقْلَتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) وأن الميل إلى المنافع والدعة واللبذات لا يكون رخصة في ذلك .

الثالث - في قوله تعالى (أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فهذا زجر .

الرابع - قوله تعالى (فَمَا مَتَاعُ ...) الآية - وهذا تخسيس لأبيهم .

الخامس - ما عقب من الوعيد بقوله (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ) .

السادس - ما بالغ فيه بقوله (عَذَابًا أَلِيمًا) .

السابع - قوله (وَيَسْتَبْدِلْ ...) الآية .

الثامن - قوله (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ففيه تهديد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ » أى بالخروج معه إلى تبوك « فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه « ثَانِيَ اثْنَيْنِ » حال من ضميره عليه الصلاة والسلام . أى أحد اثنين « إِذْ هُمَا فِي النَّارِ » بدل من (إِذْ أَخْرَجَهُ) بدل البعض ، إذ المراد به زمان متسع . والنار نقب فى أعلى ثور ، وهو جبل فى الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثاً ، ليرجع الطالبان الذين خرجوا فى آثارهما ، ثم يسيرا إلى المدينة « إِذْ يَقُولُ » بدل ثان ، أى

رسول الله ﷺ « لِصَاحِبِهِ » أى أبى بكر « لَا تَحْزَنْ » وذلك أن أبى بكر رضى الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ (لَا تَحْزَنْ) « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أى بالنصرة والحفظ .

روى الإمام أحمد ^(١) والشيخان ^(٢) عن أبى بكر رضى الله عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في النار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ! فقال : يا أبى بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أى أَمْنَتَهُ التى تسكن عندها القلوب « عَلَيْهِ » أى على النبي ﷺ « وَأَبْدَهُ بِجَنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه في النار ، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجلة معطوفة على قوله (نَصَرَهُ اللَّهُ) . وقوى أبو السعود الوجه الثانى بأن الأول ياباه وصفهم بعدم رؤية مخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ، لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية في كل حال ، وفي الثانى تفكيك في الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

« وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى » أى المغلوبة المقهورة ، و(الكلمة) الشرك ، أو دعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدم الذى من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هى بمعنى الكلام مطلقا على أنها دعوة الكفر « وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلَمَاءُ » يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية إلى يوم القيامة . (وكلمة الله) بالرفع على الابتداء (هى الْعُلَمَاءُ) مبتدأ وخبر . أو تكون (هى) فصلا . وقرئ بالنصب أى : وجعل كلمة الله ، والأول

- (١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١١ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٩ - باب ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ ، حديث ١٧١٦ . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١ (طبعنا) .

أوجه وأبلغ ، لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن جعل لم يطرُق لها لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفي إضافة (الكلمة) إلى (الله) إعلاء لمكانها ، وتقوية لشأنها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » فى حكمه وتدبيره .

تفسيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : استعمل على عظيم محل أبى بكر من هذه الآية من وجوه منها : قوله تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ) ، وقوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقوله : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) قيل : على أبى بكر . عن أبى على والأصم . قال أبو على : لأن الله الخائف المحتاج إلى الأمن ، وقيل : على الرسول ، عن الزجاج وأبى مسلم . قال جابر الله : وقد قالوا : من أنكر حجة أبى بكر فقد كفر ، لأنه رد كتاب الله تعالى . انتهى .

وفى السيوطى فى (الإكليل) : أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : أنا ، والله ! صاحبه . فمن هنا قالت المالكية : من أنكر حجة أبى بكر كفر وقتل ، بخلاف غيره من الصحابة ، لأن القرآن على محبته - انتهى .

وعن ابن عمر ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : أنت صاحبى على الخوض ، وصاحبى فى الغار - أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وقد ساق الفخر الرازى اثنى عشر وجهاً من هذه الآية على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه ، فأطال وأطاب .

ولما توعد تعالى من لا ينفرد مع الرسول لتبوك ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظم مزدجر ، أتبعه بهذا الأمر الجزم ؛ فقال سبحانه :

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١٦ - باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما ، حدثنا يوسف بن يوسف القطان البغدادى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » حالان من ضمير المخاطبين ، أى على أى حال كنتم خفافاً فى الفور لنشاطكم له ، و ثقلاً عنه ، لمشقة عليكم . أو خفافاً لقلة عيالكم وأذيالكم ، و ثقلاً لكثرتها . أو خفافاً من السلاح و ثقلاً منه . أو ركباناً ومشاة . أو شباباً وشيوخاً أو مهازيل وسماناً . واللفظ الكريم يعم ذلك كله . والمراد حال سهولة الففر وحال صموبته .

وقد روى عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخافون عن غزاة قط ، ويستشهدون بهذه الآية .

ولما كانت البعوث إلى الشام ، قرأ أبو طلحة رضى الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ، فقال ، أرى ربنا استنفرونا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يا بنى ! فقال بنوه : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نفزو عنك فقال : ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل .

وكان أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه يقرأ هذه الآية ، ويقول : فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً .

وقال أبو راشد الحرانى : وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من ثوابت الصيارفة بحمص ، وقد فصل عنها يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أنت علينا سورة البعوث (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) .

وعن حيان بن زيد قال : تفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص - فرأيت شيخاً كبيراً همماً ، قد سقط حاجباه على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته فيمن أغار ،

فأقبلت إليه فقلت : يا عم ! لقد أعذر الله إليك ، قال . فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي ! استغفرنا الله خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يتقبله ، ثم يهده الله فيمقيه ، وإنما يتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل - روى ذلك كاه^(١) ابن جرير - .

فرحم الله تلك الأنفس الزكية ، وحياتها من بواسل ، باعت أرواحها في مرضاة ربها ، وإعلاء كلمته ، وأكرمت نفسها عن الاعتزاز بزخارف هذه الحياة الدنية .
ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل الممّج في مرضاته ، ومرضاة رسوله ، فقال : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »
ما في اسم الإشارة إلى النفير والجهاد من معنى البعد ، للإيذان ببعد منزلته في الشرف، والمراد بكونه خيراً ، أنه خير في نفسه ، أو خير من الدمة ، والتمتع بالأموال .

تنبيه :

قال الحاكم : الجهاد بالمال ضروب : منها إتقائه على نفسه في السير في الجهاد ، ومنها صرف ذلك إلى الآلات التي يستعان بها على الجهاد ، ومنها صرفه إلى من ينوب عنه أو يخرج معه .

وقال بعض مفسري الزيدية : ذكر المؤيد بالله أن من له فضل مال ، وجب عليه أن يدفعه إلى الإمام ، إن دعت إليه حاجة .

وذكر الراضي بالله وجوب دفع ما دعت الحاجة إليه من الأموال في الجهاد ، قليلاً كان أو كثيراً ، ويتمين ذلك بتعيين الإمام . وأما من طريق الحسبة ، فقال الراضي بالله : يجب ذلك إن حصل خلل لا يسده إلا المال ، ويدخل في هذا إلزام الضيقة ، وتنزيل الدور ، وقد قال الراضي بالله : للإمام أن يلزم الرعية على ما يراه من المصلحة .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة ١٣٨ و١٣٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن المؤيد بالله : إن للإمام إزال جيشه دور الرعية إذا لم يتم له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالجند ، واحتاجوا إلى ذلك . كما يجوز دخول الدار المغصوبة لإزالة المنكر . وكذا ذكر أبو مضر أنه ينزل في الزائد على حاجة أهل الدور . وأما من ينزل الدار من جيشه بظلم أو فساد ، فإن عُرِفَ ذلك عورض بين مطلب الإمام في دفعه المنكر ، وبين هذا المنكر الواقع من الجند ، أيهما أعلظ . انتهى .

ثم صرف تعالى الخطاب عن المتخلفين ، ووجهه إلى رسول الله ﷺ ، معدداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلًا ، مبيناً لدناءة همهم في هذا الخطب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا أَخْرَجْنَا مَعَكُمْ يَهُودَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« لَوْ كَانَ » أى ما تدعوهم إليه « عَرَضًا قَرِيبًا » أى نعمًا سهل المأخذ « وَسَفَرًا قَاصِدًا » أى وسطاً « لَاتَّبَعُوكَ » أى لأجلك ، بل لموافقة أهوائهم « وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ » بضم الشين ، وقرئ بكسرهما ، أى الفاحية التى ندبوا إليها . وسميت الفاحية التى يقصدها المسافر بذلك ، للمشقة التى تلحقه فى الوصول إليها . وقرئ (بَعُدَتْ) بكسر العين . قال الشهاب : بَعُدَ يَبْعُدُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ ، لغة فيه ، لكنه اختص ببعد الموت غالباً . و (لا تبعد) يستعمل فى المصائب للتعجب والتحسر كقوله (١) :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِخْوَانًا لَنَا ذَهَبُوا أَفْنَاهُمْ حَدَثَانُ الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ

« وَسَيَحْلِفُونَ » أى هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك « بِاللَّهِ » متعلق بـ (سيجلفون) ،

(١) لم يعرف قائله ، الحماسية رقم ٢٩٨ .

أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد في الوجهين . أى سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك ، معتذرين بالمعجز ، يقولون بالله «لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ» أى إلى تلك الغزوة . ثم بين تعالى أن هذه الدعوى الكاذبة والحلف لا يفيدانهم ، بقوله سبحانه «يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ» أى بهذا الحلف والمخالفة ودعوى المعجز «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» لأنهم كانوا يستطيعون الخروج مع رسول الله ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» أى لهؤلاء المنافقين بالتخلف حين اعتلوا بعلمهم «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القمود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القمود عن الفزو . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القمود عن الفزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

«لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» أى لمنع إيمانهم به ، من مخالفته ، منع القدرة «وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» لمنع إيمانهم به من ترك تمويض الثواب والحياة الأبدية إذا أمروا «أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» أى لأنهم يودون الجهاد بها قربة ، فيبدلونها فى سبيله «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» أى فيطيعهم من الأجر ما يناسب تقواهم . ففيه شهادة لهم بالانتظام فى زمرة الأتقياء ، وعدة لهم بأجل الثواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

« إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ » أى فى ترك الجهاد بهما « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إذ لا يرجون ثوابه ولا حياته ، وهم المنافقون ، ولذا قال « وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فيما تدعوهم إليه ، أى رسخ فيها الريب « فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » أى ليست لهم قدم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

تنبيهات

الأول - اعلم أن فى تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو ، دون ما يوم العتاب ، من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام ، وتمهده بحسن المفاوضة ، ولطف المراجعة - ما لا يخفى على أولى الأبواب .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف : بدأ بالعفو قبل ذكر العتاب . قال مكى . (عفا الله عنك) ، افتتاح كلام مثل (أصلحك الله وأعزك) . وقال الداودى : إنها تكريمة .

أقول : ويؤيد ذلك قول على بن الجهم^(١) يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حرمة تعوذ بعفوك أن أبعث

الم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ، ورشيدها . هدى

أفلى ، أقالك من لم يزل يقيقك ، ويصرف عنك الردى

وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب - غير صحيح - فالواجب تفسيره فى كل مقام بما يناسبه .

(١) ديوانه ص ٧٧ و ٧٨ (المطبعة الهاشمية بدمشق)

قال الشهاب : وهو يستعمل حيث لا ذنب ، كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ، ما صنعت في أمري ؟ وفي الحديث ^(١) : عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له . وقال السخاوندی : هو تعلم لتعظيمه ﷺ ، ولولا تصدير العفو في الخطاب لما قام بصولة العتاب .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله نهي ، فيمدّ معصية . ولا عده الله عليه معصية ، بل لم يعده أهل العلم معاتبة ، وغلطوا من ذهب إلى ذلك .

قال نبطويه : وقد حاشاه الله من ذلك ، بل ما كان خيراً في أمرين . قالوا : وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحى ، وكيف ؟ وقد قال الله تعالى (فَأُذِنُ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ) فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم ، أنه لو لم يأذن لهم لقدموا لنفاقهم ، وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر ، بل كما قال النبي ﷺ ^(٢) : عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق . ولم تجب عليهم قط . أي لم يلزمهم ذلك .

ونحوه للقسري قال : وإنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب . قال : ومعنى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) أي لم يلزمك ذنباً . انتهى . وقد عده ما وقع في الكشف هنا من قبيح سقطاته .

وللعلامة أبي السمود مناقشة معه في ذلك . أوردها لبلوغها الغاية في البلاغة . قال رحمه الله : ولقد أخطأ وأساء الأدب ، وبئسما فعل فيما قال وكتب ، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطاء ، وبئسما فعلت ، هب أنه كناية ، ليس إثارها على التصريح

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) أخرجه ابن ماجه في ٨ - كتاب الزكاة ،

٤ - باب زكاة الورق والذهب ، حديث رقم ١٧٩٠ (طبعتنا) عن علي ونصه : إني قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق ... الخ .

بالجناية للتلطيف في الخطاب ، والتخفيف في العقاب ، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبيح واستتباع اللاتمة ، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بنسما) المنبئة عن بلوغ القبيح إلى رتبة يتمعجب منها . ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين ، أو منفعة للمسلمين ، بل كان فيه فساد وخبال ، حسبما نطق به قوله عز وجل (لَوْ خَرَجُوا...) الخ ، وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ...) الآية - نعم . كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثار ذى أثر^(١) ، ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم ، بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام ، وأرضوه بالأكاذيب . على أنه لم يهنا لهم عيش ، ولا قوت لهم عين ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان ، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان . انتهى .

قال الخفاجي : وحاول بعضهم توجيه كلام الكشف بأن مراده أن الأصل فيه ذلك ، فأبدله بالعفو تعظيماً لشأنه ، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية ، فلا خطأ فيه .

قال رحمه الله : ولو اتقى هو والموجه موضع التهم - كان أولى وأحرى . انتهى .

الثاني - استدلل بالآية على أن النبي ﷺ كان يحكم أحياناً بالاجتهاد ، كما بسطه الرازي .

قال السيوطي في (الإكليل) : واستدل بها من قال : إن اجتهاده قد يخطئ^{*} ولكن يذنبه عليه بسرعة .

الثالث - قال الرازي : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأني ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة في التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .

الرابع - قال أبو السعود : تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذي

(١) أي أول كل شيء - قاموس .

صلته فعل دالّ على الحدوث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدولم - للإيدان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً جاداً متعلقاً بأمر خاص ، لكنه أمر جارٍ على عادتهم المستمرة ، ناشئ عن رسوخهم فى الكذب . ودقق رحمه الله فى بيان لطائف آخر . فلتراجع .

الخامس - قيل : نفى الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار فى قوله تعالى (لَا يَسْتَأْذِنُكَ) يفيد نفى الاستمرار . وهذا معنى قول الزمخشري : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك اهـ . قال التحرير : ولا يبعد حمله على استمرار النفى كما فى أكثر المواضع ، أى عادتهم عدم الاستئذان .

قال الناصر : وهذا الأدب يجب أن يقتضى مطلقاً ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفاً ، ولا بالضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً . فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمانة التكاف والتكرّم ، وصلوات الله على خليله وسلامه ، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم . فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الحلة الجميلة ، والآداب الجميلة ، فقال تعالى ^(١) (فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمَجْلٍ سَمِينٍ) أى ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به . والمهم بأمر ضيفه بمرأى منه ، ربما يعدّ كالاستأذن له فى الضيافة ، فهذا من الآداب التى ينهى أن يتمسك بها ذوو الروء ، وأولو القوة . وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين ، التناقل عن المبادرة إليه ، بمد الحصى عليه والمناذاة . وأسوأ أحوال المتناقل ، وقد دعى الناس إلى الفزاة ، أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق . نعوذ بالله من التمرض لسخطه .

ثم بين تعالى جلية شأن أولئك المنافقين المستأذنين ، بأنهم لم يريدوا الخروج للجهاد حقيقة ، ولذلك خذلهم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » بضم العين وتشديد الدال ، أى قوة من مال وسلاح وزاد ، ونحوها « وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ » أى نهوضهم للخروج « فَثَبَّطَهُمْ » أى فكسلهم وضمف رغبتهم « وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ » أى من النساء والصبيان .

تنبيهات

الأول - دلّ قوله تعالى (لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) على أن عدة الحرب من الكراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدو ، من جملة الجهاد . فإما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والبطول ونحو ذلك ، مما يضعف به قلب العدو ، فهو داخل في الجهاد . وقد قال تعالى في سورة الأنفال (١) : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب ، وهذا جليّ حيث لا يؤدى إلى السرف .

الثانى - إن الفعل يحسن بالنية ، ويقبح بالنية ، وإن استويا في الصورة . لأن الفير واجب مع نية النصر ، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح . وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

الثالث - للإمام منع مَنْ يَتَّبِعُ مَعْصِرَةَ الْمُسْلِمِينَ ، أَنْ يَخْرُجَ لِلْجِهَادِ . فله نفى الجاسوس والمرجف والمخذل . ذكر ذلك كله بمض مفسرى الزيدية .

الرابع - ذكروا أن قوله تعالى : (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم . يعنى نزل خلق داعية القعود فيهم ، منزلة الأمر ، والقول الطالب ، كقوله تعالى ^(١) : (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) أى أماتهم . أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود . أو هو حكاية قول بعضهم لبعض . أو هو إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود .

قال الزخشري : فإن قلت : ما معنى قوله (مَعَ الْقَاعِدِينَ) ؟ قلت : هو ذم لهم وتمجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف . ويبينه قوله تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) . قال الناصر : وهذا من تنبيهاته الحسنة . وتزيده بسطاً فنقول : لو قيل (اقعدوا) مقتصرأ عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود . وكذلك (كُونُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) ، ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموصوفين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية . ولعن الله قرعون ، لقد بالغ في توهيد موسى عليه السلام بقوله (لَا جَمْعَ لَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ) ^(٢) ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً ، لمثل هذه النكسكية من البلاغة .

ثم بين تعالى سر كراهته لخروجهم بقوله :

(١) [٢ / البقرة / ٢٤٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ

الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» أى فساداً وشرّاً «وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ»

أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالفساد .

قال الشهاب : الإيضاع : إسرار سير الإبل . يقال : وضعت الناقة تضع إذا أسرعت ، وأوضعتها أنا . والمراد : الإسرار بالنمائم ، لأن الراكب أسرع من الماشى . فقيل : المفعول مقدر ، وهو النمائم . فشبه النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاع . ففيه تخيلية ومكنية . وقيل : إنه استعارة تبعية ، شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالنيمة ، بسرعة سير الركائب ، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل . و (خلال) جمع خلل ، وهو الفرجة ، استعمل ظرفاً بمعنى (بين) .

واعلم أن قوله (وَلَا أُضْعِفُوا) مرسوم في الإمام بألفين ، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربى . والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من تلك الألف أثر في الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه^(١) (أَوَّلَآذُبَحْنَةٍ) . « يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ » أى يطلبون لكم ما تفقدون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ، وإلقاء الرعب في قلوبكم ، وإفساد نياتكم « وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ » أى منقادون لقولهم مستحسنون لحديثهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، لضعف عقولهم ، فيتوهمون منهم النصيح والإعانة ، وهم يريدون التخذيّل والفتنة ، فيؤدى إلى وقوع شرّ بين المؤمنين ، وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير . أى فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

(١) [٢٧ / النمل / ٢١] .

قال ابن كثير : وهذا لا يبق له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جميع الأحوال . والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .
قال محمد بن إسحاق ^(١) : كان استأذن ، فيما بلغني ، من ذوى الشرف منهم ، عبد الله ابن أبي سؤل والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً في قومهم ، فنبطهم الله ، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيها يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ) انتهى . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) ولا يخفى عليه شئ من أمرهم . وفيه شمول للفريقين : القاعدین والسباعين .
ثم برهن تعالى على ابتغائهم الفتنة في كل مرة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

« لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ » أي طلبوا الشر بتشتيت شملك ، وتفريق حبك عنك ، من قبل غزوة تبوك ، كما فعل عبد الله بن أبي سؤل حين انصرف بأصحابه يوم أُحُدٍ عن المسلمين « وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ » أي دبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك . قال الشهاب : المراد من (الأمور) المكايد ، فتقليبها مجاز عن تديرها . أو (الآراء) فتقليبها تفتيشها وإجالتها .

« حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ » وهو تأييدك ونصرك وظفرك « وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ » أي علا دينه « وَهُمْ كَارِهُونَ » أي على رغم منهم .

قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته . قال ابن أبي أصحابه : هذا أمر (١) انظر سيرة ابن هشام . الصفحة رقم ٩٢٤ و ٩٢٥ (طبعة جونتجن) والصفحة

رقم ١٩٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قد توجه (أى : أقبل) فدخلوا فى الإسلام ظاهراً . ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساء لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي » أى فى القعود « وَلَا تَفْتِنِّي » أى لا توفقنى فى الفتنة . روى ^(١) عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت فى الجدة بن قيس ، أخى بنى سلمة ، وذلك فيما رواه محمد بن ^(٢) إسحاق : أن النبى ﷺ قال له ذات يوم وهو فى جهازه : هل لك بإحدة فى جلد بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لى ولا تفتننى ؟ فوالله ! لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى ، إن رأيت نساء بنى الأصفر ، ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك !

قال الشهاب : معنى أنه يخشى العشق لهن ، أو موافقتهن من غير حل . وبنات الأصفر : للروم ، كبنى الأصفر . وقيل فى وجه التسمية وجوه : منها أنهم ملكهم بعض الحبشة ، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان . انتهى .

قال ابن كثير : كان الجدة بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة .

وفى الصحيح ^(٣) أن رسول الله ﷺ قال لهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : الجدة بن قيس ؟

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام الصفحة رقم ٨٩٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٩ من

الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٣) ليس هذا الحديث فى الصحيح ولا فى السنن . ولكن

رواه يعقوب بن سفيان فى (تاريخه) وأبو الشيخ فى (الأمثال) والوليد بن أبان فى كتاب

(الجود) . انظر (الإصابة فى تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلانى رقم ٦٥١ ، ترجمة

بشر بن البراء بن معرور ، على خلاف يسير فى اللفظ .

على أنا نبضه . فقال رسول الله ﷺ : وای داء أدوا من البخل ؟ ولكن سيدكم الغنى الجعد الأبيض ، بشر بن البراء بن معرور .

وقوله تعالى : « أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » قال أبو السعود : أى فى عینها ونفسها . وأكمل أفرادها ، الغنى عن الوصف بالكمال ، الحقيق باختصاص اسم الجنس به ، سقطوا . لا فى شىء مغاير لها ، فضلا عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها . وذلك بما فعلوا من العزيمه على التخلّف ، والجراة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ، ومن القعود بالإذن المبني عليه ، وعلى الاعتذارات الكاذبة . وقرئ بإفراد الفعل ، محافظة على لفظ (من) . وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه ، مع تقديم الظرف ، إيدان بأنهم وقعوا فيها ، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة ، زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلّف بغير إذن . وفى التعبير عن (الاثنان) بالسقوط فى الفتنة ، تنزل لها منزلة المهواة المهلكة ، المصححة عن ردّهم فى درجات الردى أسفل سافلين . انتهى .

« وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » أى سقحيط بهم يوم القيامة ، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا . ثم بين تعالى عداوتهم ، زيادة فى تشهير مساوئهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

« إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ » أى من فتح وظهر وغنيمه « تَسُؤْهُمْ » أى نورسهم مساءة لفرط عداوتهم « وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ » أى من نوع شدة « يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا » أى بالحزم فى القعود « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إصابتهم بالمصيبة ، فيتبجحوا بما صنعوا حامدين

لَأَرَاهُمْ « وَبَتَّوْا » أى عن مجتمعهم الذى أظهروا فيه الفرح برايهم « وَهُمْ فَرِحُونَ »
أى برايهم وبما أصابكم وبما سددوا .

ثم أرشد تعالى إلى جوابهم ببطلان ما بنوا عليه مسرتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » أى ما أمتته لمصلحتنا الدنيوية أو الآخروية ،
فلأوجه لهذا الفرح ، لرضانا بضعائه فى تلك المصيبة ، فلم يسؤنا بالحقيقة . كيف ؟ ولم يكتبها
علينا إيضاً لنا بها ، إذ « هُوَ مَوْلَانَا » أى يتولى أمورنا ، فإعما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها ،
والرضا بها ، فيعطينا من الأجر ما هو خير منها « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى
لأنه لا ناصر ولا متولى لأمرهم غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْذِنَا ، فَمَنْ بَصُرَا إِيَّاكُمْ فَتَرَبَّصُوا)
« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ » أى تنتظرون « بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ » أى العاقبتين اللتين
كل واحدة منهما هى حسنى العواقب ، وهما النصر والشهادة « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ » أى
إحدى الشوائين من العواقب إما « أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » أى كما أصاب
من قبلكم من الأمم « أَوْ » بعذاب « بِأَذِنَا » وهو القتل على الكفر « فَمَنْ بَصُرَا »
أى بنا ما ذكر من عواقبنا « إِيَّاكُمْ فَتَرَبَّصُوا » أى منتظرون ما هو عاقبتكم ،

فلا بد أن يلتق كلنا ما يتربصه ، لا يتجاوزة . فلا تشهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ أَتُفِقُّوْا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُّتَقَبَلَ مِنْكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« قُلْ أَتُفِقُّوْا » بمعنى أموالكم في سبيل الله ووجوه البر « طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » مصدران وقعا موضع الفاعل ، أى طائفتين من قبيل أنفسكم ، أو كارهين بخافة القتل « لَّنْ يُّتَقَبَلَ مِنْكُمْ » أى ذلك الاتفاق . ثم بين سبب ذلك بقوله « إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى عاتين . متهمين .

الطائفت :

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف أمرهم بالاتفاق ثم قال (لَّنْ يُّتَقَبَلَ مِنْكُمْ) ! قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى ^(١) « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْنُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . ومعناه : لن يتقبل منكم ، أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ونحوه قوله تعالى ^(٢) (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وقوله ^(٣) * أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسُنُ لَامِلُومَةٌ * أى لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . ولا تلومك ، أسأت إلينا أم أحسنت .

(١) [١٩ / مريم / ٧٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

(٣) قائله كثير عزة . وعجز البيت * لدينا ولا مقلية إن تقلت * .

ومطلع القصيدة : خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكمما ثم ابكيكيا حيث حلت
انظر الأماي ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة الدار) وقال في اللسان : تقل الشيء : تبغض .

فإن قلت : متى يجوز هذا ؟ قلت : إذا دل الكلام عليه ، كما جاز عكسه في قولك :
 رحم الله زيدا وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : انكته فيه ، وهي أن كثيراً كأنه
 يقول لمرءة : امتحنني لطف محلك عندي ، وقوة محبتي لك ، وعامليني بالإساءة والإحسان ،
 وانظري : هل يتفاوت حال معك ، مسيئة كنت أو محسنة ! وفي معناه قول القائل ^(١) :
 أخوك الذي إن قُمتَ بالسيف عامداً لَتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغْشَكَ فِي الْوُدِّ
 وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا ، هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ،
 وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟

فإن قلت : ما الغرض في نفي التَّجَبُّل ، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم ، وردده عليهم
 ما يبذلون منه ، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ، ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت : يحتمل
 الأمرين جميعاً . وقد روى أن الآية من تنمة جواب الجدل بن قيس حيث قال للنبي ﷺ :
 هذا مالي أعيذك به ، فأتركني ولا تفتني . والله أعلم .

(١) استشهد به في (الكشاف) وفيه : يستغشك .

قال الشارح : يقول : أخوك الذي إن أسأت إليه أحسن إليك . حتى لو قت تضربه
 بالسيف لا يجذك غشاً في المودة (وبرواية : لا يستغشك ، من الغش والخيانة) ولو جثته
 تطلب أن تقطع يده ، لبادر إليك فرقاً من الرد عليك .

ومع هذا الوفاء والجهد ، في حفظ أسباب المودة ، يرى أنه مقصر في الود ، وإن فيه .
 وهو من أبيات ثلاثة . وبقاها :

ولو جثت تبني كفه لتبنيها لبادر إشفافاً عليك من الردِّ
 يرى أنه في الود وإن مقصر على أنه قد زاد فيه من الجهد

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

« وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » جمع كسالى ، أى متخاذلين ، إذ لا يرجون على فعلها ثواباً ،
ولا يرهبون من تركها عقاباً « وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ » لأنهم يرون الإنفاق
فى سبيل الله مغرمًا ، وتركه مغنًا . وفى الحديث ^(١) عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى
لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا ، واجتنى به وجهه - رواه النسائى عن أبى أمامة .
وقال تعالى ^(٢) (إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

ولما بين تعالى قبائح أفعال المنافقين ، وما لهم فى الآخرة من العذاب الممhin ، وعدم قبول
نفقاتهم ، تأثره ببيان أن ما يظنونونه من منافع الدنيا هو فى الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم ،
فيمجلى تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار ، لجلبه آفات الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَلَا تُنْجِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« فَلَا تُنْجِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ » أى لأن ذلك استدراج لهم ، كما قال : « إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ،
وما يرون فيها من الشدائد والمصائب . وقوله (لِيُعَذِّبَهُمْ) قيل : اللام زائدة . وقيل : المفعول

(١) رواه النسائى فى : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٢٤ - باب من غزا يلتمس من الأجر والذكر .

(٢) [٥٠ / المائدة / ٢٧] .

محذوف ، وهذه تعليلية ، أى يريد إعطاءهم لعذبيهم « وَتَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ »
أى فيموتوا كافرين ، لاهين بالتمتع عن النظر فى العاقبة ، فيكون ذلك استدراجاً لهم .
وأصل (الزهوق) الخروج بصعوبة - أفاده القاضى - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ) وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ
« وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ » يعنى المنافقين « إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ » فى الدين ليدفعوا ، بدلالة اليمين ،
دلائل النفاق « وَمَا هُمْ مِنْكُمْ » فى ذلك يعنى أنهم كاذبون « وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ »
أى يخافون القتل ، وما يفعل بالمشركون ، فيتظاهرون بالإسلام تقية ، ويؤيدونه بالآيمان
الفاجرة . ثم أشار إلى سبب الخوف ، وهو اضطرابهم إلى مساكنهم مع ضعفهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)
« لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً » أى حصناً يلتجئون إليه « أَوْ مَغَارَاتٍ » يعنى غير آناً فى الجبال
يسكن كل واحد منهم غاراً « أَوْ مُدْخَلًا » يعنى موضع دخول يدخلون فيه ، وهو المرب
فى الأرض « لَوَلَّوْا إِلَيْهِ » أى لأقبلوا نحوه « وَهُمْ يَجْمَحُونَ » أى يسرعون إسراعاً ،
لا يردم شئ ، كالفرس الجوح ، أى المنفور الذى لا يرده لجام . أى لو وجدوا شيئاً من
هذه الأمكنة التى هى منفور عنها ، مستنكرة ، لأنوه لشدة خوفهم ، وكراهتهم للمسلمين ،
وغمهم بمنزلة الإسلام ، ونصر أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ » أى يعيبك « فِي الصَّدَقَاتِ » أى فى قسمتها . ثم بين فساد

لزم ، وأنه لا تنشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا بقوله « فَإِنْ أُمِطُوا مِنْهَا » أى قدر ما يريدون « رَضُوا » فجعلوه عدلاً « وَإِنْ لَمْ يُمِطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » فيجعلونه غير عدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كفانا فضله ، وما قسمه لنا « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ » أى بمد هذا ، حسبما نرجو ونؤمل « إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ » أى فى أن ينعمننا ويحولنا فضله . والجواب محذوف بناء على ظهوره . أى لكان خيراً لهم .

روى الشيخان^(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيثناً ، أتاه ذو الخويصرة - رجل من بنى تميم - فقال : يا رسول الله ! أعدل . فقال رسول الله ﷺ : وبلك . من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب : إيدن لى فيه فأضرب عنقه ! فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل :

وبلك ، حديث ١٥٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٤٨ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَّةِ قُلُوبِهِمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالنَّارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَّةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالنَّارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »
لما ذكر تعالى لمزهم في الصدقات تأثره ببيان حقيقة ما فعله رسول الله ﷺ من القسمة ، إذ
لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له ، وهو عين العدل ؛ وذلك أنه تعالى شرع قسمها لهؤلاء ،
ولم يكله إلى أحد غيره ، ولم يأخذ صلى الله عليه وسلم منها لنفسه شيئاً ، فقيم العز لقاسمها ،
صلوات الله عليه ؟

روى البخارى^(١) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً
يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى .

وروى أبو داود^(٢) عن زياد بن الحارث رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته ،
فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة . فقال له : إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره
في الصدقات ، حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء
أعطيتك حقك .

فالآية رد لقالة أولئك اللزمة ، وحسم لأطاعهم ، ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق .
وإعلام بمن إعطاؤهم عدل ، ومنعهم ظلم .

(١) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ١٣ - باب من يرد الله به خيراً يفقهه
في الدين ، حديث ٦٢ . (٢) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٢٤ - باب من
يُعطى من الصدقة ، وحده الغنى . الحديث رقم ١٦٣٠ .

والفقراء . جمع فقير ، فعيل ، بمعنى فاعل ، يقال فقر يفر من باب تعب ، إذا قل ماله .
والمساكين : جمع مسكين ، من (سكن يسكونا) ، ذهب حركته ، لسكونه إلى الناس ،
وهو بفتح الميم في لغة بني أسد ، وبكسرهما عند غيرهم . قال ابن السكيت : المسكين : الذي
لا شيء له ، والفقير : الذي له بُلغة من العيش . وكذلك قال يونس ، وجعل الفقير أحسن
حالا من المسكين . قال : وسألت أعرابيا : أفقر أنت ؟ فقال : لا ، والله ! بل مسكين وقال
الأصمعي : المسكين أحسن حالا من الفقير ، وهو الوجه ؛ لأن الله تعالى قال ^(١) : (أَمَّا السَّائِغَةُ
فَكَأَنَّتَ لِمَسَاكِينٍ) وكانت تساوى جملة ، وقال ^(٢) في حق الفقراء : (لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّمَقُّفِ) وقال ابن الأعرابي : المسكين هو
الفقير ، وهو الذي لا شيء له ، فجمعهما سواء . كذا في (المصباح) .

قال الدير القرافي : وإذا اجتمعما افترقا ، كما إذا أوصى للفقراء والمساكين ، فلا بد من
الصرف للنوعين . وإن افترقا اجتمعما ، كما إذا أوصى لأحد النوعين ، جاز الصرف للآخر .
قال المهيبي : ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات فقال : (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)
أي الساعين في تحصيلها : القابض والوازن والكيال والكتاب ، يعطون أجورهم منها .
ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال : (وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ) .

وهم قوم ضعف نيتهم في الإسلام ، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالمطاء ، تقوية
لإسلامهم ، لئلا يسرى ضعفهم إلى غيرهم . أو أشراف يترقب بإعطائهم إسلام
نظرائهم .

ثم ذكر تعالى من يعان بها في دفع الرق بقوله : (وَفِي الرِّقَابِ) .
أي والإعانة في فك الرقاب ، فيعطى المكاتبون منها ما يستعينون به على

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٣] .

أداء نجوم الكتاية ، وإن كانوا كاسبين ، وهو قول الشافعي والليث . أو : وللصرف في عتق الرقاب ، بأن يتناع منها الرقاب فتمتق . قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تمتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق . ولا يخفى أن (الرقاب) يعم الوجهين . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة .

ثم ذكر تعالى من تفك ذمته في الديون بقوله : « وَالْغَارِمِينَ » .

وهم الذين ركبهم الديون لأنفسهم في غير معصية ، ولم يجدوا وفاء . أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء .

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله « وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

فيصرف على المتطوعة في الجهاد ، ويشتري لهم الكراع والسلاح . قال الرازي : لا يوجب قوله (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) القصر على الغزاة . ولذا نقل الفقهاء في (تفسيره) عن بعض الفقهاء جواز صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) عام في الكل . انتهى .

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من (سبيل الله) فيصرف للحجاج منه . قال في (الإقناع) و(شرح) : والحج من (سبيل الله) نصاً ، روى عن ابن عباس وابن عمر . لما روى أبو داود (١) : أن رجلاً جعل ناقة في سبيل الله ، فأرادت امرأته الحج ، فقال لها النبي ﷺ : اركبها ، فإن الحج من (سبيل الله) . فيأخذ ، إن كان فقيراً ، من الزكاة ما يؤدي به فرض حج أو عمرة ، أو يستعين به فيه ، وكذا في نافتهم . لأن كلا من (سبيل الله) انتهى . قال ابن الأثير : و(سبيل الله) عام ، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عز وجل ، بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع التطوعات . وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه . انتهى .

وقال في (التاج) : كل سبيل أريد به الله عز وجل ، وهو بر ، داخل في (سبيل الله) .

(١) أخرجه أبو داود في ١١ - كتاب المفاسك ٧٩ - باب العمرة ، حديث رقم ١٩٨٩ ،

عن أم معقل .

ثم ذكر تعالى الإعانة لأبناء الطريق بقوله :

« وَأَبْنِ السَّبِيلِ » فيعطى المجتاز في بلد ما يستعين به على بلوغه لبلده .

وقوله تعالى « فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ » ناصبه مقدّر ، أى فرض الله ذلك فريضة . وقوله

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم . وقوله : « حَكِيمٌ » أى لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى منها سوق الحقوق إلى مستحقها .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف . ويؤيد هذا وجهان :

الأول - ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا : الواو للجمع والتشريك .

والثانى - ما رواه أبو داود فى سننه من قوله ﷺ : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره

فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء ... الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى

الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد ، منهم عمر وابن عباس وحذيفة

وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادى والقاسم وأسباطهما ، وزيد . قال

فى (التهذيب) : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه :

الأول - أن الله تعالى قال فى سورة البقرة ^(١) (وَإِنْ تَخَفُوا هَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهَوْ خَيْرٌ لَكُمْ)

فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها . الثانى - الخبر وهو قوله ﷺ ^(٢) لمأذ:

أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم .

الثالث - حديث سلمة بن صخر . فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بنى زريق .

الرابع - أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالجمع عليه . الخامس - المعارضة

(١) [٢٧١ / البقرة / ٢٤] - أخرجه البخارى فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ،

١ - باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٠ عن ابن عباس .

للفظ بالمعنى . فإن المقصود سد الخلة . وقال صاحب (النهاية) : وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ . ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم ، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً - كذا في تفسير بعض الزيدية - .

وقال الناصر في (الانتصاف) : القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف ، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار (اللام) بالتمليك ، كما ذهب إليه الشافعي - لا يسمده السياق ، فإن الآية مصدرة بكلمة المحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المحدودة ، وأنها مختصة بهم ، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً . كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم ، فهذا هو الغرض الذي سيق له الآية ، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى .

الثاني - قال بعضهم : لفظ (الصدقات) بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة . ثم إن الصدقة الواجبة تتنوع أنواعاً ، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر ، وزكاة الموائى والفطرة والكفارات ، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم ، وكذلك الهدى في الحج ، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم ، ولهذا سمي الله الغنائم صدقة في سبب نزول الآية ، وذلك في قسمة غنائم (حنين) ، فإذا كان اللفظ يعم ما ذكر ، فهل تحمل الآية على عمومها في قسمتها على ما ذكر ، أو يخصص البعض ؟

ثم قال : والعلماء قسموا الصدقات ، وجعلوا مصارفها مختلفة ، والكفارة لم يذكر أنها تصرف في الثمانية المصارف . وقد ورد قوله تعالى ^(١) (فَكْفَّارُتْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ) (فَأُطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) ^(٢) ، وفي الحديث : أطعم عن كل يوم مسكيناً ، وورد في الفطرة : أغنهم هذا اليوم . وورد في الغنيمة ^(٣) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ...) الآية - فهل هذه الأدلة مخصصة لمعوم لفظ (الصدقات) ؟ فإن الزكوات تجمع عليها في أن مصرفها الثمانية الأصناف . أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية ؟ انتهى كلامه .

(١) [٥ / المائدة / ٨٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٤] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١]

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات ، لأن الخاص يقضى على العام . على أن المراد قصرها على هذه الأصناف ، فكل ما ذكر لم يخرج عنها ، لشمولها له . والله أعلم .
الثالث - (المؤلفات قلوبهم) حكمهم باق ، لأنه عليه الصلاة والسلام أعطى المؤلفات من المسلمين والمشركين ، فيعطون عند الحاجة . ويحمل ترك عمر وعثمان وعلى إعطاءهم ، على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم ، لالسقوط منهم ، فإن الآية من آخر ما نزل . وأعطى أبو بكر عدى بن حاتم والزبرقان بن بدر . ومنع وجود الحاجة على عمر الزمان ، واختلاف أحوال النفوس في القوة والضعف - لا يخفى فساد . كذا في (الإقناع) و (شرحه) .

والمؤلفة كما في (الإقناع) هم رؤساء قومهم : من كافر يرجى إسلامه ، أو كف شره ، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو نصحه في الجهاد ، أو في الدفع عن المسلمين ، أو كف شره كالخوارج ونحوهم ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها . انتهى .
الرابع - قال في (الإكمال) : استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الاكتساب . ولذمي ، ولن تلزمه نفقته ، ولسائر القرابة ، وللزوج ، وآله عليه السلام ، حيث حرموا حظهم من الخمس ، ولواليتهم ، ولن جوز نقلها .

وقال ابن الفرس : يؤخذ من قوله تعالى (وَالْعَامِلِينَ) جواز أخذ الأجرة لكل من اشغف بشيء من أعمال المسلمين . قال : وقد احتج به أبو عبيد على جواز أخذ القضاة الرزق فقال : قد فرض الله للعاملين على الصدقة ، وجعل لهم منها حقاً بقيامهم فيها وسميهم ، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم ، وكذا كل من شغل بشيء من أعمال المسلمين .

الخامس - قال الزمخشري : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (في) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجمعوا مظنة لها ومصيباً . وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسير ، وفي فك الغارمين من الغرم - من التخليص والإتقاذ .

ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال . وتكرير (في) في قوله تعالى (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) وابن السبيل فيه فضل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الفاضل : ونتم سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائيل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائقاً بهم وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن في مصالح تتعلق بهم . فاللام الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائسون ، فليس نصيبهم معروفاً إلى أيديهم حتى يعتبر عن ذلك بـ (اللام) المشعرة بملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به . وكذلك (الغارمون) إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لدمهم ، لا لهم . وأما (سبيل الله) فواضح فيه ذلك . وأما (ابن السبيل) فكان أنه كان مندرجاً في سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور (باللام) يمكن ، ولكنه على القريب منه أقرب . والله أعلم . ثم قال : وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال للملك ، رحمه الله ، على أن الغرض بيان المصرف و (اللام) لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجار الواقعة خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتمتع تقديره ، فإما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك ، أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعي ، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفي به في الحرفين جميعاً ، يصح تعلق (اللام) به و (في) معاً ، فيصح أن نقول : هذا الشيء مصروف في كذا . وهكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فإنه إنما يلتزم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى (في) يحتاج إلى تقدير : مصروفة ليلتزم بها . فتقديره من (اللام) عام التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله موفق . انتهى .

السادس - قال الزمخشري : فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطاعهم ، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بمداة عنها وعن مصارفها . فمالهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ، ولز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه . انتهى .

وتقدم بيانه أيضا .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَمِنْهُمْ » أي من الذين يحلفون بالله إنهم لنكم ، من هو أشد من اللام في الصدقات إذ هم « الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ » أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، يعنون إنه ليس بعبد الغور ، بل سريع الاعتراض بكل ما يسمع . قال أبو السعود : وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حملاً وكرماً ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قال اللغويون : (الأذن) الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الواحد والجمع ، يقال : رجل أذن ، ورجال أذن ، وامرأة أذن ، فلا يثنى ولا يجمع ، وإنما سموه باسم المصنوع تهويلاً وتشبيهاً ، فهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجمل جملته ، لفرط استماعه ، آلة السماع ، كما سمي الجاسوس عينا لذلك ، ونحوه :

إذا ما بدت ليلى فكلّي أهين وإن حدثوا عنها فكلّي مسامح

وجمله بمضمهم من قبيل التشبيه : بـ (الأُذن) في أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل .

قال الشهاب : وليس بشيء يعتقد به . وقيل إنه على تقدير مضاف ، أى ذو أذن .
قال الشهاب : وهو مُذهَّب لرواقه . وقيل : هو صفة مشبهة من (أذن إليه وله)
كفرح : استمع . قال عمرو بن الأهم (١) :
فلما أن تَسَايَرْنَا قَلِيلًا
أَذِنَ إِلَى الْحَدِيثِ فَهَنَ صُورُ
ولِقَعْنَبِ بْنِ أُمِّ صَاحِبٍ (٢) :

إن يسمعون ربه طاروا بها فرحاً منى ، وما سمعوا من صالحٍ دَفَنُوا
صَمٌّ إذا سمعوا خيراً ذَكَرْتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وفي الحديث (٣) ما أذن الله لشيءٍ ما أذنَ لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ . قال أبو عبيد : يعنى ما
استمع الله لشيءٍ كاستماعه لمن يتلوه ، يجر به . وقوله عز وجل (٤) : (وَأَذِنْتُ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ)
أى استمعت . كذا في (تاج العروس) .

وعلى هذا فـ (أذن) صفة بمعنى سميع ولا تجوز فيه ، ففيه أربعة أوجه .
وعطف قوله تعالى (وَيَقُولُونَ) عطف تفسير : لأنه نفس الإيذاء .
وقوله تعالى : « قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ لَّكُمْ » من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة ،
كرجل صدق . تريد المبالغة في الجودة والصلاح ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نَعَمْ الأذن
أو إضافته على معنى (في) أى هو أذن في الخير والحق ، وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس

(١) استشهد به في اللسان ، ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٢) استشهد به في اللسان ،

ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٣) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل

القرآن ، ١٩ - باب من لم يتغن بالقرآن ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٤) [٨٤ / الانشقاق / ٥٢ و] .

بأذن في غير ذلك . ودل عليه قراءة حمزة . (ورحمة) بالجر عطفاً عليه ، أى هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرها ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بقوله : « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » قال القاشانى : هو بيان لينه عليه السلام وقابليته ، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها « وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يصدق قولهم في الخيرات ، ويسمع كلامهم فيها ويقبله ، « وَرَحْمَةً » أى وهو رحمة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ » أى يعطف عليهم ، ويرقأ لهم ، فينجيهم من العذاب بالتركية والتعليم ، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم ، بالبر والصلة ، وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف ، باتباعهم إياه فيها ، ووضع الشرائع الموجبة لنظام أمرهم في الدارين ، والتحصيض على أبواب البر بالقول والفعل ، إلى غير ذلك .
قاله القاشانى :

وقال غيره : أى هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، معشر المنافقين ، حيث يقبله ، لا تصديقاً لكم ، بل رفقاً بكم ، وترحمًا عليكم ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة في الإبقاء عليهم . قال الشهاب : والمعنى : هو أذن خير يسمع آيات الله ودلائله فيصدقها ويستمع للمؤمنين ، فيسلم لهم ما يقولون ، ويصدقهم . وهو تريض بأن المنافقين أذن شر ، يسمعون آيات الله ولا يثقون بها ، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ، وأنه عليه السلام لا يسمع أقوالهم إلا شفقة عليهم ، لأنه يقبلها لعدم تمييزه ، كما زعموا .

وقال القاشانى في (تفسيره) : كانوا يؤذونه ، صلوات الله عليه ، ويفتأبونه بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم في ذلك وسلم وقال : هو كذلك ، ولكن بالنسبة إلى الخير ، فإن النفس الأنبيية والغليظة الجافية ، والكثرة القاسية التي تنصلب في الأمور ، ولا تتأثر ، غير مستعدة للكمال . إذ الكمال الإنسانى لا يكون إلا بالقبول والتأثر . فكلما كانت النفس ألين عريكة ، وأسلم قلباً ، وأسهل قبولاً ، كانت أقبل للكمال ، وأشد استعداداً له . وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلادة الذى يقتضى الاتعالم من كل

ما يسمع ، حتى الحال ، والتأثر من كل ما يرد عليه ويره ، حتى الكذب والشور والضلال ، بل هو من باب اللطافة ، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق ، فلذلك قال : (قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ) إذ صفاء الاستعداد ، ولطف النفس ، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات ، لا ما يتنافيه من باب الشرور ، فإن الاستعداد الخيري لا يقبل الشر ، ولا يتأثر به ، ولا ينطبع فيه ، لمناقاته إياه ، وبمده عنه . انتهى .

إطاعات :

الأولى - في قوله تعالى (قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ) أبلغ أسلوب في الرد عليهم ، فإنه صدقهم في كونه أذناً ، إلا أنه فسر بما هو مدح له ، وثناء عليه .

قال الفاضل : لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه ، في الأول ، إطاع لهم بالموافقة ، ثم كثر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تفقسه باليأس منه . وبضاهى هذا ، من مستعملات الفقهاء ، القول بالموجب ، لأن في أوله إطاعاً للخصم بالتسليم ، ثم بقاً للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطاع ثم اليأس يتلوه ويعقبه . والله الموفق .

الثانية - (اللام) في قوله تعالى (لِلْمُؤْمِنِينَ) مزيدة للفرقة بين الإيمان المشهور ، وهو الاعتراف ، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق - قاله أبو السعود تبعاً للقاضي - . قال الشهاب : يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق ، يتعدى بالباء ، فلذا قال (بِاللَّهِ) والإيمان للمؤمنين بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم ، لما علم من خلوصهم ، مقعد بنفسه ، فاللام فيه مزيدة للتقوية .

الثالثة - قال أبو السعود : إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل ، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبثقة عن الرسوخ والاستمرار - للإيدان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار . وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ » أي بما نقل عنهم من قولهم (هُوَ أَذُنٌ) ونحوه « لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي بما يجترئون عليه من إيدائه .

قال أبو السعود : وهذا افتراض مسوق من قِبَلِه عز وجل على نهج الوعيد ، غير داخل تحت الخطاب . وإرادته عليه الصلاة والسلام بمنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل ، لفاية التعظيم والتنبيه على أن أذيقه راجعة إلى جنبه عز وجل ، موجبة لكمال السخط والغضب . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّكُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

« يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّكُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » قال الزمخشري : الخطاب للمسلمين ، وكان النافقون يشككون بالطاعين ، أو يخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ، ويرضوا عنهم ، ف قيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون ، فأحق من أَرْضَيْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بالطاعة والوفاء . انتهى .

ولما كان الظاهر بمد العطف بالواو التثنية ، وقد أُفْرِدَ - وَجْهَهُ :

بأن إرضاء الرسول إرضاء لله تعالى لقوله تعالى ^(١) : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فلتلازمهما جملاً كشيء واحد ، فصاد عليهما الضمير المفرد ، و (أَحَقُّ) ، على هذا ، خبر عنهما من غير تقدير .

أو بأن الضمير عائد إلى الله تعالى ، و (أَحَقُّ) خبره ، لسبقه . والكلام جملتان ، حذف خبر الجملة الثانية ، لدلالة الأولى عليه . أى : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

(١) [٤ / النساء / ٨٠] .

وسببويه جعله للثاني ، لأنه أقرب ، مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر كقوله ^(١) :
 نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ
 أو بأن الضمير لها بتأويل ما ذكر ، أو كل منهما ، وأنه لم يثن تأديباً لثلاث يجمع بين الله
 وغيره في ضمير تثنية ، وقد نهى عنه ، على كلام فيه .
 أو بأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه ، فيكون ذكر الله تعظيماً له وتمهيداً .
 فلذا لم يخبر عنه ، وخص الخبر بالرسول . قال الشهاب : وفيه تأمل . انتهى .
 وقد عهد لهم القول بمثله في آيات كثيرة ، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله ، وقراءة
 التاء على الالتفات ، للتوبيخ .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ،
 ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا » أى أولئك المنافقون . قال أبو السعود : والاستفهام للتوبيخ على
 ما أقدموا عليه من العظيمة ، مع علمهم بسوء عاقبتها . وقرئ بالتاء على الالتفات ، لزيادة
 التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات
 « أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » أى من يخالف الله ورسوله .
 قال الليث : حادثة أى خالفته ، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة ، واشتقاقه من (الحد) ،

(١) من أبيات الكتاب (ج ١ ص ٣٨) وقائله قيس بن الخطيم .

قال الشنتمرى : استشهد به مقولاً لما جاز من حذف المفعول الذى هو فضلة مستغنى
 عنها ، فى قولهم : ضربت وضربني زيد .

بمعنى الجهة والجانب ، كما أن المشاقة من (الشق) بمعناه أيضاً ، فإن كل واحد من المتخالفين والتمعدين في حدّ وشقّ ، غير ماعليه صاحبه . فعنى (يُحَادِدِ اللَّهَ) يصير في حدّ غير حدّ أولياء الله ، بالمخالفة .

وقال أبو مسلم : الحادة مأخوذة من الحديد ، حديد السلاح .
وقوله فعلى « ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » أى القل والهوان الدائم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَغْزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ » أى فى شأنهم ، فإن ما نزل فى حقهم ، نازل عليهم « سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ » أى من الأسرار الخفية ، فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق . ومعنى تنبئتها إياهم بما فى قلوبهم ، منع أنه معلوم لهم ، وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم ، لا اطلاع أنفسهم عليها - أنها تضيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم ، فتنتشر فيما بين الناس ، فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة ، فكأنها تخبرهم بها . والمراد بالتنبيه المباعدة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم ، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه ، فتنبئهم بها ، وتنعى عليهم قبايحهم . وقيل : معنى (يحذر) ليحذر ، وقيل : الضميران الأولان للمؤمنين ، والثالث للمنافقين ، ولا يبالى باثباتكميك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه . أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين . أفاده أبو السمود .

فإن قلت : المنافق كافر ، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول ؟ أجيب : بأن القوم ، وإن كانوا كافرين بدين الرسول ، إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتُمونه ، فلهم هذه التجربة وقع الحذر والخوف فى قلوبهم .

وقال الأصمّ: إنهم كانوا يعرفون كونه رسولا صادقا من عند الله ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . وتمتبه القاضى بأن يبعد ، فى العالم بالله وبرسوله وصحة دينه ، أن يكون محاداً لها . لكن قال الرازى : هو غير بعيد ، لأن الحسد إذا قوى فى القلب ، صار بحيث يفتازع فى المحسوسات . انتهى .

وقال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر كل شيء ، ويدعى أنه عن الوحي ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره . ولذلك قال تعالى : « قُلِ اسْتَهِزُّوا أَيَّ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ ، أَوْ أَفْعَلُوا الْاسْتِهْزَاءَ ، وَهُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ » إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ « أى مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إنزال السورة ، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم ، كقوله تعالى (١) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ... إلى قوله : وَلَتَمْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... الآية) - ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَلَيْسَ بِإِيتَانِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » أى عن إتيانهم بقلك القبايح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر « لَيَقُولُنَّ » أى فى الاعتذار إنه لم يكن عن القلب حتى يكون نفاقاً وكفراً بل « إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ » أى ندخل هذا الكلام لترويح النفس « وَنَلْعَبُ » أى نمزح « قُلْ أَلَيْسَ بِإِيتَانِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » أى فى ترويحكم ومزاحكم ، ولم تجدوا لها كلاماً آخر .

(١) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« لَا تَعْتَذِرُوا » أى لا تشتغلوا باعتذاركم الكاذبة ، فالنهي عن الاستغفار به وإدامته إذ أصله وقع « قَدْ كَفَرْتُمْ » أى أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطمع فيه وباستهزائكم بمقالكم « بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بعد إظهاركم الإيمان .

تنبيه :

قال فى (الإكمال) : قال الكيا : فيه دلالة على أن اللاب والجاذ فى إظهار كلمة الكفر سواء ، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر - انتهى - .

قال الرازى : لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف . والعمدة الكبرى فى الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل) : كل ما فيه كفر بالبارئ تعالى ، واستخفاف به ، أو بنبي من أنبيائه ، أو بملك من ملائكته ، أو بآية من آياته عز وجل ، فلا يحل سماعه ، ولا النطق به ، ولا يحل الجلوس حيث يلفظ به . ثم ساق الآية .

وقوله تعالى : « إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ » أى لتوبتهم وإخلاصهم . أو تجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء « نَعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى مصرين على النفاق ، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء .

تنبيه :

روى فى صفة استهزاء المنافقين روايات عدة :

قال ابن إسحاق^(١) : كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بن عمرو بن

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٩٠٢ و ٩٠١ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٨

١٦٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُحَشَّن بن مُحَيْرٍ، (ويقال مُحَشِّي) يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أنحسبون جلاذ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً. والله! لكانا بكم غدا مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مُحَشَّن بن حير. والله! لوددت أن أفاضني على أن يُضْرَبَ كل منا مائة جلدة، وأنا نقلب أن ينزل فينا قرآن، لمقاتلتكم هذه. وقد قال رسول الله ﷺ فيما بلغني - لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلمهم عما قالوا، فإن أنكروا، فقل: بلى! قلتم: كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعقذرون إليه، فقال وديمة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على ناقته - : يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل فيهم (وَأَن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) وقال مُحَشَّن بن حير: يا رسول الله! لقد بي اسمي واسم أبي. وكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مُحَشَّن، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يعقله شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. انتهى.

وقال عكرمة: ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها، تقشعر منها الجلود، وتوجلُّ منها القلوب. اللهم فاجعل وفائي قتيلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا عسأت، أنا كفت، أنا دفقت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجدَ، غيره.

ومما روى في استهزائهم أن رجلاً من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب أسننا، ولا أجبن عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى النبي صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: أبا الله ورسوله وآياته كفتم تستهزئون... الآية - وهو متعلق بسيف الرسول، وما يلتفت إليه ﷺ.

قال الزجاج : (الطائفة) في اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة . انتهى .
وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » أي متشابهون في النفاق والبدع عن الإيمان ، كتشابه أباض الشيء الواحد . والمراد الاتحاد في الحقيقة والصفة . فـ (من) اتصالية .

قال الزمخشري : أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم (ويحلفون بالله أنهم لم ينسوا) وتقرير قوله (وما هم منك) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله : « يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ » كالنكير والمعاصي « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » كالإيمان والطاعات « وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ » أي بخلا بالمبرات ، والإنفاق في سبيل الله ، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يُعطى يمد يده ، بخلاف من يمنع « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » أي أغفلوا ذكره وطاعته ، فتركهم من رحمته وفضله .

قال الشهاب : معنى (نَسُوا اللَّهَ) أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم .

قال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى ، وامتناع المواخذة على نسيان البشر .

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى الفسق ، الذى هو التردد فى الكفر ، والانسلاخ عن كل خير . وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله به المنافقين حين بالغ فى ذمهم . وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول (كسبت) لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله ^(١) (كَسَالِي) فما ظنك بالفسق ؟ أفاده الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)
« وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ »
أى عقاباً وجزاء « وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَعَنَّ اللَّهُ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثُلَاثًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَنْزَلْنَاهُمْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ذَوِي أُلْجُنَّةِ وَأَسْفَلَ دَرَجَاتِ السُّجَّةِ وَالْكَافِرِينَ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ فَلَا تُعْطُوا مِنْهُمْ شَيْئًا)
« كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أنتم من قبلكم ، أى من أنتم عليهم
(١) [٤ / النساء / ١٤٢] و [٩ / التوبة / ٥٤] .

ثم عذبوا، والافتات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد « كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً » في أنفسهم « وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا » أى تفيدهم مزيد قوة ، ومنافع جمة « وَأَوْلَادًا » أى تفيدهم مزيد قوة لا تفوت بفوات المال ، ومنافع أخر « فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَافِهِمْ » أى انتفعوا بنصيبهم ، ثم أعطاكم أيها المنافقون أقل مما أعطاهم « فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَافِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » أى دخلتم فى الباطل ، كالخوض الذى خاضوه ، أو كالفوج الذى خاضوا « أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى لم يستحقوا عليها ثواباً فى الدارين ، أما فى الآخرة فظاهر ، وأما فى الدنيا فما لهم من الدل والهوان وغير ذلك « وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أى الذين خسروا الدارين .

روى ابن جريج عن أبى هريرة قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لا تتبعن سنن الذين من قبلكم شرباً بشرب ، وذراعاً بذراع ، وباعاً ببيع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فن ؟ وفى رواية قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم القرآن : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . الآية (قال أبو هريرة : الخلاق : الدين) قالوا : يا رسول الله ! كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟ وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح - أفاده ابن كثير - .

العليفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : أى فائدة فى قوله (فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَافِهِمْ) ؟ وقوله (كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَافِهِمْ) ؟ مفعول منه ، كما أغنى قوله (كَالَّذِي خَاضُوا) عن

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري فى التفسير ، بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وشاهده فى الصحيح ما أخرجه البخارى فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٤ - باب قول النبي ﷺ « لا تتبعن سنن من كان قبلكم » ، الحديث رقم ٢٥٨٩ .

أن يقال : وخاضوا فخصم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، ورضاهم بها ، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة ، وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الراضى به ، ثم يشبه بمد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ، ويمذب ويعسف ، وأنت تفعل مثل فعله . وأما (وَخُضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن ، باستفاده إليه ، عن تلك المقدمة .
ثم وعظ تعالى المنافقين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« أَلَمْ يَأْتِهِمْ » أى بطريق التواتر « نَبَأُ » أى خبر « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو إهلاكهم بمد تنعيمهم لكفرهم « قَوْمِ نُوحٍ » أنعم عليهم بنعم ، منها تطويل أعمارهم ، ثم أهلكوا بالطوفان « وَعَادٍ » قوم هود ، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم ، ثم أهلكوا بالريح « وَثَمُودَ » قوم صالح ، أنعم عليهم بنعم ، منها القصور ، ثم أهلكوا بالرجفة « وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ » أهلكوا بالهدم - كذا فى (التنوير) .

وقال المهابي : أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل فى أنفه « وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ » قوم شعيب ، أنعم عليهم بنعم ، منها التجارة ، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم « وَالْمُؤْتَفِكَاتِ » قريات قوم لوط ، اثفكت بهم ، أى انقلبت بهم ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل .

وقوله تعالى « أَتَعْتَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » استئناف لبيان نبئهم . أن جاءتهم بالآيات الدالة على رسالتهم « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى يهلكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة ، بإرسال الرسل ، وإزاحة الغل . والفاء للتعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام . أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى ، فإظلمهم بذلك « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بالكفر والتكذيب ، وترك شكره تعالى ، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله ، فاستحقوا ذلك العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فى مقابلة قوله فى التائيف^(١) (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) « يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى فلا يزالون يذكرونه تعالى ، فهو فى مقابلة ما سبق من قوله^(١) (نَسُوا اللَّهَ) « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » بمقابلة قوله^(١) (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) « وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل أمر ونهى ، وهو بمقابلة وصف المنافقين ، بكال الفسق والخروج عن الطاعة « أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومسكنها أنهار الخمر والماء والعلس واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً » أى منازل حسنة تستطيعها النفوس أو يطيب فيها العيش « فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى إقامة وثبات . ويقال (عَدْنٍ) علم لموضع معين فى الجنة ، لأنار فيه ، ولما كان (وَمَسَاكِينَ) مقطوعاً على (جَنَّاتٍ) قيل : إن المتماطين إما أن يتغايا بالذات ، فيكونوا وعِدُوا بشيئين ، وهما الجنات بمعنى البساتين ومسكن فى الجنة ، فكل أحد جنة ومسكن . أو الجنات المقصود بها غير عدن ، وهى لعامة المؤمنين ، و(عَدْنٍ) للنبين عليهم الصلاة والسلام والشهداء والصديقين . وإما أن يتحددا ذاتاً . ويتغايا صفة ، فينزل التنابير الثانى منزلة الأول ، ويمطف عليه ، فكل منهما عام ، ولكن الأول باعتبار اشتغالها على الأنهار والبساتين ، والثانى باعتبار الدور والمنازل .

قال القاضى : فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التى يعرفونها لتميل إليه طباعهم ، أول ما يقرع أسماعهم ، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى من شوائب السكدورات التى لا تخلو عن شىء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العلين ، لا يمتريهم فيها فناء ولا تغير ، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة ، وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ، ولعل عدم نظمه فى

سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود ، ولأنه مستقر في الدارين .
أفاده أبو السعود .

وإيثار رضوان الله على ما ذكر ، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك .
وقد روى الإمام مالك والشيخان^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة افيقوا : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ؟ وقد أعطيتنا ما لم تمنع أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً .
وروى الحاملي والبخاري عن جابر ، رفعه : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عز وجل : هل تشبهون شيئاً فأنزلهم ؟ قالوا : يا ربنا ! ما هو خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر .
« ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أي لا ما بعدة الناس فوزاً من حظوظ الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » قيل : مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف . قال في (النهاية) ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين ، وهم غير مظهرين لل كفر ، ونحن مأمورون بالظاهر ، فلذا فسر الآية السلف بما يدفع ذلك ، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء كان بالقتال أو بغيره ، وهو إن كان حقيقة فظاهر ، وإلا

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار : حديث

رقم ٢٤٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٩ (طبعنا) .

حمل على عموم المجاز ، فجهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج ، وإزالة الشبهة ونحوه . أو بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجبا ، كما روى عن الحسن في الآية . وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً ، وأجيب بأنها في زمنه ﷺ أكثر ما صدرت عنهم . انتهى .

قال ابن العربي^(١) : هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كما هنا ، لا بما تقلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار الحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

وقال ابن كثير : روى عن علي رضي الله عنه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف ، سيف للمشركين^(٢) : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) ؛ وسيف للكفار أهل الكتاب^(٣) : (فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...) الآية - ؛ وسيف للمنافقين^(٤) : (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ) وسيف للبقاء^(٥) : (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْنِي ...) الآية - وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . انتهى .

وفي (الإكليل) استدل بالآية من قال بقتل المنافقين . انتهى .

« وَاغْلَظْ عَلَيْهِمْ » أى اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ » .

(١) أحكام القرآن : ص ٩٦٦ من القسم الثاني ، تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوى .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] . (٣) [٩ / التوبة / ٢٩] .

(٤) [٩ / التوبة / ٧٣] و [٦٦ / التحريم / ٩] . (٥) [٤٩ / الحجرات / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا وَابْعَثُوا رَسُولَهُمْ
وَهُمْ هُمْ بِمَا لَمْ يَنْأَلُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ،
فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا » أى فيك شيئاً يسوءك « وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ
وَكَفَرُوا وَابْعَثُوا رَسُولَهُمْ » قال قتادة^(١) : نزلت في عبد الله بن أبى ، وذلك أنه اقتتل رجلان :
جهنى وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم
والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : (سمن كلبك يأكلك) . وقال : لئن رجعتنا
إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ ،
فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأرسل الله فيه هذه الآية .

وروى الأموى في مغازيه عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت - وكان
ممن تخلف من المنافقين - لما سمع ما ينزل فيهم قال : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول ،
لنحن شر من الحجير ، فسمعها عمير بن سعد ، وكان في حجره ، فقال : والله يا جلاس إنك
لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم على أن يصله شيء تكرهه ، ولقد قلت
مقالة ، فإن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتبتها تهلكتنى ، ولأحداها أهون على من الأخرى .
فمشى إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، أتى رسول الله
ﷺ ، خلف بالله ما قالها ، فأرسل الله عز وجل فيه (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ ...) الآية - فوقه
رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، وزرع فأحسن الزرع .

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي

الثانية) .

وهاتان الروايتان وغيرهما مما روى هنا ، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل ، وإن لم يمكننا تعيين شيء منها في هذه الآية .

وقوله تعالى : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » قال ابن كثير : قيل أنزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته ، لما رفع كلته المقدمة إلى النبي صلوات الله عليه . وقد ورد أن نقرأ من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي ، في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً . قال الضحاك : ففهم نزلت هذه الآية . قال الإمام أحمد في مسنده (١) : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ، ويسوق به عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الراجل ، غشوا عمارا ، وهو يسوق برسول الله ﷺ ، وأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الراجل ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة : قُدْ قُدْ . حتى هبط رسول الله ﷺ . فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ، ورجع عمار ! فقال : يا عمار ! هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الراجل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدري ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه . قال : فسأب عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلاً . فقال : إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعدّ رسول الله ﷺ منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا فنادى رسول الله ﷺ ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الانبياء عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . « وَمَا نَقَمُوا » أى ما أنكروا وما عابوا « إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » فإنهم كانوا قبل مقدمه ﷺ المدينة في ضنك من العيش ، فأثروا بالغنائم ، وقتل للجلاس .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

مولى ، فأمر له النبي ﷺ بديته فاستغنى . والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فاجملوا موضع شكر النبي ﷺ ما هموا به ، ولا ذنب إلا تفضله عليهم ، فهو على حد قولهم : مالى عندك ذنب إلا أنى أحسنت إليك ، وقول ابن قيس الرقيات (١) :

مَا نَقَمَ النَّاسُ مِنْ أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْكُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وقول النابغة (٢) :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُمُوفَهُمْ بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قَرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويقال : نقم من فلان الإحسان (كلم) إذا جعله مما يؤديه إلى كفر النعمة . كما في (التاج) - ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله : « فَإِنْ يَتُوبُوا » أى من الكفر والنفاق « يَكُ خَيْرًا لَهُمْ » ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والمهم والغم « وَالْآخِرَةِ » أى بالدار وغيرها « وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ » أى يشفع لهم في دفع المذاب « وَلَا نَصِيرٍ » أى فيدفعه بقوته .

(١) البيت من شواهد الكشف . ونصه فيه : ما نقموا من بنى أمية إلا ... الخ .

قال شارح الشواهد : هو لابن قيس الرقيات . يعنى أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحا ، وهو الحلم عند الغضب ، وذلك أصل الشرف والسيادة .

والبيت من قصيدة مطلعها :

عَادَلَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرْبِ فَعَيْنُهُ بِالْدموعِ تَنْسَكِبُ

يمدح بها عبد الملك بن مروان (انظر : ص ٤٠ ج ٦) فى : رغبة الآمل من كتاب الكامل .

(٢) من شواهد الكشف . قال شارحه : هو للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة

التي أولها :

كَلِمَتِي لَهْمٌ يَا أُمِّيَّةُ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطْلَى الْكَوَاكِبِ

وفلول السيف كناية عن كمال الشجاعة ، فكونه من العيب محال .

ثم بين تعالى بعض مَنْ نَقِمَ لِإِغْنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِمَا آتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ ، مَنْ نَكَثَ فِي بَيْعِهِ ، وَتَوَلَّى عَنِ التَّوْبَةِ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنًا أَنَا نَأْمِنُ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ » أى حلف به « لَيْنًا أَنَا نَأْمِنُ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى بإعطاء كل ذى حق حقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا أَتَاهُمْ مَنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) « فَلَمَّا أَتَاهُمْ مَنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا » أى من المهد « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

« فَأَعْقَبَهُمْ » أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك ، أو فأورثهم البخل « نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ » أى من التصديق والصلاح « وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » فى العهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين « وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى ما غاب عن العباد .

تفسيحات :

الأول - قال السيوطي في (لباب النقول) : أخرج الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في (الدلائل) بسند ضعيف عن أبي أمامة ؛ أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقني مالا . قال : ويحك يا ثعلبة ! قايل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه . قال : والله لئن آتاني الله مالا لأوتين كل ذي حق حقه . فدعاه ، فاتخذ غنما ، فذمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، ففتحى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم تمت حتى تمددت عليه مراعى المدينة ، ففتحى بها ، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ، ثم تمت ، ففتحى بها ، فترك الجمعة والجماعات . ثم أنزل الله على رسوله ^(١) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتاباً ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتم فروا بي فعملا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ...) إلى قوله (يَكْذِبُونَ) الحديث .

وأخرج ابن جرير ^(٢) وابن مردويه من طريق الموفى عن ابن عباس نحوه ، وفيه أنه جاء بعدد إلى النبي ﷺ بصدقته فقال له : إن الله ممنعي أن أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه . فقال : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وكذا عمر وعثمان ، ثم إنه هلك في أيام عثمان .

قال الشهاب : بحسب ثعلبة وحشوه التراب ، ليس للتوبة من تقاؤه ، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين . وقوله صلوات الله عليه : هذا عملك ، أى جزاء عملك ، وهو عدم إعطائه المصدقين ، مع مقاتله الشنماء .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٢) انظر تفسير ابن جرير ص ١٨٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق ؟ أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترأ الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وردّ سعاة النبي ﷺ ، ويكون لطفاً في ترك البخل والنفاق .

الثاني - قال بعض المفسرين من الزيدية : ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام : منها - أن الوفاء بالوعد واجب ، إذا تعلق العهد بواجب . والعهد إن حمل على اليمين بالله ، فذلك ظاهر ، وإن حمل على النذر ، ففي ذلك تأكيد لما أوجب الله . ومنها - أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحة ، أي يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجه الذي حصل في قصة ثعلبة . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق ، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان . وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله : (فَأَعْتَبْهُمْ نِفَاقًا) واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا ففعله على كذا ، أنه يلزمه . وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه . كما فعل بمن نزلت الآية فيه . انتهى .

الرابع - قال الرازي : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد ، يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالي في الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به . ومذهب الحسن البصري رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية ، وبقوله عليه السلام ^(١) : (ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

(١) الحديث أخرجه البخاري في ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ،

حديث رقم ٣١ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ - ١١٠ (طبعنا) .

الخامس - دل قوله تعالى : (إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ) على أن ذلك المأهـد مات منافقاً . قال الرازى : وهذا الخبر وقع خبره مطابقاً له ، فإنه روى أن ثعلبة أبا النبي ﷺ بصدقه فقال : إن الله تعالى منعى أن أقبل صدقتك . وبقى على تلك الحالة . وما قيل أحد من الخلفاء رضى الله عنهم صدقه حتى مات . فكان إخباراً عن غيب ، فكان معجزاً .

السادس - الضمير فى (يلقونه) للفظ الجلالة ، والمراد بـ (اليوم) يوم القيامة . وله نظائر كثيرة فى التنزيل . وأغرب بعض المفسرين حيث قال : الضمير فى (يلقونه) إما لله ، والمراد باليوم وقت الموت ، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف ، وهو الجزاء . انتهى .

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاء مناسباً لآلهم من وقوفهم للحساب مع حججهم عنه تعالى ، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته ، تقدس اسمه . وإذا أضيف إلى المؤمنين ، كما فى قوله تعالى (١) : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ، كان لقياً مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى . وذلك لما أفصحت عنه آيات آخر من حال الفريقين ، مما يتنزل مثل ذلك عليها . فن وقف فى بعض الآيات على لفظة ، وأخذ يستنبط منها ، ولم يراع من استعملت فيه ، وأطلقت عليه ، كان ذلك جوداً وتمصباً ، لا أخذاً بيد الحق . نقول ذلك ردّاً لقول الجبائى : إن اللقاء فى هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى ، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى ، فلا يفيد أيضاً فى قوله تعالى : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) . وللرازى معه مناقشة من طريق أخرى . وما ذكرناه أمتن . والله أعلم .

السابع - قال الرازى : (السر) ما ينطوى عليه صدورهم ، و (التجوى) ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجو ، وهو الكلام الخفى ، كأن التناجيين منعاً إدخال غيرهما معهما ، وتباعداً من غيرهما .

ثم بين تعالى من مساوى المنافقين نوعاً آخر ، وهو لزوم التصديق بقوله سبحانه :

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ » أى يعيبون « الْمُطَّوِّعِينَ » أى المتبرعين « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » فى الصَّدَقَاتِ « فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَصَدَّقُوا رِثَاءً » وَالَّذِينَ « أى ويلمزون الذين « لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » أى لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلاً ، وهو مقدار طاقهم « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ » أى يهزؤون بهم ، ويقولون إن الله غنى عن صدقاتهم « سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » أى جازاهم على سخرهم « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى البخارى^(١) فى صحيحه عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة ، كنا نحامل^(٢) فجاء رجل فيتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرأى . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ . . .) الآية - ورواه مسلم^(٣) أيضاً .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبى السليل عن رجل حدثه عن أبيه أوعمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة ؟ فجاء رجل لم أر رجلاً أشد منه سواداً ، ولا أصفر منه ولا أدم ، بناقة لم أر أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهى خير منه ! فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ! بل هو خير منك ومنها (ثلاث مرات) . ثم قال : ويل لأصحابك إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٤ كتاب الزكاة ، ١٠ - باب اتقوا النار ولو بشق تمره ، الحديث رقم ٧٥٥ (٢) أى تحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة . (٣) أخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٧٢ (طبعنا) . (٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) !

قال ابن إسحاق^(١) : كان المطّوعون من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف ، وعاصم بن عديّ أخا بني عجلان . وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة ، وحضّ عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن هديّ وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلهزوها وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذي تصدق بجهد أبي عقيل ، أخا بني أنيف ، أتى بصاع من تمر ، فأفرغها في الصدقة فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لنفى عن صاع أبي عقيل .

وروى الحافظ البزار في مسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإنّي أريد أن أبث بمثاً . فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ! عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما لربي ، وألفين لعمالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت . وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ! أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربي ، وصاع لعمالي . قال ، فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله الآية . وقوله عليه الصلاة والسلام (أريد أن أبث بمثاً) أي لفرز الروم ، وذلك في غزوة تبوك .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكمال) : في هذه الآية تحريم اللغو والسخرية بالمؤمنين .

انتهى .

الثاني - في (الذين يلمزون) وجوه من الإعراب : خبر مبتدأ بتقدير (هم الذين)

أو مفعول أعنى أو أذم الذين ، أو مجرور بدل من ضمير (سرهم) ، وجوز أيضاً أن يكون

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة رقم ٩٢٦ (طبعة جوتنجن) وصفحة ١٩٦ من الجزء

الرابع (طبعة الحلبي) .

مبتدأ خبره (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) ، وقيل : (فَيَسْخَرُونَ) ، ودخلت (فاء) لما في (الَّذِينَ) من الشبه بالشرط . وأما (الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ) . . . الخ فقييل : معطوف على (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) وقيل : (على الْمُؤْمِنِينَ) ، والأحسن أنه معطوف على (المطوعين) .
قال في (الفتح) : ويكون من عطف الخاص على العام ، والنسكته فيه التنبويه بالخاص ، لأن السخرية من المقل أشد من المكثر غالباً .

الثالث - قال في (الفتح) : قراءة الجمهور (الْمُطَوِّعِينَ) بتشديد الطاء والواو . وأصله المتطوعين ، أدغمت التاء في الطاء . انتهى . أى لقرب المخرج . والتطوع التثقل ، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب . و (الجهد) ، قال الليث : هو شيء قليل يعيش به المقل ، وبضم الجيم قرأ الجمهور . وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح ، فقييل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : المفتوح بمعنى المشقة ، والمضموم بمعنى الطاقة . وقيل : المضموم قليل يعاش به ، والمفتوح : العمل . والمختار أنهما بمعنى ، وهو الطاقة وما تبلمه القوة . قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغيرهم . والجزء والسخرية بمعنى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)
« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين « أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى فإنهما في حقهما سواء . ثم بين استحالة المغفرة لهم وإن بولغ في الاستغفار بقوله تعالى : « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ » أى عدم الغفران لهم « بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن حدوده .

تنبيهات :

الأول - جملة قوله تعالى (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الخ ، إفشائية لفظاً ، خبرية معنى . والمراد التسوية بين الاستغفار لهم ، وتركه ، في استحالة المغفرة . وتصويره بصورة الأمر ، للمبالغة في بيان استوائهم . كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال ، بأن يستغفر تارة ، ويترك أخرى ، ليظهر له جليلة الأمر ، كما مر في قوله تعالى ^(١) (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) ، وقد وردت بصيغة الخبر في سورة « المنافقون » في قوله تعالى ^(٢) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الثاني - قال الزمخشري : (السبعون) جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير . قال على ابن ^(٣) أبي طالب عليه السلام :

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنُ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النُّوَاصِي .

أى فذكرها للمبالغة في حسم مادة الاستغفار لهم ، جرياً على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتجديد ، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقال أبو السعود : شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعائة في مطلق التكثير ، لاشتغال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنها العدد بأسره . وقيل : هي أكل الأعداد ، لجمعها معانيها ، ولأن الستة أول عدد تام ، لتعادل أجزائها الصحيحة ، إذ نصفها ثلاثة ، وثلاثها .

(١) [٩ / التوبة / ٥٣] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٦٥] .

(٣) استشهد به في الكشف قال شارح الشواهد : أى لأسقين الصُّبُوح . والعاص ، وإن روى بالكسر ، فعلى الوصف بالعصيان ، وإن روى بالفتح فكأنه أريد القبيلة ، وهو عمرو بن العاص . و (سبعين) ثانی مفعولى (لأصبحن) . والمراد الفرسان الماقدى نواصي الخيل من عادة العرب أن تسعمل مثل هذا العدد للكثرة ...

اثنتان ، وسدسها واحد ، وجعلتها ستة ، وهى مع الواحد سبعة ، فكانت كاملة؛ إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال . ثم السبعون غاية الكمال ، إذ الأحاد غايتها العشرات . والسبعمائة غاية الغايات - انتهى - .

الثالث - روى البخارى^(١) وغيره أن النبي ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبى : إنما خيرنى الله فقال : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الآية وسأزيده على السبعين . فظاهر هذا أن (أو) للتخيير ، وأن السبعين له حدٌّ يخالفه حكم ما وراءه ، وهو من الإشكال بمكان . ولذا قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف خفى على رسول الله ﷺ ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ؟ والذي يفهم من هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا...) الآية - فبين الصارف عن المغفرة لهم ، حتى قال : قد رخص لى ربى فسأزيد على السبعين . ثم أجاب الزمخشريّ بقوله : قلت لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورافته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام^(٢) : (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وفى إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . انتهى .

قال الشراح : يعنى أنه أوقع فى خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير ، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة ، كما جعل إبراهيم عليه السلام جزاء من عصانى أى لم يقتل أمر ترك عبادة الأصنام ، قوله (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دون أن يقول : (شديد العقاب) فخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم ، وحثاً على الاتباع . وفهم المعنى الحقيقى من

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ باب قوله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ، حديث ٧٢٢ .
(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] .

لفظ اشهر مجازة ، لا ينافى فصاحته ، ومعرفة باللسان ، فإنه لا خطأ فيه ، ولا بعد ، إذ هو الأصل . ورجحه عنده شغفه بهدايتهم ، ورأفته بهم ، واستعطاف من عدام .

قال الناصر : وقد أنكر القاضى رضى الله عنه حديث الاستغفار ، ولم يصححه ، وتعالى قوم في قبوله ، حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ، ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضى عليهم . وقيل : لما سوى الله بين الاستغفار وعدمه ، ورتب عليه عدم القبول ، ولم ينفه عنه ، فهم أنه خير ومرخص فيه ، وهذا مراده ﷺ ، لا أنه فهم التخيير من (أو) ، حتى ينافى التسوية بينهما ، المرتب عليها عدم المغفرة ، وذلك تطييباً لظواهرهم ، وأنه لم يأل جهداً في الزافة بهم . قال الشهاب : والتحقيق أن المراد التسوية في عدم الفائدة ، وهى لا تنافى التخيير ،

فإن ثبت فهو بطريق الاقتضاء ، لوقوعها بين خدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما ، فلا بد من أحدهما . فقد يكون في الإثبات كقوله تعالى ^(١) (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) لأنه مأمور بالتبليغ ، وقد يكون في النفي كما هنا ، وفي قوله ^(٢) : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَفْعَلْ) الآية - فهو محتاج إلى البيان . ولذا قال النبي ﷺ : (إنه رخص لي) ولعله رخص له في ابن أبي الحكمة ، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى عبدالرزاق عن معمر بن قتادة قال : لما نزلت (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) قال النبي ﷺ : لأزيدن على السبعين ، فأمر الله تعالى « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ثم قال : ويحتمل أن تكون الآيتان معا نزلتا في ذلك انتهى . ثم أشار تعالى إلى نوع آخر من مساوى المنافقين وهو جعلهم الفرح مكان الحزن ، والكرهية مكان الرضا . بقوله سبحانه :

(١) [٢ / البقرة / ٦] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » المحلفون : هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم في التخلف كما قلنا ، أو لأنه خلفهم في المدينة في غزوة تبوك . وإشار (المُخَلَّفُونَ) على (المُتَخَلَّفُونَ) ، لأنه ﷺ منع بعضهم من الخروج ، فقلب على غيرهم . أو المراد من خلفهم كسلهم أو ثقافتهم . أو لأن الشيطان أغراهم بذلك ، وحملهم عليه . وقوله تعالى : (بِمَقْعَدِهِمْ) متعلق بـ (فرح) ، أى بعودهم عن غزوة تبوك . فـ (مقعد) على هذا مصدر ميمي ، أو هو اسم مكان ، والمراد به المدينة . وقوله (خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ) أى خلفه ، وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا . فـ (خلاف) ظرف بمعنى خلف وبعد . يقال : فلان أقام خلاف الحى أى بعدهم ، ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ (خلف رسول الله) ، فانتصابه على أنه ظرف لـ (مقعدهم) ، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك .

قال الشهاب : واستعمال (خلاف) بمعنى (خلف) لأن جهة الخلف خلاف الأمام ، وجوز أن يكون (الخلاف) بمعنى (المخالفة) ، فهو مصدر (خالف) ، كالقتال . ويمضده قراءة من قرأ (خلف رسول الله) بضم الخاء ، وفي نصبه وجهان :

الأول - أنه مفعول له ، والعامل إما (فرح) أى فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالعود . وإما (مقعدهم) أى فرحوا بعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام ، فهو علة إما للفرح أو للعود .

والثاني - أنه حال ، والمامل أحد المذكورين ، أى فرحوا بخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقمود ، أو فرحوا بالقمود مخالفين له .

وقوله تعالى : (وَكَرِهُوا) الخ أى لما فى قلوبهم من مرض النفاق .
قال أبو السمود : وإنما أثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : (وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو) إيداناً بأن الجهاد فى سبيل الله ، مع كونه من أجل الرغائب ، وأشرف المطالب ، التى يجب أن يتنافس بها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القمود خلاف رسول الله ﷺ .

قال الزخشري : فى قوله تعالى (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض (أى الراحة والتنعم بالمال كل والمشارب) وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه ؟ وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيهان .

قال الشهاب : ووجه التعريض ظاهر ، لأن المراد كرهوه ، لا كالمؤمنين الذين أحبوه .
وقوله تعالى : « وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ » أى قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد فى الحر ، فإنه لا يستطاع شدته . وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، وذلك تثبيتاً لهم على التخلف ، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد . أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ، ونهيًا عن المعروف ، وإظهاراً لبعض الملل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القمود . فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال : الفرح بالقمود ، وكرهية الجهاد ، ونهى الغير عن ذلك - أفاده أبو السمود - .

وقوله تعالى : « قُلْ » أى ردًا عليهم وتجهيلاً لهم « نَارُ جَهَنَّمَ » أى التى سقدخلونها

بما فعلتم « أَشَدُّ حَرًّا » أى مما تحذرون من الحرّ المهبود ، وتحذرون الناس منه ، فما لكم لا تحذرونها ، وتعرضون أنفسكم لها ، بإيثار القعود على النفي .

وقوله تعالى : « لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » اعتراض تذييل من جهة تعالى ، غير داخل تحت القول المأمور به ، مؤكد لضمونه . وجواب (لو) إما مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هى ؛ أو أن مآلهم إليها - لما فعلوا ما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزام . وإما غير منوئ ، على أن (لو) لجرد التمنى النبىء عن امتناع تحقق مدخولها . أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقہ ، كما فى قوله تعالى ^(١) « قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُفْسِنِ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » كذا فى (أبى السمود) - .

تنبيهان :

الأول - قال الزمخشري : قوله تعالى (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ . .) الخ ، استجهال لهم ، لأن من تصون من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل . وليعضهم ^(٢) :

مَسْرَةٌ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتَ بَعْدَهَا مساءة يوم ، أريها ^(٣) شبه الصاب
فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساءة أحقاب

- انتهى - .

(١) [١٠ / بونس / ١٠١] . (٢) استشهاد به فى الكشف .

قال الشارح : قوله (مسرة أحقاب) مبتدأ ، خبره (أَرِيهَا شَبَهُ الصَّابِ) والأحقاب : الأزمان الكثيرة ، واحدها : حُقْب . والأرئى : العسل . والشبه : المثل . والصاب : نبت مرّ ، وقيل : الحنظل . يقول : مسرة أزمان كثيرة ، ترى بعدها مساءة يوم ، هى فى الحقيقة مثل الصاب مرارة . فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وتقع ، بسبب تلك المسرة ، فى مشقة الأبد ؟ (٣) الأرى ما لثق بأسفل القدر والعسل . والصاب : شجر مرّ (قاموس) .

أى فهم كما قال الآخر :

* كاستجير من الرمضاء بالنار *

وقال آخر :

عمر ك بالجمية أفنيته خوفاً من البارد والحار

وكان أولى لك أن تتقى من المعاصي حدّ النار

الثاني - روى الإمام مالك^(١) والشيخان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : نار بنى آدم التي يوقدون بها ، جزء من سبعين جزءاً - زاد الإمام أحمد : من نار جهنم .

وروى الشيخان^(٢) عن الثمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لمن له نملان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل . لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً . ثم أخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل ، والبكاء الطويل ، المؤدى إليه أعمالهم السيئة ، التي من جملتها ما ذكر من الفرح ، بقوله سبحانه .

- (١) أخرجه مالك في الموطأ في : ٥٧ - كتاب جهنم ، حديث رقم ١ (طبعنا) .
وأخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٠ - باب صفة النار وأنها مخلوقة ، حديث رقم ١٥٤٥ .
وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٣٠ (طبعنا) .
(٢) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار ، حديث رقم ٢٤٦٥ .

وأخرجه مسلم في : ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٣ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا » أى ضحكًا قليلًا ، أو زمانًا قليلًا ، غاية مدة حياتهم « وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا » أى بكاء ، أو زمانًا كثيرًا ، بعد الموت ، أبد الآباد « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى بفرحهم بمخالفة الله ورسوله ، من الكفر والمعاصى العظام .

لطائف :

الأولى - سرّ إخراج حالهم الدنيوى والأخروى على صيغة الأمر ، الدالة على تحتم وقوع الخبر به ، فإن أمر الأمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به . فإن قيل : إنهم ذكروا أنه يعبر عن الأمر بالخبر للمبالغة ، لاقتضائه تحقق المأمور به ، فالخبر آكد ، فما باله عكس هنا ؟ فالجواب : لامتنافاة بينهما ، لأن لكل مقام مقالًا ، والنكت لا تنزاحم ، فإذا عبر عن الأمر بالخبر ، لإفادة أن المأمور ، لشدة امتثاله ، كأنه وقع منه ذلك ، وتحقق قبل الأمر - كان أبلغ . وإذا عبر عن الخبر بالأمر كأنه لإفادة لزومه ووجوبه ، فكانه مأمور به - أفاد ذلك مبالغة من جهة أخرى .

الثانية - الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل فى قوله : (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) دلالة على الاستمرار المتجددى ما داموا فى الدنيا .

الثالثة - (جزاء) مفعول له للفعل الثانى . أى ليمكوا جزاء . أو مصدر حذف ناصبه . أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء .
ولما جلى سبحانه ما جلى من أمرهم ، فرّع عليه قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ » أى ردك من غزوة تبوك « إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ » أى من المنافقين المتخلفين في المدينة « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ » معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، دفعا للعار السابق « فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى نغذلكم الله ، وسقطتم عن نظره ، بل غضب عليكم ، وألزمكم العار « فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » أى من النساء والصبيان دائما .

لطائف :

قوله تعالى : (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) إخبار في معنى النهي للمبالغة ، وذكر القتال لأنه المقصود من الخروج . فلو اقتصر على أحدهما كفى إسقاطا لهم عن مقام الصحبة ، ومقام الجهاد ، أو عن ديوان الفزاة ، وديوان المجاهدين ، وإظهارا لكرهه سبحانه ، وعدم الحاجة إلى عدّهم من الجند . أو ذكر الثانى للتأكيد ، لأنه أصرح في المراد ، والأول لمطابقته لسؤاله كقوله :

* أَقُولُ لَهُ أُرْخَلْ لَا يُقِيمُنَّ عِنْدَنَا *

فهو أدل على الكراهة لهم - أفاده الشهاب - .

قال أبو السعود : فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ، ولزّم في قرآن الخالفين ، عقوبة لهم أى عقوبة . ثم قال : وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث ، هو الأكثر الدائر على الألسنة . فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول : هى كبرى امرأة ، أو أولى مرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » قال المهايى : لأنها شفاعة ، ولا شفاعة في حقهم « وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » أى لا تقف عليه للدفن أو الزيارة والدعاء . قال الشهاب : القبر مكان وضع الميت ، ويكون بمعنى الدفن ، وجوز هنا : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » في الحياة في الباطن « وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن الإيمان الظاهر ، الذى كانوا به في حكم المؤمنين .

تنبيهات :

الأول - روى الشيخان^(١) في سبب نزول الآية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما توفى عبد الله بن أبى ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيرني الله فقال^(٢) : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل آية (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ) الخ .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٣ - باب قوله : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، حديث رقم ٦٧٥ .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٥ (طبعتنا) .

(٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

قال الحافظ أبو نعيم : وقع في رواية في قول عمر : (أنصلي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ ولم يبين محل النهي . فوقع بيمانه في رواية أبي ضمرة عن العمري : وهو أن مراده بالصلاة عليهم الاستغفار لهم ، ولمفظة (وقد نهاك الله أن تستغفر لهم) انتهى . بمعنى في قوله تعالى ^(١) : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ) فإنها نزلت في قصة أبي طالب حين قال ﷺ : لأستغفرنّ لك ، ما لم أنه عنك . وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، ووفاة عبد الله بن أبي في ذى القعدة سنة تسع بعد قدوم النبي ﷺ من تبوك . كذا في (فتح الباري) .

ووقع في مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه . قال عمر : لما توفي عبد الله ابن أبي دُعِيَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه ، تحوّلت حتى قتُ في صدره . فقلت : يا رسول الله ! أعلیّ عدوّ الله : عبد الله ابن أبي القائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ يمدّد أيامه - قال : ورسول الله ﷺ يتسم ، حتى إذا كثرت عليه قال : أَخْرُ عني يا عمر . إني خيرت فاخترت . قد قيل لي : (اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ . . .) الآية - لو أعلم أني لو زدت على السبعين ، غُفِرَ له ، لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه . قال : فمعبت من جرأتني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ! ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا) الآية - فاصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل .

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٩٥ (طبعة المعارف) تحقيق شيخنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

ورواه البخارى^(١) والترمذى^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبى ، أتى ابنه النبى^ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنك إن لم تأته لم تزل نُعيرُ به ، فأتاه النبى^ﷺ ، فوجده قد أدخل فى حفرة فقال : أفلا قَبِّلَ أن تدخلوه ؟ فأخرج من حفرة ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه^(٤) . ورواه النسائى^(٥) نحوه البخارى والبخارى فى مسنده ، وزاد : فأنزل الله الآية . زاد ابن إسحاق فى المغازى بسنده قال : فاصلى رسول الله^ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله ، ولا قام على قبره .

وقد روى^(٦) الإمام أحمد عن أبى قتادة قال : كان رسول الله^ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أئتمنى عليها خير قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك ، قال لأهلها : شأنكم بها . ولم يصل عليها .

الثانى - إنما منع ﷺ من الصلاة على أحدهم إذا مات ، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له . والكافر ليس بأهل لذلك .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٢ - باب قوله : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... » ، حديث رقم ٧٢٢ .
- (٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٢ - حدثنا عبد بن حميد ، و ١٣ - حدثنا محمد بن بشار . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . (٤) أخرجه النسائى فى : ٢١ - كتاب الجنائز ، ٩٢ - باب إخراج الميت من اللحد بعد أن يوضع فيه . (٥) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٢٣ - باب الكفن فى القميص الذى يكف ، أو لا يكف ، ومن كفن بغير قميص ، حديث رقم ٦٧٦ . (٦) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٩٢٧ (طبعة جوتنجن) وصفحة ١٩٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

الثالث - قال: السيوطي في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ...) الآية - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، وأن دفنه جائز : ومقهوره وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ، ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له ، والاستغفار . انتهى .
قال عثمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل - انفرد بإخراجه أبو داود (١) - .

الرابع - قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين ، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم : قال الواقدي : أنبأنا معمر بن الزهري قال : قال حذيفة : قال لي رسول الله ﷺ : إني مُسِرٌّ إليك سرّاً ، فلا تذكره لأحد . إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، رهط ذوى عدد من المنافقين . قال ، فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى معه ، وإلا لم يصلي عليه .
ومن طريق أخرى ، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً . وقال حذيفة مرة : إنه لم يبق منهم غير رجل واحد . ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك ، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر ، بخلاف من سواهم ، فإنهم تابوا . انتهى .
ثم بين تعالى أن دوام غضبه عليهم لا ينافي إعطائهم الأموال والأولاد ، بقوله سبحانه :
القول في تأويل قوله تعالى .

[٨٥] (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ » أي لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها ، ليدل على

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ - كتاب الجنائز ، ٦٩ - باب الاستغفار عند القبر للميت ،

رضاء عنهم ، بل الانتقام منهم ، قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا » أى بالمسقة فى تحصيلها وحفظها والحزن عليها « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » أى فيموتون كافرين غافلين عن التدبر فى العواقب . وقد تقدمت الآية فى هذه السورة مع تغاير فى ألفاظها . قال الزمخشري : أعيد قوله (وَلَا تُعْجِبْكَ) ، لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينسأه ، ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم ، يفقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبهه الشئ الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه . وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه . انتهى .

وقال الفارسي : ليست للتأكيـد ، لأن تيمك فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقد تفسر نطقها ، فهنا : (وَلَا) ، بالواو لمناسبة عطف نهى على نهى قبله فى قوله : (وَلَا تُصَلِّ ...) الخ فناسب الواو . وهناك بالفاء ، لمناسبة التعقيب لقوله قبله : (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) أى للإتفاق . فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهى عن الإعجاب التعقيب له . وهنا : وأولادهم ، دون (لا) ، لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادة (لا) ، لأنه نهى كل واحد واحد ، فدل مجموع الآيتين على النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين . وهنا (أَنْ يُعَذِّبَهُمْ) وهناك (لِيُعَذِّبَهُمْ) بلام التعليل . وحذف المفعول . أى إنما يريد اختبارهم بالأموال والأولاد وهنا المراد التعذيب ، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً ، وهناك (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، وهنا (فِي الدُّنْيَا) ، تنبيهاً على أن حياتهم كلاً حياة فيها ، وناسب ذكرها بعد الموت ، فكانتهم أموات أبداً . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[٨٧] (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)
« وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » .

« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » إنكار واذم للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه ، مع وجود الطول الذى هو الفضل والسعة ، وإخبار بسوء صنيعهم ، إذ رضوا بالمار والقعود مع الخوالف ، لحفظ البيوت ، وهن النساء . وذلك لإيثارهم حب المال على حب الله ، وأنه بسبب ذلك « طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها ، فهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » ، أى ما فى حب الله والتقرب إليه بالجهاد من الفوز والسعادة ، وما فى التخلف من الشقاء والهلاك .

فوائد

الأولى - قال الزمخشري : يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها ، فى قوله : (وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ) كما يقع (القرآن) و (الكتاب) على كله وعلى بعضه . وقيل : هى (براءة) ، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد . انتهى .
وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد .

قال الشهاب : وهذا أولى وأفيد ، لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما صرّ .
وقد قيل : إن (إذا) تفيد التكرار بقرينة المقام لا بالوضع ، وفيه كلام مبسوط فى محله .

الثانية - إنما خص ذوى الطَّوْلِ ، لأنهم المذمومون ، وهم من له قدرة مالية ، ويعلم منه البعدية أيضاً بالقياس .

الثالثة - الخوالب : جمع (خالفة) ، وهى المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال ، والمراد ذمهم والخالفهم بالنساء ، كما قال ^(١) :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَانْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمَائِيَّاتِ جِرُّ الذِّيُولِ
والخالفة تكون بمعنى من لا خير فيه ، والتاء فيه للنقل للاسمية ، فإن أريد ههنا ،
فالمقصود من لا فائدة فيه للجهاد . وجمع على فواعل على الوجهين : أما الأول فظاهر ،
وأما الثانى فلتأنيث لفظه ، لأن (فاعلا) لا يجمع على (فواعل) فى العقلاء المذكور ،
إلا شذوذاً ، كقوا كس . أفاده الشهاب .

ثم بين تعالى ما للمؤمنين من الثناء الحسن ، والثوبة الحسنى ضد أولئك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ،
وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » أى فى سبيل
الله ، لغلبة حب الله عليهم ، على حب الأموال والأنفس « وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ » أى
منافع الدارين ، النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى العقبى « وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالمطلوب .

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . انظر الكامل للمبرد ص ٩٨٦ (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

أى الذى لا فوز وراءه .

ثم بين تعالى أحوال منافقى الأعراب ، إثر بيان منافقى أهل المدينة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » أى فى ترك الجهاد ، وهم أحياء ممن

حول المدينة . و (الْمُعَذِّرُونَ) فيه قراءتان ، التشديد والتخفيف ، والمشددة لها تفسيران :

أحدهما من (عذّر فى الأمر) إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد ، فكاف العذر ، فعذره

باطل

والثانى - من (اعتذر) ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلا وجها . وأصله ، عليهما ،

(معتذرون) نقلت فجحة التاء إلى العين ، وقلبت التاء ذالا ، وأدغمت فيها .

وأما التخفيف فهى من (أعذر) إذا كان له عذر ، وهم صادقون على هذا .

وقوله تعالى : « وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى دعوى الإيمان ،

وهم منافقوا الأعراب الذين لم يجهتوا ، ولم يمتدروا ، بل قعدوا من قلة المبالاة بالله ورسوله .

ثم أوعدهم تعالى بقوله : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الضمير فى

(مِنْهُمْ) إما للأعراب مطلقا ، فالذين كفروا منافقوهم ، أو أعم . وإما للمعتدين ، فإن

منهم من اعتذرا - كسله ، لا لكفره وجوز أن يكون المعنى بالذين كفروا منهم ، المصرون على الكفر .

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وما هو عارض عن له بسبب مرض شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب أعجزه عن التجهز للحرب ، وبدأ بالأول فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ » وهم الماجزون مع الصحة ، عن العدو ، وتحمل المشاق ، كالشيخ والصبي والمرأة والنحيف « وَلَا عَلَى الْمَرْضَى » أى الماجزين بأمر عرض لهم ، كالعمى والمرج والزمانة « وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ » أى ولا على الأقوياء والأصحاء الفقراء والماجزين عن الإتفاق في السفر والسلاح « حَرَجٌ » أى إثم في القعود . (الحرج) أصل معناه الضيق ، ثم استعمل للذنب ، وهو المراد « إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » أى أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا ، ولم يثيروا الفتن ، وأوصلوا الخيرات للجاهدين ، وقاموا بمصالح بيوتهم .

وقوله تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » استئناف مقرر لمضمون ما سبق . أى ليس عليهم جناح ، ولا إلى مما تبتهم سبيل ، و (مِنْ) مزيدة للتأكيد ، ووضع (الْمُحْسِنِينَ) موضع الضمير ، للدلالة على انتظامهم ، بنصحهم لله ورسوله ، في سلك المحسنين ، أو تعليل لنفي الحرج عنهم ، أى ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهم من جملتهم أفاده أبو السعود .

قال الشهاب : (ليس على محسن سبيل) ، كلام جار مجرى النثر . وهو إما عام ، ويدخل فيه من ذكر ، أو مخصوص بهؤلاء . فالإحسان : النصيح لله والرسول ، والإثم المثني إثم التخلف ، فيكون تأكيداً لما قبله بيمينه على أبلغ وجه ، وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه ، أى لا يمرّ به العاتب ، ويجوز فى أرضه ، فما أبعد العتاب عنه ! فتفتن للبلاغة القرآنية كما قيل :

سُفِيًّا لِأَيِّمَانَا أَلَّتِي سَلَفَتْ إِذْ لَا يَمُرُّ الْمَذُولُ فِي بَلَدِي

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مؤيد لمضون ما ذكر ، مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة ، وإن كاف تخلفهم بعذر - أفاده أبو السمود . أى لأن المرء لا يحط من تفریط ما ، فلا يقال إنه نفي عنهم الإثم أولاً ، فما الاحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب ؟ أفاده الشهاب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » عطف على (الْمُحْسِنِينَ) ، أو على (الضَّمَاءِ) أى لتعطيتهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك « قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » أى إلى الجهاد . وقوله تعالى « تَوَلَّوْا » جواب (إِذَا) أى خرجوا من عندك « وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » أى فى الجحود ، فهؤلاء وإن كانت لهم قدرة على تحمل المشاق ، فما عليهم من سبيل أيضاً .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : في قوله تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الخ رفع الجهاد عن الضعيف والريض ، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً . انتهى .

وقال بعض الزيدية : هذه الآية السكينة قاضية بنفي الحرج ، وهو الإثم ، على ترك الجهاد لهذه الأعذار ، بشرط النصيحة لله ولرسوله ، أي بأن يريد لهم ما يريد لنفسه - عن أبي مسلم - .

الثاني - قال الحاكم : في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب ، وأنه يدخل في ذلك : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة .

الثالث - قال ابن الفرس : يستدل بقوله تعالى (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمها . وقال بعض الزيدية : يدل على أن المستودع والوصي والمقتط لا ضمان عليهم مع عدم التفريط ، وأنه لا يجب عليهم الرد ، بخلاف المستمير .

الرابع - دل قوله تعالى : (وَلَا عَلَى الَّذِينَ . . .) الخ على أن المادم للنفقة ، الطالب للإعانة ، إذا لم تحصل له ، فلا حرج عليه . وفيه إشارة إلى أن المعونة إذا بذلت له من الإمام ، لزمه الخروج .

الخامس - دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة ، وإن كان معذوراً .

السادس - قوله تعالى : (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) أبلغ من (يفيض دمعها) ، لأن العين جعلت كأنها دمع فائض . و (من) للبيان . كقولك : أفديك من رجل . ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز - أفاده الزمخشري - .

السابع - روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب (براءة) فإني لو اضع القلم على أذني ، إذ أمرنا بالقتال . فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الآية - .

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينمشوا
فأزني معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني ، فقالوا :
يا رسول الله ! احملنا . فقال لهم : والله ! لا أجد ما أحملك عليه ، فتولوا وهم يسكنون ،
وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا حملاً ، فلما رأى الله حرصهم
على محبته ومحبة رسوله ، أزل عذرهم في كتابه ، فقال : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ) .
وروى الإمام أحمد^(١) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ،
ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا أشركوكم في الأجر ، حبسهم المرض - ورواه
مسلم^(٢) .

ثم رد تعالى اللامة على المستأذنين في القعود وهم أغنياء ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا السَّبِيلُ » أى بالعتاب والمقاب « عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ » أى
قادرين على تحصيل الأهبة « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ » أى من النساء والصبيان
وسائر أصناف المأزنين . أى رضوا بالدناءة والضعمة والانتظام فى جملة الخوالف .
قال المايمى : وهذا الرضا ، كما هو سبب العتاب ، فهو أيضاً سبب المقاب ، لأنه لما كان
عن قلة مبالاتهم بالله ، غضب الله عليهم « وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »
أى ما يترتب عليه من المصائب الدينية والدنيوية ، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٥٩ (طبعتنا).

لطيفة :

قال الشهاب : اعلم أن قولهم (لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ) منناه : لا حرج ولا عتاب ، وأنه بمعنى لا عاتب ير عليه ، فضلاً عن العتاب ، وإذا تعدى بـ (إلى) كقوله ^(١) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَى أُمِّ سَالِمٍ سَبِيلٌ ؟ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرٌ
فبمعنى الوصول كما قال ^(٢) :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَيْرٍ فَأَقْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَعْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
ونحوه ، فتنبه لمواطن استعماله ، فإنه من مهمات الفصاحة - انتهى - .

ثم أخبر تعالى عما سيتصدون له عند القبول من تلك الغزوة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَتَذَكَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَتَذَكَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى سداً للسبيل عليهم في التخلف « قُلْ لَا
تَعْتَذِرُوا » أى لظهور كذبكم ، إذ لم يمنكم فقر ولا مرض ، ولا يفيدكم الاعتذار « لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ » أى لن نصدق قولكم . وقوله تعالى : « قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ »

(١) البيت من شواهد الكتاب (ج ١ ص ١٩٣) ونصه فيه :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَى أُمِّ مَعْمَرٍ سَبِيلٌ ، فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرٌ

قال الشنقري : الشاهد فيه نصب (الصبر) على المفعول له . والتقدير : مهما ذكرت
للصبر ، ومن أجله فلا صبر لي . ولو رفع بالابتداء لكان حسناً (كرواية المؤلف) وكان
يكون التقدير : فأما الصبر عنها فلا صبر لي به . أى لا أحتمله .

(٢) انظر القصة في ص ١٤٠ من الجزء الخامس من كتاب (رغبة الآمل من كتاب الكامل)

تعليل لا تنفأ التصديق أى أعلمنا بالوحى من أسراركم وتفاقمكم وفسادكم ما بنافى التصديق « وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » أى من الرجوع عن الكفر ، أو اثبات عليه ، علما يتعلق به الجزاء « ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضع المظهر موضع المضمهر ، لتشديد الوعيد ، وأنه تعالى مطاع على سرهم وعلمهم ، لا يفوت عن علمه شيء من ضامرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قال فى (التبراس) : المراد بالغيب ما غاب عن العباد ، أو ما لم يعلمه العباد ، أو ما يكون وبالشهادة ما علمه العباد أو ما كان « فَيُبَشِّرُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا . قبل إعلامهم به . وذكره لهم للتوبيخ .

قال أبو السعود : المراد بالنبئة بذلك ، المجازاة به . وإشارتها عليها ، لراحة ماسبق من قوله تعالى : (قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ ...) الخ . فإن النبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم . وللايذان بأنهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم ، وإنما يعلمونها حينئذ . ثم أخبر تعالى عما سيؤكدون به مما ذرهم من أيمانهم الفاجرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ

« إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » « سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ » أى فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ » أى فأعطوهم طلبتهم « إِنَّهُمْ رِجْسٌ » تعليل لترك معاتبهم ، يعنى أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، وإنما يعاتب الأديم ذو البشرة^(١) . والمؤمن

(١) لسان العرب مجلد ٤ صفحة ٦٠ (طبعة بيروت) .

قال أبو حنيفة : معناه أن يعاد إلى الدباغ . يقول : إنما يعاتب من يرجى ، ومن له مسكة عقل .

يؤتي على زلة تفرط منه ليظهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم - أفاده الزمخشري - .

وقال الشهاب : يعني أنهم يتركون ، ويحتجب عنهم كما تحتجب النجاسة ، وهم طلبوا إعراض الصفيح ، فأعطوا إعراض مقت .

وقوله تعالى : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلتهم التي لا يمكن تطهيرها ، لكونهم من أهل النار . فاللوم يفرهم ولا يجديهم . والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل . أو تعليل ثان . يعني وكفَّتهم النار عقاباً وتوبيخاً ، فلا تكفوا عنها .
وقوله تعالى : « جَزَاءُ عِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« يَخْلِفُونَ لَكُمْ » بدل مما سبق ، وعدم ذكر الخلوفاً به لظهوره ، أي يخلفون به تعالى « تَرْضَوْا عَنْهُمْ » أي باعتماد طهارة ضمايرهم وإخلاصهم « فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فيه تبعيد عن الرضا عنهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عن لا يرضى الله تعالى عنه ، مما لا يكاد يصدر عن المؤمن .

ثم أشار تعالى إلى أن منافق الأعراب أشد رجساً فلا يفتقر بحلفهم ، وإن لم يكذبهم
الوحي ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« الْأَعْرَابُ » وهم أهل البدو « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » أي من أهل الحضرة ، لجهلهم

وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بعدٍ من مشاهدة العلماء ، ومعرفة الكتاب والسنة « وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ » أى وأحقّ بجهل حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى يعلم حال كل أحد من أهل الورع والمدبر « حَكِيمٌ » أى فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ، مخطئهم ومصيبهم ، من عقابه وثوابه .

لطائف :

الأولى - قال الشهاب : العرب ، هذا الجيل المعروف مطلقاً ، والأعراب سكان البادية منهم ، فهو أعم . وقيل : العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من العرب ، أو مواليهم ، فهما متباينان ، ويفرق بين جمعه وواحد بالياء فيهما .

الثانية - ما ذكر في الآية من أجدرية جهل الأعراب من بُمدهم عن سماع الشرائع ، وملازمة أهل الحق ، يشير إلى ذم سكان البادية ، وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد^(١) ، وأصحاب السنن ، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : من سكن البادية جفا . وتمتعه : ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن . وقوله ﷺ^(٢) : إن الحفاء والقسوة في الفدادين . قال ثعلب : الفدادون أصحاب الورع ، لفظ أصواتهم ، وهم أصحاب البادية . ويقال : من صحب الفدادين ، فلا دنيا نال ولا دين . مأخوذ من (الفديد) وهو رفع الصوت أو شدته .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٣٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢٤ - باب في اتباع الصيد ، حديث رقم ٢٨٥٩ .

وأخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٦٩ - باب حدثنا محمد بن بشر .

وأخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد ، ٢٤ - باب اتباع الصيد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، ص ٢٥٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي ، لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى ^(١) : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) . ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ ، فردّ عليه أضعافها حتى رضى قال : لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم أطف أخلاقاً من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

الثالثة - روى الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) ، فقال الأعرابي : والله ! إن حديثك ليمعجبنى وإن يدك لتريبنى ! فقال زيد : ما يريك من يدي ، إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ! ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله (الأعراب أشدّ كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يملكموا حدود ما أنزل الله على رسوله) . ثم أشار تعالى إلى فريق آخر من منافق الأعراب ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَارَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا » أى يمسد ما يصرفه في سبيل الله ، ويتصدق به صورة ، غرامة وخيرانا ، لأنه لا ينفق إلا نفقة من المسلمين ورياء . لا لوجه الله عز وجل ، وابتغاء الثوبة عنده ، والغرامة والمغرم والقرم (بالضم) : ما ينفقه المرء من ماله وليس يلزمه ، ضرراً محضاً وخسراناً . وقال الراغب : القرم ما ينوب الإنسان في ماله من

ضرر لغير جناية منه « وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرُ » أى ينتظر بكم دوائر الدهر - جمع (دائرة) وهى النكبة والمصيبة التى تحيط بالمرء - فتربص الدوائر ، انتظار المصائب ، لينقلب أمر السليطين ويتبدل ، فيخلصوا مما عدوه من فرماً « عَلَيْهِمُ دَائِرَةُ السُّوءِ » اعتراض بالدعاء عليهم ، بنحو ما يتربصونه ، أو إخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم .

قال الشهاب : (الدائرة) اسم للنائبة ، وهى بحسب الأصل مصدر ، كالعافية والكاذبة . أو اسم فاعل بمعنى عقبة دائرة . والعقبة أصلها اعتقاب الراكبين وتناوبهما . ويقال : للدهر عُقَبٌ وَنُوبٌ ودُول ، أى مرة لهم ومرة عليهم . و (السوء) يقرأ بضم السين وهو الضرر ، وهو مصدر فى الحقيقة . يقال : سؤته سوءاً ومساءة ومساوية . ويقرأ بفتح السين وهو الفساد والرداءة - قاله أبو البقاء - « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » أى لا يقولونه عند الإنفاق مما لا خير فيه « عَلَيْهِمُ » أى بما يضرهم من الأمور الفاسدة التى منها تربصهم الدوائر . وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

ثم نوه تعالى بمؤمنى الأعراب الصادقين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ ، إِلَّا أَنهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ » امتثالاً لأمره ، وترجيحاً لحبه ، وقطعاً لحب ما سواه . و (قُرْبَاتٍ) مفعول ثانٍ لـ (يتَّخِذُ) ، وجمعها باعتبار أنواعها ، أو أفرادها .

قال الشهاب : القربة (بالضم) ما يقترب به إلى الله . ونفسى التقرب . فعلى الإنسانى

يكون معنى اتخاذها تقرباً اتخذها سبباً له ، على التجوز في النسبة أو التقدير . (وَعِنْدَ اللَّهِ) صفة (قُرْبَاتٍ) أو ظرف لـ (يَتَّخِذُ) (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أى سبب دعواته بالرحمة الكاملة لقصوره . وكان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم . ومنه قوله (١) ﷺ : اللهم صل على آل أبي أوفى « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ أَهْمُ » الضمير لما ينفق ، والتأنيث باعتبار الخبر ، والتذكير للتخيم . أى قرابة عظيمة جامعة لأنواع القربات ، يكملها الله بدعوة الرسول ، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله : « سَيُذْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ » أى جنته « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » يسترعيب المحل « رَحِيمٌ » يقبل جهد المقل .

قال الرخشري : قوله تعالى : (أَلَا إِنَّهَا) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقا لرجائه ، على طريق الاستئناف ، مع حرفي التثنية والتحقيق ، المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه . وكذلك (سَيُذْخِلُهُمُ) وما في (السين) من تحقيق الوعد . وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها ! انتهى .

وفي (الانتصاف) : الفسكة في إسماعيل (السين) بالتحقيق أن معنى الكلام معها (أفعل كذا ، وإن أبطأ الأمر) أى لا بد من فعله . قال الشهاب : وفيه تأمل . ولما بين تعالى فضيلة مؤمنى الأعراب بما تقدم ، تأثره ببيان من هم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارى في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٢ - باب هل يصل على غير النبي

ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » أى ممن تقدم بالهجرة والنصرة .
وقيل : عنى بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين ، أو من شهد بدرًا ، أو من أسلم قبل الهجرة
وبالثاني أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية ، وكانوا سبعين ،
والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير ، فعلمهم القرآن . واختار الرازى الوجه
الأول . قال : والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصر ، والذي يدل عليه أنه
ذكر كونهم سابقين ، ولم يبين أنهم سابقون فيماذا ، فبقى اللفظ مجملاً ، إلا أنه وصفهم بكونهم
مهاجرين وأنصاراً ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً ، وهو
الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه « السابقون الأولون » في الهجرة والنصرة ، إزالة
للإجمال عن اللفظ . وأيضاً فالسابق إلى الهجرة طاعة عظيمة ، من حيث إن الهجرة فعل شاق
على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولاً ، صار قدوة لغيره في هذه الطاقة ، وكان
ذلك مقويّاً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره . وكذلك
السبق في النصر ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا
إلى النصر والخدمة فازوا بمنصب عظيم .

وقرى (الأنصار) بالرفع ، عطفًا على « السابقون » .

« وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة « رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ » لأن الهجرة أمر شاق على النفس ، لفارقة الأهل والعشيرة . والنصرة منقبة شريفة ،

لأنها إعلاء كلمة الله ، ونصر رسوله وأصحابه . والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم - قاله المهايى - « وَرَضُوا عَنْهُ » بما وفهم إليه من الإيمان والإحسان ، وما آتاهم من الثواب والكرامة « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهلبيهم ، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم ، وأغرسهم جنات القرب في قلوبهم ، وإجرائهم أنهار المعارف في قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان - قاله المهايى .

وقرأ ابن كثير (مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) كما هو في سائر المواضع .
« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده ، إلى يوم القيامة ، والعمل بمقتضاها ، واختيار الباقي على الفانى « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكمال) : فى هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة ، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم .
الثانى - - قيل : المراد بـ (السابقين الأولين) جميع المهاجرين والأنصار ، فـ (من) بيانية لتقدمهم على من عداهم . وقيل : بعضهم - وهم قدماء الصحابة - و (من) تبعيضية . وقد اختار كثيرون الثانى ، واختلفوا فى تعيينهم على ما ذكرناه أولاً . ورأى آخرون الأول . روى عن حميد بن زياد قال : قلت : يوماً لحمد بن كعب القرظى : ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم ؟ وأردت الفتن - فقال لى : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم . قلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ؟ فقال : سبحان الله ! ألا تقرأ قوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) (الآية) فأوجب للجميع الجنة والرضوان ، وشرط على تاببيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة والا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً .

أَيُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ...) الْآيَةَ .

الثالث - قال الشهاب : تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر في قصة السقيفة ^(٢) ، ومنه علم فضل أبي بكر رضي الله عنه على من عداه ، لأنه أول من هاجر معه ﷺ .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَيَمِّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ)

« وَيَمِّنْ حَوْلَكُمْ » بمعنى حول بلدكم ، وهي المدينة « مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ » أهل المدينة مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ أي مروا ومهروا فيه . وقوله عز شأنه « لَا تَعْلَمُهُمْ » دليل لمرانهم عليه ، ومهارتهم فيه ، أي يخفون عليك ، مع علو كميك في الفطنة وصدق الفراسة ، لفرط تأنيهم وتصنمهم في مراعاة التقية ، والتحاى عن مواقع التهم .
قال في (الانتصاف) وكأن قوله تعالى (مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه ﷺ لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به . انتهى .

وقوله تعالى « نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » تقرير لما سبق من مهارتهم في النفاق ، أي لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لما لهم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص .

وقوله تعالى « سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ » للمفسرين في المراتين

(١) [٥٩ / الحشر / ١٠] . (٢) انظر قصة السقيفة في البخاري في : ٨٦ - كتاب

الحدود ، ٣١ - باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت حديث رقم ١٢١٤

وجوه : إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار أو الفضيحة وعذاب القبر . أو أخذ الزكاة ، لما أنهم يمدّونها مفرماً بحتاً ، ونهك الأبدان ، وإتاعها بالطاعات الفارغة عن الثواب .
وقال محمد بن إسحاق^(١) : هو - فيما بلغني عنهم - ما هم فيه من أمر الإسلام ، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذي يُردّون إليه ، عذاب الآخرة ، ويخلدون فيه .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكرير . كما في قوله تعالى^(٢) : (فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) أى كرة بعد أخرى ، لقوله تعالى^(٣) : (أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ...) الآية .

تنبيه :

لا ينافي قوله تعالى : (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) قوله تعالى^(٤) : (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَمْ تَعْرِفْتَهُمْ بِسِيَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب ، على التبيين . وقد كان يعلم أن في بعض من يخاطبه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساءً . وشاهد هذا بالصحة ، ما رواه الإمام أحمد^(٥) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة . فقال : لغائيتكم أجوركم ، ولو كنتم

- (١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٨ (طبعة جوتنجن) والصفحة ١٩٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) وتفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١١ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٢) [٦٧ / الملك / ٣] . (٣) [٩ / التوبة / ١٢٦] . (٤) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٣٠] . (٥) أخرجه الإمام أحمد في السند بالصفحة رقم ٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

في جحر ثعلب : وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال : إن في أصحابي منافقين ، أى رجفون ويتكلمون بما لا صحة له .

وروى ابن عساکر عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ ، فقال : الإيمان هاهنا ، وأشار بيده ، إلى لسانه ، والنفاق هاهنا ، وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلاً . فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعل له لساناً ذا كراً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيراً أمره إلى خير . فقال : يا رسول الله ! إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر على دينه ، فالله أولى به ، ولا تخزقن على أحد سترًا - ورواه الحاكم أيضاً - .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال : ما بال أقوام يتكفون . علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري ! لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ! قال نبي الله نوح عليه السلام ^(١) : (وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَمْكُونُ) ، وقال نبي الله ^(٢) شعيب عليه السلام : (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُفْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) . وقال تعالى لنبيه ﷺ (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

لطيفة :

قوله تعالى : (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) عطف على (مِمَّنْ حَوْلَكُمْ) عطف مفرد على مفرد . وقوله تعالى : (مَرَدُّوْا عَلَى النِّفَاقِ) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، مسوقة لبيان علوهم في النفاق . إثر بيان اتصافهم به ، وإما صفة للمبتدأ المذكور ، فصل بينها وبينه بها عطف على خبره . وإما صفة لمخدوف أقيمت هي مقامه ، وهو مبتدأ خبره (مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) والجملة عطف على الجملة السابقة . أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق - . أفاده أبو السمود - .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٢] . (٢) [١١ / هود / ٨٦] .

ولما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة ، رغبة عنها وتكديها وشكها ، بين حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال عز شأنه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » أى أفروا بها ، وهى تخلفهم عن الغزو ، وإيثار الدعة عليه ، والرضا بسوء جوار المنافقين . أى لم يمتدروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة ، كغيرهم « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا » كالندم وما سبق من طاعتهم « وَآخَرَ سَيِّئًا » كالخلف عن الجهاد « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » يتجاوز عن الغائب ويتفضل عليه .

تنبيهات :

الأول - أخرج ابن مردويه وابن أبى حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه . ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك ، وقالوا : نحن فى الظلال والطمانينة مع النساء ، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه فى الجهاد ! والله ! انوثقن أنفسنا بالسوارى ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقها : ففعلوا ، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثقون بالسوارى ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا ، فماهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم . فقال : لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، فأنزل الله (وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) ، فلما نزلت أطلقهم وعذرهم ،

وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم ، لم يذكروا بشيء ، وهم الذين قال الله فيهم : (وَءَاخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ ...) الآية - فجعل أناس يقولون : هل سكوا ؛ إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يقوب عليهم ، حتى نزلت ^(١) (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ...) وأخرج ابن جرير ^(٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه ، وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا ، فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...) ^(٣) الآية .

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .
وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسوارى ، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مفسد في (الصحابة) من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسوارى . وجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! خذ هذا الذي حبسنا عنك . فقال : لا أحلهم حتى يكون قتال ، فنزل القرآن : « وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ... » الآية - إسفاده قوى ، كذا في (اللباب) -

قال ابن كثير : هذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخطئين . وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة (إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ، ثم نقل ما تقدم .

(١) [٩ / التوبة / ١١٨] . (٢) انظر تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١٢ من الجزء

الحلواني عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

الثاني - روى البخاري^(١) في التفسير في هذه الآية ، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لنا : أتاني الليلة آتيان ، فابتماني ، فانتبهما إلى مدينة مبنية بلبين ذهب ، ولبن فضة ، فقلقانا رجال ، شطر من خلفهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأفبح ما أنت راء ، قالوا لهم :

اذهبوا فقموا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة ، قالوا : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك . قالوا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، تجاوز الله عنهم .

الثالث - قال الرّمحشري : فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس في قولك (خلطت الماء باللبن) ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً ، واللبن مخلوطاً به ؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

وناقشه الناصر في (الانتصاف) فقال : التحقيق في هذا أنك إذا قلت (خلطت الماء باللبن) فالمرح به في هذا الكلام أن الماء مخلوط ، واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوماً ، لا تنصريحاً ، كون الماء مخلوطاً به ، واللبن مخلوطاً . وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً . وأما ما خلط به كل واحد منهما ، فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به ، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره . فقول الرّمحشري :

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٥ - باب وَاٰخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَاٰخَرًا سَيِّئًا عَسَىٰ اَللّٰهُ اَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ اِنَّ اَللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ، حديث رقم ٥٠١ .

إن قولك (خلط الماء واللبن) يفيد ما يفيد مع الباء ، وزيادة = ليس كذلك . فالظاهر في الآية - والله أعلم - أن العدول عن الباء إنما كان لتضمن الخلط معنى العمل ، كأنه قيل عملوا صالحاً وآخر سيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط ، فعبّر عنهما معاً به - انتهى - . قال النحرير : يريد الرخصى أن (الواو) كالصرح في خلط كل بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : (خلط الماء باللبن) ، و (خلط اللبن بالماء) ، بخلاف الباء ، فإن مدلولها لفظاً ليس إلا خلط الماء مثلاً باللبن . وأما خلط اللبن بالماء ، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل - انتهى - .

وهو متجه ولا حاجة للتضمن المذكور .

ثم قال الرخصى : ويجوز أن يكون من قولهم (بعت الشاة بدرهما) بمعنى شاة بدرهم ، أى ف (الواو) بمعنى الباء ، ونقل ذلك عن سيبويه . وقالوا : إنه استعارة ، لأن (الباء) للإلصاق ، و (الواو) للجمع ، وهما من واحد . وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور : أصله شاة بدرهم أى كل شاة بدرهم ، وهو بدل من الشاة ، أى مع درهم ، ثم كثر ، فأبدلوا من (باء المصاحبة) (واو) ، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله ، كقولهم : كل رجل وضيئته .

قال الشهاب : وهو تكلف ، ولذا قالوا : إنه تفسير معنى ، لا إعراب - انتهى - . قال الواحدي : العرب تقول : خلط الماء باللبن ، وخلط الماء واللبن ، كما تقول : جمعت زيداً وعمراً ، و (الواو) في الآية أحسن من (الباء) ، لأنه أريد معنى الجمع ، لا حقيقة الخلط . ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن ، لكن قد يجمع بينهما - انتهى - . وفي الآية نوع من البديع يسمى (الاحتماك) ، وهو مشهور ، لأن المعنى : خلطوا عملاً صالحاً بسيئاً وآخر سيئاً بصالح .

الرابع - قال الرازى : هاهنا سؤال ، وهو أن كلمة (عسى) شك ، وهو في حق الله تعالى محال . وجوابه من وجوه :

الأول - قال المفسرون : كلمة (عسى) من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى : (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ) ، وفمّل ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام . والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً ، فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجى مع كلمة (عسى) أو (لعل) تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمنى شيئاً ، وأن يكافئ بشيء ، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتعّول . فذكر كلمة (عسى) ، الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثانى : أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق ، لأنه أبعد من الاتكال والإهال .

الخامس - قال القاشانى : الاعتراف بالذنب هو إبقاء نور الاستعداد ، ولين الشكيمة ، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه ، لأنه ملك الرجوع والتوبة . ودليل رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة ، وانفتاح عين القلب ؛ إذ لو ارتكمت الظلمة ، ورسخت الرذيلة ، ما استقبلته ، ولم يره ذنباً ، بل رآه فعلاً حسناً ، لمناسبته لحاله ، فإذا عرف أنه ذنب . ففيه خير .

ثم أمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأخذ من أموالهم التي تقدموا إليه ، أن يتصدق بها عنهم كفارة لذنوبهم ، كما تقدم في الروايات قبل ، بقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أى بعضها « صَدَقَةً » قال المأبى : لتصدق توبتهم إذ « تُطَهِّرُهُمْ »

أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف . وعن حب المال الذى كان التخلف بسببه « وَتَزَكِّيهِمْ بِهَا » أى عن سائر الأخلاق الذميمة التى حصلت عن المال . قال الرغشبرى : التزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة فى المال « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ » أى وادعاهم بالدعاء لهم وترحمهم « إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى تسكن نفوسهم إليها ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويشقون بأنه سبحانه قبل توبتهم .

وقال قتادة : (سكن) أى : وقار . وقال ابن عباس : رحمة لهم . وقد روى ^(١) الإمام أحمد عن حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا دعا للرجل ، أصابته وأصاب ولده وولد ولده . وفى رواية : إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده .
والجمله تعطيل للأمر بالصلاة عليهم « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » أى يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاهم « عَلِيمٌ » أى بما فى ضمائرهم من الندم والغم ، لما فرط منهم .

تنبيهات :

الأول - (تطهرهم) قرئ مجزوماً على أنه جواب للأمر . وأما بالرفع ، فملى أنه جل من ضمير مخاطب فى (خذ) . أو صفة لـ (صدقة) والتاء للخطاب أو للصدقة . والمائد على الأول محذوف ثقة بما بعده ، أى : بها . وقرئ تطهرهم - من أطهره بمعنى طهره - ولم يقرأ (وتزكئهم) إلا بإثبات الياء ، وهو خبر لمحذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكئهم بها ، هذا على قراءة (تطهرهم) بالجرم . وأما على قراءة الرفع فـ (تزكئهم) عطوف على (تطهرهم) حالاً أو صفة .

الثانى - قرئ (صلاتك) بالتوحيد ، و (صلواتك) بالجمع ، مراعاة لتمدد المدعو لهم . وقال الشهاب : جمع (صلاة) لأنها اسم جنس ، والتوحيد لذلك ، أو لأنها مصدر فى الأصل .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

الثالث - قال الشهاب : السكن : السكن ، وما يسكن إليه من الأهل والوطن ، فإن كان المراد الأول ، فحملها نفس السكن والاطمئنان مبالغة ، وهو الظاهر . وإن كان الثاني فهو مجاز بتشبيه دعائه ، في الالتجاء إليه بالسكن . انتهى .

قال أبو البقاء : سكن بمعنى مسكون إليها ، فلذلك لم يؤثته ، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض .

الرابع - قيل : المأمور به في الآية الزكاة . و (من) تبيعية ، وكانوا أرادوا التصديق بجميع ما لهم ، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم ، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين ، فترتبط الآية بما قبلها وقيل : ليست هذه الصدقة المفروضة ، بل مما تابوا ، بذلوا جميع ما لهم كفارة للذنوب الصادر منهم ، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث ، وهذا مروى عن الحسن ، وهو المختار عندهم . ونقل الرازي أن أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء ، إذ هي حجتهم في إيجاب الزكاة ، ثم نظرفيه بأن حملها على ما ذكره يوجب ألا تنتظم الآية مع سابقها ولا حقيها .

وأقول : لا ريب في ارتباط الآية بما قبلها ، كما أفصحت عنه الرواية السابقة . وخصوصاً سببها لا يمنع عموم لفظها ، كما هو القاعدة في مثل ذلك . ولذا رد الصديق رضي الله عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية : أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات الله عليه ، لأنه المأمور بالأخذ ، وبالصلاة على المتصدقين ، فغيره لا يقوم مقامه - وأمر بقتالهم ، فوافقتة الصحابة ، وقالوا حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ . فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام ، ومثله نائبه . وهؤلاء التأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنما أوجبها الله تعالى سداً لحاجة المدم ، وتغريجاً لسكرة الفارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، فاستدل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، على من فضّلوا عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك بحجة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس

هؤلاء على أولئك البائسين . فالإمام لا خصوصية لذاته فيها ، بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه ، فينفقها في سبيلها المذكورة .

الخامس - استدل بقوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) على نذب الدعاء المتصدق . قال الشافعي رحمه الله : السنة للإمام ، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ، ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت . وقال آخرون : يقول : اللهم ! صل على فلان . ويدل عليه ما روى عن عبدالله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال : اللهم ! صل عليهم ، فأتاه أبي بصدقة فقال : اللهم ! صل على آل أبي أوفى . أخرجاه في الصحيحين ^(١)

قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ! صل على زوجي ، فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك .
أقول : وبهذين الحديثين يرد على من زعم أن المراد بـ (صَلِّ عَلَيْهِمْ) الصلاة على الموتى حكاه السيوطي في (الإكليل) .

السادس - دلت الآية ، والحديثين ، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً . قال الرازي : روى الكشي في (تفسيره) أن علياً رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجى : عليك الصلاة والسلام . ومن الناس من أنكر ذلك .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد ، إلا في حق النبي ﷺ . ثم قال الرازي : إن أصحابنا يعمون من ذكر (صلوات الله عليه) ، و (عليه الصلاة والسلام) ، إلا في حق الرسول . والشيمة يذكرونه في حق أولاده ،

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٢ - باب هل يصل على غير النبي ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعنا) .

واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازهِ فيمن يؤدي الزكاة ، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله ؟ قال : ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال : سلام عليكم ، يقال له : وعليكم السلام ، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين ، فأولّى آل البيت - انتهى - .

وأقول : إن المنع من ذلك أدبي لا شرعي ، لأنه صار ، في العرف ، دعاء خاصاً به ﷺ ، وشماراً له ، كالعلم بالعلية ، فغيره لا يطلق عليه ، إلا تبعية له ، أدباً لفظياً .

السابع - قال الرازي : في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم : أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا لهم وذكّرهم بالخير ، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت أسرارهم .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويعحصها ويعحقها ، وإخبار بأن كل من تاب إليه ، تاب عليه . ومن تصدق ، تقبل منه .

تلميحات :

الأول - الضمير في (يَعْلَمُوا) للمتوب عليهم . فيكون ذكر قبول توبتهم ، مع أنه تقدم ما يشير إليه ، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم ، وتطهير الصدقة وتركيتهم لهم . وتقريراً لذلك ، وتوطئاً لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم ، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه ، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ، عليه الصلاة والسلام .

قال أبو مسلم: المقصود من الاستفهام التقرير في النفس . ومن عادة العرب ، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه ، أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم - انتهى - .

وجوز عود الضمير لغيرهم من المنافقين . فالاستفهام توبيخ وتوبيخ لهم على عدم التوبة وترغيب فيها ، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها . وقرئ بالتاء . وهو ، على الأول ، التفتات ، وعلى الثاني بتقدير (قل) ، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً ، لأنه يمكن والتخصيص .

الثاني - الضمير أعني (هو) إما للتأكيد ، أو له مع التخصيص . بمعنى أن الله يقبل التوبة لا غيره ، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة ، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك ، والخبر المضارع من مواقفه . وقيل : معنى للتخصيص في (هو) أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوه بها ، ووجهوها إليه ، لأن كثرة رجوعهم إليه ، صلات الله عليه ، مظنة لتوهم ذلك .

الثالث - تعدية القبول بـ (عن) لتضمنه معنى التجاوز ، والمفرد عن ذنوبهم التي تابوا عنها : وقيل : (عن) هنا بمعنى (من) كما يقال : أخذت هذا منك وعليك .

الرابع - الأخذ هنا استعارة للقبول والإنابة ، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عرض عنه . وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلًا . وقيل : في نسبة الأخذ إلى الرسول ﷺ في قوله (خذ) ثم إلى ذاته تعالى - إشارة إلى أن أخذ الرسول ﷺ ، قائم مقام أخذ الله ، تعظيماً لشأن نبيه ، كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) (١) .

الخامس - جملة (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) تأكيد لما عطف عليه ، وزيادة تقرير لما يقرره ، مع زيادة معنى ليس فيه . كما أفادته صيغة المبالغة التي تفيد تكرار ذلك منه أى ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة ، وأن ذلك سنة مستمرة له ، وشأن دائم ؟
لطيفة :

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن حوشب قال : غزا الناس في زمن معاوية ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ففلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم ، وأتى الأمير ، فأبى أن يقبلها منه ، وقال : قد تفرق الناس ، وإن أقبلها مفك حتى أتى الله بها يوم القيامة ، فجمل الرجل يأتى الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك . فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فرّ بمبداً لله ابن الشاعر السكسكى ، فقال له : مايكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له : أو مطيعي أنت ؟ فقال : نعم . فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : أقبل منى خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية ، فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل . فقال معاوية : لأن أكون أفتيت بها ، أحب إليّ من كل شيء أملكه . أحسن الرجل . انتهى .

في هذه الرواية إثبات ولد لخالد ، وفي ظني أن صاحب (أسد الغابة) ذكر أنه لم يعقب ، فليحقق .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَقُلْ » أى لأهل التوبة والتزكية ، والصلاة ، لا تكفوا بها بل « اْعْمَلُوا » جميع

ما تؤمرون به «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» أى فيزيدكم قرباً على قرب «وَرَسُولُهُ» فيزيدكم صلوات «وَالْمُؤْمِنُونَ» فيتبعونكم ، فيحصل لكم أجرهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شئ . - هكذا قاله المهاجى - وهو قوى في الارتباط .

وقال أبو مسلم : إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، كما قال ^(١) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...) الآية - والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والمقصود التنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة ، عند حضور الأولين والآخرين ، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره ، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين .

قال ابن كثير : وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال تعالى ^(٢) (يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) . وقال تعالى ^(٣) : (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) . وقال تعالى ^(٤) : (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) . وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما روى الإمام أحمد ^(٥) عن أبي سعيد مرفوعاً : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس . كائنًا من كان . وروى أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والمشار في البرزخ - كما في مسند أحمد ^(٦) والطيالسى - .

« وَسُتَرَّدُونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى بالموت « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى بالمجازاة عليه .

قال أبو السعود : في وضع الظاهر موضع المضمرة (أى حيث لم يقل : إليه) من تهويل

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ١٨] .

(٣) [٨٦ / الطارق / ٩] . (٤) [١٠٠ / العاديات / ١٠] .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

(٦) انظر الصفحة ١٦٥ من الجزء الثالث من المسند (طبعة الحلبي) عن أنس .

الأمر ، وتربية المهابة - ما لا يخفى . ووجه تقديم (الغيب) في الذكر لسعة عالمه ، وزيادة خطره على الشهادة - غنى عن البيان .

وعن ابن عباس : الغيب ما يسرونه من الأعمال ، والشهادة ما يظهرونه . كقوله تعالى (١) : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ، فالتقدم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة ، على أبلغ وجه وآكده . أو الإيدان بأن رتبة السر مقدمة على رتبة العلن ، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو ، أو مبادئه القريبة ، أو البعيدة ، مضمرة قبل ذلك في القلب . فتملق علمه تعالى به في حالته الأولى ، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَءَاخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَءَاخِرُونَ » بمعنى من المتخلفين « مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ » أى مؤخرون أمرهم ، انتظاراً لحكمه تعالى فيهم ، لتردد حالهم بين أمرين « إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ » لتخلفهم عن غزوة تبوك « وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » يتجاوز عنهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بأحوالهم « حَكِيمٌ » أى فيما يحكم عليهم .

تنبيهات :

الأول - قرئ في السبعة (مُرْجُونَ) بهمزة مضمومة ، بعدها واو ساكنة . وقرئ (مُرْجُونَ) بدون همزة . كما قرئ (تُرْجَى مِنْ تَشَاءَ) بهما ، وهما لغتان ، يقال : أرجأته وأرجيته ، كأعطيته . ويحتمل أن تكون الياء بدلاً من الهمزة ، كقولهم : قرأت وقريت ،

(١) [٢ / البقرة / ٧٧] و [١١ / هود / ٥] و [١٦ / النحل / ٢٣] .

وتوضأت وتوضيت ، وهو في كلامهم كثير . وعلى كونه لغة أصلية فهو يأتي : وقيل : إنه واوى كذا في (العناية) .

الثاني - روى عن الحسن أنه عني بهذه الآية قوم من المنافقين . وكذا قال الأصم : إنهم منافقون أرجأهم الله ، فلم يجز عنهم ما علمه منهم ، وحذرهم بهذه الآية ، إن لم يتوبوا ، أن ينزل فيهم قرآنا ، فقال : (إِمَّا يُضِدُّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) .

ومن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : إنهم الثلاثة الذي خلفوا ، أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا في غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلا وميلا إلى الدعة وطيب الثمار والظلال ، لا شككا وتفاقا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله تعالى ^(١) : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ...) إلى قوله : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ...) الآية .

قال في (العناية) : وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم ، والجهاد فرض كفاية ، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرض عين ، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه . ألا ترى قول راجزم في ^(٢) الخندق :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا يَقِينَا أَبَدًا

وهؤلاء من أجلهم ، فكان تخلفهم كبيرة .

الثالث - (إما) في الآية ، إنما لاشك بالنسبة إلى المخاطب ، أو للإيهام بالنسبة إليه أيضا ، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم . والمعنى : ليسكن أمرهم عندكم بين الرجاء

(١) [٩ / التوبة / ١١٧] . (٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه

في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٣٣ - باب التحريض على القتال ، حديث ١٣٥٨ عن أنس .

والخوف . والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيعته ، أو للتفويض ، أى أمرهم دائر بين هذين الأمرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَالَّذِينَ » أى ومن المنافقين الذين « اتَّخَذُوا » أى بنوا « مَسْجِدًا ضِرَارًا » أى مضارة لأهل مسجد قباء « وَكُفْرًا » أى تقوية للكفر الذى يضمرونه وتفريقاً بين المؤمنين « أى الذين كانوا يجتمعون بمسجد قباء اجتماعاً واحداً يؤدون أجل الأعمال ، وهى الصلاة التى يقصدها تقوية الإسلام بجمع قلوب أهله على الخيرات ، ورفع الاختلاف من بينهم » وَإِرْصَادًا « أى إعداداً وترقباً وانتظاراً » لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ « أى كفر بالله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول الله ﷺ (فاسقاً) . وكانوا أعدوه له ايضاً فيه ، ويظهر على رسول الله ﷺ - كما سنفصله « وَلَيَحْلِفُنَّ » أى بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم السيئة « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ » أى ما أردنا ، ببناء المسجد ، إلا الحصلة الحسنى ، أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة ، وذكر الله ، والتوسمة على المصلين « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى حلفهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ

تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ)

« لَا تَقُمْ فِيهِ » أى لا تصلّ فى مسجد الشقاق « أَبَدًا » أى فى وقت من الأوقات ،
لكونه موضع غضب الله ، ولذلك أمر بهدمه وإحراقه كما يأتى . وإطلاق (القائم) على المصلّى
والمتهجد معروف ، كما فى قولهم : فلان يقوم الليل . وفى الحديث ^(١) (من قام رمضان إيماناً
 واحتساباً) .. « لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى » أى بنيت قواعده على طاعة الله وذكره ، وقصد
التحفظ من معاصى الله ، بفعل الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهو مسجد قباء
« مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ » أى من أيام وجوده « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ » أى تصلّى « فِيهِ » ، فيه رجال
يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ » أى المبالغين فى الطهارة الظاهرة والباطنة .
ثم أشار إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ

بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ)

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ » أى مخافة منه « وَرِضْوَانٍ » أى طلب
رضوان منه « خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا » أى طرف « جُرُفٍ » بضم الراء

(١) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٧ - باب تطوّع قيام رمضان من

الإيمان ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وسكونها أى مهواة « هَارٍ » أى مشرف على السقوط « فَأَنهَارَ بِهِ » أى سقط معه « فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٠] (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ » أى لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره « إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » أى قِطْعاً ، وتنفق أجزاء ، فحينئذ يساون عنه . وأما ما دامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وتزريقها بالموت ، أو بعذاب النار . وقيل : معناه إلا أن يقوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بنيانهم « حَكِيمٌ » أى فيما أمر بهدم بنيانهم ، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة .

تنبيهات :

الأول - قال الزمخشري : فى مصاحف أهل المدينة والشام (الَّذِينَ اتَّخَذُوا) بغير (واو) ، لأنها قصة على حياها ، وفى سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم .

الثانى - سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ على أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ،

شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالمدواة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة بمائتهم على حرب النبي ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام (أُحُد) ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستألمهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنتم الله بك عينا ، يا قاسق ، يا عدو الله ! وقالوا منه وسبوه . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بيمداً طريداً فنالتة هذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من (أُحُد) ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والريب يعدم ويمنعهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هوفيه . وكان أمرهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه ، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك . فاتوه فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ، إن شاء الله تعالى ، أتيناكم ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذي أوان - موضع على ساعة من المدينة - أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وممن بن عدى أو أخاه عامراً ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه . فخرجا سريعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمن : أنظرنى حتى أخرج إليكم بنار من أهل ، فدخل أهله ، فأخذ سمعاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشعثان ، حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فخرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم ما نزل - ذكره ابن كثير ، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه - .

وروى أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ، فسألوه أن يأذن لمُجمّع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم فقال : لا ، ونعمة عين ! أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين ! لا تعجل على ، فوالله ! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون ، فصليت بهم ، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ، ولم أعلم ما في نفوسهم . فغذره عمر ، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الثالث - ما قدمناه من أن المسجد في الآية هو مسجد قباء ، لأن السياق في معرضه ، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذلك ، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمع كلمة المؤمنين . ولما في الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه ، كان رسول الله ﷺ يزوره راكباً ومشياً ، ويصلي فيه ركعتين - كما في الصحيح (١) - .

وقد روى عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فإنا هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ فقالوا ، يا رسول الله ! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء - رواه الإمام أحمد (٢) وأبو داود والطبراني ، واللفظ له - .

وقد روى أن النبي ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجد - رواه الإمام أحمد (٣) ومسلم .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٤ - باب إتيان مسجد قباء مشياً وراكباً ، حديث رقم ٦٤٧ عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٢٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

عن أبي سعيد الخدري .

ورواه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ (طبعنا) .

قال ابن كثير : ولا منافاة . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى - انتهى - .

ومرجعه إلى أن هذا الوصف ، وإن كان يصدق عليهما - إلا أن الأخرى به بعد ، هو المسجد النبوي ، أي فالحديث ليس في معرض تعيين ما في الآية ، بل في بيان الأحق بهذا الوصف الآن .

وقال السهروردي : كل منهما مراد ، لأن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه .

والسر في إجابته ﷺ السؤال عن ذلك ، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء ، والتقوية بمزية هذا عن ذاك .

الرابع - قال السهيلي ، نور الله مرقدته : في الآية - يعني قوله تعالى : من أول يوم - من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله عنه حين شاورهم في التاريخ ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة ، لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام ، والحين الذي آمن فيه النبي ﷺ ، وبنيت المساجد ، وعبد الله كما يحب ، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن . فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية ، فهو الظن بهم ، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الإشارات . وإن كان ذلك على رأي واجتهاد ، فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم ، أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم . وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال ، فتدبره ، ففيه معتبر لمن أذكر ، وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر .

الخامس - (التأسيس) وضع الأساس ، وهو أصل البناء ، وأوله ، وبه أحكامه ، ففي

الآية شبه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنياً مضمراً في النفس ، بما يعتمد عليه أصل البناء .
 و (أسس بنيانه) تخييل ، فهو مستعمل في معناه الحقيقي ، أو هو مجاز بناء على جوازه .
 فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه ، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة ،
 بحال من بنى بناءً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به . أو (البنيان) استعمارة أصلية ،
 و (التأسيس) ترشيح أو تبعية : و (الشفا) : الحرف والشفير . و (جُرف الوادى) : جانبه
 الذى يتحفر أصله بالماء ، وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً . و (الهار) : الهائر ، وهو المتصدع
 الذى أشفى على التهدم والسقوط . قيل : هو مقلوب ، وأصله (هاور) أو (هار) . وقيل :
 حذفت عينه اعتباطاً ، فوزنه (قال) . والإعراب على رائه كباب . وقيل : لا قلب فيه
 ولا حذف ، ووزنه فى الأصل (فِعل) بكسر العين ، ككتف ، وهو هَوْرٌ أو هيرٌ ، ومعناه
 ساقط أو مشرف على السقوط . وفاعل (أنهار) إما ضمير البنيان ، وضمير (به) للمؤسس ،
 أى سقط بنيان البانى بما عليه . أو لـ (الشفا) ، وضمير (به) للبنيان . والظاهر فى التقابل
 أن يقال : أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسخط من الله ، ولذا قال فى الكشف :
 المعنى : أفن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية ، وهى الحق ، الذى هو تقوى الله ورضوانه ،
 خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرعاها ، وأقلها بقاء (وهو الباطل والنفاق)
 الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمسك . وضع (شفا الجرف) فى مقابلة
 (التقوى) ، لأنه جمل مجازاً عما ينافى التقوى . يعنى أنه شبه الباطل بـ (شفا جرف هار)
 فى قلة الثبات ، فاستمير للباطل بقرينة مقابله للتقوى ، والتقوى حق ، ومُنْأَى الحق هو الباطل .
 وقوله (فأنهار) ترشيح ، وباؤه للتمدية ، أو للمصاحبة . فـ (شفا جرف هار) استعمارة
 تصريرية لتحقيقية ، والتقابل باعتبار المعنى المجازى المراد منها .

فإن قلت : لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل ، وبالثانى
 على طريق الاستعمارة والتمثيل ؟

قلت : التفتن في الطريق رعاية لحق البلاغة ، وعدولاً عن الظاهر ، مبالغة في الطرفين .
إذ جعل أوائلك مبنياً على تقوى ورضوان ، هو أعظم من كل ثواب ، وحال هؤلاء على فساد
أشرف بهم على أشد نكال وعذاب . ولو أتى به على مقتضى الظاهر لم يفده ، مما فيه
من التحويل .

وقولنا : (فأنهار ترشيح) أوضحه الكشف بقوله : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن
الباطل ، قيل : (فأنهار به في نار جهنم) على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا
أنه رشح المجاز فجئ بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن للبطل كأنه أسس بنياناً
على شفا جرف من أودية جهنم ، فأنهار به ذلك الجرف ، فهو في قعرها .

السادس - دلت الآية على أن كل مسجد بنى على ما بنى عليه مسجد الضرار ، أنه لا
حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله كثيراً من مساجد الباطنية
والمشبهة والمجبرة وسبل بعضها . نقله بعض المفسرين .

قال الزمخشري : قيل : كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمة أو لفرض ينوى ابتغاء
وجه الله ، أو بمال غير طيب - فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة
في مسجد بنى عامر ، فقيل له : مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لأحب أن أصلي
فيه ، فإنه بنى على ضرار ، وكل مسجد بنى على ضرار ، أو رياء وسمة فإن أصله ينتهي إلى
المسجد الذي بنى ضارا .

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضى الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا
المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه - انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك :
ومنها تحريق أمكنة المصيبة التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ، كما حرق رسول الله
ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه . وهو مسجد يصلى فيه ، ويدكر اسم الله فيه . لما
كان بناؤه ضاراً وتفرقاً بين المؤمنين ، ومأوى للمنافقين . وكل مكان هذا شأنه ، فواجب

على الإمام تعطيله ، إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار ، فشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله ، أحق بذلك وأوجب . وكذلك محال المعاصي والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات . وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفى وسماء (فويسقاً) ، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية . وهم^(١) رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة ، وإنما مفعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك - انتهى - .

ثم قال ابن القيم : ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قرية ، كما لم يصح وقف هذا المسجد . وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر ، كما ينش الميت إذا دفن في المسجد - نص على ذلك الإمام أحمد وغيره - فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم السابق ، فلو وضعا معاً لم يجز . ولا يصح هذا الوقف ، ولا يجوز ، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد ، انتهى رسول الله ﷺ عن ذلك^(٢) ، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً ، أو أوقف عليه سراجاً .

قال ابن القيم : فهذا دين الإسلام الذي بعث به رسوله ونبيه ، وغرخته بين الناس كما ترى . انتهى .

السابع - قال بعض المفسرين اليمانيين : في الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة ، بمعنى التأسيس على التقوى . وفيها : أن نية القرية في عمارة المسجد شرط ، لأن

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخارى في صحيحه في : ١٠ - كتاب الأذان ،

٢٩ - باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث رقم ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخارى في صحيحه في : ٨ - كتاب الصلاة ،

٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث رقم ٢٨٥ و ٢٨٦ عن عائشة وعبد الله بن عباس .

النية هي التي تميز الأفعال . وفيها : أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار - ذكر ذلك الحاكم ، لأنه قال تعالى (لا تقم فيه أبداً) وأراد بـ (القيام) الصلاة .

الثامن - قال ابن كثير : في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والنزه عن ملابس الفاذورات .

وقد روى الإمام أحمد ^(١) أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال : إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء . فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ، ويسين على إتمامها وإكمالها ، والقيام بمشروعاتها .

التاسع - ذهب أبو المأليسة والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية ، الطهارة من الذنوب ، والتوبة منها ، والتطهر من الشرك . قال الرازي : وهذا القول متعين ، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى ، واستحقاق ثوابه ومدحه ، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين ، والكفر بالله ، والتفريق بين المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالصد من صفاتهم ، وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي انتهى .

أقول : لا تسلم دعوى التمين ، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة : بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد ^(٢) وابن خزيمة في صحيحه أن النبي ﷺ قال لأهل قباء : قد أثنى الله عليكم في الطهور ، فإذا تصنعون ؟ فقالوا : نستنجي بالماء .

(١) لم أهتم إلى هذا الحديث ، فمن وقف عليه فليرشدني إليه ، مشكوراً مأجوراً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي)

عن محمد بن عبد الله بن سلام .

وروى البرّار عن ابن عباس قال : هذه الآية في أهل قباء ، سألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا تتبع الحجارة بالماء . فإن صح ذلك كان المراد من الآية . وتكون حقاً على الطهارة المذكورة ، ومدحاً لها . وكون ذويها على الضد من صفات أولئك ، يستفاد من عموم هذا ، ومن قوله تعالى (لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ...) الآية .

العاشر - قال القاشاني : لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت ، وتسخيره ، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيئاتها تأثير فيما يباشرها من الأعمال ، فكل ما فعل بنية صادقة لله تعالى عن حياة نورانية ، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء ، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن حياة مظلمة ، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم . ألا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت مقبرة لكونها مبنية على يدي نبي من أنبياء الله ، بنية صادقة ، ونفس شريفة صافية ، عن كمال إخلاص لله تعالى ؟ ونحن نشاهد أثر ذلك في أعمال الناس ، ونجد أثر الصفاء والجمعية في بعض المواضع والبقاع ، والكدورة والتفرقة في بعضها . وما هو إلا لذلك ، فلهذا قال (لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ...) الآية - لأن الهيئات الجسمانية مؤثرة في النفوس ، كما أن الهيئات النفسانية مؤثرة في الأجسام ، فإذا كان موضع القيام مبنياً على التقوى وصفاء النفس ، تأثرت النفس باجتماع الهمة ، وصفاء الوقت ، وطيب الحال ، وذوق الوجدان . وإذا كان مبنياً على الرياء والضرار ، تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض . وفيه إشعار بأن زكاء نفس الباني ، وصدق نيته ، مؤثر في البناء . وأن تبرك المسكان ، وكونه مبنياً على الخير ، يقتضى أن يكون فيه أهل الخير والصلاح ، ممن يناسب حاله حال بانيه ، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »
لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بحبة الأموال والأنفس ، استنزاهم لفرط عنايته بهم ، عن مقام محبة الأموال والأنفس ، بالتجارة الربحية ، والمعاملة المرغوبة ، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ، فعوض لهم خيرا مما أخذ منهم . فالآية ترغيب في الجهاد ببيان فضيلته ، إثر بيان حال المتخلفين عنه .

قال أبو السعود : ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة ، بالشراء على طريقة الاستمارة التبعية . ثم جعل المبيع ، الذي هو المدة والمقصد في المقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم . والتمن ، الذي هو الوسيلة في الصفقة ، الجنة . ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : (إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم) ليدل على أن المقصد في المقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إذ انا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل (بالجنة) بل (بأن لهم الجنة) مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم . وكأنه قيل : (بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم) .

وفى (الكشاف) و (المنية) ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية ، لأنه أبرزه فى صورة عقد عاقده رب العزة ، وعنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولم يجعل العقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه، وجعله مسجلاً فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صك . وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئته أقوى من نقد غيره . وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء ، وأتى بقوله (يقاتلون . . .) الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ^(١) عَلَيْهِ السَّلَامُ (الجنة تحت ظلال السيوف) ثم أمضاه بقوله: (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . ولما فى هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام، لم يلتفتوا إلى جعل (اشترى) وحده استعارة أو مجازاً عن الاستبدال ، وإن ذكره فى غير هذا الموضع ، لأن قوله (فَاسْتَبَشِرُوا بِمَيْمَنِكُمْ) يقتضى أنه شراء وبيع ، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل . ومنهم من جوز أن يكون معنى (اشترى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) بصرفها فى العمل الصالح ، (وَأَمْوَالَهُمْ) بالبذل فيها . وجعل قوله (يُقَاتِلُونَ) مستأنفاً لذكر بعض ما شمله الكلام ، اهتماماً به . انتهى .

وقوله تعالى : (وَغَدَاً عَلَيْهِ) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً . وذكر كونه فى التوراة وما عطف عليها ، تأكيد له ، وإخبار بأنه منزل على الرسل فى الكتب الكبار . وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة فى شرع من قبلنا . وقد بقى فى التوراة والإنجيل الموجودين ، على تحريفهما ، ما يشير إلى الجهاد والحث عليه، نقلها عنهما من رد على الكتابيين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام ، فانظره فى الكتب المتداولة فى ذلك . ثم وصف تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد، ٢٢ - باب الجنة تحت بارقة السيوف ، حديث رقم ١٣٤٦ عن عبد الله بن أبى أوفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« التَّائِبُونَ » أى عن المعاصى ، ورفعهم على المدح ، أى هم التائبون ، كما دل عليه قراءة (التائبين) بإلقاء إلى قوله و (الحافظين) نصباً على المدح ، أو جراً صفة للمؤمنين . وجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، أى التائبون من المعاصى حقيقة ، الجامعون لهذه الخصال « الْعَابِدُونَ » أى الذين عبدوا الله وحده ، وأخلصوا له العبادة ، وحرصوا عليها « السَّائِحُونَ » أى الصائمون ، أو الله على نعمائه ، أو على ما ناهيهم من السراء والضراء « الرَّاكِعُونَ » أى الساجدون ، أو الضاربون فى الأرض تدبراً واعتباراً . وسننبه عليه ، « الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ » أى المصلون « الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » أى فى تحليله وتحريمه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » الموصوفين بالموت المذكورة . ووضع (المؤمنين) موضع ضميرهم ، للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف البشّر به للمعظم ، أو للعلم به ، لقوله فى آية الأحزاب ^(١) : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا .

تنبيهات :

الأول - ما قدمناه من تفسير (السائحين) بالصائمين . قال الزجاج : هو قول أهل التفسير واللغة جميعاً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، وكذا ابن جرير ^(٢) . قال ابن كثير ^(٣) : ووقفه أصح .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] . (٢) انظر تفسير الطبري ، الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة رقم ٣٩٢ من الجزء الثانى (طبعة عام ١٩٣٧) .

وعن ابن عباس : كل ما ذكر الله في القرآن من السياحة ، فهو الصيام .

وعن الحسن : السائحون الصائمون شهر رمضان .

قال الشهاب : استمرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات ، كما أن السياحة تمنع عنها في الأكثر .

ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين : السائرون في الأرض ، وهو مأخوذ من (السيح) سيح الماء الجاري ، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً . وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين ، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات . وروى مثله ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن أنه قال : هم المهاجرون . وعن عكرمة أنهم المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير : جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى ^(١) أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أئذن لي في السياحة . فقال النبي ﷺ : سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روى عن السلف فيها ، لأن الجهاد في سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر . هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات . أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعني الضرب في الأرض خاصة ، الذي عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده كافياً في المعنى ، مشيراً إلى وصف عظيم ، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق في تأويل الآية .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ٦ - باب النهي عن السياحة ، حديث

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده ، يجدر بالمحقق أن يقف عليها ، وهالك خلاصتها :
قال : الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيراً بأن بضحي قسماً من حياته في السياجة والتسيار ،
لأجل اكتشاف الآثار ، والوقوف على أخبار الأمم البائدة ، ليكون ذلك مثال عظة واعتبار ،
يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد . ولا أريد أن أحشر للقارىء تلك الآيات ، فإن
ذلك يؤدي إلى التظويل ، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى ، وذلك في قوله
تعالى : (السَّائِحُونَ . . .) في هذه الآية ، ولم يقع لفظ (سائحون) في القرآن الكريم إلا
هذه المرة الفذة . ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير ، فمنهم من قال هم الصائمون ، ومنهم
من قال غيره . والصحيح أن (السائحون) معناه السائرون ، مأخوذاً من السيح وهو الجرى
على وجه الأرض ، والذهاب فيها ، وهذه المادة تشعر بالانتشار . يقال : ساح الماء أى جرى
وانتشر . والسيح أيضاً الماء الجاري الذاهب بالأرض . ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد ،
وهو السائح المسفوح ، لأنه بانمياحه ينتشر في وعائه . وقد عهدنا بالفاظ القرآن أنها يجب
حملها على ظواهرها ، وعلى معانيها الحقيقية ، اللهم ما لم يمنع مانع عقلي ، ولا مانع هنا من
إرادة الحقيقة . وعليه فيجب حمل لفظ (السائحون) على معناه الظاهر الحقيقي ، وهو السائرون
الذاهبون في الديار ، لأجل الوقوف على الآثار ، توصلاً للعظة بها والاعتبار ، ولغير ذلك من
الفوائد التي عرفها التاريخ . وكذلك عهدنا بالمعنى المجازي أنه لا يجوز إرادته إلا عند قيام
القرينة على منع المعنى الحقيقي ، في حال أن الأمر هنا بالعكس ، لكثرة القرائن التي
تطالب بإرادة المعنى الحقيقي دون المجازي . وذلك مثل آية (سِيرُوا) ^(١) ،

(١) وردت لفظة (سِيرُوا) في الكتاب الكريم في خمسة مواضع . وهاكم بيان

موضع كل منها :

[٦ / الأنعام / ١١] و [٢٧ / النمل / ٦٩] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] و [٣٠ /

الروم / ٤٢] و [٣٤ / سبأ / ١٨] .

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا) ^(١)، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) ^(٢)، (فَسِيرُوا) ^(٣)، (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) ^(٤)، (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) ^(٥) الآية - فهذه الآيات هي قرائن نيرة تؤخذ بأن السميع معناه السير . فإنها وإن تسكن من مادة أخرى ، إلا أن معناها يلاق معنى السميع . على أننا لانعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ^(٦) فكلمة (سيحوا) هنا تفسر (السَّائِحُونَ) في الآية هذه ، وهم يقولون : خير ما فسرته بالوارد . وبالجملة ، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل الأمة ، وتدبير على فتور همتها ، وضعف نشاطها ، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة ، ورؤية عمران المسكونة ، الأمر الذي هو الآن الضالة المفقودة عند الغربيين ، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهدا في السير والسياحة ، وأن ينقب في البلاد أى تنقيب . وسيأتى تقمة لهذا في تفسير آية ^(٧) (سَائِحَاتٍ) في سورة التحريم إن شاء الله تعالى .

قال الرازى: للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس،

(١) وردت (أَوَلَمْ يَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في ثلاثة موضع . وها كم بيان كل موضع منها :

[٣٠ / الروم / ٩] و [٣٥ / فاطر / ٤٤] و [٤٠ / غافر / ٢١] .

(٢) وردت (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في أربعة موضع . وها كم بيان

كل موضع منها :

[١٢ / يوسف / ١٠٩] و [٢٢ / الحج / ٤٦] و [٤٠ / غافر / ٨٢] و [٤٧ / محمد / ١٠] .

(٣) وردت لفظه (فَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في موضعين اثنين، وها كم بيان موضعهما :

[٣ / آل عمران / ١٣٧] و [١٦ / النحل / ٣٦] .

(٤) [٧٣ / الزمل / ٢٠] . (٥) [٤ / النساء / ١٠٠] .

(٦) [٩ / التوبة / ٢] . (٧) [٦٦ / التحريم / ٥] .

فلا بد له من الصبر عليها ، وقد يلقى أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كل ما ليس عند الآخر . وقد يلقى الأكابر من الناس ، فيحقر نفسه في مقابلتهم . وقد يصل إلى المراتد الكثيرة ، فينتفع بها . وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين . انتهى .

وقال بمضهم : لا يمزب عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بني الإنسان على السفر في حكم كتابه العزيز ، وندد على من ارتدى منهم رداء الكسل ، وأوقع نفسه في وهدة الخمول ، وتلذذ بالتقاعد عن جوب البلاد ، وقطع الوهاد ، فقال تعالى ^(١) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) وقال ^(٢) ﷺ : سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا .

وقد تسكلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظاماً ونثراً . ومن أجل فوائده زيادة علمه ، واتقاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه . ومنها ، وهو أعظمها ، رضاه به ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده ، وأحب ^(٣) عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده . وكذلك باتعاضه بأحوال الناس ، واعتباره بأمورهم ، وإطلاعه في ساحته على الأسرار المكنونة ، والحكم التي دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات . فمن وقف على سر الخالق زاد في تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه ؛ وليس بخاف ما وقع للأنبيا والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، من التنقلات والأسفار ، في القرى والأمصار ، للنظر والاعتبار . ٥١ .

(١) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) عن أبي هريرة . (٣) لم أقف على نص هذا الحديث . وإنما أخرج السيوطي في (الجامع الصغير) قوله : إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده . وقال : حم ، في زوائد كتاب الزهد ، عن الحسن البصري ، مراسلاً .

الثاني - قال القاضي : إنما جعل ذكر الركوع والسجود ، كناية عن الصلاة ، لأن سائر أشكال المصلي موافق للعادة ، وهو قيامه وقعوده ، والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره . ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى ، والركوع وسطها ، والسجود غايتها . فخص الركوع والسجود بالذكر ؛ لدلالتهما على غاية التواضع والمعبودية ، تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم . ذكره الرازي .

الثالث - ذكروا في سر المطف في موضعين من هذه النعمت وجوها :

فأما الأول : أعني قوله تعالى (وَالْقَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فقالوا : سر المطف فيه إما الدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة ، وصفة واحدة ، لأن بينهما تلازماً في الذهن والخارج ، لأن الأوامر تتضمن النواهي ومنافاةً بحسب الظاهر ، لأن أحدهما طلب فعل ، والآخر طلب ترك ، فكانا بين كمال الاتصال والانتقاع المقتضى للمطف ، بخلاف ما قبلهما . أو لأنه ، لما عدد صفاتهم ، عطف هذين ليدل على أنهما شيء واحد ، وخصلة واحدة ، والمدود مجموعهما ، كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين . أو المطف لما بينهما من التقابل ، أو لدفع الإيهام ، وهذا معنى قول (المغني) الظاهر أن المطف في هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهي ، من حيث هما أمر ونهي ، متقابلان بخلاف بقية الصفات . أو لأن الأمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو ترك المعروف . والفاهى عن المنكر أمر بالمعروف . فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين ، وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر .

وأما الثاني : أعني قوله تعالى : (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) فقيل : سر المطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع ، من حيث أن السبعة هو العدد القائم ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ، ولذلك تسمى (واو الثمانية) ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ

(سبعة) لاستعماله في التكثير ، لا معدوده . والقول بواو التثنية ذكره في قوله تعالى (١) :
(سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُكُمْ) وضغفه في (الغنى) .

وقيل : سر العطف التذنيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، لأنه شامل لما قبله وغيره . ومثله يؤتى به معطوفاً ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء ، فلمنايرته لما قبله ، بالإجمال والتفصيل ، والعموم ، والخصوص ، عطف عليه .

وقيل : بقوة الجامع بالتلازم ، لأن من حصل الأوصاف السابقة ، فقد حفظ حدود الله .
وقيل : المراد بحفظ الحدود ظاهره ، وهي إقامة الحد ، كالقصاص على من استحقه .

والصفات الأولى إلى قوله (الأمرون) صفات محمودة للشخص في نفسه ، وهذه له باعتبار غيره ، فلذا تنافير تمييز الصنفين ، فترك الماطف في القسم الأول ، وعطف في الثاني . ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد ، ترك فيها العطف لشدة الاتصال ، بخلاف هذه ، فإنه يجوز اختلاف فاعليها ومن تعلق به . وهذا هو الداعي لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفاً بما بعده ، و (الأمرون) خبره . فكأنه قيل : الكاملون في أنفسهم المكملون لأنفسهم .
وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملًا حتى يكون كاملاً في نفسه ، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف ، والله أعلم بمراده . كذا في (المنهاية) و (حواشي الغنى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ

قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

[١١٤] (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ

« مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .
 « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » لما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً . حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شرهم وكفرهم ، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة ، حتى مع الأقرباء ، لأن قربانهم ، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم ، فلا تفيد قبول نور الاستغفار (١) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعده الله ووعدته . ثم ذكر تعالى أن السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له ، بقوله (٢) : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » ، وقوله (٣) : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » ، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » ذلك « تَبَرَّأَ مِنْهُ » أي من أبيه بالكلية ، فضلاً عن الاستغفار له . وبين تعالى الحامل لإبراهيم على الاستغفار ، بأنه فرط رحمته وصبره بقوله : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ » أي كثير التأوه من فرط الرحمة ، ورقة القلب ، « حَلِيمٌ » أي صبور على ما يمترضه من الإيذاء ، ولذلك حلم عن أبيه ، مع توعد له بقوله (٤) : « لَنْ لَنْ لَمْ تَلْقَ لَأَرْجُمَنَّكَ » ، واستغفر له بقوله (٥) : « سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » وذلك قبل التبين ، فليس لغيره أن يأتسى به في ذلك .

وفي الآية تأكيد لجوب الاجتناب بعد التبين ، بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ من أبيه بعد التبين ، وهو في كمال رقة القلب والحلم ، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً .

(١) [٤ / النساء / ٤٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٣) [٦٠ / المتحفة / ٤] .

(٤) [١٩ / مريم / ٤٦] . (٥) [١٩ / مريم / ٤٧] .

تنبيهات :

الأول - ساق المفسرون هاهنا روايات عديدة في نزول الآية . ولا رآها بعضهم متنافية ، حاول الجمع بينها بتعدد النزول . ولا تنافي ، لما قدمناه من أن قولهم (نزلت في كذا) قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناولها . وقد يراد به (أن كذا كان سبباً لنزولها) وما هنا من الأول . ونظائره كثيرة في التزويل ، وقد نهينا عليه مراراً ، لا سيما في المقدمة . فاحفظه .

الثاني - قال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى ، لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، ثم قرأ الآية . وهذا فقه جيد .

الثالث - قال بعض اليمانيين : استدل بالآية على أن من تأوّه في الصلاة لم تبطل . وهذا يحكى عن أبي جعفر : إذا قال (آه) لم تبطل صلاته ، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك . ومذهب الأئمة بطلانها ، سواء قال (آه) أو (أوه) ، لأن ذلك من كلام الناس ، ولم يذكر تعالى أن تأوّه إبراهيم كان في الصلاة . انتهى .

الرابع - قال في (المنايا) : (أوَاه) فمأل للمبالغة من (التأوّه) وقياس فعله أن يكون ثلاثياً ، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه . وحكى قطرب له فعلاً ثلاثياً وهو (آه بَوُوهُ) كقام يقوم ، أوَهَا . وأنكر عليه غيره بأنه لا يقال إلا أوّه وتأوّه ، قال ^(١) :
إذا ما قتُ أَرْحَلُهَا بليـل تأوّه آهة الرَّجُلِ الحَزِينِ

(١) قائله المُنْتَبِئُ المَبْدِيُّ ، من مفضليته رقم ٧٦ التي مطلعها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَقَمِّي
وَمَتَعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَن تَبِيئِي

ومعنى (أرحلها) في البيت أى أضع عليها الرخل .

وقد استشهد به في اللسان ، بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت) .

والتأوه قول (آه) ونحوه مما يقوله الحزين ، فلذا كنى به عن الحزن ، ورقة القلب . انتهى .
و (أوه) بفتح الواو المشددة ساكنة الهاء ، وأواه ، وأوه بسكون الواو والحركات
الثلاث قال ^(١) :

فَأَوْهٍ عَلَى زِيَارَةِ أُمِّ عَمْرٍو فَكَيْفَ مَعَ الْعَدَا ، وَمَعَ الْوُشَاةِ ؟
وربما قلبوا الواو ألفاً ، فقالوا : أَوْهٍ مِنْ كَذَا قَالَ ^(٢) :

آهِ مِنْ تَيْأَكِ آهًا تَرَكَتْ قَلْبِي مُتَاهَا
و (آه) بكسر الهاء منونة . وحكى أيضاً آها وواها . وفيها لغات أخرى أوصلها (التاج)
إلى اثنتين وعشرين لغة ، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتحزن ، مبنيات على
ما لزم آخرها إلا (آها) فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر ، كأنه قيل : أنا أسف تأسفاً .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ،
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » هذا من
جمة ما تقدم من تأكيد مباينة المشركين ، والبراءة منهم ، وترك الاستغفار لهم ، وذلك
لأنهم حقت عليهم السكامة ، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون ،
ودلالته بإمام على الصراط السوي ، فضلوأ عنه ، فأضلهم الله ، واستحقوا عقابه .

(١) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٤٧٢ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت)
ولم يذكر قائله . (٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر
(طبعة بيروت) ولم يذكر قائله .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تعليل لما سبق ، أى أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التى من جملتها حاجتهم إلى بيان قبس ما لا يستقل العقل بعرفته ، فبين لهم ذلك ، كما فعل هنا .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُخَيِّ وَيُمِيتُ ، وَمَا أَلَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُخَيِّ وَيُمِيتُ ، وَمَا أَلَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم ، وإرشاد للمؤمنين بأن يتجهكوا على ربهم ، ولا يرهبوا من أولئك ، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم ، وتنبية على لزوم امتثال أمره ، والالتقياد لحكمه ، والتوجه إليه وحده ، إذ لا يفتأى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى .

تنبيهه :

وقف كثير من المفسرين بالآية هنا ، أعنى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا) .
الآية - على ما روى فى الآية قبلها ؛ من نزولها فى استغفار وقع من المؤمنين للمشركين ، فربطوا هذه الآية بتلك ، على الرواية المذكورة ، ونزلوها على المؤمنين ، فقالوا : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا) أى ليحكم عليهم باستغفارهم للمشركين بالضلال بعد إذ هداهم بالنبوة والإيمان ، حتى بتقديم إليكم بالنبى عنه ، ففتركوا ، فأما إذا لم يبين فلا ضلال ، إلى آخر ما قالوه ...

وما أبعد من تفسير وتأويل والراى ذكره وجهاً ، وأشبهه بما اعتمدناه ، وهو الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ
بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ
مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » اعلم
أن الله تعالى لما بين فيها تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ، مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق
لها طوعاً أو كرهاً ، والمرغب فيها أو عنها ، والمتخلف نفاقاً أو كسلًا ، وأنبا عما لحق كلاً من
الوعد والوعيد ، وميز الصادقين من غيرهم - ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلاً للدعة ، وهم
صادقون في إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأتابوا ، وعلم الله صدق توبتهم ، فقبلها ، ثم أنزل
توبتهم في هذه الآية ، وصدرها بقوبته على رسوله ، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنوياً
لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن
إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرين والأنصار ، كل على حسبه ،
وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم
بالصالحين ، ليظهر فضيلة الصلاح . والوصف المدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح
الصفة ، وهذا من لطائف البلاغة ، وهو كما قال حسان رضي الله عنه ^(١) :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَا لَتِي لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَاتِي بِمُحَمَّدٍ
وَفِي الْآيَةِ بَيَانُ فَضْلِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

(١) هذا البيت ليس في ديوان حسان المطبوع في لندن عام ١٩١٠ ولا في شرح البرقوق

المطبوع في مصر عام ١٩٢٩ .

قال الحاكم : ودلت على فضل عثمان ، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه .
وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ، ووصفهم باتباعه ، فوجب القطع بمواليتهم .
وقوله تعالى : (فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) أى فى وقتها والساعة تستعمل فى معنى الزمان المطلق ، كما تستعمل الغداة والعشية واليوم . والعسرة حالهم فى غزوة تبوك . كانوا فى عسرة من الظَّهر ، يعقب العسرة على بئر واحد ، وفى عسرة من الزاد ، حتى إن الرجلين كانا يشقان بالثمرة بينهما ، وكان النفر يتبادلون الثمرة بينهم ، يعصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يعصها الآخر ، ثم يشرب عليها : وفى عسرة من شدة لَهْجَانِ الحرِّ ومن الجُذْب . وفى عسرة من الماء ، حتى بلغ بأحدهم العطش أن نحر بئيره ، فمصر فريته فشربه ، وجعل ما بقى على كبده .
وقد حكى القالى فى (أماليه) أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل الفلوات التى لاماء فيها ، سقوا الإبل على أنتم أظأها^(١) ثم قطعوا مشافرها ، أو خزموها لثلاث رعى ، فإذا احتاجوا إلى الماء ، افقتلوا كروثها ، فشربوا ثميلها ، وهو كثير فى الأشعار . كذا فى (العناية) .
ونقل الرازى عن أبى مسلم أنه يجوز أن يكون المراد بـ (ساعة العسرة) جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول ، وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها . وقد ذكر تعالى بعضها فى كتابه كقوله سبحانه^(٢) : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) . وقوله^(٣) (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ) . الآية - والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأوقات الشديدة ، والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم . انتهى .

(١) (أظأها) الأظاء مفردا (ظم) وهو حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد .

وفظه وانتظه : شق عنه الكرش أو عصره منها .

والثملة : البقية تبقى من العلف والشراب فى بطن البئر وغيره . فكل بقية ثملة (لسان

العرب) ولم أعر على موقعها فى (الأمالى) . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٥٢] .

أقول : هذا الاحتمال ، وإن كان مما يسمعه اللفظ الكريم ، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية وسباقها ، القاصران على غزوة تبوك . ولم يتفق في غيرها عسر في الخروج ، واتباعه عليه السلام ، بل وقع أحياناً في مصاف القتال . وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها (غزوة العسرة) ، ومن خرج فيها (جيش العسرة) .

وقوله تعالى : « مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ » أى عن الحق ، أو الثبات على الاتباع ، للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم . وفي تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » تأكيد ظاهر ، واعتناء بشأنها ، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق الثانى ، فلا تكرار .

قال بعضهم : ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب ، تفضلاً منه ، وتطيباً لقلوبهم . ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم . ثم أتبعه بقوله : « إِنَّهُمْ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ » تأكيداً لذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا » أى تركوا وأخروا عن قبول التوبة في الحال ، كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبي ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بتوبتهم . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى مع سمعتها ، وهو مثل الحيرة في أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه ، قلقاً وجزعاً مما هم فيه ، إذ لم يمكنهم

الذهاب لأحد ، لمنع النبي ﷺ من مجالستهم ومهادنتهم . و (إذا) يجوز كونها شرطية جوابها مقدر ، وأن تكون ظرفية غاية لما قبلها « وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ » أى قلوبهم من فرط الوحشة والجفوة والغفم ، بحيث لا يسمعون أنس ولا سرور ، وذلك لأنهم لازموا بيوتهم ، وهُجِرُوا نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وفيه ترقى من ضيق الأرض إلى ضيقهم في أنفسهم ، وهو في غاية البلاغة « وَظَنُّوا » أى علموا « أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ » أى لا مفر من غضب الله « إِلَّا إِلَيْهِ » أى إلى استغفاره « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِيْتَابُكُمْ » أى ليستقيموا على توبتهم ، ويستمروا عليها ، أو ليمدوا من جملة التائبين . أو المعنى : قبل توبتهم ليتوبوا في المستقبل ، إذا صدرت منهم هفوة ، ولا يقنطوا من كرمه « إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » أى فى إيمانهم ومهادنتهم لله ولرسوله على الطاعة . من قوله تعالى (١) : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ » أو هم الثلاثة ، أى كونوا مثلهم فى صدقهم وخلوص نيتهم .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام أحمد (٢) والشيخان حديث كعب وضاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية : قال الزهرى : أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه - وكان قائد كعب من بنيه ، حين عمى - قال : سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم

٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٧٩ - باب حديث كعب بن مالك وقول

لله عز وجل : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث رقم ١٣٢٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٣ ، ٥٤ (طبعتنا) .

في غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يُعَاتَب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواقفنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها وأشهَر . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة . والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ فلما يريد غزوة يفزوها ، إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجئى للمسلمين أمرهم ، ليقاها بوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يحممهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصغر - أى أميل - فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطنفت أعدو لسكى أنجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتهدى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أنجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألحقه ، ففدوت بعدُ لأنجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتهدى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليتني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لى . فسكنت إذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مفعمواً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل . ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال (وهو جالس في القوم بتبوك) : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يا رسول الله بُرداه ، والنظر في عطفه ! فقال معاذ بن جبل : بشما قلت . والله ! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ! فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، خضرتني بشي ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخفاته غداً ؟ وأستمعن على ذلك بكل ذي رأى من أهلي . فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قافداً ، زاح عني الباطل ، وعرفت أنني لم أجد منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه . فأصبح رسول الله ﷺ - وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ف صلى ركعتين ثم جلس للناس - فلما فعل ذلك ، جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويخلفون له ، وكانوا بضمة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المنضب ، ثم قال لي : تعال ! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ فقلت : يا رسول الله ! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لأريت أن أخرج من سخفه بمذر . لقد أعطيتُ جدلاً ، ولكني ، والله لقد علمت ، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه ، إني لأرجو عقبي ذلك من الله عز وجل . والله ما كان لي عذر ، والله ! ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ! فقممت ، وقام إلي رجال من بني سلمة ، واتبعوني ، فقالوا لي : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم لك .

قال : فوالله ! ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .
قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الوافقي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرأ ، لي فيهما أسوة .

قال : فضيت حين ذكروها لي .

فقال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، أيها الثلاثة ، من بين من تخلف . فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فإني بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباي فاستسكانا وقعدا في بيوتهما يبيكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول في نفسي : أحرأك شفقتي برّد السلام على أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا التفت نحوه أعرض عني . حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ؛ فسلمت عليه ، فوالله ! ماردّ على السلام . فقلت له : يا أبا قتادة ! أنشدك الله ، هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينما أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا أنا بنبطي^(١) من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاء فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه :

(أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجملك بدار هوان ولا مضيمة^(٢) ، فالحق بنا نواسك) .

قال : فقلت - حين قرأته - : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فقيممت به التنور فسجرت به . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيه يقول :

(١) النبطي واحد (الأنباط) وهم الفلاحون والزارعون من المعجم والروم .

(٢) المضيمة مفعلة من (الضياع) .

يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم طأطأ أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما يشاء ! قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! إن هلالاً شيخ ضيف ، ليس له خادم ، فهل تسكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ! قالت : وإنه ، والله ! ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . قال : فقلت : والله ! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب . قال : فلبثنا عشر ليال ، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح ، صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت على نفسي ، وضائق على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ! قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبيل صاحبي يبشرون ، وركض إلى رجل قرساء وسمى ساع من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعته له ثوبي فكسوته إياها ببشراته .

والله ! ما أملك يومئذ غيرها . واستمرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً يهتفونني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صاحني وهنأني . والله ! ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال :

فكان كعب لا ينساها لطلحة : قال كعب . فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (وهو يبرق وجهه من السرور) : أبشر بخير يوم مرت عليك منذ ولدتك أمك ! قال ، قلت : أومن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . قال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أخلع من مالي ، صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ! إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال ، فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقى .

قال ، وأنزل الله « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ . . . » إلى آخر الآيات .

قال كعب : فوالله ! ما أنعم على من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبتُهُ ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه ، حين أنزل الوحي ، شرّ ما قال لأحد . فقال الله تعالى (١) : « سَيَخْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَمَرُّوا عَنْهُمْ ، فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) .

قال : وكذا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال تعالى : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الفزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عن حلف له ، واعتدائه إليه ، فقبل منه .

(١) [٩ / التوبة / ٩٥ و ٩٦] .

وفي رواية : ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي ، وكلام صاحبي ، ولم ينفه عن كلام أحد من المخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبثت كذلك حتى طال على الأمر ، فما من شيء أهم إلي من أن أموت ، فلا يصل على النبي ﷺ . أو يموت رسول الله ﷺ ، فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلي علي ، ولا يسلم علي .

قال : وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، معتنية بأمرى . فقال رسول الله ﷺ : يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك . قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : إذا محطكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل . حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر ، آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا - أخرجه البخاري ومسلم - .

قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .

الثاني - قال بعض المفسرين : في الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة ، وعلى قطع ما يلحقه من الطاعة .

الثالث - في الآية دلالة على التحريض على الصدق .

قال القاشاني : في قوله تعالى هنا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) أي في جميع الرذائل بالاجتناب عنها ، خاصة رذيلة الكذب . وذلك معنى قوله (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) فإن الكذب أسوأ الرذائل وأعجبها ، لكونه يناقض المروءة . وقد قيل : (لا مروءة لكاذب) إذ المراد من الكلام الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم ، فإذا كان الخبر غير مطابق ، لم تحصل فائدة التطق ، وحصل منه اعتقاد غير مطابق ، وذلك من خواص الشيطنة فالكاذب شيطان . وكأن الكذب أقبح الرذائل ، فالصدق أحسن الفضائل ، وأصل كل حسنة ، ومادة كل خصلة محمودة ، وملاك كل خير وسعادة ، به يحصل كل كمال .

وأصله الصدق في عهد الله تعالى الذى هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه ، كما قال (١) :
 (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) في عقد العزيمة ، ووعد الخليقة . كما قال
 في إسماعيل (٢) : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) . وإذا روعى في المواطن كلها ، حتى الخاطر
 والفكر والنية والقول والعمل ، صدقت النمايات والواردات ، والأحوال والقسمات
 والمواهب والمشاهدات ، كأنه أصل شجرة الكمال ، وبذر ثمرة الأحوال . انتهى .
 ولما أوجب تعالى الكون مع الصادقين ، أشار تعالى إلى أن النفر مع رسول الله ﷺ
 واجب كفاية ، فلا يجوز تخلف الجميع ، ولا يلزم النفر للناس كافة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ
 ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
 الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ،
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ » أى المتيسر لهم ملازمة رسول الله ﷺ وصحابه
 « وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ » أى عند توجهه إلى الغزو
 « وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » أى لا يرضوا بأنفسهم عما يصيب نفسه . أى لا يختاروا
 إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد .

قال الزمخشري : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال

(١) [٢٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٤] .

برغبة ونشاط واعتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت ، مع كرامتها وعزتها ، للخوض في شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تنهات فيما تعرضت له ، ولا يكثر لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزناً ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهيج لتابعته بأقوة وحمة . انتهى .

روى أن أبا ذر رضي الله عنه ^(١) ، أبطأ به بميره ، فحمل مقاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده : كن أبا ذر ! فقال الناس : هو ذاك ! فقال : رحم الله أبا ذر ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويمت وحده . وروى أن أبا خيثمة ^(٢) الأنصاري رضي الله عنه ، بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب ، والماء البارد . فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الضح ^(٣) والريح ، ما هذا بخير ! فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومركب كالريح . فذبح رسول الله ﷺ طريقه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ^(٤) ؟ فقال : كن أبا خيثمة ! فكانه ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

قال السهيلي في (الروض) : كن أبا ذر ، كن أبا خيثمة ، لفظه لفظ الأمر ، وممناء كما تقول : أسلم ، أي سلمك الله - انتهى .

- (١) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٩٠١ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٨٩٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٣) الضح : بفتح الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة : ضوء الشمس وحرها . (٤) أي يرفع شخصه للنظار .

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسي . وذكره الطبرزي في قول الحريري : كن
أبازيد .

وفي شعر ابن هلال :

ومعذّر قال الإلهُ لحسنه : كُنْ فتنةً للعالمين فَكَانَهَا

ولم يزيدوا في بيانه على هذا . وهو تركيب بديع غريب . ومعناه ساقه الله إلينا ، وجعله
إياه ، ليكون هو القادم علينا . فأقيم فيه العلة مقام الملول في الجملة الدعائية الإنشائية ، على
حد قوله في الحديث ^(١) : أبُلِّ ، وأخْلِقْ . أى عمرك الله ، وتمتك الله بلباسك لتبلى وتخلق .
وقولهم : اسلم . أى سلمك الله لتسلم . ثم لما أقيم مقامه أبقي مسنداً إلى فاعله ، وإن كان
المطلوب منه هو الله ، وهو قريب من قولهم (لا أرىك هاهنا) أى لا تجلس حتى أراك .
وهو تمثيل أو كناية . كذا في (العناية) .

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما دل عليه قوله (مَا كَانَ) من النعى عن التخلف أو وجوب
المشابهة « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ » أى نىء من العطش « وَلَا
نَصَبٌ » أى تعب من السير لا سيما مع العطش « وَلَا مَخْمَصَةٌ » أى مجاعة تضيقهم عن
السير « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا » أى لا يدوسون مكاناً « يَغِيظُ الْكَافِرَ »
أى الذين هم أعداء الله . وإغصاب المدوّ يفيد رضا عدوّه « وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا »
أى قتلاً أو هزيمة أو أمراً « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِعُّ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ » أى على إحسانهم . وهو تعليل لـ (كُتِبَ) ، وتنبية على أن تحمل المشاق
إحسان ، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى .

(١) الحديث أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٨٨ - باب من تكلم
بالفارسية والبطانة ، والحديث رقم ١٤٥٥ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ

لَهُمْ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً » أى لا يشق مثلها « وَلَا كَبِيرَةً » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى غزوة تبوك ، وهو ألف دينار وثلاثمائة مبر بأحلاسها وأقتابها « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا » فى مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل . اسم فاعل من (ودى) إذا سال ، فهو السيل نفسه ، ثم شاع فى محله ، ثم صار حقيقة فى مطلق الأرض ، وجمعه

(أودية) كناد ، بمجلس ، جمعه (أندية) ، وناج جمعه (أنجية) ولا رابع لها فى كلام

العرب « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ » أى أثبت لهم به عمل صالح « لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى ليجزيهم على كل عمل لهم ، كامل أو قاصر ، جزاء أحسن أعمالهم . أى فإذا مالوا بأنفسهم فاتهم ذلك ، وكانت المؤاخذه عليهم أشد .

ولما بين تعالى ، فيما تقدم ، خطر التخلف عن الرسول فى الجهاد ، وشدّد الوعيد على المتخلفين التاركين للنفير ، دفع ما يتوهم من وجوب النفر على الجميع ، وفيه ما فيه من الحرج ، والإخلال بأمر الماش ، بأن وجوبه كفاً ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً » أى ما صح لهم ذلك ولا استقام ، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس « فَلَوْلَا نَفَرَ » أى خبن لم يمكن تغير الكافة ، ولم يكن مصادحة ، فهلا نفر « مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » أى من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة منهم

يكفونهم النفير « لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ » أى ليعلموا أمر الدين من النبي ﷺ « وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ » أى يعلموهم ويخبروهم ما أمروا به ، وما نهوا عنه « إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » أى من غزوتهم « لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » أى فيصلحون أعمالهم .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطى فى (الإكمال) : فى الآية أن الجهاد فرض كفاية ، وأن التفقه فى الدين ، ونشر العلم ، وتعليم الجاهلين كذلك . وفيها الرحلة فى طلب العلم . واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة تفر يسير ، بل قال مجاهد : إنها تطلق على الواحد . انتهى .

وقال الجصاص فى (الأحكام) : فى الآية دلالة على لزوم خبر الواحد فى الديانات التى لا تلزم العامة ، ولا تتم الحاجة إليها ، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم خوى الدلالة عليه من وجهين :

أحدها - أن الإنذار يقتضى فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً .

والثانى - أمره إيانا بالحدز عند إنذار الطائفة ، لأن معنى قوله : (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ليحذروا . وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة تقع على الواحد ، فدلائها ظاهرة . انتهى .

وفى القاموس : أن الطائفة من الشيء القطعة منه ، أو الواحدة ، فصاعداً ، أو إلى الألف ، أو أقلها رجلان ، أو رجل . فيكون بمعنى (النفس الطائفة) .

قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع ، فجمع (طائف) وإذا أريد به الواحد ، فيصح أن يكون جمعاً ، وكفى به عن الواحد ، وأن يجعل كـ (راوية) و (علامة) ونحو ذلك .

الثانى - إن قيل : كان الظاهر فى الآية (ليتفقهوا فى الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفتقرون) فلم يضع موضع (التعليم) الإنذار ، وموضع (يفتقرون) يحذرون ؟

يجاب . بأن ذلك آذن بالغرض منه ، وهو اكتساب خشية الله ، والحدّ من بأسه .
قال الغزالي رحمه الله : كان اسم الفقه في العصر الأول ، اسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق
آفات النفوس ، ومفسدة الأعمال ، والإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ،
واستيلاء الخوف على القلب . وبدل عليه هذه الآية . كذا في (العناية) .

قال الزمخشري في الآية : وليجمعوا غرضهم ومرى همّهم في التفقه ، إنذار قومهم
وإرشادهم والنصيحة لهم . لا ما ينتجيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمنونه من
المقاصد الركيكة ، من التصدّر والرؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم
ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّ داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حاملق أقدامهم
إذا ما ج بصره مدرسة لآخر ، أو شذمة جثوا بين يديه . وتهالكه على أن يكون موطاً
ألقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل ^(١) : (لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) . انتهى .

الثالث - قال القاشاني في الآية : يجب على كل مستمّد من جماعة ، سلوك طريق طلب
العلم ، إذ لا يمكن لجميعهم . أما ظاهراً فلفوات المصالح ، وأما باطناً فلمدّم الاستعداد . ثم قال :
والتفقه في الدين هو من علوم القلب ، لا من علوم الكسب ، إذ ليس كل من يكتسب العلم
يتفقه ، كما قال ^(٢) : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) والأكنة هي الغشاوات
الطبيعية ، والحجب النفسانية فمن أراد التفقه فلينفّر في سبيل الله ، وليسلك طريق التزكية
والتصفية ، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه . فالمراد من التفقه علم راسخ في القلب ،
ضارب بمروقه في النفس ، ظاهر أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب
ما يخالف ذلك العلم ، وإلا لم يكن عالماً . ألا ترى كيف سلب الله الفقه عن من لم تكن رغبة

(١) [٢٨ / القصص / ٨٣] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٥] و [١٧ / الإسراء / ٤٦] .

الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله^(١) : (لَا تَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) ، لكون رهبة الله لازمة للعلم ، كما قال^(٢) : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وسلب العلم عن لم يعمل به في قوله^(٣) : (هَلْ يَسْقَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ) ، وإذا تفقهوا ، وظهر علمهم على جوارحهم ، أثر في غيرهم ، وتأثروا منه ، لارتوائهم به ، وترشحهم منه ، كما كان حال رسول الله ﷺ ، فلزم الإنذار الذي هو غايته . انتهى .

ولما أمر تعالى ، في صدر السورة ، بالبراءة من مشركي العرب وقتالهم ، ثم شرح أحوال المنافقين ومخازيهم ، أشار إلى خاتمتها بما يطابق فاتحتها بذلك ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا

فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » أى يقربون منكم ، وهم مشركو جزيرة العرب ، كما قلنا .

وقوله تعالى : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » قالوا إنها كلمة جامعة للجراءة والصبر على القتال ، وشدة العداوة ، والنف في القتل والأسر . وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة ، والمقصود أمر المؤمنين بالانصاف بصفات كالصبر وما معه ، حتى يجدهم الكفار متصنين بها ، فهي على حد قولهم : لا أرينك ههنا . والغلظة هي ضد الرقة ، مثلثة النين ، وبها قرئ . لكن السبعة ، على الكسر « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى بالنصرة والمونة .

(١) [٥٩/الحشر/١٣] . (٢) [٣٥/فاطر/٢٨] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ » أى طائفة من القرآن المعجز المحيط بجملة من الحجج ورفع الشبه « فَمِنْهُمْ » أى من المنافقين « مَن يَقُولُ » بعضهم لبعض « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ » أى السورة « إِيمَانًا » إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين ، واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا » لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأتبع للصدر ، لكثرة الدلائل ، ورفع الشبه « وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يبرؤنها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ » أى كفر وسوء عقيدة « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ » أى كفرأ بها مضموماً إلى الكفر بغيرها « وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » أى واستحكم ذلك الكفر فيهم ، بسبب الزيادة إلى موتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ)

« أَوَلَا يَرَوْنَ » يعنى المنافقين « أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ » أى يتلون بإظهار مكرم وخيانهم ،

أو بنقض عهدهم « فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ » أى من صنيعهم ونقض عهدهم « وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ » أى يتمظنون بأنها آيات قاطعة ، وكون الابتلاء بسبب مخالفتها . ثم يبين أحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي ، إثر بيان مقاتلتهم ، وهم غائبون عنه بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » قال الزمخشري : معنى تفاوضوا بالعيون إنكارا للوحي ، وسخرية به ، قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإننا لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا الضحك ، فنخاف الاقتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لوذا . يقولون : هل يراكم من أحد « ثُمَّ انْصَرَفُوا » أى عن محفل الوحي خوفاً من الاقتضاح « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام . والجملة إخبارية أو دعائية « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر . وسواء قلنا بدخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وهو الحق ، أولاً ، وأنه مجرد التصديق القلبي ، فالزيادة مما يقبلها قطعاً ، والأول بديهي ، والثاني مثله ، إذ ليس إيمان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة رضي الله عنهم ، كإيمان غيرهم وهذا مما لا يرتاب فيه .

الثاني - ذكر تعالى من مخازي المنافقين نوعين : عدم اعتبارهم بالابتلاء ، وتمكن الكفر

منهم ، وازدياده في وقت يقتضى زيادة الإيمان ، وهو تكرير الغزير . ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم ، وعدم نفع العظات فيهم ، ختم مخازيهم بذلك ، لأنه تبيخها . وقدم عليه ما يصيبهم من الابتلاء ، لأن فيه ردعاً عظيماً لو تذكروا .

وقد تلطف الفاشاني في إيضاح ذلك ، وجود التقرير فيه ، وعبارته :

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه . وقد ورد في الحديث ^(١) : (البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه) ، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد ، يكسر سورة نفسه وقواها ، ويقمع صفاتها وهواها ، فيلين القلب ، ويبرز من حجابها ، وينزعج من الركون إلى الدنيا ولذاتها ، وينقبض منها ويشمئز ، فيتوجه إلى الله . وأقل درجاته أنه إذا أطلع على أن لا مفر منه إلا إليه ، ولم يجد مهرباً ومحيصاً من البلاء سواه ، تضرع إليه وتذلل بين يديه ، كما قال ^(٢) : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا اجْنِبْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) ^(٣) وبالجملة بوجوب رقة الحجاب أو ارتفاعه ، فليغتم وقته وليتموذه ، وليتخذ ملجأ يعود إليها أبداً حتى يستقر التيقظ والتذكر ، وتسهل التوبة والحضور ، فلا يعمود الغفلة عند الخلاص فتغاب ، وتقوى النفس عند الأمان ، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان ، كما قال ^(٤) : (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ) ^(٥) انتهى :

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : أخذ ابن عباس من قوله (ثم انصرفوا) كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة - أخرجه ابن أبي حاتم - ومرجع هذا إلى أدب لفظي ، باجتناب ما يؤم ، أو ما يُنمى به على المعصاة .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [٣١ / لقمان ٣٢] .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] . (٤) [٢٩ / المنكيات / ٦٥] .

(٥) [١٠ / يونس / ١٢] .

وقد عقد الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فصلاً في هدى النبي ﷺ في حفظ النطق ، واختيار الألفاظ ، فليراجع .

ثم بين تعالى ما امتن به على المؤمنين من بعثة خاتم النبيين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى رسول عظيم من جنسكم ، ومن نسبكم ، عربى قرشى مثلكم ، كما قال إبراهيم عليه السلام ^(١) : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) . وقال تعالى ^(٢) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) .

وكلّم ^(٣) جعفر بن أبى طالب النجاشى ، والمغيرة بن شعبة رسول كسرى ، فقال : إن الله بعث فينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته ... الحديث .

ثم ذكر تعالى ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » أى شديد عليه شاق ، لكونه بمضاً منكم ، عنقكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع في المذاب « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » أى على هدايتكم ، كى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه ، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ » إذ يدعوهم لما ينجيهم من العقاب بالتجذير عن الذنوب والمعاصى ، لفرط رأفته « رَّحِيمٌ » إذ يفيض عليهم العلوم والمعارف والكمالات المقربة بالتعليم والترغيب فيها ، برحمته ^(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أمرضوا عن الإيمان بك ، وناصبوك « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » أى فاستعن به ، وفوض إليه ، فهو كافيك وناصرك عليهم .

وقال القاشانى : أى لاجحة لى بكم ، ولا باستعانتكم ، كما لاجحة الإنسان إلى المضو المألوم المتعفن الذى يجب قطعه عقلا . أى الله كافينى فلا مؤثر غيره ، ولا ناصر إلا هو كما قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فوضت أمرى إليه ، وبه وثقت « وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » أى المحيط بكل شىء ، يأتى منه حكمه وأمره إلى الكل . وتخصيصه لـكونه أعظم المخلوقات ، فيدخل ما دونه ، وقرىء (العظيم) بالرفع ، على أنه صفة الرب جل وعزته .

تم معلقناه على سورة التوبة صباح الاثنين فى ٢٤ رجب سنة ١٣٢٢ هـ

فى سدة جامع السفانية بدمشق الشام

اللهم يسر لنا بفضلك الإتمام . والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين

إلى يوم الدين .

وبليه الجزء التاسع وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد .

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ رُؤَايَا يَتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٢٩ / ص / ٣٨]

تفسير الفاسمي

المسيحي

محاسن التاويل

تأليف علامة الشمام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء التاسع

وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فاضل عبد الباقى

دار النشر : دار البحوث
مبنى الباني الجليلي وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأخبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنمقده عليه
خباصرهما ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

المبهر محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأواحد

السبح محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونادر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠ - سُورَةُ يُونُسَ

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله ^(١) « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخير ، وهو المقصد الأعلى من إزال الكتاب - قاله المهايي - .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى ^(٢) : « فَإِنْ كُفَّتْ فِي شَكٍّ . . . » الآية . وقوله ^(٣) : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكي ، والباقي مدني - حكاه ابن الفرس والسخاوي في (جمال القراء) - .

وآياتها مائة وتسعة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٥ ، ٩٤] .

(٣) [١٠ / يونس / ٤٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

«الر» مسرود على نمط التعميد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ (الر) . والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصده ، صارت في حكم الحاضر ، كما يقال : هذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة «تِلْكَ» إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الر) مسرودة على نمط التعميد ، فقد نزل حضور مادتها ، التي هي الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف البسطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويعها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما في اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها في المخاطمة ، ومحل الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

«آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» ، وعلى تقدير كون (الر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هي آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتها منه ، وصفا بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل السكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه في علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتقام بين الناس إذ ذاك . و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستمارة المسكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة - أفاده أبو السعود - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) « أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ » الهمة لإنكار التعجب والتعجب منه ، وإنما أنكر ذلك ليكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى سبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و(العين) على الجاسوس ، و(الرأس) على الرئيس . ثم إن سبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتين . أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ (مَقْعَدِ صِدْقٍ) ^(١) بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدم صدق) أى حقيقة مقررّة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال في (الاتصاف) : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب في الحقيقة . « قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتمجبون « إِنَّ هَذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقرئ (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه . وهو دليل عجزهم وأعتافهم ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التـكـلـم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المنحـم . ثم بين تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يبدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ »
قال البخارى^(١) فى صحيحه فى الرد على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكليف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات . و (الأيام) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمر الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لمظمتة وعز جلاله ، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَلِكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك المظمنة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وحدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبّدونه .

(١) أخرجه فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء وهو رب

العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه . فاستعدوا للعاقبة «وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا» أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» أى من النطفة «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» أى بعدل أو بعدلهم وقيامهم على العدل فى أمورهم ، أو بإيمانهم ، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ» أى من ماء حار قد انتهى حره «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» وجميع يخلص ألمه إلى قلوبهم «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» لتلليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غير النظم المبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجمله حقا مقرر لهم ، كما تفيده (اللام) والتغنيبه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإنابة . والعقاب واقع بالعرض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يقول إنابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى النيرين ، إثر الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للمالين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . « وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ » الضمير لها ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازلها معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب « لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ » أى حساب الشهور والأيام ، مما يبط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطى : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

« إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تماقبيهما وكون كل منهما خليفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالع حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العقوبة .

تنبيه :

في هذه الآيات إشارة إلى أن الذي أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وأحسن كل شيء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان - يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبليغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم في تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقاؤهم في الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[٨] أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[١٠] (دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * » إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى ماوَاهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النِّعَمِ» أى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . « دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن (اللهم) نداء ، ومعناه : اللهم إنما نسبحك ، كقول القانت : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى . ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية^(١) (وَأَعْتَرِلُكُمُ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى ما يحيى به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كفى قوله تعالى^(٢) : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أو تحية الله عز وجل لهم ، كما فى قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) . و (التحية) التكرمة بالحالة الجليلة . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و (السلام) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ » أى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن (وبحمدك) ، بقوله : (وَءَاخِرُ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من الصفات الجليلة ، تذكيراً بمسماها . والآية تدل على سمو هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا^(٣) : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازى لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك اللهم وبحمدك) ، وعانوا ما فيه من السلامة عن الآفات والخافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تبسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتمامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء . ولما بين تعالى وعيده الشديد ، أنبئه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٤٨] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٥٨] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُمْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُمْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاء تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون ^(١) : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مَنِّ الْعَمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلا مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » أى لأميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون .
لطيفة :

زعم الزمخشري أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد - غير ضرورى فى العربية ، والشواهد كثيرة .

وجوز الرازى أن يكون (يمجل) أصله يستمجل . عدل عنه تزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق .
ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يمجل الله للناس الشر الذى يستمجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازاً ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى ^(٢) (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيْدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا» أى لكشفه وإزالته «لِجَنْبِهِ» حال من فاعل (دعا) واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجما «أَوْ قَاعِيْدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ» أى مضى على طريقته الأولى ، «كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ» أى كشفه «مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتهاء إليه تعالى عند الشدائد ، علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله الأحد ، الذى لا يمبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إثر كشف كرباتهم ، وتحذير من مثل صنيعهم .

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نيا الأقدمين ليقوه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا» أى بالتكذيب والكفر «وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزام بالإهلاك المعروف فيهم . «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبي ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبي ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : انتِ بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نعط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك لى ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيضاح بأن استحالة ما اقترحوه أولاً ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعاً ، ربما يعد من قبيل المجازاة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : (إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطى فى (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . ١٥ .

قال الزمخشري : فإن قلت . فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الافتراح ؛ قلت : السكيد والمكر . أما افتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنت قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما افتراح التبديل والتغيير فللطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخره منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترئه على الله - انتهى .

ولما بين بطلان ما افترحوه الإتيان به واستحالة ، أشار إلى تحقيق حقيقة القرآن ، وكونه من عنده تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

قُلْ « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ » .

قال الزمخشري : معنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن المادات ، وهو أن يخرج رجل أى لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ، بهر كل كلام فصيح ، ويعلم على كل منشور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تعلمون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شئ من أسرار ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، والصقهم به .

«وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ »
 أى من قبل نزوله ، لا أنماطى شيئاً مما يتعلق بنبوءه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ،
 فتتهمونى باختراعه . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فاعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا
 من مثلى .

قال الزمخشري : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم (اِنَّتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا) من
 إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

راى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير
 والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقصّر حاله
 عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك
 ولا همنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام
 غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة
 فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق
 أحد كائناً من كان ، كما ينبىء عنه تمقيبه بتظليم المفتى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما
 بين ظهرانيكم قبل الوحي ، لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه
 شائبة شبهة ، فضلاً عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطّرد فى هذا
 العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهي
 الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحي مبين ، تنزيل من
 رب الملئين - انتهى - .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول^(١) هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا

أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سألته من صفة النبي ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاحشي ملك الحبشة^(١) : بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .
وعن ابن المسيب : ثلاثا وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكارى معناه الجحد . أى لا أحد أظلم ممن تقول على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أى لا ينجون من عذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٢) (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعده صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والنكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ١٧٤٠ (طبعة المارف) . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة الكذاب - وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد - فقال له مسيلة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال^(١) : وَالْمَعَصِرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله ! فقال : وما هو ؟ فقال : ياوهر ياوهر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقرر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب ! وقال عبد الله بن سلام^(٢) : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس ، فكنت فيمن أنجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قل حسان^(٣) :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهة تأتيك بالخبر

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أي الأوثان التي هي جاد

(١) [١٠٣ / العصر / ١ - ٣] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٤ - باب ما جاء في قيام الليل ،

حديث رقم ١٣٣٤ (طبعنا) . (٣) ليس في ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرر ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هُوَ لَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونِ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .

فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : (فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) تأكيده لغيره ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منقطف معدوم - كذا في الكشف - « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع ، فطرة وتشرعاً ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى خفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بمت الله الرسل بآياته وحججه البالغة ، ليهلك^(١) من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة « وَلَوْلَا

(١) [٨ / الأتقال / ٤٢] .

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ « أَيْ بِتَأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة » لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ « أَيْ عَاجِلًا فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء الحق ، وإهلاك الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا

إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أَيْ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي افْتَرَحُوهَا تَعَمُّقًا وَعُنَادًا ، وَكَانُوا لَا يَمْتَدُّونَ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظَامِ الْمُتَكَثِرَةِ ، الَّتِي لَمْ يَنْزِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَهَا ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ آيَةً بَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ ، بِدِيعة غريبة في الْآيَاتِ . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أَيْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، الْمُسْتَأْثَرُ بِهِ ، لَا عِلْمَ لِي وَلَا لِأَحَدٍ بِهِ . يَعْنِي أَنَّ الصَّارِفَ عَنْ إِزَالِ الْآيَاتِ الْمُقَرَّحَةِ أَمْرٌ مَغْيِبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أَيْ فِيمَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَاقِبَةِ تَعَمُّدِكُمْ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ^(١) (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْ يَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ فَتُشَلْ هَؤُلَاءِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَجَابُوا لِمُقَرَّحِهِمْ ، لَفَرَطِ عُنَادِهِمْ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمَّا قَامَ بِهِ الدَّلِيلُ الْقَاهِرُ عَلَى صَدَقِ نُبُوته ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِإِعْجَازِهِ ، كَانَ طَلَبُ آيَةٍ أُخْرَى سِوَاهُ مِنْ مُقَرَّحِهِمْ - مِمَّا لِحَاجَةٍ لَهُ فِي صِحَّةِ نُبُوته ، وَتَقْرِيرِ رِسَالَتِهِ . فَتَمْلِكُهَا يَكُونُ مَفْهُومًا إِلَى مَشِئَتِهِ تَعَالَى ، فَتَرَدُّ إِلَى غِيْبِهِ ، وَسِوَاهُ أُنْزِلَتْ أَوَّلًا ، فَتَدْبُرُ نُبُوته ، وَوَضَحَتْ رِسَالَتَهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(١) [١٧ / الإِمْرَاءُ / ٥٩] . (٢) [١٠ / يُونُسَ / ٩٧ و ٩٦] .

(٣) [٦ / الْأَنْعَامُ / ٧] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيراً إلى أنهم لا يُذعنون ولو أُجيبوا المقترحهم، بما يعهد منهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضررهم ، إلى الإشرak ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا،

قُلِ اللَّهُ أَمْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم «إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شرهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالحادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلي أمره بعد : «قُلِ اللَّهُ أَمْرَعُ مَكْرًا» أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . «إِنَّ رُسُلَنَا» أى الذين يحفظون أعمالكم «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» أى مكرهم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للاتقام ، وتنبية على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظه ، فضلاً عن العلم الخبير .

ثم بين تعالى نوعاً من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِمْ

بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة المبوب ، موافقة المرغوب « وَفَرَّخُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوْا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَكِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى العابدين لك شكراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان أو هو الخبر لـ (بغيكم) (وعلی) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر محذوف ، أى نتمتعكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البغى .

ثم بين تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هى للسببية ، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ، أى التف بمضه ببعض ، والأول أظهر ، « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلاؤ والحشيش « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها « وَازِيدَتْ » أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصول من أصله « كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مثلٌ في الوقت القريب « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانى : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهى حياة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى المذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة ^(١) . فلهذا قال : (عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٨ - باب الظالم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا مقام الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المتعاقبة للعدالة تتمتع طبيعياً ، ولذات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به ، من تزبن الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها بيمض الآفات سريعاً قبل الانتفاع بنباتاتها ، ثم تتبعضها الشقاوة الأبدية ، والعذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث ^(١) : أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة ، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهمل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : فلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه ، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مر ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ (طبعنا) .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٢٣ - باب البغى ، حديث رقم ٤٢١٢

(طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ)
 [٢٦] (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوْهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ،
 اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ)

« وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنّته « وَيَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .
 « لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فعرفوا مكر الدنيا والشموات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فعبدوه كأنهم يرونه ، الثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى^(١) : (وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) .
 وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبىّ صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأبى . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا ...) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويرزقنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم^(٣) .

(١) [٤/النساء/١٧٣] و [٢٤/النور/٣٨] و [٣٥/فاطر/٣٠] و [٤٢/الشورى/٢٦] .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعنا) .

« وَلَا يَرَهُ قُوجُوهُهُمْ قَتَرٌ » أى لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشموات
« وَلَا ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .
قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ،
فإن فيه تنبيه على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فخير بهم أن لا يرهق وجوههم
قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ،
وذلة البعد .
وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِّنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهُقُهُمْ
ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيهم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست
« وَجُوهُهُمْ قِطْعًا » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك
لارتكابهم الهيأة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الرديئة ، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه
عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والحزى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ، فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ)

« وَبَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ثمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا « أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تفظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانى : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لا تقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصْل .

ومعنى قوله : « فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصْل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانى كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل : بنطقها (الله الذى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) ^(١) ، فتشافهم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ)
« فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انا « غَافِلِينَ »
أى الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ،
وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام الدهش ، حين قطع المواصله ، وإنكار الشركاء العبادة
« تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتيماين
أثره من قبح وحسن ، ورد وقبول ، كما يختبر الرجل الشئ ويقمره ، ليكتفه حاله . وهذا
كقوله تعالى ^(١) : (يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقوله ^(٢) (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .
« وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى
جزاءهم بالعدل والقسط « وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من
اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانيتهم الباطلة . أى ظهر
ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى
عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراد به ، بل تبرأ منهم ، أحوج ما يكونون
إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد
عليهم آثم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [٨٦ / الطارق / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها « أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سوا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى (١) : (قُلْ هُوَ الَّذِى أُنشَأَكُمْ وَحَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شيء ، تعميم بمد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بمد اعترافكم ، من غضبه لمباداة غيره اتباعاً للهوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) « فَذَلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقيقة ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركة « فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [٦٧ / الملك / ٢٣] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه . وقوله (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالمذاب ، و (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) تعليل بمعنى (لَا يُؤْمِنُونَ) - أفاده الرغشرى - أى كقوله تعالى ^(١) (قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله تعالى ^(٢) : (أَفَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) قيل : (الَّذِينَ فَسَقُوا) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشمار بالعلية ، و (الفسق) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصرّح بما علم ضمناً من (الذين فسقوا) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردى فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان . ثم احتج أيضاً على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَا تَوَفَّكُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالاً ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٢) [٣٩ / الزمر / ١٩] .

في أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة في سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيداناً بظهور برهانها ، للأداة القائمة عليها سمياً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعناداً لا يلتفت إليه ، وإشماراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعملاً ، يستلزم الاعترافُ به الاعترافُ بها . ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، ف قيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْمِنُ كُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضاً ، إغماً إثر إغام ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ « أى بوجه من الوجوه ، كهيئة الرسل ، وإبقاء العقل ، وتمكين النظر في آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى - « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمْ لَا يَهْدِي » أى إلا أن يهديه الله تعالى - نزل منزلة من يعقل لإخامهم - وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمْ لَا يَهْدِي) بفتح الياء والماء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، أدغمت التاء في الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الماء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الماء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التثاقص ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهتدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أى شئ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل تخيلات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد بـ (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . ذ (شيئاً) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ (يغنى) ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) ^(١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : (رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ^(٢) . وأمر محمد ﷺ بذلك فقال : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٥٠]

غَسَوِي * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ^(١) . وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فلا استدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهنا أيضاً ، لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله ^(٢) : (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى ^(٣) : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فأحوال الجسدية خسيصة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة . أما الأحوال الروحانية ، والمعارف الإلهية . فإنها كالمات باقية أبد الآباد ، مصونة عن الكون والفساد . فعلما أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانتته تعالى وحده . والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍ فقد بينا أنها أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق ، ولا في الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيقة هذا الوحي المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزل عليه ، ودلائلها في آيات الله الكونية ، والنبئية عن عظيم قدرته ، وجليل عنايته ، يهتدي بريقته ، فقال تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ١-٣] . (٢) [١٧ / النزل / ٦٤] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ » لا متناع ذلك ؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التي بها عموم الإعجاز « وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزيور بالتوحيد ، وصفة النبي ﷺ . و (تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقاً للح . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوف ، أى : هو تصديق الذي بين يديه . أى وبذلك يضمن كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله ^(١) (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) كما قال على رضى الله عنه ^(٢) : فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منتقياً عنه الرب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار أخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل يقولون . ف (أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومما دلها

(١) [٤ / النساء / ٢٤] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ،

١٤ - باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بعد ما بيننا من حقيقته أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »
أى إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن
الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشدّ تمرنا فى الفظم « وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم
من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله - إن صدقتم فى أنى اختلقته - فإنه لا يقدر
عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتخصيص على برأتهم منه تعالى ،
وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ، فإن
ذلك مما يؤمهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا
فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل .
أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجئوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه
أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة
على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم
عن مفارقة دين آبائهم . كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلامه لا توافق ما نشأ
عليه وألفه ، وإن كانت أضواء من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

في أول وهلة ، واشتاز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير (إِنَّمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) الإيذان بكال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به - كذا في الكشف وأبي السعود .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح في الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال في (تنوير الاقتباس) : أى عاقبة ما وعدهم في القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانى : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه في مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر في معانيها . « فَأَنظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكهم بسبب تكذيبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنُتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٤٢] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به في نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب . « وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فغبرا منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أبرزهم في عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتوهين : أى أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ) « وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظان ، أما مع الحق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول - كذا فى الكشف - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتمذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإزال الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لمدله لا يفعل ذلك . « وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

[٤٧] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل ذلك

« فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوى الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا

جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى قبلتهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ،

فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء

للمستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاسانى فى قوله تعالى (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شق ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بمضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بمضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده - انتهى - .

فآية على هذا كقوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى ^(٢) : (وَرَحِمَاءَ النَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٤٩] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ،

إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

أى فى أنه يأتيها . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبي صلوات الله عليه . قيل :

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك

لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار المعجز

عنه . وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميا . والمعنى لا أملك شيئا ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لىكن ما شاء الله كائن ، فلا استثناء متصل أو

منقطع . وصوب أبو السعود اثنائى ، بأن الأول بإياه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة

والسلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وبسط تقريره .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما في هذه الآية ، وقوله ^(١) : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قال : والنكته في الاستثناء بيان أن هذه الأمور انشائية دائمة إنمّا كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشاني : درجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . .) الآية - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَّاتًا » أى ليلاً « أَوْ نَهَارًا مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شئ منه بمرغوب البتة .

لطائف :

الأولى - (أرايت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى (أخبرنى) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل في غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشئ سبباً لمعرفة ، ومعرفة سبباً للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمن كإذهب إليه أبو حيان - كذا في (العناية) .

الثانية - سر إشار (بياناً) على (ليلاً) مع ظهور التقابل فيه ، الإشمار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذي يبيت فيه المدوّ ، ويتوقع فيه ، ويفتقن فرصة غفلته . وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء ، أو زمان قيلولة . كما في قوله ^(١) (بَيَانًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيوتنة .

الثالثة - قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكماً وسخرية ، فقال في جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرّاً بأنّ مثلكم ، وأنّى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لي به حق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم - أفاده الطيبي - .

الرابعة - سر إشار (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) على (مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجماع ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فرعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله - كذا في (الكشاف) - .

قال في (الانصاف) : وفي هذا النوع البليغ نكتتان :
إحداها : وضع الظاهر مكان المضمّر .

(١) [٧ / الأعراف / ٤] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .
وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة - والله أعلم - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

« أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة ، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكماً ، تحت القول للأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيرته إلى هذا الحد ، وإيداناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويقوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات - أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاناة العذاب (آ لَآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ) ؟ وذلك إنكاراً للتأخير ، وتوبيخاً عليه . وسر وضع (تستعجلون) موضع (تكذبون) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضاراً لمقاتلهم فهو أبلغ من (تكذبون) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . وهذا ما ذكروه ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقة ، يدل عليه آية (١) : (وَإِذْ قَالُوا لِلَّهِمْ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً ...) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يماينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيئوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فتل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكاراً للتأخير - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)
ثم قيل للذين ظلموا « أى أشركوا » « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » فى الآخرة
« إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أى يستخبرونك « أَحَقُّ هُوَ » أى الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بفائتين العذاب . فهو لاحق بكم لا محالة . من (أعجزه) الشئ إذا فاته . ويصح كونه من (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقمه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

إطائف :

الأولى - دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية - إنما أمر بالقسم لاستماتهم ، وللجرى على ما هو المألوف فى المحاوراة ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كساه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل ^(١) (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) .

(١) [٨٦ / الطارق / ١٤ و ١٣] .

الثالثة - لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا بـرهان حقيقى ، ومنهم من لا ينفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابى^(١) الذى قدم على النبىِّ ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذى بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورأى من قوى ، وأنا ضام بن ثعلبة - رواه البخارى فى أوئل كتاب العلم - .

الرابعة - قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ^(٢) : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَأَتِيَنَّكُمْ) وفى التغابن^(٣) (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) - انتهى - .
وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) قال :

وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى بذاكر أبا بكر بن داود الظاهرى ولا يسميه بالفقيه - فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليه على أبى بكر ابن داود ، فتهماً للحلف ، فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره فى صحيح البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ،

٦ - باب ما جاء فى العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ « أى بالشرك بالله ، أو التعدى على الغير ، أو مطلقاً » مَا فِي الْأَرْضِ « أى من الأموال » لَافْتَدَتْ بِهِ « أى لجماعته فدية لها من العذاب » وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ « أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول عليها بـ (لكل نفس) . والمدول إلى صيغة الجمع ، لتحويل الخطاب ، بكون الخطاب بطريق الاجتماع » لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ « أى عابوه » وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ « أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٦] (هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله ، وأنه المتيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يفتر به المغترون - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى تذكير لنفوسكم بالوعد والوعيد ، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والنمل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والتنوير بنور التوحيد « وَهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِ » يعنى الإسلام « فَبِذَلِكَ » أى فبمجئهم « فَلْيَفْرَحُوا » أى لا بالأموال الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينتفع بجمعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة في جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشئ فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدالاتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط في الحقيقة (فليفرحوا) و (بذلك) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على أنسفة الرسل ، لئلا يفتروا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ » أى ما خلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أى أنزله تعالى رزقاً حلالاً كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم ^(١) : (هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) ^(٢) « قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ » فى الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أى تختلفون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » فى إنزال الوحي وتعليم الحلال والحرام « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم فى مطالب النفس الخسيسة ، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التذليل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى غلة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ « كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا ينبى عن علمه شئ كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ،

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولى . وهو فى الأصل ضد العدو ، بمعنى الحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يقولونه بالطاعة ، كقوله تعالى (٣) : « وَمَنْ يَقُولَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ » ويعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام
 كقوله تعالى (١) : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله (٢) :
 (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...) الآية - وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ »
 من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفرع الأكبر ، كما فى قوله تعالى (٣) :
 (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون
 ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ
 الموصول الرفع على أنه خبر لمحدوف ، كأنه قيل : من أولئك وما سبب فوزهم بذلك الإكرام ؟
 فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر .
 أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (الْبُشْرَى) مصدر
 إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به
 من آيات أخر كقوله تعالى (٤) : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ...) إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ
 رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) ، وقوله تعالى (٥) : (إِنَّ الَّذِينَ
 قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَاؤُا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا
 بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للمهد . كقوله سبحانه (٦)
 (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْمُى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
 جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَلِكَ » أى بشراكم ، وهى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٥] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(٤) [٩ / التوبة / ٢١ و ٢٠] . (٥) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٦) [٥٧ / الحديد / ١٢] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطلب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين تعالى فى كتابه ، ورسوله فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولي والأولياء . قال رحمه الله : إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال ^(١) : يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب ^(٢) ... الحديث - وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى ولياً لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر ^(٣) : وإنى لأتأر لأوليائى كما يتأر الليث الحرب . أى : آخذ تأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب تأره . وهذا ، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع . والولاية ضد المداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل المداوة البغض والبعد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٦ - باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعنا) . (٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ : (٣) هذا الحديث لم أعتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذى بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى ^(١) (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . . .) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله ، لسكنائهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأُنزل تعالى ^(٢) : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون فى الظاهر بالشهادتين ، ويمتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقرؤا باطناً برسالاته عليه السلام ، وإنما كان ملصكاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يمتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله ^(٣) (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

(١) [٥ / المائدة / ١٨] . (٢) [٨ / الأنفال / ٣٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٦٢ و٦٣] .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمد ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيهِ ، ووعده ووعيدهِ ، وحلاله وحرامهِ . فالحلال ما أحله الله ورسله ، والحرام ما حرمه الله ورسله ، والدين ما شرعه الله ورسله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى . كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ، وكذلك المفتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسول ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس السكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى ^(١) : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبیین للرسول ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزل عليهم الشياطين ، واقرنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شبهة من تفاق ، كما في الصحيحين ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى خان . وفي صحيح مسلم ^(٣) : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله ، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبعين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٣] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ (طبعنا) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْتَوَاضُعِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) بمعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً ، لهذه الآية - فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يذبون حتى يُرْسِلَ إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي ﷺ قال ^(٢) : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقينه بالقبول . ولكن الصبي المميز تصح عباداته ، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء ، لأُمور الدنيا . كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقودهم باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إفرازه ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب . بخلاف الصبي

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٢ - باب لا يرجم المجنون والمجنونة ،

وقال عليّ بن عمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ (في ترجمة الباب) .

المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع ، بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع . وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليّ الله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فأتى أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من الشرّكين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالسحرة والسحرة وعباد الشرّكين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهو لا يفهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التي هي شرط في ولاية الله . ومن كان يحسن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، وبوّد الفرائض ، ويحْتَنِب المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثبته الله على إيمانه وتقواه ، الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثبته ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فعلی هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يحْتَنِب المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا وليّ الله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر ؛ وإن كان مجنوناً باطنياً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه وليّ الله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يميزون بلباس دون لباس ، ولا بخلق شعر أو تقصيره أو ضفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق في قباء ، وكم من زنديق في عباء . بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون في أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية) ، نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقليل : صفي ، أو صفائي ، أو صُفي ، ولم يقل صوفي . وصار أيضاً اسم الفقراء يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس : أيما أفضل : مسمى الصوفي

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغنى الشاكر ، أو الفقر الصابر ؟ والصواب في هذا كله ما قاله تبارك وتعالى ^(١) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) . وفي الصحيح ^(٢) من أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفي السنن ^(٣) من النبي ﷺ أنه قال : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال ^(٤) : إن الله تعالى أذهب عنكم غيبة ^(٥) الجاهلية ونفخها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقى ، وفاجر شقى .

فصل

وليس من شرط ولّى الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان إبسه عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ،

٨ - قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ (طبعنا) .

(٣) لم أفتد إلى هذا الحديث في السنن . ولكن وجدته في مسند الإمام أحمد بالصفحة

رقم ٤١١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب

الأدب ، ١١١ - باب في التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العيبة بضم العين وكسر ها . الكبر والفخر والنخوة . اه قاموس .

وما استكروها عليه ولم يؤثم النبي ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهداه ، وجعل خطاه مغفورا له . ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبيا ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أوافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئا ، وخيار الأمور أوساها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئا ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهداه . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفي الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في أمي أحد ، فمهر منهم . وكان عمر يقول : افتر بوا من أفواه الطييعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدث الذي يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ والمصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة وبنظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتاج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبي حفص القرشي المدوي رضي الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة (طبعنا) .

مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني . فأني من ادعى له أصحابه أنه ولي الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة - فهو وهمٌ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس . فعمربن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون يفازعونه ويعرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة . وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى^(١) : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، ومبادئ الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحجبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحماقات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والمقارب والزناير وأذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحجبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بال مخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلبس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواقع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع منامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن - انتهى ملخصاً -

(١) [٢٤ / النور / ٥٤] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعة بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره ،
فرحم الله جامعه ، وجزاه خيراً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسليمة للنبي ﷺ عما كان يسمعه من تكاثرهم في إيصال مكروهه ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه
أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر القناء وترى أعمالهم وأقوالهم ،
وما يهددونك به كالمباء . فن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد
ولا حول . فقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) تعليل للنهي على طريقة الاستثنا ، كأنه
قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك
أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرهم عليهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) ^(٣) . وقوله (هُوَ السَّمِيعُ) أى لأقوالهم فيك ،
فيجازيهم (الْعَلِيمُ) أى لما يبنين أن يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلمهم تحت ملكته وتصرفه
وقهره ، لا يقدرُونَ على شئ . بغير إذنه ومشيتنه وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥١] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفي (ما) من قوله (وما يتبع) وجهان :
أحدهما - أنها نافية ، و (شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف لظهوره .
 أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء في الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم ،
 فاقصر على أحدهما لظهور دلالة على الآخر . ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون) ،
 ومفعول (يتبع) محذوف ، لانغمامه ، من قوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) . أى ما يتبعون
 يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثاني - أنها استفهامية ، منصوبة بـ (يتبع) ، و (شركاء) مفعول (يدعون) .
 أى : أى شيء يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكوته فما يتبعون من دون
 الله ليس بشيء ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه في ظنهم ، ويتخيلونه في
 خيالهم ، وما هم إلا يُقدِّرون وجود شيء لا وجود له في الحقيقة .
 ثم نبه تعالى على انفراد القدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحيده سبحانه
 باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من
 نصيبكم وكلاكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم .
 قيل : الآية من باب الاحتمال ، والتقدير : جعل الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً
 لتتحرروا فيه لمصالحكم ، فحذف من كل من الجانبين ما ذكر في الآخر ، اكتفاء بالذكور
 عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازي ، كقوله : * ما ليل الحب بناثم *

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى الجمل المذكور « لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرهما ، سماع تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
 « قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف بمثاله شيء ؟ ومن له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيدان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إمالة تقوى به ، أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقیم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل الجاهل .

تنبيهه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : إنه سبحانه سمي الحجة العلمية سلطاناً . قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : (إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) ، يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ، إن هو لإقول على الله بلا علم . وقوله تعالى ^(١) : (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ، يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) ، يعنى حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : (مَا أَغْنَىٰ عَنْنَا مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حججى وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سعى علم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن . فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حقيقته وسلطانته ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له - انتهى - .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشري : لما نفى عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدال على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السمود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهى جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى ، وأن التقليد بمنزل من الاعتداد به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلاً . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالخطوطة الدنيوية ، بمنزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ)

« وََاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بمرزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظاره إلى قومه ، بمن عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلملهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ » أى شق ونقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكاني ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مددا

طوالاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً أو قياماً بالدعوة إلى الله، من رؤيتكم ذاتي بقلة الأموال والأهوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لي « وَتَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ » أي بحججه وبراهينه ، أو تخويفي بمذابه « فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ » أي اعتمدت في دفع ما قصدتموني به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أي شأنكم في إهلاكى « وَشُرَكَاءُكُمْ » يعنى آلهتهم . وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم في الشرك . (والواو) بمعنى مع . أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف ، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بحذف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعاني . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستوراً . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفاً تجاهرونى به « ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ » أى أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تَنْظُرُونِ » أى ولا تعملونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جمل على عظمتكم ، أى فلا باعث لكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » أى ما ثوابى على التذكير إلا عليه تعالى ، يثيبنى به ، آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، خفت عليهم كلمة المذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَجَعَلْنَاهُ » أى من الفرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ »

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ « أى خلفاء عن الغرقين وعمار الأرض » وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ « أى منتهى أمرهم . والمراد بـ (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسليمة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتغرهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فخالهم بعدها ، كخالهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و(كذبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ » إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

وَمَلَكِهِ بِآيَاتِنَا» يعنى التسع « فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى
آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعنى الآيات المزيحة للشك « قَالُوا » يعنى من فرط
التمرد « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ، أَصِحْرُهُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

« قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ » أى على وجه لم يترك لكم شبهة ، مقاتلكم
الحق ، من أنه سحر ، فحذف المحكى المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَصِحْرُهُ هَذَا »
استفهام إنكار من قول موسى لامن قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب
لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس (أَصِحْرُهُ هَذَا) مقولهم ، لأنهم بقوا
القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ - كذا قيل - .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ، والهمزة وسط مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من
الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ (جَاءَكُمْ) بـادى بدء .
وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا
بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قبل (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ) حكاية لقولهم الذى بقوا عليه
أمرهم . ثم رأيت الناصر فى (الاتيصال) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية - يعنى قراءة آالسحر - على الاستفهام ، ففيها - والله أعلم - إرشاد
إلى أن قول موسى أولاً : (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَصِحْرُهُ هَذَا) حكاية لقولهم ، ويكون

(أَسْحَرُ هَذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهزاء بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبت من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ * أبلغ فى البت من قوله مخبراً (أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى ، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسْحَرُ هَذَا) على سبيل الإنكار حسباً تقدم ، فحكاية الله تعالى عنهم بمآله ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبت القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بمباراة أخرى . وحكاية القصص المتلوة فى السكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا عمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى . وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام (أنقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آلسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداهما واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزخشرى على تأويل القول بالتعقيب ، أو إضمار مفعول (تقولون) استشكال وقوع الاستفهام ، حكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين .

قال الناصر : فشدة هذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق الفسكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق ، لأنه لما استلزم كون الحق سحراً ، كون من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته ، ودفماً لتمرز موسى « ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى باهر فى فنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)
« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » أى من أصناف السحر . قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشبه لتحل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيتهم وحبالهم ايضاهاوا معجزة موسى بمصاه « قَالَ مُوسَى »

مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ « أى هو السحر ، لاما جئتم به مما سمعتموه سحراً » « إِنَّ اللَّهَ سَدِّبْطُهُ »
أى سيمحقه بالسكية بمعجزتى ، فلا يبق له أثر « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى
بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يشته ويقويه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى
ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع آخر ،
أى (١) « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ،
وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرّاً . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ،
الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَنْ يَفْتِنَهُمْ » أى يمدبهم « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أى مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أى أرض
مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبإدعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَى » أى تطمينا لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا « أى فإليه أسندوا أصركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافىكم (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ^(١) وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى مخلصين وجوهكم له .

قال القاشانى : جمل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن كل إيمانكم وبقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛ وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملازوما له . وحينئذ يكون معناه : إن صح إيمانكم بيقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن كرهت هذا الشجر فافلعه إن قدرت - انتهى - .

وقال الكرخى : قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أى منقادين لأمره . فقوله : (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول . ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدماً ، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً . مثاله : قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدا . فيجموع قوله : (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيدا) والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيدا إن دخلت الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق . فقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ ...) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه : إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] .

وهو الانقياد لتكاليف الله، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تديره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يمدبونا ويفتنونا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالفتنة من الظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضي : وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً ، لتجيب دعوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذها بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم في شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى في بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة في الدنيا ، والجنة في المقبي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى فى إذهاب غزوة فرعون « رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً » أى ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلى « وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عاىك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : (لِيُضِلُّوا) متعلق بـ (ءَاتَيْتَ) ، وأعيد (رَبَّنَا) توكيداً . و (لَام) (لِيُضِلُّوا) لام العاقبة والصورورة . أى : آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جمل اللام للعلة استدرجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك - توسع فى غير متسع ، ونبو عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعتاد أخذ فى الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدى دعائه ما دفعه واضطره إلى الإبتهال ، لتحق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستمعون بنعمتك على معصيتك وأصل (الطمس) عو الأثر والتغيير « وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى يمانوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينقمهم ذلك إذ ذاك . وقوله : (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا ينجى منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام

فَقَالَ (١) : (رَبُّ لَا تَذَرُنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شرَكَ فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تمجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستمجال ، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه : ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءهما فى إهلاك فرعون وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ » رَجَا النجاة من الغرق « ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليمبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضر به الله وقومه بالآيات التسمع ، كما

تقدم في سورة (الأعراف) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم يريدونهم ، فأدركهم وهم نازلون عند البحر ، فهرب الإسرائيليون من مقدمه ، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مد موسى يده على البحر ، فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه . ولما أحس بالفرق ، لاذ إلى الإيمان يعني النجاة ، فقبل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّا لَنَاقِلُونَكَ إِلَى مَوْضِعٍ مَّكِينٍ وَقَدْ عَلِمْتَهُ الْفٰسِقِينَ)

« إِنَّا لَنَاقِلُونَكَ إِلَى مَوْضِعٍ مَّكِينٍ » أي تؤمن وتسلم لتنجوا من الفرق « وَقَدْ عَلِمْتَهُ الْفٰسِقِينَ » أي كفرت بالله من قبل الفرق ، « وَكُنْتَ مِنَ الْفٰسِقِينَ » أي بالضللال والإضلال ، والظلم والعقو .

القول في تأويل قوله تعالى .

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجهم من القعر إلى الشاطئ . (بالنجية) التي هي الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ » من الأمم الكافرة « آيَةً » أي عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أي لا يتفكرون فيها ولا يعقبون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الحفاجي في (العناية) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية^(١) : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » . وأما ما وقع في (الفصوص) من صحة إيمانه ، وأن قوله (ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) إيمان بموسى عليه السلام - فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طالعها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في (تاريخ حلب) للفاضل الحلبي أنها ليست له ، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي . وقد ردها القزويني ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل حامل الذكر ، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس ، كافي المثل (خالف تعرف) وفي (فتاوى ابن حجر رحمه الله) أن بعض فقهاءنا كفر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل : إن المراد بفرعون (في كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه - انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله في كتابه (الفتح المبين في رد اعتراض المعارض على محي الدين) خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا المعارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضي الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عاينه من النقل عنه . نعم ، بحث في صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير ، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجات فرعون وإيمانه على أصليين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول - في بيان حقيقة إيمان اليأس ، بإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [٤٠ / غافر / ٨٥] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخي ، كحال المحتضر لا غير ، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروياً . فالإيمان في أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا المعارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوى لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك في الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوى لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى - من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلا بد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى ^(١) : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) وكما قال ^(٢) : (فَأَتَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فكذبهم تعالى في دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فلكمة « حَتَّىٰ » للغاية . ففياً تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخرى لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقوعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الخبر في شأن فرعون في (الفتوحات المكية) وفي (الفصوص) : فالذى ذكره في (الفتوحات) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال في هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، نفخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدون فيها . وأشار إلى كفره في موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو ^(٤) : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

(١) [٢ / البقرة / ١٤] . (٢) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله ^(١): (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .
بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعياً ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنى يعطى خلافه؛ قال تعالى (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . .) الآية - فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجنب الإلهى ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : (وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات) و (الفصوص) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوى ، لا عند احتضاره ، والإيمان عند رؤية العذاب الدنيوى لا يعد بأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوى أن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول ييقن ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لمعوم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنى بحثاً ، لا جازماً بهما - انتهى ملخصاً - .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إنعمة إنجائهم من عدوهم وإهلاكه ، وإخلاصهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ » أضيف المكان إلى الصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصدق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى ^(١) : (مُدْخَلَ صِدْقٍ) و ^(٢) (مُخْرَجَ صِدْقٍ) إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للفرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهى المن والسلوى فى التيه وبمده ، مما فاض عليهم من الأرض التى تدرّ لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى فى أمر دينهم ، إلا من بعدما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي ، الذى يتلونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، فى النعى عليهم اختلافهم ، قوله تعالى ^(٣) : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ) . وقوله جل ذكره ^(٤) (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف فى الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من المبطل بالإنباء والإهلاك .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٠] . (٢) [٩٨ / البينة / ٤] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل فاسأل الذين يقرءون الكتاب « أى التوراة » من قبلك « فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك » لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين « أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك : (إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمساويين) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجمة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ما قص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأخبار بالسوخ فى العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تمريضاً بالمشركين . أو تهيج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه^(١) (وَلَكِنْ لِيُظْمِنَ قَلْبِي) . وقد روى أنه ﷺ قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل - أخرجه عبد الرازق وابن جرير^(٢) عن قتادة - أو الخطاب ﷺ ، والمراد غيره ، على حد : (إياك أعمى واسمعى يا جارة) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨

من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعلى فى النفوس . أو الخطاب لىكل من يسمع . أى : إن كنت أىها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعد^(١) : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ...) فكأنه أشار إلى أن المذكور فى أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعد صراحة وفى الآية تنبيه على أن كل من خالجه شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بمقابلة العلماء المنهين على الحق .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ)
« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهميج والإلهاب والتثيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شئ ، إن كان لمن تلبس به فعنا تركه ، وإن كان لغيره فعنا الثبات على عدمه ، والا يصدر منه فى المستقبل كما هنا - انتهى - أو يأتى الوجهان الآخران قبل هنا أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)
[٩٧] (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ « أى قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال^(٢) : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَرِثَتِكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .
« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كذاب آل فرعون وأضرابهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

(١) [١٠ / يونس / ١٠٤] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكن قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة فى معنى النفي ، لتضمن حرف التخصيص معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الآشوريين ، بانها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الآشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبرّوا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأحضر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرهم قول يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذي أنذروا به ، فقدف الله في قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح ، وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شراباً ، وألا ترى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا في صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتي في (سورة الصافات) زيادة في نبا يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول - يروى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود ، ونحو هذا . وليس في التنزيل بيان لهذا ، ولا في صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ (كشفنا) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبي : معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزي) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى - فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال تعالى^(١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

وفي الحديث الصحيح^(١) : عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الغمام من الناس ، والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد) .

الثالث - أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ لِمَاءَ أَمَنُوا كَشَفْنَا . . .) الآية - .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء .
افرؤوا إن شئتم : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ . . .) الآية - .
وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً ، في قوله تعالى : (إِنْ لَّا قَوْمٌ يُّؤْنِسُ لِمَاءَ أَمَنُوا)
قال عليه السلام : دَعَوْا - كَذَا في الإكمال - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أي بحيث لا يشذ عنهم أحد
« جَمِيعًا » أي مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أي : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة
التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أي على ما لم يشأ الله منهم
« حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى^(٢) : (لَيْسَ

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الطب ، ٤٢ - باب من لم يرق ، حديث ١٦٠٥

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وفيه تسليية له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى (١) : (لَمَّا كَبَخَعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ بُضِلَ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) (٢) ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوقيفه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ انظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطى : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عن لا يؤمن . و (ما) استفهامية أو نافية .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائمه تعالى فيهم ،
كما يقال (أيام العرب) لوقائعها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال (المغرب) للصلاة
الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبةكم ، « إِنِّي مَعَكُمْ
مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ)
« ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم
ثم ننجى رسلنا المرسله إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ »
أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس -
أعنى الناس - مصدراً بحرف التنبيه ، تعميماً للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ
إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيقته أوضح من الشمس في رابعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر . وفي تخصيص التوفى بالذكر ، متعلّقاً بهم - ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شيء أشد عليهم من الموت . « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى مائلاً عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى - إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالسكينة إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالسكينة إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية - جملة (وَأَنْ أَقِمَّ) عطف على (أَنْ أَكُونَ) . وجاز حكاية صلة (أَنْ) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفى بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلاً مقدراً . أى وأوحى إلى أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون (أَنْ) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . ورد بأن الجملة المفسرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه للملاحظة المحسوسة ، والأمر المذكور معه - كذا فى (النهاية) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهيمح وحث له على عبادة الله تعالى ،

ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .
 إن عبده « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبد « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبده « فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ »
 أى الضارين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه ^(١) (إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
 « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
 يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ،
 ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم
 يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجناد الذى لا شعور به . وكذلك
 إن أراد بخير ، لم يرد أحد ما يريد من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيقى ،
 إذا ، أبان توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، الإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريد
 يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة
 إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضرر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً
 بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى ، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبو السعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لسكال العناية بجانب الخير ، كما ينبي عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضل الواسع المنتظم لما أراذك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم . ورواه عن أبي هريرة بمثله .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

« قُلْ » أى لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجىء الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فن اختار الهدى واتباع الحق ، فما نفع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ، عليه السلام ، من جلب نفع أو ضرر ، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته - أفاده أبو السعود - .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكل إلى أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ »
أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسروهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١ - سُورَةُ هُود

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتعيّزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهايي : سميت به لقوله ^(١) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المتضمنة للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .
وهي مكّية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ) ^(٢)
(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ) ^(٣) ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ) ^(٤) .
وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شئت أن قال : قد شيتني (هود) و (الواقعة) و (المرسلات) و (عمّ يتساءلون) و (إذا الشمس كورت) .
ورواه هو والترمذي عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

(١) [١١ / هود / ٥٦] . (٢) [١١ / هود / ١٢] .

(٣) [١١ / هود / ١٧] . (٤) [١١ / هود / ١١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

« الر » تقدم الكلام على مثلها فى أول سورة البقرة فليتذكر .

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ » أى نظمت نظاماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دأمة على حالها لا تبدل ولا تغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة « ثُمَّ فُصِّلَتْ » أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بين ولخص . قيل : (ثم) هنا للتراخى فى الحكم ، أى الرتبة أو التراخى بين الإخبارين ، لا للتراخى فى الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد ، لا تفك إحداها عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن (ثم) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم فى اقتضاها إياه ، كما حكاه فى (المعنى) .

« مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إحكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغى فى النظام الحكيم فى تقديرها وتوقيتها وترتيبها - قاله القاشانى - .

قال الزمخشري : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بينها وشرحها خير عالم بكيفيات الأمور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

« أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشاني : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا

تشرکوا بالله فى عبادته ، وخصوصه بالعبادة .

وقال الزمخشري : « أَلَا » مفعول له ، أى لثلا . أو (أن) مفسرة ، لأن فى تفصيل

الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمرکم ألا تعبدوا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إبنى

أُنذِرکم ، من الحکیم الخبير ، عقاب الشرك وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

« وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو

المعنى : ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله ^(١) : (ثُمَّ اسْتَغَامُوا) .

« يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة

مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله ^(٢) (مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويمط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا

أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

قال القاشاني : (كبير) أى شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أى يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى فى صفة قادريته ، فيقيمركم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٥] (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بين تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً ، إثر الإشارة إلى توليهم بقلوبهم ، بقوله : « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أى يزورون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى فى قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركى مكة من كراحتهم لاستماع كلامه تعالى ، ما قاله تعالى عن قوم نوح ^(١) (وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لَتَقْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ،

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أى ماتعيش به . وإنما جىء (بـ) (على)

(١) [٧١ / نوح / ٧] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصُّلب « وَمُسْتَوْدَعَهَا » أى بمداموت ، أو فى الرحم « كُلُّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فى كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .
ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا نَكُفِّرُ بَعْدَ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض - كذا فى الكشف - .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى رزین - واسمه لقيط بن عامر العقيلي - قال : قلت يارسول الله !

أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذى ^(١) وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقي في كتاب (الأنباء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيت مقيدا كذلك ، ومعناه السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب ، مدبراً له ، وعالياً عليه . كما قال تعالى ^(٢) : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) . يعنى مَنْ فوق السماء . وقوله . (ما فوقه هواء) أى ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله (وما تحته هواء) أى ما تحت السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عَمِيَ عن الخلق ، فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق ، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أى : ليس فوق العمى ، الذى هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصاً .

وقال ابن الأنثير : الماء في اللغة : السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفي الحديث حذف ، أى أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفطن . وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء !

قال الأزهري : فنحن نؤمن به ولا نكيف صفة . وقوله تعالى : «لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أى أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أى : خلقهم لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلهم مساكين لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ - حدثنا أحمد

ابن منيع . (٢) [٦٧ / الملك / ١٦] .

فيعبده وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا - بمعاملة المختبر مع المختبر ، ليعلم حاله ويحازبه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، (ليلوكم) موضع (ليعاملكم) . ويصح أن يكون مجازاً مرسلًا ، لتلازم العلم والاختبار . أى : خلق ذلك ليعلم ، أى . ليظهر تعلق علمه الأزلى بذلك .

قال القاشاني : جمل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أى : خلقناهم لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أيكم أحسن عملا ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم - انتهى - .

ونحو هذه الآية قوله تعالى^(١) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) . وقوله^(٢) : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . وقوله سبحانه^(٣) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى « وَلَئِنْ قُلْتَ » أى لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أى مُحْيَوْنَ « مِنْ بَمَدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا » أى القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذلك « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى مثله في الخديعة والبطلان .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ١١٥ و ١١٦] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ

يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » أى جماعة من الأوقات محصورة .

والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا بيدر ، أو هلاك المستهزين الذين ماتوا قبل

بدر « لِيَقُولُوا » أى استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أى عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا

عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أى دار ونزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى العذاب الذى

كانوا به يستعجلون .

الطيفة :

(الأمة) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة . فإراد بها الأمد ، كما هنا وقوله

في يوسف ^(١) : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) . والإمام المقتدى به ، كقوله ^(٢) : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

كَانَ أُمَّةً فَانْتَزَلَهُ) . والملة والدين كآية ^(٣) : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) . والجماعة

كآية ^(٤) : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) . وقوله

تعالى ^(٥) : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

- أفاده ابن كثير - .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من

عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٣ و ٢٢] . (٤) [٢٨ / القصص / ٢٣] .

(٥) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ)
 « وَلَيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ » أى
 قنوط عن عودها ، قطوع رجاءه من فضله تعالى ، من غير صبر ولا تسليم لقضائه ، « كَفُورٌ »
 عظيم الكفران لما سلف له من القلوب فى نعمة الله ، كأنه لم ير خيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهْ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ
 لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

« وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب
 التى ساءتني « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أشر بطر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذافه الله من نعمائه ،
 قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
 « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء ، إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقها ولاحقها « أُولَئِكَ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم ب تلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيهه :

قال القاشانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ،
 والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة ، ولا بسميه

وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأثر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينسأ فينسأ الله . بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره . فإن أناه رحمة من جهة أو نعمة ، شكره أو لا برؤية ذلك منه . ونهمود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح باستعمالها في مرضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً بإياها ، اعتماداً على قوله تعالى^(١) : (أَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

فل أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر . ثم إن نزعها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد الشفيق في تربيته إياه ، بل أرف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يلهه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القاطن من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأى سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) استثناء من (الإنسان) أي هذا النوع يؤوس كفور ، فرح نخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنهما . والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيعان ، لا أبالي أيهما امتطى . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أى بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أى مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التى لا تنكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتعادياً فى العناد على وجه الافتراح « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أى هلاً أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لا بد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطته إلا بإبقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أى ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الافتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكل أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

لطائف :

الأولى - قال القاشانى : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعماد والاستهزاء ، ضاق صدورهم ، ولم ينبسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبول المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كروباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيج قوته ونشاطه بقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كل الهداية إليه .

الثانية - لا يخفى أن (لعل) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع مالا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهميج داعيته .

وقيل : (لعل) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالعنى : لا تترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث ^(١) : لعلنا أمجلك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشآت قائمة به - تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا فى العناية - .

الثالثة - إنما عدل عن (ضيق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرأ . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمّا اللثيمُ فسَامِنٌ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها

وظاهر كلام أبى حيان أنه مقيس . وقيل إنه لمشابهة (تارك) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة - كذا فى العناية - .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ٤ - كتاب الوضوء ، ٣٤ - باب من لم ير الوضوء إلا من

المخرجين ، حديث ١٤٤ - عن أبى سعيد الخدرى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل) والهمزة الإنكارية (أى : بل يقولون . ومتصلة والتقدير : أيكثفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا » أى للاستمانة « مَنْ اسْتَطَعْتُمْ » أى من الإنس والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » متعلق بـ (ادعوا) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحجة القاطعة ؟

لطائف :

الأولى - قيل : تُحَدِّثُوا أولا بعشر سور، فلما عجزوا تُحَدِّثُوا بسورة، وذهب البرد إلى أن الأمر بالمعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولا هو التحدى بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبيات والأحكام وأحوالها ، وهى الأنواع التسعة المنظومة فى قول بعضهم :

ألا إنما القرآنُ تَسْمَعُهُ أَحرفُ سَأُنَبِّيكُمَا فى بيت شعر بلامَلْ
حلال ، حرامٌ ، مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ بِشِيرٌ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلٌ

فلما عجزوا عن ذلك ، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، ويشهد له توصيفها بـ (مفتريات) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد ، وإبطال الشرك ، فتمين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهى السورة الفذة . والتحدى بعشر وقع بعد تمتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غير القرآن ، لزعهم أنه مفترى . فقامه يناسبه التكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم ، فلا يمسر الإتيان بكثير مثله - كذا فى العناية - .

الثانية : ضمير (لكم) للنبي ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوله والمؤمنين ، لأنهم أتباعه فى الأمر بالتحدى ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه ، عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه فى الجهاد . وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان ، والطمانينة فى الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : (فاعلموا . . .) الخ . وجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهته عليه السلام ، داخلًا تحت الأمر بالتحدى ، والضمير فى (لم يستجيبوا) لـ (من استطعتم) أى : فإن لم يستجب لكم سائر من تجارون إليهم فى مهماتكم إلى

الماونة ، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القوى والقُدَر - كذا في أبي السمود - .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة - وهم الكفار - بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا » أى وحبط في الآخرة ما صنموه ، أى لم يكن لهم ثواب عليه . وجوز تعلق الظرف بـ (صنعوا) والضمير للدنيا ، كما عاد عليه في قوله ^(١) : (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) ؛ « وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى كان عملهم في نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لغرض صحيح .

ونظير هذه الآية قوله تعالى ^(٢) : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا شَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمِعْنَا لَهَا سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهُوَ لَاءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

(١) [١١ / هود / ١٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ - ٢٠] .

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . وقوله تعالى^(١) : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) .
لطيفة :

في إعراب « باطل » وجهان :

الأول - كونه خبراً مقدماً ، و(ما كانوا) مبتدأ مؤخراً : و(ما) مصدرية أو موصولة ، والكلام من عطف الجمل .

والثاني - كونه عطفاً على الأخبار قبله أى : أولئك باطل ما كانوا يعملون . و(مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فاعل بـ (باطل) ورجح هذا بقراءة زيد بن علي رضي الله عنهما : (وَبَطَلَ) ماضياً معطوفاً على (حَبِطَ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْنِهِ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْنِهِ مِّن رَّبِّهِ » أى برهان نير ، عظيم الشأن ، يدل على حقيقة ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أى يتبعه « شَاهِدٌ مِّنْهُ » أى من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام ، سماه بيعة لغاية ظهوره ، إذ هو دين الفطرة ، قبل تدنيسها برجس الوثنية و(الشاهد) بالقرآن ،

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَى » وهو التوراة . أى : وبتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى ، مقررًا لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَامًا » أى مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم الشرائع . « أُولَئِكَ » أى من كان على بينة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ، « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلوات الله عليه ^(١) « فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .
أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

لطائف :

الأولى : (مَنْ) فى قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) مبتدأ حذف خبره ، لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السمود - .
وفى (شرح الكشاف) أن التقدير : آمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ، فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقرّبونهم . والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى ^(١) : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ) .

الثانية : قرئ (كِتَابَ مُوسَى) بالنصب عطفاً على الضمير فى (يتلوه) أى يتلو القرآن شاهد بمن كان على بينة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وشهادتهم على أنه حق لا مفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و(يتلو) من التلاوة ، فتكون الآية كقوله تعالى ^(٢) . (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ) - والله أعلم - .

(١) [٣٢ / السجدة / ١٨] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

الثالثة - (الأحزاب) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبي قبله . وهو إطلاق شرعي . وعليه حمل الأكثر الآية ، لكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم^(١) عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسى بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار . قال سعيد : كنت لا أسمع بحديث من النبي ﷺ على وجهه ، إلا وجدت مصداقه في القرآن ، فبلغنى هذا الحديث ، فحملت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) قال : الملل كلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقوله للملائكة (بَنَاتُ اللَّهِ) ، وللأصنام (شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أى يساقون إليه سوق العبيد المفتريين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبيين والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفتري ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، ٧٠ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعنا) .

فإن من يعلم حال من يفترى على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ في يونس في قوله تعالى ^(١) :
(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)
« الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كل من يقدرّون على صده
« وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلّبونها معوجة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ . يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)
« أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم في الدنيا ،
« وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى يعمونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصاتهم عن الحق ، وبفهمهم له ، « وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ » لتعميمهم عن آيات الله ، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله ^(٢) : (وَقَالُوا
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى ^(٣) : (الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ . . .) الآية .

(١) [٢٠ / طه / ٦٩] . (٢) [٦٧ / الملك / ١٠] .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها ، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المالِ عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاقِ فى غيرِ واجبٍ

« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تُجِدْهم شيئاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقاً ، أو لامحالة « أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خضعوا له وحده ، « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ،

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ » مثل للكافر

« وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مثل للمؤمنين « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالاً

وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أمهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى ^(١) (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلات الأرض من شركهم وشروهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بأتى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إني لكم نذير مبين ، أيقن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » (الباء) مقدرة هنا للتمعية . و (لا) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهي عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبادتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ

اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا نَرَاكَ إِلَّا

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] .

بَشَرًا مِثْلَنَا « أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليئون بأمور الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعتولهم عن الحق : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، لسكونهم ظاهرين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، التحجير بالهوى ، الذى هو عقل الماش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والكمالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يملكه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام الذبوة وممعناها .

« وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا أَكْبَرُ مِنْهُ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »
الرفعة عندهم بالمال والجاه ، ليس إلا . كما قال تعالى : (يَظُنُّونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وقوله تعالى : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى بديهية الرأى ، لأنهم ضماف العقول ، عاجزون عن كسب الماش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجاجهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة الممنوعة ، لقصر تصرفه على كسب الماش ، والوقوف على حده . وأما اتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب همم بعيدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحققروها .

تنبیه :

(بادی) قرأه أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أول وهلة .
وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو ، كملا يعلو . والمعنى : ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تَوَلَّى لمر ف باطنه ، وهوى المعنى كالأول . وعلى كليهما ، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك)

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدهما - أن المتبعين أراءه ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثاني - أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به - انتهى - .

أى وكلا الوجهين يبرهnan على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يابونه هم الأدنون ، ولو كانوا أغنياء . وفي الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى^(١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ) . ولما سأل^(٢) هرقل ، ملك الروم ، أباسفيان عن نعوت النبي ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثاني : فإن البدار لا اعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضع فلا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتباعه حائثاً لكل ذى فطنة ، ولا يتردد إلا غي^٢ أو عي^٢ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ » أى تقدم يؤهلكم للنبو^٢ة . واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشري^٢ : كان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يمتقدون ذلك ، وبينون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يضعه . فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبو^٢ة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا مرغبين في طلب الآخرة ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) انظر صحيح البخارى : ١ - كتاب بدء

الوحي ، ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصغرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها . فما أبعد حالهم عليهم السلام من الانصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضمة عند الله !
وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أى فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

قَالَ « أى نوح » يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ « أى أخبرونى » « إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى برهان « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً » أى هداية خاصة كشفية « مِّنْ عِندِهِ » أى فوق طور العقل من العلوم الدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » أى لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخلق عن الحقيقة « أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » يعنى أنكرهكم على قبولها ، ونفسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ، ولا تختارونها ، (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)^(١) ، فالاستفهام للإنكار ، أى لا تقدر على ذلك ، والذي فى وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقىها فزكو نفوسكم ، واركزوا إنكاركم . وفى طي جوابه عليه السلام حث على تدبرها ، ورد عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ)
« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

الله « قال القاشاني : أى الغرض عندكم من كل أمر ، محصورٌ في حصول المماش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنهبوا لغرضي ، وأنتم عقلاء بزعمتكم .

ثم لا بدّ أن لا وجه لكرهه دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القرية والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئٌ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكائهم ، وهذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته في كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ، لذهاب عقولكم في الدنيا . أو تسفهن وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ؟ ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردهم تمزكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول المسخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنى عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تتمظون فتنزعروا عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاء ، متعلقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما طلبوا طرد من عدوه من الأراذل . وهى نظير قوله تعالى ^(١) : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوتر بالوحى والرسالة فلا يدعى ما ليس له ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى رزقه وأمواله « وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » أى أنا أدمى الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب ، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلى بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ » أى تحقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا » أى فى الدنيا والآخرة ، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندى ما عند الله ، لا المال « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أى من الخير ، منى ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه -

(١) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

قاله الفاشاني - وحل غيره هذا على تفويض مافي أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بيئة ظاهرة . « إِنِّي إِذَا » أى إذا قلت ذلك « لِمَنْ الظَّالِمِينَ » أى لبخس حقهم ، وخط قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمان القلبي ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدراءهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أى أطلته ، أو أثبته بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ » يعنى أنه ليس موكولاً إلى ، وإنما يقولاه الله الذى كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بالهرب أو بدفمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »

أى شىء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمركم «هُوَ رَبُّكُمْ» أى مالك أمركم «وَالَيْهِ تُرْجَمُونَ» أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ)
« أَمْ يَقُولُونَ » أى قوم نوح « افْتَرَاهُ » أى النصح ، فهو من نعمة نبأ نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة ، يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لنبا نوح ، جىء به معترضاً في تضاعيفه ، تحقيقاً له ، وتأكيذاً لوقوعه ، وتشويقاً للسامعين إلى استماعه ، إذ بقى منها الأهم وهو نتيجه .
« قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي » أى إنم كسب ذنبى « وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن ءَامَنَ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ » أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إليهم « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ » أى لا تحزن « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم ، وحان وقت الانتقام منهم . وقيل : المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلاً لشفتقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ)
« وَاصْنَعِ الْفُلْكَ » أى للتخلص من عذابهم « بِأَعْيُنِنَا » أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عز وجل حفاظاً وحراساً ، يكلاًونه بأعينهم من التعمدى من الكفرة ، ومن الزيف فى الصنعة « وَوَحِينَا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعلمينا وإلهامنا . قيل : لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع المذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُعْرُقُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى (١) « يَا إِبْرَاهِيمُ اَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها المعجبية . وقيل : تقديره وأخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمعالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجمله محلاً للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، بدوم معه الخزي . وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ، وَمَاءٌ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومهم . و « حَتَّىٰ » غاية لقوله (وَيَصْنَعُ) وما بينهما حال من الضمير فيه ، و (سَخِرُوا مِنْهُ) جواب (كَلَّمَا) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو السكانون الذى يخبر فيه ، أو تنوير الفجر - أقوال حكاهم اللغويون والمفسرون - زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : (حى الوطيس) والوطيس التنور ، وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ، وإن حاول الرازى رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهيار الماء ونبوعه . وهذا الإيجاز فى مجازة الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى ^(١) : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ...) الآيات - ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصود على ناحية الأرض فقط . وجلى أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم والطيور وما يبدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكرًا وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ (كَلِّ) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن مفعول (احْمِلْ) (اثْنَيْنِ) و (مِنْ) حال .

والثانى - أن (مِنْ) زائدة ، والمفعول (كَلِّ) ، و (اثْنَيْنِ) توكيد . ويقرأ مِنْ

(٤) [٥٤ / القمر / ١١ و ١٢] .

كُلِّ (بالتنوين ، ذ (زَوْجَيْنِ) مفعول (اَحْمِلْ) ، و (اُثْنَيْنِ) توكيده ، و (مِنْ) متعلقة بـ (اَحْمِلْ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أى من يتصل بك فى دينك وسيرتك من أقاربك ، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أى وجب عليه « الْقَوْلُ » أى بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أى احمله معك فيها . قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد فى (ءَامَنَ) محافظة على لفظ (مَنْ) للإذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله ، عزّ قائلًا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَقَالَ » أى نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أى السفينة « بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » قال الزمخشري : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين . قال كلام الواحد أن يتصل (بِسْمِ اللَّهِ) بـ (ارْكَبُوا) حالاً من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران ، كالإجراء والإرسال ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : (خفوق النجم) و (مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما فى (بِسْمِ اللَّهِ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون (بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أى : بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله ^(١) : ثم اسم السلام عليهما . ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : (جملة

(١) تمام البيت :

إلى الحول ، ثم اسمُ السلامِ عليهما ومن يَبِكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَدَرَ
وقائله لبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضية) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضية ، بأن تكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل : اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله (١) : (فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ - انتهى - .

تنبيهات :

الأول - قرأ الإخوان - حمزة والكسائي وحفص - (مَجْرَاهَا) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفى (مَرَسَاهَا) بفتح الميم أيضاً . وقرأ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجرورى المحل ، صفتين لله .

الثانى - ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التى للتأنيث ، أو للإلحاق ، أمأله حمزة والكسائي وأبو عمرو ، ووافقهم حفص فى إمالة (مَجْرَاهَا) هنا ، ولم يُعمل غيره .

الثالث - أخذ بعضهم من الوجه الأول فى (يَسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أعنى تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجرى والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى فى سورة المؤمنون (٢) : (فَلِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) . وقوله تعالى (٣) : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) . الآية - وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والاندب إليه أيضاً .

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨ و ٢٩] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنباء ، أى لولا مغفرته ورحمته لفرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تعليل لـ (ارْكَبُوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ » متصل بمحذوف ، دل عليه (ارْكَبُوا) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفتحت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكتاف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشاخبة بخمسة عشر ذراعاً ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .
« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ » أى فى متنحى عن أبيه « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانزال ، الهالكين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

« قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو (إلا) منقطعة ، أى لكن من رحمه فهو المعصوم .
قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ،
ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران
من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لكن المرحوم يعصم ، على الأول . ولكن
الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزمخشريّ خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف
المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفي التمريض بعدم عصمة الجبل ،
وبالمثبت التمريض بعصمة السفينة . والكل جائز وبعضها أقرب من بعض - انتهى - .

« وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلاً بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه
فوقه « فَكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمَغْرَقِينَ » أى المهالكين بالفرق .
وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ،
غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد (كان) دون (صار) مبالغة فى كونه منهم - أفاده
أبو السعود - . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ
عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق
ممن كفر بالله ديار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر
السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بإبناج من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتناقص وتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال ، استقرت السفينة على الجودي ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .
 و (بُعْداً) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدوا بعداً . يقال : بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء كـ (جَدْعاً) و (تَمَسّاً) و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ (قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول .
 والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلميته للهلاك ، ولتذكّر ما سبق من قوله : (وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) .

تنبيه :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسمهم مجالاً في مضمار معارفها ، الإمام السكاكي ، فقد أطال وأطاب في كتابه (المفتاح) وتلطف في التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الأبواب بعرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعميد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أدور على السنة الفصحاء ، أكثر في الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك . ثم إن ساعدك الذوق ، أدركت منها ما قد أدرك من تحدّوايها ، وهى قوله ، علت كلمته : (وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ . . . إلى . . . الظَّالِمِينَ) .

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجما البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستمارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن تقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نفيض الماء النازل من السماء ففاض ، وأن تقضى أمر نوح ، وهو إنجازه ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوى السفينة على الجودي فاستوت . وأبقينا الظلمة غرق بني السكلام على تشبيه المراد ^(١) بالأمور الذي لا يتأتى منه ، لسكال هيئته ، المصيان ، وتشبيه تكوين المراد ^(٢) بالامر الجزم النافذ في تكوين المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً ، ولشيئته فيها تغييراً وتبدلاً ، كأنها عقلاء يميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فمظمت مهابته في نفوسهم ، وضربت سرادقها في أفنية ضمايرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان الأمور به متمماً . لا تلقى لإشارته

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما في لفظ (المشترك) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالأمور الذى لا يتأتى منه ، لسكال خوفه من الأمر ، المصيان ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . ١ هـ (سيد) قدس سره .

(٢) أراد بلفظ (المراد) هنا معناه الظاهر . أعنى ما أريد من المراد منه ، وهو الذى عبر عنه بالبلع والإفلاق . ولتخالف معنى (المراد) في الموضعين أعاد الظاهر ، وهذا التشبيه الثانى مصحح لا يراد صيغة الأمر . ١ هـ (سيد) .

بغير الإمضاء والالتقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هذا^(١) نظم الكلام ، فقال جل وعلا : (وَقِيلَ) ، على سبيل المجاز - أى المرسل - عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجهد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى : يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور . ثم استعار لفؤور^(٢) الماء في الأرض البلع ، الذى هو إعمال الجاذبة في المظوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار ، تقوى الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابْلَمِ) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم^(٣) ذكره ، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء . ثم قال : (مَاءِكِ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض ، بانصال الملك بالمالك . واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإفلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب في الأمر قائلاً : (أَقْلَمِي) ، لئلا ما تقدم في (ابْلَمِ) . ثم قال : (وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا) ، فلم يصرح بمنّ غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوّى السفينة . وقال : (بُعْدًا) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء في صدر الآية ، سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، أن^(٤) تلك الأمور العظام لا تقاى إلا من ذى قدرة

(١) يعنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : (ثم استعار لفؤور الماء في الأرض البلع) ، جملة في الكشف مستعاراً للكشف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن الكشف فعل الأرض ، والفور فعل الماء . وهذا من دقائق الزخشرى عليه الرحمة .

(٣) يعنى الثانى وهو تشبيه تكوين المراد بالأمر الحزم .

(٤) بيان لسبيل الكناية أو تعليل لـ (سلوكا) بتقدير اللام .

لا يُكْتَنه . فتهَار لا يفالِب . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره - جلت عظمته -
قائل يا أرض ويا سماء ، ولا غائض مثل ما غاض ، ولا قاضى مثل ذلك الأمر الهائل ،
وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها ، بتسوية غيره وإقراره . ثم ختم الكلام بالتمريض^(١) ،
تنبيهاً لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ، ظالماً لأنفسهم لا غير ، ختمَ إظهارِ ، لمكان
السخط ، ولجمة استحقاتهم إياه ، وأن قيامه الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت
إلا لظلمهم^(٢) .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم
وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر
فى الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن
العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرض ! بالكسر
لإمداد التهاون^(٣) ، ولم يقل : يا أيها الأرض ! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما فى (أيها)
من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ (الأرض) دون سائر أسمائها ، لكونه
أخف وأدور^(٤) . واختير لفظ السماء^(٥) لمثل ما تقدم فى الأرض ، مع قصد المطابقة^(٦) .
واختير لفظ (ابلى) على (ابتلى) لكونه أخصر ، ولجئ خط التجانس بينه وبين (أقملى)
أوفر . وقيل : (ماءك) بالإفراد دون الجمع ، لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها

(١) أى التمريض بدعاء الهلاك على قوم نوح . اهـ .

(٢) أى كما يشعر به تعليق الحكم بوصف يناسبه . اهـ .

(٣) أى لأن إضافة الأرض إلى نفسه تقتضى تشريفاً للأرض ، وتكريماً لها ، فتركها

إمداداً للتهاون . اهـ (سيد) . (٤) أى فى الاستعمال من الفراء والمقلة . اهـ (سيد) .

(٥) أى من الخضراء والمظلة . اهـ .

(٦) لأنها بهذا الاسم أشهر مقابلة للأرض . اهـ (سيد) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في إفراد (الأرض) و (السماء) . وإعمال يقل : (ابلعى) بدون المفعول ، أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والقتال والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع (أَقْلِعِي) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو - أى الاختصار - الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلمى فأقلمت . واختير (غيَضَ) على (غيَضَ) المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل : سويت على الجودى ، بمعنى أقرت ، على نحو : (قيل) و (غيَضَ) و (قضى) في البناء للمفعول ، اعتباراً^(١) لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ) مع قصد الاختصار في اللفظ . ثم قيل : (بُعْدًا لِلْقَوْمِ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد^(٢) مع الاختصار ، وهو نزول (بُعْدًا) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهى استعمال اللام مع (بُعْدًا) الدال على معنى أن البُعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلام .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل : (يَا أَرْضُ ابلعى ، وَيَا سَمَاءُ اقلعى !) دون أن يقال : ابلعى يا أرض ، وأقلعى يا سماء ، جرياً على مقتضى اللزوم فيمن كان مأموراً بحقيقة ، من تقديم التنبيه ، ليكن الأمر الوارد دعيه في نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أى اعتبار أكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على

صيغة المبني للفاعل . اهـ (سيد) .

(٢) أى لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح^(١). ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها^(٢) ، وبنزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . ألا ترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، ويا سماء ألقى عن إرسال الماء ، فأقلت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، ففاض) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : (وَفُضِيَ الْأَمْرُ) ، أى أنجز الموعد من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)^(٣) . ثم ختمت القصة بما ختمت^(٤) . هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة^(٥) .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فالألفاظ على ما نرى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على اللذات^(٦) ، سلسلة على الأسلات^(٧) ، كلٌّ منها كلاء فى السلاسة ، وكالمسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

- (١) أى ترشيح المكنتية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد) .
- (٢) أى من الأرض ، حيث فارتنورها انتهى .
- (٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى . (٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى
- (٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى (سيد) .
- (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان .
- (٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

في الرقة . والله در شأن التزويل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لانسع الحصر ولا تظن الآية مقصورة على ماذ كرت ، فلهل مازكت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان ، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراة ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذي يوفى كلام رب العزة من البلاغة حقه ، وبصون له في مظان التأويل ماء ورونقه؛ وَلَكُمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها في مأخذ مردودة ، وحلوا على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فلك الآي من مأخذهم في عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - انتهى كلام السكاكي - .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ(النهر) للطائفة ، وساق أحدًا وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورود في تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهي : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتباس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، والإيجاز ، والتسيم ، والتهديب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة ، وتمطف الرحم والقربة ، على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعذك بإنجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القربة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستمطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود بإنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً ، لأن مدار الأهلية هو القربة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر . قال القاشانى : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القربة الدينية ، واللحمة المعنوية ، والاتصال الحقيقى لا الصورى . كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ألا وإن ولى محمد ، من أطاع الله ، وإن بمدت لحته . ألا وإن عدو محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لحته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصالحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والغى ، كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فن لا صلاح له ، لا نجاة له . وهذا سر إشار (غَيْرُ صَالِحٍ) على (عمل فاسد) .

وقد قرأ يعقوب والكسائي (عَمِلَ) بلفظ الماضي ، والباقون بلفظ المصدر ، يجعله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بينا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تلتمس منى ملتصاً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهى إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً ، إما لأنه لا يهيم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياى ما لم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام ، عند ذلك التأديب الإلهى ، والعتاب الربانى ، وتموذب قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أى ما فرط منى « وَتَرْحَمْنِي » أى بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاب عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابته المذكور لصلبه . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امرأته ، ريبه . وأيده بعضهم بقراءة على : (ونادى نوح ابنها) - والله أعلم - . ثم أنبأ تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرسى السفينة على الجودى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
وَأُمَمٌ سَخِمَ عَنْهُمْ نُحْمٌ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَمٌ » أى ومنهم أمم « سَخِمَ عَنْهُمْ نُحْمٌ » أى فى الحياة الدنيا لاحتجاجهم بها « يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثر على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جاح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقي الدين المقرئى فى (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيومرت) الذى هو عندهم (الإنسان الأول) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . وبؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح ^(١) : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) اه .

(١) [٣٧ / الصافات / ٧٧] .

ونحوه في الكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ، ذهب بممران الأرض أجمع ، بما كان من خراب العمور ، وهلاك الذين ركبوا معه في السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كاهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخلق - انتهى - .

قال بعضهم (في تقرير عموم الطوفان ، مبرهنًا عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجبية في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الالتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأباده ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادة على ما كان ، بأمر الخالق تعالى - انتهى - .

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع ، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ ، أو صاحب الراى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . أما مسألة عموم الطوفان في نفسها ، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يمتد بالدين ، ألا يفتي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقليّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض ، وما تحتمل عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، عقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينيّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببحث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عاماً ، إذ لم يكن العمران قائماً إلا بقوم نوح ، فكان عاماً لهم ، وإن كان من جهة خاصّة بهم ، إذ ليس ثمّ غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمتا ، بل هو واحد تمضى عليه السفن ، بل القرون ، ونحو عشيرته لا يكاد يكون إلا كيتقلص الظل قليلاً قليلاً . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافاً وآلافاً ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران في تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ المعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذي سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت في غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والسكواسر لتلك المظالم ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأنفهام ، تعلم أن الطوفان خاص عام : خاص بمكان ، عام سائر المكان - والله أعلم ^(١) - . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكركم تنبيه على أنه لم يعلمها ؛ إذ لم يخالط غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فكيف بواحد منهم ؟! « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة ، وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولبن كذبك ، نحو ما قبض لنوح ولقومه - كذا فى الكشف - « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدى ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله (نوحاً) . أى : وأرسلنا إلى عاد . و (أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : (يا أخا العرب) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ » (١) ترك المؤلف رحمه الله بعد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلاث الصفحات ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتعمقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تفكرون ، إذ تردون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك ، أو تدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدّر ، أى الأمطار . منصوب على الحال من (السماء) . ولم يؤث ، مع أنه من مؤث ، إمالان المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب - أفاده السمين - « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استألمهم إلى الإيمان ، ورغبهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراساً على التقوى بما ذكر ، لثراء ما لهم ،

وترهيب أعدائهم، وقد كانوا مثلاً في القوة، كما قالوا^(١): «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» «وَلَا تَقُولُوا»
أى تمرضوا عما أدعوكم إليه «مُجْرِمِينَ» أى مصرّين على إجرامكم وآثامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » أى بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم ،
وعى بصيرتهم عن إدراك البرهان ، لمكان المناوآت الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه
بالضرورة « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا » أى عبادتها « عَنْ قَوْلِكَ » حال من ضمير
(تاركى) أى تركا صادرا عن قولك . أو (عن) للتعامل ، كهى فى قوله^(٢) (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ)
أى لأجلها ، فتتعلق (بتاركى) . والأول أبلغ ، لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيد
(الباء واللام) . وهذا كقولهم فى الأعراف^(٣) (أَجِئْتَنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .

« وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى مصدقين . إفناط له من الإجابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا
أَنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

[٥٥] (مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ)

« إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ » أى مسك « بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » أى يجنون ، لسبك

(١) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تشكلم بما تشكلم .

قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلبس شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط ، وبله مقناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنقصر وتنقصر .

« قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ » أى على « وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقتهم بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبتهم ، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه ^(١) : (ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله ، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أني لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أني لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أمرهم بالاحتشاد والتعاون في إيصال السكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقوله : « فَسَكِيدُونِي جَمِيعاً » أى أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ » يعنى إن صح ما لو حتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضرر ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أمجلاً ما تفعلون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا ، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجمل الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقَّهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدى لأسباب المعازة والمعاراة ، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [١٠ / يونس / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ،
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلى بسوء ، لتوكل على الله
« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .
قال الفاشاني : بين وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولاً بأن ربوبيته
شاملة لكل أحد ، ومن رب يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره
وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ،
عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كاليت فلا حاجة إلى الاحتراز
منه - انتهى - .

والناصية : مثبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية
للحال باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .
وفى العناية : وقولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة
والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تمليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم
قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم على ،
إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى (العناية) : هو تمثيل واستمارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب
والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادة لحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله ^(١) : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والافتقار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تمولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم « وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ » استئناف بالوعيد لهم . أى : فيهلكهم ، ويحىء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالة عايه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شىء . « إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حاكم مستول على كل شىء ، فلا يمكن أن يضربه شىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح المقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ » . وقد بين في غير آية ، منها قوله ^(٢) : (وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا فِي رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَّازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ٧٦] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثاني بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتحريض لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثاني من عذاب الآخرة ، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم ، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ

جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتزليلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهي للبعيد المحسوس . وتعدى الجحود بالباء حملاً له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد) . فتعدى بنفسه في قوله ^(١) : (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) . وقيل : (كفر) كـ (شكر) يتعدى بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن (جحد) كذلك .

والعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع (الرسل) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفضيلاً لحالهم ، وإظهاراً لسكال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد ^(٢) (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) - كذا في (العناية) وأبي السمود - .

(١) [١١ / هود / ٦٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

« وَاتَّبِعُوا » أى أطاعوا فى الشرك « أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جعلت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السمود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم . يعنى : أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاءً وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية (كفر) - « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة ، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم ، والمقت ، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه ، وإعادة (عاد) للبالغة فى تهويل حالهم ، والحث على الاعتبار بنبئهم . و (قوم هود) عطف بيان لـ (عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام ، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها ^(١) (وَاتَّبِعُوا أَمَرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) . وقبل ذلك (حفيظ) و (غليظ) ، وغير ذلك مما هو على وزن (فمیل) المناسب لـ (فمول) فى القوافى - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ نُوحٍ أَخَاهُمُ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)

« وَإِلَىٰ نُوحٍ » عطف على ما سبق بيانه من قوله : (وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى نوح ، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ » أى كونكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، ومواد النطف التى خلق نسله منها ، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمركم فيها ، أو جعلكم عمارها ، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف ^(١) : (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ، « فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره ، مجيب دعاءه بالقبول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير ، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لانتفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التقدير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف) .

(١) [٧ / الأعراف / ٧٤] .

« أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٌ » أى موقع فى الريبة، وهى قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْنَا مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْنَا » أى حجة ظاهرة، وبرهان وبصيرة « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة ، « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى ينجى من عذابه ، « إِن عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة ممكم فى أهوائكم ، « فَمَا تَزِيدُونَنِي » أى باستتباعكم إياى ، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجعلونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدوننى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ » الإضافة للتشريف ، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة وأخلق « لَكُمْ ءَايَةٌ » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم ، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله ، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتَّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) « فَمَقَرُّوْهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمَتَّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » أى مردود .

قال فى (الإكليل) : استدل به فى إمهال الخصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن لـ (لثلاثة) نظراً فى الشرع ، ولهذا شرعت فى (الخيار) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبين « نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شيء ، والغالب عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى من جهة السماء ، فرجفوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى فى مساكنهم « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ» أى فاهلكهم . «أَلَا بُعِدَ لِثَمُودَ» أى هلاكا ولعنة ، لبعدهم عن صراطه .
وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم فى الأعراف^(١) بما ينفى عن إعادته هنا ، فليراجع .
ثم أشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أنباء هذه السورة بقوله
سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدّموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَامًا » أى سلمنا عليك سلاماً ، « قَالَ سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ » أى مشوى ، أو سمين بقطر ودّكه ، لقوله^(٢) : (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم) ، و (أَنْ جَاءَ) مقدر بحرف جر ممتلئ به ، أى . ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن (أن جاء) . وإما (أن جاء) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها أنها بمعنى (الذى) . وهى فىهما مبتدأ ، و (أن جاء) خبره على حذف مضاف . أى : فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ (الجزء السابع) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَ لَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَ لَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضعيف إذا همَّ بفعل لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . « قَالُوا » أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية ^(١) (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوَجَلْ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأننا ملائكة ، ولم نزل بالعذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ » أى لإهلاكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنها حكيا بمد أن ولداً ومُسمَّياً بذلك . وفى توجيه البشارة إليها هنا ، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى ، كآية ^(٢) (فَبَشَّرْنَاَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) ^(٣) إيدان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والقام أمسى بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لو تح به تعجبها فى قوله تعالى :

(١) [١٥ / الحجر / ٥٣ و ٥٢] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠١] .

(٣) [٥١ / الزاريات / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

« قَالَتْ يَا وَيْلَتَا » أى يا عجبي . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يَدَهُمُ النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء التكلم ، ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

« أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض العرب (عجوزة) - حكاه يونس - « وَهَذَا بَعْلِي » أى زوجى إبراهيم « شَيْخًا إِنَّ هَذَا » أى اتولد من هريمن « لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تجر به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ،

إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

« قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى أتستبعدون من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشري : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للمعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزيدها ما يزيدها سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة، صلوات الله عليهم، فى قولهم : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياك والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم - انتهى - .

فالجلة خبرية ، وجوز كونها دعائية . و (أهل البيت) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .
 « إِنَّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للمحامد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن ، وتمجده ؛ إذ شرفها بما شرف .

القوله فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ » أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استعطافاً لدفعه .

روى أنه قال : أتهلك البار مع الأئيم ، أتهلكها وفيهم خمسون باراً ؟ حاشا لك !
 فقيل له : إن وجد فيهم خمسون باراً فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

فقيل : أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أو عشرة ، فقيل له : لا نهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجيناه .

و (يُجَادِلُنَا) جواب (لَمَّا) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن (لَمَّا) كـ (لَوْ)

تقلب المضارع ماضياً ، كما أن (إِنْ) تقلب الماضى مستقبلاً . أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتمعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى الجدل « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال ، ولا بدعاء ، ولا بغيرها .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فُسرَّت بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية ، وهى ^(١) : (فَبَشِّرْ نَاهَا بِإِسْحَاقَ . . .) الخ وفسرَّت بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول المبشِّر على المبشَّر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشَّر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشِّر به .

وحكى الأصم أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم : (سَلَامٌ)

بالرفع ، كما تقدم سره انتهى .

(١) [١١ / هود / ٧١] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .
ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ - أى
 فى خدمة أضياف إبراهيم . قال فى (الوجيز) : وَكُنْ لَا يَحْتَجِبْنَ ، كمادة العرب ونازلة
 البوادرى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .
ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب فى القول ، وأن صوتهما ليس بمعورة . كذا
 فى (الإكليل) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من
 أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً فى آية ^(١) : (فَاسْرِ بِأَهْلِكَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام ،
 وكان مقبلاً فى (بلوط تمر) التى بد (حَبْرُونَ) ، المدينة المعروفة اليوم بد (الخليل) ؛ « سِيءَ
 بِهِمْ » أى ساءه مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرْدٍ ، حسان الوجوه ، تخاف أن يقصدهم
 قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضايق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به
 ذرعاً ، أى ضمقت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهري : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدك إليه فلم تنله .
 وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطبق طاقته ،
 فَضْرِبَ مثلاً الذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

(١) [١١ / هود / ٨١] و [١٥ / الحجر / ٦٥] .

في سيره ذرعاً ، على قدر سمة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .
و (ذرعاً) تمييز ، لأنه خرج مفسراً محوّلاً . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله ^(١) :

وَإِنْ بَاتَ وَخَشَا لَيْلَةً لَمْ يَضِقْ بِهَا ذِرَاعًا وَلَمْ يُضْبِحْ لَهَا وَهُوَ خَاشِعٌ
« وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفعون دفماً . وقرئ مبنيًا للفاعل .
« وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش ويكثرونها ،

(١) فائله هو حميد بن نور الهلالي . من قصيدة مطلعها :

تَرَى رَبَّةَ الْبَهْمِ الْفِرَارَ عَشِيَّةً إِذَا مَا عَدَا فِي بَهْمِهَا وَهُوَ ضَائِعٌ
الْبَهْمُ جمع بهمة وهى أولاد الضأن والمز والبقر . يريد : هى ترى الحرب إذا رأت الذئب .
وعدا ، يعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهو خاضع . وحشا : جائعاً ، لا طعام له . وقوله (ذراعاً) هو مثل قولهم : ضاق بالأمر ذرعاً وذراعاً ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من الكروه فيه خلاصاً . أى مدّ يده إليه فلم ينله .

فرونوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفهم حياء . فالجملّة معترضة لتأكيد ما قبلها . وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره . أى : لما عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك « قَالَ » أى لوط « يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يقي أضيافه بيناته ، وذلك غاية الكرم ، أى فتزوجوهن . أو كان ذلك مبالغة في تواضعه لهم ، وإظهاراً لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً في أن يستحيوا منه ، ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه - هذا ما يخص ما في (الكشاف) - ومن تابعه - وظاهر أنه ، عليه السلام ، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجه ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوق ورغب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه - مبالغة في الاعتناء بحمايتهم ، وقياماً بالواجب في مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . وليعلم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات في حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : (هن أطهر لكم) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية الدمام . وبالجملة فهو ترغيب بمُحال الوقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهراً - والله أعلم - وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق السنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تناهى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَأَتَقُوا اللَّهَ » أى أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبثاً .

« وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم ، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره ، فقد خزى الرجل ، وذلك من عرافة الكرم ، وأصالة المروءة . و(تخزون) مجزوم بمحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ بإثباتها على الأصل . « أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » أى فيرعى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا يريدن . وفي تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت - إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واقعاً واجزماً بعدم رغبتهم فيهن . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهاداً بعلمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة ، لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل في الشدة والمنعة .
أى : لعلات بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله في (الملل) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء في الحديث الصحيح من قوله ﷺ (١) : (رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد) إنكاراً على لوط عليه السلام . ولا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٥ - باب : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... إلخ ونصه . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إن كان كَيَّأوى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى ^(١): (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن ربّ أراه المعجزات ، وهو دائماً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

« قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَاسْرِ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى (الإكليل) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥١] .

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعميل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه المذاب ، أو ذكرت ليعتجل في السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء ، للتباعد عن موقع المذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مِّنْضُودٍ)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا « أى عذابنا » جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا « أى قلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، كقوله (١) : (حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) ، « مِّنْضُودٍ » أى يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً . قال الماهي : اتصل ببعضه ببعض ، ليرجوا رجم الزناة ، بما يناسب فسوتهم وربهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ)

« مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ » معلمة عنده « وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بَبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملايسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يمرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بحرماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ (البحر الميت) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ (بحر الزفت) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقره إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ (بحيرة لوط) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٣] .

قال أبو السمود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف مذكر ، أى بشيء بعيد ، أو لأنه على زنة المصدر كـ (الزفير) و (الصهيل) . والمصادر ، يستوى فى الوصف بها ، المذكر والمؤنث .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أى وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله . و (مدين) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من (عمان) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها .
« أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ « أى لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى نعمة وثروة فى رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع فى وجودكم . معنى : فلا تعرضوا لزال ذلك عنكم بما تاتونه مما تنهون عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ » أى مهلك ، أو لا يشد منه أحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ)
« وَيَا قَوْمِ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى العدل .

قال الزمخشري : فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله : (أوفوا) ؟

قلت : نهوا أولاً عن عين التبييح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالتبييح نهيًا على النهى ، وتمييزاً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذى هو حسن فى المقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبعث عليه . وجيء به مقيداً (بالقسط) أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب . لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجهٌ حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق ، كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون فى المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير ^(١) :

أف كل أسواق المراق إناوةً وفى كل ما باع امرؤٌ بخسٌ درهم
ألا تستحى منا ملوكٌ وتتقى محارمنا . لا تتقى الدم بالدم

وروى (مكس درهم) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم فى الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شيء يباع ، شيئاً . كما تفعل السماسرة ،

(١) هذان البيتان ليسا فى (ديوان زهير) واستشهد فى (لسان العرب) فى مادة (ات و) بالبيت الأول ونسبه إلى حنّى بن جابر التغلبي .

وأخطأ صاحب (اللسان) فى اسم الشاعر . وإنما هو : جابر بن حنّى التغلبي ، صاحب الفضيلة ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والثاسع عشر .

وروايتهما : وفى كل مكسٌ درهم .
. لا يَبُوؤُ الدَّمُ بالدَّمِ

(لا يَبُوؤُ) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كفاء له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ الرصقى اسمه كذلك فى (رغبة الآمل) بالجزء الخامس ص ٢٢٣ وكان البرد فى (الكامل) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حبيّ التغلبي .

أو كانوا يمسكون الناس ، أو كانوا ينقصون من أئمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك - كذا في (الكشاف) و (شرحه) .

قال القاشاني : لما رأى شعيب ، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجب ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماذهبهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال - نهامهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة ، واعتزلوا عن الشرك ، والظلم ، الذي هو جماع الرذائل ، وأم الفوائل .

« وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تعملوا فيها بالفساد . يعم أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّة عن الإيمان ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

« بَقِيَّةُ اللَّهِ » أى ثوابه الباقي على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقى عليكم بعد التنزه عن الحرام ، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى فى دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن ببارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول .

وقال القاشاني : أى إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فإيبق لَكُمْ عند الله من الكمالات والسمادات الآخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التى تشقون بها ، وتشقون على أنفسكم فى كسبها وتحصيلها ، ثم تتركونها بالموت ، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبال التبعات والعذاب اللازم ، لما فى نفوسكم من رواسخ الهيئات .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة . وإنما أنا مبلغ نذير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء والتهم بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما دعاءك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : (أصلاتك) بالإنفراد - قاله القاضى - .

« أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك ، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام ^(١) : (قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) . أو قالوا ذلك تهكمًا به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بتهكمهم قبله والأدق هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عَقَّبَ به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ كُمْ إِلَّا مَا أَنَا لَكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى أخبرونى إن كنت على

برهان يقينى مما أنانى ربه من العلم والنبوة « وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى ما لا حلالاً

(١) [١١ / هود / ٦٢] .

مكتسباً بلا بخس وتطفيف ، أو حكمة ونبوة ، وكلاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لى أن أخون الوحي ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتركية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف ، والنهى عن دين الآباء . وحذف جواب (أرايتم) لما دل عليه فى مثله ، كما مرّ فى نبأ فوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ » أى وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه - أفاده القاضى - .

وفى (التاج) : يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشانى : أى ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذى أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أى إصلاح نفوسكم بالتركية ، والمهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ » أى وما كونى موفقاً للإصلاح إلا بعمونة الله وتأييده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى اعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى السراء والضراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَيَأْقَوْمِ لَا يُخْرِجُ مِنْكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

« وَيَأْقَوْمِ لَا يُخْرِجُ مِنْكُمْ شِقَاقِي » أى لا يكسبنكم عداوتى « أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الفرق والريح والصيحة « وَمَا

قَوْمٌ لَوْ طِ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ « فإن منازلهم قريبة منكم ، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض ، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بمحدثه : ما أدرى ما تقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يفهمهم كثير منه . (والكثير) مراد به السكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاعت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحّم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والوعاظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل ما لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذه والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا : « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا » أى لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا « وَلَوْلَا رَهْطُكَ » أى قومك وأنهم على ملتنا « لَرَجَمْنَاكَ » أى قتلناك برى الأحجار ، أو شر قتلة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ » أى لا تمز علينا ولا تسكرم ، حتى نكرمك ونمنعك من الرجم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » أى من أمره ووحيه ودينه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا » أى نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر ، لا يعبأ به . و (الظهرى) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما قالوا : (إمسى) بالكسر فى النسبة إلى (أمس) . و (دهرى) ، بالضم ، فى النسبة إلى (الدهر) « إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ لَإِنِّي عَاطِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ » أى غاية تمسكنكم واسيطاعتكم ، أو على جهتكُم وحالكم التى أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّي عَاطِلٌ » أى على مكانتى التى كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ » أى منتظر لهلاككم . وفى زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .

قال الزمخشري : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفيّ تقديريّ بالاستثناف الذى هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فما يكون إذا علمنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستثناف ، للتفنين في البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستثناف . اهـ - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ في التحويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما في قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله ^(١) (وَعْدُهُ غَيْرُ مَكْدُوبٍ) ، وقوله ^(٢) (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى .

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى بالعذاب « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ)

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى يقيموا « فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [١١ / هود / ٦٥] . (٢) [١١ / هود / ٨١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » وهو العصا . وكانت أهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشري : هذا تجهيل لتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهى بالمسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلوا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمرشد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غى وضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » أى يوردهم . وإشار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذى يردونه . ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - وهو النصب من الماء - إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد الكبد ، والنار على الضد من ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَبْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ)

« وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ،
فهى تابعة لهم ، أين كانوا . ذ (يوم) معطوف على محل (فى) هذه ، لا ابتداء كلام .
« يَبْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى ببس العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى » أى المهلكة « نَقِصُهُ عَلَيْكَ » أى بالوحي « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى ومنها عافى الأثر كالزرع المحسود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)
« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبه
من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » أى إهلاك وتخسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ)

« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ » إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فيه

إشمار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين ، التي لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظلم نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما قص في هذه السورة ، أوفى أخذ الظالمين « لَآيَةً » أى لعمرة
« لِمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ)

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ » أى لمدة محدودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى (١) :
(لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفس مع صوت ممدود ، والشهيق : رده . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يملو معه النفس غالباً .
أو شبه صراخهم بأصوات الحير .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ
فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا
يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ » أى غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفي التوقيف بـ (السموات والأرض) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : (ما أقام ثبير) ،
و (ما لاح كوكب) و (ما طاب البحر) ونحوها : لا تعليق قرارهم في الدارين بدوام هذه
السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأييد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها ، إذ لا بد لأهلها من مظل ومقل . قال تعالى (١) :
(يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) وقوله (٢) : « وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟
فالجواب : ما قدمناه في قوله تعالى (٣) : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ) يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أساليب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٨] .

والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الداعة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .
وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعني أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكل إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام كقوله : (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)^(١) فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .
ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نعمة ، وما أعد لهم من عذابه قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ » أى في شك من عبادتهم ، في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم . وفيه تسليّة له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ » أى فهم سواء في الاشرار ، وقد بلغك ما نزل بأبائهم ، فسيحلّ بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهي عن المرية .
« وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ » أى من العذاب ، كما وفي آياتهم « غَيْرَ مَنْقُوصٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتَلَفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى (١) : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَأِنْ كُذِّبُوا لَيُؤْفَقِينَ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَأِنْ كُذِّبُوا لَيُؤْفَقِينَ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فلا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزئهم عليه . والتنوين فى (كُذِّبُوا) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تنبية :

فى هذه الآية قراءات : قرئ (إن) و (لما) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما) ، وبمعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : فيها إعمال (إن) الخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى (لما) لأمر الابتداء ، داخلة فى خبر (إن) . و (ما) إما موصولة بمعنى (الذين) واقمة على من يعقل ، واللام فى (ليؤفقيهم) جواب قسم مضمرة . أى : وإن كُذِّبُوا للذين ، والله ! ليؤفقيهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما) . أى : وإن كُذِّبُوا لخلق ، أو

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

لفريق ، والله ! ليوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان ، واتفقا في اللفظ ، فصل بينهما بـ (ما) ، فهي زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هي الفارقة بين الخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيذاً .

وأما الثانية : وهي تشديدها ، فـ (إن) على حالها ، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و (لما) بمعنى (إلا) أو جازمة بمعنى (لم) ومجزؤها محذوف . أى : لما يعملوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها .

وأما الثالثة : وهي تخفيف (إن) وتشديد (لما) ، فـ (إن) مخففة عاملة كما تقدم ، و (لما) بمعنى (إلا) أو جازمة أيضاً . أو (إن) نافية بمنزلة (ما) و (لما) بمعنى (إلا) و (كلاً) منصوب بمضمر ، أى : وما أرى كلاً إلا .

وأما الرابعة : وهي تشديد (إن) وتخفيف (لما) فواضحة . فـ (إن) هي الشدة عملت عملها .

والكلام في (اللام) و (ما) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في (اللام) والثلاثة في (ما) .

وثبتت قراءات آخر فلتراجع في (السمين) وغيره .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » أى في القرآن ، و (الكاف) للتشبيه ، أو بمعنى (على) « وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أى من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا » أى تجاوزوا حدود الله « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصي . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ » أى أنصار ينعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » أى لا ينعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادة المشركين المحاذين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة في الصدد عن سبيل الله ، لأن ذلك يناقى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينعس في حماه ؟

تنبية :

قال بعض المفسرين البنانين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟
فروى عن ابن عباس والأصم أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شيء من دينكم .
وقيل : رضوا بأعمالهم - عن أبى العالية - .
وقيل : تلحقوا بالمشركين - عن قتادة - .
وقيل : تداهنوا بالظلمة - عن السدى وابن زيد - .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمة أولى . قال الزمخشري : النهي يتناول الانحطاط فى هواهم ، والانتقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيين بزيهم ، ومد العين

إلى زهرتهم ، وذكركم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : (وَلَا تَرَوْا كُنُوزًا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : (إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ ! انتهى .

قال البيهقي : قد وسع العلماء في ذلك وشدّدوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استعانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء ضرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيئاسهم وإقرارهم فلا . انتهى - .

وأقول : كل هذا مبنيّ على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركى مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ » أى غدوة وعشية « وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ » أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . من (أزلفه) إذا قربه ، وأزدلف إليه . وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشية : الظهر والمصر ، لأنهما بعد الزوال عشية ، وصلاة الزايف المغرب والعشاء - كذا فى الكشف - .

والآية كقوله تعالى (٣) : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ)

في جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغا غاية اللطف في بلاغة الإيجاز . وانتصاب (طرفي النهار) على الظرف لإضافته إليه . و (زلفا) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كزغيف وزغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ماتقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ (زلفي) كحلي ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بمعطفه على (طرفي النهار) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على (الصلاة) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أي اقترب .

و (من الليل) صفة زلفا - كذا في العناية - .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أي التي من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أي التي قلما يخلو منها البشر ، أي يكفرنها . « ذَلِكَ » أي إقامة الصلوات في الأوقات المذكورة ، « ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ » أي ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لمعظمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنني عاجلت امرأة في أقصى المدينة ، وإنني أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا . فاقض فيّ ما شئت ! فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يرد النبي ﷺ شيئا . فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة - أخرجه البخارى^(١) وغيره .

وفى رواية عن أبى أمامة^(٢) قال له ﷺ : أتمت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تعد . وقرأ الآية .

وفى رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول ثبوتها ، بنزولها المتقدم ، لا وقع ، لأنها كانت سبباً فى النزول - كما بيناه غير مرة - .

وفى الصحيح^(٣) عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يحو الله بها الخطايا . ورواه البخارى أيضاً عن جابر ، ورؤى نحوه عن عثمان وسلمان .

والإمام أحمد^(٤) عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

(١) أورده البخارى ، موجزاً ، فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٦ - باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذى ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم فى صحيحه فى ٤٩٠ - كتاب التوبة ، ٧ - باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ - باب الصلوات الخمس

كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وله عن أبي ذر^(١) مرفوعاً (إذا عملت سيئة فأتبعتها حسنة تحبها) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال (هى أفضل الحسنات) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البر .

لطيفة :

أشار القاشانى عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس فى أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه من الهيئات الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور ، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والسكينة بالصفاء - فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يرد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، وداراً للأمين الغرور ، التى تدخل بها الظلمة لئلا يذهب النور الوارد آثار ظلماتها ، ويكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) :

وقد ورد فى الحديث^(٢) (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفى النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيئة النورية ، فى أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى ٢٠ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها في الليل ، وهي تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني ، وتبجزها عن شأنها الخاص بها ، الذي هو مطالعة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لمارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتكدرها بالغشاوة - احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : (وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ) . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَاصْبِرْ » أى على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله ^(١) : (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) ولا مانع من شموله للكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى في أعمالهم فيوفيه أجورهم من غير بخس . قال أبو السمود : وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصوره بصورة ما يتمتع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة ، مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب في (الغاية) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ ، وإن كانت عامة في المعنى ، وفي النهيات جمعت للأمة . وقوله تعالى :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

« فَلَوْلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكن قليلاً ممن أنجيناهم من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي .
لطيفة :

(البقية) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من الرأى والعقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالديحة . وأطلق على الفضل (بقية) استمارة من البقية التى يصطفىها المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : (فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا) ، و (فلان من بقية القوم) أى من خيارهم . وجوز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سطخه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ما صاروا مغممين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء . و (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشري على الثانى ، لأنهم المقصود بالنهى قبله ، حيث قال : أراد به (الذين ظلموا) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا همهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التعمم والتترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنىء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

«وَكَاْنُوا مُجْرِمِيْنَ» أى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى ، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » أى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و (بظلم) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أى استحالة فى الحكمة أن يهلك القرى ظالماً لها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون ، يتماطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومساعدته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : (يبقى الملوك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم) وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولاً ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً - يقضى بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإفلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الانعاط ، غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه - كذا أشار له أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى مجمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » أى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» أى لكنّ ناساً رحمهم بهديتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا فى المذهب والمقصد ، ووافقوا فى السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

وقوله تعالى : « وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » فى المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمره الاختلاف ، من كون فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، خلقهم . واللام لأم العاقبة والسيورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى ^(١) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها بـ (أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير . وتكون الإشارة لائنين ، كما فى قوله ^(٢) (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزوّ إلى ابن عباس رضى الله عنهما . وإن كان الضمير (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق - كذا فى العناية - .

وأشار القاشانى إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستمد كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمراً وصنعة ، ويستتب بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يعميش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٦٨] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هذه : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من (الْجِنَّةِ النَّاسِ) عصاتهم ، والتعريف للمهد ، والقرينة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ (أَجْمَعِينَ) حينئذ ظاهر ، وإن لم يحمل على المهد ، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه ، موكولاً إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ (أَجْمَعِينَ) تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) إذ فيه رد على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار - كذا فى العناية - . ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم - أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

«وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» أى تقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسل من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و (كَلَّا) مفعول (لنقص) و (من أنباء) بيان له . و (ما ثبت) بدل من (كَلَّا) أو خبر محذوف .

« وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتصة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجملوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

« وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يتمظون ولا يتذكرون « اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ما جاءنا والانتماظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« وَانْتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى ما وعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعده . ونصر عبده ، فله الحمد وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبي ﷺ ، وتهديد للكفار بالكفر بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحية فى قراء الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت وم . أى فيجازى كلاً بما يستحقه - والله أعلم - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢ - سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .
قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله ^(٢) : (وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبأهم . وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ما فاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و (يوسف) اسم عبراني ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه (راحيل) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولدأ سمته (يوسف) وقالت : يزيدني به ربى ولدأ آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقي في (الدلائل) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

«الر» تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التعميد ، والإشارة في قوله : «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» إلى آيات السورة ، نزل ما بعده ، لكونه مترقياً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة في (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرها وإعجازها ، إن أخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أخذ من التعمد فالفعل مقدر ، أي أنها من عند الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» أي الكتاب المنعوت بما ذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي لكي تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى ^(١) : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . أو لتستمعوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيهام . أو (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بإنزاله عربياً ، ما تضمن من المعاني والأسرار ، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمه حكماً وعبراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإيحاءنا إليك « هَٰذَا الْقُرْآنَ » وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ « أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه . قال القاساني : هذه من المنامات التى تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى السكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أبى ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرهما لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتاً) فحذف الألف ، وبقي الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التمييز . وقوله : (رأيتم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله ^(١) : (أَيْمِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ) . وإنما أجريت مجرى العلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود . قال المهاييمى : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أرَ مَنْ تمرض لهيئة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولمذبوبة المصغر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أى فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلاً عظيماً متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أى ظاهر المداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشانى : هذا النهى من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلاً ،

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٣٥] .

حتى يقع العلم به كما هو ، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوباً . ويسمى هذا النوع من الإلهام ، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه ، فنهاء عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) . قال الكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربي : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة ، تحرز من الحسود . وهذا داخل في قولنا : إن الحسن إذا كان سبباً للقبیح فبح . ومنه آية الأنعام^(١) : (وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

الآيات المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالي في (منهاج العابدين) والديلمى في كتاب (التصفية) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينسكروا بزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى . ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] .

قال السيد ابن المرتضى اليماني في (إيثار الحق) : مما زاد الحق عموضاً وخفاءً خوف المافرين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح الحق عدواً لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبل في الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمار به ، وتقديره عليه ، ونزلت فيه ^(١) : (إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) . وقد صح عن أبي هريرة ^(٢) أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثنته لكم ، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . قال الغزالي في خطبة (المقصد الأسنى) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحاشى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعاضى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإرادة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، بصطفيك للنبوّة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير المفامات ، وإنما سمي التعبير تأويلاً ، لأنه جعل المرثى آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إِمَاحِدِث مَلَك أَوْ نَفْس أَوْ شَيْطَان .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ » أى بما سيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه ، وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَا أَنْهَأَ عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتماع « حَكِيمٌ » فى صنعه .

تنبيهات :

الأول - قال أبو السعود ؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاق منها ، مما هو أنفسي كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المايينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين السكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجرى أحكامه .

الثانى - استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث - قال المهايى : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بِمَينِهِ ، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ؛ وأن لكل حادث تأويلًا عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصفار ، وإن كان من عالم الخيال ، إذ تصور المخيلة معاني معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعاني ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

بحث في الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) في بحث (الفراسة) ما مثاله :
ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال ^(١) لنبيه ﷺ : (وَمَا جَمَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) . وقال ^(٢) (إِذْ يُبَيِّنُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ ...) الآية - وقال ^(٣) في قصة إبراهيم : (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) وقوله ^(٤) : (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لسكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسبان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، ولتمييز بين السمكات الروحانية والجسمانية ،

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٨ / الأنفال / ٤٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٤] .

ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا ، وفيهم من تصح رؤياه . ثم من صح له ذلك ، منهم من يُرْسَح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل العبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام ^(١) : (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حدقاً فيه ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، في ذاتها الروحانية ، لمحمة من صور الواقعات . فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحمة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جليّ بالمحاكاة ، والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير . وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللحمة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تمقللاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، حديث

٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن . ومنه خاص ، كالذى للأولياء . ومنه عام للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي ، وهى عند ما يمرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرويا بأنها (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) - وفي رواية (ثلاثة وأربعين) ، وفي رواية (سبعين) وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم في رواية (ستة وأربعين) من أن الوحي كان في إيمته بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عامّاً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذى هو جبلى لهم ، فتتمرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من البشراب فقال^(١) : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال (الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له) .

(١) أخرجه البخارى في : ٩١ - كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره - وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتمثل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المباشرة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطة .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بما يدركها من التعب والكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة . وإنما يكون ذلك بانخفاص الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما ينفش البدن من البرد بالليل ، فقطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانى ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تكون معقادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك يادرا كما الروحانيّ ، لأنها مفطورة عليه . وتقبس من صور الأشياء التي صارت متملقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المهيودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي - أضغاث أحلام .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال ^(١) : (الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ، لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل . هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيمها من النوم . وهي خواص للنفس الإنسانية ، موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا بد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم ، فلا يمتنع في غيره من الأحوال ، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة في كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث (علم تعبیر الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً في السلف ، كما هو في الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، وعن أبي بكر رضي الله عنه . والرؤيا مدركة من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركة ، وألقاه إلى الخيال فصوره ، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء . ومن المرئى ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبیر ، لجلائها ووضوحها ، أو تقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تقمة سابعة ، انظرها ثمة .

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢٦ - باب القيد في

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « آيَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلِّسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقٍ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانى : أى آيات معظمت لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسمى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ ، فيملكون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشرٌ ، فيقوى بيقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهنى ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم ، وتشجذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال - عشرة فصاعداً - سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

«إِنَّ أَبَانَا لَكَيْفَ ضَلَّالٍ مُبِينٍ» أى ذهب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضل بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من الخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

«اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا» من مقول قولهم المحكي قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيدهم ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعد ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء . وتفكير (أرضاً) وإخلاؤها من الوصف ، للإيهام . أى في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه بدل على إقباله عليهم بكلية ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم . «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه «قَوْمًا صَالِحِينَ» أى تائبين إلى الله عما جنبتهم ، فيكون صلاحكم فداءً عن ممصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول - قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيمة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ، والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم !

الثانى - قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكر سوى قوله تعالى ^(١) : (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللمجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أى صريحاً ورضى به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف ممها سد باب الصلاح . وإنما أظهره فى مكان الإضمار استجلاباً لشفتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و (الجب) : البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأقوام الذين يسIRON

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

في الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سد باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رؤوين) .
ولما تواطأوا على رأيه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم نخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه - كذا فى الكشف - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب ، والسمى والنشاط ، حيث يكون الخضر والمياه والزرع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملا له القاطع انشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشري : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقتة إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبهم ، أو قلّ به اهتمامهم ،

ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما

حزنه لمفارقتة ربها يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل ، فأمر سهل . فكلّاهم لم يشتغلوا

إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى - أى فيما حكى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَايِرُونَ)

« قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى جماعة أقوياء ، يمكننا أن نزرعه من

يد الذئب « إِنَّا إِذَا لَخَايِرُونَ » أى هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون

لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتَنْبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه « وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَلُوهُ فِي غِيَابَةِ

الْجُبِّ » فيه تمظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا

مأمكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَنْبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا » أى أعلمناه بالفاء فى روعه ،

أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحذيرهم بما فعلوا بك .

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متعلق بـ (أوحينا) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء فى (لتبينهم) ، أى : لتحدثهم بذلك ، وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك ، كما سيأتى فى قوله تعالى ^(١) : (فَمَرَّ بِهِمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدد ، يأكلون ويلهون إلى المساء .

وجواب (لما) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل : الجواب (أوحينا) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهوم موته القاطع عنه متمناه ، لتقطع محبته عنه ، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا ، يبكئهم وتفجهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ

الدَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى فى العدو والرمى بالنصل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

(١) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا « أَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَزْوَادِ وَغَيْرِهَا لِيَحْفَظَهُ » فَأَكَلَهُ الذُّبُّ « أَى كَمَا حَذَرْتُ .

وقوله تعالى: « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تُلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه . يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً - نقله ابن العربي - .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتعمير الأعضاء

على التصرف - كذا في الإكليل - .

قال بعض اليمانيين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفسقة .

وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القمار ، فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالناضلة بالنسي ،

والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية . رجع

الجواز ، إن كان بغير عوض ، أو بموض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١) صارع

يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت ^(٢) : سأبت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقت في المرة الأولى ،

فلما بدنتُ سبقتي وقال : هذه بتلك .

وفي الحديث ^(٣) : ليس من الله ثلاث : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٢١ - باب في العائم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥٠ - باب حسن معاشررة النساء ، حديث

رقم ١٩٧٩ (طبعنا) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عتبة بن عامر ،

في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢٣ - باب في الرمي ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » ييان لما تأمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قيصه الموشى ، وغمسوه في دم مَعِزٍ كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ (جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افترؤا) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغيب يوسف ، وتفرقه عني ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقوّاه على اتهمهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولاً ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ) ، وكثيراً ما تتفق الأعداء الباطلة ، من قلق في المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى (الإكليل) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : (بَلْ سَوَّلَتْ ...) الآية .

لطائف :

قال المهيمن : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كاللأل ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى المكرب بالحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلًا يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبياً ، يُخلق أولاً على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغنى من القدر .

قيل للهدد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

(و) (التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن . « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً ، أى فشأنى صبر جميل . أو فصبر جميل أجل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عرضت ، والجمل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى المبودية . « وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف - كذا قدروه - وحق أبو السمود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه عَلمٌ في الكذب . قال سبحانه^(١) : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وهو الأليق بما سيحىء من قوله تعالى^(٢) : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه - يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى . قال الرازى : لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهى قوية . والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إغاثة تعالى ،

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٨ و ٨٣] .

لم تحصل الغلبة . فقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يجرى مجرى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . وقوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) يجرى مجرى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . انتهى .
ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف في الحب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ ،
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ »
أى أرسلها في الحب ليلأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا
غَلَامٌ » وقرئ (يَا بُشْرَى) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى .
ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء في هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد
القصة . فإذا قلت : يا عجبا ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و (الغلام) : الطار الشارب . أو من ولادته إلى أن يشب . والتنوين للتعظيم .

« وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه مقاعاً للتجارة . ف (بضاعة) حال . وفى (الفرائد) :
أنه ضمن (أَسْرُوهُ) معنى (جَعَلُوهُ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو
مفعول له . أى : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة
وافرة من المال تقضى للتجارة : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

في (أَسْرَوْهُ) و (شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجار من بلدة مدين، فلما أصعدوهم يوسف، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين ذهما من الفضة، ثم أتوا بيوسف إلى مصر. و (دراهم) بدل من الثمن. و (المعدود)، كناية عن القليل، لأن الكثير يوزن عقدهم. و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه.

فوائد :

قال في (الإكليل)، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك. ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنَّ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته. وأن ثمن الحرّ حرام. قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً، وهو لا يملك، إذ لو ملك استوفوا ثمنه.

قال بعض الزيدية، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية، كما أن ظاهره الإسلام. اهـ.

قال المهايغي : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره. وأن الشيء الخطير قد يمرض فيه ما يهونه. وأن البشري قد يعقبها الحزن، والعزة قد يعقبها الذلة، وبالعكس. اهـ.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)
« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »
يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسر له من اشتراه في مصر ، فاعتنى به ، وأوصى أهله ، وتوسم فيه الخير والصلاح . ومعنى (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) اجعلي مقامه حسناً مرضياً . (المثوى) محل الثواء ، وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مَثْوَاهُ كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام في بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه . فكان يرى سيده أن كل ما يأتي به ينجح به الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيماً على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة في زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، ووجاهة في أهلها ، ومحبة في قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك ، وتقضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمنَعُ عما يشاء ، رلا يُنَازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويدرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أولاً يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك المبودية . ومعنى (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول: بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و (الحكم) إما الحكمة ، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس . قال الزمخشري : وفى قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متقياً فى عصفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبابه ، آتاه الله الحكمة فى اكتماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَأَوْدَتُهُ أَلْتِي هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)
« وَرَأَوْدَتُهُ أَلْتِي هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثنواه ، من مراودتها له وإيائه .

والمرادة : المطالبة. أى : طلبت منه أن يواقعها. وتمديتها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر. وإيراد الوصول دون امرأة العزيز، لتقرير المرادة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على ما لا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام - كما سيأتى-.
(هَيْتَ) قرئ كـ (لَيْتَ وَقِيلَ وَحَيْثُ) ، وبكسر الهاء وبهمزة سا كنة بعدها ، وفتح التاء وضمتها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول أى المخاطب . ونقل عن الفراء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فكلّموا بها .
قال ابن الأثيرى : هذا وفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم فى (القسطاس) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللَّهِ » منصوب على المصدر. أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيني إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما أوّمت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .
قال أبو السعود : وهذا اجتلاب منه على آتم الوجه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان الثّير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السوء .
وقوله : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الداتى الذى تكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيدان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل : إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تمهدى ، حيث أمرك يا كرامى ، فكيف يمكن أن أسمى إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و (رَبِّي) خبر (إِنَّ) ، و (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاختصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعت إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتها ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم ، كائنًا من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والمصاة لأمر الله تعالى ، دخولاً أولياً . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللعزنى بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى - أن الواجب عند الدعاء إلى المصيبة الاستعاذة بالله من ذلك ، ليمصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية - أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

الثالثة - أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب . وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخل بالمكافأة عليه ، كان ظالماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ

عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (الهم) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإجماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إفضائه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم هان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهم بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى في الصدور ، ونصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان .

روى الشيخان^(١) وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أى بمخالطته ، أى قصدها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بمد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتفليق الأبواب ، ودعوتها إلى الإسراع إليها بقولها (هَيْتَ لَكَ) مما اضطره إلى الحرب إلى الباب . ومعنى قوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهم بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعي . ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة

والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٢ و ٢٠١ (طبعتنا) .

قال أبو حيان : ونظيره (قارفتَ الإثمَ لولا أن الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يتم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهيم أصلاً . وقيل : جواب (لولا) لنشيتها ونحوه . فغنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي : من أنه خطا الشيء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم في الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكلمة الفائقة حسناً وجمالاً ، تنهياً للشباب الناضج القوي ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلاً جبلياً ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لأنه قصدها قصداً اختيارياً . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبي عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه - عليه السلام - تسجيلاً محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . واعد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلزَمَ في قرآن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالخاطلة ، أو هم كل منهما بالآخر . وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعمو أثره من قوله عز وجل : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه في حد ذاته أقيح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بمدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلىة ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلىة ، لكانوا إما ملائكة أوعالاً آخر . وأما كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسى .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبمقدم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لنزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحبشة للسفهاء على انتهاك حرمت الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى .

هذا وقد ألقى هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ، ما تلقوه من أهل الكتاب ، ومن المتصوّلين ، من تلك الأقاصيص المختلفة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أزه تأليفى عن نقلها ، بردها ، وكأها - كما قال العلامة أبو السعود - خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لا كها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزخشرى ، فجود الكلام فى ردها ، فليَنظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .
 و(السوء) : المنكر والفجور والكره . (والفحشاء) : ما تنهى قبحه
 قال أبو السعود : وفى قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ ...) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة
 على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقليل :
 لنصرفه عن سوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه
 من موجبات العفة والمصمة . فتأمل .
 و (المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين
 أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل : إن كل من له دخل فى هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد
 الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ ...) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله : (هِيَ رَاوَدَتْنِي) ونحوه ،
 وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله :
 (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
 الْمُخْلَصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُغْوِه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى .
 عفا الله عنهم !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ...) الخ ، وقوله : (كَذَلِكَ) الخ ،
 اعتراف جى به بين المطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ،
 واستبقا الباب ، أى قصد كلٌ سبق الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى
 لتمنعه من الخروج ووحد (الباب) هنامع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البرانى الذى منه المخلص .

« وَفَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبت من خلفه فانقادت ، أى انشقت قميصه .
 « وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادفها بملها ثم قادماً .
 « قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة
 لساحتها ، وإغراء عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ
 قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)
 « قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ
 قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّه منه أماره الدفع عن نفسها به ، أو تمثره
 فى مقام قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
 « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أماره إدباره
 عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن
 انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أماره لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو
 قدّه من قُبُل ، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد
 الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أماره على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أماره على صدقه
 المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أماره على صدقها ، على أماره صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ،
 ووثوقاً بأن الأماره الثانیه هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم -

هى التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله ^(١) : (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَمَكِيدُ كَذِبِهِ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَمَعْضِ الَّذِي يَعِدُكُمْ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، لإزاحة للتهمة التى خشى أن تتطرق إليه فى حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثانى وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيرهُ فى الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال : (بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتى ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)
 « فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ »
 بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً فى النفس ، ولهن فيه نيفة ورفق ، وبذلك يفلن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتاج بالآية من يرى الحكم بالآمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُّقطة والسرفرة والوديعة ومماقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ)
 « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » نودى بحذف حرف النداء ، لقربه وكال تطفنه للحديث .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .
« وَاسْتَفْرِى لِدَنِّكَ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برى منه .

« إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليياً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً ، إذا اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير : أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال : إنه كان قليل الخيرة . قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجذب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها - أثراً فى أخلاق البشر وأبدانهم - انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة - وهى مصر - بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و (الشغاف) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا نَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإفحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤىة وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَيِّاتٍ وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) « فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتياهن ، وسوء قائلتهن . استعير (المكر) (للفيعة)

لشبهها له فى الإخفاء . أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكرأ بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيات ، « لَهُنَّ مُتَكَيِّاتٍ » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشري : قصدت بذلك الهياة - وهى قمودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن - أن يدهشن ويُبَهَتْنَ عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتسكى إذا بُهِتَ لشيء وقعت يده على يده ، فتبكنهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمته ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتمجّبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما تفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك ، كإركز فيها ألا أتبج من الشيطان . ولذلك يشبه ، كل متناء في الحسن والقبح ، بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَا لِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ،

وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَتْ فَذَا لِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالبا للعصمة ، مستزيدا منها .

قال الزمخشري : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ، لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمم والبرهان . انتهى .

« وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَبَنَّ » أى ليعاقبن بالسجن والحبس « وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَضَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » أى من مواناتها ، لأنه مشقة قليلة ،

تعبها راحت أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَالَّا تَصْرَفُ عَنْي كَيْدَهُنَّ»
يعنى : ما أردن منى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أى أَمِلْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية «وَأَكُنْ مِنْ
الْجَاهِلِينَ» أى بسبب ارتكاب ما يدعوننى إليه من القبيح .

قال أبو السمود : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى أُلطاف الله تعالى ، جريا على سنن
الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ،
وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن
لا طاقة له بالمداومة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . لأنه يطلب الإجبار والإلجاء
إلى العصمة والمفة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هوان . انتهى .

قال القاشانى : وذلك الدعاء هو سورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أى أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أى أبده
بالتأييد القدسى ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ »
أى لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أى بما يصلحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ » أى ظهر للعزيز وأهله ، « مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ » أى الشواهد على
براءته ، « لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أى إلى مدة يرون رأيهم فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فساكناه مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألها عن شأنهما ، فذكر له أنهما رآيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ فصا على ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأن بين يدي وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حواري ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعمى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رآياه سهل التأويل ، لوجود مثاله في المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلية ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب السكينة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلحكما . والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول : يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدهانه كذلك . وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولها : (نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِهِ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤى المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحي والإلهام ، لا من التيسر والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً حجة ، ما سماء شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِإِثْمٍ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »
 هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحي والإلهام، أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين. أو كلام مستأنف، ذكر تمهيداً للدعوة، وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه، والوثوق به. والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً، كما يفصح عنه قوله : (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا، فضلاً عن الوقوع. وإنما عبر عنه بذلك، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام. والتخصيص بهم، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً، لأنه يثبت بالطريق الأولى. أو المراد نفي الوقوع منهم لمصمتهم. وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم، وتأكيدهم كفرهم بالآخرة. وزيادة (من) فى المفعول، أعنى (مِنْ شَيْءٍ) لتأكيد العموم، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء، قليلاً أو كثيراً، صنّاً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك.

وقوله : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يعنى عدم الإشراف بالله، وهو التوحيد، من نعم الله العامة، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية.

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها.
 ولما ذكر، عليه السلام، ما هو عليه من الدين القويم، تطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام، ف ضرب لها مثلاً يتضح به الحق حق انتصاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرَّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرَّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للعودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبي فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولاً به . أى : أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالاب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التمصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته ، حسنة في نفسها ، فهو ليس مُحَدِّثَ الحسن . انتهى .

وفي قوله : (أَأَرَبَابٌ مُتَفَرَّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لمهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة ، كذلك في عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سوام في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ » يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها « إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بمبادئها ، لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة ، « ذَلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبية :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبیر رؤياهما ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوها إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ، وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما سقما جله مقيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزخشرى : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك ، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفقاء واحد منهم ، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم ، فوصف نفسه بما هو بصده - وعرضه أن يقتبس منه ، وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتها إليه ، وبيانها لها مرتبة علمه ، شرع في تفسير ما استفسراه . ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

« يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويلقى على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . معنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتميز عنه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلاً لأمره ، وتفخياً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم ، المبهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما في ذلك ، لما أنهما بصده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساق : (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للامنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادى أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستمانه بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى ^(١) : (وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى ^(٢) : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ) . وفى الحديث ^(٣) : (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) . وجلى أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشرى ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى - فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جداً ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [٥ / المائدة / ٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٢] و [٦١ / الصف / ١٤] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ (طبعنا) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلا عن الحسن وقتادة . قال : وهذه الرسائل هاهنا لا تقبل ، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، في غير هذا الوطن . - والله أعلم - انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » يعنى : فشفله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها . ولأهل اللغة أقوال فى (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ المقد ولا نصفه ، أى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هياه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى الملك : « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً آخر يابسات دقيقة ، أى نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر ، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطاب للأشراف من قومه ، وكان دما ، إثر استيقاظه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ)

« قَالُوا » أى الملائكة للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع (ضغث) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُرِّمَ ، ثم استعير لسا تجمعه القوة التخيلية من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وترىها فى المنام . و(الأحلام) جمع (حلم) ، وهو ما يراه النائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشئ الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث ^(١) ؟ الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشقى : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنّها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ » يعتمل أن يريدوا بـ (الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يمتروا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول بصيره من وادى :

* على لا حيب لا يهتدى بمناره *

(١) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ١٠ - باب من رأى النبى ﷺ فى

المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كَانَهُمْ قَالُوا : وَلَا تَأْوِيلَ لِلْأَحْلَامِ الْبَاطِلَةِ ، فَتَكُونُ بِهِ عَالِمِينَ . وَقَوْلَ الْمَلِكِ لَهُمْ أَوْ لَا : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي عِلْمِهِ عَالِمِينَ بِهَا ، لِأَنَّهُ أَتَى بِكَلِمَةِ الشَّكِّ ، وَجَاءَ اعْتِرَافُهُمْ بِالْقُصُورِ مُطَابَقًا لَشَكِّ الْمَلِكِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ اسْتِغْنَاهُمْ عَنْ كُونِهِمْ عَالِمِينَ بِالرُّؤْيَا أَوْ لَا . وَقَوْلُ الْفَتَى : (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) إِلَى قَوْلِهِ (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا » أَيْ مِنْ صَاحِبِ السِّجْنِ ، وَهُوَ السَّاقِ : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أَيْ تَذَكَّرَ بَعْدَ مَدَّةٍ . وَكَانَ تَذَكُّرُهُ ، عَلَى مَا رَوَى ، بَعْدَ سَنَتَيْنِ « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أَيْ أَخْبَرَكُمْ بِهِ بِالتَّلَقُّي عَنِ عِنْدِهِ عِلْمُهُ ، لَا مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : أَنَا أَفْتِيكُمْ فِيهَا ، وَعَقِبَهُ بِقَوْلِهِ « فَأَرْسِلُونِ » أَيْ فَابْعَثُونِي إِلَى يَوْسُفَ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهُ ، ثِقَةً بِمَا سَبَقَ مِنَ التَّذَكُّرِ ، وَمَالِحِقَ مِنْ قَوْلِهِ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أَيْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : يَا يَوْسُفَ ! وَوَصَفَهُ بِالْبَاطِلَةِ فِي الصِّدْقِ ، حَسْبًا ذَاقَ أَحْوَالَهُ ، وَتَعَرَّفَ صِدْقَهُ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ ، وَرُؤْيَا صَاحِبِهِ ، حَيْثُ جَاءَ كَمَا أَوَّلَ ، لِسُكُونِهِ بِصَدَدِ اعْتِنَامِ مَعَارِفِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَابِ بَرَاءَةِ الِاسْتِهْلَالِ « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أَيْ فِي

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعمير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفي قوله : (أَفْتِنَا) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملازمة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَالَى أَرْجَعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبت الكلام ، بل قال (لعل) و (لعلهم) مجازاة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

* لعل النايا دون ما تعدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه - أشار إليه أبو السمود - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

[٤٨] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخَصِصُونَ)

[٤٩] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ)

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفقتم لهن من الحبوب

المتركة في سنا بلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئي في المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلي - أى يؤكل فيها - كما في : (نهاره صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ » أى تحرزون وتخبثون للزراعة .

« ثُمَّ بَأْنَى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدة ، وأكل الفلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يطرون من الغيث ، أو يفتنون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوها .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (العصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب ، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أخر غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستغنى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارته له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبها على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يَعْصِرُونَ) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرة . قال الزمخشري : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين خصبة ، والمعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

تنبيه .

قال فى (الإكمال) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عاماً فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفي قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والقوى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوْنِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوْنِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملًا ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جراءة عليه ، وربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزخشرى : إنما تأتى وثبتت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلى به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويحملوه سلباً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويمذب ، ويستكف شره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها . قال عليه السلام ^(١) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

موافق التهم . ومنه قال ^(١) رسول الله ﷺ للمارّين به في معتكفه ، وعنده بعض نسائه : هي فلانة ، اتقاء للثمة .

وعن النبي ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات المجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : (ارجعْ إِلَى رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرته الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان حلماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى في المسند والصحاحين ^(٢) مختصراً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي - مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة ، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بامرأة العزيز همّاً يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه ، فَلَاَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجسدر - أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقي منها ما لقي ، من مقاساة

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ - باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبي ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) : وأخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١١ - باب قوله عز وجل : وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ (طبعتنا) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحتراراً عن مكرها ، حيث اعتقدتها مقيمة في عدوة العداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستمعن ، ولذلك اقتصر على وصفهن بقطع الأيدي ، ولم يصرح براودتهن له ، وقولهن (أطلع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » . يعني ما كدنه به . وفي إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لمن على كيدهن ، وأنه تعالى مجاز عليه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فإذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن - أي شأنكن - إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعني : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أي قبيح . بالئن في نفى جنسه عنه بالنكير ، وزيادة (من) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أي في قوله : هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشري : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة ، والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى - * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) « ذَلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .
« وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يسدده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسي مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته . أو تمنى : أنى ما أبرئ نفسي من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأماراة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالمصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ...) الآية - على أنه حكاية قول امرأة العزيز - قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردى فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرد بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سواه . والمعنى : ذلك الثبوت والتأني والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ،
 أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى
 خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ،
 ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزيكياً ، وبجالتها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن
 ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : (وَمَا أُبْرِي^١
 نَفْسِي) أى لا أترها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أركبها ، فإن النفس
 البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى
 يعصمها من الوقوع فى المساوى* .

هذا خلاصة ما قرره على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى
 وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه
 السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك - والله أعلم - .

لطائف :

الأولى - محل قوله : (بِالْغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى - وأنا غائب
 أو غائبة عنه ، أو وهو غائب عنى خفى عن عيني . أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء
 والاستتار وراء الأبواب .

الثانية - قيل : معنى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ،
 أو قمت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد
 السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لا يهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى^(١) : (يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا)
 أى فى قولهم .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذ وتسيده .

الثالث - قال في (الإكليل) : (وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي) أصل في التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة - قال الزمخشري : لقد لفتت المبطلات روايات مصنوعة - ثم ساقها - وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلات من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة - رأيت لابن القيم في (الجواب السكافي) في عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعي من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة : إنها أضعاف ما يذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثمر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع ، وكان الداعي ههنا في غابة القوة وذلك لوجوه :

أحدها - ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمده .

الثاني - أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشباب وحدته أقوى .

الثالث - أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع - أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى لغيره في وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس - أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس - أنها غير آيئة ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته في المرأة بإيائها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإياء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادني كَفْلاً في الحب أن مُنِعَتْ أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعَا

فطباع الناس مختلفة في ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إيائها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشقد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالصند بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع - أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكففته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الرغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن - أنه في دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة .

التاسع - أنه لا يخشى أن تنمى عليه هي ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة والرغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر - أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأُنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعني : قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر - أنها استعانت عليه بأئمة السكر والاحتتيال ، فآرته إياهن ، وشكت

حالها إليهن ، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال ^(١) : (وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثاني عشر - أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر - إن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف ^(٢) : (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) ، والمرأة ^(٣) : (اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنى ، فقال ^(١) : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتن به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي » أي أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه ، وكرم

(١) [١٢ / يوسف / ٣٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٩] .

نفسه ، وسعة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته - وجوز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه السلام - « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شيء . روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصة ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهْبِطاً للإمداد الربانى ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرضى ، وقد أقتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعها في إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب في عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاق به في شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يعصى أمر ، ولا ينفذ شأن في مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة - والله أعلم - .

قال بعضهم : إن من أعمى النظر في قصة يوسف عليه السلام ، علم بيقيناً أن التقى الأمين لا يضيع الله سمعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المتيصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يمضده ويُنْجِح مسماه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظمأً وشرّاً ، ولا للتنكيل به ألمّاً وضراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب - نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نتقنى أثره عند طرود التجارب ، وملاذا نمود به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، ونهيج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ » أى يوسف للملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى وتلنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشري . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يقولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالتضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصالحته ، وفى أن المتولى أمراً ، شرطه أن يكون عالماً به ، خبيراً ، ذكياً الفطنة - كذا فى (الإكليل) . قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جملة على

خزائن الأرض ، إيدانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنى عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ، وللتنبية على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . الخ . ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات ، ولم أفد عليه في كلام غيره . و (الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتحين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجزيرة ، بعيدة أميالاً عن القاهرة ، معدودة من غرائب الدنيا . دعيت لرؤياها أيام رحلتى للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقر رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن للموكم .

ففي كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادى النيل) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية أثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس ، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم ، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو) ، والثاني للملك (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « يَتَّبِعُوا مِنْهَا » أى ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجول في قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال : « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أي الذين أحسنوا عملاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أي ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به في الدنيا من التمكن في الأرض والجاه والثروة والمُلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » إشارة إلى ما وقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخضبت سبع سنين ، وأخرجت من بركتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل في كل مدينة غلال ما حولها من الحبوب ، ولما مضت هذه السبع ، دخلت السنون المجدة ، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما ، فأخذ الناس ، من سائر البلاد ، في المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها . وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب ، لتناول القحط بلادهم - فلسطين - فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنة بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بمد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقتهم إياهم في سن الحداثة ، وعدم استئمارهم في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متفكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد . قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لا بد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة ، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لجماعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلى ، ليمتحن صدقكم . ثم أخذ شمعون ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يمطوا زاداً للطريق ، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوْفِىَ الْكَفِيلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

« وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها ، أى أوفر ركايبهم بالطعام والميرة .
« قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوْفِىَ الْكَفِيلَ » أى أنه « وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى المضيفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِيْ بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِيْ وَلَا تَقْرَبُونِ)

« فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِيْ بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِيْ » أى فيما تستقبلون ، « وَلَا تَقْرَبُونِ » أى ولا تقربوني بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أى سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده ، ونجتهد فى ذلك . وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله - قاله أبو السمود - « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أى ذلك . يعنون المرادة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المرادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أى لخدمته الكياليين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعنى ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أى اجعلوها فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أى لى يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ » أى وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى حسباً أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أى أنذرنا بمنعه بمد هذا ، إن لم نأت بأخيها ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلْ » أى نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحقيق أى أخونا لنفسه مع اكتيالنا ، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أى من أن يناله مكروه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم المهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم^(١) : (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ثم ختمتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَكَمَا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ)

« وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدايته ، فرأى فضته فى قم متاعه فقال لإخوته : قد ردت دراهمى وهامى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإزالنا عنده ، ورد الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [١٢ / يوسف / ١٢]

استغزاه عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما نطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا . وقرئ على الخطاب . أى : أى شئ تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟
 « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، وغير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : (ماره) أتاه بطعام ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شئ مما تخافه « وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ » أى سهل على هذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شئ يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيه لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَ » أى لهم أبوه « لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المغالة « حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ » أى عهداً منه ، ويمينا به ، لتردته على « إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ » أى

تغلبوا كلكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : (أحاط به العدو) سدّ عليه مسالك الفجاءة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد ختمهم على ميثاقهم بتخويلهم من نقضه بمجازاته تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بهمهم لأجل الميرة التي لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً فى حق يوسف ^(١) : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَقَالَ » أى أبوم : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى اثلا يستغلت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزى متجدد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبنية لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

(١) [١٢ / يوسف / ١٣] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبيه ، واتباع البصر . وقيل :
 نهاهم لثلاث تصيبيهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة - وسيأتى بيانه - .
 « وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى لا أَدفع عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضى
 عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عز قائله^(١):
 (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وقال^(٢): (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . بل أراد بيان أن
 ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراءى محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب
 المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ،
 وهرب منه إليه . « إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء « عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

المقول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُفْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَمُقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ يُفْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى ذلك الدخول « يُفْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَمُقُوبَ قَضَاهَا » أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحي ، ونصب الأدلة ، حيث لم يمتد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ، وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧١ و١٠٢] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلو مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى - أفاده أبو السعود - .
« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى (الملل) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ،
إشفاقاً عليهم ، إيماناً بإصابة العين ، وإيماناً تعرض عدو ، أو مستريب بإجماعهم ، أو بيمض
ما يخوفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ،
لا ينفى عنهم من الله شيئاً يريد عز وجل بهم . ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى
يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكماً عن الرسل أنهم
قالوا^(١) : (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس
ونزعها وتوقفها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا ينفى شيئاً ، كما كان عليه السلام^(٢)
يجب الفأل الحسن .

تنبيه .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى هذه الآية - على ما روى عن ابن عباس ومجاهد
وغيرها - أن العين حق^(٣) ، وأن الحذر لا يرد القدر . ومع ذلك لابد من ملاحظة
الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استجباب البعد عن مضار العباد ،
والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا ينفى الحذر عنه . ثم قال : وفى (التهذيب) أن أبا على
أنكر الضرر بالعين ، وهو مروي عن جماعة من المتكلمين .
وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرها جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ١١] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب الطب ،

٤٤ - باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب

الطب ، ٣٦ - باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلاف من أين أنت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اختص ببعض الأشياء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها في بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بمأسته ، أو ما في حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعله ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله المادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هذا الحاكم ، وهو الذي ذكره الزمخشري والأمير الحسين ، وهو قول أبي هاشم ، ذكره عنهما في (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازي بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي : إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحسنه ، كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعبدل عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعمده تميم المصلحة . ولما كانت هذه المادة مطردة ، لا جرم قيل : العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيم في (زاد الماد) هذا البحث بما يشفي ويكفي ، في (بحث هديه ﷺ في علاج العين) بعد إirاده ما روى في الصحيحين وغيرها من حقيقة العين ، ومهرة تأثيرها عند العرب ، قال :

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حججاً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا في

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن المائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعثات قوة سمية من الأنفى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله المادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً . وهذا مذهب منكبرى الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الملل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا المقلد أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجمل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحترقه . ويستحي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بئناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيز به من شره . وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأنفى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشد كلفتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر . كما قال ﷺ^(١) في الأبر وذى الطفتين من الحيات : إنهما يلتصقان البصر ، ويسقطان الجبل . ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفية مجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفية الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشرعة ، بل التأثير يكون تارة بالانصل ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرق والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه^(٢) : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وقال^(٣) : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرمي الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سبيلها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النواع الإنسانية . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرف

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٢ - باب في قتل الحيات ، حديث

٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ - ٥] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيم ، عليه الرحمة .

وقال الرازي : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة ، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليتين لمجز الإنسان عن المشي عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً ، فبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغيير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بمض النفوس بحيث تتمدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بمض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتمجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل ، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فمنده لا يبق في وقوعه شك ، وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين ، كلام حق . لا يمكن رده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إماماً على الطعام ، أو في المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإزالتهم في بيته ، وحلولهم في كرامته وضيافته ، وحضورهم معه في غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بمحدثه . كما ذكر في الآية - ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فقواطأ مع فتياته ، إذ جهز إخوته ، أن يضمنوا سقايته في رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُمَا الْعِيرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه في ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسمى في إرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُمَا الْعِيرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ »

« قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذن) نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذن أكثر الإعلام ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه . (المير) : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع للإبل ، لا واحده ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة (عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، ومافيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربى : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) أصل فى الجمالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا

للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كبريت مجيئهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء سرقته ، أخذ من وجد في رحله رقيقاً . وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه ، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبقداً ، والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو .
« كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقه ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ

كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَّتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين ، نفيًا للتهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » أى دبرنا لتحقيق غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق ، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً . وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور

فطنته ، وكال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعني : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتديره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .
« نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ » أى بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إثارة صيغة الاستقبال إشاراً بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .
« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أى من أوائك المرفوعين « عِلْمٍ » أى فوقه أرفع درجة منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

« قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به .
أى : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .
« فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ » ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا « أى منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البرى .
« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أى من أمر يوسف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لما تعين أخذ بنيامين وإبناؤه عند يوسف بمقتضى فتوأم ، طفقوا يعطفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، نخذ أحداً بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإيقاظ أخيه من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشف عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبمرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموئق أبيهم ، حافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ برضاة أبويه .

وقولهم : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أى إلينا ، فأنعم إحسانك بهذه القتمة . أو من المتعبدون بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ)
« قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)
« فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى بئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد بأس .
كما دل عليه (السين والقاء) فإنهما يزدان فى المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوده بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويماذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخاطبهم سواهم . و (نجياً) حال من فاعل (خلصوا) أى : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجى (فمیل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله (١) : (وَقَرَّبْنَا نَجِيًّا) أى مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أى مخالطوك ومعاشرؤك . وإما لأنه صفة على (فمیل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحد لأنه بزنة المصادر ، كالصهيل والوحيد والنمیل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجى ، أطلق على التناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير . وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشري : وأحسن منه - أى من تأويل (نَجِيًّا) بذوى نجوى أو فوجاً نجياً أى مناجياً - أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون ، وما يقولون لأنبيهم في شأن أخيمهم ؟ كقوم تمايوا بمادهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة:

ذكر القاضي عياض في (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : فلما استنأسوا منه خلصوا نجياً ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

جوامع الحكم، ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيحاء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليقتدر القرآن ، وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فن ذلك قوله عز ذكره ، في إخوة يوسف (فلما استأسوا منه خلصوا نجياً) ، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، (رؤبين) ، « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ » أى عهداً وثيقاً فى رد أخيكهم ، وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أى قصرتم فى شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و (من قبل) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة ، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم ^(١) (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(٢) .

« فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسبب ما . « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل . ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

(١) [١٢ / يوسف / ١١] (٢) [١٢ / يوسف / ٦٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

«ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» أي : نُسِبَ إلى سرقة صواع الملك ، «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا» أي ما شهدنا عليه بالسرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم حواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به - كذا في الإكليل - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف .

«وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ» أي : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

«وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» يعنون مصر . أي : أرسل إلى أهلها فسلمهم عن كنه القصة . «وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» أي جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» أي فيما أخبرناك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

«قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أي زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشري : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة ،
لو لا فتواكم وتأييمكم .

قال الناصر : هذان الزمخشريّ إسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلاً يقول : هم في الواقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مرأ ، وأما في هذه الواقعة الثانية ، فلم يتمعدوا في حق بنيامين سوءاً ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) كما قال لهم أولاً ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلا بد من زيدٍ بسط في الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِنُ بآتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام ، وقامت عنده قرينة تؤكّد نفي التهمة وتقويها ، وهي أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى ^(١) : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهم يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشمروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تنطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم . وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة عليه - والله أعلم - .

وقوله : (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول . اهـ .

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » أى بـيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فذهب أحزانه بمرّة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحال وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدرة الأجر ، ومن الأجر المعجل تمجيد الفرّج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَتَوَلَّى » أى أعرض « عَنْهُمْ » أى عن بنيه كراهة لما جاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ا و (الألف) بدل من ياء التكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزأها . والرّزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثرًا - لأن الرّزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ، ولأنه لم يزُل عن فكره ، فكان غصًا طريًا عنده ، كما قيل (١) : * ولم تُنْسِنِ أَوْفَى المصِيبَاتِ بُعْدَهُ * وَكُلُّ جَدِيدٍ يُدْكَرُ بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقًا بحياتهما - دون حياته .

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الرِّكْبُ (أَوْفَى) حِينَ آتَتْ رِكَابُهُمْ لَعَمْرَى لَقَدْ جَاءُوا بِشَرٍّ فَأَوْجَمُوا
نَعَمُوا بِاسْقِ الْأَخْلَاقِ لَا يَخْلُقُونَهُ تَكَادُ الْجِبَالُ الصَّمَّ مِنْهُ تَصَدَّعُ
فَعَزِيتُ عَنْ (أَوْفَى) (غَيْلَانَ) بَعْدَهُ عِزَاءٌ وَجَفْنُ الْعَيْنِ بِالْمَاءِ مُتَرَعٌ
وَلَمْ تُنْسِنِ (أَوْفَى) المصِيبَاتِ بُعْدَهُ وَلَكِنْ نَكَءُ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ
وقائلها هشام ، أخوذى الرّمة وغيلان هو ذوالرّمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد (طبعة الحلبي) .

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ» وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشري : إذا كثرت الاستعبار محقت العبرة سواد العين ، وقلبت إلى بياض كدر .

« فَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعليل) بمعنى

(مفعول) كقوله ^(١) (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكه

إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ،

وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال ^(٢) : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا

تقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدر والوجوه

وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره ف قيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن

عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

(١) [٦٨ / القلم / ٤٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٤ -

باب قول النبي ﷺ (إنا بك لحزونون) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، ١٥ - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ،

وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَوْاْ تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ
مِنَ الْهَالِكِيْنَ)

« قَالُوا » أى اولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللّٰهِ تَفْتَوْاْ تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا » أى مريضاً مشفقاً على الهلاك ، « اَوْ تَكُوْنَ مِّنَ الْهَالِكِيْنَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف . واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكدوه . و (تَفْتَوْاْ) مضارع فتى ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منوباً ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله (١) :

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولوقطعمَ واراسى ليدكِ وأوصالى

أى : لا أبرح . ومعنى (تَفْتَوْاْ) : لا تزال ولا تبرح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتبجئاً إليه ، نخلونى وشكايتى . « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ » أى لمن شكاً إليه من إزالة الشكوى ، ومزبد الرحمة « مَا لَا تَعْلَمُونَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوتى رجاءهم ، وأمرهم أن يرحلوا لمصر ، ويطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) فائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

الْأَعْمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَمِنَ مَنْ كَانَ فِي الْمَصْرِ الْخَالِي؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرفوا من نبيهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » - لم يُقَلْ (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم يئأس - « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الروح ، بعد مضيّ المدة في الشدة ، وسنته في إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيّما في حق من أحسن الظن به .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَمْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولا نفهامه من القام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَمْنَا الضَّرَّ » أى : الشدة من الجذب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدرهم قليلة في مقابلة ما نمتارده . استعملوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاباً لرأفته وحنانه . وأصل معنى (المزجية) : الدفع والرمي ، فكثروا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : برّد أخينا ، أو بالإبقاء ، أو بالمساحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن الثوبة .

تنبيهات

الأول - في الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ، يبعث الشفقة ، وهز العطف والرافة ، وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم ، رقت لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يبالك أن عرفهم نفسه ، كما يأتي .

الثاني - يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث - استدل بعضهم بقوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) على أن أجره الكيل على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع - استدل بقوله تعالى : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء - كذافي الإكليل - وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف . وسيأتي في التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس - في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) حث على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسن يجزي أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه الحسن إليه . ثم بين تعالى رافة يوسف بعرفه إليهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

« قَالَ » أي يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أي شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت

وهل تعرف من خالفت ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى ^(١) : (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

لطائف :

الأولى - أبدى المهاجى مناسبة بديعة فى قول يوسف لهم : (هَلْ عَلِمْتُمْ) إثر قولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أنه يعطيهم فى الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوى ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تنكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية - قيل : من تطفه بهم قوله : (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا فى طرق الاعتذار لم يُلقفوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نقصه لم يزد على أن قال ^(٢) : (فَعَلَّمْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة - قال الرخشى : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والشكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزير ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّ يَوْسُفَ ، قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
« قَالُوا » أى : استغراباً وتمجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّ »

(١) [١٢ / يوسف / ١٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٠] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ « أَيْ : الذى فعلتم به ما فعلتم ، « وَهَذَا أَخِي » أَيْ مِنْ أَبِي .
قال أبو السعود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخيم لشأن أخيه ، وتكملة لما
أفاده قوله : (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) حسبما يفيد قوله :
« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا
يوسف ، وهذا أخى ، قد مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بالخلص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرة ، والمرة
بعد الذلة ، والأنس بقدر الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليل بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أَيْ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِ ، « وَيَصْبِرْ » أَيْ : عَلَى الضَّرَاءِ ، وَعَنِ الْمَعَاصِي ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ » أَيْ أَجْرَهُمْ . وَفِي وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ ، تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْمُنْعَوَتَيْنِ بِالتَّقْوَى
وَالصَّبْرِ ، مُوصُوفُونَ بِالْإِحْسَانِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أَيْ فَضَّلَكَ بِمَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ ، وَسِيرَةِ
الْمُحْسِنِينَ ، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أَيْ : وَإِنْ شَأْنُنَا وَحَالُنَا أَنَا كُنَّا مُتَعَمِّدِينَ الذَّنْبِ ، لَمْ نَتَّقِ
وَلَمْ نَصْبِرْ ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ،
ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أَيْ : لَا تَعْيِيرَ وَلَا تَوْبِيخَ وَلَا تَقْرِيعَ ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أَيْ :
وَإِنْ كُنْتُمْ مُلُومِينَ قَبْلَ ظَهْوَرِ مُنْقَهَى فَعَلِكُمْ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ ، إِذْ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاي عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »
 أى : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى (عليكم) من
 معنى الاستقرار ، والمعنى : ولا أترّ بكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم
 بغيره من الأيام ؟ ! فتعميره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول
 لقائه واشتعال ناره ، فبعده بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى (الدرر) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :
 الْيَوْمَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَغْبِطُنَا وَالْيَوْمَ نَتَّبِعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبِعًا
 ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) .
 وقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى
 بالمغفرة والرحمة لهم ، وبيان للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) . والجملة
 خبرية سميت بشارة بماجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .
 والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا
 أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفى له الود ، وأن نفضى عن كل إهانة تلحق بنا ،
 فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا
 السعادة الآخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ،
 ويوردنا مورد الثبور ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .
 ثم قال لهم يوسف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »
 أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حله التي كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليـكون في مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتراجع إليه قوة بصره ، بانتماش قلبه ، بشمّه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جود الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكي (تذكرته) في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفي (الكنوز) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازي عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أبيه ، فقالوا : ذهب عينا ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحي ، لما عرف ذلك ، لأن القتل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فينبئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقاب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

وإمل الرازى عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتماً ولا يخفى أن أسلوب التزليل فى كنيائته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .
وقد جوز فى قوله : (يَأْتِ بِصِيرًا) أن يكون معناه يصير بصيراً ، أو يحىء إلى بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ (بصيراً) حال . قيل : ينصره . قوله : (وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادهما فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبعد ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بمثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقي خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجمع لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنتيجة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلم إلى ، فتقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقي خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرّ بذلك فرعون وخاصة وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا بأسفوا على ما خلفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدرهم مقداراً وافراً ، وبث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأحبههم عجلات لأطفالهم ونساءهم ، وأوصاهم ألا يتخاضعوا فى الطريق . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف ، وانتظاره لروح الله : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » الريح : الرائحة ، توجد في النسيم . أى : لأنتمسم رائحته مقبلة إلى . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله في روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاءه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرَفَ السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج ، ولا يحفت إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم : وفي حديث عند الطبراني : ريح الولد من

ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبذا رِيحُ الْوَلَدِ رِيحُ الْخُرَاقِ فِي الْبَلَدِ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون . أولولاه لصدقتمونى . (وفنده)

نسبه إلى الفند بفحتين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال في (العناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جمل حجراً لقلّة

فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تمسّق ولم تدرِ مَا الْهَوَى فكن حجراً من يابس الصخرِ جَلَمَدَا

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضَمَفَ رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لنى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ، إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » أى الخبر بما يسره من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجهه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسه على وجهه ، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإزال الفرج وجوز كون (إِنِّي أَغْلَمُ) كلاماً مبدئياً . والمقول (لَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) إن كان الخطاب لبنية . أو (إِنِّي لَا أَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنية . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : (إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصَفَّح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدمه بذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم ،

فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المصمعي : صرّحوا بالذنوب دون الله ، لزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر

إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي

ربّي بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التزويل ومحاسنها فيه .

تأنيبه :

قيل : في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور

بمحصل النعم الحاصلة في الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه

أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه أخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار

والدعاء معروف في السنة ، ومنه شرع الاستغفار في السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج .

وكان الدعاء في السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب

للإجابة مما عده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ

اللَّهُ ءَامِنِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على المعجل التي بعت بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر - وروى أنهم كانوا سبعين نفساً - وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فالتقى أباه في (جاسان) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لللتقاء خارج البلد ، وإبواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عني بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الحالة منزلة الأم ، لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله ^(١) (وَإِلَهُ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ » أي من القحط وأصناف المكاره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ

رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ

السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ

إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ » أي أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا

لَهُ سُجَّدًا » أي سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له .

وكان السجود عندهم للكبير يجري مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا » أي السجود « تَأْوِيلُ » أي تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أي

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

التي رأيتها أيام الصبا ، وهي سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع في الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجاتي من العبودية ، وجعل الملك مطيماً لي مفوضاً إلى خزائن الأرض . وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، وغفامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر. وفيه إشارة إلى النعمة في الاطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان في حبس الرشيد :

ومحلتهم شمل المكاره أهلها وتقلدوا مشنوءة الأسماء
داراً يهاب بها اللثام وتتمى وتقل فيها هيبة الكرماء
ويقول عليج ما أراد ، ولا ترى حرّاً يقول برقة وحياء
وبرق عن مس الملاحه وجهه فيصونه بالصمت والإغضاء

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى
إِذَا جَاءَنَا السِّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وضمائم الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علي بن الجهم :

قالوا : حَبِستَ فقلتُ ليس بضائري حبسى . وأى مهنة لا يُفمَدُ ؟
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ بِأَنْفٍ غَابَهُ كِبَرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدَّدُ
وَالْبَدْرُ يَذُرُّ كُهُ الْحَاقُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ
وَلِكُلِّ حَالٍ مُعْقِبٌ وَلَرُبَّمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ
وَالسِّجْنُ ، مَا لَمْ تَنْفُسْهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعَاءُ ، نَمِ الْمَنْزِلُ الْمُتَوَرَّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً فَيَزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحرى :

أما في رسول الله يوسف أسوةً لملك محبوباً على الجور والإفك
أفام جميل الصبر في السجن برهه فآل به الصبر الجميل إلى الملك

- نقله الثعالبي في (اللطائف واليوافيت) - .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ »
أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسفده إلى الشيطان لأنه بوسوسته
والقائه . وفيه تفادٍ عن تربيهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقفاً .
« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ »
بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأفضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ)

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيماً ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبیر الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما
وخالقهما ، « أَنْتَ وَلِيِّي » أى مالك أموري ، فى الدنيا والآخرة توفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ » أى من النبیین والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة
الله عليه واجتماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما اتم
عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ،
والحقه بالصالحين . فلبس فيه تمنى للموت ، وطلب التوفى بمنجزاً كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان ^(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلهه يستعقب : ولكن ايقظ : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وفي رواية : وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .

تنبيهان

الأول - في فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانيين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشيع ، ومنه ما روى في تشيع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته - كما مر - أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش - وهو السرير الرفيع - جواز اتخاذهما ، ورفع الغير ، تعظيماً للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير ^(٢) :

أَرْضِ الْحَرَاثَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرُولٌ أَعْنِي الْحَطِيطَةَ لَا غَتْدِي حَرَاثًا
مَا جِئْتُهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَاثًا

(١) أخرجه البخارى في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٠ - باب الدعاء بالموت والحياة ، حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم في ٤٨٠ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعنا) .
والإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
(٢) البيهقي لأبى تمام ونصهما كما في الديوان :

لَمْ آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَاثًا
بِلَدِ الْفَلَاحَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرُول أَعْنِي الْحَطِيطَةَ لَا غَتْدِي حَرَاثًا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطنه . ومطامها :

قِفْ بِالطُّولِ الدَّارِسَاتِ غُلَاثًا أَمْسَتْ حَبَالُ قَطِينِهِن رِثَاثًا
انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

وفي الحديث ^(١) : (من بدا جفا) أى : من حل البادية . وفي آخر ^(٢) : (إن الجفا والقسوة في الفدادين) . ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن . اهـ زيادة .
الثانى - قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمهم وكله حصّة ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجوداً أرض في مصر ، وهى أرض رعسيس ، أى عين شمس ، وملسكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فثلمهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه - كما أوصاهم يوسف - : نحن وآبائنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا في أرض مصر بجاسان ، فتملأوا فيها ، ونموا وكثروا جداً . وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل احملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتشم أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناى رزقتهما الله هاهنا . فقال : أذنيهما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعاهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أراى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسف بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقيقه بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائهم في المغارة التى في حبرون ، وهى المروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها

شعف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث نصه : إلا إن القسوة وغلظ القلوب . الخ

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ (طبعنا) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، ولياة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون في موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه في المغارة - كما أوصى - ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتبها الله لأبائهم . ثم توفي يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، وحنطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنا لم يذكر هذا ، القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يبين على قانون التاريخ ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هي الآيات والعبر ، تجلت في سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى (١) : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ، وقوله (٢) : (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ) . ومضى في المقدمة بسط هذا البحث ، فراجع . وسند ذكر إن شاء الله في آخر السورة شيئاً . من الحسك والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَنْجَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة

(١) [١٢/يوسف/١١١] . (٢) [١١/هود/١٢٠] .

كأله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ
 أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ .
 وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل
 على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي ، لأنك لم
 تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيه في البئر ، وهم يكررون به ، إذخشوه
 على الخروج معهم ، ييغنون له الفوائد ، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدكم
 حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم
 ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة ، وأخفى
 أحوالها كما ينبي عنه قوله تعالى (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) . والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ -
 لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى
 معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر
 لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرانهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما
 هو ، قبله إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم . وفيه
 أيضاً إيدان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على
 ما هو عليه . يعنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذا
 ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي . ومثله قوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ
 أَفَلَا مَعَهُمْ أَيْهَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) . وقوله ^(٢) : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى
 مُوسَى الْأَمْرَ) انتهى .

وقوله تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ » أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالفيت في إظهار الآيات الفاطمة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسل ، ليلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . معنى : قد وضع بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى ^(١) : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قال الرازى : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظن أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم ، قيل له : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى ^(٢) : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على هذا النصيح ، والدعاء إلى الخير والرشد ، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، معنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة . معنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمرشد القويمة ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ، ولا جملاً . فلو كانوا عقلاء لقبولوا ، ولم يقرروا .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

قال بعض اليمانيين : في الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناباً عما يمنع من قبول كلامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أي : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازي : يعني أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرّون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والملم والقدرة والحكمة والرحمة ، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبقة بالعدم ، فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام السكونية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهي أقسام :

أحدها - الآتار العلوية ، كالأعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح
وثانيها - المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .
ثالثها النبات وخاصة الخشب والورق والتمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص
 وطعم خاص ، وخاصة مخصوصة .
ورابعها - اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .
خامسها - تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة
 فيها .

فهذه مجامع الدلائل .
 ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا
 على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقى
 الوزر والمقاب .
 ولما كان العقل البشرى لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر في
 الكتاب العزيز مجملاً . انتهى .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أى : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللَّهِ » أى فى إقرارهم بوجوده
 وخالفته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى : بمبادئهم لغيره ، وبالتخاذم الأبحار والرهبان أربابا ،
 وبقولهم بالتخاذم تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

تنبيه :

كما تدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأثمة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفي ، الذي لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن في هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله .
يعني : الشرك في العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى - ولكن لا يخلص له في عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .

وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ ، فيما رواه ابن حبان في صحيحه : الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، وبماق عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى^(١) : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) ، فمن لم يخلص لله في عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذي أتى به شيء غير المأمور ، فلا يقبل منه .

وروى مسلم^(٢) وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبي ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .

ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله في المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه^(٤) : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا . . .) الآية - وقال أصحاب هذا الشرك

(١) [٩٨ / البيئة / ٥] . (٢) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ،

حديث ٤٦ (طبعنا) . (٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء

الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

لأهلهم ، وقد جمعهم الجحيم ^(١) : (تَاللّٰهُ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ
الْمَآئِينَ) ومعلوم أنهم ما سَوَّوْهم به سبحانه في الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ،
والملك والقدرة ، وإنما سَوَّوْهم به في الحب والتآله ، والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل
والظلم . فكيف يسوَّى من خلق من التراب ، رب الأرباب ؟ وكيف يسوَّى العبيد بالملك
الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ،
الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالفنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه
ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكهاله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أفتح من هذا
وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيم في
(الجواب السكا في)

قال الحفاظ ابن كثير : وثمّ شرك خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة
أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ
إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ) .

وفى الحديث ^(٢) : من حلف بغير الله فقد أشرك - رواه الترمذى عن ابن عمر وحسنه .
وفى الحديث الذى رواه أحمد ^(٣) وأبو داود ^(٤) وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله
ﷺ : إن الرقى والتمايم والتؤلة شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة
عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فاتتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة
أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتحنح ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٩٧ و ٩٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ١٨ - كتاب النذور
والأيمان ، ٩ - باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده
بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٧ - باب فى تعليق التمايم ، حديث
رقم ٣٨٨٣ .

من الحجر ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ! فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقي والتائم والتولة شرك . قالت : قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها ، كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ : أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد ^(١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمه فقط أشرك !

وأخرج أيضاً ^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك .

وبما ذكره يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجوده مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذ من الشفاء ، وما يعبد من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلاً ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفي . وعلى هذا ، فالشرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ورسوله ، فلهما أن يوقعا أي اسم شاء على أي مسمى شاء . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك في عبادته تعالى ، وفي خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك بوجوب تمايق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نقماً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيهه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية السكّال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك بوجوب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبيه له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من الحال أن تأتى به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسن . إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . وأما في جانب التشبه به ، فمن تعاضم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفاً ، ورجاءاً ، والتجاء ، واستمئانة ، فقد تشبه به ، ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفي الصحيح ^(١) عنه عليه السلام قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة . وكذلك من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم . أغيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه في الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتقمة هذا البحث في (الجواب الكافي) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٤ - باب أبنض الأسماء إلى الله ،

حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبي هريرة .

ومسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢٠ و ٢١ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » أى : عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإيمانها . وهذا كقوله تعالى ^(١) : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُدِهِمْ فَأَهِمُّ بِمُجْزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ) وقوله ^(٢) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلي ، أى طريق ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّشان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفة بصفات كماله ، ونموت جلّاله « عَلَى بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمية . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » أى : وأترهه

(٦) [١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩] .

وأجله وأقدسَه عن أن يكون له شريك أو ندَّ أو كفوٌّ أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

تنبيهات :

الأول - قال السمين (أدْعُو إِلَى اللَّهِ) يجوز أن يكون مستأنفاً ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالاً من الياء . و (على بصيرة) حال من فاعل (أدْعُو) . أى : ادعوا كأننا على بصيرة . وقوله : (وَمَنْ اتَّبَعْنِي) عطف على فاعل (أدْعُو) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعني يدعوا أيضاً . ويجوز أن يكون (عَلَى بَصِيرَةٍ) خبراً مقدماً ، و (أَنَا) مبتدأ مؤخراً ، و (مَنْ اتَّبَعْنِي) عطف عليه ومفعول (أدْعُو) إما منوى ، أى الناس ، أو منسى .

الثانى - دل قوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انقرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكره عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنمض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإيمان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه - انظر (رسالة التوحيد) فى تمة ذلك - .

الثالث - دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازى : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسمه إلى الله . وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى . ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والمعاقب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها . ويزيد بياناً للأمر التي يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامّة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملاً ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيمّمّ الهلاك ، ويمظّم البلاء . وقلما تختبر عامياً - وأكثر الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمر الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل ، وجد جاهلاً ببعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويثبتوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الفسّ والخداع وهكذا . ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويمم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى لا ملائكة

من أهل السماء. ردّ لقول المشركين ^(١) : (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً). وهذا كقوله ^(٢) تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَمُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ). وقوله ^(٣) : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله ^(٤) : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتج بقوله تعالى : (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة .
والقرى : جمع قرية ، وهى على ما فى (القاموس) : المصر الجامع . وفى (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، وأخذ قراراً ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لأنهم من أهل البوادرى الذين هم أجنى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المهود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بواديه . وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون فى البوادرى . ولهذا قال تعالى ^(٥) : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل الثُُمُور .
وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذّبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى ^(٦) : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

(١) [٤١ / فصلت / ١٤] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٨]

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٥) [٩ / التوبة / ٩٧] . (٦) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

قال ابن كثير : أى وكما نجيحنا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى (١) : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِوَمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .
« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فعملوا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بين تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا . يعنى : الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » يقرأ (كُذِّبُوا) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم . ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى (ظَنُّوا) - على ما اختاروه - للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرًا ، وتلا قوله تعالى (٢) : (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ) وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا كلامه وجوهاً :

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزخشرى : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهيجس في القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة في التراخي والإمهال ، على طريق الاستمارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما ، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابي : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكذَّبُ بالوحي ، ولا تشك في صدق الخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر ، وشدة استنجاز ما وعدوا به - توهموا أن الذي جاءهم من الوحي كان حساباً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط في تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذي بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتى بالوحي . والمراد بـ (الكذب) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد (وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل (وظنوا) الرسل .

وقال أبو نصر القشيري : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل ، فصرفوه عن أنفسهم . أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذى الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعده الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدى عن ابن الأنبارى أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معول عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تووّل عليه .

قال ابن حجر : وعجب لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم للزخشري في توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أي : فرواه البخاري^(١) في تفسير البقرة بلفظ : ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيلي عنه : كالوا بشرأ ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاري^(٢) أن عائشة كانت تقرأ (كذبوا) مشدودة ، وتقرأها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله ! قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قراها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمة والكسائي . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين .

وقوله تعالى : « فَنجِّيْ مَنْ نَّشَاءُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ * (فننجي) بالتخفيف والتشديد . وقرئ * (فنجا) .

« وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا » أي عذابنا . « عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أي : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء
وأعمهم . ورجح الزخشرى الثانى [بقراءة (قصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح
مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار
مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ فى (أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ) . وسنذكر وجوه العبر
منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ » أى :
يختلف . « وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها
من الصحيح ، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .
قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود
أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهى وإن اختلفت قليلاً فى بعض التفاصيل والجزئيات ، عما
يرويه الناس ، إلا أنها توافقها فى الجملة ، وتصدقها فى الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن
النبي اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية فى
كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبي
صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص
القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل فى شيء ما ، كلا ! إذ لو صح

هذا لما قال تعالى ^(١) : (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله . فلأمنافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، ومخالفته لها في بعض الجزئيات - كما قلنا - ويجوز أن يكون المراد بقوله : « تصديق الذي بين يديه » تصديق الحق الذي عندهم ، لا كل الذي عندهم ، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أى . تبیان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، وجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من النقي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتنبهى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهَدَىٰ » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بصديقون به ، ويممّون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

خاتمة في مباحث مهمة

الأول - فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص .

قال في (الباب) : الاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكير . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الحبّ بمسد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتخليكه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، حجة الفائدة ؛ وجليلة المائدة ، تحذو بكل امرئ أبي إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر في حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغبة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحيد سريره ، وتمسكه بمرى التقوى والفضيلة ، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة ، التي ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسمن ذروة المجد في هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة في الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبي ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه القيثب المشار إليه في قوله تعالى ^(١) : (وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ...) الآية . وإنما أفردت على حديثها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم في سورة واحدة ، لفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره ، وشتات بنيهِ . وامتحن يوسف عليه السلام بالجَبِّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضرِّ ، وفلة ذات اليد ^(٢) (مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضَّرَّ ...) الآية . ثم تداركهم الله بالفهم ، وجمع شملهم ، وردَّ بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزع به الشيطان . و خلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبرأته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم أنجز في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، ومهادتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [١١ / هود / ١٢٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٨٨] .

ما انجرت في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومومى عليهم السلام ، وما جرى في أممهم ، فلهذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طي ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله ^(١) تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...) إلى قوله : (أَمْنَا) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجمالها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم ^(٢) : (وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص - والله أعلم - .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلفته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمل ذلك ! وبوضحه ختم السورة بقوله : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ...) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه - كذا في تفسير البرهان للبقاعي ملخصاً - .

وجاء في كتاب (النظام والإسلام) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله : طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غصون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شمري ! ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٣] .

المؤرخين . القصص في كل أمة ، عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعية أم حقيقة ، على أسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب (كلیلة ودمنة) ، وما والاها من القصص الناصجة على مفواله في الإسلام ، ككتاب (فاكهة الخلفاء) ، و (مقامات الحريري) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهي - لا جرم - أعلى منالاً ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقذوة الحسنة للكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسهم ، لوقوع مواردھا ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فبهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت في سواھا . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلانكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر ؟! ومالنا ولھا إذن ؟! تالله إن هذا لھو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصھا ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم ، وماسطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصون في خرافتهم ، فذلك سبيل حائد عن الجادة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول ^(١) : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ قَوْلَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يمول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعھا ، والعبر المبصرة للسامعين (أَقْدَكَ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) .

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتد إلا على البرهان . تأمل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معمول عليها . فلا ترى قصة إلافها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذ المقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدينة المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمره . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجد الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملاحظه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس ، كذا كره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأملون ملاحظهم ، ليعرفوا ما استعدادوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمل في قصة الإخوة ، وحديث التقيص والحب والذنب والدم ، لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسى ، والخلق المرضى ، والجلال الظاهر على ملاحظه . فيعيبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه ، دلالة على أن هذه سنة في الكون لا تغادر نبيا ، ولا حكيا ، ولا عالما مهما حسنت أخلاقه ، وجل ظاهره وباطنه . . !

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد .

جرت تلك السنة في الأناسى : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز ، وكيف عفت مع الشباب ، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتسم بالفضيلة ، فتوآزى جماله الباطنى والظاهرى . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصنع ، التى تضمنتها تلك القصة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل في كلام الحكماء - أولهم وآخرهم -

تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولاً فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقة
ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر
إدارة منزله !

بايع الصحابة - عليهم رضوان الله - الخليفة الأول ، فأخذ قاشاً وذراعاً وذهب إلى
السوق في الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضمت أهلي ، فأنا للمسلمين أضجع !
ففرضوا له درهيمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر في شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين -
إذا ولّوا رجلاً إدارة بلادهم - أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله
أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف ذكرت في الكتب السماوية ،
وربتت في القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل
فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبني الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال
العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنفوان الشباب مع الصديق . وإيت
شمرى ! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدينة المصريين وزخرفهم
وجالهم ، وعبد الله وحده ، ونسى ما يراه من أبي الهول وأيس والأرباب المتفرقة .. ؟ !
يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحداث من كل جانب ، أن يحافظوا على أصول
دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ،
فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كل جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل
أهل منزله ، وبث عقيدته بينهم ، ظاهراً بظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم ^(١) :
(قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ...) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .

لذهبهم ، وبفضه لأصنام المصريين ، ونحوم ، فقال^(١) : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .) الآية . ثم أخذ يذكّرهم أَنَّ تفرّق وجهه الأمة ضلال في السياسة ، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال^(٢) : (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَبْتَ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تُسدّ أمة في الوجود إلّا برجالٍ يوحدون وجهتها أيّاً كانت فيؤمنون مقصداً واحداً والتفصيل لا يخفى على أولى الألباب . . .

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكلّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحسكيم المرشد ، والأب الأكبر . ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران - سياسة النفس والمشيئة - أخرج من السجن معظماً مبيحاً وترقى من تعليم الصمّوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يربهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السماء والجفاف ، وأرشدهم إلى خزن البروسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك المقبتين .

والبراعة والكمياسة في علوم العمران ، وتدير أمر الأمة ، إمّا بوحي وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليم وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقيق والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقّر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكبر ، كما في حديث^(٣) هرقل مع أبي سفيان ، وتعليم الصديق من في السجن . فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبي سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال في سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق ، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص !

وهذه قصة يوسف - الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة - جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعطى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة ، بل في الدارين^(١) : (وَكَذَلِكَ مَسَكْنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

هذه هي الأخلاق الفاضلة ، ذكرت في التنزيل نموذجاً ، في غضون هذه السيرة ، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غييض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر في أولها^(٢) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصنع إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقاً ، ولنزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينظم أمر الأمة إلا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق مهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعون خصلة ذكرها . كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته . وإن كان رئيساً فاضلاً

(١) [١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدىً لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لاقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتسكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على تفاسير الكتاب العظيم ، وحباً في نظرهم في القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنى به ومجرد اللهو واللعب !
أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ - العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)^(١) .

٢ - الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)^(٢) .

٣ - وضع اللين في موضعه، والشدّة في موضعها (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَفِيلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)^(٣) ، والصدر اللين والعجز للشدّة .

٤ - ثقته بنفسه (اجْمَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)^(٤) .

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم (وَجَاءَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَمَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)^(٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٠ و ٥٩] . (٤) [١٢ / يوسف / ٥٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

٦ - جودة المصوِّرة والقوة الخيِّلة حتى تأتى بالأشياء تامة الوضوح (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)^(١) .

٧ - استمداده للعلم ، وحبِّه له ، وتمكِّنه منه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)^(٢) ، (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)^(٣) ، (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)^(٤) .

٨ - شفقتَه على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه . نغاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ...)^(٥) الآية ، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما ، فالأول بقوله : (لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ)^(٦) ، والثاني بقوله : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...)^(٧) الآية ، وشهدا له بقولها : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٨) .

٩ - العفو مع القدرة (قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَقْرِئُكُمُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)^(٩) .

١٠ - إكرام العشيرة (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)^(١٠) .

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

- (١) [١٢ / يوسف / ٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٨] .
 (٣) [١٢ / يوسف / ٢٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠١] .
 (٥) [١٢ / يوسف / ٣٩] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٧] .
 (٧) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٨) [١٢ / يوسف / ٣٦] .
 (٩) [١٢ / يوسف / ٩٢] . (١٠) [١٢ / يوسف / ٩٣] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)^(١) .

١٢ - حسن التدبير (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...)^(٢) الآية .

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان (وَقَالَ لِفَتِيَائِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ...)^(٣) الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاثام بالسرقة ليضم أخاه إليه (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ ...)^(٤) الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعاداتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)^(٥) الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٦) ، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم . وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر - فهي أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والمقلاء !

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعري كيف يقول الله بمدها (نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٧) ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

(١) [١٢ / يوسف / ٥٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٧٤] . (٦) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٧) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وضوحها وبساطتها لدوى النظر السطحيّ والبُله النُقل ، بما أعطاه هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدير هذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)^(١) . وهذه - وإيم الله - هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولاً للبيوت من أبوابها ؛ ولكن بينهم وبين هذا النبي بون بعيد . . . ! فانظر كيف تعطى هذه القصة - هذه الأمور العجيبة !

لعمري ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الخاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والوعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله في أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ)^(٢) ، ويقول في آخرها : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)^(٣) ويقول : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٤) ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن يئأس من روح الله فقال : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .)^(٥) الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص ونمرااتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتماظ والاعتبار فقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . .)^(٦) الآية . وهذه ترشدك - إن كنت من ذوى الهمة العالية - أن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠٨] .

(٥) [١٢ / يوسف / ١١٠] . (٦) [١٢ / يوسف / ١١١] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تمجل بالرأسه حتى يبلغ الكتاب أجله ،
وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على
العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبي عليه السلام أياما وأياما ، وليس للحوادث أنوابا
وأنوابا ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها
معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارىء : سبحان
من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورواق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة
القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم الودعة فيها ! فنبُح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس
الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر في
السموات والأرض فيمرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في
السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون ، وتلا القرآن - وهو كلام مبدع الكون
- وتلطف في تصوير المعاني ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض القلاء فضلا عن العامة ! فما
لل العامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبينون ؟ وما للناس لا يكادون
يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاقاً لهم المقلد ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول
راجحة - على الرجوع إلى كتابهم ونظرم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص
فأعرض ! وجلى أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفي كل واحدة منها
ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم
عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجمها من أفق سمائها
إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرّاً . فيقصدها هذا للنفثات ، وذلك لقصة
بسيطة ، وآخر تسلية وتضييماً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعراؤها وصرفها وبلاغتها ،

ولكن هذا أرق مما قبله - فقد سار في الطريق وهي الألفاظ ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدت تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه ! وآخرون يسمعون الآيات فيمروضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقى بها الحث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء ؟ وإلى أي مسافة يرتفع ، وما العلة فيه ، ومن أين يأتي الفحم الحجري ، وفي أي الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيرا للفهم ! وهذا - لعمر الله - انعكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاخطفته النون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

المبحث الثاني

احتج من جوز المعصية على الأنبياء - وهم الكرامية والباقلاني - بما جرى من إخوة يوسف وبيعتهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في (الملل والنحل) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاء قط - في أنهم أنبياء - نص لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن ، قال عز وجل ^(١) : (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ)

(١) [٤٠ / غافر / ٣٤] .

به . . إلى قوله - مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين - أباهم وأخاهم - قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا - من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء - قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهما أنه قال لهم : (أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا)^(١) ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ؛ إذ توقيف الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًا مكانًا ! وقد عاق ابن نوح أباه بأكثر مما عاق به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحل لمسلم أن يُدخل في الأنبياء مَنْ لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته ! ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبيًا ، وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم ! فإن ذكروا في ذلك ماروى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلة عالم ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها - أنه لو كان ما ذكره لا يمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبي عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحيى الحكم صبيًا ؛ فلي هذا القول لمل إبراهيم كان نبيًا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا !..

وثالثها : أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًا ، وحاشا لله من هذا !..

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . . . أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه - مالا خفاء به .
وبالله تعالى التوفيق . . .

ثم قال ابن حزم .

وذكروا - يعنى الكرامةية ومن وافقهم - أيضاً أخذ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيخاشه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقامى به من الوجد عليه ، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلا عشر ليال ! وبإدخاله صواع المالك في وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف ^(١) (أَيُّهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى ^(٢) (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذى كان معه في السجن ^(٣) (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيخاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلمهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى ، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذى أوتى العلم والمعرفة بالتأويل - إلا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّاً بخلاف ما ذكرنا . ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنهم - أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل - فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب في أرض كنعان من عمل فلسطين ، في قومٍ رحّالين خصاصين في لسان

(١) [١٢ / يوسف / ٧٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بمد فراقه أباه بما فعل ، ولا حتى هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبتهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذي ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملة واحدة ، ولسانا واحداً وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبرود ناهضة وراجمة ، فظن كل بيضاء شحمة^(١) ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كإقدامنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذي كان عم الأرض ، وامتنازهم عنده ، فانظر وعد ربّه تعالى الذي وعده حين ألقوه في الحبّ فاتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى في رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ كَسَارِقُونَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال^(٢) : (نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ) وهو في ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفي حقّ الاستنقاذ الله تعالى بحسن تدييره ، ولعل الملك أو بعض خواصّه قد آمن به إلا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى المدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مزية في أن ذلك كان مباحاً في شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى^(٣) : (لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَا) . وأما سجود أبيه فلم يكن ذلك محظوراً في شريعتهما بل كان فعلاً حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل (ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمرّة) انظر : أمثال الميداني ،

بالصفحة ١٥٦ من الجزء الثاني (المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ)

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] . [٥ / المائدة / ٤٨] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلا أن الذي لا شك فيه أنه لم يكن سجد عبادة ولا تذلل وإنما كان سجد كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذي كان معه في السجن ^(١) (اذْ كَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) فما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس في قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل . لكنه رغب هذا الذي كان معه في السجن في فعل الخير وحضه عليه ! وهذا فرض من وجهين : أحدهما وجوب السعي في كف الظلم عنه ، والثاني : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى ^(٢) (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فالضمير الذي في (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذي كان معه في السجن ، أي : أن الشيطان أنساه أن يذكر ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عز وجل ^(٣) (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) فصحّ يقيناً أن المذْكَرَ بعد أمة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر . وحتى لو صحّ أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان في ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء أو أما قوله ^(٤) (هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فليس كما ظن من لم يعمّن النظر حتى قال من المتأخرين من قال : (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة) ومماذا الله من هذا أن يظنّ رجل من صالحى المسلمين أو مستوريهم ! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة في قول أحدٍ إلا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عنّ دون ابن عباس ، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذ إنّما أخذه عن لا يدري من هو ، ولا شك في أنه شىء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يمدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٢] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٤) [٢٢ / يوسف / ٢٤] .

كما قال تعالى^(١) (وَكَمْثَتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وكما يقول القائل : لقد همت بك ، لكنني عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها . وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قد القميص . والوجه الثاني : أن الكلام تم عند قوله (وَلَقَدْ كَمْثَتْ بِهِ) ثم ابتداء تعالى خبراً آخر فقال (وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوة وعصمة الله عز وجل إياه . ولولا البرهان لكان يهيم بالفاحشة ، وهذا لا شك فيه ! ولعل من ينسب هذا إلى النبي المقدس يوسف ، يزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك . وقد خشى النبي ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأَنْصَارِيِّينَ حين لقيهما : هذه صفة^(٢) ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام هم بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى^(٣) (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) ! فنسأل من خلفنا عن الهم بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلا بد أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذا هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهم ييقين ! وأيضاً فإنها قالت^(٤) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق^(٥) (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فصحح أنها كذبت بنص القرآن ، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً ، فما هم بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بيِّن جداً ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال^(٦) (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فصحح عنه أنه قط لم يصب إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برقمته لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيء كله حسن .. ١١)

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ -

باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ . (٣) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٣٥] . (٥) [١٢ / يوسف / ٢٦] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣ - سُورَةُ الرَّعْدِ

سميت به لما فيها من قوله عز وجل^(١) (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدال على الصفات السالبة والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن - قاله المهايى .

وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنية إلا قوله^(٢) (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أولها إلى آخر^(٣) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا) مدنى وبقاها مكى . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .



(١) [١٣ / الرعد / ١٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٣) [١٣ / الرعد / ٣١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَرَّ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السمود : « الْمَرَّ » اسم للسورة ، ومجمله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فـ (تلك) مبتدأ كما إذا جعل (المر) مسروداً على نمط التعميد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « آيَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب المجيب الكامل الفنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيقة باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذ . وقوله تعالى « وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكلامه « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيقة بأن يخص به الحقيقة لمرافقه فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنى للمفعول ، والتعريض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لشأن جلالة المنزل وتشريف المنزل إليه ، والإيحاء إلى وجه الخبر - ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

في (الَّذِي أُنْزِلَ) وجهان : أحدهما هو في موضع رفع ، و (الْحَقُّ) خبره ، أو الخبر (مِنْ رَبِّكَ) و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالمطف على (الْكِتَابِ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو في الصفة ، و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو في الصفات . وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق ، أي الجمع والاتصال . لأنها كما تجمع المطفوف بالمطفوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة ، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت . وقوله تعالى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى ^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السموات ، أي خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أي أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إما استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني * أو صفة لـ (عَمَدٍ) جيء بها إبهاماً ؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجح ابن كثير

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى^(١) (وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمرُّ كما جاء من غير تكليف ولا تشبيه ولا تمطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذلّلها لما أراد منهما من نفع العالم السفلى . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى^(٢) (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) وقد بين ذلك في قوله تعالى^(٣) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَحَرَتْ)^(٤) والانتصار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى^(٥) (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلوى والسفلى وبصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن من شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » يعنى : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعمته الجليلة . أى يبينها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَكُمْ بِإِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » أى : لعلكم توفقون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء ؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

(١) [٢٢ / الحج / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٣٨] (٣) [٨١ / التكاوير / ١] .
(٤) [٨٢ / الانقطار / ٢] . (٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

لطائف

الأولى - جُوزَ في قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) . ورجح في (الكشف) الأول ، بأن قوله الآتي ^(١) (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات . وفي المقابل الخبرية متمينة ، فكذا هذا ليتوافقا . والجملة مقررلة لقوله ^(٢) (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جملة وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : (أَعْلَمُكُمْ بِبِلَاقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ) . فالعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية - قال القاضي : قوله تعالى (رَفَعَ السَّمَوَاتِ ... الخ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لابد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة - (يدبر) و (يفصل) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنقان . أو الأول حال من ضمير (سيخر) والثاني من ضمير (يدبر) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة . ولما قرر الشواهد العلوية ، أردها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى :

(١) [١٣ / الرعد / ٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسمة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطیح الأرض وأنها غير كرية بالفعل . وأن من أثبت أنه مقتضى طبعها اورد بأنه ثبت كريتها بأدلة عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريتها إلا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَارًا » متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبستاني والجبلي ...

قال المهيبي : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضار متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يابسبه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالأخر الربيع « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى : في مد الأرض وما بعده « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ « أى آيات باهرة لقوم يفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بد له من قادر حكيم ! أو يفكرون فيعلمون أن تكثير النعم جلب محبة النعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبر ذلك لمعيشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإزال كتب ترشدكم إلى ما فيه سماعتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى - قال الرازى : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فتنفع الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . ففى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَاخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) .

الثانية - أشار الرازى إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة - فى قوله (يُغِشَّى اللَّيْلَ النَّهَارَ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيهه بإزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً - بالجل على تقديم المفعول الثانى على الأول - فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشى . وعدّه هذا فى تضايف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً - باعتبار أن ظهوره فى الأرض -

(١) [٧٧ / المرسلات / ٢٧] .

فإن الليل إنما هو ظلها . وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً . ولأن الليل والنهار لها تعلق بالثمرات من حيث المقد والإنضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .
وقرى (يفتشى) من الغشية - أفاده أبو السعود .
ثم بين تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أى : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادر مدبر مريد حكيم في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهى نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفى (القاموس) النختلان ، فما زاد فى الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو .
ويضم أو عام في جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر فى الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتية والوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أى : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ » فتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحب . والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها ، أى : نفضل بعضها ما كولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ » أى : الذى فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَّرَ على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها أحداث ذات بهجة - قادر على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون فى القياس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَوَذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبي ﷺ ،
أى : إن تعجب من شئ فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما
عدد من الآيات العجيبة التي تدل على قدرة يصغر عندها كل عظيم - أيقن بأن من قدر على
إنشائها ولم يمتدحها ، كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره . فكان إنكارهم أعجوبة من
الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا من نظر في
هذه الآيات ، وعلم قدرة من هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ،
وهو أهون من هذه !

قال أبو السمود : والأنسب بقوله ^(١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب)
خبر قدم على المبتدأ للقص ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .
وقوله تعالى «أُولَئِكَ» أى المنكرون لقدرة على البعث «الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ»
أى : تمادوا في الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ،
وفيه تكذيب لخبره ورسله عليهم السلام «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» أى : السلاسل
في أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلوا أفكارهم عن النظر في هذه الأمور
كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم . «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ» .

(١) [١٣ / الرعد / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالمذاب استمراء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فإلهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و(المثالات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم التاء جمع مَثَلَةٌ - كسمره وسمرات - وهي العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمقاب عليه من المائلة كقوله (وَجَزَاهُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا) ، أو هي مأخوذة من المثل بمعنى القصاص . يقال : أمثاته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هي من المثل المضروب لعظمها . وقرئُ بفتح الميم وسكون المثلثة ، وهي لغة أهل الحجاز . وقرئُ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئُ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » من الناس من حمل المغفرة على التمازف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلا حيث دلّ الدليل على التقييد في غير الموحّد فإن ظلمه - أعنى شركه - لا يغفر . وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوي . وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه^(١) : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولا استعمال القرآن . وللازومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراد الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولا استعمال القرآن ، تحكم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّله . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد الازوم وتهويل خطبه - فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالتلازم صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ...) الخ . فاذا كرر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطن ولا تكن أسير التقليد ... !

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه ، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه : « وَإِنْ رَبُّكَ أَشَدُّ بِدُ الْعِقَابِ » أى : لمن شاء ، كما قال تعالى^(٢) : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال سبحانه^(٤) : (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦٧] . (٤) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ،
وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًا لهم ونعمًا عليهم كفرهم
بآيات الله تعالى التي تنحرف لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لها رأسًا ولم يمدوها من جنس
الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ،
أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهبًا ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجًا وأنهارًا
« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ،
وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلا البلاغ ، لا إجابة المقترحات « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »
أى : نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى ^(١) : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَّافُهَا نَذِيرٌ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعًا من الرسل . فقد خلا قبله
الهداة الداعون إلى الله ، عليهم السلام ؛ أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم ،
هو الله سبحانه ، فما عليك إلا إنذارهم لاهدايتهم . وإيتاؤهم الإيمان وصددهم عن الجحود .
فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى ^(٢) : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ؛
أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشده . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي
بمعنوا الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء
إلى الهدى وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى
أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

لا يفيد إزالتها هداية ! قال تعالى ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٢) مع ما يستتبع الإصرار بمدّها من الأخذ بلا إمهال ! (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ^(٣) .

قال الشهاب : وجوز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر ، أى : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

[٩] (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

« اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حججهم فلمعلمهم يهتدون بأنه أمر مدبر عليم نافذ القدرة فقال ما تقضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادى) بمعنى (الداعى إلى الحق) . وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله (هادٍ) أو مقررّة مؤكدة لذلك - كذا فى (العناية) .

وأشار الرازى إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقترحهم عناد وتفت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلا عناداً ، فلذا لم يجابوا

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٩] . (٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] .

إليه . وإما متصلة بقوله (وَيَسْتَعِجِلُونَكَ) يعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) فى قوله تعالى (مَا تَحْمِلُ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والترتبة .

« وَمَا تَنْيِضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزِدُّهُ » أى : تأخذه زائداً .

قال الزحشرى : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد . وقد

تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة فى بطن أمه ، ومنه

جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر .

وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » أى : بقدرٍ وحيدٍ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى (١) :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله (٢) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) وذلك أنه

تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهما لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضى ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهد الحس « الْكَبِيرُ »

أى العظيم الشأن الذى كل شىء دونه « الْمُتَعَالِ » أى المستعلى على كل شىء بقدرته . أو

المنزه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القراء على حذف ياء (الْمُتَعَالِ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما

على الأصل .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٩] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى : طالب الخفاء فى ختبا بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سر به ، أى فى طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن (سارب) معطوف على (من هو) لا على (مستخف) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و (الثانى) أنه عطف على (مستخف) . إلا أن (من) فى معنى الاثنين كقوله ^(١) :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذِيبُ يَصْطَحِبَانِ *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية ؛ والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

نَعَشٌ . فَإِنْ وَاقَقَنِى لَا تَخُونِى نَكُنْ مِثْلَ مَنْ ، يَأْذِيبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وَاطْلَسَ عَسَالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبًا دَعَوْتُ بِنَارِى مَوْهِنًا فَأَنَانِى

تكرر الموصول في الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)
والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه . لأن الجملة الثانية
لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفي موقع ؛ وإنما صحب في الأول
الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضي الله عنه ^(٢) :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاهُ !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر في (الانتصاف) وهو وجيه جداً . وأما تضعيف غيره له ،
بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النجاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن
اجتماعهما منكر - فهو المنكر . لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم في كل فنٍ
ومحجة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها - من القمصب واللجاج ، والغفلة عن مقام
التنزيل في الاحتجاج !

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقَّبَاتٌ » أى : لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٢) من قصيدته التي يهجو بها أبا سفيان . ومطالعها :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنْزِلَهَا خَلَاءُ

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بر يد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وآخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شراً ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ (من) تمليلية أو بمعنى بآء السببية . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى (الصحيح)^(١) : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويحتممون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناكم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وفى الحديث الآخر^(٢) : إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرمواهم !

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقب) مبالغة فى (عقب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الماعل ، لا للتعدية . لأن ثلاثيه متمدة بنفسه وأصل معنى (المعقب) مؤخر الرّجل . ثم تجوز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبْرُهُ وَقَفَّاءُ وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردّوه بأن التاء لاتدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والسكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرها . والتاء فى (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لالتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ - باب فضل صلاة العصر ، حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ - باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافضة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ (طبعنا) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يديّ من أصول السنة .

أو هي صفة جماعة وطائفة . و (مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) ظرف مستقر صفة (مُعَقَّبَاتٌ) أو ظرف لغو متعلق بها . و (مِنْ) لا ابتداء الغاية أو حال من الضمير الذي في الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله (وَمِنْ خَلْفِهِ) . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ (يَحْفَظُونَهُ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أى تحفظ ما قدم وآخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون (يَحْفَظُونَهُ) صفة لـ (مُعَقَّبَاتٌ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول - ما قدمناه في معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذي له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشري : أى يحفظونه في توهمه وتقديره ، من أمر الله . أى من قضايه ونوازله . أو على التهكم به .

قال الرازي : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني . والمعنى : أنه يستوى في علم الله تعالى السر والجر ، والمستخفي بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فنلجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهجاً بالمعقبات - وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه - لم ينجبه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بد أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون بخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المسكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يموتوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومِ سُوءًا . . .) الآية .

الثاني : قدمنا أن الضمير في (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ) لمن أسر أوجهر . . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده (لمن) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضائر من غير داع . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبي لأنه معلوم من السياق .

الثالث - أشار الرازي في معنى الآية الأشهر إلى سر اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يطمئه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل . ١

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أى : من العافية والنعمة « حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أى : من الأعمال الصالحة أو مملكتها ، التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أى : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أى : فلا رد لقضائه فيهم « وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أى : بلى أمرهم فيدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تحلف مراده تعالى محال . وإيدان بأنهم بما يشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه - أفاده أبو السمود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بأدابه وسنته القوية ، حل بهم ما ينقلهم إلى الحن والبلايا ، ويفرق كلتهم ، ويهوى قوتهم ، ويسلط عدوهم !

وفي حديث قدسيّ عند ابن أبي حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيمتحون منها إلى معصية الله ، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .
ولابن أبي شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت ، كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحوّل لهم عما يكرهون من عذاب ، إلى ما يحبون من رحمتي .
وقال القاسانيّ : لا بدّ في تغيير النعم إلى النقم ، من استحقاق جليّ أو خفيّ .
وعن بعض السلف : إن الفارة مزقت خفيّ . وما أعلم ذلك إلا بذنب أحدثته ، وإلا ما سلطها الله علىّ وتمثّل بقول الشاعر ^(١) :

* لو كنتُ من مآزِن لم تَسْتَبِيحْ إِبِلِي *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام في ذلك ، الإمام مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلاميّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزليّ . لا يغيّرها شيء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يفعل شأن الله فيها . بل ينبغي أن يحكي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبي ﷺ ^(٢) : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

(١) هذا مطلع الحماسية الأولى . وعجزه :

* بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان *

وقائله بعض شعراء بلنبر ، واسمه قريظ بن أنيف .

قال المرزوقيّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيّاً لم تُغرّ بنو اللقيطة علىّ إلى .

(٢) أخرجه البخاريّ في ١٦ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب الصدقة في الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله (وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد . لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أباط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزؤون بها . ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلاً لا مجال معه للاختلاط بينهما .

فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين ، أو الفقر والضعف والضعف والفقد ، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى ! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) ! فلا غضب زبدي ، ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري المادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجهن ، وضياع السلطان بالظلم . وارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب . والمساكنة عند الناس بالسعى في مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر . . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٠ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف ،

حديث رقم ٨ (طبعنا) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سمادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة^(١) (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل^(٢) الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون^(٣) (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كشف لما نزل إليهم ! لأن ياجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستقرلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر^(٤) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)^(٥) . . . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقاائه^(٦) . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . . . !

- (١) [٣ / آل عمران / ١٤٥] . (٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل ، أن تفرق الباء بالمبدل منه (حاشية الطبعة الرابعة عشرة) . (٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] . (٤) [١٣ / الرعد / ١١] . (٥) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] . (٦) جاء في (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذي رواه البخاري ؛ أن عمر بن الخطاب ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ . قال الشوكاني : وقد بين الزبير بن بكار ، في الأنساب ، صفة مادعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ . انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي ، الطبعة الثانية) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ،
ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ،
ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولىع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يفنى عنه ظنه من
الحق شيئاً ..!

ولما خُوف تعالى العباد بإزال مالا مردّله ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله .
فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصواعق « وَطَمَعًا » أى بالمطر أن يحيى
النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح
سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أى: يضجون به (سبحانه الله والحمد لله)
فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازياً للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى
دلالاته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقة والتعجوز
في التسبيح والتحميد . إذ شبه دلالاته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتعزبه
اللفظي . ودلالاته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازى: الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص . والتسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ،
ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً . وهو معنى قوله تعالى ^(١) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أى : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أى : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » بمعنى الكفرة المخاطبين في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) وقد التفت إلى النية إبداناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتمديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقيل وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين . أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيئته تعالى ، و (هم) أى الكفرة الذين حكيت هفواتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ، يجادلون في شأنه تعالى ، بإنكار البعث واستمجال العذاب ، استهزاء واقتراح الآيات . قالوا لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ) أفاده أبو السعود .

أى : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية . وأنتم تجادلون فيه و (الجدال) أشد الخصومة ، من (الجدل) بالسكون - وهو قتل الحبل ونحوه ، لأنه يقوى به وتشدد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أى : والحال أنه شديد الماحلة والمأكرة والمكابدة لأعدائه . يأتينهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من (تحكُّه) إذا كاده وعرضه للهلك ، ومنه (تحلل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبيه :

ذكر في العلم الطبيعي : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموجات السحب

(١) [١٧ / الإمراء / ٤٤] .

ومصادمتها لبعضها : فيحصل في الهواء اهتزاز قوى ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب ، يطول سماعنا لصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة . فتمت برهة لطيفة بين لمان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمن ضررها . فإن لم يمض بينهما شيء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق في آن واحد ، أمكن أن يصاب بالصاعقة في مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهرباء إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهرباء السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هي البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعدت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازى الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت في العلم الطبيعى بما يدفع المنافة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فليسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالماقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لاغيره . لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .
وفى إيدان بعباسها للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمنزل من شائبة البطلان والضياع والضلال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى ، فى عدم النفع والجدوى بقوله : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى : الأصنام الذين يدعومهم المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مده يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظلماء وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نعمهم ! والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيتهم ، أخيب ما يكون أحد فى سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آهتهم - حين استكفائهم بإياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار فى عدم الشعور فضلاً عن الاستغاثة للاستجابة ، وبقائهم لذلك فى الخسران - بحال ماء برأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة ظمأ وشدة خسران أو التشبيه على هذا من المركب التمثيل فى الأصل ، أبرز فى معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة في التخسير والتخسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر ، أى : لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير في (هو) للماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للبسط والثاني للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما في قوله ^(١) :
تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤم لأهلهم « إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى :
في ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصرّفه
المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل ، طائعين وكرهين لا يقدرّون أن يعتمدوا
عليه ، وكذا تفقّد له تعالى ظلّهم حيث تقصف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والقيء
(١) رواية البيت هكذا :

فَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ (طبعة بيروت) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى (طبعة المعارف) .
والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَجَلُ أَيِّهَا الرِّبْعُ الَّذِي خَفَّ أَهْلُهُ
لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ النُّوْيُ مَا تَحَاوَلُهُ
يعدّح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال ! وقوله « بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأييد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو يقال التخصيص لأن امتدادها وتصلصها فيهما أظهر . هذا ما جرى عليه الأكثر فى معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسللاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى (تنوير الاقتباس) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجمل (طوعاً وكرهاً) نشرأ على ترتيب الالف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرهاً) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل : إن المراد حقيقة السجود ، فإن الكفرة حال الاضطراب وهو المعنى بقوله تعالى (وَكَرْهًا) يخصون السجود به سبحانه . قال تعالى ^(١) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه ، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار العجلى . كما قاله ابن الأنبارى . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها . وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مغلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [٢٩ / النكبات / ٦٥] .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله^(٢) :
(أَوَلَمْ يَرْوُا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ...) (آية .

تنبيه :

هذه السجدة من هزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارىء والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة - كذا في (الباب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَتَاخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)
« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعيينه للجواب ، فهو والخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أى : إلزاماً لهم وتبكيّاً « أَتَاخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى : أيمدّ أن علموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الرخصى .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى : لا يقدرّون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضرر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذا عبادتهم محض العبث والسهو ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لما بين ضلالهم وفساد

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

رأيهم في الحجة المذكورة، يتن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير، والجاهل يمثلها كالظلمات، والعلم بها كالنور ! وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَمَعُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجمعوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله : « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ (شركاء) داخلة في حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفي قوله تعالى : (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) في سياق الإنكار ، تهكم بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى في الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء في قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار نأ كيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة ! « وَهُوَ الْوَاحِدُ » أى . المتوحد بالربوبية « الْفَهَّارُ » الذى لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى الزن « ماء » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : تحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عاليا على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك في النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالأواني وآلات الحرب والحراث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكبير « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما ، مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقدوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادى ويعلق بالشجر وتلغسه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

تنبيهات

الأول - قدمنا أن هذه الآية مثل ضرب به الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لها . فمثل الحق وأهله بالماء الذى يُنَزَّلُ من السماء فتسيل به أودية الناس فيحییون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وأن ذلك ما كثر في الأرض باقٍ بقاء ظاهراً . يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والفتى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ؛ وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه - وإن علا وارتفع واتفخ - إلا أنه أخيراً يضمحل ؛

وكذلك الشبهات والتعميمات الزائفة قد تقوى وتمظم . إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثاني - قوله تعالى (بِقَدَرِهَا) صفة (أودية) ، أو متعلق بـ (سالت) أو (أنزل) .
وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علي والأشهب وأبو عمرو ، في رواية ، بسكونها .
الثالث - قوله تعالى (احْتَمَل) بمعنى حمل ، فالزيد بمعنى المجرد - كذا قيل . ويظهر لي :
أن إشارته عليه لزيادة في معناه ، وقوة في مبناه !

الرابع - الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام . والإسناد إليه مجاز عقلي ، كما في (جرى النهر) .

قال السمين : وإنما نكّر الأودية وعرف السيل ، لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) ، وهو لو ذكر لكان نكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبي حيان حيث قال : عرف السيل لأنه عني به ما فهم من الفعل . والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة ، إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نكرة . وكذا يضمن إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له ، أي الكذب . ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت) . وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعروف حين ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تكلف - كما قيل - لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى وبما د عليه ضمير بمعنى آخر . سواء كان حقيقياً أو مجازياً ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكره أغلبى لا يختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

* أخت الغزاة إشرافاً وملفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله (أودية) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس - قوله تعالى (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . (وزيد) مبتدأ قدم عليه خبره ، (من) فى (مما) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبويض أى : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخل بالتمثيل . وقوله (فِي النَّارِ) صفة مؤسسة ؛ لأن الموقد عايه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إشعار بالمبالغة فى الاعمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به ، الشعر بأنه كالخطب الخسيس ، وصورة بحالة هي أحط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرب مثلاً للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله (ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ) فوقى كلاً من المقامين حقه .

السادس - قدمنا أن قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) على حذف مضاف ، أى منهاهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين المثل والمثل به . كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ا .

السابع : بدأ بالزبد في البيان في قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ) وهو متأخر في الكلام السابق ، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله ^(١) (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ . . .) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكته فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باقٍ متأخر في الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصله الطيبي - كذا في (العناية)

الثامن - قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيده لقوله (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) إما باعتبار ابتداء هذا على التمثيل الأول ، أو بجمل ذلك إشارة إليهما - كذا في أبي السمود .

التاسع - أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال الفارية والمائية في التفسير والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْنِ - ناري ومائي - وهو قوله ^(٢) (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ . . .) الآية ، ثم قال ^(٣) (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . .) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين في سورة الفور مَثَلَيْنِ أحدهما قوله ^(٤) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ . . .) الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ؛ ولهذا جاء في (الصحيحين) ^(٥) : (فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أي ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترُدُّون ؟ فترُدُّون)

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩] . (٤) [٢٤ / النور / ٣٩] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - باب إن الله لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبي سعيد الخدري .
وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ (طبعتنا) .

النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً) . ثم قال تعالى في المثل الآخر ^(١) (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ . . .) الآية . وفي (الصحيحين) ^(٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى . إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعمله وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفي (مسند الإمام أحمد) ^(٣) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمهن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلم عن النار ! فتغلبوني فتقتحمون فيها . . . وأخرجه في (الصحيحين) ^(٤) أيضاً . فهذا مثل نارى . انتهى .

ولما بين سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيباً وترهيباً ، بقوله :

(١) [٢٤ / النور / ٤٠] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علم وعلم ، حديث ٦٨ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٣١٨ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٦ - باب الانتهاء عن المعاصى ،

حديث رقم ١٦١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله ، والتمتوا به الحسنى كما قال تعالى ^(١) : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) (الحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال ، ليتخلصوا عما بهم . وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ولا جله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : المستقر . وفى قوله (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانقضاءها من مقابلتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقييح حاله فعبر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى : العقول البراة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم .

(١) [١٠ / يونس / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ » أى : مما كلفهم به « وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أى : ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل - أفاده أبو السمود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحمهم وقرباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاعة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكف الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يعملون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى ^(١) : (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) الآية ، أو يتبعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .

السيئة الحسنة لتحوها « أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » أى: عاقبة الدنيا وهى الجنة. لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للعهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ،

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

[٢٤] (سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصالح قطع الأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد جبل الأنساب .

وأصله للزجاج حيث قال : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

وقرى - شاذاً - بضم لام (صَلَحَ) . قال الزمخشري : والفتح أفصح .
« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْ آتِيكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ « أَى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى ^(١) (أَيْخَسِبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ *
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتنكير (متاع) للتقابل كفى آية ^(٢) (قُلْ مَتَاعُ
الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال ^(٣) : (بَلْ تُؤْمِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنْ اللَّهُ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم ^(٤) : (فَلْيَسْأَلْنَا
بِآيَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنْ اللَّهُ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى
أنه من باب العناد والافتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يعقل أحد بعد
جميعها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إزال
هذا الكتاب مِنْ مِثْلِهِ ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . . ! ولكنهم قوم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧٧] .

(٣) [٨٧ / الأعلى / ١٦ و ١٧] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ٥] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاعوا عنه فازاغ الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة ، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعله بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة ، والعناد ، والغلو فى الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءت كل آية . ثم قال : (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ) أى : أقبل إلى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابة الدخول فى نوبة الخير . وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة ، كما فى الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد . وإيثار صيغة الماضى للإيحاء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

« الَّذِينَ آمَنُوا » بدل من (من أناب) أى : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أى تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والمدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أى : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاء منه ؛ وقد ر بعضهم مضافاً .
أى بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

(بذكر الله) القرآن ، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) وقال سبحانه : ^(٢) : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها . وهذا المعنى يناسب قوله ^(٣) : (لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أى : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يملكون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ويرد اليقين . قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ » الموصول إما مبتدأ (طوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمخدوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجملة (طوبى لهم) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشري : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزانى ، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحملها النصب أو الرفع . كقولك . طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن مآب) بالرفع والنصب تدل على محليها ، واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى (سقياً لك) ، والواو فى (طوبى) متقلبة عن ياء ، لضمه ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبى لهم بالتثنية .

قال الفاسى : ومن نون (طوبى) جملة مصدراً بغير ألف كسقيماً وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى (لسان العرب) عن قتادة ؛ أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطودَ بالقرى ورسلاً بيقطين العراقِ وقومهمـآ

الرسل اللبن ، والطود : الجبل ، والقوم : الخبز والحنطة - كذا فى (تاج العروس) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩] . (٣) [١٠ / يونس / ٢٠] .

[٣٠] (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ)

« كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى : لتباينهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ، كما بلغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى : يكفرون بالبالغ الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء . والمدول إلى الظاهر الدال على الرحمة ، إشارة إلى أن الإرسال نائى منها ، كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحي الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية ^(٢) أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم ؟ كما فى الصحيح . وقد قال تعالى ^(٣) (قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ) . وفى (صحيح مسلم) ^(٤) عن ابن عمر مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ » أى : توبتى وإنا تبتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحي وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارى فى :

٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة

الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان ، وهو حديث طويل جامع ،

فلا يفوتك الاطلاع عليه . ففيه غنى كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَلْ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) « وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا » أى قرآنًا ما « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارها ، وزعزعت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شُقَّتْ حتى تقصدع وتصبح قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى : لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره الملى ولم يمدوه من قبيل الآيات . فافترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله : ^(١) (وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ . . .) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلومهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء ؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بمضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكور من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَلْ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفي ، أى : لو أن قرآنًا فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن .

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح .
أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى
أبى السمعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَبَيِّنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا » أى :
أفلم يعلم ويتبين كقوله (١) :
أَلَمْ يَبَيِّنْ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا
وقوله (٢) :

أقول لهم بالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيَاسُّوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ
أى : ألم تعلموا ! ويديرونى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأمروننى
من (الأسر) . أى : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم ، لأن الأمر له . ولكن قضت
الحكمة أن يكون بقاء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »
أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتماذى فيه . وعدم بيانه تهويله أو استهجانه . والقارعة :
الداهية التى تفرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و ٢٩١ (طبعنا) .

(٢) انظر مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، الصفحة رقم ٣٣٢ من الجزء الأول ، والبيت رقم ٣٨٣ .

وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلْ » أى : تلك القارعة « قَرِيْبًا » أى : مكانا قريبا « مِنْ دَارِهِمْ »
 فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها « حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أى : فتح مكة « إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ،
 كما قال تعالى (١) : (فَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مُخْلِفٌ وَعْدِهِ رُسُلُهُ) وفى الآية وجه آخر ، وهو حمل
 (الذين كفروا) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، نصيبهم التوارع فى
 الدنيا أو نصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ
 الْأَقْوَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) : (أَتَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
 مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَابِئُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
 فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : أهملتهم وتركهم
 ملاوة من الزمن ، فى أمن ودعة ، كما على البهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »
 أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى
 الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والافتراح ، على طريقة الاستهزاء به ،
 ووعيد لهم .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه - إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك - وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله : « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكيت لهم إثر تبكيت ، أى : سمّوهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لاحقيقة لهم ! أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشراكة ؟

وقال الرازى : إنما يقال ذلك فى الأمر المستحق الذى بلغ فى الحقارة إلى الا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أحسن من يسمّى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سميتهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لاحقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

محيى النفس على هذا السنن المتأول بديع لا تكلفه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء . فلم يكن بهذا الموقع الذى انتقضته التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ » أى : بل أئسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنحى كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى ^(١) : (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) . (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا) ^(٢) . وعن الضحاك : إن الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله ^(٣) :

وذلك عار يا ابن ربيعة ظاهراً . .

تنبيه :

قال الزخشرى : هذا الاحتجاج وأسايبه المجيبة التى ورد عليها ، مناد على نفسه بلسان طلاق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) لما كان كافياً فى هدم قاعدة الإشراف مع السابق واللاحق وماض من زيادات الفسكت ، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذنباً بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذا شركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يقوم فيه ذلك أدنى توهم ، وروى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على السكناية الإيمائية . ثم بوانغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على السكناية التلويحية استقدلاً لا بنفى العلم عن نفي المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئصال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبذوا عالم السر والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفى جمل اتخاذهم شركاء .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٠] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا من هو قائله ، ولم أهدد إليه فيما بين يدي من الكتب .

فن داره فليثبته هنا مشكوراً مأجوراً .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباء له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لدى عينين وماتلك التسمية إلّا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فن تأمل حق التأمل ، اعترف بأنه كلام خالق القوى والقدر ، الذى تقف دون أستار أسراره أفهام البشر ...!

وقوله تعالى : « بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم . كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينفعمون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناس « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، أو يحذله « فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ وَّاقٍ)

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضلالة . فإن نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداء دوى لا برء له إلّا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمًا وكيفًا « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ

وَوَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصي « تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » .

في الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أى : فيما يقص وبتلى عليكم صفة الجنة ،

وجملة (تَجْرَى) مفسرة أو مستأنفة استثنافاً بيانياً أو حال من ضمير (وعد) أى : وعدها

مقدراً جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال

والتفصيل . وقدّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لثلا يفصل به بينه وبين مايفسره ،

أو ما هو كالمفسر له .

(الثانى) : أن خبره (تَجْرَى) - على طريقة قولك : صفة زيد أسمر - قيل : هو غير

مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث

الضمير المائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،

وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٌ)

وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عني بهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن ؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيقته التي لا يمتري فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى كما قال تعالى ^(١) : (الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعني بقية أهل الكتاب والمشركين « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم ، وجوز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا . و (بـ) (الأحزاب) المشركون ، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد . ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا » أي : لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبٌ » أي : مرجى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

« وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » أي : حاكماً بالحق ، أو حكمة عربية « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ « أى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهميج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان - كذا فى (الكشاف) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهورد لقولهم : لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا ^(١) : (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ، وإعلام ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم ليم لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له ^(٢) : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) . « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات مميّنة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير يغير وتبدل وتقدم وتأخر . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التى عليها بدور أمر الكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معين أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسب تقضيه الحكمة . فالشرائع مميّنة عند الله بحسب الأوقات ، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسول من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاءه تعالى ويختاره .
وفيه ردّ لاستمجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول في قاويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

« بَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَيُثَبِّتُ » أى بدّله ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازى : العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أمّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لسكة . وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب . روى على بن أبى طلحة^(٢) عن ابن عباس فى الآية يقول : يبدل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول : وجعله ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى (مَا تَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...) الآية .

تنبية :

تمسك جماعة بظاهر قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) فقالوا : إنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازى : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يبدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

أشار بذلك إلى آثار أخرجه ابن جرير^(١) عن عمر وابن مسعود . وليس في الصحيح شيء منها .

ظَهَرَ لِي * في دَمَرٍ في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنَّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنَّ ظانَّ أنه يستدل بها في بحثٍ آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لَكَ مَثَلًا قَوْلَهُ تَعَالَى (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) فكم ترى من يستدل بها على العلم الملق ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) وبوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمئناً . مع أن هذه الآية ، لو تمعن فيها القارىء ، لعلم أنها في معنى غير ما يؤولهمون . وذلك أنهم كانوا يفترون على رسول الله ﷺ ، في أوائل البعثة ، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى . توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان . فأعلمهم الله تعالى أن دور تلك الآيات الحسنية انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعذَّ البشر للتعقُّبِ إلى الآية العقلية ، وهي آية الاعتبار والتبصُّر . وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلي وأوضح وأدلَّ على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : (وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧ و١٦٨ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ
وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) ...
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

« وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى : من إزال العذاب في حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ »
أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحي « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى :
حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيان : جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثاني (فلا لوم
عليك) وقوله تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...) الخ دليل عليهما .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللَّهُ يَمْحِكُ
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى : أرض الكفرة . ونقصها
عليهم بإظهار دين الإسلام في أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس : أى : أو لم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ بمعنى أن انتقاص
أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينفذ وعده ، ونظيره
قوله تعالى ^(١) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

وقوله ^(١) : (سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ...) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعني لم يؤخر عذابهم لإيهامهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سِنَّةِ الغفلة . ومعنى (نَأْتِي الْأَرْضَ) يَأْتِيهَا أَمْرُنَا وَعَذَابُنَا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخریب ديارهم وبلادهم . فلهؤلاء الكفرة كيف آمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبیه :

يذكرون - ها هنا - رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علماءها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهرى حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طرف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق ^(٢) :

وَأَسْأَلُ بَنَاءَ وَبِكُمْ إِذَا وَرَدَتْ مِثْنِي أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، مَنْ يَتَّبِعُ

يريد أشراف كل قبيلة : فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال ! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفأك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٢) في الديوان (صفحة ٥٢٦) من يسمع عوضاً عن (من يتبع) .

ومطلع القصيدة :

بَيْنَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ مُجَاشِعٌ أَوْ نَهْشَلٌ تَلَمَّاحُكُمْ مَا تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحتها وكلها وعمراتها ، فوهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرفُ
كالأرض تحيي إذا ما النيثُ حلَّ بها وإن أُنِيَ عَادَ في أَكْثَرِهَا التَّلَفُ

ولذا قال الأزهري كما في (لسان العرب) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ، (ونقصها من أطرافها) أي نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا من فسر (نقصها من أطرافها) فتوح الأرضين . وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا ، قال : والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَحْكُمُ » أي : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالمرز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المحال والآثار وفي الاتفاقات من التكلم إلى النبية ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهي جملة اعتراضية جىء بها لتأكيد نحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض في اعتراض . لبيان علو شأن حكمه تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه - كما تقول : جاء زيد لا هامة على رأسه ، أي حاسراً . و (المقب) من يكرّ على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ مَرِيعُ الْحِسَابِ » أي فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يرمى إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفىها جزاءها المدة لها على ما كسبت من فنون المعاصى التى منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى (١) : (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ...) الآية .

القول في تأويل تعالى :

[٤٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة (وهو فعل والشهادة قول) على سبيل الاستعانة ، لأنه يغنى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعم من القول والفعل . على

(١) [٢٧ / النمل / ٥٠ - ٥٢] .

أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهي كلامه تعالى ، وقد قال تعالى^(١) : (وَبَسِّتْنِيؤُنْكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبي ﷺ ونعته في كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى^(٢) : (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) وقال تعالى^(٣) : (أَوَأَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ) .

ويروى عن مجاهد أنه عني بـ (مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المسكية ربما وجد فيه مدنى وبالعكس ، وكان هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في (دلائل النبوة) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكنتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، ويليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

(١٤) - سورة إبراهيم و ١٥ - سورة الحجر و ١٦ - سورة النحل و ١٧ - سورة الإسراء



(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧] .

كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لَيْدَ بَرٍّ وَأَعْيَتِهِمْ وَلِيَقْذَرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسمى

محاسن التاويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الحجز العاشر

وفيه تفسير :

١٤ - سورة إبراهيم ، و ١٥ - سورة الحجر ، و ١٦ - سورة النحل ، و ١٧ - سورة الإسراء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد بن عبد الغني

عيسى الباني الحلبي وشركاء

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سمّيت به لاشتغالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كاللحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتنفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبوة نبيّنا عليه أكل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايغي .
وهي مكية النزول ، قيل : إِلَّا قوله تعالى ^(١) « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كَتَبْهُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

«الر كَتَبْ» خبر ل (الر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبراً المضمراً، أو مسروداً على نمط التعديد. وقوله تعالى : « أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ » صفة له « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى : من الضلال إلى الهدى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى : أمره . وقوله تعالى : « إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بدل من قوله (إِلَى النُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل : إلى أى نور؟ فقيل : إِلَى صِرَاطٍ ... الخ . و (الْعَزِيزِ) الذى لا يغاب ولا يمانع بل هو القاهر القادر . و (الْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان ل (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) « وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ » أى : بما أنزلناه إليك « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » بتعميق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغيون أهلها أن يعوجوا بالردة ، أو يبغيون لها اعوجاجاً ، أى يطلبون أن يروا فيها عوجاً قادحاً ، على الحذف والإيصال « أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل ، والبعد فى الحقيقة للضال نفسه ، وصف به فعله للمبالغة ، يجعل الضلال نفسه ضالاً . وفى إثبات الظرف على (أولئك ضالون ضلالاً بعيداً) دلالة على تمكنهم فيه ، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » أى : ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خاطبنا به كما قال (١) (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . (فإن قلت :) لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قُلْ يَسَاءَ يُهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (٢) بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قالت) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانها وتفهمها ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتسكّثر في إتياب النفوس وكّد القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التي هو يتلوها عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه - كذا في (الكشاف) .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعدها تهذيب الأمم الأخرى . كما يعد فرداً واحداً منها تهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هي المختارة تهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم - فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتهيئاً لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، ولله في خلقه شؤون هـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفية لم تعلم إلا بعد مجيئ الرسول ، والآية صريحة في علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ » أى لمباشرته أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلفظ به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة ، كأنه قيل : فبيّنوده ، فأضلّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنى عن الذكر والبيان « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى : فلا يغالب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

بِآيَاتِنَا اللَّهُ : أى : أنذرهم بوقائمه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعمائه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هى أعم من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى ، فيما أراه ، لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكيّد . وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكل مؤمن) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصَّابِر) على (الشَّكُور) لتقدم متعلق الصبر - أعنى الإيمان - على متعلق الشكر - أعنى النعماء - وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» أى : يصفونكم إياه «وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» أى : المولودين صغاراً «وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أى : ييقونهن فى الحياة «وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبته إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيل : كون قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر . وأما استحياء النساء ، وهن البنات أى استبقاؤهن ، فلائهن كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهن دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظم الرُّزءِ فيما أَرَى بقاء البنات وموتُ البنين

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشري : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والحنة جميعاً ، قال تعالى (١) : (وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاها خير البلاء الذى يبلو *

انتهى .

ولذا جَوِّزَ أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنعمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء (وَيَذَّبَحُونَ) هنا بالواو ، وفي سورة البقرة^(١) (يَذَّبَحُونَ) وفي الأعراف^(٢) (يَقْتُلُونَ) بدونها . والقصة واحدة - بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه ، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال . وحيث عطف - كما هنا - لم يقصد ذلك . والعذاب ، إن كان المراد منه الجنس ، فالتذبيح ، لكونه أشد أنواعه ، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدة كونه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، فهما متغايران والمحل محل العطف . وجوز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير - لكونه أوفى بالمراد وأظهر - بمنزلة المغاير ، فلذا عطف .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم ، إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِنْ شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ما خلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشد النقم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَسْكُرُوا أَن تَلْمِزُوا أُنَاسًا وَهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ) « وَقَالَ مُوسَىٰ » أى : لقومه « إِن تَسْكُرُوا أَن تَلْمِزُوا أُنَاسًا وَهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ » أى : غنى عن شكر عباده ، المحمود بأجل المحامد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إن) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم . فإن الله لغنى عن شكر الشاكرين .

وفي (صحيح مسلم)^(١) عن أبي ذرٍّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » ، فسبحانه من غنى حميد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذه من كفر « نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ١٥ - باب تحريم الظلم ،

حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جداً ناظره .

أى : مع كثرتهم « وَعَادِ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير^(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم .
وقوله تعالى « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح) ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمل الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعجبوا بها؟ إن في ذلك لمعتبراً . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لايهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :
أى : ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله^(٢) : (عَضُّوا عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (في) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بآلغ في منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع في كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة . لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا في الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالكذب . وفي تصديرهم الجملة (أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة في التأكيد .

وفي الثانى - أعنى المعنى المجازى - وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفاً ؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى (١) (إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبيئات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأيادٍ ، وأيضاً العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادٍ ؛ وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي ، وفي العدد الكثير الأيادي . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى (٢) : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردّاً في الأفواه . انتهى .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفي (الرازي) تتمّة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال في (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكد (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرناجزماً فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأياً ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافي الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلاً . انتهى .

أى : فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٌ » بمعنى موقع في الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من (أراب) : صار ذا ريبةٍ وهى صفة مؤكدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَصْدُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورى في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض - أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلهيته وتفردّه بوجوب العبادة له ، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : (أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ مَّرِيبٍ مِّنَ اللَّهِ) مبالغة فى تزيه ساحة جلاله عن سائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» أى : يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم (مما تدعوننا إليه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدس ، أو للتمدية أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إما تبعيضية أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزخشرى مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للفرقة بين الخطايين ، ولثلاث يسوى بين الفريقين فى الميعاد .

قال فى (الكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى الفرقة بين الخطايين بالتصريح

بغفرة الكل وإبقاء البعض في حق الكفرة مسكوتاً عنه لثلاثي شكوا على الإيمان .
 وقوله تعالى : « وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتدكم متاعاً حسناً إلى أجل
 مسمى « قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبينٍ » أى : آية مما نقرحه تدل على فضلكم علينا بالنبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
 مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
 وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ » أى : بالرسالة والنبوة « وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »
 أى : بأمره وإرادته ، وهو لم يرد ذلك ، لقوله ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
 كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) .

« وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : أمر منهم المؤمنين كافة بالتوكل ،
 وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمرؤها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله
 في الصبر على معاندكم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ
 مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ » ومعناه : وأى عذر لنا في أن لا نتوكل عليه

« وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا » أى : أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمى ، مظهرين لكمال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . »

« وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ »
يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفي من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكون أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد - كما قال الرازى - أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبل . أجيب : بأن (عاد) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسول ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسول ، وبشارة حقة . كما قال تعالى^(١) : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى^(٢) : (وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أى : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله^(٣) (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أو مصدر ميمي ، بمعنى : حفظى وقيامى لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالى . وياء المتكلم في (وعيد) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياء - هنا وفي (ق) في موضعين^(٤) : (كُلُّ كَذَّابٍ أَلْرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)^(٥) (فَذَكِّرْ بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِنَّ مِنْ بَحَافٍ وَعِيدِ) - وصلاً ، وحذفها وقفاً - ورش عن نافع . وحذفها الباقون وصلأ ووقفأ .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَأَسْتَفْتَحُوا» أى : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٧١ - ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و [٢٨ / القصص / ٨٣] .

(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهي الحكومة كقوله ^(١) : (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)؛ فالضمير للرسول ، وقيل : للكفرة ، وقيل : للفريقين . فإنهم سألوا أن ينصر الحق ويهلك المبطل . وقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى : فنصروا عند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسول وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبر والعدا . أو استفتحوا جميعاً فنصر الرسول وأنجز لهم الوعد ، وخاب أعداؤهم . و (الجبار) التكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و (العنيد) المعاند للحق ، كخليط بمعنى مخالط .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ)

« مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ » جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

« يَتَجَرَّعُهُ » أى : يتسكف تجرعه لقهره عليه « وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ » لخبثه « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأحوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ)

«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التي

فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإتفاق الأموال

وعقر الإبل للضيغان ، في حبوطها - لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد طيرته الريح

العاصف . وقوله تعالى (لَا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلكه للتمثيل بمعنى المقصود منه

ومحصل وجهه ، أى : لا يقدرُونَ يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أى

لا يرون له أثراً من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير في الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات

هائلة ، للتصريح ببطالان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم .

وفي توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشدت به) من (شدت) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدّة) بمعنى

القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على

الأسناد المجازي كـ (نهاره صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . ونجلة

(أعمالهم كرماد) مستأنفة جواباً لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل)

و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَاعَمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا)

وقوله تعالى^(٢) : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرَّثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) وقوله تعالى (١) : (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته . أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفي الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سبقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس . أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (٢) (أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَعْ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (٣) : (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٧٧-٨١] .

مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

الوجه الثاني : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتهم أمره ، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى (١) : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ) وقوله (٢) : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى ؛ « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العيب كقوله (٣) : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطَلًا) وقوله (٤) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطَلًا) وقوله (٥) : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض ،

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ الضُّعَفَاؤُ » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أى : على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم - « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغُنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى : بعض الإغناء . « قَالُوا » أى : المستكبرون « لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ » إحالةً ، لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، ولو هدانا بأهدائنا ، ولكن زغنا فأزغنا كما قال تعالى ^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ » أى : منجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى ^(٢) : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها الآية ^(٣) : (وَإِذْ يَتَحَاكَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغُنُونَ عَنَّا نَصِيْبًا مِنَ النَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط ، كما ادَّعاه . وربما كان قوله (وَبَرَزُوا) يدل للموقف بمناء المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِي النَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة . والمراد بـ (النَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأى عذاب !

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْلَوْ أَنَّفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء «إِنَّ

اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» أي : على السنة رسله بأن في اتباعهم النجاة والسلامة ، أي : فوفى به وأنجز «وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أي : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا يمت ولا جزاء . ولئن كان ، فالأصنام شفعاءكم . ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه ، أو مشاكلة . وفي الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعد (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعْدَ الْحَقِّ) .

«وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أي حجة وبرهان «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» أي : أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك ، أي وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، نخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه «فَلَا تُلْهُمُونِي» أي : بوعدي إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر «وَلَوْلَوْ أَنَّفُسَكُمْ» أي : حيث استجبتم لي باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشاني : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنور بنوره ، أسلم وأطاع وصار محققاً لما بأن الحجة لله في دعوته لا يخلق إلى الحق ، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الخطام

وتزين الحياة الدنيا عليهم - واهية فارغة عن الحجة . وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلاّ الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلاّ لمن قبل الدعوة الحالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد فى الاعتقاد . قال : وهو انتزاع حسن . لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه ، ولم يطلبوا منه برهاناً . فحكى الله قوله تقييداً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» أى : بمفئذكم ومنجىكم من العذاب «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ» أى : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابى : الصارخ : المستغيث ، والمصرخ : المغيث ، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فلهزمة للسلب . يعنى أزلت صراخه ، وهومدّ الصوت . «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» أى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم - أى فى الدنيا - يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى ^(١) : (وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) وقوله ^(٢) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقوله ^(٣) : (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ابتداء كلام منه تعالى ، أو تنمة كلام الشيطان .

قال الزمخشري : وإنما حكى الله عزّ وعلاً ما سيقوله فى ذلك الوقت ، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦] . (٣) [١٩ / مريم / ٨٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

« وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى :

الطاعات « جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى : من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (أدخل) أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى : تحييتهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى^(١) : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله^(٢) (وَأَلْمَلَيْتُكَ بِدُخَانٍ مُطَهَّرٍ) « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » .

ولما بين تعالى ما أعد للمشركين والمؤمنين من المال الأخروي ، ضرب مثلاً للشرك والإيمان - بأن مال الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومال الأول إلى الدمار والاندحار - فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

[٢٥] (تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها « وَفَرْعُهَا » أى أعلاها ورأسها « فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا »

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣ و ٢٤] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ مَّ يَأْذِنُ رَبُّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جذعها بالسكينة « مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به - أعنى الشجرة - أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب الممثل له . فنها : كونها طيبة . أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانتقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأفذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتمعنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على نخامة الموصوف وإنافة فضله . ولا تخفى مطابقة هذا المثل به للممثل له - أعنى الحق - وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلها ، صرح بهما فذلك له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا) . والمعنى على الأول : ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم في سؤال القبر به ، وعلى الثاني فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه وزهوه عما لا يليق بجناحه . و (في الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشري وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنات إليه نفسه . وثبتيتهم به في الدنيا ، أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزولوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وثبتيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِلَ في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان ^(١) وأهل السنن .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .
وقال في أصحاب المثل الثاني :

« وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه ، أولظالمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ

إِلَى النَّارِ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أَتَتْهُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ وَالْهُدَايَةُ بِنِعْمَةِ رَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَبَدَّلُوا شُكْرَهَا كُفْرًا عَظِيمًا وَغَمَصًا لَهَا « وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ الْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديداً لأولئك الضالين المضلين « تَمَتَّعُوا » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ » إِلَى النَّارِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

«قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ» وهو يوم القيامة «لَا بَيْعٌ فِيهِ» أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفقده به «وَلَا خِلَالٌ» أى : محالة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مساححة بمال يفقده به ، كما قال تعالى ^(١) : (وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإتفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإتفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص ، فبعضوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارات ، وإنما ينتفع فيه بالإتفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة بـ : (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما - من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإتفاق في سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

ذلك في الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيص التأكيـد بذلك لميل الطباع إلى المال ، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به . ولا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالات . كما في قوله تعالى^(١) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى ، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه ، شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للسكران الخللين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» أى المزن «مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» أى تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» أى السفن «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» أى بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» أى فتجري حيث تشاءون من شرب وسقي وسواها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ» أى يدأبان في سيرها وإنارتها ودرئهما

(١) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفه ، لعماسكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَأَنذَرْتُكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَأَنذَرْتُكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعاشكم به . فكأنكم سألتُموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشانى : (مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بالسنفة استعداداتكم . فإن كل شئ يسأله بلسان استعدادده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » لعدم تنافها « إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أوحق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن النعم عليه بها ، واحتجابها بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » أى اذ كر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ما سلف من تعجبه عليه السلام ببيان فن آخر من جنائياتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر
لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس
إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل
شئ . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أنداداً
وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « آمناً » أى ذا أمن .
أو آمناً أهله . « وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بعدنى وإياهم « أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنِّهِمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ وِىِّى ،
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنِّهِمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » أى كنّ سبباً فى إضلالهم . كما يقال : فتنهم
الدنيا وغررتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلّاق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإدما
صدره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَنْ تَبِعَنِ » أى على ملتي وكان
حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُ وِىِّى وَمَنْ عَصَانِي » أى يخالف ملتي « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »
أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الفنى عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين
إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولدمنه

« بِوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى لىكى يأتوا بعبادتك مقومةً فى ذلك الموضع . وهو متعلق بـ (أَسْكَنْتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك . وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَأَجْمَلْ أَفْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً .
 فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ » أى فتجلبها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى : نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها ، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)^(١) .

قال الزمخشري : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا ، منا . وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذلاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجلاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتعلق العبد بين يدي سيده رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح . فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للخفلة عن حوائج السائلين . ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . انتهى .

وجوز في قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِيْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَاعِيْلَ وَاسْحٰقَ ، اِنَّ رَبِّيْ لَسَمِيْعُ الدُّعَا)

« اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِيْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَاعِيْلَ وَاسْحٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابى « اِنَّ رَبِّيْ لَسَمِيْعُ الدُّعَا » أى مجيبه .

قال الزمخشري : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر ..

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ اجْعَلْنِيْ مُقِيْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِيْ ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَا)
« رَبِّ اجْعَلْنِيْ مُقِيْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِيْ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَا » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم .
قرئ (ولوالدي) . بالإفراد . وكأن هذا قبل تبين أسره له عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه ،
إذا أنظرهم وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم . بل هو يحصيه عليهم
ويعده عليهم عدداً . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعد للكفرة
وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى يأمهاهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يجعل عقوبتهم « لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرأ أعينهم
في أماكنها ولا تطرف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَايَ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعي الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية
قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى ^(١) (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ) وقوله ^(٢)
(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) .

« مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطفرون . ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى لا قوة فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشريّ : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان هواء ، إذا كان جباناً لا قوة فى قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضاً : قلبه هواء . والمعنى : أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء . من هول ذلك اليوم وشدته وخوف مايقع فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)

قوله « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا » أى رُدُّنَا إلى الدنيا وأمهلنا « إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من الزمان قريب « نُجِبِ دَعْوَتَكَ » أى إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيثاً : أولم تكونوا تحلفون « مِّنْ قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى^(١) (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ) .

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » كعاد وعود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُوا » أى بالنبي صلوات الله عليه « مَكْرُهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » أى مُسَوًى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارها ، لتناهى شدته .

وجوز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم . على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعها . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمسكاً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولَ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتفتلح من أركانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ » أى من نصرهم البين في قوله تعالى ^(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) . (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) ^(٣) الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الأخروي المتقدم في قوله تعالى ^(٤) (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأولين ، في معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوتر تقديم المفعول الثاني ، أعنى (وعده) ، على الأول وهو (رسله) للإيذان بالعناية به . فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على السنة الرسل . فالهم في التهديد ذكر الوعيد . كذا في (الانتصاف) .

وفي (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وما ذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما في قوله ^(٥) (رَبِّ ائْتِرْحَ لِي صَدْرِي) . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أى غالب لا يماكر « ذُو انتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأوليائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا امت . وتبدل السموات

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] . (٥) [٢٠ / طه / ٢٥] .

بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لا يخلف وعده) .
« وَبَرَزُوا » أى الخلائق أو الظالمون من أجدانهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السمود: والتعرض للوصفين تهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » جمع (مقرن) وهو من جمع فى قرن (بفتحين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بمضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى (١) : (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) . وقال (٢) : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو : قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى (٣) : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِي الْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَدَ (بفتحين) بمعنى القيد أو الغل . والقيد هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجار متعلق بـ (مُقرَّنين) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٢) [٨١ / التكوين / ٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

« سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظرًا عند العرب . وهو الإبل الجربى التى تطفى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود ممتن الريح .

قال الزمخشريّ : تطفى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لدغ القطران ، وحرقة ، وإسراع النار فى جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكلّ ما وعده الله وأوعده به فى الآخرة فينبه ويبن ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينبجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم : ما رواه الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب . والطمع فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت . والنأمة إذا لم تب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلاء الخوارزمى أنفذها لمن شكأ إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكمة مادتها ييوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمدد القذارة . كما تزيد فيه الييوسة والحرارة . وعلة تدل على تضيق واجب النفس من التعهد .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعنا).

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المنّة فى التوقى . أسير فى يد
الحرص والتشهى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا
وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء . ينظر إلى الناس بعين الريب . ويتستر عنهم كتستر المعيب .
تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكفته العيون . وأقل ما يصيبه أنه يحرم
آلة المطاعم وهى يده . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتهما . ومن
عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان . وتجعله أميّا بعد أن كان غير أميّا .
وأعجميّا وليس بأعجميّا . تنفر عن نفسه نفسه . وتهرب من فراشه عرسه . ويتباعد عنه
أقرب الناس منه . ثم هى رُبّع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة : الموت والعشق والإفلاس والجربُ
وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .
قال أبو تمام (١) :

لما رأت أختها بالأمس قد خربتُ كان الخراب لها عدى من الجربِ

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزي ، شارح الديوان :

الماء فى (أختها) راجعة على عمورية . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خربت ، وهى
أخت عمورية ، أعدتها بالجرب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد^(١) :

ذهب الذين يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ في خَلْفٍ كِجْلِدُ الْأَجْرَبِ
فجعلله رأس الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تملوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدكم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال^(٢) (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزخشرى وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام . أو عام للبرة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا) وما بينهما اعتراض أو بـ (ترى) « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالأحد منهم . كقوله^(٣) (مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بُعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى يحيطه كقوله^(٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . وقوله تعالى :

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَا لَكَ وَادْهَبِ وَالْحَقُّ بِأَسْرَتِكَ الْكَرَامِ الْغَيْبِ
يرثى بها أخاه لأمه ، أريد .

يقال : خَلَفَ خَيْر ، وَخَلَفَ سُوء .

(٢) [١٠٤ / الهمة / ٧] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَٰذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ)

« هَٰذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ » أى ليخوفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو . وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به ، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشري : (وَلِيَذْكُرُوا أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ » أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥ - سُورَةُ الْحَجَرِ

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايى ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

«الر» تقدم الكلام في مثله «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ» الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والهدى . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» . تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أَوْ لَمْ يَكْ أَعْظَمُ دَرَجَةً) ^(١) وفيه تثبيت للنبي ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جرى بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناء عن التصريح بالفرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أمل استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيراً فى المال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشري : فيه تنبيه .

ثم بين تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدر ليتأمل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقديم الإنذار وتكرره على سمعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ)

« مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار . ثم أخبر تعالى عن عتوهم فى كفرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا يَسَاءَئِلُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا يَسَاءَئِلُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكماً . أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

[٨] (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ)

« لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى هَلَّا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ يشهدون بصدقك وبعضدوك على إنذارك كقولهم ^(١) : (لَوْ لَا أَنْزِلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) . وقول فرعون ^(٢) : (فَلَوْ لَا أَتَىٰ عَلَيْهِ أَسِيرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقْتَرِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنّة الإلهية ، وهو العذاب « وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين . كقوله تعالى ^(٣) : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرِىٰ رَبَّنَا ، لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسلية وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ » أى من كل مَنْ بئى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبجر هدهاء يجرى ، وظلال حقيقته فى علومه تمتد على الآفاق ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١ و ٢٢] .

ودعائهم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين^(۱) (يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۱۰] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ)

[۱۱] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلاً « مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ » أى فرقتهم وطوائفهم . جمع (شيعه) وهى الفرقة المتنفقة على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمحذوف . أى الأمم . أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف . « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۱۲] (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[۱۳] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ » أى الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين . وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزخشرى : كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجيبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللاثام . تعنى مثل هذا الإزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوز فى ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(۱) [۶۱ / الصف / ۸] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » استئناف جىء به تكملة للتسلية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بين تعالى أنهم لا يتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتهم الآيات التى تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا » أى حيرت أوحبست من الإبصار، ومانراه شىء تتخيله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الاتصاف) : المراد ، والله أعلم ، معنى من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها . كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علمٍ وفهمٍ^(١) (لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ) الآية . أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك فى قلوبهم ووفر ، ولكنهم قوم سجيئتهم العناد وسيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم

أوضح السبيل وأدعاهما إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّوا) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا) وسحرنا محمد . وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدود والإصرار ، لاغير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُوْ شِهَابٌ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثني عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور ، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها . فإن النجوم هي كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّاهَا » أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء الرائية « لِلنَّاظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها . أوللمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدتها ووحدانيته « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ » أى اختلس « السَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَاتَّبَعَهُوْ » أى تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالاً ثوابت « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى في (الدرر)^(١) : أن العرب استعملته بهذا المعنى . كقول عمر

ابن أبي ربيعة .

وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ يُوزَنُ وَزَنًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُوَ بِرَازِقِينَ)

[٢١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ لَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ » أى ما تعيشون به من الطعام والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُوَ بِرَازِقِينَ » أى من الأنعام والدواب وما أشبهها . قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتنأهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبيّ) .

والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى . وفيه :

(يفت الناعتون) عوضاً عن (تشتهيه النفوس) .

عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ «أى وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبه إقذاره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجها إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبه مقصوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنَزِّلُهُ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل للماء . وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابتة الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله المهايى . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بِجَرْمِي مائها فيه أو تنميتها ليثمر ويزهو . وجوز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجىء بالمرن الممطرة ، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (المقيم) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » أى بقاديرين على إيجاده وإزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مر . أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلطه ينابيع فى الأرض وجعله عذبا ورحم العباد بسقيه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فناءه . ومنه قوله ^(١) صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أقف على هذا الحديث .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لا يخفى علينا شئ من أحوالكم . وهو بيان لكمال علمه ، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه . وفى تكرير قوله (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُ وَحَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة ^(٢) (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٧] (وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » يعنى آدم « مِنْ صَلْصَلٍ » أى طين يابس مصوت « مِنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصور من (سنة الوجه) وهى صورته . أو مصبوب ، من (سن الماء) صبّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فیس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه « وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل الإنسان . « مِنْ نَّارِ السَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحر .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُو سَاجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ » أى عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُو سَاجِدِينَ » أى تحية له وتعظيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَبَا بَلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَبَا بَلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » .

يعنى : وقد خلقتنى من نار فأنا خير منه . كما صرح به فى آية غيرها . وفى تكرير قوله :

(مِّن صَلْصَلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كالبخا من جراح غوايته ، وشدة تمرده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَاجِعٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرحم بالحجارة . أو شيطان يرحم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو راجع ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ » أى المعاصي « فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ » أى حق نهجه ومراعاته لا اعوجاج فيه . وهو أن لاسطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ »

أَجْمَعِينَ » قال المهايى : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، فغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعدادده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أَدْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَامٍ » أى

سالمين أو مسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ »

غِلٍّ « أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَانًا » حال من فاعل (أَدْخُلُوهَا) أو الضمير فى (آمَنِينَ) « عَلَى مُرُرٍ » أى مراتب عالية « مُتَقَابِلِينَ » لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً « وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » أى لمن لم يتب من كفره . والجملة فذلك لما سلف من الوعد والوعيد وتقريره . « وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ » أى عن نَبِيَّهِ . والضيف كالزَّوْر ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشف : عطف (وَنَبِّئُهُمْ) على (نَبِيُّ عِبَادِي) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٣] (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)
 [٥٤] (قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ)
 [٥٥] (قَالُوا بَشِّرْ نَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ)
 [٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

«قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» * قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ
 أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فِيمَ تَبَشِّرُونَ » قال الزمخشري :
 هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب . كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . أو أراد إنكم
 تبشرونى بما هو غير متصور في العادة . فبأى شئ تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة
 بشئ . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شئ .

«قَالُوا بَشِّرْ نَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ» أى الآيسين من ذلك . « قَالَ
 وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ،
 ولكن استبعادا له فى العادة التى أجزاها الله تعالى . والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقفه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)
 [٥٨] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)
 [٥٩] (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)
 [٦٠] (إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَقَدْ رَأَيْنَا إِنهَآ لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروح « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرًا تَهُوَ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْفَعِيرِينَ » أى الباقيين مع الكفرة ، تهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازى من باب قول خواص الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو في علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكى عن الملائكة . قال في (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائها عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ » أى لا أعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايى : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم . كما فصل فى سورة هود « قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرون به ، ويكذبونك « وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ » أى كن على أترعهم تزدوهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فىرى من الهول ما لا يطيقه « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَـؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرض له . فأوعدوه وقالوا (١) : (لَئِنْ لَمْ نَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أفاده الزمخشري .

« قَالَ هَـؤُلَاءِ بَقَايَ إِنْ كُنْتُمْ قُلْعِلِينَ » تقدم الكلام عليه في سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبي ﷺ ، اعترض به تبعاً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَةٍ تَهُمٌ » أى غفلتهم التي ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه ، النصيحة البقية لهم ، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين في وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة الحركة للأرض « عَلَيْهِمَا سَافِلَهًا » قال المهايى لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، لرجهم على لواطهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق فى الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمرة « لَيْسَ لَكَ مُقِيمٌ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزخشرى : وهو تنبيه لقريش ، كقوله ^(١) (وَإِنَّكُمْ لَتَعْمُرُونَ عَلَيْهِمُ مَضْجِحِينَ * وَإِلَيْكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لعمرة لهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن القيم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا - أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعْمُرُك) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره . ولم يوفق الزخشرى لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة . فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيّب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبيّ غيره . والعمر والعمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيتة على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصفات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سُكْرَانِ : سُكْرُهُوَّى وَسُكْرُهُدَامَةٌ . ومتى إفاقة مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟
الثاني - قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) . قال السيوطي في (الإكليل) :
هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً^(١) : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام في الفراسة ، الراغب الأصفهاني في كتاب (الذريعة) حيث قال في الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله وورائته .

وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله^(٢) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله^(٣) (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) وقوله^(٤) (وَتَعْرِفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فرس السبع الشاة) فكان الفراسة اختلاص المعارف . وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي . وإياه عنى النبي ﷺ بقوله^(٥) (المؤمن

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب

حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبي سعيد الخدري ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروء والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام^(١) (إن يكن فى هذه الأمة محدثٌ ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى^(٢) : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروح ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل^(٣) : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام^(٤) (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، أطلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوى فيه نور الروح الذى كور فى قوله تعالى^(٥) : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) كان ممن وصفه بقوله^(٦) (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهداً ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام^(٧) فى المتلاعنين (إن أمرهما بين ، لولا حكم الله) .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشى ، المدوى ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] . (٤) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] . (٦) [١١ / هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن عباس فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣١ - باب قول النبى ﷺ : لو كنت راجماً بغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

[٧٩] (فَأُتِّقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)

[٨١] (وَأَيَّتَنِتُّهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ» (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام . كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار ، فظلموا بأنواع من الظلم ، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه . «فَأُتِّقِمْنَا مِنْهُمْ» أى بعداب الظلة ، وهى سحابة أظلمهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم «وَإِنَّهُمْ» يعنى قرى قوم لوط والأيكة «لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ» أى طريق واضح . وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال ^(١) (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) .

«وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ» يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامى .

«وَأَيَّتَنِتُّهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيهم . كالنفاة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

(لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) (١) فلما عتوا وعقروها ، قال (٢) (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ

لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْثَانِ وَأُقِرُّهُ أَنَّ الْعَظِيمَ)

«وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ» أى من حوادث الدهر «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع . وفى سورة الأعراف (٣) «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

«فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنوا بماؤها عن الناقة ، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه ، فادفعت عنهم تلك الأموال لما حاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» أى لإخلاقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لا تقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] .

(٢) [١١ / هود / ٦٥] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨] .

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ » أى فيجزى كلاً بما كانوا يعملون « فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله^(١) « فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة . فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى^(٢) « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

« وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمُنَاقِبِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » قال الرازى : إنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز . (والسبع الثانى) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى^(٣) « كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي » والواو فى قوله : « وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » لعطف الصفة كقول الشاعر^(٤) :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيْبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (الثانى) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبالغة والإعجاز . أو مثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها، لا أنها هي المعنى. كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث^(١) (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته) عند الشيخين ، فعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذى أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هولا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللأثرى الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هي الفاتحة لظاهر الحديث - أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

« لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » يعنى : قد أوتيت النعمة العظمى ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - سورة الفاتحة ، ١ - باب ماجاء

فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن المعلى .

التي كل نعمة وإن عظمت ، فهي إليها حقيرة . وهي القرآن العظيم . فعليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيا لها . فإنه مستحققر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى لعدم إيمانهم ، الرجوّ بسببه تقوى ضعفاء المسلمين بهم « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفاءهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أى المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أى مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ما أنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، كما مر . فلاقتسام من (القسم) لامن القسمة . وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسَسَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أى أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسَسَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوز تعلق (كَمَا) بقوله :

(لَنَسْأَلَنَّهُمْ) أى لنسألهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما من تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإيزال عليهم إيزال الهداية التى أبوها ، وجوز جعل الموصول مفعولاً أول للندير ، أو لما دلّ عليه من أنذر . أى انذير . أو أنذر المعصين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرّفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَأُصْدِعْ بِمَا تُوَمِّرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ)

[٩٦] (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَأُصْدِعْ بِمَا تُوَمِّرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) . أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أى : افرق بين الحق والباطل « وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » أى الذين يرومون صدك عن التبليغ ، فلا تبال بهم « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ » أى حفِظْنَاكَ مِنْ شَرِّهِمْ ، فلا يبالغ منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ، له صلوات الله عليه ، لينهض بالصدع نهضة من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى ^(١) : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

(١) [٥ / المائة / ٦٧] .

« الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » وصفهم بذلك، تسلياً له عليه الصلاة والسلام، وتهويناً للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوز في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعاً بتقدير (هم) . وفى الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم ، كما روى ابن إسحق عن عروة : أن عطاء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان ومثرف فى قومهم : من بنى أسد أبوزمعة ، كان النبي ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال : اللهم ! أعم بصره وأنكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث . فلما تآدوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى ^(١) : (فَأُصْذِعْ بِمَا تُوْمَرُ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه . فر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فأت منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتفض به فقتله . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت فى أخص قدمه . ومر به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود ^(٢) : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلى فى ظل الكعبة .

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤ . (٢) أخرجه البخارى فى : ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٩ -

باب إذا ألقى على ظهر المصلّى قدر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ - باب ما لى النبي ﷺ من أذى

المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد انحروا جزوراً في ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فلقد رأيتهم قتل في قليب بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

[٩٩] (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون . لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى ^(١) : (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ -) وقال ^(٢) : (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استئزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة . لقوله ^(٣) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . وقوله ^(٤) : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وقوله ^(٥) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

(٣) [٢ البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٣] و [٨ / الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٥٢] .

(٥) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقد روى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلاً لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسليمة . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعنى الأمر بالتسبيح والحمد . والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقنٌ بالحق بكل حي مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيدان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه . والمعنى دُم على العبادة ما دمت حياً . كقوله تعالى في سورة مريم ^(١) (وَأَوْصَيْنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ (اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن . إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدل له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ) وما في الصحيح ^(٣) عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنى لأرجو له الخير .

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ - ٤٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجفائر ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كنفه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من إفراد البخاري) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية السكرية وهي قوله (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما في صحيح البخاري^(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صل قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً . فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ - باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخاري) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦ - سُورَةُ النَّحْلِ

سميت بها لاشتغالها على قوله تعالى ^(١) (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده ، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . يحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعاني الثمرة ، وعلى التصرفات العالية . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية . وهذا أكل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهايي .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم . ليتفطن الغرض الذي يرى إليه . ك (الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعي وما يَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة ، والحديد لمنافعه العظيمة . و (النحل) . و (المنكبوت) . و (النمل) . لتفطن لصفار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتى طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته في هذه السورة . وهي مكية . واستثنى ابن عباس آخرها . وعن الشعبي : إلهامه تعالى ^(٢) (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبي : إلهامه تعالى ^(٣) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) الآيات . وآياتها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

(١) [١٦ / النحل / ٦٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦] . (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تقرر في غير ما آية ،
 أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ،
 استهزاء وتسكديبا بالوعد . فقيل لهم (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير
 عنه بـ (أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللايذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه ، منوط بحكمه النافذ
 وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع .
 أو عن إتيان مبادئه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله
 تعالى (١) : (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله (٢) (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
 وَأُنْزِلُ الْقَمَرُ) وقوله (٣) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
 وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم
 معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها
 شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)
 « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ « رَدُّ لاسْتِيعَادِهِمُ النَّبُوَّةَ ، بِأَن ذلِكَ سَنَةٌ لَهُ تَعَالَى . وَلِذَا ذَكَرَ صِيغَةَ الاستِيعَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وَقَوْلُهُ ^(٢) (اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) وَالرُّوحُ هُوَ الْوَحْيُ ، الَّذِي مِنْ جَمَلَتِهِ الْقُرْآنُ . لَقَوْلِهِ تَعَالَى ^(٣) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالرُّوحِ عَلَى نَهْجِ الاستِعَارَةِ . فَإِنَّهُ يُجِى الْقُلُوبَ الْمِيْتَةَ بِالْجَهْلِ وَ(مِنْ أَمْرِهِ) بَيَانٌ لِلرُّوحِ ، أَوْ حَالُ مِنْهُ ، أَوْ صِفَةُ ، أَوْ مَتَعَلِّقٌ بِهِ (يَنْزِلُ) . وَ (مِنْ) لِلْسَّبِيحَةِ وَ (أَنْ أُنْذِرُوكَ) بَدَلٌ مِنَ الرُّوحِ . أَيْ أَخْبَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى . فَقَوْلُهُ (فَاتَّقُونِ) مِنْ جَمَلَةِ الْمُنْذَرِ بِهِ . أَوْ هُوَ خُطَابٌ لِلْمُسْتَعْجِلِينَ ، عَلَى طَرِيقَةِ الْإِتِّفَاتِ . وَالفَاءُ فَصِيحَةٌ أَيْ إِذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى ذلِكَ ، فَاتَّقُونِ ، بِمَا يَنْفَاهِيهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ وَفُرُوعِهِ ، مِنَ الْاسْتِعْجَالِ .

قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : ثُمَّ دَلَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، بِمَا ذَكَرَ ، مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَمَا يَصْلُحُهُ ، وَمَا لَا يَدُلُّهُ مِنْهُ مِنْ خَلْقِ الْبَهَائِمِ لِأَكْلِهِ وَرُكُوبِهِ ، وَجَرِّ أَثْقَالِهِ وَسَائِرِ حَاجَاتِهِ . وَخَلْقِ مَا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِهِ . وَمِثْلُهُ مُتَعَالٍ عَنْ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

[٥] (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » *
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ « أى مهيئة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُبِينٌ »
 أى مخاصم خالقه مجادل ، يحدد واحدتيه ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا
 لا ضدا « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى
 سورة الأنعام .

قال الزخشرى : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى ما يدفئ أى يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنْفَعٌ »
 أى من نسلها ودرها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ « أى زينة
 « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردونها من مراعيها إلى مرايحها (بضم الميم) وهو مقرها فى دور
 أهلها بالعشى « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزخشرى : من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب
 المواشى . بل هو من معازمها . لأن الرعيان ، إذا روحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة ،
 فزيت بإراحتها وتسريحها الألفية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت
 أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه ^(١)
 (لَتَرَنَّاهَا وَزِينَةً) ^(٢) (يُورَى سَوَاءٌ تَسْكُمُ وَرِيثًا) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .
ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ،
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » أى أحمالكم « إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »
بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان في معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالغيه
بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم « إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »
أى حيث سخرها لمنافعكم . ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال
« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على (الأنعام) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل
(تركبوها) فعلى مفعول له أو مصدر لمحذوف . أى وتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع
موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزيننا بها . وسر التصريح
باللام في المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلي في
الأنصاف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمراً تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن
المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين
منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا في (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزاً ، لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافي غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عام خبير . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية . والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن هذه الآية متمسكةً للقائلين بالتحريم ، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث . منها ما في الصحيحين^(١) وغيرهما ، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شعبة والترمذي^(٢) وصححه والنسائي^(٣) وغيرهم من جابر قال : أطمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ - باب النحر والذبح ، حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٥ - باب ما جاء في أكل لحوم الخيل .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ - باب الإذن في أكل

لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين^(١) من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي^(٣) وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي إسناده صالح بن يحيى . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحل . على أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في (فتح البيان) .
وفي (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردّاً على الحنفية في قولهم بوجوب الزكاة فيها . أى الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من المخلوقات في القفار والبحار . وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » .

في الآية فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٥ - باب في أكل لحوم الخيل ،

حديث رقم ٣٧٨٨ . (٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ -

باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نَبَّهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحُسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) وَقَالَ تَعَالَى (٢) (يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ) .

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَلْفُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ . فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ . فَقَالَ (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (٣) : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٤) (هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) . وَانْتَهَى . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : (إِنْ عَلَّمْنَا لَهْدًى) .

الثَّانِيَّةُ - قَالَ أَبُو السَّعُودِ : (الْقَصْدُ) مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ . يُقَالُ سَبِيلٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ . أَيْ مُسْتَقِيمٌ . عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ عَلَى نَهْجِ إِسْنَادِ حَالِ سَالِكِهِ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ الْوَجْهَ الَّذِي يُؤْمَهُ السَّالِكُ لَا يَعْدِلُ عَنْهُ . أَيْ : حَقٌّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِمَوْجِبِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدِهِ الْمُحْتَمُومِ ، بَيَانِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ لِمَنْ يَسْلُكُهُ إِلَى الْحَقِّ ، الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ . بِنَصْبِ الْأَدَلَّةِ وَإِرْسَالِ الرِّسْلِ وَإِزَالِ الْكُتُبِ لِلدَّعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ . أَوْ مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِقَامَةِ وَالتَّعْدِيلِ . قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ . أَيْ عَلَيْهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، تَقْوِيمُهَا وَتَعْدِيلُهَا . أَيْ : جَعْلُهَا بِحَيْثُ يَصِلُ سَالِكُهَا إِلَى الْحَقِّ . لَكِنْ لَا بَعْدَ مَا كَانَتْ فِي نَفْسِهَا مَنْحَرِفَةً عَنْهُ ، بَلْ إِبْدَاعُهَا ابْتِدَاءً كَذَلِكَ عَلَى نَهْجِ (سُبْحَانَ مَنْ صَغَرَ الْبَعُوضُ . وَكَبَّرَ الْفِيلُ) وَحَقِيقَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ نَصْبِ الْأَدَلَّةِ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ حَيْثُ أَبْدَعَ هَذِهِ الْبِدَائِعَ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَا حَبْثٌ يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ . وَعَلِمَ يَسْتَضَاءُ بِفَارِهِ . وَأَرْسَلَ

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلاً مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحي الفاطق بحقيقة الحق .
الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية
إلى معالم الهدى . المنجية عن فياق الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة - الضمير في (وَمِنْهَا جَايَزٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل
عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التي لا يكاد يحصى
عددها ، المدرج كلها تحت الجائر . كقوله تعالى (١) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ،
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

قال أبو السعود، بعدما تقدم : أى: وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق
وتعديله، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد - وهذا هو الهداية
المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما
ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مغلّ بحكمته ، حيث يستدعى
تسوية المحسن والمسيء ، والطيع والعاصي ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى :
(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية
موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولكن لم يشأ . لأن
مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها . ولا حكمة في تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك
التكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ،
التي بها فيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلى ، بعد الحيوان ، النبات ، تأثر ما مرّ من الإنعام
بالأنعام والدواب ، التي يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة
نفسها . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أى ومنه يحصل شجر. والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أى ترعون أنعامكم « يُنَبِّتُ » أى الله عز وجل « لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ » أى الذى فيه قوت الإنسان « وَالزَّيْتُونَ » أى الذى فيه إدامه « وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ » أى اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصل « لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه ^(١) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ عِصَافَ نَارٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَمْ يَخْلُقْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

قال أبو السعود - وأصله للرازي فى شرح كون ما ذكر حجة - : فإن من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل - علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لا يمكن أن يشبهه شيء ، في شيء من صفات الكمال . فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته ، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة . تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكير . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أى لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لإصلاح ما ينيط بهما صلاحه من المكونات «وَالنُّجُومَ» ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله تعالى : «مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ» حال من الجميع . على معنى جعلها مسخرات . لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص . فعمناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فـ (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمي ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي . لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بنصب الليل والنهار وحدها . ورفع ما بعدها على الابتداء والخبر . وقرئ (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وما قبله بالنصب ؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ» أى تسخير ما ذكر «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» .

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من النافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَالنَّجْمُ) رفعا ونصباً، على أنه مفعول (لجعل) أى وما خلق « لَكُمُ فِي الْأَرْضِ » أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخير البحر ، وتعداد النعم به ، إثر امتنانه بنعم البر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشري : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكان ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شئ يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبيّ . وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخللاً ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر في سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكير في باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، في خلقه إياه ، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما في الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً كَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ » تَلْبَسُونَهَا « أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعة . ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذنون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث ، لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له . فعبّر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال (١) :

تَرَوْعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول ، أن النساء

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازى . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كاللغنى . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدره في الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يجعلونها حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم : تلبسها نساءؤهم . لأنهم من جملتهم ، أولكونهن يلبسها لأجلهم . وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهن ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً . انتهى .

قال السيوطى (الإكمال) : في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بحث الخالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حلياً) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلى النساء . فأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر . أنه سئل : هل في حلى النساء صدقة ؟ قال : لا . هي كما قال : (حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال في (فتح البيان) : وفي هذا الاستدلال نظر . والذي ينبغي التعويل عليه : أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد في الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاحِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (الخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » عطف على محذوف . أى لتنتفعوا بذلك (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، في مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلاً . مع أنها في تضاعيف المهالك . وعدم توسط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيدان باستغناؤه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَنْمِيذَ بَكُمْ وَالْهُرَّا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَّمَتْ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي » أي جبالاً ثوابت « أَنْ تَنْمِيذَ بَكُمْ » أي تضطرب « وَأَنْهَرَا » أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُلًا » أي طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى في الجبال . كما قال تعالى ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) « لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ » أي بها إلى مآربكم « وَعَلَّمَتْ » أي دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح ، برّاً وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أي في الظلام برّاً وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة . وتقديم الضمير للثبوت . وهذا أولى من دعوى الزخشرى ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة

والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَمَنْ يَخْلُقُ » أى كل شيء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَنْ لَا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو ما يعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته ، مالا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشري ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تسكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى ^(١) (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) فجذب به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكير .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى ، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أى لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشري .

ولخط ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنبأوا . أى في تجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ما تقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى^(١) (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل ما بينهما بقوله^(٢) (أَفَمَنْ يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر ، إثرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التي هي أدلة الوجدانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٩] (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
 [٢٠] (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)
 [٢١] (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسميخزكم عليه «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» أى فأنى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أوالمعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لايقدررون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل^(٣) عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» أى هي جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان ، والنطف التي ينشأها الله تعالى حيواناً . فلذا احتراز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) أى لايعترىها الحياة أصلاً . فهي أموات على الإطلاق ، حالاً ومآلاً «وَمَا يَشْعُرُونَ» أى تلك الأصنام المعبودة «أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» أى متى يكون

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٦و٩٥] .

بعضها . وقد رُوي ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم .
تهكأ بحالها . لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمعنى ، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل . كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ » أى لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله ^(١) : (أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال تعالى ^(٢) : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ) وقوله تعالى « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » لأنه لا يحبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى ^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدتها منها . كما قال تعالى ^(١) : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُكْتَتِبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلّوهم . كقوله تعالى ^(٢) (وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيَسَّ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله (لِيَحْمِلُوا) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إمامجازاً . وإمام حقيقة ، على معنى أنه قدر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحقق عليهم . فتم الكلام عند قوله : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشري : حال من المفعول . أى : من لا يعلم أنهم ضلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلّوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل . فجعله لايعذر « أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بأنبيائهم « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسسِهِ ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم و (الإتيان) يتجاوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى ^(١) (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) ويقال أُنِيَ فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أَمْنِهِ . وَأَتَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ : أهلكه وأفناه . ومنه الأَتُو . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتو أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالحكى عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعفت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً . وقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) متعلق بـ (خَرَّ) . و (مِنْ) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد . لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم في ملكه وإن لم يقع عليه « وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ » أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ » أى يذلهم ويهينهم بعذاب الخزي، لقوله تعالى (١): (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذ أضاف الشركاء إلى نفسه لأذى ملابسة ، بناء على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى ما لهم لا يحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله (٢): (أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل : حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم . « قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاققونهم « إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) هذا شتماً تهكمياً ، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول ، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)

«الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ» هذا إخبار عن حال المشركن الظالمى أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم وحي الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أى ينادون ويسألون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء فى الأجسام . فاستعمل فى إظهار الانقياد ، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) منصوب بقول مضمّر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الأخرى^(١) (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(٢) . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)^(٣) . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى مقدراً خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم. وينال أجسادهم، في قبورها،

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كما قال تعالى ^(١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقوله (فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى ينس القيل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشمار بعليته لثوائهم فيها . ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) هو (أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فجدوا رحمة وكفروا نعمته - تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا » أى أنزل خيرًا ، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله ، مكافأة في الدنيا بإحسانهم . ولهم في الآخرة ما هو خير منها . فقوله (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ) كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة . وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى ^(٢) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله ^(٣) (فَأَنَّهُمْ اللَّهُ نُوبَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ نُّوَابِ الْآخِرَةِ) وقال تعالى ^(٤) (وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

إِنلَابِرَارِ) وقال^(١) (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى^(٢) : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنفُسُ وَلَتَذُ الْأَعْيُنُ) « كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخى إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَرَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تقرير المشركين ، وتهديدهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال « كَذَلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى ففادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحداية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِمْ » أى أحاط بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدهم به الرسل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ

نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ،

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا

حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيباً
لرسل صلوات الله عليه ، وطعننا في الرسالة . وذلك قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) أى من البحائر والسوائب
والووائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، مما لم يُنزل الله به سلطاناً
ثم أعلم تعالى مشا كلهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من
الشرك والتحريم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لَا نُنْكِرُهُ عَلَيْنَا
بالعقوبة ، ولما مكفنا منه . قال الله تعالى راداً عليهم شبههم (فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ،
ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث في كل أمة ، أى في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا .
وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)
وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك
في بنى آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض ، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ
لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)؟

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً . فإن الآية من معارك الأفهام . فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صداً الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمرَ بما يجب عليه تعمل بالقدر وقال : حتى يقدر الله ذلك ، أو يقدرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهيَ عن فعل ما حرم الله قال : الله قضاء علىّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويماقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصديق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به - لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون ^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثَّرَ كُنَّا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ^(٢) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرّاً على الظلم فهناه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا - لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغي فعله (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظناً (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد في الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون في القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيد ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون بدم بعضهم بعضاً ويمادى بعضهم بعضاً ويقا تل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلاماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حق ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفي الصحيحين ^(١) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أندرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أندرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعَذِّبَهُمْ .

فلاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لا في ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستفدين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفترون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والنقي لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها . فيتبعون أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والدوق والوجدان الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والحرص . وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى ^(٢) (فَأِمَّا يَا تَبِيتَكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى ^(٣) : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال في سورة الأنعام ^(١) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى ^(٢) : (لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ثم أثبت القدر بقوله : (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدريّة . وكلاهما حق . وقال في النحل ^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَكَلَاءُ آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فبين سبحانه وتعالى - أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففي فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب . كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٤) أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر في الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أعير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويغض الفواحش ، فيحب أن يمدح بالعدل والإحسان . وألا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن يفعلوا كذا ولا تفعلوا . وبين لهم وأزاح عنهم ، ثم تعدوا حدوده وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبين أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . (٣) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ :

لا شخص أعير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم في : ١٩ - كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن وليّ أمر أعطى قومًا مالا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه ، وكان وليّ الأمر قد أرسل جنوداً يفتشون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لُقطةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا - لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنوداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب عليّ ، ولو فعلته لكان زيادة إغانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قاعة . ولم يكن يدعى فيهم ظالماً . وإن كان لم يُعَيِّنهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين وآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى، حَكَمٌ عدل في كل ما جعله . ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا ، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يعدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتاج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ، لعدم اتباع الحق الذي بيّنه العلم . فإن الإنسان حيٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبي ﷺ ^(١) : (أصدق الأسماء الحارث وهمّام) فالحارث الكاسب العامل . والهّمّام الكثير الهَمِّ . والهَمُّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال في الجامع الصغير : الشيرازي في (الألقاب والكنى) والطبراني في الكبير)
عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور . فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب . والحق مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذا تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصوّر الشيء الضار أبغضه وقرع عنه . لكن ذلك التصوّر قد يكون علماً وقد يكون ظناً وخرصاً . فإذا كان علماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعاً للظن وماتمهور نفسه . فإذا جاء العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لدّد وتفريج ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقراً بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تسكّم بغير علم . ومن تسكّم بغير علم كان مبطلاً في كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فيما أن يكون جاهلاً ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه . فتبين أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم^(١) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) . انتهى .

وله تلمة سابقة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانى في هذه الآية : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عِنَادًا وَتَعَمُّتًا عن فرط الجهل والإلزام للموحدين بناء على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من في العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفي القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركاً ، قال الله تعالى^(٢) (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٧] .

مَا أَشْرَكُوا) وقوله تعالى^(١) (كَذَّبَ لَكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعماد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مامثاله : فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البدهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . وتتناول عملائهم تنقطع قدرتنا عن تكميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند الملمين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذى يعلمه ، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهيّ عنده . ويعمل بما أمره به ويحْتَنِب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم^(٢) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصبر ، لوقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التسكّم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال في موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدین . وقد جاء الكتاب الكريم بتشجيع اعتقادهم والنمى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ) ^(١) فلا يسوغ لأحد منا، وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

[٣٨] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ

حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة

بسوء اختياره « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب

عنهم . ثم بين تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ،

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أى جاهدين فيها ف(جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ،

بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى إنه يبعثهم ، فيبتون القول

بعده ! وإنه وعداً عليه حق ، فيكذبونه - وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم

والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز . وعدم وقوفهم

على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده

أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ)
[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

« لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله
« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ » أى فى أباطيلهم . لاسيما فى أيمانهم بعدم
البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة^(١) (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) ثم
يبين عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شئ ما بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد على ما شاء تكوينه كقوله تعالى^(٢) (وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِبَالٍ بَصَرٍ) وقوله^(٣) (مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .
قال الزمخشري : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَنْ نَقُولَ) خبره و (كُنْ فَيَكُونُ) من (كان)
التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . أى إذا أردنا وجود شئ فليس إلا أن نقول له : احدث ،
فهو يحدث عقيب ذلك ، لا يتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لا يمتنع عليه . وأن وجوده عند
إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الأمر الطاع إذا ورد على المأمور الطمع
الممثل . ولا قول ثم . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف
يتمنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إن (كن) إن كان خطاباً مع المدوم فهو محال . وإن
كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ،
فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، رجاء ثوابه
وابتغاء مرضاته ، بقوله :

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ » أى مخلصين لوجهه ، أو في حقه ، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صفار أبنائهم ، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية . وقوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى أودوا وأريد فتنهم عن الدين « لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالعلبة على من ظلمهم ، وإيرائهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالمهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على ما أودوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لا ظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إحياء الله لرسوله ، واصطفائه برسائه ، قيل في درء شبهتهم « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله (٣) « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعامة . وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) للفيلسوف فارجد إلى إن شئت . وأشار إلى طرف منه في (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « بِأَلْبَيِّنَاتٍ وَالزُّبُرِ » أى بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجار متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أى أرسلناهم . أو (ما أرسلنا) . أو (نوحى) أو (لا تَعْلَمُونَ) ، على أن الشرط للتبكيك والإلزام « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ » أى القرآن المذكور والموقف من سنة الغفلة « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أى مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَكَلَّمَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ينظرون لأنفسهم فيمتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ » أى المكرات السيئات التى قُصَّتْ عنهم . فهى

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَنْ يَخْشِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهة لا يعلمون بها ، كما لا يشعر المكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[٤٨] (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّوْا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

« أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ » أى سعيهم فى المعاش واشتغالهم بها « فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى لا يعمزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك وخفافة له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يماجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » أى جسم قائم له ظل « يَتَفَيَّوْا ظِلَالُهُ » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ » أى عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سُجَّدًا لِلَّهِ » أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والنقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَاخِرُونَ » أى صاغرون . وغلب فى جمعها من يعقل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعبر ما ذكر فيه ، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشرائع توجيه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحل بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه في جهة واحدة . وهو في العشي على العكس ، لاستيلانه على جميع الجهات . فلحظت الغابتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلالة) وقدم الأفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ الْيَمِينِ) متعلق بـ (يتفيؤ) أو حال . كذا في (العناية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(سجدة) [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ » أى الملائكة ، مع علو شأنهم « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته والسجود له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

« يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » أى من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلو ، له تعالى . وقد صنف في ذلك الحافظ الذهبي كتاب (العلو) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرها . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد في (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علو بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَإِيتِي فَرَاهِبُونَ)

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيتِي فَرَاهِبُونَ » .
إعلام بنبيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والثنتي نص في معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكّر مع الجميع . أى في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلم يذكّر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثاني صرح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثني كقوله ^(١) :

فإن النار بالعودين تذكى وإنّ الحرب أولها الكلام

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الانثنية تنافي الألوهية . فهو في معنى قوله ^(٢) (لَوْ كَانَ

(١) قائله نصر بن سيار . من أربعة أبيات ، يحسن الوقوف عليها ، ومعرفة سبب قولها .

قال ابن قتيبة في (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثاني .

كان يزيد بن عمر بن هبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيار . فكان لا يمدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثّر ذلك على نصر ، قال :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

والبيت ...

فإن لم يُطْفِئها عُقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب : ليت شعري ! أيقاظ أمية أم نيام

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمْ مَاءُ الْهِتَةِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (فلذا صرح بها ، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ اللَّهُ) على أسلوب ^(١) * عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * .

(١) وعجز البيت :

* حَتَّى غَدَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهذا الشاهد على نسبة إلى قائل معين . ويروى صدره عَجَزَا فِي بَيْتٍ آخَرَ ، هكذا :

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّجْلَ عَنْهَا وَارِدًا عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

الشاهد فيه قوله (وماء) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل في المعطوف عليه ،

لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعملاء ثلاثة آراء في تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها - أن قوله : (وماء) لا يجوز أن يكون مفعولا معه ، كما لا يجوز أن يكون معطوفا

على ما قبله عطف مفرد على مفرد . بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذي ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا في ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ما قال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه .
وفى قوله (فَأَيُّ شَيْءٍ فَأَرْهَبُونِ) التفات عن الغيبة ، مبالغة فى الترهيب . فإن تخويف الحاضر
مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة
والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٢] (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)
[٥٣] (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)
[٥٤] (ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)
[٥٥] (لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » معطوف على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) أو على
الخبر ، أو مستأنف . « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » أى العبادة لازمة له وحده . ولزومها له ينأى خوف
الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله ^(١) : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ
يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

« أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » أى لاتتضرعون
إلا إليه ، لعلمكم أنه لا يقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجوار : رفع الصوت . يقال :
جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة
النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة في رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم إليهما بقوله :
 « لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم . واللام للعاقبة والصيرورة
 « فَتَمَتُّوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
 إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشاني وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله في
 شيء . ثم بين تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا
 كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ » . أى لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جاد « نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ »
 أى من الزرع والأنعام وغيرها تقربا إليها « تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ » أى :
 من أنها آلهة يُقَرَّبُ إليها . ومرّ نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه ^(١) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ
 مِثْلًا دَرًا مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) الآية ، فانظر تفصيلها ثمّت « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
 سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين
 هم عباد الرحمن بنات لله ، فنسبوا له تعالى ولدا ولا ولد له . واجترأوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة
 أدنى القسمين له من الأولاد ، وهو البنات . وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور ،
 أى يختارونهم لأنفسهم ويأقنون من البنات . وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله (سُبْحَانَهُ) و
 أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ،
 ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستثثار كما قال سبحانه ^(٢) (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١ و ٢٢] .

قِسْمَةٌ ضِيزَى) وقال تعالى (١) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجنب الأقدس وفضاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكُتُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا »

أى متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كنايةً أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشغول الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ » أى من أجله وخوف التعبير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيَسْكُتُ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثاً نفسه متفكيراً فى أن يتركه على هوان وذل ، لا يورثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حياءً « أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يعملون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويعملون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصفات / ١٥١-١٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم « مَثَلُ السَّوْءِ » أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكرهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنى عن العالمين . والكمال المطلق والتقديس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئ المتقدمة « مَا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِنْ دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرّة بشؤم ظلم الظالمين « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى »

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » أى المسمى « لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأتفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مألهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله ^(١) (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَىٰ) يعنى جمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتعنى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدّدت ، مكتوباً (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ . أجل . كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ) الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء . قال أبو العلاء المرسى ^(٢) :

سَرَىٰ بَرْقُ الْمَعْرِةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعْنِ وَخَدِ الْقِلَاصِ كَشَفَتْ حَالَا وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتَ مَا لَا

(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع

بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق مرسى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ »
 أى معجلون إليها ومقدمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته في طلب
 الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيون في النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على
 ما حكاه الفراء . كقوله تعالى^(١) : (فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) وقرأ
 نافع (مُفْرَطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوزو الحد
 في معاصي الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء الشددة من (فرط في كذا) إذا قصر . ويقرب
 من الآية ما قص عنهم في قوله تعالى^(٢) (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ وَلَلْحُسْنَىٰ
 فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى^(٣) (وَدَخَلَ
 جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) .

ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ونكذيب أممهم ، ليتأمى صلوات الله عليه بهم
 بقوله سبحانه :

= معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف السكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه
 قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق
 عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى من

الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ » أى قرينهم ، يُغْوِيهِمْ . أو المراد باليوم يوم

القيامة . والولىّ بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة فى نفيه ،

وتهمهم ، على حدّ (عنا به السيف) « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ » أى فالتقرّ أن هو الفرقانُ الفاصل بين الحق والباطل ، وكل

ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته

فى آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثرَ قدرته فى إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله

من وحيه وهدهاء ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَاللّٰهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن مَّاءٍ بَيْنَ

فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

« وَاللّٰهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى

بالنبات والزرع، بعد جذبها ويسها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالته «وإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَفَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» أى سهل المرور فى حلقهم .

يبيّن تعالى آيته فى الأنعام بما ذكره ، ليستدل به على واحدائيته وانفراده بالالوهية . وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقلوب الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبدله دماً فى جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة . وإنما ذكر الضمير فى بطونه هنا ، وأثنته فى سورة المؤمنين ، لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» . بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة ، وممنته فى المشروب منها والمطعموم . (السَّكْرُ) مصدر سمي به الخمر . فهو بمعنى السُّكْر كالرُّشْدِ والرُّشْدِ . قال الفراء : السَّكْرُ الخمر نفسها . والرزق الحسن الزبيب والتمروما أشبههما ، ولا يقال : الخمر محرمة ، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام ؟ لأن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازى بجواب ثان .

وهو : أنه لاجابة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع . وخاطب المشركين بها . والحمر من أثرتهم . فهي منفعة في حقهم .
قال : ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفي (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة ، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما في (الكشاف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا في قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنه أشرف ما في الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأثربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعقاب ، دلائل قاهرة وبيّنات باهرة ، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً - أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بناءها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بناءها بيوتاً تأوى إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت فى غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافي لا يتعمدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتعتمد فى الخلایا . ومن بدیع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى . فهى تتخذها أولاً . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى من كل ثمرة تشبهها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفى ، أو لفظ (كل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْ أَجْبَالٍ) الخ ، على (في) دلالة على معنى التبعية . وأن لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها .
نبه عليه الزمخشري .

قال الناصر : ويتبين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبعية (من) المتعلقة باتخاذ البيوت . بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَّ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات . كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شئ شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَاسْأَلْكُمْ سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك في عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار في المواضع النائية فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللا) جمع ذلول ، حال من (السبل) أى مذلة ذلها الله لك وسهلها . فهى تسلك من هذا الجو العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ » أى فنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النور أو مزاجها « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية في بعض الأمراض . وله دخل في أكثر ما به الشفاء والمعاجين . وقل

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرة النسبة إليه . وفي الصحيحين^(١) عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : اسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلاً وهو حارّ تحللت فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهاًلاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصالح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفي (العناية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بالوحيته . وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلت مساقط الأنداء ، من وراء البیداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنفة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاها ، وتلفظه شراباً .

(١) أخرجه البخارى في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤ - باب الدواء بالعسل ، وقول الله

تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قال الحجة الغزالي (في الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدها ضياء والآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ما سخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقول منها على باب المفد كل ما وقع منها على نجاسة - لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطفك وفرجك ، وشبهوات نفسك في معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل السدس ، فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا خمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل السدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة . ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا السدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفاً به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . لينها عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاوم بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجه الأحياء إلى خارج . وفي طبعه أيضاً النظافة . فلذلك يخرج رحيمة من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذي يعمل في الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قل العسل في الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفاً على نفسه من نقاده لأنه إذا نقد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل في الخلايا . قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نقتله وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يساخ جلداه كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة ، ويضره السوس . ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح . وأن يفتح في كل شهر مرة . ويدخن بأخشاء البقر . وفي طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود ، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا في (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزالي أيضاً في كتاب (الحكمة في خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق . لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجاً ، افرق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل في أجوافها عسلاً . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد ، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وما لاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم . فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تسكاد تجدد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح . فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث ربت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك . وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سنّ الوقوف وهي سنّ الشباب . والثالثة سنّ الانحطاط القليل وهي سنّ الكهولة . والرابعة سنّ الانحطاط الكبير وهي سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ

لِكَيَّ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي

رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ » أى أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ

أَرْدَلِ الْعُمَرِ » أى أضعفه وأردئه وهو الهرم . وقوله تعالى « لِكَيَّ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا »

اللام للصيرورة والعاقبة . أى فيصير ، إن كان علما ، جاهلا . فيريكم من قدرته أنه كما قدر على

نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال في (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسى يعلم

الشيء ثم ينساه ، فلا يعلم بعد ما علم . أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل ، والمعنى لا يترقى في إدراك

عقله وفهمه ؛ لأن الشاب في الترقى ، والشيخ في التوقف والنقصان .

وفي (الكشف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان . وأن يعلم شيئا ثم

يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لثلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لثلا يعلم زيادة علم على علمه الأول . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية . وجوز فيه التنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق ممالككم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى بمعطيتهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء . ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم ؟ كما قال فى الأخرى ^(١) (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية .

« أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو النعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجا لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام ، أوفى تحريم ما أحل لهم « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا » أى من مطر أو نبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدرا . وإن جعل اسما للرزوق فـ (شيئا) بدل منه بمعنى قليلا . و (من السموات) متعلق بـ (يملك) على كون الرزق مصدرا . أو هو صفة لـ (رزقا) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أو لاستطاعة لهم أصلا . أو الضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون ، فكيف بالجناد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أندادا وأمثالا . والضرب للمثل فيه معنى الجمل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مثل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرِك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشرکوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعت عظيم على سوء فعلهم . كذا في (شرح الكشاف) .

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهي . أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهى عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراف ، عقبه بالكشف لذى البصيرة ، عن حالهم في تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »
يعنى أن مثل هؤلاء في إشراكهم ، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله : (وَمَنْ رَزَقْنَاهُ) الخ على (مالكا) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكره الإتفاق منه في السر والجهر ، ليكون عاملا بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ) أى على ما هدى أوليائه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لا يستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لا يعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطوق الفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لا يأتِ بنججه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهري : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذى عبدوه وهو لا يقدر على شيء ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحمله إذا ظن فيحوّله من مكان إلى مكان . فقال الله تعالى : هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لاتسوا بين الصنم الكل وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزخشرى بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لانصر ولا تنفع . انتهى .

وناقش الرازى فى حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبحم وبالسكل وبالتوجه فى جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف فى الثانى بأنه على صراط مستقيم ، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال فى جوابه بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة فى الإنسان (والأصل فى الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن . لأن الآيات فى بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص . وأما الوصف فى قوله (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى^(١) : (إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيم فى (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال ، فى بحث أمثال القرآن ، فى هذين المثليين ما صورته :

فالمثل الأول . يعنى قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شىء . ينفق كيف يشاء على عبده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه ملاءى لا يغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لاتقدر على شىء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دونى ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق البين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن فى الخير الذى عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سراً وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لا يقدر على شيء. لأنه لاخير عنده. فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد. فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله^(١): (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً. والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء. فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه. فذكره ابن عباس منها على إرادته. لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً فى كلام ابن عباس وغيره من السلف فى فهم القرآن. فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره، فيحكيه قوله. وأما المثل الثانى، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً. فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق. بل هو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبى واللسانى، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة. وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير. ولا يقضى لك حاجة، والله سبحانه حتى قادر متسكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بنهاية الكمال والحمد. فإن أمره بالعدل، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له، راض به أمر لعبادته به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل. بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأجباؤه. وهم المجاورون له عند يمينه، على منابر من نور. وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعى الدينى والأمر القدرى الكونى. وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه. كما فى الحديث الصحيح^(٢): اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك. فقضاؤه

(١) [١٦ / النحل / ٧٣ و ٧٤]. (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩١

من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره الكوني^(١) (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقتضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقتضى . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب^(٢) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقوله (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) نظير قوله (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِي قَضَائُكَ) . فالأول ملكه . والثاني حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد . وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق في أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأتى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري^(٣) : وقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته . لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جرير عنه .

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثانى عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقالت فرقة : هي مثل قوله ^(١) (إِنَّ رَبَّكَ لَبِاُءٌ لِّمِرْصَادٍ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن ربي يحكمكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها ، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر . وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم . وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مرَدَّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية . وقد فرق شعيب بن قوله ^(٢) : (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وبين قوله ^(٣) : (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان . فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه . وقال جرير ^(٤) يمدح عمر بن عبد العزيز :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا عَوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ
وقد قال تعالى ^(٥) : (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلُمْتُ وَمَا رَقَقْتُ بَأَن تَلْوِي
وَقَلْتُ مَقَالََةَ الْخَطِلِ الظَّلُومِ
يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكأله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم ما فى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم ما يوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عريّة منهم . فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة . فإن علمه غائب عن أهلها ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و (اللمح) النظر بسرعة . أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لا ينحى . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تنتهى ، وأن ما يذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْهِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » عطف على قوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْئًا) منصوب على المصدرية . أو مفعول (تعلمون) والنفي منصب عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ » أى فقدر كون به الأصوات « وَالْأَبْصَرَ » فتحسون الرئيات « وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشي على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ » أى مذلات « فِي جَوْهِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » أى ما يمسكهن في الجو من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزالي في الحكمة في خلق المخلوقات ، في حكمة الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو يبين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به .

نخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه . وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء . فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلوينه . فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى في البرارى ولا في البحائر حتى يفكّب على صدره . وكثيراً ما يمان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة . ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائرته ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يحرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يقتضى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلّب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جملة صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله . وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الالتفاف لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعوونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وحمل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل في ريشه من الحكمة ، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه . فإن أصابه ماء كان أيسر انقراض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته . وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه . فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران عيماً وشمالاً . فكان له بمنزل رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه ينتلعه بلعاً بلا مضغ ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمعدة . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحب العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه ببيض ولا يلد لثلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوّق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتًّا إِلَىٰ حِينٍ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا » أى بُيُوتاً أخرى وهى الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .
أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها
خفيفة الحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم فى مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هى
خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى . لأن ظهور المنة فى خفتها
إنما يتحقق فى حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل « وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا »
أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَثْنًا وَمَتْعَةً إِلَىٰ حِينٍ »
الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى .
ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويبنى . أو إلى
أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت
فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا
فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ،
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ » أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها « ظِلَالًا » أى
أفياء تستظلون بها من حر الشمس « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » أى بيوتاً ومعاقل
وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أولاً لأن الوقاية من الحراهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قطّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله ^(١) : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاختصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِالْأَسْكِكُمْ » كالدرع من الحديد والزرّد ونحوها . التي يتقى بها سلاح العدو في الحرب « كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتنسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شئ قليل . وقرئ (تَسْلِمُونَ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ » أى التى عدت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير النعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعتنا « وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها « ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كقوله (١) : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى لا يطلب منهم العتي . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتي) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب . يقال : استعته أعطاء العتي بالرجوع إلى مسرته . والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من المودة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ

كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى يؤخرون « وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها « قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ » أى أربابا أوعبدوها « فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٥ و ٣٦] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقال تعالى^(٢) (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَالْقُوا » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ » أى الاستسلام لحكمه

بعد إبائهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

أى من أن لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى^(٣) : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب : (كما قال القاشانى) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والنوائى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه ، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شرائر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لركة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطقى نور استعدادهم .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥٥] . (٢) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكشف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

[٨٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدمهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى ^(١) (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى ^(٢) : (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من غمى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى ^(٣) (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٤ / النساء / ٤١ و ٤٢] .

لَوْ نُسَوِّىٰ بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) . وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» مستأنف . أو حال بتقدير (قد) . قال الرازى : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) بَيَّنَّ أَنَّهُ أَزَاحَ عَلَيْهِمْ فِيمَا كَلَفُوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير في وجه ذلك : إن المراد ، والله أعلم ، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(١) ، (فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَأَاجَبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ)^(٣) وقال تعالى^(٤) (إِنَّ الْأُدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ رَأَدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبيننا لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سياتى وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ « أى فيما نزله نبيانا لكل شىء » بِالْعَدْلِ « وهو القسط والتسوية فى الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه » وَالْإِحْسَنِ « أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه » وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ « أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه » وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ « أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى » وَالْمُنْكَرِ « أى كل ما أنكره الشرع » وَالْبَغْيِ « أى العدوان على الناس » يَعِظُكُمْ « أى بما يأمركم وينهاكم » لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ « أى تَتَعَمَّلُونَ بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود^(١) : إن أجمع آية فى القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية . وروى الإمام أحمد^(٢) : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته . فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكرم بن صيفى قال لقومه^(٣) : إني أراء يأمر بمكارم الأخلاق وينهى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧) .

عن ملائمتها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناناً . وعن عكرمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي ! أعد علي . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقد نقل أن بني أمية كانوا يسبون علياً ، كرم الله وجهه ، في خطبهم . فلما آلت للخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم ما أثره .

قال الفاسر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهبات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلّ باغ . حيث يقول عليه الصلاة والسلام^(١) لعمار (وكان من حزب علي) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع علي يوم صفين . انتهى . ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى ، وكونها أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)
« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٣ - باب التعاون في بناء المسجد ،

حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال^(١) : نزلت في بيعة النبي ﷺ . كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالآيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كالبإيعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيد والتأكيد) ، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو فى قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنْقُضُوا) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و (الجعل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقي (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلًا بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب - لكان معنى بليغاً جداً . وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الإيمان . وجلى أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ما ثبت عن النبي ﷺ فى الصحيحين^(٢) أنه قال : إني ، والله ! إن شاء الله ، لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها . (وفى رواية : وكفرت عن يميني) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ - كتاب الإيمان ، حديث ٧-١٠ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، إِنْهَا يَبْلُوكُمْ
اللَّهُ بِهِ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا » تأكيد لوجوب الوفاء
وتحريم النقض. أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها ، بعد أن أحكمته
وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .
ففى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكامل ، داخل فى زمرة النساء .
بل فى أدناهن ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى « تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » حال من الضمير فى (ولا تكونوا)
أى لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم
« أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ » أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش ، هى أزيد عدداً
وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين « إِنْهَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم
بكونهم أربى ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتهم من
أيمان البينة لرسول الله ﷺ ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين
وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز
الحق من المبطّل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة
ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجي ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ،
من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى
(الإكليل) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لاستفسار وتفهم . وهو المنفى فى غير هذه الآية . أو فى موقف دون موقف كما مر .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » تصريح بالذهى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهى عنه ، تأكيذاً عليهم ومبالغة فى قبح المنهى « فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن حجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدْتُمْ » أى بصددكم عن الوفاء ، أو بصددكم غيركم « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيدان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ . وأشار (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلاحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله ^(١) : (وَأَعْتَدَتْ

لَهُنَّ مُتَّكَئَاتٌ) أى لكل واحدة منهن متكئة . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد (قَدَّمَ) مراعاة لهذا المعنى . ثم قال (وَتَذُقُوا) مراعاة للفظ الجمع . قال الشهاب : هذا توجيه للأفراد من جهة العربية ، فلا ينافي النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يعِدُونهم ويمَنُونهم ، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ » أى على أذى المشركين ومشاق الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنتى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحياه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايى : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات . ويجزون بالأحسن فى الآخرة . فلا يقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا . بل يكمل جزاء أعمالهم الأذى بحيث يلحق بالأعلى . انتهى . وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعد والرضا بالقضاء . وعشق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أمر ﷺ بأن يستعين بالله ويلتجئ إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه . وقد بينت آية (١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أن هذه عادة الشيطان ، إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أى تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على السكاره ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكروه ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالسكواكب . والضمير في (به) لربهم والباء للتعدي . أوللشيطان والباء للسببية . أى بسببه وغروره وسوسته . ورجع بالتحاد الضائر فيه . وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] .

تنبيه :

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها في غيره عليه السلام التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى . والأكثر على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرها ، من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية . وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن مخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يثوت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بين الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المكيّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه . وللبحث تفصيل فى موضع آخر . وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى ^(١) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى ^(٢) (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردّاً للحق ، وعناداً للهدى ، وتولياً للشيطان ، وتعبدًا لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبية على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ الْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والخبر السيئ والرجل الصادق . وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والقدس المطهر من الأدناس البشرية . وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِنْ رَبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفادة آثار الربوبية . وقوله (بِالْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره ، وقوله تعالى (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى : (وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ الْمُسْلِمِينَ) تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » .

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير مانقل عنهم قبل من المقالة الشفاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيدان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى ووضح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير يبين . وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلاً أن ينطق به ، فضلاً أن يكون معلماً له ! وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ

هُمْ الْكَذِبُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تهديد لهم على كفرهم بالقرآن ، بعدما أطمأنت شبهتهم ورد طعنهم فيه . وقوله تعالى : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » رد لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهو . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يخاف عقاباً برده عنه ؛ وقوله تعالى « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى ما فى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه . وقد كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لا يدعى بينهم إلا (الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم^(١) أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأخش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنمأ) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية . وروى^(٢) أن النبى ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازى . وقوله تعالى :

- (١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم بن تافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .
(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ - كتاب ما يكره من الكلام ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١٠٧] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[١٠٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

[١٠٩] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ)

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ » .

لما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، في الحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ماللردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلاء قوى وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدرًا أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إيثاراً لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجلّى ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازى : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليسكون كالتاجر الذى يشتري بطاعته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسارته . فلهذا قال : (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَنْ) فى قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبين لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غريبه لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدلال بالآية على أن السكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلطف بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق السكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلا ما استثنى . أفاده السيوطي في (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس^(١) : أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بالنبي ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذراً . قال ابن جرير^(٢) : أخذ المشركون عماراً فمعدّوه . حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبي ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فمعدّ .

وقال ابن إسحاق^(٣) : إن المشركين عدّوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويمدّبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونهم عن دينهم . فنههم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضي الله عنه عبداً لبعض بني جُمَح . يخرج أُمّية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحدٌ . أحدٌ . حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضي الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يمدّبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلها وهي تآبى إلا الإسلام .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٣٣٩ من الجزء

الأول (طبعة الحلبي) .

قال سعيد بن جبیر : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوهم من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل ليربهم فيقولون له : هذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ، مما يبلغون من جهده .

وقد ذكر ابن هشام^(١) في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب ، فانظروا .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالى ، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله ! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى ، لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم . فجاءوا به إلى ملكهم . فقال له : تنصر وأنا أشررك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذا أقتلك . فقال : أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأُترل .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول

(طبعة الحلبي) .

ثم أمر بقِدْرِ فَأُحْمِت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقي فيها . فرفع بالكرة ليلقي فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة . تلقى في هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لي ؛ بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبداً . فقام فقبّل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاق الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أى إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجاء في قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر (إِنْ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُوا)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله (جَاهِدُوا) في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا في سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَادِلُ) أى تحاج وتسعى في خلاصها . لا يهتمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شئ « مَّا » « وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » في ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » اعلم أنه لا هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة ، أنذرهم بنقمته في الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى هذه حالها مَثَلًا لكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فسكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نعمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدرة بهذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولاً أول ، لثلاث يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن السكل محلّ بتجاذب أطراف العظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى القدم ما يدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن . والمراد بالقرية أهلها مجازاً ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَةٌ مُّطْمَئِنَّةٌ) أنه لا يزعجها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذْأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررها المحيط بهم ، باللباس الغاشى للابس . فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذافة المستعمارة ، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف . كما قال تعالى ^(١) (وَقَالُوا إِنَّا نَنْتَهِجُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ تَعَرَّاتٌ كُلِّ

شَيْءٌ رَزَقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال ههنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هَنِئًا سَهْلًا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى^(١) : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافتها فقال : (فَأَذِقْنَا اللَّهَ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استمعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافة . فدعا^(٢) عليهم بسبع كسبع يوسف . فأصابهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم في دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم فى قوله^(٣) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية ، وقوله تعالى^(٤) : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاسْأُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا) ، وقوله^(٥) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم نفاقوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخارى ، تعليقاً ، فى : ٨٠ كتاب

الدعوات ، ٥٨ - باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .

(٥) [٢ البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلاً ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرّمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى من الحُرث والأَنعام « حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلّوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ بِهِ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنْ اضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعمد قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِذَلِكَ .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلّوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطاحوا عليه من الأسماء بأرائهم ، فى البجيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم ، بالحل والحرمه فى قولكم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . فـ (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله : (هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه . أو (هَذَا حَلَالٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لِّتَفْتَرُوا) بدل من التعليل الأول . أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب ، أى لأجل قول تفتق به ألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : (لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم لترنهم على الكذب ، اجترأوا على الكذب على الله ، فنسبوا ما حللوه وحرموه إليه . وعلى هذا الوجه - كون الكذب مفعول (تصف) - فى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجملة عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، ذ (تصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدِّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف في الكذب للجنس . كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعري^(١) :

سَرَى بَرَقُ الْمَرْءِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَأْمَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

ونحوه (نهارة صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذي يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرفه ، كقوله :

أُضْحَتْ يَمِينُكَ مِنْ جُودٍ مَصُورَةٍ لَا بَلْ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورُ الْجُودِ

فهو من الإسناد المجازي . أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال . فهو استعارة مكنية . كأنه يقول : ما بي هو الجمال بعينه . ومثله وارد في كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما في (شروح الكشف) .

وما في الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت . أفاده في (العناية) . واللام في (لَتَفْتَرُوا) لام الصيرة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض آخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصدهم لذلك غير بعيد . وفي قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية ، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يمتد به لافي الدنيا ولا في الآخرة . أما في الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما في الآخرة فلمهم عذاب أليم ، كما قال^(٢) : (نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي^٣

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ (هذا الجزء) .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤] .

أو حلال شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .
أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل . فلم أزل أخاف
الفتيا إلى يومى هذا .

قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى
بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنة رسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأى المقدمين
له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن
كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول
الله له : كذبت .

قال ابن العربي : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل
الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا
وكذا ، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ ، بيّن ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم
مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافتراءهم بأن ما حظروه لا سند له فى
شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُّورٌ رَحِيمٌ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى

في سورة الأنعام في قوله تعالى^(١) : (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ...) الآية «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» أي فيها حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أي فاستحقوا ذلك . كقوله^(٢) (فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه في تفسيرها مما يجيء هنا ، فتذكر . قالوا : في الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله في قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسُوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْكُمْ بِعَدِّ ذَلِكِ وَأَصْلَحُوا» أي العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» أي التوبة «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته في التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أي إماما يقتدى به ، كقوله تعالى^(٣) : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمة من الأمم ، لاستجاعه كالات لا توجد في غيره «قَانِتًا لِلَّهِ» أي خاشعًا مطيعًا له ، قائمًا بما أمره «حَنِيفًا» أي مائلًا عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ» أي قائمًا بشكر نعم الله عليه ، مستعملًا لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى^(١) (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به «أُحِبَّتهُ» أى اختاره واصطفاه للنبوّة «وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)
[١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

«وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» أى من الذكر الجليل . كما قال^(٢) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال^(٣) (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى آدَمَ إِبْرَاهِيمَ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية «وَأَتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ» أى فى عالم الأرواح «لَمِنَ الصَّالِحِينَ» أى المتمكنين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

«ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى بمد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناها إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لا تتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانى . وفى (الإكليل) استدلل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٠] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ و ١٠٩] .

لطيفة :

قال الزحشرى : فى (ثُمَّ) هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجل ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان . ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلاً مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبى ﷺ الأسمى ، الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوّاً أمره بذلك فى القرآن العظيم . فى ذلك تعظيم لهما جميعاً . لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر . على ما مهدناه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لعله .

قال القاشانى : أى مافرض عليك ، إنما فرض عليهم . فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك ، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيفهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع الخفية ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة ، من الرفق واللين وحسن الخطاب ، من غير عنف . فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهب نفسك ، على مَنْ ضلَّ منهم ، حسرات ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبق على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جليل . فما شرعه لك فى الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمدارة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُكُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُكُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»
 أى الزموا سيرة العدالة، لا تتجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم في الفتوة،
 وعرق راسخ في الفضل والكرم والروءة ، فتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ،
 وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ألا تراه
 كيف أكد به بالقسم واللام في جوابه ، وترك المضمرة إلى المظهر حيث ما قال (لَهُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ) بل قال (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر .
 فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتسكدر بظهور
 صفة النفس . وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه . فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس .
 وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسيء
 بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها .
 فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجاني . أفاده القاشاني .

تنبيهات :

الأول : في (الإكليل) : قال ابن العربي : في الآية جواز المائلة في القصاص . خلافاً
 لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن
 سيرين والنخعي : أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعي : سئل عن الرجل يخون الرجل
 ثم يقع له في يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية .
 ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل في التقصاص والمائلة في استيفاء الحق .

الثاني - قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أخذ ، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسم . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، حين استشهد . فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثل به . فقال : رحمة الله عليك . إن كنت لما علمت ، لو صولاً للرحم فعولاً للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك ، لسرّني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله ﷺ . يعنى عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف . لأن صالحاً (أحد رواه) هو ابن بشير المرى ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخاري : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً . ناساً ستماهم فنزلت الآية . فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول - في مقدمة التفسير - يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة - ولا إلى ردّ ما روى من هذه الآثار . إذ به يتضح عدم التنافي . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله تعالى ^(١) (وَجَزَّاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) ثم قال ^(٢) (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) الآية . وقال ^(٣) (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ) ثم قال ^(٤) (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) انتهى .

ثم أكد تعالى الأمر بالصبر ، ليقوى الثبات والاحتمال ، لكل ما يلاقيه في سبيل الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَأُصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

« وَأُصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » أى بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على الكافرين ، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يَمْكُرُونَ من فنون المكائد « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » . لتلخيص لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلوهم ويظهرهم على أعدائهم . قال ابن كثير :

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى^(١) (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكُمْ فَنَنْزِلُوا الَّذِينَ آمَنُوا) وقوله لموسى وهرون^(٢) (لَا تَخَافَا ، إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى^(٣) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وقوله^(٤) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيدان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه ، من غير أن تكون إحداها تنمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث . كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية . والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين ، وهو عليه الصلاة والسلام داخل في زميرتهم دخولاً أولياً . وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شابعه . عبر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به ، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكن بك صابرينَ فَإِنَّمَا صبرُ الرعية عند صبرِ الرأسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

وعن هَرَم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لي . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

وتسمى سورة بني إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف في كونها مكية . نعم استثنى بعضهم منها: ^(١) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) وآية ^(٢) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية ^(٣) (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ) الآية وقوله ^(٤) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا ...) الآية ، وقوله ^(٥) (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) لما ذكره في أسباب نزولها . ويأتى البحث في ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٨] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٥) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) «سُبْحَنَ الَّذِي أَمْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

يمجد تعالى نفسه بقوله (سُبْحَنَ) وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى (الَّذِي أَمْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى سيره منه ليلاً . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهزمة (أسرى) ليست للتعدي . ولذا عدى بالباء . وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى) لإفادة السرعة في السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله ، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرأته . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر في (الانتصاف) قال : ونظيره في أفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى ^(١) (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) فالاسم الحامل للثنائية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو الثنائية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوجدانية هي المقصودة في قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوجدانية .

(١) [١٦ / النحل / ٥١] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان فى بعض الليل أخذاً من تنكيره . فقد نقل عن سيويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفاً كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أرقّت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هو المراد من البعضية . وجوز بعضهم أن يكون (أمرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة . وأصله من الواو . أمرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وهو غريب . وفى تخصيص الليل لإعلام بفضلته لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد (بعده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ . وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة، من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره - ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيم فى (طريق المجرتين) : أكمل الخلق أكملهم عبودية . وأعظمهم شهوداً . لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ : أصلح لى شأنى كله ولا تسكنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنّما أنا عبد . وكان يقول ^(١) : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم . إنّما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمّة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب وأذكّر فى الكتّاب

مرّيم ، حديث رقم ١٢١٤ .

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال (سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرٌ بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وقال ^(١) (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال ^(٢) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفي حديث الشفاعة : أن المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمى حراماً ، كبلده ، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلثه . وقوله سبحانه (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده (والأقصا) بمعنى الأبعد . سمى بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى (الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ) أى جوانبه ببركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيمهم ومنمى الزروع والثمار . فاكثفتها البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبداً الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم وبنهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبداً الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجهم إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوره الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليمتدح فتحه على من وعدوا به ويقرب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشد الرحال ^(٣) بعد المسجدين إلا إليه ،

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٣) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الح . أخرجه البخارى فى : =

ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد^(١) والنسائي والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني بيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازي في (عرائس البيان) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طور سيناء وطور زيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال ، مواضع كشف الحق . لذلك قال (بَرَكْنَا حَوْلَهُ) . انتهى .

والالتفات في (بَرَكْنَا) لتعظيم ما ذكر . لأن فعل العظيم يكون عظيماً . لاسيما إذا عبر عنه بصيغة التعظيم . والنكتة العامة تنشيط السامعين .

= ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٦ - باب مسجد بيت المقدس ،

حديث ٣٧٩ ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعنا) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة

رقم ١٧٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) .

وأخرجه النسائي في : ٨ - كتاب المساجد ، ٦ - باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه .

وقوله تعالى (لِنُرِّيَهُ وَمِنْ أَآيَاتِنَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا ذَهَابُهُ فِي بَرَهَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، وَمَشَاهِدَةُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَتَمَثُّلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ وَوُقُوفُهُ عَلَى مَقَامَتِهِمُ الْعَلِيَّةِ .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر في قطع الشبهة ودفع الوسائوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان . وقد تعترض الشبهة والوسائوس في العقلية . لأنه لا يشك أحد في نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يرى رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من (التاويلات) لأبي منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق^(١) : كان في مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

تنبيهات :

الاول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلا . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهري وابن سعد وغيرها . وبه جزم النووي ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وفى (إنسان العمون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة . وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنى المقدسى قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : فى (زاد المعاد) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) . وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرة قبل الوحي لقوله فى حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ومرتين بعده . وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات ، جعلوها مرة أخرى . فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذى عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويعجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً ، ثم يقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى . ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضى عياض ، عليه الرحمة ، فى (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن (والشهور عنه خلافة) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى ^(١) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ) وما حكوا عن عائشة : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله (بينا أنا نائم) . وقول أنس : (وهو نائم في المسجد الحرام) وذكر القصة . ثم قال في آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسماء بالجسد وفي اليقظة . وهذا هو الحق ، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة . وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بمعظم القدرة والتدح بتشريف النبي وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح . ثم اختلفت هاتان الفرقتان : هل صلى بيت المقدس أم لا ؟ ففي حديث أنس وغيره صلواته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضي عياض : والحق في هذا والصحيح ، إن شاء الله ، أنه إسماء بالجسد والروح في القصة كلها . وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة . إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) وقوله ^(٢) (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) ولو كان

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٥٣ / النجم / ١٧] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافقتوا به . إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذكر في الحديث ، من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس في رواية أنس (أوفى السماء) على ماروى غيره . وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعتهم مع موسى في ذلك .

وفي بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعني جبريل ، بيدي ، فخرج بي إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام . وأنه وصل إلى سدره المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس : هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، لا رؤيا منام .

وعن الحسن فيه بيتنا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقممت فجلست فلم أرسيثا . فعدت لمضجى . ذكر ذلك ثلاثا ، فقال في الثالثة : فأخذ بمعضدي فجرني إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بين في أنه بجسمه .

وعن أبي بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجذك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بي في مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة - وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذر رضي الله عنه • عن النبي ﷺ : فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فخرج بي .

وعن أنس : أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم . وعن أبي هريرة : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي . فسألني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضي عياض (في إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا (فسماها (رؤيا)) . قلنا : قوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يردّه لأنه لا يقال في النوم (أسرى) .

وقوله (فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من السكون في ساعة واحدة في أقطار متباعدة . على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديدية وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سماها في الحديث مناماً ، وقوله في حديث آخر : بين النائم واليقظان . وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت - فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله (استيقظت وأنا في المسجد الحرام) لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملا الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه . ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

وجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفي رواية هدية عنه (بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع) . وقوله في الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيكون سمي هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن وذنو الرب ، الواقعة في هذا الحديث ، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منكورة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمراج ، على ما حكاه ابن القيم في (زاد المعاد) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس بقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة بقظة ومرة مناماً . وقيل بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل هو غلط ، وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء ، فأسرى به نجاة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثر عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالتا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولوا كان مناماً وإنما قالوا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده . و الفرق بين الأمرين . فإن ما يراه الغائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تبشر بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدي الله عز وجل . فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومن سواه ، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يمرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة . كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبدنه في ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملاء الأعلى . ومن كشف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا ، فليُنظر إلى الشمس في علوّ محلّها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن . وهذه النار تكون في محلّها ، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وآتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فَقُلْ لِلْعَمَلِ الثَّمَرُ إِنْ أَنْتُمْ تَرَوْنَ
سَنَا الشَّمْسِ فَاسْتَفْشَى ظِلَّامَ اللَّيْلِ

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سمدى في (حواشى البيضاوى) : والمراج بروحه في اليقظة - وهو الذى أشار إليه ابن القيم - خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوى له : بأنه نوع مراقبة وانسلاخ ، والذى ذهب إليه الصوفية ساقط . لأنه فوقه بكثير . بل غيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذى فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيم من أنه إسراء بالروح - فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إجازياً . والحقيقة أنه كشف روحانى . وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات . وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفي (العقائد النسفية وحواشيه) : الخرق والالتئام على السموات جائز . لأن الأجسام كلها متماثلة في تركيبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام . وكذا الأجسام الفلكية . والله تعالى قادر على الممكنات كلها . فيكون قادراً على الخرق في السموات ، لأنه ممكن فيها . وفي الرازى براهين آخر . فانظرها .

جاء في كتاب (إظهار الحق) أن بمض أهل الكتاب مارى في المعراج ، فَبُسَّتْ بَأَن صمود الجسم العنصرى إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ) . وأنه نقل حيّاً إلى السماء لثلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرّحت في صمود (إليا) في الفصل الثانى من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّ به في قوله تعالى ^(١) (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وإيليا نبيّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبْسِطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن في بطاح أريحا . شاهده خليفته الإشاع النبيّ بعده . كذا في تاريخ الكتاب المقدس ، و (إيليا) هو إلياس ، و (الإشاع) هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد . وقد نوّه بالأول في سورة الصافات بقوله تعالى ^(٢) (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ) إذ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ...) الآيات

السادس - قيل : إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ .

وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقى كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبي الفدا) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

(١) [١٩ / مريم / ٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٢٣-١٢٦] .

لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمي مسجداً بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرها . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : في التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، إن أراد به أن تكون الليلة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ونظارها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر . فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عنها . فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينيها ؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التي يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت في الصحيحين ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الصحيحين ^(٢) عنه :

(١) أخرجه البخاري في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ١ - باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، الحديث رقم ١٧٥ (طبعنا) .
(٢) أخرجه البخاري في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ - باب تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ (طبعنا) .

تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ .
فَإِنَّهُ نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ .

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها ، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح . وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه . والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحى . ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم . ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها . لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها . ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت . وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ . ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية . بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي ، وكان يتحرّاه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها . ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه الوحي ولا الزمان بشيء . ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات . كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله . وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء . فهذه

الليلة في حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى .
نقله الشمس ابن القيم (في زاد المعاد) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم (في زاد المعاد) . اختلف الصحابة : هل رأى النبي ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصَحَّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصَحَّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصَحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالوا : إن قوله تعالى ^(١) : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصَحَّ عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال في لفظ آخر : رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعيني رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى ^(٢) (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) ثم قال ^(٣) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل . رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد في قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

(١) [٥٣ / النجم / ١٤ و ١٣] .

(٢) [٥٣ / النجم / ١١] .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣] .

التاسع : قال الجاحظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) - بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس - وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبي حَبَّه وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع في المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملاحدون . انتهى .

وقد نقل الرازي عن بعض المعتزلة رده لجمال فيه - ساقها - صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها في الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فَاتَمَّ بِسَبَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ . وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المفعول أو الواقع ، بوجه ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذي علم عليم . وقد بقي ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم - مهمل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدي وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلًا فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب بن الحنفية وعروة وسفيان الثوري والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة (الدر المنثور) للحافظ السيوطي .

وأما طريقه في الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس في أحاديث المعراج أصح منه . ورواه الزهري عنه عن أبي ذر . ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة . وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا)

[٣] (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

« وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه . فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازي : لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه . وقال الشهاب في (العناية) : عقت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجيه . لأنه صح ثمة التكليم ، وشرف باسم التكليم مدججاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزل عليه . وإن شئت فوازن بين (أسرى بعبد) . و (آتينا موسى) . وبين (هدى لبني إسرائيل) . و (يهدى للتي هي أقوم) . و (الواو) استثنائية أو عاطفة على جملة (سبحان الذي أسرى) الخ لا على (أسرى) ، لبعده وتسكفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ (جعلناه) ، وهي تعليلية .

وقوله : (أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا) أي ولياً ومعبوداً تكونون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله ، أن يعبد وحده لا شريك له ، وقد قرئ (أَلَّا يَتَّخِذُوا)

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لثلاث يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب : وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أن) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .
الثانى : أن (أن) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . (فمعيل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعية . وقوله : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهيج وتنبية على المنة . والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الفرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيماء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ (الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة ، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلمون عليه سواه . وقوله (عَبْدًا شَكُورًا) أى لعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا)

[٥] (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا)

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها . والإفساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفدنا . أى أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله (لَتُفْسِدُنَّ) جواب قسم محذوف مؤكداً لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : (وَقَضَيْنَا) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم (قضاء الله لأفعلن كذا) فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و (مرتين) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن ثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتتعظمن عن طاعة الله تعالى ، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذه على أولى المفسدين : « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » ترددوا خلال أماكنكم ومحالككم للقتل والسبي والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مقضياً لا صارف له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

[٧] (إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

[٨] (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ، وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُذْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هذه المؤاخذة الشديدة ، ردونا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطًا . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله من ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب (إذا) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عدت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر فى الوجه . كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيل : الوجه بمعنى الرؤساء . وهو تكلف . واختير هذا على (لَيْسُوا وَكُم) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم أَلَمْ النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله (وَلِيَتَّبِعُوا) . انتهى .

وقوله تعالى « وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ » أى الأقصى « كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا » أى يدمروا « مَا عَلَوْا تَتَّبِعُوا » أى عظيماً فظيماً ، والتبشير : التدمير . وكل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ » أى إذا أخلصتم للإنبابة ، وأحسنتم الأعمال ، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم ، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال « وَإِنْ عُذْتُمْ » أى بعد هذه التوبة والإنبابة إلى الاستكبار « عُذْنَا » أى إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا .

« وَجَعَلْنَا » أى يوم القيامة « جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبساً وسجنًا يحصرهم فى العذاب والحрман عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان - (حصيراً) - اسماً للمكان فهو جامد لا يلزم تذكره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصراً أى محيطاً بهم ، وفعل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقتها . فإما لأنه على النسب . كلابن وتامر . أو لملحه على (فعيل) بمعنى (مفعول) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقى أو لتأويلها بمذكر . انتهى .

وقيل : حصيراً ، أى بساطاً كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى (١) : (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

(١) [٧ / الأعراف / ٤١] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم في فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة ، وقع من الاختلال في عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فعوجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيت المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يرعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم في الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله في الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام في مملكته عجولين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكنهة . وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللها من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك آشور ، ففتح السامرة - بلدهم - وسباهم إلى آشور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك آشور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كهناً من اليهود ليقم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبى الأول .

ثم قام ، بعد ذلك الملك الشرير ، ابنه . فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسا من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثاني بعد ثمانين سنة من الأول .

ثم قام فيهم ملك أشد ممن تقدم - وهو آخر ملوكهم - وفي أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس ، وأمره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبي كل شعب يهوذا ، ماعدا مساكين الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هذه المملكة . وكانت إقامتهم في بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق في خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيون على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتملكوا بيت المقدس . وهدم تيطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم ، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده . وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة . وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم ، إلى أن سارت هيلانة ، أم قسطنطين ، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر ، الذي يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبني في قبائه مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبني قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة في كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنه ، وفي تفسيرنا لألفاظها كفاية في فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ماجريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ما حرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفاعيلهم التي أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا في سورة يوسف ؛ أنه ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هي الآيات في العبر تجلت في سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها . وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعالى^(١) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم التي فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشري : وأينا قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف . لما في إبهام الموصوف بحذفه ، من نخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أي يبشر المخلصين في إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ، ويبتحبون السيئات ؛ أن لهم في الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ » أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ الْإِنْسَانُ

عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدى إثر بيان حال الهادى . وإظهار لما بينهم

من التباين . والمراد بالإنسان الجنس ، أسند إليه حال بعض أفراد . أو حكى عنه حاله فى بعض

أحيائه . فالمنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لاخيره فوفقه من الأجر

الكبير . ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الأليم ، وهو - أى بعض منه وهو

الكافر - يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور ، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال ^(١)

(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومن قال ^(٢) (فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى

عنهم - وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراد . عجولاً

يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب

وهو آتية لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية

على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيائه ، كما عند

الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر . وكان الإنسان بحسب جبلته

عجولاً لاجترأ لايتأنى إلى أن يزول عنه مايعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً . وكان

(١) [٨ / الأتقال / ٣٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لا يتدبر في أموره حتى التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية في القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التي كل منها برهان نيرٌ لا ريب فيه . ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ » أى جعلناهما ، بهيئتهما وتماقيهما واختلافهما في الطول والقصر ، علامتين تدلان على أن لها خالفاً حكيمًا . « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ » أى يجعلها مظلمة « وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة . والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار . وإما حقيقية . وآية الليل والنهار نيرٌ أحدهما . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور في نفسه ، أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . ويجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات . ذات أشعة تبصر بها الأشياء ؛ فالإسناد في (مبصرة) مجازى إلى السبب العادى ، أو تجوز بعلاقة السبب . وقوله تعالى « لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ (جعلنا) أى لتطلبوا في النهار رزقاً منه سبحانه ، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما في ضمن السنين من الأشهر والليالي والأيام ، أو الحساب الجارى في المعاملات ، كالبيع والإيجارات . وفي العبادات ، أى لتعرف مضى الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسابان الأوقات ولتعمطت الأمور .

قال السيوطي في (الإكيل) : هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفي الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ » أي مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم « فَصَلَّاهُ تَفْصِيلاً » أي بيناه في القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى (١) « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِيناً لِّكُلِّ شَيْءٍ » فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً)

[١٤] (أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[١٥] (مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ،

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً)

« وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » أي ألزماه عمله الصادر منه باختياره خيراً أو شراً ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق في العنق ، لا ينفك عنه بحال .

قال الطبري (٢) : المعنى : وكل إنسان ألزماه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ، ، في عنقه لا يفارقه . وإنما قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) مثل لما كانت العرب تتفادل به أو تتشائم من سواخ الطير وبوارحها . هـ .

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجوِّ ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، ممتى الخير والشر بالطائر ، تسمية للشيء باسم لازمه .

قال الطبري^(١) : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائرُه في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاء يورده سعيماً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن . وإنما أضيف إلى العنق ولم يضاف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين . فخرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق . كما أضافوا جنابات أعضاء الأبدان إلى اليد ، فقالوا : ذلك بما كسبت يده . وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذا . قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وحاصله - كما قاله الرازي - أن قوله : (فِي عُنُقِهِ) كناية عن اللزوم . كما يقال (جعلت هذا في عنقك) أي قللتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال (قللتك كذا وطوقت كذا) أي صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أي صارت الولاية ، في لزومها له ، في موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أي يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجْ لَهُ » أي نظهر له « يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أي البعث للجزاء على الأعمال « كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » أي يجده مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أي شهيداً بما عملت .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال القاشاني : (كِتَبًا) هيكلاً مصوراً يصور أعماله (يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لامطوياً كما كان عقد كونها فيه بالقوة . يقال له (أَقْرَأُ كِتَابَكَ) أى اقرأه قراءة الأمور الممثل لأمر أمر مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى المسكوتية . سواء كان قارئاً أو غير قارئ . لأن الأعمال هناك ممثلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لاعلى سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأعمى (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً إياها ، نصب عينها ، مفصلاً لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى « مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » قال أبو السعود : فذلك لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق ، ولزوم الأعمال لأصحابها . أى من اهتدى بهدائه ، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نها عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه ، لا تمخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى « وَمَنْ ضَلَّ » أى عن الطريقة التى يهديه إليها « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » مؤكداً لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى ^(١) (مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ وَنَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ وَكِفْلٌ مِنْهَا) . وقوله تعالى ^(٢) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) من حمل الغير وزر الغير ، وانتفاعه بحسنته ، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع ، جزاء شفاعته ، لا جزاء

(١) [٤ / النساء / ٨٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٢٥] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين . وما يحمله المضلون ، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خص التأكيـد بالجملة الثانية قطعاً للأطاع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إربيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته ، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبينة على الحكم البالغة ، أن نعذب قومًا حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعم من الديوى والأخروى ، لقوله تعالى (١) (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى (٢) (كَلَّمَا أَتَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُمَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَاذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله (٣) (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال تعالى (٤) (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قومًا عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٤] . (٢) [٦٧ / الملك / ٩٠٨] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٤) [٣٥ / فاطر / ٣٧] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة . ولا يعذب أحداً إلا بذنبه .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا)

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتكبر عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوي لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قومًا عذاب استئصال (أمرنا مترفيها) يعنى متممميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (فسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته (حق عليها القول) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطفيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج . (فدمرناها تدميراً) أى فخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف . وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا . كما جرى لبيت المقدس ، لما انحرف اليهود عن شرعتهم ، على ما قدمنا بيانه . وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقي تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم أكد . وإنما حذف مفعول (أمرنا) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهتدى إليه . وفى إثبات (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : (تدميراً) أى كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو زرع .

قال القاشاني : إن لكل شيء في الدنيا زوالاً . وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته ، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بمحدث انحراف فيها عن الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلا بد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشرأً بنعمة الله ، واستعمالاً لها فيما لا ينبغي . وذلك بأمر من الله وقدرٍ منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذٍ وجب إهلاكهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصّت أنباؤهم في القرآن العظيم ومن لم تقص . و (القرون) جمع قرن يطلق على الزمن الممين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص (نوح) ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .
« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي لا يخفى عليه شيء منها . فيدرك سرها وعلنها وسيجازي عليها .

والآية تدل - كما قال الزمخشري - على أن الذنوب هي أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتم ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

[١٩] (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لا يوقن بمآد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . أى ما نشاءه من بسط الدنيا عليه أو تقديرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذمومة على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصياً فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب ، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه ، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلية فى معنى قوله (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَهُوَ فِي عُنُقِهِ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمتناً وخيراً . وفى قوله تعالى : (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) أى ما يحق ويليق بها من الأعمال الصالحة ، تبين لقوله : (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب النهى عنه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كُلًّا نُمِيتُ هَآؤُلَاءِ وَهَآؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

[٢١] (أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[٢٢] (لَّا تَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)

« كُلًّا نُمِيتُ » أى كل واحد من الفريقين . وقوله : « هَآؤُلَاءِ وَهَآؤُلَاءِ » بدل من (كلا) « مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد المات ، وتفرق بهما بعد الورود المصادر . ففريقٌ مریدى العاجلة ، إلى جهنم مصدرهم . وفريقٌ مریدى الآخرة ، إلى الجنة ما بهم « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنع من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكاً فى عبادته فتصير مذمومًا ملومًا على الشرك ، مخذولاً من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) (١) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر امرأته مقطوعاً به «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»
أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحساناً . قال القاشانى : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيرا ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنى عن ذلك . فأثم الواجبات بعد التوحيد ، إذا ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرهما مالا يخفى . و (إِمَّا) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و (أَحَدُهُمَا) فاعل (يبلغن) و (كِلاهُمَا) عطف عليه . ومعنى (عِنْدَكَ) هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلاً على ولدها ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : (أف) فضلاً عما يزيد عليه . أفاده الزمخشري .

وقوله (وَلَا تَنْهَرُوهُمَا) أى تزجرهما عما لا يعجبك ، بغلظة (وَقُلْ لَهُمَا) بدل التأنيف والنهر (قَوْلًا كَرِيمًا) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) تَذَلَّلْ لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبهها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخميلا ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية . أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناح العسكر) وخفضه مجاز . كما يقال (لئن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان . لأنه صفة مبيّنة . أى جناحك الدليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلاً لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و (مِنْ) من قوله تعالى (مِنْ الرِّحْمَةِ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرها وافتقارها اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقار المرء إلى من كان مفقرّاً له ، غايةً في الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجي :

يا من أتى يسأل عن فاقتي ، ما حال من يسأل من سائله ؟

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطفنا على في صغري ، فرحمني ورياني صغيراً حتى استقلت بنفسى ، واستغنيت عنهما . قال الزمخشري : أى لا تكثف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها ، وأدعُ الله بأن يرحمهما رحمة الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليّ في صغرك وتربيتهما لك . والكاف للتعليل . أى لأجل تربيتهما لي .

قال الطيبي : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله ^(١) (مِثْلَ مَا أَنْكُمُ تَنْطِقُونَ) . وهو وجه حسن .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٣] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه في أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية الماثورة للوالدين المتوفين أو أحدهما ، جملة ضممتها لكتابي (الأوراد الماثورة) . لا أزال أدعو لها بها في السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا)

[٢٦] (وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ وَالسَّبِيلَ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا)

[٢٧] (إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ » أى ضماؤكم من قصد البر إلى الوالدين والعقود « إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ » أى قاصدين للصلاح والبر دون العقوق « فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ » أى التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا » أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضمر البر . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستئفال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبذر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة ، فلفظ الله يحجز دون عذابه . ويجوز - كما قال الزمخشري - أن يكون هذا عامًّا لكل من فرط منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجاني على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أى من صلته وحسن المعاشرة ، والبرّ له بالإتفاق عليه .

قال المہامی : لم یقل (القربى) لأن المطلق ینصرف إلى الكامل . والإضافة ، لما كانت لأذى الملازمة ، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما . « وَالْمُسْكِينِ » أى الفقير من الأبعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَأَبْنِ السَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ويدخل فيه ما یعطاه من حمولة أو معونة أو ضیافة . فإن ذلك كله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإتفاق فى محرم أو مکروه ، أو على من لا یمسح ، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غیرک . أفاده المہامی . وفى (الکشاف) : كانت الجاهلية تنجر إبلها وتتیاسر علیها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوها ، مما یقرب منه ویزلف .

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » أى أمثالهم فى کفران نعمة المال بصرفه فيما لا ینبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشتر من الشیطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما یطیع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم فى النار على سبیل الوعيد . والجملة تعلیل المنهى عنه عن التبذیر ، ببيان أنه یجعل صاحبه مقروناً معهم . وقوله « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » من تنمة التعلیل . قال أبو السمود : أى مبالغاً فى کفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن ینصرف جمیع ما أعطاه الله تعالى من القوى ، إلى غیر ما خلقت له من أنواع المعاصى ، والإفساد فى الأرض ، وإضلال الناس ، وحملهم على الکفر بالله وکفران نعمه الفائضة علیهم ، وصرفها إلى غیر ما أمر الله تعالى به . وتخصیص هذا الوصف بالذكر ، من بین سائر أوصافه القبيحة ، للإیذان بأن التبذیر ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غیر مصرفها ، من باب الکفران ، المقابل للشکر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بکمال عتوه . فإن

كفران نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله في سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا)

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا »

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الرد ، لا انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولا ليناً سهلاً ، وعدم وعداً جميلاً .

قال فى (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض

لأجل السعى لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى

منه . وفسره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايى إلى أن الآية فى منعهم خوفاً

من أن يصرفوه فيما لا ينبغى . قال : أى وإن تحقق إعراضك عن تريد الإحسان إليهم ،

طلب رحمة من ربك فى المنع عنهم لثلاثا يقوموا فى التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر

أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم فى الدفع قولا سهلاً عليهم ، إحساناً إليهم بدل

العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والنظم الكريم يحتمله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُومًا » يلومك الفقراء والقرابة « مَحْسُورًا » أى نادماً ، من (الحسرة) . أو منقطعاً بك لاشئ عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهيين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلوله لمنقه ، بحيث لا يقدر على مدها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) من باب اللف والنشر المرتب . قال : أى فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغفون عنك كما قال زهير^(١) فى المعلقة .
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ فَيُبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَفْنَ عَنْهُ وَيُذَمَّ

(١) الرواية فى (المعلقات) و (شرح ديوان زهير) هكذا :

* وَمَنْ يَكْ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية (من شرح الديوان) : وفى شرح الأعمى :

* وَمَنْ يَكْ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بِمَالِهِ *

وهو البيت المحسون من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أَمْ أَوْفَىٰ دِمْنَهُ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَهُ الدَّرَاجَ فَالْتَتَلَّمْ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلاشيء تنفقه ، فتكون كالحسير . وهى الدابة التى عجزت عن السير ، فوقفت ضعفا وعجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسعه ويضيِّقه ، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أى خبيراً ببواطنهم ، بصيراً بظواهرهم . قال المہامی: ولما وجب إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل، لحفظ أرواحهم، فلاولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهى لهم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من قتلهم أولادهم . وهو وأدهم بناتهم . أى دفنهن فى الحياة . كانوا يثدونهن خشية الفاقة وهى الإملاق وال فقر ، بالإئناق عليهم إذا كبروا . فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ) أى نحن المختصون بإعطاء رزقهم فى الصغر والكبر ، وقوله تعالى (وَإِيَّاكُمْ) أى الآن ياغنائكم . وقوله تعالى « إِنَّ قَتْلَهُمْ » أى للإملاق الحاضر والخشية فى المستقبل « كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » أى لإفضائه إلى تخريب العالم . وأى خطأ أكبر من ذلك .

تنبيه :

دل قوله تعالى (حَشِيتَ إِمْلَقٍ) على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف العار كما زعموا . قال اللبرّد في (الكامل) : كانت العرب في الجاهلية تشد البنات . ولم يكن هذا في جميعها . إنما كان في تميم بن مرّة ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات ، فقال (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيتَ إِمْلَقٍ) وقال (٢) (وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ) فهذا خبر بين أن ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن تميمًا منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبي الذراري . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقية . فأثاب القوم وسألوه النساء . فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباهما ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه . فكلهن اختار أباهما إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها . فهذا شيء يعتلّ به من وأد ، ويقول : فملناه أنفة ، وقد أ كذب ذلك بما أنزل الله تعالى في القرآن .

وقال ابن عباس رحمه الله (في تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطأ كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ ، إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً » أى فعلة قبيحة متناهية في القبح . توجب

(١) [٦٠ / المتجننة / ١٢] .

النفرة عن صاحبه ، والفرقة بين الناس « وَسَاءَ سَبِيلًا » أى بئس طريقا طريقه . فإنه غضب الأبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غضباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايئى : (سَاءَ سَبِيلًا) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التنفير والفرقة ، فقال تعالى مجده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها وهى نفس الإنسان « إِلَّا بِالْحَقِّ »

أى إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ (لا تقتلوا) أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله .

وجوز تعلقه بـ (حرّم) . أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقق أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام ، أو زنى

بعد إحصان ، أو قوداً بنفس « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي

الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لوليّه ، الذى

بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . (سُلْطَانًا) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه .

أو حجة يثب بها عليه ، وحيثئذ فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين

والقاتل واحد ، كمادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : (إِنَّهُ وَ

كَانَ مَنْصُورًا) تعليل للنهى . والضمير للولى . يعنى : حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له

القصاص ، فلا يسترد على ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى لاتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتنميته وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن . أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا . والبيوع والأشربة والإجازات ونحوها « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » أى مطلوبًا . يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته . أو : صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى أنموه إذا كلتهم ولا تبخسوه « وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوى ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لاتنظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلًا ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشري : والمراد النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وإن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولاً ظاهراً ، لأنه اتباع لما لا يعلم صحتته من فساد . انتهى . ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحريم والتحليل . وكشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وما شا كها « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » أى كان صاحبها مَسْئُولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايى : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وآخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لا يخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » أى غتالاً . أى مشية المعجب المتكبر . إذ لا يفيدك قوة ولا علواً ، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك ، كما يفعله المحتال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالمحتال ، وإيدان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية، كفاية في الانزجار عنها. ولقد حفظ الله عوامَّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدَّ طرفاً من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبخر في مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرّون عليها وهم عندهم معروضون . وماذا يفيد أن يقرأ القرآن أو يُقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولي التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

[٣٩] (ذَلِكَ جِئًا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ فَتُنْقِلُ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

« كُلُّ ذَلِكَ » أى النهى عنه من قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايى : أما الشرك فلاخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك . وأما العقوق فلاأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذم مكره . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإتلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد خلل بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق . وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحدهم خواصه شيئاً . « ذَلِكَ جِئًا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايى : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخِرَ « كرهه للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها . وَمَنْ عَدِمَهُ لَمْ يَفْعَهُ عِلْمُهُ وَحِكْمُهُ .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراف أَوْلَا حيث قيل (فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا « ورتب عليه ههنا نتيجته في العقبي فقيل « فَتَقْلَقُوا فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا » أى بالجهل العظيم « مَذْخُورًا » أى مبعدا مطروداً من الرحمة . وفي إيراد الإلقاء ، مبنياً للمفعول ، جرى على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعل له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ، فيطرحها في التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)

« أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا » .

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب (الملائكة بنات الله) . والهمزة للإنكار . قال الزمخشري : والمعنى : أنخصكم ربكم ، على وجه الخلوص والصفاء ، بأفضل الأولاد وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أدونها وأدونها للسادات . وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) أى بإضافة الأولاد إليه ، وهى خاصة المحدثات . ثم بإشاركم أنفسكم عليه ، حيث تجمعون له ما تكرهون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) [٤٢] (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ۚ إِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبيننا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ۚ إِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره ، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليهم وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويتغنون الزلفى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه . ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه . وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانى تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى (لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) أى لطلبوا إليه سبيلاً بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى^(١) : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ۚ إِلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وهذا الوجه قدمه الزمخشري على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٤٤] (تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

« سُبْحَنَهُ وَ » فإنه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم ، من حيث لا يحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون . بل هو أمر يعتقده رأساً . انتهى . ومعنى (سُبْحَنَهُ وَ) أى تنزهه عن الولد والشريك تنزهاً حقيقياً به « وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعاضل عن ذلك تعاضلاً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب: وذكر العلو ، بعد عنوانه بـ (ذى العرش) ، فى أعلى مراتب البلاغة . وقوله تعالى : « تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى تنزه الله ، وتقدسهُ وتجلهُ السموات والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون . وتشهد جميعها له بالوحدانية فى إلهيته وربوبيته ، كما قال (١) (تَسْكَاذُ السَّمَوَاتُ بِتَفَطُّرِنِ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدلل بما صح من تسبيح الطعام والحصى ، مما خرج فى الصحيحين والمسانيد ، مما هو مشهور .

واختاره الراغب في (مفرداته) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ودلالة قوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من في السموات ويسجد له من في الأرض) لأن هذا من نفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازي ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كـ (نطقت الحال) . فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزّه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
قالوا : والخطاب في قوله تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) للمشركين . أى لإخلاقكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ في رد القول الأول واختصار الثانى ، الإمام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب . قال رحمه الله في الرد على من قال : (إن في البهائم رسلاً) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى ^(١) (يَسْأُولِي الْأَلْبَابِ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق - الذى هو التصرف في العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، والتصرف في الصناعات على اختلافها - الإنسان خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجملات تمييزاً لمثل قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلاً لكلماته ، ما لم يأت نص في أحدها ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً للكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذباً عليه وعلى نبيه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنس والجن والملائكة) . لا نطق له . نعى أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهدًا بالحس معلوماً بالضرورة ، لا ينكره إلا وقح مكابر لحسه ، وبينّا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزاً . وكان هذا أيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة - فوجب أنه بخلاف ما يسمى في الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجوداً . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبراً أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذي به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والحشرات والألوان لا تقول (سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذا لا شك في هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذي ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذا لا شك في هذا فإن التسبيح في أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذا قد صح هذا ، فإن كل شيء في العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذي هو صفة الحدوث . وليس في العالم شيء إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لا يشبهه) على أن الله تعالى منزّه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهريّ شيء لا يشك في أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهاً لشيء مما خلق . وهذا يقينى لا شك فيه .
فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هي من الأسماء المشتركة ، وهي التي تقع على نوعين فصاعداً . انتهى كلامه .

ومحصله نفي أن يكون للجoadات تسبيح وتميز بالمعنى الموجود في الإنسان . وهو حق لاشبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفي أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه . فيرجع الخلاف لفظياً . وقد وافق العلم الحديث الآن - كما قاله بعض الفضلاء - على أن في الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التي تميز الأحياء . وأن ما فيه في الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هي عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة في جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة ، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيميائية مختلفة . وبالمجمل ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء في ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُ وَكَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم في النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤهم عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش : إن (مفعولاً) يرد بمعنى (فاعل) كيمون ومشثوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلاً) يرد بمعنى (مفعول) كإاء دافق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُاْ عَلَى آذُنِهِمْ نُفُورًا)

« وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع (كنان) « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى كراهة أن يفقهوه « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم . وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ، ومجّ أسماعهم له ، جرى بها بياناً لعدم فقههم لتسليم لسان القائل ، إثر بيان عدم فقههم لتسليم لسان الحال . وإيضاحاً بأن هذا التسليم من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه ، إلا لما منع قوى يعتري المشاعر فيبطلها . تنبيهاً على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ وَخَّذَهُ » أى غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم « وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا » أى هرباً من استماع التوحيد . قال القاشاني : لَتَشَتَّتْ أهوائهم ، وتفرق همهم في عبادة متعبداتهم ، من أصنام الجسمانيات والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتفاجى به المشركون ، رؤساء قريش ، بقوله متوعدا لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)

[٤٨] (أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ » إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا « أى سحير ، فجنّ فاختلط كلامه « أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » أى مثلك بالساحر والمجنون « فَضَلُّوا » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يحبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد . كالتحجير في أمره لا يدرى ماذا يصنع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَتًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

[٥٠] (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

[٥١] (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ،

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)

[٥٢] (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَتًا » وهو ما بلى وتفتت « أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا *

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » أى يعظم في نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه . فإنه يحْيِيكم ولا يعجزه بعثكم . فكيف ،

إذا كنتم عظاماً مرفوطة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشئ أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاء « وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضى : استعمار لها الدعاء

والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء . انتهى .

وقيل : إنهما حقيقة كما فى آية^(١) (يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) وفى قوله

(١) [٥٠ / ق / ٤١] .

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) وجوه للمعربين . ككونه بدلاً من (قريباً) على أنه ظرف . أو منصوب به (يكون) أو بمقدر (ك) (اذكر) أو (تبعثون) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبثكم في القبور والمضاجع . لنهولكم عن ذلك الزمان . أو في الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا)

[٥٤] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« وَقُلْ لِّعِبَادِي » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقرب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُوا » فى النصيحة ، الكلمة « الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى فلا يخافوا أحدًا ولا يغلظوا بالقول « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والمراء ، لتقع بينهم المضاربة « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا » وقوله تعالى « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرسلهم فيمتوب عليكم برحمته وتنبيهاً إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولاً إليك إليك أمرهم . تقصرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شئ فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفى لرسالته ، ويختار لنبوته ، ويعلمه أهلاً لها . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن في السموات والأرض وأحوالهم . فأتى موسى التوراة وكله ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد أتى محمداً القرآن فضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ، فضلناه به . قيل : الآية رد عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبياً ، دون من يعدونه عظيماً بينهم في الغنى والجاه . وذكر من في السموات لإبطال قولهم ^(١) (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ) وذكر من في الأرض رد قولهم ^(٢) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ) . وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبي ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من ^(٣) (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإشار إلى زبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما يبلغ في الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره . وإذا كان ذلك اختصاصاً ربانياً ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، من علم أنه أرجحهم عقلاً ، وأكملهم فضلاً ، لحتم نبوته ، وهداية بريته ، بمنهاجه وشرعته . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله من خلقه ، ادعوا من زعمتموهما أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبري^(١) عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبیده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال . ونظير هذه الآية في النهى عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء ، قوله سبحانه^(٢) (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وفي قوله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : (مَحْذُورًا) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياداً بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حتم وقضى ؛ أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم ، كما قال تعالى (١) : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وقال تعالى (٢) (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى (٣) (وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَإِتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ » أى التى يقترحها قريش : « إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

(١) [١١ / هود / ١٠١] . (٢) [٦٥ / الطلاق / ٩] . (٣) [٦٥ / الطلاق / ٨] .

الْأَوَّلُونَ « أَيْ إِلَّا تَكْذِيبَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَالُهُمْ . كَعَادَ وَثَمُودَ . وَأَنَّهُمَا لَوْ أُرْسِلَتْ لَكَذَّبُوا بِهَا تَكْذِيبَ أَوَّلِكَ . فَاسْتَوْجِبُوا الْاسْتِثْصَالَ . عَلَى مَا مَضَتْ بِهِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ . وَقَدْ قَضَيْنَا أَن لَا نَسْتَأْصِلَهُمْ ، لِأَن مِّنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ أَوْ يَلِدُ مَن يُؤْمِنُ . ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الْأُمَمِ الْمَهْلَكَةِ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةِ ، فَقَالَ : « وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ » أَيْ أَعْطَيْنَا قَوْمَ صَالِحِ النَّاقَةَ بِسْؤَالِهِمْ « مُبْصِرَةً » أَيْ يَبْنَى ، تَبْصُرُ الْغَيْرَ بِرَهَانِهَا « فَظَلَمُوا بِهَا » أَيْ فَكَفَرُوا بِهَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ عَقْرِهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ « وَمَا نُرْسِلُ إِلَّا نَذِيرًا » أَيْ وَمَا نُرْسِلُ إِلَّا نَذِيرًا مَقْرَحًا إِلَّا تَخْوِيفًا لِلنَّاسِ ، لِيَعْلَمُوا السَّنَةَ الْإِلَهِيَّةَ مَعَ الْعَاتِينَ ، فَيَتَذَكَّرُوا وَيَتُوبُوا .

روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن يأتهم الذي سألو . فإن كفروا ، هلكوا كما هلك من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأني بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ... » . الآية . ورواه النسائي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » أَيْ عَلِمَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ كُفْرِهِمْ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) .

وتكذبهم . ومنه ماجرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة ، من الجحود والهزء واللغو . كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعنى ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات . فلما ذكرها النبي ﷺ للناس ، أنكر بعضهم ذلك وكذبوا . وجعل الله ذلك ثباتاً وقيناً للمخلصين . فكانت فتنة ، أى اختباراً وامتحاناً . وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناماً ، لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى (إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يردّه . لأن رؤيا المنام لا يفتتن بها أحد ولا يكذب . وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقى لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً . وقد ذكر السهيلي : أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة . وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارٍ على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلاً . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبرى^(١) عن الحسن في الآية هذه : قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاء إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يا محمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا نخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فمجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم^(٢) : الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البرى عن ابن عباس . قال : يقال : إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه . وهو يومئذ بالمدينة . فمجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة . قبل الأجل : فردّه المشركون . فقالت أناس : قد ردّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها . فكانت رجعتهم فتنتهم . وذلك عام الحديبية . ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ، لأنه كان إذ ذاك بمكة . فلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المسكية ضم إليها آيات مدنية، كما في (الإتقان). والطبري رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية في كذا)، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة في سورة الصافات في قوله تعالى^(١) (أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ ...) الآيات ، وفتنهم فيها مارواه الطبري^(٢) عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا - يعني النبي صلوات الله عليه أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفي رواية ؛ أن أبا جهل قال : أيخوفني بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : ترقوا ، فما تعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلمعنها في القرآن ، لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز في الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذي لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى « وَنُحِوْهُمْ » أي بذلك وبنظائره من الآيات « فَمَا يَزِيدُهُمْ » أي التخويف « إِلَّا طُغْيَيْنَا كِبِيرًا » أي تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

(١) [٣٧ / الصافات / ٦٢-٦٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال المهيمن : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجل من أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة فى إرسالها سوى تعجيل العذاب الديوى . لكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان . وأنه وحزبه ، لغوهم وتمردهم عن الحق ، فى النار ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)

[٦٢] (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُوَ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» أى تحية وتكريماً «فَسَجَدُوا» إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ «أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» كما قال فى الآية الأخرى^(١) (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) «قَالَ» أى جراءة على الرب وكفراً به «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له ، لم كرمته على ؟ أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته على «لَنْ أَخَّرَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُوَ إِلَّا قَلِيلًا» أى لأعمتهم وأهلكتهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

(١) [٣٨ / ص / ٧٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)
 [٦٤] (وَأُسْتَفْزِرُ مَنْ أُسْتَفْزِرَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

[٦٥] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)
 « قَالَ أَذْهَبَ » أى امض لشأنك الذى اخترته « فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا » أى جزاء مكملًا « وَأُسْتَفْزِرُ » أى استخف وأزعج « مَنْ أُسْتَفْزِرَ مِنْهُمْ » أى أن تستفزه فتخدعه « بِصَوْتِكَ » أى بدعائك إلى الفساد . وعبر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أى صح عليهم . من الجلبة (بفتحات) وهى الصياح . و (الخيل) الخيالة أى ركب الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرجل) اسم جمع للرجال وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلاجه بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار - بكسر الميم ، الكثير الغارة وهى الحرب والنهب - أوقع على قوم فصوص بهم صوتاً يستفزعهم من أما كنهم ، ويقلقهم عن مراكرهم . وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم - أى فالكلام استمارة تمثيلية مركبة . استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيده لهم . وجوز أن يكون التجوز فى المفردات تجوزاً بصوته عن دعائه إلى الشر بالسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ » أى بحمله إياهم على إنفاقها فى المعاصى وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى « وَالْأَوْلَادِ » أى بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ، وَوَادِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدُّهُمْ » أى المواعيد الباطلة والأمانى الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزوين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِي » أى المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أى كفيلاً لهم يتوكلون عليه ولا يلجئون فى أمورهم إلا إليه ، وهو كافهم .

وقد أشار القاشانى إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف . وعبارته : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزّه . أى استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولة . ومن كان قوى الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية ، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وإلا فإن كان منغمساً فى الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه فى الأمور الدنيوية ، شاركه فى أمواله وأولاده ، بأن يحرّضه على إشراكهم بالله فى المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم ، والتسكّاتر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانى الكاذبة . وزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينفمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته ، أجب عليه بخيله ورجله . أى مكره بأنواع الحيل . وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنّها من جملة مصالح المعاش . وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكاً ، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى . ثم بين تعالى بمضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّكُمْ الَّذِى يُزِجِ لَكُمْ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُوَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَبُّكُمْ الَّذِى يُزِجِ لَكُمْ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ » أى يُسَيِّرْ لَكُمْ السفن فى البحر « لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى من رزقه . والآية صريحة فى ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُوَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكىر لعمى النعم التى هى من دلائل التوحيد ، وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر ، تسكلة لما مر من قوله (فَلَا يَمْلِكُونَ...) الآية ، وذلك قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » أى ذهب عن أوهامكم وخواطيركم كل من تدعونه وتعبدون ، إِلَّا إِيَّاهُ وحده . فإنكم لاتذكرون سواه . فطرة فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدلل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوه ، والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ » أى من الغرق : « إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ » أى عن التوحيد : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » أى بأنهم الله . والجملة كالتعليل للإعراض . قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرة العظيمة ،
بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ' فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)
« أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ » أى يغوره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصباء يرحمكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الفرق : « ثُمَّ
لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ
فِيهِ » أى يقوى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَى ' فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ » أى ريحاً شديدة لاتر بئىء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا » أى مطالباً بما فعلنا . مثل من يطالب
على مغرق سوانا . وهذا كقوله^(١) : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » أى بالنطق والتميز والعقل والعرفة والصورة والتسلط على
ما فى الأرض والتمتع به « وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها « وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » أى عظيمًا .
فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده .

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه . قيل وهم الذوات المقدسة من الملائ الأعلى ، أعنى الملائكة .

قال القاشانى : وأما أفضلية بعض الناس ، كالأنبياء على الملائكة المقربين ، فليست من جهة كونهم بنى آدم . بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله ^(١) : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة . وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل ^(٢) :

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهدٌ بأبوتِي
وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) ب(الكل) كما أول (القليل) بمعنى (العدم) فى قوله تعالى ^(٣) : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْفَئِيرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا .
أى جميع المخلوقات .

قال القاشانى : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة فى تعظيمه ، بوصف المتفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف . أى كثير وأى كثير ، وهو جميع

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٢) فائله عمر بن الفارض من تأييده الكبرى المسماة بنظم السلوك . ومطلعها :

سَقَتْنِي حُمِيًّا الْحَبَّ رَاحَةً مُقْلَتِي وَكَأْسِي حَمِيًّا مِنْ عَنِ الْحَسَنِ جَلَّتْ

(٣) [٢ / البقرة / ٨٨] .

مخلوقاتنا . لدلالة (مَنْ) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة في كتب الكلام . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ، فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَ يَمِينِهِ
فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا)
[٧٢] (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين . فيقال : يا أتباع فلان ! يا أهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم . فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ! يا أصحاب كتاب الشر ! قالوا : وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبي ﷺ .

وقال القاشاني : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبي آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه ، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلى محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير ، رحمه الله ، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ، لقوله تعالى ^(١) (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) وقال تعالى ^(٢) (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية ، وقال تعالى ^(٣) (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْنَخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(١) [٣٦/يس / ١٢] . (٢) [١٨/الكهف / ٤٩] ، (٣) [٤٥/ الجاثية / ٢٨ ، ٢٩] .

وما رجع رحمة الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغي الاهتمام به في معاني الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوْتِيَ » أى من هؤلاء المدعوين « كِتَابُهُ » أى كتاب أعماله « بِبَيِّنَةٍ » فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ » أى فرحاً وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما في شق النواة ، أو ما تقتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء . فإن الفتيل مثل في القلة ، كقوله تعالى ^(١) (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

« وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا » أى ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلاً منه في الدنيا . لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو في مقام الكسب باقى الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك البصرات ، لفساد حاسته . مجازاً في عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثانى أفعّل تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعّل تفضيل كالأحق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقروءه . ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ، ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك ، غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا)

[٧٤] (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

«وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا*» وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وثبتيته وعصمته وتولى أمره وحفظه. فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيמתهم، كادوا أن يفتنوه. ولكن عناية الله وحفظه، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره. وقد روى أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لانحنى في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها. فإن خشيت أن يسمع العرب (لَمْ أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا)؟ فقل: الله أمرني بذلك. وروى أن قريشاً قالوا: لاندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا. وقالوا أيضاً: نؤمن بك إن تمس آلهتنا.

قال الإمام الطبري: يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر. وأن تكون غير ذلك. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان. فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له، ببيان ما عني بذلك منه.

قال الزجاج: معنى الكلام كادوا يفتنونك. ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة واللام للتأكيد. والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك. ويصرفوك عن القرآن أي عن حكمه. وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن. وقوله: (لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) أي غير ما أوحينا إليك وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك

(وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلاً ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) أى على الحق بمصمتنا إياك (لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْهُمْ) أى تميل إليهم (شَيْئًا قَلِيلًا) وقوله (شَيْئًا) عبارة عن المصدر ، أى ركونا قليلا .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تسكنني إلى نفسى طرفة عين) . ثم توعده في ذلك أشد التوعد ، فقال :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)
« إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ » أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله ، ودل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات . كقوله تعالى ^(١) (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) وقال ^(٢) (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .
والسبب في تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم . فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر . ونظيره قوله تعالى ^(٣) (يَلْسَأُ النَّبِيُّ مَنْ يَأتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله (بعد ذكره ما روى في سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون :

(١) [٣٨ / ص ٦١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] .

إِنْ عِبَدْتَ آلِهَتَنَا عَبْدَنَا إِلَهَكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ^(١) : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله ^(٢) : (وَذُؤْاْ لَوْ تَذَكَّرْتُمْ فَيَذَرُوهُنَّ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ^(٣) (وَلَا تَعْبُدُوا عَيْنِيكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قوله ^(٤) : (وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتموه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبت على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة في تفسير هذه الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثاني : قال القاضي : معنى قوله تعالى : (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ . . .) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتياهم . لكن أدركتك عصمتنا فنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم . وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشري : في ذكر السكيدة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مداينة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يحثو عندها ويتدبرها . فهي جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله .

الرابع : جاء في (حواشي جامع البيان) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجميلة في هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك ، بعد القدرة على هدمها وإبطالها ، يوماً . فإنها شمائر

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢] . (٢) [٦٨ / القلم / ٩] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٤) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

الكفر والشرك . وهى أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبد من دون الله . والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والندور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شئ منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلتهم السويق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه ، من النذور لها والشرك بها والتسحبها وتقبيلها واستلامها . وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مس آلتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلتنا . وما التمسوا منه إلا التمتع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزقة كل الرزقة ما بتلى به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإننا لله وإننا إليه راجعون . بل كثير منهم ، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه ، حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك . أو بمعتدة كـ الولى الفلانى تلسكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال (ثالث ثلاثة) فها علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أى رزء للإسلام أشد من الكفر ؟ وأى بلاء لهذا الدين أضرب عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٧٧] (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)

« وَإِنْ كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بمعاداتهم من مكة « لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ » أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمانًا قليلًا « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنَّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبسهم ، إهلاكمهم . سواء كان بالاستئصال ، أو لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه بيدى على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرفهم وسبى سرائهم . ولهذا قال تعالى (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسولنا وأذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى (١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبل ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهاال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأنيده عليهم . ونظيره قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) وقوله (٢) (فَأُصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وقوله (٣) (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ اللَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْآنَ الْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآنا لأنه ركنها . كما سميت ركوعا وسجودا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحا ، وفي غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودا بالجماعة الكثيرة . والأكثر على أن قوله تعالى (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] .

منصوب بالعطف على (الصلاة) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوز بعض النحاة نصبه على الإغراء : أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومراقبتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناوولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناوولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركاً بين الظهر والعصر . والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء . فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين ، وكذا بين الآخرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما في غيرها فلا . وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن ساف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه . وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى .

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس . جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله : وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . ما لم يتخذ عادة . واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان^(١) وغيرها عن ابن عباس قال: صلى النبي ﷺ بالمدينة سبعاً وثمانياً: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثاني : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس ، ومنها قوله تعالى^(٢) : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر في النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر . والوتر تصلى بالليل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) : صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركة . وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا في هذا الموضوع ، ونلفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، وبراد به من طلوع الشمس . لكن قوله (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِْ النَّهَارِ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة في أول الطلوع منهي عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أولاً تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعمل أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثاني

(١) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ - باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .
(٢) [١١ / هود / ١١٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٠ - باب كيف كان صلاة النبي ﷺ ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعنا) .

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة في هذا الوقت صلاة في الطرف الثاني وأشرك بينهما فيه . ثم قال (وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فأجل المغرب والعشاء في (زلف من الليل) . وهي ساعات من الليل . فالواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى (١) (لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء . فمن الظهيرة إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على الواقيت في آيات أخر كقوله تعالى (٢) (فَسَبِّحْنِ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فتبين أن له التسبيح والحمد في السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر، والعشي يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى (٣) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) وفي الآية الأخرى (٤) : (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ) فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر . وقبل غروبها هي العصر . وبذلك فسرها النبي ﷺ في الحديث (٥) المتفق على صحته عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال :

(١) [٢٤ / النور / ٥٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٧ و ١٨] . (٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٤) [٥٠ / ق / ٣٩ و ٤٠] . (٥) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ،

١٦ - باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تأكلوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) . وقوله تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ) (وَمِنَ النَّهَارِ) مطلق في آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقي الدين ابن تيمية في فتواه في (المواقيت الكبرى) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التي أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية . عليه الرحمة ، في فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعدر . فالوقت في حال الرفاهية خمسة أوقات كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثله . ووقت العصر ما لم تصفر الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبي هريرة في السنن . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في المواقيت حديث من قوله إلا هذا . وسائر ما روى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما في هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء في آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجاهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله . سوى النوى الذي زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبي حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً للظهر ولا

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ (طبعنا) .

للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثاني منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر في إحدى الروايتين عن أحمد . وهو منقول عن مالك والشافعي مع خلاف في مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو^(١) ، مما عمل به النبي ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بحكة . وهذا قول أبي يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذي تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبي ﷺ ، لا صحيح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذي أوله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهي ثلاثة: من الزوال إلى الغروب . ومن الغروب إلى الفجر . ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدهما تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبي ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها في سفرة تبوك . إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب في المطر . فهذا جمع تقديم . والثاني جمع تأخير ، العصر فيها إلى الغروب . لقوله ﷺ في الحديث الصحيح :^(٢) من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر . ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ - باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبي هريرة) . وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٥ (طبعنا) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر . مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح^(١) :
 (وقت العصر ما لم تصفر الشمس) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان
 التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ في أشهر قولي العلماء بقوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى
 الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعي ، وأحمد في أشهر الروايتين عنه .
 وقيل : يخير حال القتال في التأخير والصلاة في الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى
 عنه . وقيل : بل يؤخرها . وهو قول أبي حنيفة أيضاً . في الحديث الصحيح^(٢) عنه ﷺ أنه
 قال (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت
 بين قرني الشيطان ، قام فنفق أربعاً ، لا يذكّر الله فيها إلا قليلاً) فوصف صلاة المنافق بالتأخير
 إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن
 الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس
 له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله . بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك .
 كالحائض إذا طهرت . والجنون يفيق . والنائم يستيقظ . والناسي يذكر . ودل تقديم العصر
 يوم عرفة على أنها تفعل في موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هذا الحديث على أنها
 يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه يبين بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل
 كل شيء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ،
 وقت مع التمسك والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من
 الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (في الحائض إذا
 طهرت قبل غروب الشمس) : تصلي الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٨] . (٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع

الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابيٍّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعيّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثاني عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن - يعني الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل - والذين ينازعون الجمهور في الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر في قوله ^(١) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبي ﷺ لم يصل قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحدهم المعروفين يُعرف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق في الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق في آناء الليل وفي غسق الليل . ومطلق في الطرف الأول وفي الطرف الثاني ، فدل على جواز الصلاة في هذا وهذا ، لو قُدِّر أن النبي ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما في الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى ^(٢) (أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا) مطلق . فهو الفرض . والطمأنينة إنما جاء بها خبرٌ واحدٌ . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون في الفاتحة : إن القرآن مطلق في إيجاب قراءة ما تيسر منه ، مع أن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلوا إلا بالفاتحة . ومع قوله : (لا صلاة إلا بأتم القرآن) ^(٣) . و(إن كل صلاة لم يقرأ فيها

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٤] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام

والمأموم في الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ (عن عبادة بن الصامت) .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعنا) .

بأَمِّ القرآن فهي خداج . فهي خداج . فهي خداج ^(١) . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبرٌ واحدٌ فلا يقيّد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق في الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبي ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع في الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذي هو من أخبار الآحاد . مع ما فيه من الإجمال ، كقوله ^(٢) : لَمَّا بَيْنَ الْمَوَاقِيتِ الْخَمْسَةِ (الوقت ما بين هذين) وقوله ^(٣) (ما بين هذين وقت) دلالاته على وجوب الصلاة في هذا الوقت دون دلالة قوله : (لا صلاة إلا بأَمِّ الكتاب) وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأَمِّ الكتاب فهي خداج) وكذلك قوله ^(٤) ﷺ في الحديث الصحيح (سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها . ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها في الوقت عند الرفاهية بقوله ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذي يتّنه لهم . والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن الأمراء ، أتقاتلهم ؟ قال : (لا . ما صلوا) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما في الوقت المشترك فهو ثابت بالسنة في مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبين أن الوقت المشترك وقت في حال العذر . كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ (طبعنا) .

عن أبي موسى . (٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧

(طبعنا) عن بُرَيْدَةَ . (٤) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ،

حديث رقم ٢٣٩ (طبعنا) عن أبي ذرّ .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز . وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت في آخر النهار) : إنها تصلى الظهر والعصر . (وفيمن طهرت في آخر الليل) : إنها تصلى المغرب والعشاء . وهو قول الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت في بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع ، فقد جمع في قوله بين أصلين ضعيفين : بين إباحة ملحمة الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتقويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتقويت العشاء إلى النصف الثاني أيضاً ، لا يجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء في وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لا يجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصلحها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » أمر له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفي « من » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثاني أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) . أى قم من الليل أى في بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم ، (تقبل) يأتى للسلب كـ (تأثم وتخرج) ، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهري : المعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما التهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه . كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلاً . وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير في (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (في) أي تهجد في ذلك البعض . وقوله تعالى (نَافِلَةً لَّكَ) أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشري : وضع (نافلة) موضع (تهجد) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقديم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » أي يحمد القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ، للفصل بين الخلائق الذي يحمد فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة^(١) . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير^(٢) ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدى على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبثاً به - على ما نقلها الرازي -

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٧ - سورة الإسراء ، حديث رقم

٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه:
الأول أن البعث ضد الإجلال ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلال تفسير للبعد بالبعد وهو فاسد .
الثانى أنه تعالى قال (مَقَامًا مَّحْمُودًا) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ، لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .

الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال والحقى يقولون (فى كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس أنه إذا قيل : السلطان بعت فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم . ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يعيل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدى .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير^(١) حتى يمسك من جاح يراعه ويبيصر الأدب مع السلف مع الخارج العلمية لهم . وهالك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم) : وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة - ثم قال - وهذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمد أصلى الله عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحته . لامن جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولعن أحد من أصحابه ، ولعن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم : الله عز وجل وجل بائن من خلقه ، كان قبل خلقه الأشياء ، ثم خلق الأشياء فلم يماسها ، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التي خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماساً ، وجب أن يكون لها مباينا . إذ لا فعال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها ، قالوا : فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز في قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين - فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذ كان من قولهم إن بينوته من عرشه وبينوته من أرضه بمعنى واحد ، في أنه بائن منهما كليهما ، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى : كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا شيء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذ كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، في أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى : كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . ثم أحدث الأشياء وخلقها ، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماساً ، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شيء يرزقه رزقاً ولا شيء يحرمه ذلك . ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا : فكذلك كان قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا يباينه . وخلق الأشياء فماس العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه . فهو مماس ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه : فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذ كان من قولهم : أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش ، ولا في إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا أخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف - على قول قائل هذه المقالة - بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول في معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذا بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإننا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه ، وإنما ننكر إقعاده معه «حدثني» عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحيى ابن كثير عن الجريري ، عن سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدي الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أجاز عندك أن يُقعد عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعد ، والله للعرش مباين ، أولاً مما سئ ولا مباين ، وبأى ذلك قال ، كان منه دخولا في بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التي حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها . وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضاً عن إرادات الواحدى الخمسة ، التي أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إرادته الأول ، فإن مجاهداً لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك في اللغة . وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتا لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد في الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف - في الشاهد - لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن الرفوع ذو مقام يفوق به الكل .
وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بحث لإصلاح المهمات في الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبي في كتابه (العلو لله العظيم) للإمام الدارقطني في ترجمته ، قوله :

حديث الشفاعة في أحمدٍ إلى أحمد المصطفى نُسِنْدُهُ
وأما حديثُ بإقعاده على العرش أيضاً فلا نَجْحَدُهُ
أمرُّوا الحديثَ على وجهه ولا تُدْخِلُوا فيه ما يُفْسِدُهُ

وقال الذهبي في كتابه المنوه به ، في ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله :
وقال المروزي : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش - ذكر الإمام أحمد بن محمد بن مصعب فقال : قد كتبت عنه . وأى رجل هو ! قال الذهبي : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نص ، بل في الباب حديث وإي . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروزي وقعد بالغ في الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطرق قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبي سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبي يحيى القتات وجابر ابن يزيد . وممن أفتى في ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يمارض ، أبو داود السجستاني صاحب السنن وإبراهيم الحربي وخاق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث . وهو عندي رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد في قوله (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا)

قال : يقعده على العرش . فحدثت به أبي رحمه الله فقال لم يُقَدَّرْ لي أن أسمع من ابن فضيل :
بحيث إن المروزيّ روى حكايةً بنزولٍ ، عن إبراهيم بن عرفة . وسمعت ابن عمير يقول : سمعت أحمد
ابن حنبل يقول : هذا قد تلقتّه العلماء بالقبول . وقال المروزيّ : قال أبو داود السجستانيّ : ثنا
ابن أبي صفوان الثقفيّ . ثنا يحيى بن أبي كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقةً ، ثنا الجريريّ .
ثنا سيف السدوسيّ عن عبد الله بن سلام ، قال : إذا كان يوم القيامة جئُ بنبيٍّ - صلى الله عليه وسلم - حتى
يجلس بين يدي الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير في تفسيره .
(أعني قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش في تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية
ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلال قال في كتاب (السنة) من
جمعه : أخبرني الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن عليّ السراج ، قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم
في النوم فقلت : إن فلاناً الترمذيّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول :
بل يقعدك . فأقبل عليّ شبه الغضب وهو يقول : بلى ، والله ! بلى ، والله ! يقعدني على العرش .
فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدث قال (فيما نقله عنه القاضي
أبو يعلى الفراء) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على العرش ،
واستفتاني ، لقاتله : صدقت وبررت .

قال الذهبيّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلو بهذا المحدث إلى وجوب
الأخذ بآثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة في العلوّ . بل يحاول بعض الطغام أن
يرد . قوله تعالى ^(١) (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) انتهى . وقوله تعالى :

(١) [٢٠ / طه] ٥ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلا حسنا مرضيا بلا آفة « وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخرجا حسنا مرضيا من غير آفة الميل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » أى عزًا ناصرا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه .

وقد رأى المهامى ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها . ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتخليتى عن الرياء والعجب ، وتصفيقتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنه لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِي) عنها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) فلا تستعملنى فيما يحبطها على ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت على شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فكبرى ، (سُلْطَانًا) أى حجة (نَصِيرًا) ينصرنى على ما ذكر . ليبقى على عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستره .

« وَقُلْ » أى استبشارًا بقرب الظفر والنصر ، وترهيبًا للمشركين « جَاءَ الْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ الْبَاطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجولته « إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » أى مضمحلًا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات ، مع سباقها أعنى قوله تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ) يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيه بأن يتجهل إليه في تيسير إدخاله لهاجره على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعو ، ومشية الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال في (الإكمال) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة النكر .

ثم بين تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشقى أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أى ونزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعهم . فيدخلهم الجنة وينجيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خساراً . أى إهلاكاً . لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهى ، كفروا به ، فزادهم خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ، ورجساً إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخيلية . بتشبيه الكفر بالمرض . و(من) بيانية . قدمت على المبين وهو (ما) اعتناء .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسية لهذه الآية . بحمل قوله (شِفَاءً) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنويه ، ومن قرر ذلك الرازى . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية . وشفاء أيضاً من الأمراض الجسدية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات فى الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاصد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال الحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية . وأما كونه شفاء من الأمراض الجسدية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرق المجهولة والعزائم التى لا يفهم منها شئ ، آثاراً عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاصد - فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا - كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بحديث^(١) (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى) . وأما كونه رحمة للمؤمنين ، فاعلم أنا بينما أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن ، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتوحيهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعى في تسهيل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية ، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه ﷺ ، في حرف القاف : (قرآن) : قال الله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (من) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبميز . وقال تعالى^(٢) (يَسَّأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْفُومُ مَوْعِظَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوى به ، ووضع على دأئه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه - لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسماء ، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحِمية منه ، لمن رزقه الله فهما في كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال في (حرف المكاف) : ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [١٠ / يونس / ٥٧] .

وذكر ، قبلُ ، في فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا في بحث الرق . وذكر أيضا أن من الأدوية التي تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والاتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومملكتها . فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعاينها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاونا على دفع الداء وقهره . فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقرّبها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه - أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا في كتاب (إغاثة اللهفان) في بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبئ مراجعته ، ليزداد المريد علما .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا »
إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرٍ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة ، ويشاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين . ويتيقن في الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفي الثانية ؛ أن الصبر دفاع النعم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن النعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطراً وأشرًا . ولم يغفل عن النعم ولم يجزع عند النعمة جزعاً وضجرًا .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفرادهم من هو على هذه الصفة . كقوله تعالى (١) :
(وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَإِذَا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشري : (وَنَأَى بِجَانِبِهِ) تأكيدٌ للإعراض . لأن الإعراض عن الشيء أن يؤليه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٩ - ١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكوته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم (طريق ذو شواكل) وهى الطرق التى تتشعب منه لتشاكلها . أى تشابهها فى الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيها بمحسب أعمالها .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » قال القاشانى : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهر بين البدنيين ، الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون ، لقصور إدراككم وعلمكم عنه « وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم المحسوسات . وذلك شئ نزر حقير بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم - هذا ما قاله القاشانى - وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاختصار في الجواب على قوله : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)^(١) على قوله^(٢) (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إعلماً بأن إدراكه بالكُنْه على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شيء بمفارقة يموت الإنسان . وبملازمته له يبقى . كما أوماً إليه قوله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالي .

قال الشهاب : والسؤال - على هذا - عن حقيقتها . والجواب إجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما في قوله^(٣) : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هذا المقدار . فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا مثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه^(٤) : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعات الكائنة بمحض الأمر التكويني من غير تحصيل من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فد (من) بيانية أو تبعية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركاً للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] . (٤) [٣٦ / يس / ٨٢] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة في بحث الروح بدعة في الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما في الآية . فلاشتغال بالتفتيش عنه غلوٌ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون في بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوته ﷺ ، ولأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضمرُوا على أنه إذا أجب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم زده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيهما من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب في محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملًا على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرمرًا ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمل . خصوصًا على طريقة الحكماء . إذ من غلب على طبعه الجود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري . فكيف يصدق به في حق الروح الإنساني . بل قال بعض المدققين : إن في الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعات الكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة - وهو ما ذكرناه أولاً - وفي الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له في النزاع ، إذا فصل ، مطمع . وقد استحسّن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له : فيكون قوله (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) على أن السؤال عن حقيقتها - مطابقاً . إلا أنه إجمالي . أي من الممكنات التي يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقي عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلي . وأياً ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لاسبيل إلى معرفته ل قيل : (قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي) كما قيل في الساعة ، أو نحو ذلك . بل لو لم يكن السبيل لمعرفة ، ولو بوجه ما ، متيسراً لكثير من الناس ، لم يكن لأمره بالتفكر فيها . والتبصر في أمرها ، للاستدلال بها عليه ، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذي هو الغاية القصوى والثمرّة العظمى - من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى (٢) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) وقوله (٣) (وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها ، أثرت عنهم أقوال شتى . وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذي يهمننا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقررة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناها واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسماً ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال (٣) (هُنَالِكَ تَبْلُغُونَ كُلُّ نَفْسٍ مِّمَّا أَسْلَفَتْ) وقال تعالى (٤) (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) وقال تعالى (٥) (كُلُّ أَمْرٍ إِيمٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ) فصح أن النفس هي الفاعلة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى (٦) (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال تعالى (٧) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وقال تعالى (٨) (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتُلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٨] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٣) [١٠ / يونس / ٣٠] . (٤) [٤٠ / غافر / ١٧] .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢١] . (٦) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٧) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٨) [٢ / البقرة / ١٥٤] .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ ، بَلْ أَحْيَا وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ) وقال تعالى ^(١) (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَا عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَاءِ الْمَتَّهِمِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب . ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة . ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطيور وحيوان الماء . فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان . ولا شك في أن العرض لا يلقى العذاب ولا يحس ، فليست عرضاً . وصح أنها تنقل في الأماكن قاعة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لصفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورة ، أنها جسم .

وأما من السان فقول رسول الله ﷺ ^(٢) (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة) وقوله ﷺ ^(٣) ، إنه (رأى نسم بني آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرتبة في أماكنها ، وقوله عليه السلام ^(٤) (إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام . ثم قال : ومعنى قول الله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ و ١٧٠] . (٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٢١ (طبعنا) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذي أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ١ - باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ، حديث ٢٣٥ (عن أبي ذر) . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٣١ - باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبي هريرة (طبعنا) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضاً على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، في بحث عذاب القبر : والذي نقول به في مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتمدها . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال ^(١) : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهى الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام ^(٣) (إن الأرواح جنود مجنودة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) - وهى العاقلة ، الحساسة - وأخذ عز وجل عهداً وشهادتها - وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها فى الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثم) التى توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها فى الأجساد المتولدة من المني ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى ^(٤) : (أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنًى * ثُمَّ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١١] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجنودة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبى هريرة (طبعنا) . (٤) [٧٥ / القيامة / ٣٧ و ٣٨] .

كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقَ فَسَوَّى) وقال عز وجل^(١): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا) الآية وكذلك أخبر رسول الله ﷺ^(٢) : أنه (يجمع خلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل في الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر ، وتمجّل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذي قلنا بيمينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في أجسادها ثم يرجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهي الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق في الجنة وفريق في السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال في : (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة . هل هي متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٢ - ١٤] . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب

بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ٩٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه. فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس . والنفس ريح يثبت به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام . وهذا قول الإسفرائيني وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء . وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابهة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابهتها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هي البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم في الملائكة. فالتكلمون منهم يقولون : جسم . والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم . وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات ، هو مأخوذ من نفس الإنسان . فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم مالا يكون جسماً ولا قائماً بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير . والعقل لا تعلق له بالأجسام أصلاً . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً - لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أو غَلْظُهُ . والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فن جعل الملائكة والأرواح جسماً بالمعنى اللغوي ، فما أصاب في ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه . وما قيل إنه هذا وهناك . وما قيل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الفارقة ، من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه - هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنما تعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتجبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تنصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية !؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصرف كتدبير الملك لمملكته - من أفسد الكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته ، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم . وقد رتبهم .

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتأله ، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والاشتراك ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل . فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها في البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض . ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلب منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التي هي بعض عبده ، توصف بأنها تخرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالسكينة . والإنسان ، في نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه . فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالسكينة . وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المتقنين عن مباحث المدققين المصريين في الروح ما مثاله : إن نظرية الروحانيين التي يستدلون عليها في أوربا بالحس في هذه الأيام ، هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملاء الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطيني ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسر الإلهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص ، إلى عالم غير هذا العلم . ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتي منتشرة حولنا في كل جهة . ولكننا لانراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لذلك . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعى فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص . به يرون الأرواح راحة غادية ، وعن أيمانهم وعن شئائهم ، رؤية حقيقية . انتهى . ملخصاً .

تبينه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان . قال ابن القيم في كتاب (الروح) : وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بنى آدم . بل هو الروح الذى أخبر الله عنه في كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم . وقد ثبت فى الصحيح^(١) عن عبد الله قال : بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لاتسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه . وقال بعضهم : نسأله . فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقامت . فلما تجلّى عنه قال : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ...) الآية ، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى . وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس . وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب . وقد تسكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٧ - باب قول الله تعالى : وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . حديث رقم ١٠٦ .

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السديّ عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبي ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبيّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أظلم زمانُ نبيّ يخرج ، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبيّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب . سلوه عن الروح التي تنفخ الله تعالى في آدم . فإن قال لكم : هي من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأ نزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به . فإنه من تفسير السديّ عن أبي مالك . وفيه أشياء منكورة . وسياق هذه القصة في السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السديّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبي ﷺ على ملا من اليهود . وأنا أمشي معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه . فنزلت (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) يعني اليهود (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ..) الآية . وكذلك هي في قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نحمد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء . فأ نزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السديّ ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود . ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة ، لم يسكت

النبي ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي ، كقوله تعالى^(١) : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله^(٢) : (يُنْفِثُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال^(٣) : (أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

الثالث : جبريل كقوله تعالى^(٤) : (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال تعالى^(٥) : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ وَهُوَ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو روح القدس ، قال تعالى^(٦) : (قُلْ نَزَّلَهُ وَرُوحُ الْقُدُسِ) .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى^(٧) : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ) وإنها الروح المذكورة في قوله^(٨) : (نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى^(٩) : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤] .

(٥) [٢ / البقرة / ٩٧] . (٦) [١٦ / النحل / ١٠٢] .

(٧) [٧٨ / النبأ / ٣٨] . (٨) [٩٧ / القدر / ٤] .

(٩) [٤ / النساء / ١٧١] .

رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَأَلْقَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) أما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى (يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) وقال (٢) (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وقال (٣) : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال (٤) : (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ) وقال (٥) : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقال (٦) : (كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ) .

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله في الصحيح المقدمة ، تقتضي فيما يظهر بيادي الرأي ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إزالتها عليه ، وهي هذه الآية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) انتهى .

وقد روى ابن جرير (٧) عن قتادة : أن الروح في الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذي أراه متعيناً في الآية ، لسابقها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن ، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية في سياق ذكر القرآن وتنزيله والممة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمي تعالى الوحي بالقرآن روحاً : قال تعالى (٨) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٧] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢] . (٣) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٩٣] . (٥) [٩١ / الشمس / ٧ و ٨] . (٦) [٣ / آل عمران / ١٨٥] .

(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٨) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقال^(١) تعالى : (يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يعتقدون في السؤال عنه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٢) : (وَيَسْتَفِيتُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَبِّي) وقوله تعالى^(٣) : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحي وخصائص النبوة ، للأمية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : (وَمَا أَوْفَيْتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو في جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكتيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً . وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرى مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعاني ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)

« وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة

للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيماً لشأنه ، ووصفاً له بما هو في حيز الصلة ، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] . (٢) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٣) [٧٨ / النبأ / ١-٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ وُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة من ربك تركته غير مُشَاء الذهاب به

بل تولت حفظه .

قال الزمخشريّ : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما . وهما منّة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه في صدره ، ومنّته عليه في بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُ وُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإيحاء والتعليم الربانيّ ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانيّ ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِإِلٍ هَذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

« قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلٍ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معينًا . وفى تقاصر قوى هؤلاء جيمهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَ كَثَرُ النَّاسِ

إِلَّا كُفُورًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا » أى رددنا وكررنا وبيّنا « لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ »

أى من كل معنى ، هو كالثلث فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفرًا ، كما قال سبحانه « فَأَتَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحودًا .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلّبوا ، أخذوا يتعلمون باقتراح الآيات ، فعلّ البهوت المحجوج المتعثر فى أذبال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)

[٩١] (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتُجِيرًا)

[٩٢] (أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

قَبِيلًا)

[٩٣] (أَوْ يَكُونَ لَكَ يَنْتُ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُوهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ

إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى تشقق لنا من

أرض مكة عيونًا « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجَّرَ

الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتُجِيرًا » وإنما قدموا فى عنثهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يردّون بلاد

الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير^(١) فيما رواه ، إنهم قالوا للنبي ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً . ولا أقل مآلاً . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لناربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا في الاقتراح فقالوا : «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَمًا» أى كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته «أَوْ يَكُونَنَّ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ» أى ذهب : «أَوْ تَرْفُقَ فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ» أى وحده «حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه» أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ» أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أى كسائر الرسل . وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يمكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها .

تنبيه :

لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه ، وبحكمته وجلاله . وبيان ذلك - كما في كتاب (لسان الصدق) - أن ما قترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابذة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو جلت عظمتها . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء . مع أن مثله لا تثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من الفخيل والأغاب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا» فإن إنزال السماء

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بخذافيه . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ما هو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم : (أَوْ تَأْتِي بِلَآلِهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا) فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدوا المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء ، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ) فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم : (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ) فيه - على ما ذكر في الرواية - من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان ، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولاً فآمنوا به . والصعود في السماء لا مزية فيه ، لأنهم قالوا : (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقْيِكَ) فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى يختص بالأنبياء ، والكفار عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزاً . وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنّناً وجهلاً . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم : وإيم الله ! لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . وقد قال تعالى ^(١) : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه ، هو ما أجاب به ﷺ من قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول . على أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي . وذلك ما يتحدثكم بالإتيان

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

بسورة مثله في الهداية والإصلاح . كما أمرني ربي . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، خلوه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ» أى الذين حكى عنهم «أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» أى إلا تعجبهم من بعثه إنسان رسولاً . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى (١) : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) والآيات في ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقراً للملائكة ، لكانت رسلهم منهم ، جرياً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)

«قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ» أى على أقدامهم كما يمشى الإنسان «مُطْمَئِنِّينَ» أى ساكنين في الأرض قارنين «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المرشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ
ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

في الآية إشارة إلى حاجة من يستقر في الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة الباري
تعالى وعنايته بذلك ، فمن على الخلق بالرسول وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة ،
وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا)

« قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أي على أني بلغت ما أرسلت به إليكم ،
وإنكم كذبتهم وعاندتم . وقرر الرازي أن المعنى بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه
الصلوة والسلام بإعجاز القرآن . أي كفى بما أكرمني به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً
على صدقي . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ،
يجب أن يكون الرسول ملصكا ، تحمق فاسد . اهـ .

وناقشه أبو السعود بأن ما قرره لا يساعده قوله تعالى (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وما بعده من
التعميل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة ، وإبانة للمباينة . وقوله تعالى :
« إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي عالماً بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسليية
لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

(١) [٢ / البقرة / ١٥١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ » أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء الماندين « فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ » أى أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة فى (لَهُمْ) حملاً على معنى (مَنْ) وأوثر فى ما قبله الأفراد ، حملاً على اللفظ . وسر الاختلاف فى المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يسحبون عليها كقوله ^(١) (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) .

وقال القاشانى : أى ناكسى الرؤوس لاجتذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التى كانوا عليها فى الدنيا . كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تَبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أى على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أى كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامون عن استماعه - فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ^(٢) (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ) - كذا فى (الكشاف) « مَّاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ » أى سكن لحيها ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم « زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » أى توقدا . بأن نبذل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٨] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٢] .

قال الزمخشري : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفتتها . ثم يعيدها . لا زالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا
أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

« ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أى لَمُحْيُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحمنا وبقينا عظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)

« أَوَلَمْ يَرَوْا » أى يعلموا « أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى يوم القيامة . يُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى وَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم . كما قال (١) : (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ) ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هى أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا »

لَا رَبَّ فِيهِ « أَى جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انتقضائها. كما قال تعالى ^(١) : (وَمَا نُؤَخِّرُهُوَ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ) ، « فَأَبَى الظَّالِمُونَ » أى بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل : « إِلَّا كُفُّورًا » أى جحوداً وتعادياً فى باطلهم وضلالهم .
لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة - جملة وجعل الخ - معطوفة على جملة (أَوَلَمْ يَرَوْا) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهى مؤولة بخبرية - كما فى (شرح الكشاف) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة (وَجَعَلَ لَهُمْ) أى لإعادتهم (أَجَلاً) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلاً ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثاً . فلا بد أن يجزى بما عمله فى هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظاً ومعنى و (لَا رَبَّ فِيهِ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغى إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : (يَخْلُقَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَّائِنَ رَحْمَةِ رَبِّىَ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا)

« قُلْ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَّائِنَ رَحْمَةِ رَبِّىَ » أى رزقه وسائر نعمه على خلقه : « إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » أى لبخلتم بها مخافة نقادها بالإنفاق . مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً . لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا » أى بخيلاً .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التي لا يبلغها الوهم ، كما قاله الزمخشري .

الثاني : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيقي سبحانه ؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثاني لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل ، إما دنيويٍّ كهوض مالى ، أو معنويٍّ كثناء جميل ، أو خدمة واستمتاع ، كما في النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالى كان مبادلة لا مبادلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَدْنَا فِي زَمَانَا عَنْ حَدِيثِ الْمَكَارِمِ
مَنْ كَفَى النَّاسَ شَرَّهُ فَهُوَ فِي جُودٍ حَاتِمٍ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . كما قال تعالى ^(١) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز .
الثالث : ذكر هذه الآية إثر ما قبلها ، لتقرير انفراد تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض ، كي تنجلي لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملائى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقية ما يدعوههم إليه .

وذكر هذ المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان ، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلَّى بينه وبين ما تقتاضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعيم فضله ، مما يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [٧٠ / المعارج / ١٩ - ٢٢] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضفتم بها . مما يدل على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُونَ لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى (١) (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا) أى لو أن لهم نصيباً في ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء في الصحيحين (٢) : (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَفِيضُهَا تَفْقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أَرَأَيْتُمْ مَا أَنتَقُوا مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ مُّبَيَّنَّاتٍ ، فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ مُّبَيَّنَّاتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها في سورة الأعراف في قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ..) الآية ، « فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى عنها : فإنهم يعلمونها ، مما لديهم من التوراة . فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله (مَسْحُورًا) بمعنى سحرته فغولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب المصائب ثباتاً . وعلى الأول هو كقوله (٣) (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم مَّجْنُونٌ) .

(١) [٤ / النساء / ٥٣] . (٢) أخرجه البخاري في ٩٧ - كتاب التوحيد ،

١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ (طبعتمنا) .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ » أى بَدَنَاتٍ مكشوفات لا سحر ولا تحيّل . ولكنك معاند مكابر . ونحوه ^(١) (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بيّنة . أو المراد الحجج ، يجعلها كأنها بصائر المقول . وتسكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)
[١٠٤] (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى يفرعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الحرب فرقاً منه . أو ينفقهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و (الأرض) أرض مصر . أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكنها . وهى فلسطين ، وقوله تعالى « فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا » أى غرق به مكره . لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين ، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق « وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد إغراقه « لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُنُوا الْأَرْضَ » وهى أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها .

(١) [٢٧ / النمل / ١٤] .

قال ابن كثير : في هذا بشارة للنبي ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى ^(١) (وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُوا نَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم ونمازهم وكفوزهم كما قال ^(٢) (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ) وقوله تعالى (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) «أى قيام الساعة» جئنا بكم لفيفا» أى جمعا مختلطين أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبين أشماله على ما يلائم الفطر وبطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)
 [١٠٦] (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا)
 «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى ^(٣)
 (لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُو يَعْلَمُهُ وَأَلْمَلَامِيكُهُ يَشْهَدُونَ)
 «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» أى متلبساً بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى ^(٤)
 (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ «أى نزلناه مفزقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٦] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٦] . (٤) [٤٩ / فصلت / ٤٢] .

بمعنى « لَتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ » أى على مهل وتؤدة وثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » أى من لدننا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ

إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)

[١٠٨] (وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)

[١٠٩] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

« قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزخشرى : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكثر بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىء العربى الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ، ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) .

فإن قلت (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلاً لقوله (ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا) ، وأن يكون تعليلاً (قل) على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطبيب نفسه . كانه قيل : تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يليق به الأرض من وجهه، الذقن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خراً على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في (خراً لذقنه ولوجهه) قال : نخر صريعاً لليدين وللغم ؟ قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرور للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخضع . فإن كل ما حمد فيه من النعمت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذم منها من مَقْتُهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عَدَّ الإمام الغزالي في (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله ﷺ ^(١) (اتلوا القرآن وابكوا . فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبجان ، فلا تمجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه إحضار الحزن ، أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجه فيحزن لا محالة ويبكي . فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطي في (الإكليل) أن الشافعي استدل بقوله تعالى (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا) الآية ، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة . وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٦ - باب في حسن الصوت بالقرآن .

حديث ١٣٣٧ (طبعتنا) عن سعد بن أبي وقاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ،

وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)

[١١١] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا)

«قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» ردُّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن ، وإذن

بتسميته بذلك . أى سموه بهذا الاسم أو بهذا . و (أو) للتخيير . «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَىٰ» أى أى هذين الاسمين سميت وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله (فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه . إذ حسن جميع أسمائه يستدعى

حسن دينك الاسمين . فأقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية

كناية^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) « وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ » أى بقراءة

صلاتك . بتقدير مضاف ، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها . كما تسمى

الصلاة ركعة « وَلَا تُخَافِتُ بِهَا » أى تُسرّ وتُخفى « وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » أى بين

الجهر والخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوسطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ،

ويؤمه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان^(٢) أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ،

١٧ سورة الإسراء ، ١٤ - باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط في صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته . ثم بين سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال ، بقوله تعالى « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لَمْ يَكُنْ عِلَّةً لموجود من جنسه ، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكناً بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس الموجود حقاً ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَشْرِيكَ فِي الْمُلْكِ » أى من يساويه في قوة القهر والملسكة من الشريك في الملك . وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة . فلزم تركبهما ، فسكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما إلهاً . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلاً معاً . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ، رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشاني .

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ » أى ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعترازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا » أى عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً .

تم ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت في ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ في سدة جامع السفانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

تم الجزء العاشر ، ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيه تفسير :

(١٨ - سورة الكهف ، و ١٩ - سورة مريم ، و ٢٠ - سورة طه ،

و ٢١ - سورة الأنبياء) .

كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسكبي

مَحَاسِنُ التَّائِقَاتِ

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الحادي عشر

وفيه تفسير :

١٨ - سورة الكهف ، و ١٩ - سورة مريم ،
و ٢٠ - سورة طه ، و ٢١ - سورة الأنبياء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد بن عبد الله بن أبي

عيسى الببائي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتمتعده عليه
خناصرهما ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيى السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء الدنى
الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد راجح البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالمعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونذر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨ - سُورَةُ الْكَافِرِ

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايى : سميت بها لاشتغالها على قصة أصحاب الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلى عن الأعداء ، والإغناء الكلى عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية ، وقيل ^(١) إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله ^(٢) (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية ^(٣) و (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) إلى آخر السورة . واختار الدانى أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى فى فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

(١) [١٨ / الكهف / ٨-١] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧-١١٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُوِ عِوَجًا)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » قدّمنا أن كثيرا ما تفتح السور وتختتم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)^(١) وتعلما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى . وفي إثبات إزال التنزيل من بين سائر نعمته العلية ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه . فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح العاش والمعاد . ولا شيء في معناه يماثله . وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزل والمنزل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم في سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام . وتعريف الكتاب للعهد . أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال ، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيقي باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخير عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُوِ عِوَجًا » أي شيئاً من العوج ، باختلال في نظمه وتناف في معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيجاً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
[٣] (مَّا كَثِيرٍ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّمًا » أى قَيِّمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بمد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قَيِّمًا على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهيًا فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبى عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جعله) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانى أن الضمير فى (لَّهُوَ) وما بعده لقوله (عَبْدِهِ) قال : أى لم يجعل لعبده زينةً وميلاً . وجعله قَيِّمًا ، يعنى مستقيماً ، كما أَمَرَ بقوله ^(١) (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) أو قَيِّمًا بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على السكال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما فرغ من تقويم نفسه وتركيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأَمَرَ بتقويمها وتركيتها . ولهذا المعنى سمي إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القِيَمَةُ أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .
والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله (مِّمَّنْ لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هوله . ولذلك عظمه بالتنكير . متملق بـ (أُنْزِلَ) أو بعامل (قَيِّمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

الْمُؤْمِنِينَ « أَيْ بِهِ . وقال القاشاني: أَيْ الموحدين، لسكونهم في مقابلة الشركين، الذين قالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . وقوله تعالى « الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » أَيْ من الخيرات والفضائل « أَنْ لَهُمْ » أَيْ بَأْن لَهُمْ ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة « أَجْرًا حَسَنًا » وهو الجنة « مُكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب في قولهم (الملائكة بنات الله) والنصارى في (دعواهم المسيح ابن الله) وخصمهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً بهم، استعظاماً لكفرهم . وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ) للإيدان بكفاية ما في حيز الصلة ، في الكفر على أقبح الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ،
إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » أَيْ ما لهم بالولد، أو باتخاذ، أو بالقول، من علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء . لاعن علم يقين ، ويقين . ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أَيْ ما أكبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » وذلك لأن الولد مستحيل لامعنى له . إذ العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجب أحدى الذات ، لا يماثله الوجود الممكن . والولد هو المائل لوالده في النوع ، المكافئ له في القوة . وجملة (تخرج من أفواههم) صفة لـ (كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم . قال الشهاب : لأن المعنى : كبر خروجها . أَيْ عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إِنْ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا « أَى قَوْلًا كَذِبًا لَا يَكَادُ يَدْخُلُ تَحْتَ إِمْكَانِ الصَّدَقِ أَصْلًا . وَذَلِكَ لِنُطَابِقِ الدَّلِيلَ الْقَطْعِيَّ ، وَالْوَجْدَانَ الذَّوْقِيَّ عَلَى إِحَالَتِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَمَّا لَكَ بِخَيْعٍ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)
 « فَلَمَّا لَكَ بِخَيْعٍ » أى مهلك « نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ »
 يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه . أو متأسفًا عليهم . و(الأسف)
 فرط الحزن والغضب . وفى (العناية) : لعل للترجى . وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه .
 وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك
 على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو
 أسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقتة أحبته . فهم يقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً
 عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك - كما قال القاشانى - أن الشفقة على خلق الله والرحمة
 عليهم من لوازم محبة الله ونتائجها . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله
 لقوله ^(١) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وكلما كانت محبته للحق أقوى ، كانت شففته ورحمته على خلقه
 أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه .
 بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقى . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك
 نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)
 « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ
 أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضى ،
 وأقدر على مخالفتها لموافقتى .

(١) [٥ / المائة / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

«وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» أى تراباً مستويًا لآيات فيه . بعد ما كان يبهج الفظار ، لا شئ فيه يختلف ، رُبِّي ووهاداً . أى نقيها وما عليها ولا نبألى . وفى الآية تسليية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأننا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نقيها ، ولا حيف ولا نقص . أو لا تحزن فإننا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا)

«أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا» أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و (مِنْ ءَايَاتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرى بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) - أى إنكار حسابهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى - فيه بُعد . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

«إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضممار لتحقيقِ حالهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُوا رَبَّنَا » أى من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى من خزانَتِكَ وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أى أغمناهم نومة ثقيلة لا ينههم صفير الخبير ، ولا دعوة الداعي الخير ، فى الكهف سنين ذوات عدد . أى كثيرة أو معدودة . قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أغمناهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إما من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّهَ ، لاستغراقه فى نومه حتى لا ينتبه بمنبه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ » أى أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » أى لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أى الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أى إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فتمَّ لهم رشدٌ فى شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدَّ نَاهُمْ هُدًى)
 « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و (الحق)
 الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيماناً يقينياً علمياً على
 طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك « وَزِدَّ نَاهُمْ هُدًى » أى بترجيح جانب الله على
 جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية - وهم الشباب - أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من
 الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى
 ورسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل .
 وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد يروى عن هؤلاء الفتية
 روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ،
 وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحوارين . فاستجاب لذلك الفتية المنوء
 بهم . وخلعوا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يقتلهم عن دينهم
 أو يقتلهم . فاستخفوا عنه في الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن
 الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً
 أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ، فبنوهم عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكاً
 على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟
 فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى
 الْمَدِينَةِ) وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله . فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج
 رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر
 ما رأى . ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا ؟
 هذا من ورق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريههم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسند كـر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم . وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعمًا متوارثًا ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسّرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا » أى بين يديه غير مباينين به . و (إذ) ظرف لـ (ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشد المعروف . أى استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القاق والخوف ينزعج به القلب من محله ، كما قال تعالى ^(١) : (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمره ،

بالحيوان المربوط في محلّ . وعدّى (ربط) بـ (على) وهو متعدّ بنفسه ، لتزيله منزلة اللازم « فَقَالُوا رَبَّنَا » الذى نعبده « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَنْ نَدْعُوْا » أى نعبد « مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط في الظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ، لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

« هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفي الإشارة تحقير لهم « لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ » أى على عبادتهم أو إلهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانى : دليل على فساد التقليد ، وتبكيك بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال ^(١) : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشيء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له في الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون في حق الله ، لافتراءهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضاً بقولهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

« وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ » أى وإذا اعتزلتم القوم ،

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله ، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذي لا يطمعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من الكون فيه ، فوات الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ماعدوتهم بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ » أى ما يغنى عن الطعام والشراب ، بالإمدادات المملوكة والتأييدات القدسية « وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مَرَقًّا » أى ما تنتفعون به . قال المهايمى : يرفق بنفوسكم فيعطيه من لذات عبادته ما ينسبها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالصة عن الأذيات كلها . وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبية :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأمى بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطهد الرء في دينه وأريد على الشرك . ومن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمام الغزالي حيث قال في (إحيائه) : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولا ريب في مشروعيتها فراراً من الفتن .

فقول السيوطى في (الإكمال) : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسب ، فافهم ولا تغل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرَّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)
 « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » أى صعدت عند طلوعها « تَزَاوَرُ » أى تميل « عَنْ
 كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ الْيَمِينِ » أى يمين الكهف « وَإِذَا غَرَبَتْ » أى هبطت للغروب
 « تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعذل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ
 فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .
 وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال . فإذا طلعت الشمس
 كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله . فيقع شعاعها على جانبيه . يحلل عفونته
 ويمدل هواءه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم . قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع .
 أى قطع الاتصال بهم لثلاث تغبر أبدانهم . وقولُ الفارسيّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها
 تعطيمهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد - مردود ، بأنه لم يسمع له ثلاثي .
 وفى (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعذل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من
 (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الناز الذى جعلهم فيه أحياء ، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم
 فيه ، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى
 إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه
 « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا » أى ناصرًا إلى أمره فيحفظه من الضلال « مُرْشِدًا » أى يهديه
 إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَحْسَبُهُمْ آيَظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ،
 وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
 وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظًا لا تفتاح أعينهم ، وهم رقاد مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

يَنَامُ بِأَحْدَى مَقْلَتَيْهِ وَيَتَّقَى بِأُخْرَى الرِّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمٌ

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظُ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود ، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرح به فى (المفصل) و (التسهيل) « وَنَقَلِيَهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » أى لثلاث تنلف الأرض أجسادهم « وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِأَلَوْصِيدٍ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، قال ابن كثير : وهذا فائدة صعبة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالتيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلي ، ليهاوهم مع هيبة ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَيَؤْأْطَلَعَنَّ عَلَيْهِمُ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتُمْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُغْبًا » أى خوفاً يملأ صدرك ، لا ألبسوا من الهيبة . فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك - كما قال ابن كثير - لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ،
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ » أى وكما أنعمناهم تلك النعمة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم
وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيئاتهم وأحوالهم شيئاً ، أذكراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً .
قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين . وقوله تعالى « لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ » أى
ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله
تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرّموا به . أفاده الزمخشري .
وبه يتبين أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لحظ أن الفرض من فعله
تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه
أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »
قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار .
ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايى : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ،
ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ، ظن أنهم لبثوا بعض يوم .
فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالولى يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس
من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشري : جواب مبنى على غالب الظن . وفيه
دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون
خطأً .

« قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بعبدة لبثهم .

كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ عَلِمُوا بِالْآدِلَةِ ، أَوْ بِالْهَامِ مِنَ اللَّهِ ، أَنَّ الْمُدَّةَ مَتَّاعَةٌ ، وَأَنَّ مَقْدَارَهَا مَبْهُمٌ .
فَأَحَالُوا تَعْيِينَهَا عَلَى رَبِّهِمْ . « فَأُبْغِثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ » أَيْ الْمَأْخُوضَةُ لِلتَّرْوِدِ .
و (الْوَرِقُ) الْفِضَّةُ « إِلَى الْمَدِينَةِ » أَيْ الَّتِي فَرَّطَ عَنْهَا « فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا »
أَيْ أَطْيَبَ . « فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أَيْ فِي الْمُبَايَعَةِ وَاخْتِيَارِ الطَّعَامِ . أَوْفَى .
أَمْرُهُ بِالْتَّخَفِي ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِحَالِكُمْ وَدِينِكُمْ « وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا

إِذَا أَبَدَا)

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » يَطْلَعُوا عَلَى مَكَانِكُمْ « يَرْجُمُوكُمْ » أَيْ يَقْتُلُوكُمْ بِالْحِجَارَةِ .
« أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » أَيْ يَدْخُلُوكُمْ فِيهَا بِالْإِكْرَاهِ الْعَنِيفِ « وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا »
أَيْ إِذَا صَرَّحُوا إِلَى مِلَّتِهِمْ . قَالَ الْقَاسِمَانِي : ظَهَرُوا الْعَوَامَ ، وَاسْتِيلَاءُ الْمَقْلَدَةِ وَالْحَشْوَةِ الْمُحْجُوبِينَ ،
وَأَهْلَ الْبَاطِلِ الْمَطْبُوعِينَ ، وَرَجَمَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ ، وَدَعَوْتَهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ - ظَاهِرٌ . كَمَا كَانَ
فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ .

لطائف :

الأولى - قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتُ : كَيْفَ وَصَلُوا قَوْلَهُمْ (فَأُبْغِثُوا) بِتَذَاكَرِ حَدِيثِ
الْمُدَّةِ ؟ قُلْتُ : كَأَنَّهُمْ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ . لَا طَرِيقَ لَكُمْ فِي عِلْمِهِ . تَخَذُوا فِي شَيْءٍ آخَرَ
مِمَّا بِهِمْ كَم . انْتَهَى .

ورَأَى الْمُهَاجِرِيُّ أَنَّ قَوْلَهُمْ (فَأُبْغِثُوا) مِنْ تَتَمُّةِ حَدِيثِ الْمُدَّةِ . قَصَدَ بِهِ تَفْحِصَهَا . كَأَنَّهُمْ
لَمَّا أَحَالُوا تَعْيِينَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) قَالُوا هَذِهِ الْإِحَالَةُ لَا تَنْفَعُ مِنْ
طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْمُدَّةِ . وَلَوْ فِي ضَمَنِ أَمْرٍ آخَرَ ، فَاطْلُبُوهُ فِي ضَمَنِ حَاجَةٍ لَنَا . وَهِيَ أَنْ تَبْغِثُوا أَحَدَكُمْ

بورقكم هذه لثلاث نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به،
فيفضى إلى الهلاك .

الثانية - قال في (الإكليل) : قوله تعالى (فَاَبْتُغُوا) الآية ، أصل في الوكالة والنية.
قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك .

قال السكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام
بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة - دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنْظُرْ آيُهُمْ أَزْكَى طَعَامًا) على مشروعية استجادة
الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط
الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طباً الاعتناء بجودته وتزكياته ،
كما فصل في قوانين الصحة .

الرابعة - قال الرازي : (الرجم) بمعنى القتل ، كثير في التزويل كقوله^(١) (وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمَنَّكَ) وقوله^(٢) (أَنْ تَرَجُمُونِ) وأصله الرمي ، أى بالرجم وهي الحجارة . ولا يبعد
إرادة الحقيقة في مواده كلها ، زيادة في التهويل . فإن الرجم أخص أنواع القتل . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَأَرْيَبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا
رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)
« وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أنعمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطلعنا
عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقتهم المتقدمة العهد « لِيَعْلَمُوا »
(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ « أى ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ، أن وعد الله بالبعث حق . لأن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث » وَأَنَّ السَّاعَةَ « أى الموعود فيها بالبعث » لَارَيْبَ فِيهَا « إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة . ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجدادهم ، بقوله سبحانه « إِذْ يَتَفَرَّغُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا » أى على باب كهفهم بنيانا عظيما . كالحائقات والمشهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم و (إِذْ) على ما يظهر لى ، ظرف لـ (اذكر) مقدرا . والجملة مستأنفة لبيان ختم نبئهم بما جرى بعد مماتهم ، إثر ما أوجز من نبئهم بعد بعثهم والإعثار عليهم . وجعله ظرفا لـ (أَغْتَرْنَا) أو لغيره مما ذكرنا - ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى وقوله تعالى (فَقَالُوا) تفسير للمتنازع فيه . وقوله تعالى ، « رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جملة معترضة . إما من الله ، ردّا على الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده ﷺ من أهل الكتاب ، أو هى من كلام المتنازعين فى عهدهم . كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا فى أحوالهم ومدة لبثهم . فلما لم يهتدوا أحالوا حقيقة نبئهم إليه تعالى « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ » أى من المتنازعين ، وهم أرباب الغلبة وتقوذا الكلمة « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » أى نصلى فيه ، تبركاهم وبمكأنهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكى فى القائلين ذلك قولان (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر . لأن النبى ﷺ قال ^(١) : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعنا) .

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين ، مع إirاده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني . والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى (١) (وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة ، في كتابه (الصارم المنكي) بعد إirاده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام في زيارة القبور . وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرّج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله ربّه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد تقع الميت والدعاء والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غلط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيماً . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرر ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، وزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم - كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظم وينغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه في الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فمعظم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقدّم على ما جاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة . والثاني ما يكرهه وينغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلّيّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبي ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفي المسند^(١) بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله . ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ^(٢) : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال^(٣) : (إن كدتم آتفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣١ - باب رجم الجبلي في الزنى إذا أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة في آخر حجة حجها .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس فى تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوٌ يخالف لدين المسلمين ، يخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تمة مهمة فانظروا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا لَمْ يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون فى قصتهم على عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظناً خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا لَمْ يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ » أى لا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، إلا جداراً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالى ، وتقويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال ^(١) (وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . قيل : الماهرة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة الحاجة مطلقاً . والماهرة الحاجة فيما فيه مزية أى تردد ، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لا مزية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول - ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للشكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لا عدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدة . وأقول : لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شيء . وجواب بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية - بعيد غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب فى القول . ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتمين للوصفية . لجواز كونها حالاً من الشكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكرناه لو لم يتبع قولهم بقوله تعالى (قُلْ رَبِّیْٓ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، ردّ العلم إليه تعالى . وإشارة إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بين وبرهان نير . وإنه إذا أوقفنا على الفیصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إمام نبي ، أو من كان في مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلقى عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسد من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبي ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحاق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي أنه قال : إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لي الآن .

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة ، وقفت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما استراه في آخر الآيات فيهم . فسنح لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم ومن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم التكسير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال في (قاعدة له في التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام - مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغي في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته . إذ لو كان باطلا لرده كما ردها . ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا (قُلْ رَّبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَهْرٍ) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لثلايق النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب في الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل في هذ المقام .

الثانى - قال الرازى : ذكروا في فائدة الواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وجوهاً :

الأول - ما ذكره أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها - أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد . وإذا كان كذلك ، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستثناف ، فقالوا : وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون . قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات ، وهى قوله ^(١) : (وَالْقَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله ^(٢) : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله ^(٣) : (تَبَيَّنَتِ الْآبْكَارَ) لأن قوله : (وَأَبْكَارًا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (وَوَالثَّمَانِيَةَ) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القفال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى^(١): (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف): الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واو الثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واو تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو الثامن من قوله (التَّائِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لترابط بينها وبين الأولى التي هي (الْأَمْرُونَ بِالْعَمْرِوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله^(٢) (يَأْمُرُونَ بِالْعَمْرِوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وكقوله^(٣) (وَأْمُرْ بِالْعَمْرِوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وربما عد بعضهم من ذلك ، الواو في قوله: (تَيَبَّتْ وَأَبْكَارًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (تَيَبَّتْ أَبْكَارًا) لم يستد الكلام . فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى في (الإكليل عن مجاهد في قوله تعالى: (فَلَا تَعَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ)) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدّي : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة . وقوله تعالى :

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٧١] .

(٣) [٣١ / لقمان / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ » في هذه الآية وجوه من المعانى . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول ، فتكون قائلًا بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أى إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمتم عليه من فعل ، إنى فاعل ذلك غداً إلا قائلًا معه إن شاء الله تبرؤا من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلاً بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قاطعاً بفعله وبأثاله . لأنه ^(١) (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أى أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هذه الوجوه كلها فد (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ في كتاب (الحيوان) : إنما أُلْزِمَ جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليبقى عادة الممتثل ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى ، وعلى أن يكون عبده ذا كراً لله . لأنه عبد مدبر ، ومقلب ميسر ، ومصرف مستخر . وبقي وجه آخر . وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لسكل ما يعزم عليه ويقول . كقوله تعالى ^(٢)

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر يبادئ الرأى كما قاله في (الاتصاف) وفي هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان هم بأمر ما في نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر في غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أولياً. أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله، إذ شاء الله أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثر ما يومئ إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتاءهم، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسي، أى نسي ما وصى به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر في (الاتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى - قصر للآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها، وعدم تعمن في مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفي بقية المعانى الأخر التى اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقة الآية (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا» أى خيراً ومنفعة. والإشارة، للنبأ المتحاور فيه.

تنبيهات :

الأول - روى أنه صلوات الله عليه سئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين، فقال : أجيئكم عنها غداً ولم يستثن. فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية. وقد زيف هذه الرواية القاضى - كما حكاه الرازى - من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، والله أعلم.

الثانى - يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي » الآية، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبئى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشاد فيه، حتى يتكاف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها .

الثالث - اعترضت هذه الآداب أعني من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تميم نبهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع - روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثنى ، وذلك (كما قال القرطبي) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حيلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكى عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . ف قيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرک الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثنى إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المدينيّ وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجمله فالرواية عنه رضى الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن ، فله أن يستثنى عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه . والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكّر ، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود^(١) وغيره (والله ! لأغزون قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث^(٢) (ولا يعضد شجرها ولا يمتلي خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو في الصحيح . ومنها قوله^(٣) ﷺ في صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)
 [٢٦] (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)
 « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا »
 حكاية لقول أهل الكتاب في عهده ﷺ ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وَقَالُوا وَلَبِثُوا) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَازْدَادُوا) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

- (١) أخرجه أبو داود في : ٢١ - كتاب الإيمان والنذور ، ١٧ - باب الاستثناء في اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٧ - باب الإذخر والحشيش في القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعتنا) . (٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة . ولا يخفى ركازة ما ذكر ، فإن الضمير للفتية . ووجه العدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنسوب . ودعوى الأخرية تدقيق نحوي لا تنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأبأها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، يسانا للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين - دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : (وَأَزْدَادُوا تِسْعًا) لنقف على تحديد ماعنوه ، ومن أين يثبت ذلك ؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جليلة بنفسها في دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأي منها قالوا : فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) أي بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُ وَغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ، أي أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ » أي ما أبصره لكل موجود ! واسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشري : جاء بمبادل على التعجب من إدراكه السموعات والبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك اللفظ الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ) المنتخب على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعني

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية . وقد يقال بالوقف .
ينبغي التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُمْ » أى أهل السموات والأرض في خلقه « مَن دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ »
أى يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ » أى قضائه « أَحَدًا » أى من مكوناته العلوية
والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتديرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .
قال المهايى : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من
قبيل المسموع ، فهو أسمع . أو من قبيل البصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جداً . وقوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَنْتَ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

« وَأَنْتَ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ » أى بتبليغ ما فيه . ومنه ما أوحى إليك
من نبا الفتىة ، فإنه الحق الذى لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشانى : يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول
المشتمل على كل العلوم الذى منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى
« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أى لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

قال القاشانى : (كلماته) التى هى أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها .
فأشار إلى أن النسخ إنما هو فى الفروع لا الأصول .

والأظهر فى معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله ^(١) (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)
وأما هو سبحانه فهو فعال لما يريد « وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أى ملجأً .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وذهب ابن جرير^(١) في تفسير هذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خلفه وترك اتباعه يوم القيامة ، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) يقول لا مغير لما أوعده بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناها إليك . وقوله (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) يقول وإن أنت لم تقل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتبعه وتأنم به ، فنالك وعيد الله الذي أوعده فيه الخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله مؤثلاً تثل إليه ، ومعدلاً تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطه بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين ، وعيد سنوي يقام تذكراً لهم ، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان . وقد رأيت في كتاب (الكنز الثمين في أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) تقتطف منها ما يأتي ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لا يعرف أصلاً ، كما قرأته في بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة : هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد . وأسمائهم : مكسيميانوس وماخلوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين ، الملك داكيوس .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد أجّلهم المسيحيون كشهداء حقيقيين . فيقام لهم في الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهادهم ثمة ، في اليوم الرابع من شهر آب ، المختص بتذكار الأنجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدونة في التواريخ الكنائسية الدقيقة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان في زمن الملك داكْيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال : فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتوون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ، ليموتوا برضاهم ، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبد بها المسيحيون في ذلك الاضطهاد الوحشي .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك في ٤ آب سنة ٤٤٧ في زمن ولاية الملك (ثاوضوسيوش الصغير) .

ثم قال : ودرج على أفواه الشعوب ؛ أن هؤلاء الفتية ، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكْيوس الملك ، لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعياً ولا قسرياً . بل رقدوا رقاد الغوم مدة ، نحو مائتي سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعي سنة (٤٤٧) .

ثم قال : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل ، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلى ، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياء أو أمواتاً ، بواسطة خارقة ما ،

وتقلت من مدفهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيدوا حقية إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرقت بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً ، اعتنى الروم واللاتيون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حفاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة . التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ كاذب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته ، واقتلعه من جذوره ، القرآن الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى^(١) (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ،
والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره
وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذّابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك
صيانة للجناب النبوى والمقام المحمديّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب
أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم .
وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ
مَنْ أَغْفَلَنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ » أى احبسها وثبتها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »
أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا »
أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرّة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك
لثلاث يؤدبك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » أى متروكاً متهاوناً به
مضيئاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهى عن إطاعتهم ،
بالموصول ، للإيدان بعملية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير ^(١) : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبي ﷺ جالساً مع خباب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد^(١) : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم^(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلى منه تعالى « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » إمّا من تمام القول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن من كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبياعانهم ، وجوداً وعدماً - ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦٥ و ٤٦٦ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بملها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليعمل . أفاده أبو السعود . وفي (العناية) : الأمر والتخير ليس على حقيقة . فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للتخلان والتخلى ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله ^(١) (أَسِئِي بِنَا أو أَحْسِنِي لَا مُلُومَةً) وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبأى به حتى نطردهم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر . وقوله تعالى : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا » وعيد شديد ، وتأكيدهم للتهديد وتعليل لما يفيد من الزجر عن الكفر . أو لما يفهم من ظاهر التخير ، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه . فإن إعداد جزائه من دواعى الإملاء والإمهال . وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخير التهديدى . أى قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم (الظالمين) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ووضع للشئ فى غير موضعه . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها . وهى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار فى الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط لمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردق ، ذو سرادق « وَإِنْ يَسْتَفِثُوا » أى من الظلمة لاحتراق أفئدتهم « يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ » أى كالحديد المذاب وكسكر الزيت ، وقال القاشانى : من جنس الفساق والفلسين ، أى المياه المتعفنة التى تسيل من أبدان أهل النار ، مسودة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة . ويؤيده قوله تعالى ^(٢) (وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ) « يَشْوَى أَلْوَجُوهَ » أى إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثير عزة . وعجزه : لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ (٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَاءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد . وذكره لمشاكلة قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله ^(١) .

إِنِّى أَرِقتُ فَبْتُ اللَّيْلَ مُرْتَفَقًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا صَابٌ مُذْبُوحٌ
والصاب : شجر مرمٍ يحرق ماؤه العين . ومذبوح : مشقوق . وفى كتاب (تنزيل الآيات) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً ، أى متكئاً على مرفق يده . وهو هيئة التحنزين المتحسرين . فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم ، بل هو على حقيقته . كما يكون للتعنُّم يكون للتحزن . وتعقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخد للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يمرجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنِّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ، نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

« إِنِّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلى . وهو فى اللسان فى مادة (ص و ب) .

. وروايته هناك (مشتجراً) بدل (مرتفقاً) .

وفى الديوان ١٠٤/١ (نام الخلى) عوضاً عن (إِنِّى أَرِقتُ) .

ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ « وهو ما رُق من الديباج » وَإِسْتَبْرَقٍ « وهو ما كُثِف منه » مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ « أى السرر على هيئة المتنعمين » نِعْمَ الثَّوَابُ « أى الجنات المذكورة » وَحَسَنَتْ مَرْثَقًا « أى متسكاً . وقيل المرتق المنزل والمستقر ، لآية (١) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » وآية (٢) حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا » أى للمؤمن والكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعنب « زَرْعًا » أى فحصل منهما الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كُلُّهُمَا وَكَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كُلُّهُمَا وَكَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كُلُّهُمَا) « كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كُلُّهُمَا » أى ثمرها كلمة « وَلَمْ تَظْلِم » أى لم تنقص « مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا » أى يسقى الأشجار والزرع ، ويزيد فى بهجة مرآها ، تكميلاً لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

« وَكَانَ لَهُ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثُمَّ رَمَاهُ) إِذَا كَثُرَ « فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أَى رَاجِعَهُ الْكَلَامَ، تَعْيِيرًا لَهُ بِالْفَقْرِ ، وَغَرًّا عَلَيْهِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أَى أَنْصَارًا وَحُشْبًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » أَى بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيَفَاخِرُ بِهَا . كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَمَحَاوِرَتُهُ لَهُ . وَإِفْرَادُ الْجَنَّةِ هُنَا مَعَ أَنْ لَهُ جَنَّتَيْنِ كَمَا مَرَّ ، إِمَّا لِعَدَمِ تَعْلُقِ الْفَرْضِ بِتَعَدُّدِهَا ، وَإِمَّا لِاتِّصَالِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى ، وَإِمَّا لِأَنَّ الدَّخُولَ يَكُونُ فِي وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٍ . وَقِيلَ : الْإِضَافَةُ تَأْتِي لِمَعْنَى اللَّامِ . فَالْمُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ وَالِاسْتِغْرَاقُ . أَى كُلُّ مَا هُوَ جَنَّةٌ لَهُ يَتَمَتَّعُ بِهَا . فَيُفِيدُ مَا أَفَادَتِهِ التَّثْنِيَّةُ مَعَ زِيَادَةٍ . وَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا جَنَّةَ لَهُ غَيْرَ هَذِهِ « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أَى بِمَا يُوْجِبُ سَلْبَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِجْبُ . وَفِي (الْعِنَايَةِ) ظَلُمُهُ لَهَا إِمَّا بِمَعْنَى تَنْقِصِهَا وَضَرَرِهَا ، لِتَعْرِيزِ نِعْمَتِهِ لِلزَّوَالِ وَنَفْسِهِ لِلْهَلَاكِ ، أَوْ بِمَعْنَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . لِأَنَّ مَقْتَضَى مَا شَاهَدَهُ التَّوَاضُّعَ الْمُسْكِي ، لَا الْعِجْبُ بِهَا وَظَنُّهَا أَنَّهَا لَا تَبِيدُ أَبَدًا . وَالْكَفْرُ بِإِنْكَارِ الْبَعْثِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ « قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ » أَى تَهْلِكَ وَتَفْنَى « هَذِهِ » أَى الْجَنَّةُ « أَبَدًا » لِاعْتِقَادِهِ أَبَدِيَّةِ الدَّهْرِ ، وَأَنْ لَا كُونَ سِوَى مَا تَقَعُ عَلَيْهِ مَشَاعِرُهُ . وَلِذَا قَالَ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا)

« وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » أَى كَائِنَةً آتِيَةً ، وَقَوْلُهُ « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا » إِقْسَامٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ رَدَّ إِلَىٰ رَبِّهِ ، عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ ، كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُهُ ، لَيَجِدَنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ فِي الدُّنْيَا ، تَطْمَعًا وَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ ، وَادْعَاءَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ . وَإِنَّهُ مَا أَوْلَاهُ الْجَنَّتَيْنِ إِلَّا لِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِثْنَائِهِ .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله ^(١) : (إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لَلْحُسْنَى) ^(٢)) (لَا تُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا) و (مُنْقَلَبًا) أى مرجعاً وعاقبة . أفاده الزمخشري .

قال المهايى : فكفر بالقول بقدوم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) والقول بقدوم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . ويإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . ثم بين تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتقار ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُوَّ صَاحِبُهُوَّ وَهُوَ يُحَاوِرُهُوَّ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُوَّ صَاحِبُهُوَّ » أى الذى عيّره بالفقر ، تعبيراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُوَّ » أى يراجعه كلام التعبير على الكفر ، محاورته كلام التعبير على الفقر ، فى ضمن النكر عليه « أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » أى يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا » أى عدّك وملكك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعليّة ما فى حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله تعالى عز من قائل ^(٣) : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ) « إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ » الآية ، وكما قال تعالى ^(٤) : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أى كيف تبحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] . (٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٥] . (٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابة . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء .
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)

« لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَكِنَّا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار (لكن) ثم الحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة . قال الزمخشري : ونحوه قول القائل ^(١) :

وَتَرَمِينِي بِالطَّرَفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وتقليبنى لكنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْبَلِي
أى لكن أنا لا أقبلك . ويقرب منه قول الآخر ^(٢) :

وَلَوْ كُنْتَ ضَبِيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي ولكنَّ زَنْجِيًّا عَظِيمُ الْمَشَافِرِ
أى ولكنك . وقوله تعالى :

(١) الأضداد لابن الأنباري ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحوي . والله أعلم . »
الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبري (طبعة المعارف) .
(٢) أنشد سيبويه في كتابه ١/٢٨٢ .
وقائله الفرزدق .

وأنشد في اللسان في مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكن زنجيًّا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ

أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ

السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُوَ طَلَبًا)

« وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشري . يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل ، على أنها خبر مبتدأ محذوف . تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة بالوضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شيء شاء الله كان) ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله ^(١) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَنَا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ) والمعنى : هلا قلت عند دخولها ، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله ، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة ، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدير أمرها ، إنما هو بمعونه وتأيدته . إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده ، إلا بالله تعالى . والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » أى تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، للاستهـ

(١) [١٣ / الرد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُضَيِّحَ مَآوَاهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَطَلَبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى (إِنْ تَرَنْ) وقوله (أَنْ يُؤْتَيْنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يشبها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ۚ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَتَّقَىٰ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ۚ » أى بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشري : (أُحِيطَ به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى ^(١) (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله أقولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليًا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية . شبه إهلاك جنثيه بما فيهما ، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضًا ، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَتَّقَىٰ فِيهَا » أى فمير نفسه أكثر من تعبيره صاحبه وتعير صاحبه إياه . قال الزمخشري : تقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهرًا لبطن . كما كنى عن ذلك بعض الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدى تمديته به (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أتقى فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفًا لغواً . ويجوز كونه ظرفًا مستقرًا متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسرًا . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

- كما قال الراغب - الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شئ . فإذا سقط سقط ما عليه .
أن كرومها المروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم ، بحيث قاربت
أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقرب) « يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا »
أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فلم أنه أتى من جهة شركه وطمعانه .
فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)
« وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ » أى منعة وقوم « يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى يقدرون
على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستغز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى
ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)
« هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك .
(الولاية) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجمله مقررّة
ومؤكدّة لقوله (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أوليائه
المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشقى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه
المؤمن ، وصدّق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
مِّنَ السَّمَاءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه .
فلا ينقص لمؤمن درجة ، لدنائه فى الدنيا ، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه
ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك : لا يغلب ولا يمتنع منه . أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعنى أن^(١) (يَلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىَ أَحَدًا) كلمة ألقى إليها فقلها ، جزعاً مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى^(٢) : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون^(٣) « حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَآ نَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلَّيْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله^(٤) : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ويناسبه قوله^(٥) : (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) . و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ (منتصراً) وإن الوقف عليه . أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة . أى وما كان منتصراً فى ذلك الوطن الذى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جداً ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربية . وما كل جازع عربية رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشري ومن تابعه . و (الحق) قرى بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بمامل مقدر . وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرى بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالمشر والمشر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجهها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩١ و ٩٠] .

(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولها قصة . ولا دليل في ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقد عني بأحد الرجلين في التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر في الآخرة أعلى^(١) (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها ومصرعة زوالها « كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتف بسببه وتكاثف ، حتى خالط بمضه بعضاً ، فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزهو « هَشِيمًا » أى جافاً يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المثل وأبدعها ، ضرب كثيراً في التنزيل ، كقوله تعالى في سورة

(١) [١٧ / الإبراء / ٢١] .

يونس^(١) : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَاقَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ ۖ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ...) الآية . وفي الزمر^(٢) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَجَنَابِ الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ...) الآية . وفي الحديد^(٣) : (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ مِّنْ بَيْنِكُمْ ۚ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (الْأَمْوَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

« الْأَمْوَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وذلك لإعانتها فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الآخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أي والأعمال التي تبقى ثمراتها الآخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات السالكات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدى ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لمرافقته فيما ينيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمسى . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) إفراد (الزينة) مع أنها مستندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر في الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية ، لأن زينتها مختصة بها .
(٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحتها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة ، لاسيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة^(١)
(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) - للإيدان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لا وصف . ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة . كذا يستفاد من أبى السمود ، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهد والعق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراد . ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ » أى اذ كر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها فى الجو . كما

يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ^(١) : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّةً السَّحَابِ) أَوْ نَسِيرَ أَجْزَاءِهَا بَعْدَ أَنْ نَجْعَلَهَا هَبَاءً مُنْبَثًا « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » لِبُرُوزِ مَا تَحْتَ الْجِبَالِ ، أَيْ ظُهُورِهِ ، بِنَسْفِهَا وَبُرُوزِ مَا عِندَهَا مِنْ زَوَالِ الْجِبَالِ وَالْكَثْبِ . حَتَّى تَبْدُو لِلْعَيَانِ سَطْحًا مُسْتَوِيًّا ، لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرَ وَلَا مَعْلَمَ وَلَا مَاسُومَ ذَلِكَ « وَحَشَرَ نَفْسُهُمْ » أَيْ جَمَعْنَاهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ « فَلَمْ يُفَادِرْ » أَيْ تَرَكَ « مِنْهُمْ أَحَدًا » أَيْ لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا . كَمَا قَالَ ^(٢) (قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) وَقَالَ ^(٣) (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا)

« وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا » أَيْ مُصْطَفَيْنَ مُتَرَتِّبِينَ فِي الْمَوَاقِفِ ، لَا يَحْجُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كُلٌّ فِي رَتَبَتِهِ ، قَالَ الْقَاسِمَانِيُّ .

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ : (صَفًّا) أَيْ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ وَلَا مُخْتَلِطِينَ . فَلَا تَعْرِضُ فِيهِ لَوْحْدَةِ الصَّفِّ وَتَعَدُّدِهِ .

قَالَ الزَّخَّشِيُّ : شَبِهَتْ حَالَهُمْ بِحَالِ الْجُنْدِ الْمَرْوُضِينَ عَلَى السُّلْطَانِ ، مُصْطَفَيْنَ ظَاهِرِينَ . يَرَى جَمَاعَتَهُمْ كَمَا يَرَى كُلُّ وَاحِدٍ . لَا يَحْجُبُ أَحَدٌ أَحَدًا « لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أَيْ بِأَمَالٍ وَلَا بَنِينَ . أَوْ لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ كَمَا أَنْشَأْنَاكُمْ . وَالْكَلَامُ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ . أَيْ وَقَلْنَا . تَقْرِيماً لِلْمُفَكِّرِينَ لِلْعَادِ ، وَتَوْبِيخاً لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ « بَلْ زَعَمْتُمْ » أَيْ بِإِنْكَارِكُمُ الْبَعْثِ « أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا » أَيْ وَقْتًا لِإِنْجَازِ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنَ الْبَعْثِ

(١) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٥٩ و ٥٠] . (٣) [١١ / هود / ١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالي ، لا إبطالي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوِيلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يقتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يُوِيلَتَنَا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا فى أعمارنا . قال القاشانى : يدعون الهلكة التى هلكوا بها ، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة « مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أى أى شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب فى إحصائه كل المعاصى ، وعدة مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه فى شئ منها .

قال البقاعى عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى فى الرسم العثمانى) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى مكتوباً فى الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى^(١) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال^(٢) (يُذَبِّحُوا لِالِإِنْسَنِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

« وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمل ، أو يزيد فى عقابه . ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ »
 أى المنة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ » أى فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدو يبنون بكم الفوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ » أى الواضعين الشئ فى غير موضعه « بَدَلًا » بتس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس^(١) (وَأَمَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك ، من خبائثة المحدث والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ » أى وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفى الإشهاد كناية عن نفي الاعتصاف بهم والاستعانة على خلق ما ذكر - أبلغ . إذ من لم يشهد فأنى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكاً ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً » أى وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر ، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاق العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المصلون ، فلا يكونون أرباباً . وإنما وضع (المضلين) موضع الضمير ، ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ، وتأكيذاً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى (٢) « قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَالٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً)

« وَيَوْمَ يَقُولُ » أى الحق تعالى « نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا ، أنهم شركاء ليعقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريباً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » أى فلم

يعينونهم ، لمجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفي إرادته ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيدان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ » أى بين الكفار وأهلهم « مَوْبِقًا » أى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً) ويؤيد هذا قوله تعالى ^(١) (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إن جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُمْ) عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) - فهو كقوله تعالى ^(٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِمِدِ يَتَفَرَّقُونَ) وقال ^(٣) (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ) وقال تعالى ^(٤) (وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَنهَا الْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى ^(٥) (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

« وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمّر تصريحاً بإجرامهم ، وذمّاً لهم بذلك « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .

(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .

(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى نوعنا في هذا القرآن ، الجامع للمهمات وأنواع السعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل ، ينبه على مراقب السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة وخاصة ومعارضة للحق بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شا كلهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح الغير « وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ » أى عن المعاصى السالفة « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى طلب إيمانها ، أو انتظار إيمانها ، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرويه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) يضمّتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قبلاً) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحيتين أى مستقبلاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُحَدِّثُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا
 « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال
 العذاب ، إلا لتبشر من آمن بالزنى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتية سنة من مضى
 « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى
 ليزيلوا بالجدال ، الحق الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل (الإدحاض)
 إزلاق القدم وإزالتها عن موطنها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .
 قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحد المستكره .
 ثم أنشد لنفسه :

أَنَا بَوَحْلٍ لِإِنْكَارِهِ لِيُزْلِقَ أَقْدَامَ هَذِي الْحُجَجِ
 « وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أَنْذَرُوا » أى وإنذارهم . أو والذي أنذروا به من العقاب
 « هُزُوعًا » أى استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَنِيَ مَا قَدَّمَتْ
 يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ،
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها
 والاعتاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَلَنِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ،
 وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجاباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يفقهوا
 على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .
« وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اعتداء ،
البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا)

« وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،
بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى^(٢) : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله^(٣) : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)
و (رَبُّكَ) مبتدأ و (الْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا) والموعود المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والكل لاحق بهم . و (الموثل) الملقأ والمنجى .
أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

« وَتِلْكَ الْقُرَىٰ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا »

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا » أى وقتاً معيناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على ما فعل بقریش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يقتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يحفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .
فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا» أى اذكر وقت قول موسى لفاته ، لا أبرح ، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المہاجمى أى اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولست أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى ، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوة . وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومجباله ، وذا غيره على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)
« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقدا أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه « فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة المطلوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي نَافِلٌ لِّكُمَا بِالسَّيِّئَةِ نَافِلٌ مِّنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا)
« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى جمع بينهما ، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي نَافِلٌ مِّنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

« قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » أى خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولاً ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإما للتغليب ، بناءً على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى (١) : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أى لك . و (أن أذكركه) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنساني ذكره . إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصل ،

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

والباقون بكسرها « وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا » أى امرأ عَجِيبًا ، إذ صار الماء عليه سربًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ، فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَلِكَ » أى المكان الذى اتخذه سبيله هربًا « مَا كُنَّا نَبْغُ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أماراة المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد النين ، وصلا لا وقفًا . وإثباتها فى الحالين . وبخذفها كذلك « فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعًا لثلاث يفوتهما الموضع ثانيًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)

فوجدَا « أى فأتيا الموضع النسي فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا » التنكير للتفخيم ، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه ، بعونه تعالى ، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا » أى آتيناه رحمة لدنية ، اختصاصنا بها « وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا » أى علما جليلا آثرناه . وهو علم لدنى يكون بتأييد ربانى . وسندكر إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنى فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا)

« قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ » أى أصحبك « عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلِمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علما ذا رشد . أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجمل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل ممتدراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » أى من أمور سترها ، إن صحبتنى ، ظواهرها منا كبر وبواطنها لم يحيط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أى لأخالفك فى شىء . قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبى المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غمزة فى الدين . وأنه لابد ، لما يستسمح ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى لا تفتأ تخنى بالسؤال عن شئ أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيمًا من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكره الخضر بما تقدم من الشرط . يعنى هذا الصنيع فعلته قصدًا . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها . لأنك لم تحط بها خبرا . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تَأْخِذْ بِيَإِذَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تَأْخِذْ بِيَإِذَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذه به تفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذه لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » أى لا تحمل علىّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسراً ، لئلا يلجئنى إلى تركه .
أى لا تعسرّ علىّ متابعتك ، بل يسرها علىّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ » قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ « أى أنها لم تقتل نفساً فتقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا » أى منكراً . أو أنكر من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكّار بالشرط الأول . ونكتة زيادة (لَكَ) هو - كما قال الزمخشري - زيادة المكافأة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهىته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى (المثل السائر) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه بمبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)

« قَالَ » أى موسى « إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » أى بعد هذه المرة « فَلَا تُصَحِّبْنِي »

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا « أى وجدت من جهتي عذراً . إذ أعذرت إلى مرة بعد مرة ، تخالفتك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
« فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف فى تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف فى جمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه « اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموها الطعام الذى هو احق ضيافتهم عليهم . وقرئ (يُضَيِّفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيَّفه : أنزله ليطعمه فى منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ » أى ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمداناة والمشاركة . لما فىهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هى مجاز لغوى مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشري ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُ » أى عمره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عملك جملاً حتى تنتمش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
« قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَاحِبْنِي)
أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا « أى بآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبماقبتة . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل مافعلت) أو (بتأويل مارأيت) ونحوها ، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا السَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسْكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر ، لنقل الغاز من ساحل إلى آخر « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يعمرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصبًا . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا الْفُلُومُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)
[٨١] (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا الْفُلُومُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا » أى لو تركناه « أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَا » أى بقتله « أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
 « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ » أى تفضل بها عليهما .
 و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُ »
 أى ما رأيت منى « عَنْ أَمْرِي » أى عن اجتهدى ورأى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى
 « ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى ماله وعاقبته .
 قال أبو السعود (ذَلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيدان يبعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِعْ) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :

الأول - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر ، وأنه لا ينافى التوكل . ونسبة النسيان ، ونحوه من الأمور المكروهة ، إلى الشيطان ، مجازاً وتاديباً عن نسبتها إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم الشيئة فى الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (لثلاث) اعتباراً في التكرار ونحوه . وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة . وأن صنع الجليل لا يترك ولو مع اللثام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال . وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكتفيه . وأن الغصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بمض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم . وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه . وأنه يجب عمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال في الأرض . انتهى .

وقال البيضاوي : ومن فوائد هذه القصة أن لا يجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فاعمل فيه سرّاً لا يعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للعلم ، ويراعي الأدب في المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية - كما في (فتح الباري) - استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجمّع المشاق في ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ . وطوعية الخادم لمخدومه . وعذر الناس . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يمان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة . وقيام العذر بالمرة الواحدة ، وقيام الحجة بالثانية . وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه ، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله ^(١) ﷺ (والخير بيدك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله : (أَهْلَ قَرْيَةٍ) ثم قوله : (لِنُفَعِّمَنَّ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) .

(١) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من

حديث طويل (طبعتنا) .

الثاني - ذكر الناصر في (الانتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة .
فناثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له . فاعمل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام ، لئنه الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه . وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات ، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيناً ، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلاً وآجلاً . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة : وما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار ، الاتهاب والحمية للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) فنسى نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نَفْسِي نَفْسِي) لا يلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الفرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصيح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزخشرى (فَإِنْ قُلْتَ قَوْلُهُ : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغضب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك . (زيد ظني مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين . ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك في غضب السفن . وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جملة مقدماً ، والنية تأخيرها . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي ، والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله : (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَ لَهُمَا رَبُّهُمَا) ، (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإغابة إلى نفسه . وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أمر الملك ودبر) ويدل على ذلك قوله في الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغيرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يحجبها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأمرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث - قال الخفاجي : في إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعني في قوله تعالى : (اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلح الصفدي سائلا عنه السبكي في قصيدة منها :

رأيت كتاب الله أعظم معجز	لأفضل من يهدي به الثقلان
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره	بإيجاز ألفاظ وبسط معاني
ولكنني في (الكهف) أبصرت آية	بها الفكر، في طول الزمان عناني
وما هي إلا (استطعما أهلها) فقد	نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر	مكان ضمير ؟ إن ذاك لـ شأن

يعني أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطمعهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذي تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولاً ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز في القرية ، كقوله ^(١) : (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولأن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مغل . فليس ماهنا نظير تلك الآية لأمتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استطمعها . وأما (الأهل) الثاني فأعيد لأنه غير الأول . وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه . لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فرداً فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فهم غير المراد . أما لو قيل : (استطمعهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطمعها) فإن النسبة إلى محل تفيد الاستيعاب ، كما أثبتوه في محله . وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد في البلد) أو (في الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله ^(٢) :

ليت الغراب غداة ينعبُ بيننا كان الغرابُ مقطّعَ الأوداجـ

أو لكرهه اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع - أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتسطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال : لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً . فقال : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال ^(٣) : (فَمَا أُسْتَطْعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا أُسْتَطْعُوا لَهُ نَقَبًا) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف ٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح

الحجاج ، ومطلعيها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاج فانظر بتوضيح ، باكرُ الأحداجـ

وفيه هناك (ينعب بالهوى) عوضاً عن (ينعب بيننا) . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ ما لقيه ببيان سببه - فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما أطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتل هذا الفرق .

الخامس - قال الإمام السبكي رحمه الله : ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به . لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجزله ذلك . وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروري : كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ما علمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً ، لطعمه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيق ولا إيمان حقيق . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبي . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار مايؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله . والله أن يحكم بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لا تفيد . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطائر الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبي^(١) صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاماً بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاري^(٢) : وجد غلاماً يلعبون فأخذ غلاماً فذبحه قال موسى : أقتلت نفساً لم تعمل بالحنث . ولكن لانص فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالي - تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأخبار أو ابن أخيه - إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما في البخاري^(٣) . ووقع في رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائي) قال : كفت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا أبا عباس ! إن نوحاً يزعم عن كعب الأخبار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا . أي ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام . فقال ابن عباس : أسمع ذلك منه يسميد؟ قلت : نعم . قال : كذب نوف . وفي رواية البخاري : كذب عدو الله . وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٤ - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ، فيكمل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب . (٣) انظر التخریج السابق .

قال الرازي : كان ليوسف ولدان إفرايم . ومنسا . فولد إفرايم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم . والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود . واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سندده فى ذلك ، كما فى البخارى^(١) ، ما حدثه به أبى بن كعب ورفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال : لا . أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده ، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا) هو الخضر . قالوا : سمي بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحري بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى . فقال ابن عباس : هو خضر ، فمرّ بهما أبى بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السليل إلى لقيته . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقّيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قاييل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك . وكله مما ليس فيه إثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبي بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَن أَمْرِى) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الوساطة . وقيل : كان ولياً . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصّدقيّة فهو مقام برزخى ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أنسى للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووي في (التهذيب) قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلتقي شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه ؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتعسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخارى

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - سورة الكهف ، ٤ - باب

قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب .

وجامع الترمذى . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان فى (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبى الفضل المرسى . لأنه لو كان حياً لزمه الجبى إلى النبى ﷺ والإيمان به واتّباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حياً ماوسعه إلا اتباعى . وبذلك جزم ابن المناوى وإبراهيم الحربى وأبو طاهر العبادى . ومن جزم بأنه غير موجود الآن ، أبو يعلى الحنبلى وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربى ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزى . واستدل على ذلك بأدلة منها قوله تعالى ^(١) (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روى فى ذلك . والأحاديث المرفوعة فى ذلك واهية . والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالرجح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لا يخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمّد ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارى وأضرابه فى ذلك . ولا حجة فى قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد فى ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وما قاضيان على غيرها ولا يقضى غيرها عليهما . ومن قال إنه نبى أو مرسل أو حتى باق ، لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر مغل ^(٢) . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى مغل بن يسار بن عبد الله بن معبّر

ابن خرقاء .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان : المجلد الخامس ص ٣٢٣ (طبعة بيروت) .

وقال تقى الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترى الجن للإنس في بعض البلاد ، مأمثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى^(١) (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنى^٢ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إننى) وكان ذلك جنياً لبس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذى كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتى إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه . كما قال الله تعالى^(٢) (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَا تَبْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال ابن عباس رضى الله عنه : لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لأن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً، من أن يلبس الشيطان عليهم . ولكن لبس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميتة خرج ، وجاء إليه ، وكله في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع - دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبياً وهو المسمى بالعلم اللدنى . فالآية أصل فيه . وقد ألف حجة الإسلام الغزالي، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم . رد على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جود الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانيّ يحصل من طريقين : أحدهما من التعليم الإنسانيّ والثاني من التعليم الربانيّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانيّ ، فطريق معهود مسلوكة محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكير . والتفكير في الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ . والتفكير استفادة النفس من النفس الكلّيّ . والنفس الكلّيّ أشد تأثيراً وأقوى تعليمياً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة . كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبه بنفس العالم وتقترب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزارع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذي هو بالقوة كالبذر . والذي هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة . ويحمل التعب في طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكير عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجرد من الفوائد بتفكير ساعة ، ما لا تجرد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذا نبت بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكير . ثم قال قدس سره : والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتمسك بجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويتخذ منها لوحاً ، ومن النفس الكلّيّ قلماً وينقش فيها علومه . ويصير العقل الكلّيّ كالعلم والنفس القدسيّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصدق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ (١) : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصولة عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام . فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالماً . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا (٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكنونات ، وأقبل بالاستمئانة على الرب تعالى ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال (٣) : (أَتُبَيِّنُونَ بِلِسَانٍ هَؤُلَاءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقال علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، ففرقوا في بحر العجز (٤) : (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فقال تعالى (٥) : (يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول (٦) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه (٧) : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني فقال تعالى (٨) : (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى) .

- (١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .
 (٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .
 (٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال في (أسنى الطالب) : سنده ضعيف ومعناه صحيح .
 (٧) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ،
 حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثاني - هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس الكلّي للنفس الجزئيّ على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي . فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبيّ . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً . والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . والعلم اللدنيّ هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصورة في جوهر النفس الكلّي الأوّل الذي هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأوّل كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل الكلّي أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى الباري تعالى من النفس الكلّي . والنفس الكلّي أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات . فمن إفاضة العقل الكلّي يتولد الإلهام . فالوحي حاية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبيّ . وكذلك الإلهام دون الوحي . فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهام علم الأنبياء والأولياء . فإن علم الوحي خاص بالرسل موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هي قبول النفس القدسيّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأوّل . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدنيّ يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال (١) : (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) .

ثم قال عليه الرحمة : فإذا أراد الله بعد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكلّي الذي هو اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معاني تلك المكنونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباد .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيمًا . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى ^(١) : و (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) من عباده . (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وهم الواصلون مرتبة العلم اللدني ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلًا ويعلمون كثيرًا ، ويتعبون يسيرًا ويستريحون طويلًا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدني هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى ^(٢) : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكرها . والثاني - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبي ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال ^(٣) : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث - التفكير . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكير ، يفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، يفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالتفكير إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الأبواب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالمًا كليًا عاقلًا ملهمًا مؤيدًا . كما قال ﷺ ^(٤) : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصًا .

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأبأها العقل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال في (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال في (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهاني بلفظ (فكر ساعة) وقال : إنه من كلام سري السقطي .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتموسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدوني وسندكر وجه تلميقه بذلك « قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله على .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسمعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَأَتْبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ يهمزة الوصل وتشديد التاء . ففعلها بمعنى ويتمديان لمفعول واحد . وقيل : (أَتْبَعَ) بالقطع يتعدى لاثنتين . والتقدير : فاتبع سبباً سبباً آخر . أو فاتبع أمره سبباً كقوله ^(١) : (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) .

وقال أبو عبيدة : اتبع (بالوصل) في السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله ^(١) :
 (فَأَتْبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث في الطلب و (بالوصل)
 مجرد الانتقال . والفاء في قوله : (فَأَتْبَع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً
 يوصله ، لقوله « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من
 ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة
 وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ)
 يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى
 إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله :
 « فَلَمَّا يَدْعَا الْقُرْنَيْنِ إِيمًا أَنْ تَعَذِّبَ » أى بالقتل وغيره « وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا »
 بالعفو . ثم بين تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا)
 « قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ » أى بالبغي والفساد فى الأرض بالشرك والضلال والإضلال
 « فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ » أى فى الآخرة « فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا »
 أى منكراً لم يعهد مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ » أى فى الدارين « جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزء الخصلة الحسنى . ويقرأ بالرفع والتنوين و (الْحُسْنَى) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزء . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزئاً بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزئ بها جزء ، أو تميز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل النون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المباني والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة السكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف لـ (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطعت بهم الأرض . وفي التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العدد والعدد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَسْكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثاً معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما « وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من ورأيهما أمة من الناس « لَا يَسْكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا يَبْذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

« قَالُوا يَبْذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جملاً نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والمُلْك ، أجلُّ مما تريدون بذله . فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى بعملة وصنّاع وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٩٦] (ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا ، حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)
 [٩٧] (فَمَا أُسْطَظَمُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا أُسْتَطْعَمُوا لَهُ نُقْبًا)
 [٩٨] (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

« ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبى الجبلين « قَالَ أَنفُخُوا » أى فى الأكوار والحديد « حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإجماء « قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد « فَمَا أُسْطَظَمُوا أَن يَظْهَرُوهُ » أى يملوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا أُسْتَطْعَمُوا لَهُ نُقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَذَا » أى السد « رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي » على القاطنين عنده . لأنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » بدحره وخرابه « جَعَلَهُ دَكَّاءَ » بالمد أى أرضاً مستوية ، وقرئ (دَكًّا) أى مذكوكاً مسوًّى بالأرض . « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » أى كائناً لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والمعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، وما يستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونسكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ قَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . إلهه من خفى الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل . وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ما قص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشماتها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها : تشييط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز الفقر ، عذراً في الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقدمهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتمال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو في ريمان الشباب وقوة الفتاء . فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم . ولم يقف في وجهه عدد ولا عدد . وخاض غمرات الردى غير هيب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرق إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمسك منهم ، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بمصا الإذلال ، وتجريمهم غصص الاستعباد والنسكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكى عن الإسكندر من قوله ^(١) (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية في العدل وغاية الإنصاف .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب الوحش والحراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ أجرة ، في مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، في ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بحبته . كما تأبى الإسكندر تفضلاً وتكراً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام . كقول الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم ، والشفقة عليهم^(١) (مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) كقول سليمان^(٢) (فَمَا أَتَمَنُ بِأَلَلِهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون في الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم ، صدقاً في العمل ونصحاً فيه . لينتفع به على تطاول الأجيال . فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجربة لهم وترويحاً لقلوبهم . وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الآتعب ، ويدبر العمل بنفسه ، كما بيّنه الذكركر الحكيم في قوله^(٣) (ءَاتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهر واشكره . ولذا قال^(٤) (هَذَا رَجْمَةٌ مِّن رَّيِّ) .

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٨] .

ومنها : الإعلام بالدور الأخرى ، وانقضاء هذا الطور الأولى ، لتبقى النفوس طامعة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي . ولذا قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جلياً حسن سجايه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشري ، لاسيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم التمدنة وغير التمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباعدة . كما كان يرى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدوني اليوناني . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملق إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيبه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي المات ، وسرت بجسمه قوى الشبيهة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمقتضى أمله .

التنبيه الثاني - في ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليبس ، وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه في القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القربين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يفزع عبادة الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدوني ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركاً يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليبس بنى الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنتين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام ، فقير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين ، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء في ترجمته - كما في طبقات الأطباء وغيرها - أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك . فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يقتل أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فتوروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهدون به أو يكتمونونه . كالنجاشي ملك الحبشة . فإنه جاهر بالإيمان بالنبي ﷺ . وشعبه وأهل مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاده والحكام قبله . فإن الممن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس - أستاذ

سقراط - يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد ، في ثواب أو عقاب. على رأى الحكماء الإلهيين . فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازى : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتمظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابماً لمذهب فدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه . وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حراً فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويمتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتية من تنور الفكر وحرية الضمير وتقوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لا ستره فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالاً . وللرازى فرص يفتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها - سامحه الله - فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبية الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا . يعنى جانبها شرقها وغربها . أو لأنه كان له قرنان أى صغيرتان . أو لأنه ملك الروم وفارس . قال الزمخشري : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التي هي إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم . بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبية الرابع - قال الرازي : اختلفوا في ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبياً . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول - قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) والأولى حمله على التمكين في الدين . والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

الثاني - قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . ففقتضى العموم في قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .

الثالث - قوله تعالى : (قُلْنَا يَذَّارُ الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبياً . انتهى .
ثم قال الرازي بعدد : يدل قوله تعالى (قُلْنَا يَذَّارُ الْقُرْنَيْنِ) على أنه تعالى تكلم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبياً . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء - فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيل وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَلِذَا أَلْقَرْنَيْنِ) فقد معنا أنه كفاية عن تمكينه تعالى له منهم . لأنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة . لأننا نقول به ، ما لم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين - ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثاني وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء في الحديث تسمية صاحبه ^(١) محدثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً في الإسلام ، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار . التنبيه الخامس - حكى في قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي أَلْقَرْنَيْنِ) قولان في أن

السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجح الأول من وجهين :

أولهما - أن للإسكندر عند اليهود شأنًا وقدرًا . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

(١) يشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبي ﷺ أنه قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما - أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

التنبيه السادس - قالوا: المراد بـ(العين الحمئة) البحر المحيط . وتسميته عينا لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس في مظهره تغرب في البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهي لا تفارق فللكها .

ولالإمام ابن حزم عليه الرحمة - رأى آخر في الآية. ذكره في كتاب (الملل) في بحث كروية الأرض قال : نوالقرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك في البحر) تريد أنك إذا رأيته كنت أنت في البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشقوى إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان - مرئى مشاهد . ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسى أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيف . وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم (عين) البتة . لا سيما أن تكون (عينا حمئة) حامية . وباللغة العربية خوطبنا . فلما تيقنا أنها (عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغرب إلى العين المذكورة . وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هنالك . وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعا . ومن هذه صفته ، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض ، بمقدار مكان المغرب كلها ، لو كان مغيبها في عين من الأرض . كما يظن أهل الجهل . ولا بد من أن يلقى خط بصره من حدة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمداد ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين هي البحر . فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة (عينا حمئة) ولا حامية . وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك . وأنها إنما هي من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض . فلو غابت في عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أوفى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو في العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر في المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبية السابع - قال الرازي : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال . وقيل : جيلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان في منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبري في (تاريخه) أن صاحب أذربيجان ، أيام فتحها ، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر . فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداداد في كتاب (السالك والمالك) أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم ، فبعث بعض الخدم إليه ليأينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه . فوصفوا أنه بقاء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاء المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازي .

وقال الإمام ابن حزم في (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) في تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر في القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف في أقصى الشمال

في آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوج ومأجوج والسدّ أرسطاطاليس في كتابه في (الحيوان) عند كلامه على الفرائيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسي وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس . فهذه أخبار من خبر . وحتى لو خفي مكان يأجوج ومأجوج والسد ، فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل . واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان ، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان - فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهر . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن في الحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهية العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مقتر . ونعوذ بالله من البلاء . انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا . فإذا سلم أن سنة ذى القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة . أمأقوله تعالى : (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القويّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جماء دكاً في لمح البصر . فرادى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاعتزاز بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لا شيء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السد يبق إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أى وقت كان ، وكان هذا السد موجوداً ، دك الله دكاً . وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده . وكالثورات البركانية كما قلنا . وليس في الآية ما ينافي ذلك . وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض ، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة . ومنه قولك (فتحو البلاد) وقوله تعالى (١) (فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لا أبواب لهم . بل هم من كل حذب ينسلون . والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض ، بمد أن انتشروا فيها ، من الإفساد والنهب والقتل والسبي . والراجع أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتي دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ (السد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سد حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه في نهاية الأرض . وذلك بحسب ما عرفوه منها . ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء في (صفوة الاعتبار) أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بنى العباس ، هو

مسور الصين الذى هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفى أما كن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب فى جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد فى الآية ، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤول صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولا شك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد فى الممالك . كما فى عهد جنكزخان ، وما عثاه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء فى الجغرافية العمومية ، فى المقالة السابعة والأربعين فى تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن فى تلك الأنظار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالجواز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبررين على كل من دولة الرومانيين والعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالى (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبررين وهذا السد العظيم تارة يمزى لإسكندر ، وتارة لأنوشروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن - قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة

والتعريف . ويجوز هزها وترك هزها . وقيل : هاءريان . ف(يأجوج) يفعل مثل يربوع . (ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهما من (أج الظليم) إذا أسرع . أو من (أجت النار) إذا التهب . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث - أى للقبيلة كعجوس . فالكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . وعلى العجمة ، لا يتأتى تصريفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربياً ، كافى (تذكرة أبى على) .

قال الرازى : واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والدليم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بـ(جبل قاف ، فى إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق) فمر بهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق فى روسيا وآسيا .

التنبية التاسع - توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن فى مصنفاته من الرواة ، فى تخريج ما روى عن يأجوج ومأجوج . وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات . ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربع مائة ألف أمة . لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكرين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدى فى (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال : موضوع منكر ، ومحمد بن إسحاق المكاشى كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً ، فى سير ذى القرنين وبناءه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وأذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدُها . انتهى .
فجزى الله البخاري أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشترطه الصحة في
الروايات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم
صدق قوله : (أن راوى الضعاف غاش آثم مضل) وبالله المستعان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)
« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا »
أى نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً
لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في
بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن
نعلم ماهى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم
الغيب ، أى الأمور الغيبية عنا ، التى لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة
« لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تقيظاً وزفيراً
« عَرْضًا » أى فظيماً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع
أنها عرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفي عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ في تعجيل
الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » تمثيل
لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصاميمهم
عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أبلغ من (وكانوا صمًا)
لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيغ به . وهؤلاء كانوا أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم
للسمع . أفاده الزمخشري . وفي توصيفهم بالجلتين نكتة أخرى ، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية
عن الأولى ، كما زعم ، وذلك - كما حققه الشهاب - إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)
لما أفاد أنهم كفأقدى حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة
أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم
لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جىء به
لذمهم بما فى حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك
إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع
كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به فى الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ،

إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا)

« أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ » هذا رجوع إلى

طليعة السورة في قوله تعالى^(١): (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع ، جىء بالاستفهام الإنكارى ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم . ومفعول (حسب) الثانى محذوف . أى أخسبوا اتخاذهم نافعاً لهم؟^(٢) (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كقولوا^(٣) (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) «إِنَّا أَعْتَدْنَا» أى هيأنا «جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم . و(النزل) ما يقام للنزول أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسابهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والدخر ، جهنم عدة . وفى إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أعزج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيدوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)

[١٠٤] (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا)

[١٠٦] (ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسلهم « وَلِقَائِهِمْ » أى بالبعث والحساب والجزاء « فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا » أى فنزديهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرءة « ذَلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والمائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنعكال . ثم بين ما للمقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحوّلًا ، لبلوغهم السكال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبته فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدى ، لا يختارون عن مقامهم متحوّلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي » أى لكتابتها « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » أى مع

كثرتة ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي » أى لكونها غير متناهية ، فلا تنفذ نفاذ المتناهي .

قال أبو السعود : وفى إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷻ فى الموضعين ، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهار (البحر) و (الكلمات) فى موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » أى بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفذ أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن ، جرى به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى^(٨) : « وَلَوْ أَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

تنبية .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لانهائية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهمشامية والكرامية وأصحاب أبى معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حتى وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئة أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧] .

منفصل عنه . والكلاية يقولون : هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة ، ولا يكون بمشيئته . والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد . وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب . والعوالب في هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها ؟ أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى ، لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة . وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات ، باطلة . هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضا في قوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل في المستقبل . فإن نعم الجنة دائم لا نفاد له . فما من شيء إلا وبعمده شيء بلا نهاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) «قُلْ» أي لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ» أي خصصت بالوحي وتميزت عنكم به . (فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ «أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أوجزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَمْعَلْ عَمَلًا صَالِحًا » أى فى نفسه، لاثقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» أى من خلقه إشراكاً جلياً. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكاً خفياً. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه. قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمّر فى الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلمية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبّل ركّنين : كونه موافقاً لشرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر، ثبت فى السنة ، وصح فيها جبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلىّ ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩ - سُورَةُ مَرْيَمَ

سميت بها لاشتغالها على نبئها الخارق . وقال المهايي : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة^(١) وآية^(٢) (وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) . وقد روى محمد بن إسحق^(٣) ، في السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٧١] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (كَهَيْمَصَ)

[٢] (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكَرِيَّا)

[٣] (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا)

« كَهَيْمَصَ » سلف في أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا (كَهَيْمَصَ) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكَرِيَّا » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هذا المتلو ذكرها . و (زكريا) والد يحيى عليهما السلام . بدل من (عبده) أو عطف بيان له . قال المهايى : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً في باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . وذكرها لنا كبرية لنا ، في تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته . « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا » ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتمال من (زكريا) والنداء في الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » أى ضعف . قال الزمخشري : وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد مافيه وأصلبه . فإذا وهن كان ماوراءه أوهن . ووحدته ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفرادها . وقرئ (وَهْنٌ) بكسر الهاء وضمها « وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » قال الزمخشري : شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ - باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب ميمزاً ولم يصف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين : أولاهما تصريحية تبعية في (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيض في المسود باشتعال النار ، كما قال ابن دريد في (مقصورته) .

إِنَّمَا تَرَىٰ رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدَّجَالِ
وَاشْتَعَلَ الْمَبِيعُ فِي مَسْوَدِهِ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْغَضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، في بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخيلية ، وعليه المحققون من أهل المعاني . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبّه حال الشيب بحال النار ، في بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت لم أعود منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط . وهذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعي

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عود عبده بالإجابة دهرًا طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبدًا . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحب فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استجباب الخضوع في الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله (وَأَشْتَعَلْ أُرْسُ شَيْبًا) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله (وَلَمْ أَكُنْ) الخ كما قدمنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتْ أُمْرَآتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)

[٦] (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

« وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ » أى الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى فى القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتْ أُمْرَآتِي عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثًا ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِنْ لَدُنْكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنبويه به لكونه مضافًا إلى الله تعالى ، وصادرًا من عنده . و (آل يعقوب) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام . « وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيًّا عندك قولاً وفعلاً .

ثم بين تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَزَكِّرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) « يَزَكِّرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا »
 أى مثلاً وشبهها . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهمل بمعصية قط .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا »
 أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :
 * ومن العناء رياضة الهرم *
 قاله الراغب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) « قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا »
 أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .
 قال الزمخشري : فإن قلت : لم طلب أولاً ، وهو وامرأته على صفة العتي والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ، ويرتدع المبطلون . وإلا فمقتد زكريا أولاً وآخرأ ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنى عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السمود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران ، استعظماً لقدرة الله تعالى ، وتعجبياً منها ، واعتداداً بفعلمته تعالى عليه في ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وجل وفضله . مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له . وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أى : أيسكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أى يكون الولد وأنتم كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

« قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً » أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحمل ، ليطمئن قلبي « قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أى : أن لا تقدر على تكليمهم ، حال كونك سوياً ، بلا مرض في بدنك ، ولا في لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالى » هنا ، و (الأيام) في آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجاوز أو تكتفى بأحدهما عن الآخر . والنسكتة في الاكتفاء بـ (الليالى) هنا وبـ (الأيام) ثم ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول . وتلك مدنية . والليالى عندهم سابقة على الأيام . لأن شهورهم وسننهم قمرية ، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، في التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ » أى مصلاه أو غرفته « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ » أى أشار إليهم رمزاً « أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أى صلوا لله طرفى النهار . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)

« يَا يَحْيَى » استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنشاء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم^(١) بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه . أى : قلنا (يا يحيى) « خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ » أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . « وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد فى الخير ، وهو صبيٌّ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)

« وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا » أى وآتينا حناناً : وهو التحنن والتمطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه « وَزَكَاةً » أى طهارة من الذنوب ، وعصمة بليغة منها « وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا » بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا « أى متكبراً عاقباً لها ، أو عاصياً لربه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

« وَسَلِّمْ عَلَيْهِ » أى من الله « يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » أى ليستقبل النعيم الأبدى . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات . وفيه معنى التحية والتشريف .

وفى ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة فى العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) « وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ انْتَبَذَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقى بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) « فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فتصور لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوى الخلق ، كامل الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) « قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ » أى أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها فى خلوتها ، وظنها أنه يريد لها على نفسها . وفى ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالى بالاستعانة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإني عائذة به . أو فلا تتعرض لى . وإنما ذكرته بالله تعالى ، لأن المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . نخوفته أولاً بالله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) « قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ما توهمت . فإني رسول ربك

الذى استعذت به ، بمعنى إليك « لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا » أى لا تكون سبياً في هبته .
و (الزكى) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا
وقالت : كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجد منى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟
قال الزمخشري : جعل المس عبارة عن الفساح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله
تعالى ^(١) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) ^(٢) (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) والزنى ليس كذلك . وإنما
يقال فيه (فَجَّرَ بَهَا) ، وخبث بها) وما أشبه ذلك . وليس بَقِيمٍ أن تراعى فيه الكنايات والآداب .
وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله ^(٣) (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) لكون هذه السورة
متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها . وقيل :
جعل المس ثم ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و (البغى) الفاجرة التى تبغى الرجال .
ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل
كصبور . أو فاعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ ، وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا)

« قَالَ » أى الملك « كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ » أى

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٤٧] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم. نخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه «وَرَحْمَةً مِنَّا» أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيمتدنون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا» من تنمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كفى به عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى (١): (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال (٢) (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها، عن الله تعالى، ما قال، مما تقدم، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ في جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا)

« فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

(١) [٦٦ / التحريم / ١٢] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٩١] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و (أجا) - قال الزمخشري - منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد في بطنها للخروج « قَالَتْ يَا أَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » أى الحمل « وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا » أى شيئاً نافهاً ، شأنه أن ينسى ولا يعتمد به . منسياً لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولد ، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللأئمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة ، وبصد ماقرت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام - قال الزمخشري - لأنه مقام دحض ، فلما ثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به - عيباً يعاب به ويمنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)

« فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل : هو عيسى ، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلًا رفيعاً ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا)

« وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا » أى حضراً أو أن اجتنائه . قال الزمخشري : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به ، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير خل ليس بيدع من شأنها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّ نَذْرَتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)

« فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا » أى بالسكال والولد المبارك ، الموجود بالقدره ، الموهوب بالعناية . قال الزمخشري : أى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين : إحداها الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) أى وطبى نفسا ولا تغمى . وارفضى عنك ما أحزنك وأهmk « فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » أى من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب ، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألك « فَقُولِي إِنَّ نَذْرَتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » أى لا تكلمهم فى أمرك شيئاً . ولاتأديهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرت بذلك لكرهه مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع فى براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أى صمتاً . وقوله (فَلَنْ أُكَلِّمَ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)
(فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) أى عظيماً منكراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَسْأُخَتَّ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا)

« يَسْأُخَتَّ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا » استئناف

لتجديد التعبير ، وتأكيده التوبيخ ، وتقدير لكون ما جاءت به فريا . و (هارون) هو

النبي الشهير ، صلوات الله عليه يعفون أنها مثله في الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل

بمعنى (المشابه) كثيرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا)

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا » منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا »

ولم يمهّد تسكليم عاقل لصبي في المهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)

[٣١] (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

« قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى

عن الولد ، رداً على من يزعم ربوبيته ونبوته « ءَاتَانِي الْكِتَابَ » أى الإنجيل « وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ » أى كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربي

لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضي

في الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ماسبق في القضاء المحتوم ، أو جعل الآتى ، لا محالة ، كأنه وجد

« وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » أى أمرنى بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

[٣٣] (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

[٣٤] (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٣٥] (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

[٣٦] (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

«وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» أى مستكبراً عن طاعته وأمره «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ» أى الذى فصلت نعمته الجليلة وخصائصه الباهرة «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم ، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه «قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ» إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ * أى : ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى (١) «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» ثم أشار إلى تنمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٠ و ٥٩] .

تنبيهات في فوائد هذه القصة

الأول - لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ، ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما في آل عمران ، وهما ، وفي سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و (مريم) هي بنت عمران . من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران . وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه قبلها ربهما بقبول حسن . وأنتها نباتًا حسنًا فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت في كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم في سورة آل عمران .

الثاني - استدل بقوله تعالى^(١) : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) من قال بنبوة مريم . واستدل بقوله تعالى عنها^(٢) . (يَلْمِزْنِي مِتْ قَبْلَ هَذَا) على جواز تمنى النون لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى^(٣) . (وَهَزَى إِلَيْكَ الْجِدْعَ الْفُجْعَةَ) على التسبب في الرزق ، وتكافؤ الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزِّه
وهزَّيْ إِلَيْكَ الْجِدْعَ يَسَاقُطِ الرُّطْبُ إِلَيْهَا . ولكن كلُّ شيءٍ لَهُ سَبَبٌ

وفي الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : (فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ) (بَدَا) (فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلانا) لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشري ، قال :

(١) [١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [١٩ / مريم / ٢٣] . (٣) [١٩ / مريم / ٢٥] .

ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . وفي قوله تعالى (مَا كَانَ أَبُوكِ أُمْرًا سَوْءًا) معنى قولهم في المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفسس .

الثالث - نقل الرازي عن القاضي في قوله تعالى^(١) : (وَأُسَلِّمُ عَلَى) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى . ولابد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة : وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والخافات في كل الأحوال .

الرابع - قال القاشاني : وإنما تمثل لها بشراً سوى الخلق حسن الصورة ، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيال في الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتتزل كما يقع في المنام من الاحتلام وتفقد نفطها في الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مر أن الوحي قريب من المنامات الصادقة ، لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم . فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية ، يسرى في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نقطة واحدة . لأنه ثبت في العلوم الطبيعية أن منى الذكر في تكوّن الولد ، بمنزلة الإنقحة في الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن ، أي العقدة من منى الذكر والانقادة من منى الأنثى . لاعلى معنى أن منى الذكر يفرد بالقوة العاقدة ومنى الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة في منى الذكر أقوى . والمنعقدة في منى الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحد شيئاً واحداً . ولم ينمقد منى الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قوياً فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى السكينة اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من السكينة اليسرى مقام مئى الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الوالد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وبغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحاني ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) فى اللوح مقدرآ فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأت إليه بقوله : (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فدنا منها فنفخ فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا . كالغلمة مثلاً والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعلى لوجوده كما قال : (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس - التمثيل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر .

فال إمام الحرمين : تمثل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعد .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى في الجسد حياً . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً ، بل بعادة أجزاها الله تعالى في بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة .

وقال البلقيني : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصلي . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن ، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة ، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه . والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرأي فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر في فتح الباري .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحط بكنهه . فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم عليه السلام فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة .

السادس - قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فخرقه اليهود إلى (عيسو) تهـ كما
فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنى على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ

يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ » أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى ، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى في أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه . وهذا من فضله تعالى ومنه « قَوْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى بالذين كفروا ، المختلفين . عبر عنهم بالموصول إيداناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلّة الحكم . وفى (مَشْهَدٍ) ستة أوجه . لأنه مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من (الشهود) أى الحضور أو (الشهادة) . وهذا معنى قول الزمخشري : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل : معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه . فعظمه لعظم ما فيه أيضاً . كقوله ^(١) (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا ، لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه أن أسمعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صامعيًا . والآية كقوله تعالى ^(٢) (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(١) [١٨ / الكهف / ٥] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشري : أوقع الظاهر أعنى (الظالمين) موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أول التعجب في الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام ما لا يدرك سببه . ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهي كقوله تعالى ^(١) (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين في تأويل ما يشترك في الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقة الساف المحققين إثبات ماورد به السمع مع نفى التشبيه . إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق . فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذي يجب أن يكون عليه جل جلاله . فما يقدر في حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون في حقه تعالى مستلزماً لذلك . كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا ، يستلزم من النقص والحاجة ، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزّه في وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتي لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ، الغنى له أمر ذاتي لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حيّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال ، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا . فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه في حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون في حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ما قرره الإمام تقي الدين بن تيمية في خلال بعض فتاويه . وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

«وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلُّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة « وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون به اليوم وسيماينونه . ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا في توحيده الخالص ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٤٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)

« وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا » بليغ التصديق بما يجب لله من الوجدانية والتزنية « نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ » أى مُتَلَطِّفًا في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » أى أى فلا يدفع ضرراً ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل . لئلا يركب متن المكابرة والعناد . ولا ينكب ، بالسكينة ، عن محبة الرشاد . حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم . مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام ، والإنعام العام . الخالق الرازق المحيي المميت الثيب المعاقب . ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل ، لداعية صحيحة وغرض صحيح . والشئ لو كان حياً حميراً سمياً بصيراً ، قادراً على النفع والضرر ، مطيقاً بإيصال الخير والشر ، لكن كان ممكناً ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته . وإن كان أشرف الخلائق . لما رآه مثله في الحاجة والانتقاد للقدرة القاهرة الواجبة . فما ظنك بجهاد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) « يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا » أى معتدلاً لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق ، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق ، وكذا فى باب الأخلاق والأعمال . قال المهايى : أى وإن كان حق الابن اتباع الأب فى العرف ، لكنه باطل . لأن الحق اتباع الصواب . قال الزمخشري : نئى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترقياً به متلطفاً . فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى . فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير ، وعندى معرفة يالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتنتيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَسْأَلُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)

« يَسْأَلُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » .

نلت عليه السلام بتبسيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة، مستجلب لضرر عظيم، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان. لما أنه الأمر به والمسؤل له، وقوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ) الخ تعليل لموجب النهي وتأكيده، ببيان أنه مستمع على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم. ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص. والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والاقصصار على ذكر عصيانه من بين سائر جزائاته، لأنه ملاكها. والتعرض لعنوان الرحمانية، لإظهار كمال شناعة عصيانه. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَسْأَلُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

وَلِيًّا)

« يَسْأَلُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ » لكونك عصيته واليت عدوه، فيةقطع رحمته عنك، كما قطعها عن الشيطان « فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » أى مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه .

قال الزخشرى: رُبَّع عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبان. ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال (أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب. وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يَسْأَلُ) توسلاً إليه واستعطافاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ]عَنْ إِلَهِتِي يَا بَرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا)

« قَالَ » أى أبوه ، مصرًّا على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي يَا بَرَاهِيمُ » أى : أ معرض ومنصرف أنت عنها . وإنما قدم الخبر على البدأ ، لأنه كان أهم عنده . وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلاً عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسليّة للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمك بالحجارة « وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا » أى تباعد عني زماناً طويلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)

« قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى مبالغاً فى اللطف بى . وفى جوابه بقوله عليه السلام (سَلَامٌ عَلَيْكَ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى ^(١) (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) أى لا أصيبك بمكروه بعد . ولكن سادعوا ربى أن يغفر لك . كما قال ^(٢) (وَأَغْفِرْ لِأَبِي) قال الزمخشري : وفى الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعاه بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى (الإكليل) : استدلل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٦] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام . وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق في قوله ^(١) (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقد استغفر المسلمون لقربائهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . حتى أنزل الله تعالى ^(٢) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) إلى قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) يعني إلا في هذا القول ، فلا تناسوا به . ثم بين تعالى أن إبراهيم أقبل عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى ^(٣) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَعْتَزُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)

« وَأَعْتَزُّكُمْ » أى أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشري : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائلها . ومنه قوله عليه السلام ^(٤) : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى ^(٥) (فَلَمَّا أَعْتَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٦٠ / المتحنة / ٤] . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣ و ١١٤] .
(٤) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٦ - حدثنا هناد ، عن النعمان بن بشير . (٥) [١٩ / مريم / ٤٩] .

« وَأَدْعُوا رَبِّي » أى أعبدوه وحده « عَسَىٰ أَن لَّيْسَ لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ حِشَابٌ » أى خائباً ضائع السعى . وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة (عَسَى) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَلَمَّا أُعْتِزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

« فَلَمَّا أُعْتِزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا » أى ما عُرف فيهم من النبوة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة « وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » أى ثناءً حسناً . عبّر بـ (اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبّر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهى العطية . وإضافته إلى الصديق ووصفه بالعلو ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن مجاهدتهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٢] (وَنَسِيتُ نَسْئَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)

« وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ » إذنه و كان مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتح ه . أى أخلصه الله ، أى اصطفاه ، كما قال ^(١) (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ) « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ » أى من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدتها فوجدناها ثمة . فنودى عندها « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » أى مناجياً ، أى كليماً . إذ كلمناه بلا واسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره فى أداء الرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ، إِنَّهُ وَكَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)

[٥٥] (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)

« وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلاً . وقوله « إِنَّهُ وَكَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » تعليل للأمر . وإيراده عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء ، تشریفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح ، فوقى به حيث قال ^(٢) (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) وهذا أعظم ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلعة . ولذا كان ضدها نقافاً ، كما صرحت به الأخبار . « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ » أى كان يبدء أهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٤] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] .

الْأَقْرَبِينَ) ^(١) (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ) ^(٢) (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) ^(٣) ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الديني أولى. أفاده الزمخشري. «وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرَضِيًّا» أى لا تصافه بالنعوت الجليلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٥٧] (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

«وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى . فالعلو معنوى . أو رفعه بجسده حياً إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرَجْلَاكَ فِي عَافِيَةٍ

انتهى . ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين ^(٤) عن أنس فى حديث المعراج ؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة . وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب ، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٢] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَةُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)

(سجدة)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن ذكرها إلى إدريس عليه السلام . وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل . وقوله تعالى : « الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أي بمنون النعم الدينية والدينية « مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا » أي هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوّة والكرامة « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَةُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علو الرتبة . وسمو الزلفى عنده تعالى . وفي الآية استعجاب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة مريم فسجد . وقال : هذا السجود فائِن البُكْي .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سيفالهم ، بقوله سبحانه :

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير (طبعة الحلبي)

(الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ » أى فاتوا بما ينافى البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال، من الانهماك فى المعاصى التى هى بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى شرًّا. قال الزمخشري: كل شر عند العرب غيٌّ، وكل خير رشاد. قال المرفئ (١) :

فمن يلقَ خيراً يحمده الناسُ أمره ومن يَغوَ لا يعمدُ على الغيِّ لأمره
أى من يفعل خيراً، يحمده الناسُ أمره. ومن يفعل الشر لا يعمد اللوائم على فعله، وقيل: أراد الشاعر بالخير المال، وبالغي الفقر. أى ومن يفتقر. ومنه (٢) القائل :

والناس من يلقَ خيراً قائلون له ما يشتهى. ولأَمَ الخطيئِ الهَبْلُ
أى الشكل. ويجوز أن يكون المعنى جزاء غيِّ. كقوله تعالى (٣) (يَلْقَى أَثَمًا) أى شرًّا وعقابًا. فأطلق عليه كما أطلق الغيِّ على مجازاته المسيبة عنه، مجازاً. أو (غِيًّا) ضلالاً عن طريق الجنة. فهو بمعناه المشهور.

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من الفضلية السادسة والخمسين. ومطلعها :

أَلَا يَا اسْمَى . لَا صُرْمَ لِي الْيَوْمَ فَاطِمَا وَلَا أَبَدًا ، مَا دَامَ وَصْلُكَ دَائِمًا

(٢) قائله القطامى . أجد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إِنَّا مُحْيِيُوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَلَيْتْ ، وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّوْلُ

وطال طولك ، أى عمرك . (٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)

[٦١] (جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) «إِلَّا مَنْ تَابَ» أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات «وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ» متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار . أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم ، أفاده أبو السعود «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا» أى لا يخلفه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [٦٣] (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)

«لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا» أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزخشرى رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله (١) سبحانه : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمُ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (٢) نفوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنيننا .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

ومعنى (إِلَّا سَلَامًا) أى تسليماً . وهو تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال ^(١) : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، السرودة فى مواضع شتى من آى القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم - عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردّاً لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره ، تسليمة له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على ما زعمه هؤلاء الخلف . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُوَ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

«وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُوَ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى ينسى شيئاً ما ، بل لا يفيض علماً ولا ينزل ملكاً إلا بالحكمة يستعملها الحال ، أى فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركة تعالى لك وتوديعه إياك . وفى إعادة اسم (الرب) للمعرب عن التبليغ إلى السكال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلّة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأُصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

«رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أى من التوابع والنجيمات والسحب وغيره ذلك .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة ، من أن السموات عنى بها الكواكب ، والأرض كوكب منها . قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من يده ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ » أى اثبت لها على الدوام . وقوله « هَلْ تَعْلَمُ لَهُو سَمِيًّا » أى مثلاً وكفوفاً ، فتلفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك . والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أى إذا صح أن لا مثله ، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بد من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أى يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج حياً بعد ما لبثت فى القبر مدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)

« أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » أى قبل جمعه تراباً ونطفة . وكان عدماً صرفاً لا وجود له فى الأعيان . فلا تبعد إعادته .

قال أبو السعود : وفى الإظهار موضع الإضممار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور . وهو السر فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أى ما أعجب الإنسان فى إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذى أعطى العقل لينظر فى العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغوؤهم وأضلوا عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع (جث) . من (جثا) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى (١) (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)

« ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى الفار ، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن ، الذى رحمه بإزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل ، (عِتِيًّا) أى جراءة ، بإثارة الشهوات على أمره وعدم مبالاة به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا)

« ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا » وهم المنزعون . فإنهم أولى الشيع . إذ ضلوا وأضلوا ، لأجل لذات الدنيا وشهواتها . فصاروا أولى بالصلى بها . فيخصون بعداب مضاعف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يَرِدُهَا . « كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

« ثُمَّ » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشري : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجنو حوالها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجايبهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جائين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا)
أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظاً من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأمر نادياً وأكثر طارقاً ووارداً ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مخفقون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً^(١) عنهم : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) وقال قوم نوح^(٢) (أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَتْكُمْ الْأَرْدُلُونَ) وقال تعالى^(٣) : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .
وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا » أى متاعاً « وَرِيعًا » أى منظرًا وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى ^(١) عن قوم فرعون المفرقين (كَمْ تَرَ كُوفًا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) و(رِيعًا) فعل بمعنى مفعول كالطاحن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ

إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)

« قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبل ، ومن شا كلهم ، (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ) أى يمد له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبي عنه قوله تعالى ^(٢) : (أَوْ لَمْ تُنَمِّرْ كُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال . أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بين سبحانه غاية المد بقوله :

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا » أى فئة وأنصاراً .

(١) [٤٤/ الدخان / ٢٦ و ٢٥] . (٢) [٣٥/ فاطر / ٣٧] . (٣) [٣/ آل عمران / ١٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا)

« وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ » أى الأعمال التى تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » أى مرجعها . وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا) « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ » أى فى الآخرة « مَالًا وَوَلَدًا » أى انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب ، ما أكفره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أُتِّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) « أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أُتِّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » أى بذلك ، لأنه لا يقوّل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا) [٨٠] (وَنَزِثُهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمؤاخذه به « وَنَعُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا » أى نضعفه له ، جزاء لاستهزائه « وَنَزِثُهُمْ مَا يَقُولُ » أى نزع عنه ما آتيناه من مال وولد ،

فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فإى يجدى عليه تمنيه وتأليه .

وقد روى البخارى^(١) : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت قينا - حدادًا - فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفًا ، فجئت أتعاضاه فقال : لا أقضيك حتى تسكفر بمحمد . قات : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال . فذرنى حتى أموت ، ثم أبعث فسوف أوتى مالا وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : ف ضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيْلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيْلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» أى ليعتزوا بهم ، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عز وجل ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

« كَلَّا » أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا « سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » أى سيجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أى يريدون إهلاكهم ، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى^(٢) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٢٩ - باب ذكر القين والحداد ،

حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥٥] . (٣) [١٦ / النحل / ٨٦] .

فَأَقْوَا إِلَيْهِمْ أَقُولَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (قيل : المراد بالآلهة من عُبدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى بأن سَلَطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَمَكَّنَّاهُمْ مِنْ إِضْلَالِهِمْ . أَوْ قِيضْنَاهُمْ لَهُمْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ « تَؤْزُهُمْ أَزًّا » أى تَغْرِيزُهُمْ وَتَهْيِجُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي ، بِالتَّسْوِيلَاتِ وَتَحْبِيبِ الشَّهَوَاتِ ، تَهْيِجًا شَدِيدًا .

قال الزمخشري : الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحمتهم ومعاندتهم للرسول ، واستمزازهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانقضاء الشك عنه ، وانهما كهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسول لهم . فهذه الآية كالتذليل لما قبلها وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا)

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى يوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم . و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا » تعليل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما تؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى ^(١) (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ) .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقتله لتقصّيه وفنائه ، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما تقد) ولا ينافي هذا ما مرّ من أنه يمد لمن كان في الضلالة . أى يطول . لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم . وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله . والله درالقائل :
 إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
 وكيف يفرح بالدينيا ولذتها فتى يعدّ عليه اللفظ والنفس

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)

« يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على المظاء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتمظيمهم ، المزور والزائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا)

« وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا » أى عطاشا . وفي ذكرهم بالنسوق إشعار بإهانتهم واستخفافهم . كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد : الذهاب إلى الماء ، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

« لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقدم ذكرها في قوله ^(١) (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) ردّ على عابديهم في دعواهم

أنهم شفعواهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر . يقال : أخذت الإذن في كذا واتخذته بمعنى . من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لا يشفع إلا للأمور بالشفاعة ، المأذون له فيها . وتعضده مواضع في التنزيل ^(١) « وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » ^(٢) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ) ^(٣) (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ وَقَوْلًا) ونحو هذه الآية قوله تعالى ^(٤) (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ولما قرر تعالى في هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، عطف عليه حكاية جنائيتهم من دعوى البنوة له ، مهولاً لأمرها . وكذا جنائية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابناً أو بنتاً له ، تعالى وتقدس - عطف قصته على قصته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)

[٨٩] (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » أى عظيماً منكراً . وفي رد مقاتلهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المصحح عن غاية التشنيع ، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| (١) [٥٣ / النجم / ٢٦] . | (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . |
| (٣) [٢٠ / طه / ١٠٩] . | (٤) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] . |

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)

[٩١] (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)

[٩٢] (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[٩٣] (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا)

« تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشققن « وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . » أن « أى لأن « دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانى الأحدى أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفاء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج . وماله مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * » إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والذل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)

[٩٥] (وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا)

« لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الاتباع والأنصار ، وعن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوى الكفرة ، تأثره بحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى يفرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تكسب الود . كذا قالوا فى تأويله . وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون . قال : والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده . ومن كلامهم : وددت لو كان كذا . أى أحببت . فعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم : وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها - كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يفضيه الكفار وقد يفضيه كثير من المسلمين ؟ وثانيها - أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر ، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها - أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حل الآية على إعطاء المنافع الآخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازى التوىه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا)

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، بالجنة « وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا » أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش . فإنهم أهل لد و جدل بالباطل ، لا يقبلون الحق (والدد) شدة الخصومة . والباء فى قوله (بِلِسَانِكَ) بمعنى (على) . أى على لفتك . أو ضمن (التيسير) معنى (الإزال) أى يسرنا القرآن ، منزلين له بلغتك ، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه . قال الرخشرى : هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلغ هذا المنزل ، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أى فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازى : بين به هذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيء وهو اللدد . لأن الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ » أى قوم لدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ » أى تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أى صوتا خفيا . والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠ - سُورَةُ طه

وهي مكية . وقيل : إلا قوله تعالى ^(١) (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) الآية . وقوله ^(٢) (وَلَا تَحْزَنْ عَيْنُكَ) الآية ، وآياتها مائة وخمسة وثلاثون .

(١) [٢٠ / طه / ١٣٠] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طه)

[٢] (مَا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[٣] (إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى)

« طه » قدمنا أن الحق في هذه الحروف التي افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففي مجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى في (الكافية الشافية) بقوله :

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحرفها ترى سرّاً عظيم الشأن
لم يأت قط بسورة إلا أتى في إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها . وفي هذا الشفاء لطالب الإيمان
ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيين
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ أعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضاً ومع حم مع يس وافهم مقتضى الفرقان

« مَا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » أي لتتعبد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و (الشفاء) في معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : « إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى » أي تذكيراً له . أي (مَا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) لتتعبد بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإلذار . والقصد أنه ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة . وقد جرت السنة الإلهية

في خطاب الرسول في مواضع من التنزيل ، أن ينهائهم عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، كقوله تعالى (١) : (فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ) (فَلَعَلَّكَ بِخَيْخِئَةِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ) (٢) (وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْكُفْرِ) (٣) وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفي ذلك كله من تكميم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة ، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى)

[٥] (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)

« تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ » قرئ بالرفع على المدح . أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول . وقوله « عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير (٤) . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والساطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلاً .

وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً . قال ابن كثير : والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكيف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيق موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتأثير والنظام .

(١) [٧ / الأعراف / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٦] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس

عشر من تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ)

« لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ » .

بيان لشمول قهره وملكوته لكل . أى كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره .
لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأُكْوَلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ)

« وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأُكْوَلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ » .

بيان لكمال لطفه . أى علمه نافذ فى الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر .
فكذلك إن تجهر وإن تحفت ، فيعلمه بجهر وخفت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)

« اللَّهُ » أى ذلك المنزل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » أى الفضلى ، لدالاتها على معانى التقديس والتجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التى هى النهاية فى الحسن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَهَلْ أُنَمِّكُ حَدِيثُ مُوسَىٰ)

[١٠] (إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا

بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

« وَهَلْ أُنَمِّكُ حَدِيثُ مُوسَىٰ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبي لاسيا أشهرهم نبأ ، وهو موسى عليه السلام . فقد خوطب بقوله تعالى ^(١) (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) وبه ختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله ^(٢) (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أو تقرير لسعة علمه البين في قوله تعالى ^(٣) (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَلٍ) الخ لقوله بعدُ (وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا) ^(٤) أو لها معا . أو لحله ، صلوات الله عليه ، على التأسى بموسى في الصبر والثبات . لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر ، وكانت العاقبة له . وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام ، إلى كيفية ابتداء الوحي إليه ، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته . فأضل الطريق . وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء . وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، كما قصه تعالى بقوله « إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا » أي أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ » أي بشعلة مقتبسة تصطلون بها : « أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى » أي هادياً يدلني على الطريق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ)

[١٢] (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« فَلَمَّا أَتَاهَا » أي النار « نُودِيَ يَمُوسَىٰ » أي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » أي فيجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه ، كما يراعى أدب القيام عند الملوك (وطُوًى) اسم للوادي .

(١) [٢٠ / طه / ١٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٧] . (٤) [٢٠ / طه / ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَنَا أُخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ)

[١٤] (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[١٥] (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ)

« وَأَنَا أُخْتَرْتُكَ » أى اصطفتك للنبوة « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ » أى للذى يوحى .
أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي » أى خصنى بالعبادة
« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل
حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خست الصلاة بالذكر وأفردت
بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيظت به من ذكر المعبود وشغل
القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى (لِذِكْرِي) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى
لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لتذكرى
خاصة لا تشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لا ترائى بها ، ولا تقصد
بها غرضاً آخر . أو لتكون ذا كراً لى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ »
أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار
منها . واللام متعلقة بـ (آتية) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفى (كاد) معنى القرب
من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها - أن (كَادَ) منه تعالى واجب . والمعنى أنا أخفيها عن الخلق . كقوله ^(١) (عَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) أى هو قريب .

ثانيها - قال أبو مسلم : (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله ^(٢) : (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ)

(١) [١٧ / الإسراء / ٥١] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير (أَكَادُ) : (أريد) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جني في (المحتسب) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله ^(١) .

كَادَتْ وَكَدَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى
بمعنى أرادت . لقوله (تلك خير إرادة) .

ثالثها - أن (أَكَادُ) صلة في الكلام . قال زيد الخيل ^(٢) .

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحه فإِنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ
رابعها - أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالا ولا أقول هي آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن في إجمال ذكرها حكمة ، وهي اللطف بالمؤمنين ، لحثهم على الأعمال الصالحة ، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم . وثمة وجوه آخر لا تخلو من تكلف ، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

« فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك الفطر والاستدلال . « فَتَرْدَى » أى فتهلك .

قال الزمخشري : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شيء أطم على الكفرة ، ولا هم أشد له نكيرا من البعث . فلا يهولك وفور دهمهم ، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك . واعلم أنهم ، وإن كثروا تلك الكثرة ، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

(١) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسم

قائله . وفيه (لو كان) عوضا عن (لو عاد) .

(٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

واتباعه . لا البرهان وتداركه . وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردي مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ)

[١٨] (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ)

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ » شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفي الاستفهام إيقاظه وتنبيه على ما سيدوله من عجائب الصنع « قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا » أى أعتد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة « وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجات أخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ)

[٢٠] (فَالْقَمَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

[٢١] (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ)

« قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ » * فالْقَمَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنفع بها كما كنت تنفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ ۚ آيَةً أُخْرَىٰ)

[٢٣] (لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى)

« وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ » أى إبطك « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ » أى نيرة « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى قبيح وعيب كبياض البرص مما يفتر عنه . واعتمد الزمخشري ؛ أن قوله تعالى (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) كناية عن البرص . كما كنى عن العورة بالسوءة ، قال : والبرص أبيض شئ إلى العرب ، وبهم عنه نقرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه بحاجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى . « آيَةً أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرأ بعد التحدى والمناظرة ، لنريك أولاً بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

« أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تهديد المقدمات السالفة . فُصِّل عما قبله من الأوامر إيداناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذرته نقتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُ طَغَىٰ » أى جاوز الحد فى التكبر والعتو ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلا بد من تنبيهه على طفياه بالدلائل العقلية ، التى صدقتها المعجزات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ اُشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[٢٦] (وَيَسِّرْ لِي اَمْرِي)

[٢٧] (وَاُحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي)

[٢٨] (يَفْقَهُوا قَوْلِي)

« قَالَ رَبِّ اُشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي اَمْرِي * وَاُحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أظنى الملوك وأبلغهم تردداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمدَّ بمنطق فصيح ، لما في لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال ^(١) (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) وقول فرعون ^(٢) (وَلَا يَسْكَادُ يَمِينُ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رداءً ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي)

[٣٠] (هَارُونُ أَخِي)

[٣١] (أَشَدُّ بِهِ اَازَرِي)

« وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونُ أَخِي * أَشَدُّ بِهِ اَازَرِي » أى قوّ به

ظهرى .

(١) [٢٨ / القصص / ٣٤] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۲] (وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي)

[۳۳] (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)

[۳۴] (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)

[۳۵] (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)

« وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يزايد به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالمًا بأحوالنا ، وبأن الدعوة به مما يفيدنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ)

[۳۷] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ)

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطین نفس موسى عليه السلام بالقبول ، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فَلَا نَ يَنْعَمُ عَلَيْهِ بِمَثَلِهَا وَهُوَ طَالِبٌ لَهُ وَدَاعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .
وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَىٰ » أى في وقت آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ)

[٣٩] (أَنَّ أَعْدِيهِ فِي النَّابُوتِ فَأَعْدِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ

عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)

« إِذْ أَوْحَيْنَا » أى الوحي بطريق الإلهام « إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ » أَنَّ أَعْدِيهِ فِي النَّابُوتِ

أى الصندوق « فَأَعْدِيهِ فِي الْيَمِّ » أى البحر، متوكلة على خلقه « فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي » لدعواه الألوهية « وَعَدُوٌّ لَهُ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشري : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته - أن لا تخطئ جرية اليم، الوصول به

إلى الساحل ، وإلقاءه إليه - سلك في ذلك سبيل المجاز. وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك،

ليطيع الأمر ويمثل رسمه . ف قيل (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) أى على سبيل الاستعارة

بالكتابة . بتشبيه اليم بأمور منقاد . وإثبات الأمر تخييل ، وقوله تعالى « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

مَحَبَّةً مِنِّي » أى : واقعة مني ، زرعتها في قلب من يراك . ولذلك أحبك فرعون « وَلِتُصْنَعَ

عَلَىٰ عَيْنِي » أى ولتربى بيد العدو على نظرى بالحفظ والعناية . (فلى عيني) استعارة

تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى . قيل : (على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى

منى ، فى الأصل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ

إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَكَلَّمْتُ نَفْسًا فَانْجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ

وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ)

« إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ » أى يضمن حضنته ورضاعته .

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأبأها كما قال تعالى^(١) (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) فجاءت أخته فقالت^(٢) (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُوهُ وَلَكُمْ وَهُمْ لَهُ وَلَوْ نَصِصُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْتِكَ إِلَى أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العسود « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه من زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى مامن عليه بالنجاة من القتل الذى لا يدفع بـتليس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » أى من آل فرعون ، وهو القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى ، إذ وكزه موسى ففضى عليه . أى : فاغتممت للقصاص « فَتَجَمَّعَتِ مِنَ الْغَمِّ » أى غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه . وذلك أنه عليه السلام فر من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٣) « وَفَعَّلْنَاكَ فُتُونًا » أى ابتليناك ابتلاء . على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلناك فرجاً ومخرجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكفى المؤونة فى عشرة أتنى رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى » أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلك وأستنبئك فى وقت يمينه قد وقته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (يَمُوسَى) تشرىف له عليه الصلاة والسلام، وتنبية على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولاً . وقوله تعالى :

(١) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٣) [٢٨ / القصص / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[٤٢] (أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي)

« وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » تذكير لقوله تعالى (وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جعله محلاً لا لكرامه باختياره وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه ، فاستعير استعاره تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبياً مكرماً كلياً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى (وَفَقَّيْتُكَ) ونظيره السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام ، فإنه أدخل في تحقيق معنى (الاصطناع) و (الاستخلاص) . ثم بين ماهو المقصود بـ(الاصطناع) بقوله سبحانه « أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي » أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي » أى لا تفترا ولا تقصرا في ذكرى بما يليق بى من النعوت الجليلة ، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

[٤٤] (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)

« أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ » أى عقابى . فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ، ويلين عريكة الطغاة . وقد بين ذلك في قوله تعالى^(١) (فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) وبمثل ذلك

(١) [٧٩ / النازعات / ١٨ و ١٩] .

أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله ^(١) : (اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبُلْغَى هِيَ أَحْسَنُ) وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما ، لامن الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضي : أى باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يشعر ولا يخيب سعيكما . فإن الراجي ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة في إرسالها والمبالغة عليهما في الاجتهاد - مع علمه بأنه لا يؤمن - إلزام الحجة ، وقطع المذرة ، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

[٤٦] (قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

« قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا » أى يبادرنا بالعقوبة « أَوْ أَنْ يَطْغَى » أى يزداد طغياناً بالعناد ، فى دفع حججنا ، ثم يأمر بقتلنا . أو بالتخلى إلى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثانى الزمخشري . وأفاد ؛ أن فى المجىء به هكذا على الإطلاق ، وعلى سبيل الرمز ، باباً من حسن الأدب ، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة : « قَالَ لَا تَخَافَا » أى من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَا » أى بالحفظ والنصرة « أَسْمَعُ وَأَرَى » أى ما يجرى بينكما وبينه . فأرعاكما بالحفظ . فالفعل محذوف للقرينة ، أو نزل منزلة اللازم تنميماً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمَّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَأَنِّيَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ،

قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ)

« فَأَنِّيَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بإطلاقهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تَعَذِّبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على ألطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

« إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا » أى من ربنا « أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ)

[٥٠] (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَثُمَّ هَدَىٰ)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَثُمَّ هَدَىٰ » أى منح كل شىء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواء بها وعدله ، ثم هداها بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهذه الآية في معناها كآية^(١) (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) وآية^(٢) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ)

[٥٢] (قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ » * قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى « أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخاطبة والتكذيب ، بالعناد واللجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ ، محصى غير منسى . ويجوز أن يكون (فِي كِتَابٍ) تمثيلاً لتمكنه وتقريره في علم الله عز وجل ، بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة . قال في العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه في جريدته ، حتى لا يذهب أصلاً ، فيكون قوله (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزله عنه . فد (الكتاب) على هذا بمعناه اللغوى . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

(١) [٩١ / الشمس / ٨٧] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى)

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا » أى فراشاً « وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى » أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشريّ قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . يصرف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى) ثم قوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) إلى قوله (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون من باب قول خواص الملك (أمرنا وعمرنا) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله (وَلَا يَنْسَى) ثم ابتداء الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب . وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وقفة عند قوله (وَلَا يَنْسَى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجهاً آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة . فقال (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى) فلما حكاه الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته . لأن الحاكي هو المحكى فى كلام موسى . فرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشريّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى)

[٥٥] (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ » حال من ضمير (فَأَخْرَجْنَا) على إرادة القول « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى * مِنْهَا » أى من الأرض « خَلَقْنَاكُمْ » أى خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائل « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أى بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » أى بردهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتو فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)

[٥٧] (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى)

[٥٨] (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْتًا مَّوْعِدًا لَا تَخْلِفْهُ وَنَحْنُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى)

« وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا » أى من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْتًا مَّوْعِدًا لَا تَخْلِفْهُ وَنَحْنُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى » أى مستويًا واضحًا مجمعا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)

[٦٠] (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ)

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ كِتَابُ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ

وَقَدْ خَابَ مِن أَفْتَرَىٰ)

[٦٢] (فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ)

[٦٣] (قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ)

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصيح والإنذار ، لينقطع عذرهم « وَيَلَكُمْ كِتَابُ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتهم على الله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ » أى يستأصلكم « بِعَذَابٍ » أى هائل لغضبه عليكم « وَقَدْ خَابَ مِن أَفْتَرَىٰ * فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا » أى بطريق التناجى والإمرار « إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ » أى بمذهبكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، يجعله عبداً لغيره ، واستقرارهما في مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذي يريدان إيجازكم به . و (الْمُثْلَى) تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

في قوله تعالى (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَٰنِ) قراءات .
الأولى - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَٰنِ) بتشديد النون من (إِنَّ) و (هَٰذَا نِ) بالياء وهي قراءة أبي عمرو ، وهي جارية على السَّنِ المشهور في عمل (إِنَّ) .
والثانية - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَٰنِ) بتخفيف (إِنَّ) وإيهالها عن العمل ، كما هو الأكثر فيها إذا خففت ؛ وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى (إِلَّا) و (إِنَّ) قبلها نافية ، واستدلوا على جحى اللام للاستثناء بقوله (١) :

أَمْسى أَبَانٌ ذَلِيلًا بَعْدَ عِزَّتِهِ وَمَا أَبَانٌ لِّمَنْ أَعْلَاجُ سُودَانَ
والثالثة - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَٰنِ) بتشديد (إِنَّ) و (هَٰذَا نِ) بالالف . وخرّجت على أوجه :

أحدها - موافقة لغة من يأتى في المثني بالالف في أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وَزُبَيْدٌ وكنانة وآخرون . قال قائلهم (٢) :

* تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ طَعْنَةً *

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من (مغنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من (شذور الذهب لابن هشام) وعجز البيت :

* دَعَتْهُ إِلَى هَائِي الترابِ عَقِيمُ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا
ثَانِيهَا - إِنَّ (إِنَّ) بمعنى (نعم) حكاه المبرد . واستدل بقول الرازي (٢) :
يَا عَمْرُ الْخَيْرِ جُزِيتَ الْجَنَّةُ أَكْسُ بُنْيَانِي وَأُمَّهُنَّ
وَقُلْ لَهُنَّ : إِنَّ أَنْ إِنَّهُ أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهُ
وقول (٣) عبدالله بن قيس الرُّقِيَّات :

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَا لَوْ قَدْ كَبُرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ

وردَّ على المبرد أبو علي الفارسي ، بأنه لم يتقدم ما يحجب (نعم) وأجاب الشمني ، بأن
التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب
للاستخبار الضمني . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس في الاستخبار عن
كونهما ساحرين ، بل هم جزموا بالسحر فقالوا (٤) : (أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ)
ثم أسروا النجوى فيما يقلبان به موسى . إلا أن يقال : محط الجواب قوله (فَأَجْمَعُوا كَيْدَ كُمْ) الخ ،
وما قبله توطئة . وقد رد في (المعنى) هذا التخريج ؛ بأن مجيئ (نعم) شاذ حتى نقاه
بعضهم . ومنعه الدماميني ؛ بأن سيويه والحدائق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام في
(لَسَحَرْنَا) لام الابتداء ، زحلت للخبر . وأبي البصريون دخولها على الخبر . وزعموا
أنها في مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع (إِنَّ) التي بمعنى (نعم)
لشبهها بالموكدة لفظاً .

وأقول : فيه تكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من (مغنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) لم أهتم إليه الآن ، وخصوصا الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من (مغنى اللبيب لابن هشام) . (٤) [٢٠ / طه / ٥٧] .

وثالثها - أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد ، وهو (هذا) جمل كذلك في التثنية ، ليكون الثني كالفراد . لأنه فرع عليه . واختار هذا القول الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء الثني ، إذا كان مفردة مبنياً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفتن لذلك غير واحد من حذاق الفحاة . ثم اعترض بأميرين :

أحدهما - أن السبعة أجمعوا على الياء في قوله تعالى ^(١) : (إِيحْدَى أُبْنَتَى هَاتَيْنِ) مع أن هاتين تثنية (هاتا) وهو مبنى .

والثاني - أن (الذي) مبنى وقد قالوا في تنقيته (الَّذِي) في الجر والنصب . وهي لغة القرآن ، كقوله تعالى ^(٢) : (رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِي أَضَلَّانَا) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء (هاتين) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة (ابنتي) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء في (إِنَّ هَذَانِ لَسَّحِرَانِ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف في (هذان) للألف في (ساحران) . وأجاب عن الثاني بالفرق بين (اللذان) و (هذان) بأن (اللذان) تثنية اسم ثلاثي ، فهو شبيه (بالزيدان) و (هذان) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق في البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إِنَّ هَذَانِ) لحن وإن عثمان رضي الله عنه قال (إن في المصحف لحنًا وستقيمه العرب بألسنتها) وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه .

أحدها - إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن في القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته ؟

والثاني - أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقبح في الكلام ، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف ؟

(١) ٢٨ / القصص / ٢٧ . (٢) ٤١ / فصلت / ٢٩ .

والثالث - أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي .

والرابع - أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ : عَتَّى حِينَ ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقي الدين ملخصاً .

هذا حاصل ما في (المغني) و (الشذور) و (حواشيها) وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اُتُوا صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى)

« فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أى إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج ، والإذهاب ، فأزعموا كيدكم واجملوه مجعاً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « ثُمَّ اُتُوا صَفًّا » أى مصطفىين ، ليكون أهيب في صدور الرائيين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أى فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملائته « الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى » أى علا وغلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ)

[٦٦] (قَالَ بَلْ أَتَقُولُ ، فَإِذَا جِئَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)
« قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَتَقُولُ »

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ » أى التى ألقوها « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى »
أى حَيَاتِ تَسعى على بطونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

[٦٨] (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

[٦٩] (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ ،
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

« فَأَوْجَسَ » أى أحس « فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » وذلك لما جُيِّلَ عليه الإنسان
من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات .
كما أن له من عصاه حيّة « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ
مَا صَنَعُوا » أى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ » فى مقابلة آية ربانية
« وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » أى لا يفوز بمطلوبه ، أى مكانٍ جاء لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى)

[٧١] (قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءِاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي

عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ، فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ
وَلَا صُلْبَنَّاكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

« فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا » أى ألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فألقى السَّحْرَةَ سُجَّدًا ،

لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ

وَمُوسَى قَالَ « أَمَنْتُمْ لَهُ وَقَبِلَ أَنْ أَعِزَّ لَكُمْ إِنَّهُوَ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ » أى فاتفقتم معه ليكون لكم الملك « فَلَا قِطْعَ مِنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خِلَافٍ » أى من جانبيين متخالفين « وَلَا صَلْبَ نَسْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ » أى التى هى أقوى الأخشاب وأخشنها « وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » يعنى أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه ، أو من تخليده فى العذاب (وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف ، ولم يصلبه فى جذوع النخل ، ولم يبقه مصلوباً ، قاله المهاجى . وضعفه الزمخشري بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام ، بدليل قوله (أَمَنْتُمْ لَهُ) أى لموسى . واللام مع الإيمان ، فى كتاب الله ، لغير الله تعالى كقوله تعالى (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقصده إظهار اقتداره وبطشه ، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب فى شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ » أى نختارك بالإيمان والاتباع « عَلَىٰ مَا جَاءَنَا » أى من الله على يد موسى « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا » أى وعلى الذى خلقنا . واختياراً لهذا الوصف للإشعار بعلّة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إثباتهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله (أَمَنْتُمْ لَهُ) وقيل هو قسم محذوف الجواب « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » أى اصنع ما أنت صانعه . وهذا جواب عن تهديده بقوله (لَا قِطْعَ) الخ « إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى فيها وهى لا بقاء لها ، ولا سلطان لك بعدها . وإنما البغية الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ،
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

« إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى » أى ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)
« إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فينقض عذابه
« وَلَا يَحْيَى » أى حياة طيبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)
« وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى » أى
المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)
« جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى »
أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من (الكشاف) و (حواشيه للناصر) .

الأولى - فى تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم ، استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى - صلوات الله عليه - اختيار القائهم ، أولاً ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر ، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بينة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فَأَجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا ، أن يحلمهم مبتدئين بما معهم ، ليكون إلقاء العصا ، بعد ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل مواعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلغ على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لسكيدهم وأهتك لستر حرهم .

الثانية - جوز في إثارة قوله تعالى (مَا فِي يَمِينِكَ) على (عَصَاكَ) وجهان : أحدهما - أن يكون تعظيماً لها . أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأئزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وثانيهما - أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم . وألق المويذ الفرد الصغير الجرم الذى في يمينك . فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمتها . وإنما المقصود بتحقيقها في جنب القدرة ، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى . لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهى حقيرة في جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو المدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش المدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفه عين .

واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين - التعظيم والتحقير - وتلك ، والله أعلم ،

هى إرادة المذكور مبهما . لأن (مَا فِي يَمِينِكَ) أبهم من (عَصَاكَ) وللعرب مذهب فى التنكير والإبهام ، والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته ، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه ، وليؤذن أنه من غناية التكلم والسماع بمكان ، يفنى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه فى إسماعده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو ؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سألها عنها بقوله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) ليمتص هذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) ؟ انتهى .

ولأبى حيان نكتة أخرى . وهى ما فى اليمين من الإشعار باليمين والبركة . ولا يقال جاء فى سورة الأعراف (أَلْقِ عَصَاكَ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجى : فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربى أو مرادفٍ له ، يجرى فيه ما يجرى فيه . والأول خلاف الواقع . والثانى دونه خرق القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثانى ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا فى اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتمين الثانى . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل فى آيات آخر ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ)

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» أى سر بهم من مصر ليلاً «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا» أى يابساً . فضرب موسى بعصاه البحر فانقلب وجاوزه إلى ساحله «لَا تَخَافُ دَرَكًا» أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدرؤك من ورائك «وَلَا تَخْشَىٰ» أى غرقاً من بين يديك ، ووحلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)

[٧٩] (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)

«فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ» لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قتلهم كما قال^(١) (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم ، ونزلوا في الطريق الذي سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى «فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ» أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ» أى أوردتهم الهلاك ، بعتوه وعفاده في الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومنه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٥ و ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ قَدْ اَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى) (٨١)

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَى)

« يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ قَدْ اَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسمونكم سوء العذاب . يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم ، بإغراقهم ، وأنتم تنظرون . « وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ » أى بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه . واليهود الساحرية تزعم أن هذا الجبل فى (نابلس) ويسمونه (جبل الطور) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ (عيبال) ولهم عيد سنوى فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشريّ : وإنما عدّى المواعدة إليهم ، لأنها لا يستهم وانصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و (جانب) مفعول فيه ، أو مفعول به على الاتساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلى من الطيور الجيّد لهما « وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ » أى فيها رزقناكم ، بأن يتعدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَى » أى هلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ)

« وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ » أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وعمل صالحا بجوارحه ، ثم اهتدى ، أى استقام وثبت على الهدى المذكور . وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . ونحوه قوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان ، ببيان المخرج له منه ، كى لا يئأس . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ)

« وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ » أى أى شئ عجل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور ، على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)

« قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي » أى قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » أى عني ، بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك . واعتنائى بالوفاء بعهديك . وزيادة (رَبِّ) لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً فى قبول العذر . أفاده أبو السعود .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول (طلبُ زيادةِ رضاك أو الشوقُ إلى كلامك) فالجوابُ . أن هذا من الغفلة عن سرِّ الإنكار . وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والاتصال عنهم . فهو منصب على التقيّد . كما عرف في أمثاله . فالسؤال في المعنى عن الاتصال الذي يتضمنه (أعجلك) المتعدي بـ (من) . وإنكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب (هُمُ أُولَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي) . وقوله (وَعَجَلْتُ) الخ تميم . وقيل الجواب إنما هو قوله (وَعَجَلْتُ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغي تأخُّرُ رئيس القوم عنهم في السير، ليكون نظره محيطاً بطائفتهم، وناظراً فيهم، ومهيماً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لو طأ، فقال^(١) (وَأَتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ) فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل ، ومسارة إلى الميعاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ » يعنى اليهودى الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلاً يتخذوه إلهاً ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و (السامرى) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودى . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى (نابلس) قليلة العدد تخالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٥] .

وقد تضمنت هذه الجملة - أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة - الأمر - رجوعه لقومه ، وإصلاحه ما فسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا ، قَالَ يَلْقَوْمِ اللَّمَّ يَعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي)

« فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا » أى حزينا « قَالَ يَلْقَوْمِ اللَّمَّ يَعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإزال التوراة على ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ » أى زمان الإنجاز ، أو بجيئى « أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي » أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

[٨٨] (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ)

« قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشري : أى ما أخلفنا موعداك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخليفتنا ورأينا ، لما أخلفناه . ولكن غلبنا من جهة السامري وكيد « وَلَكِنَّا حُمِلْنَا » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أَوْزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ »

أى من حلّى القبط ، قوم فرعون ، وهو حلّى نسائهم « فَقَذَفْنَاهَا » أى فى النار لسببها « فَكَذَلِكَ أَتَمَّى السَّامِرِيُّ » أى كان إلقاؤه « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلى المذابة « عِجْلاً جَسَداً لَهُ وَخُورًا » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حياً ، وخار كما يخرج العجل . وقيل : لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارج ، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازى .

وقوله « فَقَالُوا » أى السامريّ ومن افتتنوا به « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَنَسَى » أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفهاً ، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشبهه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ » أى العجل « إِلَيْهِمْ قَوْلًا » أى لا يرد لهم جواباً « وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى دفع ضرّ ولا جلب نفع ، أى فكيف يتخذ إلهاً ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ » أى ضلّتم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » فى عبادته سبحانه ، ونبد العجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ)

[٩٢] (قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)

[٩٣] (أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

« قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ » أى موسى « يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ » أى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر . و (لا) مزيدة . أو المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض . فإن النعم عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله . أو ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح ما يراه فاسداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِإِخْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ

فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

« قَالَ » أى هرون « يَبْنَؤُمْ » بكسر الميم وفتحها . أراد (أى) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِإِخْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي » أى بشعره . وكان قبض عليهما يحجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرائهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِيْ)

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِيْ » أى ثم أقبل على السامري وقال له منكراً : ما شأنك

فما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

[٩٧] (قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلِفَهُ ، وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ » أى فطنت لما لم يفتنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أى فى الحلى المذاب حتى حى « وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » أى حسنته وزينته « قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ » أى لعذابك « مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلِفَهُ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا » أى لنطيرنه رماداً فى البحر ، بحيث لا يبق منه عين ولا أثر .

تفسيهات

الأول - اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم عن الباطل ، أولاً بقوله (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى (فَاتَّبِعُونِي) ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) وهذا هو الترتيب الجيد . لأنه لا بد قبل كل شىء فى إمطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هى الأصل . ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازى .

وقد رأى الله تعالى بهذه الآيات البينات ، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة ،

من أنه هو السامريّ الذي اتخذ العجل وأمر بمبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى - عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول في قوله تعالى (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته . ثم اختلفوا : أن السامريّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً في : أن السامريّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه في صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه . وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم . ولذا قال أبو مسلم الأصفهانيّ : ليس في القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام . وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره ، إذا كان يمثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامريّ باللوم ، والمساءلة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل ، فقال (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقذفته ، أى طرحته . فعمد ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة . وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكي الله تعالى عنه قوله ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) وإن لم يؤمنوا بالإزال . انتهى .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال الرازي : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :
أحدها - أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور بامم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكره ،
حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه . فأطلاق لفظ (الرسول) لإرادة جبريل عليه السلام ،
كأنه تسكليف بعلم الغيب .

وثانيها - أنه لا بد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار
خلاف الأصل .

وثالثها - أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامريّ كيف اختص من بين جميع الناس
برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر ؟ والذي
ذكره من أن جبريل عليه السلام هو الذي رباه ، فبعيد . لأن السامريّ ، إن عرف جبريل
حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبي صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟
وإن كان ماعرفه حال البلوغ ، فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مريباً له حال الطفولية ،
في حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبية الثالث في قوله تعالى (لَا مَسَاسَ) وجوه :

أحدها - إني لا أمس ولا أمس .

وثانيها - المراد المنع من أن يخاطب أحداً أو يخاطبه أحد ، عقوبة له .

ثالثها - ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز في حمله (ما أريد مسى النساء) فيكون من
تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنس ، فيخليه الله تعالى من زينى الدنيا
اللتين ذكرها بقوله ^(١) (أَلْمَالُ وَالْأَنفُسُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى لأن المسّ يكنى به عن
النكاح كما في آية ^(٢) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) والله أعلم .

(١) [١٨ / الكهف / ٤٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٧] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامريّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)
 « إِنَّمَا إِلَهُكُم » أى المستحق للعبادة والتعظيم « اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » أى أحاط علمه كل شيء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويعاً بشأنه ، وزيادة في معجزاته ، وتكثيراً للاعتبار والاستبصار في آياته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)

« كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسعى القرآن (ذِكْرًا) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والمواعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازى : وقد سعى تعالى كل كتبه (ذِكْرًا) فقال ^(١) (فَسَاءَ لَوْ أَهْلَ الذِّكْرِ) .

ثم ، كما بين تعالى نعمته بذلك ، بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

(١) [١٦ / النحل / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا)

[١٠١] (خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا)

« مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا » أى إنما . يعنى عقوبة ثقيلة .
شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على العاقب وصعوبة احتمالها « خَالِدِينَ فِيهِ » أى فى احتماله المستمر
« وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

[١٠٣] (يَتَخَفَتُونَ يَدَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور
تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق^(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنْظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة
ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ للمسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه .
الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية^(٢) (وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف
بصره ، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو
كقوله تعالى^(٣) (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) نقله الرازى . والأول أظهر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٦] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] .

« يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ » أى يتسارون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين « إِنْ لَّيْتُمْ » أى فى الدنيا « إِلَّا عَشْرًا » أى عشر ليال. قال الزمخشري: يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر . لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتَقَصَّتْ . والذاهب ، وإن طالت مدته ، قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطل الله بقاءك (كفى بالانتهاء قصرًا) . وإما لاستطالتهم الآخرة ، وأنها أبد سرمد ، يستقصرون إليها عمر الدنيا ، ويقال لبث أهلها فيها ، بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة . وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقًا لا منهم ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أى أعد لهم رأيًا « إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى ^(١) (قَلِيلَ كَمَ لَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ) انتهى .

قال أبو السعود : ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ، استرجاع منه تعالى له ، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلّ على شدة الهول . أى : ولكونه منتهى الأعداد القليلة . وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ ، وإلى تقصّي الغائب الذى كأن لم يكن . ولا ينافى هذا ما جاء فى آية ^(٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ * نُفِيسُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل ، فتصدق باليوم . كما أن المراد باليوم مطلق الوقت . ولذلك نكر ، قليلًا له ونحقيقًا .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١١٢ و ١١٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْرًا) أو (يَوْمًا) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم في مدة البعث ، ولا الشك في تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عُبِّرَ عن قَلْبِهِ بما ذكر . ففُتِنَ في الحكاية ، وأتى في كل مقام بما يليق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

[١٠٦] (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

[١٠٧] (لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ » أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » أى يزيلها عن مقارها . فيسيرها مقذوفة في الفضاء . وقد تمرّ على الرؤوس مرّ السحاب . حتى تتساوى مع سطح الأرض . كما قال « فَيَذَرُهَا » أى فيذر مقارها ومراكزها . أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال « قَاعًا » أى سهلًا مستويًا « صَفْصَفًا » أى أملس « لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » أى نتوءًا يسيرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ)

فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

« يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ » أى يُجيبون الداعى إلى المحشر ، فيقبلون من كل صوب إليه « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لا يعوج له مدعو ، ولا ينحرف عنه . بل يستقون إليه ، متبهمين لصوته ، سائرين بسيره .

في شروح (الكشف) : هذا كما يقال (لا عصيان له) أى لا يعصى . و (لا ظلم له) أى لا يظلم . وضمير (له) للداعى . وقيل : المصدر . أى لا عوج لذلك الانبعاث « وَخَشَعَتِ »

الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ أَيَّ نَخْفِضَ لَهَيْبَتِهِ وَلَهْجُورِ الْفَزَعِ « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » أَي صَوْتًا خَفِيًّا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)
« يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » أَي قَبِلَ
قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن
إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم ، لمن يأذن الله له به ،
يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)
« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » أَي بمعلوماته ،
أو بذاته العلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)
« وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أَي ذلت وخضعت خضوع العناء ، أي الأسارى .
لأنها في أسر مملكته وذل قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .
ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به
الكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أي خسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحًا وتلويحًا ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى الكفر والمعاصي بالفعل « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى اتعاظًا واعتبارًا ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى تنأهى فى العلو والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يفدر أمره فى ملكه الذى يعلم كل شىء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » أى: بل أنصت . فإذا فرغ الملك من قراءته فاقراء بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقنه جبريل الوحي ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ . فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنى عليه ريثما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ .

وهذا - كما قال الزمخشري - متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جيلاً ما كان عندى ، فردنى علماً إلى علم . فإن لك فى كل شيء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شيء إلا فى العلم . ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من اتباعهم كل هدى يأتئهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان ، العدو لهم ولأبيهم قبلهم . وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُو عَزْمًا)

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسَىٰ » أى العهد « وَلَمْ نُجِدْ لَهُو عَزْمًا » أى تصميماً فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغرره . كما بينه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

[١١٧] (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦-١٩] .

إِنَّ هَذَا عَذُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى « أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)

[١١٩] (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ)

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ » أى لا تقصون من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجُدْفى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها . والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تفعماً بفنون النعم . من المآكل والمشارب ، وتمتعاً بأصناف الملابس البهيمة والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذرده عنها، ليمالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظر عن النظر . وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها : ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدادات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندي الأول^(١) :
 كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّقِّ ولم أَتَبَطَّنْ كَأَمِيًّا ذَاتَ خَلْخَالٍ
 ولم أَسْبَأِ الرِّقَّ الرَوِيَّ ولم أَقُلْ نَحِيلَ : كَرُّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
 فقطع ركوب الجواد عن قوله (نَحِيلَ كَرى كرة) وقطع تبطن السكائب عن ترشف
 الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .
 على أن في هذه الآية سرّاً لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل .
 ولو قرن الظماً بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظماً ، لا تنثر سلك رؤوس الآي .
 وأحسن به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذى سَمَّاهُ (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل
 الخفى . ومما قيل فى وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأولين ، أعنى الشبع والكسوة
 أصلان . وأن الآخرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل
 (إِنْ لَكَ) و (أَنْكَ) وأيضاً روى مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام
 لحماً . وأما الظماً والضحى فن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن
 كل بما يشاكله ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَدَّأْدُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ
 وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)

[١٢١] (فَأَكَلَا مِنْهُ فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمًا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
 الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

« فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَدَّأْدُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ » أى من أكل

(١) البيتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التى مطلعها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيْهَا الطَّلُّ الْبَالِي وهل يَعِمُّنَ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي ؟

منها خلد ولم يمت « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ » * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا « أَى يَلْزَقَانِ » مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ « أَى فُحْصِلَ لهما هذا الخرزى ، بدل عزّ الملك المخلد . وهذه الأوراق الفانية ، بدل نفائس الملابس الخالدة « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ وَ « أَى بارتكاب النهى ، وترك العزم فى حفظ العهد « فَعَوَّىٰ » أَى عن المأمور به . حيث اعترى بقول العدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)

[١٢٣] (قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)

« ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَ « أَى اصطفاه ووقفه للإجابة « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » * قَالَ « أَى بعد قبول توبته « أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أَى انزلا من الجنة إلى الأرض « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أَى متعادين .

قال المهايى : فالمرأة عدوة الزوج ، فى إجلائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوها إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر الساوى . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى » أَى من كتاب ورسول . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أَى لا فى الدنيا ولا الآخرة . قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله (هُدَايَ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى)

[١٢٥] (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

[١٢٦] (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

[١٢٧] (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه في الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه ، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتمتع به فينجزر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه . وفي الآية مسائل :

الأولى - قال الرازي في قوله تعالى (عَنْ ذِكْرِي) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . ك (قيامى وقرأتى) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء ، لإضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه ، فإن القرآن يسمى ذكراً . قال تعالى ^(١) (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبْرَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) وقال تعالى ^(٢) (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) . وقال تعالى ^(٣) (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) . وقال تعالى ^(٤) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) . وقال تعالى ^(٥) (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) ، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل ^(٦) (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم ، ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى ^(٧) (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ) الآية .

الثانية - قرئ (ضَنْكًا) بالتثنية على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَاتَّزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضنك ككرم ، ضنكا وضناكة وضنوكه ، ضاق . وقال السمين : (ضنكا) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والثني والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور (ضنكا) بالتثنية وصلاً ، وإبداله ألفاً وقفاً ، كسائر العربات . وقرأت فرقة (ضنكي) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : إما أن تكون بدلاً من التثنية ، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التثنية بني المصدر على (فعلى) نحو دعوى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٨] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٥٢] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤١] .

(٥) [٣٦ / يس / ١١] . (٦) [٤٠ / غافر / ٣] . (٧) [٤٠ / غافر / ٣٥] .

الثالثة - ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً : إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي . قال ابن كثير : أى ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدوره . بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء واللذات والمآرب . فالضنك المعنى بها ، إذن هو الضنك الحيوى والقلق الدينى ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيم الذى هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخرج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كبر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذى تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدى به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمى هدًى ونوراً وشفاء ورحمةً . ألقى نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى في اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود فى المأكل والمشرب . وحجر فى المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يلمسون ولا يلمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء فى التشريعات وتشعبها فى الأهواء إلى شعب تتباين فى العبادات .

وهذه النصرانية ، الذى أساسها تعديل الشريعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضى عصر الحوارين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيد في اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكالية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال (ما جئت لأهدم التوراة - بل لأتممها) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلاً وإراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحيّ ذاق جوهر الدين المسيحيّ حقاً . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي نقيض ، فأنّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصرانيون بالمسلمين في الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ما قلد جيدهم منها لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون ، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزاباً . ولا يزالون يقتربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراه في عيشة ضنك يسمعون لأرق مزاميرهم عليه ، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقّ إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسمعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لآمتين عظيمتين ، وهاتنتميان إلى كتابين منزليين .. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وقرهم التي لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء ، الطائفة المسماة بالماديين . وهم الدهريون والطبيعيتون . فإنهم بلا رب أضيق صدرأ وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنا على رأى واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيّل له رغائبه وشهواته . قال بعضهم : هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيماً في أعماله ، إذا سئلوا :

ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذي يرشد إليه العقل عرياناً عن الوحي . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغير قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذ له وتجعله مستنفرًا مما يصاد أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله ؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكل من يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصيني مثلاً يرى نفسه مستقيماً ولو باع أو قتل أولاده . والهندي يرى هذه الاستقامة في نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثنى يرى نفسه مستقيماً ، ولو ارتكب الفحشاء تكملة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في مواد ما يشرعون . ولم يهتدوا لجادة الاستقامة الحقة . فأنّى يمكن إمامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعيّ يقبله كيف شاء ، ويجعله كشيء مرن ، يمدّه إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة ، ما كان وفقاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجازاة ، أنه يوجد من كان ميّلاً طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبباً للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبع الإنسان ، ما يجده في نفسه ووجدانه من انفراسها فيه انفراساً نظرياً . حتى لا يمكنه أن يجرد نفسه . مثلاً ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تماهى في الشر ، أن يجرد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشرعية تنهيه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأي نوع كان ؟ فالشرعية مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحيمة . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت في بعض موادها . والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهي دمار لنظام العالم ، وجأحة للأدب ، وآفة لما غرس الباري في عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنساني ، والإجحاف بالشرائع الأدبية . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، واطرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنساني والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بمعد الله ذمة بين الملأ ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّاً بالملوك ، ولا عدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء . ولا نحو ذلك مما هو ضروري بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظن أحد أن العالم يدوم أويبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيدين بشرعية إلهية ، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء ضروري للحياة الطبيعية ، فكذا الشرعية ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشرعية . انتهى .

وقال إمام مدقق ، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرون الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة . كأن لهم في لذة الماء ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا يعلّون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا ترايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدي السكف به كثيرى التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية ، وما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذيبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافي للناس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائفة لأمر ما ، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيذان ، ولا مغازلة الفيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . ما هو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شئ من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا للنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائر الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاعة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ، ليمتدى إلى وضح الحجة . فإن تبصر فى أمره ، واكتفه حقيقة سره ، وأنال نفسه بغيثها من إبلاغها نورها المرجو لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أحسن المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيته ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل في النوع الإنساني خصيصة من أجل خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتديره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريب . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . فيرى نواميس رقيها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعفها . ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفي الآثار التي تركوها ، على معنى النبوة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات ، وفي تباين الملل والديانات . بالعقل يعيز الإنسان بين أحوال الماضي والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويمتد بتعميد العلم والبداهة ، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وباقية بقاء النوع الإنساني ، وهي شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة - رأيت للإمام ابن القيم، رحمه الله، كلاماً على هذه الآية في كتابيه : (الجواب السكافي) و (مفتاح دار السعادة) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال في (الجواب السكافي) في فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي : ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم . ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأمانى الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم ينفذ إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات . فالعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد . ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهيها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فن قرّت عينه بالله ، قرّت به كل عين . ومن لم تقرّ عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى (١) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ وَحَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح ، الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة ، والحسنى يوم القيامة . فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين . ونظير هذا قوله تعالى (٢) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ونظيرها قوله تعالى (٣) (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وإبتهاجه وطماننته وانشراحه ونوره وسمته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة . ولانسبة لنعيم البدن إليه ، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٠] .

(٣) [١١ / هود / ٣] .

طَيِّب . وقال آخر : إن في الدنيا جنة ، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة . من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد^(١) أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتُم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال^(٢) : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) ولا تظن أن قوله تعالى^(٣) (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة . وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة . وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال^(٤) (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وقال حاكياً عنه أنه قال^(٥) (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تراحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

(١) أخرجه الترمذی فی : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصري .

(٢) أخرجه البخاری فی : ٢٠ - كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٥ - باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازني .

(٣) [٨٢ / الاقطار / ١٤ و ١٣] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٨٣ و ٨٤] .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٨٨ و ٨٩] .

وقال رحمه الله في (مفتاح دار السعادة) : فسر غير واحد من السلف قوله تعالى (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا . فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار . ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فهذا في البرزخ (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) فهذا في القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) فقول الملائكة (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت . ونظيره قوله تعالى (٢) (وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) فهذه الإذاعة في البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كمنظأره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفي الصحيح (٣) ، عن البراء بن عازب في قوله (٤) (يُنْثَبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال : نزلت في عذاب القبر . والأحاديث في عذاب

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٥٠] .

(٤) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٧] .

القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحياه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال (١) تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعبده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه (٢) (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُفَيِّضْ لَهُ وَشَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ وَاقِرٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوّه عن ذكره الذى أنزله على رسوله . فكان عقوبة هذا الإعراض ، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه . وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه ، وعاین هلاكه وإفلاسه قال (٣) (يَلَيِّمَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيِشُكُّ الْقَرَيْنُ) وكل من أعرض عن الاهتمام بالوحي الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (٤) (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أتى من تفریطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٨] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٣٧] .

الحجة عليه كما قال تعالى^(١) (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال تعالى^(٢) (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال تعالى في أهل النار^(٣) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقال تعالى^(٤) (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا قَرَّبْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَاءٌ أَيْتَىٰ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) وهذا كثير في القرآن .

الخامسة - قال ابن القيم : اختلف في قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى) قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى) هل هو من عَمِيَ البصيرة أو من عَمِيَ البصر ؟ والذين قالوا هو من عَمِيَ البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى^(٥) (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله^(٦) (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وقوله^(٧) (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) وقوله^(٨) (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا بِأَعْيُنِ الْيَقِينِ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله^(٩) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) وقوله^(١٠) (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرُهُ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) وقوله^(١١) (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا) .

- | | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| (١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . | (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . |
| (٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] . | (٤) [٣٩ / الزمر / ٥٦-٥٩] . |
| (٥) [١٩ / مريم / ٣٨] . | (٦) [٥٠ / ق / ٢٢] . |
| (٧) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] . | (٨) [١٠٢ / التكاثر / ٧٦] . |
| (٩) [٤٢ / الشورى / ٤٥] . | (١٠) [٥٢ / الطور / ١٣-١٥] . |
| (١١) [١٨ / الكهف / ٥٣] . | |

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا) وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق . فكيف يقول (وقد كنت بصيراً) وكيف يحاج بقوله (كَذَلِكَ أَنْتَ لَكِ أُنْتِكَا ءَايَتُنَا فَنَسِيْتَهَا) ؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب . وقال تعالى ^(١) (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهْدٍ اللَّهُ لَهُمْ وَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْ لِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا) وقد قيل في هذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وصم عن الهدى . كما قيل في هذه الآية ^(٢) قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى) قالوا : لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم ، المضاد للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق . فهو عمى عن رؤية ما يسمعون وسماعه . وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسمعون . وقال آخرون : هذا الحشر حين تقوفاهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروى عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى ^(٣) (اخْسَوْاْ فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ) حينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبْصَرُونَ بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لاجحة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمى عنها، بل هم عُمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا. فإن العبد يموت على ما عاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقر بما كان يجحد في الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) (إنكم محشورون إلى حفاة عراة) وكقوله تعالى ^(٢) (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) وكقوله تعالى ^(٣) (وَحَشَرَ نَفْعُهُمْ فَلَمْ نُنْغِزْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا ^(٤) (يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ) ثم قال تعالى ^(٥) (أُحْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ...) الآية وهذا الحشر الثاني . وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكاً وصماً . ولكل موقف حال يليق به ، يقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته . فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ^(٦) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) . انتهى .

- (١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس . (٢) [٨١ / التكويد / ٥] . (٣) [١٨ / الكهف / ٤٧] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٢٠ و ٢١] . (٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٦) [٤ / النساء / ٨٢] .

السادسة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعماملك معاملة من ينساك^(١) (فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص . وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى . فإنه قد وردت السنة بالنهاى الأكد والوعيد الشديد فى ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال^(٢) (ما من رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقي الله يوم يلقاه ، وهو أجذم) ؛
السابعة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ...) الآية ، أى وهكذا نجزى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضحك العيش فى الدنيا . لكونه دائماً . ثم أشار تعالى إلى تقرير ما تقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسول « يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلبون فى بلاد عاد وثمود ولوط ويعانيون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » أى العقول السليمة . كما قال تعالى^(٣) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

« وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . .) الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشاني : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا ، لكون نبيهم نبي الرحمة . وقوله سبحانه ^(١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقال الزمخشري : الكلمة السابقة هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وعمود لازماً لهؤلاء الكفرة . و (الزام) إما مصدر (لازم) كالخصام ، وصف به مبالغة . أو اسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب ، واسم الآلة يوصف به مبالغة أيضاً ، كقولهم : مسعر حرب ، ولزأز خصم بمعنى ملح على خصمه . من (لز) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع (لازم) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى (وَأَجَلٌ مُسَمًّى) عطف على (كلمة) أي ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه ، للإشعار باستقلال كل منهما ، بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

وقد جوز عطفه على المستكن في (كان) العائد إلى الأخذ العاجل ، المفهوم من السياق ، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) « فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أى إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إهمال ، فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر . فالقاء سببية . والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تسكون الآية منسوخة . وفى التسييح المأمور به وجهان :

الأول - أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة (سبحان الله وبحمده) . وعليه فسر تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثانى - أنه الصلاة وهو الأقرب لآية^(١) (وَأُسْمِعِينَوْا بِأَلْصَبْرِ وَالصَّلَاةِ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى : صلي وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه ، قبل طلوع الشمس ، يعنى صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعنى صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ) أى من ساعاته ، يعنى المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بعزid الفضل . وذلك

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرّجلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ، إيداناً باختصاصهما بمزيد مزية . وجيئته بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ (ءَانَايَ الْيَلِّ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار . وقال الرازى : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت : وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى (لَمَّا تَرَضَىٰ) أى رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك .^(١) وتقهرك على عدوك وبلوغ أمنيته من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى^(٢) (عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا) وقوله تعالى^(٣) (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَىٰ) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه ، وإن ما أوتيته أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ » أى أصنافاً من الكفرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٩] . (٢) [٩٣ / الضحى / ٥] .

« زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من (أَرْوَاجًا) أو بد (مَتَعْنًا) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَفْقَتَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فإن وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : (لِنَفْقَتَهُمْ) متعلق بد (مَتَعْنًا) جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا ، إثر إظهار بهجته حالا . أى لنعامهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » أى ثوابه الأخرى خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى^(١) (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تدبى وتبقى . وفى التعبير بد (الزهرة) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية ماقاله الزخشرى رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه ، وإعجابا به وتمنيا أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا^(٢) (يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان^(٣) بد (وَيَلْسَكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) .

وفيه : أن النظر غير المدود معفو عنه . وذلك مثل نظر من بادء الشئ بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئا أحب أن يمد إليه نظره ويملا منه عينيه ، قيل : ولا تمدن عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وعُدّد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

(١) [٢٨ / القصص / ٨٠] . (٢) [٢٨ / القصص / ٧٩] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٠] .

فالنظر إليها محصل لغرضهم ، وكالغري لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » يعنى (بأهله) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الأمر بها نفع مآ ، لتعاليمه وتنزهه بقوله « لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ » أى لا نسألك مالا . بل نكلفك عملا بيدك تؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً . ومعنى : نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه . قاله ابن جرير ^(١) .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى ^(٢) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا) وقال بعض المفسرين : معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستمعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفى من عندنا ، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به . وقد قال تعالى ^(٣) : (فِي وَصَفِ الْمُتَّقِينَ (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٥٧ و ٥٦] . (٣) [٢٤ / النور / ٣٧] .

تَجْرَةً وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . (رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ)^(١) .

وقوله تعالى « وَالْمَلَقَةُ لِلتَّقْوَى » أى والمالقة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ، أَوْ لَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى^(٢) (وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . .) الآية .

وقوله تعالى « أَوْ لَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكناها لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فاذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير^(٣) .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزيور . مع أن الآتى بها أمى لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف ففندّه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠١] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٠ و ٩١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وفيه إشعار بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى^(١) في سورة العنكبوت (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي ﷺ هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره. وهو الدليل وحده. وماعده مما ورد في الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للمقدّم حصل أصله، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده. والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر، هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضلال مقوماً للمعوج كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه. وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء، أن يعارضوه بشيء من مثله، فعجزوا ولجأوا إلى المجادلة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به، إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنتشر أنوارها في جوائها. وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بمقولهم. وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم، فيما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعى، فعلمهم أن يأتوا به، قال تعالى^(٢) (وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) وقال^(٣)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥١ و ٥٠]. (٢) [٢ / البقرة / ٢٣]. (٣) [٤ / النساء / ٨٢].

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرُءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم . فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أحنائها . ونشر ما انطوى في أثنائها . وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلهما . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما نشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنده العقل ويحمد لديه الفهم . وإنما يأتي بها الله على يد رسوله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضيء عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات . وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ، ويجب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة ، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتي للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . وهذا ، ولا ننكر أنه قدمضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية . وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يتمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناء سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن ، حيث بلغ العقل أشده ، والنوع الإنساني رُشده ، فلا يجد في معجزة ، ولا تنفع فيه غريسة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً ، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعلمون معجزته بكل أنواع التعليقات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن طائفة الاسبيريت

الروحانيين في أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجاهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات ، مع أن القوم لا يدعون النبوة ، ولا يزعمون الرسالة . نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ، بيدائه العقل ، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى . ثم أشار تعالى إلى منتهى في إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

[١٣٥] (قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ

وَمَنِ اهْتَدَىٰ)

« وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ » أي من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » أي بالعذاب الدنيوي « وَنَخْزَىٰ » أي بالعذاب الآخروي . أي ولكنما نهلكهم قبل إتيانها .

فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء
« قُلْ » أى لأولئك الكفرة المتمردين « كُلُّ » أى منا ومنكم « مُتَرَبِّصٌ » أى منتظر
لما يؤول إليه أمرنا وأمركم « فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ » أى عن قرب « مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ » أى المستقيم « وَمَنْ أَهْتَدَى » أى من الزيغ والضلالة . أى هل هو النبي
وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد
فى الأولى والآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

سميت بذلك لاشتغالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهي مكية .
واستثنى منها بعضهم آية^(١) (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)
وهي مائة واثنى عشرة آية . وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل
والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى .
قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذى ولد
عندك ، وهو تقيض الطارف .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخرى وهو عذابهم « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذبون به . وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى ^(١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) وقال تعالى ^(٢) (وَیَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فى العنوان ما يرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيوى والأخرى لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم ، كما أشير إليه فى آية ^(٣) (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ) ووعد به النبى وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرى ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ)

(١) [٧٠ / المارج / ٧٠٦] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٥ / المائدة / ٥٢] .

« مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقرير لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكل تذكر ، وينبه على الغفلة أتم تنبيه ، أن تخشع له القلوب وتستخذي له الأنفس .

قال الزمخشري : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون . فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التي هي أحق الحق وأجد الجدد ، إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع . وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية . فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف . فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً ، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في الجسم . كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبي عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوه دال على الصفة القديمة النفسية ، التي هي الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلغوها إلى أئمتهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرة ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته في كتابه (مطابقة المنقول للمعقول) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم . والحديث في لغة العرب العام ليس هو الحديث في اصطلاح أهل الكلام . فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً ، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن . كقوله تعالى (١) (كَا لَمُرْجُونٍ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى (٢) عن إخوة يوسف (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى (٣) (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَنَسِيهُمُ لَوْنَهُمْ هَذَا إِنْكُ قَدِيمٌ) وقوله تعالى عن إبراهيم (٤) (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) انتهى .

وقال العارف ابن عربي في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من (فتوحاته) في هذه الآية : المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتى . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثه تعلق السمع بها . فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات . فله الحديث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذا كان الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً (إِنَّهُ) يعني القرآن (٥) : (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فأضاف الكلام إلى الوساطة

- (١) [٣٦ / يس / ٣٩] . (٢) [١٢ / يوسف / ٩٥] .
 (٣) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ٧٦ و ٧٥] .
 (٥) [٦٩ / الحاقة / ٤٠] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله ^(١) : (فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلفه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السامعين بعد المشرقين . فإن الذى يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية فى (منهاج السنة) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً . وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذى دل عليه الشرع^٢ والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويحى - فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى فى الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول ^(٣) (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ) وقال ^(٤) (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال ثم قال رحمه الله : قالوا - يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرها - وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [٩ / التوبة / ٦] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨] . (٣) [٣٦ / يس / ٨٢] .

أنكر هذا قبلكم من الساف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . وانظر (الحوادث) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزّه عن ذلك . ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهى وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات مقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى وخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزلياً لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يحتاجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على النظم «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ» أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله «وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشري رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا مَلَكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«قَالَ رَبِّى» حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه «يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ» أى لما أسروه «الْعَلِيمُ» أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم فى فنون الاضطراب وعدم اقتبصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)

« بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ » أى أخلاطيراها فى النوم « بَلِ افْتَرَاهُ » أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاهقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج ، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون . أى حتى نؤمن له . ثم أشار تعالى إلى كذبهم فى دعوى الإيمان بحجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

« مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات . أفهؤلاء يؤمنون لو أجيئوا إلى ما سألوها ، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقى النوع البشرى فى العهد النبوى ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية . فتذكر ثم أوضح جواب شبهتهم فى منافاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء « فَسَلُّوْا أَهْلَ الدِّكْرِ » أى العلماء بالتوراة والإنجيل « إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ » أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفى الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحج الخصم وإفناعه .

تنبيه :

قال الرازى : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعائى أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر - فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بين تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قاله الى^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ) وفى هذا التعريف الربانى عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والعامّة والحقى ومن لا يزن عند ربه جناح بموضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى المجمع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأفكون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشى بالأسواق ، وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها . ومحافظة على السمعة حموا جانبها .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] .

فتباً لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا الله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار ! وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى^(١) (وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل . تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وكونهم بشراً من تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن الرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)
 « ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم^(٢) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) « فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن ، محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)
 « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحديثكم الذى تذكرون به فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى^(٣) (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) وقيل : معنى (ذِكْرُكُمْ) موعظةكم
 (١) [٢١/الأنبياء/ ٣٤] . (٢) [٥٨/المجادلة/ ١٢] . (٣) [٤٣/الزخرف/ ٤٤] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق الفظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) إنكار توبيخي ، فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب ، والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لا إجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)

[١٢] (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)

[١٣] (لَا تَرَ كُضُوءًا وَأَرْجُمُوهَا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا » أي عذابنا النازل بهم « إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » أي يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاء بلسان الحال أو المقال « لَا تَرَ كُضُوءًا وَأَرْجُمُوهَا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ » أي من التمتع والتلذذ و (في) ظرفية أو سببية « وَمَسْكِنَكُمْ » أي التي كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ » أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والفوازل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[١٥] (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ)

[١٦] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينَ)

« قَالُوا » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى تلك الكلمة وهى (يا ويلنا) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى كنبات محصود « خَمِدِينَ » أى هالكين بإخاد نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِمِينَ » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشري عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبارة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لاتعد والمرافق التى لاتحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتعبة للغايات الجميلة . وتنبيه على أن ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياهم . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل (لَعِبِينَ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى ^(١) (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقوله تعالى ^(٢) (وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتًا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتًا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا » استثناء مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهم به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبارة في رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة . فيستحيل اتخاذنا له قطعاً . وقوله تعالى « إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إِنْ (إِنْ) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحانه أن نتخذ اللهو واللعب أو زیده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُ » أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القذف) الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسر الشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشائه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهب ، برمى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز . لأن رمى قدمغ ترهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفي الآية إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ « وَلَكُمْ أُولَئِلُومِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تتزده عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً ، وبراءتهم من البُتوة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَن عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

« وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ملكاً وتديراً « وَمَن عِندَهُ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعمون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة - فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ أُتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

« أَمْ أُتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجاديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟
قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لأهلهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض^(١) (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث . ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم^(٢) ؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثنائي القديم . فكيف يدعونه للجهد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .

قلت : الأمر كما ذكرت . ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإناش . لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإناش من جملة المقدورات . انتهى . قال في (الانتصاف) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في الإنكار .

ثم قال الزمخشري : وفيه باب من التهم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداع والإعادة . انتهى .

لطيفة:

سر قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) هو التحقير ، أى تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أى الآلهة التى من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضى مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالة ، بقوله سبحانه :

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا» أى يتصرف فى السموات والأرض «ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ» أى غيره «لَفَسَدَتَا» أى لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون) ^(١)

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قال أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة ؛ أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبدلاً ، وإيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة . فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منهما ، وهو محال لاستحالة وقوع العلول المعين بعلة متعددة . وإما بتأثير واحد منهما ، فالبواقي بمعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل التالى فسادها بعد وجودها ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تعدد الإله ، فإن توافق الكل فى المراد ، تطاردت عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتقاء المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى (المقاصد) أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا . وكلاهما محال . أما الأول فلا أنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين . أو لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكمال القدرة على ما هو المفروض ، ولأستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلق المحل عنهما ، كحركة جسم وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع . وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] .

التكوت ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخرون فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم المادى . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار الشكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهائى ، والمشار إليه فى الآية إقناعى . ولا يفيد العلم اليقضى فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب ، ومن فصل ذلك التفتازانى فى (شرح العقائد النسفية) قادمًا لما أشار إليه نفسه فى (شرح المقاصد) من كون الآية برهانا ، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام ، أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعدد التمانع بالفعل بل بالإمكان . والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادها . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فيما بمجموع القدرتين ، فيلزم معجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالمادة القاضية التى لم يوجد أخرمها قط فى ملكتين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلُّ الانفراد بالملك والعلو على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله (وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) ؟ وهذا إذا تؤمل لاتكاد النفس تخاطر نقيضه بالبال ، فضلا عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر .

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعى . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى . وقد شنع عليه فى مقاله المتقدمة غير واحد . وبالف معاصره عبد اللطيف الكرماني فى الانتقاد .

قال العلامة المرجاني : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفي فى كتابه (التبصرة) وتابعه صاحب (الكشف) حيث شنع على أبى هاشم الجبائي تشنيعاً بليغاً . حتى نسبته إلى الكفر بقدره فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لاتقف عند حد . ولا تزال تباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله (التوحيد) إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : وما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلًا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعمينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تعين وتنال بتحقيقها الخاص بها ، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كلٍ صادرًا على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة المكافات . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته . ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى . فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من المكافات . لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممتنع بالبدهة . فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالي في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا يبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكلبي: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكوينهما في الأصل كما قالوا . ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهي بمبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدالاتها تنفي تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما . والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدة بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، وزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْأَلُونَ » الضمير للعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله ^(١) (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . قال الزحشرى : إذا كانت عادة الملوك والجبابة أن لا يسألهم من فى مملكته عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيأ وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم ، أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقرى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ، ولا يجوز عليه خطأ ، ثم قال (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون . فأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم ؟ فى كل شىء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى ^(٢) (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) .

تنبيه

قال الإمام الغزالى فى (المصنوع به على غير أهله) : وأما معنى قول الله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) وقوله تعالى ^(٣) : (لِمَ خَشَرْتَ بَنِيَّ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار ، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام . وهو المعنى بقوله (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) إذ لا يقال (لِمَ) قول إلزام . فأما أن لا يستخير ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله (لِمَ خَشَرْتَ بَنِيَّ أَعْمَى) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٣ و ٩٤] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٨٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٢٥] .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ عَالِهَةٍ كَرِهَ اسْتِعْظَامًا لِكْفَرِهِمْ ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى دليلكم على ما تقولون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى « هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به السنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهيج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحي الوارد فى شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلى ، ذكر أمتى أى عظمتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقنته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم الحاجة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبي ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ » وقرئ (يُوحَى) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . كما قال (١) (وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ) وقال (٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم و حججهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتره بعض المشركين من أن الملائكة بفتاته ، تعالى علواً كبيراً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)

[٢٧] (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى مقربون « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين « وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علماً^(١) (وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهايى : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرّون على أدنى وجوه معارضة . لأنهم لا يشفعون

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله ^(١) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) كقوله ^(٢) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقوله ^(٣) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمَنْ يَقْلُ مِنْهُمْ إِنَّى إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« وَمَنْ يَقْلُ مِنْهُمْ إِنَّى إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » الضمير فى (منهم) للملائكة . لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشري رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال ^(٤) (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قصد بذلك تفضيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) إشمار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسنى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٥] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٨٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ،

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع في آياته الكونية ، الدالة على وحدته في ألوهيته ، التي عصى عنها المشركون ، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تخطولا تنبت (فَفَتَقْنَاهُمَا) أى بالمطر والنبات . فالفتق والرتق استعارة . ونظيره قوله تعالى ^(١) (وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ) و (الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشققها . وقوله تعالى ^(٢) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) أى كيف انقردنا في إحدايه وتهيئته ليقم بنميته ^(٣) (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) أى من المزن بعد أن لم يكن ^(٤) (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقاً مرئياً مشهوداً ، كما تراه في الأرض بعد الري . أو شقاً بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى ^(٥) (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وكقوله ^(٦) (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق) .

قال الرازي : وتحقيقه أن المدم نقي محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة . بل

(١) [٨٦ / الطارق / ١١ و ١٢] . (٢) [٨٠ / عبس / ٢٤] .

(٣) [٨٠ / عبس / ٢٥] . (٤) [٨٠ / عبس / ٢٦] .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٤] . (٦) [٢١ / الأنبياء / ٥٦] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن . جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى (كَانَتْ رَتْقًا) أى شيئاً واحداً . ومعنى (فَفَتَقْنَاهُمَا) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالسكواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هي متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اه كلامه .

وقد يرجع الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرِ) بصرية . وعلى قول أبي مسلم وما بعده ، إعلمية . على حد قوله تعالى لنبيه صلوات الله عليه (١) (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما يقينها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء ، لا يحيا دونه . فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى . كقوله تعالى (٢) (وَيُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية (٣)

(١) [١٠٥ / الفيل / ١] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٩] . (٣) [٢٤ / النور / ٤٥]

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة، وأبلغ في الخطاب ، والطف في المعنى .
وقوله تعالى (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور ما يوجب حتما من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جبالاً ثوابت « أَن تَمِيدَ بِهِمْ » أى لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لسكانت الأرض دأمة الاضطراب مما فى جوفها من المواد الدأة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير فى (فيها) للأرض . وتكرير الفعل لاختلاف المفعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثانى اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى (وَسُبُلًا) بدل من (فِجَاجًا) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أى إلى مصالحهم .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ)

« وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا » أى على الأرض كالقبة عليها «مَحْفُوظًا» أى عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى^(١) (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) « وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسارها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبه ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرى (عن آيتها) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحیوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَالنَّهَارَ » ليتحركوا معاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسباح فى الماء . و (الفلك) فى اللغة كل شئ دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية^(٢) (فَلَا أُقْسِمُ بِالنُّجُومِ * النُّجُومِ الْكَوْكَبَاتِ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اهـ . وقوله تعالى :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٢] . (٢) [٨١ / التكويد / ١٥ و ١٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ)

«وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» نزلت حين قالوا (نربص به رب المنون) فكانوا يقدرّون أنه سيموت، فيشتمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشكّة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله^(١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُوَلَّحِفْظُونَ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحىّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليّاً ، أو نبيّاً أو رسولاً . انتهى .

وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر . وفي معنى الآية قول عروة الصّحابي^(٢) رضي الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كَلَّا كَلَهُ أَتَاخَ بآخِرِنَا
فقل للشّامتينَ بنا : أفيقوا سيلقى الشّامتونَ كما لقينا

وقول الشافعي :

تَمَنَّى أَنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمْتُ فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ
فقل للذي يَبْغى خلافَ الذي مضى : هَيِّئْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا ، وَكَأَنَّ قَدْ

(١) [٢٥ / الحجر / ٩] . (٢) قال صاحب (رغبة الآمل ، من كتاب الكامل) :

قائلهما هو فرّوة بن مُسيك المرادي انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ» أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، وما يجب فيه الشكر من النعم «فِتْنَةً» أى اختباراً. وهو مصدر مؤكد (لتبْلُوكُم) من غير لفظه «وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» أى فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. قال الزمخشري : وإنما سُمي ذلك ابتلاءً ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه فى صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفى الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُكُمْ) «إِلَهْتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ»

«وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُكُمْ إِلَهْتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ» عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبى جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيط لسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى (١) «وَإِذَا رَأَوْكَ مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا» وإضافة ذكر (لِلرَّحْمَنِ) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن . هم كفرون، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

« خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى^(١) (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك (خلق زيد من السكرم) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع هو منه من الأركان ، إيداناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمبادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن (عجَلته) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُورِيكُمْ آيَاتِي » أى نفها في الدنيا كوقعة بدر . وفي الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الموعد من العذاب الأخروي ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لالتعمين وقته « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشري : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته المألجة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيبهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس بيدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيةكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجالتهم لجهلهم بمغبته ، بقوله تعالى :

(١) [١٧ / الإمراء / ١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

[٤٠] (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ»

أى لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً «وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ» أى بدفع أحد عنهم . وجواب (لو) محذوف أى : لما استمحلوا . وقيل (لو) للتمنى . لا جواب لها «بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ» أى فجأة فتحيرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدرُوا عليه . وإن أرادوا رَدَّهَا «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» أى بسبب من الأسباب «وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» أى يعملون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

«وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ» أى نزل «بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أى عذابه أو جزاؤه ، على وضع السبب موضع السبب ، إيذاناً بكال الملابس بينهما ، أو عين استهزائهم ، إن أريد بذلك العذاب الأخروى ، بناء على تجسم الأعمال .

فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز في النشأة الأخرى بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّنْ يُصْحَبُونَ)

« قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ » أى يحفظكم « بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم (الليل) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً . وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته . كغضب الحليم . وتقديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايئى : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يغترون في ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعهم عن ذلك « بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ » أى لا يخطر ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسألوا عن السكالي « أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّنْ يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجل ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللتنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده

ابن جرير^(١) . ف (فيصحبون) بمعنى يجارون يقال (صحبتك الله) أى أجارك وسلمك ، كما فى (الأساس) . قال^(٢) ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكى عنها (أنا لك جار من فلان وصاحب) بمعنى أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

« بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » إضراب عما توهموا ، ببيان أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لاثباتهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شئ وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى ننقص أرض الكفر فنخر بها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلالهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن نزل من بأسنا بهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف . أفاده^(٣) ابن جرير . وهذا كقوله تعالى^(٤) (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَولَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لِمَعْلَمٍ يَرْجِعُونَ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ »

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب ، الغالبون لنا ، وقدرأوا قهرنا مَنْ أحللتنا بساحته
بأسنا فى أطراف الأرض ؟

وفى التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ)

« قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ » أى تنزيل الله الذى يوحىه إلى من عنده وأخوفكم
به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون ، لأن ذلك ليس إلى ، على ما فيه من الحكمة فى هذه البعثة
التي بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم
وعنادهم ، بأن هذا الإنذار لا يجديهم ، بقوله تعالى « وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ »
أى فهم لا يسمعون بسمع قلوبهم إلى تذكر ما فى وحى الله من المواعظ والذكرى ، فيتذكرون بها
ويعتبرون فينزعجون إذا تلى عليهم ، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه ، فعل الأصم
الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) مع أنهم
لا يسمعون نذارة ولا بشارة ، إما لأن المقام مقام إنذار ، أو لأن من لا يسمع إذا خوف ، كيف
يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى
ولئن أصابهم أذى شئ من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى
التصام والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

في صدر الآية مبالغات. ذكر المس. وما في النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتفكير. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ)

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أى نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل لإحصاء الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة . كأنها فى نفسها قسط . أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (فى) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِنْ كَانَ » العمل أو الظلم « مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمِثْقَال حبة الخردل . للوزن . وأنت لإضافته إلى الحبة « وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » أى وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سيئ ، منا . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع في قصص الأنبياء ، تسليمة له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ) إلى قوله (الْمُسْرِفِينَ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسَمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه . والمراد بـ (الفرقان) التوراة وكذا بـ (الضياء) والذكر . أى وبالله لقد آتيناها وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل وذِكْرًا ينعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ» أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَهَذَا » أى القرآن الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كإيتاء

التوراة . وفي الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهلناه لملتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحفيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها ، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوى متبّع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ (فى) الظرفية دلالة على تمسكهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من (ضالين) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » قال الزمخشري رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتأويل . وكونه للتأويل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلائله صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم فى اعتقاد كونها أواباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم ^(١) (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَبُّكُمْ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِنَ الشَّاهِدِينَ) أى المبرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاقل منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ)

« وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جَذَاً » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لا تتحمل إلى هذا الحد . فهو عجزهم في الدفع عن أنفسهم . فتوقع عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه في ذلك . فضلاً عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لجراته على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتمظيم . أو لإفراطه فى التجذيز والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ إِبْرَاهِيمُ)

[٦١] (قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا الحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِلَاهْتِنَا يَا بِرَاهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

«قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِلَاهْتِنَا يَا بِرَاهِيمُ» * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله «فَسْأَلُوهُمْ» أى يجيبوكم «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» أى والأظهر عجزهم الكلى المانع من القول بالهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانتها بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) فإنما هو تقريب لهم وتوبيخ كما قال تعالى^(١) (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قباله ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه، قصداً إلى تحقيق ذلك . وجلى أن مراده عليه السلام ، على كلٍّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبي عنه قوله (فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر ، وبسكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، لا من كسرهما ، فلم تنسبوه إلى الظلم بقولكم (إِنَّهُ وَلِمَنِ الظَّالِمِينَ) ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

« ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياء من نقصهم ، وخضوعاً وانقياداً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ » أى ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

[٦٧] (أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى قبح صنيعكم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر في الكشف في قوله تعالى (ثُمَّ نَكِسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أربعة أوجه . وحاصلها كما في العناية - أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة في تظلم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها في معرض الألوهية . فقوله (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله (أَتَعْبُدُونَ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق في قولهم (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) لأنه نفى لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية ، وسمى (نكسا) وإن كان حقاً ، لأنه ما أفادهم مع الإصرار . ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة في إطراقهم خجلاً وقولهم (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) لخيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم . أو النكس مبالغة في الحيرة وانقطاع الحجة . و (أف) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما في كتب اللغة . قال الزخشري : أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ولما عجزوا عن الحاجة أخذوا في المضارة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من الحق . ولم يبق له مفرع إلا مناصبته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالُوا حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به
« وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة ،
فلا يليق به غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْنَا يَبْنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)

« قُلْنَا » أى تعجزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له في إنجاء من
آمن به « يَبْنَارُ كُونِي بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَامًا
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة . وجوز
كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما في قوله ^(١) (كُونُوا قِرَدَةً)
ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بأمور مطيع ، وتخيلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم :
المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً ، كقوله ^(٢) (أَنْ يَقُولَ
لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيكونه . فإن النار جاد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازي : لهم في كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها - أن الله تعالى أزال عنها
ما فيها من الحر والاحتراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شيء قدير .
وثانيها - أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه .
كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد
الحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار .

(١) [٢ / البقرة / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

وثالثها - أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه .
قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله (يَنَارُ كُونِي بَرْدًا) أن نفس النار
صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)

[٧١] (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ،
فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشري : غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمسكت .
وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى
الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء
وإزالة الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنى
والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم . ثم بين بركته
تعالى على إبراهيم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ » أى بدعوته^(١) (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ) « وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً » أى زيادةً وفضلاً من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح
بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله^(١) (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذنا . قال الزمخشري : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يحلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

[٧٥] (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ » أى من عذابها « الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ »

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

يعنى اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطة من مكال عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَيَسْقِينِ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » أى فى أهلها « إِنَّهُ وَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَ حَا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ » أى دعا ربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله^(١) (أِنِّى مَغْلُوبٌ فَانْقَصِرْ)^(٢) (رَبِّ لَا تَذَرْنِى عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فىهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتباً للانتصار والانتقام من قومه « الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيهم .

(٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

(١) [٥٤ / القمر / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلاً « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحكمين إليهما ، عالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحكومة ، المفهومين من السياق « سُلَيْمَانَ » أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لأقضاء أبيه . روى ^(١) عن ابن عباس أن غنا أفسدت زرعاً بالليل ، ف قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويذكر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذها أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرئوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » أى وكل واحد منهما آتيناها حكمة وعلماً كثيراً ، لاسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يومه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكماً شرعياً .

(١) انظر ابن كثير . الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

تنبيهات :

الأول - استدلال الآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بين في الأصول . ورد بأن مفهوم قوله (*فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمًا*) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام ، يدل على أنه المصيب للحق عند الله . ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى . والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه ، دل على أن كلامهما مصيب . وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود عليه السلام ، لجواز كون كل مصيباً . ولكن هذا أرفق وذاك أوفق ، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدلال بهذه الآية كل . فكلما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا في (العنابة) .

وجاء في (فتح البيان) مأماله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين^(١) وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبي ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين . وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فاللزوم مثله . وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين ، بالحل والحرم ، حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فاللزوم مثله . وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاد في تلك

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام - ٢١ - باب أجر الحاكم إذا اجتهد

فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث رقم ١٥ (طبعنا) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريد الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين . واللازم باطل فاللزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرّون على إصابة الحق في كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب . قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الأحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثاني - دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان يوحى لما أوتر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى ^(١) (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ) فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه . ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله ^(٢) (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحي ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضا ، فلا استنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

قال الرازي : إذا غلب على ظن نبي أن الحكم في الأصل معطل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلو عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

(١) [٩ / التوبة / ٤٣] . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ،

٨١ - باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ ، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) .

باطل ببدية العقل ، أو يرجح الراجح على الرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس - وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس . وهي قاعة أيضا في حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثبت عليهما . وقد تقدم أولا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمنين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفس لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهرى وقتادة . ومن عم الضمان فسر به الرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان في هذه الواقعة . إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى ^(١) ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياء هذا قطعت غزلا لى . فقال شريح : نهائراً أم ليلاً ؟ فإن كان نهائراً فقد برئ صاحب الشيا . وإن كان ليلاً فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه ^(٢) الإمام أحمد وأبو داود ^(٣) وابن ماجه ^(٤) من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن حيصة ، أن ناقة البراء بن عازب

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٩٠ - باب المواشى تفسد زرع قوم ،

حديث رقم ٣٥٧٠ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٣ - باب

الحكم فيما أفسدت المواشى ، حديث رقم ٢٣٣٢ (طبعتنا) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . ففوضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلِّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاها الحسن ، فبكي . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصري : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ . . .) الآية . فأثني الله على سليمان ، ولم يذم داود . ثم قال (يعني الحسن) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثا : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا^(١) (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وقال^(٢) (فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونِ) وقال^(٣) (وَلَا تَشْتَرُوا بِئَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) . ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح^(٤) البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهذا الحديث يردّ نصّا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار . وفي السنن^(٥) : (القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار . رجل علم الحق

(١) [٣٨ / ص / ٢٦] . (٢) [٥ / للمائدة / ٤٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٢٣ - كتاب الأقضية ، ٢ - باب في القاضي يخطئ ،

حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدَةَ .

وأخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ،

حديث رقم ٢٣١٥ (طبعتنا) .

وقضى به فهو في الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار).

ثم بين سبحانه ماخص كلاً من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ» أي سخرنا الجبال والطير يقدرن الله معه، بصوت يتمثل له أو يُخَلَقُ فيها. قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الزبور) وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه. وترد عليه الجبال تأويهاً، ولهذا المأمور^(١) النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته وقال: لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود. قال: يا رسول الله! لو علمت أنك تسمع لحبته لك تحببها.

وقال أبو عثمان الهندي: مسمعت صوت صنج ولا ربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه. انتهى.

وتقديم الجبال على الطير، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز. لأنها جاد. والتذييل بقوله (وَكَُنَّا فَاعِلِينَ) إشارة إلى أنه ليس بيدع في جانب القدرة الإلهية، وإن كان عند المخاطبين عجيباً. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (ص)^(٢) (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً، كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ).

(١) أخرجه البخاري في: ٦٦ - كتاب فضائل القرآن، ٣١ - باب حسن الصوت

بالقراءة، حديث رقم ٢٠٩٧.

وأخرجه مسلم في: ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا)

(٢) [٣٨ / ص / ١٧ - ١٩].

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُخَصِّنَكُمْ مِّنْ أَبْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ)

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع اللبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفاًح ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى ^(١) (وَالنَّاسُ لَهُ الْخَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) أى لا توسع الحلقة فتتعلق المسار . ولا تغلظ المسار فتتكد الحلقة . ولهذا قال « لِتُخَصِّنَكُمْ مِّنْ أَبْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى الماعم حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيحاء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ)

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِي بِأَمْرِى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وهى بيت المقدس « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ » أى ماقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِى رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) . قال الزمخشريّ رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال ^(٣) (عُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [٣٤ / سبأ / ١١ و ١٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٦] . (٣) [٣٤ / سبأ / ١٢] .

أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال في (الاتصاف) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجاني منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ)

«وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ» أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ» أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى ^(١) (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ) «وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ» أى مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

الشياطين المذكورون ، إما مردة الإنس وأشدائهم ، وإما مردة الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائي : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرّون على عمل الثقيل ؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد في عظمهم ، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

[٨٤] (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » .

أى اذ كر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاه ربه في كشف ما نزل به ، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه في رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر ، وأن عاقبة العسر اليسر . وأن لك الأسوة بمثل هذا الفبي الصبور ، فيما ينزل أحياناً بك من ضرر . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاء . كما في الحديث ^(١) (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأئمة فالأهل) .

وإن من أسباب الفرج دعاء تعالى والابتهال إليه والتضرع له ، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها . لأن الدنيا ليست دار جزاء . وإن عاقبة الصدق في الصبر ، هي توفية الأجر ومضاعفة البر . وقد روى أن أيوب عليه السلام ، لما امتحن بما تقدمه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعاني من قروح جسده آلاماً ، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف ما فقد . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى (وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء ،

عن سعد .

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابروا كما أتيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفة، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا نمار من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواسيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب. إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها. لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل. وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش. ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصل.

تفسيه

قال بعضهم: أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام. وأنه كان غنياً من أرباب العقار والماشية. وكان أميراً في قومه. وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائحة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت. ومن جبل سعيير بين بلاد أدوم وصحراء العربية. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ)

[٨٦] (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا، إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

«وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» أي على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى، ففيهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا» أي في النبوة أو في نعمة الآخرة «إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ» أي الكاملين في الصلاح.

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي .

وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[٨٨] (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » أى اذكر ذا النون يعنى صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على ما يقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة (الصافات) وفي سورة (ن) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى - من أرض الموصل ، كرسى سلطنة الآشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . فخشي أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر ، أشرقت السفينة معه على الفرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يقد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فافترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقفذوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهياً الله حوتاً ليونس فابتلمه ، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى ^(١) (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْهُمْ إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

تذييلات :

الأول - يونس عليه السلام يسمى في التوراة (يونان) وهو عبراني . ويقال إنه من جت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نبي قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني - أكثر المفسرين (كما حكاه الرازي) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإبائه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولاً ، أن يترك ولا يقاص . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبي كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في (مغاضباً) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضي بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد (مفاعلة) وقد استدلل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول السكرامية في المرجئة (كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد)

وقول الباقلاني من الأشعرية: (على ما حكاه ابن حزم في الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم في هذه الآية وأشباهاها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذي ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل يذهبهم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه في الدنيا ، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال (في الكلام على يونس عليه السلام) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم بغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء ؟ فاعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضا الله عز وجل . وأما قوله تعالى (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم ؟ ومن الحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك في أن من نسب هذا للنبي ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه

رسول الله ﷺ^(١) (لا تفضلوني على يونس بن متى) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وصح أن معنى قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى^(٢) (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَأَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك : وإنما نهى الله عز وجل ، محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب^(٣) الحوت، فنعم، نهى الله عز وجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاوله لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التي تداركه بها، للبت معاقباً في بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء في غير موضعه . فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة في غير موضعها ، اعترف في ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدري أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذي يفتح باب الإشكالات هو التعمق في الألفاظ . والتنطع في شرحها وتوليد معاني ولوازم لها، والتوسع في وجوها توسعاً يميّز رونق التركيب ونصاعة بلاغته . ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آية تأخذ بجماع القلوب رقة وانسجاماً . وبلاغة وانتظاماً . فلا ترى في كله إلا المختارات لطفاً ، ولا في جملة إلا الفخيمات تركيباً ، ولا في إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا في كنيائاته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته في الملام والوعيد من إفراغ القول في أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب ، وقوة العتب وذلك لعزة الجنب الإلهي والمقام الرباني . فالعربيّ البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه بمجل نبأ يونس عليه السلام في هذه الآية ، يدهش لما ترمى

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣٥ - باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠ ، عن ابن عباس ، ونصه : ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى . (٢) [٨٩ / الفجر / ١٦] . (٣) [٦٨ / القلم / ٤٨] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه يبأبأه غاضب مولاه، غضباً لا يعاثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . وفتلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع في شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا يحمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذى له فى خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليمتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى فى الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاءه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت ، ولبت ما لكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع فى قوله (فِي الظُّلُمَاتِ) إما على حقيقته ، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو هو مجاز ، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزخشرى ونظره بآية (١) (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ) .

الخامس : قوله تعالى (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) أى دعاؤه (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام (٢) (فَكَشَفْنَا) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨٤] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته . وردّ بأن (الفاء) في قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيرى . والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة ، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال . فلما أجمل في الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنباً . كما أشار إليه بقوله (مِنَ الظَّالِمِينَ) ذأ أوماً إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فلاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعده تفسيراً له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله (وَكَذَلِكَ يُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) أى إذا كانوا في غموم ، وأخلصوا في أدعيتهم منييين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى في الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذى (دعوة^(١) ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له) . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

« وَزَكَرِيَّا » أى واذا ذكر خبره « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبياً ، ولا يتركه فرداً وحيداً بلا وارث ، وقد تقدمت القصة مبسوطه في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضا . وقوله « وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨١ - باب حدثنا محمد بن يحيى .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالي في (شرح الأسماء الحسنى) : الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَأَسْتَجِبْنَ لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)
« فَأَسْتَجِبْنَ لَهُ » أي دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجَهُ » أي أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أي كانوا يبادرون في كل باب من الخير . وإيثار (في) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير . لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أي ذوى رغب ورهب ، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة « وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » أي مخبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أي اذ كر بنا التي أحصنته إحصاناً كلياً ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت ^(١) (وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ) والتعبير عنها بالوصول ، لتفخيم شأنها ، وتنزيها عما زعموه في حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » أي نفخنا

(١) [٣ / آل عمران / ٤٧] و [١٩ / مريم / ٢٠] .

الروح في عيسى فيها . أى أحييناه في جوفها . فنزل نفخ الروح في عيسى ، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أى أمرناه فنفخ . أو فنفعنا فيها بعض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذى نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا » أى نبأها « آيَةً لِلْعَالَمِينَ » أى في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتيهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه . وتشمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل (آيَتَيْنِ) كما قال ^(١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ) ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فحل . انتهى . وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا آيَةً وابنها آية . غدفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

« إِنْ هَذِهِ » أى علة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لا شريك له « أُمَّتُكُمْ » أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى غير مختلفة . بل هى ملة واحدة . أى أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد . كما قال تعالى ^(٢) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى لا إله لكم غيرى « فَاعْبُدُونِ » أى ولا تشرکوا بى شيئاً .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما في قوله ^(١) (إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ) أى على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير
من المفسرين في هذه الآية ، وفي آية ^(٢) (يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)
وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هي في قوله تعالى ^(٣) (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ) أى جماعة . وكما في قوله ^(٤) (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هي
بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم
اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السفين كما في قوله تعالى ^(٥) (وَإِنَّ آخِرَنَا عَنْهُمْ
الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) وفي قوله (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به ،
كما في قوله ^(٦) (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله ^(٧)
(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة ، على
ما ذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير
آية ^(٩) (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥١ و ٥٢] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨١] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .

(٥) [١١ / هود / ٨] . (٦) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(٧) [١٦ / النحل / ١٢٠] . (٨) [٣ / آل عمران / ١١٠] .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » أى تفرق الناس في دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال ازخشرى رحمه الله : والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه يعنى عليهم ما أفسدوه ، إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقسمونه . فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا في دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه في أمره ونهيه ، وهو مقر بوحداية الله ، مصدق وعده ووعيده ، متبرىء من الانداد والالهة ، فلا كفران لسعيه ، بل يشكر الله عمله هذا ، ويثيبه ثواب أهل طاعته . وقوله تعالى (وَإِنَّا لَهُ) أى لسعيه المشكور (كَاتِبُونَ) أى مثبتوه في صحيفة أعماله ، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من (كفر فلان النعمة كفراً وكفراناً) وأوثر (لا كفران) على (لا إنكفر) للمبالغة . لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعى لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى (١) (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله (٢) تعالى (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ أَقَرُّونَ أَنَّهُمْ لَئِيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وزيادة (لا) هنا لتأكيد معنى النفي من (حرام) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيته الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تنمة ما قبلها ، و (لا) فيها على بابها . وهى مع (حرام) من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القرية المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعى أحد . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا النظر . وفيه ما يحل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [١٧ / الإسراء / ١٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٣١] . (٣) [٣٦ / يس / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ أُمَّةٍ يَنْسِلُونَ)
 « حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة من
 أجناس شتى « وَهُمْ مِّن كُلِّ أُمَّةٍ يَنْسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ،
 متجندين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا
 قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر
 « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ل هول ما حل بساحتهم والدهشة منه ،
 قائلين « يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ »
 أى لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)
 [٩٩] (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)
 [١٠٠] (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ »
 أى ما يرى به إليها « أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ
 فِيهَا خَالِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قرنوا بالهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب . ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى ترديد نفس تنفخ منه الصلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أى من الهول وشدة العذاب . ثم بين تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع التهيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

[١٠٣] (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ » أى الخصلة الحسنى ، وهى السعادة أو التوفيق « أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم فى غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السمير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أى صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم « وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أى للحشر كما قال تعالى (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) « وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [٢٧ / النمل / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[١٠٦] (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

[١٠٧] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى اذكروه . أو ظرف لـ (لا يحزنهم) أو لـ (تتلقاهم) .
والطى ضد النشر . وقوله « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب .
واللام فى (للكتب) لام التبيين . ولذلك قرئ (الكتاب) بالإنفراد . أو بمعنى (من)
وفيه قرب من الأول ، أو (الكتب) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها .
فاللام بمعنى (على) وهو ما اختاره ابن جرير^(١) .

تنبية :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبي صلوات الله عليه ،
كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما ، فآثر منكر لا يصح .
قال ابن كثير^(٢) : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبي داود .
منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي .
وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير^(٣) وقال : لا يعرف فى الصحابة أحداً اسمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وَكُتَّابُ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .
وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .
وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث . والصحيح عن ابن عباس
أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية^(١) (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطى السماء كناية عن
انسداد نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أصراً فيها من
الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَاً
عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى منجزين إياه . ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز النبي عنه ،
وإيرائه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين
منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و (الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام ،
ويقال : المراد به كل كتاب منزل . والذكر - قالوا - التوراة أو أم الكتاب . يعنى اللوح الذى
كتب فيه كل شئ قبل الخلق ، والله أعلم . وقوله تعالى « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَالِمِينَ »
إشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . أو إلى العبرة
فى إراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَالِمِينَ)
أى يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين
وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » أى وما أرسلناك بهذه الحنيفية
والدين الفطرى ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفى
جعله نفس الرحمة مبالغة جليلة . وجوز كون (رحمة) مفعولاً له . أى للرحمة ، فهو نبي الرحمة .

تنبيه :

قال الرازي : إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا . أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب . فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريباً له . قال الله تعالى ^(١) (قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً) إلى قوله تعالى (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الدل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بسمته صلوات الله عليه ، في (الشذرة) التي جمعتها في سيرته الزكية ، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذ بصيرته إلى مكنون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، ما بين مشبه لله بخلقه ، وملحد في اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاك للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، وواد للبنات وأكل للدماء والميتات ، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتكهنه ، وتأليه للأخبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعي الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسريساً . فإن النوائب إذا تناهت انتهت ، وإذا تواتت تولت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ،

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق .
قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (١) (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ، فَهَلْ أَنتُم مُّشْرِكُونَ)
[١٠٩] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تَوْعَدُونَ)

[١١٠] (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)
[١١١] (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّوْا فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعْتُ إِلَىٰ حِينٍ)
[١١٢] (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)
«قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ» أى ما يوحى إلى ، إلا استشاره تعالى بالوحدانية فى الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه فى جنبه . فهو قصر دعائى « فَهَلْ أَنتُم مُّشْرِكُونَ » أى منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أى أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجنى ثمرات سعادتها فى الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه كما قال « وَإِنْ أَدْرِي » أى وما أدرى « أَقْرَبُ

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

أَمْ يَبِيدُوا مَا تُوعَدُونَ « أَى مِنَ الْفَتْحِ عَلَيْكُمْ ، وَإِرْثِ أَرْضِكُمْ غَيْرِكُمْ ، وَلِحُوقِ الذِّلِّ وَالصَّفَارِ بِعَصِيَانِكُمْ » إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ « أَى فَمَسِيحُزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ » وَإِنْ أَدْرَى كَمَلَهُ وَفِتْنَةً لَّكُمْ « أَى وَمَا أَدْرَى لَعَلَّ تَأْخِيرَ جَزَائِكُمْ اسْتِدْرَاجَ لَكُمْ ، وَزِيَادَةً فِي افْتِنَانِكُمْ . أَوْ ابْتِلَاءً لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . ذَا (الْفِتْنَةُ) إِمَّا مَجَازٍ عَنِ الْاسْتِدْرَاجِ بِذِكْرِ السَّبَبِ وَإِرَادَةِ الْمُسَبَّبِ ، أَوْ هُوَ بِمَعْنَاهِ الْأَصْلِيِّ . فَهُوَ اسْتِعَارَةٌ مَصْرُوحَةٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ » أَى تَمَتِّعْ لَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّقَدَّرٍ . وَالتَّمَتِّعُ بِمَعْنَى الْإِبْقَاءِ وَالتَّأْخِيرِ « قِيلَ » وَقُرِئَ (قُلْ) « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أَى أَفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ . وَذَلِكَ بِنَصْرِ مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَتْ ، عَلَىٰ مَنْ كَفَرَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) « وَرَبَّنَا أَرْخَمْنِ الْمُسْتَعَانَ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أَى مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ، وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ . وَقَدْ أَجَابَ سَبْحَانَهُ دَعْوَتَهُ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَتَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ .

قال الرازى : قال القاضى : إِنَّمَا خَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ) لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِي الْبَيَانِ لَهُمُ الْغَايَةَ . وَبَلَّغُوا النِّهَايَةَ فِي أَذْبَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ . فَكَانَ قَصَارَى أَمْرِهِ تَعَالَى بِذَلِكَ تَسْلِيَةً لَهُ وَتَعْرِيفًا أَنَّ الْمَقْصُودَ مَصْلَحَتَهُمْ . فَإِذَا أَبَوْا إِلَّا التَّمَادَى فِي كُفْرِهِمْ ، فَعَلِمْتَ بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَى رَبِّكَ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ . إِمَّا بِتَعْجِيلِ الْعِقَابِ بِالْجِهَادِ أَوْ بِغَيْرِهِ . وَإِمَّا بِتَأْخِيرِ ذَلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَهُمْ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَمَا هُوَ كَائِنْ قَرِيبٍ . وَمَا رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهِ ، كَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ ، كَالِاسْتِعْجَالِ لِلْأَمْرِ بِمُجَاهَدَتِهِمْ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

تم الجزء الحادى عشر ء ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر ، وفيه تفسير سور: ٢٢ - سورة الحج ، و ٢٣ - سورة المؤمنون و ٢٤ - سورة النور و ٢٥ - سورة الفرقان

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لَّيَدَبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسمى

مَحَاسِنُ التَّائِبِينَ

تَسْلُفُ عَلامَةِ الشَّكَامِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِمِيُّ

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الثاني عشر

وفيه تفسير :

٢٣ - سورة الحج ، ٢٣ - سورة المؤمنون ، ٢٤ - سورة النور و ٢٥ - سورة الفرقان

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَاسِمِيُّ

دار الحياة العامة
ميسى البابى الجلى وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنمقد عليه
خناصرهما ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء الدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأواحد

الشيخ محمد مهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالمعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢ - سُورَةُ الْحَجِّ

سميت به لاشتغالها على أصل وجوبه والمقصود من أركانها ، وهو الطواف ، إذ الإحرام نية ، والوقوف بعرفات من استعدادها ، والسمى من تتمته ، والخلق خروج عنه . وذكر فيها منافعها وتعظيم شعائره وغير ذلك ، مما يشير إلى فوائده وأسراره . أفاده المهايى .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس : أنها مكية سوى ثلاث آيات ^(١) (هَذَانِ خَصْمَانِ) إلى تمام الآيات الثلاث ، فإنهن نزلن بالمدينة . وفي آثار أخرى أنها كلها مدنية ، كفى الإتيان . وآياتها ثمان وسبعون آية .

(١) [٢٢ / الحج / ١٩ - ٢٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » يأمر تعالى عباده بتقواه

التي هى من جوامع الكلم ، فى فعل المأمورات واجتناب المنهيات .

قال المہامی : أى احفظوا تربيتہ علیکم ، بصرف نعمہ إلى ما خلقها لأجلہ ، لئلا تقموا

فى الکفران الموجب لانقلاب التربية علیکم ، بالانتقام منکم . انتهى .

أى فالتعرض لعنوان الربوبية المبنية عن السالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمير

المخاطبين ، لتأييد الأمر وتأکید إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً . أى احذروا عقوبة مالک

أمورکم ومرتبيکم ، وقوله تعالى (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) تعليل لموجب الأمر ، بذكر

بعض عقوباته الهائلة . فإن ملاحظة عظمها وهولها ، وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، من

الأحوال والأحوال ، التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى ، مما يوجب مزيد الاعتناء

بملاسته وملازمته لا محالة . و (الزلزلة) التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق

التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها . وإضافتها للساعة ، من

إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً ، كأنها هى التي تزلزل . أو إلى ظرفه . وهى الزلزلة المذكورة

فى قوله تعالى ^(١) (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) وفى التعبير عنها بـ (الشيء) ، إيذان بأن

العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإيهام . أفاده

أبو السعود .

وقد وصف عظمها فى كثير من السور والآيات . كسورة التکویر وسورة الانقطار

(١) [٩٩ / الزلزلة / ١] .

وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها . وقد أشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

« يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » أى عن إرضاعها . أو عن الذى أَرْضَعَتْهُ وهو الطفل « وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » أى ما فى بطنها لغير تمام « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ » أى كأنهم سكارى « وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ » أى على التحقيق « وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » أى ولكن مآزهم من خوف عذاب الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتميزه . قاله الزمخشري .

لطيفة :

قال الناصر فى (الاتصاف) : العلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك (زيد حار) إذا وصفته بالبلادة . ثم يصدق أن تقول (وما هو بحمار) فتنفى عنه الحقيقة . فكذلك الآية . بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة "أبلغ نفى مؤكّد بالباء . والسر فى تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ، ليس من المهود فى شيء ، وإنما هو أمر لم يمهّدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله (وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) راجع إلى قوله (وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ) وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى . كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر ، وهو السكر المهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى . انتهى .

ثم أشير لحال المفكرين للساعة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّרِيدٍ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يخاصم فى شأنه تعالى بغير علم .
 فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار تراباً ، ونحو ذلك من الأباطيل « وَيَتَّبِعُ » أى
 فى جداله « كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » أى عات متمرد . كرؤساء الكفر الصادقين عن الحق . ثم
 أشار لوصف آخر لهذا الشيطان المتبع ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى قضى على
 الشيطان أنه يضل من تولاه بأن اتخذه ولياً ، وتبعه ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى
 عذاب جهنم الموقدة . وسوقه إياه إليه ، بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن .

تنبيه :

قيل : نزلت الآية فى النضر بن الحارث ، وكان جديلاً .

قال الزخشرى : وهى عامة فى كل من تعاوى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من
 الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم ، ولا يعرض فيه بضرر قاطع . وليس فيه اتباع للبرهان
 ولا نزول على النصفه فهو مخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل . انتهى .

ثم بين تعالى الحجة القاطعة لما يجادلون فيه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْدَائِهِ الْعُمَرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَرَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ » أى من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى . أو من وقوعه « فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ » أى خلقنا أول آبائكم ، أو أول موادكم ، وهو المني ، من تراب . إذ خلق من أغذية متولدة منه . وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب « ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ » أى تولدت من الأغذية الترابية « ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ » أى قطعة من الدم جامدة « ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ » أى قطعة من اللحم بقدر ما يعضغ « مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ » أى مصورة وغير مصورة . والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء . ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً « لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ » أى بهذا التدرج ، قدرتنا وحكمتنا ، وأن ما قبل التغير والفساد والتسكون مرة ، قبلها أخرى . وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً ، قدر على ذلك ثانياً . « وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو وقت الوضع .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان حالهم ، بعد تمام خلقهم . وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المعلن بالتبيين ، مع كونهما من متماته ، ومن مبادئ التبيين أيضاً . لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات ، التي من جملةا البعث

المبحوث عنه ، أجلى وأظهر . أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى .

« ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ » أى كمال قوتكم وعقلكم . قال أبو السعود علة لـ (نُخْرِجُكُمْ) معطوفة على علة أخرى مناصبة لها . كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً . ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والتميز «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى» أى بعد بلوغ الأشد أو قبله «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ» وهو الهرم والخرف . والأرذل الأردأ «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا» أى من بعد علم كثير ، شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله واللام العاقبة .

قال البيضاوى : والآية - معنى ثم نخرجكم الخ - استدلال ثان على إمكان البعث ، بما يعترى الإنسان فى أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة . فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره .

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث ، بقوله «وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» أى ميتة يابسة «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ» أى المطر «اهْتَزَّتْ» أى تحركت بالنبات «وَرَبَتْ» أى انتفخت وعلت ، لما يقدخلها من الماء ويعلو من نباتها «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ» أى صنف «بِهَيْجٍ» أى حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة ، لظهورها وكونها مشاهدة معينة ، يكررها الله تعالى فى كتابه الكريم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٧] (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» أى ذلك الذى ذكر من خالق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه فى أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق

وحده في ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء . فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يعبد باطل ، لا يقدر على شيء من ذلك «وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى» أى يقدر على إحيائها ، إذ أحيى النطفة والأرض الميتة «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة ، لا يمتنع عليها شيء «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا» أى لاقتضاء الحكمة إياها . فهي في وضوح دلالتها التكوينية ، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى من الأموات، أحياء إلى موقف الحساب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ، بغيرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ)

[٩] (ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[١٠] (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بغيرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ » أى يجادل

في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضرورى ، ولا باستدلال ونظر صحيح ، يهدى إلى المعرفة .

ولا بوحى مظهر للحق . أى بل بمجرد رأى والهوى . وهذه الآية في حال الدعاة إلى الضلال من

رءوس الكفر المقلدين - بفتح اللام - كما أن ما قبلها في حال الضلال الجهال المقلدين - بكسر

اللام - فلا تكرر . أو أنهما في الدعاة المضلين . واعتبر تغاير أوصافهم فيها ، فلا تكرر أيضا .

قال في (الكشف) : والأول أظهر وأوفق بالمقام . وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه

الرازى ، ثم قال : فإن قيل كيف يصح ما قلتم ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل

تصويبا لتقليده . وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها . وإن كان معتمده الأصلي هو

التقليد .

وقوله « ثَانِيَ عِطْفِهِ » حال من فاعل (يجادل) أى عاطفا لجانبه إعرافاً واستكباراً عن الحق، إذا دعى إليه .

قال الزمخشري : ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء . كتصغير الخدّ ولّى الجيد .
وفوله « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى ليصد عن دينه وشرعه، متعلق بـ (يجادل) علة له
« لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى إهانة ومذلة ، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل « وَنَذِيقُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ » أى النار المحرقة « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ » على الالتفات ،
أو إرادة القول . أى : يقال له يوم القيامة : ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من
الكفر والضلال والإضلال . وإسناده إلى (يديه) ، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي .
« وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » أى بل هو العدل في معاقبة الفجار ، وإثابة الصالحين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ،
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » شروع في حال المذبذبين ، إثر بيان حال
المجاهرين . أى ومنهم من يعبد تعالى على طرف من الدين ، لا في وسطه وقلبه . وهذا مثل
لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة . كالذى ينحرف إلى طرف
الجيش . فإن أحسّ بظفر وغنمية قرّ وإلا قرّ « فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ » أى دنيوى من صحة وسعة
« اطْمَأَنَّ بِهِ » أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً « وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ » أى ما يفتن به من
مكروه ينزل به « انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » أى رجع إلى ما كان عليه من الكفر « خَسِرَ »
أى بهز الانقلاب « الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ » أى ضيعهما بذهاب عصمته ، وحبوط عمله ، بالارتداد
« ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » أى الواضح الذى لا يخفى على ذى بصيرة .

تنبيه :

قال ابن جرير ^(١) : يعنى جل ذكره بقوله (وَمِنَ النَّاسِ) الخ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم . فإن نالوا رخاء ، من عيش بعد الهجرة ، والدخول في الإسلام ، أقاموا على الإسلام . وإلا ارتدوا على أعقابهم . وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل . ثم أسنده من طرق .

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع . وتقدم ذلك .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

« يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ » أى حال ثابتة من فاعل (انقلب) والأولى (خسر) ولذلك قرئ (خاسر) أى ارتد عن دين الله يدعو من دونه ألهة لاتضره ، إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا تنفعه فى الآخرة إن عبدها . وقال أبو السمود (يدعو) استثناف مبين لمعظم الخسران « ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » أى عن الحق والهدى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

« يَدْعُوا » أى هذا المنقلب على وجهه ، إذا أصابته فتنة « لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ » أى وثناً أو صنماً ، ضره فى الدنيا بالذل والحزى وفى الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذى يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . فاللام زائدة فى المفعول به ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وهو (مَنْ) كما زيدت في قوله تعالى^(١) (رَدِفَ لَكُمْ) في وجه . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه (يَدْعُو مَنْ ضَرَّهُ) بغير لام . وهي مؤيدة للزيادة . و (ضَرَّهُ) مبتدأ ، و (أقرب) خبر . وفي الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها . وإثبات الضرر له هنا ، باعتبار معبوديته . ونفيه قبل ، باعتبار نفسه . والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها ، بإثبات ضر محقق لاحق لما بدده ، تسفيها وتجهيلا لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به . وإيراد صيغة التفضيل ، مع خلوه عن النفع بالمرة ، للمبالغة في تقبيح حاله ، والإيمان في ذمه « كَيْئَسَ الْمَوَلَى » أى الناصر له « وَلَيْئَسَ الْعَشِيرُ » أى المصاحب له . ولما بين سوء حال الكفرة من المجاهرين والمذبحيين ، أعقبه بكال حسن حال المؤمنين ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » أى من الأفعال المبنية على الحكمة ، التى من جملتها إثابة من أطاعه وتمذيب من عصاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ »

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

أى بجبل إلى مايلوه « ثُمَّ لَيَقَطَّعَ » أى ليختنق « فَلَيَنْظُرُ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » أى غيظه . والمعنى من استبطأ نصر الله وطلبه عاجلاً ، فليقتل نفسه . لأن له وقتاً لا يقع إلا فيه . فالآية فى قوم من المسلمين استبطئوا نصر الله ، لاستمجالهم وشدة غيظهم ، وحقهم على المشركين . وجوز أن تكون فى قوم من المشركين ، والضمير فى (ينصره) للنبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى : من كان منهم يظن أن لن ينصر الله نبيه ، فليختنق وليهلك نفسه ، ثم لينظر فى نفسه ، هل يذهبن احتياله هذا فى المضاربة والمضادة ، ما يغيظه من النصرة ؟ كلا . فإن الله ناصر رسوله لا محالة . قال تعالى ^(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ)

[١٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ » أى القرآن الكريم « ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة ، أنه يقضى بينهم فى الآخرة بالعدل . فيدخل من آمن منهم به وعمل صالحاً ، الجنة . ومن كفر به ، النار . فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم وما تكنه ضمائرهم . وتقدم فى سورة البقرة التعريف بـ (الصابئين) والمراد بـ (الذين) أشركوا

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] .

كفار العرب خاصة . لأن المشركين في إطلاق التذليل ، بمثابة العلم لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » بيان لمعظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته ، بانتقاد هذه العوالم العظمى له ، وجريها على وفق أمره وتدييره . فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف ، لطاوعة الأشياء له تعالى ، فيما يحدث فيها من أفعاله ، ويجريها عليه من تدييره وتسخيرها لها . ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما . وقوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) إما معطوف على ما قبله ، إن جوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعاً ، فيكون السجود في الجمادات الانقياد ، وفي العقلاء العبادة . أو مبتدأ خبره محذوف . أو فاعل لمضمر ، إن لم يجوز ذلك . وقوله تعالى : « وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ » أى من الناس . أى بكفره واستعصائه « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ » أى بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر « فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ » أى يكرمه بالسعادة « إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)
« هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ » يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسمين

إلى الفرق الخمس المبينة في الآية قبل . و (الخصم) في الأصل مصدر . ولذا يوحد وينكر غالباً . ويستوى فيه الواحد المذكور وغيره ومعنى (اختصموا في ربهم) أى في دينه وعبادته . والاختصام يشمل ما وقع أحياناً من التحاور الحقيقي بين أهل الأديان المذكورة ، والمعنوى . فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه ، وبطلان ما عليه صاحبه ، وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر . وإن لم يجز بينهما التحاور والخصام . ثم أشار إلى فصل خصومتهم المذكور في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) بقوله سبحانه : « فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ » أى قدرت « لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » أى الماء الحار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)

[٢١] (وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ)

[٢٢] (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[٢٣] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[٢٤] (وَهُمْ فِيهَا مُقَامِعٌ) أى يذاب « بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ » أى من الأمعاء والأحشاء « وَالْجُلُودُ *

وَلَهُمْ مَقَامِعٌ » أى سياط يضرّبون بها « مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

فِيهَا حَرِيرٌ وَهَدُوءٌ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ « كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) وَقَوْلُهُمْ ^(٢) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) وَهَدُوءٌ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ » أى المحمود ، وهو الجنة . أو الحق تعالى ، المستحق لغاية الحمد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى مكة « الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ » أى المقيم « فِيهِ وَالْبَادِ » أى الطارىء « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ » أى بميل عن القصد « بِظُلْمٍ » أى بغير حق « نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على هتك حرمة . ويشمل الإلحاد الإشرار ومنع الناس من عمارته ، واقتراف الآثام . وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه ، أن يضبط نفسه ، ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهم به ويقصده . وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة فى الحرم أعظم منها فى غيره ، وأنها تضاعف فيه . وإن هم بها فيه أخذ بها . ومفعول (يرد) إما محذوف ، أى يرد شيئاً أو مراداً ما ، والباء للملابسة . أو هى زائدة و (إلحاداً) مفعوله . أو للتعددية لتضمينه معنى (يتلبس) . و (بظلم) حال مرادفة . أو بدل مما قبله ، بإعادة الجار . أو صلة له . أى ملحداً بسبب الظلم . وعلى كل ، فهو مؤكد لما قبله . ومن قوله (نُذِقْهُ) الخ يؤخذ خبر (إن) . ويكون مقدراً بعد قوله (وَالْبَادِ) مدلولاً عليه بآخر الآية ، كما ارتضى ذلك أبو حيان فى (البحر) .

(١) [١٠ / يونس / ١٠ و [١٤ / إبراهيم / ٢٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

ثم أشار تعالى إلى تقريع وتوبيخ من عبد غيره وأشرك به في البقعة المباركة ، التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ » أى واذا ذكر إذعيناؤه وجملناه له مباءة ، أى منزلا ومرجماً لعبادته تعالى وحده (أَنْ) فى قوله تعالى (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) مفسرة (بَوَّأْنَا) من حيث إنه متضمن لمعنى (تعبدنا) لأن التبوئة للعبادة . أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى شيئاً « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ » أى من الأصنام والأوثان والأقدار « لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » أى لمن يطوف به ويقم ويصلى . أو المراد بالقائمين وما بعده (المصلين) ، ويكون عذر عن الصلاة بأركانها ، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك ، فكيف وقد اجتمعت ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

[٢٨] (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ)

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » أى نادِ فيهم به ، قال الزخشرى : والنداء بالحج أن يقول : حجّوا ، أو عليكم الحج « يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مشاة ، جمع (راجل) « وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ »

أى ركبائاً على كل بعير مهزول ، أتعبه بُعد الشقة فهزله . والعدول عن (ركبائاً) الأخصر ، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ، وقوله تعالى « يَا تَيْنَ » صفة لكل ضامر ، لأنه فى معنى الجمع . وقرئ (يأتون) صفة للرجال والركبان . أو استئناف ، فيكون الضمير للناس « مِنْ كُلِّ فَيْجٍ عَمِيقٍ » أى طريق واسع بعيد « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » أى ليحصرُوا منافع لهم دينية وديوية « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » أى على ماملِكهم منها ، وذلَّلها لهم ، ليجعلوها هدياً وضحايا . قل الزمخشري كفى عن النحر والذبح ، بذكر اسم الله . لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نَحَرُوا أو ذَبَحُوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه - زاد الرازي - وأن يخالف المشركون فى ذلك . فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان ، قال القفال : وكان المتقرب بها وإبراقه دماؤها مقصود بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها . فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته ، طلباً لرضا الله تعالى ، واعترافاً بأن قصيره كاد يستحق مهجته . والأيام المعلومات أيام العشر . أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومان بعده . أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده . أقوال للآئمة .

قال ابن كثير : ويعضد الثانى والثالث قوله تعالى (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) يعنى به ذكر الله عند ذبحها . انتهى .

أقول - لا يبعد أن تكون (على) تعليمية ، والمعنى : ليذكروا اسم الله وحده فى تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه ، لأجل ما رزقهم من تلك البهيم . فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها : ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة . وقد امتن عليهم بها فى غير موضع من تنزيله الكريم . كقوله سبحانه ^(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّمَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٧١ و ٧٢] .

والسرّ في إفراذه هذه النعمة ، والتذكير بها دون غيرهما من نعمه وأياديه ، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم . إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخبأؤهم وركوبهم وجماعهم . فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم ، لما قامت لهم قائمة . لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة ، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة . ومن كانوا كذلك ، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقينهم ، ويشكروه ويعرفوا له حقه . من عبادته وحده وتعظيم حرمانه وشعائره . فالاعتبار بها من ذلك ، موجب للاستكانة لاراقها ، والخضوع له والخشية منه . نظير الآية - على ما ظهر لنا - . قوله تعالى ^(١) (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) هذا أولا . وثانياً قد يقال : إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجل . وهو مواساة البؤساء منها . فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى ، ويشيب عليه . والله أعلم .

« فَكُلُوا مِنْهَا » أى من لحومها . والأمر للندب . وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه . وقد ثبت ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

وعن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم . فرخص للمسلمين . فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

قال في (الإكليل) . والأمر للاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء . وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب ، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد ، إلا من جزاء الصيد والنذر . وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكاً بعموم الآية . وذهب قوم إلى أن

(١) [١٠٦ / قریش / ٣ و ٤] . (٢) الحديث انفرد به مسلم . أخرجه في :

١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) عن جابر بن عبد الله . والحديث في بيان حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، مفصلة أتم تفصيل ، فيحسن دراسته .

الأكل من الأضحية واجب ، لظاهر الأمر . وقومٌ إلى أن التصديق منها ندب ، وحملوا الأمر عليه . ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به ، لإطلاق الآية . انتهى .
« وَأَطِيعُوا الْبَاسِسَ » أى الذى أصابه بؤس أى شدة « الْفَقِيرِ » أى الذى أضعفه الإعسار ، والأمر هنا للوجوب . وقد قيل به فى الأول أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)
[٣٠] (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يُتَنَلَّى عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

[٣١] (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

« ثُمَّ » أى بعد الذبح « لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » أى ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام ، بالحلل والتقصير وقص الأظفار ولبس الثياب « وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ » أى ما يندرونه من أعمال البر فى حجهم « وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى طواف الإفاضة . وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج . ويقع به تمام التحلل . و (العتيق) القديم . لأنه أول بيت وضع للناس . أو المعتقد من تسلط الجبابة « ذَلِكَ » خبر محذوف . أى الأمر ذلك . وهو وأمثاله من أسماء الإشارة ، تطلق للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهى كلام واحد . قال الشهاب : والمشهور فى الفصل (هَذَا) كقوله ^(١) (هَذَا ، وَإِنْ لِلطَّائِفِينَ لَشَرٌّ مَأْبٍ) .

واختيار (ذلك) هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ، للمأمة ما بعده لما قبله ، كما هنا « وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ » أى أحكامه . أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك . و (الحرمات) جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه ، بل يحترم شرعاً « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أى ثواباً . و (خير) اسم تفضيل حذف متعلقه . أى من غيره ، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير ، قاله الشهاب . والثانى هو الأظهر ، لأنه أسلوب التنزيل فى مواضع لا يظهر التفاضل فيها . وإيثاره ، مع ذلك ، لركة لفظه ، وجمعه بين الحسن والروعة « وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » أى آية تحريمه . وذلك قوله فى سورة المائدة ^(١) « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ » والمعنى : أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ما استثناه فى كتابه . حافظوا على حدوده . وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً . كتحريم عبدة الأوثان البهيرة والسائبة وغير ذلك . وأن تحلوا مما حرم الله . كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك . أفاده الزمخشري . « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » تفريع على ما سبق من تعظيم حرمانه تعالى . فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى . و (من) بيانية . أى فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس . وهو غاية المبالغة فى النهى عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . قال الزمخشري : سمي الأوثان رجساً وكذلك الحجر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى أنكم ، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله ^(٢) « رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب . وقوله تعالى « وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » تعميم بعد تخصيص . فإن عبادة الأوثان رأس الزور . كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه ذلك ، رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب . وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك ،

(١) [٥ / المائدة / ٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٩٠] .

وإعلاماً بأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، وصدق القول ، أعظم الحرمان وأسبغها خطواً « حُنْفَاءٌ لِلَّهِ » مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق « غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ » أى شيئاً من الأشياء . ثم ضرب للشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال تعالى « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » أى سقط منها فقطعته الطيور في الهواء « أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ » أى تقذفه « فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » أى بعيد مهلك لمن هوى فيه . و(أو) للتخيير أو التنويع . قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والفرق . فإن كان تشبيهاً مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية . بأن صور حاله بصورة حال مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فاخترطته الطير ، فتفرق مزارعاً في حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفروقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسما ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله ، بالساقط من السماء . والأهواء التي تتوزع أفكاره ، بالطير المختطفة . والشيطان الذي يطوح به في وادی الضلالة ، بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة . فكتب الناصر عليه : أما على تقدير أن يكون مفروقاً فيحتاج تأييل تشبيه الشرك بالهاوى من السماء ، إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراك المراد دَرَجَتَهُ ، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصلياً ، فيكون قد عدّ تمكن الشرك من الإيمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختياراً ، بنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى ^(١) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » فعدّهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا ممتكئين منه . وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر ، بالطير المختطفة ، وفي تشبيه تطويع الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق - نظر . لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين . فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء

(١) [٢ / البقرة [٢٥٧] .

والأفكار ، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان ، فقد جعلهما شيئاً واحداً . لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك . فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما المذبذب والمتماهى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة . فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته ، فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب . لا يلوح له خيال إلا أتبعه ونزل عما كان عليه . والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل . لو نشر بالمشار لم يكع ولم يرجع . لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطعم في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج بضلاته . فهذا مشبه في إقراره على كفره ، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقرّ فيه . ويظهر تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق ، الذي هو أبعد الأخباء عن السماء ، وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى (١) : (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) و (ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا) أى صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن في النظم الكريم مساعاً له . إلا أنه لا قاطع به . نعم ، هو من بديع الاستنباط ، ورقيق الاستخراج . فرحم الله ناسجه .

قال ابن كثير (٢) وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام . وهو قوله تعالى (٣) (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) الآية .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٧] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢١٩ من الجزء الثالث . (٤) [٦ / الأنعام / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

« ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ » أى علائم هدايته ، وهو الدين . أو معالم الحج ومناسكه . أو الهدايا خاصة ، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى . كما تنبى عنه آية^(١) (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) وهو الأوفى لما بعده . وتعظيمها أن يختارها عظام الأجرام حسناً سماناً ، غاية الأمان . ويترك المكاس في شرائها . فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن : الهدى والأضحية والرقبة .

وعن سهل^(٢) : كنا نسمن الأضحية في المدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخارى .

وعن أنس^(٣) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين . رواه البخارى . وعن البراء^(٤) مرفوعاً . أربع لا تجوز في الأضاحي ، العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والمرجاء البين ظلمها ، والكسيرة التي لا تنقي : رواه أحمد وأهل السنن . « فَإِنَّهَا » أى فإن تعظيمها « مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » أى من أفعال ذوى التقوى . والإضافة إلى القلوب ، لأن التقوى وضدها تنشأ منها .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] .

(٢) أخرجه البخارى تعليقا في : ٧٣ - كتاب الأضاحي ، ٧ - باب في أضحية النبي

صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين ، ويذكر (سمينين) .

(٣) أخرجه البخارى في : ٣٧ - كتاب الأضاحي ، ٧ - باب في أضحية النبي صلى الله

عليه وسلم ، بكبشين أقرنين . ويذكر (سمينين) حديث رقم ٢٢١١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

(٤) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٥ - باب ما نهى عنه من الأضاحي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

« لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى لكم فى الهدايا منافع دَرَّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها . وقد روى فى الصحيحين^(١) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة قال : اركبها ، ويحك . فى الثانية أو الثالثة . وقوله (ثُمَّ مَحِلُّهَا) أى محل الهدايا وانتهائها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى^(٢) (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) وقال^(٣) (وَالْهَدْيَ مَمْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) .

قال فى (الإكمال) : فيه أن الهدى لا يذبح إلا بالحرم . وقيل : المعنى : محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق . فيقتضى أن الحاج بعد طواف الإفاضة . يحل له كل شيء . وكذا روى عن ابن عباس : ما طاف أحد بالبيت إلا حل ، لهذه الآية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ، فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)
« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » .

أخرجه البخارى فى : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٠٣ - باب ركوب البدن ، حديث

رقم ٨٧٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٣٧٣ (طبعنا) .

(٢) [٥ / المائة / ٩٥] . (٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] .

أى شرعنا لكل أمة أن ينسكوا . أى يذبحوا لوجهه تعالى ، على وجه التقرب . وجعل
العلة ، أن يذكر اسمه . تقدست أسمائه ، على النساءك . (منسكا) مصدر ميمي على أصله .
أو بمعنى المفعول . وفي الآية تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماء .
« فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا » أى أخلصوا له الذكر خاصة ، لا تشوبوه
بإشراك . « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[٣٦] (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَائِمَ
وَالْمُعْتَرَّ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى خافت لتأثرهم عند ذكره مزيد تأثر
« وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا
لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا » أى فى ذبحها تضحية « خَيْرٌ » من المنافع الدينية
والدنيوية « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ » أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن .
وعن ابن عباس : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى . يقول : بسم الله ، والله أكبر ،
لا إله إلا الله : اللهم منك ولك . وفى الصحيحين ^(١) عن ابن عمر : أنه أتى على رجل قد أناخ

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٥ - كتاب الحج ، ١١٨ - باب نحر الإبل مقيدة ،

حديث ٨٨٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث ٣٥٨ (طبعنا) .

بدنة وهو ينفجرها . فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم : وفي صحيح مسلم^(١) عن جابر في صفة حجة الوداع ، قال فيه : فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بدنة . جعل يطعنهما بحربة في يده « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » أى سقطت على الأرض ، وهو كناية عن الموت « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ » أى السائل « وَالْمُعْتَرَّ » أى المتعرض بغير سؤال . أو القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعتز المتعرض بسؤال وقد استنبط من الآية أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : فإكل ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث .

« كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى ذللناها لكم ، لتشكروا إنا أنعمنا . والشكر صرف العبد ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » أى لن يصيب رضاء لحومها المتصدق بها ، ولا دماؤها المراقبة ، من حيث أنها لحوم ودماء . ولكن بمراعاة النية والإخلاص ، ابتغاء وجهه الأعلى ، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى^(٢) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا جُوهَكُمْ) إلى آخرها « كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ » أى لتعرفوا عظمته فتوحده بالعبادة على ما أرشدكم إلى طريق تسخيرها ، وكيفية التقرب بها على لسان أكرم رسله المبعوث بسعادة الدارين . وإنما كرهه تذكيراً للنعمة وتعليلاً بما بعده .

(١) انقرد به مسلم . أخرجه فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤٧ (طبعنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

وفى التعليل المذكور شاهد لما قدمناه أولاً فى معنى قوله تعالى ^(١) (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ) فنذكر . وقوله تعالى « وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » أى المخلصين فى أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » كلام مستأنف ، مسوق لتوطئ قلوب المؤمنين ، ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم ، بحيث لا يقدرّون على صدمهم عن الحج ، لیتفرغوا إلى أداء مناسكه . كذا قاله أبو السعود . وسبقه الرازى إليه . والأولى أن يقال : إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال ، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والسكاة والعاقبة للمؤمنين . تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم ، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام ، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ » أى فى أمانة الله « كَفُورٍ » أى لنعمته بعبادته غيره ، فلا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم . وصيغة المبالغة فيهما ، لأنه فى حق المشركين ، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيراً ، بل هو أمر عظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [٤٠] (الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَّمتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٨] .

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ » أى يقاتلهم المشركون . والمأذون فيه محذوف ، لدلالة المذكور عليه . وقرئ بكسر التاء . « بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » أى بغير حق سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين ، لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله ^(١) (هَلْ تَقْمِئُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ) وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » أى لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم ، وعلى مقبضاتهم فهدموها . قال ابن جرير ^(٢) : ومنه كفه تعالى ببعضهم بعضهم ، كسلطان الذى كف به رعيته عن التظالم بينهم . ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق . ونحو ذلك . وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض . لولا ذلك لتظالموا . فهدم القاهرون صوامع المهجورين وبيعهم ، وما سعى جل ثناؤه . و (الصوامع) مباني الرهبانية لخلوتهم . (والبيع) معابد النصارى . و (الصلوات) روى عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود . سميت بها لأنها علمها . وقيل هى بمعناها الحقيقية . و (هدمت) بمعنى عطلت . أو فيه مضاف مقدر « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » أى ينصر دينه وأوليائه . قال القاضى : وقد أنجز الله وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم . « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

(١) [٥ / المائدة / ٥٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٥ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم . ثم أشار تعالى إلى تسليمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، عما يناله من أذى المشركين ، وحاضاً له على الصبر على ما ياحقه منهم من التكذيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنُوحٌ)

[٤٣] (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)

[٤٤] (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ،

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَنُوحٌ » وهم قوم صالح « وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » وهم قوم شعيب « وَكَذَّبَ مُوسَى » وإنما لم يقل (وقوم موسى) كسابقه ، لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر كأنه قيل ، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم (وَكَذَّبَ مُوسَى) مع وضوح آياته وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره ؟ أفاده الزمخشري .

قال الناصر : ويحتمل عندى ، والله أعلم ، أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ، ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكميله ليليل قوله (فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) فيمتصل المسبب بالسبب ، كما قال في آية (ق) بعد تعددهم ^(١) (كُلُّ كَذَّبٍ رُشْلٌ فَحَقَّ وَعِيدٌ) فربط العقاب والوعيد ، ووصلهما

(١) [٥٠ / ق / ١٤] .

بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره . والله أعلم .

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل ، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذى هو ردّ دعوة النبيّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه ، والقيام فى وجهه وصد الناس عن اتباعه . وما وقع من قوم موسى هو تحليط ، وخطأ اجتهد ، وتعنّت ولجاج مع الاستغلال بظل دعوته ، والانتظام فى سلك إجابه . وقوله تعالى « فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ » أى أمهلهم « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ » أى بالعقوبة « فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ » أى إنكارى عليهم بالإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

« فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ » أى فكلم من أهالى قرية « أَهْلَكْنَاهَا » أى بالعذاب « وَهِيَ ظَالِمَةٌ » أى مشرّكة كافرة « فَهِيَ خَاوِيَةٌ » أى ساقطة « عَلَى عُرُوشِهَا » أى سقوطها « وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ » أى وكلم من بئر متروكة لا يستقى منها ، لهلاك أهلها « وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » أى مرفوع . من (شاد البناء) رفعه . أو معناه مطلى ومعمول بالشيء ، بالكسر ، وهو الجص ، أى مجصص ، أخليناه عن ساكنيه ، ومن شواهد الأول قول عدى بن زيد^(١) :

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كَلًّا سَاءَ ، فَلَطِيرٌ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ

(١) هذا البيت من إحدى قصائده الأربع الغرر . ومطلع القصيدة :

أيها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ — أَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ

انظر (الشعر والشعراء) لابن قتيبة . ج ١ ص ١٧٦ ، تحقيق شيخنا المغفور له الشيخ

أحمد محمد شاكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمَوْا أَنَّهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى أهل مكة في تجارتهم « فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمَوْا أَنَّهُمْ » أى بما يشاهدونه من مواد الاعتبار « قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يعقل من التوحيد « أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يسمع من الوحي والتخويف « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » الضمير في (فإنها) للقصّة . أو مبهم يفسره (الأبصار) . والمعنى : ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة . وفائدة ذكر (الصدور) هو التأكيد مثل ^(١) (يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ) و (طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) ^(٢) إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة ، وهنا لتقرير معنى المجاز . وقال الزمخشري : الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته : الذى قد تمورف واعتقد ؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليمتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول (ليس المضاء للسيف ، ولكنه للسانك الذى بين فكيك) ، فقولك (الذى بين فكيك) تقرير لما ادعيت له للسانه ، وتثبيت . لأن محل المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نقيت المضاء عن السيف . وأثبتته للسانك ، فلتة ولا سهوا منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] . (٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى المبين فى آية^(١) (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) « وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ » أى فيصيبهم ما أوعدهم به ، ولو بعد حين « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » أى هو تعالى حلیم لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة إلى حلمه . لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شىء . وإن أنظر وأمل . ولهذا قال بعده :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ) « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا » أى أمهلها « وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ » إلى حكمى مرجع الكل فأجزئهم بأعمالهم . فتأثر هذه الآية ما قبلها صريح فى بيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ، ببيان كمال سعة حلمه تعالى ، وإظهار غاية ضيق عظمهم ، المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى ، مُدداً طويلاً عندهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى^(٢) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) ولذلك يرون مجيئه بعيداً ، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ، ويجترئون على الاستعجال به ، ولا يدرون أن مميّار تقدير الأمور كلها ، وقوعاً وإخباراً ، ما عنده تعالى من المقدار . أفاده ابن كثير وأبو السعود .

وفى (العناية) : لما ذكر استعجالهم ، وبين أنه لا يتخلف ما استعجلوه ، وإنما آخر

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٧٠ / المعارج / ٧٦] .

حلما ، لأن اليوم ألف سنة عنده . فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه ، بل هو أقصر من يوم . فلا يقال : إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم ، والقلب لا وجه له . وقال الرازي : لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب ، أنهم يستهزئون باستعجال العذاب ، بين أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ) يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته (كَألف سنة) لو عدّ في كثرة الآلام وشدتها . فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه .

قال الرازي : وهذا قول أبي مسلم ، وهو أولى الوجوه . انتهى .

وقد حكاه الزخشرى بقوله : وقيل معناه : كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه ، في طول ألف سنة من سنيكم . لأن أيام الشدائد مستطالة ، أى تمدّطويلة . كما قيل :

تَمْتَعُ بِأَيَّامِ السُّرُورِ فَإِنَّهَا قِصَارٌ . وَأَيَّامُ الْهُمُومِ طَوَالٌ

أو كان ذلك اليوم الواحد ، لشدة عذابه ، كألف سنة من سنى العذاب . انتهى . واعتمد الوجه الأول أبو السعود . وناقش فيما بعده ؛ بأنه لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه . فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى . وأن الزمان الممتد هو الذى مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال . لا الزمان المقارن له . ألا يرى إلى قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الخ ، فإنه صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد ، بحد الإملاء المديد . انتهى . وفيه قوة . فالله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٥٠] (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[٥١] (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُفْرٌ مُّذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهى الجنة « وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى والذين سعوا فى رد آياتنا ، وصدّ الناس عنها مشاقين . فالمعاجزة مستعمارة للشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم . فكما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله . كما يقال (جراه فى كذا) . قال تعالى ^(١) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا) وقرئ (معجزين) بتشديد الجيم . بمعنى أنهم عجزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن . وكلتا القراءتين متقاربة المعنى . وذلك أن من عجز عن آيات الله ، فقد عاجز الله . ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله ، والعمل بماصيه ، وخلاف أمره . وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله . ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه . وقد ضمن الله له نصره عليهم . فكان ذلك معاجزتهم الله . كذا فى الشهاب وابن جرير . ثم أشار تعالى إلى تسليمة رسوله صلوات الله عليه ، عما كان يلاقيه من صدّ شياطين قومه عن سبيل الله ، بأن تلك سنة كل رسول ، وأن العاقبة له ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ

فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » أى رغب فى انتشار

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤] .

دعوته ، وسرعة علو شرعته « أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » أى بما يصد عنها ، ويصرف المدعويين عن إجابتها « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ » أى يبطله ويمحقه « ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ » أى يثبتها (١) « فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه . « حَكِيمٌ » يحكم آياته بحكمته . ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطاني فتنه للشاكرين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاء لهم ليزدادوا إيماناً . ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتاً واستقامة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)
 « لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى شك وارتياب « وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » وهم المعتاة المتمردون « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ » أى خلاف للحق « بَعِيدٍ » عن موافقته جداً ، بسبب ظلمهم وشرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
 « وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ » أى بالانقياد ، والخشية . والضمير للقرآن أو لله تعالى « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ »

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى إلى طريق الحق والاستقامة، فلا تزل أقدامهم بقبول ما يلقى الشيطان ، ولا تقبل قلوبهم إلا ما يلقى الرحمن ، لصفائها . هذا هو الصواب فى تفسير الآية . ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه ، لو احتاجت إلى نظير . ولكنها بيّنة بنفسها ، غنية عن التّأويل فى التّأويل ، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل . ونحن نسوق ما قيل فيها من ذلك ، ثم تتبعه بنقد الحقيقين ، لئلا يبقى فى نفس الواقف حاجة . قال ابن جرير الطبري: قيل: ^(١) إن السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه ، فى بعض ما يتلوهُ مما أنزل الله عليه من القرآن ، ما لم ينزل الله عليه . فاشتمد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به ، فسلاه الله مما به من ذلك ، بهذه الآيات . ثم ذكر من قال ذلك . فأسند عن محمد بن كعب القرظيّ ومحمد بن قيس وغيرهما ؛ أن رسول الله ﷺ جلس فى ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه . فأنزل الله عليه ^(٢) (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ ^(٣) (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ألقى عليه الشيطان كلمتين (تلك الغرائيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها . فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورضوا بما تكلم به .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال : ما جئتك بهاتين . فحزن رسول الله ﷺ . فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يعزيه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ » الآية .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء السابع عشر .

(٢) [٥٣ / النجم / ٢١] . (٣) [٥٣ / النجم / ١٩ و ٢٠] .

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا لم يخرجْه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل . وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير . وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته . ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب . وأكثر الطرق عنهم فيها ، واهية ضعيفة ، والرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في الحديث) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة .

قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل ، يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد . وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا . وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيما ذكرناه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البزار رحمه الله : والذي منه في الصحيح ؛ أن النبي ﷺ قرأ سورة (والنجم) وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والانس والجن . هذا توهينه من طريق النقل .

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، حتى ينهبه عليه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام . أو يقول ذلك النبي ﷺ من

قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر . أو سهواً وهو معصوم من هذا كله . ووجه ثان - وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً . وذلك أن الكلام ، لو كان كما رُوى ، بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف . وأما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل . فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ ووجه ثالث - أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندى المشركين وضعفة القلوب والجهالة من المسامحين ، نفورهم من أول وهلة ، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة ، وتعميرهم المسلمين والشُّمات بهم الفينة بعد الفينة . وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوه مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة . وكذلك ما روى في قصة القضية . ولا فتنة أعظم من هذه البالية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . فما روى عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فسدل على بطلها ، واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن ، على بعض مغفل المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع - ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ^(٤) (وَإِنْ كَادُوا أَيَفْتُنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيتين . وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رواه . لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبتته لكان يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلتهم . وهذا ضد مفهوم الآية ، ويضعف الحديث ، لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث ، لو صح . وقد أعادنا الله من صحته . ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك

أئمة المسلمين بأجوبةٍ منها الغث والسمين . فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبي ﷺ أصابته سنة عند قراءة هذه السورة . فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصح . إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله . ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ولا يقظة ، لمصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو . وقد قال عليه السلام ^(١) (إن عيني تنامان ولا ينام قلبي) . وفي حديث السكبي : أن النبي ﷺ حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه . وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال : ومنها لما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان . وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام لا سهواً ولا قصداً . ولا يتقوله الشيطان على لسانه . وقيل : لعل النبي ﷺ قاله أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوخيخ للكفار . كقول إبراهيم ^(٢) (هَذَا رَبِّي) على أحد التأويلات . وكقوله ^(٣) (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين . ثم رجع إلى تلاوته . وهذا يمكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو . وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر .

ومما يظهر في تأويله ، إن سلمنا القصة ، أن يراد بالغرائيق الملائكة . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . فلما تأوله المشركون على أن المراد بها آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم ، وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين . انتهى كلام القاضي ملخصاً .

وقال أبو بكر الباقلاني : وقيل : كان ﷺ يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان في سكتة

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٦ - باب قيام النبي ﷺ بالليل

في رمضان وغيره ، حديث رقم ٦٣١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٢٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٧] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣] .

من السكتات . ونطق بتلك الكلمات ، محاكياً نعمته ، بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله تعالى وأشاعها .

قال : وهذا أحسن الوجوه . ويؤيده ما روى عن ابن عباس من تفسير (تمنى) بـ (تلا) وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل . وقال قبله : إن هذه الآية نص في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه ، وأن الشيطان زاده في قوله صلوات الله عليه ، لا أنه عليه السلام قاله .

قال : وقد سبق إلى ذلك الطبري فصوب هذا المعنى وحوم عليه . واستحسن ابن العربي ذلك ، على فرض صحة القصة ، وإلا فقد قال : ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لأصل لها . وقال تقي الدين بن تيمية^(١) : في الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك . والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وقالوا : إن هذا لم يثبت . ومن علم أنه ثبت قال : هذا لقاء الشيطان في مسامعهم ، ولم يلفظ به الرسول ﷺ . ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً .

وقالوا في قوله (إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) : هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف ، فقالوا : هذا منقول نقلًا ثابتاً لا يمكن القدح فيه . وقالوا : الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث . والقرآن يوافق ذلك . فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان ، وإحكامه آياته ، إنما يكون لرفع ما وقع في آياته ، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها . وجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس ، لا باطناً في النفس . والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ ، من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ . وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ ، وبعده عن الهوى ، من ذلك النوع . فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله ، وهو مصدق في ذلك ، فإذا قال عن نفسه أن الثاني هو الذي

(١) في شرح دعوة ذي النون . كذا في هامش جامع البيان ، صحيفة ٢٩٥ .

من عند الله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك ، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق . وهذا كما قالت عائشة^(١) رضى الله عنها: لو كان محمد كاتما شيئا من الوحي لكتّم هذه الآية (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ألا ترى أن الذى يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ . فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألغاه الشيطان ، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب . وهذا هو المقصود بالرسالة . فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليما . انتهى .
وفى كلامه رحمه الله نظر من وجوه :

أولا - دعواه أن المأثور يوافق القرآن . فإنه ذهب إلى أن الإلقاء إلقاء فى الآيات . ولا تدل الآية عليه ، لا مطابقة ولا التزاما . بل القول بذلك يناقى التنزيل والوحي منافاة النار للماء ، كما ستره .

وثانيا - دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه . فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين . ويكفى أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال : قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائق . وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلّة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح . ونعداد طرقها ، بعد ضعف أصلها ، لا يفيد . وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات . يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى . والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء . وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر . فأخذ يقوى بمض طرقها ويصححها من جهة الإسناد . كما ستمر بك مناقشته . ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخارى معلقة أو موقوفة ، أو أرباب السنن .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - حدثنا

على بن حجر .

وثانئا - اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها ، وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم ، مما يبرهن أن فيها مغامر تنبذها العقول ، كما نبذتها صحة النقول .

فصل .

وقال الفخر الرازي في (تفسيره) : هذه الرواية باطلة موضوعة ، عند أهل التحقيق . واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه : (أحدها) قوله تعالى ^(١) (وَلَوْ نَقُولُ عَلِيمًا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) . (وثانيها) قوله ^(٢) (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّ لَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) .

وثالثها - قوله ^(٣) (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) . ورابعها - قوله تعالى ^(٤) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلِيمًا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) وكلمة (كاد) عند بعضهم معناها أنه لم يحصل . وخامسها - قوله ^(٥) (وَلَوْ لَا أَنْ تُبَتِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا) وكلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لا تنفاء غيره . فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل .

وسادسها - قوله ^(٦) (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) .

وسابعها - قوله ^(٧) (سَمْعُكُمْ فَلَا تَنْسَى) .

وأما السنة فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة . وصنف فيه كتاباً .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٦] . (٢) [١٠ / يونس / ١٥] .

(٣) [٥٣ / النجم / ٤٣] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٧٤] . (٦) [٢٥ / الفرقان / ٣٢] .

(٧) [٨٧ / الأعلى / ٦] .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم في أن رواية هذه القصة مطعون فيهم . وأيضاً فقد روى البخاري^(١) في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة (والنجم) وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن . وليس فيه حديث الغرائيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرائيق .

وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها - أن من جاوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان ، فقد كفر . لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان . وثانيها - أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له . حتى كانوا ربما مّدّوا أيديهم إليه . وإنما كان يصلي ، إذا لم يحضروها ، ليلاً ، أو في أوقات خلوة . وذلك يبطل قولهم . وثالثها - أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقرؤا بهذا القدر من القراءة ، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر . فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدوا ؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم .

ورابعها - قوله (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول ، أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها . فإذا أراد الله إحكام الآيات ، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً ، أولى .

وخامسها - وهو أقوى الوجوه ، أنا لو جاوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه . وجوزنا

(١) [أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ٤ - باب

فاسجدوا لله واعبدوا ، حديث رقم ٥٩٠ .

في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ، ويبطل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي ، وبين الزيادة فيه . فهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال ، أن هذه القصة موضوعة .

أكثر ما في الباب أن جماعاً من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والعقلية المتواترة . ثم أطال الرازي في تفصيل المباحث . ونقل عن أبي مسلم الأصفهاني ما توسع به البحث فانظره إن شئت .

فصل .

وكتب الأستاذ الإمام مفتي مصر ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، في هذه الآية مقالة بديعة ، نقبس منها شذرات .

قال : يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهي (القرآن) ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر ، في الفضائل وصالح الأعمال . وتنزيهه إياهم عما رامهم به أعداؤهم وما نسبته إليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر ، في هذا الدين القويم ، أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز . وعصمة الرسل في التبليغ عن الله ، أصل من أصول الإسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق ، فإنما هو في غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذي اعتمدت عليه الأديان ، حق لا يرتاب فيه ملئ يفهم ما معنى الدين . ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه . أولئك عشاق الرواة

وعبدۃ النفل . نظروا نظرة في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآية وفيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية القراءة) فعمى عليهم وجه التأويل ، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس . فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم . ففيض لهم من يروى في ذلك أحاديث تختلف طرقها وتباین ألفاظها وتتفق في أن النبي ﷺ عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه ، وجفاه قومه وعشيرته ، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلهتهم ، أخذ الصخر من إعراضهم . ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما يفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استماتهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم) إلى آخر ما رواه ابن جرير أولا . وقد شايحه عليه كثير من المفسرين ، وفي طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب . فولعوا بهذه التفاسير ، ونسوا مارآه جمهور المحققين في تأويلها . وذهب إليه الأئمة في بيانها .

جاء في صحيح البخارى ^(١) : وقال ابن عباس في (إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيه) . إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال (أمنيه قراءته) (إلا أمانى) يقرؤون ولا يكتبون . انتهى .

فتراه حكي تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بمد ما فسرهما بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين . فما يدعيه الشراح أن الحديث في رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة . ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده . وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس .

وقال صاحب الإبريز : إن تفسير (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) مروى عن ابن عباس في نسخة على بن أبى طلحة عن ابن عباس . ورواها على بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس . وقد علم ما للناس

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ٢٢ - سورة الحج ، في الترجمة .

في ابن أبي صالح كاتب الليث ، وأن المحققين على تضعيفه . انتهى .

هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي أصل هذه الفتنة . وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها . وأما قصة الغرائيق ، فمع ما فيها من الاختلاف ، فقد طعن فيها غير واحد من الأئمة ، حتى قال ابن إسحق : إنها من وضع الزنادقة . كما تقدم عن الرازي ، ونحوه عن القاضي عياض رحمه الله ، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه .

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسل من طرق على شرط الصحيح ، وأنه يحتج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل ، فقد ذهب عليه كما قال في الإبريز : أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين . فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها ، لا يقبل على أى وجه جاء . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة ، من الأخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به ، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام ، لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به . فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة ، جزام الله خيراً ، في بيان فساد هذه القصة ، وأنها لا أصل لها . ولا عبرة برأى من خالفهم . فلا يعتد بذكرها في بعض كتب التفسير . وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل في بطله ، لا تنفع القوة في قواه . ولا تحمل على الأخذ برأيه .

ثم قال الأستاذ رحمه الله : والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها . والله أعلم :

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية ، وقرأ شيئاً من القرآن ، أن قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآيات ، يحكي قدراً قدراً المرسلين كافة ، لا يعدونه ولا يقفون دونه . ويصف شنشنة عرفت فيهم ، وفي أممهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى : أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحى المنزل

إليهم . ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ ، وهذا من أقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ! فلندع هذا الهذيان ، ولنعد إلى ما نحن بصده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ، ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد بعد أن قال ^(١) (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ) إلى آخر الآيات ثم قال ^(٢) « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ » الخ ، فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم . ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي ﷺ لقومه : إنني لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ، ولأبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسمعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة ، ليحوّلوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار ، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله ، ويماجزوا بذلك النبي ﷺ والمؤمنين ، أى يساقطهم ليمجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك . وذلك بلبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائمها ، كما يقع عادة من أهل الجدل والمحاكة - هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما أُتلى به النبي ﷺ من المعاجزة في الآيات ، قد ابتلى به الأنبياء السابقون . فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادون أمانيه ، ويحولون بينه وبين ما يبتغى ، بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً ، يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين :

الأول - أن يكون (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) وهو معنى قد يصح . وقد ورد استعمال اللفظ فيه ؛ قال حسان بن ثابت في عثمان رضى الله عنهما :

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٩ - ٥٢] .

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَا قِيَّ حَمَامَ الْمَقَادِرِ^(١)

وقال آخر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه ، بل على المعنى المفهوم من قولك (ألقى فى حديث فلان) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ، ولا يكون قد أراده . أو نسبت إليه ما لم يقله تعلقاً بأن ذلك الحديث يؤدى إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه . ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل إليه فى هدى لهم ، قام فى وجهه مشاغبون ، يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه . ويتقوّلون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ، ليمعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل . وما زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ، ويجاهدون فى الحق ، ولا يمتدّون بتمجيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين إلى أى يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجادة . فينسخ الله تلك الشبهة ويحقّقها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه السنّة فى الناس ليتميز الخبيث من الطيب ، ويفتتن الذين فى قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء العقول ، بتلك الشبهة والوساوس ، فينطلقون وراءها . ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاهدة ، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها فى جدلهم . ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه ، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به ، فتختب وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى

(١) استشهد بهما فى اللسان ، بالصفحة رقم ٢٩٤ من المجلد الخامس عشر (طبعة بيروت)

يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين . وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين . وسواء أرجعت الضمير في (أنه الحق) إلى ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهي أو إلى القرآن ، وهو أجلّها ، فالعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكن . هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا . وهم الذين هدام الله إلى الصراط المستقيم . ولم يجعل للوهم عليها سلطاناً ، فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب ، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساء الطباع ، الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون في ريب في الحق أو الكتاب . لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون في متصرفات شئونهم إليه . حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقوا حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما ذهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب ، القتل أو الأسر . ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة . وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . ما أقرب هذه الآيات في مغازيها ، إلى قوله تعالى في سورة آل عمران (١)

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ) وقد قال بعد ذلك (٢) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) ثم قال (٣)

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) الخ الآيات .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٢] .

وكان إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والفاسية قلوبهم . والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم . فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاديتهم إلى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفقتنون بالتأويل ، ويشغلون بقال وقيل بما يلقي إليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرأى البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكئون عليه من الأموال والأولاد ، لن يغني عنهم من الله شيئاً . فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم . فإن لم يوافيهم الأجل على فرائضهم . فسيقبلون في هراشهم . وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكلا لا مدخل لقصة الغرائيق في آيات آل عمران ، لا مدخل لها في آيات سورة الحج ، هذا هو الوجه الأول في تفسير آيات (وَمَا أَرْسَلْنَا) إلى آخرها ، على تقدير أن (تَمْنَى) بمعنى (قرأ) وأن (الأمنية) بمعنى (القراءة) والله أعلم .

الوجه الثاني في تفسير الآيات - أن التمني على معناه المعروف . وكذلك الأمنية . وهي أفعولة بمعنى المنية . وجمعها . أمانى كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمني سؤال الرب . وفي الحديث (إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه) وفي رواية (فليكثر) قال ابن الأثير : (التمني) تشهوى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقال أبو بكر : تمتنى الشيء إذا قدرته وأحببت أن يصير إلي . وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه ، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل الله من رسول ولا نبي ليدعو قوماً إلى هدى جديد ، أو شرع سابق شرعهم ، ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً ، أو جاء به غيره إن كان نبياً بُعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ، إلا وله أمنية في قومه . وهي أن يتبعوه

وينحازوا إلى ما يدعواهم إليه ، ويستشفوا من داءهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة نداءه . وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذى يطعم ، وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن إليه . ويغدو عنه ويروح علينا . وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى ، والمكان الأسنى . قال الله تعالى (١) : (فَلَمَّا لَكَ بِأَخِيحِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (٢) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (٣) (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وفى الآيات ما يطول سرده ، مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه ، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه ، إلى نور ما جاء به . وما من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى هذه الأممية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس فى صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس ، فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فإذا ظهروا عليه ، والدعوة فى بدايتها ، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم ، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ما عمد إليه ، فتنه لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أواسط قومهم ، أو من المستضعفين فيهم ، ليكون العامل فى الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان . وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله . ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل فى كل زمان ، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والمشييرة والأعوان ، والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .

(١) [١٨ / الكهف / ٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٣) [١٠ / يونس / ٩٩] .

وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوى المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ،
وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فإذا دعا إلى الحق داع ، عرفته القلوب النقية من أوضار
هذه الفوائن ، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله ، بخلو صها من هذه الشواغل .
وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على
دعوته ، قام أولئك المغرورون يقولون ^(١) (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا
الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)
فإذا استدرجهم الله على سنته ، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجلاً ، افتتن الذين في
قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب
على أمره . فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ،
ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها ، وينشئ من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف
لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى ^(٢) (فَأَمَّا الزُّبُرُ
فَيَذَهِبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ) وفي حكاية هذه السنة الإلهية
التي أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسليمة لنبينا ﷺ عما كان يلاقى من قومه ، ووعد له بأنه
سيكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع استغفارهم إلى سيرة من سبقهم ^(٣)
(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) ^(٤) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُوا بِالسَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية . ويدل عليه ما سبق من الآيات ، ويرشد إلى سياق

- (١) [١١ / هود / ٢٧] . (٢) [١٣ / الرعد / ١٧] .
(٣) [٢٩ / المـكـيـوت / ٢] . (٤) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

القصص السابق في قوله ^(١) (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) الخ. وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح .

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز . وإني أنقله بحروفه ، وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال (بعد ذكر أمانى الأنبياء فى أممهم ، وطمعهم فى إيمانهم ، وشأن نبينا ﷺ فى ذلك ، على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى) :

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى ^(٢) (وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوسوس القاذحة له فى الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وسوس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب ، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلّة والكثرة ، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فعنى (تعى) أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبي . وإلقاء الشيطان فيها ، يكون بما يلقى فى قلوب أمة الدعوة من الوسوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدةانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتنوا به . فخرج من هذا أن الوسوس تلقى أولاً فى قلوب الفريقين معاً ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين ، وتدوم على الكافرين . انتهى .

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ماسبقه ، تبين الأحق بالترجيح . ولو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحى وانتقض الاعتماد عليه ، كما قاله القاضى البيضاوى وغيره .

ولكان الكلام فى الناسخ كالكلام فى المنسوخ . يجوز أن يلقى فيه الشيطان ما يشاء ، ولا يهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة . وما يقال فى المخرج عن ذلك ، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل . على أن وصف العرب لآلهم بأنهم الغرانيق العلى لم يرد لافى نظمهم ولا فى خطبهم . ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم . إلا ما جاء فى معجم ياقوت غير مسند

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٥٣] .

ولامعروف بطريق صحيح. وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق. وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت. ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة إلا اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض. أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه والغرنيق (بالضم) وكزنبور وقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل. وتسمى الخصلة من الشعر المفقلة (الغرنوق) كما يسمى به ضرب من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرائيق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات. ويقال (لمة غرائقة) و(غرائقية) أى ناعمة تقيئها الريح. أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ. ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام، حتى يطلق عليها في فصيح القول الذى يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام. فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين ، ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام. فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية، عما تقتضيه الدراية^(١) (رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) . انتهى كلام الأستاذ رحمه الله .

وممن جزم بوضع هذه القصة جزمًا باتًا ، الإمام ابن حزم رحمه الله . حيث قال في كتابه (الملل في الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء مأمثاله : استدلوا بالحديث الكاذب الذى لم يصح قط في قراءته عليه السلام في (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) وذكروا تلك الزيادة المفتراة التي تشبهه مَنْ وَضَعَهَا مِنْ قَوْلِهِمْ (وَإِنَّمَا لَهَا الْغَرَانِيقُ الْعَلَىٰ وَإِنْ شَفَاعَتَهَا لَتَرْجَىٰ) ثم قال بعد : وأما الحديث الذى فيه (الغرائيق) فكذب بحت موضوع . لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد . وأما قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الآية ، فلا حجة لهم فيها . لأن الأماني الواقعة في النفس لا معنى لها . وقد تمنى النبي صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبي طالب ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨] .

ولم يرد الله عز وجل كون ذلك . فهذه الأمانى التى ذكرها الله عز وجل لاسواها ، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ ممصية . وبالله تعالى التوفيق .

وهذا الذى قلناه هو ظاهر الآية دون مزيد تكلف ، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق . انتهى ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

«وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» أى فى شك وجدال من التنزيل الكريم، لما طبع على قلوبهم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» أى القيامة «بَغْثَةً» أى فجأة «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ» أى يوم لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقياً . والمراد به الساعة أيضاً . كأنه قيل (أو يأتيتهم عذابها) فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل . أفاده أبو السعود . أى لأنه بمعنى (شديد) لا مثل له فى شدته . وتقدم فيما نقلناه وجه آخر وهو أن المعنى : لا يزال الذين كفروا فى ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما دهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة . بل يسلبون ما كان لديهم ، ويساقون إلى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُونَ لِمَنْ يُنْصَرِفُ إِلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ » أى يوم نزول مريتهم « لِلَّهِ » أى وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف
لاحقيقة ولا صورة « يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أى بالمجازاة، ثم فسر الحكم بقوله تعالى « فَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا

حَسَنًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٥٩] (لِيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ رِزْوَنِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا » أى فى الجهاد « أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى من الجنة
ونعيمها « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لِيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ رِزْوَنِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ
حَلِيمٌ »

قال فى الإكمال : استدلل بقوله تعالى (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) فضالة بن عبيد الأنصارى
الصحابى على أن المقتول والميت فى سبيل الله سواء فى الفضل . أخرجه ابن أبى حاتم وهو رأى
قاله جماعة . وخالفه آخرون ففضلوا المقتول . وأخرج ابن أبى حاتم عن سليمان قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : (فمن مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأمر ، وأجرى عليه
الرزق ، وأمن من الفتانين . واقروا ما شئتم) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إلى (حَلِيمٌ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ، إِنَّ

اللَّهُ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ)

« ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ » أى ومن جازى ظالماً بمقدار ظلمه ، ولم يزد فى الاقتصاص منه ، ثم تعدى عليه الظالم ثانياً ، لينصرن الله ذلك المظلوم . وإنعاسى الابتداء بالعقاب ، الذى هو الجزاء ، للازدواج والمشاكلة . أو لأنه سبب الجزاء وفى قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » تعريض بالحث على العفو والمغفرة . فإنه تعالى مسح كمال قدرته ، لما كان يعفو ويغفر ، فغيره أولى بذلك . وتنبيه على قدرته على النصر . إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده . فظهر سر مطابقة (العفو الغفور) لهذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٦٢] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة ، إيلاج أحد الملوك فى الآخر ، بزيادته فى أحدهما ما ينقص من ساعات الآخر « وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذلك الصنع الباهر بأنه المعبود الحق الذى لا مثل له ولا ندد . وأن الذى يدعوه المشركون هو الباطل الذى لا يقدر على صنعة شيء . بل هو المصنوع . أى فتتركون عبادة من منه النفع وييده الضر ، وتعبدون الباطل الذى لا تنفعكم عبادته . وأن الله هو ذو العلو على كل شيء ، والعظيم الذى كل شيء

دون عظمته ، فلا أعلى منه ولا أكبر . ثم أشار إلى آية من آيات صنعه الباهر ، تقريراً لألوهيته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[٦٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)
[٦٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » أى جعلها معدة لمنافعكم « وَالْفُلْكَ » أى وسخر لكم البحر، حتى أن الفلك « تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » أى بتيسيره لمنافعكم « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ » أى بمشيئته وقدرته. أى ما يمسكها ويحفظها إلا بذلك ، رحمة بكم ، فاشكروا آلاءه وحده « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى فى آلائه وآياته المذكورة ، وما أبان فيها من طرق الاستدلال على وحدانيته ، لا إله إلا هو . وكذلك من آيات ألوهيته ما تضمنه قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

« وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » أى جحود للنعم ، بعبادة غير بارئها . أو إثرا كه معه ، مع أنه هو الخالق لكل ذلك ، والقادر عليه ، وغيره لا يملك شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (إِكْلُ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ)

« إِكْلُ أُمَّةٍ جَعَلْنَا » أى وضعنا « مَنْسَكًا » أى شريعة ومتعبداً « هُمْ نَاسِكُوهُ » فَلَا يُنَازِعُنَكَ فِي الْأَمْرِ » أى فى ذلك الجمل والوضع والحوار فى تنوعه فى كل أمة ، وعدم وحدته . أو فى أمر ما جئتهم به ، زعماء بأنه يستغنى عنه بما شرع قبله . لأنه جهل بحكمته تعالى فى تكوين الأمم وتربيته بالشرائع المناسبة لزمانها ومكانها ، وحياتها ومنشئها . ولذلك كانت هذه الشريعة أهدي الشرائع للامتنان بها ، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ » أى اثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخذعوك عنه . أو معناه : ثابر على الدعوة إلى ما أمرت به . فلا تضرك منازعتهم . وعلى السكل اتباعك وعدم مخالفتك ، لاستقرار الأمر على شريعتك . لأنها الطريق القويم .

هذا ، وقال ابن جرير^(١) : أصل المنسك فى كلام العرب ، الموضع المعتاد الذى يعقده الرجل ويألفه ، خيّر أو شر . يقال (إن لفلان منسكاً يعقده) يراد مكاناً يغشاه ويألفه خيّر أو شر . وقد اختلف أهل التأويل فى معنى (المنسك) هنا ، فقيل : عيداً . وقيل : إراقة الدم (ثم استظهر) أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمعنى . لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ ، كانت إراقة الدم فى هذه الأيام ، أى فلا ينازعك هؤلاء المشركون فى ذبحك ومنسكك بقولهم (أنا كلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التى قتلها الله) ؟ انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٨ من الجزء السابع عشر .

وعليه ، فيكون المراد بالجعل في قوله تعالى (جَعَلْنَا) الجعل القدرى لا التشريعى . كما قال ^(١) (وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته . فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ ءِذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ) أشار له ابن كثير . ونقل الرازى عن ابن عباس ، فى رواية عطاء ، أن المراد بالمنسك الشريعة والمنهاج . قال : وهو اختيار القفال ، لقوله تعالى ^(٣) (لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ) وهو الذى آثرناه أولاً لظهوره فيه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[٦٩] (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

[٧٠] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ،
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[٧١] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ،
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ)

« وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى من أمر الدين « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا » أى حجة « وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ » أى من ضرورة العقل أو استدلاله « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ » أى يدفع عنهم ما يراد بهم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٨] . (٢) [٢٨ / القصص / ٨٧] . (٣) [٥ / المائدة / ٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأَنْبَسُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ)

[٧٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

[٧٤] (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ » أى حال كونها واضحة الدلالة على حقيقتها وما تضمنته « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ » أى الإنكار أو الفطيمع من التهمج والبسور . أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله « يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » أى يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب . قال فى (فتح البيان) : وكذلك أهل البدع المضلة ، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليه ، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة ، مخالفا لما اعتقده من الباطل ، رأيت فى وجهه من المنكر ، ما لو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به ما لا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق « قُلْ أَفَأَنْبَسُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ « أَيْ بَيْنَ » « مَثَلٍ » أى حال مستغرب « فَاسْتَمِعُوا لَهُ » أى تدبروه حق تدبره . فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » يعنى الأصنام « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » أى خلقه متعاونين . وتخصيصه الذباب ، لمهاتته

وضمفه واستقذاره . وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين . حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ، صوراً وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا لذلك « وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » أى هذا الخلق الأقل الأذل ، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه ، لم يقدرُوا « ضَعْفَ الطَّالِبِ » أى الصنم يطلب ما سلب منه « وَالْمَطْلُوبُ » أى الذباب بما سلب . وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف . فإن الذباب حيوان وهو جاد . وهو غالب وذلك مغلوب . وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم ، وبالمطلوب معبوده . قيل : وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم . فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذليل . واختار الوجه الأول الزمخشري . لما فيه من التهم ، بجعل الصنم طالباً على الغرض تهكماً . وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجاد ، وذاك حيوان بخلافه .

وهذه الجملة التذيلية إخبار أو تعجب . وقوله تعالى « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ما عرفوه حق معرفته ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينقص منه « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » أى قادر وغالب . فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقوى بنصر أوليائه ، عزيز ينتقم من أعدائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٧٦] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

«اللَّهُ يَصْطَفِي» أن يختار «مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» أى فلان نكران لاصطفائه من البشر من شاء لرسالته . ولا وجه لقولهم ^(١) : (أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) قال

أبو السعود : كأنه تعالى . لما قرر وحدانيته ، في الألوهية ، ونفى أن يشاركه فيها شيء من الأشياء بين أن له عباداً مصطفين للرسالة ، يتوسل بإجابتهم والافتداء بهم ، إلى عبادته عز وجل . وتقدمه بنحوه البضاوى « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى ما عملوه وما سيعملونه « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى لأنه مالكها . فلا يسئل عما يفعل ، من الاصطفاء وغيره ، وهم يسألون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » أى صلّوا . وعبر عن الصلاة بهما ، لأنهما أعظم أركانها . أو اخضعوا له تعالى ، وخرّوا له سجداً ، لا لغيره « وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ » أى تحروّوه . كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والاتصاف بمكارم الأخلاق « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

تنبيهات

الأول لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة . واختلفوا في السجدة الثانية - هذه - فروى عن عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى ؛ أنهم قالو : في الحج سجدتان . وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يدل عليه ما روى ^(١) عن عقبة ابن عامر قال . قلت يا رسول الله أى الحج سجدتان ؟ قال : نعم

(١) أخرجه أبو داود في : ٧ - كتاب سجود القرآن ، ١ - باب تفريع أبواب السجود ، وكم سجدة في القرآن ، حديث رقم ١٤٠٢ .

وأخرجه الترمذى في : ٤ - كتاب الجمعة ، ٥٤ - باب ما جاء في السجدة في الحج ،

ومن لم يسجد بها فلا يقرأها . أخرجه الترمذى وأبو داود . وعن عمر بن الخطاب^(١) أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدين . أخرجه مالك في (الموطأ) وذهب قوم إلى أن في الحج سجدة واحدة ، وهى الأولى ، وليست هذه بسجدة . وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبى حنيفة ومالك . بدليل أنه قرن السجود بالكوع . فدل ذلك أنها سجدة صلاة ، لا سجدة تلاوة . كذا في (لباب التأويل) أى لأن المهود في مثله من كل آية ، قرن الأمر بالسجود فيها بالكوع ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، بالاستقراء نحو^(٢) (وَاسْجُدْ وَارْكَعْ) وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال .

وما روى من الحديث المذكور ، قال الترمذى رحمه الله : إسناده ليس بالقوى . وكذا قال غيره . كافي (شرح الهداية) لابن الهمام .

قال الخفاجى : لكن يرد عليه ما في (الكشف) أن الحق أن السجود حيث ثبت ، ليس من مقتضى خصوص في تلك الآية . لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة . بل إنما ذلك بفعل رسول الله ﷺ أو قوله . فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة . ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها ، لما ثبت من الرواية فيه . اهـ .

الثانى - قال في (اللباب) اختلف العلماء في عدة سجود التلاوة . فذهب الشافعى وأحمد وأكثراهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة . لكن الشافعى قال : في الحج سجدتان . وأسقط سجدة (ص) . وقال أبو حنيفة : في الحج سجدة . وأثبت سجدة (ص) . وبه قال أحمد ، في إحدى الروايتين عنه . فمنده أن السجدة خمس عشرة سجدة . وذهب قوم إلى أن الفصل ليس فيه سجود . يروى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس . وبه قال مالك .

(١) أخرجه في الموطأ في : ١٥ - باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٣

(طبعتمنا) . (٢) [٣ / آل عمران / ٤٣] .

وقال عمر ^(١) : إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء. رواه البخارى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » عامٌّ في جهاد الكفار والظلمة والنفس . و (حق) منصوب على المصدرية . والأصل (جهاداً فيه حقاً) فمكس ، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجهه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة . وعن الرضى : إن (كل) و (جد) و (حق) إذا وقعت تابعة لاسم جنس ، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى ، نحو (أنت عالم كل عالم) أو (جد عالم) أو (حق عالم) أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرق في الكل . وأن ما سواه باطل أو هزل . وقوله تعالى « هُوَ اجْتَبَاكُمْ » أى اختاركم لدينه ولنصرته . وفيه تنبيه على مقتضى للجهاد والداعى إليه . لأن الاختار إنما يختار من يقوم بخدمته . وهى بما ذكر . ولأن من قرّبه العظيم ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه ، بترك ما لا يرضاه . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » أى فى جميع أمور الدين من ضيق ، بتكليف ما يشق القيام به . كما كان على من قبلنا . فالتعريف فى (الدين)

(١) أخرجه البخارى فى : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ١٠ - باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ، حديث رقم ٥٩٣ ونصه : « يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب . ومن لم يسجد فلا إثم عليه » .

للاستغراق . قال في (الإكمال) : هذا أصل القاعدة (المشقة تجلب التيسير) « مِلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ » منصوب على المصدرية ، بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج . بعد حذف مضاف أى وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم . أو على الإغراء بتقدير (اتبعوا أو الزموا) أو الاختصاص بتقدير (أعني) ونحوه . أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله . فيكون مجروراً بالفتح ، أفاده الشهاب . قال القاضي ؛ وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالأب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية . أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته . فغلبوا على غيرهم .

وقال القاشاني : معنى أبوتّه كونه مقدماً في التوحيد ، مفيضاً على كل موحد ، فكلهم من أولاده . وقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة . والجملة مستأنفة . وقيل : إنها كالبدل من قوله (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) ولذا لم يعطف « وَفِي هَذَا » أى القرآن . أى فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل : الضمير لـ (إبراهيم) عليه السلام .

قال القاضي : وتسميتهم بـ (مسلمين) في القرآن ، وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل ، في قوله ^(٢) « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ » أى لدخول أكثرهم في الذرية . فجعل مسميهم مجازاً . « لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ » أى بأنه قد بلغكم رسالات ربكم « وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » أى بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم « فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ نَنَعَمْ مَوْلَايَ وَنَعَمْ النَّصِيرُ » أى : وإذا خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وثقوا به ، ولا تطلبوا النصر والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر .



(١) [٢ / البقرة / ١٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣ - سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سميت بهم لاشتغالها على جلائل أوصافهم وتأنجها، في أولها وفي قوله ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إلى قوله (سَابِقُونَ) أفاده المهايى. وهى مكية. واستثنى بعضهم منها آية ^(٢) (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ) إلى قوله (مُبْلِسُونَ) وآيها مائة وثمانى عشرة. وقد روى الإمام أحمد ومسلم ^(٣) وغيرها عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي ﷺ بمكة الصبح. فاستفتح سورة المؤمنين. حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون، أو ذكر عيسى، أخذته سعدة فركع.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧]. (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٦٤].

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي).

وأخرجه البخارى تعليقا في ١٠ - كتاب الأذان، ١٠٦ - باب الجمع بين السورتين في الركعة وأخرجه مسلم في ٤ - كتاب الصلاة، حديث رقم ١٦٣ (طبعنا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)
- [٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)
- [٣] (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)
- [٤] (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)
- [٥] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)
- [٦] (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)
- [٧] (فَمَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَاولئك هُمُ الْمَآذُونَ)

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » أى دخلوا فى الفوز الأعظم « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » أى متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبه على قلوبهم « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » . أى عن الفضول وما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، معرضون فى عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » أى للتجرد عن رذيلة البخل .

قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذى فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع فى أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » لأنه الحق المأذون فيه

« فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الكاملون فى العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملوين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع فى اللوم . ففاساة الم الشهوة ومماناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فتمها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ويثبروا ما علوا تبيراً .

الثانى - روى عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى . واحتج بحديث عبد الله ^(١) بن مسعود أنه قال : يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن ترائى حليلة جارك . والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب تفسير القرآن ، ٢ - سورة البقرة ، ٣ - باب قوله تعالى : لا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، حديث ١٩٦٢ .

فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجاب بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشربه . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهك من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إنمًا وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها . إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إنمًا وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي ﷺ ^(١) أنه قال : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان الجار أخاً له ، أو قريباً من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائباً في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تتضاعف الإثم . فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها . فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخاً كان أعظم إنمًا وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم . فإن افترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تتضاعف الإثم وعلى هذا ، فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة . والله المستعان .

الثالث - أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره . ومن ظن أن تلوّط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى ^(١) (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) وقاس ذلك على أمته المملوكه ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوّط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره ، في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بهامة الإمام ابن القيم في (الجواب السكا في) . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٩ - باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم ٢٣٢٦ ، عن أبي شريح . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] و [٧٠ / الماعز / ٣٠]

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٩] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[١٠] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)

[١١] (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » أى قائلون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتل العموم فى كل ما أؤتمنوا عليه وعوهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم . ولذا عدت الخيانة فى الأمانة من آيات النفاق فى الحديث المشهور ^(١) « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى يحافظون عليها . وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها فى أوقاتها ، وبقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها . وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً . فإن الخشوع فى الصلاة ، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لا يعتمد بها بدونه ، أو لعموم هذا له . وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها « أُولَٰئِكَ » أى الجامعون لهذه الأوصاف « هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ » أى الجنة « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » أى لا يخرجون منها أبداً .

ثم أشار تعالى إلى مبدأ خلقه الإنسان وتقليبه فى أطوار شتى ، حتى نما كاملاً ، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض ، وسخره لمنافعه ، ليشكر مولاه ويعبده ، كما أمره وهداه ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

[١٣] (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » أى ابتدأنا خلقه « مِنْ سُلَالَةٍ » أى خلاصة « مِنْ طِينٍ » أى تراب خايط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً » أى بأن خلقناه منها .
 أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية « فِي قَرَارٍ » أى مستقر ، وهو رحم المرأة الذى نقل إليه « مَكِينٍ » أى متمكن لا يمحى ما فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْخَالِقِينَ)

« ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً » أى بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدّم الجامد « فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً » أى قطعة لحم بقدر ما يمضغ « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا » أى بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة « فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا » أى جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » أى بتمييز أعضائه وتصويره ، وجعله فى أحسن تقويم « فَتَبَارَكَ اللَّهُ » أى تعظم قدرته وحكمته وتصرفاً « أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » أى المقدرين . فـ (الخلق) بمعنى التقدير كقوله (١) :

وَلَأَنْتَ تَفَرِّى مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفَرِّى

(١) قائله زهير بن أبى سلمى من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بَقْنَةَ الْحَجَرِ أَفْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ

يمدح هريم بن سنان .

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

[١٦] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)

[١٧] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ « أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكالات لَمَيِّتُونَ » أى لصارون إلى الموت .

قال المهابي : والحكيم لا يتلف ما استكمل به أنواع التكامل ، ولذلك سبغته كما قال « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » أى من قبوركم للحساب والمجازاة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ » أى سبع سموات هى طرق للملائكة والسكواكب فيها مسيرها . قال بعض علماء الفلك (فى تفسير هذه الآية) : أى سبعة أفلاك ، لل سبع سموات ، لكل سماء طريق تجرى بما معها من الآثار . قال : فبذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسى ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذى يعينه قوله تعالى (فَوْقَكُمْ) فالمسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجرى فيه سماء بما معها . ويسمى هذا الطريق فلكاء . اهـ . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أى عن ذلك الخلق ، الذى هو السموات ، أو جميع المخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهدى . وعلى الثانى استغراقى . أى ما كنا مهملين أمر الخلق ، بل نحفظه وندير أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال ، حسب اقتضته الحكمة ، وتملت به المشيئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » أى جعلناه قاراً فيها ، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها كقوله ^(١) (فَسَلَكَهُ يَنَاءً يَبْعَ فِي الْأَرْضِ) « وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » أى إزالته بالتغوير وبغيره ، كما قدرنا على إزاله . ففي تنكير (ذهاب) إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة في الإبعاد به . قال الزمخشري : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ، ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها ، إذا لم تشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٠] (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِیْغِ الْإِلَاحِينَ) « فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا » أى فى الجنات « فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً » بالنصب عطف على (جنات) وقرئت مرفوعة على الابتداء . أى ومما أنشئ لكم شجرة « تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ » وهو جبل بفلسطين ، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر . قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون ، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها . أو لكثرة ما فيه

(١) [٢٩ / الزمر / ٢١] .

« تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ » أى ملتبسة بالدهن المستصبح به « وَصِبْغٌ لِّالْأَكْلِينَ » أى وبإدام يغمس فيه الخبز فد (الصبغ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام . ويختص بكل إدام مائع ، يقال (صبغ اللقمة : دهنها وغمسها) وكل ما غمس فقد صبغ . كذا في (المصباح) و (التاج) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٢] (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً » أى تعتبرون بحالها وتستدلون بها « نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » أى من الألبان « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ » أى فى ظهورها وأصوافها وشعورها ونتاجها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » أى بخلقه وتسخيره وإلهامه . فله الحمد .

قال الزمخشري : والقصد بالأنعام أى الإبل ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة . وقرنها بالفلك التى هى السفائن ، لأنها سفائن البر .
قال ذو الرمة :

* سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدْيٍ زِمَامُهَا *

قال الشهاب : وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور . وهى استعارة لطيفة . وقد تصرفوا فيها تصرفات بدیعة . كقول بعض المتأخرين :

لِمَنْ شَجَرٌ قَدْ أَثْقَلَتْهَا ثَمَارُهَا سفائنُ بَرٍّ والسَّرابُ بحارُها

ولما بين تعالى دلائل التوحيد ، تأثره بقصص بعثة الرسل لعلوا كلمته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٢٤] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا » أى الداعى إلى عبادة الله وحده ، بدعوى الرسالة منه « إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » أى أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم ، كقوله تعالى ^(١) (وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ) « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ » أى إرسال رسول « لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » أى من السماء « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا » أى بمثل ما يدعوا إليه « فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ » أى لعله يرجع أو يفيق من جنته أو يتأذى فنكيد له . قال الرازى : واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم هذه الخمسة ، لركاكتها ووضوح فسادها . وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولاً إلا لأنه من جنس الملك . وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات . فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر ، فمعد ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولاً . بل جعل الرسول من جملة البشر أولى . لما مرّ بيانه في السور المتقدمة . وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة . وأما قولهم (يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ

(١) [١٠ / يونس / ٧٨] .

عَلَيْكُمْ) فَإِنْ أَرَادُوا بِهِ إِرَادَتَهُ لِإِظْهَارِ فَضْلِهِ ، حَتَّى يُلْزِمَهُمُ الْإِنْقِيَادَ لَطَاعَتِهِ ، فَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى الرَّسُولِ . وَإِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنْ يَرْتَمِعَ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ التَّجْبَرِ وَالتَّكْبَرِ وَالْإِنْقِيَادِ ، فَلَا نَبِيَّاءَ مَنزُوهُونَ عَنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا) فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِعَدَمِ التَّقْلِيدِ ، عَلَى عَدَمِ وَجُودِ الشَّيْءِ . وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ . لِأَنَّ وَجُودَ التَّقْلِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الشَّيْءِ . فَعَدَمُهُ مِنْ أَيْنَ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِهِ ؟ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ (بِهِ جَنَّةٌ) فَقَدْ كَذَّبُوا . لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِالضَّرُورَةِ كَمَالِ عَقْلِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ (فَتَرَبَّصُوا بِهِ) فَضَعِيفٌ . لِأَنَّهُ إِنْ ظَهَرَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَهِيَ الْمَعْجِزَةُ ، وَجِبَ عَلَيْهِمْ قَبُولُ قَوْلِهِ فِي الْحَالِ ، وَلَا يَجُوزُ تَوْقِيفُ ذَلِكَ إِلَى ظُهُورِ دَوْلَتِهِ . لِأَنَّ الدَّوْلَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ . وَإِنْ لَمْ يَظْهَرِ الْمَعْجِزُ لَمْ يَجْزِ قَبُولُ قَوْلِهِ ، سِوَاءَ ظَهَرَتِ الدَّوْلَةُ أَوْ لَمْ تَظْهَرِ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجُوبَةُ فِي نَهَايَةِ الظُّهُورِ ، لَا جَرَمَ تَرْكُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ . انْتَهَى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

[٢٧] (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا) وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ

فَأَسْلَمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ)

[٢٨] (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٩] (وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

[٣٠] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

« قَالَ » أَيْ بَعْدَ مَا أَيْسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنْ اصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا » أى ملتبساً بحفظنا وكلاءنا ، لاتأحقها آفة ولا يعترضها نقص .
عبر بكثرة آلة الحس التى بها يحفظ الشيء ، ويراعى من الاختلال والزيغ ، عن المبالغة
فى الحفظ والرعاية ، على طريق التمثيل ، وقيل : المعنى بمرأى منا ومشهد فى حفظنا وكلاءنا .
بناء على أن المراد بالعين البصر ، وأنه يسمى البصر عينا لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به .
من باب تسمية الشيء باسم محله . وباسم ما هو قائم به .

قال الإمام ابن فورك فى (متشابه الحديث) - بعد حكاية نحو ما تقدم - : وقد اختلف
أصحابنا فيما يثبت لله عز وجل من الوصف له بالعين . فمنهم من قال : إن المراد به البصر
والرؤية . ومنهم من قال : إن طريق إثباتها صفة لله تعالى بالسمع . وسبيل القول فيها
كسبيل القول فى اليد والوجه . انتهى .

ومذهب السلف ؛ أن الصفات يحتذى فيها حذو الذات . فكما أنها منزهة عن التشبيه
والتمثيل والتكليف ، فكذلك الصفات إثباتها منزّه عن ذلك وعن التحريف والتأويل .
وقوله تعالى « وَوَحَيْنَا » أى أمرنا وتعليمنا كيف تصنع « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا
« وَفَارَ التَّنُّورُ » كناية عن الشدة . كقولهم (حى الوطيس) . و (التنور) كانون الخبز
حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، الآية مجازاً « فَاسْلُكْ فِيهَا » أى
فأدخل فى الفلك « مِنْ كُلِّ » أى من كل أمة « زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى فى الدعاء لهم بالنجاة ، عند مشاهدتهم
هلاكهم « إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ » أى فى بحر الهلاك ، كما غرقوا فى بحر الضلال وظلمهم أنفسهم ،
بعد أن أملى لهم الدهر المتطاوّل « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِى نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي » أى فى السفينة أو منها « مُنْزَلاً
مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى لمن أنزله منزل قربك « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما فعل
بنوح وقومه « لَآيَاتٍ » أى يستعمل بها ويعتبر أولو الأبصار « وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ »

أى مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويدكر . كقوله تعالى^(١) (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ) و (إِنْ) مخففة على الأصح - وقيل نافية . واللام بمعنى (إلا) والجملة حالية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » هم عاد أو ثمود . قال الشهاب : ليس فى الآية تعيين لهؤلاء . لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما . وأيده فى (الكشف) بمجىء قصتهم بعد قصة نوح فى سورة الأعراف وهود وغيرها . وعليه أكثر المفسرين . ومن ذهب إلى أنهم ثمود صالح عليه السلام ، استدل بذلك الصيحة لأنهم هم المهلكون بها . كما صرح به فى هذه السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٣٣] (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

[٣٤] (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ)
[٣٥] (أَلَيْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ)

(١) [٥٤ / القمر / ١٥] .

[٣٦] (هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ)

[٣٧] (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

[٣٨] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

[٣٩] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

[٤٠] (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

[٤١] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُلَاءً ، فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَأَوْرَثْنَاهُمْ » أى نعمناهم « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » أى لعزة أنفسكم ، بالتذلل لئلا تملككم « أَيْمِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ » أى من الأحداث أحياء كما كنتم « هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ » تكرر لئلا كيد البعد . أى بَعْدُ الوقوعُ أو الصَّحَّةُ لما توعدون من البعث « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا » أى يموت بعض ويولد بعض . لينقرض قرن ويأتى قرن آخر . « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ » أى العقوبة الهائلة ، أو صيحة ملك « بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُلَاءً » أى كغلاء السيل « فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى هلاكاً لهم . إخبار أو دعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)

[٤٣] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

[٤٤] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ، كَلَّمَآ جَاءَ أُمَّةً رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٥] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى وقها الذى عين لهلاكها « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ » أى متواترين ، واحداً بعد واحد « كَلَّمَآ جَاءَ أُمَّةً رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ » أى فى الإهلاك « وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى أخباراً يُسمر بها ويتمجب منها . يعنى أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم ، إن خيراً وإن شراً .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

« فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ

مُّبِينٍ » أى حجة واضحة ملزمة للخصم . والمراد به الآيات نفسها . عبر عنها بذلك على طريقة العطف ، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ)

[٤٧] (فَقَالُوا أَلَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

[٤٨] (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا » أى عن الاتقياد وإرسال بنى إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم « وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » أى متمردين « فَقَالُوا أَنْتُمْ مُبَشِّرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » أى المغرقين فى البحر .

فائدة :

قال الزمخشري : البشر يكون واحداً وجمعاً ^(١) (بَشَرًا سَوِيًّا) ^(٢) (لِبَشَرَيْنِ) ^(٣) فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ (و) (مثل) (و) (غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ) ^(٤) (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) ^(٥) ويقال أيضاً : هما مثلاه وهم أمثاله ^(٦) (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

[٥٠] « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ »

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « لَعَلَّهُمْ » أى قومه « يَهْتَدُونَ » أى إلى طريق الحق ، بما فيها من الشرائع والأحكام « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى دلالة على قدرتنا الباهرة . لأنها ولدته من دون مسيس . فالآية أمر واحد نسب إليهما . أو المعنى : وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق ، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها « وَآوَيْنَاهُمَا » أى جعلنا مأواهما أى منزلها « إِلَىٰ رَبْوَةٍ » أى أرض مرتفعة « ذَاتِ قَرَارٍ » أى مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة : ذات ثمار

(١) [١٩ / مريم / ١٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٤٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٢٦] . (٤) [٤ / النساء / ١٤٠] .

(٥) [٦٥ / الطلاق / ١٢] . (٦) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

وماء . يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها « وَمَعِينٍ » أى وماء معين ظاهر جارٍ .
من (ممن الماء إذا جرى) أو مدرك بالعين (من عانه) إذا أدركه بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)
« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » نداء
وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلِّ وعهده . فدخل فيه عيسى دخولاً أولياً . أو يكون
ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهمة أسباب التعمم لم تكن له خاصة . وأن إباحة الطيبات
للأنبياء شرع قديم . واحتجاجاً على الرهبنة فى رفض الطيبات . وقوله (وَاعْمَلُوا صَالِحًا)
أى عملاً صالحاً . فإنه الذى به سعادة الدارين . وقوله (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) أى ذو علم
لا يخفى على منها شئ . فأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى
صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ » أى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها
« أُمَّةً وَاحِدَةً » أى ملة واحدة ، وهى شريعة الإسلام . إسلام الوجه لله تعالى بعبادته
وحده . كقوله ^(١) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (فالأمة) هنا بمعنى الملة والدين « وَأَنَا
رَبُّكُمْ » أى من غير شريك « فَاتَّقُونِ » أى تخافوا عقابى ، فى مفارقة الدين والجماعة .
قيل : إنه اختير على قوله (فَاعْبُدُونِ) الواقع فى سورة الأنبياء ، لأنه أبلغ فى التخويف ،
لذكره بعد إهلاك الأمم ، بخلاف ما ثمة . وهذا بناء على أنه تذييل للقصاص السابقة ، أو لقصة

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

عيسى عليه الصلاة والسلام ، لا ابتداء كلام . فإنه حينئذ لا يفيد . إلا أن يراد أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة . كذا في (العناية) .

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

[٥٤] (فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا » أى جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفرقاً منوعة « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئن النفس ، معتقد أنه على الحق « فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ » أى فى جهالتهم ، ومشيمهم مع هواهم ، ونبذهم كتاب الله « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم ، بظهور دين الله وعلو كلمته وهزم عدوه . وشبه جهالتهم بالماء الذى يغمر القامة ، لأنهم مغمورون فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ)

[٥٦] (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ » أى نعطيم إياه ، ونجعله مدداً لهم « مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ » نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » أى كلا . لا تفعل ذلك . بل هم لا يشعرون أصلاً . كالبهايم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستعجار إلى زيادة الإثم . وهم يحسبونه معالجة فيما لهم فيه إكرام . ثم بين سبحانه من له المسارعة فى الخيرات من أوليائه وعباده ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)
 [٥٨] (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)
 [٥٩] (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)
 [٦٠] (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)
 [٦١] (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » أى من خوف عذابه حذرون « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ « أى شركاً جليلاً ، ولا خفياً » وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا « أى يعطون ما أعطوه من الصدقات » وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ « أى خائفة » أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ « أى من رجوعهم إليه تعالى ، فتخشى أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق ، أو غفلت عنه من الأدب » أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ « أى في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة . كفى قوله تعالى ^(١) « فَاتَّخِذْهُمْ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَاً وَحُسْنَ تَوَابٍ آخِرَةٍ » وقوله تعالى ^(٢) (وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَكُمِنَ الصَّالِحِينَ) فقد أثبت لهم مانق عن أضعادهم ، خلا أنه غير الأسلوب ، حيث لم يقل (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) بل أسند المسارعة إليهم ، إجماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم . وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات . لا أنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها ، بطريق المسارعة كما في قوله تعالى ^(٣) (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ..) الآية أفاده أبو السعود .

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٣٣] .

« وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » أى إياها سابقون . أى يفلونها قبل الآخرة ، حيث عجلت لهم فى الدنيا ، فتكون اللام لتقوية العمل . كما فى قوله تعالى^(١) (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) وقيل : المراد (بِالْخَيْرَاتِ) الطاعات . والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة . وهم لأجلها فاعلون السبق ، أو لأجلها سابقون الناس ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[٦٣] (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)
(وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » جملة مستأنفة ، سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقه . أى سنتنا جارية على الانكاف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها . أول للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم . فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفروا وسعهم ، أفاده أبو السعود .

« وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ » وهو كتاب الأعمال . كقوله تعالى^(٢) (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا » أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين « وَلَهُمْ أَعْمَالٌ » أى سيئة كثيرة « مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم « هُمْ لَهَا عَامِلُونَ » أى معتادون لا يزالونها .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٦٣] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] .

تنبيه :

أعرب الإمام أبو مسلم الأصفهانيّ فيما نقله عنه الرازيّ ، فذهب إلى أن قوله تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا . . .) إلى آخر الآية ، من تنمة صفات المؤمنين المشفقين . كأنه سبحانه قال بعد وصفهم (ولا نكلف نفساً إلا وسعاً) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ، (بل قلوبهم في غمرة من هذا) هو أيضاً وصف لهم بالحيرة كأنه قال : وهم مع ذلك الوجل والخوف كالتحيرين في جمل أعمالهم مقبولة أو مردودة ، ولهم أعمال من دون ذلك . أى لهم أيضاً من التوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه . إما أعمالاً قد عملوها في الماضي أو سيمملونها في المستقبل . ثم إنه تعالى رجع .

قال الرازيّ وقول أبي مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين ، كان أولى من رده إلى ما بعد منه . وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته ، بأن قلبه في غمرة ، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده ، وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر . انتهى .

وبعد فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك . ولكن لم يرد وصف الغمرة في حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين . كما تراه في الآيات أولاً . فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات ، يأبى ما أعرب به أبو مسلم أشد الإباء . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ » أى متنعيمهم « بِالْعَذَابِ » أى بالانتقام ، مثل أخذهم يوم بدر « إِذَا هُمْ يَجَارُونَ » أى يصرخون باستغاثة أو الآية . كقوله

تعالى^(١) . (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ)

[٦٦] (قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)

[٦٧] (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ)

« لَا تَجَارُ الْيَوْمَ » أى يقال لهم تبكيتاً لهم : لا تجاراً ، فإن الجوار غير نافع لكم « إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ » أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ » أى بالبيت الحرام . والذي سوغ الإضرار ، شهرتهم بالاستكبار به ، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوامه . وجوز تضمين (مستكبرين) معنى (مكذبين) والضمير للتنزيل الكريم . أى مكذبين تكذيب استكبار . ولم يذكروا احتمال إرجاع الضمير (للنكوص) إشارة إلى زيادة عقوبهم ، وأنهم يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما يندرون به ، كقوله^(٢) (وَلِيَّ مُسْتَكْبِرًا) وليس يبعيد . فتأمل . « سَامِرًا تَهْجُرُونَ » يعنى أنهم يسمرون ليلاً بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وتسميته سجرأ وشعراً ونحو ذلك . وهو معنى (تهجرون) من (الهجر) بالضم ، وهو الفحش فى القول . أو معناه تعرضون . من (الهجر) بالفتح .

تنبيه :

قال أبو البقاء : (سامراً) حال أيضاً وهو مصدر . كقولهم (قم قائماً) وقد جاء من المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والمافية . وقيل : هو واحد فى موضع الجميع . انتهى

(١) [٧٣ / ١١ - ١٣] . (٢) [٣١ / لقمان / ٧] .

فيكون واحداً أقيم مقام الجمع . وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب . قال الشهاب : وعلى كونه مصدراً فيشمل القليل والكثير أيضاً ، باعتبار أصله . ولكن جيء المصدر على وزن (فاعل) نادر . وقرئ (سُمَرًا) بضم وتشديد . (سُمَار) بزيادة ألف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

« أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ » أى القرآن ، ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به ويعملوا به . « أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » أى من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعمد ، لا يوجب الفقرة . لأن المؤلف قد يكون باطلاً ، فتقتضى به الحكمة التحذير منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

[٧٠] (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى جاحدون بما أرسل به . وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم ، بأنهم ما عرفوا شأنه ولا دروا سر ما بعث به مما يؤسف له . كما قال ^(١) (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، أو جن يخبلونه . وهذا توبيخ آخر ، فيه تعجب من تلونهم في الجحود ، وتفننهم في العناد . ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنفتهم للحق كبراً وعتواً بقوله « بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » أى لما فيهم من الزيف والانحراف .

(١) [٣٦ / يس / ٣٠] .

قال الفاشاني : ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع ، على مقتضى قوى النفس والطبع ، واشتد احتجابهم بالغواشي الظلمانية عن نور الهدى والعقل ، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد ، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه ، للتقابل بين النور والظلمة ، والتضاد بين الباطل والحق ، وأنكروه وكرهوا الحق الذي جاء به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ،

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

[٧٢] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَخْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٧٣] (وَلِإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٧٤] (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كَبُورٌ)

« وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » أى ولو كان

ما كرهوه من الحق الذى هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه ، موافقا لأهوائهم المتفرقة فى الباطل ، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة ، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذى قامت به السموات والأرض ، والتوحيد الذى به قوامهما . فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك . وفيه من تنويه شأن الحق ، والتنبيه على سمو مكانه ، ما لا يخفى « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ » إضراب عن توبيخهم بكرامته ، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أى ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا . أو نخرهم أو متمنأهم لأنهم كانوا يقولون ^(١) (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّابِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) « فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » أى بالنكوص عنه . وأعاد الذكر تفخيماً . وأضافه لهم لسبقه . وفى سورة الأنبياء ^(٢) (ذِكْرِي رَبِّهِمْ) لاقتضاء ما قبله له « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا »

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٨ و ١٦٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٢] .

أى جملا على أداء الرسالة ، فلاجل ذلك لا يؤمنون «فَخَرَّاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ» أى عطاؤه «وهو خَيْرُ الرَّاغِبِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كُفُونَ» أى منحرفون . قال القاشانى : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه ، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ، ووجود المحبة فى القلب . وشهود الوحدة . والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات ، وعن القدس بالرجس ، إنعاسهم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة ، والركون إلى السكينة . فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده . فهو فى واد وهم فى واد . وقال الزخشرى : قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات ، وقطع معاذيرهم وعلاهم ، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلمه ، خليف بأن يجتنب مثله للرسالة من بين ظهرائهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم ، واستمطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام ، الذى هو الصراط المستقيم . مع إبراز المسكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعلمهم بأنه مجنون ، بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكرهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

«وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» .

قال ابن جرير^(١) : أى ولو رحمتنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجذب ، وضر الجوع والهزال (لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ) يعنى فى عتوتهم وجراتهم على

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

رَبِّهِمْ (يَعْمَهُونَ) يعني يترددون . وأشار ابن كثير^(١) إلى معنى آخر فقال : يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أراح عنهم الضر ، وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطفيتانهم . كما قال تعالى^(٢) (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) وقال^(٣) (وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) الآية . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » .

قال ابن جرير^(٤) : أي ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا ، وأزلنا بهم بأسنا وسخطنا ، وضيقنا عليهم معاشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سراةهم بالسيف فما استكانوا لربهم . أي فما خضعوا لربهم ؛ فينقادوا لأمره ونهيهِ ، وينيبوا إلى طاعته . وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشا بسنى الجذب ، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ . وعن الحسن قال : إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هي نقمة . فلا تستقبلوا نقمة الله بالحيلة . ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرعوا إلى الله . وقرأ هذه الآية (وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥١ من الجزء الثالث .

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٣] . (٣) [٦ / الأنعام / ٢٧ و ٢٨] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا فُتِحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ » يعنى ما نزل بهم من القتل والقتل يوم بدر ، أو باب المجاعة والضر ، وهو ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير ^(١) « إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى حزنى نادمون على ما سلف منهم ، فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لا ينفهمهم القدم والحزن . ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة فى الأنفس والآفاق ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله فى ذلك ، بصرفها لما خلقت له . وهو أن يدرك وفى كل شئ له آيةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

والقلة فى الآية هذه ونظائرهما ، بمعنى النفى ، فى أسلوب التزليل الكريم . لأن الخطاب للمشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٨٠] (وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٨١] (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم وبشكم بالتناسل فيها « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب « وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ » أى خلقه ، أى يجعلهم أحياء ، بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً ، ينفخ الروح فيها ، بعد الأطوار التى تأتى عليها « وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى بالطول والقصر . فهو متوايه ولا يقدر على تصريفهما غيره « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل ، لا يمنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم . ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته ، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ، بقوله « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » أى من الأمم المكذبة رسلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ)

[٨٣] (لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ » أى أحياء ، كهيئتنا قبل الممات « لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطره فى كتبهم ، مما لا حقيقة له :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٨٥] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعلمون أن من ابتداء ذلك ، قدر على إعادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

[٨٧] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ »

أى عقابه على شرككم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ)

[٨٩] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

« قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ » أى يغيث من أراد ، ممن قصد بسوء

« وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى ولا أحد يمتنع من إرادته هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه « إِنْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » أى تحذرون عن توحيده وطاعته ،

مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخدعة . وتكرير (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لاستهانتهم ، وتجهيلهم ، لسكال ظهور الأمر .

قال فى (الإكليل) : قال مكى : فى هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين ،

وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم ، ووجوب النظر فى الحجج على من خالف

فى دين الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[٩١] (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)

[٩٢] (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٩٣] (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ)

[٩٤] (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى دعواهم أن له ولداً ومعه شريكاً « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » لأنه يجب أن يتخالفا بالذات، وإلا لما تصوّر العدو والمتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا فى الأفعال. فيذهب كل بما خلقه، ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون ، كما تقدم بيانه فى آية^(١) (لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ » أى من العذاب . أى إن كان لابد من أن تربى . لأن (ما) و(النون) للتأكيد « رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى نجنى من عذابهم . وفيه إيذان بكال فظاعة ما وعدوه من العذاب ، وكونه بحيث يجب أن يستعيد منه من لا يمكن أن يحقق به . ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم به ، استهزاء . وتكرير النداء ، لإظهار زيادة الابتهاال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَنَّكَ مَا نَعِدُّهُمْ لِقَادِرُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

[٩٦] (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

[٩٧] (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

[٩٨] (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)

[٩٩] (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

[١٠٠] (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ،

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « لِقَادِرُونَ » أى : وإنما تؤخره لحكمة بلوغ الكتاب أجله « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى بالخلة التى هى أحسن الخلال ، وهو العفو والصفح « السَّيِّئَةِ » أى أذى المشركين « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى فسيرون جزاءه « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أى وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد ، والصدّة عن الحق « وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » أى يحضرونى فى حال من الأحوال « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ » أى حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب ، وعاین وحشة هيئات السيئات ، تمنى الرجوع ، وأظهر الندامة ، ونذر العمل الصالح فى الإيمان الذى ترك . وقوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ » أى قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) الخ « هُوَ قَائِلُهَا » أى لا يجاب إليها ولا تسمع منه ، بمعنى أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة ، والتلفظ بالفاظ التحسر والندم ، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة . والآية نظيرها قوله تعالى (١) « وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » « وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى حائل يحول بينهم وبين الرجعة ، يلبثون فيه إلى يوم القيامة .

(١) [٦٣ / المنافقون / ١٠] .

لطيفة :

الواو في (ارجمون) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى ، وردّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول (رب ارحموني ، ونحوه) لما فيه من إيهام التعدد . مدفوع بأنه لا يلزم من عدم صدور عنا كذلك ، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه . كما في ضمير التكلم . وقيل إنه لتكرير قوله (ارجمى) كما قيل في (قفا) و (أطرقا) إن أصله (قف قف) على التأكيد ، وبه فسر قوله تعالى ^(١) (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) قال الشهاب : فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنسكة ، بقطع النظر عن معناه ، وهو كثير في الضمائر . كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في (كفى به) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ، ومن لفظ إلى آخر . وما نحن فيه من هذا القبيل . فإنه غير الضميران المستتران إلى ضمير مثني ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد لفظي الفعل ، وجعل دلالة الضمير على المثني على تكرير الفعل ، قائماً مقامه في التأكيد ، من غير تجوز فيه . ولا بن جنى في (الخصائص) كلام يدل على ما ذكرناه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » أى لشدة الهول من هجوم ماضف البال حتى زال به التعاطف والتآلف ، إذ ^(٢) (يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) ونفى نفع النسب ، إذا دهم مثل ذلك معروف .

كما قال :

لَا نَسَبَ الْيَوْمَ وَلَا خُلَّةٌ اتَّسَعَ الْخُرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

(١) [٥٠ / ق / ٢٤] . (٢) [٨٠ / عبس / ٣٤ - ٣٧] .

« وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، لعظم الفزع وشدة ما بهم من الأحوال ، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال ، فتقطع العلائق والوصل التي كانت بينهم ، وجلى أن نفى التساؤل إنما هو وقت النفخ ، كما دل عليه قوله (فَإِذَا) أى فوق القيام من القبور وهول المطلع يشتغل كل بنفسه . وأما ما بعده فقد يقع التساؤل ، كما قال تعالى ^(١) (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) لأن يوم القيامة يوم ممتد . فيه مشاهد ومواقف . فيقع في بعضها تساؤل وفي بعضها دهشة تمنع منه .

تنبية :

روى هنا بعض المفسرين أخباراً فى نفع النسب النبوى . وحبذا لو روى شيء منها فى الصحيحين ، أو فى مسانيد من التزم الصحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[١٠٣] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[١٠٤] (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى رجحت حسناته « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتضييع ما منحت من الاستعداد لأن تريح فى تجارة الكمال ، بفطرة الإيمان وصالح الأعمال ، ولله در القائل :

إذا كان رأس المال عمرك ، فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

« فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تحرقها . وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء . فبيان أجزء عن المعاصى المؤدية إلى النار « وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » أى مشوهون ، قبيحو المنظر . ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً .

(١) [٣٧ / الصفات / ٢٧] و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٠٦] (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

« أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا »
 أى ما كُنّا « شِقْوَتُنَا » أى التى اقترفناها بسوء اختيارنا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » أى
 عن الحق ، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب . قال أبو السعود : وهذا ، كما ترى ، اعتراف منهم ،
 بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم . وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم
 من الشقاوة الأزلية ، فمع أنه باطل في نفسه ، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة
 إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم - يردّ قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

[١٠٨] (قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ)

[١٠٩] (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

« رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » أى أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى
 الدنيا . فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي ، فإننا متجاوزون الحد في
 الظلم . ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم ، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما
 وعدوا الإيمان والطاعة « قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا » أى ذلوا فيها لخسء الكلاب « وَلَا تُكَلِّمُونَ »

أى فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى « إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي » وهم المؤمنون « يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذَتْهُمْ سِجْرًا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم » أى بتشغلهم على تلك الصفة « ذَكَرَىٰ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » .

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم ، وأنهم انتفعوا بما آذوهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[١١٢] (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

[١١٣] (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ)

[١١٤] (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ » أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . أولو كنتم من أهل العلم . والجواب محذوف ، ثقة بدلالة ما سبق ، عليه . أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها ، كما علمتم اليوم . ولعلمتم بموجبه ولم تخلدوا إليها .

قال الرازى : الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلاً ، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا . ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ، ولا إعادة . فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون ، سألهم : كم لبثتم فى الأرض ؟ تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلاً ، فهو يسير ، بالإضافة إلى ما أنكروه . فحينئذ تحصل

لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا . من حيث أيقنوا خلافه . فليس الغرض مجرد السؤال ، بل ما ذكر .

قال الزمخشري : استقصوا مدة لبثهم في الدنيا ، بالإضافة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها . أولأنهم كانوا في سرور . وأيام السرور قصار . أولأن المنقضى في حكم ما لم يكن . وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها . وقرئ (فَسَلِ الْمَادِّينَ) والمعنى : لا تعرف من عدد تلك السنين ، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم . لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نمدّها ، فسَل من فيه أن يعدّ ، ويقدر أن يلقى إليه فكره . وقيل : فسَل الملائكة الذين يعدون أعمار العباد ويحسون أعمالهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[١١٦] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[١١٧] (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » أى بغير حكمة ، حتى أنكرتم البعث « وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » أى للجزاء « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى تعظم عما تصفون ، لأنه « الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى المتصرف وحده ، الذى قصد بالخلق معرفته وعبادته . والذى لا يترك الجزاء بل يحق الحق « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » أى العظيم المجيد . وقرئ بالرفع « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى : ومن يدع مع المعبود الذى لا تصلح العبادة إلا له ، معبوداً آخر لا حجة له بما يقول ولا بينة . فإتما حساب عمله السيئ عند ربه . وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه . فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله ، عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء فى النعيم ، قال الزمخشري : وقوله (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) كقوله^(٢) (مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا) وهى صفة لازمة ، نحو قوله^(٣) (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) جىء به للتوكيد ، لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان . ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء . كقولك (من أحسن إلى زيد - لا أحق بالإحسان منه - فإله مثيبه) .

قال فى (الانتصاف) : إن كان صفة ، فالمقصود بها التهكم بدعى إله مع الله ، كقوله^(٢) (بَلْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا) فنفى إزال السلطان به ، وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان ، لا منزل ولا غير منزل .

وقال الرازى : نبه تعالى بالآية ، على أن كل ما لا برهان فيه ، لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد . انتهى .

ثم أمر تعالى نبيه بالابتهاال إليه واستغفاره والثناء عليه ، بقوله « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » أى خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته .



(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥١] . (٣) [٦ / الأنعام / ٣٨] .



٢٤ - سُورَةُ النُّورِ

سميت به لاشتغالها على ما أمكن من بيان النور الإلهي ، بالتمثيل المفيد كمال المعرفة الممكنة لنوع الإنسان ، مع مقدماتها ، وهي أعظم مقاصد القرآن - قاله المهايني ، وهي مدنية . وقال القرطبي : ^(١) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَآذِنَكُمْ » الخ مكية . وهي أربع وستون آية .

(١) [٢٤ / النور / ٥٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

«سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا» خبر محذوف . أى هذه السورة . والتفكير للتفخيم «وَفَرَضْنَاهَا»

أى أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً «وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

أى تتذكرونها فتعملون بموجبها . قال الإمام ابن تيمية رحمه الله ، فى تفسير هذه الآيات : هذه

السورة فرضها تعالى بالبينات والتقدير والحدود ، التى من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم

نفسه . ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود . وبين فيها فرض العقوبة وآية

الجلد وفريضة الشهادة على الزنى وفريضة شهادة المتلاعنين . كل منهما يشهد أربع شهادات

بالله . ونهى فيها عن تعدى حدود الله فى الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذى السلطان .

سواء كان فى منزله أو ولايته . ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه . إذ الحقوق نوعان : نوع لله

فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعبادة فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك ، فليس لأحد أن يفعل

شيئاً فى حق غيره إلا بإذن الله . وإن لم يأذن المالك ، فإذن الله هو الأصل ، وإذن المالك

حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان فى المساكن والمطاعم وفى الأمور

الجامعة . كالصلاة والجهاد ونحوها . ووسطها بذكر النور الذى هو مادة كل خير وصلاح

كل شئ . وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك . فإنه ضياء .

فإن حفظ الحدود بتقوى الله ، يجعل لصاحبه نوراً . كما قال تعالى ^(١) (اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا

بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...) . الآية فضد

النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين بأعمال الكفار . وأهل البدع والضلال .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

فقال ^(١) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ) الآية ، إلى قوله ^(٢) (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ...) الآية وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة. وظلم العبد نفسه من الظلم. فإن للبيئة ظلمة في القلب ، وسوادا في الوجه ، ووهنا في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق. كما روى ذلك عن ابن عباس . يوضحه أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ، وأعمال الكفار بالظلمة . والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله . والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه ، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصي . كما لا يصير مؤمناً إذا كان معه بعض فروع الإيمان . ولغض البصر اختصاص بالنور. كما في حديث أبي هريرة الذي صححه الترمذي ^(٣) : إن العبد إذا أذنب ... الحديث . وفيه : فذلك الرآن الذي ذكر الله . وفي الصحيح ^(٤) : إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة. والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر ليزيل الغين ، فلا يكون نكتة سوداء . كما أنها إذا أزيلت لا تصير ريناً . وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء . فكلما ازداد العبد إيماناً ، ازداد قلبه بياضاً ، وفي خطبة الإمام أحمد ، في الرد على الزنادقة: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى . يُحيون بكتاب الله الموتى ، ويمصرون بنور الله أهل العمى .. الخ. وقد قرن الله سبحانه بين الهدى والضلال بما يشبه هذا . كقوله تعالى ^(٥) (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) وقال ^(٦) (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) وقال ^(٧) (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أُسْقِفَ نَارًا) الآيات

(١) [٢٤ / النور / ٣٩] . (٢) [٢٤ / النور / ٤٠] .

(٣) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٨٣ - سورة المطففين ، حدثنا قتيبة ،

حدثنا الليث . (٤) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ،

حديث ٤١ (طبعنا) . (٥) [٣٥ / فاطر / ١٩ و ٢٠] . (٦) [١١ / هود / ٢٤] .

(٧) [٢ البقرة / ١٧] .

وهذا النور الذى يكون للمؤمن فى الدنيا على حسن عمله واعتقاده ، يظهر فى الآخرة ، كما قال تعالى ^(١) (يَسْمَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ...) الآية ، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة ، كما فى سورة النور عقيب أمره بغض البصر والتوبة . وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء . وقال فى سورة الحديد ^(٢) (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إلى قوله (وَبُئْسَ الْمَصِيرُ) فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذى كان المؤمنون يمشون به ، ويطلبون الاقتباس من نورهم ، فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم . كما أنهم فى الدنيا لما فقدوا النور ^(٣) (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها . أى كل من زنى من الرجال والنساء ، فأقيموا عليه هذا الحد . وهو أن يجلد ، أى يضرب على جلده مائة جلدة ، عقوبة لما صنع « وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ » أى رقة ورحمة فى طاعته فيما أمركم به ، من إقامة الحد عليهما ، على ما أزمكم به « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر ، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب . فإن من كان بذلك مصدقاً ، فإنه لا يخالف الله فى أمره ونهيه ، خوف عقابه على معاصيه « وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ »

(١) [٥٧ / الحديد / ١٥ و ١٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

أى ول يحضر جلدھا طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله . قال ابن جرير^(١) : العرب تسمى الواحد فإ زاد طائفة .

قال ابن تيمية عليه الرحمة : فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين . وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه . لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة . كما في الأثر^(٢) (من أذنب سرا فليتب سرا . ومن أذنب علانية فليتب علانية) وليس من الستر الذي يحبه الله ، كما في الحديث^(٣) (إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها . فإذا أعلنت ولم تنكره ضرت العامة) فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن . ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة . كما روى عن الحسن وغيره . لأنه لما أعلن استحق العقوبة . وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته . ولو لم يذكر إلا بما فيه لاغتر به الناس . فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته . قال الحسن : أرغبون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروه بما فيه كي يحذره الناس . و (الفجور) اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح ، يدل السامع له على فجور قلب قائله . ولهذا استحق الهجرة ، إذا أعلن ببدعة أو معصية ، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله . بهذا لا يبالي بطعن الناس عليه . فإن هجره نوع تمزيق له . فإذا أعلن السيئات ، أعلن هجره ، وإذا أسر أسر هجره ، إذا الهجرة هي الهجرة على السيئات وهجرة السيئات ، كقوله^(٤) (وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ) وقوله^(٥) (وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) وقوله^(٦) (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ) وقد روى عن عمر ؛ أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) جاء في حاشية تفسير سورة النور لابن تيمية ، بالصفحة رقم ٦ ، ما يأتي :

قيل : هذا من كلام عمر بن الخطاب . قال فيه : فإن من أبدى لنا عورته ، نقم عليه حد الله تعالى . انتهى من هامش الأصل . (٣) لم أعثر على هذا الحديث .

(٤) [٧٤ / المدثر / ٥] . (٥) [٧٣ / الزمل / ١٠] . (٦) [٤ / النساء / ٤٠] .

أخوه إلى أميرها عمرو بن العاص ليجلده ، جلده سرا . فبعث إليه عمر ينكر عليه . ولم يعتد بذلك حتى أرسل إلى ابنه ، فأقدمه المدينة وجلده علانية ، وعاش ابنه مدة ثم مرض ثم مات . ولم يمت من الجلد ، ولا ضربه بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

وقوله تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموماً وفي الفواحش خصوصاً . فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة ، والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش ، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الديانة ، إذ أراى من يهوى بعض المتصلين به ، أو يعاشره عشرة منكراً ولو كان ولده ، رق به وظن أن هذا من رحمة الخلق . وإعما ذلك ديانة ومهانة وعدم دين وإعانة على الإثم والعدوان . وترك للتناهى عن المنكر . وتدخل النفس به في القيادة التي هى أعظم من الديانة كإدخال عجز السوء مع قومها ، في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك . وكانت في الظاهر مسلاة على دين زوجها لوط ، وفي الباطن منافقة على دين قومها . لا تقلى عملهم كما قلاه لوط . وكما فعل النسوة بيوسف . فإنهن أعن امرأة العزيز على مادعته إليه من فعل الفاحشة معها ولهذا قال ^(١) (رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وذلك بعد قولهن (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب . فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى ^(٢) : (إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) وفي الصحيحين ^(٣) من حديث أبي هريرة (اليمينان تزنيان) إلخ فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع كالنظر والاستمتاع والخاطبة . ومنهم من يرتقى إلى المس والمباشرة . ومنهم من يقبل وينظر . وكل ذلك حرام . وقد نهانا الله سبحانه أن تأخذنا بالزناة رأفة ، يل نقيم عليهم الحد ، فكيف بما دونه من هجر ؟ ونهى

(١) [١٢ / يوسف ٣٣] . (٢) ١٥ / الحجر / ٧٢] .

(٣) أخرجه أبو هريرة في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ١٢ - باب زنى الجوارح دون

الفرج ، حديث ٢٣٧٢ .

وأخرجه مسلم في ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

وتوبيخ وغير ذلك ؟ بل ينبغي شأن الفاسقين وفلاحهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنى المذكورة في الحديث . والمحب ، وإن كان يحب النظر والاستمتاع بصورة المحبوب وكلامه ، فليس دواؤه في ذلك ، لأنه مريض . والمريض إذا اشتغل ما يضره أو جزع من تناول الدواء السكريه ، فأخذتنا به رافة ، فقد أعاناه على ما يهلكه ويضره . وقال تعالى ^(١) (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) أى فيها الشفاء والبرء من ذلك . بل الرافة به أن يمان على شرب الدواء وإن كان كريهاً ، مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات . وأن يحصى عما يزيد علمته . ولا يظن أنه إذا استمتع بمحرم يسكن بلاؤه . بل ذلك يوجب له زيادة في البلاء . فإنه وإن سكن ما به عقيب استمتاعه ، أعقبه ذلك مرضاً عظيماً لا يتخلص منه . بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناها قبل استحكام الداء . ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر من ألم المرض الباقي . وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية أدوية نافعة . وهى من رافة الله بعباده ، الداخلة في قوله تعالى ^(٢) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) فمن ترك هذه الرحمة النافعة ، لرافة بالمريض ، فهو الذى أعان على عذابه ، وإن كان لا يريد إلا الخير . إذ هو في ذلك جاهل أحمق ، كما يفعله بعض النساء بمرضاهن وبن يرينهن من أولادهن في ترك تأديبهم على ما يأتونه من الشر ويترونه من الخير . ومن الناس من تأخذه الرافة بهم لمشاركتهم لهم في ذلك المرض وبرودة القلب والديانة . وهو في ذلك من أظلم الناس وأديهم في حق نفسه ونظرائه . وهو بمنزلة جماعة مرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم ، فوجد كبيرهم مرارته ، فترك شربه . ونهى عن سقيه للباقيين . ومنهم من تأخذه الرافة لسكون أحد الزائنين محبوباً له ، إما لقراءة أو مودة أو إحسان ، أو لما يرجوه منه ، أو لما في العذاب من الألم الذى يوجب رقة القلب . ويتأول ^(٣) (إِنَّمَا يَرَحُّمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٣) أخرجه البخارى في : ٢٣ - كتاب الجفائز ، ٣٣ - باب قول النبي ﷺ : يعذب

الميت ببعض بكاء أهله عليه ، حديث رقم ٦٨٢ ، عن أسامة بن زيد .

الرَّحَمَاءُ) وليس كما قال. بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه. بل قد ورد^(١) (لا يدخل الجنة ديوث) فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارها لها ولأهلها ، ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها ، لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) الآية ، في دين الله هو طاعته وطاعة رسوله . المبني على محبته ومحبة رسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ما لم تكن مضية لدين الله . فالرحمة مأمور بها بخلاف الرأفة في دين الله . والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها . فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة ، زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار . وإن رآه مائلاً إلى الشدة ، زين له الشدة في غير ذات الله، فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه . ويترك من اللين والصلة والإحسان والبر ما يأمر الله به . فالأول مذنب والثاني مسرف . فليقولا جميعاً^(٢) (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) الآية . وقوله (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فالؤمن بذلك يفعل ما يحبه الله ، وينهى عما يبغضه الله . ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه . فتارة تغلب عليه الشدة^(٣) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) والنظر والمباشرة ، وإن كان بعضه من اللطم ، فإن دوام ذلك وما يتصل به ، من المعاشرة والمباشرة قد تكون أعظم بكثير من فساد زنى لا إصرار فيه . بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك . كما قال تعالى^(٤) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) الآية . ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان . والله تعالى إنما ذكره عن امرأة العزيز

- (١) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٦٩ - باب المنان بما أعطى ، عن ابن عمر ، ونصه : ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث .. الخ . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٧] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

المشركة وعن قوم لوط. وقد جمع النبي ﷺ الحدود. فيما رواه أبوداود من حديث ابن عمر^(١) (من حالت شفاعة دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله في أمره. ومن خاصم في باطل، وهو يعلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع ومن قال في مسلم ما ليس فيه، حبس في ردة الخبال حتى يخرج مما قال). فالشافع في الحدود مضاد لله في أمره. فلا يجوز أن يأخذ المؤمن رافة بأهل البدع والفجور والمعاصي. وجماع ذلك كله قوله^(٢) (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله^(٣) (أَشَدُّهُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ) فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر كما في الصحاح^(٤) (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الخ. ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرافة بهم. ولا منافاة بين كون الواحد يحب من وجهه ويبغض من وجهه، ويثاب من وجهه ويعاقب من وجهه. خلافاً للخوارج والمعتزلة. ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد، يرحم من وجه آخر، فيحسن إليه ويدعى له. وهذا الجانب أغلب في الشريعة، كما في صفة الرب سبحانه وتعالى. ففي الصحيح^(٥) (إن رحمتي تغلب غضبي) وقال^(٦) (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) وقال^(٧) (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٣ - كتاب الأقضية ، ١٤ - باب فيمن يمين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ، حديث رقم ٣٥٩٧ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥٤] . (٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩]

(٤) أخرجه البخاري في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، ٣٠ - باب النهي بغير إذن صاحبه ، حديث رقم ١٢٢٠ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٠ (طبعنا)

(٥) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بل

هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ، حديث ١٥٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٦) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] . (٧) [٥ / المائدة / ٩٨] .

الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه . وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته . ومن هذا ما أمر الله تعالى به من الغلظة على الكفار والمنافقين . وقال تعالى^(١) (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ) الآية ، وفي الحديث^(٢) بيان السبيل الذي جعله الله لمن وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر، وفي الثيب الرجم . لكن الذي في الحديث الجلد والنفي للبكر من الرجال . وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء إلى الموت ، والسبيل للنساء خاصة . ومن الفقهاء من لا يوجب مع الحد تغريباً . ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة . كما أن أكثرهم لا يوجبون الجلد مع الرجم . ومنهم من يوجبهما جميعاً . كما^(٣) فعل بشرارة الهمدانية ، حيث جلدها ثم رجمها . وقال : جلدها بكتاب الله ورجمها بسنة نبيه . رواه البخاري . والله سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بهن من العقوبة . ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال^(٤) (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمُ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً) فَإِنْ الْأَذَى يَتناول الصنفين . وأما الإمساك فيختص بالنساء ، لأن المرأة يجب أن تصان بما لا يجب مثله في الرجل ولهذا خصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج ، لأن ظهورها يسبب الفتنة ، والرجال قوامون عليهن ، وقوله^(٥) (فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمُ) دل على شيئين : على نصاب الشهادة وعلى أن الشهاداء على نساءنا منا . وهذا لا نزاع فيه . وأما شهادة الكفار بعضهم على بعض ففيها روايتان عن أحمد . الثانية أنها تقبل . اختارها أبو الخطاب . وهو قول أبي حنيفة . وهو أشبه بالكتاب والسنة . وقوله^(٦) صلى الله عليه وسلم : (لا تجوز شهادة أهل ملة

(١) [٤ / النساء / ١٥] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ١٢ (طبعنا) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢١ - باب رجم المحسن ،

حديث رقم ٢٥١٣ ، عن علي . وهو مطول في المسند رقم ٨٣٩ (طبعة المعارف) .

(٤) [٤ / النساء / ١٦] . (٥) [٤ / النساء / ١٥] . (٦) لم أقف على هذا الحديث .

على ملة ، إلا أمتي) ففهموه جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضهم على بعض . ولكن فيه : أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم ، لقوله تعالى ^(١) (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وفي آخر الحج مثلاً وفي البخاري ^(٢) من حديث أبي سعيد (يدعى نوح) الحديث . وكذلك فيهما ^(٣) من حديث أنس ، شهادتهم على الجنازتين خيراً وشرّاً ، فقال (أنتم شهداء الله في أرضه) الحديث . ولهذا ، لما كان أهل السنة والجماعة لم يشوبوا الإسلام بغيره ، كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة ، بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض ، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة ، قال فيهم ^(٤) (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) واستدل من جواز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية ^(٥) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) الآية ، قالوا : دلت على قبول شهادتهم على المسلمين . ففيه تنبيه على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولي . ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى ، والتنبيه على الأقوى . كما نص عليه أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف . ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها . كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال . حتى نص أحمد على قبول شهادتهن في الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة .

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] . و [٢٢ / الحج / ٧٨] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣ - باب قول الله عز وجل : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، حديث رقم ١٥٧٨ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٦ - باب ثناء الناس على الميت ، حديث رقم ٧٢٣ . وأخرجه مسلم في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ (طبعنا) .

(٤) لم أعر على هذا الحديث . (٥) [٥ / المائة / ١٠٦] .

فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى، والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ^(١) رجم الزانئين من اليهود ، ومن غير سماع إقرار منهما ولا شهادة مسلم . ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك . وفي تولى بعضهم مال بعض ، نزاع ، فهل يقول الكافر العدل في دينه ، مال ولده الكافر ؟ على قولين . والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت السنة بذلك وسنة خلفائه . وقوله تعالى (فَأَذَوْهُمَا) أمر بالأذى مطلقاً . ولم يذكر صفته ولا قدره . ولفظ (الأذى) يستعمل في الأقوال كثيراً . كقوله^(٢) (لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى) والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء . فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوبخ إلا أن يتوب . وأذى ذلك هجره . فلا يكلم بالكلام الطيب . وهذه محكمة . فمن أتى الفاحشة وجب إيذاؤه بالكلام الزاجر إلى أن يتوب . وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة . إلا ما يكون زاجراً له داعياً إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه . وعلقه تعالى على التوبة والإصلاح ، فإذا لم يوجد ، فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً . فأما من تاب بترك الفاحشة ولم يصلح ، ففنازعوا : هل من شرط التوبة صلاح العمل ؟ على قولين . وهذه تشبه قوله^(٣) (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) فعلق تخليمة سبيلهم على التوبة والعمل الصالح . مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم . ثم إن صلوأ وزكوا ، وإلا عوقبوا على ترك الفعل . لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه . ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام . وكذلك التائب من الفاحشة . وهذه الآية مما يستدل به على التعزير بالأذى . والأذى ، وإن كان كثيراً يستعمل في الكلام ، فليس مختصاً به . كقوله لمن بصق في القبلة^(٤) (إِنْكَ قَدْ آذَيْتَ اللَّهَ

(١) الحديث أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٤ - باب الرجم في البلاط ،

حديث رقم ٧٠٤ ، عن ابن عمر .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١١] . (٣) [٩ / التوبة / ٥] .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٢٢ - باب في كراهية البزاق

في المسجد ، حديث رقم ٤٨١ عن أبي سهلة الشائب بن خلاد .

ورسوله) وكذا قوله في حق فاطمة ^(١) (ويؤذيني ما آذاها) وقوله ^(٢) لمن أكل البصل (إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) وهل يكون من توبته اعترافه بالذنب ؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجدد وكذب الشهود أو ثبت بشهادة شهود . فيه نزاع . فذكر أحمد أنه لا توبة لمن جدد . واستدل بقصة علي بن أبي طالب : أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتأبوا . فقبل توبتهم . وجدد جماعة فقتلهم . وقال عليه السلام لعائشة ^(٣) (فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه) فمن أذنب سرّاً فليتب سرّاً ، كما في الحديث ^(٤) (ومن ابتلى بشيء من هذه الفاذرات فليستتر) الخ ، وفي الصحيح ^(٥) (كل أمتي معافي إلا المجاهرون) الحديث . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة . ومع الجحود لا تظهر التوبة . فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب . ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو جوراً . فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم . ومن آذاه منعه ، مع القدرة ، من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة . وأما بدون القدرة ، فليفعل المقدور عليه . ولم يعلق الأذية على استشهاد أربعة ، وليس هذا من حمل المطلق على المقيّد .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ - كتاب الفساح ، ١٠٩ - باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف ، حديث رقم ٥٣٨ عن المسور بن مخرمة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ، حديث رقم ٧٤ (طبعمتان جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٤ - باب حديث الإفك ، حديث

١٢٦٦ ، عن عائشة .

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في ٤١ - كتاب الحدود ، رقم ١٢ (طبعمتان) ، عن

زيد بن أسلم .

(٥) أخرجه البخاريّ في ٧٨ - كتاب الأدب ، ٦٠ - باب ستر المؤمن على نفسه ،

حديث رقم ٢٣٣٥ ، عن أبي هريرة .

لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحداً ، مثل الإعتاق . فإذا كان متفقاً في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم ، وتقييدها إلى المرافق في الوضوء ، فلا يحمل . ولم يحمل الصحابة والتابعون المطلق على المقيّد في قوله تعالى ^(١) (وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وقوله تعالى ^(٢) (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) قالوا : الشرط في الربائب خاصة . قالوا : أبهموا ما أبهم الله . والمبهم هو المطلق . والمشروط فيه هو المقيّد . لكن تنازعوا : هل الموت كالدخول ؟ على قولين . وذلك لأن الحكم مختلف ، والمقيّد ليس متساوياً في الأعيان . فإن تحريم جنس ، ليس مثل تحريم جنس يخالفه . كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير ، لما كان أجناساً ، فليس تقييد الدم بالمسفوح موجباً تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً . وهنما القيد قيد الربيبة بدخول أمها . والدخول بالأم لا يوجد مثله في حليلة الأب وأم المرأة إذ بالدخول في الحليلة ، بها نفسها . وفي أم المرأة ينفقها . وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيّد في نصاب الشهادة . بل لما ذكر الله في آية الدين ^(٣) (رَجُلَاوَامَرَاتَيْنِ) وفي الرجمة ^(٤) (رَجُلَيْنِ) أقروا كلا منهما على حاله . لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع . كما أن إقامة الحد في الفاحشة والقذف باعتبار فيه أربعة ، فلا يقاس بذلك عقود الأيمان والأبضاع ، وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام : جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبداً ، وأنهم ^(٥) فاسقون ، إلا الذين تابوا ، الآية . والتوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقدوف ، وترفع الفسق بلا تردد . والأكثر قالوا : ترفع المنع من قبول الشهادة . وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة لم يرجم ، كما في الصحيح ^(٦)

(١) [٤/النساء/٢٣] . (٢) [٤/النساء/٢٢] . (٣) [٢/البقرة/٢٨٢] .

(٤) [٦٥/الطلاق/٢] . (٥) [٢٤/النور/٤ و ٥] .

(٦) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٤ - سورة النور ، ٣ - باب ويدراً

عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، حديث رقم ١٢٩٦ ، عن ابن عباس .

(إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها. وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به، فقد صدق عليها) فجاءت به على النعت المكره . فقال النبي ﷺ (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن) فقيل لابن عباس : هذه التي قال فيها (لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها) فقال : لا . تلك امرأة كانت تعلن السوء في الإسلام فقد أخبر أنه لا يرمي أحداً إلا بينة . ولو ظهر على الشخص السوء . ودل الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك ، ولم تكن بينة . وكذلك ثبت عنه في الجفازة لما أئمنوا عليها شرراً ، والأخرى خيراً . فقال ^(١) (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ) وفي المسند عنه ^(٢) أنه قال (يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) قالوا يا رسول الله ! وبم ذاك ؟ قال بالثناء الحسن وبالثناء السيئ . فقد جعل الاستفاضة حجة وبينه في هذه الأحكام . ولم يجعلها حجة في الرجم . وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر . وكذلك تقبل شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفرق ، في إحدى الروايتين . وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة أو الصبي في لحاف ، أو بيت مرحاض ، أو محلولي السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك ، من وجود اللحاف فقد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره ، فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل . فإن لم يكن ما يستخفى به إلا ما شهد به الشاهد ، كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا باب عظيم النفع في الدين . وهو مما جاءت الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة ، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع . وهذا خلاف ما تواترت به السنة وسنة الخلفاء الراشدين . وما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر . ويدل عليه قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) الآية . ففيها دلالات : إحداها أنه لم يأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ ؛ إذ من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين . ومنها ما يباح فيه ترك التبين . ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس ، لأنه علل بحشية الإصابة ،

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٣ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤١٦ - من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

بجهالة . فلو كان كل ما أصيب بنبأ كذلك ، لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق . بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ كذلك لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق ، بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنه مطلقاً . وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات . فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك . فإنها نزلت بإخبار واحد . أن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد . وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالثبوت . فيجوز إصابة القوم إذاً . فكيف خبر العدل مع دلالة أخرى ؟ ولهذا كان أصح القولين ، أن مثل هذا لو ثبت في القسامة فإذا انضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله (بِجَهَالَةٍ) جعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم . فمتى أصيبوا بلم زال المحذور . وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال (١) (إِيَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقال (٢) (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وأيضاً علل بخوف الندم . وهو إنما يحصل على عقوبة البريء من الذنب كما في السنن (٣) (ادروا الحدود بالشبهات . فإن الإمام ، أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة) فإذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنباً ، فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ . وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التفريب جاء في السنة في موضعين : أحدهما الزنى ، والثاني الخنث (٤) ، فيما روت أم سلمة أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لكم الطائف غداً ، أدلك على ابنة غيلان . فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال رسول الله ﷺ : (أخرجوهم من بيوتكم) . أخرجاه . وفي لفظ (لا يدخل هؤلاء عليكم) وفي رواية (أرى هذا يعرف مثل هذا . لا يدخلن عليكم بمد اليوم) وقال ابن جريج : هو هيت . وقال غيره : هنب . وقيل : مائع . وذكر

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

(٣) أخرجه الترمذي في : ١٥ - كتاب الحدود ، ٢ - باب ما جاء في درء الحدود ،

عن عائشة ونصه : ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . الخ .

(٤) أخرجه البخاري في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٦٢ - باب إخراج المشبهين بالنساء

من البيوت حديث رقم ١٩٢٧ .

بعضهم أنهم ثلاثة : نهم وهيت وماتع . ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى . إنما كان تخنيثهم لينا في القول ، وخضاباً في الأيدي والأرجل ، ولعماً كلب النساء . وفي السنن : أنه أمر بمخنث فنفي إلى النقيع . فإذا كان الله أمر بإخراج هؤلاء من البيوت ، فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه ، شر من هؤلاء : وهو أحق بالنفي . فإن المخنث فيه فساد للرجال والنساء . لأنه إذا تشبه بالنساء ، فقد يعاشره وهو رجل ، فيفسدهن . ولأنها إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل وتعاشر الصنفين . وقد تختار مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال . وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به ، بمشاهدته وعشقه فإذا خرج إلى بلد ووجد هناك من يفعل به ، فهذا يكون نفية بحبسه في مكان ليس معه غيره فيه . وإن خيف خروجه ، قيد ؛ إذ هذا هو معنى نفية . ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب : هل هو طرده بحيث لا يأوى إلى بلد ، أو حبسه ، أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ؟ فمن أحمد ثلاث روايات : الثالثة أعدل وأحسن . فإن نفية بحيث لا يأوى إلى بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلافهم واختلاف همهم . وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤونة . وروى أن هنباً لما اشتكى الجوع أمره النبي ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقبضه ، والذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة وليس كنفى الثلاثة^(١) الذين خلفوا ، ولا هجرهم . فإنه لم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها . وذلك أن الله خلق آدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً . فن كانت مخالطته تضر ، استحق الإخراج من بينهم ، لأنه مضر بلا مصلحة . فإن الصبي إذا رأى صدياً يفعل شيئاً تشبه به . والاجتماع بالزناة واللوطية : فيه أعظم الفساد والضرر على الرجال والنساء والصبيان . فيجب أن يعاقب اللوطي والزاني بما فيه تقيمه وإبعاده . وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها . وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق وهجران من

(١) يشير إلى حديث كعب بن مالك الذي رواه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ،

٩ - سورة التوبة ، ١٨ - باب : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث ١٣٢ .

يخالط هؤلاء كلهم ويعاونه . وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه . فإنه يعاقب بهجرهم له ، لما لم يخالطهم في البر . فمن لم يهجر هؤلاء كان تاركا للأمور فاعلاً للمحذور . فهذا ترك الأمور من الاجتماع . وهذا فعل المحذور منه . فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه . وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك ، يفعل بحسب الاستطاعة . فإن لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين ، جاهد من يقدر على جهاده . وإذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين ، عاقب من يقدر على عقوبته . فإذا لم يكن النفي والحبس عن جميع الناس ، كان النفي والحبس على حسب القدرة . ويكون هو الأمور به ، فالقائل من الخير ، خير من تركه . ودفع بعض الشر خير من تركه كله . وكذلك التشبه بالرجال تحبس ، كالحالها إذا زنت . فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة . ومما يدخل في هذا : أن عمر بنى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة ، لما شب به النساء . وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الفاتن ، فلما رأى من أحسن الناس وجنتين ، غمه ذلك فنفاه إلى البصرة . فهذا لم يصدر منه ذنب يعاقب عليه ، لكن كان في النساء من يفتتن به ، فأمر بإزالة جماله الفاتن . فإن انتقاله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب . وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه . وليس من باب المعاقبة . وقد كان عمر ينفي في الحر إلى خير ، زيادة في عقوبة شاربها . ومن أقوى ما يهيج الفاحشة ، إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ، وإن كان القلب في عافية ، جعل فيه مرضاً ، كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنى . ورقية الحية هي التي تستخرج بها الحية من جحرها . ورقية العين والحمية ورقية الزنى . أى تدعو إليه وتخرج من الرجل الأمر الخبيث . كما أن الحر أم الخبائث . قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل . وقال تعالى ^(١) (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَقْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) واستفزاه إياهم بصوته يكون بالغناء ، كما قاله من قاله من السلف ، وبغيره من الأصوات كالتياحة وغير ذلك . فإن هذه الأصوات توجب

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٤] .

انزعاج القلوب والنفوس الحبيشة إلى ذلك ، وتوجب حركتها السريعة واضطرابها . حتى يبق الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة . والنفوس متحركة . فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهي لا تزال متحركة . وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه . وفي ^(١) الحديث المرفوع (القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً) وفي الحديث الآخر ^(٢) (مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض ، تحركها الريح) وفي البخاري عن ابن عمر ^(٣) : كانت عين رسول الله ﷺ (لا ، ومقلب القلوب) ولمسلم ^(٤) عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك) وفي الترمذي ^(٥) : كان عليه يكثر أن يقول (يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك) قيل : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا ؟ فقال (نعم . القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء) انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : في قوله تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا) الآية ، وجوب الحد على الزاني والزانية ، وأنه مائة جلدة . أي في البكر كما ينقسه السنة . واستدل بعمومه من أوجب المائة على العبد والذمي وعلى المحسن ، ثم رجم . فأخرج ^(٦) أحمد عن علي أنه .

(١) لم أقف عليه . (٢) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ - من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) عن أبي موسى .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٣ - كتاب الإيمان والنذور ، ٣ - باب كيف كانت عين النبي ﷺ ، حديث رقم ٢٤٨٧ .

(٤) أخرجه في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ١٧ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(٥) أخرجه الترمذي في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي

الرحمن ، عن أنس . (٦) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٢ ، حاشية رقم ٣ .

أتى بمحصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ورجمها بسنة رسول الله ﷺ . واستدل الخوارج بالآية على أن حد المحصن الجلد دون الرجم . قالوا : لأنه ليس في كتاب الله . واستدل أبو حنيفة بها على أنه لا تنريب ، إذ لم يذكره . وفي الآية رد على من قال : إن العبد إذا زنى بجمرة رجم . وبأمة يجلد . وعلى من قال : لا تحم العاقلة إذا زنى بها مجنون ، والكبيرة إذا زنى بها صبي ، أو عكسه ، لا يحد . وعلى من قال : لا حد على الزاني بحرية أو بمسألة في بلاد الحرب أو في عسكر أهل البغي . أو بنصرانية مطلقاً . أو بأمة امرأته . أو محرم . أو من استدخلت ذكر نائم . واستدل بعمومها من أوجبها على المكروه والزاني بأمة ولده والميتة .

قال ابن الفرس : ويستدل بقوله (فَأَجْلِدُوا) على أنه يجرد عن ثيابه . لأن الجلد يقتضى مباشرة البدن . وبقوله (مِائَةَ جَلْدَةٍ) على أنه لا يكتفى بالضرب بها بمجموعة ضربة واحدة ، صحيحاً كان أو مريضاً . وفي قوله تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ) الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها . وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره . وفيه رد على من أجاز للسيد العفو . فاستدل بالآية من قال : إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب . وفي قوله تعالى (وَلَيْشَهَدَ عَدَاؤُهُمَا) الخ استحباب حضور جمع ، عند جلدتها ، وأقله أربعة عدد شهود الزنى . وقيل : عشرة . وقيل ثلاثة وقيل : اثنان . انتهى .

وتقدم عن ابن جرير أن الطائفة تصدق بالواحد ، لغة . فتذكر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

لما أمر الله بمقوبة الزانين ، حرم منا كتهما على المؤمنين ، هجراً لهما ولما معهما من الذنوب كقوله ^(١) (وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ) وجعل مُجالس فاعل ذلك المنكر ، مثله بقوله ^(٢) (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ) وهو زوج له قال تعالى ^(٣) (اخْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) أى عشراءهم وأشباهم . ولهذا يقال : (الستمع شريك الغتاب) ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر . وكان فيهم جلس لهم صائم ، فقال : ابدءوا به في الجلد . ألم يسمع قول الله تعالى ^(٤) (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ) فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر ، يكون مجالستهم مثلاً لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة : (والزوج) يقال له : العشير . كما في الحديث ^(٥) (ويكفرن العشير) وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك . أما المشرك فلا إيمان له يجره عن الفواحش ومجاعة أهلها . وأما الزانى فجوره يدعو به إلى ذلك ، وإن لم يكن مشركاً . وفيها دليل على أن الزانى ليس بمؤمن مطلق الإيمان . وإن لم يكن مشركاً كفى الصحيح (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح الزانية إلا زان أو مشرك . ثم قال تعالى (وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فلم أن الإيمان يمنع منه . وأن فاعله إما مشرك وإما زان ، ليس من المؤمنين الذين يمنعونهم إيمانهم من ذلك . وذلك أن الزانية فيها فساد فراش الرجل وفي منا كتهما معاشرة الفاجرة دائماً . والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه . وهذا موجود في الزانى . فإنه إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي : من زوج كريمة من فاسق ، فقد قطع رحمها . وهذا مما يدخل على المرأة ضرراً في دينها ودنياها . فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش . ونكاح الزانى أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم . فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزانى الذى يقصر في حقوقها ، ويعتدى عليها ، ولهذا اتفقوا على اعتبار الكفاءة في الدين ، وعلى

(١) [٢٤ / المذثر / ٥] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٠] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .

(٤) [٤ / النساء / ١٤٠] .

(٥) أخرجه البخارى في : ٦ - كتاب الحيض ، ٦ - باب ترك الحائض الصوم ، حديث

٢١٥ ، عن أبى سعيد الخدرى .

ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة . واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك . فإن من نكح زانية فقد رضى لنفسه بالقيادة والديانة . ومن نكحت زانيا فهو لا يحسن مائه ، بل يضعه فيها وفي غيرها من البغايا . فهي بمنزلة المتخذة خدناً . فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة . وهذا لا يحفظ مائه . والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين ، فقال ^(١) (وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهذا مما لا ينبغي إغفاله . فإن القرآن قد قصه وبينه بيانا مفروضا . كما قال تعالى (سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء . وفيه آثار عن السلف . وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه . وقد ادعى بعضهم أنها منسوخة بقوله ^(١) (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وزعموا أن البغى من المحصنات . وتلك حجة عليهم ، فإن أقل ما في الإحصان العفة . وإذا اشترط فيه الحرية ، فذاك تكميل للعفة والإحصان . ومن حرم نكاح الأمة لثلاث يرق ولده ، فكيف يبيح البغى الذي يلحق به من ليس بولده ؟ وأين فساد فراشه من رق ولده ؟ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء وهذا حجة عليهم . فمن وطئ زانية أو مشركة بنكاح ، فهو زان . وكذلك من وطئها زان . فإن ذم الزانى بفعله الذي هو الزنى . حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قريبه . والمقصود أن الآية تدل على أن الزانى لا يتزوج إلا زانية أو مشركة . وأن ذلك حرام على المؤمنين . وليس هذا مجرد كونه فاجراً ، بل لخصوصية كونه زانياً . وكذلك في المرأة . ليس بمجرد فجورها ، بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً كما جعله زانياً إذا تزوج زانية . وهذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنى . وإلا إن كانا مشركين ، فينبغي أن يعلم ذلك . ومضمونه أن الزانى لا يجوز إنكاحه حتى يتوب . وذلك يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة الزانية لا تحصن فرجها . ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه . فمن نكح زانية

(١) [٤ / النساء / ٢٤] .

فهو زان ، أى تزوجها . ومن نكحت زانياً فهي زانية ، أى تزوجته . فإن كثيراً من الزناة قصرُوا أنفسهم على الزواني ، فتكون خدائله لا يأتى غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته فتنشوق إلى غيره فتزنى كما هو الغالب على نساء الزانى ومن يلوط بالصبيان . فإن نساء هم زين ليقضين أربهن^(١) وليراعهن أزواجهن . ولهذا يقال : عفوا تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم . فكما تدان ، والجزاء من جنس العمل ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . فإن الرجل إذا رضى أن ينكح زانية ، رضى بأن تزنى امرأته . والله سبحانه قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة . فأحدهما يجب لنفسه ما يجب للآخر . فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله ، وكذلك الرجل . ومن رضى بالزنى فهو بمنزلة الزانى ، فإن أصل الفعل هو الإرادة . ولهذا فى الأثر^(٢) من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها . وفى الحديث^(٣) (المرء على دين خليله) وأعظم الخلّة الزوجين . وأيضاً ، فإن الله تعالى جعل فى نفوس بنى آدم من الغيرة ما هو معروف . فيستعظم الرجل أن يظأ الرجل امرأته ، أعظم من غيرته على نفسه أن يزنى . فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيًا وهو ديوثا ، كيف يكره أن يكون هو زانياً ؟ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنى ، فإن الزنى له شهوة فى نفسه . والديوث له شهوة فى زنى غيره . فإذا لم يكن معه إيمان يكره من زوجته ذلك ، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنى ؟ فن استحل أن يترك امرأته تزنى ، استحل أعظم الزنى . ومن أعان على ذلك فهو كالزانى . ومن أقر عليه ، مع إمكان تغييره ، فقد رضيه . ومن تزوج غير تائبة فقد رضى أن تزنى . إذ لا يمكنه منعها . فإن كيدهن عظيم . ولهذا جاز له ، إذا أتت بفاحشة مبينة ، أن يعضلها لتفتدى . لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه . فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تقوب . ولا يسقط المهر بمجرد زناها . كما دل عليه قوله^(٤) ﷺ للملاعن (لما قال مالى) قال : لا مال لك عندها

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٦ - كتاب الملاحم ، ١٧ - باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٤٥ عن العرس بن عميرة الكندى . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٤٥ - باب حدثنا محمد بن بشار عن أبي هريرة . (٣) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ٥٣ - باب المتعة التى لم يفرض لها ، عن ابن عمر ، حديث ٢١٦٤ .

إن كنت صادقاً فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كاذباً عليها فذاك أبعد وأبعد لك منها؛ لأنها إذا زنت قد تتوب. لكن زناها يبيح إعضالها حتى تفتدى إن اختارت فراقه، أو تتوب. وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته، إلا إذا أعجبه ذلك الغير. فلا يزال يزني بما يعجبه، فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة. لا هي أئيم ولا ذات زوج. فيدعوها ذلك إلى الزنى، ويكون الباعث لها مقابلة زوجها على وجه القصاص. فإذا كان من العادين لم يكن قد أحسن نفسه. وأيضاً فإن داعية الزانى تشغل بما يختاره من البغايا، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة. ولا غيرته كافية في إحسانه المرأة، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها. وعلى هذا، فالساحقة زانية، كما في الحديث ^(١): (زنى النساء سحاقهن) والذي يعمل عمل قوم لوط زان، فلا ينكح إلا زانية أو مشركة. ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزنى، وربما زنت بمن يلقو به سراغمة له وقضاء لوطرها. وكذلك المتزوجة بمخنت ينكح كما تنكح، هي متزوجة بزاني، بل هو أسوأ الشخصين حالا. فإنه مع الزنى صار ملعوناً على نفسه للتخنيث، غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط. فإن النبي ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط. وفي الصحيح ^(٢) أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء. وكيف يجوز لها أن تتزوج بمخنت قد انتقلت شهرته إلى دبره؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة. وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزانى بغير امرأته عنها. فإذا لم يكن له غيره على نفسه، ضعفت غيرته على امرأته وغيرها. ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيره على ولده ومملوكه ومن يكفله. والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطى، كانت على دينه، فتكون زانية، وأبلغ. فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه. فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها.

لشرف الخفاء → (١) لم أقف عليه. (٢) أخرجه البخارى في: ٨٦ - كتاب الحدود، ٣٣ - باب نفى أهل الماصى والمخنثين، حديث ٢٢٨٩، عن ابن عباس.

ولفظ الآية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) يتناول هذا كله بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه . وخوى الخطاب الذى هو أقوى من مدلول اللفظ . وأدنى من ذلك أن يكون بطريق القياس ، كما بيناه فى حد اللوطى وغيره . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله . وكله تأييد لما ذهب إليه الإمام أحمد من أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ، ما دامت كذلك ، فإن تاب وصح العقد عليها ، وإلا فلا . وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة . لقوله تعالى (وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) كما فضله تقى الدين .

وقد روى هنا الحافظ ابن كثير آثاراً مرفوعة وموقوفة ، كلها مؤكدة لهذا . ثم قال بعدها : فأما الحديث الذى رواه النسائى ^(١) عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن عندى امرأة من أحب الناس إلى ، وهى لا تمنع يد لأمس . قال . (طلقها) قال : لا صبر لى عنها . قال (استمتع بها) . فقال النسائى : هذا الحديث غير ثابت . وعبدالكريم أحد رواه ضعيف الحديث ليس بالقوى . وقال الإمام أحمد : هو حديث منكر . وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً . وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم . فقال : وقيل : سخية تعطى . وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا ترد يد ملتمس . وقيل : المراد أن سجيّتها لا ترد يد لأمس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة . فإن رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها ، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثاً ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيّتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أَرادها لو خلا بها أحد ، أمر رسول الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح البقاء معها . لأن محبتها لها محققة . ووقوع الفاحشة منها متوهم ، فلا يصار إلى الضرر العاجل للتوهم الآجل . والله أعلم . انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٦ - كتاب النكاح ، ١٢ - باب تزويج الزانية .

لطيفة :

سر تقديم (الزانية) في الآية الأولى و (الزانى) في الثانية : أن الأولى في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع . والثانية في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة . والأصل في النكاح الذكور ، وهم المبتدئون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم ، لهذا . وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث ، من مناعة الزناة ذكوراً وإناثاً ، زجراً لهم عن الفاحشة ، ولذلك قرن الزنى والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله مناعة المشهورين بالفاحشة . وقد نقل أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق . ومالكٌ أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا في الدين . وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى ، فاستعظمه وتلا^(١) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) انتهى كلام الناصر في (الاتصاف) ومراد السلف بالكرهية ، ما تعرف بالكرهية التحريمية . فيقرب بذلك مذهب المالكية .

ثم بين تعالى حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[٥] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ » أى يقذفون بالزنى « الْمُحْصَنَاتِ » أى المسلمات الحرائر العاقلات

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] .

البالغات العفيفات عن الزنى «ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» أى يشهدون على مارموهن به (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) أى كل واحد من الرامين . وتخصيص النساء لخصوص الواقعة ، ولأن قذفهن أغلب وأشنع . وإلا فلا فرق فيه بين الذكر والأنثى «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» أى فى أى واقعة كانت ، لظهور كذبهم «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» أى لخروجهم عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» أى القذف «وَأَصْلَحُوا» أى أعمالهم «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى بقبول توبتهم وعفوه عنهم .

تنبيهات :

الأول : قال ابن تيمية : ذكر تعالى عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم (منا) ولا (ممن نرضى) ولا (من ذوى العدل) ولهذا تنازعوا: هل شهادة الأربعة التى لا توجب الحد مثل شهادة أهل الفسوق ؟ هل تدرأ الحد عن القاذف ؟ على قولين : أحدهما تدرأ كشهادة الزوج على امرأته أربعمائة . فإنها تدرأ حد القذف ولا توجب الحد على المرأة . ولو لم تشهد المرأة ، فهل تحمد أو تحبس حتى تقر أو تلعن ، أو يخلى سبيلها ؟ فيه نزاع . فلا يلزم من درء الحد عن القاذف ، وجوب حد الزنى . فإن كلاهما حد . والحدود تدرأ بالشبهات . وأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المذدوف مرة أو مرتين أو ثلاثا درأ الحد عن القاذف ولم يجب الحد عليه عند أكثر العلماء ولو كان المذدوف غير محصن ، مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة ، لم يحذفه حد القذف . ولم يحذف هو حد الزنى بمجرد الاستفاضة . وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد . ولا يقام حد الزنى على مسلم إلا بشهادة مسلمين . لكن يقال لم يقيدهم بالعدالة ، وقد أمرنا الله أن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهم الممتثلون ما أمر الله به بقوله ^(١) (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ) الآية ، وقوله ^(٢) (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٢] .

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١) وَقَوْلُهُ (٢) (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ) وَقَوْلُهُ (٣) (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) وَقَوْلُهُ (٤) (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) فهم يقومون بها بالقسط لله ، فيحصل مقصود الذي استشهدوه .

والوجه الثاني - كون شهادتهم مقبولة لأنهم أهل العدل والرضا . فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء . وقد نهى الله سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله (٥) (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) الآية . لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره . وأما الفاسقان فصاعدا . فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وما ذكره من عدد الشهود لا يتعين في الحكم باتفاق العلماء في مواضع . وعند الجمهور يحكم بلا شهود في مواضع عند الفسكول والرد ونحو ذلك . ويحكم بشاهد وعين كما مضت بذلك السنة . ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد ، لا في آية الزنى ، ولا في آية القذف . بل قال (فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ) وإنما أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحد ، ولم يأمر به عند خبر الفاسقين . فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد مالا يوجبه خبر الواحد . ولهذا قال العلماء : إذا استراب الحاكم في الشهود ، فرّقهم وسألهم عما تبين به اتفاقهم واختلافهم . انتهى .

الثاني : قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل . ويحول عنه اسم الفسق . سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله ، لقوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) روى البيهقي عن ابن عباس في هذه الآية : فمن تاب فشهادته في كتاب الله تقبل . وتأولوا قوله تعالى (أَبَدًا) على أن المراد مادام مصرًا على قذفه . لأن (أبد كل شيء) على ما يليق به . كما لو قيل : لا تقبل شهادة الكافر أبداً ، فإن المراد مادام مصرًا على الكفر . وبالغ الشعبي فقال : إن تاب القاذف قبل إقامة الحد عليه ، سقط عنه . وذهبت الحنفية إلى

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] . (٣) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

(٣) [٧٠ / الماعز / ٣٣] . (٤) [٤٩ / الحجرات / ٦] .

أن الاستثناء يتعلق بالفسق خاصة . فإذا تاب سقط عنه اسم الفسق ، وأما شهادته فلا تقبل أبداً . وقال بذلك بعض التابعين . انتهى .

قال الزمخشري : والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها ، أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزء الشرط . كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فجلدهن ، وردوا شهادتهم وفسقوا . أى فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق ، إلا اللذين تابوا عن القذف وأصلحوا ، فإن الله يغفر لهم ، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين . انتهى .

وأخرج البخاري في صحيحه في (كتاب الشهادات) في باب شهادة القاذف والسارق والرائي ، عن عمر رضي الله عنه ؛ أنه جلد أبا بكره وشبل بن معبد ونافعاً ، بقذف المغيرة بالزنى ، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة . ولم يثبت زياد الشهادة . ثم استتابهم وقال : من تاب قبلت شهادته . وفي رواية قال لهم : من أكذب نفسه قبلت شهادته فيما يستقبل . ومن لم يفعل ، لم أجز شهادته . فأكذب شبل نفسه ونافع . وأبى أبو بكر أن يرجع . قال المهلب : يستنبط من هذا ؛ أن أكذاب القاذف نفسه ليس شرطاً في قبول توبته . لأن أبا بكره لم يكذب نفسه ، ومع ذلك فقد قبل المسلمون روايته وعملوا بها .

الثالث : قال الرازي : اختلفوا في أن التوبة عن القذف كيف تكون ؟

قال الشافعي رحمه الله : التوبة منه أكذابه نفسه ، واختلف أصحابه في معناه . فقال الاصطخري : يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله . وقال أبو إسحاق : لا يقول كذبت لأنه ربما يكون صادقاً فيكون قوله (كذبت) كذباً ، والكذب موصية . والإتيان بالمصية لا يكون توبة عن مصية أخرى ، بل يقول : القذف باطل . ندمت على ما قلت ، ورجعت عنه ، ولا أعود إليه .

الرابع : قال الرازي في قوله تعالى : (وَأَصْلَحُوا) قال أصحابنا : إنه بعد التوبة ، لا بد من مضي مدة عليه في حسن الحال ، حتى تقبل شهادته وتعود ولايته . ثم قدرنا تلك المدة بسنة

حتى تمرّ عليه الفصول الأربعة ، التي تتغير فيها الأحوال والطباع . كما يضرب للمعنين أجل سنة . وقد علق الشرع أحكاماً بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما . انتهى .

وقال الفزاليّ في (الوجيز) : يكفيه أن يقول : تبت ولا أعود . إلا إذا أقر على نفسه بالكذب ، فهو فاسق ، يجب استبراه كسكل فاسق يقول : تبت . فإنه لا يصدق حتى يستبرأ مدة فيعلم بقرائن الأحوال صلاح سريره . انتهى .

وبه يعلم أن التقدير بسنة لا دليل عليه ، بل المدار على علم صلاحه وظهور استقامته ، ولو على أثر الحد .

قال الحافظ ابن حجر : روى سعيد بن منصور من طريق حصين بن عبد الرحمن قال : رأيت رجلاً جُلدَ حدّاً في قذف بالزنى . فلما فرغ من ضربه أحدث توبة . فلقيت أبا الزناد فقال لي : الأمر عندنا بالمدينة ؛ إذا رجع القاذف عن قوله ، فاستغفر ربه ، قبلت شهادته . وعلقه البخاريّ .

الخامس : ننقل هنا ما أجمله السيوطيّ في (الإكليل) مما يتعلق بأحكام الآية . قال رحمه الله : في هذه الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أي عفيفة . ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنى لا يحسد للقذف . ويصرح بذلك قوله (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) وفيها أن الزنى لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ، لا أقل . ولا نساء . وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين . واستدل بهموم الآية من قال : يحدّ العبد أيضاً ثمانين . ومن قال : يحدّ قاذف الكافر والرقيق وغير البالغ والمجنون وولده . واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحدّ لنفسه . لأنه لم يرم أحداً . واستدل بها من قال : إن حد القذف من حقوق الله ، فلا يجوز العفو عنه . انتهى .

ثم رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، تحقيقاً في بحث قبول الشهادة بعد التوبة ، جديراً بأن يؤثر . قال رحمه الله : وقوله تعالى (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) نصّ في أن هؤلاء القذفة لا تقبل شهادتهم أبداً . واحداً كانوا أو عدداً . بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل

الجمع والبدل ، لأنها نزلت في أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقهاء والتفسير . وكان الذين قذفوا عائشة عدداً ، ولم يكونوا واحداً لما رأوها قدمت صحبة صفوان بن المعطل ، بعد قفول العسكر ، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فُقدت ، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه خلفتها ، ولم تسكن فيه . فلما رجعت لم تجد أحداً فكشفت مكانها . وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش . فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبها . ثم ذهب إلى العسكر . فكانت خلوتها بها للضرورة . كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة . مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة ، وقصة عائشة .

ودلت الآية على أن القاذبين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين . ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور . فإنه كان من جملتهم مسطح وحسان وحمنة . ومعلوم أنه عليه السلام يرد شهادة أحد منهم ، ولا المسلمون بعده لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببرائتها . ومن لم يتب حينئذ ، فإنه كافر مكذب بالقرآن . وهؤلاء ما زالوا مسلمين . وقد نهى الله عن قطع صلتهم . ولو ردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر شهادة أبي بكر . وقصة عائشة أعظم من قصة المغيرة . لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة يقول : أرد شهادة من حُد في القذف . وهؤلاء لم يحدوا . والأولون يجيبون بأجوبة : أحدها - أنه قد روى في السنن أنهم حدوا . الثاني أن هذا الشرط غير معتبر في ظاهر القرآن ، وهم لا يقولون به . الثالث - أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا : قد يكون القاذف صادقاً وقد يكون كاذباً . فإعراض المقتوف عن طلب الحد قد يكون لصدق القاذف . فإذا طلبه ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه . ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كذب كل أحد . فإن الله عز وجل هو الذي برأها بكلامه الذي أنزله من فوق سبع سموات يتلى ، فإذا كانت شهادتهم مقبولة ، فغيرهم أولى . وقصة عمر التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار ، في شأن المغيرة ، دليل على الفصلين جميعاً . لما توقف الرابع فجلد الثلاثة دونه ورد شهادتهم . لأن اثنين من الثلاثة تابا قبل شهادتهما . والثالث وهو أبو بكر ، مع كونه من أفضلهم ، لم يتب .

فلم يقبل المسلمون شهادته . وقد قال عمر : تب أقبل شهادتك . لكن إذا كان القرآن قد بين أنهم إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً ، ثم قال بعد ذلك (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) فمعلوم أن قوله (هُمُ الْفَاسِقُونَ) وصف ذم لهم زائد على رد الشهادة .

وأما تفسير العدالة فإنها الصلاح في الدين والمروءة . وإذا وجد هذا في شخص كان عدلاً في شهادته وكان من الصالحين . وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية ولا رجمة في جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذي أكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها . ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين .

ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصىه إلا الله ، مما يكون تركه أعظم إنعاماً من شرب الخمر والزنى ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً في عدالته ، إما لعدم است شمار كثرة الواجبات ، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات ، وليس الأمر كذلك في الشريعة . وبالجملة ، فهذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم والمالاة والمعاداة ، وهذا أمر عظيم . وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضياً ، أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل في أقواله وأفعاله . والصدق في شهادته وخبره . وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات . كأن الصفات التي اعتبروها كثيراً ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً . لكن يقال : إن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودلائل عليها وعلامة لها . فإن النبي ﷺ قال في الحديث ^(١) المتفق على صحته (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة) .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٦٩ - باب قول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، حديث ٢٣٤٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ١٠٥ (طبعتنا)

إلى الجنة ..) الحديث . فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب مستلزم للفجور . فإذا وجد الملزوم ، وهو تحرى الصدق ، وجد اللازم وهو البر . وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق . وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم . وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب ، ولهذا يستدل بعدم بر الرجل على كذبه . وبعدم فجوره على صدقه . فالعدل الذى ذكره ؛ من انتفى فجوره . وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة . وإذا انتفى ذلك فيه ، انتفى كذبه الذى يدعوه إلى الفجور . والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه . ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعى إلى البر يستلزم البر ، والداعى إلى الفجور يستلزم الفجور . فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب . انتهى .

ثم بين تعالى حكم الرامين لأزواجهم خاصة ، بعد بيان حكم الرامين بغيرهن ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

[٧] (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » أى بالزنى « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فيما رماها به من الزنى

« وَالْخَامِسَةُ » أى والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة « أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ

مِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فيما رماها به من الزنى . فيسقط عنه حد القذف ، ويجب عليها الحد

وهو الرجم . إلا إن لاعنت أيضاً . كما قال سبحانه :

[٨] (وَيَذُرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٩] (وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٠] (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

« وَيَذُرُ عَنْهَا الْعَذَابَ » أى الدينوى وهو الرجم « أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فيما رماها به من الزنى « وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ » أى الزوج « مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ » أى لخرجتم وشق عليكم كثير من أموركم . ولكن لرحمته ولطفه ، شرع لكم من الفرج والمخرج ، ما أنزله وأحكمه .

تنبيهات

الأول - قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتمسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل . وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعى عليها بما رماها به . فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين . أى فيما رماها به من الزنى . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء . وحرمت عليه أبداً . ويعطيها مهرها . ويتوجه عليها حد الزنى . ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أى فيما رماها به . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

الثانى - روى فى الصحيح^(١) أن ذلك وقع فى عهد النبى ﷺ . وأن رجلاً قال للنبي ﷺ :

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣٠ - باب التلاعن فى المساجد ،

حديث ٢٧٩ ، عن سهل بن سعد .

أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً ، أيقظله فتمتقلونه ، أم كيف يفعل ؟ فقال له رسول الله ﷺ :
قد قضى الله فيك وفي امرأتك . وتلا عليه ما نزل من هذه الآية . فتلاعنا عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

وصح أيضاً أنها قد وقعت لرجلين سُمِّيَا . وقد اختلف شراح الصحيح في معنى ما روى
من أنها نزلت فيهما معاً .

وإذا راجعت ما كتبه في (المقدمة) في معنى سبب النزول ، زال الإشكال .
فارجع إليه .

الثالث - قال السيوطي في (الإكمال) : هذه الآية أصل في اللعان . ففيها أن شرطه سبق
قذف . وأنه إنما يكون بين الزوجين لا بين الرجل وأجنبية ولا السيد وأمثه . واستدل بمومها
من قال بلعان الكفار والعبيد والخصى والمحبوب والمحدود في القذف والأعمى والأخرس ، ومن
الصغيرة التي لا تحمل والآيسة . واستدل بقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) من قال
للعان إذا أقام البينة على زناها . وقوله (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) من قال : إن اللعان شهادة لا يمين .
وقوله (أربع شهادات بالله) الخ فيه أن صيغته أن يقول : أشهد بالله إني لمن الصادقين ، أربعاً
والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فاستدل به من لم يجوز إبدال أشهد (بأحلف أو أقسم
ونحوه) أو الله (بالرحمن ونحوه) أو زاد (يعلم الله ونحوه) ومن لم يوجب زيادة (الذي لا إله
إلا هو) ومن لم يجوز إسقاط (إني لمن الصادقين) ولا إبدالها (بما كذبت عليها ونحوه)
ولا الاكتفاء بدون أربع ، خلافاً لأبي حنيفة ، في اكتفائه بثلاث شهادات . ولا تقديم اللعنة
على الشهادة ، أو توسطها ، أو إبدالها بالغضب . وقوله تعالى (وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ) الآية ، فيه
أن لعانه يوجب على المرأة حد الزنى وأن لها دفعه بأن تقول أربع مرات . أشهد بالله إنه لمن
الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها الخ . وفيه أيضاً أنه لا يجوز لها أن تبدل أشهد
(بأحلف) أو الغضب (باللعنة) إلى آخر ما تقدم . واستدل به على أنه لا يجوز تقديم لعانها
على لعانه . انتهى .

الرابع : اعلم أن الحد الواجب بالزنى نوعان : جلد ورجم . فالجلد حد البكرين الحرين إذا زنيا . فيجلد كل واحد منهما مائة جلدة . وفي تغريبهما سنة ، وتغريب الزاني وحده كذلك ، خلاف . نعم ، إذا رآه الإمام مصلحة فلا خلاف في إمضائه . والرجم حد الزانين المحصنين . والإحصان عبارة عن البلوغ والعقل والحرية والدخول في النكاح الصحيح . فلا يقتل بالسيف ، بل ينكل بالرجم ، لا بصخرة تدفق ، ولا بحصيات تعذب ، بل بحجارة معتدلة ، كما في (الوجيز) وقد اعترض جماعة الخوارج على تشريع الرجم في الإسلام وقالوا : إن الله لم يأمر به في كتابه العزيز . فالذى ورد في عقاب الزنى في القرآن حكمان . أحدهما قوله (١) تعالى (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا) وهذا الحكم قد نسخ - أى بين - بالحكم الثانى وهو قوله تعالى (٢) (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) هذه حجة الخوارج . أما حجة الإجماع فهي ورود الآثار الصحيحة الدالة على أن النبي ﷺ أمر بـ رجم المحسن . وفعله . وروى لذلك جملة أحاديث وأحكام عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، كذا في كتاب (المقابلات) وسبقه الرازى في (تفسيره) فطوّل النفس في سوق شبهة الخوارج ، وأجاب عنها بما ملخصه : أن الآية المذكورة مخصوصة بالبكر ، خصصها الخبر المتواتر بالرجم ، وتخصيص القرآن الكريم بخبر الواحد جائز . فأولى بالمتواتر . وثانيا - قال - إنه لا يستبعد تجديد الأحكام الشرعية بحسب تجديد المصالح . فلعل المصلحة التى تقضى وجوب الرجم ، حدثت بعد نزول تلك الآيات . انتهى . قال صاحب (المقابلات) : إن الشريعة الإسلامية متفقة مع الشرع العبرى في أغلب أحكام الزنى ، ولم يرد في الديانة المسيحية نص صريح ينسخ حكم اليهودية في الزنى . ولكن يروى

(١) [٤ / النساء / ١٥ و ١٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٢] .

عن عيسى عليه السلام ، ما يؤخذ منه ضمناً ، عدم إمكان إقامة حد الرجم . لأنه اشترط براءة الراجمين من كل عيب ، وأمر الزانية ، التي اعترفت بين يديه ، بالتوبة والاستغفار . أما حكم الزنى في القوانين الحديثة فيخالف مخالفة كلية لحكم الشريعة الغراء ، وحكم التوراة والإنجيل انتهى كلامه .

وقفنا الله لحفظ حدوده ، وجنبنا محارمه بمنه وكرمه .

التنبيه الرابع : من مباحث اللفظ في الآية أن يقال : قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع بـ (تواب رحيم) فعلام فصلت هنا بـ (تواب حكيم) مع أن التوبة مع الرحمة ، فيما يظهر ؟ (والجواب) أن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها . وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده . وذلك حكمة منه . ففصلت هذه الآية بـ (تواب حكيم) إثر بيان الحكم . جمعا بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية ، وبين الحكمة في سترها على تلك الصورة . فافهم ذلك . أشار له ابن الأثير في (المثل السائر) .

ثم أشار تعالى إلى نبا الإفك ، وتبرئة عائشة رضي الله عنها ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِيَكُلَّ امْرِئٌ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ » أى بأبلغ ما يكون من الكذب ، وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك . والمراد به ما أفك به الصديقة ، أم المؤمنين رضي الله عنها ؟ فاللام للمهد ويجوز حمله على الجنس . قيل : فيفيد القصر ، كأنه لا إفك إلا هو . وفي لفظ (الحجاء) إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل (عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) أى جماعة منكم . خبر (إن) و (منكم) نعمت لها . وبه أفاد الخبر . وقوله تعالى « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ »

مستأنف ، والهاء ضمير الإفك أو القذف . والخطاب لرسول الله صلوات الله عليه ،
ولآل الصديق رضي الله عنهم ، وإن ساء ذلك من المؤمنين . تسليمة لهم من أول الأمر .
وقوله تعالى « بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » زيادة في التسليمة والتكريم . أي لا تظنوه يلحق بهم تهمة بكم ،
أو يوقع تقيصة فيكم ، بل قد جرّ لكم خيراً عظيماً .

قال الزمخشري : ومعنى كونه خيراً لهم ، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم . لأنه كان
بلاءً مبيناً ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ، بما هو
تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسليمة له ، وتنزيه لأهل المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير
لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تجمه أذناه . وعدة ألطاف للسامعين
والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها . « لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » أي جزاؤه ، وذلك الذم في الدنيا إلى يوم القيامة ،
والجلد ثمانين . ولعذاب الآخرة أشد « وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ »
أي قام بمظلمه وإشاعته ، بمد ابتدائه بالخوض فيه ، وهو رأس المنافقين عبد الله بن أبي ،
لإيمانه في عداوة رسول الله ﷺ ، وانتهازه الفرص ، وطلبه سبيلاً إلى الغمزة .

روى (١) الطبري عن ابن زيد قال : أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أبي ابن سلول
الخبث . هو الذي ابتداء هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ،
ثم جاء يقود بها . والعذاب العظيم يعم عذابى الدارين ، كما قلنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا
إِفْكٌ مُّبِينٌ)

« لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا » أي بالذين منهم من

(١) انظر الصفحة رقم ٨٩ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

المؤمنين والمؤمنات، كقوله تعالى^(١) (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) قال الشهاب : وهذا من بدیع الكلام . وقد وقع في القرآن كثيراً . وهو بحسب الظاهر يقتضى أن كل واحد يظن بنفسه خيراً ، وليس بمراد . بل أن يظن بغيره ذلك . وتوجيهه أنه مجاز ، لجعله اتحاد الجنس كاتحاد الذات ولذا فسر قوله^(٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) : (لا تقتلوا من كان من جنسكم) أو يجعلهم كففس واحدة ، فمن عاب مؤمناً فكأنما عاب نفسه ، ويجوز أن يقدر فيه مضاف . أى : ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر . وقال الكرماني في حديث (أموالكم عليكم حرام) إنه كقولهم (بنو فلان قتلوا أنفسهم) أى قتل بعضهم بعضاً ، مجازاً أو إضماراً للقرينة الصارفة عن ظاهره . و (لولا) تحضيضية بمعنى (هلا) « وقالوا هذا إفاك مبین » أى هذا الذى سمعناه ، من رى أم المؤمنين ، إفاك مبین جلّ لمن عقل وفكر فيه . قال العلامة الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل (لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقتلتم) ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ؟ وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليمالغ في التويع بطريفة الالتفات . وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه ، ولا مؤمنة على أختها ، قول عائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن ، إذا سمع قالة في أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظن ، لا على الشك . وأن يقول بملء فيه - بناء على ظنه بالمؤمن الخير - : هذا إفاك مبین . هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته . كما يقول المستيقن المطمع على حقيقة الحال . وهذا من الأدب الحسن الذى قلّ القائم به والحافظ له . وليتك تجد من يسمع فيسكت ، ولا يشيع ما سمعه بأخوات ! انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

(١) [٤٩ / الحجرات / ١١] . (٢) [٤ / النساء / ٢٩] .



« لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ »
 أى فى حكمه وشريعته المؤسسة على الدلائل الظاهرة المستيقنة « هُمُ الْكَاذِبُونَ » أى
 الكاملون فى الكذب ، المشهود عليهم بذلك . قال الزمخشريّ : وهذا توبيخ وتعنيف
 للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا فى دفعه وإنكاره . واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف
 فى الشرع ، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتفكيك به ، إذا قذف امرأة محصنة
 من عُرُضِ نساء المؤمنين . فكيف بأُم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ، حرمة
 رسول الله ﷺ ، وحبية حبيب الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا
 أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى لموجلتكم بالعقاب ، بسبب ما خضتم فيه من الإفك . ولكنه واسع
 الفضل والرحمة ، يعهل المذنب للتوبة ، ويحلم عنه للأوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنَّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
 وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

« إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » أى وقت تلقى بضمكم من بعض « بِالسِّنَّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ
 مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا » أى لاتبعة له ولا عقوبة على مشيعه « وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
 عَظِيمٌ » أى والحال أنه عظيم فى الوزر واستجرار العذاب . قال المهايى : لأن الجراءة على رسول الله
 وعلى أوليائه ، تشبه الجراءة على الله تعالى . قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما معنى قوله (بِأَفْوَاهِكُمْ)

والقول لا يكون إلا بالفهم ؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، فيترجم عنه اللسان . وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم ، ويدور في أفواهكم ، من غير ترجمة عن علم به في القلب . كقوله تعالى (١) (يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) انتهى . أى فالقيد ليس تأكيداً صرفاً ، (كنظر بعينه) بل ليفيد نفيه عما عداه . وقيل إنه توبيخ ، كما تقول (قاله بملء فيه) فإن القائل ربما رمز ، وربما صرح وتشدق . وقد قيل هذا في قوله (٢) (بَدَتِ الْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ) وقيل : فائدته ألا يظن أنه كلام نفسه . فهو تأكيد لدفع المجاز . والسياق يقتضى الأول . كذا في (العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

« وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ » أى تكذيباً لمشيئته « مَا يَكُونُ لَنَا » أى ما يصح لنا بوجه ما « أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » أى تنزيهاً لك ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء . فإنه بهتان عظيم يستحيل صدقه . قال الزمخشري : كلمة (سبحانك) للتعجب من عظم الأمر . فإن قلت : مامعنى التعجب في كلمة التسبيح ؟ قلت : الأصل في ذلك ، أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صفاته . ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه . أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة . انتهى .

فعلى الأول ، هو من المجاز المتفرع على الكناية ، وهو كثير . وقد ذكره النووي في (الأذكار) وكذا (لا إله إلا الله) تستعمل للتعجب أيضاً . وأما الصلاة على النبي ﷺ في مقام التعجب فلم ترد ولم تسمع في لسان الشرع . وقد صرح الفقهاء بالمنع . وإنما وقع من العوام وبعض المحدثين كقوله :

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٨] .

فمن رأى حُسْنَهُ الْمَقْدَى في الحالِ ، صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ
وعلى الثانى ، هو حقيقة . كذا في العناية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٨] (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الاتصاف بالإيمان
يصدّ عن كل مقبح « وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ » أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ،
دلالة واضحة لمتعلموا وتقادبوا بها . أى ينزلها كذلك مبينة ، ظاهرة الدلالة على معانيها
« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

ثم أشار تعالى إلى تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فعلق بذهنه منه شيء ،
ألا يتكلم به ولا يذيعه ، بقوله سبحانه متوعدا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ » أى تنتشر الخصلة المفرطة في القبح ،
وهى الفرية والرمى بالزنى ونحوه ، كاللواط وما عظم فحشه « فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا » أى من الحدّ وغيره ، مما يتفق من البلايا الدنيوية « وَالْآخِرَةِ » أى
من عذاب النار « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » أى ما فى القلوب من الأسرار والضمائر « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »
يعنى أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقبُهُ عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » تكرير للمنة ، بترك المعالجة بالمعقاب ، للدلالة على عظم الجريمة . وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة . وهو (لستكم) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ،

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[٢٢] (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلَا تُحِبُّونَ

أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى بإشاعة الفاحشة « وَمَنْ

يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » أى ما طهر من دنسها « مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » من عباده بإلهامه التوبة والإنابة « وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشري (يأتل) من (ائتلى) إذا حلف ، افعال من الآية وهو القسم وقيل من قولهم (ما ألت جهداً) إذا لم تدخر منه شيئاً . ويشهد للأول قراءة الحسن (ولا يقال) والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان . أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم ، وإن كانت بينهم وبينهم شغناء لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعتو والصفح . وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم وسيئاتي سبب نزولها فيمن عني بها .

ثم بين تعالى وعيد القاذفين للبريئات ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ » أى العفاف عن الفاحشة ، النقيات القلوب عنها « الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا » بالذم والحد ورد الشهادة إلا إذا تابوا « وَالْآخِرَةِ » أى حيث يلعنهم نمة الملائكة ومن شاء الله « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى يعترفون بها بإطلاق الله تعالى إياها أو بظهور آثار ما عملوه عليها . بحيث يعلم من يشاهد ما عملوه . وذلك بكيفية يعلمها الله . فهو استعارة . ورجع الأول لقوله ^(١) (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) فظاهره الحقيقة ، وحمله على الثانى بعيد . قيل : سيأتى فى (يس) ^(٢) (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) والختم على الأفواه

(١) [٤١ / فصلت / ٢١] . (٢) [٣٦ / يس / ٦٥] .

ينافي شهادة الألسنة . والجواب أن الختم على الأفواه معناه المنع عن التكلم بما يريد وينفعه ، بحسب زعمه ، اختياراً . كالإنكار والاعتذار . أو أن هذا في حال ، وذلك في حال . أو كل منهما في حق قوم غير الآخرين ، أو هذا في حق القذفة ، وذلك في حق الكفرة - وليس بشيء - إذ لا منافاة ، فالسر في التصريح بالألسنة هنا ، وعدم ذكرها هناك ، أن الآية لما كانت في حق القاذف بلسانه ، وهو مطالب معه بأربعة شهداء ، ذكر هنا خمسة أيضاً ، وصرح باللسان الذي به عمله ليفضح ، جزاء له من جنس فعله . كذا في (العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ تشهد عليهم بما ذكر « يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ » أى جزاءهم « الْحَقَّ » أى الواجب الثابت « وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » أى المظهر للأمور كما هي في أنفسها . ثم أشار تعالى إلى ما يؤكده التبرئة من شاهد العرف والمادة ، في أنه لا يضم الشكل إلا إلى شكله ، ولا يساق الأهل إلا إلى أهله ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) « الْخَبِيثَاتُ » أى من النساء « لِلْخَبِيثِينَ » أى من الرجال « وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » أى بحيث لا يكاد يتجاوز كل واحد إلى غيره . (الطيب) ضد الخبيث وهو الأفضل من كل شيء والأحسن والأجود . قال أبو السعود : وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة . واتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات ،

حسبنا طبق به قوله تعالى « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، أَهُمْ مُّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة . وبهذه الآية تم نبأ أهل الإفك .

واعلم أن ما اشتملت عليه هذه الآيات من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب ، لا تفي بها مجلدات . إلا أنا نشير إلى شيء من ذلك ، نقبسه من أهم المراجع ، تكميلاً لما أجمعناه في تأويلها .

فالأول: أن نبأ الإفك كان في غزوة المريسيم (تصغير مرسوع ، بئر أو ماء لخزاعة) وكانت في شعبان سنة خمس . وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن أبي ضرار ، سيد بني المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب رسول الله ﷺ . فخرج رسول الله ﷺ معه من أصحابه . وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها ، فأغار عليهم . فسبي ذراريهم وأموالهم . وكانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت معه ، عليه الصلاة والسلام ، في هذه الغزوة ، بقرعة أصابها . وكانت تلك عادته مع نسائه . فلما رجعوا من الغزوة ، نزلوا في بعض المنازل . فخرجت عائشة لحاجتها . ففقدت عقد الأختها كانت أعارتها إياه . فرجعت تلتمسسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها . فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هو ودجها ، فظنوها فيه ، فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ، لأنها رضى الله عنها كان فتيمة السن لم يغشها اللحم الذي كان يشغلها . وأيضا ، فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج ، لم ينكروا خفته . ولو كان الذي حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال . فرجعت عائشة إلى منزلهم وقد أصابت العقد ، فإذا ليس لها داع ولا مجيب . فقعدت في المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها . والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فعلمت ما عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل (بفتح الطاء المشددة سلمي ذكواني صحابي فاضل متقدم الإسلام) : إن الله وإنا إليه راجعون . زوجة رسول الله ﷺ . وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم وفي السنن . فلما رآها عرفها . وكان يراها قبل نزول الحجاب . فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها . فركبتها . وما كلمها كلمة واحدة . ولم

تسمع منه إلا استرجاعه . ثم سار بها يقودها حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة فلما رأى ذلك الناس تسكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به . ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً . فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه . فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه . وكان أصحابه يتقربون إليه . فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم . ثم استشار أصحابه في فراقها ، فأشار عليه عليّ رضي الله عنه أن يفارقها يأخذ غيرها ، تلويحاً لاتصريحاً . وأشار عليه أسامة وغيره بإمسكها ، والابتغى إلى كلام الأعداء . فعلىّ ، لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه ، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ، ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء . وأسامة لما علم حب رسول الله ﷺ لها ولأبيها ، وعلم من عفتها وبرائها وحصانتها وديانتها ، ما هي فوق ذلك وأعظم منه ، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه ؛ أنه لا يجعل ربة بينه وحبيبته ، من النساء وبنت صدقه بالمنزل الذي أنزلها به أرباب الإفك . وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيا . وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهي تحت رسوله . ومن قويت معرفة الله ومعرفة رسوله وقدره عند الله في قلبه - قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة ، لما سمعوا ذلك : (سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) وتأمل ما في تسبيحهم لله وتنزيههم له في ذلك المقام ، من المعرفة به وتنزيهه عما لا يليق به أن يجعل لرسوله وخليفه وأكرم الخلق عليه ، امرأة خبيثة بغيا . فمن ظن به سبحانه هذا الظن ، فقد ظنّ به السوء . وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله ، أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بئسها . كما قال تعالى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) فقطعوا قطعاً لا يشكون فيه ، أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة .

فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده فيما يليق به . وهلا قال : سبحانك هذا بهتان عظيم ، كما قاله فضلاء الصحابة ؟

فالجواب : أن هذان تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها ، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة . ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين . ويزيد الله الذين اهتموا هدى وإيماناً ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها . لا يوحى إليه في ذلك بشيء ليتم حكمته التي قدرها وقضاها ، ويظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصدّيقين من عباده . ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً . ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتمم العبودية المرادة من الصدّيقة وأبيها . وتمّ نعمة الله عليهم ، ولتشهد الفاقة والرغبة منها ومن أبيها ، والافتقار إلى الله ، والدّلّ له ، وحسن الظن به ، والرجاء له . ولينقطع رجاءها من المخلوقين ، وتيأس من حصول الفصرة والفرج على يد أحد من الخلق . ولهذا وقت لهذا المقام حقه ، لما قال لها أبوها : قومي إليه ، وقد أنزل الله عليه براءتها ، فقالت : والله ! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي .

وأيضاً ، فكان من حكمة حبس الوحي شهراً ، أن القضية انضجت وتمخضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف ، إلى ما يوحى الله إلى رسوله فيها . وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع . فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والصدّيق وأهله وأصحابه ، والمؤمنون . فورد عليهم ورود الفيث على الأرض ، أحوج ما كانت إليه . فوقع منهم أعظم موقع والطفه . وسروا به أتم السرور ، وحصل لهم به غاية الهناء . فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة ، وأنزل الوحي على الفور بذلك ، لفاتت هذه الحكم وأضعافها ، بل أضعاف أضعافها .

وأيضاً ، فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عندهم ، وكرامتهم عليه . وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمناخة عنه ، والرد على أعدائه ،

وذمهم وعيبتهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه ، بل يكون هو وحده المتولى لذلك ، الثائر لرسوله وأهل بيته .

وأيضاً ، فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى . والتي رميت زوجته . فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها . مع علمه ، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ، ولم يظن بها سوءاً قط ، وحاشاه وحاشاها . ولذلك لما استعذر من أهل الإفك ، قال : من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ والله ! ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلي إلا ممي . فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين . ولكن لكمال صبره وثباته وورقه وحسن ظنه بربه ، وثقته به ، وفقى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه . حتى جاءه الوحي بما أقر عينه وسر قلبه وعظم قدره وظهر لأتمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه .

ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك ، فخذوا ثمانين ثمانين . ولم يحمد الخبيث عبد الله ابن أبي ، مع أنه رأس الإفك . فقيل : لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة . والخبيث ليس أهلاً لذلك . وقد وعد الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد . وقيل : بل كان يستوثق الحديث ويجمعه ويحكمه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه وقيل : الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة . وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد . فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه . ولم يكن يذكره بين المؤمنين . وقيل : حد القذف حق الآدمي ، لا يستوفى إلا بمطالبة . وإن قيل إنه حق لله فلا بد من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبي . وقيل : بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته . كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً . وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام . فإنه كان مطاعاً فيهم رئيساً عليهم . فلم يؤمن إثارة فتنة في حده ، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها . فجلد مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحنمة بنت جحش . وهؤلاء من المؤمنين الصادقين ، تطهيراً لهم وتكفيراً . وترك عدو الله ابن أبي إذا فليس هو من أهل

ذاك - هذا ما أفاده الإمام ابن القيم رحمه الله في (زاد المعاد) وهو خلاصة الروايات في هذا الباب .

ثم قال رحمه الله : ومن تأمل قول الصديقة ، وقد نزلت براءتها ، فقال لها أبوها : قومي إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : والله إلا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله - علم معرفتها وقوة إيمانها وتوليئتها النعمة لربها ، وإفراده بالحمد في ذلك المقام ، وتجديدها التوحيد ، وقوة جأشها وإدلالها ببراءة ساحتها ، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له . ولثقتها بحجة رسول الله ﷺ لها ، قالت ما قالت . إدلالا للحبيب على حبيبه ، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال ، فوضعت موضعه . والله ! ما كان أحبها إليه حين قالت : لا أحمد إلا الله فإنه هو الذي أنزل براءتي . والله ! ذلك الثبات والرزانة منها ، وهو أحب شيء إليها ، ولا صبر لها عنه . وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً . ثم صادفت الرضاء منه والإقبال ، فلم تبادر إلى القيام إليه ، والسرور برضاء وقربه ، مع شدة محبتها له . وهذا غاية الثبات والقوة . انتهى .

وطرق حديث الإفك متعددة عن أم المؤمنين عائشة وعن ابن الزبير وأم رومان وابن عباس وأبي هريرة وأبي اليسر . ورواه من التابعين عشرة كافي (فتح الباري) وذلك في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . ما بين مطول وموجز . ومن الثاني ما أخرجه الإمام (١) أحمد عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بآبئها وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حدث الحديث . قالت : وأي حديث ؟ قالت : كذا كذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم . فغرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها . فما أفاق وإلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقامت فدفرتها . قالت : فجاء النبي ﷺ قال : فما شأن هذه ؟ فقلت : يا رسول الله أخذتها حمى بنافض . قال : فاعله في حديث تحدث به ؟ قالت : فاستوت عائشة قاعدة ، فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني ،

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

وَأَنْتَ اعْتَذَرْتَ إِلَيْكُمْ لَا تَعْذِرُونِي . فَنُتْلَىٰ وَمِثْلُكُمْ كَمَثَلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ حِينَ قَالَ ^(١)
(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها . فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر . فدخل فقال : يا عائشة ! إن الله تعالى قد أنزل عذرك . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول ﷺ ؟ قالت : نعم .

قالت : وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر . خلف ألا يصله . فأنزل الله تعالى ^(٢) (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) إلى آخر الآية . فقال أبو بكر : بلى ، فوصله . تفرد به البخاري ^(٣) .

المطلب الثاني : قال في (الإكليل) في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ) نزلت في براءة عائشة مما قذفت به . فاستدل بها الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن قال العلماء : قذف عائشة كفر . لأن الله سبحانه نفسه عند ذكره . فقال ^(٤) (سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) كما سبّح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد . وفي قوله تعالى ^(٥) (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) تحريم ظن السوء ، وأنه لا يحكم بالظن . وأن من عرف بالصلاح لا يعدل به عنه لخبر مخبر . وأن القاذف مكذب شرعاً ، ما لم يأت بالشهداء . وفي قوله تعالى ^(٦) (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ) الآية ، الحث على ستر المؤمن وعدم هتكه . أخرج ابن أبي حاتم عن خالد ابن معدان ، قال : من حدث بما أبصرت عيناه وسمعت أذناه فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين ءامنوا ، وأخرج عن عطاء قال : من أشاع الفاحشة فعليه النكال وإن كان صادقاً .

(١) [١٢ / يوسف / ١٨] . (٢) [٢٤ / النور / ٢٢] .

(٣) الحديث لم يتفرد به البخاري . بل هو مما اتفق عليه الشيخان .

فقد أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٤ - سورة النور : حديث ١٢٦٦ ، عن عائشة وأخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٦ (طبعتنا) .

(٤) [٢٤ / النور / ١١] . (٥) [٢٤ / النور / ١٦] .

(٦) [٢٤ / النور / ١٢] . (٧) [٢٤ / النور / ١٩] .

وأخرج عن عبد الله بن أبي زكريا ، أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو الرجل يُتسكّم عنده في الرجل ، فيشتهى ذلك ولا ينكر عليه .

وفي قوله تعالى ^(١) (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) الآية ، النهي عن الحلف ألا يفعل خيراً . وأن من حلف عن يمين فرأى غيرها خيراً منها ، يستحب له الحنث . وفيه الأمر بالعفو والصفح .

واستدل من ذهب إلى أن قوله تعالى ^(٢) « إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، نزلت في أزواج النبي ﷺ خاصة ، يقتل فاذنهن ، إذا لم يذكر له توبة ، كما ذكرت في قاذف غيرهن في أول السورة انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بمائشة رضى الله عنها . والصحيح أن الآية عامة لكل المؤمنات . ويدخل فيهن أمهات المؤمنين دخولاً أولياً ، لا سيما من كانت سبب نزولها ، وهي عائشة .

قال ابن كثير : وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة ، على أن من سبها بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أحسهما أنهن كहीं . والله أعلم .

الثالث : قال الإمام ابن تيمية في قوله تعالى ^(٣) (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) الآية : أخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين . فلا تكون خبيثة لطيب . فإنه خلاف الحصر . وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون طيب لخبيثة . فإنه خلاف الحصر . إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين . فلا يبق خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة . وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين . فلا يبق طيبة لخبيث . فجاء الحصر من الجانبين ، موافقاً لقوله ^(٤) (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) الآية . ولهذا قال من قال من السلف (ما بغت امرأة نبي قط) فإن السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك . ولهذا لما صارت شبهة ، استشار النبي ﷺ

(١) [٢٤ / النور / ٢٢] . (٢) [٢٤ / النور / ٢٣] .

(٣) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٤) [٢٤ / النور / ٣] .

في طلاقها . إذ لا يصلح له أن تكون امرأته غير طيبة . وقد روى ^(١) أنه (لا يدخل الجنة ديوث) وهو الذي يقر السوء في أهله . ولهذا كانت الغيرة على الزنى مما يحبها الله وأمر بها . حتى قال النبي ﷺ ^(٢) : أتمجبون من غيرة سعد ؟ لأننا أغير منه ، والله أغير مني . من أجل ذلك حرم الفواحش مظهر منها وما بطن . ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجاً ، أن يلاعن ، لأجل ما أمر به من الغيرة ، ولأنها أفسدت فراشه ، وإن حبلت من الزنى ، فعليه اللعان ، لئلا يباحق به من ليس منه . ومضت السنة بالتفريق بينهما ، سواء حصلت الفرقة بالتلاعن أو بحاكم أو عند انقضاء لعان الزوج . لأن أحدهما ملعون أو خبيث . فاقتراهما يقتضي مقارنة الخبيث للطيب . وفي صحيح مسلم من ^(٣) حديث عمران في الناقة التي لعنتها المرأة ، أنه أمر فأخذ ما عليها وأرسلت . وقال : لا تصحبنا ناقة ملعونة . ولما اجتاز بديار ثمود قال ^(٤) : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين . لئلا يصيبكم ما أصابهم . فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب . وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي . لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ويخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقلاً لهم شأناً ما هم فيه بحسب الإمكان . كما في قوله ^(٥) : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الخ . وقال تعالى ^(٦) (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ) الآية . وكذلك ما ذكره عن يوسف وعمله لصاحب مصر لقوم كفار . وذلك أن مقارنة الكفار إنما يفعلها المؤمن في موضعين : أحدهما . أن

-
- (١) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٦٩ - باب المغان بما أعطى .
 (٢) أخرجه البخاري تعليقا في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٠٧ - باب الغيرة .
 (٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٨٠ (طبعنا)
 (٤) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٣ - باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب ، حديث ٢٨٤ ، عن ابن عمر . (٥) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان .
 حديث ٧٨ عن أبي سعيد (طبعنا) . (٧) [٦٦ / التحريم / ١١] .

يكون مكرهاً عليها . والثاني أن يكون في ذلك مصلحة دينية ، راجحة على مفسدة المقارنة . أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه . فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة . وفي الحقيقة : المكروه هو من يدفع الفساد باحتمال أدناهما . وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى ^(١) (إِيَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبَيْعِ) الآية وقال تعالى ^(٣) (إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) إلى قوله (غَفُوراً) وقال ^(٤) (وَمَا أَكْرَمُ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ) الآية . فقد دلت الآية على النهي عن مناكحة الزاني ، والمناكحة نوع خاص من المصاحبه . والمناكحة في أصل اللغة الجامعة . فقلوبهما تجتمع إذا عقد النكاح بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف ما لم يكن قبل ذلك . حتى يثبت ذلك حرمة المصاهرة في غير الريبة ، بمجرد ذلك في التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك . وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين في مكان واحد ، وهو المعاشرة المقررة للصداق ، كما أفنى به الخلفاء . وآخر ذلك اجتماع المباشرة . وهذا ، وإن اجتمع بدون عقد نكاح ، فهو اجتماع ضعيف ، بل اجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدن بالسفاح ودل قوله تعالى (الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ) على ذلك من جهة المعنى ومن جهة اللفظ . ودل أيضاً على النهي عن مقارنة الفجار ومزاجتهم . كما دل على هذا غير ذلك من النصوص . مثل قوله تعالى ^(٥) : (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) أي نظرائهم وأشباههم . والزواج أعم من النكاح المعروف . قال تعالى ^(٦) (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا) وقال ^(٧) (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيمٍ) وقال ^(٨) (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) وقال ^(٩) (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وقال ^(١٠) (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٣] .

(٣) [٤ / النساء / ٩٧] . (٤) [٤ / النساء / ٧٥] . (٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .

(٦) [٤٢ / الشورى / ٥٠] . (٧) [٢٢ / الحج / ٥] . (٨) [٨١ / التكوين / ٧] .

(٩) [٥١ / الذاريات / ٤٩] . (١٠) [٧٨ / النبأ / ٨] .

وقال^(١) (إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ) وإن كان في الآية نصّ في الزوجة التي هي صاحبة وفي الولد منها . فعني ذلك : في كل مشابه ومقارن في كل نوع وتابع^(٢) (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) الآية^(٣) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) الآيتين . فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع طاعة الله على مراد الله . ويدل عليه الحديث^(٤) الذي في السنن (لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي) وفيها^(٥) (المرء على دين خليله ، فليمنظر أحدكم من يخال) وفي الصحيحين^(٦) من حديث أبي هريرة (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد) إلى قوله (ثم إن زنت فليبيعها ولو بصفير) والصفير الجبل وهذا أمر ببيعها ولو بأدنى ما يقابله . قال أحد : إن لم يبيعها كان تاركا لأمر النبي ﷺ . والإماء اللاتي يفعلن هذا ، يكون عامتهن للخدمة . فكيف بأمة التمتع ؟ وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه ، فكيف بالزوجة الزانية ؟ والعبد نظير الأمة ، بدليل قوله^(٧) (لمن الله من آوى محدثا) فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثا .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٤] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١١] . (٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

(٤) أخرجه الترمذی في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٦ - باب ماجاء في صحبة المؤمن ، عن أبي سعيد الخدري .

(٥) أخرجه الترمذی في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٤٥ - باب حدثنا محمد بن بشار ، عن أبي هريرة .

(٦) أخرجه البخاری في : ٤٩ - كتاب العقق ، ١٧ - باب كراهية التناول على الرقيق ، حديث رقم ١٠٨٨ و ١٠٨٩ ، عن أبي هريرة وزيد بن خالد .

وأخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٣ و ٣٢ (طبعتنا) .

(٧) أخرجه البخاری في : ٢٩ - كتاب فضائل المدينة ، ١ - باب حرم المدينة ، حديث رقم ٩٥ ، عن علي بن أبي طالب .

سواء كان إحداثة بالزنى أو السرقة، أو غير ذلك . وسواء كان الإيواء بملك اليمين، أو نكاح، أو غير ذلك . لأن أقل ما فيه ترك إنكار المنكر . والمؤمن يحتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه ، بالنكاح وغيره . قال تعالى^(١) (إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) وكذلك المرأة التي زنى بها الرجل ، فإنه لا يتزوجها إلا بعد التوبة في الأصح . كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار . لكن إذا أراد أن يمتحنها ، هل هي صحيحة التوبة ؟ فقال ابن عمر : يراودها . فإن أجابته لم تصح توبتها . وإن لم تجبه فقد تاب . ونص عليه أحمد . وقيل : هذا فيه طلب الفاحشة . وقد تنقض التوبة . وقد تأمره نفسه بتحقيق ذلك . ويزين لها الشيطان ، لاسيما إن كان يحبها وتحبه ، وقد ذاقته وذاقها . ومن قال بالأول قال : الأمر الذي يقصده امتحانها ، لا يكون أمراً بما نهى الله عنه . ويمكنه أن لا يطلب الفاحشة بل يعرض . والتعرض للحاجة جائز . بل واجب في مواضع كثيرة . وأما نقضها ، فإذا جاز أن تنقض التوبة معه ، جاز أن تنقضها مع غيره والمقصود أن تكون ممتنعة ممن يراودها . وأما تزين الشيطان له الفعل ، فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه عنة . فإذا أراد المؤمن أن يصاحب أحدا ، وقد ذكر عنه الفجور ، وقيل إنه تاب ، أو كان ذلك مقولاً صدقاً أو كذباً ، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره وفجوره ، وكذلك إذا أراد أن يوتى أحدا ولاية ، امتحنه . كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى ، لما أعجبه سمته . فقال له : قد علمت مكانى عند أمير المؤمنين . فكم تعطينى إذا أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالا عظيما . فعلم أنه ليس ممن يصلح للولاية . وكذلك في المعاملات . وكذلك الصبيان والمالئك الذين عرفوا ، أو قيل عنهم الفجور ، وأراد الرجل أن يشتريه فإنه يمتحنه . ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة بالجرح والتعديل ، وتارة بالاختبار والامتحان .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله وكما عظم الله الفاحشة ، عظم ذكرها بالباطل - وهو القذف . فقال^(٢) (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ)

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ٤] .

تَمَٰنِينَ جَلْدَةً) الآية. ثم ذكر رمى الرجل امرأته وما أمر فيه من التلاعن. ثم ذكر قصة أهل الإفك وبين ما في ذلك من الخير للمقذوف، وما فيه من الإثم للقاذف، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير، ويقولون: هذا إفك مبين. لأن دليله كذب ظاهر. ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال (١) (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ. فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ) ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لعدبهم بما تكلموا به. وقوله (٢) (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) فهذا بيان لسبب العذاب. وهو تلقى الباطل باللسنة، والقول بالأفواه. وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه (٣) (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) فالأول تخصيص على الظن الحسن، وهذا نهى لهم عن التكلم بالقذف. ففي الأول قوله (٤) (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) وقوله ﷺ (٥) (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا الظن ولا السخرة) وقوله (٦) (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به. وفي الصحيح قوله (٧) لمائشة (ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً)؟ فهذا يقتضى جواز بعض الظن، كما احتج البخارى بذلك. لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الرادع له عن فعل الفاحشة، يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهى عن تلقى مثل هذا باللسان، ونهى عن قول الإنسان ما ليس له به علم. لقوله تعالى (٨) (وَلَا تَقْفُ

(١) [٢٤ / النور / ١٣] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

(٣) [٢٤ / النور / ١٦] . (٤) [٤٩ / الحجرات / ١٢] .

(٥) أخرجه البخارى تعليقا في : ٥٥ - كتاب الوصايا ، ٨ - باب قول الله تعالى: من

بعد وصية توصون بها أو دين . (٦) [٢٤ / النور / ١٢] .

(٧) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٥٩ - باب ما يكون من الظن ،

حديث رقم ٢٣٣٤ ، عن عائشة . (٨) [١٧ / الإمراء / ٣٦] .

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) والله جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ، ما لم يجعله في شيء من المعاصي . لأنه جعل فيه الرجم وقد رجم قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط . وجعل العقوبة على القاذف بها ثمانين جلدة ، والرمي بغيرها فيه الاجتهاد . ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين ، كما قال عليّ : لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري . وكما قال عبد الرحمن بن عوف : إذا شرب هذى ، وإذا هذى افتري . وحد الشرب ثمانون ، وحد المفتري ثمانون . وقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وهذا ذم لمن يحب ذلك . وذلك يكون بالقلب فقط ، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح . وهو ذم لمن يتكلم بها أو يخبر بها . محبة لوقوعها في المؤمنين ، إما حسدا أو بغضا ، أو محبة للفاحشة . فكل من أحب فعلها ، ذكرها . وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغب فيها . وكذلك ذكرها غيبة محرم ، سواء كان ينظم أو نثر . وكذلك التشبه بمن يفعلها ، منهى عنه مثل الأمر بها . فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالإخبار تارة . فهذان الأمران للفجرة الزناة واللوطية ؛ مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين . أولئك يعتبرون من الغيرة بهم ، وهؤلاء من الاعتذار يعتبرون . فإن أهل الكفر والفسوق والمصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيه قدوة . ومن ذلك قوله تعالى ^(٢) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) الآية . قيل : أراد الغناء . وقيل : أراد قصص ملوك الكفار . وبالجملة كل ما رغب النفوس في الطاعة ونهاها عن المعصية ، فهو من الطاعة . وما رغب في المعصية ونهى عن الطاعة ، فهو من المعصية . فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة ، مثل النهي عنها وعندهم ، والذم لها ولهم وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك في وجوههم ومنعيتهم - فهذا حسن يجب تارة ويستحب أخرى . كما قص الله قصص المؤمنين والفجار ليعتبروا بالأميرين . وقد ذكر الله

(١) [٢٤ / النور / ١٩] . (٢) [٣١ / لقمان / ٦] .

عن أنبيائه وعباده الصالحين، من ذكر الفاحشة وعلاقتها على وجه الذم ما فيه عبرة. فقال تعالى^(١) (وَلَوْ طَآئِفٌ مِّنَ الْقَوْمِ لَتَوَلَّوْا الْفَاحِشَةَ) الخ في مواضع ، وهذا فيه من التوبيخ ما فيه ، وليس من باب القذف واللمز . ثم توعده بإخراجه من القرية . وهذا حال أهل الفجور ، إذا كان بينهم من ينههم طلبوا إخراجه . وقد عاقب الله على الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى . حيث أمر بنى الزانى والخمث . فضت السنة بنفى هذا وهذا . وهو سبحانه وتعالى أخرج المقيمين من بينهم عند نزول العذاب . وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف في قوله^(٢) (وَرَأَوْنَاهُ أَلْبَسَ فِي بَيْتِنَا عَنْ نَفْسِهِ) إلى قوله^(٣) (فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وما ذكر بعده من قول يوسف^(٤) (مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) الآية ، وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب النفور عن المعصية والتمسك بالتقوى . وكذلك ما بينه في آخرها بقوله تعالى^(٥) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) الآية . ومع هذا ، فمن الناس من يحب سماعها لما فيه من ذكر العشق وما يتعلق به ، لمحبة لذلك ولرغبته في الفاحشة . حتى إن منهم من يُسميها النساء لمحبتهم للسوء ، ولا يختارون أن يسمعوها ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك . حتى قال بعض السلف : كل ما حصلت في سورة يوسف أنفقته في سورة النور . وقد قال تعالى^(٦) (وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) وقال^(٧) (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَبَشْرًا مِّنْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا) الآيات . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة ، ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة ، فهو مذموم . ومن هذا ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في المعصية وصدّ عن سبيل الله ، ومنه سماع كلام أهل البدع ، والنظر

(١) [٢٧ / النمل / ٥٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] . (٣) [١٢ / يوسف / ٣٤] .
(٤) [١٢ / يوسف / ٥٠] . (٥) [١٢ / يوسف / ١١١] . (٦) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .
(٧) [٩ / التوبة / ١٢٤] .

في كتبهم لمن يضره ذلك . فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشبهوات . والله تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله ^(١) (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) وقوله ^(٢) (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) وقوله ^(٣) (هَلْ أَتَبَّسُّكُمْ عَلَى مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ) وما بعدها ، وقوله ^(٤) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) الآية ، وقوله ^(٥) (مُتَسَكِّرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) وقوله ^(٦) (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) وقوله ^(٧) (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ) الآية ، ومثل هذا كثير في القرآن . فأهل المعاصي كثير في العالم ، بل هم أكثر ، كما قال تعالى ^(٨) (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية . وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشبهوات قولاً وعملاً ما يعلمه إلا الله . وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم ، ويزينونها لمن يطيعهم . فهم أعداء الرسل وأندادهم . فالرسل يدعون إلى الطاعة بالرغبة والرهبة . ويجاهدونهم عليها . وينهون عن المعاصي ويحذرون منها بالرغبة والرهبة . ويجاهدون من يفعلها . قال تعالى ^(٩) (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) الآية ، ثم قال ^(١٠) (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ لِّبَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية ، وقوله تعالى ^(١١) (الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) ومثل هذا في القرآن كثير والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والأمر بالشئ مسبوق بمعرفته . فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر بالمعروف . والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته . فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه . وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر . فإن حب الشئ وفعله ، وبغض ذلك وتركه

- (١) [٦ / الأنعام / ١١٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤] . (٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١] .
 (٤) [٣١ / لقمان / ٦] . (٥) [٢٣ / المؤمنون / ٦٧] . (٦) [٧ / الأعراف / ١٤٦] .
 (٧) [٦ / الأنعام / ١١٦] . (٨) [٩ / التوبة / ٦٧] . (٩) [٩ / التوبة / ٧١] .
 (١٠) [٤ / النساء / ٧٦] .

لا يكون إلا بعد العلم بهما ، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر . فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حبله ولا بنفض ، ولا فعل ولا ترك . لكن فعل الشيء والأمر به يقتضى أن يعلمه علماً مفصلاً يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلاً . ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها . فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة ، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها . بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها . وكل منهما معصية . فإن الجهل بالتساوى كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية . وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فتدكت في معرفته في بعض المواضع مجملًا . فإن الإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره . وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك ، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها ، وإلى دفع أهوائهم . وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك . ولا يكون ذلك إلا بالصبر ، كما قال تعالى ^(١) : (وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ) وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها . وبيان ما فيها من الفساد . فإن الإنكار بالقلب واللسان ، قبل الإنكار باليد . وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والمصاة ، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان على وجه المدح والحب وبيان منفعتهم والترغيب فيه ، نحو قوله تعالى ^(٢) : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) الآيات . وهذا كثير جدًا . فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم . إما كافر وإما فاجر . وليس منهم من هو بمكسه . لكن لا يثاب على مجرد عدم ذلك . وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبنفضه لله . وهذا العلم والقصد والبنفض هو من الإيمان الذي يثاب عليه ، وهو أدنى الإيمان ، كما قال ﷺ ^(٣) (من رأى منك منكم منكراً) إلى قوله

(١) [١٠٣ / العصر / ١-٣] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٨ و٨٩] .

(٣) أخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٧٨ ، عن أبي سعيد الخدري (طبعتنا) .

(وذلك أضعف الإيمان) وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكرهته . وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه . ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد . والنبي ﷺ قال : (وذلك أضعف الإيمان) فيمن رأى المنكر . فأما إذا رآه ولم يعلم أنه منكر ، ولم يكرهه ، لم يكن هذا الإيمان موجوداً في القلب في حال وجوده ورؤيته ، بحيث يجب بغضه وكرهته . والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا . وإذا لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ، ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره . وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات ، قد يعرض عنها كثير من الناس ، إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين . وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهو لاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات ، فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران : بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيمهم وجهادهم ، كما يجب المعروف وأهله ، ولا يجب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال . وقد قال تعالى ^(١) : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ) وقال تعالى ^(٢) (قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ) الآية ، قال ^(٣) (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) الآية ، وكثير من الناس ، بل أكثرهم ، كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات ، ولا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات . فربما مالوا إليها تارة ، وعنهما أخرى . فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمانة .

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] .

ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات ، وصارت نفسه مطمئنة ، تاركا للمفكرات والمكروهات ، لاتبج الجهاد ومصاهرة العدو على ذلك ، واحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال .
 فإن هذا شيء آخر داخل في قوله ^(١) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) إلى قوله ^(٢) (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا) والشفاعة : الإعانة . إذ المعين قد صار شفيعاً للمعان . فكل من أعان على برٍّ أو تقوى كان له نصيب منه . ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كِفل منه . وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وأيديهم ، من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان . ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين . كما قال تعالى قبل ذلك ^(٣) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ) إلى قوله ^(٤) (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) ومن ههنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره . والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر . فإن المؤمنين يسمعون إقبال أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كروية الصحابة النبي ﷺ وسمعتهم لما بلغهم عن الله . والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى ^(٥) (وَإِنْ يَسْكَدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) الآية ، وقال ^(٦) (فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وقال ^(٧) (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) وقال ^(٨) (فَمَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُّوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) وقال تعالى ^(٩) في حق المؤمنين (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرِثُوا

- (١) [٤ / النساء / ٧٧] . (٢) [٤ / النساء / ٨٥] . (٣) [٤ / النساء / ٧١] .
 (٤) [٤ / النساء / ٧٦] . (٥) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٦) [٤٧ / محمد / ٢٠] .
 (٧) [١١ / هود / ٢٠] . (٨) [٥ / المائدة / ٧١] . (٩) [٢٥ / الفرقان / ٧٣] .

عَلَيْهَا صُغًى وَعُغَيَّا) وقال في حق الكفار^(١) (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرَةِ مُعْرِضِينَ) والآيات في هذا كثيرة جداً . وكذلك النظر إلى زينة الدنيا فتنة . قال تعالى^(٢) « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْتَنَا بِهِ زُجَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » وفي آخر الحجر . وقوله^(٣) (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) الآية ، وقال^(٤) (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) الآية ، وقال^(٥) (وَلَا تَمُدُّ عَيْنَكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية ، وقال^(٦) (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، وقال^(٧) (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية وقال^(٨) (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الآية . وكذلك قال الشيطان^(٩) (إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ) وقال^(١٠) (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَمَانِ) الآيات . وقال^(١١) (إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا) الآيات . فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها ، منهي عنه . والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه الاعتبار مأمور به . وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لدفع شر أوائلك ، فأمور به . وكذلك رؤية الاعتبار شرعا في الجملة . فالعين الواحدة ينظر إليها تارة نظرا مأمورا به . إما للاعتبار وإما لبغض ذلك . والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه . وكذلك الموالاة والمعاداة . وقد يحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة . وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله فيهم^(١٢) (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوْدُنُ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي) فإنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ أن يتجهز لغزو الروم فقال: إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم . فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول . وأما

- (١) [٧٤ / المدثر / ٤٩] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٣) [٩ / التوبة / ٥٥] .
 (٤) [٢٤ / النور / ٣٠] . (٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] . (٦) [٨٨ / الغاشية / ١٧] .
 (٧) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٨) [٣٤ / سبأ / ٩] . (٩) [٨ / الأنفال / ٤٨] .
 (١٠) [٢٦ / الشعراء / ٦١] . (١١) [٨ / الأنفال / ٤٣] . (١٢) [٩ / التوبة / ٤٩] .

ما يكون من الفعل بالجوارح ، فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة في الذين ءامنوا ، داخل في هذا . بل يكون عذابه أشد . فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد المحبة . وهذه قد لا يقتدر بها قول ولا فعل . فكيف إذا اقترن ؟ بل على الإنسان أن يبعض ما أبغضه الله تعالى من فعل الفاحشة والقذف وإشاعتها في الذين آمنوا . ومن رضى عمل قوم حشر معهم . كما حشرت امرأة لوط معهم . ولم تكن تفعل فاحشة اللواط . فإنه لا يقع من المرأة . ولكن لما رضيت فعلهم ، عممها معهم العذاب . فمن هذا الباب قيل : من أعان على الفاحشة وإشاعتها ، مثل القواد . لما يحصل له من رئاسة أو سوداؤ وسحت يأكله . وكذلك أهل الصناعات التي تنفق ، مثل المغنين وشرابة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . فإنها إذا شاعت تمكنوا من أغراضهم من الرئاسة والمال وفعل الفاحشة ، وتمكنوا من دفع من ينكرها . بخلاف ما إذا كانت قليلة . ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته ، منهى عنه محرّم . كما قال ^(١) تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أى ما فيها من ذكر الله وطاعته وامتنال أمره أكبر من ذلك . وقال في الخمر والميسر ^(٢) (وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ) أى يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عنه الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر ، كما هو الواقع . فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالاً كان أو حراماً ، فإن الله سبحانه لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا يدعو إلى الحرام بعينه من الجماع . والسكر يزيل العقل الذي يميز به بين الحلال والحرام ، والعقل الصحيح ينهى عن مواقة الحرام . ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقة الفواحش ، ما لا يكثر من غيرها . حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه . وقد يستغنى بالحلال إذا أمكنه . ويدعو شرب الخمر

(١) [٢٩ / المنكوب / ٤٥] . (٢) [٥ / المائدة / ٩١] .

إلى أكل أموال الناس بالسرقة والمحاربة وغير ذلك. لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكل وغير ذلك من فواحش وغناء . وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال، حتى يتكلم شاربه بما في باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار، سقوهم الخمر. وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به. وأيضاً فالخمر تصدّ الإنسان عن علمه وتديره. فجميع الأمور التي تصد عنها وتوقعها من المفسد داخل في قوله تعالى ^(١) (وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ) وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان ولهذا قال النبي ﷺ ^(٢) (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : (إصلاح ذات البين . فإن فساد ذات البين هي الحالقة . لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) وقد ذكرنا في غير هذا أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب يوقع العداوة والبغضاء . وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من المعصية . والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيها هو أعظم منها ولا يرضى إلا بغاية ما قدر على ذلك . وأيضاً، فالعداوة والبغضاء شر محض ، لا يحبه ما عاقل . بخلاف المعاصي فإن فيها لذة . والنفوس تريدها ، والشيطان يدعو إليها ، ليوقعها في شرٍ لا تهواه . والله سبحانه قد بين ما يريد الشيطان بالخمر والميسر ، ولم يذكر ما يريد الإنسان . ثم قال ^(٣) في سورة النور (لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وكذلك في البقرة ^(٤) ، نهى عن اتباع خطواته . وهو اتباع أمره بالافتقار والاتباع . وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم . وقال ^(٥) فيها (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فذكر أن الشيطان يأمر بذلك وبعد هذا ^(٥) (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) وقال ^(٦) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) [٥ / المائدة / ٩١] . (٢) أخرجه الترمذی فی : ٣٥ - كتاب القيامة ،

٥٦ - باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البنداري ، عن أبي الدرداء .

(٣) [٢٤ / النور / ٢١] . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٨] .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٦٨] . (٦) [١٦ / النحل / ٩٠] .

وَالْأَحْسَانِ وَإِيتَاءَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وقال عن نبيه^(١) (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية. وقال عن أمته^(٢) (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة. فتارة يخص اسم المنكر بالنهي ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغى . وكذلك المعروف ، تارة يخصه بالأمر ، وتارة يقرن به غيره . كقوله^(٣) (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . وذلك أن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الأفراد والتركيب . كلفظ (الفقير والمسكين) . إذا عرف هذا فاسم المنكر يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه . واسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه . وإذا قرن المنكر بالفحشاء ، فالفحشاء مبناها على المحبة . والمنكر هو الذى تنكره القلوب . فقد يظن أن ما فى الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فيه . فإن الفاحشة وإن كانت مما تنكره القلوب فإنها تشبهها النفوس . وكذلك البغى ، قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس . ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء . ومنشؤه من قوة الغضب . ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها . فالفواحش والبغى مقرونان بالمنكر . وأما الإثمراك والقول على الله بلا علم ، فإنه منكر محض . ليس فى النفوس ميل إليهما . بل إنما يكونان عن عناد وظلم . فهما منكر محض بالفطرة^(٤) (وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى المتببع . فإن من أتى ذلك ، فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه عابده . وإن كان الآتى هو الأمر ، فالأمر بالفعل أبلغ من فعله . فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه .

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان. والغنى هو مؤذنه الذى يدعو إلى طاعته. فإن الغناء رقية الزنى. وكذلك من اتباع خطوات الشيطان، القول على الله بلا علم. كحال أهل

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .

(٣) [٤ / النساء / ١١٤] . (٤) [٢٤ / النور / ٢١] .

البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمرتد وإحضارهم في سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك ، مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين . ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف ، أن يمنع ما ينبغي فعله من الإحسان إلى القرابة والمساكين وأهل التوبة . وأمره بالعفو . فإنه كما يجب أن يُغفر له فليغفر . ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وإيتاء المساكين واجب ، ومعمونة المهاجرين واجبة ، فلا يجوز ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه : كما لا يمنع ميراثه وحقه من الصدقات والنفقة ، بمجرد ذنب من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب .

وفي الآية دليل على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوى الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب .

فإنه قد ثبت في الصحيح^(١) عن عائشة في قصة الإفك ، أن أبا بكر الصديق حلف ألا ينفق على مسطح بن أثانة . وكان أحد الخائضين في الإفك في شأن عائشة . وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر . وقد جعله الله من ذوى القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم . والنهى يقتضى التحريم . فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل ، كان الفعل واجباً ، لأن الحلف على ترك الجائز جائز . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

الرابع - قال الزمخشري : لو فليت القرآن كله وقتشت عما أوعده به العصاة ، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ، رضوان الله عليها . ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما رُكب من ذلك واستفضاع ما أُقْدِمَ عليه - ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة وأساليب مفتنة . كل واحد منها

(١) أخرجه البخاري في : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ١٥ - باب تعديل النساء بعضهم

بعضاً ، حديث ١٢٦٦ ، من حديث الإفك الطويل .

كان في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث يعني قوله تعالى (١) (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ) إلى قوله (هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) لكفي بها . حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا . وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة . وبأن السنهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا . وأنه يوفيههم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك ، أن الله هو الحق المبين . فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجل وأكد وكرر ، بما لم يقع في وعيد المشركين ، عبدة الأوثان ، إلا ما هو دونه في الفطاعة . وما ذاك إلا لأمر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة . وكان يُسأل عن تفسير القرآن . حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته ، إلا من خاض في أمر عائشة . وهذه منه مبالغة وتمظيم لأمر الإفك . ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد (٢) (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) وبرأ موسى (٣) من قول اليهود فيه ، بالحجر الذي ذهب بثوبه . وبرأ مريم (٤) بإطلاق ولدها حين نادى في حجرها (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات . فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين .

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فَلْيَمْلَقْ ذلك من آيات الإفك . وليتأمل كيف غضب الله له في حرمة ، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابيه .



(١) [٢٤ / النور / ٢٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٦] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥ - كتاب الفسل ، ٢٠ - باب من اغتسل عريانا وحده في

الخلوة ، حديث رقم ٢٠١ ، عن أبي هريرة . (٤) [١٩ / مريم / ٣٠] .

(فإن قلت) إن كانت عائشة هي المرادة ، فكيف قيل : المحصنات ؟ (قلت) : فيه وجهان : أحدهما - أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ وأن يخصن بأن من قذفهن ، فهذا الوعيد لاحق به . وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ ، كانت المرادة أولاً والثاني - أنها أم المؤمنين ، فجمعت . إرادة لها ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان انتهى .

قال الناصر : والأظهر أن المراد عموم المحصنات . والمقصود بذكرهن على العموم ، وعيد من وقع في عائشة ، على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات ، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر ﷺ ؟ على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه . وهذا معنى قول زليخا^(١) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فعمت وأرادت يوسف ، تهويلاً عليه وإرجافاً . والمعصوم من عصمه الله تعالى . انتهى .

الخامس : قال الإمام ابن تيمية في (منهاج السنة) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن عائشة رضي الله عنها أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام واحتجوا بما في الصحيحين^(٢) عن أبي موسى وعن أنس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . والثريد هو أفضل الأطعمة ، لأنه خبز ولحم . كما قال الشاعر^(٣) :
إذا ما الخبزُ تأدّمهُ بلحْمٌ فذاك أمانة الله الثريدُ

وذلك أن البر أفضل الأقوات . والالحم أفضل الإدام . كما في الحديث الذي رواه

(١) [١٢ / يوسف / ٢٥] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٣٠ - باب فضل عائشة رضي الله عنها ، حديث ١٦٠٦ عن أبي موسى الأشعري ، حديث ١٧٦٨ عن أنس بن مالك . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٧٠ ، عن أبي موسى . وحديث ٧٩ ، عن أنس بن مالك (طبعنا) .

(٣) من أبيات الكتاب . وقد قال عنه سيبويه : (ويقال وضعه النحويون) ج اص ٤٣٤

ابن قتيبة وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال (سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم) فإذا كان اللحم سيد الإدام ، والبر سيد الأقوات ، ومجموعهما الثريد ، كان الثريد أفضل الطعام .
وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال ^(١) (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) وفي الصحيح ^(٢) عن عمرو بن العاص قال : قلت : يا رسول الله ! أى النساء أحب إليك ؟ قال (عائشة) قلت : ومن الرجال ؟ قال (أبوها) قلت : ثم من ؟ قال : (عمر) وسمى رجلاً . وهؤلاء يقولون : قوله عليه الصلاة والسلام لخديجة : ما أبدلني الله خيراً منها : إن صح معناه ما أبدلني خيراً لى منها ، فإن خديجة تفعت في أول الإسلام نفعا لم يقم غيرها فيه مقامها . فكانت خيراً له من هذا الوجه ، لكونها تفعت وقت الحاجة ، وعائشة محبته في آخر النبوة وكال الدين . فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول النبوة . فكانت أفضل لهذه الزيادة . فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها ، وبلغت من العلم والسن ما لم يبلغه غيرها فخديجة كان خيرها مقصوراً على نفس النبي ﷺ لم تبلغ عنه شيئاً ، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة . ولأن الدين لم يكن قد كمل حتى تعلمه ، ويحصل لها من كماله ما حصل لمن علم وآمن به بعد كماله ، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد ، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه في أعمال متنوعة . فخديجة رضى الله تعالى عنها خير له من هذا الوجه . لكن أنواع البر لم تحصر في ذلك . ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيماناً ، وأكثر جهاداً بنفسه وماله ، كعزة وعلى وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم ، هم أفضل ممن كان يخدم النبي ﷺ وينفقه في نفسه أكثر منهم . كأبي رافع وأنس ابن مالك وغيرهما . وفي الجملة ، الكلام في تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه . لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها . وإن نساء ﷺ أمهات المؤمنين

(١) أخرجه البخارى في ٧٠ - كتاب الأطعمة ، ٢٥ - باب الثريد ، حديث ١٦٠٦ ، عن أبي موسى الأشعري . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٥ - باب قول النبي ﷺ (لو كنت متخذاً خليلاً) حديث رقم ١٧٢٢ .

اللواتى مات عنهن ، كانت عائشة أحبهن إليه ، وأعظمهن حرمة عند المسلمين . وقد ثبت في الصحيح^(١) أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، لما يملكون من محبته إياها . حتى أن نساء غرن من ذلك ، وأرسلن إليه^(٢) فاطمة رضى الله عنها تقول له : نساؤك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة : فقال لفاطمة : أى بنية أمتحبن ما أحب ؟ قالت : بلى . قال : فأجبي هذه ، الحديث في الصحيحين^(٣) وفي الصحيحين أيضاً أن النبي ﷺ قال : يا عائشة ! هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت : وعليه السلام ورحمة الله . ترى ما لازرى . ووهبت^(٤) سودة بنت زمعة يومها لعائشة رضى الله عنهما ، بإذنه ﷺ . وكان في مرضه^(٥) الذى مات فيه يقول : أين أنا اليوم ؟ استبطاء ليوم عائشة . ثم^(٦) استأذن نساء أن يعرض في بيت عائشة رضى الله عنها ، فرض

(١) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٣٠ - باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٨٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٥١ - كتاب الهبة ٨ باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، حديث رقم ٨٣ (طبعنا)

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٣٠ - باب فضل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٥١٩ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٩٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٦٨ من الجزء السادس ، عن عائشة .

(٥) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٣٠ - باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

(٦) أخرجه البخارى في : ٥٧ - كتاب فرض المجلس ، ٤ باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ حديث ١٥٢ ، عن عائشة .

فيه . وفي ^(١) بيتها توفي بين سحرها ونحرها وفي حجرها . وكانت ^(٢) رضى الله عنها مباركة على أمته . حتى قال أسيد بن حضير ، لما أنزل الله آية التيمم بسببها : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . ما نزل بك أمر قط تكرهينه إلا جعل الله فيه للمسلمين بركة . وقد كانت ^(٣) نزلت آية براءتها قبل ذلك ، لما رماها أهل الإفك . فبرأها الله من فوق سبع سموات ، وجعلها من الصيئات . وبالله التوفيق . انتهى .

وأغرب الإمام ابن حزم ، فذهب إلى أن أفضل الناس بعد الأنبياء ، نساؤه عليه السلام . ومعلوم أن عائشة فضلاهن . وقد أسهب في ذلك في كتابه (الملل) فارجع إليه .

السادس - قال القاشاني رحمه الله تعالى : إنما عظم تعالى أمر الإفك وغلظ في الوعيد عليه ، بما لم يغلظ في غيره من المعاصي ، وبالغ في العقاب عليه بما لم يبلغ به في باب الزنى وقتل النفس المحرمة ، لأن عظم الرذيلة وكبر المعصية ، إنما يكون على حسب القوة التي هي مصدرها . وتتفاوت حال الرذائل في حجب صاحبها عن الحضرة الإلهية والأنوار القدسية ، وتوريطه في المهالك الهولانية . والمهاوى الظلمانية ، على حسب تفاوت مبادئها . فكلما كانت القوة التي هي مصدرها ومبدؤها أشرف . كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ . وبالعكس . لأن الرذيلة ما قابل الفضيلة . فلما كانت الفضيلة أشرف ، كان ما يقابلها من الرذيلة أخس . والإفك رذيلة القوة الغضبية .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٧ - كتاب فرض الخمس ، ٤ - باب ما جاء في بيوت أزواج النبي عليه السلام ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٤٤ (طبعمتنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى : فلم تجدوا ماء

فتميموا صعيدا طيبا ، حديث ٢٣٠ ، عن عائشة .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٤ - حديث الإفك ، حديث رقم

١٢٦٦ ، عن عائشة .

فبحسب شرف الأولى على الباقيتين ، تزداد رداءة رذيلتها . وذلك أن الإنسان إنما يكون بالأولى إنساناً ، وترقيه إلى العالم العلوى ، وتوجهه إلى الجنب الإلهى وتحصيله للمعارف والكمالات ، واكتسابه للخيرات والسعادات - إنما يكون بها . فإذا فسدت بغلبة الشيطنة عليها ، واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة ، حصلت الشقاوة العظمى ، وحققت العقوبة بالنار . وهو الرين والحجاب الكلى .

ألا ترى أن الشيطنة المغوية للآدمى أبعد عن الحضرة الآلهية ، من السبعية والبهيمية ؟ وأبعد بما لا يقدر قدره . فالإنسان برسوخ رذيلته النطفية يصير شيطاناً ، ورسوخ الرذيلتين الآخرين ، يصير حيواناً كالبهيمة أو السبع . وكل حيوان أرجى صلاحاً ، وأقرب فلاحاً من الشيطان . ولهذا قال تعالى ^(١) (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَتَزَلَّىٰ الشَّيَاطِينُ * تَتَزَلَّىٰ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) ونهى هاهنا عن اتباع خطوات الشيطان . فإن ارتكاب مثل هذه الفواحش لا يكون إلا بمتابعته ومطاوعته . وصاحبه يكون من جنوده وأتباعه . فيكون أخس منه وأذل ، محروماً من فضل الله الذى هو نور هدايته ، محجوباً من رحمته التى هى إفاضة كمال وسعادة ، ملعوناً فى الدنيا والآخرة ، ممقوتاً من الله والملائكة . تشهد عليه جوارحه بتبدل صورها وتشوه منظرها . خبيث الذات والنفس . متورطاً فى الرجس . فإن مثل هذه الخبائث لا تصدر إلا من الخبيثين . كما قال تعالى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) وأما الطيبون المنزهون عن الرذائل ، فإنما تصدر عنهم الطيبات والفضائل . انتهى .

السابع - فى سر قرن الزنى بالشرك فى قوله تعالى ^(٢) (الزَّانِي لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) وتحقيق القول فى الآية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله فى (إغاثة اللهيان) : نجاسة الزنى واللواط أغلظ من غيرها من النجاسات . من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً . ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة ، أكثرهم شركاً . فكلمة كان الشرك فى العبد أغلظ ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ و ٢٢٢] . (٢) [٢٤ / النور / ٣] .

كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى ^(١) عن يوسف الصديق عليه السلام (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها . بل هو من أعلى أنواع التعبد . ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه ، صارت تيمماً . والتتيمم التعبد . فيصير العاشق عبداً لمعشوقه . وكثيراً ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه والسعى في مرضاته وإيثار محابه ، على حب الله وذكره والسعى في مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالحكمة ، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور . كما هو مشاهد . فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل . يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه . ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله . وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله . ويتجنب سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى . فيصير أثر عنده من ربه حباً وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين . وإنما حكي الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة . فكلما قوى شرك العيد بُلِيَ بعشق الصور وكلما قوى توحيد صرف ذلك عنه . والزنى واللواط كمال لذته ، إنما يكون من العشق . ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتقلقه من محل إلى محل ، لا يبق عشقه مقصوراً على محل واحد . بل ينقسم على سهام كثيرة لسكل محبوب نصيب من تأله وتمبده . فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين . ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله . فإنهما من أعظم الخبائث . فإذا انصبغ القلب بهما بُعِدَ ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب . وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح ، فيما رواه الإمام أحمد في (كتاب الزهد) لا يكون البطالون من الحكماء . ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى ^(٢) (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) والصواب القول بأن هذه الآية محكمة . يعمل بها لم ينسخها شيء . وهي مشتملة على خبر وتحريم . ولم يأت من ادعى نسخها بحجة البتة .

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٣] .

والذى أشكل منها على كثير من الناس ، واضحٌ بحمد الله تعالى . فإنهم أشكل عليهم قوله ^(١) (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) هل هو خبر أو نهى أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينفكح عفيفة . وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزانى أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفاف ، وإباحةً له نكاح المشركات والزواني . والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً . فلما أشكل عليهم ذلك ، طلبوا الآية وجهاً يصح حملها عليه . فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطء والزنى . فكأنه قال : الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة . وهذا فاسد . فإنه لا فائدة فيه . ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك . فإنه من المعلوم أن الزانى لا يزنى إلا بزانية . فأى فائدة في الإخبار بذلك . ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه . ثم قالت طائفة : هذا عام اللفظ خاص المعنى . والمراد به رجل واحد ^(٢) وامرأة واحدة . وهى عناق وصاحبها . فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها فنزلت هذه الآية . وهذا أيضاً فاسد . فإن هذه الصورة المعينة ، وإن كانت سبب النزول ، فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه . ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها . وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله ^(٣) (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ) وهذا أفسد من الكل . فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين . ولا تناقض إحداها الأخرى . بل أمر سبحانه بالنكاح الأيامى ، وحرم نكاح الزانية ، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم . فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا ؟ (فإن قيل) : فما وجه الآية ؟ قيل : وجهها ، والله أعلم ، أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة . وإنما أبيع له نكاح المرأة بهذا الشرط . كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتي النساء والمائدة . والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه . والإباحة قد علقت على شرط الإحصان . فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به .

(١) [٢٤/النور/٣] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٤ - سورة

النور ، ١ - حدثنا عبد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو . (٣) [٢٤ / النور / ٣٢] .

فالمترج، إمان يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله، أولا يلتزمه . فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ، ونكح ما حرم عليه ، لم يصح النكاح . فيكون زانياً . فظهر معنى قوله « لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً » وتبين غاية البيان . وكذلك حكم المرأة . وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه ، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل . فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرناناً ديوثاً زوج بنى . فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستمجاناه . ولهذا إذا بالغوا فى سب الرجل قالوا (زوج قحبة) فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك . فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية . والله الموفق .

ومما يوضح التحريم ، وأنه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة ، أن هذه الحناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج ، وفساد النسب الذى جعله الله تعالى بين الناس لتتام مصالحهم . وعدّوه من جملة نعمه عليهم . فالزنى يفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب ، فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتستبرأ . وأيضاً ، فإن الزانية خبيثة ، كما تقدم بيانه والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة . والمودة خالص الحب ، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب ، زوجاً له ؟ والزوج سى زوجاً من الأزواج . فالزوجان ، الاثنان المتشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقدرأ . فلا يحصل معها الأزواج والاتراحم والقواد . فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب ، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة . فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة ، وقد وطأها الزانى البارحة ؟ وقال : ماء الزانى لا حرمة له . فهب أن الأمر كذلك ، فماء الزوج له حرمة . فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزانى فى رحم واحد ، والمقصود أن الله سبحانه سى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات . وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالاً . وسى فاعله جنباً لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد . فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن الله تعالى وعن الدار الآخرة . بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهرأ

كاملًا بالتوبة ، وطهرًا لبدنه بالماء . وقول اللوطية^(١) (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود^(٢) (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وقوله سبحانه^(٣) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ) وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحّد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك ، وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنيّ تجريده متابعة الرسول وأنه لم يشبها بآراء الرجال ولا بشيء مما خالفها . فصبر الموحّد المتبع للرسول ، على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه ، من صبره على ما ينقمه الله ورسوله ، عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إِذَا لَمْ يَكُنْ بِدُّ مِنَ الصَّبْرِ ، فَاصْطَبِرْ عَلَى الْحَقِّ . ذَاكَ الصَّبْرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ

لطيفة :

كتب ابن القاضي شرف الدين ابن المقرئ ، صاحب (الروض) إلى أبيه ، وقد قطع

نفقة :

لا تقطن عادةً برّ ، ولا	تجعل عتاب المرء في رزقه
فإن أمر الإفك من مسطح	يحط قدر النجم من أفعه
وقد جرى منه الذي قد جرى	وعوتب الصديق في حقه

فأجابه أبوه شرف الدين بقوله :

قد يمنع المضطر من ميته	إذا عصى بالسير في طرّقه
لأنه يقوى على توبة	توجب إيصالاً إلى رزقه
لو لم ينب من ذنبه مسطح	ما عوتب الصديق في حقه

ولما فصل تعالى الزواجر عن الزنى ، وعن رمى العفاف عنه ، بين من الزواجر ماعسى يؤدى

(١) [٧ / الأعراف / ٨٢] . (٢) [٨٥ / البروج / ٨] . (٣) [٥ / المائدة / ٥٩] .

إلى أحدها . وذلك في مخالطة الرجال بالنساء ، ودخولهم عليهن ، في أوقات الخلوات ،
وفي تعليم الآداب الجميلة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا

وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[٢٨] (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ

لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » أى تستعلموا

وتستكشفوا الحال . هل يراد دخولكم أم لا ؟ من (الاستئناس) وهو الاستعلام .

من (أنس الشيء) إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . أو المعنى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا .

من (الاستئناس) الذى هو خلاف الاستيحاءش . لما أن المستأذن مستوحش من خفاء

الحال عليه . فيكون عبر بالشيء عما هو لازم له ، مجازاً أو استعارة . وجوز أن يكون من

(الإنس) والمعنى : حتى تعلموا هل فيها إنسان ؟ . « وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » أى ليؤمنهم

عما يوحشهم « ذَٰلِكُمْ » أى الاستئذان والتسليم « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من الدخول بفتنة

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى فتتعمظوا وتعلموا بموجبه « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا » أى

من الآذنين « فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ » أى واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم .

ويحتمل : فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ، ولكم فيها حاجة ، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها .

قال الزمخشري : وذلك لأن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الداخل على عورة ، ولا تسبق

عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس

في العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها . ولأنه تصرف في ملك غيرك .

فلا بد من أن يكون رضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب . انتهى .

« وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَاَرْجِعُوا » أى إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع ، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا ، كالنساء والولدان ، فارجموا ولا تلهجوا بتكرير الاستئذان . لأن هذا مما يجلب الكراهة في قلوب الناس . ولذا قال تعالى « هُوَ » أى الرجوع « أَزْكَى لَكُمْ » أى أطهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب ، من دنس الدناءة . وأنمى لمحببتكم .

قال الزمخشري : وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة ، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بمنف ، والتصحيح بصاحب الدار ، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يهذب من أكثر الناس .

لطيفة :

قال ابن كثير : قال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : ارجع . فأرجع وأنا مغتبط . انتهى . « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » أى فيجزىكم على نيتكم الحسنة في الزيارة ، أو المكر والخيانة بأهل المزور أو ماله .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير ، ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له ، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد . ويستفاد من هذا تحريم دخول ملك الغير ، والسكون فيه ، وشغله بغير إذن صاحبه . فيدخل تحته من المسائل والفروع ما لا يحصى . واستدل بالآية الأكثر على الجمع بين الاستئذان والسلام . والأقل على تقديم الاستئذان على السلام بمقتدعه فى الآية . وأجاب الأكثرون ، بأن الواو لا تفيد ترتيباً . واستدل بها من قال : له الزيادة فى الاستئذان على ثلاث ، حتى يؤذن له أو يصرح بالمنع . وفهم من الآية أن الرجل لا يستأذن عند دخول بيته على امرأته . انتهى .

وقال ابن كثير : ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف لتلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . وفي الصحيحين ^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن امرأاً أطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة، ففقت عينه، ما كان عليك من جناح) وأخرج ^(٢) الجماعة عن جابر قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي. فدفقت الباب، فقال (من ذا) فقلت: أنا قال (أنا، أنا) كأنه كرهه. وإنما كرهه، لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها، حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها. وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه (أنا) فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية . وعن ابن مسعود قال : عليكم الإذن على أمهاتكم. وعن طاووس قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات محرم . وكان يشدد التكثير في ذلك . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . قال ابن كثير : وهذا محمول على عدم الوجوب . وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ، ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . ولهذا جاء في ^(٣) الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً .

(١) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٢٣ - باب من اطلع في بيت قوم ففقأوا عيونه ، فلا دية له ، حديث ٢٥٢٦ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٤٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ١٧ - باب إذا قال من ذا ؟ فقال أنا ، حديث ١٠٧٦ .

وأخرجه مسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٣٨ و ٣٩ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٦ - كتاب العمرة ، ١٦ - باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة ، حديث ٢٩٢ ، عن جابر .

ثم بين تعالى ما رخص فيه عدم الاستئذان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا » أى بغير استئذان « بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ » أى غير معدة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل ليتمتع بها كائناً من كان ، كالحانات والحمامات وبيوت الضيافات « فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ » أى منفعة وحاجة « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل ، لفساد ، أو اطلاع على عورات . أفاده أبو السعود .

ثم أرشد سبحانه إلى آداب عظيمة تتناول المستأذنين عند دخولهم وغيرهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » أى مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه « وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » أى عن الإفضاء بها إلى محرم ، أو عن الإبداء والكشف « ذَلِكَ » أى الغض والحفظ « أَزْكَى لَهُمْ » أى أطهر للنفوس وأتقى للدين « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى بأفعالهم وأحوالهم . وكيف يحيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم . فعلیهم ، إذ عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على تقوى وحذر ، فى كل حركة وسكون . أفاده الزمخشري .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها . أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل شيء في القرآن من (حفظ الفرج) فهو من الزنى ، إلا هذه الآية والتي بعدها ، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة . انتهى .

وليس بمقنعين . وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى . أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفشاء .

الثاني - إن قيل : لم آتى بـ (من) التبعيضية في غض الأبصار وقيدها به دون حفظ الفروج؟ مع أنه غير مطابق ومقيد في قوله تعالى ^(١) (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ هُمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسراري، وهو قليل بالنسبة لما عداه . فجعل كالمدم ولم يقيده به . مع أنه معلوم من الآية الأخرى . بخلاف ما يطلق فيه البصر . فإنه يباح في أكثر الأشياء ، إلا نظر ما حرم عن قصد . فمقيد (الغض به) ومدخول (من) التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي . وقيل : إن الغض والحفظ عن الأجانب . وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم ، وبعضه جائز . بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول (من) فيه . كذا في (العناية) .

الثالث - سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج ، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور . كما قال الحماسي ^(٢) :

وكنْتَ ، إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لقلبك يوماً ، أنمَبَتَكَ المناظِرُ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥] . (٢) ديوان الحماسة الحماسية رقم ٤٦٥ . لم يعلم قائله . وثانيه :

رأيتَ الذي لا كلُّهُ أنتَ قادرٌ عليه ، ولا عن بعضِهِ أنتَ صابرٌ

والرائد الذي يقدم الواردة ، ليتأمل حال الماء والكلاب لهم .

ولأن البلى فيه أشد وأكثر . ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه . فبودر إلى منعه .
ولأنه يتقدم الفجور في الواقع ، فجعل النظم على وقفه .

الرابع : غض البصر من أجل الأدوية لعلاج أمراض القلوب . وفيه حسم لمادتها قبل حصولها . فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . ومن أطلق لحظاته ، دامت حسراته .
كلّ الحوادث مبدأها من النظرِ ومعظمُ الفأرِ من مستصغرِ الشرِّ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في (الجواب الشافي) : في غض البصر عدة منافع :
أحدها - امتثال أمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده . وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى . وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة ، إلا بامتثال أوامر ربه . وما شق من شق في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثاني - أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم ، الذي لعل فيه هلاكه ، إلى قلبه .
الثالث - أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية على الله . فإن إطلاق البصر يفرّق القلب ويشتتّه ويبعده من الله . وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر . فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع - أنه يقوى القلب ويفرحه . كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .
الخامس - أنه يكسب القلب نورا . كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، فقال ^(١) (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) ثم قال ^(٢) (إِنْ ذَلِكَ) اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (أى مثل نوره في قلب عبده المؤمن ، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب . كما أنه إذا اظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال

(١) [٢٤ / النور / ٣٠] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

بأسباب الشقاوة . فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب . فإذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يحوس فى حداس الظلام .

السادس - أنه يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين الحق والمبطل والصادق والكاذب . وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال - لم تخطئ له فراسة .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة ، والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فإذا غض بصره عن محارم الله ، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبسه بصره لله . ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة ، والفراسة الصادقة المصيبة ، التى إنما تنال ببصيرة القلب . وشد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة ، فقال تعالى ^(١) (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل ، والعمه الذى هو فساد البصيرة . فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل ، وعمه البصيرة يسكر القلب ، كما قال القائل :

سُكْرَانٍ : سَكْرَ هَوًى وَسُكْرٌ مُدَامِيَّةٌ وَمَتَى إِفَاقَةٌ مَنْ بِهِ سُكْرَانٍ ؟
وقال الآخر :

قالوا : جُنُنْتُ بَمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ : الْعَشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْجَانِينِ -
العشق لا يستفيقُ الدهرَ صاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُضْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحَيْنِ -

السابع - أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة ، وسلطان القدرة والقوة . كما فى الأثر (الذى يخالف هواه يَفَرِّقَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ) . وضد هذا تجده فى المتبع هواه ، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٧٢] .

وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه . كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقد جعل الله سبحانه العزيزين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى ^(١) (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن . وقال تعالى ^(٣) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره ، من الكلم الطيب . والعمل الصالح . وفى دعاء القنوت ^(٤) (إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت) ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه . وله من العز بحسب طاعته . ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه . وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن - أنه يسدّ على الشيطان مدخله من القلب . فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب ، أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالى . فيمثل له صورة المنظور إليه ، ويزينها ويجعلها صنماً يعكف عاياه القلب . ثم يعده ويمنيه . ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليه حطب المعاصي . التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة . فيصير القلب في اللهب . فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار . وتلك الزفرات والحرقات . فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب . فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور . ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة ، أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه ، إلى حشر أجسادهم . كما أراها الله نبيه ﷺ في المنام في ^(٥) الحديث المتفق على صحته .

(١) [٦٣ / المنافقون / ٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٣٩] .

(٣) [٣٥ / فاطر / ١٠] . (٤) أخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الوتر ،

٥ - باب القنوت في الوتر ، حديث رقم ١٤٢٥ . (٥) يشير إلى حديث رؤياه ﷺ

الذى أخرجه البخارى في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٤٨ - باب تعبير الرؤيا بمد صلاة الصبح ،

عن سمرة بن جندب ، حديث رقم ٥٠١ .

التاسع - أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها . وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها . فتتفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه ، قال تعالى ^(١) (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر - أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انفعال أحدهما عن الآخر . وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . فإذا فسد القلب فسد النظر . وإذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك في جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبة والإجابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه . وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه إشارة إلى بعض فوائد غرض البصر ، تطالعك على ما وراءها . انتهى .

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال . وزاد في أمرهن ، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبلهن ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ

(١) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » أى بالتستر والتصون
عن الزنى كما تقدم . قال الزمخشري : النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار . ولا يحل للمرأة
أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت ستره إلى ركبته . وإن اشتهدت غضت بصرها رأساً .
ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك . وغض بصرها من الأجانب أصلاً ، أولى بها وأحسن .
ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة^(١) رضى الله عنها قالت : كنت عند النبي ﷺ
وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب . فدخل علينا . فقال :
احتجبا . فقلنا : يا رسول الله ! أليس أعمى لا يبصرنا ! قال : أفعمياً وإن أنما ؟ ألسما تبصرانه ؟
وهذا الحديث رواه أبو داود والترمذي وصححه « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا »
قال الزمخشري : الزينة ما زينت به المرأة من حلّى أو كحل أو خضاب . فإكان ظاهراً منها ،
كالخاتم والفخة والكحل والخضاب ، فلا بأس بإبدائه للأجانب . وما خفي منها كالسوار
والخلخال ، والدمليج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين .
وذكر الزينة دون مواقعها ، للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر . لأن هذه الزين واقعة
على مواضع من الجسد ، لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء . وهى الذراع والساق والعضد
والعنق والرأس والصدر والأذن . فنهى عن إبداء الزين نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها
للابستها تلك المواقع ، بدليل أن النظر إليها غير ملائمة لها ، لا مقال في حله - كان النظر
إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظر ثابت القدم في الحرمة ، شاهداً على أن النساء حقن
أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٣٤ - باب وقول للمؤمنات يفضضن

من أبصارهن ، حديث رقم ٤١١٢ .

وأخرجه الترمذي في : ٤١ - كتاب الأدب ، ٢٩ - باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال .

(فإن قلت) : لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة ؟ قلت : لأن سترها فيه حرج . فإن المرأة لا تجدد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصاً في الشهادة والمحكمة والنكاح . وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها . وخاصة الفقيرات منهن . وهذا معنى قوله (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) يعني : إلا ما جرت العادة والجملة على ظهوره ، والأصل فيه الظهور . انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : فسر ابن عباس قوله تعالى (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) بالوجه والكيف ، كما أخرجه ابن أبي حاتم . فاستدل به من أباح النظر إلى وجه المرأة وكفيها ، حيث لا فتنة . ومن قال : إن عورتها ما عداها . وفسره ابن مسعود بالثياب ، وفسر الزينة بالخاتم والسوار والقرط والقلادة والخلخال . أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً . فهو دليل لمن لم يجز النظر إلى شيء من بدنها ، وجعلها كلها عورة (وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) أى وليسترن بمقانعهن ، شعورهن وأعناقهن وقرطهن وصدورهن ، بإلقائها على جيوبهن أى مواضعها ، وهى النحر والصدر .

قال الزمخشري : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حوا اليها . وكن يسدلن الخمر من ورائهن ، فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطيها . ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور ، تسمية بما يليها ويلابسها ، ومنه قولهم (ناصح الجيب) .

لطيفة :

قال أبو حيان : عدى (يضربن) بـ (على) لتضمنه معنى الوضع . وجمله الراغب مما يتعدى بها دون تضمين . و (الخمر) جمع خمار يقال (لغة) لما يستر به . وخصصه العرف بما تنطى به المرأة رأسها . ومنه (اختمرت) المرأة و (تخمرت) . و (الجيب) ما جيب ، أى قطع من أعلى القميص . وهو ما يسميه العامة طوقاً . وأما إطلاقه على ما يكون في الجنب لوضع الدراهم ونحوها ، فليس من كلام العرب . كما ذكره ابن تيمية . كذا في (العناية) ثم كرر النهي عن

إبداء الزينة لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه ، باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور ، بقوله تعالى « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » أى فإنهم المقصودون بالزينة . ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، لكن بکراهة على المشهور . وقال الإمام أبو الحسن بن القطان فى کتاب (إحكام النظر) : عن أصبغ ، لا بأس به ، وليس بمكروه . وروى عن مالك لا بأس أن ينظر إلى الفرج فى الجماع . ثم ذكر أن ما روى من أن ذلك يورث العمى ، فحديث لا يصح . لأن فيه (بقية) وقد قالوا (بقية أحاديثه غير نقية) ولم يؤثر عن العرب كراهة ذلك . وللنابغة والأعشى وأبى عبيد وابن ميادة وعبد بنى الحساس والفرزدق ، فى ذلك ما هو معروف .

وقوله تعالى (أَوَّابًا لَهُنَّ أَوْ آبَاءُ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءُ لَهُنَّ أَوْ إِخْوَانُهُنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ) أى لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم . فإن آباءهن أولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن . وآباء بعولتهن يحفظون على أبنائهم ما يسوءهم . وأبنائهم خدمة الأمهات ، وهم منهن . وأبناء بعولتهن شأنهم خدمة الآباء وخدمة أحبابهم . وإخوانهن هم الأولياء بعد الآباء . وبنوهم أولياء بدمهم . وكذا بنو أخواتهن ، هم كبنى إخوانهن فى القرابة فيتعبرون بنسبة السوء إلى الحالة . تعبرهم بنسبته إلى العمة . هذا ما أشار له المهايى .

وأجل ذلك الرخصى بقوله : وإنما سومح فى الزينة الخفية أولئك المذكورون ، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالفتهم . ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما فى الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب . وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك . وقوله تعالى « أَوْ نِسَائِهِنَّ » قيل : هن المؤمنات . أخذاً من الإضافة . فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية . وقيل : النساء كلهن . فإنهن سواء فى حل نظر بعضهن إلى بعض .

قال فى (الإكليل) : فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كحرم . وروى ابن أبى حاتم عن عطاء ؛

أن أصحاب النبي ﷺ لما قدموا بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات . وقال الرازي : القول الثاني هو المذهب . وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأولى .

وقوله تعالى « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » أى لاحتياجهن إليهم . فلو منع دخولهم عليهن اضطررن . قاله المهامبي . وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء . وإليه ذهب قوم . قالوا : لا بأس عليهن فى أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوى عمارهن . واحتجوا أيضاً بما رواه أبو (١) داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بمبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب ، إذا قنعت به رأسها ، لم يبلغ رجلها . وإذا غطت به رجلها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : إنه ليس عليك بأس . إنما هو أبوك وغلماك . وجاء فى (تاريخ ابن عساكر) أن عبد الله بن مسعدة كان أسود شديد الأدمة . وقد كان وهبه النبي ﷺ صلوات الله عليه لابنته فاطمة . فربته ثم أعتقته . ثم كان ، بمد مع معاوية على على . نقله ابن كثير ، فاحتمل أن يكون هو هو . والله أعلم .

وذهب قوم إلى أنه عنى بذلك الإماء المشركات ، وأنه يجوز لها أن تظهر زينتها إليهن وإن كن مشركات . قالوا : وسر أفراد الإمام مع شموله قوله (أَوْ نِسَائِهِنَّ) لهن الإعلام بأن المراد مَنْ فى صحبتهن من الحرائر والإمام لظهور الإضافة فى (نسائهن) بالحرائر . كقوله (٢) (شَهِيدِينَ مِنْ رِجَالِكُمْ) فغطفن عليهن ليشاركهن فى إباحة النظر عليهن ، والقول الأول أقوى . لأن الأصل هو العمل بالعالم حتى يقوم دليل على تخصيصه . لا سيما والحكمة ظاهرة فيه وهى رفع الحرج . وهذا الذى قطع به الشافعى وجهور أصحابه . قال فى (الإكمال) : وعلى الأول استدلال بإضافة اليمين على أنه ليس لعبد الزوج النظر .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٢ - فى العبد ينظر إلى شعر مولاته ، حديث ٤١٠٦

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

واستدل من أباحه بقراءة (أو ما ملكت أيمانكم) .

وقوله « أَوِ التَّائِبِينَ » أى الخدام لأنهن فى معنى المبيد « غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ » أى الحاجة إلى النساء « مِنَ الرِّجَالِ » كالشيخ الهرم والبله . واستدل بهذا من أباح نظر الخصى .
وقوله تعالى « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » أى لم يفهموا أحوالهن ، لصغرهم . فيستدل به على تحريم نظر المراهق الذى فهم ذلك كالبالغ . كما فى (الإكليل) .
قال الزمخشري : (يظهروا) إما من (ظهر على الشيء) إذا اطلع عليه ، أى لا يعرفون ما المورة ، ولا يميزون بينها وبين غيرها . وإما من (ظهر على فلان) إذا قوى عليه و (ظهر على القرآن) أخذه وأطاقه . أى لم يبلغوا أو ان القدرة على الوطء . و (الطفل) مفرد وضع موضع الجمع بقرينة وصفه بالجمع . ومثله (الحاج) بمعنى الحجاج . وقال الراغب : إنه يقع على الجمع .

تنبيه :

قال السيوطي فى (الإكليل) : استدلل بعضهم بقوله تعالى (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا) الخ على أنه لا يباح النظر للهم والخال ، لعدم ذكرها فى الآية . أخرج ابن المنذر عن الشعبي وعكرمة ، قالا : لم يذكر المم والخال لأنهما ينمئتان لأبناؤهما ، ولا تضع خمارها عند المم والخال .

وقال الرازى : القول الظاهر أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر . وهو قول الحسن البصرى . قال : لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب . وقال فى سورة الأحزاب^(١) (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ) الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم . وقد ذكرها هنا . وقد يذكر البعض لينبه على الجملة .

ثم قال : فى قول الشعبي من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التستر .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٥] .

ثم أشار تعالى إلى أن الزينة ، كما يجب إخفاؤها عن البصر ، يجب عن السمع ، إن كانت مما تؤثر فيه ميلاً ، بقوله سبحانه :

« وَلَا يَضْرِبَنَّ بَارِجُهُنَّ » أى الأرض « لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ » أى عن الأبصار « مِنْ زِينَتِهِنَّ » كالخلخال . وهذا نهى عما كان يفعله بمضهن . وذلك من ضرب أرجلهن الأرض ليتحرك خلخالهن فيعلم أنهن متحايين به . فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن ، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم .

قال الزمخشري : وإذن نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى ، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ . قيل : وإذا نهى عن استماع صوت حلين ، فمن استماع صوتهن بالطريق الأولى . وهذا سدّ لباب المحرمات ، وتعليم للأحوط الأحسن ، لا سيما في مظانّ الريب وما يكون ذريعة إليها .

تنبيه :

قال ابن كثير : يدخل في هذا النهى كل شيء من زينتها كان مستورا ، فتحرّكت بحركة ، لتظهر ما خفى منها . ومن ذلك ما ورد من نهىها عن التمثير والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها . إروى الترمذى^(١) عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل عين زانية . والمرأة إذا استمطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا . يعنى زانية .

قال : ومن الباب عن أبى هريرة . وهذا حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود والنسائي . وروى الترمذى^(٢) أيضا عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : الرافلة في الزينة في

(١) أخرجه الترمذى في : ٤١ - كتاب الأدب ، ٣٥ - باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متمطرة . (٢) أخرجه الترمذى في : ١٠ - كتاب الرضاع ، ١٣ - باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة .

غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة ، لا نور لها . ومن ذلك أيضا ، نهين عن المشى في وسط الطريق لما فيه من التبرج . فروى أبو^(١) داود عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تحقن الطريق . عليكن بحافات الطريق . فكانت المرأة تلتصق بالجدار ، حتى أن ثوبها ليعتلق بالجدار من لصوقها به . وقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ » أى ارجعوا إليه بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، فإن مقتضى إيمانكم ذلك « لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ » أى لكي تفوزوا بسعادة الدارين . ولما زجر تعالى عن السفاح ومبادئه القريبة والبعيدة ، أمر بالنكاح . فإنه ، مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع ، خير مزجرة عن ذلك . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » أى زوجوا من الأولياء والسادات و (الأيامى) جمع أيتم . من لا زوجة له أو لا زوج لها . يكون للرجل والمرأة . يقال : أم وآمت وتآتما ، إذا لم يتزوجا ، بكرين كانا أو ثيبين .

قال أبو السعود : واعتبار الصلاح في الأرقاء ، لأن من لا صلاح له منهم ، بمنزل من أن يكون خليفاً بأن يعنى مولاة بشأنه ، ويشفق عليه ، ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة ، من بذل المال والمنافع . بل حقه ألا يستبقه عنده . وأما عدم اعتبار الصلاح

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٨ - باب في مشى النساء مع الرجال

في الطريق ، حديث ٥٢٧٢ .

في الأحرار والحرائر ، فلأن الغالب فيهم الصلاح . على أنهم مستبدون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم . فإذا عزموا النكاح ، فلا بد من مساعدة الأولياء لهم ؛ إذ ليس عليهم في ذلك غرامة ، حتى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم . عاجلة أو آجلة : وقيل : المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه . وقوله تعالى « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » إزاحة لما عسى يكون وازعاً من النكاح من فقر أحد الجانبين . أى لا يمنعن فقر الخاطب أو الخطوبة من المناكحة . فإن في فضل الله عز وجل غنية عن المال . فإنه غاد ورائح . يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب . أو وعد منه سبحانه بالإغناء . لكنه مشروط بالمشيئة . كما في قوله تعالى ^(١) « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » « وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » أى غنى ذوسعة ، لا يرزؤه إغناء الخلائق ، إذ لا تقاد لنعمته ولا غاية لقدرته . « عَلِيمٌ » يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة . انتهى كلام أبى مسعود .

تنبيهات

الأول - الأمر في الآية للنذب . لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه . وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك .

وفى (الإكليل) : استدل الشافعى بالأمر على اعتبار الولي . لأن الخطاب له ، وعدم استقلال المرأة بالنكاح . واستدل بعموم الآية من أباح نكاح الإماء بلا شرط ، ونكاح العبد الحرة . واستدل بها من قال بإجبار السيد على نكاح عبده وأمته .

الثانى - قدمنا أن قوله تعالى (يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) مشروط بالمشيئة . فلا يقال إنه تعالى لا يخلف الميعاد ، وكم من متزوج فقير . والتقييد بالمشيئة بدليل سمى ، وهو الآية المقدمة . أو إشارة قوله تعالى (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) لأن مآله إلى المشيئة . أو عقلى وهو أن الحكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة .

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] .

قال الناصر في (الانتصاف) : ولقائل أن يقول : إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غنى المتزوج ، فهي أيضاً المعتبرة في غنى الأعزب ، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح ، مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة . فمن مستغن به ، ومن فقير . كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم ؟

فالجواب ، وبالله التوفيق : إن فائدة ربط الغنى بالنكاح ، أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، والغفلة عن المسبب ، جل وعلا . حتى غلب الوهم على العقل فخيّل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً ، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً . وأن كل واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به . فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع ، بالإيدان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميّه ، مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام ، لنفاد المال . وقد يقدر الإملاق مع عدمه ، الذي هو سبب في الإكثار عند الأوهام . والواقع يشهد لذلك بلامراء . فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر ، مرتبطات بمسبباتها ، ارتباطاً لا ينفك - ليست على ما يزعمونه . وإعنا بقدر الغنى والفقر مسبب الأسباب . غير موقوف تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة . وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح . لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له في الإقتار . وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إعنائه ، ولا يؤثر أيضاً الخلوّ عن النكاح لأجل التوفير . لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه ، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتّر عليه . وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ، ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس . فمعنى قوله حينئذ (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) الآية ، أن النكاح لا يمنهم الغنى من فضل الله . فمعبّر عن نفي كونه مانعاً من الغنى ، بوجوده معه . ولا يبطل المانع إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ، ولو في صورة من الصور على أثر ذلك . فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى^(١) (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) فإن ظاهر

(١) [٦٢ / الجمعة / ١٠] .

الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة ، وليس ذلك بمراد حقيقة . ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة ، وبيان أن الصلاة متى قضيت ، فلا مانع . فعبر عن نفي المانع بالانتشار ، بما يفهم تقاضى الانتشار بمبالغة في تحقيق المعنى عند السامع . والله أعلم . فتأمل هذا الفصل واتخذ عضداً حيث الحاجة إليه . انتهى .

الثالثة - (في الإكليل) : استدل بعضهم بهذه الآية على أنه لا يفسخ النكاح بالمعجز عن النفقة ، لأنه قال (يغنيهم الله) ولم يفرق بينهم . ثم أرشد تعالى العاجزين عن أسباب النكاح ، إلى ما هو أولى لهم ، بعد بيان جواز مناحة الفقراء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتِمُونِ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا قَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَلُوهُنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى وليجتهد في العفة الذين لا يجدون نكاحا ، أى أسبابه ، أو استطاعة نكاح أى تزوج . فهو على المجاز ، أو تقدير المضاف . أو المراد (بالنكاح) ما ينكح به .

قال الشهاب : فإن (فعلاً) يكون صفة بمعنى مفعول . ككتاب بمعنى مكتوب . واسم آلة كركاب لما يركب به . وهو كثير . كما نص عليه أهل اللغة . وقوله تعالى (حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ترجية للمستغنين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالنفى ، ليكون انتظار ذلك

وتأمله ، لطفاً لهم في استعفافهم ، وربطاً على قلوبهم . وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء .
وأدنى من الصلحاء . وما أحسن مارتب هذه الأوامر . حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ،
ويبعد عن مقاومة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح ، الذي يحصن به الدين ، ويقع به
الاستغناء بالحلال عن الحرام . ثم بالحمل على النفس الأمانة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى
الشهوة عند العجز عن النكاح ، إلى أن يرزق القدرة عليه . أفاده الزمخشري .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : في الآية استحباب الصبر عن النكاح لمن لا يقدر على مؤنته .
واستدل بعضهم بهذه الآية على بطلان نكاح المتعة .

ولما أمر تعالى السادة بزواج الصالحين من عبيدهم وإمائهم ، مع الرق ، رغبهم في أن
يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ، ليصيروا أحراراً ؛ فيتصرفوا في أنفسهم كالأحرار : فقال تعالى :
« وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ » أي الكتابة « مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ »
حرصاً على تحريرهم الذي هو الأصل فيهم ، وحبا بتحقيق المساواة في الأخوة الجنسية .
والكتابة أن يقول السيد : كاتبك . أي جعلت عمقك مكتوباً على نفسي ، بما لكذا تؤديه
في نجوم كذا . ويقبل العبد ذلك ، فيصير مالاً لكاسبه ولما يوجب له ، وإنما وجب معه
الإمهال ، لأن الكسب لا يتصور بدونه . واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة
وعوضها جميعاً . وقوله تعالى « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا » أي كالأمانة ، لئلا يؤدوا النجوم
من المال المسروق . والقدرة على الكسب والصلاح ، فلا يؤذى أحداً بعد العتق . وقوله تعالى
« وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ » أمر للموالي ببذل شيء من أموالهم . وفي حكمه ،
حط شيء من مال الكتابة . ولغيرهم بإعطائهم من الزكاة إعانة لهم على تحريرهم .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : في الآية مشروعية الكتابة . وأنها مستحبة . وقال أهل الظاهر :

واجبة لظاهر الآية . وأن لنذهبها أو وجوبها ، شرطين : طلب العبد لها وعلم الخير فيه .
وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة .

ثم نهى تعالى عن إكراه الجوارى على الزنى كما اعتادوه في الجاهلية ، بقوله سبحانه
« وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ » أى إماءكم ، فإنه يكفى بالفتى والفتاة ، عن العبد والأمة ، وفي
الحديث^(١) (ليقل أحدكم : فتاى وفتاتى ، ولا يقل . عبدى وأمتى) وقوله تعالى « عَلَى الْبِغَاءِ »
أى الزنى . يقال : بغت بغيًا وبغاءً ، إذا عهرت . وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها . وقوله تعالى
« إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّمًا » ليس لتخصيص النهى بصورة إرادتهن التعفف عن الزنى ، وإخراج
ماعداهما من حكمه ، بل للمحافظة على عاداتهم المستمرة ، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن
يردن التعفف عنه ، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور ، وقصورهن في معرفة الأمور ،
الداعية إلى المحاسن ، الزاجرة عن تعاطى القبايح ، انتهى كلام أبى السعود . أى وحينئذ فلا
مفهوم للشرط ، وهذا كجواب بعضهم : إن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة
التحصن . والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب . كما أن الخلع يجوز
في غير حالة الشقاق . ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع في حالة الشقاق ، لا جرم لم يكن
لقوله تعالى^(٢) (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ)
مفهوم . ومن هذا القبيل قوله^(٣) (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) والقصر لا يختص بحال
الخوف . ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب . فكذا هاهنا انتهى .

قال أبو السعود : وفيه من زيادة تقييد حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبايح ،
مالا يخفى . فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمة من إيمانه ، فضلاً

(١) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ١٧ - باب كراهية التطاول على الرقيق ،

حديث ١٢٥١ ، عن أبى هريرة (٢) [٢ / البقرة / ٢٢٩] . (٣) [٤ / النساء / ١٠١] .

عن أمرهن به ، أو إكراههن عليه . لا سيما عند إرادتهن التعفف . وإيثار كلمة (إِنْ) على (إذا) مع تحقق الإرادة في مورد النص حتماً ، للإيدان بوجوب الانتهاء عن الإكراه ، عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والشك . فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع ؟ وقوله تعالى « لَتَبْتَغُوا عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » قيد للإكراه ، لـسكن لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه ، بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم ، كما قبله . جيء به تشبيهاً لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير ، لأجل النزر الحقيق . أى لاتفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال ، الوشيك الاضمحلال . يعنى من كسبهن وأولادهن .

وقوله تعالى « وَمَنْ يُكْرِهَنَّ » جملة مستأنفة سبقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكروهات عن عقوبة المكروه عليه عبارة ، ورجوع غائلة الإكراه إلى المكروهين إشارة ، أى (وَمَنْ يُكْرِهَنَّ) على ما ذكر من البغاء . « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن . كما وقع في مصحف ابن مسعود . وعليه قراءة ابن عباس رضى الله عنهم . وكما ينبىء عنه قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ) أى كونهن مكروهات . على أن الإكراه مصدر من المبنى للمفعول فإن توسطه بين اسم (إن) وخبرها ، للإيدان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة . وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى ، إذا قرأ هذه الآية يقول : لمن ، والله ! لمن ، والله ! وفى تخصيصهما (بهن) وتعيين مدارها ، مع سبق ذكر المكروهين أيضاً فى الشرطية ، دلالة بيّنة على كونهم محرومين منهما بالكلية ، كأنه قيل : لا للمكروه . ولظهور هذا التقدير ، اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط . فتجوز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالاً ، أو معهن ، إخلالاً بجزالة النظم الجليل ، وتهوين لأمر النهي فى مقام التهويل . وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم ، إما باعتبار أنهن وإن كن مكروهات ، لا يخلون فى تضاعيف الزنى عن شائبة مطاوعة ما يحكم الجبلة البشرية . وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرّة . وإما لغاية تهويل أمر الزنى ، وحث المكروهات على التثبت فى التجايف عنه ، والتشديد فى تحذير المكروهين ، ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة ، لولا أن تداركن

المغفرة والرحمة ، مع قيام العذر في حقهن . فما حال من يكرههن في استحقاق العذاب ؟ انتهى كلام أبي السمود . وقد أجاد في تحقيق المرام رحمه الله تعالى :

تنبيه :

قال في (الإكليل) : في الآية النهي عن إكراه الإمام على الزنى . وأن المكروه غير مكلف ولا آثم . وأن الإكراه على الزنى يتصور . وإن مهر البغى حرام . وفيه رد على من أوجب الحد على المكروه له .

ثم حذر سبحانه من مخالفة ما نهى عنه ، مما بينه أشد البيان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ » أى واضحات أو مفسرات لكل ما تمّ حاجتهم إليه من عبادات ومعاملات وآداب . ومنه ما ذكر قبل ، من النهي عن الإكراه . فلا يخفى المراد منها « وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ » أى خبراً عظيماً عن الأمم الماضية وما حل بهم ، بظلمهم وتمعدّيهم حدود الله تعالى « وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » أى فيتعظون به وينزجرون عما لا ينبغي لهم . كما قال تعالى ^(١) (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلآخِرِينَ) أى عبرة يعقبون بها . وإيثار (المتقين) لحث المخاطبين على الانتظام في سلوكهم ، فإنهم الفائزون . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٦] .

مُبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

« اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى منورها بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار . فهو مجاز من إطلاق الأثر على مؤثرة . كما يطلق السبب على مسببه . أو مدبرها ، من قولهم للرئيس الفائق في التدبير (نور القوم) لأنهم يهتدون به فى الأمور . فيكون مجازاً . أو استعارة استعير (النور) بمعنى المنور ، للمدبر ، لعلاقة المشابهة فى حصول الاهتداء . أو موجدتها . فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره - كما قاله الغزالي - فيكون أطلق عليه تعالى مجازاً مرسلأ باعتبار لازم معناه .

قال أبو السعود : وعبر عن المنور بالنور ، تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير . وإيداناً بأنه تعالى ظاهر بذاته ، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره . كما أن النور نير بذاته وما عداه مستنير به . وأضيف (النور) إلى (السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) للدلالة على سعة إشرافه . أو المراد بهما العالم كله « مَثَلُ نُورِهِ » أى صفة نوره العجيبة الشأن . قال أبو السعود : أى نوره الفاض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين . كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين . وقد صرح بكونه نوراً أيضاً فى قوله تعالى ^(١) « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً » وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما ، والحسن ، وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى « كَمِشْكَاةٍ » أى كصفة كوة - طاقة - غير نافذة فى الجدار ، فى الإنارة والتنوير « فِيهَا مِصْبَاحٌ » أى سراج صخيم ثاقب - شديد الإضاءة - وقيل : المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل ، والمصباح الفتيلة المشتملة « الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ » أى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر « الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أى متلألئ وقاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » أى كثيرة المنافع ، بأن رويت فتيلته زيتها « زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ »

(١) [٤ / النساء / ١٧٤] .

أى لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط، ولا غربية تقع عليها عند الغروب. ولا تصيبها في الغداة. بل في مكان عليها الشمس مشرقة من أول طلوعها إلى آخر غروبها. كصحراء أو رأس جبل. فزيتها أضوا « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » أى يكاد يضيء بنفسه من غير نار لصفائه ولعانه « نُورٌ عَلَى نُورٍ » أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة بما فصل عن صفة المشكاة. نور عظيم كائن على نور كذلك. غدا (نور) خبر مبتدأ محذوف، والجار متعلق بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، والجملة فذلك للتمثيل، وتصريح لما حصل منه، وتمهيد لما يعقبه. وليس معنى (نُورٌ عَلَى نُورٍ) نور واحد فوق آخر مثله، ولا مجموع نورين اثنين فقط، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر. فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أضواؤه وأجمع لنوره. بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء يثبت فيه وينتشر. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة. وكذلك الزيت وصفائه. وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً، مرتبة أخرى عادة. « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » أى لهذا النور الثاقب العظيم الشأن، بأن يوفهم الإيمان به وفهم دلائل حقيقته.

قال أبو السعود: وإظهاره في مقام الإضمار. لزيادة تقريره، وتأكيده فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » أى ليدنو لهم المعقول من المحسوس، توضيحاً وبياناً. ولذلك مثل نوره المبر عنه بالقرآن، بنور المشكاة « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فلا يخفى عليه شيء. وفيه وعد ووعد. لأن علمه تعالى، عبارة عن مجازاته في أمثال هذه الآي.

تنبيه:

هذه الآية الكريمة - آية النور - من الآيات التي صفت فيها مصنفات خاصة. منها (مشكاة الأنوار) للإمام الغزالي، وقد نقل عنه الرازي في (تفسيره) هنا جملة سابعة الذيل. ورأيت

للإمام ابن القيم في كتابه (الجيوش الإسلامية) ما يجمل إرادته ، تعزيزاً للمقام واستظهاراً بزيادة العلم .

قال رحمه الله : سمي الله سبحانه وتعالى نفسه نوراً وجعل كتابه نوراً ورسوله ﷺ نوراً ودينه نوراً . واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نوراً يتلألاً ، قال الله تعالى (١) (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقد فسر بكونه منور السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض . فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى . والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين . إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله . فالأول كقوله (٢) عز وجل (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) فهذا إشرافها يوم القيامة بنوره تعالى ، إذا جاء لفصل القضاء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء المشهور : أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت . وفي الأثر الآخر : أعوذ بوجهك - أو بنور وجهك - الذي أشرقت له الظلمات . فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله . كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

وفي (معجم الطبراني) و (السنة) له و (كتاب عثمان الدارمي) وغيرها ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه . وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية ، من قول من فسر بها أنه هادى أهل السموات والأرض . وأما من فسر بها أنه منور السموات والأرض ، فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبار كلفها . وفي صحيح (٣) مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله

(١) [٢٤ / النور / ٣٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٣ (طبعنا) .

ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وفي صحيح^(١) مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نور ، أنى أراه . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : معناه كان ثمة نور ، وحال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : وبدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً . وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صفه بعضهم فقال : نورانى أراه . على أنها ياء النسب ، والكلمة كلمة واحدة . وهذا خطأ لفظاً ومعنى . وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه ، وكان قوله (أنى أراه) كالإنكار للرؤية ، حاروا في الحديث ، وردده بعضهم باضطراب لفظه ، وكل هذا عدول عن موجب الدليل . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب (الرؤية) له إجماع الصحابة على أنه لم يره ليلة المعراج . وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك . وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف في الحقيقة . فإن ابن عباس لم يقل رآه بمعنى رأسه ، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رآه عز وجل . ولم يقل بمعنى رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضى الله عنهما . وبدل على صحته ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضى الله عنه : قوله ﷺ في الحديث الآخر (حجابه النور) فهذا النور ، والله أعلم . النور المذكور في حديث أبي ذر رضى الله عنه (رأيت نوراً) .

ثم قال ابن القيم : وقوله تعالى (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن . كما قال أبي بن كعب وغيره : وقد اختلف في الضمير في (نوره) فقيل هو النبي ﷺ . أى مثل نور محمد ﷺ . وقيل : مفسره المؤمن . أى مثل نور المؤمن .

(١) أخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ (طبعتنا) .

والصحيح أن يعود على الله تعالى . والمعنى : مثل نور الله سبحانه في قلب عبده . وأعظمُ عباده نصيباً من هذا النور رسول الله ﷺ . فهذا ، مع ما تضمنه عود الضمير المذكور - وهو وجه الكلام - يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى . وهذا النور يضاف إلى الله تعالى . إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد . إذ هو محله وقابله . فيضاف إلى الفاعل والقابل . ولهذا النور فاعل وقابل ، ومحل وحامل ، ومادة . وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل . فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار . الهادى لنوره من يشاء . والقابل : العبد المؤمن . والمحل : قلبه . والحامل : هيمته وعزيمته وإرادته . والمادة : قوله وعمله . وهذا التشبيه المجيب الذى تضمنته الآية ، فيه من الأسرار والمعانى وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن ، بما أناله من نوره ، ما تقرُّ به عيون أهله وتبهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان : إحداهما طريقة التشبيه المركب وهى أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف . وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن ، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به . وعلى هذا عامة أمثال القرآن . فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء ، قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها . ومادته من أصفى الأدهان وأعمها وقوداً ، من زيت شجرة فى وسط القراح ، لا شرقية ولا غربية ، بحيث تصيبها الشمس فى إحدى طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح ، محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها . فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها ، يكاد يضىء من غير أن تمسه نار . فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذى وضعه فى قلب عبده المؤمن وخصه به . والطريقة الثانية ، طريقة التشبيه المفصل . فقيل : المشكاة صدر المؤمن ، والزجاجة قلبه . شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها . وكذلك قلب المؤمن . فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة . فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه . تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هى عليه . ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء . وبصلابته يشهد فى أمر الله تعالى ، ويتصلب

في ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله تعالى . ويقوم بالحق لله تعالى . وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كإقال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. والمصباح هو نور الإيمان في قلبه . والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق . وهي مادة المصباح التي يتقد منها . والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ، ونور الوحي والكتاب. فينضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة، قبل أن يسمع ما فيه بالأثر. ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به . فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي . فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة. بل يتصادقان ويتوافقان . فهذا علامة النور على النور . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

[٣٧] (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[٣٨] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » أى أمر أن تعظم عن اللغو ، أو ترفع بالبناء قدرأ . ويتلى فيها اسمه ، ولا يعبد فيها غيره، لأنها شيدت على اسمه جل شأنه. والظرف صفة (لمشكاة) أو (لمصباح) أو (لزجاجة) أو متعلق بـ (توقد) أو بمحذوف . أى سبحوه في بيوت . أو بـ (يسبح) . ولفظ (فيها) تكرار للتوكيد .

قال أبو السعود : لما ذكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام ، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب، وأشير إلى كونه في غاية ما يكون من التوضيح، حيث مثل بنور المشكاة - عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاعتداء وعدمه ، والمراد بالبيوت ، المساجد كلها « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ » يعني قبل طلوع الشمس « وَالْآصَالِ » جمع أصيل وهو العشي قبل غروب الشمس « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أي بالتسبيح والتحميد « وَإِقَامِ الصَّلَاةِ » أي إقامتها لمواقفها من غير تأخير « وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » أي المال الذي يتركي مؤتيه من دنس الشح ورذيلة البخل، وتطهر نفسه ويصفو سره « يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » أي تضطرب وتتغير من الهول والفرع . كما في قوله تعالى ^(١) « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » « لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبَيِّنْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » اللام متعلقة بـ (يسبح) أو (لا تلهيهم) أو بحذوف يدل عليه السوق. أي يفعلون ما يفعلون مما ذكر، ليجزيهم . وفي آخر الآية تقرير للزيادة وتنبية على كمال القدرة ، ونفاذ المشيئة ، وسعة الإحسان، لأن (بغير حساب) كناية عن السعة . والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدمه .

تنبيه .

قال السيوطي في (الإكمال) : في هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهاها عن اللغو والقاذورات . وفيها استحباب ذكر الله والصلاة في المساجد . وفي قوله (رِجَالٌ) إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في قمر بيوتهن . كما صرح به الحديث ، إلا في نحو العيدين لحديث ^(٢) : ليشهدن الخير ودعوة المسلمين ، وقوله (لَا تُلْهِيهِمْ) الآية ، فيه أن التجارة

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] . (٢) أخرجه البخاري في : ٦ - كتاب الحيض ،

٢٣ - باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى ، حديث ٢٢٣ ، عن أم عطية .

لا تنافي الصلاة. لأن مقصود الآية أنهم يتعاطونها ، ومع ذلك لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كان في السوق، فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوائطهم ودخلوا المسجد . فقال ابن عمر : فيكم نزلت (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ) الآية . وأخرج عن الضحاك والحسن وسالم وعطاء ومطرف مثل ذلك. انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» عطف على ما ينساق إليه ما قبله . كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالاً وما لآل كما وصف ، والذين كفروا «أَعْمَالُهُمْ» أي التي يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم من العذاب «كَسَرَابٍ» وهو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري «بِقِيعَةٍ» بمعنى القاع ، وهو المنبسط من الأرض . أو جمع قاع (كجيرة) في (جار) «يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» أي لا محققاً ولا متوهماً. كما كان يراه من قبل، فضلاً عن وجدانه ماء، وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل . وقوله تعالى «وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» أي وجد عقاب الله وجزاءه عند السراب، أو العمل. وفي التعبير بذلك زيادة تهويل. وقيل: المعنى وجده محاسباً إياه . فالعندية بمعنى الحساب، على طريق الكناية ، لذكر التوفية بعده . قيل : هذه الجملة معطوفة على (لَمْ يَجِدْهُ) ولا حاجة إلى عطفه على ما يفيد من نحو (لم يجد ما عمله نافعاً) .

قال الشهاب: ويحتمل أن يكون بياناً لحال المشبه به، الكافر. فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه . ولو قيل على الأول إنه من تقمة وصف السراب . والمعنى : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظلم عند السراب ، فوفاه ما كتب له، من لا يؤخر الحساب. كان الكلام

متناسباً . واختار الثاني أبو السعود حيث قال : هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة، اثلاً يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظلمة . ويظهر أنه يمتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً. فليست الجملة معطوفة على (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل ، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً. كما في قوله تعالى (وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) فإن قيل : لِمَ خص (الظلمة) بالذكر، مع أنه يترأى لكل أحد كذلك ؟ فكان الظاهر (الرأى) بدله. وأجيب بأنه إنما قيده به ولم يطلقه لقوله (وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ) الخ، لأنه من تنمة أحوال المشبه به . وهو أبلغ . لأن خيبة الكافر أدخل وأغرق . ونحوه (١) .

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الخ ، فإن الكافرين هم الذين يذهب حرثهم بالكلية . يعنى أنه شبه أعمال الكفار التي يظنونها نافعة ، ومآلها الخيبة ، برؤية الكافر الشديد العطش في المحشر ، سراباً يحسبه شراباً ، فينتظم عطف (وجد الله) أحسن انتظام كما نوره . كذا في (الكشف) الثالثة - قال الشهاب : وهذا تشبيه بليغ وقع مثله في قول مالك بن نويرة :

أَمَرِي إِنِّي وَابْنُ جَارُودٍ كَالَّذِي أَرَأَقَ شُعَيْبَ الْمَاءِ وَالْأَلُ يَبْرُقُ
فَلَمَّا أَنَاهُ ، خَيْبَ اللَّهُ سَعِيَهُ فَأَمْسَى يَفُضُّ الطَّرْفَ عِيَانٌ يَشْهَقُ
ثم أشار تعالى إلى تمثيلهم بنوع آخر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ » أى عميق كثير الماء « يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ » أى متراكم بعضه على بعض « مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ » أى متكاثفة متراكمة . وهذا بيان لسكال شدة الظلمات « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ » أى وجعلها برأى منه ، قريبة من عينه لينظر إليها « لَمْ يَسْكَدْ بِرَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » أى : ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذى هو القرآن ، فاله هداية ما . وهذا فى مقابلة قوله تعالى فى مثل المؤمنين (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) والجملة تقرير للتمثيل قبل ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم ، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك ، قال تعالى ^(١) (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

لطيفة :

قال ابن كثير : هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار . كما ضرب للمنافقين فى أول البقرة مثلين : نارياً ومائياً . وكما ضرب لما يقرّ فى القلوب من الهدى والعلم ، فى سورة الرعد ، مثلين مائياً ونارياً .

ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شيء . فمثلهم كالسراب . والثانى لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم ، الذين لا يعقلون . فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال فى المثل للجاهل (أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري) انتهى .

وما ذكره مما يحتمله اللفظ الكريم ، وليس بمتمعين . ومستنده فى ذلك ما ذكره شيخه الإمام ابن القيم ، عليهما الرحمة والرضوان ، فى (الجيوش الإسلامية) ولا بأس بإيرادها لما اشتملت عليه من بدائع الفوائد . قال : انظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بنى آدم أتم

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

انتظام ، واشتملت عليه أكل اشتمال . فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى ، وأن كل ما عارضه فشبّهات يشتهبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها ، فيظنها شيئاً له حاصل فينتفع به . وهي كسراب بقيمة الخ ، وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول ﷺ في أخباره ، ولم يعارضوها بالشبهات . وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشبهوات . فلام في علمهم من أهل الخوض الخرافيين ^(١) (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) ولا هم في علمهم من المستمتمين بخلافهم ، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون . أضاء لهم نور الوحي المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون . وفي ضلالهم يتهمون . وفي ريبهم يترددون . مقتربين بظاهر السراب ، محملين مجذبين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب ^(٢) (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّاهُمْ بِبَالِغِيهِ) أوجبه لهم اتباع الهوى ، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

القسم الثاني - أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم . الذين قال الله ^(٣) تعالى فيهم (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) وهؤلاء قسمان : أحدهما ، الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال . فهؤلاء أهل الجهل المركب ، الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويمادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله . وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون . فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه ، بمنزلة رائئ السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . وهكذا هؤلاء . أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه . ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال مَنْ أُمَّ السراب فلم يجده ماء . بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين . سبحانه وتعالى . فحسب له ما عنده من العلم والعمل ، فوفاه إياه بمثاقيل الذر . وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه .

(١) [٥١ / الذاريات / ١١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥٦] . (٣) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

فجعله هباءً منثوراً . إذ لم يكن خالصاً لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ . وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة ، كذلك هباءً منثوراً . فصارت أعماله وعلومه حشرات عليه . و (السراب) ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري و (القيقعة) و (القاع) هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد . فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله ، بسراب يراه المسافر في شدة الحر ، فيؤتمه ، فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب . فيحسبون أنه ماء . فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فَعَتَلُوهم إلى نار الجحيم فَسَقُوا ماء حميماً ، فقطع أمعائهم . وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع ، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميماً سقاهم إياه . كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يفي من جوع وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تفي من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله ^(١) فيهم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَمِيْعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْصِنُونَ صُنْعًا) وهم الذين عني بقوله ^(٢) (وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) وهم الذين عني بقوله ^(٣) تعالى (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِبَخَارٍ جِينَ مِنَ النَّارِ) .

والقسم الثاني من هذا الصنف ، أصحاب الظلمات . وهم المنغمسون في الجهل . بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً . فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى . (كظلمات) جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة الظلم واتباع الهوى وظلمة الشك والريب وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسوله صلوات الله وسلامه عليهم . والنور الذي أزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور . فإن المعرض عما بعث الله به تعالى محمد ﷺ

(١) [١٨/الكهف/١٠٣ و ١٠٤] . (٢) [٢٥/الفرقان/٣٣] . (٣) [٢/البقرة/١٦٧] .

من الهدى ودين الحق ، يتقلب في خمس ظلمات : قوله : ظلمة . وعمله ظلمة . ومدخله ظلمة . ومخرجه ظلمة ومصيره إلى ظلمة . وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم . وحاله مظلم . وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور ، جدّ في الحرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل :

خفافيش أعشاها النهارُ بَصَوْنِهِ ووافقها قَطْعُ من الليل مُظْلِمُ

وقوله تعالى (فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) اللجّيّ العميق . منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه . وقوله تعالى (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ) تصوير لحال المعرض عن وحيه . فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره ، بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق بعض . والضمير الأول في قوله (يَغْشَاهُ) راجع إلى البحر ، والضمير الثاني في قوله (مِنْ فَوْقِهِ) عائد إلى الموج . ثم إن تلك الأمواج مغطاة بسحاب . فهنا ظلمات : ظلمة البحر اللجّيّ ، وظلمة الموج الذي فوقه ، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله (إِذَا أُخْرِجَ) مَنْ فِي هَذَا الْبَحْرِ (يَدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا) واختلفت في معنى ذلك . فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها . وهو أبلغ من نفيه الرؤية . وإنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفي مقاربته . فكأنه قال لم يقارب رؤيتها بوجه .

قال هؤلاء : (كاد) من أفعال المقاربة . لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات . فإذا قيل : كاد يفعل ، فهو إثبات مقاربة الفعل . وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفى لمقاربة الفعل وقالت طائفة أخرى : بل هذا دالّ على أنه إنما يراها بعد جهد شديد . وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر ، لأجل تلك الظلمات : قالوا : لأن (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال . فإنها إذا أثبتت نفت . وإذا نفت أثبتت . فإذا قلت (ما كدت أصل إليك) فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة . فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت (كاد زيد يقوم) فهي نفى لقيامه . كما قال تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] .

ومنه قوله تعالى ^(١) (وَإِنْ يَكْذِبُوا نَبَأَ الْفُتُونِ بِأَبْصَارِهِمْ) وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً :

أُخْوِيَّ هَذَا الْعَصْرَ ! مَا هِيَ لَفْظَةٌ جَرَتْ فِي لِسَانِي جَرَّمُ وَتَمُودُ ؟
إِذَا اسْتَعْمَلْتُ فِي صُورَةِ النَّفْيِ أَثْبَتْتُ وَإِنْ أَثْبَتْتُ قَامَتْ مَقَامَ جُحُودِ
وقالت فرقة ثالثة ، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره : إن استعمالها مثبتة ، يقتضى نفي خبرها .
كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضى نفيه بطريق الأولى ، فهي عنده تنفي الخبر .
سواء كانت منفية أو مثبتة . (فلم يكذب زيد يقوم) أبلغ عنده في النفي من (لم يقيم) واحتج
بأنها إذا نفيت - وهي من أفعال المقاربة - فقد نفيت مقاربة الفعل . وهو أبلغ من نفيه .
وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضى مقاربة اسمها الخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر
عن مثل قوله تعالى ^(٢) (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) وعن مثل قوله (وصلت إليك
وما كدت أصل) و (سلمت وما كدت أسلم) بأن هذا وارد على كلامين متباينين . أى :
فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له ، فالأول يقتضى وجود العمل ، والثاني يقتضى أنه لم
يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه . فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها . فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة
الفعل . سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل . وإن كانت في طرف النفي ، فإن كانت بصيغة
المستقبل ، كانت لنفي الفعل ومقاربتة . نحو قوله (لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا) وإن كانت بصيغة الماضي
فهي تقتضى الإثبات نحو قوله (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) فهذه أربعة طرق للنجاحة
في هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضى المقاربة . ولها حكم سائر الأفعال . ونفي الخبر لم يستفد من
لفظها ووضعها . فإنها لم توضع لنفيه . وإنما استفيد من لوازم معناها . فإنها إذا اقتضت

(١) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٧١] .

مقاربة الفعل ، لم يكن واقعاً ، فيكون منفياً باللزم . وأما إذا استعملت منفية ، فإن كانت في كلام واحد ، فهي لنفي المقاربة . كما إذا قلت (لا يكاد البطل يفلح) و (لا يكاد البخيل يسود) و (لا يكاد الجبان يفرح) ونحو ذلك . وإن كانت في كلامين ، اقتضت وقوع الفعل ، بعد أن لم يكن مقارباً . كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق في أمرها .

والمقصود إن قوله (لَمْ يَكْدُ يَرَاهَا) إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر . فإذا كان لا يقارب رؤيتها ، فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :
إذا غَيَّرَ النَّائِيُ الْحَبِينُ لَمْ يَكْدُ رَسِيسُ الْهُوَى فِي حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ

أى لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟ فشبهه سبحانه أعمالهم أولاً ، في فوات نعمها وحصول ضررها عليهم ، بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد . فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه . وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها ، لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان ، بظلمات مترامية في لجج البحر المتلاطم الأمواج : الذى قد غشيه السحاب من فوقه . فياله تشبيهاً ما أبدعه ! وأشد مطابقتها بحال أهل البدع والضلال ! وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسول الله ﷺ وأنزل به كتابه ! وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزم . وكل واحد من السراب والظلمات ، مثل لمجموع علومهم وأعمالهم . فهي سراب لا حاصل لها ، وظلمات لا نور فيها . وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التى تلقاها من مشكاة النبوة . فإنها مثل الغيث الذى به حياة البلاد والبعاد . ومثل النور الذى به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلى في القرآن في غير موضع ، لأولياته وأعدائه . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ثم أشار تعالى إلى تعديل الدلائل على ربو بيته ووحدانيته في ألوهيته ، وظهور أمره وجلالته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ،

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ينزهه ويقدهه وحده ، أهلهما « وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ » أى يصففن أجنحتهن فى الهواء « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » أى كل واحد مما ذكر ، قد هدى وأرشد إلى طريقته ومسلكه ، فى عبادة الله عز وجل . فالضمير فى (علم) لكل . أو للفظ الجلالة ، كالضمير فى صلاته وتسبيحه .

قال الزمخشري : ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

وتقدم فى سورة الإسراء كلام فى تسبيح الجمادات ، فارجع إليه « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ « أى هو الإله الحاكم المتصرف فيهما ، الذى لا تنبغى العبادة فيهما إلا له ، وإليه يوم القيامة ، مصير الخلائق ، فيحكم بينهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَنِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى

الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ

فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُرُوه يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقِ سَحَابًا » أى يسوقها برفق . ومنه البضاعة المزجاة ، يزجها كل أحد . أى يدفعها لرغبته عنها ، أو لقدرة على سوقها وإيصالها « ثُمَّ يُؤَلَّفُ يَدْنَهُ » بضم بعضه إلى بعض . فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة « ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا » أى متراكماً بعضه فوق بعض « فَتَرَى الْوَدْقَ » أى المطر « يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وهى فرجه ومخارج القطر منه « وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ » قال ابن كثير : يحتمل المعنى : فيصيب بما ينزل من السماء من نوعى المطر والبرد رحمة بهم ويصرفه عن آخرين حكمة وابتلاء . ويحتمل المعنى : فيصيب بالبرد من يشاء نعمة لما فيه من نثر الثمار وإتلاف الزروع . ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم . انتهى .
وخلاصته أن الضمير إما للأقرب ، على الثانى ، أوله ولما قبله ، على الأول .

لطيفة :

قد ذكرت (من) الجارة فى الآية ثلاث مرات . فالأولى ابتدائية اتفاقاً . والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية ، على جمل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار . والثالثة فيها هذه الأقوال . وتزيد برابع ، وهو أنها لبيان الجنس . والتقدير : ينزل من السماء بعض جبال ، التى هى البرد .

« يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ » أى لمعانه « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » أى يخطفها لشدة وقوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)

« يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يأتى بكل منهما بدل الآخر خلفاًه . أو يأخذ من طول أحدهما فيجعله فى الآخر رحمة بالعباد ، لانتظام معاشهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٦] لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ » أى كل حيوان يدب على الأرض من ماء ، وهو جزء مادته . أو ماء مخصوص هو النطفة ، فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات ما لا يتولد من نطفة . وقيل : (مِنْ مَّاءٍ) متعلق بـ (دابة) وليست صلة (لخلق) « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » كالحياة . وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفاً ، بطريق الاستعارة أو المشاكلة « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى مما ذكر وغيره ، على من يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » * لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو صراط تلك الآيات ، صراط الحق والهدى والنور . وهم المؤمنون الصادقون الذين استجابوا لله والرسول ، وإذا دعوا إلى حكمهما استكانوا .

ثم أشار إلى ما كان يقع من المنافقين من أثر النفاق ، تحذيراً من صنيعهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَسْأَلُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ)

[٤٩] (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)

[٥٠] (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَقُولُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ »
 أى دعوى الإيمان « وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى فى قلوبهم . ثم برهن عليه بقوله
 « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ » أى كتابه « وَرَسُولِهِ » أى سنته وحكمه « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ »
 إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ « أى عن المجئ إليه « وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ » أى الحكومة
 لهم ، لا عليهم « يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ » أى مسرعين طائعين . وقوله تعالى « أَفِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ » أى فى الحكم
 فيظلموا فيه . قال أبو السعود : إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور . وبيان لنشئه
 بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والمتوقعة منهم . وترديد المنشئية بينها . فدار
 الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمة و (أم) من الأمور الثلاثة ، بل هو منشئتها له . كأنه
 قيل : أذلك ، أى إعراضهم المذكور ، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم ، أم لأنهم
 ارتابوا فى أمر نبوته عليه السلام ، مع ظهور حقيقتها ؟ أم لأنهم يخافون الحيف ممن يستحيل
 عليه ذلك ؟ إشارة إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة ، التى كل واحد منها كفر ونفاق .
 ثم بين اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم ، بقوله تعالى « بَلْ أُولَئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين رسخ فيهم خلق الظلم لأنفسهم ولنغيرهم . فلا يضرب انتقالي .
 والمعنى : دع هذا كله ، فإنهم هم الكاملون فى الظلم ، الجامعون لتلك الأوصاف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٥٢] (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

قال السيوطي في (الإكليل) : فيها وجوب الحضور على من دعى لحكم الشرع ، وتحريم الامتناع ، واستحباب أن يقول : سمعنا وأطعنا . انتهى .

ثم أشير إلى حكاية شيء من أحوال أولئك المنافقين الممتنعين عن قبول حكمه ، وذلك إقسامهم الكاذب ، ليستدل به على إيمانهم الباطن ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ » أى بالخروج من ديارهم وأموالهم وأهلهم « لَيَخْرُجُنَّ » أى مجاهدين . و (جهد) منصوب على الحالية . أو هو مصدر (لأقسموا) من معناه . وهو مستعار من (جهد نفسه) إذا بلغ وسما . أى أكدوا الأيمان وشددوها « قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً » أى لا تقسموا على ذلك وتشددوا لترضونا . فإن الأمر المطلوب منكم طاعة معروفة ، لا تنكرها النفس . إذ لا حرج فيها . فأطيعوا بالمعروف من غير حلف ، كما يطيع المؤمنون . وقيل : معناه طاعتكم معروفة . أى أنها قول بلا عمل .

إذ عرف كذبكم في إيمانكم . كما قال تعالى ^(١) (يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) الآية وقال تعالى ^(٢) (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) الآية فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى ^(٣) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَ الْأُذُنَ الْأَذَى لَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ) وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الأعمال الظاهرة والباطنة ، التى منها الإيمان الكاذبة ، وما تضرعونه من النفاق ومخادعة المؤمنين ، التى لا تخفى على من يعلم السر وأخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تولوا عن الإطاعة « فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ » أى كلفه من أداء الرسالة . فإذا أدى فقد خرج من عهدة تكليفه . « وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » أى ما أمرتم به من الطاعة والتلقى بالقبول والإذعان والقيام بمقتضاه « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » أى لأنه يدعوكم إلى الصراط المستقيم . فإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى . وإن لم تفعلوا وتوليتهم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى التبليغ البين بنفسه ، أو الموضح لما أمرتم به .

(١) [٩ / التوبة / ٩٦] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ١٦] . (٣) [٥٩ / الحشر / ١١ و ١٢] .

ولما تضمن قوله تعالى (تَهْتَدُوا) إشارة إلى وعد كريم ومستقبل نعيم، استأنف التصريح به تقريراً له ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أي يورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم . أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أي من الأمم المؤمنة برسلها . التي أهلك الله عدوها ، وأورثها أرضها وديارها . كما فعل بني إسرائيل حين أورثهم فلسطين ، بعد إهلاك الجبابرة « وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ » أي فليجعلن دينهم ثابتاً مقرباً ، مرفوع اللواء ، ظاهراً على غيره ، قاهراً لمن ناواه .

قال أبو السعود : وفي إضافة (الدين) إليهم . وهو دين الإسلام ، ثم وصفه بارتضائه لهم ، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه ، وفضل تثبيت عليه « وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ » أي بعد هذا الوعد الكريم الموجب لتحصيل ما تضمنه من السعادتین « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أي الكاملون في فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العظيمة . وجسروا على غمطها .

تنبيه :

في هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه - مالا يخفى . فقد أنجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بمد بلاد المشرق والمغرب . ومزقوا ملك الأكسرة ، وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا ، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [٥٧] (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » معطوف على (أطيعوا الله) وما اعترض بينهما كان تأكيداً ، أو على مقدر يستدعيه السوق . أى : فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا . أو فلا تكفروا وأقيموا . إلخ . ثم كرر طاعة الرسول ، تأكيداً لوجوبها ، بقوله « وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى معجزين لله تعالى ، بل مدركون « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

ثم أشير إلى تمة الأحكام السابقة ، إثر تهديد ما يجب امتثاله من الأحكام ، ومن الترغيب والترهيب ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من العبيد والجواري « وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ » أى هى ثلاث عورات لكم . إشارة إلى علة وجوب الاستئذان بأنهن أوقات يحتل فيها التستر عادة ، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً . فلهجوم على أهل البيت فى هذه الأحوال ، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الإباء والكرهه « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ » أى ليس عليكم جناح فى ترك نهيبهم عن الدخول بلا إذن . ولا عليهم جناح من الدخول بدونه ، بعد هذه الأوقات ، وإن احتل فيها الإخلال بالتستر لندرتة . وذلك لأنهم طوافون عليكم ، فيعسر عليهم الاستئذان فى كل مرة « بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى بعضكم طائف على بعض طوفاً كثيراً . أو بعضكم يطوف على بعض .

قال الزمخشري : يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام . فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى إلى الحرج . « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » يشرع ما فيه الحكمة وصلاح الحال وانتظام الشأن .

تنبيه :

فى الآية إقرارٌ ماجرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت الظهيرة . وقد يستدل بها على أن كشف العورة فى الخلوة جائز . كذا فى (الإكليل) .

وقال الرازى : الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن . لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين : أحدهما بقوله تعالى (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) والثانى بالتنبية على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ماعداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلمة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ماعدا هذه الأوقات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ » أى الذين رخص لهم فى ترك الاستئذان فى غير الأوقات المذكورة « مِنْكُمُ » أى من الأحرار ، دون المماليك ، فإنهم باقون على الرخصة « الْحُلُمُ » أى حدة البلوغ بالاحتلام ، أو بالسنّ الذى هو مظنة الاحتلام « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » أى فى سائر الأوقات أيضاً « كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا) .

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن ، إلا فى العورات الثلاث . فإذا اعتاد الأطفال ذلك ، ثم خرجوا عن حدة الطفولة ، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التى يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يقطعوا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة . وهو عندهم كالشريمة المنسوخة . وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن . وإنى لأمر جارتى أن تستأذن على .

(١) [٢٤ / النور / ٢٧] .

وسأله عطاء : أستاذنُ على أختي ؟ قال : نعم ، وإن كانت في حجرِكَ تمونها . وتلا هذه الآية .

وعنه : ثلاث آيات جردهن الناس : الإذن كله . وقوله ^(١) (إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) فقال ناس : أعظمكم بيتاً . وقوله ^(٢) (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ) . كذا في (الكشاف) .

تفنيه :

قال في (الإكليل) : في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ . وأن البلوغ يكون بالاحتلام . وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا بالاستئذان ، كالأجانب . انتهى . وقال التقي السبكي في (إبراز الحكم ، في شرح حديث رفع القلم) : أجمع العلماء على أن الاحتلام يحصل به البلوغ في حق الرجل . ويدل لذلك قوله تعالى ^(٣) (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا) وقوله ﷺ في هذا الحديث ^(٤) (وعن الصبي حتى يحتلم) وهي رواية ابن أبي السرح عن ابن عباس . قال : والآية أصرح . فإنها ناطقة بالأمر بعد الحلم . وورد أيضاً عن علي رضي الله عنه ، رفعه (لا يُتم بعد احتلام ، ولا صلات يوم إلى الليل) ^(٥) . رواه أبو داود . والمراد بالاحتلام خروج المنى . سواء كان في اليقظة أم في المنام ، بحلم أو غير حلم . ولما كان في الغالب لا يحصل إلا في النوم بحلم ، أطلق عليه الحلم والاحتلام . ولو وجد الاحتلام من غير خروج منى ، فلا حلم له .

ثم قال : وقوله في الحديث (حتى يحتلم) دليل البلوغ بذلك . وهو إجماع . وهو

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) [٤ / النساء / ٨] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٩] . (٤) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ،

٢٢ - باب لا يرجم المجنون . من قول علي لعمر (من ترجمة الباب) .

(٥) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٩ - باب ما جاء متى ينقطع اليم ،

حديث رقم ٢٨٧٣ .

حقيقة في خروج المنى بالاحتلام ، ومجاز في خروجه بغير احتلام بقطة أو مناماً . أو منقول فيما هو أعم من ذلك . ويخرج منه الاحتلام بغير خروج منى ، إن أطلقناه عليه منقولاً عنه . ولكونه فرداً من أفراد الاحتلام . انتهى .

وفي (القاموس) : الحِلْمُ (بالضم) والاحتلام : الجماع في النوم . والاسم الحِلْم كعنفى . انتهى .

وقال الراغب : سمى البلوغ حلماً ، لكون صاحبه جديراً بالحِلْم : أى الأناة والعقل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ » أى اللاتي قعدن عن الحيض والولد ، لكبرهن « اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا » أى لا يطمعن فيه ، الرغبة الأنفس عنهن « فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ » أى الظاهرة مما لا يكشف العورة ، لدى الأجانب . أى يتركن التحفظ في التستر بها . فلا يلقين عليهن جلابيبهن ولا محتجبن « غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ » أى مظهرات لزينة خفية . بمعنى الحلى في مواضعه المذكورة في قوله تعالى^(١) (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُؤُولِهِنَّ) أو المعنى غير قاصدات بالوضع ، التبرج . ولكن المتخفف إذا احتجبن إليه « وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ » أى من وضع تلك الثياب « خَيْرٌ لَهُنَّ » لأنه أبلغ في الحياء وأبعد من التهمة والمظنة . ولذا يلزمهن ، عند المظنة ، ألا يضعن ذلك . كما يلزم مثله في الشابة « وَاللَّهُ

(١) [٢٤ / النور / ٣١] .

سَمِيعٌ عَلِيمٌ « أى فيسمع مقالهن مع الأجانب ، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب . وفيه من الترهيب ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ يُؤْتِكُمْ أَوْ يَمُوتَ أَوْ أَبَايَكُمْ أَوْ يُمُوتَ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ يُمُوتَ إِخْوَانِكُمْ أَوْ يُمُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُمُوتَ أَعْمَامِكُمْ أَوْ يُمُوتَ عَمَّاتِكُمْ أَوْ يُمُوتَ أَخَوَالِكُمْ أَوْ يُمُوتَ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَلِكَ يَمُنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فى القعود عن الغزو ، لضعفهم وعجزهم . وهذه الآية كالتى فى سورة الفتح وكآية براءة^(١) (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) وهذا ما ذهب إليه عطاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وزعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده ، مردود بأن المراد أن كلا من الطائفتين منفى عنه الحرج . ومثال هذا - كما قال الزخشرى^٢ - أن يستفتيك مسافر عن الإفطار فى رمضان . وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر . قلت له : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك ، يا حاج أن تقدم

(١) [٩ / التوبة / ٩١] .

الحلق عن النحر . يعنى أنه إذا كان فى العطف غرابة ، لبعد الجامع فى بادئ النظر ، وكان الفرض بيان حكم حوادث تقاربت فى الوقوع ، والسؤال عنها والاحتياج إلى البيان لكونها فى معرض الاستفتاء والإفتاء ، كان ذلك جامعاً بينها ، محسناً للعطف ، وإن تباينت .

قال الشهاب : وبهذا يظهر الجواب عن زعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده . لأن ملاءمته لما بعده قد عرف وجهها . وأما ملاءمته لما قبله فقير لازمة ، إذ لم يعطف عليه . انتهى . وقيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى الماهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها . نخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة فى ذلك . وخافوا أن يلحقهم فيه حرج . وكرهوا أن يكون أكلها بغير حق ، لقوله تعالى^(١) (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ) ف قيل لهم : ليس على الضعفاء ، ولا على أنفسكم ، يعنى عليكم ، وعلى من فى مثل حالكم من المؤمنين ، حرج فى ذلك .

وقيل : كان هؤلاء يتوقفون مجالسة الناس ومواكبتهم ، لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم . ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيه إليه وهو لا يشعر . والأعرج يتفلسح فى مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه ، فيضيق على جلسائه . والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم . فكانوا يتخرجون . ف قيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تخرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكره . ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفى الحرج عنه كله . ولا يستلزم نفي الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيه الصحيح فى غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه . بل يراد به حضوره مع

(١) [٢ / البقرة / ١٨٨] .

الصحيح على مائدة ، واختصاصه بقصة على حدة . وما أحسن عادة الافراد بالقصاع ، مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء في الاجتماع . وقوله تعالى « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ » أى بيوت أزواجكم وعيالكم . أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفقهاء .

وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم . فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء ، لأن الولد كسب والده ، وماله كماله . قال عليه الصلاة والسلام ^(١) (إن أطيّب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه) .

قال : والدليل على هذا ، أنه تعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد . لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة ، كان الذى هو أقرب منهم أولى . انتهى .

وعليه ، فلا يقال إنه ليس فى أكل الإنسان من بيت نفسه حرج ، فافائدة ذكره بأن المراد بالأنفس من هو بمنزلتها من العيال والأولاد ، كما فى قوله ^(٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) . وفى (الكشف) : فائدة إقحام النفس ، أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين ، ولا على الذاهبين إلى بيوت القربات ، أو من هو فى مثل حالهم وهم الأصديقاء - حرج .

وقيل إنه على ظاهره . والمراد إظهار التسوية بينه وبين قرأته .

قال الشهاب : وهو حسن . ولا يرد عليه أنه حينئذ لم يذكر فيه الأكل من بيوت الأزواج والأولاد ، لأنه داخل فى قوله (مِنْ بُيُوتِكُمْ) . انتهى .

« أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُ » يعنى أموال المرء ، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له ، أن

(١) أخرجه النسائى فى : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١ - باب الحث على الكسب ، عن عائشة

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] .

يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِ بَسْتَانِهِ وَيَشْرَبُ مِنْ لَبَنٍ مَاشِيتِهِ . وَمَلِكُ الْمَفَاتِحِ كُونَهَا فِي يَدِهِ وَحَفَظَهُ « أَوْ صَدِيقِكُمْ » أَى أَوْ يَبُوتُ أَصْدِقَائِكُمْ . وَالصَّدِيقُ يَكُونُ وَاحِداً وَجَمْعاً . وَكَذَلِكَ الْخَلِيطُ وَالْقَطِينُ وَالْعَدُوُّ . كَذَا فِي (الْكَشَافِ) .

قال الناصر : وَقَدْ قَالَ الزَّخْشَرِيُّ : إِنْ سَرَّ إِفْرَادَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) دُونَ الشَّافِعِينَ ، التَّنْبِيهِ عَلَى قِلَّةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَلَا كَذَلِكَ الشَّافِعُونَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْمِي لَهُ ، وَيَشْفَعُ فِي حَقِّهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً .

وَيَحْتَمِلُ فِي الْآيَتَيْنِ ، أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْجَمْعُ . فَلَا كَلَامَ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ الْإِفْرَادُ ، فَيَكُونُ سَرَّهُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قال الزَّخْشَرِيُّ : يَحْكِي عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ دَخَلَ دَارَهُ ، وَإِذَا حَلَقَهُ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَقَدْ اسْتَقَلُوا سَلَالاً مِنْ تَحْتِ سَرِيرِهِ ، فِيهَا الْخَبِيصُ وَأَطَايِبُ الْأَطْعَمَةِ ، وَهُمْ مَكْبُوتُونَ عَلَيْهَا بِأَنْ كَلُونَ فَتَهَلَّتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ سُروراً ، وَضَحِكَ وَقَالَ : هَكَذَا وَجَدْنَاهُمْ ، هَكَذَا وَجَدْنَاهُمْ . يَرِيدُ كِبَرَاءَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ لَقِيَهُمُ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَدْخُلُ دَارَ صَدِيقِهِ وَهُوَ غَائِبٌ ، فَيَسْأَلُ جَارِيَتَهُ كَيْسَهُ ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا شَاءَ . فِإِذَا حَضَرَ مَوْلَاهَا فَأَخْبَرَتْهُ ، أَعْتَقَهَا سُروراً بِذَلِكَ .

وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مِنْ عَظَمِ حَرَمَةِ الصَّدِيقِ ، أَنْ جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْثَقَّةِ وَالْإِنْبِطَاطِ وَطَرَحِ الْحَشْمَةِ ، بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ وَالْأَبِّ وَالْأَخِّ وَالْإِبْنِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : الصَّدِيقُ أَكْبَرُ مِنَ الْوَالِدَيْنِ . إِنْ الْجَهَنَّمِيِّينَ لَمَّا اسْتَفْتَاوْا لَمْ يَسْتَفْتِيْهُمَا بِالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ . فَقَالُوا ^(١) (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) . وَقَالُوا : إِذَا دَلَّ ظَاهِرُ الْحَالِ عَلَى رِضَا الْمَالِكِ ، قَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِذْنِ الصَّرِيحِ . وَرَبَّمَا سَمِعَ الْاسْتِثْنَاءَ وَثَقُلَ . كَمَنْ قَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَاماً ، فَاسْتَأْذَنَ صَاحِبَهُ فِي الْأَكْلِ مِنْهُ . انْتَهَى .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠ و ١٠١] .

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً » أى مجتمعين أو متفرقين . روى أن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف ، لا يأكلون إلا مع ضيفهم . وإن قوماً كانوا تخرجوا من الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس فى الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض . فأبيح لهم ذلك .

وقال قتادة : كان هذا الحى من بنى كنانة ، يرى أحدهم ، أن مخزاة عليه ، أن يأكل وحده فى الجاهلية . حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحقل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشار به . واشتهر هذا عن حاتم لقوله ^(١) :

إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِ لَسْتُ أَكِلَهُ وَخِذِي

قال الشهاب : وفى الحديث ^(٢) (شرب الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفته) والنهى فى الحديث لاعتياده بخلاً بالقرى ، ونفى الحرج عن وقوعه أحياناً ، بيان لأنه لا إثم فيه ، ولا يذم به شرعاً ، كما ذمّت به الجاهلية .

« فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » أى إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت

لتأكلوا ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ، قرابة ودينياً . قاله الزمخشري .

أشار رحمه الله ، إلى أن المراد بالأنفس من هم بمنزلتها ، لشدة الاتصال كقوله ^(٣) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ويحتمل أن المسلم ، إذا ردت تحيته عليه ، فكأنه سلم على نفسه .

كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله ، كأنه قاتل نفسه . وأما إبقاؤه على ظاهره ؛ لأنه إذا لم يكن فى البيت أحد ، يسره أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . كما روى عن ابن عباس — فبعيد غير مناسب لمعوم الآية . كذا فى (الشهاب) .

(١) من قصيدة مطلعها :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْأَسَدِ الْوَرْدِ

(٢) لم أقف عليه . (٣) [٤ / النساء / ٢٩] .

وقال الناصر : فى التعبير عنهم ، بالأنفس ، تنبيه على السر الذى اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان ، لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه ، لاتحاد القرابة . . فليطب نفساً بانسباط فيها « تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى ثابتة بأمر ، مشروعة من لدنه « مُبَارَكَةٌ » أى مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها « طَيِّبَةٌ » أى تطيب بها نفس المستمع « كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ما فيها من الأحكام أو الآداب القائمة إلى سعادة الدارين .

ولما أمر تعالى بالاستئذان عند الدخول ، أرشد إلى الاستئذان عند الانصراف من مجلسه صلوات الله عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشري : أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية ذهاب الذهاب من مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه . فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذِنوه ، ناث الإيمان بالله والإيمان برسوله . وجعلها كالتشبيب له والبساط لذكركه . وذلك مع تصدير الجملة (إنما) وإيقاع المؤمنين مبتدأ

مخبراً عنه بموصول ، أحاطت صلته بذكر الإيمانيين . ثم عقبه بما يزيد توكيداً وتشديداً ، حيث أعاده على أسلوب آخر ، وهو قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) وضمه شيئاً آخر . وهو أنه جعل الاستئذان كالصداق لصحة الإيمانيين ، وعرض بحال المؤمنين وتسليمهم لوأذاً . ومعنى قوله (لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ) لم يذهبوا حتى يستأذنوه وبأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بعشيته وإذنه لمن استقصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذى يجمع له الناس . فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز . وذلك نحو مقاتلة عدو ، أو تشاور فى خطب مهم ، أو تضام لإرهاب مخالف ، أو تسامح فى حلف وغير ذلك . أو الأمر الذى يعم بضرره أو نفعه وقرئ (أمر جميع) . وفى قوله (وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ) أنه خطب جليل ، لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوى رأى وقوة ، يظاهرونه عليه ويماونونه ، ويستقضىء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم ، فى كفايته . ففارقة أحدهم فى مثل تلك الحال ، مما يشق على قلبه ، ويشمت عليه رأيه فمن ثم غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر فى الاستئذان ، مع العذر المبسوط ، ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم ، وذلك قوله (لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) وذكر الاستغفار للمستأذنين ، دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ، ولا يستأذنوا فيه .

وقيل : نزلت فى حفر الخندق . وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغى أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدمهم فى الدين والعلم ، يظاهرونهم ولا يحدثونهم فى نازلة من النوازل ، ولا يتفرون عنهم ، والأمر فى الإذن مفوض إلى الإمام . إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن . على حسب ما اقتضاه رأيه . اهـ .

تنبيه :

استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام . وتسمى هذه المسألة مسألة التفويض . وهى مبسطة فى الأصول ، وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

« لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » أى إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر ، فدعاكم ، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه . ولا تقيسوا دعاءه بإياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي ، قال الزمخشري .

وكذا قال ابن الأثير في (المثل السائر) أى إذا حضرتكم في مجلسه ، فلا يكن حضوركم كحضوركم في مجالسكم . أى لا تفرقوا مجلسه إلا بإذنه ، والزموا معه الأدب .

وذهب قوم إلى أن المراد بالدعاء الأمر . منهم ابن أبي الحديد حيث قال في (الفلك الدائر) : إن المعنى المتقدم ، وإن دلت عليه قرينة مقدمة ، كما قال ابن الأثير - ففي الآية قرينة أخرى متأخرة تقتضى حمله على محمل آخر غير هذا . ولعله الأصح . وهى أن يراد بالدعاء الأمر . يقال : دعافلان قومه إلى كذا ، أى أمرهم به وندبهم إليه . وقال سبحانه ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى ندبكم . وقال سبحانه ^(٢) (وَإِذْ كَلَّمَا دَعَوْهُمْ لِيُتُوبُوا) أى أمرتهم وندبهم ، والقرينة المتأخرة قوله ^(٣) (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) انتهى . وكذا قال المهايى : أى لا تجعلوا أمره بينكم كأمركم بينكم .

يجاب تارة دون أخرى . لأنه واجب الطاعة . لا يسقط بالانسلال عن جملة الدعوة .

« قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا » أى ينسلون قليلاً قليلاً . (واللواذ) الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذلك وذلك بهذا . يعنى ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة ، واستتار بعضهم ببعض . و (لواذاً) حال . أى ملاوذين .

(١) [٨ / الأثقال / ٢٤] . (٢) [٧١ / نوح / ٧] . (٣) [٢٤ / النور / ٦٣] .

هذا ، وقيل معنى الآية : لا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرة . ولكن بلقبه المعظم . مثل : يا نبي الله ! يا رسول الله ! مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

وضعف بأنه لا يلائم السياق والحقاق . وتكلف بعضهم لربطه بما قبله ، بأن الاستئذان يكون بقولهم : يا رسول الله ! إنا نستأذك . ولأن من معه في أمر جامع يخاطبه ويناديه . والأول أظهر وأولى كما في (العناية) .

نعم ، في التنزيل عدة آيات ، في إيجاب مشافهته صلوات الله عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير ، وجعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه . كآية ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا) الآية ^(٢) و (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) إلى قوله ^(٣) (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أي يمرضون عنه ولا يأتون به . فضمن (المخالفة) معنى الإعراض والصد . أو عن صلته . وقيل : إذا تعدى (خالف) : (عن) ضمن الخروج . وأصل معنى المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، كما قاله الراغب « أَنَّ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ » أي محنة في الدنيا « أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي في الآخرة أو فيهما .

تنبيه :

استدل به على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته ، وأصول دينه . فوافق قبل ، وما خالف رد على قائله وفاعله ، كأننا من كان . كما ثبت في الصحيحين ^(٤) عنه صلوات الله

(١) [٢ / البقرة / ١٠٤] - (٢) [٤٩ / الحجرات / ٢] - (٣) [٤٩ / الحجرات / ٤]

(٤) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٠ - باب إذا اجتهد العامل أو

الحاكم فأخطأ (في ترجمة الباب) .

عليه وسلامه (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) واستدل بالآية أيضاً أن الأمر للوجوب . فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين . قيل : هذا إنما يتم إذا أريد بالأمر الطلب لا الشأن كما في قوله (عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ) وقد جوزا فيه ، مع إرادتهما معاً . وتفصيل البحث في (الرازي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » أيها المكلفون من المخالفة والموافقة ، والنفاق والإخلاص . وإنما أكد علمه بـ (قد) لتأكيد الوعيد . « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أي فلا يخفى عليه خافية . لأن الكل خلقه وملكه . فيحيط علمه به ضرورة . (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(١) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ

الجمهور على أنها مكية . وعن الضحاك : مدنية . وعن بعضهم : مكية إلا ثلاث آيات^(١) (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ) إلى (رَحِيمًا) .

قال المهايى : سميت بالفرقان لاشتغالها على أنه ظهر كثرة خيرات الحق بالفرقان ، الذى هو التمييز بين الحق والباطل . والأظهر أنه لذكره فيها بمائيه الآتية التسم لها اللفظ لا خصوص ما ذكره ، وآياتها سبع وسبعون .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨ - ٧٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

يحمد تعالى نفسه الكريمة ويثنى عليها ، لما أنزله من الفرقان ، كما قال ^(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » الآية .

قال الزمخشري : (البركة) كثرة الخير وزيادته . ومنها (تَبَارَكَ اللَّهُ) وفيه معنيان : تَزَايَدَ خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه ، في صفاته وأفعاله . و (الْفُرْقَان) مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما . وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصلاً بمضه عن بعض في الإنزال . ألا ترى إلى قوله ^(٢) (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا) انتهى .

قال الناصر : والأظهر ههنا هو المعنى الثاني . لأن في أثناء السورة بعد آيات ^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) قال الله تعالى (كَذَلِكَ) أى أنزلناه مفروقاً كذلك (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - والله أعلم - . كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد . انتهى .

قال أبو السعود : وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان ، لتشريفه والإيذان بكونه في أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل ؛ ردّاً على

(١) [١٨/الكهف/٢١] . (٢) [١٧/الإسراء/١٠٦] . (٣) [٢٥/الفرقان/٣٢] .

النصارى ، والسكنانية فى (لىكون) للعبء أو للفرقان . و (النذير) صفة بمعنى منذر ، أو مصدر بمعنى الإنذار ، كالنكر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) أى أحسنه إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية لما أريد منه . تخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة . وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة . بأمثلة الحكمة والتدبير لأمرها ، ومصلحته مطابقاً لما قدر له ، غير متجاف عنه . ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة ، تأثره بالبرهنة عليهما ، وتضليل الخالفين فيهما ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) أى لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إمامة أحد وإحياء أولاً وبمته ثانياً . ومن كان كذلك فبمزل عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء . أفاده القاضى .

قال الشهاب : قدم الموت لمناسبته للضرر المتقدم . وفسر الموت والحياة بالإيمانه والإحياء والإنشاز ، إما بياناً لحاصل المعنى ، لأن ملك الموت له القدرة على الإيمانه ، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال . كما في قوله ^(١) (أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

[٥] (وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا » أى يجعل الصدق إفكاً ، والبرى عن الإعانة معيناً « وَزُورًا » أى باطلا لا مصداق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » أى ماسطروه ، كتبها لنفسه وأخذها « فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ » أى تلقى عليه ليحفظها « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى دائماً .

قال ابن كثير : وهذا الكلام ، لسخافته وكذبه وبهته منهم ، يعلم كل أحد بطلانه . فإنه قد علم بالضرورة : أن محمداً رسولاً ﷺ ، لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره . وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ، إلى أن بعثه الله نوحاً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته . وبعدة عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرديئة ، حتى إنهم كانوا يسمونه فى صفه ، وإلى أن بعث با (لأمين) لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمهم الله بما أكرم به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التى يعلم كل عاقل براءته منها . وحاروا بما يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر . وتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : مجنون . وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى ^(٢) (أَنْظِرْ)

(١) [٧١ / نوح / ١٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٤٨] و [٢٥ / الفرقان / ٩] .

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) وقال تعالى في جواب ما افتروه هنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الخفى فيها . إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى . ومن مقتضاه رحمته إياهم بإزاله ، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره . وفى طيه تهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبي عليه الصلاة والسلام ، مع ما يتقولونه ويفترونه ، لا يعزب عن علمه . فسيجزى بهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم ، وسموق حقه وظهور أمره « إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم ، مع استيجابهم إياها . أى فهو يعمل ولا يماجل لمغفرته ورحمته . أو الوصفان كفاية عن كمال قدرته على الانتقام منهم . لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر . هذا ما يستفاد من (الكشاف) ومن تابعه ، لبيان مطابقة ذلك لما قبله .

وقال ابن كثير : قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهو لاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، بدعواهم سبحانه إلى التوبة ، والإفلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى . كما قال تعالى ^(١) (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثُلَاثَةٍ . وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) [٥ / المائدة / ٧٣ و ٧٤] . (٢) [٨٥ / البروج / ١٠] .

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود .
قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

ثم أشار تعالى إلى تعنتهم بخصوص المنزل عليه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا)

« وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » أى كما نأكل « وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ »
أى يتردد فيها لشؤونه كما نمشي . قال الزمخشري : يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً
مستغنياً عن الأكل والتميش . أى فيخالف حاله حالنا . قال أبو السعود : وهل هو
إلا لعمهم وركاكة عقولهم ، وقصور أنظارهم على المحسوسات . فإن تميز الرسل عن عداهم
ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية . كما أشير إليه بقوله تعالى ^(١) (قُلْ إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً ، إلى اقتراح أن يكون
إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار فقالوا « لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا »
ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز ، إن لم يرفد بملك ، فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)

« أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ » أى من السماء يستظهر به ، ولا يحتاج إلى طلب المماش ،
ويكون دليلاً على صدقه . ثم نزلوا فاقنعوا باقتراح ما هو أيسر منه ، فقالوا « أَوْ تَكُونُ لَهُ »

(١) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » أى بستان يرتقى منه « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
مُسْحُورًا » أى مغلوباً على عقله . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » استعظام للأباطيل التى اجتروا على التفوه بها .
والعجب منها . أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول « فَضَلُّوا
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى القدح فى نبوتك ، بأن يجدوا قولاً يستقرون عليه . أو فَضَلُّوا
عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه .

قال ابن كثير : كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال ، حيثما توجه . لأن
الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

ثم نبه تعالى على أنه إن شاء آتاه خيراً مما يقترحون ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا » أى إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا . وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك
فى الآخرة من الجنات والقصور . ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لا للهال .
وليصدق بأن الأمر مبنى على النظر والاستدلال ، لا ما يلهى المشاعر والخيال . مما يتطرق
إلى الشغب فيه الجدال ، فسبحان الحكيم المتعال . وقول تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ » إضراب انتقالي عن توبيخهم بحكاية جنائهم السابقة ، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جنائهم الأخرى ، للتخلص إلى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها ، من فنون العذاب ، بقوله « وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الاستمرار ، أى التوقد والالتهاب .

وقيل : هذا الإضراب عطف على ما حكى عنهم وهو (وقالوا ما لهذا الرسول) على معنى : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة . والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً . فإن جراتهم على التكذيب بها ، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها ، أعجب من القول السابق .

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قيل : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ؟ وكيف يصدقون بتمجيل ما وعدك الله فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟ ثم وصف تعالى السعير بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهُمْ تَغِيْظًا وَزَفِيرًا)

« إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهُمْ تَغِيْظًا وَزَفِيرًا » أى إذا كانت برأى منهم (أى قريبة منهم) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم ، للإيدان بأن التغيظ والزفير منها ، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ، حقيقة أو تمثيلاً . و (من) فى قوله (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) إشاراً بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة ، حين رآتهم ، خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة . وفيه مزيد تهويل لأمرها . أفاده أبو السعود . و (التغيظ)

إظهار الغيظ وهو أشد الغضب ، وقد يكون مع صوت كما هنا . شبه صوت غليانها بصوت المغناط وزفيره ، وهو صوت يسمع من جوفه ، تصريحاً أو مكنياً أو تمثيلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)

[١٤] (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

« وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ » أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا » أى هلاكاً . أى نادوه نداء المتمنى الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت . فيقال لهم « لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » لكثرة أنواعه المتوالية . فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين . أو كثرته باعتبار تجدد أفراده وإن كان متحداً . أو كثرته كفاية عن دوامه . لأن الكثير شأنه ذلك كما قيل فى ضده ^(١) (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) وقيل : وصف الثبور بالكثرة ، لكثرة الدعاء أو الدموع به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا)

[١٦] (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا)

« قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا » أى حقيقاً أن يسئل ويطلب ويتنافس فيه . وما فى (على) من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ، أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ

عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

[١٨] (قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ

وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَاءِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ » أى الله تعالى للمعبودين ، تقریباً

لعبدتهم « أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » أى عن السبيل بأنفسهم ،

لإخلاقهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد « قَالُوا سُبْحَانَكَ » تعجباً مما قيل لهم .

لأنهم إما ملائكة معصومون أو مجادات لا قدرة لها على شيء . أو تنزيهاً له عن الأنداد

« مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى نعبدهم . فإنى يتصور أن نحمل

غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، أو (من أولياء) أى أتباعاً للعبادة « وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَعَاءِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ » استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون ، بعد بيان تنزيههم

عن إضلالهم . وقد نى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة .

أى ما أضللناهم . ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها . فانهمكوا

في الشهوات حتى نسوا الذكر ، أى ذكرك . أو التذكر فى آلائك ، والتدبر فى آياتك ،

فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم ، ذريعة إلى الفوابة - أفاده أبو السعود « وَكَانُوا قَوْمًا

بُورًا » أى هالكين . ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبديهم وإلزامهم ما بيبكهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ

يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)

« فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ » أى المعبودون ، أيها الكفرة « بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . أو فى قولكم هؤلاء أضلونا « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » أى ما تملكون (صَرْفًا) أى دفماً للعذاب عنكم بوجه ما « وَلَا نَصْرًا » أى لأنفسكم من البوار « وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ » أيها المكفون ، كدأب هؤلاء « نَذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا » . ثم أجاب عن شبههم السابقة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)
« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ »
أى ليجتاجون إلى التغذى بالطعام ويتجولون فى الأسواق للتكسب والتجارة . وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم . فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكامة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاءوا به من الله . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (١)
(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) وقوله (٢) (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح ، خلافاً لمن كرهها لهم .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨] .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا »
قال الزمخشري: هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه
في الأسواق . بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل . يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على
ابتلاء بعضكم ، أيها الناس ، ببعض . والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم . وبمناصبتهم
لهم العداوة . وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذامهم ، وطلب منهم الصبر الجميل .
ونحوه ^(١) (وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وفي قوله تعالى (وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا » زيادة تسليية وعدة جليلة . أي هو عالم فيما يبتلى به وغيره ، فلا يضق صدرك . فإن
في صبرك سعادة وفوزاً في الدارين .

ثم أشار إلى نوع آخر من أقاويلهم الباطلة ، وإبطالها ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا

لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أي الرجوع إليه بالبعث والخرش « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
الْمَلَائِكَةُ » أي للرسالة ، أو لتخبرنا بصدق محمد صلوات الله عليه « أَوْ نَرَى رَبَّنَا » أي
فيخبرنا بذلك « لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي في شأنها حتى تفوهوا بمثل هذه العظيمة
« وَعَتَوْا » أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان « عُتُوًّا كَبِيرًا » أي بالغاً أقصى غايته .
حيث أملوا رتبة التكليم الرباني من غير توسط الرسول والملك . ولم يكتفوا بهذا الذكر
الحكيم والخارق العظيم .

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا)

« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ » أى عند الموت أو فى القيامة « لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أى كما كانوا يقولون عند لقاء العدو وشدة المنازلة (حجراً) أى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجراً و(محجوراً) تأكيداً (حجراً) وقيل هو من قول الملائكة ! ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى جعل الله ذلك حراماً عليكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

« وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ » أى مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة ، ويروونه من مكارمهم « فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » أى مثل الغبار المنثور فى الجوّ ، فى حقارته وعدم نفعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)

[٢٥] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)

« أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » أى ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم . فيخرب العالم بأسره . و(الباء) بمعنى (مع) أى مع السحب الجوية . أو بمعنى (عن) أى تنفطر عن الغمام الذى يسود الجو ويظلمه ، ويغم القلوب مرآه « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » فيحيطون بالخلائق فى المحشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)

[٢٧] (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

[٢٨] (يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

[٢٩] (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا)

«الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ» أى فلا يدعيه ثم غيره . ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا» وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ «أى تشتد حسراته وتتصاعد زفراته » يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا « يعنى من أضله عن الذكر ، وصدّه عن سبيل الله » لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ « أى القرآن ، أو موعظة الرسول » إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا «أى مبالغاً فى إحضاله ، يعمده ويعنيه فى الدنيا ، ما يحسره عليه فى المقبي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)

« وَقَالَ الرَّسُولُ » أى إثر ما شاهد من عتوهم وعنادهم « يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » أى متروكا ، معرضاً عنه . وجملة (وقال الرسول) عطف على (وقال الذين لا يرجون) وما بينهما اعتراض ، سبقت لا انتظام مآقوله وطلب النصر عليهم واستئزال الفرج الإلهي مما أضافوا به الصدور ، وجلبوه من الكدور ، وللإشارة إلى ما يحقق بهم من شقاء الدارين .

تنبيه :

الآية ، وإن كانت في المشركين ، وإعراضهم هو عدم إيمانهم ، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المرضين عن العمل به ، والأخذ بأدابه . الذي هو حقيقة الهجر . لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك . إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها . ولا يتدبرها إلا من يقوم بها . ويتمسك بأحكامها .

ومن (فوائد) الإمام ابن القيم رحمه الله . قوله في هذه الآية : هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس . هجر الاستشفاء والتداوى به في جميع أمراض القلوب وأدائها . فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به .

قال : وكل هذا داخل في هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض . انتهى . وفي (الإكليل) : إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاذه بالقراءة فيه . وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم . ثم قال : وفيه من التحذير ما لا يخفى . فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم يُنظروا . ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لنبيه ، وتسلية له ، ووعداً بالنصرة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا » أى إلى ما يبلغك ما تتمناه « وَنَصِيرًا » أى لك على كل من يناوئك . ثم أشار تعالى إلى مقترح خاص بالتزليل الكريم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)

[٣٣] (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » أى دفعة واحدة فى وقت واحد . وقد بين سبحانه بطلان هذه الماراة الحمقاء بقوله « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » أى نقويه به على القيام بأعباء الرسالة ، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة . فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبث للهمة وأثبت للزعمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » أى فصلناه تفصيلا بديعاً ، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده .

قال الفاشانى : الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر ، مدة يمكن فيها ترسخه فى قلبه ، وأن يصير ملكة لا حالا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى الذى يجمع تلك الصفة . كما قال ^(١) (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى بياناً وهداية ، عناية بك

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٨] .

وبما أرسلت من أجله ، وخذلانا لأعداء الحق وخصوم الرشاد .

تنبيه :

يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة ، كنزول بقية الكتب جملة . ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة ، صحيح . فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التزيل له . والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له ، وليس عليه إثارة من علم ، ولا يصححه عقل . فإن تفريق الوحي وتعدد مدته بديهي الثبوت . لمقدار مكث النبي . إذا ما دام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة . ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحا لا مرية فيه . وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك . وما كل كلام معرض به . وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعت متفتن فيه . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

[٣٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)

[٣٦] (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * قُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » وهم فرعون وقومه . والآيات الخوارق التسع . أى فذهبا إليهم . فأرياهموها فكذبوها « فدمرناهم تدميرا » أى بالإغراق في البحر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ،

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)

[٣٩] (وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأُمُثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْمِيرًا)

« وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ » معنى نوحاً . وَجُمِعَ تعظيماً لرسالاته . أو هو ومن تقدمه عليهم السلام « أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا » معنى قوم هود « وَثَمُودَ » بالصرف وعدمه . قراءتان . على معنى الحى أو القبيلة « وَأَصْحَابَ الرِّسِّ » اسم بئر . ونبههم قيل : شعيب ، وقيل : غيره . ويروى هنا بعضهم آثاراً منكراً لا تصح . كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله . فلا يحل الجراءة على روايتها ، ولا تنزيل الآية عليها . لأنه من قفوا ما ليس للمرء به علم . ومثله يحظر الخوض فيه . « وَقُرُونًا » أى أقواماً « بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأُمُثَالَ » أى الأنباء التى تزجر عن الكفر والفساد « وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْمِيرًا » أى إهلاكا عظيماً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ،

بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا » أى أهلكت بالحجارة . وهى قرى قوم لوط « أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا » أى فى مرورهم ، ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ؟ وفيه توبيخ لهم على تركهم الذكر ، عند مشاهدة ما يوجب « بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » أى كفره ، لا يتوقعون عاقبة جزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)

[٤٢] (إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ

يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا)

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » أى يستهزئون

فائلين ذلك . والإشارة للاستحقار . لأن كلمة (هذا) تستعمل له . وعائد الموصول محذوف .

أى بعثه . و (رسولًا) حال منه « إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا » أى أنه كاد ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً ، لولا أن ثبتنا عليها .

قال الزمخشري : فيه دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم ، وبذل قصارى

الوسع والطاقة في استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم ، حتى شارفوا بزعمهم ،

أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاحهم واستمسكهم بعبادة آلهتهم « وَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا » جواب منه تعالى لآخر كلامهم . وفيه

وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال . ولا بد للوعيد أن يلحقهم ،

فلا يغرنهم التأخير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

« أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » تعجيب للنبي صلوات

الله عليه من شناعة حالهم ، بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشري : من كان في طاعة الهوى في دينه ، يتبعه في كل ما يأتي ويدر ، ولا يتبصر

دليلاً ، ولا يصنى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه . فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى

لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتتوكل عليه وتجبره

على الإسلام؟ وتقول لا بد أن تسلم، شئت أو أبيت . ولا إكراه في الدين . وهكذا كقوله^(١) (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) ^(٢) (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »
أى منهم . لأن الأنعام تصرف قواها إلى طلب ما ينفعها ، والنفرة مما يضرها . وهؤلاء عطلوا قواهم وهى العقول التى يهتدى بها للحق ، ويميز بها بين الخير والشر . ثم أشار تعالى إلى بعض دلائل التوحيد ، وما فيها من النعم العظمى الجديرة بأن تلقى بالشكر لا بالكفر ، كحال هؤلاء الكفرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » أى عجيب صنعه أن جعله يمتد ويندسط فينتفع به الناس « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » أى ثابتاً على حاله ، من الطول والامتداد . من (السكنى) أو غير متقلص من (السكون) بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فلم ينتفع به أحد « ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا » أى علامة يستدل بأحوالها في مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتاً فى مكان ، زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً . فيدنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه ، على حسب ذلك .

(١) [٥٠ / ق / ٤٥] . (٢) [٨٨ / الفاشية / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)

[٤٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)

« ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا » أى أزالناه بعد ما أنشأناه ممتداً ، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه « قَبْضًا يَسِيرًا » أى على مهل ، قليلاً قليلاً حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها . وفى هذا القبض اليسير ، شيئاً بعد شيء ، من المنافع مالا يمد ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة ، لتمطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً ، « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا » أى ساتراً كاللباس « وَالنَّوْمَ سُبَاتًا » أى راحة للأبدان تستعويض به ما خسرت من قواها « وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا » أى زمان انتشار لطلب المعاش .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً طَهُورًا)

[٤٩] (لِنُنْجِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ نُشْرًا » أى ناشرات للسحاب وفى قراءة (بشراً) بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين ، أى مبشرات « بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » أى قدام المطر . وهى استعارة بديمة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت . كقوله ^(١) (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) وجعلها بين يديه تنمة لها . لأن البشير يتقدم الم بشر به . ويجوز أن تكون تمثيلية . و (بشراً) من تنمة الاستعارة ، داخل فى جملتها . ومن قرأ (نشراً) كان تجريداً لها .

(١) [٩ / التوبة / ٢١] .

لأن النشرب يناسب السحاب « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » أى مطهراً ؛ لقوله ^(١) (لِيُطَهَّرَ كُمْ بِهِ) . وهذه الآية أصل في الطهارة بالماء .

قال القاضى : وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه ، وتتميم اللعنة فيما بعده . فإن الماء الطهور أهناً وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها ، فبواطئهم بذلك أولى « لِنُخْصِيَّ بِهِ بِلَدَّةٍ مَيِّتًا » أى بإنبات النبات « وَنُسْقِيَهُ » أى ذلك الماء « مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا » قال الكرخي : خص الأنعام بالذكر ، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر . ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض . فإنها سبب لحياتها وتميشها ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

[٥١] (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

[٥٢] (فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ » أى كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر « بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا « فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى كفران النعمة وجحودها « وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » أى نبيياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة . لكن لم نشأ ذلك ، فلم نفعله . بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ^(٢) (لِيَكُونَ لِلْعَامِلِينَ نَذِيرًا) . إجلالاً لك وتمظيلاً ، وتفضيلاً لك على سائر الرسل .

وقال المهابي : أى لكن لم نشأ . لأنه يقتضى تفرق الأمم ، وتكثر الاختلافات .

(١) [٨ / الأتقال / ١١] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١] .

نجملنا الواحد نذيراً للكل ليطيعوه أوفى تأملهم . والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أوتبركهم على ما هم عليه « فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ » أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر . ولا تطعمهم فيما يريدونك عليه . وأراد بهذا النهى ، تهيمجه وتهيميج المؤمنين ، وتحريكهم . أى إثارة غيرته وغيرتهم . وإلا فإطاعته لهم غير مقصورة .

وقال أبو السعود : كأنه نهى له ، عليه الصلاة والسلام ، عن المداراة معهم ، والتلطف معهم . أى لأن فى ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه ، وطول أمد فى سريانه . ولذا قال « وَجَاهِدْهُمْ بِهِ » أى بالقرآن وما نزل إليك من الحق « جِهَاداً كَبِيراً » أى لا يخالطه فتور ، بأن تلزمهم بالحجج والآيات ، وتدعوهم إلى النظر فى سائر الآيات ، لتنزول عقائدهم ، وتسمج فى أعينهم عوائدهم . وهذه الآية من أصرح الأدلة فى وجوب مجادلة الباطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن فى حاجتهم بأفانين الأدلة . فإن الحق يتضح بالأدلة . كما أن الشهور تشتهر بالأهلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً)

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان « هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة قامع للظما « وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أى بليغ الملوحة « وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً » أى حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر « وَحِجْراً مُّحْجُوراً » أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما فى الآخر مسافة .

لطيفة :

تلطف هنا المهامى فى تأويل الآية ، بمعنى يصلها بالآية قبلها ، فى أسلوب غريب . قال

رحمه الله (في قوله تعالى وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) : يؤثر في بواطنهم فيكون
 (كَبِيرًا) يفوق ما يؤثر في الظواهر (و) إن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من بوردشبهات
 تجاوزها ؟ قيل : غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين . وقد رفع الله الالتباس
 بينهما بعد ما جاور بينهما وهما عسوسان ، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ
 (هُوَ الَّذِي مَرَجَ) أى جاور (الْبَحْرَيْنِ) اللذين بينهما غاية الخلاف إذ (هَذَا عَذْبٌ
 فُرَاتٌ) أى قاطع للمعش وهو مثل بحر الدلائل المفيدة للذوق ، القاطعة عطش الطلب (وَهَذَا
 مِلْحٌ أُجَاجٌ) أى مبالغ في الملوحة . وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جدًّا لأهل الذوق
 (و) أما لأهل النظر فقد (جَمَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) أى ما نماً من الخلط . وهو النظر في مواد
 المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل (و) أما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التي
 لاجواب عنها ، كما أنه جمل بينهما (حِجْرًا) أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر (مَحْجُورًا)
 أى ممنوعاً أن يمنع . وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب
 ويتنفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج ، قيل : ليس هذا بالنظر إلى
 نفس الدلائل ، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب . وقد أوجد الله
 لإزالة المذرع عنه مثلاً ، في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَمَعَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا » أى كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم « فَجَعَلَهُ »
 أى البشر « نَسَبًا » أى أصلاً أو فرعاً أو حاشية لقوم « وَصِهْرًا » أى لآخرين يتعصب من
 أجل نسبه وصهره ، فيعتقد باطلهم حقاً . كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم
 « وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » أى وهو وإن صعب إزالته ، فإن ربك الذى أمرك بالجهاد الكبير ،
 قدير على إزالته . كما قدر في النسب والصهر . فلا يبالي المؤمنون لهما . انتهى كلام الهامى
 رحمه الله .

وهو منزع في باب الإشارة غريب ، أثرناه عنه للطفاته . وأما معنى الآية في عظيم اقتداره سبحانه ، حيث خلق البشر وقسمهم من نطفة واحدة قسمين ذوى نسب ، أى ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان . وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن ، فظاهر . ونظيره قوله تعالى ^(١) (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا)

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على عصيان ربه . والمراد بالكافر الجنس . فهو إظهار في مقام الإضمار ، لئلا كفرهم عليهم ، ولرعاية الفواصل الكريمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٥٧] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ الرسالة المفهوم من (أَرْسَلْنَاكَ) « مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى يتقرب إليه بالإيمان والطاعة . أى إلى رحمته أو جنابه . فاتخاذ السبيل ، مراد به لازم معناه . لأن من سلك طريق شيء ، قرب إليه ، بل وصل .

قال الزمخشري : مثال (إِلَّا مَنْ شَاءَ) والمراد : إِلَّا فعل من شاء . واستثنائه عن الأجر

(١) [٧٥ / القيامة / ٣٩] .

قولُ ذى شفقة عليك ، قد سعى لك فى تحصيل مالٍ : (ما أطلب منك ثواباً على ما سميت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضعيه) فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب . ولكن صورّه هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين : إحداهما - قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله . كأنه يقول لك : إن كان حفظك للمال ثواباً ، فإنى أطلب الثواب .

والثانية - إظهار الشفقة البالغة ، وأنتك إن حفظت مالك اعتدّ بحفظك ثواباً ورضى به ، كما يرضى الشاب بالثواب .

ولعمري إن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . انتهى . والاستثناء على هذا متصل ادعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا)

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ » أى فى دفع شرهم ومكرهم « وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا » أى علمياً لا يعزب عنه منها شيء ، فيجزئهم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

« الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى من أيامه تعالى ، أو أيام الخلق ، قولان للسلف « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » أى علا فوقه علواً يليق بجلاله المقدس . وتقدم تفسيره « الرَّحْمَنُ » مرفوع على المدح . أى هو الرحمن ، وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى ، كما قرئ بالجر . وقيل : الموصول مبتدأ والرحمن خبره . وقيل : الرحمن

بدل من المستمكن في «استموى» وقوله تعالى «فَاسْأَلْ بِهِ خَيْراً» فيه أوجه: منها (الباء) في (به) صلة (اسأل) ومنها أنها صلة (خيراً) و(خيراً) مفعول (اسأل) أى فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته . أو فسل رجلاً خيراً به وبرحمته . وعليه ففائدة سؤاله هو تصديقه وتأيمده .

قال الشهاب: ويصح تنازعهما - أى اسأل وخيراً - في الباء . وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب . وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية . وقد ذكره السعدى فى أواخر (شرح المفتاح) وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات . انتهى . ومنها أن الباء للتجريد . كقولك رأيت به أسداً . أى برؤيته . أى اسأل بسؤاله خيراً والمعنى : إن سألته وجدته خيراً .

قال فى (الكشف) : وهو أوجه ، ليكون كاللتميم لقوله (الَّذِي خَلَقَ) ، الخ فإنه لإثبات القدرة ، مدحاً فيه العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا [سجدة] وَزَادَهُمْ نُفُورًا)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ » أى من المسمى به ؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب ، تفنناً فى الإباء . أى وما هذه الأسماء والأعلام التى تصدعنا بها ، وتقرع آذاننا بالإذعان لها . « أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ » أى الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان « نُفُورًا » أى استكباراً عن الإيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » أى نجومًا أو هى البروج الاثنا عشر، التى ترى صورها فى الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية . « وَجَعَلَ فِيهَا مِرَاجًا » وهى الشمس « وَقَمَرًا مُنِيرًا » أى مضيئًا بالليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَنۡ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً » أى ذوى عقبه يعقب كل منهما الآخر « لِّمَنۡ أَرَادَ أَنۡ يَذَّكَّرَ » أى يفكر فيستدل بذلك على عظم قدرته « أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » أى يشكر على النعمة فيهما ، من السكون بالليل والتصرف بالنهار . ويكون فيهما بما يقتضيه ما خلقا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)

[٦٤] (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » أى هينين . أو مشيًا هينًا . أى بسكينة وتواضع . لا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون تبعًا لهم أثرًا وبطراً . « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله ، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم . سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)،

أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح . وكظم للغيظ . دفعا بالتى هي أحسن
 « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » أى يكون لهم في الليل فضل صلاة وإنابة ،
 كما قال تعالى (١) « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »
 وقوله (٢) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » الآية وقوله (٣) « أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ ءَانَاءُ اللَّيْلِ
 سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
 وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (والبيتوتة) لغة ، الدخول في الليل . يقال : بات يفعل كذا يبيت وبيات ،
 إذا فعله ليلاً . وقد تستعمار البيتوتة للكينونة مطلقاً . إلا أن الحقيقة أولى ، لكثرة ما ورد
 في معناها مما تلونا . ولذلك قال السلف : في الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله . وفي قوله
 (لِرَبِّهِمْ) إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم . لما أن ذلك هو الذى يستتبع
 أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله و(قياماً) جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »

[٦٦] « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ » إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا « أى
 هلاكاً دائماً . والمراد من قولهم ذلك ، فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتسكهم
 بالثقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى . لا مجرد قلقلة اللسان ، بلا تأثر من الجنان .
 فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ، ويتمودوا به من سعيها ، إلا لعلهم بسوء حالها . ومقتضى العلم
 بالشيء إيفاءه حقه والعمل بموجبه . ولذا قال تعالى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »
 أى موضع استقرار وإقامة .

(١) [٥١/الذاريات/١٧ و١٨] . (٢) [٣٢/السجدة/١٦] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أى لم يجاوزوا الحد في الإنفاق ، ولم يضيقوا على أنفسهم وأهلهم وما يعرفونهم بخلاً ولؤماً . بل كانوا في ذلك متوسطين ، وخير الأمور أوسطها .

قال الزمخشري : وصفهم الله بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير . وبمثله أمر رسول الله ﷺ (١) (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) . وروى الإمام أحمد (٢) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال (من فقه الرجل رفقه في معيشته) وأخرج أيضاً عن ابن مسعود (٣) قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وروى البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة) .

وعن الحسن : ليس في التفة في سبيل الله سرف . وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف . فقال : لا إسراف في الخير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)

[٦٩] (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا)

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٩] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٤٢٦٩ (طبعة المعارف) .

[٧٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » أى لا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، فالدعاء بمعنى العبادة « وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى حرّمها بمعنى حرّم قتلها . ومنه الواد وغيره « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الزيل لحرمتها وعصمتها « وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ » أى ما ذكر من هذه القبائح العظام « يَلْقَ أَثَامًا » أى يجد فى الآخرة جزاء إثمه « يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » أى ذليلاً محقراً جامعاً لعذابى الجسم والروح « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال الحافظ ابن كثير : وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وآية النساء^(١) (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) الآية ، فإن هذه ، وإن كانت مدنية ، إلا أنها مطلقة . فتحمل على من لم يتب . لأن هذه مقيدة بالتوبة . ثم قال تعالى^(٢) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الآية ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . كما ذكر مقررأ من قصة الذى^(٣) قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث . ثم قال : وفى معنى قوله تعالى (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) قولان : أحدهما - أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات . فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وكذا قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بمباداة الأوثان عبادة الرحمن ،

(١) [٤ / النساء / ٩٣] . (٢) [٤ / النساء / ٤٨] و [٤ / النساء / ١١٦] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ،

حديث رقم ١٦٢٩ ، عن أبى سعيد الخدرى .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٦ (طبعتنا) .

وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بفكاح الشركات فكاح المؤمنين . وكذا قال الحسن : أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح . وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وبالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً .

والقول الثاني : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح ، حسنات . وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ماضى ، ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . انتهى .
ولابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) في هذا المقام بسط حسن وتناظر متقن ، لا بأس بإيراده ، لعظم فائدته .

قال رحمه الله (بمدرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله) : وهاهنا مسألة ، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها . وهى أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ، فهل تحصى تلك السيئات وتذهب ، لا له ولا عليه ، أو إذا حمت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه ، من المفسرين وغيرهم ، قديماً وحديثاً . فقال الزجاج : ليس يحمل مكان السيئة الحسنة ، لكن يحمل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . قال ابن عطية : يجعل أعمالهم ، بدل معاصيهم الأولى طاعة . فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم ، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن . ورد على من قال هو في يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث في كتاب مسلم ^(١) من طريق أبي ذر يقتضى أن الله سبحانه يوم القيامة ، يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذى والطبرى . وهذا تأويل سمعته من السيب في هذه الآية .

قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . انتهى .

وسمى ذكر الحديث والكلام عليه .

وقال الثعلبى : قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد : (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) يبدلهم الله تقبيح أعمالهم في الشرك ، محاسن الأعمال في الإسلام . فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين ، قتل المشركين . وبالزنى ، عفة وإحصاناً .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعنا) .

وقال آخرون : يعنى يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم ، حسنات يوم القيامة . وأصل القولين ، أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة ؟ فن قال إنه في الدنيا ، قال هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها . وهي حسنات ، وهذا تبديل حقيقة . والذين نصرروا هذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا . فإنها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ، فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟

قالوا : وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله ^(١) (رَبَّنَا فَاعْفُرْ أَمَّا ذُنُوبُنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا) وقوله ^(٢) (وَيَمْحُورِ السَّيِّئَاتِ) وقوله ^(٣) (إِنَّ اللَّهَ يَمْحُورُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيح ^(٤) من حديث قتادة عن صفوان ابن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب ! أعرف قال : فإنى قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته) .

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل .

فهذا الحديث المتفق عليه ، والذي تضمن العناية بهذا العبد ، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة . ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة . فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٢٥] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

(٤) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، باب قول الله تعالى : ألا لعنة

الله على الظالمين ، حديث رقم ١٢٠١ .

وأخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٢ (طبعنا) .

وقد قال الله في حق الصادقين ^(١) (لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) فهو لا خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها . وأما السيئات ، أن تلغى ويبطل أثرها . قالوا : وأيضاً ، فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق القائب ، لكان أحسن حالا من الذي لم يرتكب منها شيئاً . وأكثر حسنات منه . لأنه إذا أساء شارك في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ، ثم انقلبت له حسنات ترجع عليه . وكيف يكون صاحب السيئات أرجح من لاسيئة له ؟ قالوا : وأيضاً فكأن العبد ، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها ، فإنها لا تنقلب سيئات يماقب عليها ، بل يبطل أثرها ويكون لاله ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها . فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها ، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم : وهكذا القائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته ، لم ننازعكم في هذا . وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضى ثواباً وجودياً . واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة ، بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون في السيئة المحققة . وهي التي قد فعلت ووقعت . فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة . قالوا : ولهذا قال تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فأضاف السيئات إليهم ، لكونهم باثروها واكتسبوها . ونكر الحسنات ولم يصفها إليهم ، لأنها من غير صنعهم وكسبهم ، بل هي مجرد فضل الله وكرمه قالوا : وأيضاً ، فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم . فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات . والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها ، كما قال تعالى ^(٢) : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) وأما ما كان من غير الفاعل ، فإنه يجعله من تبديله هو ، كما قال تعالى ^(٣) (فَبَدَّلْنَا هُمُ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات ، دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لأنهم فعلوه من تلقاء

(١) [٣٩ / الزمر ٣٥] . (٢) [٢ / البقرة ٥٩] . (٣) [٣٤ / سبأ ١٦] .

أنفسهم . وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .

قالوا: وبدل عليه مارواه (مسلم) ^(١) في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة . وآخر أهل النار خروجا منها . رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه . فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة) قالوا : وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة . فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة ، بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التي عملوا حسنات .

قالوا : وأيضا فالجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة ، بدلها الله من صف الحفظة ، حسنات جزاء وفاقا .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر ، على صحة قولكم ، وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات ، قد عذب عليه في النار ، حتى كان آخر أهلها خروجا منها فهذا قد عوقب على سيئاته . فزال أثرها بالعقوبة . فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه . فإن الكلام في التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب . فأين أحدهما من الآخر ؟ .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة ، فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة ، التي لولا الحسنة لحلت محلها .

قالوا : وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم ، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب . ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها ، مقارنا لكسبهم إياها بفضله ؟ .

قالوا : وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف ، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها ، فهذا لا دليل لكم . فإن الله خالق

(١) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعنا) .

أفعال العباد . فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلاً وكسباً .
قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكابدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم
أبدلها الله كذلك في صحف الأعمال . فهذا حق ، وبه نقول ، وإنه بدلت السيئات التي كانت
مهية ومعدة أن تحل في الصحف ، بحسنات جعلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ،
ومحط نظر الفريقين . وإليك أيها النصف الحكم بينهما . فقد أدلى كل منهما بحجته ، وأقام
بينته . والحق لا يعدوها ولا يتجاوزهما . فأرشد الله من أعان على هدى ، فنال به درجة
الداعين إلى الله ، القائلين ببيان حججه ودينه . أو عذر طالبا منفرداً في طريق مطلبه ، قد
انقطع رجاءه من رفيق في الطريق . فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وألا يقطع
عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه ، فقد رضى بالدون . وحصل على صفقة
المغبون . ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه ممرض ، ولا يقصدى له ممانع ، فقد منى نفسه
الحال . وإن صبر على لأوائها وشدتها ، فهو والله الفوز المبين ، والحظ الجزيل وما توفيق إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب .

فالصواب ، إن شاء الله في هذه المسألة ، أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب
حسنة . والحسنة إنما هي أمر وجودي يقتضى ثواباً ولهذا كان تارك النهيات إنما يثاب على
كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهى . وذلك الكف والحبس أمر وجودي وهو متعلق
الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً ، ولم يحدث به نفسه ، فهذا كيف يثاب على تركه ؟
ولو أئيب مثل هذا على ترك هذا الذنب ، لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله
وذلك أضاف حسناته بما لا يحصى . فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا
ينضببط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ وهذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون
أمراً وجودياً ، فالتائب من الذنوب التي عملها ، قد قارن كل ذنب منها ، ندماً عليه ، وكف
نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب ،
وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة ، قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض

المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة . والحسنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها ، فتوبته منها حسنة حلت مكانها . فهذا معنى التبديل . لأن السيئة نفسها تنقلب حسنة . وقال بعض المفسرين في هذه الآية : يطهيم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة . وعلى هذا ، فقد زال بحمد الله الإشكال . واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبي ذر ، وإن كان التبديل فيه في حق المصرّ الذي عذب على سيئاته ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته . فإن الذنوب التي عذب عليها المصرّ ، لما أزال أثرها بالعقوبة ، بقيت كأن لم تكن ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة . لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها ، مع العقوبة ، لا يقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح ، أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة ، حسنات ، فلاّن تبديل بعد زوالها بالتوبة حسنات ، أولى وأحرى . وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة . لأن التوبة فعل اختياريّ أتى به العبد طوعاً ومحبة لله وفرقاً منه . وأما العقوبة ، فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختاره ، بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب ، أعظم من تأثير المصائب التي تفاله بغير اختياره . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا)

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا » أي ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضياً عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للشواب . قرره الزمخشري .

والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلًا ، شرط في صحة التوبة وقبولها . وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح . فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان ، أو تخشع بأركان ، ولا عمل صالح له يرضى الرحمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

[٧٣] (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)

«وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» أى لا يحضرون الباطل. يقال (شهد كذا) أى حضره.

ف (الزور) مفعول به بتقدير مضاف أى محالّه . و (يشهدون) من الشهادة . فلزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أى شهادة الزور أو بالزور . وقد أشار الزخشرى للوجهين بقوله : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ولا يقرّبونها ، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه . لأن مشاهدة الباطل شركه فيه . ولذلك قيل فى النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة (هم شركاء فاعلمه فى الإثم) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه . لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ، ورغبته فى النظر إليه . ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور . انتهى وهى الكذب متعمداً على غيره قال المبردى (الكامل) : ويروى عن ابن عباس فى هذه الآية (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ)

قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور الغناء . فقيل لابن عباس : أو ما هذا فى الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور ^(١) (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » أى اتفق مرورهم بأهل اللغو ، وهو كل ما ينبغى أن يلقى وبطرح ، مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى ^(٢) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) ويدخل فى ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب ، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن (كراماً) جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى وعظوا بها وخوفوا « لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » أى بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، محتلين لها

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

بعميون راعية . وإنما عبر بنفى الضد ، تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها (الحرور) على تلك الحالة استعارة بديمة. لما فيها من إسقاطهم عن الإنسانية إلى البهيمية ، بل إلى أدنى منها ، لأنها تسمع وتبصر ، وقد نفيا عنهم .

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى ، وزيادة إيمانهم إذا تلى عليهم الذكر الحكيم ، آيات عديدة . ولذا قال قتادة فيهم : هم قوم عقلوا عن الله ، وانقمعوا بما سمعوا من كتابه . ويرحم الله الحسن البصري ، فقد قال : كم من رجل يقرؤها ، ويخرج عليها أصم أعمى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » أى أولاداً وحفدة ، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس ، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشرائع . و (قرة العين) إما من القر وهو البرد . لأن دمة السرور باردة ، ولذا قيل في ضده (أسخن الله عينه) أو من القرار لعدم النظر لغيره ، وجوز في (من) أن تكون بيانية وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات . وقوله تعالى « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » أى أئمة . اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ، مع رعاية الفواصل . أى يقتدى بنا في الخير . أو هداة دعاء إلى الخير . فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مكاباً . قال في (الإكليل) : في الآية طلب الإمامة في الخير . وفي (العجائب) للكرمانى : قال القفال وغيره من المفسرين : في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب . انتهى .

وكذا قال الزمخشري ، عن بعضهم : إن فيها ما يدل على أن الرياسة في الدين ، يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)

[٧٦] (خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

[٧٧] (قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المتصفين بما ذكر . خبر لـ (عباد الرحمن) أو مبتدأ خبره « يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » أى على مشاق المجاهدات فى الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على الخيرات ، واجتناب المحظورات . و (الغرفة) الدرجة العالية من المنازل فى الجنة « وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا » أى تحييمهم الملائكة وتسلم عليهم . أو يحيتي بعضهم بعضاً ويسلم عليهم . والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » لسلامة أهلها عن الآفات ، وخلودهم أبد الآباد . « قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » أى لا يبالى بكم ولا يقيمكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده . فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مر .

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم ، أو يتصور ، وقد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » أى بما جاءكم من الحق . أى وقد تلى عليكم سنة من كذب وأصر « فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » (اللزام) مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة . أى فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم ، أو الأمر الجليل ، أمر الرسالة ، لازماً وثابتاً . يفتح من الحق راجباً . وتدخل الناس فى دين الله أفواجا . ولقد صدق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده .

تم هذا الجزء بحمده تعالى ، ضحوة السبت فى ٨ صفر الخير ، فى سدة جامع السفانية ، بدمشق عام - ١٣٢٥ - بيد جامعه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سميد بن قاسم بن صالح ، القاسمى الدمشقى عفا عنه مولاه . آمين .

تم الجزء الثانى عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى ، الجزء الثالث عشر ، وفيه تفسير : (٢٦ - الشعراء ، ٢٧ - النمل ، ٢٨ - القصص ، ٢٩ - العنكبوت ، ٣٠ - الروم ، ٣١ - لقمان ، ٣٢ - السجدة ، ٣٣ - الأحزاب) .

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسي المسكي

مَحَاسِنُ التَّائِيْدِ

تَأْلِيفُ عَلَامَةِ الشَّامِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ — ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثالث عشر

وفيه تفسير : (من ٢٦ — سورة الشعراء إلى ٣٣ — سورة الأحزاب)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

بِحَقِّ دَفْعِ عَبْدِ الْغَنِيِّ

عيسى الباني الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراخ إليه ضمائرهما ، وتنمقد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيـف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيـام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المذنى
الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦ - سُورَةُ الشَّعْرَاءِ

هي مكية، إلاقوله تعالى^(١) «وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» إلى آخرها. وقوله^(٢) «أَوَّلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَآؤُا بَنِي إِسْرَآءِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة، رضى الله عنهم. وقال الداني: رُوِيَ بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية، مع كل واحد منهم جماعة. فالسورة على هذا كلها مكية. انتهى.

وقال المهيبي: سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء، لأن الشاعر، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية، وإن كان صادقا لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، انتهى.

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًا لفريتهم. ولما كان لفظ (الشعراء) عامًا، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له، لأنه نزل فيه خاصة دون غيره. وسيأتى، إن شاء الله تعالى، إيضاح ذلك. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. قال ابن كثير: وقع في تفسير مالك المروى عنه، تسميتها (الجامعة).

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّم)

« طسّم » سبق في سورة البقرة الأقوال في هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتعظيم ، وحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو بدل مما قبله . والمراد (الكتاب) القرآن . و(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَخِيعٌ » أى قاتل « نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

« إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً » أى ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتْ »

أَعَنَّمَهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ « أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتماً ، فلا وجه للطمع فيه ، والتألم من فواته . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» أى مكذبين، استهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر . وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء ، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه ، وبقاء أيامه . وفيه وعيد لهم بحلول الدل بهم، ونزول الصغار وقتئذ بدارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» أى صنف مرضى كثير النافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » لصرّفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم في هذه الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَفْئِدَتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَفْئِدَتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ » أى ليوازرني ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أى ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيِّتِنَا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ » وهو قتل القبطى ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَأَذْهَبَا بِمَا يَنْتَظِرَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ »
مزيد تسليية لهما ، بكال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ،
لميد أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .
ولو قيل هو كناية عن ذلك ، كان أولى . لجواز بقاء المعنى الحقيق معها ، وهو هنا كذلك .
فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ »
ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ »
يعنى قتل القبطى . « وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُمَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل .
أو الذاهبين عن صواب الحلم والعفو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ، فنجانى الله منكم، وزادنى إنعاماً « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال دعواك الربوبية، واستئصال شبه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ، ببيان أنها فى الحقيقة نعمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبيداً مسخرين فى شؤونه ، مذللين لأمواره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك مانا لهم ، إلا أنه لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذلال المجير) أى لا يفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى خواها تقريره بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة العالية التى من ورائها الفرج القريب ، والمخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود . وإنما عده جديراً بأن يتعجبوا منه ، لأنهم ، على ما حققه المؤرخون ، غلوا فى عبادة الأصنام وتعدد الآلهة غلوّاً أربوا على كل من سواهم فى الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوام ، وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما ، وإن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر ، بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل ، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة ، لا يقر بخالق ، ولا يعترف بمعبود .

لظاهر قوله ^(١) (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .
قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقراً بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالسكينة فيما يظهر . انتهى .
وقد منا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين .
وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الاكتناء ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته فى ربوبيته التى ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد فى الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمتة ، ويفغز جبروته ؛ وهذا هو الذى أذهب إليه ، فإن القوم بمغزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازى : السؤال بـ (ما) طلب لتعريف حقيقة الشيء . وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشيء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن الم عرف معلوم قبل الم عرف . فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمر الداخلى فيها ، فها هنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمر الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان الم عرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية . وأظهر آثار ذات واجب الوجود ، هو هذا العالم المحسوس ، وهو السموات والأرض وما بينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) فعنائه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَأَلَا تَسْتَمِعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعنى أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأننا إذا قلنا في الشيء أنه يلزمه اللازم الفلاني ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرفاً مجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه اللزومية الأولى محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثاني محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلاني ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية اللزومة ، لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك

الماهيات المختلفة في لوازم متساوية. ثبت أن التعريف بالوصف الخارجي ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة ، فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها ، فهي غنية عن الخالق والمؤثر . ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحالة أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحالة وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعني المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فمدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، وذلك لأنه أراد بالشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ، والأمـر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فكانه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته ، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته . فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته . ثم قال الرازي : وقد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى (١) : (وَهُوَ الْقَاهِرُ

فَوْقَ عِبَادِهِ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي ، هي غير معقولة للبشر . انتهى .
وقال الإمام ابن حزم في (المِلَل والنَحَل) في الكلام في المائة : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال ابن حزم : والذي نقول به ، والله تعالى التوفيق ، أن له مائية هي إنيته نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو الباري ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سألَه فرعون (ومارب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب ههنا لا في علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تاماً لا نقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : ههنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .
قال تعالى ^(۱) : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفي عن الله عز وجل ، وواجب في غيره ، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل مادونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقاً ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[۲۹] (قَالَ لَنْ أُتَّخَذَ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)

[۳۰] (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ)

[۳۱] (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

(۱) [۲۰ / طه / ۱۱۰] .

- [٣٢] (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)
 [٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ)
 [٣٤] (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ)
 [٣٥] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)
 [٣٦] (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)
 [٣٧] (يَا تُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)
 [٣٨] (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)
 [٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لِمَنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ * قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » قريء بهمز وبدونه ، وهما لفتان . يقال أَرَجَّاهُ وأَرَجِيته إذا أخرته . والمعنى أخرها ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ » أى شُرطا يحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَا تُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يمارض معجزة موسى . وكان خامراً فؤادهم عجب منها واندھاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)
 [٤١] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)
 [٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)
 [٤٣] (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)
 [٤٤] (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)
 [٤٥] (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)
 [٤٦] (فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موّها به إفسكا وزورا « فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئا لا حقيقة له ، وأن التبخر في كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية ، فإن هؤلاء السحرة ، لتبحرهم في علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضي والشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٤٨] (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

[٤٩] (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَا قَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٠] (قَالُوا لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

[٥١] (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » أي فعلكم شيئاً دون شيء، ولذلك غلبكم أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه؛ كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَا قَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ » أي جانبين متخالفين . « وَلَا صَلْبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أي لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع ، لأننا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيقته ، إلى ثوابه ورحمته راجعون، فننقلب خيراً منقلب، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا » أي لأن « كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » أي من أظهر الإيمان كفاحاً، مجاهرة بالحق بلا تقيّة . ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيحائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهي به ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ» أى سِر بهم ليلاً، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدرككم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَٰ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

«فَأَرْسَلَٰ فِرْعَوْنُ» أى حين أخبر بسراهم «فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» أى جامعين لمسكره، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَارَآءُ يَظُونُ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

«إِنَّ هَٰؤُلَاءِ» أى بنى إسرائيل الخارجين «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» * وَإِنَّهُمْ لَنَارَآءُ يَظُونُ « أى يفعلون أفعالاً تفيظنا وتضييق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ» أى من مكرهم وسعيهم بالفساد في الأرض «فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» * وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ « يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« كَذَلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو في محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمحدوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتي بعدها . « وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تملك الإرث بعد زمان . وكان العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)

« فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانِ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى للمحقون « قَالَ كَلَّا » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ «أى فضربه فانفلق» فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ)

[٦٥] (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَأَزَلَفْنَا » أى قربنا « ثُمَّ » أى حيث انفلق البحر « الْآخِرِينَ » يعنى قوم فرعون ،
أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ »
أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ » أى بإطباقه
عليهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة
هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ما جاء به . منهم من بقى على كفره كبقية
القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسلية للنبي
صلوات الله عليه . ووعد له ووعد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » أى ما الذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم ، أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شيء « قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَافِيَةً » أى مقيمين على عبادتها لا نتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلنا هم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمنزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرء . واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[٧٨] (الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَالَّذِى يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ »
 أى أفأبصرتم ، أو أتأملتم فعلتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائى « إِِلَّا رَبَّ
 الْعَالَمِينَ » أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي في الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره .
 ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » أى
 إلى كل ما يهمنى من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهدى كلاً لما خلق له .
 والموصول صفة (رب) وجمله مبتدأ وما بعده خبراً - غيرُ حقيقى بجزالة التنزيل . قاله
 أبو السعود .

« وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » أى يرزقنى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية
 والأرضية ، فساق الزن ، وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد ،
 وأنزل الماء عذاباً زلاً لا يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسى كثيراً .

« وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » أى إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفاى أحد غيره
 بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع
 أنهما منه ، لمرعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه
 تعالى كما قال الخضر ^(١) (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال ^(٢) (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا)
 وكقول الجن فى آية ^(٣) (أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ولأن كثيراً
 من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعه ومشاربه وغير ذلك . ومن ثم قالت
 الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

« وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » فإنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد
 سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه ، فما الفرق
 بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب ؟ أجيب كما فى (الانتصاف) : بأن الموت

[١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٠] .

قد علم به بأنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافي منه قد بغته الموت ؛ فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء ، فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققاً . فافتضى العلو في الأدب مع الله تعالى ، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه ، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتأ وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذي يمرضني فيشفيني ، كما في غيره . فما عدل عن المطابقة المجانسة الماثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإمامة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيّطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى (وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » أي الجزاء . وخطيئته ما كان يراها

هو صلوات الله عليه ويعدها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضماً لنفسه وتعلية للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافياً لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر ، وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيققوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه السلام ، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته ، في الغاية القاصية ، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك الغمورين في الكفر ، وفنون المعاصي والخطايا ؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر في الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبين، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه، حمله ذلك على مناجاته، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

[٨٤] (وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبي ذو حكم وحكمة. « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقنى لأتظم في سلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكال الخلق . « وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ذكراً جميلاً بعدى ، أذكر به ويُقتدى بى في الخير كما قال تعالى ^(١) : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تسكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى ^(٢) :

إِنِّي أَتَتَنِي لِسَانٌ لَا أَسْرُ بِهَا مِنْ عُلُوٍّ ، لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

وجوز أن يكون المعنى : واجعل لى صادقاً من ذريتي، يحدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد. وهو النبي ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) (أنا دعوة

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ - ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ : إني عبد الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبي إبراهيم) ، فالسلام بتقدير مضاف. أى صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)

[٨٦] (وَأَغْفِرْ لِأَبِي ، إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

« وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي » أى بهدايته وتوفيقه للإيمان . كما

يلوح به تعليقه بقوله « إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَأَغْفِرْ لِأَبِي) الخ.. كقوله^(١): (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)

وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى^(٢) (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) وقد قطع تعالى الإلحاق

فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى^(٣) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

مَعَهُ وَ) إلى قوله (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لا تلحق بى ذلًا وهوانًا يومئذ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ

وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يبق المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى

بملاء الأرض ذهبًا . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يعمدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] . (٣) [المتحنة / ٥] .

في الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والحصال المذمومة والملكات المشؤومة .

قال الزمخشري :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . وعلى تقليد آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة . ثم صور المسألة في نفسه ^(١) دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه ، إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاج الأوابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتغنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويغتنبونها

(١) أي بقوله (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي) على معنى أني فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله في يده . وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا : ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه . فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدو لكم) لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها رد على أبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي في زعمه أن القرآن خال من التخلص ، وهو زعم فاسد . لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطفية تلائم بين الكلام الذي أخرج منه والكلام الذي خرج إليه . وفي القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير في (المثل السائر) فراجع . اه مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مشكوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » أى الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار . وهو قوله تعالى « فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَالْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشري : والكسبة تكرير الكب - وهو الإلقاء على الوجه - جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَجُنُودُ إِبْلِيسَ » أى متبعوه من العصاة « أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادۃ، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ)

« وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ » أى رؤساؤهم، كما فى آية^(١) (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء . لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئا . كما قال تعالى^(٢) (أَلَا خَلَاءٌ يَوْمَئِذٍ بِمَعْزُومٍ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) قال الزمخشري : و (الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام ، وهو الذى يهيمه ما يهيمك . أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتد

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمي ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهامه . وهذا هو الذى قيل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * » إِنَّ فِي ذَلِكَ « أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر . وتقدم ما قاله الزمخشري فى بديع سياقه « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر قوم إبراهيم « مُؤْمِنِينَ * » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٠٩] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١١١] (قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم في أصول الشرائع . وهو نفي الشريك وإثبات الباري وتوحيده . أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » يعنون من كان وضع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنسب . والحسب والنسب ، لا بالأخلاق الفاضلة . والملكات الكاملة . التي تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق في مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لا مال يطغيهم . ولا جاه يلهمهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشري : وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (ما زالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أي وما علي إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي » أى محاسبهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم
 « لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ
 يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » أى الشتمومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي
 كَذَّبُونِ * فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشري : الفتحاة : الحكومة . والفتح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كاسمى
 فيصل لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون
 إليك . قال الأشعر الجعفي^(١) .

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَمْرًا رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ فُتَاخَتِكُمْ غَنِيٌّ
 « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْفُكٍ الْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ)

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٢٧] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

« فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ وَفِىَ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةٌ »

أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « آيَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى يبنائها لا للحاجة إليها . بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهذا أنكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتاعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف للأموال فى غير ما خلقت له ، من النظر للنفس والأهل والدين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك ، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار ، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» أى تأخذون بالعنف والشدة ، كبرا وعتوا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٣٢] (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَنِينَ)

[١٣٤] (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

«فَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فيما أمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» أى فاشكروا نعماءه ، وارعدوا بتقواه آلاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)

« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » أى : فإننا لن نزعوى عما نحن عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)

« إِنْ هَذَا آ » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئنا به لإعادة الأولين . كانوا يلقفون مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٤٥] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَمِينَ)

[١٤٦] (أَتَتَرَ كُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » أى على مانحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ »
 أى بريح صرصر « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَاتَتَّقُونَ *
 إِنِنِّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
 أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَمِينَ * أَتَتَرَ كُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ » أى من الموت والازوال
 والمذاب .

قال الزمخشري: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه. وأن
 يكون تذكيراً بالنعمة في تخليته الله إياهم وما يتعممون فيه من الجفات وغير ذلك ، مع الأمن
 والدعة. وقوله تعالى (فِي مَا هَهُنَا) أى في الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسرهُ
 بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ)

[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ)

[١٥٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)

[١٥٢] (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » أى لطيف لين « وَتَنْجُتُونَ مِنْ أَلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ » أى بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فره) بالضم ، بمعنى حذق . وقرئ صفة من (فره) كفرح ، بمعنى أثير وبطر « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » أى الذين سَحَرُوا حتى غلب على عقولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٦٤] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٦٥] (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)

[١٦٦] (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)

« مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ آلِهَا شَرِبُ « أَيْ نَصِيبُ الْمَاءِ » وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ « أَيْ فَاقْتَنَعُوا بِشَرِبِكُمْ وَلَا تَرَاهُمْ عَلَى شَرِبِهَا » وَلَا تَمَسُّوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ « أَيْ لِعَظَمِ مَا تَسِيئُونَ . قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : عَظَمَ الْيَوْمَ لِحُلُولِ الْعَذَابِ فِيهِ ، وَوَصَفَ الْيَوْمَ بِهِ أَبْلَغَ مِنْ وَصْفِ الْعَذَابِ . لِأَنَّ الْوَقْتَ إِذَا عَظِمَ بِسَبَبِهِ ، كَانَ مَوْقِعُهُ مِنَ الْعَظَمِ أَشَدَّ « فَعَقَرُوا هَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ » أَيْ الْمَوْتُ ، وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زَلَزَلَتْ زَلْزَالًا شَدِيدًا ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » أَيْ مَجَاوِزُونَ حَدَّ الْحِكْمَةِ فِي تَرْكِ عَمَلِ الْحَرِّثِ ، الْحَافِظِ لِلنَّسْلِ ، الَّذِي بِهِ حَفِظَ النُّوعُ الْبَشَرِيُّ ، وَإِثَارَ مَا لَمْ يَخْلُقْ لَذَلِكَ ، شَرَهَا فِي الشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَمَكَاحِفَةِ لِتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ الرِّبَانِيَّةِ .

ونقل السيوطي في (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظي ، أن معنى الآية : تَذَرُونَ مِثْلَهُ مِنَ الْمُبَاحِ . فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى إِبَاحَةِ طَوءِ الزَّوْجَةِ فِي دَبْرِهَا . انْتَهَى .

وخالفه غيره . فَاسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى حُظْرِهِ . وَبَيَّنَّاهُ كَمَا فِي (الْكَشَافِ) وَ(حَوَاشِيهِ) أَنَّ (رِمْنَ) إِمَّا تَبْيِينُ لِمَا خُلِقَ ، أَوْ لِلتَّبْعِيضِ . وَيرَادُ بِهِ الْعَضْوُ الْمُبَاحُ مِنْهُمْ ، تَعْرِيضًا بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنِسَائِهِمْ . وَمِنْ الْوَجْهِ الثَّانِي يَسْتَدَلُّ عَلَى حُظْرِ إِيَّانِ الْمَرْأَةِ فِي غَيْرِ الْمَآثِي . وَتَقْرِيرُهُ فِي (الْإِتِّصَافِ) أَنَّ (رِمْنَ) لَوْ كَانَتْ بَيِّنًا لَكَانَ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ عَلَى ذِمَّتِهِمْ بِتَرْكِ الْأَزْوَاجِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ تَرْكَ الْأَزْوَاجِ

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده مفكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين. وقد اجتمعت العامة - عامة القراء - على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضع ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (من) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبة إتيان النساء في المأثى، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعم مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

« قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ » أى عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ » أى من قريبتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ)

[١٦٩] (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ » أى المبغضين غاية البغض. أى فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضى لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ » أى من شؤمه وغائلته.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

[١٧٢] (مُّمَّ دَمَّرْنَا الْأَخْرِينَ)

« فَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهي امرأته . كما بينت في آيات
« فِي الْغَابِرِينَ » أي مقدرًا كونها من الباقيين في العذاب . لأنها كانت راضية
بفعل قومها .

لطيفة :

قال الناصر في (الاتصاف) : كثيراً ما ورد في القرآن، خصوصاً في هذه السورة ، العدول
عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول
فرعون ^(١) (لَأَجْعَلَ لَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) وقولهم ^(٢) (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْوَاعِظِينَ) وقولهم ^(٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) وقوله ^(٤) (إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ
الْقَالِينَ) وقوله تعالى ^(٥) في غيرها (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) وكذلك ^(٦) (ذَرْنَا
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسرف في ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل ، إنما
يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يفهم
أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة ، كالسمة للموصوف ثابتة الملقوق به . كأنها
لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر
ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .

(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وإفطعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى عظيم غير معهود ، هلكوا به « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * »
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *
 كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . وهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ماحوتها من الآية ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد .
 قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشئ . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكىال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (لَيْكَةِ) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها . وفى الحجر وق (الأيكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة ، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون (الأيكة) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وهمزة وصل ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو علي الفارسي وغيره ، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح . أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الجر والجر) وإثبات الألف واللام فى (الأيكة) فى سائر القرآن يدل - كما قال الزجاج - على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (الجر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع . لكن قال الزخشرى : هو الوجه . ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة ، بوزن ليلة ، اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف . وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ . كما يكتب أصحاب النحو - لأن ولولى - على هذه الصورة ، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٨٠] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنِّ أَجْرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

«إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنِّ أَجْرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ» أى

أتموه «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

«وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ» أى بالميزان السوى «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ»

أى لا تنتقصوهم حقوقهم . قال الزمخشري : وهو عام في كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً . «وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» أى بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ)

[١٨٥] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

[١٨٦] (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

«وَاتَّقُوا» الله «الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ» أى : وذوى الجبلّة الأولين ،

وهم من تقدمهم من الخلائق «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ» أى فيما تدّعيه من النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » قطعاً منها . قرئ (كِسْفًا) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
« فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ »
إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى للول العقاب فيهم ، من جنس ما سألوه من إسقاط السماء قطعاً عليهم . فقد أظلمت سحابة أظلمت عليهم ، وأظلمت الجو فوقهم ، وغشيهم العذاب وأحاط بهم . و (الظلة) بالضم لغة ، الغاشية ، وما أظلم واستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق . فى (الأعراف) ذكر أنهم ^(١) (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ) وذلك لأنهم قالوا ^(٢) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن مَّكَاءِ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِثْنَتِنَا) فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال ^(٣) (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله فى قولهم ^(٤) (أَصَلَوْتُكَ نَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ) قالوا ذلك على سبيل التمسك والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) وههنا قالوا (فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) الآية ، على وجه التعنت والعناد . فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) . انتهى

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .

(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة.

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف كرر في هذه السورة ، في أول كل قصة وآخرها ، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتزيل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها ، وأن تحتتم بما اختتمت به . ولأن في التكرير تقريراً للمعانى في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص بارقت بها أذان وُقرئ عن الإنصات للحق ، وقلوب غُلف عن تدبره ، فكوثر بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهننا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اهـ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

« وَإِنَّهُ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منزل منه حقاً « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك المزية الجليلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعداء « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » أى واضح المعنى جلى المفهوم ، ليكون قاطعاً للعدو ، مقياً للحجة ، دليلاً على المحجة . والجار متعلق بـ (نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

[١٩٧] (أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« وَإِنَّهُ وَ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم . مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها . فكفى بذلك شهيداً على صدقه « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » أى علامة على تنزيله الحق « أَنْ يَعْلَمَهُوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها ، كما قال تعالى ^(١) (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

[١٩٩] (فَقَرَأَهُوْا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

[٢٠٠] (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[٢٠١] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٣] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ وَعَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ عِ مُؤْمِنِينَ »
 أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذى لا يحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، اتفق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا . ولتمحلوا لجهودهم عذرا . ولسموه سحرًا ، لفرط عنادهم « كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى مكنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به ، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ماهو ، عياذا به منه « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعاش « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل يندرونهم لأجل الموعظة والتذكيرة « وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » رد لازمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ما تلقاه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعْزُولُونَ » لانتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

[٢١٨] (الَّذِى يَرِىْكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَيَقْلُبُكَ فِى السَّجْدِىنِ)

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى الأدين . وإنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل . وقد قال عليه الصلاة والسلام^(١) لما نزلت عليه : (يا فاطمة ابنة محمد ! يا صفية ابنة عبد المطلب ! يا بنى عبد المطلب ! لا أملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجع . وقوله تعالى « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لئن جانبك لهم . مستعار من حال الطائر . فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرْبُّكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجّد « وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ » أى المصلين . أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود ، إذا أتمتهم . يعنى : يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلا وجمعا وفردا . أو معنى الآية : لا يخفى عليه حالك ، كلما قت وتقلب مع الساجدين ، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى^(٢) (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ)

[٢٢٢] (تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى لما نقوله وبما تنويه « هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ » أى (تنزل) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع نزلهم بالقرآن « تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالى بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٦ - سورة الشعراء ، ٢ - باب

وأندر عشيرتك الأقربين ، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨] .

وحيث كان المقام النبويّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزيلهم عليه .
قال القاشانيّ : لأنّ تنزيلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة في الخبث والكيّد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل . فنّ تجرد عن صفات النفس ، وترقّ إلى جناب القدس ، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصاييح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملوكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) لأنّ الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقامهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أى الأفا كون « السَّمْعَ » أى إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم
« وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » أى فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم ،
من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله
عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة من
الآباطيل ، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام . والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون الخيالات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم) الغاؤون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه .
قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون ، وتقرير له . أى ألم تر أنهم في كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لا يقفون عند حدٍّ معين ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتزويق الأغراض ، والقدح في الأنساب ، والنسيب^(١) بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلو في الثناء والهجاء .

لطيفة :

في ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم في شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعمار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها - لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مباين بما يستتبعه من اللوائىم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم في سلكهم ، من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسيب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشق والهيام بها. والغزل: التغزل وذكر صفات النساء، وذكر الميل لهن. والابتهار: الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته. اه. خفاجى.

الجليلة ، وتخلق بكمالهم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكمالات القدسية ، وفاز بجملته الملكات الأنسية ، مستقرّاً على النهاج القويم ، مستمرّاً على الصراط المستقيم ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائع ، أعجز كل منطق ماهر ، وبكت كل مفلح ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون - على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد^(١) في (الطبقات) والزيير بن بكار في كتاب (الفساحة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان ، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنَّ خَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَّتْهُمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينَ قَرِيَّةٍ	وَرَقَاصَةً تَحْشُو عَلَى كُلِّ مَبْسَمِ
فَإِنْ كُنْتُ تَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي	وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَمَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوُّهُ	تَفَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : إى والله ! إنه ليسوؤنى ذلك . ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) . أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوُّهُ تَفَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت)

في ترجمة عدى بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتك) .

فلما قدم على عمر . بكّته بهذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ما شربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لا تعمل لي عملاً أبداً ، وقد قلت ما قلت .

فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمّه عمر ولا ماله على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشري عن الفرزدق^(١) أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَيْتِنَ بِجَانِبَيْ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين ! قد درأ الله عني الحد بقوله (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا

مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم ، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَانْتَصَرُوا » أى بشعرهم على عدوهم بأن هجوه « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى فكان هجاؤهم على سبيل

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطاميرها :

الَسْتُمُ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الاتصاف بمن يهجوهم ، جزاءً وفاً . قال الله (١) (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) وقال تعالى (٢) (فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ يَحْمِلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان (٣) : (اجهم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) وروى الإمام أحمد (٤) عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفسي بيده ! لكان ماترهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ) الآية ، ذم الشعر ، والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزخشرى عن عمرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدرى لي جيش بالشعر . فقال : فإعنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحة كقبح الكلام .

الثاني - ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ فيكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث

رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) قال : أنتم . قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مراسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه . كما قال (١) عبد الله ابن الزُّبَيْرِ ، لما أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنِّ لَسَانِي رَاتِقٌ مَفْتَقْتُ ، إِذْ أَنَا بُورُ
إِذَا جَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْعَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلُهُ مَشْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحُرْث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ فهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ . انتهى . وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد ، لما في (سيمعلم) من تهويل متعلقه . وفي (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفي (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم في الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧ - سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايمى : سميت بها ، لاشتغالها على مقاتلتها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء
وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد
القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طس ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طس ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلو الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواظ والاعتبار . « هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة) ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به ، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره ، وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى على حاله مقدماً : ولا يستفكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجَلٍ ذَاوَالْحِقْنَ بِذَا ۥ الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلِّ

والأصل (وألحقنا بذو الشحم) فوق منتصف الرجز أو انتهاء (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام . وبنى الشاعر على أنه لا بد ، عند المنتصف أو المنتهى ، من وقفة ما . فقدّر بتلك الوقفة بُعداً بين المعرف وآلة التعريف . فطرحها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ تَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَ تِكْمٍ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَئِيتِكُمْ

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ » أى مددناهم فى

غِيَمِهِم ، فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة والجزاء على

الأعمال كما قال (١) تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ » أى أشد الناس

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقته من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليها وخفيها . نخبه هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال (١) « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » والجملة مستأنفة ، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيدا لما يعقبه من الأنباء الجليلة . وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذل معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ۖ « أَيْ حِينَ قَفَلَ مِنْ مَدِينٍ إِلَى مِصْرَ ، وَأَضَلَّ الطَّرِيقَ » إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا » أى رأيته « سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » أى عن الطريق « أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة « لَمَّا كُمُ تَصْطَلُونَ » أى تندفئون به « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » أى بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها . ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أبى (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بورك النار . والذى بورك له البقعة ، وبورك من فيها وحولها ، حدوث أمر دينى فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاليمها ويث آثار يمنه فى أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة ؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول : باركك الله ، وبارك عليك ، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ (من) إما البارئ تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشري : والظاهر أنه عام فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله (١)
(وَنَجِّمْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك .
فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .
ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه ، هي بشارة له بأنه قد قضى أمر
عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبي : هذا تحية من الله تعالى لموسى ، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على السنة
الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا (٢) (رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ وَعَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) .
وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .
وعنه : هي نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
(إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل الليل قبل النهار
وعمل النهار قبل الليل . حجاب النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء
أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من في النار ومن حولها .

قال ابن كثير : وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم (٣) من حديث عمرو بن مرة «وَسُبْحَانَ
اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء
من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ،
بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه . ثم إن موسى عليه
السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لأملاك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية
المستحقة للألوهية والنموت القدسية ، فقال سبحانه :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَمُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،

يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ)

[١١] (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[١٢] (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« يَمُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » وفي إثارة هذه الأسماء الجليلة سرٌّ بديع . وهو الإشارة الجميلة إلى روح إرساله عليه السلام . أي : أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها قوم فرعون ، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرده ، الحكيم في البعثة والإرسال ، والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحًا على أنه القادر على كل شيء ، بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ » هو ضرب من الحيات ، أسرعه حركة وأكثره اضطرابا « وَلَّى » أي من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أي لم يرجع على عقبه من شدة خوفه « يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ » أي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » استثناء منقطع . استدرك به ما عسى يخرج في الخلد من نقي الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرط منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة . وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطى والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه
الزخشرى حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من
التعريضات التى يلفظ مأخذها ، وسماه ظلما كما قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي)
ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بِمِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى آفة كبرص « فِي تِسْعٍ » آيَةٍ « أى غيرها تؤتاها ، إذا جحد
فرعون رسالتك . وهى ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر .
وضرب التراب فتتملى الأرض قلا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة
أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام
كثيف ، على ما روى . وفى (تسع) أوجه : أحدها أنها حال ثالثة . أى تخرج آية فى تسع آيات .
والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ)
(وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات . وفى (بمعنى) (مع) « إِلَى فِرْعَوْنَ » أى مرسلهم
إلى فرعون « وَقَوْمِهِ » إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ « أى خارجين عن الحدود ، فى الكفر
والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى
كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَسَاءَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً » أى ظاهرة بينة « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا » أى كذبوا بها بالسنتهم « وَأَسْتَمِعْنَاهَا أَنْفُسَهُمْ » أى عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا ، لاسيما عند إلقاء السحرة ساجدين « ظُلْمًا » أى للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله (١) (بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) ولقد (ظلموا بها) « وَعُلوًا » أى تكبراً عن الانقياد لموسى « فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أى من إهلاكهم بالإغراق ، لفرقهم فى بحر الفساد والإفساد « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » أى بالقضاء بين الناس ، وحكمة باهرة « وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ » أى العلم والحكمة والنبوة والملك « وَقَالَ » أى تحدثنا بنعمة الله وتنويعها بمنته « يَسَاءَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » أى فهم صوته « وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » أى البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ (٢) (أنا سيد ولد آدم ولا نخر) أى أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله نخرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَسَاءَ يَأَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا

مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٣ -

باب فى التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

[٢٠] (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ)
[٢١] (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)
[٢٤] (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ » أى جمع له عساكره « مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ » أى رأتهم متوجهين إلى وادئها « يَأْتِيَاهُمُ النَّمْلُ أُدْخِلُوهُنَّ مَسَكِنَكُنَّ لَا يَخْطِبَنَّكُنَّ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرهما واهتمامهما إلى تدبير مصالحهما ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمور ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همتها وفهم مرادها . قاله أبو السعود
« وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » أى ألهمنى
شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَقَدَّرَ
أَلَطَيْرٌ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَىٰ الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَا عَذَابَ لَهُ وَعَذَابًا شَدِيدًا
أَوَّلًا أَذْبَحَنَّهُ وَ أَوْ كَيْلًا تَبْنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى
فلبث فى الغيبة أمدًا غير طويل « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ » وهى مدينة
« بَنِي إِدْرِيسَ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى
سريرة تجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا
أَي هَلَا يَسْجُدُونَ . كما قرئ بذلك . وجوز بعضهم أن يكون معمولًا لما قبله . أى فصدهم عن
السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة ، والمعنى : فهم لا يهتدون
إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يظهر ما هو مخبوء
فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرئ بالتاء والياء
على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إمامستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكية عن قول الهدهد .
واستظهر الزمخشري الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أماره على أنه من كلام الهدهد ،
لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ،
جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النظار بنور الله ، مخايل كل تختص
بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ « أى المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شيء . فما أصغر عرشها فى جنب عظمتها ! وما أضعف معبودها - الشمس - فى جانب قدرته !

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجديات . قال الزخشرى : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها . وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٢٨] (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّى إِلِّى كِتَابٌ كَرِيمٌ)

[٣٠] (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىَّ وَاتُّونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّى إِلِّى كِتَابٌ كَرِيمٌ » أى حسن مضمونه ومافيه « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىَّ وَاتُّونِى مُسْلِمِينَ » أى لا تتكبروا علىَّ ، واتونى منقادين لأمرى « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » أى لأبت

أمرًا إلا بحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً » أى فى العدد والعدد « وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظري ما هو أبقي لشرفك وملسك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسألة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدو فى قرية العدو . وألا تعين الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً » أى عنوة وفهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخرجوها « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم ، وتقدير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » أى وإني سأرسل إلى سليمان وملئه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[۳۷] (أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

[۳۸] (قَالَ يَإَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيْكُمُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بَعَثْنَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ)

[۳۹] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

[۴۰] (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا لَنُشْكُرْ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ» أي المرسلون منها «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ» أي

من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ» أي فلا أبالي بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ» أي إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتكم مثلها ، تفرحون استكثارا أو افتخارا «أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» أي مهانون «قَالَ يَإَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيْكُمُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بَعَثْنَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ» قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أُمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أى ليختبرنى أشكر بالطاعة والعمل بالشرعية ، أم أكفر بالمعصية والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » كقوله (١) (مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) وكقوله (٢) (وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا لِنَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)

[٤٢] (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ

مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

« قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » أى اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله ، كما يتنكر الرجل للناس « نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أى لمعرفة « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » قال المهايمى : لم تقل (هو هو) خوفاً من التكذيب ، مع نوع من التنوير . ولا (لا) خوفاً من التجهيل .

وقال الزخشري : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من راحة عقلها . حيث لم تقطع فى المحتمل . أى : فأتت به (كَأَنَّ) الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كَأَنَّ) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك ، وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقاً بين (كَأَنَّ) و (هَكَذَا) فى التشبيه . وعبارته :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٤] .

وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) - نكتة حسنة . ولعل قائلًا يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعاً ، وإن كانت في إحداها داخلية على اسم الإشارة ، وفي الأخرى داخلية على المضمير ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمير) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلا بد فى اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين . فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بليقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » - هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذى أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام مقتضى ، للإفاضة فى وصفها برجاحة الرأى فى الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت فى جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم إلخ . وقيل : إنه من كلام بليقيس ، موصولاً بقولها (كأنه هو) ، لامن كلام سليمان . كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم إلخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالفرائض أو الأخبار . قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ،

قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ » أى القصر، أو حن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا أبدى من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره الله به « فَلَمَّا رَأَتْهُ » أى حن « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيم « وَكَشَفَتْ » أى للخوض فيه « عَنْ سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملس « مِنْ قَوَارِيرَ » أى من الزجاج « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول - روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصح سنداً ولا مخبراً . وما هذا

سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبى شيبه عن عطاء مستحسنه له ،

ما مثاله : قلت : بل هو منكر غريب جداً . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ،

والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى

صحفهم . كروايات كعب ووهب ، ساعهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى

إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ .

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .
 الثانى - أشير فى (التوراة) فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وساطنانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أى أنها تؤدى له الجزية ، وإن كان ملكه محصوراً فى فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكياً جداً ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتسكلم فى الشجر ، من الأرز الذى على لبنان إلى الزوفى التى تخرج فى الحائط . وتسكلم فى البهائم والطيور والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه فى الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه فى ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازراً وبيت حورون السفلى وبعثت وتدمر فى أرض البرية . وجاء فى الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رآته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ماتقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث - مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة ، أن فى قوله تعالى (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفى قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)

استحجاب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

تَفَقَّدُ الْإِخْوَانَ مُسْتَحْسِنٌ	فَن بَدَاهُ نِعَمَ مَا قَدَّ بَدَا
سَنَّ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً	وَكُن فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ	فَقَالَ : مَالِي لَا أَرَى الْهَدُودَا

وأن في قوله تعالى (لَاَعَذِّبَنَّهٗ وَغَذَابًا شَدِيدًا) الآية، دليلاً على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهايم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى (قَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى (أُذْهِبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى (كِتَابٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدي : كريم بمعنى مختوم . وأن في قوله تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي) المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى (أَتُمِدُّوْنَ بِمَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في (الإكليل) بزيادة . ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبَيْنَ مَعَكَ ، قَالَ طَاعْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له . كقوله تعالى (١) « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ ضَلُّوا عَنْ رَّبِّهِمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ » « قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة . أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمة بالإيمان « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطِيعُوا نَا » أى تطيعونا أى تشاء منا « بَاكٍ وَبَيْنَ مَعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقايتهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه « قَالَ طَائِفٌ مِنْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى سبيلكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم . قاله الزمخشري .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سائحاً ، وهو ما وليه بميسرته ، أو بارحاً وهو ما وليه بيمينته - يمينوا بالأول وتشاءوا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر . ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائر لك) « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم . لا ترون حسناً إلا ما يوافق هواكم ، ولا شئاً إلا يخالفه . ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح عليه السلام ، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[٤٩] (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

[٥٠] (وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥١] (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٢] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أى شأنهم وعادتهم الإفساد ، كإفسيده المضارع وتأ كيد به بقوله (في الأرض) الدال على عموم فسادهم . وهو صفة (رهط) أو (تسعة) « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » أى ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين ، بالله الذى هو أعظم المعبودين « لَنُبَيِّتَنَّهُ » أى لنقتله ليلاً . وقرئ بالتاء على خطاب بمضهم لبعض « وَأَهْلَهُ » أى من آمن معه . « ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ » أى الطالب ثأره علينا « مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ » أى ما حضرنا مكان هلاك الأهل ، مع تفرقهم فى الأماكن الكثيرة ، فضلاً عن مكانه ، فضلاً عن مباشرته « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى ونحلف إنا لصادقون . أو : والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا « وَمَكْرُؤًا مَكْرًا » أى بهذه الحيلة « وَمَكْرُؤًا مَكْرًا » أى بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ » أى خالية ساقطة . لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا « بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم . وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٥٤] (وَلَوْ طَآءِذٌ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاؤُنَ الْفَحِشَةَ وَأَنتُمْ تَبْصُرُونَ)

[٥٥] (أَنِيبْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَيْرِينَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ)

[٥٩] (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » يعنى صالحاً عليه السلام ومن معه « وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » أى قبحها ومضادتها لحكمه

تعالى وحكمته « أَنِيبْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ » أى متجاوزين النساء

اللاتى هن محال الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن

العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ » أى يتزهدون عن أفعالها ورونها رجساً . قالوه استهزاء « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَ

إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَيْرِينَ » أى الباقيين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى

هائلا غير معهود « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ

اصْطَفَىٰ ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشري : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات

الفاطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ،

والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث

على التيمن بالذكركين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ،

وإصغائهم إليه وإزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسمع . ولقد توارث العلماء والخطباء

والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على المهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكة . وإنما هو إزام لهم وتبكييت وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء ، إلا لداع يدعو به إلى إيثاره ، من زيادة خير ومنفعة . فقييل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثره لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثا ، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه ^(١) عن فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) « مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته .

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عددها في موضع آخر . ثم قال (هَلْ مِنْ شَرٍّ كَأَيْسُّكُمْ مِّنْ يَّفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ) .

لطيفة:

قال ابن القيم في (طريق المجرتين) في هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتل أن تكون داخلية في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولا للجملة معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها الفصـب حكيمة بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر مابينهما . فلا يحسن

أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف

فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى^(١) (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي

الْأَيُّ وَالنُّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُغْنِي الْأَيُّ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة

الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى^(١) (قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ،

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وقوله^(٣) (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده ،

والرسل أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَوَّلَهُ

مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١١٢] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١١٨] .

[٦١] (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ

يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إضراب وانتقال، من التبكيث تعريضاً، إلى التصريح

به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السموات والأرض، وأودع

فيهما من المنافع ما لا يحصى « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ عَشْرَ آيَاتٍ ذَاتِ بَهْجَةٍ »

أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظر « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُدْبِتُوا شَجَرَهَا أَعْلَاهُ

مَعَ اللَّهِ » أى: أعله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لا يكاد يقدر عليها غيره،

حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيث لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى،

فى ضمن النفي السكوى على الطريقة البرهانية، بعد تبكيثهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من التردد.

قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّنْ

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لا تنكفى بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها

« وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً

مانعاً من المازجة « أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء . ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال

ظهوره « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل

الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : يَفْهَمُ تعالى أنه المدعو عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى ^(١) « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ » وقال تعالى ^(٢) « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُّونَ » وهكذا قال ههنا (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضطرين سواء ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الكافى) : إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذلاله وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية الماثورة عن النبي ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . ثم ساقها ابن القيم مسفدة .

ثم قال : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجبت دعوته . فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجردده ، كافى فى حصول المطلوب ، كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطراب عند قبر فيجواب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطراب وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى ^(١) « وَيَكْشِفُ السُّوءَ » أى كل ما يسوء مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكنائها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن .

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشري « أَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّ كَرُونُ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى بالنجوم فى السماء ، والعلامات فى الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر « وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » وهى المطر « أَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلْخُلُقُ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،

أَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٦٥] (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يَبْعَثُونَ)

« أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلْخُلُقُ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْ » أى بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون

للإعادة ، فكيف خطبوا بها خطاب المَعْرِفِ ؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها ، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمكنهم من معرفتها - فلم يبق لهم عذر فى الإنكار . فلاحاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى مما ينزله من مائها وما يخرجها من نباتها « أَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت . أى هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً ، يدل على أن معه تعالى إلهاً . لا على أن غيره تعالى يقدر على شئ ، مما ذكر من أفعاله تعالى ، فإنهم لا يدعون صريحاً . وفى إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً . وأنى لهم ذلك ؟ قاله أبو السعود « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » أى فإنه المفرد بذلك وحده ، كما قال ^(١) (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) فى آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى . والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض . أو متصل ، على أن المراد ممن في السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلا أو استعارة . فإنه يعلم الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى ينشرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ)
 « بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما - أن (فى) على بابها ، و (أدرك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعا . كقوله (١)
 « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ » .

وعلى هذا فى (فى) متعلق بـ (أدرك) .

والثانى - أن (فى) بمعنى الباء . أى بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمى يزيد كذا) انتهى .

والوجه الثانى على الاستفهام . أى بل هل أدرك علمهم فيها ، أى بلغ وانتهى ؟ كلا . وقد قرئ (بل أدرك) بهمزة و (بل آدرك) بألف بينهما و (أم أدرك) و (أم تدارك) قال الرازى : وهى (أم) التى بمعنى (بل) والهمزة . فالعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا فى حضيض الجهالة بحقيقتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطى والمهايمى . وذهب غيرها إلى إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالي . وقرروه بما فيه خفاء ودقة . ويعمده ما ذكرنا

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة في الاستفهام. وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر في قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عماية وجهل كبير .

قال الزخشرى : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَقْتَ الْبَعْثِ . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة . ثم بأنهم يخطبون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جائم ، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخْطِرُ بِيَالِهِ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا وَلَا يَفْكَرُ فِي عَاقِبَةٍ . وقد جعل الآخرة مبدأ عمائم ومنشأ . فلذلك عداه (من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنبَاءًا لَّمْ نُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنبَاءًا لَّمْ نُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطورها بعبارة مموهة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » بإنكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتكذيبهم . فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالي معهم بهؤلاء ، كقوله تعالى (١) (فَلَمَّا لَكَ بِخَيْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) « وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكروهم وكيدهم لك . ولا تبال بذلك ، فإن الله يعصمك من الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
- [٧٢] (قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)
- [٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)
- [٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)
- [٧٥] (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)
- [٧٦] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ أُنْبِيَآئِنَا الَّذِي كُتِبَ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
- « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ » أى بالعباد « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ » أى لحقكم أودنا لكم « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب ، فصل لهم القتل بيدى . ولعذاب الآخرة أمر . قال الزمخشري : (وعسى) و(لعل) و(سوف) فى وعد الملوك ووعدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده . وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يمجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعدده . انتهى . أى لأن حقيقة الترجى محال فى حقه تعالى . فهو على هذا استعارة تمثيلية . قاله

(١) [١٨ / الكهف / ٦] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكائد له . وهو معاقبهم على ذلك « وَمَا مِنْ غَافِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى وما من خافية فيهما ، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها في اللوح البين ، الثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَكُفُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه ، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالمعول من أنبيائهم عليه ، ومرد ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ لِرَحْمَةِ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقُتْلَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ لِرَحْمَةِ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها

المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق ، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ » أى

بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى فلا يرد قضاؤه الغالب

في انتقامه من المبطلين «أَلْعَلِّمِ» أى بالفصل بينهم وبين المحقين . ثم أمره تعالى بقلعة المبالاة بأعدائه، وبالمضى في دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ» أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشري : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه، وإلى أن السكل لا يرجى منهم الهداية، كآية^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسليية عما كان يهمهم من إيمانهم ، بقوله سبحانه «إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» قال الزمخشري : شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقعاع القول ، لا تسميه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينطق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء ، إلا الله عز وجل . فإن قلت : ما معنى قوله (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصم . لأنه إذا تباعد عن الداعي ، بأن يولى عنه مدبرا ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) إثر ما تقدم ، للمبالغة في نفى الهداية . وقوله تعالى (إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ، إلا من شأنه الإيمان بها . وقوله (فَهُمْ مُسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم مفقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله^(٢) (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يعنى جعله سالما لله خالصا له .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن في هذا الوعيد وجوها من التأويل :

الأول - أنه دنيوي ، عني به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمنائهم . ويظهروا على عدوهم . وذلك بأن تدب إليهم من المؤمنين دابة عظيمة تملأ السهل والربى ، ترزّل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتذكّ أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . وسعيهم في الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثاني - أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوبخ الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه في ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَابَّةً) الفرد ، بل النوع . كما في قولك (أرسل الله عليهم دودة أتلّفت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . ١ هـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخاري منها شيئا ، لا اضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مآثرها ما أخرجه مسلم^(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى . وأيهما ما كانت قبل صاحبها ، فالأخرى على إثرها قريباً) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعي الثبوت .

الوجه الثالث - نقله الرابع في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب . فتكون الدابة جمعا ، اسما لكل ما يدب . نحو (خائنة) جمع خائن . انتهى . ولعل الآية كقوله تعالى^(٢) (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ يَوِيلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالذابة ، لما يغطي بدبيبه وجه الأرض - فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا فيككبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعداً أطرافه . كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشري « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا » أى إلى المحشر « قَالَ » أى ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ١١٨ (طبعنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٧ و ٩٦] .

« أَكْذَبْتُمْ بَيِّنَاتِي » أى الناطقة ببقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه . ومؤكدة للإنكار والتوبيخ . أى أكذبتم بها بادية الرأي ، غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً ؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما سلف فى الموضعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لانفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود « أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى بها . أو ماذا كان عملكم ؟ هل هو إلا الفساد والإفساد ؟ وصد السبيل عن العباد ؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

[٨٦] (الْمُ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي

أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ)

« وَوَقَعَ الْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ

لَا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى ليصروا ، بما

فيه من الإضاءة ، طرق القلب فى أمور الماش « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ

يُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ»
 أى حضروا الموقف بين يديه «دَاخِرِينَ» أى صاغرين «وَتَرَى الْجِبَالَ» عطف على (ينفخ)
 داخل فى حكم التذكير «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى ثابتة فى أماكنها «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»
 أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى ^(١) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)
 «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِى أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» ، إِنَّهُ وَ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » أى فيجازيهم عليه .

تفسيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير
 الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبید الله تعالى العوالم ، كما قال ^(٢) (وَسِيرَتِ الْجِبَالُ
 فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال ^(٣) (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) وقال ^(٤) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
 الْمَنْفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :
 الأول - أن قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التحويل
 والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله ^(٥) (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِى أَتَقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى
 إرادة الحال ، شىء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى - أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق
 وهذا شىء لا يراه أحد من البشر كما قال ^(٦) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله ^(٧) (وَتَرَى الْجِبَالَ
 تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

(١) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / المرسلات / ١٠] .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث - أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا ينافي قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدًا) أى ثابتة . أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً . وهذا شيء يراه كل واقف عندها .

الرابع - ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها في نفس هذا السياق ، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار ، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصى عليها . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُ وَخَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء في هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع الدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره . اه كلامه .

وقال العلامة المرجاني في مقدمة كتابه (وفية الأسلاف ، وتحية الأخلاف) في بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرًّا السَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيدان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية . وحسبان جود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّاً السحاب في سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنِعَ اللَّهُ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى^(١) (وَعَدَ اللَّهُ) ^(٢) (صِبْغَةَ اللَّهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرب فيه وتروى وتحرى إجادة. ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه. وقوله (الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كالبرهان على إتقانه، والدليل على إحكام خلقته، وتسوية مروره على ما ينبغي. لأن إتقان كل شيء، يتناول إتقانه. فهو ثنية للمراد وتكريره له، كقوله تعالى^(٣) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد، وأنحاء من المبالغة. فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذى هو الفعل الجليل المتقن المشتمل على الحكمة. وإضافته إليه تعالى، تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله. ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء، ومن جلته هذا المرور. ثم إirاده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالخال، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً. فإن قوله تعالى (وَهِيَ تَعْرُ مُرّاً السَّحَابِ) حال من المفعول به، وهو الجبال. ومعمول لفعله الذى هو رؤيتها على تلك الحال.

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة. وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام. وأن حساباتها جامدة لعدم تبين حركة كبار الأجرام إذا كانت في سمت واحد. فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير. على أن ذلك نقض وإهدام، وليس من صنع وإحكام. قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى، مع ظهوره واشتغال الكتب الحكيمة على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل احتمالات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى، ولا بعيد عن حكمته، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقّة، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقته بالاختيار، كأثنا ما كان، وهو العلى الكبير، وعلى ما يشاء قدير.

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ) الآية ، اعتراض في تضاعيف ماساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأحوال القيامة ، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزير في القرآن .

وفائدته هنا ، التنبيه على سرعة تقضى الآجال ومضى الآماد . والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصراً محسوساً ، نكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر^(١) (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) فيكون هذا معجزة للنبي ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) في شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بني آدم . اهـ . كلام المرجاني .

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» أى لا يعترهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منوناً وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين في (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أى يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَكَبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ، فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»
 أى من الشرك والمعاصي «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ» أى مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» أى جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يحتل خلاها . وفيه تعريض بجدد نعمته تعالى في ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلهم في أعين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت . وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح «وَلَهُ وَكُلُّ شَيْءٍ» أى خلقا وملكا . فهو خالق كل شيء ومليكه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى ممن أسلم وجهه لله ، لانيهه «وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ» أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين «فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» أى فمن اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول في الملة الخفيفة ، واتباع ما أنزل على من الوحي ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه ، لإلى «وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزيئيه طريق الهدى ، ولم يتبعني ، فلا على . وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومن علينا بصراطه المستقيم «سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا» كقوله تعالى ^(١) سَرِّهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ وقوله ^(٢) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والتكذيب ونصب المكائد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره .

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨ - سُورَةُ الْقَصَصِ

سميت به لاشتغالها على قوله تعالى (١) (فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء - أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتغالها على ما لا يشمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايى .

والسورة مكية كلها . وقيل لإلّا من قوله تعالى (٢) (الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) إلى قوله (الْجَاهِلِينَ) فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد . وقوله تعالى (٣) (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ) الآية لما روى من نزولها بالجحفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهي ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

(١) [٢٨ / القصص / ٢٥] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طَسَمَ)

[٢] (تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

«طَسَمَ» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مأمرة «تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» * نَتْلُوا

عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «أى نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى^(١) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ثم

استأنف ما يجرى مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ»

أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» أى فرقاً وأصنافاً

فى استخدامه وطاعته «يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ» وهم بنو إسرائيل «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» وذلك إمارة لرجالهم ، وتقليلاً لعددهم ، كيلا يكثرؤا فينازعوه الملك

«إِنَّهُوَ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذى جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ » أى تفضل « عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً » أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » أى : ملك عدوهم . كما قال تعالى^(١) (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَمْرُسُونَ) « وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا » أى من أولئك المستضعفين « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم وذهاب ملكهم ، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطفيتانهم « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ » أى إز ولادته فى تلك الشدة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين بأيديهم السفار المرهقة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » أى فى البحر ، وهو النيل « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ وَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لَيَكُونَنَّ لَهُمْ عَذَابٌ وَخَزَنًا « أَى فى هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة . أبرز مدخولها فى معرض العلة ، لالتقاطهم . تشبيهه
فى الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَطِئِينَ »
أى مجرمين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)
« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ « أَى لفرعون ، حين أخرجه من التابوت « قُرْتُ عَيْنِي لِي
وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بما سيكون
« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيغًا » أى خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار
عقلها من الدهش ، لما بلغها وقوعه فى يد فرعون « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ » أى بأمره وقصته ،
وأنه ولدها « لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لولا أن ألهمناها
الصبر . شبه ربط الشيء المنفلت ليقتر ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أى المصدقين بوعده
الله . وهو قوله ^(١) (إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ) .

قال الزمخشري : ويجوز ، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه
وتبناه . إن كادت لتبدي بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أننا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكننا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعده الله ، لا تبتنى فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى اتبعى أثره لتفالى خبره « فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ » بضم النون وسكونها . أى : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى أنها تتعرف حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَافَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل قصصها أثره . و (المراضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الصاد . وهى المرأة التى ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميميّ ، جمع لتعدد موادّه . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدي « فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أى فى رضاعه وتربيته « فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برويته « وَلَا تَحْزَنْ » أى بفراقه « وَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ » أى كمال قوته ، « وَأَسْتَوَىٰ » أى اعتدل مزاجه « ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى فى أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئّه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ما قدر له من الرسالة ، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ » أى مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيلولة . وقيل بين العشاءين « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ » أى يتنازعان « هَٰذَا » أى أى الواحد « مِّنْ شَيْعَتِهِ » أى من يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل « وَهَٰذَا » أى الآخر « مِّنْ عَدُوِّهِ » أى من خلفه فى دينه وهم القبط « فَاسْتَعْتَنَهُ » أى سألّه الإغاثة « الَّذِي مِّنْ شَيْعَتِهِ » لكونه مظلوماً « عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ » لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين « فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ » أى ضربه بجمع كفه « فَقَضَىٰ عَلَيْهِ » أى فقتله « قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظلاماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بقتله « فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ » وإنه هو الغفور الرحيم * « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف . أى أقسم بإنعامك على بالغفرة ، لتوبين ولا أظاهر المجرمين . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب ! اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة . فلن أكون ، إن عصمتنى ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم ، إما صحبة فرعون وانتظامه فى جلته وتكثير سواده ، وإما مظاهرته من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . قاله الزحشرى .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصددّه .

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى يلاق لهم ليفة، أو يرى لهم قلماً ، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ وَ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا

فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

[٢٠] (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلْمَلَأَ يَا تُمْرُونَ

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ

الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى الاستفادة أو الأجناد . « فَإِذَا الَّذِي

اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ » أى استعانته فقتل من أجله مغازة القبطى « يَسْتَصْرِخُهُ » أى يستغيثه

من قبطى آخر « قَالَ لَهُ وَ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرت إليهم مالا محمد عقباه « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا » أى لموسى وللإسرائيلى ، وهو القبطى « قَالَ » أى ذلك العدو وهو القبطى ، لا الإسرائيلى كما وهم « يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزحشرى: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن . « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْمَى » أى يسرع لفرط حبه لموسى « قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ » أى يتشاورون بسبك « لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ » أى من حدة ملكتهم « إِنَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى فلا يلحقنى فيه الطالبون « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن الماء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما فى الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » أى عادتنا أن لانسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ

أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ،

نَجَّوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَسَقَى لَهُمَا » أى فسق غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج . والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام . وعلى الأخير حمله الأكثر بمعونة المقام « فَجَاءَهُهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى بالخروج عن حد ولايتهم ، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطِئُ اسْتِجْرَاهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي

تَحْتِي حَبِيجٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ

عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَلِكَ يَدْنِي وَيُنْكَ ، أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ،

وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطِئُ اسْتِجْرَاهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق

بذلك « إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ » أى خير من أردت جعله أجيراً ، القوى

على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشري : وقولها (إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ) كلام حكيم جامع

لا يزداد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة ، أن تقول : استأجره لقوته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجل في مدح النساء للرجال ، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة . وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منها . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأيمن وخيانة القوى . ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أميناً : يستعين به على ما كان بصدد رضى الله عنه . انتهى . « قَالَ إِنِّي أُرِيدُ » أى لقوتك وأمانتك ، ما يقوى المودة ويجذب القلوب « أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍ » أى على أن تكون أجيرى لرعي المواشى بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ مِنْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإيجابه « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد « قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » أى ذاك الذى عاهدتنى عليه ، لا نخرج عنه جميعاً « أَيَّامًا أَلَّا أَجْلَيْنِ قَضَيْتَ » أى أتممت « فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ » أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شِطَائِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » أى انسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ « أى من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها » أَوْ جَدْوَةٍ « مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شئ » « مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّا أَتَاهَا » أى قرب منها « نُودِيَ مِنْ شَطِئِ » أى جانب « الْوَادِ الْأَيْمَنِ » أى المبارك. يقال: يمين فهو ميمون وأيمن. وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد. لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادى بالقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد. وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المباني « فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهى « مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَانٌّ » أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّى مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها « وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أى من المخاوف. القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا، بَئِآءِيتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ)

« أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أى أدخلها فيه « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ » أى عيب « وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى يدك « مِنْ الرَّهْبِ » أى الخوف. قرئ بفتحتين، وضمّتين، وفتح وسكون، وضم وسكون. قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك، على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى. وبه الثقة. « فَذٰلِكَ » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهٰنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَآئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوْا قَوْمًا فَٰسِقِينَ * » قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوْنِ * وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا * أى فيكون أحسن بيانًا. ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسَلْنَاهُ مَعِى رِدْءًا * أى معينا « يُصَدِّقُنِىَّ » أى لنشاط قلبي « إِنِّىٓ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُوْنِ » أى يتفقوا على تكذيبى المؤدى إلى أنواع الأذيات .

قال الزمخشريّ: فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان. ألا ترى إلى قوله (وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسَلْنَاهُ مَعِى) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لال قوله صدقت. فإن سبحانه وباقلا يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذى يخاف تكذيبه. فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازيا . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشتد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية. شبه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. « وَنَجْمَلُ لَكُمْ سُلْطَنًا » أى غلبة ومهابة في قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بإيذاء، فضلا عن القتل « بَأْيَتِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو بـ (نجمل) أى نسلطكما بها أو بمعنى (لا يصلون) أى تمتنعون منهم بها. أو قسم جوابه (لا يصلون) مقدر. أو صلة لـ (الغالبون) فى قوله « أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » وتقدمه، إما للفاصلة أو للحصر. أى الغالبون عليهم، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ وَعَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّيْنِ فَوَقَدُوا إِلَيْهِمْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

«فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تقريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلها يرسل الرسل

بِالآيَاتِ « فِي آيَاتِنَا الْأُولَى » أى كائناً فى أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمداً للكذب وعناداً بإنكار النبوات، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أولئك لم يؤمنوا به أيضاً « وَقَالَ مُوسَى رَبِّىَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِى وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » قال المهايى: معناه: كفى دليلاً على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار. وهى العاقبة المحمودة. والمراد (الدار) الدنيا. وعاقبتها وعقبها: أن يحتم للعبد بالرحمة والرضوان. وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدراجاً، فلا يفوزون بالعقب الحميدة. وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم. وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة. ونهاية أعدائه وضيمة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ » هذا حكاية لتمرده وعتوه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة. كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله (١) « لَيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ » وكما قال تعالى (٢) عنه « فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ يَخْشَى » يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَانُ عَلَى الْإِطِينِ » أى ناراً، فأتخذ منه آجراً.

قال الزمخشري: ولم يقل (اطبخ لى الآجر) وأتخذ (لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقتة، وأشبه بكلام الجبارة. وهامان وزيره ومدبر رعيته « فَأَجْعَلْ لِي » أى من الآجر « صَرْحاً » أى قصرأ رفيعاً إلى السماء « لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى »

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩]. (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦].

يعنى العلى الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَمِنَ الْكَذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية ، والعلو لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَسْتَكْبَرَهُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَأَسْتَكْبَرَهُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى ، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه ، وادعاء العلم الكلى لنفسه مع جهله بربه « وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بل بالفساد ورد الحق ، والصدعن سبيل الله « وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً « أى يلعنهم كل مؤمن بسمهم » وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ « أى من المطرودين ، المبعدين » وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَائِرَ لِلنَّاسِ « أى أنواراً للقلوب » وَهُدًى « أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها » وَرَحْمَةً « أى بالإرشاد إلى العمل الصالح » لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ « أى فيتمظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيًا من علام الغيوب، ببيان أنه مافصل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ » أى الوادى الغربى الذى كوشف فيه موسى عن النجاة
 « إِذْ قَضَيْنَا » أى قدرنا وأهيننا « إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » أى أمر الإرسال والإنباء « وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * » وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا « أى بين زمانك وزمان موسى « فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ »
 أى أمد انقطاع الوحي، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا » أى مقبلاً « فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أى لك، وموحين إليك تلك الآيات. أى ما كان الإنباء بها إلا وحيًا مصدره الرسالة « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أى وقت ندائنا موسى « وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمة عظيمة كائنة منّا لك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ »
 أى من نذير فى زمان الفترة، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
[٤٨] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ، أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ)

«وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» أى عقوبة «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من الكفر والفساد «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى بها . وجواب (لولا) الأولى محذوف ، ثقة بدلالة الحال عليه . أى ما أرسلناك . لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تراول بالأيدى ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدى ، وتقديم الأيدى ، وإن كان من أعمال القلوب . وهذا من الاتساع فى الكلام ، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر ، وتغليب الأكثر على الأقل « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى » أى من قلب العصا حية ، وخلق البحر ، وغيرهما من الآيات . تعنتاً وعناداً ، كما قالوا ^(١) (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) وما أشبه ذلك . وقوله « أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » رد عليهم ، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أى أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أُوتِيَ موسى من الكتاب « قَالُوا » أى فى موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) « تَظَاهَرَا » أى تعاونا . وقرئ « سِحْرَانِ » أى ذوا سحرين ؛ أو جعلوها

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحارين مبالغة « وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَنَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبي صلوات الله عليه ، هي الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره ، جريباً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنساني كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لا بد له في هذا الطور من معلم ومرشد ، كما في الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ في الاستدلال على نبوته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذي يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا في مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٥٠] (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيدٌ يَّغِيْرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (الَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُم بِهِ يَوْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

[٥٥] (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين . والذكرى التى تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، وبحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَاتُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعُهُ » أى ولا أعانكم مثل ما تعاندونى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلفان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بين الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكي والإحاف . انتهى .
أى لا للشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلل : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم ، نوع تهكم بهم « فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ » أى الزائفة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ يُغَيِّرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ » الاستفهام إنكارى للنفى . أى لا أحد أضل منه . كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازي: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً ، بعضه إثر بعض ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصاحبة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ (وَصَّلْنَا) بالتشديد والتخفيف « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « هُمْ بِهِ يَتَذَكَّرُونَ » وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم « وَإِذَا يُنْقَلُ عَلَيْهِمْ » أى القرآن « قَالُوا آمَنَّا بِهِ » إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ » أى من قبل نزوله « مُسْلِمِينَ » أى منقادين له ، لما عهدنا من المبشرات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك « أُولَئِكَ » أى الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » يعنى مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانين . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم « وَيَذَرُونَ » أى يذفمون « بِأَحْسَنَةِ السَّيِّئَةِ » أى بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى للبؤساء والفقراء ، وفى سبيل البر والخير ، فراراً عن وصمة الشح ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ » أى من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا عَنْهُ » أى تكريماً للنفس عن ملابسة الأدياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا » أى لهم « لَنَأَعْمَلُنَّ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى بطريق التوديع والتاركة ؛ وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا تَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ » أى لا تزيد مخالطتهم وصحبهم ، ولا تزيد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازي : قال قوم : نسخ ذلك بالأمس بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت فى سبعين من القيسيين . بعثهم النجاشي .

فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم^(١) (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) حتى ختمها . فاجعلوا
يكون واسلموا .

وقال محمد بن إسحق في (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون
رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه في المسجد .
فجلسوا إليه وكلموه وسألوه . ورجال من قريش في أندية . حول الكعبة . فلما فرغوا
من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن
فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف
لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش .
فقالوا لهم : خيىكم الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم ، لتأتوهم
بخبز الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقكم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركباً أحق
منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم
ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أى ذلك كان .
قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم زلت هذه الآيات (الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ
هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن زلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم
زُلن في النجاشي وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتي في سورة المائدة^(٢) (ذَلِكَ بِأَنَّهُ
مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا) إلى قوله^(٣) (فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

(١) [٣٦ / يس / ٢١] . (٢) [٥ / المائدة / ٨٢] .

(٣) [٥ / المائدة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِظُكَ مِنَ الْأَرْضِ نَا ، أَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ
حَرَمًا آمِنًا يُحْبِبُونَ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ
لَمْ تُمْسِكْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن
يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى أن يهديه فيدخله فى
الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم
وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارى^(١) فى (صحيحه) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال :
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية
ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل
وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص ، ١ - باب قوله إنك

لا تهدي من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنّ لك ما لم أُنّه عنك . فأنزل الله ^(١) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل الله في أبى طالب ، فقال لرسول الله ﷺ ^(٢) (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم ^(٣) في صحيحه والترمذى ^(٤) أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم ، عن أبى هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا . وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة : إنها نزلت في أبى طالب حين عرض عليه الإسلام . انتهى . وقال ابن حجر في (فتح البارى) : لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبى طالب . انتهى .

وقد معنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية في كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من تعنتهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائي ، بقوله سبحانه « وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ » أى ونحالف العرب « نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » أى مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أى : ألم نعصمهم من عدوهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمنٍ ، لحزمة البيت الحرام ، الذى تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله ، لعلوا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ يَمُرُّ بَيْرُتٍ مَعِشَتَهَا » أى كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعنا)

(٤) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص

لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ « أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندر الباقى . أو (مصدر) أى سكنا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

[٦٠] (وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المذعة « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعييا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد « وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، لخلوه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰ » لأنه أبدى لا يزول « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ « أَى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) فى القرآن فى العذاب . وإليه أشار الزخشرى ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْآلُيَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحض منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم وما اختاروه « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوا يعبدون

أَهْوَاهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب : ففيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدى بـ (على) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به «فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ» أى لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله في العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم محتوماً على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحق للمصرّ «فَأَمَّا مَنْ تَابَ» أى من الشرك «وَأَمِنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمَعَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه . كأنه قال : فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشري «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» أى بمقتضى مشيئته وعنايته ، ما يريد «مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

قال الزمخشري : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراد بالالوهية وحده . ولذا قال «سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئاً ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات . قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار ، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . ودخل في قوله تعالى (مَا يَشَاءُ) فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتناء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفياً . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده . فكأنه هو المتفرد بالخلق ، فهو المتفرد بالاختيار منه . فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) في قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) موصولة وهى مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها - أن الصلة حينئذ تخلو من العائد . لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة فى اختياره . قيل : هذا يفسد من وجه آخر . وهو أن هذا ليس من المواضع التى يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَا كُلِّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت ، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى - أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير . الثالث - أن الله سبحانه يحكى عن الكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى (١) (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْخًا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) فأنكر عليهم سبحانه تخييرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معاشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل ، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معاشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بين فيها انفراد الخالق والاختيار . فالحق سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال (٢) (وَإِذَا جَاءَهُمْ مِّنْ آيَةٍ قَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) أى الله أعلم بالمثل الذى يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره . الرابع - أنه زه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خلق سواه ، حتى زه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس - إن هذا نظير قوله فى الحج (٣) (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) ثم قال (٤) (اللَّهُ يَصْطَفِي مَن

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢ . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤ . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥ و ٧٦] .

أَلَمْ لَّا سِيكَّةَ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) وهذا نظير قوله في القصص^(١) (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْمَلُونَ) ونظير قوله في الأنعام^(٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دأراً عليه . والله أعلم .

السادس - إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله^(٣) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه ، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكل حكمته وعلمه وقدرته . وأنه الله الذي لا إله إلا هو ، فلا شريك له يخلق كخلقهم ، ويختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره . فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره في هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته ، وأكبر شواهد وحدانيته ، وصفات كماله وصدق رسوله . فنشير منه إلى شيء يسير يكون منها على ما وراءه ، دالاً على ما سواه . نخلق الله السموات سبعاً . فاختار العليا منها فجعلها مستقر المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات . ولولم يكن لإقربها منه تبارك وتعالى . وهذا التفضيل والتخصيص ، مع تساوى

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ - ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفاً. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولى العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمه. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بني هاشم. ثم اختار من بني هاشم، سيد ولد آدم محمداً ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهى البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلئ خلاله، ولا يلتقط لقطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. نخير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجود الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَنَ اللَّهُ» أى تنزيهاً لله الذى لا يزاحم اختياره اختياراً «وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تَبْصُرُونَ)

[٧٣] (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ، وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى فى الليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسمانية والروحانية، باستعمالها فيما وجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » أى نبياً يشهد عليهم بما كانوا عاينه . كقوله تعالى ^(١) « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » « فَقُلْنَا » أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم . وظهر برهان النبىؐ ، كقَالَ تعالى « فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية ، لا يشاركه فيها أحد « وَضَلَّ عَنْهُمْ » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة ، والطرق المتشعبة المتفرقة « إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ » أى من شا كلتهم فى الكفر والظلم . وقوم موسىؑ ، جماعة الذين أرسل إليهم ، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتمززه برؤية زينة نفسه « وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » أى مفاتيح صناديقه . على حذف مضاف . أو الإضافة لأدنى ملابسة . وقيل خزائنه « لَتَنُوۡءَ » أى تثقل « بِالْمُصَبَّةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَقَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح ، لما فيه من إثارها عن الآخرة ، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَأَتَّبِعْ فِيمَاۤ أَتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

« وَأَتَّبِعْ فِيمَاۤ أَتَىٰكَ اللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك ، بعد الفاقة « الدَّارَ الْآخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب . وتجمله زائدك إلى الآخرة « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفئك « وَأَحْسِنْ » أى إلى الناس . أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * » قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » أى بطرق التجارة أو المكاسب « أَوَلَمْ يَعْلَم » أى مما سمع بالتواتر « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ » أى الكثيرة ، بحيث صارت سنة له « مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » أى بالأموال والأنباع « وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

الْمُجْرِمُونَ « أَى لَا يَتَوَقَّفُ إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى سَوَالٍ ، لِيَعْتَذِرُوا عَنْهَا . بَلْ مَتَى حَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ بِفَسْقِهِمْ ، أَهْلَكَهُمْ بَغْتَةً بِلَا مَعَاتِبَةٍ وَطَلَبِ عَذْرِ . ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّ قَارُونَ لَمْ يَمْتَبِرْ بِذَلِكَ ، وَلَا بِنَصِيحَةِ قَوْمِهِ ، بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

يَلْبِثْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[٨٠] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

[٨١] (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ)

[٨٢] (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَنْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا

لَخَسَفَ بِنَا ، وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أى قَارُونَ بَاغِيَا « عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ » أى مُعْتَرَاً بِالنَّظَرِ فِيهَا « قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى جَرِيَا عَلَى سَنَنِ الْجُبَلَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، مِنْ الرِّغْبَةِ فِي السَّعَةِ وَالْيَسَارِ

« يَلْبِثْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * » وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ « أى مِمَّا تَمَنُّونَهُ » لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا « أى

هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي فَاهِهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . أَوِ الْجَنَّةَ . أَوِ السَّيْرَةَ وَالطَّرِيقَةَ ، وَهِيَ الْإِيمَانُ

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ « إِلَّا الصَّابِرُونَ » أى عَلَى الطَّاعَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَعَلَى زِمَامِ النَّفْسِ أَنْ

تجرى فى أعقاب المزخرفات . و(ويلك) فى الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى ، مجازاً . وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ » أى المشتعلة على أمواله « الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى بدفع العذاب عنه « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ » أى بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْأَلُ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى من شق وسعيد « وَيَقْدِرُ » أى يقبض . فلا دلالة فى البسط على السعادة . ولا فى القبض على الشقاوة . بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقدّر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى بعدم إيتائه متمنا « لَخَسَفَ بِنَا » أى كخسف به « وَيَسْأَلُهُ وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » أى لنعمة الله ، فى صرفها فى غير سبيلها . أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

فى (ويكأن) مذاهب :

الأول - أن (وى) كلمة برأسها . وهى اسم فعل ، معناها أعجب . أى أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها . أى أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وى) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .

الثانى - أنه مركب من (وى) للتعجب (وكأن) للتشبيه . والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط . أى ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا إلى آخره ، أمر قارون وما شوه من قصته . والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال ، أنه لتحقيقه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شيء . كما أشار إليه فى الكشف .

الثالث - قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه . إلا أنه ذهب منها معناه . وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضا يناسبه الوقف على (وى) .

الرابع- زعم الهمداني في (الفرائد) أن مذهب سيويوه والخليل أن (وى) للتنديم. و(كأن) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس - ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) تخفف بحذف اللام. والعامل في (أن) اعلم ، المقدر. والكاف على هذا ضمير في محل جرّ. وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس - أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما - أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثاني - أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع - أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين . فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائي وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما يستفاد من حواشي الفاضل والسمين . وعندى أنها مركبة من (وى) للتعجب و(كأن) التي للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة - كما قال ابن كثير - أمروضية اصطلاحية ، والمرجع إلى اللفظ العربيّ .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب . يقال (ويك) و(وى لزيد) وتدخل على (كأن) المحففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَأَلَتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مَالِي . قَدْ جِئْتَانِي بُنْكَرٍ
وَيْ كَأَنَّ مِنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ بَبٌ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل فقناه في الإضراب عن كثير من مروية ، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف . ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ » أى غلبة وتسلطاً بسوء وتكبر « وَلَا فَسَادًا » أى بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَالْعَاقِبَةُ » أى النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشري ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما ، وميل القلوب إليهما . كما قال ^(١) (وَلَا تَرَوْهُ كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) فعلق الوعيد بالركون . وعن عليّ رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شركاً نعله أجود من شرك نعل صاحبه . فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانى ههنا . وعن عمر بن عبد العزيز ، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطمّاع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقاً بقوله ^(٢) : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) ^(٣) (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) ويقول : من لم يكن

(١) [١١ / هود / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤] . (٣) [٢٨ / القصص / ٧٧] .

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَأَلْعَبِيَّةُ لِلْمُتَمِّينَ) كما تدبره على والفضيل وعمر رضى الله عنهم. «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامعين . ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى مثله . وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها . ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعمئة . وهو معنى قوله (فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا) كذا في الكشف .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٥] (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُلْ رَّبِّىَ أَعْلَمُ

مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ،

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم ، وصدعهم به «لَرَادُّكَ» أى بعد الموت «إِلَىٰ مَعَادٍ» أى مرجع عظيم . وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنبؤينه للتعظيم . ووجهه - كما فى (العناية) - أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيماً لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوة . كما قال تعالى ^(١) (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى ^(٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

اللَّهُ أَرْسَلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ) وقال^(١) (وَجَاءَ بِلُتَيْسَيْنِ وَالشَّهْدَاءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة . إلى الموت . إلى الجنة أخرجت عنه من طرق . كما أسنده ابن كثير . والذي رواه البخاري والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرأدك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكياً ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت . وتارة بالجنة التي هي جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُلْ رَبِّیْ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأُلْهُدَى » یعنی نفسه الکریمة . أى بما يستحقه من الثوبة « وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » یعنی المشرکین . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعید السابق « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ » أى ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحي إليك ، أن الوحي ينزل عليك « إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة من ربك أتى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ » أى معینا لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الکرماني في (الفرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانهم ، وأنه أمر بالهجرة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعَلِّ كلتك ومؤيد دينك . ولذا قال « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى إلى عبادته وحده لا شريك له « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتبهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لى كالشرك . فلا تسكن ممن يفعله . أو المراد نهى أمته ، وإن كان الخطاب له عليه السلام . كذا فى (العماية) .

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى إياه و(الوجه) يعبر به عن الذات كما قال^(١) « كُئِلٌ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتى . لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم . وعن مجاهد والثورى (إلا وجهه) أى ما أريد به وجهه . حكاه^(٢) البخارى فى (صحيحه) .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و ٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص .

قال ابن جرير^(١) : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا ، لَسْتُ مُحْصِيَهُ
رَبُّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهذا القول لا ينافي القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .
وفيه بُعِدَ وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لا تحتل ذاك المعنى ، فكذا هذه « لَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبي الثانية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سميت بها لاشتغالها على آية^(١) (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايمي.

وهي مكيّة. واستثنى من أولها إلى قوله تعالى^(٢) (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) وقوله^(٣) : (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر منازل بمكة. وآياتها تسع وستون. قال الداني: متفق عليه.

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ

الْكَاذِبِينَ)

«إِلَّا الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» أى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يعجنهم الله بضروب الحن ، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال ^(١) (لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وكقوله ^(٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ) وقوله تعالى ^(٣) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بحكمة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فِتْنَتَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دَوَّن التاريخ اضطهادهم . أى فصبروا وماوهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا » أى فى قولهم (ءَامَنَّا) « وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشئ قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه . وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم ههنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) . وقال المهايى : (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (الَّذِينَ صَدَقُوا) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلْيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (الْكَذِبِينَ) لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بحجة الصادقين ، ويستظفروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا » أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بسئ الذى يحكمونه حكمهم « مَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ اللَّهِ « أَى فى الجنة من رؤيته ، والفوز بكرامته » فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وهو الموت «لَأَتِ»
أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده
تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ،
ناعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلا وغاية لظهور النصر والفتح وعلو الحق
وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنه . فإنه آت بوعده الله الحق وقوله الصدق . ولم أر من ذكره
ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق . والله أعلم «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم
العليم بضمائرهم وأحوالهم «وَمَنْ جَهَدَ» أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع
ضروب الإيذاء « فَإِنَّمَا يَجْهَدُ لِنَفْسِهِ » أى لأنه يمهّد لنفسه ، ما ينجى به ثمة غرسه
« إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
[٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً
ذا حسن عظيم «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى
الشرك ، إذا حملاك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أى لا علم لك بالهيته . قال
القاضى : عبر عن نفىها بنفى العلم بها ، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم
بطلانه . فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلى
مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازكم حق جزائكم . فيه التحذير من متابعتهم على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة في الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغني أنك قد صبأت . فوالله ! لا يظلمني سقف بيت من الضحّ والريح . وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد . وبقيت ثلاثة أيام كذلك . فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذي عن سعد^(١) قال : نزلت في أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا غاها . فنزلت هذه الآية قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا . وقال الترمذي : حسن صحيح «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» أى في زمرة الراسخين في الصلاح والسكال .

قال الزمخشري : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله^(٢) تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وقال^(٣) في إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ) أو المعنى : في مدخل الصالحين وهي الجنة . وهذا نحو قوله^(٤) تعالى (وَمَنْ يُطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الآية .

-
- (١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٩ - سورة العنكبوت ، حدثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الثني .
- (٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦ / النحل / ١٢٢] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] .
- (٤) [النساء / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،
«وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ
اللَّهِ» أى جعل ما يصيبه فى الصّرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب
الله فى الشدة والهلول . فيرتد عن الدين . مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يفاله
فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والحنة منحة . فإن العاقبة للمتقوى وسعادة الدارين
لأهلها «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي
صُدُورِ الْعَالَمِينَ» أى من التلبيس والإخلاص . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَمِنَ النَّاسِ مَن
يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ
إلى قوله^(٢) (ذَلِكَ هُوَ الضَّالُّ الْبَعِيدُ) وكقوله سبحانه^(٣) (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْزِذْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى^(٤) (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ
يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْهِجُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١] .

(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ)
 [١٣] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » ثم بين تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ » أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فبتبعها علينا وفي رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك فى رقبتي . قال الله تعالى تكذباً لهم « وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ »* وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ « وهى أوزار أنفسهم » وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ « أى وأوزاراً أخرجهم أوزار أنفسهم . يعنى أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصدع سبيل الله . كما قال تعالى ^(١) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ يَغِيرَ عَلَيْهِمْ) وفى الصحيح ^(٢) (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً) « وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتاح الأنبياء بأذية أممهم ، إثر بيان افتتاح المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيد الإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثاً لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

[١٥] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَاغُ الْمُبِينِ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا ، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تَكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدق قومه «أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ» إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عطف على (أَوْ لَمْ يَرَوْا) لاعلى (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب . فيصح حينئذ العطف .

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال : وبهذا التقرير سقط ما قيل : إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم . وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين . مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحقيقه ، كأنه مشاهد «إِنَّ ذَلِكَ» أى ما ذكره ، وهو الإعادة «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ

النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[۲۳] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[۲۴] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعتم الرقى فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فيكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعى « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَبْعُضٌ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ)

[٢٦] (فَأَمِّنْ لَهُمْ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

[٢٩] (أَبْنَيْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا » أي تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباع المتبعين، والمتبعون الأتباع . كما قال تعالى^(١) : (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى^(٢) (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) « وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبیه :

قال السمين : في (ما) من قوله تعالى (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ) ثلاثة أوجه :

أحدها - أنها موصولة بمعنى (الذي) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَانًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) في قراءة من رفع . والتقدير : إن الذي اتخذتموه أوثاناً مودة ، أى ذو مودة ، أو جعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذي اتخذتموه أوثاناً لأجل المودة لا ينفعكم ، أو يكون عليكم ، لدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثاني - أن تجعل (ما) كافة و (أوثاناً) مفعول به . و (الاتخاذ) ههنا متعدي لواحد . أو لاثنتين ، والثاني هو (من دون الله) فن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمرة ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لـ (أوثاناً) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث - أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أوثاناً مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع (مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم) . فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع في الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنا بنى لإضافته إلى غير متمكن . ١٥٠ .

وأشار العلامة القاشانى إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبراً لـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له العربون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم (في الحياة الدنيا) أو: إن كل ما اتخذتم من دون الله، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا، أو: إن كل ما اتخذتم أو أنانا مودود في هذه الحياة الدنيا. أو لمودة بينكم في هذه، على القراءتين.

ثم قال: والمعنى أن المودة قسمان: مودة دنيوية، ومودة أخروية. والدنيوية منشؤها النفس، والأخروية منشؤها الروح. فكل ما يحب ويودّ من دون الله، لا لله ولا بحسبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية. وهو هوى زائل، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج. فإذا انحل التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقي التضاد والتعاند، بمقتضى الطباع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَمَعْصُكُمُ بَعْضٌ) الآية. ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن.

وأما الأخروية فنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات، وتجانس الذوات، لا تنصفي غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب. فيصير يوم القيامة محبة صرفة صافية الهيئة، بخلاف تلك. انتهى.

« فَأَمَّنَ لَهُ » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لَوْ طُوفَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومي « إِلَى رَبِّي » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ » أى لإبراهيم « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولداً ونافلة، بمباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإنشاء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحَةَ » أى الفعلة المتناهية في القبح « مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ » أى سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » أى
مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ ، إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ
إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّا أَنَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ
وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلى ونقلّى ،
وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بالشارة بالولد والنافلة ،
وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه « قَالُوا » أى لإبراهيم عليه السلام
« إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » أى
بتزليلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا
قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ » إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ « أى الباقين
فى العذاب أو القرية « وَلَمَّا أَنَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعدمفارقهم لإبراهيم عليه
السلام « لُوطًا سِيءَ بِهِمْ » أى اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرَعًا « أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته » وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ « أى مما يصيبهم من العذاب » إِلَّا أَمْرًا نَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثمودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى عذابا عظيما من جهتها

« بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ « يعنى قصتها العجيبة ،

أو آثارها الخربة » وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ «

أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبنى

على أهلها ، كنقص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أى بلادهم

أو منازلهم « جِثِيمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثمودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء

متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام ، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن

لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عنادا وكبرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَامَنْ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا

فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

[٤٠] (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ،

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَامَنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ » أى فأتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمروهم تدميراً. ولذا قال « فَكُلًّا

أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ » فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم

لوط « وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ » كمدىن وعمود « وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ »

كقارون « وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل ما يوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ

يَتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٤٢] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٤٣] (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

[٤٤] (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتًا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أذى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى شيئاً مآ . أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنزعة، فدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت فى ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد . وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) تذييل يعرف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) إيفال فى تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود . وفى الآية لطائف بيانية ذكرت فى المطولات . وقوله «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» بالياء والتاء فى (تدعون) قراءة ثان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و (من) مزيدة . و (شئ) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شئ) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول (يعلم) ومفعول (يدعون) عائد المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضى « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ » يعنى هذا المثل ونظائره فى التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَا » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا الْعَالِمُونَ » أى الراسخون فى العلم الكاملون فيه . وعن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها ، إلا أحزنتنى . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح ، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى (١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِينَ) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)
[٤٦] (وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ » أى تقرب إلى الله تعالى بقراءته ، وتحفظاً لألفاظه ،
واستكثاراً لما في تضاعيفه من المعاني . فإن القارى المتأمل قد ينكشف له بال تكرار ما لم ينكشف
له أول ما قرع سمعه . وتذكيراً للناس ، وحملهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن
الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » أى
تكون سبباً للانتهاء عن ذلك . ففيه تجوز في الإسناد . فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا
تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب ، أن يدخل فيها
مقدماً للتوبة النصوح متقياً ، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ويصليها خاشعاً
بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن
الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، ونهيه
عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ،
وهى وبال عليه . أفاده الزمخشري . وقوله تعالى « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ »
قال الزمخشري : أى : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله ، كما قال (١)

(فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. أو: ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذكر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. (فذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدها مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه في الأولين غيره من الطاعات. وفي الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازى: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشون لذلك وتذكرونهم بلاء أفواهم وقلوبكم. لكن ذكر الله أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغي أن يكون على وجه التعظيم. وفي قوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهى أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذكر الله له الكبر لا لغيره) وهذا كما يقال في الصلاة (الله أكبر) أى له الكبر لا لغيره. انتهى.

ولما بين تعالى طريقة إرشاد الشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن. وهى اللين والأناة «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» أى بالاعتداء، بأن أخشوا في المقال وأقذعوا في الجدال، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف، لتكبيهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى^(١) «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَالْهَمْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيماننا مجالا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤولا . وروى البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارى .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي غنم الأنصارى مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارى^(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٢٩ - باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة

وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلاً . ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

وقال البخارى^(١) : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قریش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه . والله الحمد والمنة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ

بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِثْلِكَ ، إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أى : مثل ذلك الإنزال ، أنزلنا إليك الكتاب .

أى أنزلناه مصداقاً لساير الكتب السماوية « فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ » أى العرب « مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِثْلِكَ » أى فإن ظهر هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبى ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شىء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين في شرائه وقضائه ، على أسمى لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة . وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى ، ونفى للتجاوز في الإسناد « إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » أى لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتب مأثورة عن الأنبياء .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته فى الكتب المتقدمة . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الآية . وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً لا يحسن الكتابة ولا يخط سطر أو لا حرفاً بيده . بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم ، من متأخري الفقهاء ، كالقاضى ابن الوليد الباجى ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية ^(٢) فى صحيح البخارى (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد الفكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى ، وتبرأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالاً وخطبوا به فى محافلهم . وإنما أراد الرجل أعنى الباجى فيما يظهر عنه . أنه كتب ذلك على وجه المعجزة . لأنه كان يحسن الكتابة . وما أورده بعضهم من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : ومن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروى وأبو الفتح النيسابورى وأبو الوليد الباجى من المغاربة . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه فى : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع

أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و ٨٨٢ عن السور بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميته لا تنافي المعجزة . بل هي معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح^(١) (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله (كتب) فعناه أمر بالكتابة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أي القرآن « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » أي العلماء به وحفاظه . وها من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا في الكشف . « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ » يعنون ما كانوا يفترحونه في تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أي هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتها ، لا الإتيان بما تفترحونه . ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ : لا نكتب

ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَدْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَفْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَٰعِبَادِى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِىَّ وَسِعَةٌ فَآيِسَىٰ فَاَعْبُدُونِ)

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أى آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعمت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أى إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابليتموني بالجحد والتكذيب . يعنى . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى الدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محق ، لا تنقم منى ، كما قال تعالى (١) (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * إِلَّا خَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به . ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى « يَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكهم « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم ، وهو وقته المعين له فيهما « لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » أى عاجلا « وَكَيًّا تَبْنَهُمْ بَغْتَةً » أى فجأة في الدنيا . كوقعة بدر . فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو في الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) أى استحيط بهم . أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هى كالحيطه بهم . لأن كل آت قريب . « يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَعْبادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لا يذاته فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد ما ، يقدر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة ، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة ، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سمعها ، وإمكان التفسح فيها ، لا ينبغى الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريد . كما قيل : * وكل مكان ينبت العز طيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلها بلادى ، وكلُّ العالمين أقاربي

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٧] .

وقد روى الإمام^(١) أحمد عن الزبير : قال : قال رسول الله ﷺ : البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله . فحيثما أصبت خيرا فأقم . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها ، عند ملكها النجاشي رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملا بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَا آتَةٍ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٥٩] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَا آتَةٍ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجوع . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه . وفيه استعارة بديعة لتشبيهه

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٢٠

(طبعة المعارف) .

الموت بأمر كربه الطعم، مره « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى الحن والمصائب « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالاته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّنْ » أى: وكم « مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يُرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى يقيض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو اليسر والمسهل لكل مخلوق من رزقه ما يصلحه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عام وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأننى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالاته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد مرفوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقي « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها ما لا يضر ولا ينفع . وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الْأُخْرَى لَهِيَ

الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزْلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل الحق بحيث لا يبتري المبتطلون على جحدوده . وأنه أظهر حجبتك عليهم . والمعنى : احمده الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نعم لا تحصى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه ، ويعبدون غيره . وقوله « وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ » إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها فى سرعة زوالها ، وتقضى أمرها ، كما يلهمى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرون عنه . ولا ثمرة إلا التعب . ففى الحصر تشبيهه بليغ « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » أى دار الحياة الخالدة . ففيه مضاف مقدر . و(الحيوان) مصدر سمي به ذو الحياة ، فى غير هذا الحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح فى المصادر الدالة على الحركة « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لم يؤثر وأعليها الدنيا التى حياتها عارضة . وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ،

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

« فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الدعاء . لعلمهم أنه لا ينجيهم

من الفرق سواه « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ » أى من

نعمة النجاة وريح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون « أَوَلَمْ يَرَوْا »
 أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » أى لا يُغزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم وكثرة
 العرب « وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهباً وسبياً « أَفَبِأَبْطِلِ
 يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر
 عليها إلا الله تعالى، يكفرون خيره، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ،
 أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

[٦٩] (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » بأن زعم أن له شريكاً « أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُ » يعنى الرسول أو الكتاب « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى موضع
 إقامة ، جزاء افتراءهم وكفرهم . بلى « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا » أى جاهدوا النفس
 والشیطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السیر
 إليها والوصول إلى جنابنا . وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » أى:
 أعمالهم بالنصر والمعونة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠ - سُورَةُ الرُّومِ

قال المہامی : سمیت بها لاشتغال قصتها على معجزة تفيد المؤمنین فرحا عظیما ، بعد طرح
یسیر . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهذا من أعظم مقاصد
القرآن .
وهی مکیة . وآیه ستون آیه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَ)

[٢] (غَلِبَتِ الرُّومُ)

[٣] (فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[٤] (فِي بَضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَذِ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[٥] (يَنْصُرِ اللَّهُ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« الْمَ غَلِبَتِ الرُّومُ * فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ

سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين - فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشتتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرن عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضهم . وتراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلووس ، إن وقع مصداقها . فلم يعض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوخها ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشرافه . وفي ضمنه ، أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلو الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوهم ، إلى غير ذلك . وما ألطف ما قال الزبير الكلائي : رأيت غلبة فارس الروم . ثم رأيت غلبة الروم فارس . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم . كل ذلك في خمس عشرة سنة - من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين - والأرض (كما قال الزمخشري) أرض العرب . لأن الأرض المهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل غلبة فارس على الروم « وَمِنْ بَعْدُ » أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق ، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمره وقضائه ، وعلمه ومشيئته . كما قال تعالى ^(١) (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) « وَيَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ يقلب الروم على فارس ، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم « يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * يَنْصُرُ اللَّهُ » أى تغلبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغيط من شئت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » أى من عباده على عدوه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القاهر الغالب على أمره ، لا يعجزه من شاء نصره « الرَّحِيمُ » أى فى نصره وتغلبه من يشاء « وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحكمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) «يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم «وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ» أى التى هى المطلب الأعلى «هُمْ غَافِلُونَ» أى لا يُحْطِرُونَهَا بِيَالِهِمْ . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشريّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَهْرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . انتهى . وناقش الكرخيّ فى إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفى لا يصح . واستظهر قول الخوفى؛ أن (يَعْلَمُونَ) استئناف فى المعنى . وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَهْرًا) تقليلاً لمعلومهم . وتقليله يقربه من النفى . فيطابق المبدل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشريّ (وفى تفكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر) .

وأما قول أبى السعود : وتنكير (ظَهْرًا) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق البديل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) أى يحدثوا التفكير فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكر . فالجور ظرف للتفكر ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا في النفس . والتفكر لا متعلق له ، لتنزيله منزلة اللازم . وجوز كون الجور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(في) أى : أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق . أى : ألم يتفكروا فيقولوا أو فاعلموا . وقال السمين : (ما) نافية . وفي هذه الجملة وجهان : أحدهما - أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثاني - أنها معلقة للتفكر . فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء في قوله (بِالْحَقِّ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى ، لا بد لها من أن تنتهى إليه . وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ أَلَمْ يَكْذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَكَانُوا فِيهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ «أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرق فيهم من أهل مكة «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العدد والعدد ، وتنظيم الجيوش والتزین بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهرتها . ففسدت ملكاتهم ، وطفئت شهواتهم ، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم ، كما قال «وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى الآيات الواضحات على حقية ما يدعونهم إليه «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» أى فكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» * ثم كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَتَوْا «أى عملوا السيئات «السَّوْءَى» أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . و(السَّوْءَى) تأنيث (الأسوأ)، وهو الأقبح . كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى «أَنَّ» أى لأن «كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» * اللَّهُ يُبْدُوا الْخَلْقَ «أى ينشئهم «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت بالبعث «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى إلى موقف الحساب والجزاء «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

[١٤] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

[١٦] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

[١٧] (فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شَرِّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أي يجبرونهم من عذاب الله كما كانوا يعمون «وَكَانُوا بِشَرِّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أي يألئهمهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنهه أمرهم «وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْقِرُونَ» أي يتميز المؤمنون والكافرون في الحال والأحوال «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أي يسرون «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» أي لا يغيثون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . و (الفاء) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان إلخ . والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما . و (سبحان) خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده . أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل . وقوله (وَلَهُ الْحَمْدُ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد لمن له تمييز من أهلها . قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسيطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما ينبي عنه قوله تعالى (١) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى (٢) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الآية جامعة للصلاة الخمس : (تمسون) صلاة المغرب والعشاء . و (تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر . فإن قيل : لم غيّر الأسلوب في (عشيا) ؟ أجب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجي منه الفعل بمعنى الدخول في العشي . كالمساء والصباح والظهيرة . ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً . أما في المساء والصباح فظاهر . وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيام . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

[٢٠] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

«يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ» أي كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة «وَيُخْرِجُ

«الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ» كالنطفة والبيضة من الحيوان «وَيُخَيِّ الْأَرْضَ» أي بالنبات

«بَعْدَ مَوْتِهَا» أي يسما «وَكَذَلِكَ» أي : ومثل ذلك الإخراج «تُخْرَجُونَ» أي

من قبوركم .

وقال المهايي : أي : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها .

ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اهـ

وآثر هذا المعنى ، على بعده ، مراعاة لسياق الآية ، من طريق الإشارة «وَمِنْ آيَاتِهِ» أي

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشاراً ملاً البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء الدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء ، ومكر وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة . كل بحسبه . فسبحان من خلقهم وسيرهم ، وصرّفهم فى فنون المعاش وفوت بينهم فى العلوم والمعارف ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادداً وتراحماً بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أرحم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنَاتِ وَالْوَنَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[۲۵] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ السِّنِّكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ» أى أولى العلم كما قال (۱) (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى لاستراحة القوى ورد ما فقدته «وَأَنْتِفَافُكُمْ مِّن فَضْلِهِ» أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى سماع تفهم واستبصار «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا» أى من الصاعقة «وَوَطْئًا» أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه «وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَخْضِي بِهِ الْأَرْضَ» أى بالنبات «بَعْدَ مَوْتِهَا» أى يبسها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ «أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤهما. لأنه قديين حاله بقوله تعالى (۲) (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تبات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى (۳) (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ماها عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل (۴) (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدادة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضا، فقيل : «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ» فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(۱) [۲۹ / العنكبوت / ۴۳] . (۲) [۳۰ / الروم / ۲۲] .

(۳) [۳۱ / لقمان / ۱۰] . (۴) [۳۰ / الروم / ۸] .

مرتّب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم في سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هياتهما بأمره تعالى ، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما . ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى ^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) انتهى .

لطائف :

الأولى - الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبه سرعة تقرب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تحشم عمل ، بسرعة تقرب إجابة الداعي المطاع على دعائه . أو هو ممكنية وتخيلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يهيمون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قريبتها .

الثانية - قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، لا بـ (تخرجون) لأن ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله .
الثالثة - قال الكرخي : قال هنا (إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال في خلق الإنسان ^(٢) (ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدرّج ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة ، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما في الإعادة فلا يكون تدرّج . بل يكون بدء وخروج . فلم يقل هنا : (ثم) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلُّ لَّهُ قَائِمُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ

الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُ وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى خلقاً وملكاً وتصرفاً «كُلُّ لَّهُ وَ قَنِتُونَ» أى منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» أى من البدء. أى بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة لطائف :

الأولى - تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .
الثانية - قال الزمخشري : فإن قلت : لم آخرت الصلة في قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت في قوله ^(١) (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو حزه . فقل (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هيم وعافر . وأما ههنا ، فلامعنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء . فلو قدمت الصلة ، لتغير المعنى . اهـ .

قال الناصر : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر ، لا بالخبر . وإنما يلحق الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .
الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله ^(٢) (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر : إنما يلحق في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ (ثم) إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله (في الجواب) : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء ، لا يخلص . فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة . فيلزم

(٣) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص ، والله أعلم ، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضى : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها . أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى ، فتكون للتفاوت في الرتبة لا للتراخي الزماني . والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه . فلا يناق قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء ، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثرى لا كلى . كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة نفيسة . ويجوز جملة على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي . كما في (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما . كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل ، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة . فكل شيء بدءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداءً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج : المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولاً ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على السنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى الغالب على أمره ، الذى لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « الْحَكِيمُ » الذى يجرى أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

[٢٩] (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ،
وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ)

« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا » أى يتبين به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منتزعا من
أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »
أى من العبيد والإماء « مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون
أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر (أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ »
أى كما يخاف بعضهم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نفى مضمون ما فصل
من الجملة الاستفهامية . أى : لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مما ليكم ، وهم أمثالكم
فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى العبودية ،
التي هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟
أفاده أبو السعود « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح
الآيات « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان
« فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى سبب صرف اختياره إلى كسبه . أى : لا يقدر على هدايته أحد
« وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقومه له ، واجعله مستقيماً متوجهاً له . وفى النظم الكريم

استعارة تمثيلية ، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأمره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له ، لمراعاته

والاهتمام بحفظه « حَنِيفًا » أى مائلاً عن كل ماسواه ، إليه . قال المهايى : ولا يعسر الرجوع إليه

لكونه « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث

يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً . فالقول بتمتده تغيير للفطرة . لكن

« لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » أى لا تغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال « ذَلِكَ » أى الدين

المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لا عوج فيه . قال المهايى :

وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة . وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب .

لأنها من الأمور التى لا تدخل تحت الكسب والاختيار . وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى

راجعين إليه بالتوبة والإنابة^(١) (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) وهو حال من فاعل (الزموا)

المقدّر ناصباً لـ (فطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . أولأن الخطاب

له ﷺ ولأتمته . أو على أنه على حذف المعطوف عليه . أى : أقم أنت وأمتك . والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَأَتَقَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وَكَانُوا شِيعاً» أى فرقاً «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقا .

قال القاشانى : يعنى المفارقين الدين الحقيقى ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدر الفطرة ، وتكاثف الحجاب ، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابيه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائماً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَا آذَقْنَاهُمُ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِنْ بِنَا قَدَمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم « ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ » أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهديدى كقوله تعالى « فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ « أَى عَاقِبَةُ تَتَمَكَّم وَوَبَالِه « أَمْ أُنَزَّلْنَا عَلَیْهِمْ سُلْطَانًا « أَى حِجَّة وَاضِحَةٌ قَاهِرَةٌ « فَهَوَ يَتَكَلَّمُ » أَى تَكَلَّم دَلَالَةٌ . كَمَا فِی قَوْلِهِ ^(١) تَعَالَى (هَذَا كِتَابُنَا یَنْطِقُ عَلَیْكُمْ بِالْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا بِهِ یُشْرِكُونَ » أَى بِإِشْرَاكِهِمْ . وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنكَارٍ . أَى : لَمْ یَكُنْ شَیْءٌ مِنْ ذَلِكَ « وَإِذْ آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً » أَى نِعْمَةً مِنْ صَحَّةٍ وَسَعَةٍ « فَرِحُوا بِهَا » أَى بِطَرَأٍ وَنَفْرًا ، لَا حَمْدًا وَشُكْرًا « وَإِنْ تُصِیْبُهُمْ سَیِّئَةٌ » أَى شِدَّةٌ « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أَى مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ « إِذَا هُمْ یَقْنَطُونَ » أَى یَبْأَسُونَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ . قَالَ : هَذَا إِنكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِلَّا مِنْ عَصْمِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَوَفْقِهِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بِطَرِ وَقَالَ ^(٢) (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ وَلَفَرِحَ فَخُورٌ) أَى بِفَرَحٍ فِی نَفْسِهِ ، بِفَخْرٍ عَلَى غَيْرِهِ . وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنَطَ وَأَبَسَ أَنْ یَحْصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ خَیْرٌ بِالسَّكِيَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ^(٣) (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أَى : صَبَرُوا فِی الضَّرَاءِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی الرِّخَاءِ . كَمَا ثَبَتَ فِی الصَّحِیحِ ^(٤) : عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا یَقْضِی اللَّهُ لَهُ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ خَیْرًا لَهُ . إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شُكِرَ ، فَكَانَ خَیْرًا لَهُ . وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ ، فَكَانَ خَیْرًا لَهُ .

القول فی تأویل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوْ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ وَیَقْدِرُ ، إِنَّ فِی ذَلِكَ لَآیَاتٍ لِّقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ)

« أَوْ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ وَیَقْدِرُ » إِنَّ فِی ذَلِكَ لَآیَاتٍ لِّقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ » قَالَ الزَّخَشَرِيُّ : أَنْكَرَ عَلَیْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ هُوَ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ . فَالْهَم

(١) [٤٥ / الْجَانِیَّةُ / ٢٩] . (٢) [١١ / هُودَ / ١٠] . (٣) [١١ / هُودَ / ١١] .

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِی : ٥٣ - كِتَابِ الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ ، حَدِیثٌ رَقْمٌ ٦٤ (طَبَعْتُنَا)

يقنطون من رحمته ، ومالمهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بين تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٣٩] (وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

« فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أى من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على

وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . لأن (آتِ) أمر للوجوب .

والظاهر من (الحق) بقرينة ما قبله أنه مالى ، وهو استدلال متين « وَالْمِسْكِينَ » وهو الذى لا شيء

له ينفق عليه . أو له شيء لا يقوم بكفايته « وَابْنَ السَّبِيلِ » أى السائل فيه ، والذى انقطع

به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ »

أى النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى . أو يريدون ذاته بمعروفهم لارياء ولا سمعة ،

ولا مكافأة يد . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن

نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى فى الدنيا

والآخرة « وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا » أى مال ترابون فيه « لِّيَرْبُوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » أى ليزيد

فى أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ » أى لا يزكو ولا ينمو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ - ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يحققه بحق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال . وذكر في تفسيرها معنى آخر ، وهو أن يهب الرجل للرجل ، أو يهدي له ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى . فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال الضحّاك ، واستدل بقوله تعالى ^(١) (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) أي لا تعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباؤه ، فرباً لا يصح ، بمعنى ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : في ذلك كله نظر من وجوه :

الأول - أن هذه الآية شبيهة بآية ^(٢) (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ بِنِي الصَّدَقَاتِ) وهي في ربا البيع الذي كان فاشياً في أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء ، مخرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال البشري . فنعى عليهم حالهم ، طلباً لتركيتهم بتوبتهم منه . ثم أكد ذلك في مثل هذه الآية . مبالغة في الزجر .

الثاني - أن الربا ، على ما ذكر ، مجاز . والأصل في الإطلاق الحقيقة ، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لا موجب له .

الثالث - دعوى أن الهبة المذكورة مباحة ، لا بأس بها بعد كونها هي المرادة من الآية - بعيدة غاية البعد . لأن في أسلوبها من الترهيب والتحذير ما يجعلها في مصاف المحرمات . ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية ، كما تقرر في موضعه .

الرابع - زعم أن النهي عنه هو الحضرة النبوية خاصة ، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب . وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق . لا يقال الأصل وجوب

(١) [٧٤ / المدثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يقتدر إلى دليل - لأننا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتخصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيص مراد به التعميم إجماعاً . كآية^(١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وأمثالها .

الخامس - أن في هذا النهي عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبين أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية لإرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي - لم يبعد . لما تقرر من عصمته وزاھته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكية . وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعول . والله أعلم . « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » أى مال تنزكون به من رجس الشح ودنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمِعُونَ » أى ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف ، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أتفقوا . على أنه من (أضعف) والهمزة للتعديّة ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شَرِكَا بِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكَا بِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » قال القاضي : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانْ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ)

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» أى كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن فى لجج البحر «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» أى من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» اللام للعاقبة . أى ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجذب والتحط والفرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، لعلمهم يرجون عمامهم عليه . كقوله تعالى^(١) (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ « أى فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة ، لشرّهم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَتِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَ « أى لا يقدر أحد على رده . وقوله « مِنَ اللَّهِ » متعلق بـ (يأتى) أو بـ (مرد) لأنه مصدر على معنى لا يردّه تعالى ، لتعلق إرادته بمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهاني . وقيل عليه ، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه . كما في الحديث (لا مانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصْدَغُونَ » أى يتفارقون كالفرّاش المبتوث ، أو فريق في الجنة وفريق في السعير كقوله ^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٤٤] (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ)
 [٤٥] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
 « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » أى وبال كفره . قال الزمخشري : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضار . لأن من كان ضارّه كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ » أى يسوون منزلا فى الجنة . أى يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٤٦] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْأَفْلاكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
 [٤٧] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرُومُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ» أى بالمطر «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»
وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ «أى فى البحر عندهبوبها» وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ «أى بتجارة
البحر» وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «أى ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُ مَوَاوِكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ «هذه تسليمة له ﷺ بن قبله على وجهه يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه.
قال الزمخشري : فى قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين ،
ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين
على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[۴۸] (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ
يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ
بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[۴۹] (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمْبِلِينَ)

[۵۰] (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ،

إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّ الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ» إماسا

وواقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا» أى
قطعا تارة أخرى «فَتَرَى الْوَدْقَ» أى المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ «أى المطر

«مَنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» أى لايسين. قال الزخشرى: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى (١) «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أُنْهَمًا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا» ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم يأثمهم وتمادى إبلاسه. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلas إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب . لأن التبادر من القبلية الاتصال . وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ» أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُخْصِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْنِهَا إِنَّ ذَلِكَ» أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤون «لَمْخِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥١] (وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)
 [٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)
 [٥٣] (وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أى من تأثير هافيه «لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم - ما لا يخفى .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه « فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ » أى لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق « وَلَا تَسْمَعُ الْأُصْغَارَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي سوء ، نبوً أسمعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداهما ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوها؟ « وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ » أى ما تسمع « إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية ^(١) (فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ) على توهيم ^(٢) عبد الله بن عمر في رواية مخاطبة النبي ﷺ القتل الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاينته إياهم وتقريبه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال : والذي نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم . ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق . وقال قتادة : أحيأهم الله له حتى سمعوا مقاتلته ، تقريبا وتوبيخاً ونقمة .

ثم قال ابن كثير : والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بهذه الآية ونحوها .

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخارى في : ٢٣ - كتاب

الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و ٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لو حلف لا يكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لا يحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ في أهل القليب (ما أنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكرته . وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له . أو أنه تمثيل . كما روى عن على كرم الله وجهه . وأورد عليه ما في مسلم ^(١) من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا . إلا أن يخص بأول الوضع في القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين ما في القرآن . نقله الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)
[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثَوَّ غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها . أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتمال وبلوغ الأشد « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة والتغير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انقراذه بالآلوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثَوَّ غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يضمنون « كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشف .
(١) أخرجه فى : ٥١ - كتاب الجفة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان . وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله ^(١) (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) تشابه حالهم في الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل . والفرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى في الباطل ، والكذب الذى ألفوه . انتهى .
وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضاعوا في الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ » ردًا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجهه بحكمته « إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق ، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شيء مما يجب الإيمان به « مَعذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم في إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي ، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق مجرى مجرى المثل في الظهور « وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ » أى مما اقترحوه أو غيرها « لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب الحق . قاله أبو السعود « فَأَصْبِرْ » أى على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى في قوله ^(١) (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْعَرَسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ » أى لا يحملنك على الخفة والقلق « الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أى بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ - ١٧٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١ - سُورَةُ لُقْمَانَ

سميت به لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ،
وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهي عن الذميمة . وهي معظمت مقاصد
القرآن . قاله المهايى . وهي مكية . ويقال : إلا قوله تعالى ^(١) (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ . . .) الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (الْم) [٢] (تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) [٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) [٤] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [٦] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« الْم * تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان لإحسانهم ، يعنى ما عملوه من الحسنات . أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه ، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها . والمراد بالزكاة ، على أنها مكية ، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه ، وتركه للنفس بإيتائه ، من وصمة البخل والشح الردى لها . لأنصباؤها المعروفة . فإنها إنما بينت بالمدينة « أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * » وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » تعريض بالمشرकिन . وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة ، ما يلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم . ليضلوا أتباعهم عن الدين الحق . قال الزمخشري : (واللهو) كل باطل ألهى عن الخير ، وعما يعنى . وهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لأصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لا ينبغي ، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه . ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى بما هى الكلمات ومنافعها ، والنقائص ومضارها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث . « أَوْلَايَكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيٰ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِيْ اٰذْنِهٖ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ)

[٨] (اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنّٰتُ النّعِيمِ)

[٩] (خٰلِدِيْنَ فِيْهَا ، وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ)

[١٠] (خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ، وَاَلْقٰ فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيًّۢا اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢا فَاَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ)

«وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيٰ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِيْ اٰذْنِهٖ وَقْرًا» أى ثقلًا مانعًا من السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ * اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنّٰتُ النّعِيمِ * خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ * خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا » الضمير للسموات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لاجل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر ، صفة للعمد . أو بغير عمد مرثية . يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهي إمساكها، بقدرته. كذا في (الكشاف) «وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ» أي جبالاً ثوابت «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي تميل بكم فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أي من كل نوع من أنواعها «وَأَنْزَلْنَا» أي لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللرفق بكم وبدوابكم «مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ» أي صنف من الأغذية والأدوية «كَرِيمٍ» أي كثير المنافع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« هَذَا » أي ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدادة « خَلْقُ اللَّهِ » أي مخلوقه « فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أي مما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة « بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إضراب عن تبكيهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً، فيهدتوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكي فينزجروا عنه . ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضهم للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» يعنى استكمال النفس بالعلوم النظرية ، وملسكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمرين له على لسان نبي أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحي (على قول عكرمة أنه نبي) « أَنْ أُشْكُرَ لِلَّهِ »
أى على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً . كذا قاله المهاجى . والأظهر
أن (أن) مفسرة . فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول . والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا
والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى غنى
عن كل شيء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان . هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة ، على
قولين : الأكثرون على الثانى . ويقال إنه كان قاضيا على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه
السلام . وما روى من كونه عبدا مسه الرق ، وينافى كونه نبيا . لأن الرسل كانت تبعث فى
أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما يُفقل كونه نبيا عن
عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه ^(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن
إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبيا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى . وهو
ضعيف . والله أعلم . انتهى .

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنى . وكان منبأ
عن الله تعالى . وأغرب فى تقريره ، بأن الفعل العربى وهو (لقم) معناه بالعبرى بلع .
والله أعلم .

وقد نظم السيوطى من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقول قيل نبي أو ولي أو رسول
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم والوقف فى الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى ^(١) (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِأُولَٰئِ الدِّينِ إِحْسَانًا) وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ)

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ «أى بالإحسان إليهما ، لاسيما الوالدة . لأنه «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ» أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة . و(وهنا) حال من (أمه) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنا . وقوله (عَلَىٰ وَهْنٍ) صفة للمصدر . أى كائنا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا «وَفِصْلَهُ» أى فطامه «فِي عَامَيْنِ» ثم فسر الوصية بقوله سبحانه «أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ» أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره . قال في (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور . وجهه له . واعترافه ب نعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره . هذه الخمسة هى أساس الشكر وبنائها عليها . فإن عدم منها واحدة ، اختلت قاعدة من قواعد الشكر . وكل من تكلم في الشكر ، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

وقوله تعالى «إِلَى الْمَصِيرِ» تعليل لوجوب الامتثال . أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجزيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول - قال الزمخشريّ: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهَا فِي عَمَإَيْنِ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تـكـابـده الأم وتـعـانـيه من المشاق والمتاعب في حملها وفضالها هذه المدة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً. ومن ثم قال رسول الله ﷺ (١) (لَمَنْ قَالَ لَهُ مِنْ أَبْر؟) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب (٢) أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائنه بنفسه .

أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمْلَةُ * تَرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعَلَالَةَ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ قَبْلَهُ
الثاني - قال الحفاظ بن كثير: وقوله تعالى (وَفِصْلُهَا فِي عَمَإَيْنِ) كقوله (٣) (وَأَلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَمَا مَلَإْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال في الآية الأخرى (٤) (وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في شهرها ليلاً ونهاراً، ليدكر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى (٥) (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] . (٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤] .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تقطعه . ويدل عليه قوله تعالى ^(١) (وَالْوَالِدَتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِتِمَ الرِّضَاعَةَ).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى إشراك

ما لا تعلمه مستحقا للعبادة ، تقليدا لهما .

وقال الزمخشري : أراد بنفى العلم به نفيه ، أى لا تشرك بى ما ليس بشىء ، يريد الأصنام . كقوله ^(٢) (مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) .

قال فى (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفى العلم لنفى وجوده . كما مر فى القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ فى نفيه حتى جعل كلا شىء . ثم بولغ فى سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى الآية أن الوالد لا يطاع فى الكفر . ومع ذلك يصحب معروفا « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ » أى بالتوحيد والإخلاص فى الطاعات ، وعمل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضي : والآيتان ، يعنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ إِلَىٰ قَوْلِهِ - تَعْمَلُونَ) معترضان في تضاعيف وصية لقمان ، تأكيد لما فيها من النهى عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو الباري تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا في الإشراك . فما ظنك بغيرهما ؟ انتهى .
ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَبْنِيْٓ اِنَّهَاۥ اِنْ تَكَ مِنْۢ خُرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي

السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاتِ بِهَا اللّٰهُ ، اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ)

[١٧] (يَبْنِيْٓ اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰٓى

مَاۤ اَصٰبَكَ ، اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر)

« يَبْنِيْٓ اِنَّهَاۥ اِنْ تَكَ مِنْۢ خُرْدَلٍ » أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، إن تَكَ مثلاً في الصغر كحبة الخردل « فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ » أى فتسكن مع كونها في أقصى غايات الصغر ، في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة . أو حيث كانت في العالم العلوى أو السفلى « يٰۤاتِ بِهَا اللّٰهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته في كل شيء « خَبِيْرٌ » أى يعلم كنه الأشياء ، فلا يمسر عليه . والآية هذه كقوله تعالى (١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

شَيْئًا) (الآية ، وقوله ^(١) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) الآية ، من البديع الذى يسمى التتميم . فإنه تم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها ^(٢) (كأنه علم فى رأسه نار) . « يَدْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها ، لتكميل نفسك بعبادة ربك « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهْ عَنِ الْمُنْكَرِ » لتكميل غيرك « وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » أى من المحن والبلايا . أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية ^(٣) (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) « إِنَّ ذَلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) فائلته الخنساء ، ترى أخاها صخرًا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزناً أم بالعين عوارُ أم ذرفت ، أم خلت من أهل الدار

وصدر البيت :

* أَعْرَأْبُلُجُ تَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء في الحديث^(١) (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أى خيلاء متكبرا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى معجب فى نفسه «فَخُورٍ» أى على غيره «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أى توسط بين الديب والإسراع «وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و(أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شئ نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشري : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكركه مجردا ، وتقاديبهم من اسمه ، أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستقدرة . وقد عُدَّ فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيهه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا - مبالغة

(١) أخرجه الترمذى فى : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٥ - باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة في الذم والتهجين . وإفراط في التثييط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبيهه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة . منها ما رواه الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن خيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلسست الساكنين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعني السلام) ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انقراذه بالآلوهية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى من النجوم والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى . وكذا من الأمطار والسحب والكواثر العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له . وكذا ما أوجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَظَهَرَ وَبَاطِنَهُ » أى محسوسة ومعمولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ النَّاسِ » يعنى الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ » أى فى توحيده وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبيّ « وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لمن يجادل . والجمع باعتبار المعنى « اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى يدعوا آبائهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب . كأنه يدعوهم إلى عين العذاب . فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنتى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ - إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ - ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

- [٢٤] (نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)
- [٢٥] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)
- [٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)
- [٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
- [٢٨] (مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
- [٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
- «وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ وَ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أى فى أعماله «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن ، بحال من أراد رقى شاق ، فتمسك بأوثق عرى الجبل التدلّى منه «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ» وَإِنَّا مَرْجُهُمْ فَتَنْبِيئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا «أى من الأعمال للظاهرة والباطنة» إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ «أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى شيئا ما . فذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» أى عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا «الْحَمِيدُ» أى الحمود فيخلق وشرع ، بلسان الحال والمقال «وَلَوْ أَنَّمَا

فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمْدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ « أَى مِنْ بَعْدِ تَفَادِهِ » سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ « أَى الَّتِى أَوْجَدَ بِهَا الْكَائِنَاتِ ، وَسَيُوجِدُ بِهَا مَا لَا غَايَةَ لِحَصْرِهِ وَمُنْتَهَاهُ . وَالسَّبْعَةُ ، إِنَّمَا ذَكَرْتُ ، عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ لَا الْحَصْرَ . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَتَفْسٍ وَاحِدَةٍ « أَى إِلَّا كَخَلْقِهَا وَبَعْثَهَا فِي سَهْوَلَتِهِ « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى « أَى أَمَدٍ قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحُرُوبِهِمَا ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ « وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ « أَى لِأَن مِنْ شَاهِدٍ مِثْلَ ذَلِكَ الصَّنْعِ الرَّائِقِ ، وَالتَّدْبِيرِ الْفَائِقِ ، لَا يَكَادُ يَغْفُلُ عَنْ كَوْنِ صَانِعِهِ عَزَّ وَجَلَّ حَاطًا بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

[٣١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[٣٢] (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَحْدِثُ بَأْسًا يَتَنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها « بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ

صَبَّارٍ « أى عظيم الصبر على البأساء والضراء » شَكُورٍ « أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها » وَإِذَا غَشِيَهِمْ « أى علاهم وأحاط بهم » مَوْجٌ كَأُظْلَلٍ « أى كالسحب والحجب » دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ « أى التجئوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينافع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الضر » فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ « قال ابن كثير : قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى ^(١) (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله ^(٢) تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) الآية ، فالمقتصد ههنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل ، أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصراً والحالة هذه . والله أعلم . انتهى « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ » أى غدار ، ناقض للعهد الفطرى ولعقد العزيمة وقت الهول البحرى « كَفُورٍ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى . لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » أى ليس بمن أحدهما عن الآخر شيئاً ، لا تقطاع الوصل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم - في الثانية - للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلاله « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أى الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » أى علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » أى فى وقته الذى قدره ، وإلى محله الذى عينه فى علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » أى من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقي « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أى من خير أو شر « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أى فى بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء فى الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتيح الغيب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢ - سُورَةُ السَّجْدَةِ

سميت بها ، لأن آية السجدة منها ، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تحرّ وجوه الكل ، لسماع مواعظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض في كلامه . وبشكره على كمال هدايته . وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهايى . وهى مكية ، وآيها ثلاثون .

روى البخارى^(١) فى (كتاب الجمعة) عن أبى هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ فى الفجر ، يوم الجمعة ، آم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان . ورواه مسلم^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم . تنزيل السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارى فى : ١١ - كتاب الجمعة ، ١٠ - باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢ .

(٢) أخرجه فى : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٥ و٦٦ (طبعتنا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الَمْ)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ

مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« الَمْ » تقدم أن هذه الفواخ أسماء للسور « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى كونه منزلاً « مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى اختلقه من تلقاء نفسه « بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى ينبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول ، قبله ﷺ . فلفظ تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[٥] (يَذَكِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

أَلْعَرْشِ «تقدم الكلام في ذلك» مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ «أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق» أَفَلَا تَعَدَّ كُرُونًا «أى تعظون بالقرآن فتؤمنوا» يَدَّبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ «أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض» ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ «أى يصعد إليه ، أى مع الملك للعرض عليه» فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «أى مقدار صعوده على غير الملك ، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى (١) (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَٰلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٧] (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)

[٨] (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)

[٩] (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى المدبر « عِلْمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَالشَّهَادَةِ » أى ما علمه العباد وما كان « الْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « الرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ » يعنى آدم « مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

نَسَلُهُ « أَى ذَرِيَّتِهِ » مِنْ سُلَالَةٍ « أَى مِنْ نَظْفَةٍ » مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ « أَى ضَعِيفٍ مَتَمَنٍ .
والسلالة الخلاصة . وأصلها مايسلّ ويخلص بالتصفية « ثُمَّ سَوَّاهُ » أَى قَوَّمَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
« وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » أَى جَعَلَ الرُّوحَ فِيهِ ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا « وَجَعَلَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ » أَى خَلَقَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ ، لِتَذَرَكُوا بِهَا الْحَقَّ وَالْهُدَى
« قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أَى بَانَ تَصَرُّفُهَا إِلَى مَا خَلَقَتْ لَهُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
كَافِرُونَ)

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)
[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

« وَقَالُوا » أَى كُفَّارٍ مَكَّةَ « أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أَى صَرْنَا تَرَابًا مَخْلُوطًا بِتَرَابِ
الْأَرْضِ لَا نَتَمَيَّزُ مِنْهُ ، أَوْ غَبْنَا فِيهَا « أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » أَى نَجِدُ بَعْدَ الْمَوْتِ « بَلْ
هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ » أَى بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ « كَافِرُونَ » أَى جَاهِدُونَ .
قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث ، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه ،
وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعا « قُلْ » أَى
بَيَانًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا عَلَىٰ زَعْمِهِم الْبَاطِلِ « يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » أَى يَقْبِضُ
أَرْوَاحَهُمْ « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أَى بِالْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ .

فائدة :

قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) في هذه الآية : مذهب جمهور أئمتنا

أن الروح جسم لطيف بخارى يتكوّن من أطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق ، حالة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن ملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النياية عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين . في وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة السكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائى ، لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة ، فيخالط الروح ، التي هي كالشبيهة بها ، لأنها بخارى . ثم يخرج من حيث دخل ، وهى معه .

وإنما يكون ذلك في الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل . فآلزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فآلزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء ، فإن فيه مسام ومنافذ وفي كل جسم . على قاعدتهم في إثبات المسام في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسام فيه ، لم يبعد أن يلججه الملك فيوسع لنفسه مكانا ، كما يلججه الحجر والسمك ، وغيرها . وكالريح الشديدة التي تفرع ظاهر البحر فتقعره وتخفره . وقوة الملك أشد من قوة الريح . انتهى .

والأولى الوقوف ، فيما لم تعلم كيفيته ، عند متلوّه وعدم مجاوزته ، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء «نَا كِسُوءَ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أى مطأطوها من الحياء والخزى ، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَا» أى يقولون ربنا «أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا « أَى عَلِمْنَا مَا لَمْ نَعْلَمْ ، وَأَيُّقِنَا بِمَا لَمْ نَكُنْ بِهِ مُوقِنِينَ « فَأَرْجِعْنَا » أَى إِلَى الدُّنْيَا « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أَى مُقَرَّوْنَ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَرِسُولِكَ وَالْجَزَاءِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى » أَى تَقْوَاهَا « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أَى فى القضاء السابق « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أَى سبق القول حيث قلت لإبليس ، عند قوله ^(١) (لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ) ^(٢) (فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أَى فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم . بل بمنعاه من أتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الفئى والفساد . ومشيتته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها . فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاءه لهم . وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة ، وهم المعنويون بما سيأتى من قوله تعالى ^(٣) (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الآية . فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى ، فى الحقيقة ، سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده أبو السعود . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أَى تركتم الإقرار به ، والإيمان بصدق موعوده ، وعاماتموه معاملة النسي المهجور « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أَى جازيناكم جزاء

(١) [١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٨٤ و ٨٥] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٥] .

نسيانكم . أو تركناكم في العذاب ترك النسي « وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الموبات . والتكرير للتأكيد والتشديد . وتعيين الفعل المطوى ، للذوق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [سجدة]

[١٦] (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا » أى وعظوا « خَرُّوا سُجَّدًا » لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم ، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » أى ترتفع وتنحى عن الفرش ومواضع النوم . والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم ، وهم المتعبدون بالليل « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى داعين له « خَوْفًا » من عذابه « وَطَمَعًا » فى رحمته « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ » أى من المال « يُنْفِقُونَ » أى فى وجوه البرّ والحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٨] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ)

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

[١٩] (أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٠] (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ) « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ » أى ماذخر وأعد أى لهؤلاء الذين عدت مناقبهم « مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » أى مما تقر به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة فى الجنة « جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » أى كافر اجحدا « لَا يَسْتَوُونَ » أى فى الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا فى الدنيا بالطاعة والعبادة. ثم فصل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا » أى ثوابا « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا » وكقوله (١) تعالى (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) كناية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ » أى يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ، وتقريعا وتوبيخا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [٢٢] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٢] .

« وَلَنَذِيقَنَّهُمْ » أى أهل مكة « مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى » أى عذاب الدنيا والجذب والقتل والأسر « دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكشافه الحجاب « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا » أى جحدها وكفر بها « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ)

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ » أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه ! وحيا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب . ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُوا » أى على العمل به والاعتصام بأوامره « وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناك ، هدى لأمتك ، ولنجعلن منهم أمة يهدون مثل تلك الهداية . ويؤخذ من فحوى الآية ، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب ، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقبة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأدبل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى ^(١) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ففي طي هذا الترغيب ، ترهيب وأى ترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[٢٦] (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

[٢٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامُهُمْ وَانفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أى يقضى « بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من الباطل ، بتمييز الحق من المبطل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ » أى الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ » أى منازلهم . كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام . فلا يرون فيها أحداً آمن كان يعمرها ويسكنها . ذهبوا كأن لم يَفْنَوْا فيها . كما قال ^(٢) (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فبما فعلنا بهم « لَآيَاتٍ » أى عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أى أخبار من تقدم ، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وبغيتهم الفساد في الأرض ، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ » وهى التى جزر نباتها ، أى قطع « فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامُهُمْ وَانفُسُهُمْ » يعنى العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أى فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [١٣ / الرعد / ١١] . (٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] .

انفراده بالإلهية . وهذا كآية^(١) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٩] (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَى هَذَا الْفَتْحُ » أى الانتصار علينا . استعجال لوقوع البأس الربانى عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » حلول ما يفتشى الأبصار ويعمى البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لا ينفع الذين كفروا بإيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلُهُمْ بِأُبَيِّنَاتٍ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجمة ، وأخطأ فأخس ، فإن يوم الفتح ، قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى^(٣) (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله^(٤) (فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) وكقوله^(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) الآية وقال تعالى^(٦) (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وقال تعالى^(٧) (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفُّ الْفَتْحِ) .

(١) [٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٣] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٢٦] . (٦) [١٤ / إبراهيم / ١٥] .

(٧) [٨ / الأتقال / ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ)

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَانْتَظِرْ » أى النصره عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى ^(١) (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّأَ بِرَبِّهِ رَبِّ الْمُنُونِ) ^(٢) (وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَّاءِرَ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

(١) [٥٢ / الطور / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ٩٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣ - سُورَةُ الْأَحْزَابِ

سميت بها ، لأن قصتها معجزة لرسول ﷺ . متضمنة لنصره بالريح والملائكة . بحيث كفى الله المؤمنين القتال . وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .

وهى مدنية . وآياتها ثلاث وسبعون آية . وروى الإمام أحمد عن أبى بن كعب قال : لقد رأيتها وإنها تعادل سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) .

قال ابن كثير : وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً . والله أعلم . انتهى .

قلت : كان يصح هذا الاقتضاء ، لو كان هذا الأثر صحيحاً . أما ولم يخرج أرباب الصحاح ، فهو من الضعف بمكان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ » نودى صلوات الله عليه بوصفه دون اسمه ، تعظيماً له . وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تكريماً للمخاطب . ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم ، والتعظيم باق كآية (٢) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقيهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . وأمره عليه السلام بالتقوى تفخيماً وتعظيماً للتقوى نفسها ، حيث أمر بها مثله . فإن مراتبها لا تنتهى . مع أن المقصود الدوام والثبات عليها . ولم يجعل الأمر لأمرته كما فى نظائره ، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه . كقصة زيد رضى الله عنه « وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » أى لا توافقهم على أمر . ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم . فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين . لا يريدون إلا المضادة والمضادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » [أى فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع ، لأنه العليم بمواقب الأمور وبالمصالح من المفسد . والحكيم الذى لا يفعل شيئاً ، ولا يأمر به ، إلا بداعى الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

[٣] (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا)

[٤] (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)

«وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ» أى فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره . فكفى به حافظاً موكولاً إليه كل أمر «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» قال الزمخشري: أى ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل . والمعنى : إن الله سبحانه ، كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدهما فضلة غير محتاج إليها - وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى انصاف الجملة بكونه مريداً كارها ، عالماً ظاناً ، موقناً شاكاً ، فى حالة واحدة - لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لِرَجُلٍ زوجاً له . لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، كالمملوكة . وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل ، وابنّاً له . لأن البنوة أصالة فى النسب ، وعراقه فيه . والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير . ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل . وهذا مثل ضربه الله فى (زيد بن حارثة) وهو رجل من كلب سبي صغيراً . وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسايون . فاشتراه حكيم بن حزام لعنمته خديجة . فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له . وطلبه أبوه وعمه فخير . فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه . وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل الله

هذه الآية . وقوله ^(١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) .

والتنكير في (رجل) وإدخال (من) الاستغرافية على (قلبين) تأكيد لما قصد من المعنى .

كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ، ولا لواحد منهم ، قلبين البتة في جوفه .

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله ^(٢) (الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وذلك ما يحصل للسامع

من زيادة التصوّر والتجلى للمدلول عليه . لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين

فكان أسرع إلى الإنكار . ومعنى (ظاهر من امرأته) قال لها : أنت على كظهر أمي . وكان

الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها ، كما يتجنبون المطلقة .

وهو في الإسلام يقتضى الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة .

قال الأزهري : وخصوا (الظهر) ، لأنه محل الركوب . والمرأة تركب إذا غشيت . فهو كناية

تلويحية ، انتقل من الظهر إلى الركوب ، ومنه إلى الغشى . والمعنى : أنت محرمة على لا تركبين ،

كما لا تركب الأم . كذا في (الكشف) .

وقوله تعالى « ذَلِكُمْ » إشارة إلى كل ما ذكر . أي من كونه ليس لأحد قلبان ، وليست

الأزواج أمهات ، ولا الأدعياء أبناء . أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة « قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ »

أي لاحقيقة له فلا يقتضى دعواكم ذلك ، أن يكون ابناً حقيقياً . فإنه مخلوق من صلب رجل آخر

فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ »

أي الثابت المحقق في نفس الأمر « وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » أي سبيل الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ
مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ » أى انسبواهم إليهم . وهو إفراد للمقصود من أقواله تعالى الحقّة
« هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » أى أعدل وأحكم .

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب
وهم الأدعياء . فأمر تبارك وتعالى برّد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة . وأن هذا هو العدل والقسط
والبر . روى البخارى^(١) عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضى الله عنه، مولى رسول الله ﷺ ،
ما كنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) وأخرجه
مسلم^(٢) وغيره . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك .
ولهذا قالت سهلة^(٣) بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يارسول الله! إنا ندعوسالما
أبنا . وإن الله قد أنزل ما أنزل . وإنه كان يدخل على . وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك
شيئا . فقال ﷺ: أرضعنيه تحرمى عليه . الحديث . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تبارك وتعالى
زوجة الدعى . وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه .
وقال عز وجل^(٤) (لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا) وقال تبارك وتعالى^(٥) فى آية التحريم (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)
احترازاً عن زوجة الدعى، فإنه ليس من الصلب .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٢ - باب ادعواهم

لأبائهم، حديث ٢٠٣٠

(٢) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا)

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا)

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٥) [٤ / النساء / ٢٣] .

فَأَمَّا الْإِبْنُ مِنَ الرِّضَاعَةِ ، فَنَزَلَ مِنْهُ ابْنُ الصُّلْبِ شَرْعاً ، بِقَوْلِهِ ﷺ فِي الصَّحِيحِينَ ^(١) :
حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ .

فَأَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا ، عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْيِيكِ ، فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ،
بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السَّنَنِ . إِلَّا - التِّرْمِذِيُّ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ^(٢) :
قَالَ : قَدَّمَ نَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَغِيلَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى جِرَاتِ لَنَا مِنْ (جَمْع) فَجَعَلَ يُلَطِّحُ
أُنْفَاذَنَا وَيَقُولُ : أُبَيِّنِي ! لَا تَرْمُوا الْجُرَّةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ .
قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ (أُبَيِّنِي) تَصْغِيرُ (ابْنِي) وَهَذَا ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ . فَإِنْ هَذَا فِي حِجَّةِ الْوُدَّاعِ
سَنَةِ عَشْرٍ .

وَفِي مُسْلِمٍ ^(٣) عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا بَنِيَّ . وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ
وَالْتِّرْمِذِيُّ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ . وَفِي ذَهَابِهِ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ نَاسَخٌ - نَظَرٌ ، لِأَنَّ النَّاسِخَ لَا يَدُورُ
أَنْ يَرْفَعَ خُطَابًا مُتَقَدِّمًا . وَأَمَّا مَا لَا خُطَابَ فِيهِ سَابِقًا ، بَلْ وَرَدَ حَكْمًا مُبْتَدَأُ رَفْعِ الْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ ،
فَلَا يُسَمَّى نَسْخًا اصْطِلَاحًا . فَاحْفَظْهُ . فَإِنَّهُ مَهْمٌ وَمُفِيدٌ فِي عَدَّةٍ مَوَاضِعٍ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٥٢ - كِتَابُ الشَّهَادَاتِ ، ٧ - بَابُ الشَّهَادَةِ عَلَى الْأَنْسَابِ
وَالرِّضَاعِ ، حَدِيثٌ رَقْمُ ١٢٨٥ عَنْ عَائِشَةَ

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي : ١٧ - كِتَابُ الرِّضَاعِ ، حَدِيثٌ رَقْمُ ١ (طَبَعْتُنَا)

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي : ٢٤ - كِتَابُ الْمَنَاسِكِ ، ٢٢٢ - بَابُ النَّهْيِ عَنْ رَمَى جُرَّةٍ

الْعُقْبَةَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي : ٢٥ - كِتَابُ الْمَنَاسِكِ ، ٦٢ - بَابُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ جَمْعٍ إِلَى

مَنْ لَمْ يَلْمِ الْجَمَارَ ، حَدِيثٌ رَقْمُ ٣٠٢٥ (طَبَعْتُنَا)

(٣) أَخْرَجَهُ فِي : ٣٨ - كِتَابُ الْآدَابِ حَدِيثٌ رَقْمُ ٣١ (طَبَعْتُنَا)

ولما أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ » أى فتنسبوا إليهم « فَأَخْوَانُكُمْ » أى فهم إخوانكم « فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » أى أولياؤكم فيه. أى فقولوا: هذا أخى، وهذا مولاي. وبأخى ويامولاي « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى إثم « فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ » أى فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أوسبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثم « وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى ففیه الجناح، لأن من تعمد الباطل كان آثماً « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لعفوه عن المخطئ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا، كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

«الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أى فى كل شيء من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أئخذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها. وأن يبذلوا دونه، ويحملوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب. وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ماتصرفهم عنه. ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه. لأن كل مادعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم ثلاثيتها فتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أفاده الزمخشري.

وهذا كما قال تعالى ^(١) (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

(١) [٤ / النساء / ٦٥].

لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الصحيح: والذي نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين « وَأَزْوَاجُهُ وَأُمَّهَاتُهُمْ » أى فى وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن. وفيما عدا ذلك كالأجنبيات، ولذا قال ابن كثير: ولكن لا تجوز الخلوة بهن. ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. وإن سمي بعض العلماء بناتهن، أخوات المؤمنين. كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه فى (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة، لإثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله، خال المؤمنين، فيه قولان: وعن الشافعى أنه يقال ذلك. وهل يقال له ﷺ: أبو المؤمنين، فيه قولان: فصح عن عائشة المنع، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وروى عن أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما، أنهما قرآ: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم. وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن. واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم. فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب يمينه. أفاده ابن كثير.

«وَأُولُوا الْأَرْحَامِ» أى ذوو القربات «بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» أى فيما فرضه، أو فيما أوحاه إلى نبيه عليه السلام «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ» بيان لأولى الأرحام، أو صلة (أولى) «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ» أى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم «مَعْرُوفًا» أى من صدقة ومواساة وهدية ووصية. فإن بسط اليد فى المعروف مما حث الله عباده عليه، ويشارك فيه مع ذوى القربى غيرهم.

(١) أخرجه فى : ١ - كتاب الطهارة ٤ - باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة،

تنبيه :

قال في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) الآية ، من ورث ذوى الأرحام . انتهى .

وهو استدلال متين . وليس مع المخالف ما يقاومه . بل فهم كثيرون أن المعنى بها ، أن القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة ، التي كانت بينهم . ذهابا إلى ما روى عن الزبير وابن عباس : أن المهاجرى كان يرث الأنصارى ، دون قرباته وذوى رحمه . للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . حتى أنزل الله الآية . فرجعنا إلى مواردنا .

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية . لا أنها خاصة بالمدعى فيها ، كما أسلفنا بيانه مرارا « كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » أى فى القرآن . أو فى قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه ، مقرر لا يعتريه تبديل ولا تغيير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» أى أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه . كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر ، يعنى قوله (وَمِنْكَ) الخ مع اندراجهم

في النبيين ، للإيدان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم . وتقديم نبينا عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، لإبانة خطره الجليل . انتهى .
وقال في (الاتصاف) : وليس التقديم في الذكر بعقضى لذلك . ألا ترى إلى قوله :
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ
فآخر ذكر النبي ﷺ ليختم به تشریفاً له .

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر ، والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر ، أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلو ، فكان تقديمه لذلك .

ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام ، جرى ذكر الأنبياء ، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم . والله أعلم . انتهى .

وقد صرح بأولى العزم هنا في آية (٩) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) . قال ابن كثير : فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها . «وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» أي عهداً عظيم الشأن . وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والمحادين والمساقين ، ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٨] (لَيَسْئَلَنَّ الصِّدِّيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)
[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)
«لَيَسْئَلَنَّ الصِّدِّيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء . ووضع

الصادقين موضع ضميرهم، للإيدان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه. وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم. أو عن تصديقهم إياهم بتكيتاً لهم. كفى قوله تعالى^(١) «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ» أو المصدقين لهم عن تصديقهم. أفاده أبو السعود «وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا» أى لمن كفر من أممهم عذاباً موجعاً. ونحن - كما قال ابن كثير- نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء. وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والفاستين. فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال. انتهى. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أى ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق «إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ» وهم الأحزاب «فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وهم الملائكة. أو ما أتى من الريح من طيور الجوّ وجراثيمه ، المشوشة للقارّ المقلقة للهادئ «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا)

[١١] (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

[١٢] (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[١٣] (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ،

(١) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ،
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)

«إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» أى من أعلى الوادى وأسفله ، بقصد التحزب على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبي ﷺ وصحبه «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ» أى مالت عن سندها ومستوى نظرها، حيرة وشخصاً «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» أى منتهى الخلقوم لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع. وبارتفاعها ترتفع القلوب . وذلك من شدة الغم . أو هو مثل فى اضطراب القلوب «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» أى أنواع الظنون المختلفة «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ» أى اختبروا لتمييز الثابت من المتزلزل، والمؤمن من المنافق «وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» أى أزعجوا أشد الإزعاج من شدة الخوف والفزع ، أو من كثرة الأعداء .

فائدة :

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنون) بإثبات ألف بعد النون، وبعد لام الرسول، في قوله ^(١) (وَأَطَعْنَا أَلْرُسُولَ) ولام السبيل، في قوله ^(٢) (فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ) وصلاً ووقفاً، موافقة للرسم. لأن هذه الثلاثة رسمت في المصحف، كذلك. وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة: وهاء السكت تثبت وفقاً للحاجة إليها. وقد ثبتت وصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف، فكذلك هذه الألف. وقرأ أبو عمرو وحمة بحذفها في الحالين. لأنها لا أصل لها. وقولهم (أجريت الفواصل مجرى القوافي) غير معتمد به. لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالباً. والفواصل لا يلزم ذلك فيها، فلا تشبه بها. والباقون بإثباتها وفقاً، وحذفها وصلاً، إجراء للفواصل مجرى القوافي، في ثبوت ألف الإطلاق. ولأنها كهاء السكت. وهي تثبت وفقاً، وتحذف وصلاً. أفاده السمين.

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين في تلك الشدة ، بقوله سبحانه : « وَإِذْ يَقُولُ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٦] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ « أى شبهة . نفوساً بما يجدونه من الوسواس في نفوسهم ، وفرصة لانطلاق ألسنتهم ، بما تكن صدورهم . لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال ، وحصر العدو لهم « مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَ « أى من النصر « إِلَّا غُرُورًا » أى باطلا « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ « أى المنافقين « يَٰ سَآءَ هَلْ يَتَرَبَّ « وهى أرض المدينة « لَا مُقَامَ لَكُمْ » بضم الميم وفنحها ، قراءتان . أى لإقامة لكم بعد اليوم بالمدينة أونواحها لغلبة الأعداء « فَأَرْجِعُوا » أى إلى منازلكم من المدينة هارين . أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليكنكم المقام .

فائدة :

(يثرب) من أسماء المدينة . كما فى الصحيح ^(١) : أريت فى المنام دار هجرتكم . أرض بين حرتين . فذهب وهلى أنها حجر . فإذا هى يثرب (وفى لفظ : المدينة) .

قال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ^(٢) عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ من سعى المدينة (يثرب) فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة . تفرد به الإلام أحمد ، وفى إسناده ضعف . انتهى : « وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ » أى فى الرجوع « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى غير حصينة يخشى عليها « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُيِّلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَرِيرًا)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦١ - كتاب الناقب ، ٢٥ - باب علامات النبوة فى الإسلام ،

حديث رقم ١٧٠٣ .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

[١٥] (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْثِرُونَ الْأَدْبَرَ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا)

[١٦] (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَلَوْ دُخِلَتْ » أى يثرب « عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا » أى بأن دخل عليهم العدو من سائر جوانبها ، وأخذ في النهب والسلب « ثُمَّ سُمِلُوا الْفِتْنَةَ » أى الرجعة إلى الكفر « لَا تَوْهَا » أى لفعلوها « وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أى وما توقفوا بإعطائها إلا ريثما يكون السؤال والجواب. أى فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به ، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكرهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل هذا الخوف « لَا يُؤْثِرُونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى عن الوفاء به « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ » أى لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم . بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم . ولهذا قال : « وَإِذَا » أى إن فررتم « لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى في الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخرى . فهما متعوا في الدنيا ، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[١٨] (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ أَلَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا)

[١٩] (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَمْصُمُكُمْ » أى يحيركم « مَنْ اللَّهُ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا » أى هلاكا أو هزيمة « أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى مجيرا ولا مغيثا يدفع عنهم الضر « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ » أى الشبطين عن رسوله الله ﷺ . وهم المنافقون . قال الشهاب : (قد) للتحقيق ، أو لتقليبه باعتبار متعلقه ، وبالنسبة لغير معلوماته . انتهى . « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ » أى من ساكنى المدينة « هَلُمُّوا إِلَيْنَا » أى أقبلوا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار « وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ » أى القتال « إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إتيانا قليلا . لأنهم يتشبثون ما أمكن لهم « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » أى بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو أضناء بكم ظاهرا ، إن لم يحضر خوف « فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » أى فى أحداقهم « كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أى كمنظره أو كدورانه « فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ » أى بالنوا فىكم بالكلام طعنا وذما . فأحرقوكم وأذوكم . وأصل (السلق) بسط العضو ومدّه للقهْرِ . سواء كان يدا أو لسانا . ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية ، ويثبت له السلق وهو الضرب تخيلا « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » أى على فعله « أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ

فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)

[٢١] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

«يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا» أى لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الریح والجنود.

وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ» أى مرة أخرى «يَوَدُّوا

لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ» أى فلا يذهبون إلى قتالهم ، ولا يستقرون في المدينة ، بل

يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب ، وإن لحقهم عار جبنهم «يَسْأَلُونَ» أى

القادمين «عَنْ أَنْبَاءِكُمْ» أى عما جرى لكم . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم

عن المدينة ، لو أتى الأحزاب ، بقوله «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ» أى في حدوث واقعة ثانية

«مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى رياء وخوف من التعمير «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ» أى في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب . وصبره على

البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب . ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يخور في شديدة

ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة . وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهدد الصياصي . وهو

مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى . ومن صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى

الله تعالى ، وهو الرفيع الشأن ، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان «لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» أى رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاة . فإنه

يؤثرها على الحياة الدنيا ، فلا يجبن . إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتدائه برسول الله ﷺ ،

لغاية قبحه «وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» أى وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة . أى ذكر أمره

ونبيه ووعده ووعيدته . فأدرك مواطن السعادة ومهاوى الشقاوة . وعلم أن في الثبات على قتل العدو ، تطهير الأرض من الفساد ، وتزيينها بالحق والصالح والسداد . مما جزاؤه سعادة الدارين ، والفوز بالحسنين . ثم بين تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين في تلك الشدة ، بعد بيان ما كان من غيرهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

[٢٣] (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

«وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي لأنه تعالى

وعدمهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه ، في قوله ^(١) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء

والامتحان الذي يعقبه النصر والأمان «وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي ظهر صدقهما فيما

وعدانا به «وَمَا زَادَهُمْ» أي هذا الخطب والبلاء ، عند نزول المنافقين وبث أراجيفهم «إِلَّا

إِيمَانًا» أي بالله ورسوله ومواعيدهما «وَتَسْلِيمًا» أي لأمر الله ومقاديره «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» في الصبر والثبات ، والقيام بما كتب عليهم من

القتال ، لإعلاء كلمة الحق ، ومن العمل بالصالحات ، ومجانبة السيئات «فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

نَحْبَهُ» أي أدى ما التزمه ووفى به ، فقاتل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، صادقاً حتى

قتل شهيداً .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الشهاب : أصل معنى (النحْب) النذر . وقضاؤه الوفاء به . وقد كان رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حرباً ، قاتلوا حتى يستشهدوا . وقد استعير (قضاء النحْب) للموت ، لأنه لكونه لا بد منه ، مشبّه بالنذر الذى يجب الوفاء به . فيجوز أن يكون هنا حقيقة ، أو استعارة مع المشاكلة فيه . انتهى .

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ » أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على مامضى عليه أصحابه « وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا » أى ما غيروا شيئاً من العهد ، ولا نقضوه كنقض المنافقين فى توليهم (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ) ^(١) ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به . والتصريح بالمصدر لإفادة العموم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[٢٥] (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ » أى فى عهودهم « بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * » وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ « أى مع كمال غضبهم بما أرسله من الرياح والجنود ، بفضل ورحمته « لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا » أى نصراً ولا غنيمه « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ » أى فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوهم عن المدينة . بل تولى كفاية ذلك وحده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده « وَكَانَ اللَّهُ »

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥] .

قَوْرِيًّا « أى فلا يعارض قوته قوة شيء » « عَزِيزًا » أى غالبا على أمره .

(ذكر تفصيل نبأ الأحزاب المسمى بغزوة الخندق)

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : كانت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة ، في شوال على أصح القولين . إذ لا خلاف أن أخذاً كانت في شوال سنة ثلاث ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهي سنة أربع . ثم أخلفوه لأجل جذب السنة ، فرجعوا . فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه . هذا قول أهل السير والمغازي . وخالفهم موسى بن عقبة وقال : بل كانت سنة أربع . قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه . واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين ^(١) أنه عرض على النبي ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه . ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . قال : وصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة . وأجيب عن هذا بجوابين : أحدهما - أن ابن عمر أخبر أن النبي ﷺ رده لما استبصره عن القتال ، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مطيقا . وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها . والثاني - أنه لعله كان يوم أُحُد في أول الرابع عشرة . ويوم الخندق في آخر الخامس عشرة .

ثم قال ابن القيم رحمه الله : وكان سبب غزوة الخندق ، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد ، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين ، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل ، خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة . يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوالونهم عليه . ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان فدعواهم فاستجابوا لهم . ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك . فاستجاب لهم من استجاب . فخرجت

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث

رقم ١٢٩٥ وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف . ووافاهم بنو سليم بمر الظهران . وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة . وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن . وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة ، فأشار عليه سلمان الفارسيّ بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون . وعمل بنفسه فيه وبادروا . وهم الكفار عليهم . وكان في حفرة من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به . وكان حفر الخندق أمام سلع . وسلع جبل خلف ظهور المسلمين . والخندق بينهم وبين الكفار . وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم .

وقال ابن إسحاق : خرج في سبعمائة . (وهذا غلط من خروجه يوم أُحد) .

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراريّ فجعلوا في آطام المدينة . واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حيّ بن أخطب إلى بني قريظة . فدنا من حصنهم . فأبى كعب بن أسد أن يفتح له . فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل عليه قال : لقد جئتمكم بعزّ الدهر . جئتم بقريش وغطفان وأسديّ قادتها ، لحرب محمد . قال : قال كعب : جئني ، والله ! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه . فهو رعد وبرق . فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين في محاربتة ، فسرّ بذلك المشركون . وشرط كعب على حيّ أنه ، إن لم يظفروا بمحمد ، أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه ، فيصيبه ما أصابه . فأجابه إلى ذلك ، ووفى له به . وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد . فبعث إليهم السعديّين وخوات ابن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه . فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ . فانصرفوا عنهم ، ولحنوا لرسول الله ﷺ لحنًا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا . فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتد البلاء وتجهز الففاق . واستأذن بعض بنى حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا : بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . وهم بنو سلمة بالفشل . ثم ثبت الله الطائفتين . وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً . ولم يكن بينهم قتال . لأجل ما حال الله به من الخندق . بينهم وبين المسلمين . إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وجماعة معه ، أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه . وجالت بهم خيامهم في السبخة بين الخندق وسماع . ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فبارزه فقتله الله على يديه . وكان من شجعان المشركين وأبطالهم . وانهمزم الباقون إلى أصحابهم . وكان شعار المسلمين يومئذ (حم لا ينصرون) ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُمَيَّة بن حصن والحارث بن عوف ، رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بقومهما . وجرت المفاوضة على ذلك . فاستشار السعديين في ذلك فقالوا : يا رسول الله ! إن كان الله أمرك بهذا ، فسمعاً وطاعة . وإن كان شيء تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه . لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئى أوبيعا . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله ! لا نعطيهم إلا السيف . فصوب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمراً من عنده . خذله بين العدو وهزم جموعهم ، وفلَّ حَدَّهم . فكان مما هياً من ذلك ، أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر ، رضي الله عنه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إني قد أسلمت . فرنى بما شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد . نخذل عنا ما استطعت : فإن الحرب خدعة . فذهب من فوره ذلك إلى بنى قريظة ، وكان عشيراً لهم

في الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال : يا بني قريظة ! إنكم قد حاربتم محمداً . وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً ، فانتقم منكم . قالوا : فما العمل ؟ يا نعيم ! قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى . ثم مضى على وجهه إلى قريش . قال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحي لكم . قالوا : نعم قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه . وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم . فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوال ، بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف . فانهضوا بناحتي نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا ، فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن . فلما جاءتهم رسالتهم بذلك ، قالت قريش صدقكم ، والله ! نعيم . فبعثوا إلى يهود : إنا ، والله ! لا نرسل إليكم أحداً . فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً . فقالت قريظة : صدقكم ، والله ! نعيم . فتخاذل الفريقان : وأرسل الله عز وجل على المشركين جندا من الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعتته ، ولا يقر لهم قرار . وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف . وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم برحيل القوم . فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ردّ الله عدوّه بغیظه ، لم يبالوا خيراً وكفى الله قتالهم . فصدق وعده . وأعز جنده ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده . ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً والمسلمون معه ، ووضعوا السلاح ، وكانت الظُّهر ، أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال : إن الله عز وجل يأمرُك بالسير إلى بني قريظة - وهم قبيلة من يهود خيبر - فإنّي عامدٌ إليهم فزلزلُ بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في

الناس : من كان سامعاً مطيعاً ، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . وقدم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، برأيه إلى بني قريظة . وابتدروا الناس . فسار على ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ . فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق . فقال : يا رسول الله ! لا عليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخاب . قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى . قال : نعم . يا رسول الله ! قال : لورأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . وتلاحق به الناس ، وحاصروهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ! صلى الله عليك وسلم . إنهم كانوا موالي لنا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأوس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله ﷺ ، قبل بني قريظة ، قد حاصر بني قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهمهم له .

فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون ، يامعشر الأوس ! أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رُفيدة في مسجده ، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخنس : اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة ، أتاه قومه فحملوه على حمار . وكان رجلاً جسيماً جميلاً . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه فأنزلوه .

قال ابن كثير : إعظماً وإكراماً ، واحتراماً له ، في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس ، قال له رسول الله ﷺ : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك . فاحكم فيهم بما شئت . وصارت تعرض له الأوس أن يحسن إليهم ، وتقول : يا أبا عمرو ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال رضى الله عنه : عليكم عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت . قالوا : نعم . قال : وعلى من ههنا (في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وفي رواية : لقد حكمت بحكم الملك (أى لأن هذا جزاء الخائن الفادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق . رماه رجل من قريش يقال له ابن العرق . رماه في الأكل .

فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكحل . وقال سعد : اللهم ! إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها : فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأجعل لى شهادة ولا تمنى حتى تفر عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من تلقاء أنفسهم .

ثم لما استنزلوا من حصونهم ، حبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حبي بن أخطب وكعب ابن أسد رأس القوم . وهم ستمائة أو سبعمائة . وسبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا ما ذكره تعالى من أمر بنى قريظة ، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)

[٢٧] (وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضَهُمْ وَمَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

[٢٨] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرَغْنَ فَرِيضَتَهُنَّ فَمَتَّعَنَّاهُنَّ وَاسْتَكْنَّهِنَّ وَأُسِرَّ حُكْنٌ سَرَّاحٌ جَمِيلًا)

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » يعنى بنى قريظة . وهم طائفة من اليهود ، كان نزل آبؤهم الحجاز لما فروا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات في أطراف البلاد « مِنْ صَيَاصِيهِمْ » أى حصونهم وآطامهم التى كانوا فيها « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أى الخوف ، جزاء وفاقا . قال ابن كثير : لأنهم كانوا ما لثوا المشركين على حرب النبي صلى الله عليه وسلم - وليس من يعلم كمن لا يعلم - وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا . فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال ، لما انشمر المشركون وراحوا بصفة المغبون . فكم راموا العز ذلوا . وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا . ولهذا قال تعالى « فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » يعنى قتل الرجال المقاتلة ، وسبي الذراري والنساء .

روى الإمام أحمد^(١) عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا في . فأمر بنى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروني فلم يجدوني أنبت . فخلى عني ، وألحقني بالسبي .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

وكذا رواه أهل السنن كلهم : وقال الترمذی : حسن صحيح « وَأَوْزَكُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَرَهُمْ » حصونهم « وَأَمْوَالَهُمْ » أى نقودهم وأثاثهم ومواشيهم « وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا » أى أرضاً لم تقبضوها بعد ، يعنى خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم ، وقال ^(١) ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها ، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب . قال بعضهم : يا لله ! ما أسوأ عاقبة الطيش ! فقد تكون الأمة مرآحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح . فيجلب عليهم الشرور ويشتمتهم من ديارهم . وهذا ما حصل لليهود في الحجاز . فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر . ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهد حسداً منهم وبغياً . فتم عليهم ماتم . سنة الله في المفسدين . فإن الله لا يصلح أعمالهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى السعة والتنعيم فيها « وَزَيِّنْتَهُنَّ » أى زخارفها « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ » أى أعطكن المتعة وأطلقكن . والمتعة ما يعطى للمرأة المطلقة على حسب السعة والإقتار . من ثياب أو دراهم أو أثاث ، تطوعاً لا وجوباً . وقوله تعالى « سَرَّاحًا جَمِيلًا » أى طلاقاً من غير ضرار ولا بدعة . وقد روى أنهم سألن النبي ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة مما ليس عنده . فنزلت الآية . ولما نزلت ، بدأ ﷺ بمائشة رضى الله عنها . وكانت أحبهن إليه . فخيرها وقرأ عليها القرآن ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة . ثم اختار جميعهن اختيارها . قيل : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن . ثم صفية بنت حُيَيِّ النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرة بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن .

(١) انظر الصفحة ١٥٥ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

لطيفة :

قال الرازي: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: الصلاة وما ملكت أيمانكم. ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله^(١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة. وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٣٠] (يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

«وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ» أي تردن رسوله. قال أبو السعود: وذكر الله عز وجل، للإيدان بجلالة محله عليه السلام، عنده تعالى «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا» أي لا يقدر قدره. ولما خيرهن النبي ﷺ، واختارن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن، للتوق عما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى «يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ» أي بين الشرع والعقل قبحها. إن قرئ بالفتح. أو مبينة قبحها بنفسها من غير تأمل، إن قرئ بالكسر «يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» أي ضعفي عذاب غيرهن. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح. فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه، ولذلك جعل حدَّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

الحرّ ضعفى حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا»
لعموم قدرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[٣٢] (يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

[٣٣] (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا)

«وَمَنْ يَقْنُتْ» أى يدم مطيعا «مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» أى فى إتيان الواجبات وترك
المحرمات والمكروهات «وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» أى مرة على الطاعة
والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن الخلق وطيب المعاشرة
والقناعة «وَأَعْتَدْنَا لَهَا» أى زيادة على أجرها المضاعف فى الجنة ، أو فيها وفى الدنيا «رِزْقًا
كَرِيمًا» أى حسنا مرضيا «يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ» أى عند مخاطبة الناس . أى فلا تُجِبْنَ بقولكن ليناختنا، مثل كلام المريبات والمومسات
«فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» أى ريبة وفجور «وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا» أى بعبدا
من طمع المريب بجدّ وخشونة ، من غير تخفّيث . أو قولا حسنا مع كونه خشنا «وَقَرْنَ فِي
بُيُوتِكُنَّ» أى اسكنن ولا تخرجن منها . من (وقر يقر وقارا) إذا سكن . أو من (قرّ

يقر من باب ضرب) حذفت الأولى من رأى (اقرن) ونقلت كسرتها إلى القاف ، فاستغنى عن همزة الوصل . ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح . من (قررت أقر) من باب علم . وهى لغة قليلة « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » أى تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى . إذ لا دين يمنعهن ولا أدب يزعجهم . والتبرج ، فُسِّرَ بالتبختر والتكسّر فى المشى . وبإظهار الزينة وما يستمدى به شهوة الرجل . ولبس رقيق الثياب التى لا توارى جسدها . وبإبداء محاسن الجيد والقلائد والقرط . وكل ذلك مما يشمله النهى ، لما فيه من المفسدة والتعرض لكبيرة . فائدة - قيل (الأولى) بمعنى القديمة مطلقاً من غير تقييد بزمن . فيستدل بذلك لمن قال : إن الأول لا يستلزم ثانيا .

قال فى (الإكمال) : وهو الأصح عند العلماء . فلو قال : أول ولد تلدينه فأنت طالق ، لم يحتج إلى أن تلد ثانيا . انتهى .

وقال الزمخشريّ : الأولى هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجاهلاء . من الزمن الذى ولد فيه إبراهيم ، أو ما قبله ، إلى زمن عيسى . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام . وبعضه ما روى ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذرّ ، لما عيّر رجلاً بأمه وكانت أعجمية : إنك امرؤ فيك جاهلية . والمعنى نهيه عن إحداث جاهلية فى الإسلام ، تشبه جاهلية الكفر قبله « وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى موافقة أمرهما ونهيهما . ثم أشار إلى أن مخالفتهم رفس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » أى ما أمركن ونهاكن ، ووعظكن ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصوّف عنها بالتقوى . فالجملّة تعليلية لأمرهنّ ونهيهنّ على سبيل الاستئناف .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصى من أمر الجاهلية ،

حديث رقم ٢٨ .

قال الزمخشري . استعار للذنوب (الرجس) وللتقوى (الطهر) . لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنّس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقّ مصون كالثوب الطاهر . وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الأبواب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه . ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . و (أَهْلَ الْبَيْتِ) نصب على النداء أو على المدح . والمراد بهم من حوالم بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت همنا ، لأنهم سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً . إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وأما قول عكرمة ، إنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، ومن شاء باهلهته في ذلك ، فإن كان المراد أنهم كنّ سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح . وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر . فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك . وأنه صلى الله عليه وسلم^(١) جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ثم جلّهم بكساء كان عليه . ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس . وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجه . إلا أن الشيخين لم يصحّحاه ، ولذا لم يخرجاه . وأما ما رواه مسلم^(٢) عن حصين بن سبرة ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، أيها الناس ! إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيّب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغب فيه . ثم قال : وأهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . قالها ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم؟ قال : آل علي وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم -

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٠ - باب فضل فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا)

فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله. قال ابن كثير : وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحّت. فإن في بعض أسانيدنا نظراً. انتهى .

وقال أبو السعود : وهذه كما ترى آية بينة ، وحجة نيرة ، على كون نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، قاضية ببطان رأى الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته صلى الله عليه وسلم الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالة على ذلك لما اعتدّ بها ، لكونها في مقابلة النص . انتهى .

بقى أن الشيعة ، تمسكوا بالآية أيضا على عصمة علي رضي الله عنه ، وإمامته دون غيره .

قال ابن المطهر الحلي منهم : وفي هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما) وإدخال اللام في الخبر ، والاختصاص في الخطاب بقوله (وَيُطَهَّرُكُمْ تَطْهِيراً) وغيرهم ليس بمعصوم الخ . وأجاب ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة) بقوله : ليس في هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك في مقامين : أحدهما - أن قوله ^(١) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) كقوله ^(٢) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) وكقوله ^(٣) (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وكقوله ^(٤) (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَبِهْدْيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَتُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لحجة الله لذلك المراد ورضاه به ، وأنه شرعه

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٥] . (٤) [٤ / النساء / ٢٦ و ٢٧] .

للمؤمنين وأمرهم به . ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد ، ولا أنه قضاه وقدره ، ولا أنه يكون لاحالة . والدليل على ذلك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية قال (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير . فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، لم يحتاج إلى الطلب والدعاء .

وهذا على قول القدرية أظهر . فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد ، بل قد يريد مالا يكون ويكون مالا يريد . فليس في كونه تعالى مريداً لذلك ، ما يدل على وقوعه . وهذا الرافضى وأمثاله قدرية ، فكيف يحتجون بقوله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) على وقوع المراد ؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان من على وجه الأرض . فلم يقع مراده . وأما على قول أهل الإثبات ، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره . الأولى مثل هؤلاء الآيات . والثانية مثل قوله تعالى ^(١) (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقول نوح ^(٢) (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعاً واحداً ، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحداً . ثم القدرية ينفون إراداته لما بين أنه مراد في الآيات التشريعية . فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد . فلا يلزم أن يكون كائناً ، والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم . وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب . وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر . وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس ، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه . ومما يبين ذلك ، أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المذكورات في الآية . والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] . (٢) [١١ / هود / ٣٤] .

ووعده الثواب على فعله والعقاب على تركه . قال تعالى (١) (يُنِسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) إلى قوله (٢) (وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فالخطاب كله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ومعهن الأمر والنهي والوعد والوعيد. لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن من أهل البيت ، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصا بأزواجه . بل هو متناول لأهل البيت كلهم . وعلى فاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك . ولذلك خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم . وهذا كما أن قوله (٣) (لَمَسْجِدُ أُسُسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناولوه ويتناول ما هو أحق منه بذلك ، وهو (مسجد المدينة) وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح (٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدى هذا . وثبت عنه في الصحيح (٥) أنه كان يأتي قباء كل سبت ماشيا وراكبا . فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ويأتي قباء يوم السبت . وكلاهما مؤسس على التقوى . وهكذا أزواجه . وعلى فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أخص بذلك من أزواجه . ولهذا خصهم بالدعاء . وقد تنازع الناس في آل محمد من هم ؟ فقيل : أمته . وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم . وقيل : المتقون من أمة . ورووا حديثا (آل محمد كل مؤمن

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٨] .

(٤) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعنا) .

(٥) أخرجه البخاري في : ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٣ -

باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، حديث ٦٤٧ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعنا) .

(تقّى) رواه الخلال ، وتام في (الفوائد) له . وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم . وهو حديث موضوع . وبني على ذلك طائفة من الصوفية . أن آل محمد هم خواص الأولياء . كما ذكر الحكيم الترمذى . والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته . وهذا هو المنقول عن الشافعى وأحمد . وهو اختيار الشريف أبى جعفر وغيرهم . لكن هل أزواجه من أهل بيته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . أحدهما - أنهم لسن من أهل البيت . ويروى هذا عن زيد ابن أرقم . والثانى - وهو الصحيح أن أزواجه من آل . فإنه قد ثبت في الصحيحين^(١) عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه علمهم الصلاة عليه : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته . ولأن امرأة إبراهيم من آل وأهل بيته . وامرأة لوط من آل وأهل بيته . بدلالة القرآن . فكيف لا يكون أزواج محمد من آل وأهل بيته ؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهم من أهل بيته ، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى . وأما الاتقياء من أمته فهم أولياؤه . كما ثبت في الصحيح^(٢) أنه قال : إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء ، وإنما ولي الله وصالح المؤمنين . فبين أن أولياءه صالح المؤمنين . وكذلك في حديث آخر : إن أوليائى المتقون حيث كانوا وأين كانوا . وقد قال تعالى^(٣) (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) وفي الصحاح^(٤) عنه أنه قال : وددت أنى رأيت إخوانى . قالوا : أو لسنا إخوانك ؟ قال : (١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٠ - باب حدثنا موسى بن إسماعيل حديث ١٥٩٠ ، عن أبى حميد الساعدى .

ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٦٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٤ - باب يبلى الرحم ببلالها ،

حديث ٢٣١٥ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٦ .

(٣) [٦٦ / التحريم / ٤] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ٣٩ (طبعنا) .

بل أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدى يؤمنون بي ولم يروني . وإذا كان كذلك ، فأولياؤه المتقون ، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى . وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية . والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان . ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون . وأما أقاربه ففيمهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر . فإن كان فاضل منهم ، كملّى رضى الله عنه وجعفر والحسن والحسين ، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى . وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب . فأولياؤه أعظم درجة من آله . وإن صلى على آله تبعاً ، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه . الذين لم يصلّ عليهم . فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه . وهم أفضل من أهل بيته . وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً ، فالمفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل . ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلّى عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين . وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهم كلهم . فإن قيل : فبأن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس ، لكن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على وقوعه . فإن دعاءه مستجاب . قيل : المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس ، فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة . وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر . ثم نقول في المقام الثاني : هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم ، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يستحق معه طهارة المدعو لهم وإذهاب الرجس عنهم . لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ . والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يصدر من واحدة منهم خطأ . فإن الخطأ مغفور لمن ولغيره من . وسياق الآية يقتضى أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذى هو الخبث . كالفواحش ويطهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب . والتطهير من الذنب على وجهين ، كافى قوله ^(١) (وَيْثَابَكَ فَطَهَرْ) وقوله ^(٢) (إِنَّهُمْ

(١) [٧٤ / المدثر / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٢] و [٢٧ / النمل / ٥٦] .

أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فإنه قال فيها^(١) (مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد ، وإما بأن يتوب منه كفى قوله^(٢) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة . فإنه يتضمن نهيه عن الفاحشة ، لا يتضمن الإذن فيها بحال . لكن هو سبحانه ينهى عنها ، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها . وفي الصحيح^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب . واغسلني بالماء البارد . اللهم ! تنقي من الخطايا كما تنقي الثوب الأبيض من الدنس . وبالجملة ، لفظ (الرجس) أصله القذر . ويراد به الشرك . كقوله^(٤) (فَأَجْتَبِئُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) ويراد به الخبائث المحرمة ، كالطعومات والمشروبات كقوله^(٥) (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ وَرَجْسٌ أَوْ فِسْقًا) وقوله^(٦) (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وإذهاب ذلك إذهاب لـ كله . ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث . ولفظ (الرجس) عام يقتضي أن الله يذهب جميع الرجس . فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بذلك . وأما قوله (وطهرهم تطهيراً) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة . وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفى فيه بفرد من أفراد الطهارة . ويقول مثل ذلك في قوله^(٧) (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٨٩ - باب ما يقول بعد التكبير ،

حديث ٤٥٤ ، عن أبي هريرة

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا)

(٤) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٥) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٦) [٥ / المائدة / ٩٠] . (٧) [٥٩ / الحشر / ٢] .

أَلْأَبْصَارُ) ونحو ذلك. والتحقيق أنه أمر يسمى الاعتبار الذي يقال عند الإطلاق . كما إذا قيل : أكرم هذا ، أى اعمل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً . وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً . والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر في قصة ، وترك ذلك في نظيرها . وكذلك لا يقال (هو طاهر) أو (متطهر) أو (مطهر) إذا كان متطهراً من شيء ، متنجساً بنظيره . ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى ^(١) (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) كما قال ^(٢) (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) وقد روى أنه قال لعمار : ائذنوا له . مرحباً بالطيب الطيب . وهذا أيضاً كلفظ (المتقى) و (المزكى) قال تعالى ^(٣) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) وقال ^(٤) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وقال ^(٥) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) وقال ^(٦) (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَحَازَكَيْ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدًا أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب ، ولأن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب . فإن هذا ، لو كان كذلك ، لم يكن في الأمة متقى ، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين . كما قال ^(٧) (إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَايِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) فدعاء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطهرهم تطهيراً ، كدعائه بأن يزكيهم ويطيهم ويجعلهم متقين ، ونحو ذلك . ومعلوم أن من استقر أمره على ذلك ، فهو داخل في هذا . لا تكون الطهارة التي دعا بها لهم بياعظم مما دعا به لنفسه . وقد قال ^(٨) : اللهم ! طهرني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد .

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩ ، ١٠] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٤) [٨٧ / الأعلى / ١٤] .

(٥) [٢٤ / النور / ٢١] . (٦) [٤ / النساء / ٣١] .

(٧) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٤ (طبعنا) عن عبد الله بن

أبي أوفى .

فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً ، فقد طهره الله منه تطهيراً . ولكن من مات متوسخاً بذنوبه ، فإنه لم يطهر منها في حياته . وقد يكون من تمام تطهيرهم صياتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس . والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا دعا بدعاء ، أجابه الله بحسب استعداد المحل . فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب ، فإن هذا ، لو كان واقعا ، لما عُدَّ مؤمن ، لافي الدنيا ولا في الآخرة . بل يغفر الله لهذا بالتوبة ، ولهذا بالحسنات الماحية . ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة ، وإن واحدة بأخرى ، وبالجملة ، فالتطهير الذي أراده الله والذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس هو العصمة بالاتفاق ، فإن أهل السنة عندهم ، لا معصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم . والشيعَةُ يقولون : لا معصوم غير النبي صلى الله عليه وسلم والإمام . فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعَو به للأربعة ، متضمنا للعصمة التي يختص بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والإمام عندهم . فلا يكون دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، العصمة ، لالعلَى ولا لغيره . فإنه دعا لأربعة مشتركين ، لم يختص بعضهم بدعوة ، وأيضاً بالدعاء بالعصمة من الذنوب ممتنع على أصل القدرة . بل وبالتطهير أيضاً . فإن الأفعال الاختيارية التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غير مقدورة للرب . ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصياً . ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر . فامتنع على أصلهم أن يدعوا لأحد بأن يجعله فاعلاً للواجبات تاركاً للمحرمات . وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر . كالسيف الذي يصلح لقتل المسلم والكافر . والمال الذي يمكن إتفاقه في الطاعة والمعصية ، ثم العبد يفعل باختياره ، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة . وهذا الأصل يبطل حجبتهم ، والحديث حجة عليهم في إبطال هذا الأصل ، حيث دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالتطهير . فإن قالوا : المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم ، كان ذلك أدل على البطلان من دلالته على العصمة . فتبين أن الحديث لا حجة لهم فيه بحالٍ على ثبوت العصمة . والعصمةُ

مطلقا التي هي فعل المأمور وترك المحذور ، ليست مقدورة عندهم لله ، ولا يمكنه أن يجعل أحدا فاعلا لطاعة ولا تاركا لمعصية . لا لنبي ولا لغيره . ويمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه ، لا بإعانة الله وهدايته . وهذا مما يبين تناقض قولهم في مسائل العصمة . كما تقدم . ولو قدر ثبوت العصمة ، فقد قدمنا أنه لا يشترط في الإمام العصمة ، والإجماع على انتفاء العصمة في غيرهم . وحينئذ تبطل حججهم بكل طريق . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَإِذْ كُرُنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

«وَإِذْ كُرُنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» أمر لهن بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ في بيوتهن من آيات كتابه تعالى ، وسنة نبيه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتهما وقوام الآداب والأخلاق . وذكر ذلك مستوجب لتصور عظمتهم ومكانته وثمرته ومنفعته . وذلك يجرّ إلى العمل به . فمن تأوّل (أُذْ كُرُنَ) بأعملن به ، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب . وجوّز أن يكون المعنى : اذكرن هذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة ، حسّاً على الانتهاء والاثمار فيما كلفنه . قال أبو السمود : والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها ، مع كونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتكنهن من الذكر والتذكير . بخلاف النزول وعدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوتهن وتلاوة غيرهن ، تعلّما وتعلّما «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» أي يعلم ويدبر ما يصلح في الدين . ولذلك أمر ونهى .

[٣٥] (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » أى المتقدين فى الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث
« وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى المصدقين بما يجب أن يصدق به فى القلب « وَالْقَانِتِينَ
وَالْقَانِتَاتِ » أى بإدانة شغل الجوارح فى الطاعات « وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ » فى القول
بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون فى طاعتهم رياء « وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ » أى على البأساء والضراء والنوائب، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها « وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ » أى المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . و (الخشوع) السكون والطمانينة
والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته « وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ » أى بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . فيعطون
من فضول أموالهم طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وإتماما للخشوع « وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ »
أى الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعا ويتصبر فقرا
« وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ » أى عن إبدائها وإراءتها ، حياء وكفا عن مشار
الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أى بقلوبهم
وألسنهم « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفرانا
لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرة بذلك « وَأَجْرًا عَظِيمًا » أى ثوابا وافرا فى الجنة ،
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)
« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » أى ما صح لها « إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » أى قضى الله ورسوله فى أنفسهم قضاء ، أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما ، لما فى ذلك من المأثم ، كما قال تعالى « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فيما أمرا أو نهيا « فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » أى جار عن قصد السبيل ، وسلك غير الهدى والرشاد . وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة . فأبت لكونه مولى لا يماثلها فى الشرف . فنزلت الآية فرضيت وتزوجها .

قال المهايى : الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب . ويحتمل أن تكون لابطريق الوجوب ، لكن اعتبار العار فى مقابلة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية ، لما فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قول الله بالحقيقة . اهـ .

وقال بعضهم : إنما عدّ التنزيل إباءها عصيانا ، وكأنه أرغمها على زواجه ، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك . وهو هدم تحریم زوجة المتبنّى ، الفاشى فى الجاهلية . كما سيأتى سياقه .

وذكر أيضاً أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وكانت أول من هاجر من النساء - بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيدا - أى بعد فراقه زينب - فسخط ، فنزلت الآية ، فرضيت . وروى الإمام أحمد^(١) عن أنس قال :

(١) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضى الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم إذا . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فأبت أشد الإباء . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ إن كان قد رضى لكم ، فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبيها وقالوا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنت رضىته فقد رضىناه . قال ﷺ : فإنى قد رضىته . قال : فزوجها . ثم ذهب مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فقتل . ورؤي حوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس : فلقد رأيتها وإنها لمن أتق بيت في المدينة (وفي رواية : فإكان في الأنصار أتم أتق منها) .

وذكر الحافظ ابن عبد البر في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ، نزلت هذه الآية ^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْتَمِرَةٍ) الخ . ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره ، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه ، الآتية ، يؤيد أنها نزلت في زوجه زينب ، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة .

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم (نزلت الآية في كذا) أنها مما تشمله لمعوم مساقها . ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ له هذه الآية .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة في جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول . كما قال تبارك وتعالى ^(٢) : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الحديث : والذي نفسى بيده ! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به . ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال ^(٣) (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . (٢) [٤ / النساء / ٦٥] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) كقوله تعالى (١) فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

لطائف :

الأولى - قالوا على الروايات السالفة : إن ذكر الله في الآية ، مع أن الأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على أنه بمنزلة من الله ، بحيث تعد أوامره وأمر الله تعالى . أو أنه لما كان ما يفعله بأمره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك . انتهى .

وهذا وقوف مع ما روى . وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى الله في كتابه ، ورسوله في سنته .

الثانية - (الْخَيْرَةُ) هذا مصدر ، وذكروا أنه لم ينجى من المصادر على وزنه غير (طِيرة) الثالثة - جمع الضمير الأول - وهو لهم - لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما في سياق النفي . قال الشهاب : واعتبر عمومه ، وإن كان سبب نزوله خاصا ، دفعا لتوهم اختصاصه بسبب النزول . أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد ، لا يصح مع الجمع أيضا كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه . انتهى .

وجمع الثانى - وهو ضمير من أمرهم - مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو له والله تعالى ، للتعظيم . هذا ما أشار له القاضى وغيره . مع أنه لا يظهر امتناع عوده على ما عاد عليه الأول ، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه ، على أن يكون المعنى : ناشئة من أمرهم . والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . أو المعنى الاختيار فى شيء من أمرهم ، أى دواعيهم . ورد هذا ، بأنه قليل الجدوى ، ضرورة أن الخيرة ناشئة من دواعيهم .. أو واقعة فى أمورهم . وهو بين مستغن عن البيان . بخلاف ما إذا كان المعنى بدل

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

أمره الذى قضاء صلى الله عليه وسلم . أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفي . فهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول .

قال الشهاب : وهو كلام حسن . ثم أشار تعالى إلى ما من به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعي والمتبنئ الذى كان فاشيا فى الجاهلية ، بما جرى بين زيد متبنئ النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه من الفراق . ثم تزويجه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بإياها ، رفعا للخرج فيه . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)

[٣٨] (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)

[٣٩] (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى بالعتق والجرية والاصطفاء بالولاية والمحبة ، وتزويجه بنت عمته زينب بنت جحش .

قال ابن كثير : كان سيداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له (الحِب) ويقال لابنه أسامة (الحِب ابن الحِب) قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه الإمام أحمد^(١) . « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » أى لا تطلقها « وَاتَّقِ اللَّهَ » أى اخشاه في أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذى قلبها وارع حق الله في نفسك أيضاً . فربما لا تجد بعدها خيراً منها . وكانت تتمتع عليه بشرفها ، وتؤذيه بلسانها . فرام تطليقها متعللاً بتكبرها وأذاها فوعظه صلى الله عليه وسلم وأرشده إلى الصبر والتقوى « وَتَخَفِ » أى تضرر « فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » أى من الحكم الذى شرعه . أى تقول ذلك ، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه ، وأن لا متدح عن امتثال أمر الله بنفسك ، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك . وإنما غلبك في ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه . وهذا معنى قوله تعالى « وَتَخْشَى النَّاسَ » أى قالتهم وتعيرهم الجاهل « وَاللَّهُ » أى الذى ألهمك ذلك وأمرك به « أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » أى فكان عليك أن تمضى في الأمر من أول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » أى حاجةً بالزواج « زَوْجُكُمَا لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ » أى ضيق من العار في نكاح زوجات أدعيائهم « إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا » أى بموت أو طلاق أو فسخ نكاح . « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » أى قضاؤه واقعا ، ومنه تزويجك زينب « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ » أى مأثم وضيق « فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ » أى كتبه له من الزواج وأباحه له وسن شريعة مثلى في وقوعه « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى الرسل عليهم السلام . وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره . فإنه كان لهم الحرائر والسرارى وتناول المباحات والطيبات وبهذه

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

القدوة « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » أى قضاء مقضياً . أى لا حرج على أحد فيما أحل له . ثم وصف شأنهم بقوله « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » أى أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها « وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ » أى لا يخافون قالة الناس ولا عنتهم ولا يبالون بها فى تشريعه ولا ريب أن سيّد الناس فى هذا المقام ، بل وفى كل مقام ، حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام . كما علم من قيامه بالتبليغ بالقول والفعل أبلغ قيام « وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا » أى حافظاً لأعمال خلقه . وكافياً للمخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ » هذا دفعٌ لتعمير من جهل ، فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد . فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أباً لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أباً لأحد من أصحابه ، حتى يثبت بينه وبينه ، ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيدٌ واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة . فكان حكمه حكمهم . والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير « وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ » أى ولكن كان رسول الله مبلغاً رسالاته « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » بفتح التاء وكسرهما ، قراءتان . أى فهذا نعته وهذه صفته . فليس هو فى حكم الأب الحقيقى ، وإنما ختمت النبوة به ، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس فى كل زمان وكل مكان . لأن القرآن الكريم لم يدع أمّاً من أمهات المصالح إلا جلاها ، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحيها . فتمت الرسالات برسالاته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بحجية كل من ادعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أى فلا يقضى إلا بما سبق به علمه ، وتفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان في لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات :

الأول - لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش .
ورواه البخاري^(١) عن أنس في التفسير . ورواه عنه في التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة يشكو . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . وأخرجه^(٢)
أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه .
فقال له : أمسك زوجك واتق الله . فنزلت .

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي . فساقها سياقاً حسناً واضحاً
ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أمة بنت عبد المطلب
عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجه زيد بن
حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها
إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن
يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس ، فأمره رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجته ، وأن يتق الله . وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه
ويقولوا تزوج امرأة ابنه . وكان قد تبنى زيداً .

وعنده ، من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين بن علي ، قال : أعلم الله
نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد
يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله تعالى : قد أخبرتك أنني
مزوجكها ، وتحقق في نفسك ما الله مبديه .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٦ - باب قوله وتحقق

في نفسك ما الله مبديه ، حديث رقم ٢٠٣٢ .

وأخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب : وكان عرشه على الماء ، حديث رقم ٢٠٣٢
أخرجه بالصفحة ١٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) بعد نقل ما تقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين ، لا ينبغي التشاغل بها . والذي أورده منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا أثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . انتهى .

الثاني - قال القاضي عياض رحمه الله في (الشفا) في بحث أقواله صلى الله عليه وسلم النبوية : ولا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحدا بشيء أو ينهى أحدا عن شيء ، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام ^(١) : ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟ فإن قلت : فما معنى قوله في قصة زيد (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين . أن الله تعالى كان أعلم بنيه أن زينب ستكون من أزواجه . فلما شكها إليه زيد ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزوج وطلاق زيد لها .

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهري قال : نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذي أخفى في نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بدهذا (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) أى لا بد لك أن تتزوجها . ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها . فدل أنه الذي أخفاه عليه السلام ، مما كان

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ١ - باب الحكم فيمن ارتد ،

أعلمه به تعالى ، وقوله تعالى في القصة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر. ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه، ومحبة طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج. وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجن منه عليه السلام، وهوزوجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبني وإبطال سببه. كما قال (١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وقال (لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) قال ابن فورك : وليس معنى الخشية هنا الخوف . وإنما معناه الاستحياء . أى يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعدنبيه عن نكاح حلائل الأبناء ، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو تزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له. كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم (٢) بقوله (لَمْ تَحْرِمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) الآية. كذلك قوله ههنا. انتهى ملخصا .

الثالث - قال الإمام ابن حزم في (الفصل) يرد على من استدلل بمثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، مأمثاله : وأما قوله تعالى (وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) الآية فقد أتقنا من ذلك . إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به وأن ما كان أراده زواج . مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره . وإنما خشى النبي صلى الله عليه وسلم الناس في ذلك خوف أن يقولوا قولا ويظنوا ظنا، فيهلكوا . كما قال عليه السلام (٣) للأنصارين : إنها صفة . فاستعظما ذلك، فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم أنه إنما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند

الحاكم في ولاية القضاء ، حديث رقم ١٠٣١

يخشى أن يلقى الشيطان في قلوبهما شيئاً. وهذا الذى خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم ، بظن يظنون به عليه السلام ، هو الذى يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا في هذا الباب. وكان مراد الله عز وجل أن يبدى ما في نفسه، لما كان سلف في علمه من السعادة لأمننا زينب رضى الله عنها . انتهى .

الرابع - للإمام مفتى مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعزيراً لما سلف، وإيقافاً من أسرار الآية على نخب ما وصف .

قال رحمه الله: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش. وهى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة . فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ، فلما نزلت الآية قال: رضىنا يا رسول الله. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمراً وملحفة ودرعا وإزاراً وخمسين مِداً من طعام ، وثلاثين صاعاً من تمر . كذا يروى .

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عمه النبي صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر . حتى أنه اختارها لمولاه زوجة . مع إباءها وإباء أخيها. وعدّ إباءها هذا عصياناً. ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن . فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم، لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر في روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب . ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغبها لنفسه، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يُعرف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب، إلى أن تبلغ حد العشق، خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦]

المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض . متى تعود بعضهم النظر إلى بعض ، من بداية السن إلى أن يبلغ حدًا منه يحول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبي الذي يقول الله له ^(١) (وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يخاف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيسة، يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الرؤوف الرحيم، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة . فما كان له - وهو سيد المصلحين - أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه، مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لاريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصاليهم بأنسابها ، كان أمرا تدين به العرب وتعدّه أصلا يرجع إليه في الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن، حتى في الميراث وحرمة النسب وهي عقيدة جاهلية رديئة . أراد الله محوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح . لهذا أنزل الله ^(٢) (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ثم قال ^(٣) (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) الخ فهذا العدل الإلهي ، أن لا ينال حق الابن إلا من يكون ابنا . أما المتبنّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين . فخرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعى لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئا من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا . وشدد الأمر حتى قال ^(٤) (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

(١) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني . أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك . لا عن قصد التبنّي . ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذي يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفًا من قبل . مضت سنة الله في خلقه ، أن ما رسخ في النفس بحكم العادة ، لا يسهل عليها التفصّي منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يُطْبِيه (أى يستميله) إلا الحق . ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبيه عرف . ذلك هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن يختصه الله بالتأسي به . لهذا ، كان الأمر ، إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه ، أو أحل شيئًا كانت الجاهلية تحرّمه ، بآدَر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهي بالكف عن المنهى عنه ، والإتيان بضده . وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان الأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة . نادى صلى الله عليه وسلم ^(١) في حجة الوداع بحزمة الربا . وأول ربا وضعه ربا عمه العباس . حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك ما لهم ، وتقطع وساوس الشيطان من صدورهم ، على هذا السنن الإلهيّ كان عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم في أمر زينب ، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من الصقوه بأنسابهم من أديعائهم كما دل عليه قوله تعالى ^(١) (وَتَخْشَى النَّاسَ) الخ فعمد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه . وما كان ينبغي له ، ولا من مقتضى الحكمة ، أن يكاف أحد الأديعاء الأبعد عنه ، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقة . ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشتراز من النفوس ، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل . كما ألغى حكمها بالقول الفصل . لهذا أرغم النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعنا) .

زينب أن تزوج زيد ، وهو مولاه وصفيّه . والنبي يجد في نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع ، وتنفيذ حكم الهى . وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إياؤها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمت بألقها وذهبت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرفاً وأصرح منه حرية . لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة . وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتمكث في تنفيذ حكم الله ولا يعجل ، فكان يقول لزيد ^(١) (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضى العيش معها . ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لميزق حجاب تلك العادة ، ويكسر ذلك الباب الذى كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال ^(٢) (لَكَيْ لَا يَكُون عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله ^(٣) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما مارووه من أن النبي مرّ ببنت زيد وهو غائب ، فرأى زينب ، فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها الخ . ما حكوه - فقد قال الإمام أبو بكر بن العربي إنه لا يصح . وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية ، لم يقدرُوا مقام النبوة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال في ذلك ، وأذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا في شأن هذه الروايات .

قال ، بعد الكلام في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية . وبعد أن جاء الإسلام : وقد مهّدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد . وإنما الصحيح ^(٣)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

منها ماروى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبي صل الله عليه وسلم كاتما شيئاً من الوحي لسكنتم هذه الآية^(١) (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) يعنى بالإسلام (وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) فأعنته (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) إلى قوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله لما تزوجها قالوا: تزوج حليمة ابنه ، فأنزل الله^(٢) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً ، يقال له (زيد ابن محمد) . فأنزل الله^(٣) (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) يعنى أنه أعدل عند الله قال القاضي : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت في قلبه ، فباطل . فإنه كان معها في كل وقت وموضع . ولم يكن حينئذ حجاب . فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبت نفسها وكرهت غيره . فلم يخطر بباله . فكيف يتجدد هوى لم يكن ! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال سبحانه وتعالى^(٤) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَهُمْ فِيهِ) والنساء أفتن الزهرات ، وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا في المطلقات . فكيف في المنكوحات المحبوسات ؟؟

ثم ساق الكلام في نفس الآية على حسب ماصح في الواقعة . ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحانه الله ! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات ، وقد علموا أن الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ، ويتصدى لصناديد قریش طمعا في إسلامهم ، حتى عاتبه على ذلك في قوله^(٥) (عَبَسَ وَتَوَلَّى) إلى آخر الآيات ، مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاستغفاله بما كان يعدّه في نفسه خيرا للدين ، ولم يكن رغبة في جاه ، ولا شرها إلى مال ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٢٠ / طه / ١٣١] .

(٥) [٨٠ / عبس / ١] .

ولا طموحا إلى لذة . فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب ، لكان العتاب على تلك التسييحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه في قصة دواد عليه السلام . وما كان محمد ﷺ في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة ، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يعلم شهوته ، ويرقه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً . أما والله ! لولما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه . فإن نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر ، والتريث به . وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب ، وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه . كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة . وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبيديه بأمره الذي أوحاه إليه في كتابه ، وبترويجه زوجة من كانوا يدعون ابنه له ، كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن إبداء ما أبدى الله ، إلا حياء الكريم ، وتؤدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحض مني لدى أحد الأساتذة الأمير كانيين ، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى ^(١) (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) فقال الأمير كي : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بمشقه ﷺ لزينب على ما زعموا ، فقال له صاحبي : سبحان الله ! إنكم تستغلون بعلوم السموات

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] .

والأرض ، ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء إليكم . مع أنكم ، في المشهور عنكم ، من أشد الناس ولعاً بالبحث في الأديان . إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ، ليبين للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً ، فإن كان المسيح قد دُعي في لسان الإنجيل بـ (الابن) فليس هذا على الحقيقة ، وإنما (الابن) الحقيقي من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن في ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس - روى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) والنسائي عن أنس قال : لما انتقضت عِدَّة زينب رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها على . فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عينيها . قال : فلما رأيتهما عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب ! أبشري . أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربّي عز وجل . فقامت إلى مسجدّها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتهما ، حين دخلت على النبي ﷺ ، أطعمنا عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : : وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك : وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب . لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه . وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها . هل بقي منه شيء أم لا ؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة . وأن من وكل أمره إلى الله عز وجل ، يسّر الله له ما هو الأحظّ له والأمنع دنياً وأخراً . انتهى . أي فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بحد زواجها بمولى . فاختر لها ما شرفها به وأسمى مكانتها ، عنايةً منه ورحمةً للأمة أيضاً .

(١) أخرجه في السند بالصفحة رقم ١٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٩ (طبعتنا) .

السادس - روى ^(١) ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأُدلّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تدل بهن : إن جدتي وجدتك واحد : وإني أنسكنيك الله عز وجل من السماء . وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى ^(٢) البخاريّ بعضه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات .

قال ابن القيم في (زاد المعاد) : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليها الذي زوجها لرسوله من فوق سمواته . وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب . وكانت أولا عند زيد بن حارثة . وكان رسول الله ﷺ تبناه ، فلما طلقها زوجها الله إياها ، لتتأسى به أمتة في نكاح أزواج من تبنيه . انتهى .

السابع - قالوا : لا ينقض عموم قوله تعالى (مَنْ رَجَّأَكُمْ) بكونه عليه الصلاة والسلام أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لم يبلغوا الحلم . ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، عليه الصلاة والسلام ، لاهم . انتهى .

وهذا من التعمق في البحث . وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة . قال ابن كثير : لم يمش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها . فأتوا صفاراء ، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية . فأت أيضا رضيما . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين . فأت في حياته ﷺ ثلاث . وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته ، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[٤٢] (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ» أى بما هو أهله من صنوف التحميد والتمجيد «ذِكْرًا كَثِيرًا» أى بعمّ الأوقات والأحوال . قال ابن عباس رضى الله عنهما . إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة ، إلا جعل لها حدًا معلومًا؛ ثم عذر أهلها في حال العذر . غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبًا على عقله ، وأمرهم به في الأحوال كلها . فقال تعالى ^(١) (فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُمُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) وقال ^(٢) (أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أى بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أى في أول النهار وآخره ، ليسرى أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل . لأن ذكره وتسبيحه ، يفيدان تنوير القلوب وقت خلوها عن الأشغال .

قال الزمخشري : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، لبيّن فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته ، عمّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . ومثال فضله على غيره من الأذكار ، فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي ، والطهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه ، من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره ، تسخير الطاعات

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] .

والإقبال على العبادات . فإن كل طاعة وكل خير، من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا . وهي الصلاة في جميع أوقاتها . لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين . لأن أدائها أشق ومراعاتها أشد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين . فإن صلواته تعالى عليهم ، مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين ، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه . أفاده أبو السعود . وقال ابن كثير : هذا تهيب إلى الذكر . أي أنه سبحانه يذكركم فذكروا . أتم . كقوله عز وجل ^(١) (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ، آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) . انتهى .

والصلاة: الرحمة والعطف . والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة « لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ » أي ظلمة الكفر والمعاصي والشبهات ومساوي العادات « إِلَى النُّورِ » أي نور الإيمان والسنة والطاعة وغايات الأخلاق « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » أي حيث لم يتركهم يتخبطون في عمياء الضلالة والجهالة ، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم العالم . وذكر الملائكة تنويرها بشأنهم وشأن المؤمنين . وأن للملائكة الأعلى عناية وعطفا وترحما ، بالاستغفار والدعاء

(١) [٢ / البقرة / ١٥١ و ١٥٢] .

والثناء على الجميل. كقوله تعالى^(١) (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

[٤٥] (يَأْسَأُهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٤٦] (وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ » أى يحيتون يوم لقائه ، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة ، بسلام ، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة ، والإضافة لإيمان إضافة المصدر إلى المفعول ، والمحيط لهم ، إما الله جل جلاله ، لقوله^(٢) (سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) تعظيماً لهم وتفضيلاً منه عليهم ، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام ، وإما الملائكة لآية^(٣) (وَأَلْمَلَأْنَا سَكَّةً بِدُخُلُونِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) أو من إضافة المصدر لفاعله . أى تحية بعضهم بعضاً بالسلام . وقد يستدل له بآية^(٤) (دَعَوْهُمْ فِيمَا سُبِّحْنَاكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيمَا سَلَّمَ) « وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا » يعنى الجنة وما حوته ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « يَأْسَأُهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا » أى على من بعثت

(١) [٤٠ / غافر / ٩-٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٤ و ٢٣] . (٤) [١٠ / يونس / ١٠] .

إليهم بالبلاغ « وَمُبَشِّرًا » أى بالثواب لمن آمن « وَنَذِيرًا » أى من النار لمن كفر « وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ » أى إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدايته « بِإِذْنِهِ » أى بأمره ووحيه « وَسِرَاجًا مُنِيرًا » أى يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)

[٤٨] (وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَنفُسَهُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

[٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » أى ثواباً عظيماً وأجرًا جزيلاً « وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » أى فيما يرجفون به ويميئون من جاهليتهم وعوائدهم ، بإلانة الجانب فى التبليغ ، والمساحة فى الإنذار والتمهل فى الصدع بالحق « وَدَعُوا أَنفُسَهُمْ » أى إيصال الضرر إليهم ، مجازاةً لفعلمهم . بل اعف واصفح . أو معناه : دع ما يؤذونك به بسبب صدعك بإيهم . فالصدر مضاف إلى الفاعل على الأول ، وإلى المفعول على الثانى « وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى موكولا إليه ، وكفيلاً فيما وعدك من النصر ، ودحر ذوى الكفر « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » أى تزوجتموهن « ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ » أى تجمعهن « فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا » أى تستوفون عددها من إحصاء أقراء ، ولا أشهر تحصونها عليهن « فَمَتَّعُوهُنَّ » أى أعطوهن ما يستمتعن به من عرض

أو عين مال «وَسِرَّ حُوهُنَّ» أى خَلَوْا سبيلهن بإخراجهن من منازلكن . إذ ليس لكن عليهن
عدّة «سَرَّاحًا جَمِيلًا» أى من غير ضرار ولا منع حق .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها إطلاق النكاح على العقد
وحده . وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها . وقد اختلفوا في النكاح : هل هو حقيقة
في العقد وحده ، أو في الوطاء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن ، إنما هو في
العقد والوطء بعده ، إلا في هذه الآية . فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ
الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل
الدخول بها . وقوله تعالى (الْمُؤْمِنَاتِ) خرج مخرج الغالب . إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة
والكتابية في ذلك ، بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما ، وابن المسيب
والحسن البصريّ وزين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية ، على أن الطلاق لا يقع إلا
إذا تقدمه نكاح ، لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) فعقب النكاح
بالطلاق . فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعي وأحمد وطائفة كثيرة من
السلف والخلف . وأيده ما روى مرفوعاً^(١) (لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك) رواه أحمد
وأبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن . وهو أحسن شيء
روى في هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجه^(٢) عن عليّ والسور بن مخرمة رضى الله عنهما ،
عن النبي ﷺ : لا طلاق قبل النكاح .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب في الطلاق قبل النكاح ،

حديث ٢١٩٠ .

(٢) أخرجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب لا طلاق قبل النكاح ، حديث ٢٠٤٩

و ٢٠٤٨ (طبعنا) .

وقوله تعالى (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا) هذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها . فتذهب فتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها . فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضا . وقوله تعالى (فَمَتَّعُوهُنَّ) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها . قال تعالى ^(١) (وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) وقال عز وجل ^(٢) (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَتَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) . وعن ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف . وإن لم يكن سمي لها صداقا ، فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . انتهى .

وعليه ، فالآية في المفوضة التي لم يسم لها . وقيل : الآية عامة . وعليه ، فقيل الأمر للوجوب ، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضا . ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء .

لطيفة:

قال الرازي : وجه تعلق الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى في هذه السورة ، ذكر مكارم الأخلاق ، وأدب نبيه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل ، فكلمة ذكر للنبي مكرمة ، وعلمه أدبا ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه . فكما بدأ الله في تأديب النبي ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله ، بقوله ^(٣) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وثنى بما يتعلق بجانب العامة بقوله ^(٤) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا) كذلك بدأ

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٥] .

في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) ثم ثنى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) ثم ، كما ثلث في تأديب النبي بجانب الأمة ، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا ^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وبقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ» أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع . وإبتاؤها ، إما إعطاؤها معجلة ، أو تسميتها في العقد . وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره .

قال ابن كثير : كان مهر النبي ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشأ . وهو نصف أوقية . فالجميع خمسمائة درهم . إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار . وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

وكذلك جورية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضى الله عنهن . انتهى .

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية . ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه . بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام . كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية ، فى قوله تعالى « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ » فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها .

قال ابن كثير : أى وأباح لك الترسى مما أخذت من المغانم . وقد ملك صفية وجورية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكاتنا من السراى، رضى الله عنهما « وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ » أى من مكة ، إلى المدينة . والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم . ولهم فى أفراد العم والخال وجمع العمة والخالة ، عدة أوجه . فيها اللطيف والضعيف . وعندى أن الأفراد والجمع تابع لمقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية . كما يدرى من يذوق طعم بلاغة القول ، ويشرب من عين فصاحته . فالأفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع . كما أن فى آية^(١) (بَيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بَيُوتِ عَمَّتِكُمْ) أمتن وأبلغ من الأفراد . ولكل مقام مقال . ولكل مجال حال « وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » . أى يتزوجها ويرغب فى قبول هبة نفسها بدون مهر . وقد سمي من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضى الله عنهن .

(١) [٢٤ / النور / ٦١] .

وفي البخاري^(١) عن عائشة قالت : كنت أغار من اللأئى وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى^(٢) (تُرْجَى مِنْ تَشَاءِ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءِ) الآية - قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .

وعن ابن عباس ، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحا له . لأنه مردود إلى إرادته . والله أعلم .

قال ابن القيم : وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها ، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها ، فنحو أربع أو خمس . وقال بعضهم : هن ثلاثون امرأة . وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ ، لا يعرفون هذا بل ينكرونه .

قال أبو السعود : وإرادته عليه الصلاة والسلام في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات ، للكرامة والإيدان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى « خَالِصَةً لَكَ » أى خالص لك إحلالها خالصة أى خلوصا ، فهي مصدر مؤكد ، أو صفته أى هبة خالصة « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أى فإنهم لا تحل لهم الموهوبة إلا بوليٍّ ومهر ، خوف أن يستسرى النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك . قال قتادة : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل ، بغير وليٍّ ولا مهر إلا للنبي ﷺ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ » أى على المؤمنين « فِي أَزْوَاجِهِمْ » أى في حللها من الولي والشهود والمسمى « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى في حللها من توسيع الأمر فيها .

وقال السيوطي في (الإكليل) : فسر بالاستبراء . وليس له في القرآن ذكر إلا ههنا . « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » أى ضيق . واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث ٢٠٣٣ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥١] .

مما قبله . أى قد علمنا ما فرضنا عليهم ، وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق ، فيما اقتضته الحكمة والعناية بك « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى يغفر ما يعسر التحرز عنه ، ويرحم فيما يوسع في مواقع الحرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنْ أُبْغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُمْ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

« تَرْجِي » بهمز وغير همز . أى تترك وتؤخر « مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ » أى من هؤلاء النساء اللاتى أحللناهن لك ، فلا تزوج بهن « وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » أى تضم من تشاء منهن بالتزوج « وَمَنْ أُبْغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » أى اخترت تزوجها بعد إرجائها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » أى فى أن تضمها إليك . ومن رأى بعضهم أن الضمير فى (منهن) يعود إلى الواهبات . قال الشعبي : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ : فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن . لم يفكحن بعده . منهن أم شريك . واستؤنس بحديث عائشة عند أحد ؛ أنها كانت تعبر النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فلما أنزل الله (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ) الآية قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك . ورواه البخارى^(١) أيضا كما تقدم . وذهب آخرون إلى أن معنى الآية : تطلق وتخلى سبيل من شئت من نساك ، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق . وعن قتادة ؛ أنها فى القسم ، وأن له أن يقسم لمن شاء ، ويدعه لمن شاء . مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم . وقد احتج بالآية من ذهب إلى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث رقم ٢٠٣٣ ، عن عائشة .

أن القسم لم يكن واجبا عليه ﷺ . والتحقيق أن الآية عامة في ذلك كله . وأن ما روى مما ذكر ، فن باب الاكتفاء من العام على بعض أفرادها ، أو من رأى ذهب إليه قائله . وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتكم ورفع الحرج عنكم فيه « أَذْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ » أى تطيب أنفسهن ، إن علمن أن ذلك من الله تعالى « وَلَا يَحْزَنَ » لمخالفة الإرجاء « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ » أى لأنه حكم ، كلهن فيه سواء ، فإن سويت بينهما وجدن ذلك تفضلا . وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى . فتطمئن به نفوسهن « وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى من الميل إلى البعض منهن دون البعض بالحجة « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا » أى بذات الصدور « حَلِيمًا » أى ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر . وروى الإمام أحمد^(١) وأهل السنن^(٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلعن فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٨ - باب فى القسم بين النساء ،

حديث رقم ٢١٣٤

وأخرجه الترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٢ - باب ما جاء فى التسوية بين الزوجات ،

حديث رقم ١١٤٠

وأخرجه النسائى فى : ٣٦ - كتاب عشرة النساء ، ٢ - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه

دون بعض

وأخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٧ - باب القسم بين النساء ، حديث

رقم ١٩٢١ (طبعتنا)

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد النساء اللاتي نصّ إحلالهن لك في الآية قبل . وانظر إلى تسكريمه تعالى لنبيه صلوات الله عليه حيث لم يقل له (وحرم عليك ما وراء ذلك) كما خاطب المؤمنين بنظيره ، لتعلم كيف تتفاوت الناس بالخطاب تفاوتهم في رفيع الدرجات .

ولم أر أحداً نبه على ذلك ، فأحرص عليه فيه وفي أمثاله .

قال مجاهد في الآية : أى لا يحل لك يهودية ولا نصرانية ولا كفرة « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » أى فلك التسرّي بهن وإن كن كتابيات أو مشركات ، لأنه ليس لهن ما للحرائر « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا » أى حيث أحل ما أحل وحظر ما حظر للنبي وللأمة ، في بيان لاخفاء معه وحكمة لا حيف معها . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح ما بعد التسع اللاتي عنده عليه السلام . وأن التسع نصابه كالأربع لغيره ، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن . كما تقدم في الآية . ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه في ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له الزوج ، لكنه لم يفعله إتماماً للمنة عليهن . ومنهم من قال إنها محكمة . وكل ذلك لا برهان معه ، وتفكيك للمعنى ، وغفلة عن سر تسكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب . وقد وهم في هذا المعنى زياد - رجل من الأنصار - فردّه أبى رضى الله عنه ، إلى صواب المعنى . وذلك فيما رواه عبد الله بن أحمد وابن ^(١) جرير ؛ أن زياداً قال لأبى بن كعب : أرايت لو أن أزواج النبي عليه السلام توفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما بمنمه من ذلك ؟ قال : قوله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) فقال له : إنما أحل الله له ضرباً من النساء . فقال تعالى (يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ إِنْآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ، - إلى قوله - إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) ثم قيل له (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى الترمذی^(١) عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) الآية . فحرم كل ذات دين غير الإسلام .
والطلع على ما كتبه هنا ، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها . فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه .

تنبيه :

قال في (لباب التأويل) : في قوله تعالى (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) دليل على جواز النظر من الرجل إلى التي يريد نكاحها من النساء . ويدل عليه ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل . أخرجه أبو داود^(٢) .

وروى^(٣) مسلم عن أبي هريرة ؛ أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في عين الأنصار شيئاً . قال الحميدى : يعنى هو الصَّغَرُ . وعن المغيرة بن شعبه قال : خطبت امرأة . فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه الترمذی^(٤) وحسنه .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٨ - حدثنا

عبد . حدثنا روح عن عبد الحميد .

(٢) أخرجه في : ١٢ - كتاب النكاح ، ١٨ ، - باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد

تزويجها ، حديث ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥ باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة ، حديث رقم ١٠٨٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ إْحْدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ » هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازلهم بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام. (والإلى متعلق بـ (يؤذن) بتضمين معنى الدعاء ، للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة ، وإن تحقق الإذن . كما يشعر به قوله تعالى (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) أى غير منتظرين وقته ، وإدراكه . قال ابن كثير : أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول. فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفل . وهو الذى تسميه العرب الضيفن . وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتابا في ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها . انتهى .

وأقول : قد يكون معنى قوله (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) نهيا لهم أن يدخلوا - مع كونهم مأذونا لهم ومدعوين - قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه ، عجلة وانتظارا لنضج الطعام.

فإن ذلك مما يؤذى قلب صاحب الدعوة ، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة ، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً للكلام لضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه . وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت . ولذلك قال تعالى « وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا » أى إذا دعيتم إلى الدخول فى وقته . فادخلوا فيه لاقبله ولا بعده . (لمكن) استدراك من النهى عن الدخول، مع الإذن المطلق الذى هو الدعوة بتعليم أدب آخر . وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه . وهذا النهى عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شا كلهم من غلطاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بأداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجيء قبل وقته بساعات ، مما يغمّ نفس الداعي وأهله . ويذهب لهم جانباً من عزيز وقتهم عبثاً إلا فى سماع حديثهم البارد . وخدمتهم المستكرهه كما قدمنا . فعلى ما ذكرناه يكون فى الآية فائدة جميلة ، وحكم مهم . وهو حظر المجيء قبل الوقت المقدّر . وحينئذ فكلمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيدة للدخول المأذون فيه . وهو أن يكون وقت الدعوة ، لاقبله . والتقدير (إلا مأذونين فى حال كونكم غير ناظرين إناه) ولذا قيل : إنها آية الثقلاء . إذا علمت هذا ، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية ، وهو (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) ومن قوله (وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا) لا من قوله (غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ) لأنه فى معنى خاص . وهو ما ذكرناه والله أعلم .

فائدة :

(الإني) مصدر . يقال أنى الشيء يأتى أنياً بالفتح . و(أنى) مفتوحاً مقصوراً . (وإنى) بالكسر مقصوراً . أى حان وأدرك . قال عمرو بن حسان :

تَمَحَّضَتِ الْمُتُونُ لَهُ يَوْمَ
أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تِمَامٌ

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى تفرقوا ولا

تمكثوا «وَلَا مُسْتَئْسِنِينَ لِحَدِيثٍ» أى لحديث بعضهم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له. عطف على (ناظرين) أو مقدر بفعل. أى لا تمكثوا مستأنسين «إِنَّ ذَلِكُمْ» أى المنهى عنه فى الآية «كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ» أى لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه «فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ» أى من الإشارة إليكم بالانتشار «وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنْ أَحَدٍ» أى أن انتشاركم حق. فينبغى أن لا يترك حياءً، كما لا يترك الله ترك الحيى، فأمركم به. ووضع الحق موضع الانتشار، لتعظيم جانبه. وقرئ (لَا يَسْتَحْيِ) بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ» الضمير لنساء النبي، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام «مَتَمَّأً» أى شيئاً يتمتع به «فَسأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» أى ستر «ذَلِكُمْ» أى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع من وراء حجاب «أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» أى من الخواطر الشيطانية، فى الميل إليهن وإليكم. يعنى ويجب التطهر عنه، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ. ولذا قال «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ» أى أن تفعلوا فعلاً يتأذى به فى حياته «وَلَا أَنْ تَنَكِّحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ كُنْهٍ» أى من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل «أَبَدًا» إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» أى أمراً عظيماً وخطباً هائلاً، لا يقادر قدره. لما فيه من هتك حرمة حبيبته صلى الله عليه وسلم.

قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم، وإيجاب حرمة حيّاً وميتاً، ما لا يخفى. ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۵۴] (إِنْ تَبْذُؤْا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا)

«إِنْ تَبْذُؤْا شَيْئًا» أى مما لا خير فيه، كنكاحهن على ألسنتكم، على ما روى عن بعض الجفاة «أَوْ تُخَفُّوْهُ» أى فى نفوسكم «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا» أى فيجازيكم

بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد .

قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده. لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمّهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته . هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. مأخذها هل دخلت هذه في عموم قوله (مِنْ بَعْدِهِ) أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه نزاعا والله أعلم . انتهى .

تنبيه :

في (الإكلیل) : هذه آية الحجاب التي أمر بها أمّهات المؤمنين . بعد أن كان النساء لا يحتجبن. وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن . وفيها تحريم أذى النبي صلى الله عليه وسلم بسائر وجوه الأذى . انتهى .

وقال ابن كثير : هذه آية الحجاب . وفيها أحكام ، وآداب شرعية . وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي الله عنه ، كما روى البخاري^(١) عنه أنه قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب ! فأنزل الله آية الحجاب . وكان يقول لو أطاع فيكن ، ما رأيتكن عين .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، التي تولى الله تزويجها بنفسه تعالى . وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة (في قول قتادة والواقدي وغيرهما) وزعم أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط ؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث . فإله أعلم .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٦٧ .

وروى البخاري^(١) عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا فانطلقوا. فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل. فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) الآية.

ورواه مسلم^(٢) أيضاً والنسائي.

وعن أنس أيضاً قال: بنى على النبي ﷺ زينب بنت جحش، بخبز ولحم. فأرسلت على الطعام داعياً. فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أَدْعُو. فقلت: يا رسول الله! ما أجد أحداً أَدْعُو. قال: ارفعوا طعامكم. وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت. فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. كيف وجدت أهلك؟ يا رسول الله! بارك الله لك.

فمقرئ حजर نسائه كلهن. يقول لمن كما يقول لعائشة، ويقولن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. فما أدري أخبرته أو أخبر، أن القوم خرجوا. فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة، والأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأزلت آية الحجاب. انقرد به البخاري^(١).

وأخرج نحوه مسلم والترمذي. كما بسطه ابن كثير.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ - سورة الأحزاب، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم، حديث رقم ٢٠٣٥

(٢) أخرجه في: ١٦ - كتاب الفكاك، حديث ٨٧ م (طبعنا)

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصص به. فهو فرض عليهم بلا خلاف، في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا مادعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما في (الموطأ) أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يُستر شخصها. انتهى.

وليس فيما ذكره دليل على مادعاء من فرض ذلك عليهم. وقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطنن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم في الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب. انتهى.

ومما يؤيده ما رواه البخاري^(١) في التفسير عن عائشة رضي الله عنها. قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها. وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها. فرأها عمر بن الخطاب. فقال: يا سودة! أما والله! ما تخفين علينا. فانظري كيف تخرجين.

قالت: فأنكفت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، وإنه ليعتشى وفي يده عَرَقٌ، فدخلتُ فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العَرَقَ في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن.

قال الكرماني: فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب وفي الوضوء - أي من البخاري - أنه كان قبل الحجاب. فالجواب لعله وقع مرتين.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ - سورة الأحزاب، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام حديث رقم ١٢٣

قال ابن حجر : قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثاني .
والحاصل أن عمر رضى الله عنه وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحرم النبوي ،
حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام : احجب نساءك ، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية
الحجاب . ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ، ولو كن مستترات ، فبالغ في ذلك
فنع منه ، وأذن لمن في الخروج لحاجتهن ، دفعا للمشقة ، ورفعاً للخرج ، انتهى بحروفه . وإنما
نقلنا الجمع بين الروایتين ، مع أن الأئمة به شرح الصحيح ، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين
إحدى الروایتين ونقل آخرين الثانية ، مما يوقع الواقف في شبهة الاختلاف ، فأثرنا توسيع
السلام لتحقيق المقام . زادنا الله من فضله علما ، إنه هو العليم العالم .
ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب ، بقوله :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِ بَنَاتِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ،
وَأَتَّقِينَ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)
« لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا
أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِ بَنَاتِهِنَّ » أي لا حرج ولا إثم عليهن ، في أن لا يحتجبن من هؤلاء
المسميين .

قال الطبري^(١) : وعني بـ (إخوانهن وأبناء إخوانهن) إخوانهن . وأبناء إخوانهن . وخرج
معهم جمع ذلك ، مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) فكذلك جمع أخ إذا جمع (إخوان) وأما
إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية) .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات

الأول - قيل : إنما لم يذكر العم والخال ، لأنهما بمنزلة الوالدين . ولذلك سمي العم أبا في قوله تعالى ^(١) (وَإِلَّاهُ آبَاؤُكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) أولاً لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات . فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهما وبين الفريقين ، عين ما بينهما وبين العم والخال من العمومة والخوالة . لما أنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات لأبناء الأخوات . وقيل : لأنه كره ترك الاحتجاب منهما ، مخافة أن يصفاهن لأبنائهما .

وهو رأى عكرمة والشعبي . كما أخرجه الطبري ^(٢) من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبي أنه قال لهما : ما شأن العم والخال لم يذكر ؟ قالا : لأنهما ينفعتانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

قال الشهاب : لكنه قيل عليه ، إن هذه العلة ، وهو احتمال أن يصفياً لأبنائهما وهما يجوز لهما التزوج بها ، جار في النساء كلهن ، ممن لم يكن أمهات محارم . فينبغي التعويل على الأول . انتهى .

والتحقيق في رده ما رواه البخاري ^(٣) في التفسير من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن عليّ أفلح أخو أبي القعيس ، بعد ما أنزل الحجاب ، فقلت : لا أذن له حتى استأذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم . فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس . فدخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت له : يا رسول الله ! إن أفلح أخا أبي القعيس

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب قوله إن

تبدوا شيئاً أو تخفوه ، حديث ١٢٨٣ .

استأذن . فأبيت أن أذن حتى أستأذنك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما منعك أن تأذني؟ عمك . قلت : يا رسول الله ! إن الرجل ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس ، فقال : ائذني له فإنه عمك ، تربت يمينك .

قال عروة : فلذلك كانت عائشة تقول : حرموا من الرضاة ما تحرمون من النسب انتهى فبقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) (ائذني له فإنه عمك) مع قوله في الحديث الآخر ^(٢) (العم صنو الأب) يرد على عكرمة والشعبي .

الثاني - قيل : أريد بقوله تعالى (وَلَا نِسَاءَهُنَّ) المسلمات ، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل هو عام في المسلمات والكتابيات . وإنما قال (وَلَا نِسَاءَهُنَّ) لأنهن من أجناسهن .

الثالث - استدل بعموم قوله تعالى (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) مَنْ ذهب إلى أن عبد المرأة محرم لها . وذهب قوم إلى أنه كالأجنب . والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد ، وتقدم تفصيل ذلك في سورة النور .

الرابع - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها ، على تحريم نظرهما إليهن ، فكانا لا يدخلان عليهن «وَأَتَقِينَ اللَّهَ» أى أن تتعدين ما حدث لكن ، فتبدين من زينتك ما ليس لكن ، أو تتركن الحجاب فيما كن أحد غير هؤلاء . وقال الرازي : أى واتقينه عند الماليك . قال ، ففيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا» أى فهو

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب قوله إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ ، حديث رقم ١٢٨٣ .

وأخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث ٣-٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١١ (طبعنا) .

شاهد على ما تفعلونه من احتجابكم وترككن الحجاب لمن أيسح لكن تركه ، وغير ذلك من أمور كن ، فاحذرن أن تلقينه . وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فها كن . قال الرازي : هذا التذييل في غاية الحسن في هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال : إن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض . نفلوكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » قال الرازي : لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساؤه احتراماً ، كمل بيان حرمة . وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين : حالة خلوته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله ^(١) (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وحالة يكون في ملا . والملا إما الملا الأعلى وإما الملا الأدنى ، أما في الملا الأعلى فهو محترم . فإن الله وملائكته يصلون عليه . وأما في الملا الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) انتهى .

وقد روى البخاري ^(٢) عن أبي العالية قال : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة . وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يُبرِّكون . اهـ . أى يدعون له بالبركة . فيوافق قول

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .

أبى العالية، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر. وقد أطنب الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) في مبحث معنى الصلاة، وأطال فأطاب. فليُنظر.

وفي البخاري^(١) عن كعب بن عجرة رضى الله عنه، أنه قيل: يا رسول الله! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم! صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدرى: أنهم قالوا: يا رسول الله! أما السلام فقد عرفناه. فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: قولوا: اللهم! صلّ على محمد وعلى آل محمد. وذكره. ورواه الشافعى في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

ومن ههنا ذهب الشافعى رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير. فإن تركه لم تصح صلاته. ووافقه الإمام أحمد في رواية. وقال به إسحق ابن راهويه والإمام ابن المواز المالكي وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام) وابن كثير في (التفسير) وقد تقصّيا، عليهما الرحمة، أيضا الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها. فأوصم. فليرجع إليهما.

تنبيهات :

الأول - تدل الآية على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلقا. لأن الأصل في الأمر للوجوب. فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة. ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس.

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، حديث رقم ١٥٩١ .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الرابع من المسند (طبعة الحلبي) .

وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة. ثم هي مستحبة في كل حال. وآخرون إلى وجوبها كما ذكر . وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب . قال ابن كثير : وهذا قول غريب . فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة . فمنها واجب ومنها مستحب على ما بينه . فمنه بعد النداء للصلاة ، لحديث ^(١) (إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث ^(٢) (كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم . ثم قال : اللهم ! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم . ثم قال : اللهم ! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك . ومنه الصلاة ، فتستحب على قول الشافعي في التشهد الأول منها ، وتجب في الثاني . ومنه في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية ، لقول أبي أمامة : من السنة ذلك . وهذا من الصحابي في حكم المرفوع ، على الصحيح . ومنه ختم الدعاء . فيستحب الصلاة فيه على النبي ﷺ ، ومن أكد ذلك دعاء القنوت . ومنه يوم الجمعة وليلتها . فيستحب الإكثار منها فيهما ، ومنه في خطبة يوم الجمعة . يجب على الخطيب في الخطبتين الإتيان بها . وهو مذهب الشافعي وأحمد . ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث (ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحه حتى أورد عليه السلام) تفرد به أبو داود ^(٣) وصححه النووي في (الأذكار) . وعن الحسن بن الحسن بن علي : أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبري عيداً . ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً . وصلوا على حينما كنتم . فإن صلاتكم تبلغني .

قال ابن كثير : فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة ، فنهاهم . وقد

(١) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٧ - باب ما يقول إذا سمع المنادي ،

حديث ٣٩٠ ، عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه الترمذي في . ٢ - كتاب الصلاة ، ١١٧ - باب ما جاء ما يقول عند دخول

المسجد ، حديث ٣١٤ .

(٣) أخرجه في : ١١ - كتاب المناسك ، ٩٦ - باب في زيارة القبور ، حديث ٢٠٤١

روى أنه رأى رجلاً يفتاب القبر . فقال : يا هذا ! ما أنت ورجل بالأندلس ، منه إلا سواء .
أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . وقد استحب أهل الكتابة
أن يكرر للكاتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كلما كتبه . وقد روى فى حديث (من
صلى علىّ فى كتاب لم تزل الصلاة جارية له ، مادام اسمى فى ذلك الكتاب) .

قال الحافظ ابن كثير : وليس هذا الحديث بصحيح . بل عدّه الحافظ الذهبيّ موضوعاً .
وقد ذكر الخطيب البغداديّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، كثيراً اسم النبيّ
ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

الثانى - الصلاة على غير الأنبياء ، إن كانت على سبيل التبعية ، كضحو : اللهم صل على
محمد وآله وأزواجه ، فهذا جائز إجماعاً . وأما استقلالاً فجوزّه قوم لآية^(١) (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) وآية^(٢) (أَوْ لَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ) وآية^(٣) (خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) ولحديث^(٤) (كان ﷺ إذا أتاه
قوم بصدقتهم قال : اللهم ! صل عليهم . فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال : اللهم ! صل على آل أبي أوفى .
وكرهه قوم ، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا . فلا يلحق بهم غيرهم .
فلا يقال : قال عمر صلى الله عليه . كما لا يقال قال محمد عز وجل . وإن كان عزيزاً جليلاً .
لكون هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد من ذلك فى الكتاب والسنة على
الدعاء لهم .

وقال ابن حجر : إن ذلك وقع من الشارع . ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء
وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه . ولم يثبت عنه إذن فى ذلك . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٥٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٦٤ - باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب

الصدقة ، حديث ٨٠٠ ، عن عبد الله بن أبي أوفى .

وقد يقال : كفى في الروى المأثور المتقدم إذناً .

والاستدلال بأن ذلك من حقه فيه مصادرة على المطلوب . على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر . ولا حظر هنا . فتدبر .

وأما السلام ، فقال الجويني : هو في معنى الصلاة . فلا يستعمل في الغائب . ولا يفرد به غير الأنبياء . فلا يقال : على عليه السلام . وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به . فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم . أو السلام عليك أو عليكم . وقد غلب - كما قال ابن كثير - على كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال (عليه السلام) من دون سائر الصحابة .

قال : والتسوية بينهم في ذلك أولى . انتهى .

والخطب سهل . ومن رأى الروى في هذا الباب ، علم أن الأمر أوسع من أن يخرج فيه . على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف ، وفيه بحث في الأصول .

الثالث - قال النووي : إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فليجمع بين الصلاة والتسليم . فلا يقتصر على أحدهما . فلا يقول (صلى الله عليه) فقط . ولا (عليه السلام) فقط .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله منزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليماً . انتهى . الرابع - قال الرازى : إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول :

الصلاة عليه ليس لحاجته إليها . وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ، ولا حاجة له إليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه منا ، رحمة بنا ، ليثينا عليه . ولهذا جاء في الحديث (من صلى على مرة ، صلى الله عليه بها عشراً) . انتهى .

وكان سبق لى ، من أيام معدودات أن كتبت في مقدمة مجموعة الخطب في سر الصلاة عليه ، مأمثله : ويُسَنُّ يوم الجمعة كثار الصلوات على النبي ﷺ . ليدكر الرحمة ببعثته ، والفضل بهديته

والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصلاح الأعظم برسالته ، والجهد للحق بسيرته ، ومكارم الأخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ما ذاق عارف سرَّ شريعته . وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد في دنياه وآخرته .

الخامس - قال الرازي : ذكر (تسليماً) للتأكيد ليكمل السلام عليه . ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد ، لأنها كانت مؤكدة بقوله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) انتهى . وقيل : إنه من الاحتباك . فحذف (عليه) من أحدهما . و (المصدر) من الآخر . قال القاضي : قيل معنى (وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى اتقادوا لأوامره . فالسلام من التسليم والانقياد .

السادس - قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام ، وأمر المؤمنين بها وبالسلام ، فقلت : يحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد . فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم . والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد ، فلم يضاف إليهم ، دفعا للإيهام . والعلم عند الله . انتهى .

وقال الشهاب : قد لاح لى فى تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته ، نكتة سرية . وهى أن السلام تسليمه عما يؤذيه . فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، والأذية إنما هى من البشر وقد صدرت منهم ، فناسب التخصيص بهم والتأكيد . انتهى .

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم التى هى الثناء عليه وتمجيده وتمظيمه ، بين وعيد من لا يعاها ، بأن يجروا على ضدها بقوله سبحانه :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا » أى ينالون فيه الهوان والخزى . والمقصود من الآية الرسول ﷺ . وذكر الله تعالى إنما هو لتعظيمه ، ببيان قربته ، وكونه حبيبته ، حتى كأن ما يؤذيه يؤذيه . كما أن من يطيعه يطيع الله . وقد روى ^(١) الطبرى عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ ، حين اتخذ صفية بنت حى . وهذا فى الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية . بل لو قيل إنها على بها من خاض فى مسألة زينب ، لكان أقرب ، لتقارب الآيات فى الباب الواحد ، وتناسقها كسلسلة واحدة ، فى تلك المسألة التى كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها . كما لا يخفى على من تدبرها . وبالجملة ، فاللفظ عام فى كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه . فيدخل المقصود من التنزيل دخولا أولياً . وعلى هذا ، فلأذية على حقيقتها . وقيل المراد بأذية الله ورسوله ، ارتكاب ما لا يرضيانه ، مجازاً مرسلًا . لأنه سبب ، أو لازم له . وإن كان بالنسبة إلى غيره ، فإنه كان فى العلاقة وذكر الله والرسول على ظاهره . ومن جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين ، كاستعمال اللفظ المشترك فى معنيتين ، أو فى حقيقته ومجازه ، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين . فتكون بالنسبة إليه تعالى ، ارتكاب ما يكره مجازاً ، وإلى الرسول على ظاهره . فإن تعدد المعمول بمنزلة تكرار لفظ العامل . فيجىء فيه الجمع بين المعنيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كُتِبَ لَهُمْ فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)

« وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى يقول أوفعل « بَغَيْرِ مَا كُتِبَ لَهُمْ » أى بغير جنابة يستحقون بها الأذية « فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » أى ظاهراً بيناً .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الزخشرى : أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدا . وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فنه ومنه .

تنبيه :

في (الإكليل) : في هذه الآية تحريم أذى المسلم ، إلا بوجه شرعي . كالمعاقبة على ذنب . ويدخل في الآية كل ما حرم للإيذاء . كالبيع على بيع غيره ، والسوم على سومه ، والخطبة على خطبته . وقد نص الشافعي على تحريم أكل الإنسان مما يلي غيره ، إذا اشتمل على إيذاء .

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عائشة مرفوعا (أرأيت الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم) ثم قرأ هذه الآية . وأخرج عن قتادة في هذه الآية : إياكم وأذى المؤمن ، فإن الله يحوطه ويغضب له . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزع ذلك . حتى ذهب إلى أبي بن كعب . فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ! إني قرأت آية من كتاب الله فوقعت مني كل موقع (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية . والله ! إني لأعاقبهم وأضربهم . فقال له : إنك لست منهم . إنما أنت مؤدّب ، إنما أنت معلّم . انتهى .

قال الزخشرى : وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف ؟

وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة ، لما فيه من الروعة عند كرك الحول . فرحمه الله ورضى عنه .

ولما بين تعالى سوء حال المؤذنين ، زجرا لهم عن الإيذاء ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذنين منهم ، بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز ، عن مواقع الإيذاء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ » جمع (جلباب) كسر داب ، وهو الرداء فوق الخمار ، تنغطى به المرأة . وهو معنى قول بعضهم : جلبابها ملأها تشتمل بها . وقيل هو الخمار . قالت ^(١) جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه :

تمشى النسرُ إليه وهى لاهيةٌ مَشَى الْمَذَارَى، عليهن الْجَلَالِيْبُ
وقال آخر ^(٢) يصف الشيب :

حَتَّى اكْتَسَى الرَّاسُ قِنَاعًا أَشْهَبَا أَكْرَهَ جَلْبَابٍ لِمَنْ تَجَلَّبَبَا

وقال الزمخشري : الجلباب ثوب واسع ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء . تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ما ترسله على صدرها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الرداء الذى يستر من فوق إلى أسفل . ثم قال : ومعنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ) يرخينها عليهن ويغطي بها وجوههن وأعطافهن . يقال إذا زلّ عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك . وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراتهن في الجاهلية متبذلات ، تبرز المرأة في درع ونخار ، لافضل بين الحرة والأمة . وكان الفتيان وأهل الشطارة ^(٣) يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل ، إلى مقاضى حوائجهن في النخيل والغيطان . وربما تعرضوا للحرّة بعملة الأمة . يقولون حسبناها أمة . فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء ، بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه

(١) استشهد في اللسان بالصفحة رقم ٢٧٢ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٢) استشهد في اللسان بالصفحة رقم ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٣) الشاطر : من أعبي أهله ومؤدبه خبثا ومكرا . مولدة ، كما في القاموس وشرحه .

ليحتشمن ويُهين ، فلا يطعم فيهن طامع ، وذلك قوله « ذَلِكْ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِينَ »
 أى أولى وأجدر بأن يعرفن أنهم حرائر ، فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن . ثم قال الزمخشري :
 فإن قلت : مامعنى (من) فى (من جلايبهن) قلت : هو للتبعيض . إلا أن معنى التبعيض محتمل
 وجهين : أحدهما - أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلايب . والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة
 فى درع وخمار كالأمة والمأهنة ، ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها . والثانى - أن ترخى المرأة بعض
 جلبابها وفضله على وجهها ، لتبتقع حتى تتميز من الأمة . انتهى .

ومن الآثار فى الآية ، مارواه الطبرى^(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا
 خرجن من بيوتهن فى حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلايب ، ويبدن
 عينا واحدة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ
 مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان ، من السكينة . وعليهن أكسية
 سود يلبسهنها . وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهري : هل على الوليدة خمار ، متزوجة أو
 غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، ونهى عن الجلباب . لأنه يكره لهن أن
 يتشبهن بالحرائر المحصنات .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة
 نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهن . واستدل بقوله تعالى
 (وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ) . انتهى .

الثانى - قال السبكي فى (طبقاته) : استنبط أحمد بن عيسى ، من فقهاء الشافعية ، من هذه الآية
 أن ما يفعله العلماء والسادات ، من تغيير لباسهم وعمائمهم ، أمر حسن . وإن لم يفعله السلف .
 لأن فيه تميزاً لهم حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الثالث - قال الشهاب : قوله تعالى (يُدْرِنِينَ) يحتمل أن يكون مقول القول . وهو خبر بمعنى الأمر ، أو جواب الأمر ، على حد^(١) (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) انتهى « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أى لما سلف منهم من التفريط « رَحِيمًا » أى بعباده ، حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

لِنُفِّرَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)

[٦١] (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا)

« لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ » أى عن تفاسيهم « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ » أى ضعف إيمان ، عن مراودة النساء بالفجور « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » أى بأخبار السوء اللاتى يفترونها وينشرونها . كجىء عدو وانهمزام سرية . وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين . وأصله التحريك . من (الرجفة) وهى الزلزلة . يسمى به الخبر المفترى ، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت . أو لاضطراب قلوب المؤمنين به « لِنُفِّرَنَّكَ بِهِمْ » أى لنسلطنك عليهم بما يضطربهم إلى الجلاء « ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا » أى فى المدينة من قوة بأسك عليهم « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمنا قليلا ريثما يستعدون للرحلة « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » أى مبغضين لله وللخلق . لا يستريحون بالخروج . للصوق للمنة بهم أينما وجدوا . « أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا » أى أسروا وبولغ فى قتلهم لذلهم وقتلهم . ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

« سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى فى المقترين والمؤذين الذين مضوا ، إذا

تَمَرَدُوا عَلَىٰ تَفَاقِهِمْ وَكَفَرُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ، أَن يَسْلُطَ عَلَيْهِمُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فَيَقْمَهُ وَنَهُم . «وَلَن يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» أَى لَأَنَّهُ لَا يَبْدُلُهَا ، أَوْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَن يَبْدُلَهَا .

تنبيهات :

الأول - قال الشهاب : إما أن يراد بالمنافقين والمرافقين ، قوم مخصوصون ، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ، على حدّ (إلى الملك القرم وابن الهمام) أو يراد بهم أقوام مختلفون في الذوات والصفات . فعلى الأول ، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين . وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين في قلوبهم مرض ، كما مرّ في البقرة . والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم . لكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل . فإنه لم يقع للمنافقين . وعلى الثانى ، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين . كأهل الفجور . والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة . وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم يفته منهم . وهم اليهود . انتهى .

الثانى - ذكروا أن معنى قوله تعالى (اخذُوا وَقْتَكُمْ) أنهم إذا خرجوا لا ينفكّون عن المذلة ، ولا يجردون ملجأ . بل أينما يكونون ، يطلبون ويؤخذون ويقتلون . وعليه ، فالجملّة خبريّة . وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائيّة كقوله ^(١) (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) وقوله ^(٢) (وَيَلْزَمُ كُلَّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) كأنه قيل : أخذهم الله . أى أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه . ولم أر أحداً تعرّض له . وقد أفاد ابن عطية ، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء . لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهى في قبضته ، أى لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير .

الثالث - فى (الإكليل) : فى الآية تحريم الأذى بالإرهاب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى

(١) [٩ / التوبة / ٩٨] و [٤٨ / الفتح / ٦] .

(٢) [١٠٤ / الهمة / ١] .

في قوله: (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) هم قوم كانوا يجلسون على الطريق ، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله (أُخِذُوا وَقَتِّلُوا تَقْتِيلًا) قال : هذا حكم في القرآن ، ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها،

كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . انتهى .

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية . كما قدمنا . على أن للحاكم أن يفعل ذلك ، إذا رأى في ذلك مصلحة ودرء مفسدة . على قاعدة رعاية المصالح التي هي أم الباب . كما بسط ذلك النجم الطوفي في (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها .

الرابع - كتب الناصر في (الاتصاف) على قول الكشاف في قوله (إِلَّا قَلِيلًا) أي زمنا قليلا ربما يرتحلون ويتلقطون أنفسهم وعيالاتهم، مأماله : فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي ، يميل ربما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر ، على حسب الاجتماع . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» أي يسألونك عن وقت قيامها . وكان المشركون في مكة يسألونه صلى الله عليه وسلم ، عنها استعجالا على سبيل الهزء . وكذلك اليهود في المدينة أو غيرهم . لأن هذه السورة مدنية ، وقد أرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستثارة تعالى به . فلم يطلع عليه نبيا ولا ملكا ، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين .

لطيفة :

تذكير (قريبا) باعتبار موصوفه ، الخبر ، أي شيئا قريبا . أو لأن الساعة في معنى اليوم

أو الوقت . أو أن (قريبا) ظرف منصوب على الظرفية ، فإن (قريبا) و (بعيدا) يكونان ظرفين . فليس صفة مشتقة ، حتى تجرى عليه أحكام التذكير والتأنيث .

قال أبو السعود : والإظهار في حيز الإضمار ، للتهويل وزيادة التقرير . وتأكيده استقلال الجملة . معنى أن قوله (وَمَا يُدْرِيكَ) خطاب مستقل له عليه السلام ، غير داخل تحت الأمر ، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق ، مرجوة المحيى عن قريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)

[٦٥] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٦٦] (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ » أى أبعدهم من رحمته « وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الانتقاد فى الآخرة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا » أى حافظاً يتولاهم « وَلَا نَصِيرًا » أى يخلصهم « يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ » أى تصرف من جهة إلى جهة ، تشبيهه بقطعة لحم فى قدر تغلى . ترى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو المعنى : من حال إلى حال . فلما راد تغيير هيأتها من سواد وتقديد وغيره .

قال الزمخشري : وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة . وناصب الظرف (يقولون) أو (اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) « يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ » أى فكنا ننجو من هذا العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

[٦٨] (رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضُفُفْنِي مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

[٦٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ

مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)

«وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا» وهم رؤساء الكفر الذين لفنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا» أى بما زينوه لنا . قال الزمخشري : وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف «رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضُفُفْنِي مِنَ الْعَذَابِ» أى مثلى العذاب الذى آتيتناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا «وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» أى لعنا هو أشد اللعن وأعظمه . وقرئ (كثيرا) تكثيرا لأعداد اللعائن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» لما بين تعالى وعيد من يؤذى نبيه ﷺ ، من استحقاقه اللعنة فى الدارين ، تعريضا بمن صدر منهم شيء من الأذى فى قصة زيد وزينب ، التى سيقت السورة لأجلها ، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام ، بتنقصه تارة ، وقلة الأدب معه طورا ، ونسبته إلى ما ينافى الرسالة آونة . كما يمر كثير من ذلك بقارئى توراتهم . مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها ، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته . فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات ، ولحقهم الخازى ، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن حقق فضله ، وأسمى منزلته ، وآتاه الوجهة - وهى العظمة والقرب - عنده . وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزى على مؤذى رسول الله ﷺ ،

ولحقهم الدمار ، وشرح لنبيه صدره ، ورفع له ذكره ، وأعلى منزلته ، ونخم وجأته ، ماتعقت الأدوار . ويقرب من هذه الآية ، في المعنى والإشارة ، قوله تعالى ^(١) (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمَ لِمَ تُوذُونَ نَبِيَّ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وفيهما كلمتهما تسليية للنبي ﷺ بتأسيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما . وكثيرا ما كان يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره : رحمة الله على موسى . لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

وقد روى المفسرون ههنا آثارا . أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعا : كان موسى رجلا حيمًا . وأنه أتى الماء ليمتسل . فوضع ثيابه على صخرة . وكان لا يكاد تبدو عورته . فقال بنو إسرائيل إن موسى آدر ^(٢) أوبه آفة . يعنون أنه لا يضع ثيابه . فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بجذاء بني إسرائيل . فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال . أو كما قال . فذلك قوله (فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) ورواه ^(٣) البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أيضا .

قال الرازي : وحديث إيذاء موسى مختلف فيه . أي لكثرة الروايات فيه . مع أن الإيذاء المذكور في القرآن كاف كقولهم ^(٤) (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا) وقولهم ^(٥) (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وقولهم ^(٦) (لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) إلى غير ذلك . فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم . انتهى .

(١) [٦١ / الصف / ٥] .

(٢) أي به أدرة ، بضم فسكون ، وهي انتفاخ الخصيتين وكبرها جدا

(٣) أخرجه البخاري في : ٥ - كتاب الغسل ، ٢٠ - باب من اغتسل عريانا وحده

في الخلوة ، حديث رقم ٢٠٩

(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] . (٥) [٢ / البقرة / ٥٥]

(٦) [٢ / البقرة / ٦١] .

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ما روى مراداً. وأن يكون معه غيره . انتهى . أى
لعموم المعمول المحذوف . وما بيناه أولاً ، هو الأقرب . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول - (الوجيه) لغة بمعنى السيد ، كالوجه . يقال : هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه .
أى أشرافه . وبمعنى ذى الجاه- والجاه القدر والمنزلة . مقلوب عن (وجه) فلما أخرت (الواو)
إلى موضع (العين) وصارت جَوَّهاً ، قلبت (الواو) ألفاً . فصارت (جاها) . كذا فى
القاموس وشرحه .

الثانى - قال الزخشرى : (وجهياً) أى ذا جاه ومنزلة عنده . فلذلك كان يميّط عنه
التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة . كما يفعل الملك بمن له
عنده قرينة ووجاهة . وقال ابن جرير^(١) : أى كان موسى عند الله مشفقاً فيما يسأل ، ذا وجه
ومنزلة عنده ، بطاعته إياه . أى مقبولا ومجابا فيما يطلب لقومه من الله تعالى ، عناية منه تعالى
وتفضيلاً .

الثالث - اتّخذ العامة ، وكثير من المتعلمين ، وصف الوجاهة للأنبياء ، ذريعة للطلب
والرغبة منهم ، مما لا ينطبق على عقل ولا نقل ، ولا يصدق على المعنى اللغوى بوجهٍ ما . وقد كتب
فى ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتياً ، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة . وذلك
أنه سئل ، رحمه الله ، عن يتوسل بالأنبياء والأولياء ، معتقداً أن النبىّ أو الوليّ يستميل
إرادة الله تعالى عما هي عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكم .
وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكم .

فقال امرؤ: إن هذا مغلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكم
محال . وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى . وإنه لا يدعى معه

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

أحد سواء . كما قال تعالى ^(١) (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) وإن النبي ﷺ ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر ، وأعظم الناس جاها ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضرراً ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره . كما في نص القرآن . وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته . وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضار إلا ما هدى الله الناس إليه . ولا معنى للتوسل بنبي أو ولي إلا باتباعه والافتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة في القرآن العظيم ، كقوله تعالى ^(٢) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) ^(٣) إلى غير ذلك من الآيات . هذا هو اعتقادي وهو الذي قلته للناس . فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه . وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة ، لأدافع بذلك من أساء بى الظن .

فأجاب رحمه الله ، بعد البسملة والحوالة : اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح . ولا يشوبه شوب من الخطأ . وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده . فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبي محمد ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد . كما قال الله تعالى ^(٤) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) و (الصَّمَدُ) هو الذى يقصد فى الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم . والإتيان بالخبر على هذه الصورة بفيد الحصر . كما هو معروف عند أهل اللغة . فلا صمد إلا هو . وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله ^(٥) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(١) [٧٢ / الجن / ١٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ٣١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١١٢ / الإخلاص / ١ و ٢] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وقد قال الشيخ محي الدين بن العربي، شيخ الصوفية، في صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل لله الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا الله أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصاً.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما في نقوس الناس. ويفسرون الجاء والواسطة بما لا أثر له في غيالات المعتقدين. فأى حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أو صافه أنه (بدعة) في الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراف بالله تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيماً لقدرة النبي ﷺ، أو الأنبياء والأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألفاظ عند ذكركم، واختراع شئون لهم مع الله، لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يخطر بالبال أن يجاروا لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله. فكيف بالأنبياء والصديقين؟ إن لفظ (الجاه) الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفي هو السلطة. وإن شئت قلت تفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجأه، ويقال فلان خلص فلاناً

من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلاً. فزعمُ زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى ، إشرارك جليّ لاخفىّ . وقلمنا يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ ، وهو المنزلة والقدر . على أنه لا معنى للتوسل بالقدر والمنزلة في نفسها. لأنها ليست شيئاً ينفع . وإنما يكون لذلك معنى ، لو أوّلكت بصفة من صفات الله، كالاكتباء والاصطفاء، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لتوسل أن يقصدها في دعائه . وإن كان (الآلوسيّ) بنى تجويز التوسل بجاء النبيّ خاصة على ذلك التأويل . وما حمله على هذا إلا خوفه من أسنة العامة وسباب الجهال . وهو مما لا قيمة له عند العارفين . فالتوسل بلفظ الجاء مبتدع بعد القرون الثلاثة . وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . فلم الإصرار على تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها . وهي ما رواه الترمذيّ^(١) بسنده إلى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : إن رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني . فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة . يا محمد ! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي . اللهم فشفعه في . قال الترمذيّ : وهو حديث حسن صحيح غريب ، ونقول أولاً : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد . ثم يكفي في لزوم التحرز عن الأخذ به ، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله ، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به ، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك في الدعاء من الحي . كما قال عمر^(٢) رضي الله عنه ، في حديث الاستسقاء : إنا كنا نتوسل

(١) أخرجه في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١١٨ - باب حدثنا محمود بن غيلان

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١٥٠ - كتاب الاستسقاء ، ٣ - باب سؤال الناس الإمام

الاستسقاء ، إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢

إليك بنينا ﷺ فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا ، قال ذلك ، رضى الله عنه ، والعباس بجانبه يدهو الله تعالى ، ولو كان التوسل ما يزعم هؤلاء الزاعمون ، لكان عمر يستسقى ويتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقول (كنانستسقى بنبيك) وطلب الاشتراك في الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه ، بل ويكون من الأعلى للأدنى ، كما ورد في الحديث . وليس فيه ما يخشى منه ، فإن الداعي ومن يشركه في الدعاء وهو حي ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى ، والشريك في الدعاء شريك في العبودية ، لا وزير يتصرف في إرادة الأمير كما يظنون ^(١) . (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم المسألة داخلية في باب العقائد ، لا في باب الأعمال . ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجتنا أو لا يجوز) ؟ أما الكتاب فصرح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد ناهى عنهم في قوله ^(٢) (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) سورة يونس ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرا ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية كما بينا . ثم البرهان العقلي يرشد إلى أن الله تعالى في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم ، بما يتخذهم أهل الجاه عندهم ، لتزده جل شأنه عن ذلك . ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة ، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصول إلى اليقين ، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة . ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده . فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن . (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ^(٣) انتهى كلامه رحمه الله .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] : (٢) [١٠ / يونس / ١٨] .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٨] .

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلم تقي الدين ابن تيمية رضى الله عنه . فرأيت
ذكر نحو من ذلك ، وعبارته : فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها ، تعم الوسيلة في عبادته وفي
مسألته . فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها ، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ،
ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته . ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبي ﷺ يوم
القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله ، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم
في الاستسقاء وغيره . وقول عمر رضى الله عنه (إنا كنا ، إذا أجدبنا ، توسلنا إليك بنبينا
فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله ، ونحن نتوسل
إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته . ليس المراد به ، إنا نقسم عليك به . أو ما يجرى هذا المجرى
مما يفعل بعد موته وفي مغيبه . كما يقوله بعض الناس : أسألك بجاء فلان عندك . ويقولون : إنا
نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثنا موضوعا (إذا سألت الله فأسأله بجاهي ، فإن جاهي
عند الله عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضى
الله عنه ، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس . مع علمهم أن السؤال به والإقسام
به ، أعظم من العباس . فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه ، هو مما يفعل بالأحياء دون
الأموات . وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم . فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب
منه شيء ، لا دعاء ولا غيره . وكذلك حديث الأعمى . فإنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له
ليرد الله عليه بصره . فعلمه النبي ﷺ دعاء أمره فيه ، أن يسأل الله قبول شفاعته نبيه فيه .
فهذا يدل على أن النبي ﷺ شفع فيه ، وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله (أسألك
وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة) أى بدعائه وشفاعته . كما قال عمر : كنا نتوسل إليك
بنبينا . فلفظ (التوجه) و (التوسل) في الحديثين بمعنى واحد . ثم قال (يا محمد ! يا رسول الله !
إني أتوجه بك إلى ربى في حاجتى ليقضيه . اللهم ! فشفعه في) فطلب من الله أن يشفع فيه
نبيه . وقوله (يا محمد ! يا نبي الله !) هذا وأمثاله نداء ، يطلب به استحضار المنادى في القلب .

فيخاطب الشهود بالقلب . كما يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا . يخاطب من يتصوره في نفسه . وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب . فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به ، فيه إجمال واشتراك . غلط نسبته من لم يفهم مقصد الصحابة ، يراد به التثبيت به (في الأصل التسبب به) لكونه داعيا وشافعا مثلا . أو لكون الداعي محببا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به . فيكون التسبب إما بحبة السائل له واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته . فلا يكون التوسل ، لشيء منه ولا شيء من السائل ، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله . فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى في كل ماتاتون وماتذرون . لاسيما في ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم « وَقُولُوا » أى في كل شأن من الشئون « قَوْلًا سَدِيدًا » أى قويا حقا صوابا . قال القاشاني : (السداد) في القول ، الذى هو الصدق والصواب ، هو مادة كل سعادة ، وأصل كل كمال . لأنه من صفاء القلب وصفائه يستدعي جميع الكمالات . وهو وإن كان داخلا في التقوى المأمور بها ، لأنه اجتنب من رذيلة الكذب ، مندرج تحت التزكية التى عبر عنها بالتقوى ، لكنه أفرد بالذكر للفضيلة . كأنه جنس برأسه . كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

«يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أى بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم . لأنه لا يصح عمل ما بدون الصدق أصلاً . وبه يصلح كل عمل « وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل . فإن الحسنات يذهبن السيئات « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى الأوامر والنواهي التى من جملتها هذه التشريعات « فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » أى فى الدارين .

وقال القاشانى : أى فاز بالتحلية والاتصاف بالصفات الإلهية ، وهو الفوز العظيم .

تنبيه :

قال الزمخشري : المراد نهيمهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعث على أن يسد قلوبهم فى كل باب . لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . وهذه الآية مقررة للتي قبلها . بنيت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ، ليترادف عليهم النهي والأمر ، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام . وإتباع الأمر الوعد البليغ ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . انتهى .

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذى ذكره ، مراداً آخر . وهو نهيمهم أيضاً عما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف فى غزوة الأحزاب ، المقدمة أوائل السورة وبالجملة ، فالسياق يشمل ذينك وغيرهما . إلا أن الذى يراعى أولاً ، هو ما كان التنزيل لأجله ، وذلك ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ وَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » قال أبو السعود : لما بينَ عظم شأن طاعة الله ورسوله ، ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ، ومثال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل - مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها ، صدر عنهم بعد القبول والالتزام . وعبر عنها بـ (الأمانة) تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، واثمّنهم عليها . وأوجب عليهم تلقّيها بحسن الطاعة والانقياد . وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأداؤها ، من غير إخلال بشيء من حقوقها . وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها ، بالعرض عليهنّ ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهنّ لها - وعن عدم استعدادهنّ لقبولها ، بالإباء والإشفاق منها ، لتحويل أمرها وترتية نجاتها - وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها ، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسدية ، التي أشدها وأعظمها ما فيهنّ من القوة والشدة . والمعنى : أن تلك الأمانة في عظم الشأن ، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ، التي هي مثل في القوة والشدة ، مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لَأَبَيْنَ قبولها وأشفقن منها . ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق ، رَوْماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه . وقوله تعالى (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) أى عند عرضها عليه . إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده ، أو بتكاليفه إياها يوم الميثاق - أى تكلفها والتمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة - وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطريّ ، أو عن اعترافه بقوله (بلى) . وقوله تعالى (إِنَّهُ وَكَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته ، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله - أى أنه كان مفرطاً في الظلم ، مبالغاً في الجهل . أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلاً . وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ » أى حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراد الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة . على أن اللام للعاقبة . فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحل ، لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراد ، ترتب الأغراض على الأفعال الممللة بها ، أبرز في معرض الغرض - أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراد لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالسكينة . وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى « وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراد . أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربة الطاعة عن رقابهم بالمرّة . وتلافيمهم لما فرط منهم من فرطات . قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة . والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً ، تهويل الخطب وتربية الهابة . والإظهار في موضع الإضمار ثانياً ، لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى مبالغاً في المغفرة والرحمة . حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعتهم . انتهى ملخصاً مما حرره أبو السعود . وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الكلام ، وإجاده في المقام . وهكذا عادتنا في كل مجود ، أن ننقله ولا نتصرف فيه .

بقي في الآية لطائف نشير إليها :

الأولى - فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة ، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين . وبعضهم بمعرفته تعالى . قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال لاتنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة

إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها . وهو أنه إن قام بذلك أئيب، وإن تركها عوقب . انتهى .

وقيل : المراد بالأمانة الطاعة التي تعم الطبيعية والاختيارية، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وبمرضاها، استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار، وإرادة صدوره من غيره . وبحملها، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، فيكون الإباء امتناعاً عن الخيانة وإتياناً بالمراد . فالعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها ، أئيبين الخيانة وانتقدن لأمره تعالى انقياد مثلها . حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته بإيجادا وتكويناً وتسوية، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة . كما قال ^(١) (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وخانها الإنسان حيث لم يأت - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - بما أمرناه به؛ إنه كان ظلوماً جهولاً . وإرادة الخيانة من حملها، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله . كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزخشرى بقوله : وأما حمل الأمانة فمن قولك (فلان حامل للأمانة ومحتمل لها) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته، ويخرج عن عهدها . لأن الأمانة كأنها رابكة للمؤمن عليها، وهو حاملها . ألا تراهم يقولون (ركبته الديون) و (لى عليه حق) فإذا أداها لم تبق رابكة له ولا هو حاملاً لها . ومنه قولهم (أبنض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤده . وإذا أبنضه أخرجه وأداه فعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها . وأبى الإنسان إلا أن يكون محتلاً لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه . وهو أداؤها . انتهى ملخصاً .

الثانية - نقل ابن كثير آثاراً عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقياً . وأنه قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فقلن : يارب ! إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بذا قوة . ولكنا لك مطيعين . قال الشراح : ولا بُد ، أن يخلق الله فيها فهماً لخطابه ، وأنه كان على سبيل التخيير لها . ولذا عبر بالعرض ، لا تكليفاً حتى يلزم عصيانها . انتهى .

قال الإمام ابن حزم في (الفِصَل) في الردّ على من جعل للجملات تمييزاً ، مأماله : وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبابة كل واحد منها ، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك . وهذا نص قوله ^(١) (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق ، وأن له مبدأً لا يشبهه البتة ، فأراد معرفة كيف كان ، فقد دخل في قوله تعالى ^(٢) (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة ، إلا وقد جعل فيها تمييزاً لما عرض عليها . وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها . فلما أثبتنا وأشقت منها ، سلمها ذلك التمييز وتلك القوة ، وأسقط عنها تكليف الأمانة .

قال : هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل ، ولا مزيد عندنا على ذلك . انتهى .

وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز ، كما بينه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشري حيث قال : ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم (لو قيل للشحم أين تذهب ، لقال أسوى العوج) وكما لم من أمثال على السنة البهائم والجمادات . وتصوّرُ مقابلة الشحم محال . ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه . كما أن العجف مما يقبح حسنه . فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع ، وهي به آنس ، وله أقبال ، وعلى حقيقته أوقف . وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها وثقل حملها والوفاء بها . انتهى .

الثالثة - قال الرازي : إن قال قائل : لم قدم التعذيب على التوبة - في آخر الآية ؟ نقول :

لما سمي التكليف أمانة ، والأمانة من حكمها اللزوم أن الخائن يضمن ، وليس من حكمها اللزوم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة ، فكان التعذيب على الخيانة كاللزام ، والأجر على الحفظ إحسان ، والعدل قبل الإحسان .

الخامسة - ورد في تعظيم الأمانة عدة أحاديث . منها عن أبي هريرة مرفوعاً : أَدَّ الأمانة

(١) [١٨ / الكهف / ٥١] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود^(٢) والترمذي^(١). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة. رواه الإمام أحمد^(٣) والطبراني. وعن أبي هريرة^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ، لمن سأل عن الساعة: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتمها؟ يا رسول الله! قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

السادسة - قال ابن كثير: روى عبد الله بن المبارك في كتاب (الزهد) أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا، تفرد به أبو داود^(٥). أي لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته. وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام. كما تقرر في موضعه. والله أعلم.

السابعة - سبق لي أن كتبت في الآية شيئاً. في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤، في قرية ضمت حفلة من أهل العلم. فسأل بعض الناس عن تفسير الآية. ولم يكن ثمة تفسير. فاستعنت بالله تعالى، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ما تراه. أردت إثباته هنا تعريزاً للمقام، ونصه: في ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (رد العجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقص (١) رواه في: ٢٢ - كتاب البيوع، ٧٩ - باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده،

حديث ٣٥٣٥

(٢) أخرجه في: ١٢ - كتاب البيوع، ٣٨ - باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٦٥٢ (طبعة المعارف)

(٤) أخرجه البخاري في: ٣ - كتاب العلم، ٢ - باب من سئل علماً وهو مشغول في

حديثه، حديث ٥٢

(٥) أخرجه في: ٢١ - كتاب الأيمان، ٥ - باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣

مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق. أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين ، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبنّي ونحوها، أنهم كانوا أعطوا العهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفروا وذلك في قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفَرَارٍ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فلما خانوا أماناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم ، والتثبيط لهم ، وما كان من شنائعهم في تلك الغزوة، بين الله تعالى في خاتمة السورة، شأن الأمانة وعظم خطرها ، وأنها عند الله بمكان عظيم. وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقا ، عاهد الله عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركفت إليه وأدرجته في عداد من يشد أزرها ، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود الله هزوا ولعبا ، فيخذل من وثق به ، ويمالى العدو عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة ، ويوقع الأراجيف ليوهم العزائم ويضعف الحمم ، فتكثر القالة وترتبك العامة . فما أسوأ ما يأتي به وما أفضع ما ارتكب وما أعظم جريمته ! وجلّ أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها ، وما ذكر بعض من آثارها . ففي أى مرتبة تكون الخيانة ؟ لا جرم أنها في أحط المهادى الدينية . كما أن مرتكبها في الدرك الأسفل من النار . فالأمانة المذكورة في الآية باعتبار سياقها وسباقها، هي الأمانة التي خان في تحملها المنافقون، ونقضوا بها عهدهم في هذه الواقعة . وكان من أثرها السيئ في المدينة وأهلها ما كان - وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره، والإنسان هنا، المعنى به جنس المنافق الذي قص من نبئه ما قص . والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل، ثم نقض ذلك عنه، عمد وقصد، ظلما لنفسه وجهلا بالعاقبة وباللوم الذي يتبعه، وبالعذاب الذي سيلقاه، وبكون هذا الأمر أمرا ربانيا وعزيمة إلهية ما هي بالهزل . والمراد بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، هو ظهور خطرها لهذه المكنونات، وفضاعة الخيانة فيها، وإشفاق كل من خطر تحملها . وإبائهم ذلك لو كن مما يعقلان . مع أنهم أقوى أجساما وأعظم ثباتا وأصبر على

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥ و ١٦] .

طواريء الحدثان ، تخوفاً من أن يطفن في أمرها أو يعصين في شأنها . وإن الإنسان ، مع ضعفه بالنسبة لمن ، حملها وما حفظها ولا رعاها . واجترأ مع ضعفه على ما أشق منه ما هو أقوى منه . فما أظلمه وما أجهله ! والقصد رميه بالظلم والجهل . وجراءته على الحياة وعدم مبالاته بما ترهب منه السموات والأرض والجبال . فيالله ما أطفاه ! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة ، وأنهن لو عتلن لكان منهن ما كان . ونظير هذه الآية في ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى (١) (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) وحقا أن سبك المعنى المذكور في قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل ، وخارق من خوارقه في باب البلاغة . فإن أسلوبه في إفراغ المعاني في أرق الألفاظ وأنعم التراكيب ، أسلوب انفراد به عن كل كلام . وبه يعلم أن من بحث في كيفية العرض عليهن ، هل كان بإيداع عقل فيهن أولاً ، وفي تعيين زمانه وفي كيفية إياهن وإشفاقهن ، وفي معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل ، بعد ما عرضت عليه ، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك - كله فلسفة لفظية ، ولدها عشاق الظواهر والألفاظ ، الولعون في الغلو بمفرداتها ، وصرف الوقت فيها جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم . فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه - ولن يجدوا إليه سبيلاً ما دام هذا سبيلهم - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

تم الجزء الثالث عشر . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر ، وفيه تفسير : (٣٤ - سورة سبأ ، و ٣٥ - سورة فاطر ، و ٣٦ - سورة يس ، ٣٧ - سورة الصافات ، و ٣٨ - سورة ص ، و ٣٩ - سورة الزمر ، و ٤٠ - سورة غافر ، و ٤١ - سورة فصلت ، و ٤٢ - سورة الشورى ، و ٤٣ - سورة الزخرف ، و ٤٤ - سورة الدخان و ٣٥ - سورة الجاثية)

(١) [١٩ / مريم / ٨٨ - ٩١] .

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ رُوحًا وَيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسيحي

مَحَاسِنُ التَّائِبِينَ

تَأليف علامته الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ - ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الرابع عشر

وفيه تفسير سور : (من سبأ إلى الحانية)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عيسى الببائي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراخ إليه ضمائرهما ، وتفقه عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيّام ،
والمجدّد لعلوم الإسلام ، محب السّنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدنى
الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونذكر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤ - سُورَةُ سَبَأٍ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلو عن الآفة، وتبدلها بالنقم، لمن كفر بالمنعم.. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايي. وهي مكية. واستثنى منها^(١) (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) الآية. وروى الترمذي^(٢) عن فروة بن مسيك المرادي قال: أنبت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألا أقاتل من أدبر من قومي؟ الحديث. وفيه: وأنزل في سبأ ما أنزل. فقال رجل: يا رسول الله! وما سبأ؟ الحديث. قال ابن الحصار: هذا يدل على أن هذه القصة مدنية. لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع.

قال: ويحتمل أن يكون قوله (وأنزل) حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته. أفاده في (الإتقان) وآيها أربع وخمسون.

(١) [٣٤/سبأ/٦].

(٢) أخرجه في: ٤٤ - كتاب التفسير، ٣٤ - سورة سبأ، ١ - حدثنا أبو كريب

وعبد بن حميد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » خلقاً وملكاً ، وتصرفاً بما شاء « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ » أى فى النشأة الآخرة . قال الشهاب : السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره . وهو يشتمل على النعم الدنيوية . فلم من التوصيف بقوله (الَّذِي) الخ ، أنه محمود على نعم الدنيا . ولما قيد الثانى بكونه فى الآخرة ، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى : أنه المحمود على نعم الدنيا فيها ، وعلى نعم الآخرة فيها . أو هو من باب الاحتباك . وأصله : الحمد لله الخ فى الدنيا ، وله ما فى الآخرة والحمد فيها . فأثبت فى كل منها ما حذف من الآخرة . وقوله (وَلَهُ الْحَمْدُ) معطوف على الصلة ، أو اعتراض ، إن كانت جملة (يَعْلَمُ) حالية (وَهُوَ الْحَكِيمُ) أى الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته « الْخَبِيرُ » أى بخلقه وأعمالهم وسرائرهم ، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ » أى من الأمطار والمياه والكنوز والدقائق والأموات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب « وَمَا يَنْزِلُ

مِنَ السَّمَاءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة وأعمال العباد « وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ » أى لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَذَابُ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى مشركى مكة « لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ » أى ساعة الجزاء ، إنكاراً لها « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ » أى الساعة . رد لكلامهم وتأكيدهما بقوة ، باليمين بالله عز وجل « عَذَابُ الْغَيْبِ » بالجر صفة ، والرفع خبر محذوف . وقرئ (علام) بالجر . وفى هذا التوصيف تقوية للتأكيد . لأن تعقيب القسم بجلال نعوت المقسم به ، يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته . لما أن فى حكم الاستشهاد على الأمر . لا سيما إذا خص من الأوصاف ماله اختصاص بهذا المعنى . فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب ، إذا قيل عالم الغيب « لَا يَعْزُبُ » أى لا يغيب بضم الزاى وكسرهما « عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » أى فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء وإن تنهى فى الصغر . فالعظام وأجزاء البدن ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت . ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، لسعة علمه وعظم قدرته ، جل شأنه .

لطائف :

الأولى - عامة القراء على رفع (أَصْغَرُ) و (أَكْبَرُ) وفيه وجهان : أحدهما الابتداء

والخبر (إِلَّا فِي كِتَابٍ) والثاني النسق على (مثقال) . وعلى هذا فيكون قوله (إِلَّا فِي كِتَابٍ) تأكيداً للنفي في (لَا يَعْزُبُ) كأنه قال : لكنه في كتاب مبين . ويكون في محل الحال . وقرأ بعض السلف بفتح الراءين . وفيه وجهان : أحدهما - أن (لا) هي لا التبرئة . بنى اسمها معها . والخبر قوله (إِلَّا فِي كِتَابٍ) . والثاني - النسق على (ذَرَّةٍ) لامتناعه من الصرف .
الثانية - يشير قوله تعالى (وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ) إلى أن (مِثْقَالٌ) لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً .

الثالثة - قال الكرخي : فإن قيل فأي حاجة إلى ذكر (الأكبر) فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان . وأما الأكبر فلا ينفي فلا حاجة إلى إثباته ، فأعلم أن الإثبات في الكتاب ليس كذلك . فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
« لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » علة لقوله تعالى (لَتَأْتِيَ كُلُّكُمْ) وبيان لما يقتضى إثباتها من جزاء المحسن والمسيء « أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أي عيش هنيء في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ)
« وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا » أي بالطمع فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك « مُعْجِزِينَ » أي مقدرين الغلبة والعجز في زعمهم الفاسد وظنهم الباطل « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ » وهو أسوأ العذاب و (مِّن) للبيان « أَلِيمٌ » بالرفع صفة (عذاب) ،

وبالجرّ صفة (رجز). قراءتان. وقد جوز في قوله (وَالَّذِينَ سَعَوْا) أن يكون مبتدأ، وجملة (أُولَئِكَ..الخ) خبره وأن يعطف على (الَّذِينَ) قبله. أى ويجزى الذين سمعوا. ويكون جملة (أُولَئِكَ) التى بعده مستأنفة، والتى قبله معترضة. وفى التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعى، تمثيل لحالهم. فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات، فيحتاج إلى السعى العظيم والجدّ البليغ، ليرّوج كذبه لعله يعجز المتمسك به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ

كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٨] (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

« وَيَرَى » أى يعلم « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » أى دينه وشرعه « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من

قريش « هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ » يعنون النّبى ﷺ « يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَرِّقٍ » أى فرقم كل تفريق، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً « إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ *

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فيما قاله « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون تخيل به ذلك. فرد تعالى

عليهم مانعاً به سوء حالهم بقوله « بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ » أى التناهى أمره. فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد؛ وينذ الهوى والفساد، فيرمى

الداعى بالفرية والجنون، كمغرق فى الجهالة. ومبعد أى بعد فى الضلالة. ثم أشار إلى تهويل تلك

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
 إِن نَّشَأْ نُخَسِّفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ،
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفَ
 بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : أعموا فلم ينظروا إلى السماء
 والأرض ، وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدر أن
 ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف
 الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به ،
 كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . أفاده الزمخشري . و (الكسف) بسكون السين ، بمعنى
 القطع ، إما جمع كسفة ، أو فعل بمعنى مفعول ، أو مخفف من المصدر . وقرأ حفص (كسفاً)
 بالفتح « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من
 قدرة الله « لَآيَةً » أى دلالة واضحة « لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى راجع إلى ربه مطيع له .
 فإن شأنه لا يخلو من الاعتبار في آياته تعالى ، على أنه قادر على كل شيء من البعث ونشر الرميم
 كما قال تعالى (١) « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 بَلَىٰ » وقال تعالى (٢) « لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان
 ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد ، ببركة إنايتهم وقيامهما بشكر الرب تعالى ، عِدَّةً لِلنَّبِيِّ
 صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين الشاكرين بنيل مثل ذلك ، وتذكيراً بقدرته على كل شيء ،
 فقال تعالى :

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا، يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ، وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ)

[١١] (أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ قَدَرٍ فِي السَّرْدِ، وَأَعْمَلُوا صَاحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ » أى رَجَعِي معه التسبيح
و (يَجِبَالُ) بدل من (فَضْلًا) أو من (ءَاتَيْنَا) بتقدير قولنا ، أو قلنا يا جبال أَوْبَىٰ معه
« وَالطَّيْرُ » بالرفع والنصب ، عطفًا على لفظ الجبال وحملها . وجوز انتصابه مفعولًا معه
وأن يعطف على (فَضْلًا) بمعنى وسخرنا له الطير . قال الزمخشري : فإن قلت أى فرق بين
هذا النظم وبين أن يقال وآتينَا داوود منا فضلًا ، تأويب الجبال معه والطير ؟ قلت : كم بينهما !
ألا ترى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية ،
حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا
وأجابوا ، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت ، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع
على إرادته . انتهى . « وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ قَدَرٍ » أى دروعا واسعات
« وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ » أى اقتصد في نسج الدروع لتتناسب حلقها « وَأَعْمَلُوا صَاحًا »
أى وقلنا له ولأهله ذلك « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فأجازيكم به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ،

وَمِنْ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ

عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« وَلِسُلَيْمَانَ » أى وسخرنا له « الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى جريها بالغداة

مسيرة شهر ، وجريها بالعشي كذلك . والريح الهواء المستخر بين السماء والأرض . ويطلق بمعنى

النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كافي القاموس « وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ » أى النحاس المذاب .
أى أجرينا له ينبوعه لكثرة ما توفر لديه منه من سعة ملكه « وَمِنَ الْجِنَّ » أى الشياطين
الأقوياء « مَنْ يَمْعَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها « بِإِذْنِ رَبِّهِ »
أى بأمره تعالى « وَمَنْ يَزِغْ » أى يعمد « مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى النار .
ثم فصل ما ذكر من عملهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ، أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)
« يَمْعَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ » أى مساكن ومجالس شريفة أو مساجد « وَتَمَثِيلٍ »
أى صور ونقوش متنوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهو كل ماسور على مثل
صورة غيره من حيوان وغير حيوان . ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

قال السيوطى فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : احتجت به فرقة فى جواز التصوير، وهو
ممنوع فإنه منسوخ فى شرعنا « وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ » أى وخفاف كالجوابى وهى الحياض
الكبار . و (الجفان) جمع جفنة وهى كالصحفة والقصة ، ما يوضع فيه الطعام مطلقا . وقيل
الجفنة أعظم القصاع . ثم يليها القصعة وهى مائشع عشرة . ثم الصحفة وهى مائشع خمسة .
ثم الميكة وهى مائشع ثلاثة أو اثنين . ثم الصحيفة « وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ » أى ثابتات على
الأنافى ، لا تنزل عنها لعظمها « أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا » أى قيل لهم : اعملوا لله واعبدوه
على وجه الشكر لنعمائه . وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف .
كما أن فيه وجوب الشكر . وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان . لأن حقيقة صرف العبد
جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله . وداود عليه السلام قد يدخل هنا فى (آله) فإن
آل الرجل قد يعمه « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » أى المتوفرون على أداء الشكر بقلبه ولسانه
وجوارحه ، أكثر أوقاته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ » أى على سليمان « الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ » وهى الأرضة « تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ » أى عصاه التى ينسأ بها ، أى يطرد ويؤخر « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » أى الشديد من الجرى على رسمه لهم ، والدأب عليه ، لظنهم بإياه حياً .

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه ، إثر بيان أحوال الشاكرين لها ، ما فيه عظة واعتبار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ » اسم لأبى قبيلة . وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها « فِي مَسْكَنِهِمْ » أى فى مواضع سكنهم ، وهى باليمن يقال لها (مَأْرِب) كمنزل من بلاد الأزد ، فى آخر جبال حضرموت . وكانت فى الزمن الأول قاعدة التبابعة ، فإنها مدينة بلبقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل . وقرئ (مَسَاكِنِهِمْ) « آيَةٌ » على قدرته تعالى وبجاراته المسىء « جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ » أى جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وشمالها . أو لسكل واحد جنتان عن يمين مسكنه وشماله : قيل لهم « كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ » أى بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله . ثم بين ما يوجب الشكر المأمور به ، بقوله سبحانه « بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ » أى لطيفة جميلة مباركة لا عاهة فيها « وَرَبُّ غَفُورٌ » أى لمن شكره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

« فَأَعْرَضُوا » أى عن الشكر « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » أى سيل الأمر العرم ، أى الصعب والطر الشديد - أو الوادى - أو السكر الذى يحبس الماء - أو هو البناء الرصين المبني بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها . وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم . فلما طغوا أهلكتهم الله بخراب هذا البناء ، فانهال عليهم تيار مائه ، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم . واضطرو من نجا منهم للزوح عنها . كما قال تعالى « وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ » أى عمر مرة ، أو بشع لا يؤكل « وَأَثْلٍ » شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له « وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » وهو شجر النبق . أى قلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

« ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ » أى بشكر النعم ، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدل إلى الباطل . ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنيء والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

« وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » أى بالزروع والثمار وحسن العمران وهى

قرى بصنعاء كما قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومالك وغيرهم «قُرَى ظَهْرَةٍ» أى متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها . فهى ظاهرة لأعين الناظرين . أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مساكنهم «وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ» أى جعلنا بين قراها مقادير متساوية . فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيولة . ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ، ولا يخاف من عدو ونحوه «سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ» أى لا تخافون فى الليل أو النهار . أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن . والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبي ونحوه، أو بلسان الحال . كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به . فالأمر للإباحة . وفى (فى) إشعار بشدة القرب ، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« فَقَالُوا » أى بلسان الحال والميل إلى المبالغة الشيطانية « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » أى فاستعدوا لضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها الطمى والرواحل ، لتباعد ما بينها وبين ما يسرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة « وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى حتى حل بهم ما حل « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهنىء « وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ » أى فرقناهم كل تفريق ، حتى اتخذ الناس مثلاً مضرورياً . يقولون (تفرقوا أبداً سبأ ، وذهبوا أبداً سبأ) بألف مقصورة . قال الأزهرى : العرب لا تهمر سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثرت فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز ، وإن كان أصله مهموزاً . والذهاب معلوم . والآيدى جمع أيد . والآيدى جمع يد . وهى بمعنى الجارحة ، وبمعنى النعمة ، وبمعنى الطريق ، وهو المراد .

قال في التهذيب : قولهم ذهبوا أيدي سبا ، أي متفرقين . شبهوا بأهل سبا لما مرقهم الله في الأرض كل ممزق . فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة . و (اليد) الطريق . يقال : أخذ القوم يد بحر .. فليل للقوم إذا ذهبوا في جهات مختلفة (ذهبوا أيدي سبا) أي فرقهم طرقهم التي سلكوها ، كما تفرق أهل سبا في مذاهب شتى .

قال ابن مالك : إنه مركب تركيب خمسة عشر ، مبنياً على السكون . وفي (زهر الأكم ، في الأمثال والحكم) أن سبا كانت أخصب بلاد الله . كما قال تعالى (جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) قيل كانت مسافة شهر للراكب المجتهد . يسير المائتي في الجنان من أولها إلى آخرها لا يفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء . فسكنوا مدة في أمن لا يماندهم أحد إلا قصموه . وكانت في بدء الأمر تركبها السيول . فجمع لذلك حمير أهل مملكته وشاورهم . فاتخذوا سداً في بدء جريان الماء ورسفوه بالحجارة والحديد ، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعمهم نفعه في الجنات والمزروعات . فلما كفروا نعم الله تعالى ، ورأوا أن ما حكمهم لا يبيده شيء ، وعبدوا الشمس ، سلط الله على سدّهم فارة تخرقه . وأرسل عليهم السيل فزرقهم الله كل ممزق . وأباد خضراءهم . وتبددوا في البلاد . فلحق الأزد بهمان . وخزاعة ببطن مرّ . والأوس والخزرج بيثرب . وآل جفنة بأرض الشام . وآل جذيمة الأبرش بالعراق .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبا ما هو ؟ أرجل أم امرأة ؟ أم أرض ؟ قال ﷺ : بل هو رجل ولد له عشرة . فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فذبح وكبدة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخيم وجذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : وإسناده حسن إلا ابن لهيعة .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فقاتل بمقبل قومك مدبرهم . فلما وليت دعاني فقال : لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام . فقات :

يا رسول الله ! أرايت سبأ ؟ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو ؟ قال ﷺ : لا ، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة . فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة . تيامن الأزد والأشعريون وحير وكندة ومذحج وأنمار - الذين يقال لهم بجيلة - وخثعم . وتشاءم لحم وحذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : حديث حسن . وإن كان فيه أبو حبيب الكلبي ، وقد تسكّموا فيه . ورواه الحافظ ابن عبد البرّ في كتاب (القصد والأُمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الداريّ : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؟ فذكر مثله . وقال ابن كثير : فقوى هذا الحديث وحسن .

وذكر علماء النسب ، منهم محمد بن إسحق اسم سبأ ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . وإنما سمي سبأً لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائش . لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه . فسمى الرائش . والعرب تسمى المال ريشاً وریشاً . وذكروا أنه بشرّ رسول الله ﷺ في زمانه المتقدّم . وقال في ذلك شعرا :

سيملكُ بعدنا	مَلِكٌ عَظِيمٌ	نبيٌّ لا يَرُخَّصُ في الحرامِ
ويملكُ بعده	منهم ملوكٌ	يدينوه القيادَ بكل راي
ويملكُ بعدهم	منا ملوك	يُصيرُ الملكُ فينا بانقسامِ
ويملكُ بعد قحطان	نبيٌّ	تَقَى مُتَحَنَّنٌ خَيْرُ الأَنامِ
يسمى أحمدًا .	يأليت أني	أعمرُ بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه	بنصري	بكل مُدَجِّجٍ وبكل رامِ
متى يظهرُ	فكونوا ناصريه	ومن يَلْقَهُ يَلِغْهُ سِلَاحِي

ذكر ذلك الهمدانيّ في كتاب (الإكليل) . واختلفوا في قحطان . فقيل : إنه من سلالة إرم بن سام نوح . وقيل : من سلالة عابر وهو هود عليه السلام . وقيل : إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وقد ذكر ذلك مستقصي الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النمرّي في كتاب (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه) .

قال ابن كثير : ومعنى قوله ﷺ في سبأ : كان رجلا من العرب ، يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث . كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم . والله أعلم .

ولكن في صحيح البخاري^(١) أن رسول الله ﷺ مرّ بفنجر من أسلم ينتضلون فقال : ارموا ، بنى إسماعيل ! فإن أباكم كان راميا . وأسلم قبيلة من الأنصار . والأنصار أومها وخزرجها من عرب اليمن ، من سبأ ، نزلت يثرب ، لما تفرقت ، كما مر .

(ثم قال) : ومعنى قوله ﷺ : ولد له عشرة أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن . لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه ، الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب « إن في ذلك » أى فيما ذكر من قصتهم ، وما حل بهم من النعمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام « لآيت » أى لعبارة عظيمة « لكل صبار شكور » أى شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام ، والشكر على النعم . قال الأعرابي من قصيدة .

ففي ذاك للمؤتى أسوةً ومأربُ عفى عليها العزمُ
رُخامٌ بنته لهم حِميرٌ إذا جاء موارده لم يرمِ
فأروى الزروعَ وأعناقها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسمِ
فصاروا أيادي ما يتدرو ن منه على شربِ طفلٍ فُطمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(١) أخرجه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٨ - باب التحريض على الرمي ، حديث رقم ١٣٨٧

عن سادة بن الأكواع .

[٢١] (وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ
مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ)

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » قال الزمخشري : قرئ (صدق) بالتشديد والتخفيف . ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فن شدد ، فعلى : (حق عليهم ظنه ، ووجده ظنه صادقا) أى صدق بمعنى حقق مجازا . لأنه ظن شيئا فوق حقيقته . وقوله (أو وجده ظنه صادقا) فإن العرب تقول صدقت ظنك . والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئا فيهم . فلما وقع جعل كأنه صدقه . اه شهاب .

ومن خفف فعلى (صدق في ظنه ، أو صدق يظن ظنا) نحو فعلته جهدا . أى (ظنه) منصوب على الظرفية بنزع الخافض . وأصله (في ظنه) أى وجد ظنه مصيبا في الواقع ، ف(صدق) حينئذ بمعنى أصاب ، مجازا . أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدر . كفعلته جهدا ، أى وأنت تجهد جهدا . فالمصدر وعامله في موقع الحال . اه شهاب .

وبنصب (إبليس) ورفع (الظن) فن شدد فعلى (وجد ظنه صادقا) . ومن خفف ، فعلى (قال له ظنه الصدق حين خيله إغواؤهم) برفع (إغواؤهم) على الفاعلية . أو نصبه على الحذف والإيصال ، وفاعله وضمير الظن . أى خيل له إغواءهم . اه شهاب . يقولون صدقت ظنك .

وبالتخفيف ورفعهما ، أى على إبدال الظن من إبليس ، بدل اشتغال . اه شهاب . على (صدق عليهم ظن إبليس) . انتهى .

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم في الشهوات ، أو بينى آدم حين رأى ماركب فيهم من الشهوة والغضب .

« فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ » أى ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء

بالوسوسة والاستغواء ، إلا لغرض صحيح وحكمة بينة . وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاكِّ فيها . وعلل التسليط بالعلم . والمراد ما تعلق به العلم . قاله الزمخشري . يعنى أن العلم المستقبل المملل به هنا ، ليس هو العلم الأزلي القائم بالذات المقدس ، بل تعلقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذى يترتب عليه الجزاء والثواب والعقاب . فالعنى ماسلطفاه عليهم إلا ليعبر من كمون الغيب ما علمناه ، فتظهر الحكمة فيه ويتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه ، وهو ظهور المعلوم . ويجوز أن يكون المعنى : لنجزى على الإيعان وضده . كذا في (العناية) « وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ » أى رقيب قائم على أحواله وأموره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ)

« قُلِ » أى للمشركين ، إظهاراً لبطلان ما هم عليه وتسكيتاً لهم « ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى زعمتموهم آلهة « مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى من خير وشر ونفع وضر « فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ » أى شركة ، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً « وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ » أى معين يمينه على تدبير خلقه ، قال الزمخشري : يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية . فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ، ويرجوا كما يرجى ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا الْحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

« وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » أى من المستأهلين لمقام الشفاعة ،

كالنبيين والملائكة . وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله « حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والشفوع لهم ، بكلمة يتسكلم بها رب العزة ، فى إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك « قَالُوا » أى سائلا بعضهم بعضا « مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ » أى قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى « وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذو العلو والكبرياء . ليس للملك ولا نبي أن يتسكلم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى . قال ابن كثير : هذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تسكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه ، أَرعدوا من الهيبة ، حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرها .

قال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله (حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) ولأى شيء وقعت (حتى) غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا يؤذن . وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من الترتبص . ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل ^(١) (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) أى : وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال ، عظمة وسموا من ذى الجلال ، فأنتى ينالها جماد لا يعقل ، لاسيما وهو عدو للكبير المتعال ، فتبين كذبهم فيهم أنهم شفعاء ، وحرمانهم من مقامها ، بأجل بيان وأفصح مقال . وفى الآية تأويل آخر . وهو أن معنى قوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) أى عن قلوب المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : (حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) أى كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : أى كشف عما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٧ و ٣٨] .

هذا عند الموت ، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . واختار ابن جرير^(١) القول الأول ، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا هو الحق الذي لا مريّة فيه . لصحة الأحاديث فيه والآثار ، أى ولورود ما يؤيده في آية أخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضا وذلك في قوله تعالى^(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِمْ مُشْفِقُونَ) نعم ، النظم الكريم لا يأبى ما ذكره ، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة في باب فهم التأويل ، ما وجد إليها سبيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أمر بتبكيّة المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله « قُلِ اللَّهُ » أى الذى تعترفون بأنه هو الخالق . كما قال تعالى^(٣) (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) أى فحينئذ قامت الحجة عليهم منهم .

« وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى وإن أحد الفريقين من الموحدين ، الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة ، لعلّى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٣) [١٠ / يونس / ٣١] .

قال الزخشرى : وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خطب به : قد أنصفك صاحبك . وفى درجته بعد تقدمه ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين . ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهم به على الغلبة مع قلة شعب الخصم وفلّ شوكته بالهويّنا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك . وإن أحدا لكاذب . ومنه بيت حسان ^(١) :

أتهجوه ولست له بكفء فشرُّكمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

انتهى .

قال الناصر : وهذا تفسير مذهب واقتناع مستعذب ، رددته على سمعى فزاد رونقا بالترديد . واستعماده الخاطر ، كأنى بطىّ الفهم حين يفيد . ولا ينبغى أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التى أكثر تماطيا متأخرو الفقهاء فى مجادلاتهم ومحاوراتهم . وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإيهام . فهذا المسلك من هذا الوادى غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى . قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى (الكلام المنصف) . وقيل إن الآية على اللف والنثر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعا لقوله (وَإِنَّا) و (أَوْ فِي ضَلَالٍ) راجعا لـ (إِيَّاكُمْ) كان المعطف بالواو لا بأو . وكونها بمعنى الواو كما فى قوله :

سَيِّانٍ كَسْرُ رَغِيْفِهِ أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنَزَلَهَا خَلَاءُ

يهجوها أبا سفيان ، وكان هجا النبي ﷺ قبل إسلامه .

(ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق . وعذراء : موضع على برید

من دمشق . وعفت : درست) .

بمعيد جداً . إلا إنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار (على) في الهدى و(في) في مقابله ، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكفه وإطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الرابك على جواد . وانهماس الضال في ضلاله حتى كأنه في مهواة مظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى قل لهؤلاء المشركين : لا تسألون عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم ، ولا نسأل نحن عما تعملون من عمل . قال ابن كثير : معناه التبرى منهم . أى لستم منا ولا نحن منكم . بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العباد له . فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى ^(١) (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وكقوله ^(٢) (قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) السورة . انتهى .

وما ذكره معنى دقيق ، قل من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشياء والنظائر . وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة . ولا يدرك هذا إلا الراسخ في فن التأويل ، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشري والمتصف ، من أن هذا القول أدخل في الإنصاف من الأول . حيث أسند الإجماع إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن . وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر . فمعب عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم . وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف . وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي ، الذي يعطى تحقيق المعنى . وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك . والله أعلم .

(١) [١٠ / يونس / ٤١] . (٢) [١٠٩ / الكافرون / ١ - ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا » أى يوم القيامة فى صعيد واحد . « ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ »

أى يقضى بالعدل . لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال . فيبتين يومئذ المهتدى منا من الضالّ ، ويجزى كلا بعمله ، كما قال تعالى ^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ولهذا قال سبحانه « وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » أى الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه الحق من المبطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ » أى جعلتموها لله أنداداً ، وصيرتموها له

عدلاً . قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم . أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شئ فى استحقاق العبادة . وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إزام الحجة عليهم . وقد جوّز العرب فى (رأى) هنا أن تكون علمية متعديّة بهمزة النقل ، إلى ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاء . وعائد الموصول محذوف . أى ألحقتموهم . وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنتين : ياء المتكلم والموصول ، و (شركاء) حال . ولا ضعف

(١) [٣٠ / الروم / ١٤ - ١٦] .

في هذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقة . لأنه كان يراهم ويعلمهم . فهو مجاز وتغثيل . والمعنى : ما زعمتموه شريكا إذا برز للعيون وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعالى « كَلَّا » ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايسة « بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة . فأين شركاؤكم التى هى أحسن الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية . والضمير إما لله عز وعلا ، أو للشأن . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى وما أرسلناك إلا لإرسالة عامة لجميع الخلائق من المكلفين . تبشر من أطاعتك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كقوله تبارك (١) وتعالى (قُلْ يَسَّأَلُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (٢) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الفى والضلال كقوله عز وجل (٣) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (٤) (وَإِنْ تُطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قال ابن عباس - فيما رواه ابن أبى حاتم - إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ! فبِمَ فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال (٥) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١] . (٣) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ١١٦] . (٥) [١٤ / إبراهيم / ٤] .

بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال للنبي ﷺ (١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت في الصحيحين . رفعه عن جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ (٢) : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتى أدر كته الصلاة فليصل . وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة . وفي الصحيح أيضا (٣) : أن رسول الله ﷺ قال : بعثت إلى الأسود والأحمر . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس . وقال غيره : يعنى العرب والعجم اه . والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو بحجته بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أيما كانوا ، وأى زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط . ولهذا ختمت النبوات بنبوته ﷺ ، كما تقرر فى موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٣٠] (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

» وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٨] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧ كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى فلم تجدوا ماء

فتيمموا ، حديث رقم ٢٣١ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ عن جابر

ابن عبد الله (طبعنا) .

لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ » يعنون بالوعد المذبر به استهزاء ، كقوله تعالى (١) (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) وقوله (٢) (وَمَا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتُضْعَفُوا لِلَّذِينَ أَتُكَبَّرُوا لَوْلَا أَاتَمَّ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » وهو ما نزل قبل القرآن من كتبه تعالى « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتجادبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم . ثم أبدل من (يَرْجِعُ) قوله « يَقُولُ الَّذِينَ أَتُضْعَفُوا » وهم الاتباع « لِلَّذِينَ أَتُكَبَّرُوا » وهم قادتهم وسادتهم « لَوْلَا أَاتَمَّ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَ الَّذِينَ أَتُكَبَّرُوا لِلَّذِينَ أَتُضْعَفُوا أَلْنَحْنُ صَدَدٌ نَّكُمُ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ شُجْرَمِينَ)

« قَالَ الَّذِينَ أَتُكَبَّرُوا لِلَّذِينَ أَتُضْعَفُوا أَلْنَحْنُ صَدَدٌ نَّكُمُ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُجْرَمِينَ » أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك .

(١) [٤٢ / الشورى / ١٨] . (٢) [١١ / هود / ١٠٤ و ١٠٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ
إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُحْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ » أى
مكرهم فيهما وإغراؤكم وتمنيكم لنا « إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا »
أى نظراء وآلهة معه « وَأَسْرُوا » أى الجميع من السادة والأنباع « النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا
الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهى السلاسل التى تجمع أيديهم
مع أعناقهم « هَلْ يُحْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم كل بحسبه . للقيادة
عذاب بحسبهم . وللأتباع بحسبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ)

[٣٥] (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ *
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » أى زعماءهم أنه أكرمهم الله بذلك
فى الدنيا ، فلا يعذبهم فى الآخرة على تقدير وقوعها . وتوها بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم .
ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم . وقد أبطل الله حسابهم ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيتته فى عباده ، من يحب ومن لا يحب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه . فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها . ولذا قال « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمال النفسية . وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع . كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ)

« وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ » أى بالمزية التى تقربكم قرابة . فـ (زُلْفَى) محلها النصب « إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ » أى الثواب المضاعف « بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ » أى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن نظائر الآية قوله تعالى ^(١) (أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا مُنِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارَعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) وقوله سبحانه ^(٢) (فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزْهَقَ أَنْفُسَهُمْ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٦ و ٥٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٥٥] .

وَهُمْ كَافِرُونَ . وروى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

« وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا » أى بالصد عنها والطمع فيها « مُعْجِزِينَ » أى قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر « أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أى فى عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ،

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ » أى يعوضه . فإن يفاييع خزائنه لا تنضب . وسحائب أرزاقه سحابة الليل والنهار « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى أعلمهم . لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق . روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض . يعض الموسر على ما فى يده حذار الإفتاق . ثم تلا هذه الآية (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)

[٤١] (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وورد على المثل السائر (إياك أعنى واسمعى يا جارة) ونحوه قوله تعالى ^(١) (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير . والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا . فيكون تقريرهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم أزم . ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . انتهى .

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركي العرب . ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة . فتكون شفعاء لهم . وقوله تعالى (أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) أى : أباذنكم كان ذلك . كما قال تعالى ^(٢) (أَلَمْ تَكُنْ أَهْلًا لَكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام ^(٣) (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ) وهكذا تقول

(١) [٥ / المائة / ١١٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١٧] .

(٣) [٥ / المائة / ١١٦] .

اللائكة (سُبْحَانَكَ) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ) أى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم . فنبأ إليك منهم . بينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار ، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم . وقولهم (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى الشياطين ، لأنهم هم الذين زيفوا لهم عبادة الأوثان وأضلّوهم . والضمير الأول فى قولهم (أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) للإنس أو للمشركين . والأكثر بمعنى الكل .
والثانى للجن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

« فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لأن الأمر كله فيه لله . لأن الدار دار جزاء وهو المجازى وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتعزّة والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة . يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لمجزمهم وفصورهم عند عبدتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالسكينة « وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » وهم المشركون « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا » يعنون رسول الله ﷺ « إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا «أَيُّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ)

«وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ» أي

ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . وقد كانوا

يودون ذلك ويقولون : لوجاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا . فلما من الله

عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا

رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

«وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أي من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا

«وَمَا بَلَغُوا» أي هؤلاء «مِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ» يعني أولئك، من المال وبسطة الملك والعمران

والمدنية «فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أي عقابي ونكالي وانتقامي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ، أَنَّ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُّثْنٍ وَفِرَادَىٰ تُثَمَّمُ تَتَفَكَّرُوا،

مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جُنَّةٍ، إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنَّ تَقُومُوا لِلَّهِ» أي بمخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم

الحق وقد فسرناها بقوله «أَنَّ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُّثْنٍ وَفِرَادَىٰ» أي قياماً خالصاً لله بلا محاباة

ولا مراعاة ، اثنين اثنين وواحدًا واحدًا « ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا » أى فى أمره ﷺ وما جاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق ، ورفع النفس عن عبادة ما هو أخط منها من الأوثان ، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات ، واتباع الأحسن ، ونبد الثقاليد ، وإزال الرؤساء إلى مصاف الرؤوسين رغبة فى الإخاء والمساواة ، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة فى الكتب المؤلفة فى ذلك . وقوله تعالى « مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ » أى جنون . مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من راحة عقله كاف فى ترجح صدقه . فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان . فيفتضح على رؤوس الأشهاد ، وبلقى نفسه إلى الهلاك . فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة ؟ وجوز كون الجملة معلقة عنها . لقول ابن مالك : إن (تفكر) يعلق حملاً على أفعال القلوب . والتعبير عنه ﷺ (صاحبهم) ، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم . لأنه نشأ بين أظهرهم معروفًا بقوة العقل ورزاقه الحلم وسداد القول والفعل . « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وهو عذاب الآخرة والمآل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[٤٨] (قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْذِفِ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ)

[٤٩] (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

« قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ » أى أى شئ سألْتُكم من أجر على الرسالة فهو لكم . والمراد نقي السؤال رأساً . وإحاطض الفصح كناية ، لأن ما يسأل السائل ، يكون له . فجعله للمسئول عنه ، كناية عن أنه لا يسأل أصلاً . و (ما) على هذا شرطية . وجوز كونها

موصولة مرادا بها ما سألهم^(١) (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) وقوله^(٢) (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى . وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوز أيضا كونها نافية . وقوله (فَهَؤُلَاءِ لَكُمْ) جواب شرط مقدر . أى فإذا لم أسألكم فهو لكم « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ » أى يرمى به الباطل فيدمنه ويذهقه . أو يرمى به فى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق « عَلَّمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ » أى ظهر ، وهو الإسلام ومحاسنه « وَمَا يُبْدِيُ الْإِبْطِلُ وَمَا يُعِيدُ » كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره . مأخوذ من هلاك الحى . فإنه مادام موجودا ، إما أن يبدىء فعلا أو يعيده . فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة . ثم شاع ذلك فى كل مذاهب ، وإن لم يبق له أثر ، وإن يكن ذا روح . وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده .
أى : أى شىء يقدر عليه .

تنبيه :

فى (الإِكليل) : فى الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَىٰ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

« قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ » أى عن الطريق الحق « فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي » أى لأن وبال ذلك عائد عليها ، أو على ذاتي ، لا على غيري « وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَىٰ رَبِّي » أى من الرشد والحق المبين « إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » فإن قيل : مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها ، أن يقال (وإن)

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

اهتديت فإنما أهدى لها (فلم عدل عنها إلى ما ذكر ؟ قيل : إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى . وما هنا من الثانى . بيانه أن النفس كل ماعليها فهو بها ، أى : كل ماهو وبال عليها ، وضارّ لها ، فهو بسببها ، ومنها . لأنها الأمانة بالسوء . وكل ماهو لها مما ينفعها ، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لكل مكلف . وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه . لأن (الرسول) إذا دخل فى عمومه ، مع علوّ محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به . أشار لهذا ، الفاضل ابن الأثير فى (المثل السائر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَرَغُوا۟ فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا۟ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَرَغُوا۟ » أى هؤلاء الكذّابون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أمره « فَلَا قُوَّةَ » أى لهم ، بهرب أو التجاء . إذ لا وزر لهم ولا ملجأ « وَأُخِذُوا۟ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَا نَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَا نَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى بمحمد ﷺ ، أو القرآن « وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى : ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء ، لا دار الابتلاء . أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى (على تفسير (إِذْ فَرَغُوا۟) بظهور الحق عليهم فى حياتهم . اه منه) قال الزمخشري : التناوش والتناول ، أَخَوَان . إلا أن التناوش ، تناول سهل لشيء قريب .

يقال : نأشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا في الحرب . ناش بعضهم بعضا . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون . وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع ، تناولا سهلا لا تعب فيه . انتهى . أى ففيه استعارة تمثيلية . شبه إيمانهم حيث لا يقبل ، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه . فلما بعد عنه فرسخا ، مديده لتناوله . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » حال أو معطوف أو مستأنف . والأول أقرب . « وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى يرجون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة . كقولهم : ساحر وشاعر وجنون وما نحن بجمعويين . ونحو ذلك . فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصادقها بوجه ما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ

كَانُوا فِي شَكٍّ مَرِيبٍ)

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » أى من تقع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النار . أو من أن يدال لهم الأمر . لأنه جاء نصر الله والفتح « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » أى بأشباههم من كفرة الأمم « إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَرِيبٍ » من (أرابه) أوقعه في ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدي . أو من (أراب الرجل) أى صار ذاربية . وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازي ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

في الإِكليل ؛ قال ابن الفَرَس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر .
وردَّ بها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .
وعن قتادة : إياكم والشك والريبة . فإن من مات على شكٍ بُعث عليه . ومن مات
على يقين بُعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولى المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥ - سُورَةُ فَاطِرٍ

سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة ، وجعلهم ذوى أجنحة متنوعة في العدد ، الدالّ على عجب صنعه تعالى وباهر قدرته .

وقال المهايى: سميت بها لاشتغالها على بيان تفصيل رسالتهم ، من جهة أخذهم الفيض عن الله ، وإيصاله إلى خلقه ، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر . ليشعر أن الرسالة العامة لهم ، إذا كانت كذلك ، فكيف الرسالة الخاصة ؟ مثل إزال القرآن . فيجوز أن يكون له جهات كثيرة .

وقد روى أنه كان لجبريل ستمائة جناح . انتهى .

وتسمى هذه السورة سورة (فاطر) لذكر هذا الاسم الجليل والذمت الجليل في طليعتها . وهذه السورة ختام السور المفتحة بالحمد ، التي فصلت فيها النعم الأربع ، التي هي مجامع النعم . لأن نعم الله تعالى قسمان : عاجلة وآجلة . والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى . كما بينه الرازى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ

مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبتدئها ومبدعها من غير سبق مشل

« جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ » أى ذوى أجنحة

متعددة متفاوتة فى العدد ، حسب تفاوت ما لهم من المراتب . ينزلون بها ويعرجون

أو يسرعون بها . وفى الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة أسرى به ،

وله ستائة جناح . ولهذا قال سبحانه « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » أى يزيد فى خلق

الأجنحة وغيره ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحُ

اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ » أى نعمة سماوية كانت أو أرضية « فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » أى لا أحد

يقدر على إمساكها « وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ » أى من بعد إمساكه

« وَهُوَ الْعَزِيزُ » الغالب على كل ما يشاء « الْحَكِيمُ » أى فى أمره وصنعه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين

والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٦ ، عن ابن مسعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى إنعامه لتستدلوا بها على وحدته فى ألوهيته . لأنه المنفرد بإرسالها وحده . ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره ، لأنه كفران له موجب لغضبه . وهذا ما أشار له بقوله تعالى « هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى المطر والنبات « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ » أى تصرفون عن التوحيد الواجب - لأنه مقتضى شكر النعم - إلى الشرك والكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » فيجازى المكذب وشيعته بالخزى وظهور الحق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم فى الاتباع . وبالعقاب ، إن عصيتم « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها ، عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أى الشيطان . وقرئ بالضم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى باتباع الهوى والركون إلى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ إِيمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

[٨] (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)
« الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ إِيمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » أى : فمن حسن له عمله السيئ ، بأن غلب هواه على عقله ، حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقا والقيبح حسنا ، كمن لم يزين له ، بل هدى فعرى الحق وميز الحسن من السيئ ؟ فخذف الجواب لدلالة قوله :

« فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى إلى الإيمان واتباع الحق . وجوز أن يكون تقديره : أفمن زين له سوء عمله ، ذهبت نفسك عليهم حسرة ، بقوله تعالى « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ » أى فلا تهلك نفسك حزنا على ضلالهم وعدم اتباعهم لك « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى فيجازيهم عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ)

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ » أى مثل إحياء الموات ، إحياء الأموات . وكثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، ليعتبر المرتاب في هذا . فإنه من أظهر الآيات وأوضحها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ » أى الشرف والرفعة « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » أى فليطلبها من عنده ، باتباع شريعته ، وموالاته أنبيائه ورسله ، والتأسي بهم في الصلاح والإصلاح ، والصبر والثبات ، واطراح كل ملامة رغبة في الحق وعملا بالصدق . وهذا كآية ^(١) (الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وكآية ^(٢) (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » وهو الداعي إلى الحق والإصلاح ، والنبيه على سبيل الضلال والفساد « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » أى يرفع السكّم العمل الصالح ، على أن يكون المستكن للكلم . إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر في إبلاغ دعوة الخير . والضمير المستتر للعمل ، والبارز للكلم . أى يكون العمل

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٨] .

الصالح موجبا لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها ، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام (وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ) وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ « أى الأعمال السيئة الفسدة لصلاح الأمة وقيام عمرانها لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ » أى يضمحل . لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» أى ذكرانا وإناثا ، لطفا منه ورحة « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَّعْمَرٍ » أى من أحد . وإنا سمي معمرا لما يؤول إليه . أى وما يمدّ فى عمر أحد «وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ» وهو علمه تعالى الذى سبق ، يبلوغ أصله إليه « إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » أى : الحفظ والزيادة أو النقص ، سهل . لشمول علمه وعموم قدرته .

لطيفة :

الضمير فى (عمره) للمعمر قبله . باعتبار الأصل المحوّل عنه . لأن الأصل (وما يعمر من أحد) كما ذكرنا . أو هو على التسامح المعروف فيه ، ثقة فى تأويله بأفهام السامعين : كقولهم (له على درهم ونصفه) أى نصف درهم آخر . أو للمفقوص من عمره لا للمعمر ، كما فى الوجه السابق . وهو وإن لم يصرح به فى حكم المذكور ، كما قيل (وبضدها تبين الأشياء) فيعمود

الضمير على ما علم من السياق . وقد أطلال بعضهم الكلام في ذلك . ومحصله ، كما ذكره الشهاب ، أنه اختلف في معنى (مُعَمَّرٌ) فقيل : المزداد عمره . بدليل ما يقابله من قوله (يُنْقَصُ) الخ . وقيل (من يجعل له عمر) . وهل هو واحد أو شخصان ؟ فعلى الثانى هو شخص واحد . قالوا مثلاً : يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا . فكتابة الأصل هى التعمير . والكتابة بعد ذلك هو النقص . كما قيل :

حياتك أنفاسٌ تعدُّ فكلماً مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءاً

والضمير فى (عمره) حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمّر هو الذى جعل الله له عمراً طال أو قصر . وعلى القول الأول هو شخصان . والمعمّر الذى يزيد فى عمره . والضمير حينئذ راجع إلى (معمر آخر) إذ لا يكون الزيد من عمره مذقوصاً من عمره . وهذا قول القراء وبعض النحويين . وهو استخدام أو شبيه به . انتهى .

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أَجَاجٌ ، وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ،

وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة « سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ

هَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ » أى قوى الملوحة « وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا » يعنى السمك

« وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » أى زينة تتحلّون بها . كما قال تعالى ^(١) (يَخْرُجُ مِنْهَا

الْأَوْثُلُ وَالْعَرَجَانُ) . « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ » أى تمخر الماء وتشقه بجريها

« لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالنقل فيها « وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ » .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

« يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » يعنى مدة دوره ، أو منتهاه ، أو يوم القيامة « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » أى فأتى يستأهلون العبادة . و (القطمير) لفافة النواة . وهو مثل فى القلة والحقارة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

« إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ » لأنهم جاد « وَلَوْ سَمِعُوا » أى على الفرض « مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ » أى لعدم قدرتهم على النفع « وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ » أى يقرون بطلانه ، وأن لا أمر لهم فيه « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » أى لا يخبرك بالامر خبر ، مثل خبير عظيم أخبرك به . وهو الحق سبحانه . فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر الخبيرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى ما يدعون لهم من الإلهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ » أى رحمته وعنايته ولطفه وإمداده فى كل

لمحة ونفس . وسرُ وصل الآية بما قبلها من التهمك بالأنداد ، لتذكيرهم بالالتجاء إليه تعالى ، والتضرع والابتهال إذا مسهم الضر وأخذت البأساء بخنائقهم . فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعا إلى سؤاله لا مرد له . وحائثا إلى اللجأ إليه لا صَاد عنه . كما بين في غير آية . مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة ، لغناه المطلق ، كما قال « وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » أى المحمود لنعمه التى لا تحصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[١٧] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » أى بممتنع . قال الزمخشري : وهذا غضب عليهم ، لاتخاذهم له أندادا ، وكفرهم بآيه ، ومعاصيهم . كما قال ^(١) (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ

شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لاتحمل نفس آثمة « وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى إثم نفس

أخرى ، بل إنما تحمل وزرها الذى افترقه ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس . كما تأخذ جبارة

الدنيا الولى بالولى والجار بالجار ، ولا يرد آية ^(٢) (وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَّعَ أُنْقَالِهِمْ)

لأنها فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أنقال إضلال الناس مع أنقال ضلالهم . وذلك كله

أوزارهم ، ما فيها شيء من وزر غيرهم .

(١) [٤٧ / محمد / ٣٨] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

« وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ نَفْسٍ أُثْقَلَتِهَا الْأَوْزَارُ «إِلَىٰ حِمْلِهَا» أَىٰ إِلَىٰ حَمْلِ بَعْضِ أَوْزَارِهَا لِيُخَفَّفَ عَنْهَا «لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ» أَىٰ لَمْ تَجِبْ وَلَمْ تُغْتَبِ بِحَمْلِ شَيْءٍ «وَلَوْ كَانَ» أَىٰ الْمَدْعُوُّ الْمَفْهُومُ مِنَ الدَّعْوَةِ «ذَا قُرْبَىٰ» أَىٰ ذَا قَرَابَةٍ مِنَ الدَّاعِي ، مِنْ أَبٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ أَخٍ . وَهَذَا قَطْعٌ لِأَطَاعِ انْتِفَاعِهِمْ بِقَرَابَتِهِمْ وَغَنَائِهِمْ عَنْهُمْ . وَأَنَّهُ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ . ثُمَّ بَيَّنَّ مِنْ يَتَعَطَّى وَيَتَذَكَّرُ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ» أَىٰ تَطَهَّرَ مِنْ أَوْضَارِ الْأَوْزَارِ «فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ» وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ)

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ» مثل للكافر والمؤمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

«وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ» مثل للحق والباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ)

«وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ» مثل للثواب والعقاب و (الْحَرُّ) الرِّيحُ الحَارَّةُ بِاللَّيْلِ ، وَقَدْ تَكُونُ بِالنَّهَارِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ،

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أى: ما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيهه ، وأموات القلوب. لغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال «إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ» أى يوفقه لفهم آياته والالتماظ بعباطه «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى: كما لا يقدر أن يسمع من فى القبور كتاب الله ، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه ، مَنْ كان ميت القلب عن معرفة الله وفهم كتابه وواضح حججه. وهذا ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه عليه الصلاة والسلام، من إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)

«إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر. فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع . وإن كان من المصرين فلا عليك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» أى وما من أمة من الأمم الدائنة ببله ، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله ، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى ^(١) (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وكقوله سبحانه ^(٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ).

(١) [١٣ / الرعد / ٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ وَإِلِكْتُبِ الْمُنِيرِ)

«وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ»
وَإِلِكْتُبِ الْمُنِيرِ «أى : وإن يكذبوك لم يستجيبيوا لك ، فلا تبال بهم وتأس بمن كذب من الرسل السالفة . فقد جاءوهم بالآيات والحوارق المحسوسة على صحة نبوتهم ، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح ، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله ، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق . وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع ماذكر ، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب ، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا . وجوز أن يراد بالجميع واحد ، والعطف لتغاير الأوصاف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

«ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى إنكارى بالعقوبة . وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ»
قرأ الجمهور (جود) بضم الجيم وفتح الدال ، جمع (جدة) بالضم ، وهى الطريقة من (جده) إذا قطعه ، أى ومن الجبال

ذو وجدد ، أى طرائق بيض و حمر . وإنما قدر المضاف ، لأن الجبال ليست نفس الطرائق .
(و غرايب) جمع (غريب) وهو الأسود المتناهى فى السواد . يقال : أسود غريب ، كما يقال :
أحمر قان ، وأصفر فاقع ، تأكيذا . وإنما قدم هنا ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة
ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير ، ذهابا إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

« وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ » أى اختلافاً كذلك ،
أى كاختلاف الثمرات والجبال . وقوله تعالى « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » تكملة
لقوله تعالى^(١) (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) بتعيين من يخشاه عز وجل من
الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم . أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق
التمثيل . وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح ، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق
بها من البيان . أى إنما يخشاه تعالى بالغيب ، العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته
الجليلة وأفعاله الجميلة . لما أن مدار الخشية معرفة الخشى والعلم بشؤونه . فمن كان أعلم به تعالى ،
كان أخشى منه عز وجل . كما قال^(٢) عليه الصلاة والسلام : أنا أخشاكم لله وأتقاكم له . ولذلك
عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته . وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة ، امتنع
إنذارهم بالكيفية . أفاده أبو السعود .

وقال القاشانى : أى ما يخشى الله إلا العلماء العرفاء به . لأن الخشية ليست هى خوف
العقاب ، بل هيئة فى القلب خشوعية انكسارية عند تصور وصف العظمة واستحضاره لها .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٨] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ،

١ - باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ عن أنس بن مالك ، قطعه من حديث طويل .

فمن لم يتصور عظمته لم يمكنه خشيته . ومن تجلى الله له بعظمته ، خشيته حق خشيته . وبين الحضور التصوري الحاصل للعالم غير العارف، وبين التجلي الثابت للعالم العارف - بون بعيد . ومراتب الخشية لا تحصى بحسب مراتب العلم والعرفان . انتهى .
ويذكر بعض المفسرين هنا القراءة الشاذة . رفع الاسم الجميل ونصب العلماء . ويتأولون الخشية بالتعظيم استعارة . وربما استشهدوا بقوله :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةً عَلَى وَلَكِنْ مِلَّةٌ عَيْنٍ حَبِيبَهَا

وقد طعن في (النشر) في هذه القراءة . والحق له . لمناقضتها للسياق والسباق . وما أغنى المفتحين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ ! وبالله التوفيق .
« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأُتاب وعمل صالحا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ » أي يداومون على تلاوته وتدبره ، للأخذ بما فيه « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ » أي أجراً وفضلاً لا يفنى ، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة . والبوار بمعنى الكساد والهلاك نرشيح للاستعارة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

« لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ » إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » أي لأعمالهم . والشكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان .

القول فی تاویل قوله تعالى :

[۳۱] (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ،
إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[۳۲] (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ)

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » ای : ثم ،
بعد أخذ الذين كفروا ، أورثنا الكتاب الذي هو أعظم فضل وعناية ورحمة ، المصطفين
من الموحدين . ثم بين انقسامهم في العمل به إلى ثلاثة ، بقوله تعالى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِ » ای بالإثم والعصيان « وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ » ای في العمل ، ليس من المجرمين
ولا من السابقين « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

القول فی تاویل قوله تعالى :

[۳۳] (جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُمَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ،
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[۳۴] (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)
« جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُمَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

« الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ » أى الإقامة « مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » أى كلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)

[٣٧] (وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » أى : أو ما عشتُم فى الدنيا أعمارا ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر ؟ قال قتادة : اعلّموا أن طول العمر حجة . فتعوذ بالله أن تغتر بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
 [٣٩] (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا)

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ » أى مستخلفين فيها . أباح لكم منافعتها لتشكروه بالتوحيد والطاعة « فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا » أى بغضاً شديداً « وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ، مِّنْهُ بَلْ إِنِ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا)

« قُلْ » أى تسكيتاً لهم « أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى شركه في خلقها « أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ » أى حجة وبرهان ، بأنه أذن لهم في الإشرak « بَلْ إِنِ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا » أى في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّ اللَّهَ يُخْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

[٤٢] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ

إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٣] (أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ

إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)

« إِنَّ اللَّهَ يُخْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا » أَيْ

مَا أَمْسَكُهُمَا « مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ

مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ

إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ » يعنى إزال العذاب على الذين كذبوا

برسلهم من الأمم قبلهم « فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »

وفى معنى الآية قوله تعالى (١) « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا

وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ

مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ

اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) وقوله تعالى (٢) « وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ

الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٦ و ١٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٦٧ - ١٧٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

[٤٥] (وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ الْفَاسَ بِمَا كَسَبُوا » أى بما اقترفوا من معاصيهم « مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى من نسمة تدب ، لشؤم معاصيهم . والضمير للأرض لسبق ذكرها . « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » أى فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب ، وبمن يستوجب السكينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦ - سُورَةُ يَسٍ

هي مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى^(١) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ) الآية لما أخرجه الترمذي^(٢) والحاكم عن أبي سعيد قال : كانت بنو سامة في ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها . لأن ذلك مبنى على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مراراً . لاسيما في المقدمة . يؤيده أنه جاء في هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما في رواية الصحيحين^(٣) . وهكذا يقال فيما روى أن آية^(٤) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) من هذه السورة نزلت في المنافقين . فإن المراد ما ذكرناه . ولم يهتم لهذا التحقيق أرباب الحواشي هنا ، فاحفظه . وآيها ثلاث وثمانون آية . ومما روى في فضلها ما أخرجه^(٥) الترمذي عن أنس رفعه : إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، وفي إسناده ضعف.

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٦ - سورة يس ، ١ - حدثنا محمد بن وزير الواسطي

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٣ - باب احتساب الآثار ، حديث

٤١٥ ، عن أنس ، وليس في مسلم .

(٤) [٣٦ / يس / ٣٧] .

(٥) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٧ - باب ما جاء في فضل يس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْ)

« يَس » تقدم الكلام في مثل هذه الفوائخ مرارا . وحاصله - كما قاله أبو السعود - أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا محذوف ، وعليهما مدار قراءة (يَس) بالرفع والنصب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)

« وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُورِثَتْ فى القَسَمِ به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٤] (عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطلوب بدون انوب . والتنكير للتفخيم والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

« تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمحذوف . أو خبر لـ (يس) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولاً بها . والجملة القسمية معترضة . والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

« لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَافِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا . وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ » أى اللحي . أى واصله إليها وملزومة إليها « فَهُمْ مُقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاصو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقمح الغل الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغل الذى يمتخس ذقنه ، أن يطأطأ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) كناية عن الأيدي لاعن الأعناق . لأن النمل يجعل اليد تلي الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهري : أراد عز وجل أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعداً ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل في العنق ، عن ذكر اليدين وإن كانتا امرأتين ، لما دل السياق عليه . فإن النمل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الرغشري : مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى إرعائهم ، بأن جعلهم كالمفلولين المقمحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يمطفون أعناقهم نحوه ، ولا يبطأئون رؤوسهم له . وكالحاصلين بين سدين . لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم ، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله . انتهى . أي فالمجموع استعارة تمثيلية . وفي (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبهاً بالإقحاح . لأن المقمح لا يبطأ رأسه . وقوله (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) تنمة للزوم الإقحاح لهم . وكان عدم الفسك في القرون الخالية مشبهاً بسد من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقبلية مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء في (فهم مقمحون) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبب . ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في النمل يوجب الإقحاح . فإن اليد ، والعياذ بالله ، تبقى ممسكة بالنمل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من إوطائها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير . فإن

اليدين متى كانت مرسلة بخلافة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . ولعله يتحجّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبهاً بقلّ الأيدي . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ما قبله وما بعده في ذكر أحوالهم في الدنيا . وجعله أبوحيان لبيان أحوالهم في الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجنبياً في البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله ^(١) (حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ » أي خوفهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أي لا يريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبي جهل وأصحابه من كفره قریش ، الذين هلكوا في بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت في ذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ

وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أي الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ » أي عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أي لذنوبه في الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أي ثواب حسن في الجفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ » أى للبعث « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا » أى نحفظ عليهم ما سلفوا من الخير والشر « وَآثَرَهُمْ » أى ما تركوه من سنة صالحة ، فعمل بها بعد موتهم . أوسفة سيئة فعمل بها بعدهم « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلّى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

« وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى مثل لأهل مكة مثلاً « أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ » أى اذكر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحاب القرية « إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ)

« إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أى فقويناها برسالة ثالث « فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُوا مَا أَتَيْتُمُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِن أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

[١٦] (قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

[١٧] (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

«قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ*
قَالُوا رَبَّنَا يَمْكُمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله
ظاهراً بَيِّنًا لاسترة فيه ، وقد خرجنا من عهده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» أى تشاء منا بكم . فكان إذا حدث فى البلد ما يسيء من حريق
أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم . وعادة الجاهل أن
يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طباعهم . ويتشاءموا بما نفروا عنه
وكرهوه . فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا بركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط^(١)
(وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ) وعن مشركى مكة^(٢) (وَإِنْ تُصِيبَهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) أفاده الزخشرى « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا » أى عن دعوتكم
إلى التوحيد « لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ ، إِنْ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ)

«قَالُوا» أى الرسل «طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ» أى سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والمعاصى «إِنْ
ذُكِّرْتُمْ» أى وعظمت بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقة بدلالة ما قبله عليه .
أى تطيبرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ » أى فى الشؤم والعدوان .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] . (٢) [٤ / النساء / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

« وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسول .
« قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » أى جُملاً ولا مالاً على الإيمان « وَهُمْ مُهْتَدُونَ »
أى فى أنفسهم بالسكالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتَأَسَّى بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » أى خلقنى . وهذا تلطف فى الإرشاد بإرادته
فى معرض المناصحة لنفسه ، وإحاطض النصيح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه .
والمراد تقريرهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبئ عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »
أى بعد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ)

« أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً » أى فأضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة
بحيث « إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ » أى من ذلك
الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تمهيق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٢٥] (إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ)

« إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ » أى فاسمعوا إيمانى واشهدوا به . قال السمين : الجمهور على كسر النون . وهى نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة . مجتزئ عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

« قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ » أى ليقبلوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ)

« وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ » أى من بعد موته بالشهادة « مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ » أى لإهلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » قال الرازى : إشارة إلى هلاكهم بعده سرىعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها « فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ » ميتون كالنار الخامدة . رمزاً إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، واليت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ
يَحْجُورُ رماداً بعد إذْ هو ساطِعُ

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى عليه السلام . كما نص عليه قتادة وغيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخري المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها - أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ولو كان هؤلاء من الحواريين ، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم . وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح . ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائى فيهن بطارقة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها . والإسكندرية لأن فيها اصطالحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والراهبين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابنتى القسطنطينية نقلوا البطريرك من

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالُحُ وَتَبَقَّى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

يحجور : يرجع ويتغير . وكل شئ تغير من حال إلى حال ، فقد حار (الشعر والشعراء ص ٢٣٦)

رومية إليها - كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريتهم - كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين - فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكتهم بصيحة واحدة أخذتهم .

الثالث - أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة ، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم . بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكره عند قوله تعالى ^(١) (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة في القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة - مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصاً على الثمرة من أول الأمر ، واقتصاراً على موضع الفائدة ، وبعداً عن مشرب القصص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . وما من حاجة إلى تسمية تلك البهائم كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يَرَوْنَ فيما يَرَوْنَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهمات . حتى جمل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأي طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بني إسرائيل . إلا أنه يؤخذ من يجزم بتعيين مبهم ما ، إن كان جزمه من غير طريق القواطع .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٣] .

فإن القاطع هو متواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لا مغزى فيها. وهذا مقفود في الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفاً ومنقطعاً، وفي بعض إسناده متهمون. ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لا يخرج له منه. فالمرس أحسن أحواله أن يعيش مع التنزيل، إجمالاً فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله. ولا يأخذ من إيضاح مبهمات إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح. وإلا فيعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك، بل عن تشويهها. والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب، وموافقة من في طبقتهما لهما فيه. هذا أولاً، وثانياً شهرة بلدة أنطاكية في ذلك العهد، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحده رسل عيسى عليه السلام. ثالثاً ما جرى في أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبي عبادة الأوثان بالقتل. وكان في مقدمة الآيين رجل مقدم في المؤمنين. فأراد على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد. فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش: فألقى في رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه. ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة في سبيل الله. وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين في عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع. فهدده بأن يضر به من الرأس إلى القدم. فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية. ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفيقه. والشواهد في هذا الباب لا تحصى. معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب في تواريخ مبدأ ظهور الأديان، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه. فللقصة الكريمة هذه مصداقات لا تحصى. رابعاً شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام، وكانوا انبثوا في البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبرياء والشرور التي كانت عليها دولة الرومان وقتئذ. هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة محتاج إلى قاطع. وإلا، فقد خربت كثير من البلاد الأئيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها. والصيحة

أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية . وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم ، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم . وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفيننا من النبأ الاعتبار به وفهمه مجملا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما ، فهو الذى ينشأ منه ما ينشأ . وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار ، وتخصيص ما لا قاطع عليه .

الثانى - ذكر الرازى فى قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا) لطيفة ، إن صح أن الرسل المنوّه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تنتم التسليمية للنبي صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث - فى قوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَحْشُرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

«يَحْشُرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» أى يندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخرتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبقى حسيرا . وهو لا يلبق به تعالى . فيجمل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، يا حسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى ^(١) (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنائهم . أى عذها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)
« أَلَمْ يَرَوْا » أى يخبروا « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » أى من الأمم الخالية
« أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« وَإِنْ كُلٌّ » أى من هؤلاء المتفرقين « لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن (كل) بجمع ومعناها واحد ، لأن (كلا) تفيد الإحاطة حتى لا ينفات عنهم أحد . و (جميع) تفيد الاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا (لكل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ)

[٣٤] (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)

[٣٥] (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَآيَةٌ لَهُمُ » أى عبرة لأهل مكة عظيمة « الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا » أى بالنبات

(١) [٣٧ / الصافات / ١٢] .

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مَنِ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى : وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوها ، على ما استظهره القاضى . وقال الزمخشري : أى عملته بالفرس والسقي والآبار . قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا بلذة ثمره العمل وسرور النفس بعمده . وفى الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام ^(١) أحمد عن أبى بردة . وجوز أن تكون (ما) نافية ، والمعنى : أن الثمر يخلق الله لا بفعلهم « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى خلق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

« سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ » يعنى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

« وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » بيان لقدرته تعالى فى الزمان ، إثر ما بيته فى السكان . أى نزله ونكشفه عن مكانه . استعير لإزالة الضوء ، السلخ الذى هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ . وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل ، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

منه قبل المسلوخ ، الذى هو كالغطاء الطارىء على المغطى . قال الشهاب : لان الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى (مظهون) داخلون فى الظلام . يقال (أظلمنا) كما يقال : أعتمنا وأدجينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أى لحد لها مؤقت مقدر ينتهى إليه دورها اليومى أو السنوى . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه فى حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند حراب العالم . ومستقر ، عليه ، اسم زمان « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » أى ذلك الجرى المتضمن للحكم والمصالح والمنافع ، والمدھش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال ، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علما بكل معلوم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

« وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ » أى صيرنا له منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » أى حتى إذا كان فى آخر منازلها ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العنقود الذى عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم : العتيق ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فطمس نوره « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه . أو المراد بالليل والنهار آياتها . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقيان بمقتضى تدبيره تعالى ، وعليه فسر إثبات (سابق) على (مدرك) كما قبله ، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر . إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلحها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل ، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه لا يقال (أدرك السابق لللاحق) ولكن (أدرك اللاحق السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفى . فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفى بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نفى إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتناهى عن مقتضى قوله (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلاً عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن النفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما ، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله ^(١) (هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي) فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى ^(٢) (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ) فمكانه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين سبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية . فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً ، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ، ولا يبلغ به عدم سبق . ويكون القول بتقديم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالساج في الماء . وتقدم لنا في سورة الأنبياء ، مقاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية . فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ » أى حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

في تجارتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبتة لقوله قبله (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذكر (المشحون) أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد، وتعريفه للعهد. والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لماسم الطوفان، ونجوا مع نوح في السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير. وآثر البعض الوجه الأول، لأن الثاني محتاج للتأويل. وأرى جدارة الثاني بالإثبات لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ما وجد له سبيل. لأنه أقرب وأسد. وقد جاء نظيره آية (٢) (إِنَّا لَمَّا طَفَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) وإن ورد في نظير الأول آية (٢) (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وأشباهها، إلا أن لفظ الحمل אחד في الآيتين، فقارب ما بينهما.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ » أى مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أى من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برّ والسراب بحارها) أو ما يركبون، أى من السفن والزوارق على الوجه الثاني. وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ)

« وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ » أى لا مغيث لهم، أولاً مستغيث منهم، أولاً استغاثة. وذلك لأن الصريح يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ. ومصدره الثلاثي

كالصراخ ، يتجوزبه عن الإغاثة ، لأن المغيث يفادى من يستغيث به ويصرخ له ، ويقول . جاءك
العون والنصر . أنشد المبرد^(١) في أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَزَعُ كان الصراخُ له قَرَعَ الظَّنَّابِيبِ
أى إذا أنا مستغيث ، كانت إغاثته الجد في نصرته .
« وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لكن رحمتهم ومتعتهم إلى زمن قدر لهم ،
يموتون فيه بعد النجاة من موت الفرق . ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله^(٢) :
وَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَىٰ وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحَمَامِ إِلَىٰ الْحَمَامِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الحالية فى الأمم المكذبة
للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المدة فى الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

(١) قائله سلامة بن جندل السمدى . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية

والعشرين ، التى مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ أودى ذلك شأؤُ غيرِ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

مُلُومِكُمَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ ووقعُ فعالِهِ فوقَ الكلامِ

قالها لما نالته بمصر حمى . فقال يصفها ويمرض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى باتقائكم وشكركم .
وجواب (إِذَا) محذوف دل عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ » أى الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالكذيب والصدّة عن الإيمان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُوْا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)
« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى تصدقوا على الفقراء من مال الله الذى آتاكم « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُوْا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا ، إما تهكم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون (إِنْ أَنتُمْ) جواباً من الله لهم ، أو حكاية لجواب المؤمنين . وفى هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، فى اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ ساعه الله فى كتاب (البخلاء) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » يعنون وعد البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

« مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبتغىهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و (يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصاد على الأصل ، وأصله (يختصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يوصوا فى شىء من أمورهم توصية « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرّون على الرجوع إلى أهلهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » أى يعدّون مسرعين . كما فى قوله تعالى ^(١) (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعًا) ولا منافاة بين هذا وما فى آية ^(٢) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(١) [٧٠ / المعارج / ٤٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالِيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٥] (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ)

« قَالِيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير (شُغْلٍ) تعظيم ما هم فيه وتفخيمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكِثُونَ)

[٥٧] (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ)

« هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى الْأَرْأْيِكِ » أى الشرُّ الزينة « مُتَكِبُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَلَكَهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ »
أى يطلبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ)

« سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولا كائنا منه تعالى .
فيكون (سَلَّمَ) مبتدأ محذوف الخبر . أو هو بدل من (مَا) أو خبر محذوف ، أى : هو
سلام . أو مبتدأ خبره الفاصِل (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولا . أو مبتدأ وخبره (مِّن
رَّبِّ) و (قَوْلًا) مصدر مؤكّد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر .
والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله ^(١) (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُو سَلَامٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَأُمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

« وَأُمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى ^(٢)
(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) وقوله ^(٣) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ) ^(٤) (يَوْمَئِذٍ
يَصْدَعُونَ) أى يصيرون صدعين فرقتين ^(٥) (أُخْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ
وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٨] .

(٣) [٣٠ / الروم / ١٤] . (٤) [٣٠ / الروم / ٤٣] .

(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »
تقريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ، كما قاله القاشانى . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الأمر بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَأَنِ اعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

« وَأَنِ اعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى : وأن أفردونى بالعبادة فإنه السبيل السوى . وفى تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ فى استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه . وأصل المرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للمعظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى الشيطان وأغوى بالشرك « مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى خلقنا كثيرا قبلكم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » أى من أولى العقل . إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

[٦٤] (أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى عندما يجحدون ما جرموه فى الدنيا ، ويحافون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازى : وفى الختم على الأفواه وجوه . أفواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركها ، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشيء ، لا تقطاع أعضائهم وانتهاك أستارهم . فيقفون ناكس الرأس وقوف القنوط اليئوس ، لا يجد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسمع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدي والأبصار . كما يقول القائل (الحيطان تبكى على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالة . فلا تتمتع الحقيقة . ويؤيده آية ^(١) (وَقَالُوا لِيَجْزِيَهمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) .

ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمه في الفونغراف ، مستشهداً به في ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ	على نطق الجوارح والجماد
وفيه لكل ذى نظره مثالٌ	على بدء الخليفة والمعاد
يدبر شئونه فرد بصورٍ	به الأصوات تجرى كالمداد
فيثبت رسمها قلم بلوح	على وفق الشئنة والمراد
وبعد فراغها تمضي كبرق	ولا أثر لها في الكون بادى
تظن بأنها ذهبت جفاء	كما ذهبت بريح قوم عاد
وأحلى رنّها فيه لتبقى	كأرواح تجرد عن مواد
متى شاء المدير لها معاداً	ورام ظهورها في كل ناد
يدبر الصور بالآلات قسراً	فينشر ميتها بعد الرقاد
وهذى آلة من صنع عبدٍ	فكيف بصنع خلاق العباد ؟
تبارك من يعيد الخلق طراً	بنفخة صورهِ يوم التناد

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق السلوك لهم لم يقدرُوا ، لعناهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ » أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم « عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى مكانهم « فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرُون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن

تسكذبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ماعهد إليهم ، أحقاً بأن يفعل بهم ذلك . لكننا لم نفعل لشمول الرحمة ، واقتضاء الحكمة إمامهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » أى بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، كما قال عز وجل^(١) (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (ثم رَدَدَهُ نُهْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)^(٢) « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ)

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر ، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى وما يصح لمقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسأى عن الشعر وقرضه . لما يرى به الشعراء كثيراً من الكذب والمين ومجافة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ » أى كتاب سماوى بين أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجه ما .

(١) [٢٢ / الحج / ٥] . (٢) [٩٥ / التين / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » أى عافلا متأملا ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقُّ الْقَوْلُ » أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا . « أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ » أى متصرفون فيها تصرف الملاك . أو ضابطون قاهرون لها كما قال (١) :

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ راسَ البعيرِ إنْ نفَرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صيّرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى مركوبهم « وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى يفتقمون بأكل لحمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » أى من الجلود والأصواف والأوبار « وَمَشَارِبُ » أى من ألبانها « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا النعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزارى . من قصيدته التى أولها :

أَفْقَرَ مِنْ مَيَّةِ الْجَرِيبِ إِلَى الـ زُجَّيْنِ إِلَّا الطَّبَاءُ وَالْبَقَرَا

انظر ص ١٥٨ من (نواجر أبى زيد)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ)

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ» أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ)

«لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ» أى لآلهمهم «جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ» أى مُعَدُّون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وَجَعَلَهُمْ - على هذا - جنداً ، تهكم واستهزاء . وكذا لام (لَهُمْ) الدالة على النفع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

«فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوه الكافر ، مقتضى لمجازاته وانتقامه . وتقدير السرّ ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملاك الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

«أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ» أى جدل بالباطل

بين الجدال ، وهذه تسليية ثانية ، بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهي قوله (فَلَا يَحْزُنُكَ) الآية ، عنايةً بشأنه صلوات الله عليه .
قال الطيبي : هذا معطوف على (أولم يروا) قبله . والجامع ابتناء كل منهما على التعميس .
فإنه خالق له ماخلق ليشكر ، فكفر وجحد النعم والمنعم . وخلقه من نطفة قدرة ليسكون منقاداً متذلاً ، فطغى وتكبر وخاصم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ)
« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أى فى استبعاد البعث وإنكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » أى خلقنا إياه
« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أى بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد .
وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات . أو مشتق ، فعيل
بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، ألحق بالأسماء فلم يؤنث . أو بمعنى
مفعول . من (رمه) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من (رمت الإبل الحشيش) فكأن
ما بلى أكلته الأرض . وقال الأزهري : إن (عظاما) لكونه بوزن المفرد، ككتاب وقراب،
عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .
قال الشهاب : وهو غريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)
« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين .
وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أى فلا يتمتع عليه جمع الأجزاء
بعد تفرقها ، لعله بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ» أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً فأثمر وبيع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد. لا يمنعه شيء. قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار (من شجر البادية) فى أرض الحجاز. فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما. والعفار الزند وهو الأعلى. والمرخ الزند وهو الأسفل. بمنزلة الذكر والأنثى. وعكس الجوهرى فجعل المخ ذكرًا والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر^(١):

إذا المَرخُ لم يُورِ تحت العَفَّارِ وضُنَّ بِقَدْرِ فلم تُعْقَبِ

وقال أبو زياد: ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المَرخ. وربما كان المَرخ مجتمعاً ملتفًا، وهبت الريح، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادى. ولم تر ذلك فى سائر الشجر. وقال الأزهري: العرب تضرب بالمَرخ والعفار، المثل فى الشرف العالى. فتقول: (فى كل شجر نار. واستمجد المَرخ والعفار) أى كثرت فيهما على ما فى سائر الشجر. و (استمجد) استكثر واستفضل. وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً. وزنادها أسرع الزناد ورماً. وفى المثل: اقدح بعفار أو مرخ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ. ويقال (فى كل شجر نار إلا العُتَّاب).

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت).

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :
أيا شجر العُنب نارك أوقدت بقلبي . وما العُنب من شجر النار
انتهى .

والقصد أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذى به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية .
لأن الذى يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهى حارة يابسة بالفعل ، مع ما فى الشجر
من المائية المضادة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غصّاً ، تطراً عليه اليبوسة
والبلل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ،
بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى فى الصغر والضعف ثانياً ، بعد ما خلقهم أولاً « بَلَىٰ » أى هو القادر
« وَهُوَ الْخَلَّاقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « الْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنَّمَا أَمْرُهُ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذْ أَرَادَ شَيْئًا » أى إذا تعلقت إرادته
بإيجاد شيء « أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » تنزيه له عما وصفه به المشركون ،

وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا . وهو مالك كل شيء ، والمتصرف فيه بلا وازع ولا منازع .
« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت
وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام ، والملكوت هو عالم الأرواح .
والصحيح الأول . وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .
ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو
العليم العلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧ - سورة الصافات

سميت بها لاشتغال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلهية الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفي بذلك إلهية مادونهم ، فيدل على توحيد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهابي .

وهي مكية اتفاقا ، وآيها مائة واثنان وثمانون . روى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمنا بالصافات . قال ابن كثير : تفرّد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)

[٢] (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا)

[٣] (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

[٤] (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ)

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ »

افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها . وتنبها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها . و (الصافات) جمع صافة ، أى طائفة صافة ، أو جماعة صافة . فيكون فى المعنى جمع الجمع . أو على تأنيث مفردة باعتبار أنه ذات ونفس ، والمراد بالصافات الملائكة . لقيامها مصطفة فى مقام العبودية لملك الملك . من قوله تعالى (١) (وَإِنَّا لَنَذَحْنُ أَلصَّافُونَ) أو لصفها أجنحتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى . و (الزاجرات) أى : الناس عن المعاصى ، بإلهام الخير . من (الزجر) بمعنى المنع والنهى . أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من (الزجر) بمعنى السوق والحث . و (التاليات) أى : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى (٢) (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) و (الزاجرات) ، كل ما زجر عن معاصى الله . و (التاليات) كل من تلا كتاب الله . أو هم العلماء الصافون فى العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه . أو هم الغزاة الصافون فى الجهاد ، والزاجرون الخيل أو العدو ، التالون لذكر الله ، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدو . وقد ذكر

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٥] . (٢) [٢٤ / النور / ٤١] .

غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجمله ، فالمعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثارُ الفاء على (الواو) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكساً . أما الأول فاعتناء بالأهم فالأهم . وأما الثاني فالترقي إلى الأعلى . و (صفا) و (زجراً) مصدر مؤكد . وكذا (ذكرراً) ويجوز فيه كونه مفعولاً به . قال الناصر : وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيويه والخليل في مثل ^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف . وغيرها يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقع الفاء في هذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد . إلا أن ما تزیده الفاء من ترتيبها ، دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق ، للمعطف لا للقسم . انتهى .

وقوله تعالى (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) جواب للقسم . وفي تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذي هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ » فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأعدل شواهد وحدته . أى مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومرتبتها ومبلغها إلى كمالاتها . والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجدها كل يوم . فإنها ثلاث مائة وستون مشرقاً . تشرق كل يوم من مشرق منها . وبحسبها تختلف المغارب ، وتغرب كل يوم في مغرب منها . وأما قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباها . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)

« إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا » أى الجهة العليا القربى من كرة الأرض « بِزِينَةِ » أى عجيبة بديعة « الْكَوَاكِبِ » بالجر، بدل من (زينة) . وقرئ بالإضافة، على أنها إيمانية، أو على معنى ما زينت هى به، وهو ضوءها . والمراد الذين فى رأى العين . فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متألثة .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧] (وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ)

« وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ » أى خارج عن الطاعة، بقذفه بشمها، كما يتناول إلى استراق السمع من جهتها و (حفظاً) إما منصوب بإضمار فعله . أى حفظناها حفظاً . أو بعطفه على (زينة) من حيث المعنى . أى خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظاً . أو على المفعول لأجله بزيادة الواو . والعامل فيه (زينا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ)

« لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ » قرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله (يتسمعون) أى يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان . لأنه فى معنى الشياطين ، والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترققة للسمع من أنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ . أو هى علة للحفظ . أى لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم (أَنَّ) وأهدر عملها . وضعفه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منكر . كما ذكره فى قوله تعالى ^(١) (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا) أى لئلا

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] .

تضلوا ، وقد يقال : إنما ينسكرك حذف شيئين فيما يخلّ بالنسجام الكلام . أما في تقدير أمرٍ له نظائر ، ومرجهه إلى تحليل معنى ، لا ياباه اللفظ - فلا وجه للتعصب في رده ، لمجرد أن الكوفيين ، مثلاً ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها « وَيُقَدِّفُونَ » أى يرمون « مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » أى من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

« دُحُورًا » أى للدحور وهو الطرد « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » أى شديد غير منقطع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ)

« إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ » أى اختلس السكمة « فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ » أى لحقه شعلة نارية تنقض من السماء « ثَاقِبٌ » أى مضى . كأنه يشق الجو بضوئه .

تنبيه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء . فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب . فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب . فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم . قال ابن كثير : يعنى إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه . ولهذا قال جل جلاله (لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا الْمَلَأَ الْأَعْلَى) أى : لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحىه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره .

كما وردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى^(١) (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفه الأرواح الغيبية - حسبما تقدم بيانه في آية^(٢) (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف - فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح (الملك) ومنها الطالح (الشیطان) وكذلك أرضنا هذه. ففيها من الملائكة ومن الشياطين ما لا نبصره^(٣) (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. فعدم إدراكنا هذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها . كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات والكهرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم . فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه . على أن لنا الآن من مسألة استحضر الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض، لا نبصرها ولا نشعر بها . وقد قدر الله تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال . وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى، انقضت عليها، قبل أن تخرج من جو الأرض، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادتها . حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى . وهذه الشهب التي تنقض ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة . وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهب فيما بعد لشدة مرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جوتها هذا . ولعل في مادة الشياطين ما يجذب إليه هذه الشهب ويتحد بها . كما تجذب العناصر السكياوية

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٧] .

بعضها بعضاً) مثال ذلك عنصر الصوديوم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحمله) ولا نقول إن جميع الشهب تنقضى لهذا السبب، بل منها ما ينقضى لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له . ومنها ما ينقضى لإهلاك الشياطين، كما بينا هنا . والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة^(١) (وَالْجَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) والمراد (بالسماء الدنيا) في هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا . أي هذا الجو الذي نشاهده وفيه العوالم كلها . أما ما وراءه من الجواء البعيدة عنا ، التي لا يمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا ، فهو فضاء محض لا شيء فيه . فلفظ (السماء) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السمو . وتُفسرُ في كل مقام بحسبه .

ثم قال : فكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لا يوجد في العلم الطبيعي ما يكذبها . لأنه وحى الله حقاً ، والحق لا يناقضه الحق^(٢) (سَتُرِيهِمْ عَائِلَةً فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) اه . وقال أيضاً : يعتقد الآن علماء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذئاب . ويحتمل أن بعضها ناشئ من بعض الشمس المنحلة ، أو الباقية الملتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو ما لم ينطفي من السيارات للآن . ومتى علمنا أن ذوات الأذئاب والسيارات جميعا مشتقة من الشمس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشمس أو النجوم . (قال) : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اه كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٣) (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) وقوله عز وجل^(٤) (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَعَ

(١) [١٥ / الحجر / ٢٧] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٣) [٦٧ / الملك / ٥] . (٤) [١٥ / الحجر / ١٦-١٨] .

فَاتَّبِعْهُ وَشِهَابٌ مُبِينٌ) وقوله سبحانه إخباراً عن الجن^(١) (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا
مُلُكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا* وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ
لَهُ وَشِهَابًا رَصَدًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)
« فَاسْتَفْتِهِمْ » أى فاستخبر مشركى مكة « أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » أى أقوى خلقه وأمتن
بنية « أَمْ مَنْ خَلَقْنَا » أى من السموات والأرض والجبال . كقوله تعالى^(٢) (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ) الآية وقوله^(٣) (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) وفى
اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتساؤله عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد
هذا . كشأن البعث وغيره . وإليه الإشارة بقوله تعالى « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ »
أى لزج ضعيف لا قوة فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

« بَلْ عَجِبْتَ » أى من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه « وَيَسْخَرُونَ »
أى من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

« وَإِذَا ذُكِّرُوا » أى بما يؤيده ، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة « لَا يَذْكُرُونَ » أى
ما يقتضيه ؟ لتمنهم وعنادهم . أو لا يخافون ولا يتعظون .

(١) [٧٢ / الجن / ٩ و ٨] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٧] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا آيَةً » أى برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات فى أنفسهم أو فى الآفاق « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يبالغون فى السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَقَالُوا إِن هَذَا » أى ادعاء ما ذكر ، والاستدلال عليه والصدع بشأنه ، والقراع فيه « إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَءَظْمَأْنَا تَرَابًا وَعِظْمًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[١٧] (أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ)

[١٨] (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)

« أَءَظْمَأْنَا تَرَابًا وَعِظْمًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ » أى تبكيئاً لهم . « نَعَمْ » أى تبعثون « وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ » أى ذليلون ، لاجدل منكم يدفعه ولا قدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)

« فَإِنَّمَا هِيَ » أى البعثة « زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » أى صيحة واحدة « فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ » أى قيام من مراقبهم أحياء ، أولو قوة مدركة ، بها يبصرون . أو ينتظرون ما يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

« وَقَالُوا : يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ » أى الجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

[٢٢] (أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

« هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى

أنفسهم بالكفر والمعاصى والسعى بالفساد « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى وأشباههم من الفجرة .

أو نساءهم الكافرات « وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

« مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الأصنام وغيرها ، زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم « فَأَهْدُوهُمْ

إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » أى فمرفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير به (الهداية) و (الصراط)

للتهم بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

« وَقِفُوهُمْ » أى احبسوهم فى الموقف « إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » أى عن عقائدهم وأعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » أى لا ينصر بعضكم بعضاً ، وقد كان شأنكم التعاضد في الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم وتقريع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

« بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ » أى منقادون ومخدولون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٨] (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى عن القهر والغلبة . أى كنتم تضطروننا إلى ما تدعوننا إليه . كما في آية (١) (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْمَلَ لَهُ وَءَأْنَدَا) وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق . من (اليمين) ضد الشؤم . أى توهموننا وتخدعوننا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز . فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

[٣٠] (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ)

[٣١] (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، إِنَّآ لَذَآبِقُونَ)

[٣٢] (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

[٣٣] (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

[٣٤] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

[٣٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

« قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآبِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الاستجابة للداعى إليها.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَيَقُولُونَ أَبَنَّا لَتَارِكُوآءِ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)

« وَيَقُولُونَ أَبَنَّا لَتَارِكُوآءِ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ » أى لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون . فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

« بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ » أى الذين هم أعدل الأمم وأحكم الحكماء .

فتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ)

[٣٩] (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ)

[٤٢] (قَوَّامٌ لَهُمْ مَّا كَانُوا يَكْرُمُونَ)

[٤٣] (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[٤٤] (عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)

« إِنَّكُمْ » أى بافتراسكم « لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * قَوَّامٌ لَهُمْ مَّا كَانُوا يَكْرُمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ » أى فى الصف مترابطين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون فى المقاعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ » أى شراب معين ، جارٍ كالنهر لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يَبْقَا لَذَّةُ اللَّشْرِينَ)

[٤٧] (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

« يَبْقَا لَذَّةُ اللَّشْرِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى ما يفتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » أى تذهب عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطُّرَفِ عَيْنٌ)

[٤٩] (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)

« وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطُّرَفِ عَيْنٌ » أى على أزواجهن أو مبيضاته تشبيها بالشوب المقصور، وهو المحوّر . « عَيْنٌ » أى كبار الأعين « كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ » أى بيض نعام فى الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار .

قال الشهاب : وهذا على عادة العرب فى تشبيه النساء بها . وخصت ببيض النعام ، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائرّه . ولأنها تبيض فى الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء (ببيضات الخدور) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لعمان ، كما فى الدر . وهو لون محمود جداً . إذ البياض الصرف غير محمود . وإنما يحمد إذا شابه قليل حمرة فى الرجال ، وصفرة فى النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه عنى بالبيض المكنون (اللؤلؤ) . ثم قال : والعرب تقول لكل مصون (مكنون) لؤلؤا كان أو غيره . كما قال أبو دهب^(١) :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الفواصِ ميزت من جواهر مكنونِ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

طال ليلى وبّت كالحزونِ ومَلِيتُ الثَّوَاءَ فى جَيْرُونِ

جیرون : حصن فى دمشق ، وقيل : هى دمشق نفسها .

قالها فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان .

انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع من الأغاني (طبعة دار الكتب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » معطوف على (يطاف) والمعنى ، يشربون فيتحادثون على الشراب ، كمادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .
وقال القاشاني : أى يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر في وصف أهل الأعراف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[٥٢] (يَقُولُ أَأُنْكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ)

[٥٣] (أَأَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أى في المحادثة « إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » أى جلس في الدنيا « يَقُولُ أَأُنْكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ * أَأَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ » أى لمبعوثون فجزيون . أى يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب . والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده ، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار له بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ)

« قَالَ » أى ذلك القائل « هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ » أى إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالها ، لأريكم ذلك القرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَأُطْلِعَ فِرْعَاءَهُ فِي سَوَاءٍ الْأَجِيمِ)

[٥٦] (قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ)

[٥٧] (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ)

« فَأُطْلِعَ فِرْعَاءَهُ فِي سَوَاءٍ الْأَجِيمِ » أى وسطه « قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ »

أى تهلكنى بالإغواء « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي » أى بالهداية والطف بى « لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ » أى معك فى النار . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِيَتَيْنِ)

[٥٩] (إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيَيْنِ)

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِيَتَيْنِ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيَيْنِ » من نعمة كلامه

لقربنه ، تقريباً له . أو معاودة إلى محادثة جلسائه ، تحدثاً بنعمة الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٦١] (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » أى لنيل مثله ،

فليجد المجدون .

ولما وصف ملاذ أهل الجنة ، تأثره بمطاعم أهل النار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزْلًا أَمِ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)

« أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزْلًا أَمِ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ » وهي شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)

[٦٤] (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)

[٦٥] (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

« إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً » أى محنة وعذابا « لِلظَّالِمِينَ » * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا أى حملها « كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » أى مثل ما يتخيل وبتوهم من قبح رؤوس الشياطين . فهى قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس . قال الزمخشري : وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير . فيقولون في القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) (كأنه رأس شيطان) وإذا صوروه المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه . فشبهوا به الصورة الحسنة . قال الله تعالى ^(١) (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وهذا تشبيه تخييلي . انتهى . أى لأمر مركزوز في الخيال . وبه يندفع ما يقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لا يشترط أن يكون معروفا في الخارج . بل يكفي كونه مركزوزا في الذهن والخيال ،

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

الأتري امرأ القيس^(٣) - وهو ملك الشعراء - يقول :

* ومسنونة زرق كأنياب أغوال *

وهو لم ير الغول : والغول نوع من الشياطين ، لأنه في خيال كل أحد مرسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلاً للتشكل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

« فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا » أى من طلعا « فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ)

« ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ » أى لشراباً كالصديد أو الفساق ، ممزوجاً من ماء متناه في الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

« ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ » أى مصيرهم « لَإِلَى الْجَحِيمِ » أى إلى دركاتهما . أو إلى نفسها

(١) البيت :

أبقتلنى والمشرقى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال !

من قصيدته التى مطلعها :

ألا عيم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

انظر الصفحة رقم ٢٧ من الديوان (طبعة دار المعارف) .

لا مفر لهم منها ولا عيص كيفما تحولوا . قال ابن كثير : أى ثم إن مردّهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج وسعير تنهوج . فتارة في هذا وتارة في هذا . كما قال تعالى ^(١) (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ) هكذا تلاقادة هذه الآية عند هذه الآية . وهو تفسير حسن قوى . انتهى .

ومن لطائف الإشارات في هذه الآية، ما قاله القاشانى . وعبارته : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) وهى شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة في قعر جهنم الطبيعية المتشعبة أغصانها في دركات القبيحة الهائلة عراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوه والخبث بالتنفّر (رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) أى تنشأ منها الدواعي المهلكة والنوازع المردية الباعثة على الأفعال القبيحة والأعمال السيئة . فتلك أصول الشيطنة ومبادئ الشر والفسدة، فكانت رؤوس الشياطين (فَأِنَّهُمْ لَآ كَلُونَ مِنْهَا) يستمدون منها ويعتمدون ويتقوّون . فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور ولا يلتذون إلا بها (فَمَآ لِّئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) بالهيات الفاسقة والصفات المظلمة، كالمتملىء غضبا وحقدا وحسدا وقت هيجانها (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) الأهواء الطبيعية والمئى السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية، وقصور الشرور الموبقة ، التى تكسر بعض غلة الأشرار (ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمُ لِآلِ الْجَحِيمِ) لقلبة الحرص والشره، بالشهوة والحقْد والبغض والطمع وأمثالها . واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباغيتها . انتهى .

وهذه الإشارات من المجازات التى تتسع لها اللغة، لأنها لا تنحصر فى الحقيقة، ولا يقال إنها المرادة هنا ، لنبوّها عن نظائرهما من آيات الوعيد . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

[٧٠] (فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ)

« إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ » تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال . و (الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم . وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازي : ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد ، لسكنى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ)

[٧٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)

« وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ » أي أنبياء حذروهم المواقب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ » أي الذين أُنذروا وخوفوا . فقد أهلكوا جميعاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أي الذين أخلصوا دينهم لله . أو الذين أخلصهم تعالى لدينه . على القراءتين . أي فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبائهم ، تثبيتاً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

[٧٦] (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

[٧٧] (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

« وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا » أى بقوله ^(١) (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) « فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » أى نحن بهلاك قومه . لأنه لا يجيب المضطر غيره « وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » أى من الغرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » أى فى الأرض بعد هلاك قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[٧٩] (سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » أى أبقينا عليه فى الأمم بعده ثناء حسنا ، ففعل (تركنا) محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله « سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ » أى أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة . أى أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين : قوله (سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ) مبتدأ وخبر . وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لـ (تركنا) والثانى أنه مفسر لمفعوله . أى تركنا عليه شيئا وهو هذا الكلام . أو ثم قول مقدر . أى فقلنا سلام . أو ضمن (تركنا) معنى (قلنا) أو سلط (تركنا) على ما بعده . وقرئ (سلاما) وهو مفعول به لـ (تركنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » تعليل لما أتيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته في إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » أى المصدقين . وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهاره لفضل الإيمان ومزيته . حيث مدح من هو من كبار الرسل به . فالقصد بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها . وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ)

« ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ » أى من كفار قومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » أى ممن شايعه وتابمه في الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِذْ جَاءَ رَبُّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« إِذْ جَاءَ رَبُّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى أقبل إلى توحيدهِ بقلب خالص من الشوائب ،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطرى ، منكر على من غير وبدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ » أى من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أَيْفَ كَأَيِّهِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)

« أَيْفَ كَأَيِّهِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ » أى تريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه رباً للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتهم به غيره . والمعنى : لا يقدر فى وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته . لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه . فأنكر ظنهم السكائن فى بيان استحقاقه للعبادة . وهو الذى حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره ؟ وعلى كلِّ ، فلا استفهام إنكارى . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَتَنَّا نَظْرَةَ فِي النُّجُومِ)

« فَتَنَّا نَظْرَةَ فِي النُّجُومِ » أى ليريههم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا

منجمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

« فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ » أى مريض لا يمكننى الخروج معكم إلى معيكم . ترخص عليه السلام بذلك ، ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم ، مما تجوزها المصلحة . أو عَنَى أَنَّهُ سَقِيمُ الْقَلْبِ ، تشبيهاً لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه . أو أراد أَنَّهُ مُسْتَعِدُّ لِلْمَوْتِ استعداد المريض . فهو استعارة أو مجاز مرسل .

قال الزخشرى : والذي قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام . ولقد نوى به أن مَنْ فِي عُنُقِهِ الْمَوْتُ ، سَقِيمٌ . ومنه المثل (كفى بالسلامة داء) وقول لبيد^(١) :
فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحِّحَنِي ، فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ
ومات رجل فجأة ، فالتفت عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابي :
أَحْصِيحُ مِنَ الْمَوْتِ فِي عُنُقِهِ ؟ انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : في الآية استعمال المعارض والمجاز للمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

« فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى إلى معيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

« فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ » أى ذهب إليها في خفية « فَقَالَ » أى للأصنام استهزاء « أَلَا تَأْكُلُونَ » .

(١) رواه البرد في الكامل غير منسوب .

وقال في (رغبة الآمل ج ٣ ص ٣٥) : ينسب إلى عبد الرحمن بن سويد المرتضى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)

[٩٣] (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

[٩٤] (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ)

[٩٥] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

[٩٦] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ » أى بإيجاب ولا سلب « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ » أى هجم عليهم « ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى التى هى أقوى الباطشتين ، فكسرها . « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم بعد ما رجعوا « يَزْفُونَ » أى يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه . فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى من الأصنام « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » أى وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال ، المختلفة المقادير . ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)

[٩٨] (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)

« قَالُوا ابْنُوا لَهُ » أى لإحراقه « بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ » أى الأذلين بإبطال كيدهم . جعل النار عليه بردا وسلاما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِنِ)

« وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » أى مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربي ، وأعصم فيه ديني .

قال الرازى : فيه دليل على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ما خصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسن من قومه العداوة الشديدة ، هاجر . فَلَاَنْ يَجِبَ عَلَى غَيْرِهِ ، بِالْأُولَى . وقوله « سَيَهْدِينِ » أى إلى ما فيه صلاح دينى ، أو إلى مقصدى . وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى . إذ تكفل بهدايته . أولأن من كان مع الله كان الله معه ^(١) (احفظ الله يحفظك) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١٠١] (فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ولدا صالحا يعينى على الدعوة والطاعة « فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » أى متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء فى كل أمر . والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَدَّبَّأْتُ أُوْعَلِّ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ

مِنَ الصَّابِرِينَ)

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ » أى السن الذى يقدر فيه على السعى والعمل « قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ » أى : إني أمرت فى المنام بذبحك . ورويا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة - فانظر هل تصبر على إمضائى أمر الرؤيا والعمل بظاهرها ؟

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٥٩ - باب حدثنا بشر بن هلال .

« قَالَ يَبْأَبَتِ أَفَعَلْتَ مَا تُؤْمَرُ » ، أى يأمرك الله . فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأَمْضِهِ . قال القاضى : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به . أو علم أن رؤيا الأنبياء حق ، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر فى المنام دون اليقظة ، لتسكون مبادرتهم إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازى : الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ فى الحِلْم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكارِه إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثناء الحسن فى الدنيا . وقوله « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » أى على الذبح ، أو على قضاء الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

« فَلَمَّا أَسْلَمَا » أى استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء ، واستلَّ إبراهيم السكين ، « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » أى صرعه على شقه ، فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . و (تله) أصل معناه : رماه على التلّ ، وهو التراب المجتمع . ك (تربّه) . ثم عم لكل صرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَبْأَبِرْهِيمُ)

[١٠٥] (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَبْأَبِرْهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا » أى لاتذبحه وقدقت بمصدقها فى بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ماتشير إليه وكال الطاعة فى هذا الشاق ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . وفى جواب (لما) ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف . أى نادته الملائكة .

أو ظهر صبرها . أو أجزلنا لها أجرها . الثانى فى أنه (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) بزيادة (الواو) وهو رأى الكوفيين والأخفش . الثالث أنه (وَتَدَيَّنَّهُ) والواو زائدة أيضا . « إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى بالالطف والعناية والنداء والوحى والفرج بعد الشدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (إِن هَذَا لَهُوَ أَلْبَسُوا الْمُبِينُ)

« إِن هَذَا لَهُوَ أَلْبَسُوا الْمُبِينُ » أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره . إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم فى صدق الخلة لله ، وتوضيحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ)

« وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ » أى رزقناه ما يذبح بدلاً عنه وفداء له ، منة وتطولاً . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ماحوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرنائه فى شجرة . فتم به الرئى فى المنام المقصود به القربان لله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٠٩] (سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)

[١١٠] (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١١١] (إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٢] (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ)

[١١٣] (وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى مثل ما تركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعراجه « كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَرَكَنَا عَلَيْهِ » أى على إبراهيم « وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ » أى : بتكثير الثرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكا ، وإيتائهم مالم يؤت أحد « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ » أى فى عمله « وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أى بالكفر والمعاصى « مُبِينٌ » أى ظاهر الظلم .

تنبيهات :

الأول - يروى المفسرون ههنا فى قصة الذبح روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها . بل ولم تحسن ، فهى معضلة تنتهى إلى السدى وكعب . والسدى حالة معلوم فى ضعف مروياته . وكذلك كعب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأخبار فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً : فربما استمع له عمر . فترخص الناس فى استماع ما عنده عنه ، غشها وسميها . وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله . ولذا لا نرى التزيد على أصل ما قص فى التنزيل من الضرورى له ، إلا إذا صح سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد وَلَعَ الخطباء فى دواوينهم برواية هذه القصة فى خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين . ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعاً . ولما صنفت مجموعة الخطب حذفت هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروى ضعيف فى فضائل الشهور والأوقات ، واقتصرت على جياذ الأخبار والآثار . وذلك من فضل الله علينا فلا نحصى ثناء عليه . وأمثلة ما روى فى هذا النبأ من

الآثار ما أخرجه الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعى . فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جرة العقبة . فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم عرض له عند الجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات . ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض . فقال له : يا أبت ! إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفني فيه : فعالجه ليخلصه ، فنودي من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكيش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحى، وجواز نسخ القمل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة في كل قول . واستدل بمضمم هذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة .

ثم قال السيوطي : فسر الذبح العظيم في الأحاديث والآثار بكيش . فاستدل به المالكية على أن الغنم في التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث - استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه - كما ذكره الرازي - وذلك في باب الابتلاء . أى ابتلاء المأمور في إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع - يذكر كثير الخلاف في الذبيح . قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : وإسماعيل هو الذبيح على القول بالصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم . فإن فيه إن الله أمر

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٩٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٧٠٧ (طبعة المعارف) .

إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) . وفي لفظ (وحيد) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذي غرّ وأصحاب هذا القول إن في التوراة التي بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله (بكر) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب . ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى ^(١) (لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَأَمْرًا نُهُو قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) فحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . ولاريب أن يعقوب داخل في البشارة . فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل ، لو كان الأمر كاذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحق ، فكانت القراءة (ومن وراء إسحق يعقوب) أى ويعقوب من وراء إسحق . قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص : وهى أول خبر سارّ صادق . وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هى الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى : وقلنا لهما من وراء إسحق يعقوب والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يستريب ذوقهم فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك (مررت بزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور: كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور ، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه فى هذه السورة، قال ^(٢) (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا

(١) [١١ / هود / ٧١ و ٧٠] . (١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ - ١١١] .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ *
وَتَرَكْنَاهُ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنَ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١) ثُمَّ قَالَ (٢) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) فهذا بشارة من الله
له، شكراً على صبره على ما أمر به . وهذا ظاهر جداً في أن الم بشر به غير الأول . بل هو كالنص
فيه . فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد
لأمر الله ، جازاه الله على ذلك ، بأن أعطاه النبوة . قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته
ووجوده وأن يكون نبياً . ولهذا ينصب (نبياً) على الحال المقدراً أى مقدراً نبوته . فلا يمكن
إخراج البشارة أن يقع على الأصل ، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال
من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً
فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا
والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل
وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام
الذي اشترك في بنيائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة ، من تمام حج البيت الذي كان على
يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن
تلقى عنهم ، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً
لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه . ولما ذكر إسحق سماه علياً فقال (٣) (هَلْ أَتَاكَ
خَبَرٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّتَكَبِّرُونَ)
إلى أن قال (٣) (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَليمٍ) وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من
أمراته وهى المبشرة به . وأما إسماعيل فمن السرية . وأيضاً فإنهما بشراً به على السكر واليأس

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢٤ و ٢٥] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٢٨] .

من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليلاً . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبةً من قلب الوالد ، جاءت غير الخلة فتزعمها من قلب الخليل . فأمره الخليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة . إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، ما يقتضى الأمر بذبحه . وهذا في غاية الظهور . وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة ، ليرتد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، حينئذ يرق قلب الست على ولدها ، وتبديل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارها وموطئ أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله

وانكساره . قال تعالى ^(١) (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) ^(٢) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : واستدل بقوله تعالى بعد ^(٣) (وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ) من قال إن الذبيح إسماعيل . وهو الذي رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة . منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحق بعده . والبشارة يعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهي أمور ظنية لاقطعية . ثم قال : وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه - ولم أر من سبقني إلى استنباطه - وهو أن البشارة وقعت مرتين . مرة في قوله ^(٤) (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدَيْنِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُنِّي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) فهذه الآية قاطعة في أن هذا البشر به هو الذبيح . ومرة في قوله ^(٥) (وَأَمْرَأَتُهُ قَاسِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) الآية . فقد صرح فيها أن البشر به إسحق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم . بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأل . فعلما بذلك أنهما بشارتان في وقتين ، بغلامين . أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره . فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

(١) [٢٨ / القصص / ٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢١] . (٣) [٣٧ / الصفات / ١١٢] .

(٤) [٣٧ / الصفات / ٩٩-١٠٢] . (٥) [١١ / هود / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

« وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » أى بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالمي زمانهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو قهر فرعون لهم ، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَصَرَّ نَهُمٌ فَكَأُوهُمُ الْفَالِغِينَ)

« وَلَصَرَّ نَهُمٌ فَكَانُوا هُمُ الْفَالِغِينَ » أى مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

« وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » أى البليغ في بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى فى باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ)

[١٢٠] (سَلَّمَ عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

[١٢١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٢٢] (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١٢٣] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ * سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وهو من أنبياء بنى إسرائيل من بعد زمن سليمان . أرسله الله لما انتشرت الوثنية في الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهريا . فقام إلياس عليه السلام يوجههم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى في التوراة (إيليا) وله نبأ فيها كبير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

« إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ » أى عذاب الله ونقمته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ)

« أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفنيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة . ويقدمون لهم ضحايا بشرية « وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ » أى تتركون عبادته . قال القاضى : وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار ، المعنى بالهمزة . ثم صرح به بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (اللَّهُ رَبَّكُمْ . وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[١٢٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

« اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى

في العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[١٢٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٣٠] (سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين آمنوا به واتبعوه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *

سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ » بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين) . وقرئ آل ياسين

بإضافة آل (بمعنى أهل) إليه . وكله من التصرف في العلم الأصلي ، الذى هو (إيليا) على

قاعدة العرب في الأعلام المعجمية ، إذا أرادت أن تلتطفها في الاستعمال ، وتخففها على

اللسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٣٢] (إِنَّهُمْ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١٣٣] (وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[١٣٤] (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ » أى للدعاء إلى الله والنهى عن الفواحش « إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ » أى من عذاب قومه المنذرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

« إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت « فِي الْغَابِرِينَ » أى فى حكم الباقين فى العذاب ، لكونها على دين قومها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ)

« ثُمَّ دَمَرْنَا » أى أهلكنا « الْأَخْرِينَ » بجمل قريتهم عليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَإِنَّا لَنَكْمُوتُمْرُونَهُمْ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ)

[١٣٨] (وَبِالْلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[١٣٩] (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

« وَإِنَّا لَنَكْمُوتُمْرُونَهُمْ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِالْلَّيْلِ » أى فترون دائماً علامات مؤاخذتهم « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ » أى إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

« إِذْ أَبَقَ » أى : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم « إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »

أى السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس . فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم . فاقترعوا ليعلموا بسبب من ، أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه فى البحر . وهو معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)

« فَسَاهَمَ » أى قارع « فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى المغلوبين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ » أى ابتلعه « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة ، فى بطن الحوت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة . أى لكن رحمناه بتسبيحه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

« فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ » أى حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط « وَهُوَ سَقِيمٌ » أى مما ناله من هذا الحبس الذى يأخذ بالحناق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ)

« وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ » أى لتقيه من الذباب والشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)

« وَأَرْسَلْنَاهُ » أى بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولاً . و (أو) للإضراب . أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر . أى إذا رآها الرأى قال : هى مائة ألف أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَأَمَّنُوا » أى فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر والنفى والضلال والفساد والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه « فَمَرَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى حين انقضاء آجالهم بالعيش الهنىء والمقام الأمين، ببركة الإيمان والعمل الصالح . وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله (وَتَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ) إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

« فَاسْتَفْتِهِمْ » أى قريشاً المنذرين بأنباء الرسل وقومهم « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ » أى سلمهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها . جملوا الله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم (الملائكة بنات الله) مع كراهتهم الشديدة لهن ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

« أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ » أى حاضرون ، حتى فاهوا بتلك العظيمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

[١٥٢] (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ » أى صدر منه الولد . مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى مقالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)

« أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى اختار الإناث « عَلَى الْبَنِينَ » أى الذكور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« مَا لَكُمْ » أى : أى شئ عرض لعقولكم « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخيركم الكامل .

لطيفة :

قال الزخشرى : قال قلت : (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ) بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جملة من كلام الكفرة، بدلا عن قولهم (وَلَدَ اللَّهُ) وقد قرأها حمزة والأعمش رضى الله عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا حملها، فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبها . وذلك قوله (وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ) و (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى أنه منزه عن ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ)

« أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ » أى حجة واضحة وبرهان قاطع . ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقليا ، لاستحالة عند العقل . فغايته أن يكون ماثورا عن أسفار مقدسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ » أى المسطور فيه ذلك عن وحى سماوى « إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم . وهذا كقوله تعالى^(١) (أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ) وفيه إشعار بأن المدافى الدعوى على البرهان البين . وأنها بدونها لا يقام لها وزن .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

«وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا» أى قربا منه . قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : فَمَنْ أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة وابن زيد . ثم أشار إلى أن لانسبة تقتضى النسب بوجه ما . عدا عن استحالة ذلك عقلا ، بقوله « وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ » أى المنسوب إليهم هذا النسب « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى فى النار يوم القيامة . لكون الجنة كالجن ، علمافى الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمرربها من عالم الشياطين . أى : فالنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة ، لمايعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير ، لامن عالم الأرواح الطاهرة ، فإبال هؤلاء المشركين يهرفون بما لايعرفون ؟ وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة الحدث عنها قبل . والضمير فى (إنهم) للكفرة . ولعل ماذكرناه أولى ، لخلوة عن تشتيت الضمائر ، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة . وذلك فيما عدا الملائكة . وقلنا (الأغلب) لماسمع من إطلاق الجن فى الملائكة . قال الأعشى ^(١) يذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعة قياما لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ مَحَارِبًا

وقال الراغب : الجن يقال على وجهين : أحدهما للروحانيين المستقرة عن الحواس كلها ، بإزاء الإنس . فعلى هذا تدخل فيه الملائكة . وقيل : بل الجن بعض الروحانيين . وذلك أن الروحانيين ثلاثة : أخيار وهم الملائكة . وأشرار وهم الشياطين . وأوساط فيهم أخيار وأشرار ، وهم الجن ، ويدل على ذلك قوله تعالى ^(٢) (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) إلى قوله تعالى ^(٣) (وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) انتهى . ورد إطلاق الجن على الملائكة العلامة القاسمى فى شرحه على (القاموس) فقال : تفسير الجن بالملائكة مردود . إذ خلق الملائكة من نور لامن نار كالجن . والملائكة معصومون . ولا يتناسلون ولا يتصفون بذكورة وأنوثة ، بخلاف

(١) أنشده فى اللسان (مجلد ١٣ ص ٩٧ ، طبعة بيروت) هكذا ... يعملون بلا أجر .

(٢) [٧٢ / الجن / ١] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٤] .

الجن . ولهذا قال الجماهير : الاستثناء في قوله تعالى ^(١) (إِلَّا إِبْلِيسَ) منقطع أو متصل . لكونه كان مغموراً فيهم ، متخلفاً بأخلاقهم . انتهى . وهو يؤيد ما ذهبنا إليه . وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه . لأن سليمان لم تسخر الملائكة لتشيد له المباني . وليس ذلك من عمائم عليهم السلام . وقد مر الكلام على ذلك في تفسير سورة (سبا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ)

« سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ » أى من الولد والنسب . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة ، متصل على القول الأول ، أى المؤمنين منهم . ومنقطع على الثانى . أو استثناء منقطع من (واو) يصفون . هذا ، وبقى وجه فى الآية لم يذكره . وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمساكاة فى العبادة . ويراد بالجنة الملائكة . ويكون المراد من الآية الإخبار عن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم ندّاً ومثلاً له تعالى ، وحكاية لضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم لهم . مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون فى العذاب . والآية فى هذا كآية ^(٢) (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاتُهُمْ يَقُولُ لِلسَّمَلَةِ سَيْكَةَ أَهْوُلَاً وَإِبَّاءُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتُمْ أَنْ دُونَهُمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق فى طليمة السورة . كله فى تقرير عبودية الملائكة له تعالى ، وكونها من مخلوقاته الصافية لعبادته ، فأنتى تستحق الربوبية ؟ والله أعلم . وقوله :

(٢) [٣٤ / سبا / ٤١٤٠] .

(١) [٢ / البقرة / ٣٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (فَإِنِّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)

« فَإِنِّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » عود إلى خطابهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ)

« مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ » أى مفسدين أحداً بالإغواء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

« إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ » أى ضالّ مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره : فإنكم أيها المشركون بالله (وَمَا تَعْبُدُونَ) من الآلهة والأوثان (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ) أى ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضلين أحداً ، (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) أى من سبق في علمى أنه صال الجحيم . وقد قيل : إن معنى (عليه) به . انتهى . ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكياً عنهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » أى فى العبودية وتسخيره فيما يريد تعالى منه . لا يتعدى فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَإِنَّا لَنَخْنُ الصَّافُونَ)

« وَإِنَّا لَنَخْنُ الصَّافُونَ » أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة التى تؤمر بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَإِنَّا لَنَخْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

« وَإِنَّا لَنَخْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المزهون الله عما يصفه به الملحدون . أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ)

« وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ » أى مشركو قريش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

« لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى كتاباً من الكتب التى نزلت عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

« لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أى لأخلصنا العبادة له . فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَكْفَرُوا بِهِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة كفرهم . وهذا كقوله تعالى^(١)
 (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) الآية . وقوله تعالى^(٢) (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ
 الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا
 أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى
 وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْأَمْرُسَلِينَ)

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْأَمْرُسَلِينَ » أى وعدنا لهم الأزل ، وهو :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)

[١٧٣] (وَلِإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَلِإِنْ جُنَدْنَا » أى الرسل ومن آمن معهم « لَهُمُ
 الْغَالِبُونَ » أى الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى^(٣) (كَتَبَ
 اللَّهُ لِلَّهِ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَقَتُولَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَقَتُولَ عَنْهُمْ » أى أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عن ينال منه .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦ و١٥٧] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

كقوله تعالى^(١) (وَدَعَّ أَذْنَهُمْ) وقوله^(٢) (فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) « حَتَّىٰ حِينَ »
أى إلى استقرار النصر لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَأَبْصِرْهُمْ » أى بصرهم وعرفهم عاقبة البغى والكفر ، وما نزل بمن أنذر قبلهم ،
أو أوضح لهم الدلائل والحجج فى مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحى . فإن لم يبصروا الآن ،
« فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » أى ما قضينا لك من التأييد والنصرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى قبل حلول أجله ، وإنه لآت ، لأنه يوم الفتح الموعود به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » أى بقرتهم وفنائهم « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » أى فبئس
الصباح صباح من أنذرتهم بالرسول فلم يؤمنوا . لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزخشرى :
مثل العذاب الفازل بهم ، بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه بعضُ نصّاحهم . فلم
يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبّروا أمرهم تدبيراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة
فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا . فسميت الغارة
(صباحا) وإن وقعت فى وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس
بها ويروك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لحيثها على طريقة التمثيل . انتهى . أى فهى استعارة
تمثيلية . أو فى الضمير استعارة مكنية ، والنزول تحييلية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [١٥ / الحجر / ٨٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[١٧٩] (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » قال الزمخشري : إنما نفي ذلك ليسكون تسليمة على تسليمة ، وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة . وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول . وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدها عذاب الدنيا ، وبالأخر عذاب الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » أى المنعة والقدرة والغلبة « عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الشريك والولد ونحوهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

« وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى سلام وأمان وتحيية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على نعمه ، التى أجلها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

فوائد في خواتم هذه السورة

الأولى - روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفّون في الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفّٰوْنَ) فصفاوا . وقال أبو نضرة : كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياما ، يريد الله بكم هدى الملائكة . ثم يقول (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفّٰوْنَ) تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان . ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ^(١) .

وفي صحيح مسلم ^(٢) عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض مسجداً . وترتبها لنا طهوراً .

الثانية - روى الشيخان ^(٣) عن أنس رضي الله عنه قال : صبّح رسول الله ﷺ خير . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيمهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ! محمد والخميس . فقال النبي ﷺ : الله أكبر خربت خير (إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) . دلّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولا وبالذات .

الثالثة - قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة . ويستلزم إثبات السكال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات السكال المطلق مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال تبارك وتعالى « سُبْحٰنَ رَبِّكَ » الآيات .

- (١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) أخرجه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٤ (طبعنا)
- (٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٦ - باب ما يحقن بالأذان من الدماء ،

حديث ٢٤٦

وأخرجه مسلم في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٧ (طبعنا)

الرابعة - روى ابن أبي حاتم عن الشعبي مرسلاً : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه، حين يريد أن يقوم : (سُبْحَنَ رَبِّكَ) الآيات . وروى أيضاً عن عليّ موقوفاً .

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً : من قال دبر كل صلاة (سُبْحَنَ رَبِّكَ) الآيات ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر .

وقد بين الرازي أنّ خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية . فارجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨ - سُورَةُ ص

مكية . وقيل : مدنية وُضِعَتْ آياتها ثمان وثمانون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ص ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

« ص » بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفي نظائره . لما قدمنا غير مأمرة . وقيل : قسم رمزي ، وإليه نحا المهاجرون . قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذي اعترف به الكل في غير دعوى النبوة ، حتى صدقه أهل الكتابين في إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق في دعوى النبوة . أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصموده في مدارج السكالات ، الدال على صموده في مدارج القرب من الله - أو بصبره الكامل الذي هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

« وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » أي الشرف الدال على حقيقته وصدقه . أو التذكير ، كآية^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) والجواب محذوف لدلالة السياق عليه . أي إنه لحق . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ » أي كبر « وَشِقَاقٍ » أي عداوة للحق والإذعان له . إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشأبة ريب متافيه . بل هم في حمية جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله . ولذلك لا يدعون له . وقيل : الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية . أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه . بل الذين كفروا في عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ) « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله «فَنَادَوا» أى فدعوا واستغاثوا « وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ » أى وليس الحين حين فرار ومهرب ومنجاة . والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط في مطولات العربية ، وفي معظم التفاسير هنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ) [٥] (أَجْعَلِ الْإِلَٰهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

« وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ » أى رسول « مِنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبى ﷺ « وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ * أَجْعَلِ الْإِلَٰهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » أى بليغ في العجب . وذلك لتمسك تقليد آبائهم في نفوسهم ، ورسوخه في أعماق قلوبهم . ومضى قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل غشى بالكلية من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل وأحل المحال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَأَنْطَلَقَ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ)

« وَأَنْطَلَقَ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنْ أَمْشُوا » أى فى طريق آبائكم « وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهِتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيهه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ » تعليل للأمر بالصبر . أى يراد منا إمضاؤه وتفنيد لاهماله . أى يريد محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكاك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْتِلَقَ)

« مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْأَخِيرَةِ » أى ما سمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة النصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آبائنا « إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْتِلَقَ » أى ما هذا التوحيد إلا فرية محضة ، لا مستند له سوى هذا الذكركر بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

« أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » أى مع أن فينا من هو أترى وأعلى رياسة . قال الزمخشري : أنكرُوا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا^(١) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمِ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلب به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي » إضراب عن مقدر . أى : إنكارهم للذكركر ليس عن علم ،

بل هم في شك منه . يقولون في أنفسهم : إِمَّا وَإِمَّا « بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ » أى على الإنكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدقوا . وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر في (الانتصاف) : ويؤخذ منه أن (لما) لا تئة بالجواب . وإنما ينفي بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيويو . وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبتته (قد) . و (لما) نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبتته (قد) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإنى استدلت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . ففيل لى : إن غاية أنه أثبت الشفعة فيما نفي عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آله النفي المذكورة (لم) ومقتضاها ، قبول المحل الفعل المنفى وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم . ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكاً من القول ، لإفهامه قبوله للكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنبوة ما نهوى أنفسهم . كلا (١) (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) (٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَمْ لَهُمْ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

« أَمْ لَهُمْ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ » أى فليصعدوا

(١) [٢٨ / القصص / ٦٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

في المراق التي توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير^(١) بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرف به الأثير الموجود في أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة . فتأمل .

ثم قال ابن جرير^(١) : وأصل السبب عند العرب ، كل مانسب به إلى الوصول إلى المطلوب من جبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايي : أى فليصعدوا في الأسباب التي هي معارج الوصول إلى العرش ، ليستقوا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحي على من شاءوا . وأنى لهم ذلك ؟؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ)

« جُنْدُ مَا » أى هم جند حقير « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك . وأولئك قد قهروا وأهلكوا . وكذا هؤلاء . فلا تبال بما يقولون ولا تكثر لما به يهزون . و (هُنَالِكَ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر . وقال ابن كثير : هذه الآية كقوله جلت عظمته^(٢) (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَقِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وكان ذلك يوم بدر . وفي الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٥ و ٤٤] .

بقوله : (جُنْدٌ) يجوز فيه وجهان : أحدهما - وهو الظاهر - أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و (ما) فيها وجهان ، أحدهما - أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ (جند) على سبيل التعميم ، للهزء بهم ، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لـ هذين المعنيين . و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها - أن يكون خبراً لـ (جند) و (ما) مزيدة و (مَهْزُومٌ) نعت لـ (جند) . الثانى - أن يكون صفة لـ (جند) الثالث - أن يكون منصوباً بـ (مَهْزُوم) . و (مَهْزُومٌ) يجوز فيه أيضاً وجهان : أحدهما - أنه خبر ثانٍ لذلك المبتدأ المقدر ، والثانى أنه صفة لـ (جند) . و (هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سيهزمون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل : مشارٌ به إلى نصره الإسلام . وقيل : إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و (ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و (مَهْزُومٌ) خبره . وفيه بعد ، لتفصلته عن الكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيمته ! فبعث إليه . فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . قال نخشى أبو جهل لعنه الله ، إن جلس إلى جنب أبي طالب ، أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس فى ذلك المجلس . ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه . فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ! ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول . قال ، وأكثروا عليه من القول . وتسكلم رسول الله ﷺ فقال : يا عم إنى أريدكم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففرغوا السكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فرعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

(أَجْمَلَ الْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) ونزلت الآية . رواه ابن جرير^(١) والإمام أحمد والنسائي ، والترمذي وحسنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أى المربوطة أطنا به - أى حباله - بأوتاده . استعير للملك استعارة تصريحية . وصف به فرعون مبالغة يجعله عين ملكه . وأشبهه فرعون في ثبات ملكه بذي بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده . على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تخيلاً ، وهو قوله (ذُو الْأَوْتَادِ) فإنه لازم له . أو هو كناية . حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت . وقد جاء هذا في قول الأسود^(٢) من شعراء الجاهلية :

ولقد غَنَوْنَا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

أو المعنى : ذو الجوع الكثيرة . سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية في الأوتاد . أو هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند . أو هو على حقيقة المراد المباني العظيمة والهيكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق في الكل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت رقم ١٢ من الفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النمشلي .

وأول القصيدة :

نام الخليلُ وما أحسنَ رقادِي والهمُّ محتضِرٌ لدىَّ وسَادِي

غفوا : أقاموا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَنَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ، أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ)

«وَنَمُودُ» وهم قوم صالح «وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ» أى الغيضة ، وهم قوم شعيب «أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ» أى الكفار المتحزون على رسلهم ، الذين جعل الجند المهزوم منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

«إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» أى فوجبت عليهم عقوبتى . قال الشهاب : (إِنْ) نافية و (كُلُّ) محذوف الخبر . والتفريع من أعم العام . أى ما كل أحد يخبر عنه بشيء ، إلا يخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل . لأن الرسل يصدق كلُّ منهم الكل . فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل . أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع . فيكون كل كذب رسوله . أو الحصر بمبالغة . كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة العدم . فهم غالون فيه . انتهى . وقال الزمخشري : وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتفريع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً ، وبالاستثنائية ثانياً ، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص - أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير . وهى أن الكلام لما طال بتعدد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة ، ليلَى قوله تعالى (فَحَقَّ عِقَابِ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام . وهو كما قدمته فى قوله ^(١) (وَكَذَبَ مُوسَى) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله ^(١) (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

«وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ» أى أهل مكة «إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» أى أخذة واحدة بعذاب

(١) [٢٢ / الحج / ٤٤] .

بئس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كمال قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحةً خَرُّوا لشدتها على الأذقان

وأصله من الفارة إذا عافست القوم فوقعت الصيحة فيهم « مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ » أى من توقف مقدار فواق . وهو ما بين الحلبتين . أو رجوع وترداد . فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ف (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر اللزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وهما لغتان . وقيل : المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقه ، إذا رجع إلى الصحة . والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله^(١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ يَا لَعَذَابٍ) « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنآ دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُٗٓ أَوَّابٌ)

« أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام ، مما سارت به الأمثال^(٢) ولذا قال تعالى « وَادْخُرْ عَبْدَنآ دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »

(١) [٢٢ / الحج / ٤٧] و [٢٩ / المنكبات / ٥٣ و ٥٤] .

(٢) ما ذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيتائه ما أوتى ، هو ما يظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزخشرى وتابعه عليه البيضاوى وغيرها فى وجه الاتصال ، فما تقشعر من ذكره الأبدان . ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً . نخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُ وَأَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإجابة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)

[١٩] (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ)

« إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ » أى مطيع مَفْقَد . يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل^(١) (يَجِبَالُ أَوتِىَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيئه ، إذا مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشاخات ترجع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوىّ فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرى أنه ينتظر سكينة المصوّت والقارىء بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ)

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ » أى قويناه بوفرة العدد والعدد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم التضمن للعواظ والأمثال

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠] .

والحِصَّةُ عَلَى الْآدَابِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . وكان زبوره عليه السلام ، كله حكماً غرراً « وَفَصَّلَ الْخِطَابِ » أى فصل الحِصَامِ بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل . وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب . ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَهَلْ أَمْتِكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

« وَهَلْ أَمْتِكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى ولجوه . و (المحراب) مقدم كل بيت وأشرفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ، خَصِمَانِ بَنَى بَعْضُنَا

عَلَى بَعْضٍ ، فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

« إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ » أى منا . فلسنا فائسين

وإنما نحن « خَصِمَانِ » أى شخصان متخاصمان كما كنا إليك « بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ »

أى تعدى « فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أى بما يطابق أمر الله « وَلَا تُشْطِطْ » أى ولا تبعد

عن الحق أو تجاوزه « وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ » أى بحيث لا تميل عن الحق أصلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ

أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

« إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أى أننى من الضأن « وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها ، بل أراد التغلب على « فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا »
أى : ملكنيها . بمعنى اجعلنى كافلاً كما أ كفل ما تحت يدى . أو بمعنى اجعلها كفى أى
نصيبى « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أى غلبنى فى المسكالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ
لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ،
وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)
[٢٥] (فَمَقَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ)

« قَالَ » أى داود « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ » أى طلب نعتك التى أنت أحوج
إليها ليضمها « إِلَىٰ نَعَاجِهِ » أى مع استغفائه عن هذا الضم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ »
أى الإخوان الأصدقاء المتخالطين فى شئونهم « لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى بغى الأعداء .
مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل ، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فإنهم لا يبغيون « وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ » أى وهم قليل . و (ما) مزيدة
للإيهام والتعجيب من قلتهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقلّة ، وتفكير (قليل) وزيادة (ما)
الإيهامية . والشئ إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .
وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفتدة ويقر عين
الغبون . ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع . فظهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة
فأقر عين المظلوم . وعرف الباغى ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس
عن قلب المظلوم البائس ، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلّة - خلّة البغى

وعدم الإنصاف - مع الخلطة والخلّة ، ليمتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسى روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلّة القائمين بمقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة ، والصدقة . ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها علماء الأخلاق ، إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة . وقد امتلأت من منطوماها ومنثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَأَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ وَ ذَلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَى » أى لقربا « وَحُسْنِ مَآبٍ » أى مرجعا حسنا وكرامة ، فى الآخرة .

تنبيهات :

الأول - للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألم به داود عليه السلام ثم غفر له . ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير^(١) . فإنه قال : هذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له ، فيما قيل ، تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتل نسكح ، فيما ذكر ، داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجدا لله وأناب إلى رضا ربه ، وتاب من خطيئته . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . ثم أسند قصته مطولة من روايات عن ابن عباس والسدى وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد . ومن طريق عن أنس مرفوعا . ويشبه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .

قال السيوطى فى (الإكليل) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبتة ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .

(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفي إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي وهو ضعيف . وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبي ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم ، فعوتلهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبئني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ . كما فصل في مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطيب الباقلاني من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هذا القول ، رحمه الله ، ردًا متينًا .

وأما المذهب الثاني ، فهو ما جزم به ابن حزم في (الفصل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذلك الخضم قومًا من بني آدم ، بلا شك ، مختصمين في نجاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بنى أحدهما على الآخر على نص الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه ، وكذب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بنى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعمة ، ولا كان للآخر نعمة واحدة ، ولا قال له أ كفلنيها . فاعجبوا . لِمَ يقتحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة . وقال الله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ، ثم يعرض زوجها للقتل عمدا ، ليتزوجها . وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء المهوئين الفساق المتمردين . لأفعال

أهل البر والتقوى . فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله له ، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال السكرية . والاستغفار فعل خير لا يفتكر من مَلَكٍ ولا من نبي . ولا من مذهب ولا من غير مذهب . فالفبي يستغفر الله لذنبه أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى (١) (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ (٢) يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . ثم قال : وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه . انتهى . ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام . وذكرها النبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله (٢) (وَإِنَّ لَهُوَ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَّآبٍ) فالقصة لم يجر ذكرها

(١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ماجاء أن القلوب بين أصبعي

الرحمن . (٣) [٣٨ / ص / ٤٠] .

إلا للترقية في رتب السكّال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم ، لا بامرأة ولا غيرها . وأن ما ذكره من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فسكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سندُه ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضى الله عنه . ويزيد ، وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل . فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بمض المفسرين . ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح . والذي نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) وقوله فيه (أَوَّابٌ) فعني (فَتَنَّاهُ) أي اختبرناه . و (أَوَّابٌ) قال قتادة : مطيع . وهذا التفسير أولى . قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل عن امرأتك وأكفليها . فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه . وأنكر عليه شغله بالدنيا . وهذا هو الذي ينبغي أن يمول عليه من أمره . وقد قيل خطبها على خطبته ، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد . وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك - ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم . وقيل : إن الخصمين اللذين اختصما إليه ، رجلان في نتاج غم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم في أواخر كتابه (الجواب الكافي) في مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى الفكاك. كما في سنن ابن ماجه ^(١) مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابين مثل الفكاك. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءً شرعاً وقدرأً . وبه تداوى نبي الله داود ﷺ ولم يرتكب نبي الله محرماً. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته . ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لا بتمامها . وهو من الأقوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكاً حكيماً ، لأنبياء ، بدليل ذكره في أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له قاشان ، ضرب له المثل المذكور - فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إثبات أوفى لا يعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التفسير والتبديل بحمده تعالى . ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم . ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أَرَادَهُ اللهُ واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام . ومنها أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتم بما جاء في غيره ، أو يحاول رده إلى سواء من الكتب ، أو هي إليه ، لاستغنائه بنفسه . بل وكونه مهمناً على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمل ذلك . والله أعلم .

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حَدَّثَ نبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذَّبَ الحديث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يلتمس خلافها . وأَعْظَمُ بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت وكفَّ الله عنها سترأ على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لَسَمَاعِي هذا الكلام، أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس . نقله الزمخشريّ .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب الفكاك ، ١ - باب ما جاء في فضل الفكاك ،

حديث ١٨٤٧ (طبعتنا) .

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزّهون من الوقوع في صفائر الذنوب ، مبرّون من ذلك ، والنسوا الحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثاني - قال ابن الفرّس : في هذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد (أي إظهار المحراب . إلا أنه ليس نصّاً في محراب المسجد) والتلطف في ردّ الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤخذ بمنفٍ ما أمكن . وجواز المعارض من القول .

قال الزمخشريّ : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ . من قبل أن المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه ، وأشدّ تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يبادّه به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكّرة ، بأن يعرض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية ، فاستسمح حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياساً لشأنه . فتصور قبض ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الولد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث - قال ابن مسعود في قوله تعالى (إِنَّ هَذَا أَخِي) : أي على ديني . أخرجه ابن أبي حاتم . ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ) على جواز الشركة . أفاده في (الإكليل) .

الرابع - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) من أجاز التعمويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثر على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوز به عنه . أو هو استعارة له ، لمشايقته له في الانحناء والخضوع .

الخامس - قال ابن كثير : اخفاف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : أحدهما أنها ليست من العزائم ، بل هي سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخاري^(١) وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبي ﷺ يسجد في (ص) وقال : سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكراً ، تفرد به النسائي^(٢) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قراها . فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هي توبة نبي . ولكن رأيتم تشزنم ، فنزل وسجد . تفرد به أبو داود^(٣) . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

« يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » أى استخلفناك على الملك في الأرض

(١) أخرجه البخاري في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ٣ - باب سجدة ص ،

حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٤٨ - باب سجود القرآن ، السجود في ص .

(٣) أخرجه في : ٧ - كتاب السجود ، ٥ - باب السجود في ص ، حديث رقم ١٤١٠ .

كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله في أرضه « فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ » أى هوى النفس ، من الميل إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب « فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى صراطه الموصل إلى السمكالات ، كحفظ المملكة والنصر على الأعداء ، والنجاة فى الآخرة ورفع الدرجات فيها « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » أى بسبب نسيانهم ، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

تنبيه :

فى الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقراءة أو رجاء أو سبب يقتضى الميل . واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا فى (الإكليل) .

وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاء الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى . ولا يمدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتفاسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبى حاتم عن أبى زرعة ؛ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيجاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقمت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أقول ؟ قال : قل فى أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعده فى كتابه قال تعالى (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الآية .

وقال الرازى : اعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع . لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة . حتى هذا يحرث وذاك يطحن وذاك يحبز وذلك ينسج والآخر يخطط . وبالجمل ، فيكون كل واحد منهم مشغولاً بهم . وينتظم من أعمال الجميع

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدنيّ بالطبع . وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه . وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق . وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله (فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) يعنى لا بد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا » أى خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى ^(١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدون عن سبيل الله ويغفون في الأرض الفساد .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨ و ٣٩] .

قال الزمخشري : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلاً إقرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ » قال المهايى : أى : أتترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ » أى مخالفة أمر الله رعاية لمحبهته « كَالْفُجَّارِ » أى الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بعداوتة . أى لا تفعل ذلك ولا يستوتون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لا بد من معاد وجزاء . فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده . فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

« كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ » أى كثير الخير « لِّدَّبَرُوا ءَايَاتِهِ » قال المهايى : أى لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها . فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال .

وقال الزمخشري : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة ثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعدنا من القراء المتكبرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

« إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ » أى من الخيل ، جمع (صافن) وهو الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل ، « الْجِيَادُ » جمع (جواد) وهو الذى يسرع فى جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » أى آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وفائدة التضمن إشارة إلى عروضة ، و (ذِكْرِي) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله . .

قال الزمخشري : و (الخير) المال كقوله ^(١) (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) وقوله ^(٢) (وَإِنَّهُوَ أَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والمال : الخيل التي شغلته ، أو سعى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ ^(٣) : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ما وصف لي رجل فرأيت ، إلا كان دون ما بلغني ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون ، من السابق ؟ فقال : رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير . « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » أى غربت الشمس . متعلق بقوله (أَحَبُّ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك . وباء (بِالْحِجَابِ) للظرفية ، أو الاستعانة أو الملازمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (رُدُّوْهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

« رُدُّوْهَا عَلَيَّ » يعنى الصافنات . وهذا من مَقُولِ القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ » أى فجعل يمسح مسحاً ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

(١) [٢ / البقرة / ١٨٠] . (٢) [١٠٠ / المائدة / ٨] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٨ - باب حدثني محمد بن المثنى ،

حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب . وذلك ثابت في الصحيحين^(١) من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائئاً في ملتهم تأخير الصلاة لعدو الغزو ، والقتال . والخيل تُراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً ففسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة حتى لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما ، والأول أقرب . لأنه قال بعد (رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِأُلسُوْقٍ وَالْأَعْنَاقِ) قال الحسن البصري : قال : لا ، والله ! لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك . ثم أمر بها فعمرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها . وهذا القول اختاره ابن جرير^(٢) . قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالا من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذي رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا . ولا سيما إذا كان غضبا لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الریح التي تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد^(٣) عن ابن قتادة وأبي الدهماء ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازی ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علي .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعنا)
(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٣) أخرجه في السند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدوي ، أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه . انتهى ما ذكره ابن كثير .

وقال القاشاني : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرقب بعضها وينحجر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التي تعبدها بهواها ، وقعا لسورتها وقواها ، ورفعا للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإبانة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازي إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم . كما أنه كذلك في دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسميرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول - تشريفا لها وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو . والثاني - أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث - أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقا . ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المفكرات والمحذورات .

قال : وأنا شديد التمجيب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل يردّها . وليس لهم في إثباتها شبهة فضلا عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لناهنا مقامان : المقام الأول - أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها . وقد ظهر ، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه . المقام الثاني - أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام . ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات . ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها . وإتلاف مال منقطع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبيٍّ مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها . ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده ، برّاً بها وإكراماً لها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتمطيل الصلاة . وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : الذي يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم . لأن التزويل الكريم مصدق الذي بين يديه . إلا أن له الهيمنة عليه . فما وقف فيه على حدّ من أنباء ما بين يديه ، يوقف عنده ولا يتجاوز . وحينئذ ، فالقصة المعروفة عندهم هي التي أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها ، إذ لا تقبل على علّاتها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ » أي ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً » أي جسماً مجسداً كناية عن صنم - على ما رووه - وإنما أوثر الجسد عليه - إجلالاً لسليمان عليه السلام ، وإشارة

إلى أن قصته - إن صحت - كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۵] (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي » أى غيرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

« فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ » أى فذلّلناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً » أى لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۷] (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

« وَالشَّيَاطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۸] (وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ » أى على من شئت من المقرنين وغيرهم « أَوْ أَمْسِكْ » أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المن والإمساك ، فيكون حالاً من المستكن . أو هو حال من العطاء ، أو صلة له ، وما بينهما اعتراض . والمعنى : إنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره . فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْن مَّآبٍ)

« وَإِنْ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى في الدرجات ، « وَحُسْن مَّآبٍ » أى مرجع في الآخرة .

تنبيه :

روى الأثرين ههنا قصصاً مطولة ومختصرة ، مؤلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يمتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام . فالظاهر أنهم يكذبون عليه . ولهذا كان في سياقها منكرات . وتقوية ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائي بإسناد قوى - لاعتباره له . فليس المقام قاصراً على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك في الصحيحين ، فأنى يروى غيرها ؟؟

وذكر الرازى أن القصص المروية هنا هي لأهل الحشو من تأويلهم . وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَانَ) أى آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته ، كما قال تعالى مصداقاً لموسى عليه السلام في قوله ^(١) (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] .

تَشَاءَ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ) إذ من الفتنة ما يهدي الله بها من يشاء وقال تعالى ^(١) (اَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا خرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو ، ونقول (صدق الله عز وجل ، كل من عند الله ربنا) ولو جاء نص صحيح في القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو ، لقلنا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أ كذب الحديث في ذلك ، فيكون كاذبا على الله عز وجل ، إلا أننا لانشك البتة في بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب . والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد في قول من قال إنه كان ولدآله ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسلمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير ما طبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشاني أن حكاية الجني والخاتم مع سليمان ، هي من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء في تمثيلاتهم من حكايات أفسال وسلامان ^(٢) .

ثم أخذ القاشاني في تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبل : إن صحت الحكاية في مطابقتها للواقع ، كان قد ابتلى بمثل ما ابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

(١) [٢٩ / المنكبات / ١-٣] .

(٢) انظر المراد منها في شرح (الإشارات) لابن سينا في أول النمط التاسع من مقامات

العارفين وأمثالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) « وَأَذْكُرْ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَا » أى الكامل فى التحقيق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ » أى دعاه وابتهل إليه قائلاً « أَنِّي مَسَّنِيَ » أى أصابنى « الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ » أى مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَرَكُنْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) « أَرَكُنْ بِرِجْلِكَ » حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أى : فاستجبنا له وقلنا : اركض برجلك . أى اعد بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك . وقوى جسمك وصح بدنك « هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ أَهْلَهُ ۖ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) « وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ أَهْلَهُ ۖ » بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا » أى ترحمنا عليهم بهذا الإضمام والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » أى وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتسكال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ يَدَكَ ضَعْفًا فَأُضْرِبْ بِهِ ۖ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نَعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ ۖ أَوَّابٌ) « وَخُذْ يَدَكَ ضَعْفًا فَأُضْرِبْ بِهِ ۖ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نَعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ ۖ أَوَّابٌ »

« وَخُذْ بِمِידِكَ ضِغْثًا » أى حزمة صغيرة « فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإِنبابة والابتهاال والعبادة .

تنبيهات

الأول - كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً فى قومه . وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية . وكانت إذ ذاك خصيبة رائمة التربة كثيرة المياه المتسلسلة . وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى - يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بجملة . وهو ما أشار له التنزيل الكريم ؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبـرا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : لم نسب المس إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إثمهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب - نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويفريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجليل . انتهى .

الرابع - دلّ قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) الآية ، على تقدم عَيْنٍ منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا في المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء . فإلله أعلم به ولا ضرورة لبياناه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهي الدلالة إلى الخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمجة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثلا ما كتب في الآية ، إيقافا للقرارئ عليه ، قال السيوطي في (الإكمال) : أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم ؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شاربخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هي للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة قال السكيا الهراسي : ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في عيونه . وخالف مالك وآراء خاصا بأيوب .

قال : وفي الآية دليل على أن الزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى . واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إني أردت أن لا أكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عفت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عبرة . انتهى كلام (الإكمال) .

وقد رد الإمام ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهيان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ) فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضربني عشرة أسواط فجمعها وضربها

ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه ، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد . وقال الشافعي : إن علم أنها مسته كلها ، برّ في يمينه . وإن علم أنها لم تمسه ، لم يبر . وإن شك لم يحنث . ولو كان هذا موجبا لبرّ الخائف ، لسقط عن الزاني والغازف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة . وهذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد ، في المريض عليه الحدّ ، ويضرب بمشكال يسقط عنه الحدّ . واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل ، عن سعيد بن سعد بن عبادة^(١) قال : كان بين أبنائنا إنسان مخدج ضعيف ، لم يبرح أهل الدائم إلا وهو على أمة من إماء الدار يحنث بها . وكان مسلما . فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ . فقال : اضربوه حده ، قالوا : يا رسول الله ! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتله . فقال : نخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة ، وخلوا سبيله . وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق . فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه ، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال : إنه الشيطان . ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فبكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة . فإنه لو كان في شرعهم كفارة ، لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها . فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود . وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذورا خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان ، وإنما قصدت الإحسان . فلم تسكن تستحق العقوبة ، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة الممذور ، هذا مع رفقتها به وإحسانها إليه فجعل له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة الممذورة ، التي لا تستحق العقوبة . فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام ، لنص السنة ، في شأن الضعيف الذي زنى . فلا يعمد بهما عن محلهما .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فإن قيل : فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أمتَهُ مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما ، إنه يبرّ بجمع ذلك في ضربها بمائة شراخ . قيل : قد جمل الله له مخرجا بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر يمينه ، ويقضى الله بالبر في يمينه ههنا ، ولا يحل له أن يبرّ فيها ، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل : إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله . ثم يحد الحد الواجب . كما روى مسلم ^(١) في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت . فأمرني أن أجلدّها . فأتيتهما فإذا هي حديثه عهد بنفاس . فخشيت إن جلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . أتركها حتى تمأثّل . انتهى كلام ابن القيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)

« وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أي ذوى القوة في العبادة والأفكار في معرفة الله تعالى . قال القاشاني : أي العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدي ، والثاني إلى البصر والنظر ، وهم أرباب الكالات العملية والنظرية . قال الشهاب : (الأيدي) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و (الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد بـ (الأيدي) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة السبب . و (الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لاجارحة له ولا بصر . انتهى .

(١) أخرجه في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ » أى صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ » أى الباقيّة والمقر الأصلي ، أى استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : (بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها - أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان . لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كما في قوله ^(١) (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره ، الثانى - أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أى بأن أخلصوا ذكر الدار وتماسوا عقد ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالعاقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقر بالتثنية وعدم الإضافة . وفيها أوجه - أحدها - أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون (ذكرى) منصوبا به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون (ذكرى) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منونا كما يعمل مضافا . أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابه . و (ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعنى) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و (الدار) يجوز أن يكون مفعولا به ؛ (ذكرى) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و (خالصة) إن كانت صفة ، فهي صفة لمحذوف . أى بسبب خصلة خالصة . انتهى .

(١) [٢٧ / النمل / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « الْأَخْيَارِ »
 أى المنزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أفعـل تفضيل .
 أو هو جمع (خير) المشدد أو المخفف منه « وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ
 مِّنَ الْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إيلياس وكان
 خادمه . ويقال له بالعبرانية (اليسع) كما يسمى إيلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل
 عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم عن أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ،
 فى سورة الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَذَا ذِكْرُكُمْ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ)

[٥٠] (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ)

« هَذَا ذِكْرُكُمْ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجاوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف
 يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجاوز به عنه بملافة اللزوم . فيكون المعنى : أى فى ذكر
 قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزخشرى أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو
 القرآن . أى بالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع
 من الكلام إلى آخر .

قال الزخشرى : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتته ، وهو باب من أبواب التنزيل ، وتوع
 من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، قال (هَذَا ذِكْرُكُمْ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ » أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)
« مُتَّكِئِينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)
« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يعنن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور) والثوب المقصور يشبه بالحوارى فى بياضه ونصاعته « أَتْرَابٌ » أى متساوية فى السن والرتب ، لا عجوز بينهن . جمع (ترب) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد . كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحد . ف (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وممثل بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)
« هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تعليمية . فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فيجمل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جمعت اللام بمعنى (بعد) كما فى (كتب لخمس) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقًا مَّا لَهُ مِن تَفَٰدٍ)

« إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن تَفَٰدٍ » أى انقطاع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (هَٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّٰغِيْنَ لَشَرَّ مَآبٍ)

[٥٦] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« هَٰذَا » أى باب فى وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا .

فهو خبر لمحدوف . أو مفعول لمحدوف « وَإِنَّ لِلطَّٰغِيْنَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ

الْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (هَٰذَا فَلْيَذُوقُوْهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

« هَٰذَا فَلْيَذُوقُوْهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يفسق من صديد أهل النار . أى يسيل .

وجملة (فَلْيَذُوقُوْهُ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَءَاخِرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ)

« وَءَاخِرُ » أى ومذوق ، أو عذاب آخر « مِن شَكْلِهِۦٓ » أى مثل هذا المذوق

أو العذاب فى الشدة والهوان « أَزْوَاجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بين ما يقال للرؤساء

الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)
 « هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ » أى هذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل
 طبائع السوء والذائل المختلفة ، مقتحم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والافتحام
 ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم .
 أوصفة لـ (فوج) . أو حال . أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ما اتواربهم رحبا وسعة ،
 لشدة عذابهم وكونهم فى الضيق والظنك ، واستيجاش بعضهم من بعض ، لقبح المناظر وسوء
 المحابر « إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثافا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)
 « قَالُوا » أى الأتباع للرؤساء « بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم ،
 لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم « أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا » أى قدمتم العذاب
 بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانى : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال . أى
 لأن الوضع لا يختص بالحقيقة . إلا أن الأظهر الأول . ويؤيده قوله تعالى بمد (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ
 تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) « فَبِئْسَ الْقَرَارُ » أى المستقر جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)
 « قَالُوا » أى الأتباع أيضا « رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ » كقوله (١)
 تعالى (رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ)

« وَقَالُوا » أى الطاغون أو الأنبياء « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ »
يعنون فقراء المسلمين الذى يَسْتَرْذِلُونَهُمْ وَيَسْخَرُونَ بِهِمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (اتَّخَذَ نَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ)

« اتَّخَذَ نَهُمْ سَخِرِيًّا » قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة (رجالاً) . وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسغار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ » أى مالت عنهم كبرا ، وتنجّت عنهم أنفة . والمعنى أى الفعلين فعلنا بهم ، السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على ما فعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل (أم) بمعنى (بل) أى بل زاغت عنهم أبصارنا خلفاء مكانهم علينا فى النار . كأنهم يسألون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلمهم معنا فى جهنم ولكن لم يقع بصيرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل ^(١) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَاذْنَبُوا لَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهُمُ الظِّلْمِينَ) إلى قوله ^(٢) (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) الآية . وقيل : (أم) بمعنى (بل) أيضا ، أى بل زاغت عنهم أبصارنا لكونهم فى دار أخرى وهى دار النعيم . وقرئ (سَخِرِيًّا) بضم السين وكسر ها .

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

« إِنَّ ذَلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » أى لواقع وثابت . و (تَخَاصُمُ) بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمخدوف . وقرئ بالنصب على البدل من (ذَلِكَ) قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصمًا ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك . ولأن قول الرؤساء (لَا مَرَّ حَبًّا بِهِمْ) وقول أنبياءهم (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبًّا بِكُمْ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصمًا ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الفاصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله (لَا مَرَّ حَبًّا بِهِمْ) صَالُوا النَّارِ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبًّا بِكُمْ) من قول الأنبياء . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثانى من كلام الأنبياء . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ، وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ » أى رسول مخوِّف « وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ » أى بلاولد ولا شريك « الْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والعجائب « الْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « الْغَفُورُ » أى لمن تاب وأناب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قُلْ هُوَ نَبَوُّهُ عَظِيمٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الذى أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَوُّهُ عَظِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

« أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لتأدى غفلتكم . فإن الماقل لا يعرض عن مثله . كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنمه البديع . وأما على بعثته ﷺ به ، فقولہ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاوره الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد في الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحي .

قال القاشانى : وفرق بين اختصام الملائكة الأعلى واختصام أهل النار بقوله في تخاصم أهل النار (إِنْ ذَٰلِكَ لَحَقُّ) وفي اختصام الملائكة الأعلى (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) لأن ذلك حقيق لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضى نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كالاتهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم ^(١) (سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقوله تعالى ^(٢) (أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) على ما ذكر في البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٣] .

وبالجملة ، فالاختصاص المذكور في الآية ، هو المشار إليه في قوله تعالى ^(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال الرازي : وهو أحسن ما قيل فيه .
ثم قال : ولو قيل : كيف جازت خاصمة الملائكة معه تعالى ؟ قلنا : لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب . وذلك يشابه الخاصمة والمناظرة . والمشابهة علة لجواز المجاز . فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ الخاصمة عليه . انتهى .

وملخصه : أن (يَخْتَصِمُونَ) استعارة تبعية لـ (يتقاولون) . وقيل : معنى الآية نفي علم الغيب عنه ﷺ ورد اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث في الملأ الأعلى من التخاصم ، كقوله تعالى ^(٢) (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) وقوله ^(٣) (قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) ولذا قال بعد :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)
« إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقرئ (إنمّا) بالكسر على الحكاية .

تنبيهات :

الأول - قال الرازي : واعلم أن قوله (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب في النظر والاستدلال ، ومنع من التقليد . لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل ، وقع في أعظم أبواب الشقاوة . فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهيمة . وصرح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفي بالمساهلة والمساهمة .

الثاني - قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصاص بالتقاول في شأن آدم عليه السلام

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٥٠] . (٣) [٦٧ / الملك / ٢٦] .

مع الملائكة . وقيل : خاصتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم . كما تجرى المفاظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه الكرماني في (عجائبه) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عني به ما كان في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد^(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحي . بتقدير (ما كان لي من علم لولا الوحي) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على السكل بلا تناف . والله أعلم . وقد جاء ذكر تخصم الملا الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد^(٢) عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نترأى قرن الشمس . فخرج ﷺ سريما ، فثوب بالصلاة . فصلى وتجوّز في صلاته . فلما سلم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إني قت من الليل فصليت ما قدر لي . فنفست في صلاتي حتى استيقظت . فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أدرى فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قات : لا أدرى ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتجلى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قات : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني . وإذا أردت

(١) [٢ البقرة / ٣٠] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فَنَنْتَهَ بِقَوْمٍ ، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مُفْتَوْنٍ . وَأَسْأَلُكَ حَبْكُ وَحِبِّ مِنْ يَحْبُكَ وَحِبِّ عَمَلٍ يَقْرَبُنِي إِلَى حَبْكُ .
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرَسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جعله يقظة فقد غلط . وهو في السنن
من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي^(١) من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به ،
وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصاص المذكور في القرآن . فإن هذا قد فسر .
وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعني قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ)

[٧٢] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى اغفروا له ساجدين تعظيماً وتكريماً ،
إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . (فإذا) بدل من (إذ) الأولى مفصل لما أجمل
قبلها من الاختصاص ، وهذا ما رآه الزمخشري وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء (اذكر)
وهو الأظهر عندي ، ويعضده القول الثاني في الآية المتقدمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٧٤] (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(١) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٤ - حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى باستكباره أمر الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ، أَسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

« قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي » أى بنفسى من غير توسط ،
كأب وأم « أَسْتَكْبَرْتَ » أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف « أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ »
أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

« قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانى
النارى أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية ،
واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى الله تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

« قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة
ومحل السكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » قال الفاشانى : الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عَنْ

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانفاس في الغواشي الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وقت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٨٠] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٨١] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

[٨٢] (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٣] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

« قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصنى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ)

« قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٦] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

«لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» أى تبعك فى التعزير والاستكبار والإباء عن الحق والحاجة فى الباطل «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» أى على القرآن أو الوحي . قال القاشانى : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالفرض «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» قال الزمخشري : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[٨٨] (وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٣ - باب وما أنا

من المتكفين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ و ٤٠ (طبعنا) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] .

« إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله ^(١) (لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وقوله سبحانه ^(٢) (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْثِمُوا) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » أى عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا ، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهذا من أجل معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التى ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمض ربح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوة ، وخوفهم أمناً ، وكمونهم ظهوراً وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيه الكريم ، وحقّت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] . (٢) [١١ / هود / ١٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩ - سُورَةُ الزَّمَرِ

سميت بها لاشتغالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المذعة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى . وهى مكية ، واستثنى بعضهم ثلاث آيات ^(١) (قُلْ يَمُودِي) الخ ذهابا إلى أنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة على ماروى . قيل ، ورابعة وهى ^(٢) (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) حكاه ابن الجوزى ، وتقدم الكلام فى مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائى ^(٣) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم . وكان ﷺ يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) أخرجه فى : ٢٢ - كتاب الصيام ، ٣٤ - باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزيله كائن من الله . وقرئ (تَنْزِيلٌ) بالنصب على إضمار فعل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن شوب الشرك والرياء ، بإحاض التوحيد وتصفية السر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

« أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ، لانفراده بالألوهية « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى بالحب ، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ » أى يقولون ذلك احتجاجاً على ضلالتهم « إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل الحق الجنة مع المحقين « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ »
لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » أى نزهه عن المائلة والمجانسة ، واصطفاه الولد . لكون الوحدة لازمة
لذاته ، وقهره بوحدايته لغيره . فلا تماثل في الوجود ، فكيف في الوجود ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ،
أَلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

[٦] (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْهَا أَنْثًا وَمِنْهَا
نَسَبًا أَزْوَاجًا ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَآفَىٰ أَنْصَرِفُونَ)
« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
اللَّيْلِ » أى يذهب أحدها وتغشى الآخر مكانه . كأنما ألبسه ولف عليه « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته « أَلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا » أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجٍ » أى ذكراً وأنثى . من الإبل والبقر والضأن والمز « يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ » أى متقلبين فى أطوار الخلقة « فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ » يعنى البطن والرحم والمشيمة « ذَلِكُمْ » أى الخالق لصوركم ، المكور أى المصروف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشئ للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » أى عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » أى لأنه سبب هلاكهم « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » أى وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثوابا حسنا لطاعتكم .

تنبيه :

فى الإكليل : استدلل بقوله تعالى (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصى . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولى أهل السنة . والقول الثانى وحكاه الآمدى عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سياتان ، وحملوا (العباد) فى الآية على المخلصين . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أى ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنوب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ » أى بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من الخير والشر .

القول فی تأویل قوله تعالى :

[۸] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ،

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

[۹] (أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا

رَحْمَةً رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ)

«وَإِذَا مَسَّ» ای اصاب «الْإِنْسَانَ ضُرٌّ» ای شدة وبلاء «دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ»

ای ایتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلا إليه بالدعاء والتضرع «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ»

ای اعطاه «نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ» ای نسی الضر الذي كان

يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسی ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه .

ف (ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفي ، ولما في (ما) من الإيهام والتفخيم ،

« وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » ای یصد الناس عن دينه وطاعته « قُلْ تَمَتَّعْ

بِكُفْرِكَ » ای عش به « قَلِيلًا » ای يسيراً فی الدنيا « إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ

قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » ای متعبداً فی ساعاته یقطعها فی السجود والقيام

« يَحْذَرُ الْآخِرَةَ » ای عقابها « وَيَرْجُوا رَحْمَةً رَبِّهِ » ای جفته ورضوانه ، ای :

أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد النامی لربه ؟ « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ »

ای توحیده وأمره ونهیہ فی الثواب والطاعة « وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ای لا یتویان .

تنبيهات :

الأول - في الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل : جوف الليل . وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثاني - في قوله تعالى (يَخْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) رد على من ذم العباداة خوفاً من النار أو رجاء الجنة . وقال ﷺ (١) (حولها ندندن) .

الثالث - في قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِي) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذم الجهل ونقصه . وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم ، أفاده في (الإكليل) .

وفي الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ، إذ عبر عنهم أولاً بـ (القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشاني : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس ، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته ، بل سيطر بالعلم والدم ، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم في حيز التخيل ، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعالم . إنما هو أمر تصوري وتخييل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعاً ، لا يغزو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أي يتعظ بهذا الذكر « أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ » أي العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم ، لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

(١) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٢٤ - باب في تخفيف الصلاة ، حديث

رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبي ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ لِّعِبَادِ الدِّينِ أَمْنُوا رَبَّكُمْ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) « قُلْ لِّعِبَادِ الدِّينِ أَمْنُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ »

أى للذين أحسنوا بالطاعات فى الدنيا ، مثوبة حسنة فى الآخرة ، لا يكتفئ كنهها « وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ » أى بلاده كثيرة . فمن تعمس عليه التوفى على الإحسان فى وطنه ، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه . قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعانى الكثيرة ، أوضحه شراح الكشاف بأن قوله (للذين أحسنوا) مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف . لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغى أن يلقى فى حرثها بذر الثوبات . وعقب بهذه الجملة لئلا يمتدح عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويعملل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام فرصة الأعمار ، وترك ما يعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكأها بلادى وكُلُّ العالمين أقارى

انتهى . « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ » أى على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان لها « أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن الالتفات إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) « وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » أى وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم

في الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية في الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تحمل اللام مزيدة . كما في (أردت لأن أفعل) فيكون أمرا بالتقدم في الإخلاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٤] (قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي)

« قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لَهُ دِينِي » عن شوب الغير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضلال ، وأهلهم بالإضلال . أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهلهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم ، أو بفقدهم فقدراً لا اجتماع بعده ، إن كانوا من أهل الجنة « أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ

بِهِ عِبَادَهُ ، يَلْعَبَادِ قَاتِقُونَ)

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَلِكَ »

أى العذاب الموعود به « يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ وَيُعِيدُهُمْ إِلَى الْيُسْرِ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ)

[١٨] (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ)

[١٩] (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . (و فعلوت) للمبالغة « وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » أى إشاراً للأفضل وإهماً بالأكمل . قال الزمخشري : أراد أن يكونوا نقاداً فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلاً وأماره . وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل (١) :

* وَلَا تَكُنْ مِثْلَ غَيْرٍ قِيدَ فَنَقَادَا *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضاً إشاراً للأفضل من كل نوعين ، اعتراضاً . كالواجب مع الغدب . والعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » أى أفأنت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلاً .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شَمَّرٌ وَكُنْ فى أمورِ الدِّينِ مجتهداً *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَغَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ)

[٢١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى لتذكيراً وتنبهاً على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى ^(١) (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ^(٢) (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أفاده الزخشرى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » أى وسمعه لتسليم الوجه إليه وحده ، ولقبول دينه وشرعه بلفظه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ » أى على بينة ومعرفة ،

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٥] .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] .

واهتداء إلى الحق . واستعارة النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لصد ذلك . وخبر (من) محذوف دل عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِلَّاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أى من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن السمكالات القدسية . أو من أجل ذكره . فـ (من) للتعليل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشأها عنه . قال الشهاب : إذا (قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوة نشأت منه . وإذا قيل (قسا عنه) فالعنى أن قسوته جعلته متباعدا عن قبوله . وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ (عن) فى الشواذ . لكن الأول أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله . وهو معناه إذا تعدى بـ (عن) . وذكره تعالى مما يلين القلوب ، فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته « أَوْلَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدًىٰ لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ)
« اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا » أى يشبه بمضه بعضا ، فى الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِيَ » جمع (مثنى) بمعنى مرّد ومكرر ، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيهِ ووعدهِ ووعيدهِ ومواعظهِ « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيدهِ ، بما يرد على قلوبهم منها « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَٰلِكَ » أى الكتاب ، أو الكائن من الخشية والرجاء « هُدًىٰ لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ » أى من زاغ قلبه « فَمَا لَهُ مِن هَادٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

« أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائماً مقامها فى أنه أول ما يحس المؤلم له . لأن ما يتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أعز أعضائه . وقيل : الانتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به ، لأن الوجه لا يتقى به . وخبر (من) محذوف كخطأه .
أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)
« كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحسبون أن الشر يأتيهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَذَافَهُمُ اللَّهُ أَلْخَزَىٰ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
« فَأَذَافَهُمُ اللَّهُ أَلْخَزَىٰ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
أى بينا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيقته وأحقيقته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به ما يهيمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المعقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ » أى مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى العذاب والحزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجل تلك الأمثال ، ما مثل به ليعتق من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى للمشرك والموحد رجلين مملوكين « رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبون ويتماورونه فى مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيراً متوزع القلب ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ » أى : خالص ملسكه له ، لا يتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالاً . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لا يزال متحيراً خائفاً لا يدري أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحداً . فهمه واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد العبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقه . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ^(١) (أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

أَلْقَهَارُ) « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ » قال أبو السعد : تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض ، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى . وأنها نعمة جلييلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء ، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته . وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون في ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » تمهيد لما يعقبه من الاختصاص يوم القيامة . وقرئ (مات وماتتوف) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتاج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجؤا في المكابرة والمناد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْإِصْدَقِ إِذْ جَاءَهُوْا ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ » أى افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ » أى بالأمر الذى هو عين الحق « إِذْ جَاءَهُوَ » أى حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه ورده على قائله . أى لا احد من المتخاصمين أظلم من حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ » أى جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يمتد بشبهة تقابله ، يعنى النبى ﷺ ومن تبعه « أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » أى الموصوفون بالتقوى التى هى أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيمهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[٣٥] (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٣٦] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

[٣٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

« لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ * أَيْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » بمعنى الأوثان التي عبدوها من دونه تعالى . وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تحبلك آلهتنا، ويصيبك ضررها لعميك إياها . كما قال قوم هود^(١) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا أُعْتِرَبَكَ بِمَعْصِيَةِ إِلَهِتِنَا بِسُوءٍ) « وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ » أَيْ من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلاً « فَعَمَلُهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَعَمَلُهُ مِنْ مُضِلٍّ » أَيْ يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بساوكه . إذ لا أراد لفضله ولا معقب لحكمه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَزِيدٍ ذِي أَنْتِقَامٍ » أَيْ ينتقم من أعدائه لأوليائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » لما تقرر في الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه « قُلْ » أَيْ تبسكيتا لهم « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ » أَيْ نعمه وخيره . كلا . فإنها لا تنفع ولا تنفع « قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » أَيْ في جميع أمورهم ، لا على غيره . لعلمهم بأن كل ماسواه تحت قهره .

(١) [١١ / هود / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ يَتَقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّى عَمِلْتُ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٤٠] (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« قُلْ يَتَقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناسبة الحق « اِنِّى عَمِلْتُ » أى على مكانتى . لحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأنيده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم . وقد أخزاهم الله يوم بدر ^(١) (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ،

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مرادهم « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بدلائله « فَلِنَفْسِهِ » وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذا ما عليك إلا البلاغ ^(٢) (فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ

الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(١) [٢٠ / طه / ١٢٧] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٤] .

« اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالسكية « وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » أى ويتوفى التى لم يحن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ » أى فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة « وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى وهو نوم آخر أو موت « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفىها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءَ ، قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

[٤٤] (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
[٤٥] (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعته ما ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذون له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أى فرادى ، أو مع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتقارهم بها ، ونسيانهم حق الله تعالى . ولقد بولغ فى الأمرين حيث بين الغاية فيها . فإن الاستبشار أن يحتل قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشتمزاز أن يحتل غما حتى ينفبض أديم وجهه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى التجيء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنی ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم . والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسليمه حبيبه الأكرم . وأن جدّه وسميه معلوم مشكور عنده تعالى . وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى ، والدعاء بأسمائه الحسنی ، والاستعانة بالتضرّع والابتهاال على دفع كيد العدو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

[٤٨] (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) « وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى نزل بهم جزاؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أَوْتَيْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٠] (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ »
 أى منى بوجوه الكسب والتحصيل « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أشكر تلك النعمة ،
 فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » قد قالها
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون^(١) (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) « فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ

سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

[٥٢] (أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ
 مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك
 - كما قال المهايى - أنه تعالى قوى بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه
 فيأض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب
 وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ،

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(١) [٢٨ / القصص / ٧٨] .

[٥٤] (وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

[٥٥] (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[٥٦] (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ)

« قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى جَنَوْا عليها بالإسراف فى المعاصى والكفر « لَا تَقْنَطُوا » قرئ بفتح النون وكسرها « مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » أى لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يحو أثر الإسراف « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » أى لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجب ما قبله « إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى توبوا إليه « وَأَسْلِمُوا لَهُ » أى استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ » أى قصرت « فِي جَنْبِ اللَّهِ » أى فى جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ » أى المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و (أَنْ تَقُولَ) مفعول له بتقدير مضاف . أى : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله . أى أنذرکم وآمرکم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله فى شروح (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي » أى للإسلام « لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أى :
من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر والتأمل بما لا يجدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

[٦٠] (وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

« بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد
والشريك ، ونحو ما يمنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم
« وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما ينافهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيقى .
أو لما يلحقهم من الكآبة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية
فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن
الإيمان والهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

«وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ» أى يفوزهم وفلاحهم لإيمانهم بأسباب الفوز ، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة «لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» *
اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّاتِ اللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَجْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى هو وحده يملك أمرها وخزائنها وغيوبها وأبواب خيرها وبركتها «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» *
قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
لَنْ أَشْرَكَ لِيَجْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ «أى خصه
بالعبادة «وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أى الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أَنْ) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بعده . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض . والحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهيج الرسل وإقنات الكفرة والإيدان بغاية قبج الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلّة للعمل مطلقاً ، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيداً بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحبط في الحقيقة . وأنه إنما ترك التقييد به اعتماداً على التصريح به في آية أخرى ، وهي قوله تعالى ^(١) (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَنْتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي ما قدروا عظمته تعالى حق عظمته ، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة . مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام . فإن تبديل الأرض غير الأرض ، وطى السموات كطى السجل ، أهون شيء عليه . وفي (القبضة واليمين) مذهبان معروفان . مذهب السلف ، وهو إثبات ذلك من غير تسكين له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أي ما يؤول إليه من حقيقة) لا يعلمه إلا الله . وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

المذهب الثانى - القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره فى كلام العرب. وإن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز فى المفردات ، استعيرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه فى المركب ، بتمثيل حال عظمتة ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشري وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى ، أنه جعل النفخ فى الصور سبب موت الكل تارة ، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » أى من خواص الملائكة . أو من الشهداء . روى ذلك عن بعض التابعين . وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت ثُنْيَتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لا يصار إلى بيان المهمات إلا بقاطع « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » أى وقوف ، يقلّبون أبصارهم دهشاً وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرا كل واحد عمله فى صحيفته .

أو (الْكُتِبَ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه . أو هو تمثيل . وجوه نقلها الشهاب «وَجَاءَ ، يَا لَنَفْسٍ مِّنَ الشُّهَدَاءِ» أى الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظلة والأخبار المطلعين على أحوالهم . أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لأطلاعهم على أحوالهم . وجوز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى ، تنوياً بشأنهم ، وترفعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفون جزاء أعمالهم ، لا ينقص منها شيء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)
[٧١] (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٧٢] (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)
[٧٣] (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)
«وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا» أى أوفاجا متفرقة بعضها فى أثر بعض ، على تفاوت ضلالهم وغيهم ، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا» أى ليدخلوها ، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهُمَا » أى الموكلون بتعذيبهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ » أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ » أى مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار السكرامة « زُمرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » أى من دنس المعاصى ، وطهرتم من خبث الخطايا « فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » قال السمين : فى جواب (إِذَا) ثلاثة أوجه : أحدها - قوله (وَفُتِحَتْ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جىء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى - أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهُمَا) على زيادة الواو أيضاً . الثالث - أن الجواب محذوف . قال الزمخشري : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجيئ بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدره المبرد : سمعوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتحة أبوابها . كما صرح بمفتحة حالا من (جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ) وهو قول المبرد والفارسي وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية . لأن أبواب الجنة ثمانية . وردّه فى (المغنى) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تسكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب . وهى جمع لا يدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلية عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى - على قول مثبتها - الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد . ذهاباً إلى أن بعض

العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذاناً بأن السبعة عدد تامّ ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على السفة رسله « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آبائهم . فكان الأعمال آبائهم . كما قيل : * وأبى الإسلام لأب لى سواه * وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » أى يتبوا كل من جنته الواسعة ، أى مكان أراداه « فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ » أى الملائكة السباوية حافين فى جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محققين به . وتقدم فى تفسير آية^(١) (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بين الخلائق « بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على ما قضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقاتل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠ - سورة غافر

وسميت (المؤمن) قال المهايى : سميت به لاشتغالها على كلمات مؤمن آل فرعون ،
المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه .
وعما أخذوا به ، وهي من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطول .
وهي مكية وآياتها ثمانون وخمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » الكلام في مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف في (ألم السجدة) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَهُهُ الْمَصِيرُ)

[٤] (مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْصَرِفُونَ فِي الْبَلَدِ)

« غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ » أى المُن والفضل
« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُهُ الْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ما يخاصم في حجج الله وأدلتها على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشري : سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر . والمراد الجدل بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إحضار الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله ^(١) (وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) فأما الجدل فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنهما ، فأعظم جهاد في سبيل الله . وقوله ^(٢) (جَدَلُوا فِي الْقُرْآنِ) وإبراده منكرا ، تمييز

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في السند بالصفحة رقم ٢٥٨

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٩٩ (طبعة المعارف) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فألهم إلى الزوال والنفاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَدُّوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ » أى الذين تحزبوا على الرسل وناصروهم « مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من (الأخذ) بمعنى الأمر . والأخذ الأسير « وَجَدُّوا بِالْبَاطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المتقرر بذاته « فَأَخَذْتُهُمْ » أى بالعذاب الدينى المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] « وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ »
« وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » قال (١)

ابن جرير: أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسليها ، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ)

[٨] (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٩] (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقد سبق في تفسير آية^(١) (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف ، كلام في حملة العرش ، فراجع «وَمَنْ حَوْلَهُ» يعنى الملائكة المقربين «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ» أى: ويقرّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم ، مع جلالة ، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلّة دعائهم للمؤمنين . حسبما ينطق به قوله تعالى «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا» فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصيح والشفقة . وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيذان بكال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

في موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَفِيهِمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزاءها « وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى : لبغضه الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضكم لبعض . وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تعذبون كما قال تعالى ^(١) (يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم . فقد يعقون أنفسهم حين تظهر لهم هيأتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح النظر المنفر « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » أى تدعون على السنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتواً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَلْتُنَّيْنَا فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى

خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)

« قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَلْتُنَّيْنَا » أى أنشأنا أمواتا مرتين . وأحييتنا فى النشأتين كما قال تعالى ^(٢) (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) قال قتادة : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا . ثم أماتهم الموت التى لا بد منها . ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حيانان وموتتان « فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا » أى : فأقرنا

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨] .

بما عملنا من الذنوب في الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أى : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل . قال الزخشرى : وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تمللا وتحيرا . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُوَ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّنَا ، فَأَلْحَكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

[١٣] (هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)

« ذَٰلِكُمْ » أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب ، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُوَ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّنَا » أى بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم ^(١) (أَجْعَلْ آلَٰهَةً ءِالَهَا وَاحِدًا) وإيمانكم بالشرك « فَأَلْحَكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » أى فالتضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوه وكبريائه . فلا يمكن أحدا رد حكمه وعقابه « هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ » أى من الريح والسحاب والبرق والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنَزِّل لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » أى مطرا . وإفراده بالذكر من بين الآيات ، لعظم نفعه ، وتسبب حياة كل شئ عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أى . وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[١٥] (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

« فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله ^(١) (ذِي الْمَعَارِجِ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه وكلماته ، غير المتناهية « ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ » أى الوحي والعلم اللدنى الذى تحيا به القلوب الميتة « مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ،

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

[١٧] (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو بناء « لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ » أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم . وقوله « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاقى والبروز . فيجيب هو

(١) [٧٠ / المعارج / ٣] .

وحده « لِلَّهِ الْوَحِيدِ » أى المتفرد بالملك « الْقَهَّارِ » أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى بإبصار ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنذَرُهمْ يَوْمَ الْأُزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينِ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

« وَأَنذَرُهمْ يَوْمَ الْأُزْفَةِ » أى الواقعة القريبة « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارها ، فتصير لدى الحلق « كَظْمِينِ » أى ممتلئين غمًا ، بما أفرطوا من الظلم « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ » أى قريب يهتم لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم « وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)
[٢٠] (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[٢١] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

[٢٢] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٢٤] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ)

[٢٥] (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ

وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« يَعْلَمُ خَاسِيَةُ الْأَعْيُنِ » أى نظراتها الخائنة. وهى الممتدة إلى مالا يحل « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى تكتفه من الضمائر والأسرار « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا » أى لأنهم لا يقدرُونَ على شئ ، « إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » يعنى حصونهم وقصورهم وعددهم « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ » أى بآيات نبوته « مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ » أى : قالوا أعيديوا عليهم القتل ، كالذى كان أولًا. واستبقوا نساءهم للخدمة « وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى : وما مكرهم فى دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا فى ضياع . إذ هو كالفناء الذى يقذفه تيار الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أى ما أنتم عليه من عبادة الأصنام « أَوْ أَنْ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » أى فساد مملكتى .
إذ يتفق الكل على متابعتة وإجراء أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِیَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسَابِ »
أى التیجات إلیه وتوكلت علیه ، فهو ناصر دینه وممیز أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ
كَذِبًا فَعَمَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » أى من فرعون وملئه
« أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَعَمَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » أى من عذاب الدنيا إن
تعرضتم له . وقد أشار الخششى إلى ما فى طى هذا القول من اللطائف والأسرار ، بما ملخصه :
إن هذا المؤمن استدرجهم فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من
عند من تنسب إليه الربوبية ، بينات عدة لا ينفك واحدة . وأتى بها معرفة . معناه البينات العظيمة
التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جاحهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : لا يخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا . فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقا فيصحبكم ، إن تعرضتم له ، بعض الذي يعدكم . وإنما ذكر (بعض) في تقدير أنه نبي صادق ، والنبي صادق في جميع ما يعدُّ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداواة . فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم ، وأدخل في تصديقهم له ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته . وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعدُّ . ولكنه أردفه (يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، ليربهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلا عن أن يكون متعصبا له . وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى ^(١) (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهِمْ أَن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فقدم الشاهد أماره صدقها على أماره صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة . وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ، مافي قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » قال الزمخشري : يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا ، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر ، فمتخلصون منه . وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ، ولما عضده بالبينات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(١) [١٢ / يوسف / ٢٦ و ٢٧] .

« يَقُومَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ » أى عالين وقاهرين ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » أى ما أشير عليكم إلا ما استصوبه من قتله . إذ البأس السماوى من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَا أَهْدِيكُمْ » أى بإراءة رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ، بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

[٣١] (مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من قتله « مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ » أى الطوائف الهالكة بالكذب « مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ » أى جزائهم من الفرق « وَعَادٍ » أى من الريخ العقيم « وَثَمُودَ » أى من الصيحة « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجب « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » أى فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

« وَيَقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أى عذابه . سعى بذلك لما جاء فى حديث^(١) (إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ،

(١) لم أعر على هذا الحديث .

فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضاً (أى : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار . وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار ^(١)) (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) ومناداة أهل النار أهل الجنة ^(٢)) (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) . واختار البغوي وغيره ؛ أنه سُميَ لمجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ » أى ذاهبين فراراً من الفزع الأكبر ^(٣) (كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) « مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه ، من مانع ، لمقرر الحجة عليكم « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » أى يزيغه عن صراط ربه « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » أى من قبل مجئ موسى بالحجج البينة

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١١ و ١٢] .

والبراهين النيرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله ^(١) (« أَرَأَيْتَ إِنْ مَثَّرَ قُورَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ») فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ « أى مع ظهور استقامته السكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّى إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُرْتَابٌ » أى شاك مع ظهور لواضع اليقين .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانِ أَتْسُهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)
« الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانٍ » أى برهان « أَتْسُهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »
أى بطر للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . الذى فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتياح والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ)
[٣٧] (أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنْ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا » أى قصرًا عالياً ظاهراً لكل أحد

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

« لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ » أى طرقها « فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه « وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَذِبًا » قال ابن جرير^(١) : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعى ، من أن له فى السماء رباً أرسله إلينا « وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبّره وإسرافه وارتياحه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيّله ، مما أرادته من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَأْتِيكُمُ الْبَيْتُ الْمَكِينُ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَأْتِيكُمُ الْبَيْتُ الْمَكِينُ سَبِيلَ الرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَأْتِيكُمُ الْبَيْتُ الْمَكِينُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي فِيهِ كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْمَلَائِكَةَ فِي الْمَقَامَاتِ)

« يَأْتِيكُمُ الْبَيْتُ الْمَكِينُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي فِيهِ كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْمَلَائِكَةَ فِي الْمَقَامَاتِ » أى تمتع بيسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَىٰ » التى يوصل إليها سبيل « هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ »

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ « أى بغير تقدير وموازنة بالعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشري : قوله (بِغَيْرِ حِسَابٍ) واقع في مقابلة (إِلَّا مِثْلَهَا) بمعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لثلا يزيد على الاستحقاق . فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ)

[٤٢] (تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ)

« وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ « أى بوجوده علم ، إذ لا وجود له « وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ « أى الغالب الذى يقهر من عصاه « الْغَفَرِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس من أطاعه ، بأنواره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (لَا جَرَمَ أَنَّكَ تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ)

وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[٤٤] (فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفْوَضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« لَا جَرَمَ أَنَّكَ تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ » أى

الذى تدعوننى إلى عبادته ، ليس له دعوة فى الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا في الآخرة لدفع أهوالها ، على ما قاله المهايي . أو لا دعوة له في الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله الفاشاني . وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارة عن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق (لَا جَرَمَ) عند البصريين أن يكذب (لَا) ردًا لما دعاه إليه قومه و (جَرَمَ) بمعنى كسب . أى وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون (لَا جَرَمَ) نظير (لا بد) من الجرم وهو القطع . فكم أنك تقول (لا بد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذى هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك (لَا جَرَمَ) معناه لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هي باطلة أبدا . هذا ما يستفاد من (الكشف) .

وفي (الصحاح) : قال الفرّاء : (لَا جَرَمَ) كلمة كانت في الأصل بمنزلة (لاحالة ، ولا بد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة (حقا) فلذلك يجاب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لا جرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام في (المغني) في بحث . والجلال في (معجم الهوامع) أنباء بحث إن والقسم ، فانظرها . « وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ » أى فى الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَقَدُوا مَا قُورُوا لَكُمْ » أى من النصح عند معاينة الأهوال وما يحيق بكم « وَأَقْرَضَ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ » أى وأسلم أمرى إليه وأجعله له وأتوكل عليه ، فإنه السكافى من توكل عليه « إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ » أى فيعلم المطيع منهم والعاصى ، ومن يستحق الثوبة والعقوبة .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

« فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا » أى فرقع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيائه وتصديق رسوله موسى ، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه ، من العذاب والبلاء ، فنجاه منه « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ » أى بفرعون وقومه « سُوءُ الْعَذَابِ » يعنى الغرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
إِلَافِرْعُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[٤٧] (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَتَمُّ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)

[٤٨] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)
«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم .
على أن (النَّارُ) مبتدأ وجملة (يُعْرَضُونَ) خبره . وعلى الثانى ، فالنار خبر لمحدوف وهو
خبر العذاب السبي . أو هى بدل من (سوء العذاب) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائماً .
واكتفى بالطرفين المحيطين - الغدو والعشي - عن الجميع . وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ .
وقامه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطى : وفى (العجائب) للكرمانى : فى هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر .
لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » أى هذا العرض
مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوا إِيَّالَافِرْعُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو
عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ » أى يتخاصمون فيها ،
الأتباع والمتبوعون « فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى أتباعاً
كالكرهين « فَهَلْ أَتَمُّ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنيانا عن أنفسنا « إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ولا معقب لحكمه .
أو بأن قدر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه ، ولا يتحملة عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب
بما قبله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ » أى لما أيسوا من التخفيف عند الحاجة « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألم يوم وشدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ، قَالُوا فَادْعُوا، وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُوا بَلَىٰ » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُوا فَادْعُوا » أى إن كان ينفعكم ، وهيهات « وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوهم واستئصاله عاجلاً ، أو بإظهارهم بعدوهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعم الأبدى والحبور السرمدى . و (الْأَشْهَادُ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظالماً . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)
 «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» قال ابن جرير^(١) :
 ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل . وذلك أن الله
 قد أعذر إليهم في الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام
 بالكذب ، بأن يقولوا^(٢) (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة ، وهي البعد
 من رحمة الله ومثراً ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ)
 «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى» . أى ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه
 كما كذبت قريش «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ» أى وتركنا عليهم بعده من
 ذلك التوراة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ)
 «هُدًى» أى بياناً لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها «وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ»
 أى لذوى الحجبى والعقول منهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والمشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« فَأَصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرتك على من خالف ، لا خلف له وهو منجزه . واذكر نبأ موسى وفرعون « وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » كقوله تعالى ^(١) « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : لا تسكبر عن الحق وتعظم عن التفكر ، وعظم ابن جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوة « مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ » قال ابن جرير ^(٢) : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأماني . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغى تلك العظمة ، لأن الله مدّ لهم « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » قال ابن جرير ^(٣) :

(١) [٥٠ / ق / ٣٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فاستعجر بالله يا محمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم .

تنبيه :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعبد بالله من فتنته . قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وفيه تمسك بعيد . وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير ، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » أى : لإنشاءهما وابتداعهما من غير شيء ، أعظم من خلق البشر « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يعملون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْأُمِّيَّ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ » أى ما يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما شاء ، ويؤمن به - والبصير الذى يرى بعينيه ما شخص لها ويبصره . وذلك مثل المؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيفكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لأمرهم « وَلَا أَلْمُسِيءَ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)
« إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بمجيئها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون بمجيئها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدونى أُنْصِبْكُمْ . قال الزمخشري : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدل عليه قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له . لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإثابة لثربتها عليها استجابة ، مجازاً أو مشاكلة . وإنما أول به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جَوَزَ أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازاً ، لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها نعيم . قال الشهاب : ولوقيل لاحاجة إلى التجوُّز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوُّز - لكان أحسن . انتهى . وعلى الوجه الثاني - وهو أن المراد بالدعاء السؤال - اقتصر كثير من المفسرين . قال المهاييميّ (أَسْتَجِبْ لَكُمْ) لأن الدعاء من العبد غاية في التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة . وإذا لم يستجب له في الدنيا عوضه في الآخرة . ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال . اهـ . وقال القاشاني : الآية في دعاء الحال . لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعو به خير له أم لا ، دعاء المحجوبين . وأما الدعاء الذي لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداداً لقبول ما يطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتأب إلى الله ، وأنا ببالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم في آية^(١) (أَجِيبْ دُعَاةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا) فوائد تناسب هذا المقام ، فلترجع . ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقتضى شكره بالعبادة ، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

[٦٢] (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)
« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ » أى الله الذى لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا تنبغى عبادة غيره ، هو الذى جعل لكم الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار « وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا » أى أن يبصر فيه أو به لتتحرروا لتحصيل الأكساب الدنيوية والدينية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » أى ليشكروه بعبادته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » أى عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى من الأمم المتقدمة الهالكة . أى فسلكتكم أنتم معشر قريش مسلكتهم ، وركبتهم عجبهم في الضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى تستقرون عليها وتسكنون فوقها « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » أى مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم . وقد فسر (البناء) بالقبعة المضروبة . لأن العرب تسمى المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كبريتها . قاله الشهاب « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » أى يجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » أى لذيات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده « ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى الذى لا تصلح الربوبية إلا له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« هُوَ الْحَيُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شىء سواء فتنقطع الحياة غير دائمها « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشركوا فى عبادته شيئاً « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .
قال ابن جرير^(١) : وكان جماعة من أهل العلم يأمرّون من قال (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أن يتبع ذلك (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) تأولوا منهم هذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جرير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَفَّى
مِنْ قَبْلُ ، وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَاقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ » أى ببقيةكم لتبلغوا
أشدكم ، فتتكمّل قواكم « ثُمَّ لَتَكُونُوا » أى إذا تنهّاهى شبابكم وتنام خلقكم « شُيُوخًا
وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا « وَلَتَبْلُغُوا » أى وتعمل ذلك
لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميقاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو
يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتندبروا
آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ)
« هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ » أى
يكونه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى (البقرة) الكلام على هذه الآية مطوّلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)
[٧٠] (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)
[٧١] (إِذَا الْأَغْصَلُ فِي أَغْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسَجَّبُونَ)
[٧٢] (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى النقي

« الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ » أى بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْدُلُ فِي أَعْنَتِهِمْ وَالسَّكْسِلُ يُسَجَّبُونَ * فِي الْحَمِيمِ » أى الماء الحار . قال المهايى : لدفعهم برد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » أى يحرقون . قال المهايى : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

[٧٤] (مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ،

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » أى غابوا فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضلّاهم استمارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم « بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا » أى ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانى : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم فى عبادته ، ليس بشيء ، فضلاً عن إغوائه عنهم شيئاً « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ » أى أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

« ذَلِكُمْ » أى العذاب « بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ » أى بسبب فرحكم فى الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصى ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأثر والبطر والخملاء . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)

« أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ » أى منزل
المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ،
وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي
نَعِدُهُمْ » أى من العذاب والنعمة « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل أن يحل بهم ما يحل « فَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ » أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ،
البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن
لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ » أى لتقف على ماوفينا لهم
من وعد النصر إياهم فى الدنيا « وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » أى لمكان الطول .
مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشئ يعقبه بشكله « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ

يَأْتِي بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ « أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم فى طلب ماقص عنهم من آية^(١) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) الآية ، بأن الإتيان بذلك مراد مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى^(٢) (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) وقال تعالى^(٣) (أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة ، بعد إتيانها « قُضِيَ بِالْحَقِّ » أى من المواخذة ، بمد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » أى فى دعواهم الشريك ، وافترائهم الكذب .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٧٩] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)
[٨٠] (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى أَفْئِكُمْ تُحْمَلُونَ)

[٨١] (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)
[٨٢] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« اللَّهُ » أى الذى لاتصلح الألوهية إلا له « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ » أى مسخرة

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥١] .

« لَتَرَكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف
« وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ » أى بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ » أى
في طريق البحر « تَحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ » أى دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته
« فَآيَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » أى من الحصون
والقصور والمباني والعدد والعدد « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى مما لا يدفع به
العذاب الأرضي ولا السماوي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

[٨٥] (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ، سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » أى الخلق عن
نور الهداية والوحى ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسولهم
لاستصغارهم بما جاءوا به ، في جنب ما عندهم من العلم الوهمي « وَحَاقَ بِهِمْ » أى من عذاب الله
« مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى جزاؤه « فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ
كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ » أى مضت في خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيماناً في تلك الحال
« وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » أى وهلك ، عسـد مجيئ بأسه تعالى ، الكافرون برهبهم
الجاحدون توحيد خالقهم . ففاتتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه
وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١ - سورة فصلت

(حمّ السجدة)

سميت بها لاشتغالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة المظاهر بالسكينة . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمى . وهى مكينة . وآيها أربع وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

« حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قال أبو السعود : إن جعل (حم) اسماً للسورة ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره (تَنْزِيلٌ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسروداً على نمط التعديد . وقوله تعالى (مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) متعلق به ، مؤكداً لأفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو (تَنْزِيلٌ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« كِتَابٌ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيدان بأنه مدار المصالح الدينية والدينيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبى عنه قوله تعالى^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَسْلَمِينَ) « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بيئت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا » أى بلسان عربى يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب (قُرْءَانًا) على المدح ، أو الحالية من (كِتَابٌ) لتخصصه بالصفة ، أو من (آيَاتُهُ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« بَشِيرًا » أى للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه ، بالفعيم المقيم « وَنَذِيرًا » أى للمعرضين عنه بخلود الأبد فى نار جهنم « فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يقربوه « فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى لا يصفون له ، عتوا واستكبارا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْٓ ءِذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ)

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى أعطية متسكافة ، لا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه ، من التوحيد وتصديق ما فى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعود والوعيد « وَفِيْٓ ءِذَانِنَا وَقْرٌ » أى صمم ، لا نسمع ذلك ، استنقالاته وكراهية « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » أى فلا تواصل ولا تلاقي على ما ندعى إليه « فَاعْمَلْ » أى على ما تدعوا إليه ، وانصب له « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على ما ألقىنا عليه آباءنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

[٧] (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَعِظُمُوا إِلَٰيهِ »
 أى بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَأَسْتَغْفِرُوهُ »
 أى بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى لا يزكون
 أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا ما رجحه ابن جرير^(١) ، ذهاباً
 إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضمنية الإيتاء . وفيه إشارة إلى أن من
 أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه . وعن قتادة : إن الزكاة
 فطرة الإسلام . فمن قطعها نجاً ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير^(٢) : وقد كان
 أهل الردّة ، بعد نبي الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة ، فوالله ! لا تنصّب أموالنا .
 قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله ! لو منعوني عقلاً مما فرض
 الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُمْ بِآلِ الْآخِرَةِ » أى بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ
 كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى عليهم .
 أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
 أَنْدَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ الْمُسْلِمِينَ)

[١٠] (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنَبِّئَهُمْ)

« قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ » أى في مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعلمهم بصلة الموصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذعفت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهودا لها « وَتَجْمَعُونَ لَهُ وَ أَنْدَادًا » أى أكفاء (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكُفُوءًا أَحَدٌ) « ذَلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالا ثوابت « مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْإِنْسَانِ أَيْ مُسْتَوِيَةً بِالْأَمْتَرَجِ وَالْإِعْتِدَالِ ، لِلطَّالِبِينَ لِلْأَقْوَاتِ وَالْمَعِيشِ . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات . فحده ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

« ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » أى قصد إلى إيجادها . و (ثم) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لا زمان هناك . قاله القاشانى .

وقال ابن جرير^(١) : أى ثم ارتفع إلى السماء ، أى بـلاتسكييف ولا تخيل « وَهِيَ دُخَانٌ » قال القاشانى : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر السكيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى : (دخان) أمر ظلمانى . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصفرة التى ركبت منها . وأصله للرازي حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقرا ، وأحدث صفة

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال : فهذا ماخطر بالبال في تفسير الدخان . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية (وَهِيَ دُخَانٌ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى (١) (أُولَئِكَ يَرَوْنَ اللَّهَ كَكُفْرٍ وَأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسموات ، تصديقا لقوله تعالى (فَفَتَقْتَهُمَا) أى فصلناها ، فصارتا كرات من الماء في يومين . أى ألفى سنة . لقوله تعالى (٢) (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أى كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» قال القاشاني : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادهما ، فوجدتا في الحال معا . كالأمر المطيع ، إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع لم يلبث في امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لا قول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير (٣) : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئنا بما خلقت فيكما . أما أنت يا سماء ، فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشققي عن الأنهار (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى جيئنا بما أحدثت فينا من خلقك ، مستجيبين لأمرك ، لانصصى أمرك . انتهى . يعنى أن إثبات المقولة مع السماء والأرض من المجاز . إما بالاستعارة المكنية ، كما نقول (نطق

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التي بينهما وبين خالقهما ، في إرادة تسكويتهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذى جبروت له تفاد في سلطانه ، وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد . وقدره غير واحد قول من ذهب إلى أن في الجمادات تميزاً ونطقاً على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال في (الفصل) : وأما قوله تعالى (قَالَتْ أَأْتَيْنَا طَائِعِينَ) فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن ، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفيتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذا لاشك في هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفيتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذا هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عنى ليست هذه صفة ، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذا هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) إنما هو على تفاد حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال في (أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) فإنهما لما نزلا - وهما من الجمادات - منزلة العقلاء ، إذ أمرا وخوطبا على طريق المسكنية أو التمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكراهة ترشيحاً . وهما مؤولان بد (طائع وكاره) لأن المصدر لا يقع حالا بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً . وإنما قال (طَائِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء المذكور . وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكراهة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« فَقَضَيْنَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أى أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان .
قال المهايى : ولم يجعل لمادتها يوما . لأنها كثادة الأرض . فدخلت في يومها « وَأَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا » أى ما أمر به فيها ودبره من الملائكة والخلق الذى فيها ، وما لا يعلم
« وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَلِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصاييح معلقة به ،
مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أى من الشياطين أن
تسترق أخبارها « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا » أى عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل
شئ ، الذى اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَثَمُودَ » لأنكم مثلهما فى العناد ، ومثل عاد فى الاستكبار ، ومثل ثمود فى استجاب
العمى على الهدى .

قال ابن جرير (١) : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشئ وغيره عن
هيئته . وقيل فى هذا الموضع : عُيِنَ بها وقعة من الله وعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ،

قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ،

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٦] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

* إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ « قال الزمخشري : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان ^(١) (لَا يَنْتَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) » يعنى لَا يَنْتَهُمُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَا يَمْلِكُ فِيهِمْ كُلَّ حِيلَةٍ . وتقول (استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ما عرف في مثله . والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الكفاية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس ، كما ذكر فى آية الكرسي « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا » أى إرسال رسول « لَأَنْزَلَ مَلَكًا » أى من السماء بما تدعوننا إليه « فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ » أى من عبادة الله وحده « كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتق عذابه « وَكَانُوا بَاءًا يَلْتَنَاءُ » أى التى هى أقوى الدلائل « يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعتوهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبوبها « فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الآخرة . كالم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازى : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [٧ / الأعراف / ١٧] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي . ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي . وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس . وكذا ما يروونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد . فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُنِّ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْنَهُمْ » أى بَيَّنَّا لَهُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَطَرِيقَ الرُّشْدِ . وَنَهَيْنَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا الضَّلَالَةَ . وَأَمْرُنَاهُمْ أَنْ يَقْتَفُوا الْهُدَىٰ « فَاسْتَحَبُّوا أَلَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ » فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُنِّ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ « أى مِنَ الْآثَامِ ، بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ . وَذَلِكَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَحْدَهُ وَتَصْدِيقِ رَسَلِهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يَوْمَ يَجْمَعُ ، لِمَزِيدِ الْفَضِيحَةِ ،

بين الأولين والآخرين، أعداء الله الشركون والجاحدون، إلى النار فيجىء أولهم على آخرهم، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا » أى فبالغوا فى إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أى بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها « وَأَبْصَرُهُمْ » أى بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاختاروها « وَجُلُودُهُمْ » أى بأنهم باسروا المعاصي ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ » أى المدركة ألم العذاب الذى لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا » أى بما يوجب إبلاكم « قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ » أى بهذه الشهادة « الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » أى أنطق كل شيء من الحيوان . فهو من العالم الذى خصه العقل ، كقوله تعالى (١) (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى كل شيء من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته . وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به فى الدنيا ، بتغير أشكالها ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء فى الآخرة . فالنطق مجاز

عن الدلالة . قال القاشاني : معنى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) أى غيرت صور أعضائهم ، وصوّرت أشكالها على هيئة الأعمال التى ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنتطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت (أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) إذ لا يخلو شيء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازى : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البيئة ليست شرطا للحياة ، ولا شيء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازى : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب الكنايات كما قال ^(١) (وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) وأراد النكاح . وقال ^(٢) (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) والمراد قضاء الحاجة . فتسكون الآية وعيدا شديدا فى الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية فى الترجيح الذى يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة فى أحدهما ، مجازا فى الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف الكناية عن المسكن عنه . وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

ويقال : ما بيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عالم ، فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة ، شهادة باطلة . إذ هي شهادة غير شاهد . والشهادة هنا يراد بها الإقرار . فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا . وتقول الرجل : أنا مشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقررة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به السكل أو البعض . فإن أريد به السكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريد به البعض ، فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما - أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر - إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج . فكفى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى (١) (فَكَيْفَ إِذْ نَخَلُّهُ وَرُؤْمَانُ) والنخل والرمان من الفاكهة ، قلت في الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والرمان إنما ذكرنا لتفضيل لهما في الشكل أوفى الطعم ، والتفضيلة ههنا في ذكر الشهادة ، إنما هي تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم في المعصية . لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة ، أو في سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ما جرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم : وكلا المعصيتين لاحدة فيهما . وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغي أن تخص بالذكر

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد مذهب إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبي الحديد في (الفلك الدائر) بما حصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين ، إذا كان بين لفظي الجلد والفرج أو معناها مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فعبّر عن السكل بالعض ، وهو بعيد جدا . انتهى . وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى . وذلك لأن الجلد تصدق على ماحواه الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكتسب الجريمة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربي على الجميع . وقد عهد في مفسرى السلف اقتصارهم في التأويل من العام على فرد الأهم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل ما فيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفي غيره . وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحل بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلٍّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ »
أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . (فَ أَنْ يَشْهَدَ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو في محل نصب . وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق ، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ، كما قال أبو نؤاس ^(١) :

إذا ما خلوت الدهر يوما ، فلا تقل خلوت . ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يفعلُ ساعةً ولا أن ما يخفى عليك ، يغيبُ
« وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم
فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيرا ، وهو ما علمت خفية . فما استترتم عنها
واجترأتم على المعاصي . وإذا كان (أن يشهد) مفعولا له ، فالعنى ما استترتم بالحجب ،
لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم
كثيرا ، فلذا سمعتم في الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنَّاَصْبَحْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ)

« وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنَّاَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى أهلككم بالجراءة على
مخالفته في الدنيا ، ومجادلته في القيامة « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى لأعمال النجاة
والدرجات في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَنَّارٌ مَّثْوًى لَّهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)
« فَإِنْ يَصْبِرُوا » أى على النار « قَالَنَّارٌ مَّثْوًى لَّهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِنْ
يَسْتَغِيثُوا » أى يسألوا العتي وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » أى
المجاين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه (طبعة ١٩٥٣) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ)
[٢٦] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلية . فالطرفان كفاية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشيء الذى بين يديك تقلبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذى خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلية ، وما خلفهم الدنيا لمضيها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانى فى تفسير الآية : أى قدرنا لهم أخذانا وأقرانا من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم فى المواد الهیولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرية المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت (فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما يحضرتهم من الذات البهيمية والسبعية ، والشهوات الطبيعية (وَمَا خَلْفَهُمْ) أى من الآمال والأمانى التى لا يدركونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلهى ، بالشقاء الأبدى « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ » من المكذبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا « أَيْ سَتَرُوا زينة أدلة القرآن عن أتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية « لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ » أَيْ إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه « وَالْقَوَا فِيهِ » أَيْ ائثروا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له . أو ما لا معنى له « لَمَّا كُنتُمْ تَغْلِبُونَ » أَيْ تصدّون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، اننى يغلب بها عقولكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أََسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٨] (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

« فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أََسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ » أَيْ المسكن الأبدي . وفى النظم الكريم من البديع ، التجريد . وهو أن يفتزع من أمر ذى صفة ، آخر مثله ، مبالغة فيها . لأنها نفسها دار الخلد . وجعله للظرفية الحقيقية ، تكلف لا داعي له . مع أن المذكور أبلغ . قاله الشهاب « جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » أَيْ ينكرون أو يلفنون . وذكر الجحود الذى هو سبب اللغو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمْ
تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » قال القاشانى :
أى حنق المحجوبون واغتاطوا على مَنْ أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا
أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران
وعذاب الحرمان والخسران ، بسببهم . وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم ،
وأزل مراتبهم . كما ترى مَنْ وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ،
يتحرّد عليه ويتغيّظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ
أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ عَدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ » أى وحدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته
« ثُمَّ اسْتَقَمُوا » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ،
والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ
عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ » أى فى الدنيا ، بإلهامهم . أو عند الموت ، أو حين البعث « أَلَّا تَخَافُوا »
أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُوا » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل
وولد . فإننا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفرع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية^(١)

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ) والتنزيل يفسر بعضه بعضا .
أوالآيتان في مقامين وبشارتين . وفصله تعالى أوسع ، وجوده أعم وأشمل . قال القاشاني : وإنما
نزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي ، والإيمان اليقيني ، والعمل
الثابت على منهاج الحق والاستقامة في الطريقة إليه . غير ناكثين في عزيمة ، ولا منحرفين
عن وجهة ، ولا زائغين في عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ،
بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فنزلت عليهم . انتهى . وقوله تعالى « وَأَبَشِّرُوا بِأَلْحَمَّةٍ
الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أي في الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ)

[٣٢] (نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

« نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » أي أحباؤكم في الدارين . للتناسب
بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة في الظلمة
والكدورة . قال ابن كثير : أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا قرناءكم
في الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم في الآخرة .
نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور .
ونجاوزكم الصراط المستقيم . ونوصلكم إلى جنات النعيم . وقال الرازي : معنى كونهم أولياء
للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والكاشفات اليقينية .
كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح ، بإلقاء الوسوس فيها ، وتخييل الأباطيل إليها . وبالجملة ،
فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة ، حاصل من جهات كثيرة معلومة ، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا ، فهي تكون باقية في الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . كما قال ﷺ^(١) : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لفظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفي ومنزع فلسفي ، فيه شية من الرقة « وَلَكُمْ فِيهَا » أى في الآخرة « مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » أى تتمنون « نَزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ » أى إكراما معدا لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء في مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بي ، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأثيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أي لأحد أحسن مقالاً ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤمنين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد .

لطائف :

الأولى - قال القاشاني : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ، لكونه أشرف المراتب ، ولاستلزامه السكال العلمى والعملى . وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .
الثانية - فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعما كانوا يقولونه من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات . فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى إثر ما سبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنتان : كاملة وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً فى ذاته . فإذا فرغ من هذه الدرجة ، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تقيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا) الآية .

واعلم أن من آناه الله قريحة قوية ، ونصيبا وافيا من العلوم الإلهية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازى .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

الثالثة - يدخل في الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل المأثورة . لأن الدعوة الصحيحة هي الدعوة النبوية . ثم ما انتهج منهجها في الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة - في الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى - على ما قرره الرازي - لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة - احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة، بهذه الآية . وقال : إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى . والمسألة معروفة بسطحها الغزالي في (الإحياء) .

ولالإمام ابن حزم في (الفصل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلاف الناس في قول المسلم (أنا مؤمن) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عقدنا في هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ولا نعمة أو كد، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى، في وقتي هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض) وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والتمجيب في شيء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى (١) (قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح . لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إني مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسوله) أى صدقت . وأما من قال فقل إنك في الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن مقبنا على مانحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة . إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندرى ماذا نكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» أى لكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة . والثانية من مقام النفس تجرّ صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتي هي أحسن منها ، وهي الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً . أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو (ادْفَعْ بِالْحَسَنَةِ) إلى الأبلغ - لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ في الحمل والحث على ما ذكر . لأنه يرمى إلى أنه

مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشاني : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تدفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالخطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطاً إلى مقام النفس ، متبعاً للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقياً لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسبباً لازدياد الشر ، معرضاً عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكنت شرارته ، وأزالت عداوته ، وثبتت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وأنخرطت فى سلك الملوكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولي المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

« وَمَا يُلْقَاهَا » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على تجرع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقوا بالعلم والعفو « وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكمال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكمال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى وإما

يلقي الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس ، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة ، والانتقام منه ، فاستجبر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنبه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير : قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف وهو قوله تعالى ^(١) (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وفي سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه ^(٢) (أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَلْسِنَتِهِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [سجدة]

« وَمِنْ آيَاتِهِ » أى حججه تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه « اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » أى اختلافهما ، ومما قبه كل واحد منهما صاحبه « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أى نورهما وإشراقهما وتقدير منازلهما ، واختلاف سيرهما في سمائهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم ، فهما مخلوقان « وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تفردونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشرکوا في طاعته أحدا . لأنها لا تنبغي لأحد سواه .

تنبیه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق في (المهذب) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها في القرآن ، بخلافها . كذا في (الإكليل) .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩٩ و ٢٠٠] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦-٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

« فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا » أى عن عبادته كبروا وعتوا « فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » أى لا يملون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

أُهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ

أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[٤١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كُرِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لعشب فيها

ولا نبات ولا زرع « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أُهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » أى اهتزت بالنبات

وتحركت بزينة ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ الَّذِي

أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يدها

« لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * » إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى

يعملون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيفون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ

عَلَيْنَا » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزئهم .

تبيينه :

شملت الآية من يضع الكلام في الآيات على غير مواضعه ، كما فسرها ابن عباس . قال في (الإكمال) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَنْ يُتْلَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ » أي بهذا القرآن « لَمَّا جَاءَهُمْ » أي فهم هالكون . فالخبر عذوف . أو الجملة بدل من جملة (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » أي منيع محمى عن التغير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » أي لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

قال القاشاني : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما في كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله ، وبغيرونه بالتحريف لكونه ثابتا في اللوح محفوظا من جهة الحق . كما قال (١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وفيه تمثيل لتسبيحه بشخص حمى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداء الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه ، والآتية ما خلفه . أو العكس

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

كما مرَّ «تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» قال ابن جرير^(١) : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده وصرْفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأَياديهِ عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

« مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إِلَّا مثل ما قال للرسول كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذئوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرَّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ - ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ - » أى بيّنت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لنفهم ما فيه . قال الزمخشري : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت وخلصت بلسان نفقه « أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن عجميٌّ ورسول عربيٌّ ؟ أو مرسل إليه عربيٌّ ؟ والمعنى : إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متعنتا . لأن القوم غير طالبين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجمى أصله (الأعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للكثرة أو لغرابة لغته . وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحمري . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى الحق بالحقيقة . وأما المعجمى فالمنسوب إلى العجم . وهم من عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمى والمعجمى عموم وخصوص وجهى . انتهى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ » أى : هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصرهم بطريق النظر والعمل ، فتملهم وتزكهم « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » أى لا يسمعون ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها . فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا « أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق ، واستماعهم له ، مثل من يصيح به من مسافة شاطئة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وانهما كهم فى ظلمات الميولى . قال الشهاب : وجعل النداء من مكان بعيد ، تمثيلا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعوا له . يقال : أنت تُنادى من مكان بعيد ، أى لاتفهم ما أقول . وقيل : إنه على حقيقته ، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك ، تفضيحاً لهم . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ » قال ابن جرير ^(١) : أى فاختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أى كذب وأوذى، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وهى العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ .
 أى لولا أنه تعالى قدر الجزاء فى الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بتمجيل العذاب ^(١) (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ أَنْ يَخْرِجُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا) ^(٢) (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَبُ وَأَمَرٌ) « وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم . وإلا فالحق أجلى من أن يخفى . وقال ابن كثير : أى وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم ، لما قالوا . بل كانوا شاكّين فيما قالوه ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجهه ابن جرير . وهو محتمل . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ)
 « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى من عمل بطاعة الله ، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه ، فلنفسه نفعه . لأنه يجازى عليه جزاء الحسن « وَمَنْ أَسَاءَ » أى عمل السيئ وعصى « فَعَلَيْهَا » ضرره . لأنه جنى على نفسه بذلك ، ما أكسبها سخط الله والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » أى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بـمد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُ بِهِنَّ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أِذْ نَبِّئْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)

(١) [١٨ / الكهف / ٥٨] . (٢) [٥٤ / القمر / ٤٦] .

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها « وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا » أى أوعيتها « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » أى مقروناً بعلمه . قال الزخشرى : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ » أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى « قَالُوا أءَآذَنَّاكَ مَا مِنْهُنَّ » أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ (شهيد) فعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كفاية عن التبرؤ منهم . أو هو منهم إنكار لعبادتها . فيكون كذباً ، كقولهم (١) « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ)
« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ » أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً « وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ » أى وأيقنوا يومئذ ما لهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)
« لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ » أى لا يعل من مسألته ربه بالخير ، كاللالم وصحة الجسم « وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ » أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته « فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ » أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزخشرى : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء (فعول) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فى متضائل وينفكسر .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ » أى بتفريجها عنه « لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي » أى حتى نلته بمعلى ، لا بفضل من الله . ججدا للنعيم « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تخرصا ورجا بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا » أى فلنخبرن هؤلاء التمتنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم . ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى إذا كشفنا ما به من ضرر ، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغفر فى الابتهاال أنفاسه . وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء . كما يستعمار له (الطول) أيضا . فيقال : أطل فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ

فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ » أى من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » أى من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف في شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملاحدين . وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراج للإقرار . مع ما فيه من سحر البيان . وحديث الساعة وقع في البين تنميماً للوعيد . وتنبيهاً على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ،

أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ » يعنى وقائع النبى ﷺ بنواحى بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقاً للوعد « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » أى من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع في بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » أى أن هذا القرآن ، بوعد ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر الله رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى لا يخفى عليه شئ ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . وفيه وعد ووعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)

« أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد الممات ،
ومعادهم إلى ربهم « أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ » أى فلا يخرج عن إحاطته شئ .^(١)
(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢ - سُورَةُ الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى : وهى مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرّ مرارا تحقيق ذلك ، وآياتها ثلاث وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمّ)

[٢] (عسقّ)

« حمّ * عسقّ » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير (حمّ * عسقّ) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير مفكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و (حمّ * عسقّ) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعدّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيجاءها مثل إيجائها ، بعد تفويها بذكر اسمها والتنبيه على نخامة شأنها . والكاف فى حيز الفصص على أنه مفعول لـ (يُوحىٰ) على الأول - وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و (ذَلِكَ) على الأول إشارة إلى ما فيها . وعلى الثانى إلى إيجائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيدان بعلوّ رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم . على أن مناط المائلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد . أو مثل إيجائها ، أوحى إليك عند إيجاء سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيجاء كتبهم إليهم . لا إيجاء مغاير له . كما في قوله تعالى (١) ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإبذان باستمرار الوحي ، وأن إيجاء مثله عادته . وفي جعل مضمون السورة أو إيجائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا في وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمرعاة القواصل ، مع ما فيه من التشويق . وقرئ (يوحى) على البناء للمفعول ، على أن (كذلك) مبتدأ (ويوحى) خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و (يوحى) مسند إلى (إليك) . و (الله) مرتفع بما دل عليه (يوحى) كأنه قيل : من يوحى ؟ فقيل : الله . (الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ) صفتان له ، أو مبتدأ ، كما في قراءة (نوحى) . والغزير وما بعده خبران له . أو الغزير الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ)

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] .

« تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ » أى يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته ، ويتلاشين من علو قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بعد (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَالْمَلَأْنِيكَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى شركاء وأندادا « اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر^(١) (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا

وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى النار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي

رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(١) [١٣ / الرعد / ٤٠] .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة « وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ » أى ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمفااة ذلك ما يقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون ، وفي عذابه ، الكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والكافرون بالله ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم في قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يوالىهم وينصرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[١٠] (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى يتولونهم . مع أنه لا ولاية لهم في الحقيقة ، إذ لا قدرة ولا قوة « فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شيء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل وليّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا ولي سواه « وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى هو المحيى القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ» إِلَى اللَّهِ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تمهيد لما يأتي بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرّمه . والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم ما لم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية . ومع ذلك ، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شيء من الخصومات ، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكمته حكومة غيره. كقوله تعالى (١) «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» وتدل أيضا على الرجوع إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض ما لم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى ، بأن يقال : الله أعلم . كفى قوله (٢) «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» وقوله «ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي» بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّي لا ألهتمكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فى أمورى كلها « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا، يَذُرُّوكُمْ فِيهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
« فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من جنسكم « أَزْوَاجًا »

(١) [٤ / النساء / ٥٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٥] .

أى نساء «وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» أى أصنافا مختلفة ، أود كورا وإناثا «يَذَرُوكُمْ فِيهِ» أى يكثركم . من (الذرة) وهو البث . يقال : ذرا الله الخلق ، بشم كثيرهم . وفسر بـ (يخلقكم) . وضمير (فيه) للبطن أو الرحم . وقال الزخشرى : أى فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى (يَذَرُوكُمْ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذروكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذروكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالنبيع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (فى) مستعارة للسببية «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشيء . وأدخل المثل فى الكلام ، تؤكد الكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شيء . وتكون الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع - وهو ما عول عليه المحققون - أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبتخل ، على قصد المبالغة فى تقيمه عنه . فإنه إذا نفى عن يناسبه . كان تقيمه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشيء ببيئته . وقد بينت الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمْنَى . وهو أنه نفى للشيء بنفى لازمه . لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه . لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنُفِىَ هذا اللازم . والمراد نفى ملزومه . أى ليس لزيد أخ . إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نفى أن يكون لمثل الله مثل . والمراد نفى مثله تعالى - إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقيق المائلة من الجانبين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فلا يصح نفي مثله (أى نفي مثل ذلك المثل) وبالجمله ، فأطلق نفي مثل المثل ، وأريد لازمه من نفي المثل . قال بعض الأفاضل : طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً . وذلك أن محصل هذا أن نفي المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولاً أنها تقتضى إثباته . ولذا أولوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً شيئ واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى اللزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم . مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازماً لحقيقة الآية قطعاً . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعويل فى نفي المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال ، فافهم ذلك . وقال المصام : هذا - أى كون الآية من باب الكناية - وجه تلقاه الفحول بالقبول . ورجحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح . وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث ، وهو أن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل . لأن الشيء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشيء فى صفة ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزلة الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتى فقال : ما قيل إن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض . لأن المائلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الوجوه مما به المائلة . صرح به فى (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تغفل به أجياد الأفهام . وتنشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية رد على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حال فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتزويه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللاحق بالخلق . ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فتلوا أولاً وعطلوا آخرأ . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللاحقة به عز وجل . بخلاف سلف الأمة وأجلء الأئمة . فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه . قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفي المثلية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البر : أهل السنة يجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلا أنهم لم يكتفوا شيئاً من ذلك . وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكروها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة . ويزعمون أن من أقر بها مشبه ، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبي : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ، أذاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال : مثل الجهمية كقوم قالوا : في دارنا نخلة . قيل : لها سمف ؟ قالوا : لا . قيل لها كرب ؟ قالوا : لا . قيل لها رطب ؟ قالوا : لا . قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا . قيل : فما في داركم نخلة . قلت : كذلك هؤلاء النفاء قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا في زمان ولا في مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحانه المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحانه الله العلي العظيم السميع البصير المريد ، الذي كلم موسى تسليماً ، واتخذ إبراهيم خليلًا ، ويرى في الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رساله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال الذهبي رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا : جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزّه عن الجسم . قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض في ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية) في القاعدة الأولى : إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفي كقوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال . لأن النفي المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشيء . وما ليس بشيء فهو كإفعل ليس بشيء ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا . ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع . والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح ، كقوله ^(١) (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي لا يكرثه ولا يثقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته . وكذلك قوله ^(١) (لَا يَمْرُؤُا عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض . وكذلك قوله ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) فإن نفي مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة . بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والكلال ما يباحقه . وكذلك قوله ^(٣) (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إنما نفي الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية . لأن المدوم لا يرى ، وليس فى كونه لا يرى مدح . إذ لو كان كذلك لكان المدوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإن رُئِيَ . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما ، فكذلك إذا رُئِيَ لا يحاط به رؤية . فكان فى نفي الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها . لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا ، هو مما لم يصف الله به نفسه . فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب ، لم يثبتوا فى الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا . وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش . ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مابين للعالم ولا بجانب له ، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المدوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق : مِيزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِى ثَبَتَهُ وَبَيْنَ الْمَدُومِ . وكذلك كونه لا يتكلم أو لا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هذه الصفات فيها تشبيهه له بالمنقوصات أو المدومات . فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المدوم ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص . فمن قال لاهو مابين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة

(١) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٢) [٥٠ / ق / ٣٨] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٣] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا غيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له .
ومن قال إنه ليس بحى ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم .
فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ، ولم يقبل البصر كالحائط لا يقال له
أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلاحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع
والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والحرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل
الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها . فإن الله قادر على جعل الجاد حيا كما جعل عصا موسى
حية ابتلعت الجبال والعصى . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما
يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها . فالجاد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام
ولا الحرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الآخرس . فإن قيل إن البارى لا يمكن اتصافه
بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالحرس والعمى والصمم
ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجاد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد
منها . وهذا تشبيه بالجدات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه
تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نقي هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث
هى هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع
والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به
من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ،
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[١٣] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ

« لَهُ وَمَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والمملوك
« يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه ،
ويقتَر على آخرين « إِنَّهُ وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * » شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً
والَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ « اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى النبي ﷺ بقوله ^(١) (كَذَلِكَ يُوحَى
إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك ،
وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال ^(٢) (وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وفى الحديث ^(٣) :
نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد . يعنى : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ،
وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم . كقوله تعالى ^(٤) (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .
وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء
وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاسمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل
على نبوة بعضهم . وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل . والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [٤٢ / الشورى / ٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب واذكر فى الكتاب مريم ،

حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٨] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام .
 والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هى الشريعة الكاملة .
 ولذا عبر فيه بـ (الَّذِي) التى هى أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة ، تخصيصاً له
 ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال الاعتناء . وهو السر فى تقديمه على ما بعده مع تقدمه
 عليه زماناً « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده
 بالآلوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ » وهو من صرف
 اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله
 من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان
 حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ)

« وَمَا تَفَرَّقُوا » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى
 الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَعِيًا بَيْنَهُمْ » أى ظلماً وتعدياً
 وطلباً للرئاسة « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » وهو تأخير العذاب
 إلى يوم القيامة « لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جنائياتهم لذلك « وَإِنَّ
 الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين من الله عليهم بالكتاب العزيز
 « لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ » أى موقع لأتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يثبونه من الوسوس
 الصادّة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« فَلِذَلِكَ فَادْعُ » أى فلاجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَاسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه والصدع به « كَمَا أُمِرْتَ » أى أوحى إليك « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ » وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ » أى : أى كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتيب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » أى لأسوى بينكم فى دعوة واحدة كما قال تعالى ^(١) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) الآية . ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى لاختصومة ولا محاجة بعد هذا . لأن الحق قد ظهر . ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة عخل سوى المكابرة . والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج . كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر « اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى المعاد والمرجع للجزاء .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

تنبيهان :

الأول - تفسير العدل بما ذكرناه ، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيا والسورة مكية . ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات . نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أمر النبي ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم . وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل رد المعتدى ويوبخه .

الثانى - قال ابن كثير : اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة . كل منها منفصلة عن التى قبلها . حكم برأسها . قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي . فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ » أى يخاصمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أورثوا الكتاب ، المذكورون قبل ، ايمصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية « مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُمْ » أى استجاب له الناس . أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادهم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة ، مجازاة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ » أى عظيم ، لسكبرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

« اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره « وَالْمِيزَانَ » أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوى به الخلاف « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » قال أبو السمود : أى شئ قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا » أى خائفون منها . قال ابن جرير^(١) : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها « وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » أى المتحقق وجوده لا محالة « أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

[٢٠] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

«اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ» أى يُلطف بهم فى تدبير إِبصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا « يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ وَفِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » . قال الزمخشري : سمي ما يعملُه العامل مما يبتغى به انفاذة والزكاء ، حرثاً على المجاز - أى بتشبيهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) و فرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها ، لا ما يريدُه ويبتغيه ، وهو رزقه الذى قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة . ولم يذكر فى معنى عامل الآخرة وله فى الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له ، واصل إليه لا محالة - للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه فى المآب . انتهى . وهذه الآية كآية^(١) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) الخ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، وَلَوْلَا

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٢] (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ،

ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

[٢٣] (ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَن يَقْرَفْ

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» (أَمْ) منقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولا بد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر ما بعده . وما سبق قوله ^(١) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تنمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم في الكفر وحملوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم اتخذوها شركاء وإن لم تكن كذلك في الحقيقة . وعلى الثاني ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدفئوا به . أو لأنها على صورة الشرع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذٍ للإنكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع . كما فى قوله ^(٢) (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ» أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبين فى الآخرة . فالفصل بمعنى البيان «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» أى لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين ، بتمجيل العذاب للكافرين «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» * تَرَى الظَّالِمِينَ «أى يوم البعث «مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا» أى من السيئات «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» أى نازل بهم لا محالة «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا «أى لأسألكم على دعايتكم إلى ما أَدْعُوكم إليه من الحق الذى جئتكم به، والنصيحة التى أنصحكم، ثواباً وجزاء وعوضاً من أموالكم تعطوني» «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أى أن تودوني فى القرابة التى بيني وبينكم، وتصلوا الرحم التى بيننا. ولا يكن غيركم، يامشر قريش، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل) . والقربى مصدر كالقرابة . و (فى)

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلّة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى . والاستثناء منقطع . ومعناه نقي الأجر أصلاً . لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل (اَلْقُرْبَى) التقرب إلى الله تعالى . أى إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عول عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره . فى البخارى^(١) عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى (إِلَّا أَلَمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى) فقال سعيد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجبت . إن النبي ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارى - أى عن مسلم - ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبي والضحاك وعلى بن أبى طلحة والوفى ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودونى فى نفسى ، لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم . وروى الإمام أحمد^(٢) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لا أسألكم على ما أتيتمكم به من البينات والهدى أجراً ، إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقرّبوا إليه بطاعته . وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرى مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٢ - سورة الشورى ، ١٠ - باب

قوله إِلَّا أَلَمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٢٤١٥ (طبعة المعارف) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن في إسناده مبهما لا يعرف ، عن شيخ شيعي ، وهو حسين الأشقر ، فلا يقبل خبره في هذا المحل وذكر نزول الآية في المدينة بعيد . فإنها مكية . ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالسكينة . فإنها لم تتزوج بعلي رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرهما به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخاري . ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلي وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت في الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ قال في خطبته : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي . وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض . وروى الإمام أحمد ^(٢) عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن . وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا وقال : والذي نفسى بيده ! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله . هذا ملخص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه في الإيساع في ذلك تقى الدين ابن تيمية في (منهاج السنة) من أوجه عديدة . قال في الوجه الثالث : إن هذه الآية في سورة الشورى . وهي مكية باتفاق أهل السنة .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ١٧٧٢ (طبعة المعارف) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة . والحسين في السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنتين متعددة . فكيف يفسر النبي ﷺ الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال : الوجه الرابع - إن تفسير الآية الذى فى الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك . فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد على ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى . ولكن معناها لا أسألكم بامعشر العرب وبامعشر قريش عليه أجرا . لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التى بينى وبينكم . فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه . الوجه الخامس - أنه قال : (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى . فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال ^(١) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وقال ^(٢) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) وكذلك قوله ^(٣) (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) وقوله ^(٤) (وَآتِ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِ الْقُرْبَى) وهكذا فى غير موضع . فجميع ما فى القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبي ﷺ ، وذوى قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (فى القربى) . فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) . الوجه السادس - أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودة لذوى القربى ، ولم يقل فى القربى . فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره : أسألك المودة فى فلان ، ولا فى قربى فلان . ولكن أسألك المودة لفلان ، والمحبة لفلان . فلما قال المودة فى القربى ، علم أنه ليس المراد لذوى القربى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٩ / الحشر / ٧] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٢٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

الوجه السابع - أن يقال إن النبي ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا البتة . بل أجره على الله كما قال (١) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) وقوله (٢) (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) وقوله (٣) (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال (٤) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ شَاءِ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) ولارب أن محبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة . لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبي ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفي الصحيح (٥) عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خا) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله في أهل بيتي) وفي السنن (٦) عنه أنه قال (والذي نفسي بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرايتي) فمن جعل محبة أهل بيته أجرًا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيماً . ولو كان أجرًا له لم نُثَبِّ عليه نحن ، لأننا أعطيناه أجره الذي يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن - إن (القربى) معرفة باللام . فلا بد أن يكون معروفاً عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت ، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج عليّ بفاطمة . فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تكون هذه . بخلاف القربى التي بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول (لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا) وكما تقول (لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم) (ولا أسألك إلا أن

(١) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٠] و [٦٨ / القلم / ٤٦] .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤٧] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول (طبعة الحلي) .

والحديث رقم ١٧٧٧ (طبعة المعارف) .

تتقى الله في هذا الأمر) . انتهى « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » أى بمضاعفته « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأناب « شَكُورٌ » لسميعهم بتضعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَخْلُفِ اللَّهُ أَلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افترت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك . أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن . كقوله (١) جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْتَوَاتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أى لا نتقمنّا منه أشد الاتقمام ، وما قدرا أحدا من الناس أن يحجز عنه . انتهى .

وهذا تفسير بالأشياء والنظائر من الآيات ، يؤثره كثير من الأئمة ، ما وجد إليه سبيلا . فإن التنزيل يفسر بعضه بعضا . ومآل الآية على هذا المعنى ، كما أوضحه أبو السعود ، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى ، لمنعه من ذلك قطعا ، نختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه . وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حيننا فحيننا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشري : فإن يشاء الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفتري عليه الكذب . فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المختوم على

قلوبهم . ومثل هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى . لعل الله أعمى قلبى . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكِبَ من تحوينه أمرٌ عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فعناء ؛ إن يشأ الله يحتم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى (بأن) فى موضع (لو) إرخاء للعنان ، وتلميحاً للبرهان . على أنه لا يتصور وصفه بما ذكره . فالتفريع بالنظر للمعنى الممكنة عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا الحال ، لأنهم مطبوعون على الضلال . انتهى « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » استئناف مقرر لنفى الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس (يمح) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق) . قال الرغزنى : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذى لا مرد له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ۖ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ۖ » أى يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاقته ، من بعد كفره « وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » أى معاصيه التى تاب منها « وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » أى من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ،
وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن مُّنْزَلٌ
بِقَدَرِ مَا يُشَاءُ ، إِنَّهُ وَبِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى يستجيب لهم . فحذف اللام كما حذف
فى قوله تعالى ^(١) (وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ) أى يثيبهم على طاعتهم «وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ» أى
على ثوابهم ، منةً منه وطولاً «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ «أى تجاوزوا الحد الذى حدّه لهم إلى غيره ، بركوهم ما حظره
عليهم . لأن الغنى مبطّرة مآثرة» ^(٢) (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَى)
«وَلَكِن مُّنْزَلٌ بِقَدَرِ مَا يُشَاءُ» أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاءه بقدر ، لكفايتهم
«إِنَّهُ وَبِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» قال الزمخشري : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ،
فيمقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، وينع ويعطى ، ويقبض
ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ
الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

«وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ» أى بركات الغيث

(١) [٨٣ / المطففين / ٣] . (٢) [٩٦ / العلق / ٧٥٦] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ،
والحمود على أيديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ،
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
أى حشرهم يوم القيامة «إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» أى متمكن منه ، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم .

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه
الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل
من قوله تعالى^(١) (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)
أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض .
ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون
فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال : لعمري ، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ،
لآية لأهل هذا العصر وآية آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح
بلا حدة ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجِدِّ العنيف
والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقليّ ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها . وإن الكواكب السيارات كريات . وأن النجوم الثوابت شمس ، ولها سيارات تدور حولها . ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء ، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض . وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخاطبة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فنّا . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فلا يبعد أن يتخبرا ويجمعما فكرا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المسكونة في القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان .

وقال أيضا : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين ، أولا وبالذات . لكن ، تمهيدا لهذه السبيل ، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمل في خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية . فالمفسرون رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات ، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذرون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحير عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية . لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أولوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه . وقال عالم فلكي أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته . وبقا الكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات في هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول في كتابه ^(١) (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) ويقول ^(٢) (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» أى فبسبب معاصيكم وما اجترتم من الآثام . «وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

«وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم في قبضة تصرفه «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» أى إذا أراد عذابكم فاتقوه واخشوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ) [٣٣] (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ» أى السفن الجارية «فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ» أى الجبال

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٩] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] .

« إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ » أى فيبتقين ثوابت على ظهر البحر « إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجربها « لَأَبْلَتْ » أى لعبرة وعظة وحجة بينة على القدرة الأزلية « لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)

[٣٥] (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« أَوْ يُوقِنَنَّ » أى أو يهلكهن بالفرق « بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ » عطف على علة مقدره مثل لينتقم منهم (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيدهم أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٣٧] (وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)

[٣٨] (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

«فَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ» أى مما زين للناس حبه من الشهوات «فَمَتَّعُ الْخَيَاطَةَ الدُّنْيَا» أى فهو متاع لكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ» أى من ثوابه الأخرى «خَيْرٌ وَأَبْقَى» وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم «وَالَّذِينَ يَجْتَدِبُونَ كَبَابِيرَ الْإِنِّمْ وَالْفَوْاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» أى يصفحون عن أساء إلههم «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيدهم ، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه . وذلك من فرط تدبرهم ونيقظهم ، وصدق تأخيمهم فى إيمانهم وتحابهم فى الله تعالى «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» أى فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة وثققة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» أى بالعدالة . احترازاً عن الذلة والانتظام ، لكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانى . وقال ابن جرير^(١) : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون : بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السدى حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب . لأن الله لم يخص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفي ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزحشرى . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعدي حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل ، إن كان ولي دم ، أو رد على سفيه حماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال النخعى : كانوا يكرهون أن يذلو أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَلَمَنْ أَتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٢] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » أى جزاء سيئة السيء ما مائلها . إذ نقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بين تعالى أن العفو أولى ، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أى بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » أى ثوابه عليه . وفى إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » أى البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام « وَلَمَنْ أَتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ » أى بعد ما ظلم . فالصدر مضاف لمفعوله ، وأهو مصدر المبني للمفعول « فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » أى للمعاقب ، وللعقاب والعائب . لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه ، ولم يتعد ولم يظلم ، فكيف يكون عليه سبيل ؟ « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » أى يبدءوهم بالظلم والإضرار ،

أو يمتدون في الانتقام « وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يتكبرون فيها ويفسدون « أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بسبب ظلمهم وبغيتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« وَلَمَنْ صَبَرَ » أى على الأذى « وَغَفَرَ » أى لمن ظلمه ولم ينتصر « إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى التى ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تفسيه :

نقل السيوطى فى (الإكليل) عن الكيا المراسى أنه قال : قد ندب الله إلى العفو فى مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » أن الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصر ، لئلا يتجرا الفساق على أهل الدين . وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ، عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب فى الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المائلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذى انتهى إليه الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة فى تركية النفس وهضمها لها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كلياً ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا وتفریطا . والدين دين الفطرة . وهى تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجملتها والقضاء الأدبى والوازع الرحمانى يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثلته ،

مما لا يبعد ، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها ، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) كما قال الزخشرى ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصا في حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدِهِ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من ولى يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعجاب منهم فى غير وقته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلَالِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ)

[٤٦] (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

[٤٧] (اُسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ)

« وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ » أى من طرف قد خفى من ذله وصغاره « وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد، وتقويت النعيم المؤبد « أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ * اُسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ » أى أجبوا أيها الناس داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ » أى لا يرده الله بعد ما حكم به . ف « من » صلة (مرَدّ) أو هى صلة (يَأْتِي) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن رده « مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترعتموه ، لأنه محصى عليكم . أو نكير ينكر على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ)

« فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك . « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ » أى جحود نعم ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ)

[٥٠] (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ، وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ وَعَلِيمٌ قَدِيرٌ) «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ وَعَلِيمٌ قَدِيرٌ» أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى الشيئة . وتقديم الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل ، أو لتطبيب قلوب آبائهن ، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته ، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكرهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبي : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من البن (ومن عين المرأة تسكيرها بأنثى) .

قال الشهاب : والضمير فى (يُزَوِّجُهُمْ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان . إن ضمن معنى التصيير . يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين . كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث . ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ وَعَلَىٰ حَكِيمٌ)

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» أى إلهاما وقذفاً فى القلب منه ، بلا واسطة «أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ» أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه ، كما كلم موسى عليه السلام «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» أى من ملائكته كجبريل «فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ، ما يشاء إيماءه ، من أمر ونهى وغير ذلك ، على سبيل

الإلقاء والنفث في الروح والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُ وَعَلَىٰ » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شيء حضوره . قاله القاشانى .

وقال المهايى : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى . « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه في تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايى : أى حكيم في تبليغ كلامه العلى إلى البشر الضعيف .
تنبيه :

في (الإكليل) : استدل بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبي ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحث . لأنه تعالى استثناء من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بمد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كله إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٥٣] (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسماه روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و (أَوْحَيْنَا) مضمن معنى (أَرْسَلْنَا) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحي « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا فَهَدَى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب . إنه الكريم الوهاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣ - سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها ، وغاية العداوة مع ربها ،
بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .
وهى مكية . قيل : إلا آية^(١) (وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى
معانيه ومواظله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنَّهُ وَفَىٰ آَمِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّيٰ حَكِيمٌ)

« وَإِنَّهُ وَفَىٰ آَمِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّيٰ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها
« حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)

« أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهم لم يهتموا
ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا
على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتجج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط
والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء فى زمان الفترة . قاله القاشانى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٦] (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ)
 [٧] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
 [٨] (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ » أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم فى تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم . أى فليتوقع هؤلاء المستهزون من العقوبة مثل ما حل بسلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٩] (وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)
 [١٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
 « وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا » أى طرقا تنطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعيشكم ومتاجركم « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [١١] (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ، كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ)

« وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بمقدار الحاجة إليه . فلم يجعله طوفانا يهلك ،

ولارذاذا لاينبت، بل غيثا مغيثا « فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أحيينا به بلدة ميتا من النبات،
قد درست من الجذب وعفت من القحط « كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » أى من بعد فنائكم
ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)

« وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى خلق كل شىء فزوجهم، فجعل منه الذكر والأنثى
« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ » أى من السفن والبهائم ما تركبونه
« لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيعين « وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ »
أى لصائرون إليه ، وراجعون بعد مماتنا .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة . وكان ﷺ يقول
يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا . وذلك

قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشاني : أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له ، الذى هو بعض من الوالد ، مماثل له فى النوع ، لكونهم ظاهريين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال ، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة ، فضلا عن ذات الله تعالى . فكل ما تصوروا وتخيلوا ، كان شيئاً جسمانيا . ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور ، وكل ما يتعلق بالمعاد . إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمور المعاش . فلا مناسبة أصلاً بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا فى ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » أى لجحود نعم ربه ، التى أنعمها عليه . يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)

« أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ » أى : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم . وتمجيهاً من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا الله من عباده جزءاً ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنكر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لمن . ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن . كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضاً وتمثيلاً ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آتاكم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، وترك له شرها وأدناها ؟ قاله الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا » أى من البنات « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا » أى من الكآبة والغم والحزن « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء قلبه من الكرب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوْ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

« أَوْ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ » أى تربى فى الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِي الْخِصَامِ » أى فى المجادلة « غَيْرُ مُبِينٍ » أى لمن خاصمة بىرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى : أو من كان كذلك جعلتموه جزءا لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال إلكيا الهراسى : فيه دليل على إباحة الحلى للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم يرَ به بأسا ، وتلا هذه الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدسونه ، إناثا . فقالوا (هم بنات الله) جهلا منهم بحق الله سبحانه ، وجراءة منهم على قيل الكذب .

قال القاسانى : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس الممكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية - توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يمتدحها العاوى إلا صورة إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوه بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ » أى على الملائكة بما هم مبرءون عنه « وَيُسْأَلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها، وإن يجدوا إلى ذلك سبيلا. وفيه من الوعيد ما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها، يقتضى العقاب والمجازاة عليها، وهو المراد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ يُهْمُ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)

«وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ* أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ يُهْمُ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» هذا بيان لضلالهم آخر، فى جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدلل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصى . وأهل السنة تأولوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شئ ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا ما لمحقيقى المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط تفاسى ما للمقدم، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشانى : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى، افترضوه وجعلوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لاعن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّه الله تعالى بقوله (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسمعون لإعبادته دون غيره . إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعا ولا ضرراً (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود^(١) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) ولما خوفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجاب بقوله^(٢) (وَلَا

(١) [١١ / هود / ٥٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا (إِلَى قَوْلِهِ ^(١)) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ) انتهى .

وفي البيضاوى وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهى عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة . ويمتنع كونها منهايا عنها أو قبيحة . وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسنا كان أو قبيحا . ولذلك جهلهم فى استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلا على امتناع النهى عن عبادتهم ، أو على حسنها : لا إلى هذا القول . فإنه كلمة حق أريد بها باطل . انتهى . وقال الناصر فى (الاتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئته تعالى ، حتى الضلالة والهدى ، اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل . فى أمثال قوله تعالى ^(٢) (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وآية الزخرف هذه لا تريد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلا ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا ، فراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توها أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل ، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضح ما قلناه ، فإنما رد الله عليهم مقالاتهم هذه . لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حججهم ، وأكذب أمفيقهم ، وبين أن مقالاتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال ^(٣) (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير . وذلك قوله تعالى

(١) [٦ / الأنعام / ٨١] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٣] و [٣٥ / فاطر / ٨] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

في سورة الأنعام^(١) (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مَنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسول ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم^(٢) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال^(٣) (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله^(٤) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة في نفسها كذب . فقال^(٥) (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو معنى قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدللت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والنور اللامع والمنهج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاها الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبدلت . فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار . أما أهل الحق فنحنهم الله من هدايته قسطا .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتبهوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته . ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنها قدرة تقارن بلا تأثير . وتميز بين الضروري والاختياري في التصور . فهذا هو التحقيق . والله ولي التوفيق : انتهى .

وقد سبق في آية (الأنعام) نقول عن الأئمة في الآية مسهبة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى (أَمْ أَدَّبْنَاهُمْ بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِهِ) أى من قبل هذا القرآن (فَهُمْ بِهِ سَمْتَمِسُونَ) أى يعملون به ويدبنون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى في الآية الأخرى ^(١) (قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) يعنى بالعلم كتابا موحى فيه ذلك . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ) «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ» أى لاجحة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ) «وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ» أى كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله .

قال القاضي : وفيه تسلية له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

« قُلْ » وقرئ قل « أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » أى جاحدون منكرون ، وإن كان أهدي . إقناطا للنفير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

« فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ » أى بعذاب الاستئصال « فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » أى آخر أمرهم ، مما أصبح مثلا وعبرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » قال القاضي : أى اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل . أوليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ » إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أى برىء من عبادتكم أو معبودكم . و (بَرَاءٌ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعقاق ، أريد به معنى الوصف بمبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة بمبالغة ، كطوال وكرام ، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)

« إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي » استثناء منقطع أو متصل . على أن (ما) يعمّ أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام . أو (إلا) بمعنى (غير) صفة لـ (ما) . أى إننى برىء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى . أى خلقنى « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أى للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء (يَهْدِينِ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع فى الموضعين للاستمرار . وإما للتسويق والاستقبال ، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً . فيتمتار ما فى الآيتين من الحكاية أو المحكى ، بناء على تكرار قصته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَجَعَلَهَا » أى شهادة التوحيد « كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ » أى موسى بها ، موروثة متداولة محفوظة . كقوله تعالى ^(١) (وَوَصَّيْنا بَها إِبراهيمَ إِسمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ) « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى لى يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيدهِ فى سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ » يعنى أهل مكة « وَآبَاءَهُمْ » أى من قبلهم بالحياة ، فلم أعجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ » أى دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التى يحتج بها عليهم فى دعوى رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ » أى جاحدون . فازدادوا في ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيعَتَيْنِ عَظِيمٍ)

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيعَتَيْنِ » أى من إحداهما ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد « عَظِيمٍ » أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضي : ولم يعلموا أنها رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية ، لا الزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ » إنكار ، فيه تهويل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوة « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ » أى بالفنى « فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا » أى مسخرا في العمل ، وما به قوام المعاش ، والوصول إلى المنافع . لا لكمال في الموسع عليه ، ولا لنقص في المقتر عليه . بل لحاجة القضاء والتألف ، التي بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم الدنية ،

فليست مما يستدعى سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهي ، وفيض رحاني ، يمن به على أنفس مستعديه ، وأرواح قابليه . و (السخري) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهي الاستخدام والقهر على العمل . « وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعني أن النبوة خير مما يجمعون من الحطام الفاني . أي : والمظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبي ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِئُيُوتَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[٣٤] (وَ لِّئُيُوتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكِنُونَ)

[٣٥] (وَزُخْرُفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ

رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » أي متفقة على الكفر بالله تعالى . أي لولا كراهة ذلك « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » أي لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالنعم فيزداد عذابا « لِّئُيُوتَهُمْ » بدل من (لِمَنْ) « سُقُفًا » بفتح السين وسكون القاف ، وبضمهما ، جما « مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ » أي مصاعد من فضة « عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » أي يرتقون « وَلِئُيُوتَهُمْ أَبْوَابًا » أي من فضة « وَسُرُورًا » أي من فضة « عَلَيْهَا يُتَّكِنُونَ وَزُخْرُفًا » أي : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أي زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة في ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أي : وما كل هذه الأشياء التي ذكرت ، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة ، والزخرف ، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا « وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أي : وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك الملتقين ، أى الذين اتقوا الله تخافوا عقابه . فجدّوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايى : معنى لاختصاصية فى ذاك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عقده الدنيا أم لا . وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق : بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور - هو ما ذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لجبههم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين . فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشري .

وعندى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ما ذكره . وذلك أن المعنى : لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد والتعاون والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وخطأً تقدر الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى (لولا) المطرد ، أن ما بعدها أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود) .

فليس المعنى على ما ذكره أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هذه تنمة لما قبلها ، في جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى . وهي التسخير . وفي الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآناها أخط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة في الإعلام بضعفها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ » أى يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه « نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » أى نجعل له شيطانا يغويه ويضلّه عن السبيل القويم دأما ، لمقارنته له . قال القاشانى : قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العشى لعارض أو متعمدا ، من غير آفة في بصره . وعشى إذا يف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صاف وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أى القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعاضى عنه لغرض دنيوى وبغى وحسد ، أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشى الطبيعية ، واشتغاله بالذات الحسية عنه ، أو لا غتراره بدينه وما هو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل (نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) جنيا يغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتسكف عليه بهواه من دينه . أو إنسيا يغويه ويشاركه في أمره ويحانسّه في طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثانى معناه . ومن إيف استعداده فى الأصل ، وشق فى الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصر عن فهم معناه (نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) من نفسه أو جنسه ، يقارنه فى ضلالته وغوايته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » قال ابن جرير^(١) : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله ، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ يَدَيَّ وَيَدَنَّكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا » أى العاصي « قَالَ » أى لشیطانه « يَلَيْتَ يَدَيَّ وَيَدَنَّكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقا الصيف والشتاء . والتقدير من المغربين ، فاختصر . « فَبِئْسَ الْقَرِينُ » قال القاشاني : أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه ، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذى أضله عن الحق ، وزين له ما وقع بسببه في العذاب ، واستوحش من قرينه واستدمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

« وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشاني : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم في الدنيا ، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون في العذاب لا شتراكم في سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين في أمر صعب ، معاوتهم في تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرّر فى التنزيل التعبير عنهم بالصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماع حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصار آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصد السبيل الأمم ، كالضالّ الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)

« فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَوْ نُزِيلَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ)

« أَوْ نُزِيلَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى^(١) (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَّقُو فَيُنْكَرَ فَأَلِينَا يَرْجِعُونَ) وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفلت أحد من صفاديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسليية له ﷺ وأمر لأمرته أوله ، بالدوام على التمسك . والفاء فى جواب شرط مقدر . أى إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه . أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » أى عما عملتم فيه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ)

« وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ » أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من مللهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس بيدع ابتدعه ، فيكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل .
فالكلام بتقدير مضاف . أى أهمهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم
إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى المصدقة له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد .
« وَمَلَئِهِ » أى لينهاهم عن التعبد له « فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فأبان أنه
لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد
والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جشتم به من
الآيات والمعبر ، يسخرون . وهذا تسليية من الله عز وجل لنبيه ﷺ ، عما كان يلقى من
مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم
الذين كانوا على مناهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستئنان
بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبي مَرَدِّهِمْ إلى
البوار والهلاك . كسنته فى المتمردين عليهم قبله ، وإظهاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذى فعل
بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير^(١) .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ثم أشار إلى أن موجب الجزء لم يكن إلا لعناد ، لا لقصورها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)
[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ » أى الدنيوى كالسنين ، مما يلجئ إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ « أى من أنه لا يعذب من آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتبادون فى غيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ الْإِنسَ إِلَىٰ مُلْكِ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

[٥٣] (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُّقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ » قَالَ يَبْقَوْمِ الْإِنسَ إِلَىٰ مُلْكِ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي « يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ » أى ضعيف لا شئ له من الملك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أى الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِيكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أى يعينونه ويصدقونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ » أى فاستفزهم بهذه المغالطات ، وحملهم على أن يخفوا له ويصدقوه « فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا » أى أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث اليهود « انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم فى بحر الضلال ، الأجيال الطوال ، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

[٥٨] (وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا » أى حجة للهالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أى عبرة « لِّلْآخِرِينَ » أى الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أى فى كونه كآدم ، كما أشارت له آية (١) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وُكُنْ فَيَكُونُ) والمعنى : لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أى من مثله المضروب ووصفه المبين « يَصِدُّونَ » أى يعرضون ولا يعون « وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » يعنون بالهتهم الملائكة الذين عبدوهم ،

زعماء منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة . أى أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملائكة الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة . وبينون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان القيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادق قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أى ماضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لا عن اعتقاد ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أى شديدو الخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً . وفي الحديث^(١) ماضل قوم يعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل وما ذكرناه في تفسير هذه الآية ، هو الجلي الواضح ، لدلالة السياق والسباق . فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ)
« إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أى بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » أى آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ)
« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ » أى بدلهم « مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » أى يكونون مكانكم . إيعاد لهم بأنهم في قبضة المشيئة في إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .
(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٣ - سورة الزخرف ، عن أبي أمامة .

كما في قوله تعالى^(١): (وَإِنْ تَقُولُوا يُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ) وقيل معنى (لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ) لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدنا عيسى من غير أب ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله . إلا أن الأظهر هو الأول ، لما جرت به عادة التنزيل ، من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَاتَّبِعُونِ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
[٦٢] (وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ » الضمير إمَّا القرآن كما ذهب إليه قوم ، أى وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها . وفى جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة . وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أى إن ظهوره من أشراط الساعة . ونزوله إلى الأرض فى آخر الزمان دليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته المسببية . إذ أطلق المسبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك (أمطرت السماء نباتا) أى مطرا يتسبب عنه النبات . وقرئ (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ) بفتحتين . أى أنه كالجبل الذى يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه . فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد « فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَاتَّبِعُونِ » أى اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . أو هو أمر للرسول أن يقوله « هَٰذَا » أى القرآن ، أو ما أَدْعَوْكُمْ إليه « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ » أى عن الاتباع « إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
« وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » أى من أحكام التوراة وغيرها . كاختلاف اليهود فى القيامة ، لعدم صراحتها
فى كتبهم . وقد جاء فى نحوها آية^(١) (وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وقد
وضع عن اليهود شيئاً من إضر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل فى يوم السبت . خفف
شدة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك .
بل ترك بيان كثير من الأشياء ، كالفساد الذى دخل فى أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ)
الذى يأتى بعده ، لعدم استعداد الناس فى زمنه لقبول كل شىء منه . كما قال هو نفسه فى
(إنجيل يوحنا) فى الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تعرض للطعن فى كتبهم ، وهى
رأس مالهى الوحيد وراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشك فيه الكثيرون منهم وكذبوه ،
ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضييع الفائدة من بعثته التى بينهاها فى المتن . وهى التى
بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه^(١) (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ) فالمراد بمثل
هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة
(التوراة) تطلق على كتب العهد القديم . فالعنى أن مجىء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون
عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن
(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

عيسى يقرّ كل ما في التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة^(١) (وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخاً لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ » قال ابن جرير^(٢) : أى إن الله الذى يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لا تشركوا معه فى عبادته شيئا . فإنه لا يصح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه « هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى هذا الذى أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعته ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)
« فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ » أى الفرق المتحزبة اختلافا نشأ « مِنْ بَيْنِهِمْ » أى لا من قوله تعالى ، ولا من قول عيسى . بل ظلما وعنادا « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح ، وظلمهم بترك النظر فى الدلائل العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٦٧] (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« هَلْ يَنْظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ » أى المتخالون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة
 الله ومحبته . قال القاشانى : الخلة إما أن تكون خيرية ، أو لا . والخيرية إما أن تكون فى
 الله أوله ومحبته . وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلى . والقسم الأول هو
 المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل ، التى قال ^(١) فيها (فا تعارف منها
 ائتلف) فهم إذا برزوا فى هذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرّجس ،
 فلما تلاقوا تعارفوا ، وإذا تعارفوا تحابوا ، لتجانسهم الأصل ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة ،
 وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية ، التى هى
 سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلقاءه ، وتصق بصفائه ،
 وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء
 والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف
 والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة . كمحبة الصالحاء والأبرار
 فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أمهم . والقسم الثالث هو المحبة
 النفسانية المستندة إلى المذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة .
 ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع
 هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار
 والصناع . ومحبة المحسن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فانّ وسبب زائل ، زال

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجنّدة ،

الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ (طبعنا) .

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحايين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الآخرين ، أطلق الكلام وقال (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) لا تقطاع أسباب الوصلة بينهم ، وانقضاء الآلات البدنية عنهم ، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حشرات وآلاما وضررا وخسرانا . قد زالت اللذات والشهوات ، وبقيت العقوبات والتبعات . فكل يمقت صاحبه ويغضه . لأنه يرى مابه من العذاب ، منه وبسببه . ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما قال ^(١) (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) ^(٢) (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ولعمري ، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر . وهم الكاملون في التقوى ، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثاني . وكلا القسمين ، لا اشتراكهما في طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى لأنهم من العذاب « وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى على فوات لذات الدنيا . لكونهم على الذمة منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

(الَّذِينَ ءَامَنُوا بِبَيِّنَاتٍ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا بِبَيِّنَاتٍ » أى صدقوا بكتاب الله ورسله ، وعملوا بما جاءتهم به رسالهم « وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » أى أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسالهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [٣٨ / ص ٢٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ)

« اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ » أى تُسَرُّون سرورا يظهر حَبَّارَه ،
أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى^(١) (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

الْأَنْفُسُ وَلَذَّةُ الْأَعْيُنِ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[٧٢] (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصحاف جمع (صفحة) وهى آنية
الأكل . والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كاللكوز . إلا أن الكوب
ما لا عروة له . قال النشباب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من الغز فيه :

وذى أذنٍ بلا سمعٍ له قلبٌ بلا قلبٍ

إذا استولى على صبيٍّ فقل ما شئتَ فى الصبيِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أواني المأكولات أكثر بالنسبة لأواني
المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ
وَلَذَّةُ الْأَعْيُنِ » أى بمشاهدته « وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم
الحسنة ، من الجنة ونعيمها الباقي لهم ، بما يخلفه المرء لورثته من الأملاك والأرزاق .
ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استمارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)

« لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتبهتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزيّنة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[٧٥] (لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى مستسلمون يائسون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » أى بكفرهم الله ووجودهم توحيداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ)

[٧٨] (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ)

« وَنَادَوْا » أى بعد إدخالهم جهنم « يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليقتلنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطيل الحواس وعدم الإحساس ، لشدة التألم بالعذاب الجسماني .

« قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ » أى لا بثون « لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ » أى لا تقبلونه وتنفرون منه . وعبر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليداً .

لطيفة :

قال القاشانى : سعى خازن النار (مالكا) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها .
لقوله تعالى (١) « فَأَمَّا مَنْ طَفَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى »
كما سعى خازن الجنة (رضوانا) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمْ أَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

« أَمْ أَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » أى أم أرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ،
يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإننا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم ، من النكال .
كقوله تعالى (١) « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَىٰ أَوْسَلْنَا لَهُمْ يَكْتُمُونَ)

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أخفوه من تناجيهم
بما يمكرون ، فلا نجازيهم عليه خلفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسهمهما ونطلع عليهما
« وَرُسُلُنَا » يعنى الحفظة « لَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى ما تكلموا به ولفظوا من قول .
ثم أشار إلى رد إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختماً للسورة مما بدئت به ، المسمى
عند البديعيين (رد المعجز على الصدر) فقال سبحانه :

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٧-٣٩] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ)

« قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارة ، جاز . انتهى .

قال القاشانى : وهذا إما أن يدل على نفي الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفي الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالة على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفي التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحده . وأنزهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء . لكونه رباً خالقاً للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهانى . وأما دلالة على الثانى فإذا جمل قوله (سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، (أى نزه رب السموات عما يصفونه) فيكون نفياً للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالحال . والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية^(١) (فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ وَفَسَوْفَ تَرَانِي) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ)

« فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ »

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] .

الَّذِي يُوعَدُونَ « قال ابن جرير ^(١) : وذلك يوم يُصليهم الله بفريتهم عليه ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ

عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٨٦] (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحدوه وأخلصوا له على علم منهم وبقين ، كقوله ^(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع . أى لسن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . ا هـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفي (الإكليل) قال إلكيا : يدل قوله تعالى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) على معنيين : أحدهما - أن الشهادة بالحق غير نافذة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني - أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها ، أن يكون الشاهد عالماً بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى بصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقِيلَ لِمَ يَرَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَقِيلَ لِمَ » أى قيل محمد صلوات الله عليه ، شاكياً إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَرَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ » أى الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى^(١) (وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٠] .

« فَأُصْفَحْ » أى أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ » أى لَكُمْ أو عليكم . أو أمرى سلام .
أى متاركة ، فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازى : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يجب الاختصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن (سلام عليكم) والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر . اهـ .

وفيه نظر ، لأنه جرد على الظاهر البحث هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول (١) إبراهيم عليه السلام لأبيه (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وآية (٢) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى (عليكم) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعله كالثابت . فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »
أى حقية ما أرسلت به ، بسمو الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ (وقيله) بالنصب عطفا على (سرهم ونجواهم) وضعف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل (الساعة) لأنه فى محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على (الساعة) أو الواو للقسام . والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) وقرئ بالرفع عطفا على (علم الساعة) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجملة (يارب) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو متقبل . وفى (الحواشى) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

(١) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٢) [٢٨] القصص / ٥٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤ - سُورَةُ الدَّخَانِ

قال المصائبي : سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الحبيثة ، بصائر قلوب أهلها وأرواحهم . ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين . وجعلوا المميز بينهما مجنوناً . وإن القرآن كاشف عنه ككشف الدخان المحسوس عنهم ، وهي مكية . وآيها خمسون وتسع . روى ^(١) الترمذي مرفوعاً : من قرأ (حمّ الدخان) في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمر بن أبي خنعم راويه ، يضعف . قال البخاري : منكر الحديث . أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٨ - باب ما جاء في فضل (حمّ الدخان) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَمَّ)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)

« حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » يعنى ليلة القدر التى قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت فى رمضان . كما قال سبحانه ^(١) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان ، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها فى رمضان . وما روى من الآثار فى فضلها ، فثله لاتعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فعلى ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين ، بتزليل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشانى : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة فى العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكاله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكاله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذام وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقنات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهويان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ « أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يلقو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لميس الحاجة إليه . كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وجوز كون (رحمة) غلة للإزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « أَلْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإزال . قاله المهايى . وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة فى الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بمقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعاشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الفاظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)
 [٨] (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)
 [٩] (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان منجد متهم) أى يريد نجدا وتهامة . اه . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنما هو قول ممزوج بلب ، لغشيان أذخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٠] (فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)
 [١١] (يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)
 [١٢] (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل (الارتقاب) إلا في أمر مكروه . وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول - قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف . فأخذوا بالجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيمته الدخان . روى ابن جرير^(١) عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن قاصا عند أبواب كنفه يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، يأخذ المؤمنين منه كهيمته الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول^(٢) لنبيه ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدارارا قال : اللهم سبعا كسيع يوسف . فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف . ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل^(٣) (فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) إلى قوله^(٤) (إِنَّكُمْ عَمَّا يُدْوَونَ) قال : فكشف عنهم^(٥) (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر . وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة والالزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٦) ورواه الإمام أحمد^(٧) في مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٨ / ص ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ٢ - باب

يَقْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ (طبعنا) .

(٧) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذى^(١) والنسائى^(٢) فى تفسيرهما، وعند ابن جرير^(٣) وابن أبى حاتم من طرق متعددة وقد وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير. قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن مجيء أبى سفيان كان قبل الهجرة. لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبى سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك. فلذلك قال^(٤) :

* وَأَبْيَضَ يَسْتَشْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعمد ، وإلا فهو مشكل جداً . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتبية فى تفسير الدخان على هذا معنيين : أحدهما - أن فى سنة القحط يعظم يابس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، وبظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان . ولهذا يقال لسنة المجاعة (الفبراء) ثانيهما - أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان . فيقولون (كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوقه أو ضعفه ، أظلم عيانه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استمارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تريد مهذباً لا عيبَ فيه وهـل عودٌ يفوحُ بلادُ دُخانٍ

(١) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ١ - باب حدثنا محمود بن غيلان ،

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) وعجز البيت : * تَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ * .

وهذا البيت من قصيدة أبى طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خَلِيلِي مَا أَذْنَى لِأَوَّلِ عَاذِلٍ بِصَفْوَاءَ فِي حَقِّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلٍ

الوجه الثانى فى الآية - أنه دخان يظهر فى العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدُ ، وهو آت وهو قول حذيفة . وىروى عن على وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازى : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول - أن قوله (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع ، فذلك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه ، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز . الثانى - أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث - أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التى ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع - ماروى عن النبى ﷺ من عدة الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز . وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جداً . فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم ، ووعد أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق . وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقلوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وهكذا رجع الإمام ابن كثير الوجه الثاني، ذهابا إلى ماصح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَأَرْقُبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) أى بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشى النَّاسَ) أى يتغشاهم ويغمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى يقال لهم ذلك ، تقريبا وتوبيخا . كقوله عز وجل ^(١) (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ تَارِجِهِمْ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله سبحانه وتعالى (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أى يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه ، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جلت عظمتة ^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكْذِبُ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا ^(٣) (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ بَأْسِهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحِيبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَبِعَ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

(١) [٥٢ / الطور / ١٣ و ١٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونٌ)

أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونٌ « أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والفسادة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته ^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْأَنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) الآية . وكقوله عز وجل ^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فُوتَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما - أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَّلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمته ^(٤) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والثانى - أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى ^(٥) (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) « ولم يكن العذاب باشرهم وانصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أفلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام : أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَالُوا ^(١) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّمْنَا اللَّهُ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم . وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضي الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير ^(٢) : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وعمن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازا ، بذكر المسبب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف] [٨٨ و ٨٩] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مساق الفظم الكريم قطعا . فإن قوله تعالى (أَفَنُيْ لَهُمُ الَّذِي كَرِي) الخ ، ردّ لسلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنبي عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر ، وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم منه في إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبين لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، تخرلها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ربنا يشاهدون منه ما شاهدوه من العظام الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُوا) في حقه (مَعَكُمْ مَجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل السكب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَبَّنَا كُشِفَ عَنَّا الْعَذَابُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . وما بينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبيثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعهده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل في الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبي ﷺ . فالبشوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعتاد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث في الآية ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ) قال : كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جداً بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يرو مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس ، ترجمان القرآن . أو غيره من الصحب . إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافي احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى في آخر السورة (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم . وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُوكَ الْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى (عَمَّادُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف في هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان ، اهتماماً في معناها ، وعناية في البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرّاً على وجهه ، وعلى ابن عباس وحذيفة على وجه آخر . على ما أسند عنهم من طرق . ولعمري الحق ! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم ، وإشارته من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى . هذا أولاً . وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما . لما تقرر من شرح السنة للكتاب . وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى في خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعمده . وأما من فتح للتدبر باباً ومهد للنظر مجالاً ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

فذاك وسع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة الفقل إلى فضاء العقل .
ولكل وجهه .

إذا علمت ذلك ، رأيت أن من فسر هذه الآية بالحجاجة التي حصلت لقريش ، أمكنه تطبيق
الآية عليها مجازاً في بضع مفرداتها ، وحققة في بقيتها وفي وقوع مصداقها ، في رأيه . ومن
فسرها بالدخان المتظر ، المروي من أشراف الساعة ، وقف مع المروي ورأى أنه تفسيرها .
لأن الأصل التوافق والجل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرها
بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بايغ المجاز وبديع الكناية في ذلك . وأن الوعد
بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مراد به الفتح . كآية ^(١) (وَيَقُولُونَ مَتَى
هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيهَهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين مأخذ الأئمة
ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأي عن
التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن نعمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازي
المقدم ، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطل به ، أن لا منتدح ، بعد ، عنه . مع أن للذهاب إلى
غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوته هنا . لأن المقام مقام إنذار
وإبعاد . والدوق أكبر حاكم وإليه مراد البلاغة . ولا يلزم التأول نكرانه للدخان المتظر .
كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب
هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظي اتحاد التأويل والمروي . وبالجملة ،
فاللفظ الكريم يتناول المعاني الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تبيين واحد منها
للمراد ، فصعب جداً فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن .
والله العليم . وقوله تعالى :

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ - ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرم أى معظم . وعلى الثانى ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسباً ونسباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوا إِلَىَّ عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ)

« أَنْ أَدُّوا إِلَىَّ عِبَادَ اللَّهِ » أى أرسلوا معى بنى إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى . وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضم ، هذه الديار « إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملتها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ، إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ)

« وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتى . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)

« وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ » أى اعتصمت به من رجكم . يعنى القتل ، فعصمنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افتراء عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفا ورعبا .
وما ذاك إلا لايوائه إلى عصمة الله وتأيمده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُنِي)

« وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُنِي » أى فكونوا بمعزل عني . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)

« فَدَعَا رَبَّهُ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون

مفسدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

« فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدكم وأرضهم ليرجعوكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَأُتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ)

[٢٥] (كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ)

« وَأُتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله

التي كان عليها حين دخلته ، ولا تضربه بمصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ »

كَمْ تَرَ كُوفًا » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى

منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا في التفكه والتنزه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« وَزُرُوعٍ » أى قاعة فى مزارعهم للقوت « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ)

« وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ » أى متنعمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)

« كَذَٰلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير « وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » قال الزمخشري : إذ مات رجل خطير، قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكى عليه السماء والأرض . وبكىه الريح وأظلمت له الشمس . قال جرير^(١) :

* تَبْكِي عَلَيْكَ نَجْمُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فَالشَّمْسُ كَاسْفَةٍ لَيْسَتْ بِطَالِمَةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية^(١) :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكُ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ، ومساعد عمله ومهابط رزقه في السماء : تمثيل . ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى^(١) (فَمَا بَسَّكَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبجأهم ، النافية لحال من يعظم فقدده . فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعنى : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» أى مؤخرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

«وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ» يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ)

«مِنْ فِرْعَوْنَ» بدل من العذاب ، على حذف مضاف . أو جعله عذابا ، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته «إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا» أى متكبرا على الناس «مِّنَ الْمُسْرِفِينَ» أى المتجاوزين الحد ، فى العتو والشر .

(١) البيت للمبلى بنت طريف الشيباني . ترى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مزيد قتلته .

والقصيدة مطلعها :

يَتَلَّ بُنَاتًا رَّسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مُنِيفٍ

(الأغاني ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

«وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى فضلناهم لأجل علمهم معهم ، على عالمي زمانهم .
أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَأَيَّتَنَّا لَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاوًا مُّبِينًا)

«وَأَيَّتَنَّا لَهُمْ» أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم «مِّنَ الْآيَاتِ» أى المعجزات والكرامات «مَا فِيهِ بَلَاوًا مُّبِينًا» أى نعمة ظاهرة ، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ)

«إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ» أى مشركي قريش «لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ» أى المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه . وليس القصد إلى إثبات ثانية . قال الإسموي في (التهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول : هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحدى في تفسيره ، والزجاج . ومن فروع المسألة ، ما قال : إن كان أول ولد تلديه ذكراً فأنثى طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علي : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .
وما ذكر أظهر مما للزحشرى هذا «وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» أى مبعوثين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَاتُّوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَاتُّوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا . قال ابن كثير : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة . فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لافى دار الدنيا . بل بعد انتقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا . ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا . ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يرد ، كما حلّ بأشباههم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« أَمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنفعة « أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ » إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى أهلكناهم بجرمهم . وهو كفرهم وفسادهم . وهم ما هم . فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم ؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ . أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان . وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا . كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا . و (النجاشي) لمن ملك الحبشة . وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تباعثهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه . واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصر الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فأنعوه وقتلوه بالنهار وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل . فاستحيا منهم وكف عنهم . واستصحب معه حبرين من أحبار يهود ، كانا قد نصحا وأخبرا أن لا يسبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن . فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة . فنهياه عن ذلك أيضا ، وأخبره بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبي المبعوث فى آخر الزمان . فمظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر . ثم كرت راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهود معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين السكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والحبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطه ، عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبي ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلقا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باريَّ النَّسَمِ
فلو مُدَّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ
وجاهدتُ بالسيفِ أعداءَهُ وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمِّ

ثم ساق ابن كثير آثارا في النهي عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروى في شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعى . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من نخامة نبئه المروى لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمربه من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لا قصّ ذلك خبرا من الأخبار ، وسمرامن الأسمار ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبِينَ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »
أى الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضائه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِيقَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ » أى بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « الرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ الْأَثِيمِ)

« طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلَى الْحَمِيمِ)

« كَالْمُهْلِ » وهو دردى الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِي الْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلَى الْحَمِيمِ » أى الماء الحار الذى انتهى غليانه . وقوله (فِي الْبُطُونِ) كقوله ^(١) (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) وهذه الآية كآية الصفات ^(٢) (أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ٧٠٦] . (٢) [٣٧ / الصفات / ٦٢-٦٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ » أى ادفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والنهكم ، فيتم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسى ، العذاب العقلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ » أى تشكون ، مع ظهور دلائله . أو تمارون وتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] (يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّبِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعُمُورٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارق من الحرير وكشف « مُتَقَلِّبِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصنيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

« كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ » أى يطلبون ويأمرّون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ، وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٥٧] (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٥٨] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٩] (فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » قال ابن جرير ^(١) : أى لا يذوق

هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد المنة الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إِلَّا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى .
 يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ »
 أى سهلناه حيث أزلناه بلغتك ، وهو فذالك للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتمظون
 بغيره وعظاته وحججه ، فينبهوا إلى طاعة ربهم ويدعوا للحق « فَأَرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم
 من زهوق باطلهم « إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم
 (نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) وهذا وعده ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسليمه
 ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه^(١) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي)
 وقوله تعالى^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهَادُ) .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهي من المطالب الشريفة في القرآن . وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايمى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها آية^(١) (قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت في شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » قال المہاجمى : فعزته تقتضى إفاضة الحجاج التى بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكمالات التى يعسر الوصول إليها . وأنواع السعادات ، وحدة النظر ، والحكمة تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزل من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليقوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجاج ، ورفع الشبه . فنها آيات الأجسام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٤] (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٥] (وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ » أى مطر . سمي رزقا لأنه سببه « فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك (أعجبني زيد وكرمه) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل « أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه ،
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَٰذَا هُدًى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ)

[١٢] (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَبِقُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلاً « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا » استهانة بها « أَوْ لَأَمَّا لَكُمُ الْعَذَابُ مُهِينٌ * مَن وَرَّاهِمُ جَهَنَّمَ » أى من بعد انتضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا » أى من الأموال والأولاد « شَيْئًا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق ، يهذى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة ، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج لآليه ، وصيد منه « وَلَمَّا كُمُ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتمبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتهم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيمتبرون بها ويتفكرون . قال المهايى : منها أن ربط بعض العالم ببعض دليل توحيده . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا » أى صدقوا بالله واتبعوا « يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائمه بأعدائه « لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهم أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، لئيب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر - إن صح - صدقها على قضيته . والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى لكونه افتسكها من العذاب « وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » أى أساء عمله بمعصية ربه ، فعلى نفسه جنى ، لأنه أوبقها بذلك « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والسيء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا نَبِيَّ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

«وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ» أى التوراة «وَالْحُكْمَ» أى الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التى لم تنزل بالكتاب «وَالنَّبُوَّةَ» أى جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق «وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» يعنى المن والسوى «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى على أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) «وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ» أى حججاً وبراهين وأدلة قاطعات ، تأبى الاختلاف ، ولكن أبوا إلا الاختلاف «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ» أى ظمأ وتمدياً منهم ، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى بالموأخذة والمجازاة . قال ابن كثير : وهذا فيه تحذير لهذه الأمة ، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهمجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ» أى على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين ، الذى أمرنا به من قبلك من رسلنا «فَاتَّبِعْهَا» أى تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعنى المشركين وماهم عليه من الأهواء التى لا حجة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّهُمْ لَنُغْنُواكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

«إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما،
«وَأِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أى أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة .
أو فى التحزّب والتقوى . ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلّت عناية الله ونصرته
عنهم ؟ «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» أى من اتقاه بعبادته وحده، وخشيته بكفايته من بنى عليه،
وكاده بسوء . والأظهر تفسير الآية بآية (١) «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ طُغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أُجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« هَذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ لِلنَّاسِ » أى يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به
سبيل الرشاد . قال الزمخشري : جعل مافيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر فى القلوب
كما جعل روحاً وحياة . أى فهو تشبيهه ببلغ « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أى من
العذاب لمن آمن وأيقن « لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى يطلبون اليقين « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أُجْرَحُوا
السَّيِّئَاتِ » أى اكتسبوا سيئات الأعمال « أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى من عدم التفاوت . قال الزمخشري : والمعنى
إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً . لافتراق أحوالهم أحياء
حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . وممات حيث مات
هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله
والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمأنينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والmith بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية^(١) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب . قال ابن جرير^(٢) : أى للعدل والحق ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله ، من التسوية بين الأبرار والفجار . لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشري : معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلل محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته ، ولتجزى كل نفس « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى جزاء أعمالهم .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغُلَّبَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[٢٤] (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبد . فجعله إلها تشبيهه بليغ أو استعارة . قال القاشانى : الإله المعبود ، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلها . إذ كل ما يعبد الإنسان بحبته وطاعته ، فهو إله ولو كان

(١) [٢٠ / طه / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

حجرا! « وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى علما بحاله ، من زوال استعدادده ، وانقلاب وجهه ، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى علما بعلم ما يجب عليه فعله في الدين . على تقدير أن يكون (عَلَىٰ عِلْمٍ) حالا من الضمير المفعول في (أَضَلَّهُ اللَّهُ) لامن الفاعل . وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى . أو على علم منه غير نافع . لكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لمكان الرّين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئا « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنى الطبيعى ، « وَنَحْيَا » أى الحياة الجسمانية الحسية ، لاموت ولا حياة غيرها « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين . و (ذَلِكَ) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشري : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر في هلاك الأنفس ، وينفكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام^(١) (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابى ، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤساً للدهر) و (تبا للدهر) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن هنا نحوه من الظاهرية ، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنی ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تبييه :

في هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وما هذا سبيله ، فباب القبول في وجهه مسدود ^(١) (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِّنَ الْحَقِّ شَيْئًا) قال الشهرستاني في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع الحجي والدهر المنفي . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ^(٢) (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي . وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، في كم آية وكم سورة فقال تعالى ^(٣) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِحِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ^(٤) (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال ^(٥) (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ) وقال ^(٦) (قَالَ أَتَيْنَكُمُ لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) وقال ^(٧) (يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداء وإعادة . انتهى .

ولى في الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمّته (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المريد ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

- (١) [١٠ / يونس / ٣٦] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .
 (٣) [٧ / الأعراف / ١٨٤] . (٤) [٧ / الأعراف / ١٨٥] .
 (٥) [١٦ / النحل / ٤٨] . (٦) [٤١ / فصلت / ٩] . (٧) [٢ / البقرة / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أُتُوا بِبَآئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أُتُوا بِبَآئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكما بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتزليل التضاد منزلة التجانس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى قل لهم فى جواب قولهم (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) : قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم (فى جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مر مرارا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ » أى الذين أتوا بالباطل فى أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

[٣١] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً » أى بركة، مستوفزة على الركب لاجراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره . وذلك عند الحساب أوفى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء « كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا » أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها . ويعطى يمين من كان سعيدها . وشمال من كان شقيا « الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا أعمالهم « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ » أى نستكتب الملائكة « مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ما صالح به حالهم فى المعاد الجسماني « فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ » أى فى جنته « ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقال لهم « أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى يكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بمعاد ، ولا الإيمان بثواب وعقاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ »
 أى : أى شئ هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ » أى
 انها كائنة وآتية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
 [٣٤] (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ)

[٣٥] (ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

«وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا» أى قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» بمعنى الجزاء «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» أى تترككم فى العذاب ، ترك ما ينسى ، كما تركتم التأهب له . ف (نَنسَخُكُمْ) استعادة أو مجاز مرسل « وَمَأْوُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ * ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا » أى خدعتكم حتى آثرتوها على الآخرة وزعمتم أن لاهية سواها « فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا » أى من النار «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أى ولا يطلب منهم أن يعقبوا ربهم أى يرضوه . من (الإعتاب) وهو إزالة العتب ، كناية عن الإرضاء . أو : لاهم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣٧] (وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير^(١) : أى فله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه . فإياه فاحمدوا أيها الناس . فإن كل ما بكم من نعمة فمنه ، دون ما تعبدون من دونه ، من آلهة ووثن « رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شيء . وغاية العلو والعظمة باستغنائاه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوى القاهر لكل شيء « الْحَكِيمُ » قال القاشانى : أى المرتب لاستعداد كل شيء ، بلطف تديره ، المهيء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بديق صنعته ، وخفى حكمته (لا إله إلا هو رب العالمين) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمثلنا بدمشق الشام . بقلم جامعته جمال الدين القاسمى . وهذا آخر الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير : ٤٦ - سورة الأحقاف ، ٤٧ - سورة محمد ، ٤٨ - سورة الفتح ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٥٠ - سورة ق ، ٥١ - سورة الذاريات ، ٥٢ - سورة الطور ، ٥٣ - سورة النجم ، ٥٤ - سورة القمر ، ٥٥ - سورة الرحمن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُواْ آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسمى

مَحَاسِنُ التَّائُوْدِ

تَكْلِفُ عَلَامَةِ الشَّكَاةِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِمِيُّ

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الخامس عشر

ويبتدىء بتفسير : ٤٦ - سورة الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ - سورة الرحمن

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

عِيسَى ابْنِ أَبِي الْحَلْبِيِّ وَشُرَكَاهُ

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع

فهماً تراح إليه ضماؤها ، وتنمقد عليه

خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في جلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدني

الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء

مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الحسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته

الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول

الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦ - سورة الأحقاف

قال المهاجمي : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كالل دليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالل دليل على أنفسهم . ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة الرجوع خوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال خوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...)^(١) الآيتين . وقوله^(٢) : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...)^(٣) الأربع الآيات . (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)^(٤) الآية ، فهي مدنية - كذا قيل . وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا » أى : من هول ذلك اليوم « مُعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ

مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضى بالاستقلال ، أو شىء سماوى بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا » تبكىتم لهم بتمجيذهم عن الإتيان بسند نقلى ، بعد تبكىتمهم بالتمجيذ

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : اثنوني بكتاب إلهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شيء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ » أى : دعاءه لمعجزه عنها « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المعيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما ، كالشيء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تريد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

في سورة الزخرف في قوله ^(١) (بَلْ مَقَّعْتُمْ هَؤُلَاءِ وَءَاثِبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَاءُ » أى : لتبرئتهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضار . « وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » قال ابن جرير ^(٢) : أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا ، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ، تبرأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصداً إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهوائهم .

وقال القاشانى : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانى . وكذا استعباد الموالى لخدمتهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله ^(٣) (أَلَا خِلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر : لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرًا ، خلاف الظاهر أيضًا . وقد أوضح ذلك آية^(١)
(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ
مُّبِينٌ» أى : بادعوه بالجدود أول ما سمعوه ، من غير إجابة فكر ، ولا إعمال روية . واللام
في (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ،
وعدى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه ، وهو الإيمان ، فإنه يمدى بها نحو^(٢) (أَنُؤْمِنُ لَكَ)
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفَيْضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا يَبْنِي وَيَنْكُصُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى : لاتقدرون
أن تدفعوا عني سوءاً ، إن أصابني به . و (أم) - على ما قالوا - منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية
وهزة الاستفهام ، المتجاوز به عن الإنكار والتعجب . ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ،
حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز
من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد
معرفة من السمات المرغوبة .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الفاسر : هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آتفاً في بابها ، فإنه انتقل إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفَيِّضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون في حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد بالصدق بما يؤيدني به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : لمن راجع مفكم الكفر وتاب وآمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلم تستفكروا بعثتى ، وتستبعدون رسالتى ، كقوله ^(١) (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير ^(٢) : ومن البدع قول عدى بن زيد ^(٣) :
فَلَا أَنَا بِدْعٍ مِّنْ حَوَادِثَ تَعْتَرَىٰ رَجُلًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْمَدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المجمعرة ومطلعها :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ نَعَمَ . وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

تعتري : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص (١) :

فَخَرَّتْ فَأَنْتَمَتْ فَقُلْتُ : ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أُتَيْتُهُ بِيَدِي

« وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أى شئ يصيبنا فيما يستقبل

من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدري

ما يصير إليه أمرى ، وأمركم في الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة .

والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ،

دون ما سيقع في الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحي الناطق

بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل

لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو عليه السلام جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما في

الدنيا ، فلم يدرك ما كان يقول إليه أمره ، وأمر مشركي قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون

فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذي رواه الإمام (٢) أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سَكِينَةَ . فأذن مؤذن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ،

أشهد أن محمداً رسول الله) نخرت سَكِينَةُ بما سمعت . فقال الأحوص :

نَخَرْتُ فَأَنْتَمْتُ

فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتَ لِحَمَةِ الدَّبْرِ رُ ، قَتِيلَ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيمِ

غَسَلَتْ خَالِيَ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرِ رَارَ مَيْتَا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيمِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى نخر بفخر ، لو على غير سَكِينَةَ ، نخر به ! وبأبي سَكِينَةَ عليه السلام ،

حمت أباه الدَّبْرُ ، وغسلت خاله الملائكة .

(الأغاني ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

النبي ﷺ ، قالت : (طار لنا في السكني ، حين اقترعت الأنصار على سكني المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فرضناه . حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ . فقلت : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنني لأرجو له الخير . والله ! ما أدرى - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ! قالت : فقلت : والله ! لا أذكرى أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك . فممت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عينا تجرى ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخاري ^(١) دون مسلم ، وفي لفظ له : ما أدرى - وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنني ذلك . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة ، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسرافقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا بيتر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايي : (وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أي : فيما لم يوح إلى . والوحي يبعث الأمور لا يستلزم العلم بالباقي . ولم يكن لي أن أضم إلى الوحي كذباً من عندي . « إِنْ أَتَيْتُمْ » أي : في تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي : منذر عقاب الله على كفركم به ، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم . القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(١) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج

في كفته ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ» أى : القرآن منزلاً من لدنه ، على . لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُمْ بِهِ» وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ «أى : ممن الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة «عَلَىٰ مِثْلِهِ» أى مثل القرآن ، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى (١) (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) وقوله (٢) (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى . أو على مثل شهادة القرآن ، فجعل شهادته على أنه من عند الله ، شهادة على مثل شهادة القرآن ، لأنه يعجزه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله ، أو (المثل) صلة (و الفاء) فى قوله تعالى «فَأَمِّنَ» للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن ، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق «وَأَسْتَكْبَرْتُمْ» أى : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» استئناف مشعر بأن كفرهم ، لضلالهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألسم ظالمين) أو (فن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبي عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى (٣) «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم .

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشى ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله (٤) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها . هذا ما حققوه .
ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا ، وأنه استشهد على ما يتناوله
اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ،
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيقُونَهَا هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ » أى : الإيمان ، أو ما أتى به الرسول
« خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » أى : لو كان من عند الله لكنا أولى به ، كسائر الخيرات من المال والجاه .
قال ابن كثير : يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم ، وأشباههم وأضرابهم
من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله
وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيناً ، كما قال
تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ أَفْتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)
أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا ^(٢) (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)
وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم :
هو بدعة . لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد
بادروا إليها . انتهى . « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ » أى : بالقرآن « فَمَسِيقُونَهَا هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ »
أى : كذب قديم ، كما قالوا (أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير : فيتنقصون القرآن وأهله ،
وهذا هو الكبر الذى قال ^(٣) رسول الله ﷺ : بطل الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٦١ - باب ماجاء في الكبر =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

«وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَابٌ مُصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بينا واضحا . وفي تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِنَذَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» أى : لا غيره . «ثُمَّ اسْتَقَمُوا» أى : على العمل الصالح . قال القاضي : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى مفتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة

من كبر . ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبني أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجبال . ولكن الكبر من بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمَصِ النَّاسِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » وقرئ (حُسْنًا) وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور ، في قوله ^(١) تعالى (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ ...) الآية .
 « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْهٍ ، أو حملاً ذا كُرْهِ ، وهو المشقة . « وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ » أى : حمله جنيناً في بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمائة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأُم مزيد العفاية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأننا نقول : إن الحولين أمدٌ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبيء عنه قوله ^(٢) تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُقِمَّ الرِّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون في الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم في ذلك ، كما ذكروه في حديث أنس في وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين ، كما بين في شرح الشمايل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدلل على رضى الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ^(١) (وَفِصْلُهُ وَ فِي عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى ^(٢) (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِصَهُ الرِّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم .

« حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ » أى : استحکم قوته وعقله « وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي » أى : ألهمني « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » أى : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » أى : واجعل الصلاح ساريًا في ذريتي ، راسخًا فيهم « إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ » أى : من ذنوبي التي سلفت مني « وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى : المستسلمين لأمرك ونهيك ، المتفادين لحكمك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى الموصوفون بالتوبة والاستقامة « الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا » أى : من الصالحات فنجازيهم عليها « وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم « فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ » أى : معدودين في زميرتهم ثواباً ومقاماً .
قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل ^(٣) (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْزَاهِدِينَ) ليدل على المبالغة بملأوا منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبدئوه ههنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِي) بمعنى (مع) . انتهى .

(١) [٣١ / لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعده الحق فى الدنيا ، وهو موفيه لهم فى الآخرة ، كما قال ^(١) (وَمَا أَلْتَمَسْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . ثم بين تعالى نعت من عصى ما وصى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاق كافر ، وما له فى ماله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ » أى حين دَعَوَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ « أَفِ لَكُمْ » أى : من هذه الدعوة « أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبرى بعد فنائى « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستمظامه ، كأنهما لجآ إلى الله فى دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدق بوعد الله ، وأقر أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعل أو ترك ، للإيحاء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه ، وأخذ ما ينجمه « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، وراداً عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التى كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى : الإلهى ، وهو العذاب « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » أى : بديهم الهدى بالضلال ، والباقي بالفانى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى من الفريقين « دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيئ « وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بفقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابن لآبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : نزلت في عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه - وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعد ، فحسن إسلامه - فنزلت توبته في هذه الآية (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا) .

قال الحافظ ابن حجر : لكن نفى عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول . وذلك ما رواه البخارى^(١) والإسماعيل والنسائى وأبو يعلى : أن مروان

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٦ - سورة الأحقاف ، ١ - باب والذي

قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملاً على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ، ودعا إلى بيعته وقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : ما هي إلهرقلية ! فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : هرقلية ! إن أبا بكر ، والله ! ما جعلها في أحد من ولده ، ولا في أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي أَفَ لَكُمَا أَتَعِدَا نَنِي) فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروان في صلبه .

ومما يؤيده أن (الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وحاول بعضهم عدم التناقض بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه ، ثم يسلم بعد ذلك . ومعلوم أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنمى على من كان مشركاً آنثد ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أن فيها ما يحط من أقدارهم ، ويجعلها مغمراً لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنعمة يطرب لها الجهلة ، وقالق يلوكلها الرعاع ، وهم الذين يههم أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن ! فقد شفى القلة ، وصدع بالحق ، في حين أن لظهير له ولا نصير - والله أعلم - .

قال ابن قتبية في (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ في نسق : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن . وقال أيضاً : قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش ، ويكنى أبا محمد ، وله عقب بالمدينة ،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبلٍ يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زوراً. وما أكثر المزارات في المزارات ، كما يعلمه من دقق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أى يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أى فما بقى لكم من اللذائذ شئ لا ستيفائكم إياها « فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى الهوان « بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » أى عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأَذْكُرُ أَخَعَادِ إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَأَذْكُرُ أَخَعَادِ » يعنى هوذا « إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » أى لا تشرکوا مع الله شيئاً

في عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهَيْئَةِ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمِنَ الصّٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا » أى لتصرفنا « عَنِ الْهَيْئَةِ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب على عبادتنا إياه « إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لاحالة . « قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً ، فلا أعلم وقت مجيئه ، لأن العلم بوقته عنده تعالى ، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له « وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ » وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرى^(١) : أى مواضع حظوظ أنفسكم ، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ،

كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

فأوه عارضاً في ناحية من نواحي السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُوا هَذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض « مُمِطِرُنَا » أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا أَسْتَعْجِلْتُمْ بِهِ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ » أى تهلك « كُلَّ شَيْءٍ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلتهم ، بل دمرتهم « فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ » أى بيوتهم . ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلة من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا في غيهم ، وطفنوا على ربهم .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا آبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أن (إِنْ) نافية ، أو ثرت على (ما) لثلا توجب شبه التكرير الثقيل . وقيل (إِنْ) شرطية محذوفة الجواب . والتقدير : ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شىء ، إِنْ مكنا كم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله (١) .

يَرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخَطُوبُ

(١) البيت من شواهد الكشف ، قاله إياس بن الأرت . وقبله .

= فَإِنْ أُمْسِكَ فَإِنَّ الْعَيْشَ حُلُوٌّ إِلَى كَأَنَّهُ عَسَلٌ مَشُوبٌ

قال الزمخشري : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن^(١) (هُم أَحْسَنُ
أَنْثًا وَرِئَاءًا)^(٢) (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا) وهو أبلغ في التوبيخ ،
وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى^(٣) (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقوله^(٤) (مَكَتْنُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمْكِنْ لَكُم) أى : والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد، على ما فيه أيضاً من
سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً » قال الطبري^(٥) : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون
به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ،
« فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى لأنهم لم يستعملوها
فيما خلقت له ، بل في خلافه « إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبري^(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبمده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شرَّائرهُ ، أيخطئ أم يصيبُ

ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطباعه إلى الأمور المغيبة التي لا يراها ، ويعترض الموت
عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولاً ، الأمور الشديدة التي تقطع رجاءه ، فما ظنك
بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٦] .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل العقمة .
لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ،
وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ » أى ما حول قريتك يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى
كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأندرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ،
فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبدينا لهم
ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبري :
وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة
على كفرهم ، والتنادى على غيرهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً ، بَلِ ضَلُّوا عَنْهُمْ
وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً » أى : فهلا نصر
هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أو ثنائهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً
يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتمنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم
عند ربهم ، كما قالوا^(١) (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم ، وامتنع أن يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضالّ فى (ضلُّوا) استعارة تبعية « وَذَلِكَ إِنْكَهْمُ » أى ضياع آلتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ » أى وإثر افتراءهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ » أى أملفاهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا » أى ليتم التدبر والتفكر « فَلَمَّا قُضِيَ » أى فرغ من قراءته ، كل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْا » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فضل عليها إذ « يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهـدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . نخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى ^(١) (وَأَمَّا كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى ^(٢) (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ وَبِأُفْهَى وَدِينِ الْحَقِّ) فالهـدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : يهـدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

«يَقُولُونَ مَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» أى رسول الله محمدًا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، «وَأَمِنُوا بِهِ» يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم * «وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجزه ربّه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أتى اتجه . «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام مسلم ^(٣) عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتسناه فى الأودية والشعاب ، فقليل : استطير ، اغتيل ! قال : فبقنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبقنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطلق بنا ، فأرانا آثامهم .

وروى الإمام أحمد ^(٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحي ،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٤٨٢

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرًا . فيكون ما سمعوا حقًا ، وما زادوا باطلاً . وكانت النجوم لا يرى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . ورواه الترمذی^(١) والنسائي في كتابي التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصري : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم . وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعه الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور . وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه^(٢) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ . . .) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاري ومسلم^(١) جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً : من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرم . ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل - كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه - .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره (قل أوحى إلي) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجنّ نصيبين . وتأول البيهقي قوله (فبتنا بشر ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعد

(١) أخرجه البخاري في : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ - باب ذكر الجن

وقول الله تعالى : قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعنا) .

وبالجملة ، فقد روى ما يدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد عند ابن جرير^(١) في هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدل على أنه قدرى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالى أن هذا الحى من الجن كانوا أكثر الجن عدداً ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . وروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلمل هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى^(٢) في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشيء قط يقول : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . على الرجل . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم . قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتني أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبجه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . ففقت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبى - هذا سياق البخارى - وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ - باب إسلام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه - والله أعلم - .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقي : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب . قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان . قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لى رَئِيٍّ من الجن . قال ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى في منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَحَسَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَخْلَاسِهَا
تَهَيَّوْا إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهَدْيَ مَا خَيْرُ الْجَنِّ كَأَنْتَجَّاسِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِيْنِيكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : يا سواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبياً ، فانهض إليه تهتدي وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطَلَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَفْتَايَهَا
تَهَيَّوْا إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهَدْيَ وَلَيْسَ قُدَمَاهَا كَأَذْنَايَهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِيْنِيكَ إِلَى قَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهَيَّوْا إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهَدْيَ لَيْسَ ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجَنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلي ، فشددته على راحلتي ، فما حلت نسمة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رأيته النبي ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه مني ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَأْتِي رَيْسِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْمَةٍ	ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ ، قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ :	أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لَوْئِي بَنٍ غَالِبٍ
فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَّطْتُ	بِالدَّعْلِيبِ الْوَجَنَاءِ بَيْنَ السَّبَاسِبِ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ	وَأَنَّكَ مُأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسِمِلَةٌ	إِلَى اللَّهِ ، يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ
فَرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ	وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكَنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَذُو شَفَاعَةٍ	سَوَاكَ بَعْنُ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ

قال : فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لي : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض ككتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين . انتهى ^(١) كلام ابن كثير . وقد ساقه الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) مع نظائر له ، في الباب السادس عشر ، في هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخباراً آحاد ، عن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، فخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره في النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون . وقبلوا الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة السكّهانة ، فعنه جوابان :

أحدها : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن السكّهانة عن مغيب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردي : في صرف الجن المذكور في قوله تعالى ^(١) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) وجهان :

أحدهما - أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث في السماء ، إلا لحادث في الأرض ، وتحيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ يبطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلي ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) في (إليك) بمعنى لام التعليل . وذُكر في (الغنى) أنها تأتي مرادفة للام ، نحو ^(٢) (والأمر إليك) . وفيه تكلف وبُعد ، لنبوة عميقة تضيء سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردي : وحكي عكرمة أن السورة التي كان يقرؤها ^(٣) (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

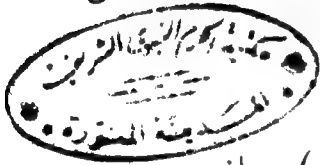
أقول : سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردي :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / الملق / ١] .

والوجه الثاني - أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبي الله بيطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : نخط على خطأ وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم . واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يره ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن . أقول : تقدم لابن كثير ما فيه كفاية .



ثم قال الماوردي : وفي قوله ^(١) (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) وجهان : أحدهما - فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماعه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا - أي قولهم أنصتوا - أدب منهم . وقد روى البيهقي عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ لئلا تكونوا أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رَبِّكُمْ أَنْ تَسْكَدَ بِأَنْ) إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد . ورواه الترمذي ^(٢) وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث - دل قوله تعالى ^(٣) (يَقُولُوا مَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان

عام الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٥ - سورة الرحمن ، باب حدثنا عبد الرحمن

ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ) .

قال الماوردي : لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس ، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم ، فجوز قوم لقول الله تعالى ^(١) (يَمْعَشِرَ الْإِنسَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه . وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس ، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، وتولوا إلى قومهم منذرين . انتهى .
أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية ^(٢) (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) .

الرابع - استدلل بقوله (يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجازوا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .
قال الماوردي : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم . فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم ، يدخلون الجنة . وحكي سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق - كما قال ابن كثير - أن مؤمنهم كهؤم من الإنس ، يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل ^(٣) (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا ^(٤) (وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٧٤ و ٥٦] . (٤) [٥٥ / ٤٧ و ٤٦] .

رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القويّ أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كفرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلَاَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأخرى . ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار . فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه ^(٢) (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ولا خلاف أن مؤمنى قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء . وقد حكى فيهم أقوال غريبة . فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بمحوجة الجنة ، وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا . ومن الناس من قال : لا يأتى كلون في الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس - قيل : مر التبويض في قوله (مِّنْ ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربى لو نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه ، جب الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ما وعد المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة ، والسرفيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجأؤه كما في حق المؤمن - أفاده الناصر .
السادس - قال ابن كثير : جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع - قال الماوردي : الجن من العالم الناطق المميز ، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تحيلوه من آثارهم الخفية . وقال القاشاني : الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكاء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناس التهدي بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .
 القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ

بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى

أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى » أي بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كما يأتهم قبل وفاتهم .

وفي ابن جرير ^(١) بحث نحوي في دخول الباء في (بِقَدْرِ) بديع . ويذكر في مباحث

زيادة الباء ، في مطولات العربية .

« بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أي من إعادة العدوم ، ولو فني الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَّغُوا فَهْلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا » أى الإحياء إحياء « بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَأَصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم - فى اللغة - كالزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشئ والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) ببيانة لاتبعيضية ، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها - أنهم جميع الرسل . والثانى - أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث - أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزم نوح والخليل المجدد وموسى وعيسى والنبي محمد
والرابع - أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس - أنهم سبعة بزيادة آدم .
والسادس - أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزداد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو لملك جبار في عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كمنروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالاتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره - أفاده الشهاب - . « وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » أى ولا تستعجل بمساء لتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أوفى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً » مِنْ نَهَارٍ » أى لأنه ينسبهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلِّغْ » قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان :

أحدهما - أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر - أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايى إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن يعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . فعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدالاتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على انقتال وكثرة فوائده - قاله المهايى - .

وهي مدنية . وحكى النسفى قولاً غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ)

«الَّذِينَ كَفَرُوا» أى: جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى: أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. «أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ» أى جعلها على غير هدى ورشاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم . وقوله «وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بمطغه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . «كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ، ما كان منهم من الكفر والمعاصى ، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» أى حالهم وشأنهم ، وعملهم فى الدنيا بالتأبيد والتوفيق . قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم ، كقوله ﷺ (١) (كل أمر ذى بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبي ، ويتجاوز به عن القلب . ولوفر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ١٩ - باب خطبة النكاح ، حديث

١٨٩٤ (طبعتنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسرهُ السفاقي بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير^(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لا يعرف منه فعل ، ولا تكاد العرب تجمعه إلا في ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الضَّالِّينَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كأن « بِأَنَّ الَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوا اتَّبَعُوا الضَّالِّينَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ » أى يشبه لهم الأمثال ، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا . قال الزمخشري : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تهمة للجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادين عن منهج الرشاد ، وبمنا على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتميزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة . ولذا قال أبو السعود : الفاء لترتيب مافي حيزها من الأمر على ما قبلها . فإن ضلال أعمال الكفرة وخشيم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام . أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم في الحاربة ، فاضربوا الرقاب . وأصله : فاضربوا الرقاب ضرباً . فحذف الفعل ، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيذ بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّى إِذَا أَتَخَفْتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبتة منهم ، فصاروا في أيديكم أسرى « فَشُدُّوا الْوُثَاقَ » بفتح الواو ، وقرئ بكسرهما . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أى فأمسكوكم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَأَمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سببهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال ، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون ، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايى : ولم يذكر القتل اكفاء بما مر من قوله ^(١) (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَأَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال . ولم يذكر الاسترقاق ، لأنه فى معنى استدامة الأسر ، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية . ولا تزالوا كذلك « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى : إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى . استعير لآلات الحرب التى لا تقوم إلا بها ، استعارة تصريحية أو مكنية ، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخميلاً . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى ^(٢) :
وأعددت للحرب أوزارها : رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها :

غَشِيَتْ لِلْيَمَلِ لِلْيَمَلِ بَلِيلٌ خُدُورًا وَطَالَبَتْهَا وَنَذَرَتْ النَّدُورًا

يدح بها هودة بن على الحنقى .

وقيل : أوزارها آثامها . معنى : حتى يترك أهل الحرب - وهم الشركون - شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : في الآية بيان كيفية الجهاد .

الثاني - للسلف قولان في أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي أنها منسوخة بقوله تعالى ^(١) (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمرو وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده باديء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهي المطلقة .

ومدرك الثاني أن الأمر بقتلهم المجمع في آيات ، محمول على الفصل في مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصالحة في القتل ، فذلك من باب آخر .

وتم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز القتل ، لعلمه من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى أختره . وإذا دار الأمر في الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذهاب إلى الإحكام ، لما قدمناه في مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين في النسخ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير ^(١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :
والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة
الناسخ والمنسوخ ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ
الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى
القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في
آية أخرى ، وذلك قوله تعالى ^(٢) (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل
ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب ،
فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويعين على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ،
وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلباً ، وهو
على فدائهم والمنّ عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومنّ
على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ،
من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه
في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى ، نخص ذكرها فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه
بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في
هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث - من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ،
وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرأهم من غير
تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم
مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يَحْيَى، بعد الظفر تحيير مصالحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر، فلم يجوز له ترك ما فيه الحظ، كولى اليتيم، لأن كل خصلة من هذه الحصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى. فإن منهم من له قوة ونسكاية في المسلمين، فقتله أصلح. ومنهم الضعيف ذو المال الكثير، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى في المسلمين، يرجى إسلامه، فالنّ عليه أولى. ومن ينتفع بخدمته، ويؤمن شرّه، استرقاقه أصلح - كما في (شرح الإقناع) - .

الرابع - تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلبقته الدعوة، قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة، لحديث^(١) بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم - رواه مسلم - .

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصد هم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحریمهم وأمرُ الجهاد موكل إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدو، ونسكائهم وقربهم وبعدهم - كما في (شرح الإقناع) - .

وقوله تعالى « ذَلِكَ » خبر لمحذوف. أى الأمر ذلك. أو مفعول لمقدّر « وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصَرَ مِنْهُمْ » أى: لا انتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله. « وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَاْ »

(١) أخرجه مسلم في: ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣ (طبعنا) .

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ « أَى لِيُخْتَبَرُ كَمْ بِهِمْ ، فَيَعْلَمُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ فَيُثِيبَهُمْ ، وَيَلُوِّهَ بِكُمْ ، فَيُعَاقِبُ بِأَيْدِيكُمْ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَنْيِبَ إِلَى الْحَقِّ . « وَالَّذِينَ قُتِلُوا » أَى اسْتَشْهَدُوا .
وَقَرِئُ (قَاتِلُوا) « فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أَى بَيِّنَهَا لَهُمْ فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أَى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْاَعْمَالُ)

[٩] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ » أَى خزيًا وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالسكب . « وَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » أَى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ » أَى من الحق ، وشايعوا ما ألقوه من الباطل . « فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمره بمعنى أهلكه . ودمر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسيماً منسياً ، فيتناول نفسه وكل ما يختص به . والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَلُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكرين في المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا هم لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدِينَا مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَكَأَيْنِ » أى : وكم « مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلُكُنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدِينَا مِّن رَّبِّهِ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبد على بصيرة منه . « كَمَن زُيِّنَ لَهُ وَ سُوءُ عَمَلِهِ » أى فأراه إياه الشيطان حسناً ، فهو مقيم عليه . « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » أى متغير الريح « وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى :
أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ،
وإن كان في صورة الإثبات ، هو في معنى الإنكار والنفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر
بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَنْ كَانَ ...) الخ ، وليس في اللفظ
قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعرب آخره ، هذا أمثها .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَمِنْهُمْ » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّن » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ »
إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ « أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه
من المتلو ، وتهاونا به « مَاذَا قَالَ آنِفًا » أى الساعة . هل فيه هدى ؟ فإن بينوه لم يستفيدوا
منه شيئاً . « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه
« وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم ، لا ما يدعو إليه البرهان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

« وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا » أى باتباع الحق ، والشئ مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً
لحقيقة ما جاءهم « وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بين
لهم ما يتقون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ)

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير :
أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى (١) (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ) وكقوله جلّت عظمتُه (٢) (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى (٣) (إِنِّي أَمَرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا (٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبيّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرى : بعثه محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ اللحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبي .

روى البخارى (٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا - بالوسطى والى تليها - : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ » أى ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [٥٣ / النجم / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ١] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٥) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٩ - باب قول النبي ﷺ (بعثت

أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

« فَاَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » قال ابن جرير^(١): أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذى هو خالق الخلق ، ومالك كل شيء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطي : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد في العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفة قبل الإقرار .

« وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء . قال الشهاب : وإنما أعيد الجار ، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبي ﷺ ، فإن ذنوبهم معاص كباثر وصغائر ، وذنبه ترك الأولى .

وقال السيوطي : استدل بالآية من أجاز الصغار على الأنبياء . انتهى .
والمسألة مبسوسة بأقوالها ، وما لها وما عليها في (الفصل) لابن حزم . فارجع إليه .
وفي الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري في: ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٦٠ - باب قول النبي ﷺ (اللهم

اغفر لي ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤ ، عن أبي موسى الأشعري .

في أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطاياى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

وفي الصحيح^(١) أنه كان يقول في آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلهى لا إله إلا أنت . وفي الصحيح^(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أى متصرفكم فيما تنصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أى تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار . « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ » أى مبينة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، « وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ » أى الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى : شك فى الدين وضعف فى اليقين « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذى لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخارى فى : ١٩ - كتاب التهجد ، ١ - باب التهجد بالليل ، حديث

رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣ - باب استغفار النبى ﷺ فى

اليوم واللييلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبى هريرة .

« فَأُولَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي ، بمعنى القرب . وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل (أويل) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بقاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاة) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منه عليهم أصلاً ، كما جاء (أول) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ (قبل) وسمع فيه (أولّة) - كما نقله أبو حيان - فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى . قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها - أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فاهلاك لهم .

والثاني - أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحق بهم .

الثالث - أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى

[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثاني - أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكّي وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث - أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكّي : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع - أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس - أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل - أفاده السمين - .

« فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السمود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله ^(١) تعالى (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتحلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلو جئتنى لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام النبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجب « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأياً ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وما جاء به رسوله « أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ »

أى تمودوا لما كنتم عليه فى جاهليتكم من التشنت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين « الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامتهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ » أى لتعاميمهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا)

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ » قال ابن جرير^(١) : أى أفلا يتدبر هؤلاء النافقون مواضع الله التى يعظم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون . « أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتفكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونكرها ، كأنها مبهمه منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

«إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم» أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر «مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» أى الحق بواضح الحجة .
«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانى ، أو أمهلهم الله تعالى ، فد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

«ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، «بِأَنَّهُمْ» أى بسبب أنهم «قَالُوا» أى المنافقون «لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» أى لليهود السكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى (١)
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَیْنُ
أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِیْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قریظة والنضیر الذین كانوا یوالونهم ویوادونهم .

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

[٢٨] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ)

« فَكَيفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَارَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَلِكَ » أى التوفى المائل « بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه ، « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ » أى يظهر « اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ،

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ

أَخْبَارَكُمْ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ » أى لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَمَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ » أى بعلامتهم التى نسمهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانى : علم الله تعالى قسبان : سابق على معلوماته إجمالاً فى لوح القضاء ، وتفصيلاً فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلي فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ أَعْمَلُهُمْ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ أَعْمَلُهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تنمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ)

[٣٤] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

« بَيِّنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ »
أى لكن يعذبهم ويماقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَفْعَلَكُمْ)

« فَلَا تَهِنُوا » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم ، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسككم بحبله « وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَفْعَلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد « وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم « وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » أى لأنه غنى عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لا يسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع ، أى : لا يأخذ منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابله لقوله (يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ) أى يعطىكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال - هذا ما قاله الشهاب - .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده ، وأن طلب إتيان الأموال منهم ، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم ، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إتيان أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْغَانَكُمْ)

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلج عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم ، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشري : الإحشاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شيء . يقال (أحفاه فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شاربه) إذا استأصله .

« وَبُخْرَجَ أَصْغَانَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراحتكم لدين يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأصغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأصغان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هَآأَنْتُمْ هَآؤَلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ)

« هَآأَنْتُمْ هَآؤَلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ » أى يسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكل شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ » أى بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيل من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فردة الأئمة، وجزئية الأمم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلاً منكم ، يؤمنون به ، ويمعملون بشرائعه . « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ » أى لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على ما يؤمرون به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨ - سُورَةُ الْفَتْحِ

سميت به لدلالاتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هذه أمور جليلة - أفاده المهايى - .

وأيها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَّةً له بالفتح . قال أنس : لما رجعنا من الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكتابة ، فنزلت . واختاف فى المكان الذى نزلت فيه ، فوقع عند محمد بن سعد (بصَجْنان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى - الإكليل - بكراع الغميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال - وهو فى بعض أسفاره - لعمر : لقد أنزلت على الليلة سورة ، هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجع فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » قال الرازى : فى الفتح وجوه :

أحدها - فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها - فتح الروم وغيرها .

وثالثها - المراد من الفتح ، صلاح الحديبية .

ورابعها - فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها - المراد منه الحكم ، كقوله ^(١) (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ،

وقوله ^(٢) (ثُمَّ يَفْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانى ، وجميعها مما تحقق

مصادقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً

لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول

إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحاة والمهادنة ،

وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تسكره من جماعة من

الصحابه ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير

هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصرَ ورجع ، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصالح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلاح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخارى ^(١) عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبي ﷺ (ليففر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم - أخرجه في الصحيحين ^(٢) من رواية قتادة به - .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن مجمع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نزحف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد . ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) - أى بينا ظاهراً - هو صلاح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتسكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكَلَمَ بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتَعَكَّنَ من اختفى من المسلمين بحِكمة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) نزلت في الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله ! أوفتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلق من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيراً ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبله ، قصة البيت وبناءه وتعظيمه والتقويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد . ومن تأمل أمرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الأبواب . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تاويل قوله تعالى :

[٢] (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى ، بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب .

« مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع ما فرط منك ، من ترك الأولى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم يفلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولامن الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به المفاة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ! لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوك ، ورفع ذكرك . « وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه . قال أبو السعود : أصل الاستقامة ، وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا)

« وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا » أى قوياً منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
 « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ » أى يقيما منضمًا إلى يقيهم .

قال القاشاني : السكينة نور في القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدان يقينى معه لذة وسرور .
 « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه .
 « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)
 واللام فى قوله تعالى « لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبر ما دبر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (فَتَحَنَّا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوا) . « وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَآرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » أى بالتمذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَائِرَةُ السَّوْءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكُره والكُره . « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكبر : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المتقهم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرض لوصف العزة . وقال القاشانى : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما قبل بالمؤمنين . وبديل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا - على ظاهره - أودائما ، يجعل طرفى النهار كفاية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها - على ما ذكرنا - لله ، وجوز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدو ، ولا يولّوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيها . « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ . وقال القاشانى : أى قدرته البارزة فى يد الرسول ، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَنْ نَكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسِيؤُتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح - على ما قاله ابن كثير - وقد اقتصر سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها في شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبي ﷺ في ذى القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت . فأبطلوا عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القسيم : قصة الحديبية كانت سنة ست في ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا في الصحيحين ^(١) عن جابر . وفيهما ^(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما ^(٣) : كانوا ألفاً وأربعمائة - والقلب إلى هذا أميل - وهو قول البراء بن عازب ، ومقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عيّنًا له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عيّنُه فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، قد جمعوا لك الأحابيش ^(٤) ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نعمل إلى ذراري هؤلاء

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين^(١) محزونين ، وإن نجوا يكن عُقُ^(٢) قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد . ولكن حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم^(٣) ، في خيل لقريش ، نخذوا ذات اليمين ، فوالله ! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بعمرة الحبش . فانطلق يركض نذيرا لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم ، بركت راحلته . فقال الناس : حلّ حلّ^(٤) ، فألحّت^(٥) : فقالوا : خلّأت^(٦) القصواء ! خلّأت القصواء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلّأت القصواء ، وما ذاك لها بخائق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذي نفسي بيده ! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهموها . ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على عمد^(٧) قليل الماء إنما يتبرضه^(٨) الناس نبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته^(٩) ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فوالله ! ما زال يجيش لهم بالرى^(١٠) ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب لبيعته إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يفضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُقُ : الجماعة من الناس .

(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .

(٥) أى لزقت مكانها . (٦) أى حرّنت .

(٧) التمد : بالتجريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .

(٨) أى يأخذونه قليلا قليلا . (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .

(١٠) أى يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فر على قريش يبلدح^(١) ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصالح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بي ! والذي نفسي بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحر بن قيس ،

وكان معقل بن يسار آخذاً بفصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من
 يابعه أبو سنان الأسدي ، وباعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس وأوسطهم
 وآخرهم . فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة
 نصح ^(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي
 نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ^(٢) ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجئ لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن
 قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا أمادهم ويخّلوا بيني وبين الناس .
 وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فملوا ، وإلا فقد جئوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذي
 نفسي بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره . قال بديل :
 سأبلغنهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إني قد جئكم من عند هذا الرجل ، وسمعت
 يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء .
 وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفي :
 إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آتة . فقالوا : آتته . فأتاه ، فجعل
 يكلمه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك :
 أي محمد ! أرايت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن
 تكن أخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك !
 فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر .
 قال : أما والذي نفسي بيده ! لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

(١) يعني : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التي هي مواضع
 النصيح ، تشبهاً لها بالعياب التي يستودع فيها الثياب .

(٢) أي الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلفه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبه على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكلفا أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : آخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبه . فقال : أى عُذْر ! أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ! ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخمه إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدًا . والله ! إن تنخم نخمه إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائنه . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدن قد قُلت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعونى آته . فقالوا : ائنه . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم ، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا الكاتب ، فقال : اكتب :
 بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب :
 باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم .
 فقال النبي ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول
 الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ،
 ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : إني رسول الله وإن كذبتموني !
 اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فخطوف به
 فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب
 فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون
 سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل
 ابن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .
 فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض
 الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : فأجره لي
 قال : ما أنا بمجير له ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك .
 فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت -
 وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت
 إلا يومئذ ، فأثيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! ألسنت نبي الله ؟ قال : بلى ! قلت :
 أسفنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ! فقلت : على م نعطي الدين في ديننا ، ونرجع
 ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه . قلت :
 أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! فأخبرت أنك تأتيه العام ؟
 قلت : لا ! قال : فإنك آتيه ، وتطوف به ! قال فأثيت أبا بكر ، فقات له كما قلت لرسول الله
 ﷺ ، ورد عليه أبو بكر كإرد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغيره حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ! أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لاتكلم أحداً كلمة حتى تنحر بطنك ، وتدعو خالك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا خاله فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ) حتى بلغ (بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! قالنا ! فأنزلنا الله عز وجل ^(٢) (هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل ! والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو ، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبي ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبي الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / المتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

وبل أمته ! مسمرَ حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لالحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه ، وأخذوا أموالهم . وأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لماً أرسل إليهم ، فنأتاه منهم فهو آمن ، فأنزل الله عز وجل ^(١) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . .) (الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف في القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال . فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في (زاد المعاد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ،

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً)

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا »

قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة ، استتبهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم . فاعتلوا بالشغل . أى سيقولون لك

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٤] .

إذا عاتبهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معاشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِالسِّنَةِ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذى خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك فى الله ، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادق عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد ينفعه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم ، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قان الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل فى الضر . وكذلك ورد فى الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله (١) « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » (٢) « وَمَنْ يُرِدْ فِتْنَتَهُ وَفَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ وَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » (٣) « فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث (٤) : إني لا أملك لكم شيئاً - يخاطب عشيرته - وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفع عنه ، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لاله . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله ^(١) (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذى ذكرته - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

[١٣] (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . « وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » أى حسن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حجب لكم التخلف . « وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا » وهو عدم نصر الرسول ، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا » أى : من النار

تستعمر عليهم .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ،
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » قال ابن جرير^(١) : هذا من الله جل ثناؤه حثُّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومماصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا هَازِرُونَ تَتَّبِعُكُمْ ،
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ
قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ » أى بمذر الاشتغال بأموالهم وأهلهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا انْطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَى مَغَائِمٍ » أى أماكنها . قال ابن جرير^(١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « هَازِرُونَ » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « تَتَّبِعُكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عني بقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبي الله صلى الله عليه وسلم في غزوة . وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة ^(١) : (فَاسْتَشْذَبُونَا لِلْخُرُوجِ فَقُلْنَا لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) والأكثرون على الأول . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصمها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحى . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى ^(١) (فَاسْتَشْذَبُونَا لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ - والله أعلم .

« قُلْ لَّانْ تَتَّبِعُونَا » أى إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفي في معنى النهي . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهي الإنشائي ، وهو أبلغ .

« كَذَلِكَ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » قال ابن جرير ^(٢) : أى من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدا ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمة غيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أى أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم . قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله . أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أى عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

(١) [٩ / التوبة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فهمًا قليلًا ، وهو ما كان فى أمور الدنيا ، كقوله تعالى ^(١) (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصالح والأمن فيه ، بل « تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » أى يدخلون فى الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذًا (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ » قال المہامی : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشى

العدو ، ومشى فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه الكرّ والفرّ ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدو ، فضلاً عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد ، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله ، بقوله سبحانه « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَقُولُ » أى عن إطاعتها ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضاً « يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم (أولو بأس شديد) - على أقوال :
أحدها - أنهم هوازن .

الثانى - ثقيف ، وكلاهما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث - بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلة الكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع - أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مضادها لكل الفزوات المذكورة . ولوعده من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عدة بفتح مكة ، منصرفه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبي ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فشكنا ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » يعني بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مفاجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولّوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تُعلمْ بعدُ . ففي الصحيحين ^(١) من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين ، نخفي علينا مكانها ، وإن كان بينت لكم ، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا في موضعها .

وروى ابن جرير ^(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأثيناها من قابل ، فعميت علينا .

ثم قال ابن جرير ^(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قومًا يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت ! ولا ينافي ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهموها ، فأنخذوها مسجدًا ، ومكانًا مقدسًا ، فقطعها عمر حاليًا ، صونا لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعدد ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال في (الفتح) أيضا في شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بابيننا تحتهما . كانت رحمة من الله ، ما مثاله : وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتهما من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أى كان خفاؤها عليهم ، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .
« فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » أى من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أى الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثْبَتَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير^(١) : أى وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فتتحا قريبا ، وذلك - فيما قيل - فتح خيبر .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهي مغنم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما بقى عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » أى أيدى أهل خيبر ، فانتصرت عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثانى سيذكر فى قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما فى مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها - والله أعلم - .

« وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويزيدكم بصيرة و يقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرًا)

«وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَذِهِ) أى فمَجَلَّ لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها . وقال الحسن : هى فارس والروم . قال القرطبي : وكونها معجزة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير^(١) : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدرُوا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدرُوا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتمعذرت عليهم . فأما وهم لم يروموها فتمتعذروا عليهم ، فلا يقال إنهم لم يقدرُوا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبر لحرب ، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، علم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عاجلها ورامها فتمعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبي : معنى (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم ، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدرُوا عليها فى الحال ، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .
وقد جوز في (أُخْرَى) أن تكون معطوفة على (مَغَانِمَ) المنسوب بـ (وَعَدَكُمْ)
وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) خبر .
وأوجه آخر .

« وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاء .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ،
وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

« وَلَوْ قَتَلْتُمُ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يوالىهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنىها .
« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير^(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر العقاب والنكال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أنهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمعا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففي ذلك قال (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير^(١) عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُمْ أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُو ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّهُمْ فَتَصِيبَكُم مِّنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ « أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو ما يهذى إلى مكة من النعم « مَعَكُمْ » أى محبوساً . قال السمين : عكفت الرجل عن حاجته ، إذا حبسته عنها . وأنكر الفارسي تعدية (عكف) بنفسه ، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُو » قال ابن جرير^(١) : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَن تَطَّوُّهُمْ » أى تقتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين : (أَن تَطَّوُّهُمْ) يجوز أن يكون بدلاً من (رِجَالٌ وَنِسَاءٌ) غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

رجال ونساء غير معلومين) . وتقدير الثانى (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ » أى إثم وغرامة . من (عَرَّه) إذا عراه مايكرهه . وقوله « بغير علم » حال من الضمير المرفوع فى (تَطْشُوهُمْ) أى تطؤوهم غير عالين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها - أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائى الشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم فى دخول مكة مقاتليهم .
والثانى - أنه مذكور ، وهو (لَعَذَّبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث - أن قوله (لَعَذَّبْنَا) جوابها معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك . وذكر الزخشري قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُوا) كالتركيب ل (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لمرجمها معنى واحد ، ويكون (لَعَذَّبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما معنى واحد ، قال : لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى - أفاده السمين - .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعها ههنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) ههنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك . وهو مذهب الشافعي . وذهب غيرها إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير ^(١) حيث قال : (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين . قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب - إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يكن قاتله علم إيمانه - الكفارة دون الدية فقال (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَن يَشَاءُ) عبارة عن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير ^(١) ، قال : أى ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

« تَوَزَّيَلُوا » أى لوتميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَابُنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهراسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمى الحصون إذا كانوا بها ، والكفار إذا ترسوا بهم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ » قال ابن جرير^(١) : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك ، والعامل في الظرف إما (لعذبتنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و (الحمية) الأتفة ، وهي الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوى . أى : فهم المسلمون أن بأبواب ذلك ، ويقاثلوا عليه ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .

يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم . « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً . وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها . « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شيء ، فيسوقه إلى مستحقه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ،
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو
وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك ، مقصرًا بعضهم رأسه ، وحلقًا بعضهم .
ثم روى عن مجاهد أنه قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه
حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبي ﷺ : إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام
محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون في ذلك
فقالوا : أين رؤياه ؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إني لم أره يدخلها هذا
العام ، ولن يكون ذلك . و (الرُّؤْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه في رؤياه . أى حقق
صدقه عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب
على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرماني ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ،
يقال : كذبتني الحديث ، وكذا (صدق) كما في الآية . وهو غريب لتعدى الثقل لواحد ،
والخفف لمفعولين .

وقوله (بِالْحَقِّ) حال من الرؤيا . أى متلبسة بالحق ، ليست من قبيل أضغاث الأحلام .
وقوله (لَتَدْخُلَنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقوله (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) تعليق للعدة بالشيئة ، لتعليم العباد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو في معنى : ليدخلته من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُخَلِّقِينَ) حال مقدرة ، لأن الدخول في حال الإحرام ، لا في حال الخلق والتقصير . وفي الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : مخلقاً بعضكم ، ومقصرًا آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الخلق والتقصير ، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المخلصين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المخلصين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المخلصين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان في عمرة القضاء ، في ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذى القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم ، كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهد بها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه . ثم رجع المدينة ،

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعنا) .

فلما كان في ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرّ الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرمح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة في قرعها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسي والرمح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد يعمته إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسم الذى لا دينَ إلا دينُهُ	باسم الذى محمد رسولُهُ
خلوا بنى الكفار عن سبيلِهِ	اليوم نصر بكم على تأويلِهِ
كما ضربناكم على تنزيلِهِ	ضرباً يُزيل الهام عن مقيلِهِ
ويُذهل الخليلَ عن خليلِهِ	قد أنزل الرحمنُ في تنزيلِهِ
في صحف تُتلى على رسولِهِ	بأن خير القتل في سبيلِهِ

يا رب ! إني مؤمن بِقِيلِهِ

وروى الإمام أحمد ^(١) من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل من الظهران في عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العجف! فقال أصحابه: لو انتحرننا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جمامةً . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا ، ولكن اجعلوا من أزوادكم ، فجعلوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحشا كل واحد منهم في جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غمزة ، فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تغيّب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشى إنهم كَيَنْفِزُونَ نَفَرَ الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنة .

قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع .

وروى أحمد ^(٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حُمى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدَهُمْ . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يشوا بين الركنين ، حيث لا يرام المشركون . وفي رواية : ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .
وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ،
ودخولكم إليها ، عامكم ذلك .

قال ابن جرير ^(١) : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم
يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطئوهم بالخيول والرّجل ، فأصابتهم منهم معرفة
بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . ولیدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .
« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبي صلى الله
عليه وسلم « فَتَحًا قَرِيبًا » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
مشركى قريش ، أو فتح خير ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود .
وإلى الأول ، ذهب الزهرى ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم
منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب وأمن الناس
كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام ، يعقل
شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل
ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ الْحَقِّ »

أى الإسلام .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهامبي : (بِأَلْهَدَى) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ الْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تستعمل على شيئين : علم وعمل . فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فأخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . « لِيُظْهِرَهُ » أى ليعلمه « عَلَى الدِّينِ كُدِّهْ » قال ابن جرير^(١) : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فينقذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبيانا على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأيداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير^(١) : وهذا إعلام من الله تعالى نبيه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلّمهم بذلك عما نالهم من السكابة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَعَنُّونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أصحابه « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادقين عن سبيل الله ، وعندهم تَرَاهُمْ فيما بينهم ، كقوله تعالى (١) (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

لطائف

الأولى - جوز في (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَسُولُ اللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان ، أو بدلاً ، (وَالَّذِينَ مَعَهُ) عطف عليه . وخبرها (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) .

الثانية - قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتبادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ، فإنه لما قيل (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زينَ أهلهُ على أنه عند العدو مهيبٌ

الثالثة - قال المهايغي : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ،

إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ،

لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رجاء بينهم ، لعدم

ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأت « تَرَاهُمْ رُكْعًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة

الصلاة ، وهى خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله

تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم

ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا^(١) (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ

أَكْبَرُ) انتهى .

« سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » مبتدأ وخبر ، أى علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ

أَثَرِ السُّجُودِ » بيان للسيا ، كآنه قيل : سيماهم التى هى أثر السجود . أو حال من المستكن

فى (وجوههم) .

قال الشهاب : وهى على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هى من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ فى معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس

(سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) يعنى السمى الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعنى الخشوع

والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان

بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه

بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة لنوراً فى القلب ،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أمر أحد سريرة إلا أبدأها الله تعالى على صفحات وجهه ، وقلبات لسانه . وروى الطبراني مرفوعاً : ما أمر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر - وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزيمى وهو متروك - .

وروى الإمام أحمد^(١) عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضاً^(٢) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ترى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوى ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .
وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى الوصف « مَثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ » أى صفتهم العجيبة فيها « وَمَثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ » أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَآزَرَهُ » أى قواه « فَاسْتَعْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد . فالسين للمبالغة فى الغلظ ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ » أى استقام على قصبه . و (السوق) جمع ساق « يُعْجِبُ الزُّرْعَ » أى يعجب هذا الزرع الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهاه ، الذين زرعه . وقوله تعالى « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » تمليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نماهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوامهم وكثرهم ليغيبهم الكفار .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز في قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان : أحدهما - أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِي التَّوْرَةِ) فهما مثلاً ، وإليه ذهب ابن عباس .

والثاني - أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ، ويوقف حينئذ على (فِي الْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفراء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ) على هذا فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر مبتدأ مضمرة . أى مثلهم كزراع ، فسر به المثل المذكور في الإنجيل .

الثاني - أنه حال من الضمير في (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث - أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلاً كزراع - ذكره أبو البقاء .

قال الزخشرى : ويجوز أن يكون (ذَلِكَ) إشارة مبهمه أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ)

كقوله ^(١) (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ) - أفاده السمين .

الثانية - قال السمين : الضمير المستتر في (فَأَزْرَهُو) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس

النسفي ، فجعل المستتر للشطء ، والبارز للزرع . أى أقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفي أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه ، فهي تعينه وتقويه .

الثالثة - قال السمين : (يُنَجِّبُ الزُّرَّاعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تم المثل .

الرابعة - قال الزخشرى : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيته في الزيادة ،

إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٦] .

وهذا ما قاله البغويّ من أن (الزرع) محمد ، و (الشطاء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلوا التمثيل للنبي ﷺ وأُمَّته .

وأما القاضي فجعله مثلاً للصحابة فقط . وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة ، قلّوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكّموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس .
قال الشهاب : ولكل وجهة .

الخامسة - قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يبنغضون الصحابة رضي الله عنهم . قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك - انتهى كلام ابن كثير .
ولا يخفّاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط في كتب العقائد ، وأوضحه النووي في شرح (مقدمة مسلم) ، وقبله الإمام الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقة . وكما أريق دماء في سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والفلو في الباحث ليس من شأن الحكماء المصنفين .
وإذا اشتد البياض صار برّصاً .

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أي صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً» أي عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وسيّئ أعمالهم ، بحسنها . «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩ - سورة الحجرات

قال المهايى: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم ، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وهى مدنية ، وآيها ثمان عشرة .
وقد انفردت هذه السورة بأداب جليلة ، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال ابن جرير^(١) :

أى يا أيها الذين أقرؤا بوحدانية الله ، ونبوة نبيه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضى الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله .
حكى عن العرب : فلان يقدم بين يدي إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه . انتهى .

و (تُقَدِّمُوا) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبّين ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبين .

وفى هذه الجملة تجوزان :

أحدهما - فى (بين اليدين) ، فإن حقيقة ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورها ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعميرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعتها ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدي سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله - هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا في الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال : بكتاب الله تعالى . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيي ! فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) وابن ماجه^(٤) . والغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدي رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُوا) قرأ قراءة الأمصار ، وهي القراءة التي لأستجيز القراءة بخلافها ، لإجماع الحجة من القراء عليها . وقد حكى عن العرب : قدمت في كذا وتقدمت في كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً . انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ١١ - باب اجتهد الرأي في القضاء ،

حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرج ابن ماجه .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ما تقدم ، بمنزلة قولك للمقارن بعض الرذائل : لا تفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتمناه أولاً عن عين ما فارقه ، ثم تعم وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه ، لم يرتكب تلك الفعل ، وكل ما يضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها - أشار له الزمخشري - .

« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى لتحقيق أن يُتَقَى ويُراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال السكا المهراسي : قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شئ . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » أى : إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحد الذى يبلغه صوته ، ليسكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلفظكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسمع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذى يضاد الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب العظيم . وروى عن مجاهد تفسيره بنداؤه باسمه ، أى لانداده كما ينادى بعضكم بعضاً :

يا محمد ! يا محمد ! بل يابى الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض ، كما مر في قوله ^(١) (لَا تَجْمَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) انتهى .
ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروي عن مجاهد في قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إشار أرق الألفاظ والجل ، وألفها في ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب . وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن الذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة ، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة ، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد في الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام . والقاعدة المختارة أن إيذائه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء وجد هذا المعنى أولاً ، حماية للذريعة ، وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا المنهى عنه - وهو رفع الصوت - منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المسكف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على مائة مقدمة المعتزلة ، لم يكن لقوله (وَأَنْتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَسْمَعُونَ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاله ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً - والله أعلم .

ثم قال : وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاها صحيحة :

إحداها - أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به العقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى - أن إيذاء النبي ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا - يعني المالكية - وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى في مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَمْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَمْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير^(١) : أى اصطفأها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يعنى لا تقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يعتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِنْ وَرَاءِ » أى خارج « الْحُجُرَاتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالاً لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يفضيه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لئبهم وأنفسهم « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بנדائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده

غير واحد .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

يا رسول الله ! إن حمدي لزين ، وإن ذمّي لشين ، فقال : ذاك الله عز وجل .
وروى ابن إسحاق ، في ذكر سنة تسع ، وهي المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ
لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من
كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء
حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم .
ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال : وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثاني - (الْحُجُرَاتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً :
جمع (حجرة) . وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . فُعْلَةٌ بمعنى مفعولة ،
كالغرفة والقبضة .

قال الزخشرى : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لكل واحدة منهن
حجرة . ومناداتهم من وراءها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطّلين له ، فناداه
بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من
ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمة . والفعل - وإن كان مسنداً إلى جميعهم - فإنه يجوز
أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقيون راضين ، فكانهم تولوه جميعاً .

الثالث - قال الزخشرى : ورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على
الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها - بحبيثها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .
ومنها - لفظ (الْحُجُرَاتِ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .
ومنها - المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم .
ومنها - التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها - أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاء عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسليية له ، وإمالة لما تداخله من إحاش تعجرهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله ، مقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد . ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثاني ، ووطاء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، ففضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جرى على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم ، من الصياح برسول الله ﷺ ، في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دقت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خوجه . انتهى .

الرابع - قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حياً ، وفي قبره ﷺ . . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ، فخصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتم ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس - روى البخاري^(١) عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٢ - باب إن الذين

يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ، حديث ١٩٤٢

النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمَرَ القَعْقَاعُ بنَ مَعْبُدٍ ، وقال عمر : أَمَرَ الأَفْرَعُ ابنَ حَابِسٍ . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافاً ! فقال عمر : ما أردت خلافاً ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...) حتى انقضت الآية .

وفي رواية : فأنزل الله في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ...) الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأخير هو أول السورة (لَا تَقْدُمُوا) ولكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوا) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله ، بأن قولهم : نزلت الآية في كذا ، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناولها الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول ، فاحفظه ، فإنه من المضمون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاريّ ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، في قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » أى : فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم « فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التى تصيبونهم بها ، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق . وقد روى ذلك من طرق . ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد^(١) فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق ، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ! أرجع إلى قومي فأدعهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلى يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبتان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأت ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقتاً لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه ، فانطلقوا فنأى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الحارث منعني الزكاة ، وأراد قتلي . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث . فأقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة ، لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ! فلما غشيمهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعه الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيته بته ، ولا أناني . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟! قال : لا ، والذي بعثك بالحق ! ما رأيته بته ، ولا أناني ، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطه من الله تعالى ورسوله . قال : فنزلت الحجرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه ، فرأى الذي يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم في هذه الآية ، أنها نزلت في الوليد بن عقبة - والله أعلم - انتهى .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كرز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصداقاً إلى بني المصطلق ، فأثاه فقال : منعوني الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربماً ، وقال : أزيدكم ؟ ! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فمزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع على ، فخرج إلى الرقة فنزلها ، واعتزل عليّاً ومعاوية . ومات بناحية الرقة .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة في الخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث - في قوله تعالى (فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فائدتان :

إحداها - تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَنْ تُصَبِّحُوا قَوْمَكُمْ بِجَهْلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فاذا على ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية - مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها - أفاده الرازي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

« وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقومه على الصواب في أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ » قال الطبري^(٢) : أي لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لناكم عنت - يعني الشدة والمشقة - في كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ في أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجوع لغزو المسلمين ، فزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فناكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبية :

(أَنَّ) بما في حيزها سادة مسدّ مفعولى (أَعْلَمُوا) باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجزور في (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهي أنكم تودون أن يتبعكم في كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع في بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزخشرى منع هذا الاحتمال ، قال : لأدائه إلى تنافر العظم ، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرطون فيما يجب له من التعميم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ) .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى فاجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتوا به ، فيقيمكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتكم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أَوْ لَكُمْ » أى الموصوفون بحجة الإيمان ، وزينه في قلوبهم ، وكرهتهم المعاصي « هُمْ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانى : كان فضلاً بمنايته بهم في الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات في الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانتة بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكرهة المعصية . وهو تعليل لـ (حَبِّبَ) و (كَرَّهَ) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا » أى تقاتلوا « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا »
قال ابن جرير (١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي » أى تعدى وتأنى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِنْ فَاءَتْ » أى رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أى بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلاً بين خلقه « وَأَقْسِطُوا » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : الاقتتال لا يكون إلا الميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من (٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لزوم العدالة في النفس التي هي ظل الحجة، التي هي ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداها ، حتى ترجع . لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج افتتلتا في بعض منافازعتا فيه بالنعال والأيدي ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فاتاهم فحجز بينهم وأصلح . روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال - فيما رواه الطبري^(١) عنه - : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوه إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَاتِلُوا أَلَّتِي تَبْغِي ...) الآية . يقول : ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل - والله أعلم - .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّى تَفِيءَ) . انتهى . وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا ينفك لهم مال ، ولا نسبي لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا بينهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلّفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظرو الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

البغي غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا للحرب ، لم يتعرض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حدثاً ، أقامه عليهم .

وإن اقتتل طائفتان لعصية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلّف على الأخرى . هذه شذرة مما جاء في (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث - قال في (شرح الإقناع) : في الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلّفوه في قتالهم . وإجازة كل من منع حقاً عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه) ^(١) . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة ، وعلياً قاتل أهل الجمل ، وأهل صفين . انتهى .

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونة من بنى عليه ، لقوله (فَفَقَتِلُوا) ، وعلى وجوب تقديم النصيح ، لقوله (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى في المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع - وجه الجمع في (أُقْتَتِلُوا) ، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلنا) هو الجمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . والنكته في اعتبار المعنى أولاً ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - ياب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تفكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٤١ و ٤٢ (طبعنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال ، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال مختلطون مجتمعون ، فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً .
وسرُّ قرْنِ الإصلاح الثاني بالعدل ، دون الأول ، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهاهم أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس - (أقسط) الرباعى همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثى ، فعناه جار . قال ^(١) تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور - خلافاً للزجاج - في جعلهما سواء - أفاده الكرخى - . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب : وتسمية المشاركة في الإيمان أُخُوَّةً تشبيه بليغ ، أو استعارة . شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدى في الجنان .

« فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوها على حكم الله ، وحكم رسوله . قال القاشانى : بين تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقربة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

التناسب في اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة ، وأحد خصاها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكبدوا بفواشى النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرافة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمّر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزم المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر أزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع ، أكثر منه في شقاق الاثنين - أفاده القاضي والمخشّريّ - .

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث^(١) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث^(٢) (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . وحديث^(٣) (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر) . وحديث^(٤) (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم - وكلها في الصحاح - .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، ٣ - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبي موسى .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم
فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا
خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا
أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ،
وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ،
فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ
عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين ، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال
ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى
القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد ، فلعله أجمع منه ، لما نيظ به من الخيرية عند الله
تعالى ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل
التأويل من خص السخرية بما يقع من الفنى للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو
هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبري^(١): والصواب أن يقال إن الله عم ، بنبيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من
بعض ، جميع معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب
ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد عدّ الغزاليّ في (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تكميلاً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة - السخرية والاستهزاء : وهذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ يَسَخِرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ...) الآية . ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت ، فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ، ولي كذا وكذا .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ^(١) (يَوْمَلْتَنَّا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة التفهيم بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أي لا تستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير والتماون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .

وعلى صنمته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوام على النساء (والأحسن المهمات) وهو في الأصل إما جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع في الجمع . وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب ، ولأنهن توابع . واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أي لا يعيب بعضكم على بعض ولا يظعن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوا) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنْفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما في قوله ^(١) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وقوله ^(٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففي اللفظ الكريم تجوز ، وتقدير مضاف . والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه ، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بخضرتة ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو للامز مخصوص بما كان على وجه الخفية ، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلهزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لزم

نفسه .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : ف (أَنْفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوز في قوله (تَلْمِزُوا) . فهو مجاز ذكر فيه السبب ، وأريد السبب . والمراد : لا ترتكبوا أمراً تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُوا) ، كما في (الكشف) ، وكونه من التجوز في الإسناد ، إذ أسند فيه ما ليس إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما في الحديث ^(١) (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسر بأنه إذا شتم والدي غيره ، شتم الغير والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » أي ولا تدعوا بالألقاب التي يكره النبز بها الملقب فقد روى أنه عني بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يفضبون من الدعاء بها رواه أحمد ^(٢) وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية - كما قال ابن جرير ^(٣) - : تشمل ذلك كله . قال : لأن التناز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« يَنْسِ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال الزحشرى : (الْأَسْمُ) ههنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل ينس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكرها بالفسق . وفي قوله (بَعْدَ الْإِيمَانِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أحدها - استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول :
بئس الشأن بعد الكبرية ، انصبوة .

والثانى - أنه كان فى شتأهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى ! يا فاسق ! فهو اعنفه ،
وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا
التفسير متعلقة بالنهى عن التنازع .

والثالث - أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة :
بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير^(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه
غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن
التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته :
يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ،
ولمز أخاه المؤمن ، ونزّه بالألقاب ، فهو فاسق (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) يقول :
فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقاً ، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ما وصفنا
من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى
وقال^(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه
فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بنه ، أو بقبیح ركوبه
ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبیح ما كان التائب أتاها قبل توبته ، إذ كانت الآية لم
تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبیح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ،
أو بالقبیح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْ لَمْ يَتُبْ » أى من نبره أخاه بما نهى الله عن نبره به من الألقاب ، أولمزه إياه ، أو سخريته منه « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً ، فإن الظان غير محقق . وإيهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه ، إذ لاداعية تدعو المؤمن للشئ وراءه ، أو صرف الذهن فيه ، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى ^(١) (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من أتى جلياب الحياء ، فلا غيبة له . ولذا قال الزمخشري : والذي يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتماعى الريب ، والمجاهرة بالخبايا .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزالي في (الإحياء) في بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك ، وتسمي الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه ، بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركز إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها ^{الإنسان} إلا بعلام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بيمينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . إل أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بيئة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهى عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُوا » قال ابن جرير ^(١) : أى لا يتبع بعضهم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن افنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب ، لأن من يطلب الشيء يمسّه ويحسّه ، فأريد به ما يلزمه . واستعمل الفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالي : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله . فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث ^(١) أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تداربوا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود ^(٣) : أن ابن مسعود رضي الله عنه أتى رجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيمته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به - والرجل سماء ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود ^(٤) عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد ^(٥) عن دجين ، كاتب عقبة ، قال : قلت لعقبة : إنا لنا جيرانًا يشربون (١) أخرجه الترمذی فی : ٢٥ - كتاب البرّ والصلة ، ٨٥ - باب ما جاء في تعظيم المؤمن ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاری فی : ٦٧ - كتاب الفساح ، ٤٥ - باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود فی : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود فی : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

الخر ، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم ! قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فكأنما استحي مؤودة من قبرها !

وروى أبو داود ^(١) عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريسة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعي : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .
« وَلَا يَمْتَبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضهم في بعض بظهر الغيب ، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واعتابه ، كغاله واعتاله ، إذا ذكره بسوء في غيبته .
« أُيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغى أن تكرهوا النية . وفيه استعارة تمثيلية ، مثل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .
لطائف :

الأولى - قال الزمخشري : (أُيْحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحش ، وفيه مبالغات شتى : منها - الاستفهام الذي معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقة أو ادعاء) ومنها - جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة . ومنها - إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك .
ومنها - أن لم يقتصر على تمثيل الاغتيا بأكلم لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أذا .
ومنها - أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث

حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى (أُيْحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحماً الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحماً من يفتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كاللحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبيهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها ، وجدت لها مناسبة لما قصدت له . انتهى .

الثانية - الفاء في قوله تعالى (فَكَّرِهْتُمُوهُ) فصريحة في جواب شرط مقدّر . والمعنى :

إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي ، كما في قوله تعالى ^(١) (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَّرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى : فأكروهه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضي للمبالغة ، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائياً غير محتاج لتقدير (قد) - أفاده الشهاب - .

الثالثة - قال ابن الفرس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمي ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل في تحريم الغيبة، ولم يضرب بميعة سائر الحيوان. فدل على أنه في التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزالي ، فإنه جمع فأوعى .
« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاعتياب وغير ذلك من المناهي . « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى ، بعد نهيهِ عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض ، على تساويهم في البشرية ، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَا ۚ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء

ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب .

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَا ۚ لِتَعَارَفُوا » قال ابن جرير^(١) : وجعلناكم متناسبين ،

فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم في ذلك ، وقربة تقرّبكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لأعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالاتق والأكرم ، وغير ذلك ،

لا تخفى عليه خافية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات :

الأول - حكى الثعالبي في (فقه اللغة) في تدرج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبي عن أبيه : أن الشعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّي : الصحيح في هذا ما رتبته الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العِمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حتى عدداً في الحواء ثم القبيلة
ثم يقلوها العِمارة ثم الـ بَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لـكن هي في جنب ما ذكرنا قليلة

نخزئة شعب ، وكفانة قبيلة ، وقريش عِمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكري في (شرح نوادر أبي علي القالي) : كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيدي في (تاج العروس) .

الثاني - في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقى غير النسب ، يقدم على النسب غير التقى ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسب غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكا عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط في الكفاءة الحرية - نقله في (الإكليل) - .
وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لَتَعَارَفُوا) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضهم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت في معرض البيان . وقال القاشاني : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى . والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله ، وأجل قدراً . فالمتقى عن المفاهى الشرعية ، التى هى الذنوب ، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع - روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارى ^(١) عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فمن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : نخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى (وَأَتَّخِذُ اللَّهُ بُرْهِيمَ

خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم^(١) عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن أبي ذر قال : إن النبي ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمَر ولا أسود ، إلا أن تفضل به تقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتمين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليسكونن أهون على الله تعالى من الجملان .
وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر : أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عِيبَةَ الجاهلية وتعظمها بأبائها . فالناس رجالان : رجل برٌّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يُتَقَى ، هين على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . . .) الآية .
وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري^(٣) عن عطاء قال : قال ابن عباس : ثلاث آيات ججدهن الناس : الإذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب ، والإنكار على مساوئ أخلاقهم ، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات ، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان ، ثم بيان من المؤمن حقاً ، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِامَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءِامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعمًا أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه ، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أى انقدنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل « وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة ، والبعد من ركوب المفاهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد . فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) بـمد قوله (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَمْ تُؤْمِنُوا) تكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوا) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . وهذا ما أشار له الزمخشري ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكمال) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق ، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف. لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغويّ في بعض المواضع . وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جلية ، كما هنا . وإلا فآية (١) (إنّ الدّينَ عندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) أكبر منادٍ على اتحادهما . ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعوا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعوا . والإيمان والإسلام وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل ، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في (الفصل) فانظرو .

الثاني - قال في (الإكلیل) : في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر . وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم ، الإمام ابن حزم في (الفصل) ، فراجعه .

الثالث - قيل ، مقتضى الظاهر أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا . أو : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم . فمدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من الفهى عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً . وقيل : إنه من الاحتباك ، وأصله : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم ، فقولوا أسلمنا ، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر . والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفي عنهم ، ثم استدرك عليه فقال : دعوا ادعاء الإيمان ، وادعوا الإسلام ، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه . فنفي الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الانصاف به ، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة - هذا ما في القاضى وحواشيه - .

« وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَنْتَهُوا عَمَّا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ . وَالْخَطَابُ لَهُؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْقَائِلِينَ آمَنَّا » لَا يَلْتَسِكُمْ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا « أى لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا يفتكصكم من ثوابها .

قال الزمخشري : يقال (أنته السلطان حقه أشد الألت) وهي لغة غطفان . ولغة أسد ،

وأهل الحجاز - لانه ليتاً - وحكى الأصمى عن أم هشام السلوية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلْتَكُمُ) و (لَا يَأْتِكُمْ) . ونحوه فى المعنى ^(١) (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإتفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى - قاله ابن جرير ^(٢) : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى: بذلوا الجهد. أو مفعوله مقدر، أى العدو أو النفس والهوى.

«أَوْ لَيْسَ لَكَ هُمْ الصَّدِيقُونَ» أى الذين صدقوا فى ادعاء الإيمان، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض يكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر. أى: هم الصادقون، لا هؤلاء، أو إيمانهم إيمان صدق وجد.

تنبيهات:

الأول - قال فى (الإكليل): فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفصل).

الثانى - قال القاشانى: فى قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ..) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقى، وهو اليقين الثابت فى القلب المسقّر الذى لا رتياب معه، لا الذى يكون على سبيل الخطرات، فالؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورتها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهياتها، وذلك معنى قوله (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بعد نفي الارتياب عنهم، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر. انتهى.

الثالث - قال فى (الكشاف): فإن قلت: ما معنى (ثم) ههنا، وهى للتراخى. وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين:

أحدهما - أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان، أو بعض المضايين، بعد تلج الصدر، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه. أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك، راكباً رأسه، لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله (ثُمَّ اسْتَقَمُّوا).

والثاني - أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفر دبالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخي ، إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفي الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخي زمانى لا رتبى على ما مرّ في قوله : (ثُمَّ اسْتَقَمُوا) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته في الإيمان ، حتى كأنه شيء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى هؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءامناً) . « أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ » أى أنخبرونه بقولكم (ءامناً) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثاني بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمنين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءامناً) إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه ، وهو العالم بكل شيء ، كما قال « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير^(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه في دينهم . يقول : الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مخفوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » أى اتقادوا وكتروا سواد أتباعك . « قُلْ لَا تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ » أى بإسلامكم ، إذ لا عمرة منه إلى^(١) (مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ)

« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى قولكم

(ءَامِنًا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير^(٢)

يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن

الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ،

فلا تعلمونا دينكم وضائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شئ فى خبايا السموات والأرض .

تنبيهات :

الأول - روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله

ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلعتنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ :

إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم - ونزلت هذه الآية - .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون الحديث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنّيين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم في غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبا لقبيلة واحدة - والله أعلم - .

الثاني - في قوله تعالى (بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة النية لله ، والفضل في الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبي ﷺ للأَنْصَار يوم حنين^(١) : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي . وكفتم عالة فأغناكم الله بي ؟ - كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمّن .

وما أطف قول أبي إسحاق الصابي في طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى : وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعبدون بهم عن المسلك الذميمة ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم في الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجعهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبعدهم في الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، الذي اتخذهم صفيًا وحبیبًا ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، علي حين ذهب منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم في المعاصي حمية ، ونفوسهم في غير ذات الله أبيعة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً . فلم يزل ﷺ يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لما كان وحيدًا ، وبالغنف لما وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسمًا إلا أزاله وعفاه ، ولا حجة مموهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجمرانه ، وصدع ببيانها ، وسطع بمصباحها ، ونصع بأوضحها ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبيلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٥٦ - باب غزوة الطائف ، حديث

رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتواعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، راحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث - قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهي إمام مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرها من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم ، السالك لطريقهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

أحدها - يتعلق بجانب الله .

وثانيها - بجانب الرسول .

وثالثها - بجانب الفاسق .

ورابعها - بالمؤمن الحاضر .

وخامسها - بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) ، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

وقال ثانياً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ثالثاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكُمْ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) .

وقال رابعاً (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَزُوا)
 لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .
 وقال خامساً (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
 إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُوا) وقال (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز
 عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى . وهو في غاية الحسن
 من الترتيب .

فإن قيل : لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله
 ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟
 نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ،
 ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ،
 والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب
 فلا يؤذى المؤمن إلى حين يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبي الفاسق ،
 آية الاقتتال فقال (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) ؟ انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠ - سُورَةُ ق

وتسمى سورة (الباسقات) . وهي مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .
قال ابن كثير: وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات .
وأما ما يقوله العوام أنه من (عم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم .
والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟
فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل
وحده . فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (ق) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والزلزال والقصص والعنكبوت والروم ولقان وألم السجدة
وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحَم السجدة وحَم عسق والزخرف
والدخان والحائية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم ، فتعين أن أوله سورة (ق) .

وروى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بـ (ق) و (اقتربت) .

وروى مسلم^(٣) وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (ق) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفي رواية : كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٨ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥١٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث ٥٢٤١ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

« ق » هو حرف من حروف التهجى المفتوح بها أوائل السور ، مثل : ص ، ون ، وآلم ، وحَم ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصدّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ، أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشر بهم الخور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله ^(١) (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عمر .

ثم رد ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (ق) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر^(١) :

* قلت لها قفي فقالت قاف *

أى : إني واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .
« وَأَلْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » أى : لأن جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود - إضراب عما ينبى عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعمده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب اقتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجدله ، ولكن لجهلهم .

« فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولاً ، للإشعار بتعنيهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بوجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

« أَءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيده للإنكار . والعامل في (إذا) مضمرة غنى عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمندر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌ بَعِيدٌ » أى : عن الآوهام أو العادة أو الإمكان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ)

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو رد لاستبعادهم ، وإزاحته . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى . وتأكل من لحومهم وعظامهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن في الأرض منهم . « وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » قال أبو السعود : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد : إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب محيط ، يتأق منه كل شيء . أو تأكيده لعلمه تعالى بها ، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَاءَهُمْ » أى من غير تأمل وتفكير .

قال الزمخشري : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أظفر من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات ، في أول وهلة من غير تفكير ولا تدبر . وكونه أظفر ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه . « فهُمْ فِي أَمْرِ مَرْيَمَ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تمتعاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)
 « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا » أى هؤلاء المكذبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّاهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » . قال ابن جرير^(١) : يعنى وما لها من صدوع وفتوق .
 كقوله تعالى^(٢) (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ، فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)
 « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبلاً ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يتهيج به لحسنه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٧ / الملك / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۸] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر في بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۹] (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

[۱۰] (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)

[۱۱] (رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّيتًا ، كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً مُّبَارَكًا » أى كثير المنافع ، « فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ » أى أشجاراً ذوات أثمار ، « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء ، النخل طوالاً ، أو حوامل . من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعول) فهو من النواذر كالطوائح واللوايح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّاتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل . « لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضها فوق بعض . « رِزْقًا لِلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنْبَتْنَا) . وفى تعليقه بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير ، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكّر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رَزَقًا) مصدر من معنى (اُنْبِتْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَخْيَيْنَا بِهِ » أى بذلك الماء « بِلَدَةٍ مَيِّتًا » أى أرضاً جديبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَلِكَ اُنْخَرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، ف (كَذَلِكَ) خبر (اُنْخَرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَابُ الرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده ، يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . « وَنَمُودُ » وهم الذين جادلوا صالحاً ، وقتلوا الناقة . « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هوداً فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازى : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَانُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إتيان الرجال . « وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » أى أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ » قال المهايى : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ » أى كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسلهم ،

ومن كذب رسولاً ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى^(١) (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم - أفاده ابن كثير - وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلُّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به من كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير^(٢) : إنما وصف تعالى في هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ أنه مُجِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسليمة للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العى هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائى : تقول (أعيت) من التعب و (عيت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية^(٣) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ . . .) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثاني ، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة مامات وتفرق أجزاءه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلهية ، وسهولة ذلك في المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عَرَّفَ الخلق الأول ، ونَسَكَرَ اللبس ، والخلق

الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله ^(١) (وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جملة دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى . أى إذا لم يعى تعالى بالخلق الأول ، على عظمتها ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره مفقوسم : فرة يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أنخم من أن يخاطبه معرفة . ومرة يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول ^(٢) (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) وقوله ^(٣) (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و ^(٤) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتفكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أى لبس . وتفكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ » أى تحدث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوي ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذاك القرب أتم من غاية القرب الصوري ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتزده عن القرب المسكاني ، إما تمثيلاً ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشيء سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية ، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته ، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقي الحبل على حقيقته ، فإضافته كالجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرقاً لثلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحضر^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) يعنى : ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] .

تبارك وتعالى : ^(١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عزوجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ما ذكره ، بما ورد في الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتفاهى سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الرباني ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إثبات (نحن) على (أنا) لا يحسم ما نقاه ، لاحتمال إرادة التعظيم ؛ (نحن) كما هو شائع ، فلا يتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ما ذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيماً للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ما عرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عني رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَنْ قال في تفسير الآية كالفاساني - ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشيء يشهد بالبينونة والاثنيونية الراجعة للاتحاد الحقيقي . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة في هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التي هي الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدماً صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام الفاساني . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما ، في كتاب (دلائل التوحيد) الذي طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدد ، مسبقاً بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله في كتابه (شرح حديث النزول) : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

من كل شيء أصلاً ، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى (١) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما فى الصحيحين (٢) عن أبى موسى الأشعرى : أنهم كانوا مع النبي ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، وإنما تدعون سميعاً قريباً . إن الذين تدعونهم أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتهم) . فقال : إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام (٣) (فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سألته ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوماً يتعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أذن إلى من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ - ٤٧ (طبعنا) . (٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب ، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية^(١) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال^(٢) (إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) وقال^(٣) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أفرى ربنا فنناجيهِ ، أم بعميد فنناديه ؟ فسكت النبي ﷺ ، فأنزله الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال في هذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قربهِ إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول ، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهذا المعنى يقرُّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال : وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من
(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، ففسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما في لفظ المعية . ولا حاجة إلى هذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) أى بملائكتنا ، في الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشيء أعلم من غيره ، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره ، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه . ثم إنه سبحانه عالم بما يُسرُّ من القول ، وما يجر به ، وعالم بأعماله ، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى ^(١) (يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ، سياق الآية ، فإنه قال ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فأثبت العلم ، وأثبت القرب ، وجعلهما شيئين ، فلا يحمل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا في غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه في كل مكان ، وإنه قريب من كل شيء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شيء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم في جميع بدن الإنسان ، وهو في أهل الميت ، كما

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

هو في الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة ، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين . فقيد القرب بهذا الزمان ، وهو زمان تلقى المتلقين ، وهما الملائكة الحافظان للذات يكتبان ، كما قال ^(١) (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعدين الرقيب والعتيد معنى مناسب . وكذلك قوله في الآية الأخرى ^(٢) (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى في هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) فأخبر عن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هي في مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شيء من شيء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما في قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو قرب به إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى ^(٣) (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ * فَتَزْلُلُ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ) . ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقرب منه ، دون من حوله ، وقد يكون حوله قوله مؤمنون . وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى ^(٤) (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) وقال

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣-٨٥] .

(١) [٥٠ / ق / ١٨] .

(٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨-٩٤] .

تعالى^(١) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اتَّوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وقال^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى^(٣) (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ) وقال تعالى^(٤) (قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) وهذا كقوله^(٥) سبحانه (نَقُلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأٍ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال^(٦) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ) وقال^(٧) (إِنَّا عَلَّمَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّا عَلَّمْنَاهُ يَبْنَؤَهُ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة . فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين^(٨) عن النبي ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] . (٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .

(٥) [٢٨ / القصص / ٣] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧-١٩] . (٨) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ،

٣١ - باب من هم بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فإلك يعلم ما يهيم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذي اختص الله به .

ثم قال : وقوله ^(١) (وَنَعْلَمُ مَا تُوسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ أَلْوَيْدٍ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال ^(٢) (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا ^(٣) : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنَا رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى ^(٤) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ) لما كانت ملائكته مقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال ^(٥) تعالى (وَمَا كَانَ لِنَبِّئِكَ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذلك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

(١) [٥٠ / ق / ١٦] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .

(٣) [٥٠ / ق / ١٨] . (٤) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملاك الحفيظان ما يتلفظ به . ف (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنى عن استحفاظ الملاكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى ما يرغبه ويرهبه فى الأولى .

وقال القاشانى : بين تعالى بهذه الآية أقربيته ليتلقى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقىهما للحجة عليه ، وإثبات الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقوال الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الحسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشروع إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهياته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة مفع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزية عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالجوع إلى مقره الأصل ، وسنخه

الحقيق ، وحاله الغريزي ، لينمحي أثر ذلك الأمر العارضى ، بالنور الأصلي والاستغفار ، أى التنوير بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية ، لينمحي أثر تلك الظلمة العرضية ، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر في كلام القاشاني رحمه الله تأويل الملك بالقوة الحائنة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هذا الشيء الذى أودع فيها ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا نكتنه حقيقةً ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكًا ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجب فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالي إلى هذا المعنى ، وعبر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكًا ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكًا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانًا . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته . لطيفة : (قَعِيدٌ) كجليس ، بمعنى محالس ، لفظًا ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله (١) :

* فَإِنِ وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ *

(١) قائله ضابئ بن الحارث البرجمي . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ *
(وقَيَّار) اسم جَمَلِهِ .

وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوروبا) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله ^(١) (وَأَلَمَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) ، وضعف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعيل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الجمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » أى شدته المحيرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِالْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعديدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلا منهما مذهب للعقل ، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإنبات السكرة لها ، تخييل . « ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيت هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الحرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبي : إن اتصل قوله (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ..) الخ بقوله (فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ...) الخ ، فالمشار إليه الموت . والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله ^(١) (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) ^(٢) (وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ الْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد ، بشهود ما قدم من الأعمال وما آخر « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير ^(٣) : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال : وقال القاسانى : أى سائق من عمله ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشيء إنما نشأ من شعوره بذلك الشيء ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سافلياً جسمانياً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقواه ؛ أو أمراً علوياً روحانياً بعثه عليه عقله ، ومحبه الروحانية ، وحرصه عليه قلبه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيه ،

(١) [٥٠ / ق / ٢٤] . (٢) [٥٠ / ق / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والعمل المكتوب في صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عاينه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيات أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ

حَدِيدٌ)

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »

في المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها - أنه النبي ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة في خلال أمر النبا الأخرى ، تنويعاً بمنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلو الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قوى ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية (١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) .

وثانيها - أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت في غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جليتنا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيت وعابنته ، فزال الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية (٢) (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وآية (٣) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها - أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف

الغطاء عن البر والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(٢) [١٩ / صريم / ٣٨] .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعول ابن جرير^(١) في الأولوية على الثالث .

قال الزخشرى : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً . فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاساني في تأويل الآية : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنْكَ) بالموت (غِطَاءَكَ) المادى الجسماني ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوى تعينه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُ » أى قرين هذا الإنسان الذى جىء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قبض له مقارناته يغويه ، وهو الأظهر - كما اعتمده الزخشرى - لآية^(٢) « نُقِصَ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » ويشهد له قوله تعالى^(٣) (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) « هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ » أى هذا شئ لدى حاضر معدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى صفحه ، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدى عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاساني : (وَقَالَ قَرِينُهُ) أى من شيطان الوهم الذى غره بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) مهياً لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / ق / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده في طلب اللذات البدنية ، حتى هياه لجهم في قعر الطبيعة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملاكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق ، ألق ، ثم حذف الفعل الثاني ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، ففنى الضمير للدلالة على ما ذكر . أو الألف بدل من نون التأكيذ ، لأنها تبدل ألفاً في الوقف ، فأجرى الوصل مجراه - أوجه ذكروها - .

وقال ابن جرير^(١) : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين .

وفي ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما - أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثاني - أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلها ، وازجرها ، كما قال^(٢) :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْسِبَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَاجْتَرَّ شِمَحَا

وقال أبو ترؤان^(٣) :

فإن ترجرائي يا ابنَ عفانَ أنزَجِرْ وإن تدعاني أحمرَ عرضاً ممنعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربيع الفقمسي .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلى . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفى ليلي : ألا ترى إلى ابن كراع لا يزال مُفَزَّعاً

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قتيلا : يا صاحبي ، يا خليلي . انتهى .

و (الكَفَّار) المبالغ في جحده وحنانيّة الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه . و (العَنِيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلا في مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَنَّاَعٌ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّزِيْبٍ)

« مَنَّاَعٌ لِّلْخَيْرِ » أى السكّى ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير^(١) أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمي في ماله ، لأنه لم يخص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد في الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش في المنطق ، وببده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتد في منطقته وسيرته وأمره . « مَّزِيْبٍ » أى شاك في الحق ، أو موقع صاحبه في الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشاني : الخطاب في (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللذين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه في أسفل غياهب مهواة الهيمولى الجسمانية ، وغيابة جب الطبيعة الظلمانية ، في نيران الحرمان . أو للمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألقى ، ألقى ، لاستيلائه عليهم في الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة ، التي أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقعهم في نيران الجحيم ، ويّين أنها من باب العلم والعمل . والكفران ومنع الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كها في لذاتها ، واستمالتها نعم الله تعالى في غير مواضعها من المعاصي والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقها. وذكرهما على بناء المبالغة، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه، وغلبتهما عليه، وتعمقه فيهما، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة في قعر بئر الطبيعة. والعنود والاعتداء، كلاهما من إفراط القوة الغضبية، واستيلائها، لفرط الشيطنة، والخروج عن حد العدالة. والأربعة من باب فساد العمل. والريب والشرك. كلاهما من نقصان القوة النطقية، وسقوطها عن الفطرة، بتفريطها في جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة. وذلك من باب فساد العلم. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)

«الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» أي : عبد معه معبوداً آخر من خلقه «فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ» أي عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره (فَأَلْقِيَاهُ) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فَأَلْقِيَاهُ) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعاني من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسر والمفسر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابي . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب (١) (وَمَلَأْمِسْ كَتَبَهُ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ) كان حسفاً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك في (التسهيل) : فصل الجملتين في التأكيد بـ (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الزخشرى في (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحى ، وكلام أهل المعانى في إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُو وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئًا منه « رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُو » أى بالإرابة ومنع الإسلام ، وجعل له آخر معك « وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانى : وقول الشيطان (مَا أَطْغَيْتُهُو ...) الخ كقوله ^(١) (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد ، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالنواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك . فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة ، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير ^(٢) : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

« قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصامكم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ونهى فى كتبى ، وعلى السن رسلى .
قال القاشانى : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لا اختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة فى نفوسكم ، ورائت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ » قال ابن جرير^(١) : أى ما يغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحججة عليه .

وقال القاشانى : (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبت على السكال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفُسكم باكتساب ما ينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال ما يبنى بما يبق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآيات أن هذا التقاؤل على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشاني : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيهِ : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالنضبية والشهوية مثلاً . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُوا) ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاضين في أمر ، لتوقع نفع أولدة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أوقعا بسمعهما في خسران وعذاب ، تدارعا ، أو نسب كل منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضى الله عنه للنبي عليه السلام : ورأيت أهل النار يمتاؤون . وصوب عليه السلام قوله . انتهى .

الثاني إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُ) وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاؤل ، كما رأيت في حكاية المقابلة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقابلة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَذَا مَا لَدَى عَمِيدٍ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُوا) - علم أن ثمَّ مقابلة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لدى عميد ، قال الكافر : ربُّ هو أظناني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أظغيت ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلًا يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تخاصموا لدى . وذكر الواو في الجملة

الأولى لأنها أول المقابلة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملائكين ، وقول قرينه ما قال له - هذا ما يخص ما في الكشاف - .

الثالث - جوز قوله تعالى (يَا لَوَعِيدٍ) أن تكون الباء زائدة في المفعول ، وأن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَا تَخْتَصِمُوا) على تأويل تقديم الوعيد بالعلم به . أى : لا تختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع - دل قوله تعالى (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) على أنه لاخلف في إبعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف في ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة ، حيث قالوا : ماورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الكريم إذا وعد أنجز ووفى ، وإذا أوعده أخلف وعفا - أفاده الرازى - .

ووجه الاستدلال أنه لو صح ما ذكره للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف في أخباره - تقدس عن ذلك - مع أن طبيعة الذنب تقتضى العقوبة ، إلا أن يقاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس - ذكروا في سر المبالغة في (يَظْلِمُ) وجوهاً :

منها - أن (قَمَالاً) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .
ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها - أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلاً فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه ، قدس ذاته عمايتوهم بخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » قال ابن جرير^(١) : فيه

لأهل التأويل قولان :

الأول - أن معناه : مامن مزيد. فمن مجاهد قال : وعدها الله لئلا يلائها فقال : هلا وفيتك ؟

قالت : وهل من مسلك ! ؟

الثاني - معناه : زدني .

أى : فلاستفهام على الأول إنكارى . معناه النفي ، وأيد^(٢) بآية (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرى ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . .) الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية . أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقابلة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية ، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة .

وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر في (الاتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نقرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها في نفسين . وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأننا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسليم الحصى في كف النبي ﷺ ، وفي يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة ، لانسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب : وهو كلام حسن ، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا . انتهى ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر في الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة ، كما أوضحه السيوطي في (الزهر) والجرجاني في (أسرار البلاغة) . وفي شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها - والله أعلم - .

و (يوم) منصوب بـ (ظلام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (الزيد) إما مصدر كالخيد ، أو اسم مفعول كالبيع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأَزَلِفَتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

«وَأَزَلِفَتْ أَلْجَنَّةُ» أي قربت وأدنت «لِلْمُتَّقِينَ» أي الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعمول معاملته ، وأجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لا يحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ)

« هَذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا توعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيفٍ » أى حافظ على فرائض الله وما أتمننه عليه .

وقال القاشانى : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلية ، كي لا يتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

« مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانى : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعد بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيهم نفوسهم ، وتلذه أعيُنهم « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يحيط على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ

هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ » أى قبل هؤلاء الشركين من قريش « مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة ، كعاد وفرعون وحمود « فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ » أى فضربوا فيها وساروا وطافوا أقاليمها . قال امرؤ القيس ^(١) :

لقد نَقَبْتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنِمةِ بالإِيَابِ

« هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتنقيصهم فى البلاد ، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقّبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء الشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير ^(٢) : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مَوْضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طَوَّفت : أ كثرت الطواف والمشي فى نواحي الأرض حتى شق على ذلك . وصرت

أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإِيَاب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الخبر عنهم . وذكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ (فنقبوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قریش « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه . « وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه . على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : المتفطن ، لأن غير المتفطن كالفائب ، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن - نقله الشهاب - .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال و سامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا قبل بكمليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »
أى إعياء .

قال قتادة : أكذب الله اليهود وأهل الفري على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ)

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ،
« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد ، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللزوم على الكل ، أو اللزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)

«وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أى استمع، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديهـا من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء . قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تعيينه بما بعده ، تهويل وتمظيم للخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

«يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ» أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء «بِالْحَقِّ» قال ابن جرير (١) : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .
«ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ» أى فى الدنيا بإفـاضة نور الحياة أو قطعه «وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ)

«يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا» أى فيخرجون منها مسرعين «ذَلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ « أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسليية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعده من عصي وطغي ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بار يا رحيم !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١ - سُورَةُ الذَّرِّيَّاتِ

قال المهاجريّ : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهي مكية .
وآيها ستون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا)

« وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرؤاً . أى نوعاً من الذرو
 ليعقدها سحبا . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بما يتطير
 من الرياح . أو الأسباب التى تدرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ،
 شبهت الأشياء العدة للبروز من كون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .
 و « الذَّارِيَاتِ » اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال :
 أذرى أيضاً . وأما (ذرا) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا)

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا « أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب
 والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل ^(١) :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمِزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوقر) بكسر الواو ، كالحمل وزنًا ومعنى . وقرى بفتح الواو على أنه مصدر سمي
 به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي . . . *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا)

[٤] (فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا)

« فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلاً . أو الرياح الجارية فى مهايقها . أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذا يسر . « فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصرف السحاب .

تنبيهات :

الأول - ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن على رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح ، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن ، والمقسمات هى الملائكة . واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، لىكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى : فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . واستظهر الرازى أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك . واللفظ متسع بجوهره للكل - والله أعلم - .

الثانى - فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فلبين ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشى السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرى أو الرتبى .

الثالث - ذكر الرازى فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها - أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبي ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف في نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لا بصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل ، وعجزى عن ذلك . وهو يعلم في نفسه أن الحق بيدي ، فلا يبق للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول ، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل ، فلا يبق إلا السكوت ، أو التمسك بالآيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها - أن العرب كانت تحتز عن الآيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبي ﷺ أكثر من الآيمان بكل شريف ، ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتاً . وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الآيمان ، ولنالها المكروه في بعض الأزمان . ثالثها - أن الآيمان التي أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها في صورة الآيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهي سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسم . كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل : فلم أخرجها مخرج الآيمان ؟ نقول : لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف ، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدجز الدليل في صورة اليمين ، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين ، في صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّمَا تَوَعْدُونَ لَصَادِقٍ)

[٦] (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

« إِنَّمَا تَوَعْدُونَ لَصَادِقٍ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هو قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدق. فوضع الامم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية). «وَإِنَّ الدِّينَ» أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر «لَوْ قَعُ» أى لحاصل. قال قتادة: وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم. القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لِنِ قَوْلٍ مُّتَخَلِّفٍ)

[٩] (يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ)

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير السكواكب. و (الحبك) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشعر: آثار تثنّيه وتكسّره. و (الحبك) بضمّين جمع حباك، كمنال ومثل وكتاب وكتب. أو حبيكة كطريقة وطرق. قال زهير يصف غديراً^(١) :

مكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لَضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً، أية سلكوا.
قال الأصمعى: النجم: الثبت الذى يقال له الثَّمِيلُ. وقال غيره: الماء مكَلَّلٌ بالنجم. وهو كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل.
ويقال: نَجَمَ البقلُ: إذا طلع. ومنه: نجم قرن الظبية إذا طلع.
ريح خارق، يقال: هبت الشمالُ خَرِيْقاً، إذا هبت هبوباً شديداً.
لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، برز للشمس.
وحُبُكُ: طريق الماء. الواحد حَبِيْكُ.
يقول: إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء. ونسجها إياه: مرّها عليه.
(انظر شرح الديوان، صفحة ١٧٦، طبعة الدار).

ويقال : ما أملح حباك هذه الحماسة ! وهو الخط الأسود على جناحها .
وعن الحسن ^(١) : (ذات الحبك) أى النجوم . قال : حُبِكَتْ بِالْخَلْقِ الحسن ،
حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشى تحبيكة ، فشبهت النجوم
بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فمعنى
(ذَاتِ الْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بمجال من الجاذبية ،
فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى
الجاذبية التي يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهي إحدى معجزات القرآن العالمة . انتهى .
« إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرون
يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) «يُؤْفَكُ» أى يصرف «عَنْهُ
مَنْ أُوْفِكَ» أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضي في مناسبة القسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها ،
وتناقض أغراضها ، بالطرائق للسّموات في تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالحرص والتخمين ، بقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلِّلَ الْخَرَّاصُونَ)

[١١] (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين

(طبعة الحلبي الثانية) .

« قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى الذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون ، وأهو يوم هم .. الخ وفتح (يوم) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ » أى مقولاً لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه ، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (إِخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَمُّونَ)

[١٨] (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفِرُّونَ)

[١٩] (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالحرص والتخمين في الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآءَاتَهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروي ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ) فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والقبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ » بمعنى : في الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها في أفعالهم وأقوالهم ، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَآ يَهْجَمُونَ » أى كانوا يهجمون هجومًا قليلًا ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير^(١) عن أنس في الآية : أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين ، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن عليّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلّوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُوا قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلًا .

ثم ابتدئ فقيّل (مِّنَ الَّذِينَ مَآ يَهْجَمُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجمون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لطيفة :

في هذه الجملة الكريمة مبالغات في وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذي هو وقت النوم ، والهجوم الذي هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، في الآية استعجاب قيام الليل ، وذم نومه كله . والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضي : أى أنهم مع قلة هجوعهم ، وكثرة تهجدهم ، إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . قال الرازي : في الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه السكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ، ويمتنع به . وفيه وجه آخر أطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بين أنهم يهجمون قليلاً ، والهجوم مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبينها في جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد ، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجمين قليلاً ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بمعبادة أخرى ، وهو الاستغفار ، في وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار . يأتون بفعل آخر طالباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر ، والثاني عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثاني الإشارة إلى الزكاة في الآية بعدها . والزكاة قرينة الصلاة في كثير من الآيات . وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم في التهجد ، بل وفي غيره ،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر في أذكار الصلاة الاستغفار في مواضع منها .
كالركوع والسجود وبين السجدين وآخر الصلاة ، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن - وكان عليه السلام يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشريّ في (أساس البلاغة) إنما سمي (السحر) استمارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متغفّس الصبح . انتهى .
« وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَنّ غنياً ،
فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل فى كفه ، وفقير متعفف ، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفي الصحيح ^(١) عن النبيّ عليه السلام : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرّة والتمرّتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظن له فيصدق عليه .

وروى الإمام ^(٢) أحمد عن الحسين بن عليّ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله عليه السلام :
للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسفده عن عليّ كرم الله وجهه .

ويدخل فى (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراد المتعفف . ولذا عولّ عليه الأكثر .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يصلون بها رحماً ، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كلاً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٨ - باب

لا يسألون الناس إلخافاً ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٧٩٠

(طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لا حاجة إلى الخرص والتخمين في باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ما تطمئن به النفس ، وينثليج له الصدر ، فيرون فيها مما ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً ، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات ، وما بينها من التفاوت في العقول والأفهام ، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها ، في المحل المقتدر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكير والاعتبار) لشيخه أبي جعفر القرشي :

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ، ففيك معتبر
أنت الذي تسمى وتُصْبِحُ في	دُنْيَا وكلُّ أموره عِبر
أنت المصترف كان في صغر	ثم استقلّ بشخصك الكبير
أنت الذي تنعم خلقته	ينمى منه الشَّعرُ والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب ، لا	ينجيه من أن يُسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بما له القدر

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ (السماء) المزن ، وبـ (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأفوات . والمراد بـ (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوى ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

«فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» أى مثل نطقكم . والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبى ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيد الأخير ما تأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للتجار ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُوْا إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَحْزَنْ ، وَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« هَلْ أَمَنَّكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » يعنى : الملائكة الذين دخلوا عليه فى صورة ضيف . قال الزمخشري : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحي . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القرى ، أو أنهم فى أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ » أى سلام عليكم « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أَيْ أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُكُمْ . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فَإِنْ قَوْلِكَ لِمَنْ لَقِيْتَهُ : أَنَا لَا أَعْرِفُكَ ! فى قوة قولك : عرف لى نفسك وصِفْهَا .

« فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ » أى ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفه ويعذره - قاله الزمخشري - وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال رَوَّغَ اللقمة إذا غمسها فرويت سماً . قال الناصر : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى . ومن مقلوباته (غور الأرض) والجرح . وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أى قد أنضجه شيئاً « فَقَرَّبَهُ وَإِلَيْهِمْ » أى بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أى منه . قال القاضى : وهو مشعر بكونه حفيداً . والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب ، إن قاله أول ما وضعه . وللاستعار ، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أى أضررها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُعْمٍ عَلَيْهِ » أى يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » أى صريحة « فَصَاكَّتْ » أى لطمت « وَجْهَهَا » أى تعجباً ، على عادة النساء فى كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك، فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله، ولا تتوهى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسلة ، أو معلمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى بإيجاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ » يعنى بيت لوط عليه السلام « وَتَرَكْنَا فِيهَا » أى فى تلك القرية « آيَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوى الدال على الأخرى « لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَىٰ » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور .
أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقيقة دعواه .
« إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى بمرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ »
أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به
كناية عن الإعراض . والباء للتعمية ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه
بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ
سَاحِرٌ » أى هو ساحر * « أَوْ مُجْنُونٌ » فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ »
أى فأغرقناه فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ)

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آيةً « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك .
« مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ » أى الشئء الهالك . وأصل الرميم :
البالى المقت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِي نَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِيقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)

« وَفِي نَمُودَ » أى وتركنا فى نمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى . « فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِيقَةُ » يعنى العذاب الحال بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهاراً . « فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلاً عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِي نَمُودَ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولاً لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذْنَاهُ) أو على محل (وَفِي مُوسَى) . « مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ)

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا بناءها . « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا » أى مهدناها ليمتقعوا بها « فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ » أى لهم . وفى إثبات صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلاً واسماً ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف ، ويؤثر عليه غيره فى آخر . والمرجع الذوق - كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكرًا وأنثى ، أو نوعين متقابلين .
قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . ليل ونهار . شمس وقر . وبر وبحر . ضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير^(١) :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانياً له ، مخالفاً فى معناه . فكل واحد منهما زوج للآخر ، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلَقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافة ، إذ كل ما صفت به فعل نوع واحد دون ماعداه ، كالنار التى شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد ، وكالثلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير^(٢) : أى لَعَدَّ كَرُّوا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشئ وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شئ ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ » أى فَرِّوْا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فرلأمنه . فهو استعارة تمثيلية . « إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوِّفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذكورهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة . قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير - كما قيل - بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)

[٥٣] (أَتَوَاصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ)

[٥٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ)

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » يعنى تقليداً لآبائهم ، واقتداءً لآبائهم ، فورد جهالتهم مؤتلف ، ومشروع تغفهم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْا بِهِ » إنكار وتمجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لانكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلاً عن النفوس بها . أى أوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه . وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتقاقهم على الشر توأصيتهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية من قبلهم بذلك - أفاده أبو السعود .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى ^(١) (وَدَعَّ أَذْنَهُمْ) وقوله ^(٢) (وَأَهْجَرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) . « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم ، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شئ .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة - بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأموراً بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى ^(٣) (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) .

وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكى بعد . فالصواب ما ذكرناه فى تفسير الآية ، لأنه المحاكى لنظائرها . وأقعد التفاسير ما كان بالأشياء والنظائر - كما قيل - : وخير ما فسرته بالوارد .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / الزمل / ١٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظمهم « فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » أى من قدر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا من سواهم ، إذ هم العابدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادة تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا تنال سعادة فى الدارين ، إلا بها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا)

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

« مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم ، قدر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعباد الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغي والفساد، « ذُنُوبًا » أى نصيباً وافرأ من العذاب « مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحسنة . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القرينة من الامتلاء . وهى تذكر وتؤنث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً، شراً كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيراً كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس ^(١) :
وفى كل حَيٍّ قد خبِطَ بنعمة فَحَقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ
وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .
« فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيتهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ « أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .
قال أبو السمود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إيهما من العذاب الدنيوى - والله أعلم - .

(١) قائل البيت هو علقمة الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحًا بِكَ قَلْبٌ فى الْحِسَانِ طُرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ
يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذَّنُوبُ الدلو . أراد حظاً ونصيباً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢ - سُورَةُ الطُّورِ

قال المهايي : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحي ، فالوحي أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل ، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية ، وآياتها تسع وأربعون .

روى الشيخان^(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخاري^(٢) عن أم سئمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ ، إني أشتكى ! فقال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت ، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة الطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة الطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالطُّورِ)
- [٢] (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ)
- [٣] (فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ)
- [٤] (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)
- [٥] (وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ)
- [٦] (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

« وَالطُّورِ » أى طور سينين ، جبل مَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعم الكتب المنزلة .
 « فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطرّ في ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمار والطائفين والمالكين والمجاورين . وروى أنه بيت في السماء بحيال الكعبة من الأرض . يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب مجاء في سورة (التين) من عطف (الْبَلَدِ الْأَمِينِ) على (طُورِ سَيْنِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايغي : أوردته بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجل الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية^(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وآيات أخر .

« وَالسَّمَاءِ الْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسواء البيت الذى هو سقفه .

« وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله^(٢) (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن^(٣) جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجَر) الإيقاد أو الامتلاء . فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ . ولاتنس ماقدمنا فى أوائل (الذَّارِبَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

[٨] (مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[١٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . (٢) [٨١ / التكاوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩ و ٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

- [١٣] (يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً)
 [١٤] (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)
 [١٥] (أَفَسِحِرُّ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)
 [١٦] (أَصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين ، فيمقدّم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا » أى تضطرب . « وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثورًا « فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق ، الجاحدين له « الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » أى يدفعون إليها بمنف . يقال : دَعَمْتُ فى ففاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحِرُّ هَذَا » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا . قال الزمخشري : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقرير ونهكم . « أَصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار . « فَأَصْبِرُوا » أى على ألمها ، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران . الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لاتعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لرّبكم ، وكفركم به .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُحْزَنُونَ ...) الخ ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَلِكِهِمْ مِمَّا أَتَتْهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ)

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَلِكِهِمْ مِمَّا أَتَتْهُمُ رَبُّهُمْ» أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة «وَوَقَّعَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ» جمع (عيفاء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ» أى افقت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً «كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ» أى بما عمل من خير أو شر مرتين به ، لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٣] (يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ)

[٢٤] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)

« وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر .
 « يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كين ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٦] (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[٢٧] (فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَمْنَا عَذَابَ السَّمُومِ)

[٢٨] (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا .
 « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَمْنَا عَذَابَ السَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (السَّمُومِ) الريح الحارة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

في ريح السموم لمشاهدته في الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُ وَهُوَ الْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « الرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رضى من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب في بعضهم ، ولكنك رسول الله حقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للهلكم بهم والتهديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهِ ذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهِ ذَا » أى عقولهم بهذا التناقض في القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد، مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ وَ » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً، فلذلك يرمونه بتلك الفرية . « فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » أى فى الهداية بذلك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله ^(١) « قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْتَ بِهِ » . « إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل .
القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٣٥] (أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)
[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ)
[٣٧] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ)
[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
[٣٩] (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)
[٤٠] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)
[٤١] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)
[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ)
[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
« أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ » قال ابن جرير ^(٢) : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بدبرة ، ولا يتعضون جموعة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء . « أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق ، فهم لذلك لا يأترون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » أى بوعد الله ، وما أعد لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحي ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلَيَمَاتُ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ أَلْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم ، الملائكة إناثاً ، وأنها بفرانه تعالى ، مع أنه ^(١) (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى أجره على إبلاغك بإيها رسالة الله تعالى ، « فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُثْقَلُونَ » أى من أدائه ، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » أى المكمرون بهم دونك ، فتق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم^(١) (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا). قال الزخشرى: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يعطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْنُهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْنُهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلهمهم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إمامعذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم - أقوال للسلف - واللفظ صادق بالجميع « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأُضِرَّ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَأُضِرَّ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه ، وبلغ رسالته .

(١) [١٧ / الإمراء / ٩٠-٩٢] .

« فَأَيْنَكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير^(١) : أى بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعنى أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة ، استمرت لذلك ، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الريثة) عينا ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونسكتة جمع (العين) هنا وإفرادها فى قصة السكيت ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة فى الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظه له بأعينهم ، لأن المقصود نصيب حبيبه على السكايد ومشاق التكالييف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَمِعَ يَحْمَدُ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» أى من منامك .

روى الإمام أحمد^(٢) عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تمارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : رب اغفر لى (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى ، قبلت صلاته . وأخرجه البخارى^(٣) فى صحيحه وأهل السنن .

ورود من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً . ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . وقيل : حين تقوم إلى الصلاة - روى مسلم^(٤) فى صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول فى

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١٩ - كتاب التهجيد ، ٢١ - باب حدثنا على بن عبد الله ، حديث رقم ٦٣٤

(٤) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .
ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن
مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس ، فكثرت فيه لفظه ، فقال
قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك
وأتوب إليك - إلا غفر الله ما كان في مجلسه ذلك - رواه الترمذي وصححه ، وكذا الحاكم .
وأخرج أبو داود ^(٢) والنسائي والحاكم عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ
يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا
أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يا رسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقول
فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ،
وعلله ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على
الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أى اذكره واعبد بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى ^(٣)
(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الْكَافِي) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب في كفارة المجلس ، حديث ٨٥٩

(٣) [١٧ / الإمراء / ٧٩] .

وقد روى في أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف في كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معمرى عن أسانيدھا في كتابی (الأوراد الماثورة) .

«وَأِدْبَرَ النُّجُومَ» أى : وسبحه وقت إدارھا ، وذلك بميلھا إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عني بذلك إمافريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كفا نحدث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر . وفي لفظ لمسلم^(٢) : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزخشرى : وقرئ (وَأَدْبَرَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب الفجوم وآثارھا إذا غربت .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن الكرماني : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدارھا ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

(١) أخرجه البخارى فى : ١٩ - كتاب التهجيد ، ٢٧ - باب تعاهد ركعتي الفجر ،

حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرھا ، حديث رقم ٩٥٠٩٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرھا ، حديث رقم ٩٦ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣ - سُورَةُ النَّجْمِ

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخارى^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع في رواية غيره ، تسمية غير أمية - كما بسطه ابن حجر في (الفتح) - .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ٤ - باب فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقض . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غوياً ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغى . وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحى إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْيٌ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددى . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحي ، وقواه بما فى (مراسيل) أبى داود عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن . واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني : كون مرجع الضمير للقرآن ، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (أُفْتَرَنُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلى أنه ﷺ كثيراً ما يقول بالرأى في أمور الحرب ، وأمور أخرى . فلا بد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لا قوة في المراسيل ، لما تقرر في الأصول . وبأن الآية لا تدل على منع الاجتهاد المذكور ، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً . لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً ، لانطقاً عن الهوى . لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ما ظننت كذا فهو حكيم) أى كل ما ألقىته في قلبك فهو مرادى ، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجهم تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراد . فما قيل عليه من أن الوحي الكلام الخفى المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادى إلا بعموم المجاز . مع أنه يأباه قوله ^(١) (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) غير وارد عليه ، بعدما عرفت من تقريره - نقله في (العناية) عن (الكشف) - وتفصيل المسألة في مطولات الأصول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

«عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه ، يعنى جبريل عليه السلام . كما قال ^(٢) (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) و (الْقُوَى) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسر ها كالمشاكس بكسر الراء في جمع رشوة بضمها ، والحبيا في جمع حبة - نقله ابن ^(٣) جرير .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] . (٢) (٨١ / التفسير / ١٩ و ٢٠) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه . والعرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمرت الجبل) إذا أحكمت قتله « فَاسْتَوَىٰ » وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزمخشري : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحي . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء - كما قال شراحه - سببية ، لأن تشككه يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُ) أى علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية . وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرة من الأمور - حكاه القاضى - . قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لا مصطلح أهل الهيئة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام - قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير^(١) ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد . وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استوى جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء - كذا قال - ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ماقاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله^(٢) (أَذَا كُنَّا تُرَبَّابًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَأَبَاؤُنَا) فغطف بالآباء على السكتى في (كُفًّا) من غير إظهار (نحن) فكذلك قوله (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّا نَنْتَبِعُ يَصْلُبُ عُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (أَقْرَأْ) ثم فترة الوحي فترة ذهب النبى صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلماهم بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبنى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه اليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانى ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَاسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبى بالآفاق الأعلى ، لأنه حين كَوَّنَ النبى

بالآفاق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكّل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية السكبي ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبى ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايى وافقهما وعبارته :
(فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار (بِالْأَفُقِ الْأَعْلَىٰ)
الروحانى . انتهى .

وكذا الفخر الرازى وعبارته :
المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقى ،
فسد الشرق لمظلمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان
العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

(فَإِنْ قِيلَ : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ^(١) (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ) إشارة
إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ
رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول :
فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئى . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان)
أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ
الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو
واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعمده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إلى غير
ذلك ، وقوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) كل ذلك يدل على
خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر
تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل
عليه السلام أرى النبي ﷺ نفسه على صورته ، فسد الشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرق وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازي .

وفي القرطبي حكاية أقوال آخر ، وعبارته :

(فَاسْتَوَى) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه في السماء ، بعد أن علم محمداً ﷺ

- قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير - .

وقيل : (فَاسْتَوَى) أى قام وظهر في صورته التي خلّق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَاسْتَوَى) أى استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - في صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثاني - في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَاسْتَوَى) فاعتدل . يعنى محمداً في قوّته ، والثاني في رسالته

- ذكره الماوردي - .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثاني (شَدِيدُ الْقُوَى) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثاني - أنه النبي ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَاسْتَوَى) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش - على قول

الحسين - انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآف من الأقوال في الآية ، وسيأتى في أول التنبيهات إيضاح

ما اخترناه منها ، وإنما أخرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّى » أى إليه . قال ابن جرير^(١) : هذا من المؤخر الذى معناه التقديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلى فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبي بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علو ، كما هو المشهور . أو هو دنو خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل به (أراد الدنو) - كما فى الإيضاح - .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أى كأن مسافة ما بينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدًّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربة قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقببه : ما بين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابى قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداها بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانها معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدها رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه - كذا قال مجاهد ، وارتضاء عامة المفسرين - انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَى) كقوله ^(١) : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين في رأى الرأى . أى لتقارب ما بينهما ، يشك الرأى في ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه في رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر في (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرأى يقول هم مائة ألف أو يزيدون . وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى . و (أَدْنَى) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبي ﷺ . وإنما أضر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإيهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)

« مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . معنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق وصدق . وقرئ (ما كَذَّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملك ربانى ، لا خيال شيطانى ، كما قال ^(٢) (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية في أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفْتُمِرُّونَهُ وَ عَلَى مَا يَرَىٰ)

« أَفْتُمِرُّونَهُ وَ عَلَى مَا يَرَىٰ » أى أفتجأدلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانى : أى أفتخاصمونه على شئ لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفي والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهاها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجمله ، فالمراد أنه لا يصح المجادلة فى المرئى ، لأنه لا يجوز الجدل فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ)

[١٥] (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ)

[١٦] (إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ مَا يَفْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرة أخرى من النزول ، وتأكيده الخبر عن الرؤية

الثانية هذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه . «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . (المنتهى) : اسم مكان ، أو مصدر ميمي . وقد جاء فى الصحيح^(١) أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبت بالسدر ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الغاس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبت بها ، وسميت (سدر) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث^(٢) أن كل نبتة فيها كقلة من قلال حجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر - قاله الشهاب - .

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . «إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ مَا يَفْشَى» قال القاشانى : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها . «مَا زَاغَ الْبَصَرُ» أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . «وَمَا طَفَى» أى ما تجاوز حرائقه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستقيماً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالاته . وفيه غاية التفعيم لقامه ، وأنه من الآيات الكبر . قال الفاصر : ويحتمل أن تكون (الْكُبْرَى) صفة لآيات ، ويكون المرئى محذوفاً لتفخيم الأمر وتمظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أموراً عظيماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول - قدمنا في تفسير قوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى ما في بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازي ومن وافقهما ، وبمض أقوال حكاها القرطبي . والأقرب في معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك . ونحن نقول في تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما في سورة التكويد تمام المشابهة ، فقد قال تعالى ^(١) نمة : (إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنو واقتراب لم يذكر في (التكويد) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبي ﷺ في معارج السموات وقتاً فوقتاً . وسورة النجم مما نزل بعد التكويد ، كما حكاها في (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان في (النجم) زيادة هذا التكرير والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه ، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم ، جم المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيه تنزل من الأفق ، ودنا إليه ، وكان في غاية القرب منه ، والتمسك من رؤيته ، وتلقى الوحي عنه . وذلك كله حق وصدق لا مرية فيه . وكيف يمارى من يرى يبصره ما يصدق فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه زلة ثانية ، نزل إليه بالوحي في مكان معين لا يشتبه على رائيه ، وهو سدره المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكويد) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لا يخفاء به عند التدبر ، وكاه رد على المشركين المفتريين ، وإقسام على حقيقة الوحي والتنزيل ، وصدق ما يخبر به ، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فابق بعد التعنت

(١) [٨١ / التكويد / ١٩-٢٣] .

والجحد إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة .
هذا ملخص معنى الآيات ، وما عدها فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوزة مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد - والله الموفق - .

الثاني - ما قدمناه من رجوع الضمائر في قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدَلَّى في سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدليّه - كما قالت عائشة وابن مسعود - والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى ، وهو ذو المِرَّة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .
وروى البخارى^(١) فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح .
وروى الترمذى^(٢) عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياذ - مكان بمكة - له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارى^(٣) من قوله (ودنا الجبار رب العزة فتدلى ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

بجي بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ٣ - حدثنا

ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٧ - باب قوله وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما في سورة النجم ، تؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تسكّم كثير من الناس في رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : وقع في حديث شريك في الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قل العباد بن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذر قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نوراً أنى أراه . وفي رواية : رأيت نوراً - أخرجه مسلم ^(١) .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة ^(٢) وعن ابن مسعود ^(٣) . وكذلك هو في صحيح مسلم ^(٤) عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعنا) .

مخالف من الصحابة في تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيم في (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نوراً أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما في لفظ آخر : رأيت نوراً .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ثم قال : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) والظاهر أنه مستفده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئى جبريل ، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ربي عز وجل ، فإنه حديث إسناد على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : أنا نانى ربي الليلة في أحسن صورة (أحسبه ، يعنى في النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي (أو قال نحري) فعملت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قال قلت : نعم ! يختصمون في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المسك في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المسكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضني إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى ^(١) (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) كقوله ^(٢) (لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع . لأنه قال (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث - ذهب بعضهم إلى أن هذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوي ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقائه إلى ما فوق السموات السبع ، كما ذكر في أحاديث المعراج من سدره المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبي : لما كان الإسراء مقدماً في الوجود على المعراج ، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج وما فيه . وكان ما في المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ ما لا يجوز عليه ، فقال « وَالنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحي، بأنه تعليم ملك كريم، مرثى للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس، لا لإثبات المعراج.

ثم من الغرائب أيضاً هنا، قول بعضهم محاولاً سرّ إفراة الإسراء عن المعراج، وذكر كلّ في سورة، ما مثاله: إن الإسراء أنزل أولاً وحده، حملاً للمشركين على تسليم ما وضع صدقه ﷺ فيه، توصلاً للتصديق بما وراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشركين أولاً بالإسراء إلى المسجد الأقصى، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك وقع، كما ذكر في الروايات. وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام، وأنزل الله تصديقه في سورة النجم. انتهى. فكل هذا مما لا سند له، نعم! روى البيهقي وابن أبي حاتم وابن جرير في حديث مطول؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب. إني أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا. إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين، ولا حجة في الأخبار إلا مرويهما. وبالجملة، فالمعول عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر في القرآن مطلقاً، وما ورد في هذه السورة وسورة التكوير، فلا علاقة له بالمعراج، وإنما هي رؤية النبي صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم. وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية. لصريح حديث البخاري في ذلك من طرقه التي عن أنس ومالك بن أبي صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر في حديث المعراج، بحسب رواية البخاري التي هي أصح الروايات بالإجماع، أن النبي ﷺ سار أولاً إلى بيت المقدس، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة، وذلك يدل على أن ما ذكر في القرآن مما وقع بقطعة، هو غير ما ذكر في الحديث، مما وقع مناماً في وقت آخر،

وإلا لذكرا معا في سياق واحد ، إما في القرآن ، وإما في أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذي لم يحصل إلا في بعض روايات لا يعول عليها ، وهي من خلط بعض الرواة الحوادث بعضها ببعض . انتهى - والله أعلم - .

ثم قال تعالى مفكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن لعبادة تعالى وحده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)

[٢٠] (وَمَنَوَاتُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ » قال ابن كثير : هي صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير^(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (اللَّت) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشري : هي فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللات) بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السوق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه . « وَالْعُزَّىٰ » وهي شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزير) وقال الزمخشري : أصلها تأنيث الأعز .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .
روى البخارى عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال القاضى : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يعنى فيها القرابين ، أى ينحر .
وقال الزمخشري : وكنها سميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تعى عندها ، أى تراق .
وقرىء (مناة) مفعلة من (النوء) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .
فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .
وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (الثَّلَاثَةِ) للتأكيد ، و (الْأُخْرَى) بيان لها ، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (الْأُخْرَى) ما يثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودى ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودى ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلى ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة ، فإن إشعارها بالتأخير الوجودى ، ثابت لم يغير ، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودى ، لأن (الأفعل) و (الفعل) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقديم معابر في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني - قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرت عظمها العرب كتمظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتمظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنجر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكافت لقريش ولبنى كنانة (الْعُزَّى) بنخله ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتهم ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عزى ! يا عزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلها مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علي بن أبي طالب . انتهى .

الثالث - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحويي البصرة يقول : إذا سكت قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللات ، فجعله من اللت الذي يلت . ولغة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويي الكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل ما لم يصف ، أن يكون بالهاء^(٢) (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) ^(٣) (وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجأز بالهاء والتاء ، فالتاء للإضافة ، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثاني ، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب ، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَسْكُمْ الَّذِينَ كَرُّوْهُ الْأُنثَىٰ)

[٢٢] (تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ)

« أَلَسْكُمْ الَّذِينَ كَرُّوْهُ الْأُنثَىٰ » قال الزمخشري : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، مع وأدم البنات ، فقليل لهم : (أَلَسْكُمْ الَّذِينَ كَرُّوْهُ الْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث ،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستسكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهن آلهة ؟ انتهى .
لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام في (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرني) وفي كيفية دلالتها على ذلك ، واختلاف النحاة في فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرى ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضى . أو علمية ، فنكون في محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها في تأويل : أهي بنات الله ؟
قال السمين : وكان أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام . وإنما أوتر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائزة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكروهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .
قال ابن جرير^(١) : والعرب تقول (ضِيزْتُهُ حَقَّهُ) بكسر الضاد ، و (ضُزْتُهُ) بضمها ، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضِيزَى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على (ضِيزَى) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازه يضيّزه) إذا ضامه وجر عليه ، فعنى (ضِيزَى) جائزة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما - أن تكون صفة على (فُعِلَى) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء .
كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء ، ولم لا قيل (فعلى) بالكسر ؟ .
 فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات (فعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد
 بضمها ، نحو حبلى وأنتى ورؤبى وما أشبهه ، إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك . حكى ثعلب :
 مشية حيكى ، ورجل كيصى ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لا ينقض على
 سيبويه لأنه يقول فى (حيكى وكيصى) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى
 فالشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى - أن تكون مصدراً كذا كرى . قال الكسائى : يقال ضاز بضيز ضيزى ،
 كذا كرى ذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه
 خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياء ، لكنهما لغة
 التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه بضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من
 الأول . و (ضيزى) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصلياً ، لما
 تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت
 الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء
 الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .
 وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة
 كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى)

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها «إِلَّا أَسْمَاءٌ» أى محضة ليس تحتها مما تنبى هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلاً. أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لانصيب لها أصلاً ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَا » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات « أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبع « مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى برهان يتعلق به « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » أى تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير ^(١) : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحي ؛ أن عبادتها لا تنبى وأنه لا تصالح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأياً ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . ومن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإزال السكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية . وجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء باسموها به ، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .
واستدل بقوله تعالى (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد في العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .
أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأي على الدين ، فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

« أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » أي ليس له ما يشتهي من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد ، وتمنّته في دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمين يزعّمه . فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم ، كقوله ^(١) (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

« فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى » أي فخير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ما تسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال ^(٢) (وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَالْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبيل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ
أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى)

« وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علقوا به أطاعهم من شفاعاة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنتى لهذه الطواغيت أن تفتت على هذا المقام ، ولها من الذلة والصفار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزن (كسانا الأميرحلة) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشفاعاة والفضاعة ، واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

[٢٩] (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدّاً به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم النعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلاً ، وترك إيدائهم . وقول الزمخشري : أى أعرض عن دعوة من رأبته معرضاً عن ذكر الله ... الخ - لا يصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين ، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله ^(١) تعالى (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ عَنْ جِهَادٍ كَبِيرٍ) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التثريب ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)

« ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء - كما حققه الشهاب - والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى » أى : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تنبيه على سمة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يميزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى ، وهى الجنة . ثم بين صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِنِّمِ » أى ما كبر الوعيد عليه من المفاهى « وَالْفَوَاحِشَ » أى ما خش منها . والمطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا اللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثله أبو هريرة بالقبلة والغمرة والنظرة - فيما رواه ابن جرير (١) -

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وأصل معناه : ما قل قدره . ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة . وقيل : معناه الذنوب من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ما ذكر . أى إلا اللهم بما دون الكبائر والفواحش ، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً ، و(إلا) سفة بمعنى غير - وتفصيله فى (العناية) - .

وحكى ابن جرير^(١) عن ابن عباس وغيره ؛ أن معنى (اللهم) ما قد سلف لهم مما أئلوا به من الفواحش والكبائر فى الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .
وعن ابن عباس أيضاً قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأى عبد لك لا أئما

وقال الحسن : (اللهم) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناولوه اللفظ الكريم والأقوى فى معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتنب الكبائر ، كما قال تعالى^(٢) (إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .

« إِنْ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير^(٣) : أى واسع عفو للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » قال^(٤) ابن جرير : أى أحدثكم منها بخلق أئبكم آدم منها « وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » أى حينما يصوركم فى الأرحام « فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ » أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصى . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء « هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أُنْتَقَى » أى بمن اتقاء

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح . وهذا كقوله تعالى ^(١) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفي الصحيحين ^(٢) عن أبي بكرة قال : مدح رجل رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسبي ، ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

[٣٤] (وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى)

[٣٥] (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَى)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى ^(٢) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع المطاء بخلاً وشحاً « أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَى » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

(١) [٤ / النساء / ٤٩] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ،

٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعتمنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣٢ و ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِذْ رَأَيْمَ الَّذِي وَفَّىٰ)

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِذْ رَأَيْمَ الَّذِي وَفَّىٰ » أى بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال ^(١) (وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ وَبَكَلِمَتِ فَأَنمَهُنَّ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آئمة ، فإن إنمها عليها .

قال القاشاني : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت في النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التي هي الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول - قال ^(٢) ابن جرير : إنما عني بقوله (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذي

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ضمن للوليد بن الغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذي في صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) أى: وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردّاً على ما كانوا يتخرسونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجأاً وجهلاً . ومع ذلك ففهومها الشمولى جلى .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل به على عدم دخول النياية فى العبادات عن الحى والميت . واستدل به الشافعى على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى .

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى رحمه الله ومن تبعه ؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حشهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به - فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث (٢) : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية - كالوقوف

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١ - باب الحث على الكسب ،

ونحوه - هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال ^(١) تعالى (إِنَّا نَخْنُ نُخَيِّ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيح ^(٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث - قال الرازي : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى (لِلْإِنْسَانِ) فإن اللام لعود النافع ، و(على) لعود المضار . تقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه ، في النافع والمضار . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكر ، إذا اجتمعت الإثبات مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) و(الأوفى) لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالثلث أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى » أي يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشيء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أي يراه ، كقوله تعالى ^(٣) (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) « ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، ف (الجزء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يقعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه - كما فى (الكشاف) - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ)

[٤٤] (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ)

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عام ، أى إليها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعد ؛ أو خاص بالنبي صلوات الله عليه ، ففيه تسليية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالالوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَى^(١) أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعم .

قال الرازى : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعملان ، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعمل بأمر ، فلا بد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أَمَات من شاء من خلقه ، وأَحْيى من شاء . قال ابن جرير^(٢) : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصويره الروح فيها « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لاتعلم ، كما قال^(٣) (وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى » وهو نجم مضى خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

[٥١] (وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى)

[٥٢] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلب الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ)

[٥٤] (فَفَشَّهَا مَا غَشَّىٰ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

[٥٦] (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ)

« وَأَنَّهُ وَاَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (الْأُولَىٰ) لتقدمها فى الزمان. « وَنَمُودًا » أى قوم صالح « فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْفَىٰ » أى أشد طفياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَالْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى انتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمرها . « فَفَشَّهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوى الذى صب عليها . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتاب وتشكّ وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقفاء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم . « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ)

[٥٨] (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

« أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى (الْأَزِفَةُ) للمهد . وقيل : الْآزِفَةُ علم بالغلبة للساعة هنا ، لئلا يلزم وصف القريب بالقرب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربهِ ، كما يدل عليه الافتعال في (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله^(١) (لَا يُجْلِيهَا لَوْفَتَهَا إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف، أى نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التانيث و (مِنْ دُونِ اللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : المكشف بمعنى الإزالة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغطاء) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ)

[٦٢] (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

(سجدة)
(لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر « تَعْجَبُونَ »

أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيقته الدمع المردار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى ممافيه من وعيد للمصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكره كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية^(٢) (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) « وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ » أى لاهون عما فيه من العبر ، ممرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبي ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شاخين .

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهي لغة أهل اليمن .
يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال في (الإكليل) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللاهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَمِدُونَ) وفسره السدي بالاستكبار .

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً في عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم في أول السورة .

وروى الإمام أحمد^(١) عن المطلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم . فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد - ولم يكن أسلم يومئذ المطلب - فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه - ورواه النسائي - .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤ - سُورَةُ الْقَمَرِ

وتسمى سورة (أُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهي مكية . وآياتها خمس وخمسون .
قال ابن كثير : ورد في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهـ (قاف)
(وَأُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) في الأضحى والفطر . وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالهما على
ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من
المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » أي دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة . كما قال ^(١) (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال ^(٢) (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . قال ابن جرير ^(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرهم لهم بالاستعداد لأحوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها في غفلة ساهون . « وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير ^(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراههم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سَحَرْنَا مُحَمَّدٌ . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض في (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار في ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابي أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبي ﷺ بعث رحمة ، وأمن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطباع حريصة على إشاعة ما لم يعد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى . وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزخشرى والبيضاوى ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعنى يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيئوا إلى طلبة .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قوى ، من (مررت الجبل) إذا أحكمت فتلته . أو مازا زاهب لا يبق ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانى الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً . وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد - كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهى أن الرمى بالإلحاد لمفكر حديث غير مجمع على تواتره ، جنسية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفسير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرق السكامة ، ونقر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجأ ، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلمها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فاذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراعى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم ، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه ، وأشاروا له فى مواضع ، فقررروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناى فى (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالي فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلّى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها - أن يكون مقلداً لمذهب سماعه بالتقليد ، وجد عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبداله معنى من المعانى التى تبين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها - أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرها ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول على رضي الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين : أحدهما - أن يكون له فى الشئ رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالاحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبساً على خصمه ، وكالجاهل المتفحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما - أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بفرائض التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرناها بعض السلف بشئ ، أوردوا فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام - وبالله التوفيق - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ)

« وَكَذَّبُوا » أى بايات الله بعد ما اتهم حقيقة « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى ما زين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى كل أمر لا بد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لا بد أن يستقر إلى غاية، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

[٥] (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أى غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللغو « حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الأحكام والفهم عن الخلل ، ومن الاشتغال على البراهين القاطمة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أو خبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أى غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بآدى بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) يعنى أى شئ تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى ^(١) (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى ^(٢) (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

(٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

(١) [١٦ / النحل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ)
 [٧] (خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)
 [٨] (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :
 « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة
 كالأمر في قوله (كُنْ فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ » أى
 فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ » أى من
 الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » أى في
 السكثرة والتموج والانتشار . والجراد مثل في الكثرة « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين .
 مَادَى أَعْنَاهُمْ إِلَيْهِ . « يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ)
 ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)
 « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » أى زجر
 عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد .
 وهو كقوله في السورة ^(١) (فَمَعَاطَى فَعَقَرَ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من
 جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . قالتكذيب الخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم . ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ)

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيهه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر . « فَالْتَقَى الْمَاءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ » أى على حال قدره الله وقضاه ، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسِّرَ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام - كما بسطه في (الكشاف) - .
(وَدُسِّرَ) جمع دسار بكسر الدال ، أو دسّر كسقف وسقف ، وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لفوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا » أى قصة نوح « آيَةً » أى جعلناها عبرة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذكر) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أى عذابى لهؤلاء الكفرة ، قوم نوح ، وإنذارانى بما أحطت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقتربونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » أى سهّلناه للادّكار والانتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويشوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي)

[١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيهم هوداً عليه السلام ، بمنزل ما كذبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا » أى شديدة المهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، « فِي يَوْمٍ نَخَسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المראה لعظم بلائه . « تَنْزِعُ النَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » أى أصول نخل منقطع عن مغارسه . وأصل (مُنْقَعِرٍ) ما أخرج من القمر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ » كرّره للتحويل وللتنبيه على فرط عتوهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ)

[٢٤] (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا لَبِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَأُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَبْنَهُمْ وَأُصْطَبِرُ)

[٢٨] (وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌّ)

[٢٩] (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٣١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ» أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . «فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَنْبِئُهُ» وَإِنَّا إِذَا لَفِئَ صُلَلٍ وَشُعْرٍ «أى جنون، أو عناء. فهو اسم مفرد. وقيل: جمع سمير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مراتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشري قالوا : (أبشراً) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى . وقالوا (وَاحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم «أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا» يعنون : الوحي والنبوة . أى وفيما من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالاً ونفراً «بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ» أى متكبر ، حمله كبره على استبعادنا له . «سَيَعْلَمُونَ غَدًا» أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة «مَنْ الكَذَابُ الْأَشِرُّ» أى المتكبر عن الحق ، البطر له «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ» أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء «فَأَرْقَبَهُمْ» أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعون بها «وَأَصْطَبِرُ» أى على دعوتهم «وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ» أى الذى يردونه لشرب مواشيهم «قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ» أى مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم «كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ» أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله «فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى» فتناول النافاة بيده «فَمَعَرَ» أى فمقرها وقتلها «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ» أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذ

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها . أو كالخشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكمهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخذوا وهدوا ، كما يهدم ويبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفیان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشياً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ)

[٣٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة . أورياً تحصبهم بالحجارة ، أى ترميهم « إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يحسبهم سوء « نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا ، وهو علة لـ (نجينا) « كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيهِ . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ » أى لوط « بِطُغْيَانِنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإذاراته ، تكديماً له « وَلَقَدْ رَاَوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ » أى طابوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرِدِّ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته المعجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا ينجزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال « فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ » قال الزخشرى : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذ كَارَأَ وَاِعَاظًا ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظًا ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله ^(١) (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله ^(٢) (وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردتها

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُذَّابًا فَآخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُذَّابًا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَآخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدة لا يغالب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شئ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ)

« أَكْفَارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النعمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضهم بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصاص بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرُونَ) مراعاة لللفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبْرَ)

[٤٦] (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ)

« سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيَوْلُونَ الدُّبْرَ » أى يولون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم . وإفراد (الدُّبْر) لإرادة الجنس ، أو رعاية الفواصل ، ومشاكله قرآئنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب ، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير^(١) : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب . « وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرٌ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سبهمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة . وقال القاشانى : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرون عليها . « ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ » أى حرها والمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرٍ) مكنية ، وفى (المس) تخيلية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بـإفلاحة السبيبة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم - أعاذنا الله منها - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها . ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذاقة ألمها جزاء الزيف عن الهدى . وهذه الآية كآية^(١) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ وَتَقْدِيرًا) ، وآية^(٢) (سَيَسَّحِرُ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أى قَدَّرَ قدرًا ، وهدى الخلاق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفانًا لعظمته تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثل لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهَب بأسه ، ويُتَّقَى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانى : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معين ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمى في الشرع بـ (كُنْ) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى^(٣) (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١-٣] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .
قال الشهاب : أصل معنى (الأشياء) جمع شيعة ، وهم من يتقوَّى بهم المرء من الأنباغ .
ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » أى ممتَّعٌ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُسْتَطَرٌّ » أى مسطور لا يحى ولا ينسى ،
كما قال تعالى ^(١) (وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه ^(٢) (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣ و ١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

يا عائشة ! إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا .

قال ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجه من طريق سماعيل بن مسلم بن مالهك المدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سماعيل بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سماعيل : فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سماعيل ! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأناه آت في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لَا تَحِقِّرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا	إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ،	عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجُرْهُ هَوَاكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لَا تَكُنْ	صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ	طَارَ الْفَوَادُ وَالْهَيْمَ الْتَفْكِيرًا
فَسَأَلْ هِدَايَتِكَ الْإِلَهِ ، فَتَتَّذُّدْ	فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، واجتناب نواهيه ، « فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ » قال ابن جرير^(١) : أى في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشري : في مكان مرضى . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق الميَّسَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسول ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِنْدَ مَلِكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشاني : أي يقدر على تصرف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأنفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجلب عن البيان ، وتكمل دونه الأذهان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال المهايي : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم .
وهي مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .
وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّحْمَنُ)

[٢] (عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى بصّر به ما فيه رضاء، وما فيه سخطه، برحمته ليطلع باتباع ما يرضيه، وعمل ما أمر به، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضي : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدرها بـ (الرحمن) وقدم ماهو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصدق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[٤] (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما في الضمير ، وإفهام الغير - لما أدركه لتلقى الوحي ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو في الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشري : وإخلاؤها من العاطف لمحيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا - كما قال الشهاب - مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كَلَّامُهَا نعمة مستقلة تقتضي الشكر . ففيه إيماء إلى تقصيرهم في أدائه . ولو عطف مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصمعي في (الذريعة) : لما كان للنطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التي بها يابن سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرفقة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهيمة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه . قال الشاعر (١) :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .
أى إذا توهم ارتفاع النطق الذي هو باللسان ، والقوة الناطقة التي هي بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلاً عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى لبعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسئ في الكلام ، فيقع منه جنایات عظيمة في أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فحال أن يقال في الصمت فضل ، فضلاً أن يخيّر بينه وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلها فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، من معلقته التي مطلعها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوَّانَةَ الدَّرَاجِ فَأَلْمُتْهُمْ .

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الحفا ، أفضل من الكلام بالخطأ . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بِالْفَتَى من منطوقٍ في غَيْرِ حِينِهِ

انتهى . وقد جوز - كما حكاه الشهاب - أن يكون (الرَّحْمَنُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعدد نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومنفعوله مقدر . أى علم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من الدلالة من غير تقدير) كما قيل . أى جملة علامة وآية لمن اعتبر - لُبَّعْدِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجران بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، به تنسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السفن والحساب . « وَالنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَالشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى يفقدان لله فيما يريد بهما طبعاً ، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً . فهو استمارة مصرحة تبعية . شبه جريهما على مقتضى طبيعته ، بانقياد الساجد لخالقه والجملة - إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر - فالإبط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لفرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته . « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشاني : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولما استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاها لفسد - أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجار . أى لثلاث تطفوا فيه ، أو مفسدة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » قال القاشاني : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى . ومن فسر (الْمِيزَانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطى فى (الإكليل) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوى به الحقوق والمواجب - كذا ارتآه القاضي - والله أعلم .
وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عاماً أولاً وأفيد .
ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازي : (أَلْمِيزَانُ) ذكر ثلاث مررات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول .
قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى ^(١) (فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) ؛ وبمعنى المقروء في قوله ^(٢) (إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ) ؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُرِّيَتْ بِهِ الْأَجْبَالُ) ، فكأنه آله وعجل له ؛ وفي قوله تعالى ^(٤) (أَأَنْتُمْ أَنْتُمْ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانُ الْعَظِيمُ) . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فُكِّهَتْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبَآئِيَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهدها للخلق « فِيهَا فُكِّهَتْهُ » أي صنوف مما يتفككه به « وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطالع فيه العنقود ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطباً . ثم ينضج ويتناهى تقعه واستواؤه . وإنما أفردنا بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة ، على ما عرف من اتخاذ الظروف منها ، والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك . فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتمّ نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائده أشجارها في عين ثمارها . « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » أى وفيها الحبّ . وهو حبّ البرّ والشعير ونحوها (ذُو الْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتبين . « وَالرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه في حالته . هذا على (قراءة) (الريحان) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية في نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبي : الريحان ، إمافيمان ، من (روح) ، فقلت الواو ياء ، وأدغم ثم خفف ، أو فعلان ، قلبت واو ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَيَأْتِي ، آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى ^(١) (لِلْإِنسَانِ) ، وسينطق به قوله تعالى ^(٢) (أَيُّهُ الثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً . والتعرض لعنوان الربوبية المنبثقة عن المالكية السككية وانترابية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها ، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة ، فإن إشرافهم لآلهتهم به تعالى في العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب ، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر ، شهادة منها بذلك . فكفرهم تكذيبها لاحالة . أى فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأى فرد من أفراد آلاء مالكم كما ومربيكم بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلاً منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذى له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جملة طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصلاً . فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين . « وَخَلَقَ الْجَانَّ » أى الجن ، أو أبا الجن ، « مِنْ مَّارِجٍ » أى لهب صاف « مِنْ نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوابغ النعم . وما أظهره لكم بالقرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أى مشرق الشتاء والصيف ومغربيهما أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فيهما من النعم

والقوائد التي لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَا يَبْغِيَانِ » أى لا ينفى أحدهما على الآخر بالمزجة ، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر ، قد يجرى فيه فراسخ ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما - وهو مروي عن قتادة والحسن - قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية ^(١) . والقرآن يفسر بعضها بمضاً .

واختار ابن جرير ^(٢) ما روى عن ابن عباس وغيره ، أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض . وذلك أن الله قال ^(٣) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أسداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . معلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما في الذي قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل في الآي التشابه .
زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى
هو الأول . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما في البحرين وخلقهما من الفوائد ،
وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أي كبار الدر وصفاره . أو (المرجان) الخرز
الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدها ، وهو الملح ، لأنه لا متزاجهما
يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر
من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله ^(١) (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْءَانُ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال : هو من أهل مصر ،
وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير
(مِنْهُمَا) لبحري فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متسكون فيهما ،
بل أنهما يحصلان في جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .
ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحليتهم بهما ، كما تشير له آية ^(٢)
(وَمِنْ كُلِّ ثَمًا كُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

[٢٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَهُ الْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ »

قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتى تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتى تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التى أنعم بها في هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها

في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : من على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ »

أى ذاته الكريمة « ذُو الْجَلَالِ » أى العظمة والعلو والكبرياء « وَالْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية^(١) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها الحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويوئد الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها المدل الإلهي المكلفين - قال سبحانه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازي إلى ما في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله :
فيه فوائد :

منها - الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إل الطاعة .

ومنها - المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول - إذا كان في نعمة - إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .

ومنها - الأمر بالصبر إن كان في ضرر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضرر زائل .

ومنها - ترك اتخاذ الغير معبوداً ، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها - حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً، لأن الفاني لا يصاح لأن يعبد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لقرم الذاني ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدد أحوالاً .

قال مجاهد : يعطى سائلاً ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير^(١) أن النبي ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يا رسول الله ! وما ذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال الفاشاني : المراد يسأله كل شيء ، فغاب العقلاء ، وأتى بانفط (مَنْ) أى كل شيء . يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خلق شأن ، بإفاضة ما يستحقه ويستأهله باستعداد . فمن استعد بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتسكير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والردائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشروع والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره - كإبن كثير والقاضي - رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو ما يتبادر بآدى بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولاً « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يسمف به سؤالكما ، ويخرج لكما من محبا قدره وخلقه أنا فأنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَفَرُغْ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَفَرُغْ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ » قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً . وفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سنفصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك ، أى أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلي به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تديره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ في الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكافئين ، بعد تديره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي ، والإمامة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن - بحال من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع في آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعاراً للأخذ في الجزاء وحده .

لطيفة :

رسم (أَيْهَ) بنير ألف . وأما في النطق فقرأ أبو عمرو والكسائي (أيها) بالألف في الوقف ، ووقف الباقر على الرسم (إيه) بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر (أَيْهَ) برفع الهاء ، والباقر بنصبها .

و (الثقلان) تثنية (ثَقْل) بفتح حين ، فَعَلَ بمعنى مَفْعَل ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مَفْعُول ، لأنهما أثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : ثقلهما بالذنوب .

والخطاب في (لكم) قيل للمجرمين ، لكن ياباه قوله (أَيْهَ الثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع - كما أفاده الشهاب - ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونماقب العصاة ، وهو جلي . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَيَأْتِي عَالِيَاءَ رَبِّكُمْ أَنْ تَسْكَدَ بَانَ » أى من ثوابه أهل طاعته ، وعقابه أهل معصيته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
[٣٤] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم ، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه
ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَأَنْفُذُوا » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟ ونحوه ^(١) (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعملوا ما فى السموات والأرض فاعلموه ،
وإن تعلموه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى
الآية الأولى أنه لا محالة مجاز للمباد ، عقبه بقوله (إِنِ اسْتَطَعْتُمْ . . .) الخ ، لبيان أنهم
لا يقدرّون على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أَرَادَهُ . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »
قال ابن جرير ^(٢) : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرّون على خلاف
أمر أَرَادَهُ بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والمفوّ مع كمال القدرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَلْتَمِصَانِ)
[٣٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ » أى من لهب « مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفْر مذاب يصبّ

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنْتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتفقدان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أملككم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .
وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ،
وعبارته :

هذا فى مقام الحشر، والملائكة محذرة بالخلائق، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان،
أى بأمر الله^(١) (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُغُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى^(٢) (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ،
مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَانَمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنَ نَّارٍ وَنُحَاسٌ
فَلَا تَنْتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال
الله من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك، الإمام ابن القيم رحمه الله، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه
(طريق الهجرتين) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل
قوله تعالى (إِنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا) مأمثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة
بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً،
كما قال تعالى^(٣) (وَيَقُولُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ) قال مجاهد:
فارين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من
الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المسكن الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ - ١٢] : (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢ و ٣٣] :

قوله ^(١) (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) وقوله ^(٢) (يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ..) الآية. وهذا القول أظهر - والله أعلم - فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتمجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم ، فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها (سَتَفْرُغُ لَكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها ^(٣) (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) فلا بد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر. وقال تعالى (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل : إن استطعتم ، لإرادة الجماعة ، كما فى آية أخرى ^(٤) (يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال ^(٥) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين ، أى لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله ^(٦) (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) بـ : خطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فانصت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما - والله أعلم - انتهى كلام ابن القيم .

وأنت ترى أن لاقربنة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لا يؤيده ، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ما ذكرناه .

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] . | (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |
| (٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧] . | (٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . |
| (٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥] . | (٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتميز بين المطيع والمعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى انقطرت فاختل نظامها العلوى « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أى كلون الورد الأحمر « كَالدِّهَانِ » أى كالدهن الذى هو الزيت ، كما قال ^(١) (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) وهو دردى الزيت ، يعنى فى لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » أى لا يفتح له باب المذرة ، كقوله ^(٢) (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فى السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لانتفاء السبب . وأخذ كثير السؤال على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد يتنافيه .

قال القاشانى : وأما الوقف والسؤال المشار إليه فى قوله ^(٣) (وَقَفُّهُمْ) إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ونظائره ، فى مواطن آخر من اليوم الطويل الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الوطن قبل الوطن الأول فى ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠ / المارج / ٨] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

وكذا قال ابن كثير: إن هذه الآية كقوله^(١) تعالى (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فهذا في حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى^(٢) (فَوَرِّبَكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* ثُمَّ كَانُوا يَمَعْلُونَ) وفي الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم في (طريق الهجرتين) اختلف في هذا السؤال المنفي ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(٣): أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصِي وَالْأَقْدَامِ)

[٤٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

[٤٤] (يَطُوفُونَ يَنْتَهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ إِنْ)

[٤٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكتابة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٦ و ٣٥] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فتنسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام ، أو للتعديدية . و (الناصية) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(١) : أى من تعريفه ملائكته ، أهل الإجمام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانِ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شئ قد أدرك وبلغ فقد أنى . ومنه قوله^(٢) (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به . ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدينية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة ، بقوله :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)

[٤٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

- [٥٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٤] (مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
 [٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٦] (فِيهِنَّ قَصِرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٥٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٥٨] (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)
 [٥٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فإطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقاد الحلب ، أى رقاد عند الحلب . أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب ، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهاني بليغ ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، نخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّاتٍ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإثبات التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثباته المحسن ما وصف « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينه ، جمع (فنن) وهو ماذق ولان من النصب « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج .
 نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ !
 « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنى داني القطوف « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَهِنُ قَسِيرَاتُ الْطَّرْفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات الفطر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول المتنبي :

وخصرٍ ثبتُ الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حدَقٍ نِطَاقًا

فالمراد : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن . أو المعنى : شديداً بياض الطرف ،

كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحواري .

وجلى أن المعاني ههنا لا تتراحم لتحقق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِئْنُوا أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » أى لم يسمهن . وأصله خروج الدم ، ولذلك يقال للحيمض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عم كل جماع . وقد يقال : إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكرةً كلما جومت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمئن ويدخلن الجنة . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة ، أوفى حمرة الوجنة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَاهُمَا مَتَّانِ)

- [٦٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٦] (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ)
 [٦٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٨] (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)
 [٦٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٠] (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)
 [٧١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٢] (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
 [٧٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٤] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٧٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٦] (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانِ)
 [٧٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٨] (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ » أى فى العمل « إِلَّا الْإِحْسَانُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة
 « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * » ومن دونيهما « أى دون تينك الجنةين المنوة بهما
 « جَنَّاتٍ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف
 فى منظرها « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَاهَا مَتَّانِ » أى خضراوان من الرى ،

تضربان إلى السواد من شدة الحضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ « أَيْ فَوَارَتَانِ بِالْمَاءِ » فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فُكْرُهُ وَنُحْلٌ وَرُمَانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية ، جنسان آخران « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ » جمع (خَيْرَةٌ) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل . أى فضلات الأخلاق . وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده « حِسَانٌ » أى حسان الوجوه « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ » الحور : جمع (حوراء) وهى البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَاتٌ) قصرن أنفسهن على منازلهن ، لا يهمن إلا زيفتهن ولهوهن . وفيه الممانى المقدمة أيضاً . و (الْخِيَامِ) قال ابن جرير ^(١) : يعنى بها البيوت . وقد يسمّى العرب هودج النساء خياماً ، ثم أنشد له . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْ سُئِلَتْ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ » يعنى بهنَّ حورالجبنتين اللتين من دون الأولين . أو تكرير لما سبق ، للتقوية بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتميات ، وطليلة الملمات : « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكِدِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ » أى سررا أو مسانداً أو وسائداً « خُضْرٌ وَعَبْقَرِيٌّ » أى طفافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياذ . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبیر : (العبقرى) عتاق الزربانى ، أى جياذها . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكم هذا الإكرام . « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العلية ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كناية ^(٢) (تَبَارَكَ الَّذِى جَمَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ونحوها . وسر إيثار الاسم

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ / الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماءُه الحسنَى ، لاستحالة اكتفاء الذات المقدسة . فما عرف الله إلا الله . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقتحم ، كقوله (١) :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكما *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقة . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فحق . ومعنى (تَبَارَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء . ونحن نتبرك بالذكر له وبتمظيمه ونجّله ونسكّرمه ، فله التبرك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حينما كان من قرطاس ، أو في شيء منقوش فيه ، أو مذكور باللسنة . ومن لم يجلّ اسم الله عز وجل

(١) وعجزه : * وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً لَا كَامِلاً فَقَدْ اغْتَدَرَ *

وقال له لبيد بن ربيعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَرٍ
ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَخْلِقَا شَعْرًا
وقولا : هو المرء الذي لا خليله أضاع ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

فقوله (إلى الحول) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول . والحول : السنة كاملة بأسرها . وقوله (اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية في العذر .

(تفسير الطبري ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (في الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها . انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة في سر تكرير (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطي في (الإتيان) في بحث التكرير :

قد يكون التكرير غير تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيماً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها - قاله ابن عبد السلام وغيره - انتهى .

وفي (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هي ألفاظ كل ما أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصاً فيما يليه ، ظاهراً في غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزيد به عن ثلاثة ، لأن ذاك في التأكيد الذي هو تابع . أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع . انتهى .

وقال العز بن عبد السلام في آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبِأَيِّ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرِضُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) نعمة ، وكذلك قوله (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدّد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من جزب الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيهما من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله ^(١) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة في ذلك المقام . وأما قوله ^(٢) (كُلُّ مَنَ عَلَيْهِمَا فَاَنٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفي الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوي : كررت هذه الآية في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقرّروهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وتابع إليه بالأيدى ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فمززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب . انتهى .

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى في (الدرر والغرر) : التكرار في سورة الرحمن ، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلماء ذكر نعمة أنعم بها ، ويتبع على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثي كليباً^(١) :

على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما ضيمَ جيرانُ المَجِيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا رجفَ العِضَاءُ من الدَّبُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خَرَجَتْ مُحَبَّاةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما أعلَنتْ نَجْوَى الأمورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	غداة تَلَا تِلَ الأمرِ الكبيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما خَارَ جَارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام في (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنة وأهلها ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها في الجنة اللتين هادون الجنة الأوليين ، أخذاً من قوله (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلى فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالي المرتضى (طبعنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :

٥٦ - سورة الواقعة ، ٥٧ - سورة الحديد ، ٥٨ - سورة المجادلة ، ٥٩ - سورة الحشر ،
 ٦٠ - سورة المتحنة ، ٦١ - سورة الصف ، ٦٢ - سورة الجمعة ، ٦٣ - سورة المنافقين ،
 ٦٤ - سورة التغابن ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٦٧ - سورة الملك ،
 ٦٨ - سورة القلم ، ٦٩ - سورة الحاقة ، ٧٠ - سورة المعارج ، ٧١ - سورة نوح ،
 ٧٢ - سورة الجن ، ٧٣ - سورة المزمل ، ٧٤ - سورة المدثر ، ٧٥ - سورة القيامة .

فهرس السور المفصرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٣٢٦	٤٦ - سورة الأحقاف
٥٣٧١	٤٧ - سورة محمد ﷺ
٥٣٩٤	٤٨ - سورة الفتح
٥٤٣٧	٤٩ - سورة الحجرات
٥٤٨٠	٥٠ - سورة ق
٥٥١٩	٥١ - سورة الذاريات
٥٥٤٠	٥٢ - سورة الطور
٥٥٥٣	٥٣ - سورة النجم
٥٥٩١	٥٥ - سورة القمر
٥٦١٠	٥٥ - سورة الرحمن

رقم الإيداع بدار الكتب رقم ٤٢٤٠ / ١٩٧٠

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسيحي

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ — ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء السادس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٥٦ — سورة الواقعة ، وينتهي بتفسير ٧٥ — سورة القيامة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

بمَجْدُ فَاذِعَبْدُ الْبَحْيَا

عيسى الباني الحلي وشيركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراح إليه ضماؤها ، وتنمقد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في جلد النار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيَّام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونذر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦ - سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هي الواقعة العظمى ، لوقوعها في أشد الأحوال - قاله المهايى - .

وهي مكية . وآياتها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شئت ! قال : شيتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت - رواه الترمذى^(١) وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنجو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٦ - سورة الواقعة ، ٦ - حدثنا أبو كريب . حدثنا معاوية بن هشام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أو منقول، سميت بذلك لتحقيق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لابد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضى ، للدلالة على ما ذكر . « لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت . قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم . وقد تخلص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشياء إلى الدرجات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا)

[٥] (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » أى زلزلت زلزلا شديداً « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا »

أى فتنت، أو سيقت وأذهبت، كقوله^(١) (وَسِيرَتِ الْجِبَالُ) «فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا»
أى متفرقا . قال قتادة : الهباء ما تذرّوه الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو ما يرى من
الكوة كهياة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)

[٨] (فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَبُ الْمُشْمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْمَةِ)

[١٠] (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[١١] (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ)

« وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا » أى أصنافا « ثَلَاثَةً * فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ *
وَأَصْحَبُ الْمُشْمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة
الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها . وإطلاق (الميمنة) و (المشامة) اللتين هما الجهتان المعروفتان ،
على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس ، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار
والمفسدون من الناس - أصله من تيمّن العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السامح
والبسارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوزا به ،
أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشامة بمعنى اليمن والشؤم ، فليس بمعنى الجهة ، بل بمعنى البركة وضدها ،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفي جملة الاستفهام إشارة إلى ترقى أحوالها في الخير والشر ، تعجباً منه .

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (السَّابِقُونَ) أبلغ من قربنه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (الْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) - أفاده الناصر - .

و (السَّابِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ (وشِعْرِى شَعْرَى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقربهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخْيَرِينَ » أى الذين جاءوا من بعدهم فى الأزمنة التى حدثت فيها الغير، وتبرجت الدنيا لخطاياها، ونسى معها سر البعثة، وحكمة الدعوة. فما أقلّ الماشين على قدّم النبىّ صلوات الله عليه وصحابه ! لاجرم أنهم وقتئذ الغرباء، لقلّتهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُتَكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)

[٢٠] (وَفِيكِهِم مِّمَّا يَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَحُورٌ عِينٌ)

[٢٣] (كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أى مصفوفة، أو مشبكة بالدر والياقوت أو الذهب. و(الوضن)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وَلِدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى مَبْقُونَ على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و (الكوب) إناء لا عروة ولا خرطوم له . و (الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية . ثم أشار إلى أنها لَذَّةُ كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا . والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَلَكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبي ﷺ بثيرد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه ، فقبض النبي ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كل من موضع واحد ، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد - رواه الترمذى ^(١) واستغربه - .

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى أزواج بيض واسمة الأعين . عطف على (وَلِدَانٌ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرح عطف على (بِأَكْوَابٍ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله ^(٢) :

* وَزَجَّجْنَ الْهَاجِرَاتِ وَالْمُيُونَا *

(١) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٤١ - باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَائِنَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وَكَحَلْنَ الْعِيُونَا) .

أو يبق على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالخور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتي الخدام بالسراري للملوك ويعرضونهم عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّتِ) بتقدير مضاف . أى هم في جنات ، ومصاحبة حور - فقال أبو حيان : هو فهم أجمعى ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومن عصبه فقد تعصب .

« كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ » أى صفاؤه من كصفاء الدرّ في الأصداف الذى لا تمسه الأيدي . وأصل (الْمَكْنُونِ) الذى صِينَ فى كِنٍ . « جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد ، باطلاً من القول . « وَلَا تَأْتِيَا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » قال القاشانى : أى قولاً هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص ، مبرأ عن الفضول والزوائد . أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبيّن كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَامًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوة السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقراءات النحو باباً باباً ، فيدل على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[٢٨] (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ)

[٣٠] (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)

[٣١] (وَمَاءٌ مَّسْكُوبٍ)

[٣٢] (وَفَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ)

[٣٣] (لَّا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ)

[٣٤] (وَفُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[٣٥] (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِلْأَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٣٩] (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ)

[٤٠] (وِثْلَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أى: أى شىء هم! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتمتعون من أوصافهم فى السعادة «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» أى لا شوك له . أو موقر بالثمار «وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ» يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوج ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيدة لانوى لها «وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» أى ممتد منبسط لا يتقلص «وَمَاءٌ مَّسْكُوبٍ» أى مصبوب دائم الجريان «وَفَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ» * لَّا مَقْطُوعَةٌ أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها ، لكونها غير متناهية ، «وَلَا مَمْنُوعَةٌ» أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحياناً لعزتها أو جذبها «وَفُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ» أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعن

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل : على طريق الحقيقة . أى مرفوعة على الأرائك ، كآية^(١) (هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ) « فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمئن . « عُرُبًا » جمع عرب ، وهى التحيبة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعها « أَثَرَابًا » أى على سن واحدة « لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنْشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر محذوف ، مثل هن . « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان ، ومن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة . والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[٤٢] (فِي سَمُومٍ وَجَحِيمٍ)

[٤٣] (وَضِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا يُصْرَثُونَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٥٦] .

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ » أى حر نار ينفذ فى المسام
« وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق
أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيات نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيات
السود الرديئة « لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليه الناس من
الروح ، ونقع من يأوى إليه بالراحة ، بل له إيذاء وإيلام وضرر ، بإيصال التعب واللهب والكرب
« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات ، منغمسين فى الأمور
الطبيعية ، والفواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيات الموبقة ، والتبعات المهلكة .
« وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأفاويل الباطلة ،
والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكي)
بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى (١) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر
بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا
يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدًا مَّقْنَأً وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ »

[٥٠] « لَجَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »

[٥١] « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ »

[٥٢] « لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ »

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

[٥٣] (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)

[٥٦] (هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

« قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّن زَقُومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى المردة ، وبشاعة النظر ، وتتن الريح « فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيثة البسعة المحرقة « فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشري : وأنت ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رى معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزول ما يبعد للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلاً ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متعجباً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافناً جعلنا القنأ والمرهفات له نُزْلاً

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

[٥٩] (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

- [٦٠] (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)
 [٦١] (عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)
 [٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ » أى معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم ، وإن كانوا مقرين به لقوله ^(١) (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترب بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لا يعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصديقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ » أى ماتقدفونه فى الرحم من النطف . « أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ » أى يجعله بشراً سويّاً « أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ » أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى : ومن كان سبيله ذلك ، فشأنه أن يرهب من نزوله ، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررّة لما قبلها بإيدان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يفترون بالإمهال ، بدليل ما قدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى (يَبْنِيكُمْ) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبيين « عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ » أى بعدمهلككم ، فنجى بآخرين من جنسكم « وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ » من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعيّز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَكُمْ) المراد به إذا بدلناكم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة ، وأنها أهون عليه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ)

[٦٤] (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمُعْرِضُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ » أى ما تحرمون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » أى المبتتون . وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأماها يقول: بل أنت يارب! « لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا » أى أيسناه قبل استوائه واستحصاده . وأصل (الحطام) ما تحطم وتفتت لشدة يسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه ويسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكحون) على ما أصبتم لأجله من المعاصي ، فتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُعْرِضُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمعرون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الفرام) بمعنى الهلاك ، قال^(١) :

إِنْ يَمْدُبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَمِطْ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُيَالِي
« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمانا رزقنا .

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاه الكبير بالاطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟
والرواية في الديوان (إن يعاقب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

[٦٩] (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

[٧٠] (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسما في غير ما آية « أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه ينابيع فيها . « لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم في جعله عذباً فراناً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معاشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير في (المثل السائر) في النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، في بحث ورود لام التوكيد في الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، في سر مجىء اللام في قوله تعالى (لَجَعَلْنَاهُ حُطًا) دون قوله (جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام في آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً في العرف والعادة . والوجود من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق . وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

[٧٢] (ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

[٧٣] (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً وَفِتْنَةً لِلْمُقَوِّينَ)

[٧٤] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونها من الزند، وهو العود الذى تقدح منه . « ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداها المرخ ، والأخرى الفغار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فَحَكَّ أحدهما بالآخر ، تبين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكرياً لنار جهنم . « وَفِتْنَةً » أى منفعة « لِلْمُقَوِّينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأنصح إذا دخل الصحراء ، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المقوين) المستتمعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقوى منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكور مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى سبح اسمه . قال الزخشرى : بأن تقول : سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التي عدها
ونبه عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

[٧٩] (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة في
السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم
القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها
فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتامها صيغة من صيغ القسم ، على
ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على
عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ،
لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِي كِتَابٍ
مَكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن تردد الأيدى عليه ،
كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »
اعلم أن فى الآية أقوالاً عديدة ، مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد
للكتاب بمعنى الوحي التلقى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ،
أو المتطهرون من الأحداث والأخبار . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق
الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عني بالآية الملائكة . فنفي مسه كناية عن لازمه ، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، وندس الهيولى ، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن نزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) كما قال ^(١) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) انتهى . قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لا يقرؤه إلا الموحدون .

فنفي مسه كناية عن ترك تقبله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مس الشيء سبب حب المموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هي نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والفرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عني بـ (المطهرين) المتطهرون من الجفابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهي ، إشارة إلى أن تلك الصفة طيبة من طبائمه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك في موطئه عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم ، أن لا يمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطني في قصة إسلام عمر ؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ - ٢١٢] .

بينه الحافظ ابن حجر في (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكاني في (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن - والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر - ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى ^(١) : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبي هريرة ^(٢) : المؤمن لا ينجس . وعلى الثاني ^(٣) (وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا) وعلى الثالث : قوله ^(٤) ﷺ في المسح على الخفين : دعهما فإن أداختهما طاهرتين . وعلى الرابع : الإجماع على أن الشيء الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمة يسمى طاهراً . وقد ورد إطلاق ذلك في كثير . فن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حملة عليها هنا . والمسألة مدونة في الأصول ، وفيها مذاهب . والذي يترجح أن المشترك يحمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف في ذلك داود . استدلل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة . ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعمين ، لسكانت دلالاته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائماً ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حملة على من ليس بمشرك ، كما في قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو . ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الفسل ،

٢٣ - باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٤٩ - باب إذا أدخل رجله وها

طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا في معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، الحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه محل النزاع ترجيحاً بلا مرجح ، وتعيينه لجميعها استعمالاً للمشارك في جميع معانيه ، وفيه الخلاف . ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشارك في جميع معانيه ، لما صح ، لوجود المانع ، وهو حديث : المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة ، وفي رجال إسناده خلاف شديد ، ولو سلم صلاحته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق في لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير : إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لاحقية ولا مجازاً ولا لغة . صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناول الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ما تريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن عباس ^(١) أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين . و ^(٢) (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب ووقوع اللبس منهم له معلوم ؟

قلت : أجمله خاصاً بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار ، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم

ابن نافع ، حديث رقم ٧ . (٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لا يحرم لسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرق . وقد عرفت الخلاف في الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكاني .

تنبيه :

في لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون
قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) في مباحث أمثال القرآن الكريم ، ما مثاله :
الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني ، والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض ، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح ، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهرى : الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشياء والنظائر ، ومقاصد التسكيم . والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يحظى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول^(١) علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد سئل : هل خصم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦- كتاب الجهاد ، ١٧١- باب فكاك الأسير ، حديث ٩٥

يؤتيه الله عبداً في كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد التكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى (١) : (إِنَّهُ وَلَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله (٢) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يس المسحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بالطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية ، فقال في صحيحه في باب (٣) (قُلْ فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا) : (لَا يَمَسُّهُ -) لا يجد طعمه ونفقه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله (٤) (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) وتجد تحته أيضاً : لا يقال معانيه ويفهمه كما ينبغى ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذى أشار إليه على رضى الله عنه . انتهى .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ - ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه .
« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم نغامة شأنه ، وعظمة مقداره .
« أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ » . قال ابن جرير^(١) : أى تليقون القول للكذابين ، مملأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) - كما قال الشهاب - جمل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن . ولما كان ذلك مليناً له محسوساً ، أريد به اللين المعنوى . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مدهانة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً ، لأن التهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذبيكم به ، كفرأ لنعمته ، وجحدأ لمنته .

قال ابن جرير^(١) : أى وتجميلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول الفائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إالى ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إالى .

وقد ذكر عن الميثم بن عدى : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر . انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقاً ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال القاشاني : أى وتجعلون قوتكم القلبي ورزقكم الحقيقى ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصورى . أى لداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ)

[٨٤] (وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)

[٨٥] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ » أى النفس ، لدلالة الكلام عليها « الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ » أى حالة نزعها ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعنى ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنهه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول فى تفسير آية^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فى سورة (ق) فارجع إليه فإنه مهم . وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتى قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

[٨٧] (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(١) [٥٠ / ق / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)

[٩٣] (فَتَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ)

[٩٥] (إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرَوْهُنَّ » أى تَرَوْنَ النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت . « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » أى الميت « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفياً ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتفعم فيها مما تشبهه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم : سلام لك ، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتجبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ...) الآيات . انتهى .

وقال الرازي : في السلام وجوه :

أولها - يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى ^(٢) من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) .

ثانيها - (فَسَلِّمْ لَهُ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبك منه ، فإنه في أعلى المراتب . وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك ، فإنه في راحة .

ثالثها - أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان . إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازي : والخطاب بقوله (لَكَ) يحتمل أن يكون للنبي ﷺ ، وحينئذ فيه وجه ، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسليّة لقلب النبي ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يا محمد منهم ، فإنهم في سلامة وعافية ، لا يهيمك أمرهم . أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

«وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ» أى بآيات الله «الضَّالِّينَ» أى الجائرين عن سبيله . «فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ» أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه «وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ» أى إحراق بالنار «إِنَّ هَذَا» أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم «لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ»

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين ، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس ، أى اليقين الحق . أو من إضافة العام للخاص ، أى كعلم الأمر اليقين . فالإضافة حينئذ لامية ، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن ، منعمة أو معذّبة ، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكافرين فى النار .
« فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولاً وعملاً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧ - سُورَةُ الْحَدِيدِ

سميت به لأنه ناصر الله ورسوله في الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ورسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك - أفاده المهايى - .

وهي مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وآياتها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد^(١) عن عرياض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى . قال ابن كثير : والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ...) الآية ، لما سيأتى بيانه - والله أعلم - .

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل ما لا يليق به ، وآذن بانقراده فى ألوهيته ، وتدييره وعلمه وقدرته . فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لانتقاضى عجائبه ، ولا تنتهى غاياته - فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مرید لسيده فى سننه ، كما بسطناه فى (دلائل التوحيد) . « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوى الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض « الْحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما « يُحْيِي » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شئ أراداه من إحياء وإماتة وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الْأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود ، من حيث إنه موجد ومحدث « وَالْآخِرُ »

أى الباقى بعد فناء كل شىء « وَالظَّهْرِ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير^(١).
 أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه « وَالْبَاطِنُ »
 أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير^(٢) : أى الباطن
 جميع الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال^(٣) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ
 أَلْوَرِيدِ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .
 وقد روى الإمام أحمد^(٤) عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم :
 اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة
 والإنجيل والفرقان ، قللى الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت
 آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء . وأنت الآخر فليس بعدك شىء . وأنت الظاهر
 فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر
 - ورواه مسلم^(٥) وغيره . -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
 يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
 وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
 « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانى : أى من الأيام
 الإلهية ، وقيل : المهودة - والله أعلم - . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال ابن جرير^(٥) :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَـمْلِكُ مَا يَـلِجُ فِي الْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبدور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرها . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة ، فى آيتينهما ، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا : هو معهم بعلمه . وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتد بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصاً كما فى قوله تعالى^(٢) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقوله^(٣) : (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) وقوله^(٤) : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شئ ، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر ، دون عدوهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) ، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ، ليست فى لغة العرب ، ولا شئ من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما في قوله ^(١) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) وقوله ^(٢) (فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) وقوله ^(٣) (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقوله ^(٤) (وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله ^(٥) (وَهُوَ مَعَكُمْ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر ، ويبيّن أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى الجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسيّ رضي الله عنه في كتاب (ذم التأويل) :
فإن قيل : فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم في قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)
أي بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم بنا لزمننا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً ، وحمل هذه اللفظات على هذه المعاني ليس بتأويل ، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعاني هي الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية ، المجاز دون الحقيقة ، كاسم الراوية والظمينة وغيرهما من الأسماء العرفية ، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التي لها عرف شرعيّ ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعيّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالتبادر

- (١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .
(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] .
(٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والكلاءة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيه^(١) (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقال لموسى^(٢) (إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرَى) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده في حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفي الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلاً . ثم لو كان تأويلاً فما نحن تأوليناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأولوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا في قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف ؛ أن الله تعالى في السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله^(٣) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ثم قال في آخرها (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها ما يخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبينناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام في التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] .

(٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[٦] (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدها فيجمله زيادة في الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

« ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » أى آمنوا بالإيمان اليقيني ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإتفاق من مال الله الذى مولىكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرف إنما هو بحكمه في شريعته - أفاده القاشاني - .

وقال الشهاب : الخلافة إما عن له التصرف الحقيقي ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، أو عن تصرف فيها قبلهم ممن كانت في أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حث على الإتفاق ، وتهوين له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإتفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ^(١)
« قَالَتَيْنِ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » أى وما يصدكم عنه، وقد ظهرت دواعيه، واتضحت
سبله لذويه كما قال « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر
والتفكير إلى الإيمان بالذى رباًكم بنعمه، وصرّفكم بالآله، فوجب عليكم شكره .
« وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ » أى بالإيمان، إذ ركّب فيكم العقول، ونصب الأدلة، ومكنكم
من النظر، بل أودع في فطركم ما يضطرركم لذلك إذا نبهتم، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول،
فأعياكم إلا أن تأخذوا في سبيله . « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قال القاشانى : أى إن بقى نور
الفطرة والإيمان الأزلى فيكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ » أى حُجَجًا واضحات، وبراهين قاطعات،
« لِيُخْرِجَكُمْ » أى الله، أو عبده بآياته « مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبید، من قصیدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
(الشعر والشعراء ص ٢٣٦) .

الجهل والكفر والأهواء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب . « وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى فى إزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .
ولما كان إزال هذه السورة للأمر بالإتفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يرث كل شئ فىهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدد أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذ ذخرأ يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإتفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أو لا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإتفاق فى سبيل من أعطاهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فردة الأكل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العام على أهم أفرادها وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثاني لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لا يتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة في التقوية بهم : « أَوْ لَاسِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا » أى لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإتفاق المال في تلك الحال ، وفي المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى (١) « وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْأَمْهَجِينَ وَالْأَنْصَارِ » وقوله عليه الصلاة والسلام (٢) : لا تسبوا أصحابي ، فلو اتفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام واتفق وجاهد مع الرسول ﷺ - أفاده الرازي - .

وفي (الإكليل) : في الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَنَى » أى الثوبة الحسنی ، وهي الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجراء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة في سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من اتفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التام ، وإتفاقه في حال الجهد

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعنا) .

والقلة والضيق . وفي الحديث ^(١) : سبق درهم مائة ألف . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبابكر رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)
 « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى يوفق ماله في سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً في أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز في الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصرّحية ، أو في مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة في القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية . وهو جليّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَاعِفُهُ لَهُ » أى يعطيه ثوابه أضاعافاً مضاعفة ، « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كرمه ، زاد كرمه .

أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٤٩ - باب جهد المقلّ ، عن أبي هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقى حسي ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نوراً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين وإما مجازى معنوى مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير^(١) ، وأيده بقوله : لوعنى بذلك النور ، الضوء المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسمى بين الأيدي والأيمان ، دون الشمائل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنى به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاً وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعين ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى إيمانهم كتب أعمالهم تطاير . ويعنى بقوله (يسعين) يعضى والباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (فى) وكان بعض نحووي البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (على إيمانهم) وقوله « يوم ترى » من صلة (وعد) . انتهى .

« بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

المبشّر به جنات أو بشرًا كم دخول جنات . وقد قيل : إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » أى :

نُصِبَ مِنْهُ . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال ، لأن الظنر بمعنى مجرد الرؤية ، يتعدى : (إلى) فإن أريد التأمل تعدى : (فى) . وقولهم ذلك ، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم ، كقوله تعالى ^(١) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...) الآية . وقيل : (انظرونا) بمعنى انتظرونا ، وهو الذى عول عليه ابن جرير ^(٢) . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، « ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا » قال الزخشرى : طردّ لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فالتسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا فالتسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لانور وراءهم ، وإنما هو تحييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى : ارجعوا إلى الدنيا فالتسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى في الظلمات ، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الرغشري رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازى عن أبى مسلم : أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستعانة . كقول الرجل لمن يريد القرب منه : وراءك أوسع لك . قال الرازى : فعلى هذا القول ، المقصود من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ، لأنه أمرهم بالرجوع . انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين في المنازل وتباينهما فيها ، بقوله سبحانه : « فَضْرَبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين ، لتتم ظلمتهم « لَهُ » أى : لذلك السور « بَابٌ » أى : لأهل الجنة يدخلون منه ، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى : الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَهَرُهُ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

[١٥] (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» يريدون موافقتهم في الظاهر «قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها «وَتَرَبَّصْتُمْ» أى بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم «وَأَرَبَّصْتُمْ» أى فى توحيد الله ، ونبوة نبيه ، أو فى البعث بعد الموت ، أوفى قوله^(١) (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ووعده بنصر المؤمنين ، أوفى جميع ذلك . «وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِيَّ» أى طول الآمال ، والطمع فى امتداد الأعمار . أوقولهم : (سيغفر لنا) . «حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» يعنى : الموت ، أو مصداق وعده بنصره رسوله ، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار «وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . «فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ» هذا من تنمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فالיום لا يقبل منكم ما يقتدى به ، بدلاً من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم «وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعنى المجاهرين بالكفر من المحادين لله ولرسوله «مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ» أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصديق فى سبيل الله ، بأن ذلك من أثر قلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً للمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى السكال ، فقال سبحانه :

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأتى ، إذا جاء إناء ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أول ذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التام لأوامره ونواهيهِ ، والمعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإتفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكركر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله ككلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا ما نزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتتهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمنًا قليلًا ، ونبدوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أجبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيّتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شئ من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى^(١) (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) إلى آخرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو حييمكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ» أى الحجج وضروب الأمثال «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

«إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ» أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصدقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

أحدهما - أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني - أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (الشُّهَدَاءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا في سبيل الله . واختار الوجه الثاني ابن جرير ^(١) ، قال : لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل ^(٢) فتأويل قوله (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أو هلكوا في سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيم في (طريق الهجرتين) بسطاً لهذين الوجهين في بحث الصديقية . ننقله لنفاسته . قال رحمه الله في مراتب المكلفين في الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة - ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القاعون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهي مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى ^(٣) (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأُمَّته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحمة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . وقال تعالى ^(١) (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ الصَّادِقُونَ) ثم يبتدئ (وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام مجلتيين ، أخبر في إحداها عن المؤمنين بالله ورسوله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل ، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه . وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين ، هنا ، وفي سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ^(٢) في قوله : (اثبت أحدُ فإِنما عليك نبيّ وصديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهي قوله ^(٣) : (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا ، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام مجلتيين ، ويكون قوله (وَالشَّهَدَاءُ) مبتدأ خبره ما بعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله . ويرجح أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً في جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٥ - باب قول

النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها - أنهم هم الصديقون .

والثاني - أنهم هم الشهداء .

والثالث - أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن في هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تمطفها جميعاً ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمل ! ويرجح أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون في الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل في قوله تعالى ^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ) فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار منافقون ، فقال ^(٢) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ..) الآية . وذكر المنافقين في قوله ^(٣) (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلط صاحب الشائبتين ، على طريق القرآن في ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرِّ اقتضاه حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لا ضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا يأس من روح الله ، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالمذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعو به إلى موجب له لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذي لحظه القائلون بالنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا في تخليده في النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير في الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰمَتَّعُ الْغُرُورِ)

«أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ» أى تفرح نفس «وَلَهُمْ» أى باطل «وَزِينَةٌ» أى منظر حسن «وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ» أى فى الحسب والنسب «وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ» أى مطر «أَعْجَبَ الْكُفَّارَ» أى الزراع «نَبَاتُهُ وَثُمَّ يَهِيجُ» أى يجف بعد خضرته ونضرتة «فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا» أى من اليبس «ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا» أى هشيماً متكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله ، ومنع حق الله «وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ» أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله . «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰمَتَّعُ الْغُرُورِ» قال المهايى : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب ، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء ،

دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » أى الإيمان اليقيني . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة « فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ » أى من كان أهلاً له « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال ابن جرير^(١) أى بما بسط خلقه من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (الَّذِينَ يَخْتَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ » أى من قحط وجذب ووباء وغلاء « وَلَا فِي

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أَتُكْسِمُكُمْ « أَى مِنْ خَوْفٍ وَمَرَضٍ وَمَوْتِ أَهْلِ وَوَلَدٍ ، وَذَهَابِ مَالٍ » إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ
 أَن نَّبْرَأَهُآ « أَى إِلَّا فِي عِلْمٍ أَزَلَى مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْمَصِيْبَةِ أَوْ الْأَنْفَسِ . وَمَا عِلْمُ اللَّهِ كَوْنُهُ فَلَا يَدُ
 مِنْ حَصُولِهِ « إِنَّ ذَلِكَ » أَى حَفْظُهُ وَتَقْدِيرُهُ عَلَى الْأَنْفَسِ الْمَبْرُوءَةِ مَا قَدَرُ ، « عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ » أَى لِسَعَةِ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا » أَى تَحْزَنُوا « عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أَى
 مِنْ عَافِيَةٍ وَرِزْقٍ وَنَحْوِهَا « وَلَا تَفْرَحُوا » أَى تَبْطُرُوا « بِمَا آتَاكُمْ » أَى مِنْ نِّعَمِ الدُّنْيَا .
 وَالْمَعْنَى : أَعْلَمْنَاكُمْ بِأَنَّا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ التَّقْدِيرِ ، فَلَا يَتَصَوَّرُ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأْخِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ وَلَا
 تَغْيِيرٌ ، فَلَا الْحُزْنَ يَدْفَعُهُ ، وَلَا السُّرُورَ يُجْلِبُهُ وَيَجْمَعُهُ . قَالَ الْقَاسِمَانِي : أَى لَتَعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينِيًّا
 أَن لَيْسَ لَكُمْ سَبْكٌ وَحَفْظُكُمْ وَحَذَرُكُمْ وَحِرَاسَتُكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، مَدْخُلٌ وَتَأْثِيرٌ . وَلَا لِمَجْزَعِ
 وَإِهَالِكُمْ وَغَفْلَتِكُمْ وَقَلَّةِ حِيلَتِكُمْ ، وَعَدَمِ احْتِرَازِكُمْ وَاحْتِفَازِكُمْ فِيمَا فَاتَكُمْ مَدْخُلٌ . فَلَا
 تَحْزَنُوا عَلَى فَوَاتِ خَيْرٍ ، وَزَوَالِ شَرٍّ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِوُصُولِ خَيْرٍ . وَزَوَالِ شَرٍّ ، إِذْ كُلُّهَا مَقْدُورَةٌ
 « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أَى مُتَبَخَّرٍ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ بِمَا آتَاهُ « فَخُورٍ » أَى بِهِ عَلَى
 النَّاسِ ، لِعَدَمِ يَقِينِهِ ، وَبَعْدِهِ عَنِ الْحَقِّ ، بِحُبِّ الدُّنْيَا ، وَاحْتِجَابِهِ بِالظُّلُمَاتِ عَنِ النُّورِ « الَّذِينَ
 يَبْخُلُونَ » أَى بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَشِدَّةِ مَحَبَّةِ الْمَالِ « وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » أَى
 لَاسْتِيلَاءِ الرِّذِيلَةِ عَلَيْهِمْ . وَالْمَوْصُولُ إِذَا مَبْتَدَأَ وَخَبَرَهُ مَحْذُوفٌ ، أَى لَهُمْ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ ، أَوْ خَبَرٌ
 وَمَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ ، أَى هُمُ الَّذِينَ ، أَوْ بَدَلَ مِنْ (كُلِّ) . « وَمَنْ يَقُولَ » أَى يَمْرُضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ،
 وَمَا أَمَرَ بِهِ « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » أَى عَنْهُ ، لَاسْتِفْنَائِهِ بِذَاتِهِ « الْحَمِيدُ » أَى لَاسْتِقْلَالِهِ
 بِكَمَالِهِ . وَفِيهِ تَهْدِيدٌ وَإِشْعَارٌ بِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِنْفَاقِ لِمَصْلَحَةِ الْمُنْفِقِ ، لَا لِمَا يَمُودُ عَلَيْهِ تَمَالًى ، فَإِنَّهُ
 الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى التام فى الحكم والأحكام «وَالْمِيزَانَ» أى العدل - قاله مجاهد وقتادة وغيرهما - قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ، المخالفة للآراء السقيمة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه . فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال (١) «وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات (٢) «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ» «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه «وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ» أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فإما من صناعة إلا وللحديد يد فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لا بد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إزال الحديد مع ما قبله ؟ فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة ، لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا ، حتى ينالوا السعادة فى الآخرة . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالسكينة والشرائع المطهرة . ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم . ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الراد لكل مرید . وإلى الأولين أشار بقوله (٣)

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) جمعهم وأتباعهم في جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله ^(١) (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواص ، وما يهتدى به أتباعهم ، وما يهتدى به من لم يتبعهم ، فهي حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعي له ، وليس في الكلام ما يقتضيه ، بل فيه ما ينافية .

قال العتيبي في أول (تاريخه) : كان يختلج في صدرى أن في الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تناقضاً ، وسألت عنه فلم أحصل على ما يريح العلة وينفع الغلة ، حتى أعملت التفكير ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادي والتظالم ، ودفع التباعى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع - نقله الشهاب - .

وأول القاشاني (البينات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و (الميزان) بالعدل ، لأنه آله ، و (الحديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعي ، وينضبط النظام الكلى ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه في العمل ، والاستقامة في طريق الكمال ، هو العدل . ثم لا ينضبط النظام ، ولا يتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البينات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البيانات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هي النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة في السكتب الحكيمة . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء في المعاوضات ، والملك . وأياً ما كان فهي الأمور التضمنة للكمال الشخصى والنوعى في الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل ، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنى بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع . والنفوس إما خيرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها في السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللفظ وسياسة الشرع . والثانية لا بد لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في معنى نزول القرآن ولفظ النزول ، حيث ذكر في كتاب الله تعالى ، بين فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف ، لاشتباه المعنى في تلك المواضع . وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لفظها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، في معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق في المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميعة والمطرقة والإبرة - فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأُنزل الحديد والماء والنار والملح - حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .
وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة في هذا لسائر الناس ؟
ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله
الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد
منه ، الذي به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل : نزلت الآلة التي يطبع بها . قيل : فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة ،
والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم
صنعتهم ، فإن الحديد إنما يخلق في المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال . فالحديد ينزله الله
من معادنه التي في الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد في
مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دل عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه في الجهاد ،
وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر ، وهذا المقصود منه .
أو اللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم . . . الخ والجملة معطوفة على ما قبلها . فحذف المعطوف ،
وأقيم متعلقه مقامه . وقيل عطف على (لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب
بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر
لمن شاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ،
فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[٢٧] (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَ نِيَّةٍ ابْتَدَعُوهَا
مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ،
فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ » أى
من الذرية « مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه
وتحريفها ، وإيثار آراء الأخبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا
« عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقّة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه
السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان في عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة :
اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما في العقوبات . فقد كان لهم أفانين
في تعذيب النوع البشري بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتريتها لذلك ،
مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، واجهدت في مطاردتها ، وصبرت على منازلها ، حتى
ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره - كما بينه آخر سورة الصف - . « وَرَهَابَ نِيَّةٍ ابْتَدَعُوهَا
مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا
ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلب مرضاة الله عنهم .
« فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من الترهّد ، والتخلّي

للعادة وعلم الكتاب ، بل آخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم .
« فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعنى الذين آمنوا بالإيمان الخالص عن شوائب الشرك
والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ » أى خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات

الأول - (الرهبانية) هى المبالغة فى العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار
العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف . (فعلان) من رهب ،
كـ (خشيان) من خشى .

الثانى - قال ابن كثير فى قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذم لهم من وجهين :
أحدهما - فى الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله .

والثانى - فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقرهم إلى الله عز وجل .

الثالث - رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبة)
وما كان لتأثيرها فى النفوس والأخلاق من المفسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس)
منهم ، فى الباب السابع عشر ، فى الرهبة :

إن الرهبة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات
والتأملات الدينية ، هى ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة
لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادونه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ،
لكي يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلمون وينصحون . ونحن نقول
بكل جراءة : إنه لا يوجد فى جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره
يلزم بها . بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وغواه يضاد كل دعوى مبنية على العيشة المفردة
المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها في الكنيسة ، في أواخر الجيل الثاني وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين . فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأمورا أخرى مقرونة بمحرقات .

ثم قال : ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء ، امتدت وانتشرت في المسكونة . وكان ابتداؤها في مصر في الجيل الرابع ، على أثر اشتها أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذي أصابه ، وأثر لأجله الطواف في البراري ، فرارا من أيادي مضطهديه . ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها ، وذلك في الجيل الثالث . ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات . توها بأن رسم المسيحية الكاملة لا يوجد إلا في العيشة الضيقة القسفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال في الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضاد للكتب المقدسة . ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيرا .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت من حَصّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه في آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ريحانة النفوس) أيضا : إن هذه العادة لا يوجد لها برهان في الكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج ، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحا بالغا النهاية في الإطراء ، فحسبواهم من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها في الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها في بعض الأماكن كانت بيوتا للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاءه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لابل من الباباوات المدعين بالمصمة ، قد تكررسوا فى هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعى . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط فى الزنا ، ويفتح باباً واسعاً لدخول الشيطان . وكأن الراهب يندر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم فى الكتب المقدسة ، ولا فى أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا تنفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وخدمهم فى أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطلون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرّد عن العالم فى مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبانات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كفاي الآية التي في (القصص) وكما في حديث ^(١) الشعبي عن أبي بردة، عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران. وعبد مملوك أدى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران - أخرجه في الصحيحين - ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرها. وهو اختيار ابن جرير ^(٢).

وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة. والظاهر أن لفظها أعم، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبي ﷺ على الثبات في الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره. ومنه ما حرض عليه في الآيات قبلها من الإتيان في سبيله، وسخاوة النفس فيه. وأن لهم في مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال في أول السورة: (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) فأخر السورة، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به، وما سبق نزولها لأجله.

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣١ - باب تعليم الرجل أمته وأهله ،

حديث رقم ٨٢.

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعنا).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الزاكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط .
والثنية في مثله إما على حقيقتها ، أو هي كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر
من عمي الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه ^(١) (يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَاقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَاقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية
المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم
أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبت أن الفضل
بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم
على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة
ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله ، فضلاً عن أن يقتصروا
في أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون
غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و (لا) في (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

(١) [٨ / الأتقال / ٢٩] .

وقال ابن جرير^(١) : وذكر أن في قراءة عبد الله (لكي يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح كقوله في الجحد السابق الذي لم يصرح به^(٢) : (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) وقوله^(٣) : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله^(٤) : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ...) الآية . ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبي في (فقه اللغة) زيادتها في عدة شواهد . في فصل الزوائد والصلوات التي هي من سنن العرب . فانظره ، تردد علماً .

-
- (١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
 (٢) [٧ / الأعراف / ١٢] .
 (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .
 (٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨ - سورة المجادلة

سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ،
ولذلك سمع الله لصاحبها - قاله المهايي - .
وهي مدنية ، وآيها اثنتان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» روى الإمام أحمد^(١) عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ! فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...) إلى آخر الآية . ورواه البخارى معلقاً . وفى رواية لابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء . إني أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ، وثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ! اللهم إني أشكو إليك . قالت : فما برحت ، حتى نزل جبريل بهذه الآية (قَدْ سَمِعَ ...) الخ . قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة ، وقد تصغر فيقال (خويلة) . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب .

وفى (العناية) . المراد من قوله (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) الخ قَبِلَ قولها وأجابه . كما فى : سمع الله لمن حمده ، مجازاً بعلaque السببية أو كناية . انتهى .
وقوله : (وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ) أى تشتكى المجادلة مالدبها من الهم ، بظهار زوجها منها ، إلى الله ، وتسأله الفرج .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

ومعنى (تَحَاوَرَ كُـمَا) ترجيعكما الكلام في هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية ، فإذا تسكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً . وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علة النكاح ، والنبي ﷺ لم يبت لها فيه الأمر، حتى ينزل الوحي الذي يرد التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ)

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ » يعني قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها : أنت عليّ كظهر أمي ، يعني : في حرمة الركوب . « مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ » أي مانساؤهم اللاتي ظاهرُوا منهن بأمهاتهم . أي يصرن بهذا القول كأمهاتهم في التحريم الأبدي . قال المهايي : ما هن أمهاتهم بالحقيقة ، ولا في حكمهن بالمجاز ، إذ لا يقتضي المجاز أن يكون في حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لا تنقلب .

« إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ » أي فلا يشبه بهن في الحرمة الأزواج « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ » أي قولاً تنكره العقلاء ، وتنجافاه الكرماء . « وَزُورًا » أي باطلاً لاحقيقة له ، لأنه يتضمن إلحاقها بالأم المنافي لمقتضى الزوجية . « وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ » أي لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وآنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَلِكُمْ تُوَعُّظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
[٤] (فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَّمْ
يَسْتَطِعْ فَأِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أى يرجعون إلى لفظ
الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئن رغبة في تحليلهن ،
بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى القول فيه « فتحرير رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوَعُّظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » * فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَأِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى الإمام أحمد^(١) عن يوسف بن عبد الله بن سلام
عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فى والله! وفى أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت :
كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر . فدخل علىّ يوماً فراجعته بشيء ،
فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل
علىّ ، فإذا هو يريدنى على نفسى . قالت : قلت : والذى نفس خويلة بيده ! لا تخلص إلىّ
وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فيما يحكم . قالت : فوائبنى ، فامتنعت منه ، فغلبته
بمسا تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جارأتى ،

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤١٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا خويلة ! ابن عمك شيخ كبير ، فاتق الله فيه . قالت : فوالله ! ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لي : يا خويلة ! قد أنزل الله فيك وفي صاحبك . ثم قرأ علي : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..) إلى قوله تعالى : (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قالت : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرهه فليعتق رقبة . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ما عنده ما يعتق ! قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت : فقلت : والله ! إنه لشيخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر . قالت : فقلت : والله ! يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإننا سنعيّنه بفرق من تمر . قالت : فقلت : يا رسول الله ! وأنا سأعيّنه بفرق آخر . قال : قد أصبت وأحسن ، فاذهبي فتصدق به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده (خولة بنت ثعلبة) ، ولا منافاة كما تقدم ، فإن العرب كثيراً ما تصغر الأعلام .

وروى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قتل لامرأته في الجاهلية : أنت عليّ كظهر أمي ، حرمت في الإسلام . فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحتها ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت عليّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنت رسول الله ﷺ ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : يا خويلة ! ما أمرنا في أمرك بشيء . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا خويلة ! أبشري . قالت خيراً . قال فقرأ عليها (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...) إلى قوله : (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا) . قالت :

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وَأَيُّ رَقَبَةٍ لَنَا ؟ وَاللَّهِ ! مَا نَجِدُ رَقَبَةً غَيْرِي ! قَالَ : (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)
قَالَتْ : وَاللَّهِ ! لَوْلَا أَنَّهُ يَشْرَبُ فِي الْيَوْمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَذَهَبَ بِصَرِهِ . قَالَ : (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا) . قَالَتْ : مَنْ أَيْنَ ؟ مَا هِيَ إِلَّا أَكْلَةٌ إِلَى مِثْلِهَا ! قَالَ : فَرَعَاهُ بِشَطْرِ
وَسَقٍ ثَلَاثِينَ صَاعًا ، وَالْوَسَقُ سِتُونَ صَاعًا ، فَقَالَ : لِيُطْعَمَ سِتِّينَ مَسْكِينًا وَلِيُرَاجِعَكَ . قَالَ
ابْنُ كَثِيرٍ : إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَسِيَاقٌ غَرِيبٌ . وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ نَحْوَ هَذَا .

تنبيهات :

قال السيوطي في (الإكمال) : في هذه الآية حكم الظهار ، وأنه من الكبائر ، وأنه
خاص بالزوجات ، دون الأجنبية ، وأن فيه بالعود كفارة ، وأنه يحرم الوطء قبلها ، وأنها
مرتبة : العتق ، ثم صوم شهرين متتابعين ، ثم إطعام ستين مسكينًا . واستدل مالك بقوله
(مِنْكُمْ) على أن الكافر لا يدخل في هذا الحكم . وبقوله (مَنْ نَسَّاهُمْ) على صحته من
الزوجات والسراري ، لشمول النساء لهن .

واستدل ابن جرير وداود وفرقة بقوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) على أن العود الموجب
للكفارة ، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر .

واستدل بإطلاق الرقبة من جوِّز في كفارة الظهار عتق الكافرة .
واستدل بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا في التشبيه بظهر الأم خاصة ، دون سائر الأعضاء ،
ودون الاقتصار على قوله (كَأُمِّي) ، وبالألم خاصة دون الجدات وسائر المحارم من النسب
أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك . ومن قال لاحكم لظهار الزوجة من زوجها ،
لأنه تعالى خص الظهار بالرجل . ومن قال بصحة ظهار العبد لعموم (الَّذِينَ) له . ومن قال
بإباحة الاستمتاع ببناء على عدم دخولها في لفظ الماسة . ومن قال يجوز الوطء ونحوه قبل
الإطعام إذا كان يكفر به ، لأنه لم يذكر فيه (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا) .

وفي الآية ردٌّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، ولم يعتبر العود . ووجه ما قاله أنه جمل العود فعله في الإسلام بعد تحريره .

وفيها رد على من اكتفى بإطعام مسكين واحد ، ستين يوماً . انتهى .
وقوله تعالى (ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ) أى الحكم بالكفارة العظمى المذكورة ، تزجرون به .

وقوله تعالى (ذَلِكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى ذلك البيان أو التعليم للأحكام ، لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ، والانتفاء عن قول الزور الجاهلى .
والمراد بقوله تعالى (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الجاحدون لفرائضه وحدوده التى بيّنها .
فالكفر على حقيقته ، أو المتعدون لها ، وعنوان (الكفر) تعليلًا لجرمهم .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من المحادة ، بمعنى المعادة ، لأن كلاً من المتعادين فى حدٍّ غير حدِّ الآخر . « كُتِبُوا » أى أُخْزُوا « كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعنى كفار الأمم الماضية . « وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ » قال ابن جرير (١) : أى دلالات مفصلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله . « وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » يعنى منكرى تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فَسَر بَعْضُهُمْ (يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) بِمَعْنَى يَضَعُونَ أَوْ يَخْتَارُونَ حَدُودًا غَيْرَ حَدُودِهَا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال محشيّه : وفيه وعيد عظيم للملوك ، وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع ، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف المارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين ، قدس الله روحه ، رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما ، وقد قال الله تعالى ^(١) (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لا تقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل ^(٢) . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل ، فيه نظر . لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء ، الذين زيف أقوالهم في التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال . لا يقول به ، ولا يعول عليه ، إلا المارقون الجاحدون . وأما غير المنصوص عليه ، أعني ما لم يكن قطعاً في بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع من الفروع النظرية ، والمسائل الاجتهادية المدونة ، فخالفتها إلى قانون عادل لا يبعد ضللاً ولا كفراً ، لأنه ليس من مخالفة الشرع في شيء ، إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بياناً رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأي ، فإن ذلك ، لا عصمة فيه من الخطأ ، مهما بلغ رائيه من المسكنة ، إذ لا عصمة إلا في نص الله ورسوله ﷺ . وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتاباً في مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية . وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأي والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في هذا المعنى مناه (السياسة الشرعية) ، وكذا لتلميذه

(١) [٥ / المائدة / ٣] .

(٢) هو نهر معروف بالبصرة ، فقه عقد فم نهر الإجماعة .

الإمام ابن القيم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفي أيضا رسالة في المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع العز بن عبد السلام فروع الفقه في قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ، ودرء المفسد .

قال القاضي زكريا : وبمحت بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .

وقال الشاطبي في (الموافقات) : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدينية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعمماً في جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال .

وقال نجم الدين الطوفي : إن قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)^(١) يقتضي رعاية المصالح إثباتاً ونقياً ، والمفاسد نقياً ، إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذي هو المصلحة ، لأنهما نقيضان ، لا واسطة بينهما . ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفها ، فإن وافقها ، فيها ونعمت ، ولا تنازع . إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهي النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام (لا ضرر ولا ضرار) ، وإن خالفها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما ، والتمطيل لهما ، كما تقدم السنة على القرآن ، بطريق البيان . انتهى . وتمة كلامه جديرة بالمرابعة ، هي وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٧ - باب من بنى في حقه ما يضر جاره ، حديث رقم ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ » أى أحاط به علماً ، ولم يذهب عنه شيء . « وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه . و (يَوْمَ) منصوب بـ (أذكر) مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ، تمهيد لما بعده من النهي عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكد ذلك بتفصيل علمه عناية بالنهي عنه ، والمحذر منه ، في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . (النجوى) مصدر ، معناها التحدث سرّاً ، مأخوذة من (النجوة) ، وهى ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يسان عن الغير ، كأنه رفع من حضيض الظهور ، إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب وأقرب منه قول الراغب، لأن المتسارين يخلوان بنجوة من الأرض . أو هو من (النجاة) وتخصيص العددين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التناجى للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب ما فوقها في الوترية ، فذكرنا ليشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله : (وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ) أى : كالثنتين (وَلَا أَكْثَرَ) أى : كالستة وما فوقها (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) أى : يعلم ما يكون بينهم فى أى مكان حلوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكافئ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة .

روى ابن جرير^(١) عن الضحاك فى الآية قال : هو فوق العرش ، وعلمه معهم أينما كانوا . وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك فى إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى فى كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم فى (الفصل) بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع ، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان فى مكان ، فإنه شاغل لذلك المكان ومالى له ، ومتشكل بشكل المكان ، أو المكان متشكل بشكله . ولا بد من أحد الأمرين ضرورة . وعلمنا أن ما كان فى مكان ، فإنه متناهى بتمناهى مكانه ، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية فى مكانه . وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكرنا ، علمنا أن قوله تعالى^(٢) :

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، ^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) ، وقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ) إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لا انتفاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم (في كل مكان) خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القول ، أنه يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما في الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن في المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم في قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) كلام في العمية لابن تيمية ، فارجع إليه في سورة الحديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبَشِّرْ الْمُصِيرِ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى » قال مجاهد : هم اليهود . « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ » أي : بما هو إثم وتعدا على المؤمنين ، وتواصي بمخالفة النبي ﷺ .

قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

« وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أي من قولهم : (السام عليك) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول ^(٢) : (وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٨١] .

« وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ » أى : من التناجى المذموم ، أو من التحريف فى التهمة ، استهزاء وسخرية . أى : هلا يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى : « حَسْبُهُمْ » أى : يكفى قاتلى ذلك فى تعذيبهم « جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ » .

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذرهم أن يجترعوا فى النجوى ما اجترمه أولئك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[١٠] (إِنَّمَا النِّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ » أى : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، « وَالتَّقْوَى » أى :

اجتناب ما يؤثم ، « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : فيجزىكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين فى قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين

على وصاياه ، متكئين عليه ، بقوله « إِنَّمَا النِّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ » أى : النجوى

التي ذمها . فاللام للعهد . أى المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان .

« لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ » أى الشيطان ، أو التناجى المذكور « شَيْئًا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بمشيئته « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالمضى فى سبيله ،

والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشاني : إنما نهوا عن الفجوى لأن التناجى اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما ، لا يشار كهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها ببعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهياة الاجتماعية التي لا توجد في الأفراد . فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر ، ويزاد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع ، ولهذا ورد بعد النهى قوله : (وَ يَتَنَجَّجُونَ بِالْآثِمِ) الذي هو رذيلة القوى البهيمية «وَالْعُدْوَانِ» الذي هو رذيلة القوى الغضبية ، «وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ» التي هي رذيلة القوة النطقية ، بالجهل وغلبة الشيطنة . ألا ترى كيف نهى المؤمنين بهذه الآية عن التناجى بهذه الرذائل المذكورة ، وأمرهم بالتناجى بالخيرات ، ليتقوا بالهياة الاجتماعية ، ويزدادوا فيها فقال : (وَتَنَجَّجُوا بِالْبَإْسِ) أى : الفضائل التي هي أصداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث ، (وَالْتَقَوَى) أى : الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة . انتهى .

قال ابن كثير : وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى ، حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن . روى الإمام أحمد^(١) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه - أخرجه^(٢) - .

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٣٧٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٥٦٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٤٦ - باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمساراة والمناجاة ، حديث رقم ٢٣٨١ .
وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٣٧ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه - انفراد بإخراجه مسلم ^(١) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ» تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان في أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر . لأنه لما نهى عن التناجى والسرار ، علم منه الجلوس مع الملاء ، فذكر آدابه . ورتب على امتثالهم فسحهم فيما يريدون التفسح ، من المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح ^(٢) : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ولهذا أشباه كثيرة .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضفوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٥ - باب من بنى مسجداً ، حديث

رقم ٢٩٧ ، عن عثمان بن عفان .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٥ و ٢٤ (طبعنا) .

« وَإِذَا قِيلَ أُنْشِزُوا » أى انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا فى المجلس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول ، إذا أمرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه . « فَأَنْشِزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » أى يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية . قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم ، وعند الناس ، ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة فى المجلس ، تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا - كما قال الشهاب - من مغيبات القرآن ، لما ظهر من هؤلاء فى سائر الأعصار من التنافس فى رفعة المجلس ، ومحبة التصدير .

وفى كلام الزمخشري ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعده كأنه جنس آخر ، كما فى (١) (وَمَلَأْمِكْتَهُ وَرُسُلُهُ وَجَبْرِيلَ) ، ولذا أعاد الموصول فى النظم . والمراد بالعلم علم ما لا بد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

تنبيهات :

الأول - فى (الإكليل) : فى الآية استحباب التفسح فى مجالس العلم والذكر ، وكل مجالس طاعة .

الثانى - يفهم من الأمر بالتفسح النهى عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه .
فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا - رواه الإمام أحمد والشيخان (٢) - .

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤٦٥٩ (طبعة المعارف) .

وأخرجه البخارى فى : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٣١ - باب لا يقيم الرجل الرجل

من مجلسه ، حديث رقم ٥٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٢٧ (طبعتنا) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم - رواه الإمام أحمد - وفي رواية بلفظ : لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لكن افسحوا يفسح الله لكم - تفرد به الإمام أحمد -

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء ، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجاً ^(١) بحديث : قوموا إلى سيدكم .

ومنهم من منع ذلك محتجاً ^(٢) بحديث : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار .

ومنهم من فصل فقال يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاج في محل ولايته ، كادل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي صلى الله عليه وسلم حاكماً في بني قريظة ، فلما رآه مقبلاً قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم - فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ . وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، في فتوى له في ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله ، كثير من الناس . بل قد قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه ، تلقياً له ، كما روى عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة ، وقال للأَنْصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، وكان سعد متمرصاً بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بني قريظة شرقي المدينة .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٢٦ - باب قول النبي ﷺ (قوموا إلى سيدكم) ، حديث رقم ١٤٤٤ ، عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٥٢ - باب في قيام الرجل للرجل ، حديث رقم ٥٢٢٩ ، عن معاوية .

والذى ينبغى للناس ، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبى ﷺ . فإنهم خير القرون . وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فلا يعدل أحد عن هدى خير الخلق ، وهدى خير القرون ، إلى ما هو دونه . وينبغى للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه ، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له ، ولا يقوم لهم ، إلا فى اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام ، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس فى حقه ، أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة - فلا يصلح أن يقام له ، لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء . وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس فى ترك ذلك إيذاء له . وليس هذا القيام المذكور فى قوله ﷺ : من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد . ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء . ولهذا فرقوا بين أن يقال (قمت إليه) و (قمت له) . والقائم للقادم ساواه فى القيام ، بخلاف القيام للقاعد . وقد ثبت فى صحيح مسلم ^(١) أن النبى ﷺ لما صلى بهم قاعداً فى مرضه ، وصلاوا قياماً ، أمرهم بالقعود ، وقال : لا تعظمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً . فقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يشبهوا الأعاجم الذين يقومون لمعظمتهم وهم قعود . وجماع ذلك أن الذى يصلح ، اتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتد ذلك ، أو لم يعرف أنه العادة ، وكان فى ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناها ، كما يجب فعل أعظم الصالحين بتفويت أدناها . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث - قال ابن كثير : روى عن ابن عباس والحسن البصرى وغيرهما ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى (إِذَا قِيلَ لَكُم تَفْسَحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا) يعنى فى مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله (وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا) أى انهضوا للقتال .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٥٢ - باب قيام الرجل للرجل ،

حديث ٥٢٣٠ .

وقال قتادة : (وَإِذَا قِيلَ اُنْشُرُوا فَاَنْشُرُوا) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة قارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده . فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة . فأمرُوا أنهم إذا أمرُوا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى^(١) (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَاَرْجِعُوا) انتهى .

ولا تنافى بين هذه الأقوال ، لأن كَلَامُهَا تفسير للفظ العام ببعض أفرادها . وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك ، لأن أحدها هو المراد دون غيره ، فذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك في تفاسير السلف لكثير من الآى ، وكله مما لا اختلاف فيه - كما يتناهى مراداً - .
الرابع - فى (الإِكليل) قال قوم : معنى (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يرفع الله المؤمنين منكم العلماء درجات على غيرهم ، فذلك أمر بالتفسيح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء فى المجلس ، والتفسيح لهم عن المجلس الرفيعة . انتهى .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىكُمْ

صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىكُمْ صَدَقَةٌ »

أى تصدقوا قبل مناجاته ، أى مسارته فى بعض شأنكم . « ذَلِكَ » أى التقديم . « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب ، والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوى بالمسكنة بالمواساة والإغناء . « وَأَطْهَرُ » أى لأنفسكم من رذيلة البخل

(١) [٢٤ / النور / ٢٨] .

والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذى قد يكون من شعار المنافقين . وكأن الأمر بالتصدق المذكور، نزل ليميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإتفاق كيفما كان ، والثانى يفتى به ، ولو فى أضـرّ الأوقات . ومعظم أوامر السورة هو التصدق، حثاً للباخلين، وسوقاً للمؤمنين . « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا » أى ما تصدقون به أمام مناجاتكم الرسول صلوات الله عليه . « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن لم يجده، إذ لم يخرجه ولم يضيق عليه، رحمة منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتِ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتِ» أى أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقة والفقـر ؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغى أن يشفق منه ، للزوم الخلف للإتفاق ، لزوم الظل للشاخص ، بوعد الله الصدق . « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة، وشق عليكم ، « وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » بأن رخص لكم أن لا تفعلوا ، رفعا للخرج حسبما أشفقتهم ، « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فلا تفرطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة . « وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجزىكم بحسبه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قوله تعالى (إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ) الآية منسوخة بالتى بعدها، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل، ووقوعه ، خلافا لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير^(١) عن مجاهد قال: قال علي رضي الله عنه: إن في كتاب الله عز وجل آية ماعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي «يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ ...» الخ قال: فرضت، ثم نسخت. وعنه أيضا قال^(٢): نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قدم دينارا فتصدق به، ثم أزلت الرخصة في ذلك.

وعن قتادة^(٣) أنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار.

وعنه أيضا^(٤) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأُزيل الله الرخصة بعد ذلك (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وعن الحسن^(٥) وعكرمة قالا: (إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ ..) الآية، نسختها التي بعدها (ءَأَسْفَقْتُمُ ..) الآية.

هذه الآثار وأمثالها هي مستند مدعي النسخ، وقوفاً مع ظاهرها. وقد أسلفنا في مقدمة التفسير، ومواضع أخرى؛ أن النسخ في كلام الساف أعم منه باصطلاح الخلف، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم. ومنه قول قتادة هنا: فأُزيل الله الرخصة بعد ذلك. فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بمزعة في الآية الثانية، لأن زولها كان متراهياً عن الأولى، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم. والأصل في الآي المقررة لحكم ما، هو اتصال جملها، وانتظام عقدها، إذ به يكمل سحر بلاغتها وبديع بيانها، وتمام فقهها. والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ في التنزيل، لهم في الآية وجوه:

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

أحدها - قول أبي مسلم : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عن بقى على نفاقه الأصلي . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازى : وحاصل قول أبي مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بقاية مخصوصة ، فوجب انتهائه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ، ما به بأس . انتهى .

ثانيها - قول بعضهم : إن شبهة مدعي النسخ ذهبا بهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب . وتأكد ذلك بقوله بمده : (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقوله : (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) فإن ذلك لا يقال إلا فيما يفقده يزول وجوبه . والجواب : أن لاقاطع في كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :

الأول - أنه تعالى قال : (ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ) وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض .

والثاني - أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا ...) إلى آخر الآية .

والثالث - أن قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ...) الخ معناه إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يمتكنكم بشيء مما أوجبه عليكم ، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هي سنته في معاملتكم بالرفقة والرحمة ، فأقيموا الصلاة ... الخ . فقوله (وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقتها ، لابعثني التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب. وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة الزمل ، وهي قوله تعالى^(١) (عَلِمَ أَنَّنَا نَحْصُوهُ فِتَابَ عَلَيْكُمْ) أى رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم ما يشق عليكم. وليس مناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب، إذ لا ذنب هنا صدر منهم .

هذا ملخص ماحقه من ذهب إلى امتناع النسخ . والحق لا تخفى قرته، وسكون النفس إليه - وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » يعنى المنافقين الذين كانوا يتولون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية^(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...) الآية « مَّا هُمْ مِنْكُمْ » أى من أهل دينكم وملتكم ، معشر المسلمين « وَلَا مِنْهُمْ » أى من اليهود كقوله تعالى^(٣) (مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) « وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ » قال ابن جرير^(٤) : وذلك قولهم لرسول الله ﷺ (نشهد أنك رسول الله) وهم كاذبون غير مصدقين به . « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى الخلوفاً عليه كذب بحت .

(١) [٧٣ / الزمل / ٢٠] . (٢) [٥٩ / الحشر / ١١] . (٣) [٤ / النساء / ١٤٣] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٦] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » أى وقاية وعصمة لأنفسهم « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى خالوا بأيمانهم عن حكم الله فى أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدوا الناس فى خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وثبطوهم عنه . « فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » أى مذل لهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[١٨] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

[١٩] (أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ،

أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أى من عذابه شيئًا ما ، كما كانوا يفتقدون بذلك فى الدنيا « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » أى فى الدنيا كاذبين مبطلين ، إشارة إلى مراءونهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تحفى عليه خافية . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى من النفع أو من الحق « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ » أى فيما يحلفون عليه

في الدارين « أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » أى استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم « فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ » أى بتسويل اللذات الحسية ، والشهوات البدنية لهم ، وتزيين الدنيا وزبرجها في أعينهم . « أَوْلَايَكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ » أى أتباعه في الفساد والإفساد . « أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أى للسعادة في الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَايَكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَايَكَ فِي الْأَذَلِّينَ » أى فى أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » أى حزب الشيطان المحادين « إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » أى قوى على إهلاك من حادّه ورسله ، عزيز فلا يغلب فى قضائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ،

أَوْلَايَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أَوْلَايَكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

«لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى شاقهما وخالف أمرهما . أى لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفى الوجدان نفي الموادة ، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنه ، والزجر عن ملاسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتباس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : «وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ» أى آباء المودين . والضمير فى (كَانُوا) لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى (مَنْ) كما أن الأفراد فيما قبله ، باعتبار لفظها . «أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» أى فإن قضية الإيمان هجر المحادين «أَوْ لَكَ» إشارة إلى الذين لا يوادونهم «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» أى أثبتة فيها «وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ» أى بنور وعلم ولطف حيّ به قلوبهم فى الدنيا . وأشار إلى ما لهم فى الآخرة بقوله «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أَوْ لَكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَّا إِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى الناجحون الفائزون بسعادة الدارين .

تنبيهات :

الأول - من أشباه هذه الآية قوله تعالى (١) «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْمَتُهُ ، وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ» الآية . وقال تعالى (٢) «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .

الثاني - قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية (لَا تَجِدُ قَوْمًا ...) إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفي أبي بكر الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن . وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير . وفي عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضاً . وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . انتهى .

وقد بينا مراراً ؛ أن المراد بسبب النزول في مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب في دين الله ، في مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفَادُوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ! هل تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكن علياً من عقيـل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين ؟ .

الثالث - قال ابن كثير : في قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) سر بديع . وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع - يفهم من قوله تعالى (حَادَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) وقوله في آية ^(١) أخرى (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادقون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين للمحادين لنا ، أى الذين

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] .

على حدّ منّا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصدّاً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضى بأداء الجزية لنا وسالنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمجاذين لنا بالمعنى الذى ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد عاد النبي ﷺ يهودياً ، وعرض عليه الإسلام فأسلم - كما رواه ^(١) البخارى - .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين - كما فى (الإقناع) و (شرحه) - . وقال ابن القيم فى (إغاثة اللّاهيان) فى الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب من دعاه ، فى كل طعامه . وأضافه يهودىّ بخبز شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضى الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذاك فى كتابه . ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو؟ قالوا فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلى رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب علىّ بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل علىّ رضى الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل فى هذا قوله تعالى ^(٢) (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

(١) أخرجه فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١١ - باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ،

عن أنس . (٢) [٦٠ / المتحنة / ٨ و ٩] .

قال السيد ابن المرتضى البيانى فى (إنباء الحق) : عن الإمام المهديّ محمد بن المطهر عليه السلام ؛ أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته ، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة المتحنفة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩ - سُورَةُ الْحَشْرِ

قال المہاجرؑ : سمیت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله
والمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير .
روى البخارى^(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال :
سورة بنى النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير . وهم قوم من
اليهود . وهى مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ١ - باب الجلاء من
أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢] (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ

فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ

مِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » تقدم القول فى

تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالذرة القاهرة ،

والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها

المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم

تعالى بغيره لأول ما حشر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانى لهم ، وقوة

البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء

والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من

آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ »

أى من بأسه « فَأَنَّهُمْ اللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا « أَى لَمْ يَظُنُّوا » وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ « أَى أَنزَلَهُ إِنزَالًا شَدِيدًا فِيهَا ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقدوف الحجارة .

قال القاشاني : أَى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك في قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينه من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب في قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِجُونَ بِيُوهَنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » أَى كيف حل بالفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله في وعده ووعيده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

[٤] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)
« وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أَى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أَى بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ » أَى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا » أَى خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أَى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أَى له في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ » أَى نخلة من نخيلهم إغاظة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً »

عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ « أَى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم ، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » أَى لما فيه من إهانة العدو ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيم : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصلحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه في الظاهر ، وهو مع عدوه في الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون . فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه - تبارك وتعالى - فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصروهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ، فتأمروا على قتله ﷺ ، وأن يعلم رجل فيلقى صخرة عليه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، وصعد ليلق عليه صخرة ، ونزل الوحي على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع عن معه من أصحابه إلى المدينة . وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصروهم ست ليال ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب ،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجلبهم ، ويكفّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف^(٢) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خير ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما همّ به من شأني ؟ فيجعل يامين بن عمير لرجل جمعاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل في بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نعمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى عليه وسلم ، وما عمل به . فيهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ » أي أعاد عليه من أموال بنى النضير « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أي فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة التسير . و (الركاب) : ما يركب من الإبل ، غاب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَكِنَّ »

(١) المتبة التي بأعلى الباب .

اللَّهُ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ « أَى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط .
« وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

قال الزمخشري : المعنى أن ماخول الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لا يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ ، وَمَا تَكْتُمُ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهوييان
للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ » أى النىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان
من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَا تَكْتُمُ الرُّسُولُ » أى
من قسمة غنيمة أو نىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَأَنْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بالآية على أن (النفي) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم في ^(١) قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكان الذي زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال - فيما رواه عنه ابن جرير ^(٢) - : كان النفي في هؤلاء ثم نسخ ذلك في سورة الأنفال فقال : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له النفي في سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثاني على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقراية رسول الله ﷺ في حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوبة في مطولات الفروع .

الثاني - قال الزمخشري : الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَا أَمْسَكُكُمْ الرَّسُولُ فخذوه) الآية - عامّاً في كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر النفي داخل في عمومه .

وفي (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ما ثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه في القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا الأخير من غلو الأتريين ، والإغراق في الاستنباط .
ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعبادة والرعاية ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » أى من مواطنهم ومألوقاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَانًا » أى منه ، وهو أعظم ما يرغب فيه ، « وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى يبذل النفوس لقوة اليقين « أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » قال القاشانى : أى فى الإيمان اليقيني لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدتهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالمطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى الله عنهم ، على الإيثار دون الاستبثار ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من قبل مجئ المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوؤ في لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان . وجوز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذي يتمكّن فيه ، على أنه استعارة بالكناية ، ويثبت له التبوؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء ، والموافقة فى الدين والإخاء . قال الشهاب : المراد بمحببتهم المهاجرين هنا ، مواساتهم ، وعدم الاستئقال والتبرؤ منهم ، إذا احتاجوا إليهم ، فالحجة كناية عما ذكر ، كما قيل :

يا أخى ! واللبيب ، إن خان دهره ، يستبين العدو ممن يحب
« وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِمَّا أُوتُوا » أى مما أوتى المهاجرون من الفى وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانى : لتجردهم وتوجههم إلى جناب القدس ، وترفعهم عن موادّ الرّجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتياً ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوة ، وكال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبية :

فى (الإكلیل) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى . وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى ^(١) (وَيُطْعَمُونَ) الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) ، وقوله ^(٢) (وَءَاتَىٰ أُمَالًا عَلَىٰ حُبِّهِ) فإن هؤلاء تصدّقوا ، وهم يحبون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما اتفقوه . ومن هذا المقام تصدّق الصّدّيق

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فواصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ» أى فيخالفها فيما يغلّب عليها من حب المال، وبفض الإتيان . « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشاني من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخُلُق دنىء . والشح من غرائزها المعجونة فى طينتها ، للازمته الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا يتنقى منها إلا عند انتفائها . ولكن المعصوم من تلك الآفات والشور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير^(١) : الشح فى كلام العرب البخل، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ! إنى أخشى أن تكون أصابتنى هذه الآية (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ) فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدي شيء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً . ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تهديد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن ابن زيد في الآية قال : من وُقِيَ شَحْ نَفْسِهِ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْحَرَامِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَقْرِبْهُ ، وَلَمْ يَدْعِهِ الشَّحُّ أَنْ يَحْبِسَ مِنَ الْحَلَالِ شَيْئًا ، فَهُوَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

وروى ابن جرير^(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : بَرَى مِنَ الشَّحِّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ ، وَقَرَى الضَّيْفَ ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الْفَحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ : أَمَرَهُمُ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا .

وعن أبي هريرة^(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا ، وَلَا يَجْتَمِعُ الشَّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) . والحديث

رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائي في : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٨ - باب فضل من عمل في سبيل الله

على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» يعنى بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجِينَ من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والحجىء حسيّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة . فالحجىء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة^(١) : (وَالسَّائِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جمل الزمخشريّ قوله (وَالَّذِينَ) عطفاً على (الْمُهَاجِرِينَ) كالوصول قبله في قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ ، فيكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين . وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الوصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره . وعندى أن هذا هو الوجه ، وما قبله تكلف ، وأن الوصولين مستأنقان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال السكاملة . وما حمل الزمخشريّ ومن تابعه على الاختصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق النعم من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ...) الخ ، (وَالْفُقَرَاءِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ وللفقراء الذين جاءوا من بعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون في جهد ، والأنصار في سعة ورغد يقضى بأن المقصود منها للفقراء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار في غنى عنه وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم في إثباتهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثنى على من سبقه ، ويدعوه لاتباعه بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أَتُوا ، واعتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة في الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّت عن قوة الإيمان ، والإخلاص في تدعيم روابط الإيمان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من النية قياساً على الصنف الأول ، لا اشتراكهم في الفقر . إلا أنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار في تلك الواقعة فقراً ، إلا سهلاً وأباً دجاةً - كما تقدم - فأعطاهما صلى الله عليه وسلم . وأما في غيرها من الوقائع التي كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين في آيات آخر ، فإن التنزيل الكريم يبين مقاسم الأموال لذويها في عدة آيات .

روى ابن جرير^(١) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ^(٢) (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ^(٣) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ^(٤) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) حتى بلغ^(٥) (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال لئن عشت لياتين الراعي ، وهو يسيرُ حُرَّهُ ، نصيبه ، لم يعمق فيها جبينه !

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَوْا يَقُولُونَ لِلْخَوَانِئِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ »
يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم . وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد ، أو أخوة صداقة وموالاته
لأنهم كانوا معهم سرّاً على المؤمنين « لَيْنٌ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
وَلَا نُطِيعُ فَيْكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ،
والمؤمنين « وَإِنْ قُوَّتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير (١) : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووُدَيْعة ومالك
ابنا نوفل ، وسُوَيْد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب
أن ائبثوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .
فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كاتقدم .
« وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَيْنٌ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنٌ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنٌ
نَّصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ)

« لَيْنٌ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنٌ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنٌ نَّصَرُوهُمْ
لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ » أى بنوعٍ ما من أنواع النصر .
والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَا تَتِمُّ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)
« لَا تَتِمُّ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجاجهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخفوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ يَذُنُّهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم « جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ » أى بالحصون ، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ » أى من خلف حيطان ، لفرط رهبتهم منكم . « بِأَسْهُمٍ يَذُنُّهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشري : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزير يذل ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرقها عن الحق بالباطل . « ذَلِكَ » قال المهايى : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلى . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم ، والحمل عليهم ، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النصير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيرهم من قبلهم ، وهم كفار قريش في وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثاني أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بحلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فعملوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعمده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام - والتفصيل في السير - .

وقال ابن جرير^(١) : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مديقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكتهم بسخطه . وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النصير . وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فنقربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيها عنوا به من المثل . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » أى مثل المنافقين في إغراء بنى النضير على القتال، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم، ومثل الخداع بنى النضير بوعده أولئك الكاذب، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعدته على اتباعه وكفره بالله، النصره عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه في عذابه، مسلماً له وخاذلاً « إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ » أى فلا أعينك « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أى في نصرتك فلم ينفعه التبرؤ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة « فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » أى في حق الله تعالى، وحق العباد. أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين، الذين وعدوهم النصره. وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به. إنهم في النار مخلدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه .

قال المهاجى : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليفويكم بالكفر، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَاتَّقُوا اللَّهَ » إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى لاتكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانى : (نَسُوا اللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمية ، والاشتغال بالذات النفسانية (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيم في (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً . وهوان من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه ، في معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تسكل به ، وتركوا به ، وتسعد به في معاشها ومعاها . قال تعالى^(٢) (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) فنفل عن ذكر ربه ، فانقرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكآله ، وما تركوا به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه ، مفرط الأمر ، حيران لا يهتدى سبيلاً . فالعلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكآله ، ومصالح دنياه وآخرته . والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكآله ، وما تركوا به وتقلع به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبدوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم . « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى : بالنعيم القيم .

تنبيهان

الأول - قال الزمخشري : استدل أصحاب الشافعى رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

ورد الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمى . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوه ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواء ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواء . فهذا كلام من ضعف نظره فى مورد الانزعاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى - قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبنى عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابلهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى ^(١) (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله ^(١) تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صاته ملكة لصلة الفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايى أى بتفهمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والحركة « لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا » أى متذللاً لمظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققاً « مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانى : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهى بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلا بد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشري : الآية تمثيل كما مر فى ^(٢) قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على فسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجه .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى العبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له .
 « عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شهود « هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » أى المنعم بالنعمة العامة والخاصة . ومن كان مطلقاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ، لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له ، ويخشى أن تسلب نعمه « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ » أى الغنى المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شيء ، الدبر للكل فى ترتيب نظامٍ لا أكمل منه « الْقُدُّوسُ » أى المنزه عما لا يليق بجلاله ، تنزهاً بليغاً « السَّلَامُ » أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « الْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين بإزال السكينة ، ومن فزع الآخرة « الْمُهِمِّنُ » أى الرقيب على كل شيء باطلاعه واستيلائه وحفظه « الْعَزِيزُ » أى القوى الذى يغلب ولا يُغلب « الْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته - قاله الغزالي فى (المقصد الأسنى) - .

وقال الإمام ابن القيم فى (السكاية الشافية) :

وكذلك (الجبار) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه داني
والثاني جبر القهر بالعز الذي لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمّى ثالث وهو العا وفليس يدنو منه من إنسان
من قولهم (جِبَارَةٌ) للنخلة ال مليا التي فأتت بكل بَنَانِ
«الْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء
إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . «سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى من
الأوثان والشفعاء . «هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ» أى المقدر للأشياء على مقتضى حكمته .
«الْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «الْمُصَوِّرُ» أى السكائنات كما شاء . «لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى» أى الدالة على محاسن المعاني ، وأحسن المادح . «يَسْجُدُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أى فى تدييره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم
وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول - قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ،
وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لا بد منه . لأن كمال الذات
بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب
الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً
فدّموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النقي ، والجحد المحض ، وضادوا
كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله ^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ
بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) . وقال سبحانه وتعالى ^(٢) (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ
أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) . فما كان منها منصوباً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحدته ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمٍّ لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجل من أن يسمى باسمٍ لم يُتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاري ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم ووعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماءها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله في ذلك وأطاب . فليرجع إليه النهم بالتحقيقات .

الثاني - قال الغزالي في (المقصد الأسنى) - وهو من أنفس ما ألف في معاني الأسماء الحسنى - : هل الصفات والأسماء المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلاني أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري ، رحمه الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والخمتار عندنا أن نقصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب . ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث - قال السيد ابن المرتضى في (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، الكمال الذي لا يحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولا بد من الإشارة هنا إلى أمر جليّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعاني . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَى) ، ولا يفسر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم يبين مثال ذلك فانظره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٠ - سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ

بفتح الحاء ، وقد تسكر . فعلى الأول هي صفة المرأة التي نزلت فيها . وعلى الثاني صفة
السورة ، كما قيل لبراءة (الفاضحة) - كما في (الأعلام) - .
قال المهايى : سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لا يكتفى في باب الصحة بظواهر
الأدلة كالهجرة ، بل لابد من اختبار البواطن . فدلائل الاعتقادات أولى بذلك . وهذا من
أعظم مقاصد القرآن . انتهى .
وفي (جمال القراء) أنها تسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة . وهي مدنية . وآيها
ثلاث عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ » أى أنصاراً . نهى لأصحاب النبي صلوات الله عليه ، عن موالاة مشركى مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتى . « تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ » أى صميم المحبة ، والباء زائدة فى المفعول « وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » أى من الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، الذى هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنه لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله « يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ » أى من أرضكم ودياركم « أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ » أى يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المتقتضية انقياد الناقص له ، لاسياً باعتبار اتصافه بوصف كونه رباً لكم بالكمالات ، فهى بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير : هذامع ما قبله من التهييج على عداوتهم ، وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده . ولهذا قال تعالى : (أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم

بالله رب العالمين كقوله تعالى^(١) (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكقوله تعالى^(٢) (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) وقوله تعالى «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ» أى هاجرتم «جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي» أى للجهاد فى طريق الذى شرعته لكم ، ودينى الذى امرتكم به ، والتماس رضائى عنكم الذى لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ (لَا تَتَّخِذُوا) أى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَفْتُمْ» أى من المودة معهم وغيرها «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ» أى اتخاذهم أولياء «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» أى جازع السبيل السوى الذى جعله الله هدى ونجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْأَسْوَاءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

«إِنْ يَتَّقُواكُمْ» أى يظفروا بكم «يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً» أى حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم «وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْأَسْوَاءِ» أى بما يسوؤكم كالقتل والشم ، «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» أى بما جاءكم من الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ» أى قراباتكم «وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» أى بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

(١) [٨٥ / البروج / ٨] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٠] .

وقال القاشاني : أى لا نفع لمن اخترتم موالاته العدو الحقيقي لأجله ، لأن القيامة مفرقة . وهذا معنى قوله (يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) أى يفصل الله بينكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال (١) (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ * وَبَنِيهِ) انتهى ، وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز في (يَوْمَ الْقِيَمَةِ) وجهان :

أحدهما - أن يتعلق بما قبله ، أى لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ « يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » .

والثاني - أن يتعلق بما بعده أى يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على (أولادكم) ، ويبتدأ بـ (يَوْمَ الْقِيَمَةِ) .

« وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

تنبيهات

الأول - قال ابن جرير (٢) : ذكر أن هذه الآيات ، من أول هذه السورة ، نزلت في شأن حاطب بن أبى بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلمهم على أمر كان رسول الله ﷺ قد أخفاه عنهم - ثم ساق الروايات - .

وأما رواية البخاري (٣) فمن على رضى الله عنه قال : بمثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب نخذوه منها ، فذهبنا تمادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ،

(١) [٨٠ / عبس / ٣٤ - ٣٦] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٤١ - باب الجاسوس ، حديث رقم ١٤٢٩

فقلت : مامعى من كتاب ! فقلنا : لتخرجنَّ الكتاب ، أو لنُلقيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :
من حاطب بن أبى بلتمعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تمجل علىّ يا رسول الله ! إني كنت امرءاً من قريش ، ولم أكن من أنفسهم . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأجبت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصدّقهم إياهم يداً يحمون قرابتي . وما فعلت ذلك كفرأ ، ولا ارتداداً عن ديني . فقال النبي ﷺ : إنه قد صدقكم . فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه ! فقال : إنه شهد بدرأ ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم !
قال عمرو بن دينار - راوى الحديث - ونزلت فيه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...) (الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلاً من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال : اللهم عمّ عليهم خبرنا . فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً - كما ذكر في الحديث - .

الثاني - قال ابن كثير : يعنى تعالى بقوله (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عدائهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ، وهذا تهديد شديد ، ووعداً كيد . وقال تعالى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفَّتُمْ مِّنْهُنَّ) . وقال تعالى ^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) . وقال تعالى ^(٣) (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْمَةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أى أنه قبل عذره فيما قام في ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة ، وإن أخطأ . والمجتهد المخطئ معذور . وقد تبين خطؤه بصريح النهى عن معاودة مثله الذى لأجله نزلت السورة . ولذا قال الإمام إلكيا الهراسى : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة فى دين الله . وهو ظاهر ، وليس هذا من التقية ، لأنها فى موضوع آخر . وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد ابن المرتضى فى (إثبات الحق) فى المسألة الثامنة . قال (بعد أن أورد الآيات والأحاديث) : هذا كله فى الحب الذى هو فى القلب ، والمحالصة لأجل الدين ، وذلك للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحدين ، إذا كان لأجل إسلامهم وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالفة والمنفعة ، وبذل المعروف ، وكظم الغيظ ، وحسن الخلق ، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضى مفسدة كالذلة ، فلا يبدل للعدو فى حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية (لَا يَنْهَىٰ عَنْهُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

(١) [٥ / المائدة / ٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٤] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٢٨] .

مُمْ يَقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ) - كما يأتي - وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين .
وأما الفرق بين ما يجوز من المنفعة والمداينة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال
والمنافع فهو جائز ، وهو المنفعة ، وربما عبروا عنه بالمداينة والمدارة والمخالقة . وما كان من
أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعي إلى الله تعالى ، يحيى بن المحسن عليه السلام في (الرسالة المخترسة ،
لأهل المدرسة) : لا يجوز أن تكون الموالاة هي المتابعة فيما يمكن التأويل فيه ، لأن كثيراً
من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولى الناصر الكثير
منهم ، وصلى بهم الجمعة جعفر الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنازتهم .
وذكر الإمام المهدي محمد بن المطهر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هي
موالاة الكافر لكفره ، والعاصي لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها
قوله (١) تعالى في آلِ الدِّينِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ (وَصَاحِبِهِمْ) فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) ومنها قوله (٢)
تعالى (لَا يَنْهَهِكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ . . .) الآيتين . وفي
الحديث أنها نزلت في قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبخاري والواحدي ،
وتأخرها واضح في سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ،
فإن الخاص مقدم على العام عند جمل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رشد في (نهايته)
بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة المتفق
عليها من حديث علي عليه السلام في قصة حاطب ، على ما ذكره الله تعالى في أول سورة الممتحنة
- هذه - وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله ﷺ عذره بالخوف على
أهله في مكة ، والتقية فيما لا يضر في ظنه .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذن لقوله (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) فكيف يقبل مجاء من قبول عذره ؟

قلت : إنما قبل عذره في بقاءه على الإيمان ، وعدم موالة المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) والعموم نص في سببه . فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لا يحل مثل ما فعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم ، لقوله تعالى (١) (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ...) الآية . ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن في أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيلة في حفظ المال . فلو كان مثل ذلك موالة لم يأذن فيه صلى الله عليه وآله وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لانفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة - والله أعلم - انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودد بذلك إليهم ، والمناصحة لهم ، مما يشف عن كون الآتي بذلك متزلزلاً في عقده ، مضطرباً في حقه ، فيصبح عمله حجة على دينه ، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر في الحقيقة ، كما بينه آية (٢) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وسيأتي بيانه . ثم علم تعالى عباده المؤمنين التأسى بإبراهيم عليه السلام في البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم ، بقوله سبحانه :

(١) [٤ / النساء / ٨٣] . (٢) [٦٠ / المتحنة / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ » أى قدوة « حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أتباعه الذين آمنوا معه ، كلوط عليه السلام « إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ » يعنى الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت « إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » أى بدينكم ومعبودكم . قال ابن جرير ^(١) : أى أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله ، وجحدنا عبادتكم ماتعبدون من دون الله أن يكون حقاً « وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ » أى لاصح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده . أى توحدوه وتفردوه بالعبادة « إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » استثناء من قوله (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) قال ابن جرير ^(١) : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور التى ذكرناها ، من مباينة الكفار ومعاداتهم ، وترك موالاتهم ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . يقول تعالى ذكره : فسكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله ، تبرءوا من أعداء الله المشركين به ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرءوا عن عبادة ما سواه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال في الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

« وَمَا أَمَلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده . ولذا قال الزمخشري : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنى عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طاقى إلا الاستغفار .

وقوله تعالى « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تكميلاً لما وصّاهم به من قطع الصلات المضرة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى (إِلَيْكَ أَنَبْنَا) أى إليك رجعنا بالتوبة مما تكره ، إلى ما تحب وترضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » قال مجاهد : أى لا تميزنا بأيديهم ، ولا بمذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

ومآل هذا الدعاء هو التعمد من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما

صانعنا مؤمنهم ، فإذن ما هم عليه أمانى . فيتزلزل من كان فى نفسه الانتظام فى سلوكهم ، والاستسعاد بحقهم . فى الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أى : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بأداب الدين ، محافظين عليها ، قاعمين بها حق القيام ، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم . ولذا أصبح المسلمون فى القرون الأخيرة بحالهم ، حجة على دينهم أمام عدوهم . ولا مسترد لقوتهم ، ومستمداد لمجدهم ، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعمل بأدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلمته ، ويحافى حقيقته . وللحكمة فى هذا الموضوع مقالات معروفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ،
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » تكرير لوجوب التأسي بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم . فإن حبة المفسدين فيها تخريب لمباني الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المصلحين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداءهم بهم ، لذلك كان البغض فى الله من شعب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلمته ، ورى أعدائه عن قوس واحدة . وفى إبدال (لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) من (لَكُمْ) دلالة على أنه لا ينبغى لمؤمن أن يترك التأسي بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أى من يتول عما أمر به ، ويوالى أعداء الله ، ويلتق إليهم بالمودة ، فإنه لا يضر إلا نفسه ، والله هو الغنى عن إيمانه به وطاعته ، المحمود على كل حال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » هذا وعد منه تعالى ، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعد ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً . والآية من معجزات القرآن ، لما فيها من الإخبار عن مغيب ، وقع مصداقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

[٩] (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » هذا ترخيص من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . فهو في المعنى تخصيص لقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...) الخ . أى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم ، وتقسطوا إليهم ، أى تقضوا إليهم بالبر ، وهو الإحسان . والقسط وهو العدل . فهذا القدر من الموالاة غير منهي عنه ، بل مأمور به في حقهم . والخطاب ،

وإن يكن في مشركي مكة ، إلا أن العبرة بعموم لفظه . وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه ، فرد ذلك الإمام ابن جرير^(١) بقوله :

والصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى (لَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ) من جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ، فإن الله عز وجل عمّ بقوله (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ) جميع من كان ذلك صفته ، فلم يخص به بعضاً دون بعض . ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب ، غير محرم ولا منهي عنه ، إذا لم يكن في ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح . وقد بين صحة ما قلناه الخبر في قصة أسماء وأمها . انتهى .

وذلك أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ، إذ عاهدوا . فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم ! صلى أمك . رواه أحمد^(٢) والشيخان^(٣) ، ورواه أيضاً الإمام أحمد^(٤) عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب ، وقرظ ، وسمن ، وهي مشركة . فأبى أسماء أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبي ﷺ .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥١ - كتاب الهبة ، ٢٩ - باب الهدية للمشركين ، حديث

رقم ١٢٧٢ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ٥٠٤٩ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...) (إلى آخر الآية).
فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

قال الزاوي : وقوله تعالى (أَنْ تَبَرُّوهُمْ) بدل من (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ) وكذلك
(أَنْ تَوَلَّوْهُمْ) بدل من (الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ) . والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما
ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا رحمة لهم ، لشدتهم في العداوة . وهذه الآية تدل على جواز
البر بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ،
اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُنْسِكُوا
بِعِصْمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوْا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوكُمْ مَا أَنْفَقُوا ، ذَٰلِكُمْ
حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » أى من مكة إلى المدينة ،
« فَامْتَحِنُوهُنَّ » أى فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن في الإيمان « اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ » أى المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور بكم ، فحسبكم أماراته
وقرائنه .

وقد روى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ ، حلفها

(١) انظر الصفحة رقم ٦٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بالله، ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

وقال مجاهد: أى سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطه أو غيره ، ولم يؤمنن ، فارجموهن إلى أزواجهن .

« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ » قال الزخشرى : أى العلم الذى تبلغه طاقتكم ، وهو الظن الغالب بالحلف ، وظهور الأمارات . وإنما سماه علماً ، إيداناً بأنه كالعلم فى وجوب العمل به . « فَلَا تَرْتَجِمُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » أى فلا ردوهن إلى أزواجهن المشركين ، إذ لا حلَّ بين المؤمنة والمشرِك ، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرِك المعادى لله ورسوله .

قال ابن جرير^(١) : وإنما قيل ذلك للمؤمنين . لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش فى صلح الحديبية ، أن يردَّ المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً ، فأبطل ذلك الشرط فى النساء إذا جنَّ مؤمنات مهاجرات ، فامتحن فوجدهن المسلمون مؤمنات ، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا ، وأمرُوا أن لا يردوهن إلى المشركين ، إذا علم أنهن مؤمنات . « لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » أى لا تقطاع النكاح بينهما .

قال ابن كثير : هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين . وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرِك المؤمنة . ولهذا كان أمر أبى العاص بن الربيع ، زوج ابنة النبى ﷺ زينب رضى الله عنها . وقد كانت مسلمة ، وهو على دين قومه . فلما وقع فى الأسارى يوم بدر ، بعث امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة . فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا ، ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى بذلك ، وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضى الله عنه . فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . انتهى «وَأَتَوْهُم مَّا أَتَقُوا» قال ابن جرير^(١) : أى وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجموهن إليهم ، ما أتقوا في نكاحهم إياهن من الصداق «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» أى هؤلاء المهاجرات اللاتي لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ، «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ» أى مهرهن . قال ابن زيد : لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة عن الكافر ، بطل نكاح الكافرة عن المسلم ، بقوله : «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ» أى بعقودهن التي يتمسك بها في الاستحلال . قال ابن جرير^(٢) : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ : لا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و (الكوافر) جمع كافرة . و (العصم) : جمع عصمة ، وهى ما اعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان ، وأمر لهن بفراقهن . ثم روى عن مجاهد قال : أمر أصحاب محمد بطلاق نساؤهم كوافر بمكة فعدن مع الكفار .

وعن الزهري : لما نزلت هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) إلى قوله (وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ) ، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبى أمية ، وابنة جرول . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكان ممن فرق إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ممن لم يكن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد ، فحبسها وزوجها رجلاً من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية . كانت عند ثابت بن الدحداحة ، ففرت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله ﷺ ، فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، أحد بني عمرو بن عوف . فولدت عبد الله ابن سهل .

« وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ » أى اطلبوا أيهم المؤمنون الذين ذهب أزواجهم فلحقن بالشركين ما أنفقتم على أزواجهم اللواتي لحقن بهم ، من الصداق ، مَنْ تزوجهن منهم « وَلَيْسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا » أى وليسألكم المشركون منهم ، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات ، إذا تزوجن فيكم ، مَنْ تزوجها منكم ، ما أنفقوا عليهن من الصداق « ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى هذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا ، وأمر المشركين بمثل ذلك . حكم الله الحق الذى لا يعدل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)
« وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ » أى وإن اردت منكم امرأة فلحقت الكفار ، فلم يردوا مهرها « فَعَاقِبْتُمْ » أى فزوتوهم فوجدتم منهم غنيمة « فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ » أى من المسلمين « مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » أى فى مهورهن .
قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

وقال قتادة : كن إذا فرت من أصحاب النبي ﷺ إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبي الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطى زوجها ماساق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمتهم .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » أَيْ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِ يَقْتَضِي أَدَاءَ أَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ » قال ابن كثير : أَيْ أَمْوَالِ النَّاسِ الْأَجَانِبِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مَعْسَرًا فِي نَفَقَتِهَا ، فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَثَالِهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ ، عَمَلًا بِحَدِيثِ هَنْدِ بِنْتِ عَتَبَةَ أَنَّهُ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ أَبَا سَفِيَّانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِيَنِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِيْنِي وَيَكْفِيْ بَنِيَّ ، فَهَلْ عَلَى جَنَاحِ ابْنٍ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيْكَ وَيَكْفِيْ بَنِيكَ - أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ^(١) - « وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ » قَالَ الزُّنْخَشَرِيُّ : يَرِيدُ وَأَدِ الْبَنَاتِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وَجُودِهِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَيَعْمَى قَتْلَهُ وَهُوَ جَنِينٌ ، كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَاهِلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ، تَطَرُّحَ نَفْسِهَا ، لِثَلَا تَحْبِلَ ، إِمَّا لِفَرْضٍ فَاسِدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٣٤ - كِتَابُ الْبَيُوعِ ، ٩٥ - بَابُ مَنْ أُجْرِيَ أَمْرُ الْأَنْصَارِ

عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ فِي الْبَيُوعِ وَالْإِجَارَةِ ، حَدِيثُ رَقْمِ ١١٠٨ ، عَنْ عَائِشَةَ .

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي : ٣٠ - كِتَابُ الْأَقْضِيَّةِ ، حَدِيثُ رَقْمِ ٧ (طَبَعْنَا) .

«وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَن يَفْتَرِينَهُ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَيْهِ» قال ابن عباس: أى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن. وأوضحه الرخشي بقوله: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها. هو ولدى منك. كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : فى شرح البخارى للكرمانى معناه : لا تأتوا بهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما . ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لا تنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذى مقره بين الأيدي والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثانى عن كونه من دخيلة قلوبهم البنية عن الخبث الباطنى .

وقال الخطابى : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . وردّ بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه ، فلا يقال : بين أرجله . وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها . أما مع الأيدي تبعاً فلا . فالخطيئ غطى وهو كناية عن خرق جلباب الحياء . والمراد: النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى . «وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ» أى من أمر الله تأمرهن به .

قال فى النهاية : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

«فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» أى فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

تنبيهات :

الأول - روى البخارى^(١) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ، كلاماً . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة . ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك .

قال ابن حجر : أى لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة . ثم قال : وروى النسائى والطبري أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت في نسوة تبائع فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : إني لا أصافح النساء . ولكن سأخذ عليهن . فأخذ عليهن حتى بلغ (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) فقال : فيما أطقن واستطعن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا - وفي رواية الطبري : ما قولي لمائة امرأة إلا كقولي لامرأة واحدة - وقد جاء في أخبار أخرى أنهم كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب - أخرجه يحيى ابن سلام في تفسيره عن الشعبي - .

وفي المغازي لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده في إناء ، فيغمس أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخارى الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثاني - روى مسلم^(٢) عن أم عطية قالت : لما نزلت هذه الآية (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) كان منه النياحة .

-
- (١) أخرجه في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٢٠ - باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمى والحربى ، حديث رقم ١٣١٠ .
- (٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث رقم ٣١ (طبعنا) .

ولفظ البخارى^(١) عنها قالت : بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا (أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا) ونهانا عن النياحة .

وأخرج الطبرى بسنده إلى امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه فى شيء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ علينا يومئذ أن لا ينحن ، ولا يحدثن الرجال إلا رجلاً منكناً محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبي الله ! إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نساءنا ؟ ! فقال ليس أولئك عنيت .

الثالث - قال إلكيا الهراسى : يؤخذ من قوله تعالى (وَلَا يَمُصِّينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) أنه لاطاعة لأحد فى غير المعروف . قال وأمر النبي ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه فى الطاعة ، لئلا يترخص أحد فى طاعة السلاطين .

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد . قال فى هذه الآية : إن رسول الله ﷺ نبيه ، وخيرته من خلقه . ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط . لم يقل (ولا يمصينك) ويترك حتى قال (فى معروف) فكيف ينبغى لأحد أن يطاع فى غير معروف ، وقد اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى فى آخر السورة بما نبه به فى فاتحتها ، من النهى عن موالاته محاربى الدين ، تحذيراً من التهاون فى ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

(١) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٦ - باب ما ينهى عن النوح والبكاء ،

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَتَّبِعُوا
مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى مسخوطاً عليهم
لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيبتهم بالفساد . وهو عام فى كل محارب . ومنهم من
خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزخشرى .
قال الناصر : قد كان الزخشرى ذكر فى قوله ^(١) (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ) إلى قوله (وَمِنْ
كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا) أن آخر الآية استطراد . وهو فن من فنون البيان ، مبوب عليه
عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدًّا ، فإنه ذم اليهود ،
واستطرد ذمهم بدم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء
فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه . ومما صدروا به هذا الفن قوله :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس، وإن كان من جُرمِ
وقوله (٢) :

إن كنتِ كاذبةً الذى حدثتني فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ
وقوله (٣) :

ترك الأجابة أن يقاتلَ دونهم ونجّا برأسِ طيرَةٍ ولِجَامِ
انتهى .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

(٢) قائلها حسان بن ثابت ، من قصيدته التى مطلعها :

تبلتُ فؤادَكَ فى المنام خريدةً تسقى الضجيعَ يباردِ بَسَامِ
(شرح الديوان للبرقوق ص ٣٦٢) .

وكان وجه إثاره الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية رد العجز على الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه .
ولكل وجهة .

« قَدْ يَيْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ » أى من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا .
والجملة صفة ثانية « كَمَا يَيْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » أى كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين . أى أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكل مؤاخذ بكفره . وقيل :
المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمّر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١ - سُورَةُ الصَّفِّ

وتسمى سورة (الحواريين) . وهي مدنية . ولا عبرة بقول إنها مكية ، لأن آياتها
المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا في المدينة . وآياتها أربع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
« سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى أذعن لله
كل خلقه العلوى والسفلى ، وانقاد لتسخيره ، ودل على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانى : من لوازم الإيمان
الحقيقى الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيها . وقوله
(لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادعى الإيمان وجب
عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافي المروءة التى هى
من مبادئ الإيمان ، فضلاً عن كماله . إذ الإيمان الأصلى هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ،
والدين القيم . وهى تستلزم أجnas الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية
للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق
هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ . والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره ، هى
النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد
أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع ، فدخل فى حد الشيطنة ، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضعاده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التي هي إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها . فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصلي بانتفاء ملزومه ، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشري : هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه . قصد في (كَبُرَ) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين . وأسند إلى (أَنْ تَقُولُوا) ، ونصب (مَقْتًا) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأخشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكراره لقوله : (ما لا تفعلون) وهو لفظ واحد ، في كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)
« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » قال القاشاني : لأن بذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئاً من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس في الله وفي سبيله لا للنفس ، كما قال - ترك الدنيا للدنيا - كانت

حبة الله في قلبه راجحة على حبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم : ^(١) (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم حبة الله إياهم ، لقوله : ^(٢) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَ) انتهى .

تنبيهات :

الأول - في ذكر هذه الآية عقيب مقت الخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيدته الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى ^(٣) : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) فاللهي العام ورد أولاً . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمفترب جرماً معيناً : لاتفعل ما يلصق العار بك ، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم ، النهي عن الشيء الواحد مرتين ، مندرجاً في العموم ، ومفرداً بالخصوص . وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في حيز التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل . انتهى

الثاني - في (الإكيل) : قال إلكيا المهراسي ، يحتج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) في وجوب الوفاء بالندر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولاً ، لا يفي به . ولهذا استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين ^(٤) :

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٤] . (٣) [٤٩ / الحجرات / ٢١] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان . ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله ! تعال أعطك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمرًا . فقال : أما إنك لو لم تفعل ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به . كما لو قال لغيره : تزوج ولك علي كل يوم كذا . فتزوج . وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحلوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض ، نسكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى^(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا آخِرَتْ نَفْسًا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى^(٣) (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . .) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين ، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقرأوا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) . وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناها ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبي ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيان . وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا في نصركم ، وفي وفي . . . روى ذلك عن ابن زيد . وكلّ المروى هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة - يعنى سورة الصف - كلها . ولفظ ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن سلام : أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهَبْنَا أن نسأله عن ذلك . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك نفر رجلاً رجلاً ، حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة - الصف - قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . وفي رواية ابن أبي حاتم هذه فائدة جليّة : وهى أن قول الصحابيّ نزلت هذه السورة ، بمعنى قرئت في الحادثة ، كما يَبَيِّنُهُ الرواية قبله . والروايات يفسر بعضها بعضاً . وقد نهنا على ذلك مراراً .

الثالث - فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُمْ مُّبْنِيْنَ مَّرْصُوصٍ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف ،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .
قال ابن أبي الفرس : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجال أفضل من قتال الفرسان .
لأن التراص إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .
وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدهما - أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المنزلزل القدم ،
والمضطرب في الموقف - دع من يعزم على الفرار - ممن يحقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .
ثانيهما - أن يكون المعنى به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدو ،
حتى يكونوا في الاتحاد وموالاته بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهما هذين الوجهين
الرازى . وها أقرب من الأول ، لتقويتيهما لمعنى طليعة السورة ، من الثبات على الوعد والوفاء
به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُوذُّونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)
« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُوذُّونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ »
أي لم تصلحوا إلي الأذى بالمخالفة والعصيان لما أمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدق فيما
جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمي
وإطاعتي ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظم رسوله ، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ،
وأمر له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه ^(١) : رحمة الله على موسى ! لقد أودى بأكثر

(١) أخرى البخاري في : ٥٧ - كتاب فرض الخمس ، ١٩ - باب ما كان النبي صلى

الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى ^(١) :
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ
 عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ)
 منصوب على المفعولية بمضمر . خوطب به النبي ﷺ بطريق التلوين . أى واذا كر لهؤلاء المعرضين
 عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين نذبهم إلى قتال الجبارة ، بقوله ^(٢) (يَقُومِ
 ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
 خَاسِرِينَ) فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا ^(٣) : (يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا
 جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) إلى
 قوله ^(٤) (فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) وأصرروا على ذلك وآذوه ، عليه
 الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق
 السليم . وأما ما قيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من
 انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله
 جهرة - فما لاتعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعين نوع الأذية ويخصصها ،
 والقريئة إحدى مخصصات العام ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى ، ووفقاً مع عموم
 اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوا » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا « أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »
 أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الفنى والضلال .
 « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرين على
 الغواية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥ / المائدة / ٢٢]

(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام . « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججاً على نبوته ، « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى بين .

والإشارة إلى ما جاء به أو إليه ، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة . يريد عليه السلام : أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول - نقل الرازى وغيره مصداق هذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم .

وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و ١٨٣١ و ١٨٣٣ بمدينة لندن - وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصل (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لايعدم الإسلام منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) ما يأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامى ، واسم محمد جاء من مادة حمد . ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسماً من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكليّة به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهذا مادعا علماء الدين الإسلامي أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيء النبي محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ وَأَحْمَدُ) .

وقد قال اسبر انجيه : إن هذه الآية تشير إشارة خاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الإضافية الذبّول ، التي يذكر فيها اسم محمد في عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحلة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الجيرى قبل بعثة النبي ﷺ ، وفيها يقول المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ وَأَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) في المطبوعات الأخيرة (المعزى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجيّة القوم في كتبهم المقدسة .

* سجيّةٌ تلك فيهم غير محدثة *

(١)

الثالث - قال الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين : أحدهما - أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدره صفحة وثلاث الصفحات ، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثاني ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يعلّاه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فحمد زيادة حمد في الكمية ، وأحمد زيادة في الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثاني - أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين - وهو محمد - كونه محموداً . ودل الاسم الثاني - وهو أحمد - على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءها من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشيء) .

إلى أن قال : والمقصود أنه ﷺ سمي محمداً وأحمد . لأنه يحمد أكثر ما يُحمد غيره ، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقعان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ في مدحه ، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحمد) وهو كثير الحمد ، كما سمي محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأولي أن يسمّى حمداً ، كما أن اسم أمته الحمادون . وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلكثرة خصائله التي تفوت عدّ العاديين سمي باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ » أي : لأحد أظلم وأشدّ عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته ، المسعد له في الدارين ، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ورسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبي ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغوي . وقد كثر ذلك في آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» قال ابن جرير^(١) . أى يريد هؤلاء القائلون لحمد ﷺ هذا ساحر ، ليمطوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلى الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

«نور الله» استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهدهم فى إبطال الحق ، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس : هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وألطف ، وهو ختار الزمخشري .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحلة مقررة فى المطولات ، ومن أشهرها أنها مزبدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ» يعنى محمداً ﷺ «بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قال ابن جرير^(١): أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة، فلا يكون دين غير الإسلام.

وقال الزمخشري: أى ليعلمه على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل، فابقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. وتقدم فى آخر سورة الفتح فى مثل هذه الآية تحقيق آخر، فليراجع.

«وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» أى لما فيه من محض التوحيد، وإبطال الشرك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

يَا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ «أَيُّ إِيمَانًا يَقِينِيًّا لَا يَشُوْبُهُ أَدْنَى شَكٍّ» وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «أَيُّ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . أَوْ أَنَّهُ خَيْرٌ . فَإِنْ قِيلَ : إِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ بِنَفْسِهِ عِلْمُوا أَوَّلًا ، وَأَيْضًا أَنْ عِلْمُهُمْ مُحَقَّقٌ ، إِذَا الْخُطَابُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . فَالْجَوَابُ مَا قَالَهُ النَّاصِرُ : أَنَّ الشَّرْطَ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ وَادِي قَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الشَّرْطِ التَّنْبِيْهُ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَقْتَضِي الْاِمْتِثَالَ ، وَإِلْهَابُ الْحِمَاةِ لِلطَّاعَةِ ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَأْمُرُهُ بِالِاتِّصَافِ مِنْ عَدُوِّهِ : إِنْ كُنْتُ حَرًّا فَاتَّصِرْ . تَرِيدُ أَنْ تُثِيرَ مِنْهُ حِمَاةَ الْاِتِّصَافِ لِغَيْرِهِ . اَنْتَهَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» جَوَابٌ لِلأَمْرِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِلَفْظِ الْخَبَرِ ، أَوْ لَشَرْطِ أَوْ اسْتِفْهَامٍ ، دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَقْدِيرُهُ : إِنْ تَوَّعَدْتُمْ وَتَجَاهَدُوا . أَوْ هَلْ تَقْبَلُونَ أَنْ أَدْلِكُمْ يَغْفِرْ لَكُمْ «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» أَيْ بِسَاتِينَ إِقَامَةٍ لَا ظَعْنَ عَنْهَا «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أَيْ النِّجَاءُ الْعَظِيمُ مِنْ نِكَالِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا ، «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» أَيْ عَاجِلٌ . وَهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ . وَكَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ مُحَارِبِيهِمْ ، وَالثَّبَاتُ أَمَامَهُ ، وَالتَّحْذِيرُ عَنِ الزَّيْغِ عَنْ ذَلِكَ ، وَالتَّرْغِيبُ فِي السَّخَاوَةِ بِبَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، لِإِعْلَاءِ شَأْنِهِ ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ .

و (أُخْرَى) مَفْعُولٌ لِمَقْدَرٍ مَعْطُوفٍ عَلَى الْجَوَابَيْنِ قَبْلَهُ ، وَهُوَ جَوَابُ ثَالِثٍ . أَيْ وَيُؤْتِكُمْ أُخْرَى أَوْ صِفَةً لِمَبْتَدَأٍ مَقْدَرٌ ، وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ ، وَهُوَ (لَكُمْ) . أَيْ وَلَكُمْ إِلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمَذْكُورَةِ ، نِعْمَةٌ أُخْرَى عَاجِلَةٌ مَحْبُوبَةٌ ، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ يَعْجَلُهُ لَكُمْ .

«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أَيْ بِنَصْرِهِ تَعَالَى لَهُمْ وَفَتْحِهِ . وَمَنْ مَنَعَ مِنَ النِّجَاحِ عَطَفَ الْإِنْشَاءَ

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تَوْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا . وضعف بأن المخاطب بـ (تَوْمِنُونَ) المؤمنين ، وبـ (بَشِّرِ) النبي ﷺ . ثم إن (تَوْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لا يصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما في قوله : أبطئ أو أسرعى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به ، « كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ » أى من معى وجندى متوجهاً إلى نصره الله ، « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى فنصر دينه ، وما أمر به ، وندعو إليه ، ونضحتى لأجله حياتنا ، « فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بعبسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعث به ، وتنتشر دعوته ، « وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة ، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانى لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم . اتفقوا فلكوا ، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى، إما على تقدير: قل لهم، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟

قال الشهاب: ف (ما) مصدرية، وهي مع صلتها ظرف. والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى. ثم حذف المظروف، وأقيم ظرفه مقامه. وقد جعلت الآية من الاحتباك. والأصل: كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي: من أنصاري إلى الله؟ كما كان الحواريون أنصار الله، حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟ فحذف من كل منهما، ما دل عليه المذكور في الآخر. وهو كلام حسن. انتهى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٢ - سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مدنية . وآيها إحدى عشرة .

روى مسلم^(١) في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ «أى: العرب «رَسُولًا مِنْهُمْ» أى من أنفسهم، أمياً مثلهم، «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أى: مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أى: من خباثات العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أى: القرآن والسفة «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى: جَوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشـد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبي يرشدهم .

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدلوه وغيروه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله . وكذلك أهل الكتاب ، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها ، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل ، شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار ، وسخط الله تعالى . حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب ، في الأصول والفروع ،

وجمع له تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوتيت بعثته صلوات الله عليه في الأميين ، لأنهم أخذوا الناس أذهاناً ، وأقواماً جنائناً ، وأصفاً فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضرين ، ولا بأفانين تلاعب أولئك التمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك . وإشار البعثة فيهم - بمعنى إظهارها فيهم - لا ينافي عموم الرسالة ، كما قال سبحانه ^(١) (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقوله ^(٢) (لَا نَذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وهو ظاهر . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معطوف على (الأميين) .
يعنى : أنه بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضی الله عنهم ، من كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسر مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازي : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى ^(٣) : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٩] .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك في الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولقنهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة^(١) (وَإِنَّ هَذِهِ لَأُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) فصدق الله العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » يعني بعفته تعالى رسولاً في الأميين ، وفي آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» قال

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] .

الزحشرى : شبه اليهود في أنهم حمله التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - بالحجار حمل أسفاراً ، أى : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يعيش بها ولا يدرى منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من السكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حُمِلُوا التَّوْرَةَ) كلفوا عليها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) : قاس من سمّاه سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه - كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدرى ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ف قيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم ، وينقلكم سريعا

إلى الآخرة ، فإن الجيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٧] (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
[٨] (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من المعاصى والسيئات والكفر «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أى فيجازيهم على أعمالهم . وتقدم في البقرة نظير الآية ^(١) (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ...) الآية «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ» أى تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم «فَإِنَّهُ وَمُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الأعمال ، حسننها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
[١٠] (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» أى عند جلوس الإمام

(١) [٢ / البقرة / ٩٤] .

على المنبر ، لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذن بلال رضى الله عنه « فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيق الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » أى أدت وفرغ منها « فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفعلوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير^(١) : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفعلوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١) (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ

اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوٍ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً » أى غير تجارة « أَوْ لَهْوًا » أى ما تلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « انفَضُّوا إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يسبقوا إليها . وإنما أوثر ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ » أى من الثواب المرجو بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوٍ وَمِنَ التِّجَارَةِ » أى لأن الثواب مغلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم (اللهو) لأنه أقوى مزمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندكم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرّون من الموت لمقاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمقاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) أى إلى ما ينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى ^(١) : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله ^(٢) : (فَتَمَتَّنَا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ، فشبههم بالحمار يحمل أسفارا . وبالسبت ، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال الهامى فى وجه المناسبة : بين تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لثلاث تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة ، والأذان لها ، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] . (٢) [البقرة / ٩٤] .

الثالث : في (الإكليل) : في قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لا يشرع بعد أدائها صلاة ما . غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها في بيته ركعتين . وفي رواية أربعاً . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتمعصب مذهبي لا برهان له . وقد قلت في مقدمة مجموعة الخطب^(١) ، في الفائدة الرابعة ، ما مثاله :

الحاجة في هذه البلاد في هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسمعونهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلاً . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات في كثير من المساجد الصغيرة التي لم تشيد لمثلها ، قد هول فيه السبكي في فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيتهما ، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة ، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة (فُعْلَة) في اللغة للمبالغة . وبالجلة فالجوامع الكبار التي تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاورتها ، هي التي لا خلاف في جوازها مهما تعددت ، والتي لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناه في كتابنا (إصلاح المساجد من البدع والعوائد)^(٢) .

الرابع - يدل قوله تعالى : (وَأَبْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يوم السبت والأحد ، ورد على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوي ، من خير قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله فضله عنا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا ، فما بالناس نستجرحها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفرأ .

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه في المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ هـ .

الخامس - قال في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا اتَّقُوا إِلَٰهَآ وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة في الصلاة، وسماهم الخطبة ، وتحريم الانقضاء . انتهى .

وفي الصحيحين^(١) عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس . وبقي اثنا عشر رجلاً ، فنزلت (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .
وروى ابن جرير^(٢) عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يعمرون بالكبر والزماير ، ويتركون النبي ﷺ قائماً على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .
وعن مجاهد : اللهو الطبل .

(١) أخرجه البخاري في : ١١ - كتاب الجمعة ، ٣٨ - باب إذا نقر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٣ - سورة المنافقون

مدنية وآياتها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

[٢] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
 « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ »
 أى أن الأمر كما قالوه « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » أى فى قولهم (نَشْهَدُ)
 وادعائهم فيه مواطاة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضربوا غير ما أظهرُوا « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ »
 أى حلفهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً »
 أى وقاية من القتل والسبي ، « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله
 صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقهِ « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى
 اتخاذهم أيمانهم جُنَّةً ، وصددهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ،
 لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيماناً) انتهى .
 قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) غايته أن ما ذكره
 يسمى يميناً ، وليس الخلف فى تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً مفعلة يلزم
 بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسمًا يوجب حكماً . ألا ترى أنه لو
 قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ،
 وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)
- [٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَنْى يُؤْفَكُونَ)

« ذَلِكَ » أى مانئى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا » أى سرّاً « فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مرونا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيات المفكرة ، فخبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان ، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم ، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ » أى فى الخلو عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعمة لشيء آخر .

قال القاشانى : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه ، فاستنطقه لظنه ذكاً ، ففطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح ، لا تقع فيها ولا تمر ، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استمداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابة .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير^(١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون ، من خبثهم ، وسوء ظنهم ، وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبى ذرائعهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحى على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطيهم . وقال القاشاني : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، لذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ » قال القاشاني : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتمدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرده ، وهو دعاء أو خبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ » أى : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير^(١) أى : حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّاْ) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها واكثروا . إلا نافعا ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أى يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشاني : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكالات البهيمية والسبعية ، فلا يألون النور ، ولا يشاقون إليه ، ولا إلى الكالات الإنسانية ، لسخ الصورة الذاتية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قال القاشاني
لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخرجوهم عن
دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ،
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

«هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا» أى : حتى
تصيبهم مجاعة ، فيتفروا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشاني : لاحتجاجهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله ، وبما في أيديهم عماف خزائن الله ،
فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» أى : من يبدع
خزائنها ، رازقهم منها ، وإن بحل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم في الفسق ،
لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ) الظاهر أنه حكاية
ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسائله ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو
لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة ، فغيرها الله
إجلالاً لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ،

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لكان غرورهم وجهلهم

وشدة ارتياهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن جرير^(١) : عنى بهذه الآيات كلها - فيما ذكر - عبدالله بن أبي ابن سلول .

وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لنن رجعنا إلى

المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم ، فأخبر به رسول الله ﷺ ، فدعاه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت

وسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ،

ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأُتزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها

إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات في ذلك . وتقدمه الإمام البخاري ، فأسندها من طرق .

ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق في غزوة بنى المصطلق : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم

على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفره الله بهم . قال : فبينما الناس على ذلك الماء ، وردت

واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه .

فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتلا ، فصرخ الجهني :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ! ما أعدّنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مرّ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أدنّ بالرحيل ، في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، خلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يارسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل - حدّبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحت في ساعة منكراً ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ! قال : فأنت يارسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الدليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً ، ثم مشى رسول صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ، حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبي ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزل أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوفى الله بأذنه اه .

وكانت غزاة بني المصطلق هذه ، في شعبان سنة خمس ، كما في (زاد المعاد) . وزعم قوم أن هذه المقالة كانت في غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع في رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائي) أنها غزوة تبوك . ويؤيده قوله في رواية زهير : في سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلًا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل منه حتى يصلي فيه . فلما كان غزوة تبوك ، نزل منزلاً ، فقال عبد الله بن أبي : فذكر القصة .
والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : (دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) .

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيرًا جدًا . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح في غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى . وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله - أي ابن جبير - إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان في غزوة اليرسيق ، وهي غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثاني - قال الزمخشري : معنى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ) الخ أى : الغلبة والقوة ، ولن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشیطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات - وكانت فى هيئة رثة - ألتى على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ؟

وعن الحسن بن على رضى الله عنهما ؛ أن رجلاً قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازى : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإزالتها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعفة ، والتواضع محمود ، والضعفة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمود . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى ^(١) (إِنَّمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنسوب على نار الكبر .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١١] (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أي :

لا يشغلكم الاغتياب بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، أو ذكر ما أنزله وأوحى به .

ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالي المؤمن بعزة المال والولد ،

مع عزة الله «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» أي المغبونون حظوظهم من كرامة الله

ورحمته ، كما قال سبحانه ^(١) (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ) . «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ » أي أنصق وأخرج حقوق مالي

«وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ* وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا» أي لن يؤخر في أجل

أحد إذا حضر ، ولكن يختصره .

قال القاشاني : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

إن صدقتم في الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شيء ، فلا تكن محبتهم

ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة في قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم

عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطري بإضاعته فيما يفنى سريعا ،

وتجردوا عن الأموال بإتفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة في أنفسكم ،

(١) [٥٩ / الحشر / ١٩] .

وهيأة نورية لها، فإن الإتفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد في النفس .
فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إتفاقه ، وليس له إلا التحسر
والتندم ، ومعنى التأخير في الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً في دعوى الإيمان ، وموقناً
بالآخرة لتيقن أن الموت ضروري ، وأنه مقدر في وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا
يمكن تأخره .

« وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى : بأعمالكم ونياتكم . فلا ينفع الإفتاق في ذلك الوقت
ولا تمنى التأخير في الأجل ، ووعد التصدق والصالح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ،
ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ،
وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المفاية للتصدق والصالح
في النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى^(١) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ) - والله أعلم - .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهراسي: يدل قوله تعالى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنٰكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .
وأخرج الترمذى^(٢) عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو يجب
عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ،
فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦٣ - سورة المنافقين ، ٥ - حدثنا عبد بن حميد ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٤ - سُورَةُ التَّغَابُنِ

مكية ، على ما يظهر من أمثالها لن سبر . وقيل : مدنية . وآياتها ثمان عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ» أى ملك السموات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما «وَلَهُ الْحَمْدُ» أى الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ « أى هو الذى انفرد بإيجادكم فى أحسن تقويم ، قابل للكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر ، جاحد للحق ، كاسب له على خلاف ما استدعيه خلقته . ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسباً تقتضيه خلقته . وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان ، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم . فافعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر ، لأنه الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ - أفاده أبو السعود - « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به ، فأثروا ما يجديكم ، وجانبوا ما يردكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة التى ترشد إلى المصالح الدينية والدينية « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » أى حيث برأكم فى أحسن تقويم . وذلك أنه تعالى جعل الإنسان معتدل القائمة على أعدل الأمزجة . وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف فى المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى مرجعكم للجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بخفائياها ، وما تنطوى عليه . وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه . لأنه إذا علم السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشري : نبه بعلمه ما فى السموات والأرض ، ثم بعلمه ما يستره العباد ويمتنونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور ، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه ، فحقه أن يتقوى ويحذر ، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، فى معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى : (فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ) كما ترى ، فى معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦] (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَأَسْتَفْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى معشر الكفرة الفجرة « نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط « فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ » من عذاب الاستئصال . و (الوبال) الثقل ، والشدة المترتبة على أمر من الأمور . و (أمرهم) كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيدان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ أَلِيمٌ » * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا » أى ذلك المذكور من ذوقهم وبأل أمرهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهودنا ؟

قال ابن جرير^(١) : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن اتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه . وجمع الخبر عن البشر ف قيل (يهودنا) ، ولم يقل (يهدينا) ، لأن (البشر) وإن كان فى لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى .

وقال القاشانى . لما حججوا بصفات نفوسهم عن النور الذى هو به يفضل عليهم بما لا يقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته . فإن كل عارف لا يعرف معروفه إلا بالمعنى الذى فيه ، فلا يوجد النور الكمال إلا بالنور الفطرى ، ولا يعرف الكمال إلا الكامل ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله . وكل طالب وجد مطلوبه بوجه ما دأب لما أمكن به التوجه نحوه . وكذا كل مصدق بشيء ، فإنه واجد للمعنى المصدق به ، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطري أصلاً ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه ، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

« فَكْفَرُوا » أى : بالحق والدين والرسول « وَتَوَلَّوْا » أى عن التدبر في الآيات البينات ، « وَأَسْتَعْنَى اللَّهُ » أى : أظهر استغناؤه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك . فـ (استغنى) معطوف على ما قبله ، وجوز جملة حالاً بتقدير (قد) . أى : وقد استغنى بكماله ، عرفوا أو لم يعرفوا .

« وَاللَّهُ غَنِيٌّ » أى : بذاته عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم ، لا يتوقف كمال من كالاته عليهم ، ولا على معرفتهم له . « حَمِيدٌ » أى : يحمده كل مخلوق ، أو مستحق للحمد بنفسه ، وإن لم يحمده حامد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

« زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ » أى من قبوركم « ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » أى في الدنيا « وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » أى هين لقبول المادة ، وثبوت القدرة الكاملة .

قال ابن كثير : وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده . فالأولى في يونس^(١) : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُو لَحَقُّ) والثانية في سبأ^(٢) : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) والثالثة هذه الآية .

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى إذا كان الأمر كذلك ، فأمنوا بالله وحده ورسوله فيما يخبركم به من البعث والجزاء وغيره « وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا » يعنى القرآن الحكيم . والاتفات إلى نور العظمة ، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ

وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ » ظرف لـ (تَنْبِؤُنَّ) أو لـ (خَبِيرٌ) لما فيه من معنى الوعيد . كأنه

قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ (اذكر) « لِيَوْمِ الْجَمْعِ » أى ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء « ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ » قال الزمخشري : التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن . انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، ورود البيع والشراء فى حق الفريقين . فذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وذكر أنهم ما ربحوا تجارتهم ، فكأنهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال (١) (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ...) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة . فحسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

(١) [٦١ / الصف / ١٠] .

وقال القاشاني : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد . فإن فات شىء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أُفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاته شىء لو لم يفته لبقى دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمال والاستعدادى ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة ، كما قال ^(١) (فَمَا رِبَحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) فن أضاع استعدادة ونور فطرته ، كان مغبوناً مطلقاً ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة . ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعدادة ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكامل التام ، فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه ، وبقى هذا متحيراً فى نقصانه . انتهى « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[١١] (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بقدره ومشئته ، كقوله فى آية الحديد ^(٢) (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

(١) [٢ / البقرة / ١٦] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أَنْ نَّبْرَأَهَا) . « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ » أى إلى العمل بمقتضى إيمانه، ويشرحه للازدیاد من الطاعة والخیر . « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فیعلم مراتب إیمانكم، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتھا ، وخلصھا من الآفات .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[١٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ)

[١٣] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ » أى لما أرسل به ، والله سبحانه وإلى الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال ابن كثير: الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب أى وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال ^(١) (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[١٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

فَاخْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاخْذَرُوهُمْ »

خطاب لمن آمن بالنبي ﷺ ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم ، ويؤذيهم بسببه . فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم . فأمروا بالحدز من فتنهم

(١) [٧٣ / الزمل / ٩] .

وشرّكم خسب ، وأن يظهرُوا فيهم بمظهر أولى الفضل . كما قال : « وَإِنْ تَعَفَّوْا » أى : عن ذنوبهم ، « وَتَصْفَحُوا » أى : بترك التثريب والتعمير « وَتَغْفِرُوا » أى جناباتهم بالرحمة لهم ، « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يعاملكم بمثل ماعاملتم .
 روى ابن جرير^(١) عن إسماعيل بن أبي خالد قال : كان الرجل يُسلم فيلومه أهله وبنوه ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس^(٢) قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك ، فقال الله : إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا ، وامضوا لشأنكم . فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط ، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليماقبن أهله في ذلك ، فقال الله جل ثناؤه : (وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا) ، الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)
 « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أى : تفتن بهما النفس ، ويجرى عليها البلاء بهما ، إذا أوثرا على محبة الحق .

« وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما .
 روى ابن جرير^(٣) عن الضحاك قال : هذا فى أناس من قبائل العرب . كان يسلم الرجل أو نفر من الحيّ ، فيخرجون من عشائرهم ، ويدعون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم فيناشدونهم الله

- (١) انظر الصفحة رقم ١٢٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
- (٢) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
- (٣) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أن لا يفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرق ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبي الله ﷺ .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه به . فلذلك وعد في إيثار طاعة الله ، وأداء حق الله في الأموال ، الأجر العظيم ، وهو الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى جهدكم ووسعكم ، أى ابدلوا فيها استطاعتكم ، « وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا » أى افهموا هذه الأوامر واعملوا بها « وَأَنْفِقُوا » أى أموالكم التى ابتلاكم الله بها فى مرضيه « خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ » أى واثقوا خيراً لأنفسكم . أى اقصدوا فى الأموال والأولاد ما هو خير لكم . فـ (خيراً) مفعول بمقدر ، وهذا قول سيويوه ، كقوله تعالى ^(١) (أَنْهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ) وقيل : تقديره يكن الإنفاق خيراً ، فهو خير (يكن) مضمرًا ، وهو قول أبى عبيد . وقيل : مفعول لـ (أنفقوا) وهو رأى ^(٢) ابن جرير . قال : أى وأنفقوا مالا من أموالكم لأنفسكم تستنفذوها من عذاب الله ، والخير فى هذا الموضع ، المال « وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ » أى بالمعصية منه « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون الذين أدرکوا طلباتهم عند ربهم .

(١) [٤ / النساء / ١٧١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنْ تَقْرَضُوا أَللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

[١٨] (عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنْ تَقْرَضُوا أَللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » أى بالإتفاق فى سبيله، ما يحبون من غير منّ ولا أذى. قال الزمخشريّ : ذكر (القرض) تلىف فى الاستدعاء « يُضَعِفْهُ لَكُمْ » أى يضاعف جزاءه وخلفه « وَيَغْفِرْ لَكُمْ » أى ذنوبكم بالصفح عنها « وَاللَّهُ شَكُورٌ » أى ذو شكر لأهل الإتفاق فى سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما اتفقوا « حَلِيمٌ » أى عن أهل معاصيه، بترك معاجلتهم بعقوبته. « عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه « الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه « الْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٥ - سُورَةُ الطَّلَاقِ

قال المهايني : سميت به لبيانها كيفية الطلاق السنّي ، وما يترتب على الطلاق من العدّة والنفقة والسكنى .

وتسمى سورة النساء القُصْرَى . مدنية . وآيها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » أى فى وقتها ، وهو الطهر . فاللام للتأنيث .

وقال الناصر : جمعت العدة ، وإن كان فى الأصل مصدراً ، ظرفاً للطلاق المأمور به . وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً ، مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فالطهر عدة إذا .

قال ابن جرير^(١) : أى إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذى يحصيئنه من عدتهن طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهن بحيضهن الذى لا يمتددن به من قُرْبِهِنَّ . ثم روى عن قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة . فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعي هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وسيأتى فى التنبيهات زيادة على هذا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَأَخْصُوا الْعِدَّةَ » أى اضبطوها وأكلوها ثلاثة أقرأ « وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ » أى : اتقوه فى تعدى حدوده فى المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التى كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكراهة لساكنتهن ، لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضى عدتهن .

« وَلَا يَخْرُجَنَّ » أى : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ) توطئة لقوله (لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

« إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ » أى : فإنهن يخرجن . و (الفاحشة) الزنا ، أو أن تبذوا المطلقة على أهلها ، أو هى كل أمر قبيح تعدى فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقة والبداء على الأحماء ونحوهما ، والأخير مختار ابن جرير ، ووقفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أى : بتعريضها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضرَّ بها بما اكتسب من قوة النفار ، وشدة البغضة التى قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأولى تخفيف الشئان ، وتلافي الهجران - وهو الأظهر - ولذا قال سبحانه : « لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود : وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى ، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه ، فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوى يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه . أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوى والأخروى . ويخص التعليل بالدنيوى ليكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى (لَا تَدْرِي) خطاب للمتعدى بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى ، لا للنبي ﷺ ، كما توهم ، فالمنى : ومن يتعد حدد الله فقد أضرَّ بنفسه ، فإنك

لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث في قلبك ، بعد ذلك الذي فعلت من التعدى ،
أمراً يقتضى خلاف ما فعلته ، فيبدل بيفضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ويتسنى
تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : فسر النبي ﷺ قوله تعالى (لِمَدَّتْهُنَّ) بأن تطلق
في طهر لم يجامع فيه - أخرجه البخارى ومسلم^(١) - وفي لفظ مسلم^(٢) أنه قرأ (فَطَلَّقُوهُنَّ
فِي قَبْلِ عَدَّتِهِنَّ) ، فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ماذكر ، وأن الطلاق في الحيض
أو طهر جومعت فيه بدعى حرام . واستدل قوم بالآية على عدم وقوعه في الحيض .

الثانى - في (الإكليل) : في قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) وجوب
السكنى لها مادامت في العدة ، وتحريم إخراجها وخروجها (إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)
كسوء الخلق ، والبذاء على أحائها . فتنتقل .

الثالث - في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (لَمَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)
من لم يوجب السكنى بغير الرجعة . أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وعكرمة قال : المطلقة ثلاثاً ،
والتوفى عنها ، لا سكنى لها ولا نفقة ، لقوله : (لَمَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) فأيحدث
بعد الثلاث .

الرابع - قال ابن المنذر : أباح الله الطلاق بطليمة هذه السورة . انتهى .
وذلك - كما قال بعض الحكماء - إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق في الإمكان

(١) أخرجه البخارى في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١ - باب قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، حديث رقم ٢٠٦٠ ، عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ١ - ١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

إصلاح ، وصم الزوج عليه ، لأن وجود شخصين متنافري الطباع ، متباغضين ، لا ينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ في نفسه بالنفور ، وفي قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما في أذى صاحبه - شرّاً وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم في (إغاثة اللهيان) : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بفارقة طاعة الله بالنكاح الذي هو واجب أو مستحب ، وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفسدات الطلاق ؛ وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمة على غير ذلك الوجه ، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طليقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها . فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها . فإن تبعها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها . وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فكحت من شاءت .

وجعل المدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن في إبانها بعد الدخول إلا بالتراضي بالفسخ والافتداء . فإذا طلقها مرة بعد مرة بقي له طليقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبها يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

وباحث الطلاق وفروعه تجرد مراجعتها من (إغاثة اللهيان) و (زاد المعاد) لابن القيم ، و (فتاوى ابن تيمية) شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه وجاهد في الصدع به ، فانه علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس - استدلل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق في دفعة واحدة غير مشروع . قال الإمام ابن القسيم في (إغاثة اللفهان) : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

أحدها - أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أى لاستقبال عدتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعها في العدة ، ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، لما طلق امرأته ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ، لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها . وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون : المراد بالطلاق للعدة ، الطلاق لاستقبالها ، كما في القراءة الأخرى التي تفسر القراءة المشهورة (فطلقوهن في قبل عدتهن) قالوا فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فإن لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى . وإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف في الأطهار من لا يجوز الجمع في الطهر الواحد . وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحمقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، فما أجد لك مخرجاً . عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال : (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قَبْلِ عَدْتِهِنَّ) . وهذا حديث صحيح^(١) . ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم ، وهذا فهم من دعاله

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٠ - باب نسخ المراجعة بعد

التطليقات الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

النبي ﷺ أن يفقهه الله في الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهوم كما تقرر .
 الوجه الثاني: من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)
 وهذا إنما هو في الطلاق الرجعي ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله ﷺ
 الصحيحة التي لا يُطعن في صحتها ، الصريحة التي لا شبهة في دلالتها ، فدل على أن هذا حكم كل
 طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله . ولهذا قال الجمهور : إنه لا يُشرع له ، ولا
 يملك إبانها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ، لأن الرجعة حقه ،
 وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له ، فلها عليه حقوق الزوجية
 فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث: أنه قال : (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)
 فإذا طلقتها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله ، فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال : (لَا تَذَرِي لَمَلٍّ أَلَّهَ يُخَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) وقد
 فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر ههنا هو الرجعة . قالوا : وأى أمر يحدث
 بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس - قوله تعالى : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
 بِمَعْرُوفٍ) فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس
 على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى : (يَلَيَّاهَا النَّسَبُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قَبْلِ
 عَدَّتِهِنَّ) كما تقدم - وهذا حق ، فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق في طهر أو أطهار ،
 قبل رجعة أو عقد - كما تقدم - لأنه يكون مطلقاً في غير قبل العدة - فلأن تدل على تحريم
 الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرقها بالزوج والزوجة ، لئلا
 يتسارع العبد في وقوعه ومفارقة حبيبته ، وقد وقَّت للعدة أجلاً لاستدراك ألفاظه بالرجعة ،

فلم يبح له أن يطلق المرأة في حال حيضها ، لأنه وقت تقرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهّد في إمساكها لقضاء وطره ، فإذا طلقها في هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا ، مع ما في الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولدٍ منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ، ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها في هذه الحالة إلا لحاجة إليه . فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا في هذه الحال ، أوفى حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها في هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبي ﷺ هذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن يطلق في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلق فيها ، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، إن بداله أن يطلقها فليطلقها . وفي ذلك عدة حكم :

منها - أن الطهر المتصل بالحيضة ، هو وحى حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها في ذلك الطهر ، فكأنه طلقها في الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشيء الواحد .

الثانية - أنه لو أذن له في طلاقها في ذلك الطهر ، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق ، وهذا ضد مقصود الرجمة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجمة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة ، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى في شرعه ودينه .

الثالثة : أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، زال ما في نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق ، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هذا الوجه الذي هو أبعد شيء عن الندم ، فكيف يليق

بشرعه أن يشرع إبانها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع في حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟
فهذه الوجوه ونحوها مما يبين بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هي بعينها تعين عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهي الواحدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

« فَإِذَا بَلَغْنَ » أى : المطلقات اللواتى فى عدة « أَجَلَهُنَّ » يعنى آخر العدة . أى : إذا

قرب انتقضاؤه وشارفنه « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى . فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق

التي أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والسكن وحسن الصحبة « أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ »

أى : أتركوهن حتى تنقضى عددهن فيبين منكم بمعروف ، وهو إيفاءهن ما لهن من حق ،

كالصداق والمتعة ، على ما أوجب عليه لهن .

« وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ » أى : أشهدوا عند الرجمة والفرقة من يرضى دينهما

وأمانتهما .

قال ابن عباس : فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين . وإن لم يراجعها ، فإذا انتقضت

عدتها ، فقد بان من بواحدة ، وهي أملك بنفسها ، ثم تزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ،

ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها ، وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر فى الآية

الوجوب فيهما ، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر فى

الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً ، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره ، فبقى

كسابقه ولاحقه ، وإن كان القرآن لا يفيد المشاركة في الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق ، يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر ، كله مما لا يعد طلاقاً في الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لا بد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتبهاً له . وجدير بمصمة ينوى حلها ، وكانت معقودة أو ثقی عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم . فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزخشرى : قيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولثلاث يموت أحدها فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث .

« وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » أى : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها للشهود له ، ولا للشهود عليه ، ولا لفرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ، ودفع الظلم ، كقوله تعالى (١) .
(كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) انتهى .

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : « ذَلِكَمُ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما فى الآية .
« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ،

إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

« وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » قال الزخشرى : يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] .

ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلق للسنة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغوم ، والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص ، ويرزقه من وجه لا يخطر بهاله ولا يحتسبه ، إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : (ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ) . معنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غوم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن القيس : قال أكثر المفسرين : معنى الآية في الطلاق أى : من لا يتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم في الرجعة . قال : وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت - نقله في (الإكليل) .

وقال ابن القيم في (الإغاثة) : أعلم أنه من اتقى الله في طلاقه ، فطلق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه عن الحيل كلها . ولهذا قال تعالى ، بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) . فلو اتقى الله عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذي شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها ، فإن بداله أن يسكنها في العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تزوج بزواج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتاج إلى حيلة ولا تحليل . ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني طلقت امرأتى ألفاً . فقال : أما ثلاث ، فتحرم عليك امرأتك ، وبقيةن وزر ، اتخذت آيات الله هزواً . وقال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت

حتى ظننت أنه رادّها إليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحمقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! يا ابن عباس ! وإن الله تعالى قال : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك - ذكره أبو داود ^(١) - والبحث طويل الذيل لا يستغنى عن مراجعته .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » أى من يتوكل على ما شرعه ، ويفوض أمره إلى ما جعله المخرج ، فهو كافيه ، لأنه لا دواء أنجع منه « إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ » قرئ بالإضافة ، أى يبلغ ما أراد من أمره ، فمن يتيقن ذلك فوض أمره إليه ، وعول عليه . وقرئ (إن الله بالغ أمره) أى تام وكامل أمره وحكمه وشرعه ، لما فيه من الحكم والرحمة . « قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » أى حدًا وتقديرًا ، حسبًا تقتضيه الحكمة . ومنه تقديره ما قدر فى أمر الطلاق ، مما بينه فى شأنه وتوقيته ، ومعرفة المخرج منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَاللّٰى يَتَّبِعَنِ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أُرْبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللّٰى لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

« وَاللّٰى يَتَّبِعَنِ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أُرْبِتُمْ » أى أشكل عليكم حكمهن ، أو شككنكم فى الدم الذى يظهر منهن لكبرهن ، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة ؟ « فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللّٰى لَمْ يَحِضْنَ » أى من الجوارى لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول ، فعدتهن ثلاثة أشهر . فحذف لدلالة المذكور عليه « وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ »

أخرجه أبو داود فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٠ - باب نسخ المراجعة بعد التطليقات

الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

أَجْلَهُنَّ» في انتضاء عِدَدِهِنَّ «أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أى ما في بطنهن . والآية عامة في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما أن الآية خاصة في المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدتها آخر الأجلين .

قال ابن جرير^(١) : والصواب أنه عام في جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عمّ القول بذلك ، ولم يخص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر في أحكام المطلقات . يجاب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عِدَدِ جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفي الصحيحين^(٢) عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ» أى فلم يخالف إذنه في طلاق امرأته «يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» وهو تسهيل الرجعة مادامت في عدتها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته نفسه إليها بسبب التقوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُوَ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

« ذَلِكَ » أى ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة « أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُوَ إِلَيْكُمْ »

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣٩ - باب وَأَوْكَلْتُ الْأَحْمَالَ أَجْلَهُنَّ

أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث رقم ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

أى لتأتمروا له وتعملوا به . «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا»
أى بالمضاعفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى)

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ » أى من سعتكم التى تجدون ، وطاقتكم ومقدرتكم « وَلَا تُضَارُّوهُنَّ » أى لا تستعملوا معهن الضرر « لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ » أى فى المسكن ببعض الأسباب ، من إزال من لا يوافقن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن ، وللبوائن ، لتقدم سكنى الرجعيات ، ولقوله بعده (وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) فإنه خاص بالبوائن . وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج ، وتحريم المضارة بها ، وإلجائها إلى الخروج . « وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » قال ابن جرير ^(١) أى وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل ، وكن بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن فى عدهن منكم حتى يضعن حملهن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فمن ابن عباس في الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبت طلاقها وهي حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تقطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بها حمل ، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ، ولا نفقة . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذى بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتقطم ولدها ، كما قال الله عز وجل ^(١) : (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ) . فإن لم تكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير ^(٢) : وقال آخرون عنى بقوله : (وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَنَفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضْمَنَّ حَمْلَهُنَّ) كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك . ومن قال ذلك عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

فمن إبراهيم قال : كان عمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتمعة . وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في غير بيت زوجها . قال : ما كنا لنجيز في ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير ^(٣) : والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملاً ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله : (وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَنَفَقُوا عَلَيْهِنَّ) للحوامل دون غيرهن من البائئات من أزواجهن ، ولو كان البوائت من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء . وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدلّ الدليل على أن لا نفقة لبائت ، إلا أن تكون حاملاً . وبالذي قلنا صح الخبر عن رسول الله ﷺ .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثني فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

في (الإكليل) : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلكيّا : وفيها دلالة على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .
وفي قوله : (بمعروف) طلب أن لا يماكس الأب ، ولا تعاشر الأم ، لأنه ولدها معاً ،
وها شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه - قال الزمخشري - .

« وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ » أى ضيق بعضكم على الآخر بالمشاحة في الأجرة ، أو طلب الزيادة ونحوه ، « فَسْتَرْضِعْ لَهُ وَآخَرَى » قال ابن جرير^(١) : أى فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبي مرضعة غير أمه البائنة منه .

وقال الزمخشري : أى فستوجد ، ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاصرة ، كما تقول لمن تستقصيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبق غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبدل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمول ولا مضمون به في العرف ، وخصوصاً في الأم على الولد ، ولا كذلك المبدول من جهة الأب ، فإنه المال المضمون به عادة . فالأم ، إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . انتهى .

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضاً ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاصرتة لا تجدى ، إذ لا بد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان في حكم المعاتب المذكور في الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاصرة فعل الأب والأم ، فكيف يخص الأم بالذكر في الجزاء . وحاصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

في (الإكليل) : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها، وقبل الصبي نديها . وإلا أجبرت عليه .
قال ابن العربي : والآية أصل في وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)
« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ » أي من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أي ضيق عليه « فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » أي على قدر ماله وطاقته « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا » يعني : وسعها وطاقها ، فلا يكلف الفقير نفقة الغني ، ولا أحداً إلا فرضه الذي وجب عليه « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » أي سيؤتي المقل بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلياً للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبيراً لمطلقاتهم ، وتطبيباً لقلوب الجميع ، وتبشيراً عام .

تنبيه :

في (الإكليل) : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر ، لحال المنفق عليه . واستدل بقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا) من قال : لا نسخ بالعجز عن الإتيان على الزوجة . وفي الآية استحباب مراعاة الإنسان نفسه في النفقة والصدقة . ففي الحديث : إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر .

روى ابن جرير^(١) أن عمر بن الخطاب سأل عن أبي عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أحسن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخذها ، فابحث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تأول هذه الآية (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ) .

ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدى حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهَا فَحَاسَبُنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا)

[٩] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا » أى أعرضت عنه على وجه العتوّ والعتاد ، « وَرُسُلِهَا » أى وعن أمر رسله كذلك « فَحَاسَبُنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا » أى على ما قدمت ، فلم تغادر لها منه شيئاً « وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » أى عاقبة ما اكتسبت وجزاءه « وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » قال ابن جرير^(٢) : أى غبناء ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰأُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » يعنى عذاب النار المعدّ فى القيامة « فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « يَٰأُولِيَ الْأَلْبَابِ » أى العقول « الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى صدقوا الله ورسله . نعت للمنادى ، أو عطف بيان له « قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

« رَسُولًا » يعنى محمداً ﷺ ، وجعله نفس الذكر مبالغة ، لذلك أبدل منه « يَقُولُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ » أى لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله « لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى من الضلال إلى الهدى « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا » أى طيبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » أى : المعبود المستحق للعبادة ، مَنْ هذا خلقه . لا ما يشرك معه . وههنا .

لطائف

الأولى - قال الزمخشري : قيل ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسموات ، فهو أمر نجهله ولا نفهمه إلا إذا أريد به أن للأرض سبع طبقات . قال : والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، هو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد فى القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً - أى أرضين - ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السموات سبع ، مراراً عديدة وفى كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وهى الآية الوحيدة التى فهموا منها أن الأرضين سبع . وهى كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .
قال : ولنا فى تفسيرها وجهان :

إما أن تكون (من) فى قوله تعالى (وَمِنَ الْأَرْضِ) زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة .

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أى : أنها إحدى السيارات ، وهو أمر ما كان معروفاً فى زمن النبي ﷺ ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن . والأرض مثل السيارات الأخرى فى المادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السماوات هى متاثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ،

وهي مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة . قال الله تعالى ^(١) (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى شيئاً واحداً (فَفَقَعْنَهُمَا) أى فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السموات تماماً .

وأما على الوجه الثانى : وهو أن (مِنْ) غير زائدة ، فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لى سبعة أصدقاء ، ولى من فلان صديق مثلهم . أى مثلهم فى الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن فى مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس فى القرآن الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى .

الثانية - ذكر ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع السادس ، فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها فى الحسن فيه ، ما مثاله :

وفى صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة . جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل (وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) فى قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) . انتهى .

الثالثة - قرئ (مِثْلَهُنَّ) بالنصب ، عطفاً على (سبع) وبالرفع على الابتداء ، وخبره (من الأرض) .

« يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن . وقوله : « لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » علة لـ (خلق) أو لـ (يتنزل) أو لمضمرب معهما ، كفعل ما فعل لتعلموا . . الخ ، فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] .

قال ابن جرير^(١) : أى تخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته . فإنه لا يمنع من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خافٍ ، وهو محصيا عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٦ - سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية ، وآياتها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ». قال المهايي : ناداه ليُقبل إليه بالسكينة ، ويُذِّبر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبر عنه بالمبهم إشعاراً منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه . وأتى بلفظ (النَّبِيُّ) إشعاراً بأنه الذي نبيء بأسرار التحليل والتحريم الإلهي . والمراد بتحريمه ما أحلَّ له ، امتناعه منه ، وحظره إيَّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ، ليس في ارتكابه جناح . وإنما قيل له (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتوفيقاً لقدره ولنصبه ﷺ ، أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه ، ورفعاً عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خلِّقوا ، ليظهر الله كمال نبوته ، بظهور نقصانهم عنه - كما أفاده الناصر - .

تنبيهات :

الأول : للأثرين في هذا الذي حرمه ، صلوات الله عليه ، على نفسه ، روايات .

فروى البخاري ومسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ١ - باب

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، حديث رقم ٢٠٦٣

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢٠ (طبعنا) .

فلتقل له : إني أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداها فقالت ذلك له فقال : بل شربت عسلًا عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت ! لا تخبرى بذلك أحدًا ، فنزلت الآية .

وروى الشيخان^(١) أيضاً عن عائشة أن النبي ﷺ كان يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه ، فيدنو من كل واحدة منهن . فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس . فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة ، فقلت : والله لنحتالين له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقل لى : يا رسول الله ! أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقل لى : وما هذه الريح ؟ وكان ﷺ يكره أن يوجد منه ريح الكريه ! فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل ، فقل لى : أكلت نحل العرفط ، حتى صار فيه - أى فى العسل - ذلك الريح الكريه . وإذا دخل على فسأقول له ذلك . وقل لى أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابها بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك . فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك . فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يا رسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال . لا حاجة لى به ! قالت : إن سودة تقول : سبحان الله ، لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتى ! و (المغافير) صمغ حلوه رائحة كريهة ينضجه شجر يقال له (العرفط) بضم العين المهملة والفاء .

وفى هذه الرواية أن الذى شرب عندها العسل حفصة ، وفى سابقها أنها زينب . والاستنباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٨ - باب لم تحرم ما أحل الله لك ،

حديث رقم ٢٠٦٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢١ (طبعنا) .

وروى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين ، وكانتا زوجتي النبي ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتني ! فقال النبي ﷺ : والله لأرضينك ، فإنني مسرّ إليك سرّاً فاحفظيه ! قالت : ما هو ؟ قال : إني أشهدك أن سريتي هذه على حرام ، رضا لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ . فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشري ، إن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسر النبي ﷺ ، أظهر الله عز وجل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه : (يَسَاءُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . .) الآيات . وروى أيضاً^(٢) عن الضحاك قال : كانت لرسول الله ﷺ فثاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم : اكنمي عليّ ، ولا تذكري لعائشة ما رأيت ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة ، فلم تزل بنبي الله ﷺ صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفر يمينه ويأتى جاريته .

وروى النسائي عن أنس أن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرماها ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجع ابن جرير أحد السببين المرويين في نزولها على الآخر ، بل وقف على إجمال الآية ، على عادته في أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذي حرمه النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له . وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شرباً من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك . غير أنه ، أى ذلك كان ، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالاً ، فماتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبين له تحلة يمينه . انتهى .
والذى يظهر لى ، هو ترجيح روايات تحريم الجارية فى سبب نزولها ، وذلك لوجوه :
منها - أن مثله يبتغى به مرضاة الضرات ، ويهتم به لهن .

ومنها - أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفة من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لا تحدث صاحبته به شفقة عليها . إلا أن يكن عاتبه فى ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فخرمه . ولكن ليس فى الرواية ما يشعر به . وما زاد على ذلك فن اجتهاد الرواة .

ومنها - أن الاهتمام بإزالة سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن فى المظاهرة عليه ، وإبعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستبدال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهراءه مولاة وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيماً دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روى فى شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على ما يقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبتريها من عضو الزوجية . هذا ما ظهر لى الآن .

وأما تخريج رواية العسل فى هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف فى قولهم : نزلت فى كذا ، كإنبائها عليه مراراً . وكأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواة بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا مانع من العود إلى شربه - والله أعلم - .

الثانى - فى (الإكليل) : استدلل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أو زوجة ، لم يحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير^(٢) إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرد يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين في عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبي صلى الله عليه وسلم حرّمها ، يعني جاريته ، فكانت يميناً - رواه ابن جرير - وسيأتي ما يؤيده . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » أي : شرع تحليلها - وهو حل ماعقده - بالكفارة . والتحلة ، مصدر بمعنى التحليل . « وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ » أي : متولى أموركم « وَهُوَ الْعَلِيمُ » أي بمصالحكم « الْحَكِيمُ » أي : في تدبيره بإحكام بما شرعه وحكم به .

تنبيهات

الأول : قال ابن قدامة في (الروضة) . دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه في تحريم ما أحل له قال عقيبها : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ١ - باب يا أيها النبي - لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث ٢٠٧٢ .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٨ (طبعنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أَيْمَنِكُمْ) وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تَمَمَهُ بلفظ الجمع بقوله : (يَسَاءُ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ) . والمسألة طويلة الذيل في الأصول .

الثاني - قال تقي الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حللت الشيء تحليلاً وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمة ، وهذا المصدر يسمى به المحلل نفسه ، الذي هو الكفارة . فإن أريد المصدر ، فالعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذي هو خلاف العقد .

ولهذا استدل من استدل من أصحابنا وغيرهم كأبي بكر عبدالعزيز ، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ، لأن التحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينفحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنما هي بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما في الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين من وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التي جعلها بدلاً من الوفاء في جملة ما رفعه عنها من الآثار .

الثالث - شمل قوله تعالى (أَيْمَنِكُمْ) تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة ، لدخوله فيه دخولاً أولياً ، بل كل يمين .

قال تقي الدين ابن تيمية في فتاويه : قوله تعالى (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ) نص عام في كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة ، بعد تقدم الخطاب بصيغة الأفراد للنبي ﷺ ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم يخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً ومعنوياً ، مع عمومه اللفظي ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل . فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود في اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه في غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن النفس ، أو ليقطعن رجمه ، أو ليعمن الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ،

أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرصة . ثم إن وفي يمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه . وإن طلق امرأته ، ففي الطلاق أيضاً من ضرر الدين والدنيا ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال : (لِمَ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وذلك يقتضى أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضى ثبوت ذلك التحريم ، لأن قوله لأى شىء استفهام فى معنى النفي والإنكار . والتقدير : لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم . فلو كان الحالف بالنذر والعناق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لكان هنا سبب يقتضى تحريم الحلال ، ولا يبق موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

ومما يوضح عمومهم أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق فى عموم حديث^(١) : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعناق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعى وأحمد ومن وافقهما فى مسألة نذر اللجاج والغضب . فإنهم احتجوا على التكفير بهذه الآية ، وجعلوا قوله (تَحِلَّةٌ أَيْمَانِكُمْ) كفارة أيمانكم عاماً فى اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب فى الحج والعنق ونحوهما ، سواء .

فإلى قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة فى قوله^(٢) (عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ) و (تَحِلَّةٌ أَيْمَانِكُمْ) منصرفاً إلى اليمين المهودة عليهم ، وهى اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ - كتاب الأيمان والنذور ، ٩ - باب الاستثناء فى اليمين ،

حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

(٢) [٥ / المائة / ٨٩] .

إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم ، ولو كان اللفظ عاماً ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بالمخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة ، لقوله ^(١) : مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ . وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة ، فلا كفارة لها ولا حنث . فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبي ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين في هذا كله ، كقوله ﷺ : النذر حلف . وقول الصحابة لمن حلف بالهدى بالعنق : كفر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبي ﷺ . ولإدخال العلماء ذلك في قوله ﷺ ^(٢) : مَنْ حَلَفَ فَقَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَإِنْ شَاءَ فَعَلَ ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ . ويدل على عمومته في الآية أنه سبحانه قال : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ثم قال : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) فافتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدلل به ابن عباس .

وسبب نزول الآية إما تحريمه العسل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله . ولهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وغيرهم ؛ أن تحريم الحلال يمين مكفرة ، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله . وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً . وأيضاً فإن قوله (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقاً . فإن أريد الأول والثالث ، فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى ، ثم فيعم . وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمي الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية . لكن لما أوجبت

(١) أخرجه البخاري في ٧٨ - كتاب الأدب ، ٧٤ - باب من لم ير ! كفار من قال

ذلك متأولاً ، حديث رقم ١٢٩٨ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود في ٢١ - كتاب الأيمان والنذور . ٩ - باب الاستثناء في اليمين ،

حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

امتناع الخالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطياً ، لاشريعياً . فكلُّ يوجب امتناعه من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل في قوة قوله : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » وحينئذ فقوله : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) لابد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلا بد أن يطابق صوره ، لأن تحريم الحلال هو سبب قوله : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) وسبب الجواب إذا كان عامّاً كان الجواب عامّاً ، لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضى للتعميم . وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها . فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) . وهذا صريح في أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصاً به ، وإما شاملاً له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة في السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن النع من فعله بالتحريم ، كالنع منه باليمين ، بل أقوى . فإن اليمين ، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره ، فإنه إذا شرع حلالاً فخرمه المكاف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ماشرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنف في اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جداً ، فإن الحنف إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لمباداه الحنف مع الكفارة .

وأخبر النبي ﷺ^(١) أنه إذا حلف على يمين ، ورأى غيرها خيراً منها كفر عن يمينه ، وأنى

(١) أخرجه البخاري في : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ١٨ - باب اليمين فيما لا يملك

وفي المعصية وفي الغضب ، حديث ١٤٧٦ ، عن أبي موسى الأشعري . ونصه : أتيت =

المحلف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى ، لم يبح في شريعة قط ، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة . وهي تفعله من (الحل) ، فهي تحمل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم . وظهر من قوله تعالى : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) ، عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) .

وقال رحمه الله فيه ، قبل : أما من قال إنه يمين مكفرة بكل حال ، فأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال : (يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...) الآية . ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العام ، ممتنع قطعاً ، إذ هو المقصود بالبَيَان أولاً ، فلو خص خلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال في غاية القوة . فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى في الزوجة ، كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفر .

وقال رحمه الله في (أعلام الموقعين) : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمة لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالخلق أنتى لا تفقد ، ولا هي من لغو اليمين ، وهي يمين منمقدة ، فيها كفارة يمين .

ثم قال في المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال . صح ذلك أيضاً عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبي وسعيد ابن المسيب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعي وأبي ثور ، وخلق

= رسول الله ﷺ في نفر من الأشعرين ، فوافقته وهو غضبان . فاستحملناه . فحلف أن لا يحملنا . ثم قال : والله ! إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير ، وتحملتها .

سواءم رضى الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناولها يقيناً ، فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لنير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التي قصد ذكرها لأجله .

وقال في (زاد المعاد) : لا فرق بين التحريم (في غير الزوجة) بين الأمة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعى وحده ، فإنه أوجب في تحريم الأمة خاصة ، كقارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير في الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعم من تحريم الأمة وغيرها ، فوجب الكفار حيث وجد سببها . وقد تقدم تحريره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنَ أَبْنَاكَ هَذَا ، قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَإِذْ أَمَرَ النَّبِيُّ » يعنى محمداً ﷺ « إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ » هي حفصة في قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبي والضحاك - كما نقله ابن جرير - « حَدِيثًا » وهو تحريم فتاته في قولهم . قال ابن جرير ^(١) : أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحله له ، وقوله : لا تذكرى ذلك لأحد .

« فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ » أى أخبرته بالسرى ، صاحبتهما كما تقدم ، « وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى أطلعه على تحديثها به ، « عَرَفَ بَعْضُهُ » أى عرفها بعض ما أفشته مؤنباً « وَأَعْرَضَ »

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عَنْ بَعْضِ « أَى بَعْضِ الْحَدِيثِ تَسْكَرُماً ، « فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ » أَى الذى لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانها . وفيها حُسْنُ المعاشرة مع الزوجات ، والتلطف فى فى العتب ، والإعراض عن استقصاء الذنب .

وحكى الزمخشري عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام . ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيه ، صلوات الله عليه ، مما أتت به من إفشاء السر إلى صاحبتهما ، ومن مظاهرتهم على ما يلقى راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » أى إلى الحق . وهو ماوجب من مجانبة ما يسخط رسوله . وقد صح^(١) عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن المتظاهرين على رسول الله ﷺ فقال : عائشة وحفصة .

وفى خطابهما ، على الالتفات من النية إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن البالغ فى العتاب يصير المعاتب مطروداً بعيداً عن ساحة الحضور . ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد . « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ » أى تظاهرا وتفقدا على مايسوؤه ، « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ »

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٢ - باب تَبَتَّغَى مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ ، حديث رقم ٧٦ ، وهو حديث طويل ممتع كل الإمتاع .

وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ « أى متظاهرون على من أراد مساءته ، فإذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم مخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أنعم في التنويه بالنبي صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هي هنا بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوه ومناوئه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَسَىٰ رَبُّهُوَ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مِثْلَكَ مَسْلُومَةٍ

مُؤْمِنَةٍ قَانِتَةٍ تَدْبِطُ عِبْدَتِ سَاحَتِ تَبِطُ وَأَبْكَارًا)

« عَسَىٰ رَبُّهُوَ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مِثْلَكَ مَسْلُومَةٍ » أى خاضعات لله

بالطاعة « مُؤْمِنَةٍ » أى مصدقات بالله ورسوله « قَانِتَةٍ » أى مطيعات لما يؤمرن به

« تَدْبِطُ » أى من الذنوب لا يصرن عليها « عِبْدَتِ » أى متعبدات لله ، كأن العبادة

امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن « سَاحَتِ » قيل : معناه صائمات - وسننبه

على ما فيه - « تَبِطُ وَأَبْكَارًا » .

اعلم أن فى توصيف المبدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ،

لا سيما أزواج النبي ﷺ .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من (سَاحَتِ) صائمات أو مهاجرات . وقد

قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير (السائحون) أن الحق فيه هو المعنى الحقيقى ، لعدم ما يمنع منه ،

ولا يصار إلى المجاز إلا لما نفع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية

السياحة للنساء ، كما هي كذلك للرجال ، فعنى قوله تعالى (سَاحَتِ) مسافرات ، سواء كان

السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن

بكونه مع زوج أو محرم لهن ، حفظاً لهن .

• ثم قال: كأن الذي دعا البعض لتفسير (السائمات) بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء الأموراء بالحجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحمة سوى بيت واحد؟! وأما قوله تعالى^(١): (خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها، وهو الرجال. وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه ﷺ في سفره مع أزواجه ؟ فقد كان يقرع بينهن ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها في الدين . وهكذا صح^(٢) أنه ﷺ لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب .

وبالجملة فالسياحة في القرآن الكريم ليست ترمى إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد .

أولاً - إدراك العقولات ، والإحاطة بمغظات السموعات ، كما تتعلمه من آية^(٣): (أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

ثانياً - الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، ومالهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما تتعلمه من قول الكتاب الحكيم^(٤): (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٩] . (٢) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ،

١٠٤ - باب قول الرجل جعلني الله فداك ، حديث رقم ٢٤٦ ، عن أنس بن مالك .

(٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٤) [٤٠ / غافر / ٢١] .

يَذْنُوبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) وقوله (١) (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

ثالثاً - البحث والتنقيب في أنحاء المسكونة بالنظر في الكون، وفي الفنون، للوصول إلى
معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما بحثنا الكتاب الكريم على تسم هذا المرتقى العالى بقوله (٢)
(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ).

رابعاً - الحصول على ربح التجارة كما تتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم (٣) (وَأَخْرَجُوا
يَصْرِبُوهَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ).

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصاً
بالرجل؟ كلا! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله (٤): (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى
الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي، وَأَيَّامًا مَمِينًا). وامتن
على جميع عباده بقوله (٥): (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأُبَرِّ وَالْبَحْرِ) وقال تعالى (٦) (مَتَمِّمًا
لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ) فهل يجوز أن نذهب إلى أن هذه المنن هي من مخصصات الرجل دون
النساء؟ كلا! بل الكل مغمور بهذه المننات، كما هو مقتضى عموم الآيات. انتهى ملخصاً.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أى سبها. وذلك بترك المعاصي،

- | | |
|-------------------------|---------------------------|
| (١) [٣٠ / الروم / ٩]. | (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠]. |
| (٣) [٧٣ / المزمل / ٢٠]. | (٤) [٣٤ / سبأ / ١٨]. |
| (٥) [١٠ / يونس / ٢٢]. | (٦) [٥ / المائدة / ٩٦]. |

وفعل الطاعات، والقيام على تأديب الأهل، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم « وَقُوذَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » أى تَقَدَّ بهما اتقاد غيرها بالخطب « عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ » أى تلى أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية « غِلَظٌ شَدَادٌ » أى جفاة قساة « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » قال الزمخشري . وليست الجملتان فى معنى واحد . فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون بها ولا يابونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، لا يتشاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً ما لم يؤمروا به ، كقوله (١) تعالى (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيد ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون فى كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد بـ (اليوم) وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهى عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَيَا يَمِينِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا » أى توبة ترفع الخروق، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من (النصح) بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذى تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه . من (النصوح) بمعنى الخلوص « عَسَى رَبُّكُمْ » أى بمناحة أنفسكم بالتوبة النصوح « أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ » أى لا يذلهم . تعريض لأعدائهم بالخزى والصغار « نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا » أى أدِّمه أو زده « وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَيَبْسُ الْمَصِيرُ)

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » أى باللسان والبرهان « وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » أى فيما تجاهدكم به ، لتكسر صلابتهم ، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنتهر نفوسهم وتذل وتخضع . « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمْرَأَتَ نُوحٍ وَأُمْرَأَتَ لُوطٍ » أى حالهما « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا » أى بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان ، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان « فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ » أى من عذابه « شَيْئًا وَقِيلَ » أى لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : « أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ » أى مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ

بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[١٢] (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقُوعُ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى من عملهم

وعذابهم « وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى حفظته وصانته « فَنَفَخْنَا

فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » يعنى : جبريل عليه السلام ، أو من روح خلقناه بلا توسط ، وهو عيسى عليه

السلام « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا » أى بصحفه المنزل من عنده « وَكُتِبَ فِيهَا » أى الموحاة . والعطف

للتفسير ، أو الكلمات أعم من الكتب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب

خاصة بالخطوط من الأسفار . « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » أى من الموابطين على الطاعة لله ،

والخضوع لأحكامه . والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشري : مثل الله عز وجل حال الكفار فى أنهم يماقبون على كفرهم

وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لمة نسب ، أو وصلة صهر ، لأن عداوتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله ، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر ، نبياً من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما ناقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناء ما من عذاب الله . ومثل حال المؤمنين في وصلة الكافرين لاتضرهم ، ولاتنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ، ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمر المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه ، لما في التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه في التفليط قوله تعالى ^(١) : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لاتسكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدق عن تقطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثاني : قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال :

مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لمة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من

أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده على أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو الفكاك ، مع عدم الإيمان ، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامراتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال تعالى ^(١) : (لَنْ تَنفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) : وقال تعالى ^(٢) : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا) وقال تعالى ^(٣) : (وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) وقال ^(٤) : (وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وهذا كله تكذيب لأطاع المشركين الباطلة ؛ أن من تعلقوا به من دون الله ، من قرابة أو صهر أو نكاح أو حجة ينفعهم يوم القيامة ، أو يحيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله . وهذا أصل ضلال بني آدم وشر كههم وهو الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الذي بعث الله جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة ، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله ، فتأتي عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أ كفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ، وهما رسولاً رب العالمين .

المثل الثاني للمؤمنين : مريم ، التي لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

(١) [٦٠ / المتحنة / ٣] . (٢) [٨٢ / الانقطار / ١٩] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٨ و ١٢٣] . (٤) [٣١ / لقمان / ٣٣] .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد . فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً . ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقّت في ذكر أزواج النبي ﷺ ، والتحذير من تظاهرها من عليه ، وأنهن إن لم يعطن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصا لهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصا لهما بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصا لالنكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة . ثم ضرب لهما المثل الثاني يحذرهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمریم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قبح الفجار والفساق فيه . وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطین نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتا في حق النبي ﷺ . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن ، والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطین النفس لمن أودى منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث - قال القاشاني : بين تعالى أن الوصل الطبيعية ، والاتصا لات الصورية غير معتبرة في الأمور الأخروية . بل المحبة الحقيقية ، والاتصا لات الروحانية ، هي المؤثرة تحسب . والصورية التي بحسب اللحم الطبعية والخلطة والمعاشرة لا يبق لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا في الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كما حصان مریم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المدة إياها

لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لا تفي بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلية في نار الحرمان ، وجحيم المهجران مع المحجوبين ، ولا تفي هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء في باب العذاب . وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذي قويت فيه قوة محبة الله لصفائه ، وضعت قوة قهره للنفس والشیطان لعجزه وضعفه ، لا يبق في العذاب مخلداً ويخلص إلى النجاة ، ويبقى في النعيم سرمداً ، وإن تعذب بمجاورتها حيفاً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المترينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هي القابلة لفيض روح القدس . المتنورة بتور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكيمة ، والشرائع الإلهية ، الطيبة لله مطلقاً ، علماً وعملاً ، سرّاً وجهرّاً . انتهى ملخصاً .

الرابع - في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (أُمَرَّاتُ فِرْعَوْنَ) على صحة أنسكة السكفار . أقول : ويستدل بقوله تعالى (أُمَرَّاتُ نُوحٍ وَأُمَرَّاتُ لُوطٍ إلى قوله : فَخَاتَاتُهُمَا) على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لا يعد من قلة التورع . وهو جلي . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً في شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ في آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير في قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع . السادس - قال الزمخشري : في دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستمادة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين ^(١) (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) ^(٢) .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٨٥ و ٨٦] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٧ - سُورَةُ الْمَلِكِ

قال المهايغي : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغي أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والفقران ، ورفع الأبنية لخدمته وعدم التفاوت في رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة (تبارك) . وهي مكية . وآيها ثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « قال ابن جرير^(١) : أى تعظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانى : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلو والبركة . وباعتبار تسخيريه عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله^(٢) (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) كلاً بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فعنى (تبارك) تعالى وتعظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من المكنات ، يوجدتها على ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أى : قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٣] .

فَأَمَاتَ مَنْ شَاءَ وَمَا شَاءَ ، وَأَحْيَىٰ مَنْ أَرَادَ وَمَا أَرَادَ ، إِلَىٰ أَجَلٍ مُّعْلُومٍ . أَوْ أَوْجَدَ الْحَيَاةَ ، وَأَزَالَهَا حَسْبَ قَدْرِهِ .

قال القاشاني : الموت والحياة من باب العدم والمملكة . فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له . وعدم المملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود . والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجودي ، فلذلك صح تعلق الخلق به ، كتعلقه بالحياة ، وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان في حسن العمل وقبحه ، أي العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء ، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع العلوم ، فإنه ليس إلا علم الله السكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم ، لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها ، وبهما تتفاضل النفوس في الدرجات ، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت في عالم الملك ذاتي ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقدمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

« وَهُوَ الْمَزِيدُ » أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل « الْغَفُورُ » أي لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ،

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ)

« الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير^(٣) : طباقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهايي : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليم أمر الحكمة في الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ (السماء) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان ، فإنه من السموات ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى ^(١) (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ) أى فليمدد بجبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهاى سماء . ومنه قوله تعالى ^(٢) : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى ^(٣) (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) والكواكب سماوات . فالسموات السبع المذكورة كثيراً في القرآن الشريف ، هي هذه السيارات السبع ، وهي طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب في رعاية الحكمة ، بل راعاها في كل خلقه .

« فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ » أى إن شككت ، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ؟ » أى : خلل . وأصل (الفطور) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هي متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم في سورة (ق) في آية ^(٤) : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٤] .

(١) [٢٢ / الحج / ١٥] .

(٤) [٥٠ / ق / ٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (ثُمَّ أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

« ثُمَّ أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ » أى كرده « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنْقَلِبْ » أى : يرجع « إِلَيْكَ أَلْبَصَرُ خَاسِئًا » أى : مطروداً عن إصابة الطالب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معي كالشئ .

تنبيهات :

الأول - ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ) صفة ثانية لقوله : (سَبْعَ سَمَوَاتٍ) وضع فيها - خلق الرحمن - موضع الضمير للتعظيم ، والأصل (فِيهِنَّ) وتابيه القاضي والقاشاني ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك في خلق السموات ، لا ترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها . وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادئ سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال (ثُمَّ أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لا يفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ) مستأنفاً ، مقررّاً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله - لكان أولى من تخصيصه بوصفية ما قبله ، ويكون كآية ^(١) : (أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وآية ^(٢) : (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) وتلطف بعضهم فقال : في الآية إشارة إلى قياس تقديره : ما ترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى في خلقه من تفاوت .

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثانى - للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب (الفِصل) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نقاه الله تعالى عن خلقه ، فإنّ ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نقاه الله تعالى عما خلق هو شيء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله عز وجل (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئى فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلاً ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستويّاً فى تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها المميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهيئة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شيء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شيء منه أصلاً . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستويّاً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضاً نعلم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لا تفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول في الظلم والإنصاف ، وفي العدل والجور ، وفي الصدق والكذب ، وفي الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما في العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التي ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهي الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لا منفك لهم عنها ، وهي أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً في خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهي أن يرى في خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث - قال الناصر : في قوله تعالى (يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمّر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدركٍ الفطور ، هو الآلة التي يلتبس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ، دل على أنه لا شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ،
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ » قال ابن جرير ^(١) : وهي النجوم . وجعلها (مَصَابِيحَ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذي يضيء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير في قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(وَجَعَلْنَاهَا) على جنس المصاييح ، لا على عينها ، لأنه لا يرى بالسكواكب التي في السماء ، بل يشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها - والله أعلم - .

وقال القاضي : أى وجعلناها لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشیاطین الإنس - وهم المنجمون - .

قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن ، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات^(١) (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمَالِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» أى في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[٧] (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

[٨] (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

[٩] (قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

[١٠] (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[١١] (فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(١) [٣٧ / الصافات / ٦ - ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرذ ذلك وعيد الكافرين عموماً :

« إِذَا آتَوُا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسى ، أو لأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله ^(١) (لَهْمُ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها ، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِيَ تَقُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ » أى تفرق أجزاءها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله .

شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ - كما فى شرح المفتاح الشريفي - وأما ثبوت الغيظ الحقيقي لها ، بخلق الله فيها إدراكاً ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (تكاد) تأباه ، كما فى قوله ^(٢) : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) وقد صرح به علماء المعانى فى بحث المبالغة والغلو . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازى ، أو على تقدير مضاف - كما فى (العناية) - .

« كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُمَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

(١) [١١ / هود / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

« قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا فى التكذيب ، حتى تقينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا فى نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النذر ما جاءت به ، سماع طالب الحق ، وعقل من نبد الهوى « مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : فى عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول - قال الناصر : لو تظن نبيه لهذه الآية لدهادليلا على تفضيل السمع على البصر ، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثانى - قال ابن السمعاني فى (القواطع) : استدل به من قال بتحكيم العقل .
وقال الزمخشري : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : فأقروا بجحدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
« إِنَّا الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه ، وهم لم يروه « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
« وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ » إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ « أى بضمائرهما ، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه . »

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَنْ خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » أى اللطيف بمبادئه ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة (من) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالي : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك في إيصال ما يصلحها سبيل الرفق ، دون العنف . و (الخبير) هو الذى لا يعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك في الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى المليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير^(١) : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وما سواء متمم له ، أو دافع للضرر عنه .
« وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا)
الأمس بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخير له الأرض ، وتذليله
إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميم ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من
العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى :
سافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ، فى أنواع المكاسب والتجارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [١٦] (أَمْنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)
[١٧] (أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ

نَذِيرٍ)

« أَمْنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أمنتهم
العلیّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيثكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِيَ تَمُورُ » أى :
تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .
« أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » وهو التراب ، فيه الحصباء
الصغار ، « فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ » قال ابن جرير^(١) : أى عاقبة نذيرى لكم ، إذا كذبتهم به ،
ورددتموه على رسولى .

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد بين تعالى نذيره لهم في غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرّوا ، ونصر رسوله ، وغلبة جنده ، كما قال تعالى ^(١) (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقراء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وصلاً ، وأثبتها وقفاً ، ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال في (نكير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا الْرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبْصِرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عدداً وعدداً «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإزالة العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسليية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

«أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ» أى باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها ، «وَيَقْبِضْنَ» أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل في بعض الأحيان للفقوى بالتحريك . كما يفعله السابح في الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت في حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

«مَا يُنْسِكُنَّ» أى فى الجو «إِلَّا الرّحمن» أى المفيض لكلّ ما قدّر له ، حسب استعدادده بسمة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

«إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبْصِرٌ» قال القاشانى : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب

مشيئته ، ويودع فيه ما يريد به بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .
ثم بكت تعالى المشركين ، بنفى أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ،

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

« أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ » أى معشر المشركين « يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ » أى إن أراد بكم سوءاً ، فيدفع عنكم بأسه . « إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أى من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضر . أو أنها تقربهم إلى الله زلفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ

وَنُفُورٍ)

« أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ » يعنى المطر ونحوها « بَل لَّجُوا » أى تمادوا « فِي عُتُوٍّ » أى عناد وطفيان « وَنُفُورٍ » أى شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعناداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ)

« أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و (المكب) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سويّاً هو القائم السالم من العثار ، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل الشرك والوحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى الكَبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

[٢٤] (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٢٥] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٦] (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبده ، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى بين الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً ، أو ذا زلفه ، أى قُرْب « سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ظهر عليها آثار الاستياء من السكابة والنم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيता « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ » أى تطلبون وتستمعجون به ، من الدعاء ، أو تدعون أن لا يموت ، من (الدعوى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كان كفار مكة يتربصون بالنبي ﷺ ريب المنون ، تخلصاً من دعوته وانتشارها ، فأمر أن يقول لهم ذلك . أى أخبرونى إن أمانى الله ومن معى من المؤمنين ، أو رحماً بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحماً ، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنى بالعذاب : إما الدنيوى ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخرى ، وهو أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلمون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا ، ونشأته الثانية فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا » أى غائراً لا تناله الدلاء ، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازى: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليرىهم قبح ما هم عليه من الكفر. أى: أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتىكم بماء معين ؟ فلا بد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلاً ، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى ^(١) : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهي مكية . وآياتها ثنتان وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« ن » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف ، قصد به التحدى . أو اسم للسورة ، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً لمخدوف « وَالْقَلَمِ » أى الذى يخط به « وَمَا يَسْطُرُونَ » أى يكتبون . و (ما) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية^(١) : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنْتَ) هو اسم (ما) ، و (بمجنون) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه . فالباء فى (بِنِعْمَةٍ) متعلقة بمعنى النفي المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن ، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير^(١) : من قولهم (جبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منقته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة في العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .
« وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى أدب عظيم . وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .
قالت عائشة^(٢) : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .
قال الرازى : وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته مما رى به ، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب ، والانصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه . وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأخرى بأن يرى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .
« بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهاباً ، إلى أن المصدر يحىء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى) . أى : من كوشف بأسرار العلوم ، وأوتى جوامع السكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

- (١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ،
« وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيمجى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)
[٩] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)
[١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)
[١١] (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبْنِيٍّ)
[١٢] (مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)
[١٣] (عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)
[١٤] (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
[١٥] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
[١٦] (سَنَسِفُهُ ۖ عَلَى الْخُرُطُومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشري : تهيج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلتهم ، وتترك ما أنت عليه
من الحق ، فبالثونك - رواه ابن جرير^(١) عن مجاهد - ثم قال : أى : لو تلى لهم فى دينك
بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلتهم ، فيلغون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه^(٢) .
(وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَا لَقَدْ كُنتَ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤ ، ٧٥] .

وَضِعْفَ أَلْمَمَاتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين في القول بتليين الدهن .
« وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَائِي » أى : كثير الحلف . قال الزخشرى : وكفى به مزجرة
لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى ^(١) (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) . « مَهِينِ »
أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيَّاب طعان : قال ابن جرير ^(٢) : والهمز أصله الغمز . فقييل للمغتاب :
هاز ، لأنه يطمئن فى أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَشَاءٌ بِنَعِيمٍ »
أى يقال لحديث الناس بعضهم فى بعض ، للإفساد بينهم .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صاد عن الإسلام .
« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز فى ظلمهم . « أَثِيمٍ » كثير الآثام .

« عَقْلَمَ » أى جاف غليظ . دعى « بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » أى دعى ملصق فى النسب ، ليس
منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير ^(٣) : ومعنى (بعد) فى هذا الموضع معنى (مع) .
وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على
أن ما بعده أعظم فى القباحة . فـ (بعد) هناك (ثم) الدلة على التفاوت الرتبى ، ، كما مر فى
قوله ^(٤) (بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزخشرى : متعلق بقوله (وَلَا تُطِيعْ) يعنى : ولا
تطمعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذامال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما
بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهِراً بالبنيين ، كذب بآياتنا .
« إِذَا تَنَسَّأَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .
وقوله : « سَنَسِمُهُ وَ عَلَى الْخُرْطُومِ عِدَّةٌ مِنْهُ تَعَالَى بِغَايَةِ إِذْلَالِهِ ، بِمَدِّ تَنَاهَى كِبَرِهِ وَعَجَبِهِ
وزهوهِ وَعَتُوهِ . تقول العرب : وسمته بيسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا
يفارقه . قال جرير ^(١) :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي وَعَلَى الْبُعَيْثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ
قال الرَّمْضِيُّ : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ،
لَتَقْدِمَهُ لَهُ ، وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ مَكَانَ الْعِزِّ وَالْحِمَاةِ ، وَاسْتَقْوَا مِنْهُ (الْأَنْفَةُ) وَقَالُوا : الْأَنْفُ فِي
الْأَنْفِ ، وَحَمَى أَنْفَهُ ، وَفُلَانٌ شَامَخَ الْعَرَنِينَ . وَقَالُوا فِي الدَّلِيلِ : جَدَعُ أَنْفِهِ ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ . فَعَبَّرَ
بِالْوَسْمِ عَلَى الْخُرْطُومِ عَنْ غَايَةِ الْإِذْلَالِ وَالْإِهَانَةِ ، لِأَنَّ السِّمَةَ عَلَى الْوَجْهِ شَيْنٌ وَإِذَالَةٌ ، فَكَيْفَ
بِهَا عَلَى أَكْرَمِ مَوْضِعٍ مِنْهُ ؟ وَلَقَدْ وَسَمَ الْعَبَّاسُ أَبَاعِرَهُ فِي وَجُوهِهَا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
أَكْرَمُوا الْوُجُوهَ ، فَوَسَمَهَا فِي جَوَاعِرِهَا . وَفِي لَفْظِ (الْخُرْطُومِ) اسْتِخْفَافٌ بِهِ وَاسْتِهَانَةٌ ،
لِأَنَّ أَصْلَ الْخُرْطُومِ لِلتَّخْزِيرِ وَالْفِيلِ . وَقِيلَ : سَفَعْلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَلَامَةٍ مَشْوُوهَةٍ يَبِينُ بِهَا عَنْ
سَائِرِ الْكُفَرَةِ ، كَمَا عَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِدَاوَةً بَانَ بِهَا عَنْهُمْ . انْتَهَى .

تَنْبِيْهِ :

قِيلَ : عَنِ الْآيَةِ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٢) : وَأَصْلُهُ مِنْ ثَقِيفٍ ، وَعَدَّادُهُ
فِي بَنِي زَهْرَةَ . أَيْ : لِأَنَّهُ التَّحَقَّقَ بِهِمْ حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَلِذَا سَمِيَ زَيْنًا لِلصُّوْقَةِ
بِالْقَوْمِ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ وَقِيلَ : هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ ، ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَمَانِي عَشْرَةَ مِنْ مَوْلَدِهِ .

(١) مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

لَيْنَ الدِّيَارِ كَأَنَّهَا لَمْ تُحْلَلْ بَيْنَ الْكِنَاسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الْأَعْزَلِ
الْكِنَاسُ : بِيْلَادُ غَنَى . وَالْأَعْزَلُ : لَبْنَى كَلْبٍ وَبِهِ مَاءٌ يُسَمَّى الْأَعْزَلُ . وَاطْلَحَ شَجَرٌ
مِنَ الْمَضَاهِ . (شَرْحُ دِيْوَانِ جَرِيرٍ ص ٤٤٢) .

(٢) انْظُرِ الصَّفْحَةَ رَقْمَ ٢٣ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ (طَبْعَةُ الْحَلِيِّ الثَّانِيَةِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَتْنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كماقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دماهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببليية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الكتاب - على ما روى عن ابن عباس - أو ناس من الحبشة - فى قول عكرمة - أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا حجة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى : ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لا يعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَتْنُونَ » قال المهايمى : أى : ولا يخرجون شيئاً من حق الساكين ، واقتصر عليه . وحكاة الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله - واقتصر عليه ابن جرير^(١) والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله

لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن جرير^(١) : ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفئ بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده^(٢) :

أُطِفَّتْ بِهَا نَهَارًا غَيْرَ لَيْلٍ وَأُلْهِمَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ
(الرخال) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَسَائِمُونَ » أى مستغرقون في سباتهم ، غافلون عما يكرههم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبلستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شئ . أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد في ذلك ابن جرير لأبي عمرو^(٣) ابن العلاء :

أَلَا بَكَرَتْ وَعَاذِلَتِي تَلُومُ تَهْجِدُنِي وَمَا انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (الورقة ٣٩٣) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَسَائِمُونَ . قال : لا يكون الطائف إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد تكلم به العرب فيقولون : أطفئ به نهاراً ، وليس موضعه بالنهار ، ولكنه بمنزلة قولك : لو ترك القطا ليلاً لنام . لأن القطا لا يسرى ليلاً .

قال : أنشدني أبو الجراح العقيلي : (أطفئ بها نهاراً ...) البيت اه .

والرخال جمع رخل (بكسر الراء وفتحها) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل . والجمع أرخل ورخال (يكسر الراء وضمها) ورخلان أيضاً (حاشية ابن جرير) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبي عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو .

يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظني حين هبت عاذلتني تلومني . قال في اللسان : هجد (قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجته) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل .

وقال أيضاً^(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحِ صَرِيمٍ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)

[٢٢] (أَنْ أُغْدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ)

[٢٣] (فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ)

[٢٤] (أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ)

[٢٥] (وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرِينَ)

[٢٦] (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

[٢٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« فتنادوا » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفراء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصریم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل السوداء . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصریم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشيء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصریم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهري : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصریم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصریم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنْ أَعْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَى حَرِّكُمْ » أى زرعكم « إِنْ كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم « أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ » أى فقير . فالجمله مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزخشرى : والنهى عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أريناك ههنا .

« وَاعْدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجِدٍّ من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَدَرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقا حرثها « قَالُوا إِنَّا لَصَّٰلُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظننا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم ، لصالون لطريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق : بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمانا منعمة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أعدلهم وخيرهم رأيا « أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ » أى :

تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظّمهم حين عزموا على عزيبتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيرهم . « قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين ، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفریطنا وعزمننا السيئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمننا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فأننا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنبأوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلة لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدلل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يستطاع . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم . وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تمباً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ)
 [٣٥] (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)
 [٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
 [٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)
 [٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)
 [٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)
 [٤٠] (سَلَامٌ أَيْهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)
 [٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوا بِشُرِّكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)
 [٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)
 [٤٣] (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ » أى
 فى الكرامة والثوبة الحسنی ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما
 ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ *
 إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأتقسّم ، وتشتهونه لكم ، كقوله ^(١) : (أَمْ
 ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

ويتمنون من الأمانى الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانتكم ومزاعمكم .

قال الزمخشري : يقال : لفلان على يمين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به .
يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغالطة متناهية فى التوكيد . (وإنَّ لكم لما تحكمون)
جواب القسم ، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم . ذ (بالغة) - كما قال
الشهاب - معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه
اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه .
« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فليأتوا
بشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى : فى دعواهم .

قال الزمخشري : يعنى أن أحدا لايسلم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب
لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن
يتشبهوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفضع من هول يوم
القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ - رواه ابن جرير (١) .

« وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الخائل .
« خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ
كَانُوا يُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ » أى : لامانع يمنعهم منه . والمراد من
السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

ما أُرثناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى (عَنْ سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية ، وعليه اقتصر الزخشرى ، وعبارته : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشهير المخدرات عن سوقهن فى الحرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم^(١) :

أخو الحرب ، إن عَصَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَرَتْ عن سَاقِهَا الحربُ شَمَرَا
وقال ابن الرقيات^(٢) :

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عن بنيهِ ، وتُبْدِي عن خِدَامِ العَقِيلَةِ العِذْرَاءَ
وجاءت منكراً للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة ، منكراً خارج عن المألوف كقوله^(٣) :
(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنْتُ إِلَى الْأَجْبَالِ ، أَجْبَالِ طِيءٍ وَحَنَنْتُ قَلُوصِي أَنْ رَأَتْ سَوْطَ أَحْمَرَ

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان : * عن بُرَاها العَقِيلَةُ العِذْرَاءُ *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كُدَاءً فَكُدَيْتُ فَالْرُكْنَ فَالْبَطْحَاءَ

كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدَى : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليماني ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرمه . ورفع الشعواء فى البيت قبله ، وخفض العذراء ، إقواء . يتساهل الشعراء فيه . (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سميعة الضري : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استعارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفصل) : ما صح عن النبي ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير (١) :

أَلَا رَبِّ سَامَى الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرًا
والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصاً . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن الآية وعيد دنيوى للمشركين ، لا أخروى . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (٢) : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى (٣) : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ) ثم إنه يرى الناس يدعون

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لَمَنْ رَسَمُ دَارِهِمْ أَنْ يَتَغَيَّرَا تَرَاوَحُهُ الْأَرْوَاحُ وَالْقَطَرُ أَغْصَرَا
أى أن القطر يتراوَح مرة ، والرياح تتراوَح أخرى . والأعصر : الدهور (مخرج

ديوان جرير ص ٢٤٠) . (٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله ^(١) (فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ) انتهى .

قال الرازي : واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لا يمكن حمله على القيامة ، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة ، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلت إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بمظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفي قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » أى كله إلى فإنى أ كفيك ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلى ، وتخلّى بيني وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأْمَلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأْمَلِي لَهُمْ » أى أمهلهم وأنسى في آجالهم ملاوة من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوى .

قال الزمخشري : الصحة والرزق والمدة في العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يعملونه سبباً في الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة . ووصفه بالمثانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم برهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغفون عن وحيه وتنزيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[٤٩] (لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُو نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ لَئِيدَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

[٥٠] (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُو مِّنَ الصَّالِحِينَ)

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمامهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنيئك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغماً . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والوئى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُو نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَئِيدَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشري : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعرء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعرء : الفضاء من الأرض .

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى برحمته . قال القاشانى : لسان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعدادده ، وعدم رسوخ الهياة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُو مِّنَ الصَّالِحِينَ » أى لقيام النبوة والرسالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

[٥٢] (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ » قال الزمخشري : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون المداواة والبغضاء ، يكادون يُزَلُّون قدمك ، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال (١) :

يتقارضون ، إذا التقوا في موطن ، نظراً يُزِلُّ مواطئ الأقدام
وأنشد ابن عباس - وقد مرَّ بأقوام حددوا النظر إليه - :

نظروا إلى بأعين محمرة نظر التيس إلى شِفَارِ الجازِرِ
وبين تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى : « لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى القرآن ، معادة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به في جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه . « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنُّ من جاء بمثله ؟ - وبالله التوفيق - .

(١) قال شارح شواهد الكشف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا في موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٩ - سورة الحاقة

مكية . وآياتها إحدى وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَاقَّةُ)

[٢] (مَا الْحَاقَّةُ)

[٣] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

« الْحَاقَّةُ » أى الساعة الحاقة التى تحق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشيء ، إذا وجب . وقوله : « مَا الْحَاقَّةُ » من وضع الظاهر موضع المضمّر ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » قال بعضهم : من عوائد العرب فى محاوراتهم اللطيفة ، إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شيء ودرايته ، أتوا بإجمال وتفصيل . أى : أى شيء أعلم المخاطب ماهى ؟ تأكيذاً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب . على معنى : أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه من الأوصاف ، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ، ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين ، ولا أدركوههم ، وكيفما قدر حلها ، فهى وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه ، من أنها لا تعلم ، ولا يصل إليها دراية دارٍ ، ولا تبلغها الأفكار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)

[٥] (فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدِيَهُمْ فَاسْلُكُوا بِالْطَّاعَةِ)

[٦] (وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيشٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ)

[٧] (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا

صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَلْوِيَّةٍ)

[٨] (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ » أى بالساعة التى تفرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم . قال الزخشرى : ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة ، زيادة فى وصف شدتها . ولما ذكرها ونغمها ، أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

« فَأَمَّا ثَمُودُ » وهم قوم صالح عليه السلام « فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ » أى بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة ، أو بطغيانهم . و (الطاغية) مصدر كالعافية .

« وَأَمَّا عَادُ » وهم قوم هود عليه السلام « فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ » أى : شديدة المصروف والبرد « عَاتِيَةٍ » أى : متجاوزة الحد المعروف فى المهبوب والبرودة .

« سَخَّرَهَا » أى : سلطها « عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعات من (حسمت الدابة) ، إذا تابعت بين كتيها . شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع السكى القاطع للداء . أو معناه : نحسات ، حسمت كل خير واستأصلته . أو قاطعات ، قطعت دابرهم . هذا على أن (حُسُومًا) جمع حاسم ، كشهود وقمود . فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر . أى تحسم حُسُومًا ، أو بأنه مفعول له . أى سخرها عليهم للحسوم ، أى الاستئصال . وقد قيل : إن تلك الأيام هى أيام المعجز . والعامية تقول : (المعجوز) وهى التى تكون فى عجز الشتاء ، أى آخره . « فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي » أى هلكى ، جمع صريع « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَلْوِيَّةٍ » أى ساقطة مجتثة من أصولها كآية^(١) : (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ » أى : بقاء . أو نفس باقية ، أو بقية .

(١) [٥٤ / القمر / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخَاطِئَةِ)

[١٠] (فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)

[١١] (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

[١٢] (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)

« وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ » أى : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود « وَالْمُؤْتَفِكَتُ » وهى قرى قوم لوط « بِالْخَاطِئَةِ » أى : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجازى النسبة . « فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » أى : زائدة فى الشدة . « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ » أى : كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصى ، وتكذيبه ، عليه السلام « حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » أى السفينة التى تجرى فى الماء . قال ابن جرير ^(١) : خاطب الدين نزل فىهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حملوا فى الجارية ، فكان حمل الذين حملوا فيها من الأجداد ، حملاً لذريتهم .

« لِنَجْعَلَهَا » أى تلك الفعل التى هى إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين « لَكُمْ تَذْكِرَةً » أى : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده فى نصر رسله ، وتدمير أعدائه . « وَتَعِيَهَا » أى تحفظها « أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » أى حافظة لما سمعت عن الله ، متفكرة فيه .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)

[١٤] (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)

[١٥] (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[١٦] (وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

[١٧] (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » أى : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع في بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

« وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » أى : رفعتا وضربتا بيمضهما

من شدة الزلازل . وفي توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لذلك الأرض والجبال وخراب العالم ، هى وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى .

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى : نزلت النازلة ، وهى القيامة .

« وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى : انصدعت « فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » متمزقة .

« وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » أى : جوانبها وأطرافها حين تشقق . « وَيَحْمِلُ عَرْشَ

رَبِّكَ فَوْقَهُمْ » أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها « يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ » أى : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش (العرش العظيم) ، أو العرش الذى

يوضع فى الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، - والله أعلم - انتهى .

ومثله ، من الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهاها . وتقدم فى سورة الأعراف ،

في تفسير آية^(١) (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية، فتذكره .
 وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكه تعالى للسموات والأرض ، وبـ (الثمانية)
 السموات السبع والأرض . وعبارته : (وَيَحْمِلُ) بالجذب (عَرْشَ رَبِّكَ) أى : ملك
 ربك للأرض والسموات (فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها
 يوم القيامة ، (تَحْمِيلُهُ) أى : السموات السبع والأرض .

قال : وهذا يدل على أن (السبع) ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية
 يحملون العرش ، أى : ملك الأرض والسموات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم .
 ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جدًا .

ثم قال : ولا وجه لمعترض يقول : إن حملة العرش منسبحة ، لقوله تعالى^(٢) : (الَّذِينَ
 يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) فكيف تسبح السموات والأرض؟
 لأنه يجاب بقوله تعالى^(٣) : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[١٩] (فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ)

[٢٠] (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ)

[٢١] (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[٢٢] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[٢٣] (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[٢٤] (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٧] . (٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ » أى : على ربكم للحساب والمجازاة « لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ »
أى سريرة كانت تخفى في الدنيا بستر الله .

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبَيِّنَاتٍ » أى : علامة لفوزه « فَيَقُولُ هَآؤُمُ أَقْرَأُوا
كِتَابِيَّ » أى : تمالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : لحقها أن تحذف وصلا ، وتثبت وقفاً ، لتصان حركة الموقف عليه ،
فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها في الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل
بنية الوقف . وإثباتها وصلاً قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .

« إِنِّي ظَنَنْتُ » أى : علمت « أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ » أى جزأى يوم القيامة . أى :
فاعددت له عذته من الإيمان والعمل الصالح .

« فَهَوَّ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ » أى : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى (مرضية) .
أو الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها
نفسها راضية مجازاً . ويجوز أن يكون فيه استمارة مكنية وتخيلية ، كما فصل في (المطول) .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا » جمع قُطْف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها
« دَانِيَةٍ » أى قريبة سهلة التناول .

« كُلُوا » أى : يقال لهم كلوا « وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »
أى : الماضية في الحياة الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالٍ فَيَقْرُلْ يَلِيَّتِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّ)

[٢٦] (وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيَّ)

[٢٧] (يَلِيَّتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

[٢٨] (مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي)

[٢٩] (هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ)

[٣٠] (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

[٣١] (ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

[٣٢] (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

[٣٣] (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[٣٤] (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[٣٥] (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ)

[٣٦] (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ)

[٣٧] (لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبَشِّرَ بِهِ فَيَقُولُ « أَيْ : عندما يلاق العذاب » يَلَيْتَنِي

لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةٌ * وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٌ « أَيْ : أى شيء حسابى .

« يَلَيْتَنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ » قال ابن جرير^(١) : أى ياليت الموتة التى مئها فى الدنيا

كانت هى الفراغ من كل مابعداها ، ولم يكن بمعداها حياة ولا بعث . و (القضاء) هو الفراغ .

وقيل : إنه تمنى الموت الذى يقضى عليه ، فتخرج منه نفسه .

« مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ » أى : ما دفع من عذاب الله شيئاً .

« هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ » أى ملسكى وتسلطى على الناس . أو حجتى ، فلا حجة لى

أحتج بها .

« خُذُوهُ » أى : يقال لخزنة النار : خذوه بالقهر والشدة « فَغُلُّوهُ » أى : ضموا يده

إلى عنقه ، إذ لم يشكر ما ملكته .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« ثُمَّ أَتَجَحِّمُ صَلَوَهُ » أى : أدخلوه ليصلى فيها ، لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ « أى حلقة منتظمة بأخرى ، وهى بثالثة ، وهلم جرا .
« ذَرُعَهَا » أى : مقدارها « سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَأَسْلُكُوهُ » فأدخلوه فيها . أى : لفوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقتها مرهقاً ، لا يقدر على حركة .

قال القاشانى : والسبعون فى العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعين ثم علل استحقاقه ذلك ، على طريقة الاستئناف ، بقوله : « إِنَّهُ وَكَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » أى : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجداد المهين .

« وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أى : إطعامه ، فضلاً عن بذله ، لتناهى شحه .
« فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ » أى : قريب تأخذه الحمية له .

« وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » أى : من غسالة أهل النار وصديدهم .
قال ابن جرير^(١) : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو (غسلين) - فعلين - من الغسل من الجراح والدبر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين .

« لَا يَأْكُلُهُوْ إِلَّا الْخَاطِثُونَ » أى . الآثمون ، أصحاب الخطايا . يقال : خطى الرجل ، إذا تعمد الخطأ . قال الرازى : الطعام ما هيى* للأكل . فلما هيى* الصيد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمى طعاماً . كما قال^(٢) :

* تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ*

(١) انظر الصفحة رقم ٦٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) صدره : * وخيل قد دَلَقْتُ لها بخيل*

وقائله عمرو بن معدى كَرَبَ (نوادر أبى زيد ص ١٤٩) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

[٣٩] (وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[٤٠] (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٤١] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)

[٤٢] (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٤٣] (تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » أى : بالمشاهدات والغيبات . وهذا القسم - كما قال الرازى - يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمّل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلوى والسفلى ، وهكذا . وتقدم فى (الواقعة) الكلام على كلمة (لا أقسم) فتذكر .

« إِنَّهُ » أى : القرآن « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وهو محمد ﷺ ، يبلغه عن الله تعالى ، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه .

« وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » أى : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعلة وخيالاته ، بعد المشرقين .

« قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ » . تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه ، عناداً وعتوًّا . والقلة كناية عن النفي والعدم . ونصب (قَلِيلًا) على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر . أى إيماناً وزماناً . والناصب (تُؤْمِنُونَ) أو (تَذَكَّرُونَ) . و (مَا) زائدة - هذا ما قاله ابن عادل - وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

« وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ » أى كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان « قَلِيلًا »

مَا تَذَكَّرُونَ « أى تتمظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان فى الأول ، والذكرى فى الثانى ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين ، لا ينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله فى ترك الإيمان ، وهو أ كفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكري ما ، لأن الكاهن يأخذ جُملاً ، ويجيب عما سئل عنه ، ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحق لإخباره عن بعض الغيبات بكلام منشور ، فتأمل .

« تَنْزِيلٌ » أى هو تنزيل « مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى ممن ربهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزل وأوحاه ليهتدوا به إلى سبيل السعادة ، ومناهج الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

[٤٥] (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

[٤٦] (ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)

[٤٧] (فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ » أى افترى علينا . وسمى الكذب تقوُّلاً ، لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعّل . و (الْأَقَاوِيلِ) إما جمع (قول) على غير القياس ، أو جمع الجمع كالأناعم ، جمع أقوال وأنعام . قيل : تسمية الأقوال المفتراة (أقاويل) تحقيراً لها ، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

« لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » قال ابن جرير^(١) : أى لأخذنا منه بالقوة منا والقدره ، ثم لقطعنا منه نياط القلب . وإنما يعنى بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخره بها . وقد قيل : إن معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا منه باليد اليمنى

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذى السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده ، فأقنه ، وافعل به كذا وكذا : قالوا : وكذلك معنى قوله (لَا خَذَنًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أى لَا هَتَاهُ . كالذى يفعل بالذى وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشري : المعنى لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاملة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه . فعنى (لَا خَذَنًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا بيمينه . كما أن قوله (لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) لقطعنا وتينه ، وهذا بين . انتهى .

وما قرره الزمخشري أبلغ في المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ، لأن قوله (بِالْيَمِينِ) بعد (لَا خَذَنًا مِنْهُ) بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله (مِنْهُ) زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً - كما في (العناية) - .

« فَمَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » أى ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تَقَوَّلَ علينا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ لِلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ)

[٥٠] (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٥١] (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)

[٥٢] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« وَإِنَّهُ » أى القرآن « لَتَذْكُرَةَ الْمُنْتَقِينَ » أى عظة لمن يتقى عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده . « وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ » أى له ، إشاراً للدنيا والهوى . أى فنجازيكم على إعراضكم . « وَإِنَّهُ وَلِحَسْرَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به . « وَإِنَّهُ وَلِحَقِّ الْيَقِينِ » أى للحق اليقين الذى لا ريب فيه . « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى دُم على ذكر اسمه ، وادأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالماقبة لك ، ولن اتبعك من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٠ - سورة المعارج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَائِلٌ » . وهي مكية . وآياتها أربع وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع في الآخرة، وهو قولهم ^(١) (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة - فيما رواه النسائي عن ابن عباس - وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففي الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِلْكَافِرِينَ) صفة ثانية لـ (عذاب) ، أو صلة لـ (واقع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ » أى رادّ يردّه من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (وَيَسْتَمِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقوله تعالى « ذِي الْمَعَارِجِ » قال الرازي: المعارج جمع معرج، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى ^(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) . والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها - قال ابن عباس في رواية: أى ذى السموات . ومماها معارج لأن الملائكة

يعرجون فيها .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيتها - قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب ،
وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها - أن المارج هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

قال ابن جرير^(١) : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، في يوم
كان مقدار صعودهم ذلك ، في يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد
من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ،
كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن (في يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .
فمن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .
والمقدار المذكور إما حقيقى ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تَمْتَعُ بِأَيَّامِ السُّرُورِ ، فَإِنَّهَا قِصَارٌ ، وَأَيَّامُ الْغَمِّ طَوَالٌ

ونقل الرازى عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ما خلق الله إلى
آخر الفناء . فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر
بخمسين ألف سنة . ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأننا لا ندرى كم
مضى وكفى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية^(٢) (يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنْ)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُؤُهُ إِلَى يَوْمِ كَانَ مِقْدَارُهُ - أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (ولا منافاة في التقدير ، لأن المعنى به الاستطالة ، لشدة على الكفار ، أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)

[٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا)

[٧] (وَنَزَلَهُ قَرِيبًا)

[٨] (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

[٩] (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)

[١٠] (وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

[١١] (يُبْصَرُونَهُمْ ، يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِيهِ)

[١٢] (وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ)

[١٣] (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)

[١٤] (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)

« فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى : على ما يقولون . ولا يضيق صدرك ، فقد قرب الانتقام منهم .
« إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا » أى : العذاب الدنيوى أو الآخروى « بَعِيدًا » أى : وقوعه ، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَزَلَهُ قَرِيبًا » أى قرب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب ، أو ددى الزيت . (يوم) إما ظرف لـ (قريباً) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » أى : كالصوف .
 « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .
 « يُبْصِرُونَهُمْ » أى يعرفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه
 على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .
 « يَوْمَ الْمُجْرِمِ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِمَنْيَةٍ » أى
 الذين هم حل شفقتهم .
 « وَصَحْبَتِهِ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .
 « وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « الَّتِي تُسَوِّيه » أى تضمه إليها عند الشدائد .
 « وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض .
 عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهَا لَأُتَىٰ)

[١٦] (نَزَاعَةً لِّلشَّوَىٰ)

[١٧] (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٨] (وَجَمَعَ فَأُوَعَىٰ)

« كَلَّا » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار للوعود بها الجرم « لَأُتَىٰ » أى لهب
 خالص . « نَزَاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة
 الرأس . « تَدْعُوا » أى إلى صليتها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة .
 « وَجَمَعَ » أى المال « فَأُوَعَىٰ » أى جعله فى وعاء وكثره ، ومنع حق الله منه ، فلم يتركه ،
 ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[٢٠] (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

[٢١] (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيناه بقوله :
« إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا
مَسَّهُ الْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى « مَنُوعًا » أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[٢٣] (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[٢٤] (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

[٢٥] (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[٢٦] (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوْمِ الدِّينِ)

[٢٧] (وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ)

[٢٨] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

[٢٩] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

[٣٠] (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[٣١] (فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيعون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفف الذى أدبرته عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل ^(١) (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعم من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقاً سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كلاً ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبي : أن فى المال حقاً سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » قال ابن جرير ^(٢) : أى ورجلون أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيعون له فرضاً ، ولا يتعدون له حداً . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَتَّبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ » قال ابن جرير^(١) : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم . « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قال ابن جرير^(١) : أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيعونه . « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ » أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيرة ولا مبدلة . « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً . قيل : الحفظ عن الضياع ، استيعار للإتمام والتكميل للأركان والهيئات . ولذا قال القاضى : وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً ، باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها . « أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِينَ)

[٣٧] (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِينَ» أى مسرعين للحضور ، ليظفروا بما يتخذونه هزواً .

وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عَزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَيْطَمَعُ كُلُّ أَمْرِيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتصف بصفات أهلها النوة بها قبل . « كَلَّا » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع في غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يمجزه إهلاكمهم ، فليحذروا عاقبة البنى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)

[٤١] (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجند إلى راية الأمير . « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » أى من الخزي والهوان . « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ملاحق بهم . « ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧١ - سورة نوح

عليه السلام

قال المهايي: سميت به لاشتغالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآياتها ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٣] (أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » أى يغفو عنها . و (مِنْ) إما مزيدة ، أو تبعية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجب ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يماجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لَا نَبْتُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا)
 [٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا)
 [٧] (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ ذَانِهِمْ وَأُصْغِتُوا)
 ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)
 [٨] (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)
 [٩] (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)
 [١٠] (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)
 [١١] (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)
 [١٢] (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا)
 [١٣] (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)
 [١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاعت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ،
 « رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي » أى إلى التوحيد والعمل الصالح « لَيْلًا وَنَهَارًا » أى دائماً بلا فتور
 ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّي
 كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه « جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ ذَانِهِمْ »
 أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة « وَأُصْغِتُوا ثِيَابَهُمْ » أى تغطوا بها من كراهة النظر
 إلى وجه من ينصحه فى الدين « وَأَصْرُوا » أى على الشر والكفر « وَأُصْغِتُوا ثِيَابَهُمْ »
 أى تماظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ

جَهَارًا* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، ما بين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بينى وبينهم فى خفاء . وهذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُ وَكَانَ غَفَّارًا » أى لذنوب من تاب وأناب . « يُرْسِلِ السَّمَاءَ » أى المطر « عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندهم « وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفي لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغة . وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله . ومنه قوله (١) :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلى ، من قصيدته التى مطلعها :

أَسَاءَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ عَنِ السَّكَنِ أَمْ عَنْ عَهْدِهِ بِالْأَوَائِلِ ؟
السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى - أى يرتفع إليهم ويريدهم ،
ومنه قوله تعالى : فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ - والمسكن : المنزل نفسه .
ويروى بيت الشاهد هكذا :

إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّيْرُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وخالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب :

التي تنوب ، تنجى وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تاراتٍ ، تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنةً ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته . هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل ، وينير وجه الأرض . « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء . « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمهدونها . « لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُوَ

إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا)

[٢٣] (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

[٢٤] (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)

[٢٥] (مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوهُم نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا)

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا على ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ، « وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

« وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا » أى متناهياً كبيره ، فإن (الكبار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا »

قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لـكـب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث)

لبنى غطفان من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى السكلاع من

حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا - أى كل منها - خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير^(١) : كان من خبرهم - فيما بلغنا - من محمد بن قيس قال : كانوا قومًا

صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون

بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون

دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غُطَيْف بالجرف عند سبأ ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لمحير لآل ذى الكَلَع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت .

تنبيهات :

الأول - قال الرازي : في انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعيماً منه في حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهي ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على السنة الرحل والسمار ، لأن سيرة القرن المتقدم في العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخاري : حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت . وعجيب من الرازي أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثمّام .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧١ - سورة نوح ، ١ - باب ودّاء ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثاني - قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : حكى الواقدي قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يفوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها . انتهى .

الثالث - قال ابن القسيم في (إغاثة اللهيان) أول ما كاد به الشيطان عبادة الأصنام ، من جهة المكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتي الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن^(١) النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل^(٢) ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، وقال^(٣) : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلاخلافه في ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٦٢ - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذي أخرجه كذلك في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧١ - باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم في صحيحه في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث رقم ٩٢ عن فضالة بن عبيد ، و ٩٣ عن علي بن أبي طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّوا» أى : الرؤساء «كثيرون» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى^(١) : (رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) . « وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا » أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به « تَمَامًا خَطِيئَتِهِمْ » أى من أجلها « أَغْرِقُوا » أى بالطوفان « فَأَدْخِلُوا نَارًا » أى أذيقوا به عذاب النار « فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا » .

قال الزمخشري : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى^(٢) : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) .

وقال الرازي : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

« وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » أى أحداً .

قال ابن جرير^(٣) : يعنى به (الديار) من يدور فى الأرض فيذهب ويحى فيها ، وهو (فيما) من الدوران ، ديوارا اجتمع اليا و الواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرت ياء مشددة . والعرب تقول : ما بها ديار ولا عريب ولا دوى ولا صافر ولا نافخ ضمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال ، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم ، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتربى بهيأتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » قال ابن جرير^(١) : أى رب اغفر عني ، واستر على ذنوبي وعلى والدي ، « وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا » قال ابن جرير^(١) : أى لمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل : بيتي منزلي . « وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارُكًا » أى هلاكاً وخساراً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٢ - سُورَةُ الْجِنِّ

قال المہامی : سمیت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا في قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .
وهی مکیة . وآیہا ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)

[٢] (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن نفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهنط - كما في (المجمل) - . قال القاشاني : قد مرّ أن في الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيات النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، علبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومها وإدراكاتها . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملوكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتمل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تترجر من الارتقاء إلى الأفق السماوي فتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبينا محمداً ﷺ . انتهى .

وفي الآية - كما قال القاضي - دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام مارآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .
 « فَقَالُوا » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا » قال المهاجى أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .
 « عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .
 « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَأَمَّا مَنْ يَشْرِكْ بِرَبِّهِ »
 أَحَدًا « أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول - هذا المقام شبيه بقوله تعالى (١) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) الآية . وقد روى البخارى (٢) عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعون له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ! إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمننا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : (قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٢ - سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم^(١) أيضاً وزاد في أوله : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رأيهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثاني - قال الماوردي : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول . أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبي المبشر به ، وكلا الأمرين في الجن محتمل . انتهى .

الثالث - قال الرازي : في الآية فوائد :

إحداها - أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .
وثانيها - أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فأمنوا بالرسول .

وثالثها - أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .
ورابعها - أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .
 وخامسها - أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .
 وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .
 ولما سمعوا القرآن ، ووقفوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفر الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذها صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، وزهوه عنه ، فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

« وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أي تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(١) أخرجه في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعنا) .

قال ابن جرير^(١) : الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جدّ في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذي يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تكون له صاحبة ولا ولد ، لأن صاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانة وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شيء يكون منه ولد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُ وَكَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلهم ومغويهم « عَلَى اللَّهِ شَطَطًا » أى قولاً

ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة

الحدة . والمراد منه نسبة صاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق ، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم

السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبين لهم بالقرآن كذب السفيه

وافترأوه . « وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

روى ابن جرير^(٢) عن ابن عباس قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي فى الجاهلية

فيقول : أعوذ بعزير هذا الوادى ، فزادهم ذلك إثماً . فى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميمهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعا .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرق . وقال ابن زيد : كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال : إني أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكرك الاستعاذات المأثورة ، فإنها للإرشاد لذلك . روى مسلم ^(١) عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : في الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفي الآية تأويل غريب نقله الرازى . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف ، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . انتهى . والضمير المرفوع في (فزادوهم) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غياً وإثماً وضلالاً . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوّاً .

و (الرهق) في الأصل غشيان الشيء ، نخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

(١) أخرجه في مسلم : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٥٥٥٤ (طبعنا)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

[٨] (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مِثْلَ حَرِّ سَائِدٍ شَدِيدًا وَشُهَبًا)

[٩] (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلى أن الجن « ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ » أى فى جاهليتهم
« أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا » أى رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيدهم وما فيه سعادتهم.

أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالًا) (وَأَنَّهُمْ

ظَنُّوا) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » أى تطلبتنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَا فِيهَا مِثْلَ

حَرِّ سَائِدٍ شَدِيدًا وَشُهَبًا » أى حَفْظَةً وَرَوَاجِمَ . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ،

وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشري : وفى قوله (مِثْلَ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك

قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب .

والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على

رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

« وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعمهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أَرَادَهُ اللهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه خير أريد بهم ، وذلك بعثة نبي مصلح يرشد إلى الحق .
قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا)

[١٢] (وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُنْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ وَهَرَبًا)

[١٣] (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

[١٤] (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

[١٥] (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

[١٦] (وَالْوِاسْطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِينَهُمْ مَّاءَ غَدَقًا)

[١٧] (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

« وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » أى قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه ، أو الكافرون « كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقا شتى . وهذا بيان للقسمة قبل . أى كنا مثلها أو ذويها . و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه . و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدة) كالقطعة .

« وَأَنَا ظَنَنَّا » أى علمنا « أَنْ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءاً
« وَلَنْ تُعْجِزَهُ وَهَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشري : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم
أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ،
ولا يُنجي عنه مهرب .

« وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِ »
أى صدقنا بأنه حق من عند الله ، « فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص
من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلة ، وتلحقه هيئة معذبة موجبة
للخسوء والطرود . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى .
« وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ،
« فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخّوا رشداً
عظيماً ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى
للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعدهم قاسطهم ، وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال (فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب
الراشد . « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس .
« وَأَلَّوْا أَسْتَقِيمُوا » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى الطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل
« لَا سَفِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق ، وهو الكثير ،
عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه
بالأولى . « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خلّوا منه . « وَمَنْ يُعْرِضْ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقاً .

قال الزمخشري : الصعد : مصدر صعد . يقال : صعد صعداً وصعوداً . فوصف به العذاب لأنه يتصعد المذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

« وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام ، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدَّ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهب الحنابلة إلى أنه لا يجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

« وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بمضها فوق بعض ، تعجباً مما رأوه من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُوا) للجن . وقد بين ذلك حديث البخارى كما تقدم . وجوز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى : لما قام رسولاً يعبد الله وحده ، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهروا عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين - حكاه الزمخشري - ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد به بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » أى فليس ذلك بيدع ولا مفكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقضى . « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلوني بالعذاب .

قال الشهاب في توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضّرّ النقي ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر في الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، ولا غيياً ولا رشداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّي لَنْ مُبْجِرٍ نِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ

نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّي لَنْ مُبْجِرٍ نِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءاً « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » استثناء من قوله (لَا أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحي ، وأحكام الحق . « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فلم يسمع ما جاء به ، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخرى . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا)

[٢٦] (عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)

« قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا » أى غاية تطول مدتها . « عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » أى حرساً من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانى : (رصداً) أى حفظة إمام من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملوكوتية والربانية . وإمام من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخطط كلامهم من الوسوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية ، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشري : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا لكل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين ،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . انتهى .

وأجاب أبو السمود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جليلة الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إله رسولاً ارتضاء لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالاته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالاته بأن يكون معجزة دالة على صحته ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعمامة التكليف الشرعية التي أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم ، وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة ، وما تتوقف هي عليه من أحوال الآخرة التي من أجلها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التي من أجلها قيام الساعة ، فلا يظهر عليه أحداً أبداً . على أن بيان وقته يُخلّ بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القصية من مراتب الكشف بالرسل ، لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح . انتهى وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحاً للنسقي في الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إله رسولاً قد ارتضاء لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلع على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان (من ارتضى) . والولى إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر ببناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولى فهي معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازى : وعندى أن الآية لادلالة فيها على شيء مما قالوه - يعنى الزخشرى ومن تابعه - والذي تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفى في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله : (إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُو رَحْمَتِي أَمَدًا) يعني : لأدري وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد . وبالجمله فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكنى فى العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حلت ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال ^(١) (وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّمَسِ وَتَزُولُ الزُّلُمَاتُ كَالْبُحْبُورِ) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفضة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقاتله . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك . وناقشه فى العناية بأن المرضى حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه . هذا ، ونقل النسفى عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم : فى هذه الآية تكذيب المنجمة ، وليس كذلك ، فإن فيهم من يصدق خبره ، وكذلك المتطبية فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لا يعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره ، وبقي علمه فى الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقه زعماء بأن معرفة مواقيت الكسوف ، وخواص المفردات

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يقيس للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب في شيء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتق بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد في العبرة. وقد أوردنا عليه السلام إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأييد النخل إذ قال ^(١) (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى. فاحفظه فإنه من المضمون به على غير أهله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ بَلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

« لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ » متعلق بـ (يَسْأَلُ) غاية له. والضمير إما لـ (الرصد)، وإما لـ (مَنْ أَرْتَضَىٰ). والجمع باعتبار معنى (من). أى ليبلغوا، فيظهر متعلق علمه. وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة في الحث عليه، والتحذير عن التفريط فيه. « وَأَخَصَىٰ بِمَا لَدَيْهِمْ » أى بما عند الرصد، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْأَلُ) جىء بها لتحقيق استغنائها تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد. « وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » أى فرداً فرداً لسمعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره.

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في: ٤٣ - كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٣ - سُورَةُ الزَّمَلِ

قال المهايمى : سميت به لدلالته على عظم أمر الوحي ، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل .
وهى مكية ، قيل : إلا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ » إلى آخر السورة ، وآيها عشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ)

[٢] (قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٣] (نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا)

[٤] (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ » أى المزمل . من (تزل) بئياه إذا تلفف بها . فأدغم التاء فى الزاى خوطب ﷺ بحكاية حاله وقت نزول الوحي ، ملاطفةً وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزل الزمّل ، إذا تحمل الحمل . ففيه استمارة . شبه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة . قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقي ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت فى نزول سورة (المدثر) لا فى هذه السورة ، كما سيأتى إن شاء الله ، إلا أن يقال : ها بمعنى واحد .

« قُمْ أَلَيْلَ » أى : فيه للصلاة ، ودع التزل للمجوع « إِلَّا قَلِيلًا » أى بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن ومهماته التى لا يمكن بقاءه بدونها .

ثم بين تعالى قدر القيام خيراً له بقوله : « نِصْفَهُ » أى نصف الليل بدل من الليل . « أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ » أى من النصف « قَلِيلًا » أى إلى الثلث .

« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » أى النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلاً وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عدله .

« وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرَئِيَ لِآيَاتِهِ تَبْيِينًا ، وَتُرْسَلَ فِيهِ رَسَلًا .

قال الزمخشري : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يحىء المتلو منه شيئاً بالشعر المرتل ، وهو المفاج المشبه بنور الأفحوان ، وأن لا يهذه هذا ، ولا يسرده مرداً .

تنبيه :

قال السيوطي : في الآية استحباب ترتيل القراءة ، وأنه أفضل من الهذبه ، وهو واضح . وقد ثبت في السنة أنه ﷺ كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً ، وأنه كان يقف على رؤوس الآي .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذؤوا القرآن هذ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل . قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » أي رصيناً ، لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عدها . ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوز بالثقل عنه . أو ثقيلاً على المتأمل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلاً تلقّيه ، لقول عائشة (١) رضي الله عنها : رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وعلى كل فالجملّة معللة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٤ - حدثنا

عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

« إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره « هِيَ أَشَدُّ وَطْأً » أى موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال . « وَأَقْوَمُ قِيلاً » أى أسدّ مقالاً وأصوبه . قال ابن قتبية : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول ، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطى عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هى المعانى المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أراً . وأقوم قيلاً ، أصح مما تخرجه الأفكار بالنهار ، خلو السمع والبصر عن الاشتغال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)

[٨] (وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)

[٩] (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

« إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » أى تقبلاً فى مهماتك ، واشتغالاتك بها ، فلذا أمرت بقيام الليل . « وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ » أى دم على ذكره ليلاً ونهاراً . قال الزمخشري : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره . « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » أى أخلص إليه ، بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيماً . « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أى تكل إليه مهامك ، فإنه سيكفيكها . قال ابن جرير ^(١) : أى فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)

[١١] (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

[١٢] (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا)

[١٣] (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)

[١٤] (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى من الأذى والفرى « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى بالإعراض عن مكافاتهم بالمثل ، كما قال تعالى ^(١) (وَدَعِ أَذْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ » أى دعنى وإياهم ، وكل أمرهم إلى ، فإن بى غنية عنك فى الانتقام منهم . « أُولِيَ النَّعْمَةِ » أى التمتع ، يريد صناديد قريش ومترفهم . « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » أى تمهل عليهم زماناً ، أو إمهلاً قليلاً . « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا » أى قيوداً « وَجَحِيمًا » أى ناراً شديدة الحر والانتقاد « وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ » أى ينص به آكله فلا يسيغه ، « وَعَذَابًا أَلِيمًا » أى ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه . أى فلا ترى موكولاً إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » أى تضطرب وترتج بالزلزال ، « وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا » أى رملاً متفرقاً منشوراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)

[١٦] (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ » أى بإجابة من أجب وإباء من أبى
 « كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » أى بدعوه إلى الحق . « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
 فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا » أى ثقيلاً ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً فى اليم .
 القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

[١٨] (السَّمَاءِ مُنْفِطِرٌ بِهِ ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)

[١٩] (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » أى كيف تقون أنفسم
 إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله فى الهول ما ذكر .

قال ابن أبى الحديد : يقال فى اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصى الأطفال ، كلام جار
 مجرى المثل . وليس ذلك على حقيقته ، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير خلّاهم فى الآخرة
 إلى الشيب . والأصل فى هذا أن الهموم والأحزان إذا توالى على الإنسان شاب سريعاً .
 قال أبو الطيب ^(١) :

والهم يحترم الجسم نحافةً ويشيب ناصية الصبي ويهرم

« السَّمَاءِ مُنْفِطِرٌ بِهِ » قال الزمخشري : وصف لليوم بالسدة أيضاً . وأن السماء على

عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد وجوه : منها - تأويله بالمشتق . ومنها - أنها
 على النسب ، أى ذات انقطاع ، نحو : مرضع وحائض . ومنها - أنها تذكر وتؤنث .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لهوى القلوب سريرة لا تعلم عراضاً نظرتُ وخِلْتُ أنى أسلمُ

الديوان ص ٢١٨ (طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤) .

ومنها - أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فيقال : سماءة ، وفي اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء في (بِهِ) سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى (في) .
« كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » أى لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم . « إِنَّ هَٰذِهِ » أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد « تَذَكُّرَةٌ » أى موعظة لمن اعتبر بها واتعظ ، « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى بالإيمان به ، والعمل بطاعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلَيْلٍ وَإِصْفَهُ وَثُلَاثُهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنَّنَا نَحْصُوهُ قِتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ، وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلَيْلٍ وَإِصْفَهُ وَثُلَاثُهُ » أى تهجد فيه هذه الثارات المختلفة ، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالاً لأمره وتبتلاً إليه ، « وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ » أى يعلمهم كذلك ، « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى أن يجعلهما على مقادير يجريان عليها ، فتارة يعتدلان ، وتارة يزيد أحدهما في الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم - أشار إليه ابن كثير - . أو المعنى : يقدر فيهما ما شاء من الأوامر . ومنه تقديره في قيام الليل ما قدره ، مما أمر به أول السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً . « عَلِمَ أَنَّنَا نَحْصُوهُ » أى قيام الليل ، على النحو الذى

دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للخرج والعسر « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى عاد عليكم باليسر ورفع الحرج . « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » أى فى صلاة الليل بـلاتقدير . أو المراد : لا تتجاوزوا ما قدره لكم ، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم فى قيام الليل كله ، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى السكالات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلى الليل كله ، مخافة أن لا يصيب مما أمر به من قيام ما فرض عليه - نقله الرازى - .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى » أى يضعفهم المرض عن قيام الليل « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » أى للتجارة وغيرها ، فيعتمدون ذلك عن قيام الليل « وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى لنصرة الدين ، فلا يتفرغون للقيام فيه « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » أى من القرآن . ولا تحرجوا أنفسكم ، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

تنبيهات :

الأول - ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

روى ابن جرير^(١) عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ وسلم حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالغضب - وكان بهم رحماً - نفثى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : يا أيها الناس ؟ اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما دمتم عليه . ونزل القرآن . (يَسْأَلُهَا الْمُزْمِلُ مَلْ قُمْ أَلَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ...) الآية ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكتوب بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل قال ابن كثير : والحديث فى الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة . وهذا السياق قد يؤم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هى مكية . انتهى كلامه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أقول : ويمثل هذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : (ونزلت الآية) الاستشهاد بها في قضية تنطبق عليها - كما بيناه مراراً - .

وأخرج أيضاً ^(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً . فسق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا (عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ . . .) الآية . فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق .

وعن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت (يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ) قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ) فاستراح الناس . وهكذا روى عن سعيد والحسن وعكرمة وقادة .

قال ابن حجر في (شرح البخاري) : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره الروزي . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإبراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطي في (الإكمال) : قوله تعالى (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به على نذب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبي ﷺ خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً ، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة ما فيه . وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للنذب ، يرى أن آخر السورة تعليم لهم الرفق بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه ما يدل على عنايتهم بالندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة في ربطهم الجبل للتعلم به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثاني - قال ابن كثير : في قوله تعالى (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) تعبير عن

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان ^(١) (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك . وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتمين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزاء . واعتضدوا بحديث (المسيء صلاته) الذى فى الصحيحين ^(٢) : ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين ^(٣) أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : لا صلاة إلا أن تقرأ بفاتحة الكتاب . انتهى .

الثالث - فى قوله تعالى (وَءَاخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) علم من أعلام النبوة . قال ابن كثير : هذه الآية ، بل السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية .

الرابع - قال ابن الفرس : فى قوله (وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) فضيلة التجارة ، لسوقها فى الآية مع الجهاد .

أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتينى عليه الموت بعد الجهاد فى سبيل الله ، أحب إلى أن يأتينى وأنا أتمس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية . وقال السيوطى : هذه الآية أصل فى التجارة .

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦٠ .

وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، حديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعنا) .

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » أى زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة .

« وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » يعنى به بذل المال فى سبيل الخيرات على أحسن وجه ، كأن يكون من أطيب المال ، وإعطائه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المن والأذى . وسر الأمر بـ (الحسن) أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالى بأى شئ وأى مقدار يعطى منه ، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا . « وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ » أى فى الدنيا من صدقة أو نفقة فى وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر « تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » أى ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا . « وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ » أى سلوه غفران ذنوبكم ، « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأتاب ، ورحمة أن يماقهم عليها بعد توبتهم منها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤ - سُورَةُ الْمَدَثَرِ

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن (يَسْأَلُهَا الْمُدَّثِّرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) كما سيأتي بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخاري^(١) عن يحيى بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَسْأَلُهَا الْمُدَّثِّرُ) . قلت : يقولون (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، ففوديت فنظرت عن يميني ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خافي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثروني وصبوا علي ماء بارداً . قال ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً . فنزلت (يَسْأَلُهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ » .

وروى الشيخان أيضاً^(٢) عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٤ - سورة المدثر ، ١ - حديث يحيى

حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني . فذرُوني ، فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (أَقْرَأْ بِأَمْرٍ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعدُ . هذا وجه الجمع : أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة .

وروى الطبراني عن ابن عباس ؛ أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه وتذر ، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

- [١] (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)
- [٢] (قُمْ فَأَنْذِرْ)
- [٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)
- [٤] (وَإِيَّاكَ فَطَهِّرْ)
- [٥] (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)
- [٦] (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرْ)
- [٧] (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى التلطف بثيابه لغوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلى الجسد . وأصله (المدثر) فأدغم . خوطب بذلك حالته التى كان عليها وقت نزول الوحي . أو لقوله : دثرونى - كما تقدم - . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كاللثام واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أوفى الإحاطة . والأول أتم .

« قُمْ » أى من مضجعتك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنْذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان في ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير .
« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير^(١) أى فمعظم بمبادته ، والرغبة إليه في حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشاني : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير ، لا يعظم في عينك غيره ، ويصغر في قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .
« وَرَبَّكَ فَطَهِّرْ » أى : بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره أن يتطهر ويظهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .
قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بمهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدره . ثم أنشد لغيلان بن سلمة^(٢) الثقفي :

وإني ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا منْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَعُ
وفي الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفي الثانى تجوز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه ، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفي .

قال في اللسان (ث و ب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجور كفر . واحتج بقول الشاعر :

إني بحمد الله ، لا ثوبَ غادر لبستُ ولا عن خَزِيَةٍ أَتَقَنَعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنتره ^(١) :

* فشككتُ بالرمح الأصم ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بمحرّم *

واستصوب ابن الأثير في (المثل السائر) الوجه الأول . قال في الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا اللبوس . وهذا لا بدله من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون في هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارة قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه ^(٢) :

إن السيوف مع الذين قلوبهم
كقلوبهن ، إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده
مثل الجبان بكفّ كل جبان . انتهى
ويكفي دليلاً ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينعصر في الحقيقة . نعم ،
المقبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

(١) من معلقته التي أولها :

هل غادر الشعراء من متردّم
أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

المتردّم : الموضع الذي يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهي .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبّي ، من قصيدته التي مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجمان
هو أولّ ، وهي المحل الثاني

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاي يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجس) اسم للقبیح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله (١) : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق . والجملة من جوامع السكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهر الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر ما يؤدى إليه من الشرك والمعاصى . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سبيه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرى بضم الراء ، وهو لفة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره . « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال (٢) : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد من ، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة . وجوز القفال أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء . فسمى طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض ، والتفات النفس إليه تعففاً وكالاً وعلوّهمة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسعين للعدّ والوجدان . وسبق في سورة الروم في قوله تعالى (١) : (وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبِّاٍّ لَّيْرَبُّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ) كلام في هذه الآية أيضاً فارجع إليه .
« وَارَبِّكَ فَاصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمُّ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ » أى نفخ فى الصور . و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمُّ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هين ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفى قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا)

[١٣] (وَبَنِينَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا)

[١٧] (سَارَّهُقَهُ وَّصَعُودًا)

« ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » أى مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالاً يشهدون معه المحافل والجامع ، أو حضوراً معه يأنس بهم ،

لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخرى .

وهذا أظهر لقوله « كَلَّا » أى لا يكون ما يأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة

هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُ وَكَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَارَّهُقَهُ وَّصَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب

الشاق الصعب الذى لا يطاق - قاله الزخشرى - .

قال الشهاب : ومعنى كونه مثلاً ، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

في الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .
ثم علل إدهاقه ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُ وَفَكَرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُ وَفَكَرَ » أى ماذا يقول في هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ »
أى فى نفسه ما يقوله وهىأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلق ما يكذبه
وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب
غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للمطف بـ (ثُمَّ) الدالة على
تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده . ولذا ساغ
المطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشريّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجبيا من تقديره وإصابته
فيه المحرّ ورميه الفرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ،
أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ،
واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار
بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ)

[٢٥] (إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

«ثُمَّ نَظَرَ» أى فى ذلك المقدّر . أى تروى فيه . قال الرازى : وهذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط . وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

«ثُمَّ عَبَسَ» أى قطب وجهه كبراً وتهيوّاً لقذف تلك الكبيرة «وَبَسَرَ» أى كلج وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخاتلته ، والحسود فى آثار حقه على صفحات وجهه . «ثُمَّ أَدْبَرَ» أى عن الحق «وَاسْتَكْبَرَ» أى عن الإيمان به . «فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأتريه عن غيره . «إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق ؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضهم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : تقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجمة . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالوا : ما هو بساحر . لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ! إن لقوله للحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن قرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة ، وفي ذلك ، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليملو وما يعلو ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات - رواه بن جرير ^(١) - .

وتم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبي عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر في (الإصابة) : والصواب خالد وهشام واليد . فأما عمار ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشا بثوه للنجاشي ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبي ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلي .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ)

[٢٨] (لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم . وهو بدل من (سَارُّهُقَهُ وَصَعُودًا) بدل اشتغال ، لاشتغال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ » قال الزخشرى : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذر هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شىء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ » أى محرقة للجلود ، من (لَوَحْتِ الشَّمْسِ) إذا سودت ظاهره وأطرافه . و (الْبَشَرِ) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . أو اسم جنس بمعنى الناس . وجوز أن يكون المعنى : لأتحة للناس ، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبشر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة العلوية أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية المذاب الأخرى ، تفوق زبانية الجبابرة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول المذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَا ذَا آرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ » أي خزنتها « إِلَّا مَلَائِكَةً » أي وهم أقوى الخلق بأسًا ، وأشدّهم غضبًا لله ، ليباينوا جنس المعذنين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أي من مشركي قريش . أي إلا عدة من شأنها أن يفتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والمهزء .

قال الجبائي : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبي : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعتبر إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من التشابه الذي أمروا بالإيمان به . « لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أي رسالة النبي صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين الفاسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم في نفس الأمر على هذا العدد ، معللاً باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشيء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟ والجواب : أن الجمل يطلق على معنيين :

أحدهما - جعل الشيء متصفاً بصفة في نفس الأمر .

وثانيهما - الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجمل بالقول . أي وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عدداً يقتضى فتنهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أي وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان... الخ. وعبر عن الإخبار بالجمل ، لمشكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ... الخ - هذا ما قرره شرّاح القاضي - .

«وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا مَثَلًا» أى حتى يخوفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض ، وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة تفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلاً . وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالتيقوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتباب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازي : إن قيل : لم سموه مثلاً ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جملة مثلاً لشيء آخر ، وتنبهياً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ» أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» قال الزمخشري : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يميز عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال في تنزيهه ، وإلا فلا يعلم جنوده التي يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب الغار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندي هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأنيده لما قبله بالمعنى الذى ذكرناه . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرَ)

[٣٣] (وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحَ إِذْ آسَفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى

لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرَ * وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر .

« وَالصُّبْحَ إِذْ آسَفَرَ » أى أضاء . ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها ، والاستدلال

بآياتها ، كما تقوم فى سورة (الصافات) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم ، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لما تضمنته من معنى التعميم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً . فـ (نذيراً) بمعنى الإنذار ، كنكير بمعنى الإنكار . أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة . أى كبرت منذرة ، فـ (نذيراً) مصدر مؤول بالوصف ، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف . و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاءوا التقدم والفوز ، أو التأخر والهلاك . أو خبر مقدم ، و (أَنْ يَتَقَدَّمَ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضع أن يصلى ، كآية^(١) (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) وفى الثانى بُعد . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[٤٠] (فِي جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ)

[٤١] (عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ)

[٤٣] (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(١) [١٨ / الكهف / ٣٩] .

[٤٦] (وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ)

[٤٨] (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الرهن رهنه بأداء الحق . « فِي جَنَّاتٍ » أى هم فى جنات لا يدرك وصفها « يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ الْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانى : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها ، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأننا سألناهم عن حالهم بقولنا :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا » أى بلسان الحال أو المقال « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختييار الراحة البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية ، والخوض فى الباطل ، والهزل والهذيان ، والتكذيب بالجزاء ، وإنكار المعاد . « حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » أى من نبيٍّ أو ملك ، لو قدر على سبيل فرض الحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير^(١) : أى فما يشفع لهم الذين شفعمهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد ، فتشفعمهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفعٌ لبعض خلقه فى بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ)

[٥٠] (كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ)

[٥١] (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

[٥٢] (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً)

[٥٣] (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ)

[٥٤] (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)

[٥٥] (فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ)

[٥٦] (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ)

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فإلهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعطوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة الغفار . « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصبه قفص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبى ﷺ . ونحوه آية (١) (وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) وآية (٢) (وَلَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ) وآية (٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . .) الآية .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّا » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك
للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال :
« بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ،
لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان
بتنزيله . « كَلَّا » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُ وَتَذَكُّرُهُ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » أى فاعظم
وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى ذكرهم
واتعاضهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ،
مما كان يخامرهم من إعراضهم ، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » أى حقيق
بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به
وأطاعه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٥ - سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قال المهاجري : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ،
بحيث تقتصر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .
وهي مكية . وآيها أربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[٢] (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » قال القاشاني : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، في القسم بهما ، تعظيماً لشأنهما ، وتناسباً بينهما . إذ النفس اللوامة ، هي المصدقة بها ، المقرة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة في الخير ، وأعمال البر ، تيقناً بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسياناً .
ومر الكلام على (لَا أُقْسِمُ) في مواقفه قبل هذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)

[٤] (بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)

« أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ » عليه ، وهو لتبعثن . قال القاشاني : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعيانها .

« بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » أى بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التي هي أطراف خلقته وتماها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا أَمَامَهُ)

« بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا أَمَامَهُ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شيء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : (أَمَامَهُ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر في المستقبل . على أن إرادته وحسابه هما عين الفجور . وفي إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونمى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه. وقيل: حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشاني : أى ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية ، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها ، متمتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[٧] (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)

[٨] (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)

[٩] (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[١٠] (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)

[١١] (كَلَّا لَا وَزَرَ)

[١٢] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

[١٣] (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ » أى متى يكون ؟ استبعاداً وهزواً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله (يفجر) ، أو بدل منه والاستئناف بياني ، كأنه قيل : لم يريد الدوام على الفجور ؟ قيل : لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ » أى تحير ودهش . أى لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أى عند الموت . « وَخَسَفَ الْقَمَرُ » أى ذهب ضوءه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أى جمع بينهما فى ذهاب الضوء ، فلا ضوء لواحد منهما . وقيل : إنها يجعلان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه ^(١) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن زيد : جمعا فرى بهما فى الأرض . « يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » أى الفرار . أى يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعله بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب الفر ، « لَا وَزَرَ » أى لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » أى مستقر العباد ، من نار أو جنة . أى مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ » أى من عمله الذى يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أى منه ففرط وقصر فيه ولم يعمل .

قال الشهاب : (مَا قَدَّمَ) كناية عما عمل ، و (مَا أَخَّرَ) ما تركه ولم يعمل . وهو مجاز مشهور فيما ذكر . أو ما قدمه ، ما عمله ، وما أخره ، عمل من اقتدى به بعده عملاً له ، كأنه وقع منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[١٥] (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ)

« بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » قال القاشاني : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيئات أعماله المكتوبة عليه في نفسه ، ورسوخها في ذاته ، وصيرورة صفاته صوراً أعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : (بَصِيرَةٌ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو (بَصِيرَةٌ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فلا إسناد مجازى . أو هى بمعنى دالة مجازاً . أو هو استعمارة مكنية وتخييلية . و (الْإِنْسَانُ) مبتدأ ، و (بَصِيرَةٌ) خبره ، و (عَلَىٰ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة (حجة) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلاً عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم ، وأنهم في دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن ينكر القلب ما تدفعه انقطة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجيء بالعدر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروى للعطش .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)

[١٧] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)

[١٨] (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ و)

[١٩] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ و)

«لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجُلَ بِهِ» أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي ، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلسف منك . «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ و» أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء . «وَقُرْآنَهُ و» أى أن تقرأه بعد فلا تنسى «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ و» أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام ، «فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ و» أى كن مقفياً له ولا ترأسه . «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ و» أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نبينته على لسانك .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرهما . ولفظ البخارى^(١)

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرك شفطيه إذا أنزل عليه ، ف قيل له (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) يخشى أن يتفلسف منه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ و) أن يجمعه فى صدرك (وَقُرْآنَهُ و) أن تقرأه (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ و) يقول أنزل عليه (فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ و * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ و) أن نبينه على لسانك . زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك ، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبي ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تسلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . معنى : أن هذه الآية نظير قوله تعالى^(٢) (وَلَا تَمْجُلْ بِأَلْسِنَةٍ أُنْزِلَتْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٤ - حدثنا موسى بن إسماعيل ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٤] .

حديث رقم ٥٠

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحي.

الثاني - ذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة - على تأويلهم المتقدم - وجوهاً :

منها - تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان - والمرء مفقون بحب العاجل - حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة ، الذي هو منشأ الكفر والعناد ، المؤدى إلى إنكار الحشر والمعاد . فالنهي عن العجلة في هذا يقتضى النهي فيما عداه ، على آكد وجه . وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه .

قاله الشهاب .

ومنها - أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أوردته بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال في الكهف ^(١) (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) إلى أن قال ^(٢) (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ) الآية . وقال في طه ^(٣) (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) إلى أن قال ^(٤) (فَتَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

ومنها - أن أول السورة لما نزل إلى قوله (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ) صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلى قوله (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم عاد الكلام إلى تسكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازي : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألقى إليك بالك ، وتفهم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٩] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٠٢] . (٤) [٢٠ / طه / ١١٤] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك - قاله الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) - .

الثالث - استدلو على التأويل السابق بقوله تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخي . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضي أبو بكر بن الطيب ، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى ، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان ، فلا . قال الآمدى : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان المجهول . يقال (بان الكوكب إذا ظهر) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والمحمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمر المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصري : يجوز أن يراد البيان التفصيلي ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالي ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله (بيانه) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك - قاله الحافظ في (الفتح) - .

وجوز القفال أن تكون (ثم) للترتيب في الأخبار . أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب . وضعفه الرازي بأنه ترك للظاهر من غير دليل .
الرابع - ما قدمناه من معنى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل في مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازي - : إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله ^(١) (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمٍ وَآخِرٍ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له ^(٢) (أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) . فإذا أخذ في القراءة تلجأ لسانه من شدة الخوف ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٤] .

وسرعة القراءة ، فيقال له (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجتمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد في الدنيا ، وأشد التهويل في الآخرة . ثم قال القفال : فهذا وجه حسن ، ليس في العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق . وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بين الأئمة المناسبة التي أثنوا عليها ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه - هو فيما يظهر - فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثر على المأثور ، الذي قد يكون مدرکه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبي ﷺ في تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان في مبدأ البعث النبوي ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع - كما قال ابن حجر - أن يخبر النبي ﷺ بذلك بعد ، فيراه ابن عباس ، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

[٢١] (وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)

[٢٢] (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ)

[٢٣] (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[٢٤] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)

[٢٥] (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها . « وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » أى كالحة ، لجهامة هيأتها ، وهول ما تراه هناك من الأحوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تفصم فقار الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من (بها) إلى الوجوه - مراداً بها الذوات - شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)

[٢٧] (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

[٢٨] (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)

[٢٩] (وَالتَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

[٣٠] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أعلى الصدر . وإضمـارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماوى مَا يُغْنِي الرَّاهِ عَنْ الْفَتَى إِذَا حُشِرَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
قال الرازى : يكفى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد
ابن الصمة :

ورب عزيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقى
ونظيره قوله تعالى ^(١) : (حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ) . « وَرَقِيلٌ مَنْ رَاقٍ » قال ^(٢)
ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين ،
فلم ينفذوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فلا استفهام بمعنى الطلب لراقٍ أو طبيب .
وجوز كونه بمعنى الإنكار ، بأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .
لطيفة .

قال الواحدى : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن . فلا يجوز إظهار نون (مَنْ) فى
قوله (مَنْ رَاقٍ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (مَنْ رَاقٍ) و (بَلْ رَانَ)
قال أبو على الفارسى : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحدى : والوجه أن يقال قصد الوقف
على (مَنْ) و (بَلْ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدها . وهذا غير مرضى من القراءة . انتهى
نقله الرازى .

« وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به ، أنه فراق الدنيا والأهل والمال .
« وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما
ساقاه ، إذا التفتا إلى الكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة (القلم) .
والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الكشف عن الساق ، ووجهه ظاهر ، لأن المصاب
يكشف عن ساقه ، فكيف ينزل هذا عليه ؟
قلت : الأمر كما ذكرت ، لكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحده ، حتى صار

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عبارة عن كل أمر فظيع - كما أشار إليه الراغب - انتهى .
 «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ» أى سوفه إلى حكمه تعالى .
 القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ)

[٣٢] (وَلَيْكِن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ)

[٣٣] (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ)

[٣٤] (أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ)

[٣٥] (ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ)

[٣٦] (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[٣٧] (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَىٰ)

[٣٨] (ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣٩] (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٠] (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخْشِيَ الْمَوْتَىٰ)

« فَلَا صَدَقَ » أى بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أى ما زكاه « وَلَا صَلَّىٰ » أى الصلاة التى هى رأس العبادات ، التى سها عنها . « وَلَيْكِن كَذَبَ » أى بدل التصديق « وَتَوَلَّىٰ » أى بدل الصلاة التى بها كمال التوجه إلى الله تعالى « ثُمَّ » أى مع هذه التقصيرات فى جنب الله تعالى « ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ » أى يتبختر فى مشيته . وأصله (يتمطط) أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات

الأول - الضمير فى الآيات للإنسان المتقدم فى قوله تعالى (أَيْحْسَبُ الْإِنْسَانُ) .

الثاني - قال الرازي : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياء . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ماصلي ، ولكنه تولى ، وأعرض . وأما ما يتعلق بدنياء ، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال في مشيته .

الثالث - دلت الآية على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع - قال الرازي : قال أهل العربية : (لا) ههنا في موضع (لم) فقله : (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) أى لم يصدق ولم يصل ، وهو كقوله ^(١) (فَلَا أُفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) أى لم يفتحهم . وكذلك ما روى ^(٢) : أرايت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الكسائي : لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً بها ، أو مقدرأ . أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولا يقولون مررت برجل لا يحسن ، حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدرفهوكقوله (فَلَا أُفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) ثم اعترض الكلام فقال (وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكْ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَمْ) وكان التقدير : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير في قوله (فَلَا أُفْتَحَمَ) أى أفلا افتحهم ، وهلا افتحهم . انتهى « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » أى ويل

(١) [٩٠ / البلد / ١١] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارى في صحيحه في :

٧٦ - كتاب الطب ، ٤٦ - باب السكانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، ونصه : أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداها الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، ففقت ولدها الذى في بطنها . فاقتصموا إلى النبي ﷺ فقضى أن دية ما في بطنها غرة : عبد أو أمة . فقال ولّى المرأة التى غرمت : كيف أغرم بإرسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبي ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاء متكرراً متضاعفاً .
 وقيل : المعنى بُعِداً لك ، فبعداً في أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً في أمر أخراك - حكاية
 الرازي عن القاضي - ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً :
أحدها - أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثاني - أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه - يعني أبا جهل - فاستندكره عدو الله لعزته
 عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث - أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم
 ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يا محمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل
 لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول - .
 لطيفة :

تفسير (أَوَّلَى لَكَ) بـ (ويل لك) قال الشهاب : هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ،
 فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمى أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام في لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائي من (الولى)
 واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تسكره . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه
 قول الأصمى : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه (أفعل) من الويل ، فقلب . وقيل فَعَلَى ، ولذا لم ينون . ومعناه
 ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و (لك) الخبر . وقيل : إنه
 اسم فعل مبنى ، ومعناه وَلَيْكَ شر بعد شر .

ونقل الزمخشري عن أبي علي أنه عَلِمَ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن
 الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل (يوم أيوم) غير منقاس ، ولا يفرد عن
 الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل ، لا يسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس . فاذا ذكر بعيد
 من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كإليق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعنى : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .
 « أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » أى : هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ،
 مع أنه الإنسان الذى أودع العقل وعلم البيان ، وغرز فى طبعه أن يعيش مجتمعا ، وخص من
 المواهب ما فضل على غيره . فن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته ، وإعلامه بسبيل هدايته ،
 وأن لا يترك خابطاً فى متائمه جهالته ، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله :
 « أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُفُوسٌ مِّنْ مَّيِّمٍ يُمْنَى » أى يصب فى الرحم .
 « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ » أى دماً « فَخَلَقَ » أى قدر أعضائه « فَسَوَّى » أى سوى تلك
 الأعضاء لأعمالها وعدلها .

« فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ » أى الصنفين « الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » أى لبقاء نوعه ، يعمر
 الدنيا إلى الأجل الذى كتبه وقدره .
 « أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » أى فيوجد لهم بعد مماتهم لعارة الآخرة .
 وقد روى أن النبى ﷺ كان إذا قرأها قال : سبحانك ، فبلى - رواه أبو داود عن رجل
 من الصحابة . ورواه أيضاً عن أبي هريرة بلفظ : من قرأ (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ) فأنتهى إلى
 (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) فليقل : بلى . ورواه الإمام أحمد
 والترمذى أيضاً - والله أعلم - .

بحمده تعالى وعونه ، كمل هذا الجزء فى أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمزلنا فى زقاق الكتبي ، فى خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسمى

الدمشقى

تم الجزء السادس عشر ، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر ،

وفيه تفسير مابق من سور الكتاب الكريم

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها	رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٨٥١	٦٦ - سورة التحريم	٥٦٤٥	٥٦ - سورة الواقعة
٥٨٧٤	٦٧ - سورة الملك	٥٦٧٠	٥٧ - سورة الحديد
٥٨٩١	٦٨ - سورة ن	٥٧٠٤	٥٨ - سورة المجادلة
٥٩١٠	٦٩ - سورة الحاقة	٥٧٣٣	٥٩ - سورة الحشر
٥٩٢٣	٧٠ - سورة المعارج	٥٧٥٧	٦٠ - سورة المتحنة
٥٩٣٢	٧١ - سورة نوح	٥٧٨٠	٦١ - سورة الصف
٥٩٤٢	٧٢ - سورة الجن	٥٧٩٦	٦٢ - سورة الجمعة
٥٩٥٧	٧٣ - سورة الزمل	٥٨٠٦	٦٣ - سورة المنافقون
٥٩٦٩	٧٤ - سورة المدثر	٥٨١٧	٦٤ - سورة التغابن
٥٩٨٧	٧٥ - سورة القيامة	٥٨٢٨	٦٥ - سورة الطلاق

كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسكبي

محاسن التاويل

تأليف علامة الشام
محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء السابع عشر

وفيه تفسير : ٧٦ - سورة الإنسان ، وما بعدها ، إلى ١١٤ - سورة الناس

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد زاهد عبد الباقى

عيسى الباقى الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأخير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرُها ، وتنفق عليه خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ، والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هدى السلف ، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالمعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيئة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٦ - سورة الإنسان

وتسمى سورة (الدهر) و (الأمشاج) و (هل أتى) وهي مكية وآيها إحدى وثلاثون .

رَوَى الإمام مسلم^(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة - ألم تنزيل السجدة - و - هل أتى على الإنسان .

(١) أخرجه في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)
 « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا » أى فى ذلك
 الحين ، بل كان شيئاً منسياً ، نطقته فى الأصلاب . والاستفهام للتقرير .

قال الشهاب : أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه ، والمقرر به من يذكر البعث . وقد
 علم أنهم يقولون : نعم ، قد مضى دهر طويل لإنسان فيه . فيقال لهم : فالذى أوجدكم بعد أن
 لم تكونوا ، كيف يمتنع عليه إحيائهم بعد موتهم ؟ والمراد بالإنسان جنس بنى آدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)
 « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى ذات أخلاط ، وهى موادها المؤلفة منها .
 جمع مَشَجٍ أو مشيج . كسبب وأسباب ، ونصير وأنصار . أو مفرد ، كبرمة أعشار (البرمة
 القدر . وأعشار أى منكورة كأنها صارت عشر قطع) انتهى « نَبْتَلِيهِ » أى نختبره . والجملة فى
 موضع الحال أى خلقناه مبتلين له ، أى مرادين ابتلاءه ، لاعتباطوسدى « فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا »
 أى لننظر هل يصرف سمعه وبصره إلى استماع آيات الله والنظر فيها . ولما كان تمام المنة بهما
 بهبة العقل ، أشار إليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)
 « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » أى سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك . أى عرفناه وبيناه

ذلك، بأدلة العقل والسمع « إِمَّا شَا كِرًا » أى بالاهتداء والأخذ فيه « وَإِمَّا كَفُورًا » أى بالإعراض عنه . ونصبهما بـ (يكون) مقدرة . أى ليسكون إما شا كِرًا وإما كفُورًا . أى ليميز شكره من كفره، وطاعته من معصيته. كقوله^(١) (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) . (قال الرازى) قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قد نصحت لك ، إن شئت فاقبل وإن شئت فاترك . أى فإب شئت فتحذف الفاء . فكذا المعنى (إنا هديناه السبيل) فإما شا كرا وإما كفُورًا . فتحذف الفاء . وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد . أى إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر ، وإن شاء فليشكر . فإنا أعتدنا للكافرين كذا والشا كرين كذا . كقوله^(٢) (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) انتهى .

لطيفة :

قال فى (النهر) : لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال (شا كِرًا) ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر قال « كَفُورًا » بصيغة المبالغة . انتهى .

وهذا أطف من القول بمراعاة رؤوس الآى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا)

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا » أى ليقادوا بها ويستوثق بها منهم شدًا فى الجحيم « وَأَغْلَلًا » أى لتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم « وَسَعِيرًا » أى نارا تسمر عليهم فتتوقد .

(١) [٦٧ / الملك / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)

[٦] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ » أى الذين برّوا بطاعتهم ربهم فى أداء فرائضه واجتناب معاصيه « يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ » أى خمر ، أطلقت عليها للمجاورة « كَانَ مِزَاجُهَا » أى ما تمزج به « كَافُورًا » قال ابن جرير^(١) : يعنى فى طيب رائحتها كالكاפור . ولما كان الكافور من أطيباهم كان كناية عما يطيب به مما له عرف ذكى « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » أى يشربونها من منابعها فى روض الجنة ، إثارة مبهجة ، تفنناً فى النعيم . و(عَيْنًا) منصوب بنحو (يوتون) . والباء فى (بها) بمعنى من . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا)

« يُوفُونَ بِالْإِذْرِ » استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم ، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبى عنه اسم الأبرار إجمالاً . كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقيل : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم ؟ « وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ » أى عذابه « مُسْتَطِيرًا » منتشرًا ظاهراً لل غاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

« وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حُبِّهِ » أى مع حب الطعام ، كقوله^(٢) (حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ) أو على حب الله تعالى ، لما سيأتى من قوله^(٣) (لَوْجِهَ اللَّهِ) « مِسْكِينًا وَيَتِيمًا »

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٢] . (٣) [٧٦ / الإنسان / ٩] .

وَأَسِيرًا « أى مأسوراً من حرب أو مصلحة . وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم . فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه . واليتيم مات من يعوله ويكتسب له ، مع نهاية عجزه بصغره . والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة . قال فى (الإكليل) : والآية تدل على أن إطعام المشرى مما يقترب به إلى الله تعالى ، أى لقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرِجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرِجْهِ اللَّهِ » أى قائلين ذلك بلسان الحال أو المبالغة ، إزاحة لتوهم المن البطل للصدقة وتوقع المكافأة . أى لا نقصد بإطعامكم إلا ثوابه تعالى والقربة إليه والزلفى عنده . وإطلاق (الوجه) على الذات مجاز مشهور « لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً » أى مكافأة « وَلَا شُكُورًا » أى ثناء ومدحاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا

« إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا » أى عذاب يوم « عَبُوسًا » أى شديداً مظلماً . أو تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه وطول بلائه « قَمْطَرِيرًا » أى شديد العبوسة والكرب . وخوفهم من اليوم كفاية عن عمل ما يؤمنهم فزعه وهوله ، من الصالحات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا

[١٢] وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا

[١٣] مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا

«فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ» أى بسبب ما ذكر من خوفهم منه «وَلَقَّعَهُمْ نُزْرَةً» أى فى الوجوه «وَسُرُّورًا» أى فى القلوب «وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا» أى على طاعة الله واجتناب محارمه والدعوة لسبيله واحتمال الأذى «جَنَّةً وَحَرِيرًا» أى يلبسونه ويتزيّنون به «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ» أى الشرر «لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا» أى لا حرًا ولا بردًا . من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا)

[١٥] (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا)

[١٦] (قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)

«وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا» أى ظلال أشجارها . أى قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة فى نعيمهم «وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا» أى سهلت ثمارها لمتناولها . فلا يرد أيديهم عنها بُعْدًا ولا شوك . «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ» جمع كوب ، وهو كوز لاذن له «كَانَتْ قَوَارِيرًا» * قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قال أبو البقاء : حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلهما . ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية ، لشدة اتصال الصفة بالموصوف «قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا» أى فى أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم . نجاءت كما قدروا . أو قدرها لهم السقاة على قدر ربيهم . لا يزيد ولا ينقص . وهو الذّ للشارب ، لكونه على مقدار حاجته ، لا يفضل عنها ولا يعجز .

قال أبو حيان : أقرب من هذا ما نجاه أبو حاتم . وهو أن أصله قدر ربيهم منها تقديرًا . والرى العطش ، فحذف المضاف وحرف الجر وأوصل الفعل له بنفسه .

قال الشهاب : وفى كونه أقرب ، نظر . فإنه أكثر تكلفًا . ولكن كل حزب بما لديهم فرحون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا)

[١٨] (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا » أى ما يشبهه في الطعم . وكانت العرب يستلذون الشراب المزوج به « عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » وهى شديدة الجرية المناسبة بنوع خاص بهيج . ونصب (عَيْنًا) بنحو (يوتون) أو (ينظرون) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا)

« وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى لا يموتون . أو دائم شبابهم لا يتغيرون عن تلك السن . أو مسورون . أو مقرطون . « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا » أى لحسنهم وكثرتهم في منازلهم ، وانبتاشهم في منازلهم أما كنهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

[٢١] (عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ

رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)

« وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ » أى نظرت في الجنة ، ورميت بطرفك ما أوتى الأبرار « رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » أى واسعاً لا ينفذ البصر « عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ » وهو ما رق من الحرير « خُضْرٌ » قرئ بالرفع صفة لـ (ثِيَابُ) وبالجر لـ (سُنْدُسٍ) « وَإِسْتَبْرَقٌ » وهو ما غلظ من الديباج . وفيه القراءتان ، رفماً وجراً « وَحُلُوءٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ

رَبُّهُمْ شَرَّ آبَاءَ طَهُورًا « أى ليس برجس كخمر الدنيا . أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة ، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل فى الدنان التى لم يُعْنَ بتنظيفها . والآية مما يستروح بها فى نجاسة الخمر ، لما فيها من التعريض بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)

« إِنْ هَذَا » أى ماعدة من ثوابهم « كَانَ لَكُمْ جَزَاءً » أى على ما قدمتم من الصالحات « وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » أى مجازى عليه غير مضىع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » أى عظيمًا لا يقدر قدره . أى فأمره الحق ووعد الصدق . والقصد تثبيت قلبه صلوات الله عليه ، وشرح صدره وتحقيق أن المنزل وحى . وعدم المبالاة برميهم له بالسحر والكهانة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا)

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى من الصدع به ، والتبليغ لآيه ، والعمل بأوامره « وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا » أى ولا تطع فى معصيته تعالى من مشركى مكة ، من ركب الإثم وجاهر بالكفر ، ممن يريدك عن الرجوع عن دعوتك ، بما شئت من مال أو مطلب . و (أو) إما على بابها . أى لا تطع من كان فيه أحد هذين الوصفين ، فالنهي عن اجتماعهما فيه يعلم بالطريق الأولى . وإما بمعنى الواو .

قال الفرّاء : (أو) ههنا بمنزلة الواو . وفي الجحد والاستفهام والجزاء يكون بمعنى (لا) فهذا من ذلك مع الجحد . انتهى .

وإما بمعنى (بل) إضراب إلى وصف هو به أخلق وأجدر . وإما للتخيير في التسمية .
أى من شئت تسميه بالآثم أو الكفور ، لتحقيق مفهومهما فيه .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

[٢٦] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا)

« وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ » أى بدعائه وتسيبحه والصلاة له « بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ » أى بالتهجد فيه « وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » أى مقداراً طويلاً ، نصفه أوزيادة عليه . وفى هذه الأوامر ، مع الأمر فى أول (الزمل) وأمثالها ، ما يدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه .

ويأتى البحث المتقدم هنا أيضاً ، فى أن الأمر خاص به صلوات الله عليه بناء على أنه للوجوب ، أو يشمل غيره تبعاً وهو للقدر المشترك ، قولان معروفان فى نظيره . والقصد حثه ﷺ أن يستعين فى دعوة قومه والصدع بما أمر به ، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح . وقد كثر ذلك فى مواضع من التنزيل كقوله (١) (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) وقوله (٢) (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ) وأمثالها .

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] . (٢) [٥٠ / ق / ٣٩ و ٤٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)

« إِنَّ هَؤُلَاءِ » أى المشركين « يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى اللذات العاجلة ، فيسعون لها جهدهم ، وإن أهلكوا الحرث والنسل « وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » أى شديداً ، لثقل حسابه وشدته وعسره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ، وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا)

« نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ » أى خلقهم وأعضاء بناهم .

قال الشهاب : الأسر ، معناه ، لفة ، الشد والربط . ويطلق أيضاً على ما يشد ويربط به . ولذا سمى الأسير أسيراً بمعنى مربوط . فشبهت الأعصاب بالحبال المربوط بها ، ليقوى البدن بها . أو لإمسكها للأعضاء . ولذا سموها رباطات أيضاً .

« وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا » أى بإهلاكهم والإتيان بآخرين . وهذا محط الترهيب ، وما قبله كالتعليل له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرُ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرُ » أى السورة ، أو الآيات القريسة « تَذَكَّرُ » أى عظة لمن تذكّر واتعظ « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى بالطاعة الموصلة لقربه ، إيصال السبيل للمقاصد . فهو تمثيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

[٣١] (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » قال ابن جرير^(١) : أى وما تشاءون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم . أى لأن ما لم يشأ الله وقوعه من العبد ، لا يقع من العبد . وما شاء منه وقوعه ، وقع . وهو رديف (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) هذا تأويل السلف . وقالت المعتزلة : أى وما تشاءون الطاعة إلا أن يشاء الله بقسرم عليها . والمسألة مبسطة في الكلام . وقد لخصناها في (شرح لفظة العجلان) فارجع إليه . « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا » أى بأحوالهم وما يكون منهم « حَكِيمًا » أى في تدبيره وصنعه وأمره « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ » قال أبو السعود : بيان لإحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته . أى يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها . وهو الذى يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى ، حيث يوقفه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة . « وَالظَّالِمِينَ » وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » يعنى عذاب النار وقناه الله بمنه وكرمه .

(١) ابن جرير (١٠٠٠٠٠)

(٢) ابن جرير (١٠٠٠٠٠)

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٧ - سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

وتسمى سورة العرف وهي مكية وآياتها خمسون .

روى البخاري^(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غارٍ بمِنى ، إذ أنزلت عليه (والمرسلات) فإنه ليتلوها ، وإنى لأنلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حية . فقال النبي ﷺ : اقتلوها . فابتدرناها فذهبت . فقال النبي ﷺ : وقيت شركم كما وقيتم شرها . وأخرجه مسلم^(٢) أيضاً .
وروى الإمام أحمد^(٣) عن ابن عباس عن أمه ؛ أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً . ورواه الشيخان^(٤) أيضاً .

- (١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٧ - سورة والمرسلات ، ١ - باب حدثني محمود ، حدثنا عبيد الله ، حديث رقم ٩٢٧ .
- (٢) أخرجه في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ١٣٧ (طبعتمنا) .
- (٣) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٣٣٨ من الجزء السادس .
- (٤) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٨ - باب القراءة في المغرب ، حديث رقم ٤٦٣ ، عن أم الفضل .
وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٣ (طبعتمنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)

[٢] (فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا)

[٣] (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا)

[٤] (فَالْفَرِّقَاتِ فَرْقًا)

[٥] (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)

[٦] (عُذْرًا أَوْ نَذْرًا)

[٧] (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)

« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » إقسام بالرياح المرسلّة متتابعة كشعر العرف . أو بالملائكة المرسلّة بأمر الله ونهيه . وذلك هو العرف . أو بالمرسل من بنى آدم المبعوثّة بذلك « فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا » أى الرياح الشديّدة الهبوب ، السريعات الممرّة « وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا » أى الرياح التى تنشر السحاب والمطر ، كما قال ^(١) (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وقوله ^(٢) (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْشِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ) أو الملائكة التى تنشر الشرائع والعلم والحكمة والنبوة والهداية فى الأرض « فَالْفَرِّقَاتِ فَرْقًا » أى الملائكة التى تفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال الوحي والتنزيل . أو الآيات القرآنية التى تفرق كذلك . أو السحب التى نشرن الموات ففرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر

(١) [٧ / الأعراف / ٥٧] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٨] .

كقوله^(١) (لَأَسْفَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفَقْتِهِمْ فِيهِ) « فَأَلْمَقِيَّتِ ذِكْرًا » أى الملائكة الملقيات ذكر الله إلى أنبيائه ، المبلغات وحيه « عُدْرًا أَوْ نُذْرًا » أى إعداراً من الله لخلقه ، وإنذاراً منه لهم . مصدران بمعنى الإعدار والإنذار . أى الملقيات ذكراً للإعدار والإنذار .
أى لإزالة إعدارهم ، وإنذارهم عقاب الله تعالى إن عصوا أمره « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ »
جواب القسم . أى : إن الذى توعدون به من مجيء يوم القيامة والجزاء ، لكائن نازل ،
كقوله^(٢) (وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ) أو من زهوق ما أنتم عليه من الباطل ، وظفر الحق بقرنه ،
أو ما هو أعم . والأول أولى ، لإردافه بعلاماته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)

[٩] (وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ)

[١٠] (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)

[١١] (وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ)

[١٢] (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ)

[١٣] (لِيَوْمٍ الْفَصْلِ)

[١٤] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ)

[١٥] (وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ)

« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » أى محقت أو ذهب ضياؤها ، كقوله^(١) (أَنكَدَرَتْ) و^(٢) (أَنقَثَرَتْ)

(١) [٧٢ / الجن / ١٦] . (٢) [٥١ / الداريات / ٦] .

(٣) [٨١ / التكوير / ٢] . (٤) [٨٢ / الانقطار / ٢] .

« وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ » أى شقت وصدعت « وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ » أى اقتلعت من أماكنها بسرعة . فكانت هباء منبثا « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ » أى أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة للشهادة على أمهم والفوز بما وعدوه من الكرامة . والهمزة من (أُقِتَتْ) مبدلة من الواو .

قال ابن جرير ^(١) وقرأ بعض قراء البصرة بالواو وتشديد القاف . وأبو جعفر بالواو وتخفيف القاف . وكل ذلك قراءات معروفة ولغات مشهورات بمعنى واحد . فبأيتها قرأ القارئ فصيب . غير أن من العرب من يستثقل ضمة الواو - كما يستثقل كسرة الياء في أول الحرف ، فيهمزها .

« لَيَّيْ يَوْمٍ أُجِّلَتْ » أى أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب . أى يقال لأي يوم أجلت فالجمله مقول قول مضمرة ، هو جواب (إذا) أو حال من مرفوع (أقتت) والمعنى ليوم عظيم أخرت أمور الرسل . وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم ، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها ، ولذا عظم شأن اليوم ، وهول أمره بالاستفهام . وقوله تعالى « لَيَوْمٍ الْفَصْلِ » بدل مما قبله ، مبين له . أو متعلق بمقدر . أى أجلت ليوم الفصل بين الخلائق . وقد قيل : لانه بمعنى (إلى) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » أى بين السعداء والأشقياء . والاستفهام كناية عن تهويله وتعظيمه . « وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بيوم الفصل . كما قال في سورة المطففين ^(٢) « الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ » والتكذيب به ، إنكار البعث له والحشر إليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٨٣ / المطففين / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ)

[١٧] (ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ)

[١٨] (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

[١٩] (وَيَلْزَمُهُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ » أى الأمم الماضين المكذبين بالرسل والجاحدين بالآيات ، كقوم نوح ، وعاد ، وحمود . « ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ » أى من قوم لوط ، وموسى . فنسلك بهم سبل أولئك . وهو وعيد لأهل مكة « كَذَلِكَ » أى مثل ذلك الأخذ العظيم . « نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ » أى بكل من أجرم وطفى وبغى « وَيَلْزَمُهُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » . قال ابن جرير ^(١) : أى بأخبار الله التى ذكرها فى هذه الآية ، الجاحدين قدرته على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ)

[٢١] (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)

[٢٢] (إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[٢٣] (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)

[٢٤] (وَيَلْزَمُهُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ » أى من نطفة ضعيفة « فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ »

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى رحم استقر فيها فتمكّن « إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ » أى وقت معلوم لخروجه من الرحم « فَقَدَرْنَا » قرىء بالتخفيف والتشديد . أى فقدرنا على ذلك أو قدرناه « فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بقدرته تعالى على ذلك ، أو على الإعادة .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا)

[٢٦] (أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا)

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا » قال ابن جرير^(١) : أى وعاء . تقول هذا كِفْتُ هذا وكِفَيْتُهُ إذا كان وعاء . والمعنى أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتٍ أَحْيَاءَكُمْ وَأَمْوَاتَكُمْ ، تكفت أحياءكم فى المساكن والنازل فتضمهم فيها وتجمعهم ، وأمواتكم فى بطونها فى القبور فيدفنون فيها ؟ وجاز أن يكون عنى بقوله (كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا) تَكِفْتُ أذا هم فى حال حياتهم ، وَجِيفَتُهُمْ بعد مماتهم . انتهى .

و (الكفات) إما اسم جنس لما يضم ويقبض . يقال : كَفَتَهُ اللهُ إِلَيْهِ أى قبضه . ولذلك سميت المقبرة كَفْتَةً وَكِفَاتًا . ومنه الضم والجماع ، لما يضم ويجمع . يقال هذا الباب جماع الأبواب . وإما اسم آلة ، لأن فِعَالًا كثر فيه ذلك . أو مصدر كفتال . أوّل بالمشق ونعت به ، كرجل عدل . أو جمع كافت كصائم وصيام . أو كِفْتُ بكسر فسكون كقدح وقداح . و (كِفَاتًا) منصوب على أنه مفعول ثان لـ (نَجْعَلِ) لأنها للتصيير ، و (أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا) منصوبان على أنهما مفعولان به لـ (كِفَاتًا) .

قال الشهاب : وهذا ظاهر على كون (كِفَاتًا) مصدرًا أو جمع كافت . لا على كونه اسم آلة فإنه لا يعمل ، كما صرح به النحاة . وحينئذ فيقدر فعل ينصبه من لفظه ، كما صرح به ابن مالك فى كل منصوب بعد اسم غير عامل . وثمة وجوه أخر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

في (الإكليل) قال إلكيا الهراسي : عنى بالكفات الانضمام . ومراده أنها تضمهم في الحالتين . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت فلا يرى منه شيء . وقال ابن عبد البر : احتج ابن القاسم في قطع النقاش بهذه الآية . لأنه تعالى جعل القبر للميت كالبيت للحى ، فيكون حرزاً . انتهى .

ونقله القفال عن ربيعة . وعندى أن مثل هذا الاحتجاج من الإغراق في الاستنباط وتكلف الناس ما يؤيد المذهب المتبوع كيفما كان، مما يعد تعسفاً وتعصباً . وبين غوى الآية وهذا الاستنباط ما بين المنجد والتمهم . ومثله أخذ بعضهم من الآية السابقة (لَا يَوْمَ أُجِلَّتْ) تأجيل القضاة المحصوم في الحكومات ، ليقع فصل القضاء عند تمام التأجيل . كما نقله في (الإكليل) عن ابن الفرس . وماخذ الدين والتشريع ليست من الأحاجي والمعميات . والله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا)

[٢٨] (وَيَلَّيْكُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْدِيبِينَ)

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ » أى جبلاً شاهقات « وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا » أى عذباً « وَيَلَّيْكُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْدِيبِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ)

« أَنْطَلِقُوا » أى يقال لهؤلاء الكذابين بهذه النعم والحجج التي احتج بها عليهم يوم القيامة : انطلقوا « إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ » أى من عذاب الله للكفرة الفجرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣٠] (أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ)
 [٣١] (لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ)
 [٣٢] (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ)
 [٣٣] (كَأَنَّهُ وَجَلَّتْ صُفْرُهُ)
 [٣٤] (وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
 [٣٥] (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ)
 [٣٦] (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)
 [٣٧] (وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
 [٣٨] (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ، جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ)
 [٣٩] (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)
 [٤٠] (وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

« أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » أى فِرَق . وذلك دخان جهنم المرتفع من وقودها ، إذا تصاعد تفرق شعباً ثلاثاً ، لمعظمه .

قال الشهاب : فيه استعارة تهكمية لتشبيه ما يعلو من الدخان بالظل . وفيه إبداع ، لأن الظل لا يعلو ذا الظل . وقوله تعالى « لَا ظِلِيلٍ » تهكم بهم . لأن الظل لا يكون إلا ظليلاً أى مظلاً . فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلاً تهكم بهم ، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم ، فنفى هذا الاحتمال بقوله (لَا ظِلِيلٍ) « وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ » أى لا يرد عنهم من هب

النار شيئاً. والمعنى أنه لا يظلمهم من حرّها ولا يكتنهم من لهبها «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَآلْقَصْرِ»
أى تقذف كل شررة كالقصر فى عظمها . والقصر واحد القصور .

قال ابن جرير^(١) : العرب تشبه الإبل بالقصور المبنية ، كما قال الأخطل فى صفة ناقة :

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِي يَشِيدُهُ لُزٌّ بِحِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَحْجَارٌ

ثم قال : وقيل (بِشَرَرٍ كَآلْقَصْرِ) ولم يقل كالقصور . والشرر جمع . كما قيل (سَهْزَمُ
الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) ولم يقل الأدبار لأن الدبر بمعنى الأدبار . وفعل ذلك توفيقاً بين
رؤوس الآى ومقاطع الكلام . لأن العرب تفعل ذلك كذلك . ولبسانها نزل القرآن .

« كَأَنَّهُ وَجِمَلَتْ » وقرئ (جِمَلَتْ) جمع (جمال) جمع (جل) . أو جمع (جمالة) جمع (جل)
أيضاً . ونظيره : رجال ورجالات ، وبيوت وبيوتات ، وحجارة وحجارات . « صُفْرٌ » أى
فى لونها . فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر . وقيل : صفر أى سود .

قال قتادة وغيره : أى كالنوق السود ، واختاره ابن جرير^(٢) زاعماً أنه المعروف من كلام العرب
« وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » أى بحجة . أو فى وقت من أوقاته .
لأنه يوم طويل ذو مواقف ومواقيت . أو جعل نطقهم كلاماً نطقاً ، لأنه لا ينفذ ولا يسمع ،
فلا ينافى آية^(٣) (وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) وآية^(٤) (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)
وآية^(٥) (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »
أى لا يعهد لهم الإذن فى الاعتذار ، لعدم قبول معذرتهم بقيام الحجة عليهم . وإنما لم يقل
(فيعتذروا) محافظة على رؤوس الآى . وقيل : هو معطوف على (يؤذن) منخرط معه فى
سلك النفي . والمعنى ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له ، من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن
الإذن « وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ » أى الحق بين العباد « جَمَعْتَكُمْ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٣] . (٤) [٤ / النساء / ٤٢] .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٣١] .

حشرناكم فيه « وَالْأَوَّلِينَ » أى من الأمم الهالكة « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أى احتيال للتخلص من العذاب « فَكِيدُوا » أى فاحتالوا له .

قال الزمخشري : تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه ، وتسجيل عليهم بالمعجز والاستكانة « وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى فإنه لا حيلة لهم فى دفع العقاب .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ)

[٤٢] (وَفَوْكَاهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

[٤٣] (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٤] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[٤٥] (وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[٤٦] (كُلُوا وَنَمْتَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « فِي ظِلَالٍ » أى كنان من الحر والقر « وَعُيُونٍ » أى أنهار تجري خلال أشجار « وَفَوْكَاهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ » أى يرغبون ، مقولا لهم : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى فى طاعتهم وعبادتهم وعملهم « وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَنَمْتَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ » أى حظكم حظ من أجرهم ، وهو الأكل والتمتع أياماً قلائل ، ثم البقاء فى الهلاك أبداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[٤٨] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرَأَيْتُمْ كَمْ كُفُّوا أَلَّا يَرَوْا كَمْ كُفُّوا)

[٤٩] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[٥٠] (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرَأَيْتُمْ كَمْ كُفُّوا » أى اخضعوا لهذا الحق الذى نزل ، وتواضعوا لقبوله ، واخضعوا لذكره « لَا يَرَوْا كَمْ كُفُّوا » أى لا يخضعون ولا ينفادون ولا يقبلون ، تجبراً واستكباراً « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى الذين كذبوا رسل الله ، فردوا عليهم ما بلغوا من أمر الله بإيماهم ونهيه لهم . وتكرير آية (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) للتأكيد . وهو من المقاصد الشائعة . وقيل : لا تكرار ، لاختلاف متعلق كل منها . وتقدم تمام البحث فى سورة (الرحمن) فارجع إليه فى خاتمتها « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » أى بعد هذا القرآن ، إذا كذبوا به ، مع وضوح برهانه وصحة دلائله ، فى أنه حق منزل من عنده تعالى . وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه فى الفضل أو يدانيه ، فضلاً عن أن يفوقه ويعلموه ، فلا حديث أحق بالإيمان منه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٨ - سُورَةُ النَّبَأِ

وتسمى سورة (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) . وهي مكية ، وآياتها أربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢] (عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ)

[٣] (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» أى هؤلاء المشركون بالله ورسوله . قال ابن جرير^(١) وذلك أن قريشا جعلت ، فيما ذكر عنها ، تختصم وتجادل في الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، من الإقرار بنبوته ، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى ، والإيمان بالبعث . فقال الله تعالى لنبيه : فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون ؟ . و (فى) و (عن) في هذا الموضع بمعنى واحد . انتهى . والاستفهام للتفخيم أو للتبكيت . والتفاعل إما على بابه ، أو هو بمعنى (فعل) . والمعنى على الأول يتساءلون فيما بينهم . وعلى الثانى يسألون الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، أو المؤمنين . قيل مجى تفاعل بمعنى فعل إذا كان في الفاعل كثرة ، مراعاة لمعنى التشارك بقدر الإمكان . ونوقش بأن (تفاعل) يكون بمعنى (فعل) كثيراً وإن لم يتعد فاعله . كتوانى زيد وتدانى الأمر . بل حيث لا يمكن التعدد نحو^(٢) (تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقوله :

«عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ» بيان للمفخم شأنه ، أو للمبكت من أجله «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» أى مفقسون ، بعضهم يحجده وآخر يرتاب فيه .

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

[٥] (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

« كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ » ردع للمتسائلين ووعيد لهم . والتكرير للمبالغة لحذف مفعول العلم . فإما أن يقدر سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال . أو سيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والנקال . فتكريره مع الإيهام ، يفيد مبالغة . وفى (ثُمَّ) إشعار بأن الوعيد الثانى أشد . لأنها هنا للبعد والتفاوت الرتبى . فكأنه قيل : ردع وزجر لكم شديد ، بل أشد وأشد . وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله . ولذا خص عطفه بـ (ثُمَّ) غالباً . هذا ملخص ما فى (الغاية) .

ثم ذكرهم تعالى بدلائل قدرته وآيات رحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا)

[٧] (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)

[٨] (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)

[٩] (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)

[١٠] (وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا)

[١١] (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا » أى فراشاً وموطئاً تمتهدونها وتفترشونها « وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » أى أرسيناها بالجبال كما رعى البيت بالأوتاد ، حتى لا تميد بأهلها فيكحل

كون الأرض مهاداً بسبب ذلك . قال الإمام مفتى مصر : وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ، ولأنها في تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب ، كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك . كأن أقطار الأرض قد شدت إليها . ولولا الجبال لسكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان . « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا » أى ذكوراً وإناثاً . قال الإمام : ليتم الائتناس والتعاون على سمادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية .

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أى راحة ودعة ، بريح القوى من تعبها ويعيد إليها ما فقد منها . إطلاقاً للملزوم وهو (السبات) بمعنى النوم ، وإرادة لآلزام وهو (الاستراحة) . وقيل : السبات هو النوم الممتد الطويل السكون . ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم : إنه مسبوت وبه سبات . ووجه الامتنان بذلك ظاهر ، لما فيه من المفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الفرار لا يكسبان شيئاً من الراحة . وقد أفاض السيد المرتضى في أماليه في لطائف تأويل هذه الآية .

« وَجَعَلْنَا أَلْيَلٍ لِبَاسًا » أى كاللباس بإحاطة ظلمته بكل أحد ، وستره لهم . قال الرازى : ووجه النعمة في ذلك ، أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو أو بياناً له ، أو إخفاء مالا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه . قال المتنبي :
وكم لظلام الليل غنْدَى مِنْ يَدٍ تَحْبِرُ أَنْ الْمَانُوبَةَ تَكْذِبُ
وأيضاً ، فكما أن الإنسان ، بسبب اللباس ، يزداد جماله وتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني وأذى الأفكار الوحشة .

« وَجَعَلْنَا أَلْنَهَارَ مَعَاشًا » أى وقت معاش . إذ فيه تنقلب الخلق في حوائجهم ومكاسبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)

[١٣] (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)

[١٤] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

[١٥] (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا)

[١٦] (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » قال الرازي : أى سبع سموات شدادًا جمع (شديدة) معنى محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج .

وقال الإمام : السبع الشداد الطرائق السبع ، وهى ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها . « وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا » أى متلألئًا وقادًا . معنى الشمس « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » أى السحاب إذا أعصرت ، أى شارفت أن تعصرها الرياح « مَاءً ثَجَّاجًا » أى مفصَّبًا مقتابًا « لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا » قال ابن جرير^(١) : الحب كل ما تضمنه كرم الزرع التى تحصد . والنبات الكلأ الذى يُرعى من الحشيش والزرع .

وقال الزمخشري : يريد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير ، وما يعلف من التبن والحشيش . كما قال^(٢) (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ) .

« وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » أى حدائق ملتفة الشجر ، مجتمعة الأغصان .

قال الرازي : قدم الحب لأنه الأصل فى الغذاء . وثنى بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٠ / طه / ٥٤] .

وأخر الجنات لأن الحاجة إلى الفؤاد ليست بضرورية . ثم قال : وكان الكعبي من القائلين بالطبائع . فاحتج بقوله تعالى (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا) الخ على بطلان قول من قال : إنه تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر . أى لأن ارتباط المسببات بالأسباب مما بنى عليه سبحانه ، بحكمته الباهرة ، نظام العمران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)

[١٨] (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ » أى يوم يفصل بين الناس ويفرق السعداء من الأشقياء ، باعتبار تفاوت الأعمال ، وهو يوم القيامة « كَانَ » أى عند الله وفى علمه وحكمه « مِيقَاتًا » أى حداً معيناً ، ووقتاً موقتماً ، ينتهى الخلق إليه ليرى كل جزء عمله « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » بدل من (يَوْمَ الْفَصْلِ) أو عطف بيان . كفاية عن اتصال الأرواح بالأجساد ، ورجوعها بها إلى الحياة والحشر فى الآخرة . كما قال القاشانى والشهاب .

وقال الإمام : النفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق^(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ماهى حقيقة ذلك الصور : « فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » أى فرقاً مختلفة ، كل فرقة مع إمامهم ، على حسب تباين عقائدهم وأعمالهم وتوافقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا)

[٢٠] (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » قال ابن جرير^(١) : أى وشقت السماء فصعدت ، فكانت طُرُقًا ، وكانت من قبل شِدَادًا لافطور فيها ولا صدوع .
وقال القاضي فيما نقله الرازى : وهذا الفتح هو معنى قوله^(٢) (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ)
و^(٣) (إِذَا السَّمَاءُ انْقَطَرَتْ) إذ الفتح والتشق والتفطر تقارب ، وهذا ، كما قاله ابن جرير ،
متين للغاية . وتعقب الرازى له ، وقوف مع الألفاظ لا يفيد . لاسيما والأصل هو التفسير
بالنظائر والأشياء .

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » أى رفعت من أما كنها فى الهواء . وذلك إنما
يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء . وفى الآية تشبيه بليغ . والجامع أن كلا
منهما يرى على شكل شىء ، وليس به . فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك . والجبال إذا
فتت وارتفعت فى الهواء ، ترى كأنها جبال وليست بجبال . بل غبار غليظ متراكم ، يرى من
بعيد كأنه جبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)

[٢٢] (لِلطَّاغِينَ مَنَابَا)

[٢٣] (لِّلْبَشِيرِ فِيهَا أَحْقَابَا)

[٢٤] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا)

[٢٥] (إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)

[٢٦] (جَزَاءً وَفَاقًا)

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[٨٤ / الانشقاق / ١] . [٨٢ / الانقطاع / ١] .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » أى موضع رصد ، يرصد فيه خزنتها من كان يكذب بها وبالمعاد . على أن (مِرْصَادًا) اسم مكان . أو مجدة في ترصدهم وارتقاب مقدمهم . على أنه صيغة مبالغة « لِلَّاطِغِينَ مَأْبًا » أى للذين طفوا فى الدنيا ، فتجاوزوا حدود الله استكباراً على ربهم ، منزلاً ومرجعاً يصيرون إليه « لِّلْمُتَّبِعِينَ فِيهَا أَخْقَابًا » أى دهوراً متتابعة إلى غير نهاية . كقوله ^(١) (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا » أى روحاً وراحة « وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا » أى ماء حاراً انتهى غليانه « وَغَسَّاقًا » أى صديداً . وهو ما يخرج من جلودهم مما تصهرهم النار ، فى حياض يجتمع فيها ، فيسقونه « جَزَاءً وَفَاءً » أى : جوزوا بذلك جزاءً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال ، وقدموه من العقائد والأخلاق .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا)

[٢٨] (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا)

[٢٩] (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا)

« إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » قال القاشانى : أى ذلك العذاب ، لأنهم كانوا موصوفين بهذه الذائل من عدم توقع المكافآت والتكذيب بالآيات . أى لفساد العمل والعلم . فلم يعملوا صالحاً رجاء الجزاء ، ولم يعلموا علماً فيصدقوا بالآيات .
« وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا » قال القاشانى : أى كل شيء من أعمالهم ضبطناه بالكتابة عليهم فى صحائف نفوسهم .

وقال الرازى : المراد من قوله (كِتَابًا) تأكيد ذلك الإحصاء والعلم . وهذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر . فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال ، لأنه واجب لذاته . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٥] .

وهو بمعنى ما نقله الشهاب ؛ أنه تمثيل لإحاطة علمه بالأشياء ، لتفهمنا . وإلا فهو تعالى غنى عن الكتابة والضبط . ومذهب السلف الإيمان بهذه الظواهر وتفويض تأويلها إلى الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)

[٣١] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)

[٣٢] (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا)

[٣٣] (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا)

[٣٤] (وَكَأْسًا دِهَاقًا)

[٣٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا)

[٣٦] (جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا)

« فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى يقال لهم ذلك ، تقريباً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب ، وإعلاماً بمضاعفته .

ولما ذكر وعيد الكفار ، تأثره بوعد الأبرار ، بقوله سبحانه « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » أى فوزاً بالنعيم . ونجاة من النار ، التى هى مأب الطاغين « حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا » الحدائق جمع حديقة وهى البستان فيه أنواع الشجر الثمر المحوط بالحيطان المحدقة به . والأعناب معروفة . قال ابن جرير^(١) : أى وكروم وأعناب ، فاستغنى بالأعناب عنها .

« وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا » أى بفات فلكت ثديهن ، أى استدارت مع ارتفاع يسير « أَتْرَابًا » أى

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

متساويات في السن « وَكَأْسًا دِهَاقًا » أى ملأى من خمرٍ لذة للشاربين « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا » أى فى الجنة « لَعْنُوا » أى باطلاً من القول « وَلَا كَذِبًا » أى مكاذبة . أى لا يكذب بعضهم بعضاً .

قال الإمام : اللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين ، بل هو من أشد الأذى لقلوبهم . فأراد الله إزاحة ذلك عنهم « جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ » أى جزاء لهم على صالح أعمالهم ، تفضلاً منه تعالى بذلك الجزاء « حِسَابًا » أى كافياً ، أو على حسب أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا)
« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » .

قال ابن جرير^(١) : أى لا يملكون أن يخاطبوا الله . قال : والمخاطب المخاصم الذى يخاصم صاحبه . وقال غيره : أى لا يملكونهم الله منه خطاباً فى شأن الثواب والعقاب . بل هو المتصرف فيه وحده . وهذا كما تقول (ملكت منه درهماً) ذ (من) ابتدائية متعلقة بـ (يملكون) وعلى ما ذكره ابن جرير من أن المعنى لا يملكون أن يخاطبوه بشىء من نقص العذاب ، ذ (منه) صلة (خطاباً) كما تقول (خاطبت منك) على معنى خاطبتك . كـ (بمت زيدا) أو (بمت من زيد) ذ (منه) بيان مقدم على المصدر لا صلة (يملكون) . وقد قرئ (رب) و (الرحمن) بالجر وبالرفع . وقرئ بـ (بجر الأول) ورفع الثانى .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا)

[٣٩] (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا)

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ » أى جبريل عليه السلام وهو المعبّر عنه بروح القدس فى آية أخرى
وفيه أقوال أخر نقلها ابن جرير^(١) . وما ذكرناه أصوبها . والتزويل يفسر بمضه بمضاً .

ثم رأيت الرازى نقل عن القاضى اختياره ، قال : لأن القرآن دل على أن هذا الاسم
اسم جبريل عليه السلام . وثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والكلام صحيح منه ، ويصح أن
يؤذن له . فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذى لا يصح وصفه
بالقيام ؟ وقوله تعالى « وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا » قال القاشانى : أى صافين فى مراتبهم ، كقوله
تعالى^(٢) (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ وَمَقَامٌ مَّعْلُومٌ) . انتهى .

وقال الرازى : يحتمل أن يكون المعنى صفّاً واحداً . ويحتمل أنه صفان . ويجوز صفوفاً .
والصف فى الأصل مصدر ، فبنى عن الواحد والجمع . ورجح بعضهم الأخير ، لآية^(٣) (وَجَاءَ
رَبُّكَ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) انتهى .

وقوله تعالى « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » أى لا يتكلمون
فى الشفاعة ، كقوله^(٤) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والضمير للملائكة أو أعم
كقوله^(٥) (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٦٤] . (٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٥] . (٥) [١١ / هود / ١٠٥] .

قال الزمخشري : هما شريطان : أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ^(١) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أُرِضِيَ) .

« ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ » أى الواقع الذى لا يمكن إنكاره و (الْحَقُّ) صفة أو خبر .
 « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا » قال ابن جرير ^(٢) : أى فمن شاء اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق ، والاستعداد له والعمل بما فيه ، النجاة له من أهواله ، مرجعاً حسناً يؤوب إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)

« إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا » يعنى عذاب الآخرة وقربه . لأن مبدأ الموت « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى من خير أو شر . أى ينظر جزاءه « وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أى مثله . لم أصب حظاً من الحياة ، لما يلقى من عذاب الله الذى أعد لأمثاله . وقانا الله بمنه وكرمه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٩ - سُورَةُ النَّازِعَاتِ

وتسمى سورة الساهرة . والطامة . وهي مكية . وآيات وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)

[٢] (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا)

[٣] (وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

[٤] (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

[٥] (فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا)

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا » بمعنى الغزاة أو أيديهم . يقال للراعى (نزع في قوسه) إذا مدها بالوتر . و (نزع في قوسه فأغرق) و (أغرق النازع في القوس) إذا استوفى مدها . ويضرب مثلاً للغلو والإفراط . و (غَرْقًا) بمعنى إغراقاً كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بحذف الزوائد . أو (وَالنَّازِعَاتِ) الكواكب . من (نزع الفرس سَنَدًا) جرى طلقاً ، أى الجاريات على السير المقدر ، والحدّ المعين ، مجدة في السير ، مسرعة للغاية . « وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » أى الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار . من قولهم (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هى السهام . معنى خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها . وكل شىء حللته ، فقد نشطته . ومنه (نشاط الرجل) وهو انبساطه وخفته . أو الكواكب تنشط من برج إلى برج . « وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا » أى الخيل تسبح في عدوها فتسبق إلى العدو . وهو مستعار من (سبى في الماء) لكنه الحق بالحقيقة لشهرته . أو هى الكواكب تسبح في الفلك . لأن مرورها في الجو كالسبح ، كما قال تعالى ^(١) (كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ) . « فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا »

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] .

أى الخيل تسبق إلى العدو في حومة الوغى . أو الكواكب السيارة تسبق غيرها في السير ، لكونها أسرع حركة . « فَأَلْمَدَّتْ أَمْرًا » أى الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً ، لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعربات . أى أنه يأتى في أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام . وسبح الخيل وسبقها ، الأمر الذى هو النصر . أو هى الكواكب تدبر أمراً نيظ بها . كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه . أو هى الملائكة تدبر ما نيظ بها من أمر الله تعالى . وقد جوز فيما قبلها أن تكون الملائكة أيضاً . واللفظ الكريم متسع لما ذكر من المعانى بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد ، إذ لا قاطع . ولذا قال ابن جرير^(١) : الصواب عندى أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً ، ولم يخص نازعة دون نازعة . فكل نازعة غرقاً ، فداخلة في قسمه ، ملكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القسم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع . فكل ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها ، بأن المعنى بالقسم من ذلك ، بمض دون بعض . وهكذا في البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية . إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله ، وهو أعم فائدة . وعدم التكلف للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها فى مثلها وشواهداها ، مما قد يخص الصيغ . إلا أن التزويل الكريم يُتَوَقَّى فى التشرع فيه مالا يُتَوَقَّى فى غيره .

لطائف :

قال أبو السعود : العطف مع اتحاد السكل ، بتزويل التغاير العنوائى منزلة التغاير الذاتى . كما فى قوله (٢) :

إلى الملكِ القَرَمِ وابنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ السَّكْتِيَةِ فى المَزْدَحَمِ
للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المدودة من معظمت الأمور ، تحقيق بأن يكون على حياله .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) ورد هذا البيت فى الخزانة (٢١٦ / ١) غير منسوب .

وكذلك هو فى (معانى القرآن) للفرأء (١ / ١٠٥) .

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتيبهما على ما قبلهما بغير مهلة . و (غَرْقًا) مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب (نَشْطًا) و (سَبْحًا) و (سَبْقًا) أيضاً على المصدرية . وأما (أَمْرًا) ففعول للمدبرات . وتفكيره للتحويل والتفخيم . والمقسم عليه محذوف، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه، وهو (لنبعثن) وبه تعلق قوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

[٧] (تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ)

[٨] (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

[٩] (أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ)

[١٠] (يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَ رَدُّودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

« يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » أى الواقعة التى ترجف عندها الأجرام الساكنة. أى تتحرك حركة شديدة وتزلزل زلزلة عظيمة. فالإسناد إليها مجازى لأنها سببه . أو التجوز فى الطرف بجعل سبب الرجف راجفًا . أو الراجفة الأجرام الساكنة التى تشقد حركتها حينئذ ، كالأرض والجبال . فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالحركة جاز ، وكان حقيقة . لأن (رجف) يكون بمعنى حرك وتحرك .

« تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ » أى السماء وما فيها . تردفها فتنشق وتنتثر كواكبها . ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى ، جعلت رادفة لها . أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان . أما الأولى فتميت الأحياء . وأما الثانية فتحي الموتى . ثم تلا الحسن ^(١) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ

(١) [٢٩ / الزمر / ٦٨] .

اللَّهُ ثُمَّ نُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٠﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿١١﴾ أى شديدة الاضطراب، خوفاً من عظيم الهول النازل ﴿١٢﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿١٣﴾ أى أبصار أهلها ذليلة، مما قد علاها من السكابة والحزن ، من الخوف والرعب . وقوله تعالى ﴿١٤﴾ يَقُولُونَ أَءِئْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٥﴾ قال ابن جرير^(١) : أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركى قريش ، إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أننا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل المات، فراجعون أحياء كما كنا؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي، وذكر مقدماته الهائلة وما يمرض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أى يقولون، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، منكرين له متعجبين منه: أننا لمردودون بعد موتنا في الحافرة؟ أى في الحالة الأولى . يعنون الحياة . من قولهم (رجع فلان في حافرتي) أى في طريقته التي جاء فيها فخفرها . أى أثر فيها بعثيه . وتسميتها (حافرة) مع أنها محفورة كقوله تعالى^(٢) (فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) أى منسوبة إلى الحفر والرضا . أو كقولهم (نهارة صائم) على تشبيه القابل بالفاعل . أى شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتزيله منزلته . فلاستعمارة في الضمير المستتر ، وإثبات الحافرة له ، تخييل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا نَجِرَةً)

[١٢] (قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

[١٣] (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

[١٤] (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢١] .

« أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَنَحَّرَةً » أى بالية . وقرئ نَاحِرَةً . من (نحر العظم) بلى . فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير ، وقوله تعالى « قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » أى ذات خسر . أو خاسرة أصحابها . أى إن صحت فنحن إذا خاسرون . قال ابن زيد : وأى كرة أخسر منها؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت كرة سوء .

وقال أبو السعود : هذا حكاية لكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق . ولعل توسيط (قالوا) بينهما للإيدان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها في كافة أوقاتهم . حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع . أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنكروه من الردة في الحافرة . وقوله تعالى « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالكرة . فإن مداره لما كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنما هى صيحة واحدة . أى حاصلة بصيحة واحدة . وهى الففخة الثانية . وفيه تهوين لأمر الإعادة ، على وجه بليغ لطيف « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » أى على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير^(١) : والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة (قال) وأراهم سماوا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها . فوصف بصفة مافيه . وقيل لأن السراب يجرى فيها . من قولهم (عينٌ سَاهِرَةٌ) التى يجرى ماؤها ، وفى ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه المعروف ، والتحوز فى الإسناد .

وفى الثانى مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التى ألحقته بالحقيقة . ثم ذكر سبحانه الكفرة ما حل بمن هو أشد منهم قوة ، لما طغوا ، ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

[١٦] (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » أى خبره حين ناجاه ربه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى (هَلْ أَتَاكَ) إن اعتبر هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ، ترغيب له فى استماع حديثه . كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به . وإن اعتبر إتيانه ، قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز فى الاختصاص ، حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقر بأمر يعرفه قبل ذلك . كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه ؟ .

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة فى المعنى على كلٍّ ، كما لا يخفى « إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » إلى حين ناداه بالوادي المطهر المبارك . وهو واد فى أسفل جبل طور سيناء من برية فلسطين . و (إِذْ) ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتيهما و (طُوًى) اسم لذلك الوادى . أو مصدر لنادى . أو المقدس . أى ناداه ندائين . أو المقدس مرة بعد أخرى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

[١٨] (فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ)

« أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ » أى عتا وتجاوز حدّه فى العدوان على بنى إسرائيل ، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه « فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ » أى تزكى

وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و (إِلَى) متعلقة بمبتدأ محذوف . أى هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتركى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك ، جىء بـ (إِلَى) فجعل الظرف متملقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه « وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ » أى أرشدك إلى علم ما يرضيه عنك . وذلك الدين القيم « فَتَخْشَى » أى عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم . وذلك بأداء ما أزمك من فرائضه واجتناب ما نهأك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم ، كما فى آية^(١) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) أى العلماء به .

قال الزمخشري : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر . من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض . كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه . كما أمر بذلك فى قوله^(٢) (فَقُولَا لَهُ وَقُولَا لَنَيْنَا) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى)

[٢١] (فَكَذَّبَ وَعَصَى)

[٢٢] (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

[٢٣] (فِيحْشَرَ فَنَادَى)

[٢٤] (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[٢٥] (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

[٢٦] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى)

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٤] .

« فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى » أى الدلالة الكبرى على أنه لله رسول أرسله إليه . والفاء فصيحة ، تفصح عن جمل قد طويت ، تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى . أى فذهب وبلغ ورجع وتحدث ، فأراه الآية الكبرى . وهى على ما قاله مجاهد ، عصاه ويده . أى عصاه إذ تحولت ثعباناً مبيناً . ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين . وإفرادها لأنهما كالآية الواحدة في الدلالة . أو هى العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتابع . قيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل . أو هو للزيادة المطلقة « فَكَذَّبَ وَعَصَى » أى فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه وخشيته إياه « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى أعرض عما هدى إليه . أو انصرف عن المجلس كبراً « يَسْعَى » أى يجدد في معارضة الآية بالمكايد الشيطانية والحيل النفسانية . أو أدبر بعد ما رأى الثعبان ، مرعوباً مسرعاً في مشيه « فَحَشَرَ » أى جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه « فَنَادَى » أى فى المجمع بنفسه أو بعناد « فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أى على كل من يلى أمركم . وفى (التنوير) : أى أنا ربكم ورب أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضى : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن ، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) ؟ فدلّت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالرب الخالق والموجد . والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى . وأنه الذى يستأهل الطاعة دون غيره . ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التى هى فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته . ولذا أخذ أشد الأخذ . فإنه لم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجه من مصر ، فأغرقه الله تعالى فى البحر . وهو معنى قوله تعالى « فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » أى عذبه عذابهما . أى أن أخذه لم يكن مقصوداً على الإغراق وحده ، بل نكل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و (نكال) مفعول مطلق (أخذ) بتأويل فى الأول أو فى الثانى ، والإضافة من قبيل إضافة

الموصوف إلى الصفة . وقيل الآخرة هي قوله (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية

قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر . لأنه تعالى قال (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) فذكر المعصيتين ثم قال (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَسْكَالَ الْأَخِيرَةِ وَالْأُولَى) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين . انتهى . وما ذكره القفال كان وقع في قلبي قبل أن أراه . وأراني في إشارته . ثم ختم تعالى القصة بقوله « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى » أى في أخذه وما أحل به من العذاب والخزى ، عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه ، ويعلم أن هذه سنته في كل من يقاوم الحق ويحاربه . فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

[٢٨] (رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا)

[٢٩] (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

[٣٠] (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

[٣١] (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

[٣٢] (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

[٣٣] (مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ)

« ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ » خطاب للمكذِّبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبههم على سهولته في جانب القدرة الربانية . فإن من رفع السماء على عظمها ، هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحيائهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه ^(١) (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) .
 وقوله تعالى ^(٢) (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)
 ثم بين كيفية خلقها بقوله « بَنَمَهَا » قال ابن جرير ^(٣) : أى رفعها فجعلها للأرض سقفاً .
 وقال الإمام : البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون
 عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب . وضع كلاً منها على نسبة من الآخر ،
 مع ما يمسك كلاً في مداره ، حتى كان عنها عالم واحد في النظر ، سمي باسم واحد وهو
 السماء التي تعملونا . وهو معنى قوله « رَفَعَ سَمَكَمَا » أى أعلاه (السمك) قامة كل شيء
 وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا « فَسَوَّيْنَاهَا » عدلها بوضع كل جرم في موضعه
 « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أى جعله مظلاً . قال ابن جرير ^(٣) : أضاف الليل إلى السماء ، لأن الليل
 غروب الشمس ، وغروبها وطلوعها فيها ، فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل (نجوم الليل)
 إذ كان فيه الطلوع والغروب . « وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا » أى أبرز نهارها . و (الضحى) انبساط
 الشمس وامتداد النهار . وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها .
 « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ » أى بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء
 « دَحَمَهَا » أى بسطها ومهددها لسكنى أهلها ، وتقليبهم في أقطارها « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا »
 أى بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً « وَمَرَعَهَا » أى رعيها وهو النبات .
 قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان . فأريد به هنا ، مجازاً ، مطلق
 المأكول للإنسان وغيره . فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبي : يجوز أن يكون استمارة مصرحة . لأن الكلام مع منكرى الحشر
 بشهادة قوله (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) كأنه قيل : أيها الماعدون المزوزون في قرآن البهائم ،
 في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

«وَالْجِبَالِ أَرْسَسَهَا» أى أُنْبِتَهَا فِيهَا «مَتَعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ» أى انْتَقَاعًا إِلَى حِينٍ .
قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك تمتعاً لكم ولأنعامكم ، لأن
فائدة ما ذكر من البسط والتهديد وإخراج الماء والمرعى ، واصله إليهم وإلى أنعامهم . فإن المراد
بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان وغيره - كما تقدم - وإمام مصدر مؤكد لفعله المضمَر . أى تمتعكم بذلك
متاعاً . أو مصدر من غير لفظه ، فإن قوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) فى معنى تمتع بذلك .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ)

[٣٥] (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ)

[٣٦] (وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ)

[٣٧] (فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ)

[٣٨] (وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[٣٩] (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

[٤٠] (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤١] (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ » أى الداهية العظمى التى تطم على كل هائلة من
الأمور ، فتغمر ما سواها بعظيم هولها . وهى القيامة للحساب والجزاء « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ » أى ما عمل من خير أو شر . وذلك بعرضه عليه « وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن
يَرَىٰ » أى أظهرت نار الله لأبصار الناظرين « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ » أى أفرط فى تعديه ومجاوزه
حد الشريعة والحق ، إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال « وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى
متاعها وشهواتها ، على كرامة الآخرة وما أعد فيها للأبرار « فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » أى

ماواه ومرجعه « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى مقامه بين يديه للسؤال، أو جلاله وعظمته .
 أى اتقاء بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ » أى فيما يكرهه الله
 ولا يرضاه منها ، نخالفها إلى ما أمره به « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » أى مصيره يوم القيامة .
 وجواب (إذا) محذوف لدلالة التقسيم عليه . تقديره : ظهرت الأعمال . أو انقسم الناس قسمين .
 القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)

[٤٣] (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرُنَهَا)

[٤٤] (إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَمَةٌ)

[٤٥] (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا)

[٤٦] (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » أى إقامتها . أى متى يقيمها الله ويكونها .
 قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله ^(١) (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) ألا تراهم
 لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرسى السفينة وإرساء الجبال . « فِيمَ أَنْتَ مِنْ
 ذِكْرُنَهَا » أى فى أى شئ أنت من ذكر ساعتها لهم . أى ليس إليك ذكرها لأنها
 من الغيوب ، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها . ولذا قال « إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَمَةٌ » أى متهمى علمها
 « إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا » أى ما بعثت إلا لإلذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله
 على إجرامه . ولم تكلف علم وقت قيامها « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً
 أَوْ ضُحَاهَا » أى كأن هؤلاء الكاذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب ، يوم يشاهدون
 وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا فى الدنيا أو فى القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية
 أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لما بينهما من الملازمة ، لاجتماعهما فى يوم واحد .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٢٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٠ - سُورَةُ عَبَسَ

وتسمى الصاخبة . مكية وآيها اثنتان وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (عَبَسَ وَتَوَلَّى)

[٢] (أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى)

« عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى » .

روى ابن جرير ^(١) : وابن أبي حاتم : عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشى وهو يناجيه . فجعل عبد الله يستقرى النبي ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله ! علمني مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه . وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى) الآيات . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء ؟ .

قال ابن كثير : وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة . والضحاك . وابن زيد . وغير واحد من السلف والخلف ؛ أنها نزلت في ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله . ويقال عمرو . والله أعلم . انتهى .

وقال الرازي : أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه . وأجمعوا أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . قال الشهاب : وهو مكى قرشى من المهاجرين الأولين .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة في أكثر غزواته . وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

قيل : عفى الله عنه بعد نور . وقيل : ولد أعمى . ولذا لقيت أمه أم مكتوم . والتعرض لعنوان عماء ، إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه ﷺ وتشاغله بالقوم : وإما لزيادة الإنكار . كأنه قيل : تولى لكونه أعمى . وكان يجب أن يزيد لهام ، تعظماً وتروفاً وتقريباً وترحيباً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ وَزَكَاةً)

[٤] (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى)

[٥] (أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى)

[٦] (فَأَنْتَ لَهُ وَرَثَتُهُ)

[٧] (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى)

[٩] (وَهُوَ يَخْشَى)

[١٠] (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)

« وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ وَزَكَاةً » أى يتطهر - بما يتلقن منك - من الجهل أو الإثم . وفي الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أولاً ، إذ في الغيبة إجلال له ﷺ ، لا يهينهم أن من صدر منه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه مثله . كما أن في الخطاب إيناساً بعد الإيحاء ، وإقبالاً بعد إعراض .

وقال أبو السعود : وكلمة (لعل) مع تحقق التزكى ، واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام . للتنبيه على أن الإعراض عنه ، عند كونه مرجو التزكى ، مما لا يجوز . فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكى ؟ كما في قولك (لعلك ستندم على ما فعلت) وفيه إشارة إلى أن إعراضه كان لتزكية غيره . وأن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلاً « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى » أى يعتبر ويتعظ فتنفعه موعظتك . وتقديم التزكية على التذكر ، من باب تقديم التخليّة على التحلية .

« أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى » أى بماله وقوته عن سماع القرآن والهداية والموعظة « فَأَنْتَ لَهُ وَتَصَدَّى » أى تتعرض بالإقبال عليه ، رجاء أن يسلم ويهتدى « وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَبُ » أى وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام . إن عليك إلا البلاغ . قال الرازى : أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، إلى أن تعرض عن أسلم ، للاشتغال بدعوتهم « وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى » أى يسرع فى طلب الخير « وَهُوَ يَخْشَى » أى يخاف الله ويتقيه « فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » أى تعرض وتنشغل بغيره .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء والإقبال عليهم فى مجالس العلم وقضاء حوائجهم ، وعدم إظهار الأغنياء عليهم . وقال الزمخشري : لقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدباً حسناً . فقد روى عن سفیان الثوري رحمه الله أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

الثانى : فى هذه الآيات ونحوها ، دليل على عدم ضنه ﷺ بالنيب . قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحي شيئاً ، كتم هذا عن نفسه .

الثالث : قال الرازى : القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام ، تمسكوا

بهذه الآية وقالوا : لما عاتبه الله في ذلك الفعل ، دل على أن ذلك الفعل كان معصية . وهذا بعيد . فإننا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد . وهو أنه يوم تقديم الأغنياء على الفقراء . وذلك غير لائق بصلافة الرسول عليه السلام . وإذا كان كذلك ، كان ذلك جاريا مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

وأجاب الإمام ابن حزم في (الفِصَل) بقوله : وأما قوله (عَبَسَ وَتَوَلَّى) الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش ، ورجا إسلامه . وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين . وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته ، وهو حاضر معه . فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير ، عما لا يخاف فوته . وهذا غاية النظر في الدين والاجتهاد في نصره القرآن في ظاهر الأمور ونهاية التقرب إلى الله ، الذي لو فعله اليوم منا فاعل ، لأُجِرَ . فعاتبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقى ، وهذا نفس ما قلناه ! انتهى .

وقال القاشاني : كان ﷺ في حجر تربية ربه ، لكونه حبيباً . فكما ظهرت نفسه بصفة حجبته عنه نور الحق ، عوتب وأدب . كما قال (١) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) إلى أن تخلق بأخلاقه تعالى . انتهى . وقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[١٢] (فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ)

[١٣] (فِي مُحُفِّ مُكْرِمَةٍ)

(١) في كشف الخفاء (١٦٤) : رواه العسكري عن علي رضي الله عنه .

[١٤] (مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ)

[١٥] (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

[١٦] (كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

[١٧] (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

« كَلَّا » ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال أنس رضى الله عنه : كان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه . رواه أبو يعلى . وقوله تعالى « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » أى إن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

قال الشهاب : وكون عتابه على ما ذكر عظة ، لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند الله إذا عوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوز عود الضمير للآيات وللسورة ، وللوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام . وقوله تعالى « فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ » أى حفظه . على أنه من (الذكر) خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من (التذكير) .

قال الزمخشري : وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وقيل : الضمير للقرآن ، والكلام استطراد « فِي صُحُفٍ مُّسَكَّرَةٍ » يعنى صحف آيات التنزيل وسوره «مَرْفُوعَةٍ» أى عالية المقدار «مُطَهَّرَةٍ» من التغير والنقص والضلالة «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» جمع سافر بمعنى سفير . أو هو الذى يسمى بين قومه بالصلح والسلام . يقال : سفر بين القوم ، إذا أصلح بينهم . ومنه قوله (١) .

وما أَدْعُ السفارةَ بين قوى وما أَمْشِي يَفْشِي ، إن مَشَيْتُ

(١) قال فى حاشية ابن جرير (٣٠/٥٤) : البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (٣٥٨)

قال : وقوله بأيدى سفرة وهم الملائكة ، واحد سافر . يقال : سمرت بين القوم إذا أصلحت بينهم . فجعلت الملائكة ، إذ نزلت بوحي الله وتأديته ، كالمسير الذى يصلح بين القوم .

والسفرة ، إما الملائكة لأنهم يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله ، كأنه محمول بأيديهم . وإما الأنبياء لأنهم وسائط في الوحي يبلغونه للناس « كِرَامِهِ » أى عنده تعالى ، لاصطفائهم للرسالة « بَرَرَةٍ » أى أخيار ، جمع (بَارٍ) وهو صانع البر والخير .

« قُتِلَ الْإِنْسَانُ مِمَّا أَكْفَرَهُ » قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صفات قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك . فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع ؟ مع أن أوله نطفة قدرة وآخرة جيفة مذرة . وفيما بين الوقتين حال عذرة . فلا جرم ، ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم . فإن خلقه الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع وعلى القول بالبعث والحشر والنشر . ومرجه إلى أن المراد بالإنسان من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعمته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به . وجوز أن يراد بالإنسان الجنس المنتظم للمستغنى ، ولأمثاله من أفراد ، لا باعتبار جميع أفراد .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشري : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم . لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفضائنها .

الثانية : قال ابن جرير^(١) : فى قوله (مِمَّا أَكْفَرَهُ) وجهان أحدهما التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر ما الذى أكفره ؛ أى أى شيء أكفره . وعلى الثانية ، فالهمزة للتصيير كـ (أَعَدَّ البعير) .

الثالثة : قال الزمخشري فى هذه الآية : ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن متناً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، مع تقارب طرفيه ولا أجمع لللائمة ، على قصر متنه . وسره ما أشار له الرازى من أن قوله (قُتِلَ الْإِنْسَانُ) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب . وقوله (مِمَّا أَكْفَرَهُ) تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

الرابعة : أفاد في (الكشف) أن الدعاء ليس على حقيقته ، لامتناعه منه تعالى . لأن منشأ العجز . فالمراد به إظهار السخط باعتبار جزئه الأول ، وشدة الذم باعتبار جزئه الثاني .
أى لاستحالة التعجب بمعناه المعروف أيضاً . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ)

[١٩] (مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ وَ)

[٢٠] (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ وَ)

[٢١] (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ وَ)

« مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ » شروع في بيان إفراطه في الكفر ، بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره ، من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة ، مع إخلاله بذلك . وفي الاستفهام عن مبدأ خلقه ، ثم بيانه بقوله تعالى « مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ وَ » تحقير له .
أى من أى شيء حقير مهين خلقه ؟ من نطفة مذرة خلقه « فَقَدَرَهُ وَ » أى فهاهنا لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال . أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ وَ »
أى سهله . وهو مخرجه من رحم أمه بعد اجتثانه وتعاصيه . أو سبيل الإسلام .

قال ابن زيد هده للإسلام الذى يسره له وأعلمه به . أى بما غرز في فطرته من الخير ، وأودع في غريزته من وجدان معرفة الخالق . وقال مجاهد : يعنى سبيل الشقاء والسعادة وهو كقوله ^(١) (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) واختاره أبو مسلم قال : المراد من هذه الآية هو المراد من قوله ^(٢) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا ، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين . أى جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر . والتيسير يدخل

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء وإزالة الكتب . نقله الرازي . « ثُمَّ أَمَاتَهُ وَفَأَقْبَرَهُ » أى جمعه ذا قبر يوارى فيه ، تسكرمة له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض للطير والسباع ، كالحَيوان .

قال الفراء : ولم يقل (فقبره) لأن القابر هو الدافن بيده ، والقبر هو الله تعالى . يقال (قبر الميت) إذا دفنه . و (أقبر الميت) إذا أمر غيره بأن يجعله فى القبر . وقال ابن جرير (١) : القابر هو الدافن الميت بيده كما قال الأعشى :
لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)

[٢٣] (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ)

[٢٤] (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[٢٥] (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

[٢٦] (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا)

[٢٧] (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا)

[٢٨] (وَعَيْنًا وَقَضْبًا)

[٢٩] (وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا)

[٣٠] (وَحَدَادٍ بَقِ غُلْبًا)

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[٣١] (وَفَلِكَمَّةً وَأَبًّا)

[٣٢] (مَتَمَعَّا لَكُمُ وَلِأَنعَمِيكُمْ)

« ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » أى بعثه بعد مماته وأحياه. وإنما قال (إِذَا شَاءَ) لأن وقت البعث غير معلوم لأحد. فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى . متى شاء أن يحيي الخلق أحياءم . قال الشهاب : وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار ، لأن وقتهما معين إجمالاً ، على ما هو المعمود فى الأعمار الطبيعية .

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمْرُهُ » قال ابن جرير^(١) : أى ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر ، من أنه قد أدى حق الله عليه ، فى نفسه وماله ، فإنه لما يؤد ما فرض عليه من الفرائض ، ربه .

وقال القاشانى : لما بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين ، تمجيب من كفران الإنسان واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير . وعدد النعم الظاهرة التى يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس ، من مبادئ خلقته ، وأحواله فى نفسه ، وما هو خارج عنه مما لا يمكن حياثه إلا به . وقرر أنه مع اجتماع الدليلين ، أى النظر فى هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيام بشكره ، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن ، لما يقضى فى الزمان المتناول ما أمره الله به من شكر نعمته ، باستعمالها فى إخراج كاله إلى الفعل ، والتوصل بها إلى المنعم . بل احتجب بها وبنفسه عنه . انتهى .

ولما فصل تعالى النعم المتعلقة بحدوثه ، تأثرها بتعداد النعم المتعلقة ببقائه . فقال سبحانه « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » أى فإن لم يشهد خلق ذاته ، وعى عن الآيات فى نفسه ، وأصر على جحوده وتوحيده ربه ، فلي نظر إلى طعامه وما كله الذى هو أقرب الأشياء لديه . ماذا صنعنا فى إحداثه وتربيته لأن يكون غذاء صالحاً . وقوله تعالى « أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ » أى من

(١) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

الزن « صَبًا » أى شديداً ظاهراً . وقد قرئ بكسر همزة (إنا) على الاستئناف المبين لكيفية حدوث الطعام ، وبالفتح على البدلية ، بدل اشتغال . بمعنى سببية الأول للثانى .
أو تقوم الثانى بالأول . فهو من اشتغال الثانى عليه أو بدل كل ، ادعاء « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا »
أى صدعناها بالنبات . أو شققنا أجزاءها بعد الرى ليتخلل الهواء والضياء فى جوفها « فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا » بمعنى حب الزرع . وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرها من الحبوب
« وَعِنَبًا وَقَضْبًا » وهو كل ما أكل من النبات رطباً ، كالقثاء والخيار ونحوها . سعى قصباً لأنه
يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى « وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ » جمع حديقة وهى البساتين
ذوات الأشجار المثمرة ، عليها حوائط تحيط بها « غُلَبًا » جمع غلباء أى ضخمة عظيمة .
وعظمها إما لاتساعها البالغ حد البصر ، أو لغلظ أشجارها وتكاثرها والنفافها « وَفَلَكَهَ »
أى مما يؤكل من ثمار الأشجار « وَأَبًّا » وهو المرعى الذى تأكله البهائم من العشب والنبات
« مَتَعْنَا لَكُمْ » وَلَا نَعْمَ لَكُمْ « أى تمتعاً . مفعول له ل (أنبتنا) أو مصدر حذف فعله وجُرد
من الزوائد . أى متعكم بذلك متاعاً ، وجعلكم تنتفعون به أنتم وأنعامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّآخَةُ)

[٣٤] (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

[٣٥] (وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ)

[٣٥] (وَصَحْبَتَهُ وَبَنِيهِ)

[٣٧] (لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

[٣٧] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)

[٣٩] (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)

[٤٠] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)

[٤١] (تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ)

[٤٢] (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ » يعنى الداهية الشديدة ، وهى صيحة القيامة وصوت زلزالها الهائل المصم للآذان . يقال صخه يصخه ، ضرب أذنه فأصمها . وصاح بهم صيحة تصيح الآذان ، وقد صخ صخيخاً ، وهو صوته إذا قرع . وصخ لحديثه إذا أصاخ له ، بمعنى استمع كما فى (الأساس) ويجوز على الأخير أن تجعل بمعنى المستمعة ، مجازاً فى الإسناد . وجواب (إذا) محذوف يدل عليه ما بعده . كيشغل كل بنفسه ، أو افترق الناس « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَحْبَتِهِ » أى زوجته « وَبَنِيهِ » أى لاشتغاله بنفسه ، وعلمه بأنهم لا ينفعون .

قال الشهاب : يعنى أن الإقبال عليهم إما للنفع أو للانتفاع ، وكلاهما منتف لاشتغاله بنفسه عن نفس غيره ، وعلمه بعدم نفعه . وتأخير الأحب فالأحب للبالغة . فهو للترقى . كذا قيل .

قال الشهاب : والظاهر أنه لم يقصد ذلك لاختلاف الناس والطباع فيه « لِكُلِّ أُمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » أى يكفيه فى الاهتمام به . كأن ذلك الهم الذى نزل به قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصار شبيهاً بالبنى « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ » أى مضيئة « ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » أى مسرورة بنيل كرامة الله والنعم المتزايد ، وهى وجوه المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا من الخير والعمل الصالح ماملأوا به صنفهم « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ » أى غبار وكدورة « تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ » أى تغشاها ظلمة « أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ » أى الفسقة الذين لا يبالون ما أتوا به من معاصى الله ، وركبوا من محارمه ، فجوزوا بسوء أعمالهم وخبث نياتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١ - سُورَةُ التَّكْوِيْرِ

وتسمى سورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وهى مكية وآيها تسع وعشرون . روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر : قال قال رسول الله ﷺ : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأى عين فليقرأ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) وهكذا رواه الترمذى^(٢) .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ، والحديث رقم ٤٨٠٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٨١ - سورة إذا الشمس كورت .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[٢] (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[٥] (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[٦] (وَإِذَا الْبِحَارُ سَجِرَتْ)

[٧] (وَإِذَا الْنفُوسُ زُوِّجَتْ)

[٨] (وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ)

[٩] (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أى أزيلت من مكانها ، وألقيت عن فلسكها ، ومحي ضوؤها
« وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » أى تفتت وانشطت « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » أى رفعت عن
وجه الأرض ، ونسفت . من أثر الرجفة والزلازل الذى قطع أوصالها « وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ »
أى تركت مهملة لا راعى لها ولا طالب . والعشار جمع عُشراء وهى الناقة التى أتى على حملها
عشرة أشهر . وخصها ، لأنها أنقس أمواتهم . أى فإذا هذه الحوامل التى يتنافس فيها أهلها
أهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ « وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ »
أى جمعت من كل جانب واختلطت ، لما دهم أوكارها ومكائنها من الزلازل والتخريب ، فتخرج

هائلة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» أى: ملئت بتفجير بعضها إلى بعض، حتى تعود بحرا واحداً. من (سجر التنور) إذاملأه بالخطب. كقوله (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) وقيل: المعنى تأججت ناراً. قال الفقل: يحتمل أن تكون جهنم فى قعور البحار، فهى الآن غير مسجورة لقوام الدنيا. فإذا انتهت مدة الدنيا، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت بالسكامة مسجورة بسبب ذلك. وأوضحه الإمام بقوله: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً. فإن ما فى بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى فى البحار إلا النار. أما كون باطن الأرض يحترق على نار فقد ورد به بعض الأخبار. ورد أن البحر غطاء جهنم، وإن لم يعرف فى صحيحها. ولكن البحث العلمى أثبت ذلك. ويشهد عليه غليان البراكين وهى جبال النار. انتهى.

قال الرازى: وأعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها فى أول زمان تخريب الدنيا. ويمكن وقوعها أيضاً بعد قيام القيامة. وليس فى اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين. أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة. انتهى.

«وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» أى: قرنت الأرواح بأجسادها. أوضحت إلى أشكالها فى الخير والشر، وصُنِفَتْ أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء.

«وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» يعنى البنات التى كانت طوائف العرب يقتلونهن. قال السيد المرتضى فى (أماليه): الموءودة هى المقتولة صغيرة. وكانت العرب فى الجاهلية تشد البنات، بأن يدفنوهن أحياء، وهو قوله تعالى (١) (أَيْمِسْكُهُ وَ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) وقوله تعالى (٢) (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ). ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين: أحدهما أنهم كانوا يقولون إن الإناث بنات الله. فالحقوا البنات بالله فهو أحق بها منا. والأمر الآخر أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق. قال الله (٣)

تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ) الآية: قال المرتضى: وجدت أبا على الجبائى

(١) [١٦/ النحل/ ٥٩]. (٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٠]. (٣) [٦/ الأنعام/ ١٥١].

وغيره يقول : إنما قيل لها موءودة لأنها ثقلت بالتراب الذى طرح عليها حتى ماتت . وفى هذا بعض النظر . لأنهم يقولون من الموءودة - وَأَدَّ (يَدُّ) (وَأَدَّا) والفاعل (وَائِد) والفاعلة (وَائِدَة) ومن الثقل يقولون آدنى الشيء يؤودنى ، إذا أثقلنى ، أودا . انتهى .

وإنما قال (بعض النظر) لأن القلب معهود فى اللغة ، فلا يبعد أن يكون (وأد) مقلوباً من (آد) . وقال المرتضى : فإن سأل سائل ، كيف يصح أن يسئل من لا ذنب له ولا عقل ، فأى فائدة فى سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين : أحدهما أن يكون المراد أن قاتلها طوب بالحجة فى قتلها ، وسئل عن قتله لها بأى ذنب كان ، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقتلة ههنا هم المسئولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها . ويجرى هذا مجرى قولهم (سألت حق) أى طالبت به ومثله قوله تعالى (١)

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) أى مطالباً به مسئولاً عنه . والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبية له ، على أنه لاحتجة له فى قتلها . ويجرى هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام (٢) (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هذا الوجه : كيف يخاطب ويسئل من لا عقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن فى الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغم عليه فى ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمتنع أن يقع . وإن لم يكن من الموءودة فهم له . لأن الخطاب ، وإن علق عليها ، وتوجه إليها ، والغرض فى الحقيقة به غيرها . قالوا وهذا يجرى مجرى من ضرب ظالم طفلاً من ولده فأقبل على ولده يقول له : ضربت ما ذنبك وبأى شيء استحلت هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لا خطاب الطفل . والأولى أن يقال فى هذا : إن الأطفال ، وإن كانوا من جهة العقول لا يجب فى وصولهم إلى الأغراض المستحقة ،

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٤] . (٢) [٥ / المائدة / ١١٦] .

أن يكونوا كالملى العقول ، كما يجب مثل ذلك فى الوصول إلى الثواب . فإن كان الخير متظاهراً والأمة متفقة على أنهم فى الآخرة ، وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ، لأنها تكون فى تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتمقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحجة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبي ، بأن المجنى عليه إذا سئل بمحض الجانى ونسبت له الجناية دون الجانى ، بمثل ذلك الجانى على التفكر فى حاله وحال المجنى عليه . فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له . حتى يبين من صدر عنه ذلك . كما سئل عيسى دون الكفرة ، وهو من البديع ، بديع . انتهى .

وقال الزمخشري : وإنما قيل (قُتِلَتْ) بناء على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

قال السيوطي فى (الإكليل) : فى الآية تمظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياء . وأخرج مسلم^(١) أنه ﷺ سئل عن العزل فقال : الوأد الخفى . وهى : وإذا الموءودة سئلت . انتهى . وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب فى هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إني وأدت بنات لى فى الجاهلية . قال : أعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يا رسول الله ! إني صاحب إبل . قال : فأنحر عن كل واحدة منهن بدنة .

(١) الحديث أخرجه فى : ١٦ - كتاب الفكاح ، حديث رقم ١٤١ (طبعنا) عن جدامة بنت وهب الأسدية .

وروى الدارمي^(١) في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان . فكنا نقتل الأولاد . وكانت عندى ابنة لى . فلما أجبت ، وكانت مسرورة بدعائى إذا دعوتها . فدعوتها يوماً فاتبعنى فررت حتى أتيت بئراً من أهلى غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها فى البئر . وكان آخر عهدى بها أن تقول يا ابتاه يا ابتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ : أحزنت رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : كف . فإنه يسأل عما أهـه . ثم قال له : أعد على حديثك . فأعاده . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته . ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك .

وكان للعرب تقنن فى الوأد . فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها : طيبيها وزينها حتى أذهب بها إلى أحماها . وقد حفر لها بئراً فى الصحراء . فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض . ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لثمنخض على رأس الحفرة . فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة . وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صمصمة بن ناجية ابن عقال ، جد الفرزدق بن غالب ، بأنه كان ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ، ونهى عن قتلهن . قيل إنه أحيا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك . وقد افتخر الفرزدق بهذا فى قوله^(٢) :

ومنا الذى منع الوائِدَاتِ وأحيا الوئيدَ فلم يؤأِدِ

(١) أخرجه فى مقدمة مسنده فى : ١ - باب ما كان عليه الناس قبل مبـث النبي ﷺ من الجهل والضلالة .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

عرفت المنازلَ من مهْدٍ كوحى الزبور لدى الفرقِ

الوحى : الكتاب . والفرقد : ضرب من الشجر دائم الاخضرار .

(الديوان ٢٠٢/١) .

وفى قوله أيضاً^(١) :

أنا ابنُ عِقالٍ وابنِ ليلى وغالبٍ
وكان لنا شيخانِ ذو القبرِ منهما^(٢)
على حينِ لانتُحي البقاتُ وإذ همُ
أنا ابنِ الذى ردَّ النيةَ فضلُهُ
أبى أحدُ الغيثينِ صعصعةُ الذى
أجارَ بناتِ الوائدينِ ومن يُجيزُ
وفارق ليل^(٣) من نساء أنت أبى
فقات أجر لى ما ولدتُ فإبنى
راى الأرض منها راحة فرى بها
فقال لها نأى فأنت بدمتى
وفكَالكُ أغلال الأسير المكفر^(٤)
وشمخُ أجار الناسَ من كل مَقبرِ
عُكوف على الأصنام حولَ المدورِ
وما حسبُ دافعتُ عنه بمُفورِ
متى تُخلفِ الجوزاء والنجمُ يُمطرِ
على القبرِ ، يعلمُ أنه غير مُخفرِ
تعالج ربحاً ليلها غير مُفعرِ
أتيتك من هزلى الحولةِ مُقترِ
إلى خددِ منها وفى شر مخفرِ
لبنتك جارٌ من أبها القنور^(٥)

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة - هذا - وفد على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم .
قال : وكان صعصعة منع الواد فى الجاهلية ، فلم يدع تيمناً تدوهو يقدر على ذلك . فجاء الإسلام
وقد فدى فى بعض الروايات أربعائة مؤودة ، وفى أخرى ثلاثائة ، فقال للنبي ﷺ : بأبى

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بنى نهشل أبقوا عليكم ولم تروا سوابقَ حامٍ للذمار مُشهرٍ
(الديوان ٤٧٤/٢) .

(٢) المكفر : هو الذى كفر وكبل بالحديد .

(٣) ذو القبر : غالب كان يستجار بقبره . والذى أجار الناس من القبر وأحيا الوئيدة صعصعة .

(٤) فارق - معنى امرأة ماخصاً . شبهها بالفارق من الإبل وهى الناقة التى يضربها المخاض

فتفارق الإبل وتمضى على وجهها حتى تضع .

(٥) القنور : السبيء الخلق .

أنت وأمي ! أوصني . فقال : أوصيك بأمك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك . فقال : زدني . فقال عليه الصلاة والسلام : احفظ ما بين لحييك ورجليك . ثم قال عليه الصلاة والسلام : ماشيء بلغني عنك فعلته ؟ فقال : يا رسول الله ! رأيت الناس يمجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب . غير أنني علمت أنهم ليسوا عليه . فرأيتهم يثدنون بناتهم ، فعرفت أن ربهم عز وجل لم يأمرهم بذلك . فلم أتركهم . فقديت ما قدرت عليه . ويقال إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محي الموتى . فقال له سليمان : أنت ابن محي الموتى ؟ فقال : إن جدى أحيا الموءودة ، وقد قال الله تعالى (١)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) وقد أحيا جدى اثنتين وتسعين موءودة ، فتبسم سليمان . وقال : إنك مع شعرك لفقير . نقله المرتضى في (أماليه) . وبالجملة ، فكان الواد عادة من أشنع العوائد في الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتام الجفاء والغلظة .

قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بمد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحو هذه العادة القبيحة . انتهى .

ومن أثر نعمته أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان ؛ فمن ذلك قول معن بن أوس (٢) :

رأيت رجالاً يكرهون بناتِهِمْ وفيهن ، لأنكذب ، نساء صواحُ
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى خوادِمُ لا يملأنهُ ونواحُ
وقال العلوى الجمانى ، في صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً .
قالوا له ماذا رزقتنا فأصاخ مُمتَّ قال : بنتا

(١) [٥ / المائدة / ٣٢] .

(٢) انظر أمالي القالى ، الصفحة رقم ١٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الدار) .

وَأَجَلَ مِنْ وَلَدِ النِّسَاءِ أَبُو الْبَنَاتِ . فَلَمْ جَزَعْتَا
إِنَّ الَّذِينَ تَوَدَّ مِنْ بَيْنَ الْخَلَائِقِ مَا اسْتَطَعْتَا
نَالُوا بِفَضْلِ الْبَيْتِ مَا كَبَبْتُمَا بِهِ الْأَعْدَاءِ كَبَبْتَا

وحكى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته . فقال : من هذه يا معاوية؟ فقال :
هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال . أَمِطْهَا عَنْكَ . قال : وَلِمَ ؟ قال :
لأنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الشجعاء ، ويُثِرْنَ البغضاء . قال : لا تقل
ذلك يا عمرو ! فوالله ما مريض المرضى ، ولا نذب الموتى ، ولا أغان على الزمان ، ولا أذهب
جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لو أجدتُ خالاً قد نفعه بنو أخته ، وأبا قد رفعه نسل بنيته . فقال :
يا معاوية ! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إليّ منهن . وإنى لأخرج من عندك وما عليها
شيء أحب إليّ منهن . وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبيت : أهلاً ومهلاً بمقيلة النساء وأم الأبناء
وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون^(١)

فَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ وَجَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وما الثَّانِيْتُ لاسمِ الشَّمْسِ عَمِيْبٌ وما التَّذْكِيْرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ
والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنف
نشاطاً . فالدنيا مؤنثة . والرجال يخدومونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت
البرية . وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب .
والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف
الأجسام ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون . فهنيئاً لك
هنيئاً بما أوتيت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

(١) قائله المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

نَعْدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِلَا قِتَالِ

انظر الصفحة رقم ٢٥٣ من الديوان (طبعة لجنة التأليف) .

ونسخت رقة لأبى الفرج الببغاء : اتصل بى خبر المولودة المسودة كرم الله عرقها ، وأنتها نبأنا حسناً . وما كان من تغيرك عند اتصال الخبر وإنسارك ما اختاره الله لك فى سابق القدر . وقد علمت أنهم أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهم فى الترتيب فقال عز من قائل^(١) : (يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) وما سماه الله تعالى هبة ، فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحرى . فهناك الله بورود الكريمة عليك . وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنواذر فى هذا لا تحصى . وكلها من بركة الإسلام وفضله ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[١١] (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)

[١٢] (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ)

[١٣] (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[١٤] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ)

« وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » قال ابن جرير^(٢) : أى صحف أعمال العباد نشرت لهم ، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » أى قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى^(٣) (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) « وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ » أى أوقد عليها فأحيت .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] .

قال قتادة : سمرها غضب الله وخطايا بني آدم . « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ » أى قربت للمتقين « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ » أى علمت كل نفس عند ذلك ، ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار . أى تبين لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذى كان فيه صلاحها من غيره . و (عَلِمَتْ) جواب لجميع ما سبق من الشروط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ)

[١٦] (الْجَوَارِ الْكُنُوسِ)

[١٧] (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ)

[١٨] (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

[١٩] (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٢٠] (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

[٢١] (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ » أى الرواجع من النجوم . من (خنس) إذا رجع وتأخر . قال الزمخشري : بينا ترى النجم فى آخر البرج ، إذ كرّ راجعاً إلى أوله « الْجَوَارِ » جمع جارية ، من الجرى « الْكُنُوسِ » أى الغيب التى تدخل فى بروجها ، فى رأى العين . من (كنس) الوحش) إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . فهو فى الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة فى الاستعمال ، حقيقة « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » أى أدبر ولم يبق إلا اليسير ، وذلك وقت السحر « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » أى أقبل وتبين . أو هب نسيمه اللطيف أو أنجابت عنه غمة الليل وكربته . تشبيهاً بمن نفس عنه كربته . قال الإمام : أقسم الله تعالى

بهذه الدراري يُنَوِّه بِشَأْنِهَا مِنْ جِهَةٍ مَا فِي حَرَكَاتِهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قُدْرَةِ مَصْرِفِهَا وَمَقْدَرِهَا ، وإرشاد تلك الحركات إلى ما في كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعمتها ، في القسم ، بما يبعدها عن مراتب الألوهية ، من الخنوس والكنوس ، تقريباً لمن خصها بالعبادة وتأخذها من دونه أرباباً . وفي الليل إذا أدبر زوال تلك النعمة التي تغمر الأحياء بانسدال الظلمة بعدما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفي الصبح إذا تنفس بشري الأنفس بالحياة الجديدة في النهار الجديد ، تطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى « إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعنى روح القدس الذى ينفث في روعه ﷺ وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى (عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أُخْضَرْتَ) أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن « ذِي قُوَّةٍ » أى على تحمل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم في قوله (١) تعالى (شَدِيدُ الْقُوَى) « عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » أى صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى « مُطَاعٌ ثُمَّ » أى في الملأ الأعلى « أَمِينٍ » أى على وحيه تعالى ورسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

[٢٣] (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ)

[٢٤] (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

[٢٥] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

« وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » أى ليس ممن يتكلم عن جَنَّةٍ ويهذى هذيان المجانين .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] .

(١) (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) وهذا نفى لما كان يهيم به أعداؤه، صلى الله عليه وسلم ، حسداً ولؤماً .

قال الشهاب : وفي قوله (صَاحِبُكُمْ) تكذيب لهم بألف وجه . إذ هو إيماء إلى أنه نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهنًا. فلا يسند له الجنون إلا من هو مركب من الحق والجنون . ولله در البحترى (٢) في قوله :

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أَدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي، فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ
« وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ » أى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق الأعلى، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر ، والله أعلم ، أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى . وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله تعالى (٣) (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَ حَافَةِ الْمَأْوَى) فتلك إنما ذكرت فى سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام، متمثلاً له، هو التحقيق الموحى به، وأن أمره مبنى على مشاهدة وعيان، لأعلى ظن وحسبان . وماسيئله كذلك فلا مدخل للريب فيه « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » أى يخيّل .

قال مجاهد : ما يضمن عليكم بما يعلم . أى لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء :

(١) [٣٧ / الصافات / ٣٧] .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

فى الشَّيْبِ زَجْرُهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجُرُ وَبَالِغٌ مِنْهُ لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرُ

انظر الصفحة رقم ٦٧٣ من الديوان (طبعة بيروت) .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣ - ١٥] .

يأتيه غيب السماء، وهو شئ نقيس، فلا يخل به عليكم. وقال أبو علي الفارسي: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه، كما يكتّم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلانه حتى يأخذ عليه حلواناً. وقرئ (بظنين) بالطاء: أي ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب.

قال القاشاني: لامتناع استيلاء شيطان الوهم وحنّ التخيّل عليه، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسي بالوهمي والخيالي، لأن عقله صفى عن شوب الوهم. والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحى واليوم الآخر والجزاء، ليس من شأنه أن يتهم فيه. كما قال هرقل^(١) لأبي سفيان: وسألتك هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فرمعت أن لا. فمرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

تنبيه:

قال ابن جرير^(٢): وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به، وذلك (بِظَنِّينِ) بالضاد. لأن ذلك كله كذلك في خطوطها. فأولى المتأولين بالصواب في ذلك، تأويل من تأوله (وما محمد، على ما علمه الله من وحيه ونزله، ببخيل بتعليمكموه أيها الناس. بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتعلموه) انتهى. واختار أبو عبيدة القراءة بالطاء لوجهين:

أحدهما أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفى التهمة أولى من نفى البخل. وثانيهما قوله (عَلَى الْغَيْبِ) ولو كان المراد البخل لقال (بالغيب) لأنه يقال فلان ضنين بكذا ولما يقال على كذا.

وقال الشهاب: قال في (النشر): هو بالضاد في جميع المصاحف، ولا ينافي هذا قول أبي عبيدة. إن الضاد والطاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداها على الأخرى، (١) من حديث طويل أخرجه البخاري عن أبي سفيان بن حرب، في: ١ - كتاب بدء الوحى، ٦ - حدثنا أبو اليان حديث رقم ٧.

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

زيادة يسيرة ، قد تشبهه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقله المصاحف كما توهم ، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولا بد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا في القراءات موافقة الرسم العثماني ، ولولاه كانت قراءة الظاء مخالفة له . انتهى . قال ابن كثير : وكلتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » أى من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام . وهو نفي لقولهم إنه كهانة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[٢٧] (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[٢٨] (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[٢٩] (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

« فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ » أى أى مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جرم أنكم تنحون الضلال بعد هذه المزاعم فى الوحي ومبلغه . فمن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يقترب إليه بوجه . كمن سلك طريقاً يبعده عن سمت مقصده ، فيقال : أين تذهب .

قال الزخشرى : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنّيات الطريق : أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله ، فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل « إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى تذكرة وعظة لهم . قال الإمام : موعظة يتذكرون بها ما غرز الله فى طباعهم من الميل إلى الخير . وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع . وقوله تعالى « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » بدل من (العالمين) . أى إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه . أما من أعرض ونأى ،

فن أبن تنفعه الذ كرى ، وقد زاده الران عمى ؟ وقوله تعالى « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى وما تشاءون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم
من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخليفة بينكم وبينها . وفائدة هذا الإخبار ، هو الإعلام
بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل . فهو خاضع لسلطان
مشيئته ، مقهور تحت تدبيره وإرادته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٢ - سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

وهي مكية . وآيها تسعة عشر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » أى انشقت كما فى آية^(١) (وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالنِّفْمِ) « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استمارة لإزالة الكواكب ، حيث شبهت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى فتح بعضها إلى بعض ، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » أى بحثت وأخرج موتاها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتاها فانفتحت وخرج من دفن فيها . وهذا معنى البعثة . وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه . وهو إنما يكون لإخراج شئ تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجاوز به عن البعث والإخراج كما فى سورة العاديات . والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . ونتم ، لما فيها ، فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزحشرى والسهيل إلى أنه مركب من كلمتين اختصاراً . ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أنثر) أى حرك وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً. ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلتين، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصله في (الزهر) نقلاً عن أئمة اللغة.

« عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرْتُ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى: ما قدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه. والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير، وجدان الجزاء عليهما، وتحقيق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْأَلُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[٧] (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

[٨] (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)

« يَسْأَلُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى: أى شيء خدعك وجرأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذكر (الكَرِيمِ) للمبالغة في المنع عن الاعتذار. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل في نعمته. ومن كان كذلك فنجدير بأن يرهب عقابه ويخشى انتقامه وعذابه. لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد في الرهبة، كما قال « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » أى جعلك سويًا متساوي الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتم به « فَعَدَلَكَ » أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق، معتدل القامة. لا كالبهايم. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الشدة، أو بمعنى صرفك عن خلقه غيرك إلى خلقه حسنة، مزت بها على سائر الحيوان « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ » أى: فى أى صورة شاءها ركبك عليها. يعنى أنه ركبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها. فد (أَيِّ) استفهامية. والمجرور متعلق بـ (رَكَّبَكَ) و (ما) زائدة،

وجملة (شاء) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته في ذلك التركيب، لَجَدِرٌ بَأَن يُتَقَى بِأَسِه وَيُحَذَرُ بِطَشِه وَيُرْهَبُ أَشَدُّ التَّرْهِيْبِ .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) في بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحاً في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية، على الأسباب، ما تمتته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب - وهذا من أهم الأمور - فإن العبد يعرف أن المصيبة والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ، ولا بدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يفتّر بفهمٍ فاسدٍ ، فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فانسكوا عليه . قال : كاعتار بعض الجهال بقوله تعالى (يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإما غرّه بربه الغرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ (الْكَرِيمِ) ، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاعتار به ولا إهال حقه . فوضع هذا المغتر (الغرور) في غير موضعه، واعتّر بمن لا ينبغي الاعتار به . انتهى .

وفي مثل هذا الغرور يجب - كما قال الغزالي - على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب . وإنه ، مع أنه كريم ، خلّد الكفار في النار أبد الآباد . مع أنه لم يضرّه كفرهم . بل سلط المذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته في عباده ، وقد خوفني عقابه، فكيف لأخافه؟ وكيف أعتّره؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل . فلا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور .

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إغراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيفعل على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك. فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالفون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويكونون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين. مع إكبابهم على المعاصي وانهماء بهم في الدنيا وإغراضهم عن الله تعالى. زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته. كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالني، وينال بالهويناء، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لا يتفكر فيه متفكر إلا ويبطل حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهدّونه هذا . يخرجون الحروف من مخارجهم ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها ، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب . لا يهتمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالْدِّينِ)

[١٠] (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[١١] (كِرَامًا كَتِيبِينَ)

[١٢] (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

« كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالْدِّينِ » قال الإمام : أى لا شيء يغرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته في كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث في يوم آخر، لثواب أو عقاب . وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين . أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء . مع أن الله تعالى لم يترك عملا من أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه ، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْأَحْفَظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كَرَامًا كَتَبِينَ » أى يكتبون ما تقولون .

« يَمْلِكُونَ مَا تَمْلِكُونَ » أى من خير أو شر . أى يحصونه عليكم ، فلا يغفلون ولا ينسون قال الرازى : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم . لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود ، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة . فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره . فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا ها هنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم ، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهاه . فيجب الإيمان به ، كما ورد . مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[١٤] (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[١٥] (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٦] (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

[١٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

[١٨] (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

[١٩] (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ،

واجتناب معاصيه ، لى نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع (برّ) بفتح الباء وهو المتصف بالبرّ (بكسرها) أى الطاعة . قال الأصمغانى : وقد اشتغل عليه قوله تعالى^(٢) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . وقوله تعالى : « وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » أى الذين تجرّوا عن أمر الله .

أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبل
« يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلصون فى صلاتها . وقوله تعالى « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه .
أى أى شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ما تهتم درايته والبحث عنه .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

والخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا » أى من دفع ضرّ أو كشف همّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازى : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغنى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٣ - سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

قال المہامی: سمیت به دلالة علی أن من أخلّ بأدنی حقوق الخلق ، استحق أعظم وبل من الحق . فكیف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإیمان به وبآیاته ورسله ؟ وهی مكیة علی الأظهر . فإن سیاقها یؤید أنها كأخواتها اللاتی نزلن بمكة ، لاسیما خاتمها . فإنها صفات المستهزئين الذین كانوا بمكة . وحملها علی المنافقین بالمدينة بعید ، إذ لم یبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائی وابن ماجه^(١) - كما فی ابن کثیر عن ابن عباس ، لما قدم النبی ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس کیلاً ، فأنزل الله (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكیل - فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإزال ، فی إطلاق السلف ، لا یكون مقصوراً علی أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فیہ ذلك . كأن أهل المدينة تلی علیهم ما سبق إنزاله فی مكة . وقیل لهم : أنزل الله حظر ما أنتم علیه والوعید فیہ . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملسكة فیہ . ومنه یعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكة إلا قصة التطفیف . وقول آخر : إن كل نوع من المسكی والمدنی منه آیات مستثناة - منشؤه الحيرة فی المطابقة بین ظاهر ما یتبادر من المأثور فی سبب النزول ، و بین ما یدل علیه السیاق من خلافه . وبالوقوف علی عرف السلف یزول الإشكال ویوضح الحال .

(١) أخرجه ابن ماجه فی : ١٢ - کتاب التجارات ، ٣٥ - باب التوقی فی الكیل والوزن ، حدیث ٢٢٢٣ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

[٢] (الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[٣] (وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُواهُمْ يُخْسِرُونَ)

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصمهانى : ومن قال : (وَيْلٌ) وإذا فى جهنم ، فإنه لم يرد أن (ويلاً) فى اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقراً من النار .

ثم بين تعالى المطففين بقوله « الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافيّاً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك فى الكيل الذى هو أجلّ مقداراً ، فى الوزن بطريق الأولى . وإيثار (على) (من) للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرى لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُواهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتام . فبيها حذف وإيصال . قال ابن جرير^(١) : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية ذم التطفيف والخيانة فى الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع ، ولو في القليل . لأن من دَنُوَتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعه عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير ^(١) : وأصل التطفيف من الشيء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : القليل حق صاحب الحق عماله من الوفاء والتمام في كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء في حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب المتلى منه ناقص عن الملاء . وقد أمر تعالى بالوفاء في الكيل والميزان . فقال تعالى في عدة آيات : ^(٢) (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الَّتِي سَوَّيْتُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) . وقال تعالى ^(٣) (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)

[٥] (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[٦] (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، من خسر فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون ، في موقف يغشى المحرم فيه من الهول ، ما يود الافتداء بكل مستطاع . وفي تأثر الويل للمطففين بما ذكر في هاتين الآيتين ،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٥] . (٣) [٥٥ / الرحمن / ٩] .

مبالغات في النعم عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن في ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً - ووصف يوم قيامهم بالعظمة - وإبدال (يَوْمَ يَقُومُ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان (رب العالمين) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوى ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف - وفي تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله في عبادته ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة . فتأمل هذا المقام ، ففيه ما تتحير فيه الأوهام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ)

[٨] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينُ)

[٩] (كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

[١٠] (وَيَلْوِيهِ يَوْمَئِذٍ اللَّامُكِّذِينَ)

[١١] (الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ)

« كَلَّا » ردع عن التطفيف الذي يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضمف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيئ وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانياً ، وهو الفجور ، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينُ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أى مسطور بين الكتابة . أو معلم برقم ينبىء عن قبجه . سمي سجينا - فميلا من السجن وهو الحبس والتضييق - لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم . فهو بمعنى (فاعل) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى (مفعول) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير : ما كتاب سجين أو حل كتاب مرقوم؟ خذف المضاف . وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب . وقال الأصفهاني : السجين اسم لجهم بإزاء عليين . وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله (وَمَا أَدْرَاكَ) فسر . وكل ما ذكره بقوله (وَمَا يُدْرِيكَ) تركه مبهماً . وفي هذا الموضع ذكر (وَمَا أَدْرَاكَ) وكذا في قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْهِمْ) ثم فسر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفي هذه الطبقة موضعها الكتب التي يتبع هذا الكتاب ، لا هذا . انتهى .

وقال القاشاني : (لَفِي سِجِّينٍ) في مرتبة من الوجود مسجون أهلها في حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء في أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشر . ولذلك فسر بقوله (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) أي ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم « وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ » أي بيوم الحساب والمجازاة . وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف . لأن إصرارهم على التمدي والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يُكْذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَمَا يُكْذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ » أي مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة ، إلى الإفراط في أفعاله بالبغي والمدوان « أَثِيمٍ » أي مبالغ في ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصي « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أي ماسطوره من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحى رباني ، ولا تنزيل إلهي . مع نصوص بيانه وشواهد برهانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدر جواهرها وصار صدا عليها بالرسوخ فيها . و (الرين) أصل معناه الصدأ والوسخ القار ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكة راسخة لا تقبل الزوال ، وصفة للنفس قارة فيها . فبكثرة المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدأ الذى لا يزول بسهولة . قال فى (الأساس) : الران ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنوب بعد الذنب . من قولهم (ران عليه الشراب والنعاس) و (ران به) إذا غلب على عقله . و (رين بفلان) ونظيره الغين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

« كَلَّا » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقاً « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » قال ابن جرير^(١) : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو الساتر من ستارة بز وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب . وتارة للإهانة ، لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سبى لا حقيق . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ)

[١٧] (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » أى عتقون بها . وقد أشار القاشانى إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيّرها عن طباعها . فمعهذا تحقق الحجاب وانفلت باب الغفرة ، ولذلك قال : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرى . كالماء الكبريتى مثلا ، إذ لو روّق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيميته دون طبيعته . ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب ، وحكم عليهم بقوله (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) انتهى . قال ابن القيم فى (بدائع الفوائد) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ما تفعله النار فى أجسامهم . كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب . فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحجوب لاغنى لها عنه ، وهى ممنوعة من الوصول إليه . فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحجوب عنها وطول احتجابه ، بفضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذى لا يتصوره إلا من بلى به أو بشىء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالوت أو أشد منه من بين ساعة ، كما^(١) قال :

وَكُنْتُ أَرَى كَالْوَتِ مِنْ بَيْنِ لَيْلَةٍ فَكَيْفَ بَيْنِ كَانَ مِيعَادَهُ الْحَشْرِ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسلمة الجعفى يرثى أخاه لأمه . وأولها :

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكمالها ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشي والروح لمعرفة ومحبة والابتهاج بقربه والتنعم بذكركه . وجعل هذا كمالها وغايتها . فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالاً من العين والأذن واللسان واليد والرجل ، التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لانسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة . بل ألمها أشد الألم . وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزها عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لإحياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقرّ عينيها إلا بقربه والأنس به والمكوف بكايتهما على محبته والشوق إلى لقائه . فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

= أقول لنفسي في الخلاء ألومها : لك الويل ! ما هذا التجلدُ والصبرُ
قال الشارح المرزوق :

قوله (كالموت) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لا يرى ذلك إلا في الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يتمتع أن يكون (كالموت) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنت أرى شيئاً أو أمراً مثل الموت .

وقوله (من بين ليلة) من ، دخل للتبيين . والمعنى : كنت أعدّ مفارقتي له في ليلة كالموت ، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حال وقد فرّق بيني وبينه بين ، موعداً الالتقاء بعده يوم القيامة .

الذى كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفي حديث الرؤية^(١) : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله^(٢) (وَلَقَمَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) الآيات اهـ .

« ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَكْذِبُونَ » أى في الدنيا . قال الإمام: تبيكيتاً لهم وزيادة في التنكيل بهم . فإن أشد شيء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّي عنه كانت في مكنته فأغفلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ)

[١٩] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[٢٠] (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ)

[٢١] (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

« كَلَّا » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ » قال القاشاني : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت تقويمهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، في علمين . وهو مقابل للسجين ، في علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٦ - كتاب الجنة ، ١٦ - باب ما جاء في رؤية الرب

تبارك وتعالى . (٢) [٧٦ / الإنسان / ١١] .

رقم بصور أعمالهم « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية^(١) (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصف ثان ، تنويعاً بهم وتعديداً لصفاتهم .
أو هم الملائكة إجلالاً لهم وتعظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[٢٣] (عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ)

[٢٤] (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

[٢٥] (يُسْقُونَ مِنْ رَاحٍ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)

[٢٦] (خِتَمُهُمْ مِنْ مِسْكِ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ » أى على الأسرة والمتكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » أى بهجته ورويقه ، كما يرى على وجوه المترفين ماؤه وحسنه « يُسْقُونَ مِنْ رَاحٍ رَحِيقٍ » أى خمر ، إلا أنه خص بالخالص الذى لا غش فيه ، كما قال حسان^(١) :
يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ^(٢) عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

(١) [٥٤ / القمر / ٥٥] . (٢) البريص : نهر بدمشق . وبردَى : نهر آخر بدمشق .

وقوله (بردى) أى ماء بردى . ويصفق أى يمزج . والرحيق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلْ ؟
بَيْنَ الْجَوَابِ فَالْبُضَيْعِ فَحَوَّلَ

(شرح البرقوقى ص ٣٠٧) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .
وقوله تعالى : « مَخْتُومٌ » أى ختم على أوانيه تكريماً له لصيانتة عن أن تمسه الأيدي
على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خَتَمُهُ وَمِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى
يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق ، هو المسك ، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فـسكان
ذلك المسك رطب يقطع فيه الختام .

وعن بعض السلف واللغويين : المختوم الذى له ختام أى عاقبة ، وقد فسرت بالمسك . أى
من شربه كان ختم شربه على ريح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على
خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة « وَفِي ذَلِكَ » أى النعيم المغوى به وما تلاه « فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُقَنَّبُونَ » أى فليغرب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينافس الرجل على الرجل بالشئ يكون له ، ويتمنى أن يكون
له دونه . وهو مأخوذ من الشئ النفيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه
وتستهميه . وكأن معناه فى ذلك : فليجدد الناس فيه وإليه ، فليستبقوا فى طلبه ولتحرص عليه
نفوسهم . وقال الرازى : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علو شأنه . وفيه إشارة
إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لافى النعيم الذى هو مكدر
سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)

[٢٨] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)

« وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » عطف على (ختامه) صفة أخرى (رحيق) وما بينهما اعتراض
مقرر لنفاسته . أى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم . والتسنيم فى الأصل مصدر سنىمه بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

رفعه ، ومنه السقام . سقى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ . وقد بينه بقوله « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُتَرَبُّونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء ، كما فى آية (١) (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) من كونها زائدة ، أو بمعنى (من) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ)

[٣٠] (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

[٣١] (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » يعنى كفار قريش « كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه ، وبذمهم ما ألفوا عليه آبائهم .

قال الإمام : الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شرّبت نفوسهم فى الشر ، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رآهم الله هذا العالم ببعثة النبي ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهاء وفى ضلال العامة . وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق إلى قلوبهم فيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القوى المستعز بالقدره والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزاع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش ، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم . وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجهل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [٧٦ / الإنسان / ٦] .

لاتطابقها البواطن، وحركات أركان لاتشايعها السرائر. وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب. وتشبثت الهمم بالجد الكاذب. وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل. وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتفقيص السكامل. واستوى في ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل والملقب بلقب العالم. إذا صار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعي إليه. وانطبق عليهم نص الآية الكريمة. انتهى.

« وَإِذَا مَرُّوا » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية. والغمز: الإشارة بالجنب والحاجب.

قال السيوطي: وفي هذا دلالة على تحريم السخرية بالمؤمنين، والضحك منهم، والتغامز عليهم « وَإِذَا انْقَلَبُوا » أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم « إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ » أى متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعميرون به أهل الإيمان. أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتنعيم بالدنيا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّالُّونَ)

[٣٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ)

[٣٤] (فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[٣٥] (عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى رأوا المؤمنين « قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّالُّونَ » أى لتركهم ما عليه العامة، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذا

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَافِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من (واو قالوا) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدكم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام . وإنما قيل (عَلَيْهِمْ) نقلاً له بالمعنى كما فى قولك (حلف ليفعلن) لا بالعبارة ، كما فى قولك (حلف لأفعلن) أفاده أبو السعود « فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفریع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخریتهم فى الدنيا . و (اليوم) يوم الدين والجزاء . وضحكهم من الكفار ضحك المسرور بما نزل بعدوه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم « هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ (يَنْظُرُونَ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة . والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيماً لهم وتكريماً وزيادة فى مسرتهم . أى هل رأيتهم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و (ما) مصدرية أو موصولة .

وثوبه وأثابه بمعنى جزاه . وهو من (ثاب) بمعنى رجع . فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى ^(١) (أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّ جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآزُونَ) .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨-١١١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٤ - سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

وتسمى سورة إذا السماء انشقت . وهي مكية . وهي خمس وعشرون آية . قيل ترتيب هذه السور الثلاث ظاهر . لأن في (انقطرت) تعريف الحفظة السكتين وفي (المطففين) مقرر كتبهم . وفي هذه عرضها للقيامة . روى الإمام مالك^(١) عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: إذا السماء انشقت . فسجد فيها . فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . ورواه مسلم^(٢) والنسائي^(٣) . وأخرج البخاري^(٤) عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة . فقرأ (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) فسجد . فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ . فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وفي رواية للنسائي^(٥) عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) و (أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

(١) أخرجه في الموطأ في : ١٥ - كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٥١ - باب السجود في إذا السماء انشقت .

(٤) أخرجه في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ١١ - باب من قرأ السجدة في الصلاة

فسجد بها . حديث رقم ٤٦٦ .

(٥) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٥١ - باب السجود في إذا السماء انشقت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ)

[٢] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

[٣] (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ)

[٤] (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

[٥] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

« إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » أى انصدعت وتقطعت كما تقدم في قوله ^(١) (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى سمعت له فى تصدعها وتشققها . وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته ، حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذى يستمع للأمر ويذعن له . قال ابن جرير ^(٢) : العرب تقول (أذن لك فى هذا إذاً) بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذى روى ^(٣) عن النبي ﷺ : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن . يعنى ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن . ومنه قول الشاعر ^(٤) :
صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

(١) [٨٢ / الانفطار / ١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٢ - باب قول الله تعالى : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٤) الحماسية رقم ٦٠٦ لقعن بن أم صاحب . وأولها :

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِ ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

أذنوا : استمعوا ، يقال : أذن لكذا وكذا ، يأذن إذا .

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذن ، الحاسة .

ومعنى قوله تعالى (وَحَقَّتْ) أى : حق لها ووجب أن تنقاد لأمر القادر ولا تمتنع .
وهى حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له فى قبضة تصرفه . قال العرب : الأصل حق الله طاعتها .
ولما كان الإسناد فى الآية إلى السماء نفسها ، والتقدير : وحقت هى ، كان أصل الكلام
على تقدير مضاف فى الضمير المستكن فى الفعل . أى وحق سماعها وطاعتها . فحذف المضاف ،
ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ » أى بسطت وجعات مستوية .
وذلك بنسف جبالها وآكامها كما قال ^(١) (فَأَعَا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)
ولذا قال ابن عباس : مدت مد الأديم العكاظى . لأن الأديم إذا مدّ ، زال كل انثناء فيه
واستوى « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا » أى ما فى جوفها من الكنوز والأموات « وَتَخَلَّتْ » أى :
وخلت غاية الخلو ، حتى لم يبق شئ فى باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها فى الخلو
« وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى انقادت له فى التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه
على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهى وقهره ومشيتته . وجواب (إذا) محذوف للتحويل
بالإيهام . أى : كان ما كان مما لا ينفى به البيان . أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يٰأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)

[٧] (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينِهِ)

[٨] (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

[٩] (وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

« يٰأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » قال ابن جرير ^(٢) : أى

(١) [٢٠ / طه / ١٠٦ و ١٠٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

إنك عامل إلى ربك عملاً فلاقه به ، خيراً كان أو شراً . والمعنى : فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشاني : أى إنك ساع مجتهد في الذهاب إليه بالموت . أى تسير مع أنفاسك سريعاً . كما قيل : أنفاسك خطأك إلى أهلك ؛ أو مجتهد مجدّد في العمل ، خيراً أو شراً ، ذاهب إلى ربك فلاقه ضرورة . قال : والضمير إما للرب وإما للكدر . وأصل الكدر جهد النفس في العمل والكدر فيه ، حتى يؤثر فيها . من (كدر جلد) إذا خدشه . فاستعير للجد في العمل وللتعب ، بجامع التأثير في ظاهر البشرة « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبِئَمِينِهِ » وهم من آمن وعمل صالحاً واتصف بما وصف به الأبرار ، في غير ما آية « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » قال ابن جرير (۱) : بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشاني : بأن تمحي سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية « وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ » أى : زوجته وأقاربه . أو قومه ممن يحانسهم ويقارنه من أصحاب اليمين « مَسْرُورًا » أى بنجائه من العذاب ، أو بصحبته ومرافقتهم ، وبما أوتي من حظوظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۱۰] (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

[۱۱] (فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا)

[۱۲] (وَيَصْلَى سَعِيرًا)

[۱۳] (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

[۱۴] (إِنَّهُ وَظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

[۱۵] (بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا)

(۱) انظر الصفحة رقم ۱۱۵ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » أى أعطى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره ، وهو على هيئة المنضوب عليه ، أمام الملك المنصرف به عن ذاك المقام إلى دار الهوان ^(١) (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) « فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا » أى ينادى بالهلاك وهو أن يقول : وايبورا ! وواويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفه ، إذا قال والهفاه « وَيَصْلَى سَعِيرًا » أى يدخل ناراً يحترق بها « إِنَّهُوَ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا » أى منعماً مستريحاً من التفكير فى الحق والدعاء إليه والصبر عليه . لا يهيمه إلا أجوفاه ، بطراً بالنعم ، ناسياً لمولاه « إِنَّهُوَ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ » أى لن يرجع إلى ربه ، أو إلى الحياة بالبعث . لاعتقاده أنه يحى ويموت ولا يهلكه إلا الدهر . فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالى ماركب من المآثم ، على خلاف ما قيل عن المؤمنين ^(٢) (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) ^(٣) (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ) « بَلَى » أى ليحورن ويرجعن إلى ربه حياً كما كان قبل مماته « إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا » أى بما أسلف فى أيامه الخالية ، فيجازيه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ)

[١٧] (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

[١٨] (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

[١٩] (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ)

[٢٠] (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٢١] (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

(١) [١٦ / النحل / ٦٠] . (٢) [٥٢ / الطور / ٢٦] . (٣) [٦٩ / الحاقة / ٢٠] .

« فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ » وهى الحمرة فى الأفق من ناحية مغرب الشمس « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » أى جمع وضَمَّ مما سكن وهذا فيه من ذى روح كان يطير أو يدب نهراً كذا قاله ابن جرير^(١)، والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتغال الليل عليها. فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال^(٢) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) « وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » أى اجتمع وتم نوره وصار كاملاً « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » أى حالاً بعد حال. والمعنى بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها. فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفي اكتناهاها. وجوز أن يكون (طَبَقًا) جمع طبقة وهى المرتبة . أى لتركن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطباق معناه ما يطابق غيره مطلقاً فى الأصل، ثم إنه خص بما ذكر، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و (عن) للمجازة أو بمعنى (بمد). والبعدية والمجازة متقاربان، لكنه ظاهر فى الثانى « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحديث. وقد أقام لهم الحجة على التوحيد والبعث « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ » أى لا يخضعون ولا يستكيفون ولا ينفقون . قال فى (الإكليل) : وقد استدلل به على مشروعية سجدة التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ)

[٢٣] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٣٨ و ٣٩] .

[٢٤] (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٢٥] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ » أى بآيات الله وتنزيله ، المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره كما قال الإمام ، لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يملغ صوته أعماق ضمائرهم . بل ، قد بلغ وأفنع فيما بلغ . ولكن العناد هو الذى يمنعه عن الإيمان ، ويصدّهم عن الإذعان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل . وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ، فالإضراب يرمى إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » أى بما يسرون فى صدورهم من حقيقة التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغى والمكر ، فسيجزىهم عليه . ولذا قال « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على تكذيبهم وإعراضهم وبغيهم « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فأمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى (يؤمنون) وكونه مفقوعاً أظهر ليجيء (لهم أجر) بغير فاء . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٥ - سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية . وآياتها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)
 - [٢] (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)
 - [٣] (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)
 - [٤] (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)
 - [٥] (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)
 - [٦] (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)
 - [٧] (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)
 - [٨] (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
 - [٩] (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)
- « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور، لعلوها . أو البروج منازل عالية فى السماء .

قال ابن جرير^(١) : وهى اثنا عشر برجاً . فمسير القمر فى كل برج منها يومان وثلاث فذلك ثمانية وعشرون منزلاً . ثم يستمر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج - كما قال الشهاب - الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة (برج) أيضا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فشبهه - على هذا - الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ » أى الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسَّن يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهوده كلها . وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأولى أو الأعراف والأظهر ، لقريئة عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ » أى: قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هي جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لقبولن كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكمم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزخشرى : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم . على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المذبذبين المحرقين بالنار ، ملمعونون أحقاء بأن يقال فيهم (قتل) قريش (كقيل) (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة . وقوله تعالى « أَلنَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ » بدل من (الأخدود) و(الوقود) بالفتح الحطب الجزل الموقد به . وأما (الوقود) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أى على حافات أخدودها « قُمُودٌ » أى قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أى حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقون لهم لغاية فسوة قلوبهم « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » أى : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نكمت من الشيء ونكمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « الْعَزِيزِ » أى الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « الْحَمِيدِ » أى الحمود على إنعامه

وإحسانه « الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شيء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفي توصيفه تعالى بما ذكر من النعموت الحسنى ، إشعار بمناط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبیده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المضائر ، وفي الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف في كتب المعاني .

تنبيه :

روى ابن جرير^(١) عن ابن عباس في أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدوداً في الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء ، فمرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالاً ونساء فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم في النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس - وتفصيل النبأ - على ما في كتاب (الكنز الثمين) - إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العربية عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان في مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانياً مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا في تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تقصر ، بغضاً في المسيحية وكرهاة لسلطانٍ مسيحيٍّ يملكهم . فأقاموا رجالاً يهودياً منهم عند موت ذلك السلطان أوقته . فأشهر ذلك اليهودي نفسه ملكاً على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

والخيانة . ولما دخلوا قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالاً ونساء . كانت عدتهم - فيما يقال - ثلاثمائة وأربعين شهيداً . وأتى بذلك الراهب محمولا يحف به الجنود . وكان هراً لا يقوى على المشي . فسئل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام . فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على ما يشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألفت امرأه بنفسها في النار وتبعها طفل لها في الخامسة من عمره . وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى ، والفرح بالشهادة ، ما أضحو مثلاً وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعتة عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لا جرم أن من تلا ما ورد في الوعد الصادق لكل مفتون في الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أرثا ورفقته . ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ المسيحي ، وقد علمت أن في كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ

وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى بلوهم بالأذى ليرجموا عن إيمانهم . قال أبو السعود : والمراد بهم ، إما أصحاب الأخدود خاصة ، وبالمفتونين المطروحون في الأخدود ، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق . وهم داخلون في جلتهم دخولاً أولياً « ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا » أى عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أى عذابان منوعان على الكفر وعلى الفتنة . أو هما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالمزهرير والإحراق وغيرها . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أى فى نسايتهم الأخرى « جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » أى التام الذى لا فوز مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[١٣] (إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ)

[١٤] (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

[١٥] (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

[١٦] (فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبو السعود : استئناف خطب به النبى ﷺ ، إذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بمنف . وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجسارة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) « إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ » أى يبدى الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو فى كل يوم

(١) [١١ / هود / ١٠٢] .

يبدى خلقاً من نبات وحيوان وغيرها . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه « وَهُوَ الْغَفُورُ » أى لمن يرجع إليه بالتوبة « أَلْوَدُودُ » أى المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو الْعَرْشِ » أى الملك والسلطان أو السماء « أَلَمَجِيدُ » أى العظيم في ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته « فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ » أى لا يريد شيئاً إلا فعله . فلا يحول بينه وبين مراده شيء . فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض . ولذا تأثره بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (هَلْ أَتَمَّكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)

[١٨] (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

[١٩] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ)

[٢٠] (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

[٢١] (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)

[٢٢] (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

« هَلْ أَتَمَّكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ » أى الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير^(١) : أى قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسل . ولا يثنيتك عن تبليغهم رسالتى . كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم ، إلى عطب وهلاك . كالذى كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة - كما قال أبو السموء - استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحاي الثانية) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فعالا لما يريد) متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجفود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنُ وَنَمُودٌ » بدل من (الجفود) لأن المراد بفرعون هو وقومه ، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمداد في الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى ، مع وضوح آياته وظهور بيناته ، عناداً وبغياً . والإضراب انتقالي للأشد ، كأنه قيل ليس حال فرعون ونمود بأعجب من حال قومك . فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم ، لم ينزجروا . وفي جعلهم (في تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدة إحاطتهم بإحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالفريق فيه ، مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شيء وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم في قبضته وحوزته ، كالحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهرباً . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخى لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه انهماكهم ، وقوله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل في أسلوبه وهدايته « فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير (١) : والمعنى على الأولى محفوظ من التغير والتبديل في لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبتته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٦ - سورة الطارق

هي مكية . وآيها سبع عشرة . -

روى الإمام أحمد^(١) : عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه ؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهم يبتغى عندهم النصر . فسمعه يقرأ (وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ) حتى ختمها : قال فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك . ثم قرأتها في الإسلام . قال فدعيتني ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه . وروى النسائي^(٢) عن جابر ، قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء ، فقال النبي ﷺ : أفأتان أنت يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسما والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٣٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .
(٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبع أمم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

[٢] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

[٣] (النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

[٤] (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

« وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ » أى المضى .
كأنه يثقب ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدى به . وسمى طارقاً لأنه يطرق ليلاً .
أى يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من (الطرق) وأصل معناه الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت .
ومنه المطرقة والطريق ، لأن السابلة تطرقها . ثم صار فى عرف اللغة اسماً لسالك الطريق ،
لتصور أنه يطرقها بقدمه . واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتى ليلاً (طارقاً) لأنه
فى الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف فى (النجم) للجنس . وأصل معنى (الثقب) الحرق . فالثاقب الخارق .
ثم صار بمعنى المضى ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفى إيهامه ثم تفسيره ، تفخيم لشأنه
وتنبية على الاعتبار والاستدلال به .

« إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى مهيمن عليها رقيب . وهو الله تعالى ،
كما فى آية (١) (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) فيحصى عليها ما تسكب من خير أو شر ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٢] .

وقد قرئ (لَمَّا) بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن - و (كُلُّ نَفْسٍ) مبتدأ و (عَلَيْهَا حَافِظٌ) خبره . و (ما) صلة واللام هي الفارقة . و قرئ (لَمَّا) بالتشديد على أنها بمعنى (إِلَّا) الاستثنائية و (إن) نافية والخبر محذوف . أى ما كل نفس كائنة في حال من الأحوال، إلا في حال أن يكون عليها حافظ ورقيب . و (كل) على هذا مؤكدة^(٢) لأن (نفس) حينئذ نكرة في سياق النفي ، فتعم .

قال ابن جرير^(١) : والقراءة الى لا اختار غيرها في ذلك ، التخفيف . لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب ، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب . غير أن الفراء كان يرى أنها لغة في هذيل . يجعلون (إلا) مع (إن) المخففة لَمَّا . فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة . وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف . لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . ولا ينبغي أن يترك الأعراف إلى الأنكر . انتهى . وقد صحح غير واحد ثبوتها . وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمة . واستشهد ابن هشام لها في (الغني) فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

[٦] (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ)

[٧] (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

[٨] (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

[٩] (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

[١٠] (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ » جواب لمقدر . والفاء فصيحة .

أى : إن ارتاب مرتاب فى كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر الخ .

قال الإمام : قوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ) بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة فى التأكيد . ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بخلافته فى الأرض . فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإبداع كل عضو من القوة ما به يتمكّن من تأدية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الإدراك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول : فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكّر فى خلقه . وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذى أنشأه أول مرة ، قادر على أن يعيده . فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق . ويعمل بها عن سبيل الشر . فإن عين الرقيب لا تغفل عنها فى حال من الأحوال . انتهى .

و (دَافِقٍ) من الدفق . وهو صبٌّ فيه دفع . وقد قيل إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل ^(١) كـ (حِجَاباً مَسْتُوراً) .

والصحيح أنه بمعنى النسبة كـ (لابن وتامر) أى ذى دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز فى الإسناد . فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجمعه دافقاً . لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أى يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث . أقوال .

وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » أى من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٥] .

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل و (الترائب) موضع القلادة من الصدر ، وكفى بالصلب عن الرجل والترائب عن المرأة . أى أن ذلك الماء الدافق ، إنما يكون مادة لخلق الإنسان ، إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في الحبل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة . فقوله (يخرج) الخ وصف لا بد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

وقال بعض علماء الطب : الترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر فى الذكر والأنثى . ويغلب استعمالها فى موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس ^(١) :

* ترائبها مصقولة كالسجّنجل *

قال : ومعنى الآية أن المنيّ باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شيء ممتد بين الصلب - أى فقرات الظهر فى الرجل - والترائب أى عظام صدره . وذلك الشيء الممتد بينهما هو الأهر (الأورطى) وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويعتد إلى آخر الصلب تقريباً . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة . ومنها شريانان طويلان يخرجان منه

(١) صدر البيت : * مهففةٌ بيضاء غيرُ مُفَاضَةٍ *

وقائله امرؤ القيس من معلقته التى مطلعها :

فَقَدْ نَبَيْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ يَسْقُطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوَمَلِ

المهففة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن .

المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم .

الترائب : جمع التريبة ، وهى مواضع القلادة من الصدر .

السقل والصقل (بالسین والصاد) : إزالة الصدأ والدنس وغيرها .

السجّنجل : المرأة . لغة روميّة عربتها العرب ، وقيل بل هو قطع الذهب والفضة .

بعد شرياني الحكيمتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الحصيتين ، فيغذيانهما . ومن دمهما يتكون المنيّ في الحصيتين ويسميان شرياني الحصيتين ، أو الشرياني المنويين فلذا قال تعالى عن المنيّ (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطى أو الأبهـر . وهذه الآية، على هذا التفسير، تعتبر من معجزات القرآن العلمية . وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : « إِنَّهُوَ » أى الحافظ سبحانه ، المتقدم فى قوله (لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) أو الخالق المفهوم من خلق « عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ » أى رجع الإنسان وإعادته فى النشأة الثانية، لقادر . كما قدر على إبدائه فى النشأة الأولى « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » أى تظهر وتعرف خفيات الضمائر .

قال الزمخشريّ : السرائر ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها تعرفها وتصفّحها، والتميز بين ما طاب منها وما خبث « فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » أى من قوة يمتنع بها من عذاب الله وأليم نكاله . ولا ناصر ينصره فيستنفذه ممن ناله بمكرهه . يعنى أنه فقد ما كان يعهده فى الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بعشيرته ، يمتنع منهم ممن أراد به بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا انتظار الجزاء على ما قدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[١٢] (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[١٣] (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)

[١٤] (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

[١٥] (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)

[١٦] (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

[١٧] (فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلَهُمْ رُوَيْدًا)

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » أى المطر . يسمى رجماً لأنه تعالى يرجمه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلك مواشيهم « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » أى النبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها . أو الانشقاق بالنبات . فهو علم أو مصدر « إِنَّهُ » أى القرآن الكريم « لَقَوْلُ فَصْلٍ » أى حق فارق بين الحق والباطل « وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ » أى بالكلام الذى ليس له أصل فى الفطرة ولا معنى فى القلب ، بل هو جدّ الجدّ « إِنَّهُمْ » أى المكذبين به ، الجاحدين لحقه « يَكِيدُونَ كَيْدًا » أى يعمدون مكرراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره « وَأَكِيدُ كَيْدًا » قال ابن جرير^(١) أى وأمكر مكرراً . ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤه بإهم على معصيتهم وكفرهم به . يعنى أن الكيد هنا استعمارة تبعية أو تمثيلية . بتشبيه إهمال الله لهم ليستدرجهم ، بالكيد . وبهذا يظهر تفريع أمره بإهمالهم فى قوله « فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ » أى لا تستمجدل عقابهم . وقوله « أَهْمِلَهُمْ » بمعنى (مهملهم) فهو بدل منه للتأكيد . أو تكرير بلفظ آخر لاتأكيد . وقوله « رُوَيْدًا » أى قليلاً .

قال الإمام : وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبي ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذى جاء به ، أنه سيبلغ من النجاح ما يستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٧ - سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية ما رواه البخاري^(١) عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلنا يُقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، في سور مثلها. وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» تفرد به الإمام أحمد^(٢)، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لما ذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. وعن النعمان ابن بشير^(٣) أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أذاك حديث الغاشية. وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأها. رواه مسلم وأهل السنن. وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٨٧ - سورة الأعلى، ١ - حدثنا عبدان،

حديث رقم ١٨٣١. (٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول (طبعة

الجلي) والحديث رقم ٧٤٢ (طبعة المعارف). (٣) أخرجه مسلم في: ٧ - كتاب

الجمعة، حديث رقم ٦٢ (طبعنا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

[٢] (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣] (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

[٤] (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ)

[٥] (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ)

« سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوها، كقوله^(١) (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فالاسم صلة . وسرُّ إرادته أن المنزه به إذا كان في غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفضيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأفحم تنبيهاً على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير^(٢) وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شيء سواه ، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير^(٢) فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمدته الإمام ابن حزم في (الفصل) حيث رد على من استدل بهذه الآية

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

في أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره . فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فهو على ظاهره دون تأويل . لأن التسبيح في اللغة التي بها نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشيء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه ، الذي هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء ، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) ومعنى قوله تعالى ^(١) (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعالى ، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فكل الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وبين قوله ^(٢) (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) . والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطل تعلقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء في (بحمد ربك) للملابسة ، ولا كذلك هي في (باسم ربك) ومع اتساع اللفظ الكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لما أيدته من الأخبار ، والآية (فَسَبِّحْهُ) وآية (سُبْحَنَ رَبِّكَ) والله أعلم . و (الأعلى) هو الأرفع من كل شيء ، قدرة وملكاً وسلطاناً . واستبدل السلف بظاهره في إثبات علو بلا تكليف . والمسألة معروفة .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى » قال الزمخشري : أى خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام وانساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وإنه

(١) [٥٦ / الواقعة / ٩٥ و ٩٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨ و ٤٩] .

صفة حكيم . « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ » أى أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات « فَجَعَلَهُ وَ » أى بعد خضرته ونضرتة « غُشَاءً » أى جافاً يابساً تطير به الريح « أَحْوَىٰ » أى أسود ، صفة مؤكدة (لغشاء) لأن النبات إذا يبس تغير إلى (الحوة) وهى السواد . قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غشاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ما شددت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقدمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَىٰ)

[٧] (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْنَىٰ)

[٨] (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)

[٩] (فَذَكَرْكَ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَىٰ)

[١٠] (سَيَذَكِّرُكَ مَنْ يُخَشَىٰ)

[١١] (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٢] (الَّذِي يَصْنَعُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ)

[١٣] (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْيَىٰ)

« سَفَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى » أى سنجملك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقروءه .
والمعنى نجملك قارئاً للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشري : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازى : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :
أحدهما - إنه كان رجلاً أميناً حفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار
ولا كتبة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما - إن هذه السورة من أوائل منازل بمكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب يخالف
للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .
الثانى - قيل (لا تنسى) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل ^(١) (السَّيِّئَاتِ)
والمعنى لا تنفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهي عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازى : والقول المشهور إن هذا خبر . والمعنى سفرك إلى أن تصير بحيث لا تنسى
وتأمن النسيان . كقولك (سأ كسوك فلا تمرى) أى فتأمن العرى ، قال : واحتج أصحاب هذا القول
على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن
النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلا بد وأن يحمل ذلك
على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان . مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول
عن ظاهر اللفظ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنني أجملك بحيث لا تنساه .
وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي
الدراسة والقراءة . وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول . ولأنه على خلاف قوله ^(١)
(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ) انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعي في كتاب (تفضيل السلف على الخلف) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَا تَمَجِّلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وتحقيق معنى النسخ هنا في غاية الإشكال ، لأن قوله (وَلَا تَمَجِّلْ) نهى عن
العجلة ، وقوله (سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى) ليس بأمر بها ليسكون ناسخاً للنهي عنها . بل هو خبر
عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفخواه يؤكد لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفظك تحفيظاً لا تخاف معه
النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخاً ، لغة
لاحقيقة ، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما
كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه
شيئاً من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجملة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً
كلياً دائماً . وذلك لأن ما بالجملة لا يتغير . وإلا لكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخاري ^(٢) عن عائشة أن النبي ﷺ قال : رحم الله فلاناً . لقد أذكركني كذا
وكذا آية ، كنت أسقطهن . وروى أنسبن .

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦] . (٢) أخرجه في : ٥٢ - كتاب الشهادات ،

١١ - باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال عليه السلام : إنا أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني. رواه الشيخان^(١) عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازي بمعنى القلة المراد بها النفي ، وذلك أن المخرج في الاستثناء أقل من الباقي . ولأن (ماشاء الله) في العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفاً ، والقلة قد يراد بها النفي في نحو (قل من يقول كذا مجازاً) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزخشرى بقوله : (أو قال إلا ماشاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سمحى فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة في معنى النفي .

وقال القراء - فيما نقله الرازي - : إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمدًا عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه ، كما قال^(٢) (وَلَيْنَ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك . وبالجمله ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرته ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

« إِنَّهُ وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى » أى ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله (سَنُقَرِّئُكَ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إفرائه الوحي وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المقرأ الموحى به للعمل . ليس فيه حرج وعسر ، بقوله تعالى « وَنُنَزِّلُكَ لِلبَشَرَى » أى نوفقك للطريقة اليسرى ، أى الشريعة السمحة السهلة ، التى هى أيسر

(١) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان

حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ (طبعنا)
(٣) [١٧ / الإسرائ / ٨٦] .

الشرائع وأوفقها بمحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكَّرْ» أى عباد الله عظمته، وعظهم وحذرهم عقوبته «إِنْ نَفَعْتَ الَّذِينَ كَرَىٰ» أى الموعظة. و(إِنْ) إما بمعنى (إِذْ) كقوله تعالى (١) «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أو بمعنى (قَدْ) على ما قاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى (٢) «وَذَكَّرْ فَإِنَّ الَّذِينَ كَرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» وقيل: (إِنْ) شرطية. والمعنى ذم المذكرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلاً بالطبع على قلوبهم كاتقول للواعظ: (عظ المسكسين إن سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيِّدًا كَرًّا» أى يقبل التذكرة وينتفع بها «مَنْ يَخْشَىٰ» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى* الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ» أى العظمى ألما وعذاباً «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْشَىٰ» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا (لا هو حى ولا ميت) فجاء على ما لفهم في كلامهم . و (ثم) هنا للتفاوت الربنى ، إشارة إلى أن خلوده أفضح من دخوله النار ، وصلبه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ)

[١٥] (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ)

[١٦] (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[١٧] (وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)

[١٨] (إِنَّ هَذَا لَنِ الصُّحُفِ الْأُولَىٰ)

[١٩] (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ)

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ» أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٩] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٥] .

بأمره الله به «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» أى تذكراً لجلال ربه وعظمته، تخشع وأشفق وقام بحاله وعليه ، كقوله تعالى (١) «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» وجوز أن يحمل (تَزَكَّى) على إيتاء الزكاة و(صلى) على إقامة الصلاة، كآية (٢) «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» لما عهد في كلامه تعالى من الجمع بينهما في عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المجهود في التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لا ضير في مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله (٣) «فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى» والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم . وهو أكثر فائدة. «بَلْ تَوَثُّوْنَ أَلْحَيَوَةَ الدُّنْيَا» قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان ما يؤدى إلى الفلاح : لانفعلون ذلك بل توثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالسكينة، كإي قوله تعالى (٤) «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا» أى للسكينة، فالمراد بإيثارها ما هو أهم مما ذكر، وما لا يخلو عنه الإنسان غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة، فى السعى وترتيب المبادئ. والاتفات على الأول لشديد التوبيخ. وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ (يُوثِرُونَ) بالياء «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» أى أفضل، لخلوصها عما يكدر. وأدوم لعدم انصرام نعيمها. والجملة حال من فاعل (توثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب «إِنَّ هَذَا» أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) أو ما فى السورة كلها «لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى» أى ثابت فيها معناه «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» بدل من (الصحف الأولى) وفى إيهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لا يخفى .

(١) [٨ / الأنفال / ٢] . (٢) [٢٠ / طه / ١٤] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١] . (٤) [١٠ / يونس / ٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨ - سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية . وآياتها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى والغاشية) في صلاة العيّد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك^(١) أن الضحاك بن قيس سأّل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (رواه مسلم^(٢) وأبو داود وغيرهما) .

(١) أخرجه في الموطأ في : ٥ - كتاب العمل في غسل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ)

[٢] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)

[٤] (تَصَلُّى نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ إِيَّةٍ)

[٦] (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

[٧] (لَا يُسْنَنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[٨] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ)

[٩] (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الفاشية الداهية التى تفشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجهود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » قال القاشانى : أى تعمل دائماً أعمالاً صعبة تتعب فيها ، كالمهوى فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضربت بها فى الدنيا ، وأتعبها فيها من غير مفعلة لهم منها إلا التعب والعذاب .

وجوز أن يكون (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) إشارة إلى عملهم في الدنيا . أى عملت ونصبت في أعمال لا تجدى عليها في الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثوراً كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله في أهل الجنة (لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ) وذلك السعى هو الذى كان في الدنيا . والله أعلم . «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً» أى تدخل ناراً متفاهية في الحرارة . قال القاشانى : أى مؤذية مؤلمة بحسب ما تراولها في الدنيا من الأعمال «تُسَقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ» أى بلغت غايتهما في شدة الحر «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ» وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير (٢): الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع ، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية (٣) (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ) لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الفسلين، ومنهم أكلة الضريع . وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقوماً أو غسليناً «لَا يُسْعِنُ» أى لا يخصب البدن «وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ» أى لا يسكن داعية النفس ولا نهما من أجله «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» أى ذات حسن ، على أنه من النعمة ، كناية عن حسن النظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم «لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ» أى لعملها الذى عملته في الدنيا ، وجدّها في طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكراً لا تندم ولا تتحسر .

(١) [٨٨ / الفاشية / ٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٠] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)
 [١١] (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً)
 [١٢] (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)
 [١٣] (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ)
 [١٤] (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)
 [١٥] (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)
 [١٦] (وَزَرَارِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علو المسكنة .
 « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم
 الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ
 مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ما خولوه من النعيم والملك
 « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب ، وهو إناء لا أذن له « مَوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لا يعوزهم تفقدها
 « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن للاستناد إليها
 « وَزَرَارِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٧] (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)
 [١٨] (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)
 [١٩] (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)
 [٢٠] (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الفاشية ، وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون ، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة (كيف) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة فى حيز الجر على أنها بدل احتمال من (الإبل) أى أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللاتفة بتأتى ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة ، كالنوء بالأوقار الثميلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة . وفى صبرها على الجوع والعطش ، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيف يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى السَّمَاءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى الْأَجْجَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبه لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى الْأَرْضِ » أى التى يضررون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشري : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه . لطيفة :

ذكر السكاكي فى (المفتاح) فى بحث الجامع الخيالى : أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب في استبعاد الصور خزانة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، لبعده البعير عن خياله في مقام النظر ، ثم لبعده في خياله عن السماء ، وبعده خلقه عن رفعها . وكذا البواق . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه قلبهم في حاجتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الوبر ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لاهماله إلى أكثرها نفعا ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم زول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحتمله من نجيره منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كاليلٌ

فما ظنك بالفتات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل - ومن لأصحاب مواشٍ بذاك - كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أرى البدوى إذا أخذ يفتش عما في خزانة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تنص إليه صورة الأرض تليها بمدنها ؟ لا . وإنما الحضرى ، حيث لم تقاخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجمله معيبا ، للعيب فيه . انتهى .

(١) فائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداء يرتديه جميلٌ
نجيره : نجميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كاليل : تعب قاصر النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

[٢٢] (لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)

[٢٣] (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

[٢٤] (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

[٢٥] (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

[٢٦] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرة
 « إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نعى من أمره تعالى « لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » أى
 بمسلسل تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ *
 فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن
 من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق
 « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى
 بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى (مَنْ) كما أن إفراده قبل
 باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة
 له تعالى وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٩ - سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية . وآياتها تسع عشرة روى النسائي^(١) عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . فجاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذاً ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل النبي فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول عليّ . فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلقت ناقة ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[٤] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[٥] (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ)

« وَالْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى^(١) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيقه ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق . وذلك مشا كل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد ، عشر ذى الحجة ، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفى البخارى^(٢) عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير^(٣) أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازى ، قولاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، لما فيه من ليلة القدر ، ولما صح^(٤) أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير

(١) [٨١ / التكوير / ١٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ - كتاب الصوم ،

٥٢ - باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر

الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحيى ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر في العشر . وهو أنها الليالي التي يحلو لك فيها الليل ويشتد ظلامه ويفشى الأفق سواده . وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة (عَشْرٍ) بمثابة قوله في السور الآتية (إِذَا يَغْشَى) (إِذَا سَجَى) مما يبين وجه العبرة ويجليها أتم الجلاء ، ولا بعد في هذا المعنى . بل فيه توافق لبقية الآيات . وبالجملّة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيده قرينة أو حاكي نظائره . والله أعلم .

« وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ » يعنى الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيه كما في قوله تعالى ^(١) (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفيع . السماء والأرض . والبر والبحر . والجن والإنس . والشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار . (وَالْوَتْرِ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقه . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعاني . لأنها لا تخلو من شفيع ووتر .

قال القاضي : ومن فسرهما بالبروج والسيارات أو شفيع الصلوات ووترها أو بيومى النحر وعرفة ، فعمله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، مارآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلًا في الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير ^(٢) : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفيع والوتر ، ولم يخص نوعاً من الشفع ولا من الوتر ، دون نوع ، بخبر ولا عقل ، وكل شفيع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هذا ، لعموم قسمه بذلك .

وقد قرئ (الوتر) بفتح الواو وكسرهما . وهما لغتان .

(١) [٥١ / الذاريات / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ » أى إذا يَمْضَى ، كقوله^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ) والتقيد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . فى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآى . ومن القراء من حذفها وصلاً ووقفاً . ومنهم من خصه بأحدهما ، كما فصل فى كتب الأداء . « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » قال ابن جرير^(٢) : أى هل فيها أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حِجْر . وإنما غنى بذلك : أن فى هذا القسم مكنتى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأنسام .

وقال الرازى : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيها ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . أى على طريقة قوله تعالى^(٣) (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْدِهِ عَظِيمٌ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضمًا للخلق ، وإيداناً بظهور الأمر . و (الحجر) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب ما لا ينبغى . والمقسم عليه محذوف . وهو (ليعذب) كما ينبىء عنه قوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[٧] (إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

[٨] (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

(١) [٧٤ / الدثر / ٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٧٦] .

فيمذب هؤلاء أيضا ، لا اشتراكهم فيما يوجب من جحود الحق والمعاصي . و (عَادٍ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام . فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . فقوله تعالى « إِرَمَ » عطف ببيان لعاد « ذَاتِ الْعِمَادِ » أى ذات الخيام المعمدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى السكلا حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم في الأحقاف في حضرموت . وقيل : كنى بالعماد عن العلو والشرف والقوة . إلا أن الأشبه - كما قال ابن جرير^(١) - بظاهر التنزيل هو الأول . وهو أنهم كانوا أهل عمد سيطرة . لأن المعروف في كلام العرب من العماد ، ما عمد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البقاء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وجد إلى ذلك سبيل ، دون الأنسك . « أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِنْهَا فِي الْبِلَدِ » أى فى العظم والبطش والأيدى .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقوام بطشاً . ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم . فقال^(٢) (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَأَذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ) وقال تعالى^(٣) (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) .

تنبية :

قال الإمام الدراكه ابن خلدون فى (مقدمة) تاريخه فى سياق الأخبار الواهية للمؤرخين مامثاله : وأبعد من ذلك وأغرق فى الوهم ما يتناقله المفسرون فى تفسير سورة (والفجر) فى

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٦٩] . (٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) فيجعلون لفظه (إِرَمَ) اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لماد بن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده . وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها . فبنى مدينة (إرم) في صحارى عدن في مدة ثمانمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزحشرى وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبد الله بن قلابه ، من الصحابة ، أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابه فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى المهديان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحاولوا العماد على الأساطين . فتعين أن يكون بناء . وشرح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحسكيات التي هي أشبه

بالأفانصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات . وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما في قراءة ابن الزبير ، على إضافة القصيلة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة . وإلياس مضر ، وربيعه نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال : ومن زعم أن المراد بقوله (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر . فإنه كيف ياتم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لأن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم قال : وإنما نبهت على ذلك لثلاث يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ؛ إن صدقهم في جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة واللوان الجواهر واليواقيت والآلئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . غيّا كالونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقر ، ونحو ذلك من الهدانيات . ويطنزون بهم . والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

[١٠] (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

[١١] (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[١٢] (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

[١٣] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

[١٤] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

« وَثُمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما في قوله ^(١) (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ (جابوا) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرئ بالياء وبإسقاطها . كما في (يَسِيرُ) والوادي هو وادي القرى . كانت منازلهم فيه . كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ » أى الجنود الذين يشدون له أمره . أو هى أوتاد يشدها من يعبذه . أو القوى والمعدد والعدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرض ما : ضرب بها أوتاداً « الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ماخطر من الكفر بالحق والعتو والتمرد والبغي فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحل بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٢] .

في غير ما سورة وآية . و (السوط) إما مصدر (ساطه) أى خلطه كما في قول كعب (١) :
 لكنها خُلَّتْ قد سِيطَ من دَمِهَا فَجَجْتُ وَوَلَعْتُ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ
 أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبما ذكر
 سميت الآلة المعروفة ، وهى الجلد المضفور الذى يضرب به ، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض .
 وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره
 الزمخشري حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ،
 بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .
 وقيل : هو من قبيل (لجين الماء) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام
 الطبرى ، حيث زعم أن السوط مَثَلٌ لشدة العذاب .

قال الشهاب : وأما استعارة الصب للعذاب فشائعة ، كالإذافة . يقال : صبّ عليه السوط ،
 وقنّعه به وغشاه . وهو تمثيل وتصوير لحوله أو تقابحه عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ
 لَبِاٌّ لِرِصَادٍ » أى هؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعاثين
 بالفساد . و (الرصد) اسم مكان للذى يترقب فيه الرصد - جمع راصد - أو صيغة مبالغة .
 كطعام ومطعمان . فالإاء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد ،
 مترقباً لها ومجازياً على تغييرها وقطعها . بحيث لا ينجو منه أحد - بحال من قعد على الطريق
 مترصداً لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .
 ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غفاه وفقره . ونعى عليه شأنه فيهما ، بما يقرر ما تقدم
 من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى : (١)

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَانَتْ سَمَادُ فِجْلِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مَتَمِّمُ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَّ ، مَسْكَبُولُ

سيط : خِلَاطُ . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب ، والإخلاف فى الموعد ، وتبديل
 خليل بآخر :

انظر شرح السكرى ص ٨

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ)

« فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ » أى بالننى واليسار « فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ » أى فضلى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيقه عليه وقتره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ » أى أذلنى بالفقر . وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بظهر العفاف ويتخلق بخلق الصبر على الكفاف . فى كل ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية (١) (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) وآية (٢) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) وآية (٣) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَذَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَذَلَّا » ردع عن قوليه فى حاله . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإيهانة فى المنع ،

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥٦ و ٥٥] .

(٣) [٧٠ / الماعز / ١٩ - ٢٢] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ » وهو من فقد كافله ومربيه . فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالاته، صونا له إذا أهمل من فساد طبيعته وعيئه بالضرر في أهل جيلته . ومثله التحاض على مواساة البؤساء . وهؤلاء النعمى عليهم ضلالهم في غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أى لا يحض بعضهم بعضاً عليه ولا يتواصى به . قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالأطعام فيقول (ولم تطعموا المسكين) ليصرح لك بالبيان الجلى أن أفراد الأمة متكافلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشانى ، فى دلالة قوله تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) الخ : أى الإنسان يجب أن يكون فى مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان ، لحديث (الإيمان نصفان . نصف : صبر ، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يتقبله بالنعم والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغى من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمى لاستحقاقى وكرامتى عنده . ويترفه فى الأكل ويحتجب بحجة المال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول : إن الله أهاننى . فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن النعم ، ويجعل ذلك وسيلة له فى التوجه إلى الحق والسلوك فى طريقه لمدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدرجاً منه . انتهى . « وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا » قال ابن جرير^(١) : أى تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم (لممت ما على الخوان أجمع فأنا لله لماً) إذا أكلت ما عليه فأثبت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار ، وقرأ^(١) (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَمَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْثِقْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ) أى لا تورثنهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللّم : الاعتداء فى الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أى جمعه وكنزه ، حبًّا كثيرا شديداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

[٢٢] (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

[٢٣] (وَجِئْنَا بِيَوْمٍ يَمْشِي يَمْشِي يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ)

[٢٤] (يَقُولُ يَلَيِّنَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي)

[٢٥] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا)

[٢٦] (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا)

« كَلَّا » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم . وما بَعْدَهُ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا يفهمهم الندم « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أى دكا بمد دك حتى عادت هباء منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثانى تأكيذاً ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلاً رجلاً ، و(الدك) قريب من الدق ، لفظاً ومعنى « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أى وجاء الرب ، تبارك وتعالى ، لفصل القضاء ، كما يشاء . والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة

(١) [٤ / النساء / ١٢٧] .

والضحاك في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهب الخلف في ذلك معروف ، من جمل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه . قال الزمخشري : مثلت حاله في ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره وكأهلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكأنَّ الخلاف بين المذهبين لفظي ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق . بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لاتشبه الذوات ، فكذلك صفاته لاتشبه الصفات . لأنها لاتكيف ولا تعلم بوجه ما . فهي حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على ما يليق به . كالعالم والقدرة . لاتتميل ولا تعطيل . قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلّى ، أنه مستقر في الحائط الذي يصلّى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب في المعنى ، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً في هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يحتمل حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله في بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله . وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد فى شيء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل . ولكن نفكر من ذلك ما خالف الحق والصواب ، وما فتح به الباب ، إلى هدم السنة والكتاب واللاحاق بمحرقة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص فى هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كابى بكر بن أبى داود ، وأبى الحسن الخرزى ، وأبى الفضل التيمى ، وابن حامد ، فيما أظن ، وغيرهم ، إلى إنكار أن يكون فى القرآن مجاز . وإنما دعاهم إلى ذلك مارأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز . فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم المواد . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

« وَجِئْنَا بِكَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها . فجيئها متجاوز به عن إظهارها . كما صرح به آية^(١) (وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ » تفريطه فى الدنيا فى طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » أى منفعتها . فالمراد بتذكركم ندامته على تفريطه فى الصالحات من الأعمال التى تورثه نعيم الأبد ، كما فسر به بقوله تعالى « يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتى هذه . فاللام للتعميل . أو : قدمت وقت حياتى . فاللام بمعنى وقت . والحياة هى التى فى الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ » أى لا يعذب كذاب الله ، أحد فى الدنيا « وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد فى الدنيا . وقرئ (يُعَذِّبُ وَيُؤْتِقُ) على بناء المجهول .

(١) [٧٩ / النزاعات / ٣٩] .

قال السمين : وعذاب ووثاق في الآية ، واقعان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق في الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .
ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، في مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَسَاءَ يَتُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

[٢٨] (أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

[٢٩] (فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي)

[٣٠] (وَأَدْخُلِي جَنَّاتِي)

« يَسَاءَ يَتُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ » أي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن . وهي التي كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ » أي وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أي راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي » أي في زميرتهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَأَدْخُلِي جَنَّاتِي » أي معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أي ارجعي إلى جسد صاحبك إيداناً بأن الأرواح المطمئنة ترد يوم القيامة في الأجساد ، وأن لها مقراً قبل تعلقها بالبدن في عالم المملوكات . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٠ - سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وهي عشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تاويل قوله تعالى :

[١] (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

«لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» تقدم في مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَا أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» عناية بالنبي صلوات الله عليه . فكانه إقسام به لأجله ، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة ، وأنهم جهلوا جهلاً عظيماً ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب : و (الحل) صفة أو مصدر بمعنى الحال على هذا الوجه . ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته في كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حالهم في عداوته ، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحرام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به في المستقبل . تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها ما فتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه . و (الحل) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما - كما قالوا - بُعدٌ . لاسيما إرادة الاستقبال في الوجه الأخير ، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتثريفه عليه السلام ، يجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب ، بذكر بعض مواد المسكابدة ، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق ، ولاقى من الشدائد ، في سبيل الدعوة إلى الله ، ما لم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على (هَذَا الْبَلَدِ) داخل في المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب - كما قال ابن جرير^(١) - أن المعنى به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومته كما عمه . وإيثار (ما) على (من) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم في مقام المدح . وإنه مما لا يكتفه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما في قوله تعالى^(٢) (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ) أى أى مولود عظيم الشأن وضعت . وهذا على كون المراد إبراهيم والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر . أما على أن المراد به آدم وذريته ، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الإنسان من خواص البشر . كالنطق والعقل وحسن الصورة . حكام الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

[٥] (أَيْحَسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

[٦] (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا)

[٧] (أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُوَ أَحَدٌ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » أى في شدة ، يكابد الأمور ويماثلها في أطواره كلها ،

من حمله إلى أن يستقر به القرار . إما في الجنة وإما في النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

قال الزمخشري : (الكبد) أصله من قولك (كبد الرجل كبدا) فهو أكبد، إذا وجعت كبده وانتفخت. فاستعمل فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة. كما قيل : (كبدته) بمعنى أهلكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد^(١) :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَسَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسليمة للنبي صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قاله .

وقال القاشانى : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ (الكبد) فى اللغة غلظ الكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى لغلظ حجابيه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه ببعجزه .

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ » أى كثيراً . من (تلبذ الشيء) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم (خسرت عليه كذا وكذا) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف ، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ وَاحِدٌ » أى : أيجسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته ، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مرضى الله ، وهى رذيلة على رذيلة ، فكيف تكون فضيلة ؟

(١) من كلمة قالها يرثى بها أربد ، أخاه لأمه ، وأولها :

مَا إِنْ تَمَرَّيَ الْمُنُونُ مِنْ أَحَدٍ لَا وَالِدٍ مُشْفِقٍ وَلَا وَلَدٍ

انظر (رغبة الآمل) ج ٨ ص ١٦٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[٩] (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[١٠] (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[١١] (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

[١٢] (وَمَا أَذْرَكَ مَا الْعَقَبَةُ)

[١٣] (فَكُّ رَقَبَةٍ)

[١٤] (أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

[١٥] (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

[١٦] (أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشاني : أى ألم ننعّم عليه بالآلات البدنية التى يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به عنهم فى تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التى يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما فى الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » أى طريقى الخير والشر . قال الإمام : النجد مشهور فى الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماها نجدين ، ليشير إلى أن فى كل منهما وعورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظن ، وإلى أنهما واضحا جليان لا يخفى واحدهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التميز بين الخير والشر . وأقنأ له من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقين شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفات من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريره . « فَلَا أُقْتَحَمُ الْعَقَبَةُ » أى فم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و (الاقتحام) الدخول والمجازاة بشدة ومشقة . و (العقبة) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَا أَدْرَاكَ أَلْعَقَبَةُ » أى أى شيء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة « فَكُ رَقِيبَةً » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتحليمها من الرق وأمر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجانب فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى (مقربة) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من (القرب) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى (ذَا مَتْرَبَةٍ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال (رب) كأنه لصق بالتراب ، ويقال (فقر مدقع) و (فقير مدقع) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب . لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن (لا) من قوله (فَلَا) نافية . وإنما لم تسكر ، مع أن العرب لاتسكاد تفردا ، كما جاء فى آية ^(١) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) . ^(٢) (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [٧٥ / القيامة / ٣١] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٨] .

يَحْزَنُونَ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن (لَا اقْتَحَمَ) لما فسر بما بعده كان في قوة (لَا فَك رَقَبَة وَلَا أَطْعَمَ مَسْكِينًا) وفي الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفي أيضاً . فكأنها كررت . وقيل (لَا) للدعاء . كقولهم (لَا نَجَا وَلَا سَلَم) وقيل مخففة من (أَلَا) التي للتخصيص . وقيل : إنها للنفي فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن (لَا) إذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ، ولم تكرر في الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة في الفصاحة . وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

[١٨] (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

« ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنفى بـ (لَا) وهو (اقْتَحَمَ) أو على (فَك) « وَتَوَاصَوْا » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِالصَّبْرِ » أى على ما نابهم في سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله ^(١) (رَحِمَاءَ بَيْنَهُمْ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصدع به وعمل الصالحات « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » أى اليمين ، أو جهة اليمين التى فيها السعداء .

تنبيهه :

قال القاساني : يشير قوله تعالى (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكليف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها ، حتى يصير التطبع طبعاً . ثم قال : فإن الإطعام ، خصوصاً وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع في موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

بل أفضل أنواعها - والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلمى اليقينى - والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة - . وآخره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أى التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدّد أجناس الفضائل الأربع التى يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعفة التى هى أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذى هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذى هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة (ثم) لبعده مرتبته عن الأولى فى الارتفاع والعلو . وعبر عن الحكمة به لكونه أم سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وآخر العدالة التى هى نهايتها ، واستغنى بذكر الرحمة ، التى هى صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

[٢٠] (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ^١)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا » أى بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التى بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التى تجب الاستقامة عليه فى الاعتقاد والعمل « هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » أى الشؤم على أنفسهم ، أو جهة الشمال التى فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل البين ، فى لسان الدين الإسلامى ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ^٢ » أى مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجازنا الله بفضله وكرمه منها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١ - سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية ، وآياتها خمس عشرة .
وقد تقدم حديث جابر الذي في الصحيح (١) أن رسول الله ﷺ قال لما ذ : هلا صليت
بسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائي في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا)
- [٢] (وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا)
- [٣] (وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا)
- [٤] (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا)
- [٥] (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا)
- [٦] (وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا)
- [٧] (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)
- [٨] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

« وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » أى ضوءها إذا أشرقت . قال الراغب : (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار ، وبه سمي الوقت . وحقيقته - كما قال الشهاب - تباعد الشمس عن الأفق المرئى وبروزها للناظرين . ثم صار حقيقة في وقته . وقال الإمام : يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة وبجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا ، أو هل كنت تجد نفسك ، لولا ضياء الشمس ، جل مبدعه ؟ « وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا » أى تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك في اليلالى البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربته مع الامتلاء . إذ يضيئ الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفي هذه الأقسام كلها - كما قاله الإمام - إشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفي قوله (إِذَا جَلَّهَا) بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهي حالة الصحو . أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فحاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » أى يغشي الشمس ويعرض دون ضوءها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة ^(١) (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة، عبر في جانبها بالمضارع المفيد لاحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له في ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » أى ومن رفعها ، وصيّر لها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحيطة المزينة المحيطة بنا . ف (ما) موصولة بمعنى (من) أو ثرت لإرادة الوصفية . أى والقادر الذى أبدع خلقها .

قلوا : وذكر (مَا بَنَاهَا) مع أن في ذكر (السَّمَاءَ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدتها صراحة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا » أى بسطها من كل جانب ، لافتراضها وازدراجها والضرب في كثافتها .

قال الإمام : وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . أى بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أى خلقها فعدل خلقها

(١) [٨٩ / الفجر / ٢] .

ومزاجها ، وأعدّها لقبول السكّال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » أى أفهمها إياها، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملصكيّ والتمكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيو لانيّ. لطيفة :

جوز في (ما) كونها مصدرية في السكّال ، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفي لصحة الإضمار دلالة السياق . وهي موجودة هنا . وأن العطف على صلة (ما) لا عليها مع صلتها . فكأنه قيل : ونفس وتسويتها ، فألهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم في الوجه الأول توافق القرائن وهو أسد . وأما الثانى فوجه يتسع النظم الكريم له . وأما تفكير (نفس) فالتكثير أو التعظيم . القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[١٠] (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[١١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

[١٢] (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أى زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام . أو نماها بالعلم والعمل والوصول إلى السكّال وبلوغ الفطرة الأولى « وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » أى أخلمها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . وقال غيره : أى نقص تزكيتها وأخفى استمدادها وفطرتها التى خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من (دس الشيء فى التراب) أى أدخله فيه وأخفاه . وأصل (دسّ) دسّس . كعقضى البازى ، وجملة (قَدْ أَفْلَحَ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال القاضي : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكّرهم عظام الإله ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كالات القوة العملية .

وذهب الزحشرى إلى أن هذه الجملة كلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : لِيُذَمِّدَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام . وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » أى بسبب طغيانها . ومجاوزتها الحد في الفجور . ف(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه ، على حذف مضاف أو بدونه ، مبالغة . كما يوصف بغيره من المصادر . أى كذبت بما أوعدت به من عذابهاذى الطغوى ، كقوله (فَأَهْلِكُوكُمْ بِالطَّاغِيَةِ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحد والزيادة من العذاب . والباء صلة (كذبت) . وقوله تعالى « إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا » ظرف لـ (كذبت) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

[١٤] (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

[١٥] (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه - « نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشرها ، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر ، غير يوم الناقة .

كما بينته آية الشعراء . قال ^(١) (هَذِهِ نَاقَةُ لِهَآ شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها في شربها ويوم شربها « فَكَذَّبُوهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها فأنلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَعَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته ، استهانة به واستخفافا بما بهت به . وقيل : دمدم أطبق عليهم العذاب . وقيل : الدمدة حكاية صوت الهدية « فَسَوَّاهَا » أى فسوى الدمدة عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » أى لا يخشى تبعه إهلاكهم لأنه العزيز الذى لا يغالب .

قال الشهاب : أى لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل : الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تنبية :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فأثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم ، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦] .

وإلى الفاجرة الضالة الفاوية . وذكر فيها الأصليين : القدر والشرع . فقال ^(١) (فَأَلْهَمَهَا
فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال ^(٢) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا) فهذا أسرّه ودينه . وتمد ، هدام فاستجبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم
ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

(١) [٩١ / الشمس / ٨] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٢ - سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية ، وآيها إحدى وعشرون . وقد تقدم قوله ﷺ لمعاذ^(١) : هَلَّا صَلَّيْتُ بِسَبِّحِ
اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائي في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح
اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ)

[٢] (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ)

[٣] (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤] (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ)

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بذلك الضياء
« وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين بطلوع الشمس .

قال الإمام : والتعبير في الغشيان بالمضارع ، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور
الذى هو أكل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما تجلى النهار فهو لازم له .
لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » أى والقادر الذى خلق
صنفى الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . ف (ما) موصولة بمعنى (من) أو ثرت لإرادة
الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط
بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع فى الصنع . إذ لا يعقل أن هذا التخالف
بين الذكر والأنثى ، فى الحيوان ، يحصل بحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ،
كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر
أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة أنثى ، دليل على أن
واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله « إِنْ سَمِعْتُمْ لَشْتَىٰ » جواب القسم . أو هو مقدر ، كما مر تفصيله . أى مختلف في جزائه ، ومفروق في عاقبته . فنه ما يسعد به الساعى ومنه ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . و(شتى) إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم . فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ (شتى) وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث . كذكرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤول ، أو بجعله عين الافتراق ، مبالغة . قال الرازى : ويقرب من هذه الآية قوله ^(١) (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) وقوله ^(٢) (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ) وقوله ^(٣) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ)

[٦] (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ)

[٧] (فَسَنِّيَسِرُهُ وَلِلْعُسْرَىٰ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ)

[٩] (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ)

[١٠] (فَسَنِّيَسِرُهُ وَلِلْعُسْرَىٰ)

[١١] (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

« فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ » تفصيل لتلك المساعى الشتى ، وتبيين لما لها كما تقدم .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٠] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٨] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢١] .

قال الرازى : وفى « أَعْطَى » وجهان :

أحدهما - أن يكون المراد إنفاق المال فى جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى ، وتقوية المسلمين على عدوهم . كما كان يفعله أبو بكر ، سواء كان ذلك واجباً أو نفلاً . وإطلاق هذا كالإطلاق فى قوله ^(١) (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً فى سبيل الله ، سواء كان واجباً أو نفلاً . وقد مدح الله قوماً فقال ^(٢) (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وقال فى آخر هذه السورة ^(٣) (وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى * الَّذِى يُؤْتِى مَا لَهُ وَيَنْزَكِّي) الآية .

وثانيهما - أن قوله (أَعْطَى) يتناول إعطاء حقوق المال ، وإعطاء حقوق النفس فى طاعة الله تعالى . يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة . انتهى .

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء . لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع فى مقابلة ذكر البخل والمال « وَأَتَّقَى » أى ربه فاجتنب محارمه « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى . قال قتادة : أى صدق بموعود الله الحسن . وهو بمعنى قول مجاهد ، إنها الجنة كما قال تعالى ^(٤) : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) فسمى مضاعفة الأجر (حسنى) وقال القاشانى : أى صدق بالفضيلة الحسنى التى هى مرتبة الكمال بالإيمان العلمى ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقى . « فَسُنِّيَسِرُهُ وَلِلْيَسْرِى » أى فسنيئته ونوفقه للطريقة اليسرى ، التى هى السلوك فى طريق الحق ، لقوة يقينه .

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذى يستريح به الناس ، وصفت بأنها يسرى ، على أنه استمارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوز فى الإسناد .

وأما مَنْ « بَخِيلَ » أى بالنفقة فى سبيل الله ، ومنع ما وهب الله له من فضله من صرفه فى الوجوه التى أمر الله بصرفه فيها « وَأُسْتَفْنَى » أى عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له

(١) [٢ / البقرة / ٣] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٨] .

(٣) [٩٢ / الليل / ١٧ و ١٨] . (٤) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

بطاعته بالزيادة فيما خوله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق « وَكَذَّبَ بِأَلْحُسْنَى » أى بوجود المثوبة للحسنى ، لمن آمن بالحق ، لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابها بها عن عالم الآخرة . « فَسَتَمِثَّرُهُ لِلْعُسْرَى » أى للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبدى .
قال الإمام : الخطة العسرى هى الخطة التى يحط فيها الإنسان من نفسه ، ويفض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها فى أحوال الخطيئة . وهى أعسر الخطتين على الإنسان ، لأنه لا يجد معيناً عليها ؛ لا من فطرته ولا من الناس « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » أى وما يفيد ماله الذى تعب فى تحصيله ، وأفنى عمره فى حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم (تردى من الجبل وفى الهوة) وفى التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمه من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلمه و (ما) نافية أو استفهام فى معنى الإنكار . وقوله :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ)

[١٣] (وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ)

[١٤] (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ)

[١٥] (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ)

[١٦] (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٧] (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ)

[١٨] (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ)

[٢٠] (إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ)

[٢١] (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ « استئناف مقرر لما قبله . أى علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح في الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإزالة السكتب ، والتسكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

« وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ » أى ملكا وخلقاً . فلا يضرنا توليكم عن الهدى . وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرد به بملك ما في الدارين ، وكونه في قبضة تصرفه . لا يحول بينه وبينه أحد ، ولا يحصله أحد ، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه . وفيه إشارة إلى تنافى عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته . ولذا رتب عليه قوله « فَأَنْذَرْنُكُمْ نَارًا تَلَظَّى » أى تتلاطى وتتوهج . وهى نار الآخرة « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ » أى بالحق الذى جاءه « وَتَوَلَّى » أى عن آيات ربه وبراهينها التى وضع أمرها وبهر نورها ، عناداً وكفراً « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » أى ينفق ماله فى سبيل الخير ، يترك عن رجس البخل وذائل الإمساك « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » أى من يد يكافئه عليها . أى لا يؤتية للمكافأة والمماوضة « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى » أى لكن يؤتية ابتغاء وجه ربه وطلب مرضاته . لا يفرض آخر من مكافأة أو محمدة أو سمعة . وفى حصر (الاتقى) بالمنفق ، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد فى الاحقاق به ، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال ، ورفع مباني الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى « وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » قال ابن جزير (١) : أى ولسوف يرضى هذا المؤتى ماله فى حقوق الله عز وجل ، يترك بما يثيبه الله فى الآخرة عوضاً مما أتى فى الدنيا فى سبيله إذا لقي ربه تبارك وتعالى . ففيه وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجلها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على ، إن ضمير (يرضى) لـ (الاتقى) لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وذهب بعضهم إلى الثاني ، ومنهم الإمام ، قال : أى وسوف يرضى الله عن ذلك الأنقى .
الطالب بصفة رضاه (ثم قال) : والتعبير بـ (سوف) لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ،
ولا يكفي القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهي .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق
رضي الله عنه . حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ،
وأولى الأمة بعمومها . فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى (١) (وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ وَيَتَرَكِّي * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في
جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة . فإنه كان صديقاً تقيّاً كريماً جواداً بذلاً لأمواله
في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ . فكم من دراهم وذهابير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم .
ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئها بها . ولكن كان فضله وإحسانه على
السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسمود ، وهو سيد ثقيف ، يوم
صلح الحديبية : أما والله ! لولا يدك عندي لم أجرك بها ، لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ
له في المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟
وفي الصحيحين (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أتق زوجين في سبيل الله
دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير . فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ما على من يدعى منها ضرورة ،
فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . انتهى .

(١) [٩٢ / الليل / ١٧ - ١٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤ - باب الريان للصائمين ، حديث

رقم ٩٦٣ ، عن أبي هريرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٣ - سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد . فلما بلغت (والضحى) قال لي : كبر حتى تحتم مع خاتمة كل سورة . فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك . وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشاطبية) عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة ، فقال : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) . وقال آخرون : من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول (الله أكبر) ويقصر ، ومنهم من يقول (الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى ، أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، وفترتلك المدة ، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) السورة بتامها ، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فالحق أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالضُّحَىٰ)

[٢] (وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ)

[٣] (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)

[٤] (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ)

[٥] (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)

« وَالضُّحَىٰ » تقدم فى سورة (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً « وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ » أى اشتد ظلامه . وأصله من التسجية وهى التغطية ، لستره بظلمته . كما فى آية^(١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم .
أى : ما تركك وما قطعك قطع الودع .

قال الشهاب فى (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتمظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّ مفارقتة . كما قال المتنبي :

حشاشة نفس ودّعت يوم ودّعوا فلم أدّر أىّ الظاعنين أشيعُ

وقال فى (شرح الشفاء) : الوداع له معنيان فى اللغة : الترك وتشجيع المسافر .
فإن فسر بالثانى هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً .
فإنه معه أينما كان . وإنما الترك ، لو تصور فى جانبه ، ظاهر مع دلالاته بهذا المعنى على الرجوع .
فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجاني بقوله :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

إذا رأيت الوداعَ فاصبرْ ولا يُهمِّتك البعادُ
وانتظر العودَ عن قريبٍ فإن قلب الوداع (عَادُوا)

فقوله (وَمَا قَلَى) مؤكد له . (قال) : وهذا ، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة في النفي لا في المنفى فتركة لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفي القيد والقيد . وقرئ (مَا وَدَعَكَ) بالتخفيف . وورد في الحديث ^(١) شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد في الشعر ، كقوله ^(٢) :

فَكَانَ مَا قَدَّمُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

ولهذا قال في (المصباح) بهذا : اعلم أن قولهم ، في عم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الودعة تعسف . انتهى .

وكذا قال في (المستوفى) : أنه كله ورد في كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلَى» أى : وما أبغضك . والقالى : البغض . يعنى ما هجرك عن بغض . قال الثمباب : وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به ، وليجربى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لئلا يخاطبه بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير ^(٣) عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ،

(١) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٤٨ - باب ما يجوز من اغتياب

أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده في اللسان (مجلد ٨ ص ٣٨٤) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فمُئبر بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وفلاه . فأنزل الله هذه الآية ، وفي رواية : إن قائل ذلك امرأة أبي لهب ، وفي أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولا تنافي ، لاحتمال صدورهما من الجميع . إلا أن قول المشركين وقول خديجة - إن صح - توجع وتحزن - وفي رواية إسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » قال ابن جرير^(١) : أى وللدار الآخرة ، وما أعد الله لك فيها ، خير لك من الدار الدنيا وما فيها . يقول : فلا تحزن على ما فاتك منها ، فإن الذى لك عند الله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لنهاية أمرك خير من بدايته . فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال « وَآسَوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَّةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفشوّ دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخله من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملّة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكّله إلى رضاء وهذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبیه :

قال فى (المواهب اللدنية) : وأما ما يفترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحداً من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والمصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تغريراً للجهال وتزييناً لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ « قال أبو السمود : تعديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الوجود على المترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه . كأنه قيل : قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أنت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ » أى غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية ^(١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أُلْكِلْتُكَ وَلَا الْإِيمَانُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَائِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

الْمَيْتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ « فلا تغلبه على ماله فتذهب بحقه ، استعطافاً منك له » وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ « قال ابن جرير ^(١) : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقاً ، كما قال تعالى ^(٢) (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَكَ مِنَ الْعَالَمِ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن - فيما نقله الرازى - إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم . فيكون فى مقابلة قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) وهكذا قال ابن كثير : أى وكما كفت ضالاً فهذا الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام : ويؤيد هذا المعنى ماورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتبه عليهم . فمنهم أهل الكتاب المارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لايسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نههم ، كما عاتبه على التولّى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويج عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها . وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها ، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى .

قال الإمام : من عادة البخلاء أن يكتنوا ما لهم ، لتقوم لهم الحاجة فى قبض أيديهم عن البذل . فلا تجدهم إلا شاكين من القل . أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كمنافاة عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين . فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧٠ / المعارج / ٢٤ و ٢٥] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفجفجة التي يقره عنها النبي ﷺ . ولم يعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ عَائِلًا) فتكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) وقد علمت الحق في مقابله . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندى . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[٢] (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

[٣] (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)

[٤] (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء ما يسره ويقويه ، وإظهار ما خفى عليه من الحكم والأحكام ، وتأنيده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقراً بالحكمة ووعاء حقائق الأنباء ، والهمزة لإنكار النفي . ونفى النفي إثبات . ولذا عطف المبتدأ عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفى منه . استعمل في القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيماً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربه ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفياً عليه ، مما فيه مسرته . كما يقال (شرح الكتاب) إذا وضعه . ثم استعمل في الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشيء يتبعه اتساع ظرفه . ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكفاية بوسائط ، وبعد الشروع زال الخفاء وارتفعت الوسائط - هذا ما حقه الشهاب . « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ » * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضع : إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ (على) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ (من) كان بمعنى الإزالة . والإيقاض : حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر . وقيل : صوت الجمل أو الرجل

أو الركوب إذا ثقل عليه . فالإنقاض ، الثقيل في الحمل حتى يسمع له تقيض ، أى صوت ، كما قاله الأزهري .

وقال ابن عرفة : هو إئصال يحمل ما حمل عليه نقضا . أى مهزولاً ضعيفاً . وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه وينعمه من قلة المستجيبين لدعوته ، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال في جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضع عنه هو كثرة من آمن بعده ، ودخولهم في دين الله أفواجا ، وقوة أتباعه وانحياز الشرك والجاهلية من الجزيرة ، وذل أهلها بعد العز ، وانقيادهم بعد شدة الإباء . وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله ^(١) (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) . والوجه الأول أقوى ، وفي الآية ، على كل ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لها « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » أى بالنبوة وفرض الاعتراف برسائله وجعله شرطاً في قبول الإيمان وصحته . وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة . فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد : أى لا أذكر إلا ذكرت معي . قال الشهاب وهذا - أى المأثور عن مجاهد - إن أخذ كلية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جمعت القضية مهمة ، فلا يخفى مافى الإهمال من الركاكة .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر ، ويرد السائل غير صفر ، حتى لاح لي أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدها . فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها في الواقع في الصلوات والخطب . فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

(١) [٤٨ / الفتح / ٢] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى في يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالي بل ولا في وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه السكينة. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح؟ قلت: المقام ناطق بهذا القيد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربته ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره في المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأى إشاعة أقوى من الأذان؟ لافي الأسواق والطرق التي يطرح فيها كل ذكر.

ثم قال: واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعيّ في أول (رسالته الجديدة) وبينه السبكيّ في تعليقه على الرسالة فقال رحمه الله تعالى:

قال الإمام رضي الله تعالى عنه عن مجاهد في تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معنى: أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله. قال الشافعيّ: يعني ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية. قال السبكيّ: هذا الاحتمال من الشافعيّ جيد جداً. وهو مبني على أن المراد بالذكر، الذكر بالقلب، وهو صحيح. فعلى هذا يعم. لأن الفاعل للطاعة أو الكفّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به، ذاكرٌ للنبي ﷺ بقلبه، لأنه المبلغ لها، عن الله. وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والشهد والخطبة ونحوها. قال الشافعيّ: فلم يُتمسّ بنا نعمة ظهرت ولا بطنّت، نلنا بها حظاً في دين أو دنيا. أو رفع عفا بها مكروه فيها أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سببها. فعلم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره، حمل الذكر على الذكر القلبيّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته، وهو رسول الله ﷺ، كما قيل:

فأنت باب الله. أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشريفه ﷺ ، بمقارنته لذكره في شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالخسر إضافي . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[٦] (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[٧] (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

[٨] (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب)

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » إشارة إلى أن الذي منحه، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب في أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى في هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التي لبيان السبب. (وأل) في (العسر) للاستغراق ولكنه استغراق بالمعهود عند مخاطبين من أفراد أو أنواعه . فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يمدد لذلك في معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لاتضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلافيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبي ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحي والنبوة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه . بل مازال ياتمس

الغنى في الفقر، والقوة في الضعف، حتى أوتي من ذلك مازعزع أركان الأكسرة والقيصرة، وترك منه لأمته ما تتمتع به أعصاراً طوالاً. أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تذكير (يسراً) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفي كلمة (مع) إشعار بغاية سرعة مجيئ اليسر، كأنه مقارن للعسر . فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ (مع) بمعنى (بعد) . وقوله تعالى « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » تكرير للتأكيد، أو عِدَّةٌ مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة . وعليه أثر^(١) : (لن يغلب عسر يسرين) فإن المَعْرِفَ إذا أعيد يكون الثاني عين الأول، سواء كان معهوداً أو جنساً، وأما المنكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالأول « فَإِذَا فَرَغْتَ » أى من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمتك « فَأُنْصَبْ » أى خذ في عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام « وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ » أى في الدعوة إليه . أى لا ترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشاني .

وقال ابن جرير^(٢) : اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عندى ، اعتماداً على ما صححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل - أن يكون معنى قوله تعالى

-
- (١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٢١ - كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .
- (٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(فَأِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ،
 بمجىء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ،
 وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
 ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب
 وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثناه
 جميعه . إلا أن السياق والنظائر - وهو أهم ما يرجع إليه - يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه .
 والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥ - سُورَةُ التِّينِ

مكية ، ويقال : مدنية . وأيد الأول بقوله (وَهَذَا الْبَلَدِ) وآيها ثمان . روى عن البراء بن عازب^(٢) أن النبي ﷺ كان يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون . فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٢ - باب قول النبي ﷺ « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » ، حديث رقم ٤٦٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ)

[٢] (وَطُورِ سَيْنِينَ)

[٣] (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا في أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحاربوا . كما قال تعالى ^(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وأما المقسمات بها قبْلُ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لكل منها . فمن مجاهد والحسن وغيرهما أن (التين) الذي يؤكل و (الزيتون) الذي يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة (التين) الجبل الذي عليه دمشق و (الزيتون) الذي عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : (التين) مسجد دمشق و (الزيتون) بيت المقدس وعن ابن عباس : (التين) مسجد نوح الذي بنى على الجودي و (الزيتون) بيت المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته ^(٢) : والصواب من القول في ذلك عندنا ، قول من قال (التين) هو التين الذي يؤكل و (الزيتون) هو الزيتون الذي يعصر منه الزيت . لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة في ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه ، لأن دمشق بها منابت

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٦٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون . انتهى كلامه . وفيه نظر ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين في تقويم البلاد .

قال صاحب (الذخيرة) في تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون . قال : وقد دعى كذلك لكثرة الزيتون فيه ، وهو قريب المسافة من أورشليم ، وفيه صعد المسيح لكي يرتفع إلى السماء . انتهى .

ويسمى أيضا طور زيتا إلى الآن . على أن فيما صوبه ابن جرير ، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد - غير مفهومة . كما قاله الإمام . فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون القسم به ثلاثة مواضع مقدسة . قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمد ﷺ . وفي التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعنى الذي كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعنى جبل بيت المقدس الذي بعث الله عنه عيسى . واستعملن من جبال فاران : يعنى جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان . ولهذا أقسم بالآشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالآشرف منها . انتهى كلام ابن كثير .

ومراد بعض الأئمة ، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان . فإنه ذكر ذلك في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ونحن نقولها زيادة في إيضاح المقام ، واهتماماً بتحقيقه .

قال رحمه الله (فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته ﷺ) : وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول في الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء (واللفظ لأبي محمد بن قتيبة) : ليس بهذا خفاء على من تدبره . ولا غموض . لأن مجيء الله من طور سيناء ، إزاله التوراة على موسى بطور سيناء . كالذي هو عند أهل الكتاب وعقدنا . وكذلك يجب أن يكون إشرافه من ساعير ، إزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من أتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون إشرافه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استملانه من جبال فاران ، إزاله القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران . وهي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة - وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفسادهم - قلنا أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس استعلن وعلم بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟؟

وقال أبو هاشم بن ظفر : ساعير جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح عليه السلام . قلت : وبجانب بيت لحم - القرية التي ولد فيها المسيح - قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيسكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحي على النبي ﷺ ، وحوله من الجبال جبال كثيرة . وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن . والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى بركة فاران . ولا يمكن أحداً أن يدعى أنه بعد المسيح ، نزل كتاب

في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي . فلم أن ليس المراد باستعلانه من جبال فاران ، إلا إرسال محمد ﷺ . وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمني . فذكر إزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن . وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال في الأول : جاء أو ظهر . وفي الثاني : أشرق . وفي الثالث : استعلن . وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى . وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء . ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران . فإن محمداً ﷺ ظهر به نور الله وهداه في شرق الأرض وغربها ، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين ، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها . ولهذا سماه الله سراجاً منيراً . وسعى الشمس سراجاً وهاجاً . والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج . فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت . بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت ، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية . وقد قال ﷺ ^(١) : زُوِيَ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا . وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها في القرآن في قوله (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التي بنيت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل . وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى وناداه فيه ، من واديه الأيمن ، في البقعة المباركة من الشجرة - وأقسم بهذا البلد الأمين وهو مكة الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل ، وأمه هاجر فيه . وهو الذي ^(٢) جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله . وجعله آمناً خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا)

عن ثوبان . (٢) يشير إلى الآية الكريمة رقم ٦٧ من سورة المعنكبوت .

ثم قال (ابن تيمية) : فقوله تعالى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة . التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعملن من جبال فاران .

ولما كان مافى التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزمانى ، فقدم الأسبق فالأسبق . وأما فى القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها . وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله . فأقسم بها على وجه التدرىج درجة بعد درجة . فحتمها بأعلى الدرجات . فأقسم أولاً بالتين والزيتون ، ثم بطور سينين ، ثم بمكة . لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل . وكذلك الأنبياء ، فأقسم بها على وجه التدرىج كما فى قوله ^(١) (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا * فَالْحَامِلَاتِ وِجْرًا * فَالْجَارِياتِ يَسْرًا * فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا) فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة . فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً ، وقد قيل إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله ^(٢) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ) فسمها جوارى كماسمى الفلك جوارى فى قوله ^(٣) (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) والكواكب فوق السحاب ثم قال ^(٤) (فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا) وهى الملائكة التى هى أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى (وَالتِّينِ) يعنى به شجرة (بوذا) مؤسس الديانة البوذية ، التى تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيق . لأن تعاليم بوذا لم تسكتب فى زمنه . وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية . ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها . ثم قال : والراجع عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية ، أنه كان نبياً صادقاً

(١) [٥١ / الذاريات / ١-٤] . (٢) [٨١ / التكويد / ١٥ و ١٦] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٣٢] . (٤) [٥١ / الذاريات / ٤] .

ويسمى (سكياموتى) أو (جوناما) وكان فى أول أمره يأوى إلى شجرة تين عظيمة وتحتها نزل عليه الوحى . وأرسله الله رسولاً . فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينجح معه . ولهذا الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم (التينة المقدسة) وبلغتهم (أچاپالا) . قال : فى هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم ونفعهم فى دينهم ودنياهم . فالقسم فيها كالتمهيد لقوله بعده (أَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ) إلى آخر السورة .

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم . والترتيب فى ذكرها فى الآية ، هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى . فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة فى الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها . كما يبدأ الإنسان بالقسم بالشئ الصغير ، ثم يرتقى للتأكيد إلى ما هو أعلى . ثم النصرانية وهى أقل من البوذية تحريفاً . ثم اليهودية وهى أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهى أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل . بل إن أصولها ، الكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً . ومن محاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ، ذكر دىنى الفضل (البوذية والمسيحية) أولاً ثم دىنى العدل (اليهودية والإسلامية) ثانياً للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمساحة مع الناس أولاً . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب . ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينهما . وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينهما . فلذا جمع الأولان معاً والآخران كذلك . وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى . كما قدم الموسوية على الحمديّة لهذا السبب بعينه . ومن محاسن الآية أيضاً الرمز والإشارة إلى دىنى الرحمة بالفاكهة والثمرّة ، وإلى دىنى العدل بالجبل والبلدة الجبلية (مكة) وهى البلد الأمين . ومن التناسب البديع بين ألفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً فى أودية الجبال ، كما فى جبل الزيتون بالشام وطور سيناء ، وهما مشهوران بها .

فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحي ، وأكرم أماكن التجلي الإلهي على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم في أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

لم ينصرف (سينين) كما لا ينصرف (سيفاء) لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض . فهو علم أعجمي . ولو جعل اسماً للمكان أو المنزل ، أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة (سيفين) بكسر السين . وقرأ بعض السلف بفتحها . وآخرون (سيناء) بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني ، على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[٥] (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[٦] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

[٧] (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ)

[٨] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » أى في أحسن تعديل خلقاً ، وشكلاً ،

صورة ومعنى . قال الشهاب : الظرف في موضع الحال من الإنسان . والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر . أى قوام أحسن تقويم ، أو (في) زائدة والتقدير : قومناه أحسن تقويم .

« ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » أى جعلناه أسفل من أسفل ، وهم أصحاب النار ، لعدم جريانه

على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، ذ (رد)
بمعنى جمل التي تنصب مفعولين . قال الشهاب : و (السافلين) العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل
للمتعدد المتفاوت . و (ثم) للتراخي الزماني أو هو رتبتي ، وجوز نصب (أسفل) بنزع الخافض
صفة لمحذوف . أى إلى مكان أسفل سافلين . أى محل النار . أو النار بمعنى جهنم . وهذا ما قاله
مجاهد حيث قال : (في النار) وفي رواية (إلى النار) والسافلين ، على هذا ، الأمكنة السافلة .
وهي دركاتهما . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتزويل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم
أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفلى كالأول ، لكان أولى .

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو
غير منقوص أو غير محسوب أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير (رددناه)
فإنه في معنى الجمع ؛ لأن المكنى عنه وهو الإنسان ، في معنى الجنس .

هذا ، وقد اعتمد ابن جرير في تأويل الآية ، ما روى عن ابن عباس من أن المعنى (ثم رددناه
إلى أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله في شبابه كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله ، كتب
له مثل عمله الصالح الذي كان يعمل في شبابه ، ولم يؤخذ بشيء مما عمل في كبره وذهب عقله ،
من أجل أنه مؤمن وكان يطيع الله في شبابه) .

وعبارة ابن جرير ^(١) : وأولى الأقوال في ذلك عندى بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول
من قال معناه : ثم رددناه أى إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخرفي الذين ذهب عقولهم من الهرم
والكبر ، فهو في أسفل من سفلى في إدبار العمر ، وذهب العقل . (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ) في حال صحتهم وشبابهم (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) بعد هرمهم ، كهيئة ما كان
لهم من ذلك على أعمالهم ، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال : وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله تعالى ذكره أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكرى قدرته على البعث بعد الموت .
 ألا نرى أنه يقول (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) يعنى بعد هذه الحجج . ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعانى بما كانوا له منكرين . وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدر على دفعه مما يعاينونه ويمسونه ، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين . وإذا كان ذلك كذلك ، وكان القوم ، للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الحرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معانين من تصرفه خلقه ونقله إليهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الحرم والضعف وفناء العمر وحدث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء مفقداً ، استندرا كما لدفع ما يتوهم من أن التساوى في أرذل العمر يقتضى التساوى في غيره ، ويكون (الدين) حينئذ مبتدأ ، والفاء داخله في خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له . وقوله تعالى :
 « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ » خطاب للإنسان على طريق الالتفات ، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أى فما يملك على التكذيب بالدين ، أى الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل . والمعنى : إن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً ، وتحويله من حال إلى حال ، كمالاً ونقصاناً ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأى شئ تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ومعنى (يُكَذِّبُكَ) إما ينسبك إلى الكذب (كفسقته إذا قلت له إنه فاسق) والباء (بالدين) بمعنى (فى) أى يكذبك فى إخبارك به . أو سببية أى بسبب إخبارك به وإثباته . أو المعنى ما يملك منكذباً بالدين . على أن الباء صلته . وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين ، والمعنى إنه لا يكذبك شئ ما بعد هذا البيان بالدين . لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً . والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير^(١) قول من قال (ما) بمعنى (من) أى فمن يكذبك يا محمد بعد الذى جاءك من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : (فا) استفهام عن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقاءها على أصلها ، كما بيناه لك . والداعى لارتكاب هذا ، أن المعنى عليه أظهر إذا كان المخاطب النبي ﷺ فإنه إنكار توبيخى للكاذبين له ﷺ ، بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ » أى بأحكم من حكم فى أحكامه . قال أبو السعود : أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنفاً وتديراً ، حتى يقوم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملته تقرير لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و (أحكم) من الحكم أو الحكمة . قيل : والثانى أظهر . وكان النبي ﷺ إذا قرأها قال : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبي ﷺ .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٦ - سورة العلق

سورة العلق . وهى مكية بالإجماع . وصدرها أول آية نزلت من القرآن ، كما صحت بذلك الأخبار . وأما أول سورة نزلت كاملة فهي الفاتحة . ويروى فى الأوائل غيرها . ولا منافاة . لأن الأولوية حقيقية ونسبية . روى الشيخان^(١) وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حجب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد . ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال (أقرأ) قال : ما أنا بقارئ . قال فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (أقرأ) فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (أقرأ) ، فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال (أقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * أقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده .

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٣ - باب حدثنا يحيى بن بكير ،

حديث رقم ٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[٢] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[٣] (أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[٤] (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

[٥] (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » أى اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى . أى مبتدئاً به لتحقيق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبرية ، والتبايع إلى السكالات اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من السكالات البشرية ، بإزال الوحي المتواتر . ووصف الرب بقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ) لتذكير أول النماء الفائضة عليه ﷺ منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبناها من السكالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً عن سائر السكالات ، قادر على تعليم القراءة للحى العالم المتكلم - أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكويني . فإن النبي ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً . ولذلك كرر القول مراراً : ما أنا بقارئ . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن

كاتباً . فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه . وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، أى الذى أوجد الكائنات التى لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها . لأنك لم تكن تدري ما الكتاب . فكأن الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وإرادتى . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق فى (سورة سبح) دال على ما تعرف به الذات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً . لأن القراءة علم فى نفس حية . فهى تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وإرادته . أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله ، وهو خلاف المتبادر ، فيكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقرأ دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه الله لا لغيره . فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواء ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » أى دم جامد . وهى حالة الجنين فى الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيماً لشأنه . إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة ، وإنما قال (علق) دون (علقة) كما فى الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن (الإنسان) مراد به الجنس . فهو فى معنى الجمع . فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر ، من المضغة . مع استلزامه لما تقدمه . ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام : أى ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ؛ يقدر أن يجعل من الإنسان الكامل مثل النبي ﷺ قارئاً . وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقها ، ليزيد المعنى تأكيذاً . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد

صرت قارئاً بإذن ربك الذى أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذى أنشأ الإنسان خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل . فهى أولى بسهولة الإيجاد ، ولما كانت القراءة من الملكات التى لا تنكسبها النفس إلا بالتكرار والتموّد على ما جرت به العادة فى الناس ، ناب تكرر الأمر الإلهى عن تكرر القراء ، فى تصييرها ملكة للنبي ﷺ . فلهذا كرر الأمر بقوله « أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » وجلة (وَرَبُّكَ) الخ استثنائية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الإعطاء . فيسير عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة ، من بحر كرمه . ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه « الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ » أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها فى ذاتها الإفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يحمل منك قارئاً مبيّناً وتالياً معلماً وأنت إنسان كامل؟؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه ، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أى إن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم ، وكان فى بدء خلقه لا يعلم شيئاً ، فهل يستغرب من هذا المعلم الذى ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرّة ، أن يملك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها؟؟ انه هـ .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) فى مباحث عجائب الإنسان وما فى خلقه من الحكم : ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين . البيان النطقى والبيان الخطى وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمة على العبد . فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فتأمل كيف جمع في هذه السكيات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه . فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة . ومن شهوده عما فيه محض تمدد النعم . وذكر مادة خلقه ههنا من العلة . وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالقنار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهيئ . وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلة . فإنه كان قبلها نقطة فأول انتقالها إنما هو إلى العلة . ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده . إذ به تحلّل العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيّد أخبار الماضين للباقيين . ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبّطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم ، إنما يعترهم من النسيان الذي يححو صور العلم من قلوبهم . فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الزهاب والبطالان . فعمّة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن ، من أجلّ النعم . والتعليم به ، وإن كان مما يخص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة ، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة في خلقه وفضله . فهو الذي علمه الكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم . فإنه علمه فتعلم . كما أنه علمه الكلام فتكلم . هذا ، ومن أعطاه الذهن الذي يمي به ، واللسان الذي يترجم به ، والبنان الذي يخط به ، ومن هيا ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذي دعم البنان بالكف ، ودعم الكف بالساعد . فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم . فقف وقفة في حال

إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفي قوله (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثاني إلى النبوة . وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ)

[٧] (أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْغَىٰ)

[٨] (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ)

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْغَىٰ » أى حقاً إن الإنسان ليمتدحجه ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغفرت . فـ (كَلَّا) بمعنى (حقاً) لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله - على ما تقدم في المأثور - أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منتهى تعالى على الإنسان . فإذا قيل (كَلَّا) يكون ردعاً للإنسان الذى قابل تلك النعم بالكفران والطغيان . أى ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان . ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفى له ، ثم يكفر بربه الذى فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال السكرخي ، ومذهب أبي حيان أن (كَلَّا) بمعنى (ألا) الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة (إِبْ) بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفي (الكواشي) : يجوز في (كَلَّا) أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعا ، فيقف عليها .

تفسيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التمويل المأمود ، قررهما الحكماء المصلحون . وهو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان ، كما نطقت به الآية السكرية .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط . وإلا كان حرص التمويل من أقبح الخصال .

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال . أى إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل .

والشرط الثانى : أن لا يكون في التمويل تضيق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات . مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها مرحاً لسكافة مخلوقاته . وهى أهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بشمراتها وتؤويهم في حضن أجزائها .

الشرط الثالث لجواز التمويل : هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا . وذلك لقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس في القوة المالية . لأن الربا كسب بدون مقابل مادي ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تمرض لخسائر طبيعية كالتيجارة والزراعة والأماك . دع أن بالربا تربو الثروات ، فيختل التساوى بين الناس ، كما تقدم بيانه في أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَرْجُوعِي » أى المرجع في الآخرة . قال أبو السعود : تهديد للطاغى وتحذيره من عاقبة الطغيان . والالتفات للتشديد في التهديد ، و (الرجعى) مصدر بمعنى الرجوع . وتقديم الظرف لقصره عليه . أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث ، لا إلى غيره ، استقلالاً ولا اشتراكاً . فسترى حينئذ عاقبة طغيانك . وقد جوز كون الخطاب الرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ)

[١٠] (عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ)

[١١] (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ)

[١٢] (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ)

[١٣] (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٤] (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ » أى يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهى ، إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك . قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون فى أن الناهى أبو جهل والعبد المصلى النبى ﷺ . كما روى فى الصحيحين . ولفظ البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة . وفى الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتمعيب منها وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأذى منه الرؤية ويقضى منها العجب . ولفظ (العبد) وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهى وتأكيده التمعيب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان فى الكلام النصف ، إذ قال (ينهى) ولم يقل (يؤذى) و (عبدًا) دون (نبيًا) والرؤية ههنا بصرية ، وفيها بعدها قلبية . معناه : أخبرنى . فإن الرؤية لما كانت سببًا للإخبار عن المرتى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السمود .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٦ - سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق ، حديث رقم ٢٠٧٢ .

وقال الإمام: كلمة (أرأيت) صارت تستعمل في معنى (أخبرني) على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقي ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتوبيخها . فكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو في حالة أدائها . وقوله « أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ » أي أرأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يمتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده . أي ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه ، فالضائر كلها (لذي ينهى) وجوز عود الضمير المستتر في (كان) للعبد المصلي . وكذا في (أمر) أي أرأيت الذي ينهى عبداً يصلي ؟ والنهي على الهدى أمر بالتقوى . والنهي مكذب متول ، فما أعجب من هذا ! وذهب الإمام رحمه الله ، في تأويل الآية إلى معنى آخر . وعبارته : أما قوله (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ) فمعناه أخبرني عن حاله إن كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟ وقوله أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » أي نبئني عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون . وتولى أي أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا يقبل له باحتمال ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت في تفسير المعنى . وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ » أي أجهل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته . ثم إن ما يطيل به المفسرون في المفعول الثاني لفعل (أرأيت) الأولى ومفعولها في الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؛ لأن القرآن قدوة في التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلاً بمعنى (أخبرني) . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ)

[١٦] (نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[١٧] (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)

[١٨] (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)

[١٩] (كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

« كَلَّا » ردع عن النهي عن الصلاة « لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ » أى عن هذا الطغيان ، وعن النهي عن الصلاة ، وعن التكذيب والقول « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » أى لناخذن بناصيته ، ولنسحبته بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا ، مَثَلٌ في القهر والإذلال والتعذيب والنكال . وقوله تعالى « نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » بدل من (الناصية) ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهي والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازي ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله ^(١) (وَتَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكُذِبَ) و (وجهها يصف الجمال) - والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئي في قولهم (بنو فلان قتلوا قتيلاً) والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال في (البحر) : كتبت نون (لَنَسْفَعًا) بالألف باعتبار الوقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيها لها بالتنوين . وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] .

لأن قاعدة الرسم مبنية على حال الوقف والابتداء « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » أى أهل مجلسه ، لينع المصلين ويؤذى أهل الحق الصادقين ، اتكالا على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف ، أو على الإسناد المجازى من إطلاق اسم المحل على من حل فيه . والنادى المجلس الذى ينتدى فيه القوم ، أى يجتمعون « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » أى زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلكونه فى الدنيا ، أو يردونه فى النار فى الآخرة وهو صاغر ، ولم يرسم (سندع) بالواو فى المصاحف بانباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله (فليدع) وقيل إنه مجزوم فى جواب الأمر وفيه نظر « كَلَّا » ردع للناهى بعد ردع ، وزجر إثر زجر « لَا تَطْعَمُهُ » أى لا تطعم ذلك الطاغى إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزخشرى : أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله^(١) « فَلَا تَطْعَمُ الْمُسْكَنِينَ » « وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » أى صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفى صحيح مسلم^(٢) عن أبى هريرة مرفوعا : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثرُوا من الدعاء .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت فى أبى جهل ، على ما صح فى الأخبار ، قال الإمام : ولا مانع من أن يكون فى الآيات إشارة إليه ، ولكنها عامة فى كل وقت وزمن كترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبى ﷺ . والله أعلم .

الثانى : قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : إنما شدد الأمر - أمر الوعيد - فى حق أبى جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبى معيط ، حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلى - لأنهما وإن اشتركا فى مطلق الأذية حال صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفى ذلك من المبالغة ما يقتضى تعجيل

(١) [٦٨ / القلم / ٨] .

(٢) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢١٥ (طبعنا) .

المعقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ وعلى من شاركه في فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبي جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة في الصورة لا يدل على أن بقيتها نزل بمد فرض الصلاة . فقد كان للنبي ﷺ وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال في (الباب) : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعي . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روى عن أبي هريرة^(١) قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في (أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ) و (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) : أخرجه مسلم في صحيحه .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ٧١ - باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٨ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٧ - سورة القدر

قال السيوطي : فيها قولان ، والأكثر أنها مكية ، وآياتها خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
 [٢] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)
 [٣] (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)
 [٤] (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ)
 [٥] (سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقد وصفت بالباركة في قوله تعالى ^(١) : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) وكانت في رمضان ، لقوله تعالى ^(٢) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة ، وقد جاء بما فيه الإشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جلييلة ، بجلالة ما وقع فيها من إنزال القرآن . فقال «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدال

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال (إنها خير من ألف شهر) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبئون في ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، في تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى . فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عادتهم في التخاطب . وذلك في الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) فإنه جار على عادتهم في الخطاب . وإلا فالعلم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالآلاف لافهم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب فى واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالمدد هناك لافهم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي ﷺ بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحاني الذى لا يحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى ، وهو الذى سُمِّيَ فى القرآن بجبريل . وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة ، بمد أن هيأها الله لقبول تجليها . وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم . فذلك فضل الله يختص به من يشاء . واختصاصه هو إذنه ومشيتته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام . لأن الله يجلى الملائكة على النفوس ، لإيحاء مايريد منها . ولهذا قال « مِّنْ كُلِّ أَمْرِ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر ههنا هو الأمر في قوله ^(١) (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن (من) ههنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن - لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما في قوله ^(٢) (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ) فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً . والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها . ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فمكانه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلم نفسه - وهو الأمن والسلامة - للبالغة في أنه لم يشبها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيام والشهور الطوال .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التى ابتدئ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولا إجماع في تعيين تلك الليلة . بل في صحيح البخارى ^(٣) أنها رفعت . أى رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : نسيها أو أنسيها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله . وقد ذهب ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [٤٤ / الدخان / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] . (٣) أخرجه في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ،

٢ - باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبى سعيد الخدرى .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولاً .
قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضاربة على أنه في شهر رمضان . ولا نعيمها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيماً . وكتاب الله لم يعينها . وما ورد في الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضته فيهم ، في أنفائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات . فمن رجح عنده خبر في ليلة أحيائها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليدكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهي ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء ، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بعمانيه . بل إن أصغوا إليه ، فإنما يصنعون لنعمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بمقول الأطفال ، فضلاً عن الراشدين من الرجال . انتهى .

وقال الطبري : إخماء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ، ما لا يظهر في سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقاً ، لم يخف على كل من قام ليالي السنة ، فضلاً عن ليالي رمضان .

الثاني : حكى الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) قولاً عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت في زمان النبي ﷺ . ولعل مستنده ما صح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندى أن لا تنافي . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّي الخاص التي انقردت به - وبالثاني أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هي ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ في قيام رمضان والتماسها في العشر الأواخر منه . أعني إحياء مآثلها من الليالي ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالفائز في ليالي العشر الأخير ، أو في رمضان ، مصادفٌ البتة لما مائل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام في تفضيل بعض الأوقات بتشرّيع اتخاذها موسماً للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الآخر في تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافي حكمة ذكرها . فتأمل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجأز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم عليه السلام . ومثل ذلك لم يرد ، لاضطرب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وآله . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) نموز بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويعدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥ - سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهي مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأُبَيّ بن كعب : إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : وسماني لك ، قال : نعم . فبكي . ورواه البخاري ومسلم^(١) . وفي رواية الإمام أحمد^(٢) عن أبي حبة البدرى قال : لما نزلت (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال جبريل : يا رسول الله ! إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَيًّا . فقال النبي ﷺ لأُبَيّ : إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة . قال أُبَيّ : وقد ذُكِرْتُ ثم يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكي أُبَيّ .

- (١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٨ - سورة لم يكن ، ١ - حدثنا محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .
- (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٢] (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

[٣] (فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ)

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوة النبي صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ما تبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم « وَالْمُشْرِكِينَ » أى وثني العرب « مُنْفَكِينَ » أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ما قلدوا فيه آباءهم ، لا يعرفون من الحق شيئاً « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » أى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبي ﷺ . فجيئته هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ما هم فيه أجل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلسين ، فلماذا تنبعت منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبيه ومنكروه معا « فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ » أى مستقيمة لا عوج فيها . واستقامة الكتب اشتغالها على الحق الذى لا يميل إلى باطل ^(١) (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

حَكِيمٍ حَمِيدٍ) والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هي ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرها ، مما حكاها الله في كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم . وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون إلا أن يكونون ذكره لبيان بطلانه . ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سيلا إلى إنكار الحق . وإنما فضلو عليه سواء . أو هي سور القرآن . فإن كل سورة من سورة ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هي كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انكسروا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذي لا يختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا ينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب . ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضلّهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تقدم شيئاً فإنهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً في المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٥] (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ)

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أى على السنة

أنبيائهم . فهكذا كان شأنهم في النبي ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق في الجهالة وأسلس قياداً للهوى ، منهم؟؟ وقوله تعالى « وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَاءَ » أى متبعى إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سعى به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الفاس كافة « وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع . لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء ، البتة « وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » أى بصرفها في مصارفها التى عينها الله تعالى « وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : إن أهل الكتاب قد اختلفوا ، ولعننا كل فرقة أختها . وكان افتراقهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله في صلاتهم ، وإن يصلُّوا عباد الله بركاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذى يرجع إليه في الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويحلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكَّم الإخلاص في الأنفس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا مانعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول في حالنا ؟ أفا ينعماء كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، في افتراقنا في الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن (من) في قوله (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) للتبعض . وأن معنى (لم يكونوا منفكين) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال في عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التي كانوا فيها، حتى تأتيتهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ما جاءهم . ولم يفتروا فى دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركى العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر مقتته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب ، لم يكونوا براجمين عن كفرهم وجحدوهم هذا ، حتى يأتيتهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم فى إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكوا عنهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى (حتى) وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفسه ، ولكونه أحسن ما فُسِّرَتْ به . وقاعدتنا التي انتهجناها فى هذا التفسير أن نؤثر فى معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناها (محاسن التأويل) هداانا الله إلى أقوم السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجدوا نبوته « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر فى الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف

الأولى - دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعنى من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب ، فأهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لأصيل . ولذلك يفرون من وصمة الشرك ، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنيين . الثانية - قال ابن جرير : العرب لا همز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم . فإنه حكى بمضهم عنه أنه كان يهمزها . وذهب بها إلى إلى قول الله ^(١) (مَنْ قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَهَا) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها ، فإن لتركم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك ، وهو مفعول ، من (الك) أو (لأك) ومن (رى) و (ترى) و (نرى) ، وهو (تفعل) من رأيت . والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيل (بفيك البراء) يعنى به التراب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[٨] (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ وَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »

أى من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال في أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات . لأن إذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ، ملكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة ، قاله الإمام . « أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

الْبَرِيَّةِ « أى أفضل الخليقة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التى شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جملة الله قوام الوجود الإنسانى ، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هُودوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام « جَزَّ آوْهُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَزَّتْ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى بساتين إقامة ، لا ظن فيها ، تجرى من تحت أشجارها وغرفها الأنهار « خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى ما كثرين على الدوام ، لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » أى بما أطاعوه فى الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه فى ذلك « وَرَضُوا عَنْهُ » لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به فى الدنيا . فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله فى كل حال . أفاده الإمام .

« ذَلِكَ » أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء « لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » أى خاف الله فى الدنيا ، فى سره وعلايته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه . فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية . قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالورائة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفى فى نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء . وأفواهم ماؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياح العجب والخيلاء . وسراثرهم مسكن المبودية والرق للأمراء . بل ولبن دون الأمراء . خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء . كلا لا ينالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحل قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفه قلبه . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٩ - سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قال ابن كثير : مكية . ورجح السيوطي أنها مدنية . وآيها ثمان . روى الترمذي^(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (إِذَا زُلْزِلَتْ) تعدل نصف القرآن . و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن . و (قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل ربع القرآن . وسيأتي مر ذلك في تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٠ - باب ما جاء في (إِذَا زُلْزِلَتْ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

[٢] (وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أى أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب .
فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص ، بمعنى الزلزال المخصوص بها . وهى الرجة التى لا غاية وراءها .
والأقرب الأول ، لآية^(١) (يَأْتِيهَا النَّاسُ أَثْقَالُ رَبِّكُم ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ مَتَى لَا عَظِيمٌ)
وقرى بفتح الزاى . وقد قيل هما مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو
المشهور « وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أى قذفت ما فى باطنها من كنوز ودقائق وأموات
وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله^(٢) (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَدَّتْ) والأثقال جمع (ثقل) بفتححتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا
على الاستعارة . ويموز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن
الحمل يسمى ثقلاً كما فى قوله تعالى^(٣) (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) قاله الشريف المرتضى فى (الدرر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

[٤] (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[٥] (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)

(٢) [٨٤ / الانشقاق / ٤٣ و ٤٤] .

(١) [٢٢ / الحج / ١] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٩] .

[٦] (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ)

[٧] (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

[٨] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

« وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى فجأه ودهشه ، ولم يهد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبمتر ما فيها من الأثقال المدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من (إذا) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدث بذلك . كقولك (الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة ، تحدث أن الدنيا قد انتقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ (تحدث) أى تحدث بسبب إحياء ربك لها ، وأمره إياها بالتحدث . والإحياء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ما تدل به على خرابها .

وقال القاشانى : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكويني . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مرآقدهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم ، متفرقين سعداء وأشقياء « لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ » أى ليرىهم الله جزاء أعمالهم « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول - دل لفظ (من) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره ، فإنه يراه ويجد جزاءه . لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بمحبط أعمال الكفار ، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ما ذكرنا . أى أن عملاً من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر ، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول ^(١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) فقولاه (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) أصرح قولى أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء . وإن كلاً يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجراً يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايمرفون للإجماع الذى تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب في (حواشيه) على القاضى ، حيث ناقش صاحب المقاصد في دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالسلبية ، وهو مخالف لما صرح به في الآية ؟ والذى يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبى طالب كعذاب أبى جهل . ولا

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهي . انتهى .

الثاني - قال في (الإكليل) : في هاتين الآيتين ، الترغيب في قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية في القرآن . وفي لفظ (أجمع) .

وسمى^(١) رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفائزة ، حين سئل عن زكاة الحنظل فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفائزة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وروى الإمام أحمد^(٢) عن سماعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) إلخ . قال : حسبي . لا أبالي أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائي في تفسيره .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٩ - إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، ١ - باب قوله فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٠ - سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

مكية أو مدنية . وآيها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْعُدَيِّتِ صَبْحًا)

[٢] (فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا)

[٣] (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)

[٤] (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا)

[٥] (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا)

« وَالْعُدَيِّتِ صَبْحًا » إقسام بخيل الغزاة التى تعدو نحو العدو ، فتصبح . و (الصبح) صوت أنفاسها إذا عدت . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها (اح . اح) كما قاله ابن عباس . ونصب (صَبْحًا) إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية « فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا » أى تورى النار بحوافرها . والقدر هو الضرب لإخراج النار ، والإبراء يترتب عليه . لأنه إخراج النار وإيقادها . فأيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة . وتسمى نار الجباب . ولما كان مرتباً على عدوها ، عطفه بالفاء . وكون المراد به الحرب - بعيد . وفى إعرابه الوجوه السابقة .

« فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا » أى تغير على العدو فى وقته . يقال (أغار على العدو) إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام : وهو وصف عرض للخيل من الغاية التى أجريت لها . أى أنها تعدو ويشد عدوها حتى يخرج الشر من حوافرها ، تهجم على عدو وقت الصباح ، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة « فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا » أى فأهجن ، بذلك الوقت ، غباراً من الإثارة . وهى

التهييج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع . والنقع: الغبار كما ذكرنا، وورد بمعنى الصياح . فجوّز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه ، وأوقع به . لا صياح المغير المحارب ، وإن جاز على بُعد فيه . أى هيجن الصياح بالإغارة على العدو، وضمير (به) للوقت والباء ظرفية . وفيه احتمالات آخر . ككونه للعدو أو للإغارة ، لتأويلها بالجري . فالباء سببية أو للملابسة . ويجوز كونها ظرفية أيضا . والضمير للمكان الدال عليه السياق ، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع . وهو الذى اختاره ابن جرير .

قال الشهاب : وذكر إثارة الغبار ، للإشارة إلى شدة العدو وكثرة الكرّ والفرّ . وتخصيص الصبح ، لأن الفارة كانت معتادة فيه . أى لمباغطة العدو . والغبار إنما يظهر نهائياً و (أثرن) معطوف على ما قبله .

قال الناصر : وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم ، الذى هو العاديات أو مابعد ، لأنها أسماء فاعلين تعطى معنى الفعل . وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل ، تصوير هذه الأفعال فى النفس . فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف . وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة . وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضى . وقوله تعالى « فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً » أى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء، ففرقنه وشتتنه . يقال : (وسطت القوم) بالتخفيف و (وسطته) بالتشديد و (توسطته) بمعنى واحد . وفى الضمير الوجوه المتقدمة .

قال الإمام رحمه الله : أقسم تعالى بالخليل متصفة بصفاتها التى ذكرها، آتية بالأعمال التى سردها لينوه بشأنها ويعلم من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد . ليعمنوا بقفيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها . ليكون كل واحد منهم مستعداً فى أى وقت كان ، لأن يكون جزءاً من قوة الأمة إذا اضطرت إلى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان فى هذه

الآيات القارعات ، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله ^(١) (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) وفيما ورد من الأحاديث التي لا تسكاد تحصر - ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل . ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس في عقائلها . وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس من أعجب العجائب أن ترى أمماً ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، إلى أن صار يشار إلى رايها كبراء بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

[٧] (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)

[٨] (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» أي لكفور . بكفر نعمه ولا يشكرها . أي لا يستعملها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه .

قال المهايي : أي لكفور ، فيوجب قتاله بهذه الخيول وقهره بهذا الغضب . وعن أبي أمامة : السكوند الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقته «وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ» أي وإن الإنسان على كنفوده ، لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعمارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

(١) [٨ / الأفعال / ٦٠] .

قال القاشاني : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لا يقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر في جنب الله بكفرانه « وَإِنَّهُ وَلِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » أى وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها ، لقوى . ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس وإنه لحب الخير الموصل إلى الحق ، شديد منقبض ، غير هس منبسط . أو اللام للتعليل . أى إنه لأجل حب المال بخيل . فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنبه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)

[١٠] (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)

[١١] (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ)

« أَفَلَا يَعْلَمُ » أى أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، لا يعلم بنور فطرته وقوة عقله « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » أى بعث وأثير ما في القبور وإخراج موتاها « وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ » أى أظهر وأبرز ما في صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر « إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ » أى عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم . فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقدير الظرف ، إما لكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته . وهى إنما تكون يومئذ .

قال الرازى : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب . فإنه لولا البواعث والإرادات فى القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح . ولذلك جعلها تعالى الأصل فى الدم فقال ^(١) (ءَاتِمٌ قَلْبُهُ) والأصل فى المدح فقال ^(٢) (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] . (٢) [٨ / الأتقال / ٢] و [٢٢ / الحج / ٣٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠١ - سُورَةُ الْفَارَعَةِ

مكية وآياتها إحدى عشرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْقَارِعَةُ)

[٢] (مَا أَلْقَرَعُ)

[٣] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

[٤] (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

[٥] (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

« الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ » قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهي القيامة . سميت بها لأنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأفراع والأهوال . وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانقطاع ، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار ، والأرض بالزلزال والتبديل والجبال بالدك والنسف . وهي مبتدأ خبره قوله تعالى (ما القارعة) على أن (ما) الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس . لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ . ولا ريب في أن مدار إفادة الموصول والفخامة ههنا ، هو كلمة (ما) لا (القارعة) أي أي شيء عجيب هي في الفخامة والفضاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتحويل . وقوله تعالى « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » تأكيداً لهولها وفضاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها ، بحيث لا تكاد تقاله دراية أحد ، حتى يدريك بها . أي : وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ولما كان هذا منبئاً عن الوعد الكريم بإعلامها ، أنجز ذلك بقوله تعالى « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » أي هي يوم يكون الناس فيه كالفراش المبعوث في الكثرة

والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، والتطايير إلى الداعي ، كتطايير الفراش إلى النار .
 فـ (يوم) خبر محذوف بنى على الفتح ، لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب . بإضمار
 (اذكر) . كأنه قيل ، بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها :
 اذكر يوم يكون الناس « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » أى كالصوف المندوف
 في تفرق أجزائها وتطاييرها في الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذى
 تبتدى فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه
 قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

[٧] (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)

[٩] (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)

[١٠] (وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا هِيَ)

[١١] (نَارٌ حَامِيَةٌ)

« فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » قال ابن^(١) جرير : أى فأما من
 ثقلت موازين حسناته ، يعنى بالموازين الوزن . والعرب تقول (لك عندى درهم يميزان
 درهمك) ويقولون (دارى يميزان دارك ووزن دارك) يراد حذاء دارك . قال الشاعر^(٢) :
 قد كنتُ قبلُ لقائكم ذا مِرَّةٍ عندى لكلِّ مخاصم ميزانهُ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أنشده نعلب في اللسان (ج ١٣ ص ٤٤٧) طبعة بيروت .

يعنى بقوله (ميزانه) كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان . إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه ، فاللوازين جمع ميزان . وجوز كونه جمع موزون ، وهو العمل الذى له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله (فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى فى عيشة قد رضىها فى الجنة . فـ (راضية) بمعنى مرضية ، على التجوز فى الكلمة نفسها أو فى إسنادها . أو استعارة مكنية وتخييلية « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » أى وزن حسناته « فَأَمُّهُ وَهَّاءٌ » أى فئاواه ومسكنه الهاوية التى يهوى فيها على رأسه فى جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى (أمّا) على التشبيه تهكماً . لأن أم الولد مأواه ومقره . وفى (التأويلات) : قيل المراد أم رأسه . أى يلتقى فى النار منكوساً على رأسه . انتهى . والأول هو الموافق لقوله « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ * نَارٌ حَامِيَةٌ » فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن الحدود الممهودة للتهويل . وأصل (ماهيه) ماهى ، كناية عن الهاوية . فأدخل فى آخرها هاء السكت وفقاً . وتحذف وصلاً . وقد أجزئ إثباتها مع الوصل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٢ - سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بوهى مكية وآيها ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ)
- [٢] (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)
- [٣] (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
- [٤] (نُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
- [٥] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)
- [٦] (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)
- [٧] (نُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)
- [٨] (نُمَّ لَتَسْتَئِنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

« أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى شغلكم التباهى بالكثرة فى المال والولد ونحوها . فيقول هذا : أنا أكثر منك مالا ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً . وهكذا مما يصرف عن الجد فى العمل ، ويطفىء نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والسكرات المعنوية الباقية . ذهب بكم التفاخر والتباهى بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كل مذهب « حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى حتى هلكتم ومتم وصرت من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم فى الأعمال السيئة وما تنبئهم طول حياتكم إلى ما هو سبب سعادتهم ونجاتكم . وزيارة القبور عبارة عن الموت . روى الزمخشري شواهد لها . قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث . لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره . ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بعثوا ، ورب الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لا بد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة ، دهليز

الآخرة « كَلَّا » ردع عن الاشتغال بالتكاثر، وتوهم أن الفوز بالتفاخر. فإن الفوز بالتفاخر على الحق والتحلى بالفضائل « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى مغبة ما أنتم عليه ، فى الآخرة ، من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال ، العظيمة الوبال ، لبقاء تبعاتها .

« ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » تكرير للتأكيد . و (ثم) للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول . أو الأول عند الموت ، والثانى عند النشور « كَلَّا تَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أى لو تعلمون ما بين أيديكم من الجزاء ، علم الأمر اليقين ، لكان ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز فى التكاثر ، والذهول عن الحق به . واليقين بمعنى التيقن ، صفة لمحذوف ، أو صفة للعلم ، على أنه من إضافة الصفة للموصوف ، وحذف جواب (لو) ليطالبه العقل من الشرط وماسبقه ، ليستحكم فيه فضل استحكام . وقوله تعالى « تَرَوُنَّ الْجَحِيمَ » جواب قسم مضمرة ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أذروه تفخيا « ثُمَّ تَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ » أى الرؤية التى هى نفس اليقين ، فالعين هنا بمعنى النفس ، كفى (جاء زيد عينه) أى نفسه . وإنما كانت نفس اليقين ، لأن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة ، فوق سائر الانكشافات . فهو أحق بأن يكون عين اليقين . والتكرير للتأكيد .

قال الإمام : وكفى برؤية الجحيم ، عن ذوق العذاب فيها . وهى كفاية شائعة فى الكتاب العزيز . « ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » أى عن النعيم الذى ألهاكم التكاثر به والتفاخر فى الدنيا . ماذا علمتم فيه ؟ ومن أين وصلتكم إليه ؟ وفيه أصبتموه ؟ وماذا عملتم به ؟ ويدخل فى ذلك ما أنعم عليهم من السمع والبصر وصحة البدن .

قال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والاسماع والأبصار . قال : يسأل الله العباد فم استعملوا وهو أعلم بذلك منهم . وهو ^(١) قوله (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْهِ لَآئِكُمْ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) قال ابن جرير ^(٢) : لم يخص فى خبره تعالى نوعاً من النعيم دون نوع . بل عم . فهو سائلهم عن جميع النعيم . ولذا قال مجاهد : أى عن كل شئ من لذة الدنيا . وقال قتادة : إن الله عز وجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه .

(١) [١٧/الإسراء/٣٦] . (٢) انظر الصفحة رقم ٢٨٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحامى الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٣ - سورة العصر

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْعَصْرِ)

[٢] (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ)

[٣] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)

« وَالْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارة والمارة . ولذا قيل له (أبو العجب) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة . وللتقوية به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والدم . كما قيل :

يَعْبُونَ الزَّمانَ وَلَيْسَ فِيهِ مَعَايِبُ غَيْرُ أَهْلِ الزَّمانِ

وجوز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتجادلوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيقوم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسب ، كما اعتاد الناس أن يقولوا (زمان مشؤوم) و (وقت نحس) و (دهر سوء) وما يشبه ذلك . بل هو عادٌ للحسنات كما هو عادٌ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل المقوتة . « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإثثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقي فى الفانى « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيماناً ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » قال القاشاني : أى من الفضائل والخيرات . أى اكتسبوها فربحوا زيادة النور السكالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس ملهم .

« وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » أى أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره ، واجتنب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » أى على ما يبلى الله به عباده . أو على الحق ، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذلك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات

الأول - قال الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) قال الشافعي رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة ، لكفهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . إحداها معرفة الحق . الثانية عمله به . الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا . وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة . وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره . وكمالُه بإصلاح قوته العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هي من أجمع سور القرآن للخير بمخذايها . والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثاني : قال الرازي : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة . وهي : الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن يحب له ما يحب لنفسه . ثم كرر التواصي ليعتد به الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثاني النهي عن المنكر . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوني .

الثالث : قال الرازي : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن الحن تلازمه . فلذلك قرن التواصي بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصي بالحق والصبر ، مع اندراجهما في الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كل صاحب به إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التي لا ينافي فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التي لا قرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدي إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق في النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع . (١) [٢١ / لقمان / ١٧] .

للمادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة في العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان في نيلها ما يخالف حقاً أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تبصر ، وأن توصى غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التي هي أم الفضائل بأمرها ، ولا يمكنك حملها على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بها . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس - قال الإمام : إنما قال (وَتَوَاصَوْا) ولم يقل (وأوصوا) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تفاظ بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهمه أمر الحق ، ليوصى صاحبه بطلبه ، يهمه أن يرى الحق فيقبله . فكان في هذه العبارة الجزلة ، قد نص على توأصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس - قال ابن كثير : ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصي بالحق والتواصي بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره ، فعلى من أراد التوسع في أسرارها ، أن يرجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٤ - سُورَةُ الْحُمَزَةِ

مكية ، وآياتها تسع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)

[٢] (الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ)

[٣] (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ وَهُوَ أَخْلَدُهُ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » أى لكل من يطعن فى أعراض الناس ويفتق بهم .
أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن ، الحقيقين . ثم استعيرا لذلك .
ثم صارا حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعجم ^(١) :

تُدلى بوْدٍ إذا لافيتنى كذِباً وإن أُغيبُ فأتُ الهامِزُ اللُّمَزَةُ

وبناء (فُعْلَمَةٌ) يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ، لأنه من صيغ المبالغة .
والآية عنى بها من كان مع المشركين بمكة ، هازلاً لمازاً . كما فى قوله ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا
كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ..) الآيات ،
وقوله ^(٣) (هَٰمَّازٍ مُّشْتَاًمٍ بِنَمِيمٍ ..) الآيات ، فالسبب ، وإن يكن خاصاً ، إلا أن الوعيد عام ،
يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عامّاً ، ليسكون جارياً مجرى التعريض
بالوارد فيه ، فإن ذلك أضر له وأنكى فيه .

« الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ » أى أحصى عدده ولم ينفقه فى وجوه البر .

قال الإمام : أى أن الذى يحمله على الخط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتمديده . أى
عده مرة بعد أخرى ، شغفآ به وتلذذاً بإحصائه . لأنه لا يرى عزاً ولا شرفاً ولا مجداً فى سواه .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٧٥ من إصلاح المنطق لابن السكيت .

(٢) [٨٣ / المطففين / ٣٠ و ٢٩] . (٣) [٦٨ / القلم / ١١] .

فكلمنا نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه . فهو يهزأ به ويهمزه ويلهزه . ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللامز وتزيق العرض . لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المال فهو « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ » أى يظن أن ماله الذى جمعه وأحصاه ، وبخل بإنفاقه ، يخلد في الدنيا ، فزيل عنه الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)

[٥] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

[٦] (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ)

[٧] (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ)

[٨] (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ)

[٩] (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

« كَلَّا » أى فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن . بل لابد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال ، كما قال « لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ » أى ليلقى ويلقى يوم القيامة فى النار التى من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . أى تسكسه ، وكلمة (النبذ) تفيد التحقير والتصغير « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ » استفهام عنها تهويل أمرها . كأنها ليست من الأمور التى تدركها العقول « نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ » أى هى النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو مُنْشِئُهَا فى عالم لا يملكه سواه .

قال أبو السعود : وفى إضاقتها إليه سبحانه ، ووصفها بالإيقاد ، من تهويل أمرها مالا مزيد عليه « الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » قال ابن جرير^(١) : أى التى يطلع منها ووجهها على القلوب .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى . حكى عن العرب سماعا (مَتَى طَلَعَتْ أَرْضُنَا) . و (طَلَعْتُ أَرْضِي) بَلَغْتُ .

وقال الزخشرى : يعنى أنها تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهى أوساط القلوب . ولاشئ فى بدن الانسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألماً منه بأذى أذى عيسه . فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه !! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها « إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ » أى مغلقة مطبقة لا غلص لهم منها « فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » صفة لمؤصدة، أو حال من الضمير المجرور . وإلى الوجهين أشار الزخشرى بقوله : والمعنى أنه يؤكد بأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمدة ، استيثاقاً فى استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين فى عمد ممددة ، مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص .

و (المقاطر) جمع (مقطرة) بالفتح ، وهى جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم (وتقطر) أى يجعل كلٌ يجنب آخر و (عمد) قرى بضم العين وللميم وفتحهما .

قال ابن جرير^(١) : وهما قراءتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء . ولغتان صحيحتان . والعرب تجمع العمود عُمداً وعَمداً ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل فى جمع إهاب تجمعهُ أَهْباً وَأَهْباً .

تنبه

قال القاشانى فى بيان آفات رذيلتى الهمز واللمز اللتين نزلت فى وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أى الكسر من أعراض الناس واللمز أى الطعن فيهم ، رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر . لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس . وصاحبهما يريد أن

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

يتفضل على الناس ، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرديلة إليهم ، ليظهر فضله عليهم . ولا يشعر أن ذلك عين الرديلة . فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفي قوله تعالى (وَعَدَّهٗو) إشارة أيضاً إلى الجهل . لأن الذي جعل المال عدة للنوائب ، لا يعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب . لاقتضاء حكمة الله تفريقه في النوائب ، فكيف يدفعها ؟ وكذا في قوله (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُوَ أَخْلَدَهُو) أى لا يشعر أن المقتنيات المخلدة لصاحبها هي العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والذخائر الجسدية الفانية . ولكنه مخدوع بطول الأمل ، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذي هو رديلة القوة الملكية ، أصل جميع الرذائل ، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها ، العذاب الأبدى المستولى على القلب البطل لجوهره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٥ - سُورَةُ الْفِيلِ

مكية ، وآياتها خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[٢] (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[٣] (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)

[٤] (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ)

[٥] (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » يعنى الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب السكبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشى الأشرم . كما سيأتى .

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله ﷺ . والمهزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها . والرؤية علمية . أى ألم تعلم علما رصيفا متاخما للمشاهدة والعيان ، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لانبفسه ، بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ - تهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام . فإن ذلك من الإرهاصات . لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبى عليه الصلاة والسلام ، كما سناثره . وقوله تعالى « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » بيان إجمالى لما فعل بهم . أى لم يجعل مكرهم وسميهم لتخريب السكبة فى تضليل وإبطال لما حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

قال الرازى : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية (إن قيل) لم سماه

كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ (قلنا) نعم لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر . لأنه كان يضمّر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » أى طوائف متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . و(أبابيل) جمع لاواحدله ، على ما حكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسى - وكان ثقة - أنه سمع واحداً منها إبانة بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهى حزمة الحطب . استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائى عن بعض النحويين فى مفرداها (أبول) وعن آخرين (أبيل) سماعاً كما أثره ابن جرير^(١) . والتشكير فى (طيرا) إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر . أو للتفخيم ، كأنه يقول وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل . أفاده الرازى .

« تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ » أى من طين متحجر . وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعنى بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير^(٢) : وهذا القول الذى قاله ابن زيد لا نعرف لصحته وجهاً فى خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لا تدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره « فَجَعَلَهُمْ كَصَفِّ مَاءٍ كَوَّلِم » قال ابن جرير^(٣) : كزرع أكلته الدواب فرائته ، فبیس وتفرقت أجزاءه . شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التى نزلت بهم ، وتفرق آراب أبدانهم بها ، بتفرق أجزاء الروث ، الذى حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهجنته . فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار تشويه حالهم .

- (١) انظر الصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) انظر الصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٣) انظر الصفحة رقم ٣٠٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال أبو مسلم : (العصف) التين ، لقوله ^(١) (ذُو الْعُصْفِ وَالرَّيْحَانُ ...) لأنه تعصف به الريح عند الذر ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه في الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، والتقدير كمصف مأكول الحب . كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه . فأجرى (مأكول) على (العصف) من أجل أنه أكل حبه . لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضاً أن معنى (مأكول) مما يؤكل ، معنى تأكله الدواب . يقال لكل ما يصلح للأكل (هو مأكول) والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب في التفرق والتفتت والهلاك . أشار له الرازي

تنبيهات :

الأول : كان السبب الذي من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل ، مسير أبرهة الحبشي بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية . حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث . فيقولون : ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك . وتفصيل نبئنا على ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي . وكان ذا دين في النصرانية . فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها . ثم كتب للنجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها الملك كان قبلك . ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كفانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقمعد فيها (أى أحدث فيها) ثم خرج فلقق بأرضه . فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك (أصرف إليها حج العرب) غضب فجاء فقمعد فيها . أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ١٢] .

وسميت بذلك العرب فأعظموه وقظموا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم
السكبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو
نفر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما
يريد من هدمه وإخراجه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه
وأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائى معك
خيراً لك من قتلى . فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق . وكان أبرهة رجلاً جليماً . ثم مضى
أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له . حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل بن حبيب
الخثعميّ في قبيلي خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب . فقاتله فهزمه أبرهة
وأخذ له نفيل أسيراً . فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك ! لا تقتلني فإنى دليلك بأرض
العرب . وهاتان يداى لك على قبيلي خثعم : شهران وناهس ، بالسباع والطاعة . فغلب سبيله وخرج
به معه يده . حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفيّ في رجاله ثقيف . فقالوا له :
أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عقدنا لك خلاف ، وليس يبتئ هذا البيت
الذى تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه .
فتجاوز عنهم - واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم السكبة - فبعثوا معه
أبارغال يده على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبورغال حتى أترله المغمس . فلما أترله به
مات أبورغال هنالك : فرجعت قبره العرب . فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس . فلما نزل
أبرهة المغمس بمث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفسود على خيل له حتى انتهى إلى
مكة . فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتي بئر لعبد المطلب
ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهتت قريش وكفانة وهذيل ومن كان بذلك
الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به . فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حفاطة الحميريّ إلى مكة
وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت
لحربكم . إنما جئت لهدم هذا البيت . فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب ، فلا حاجة لى في دمائكم .

فإن هو لم يرد حربى فأتنى به . فلما دخل حنافة مكة سأل من سيد قريش وشريفها . فقيل له عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما يزيد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام (أو كما قال) فإن ينميه منه فهو بيته وحرمة . وأن يخل بينه وبينه ، فوالله ! ما عندنا دفع عنه . فقال له حنافة : فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتية بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر . فسأل عن ذى نقر وكان له صديقا حتى دخل عليه وهو فى محبسه . فقال له : ياذا نقر ! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذونقر : وما غناء رجل أسير يمدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشياً . ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقمك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ، إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذونقر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة . يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه واتقعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش يبابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال . فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته . قال فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته . وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لخدمته لا تكلمنى فيه قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : وما كان ليمتنع منى . قال :

أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة - يعمر بن نفاعة سيد بنى بكر وخويلد بن وائلة سيد هذيل . فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . والله أعلم ، أكان ذلك أم لا . فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة . وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِلَّا عَبْدٌ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ، فَاَمْنَعُ خِلَالِكَ
لَا يَنْفِلِينَ صَلَيبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ ، عَدَاؤًا مِجَالِكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْلَ لَمْتَنَا ، فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبي جيشه ، وأبرهة يجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نقيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه . فقال له : ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . وخرج نقيل يشتر حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم . فضربوا رأسه ليقوم فأبى . فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها - أى أدموه - ليقوم فأبى . فوجهوه راجماً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحص والعميس ، لاتصيب منهم أحداً إلا هلك . وليس كلهم أصابت . وخرجوا هارين يتتدرون الطريق الذي

منه جاءوا . ويسألون عن ثقل ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال ثقل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته :

أين الفرث والإله الطالب والأثرم المغلوب ليس الغالب
نخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك . على كل منهل . وأصيب أبرهة في
جسده . وخرجوا به معهم يسقط أعلة أعلة . كلما سقطت منه أعلة أتبعها منه مدة تمث - أي
تسيل - قيحاً ودماً . حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع
صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحق : حدثني يعقوب بن عتبة . أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرى
بأرض العرب ، ذلك العام .

قال ابن إسحق : فلما بعث الله محمداً ﷺ ، كان مما بعث الله على قريش من نعمته عليهم
وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ
رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . .) السورة .

ثم قال ابن إسحق : فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النعمة ،
أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله ؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم . فقالوا في ذلك
أشعاراً يذكر فيها ماصع الله بالحبشة ، ومارد عن قريش من كيدهم . ثم ساق القصائد في ذلك .
وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحق . لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ
سبكاً ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغها رجالها ، فرحمه الله ورضى عنه .

التنبيه الثاني : إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل ، واشتهرت به ، لاصطحابهم الفيل معهم
للبطش والتخريب . فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يدهم العاملة وسهمهم النافذ .
وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام . فإذا غضبوا على
محارب وأسرده ، أو وزير وأوثقوه ، أو بلد ونازلوا حصنه - أرسلوا على دار المغضوب عليه أو
حصنه الفيل ، فتنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه . وقواعد البنيان فيهدمها . فيكون أمضى من
معاول وفؤوس . وأعظم رعباً ورهبة في النفوس . وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه ، فأعمل فيه

نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثل به تمثيلاً ، كان أشد بطشاً وتمسكياً . وقد حدثني بفرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

الثالث : قال القاشاني : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ . وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجتراً عليه بهتكم حرمة . وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ، ليس بمستفكر . ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب الحكمة ، عرف لمة أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفار على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركبها عليها وعبروها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات قاهرة . تشهد مبادئها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق . ولا منتحل بمحق . وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشارتها وإنذارها . ولما ذنا مولد رسول الله ﷺ تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته . فكان من أعظمها شأنا . وأظهرها برهاناً . وأثمرها عياناً وبياناً . أصحاب الفيل . أنقذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها وسبي ذراريها وهدم الكعبة . وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملاً في بطن أمه بمكة . لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل . فكانت آيته في ذلك من وجهين : أحدهما أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا . فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملاً ووليداً . والثاني أنه لم يكن لقريش من التآله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم . وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرحمة . ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة وتمظيلاً للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج . فإن قيل . فكيف منع عن الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكاً ، ولم يمنع الحجاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قيل : فعلُ الحجاج كان بعد استقرار الدين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة وحيء الرسالة . على أن الرسول قد أُنذر بهدمها فصار الهدم آية بعد أن كان المنع آية فلذلك اختلف حكمهما في الحالين والله تعالى أعلم . ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمة في النفوس ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيدهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيماً ، فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين . وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لكل باغ ودافعاً لكل طاغ . وقد عاصر رسول الله ﷺ في زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبايل . منهم حكيم بن حزام وحاطب ابن عبد العزى ونوفل بن معاوية . لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة . منها ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام . انتهى .

الخامس : ورد في كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل . روى البخاري^(١) أن النبي ﷺ لما أظلم يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء - أي حرنت - فقال رسول الله ﷺ : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل ؛ قال ابن الأثير في (النهاية) : هو فيل أبرهة الحبشي الذي جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، ورد رأسه راجعاً من حيث جاء . يعني أن الله حبس ناقة النبي ﷺ لما وصل إلى الحديبية . فلم يتقدم ولم تدخل الحرم . لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفي الصحيحين^(٢) أيضاً أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين . وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب .

(١) أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، حديث ٨٨١ ، ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٩ - باب كتابة العلم ، حديث رقم ٩٦ عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٧ ، ٤٤٨ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٦ - سورة قريش

مكية، وآيها أربع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَا يَلْفِ قَرِيشٍ)

[٢] (إِلَيْهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)

[٣] (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

[٤] (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

« لَا يَلْفِ قَرِيشٍ * إِيَّاهُمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ » قال ابن هشام: إيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام في تجارتهم. وكانت لهم خرجتان: خرجة في الشتاء وخرجة في الصيف. قال: أخبرني أبو زيد الأنصاري أن العرب تقول: ألفت الشيء إلفاً، وآلفته إيلافاً، في معنى واحد وأنشدني لذي الرمة^(١) :

من المؤلفات الرمل إدامه حرّة شعاع الضحى في لونها يتوضّع

والإيلاف أيضاً أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك، ويقال ألف فلان إيلافاً، قال السكيت بن زيد^(٢) :

يعامٍ يقول له المؤلفون ن هذا الميم لنا المرّجل

(١) استشهد به في اللسان (ج ٩ ص ١٠) طبعة بيروت .

شعاع الضحى : بريق لونه . يتوضّع : يتبين .

(٢) العيم من العيمة ، وهي الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذي تذهب إبله فيمشي على

أرجله . يريد أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من اللبن ، يعام إلى اللبن ويسعى ماشياً .

والمعيم العام الذى قل فيه اللبن . والإيلاف أيضا أن يصير القوم ألفا ؛ يقال ألف القوم إيلافا . قال السكيت :

وَأَلْ مُزَيَّقِيَاءَ غَدَاةَ لَاقَوْا . بنى سعد بن ضَبَّةَ مُؤَلِّفِيْنَا

والإيلاف أيضا أن يؤلف الشيء إلى الشيء ، فيألفه ويلزمه . يقال : آلفته إياه إيلافا . والإيلاف أيضا أن تصير ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا . انتهى . ولورود الإيلاف بهذه المعاني ، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه . مع ما في الإيهام ، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير ^(١) عن عكرمة قال : كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن ، يختلفون إلى هذه في الشتاء وإلى تلك في الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن في التجارة . إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد . وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن . وعن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف . والأكثر على الأول . واللام في قوله (لإيلاف) متعلق بقوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » أى فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين . ودخلت الفاء ، لما في الكلام من معنى الشرط . إذ المعنى ، أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة . فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة « الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » أى جوع شديد كانوا فيه قبل الرحلتين (من) تعليلية . أى أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم أو بدلية « وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أى مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التى كانت العرب يخاف بعضها من بعض . قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا . فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ ^(٢) (أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّيَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) ونظيره أيضا قوله تعالى ^(٣) (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام في (لَا يَلْفٍ) متعلق بما قبله أي فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هذا لا بد من تأويله . والمعنى : أهلكتهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه . أو أهلكت من قصدتهم ليعتبر الناس ولا يجترؤ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن في الإقامة والسفر ، أو هي لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف . ولذا قال ابن جرير^(١) في رده : وأما القول الذي قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون (لَا يَلْفٍ) بعض (أَلَمْ تَرَ) وأن لا تكون سورة منفصلة من (أَلَمْ تَرَ) وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك . ولو كان قوله (لَا يَلْفٍ قُرَيْشٍ) من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) لم تكن (أَلَمْ تَرَ) تامة حتى توصل بقوله (لَا يَلْفٍ قُرَيْشٍ) لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٧ - سُورَةُ الْمَاعُونِ

مدنية ، وآياتها سبع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ)

[٢] (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)

[٣] (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ)

[٤] (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

[٥] (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

[٦] (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

[٧] (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ » أى بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه فى أمره ونهيهِ . قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتمجيب منه . والخطاب للنبي ﷺ . أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم . والفاء فى قوله تعالى « فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » جواب شرط محذوف ، على أن (ذلك) مبتدأ والموصول خبره . والمعنى : هل عرفت الذى يكذبُ بالجزاء أو بالإسلام ، إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفماً غنياً ويترجره زجراً قبيحاً . يقال : دفعت فلاناً عن حقه : دفعت عنه وظلمته « وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أى لا يحث غيره من ذوى اليسار على إطعام المحتاج وسد خلته . بل يمتنع بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام ، كما قاله الراغب ، فهو ظاهر . وإلا ففيه مضاف مقدر . أى بذل طعام المسكين . واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له

كافى قوله^(١) (فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَكُمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَمْوَالَ وَالْأَنْفُسَ) فهو بيان لشدة الاستحقاق . وفيه إشارة للنهي عن الامتنان : قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

قال الزمخشري : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف . يعنى أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، خشى الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك . فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، وقوله تعالى «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» قال ابن جرير^(٢) : أى لاهون يتغافلون عنها وذلك باللهو عنها والتشاغل بغيرها . وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى . وقال القاشاني : أى فويل لهم ، أى للموصوفين بهذه الصفات ، من دغ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين . الذين إن صلوا غفلوا عن صلاتهم لاحتجاجهم عن حقيقتها بمجهلهم وعدم حضورهم . و(المصلين) من باب وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وظهور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ما به معتبرة من الحضور والإخلاص ، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذى يكذب هو الجنس «الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ» أى يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب ، ولا رهبة من عقاب . وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظفروهم منهم فيكفروا عنهم . وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك . أريد به العمل عند الناس ليثبتوا عليهم . أوضحه الشهاب .

«وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» أى ما يعان به الخلق ويصرف في معونتهم من الأموال والإمعة وكل ما ينتفع به ، لكون الجهل حاكماً عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوجيهي

(١) [٧٠ / المارج / ٢٤ و ٢٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعدم اعتقادهم بالجزاء . فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفانى ، ولا عدالة فى أنفسهم للاتصاف بالذات والبعء عن الفضائل ، فلا يماونون أحدا فلن يفلحوا أبداً . قاله القاشانى .

تنبيه :

المعنى بهذه الآيات أولا وبالذات المنافقون فى عهد النبوة . ويدخل فيها ثانياً وبالعرض ، كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتباراً بالعموم . فالسورة مدنية . ونظيرها فى المنافقين قوله تعالى ^(١) (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير ^(٢) : هم المنافقون ، كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بفضاً لهم ، وهو الماعون .

(١) [٤ / النساء / ١٤٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨ - سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية ، ويقال مدنية ، وآياتها ثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ)

[٢] (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ)

[٣] (إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

« إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ » أى الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحق والهدى ومافيه سعادة الدارين . روى ابن جرير^(١) عن أبى بشر قال : سألت سميد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذى آتاه الله إياه . فقلت لسميد : إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة . فقال : هو من الخير الذى أعطاه الله إياه « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال الإمام : أى فاجعل صلاتك لربك وحده ، وأنحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده ، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى^(٢) (قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) « إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » قال ابن جرير^(٣) : أى إن مبعضك يا محمد ، وعدوك ، هو الأبتَر . يعنى الأقل الأذل المنقطع دابره الذى لاعقب له .

روى ابن إسحق عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : (دعوه فإنه رجل أبتَر لاعقب له . فإذا هلك انتقطع ذكره) فأُتِلَ الله هذه السورة .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٢١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٢ و ١٦٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن عطاء قال : نزلت في أبي لهب . وذلك حين مات ابن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله ، في ذلك ، السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . قال ابن كثير : والآية تعم جميع من اتصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء النبي ﷺ يقولون : بتر محمد . أي لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ، ويعدون ذلك عيباً يلزونه به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقتلهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويعدون ذلك مغزاً في الدين . يأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة ، شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل . وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بقلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين . وبنظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلو أيديهم من المال . وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين ، تمرُّ بنفوسهم خواطر السوء عند ما تشتد عليهم حلقات الضيق . فأراد الله سبحانه أن يحص من نفوس هؤلاء ، ويبكت الآخرين ، فأكد الخبر لنبيه ، أن ما يخيلة النظر القصير قليلاً ، هو الكثير البالغ القاية في الكثرة . ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز ، وأن متبعه هو الظافر ، وأن عدوه هو الخائب ، الأبر الذي يحصى ذكره ويعنى أثره .

تنبية :

لما روى من سبب نزول هذه السورة مما روينا ، ذهب إمام اللغة ابن جني إلى تأويل البكوة بالذرية الكثيرة . وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جني في (شرح ديوان المتنبي) في قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوي :

وأبهر آيات التهاى أنه أبوك وأجدى مالكم من مناقب

في جملة ما أملاه على أبو الفضل العروضي : أن قريشا وأعداء النبي ﷺ كانوا يقولون :
 إن محمداً أبتراً لآعقب له . فإذا مات استرحنا منه فأُنزل الله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)
 أي العدد الكثير، ولست بالأبتري الذي قالوه . ومراده بالعدد الكثير الذرية وهم أولاد فاطمة .
 قال العروضي : فإن قيل : الإنسان بالأبناء والآباء والأمهات . قلنا : هذا خلاف حكم الله تعالى
 فإنه قد قال ^(١) : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) إلى قوله (وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ) فجعل عيسى
 من أولاد إبراهيم ومن ذريته . ولا خلاف في أنه لم يكن لعيسى أب . انتهى .
 وقد بسطنا أدلة صحة انتساب الأسباط إلى أجدادهم في كتاب (شرف الأسباط) بما لا مزيد
 عليه . فراجع .

(١) [٦ / الأنعام / ٨٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٩ - سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية ، وآيها ست . قال ابن كثير : ثبت في صحيح مسلم ^(١) عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ! علمني شيئا أقوله عند منامي . قال : إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرأ : قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال في (الباب) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام . وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى ، وهي من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب . فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى في تفسير الإخلاص سر آخر .

(٢١) هذان الحديثان أملى التنقيب عنهما ولم أعثر عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٢١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كما هنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه عن فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

[٢] (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[٣] (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٤] (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ)

[٥] (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حجته واتضح محجته «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَا أَنَا عَابِدٌ» أى فيما استقبل «مَا عَبَدْتُمْ» أى فيما مضى «وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبداً «مَا أَعْبُدُ» أى الآن وفيما استقبل - هكذا فسرہ الإمام ابن جرير^(١) رحمه الله. ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طعموا فيه وحدثوا به أنفسهم. وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات. وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفايحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافراً. ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا قال: لقي الوليد بن المغيرة (١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هلم، فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله. فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كُنّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ..) السورة. وفي رواية: وأنزل الله في ذلك هذه السورة، وقوله (١) (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَ بِأَعْبَادِهِمُ الْجَاهِلُونَ) (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفي العبادة حالا. كما أن الأوليين لنفيها استقبالا. قال أبو السمود: وإنما لم يقل (ما عبدت) ليوافق (مَا عَبَدْتُمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى. وإشار (ما) في (مَا عَبَدْتُمْ) على (مَنْ) لأن المراد هو الوصف. كأنه قيل (ما أعبد) من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته. وقيل: إن (ما) مصدرية. أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذين) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ) ثانياً تأكيداً لمثله المذكور أولاً. انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية: أن المراد بقوله (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) نفي الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) نفي قبوله لذلك بالسكينة، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك. ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعى أيضاً. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون (ما) في الأوليين موصولة وفيها بعدها مصدرية ، قال: ففاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في المعبود . وفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة. فلا

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن الندد والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين ، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بنصاية كل من نابذ المبالغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخصصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) كما أن قوله تعالى « وَلِي دِينِ » تقرير لقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) والمعنى أن دينكم ، الذى هو الإشراك ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لى أيضا ، كما نطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدلل الإمام الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشئ الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَيْئًا) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٦٦٦٤ (طبعة المعارف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠ - سورة النصر

مدنية ، وآياتها ثلاث .

وهي آخر سورة نزلت في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروى البيهقي عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعت إلى نفسي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
 [٢] (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)
 [٣] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَالْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه ، فجعل له الغلبة عليهم وضمف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الفطاء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجا طوائف وجماعات لا آحادا ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لا ريب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فتره ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يقبله غالب ، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَاسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن ، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعده الله ، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد ، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب السكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم » إِنَّهُ وَكَانَ تَوَّابًا) أى إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربُّ يربى النفوس بالحن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددتهما بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ السكالم . وهى فى كل منزلة تتوب عن التى قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكان الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة فى ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام فى تفسيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : المراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً . فإن أحياء العرب كانت تلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام والله الحمد والمنة . وقد روى البخارى فى صحيحه ^(١) عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممر الناس . وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه (أو أوحى الله بكذا) فكنت أحفظ ذلك السلام وكأنا بغيرى فى صدرى . وكانت العرب تلوّم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : أتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبى قوى بإسلامهم . . الحديث .

(١) أخرجه فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٣ - باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثانى - قال الرازى : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فلنناس فى وقت نزول هذه

السورة قولان :

أحدها - أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش

بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على

أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره ^(١) : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَرَآدُكَ إِلَى

مَعَادٍ) . وقوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع (إذا

جاء) و (إذا وقع) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه

خبر وجد مخبره بعد حين مطابق له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : ولأبى يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه

السورة فى أوسط أيام التشريق ، فى حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت فى حجة الوداع أيام

التشريق ، فكيف صدرت بـ (إذا) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف ما نقله . وعلى

تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح . لأن مجيء الناس أفواجا لم يكن كمل ، فبقية

الشرط مستقبل .

وقد أودود الطيبي السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدها - أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما فى قوله تعالى ^(٢) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً ..) الآية .

ثانيهما - أن كلام الله قديم . وفى كل من الجوابين نظرا لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث - قال الشهاب : المراد بـ (الناس) العرب . فـ (آل) عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [٢٨ / القصص / ٨٥] . (٢) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

المرفى . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع - روى البخارى ^(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماصلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً ^(٢) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى (يتأول القرآن) يحمل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، في أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم في (الهدى) كأنه أخذه من قوله تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُهُ) لأنه كان يحمل الاستغفار في خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المفاك ^(٣) : (ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ . . .) الآية .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ - حدثنا الحسن بن الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ - سورة النصر ، ٢ - حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٩] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١١ - سورة المسد

ويقال سورة أبي لهب ، مكية وآياتها خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[٢] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[٣] (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)

[٤] (وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

[٥] (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » أى خسرت يدها ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من الزوم فى الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة (وتب) مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسارته فيما كسبه وعمله بيديه ، حيث لم يفده ولم ينفعه . وما بعده عبارة عن خسارته فى نفسه وذاته ؛ لأن سعى المرء لإصلاح نفسه وعمله . فأخبر بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعنى هلاك عمله وهلاك نفسه . وقال ابن جرير^(١) : كان بمض أهل العربية يقول قوله : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) دعاء عليه من الله . وأما قوله : (وَتَبَّ) فإنه خبر . أى عما سيحقق له فى الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضى لتحققه .

وأبولهب أحد عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد المزى . وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولده له يقال له لب . أو لتلعب وجنتيه وإشراقهما . مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن ماله إلى نار ذات لب . فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الرواة : كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ . وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقصا له ولدعوته . ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها . بل أرسل عنه بديلا . فلما بلغه ما جرى لقريش مات غما - وقد روى الشيخان ^(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ^(٢) (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى : يا بني قهر ! يا بني عدى ! (لبطون من قريش) حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا ، لينظر ما هو . فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدق ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبألك سائر اليوم . ألهذا جمعتمنا ؟ فنزلت هذه السورة . وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ربيعة بن عباد الديلي قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : يا أيها الناس ! قولوا : لا إله إلا الله ، تفاحوا . والفاس مجتمعون عليه . ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . وفي رواية له : يتبعه من خلفه يقول : يا بني فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة . فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » أي أي شيء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه . فكسبه هو عمله الذي يظن أنه منه على شيء . وقيل : ولده . لقرن الأولاد بالأموال في كثير من الآيات . وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال ، ففنى إغناءها عنه حين حل به التباب .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١١ - سورة المسد ، - حدثنا

يوسف بن موسى ، حديث رقم ٧٣٩ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٥ (طبعنا) .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] . (٣) أخرجه بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الرابع .

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : معتب وعقبة
وهما أسما . وعتيبة (مضغراً) وهذا هو الذي دعا النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ،
ورد ابنته وطلقتها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .
فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان^(١) رضى الله عنه :

من يرجعُ العامَ إلى أهله فأُكِلَ السَّبعُ بالراجِعِ

ثم قال . ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبى : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه
كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراد « سَيَصْلِيْ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » أى توقد
واشتعال ، وهى نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاذمته « وَأُمِرْ أَنْتُمْ
حَمَلَةَ الْخَطِيئِ » أى وسيصلها معه امرأته أيضاً : ذ (امرأته) مرفوع عطفاً على الضمير
فى (سيصلى) أو على الابتداء ، و (فى جيدها) الخبر . وقرئ (حمالة) بالنصب على الشتم
والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلاً أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام
وتعشى بالنيمة . كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشري : ويقال للنساء بالنمائم المفسد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد
بينهم ويورث الشر ، قال^(٢) :

من البيض لم تُصْطَدْ على ظهر لَامة وَلَمْ تَعْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطْبِ الرَّطْبِ

يعدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تُصْطَادَ على سوء ولؤم فيها . ومن
أن عشى بالسماية والنيمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذى هو زيادة
الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

(١) لم أعر عليه فى ديوان حسان ، فى طبعتيه .

(٢) استشهد به فى الكشف فى تفسير السورة .

واستشهد به فى اللسان بالجلد الأول بالصفحة رقم ٣٢٢ (طبعة بيروت) .

وقال : يعنى بالحطب الرطب ، النيمة .

قال الشهاب : وهى استعارة مشهورة لطيفة ، كاستعارة حطب جهنم للأوزار .
قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها (أروى)
بنت حرب بن أمية . وهى أخت أبى سفيان وعمه معاوية . وكانت عوناً لزوجها على كفره
وجحوده وعناده « فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال الإمام رحمه الله : أى فى عنقها حبل
من الليف . أى أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران
العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن ، يشد به ما حمله إلى عنقه ،
حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل من
الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تحتنق به .

وقال أيضاً : قد أنزل الله فى ابن لهب وفى زوجته هذه السورة ، ليكون مثلاً يعتبر به من
يعادى ما أنزل الله على نبيه ، مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ،
واغتراراً بما عنده من الأموال ، وبما له من الصولة أو من المنزلة فى قلوب الرجال ، وأنه لا تغنى
عنه أمواله ولا أعماله شيئاً . وسيصلى ما يصلى . نسأل الله العافية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٢ - سورة الإخلاص

مكية ، وآيها أربع . روى البخاري^(١) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية . وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد) . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : سلوه لأى شيء يصنع ذلك . فسألوه . فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبّه .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . وأخرجه البخاري في قصة . وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي ابن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ! انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى هذه السورة .

- (١) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٥٩٦ .
- (٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء الرابع .
- (٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٠٨١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[٢] (اللَّهُ الصَّمَدُ)

[٣] (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

[٤] (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره ، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير « اللَّهُ أَحَدٌ » أى واحد فى الألوهية والربوبية . قال الزمخشري : (أَحَدٌ) بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : (الأحد) فى أسمائه تعالى ، الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله (وحد) لأنه من الوحدة . وفى (المصباح) : يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) فى موضعين سماعاً :

أحدهما - وصف اسم البارى تعالى فيقال هو الواحد وهو الأحد ، لاختصاصه بالأحادية . فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى . فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك .

والموضع الثانى - أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال . فيقال أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفى غير هذين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال ، بأن (الأحد) لثنى ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلا فى الجحد ، لما فيه من العموم ، نحو ما قام أحد . أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة) . و (الواحد) اسم لمفتتح العدد . ويستعمل فى الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال (جاءنى واحد من القوم) . انتهى .

وقال الأزهري : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثاني له . ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى ، لخصوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونسّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواء . فإن الوحدة تكون لكل واحد . تقول (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته . فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، وما يعتقدّه القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتي لابن تيمية كلام آخر في سر إثاره بالتفكير « اللَّهُ الصَّمَدُ » أي الذي يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في الرغائب . إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزالي في (المقصد الأسنى) . وهكذا قال ابن جرير^(١) : الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر^(٢) :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ بِمَمْرٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ السَّيِّدِ الصَّمَدِ
قال الشهاب : فهو (فعل) بمعنى مفعول . وصمد بمعنى قصد . فيتمدى بنفسه وباللام وإلى . وقال ابن تيمية رحمه الله : وفي الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما - أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني - أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٢٥٨ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :
 وإنما أدخل اللام في (الصمد) ولم يدخلها في (أحد) لأنه ليس في الموجودات ما يسمى
 أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف . ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما
 يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق . وأما اسم الصمد فقد استعمله
 أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل صمد بل قال (اللَّهُ الصَّمَدُ) فبين أنه المستحق
 لأن يكون هو الصمد دون ماسواه . فإنه المستوجب لغايته على السكال . والمخلوق ، وإن كان
 صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه . فإنه يقبل التفرق والتجزئة . وهو
 أيضاً محتاج إلى غيره . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه
 كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء ، إلا الله . وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق
 وينقسم وينفصل بفضه من بعض . والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من
 ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكماله وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من
 الوجوه ، كما لا يمكن ثنوية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود . وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل
 من استحقاق الألوهية . وتعمية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى . بين أولاً ألوهيته
 عز وجل المستتبعة لكافة نموت السكال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب
 بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها . ثم صمديته المقتضية لاستغفائه الذاتي
 عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق ،
 وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح . ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه «لَمْ يَلِدْ»
 تنصيهاً على إبطال زعم المقتزين في حق الملائكة والمسيح . ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي .
 أي لم يصدر عنه ولد ، لأنه لا يجانس شيء ليكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا .
 كما نطق به قوله تعالى ^(١) (أَنْتَ يَسْكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَصِيَّةً) ولا يفقر إلى

(١) [٦/ الأنعام / ١٠١] .

ما يمينه أو يخلفه ، لا ستحالة الحاجة والفناء عليه ، سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية . وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة ، كل أفرادها . سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلسكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض ؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القرية . وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى ^(١) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) وقال تعالى ^(٢) (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَهُ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى ^(٣) (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) والآيات في هذا كثيرة .

وقوله « وَلَمْ يُولَدْ » نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات . فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله (وَلَمْ يُولَدْ) يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابنا لله يكون إلها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله . بل لا يستحي الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بأم الإله القادرة ، فإن المولود حادث ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزل مع أبيه ، مما لا يمكن تعقله . فهو سبحانه منزّه عن ذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكُفُّوا أَعْدَاءُ » أى ولم يكن أحد يكافئه أى يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفو معناه المسكافى والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً . فقد نفي بهذه السورة

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٥١ ، ١٥٢] .

(٣) [١٦ / النحل / ٥٧] .

جميع أنواع الإشراك . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير^(١) : الكفو والسكنى والكفاء ، في كلام العرب ، واحد . وهو المثل والشبهة .
وقرىء (كُفُوا) بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واوا . وقرىء بتسكين الفاء وهمزها ، وهما قراءتان معروفتان ، واغتان مشهورتان . و (له) صلة (كُفُوا) قدمت عليه ، مع أن حقها التأخر عنه ، للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي الكفاة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل .

(فوائد من هذه السورة)

الأولى - قال الشهاب : فإن قلت الأمور بـ (قل) من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالمقول وحده ، فلم كانت (قُلْ) من المتلوة فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : الأمور به سواء كان معينا أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول . فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على مرّ الدهور .

الثانية - قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى (أَلَلَّهُ الصَّمَدُ) من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم ، كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما . قالوا : هو صمد ، والصمد الذي لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة . ولهذا قيل في تفسيره إنه الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع . ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع . وأما الفناء فقالوا : الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام . وقالوا أيضا : الأحد الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم هو جسم كان مركبا مؤلفا

(١) انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفقراً إليه ، وهو سبحانه صمد . والصمد الغنى عما سواه ، فالركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازى : قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً . فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا الغنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة . وتعالى الله عن ذلك . فإذاً يجب أن يحمل ذلك على مجازه . وذلك لأن الجسم الذى يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير . وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجبا لذاته ، متمتع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول : الصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولاً . وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثانى ولا لوازمه .

الثالثة - قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب تنزيهه عن أن يماثله شئ من المخلوقات . في شئ من صفات السكال الثابتة له . وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله . وهذه السورة دلت على النوعين . فقوله (أحد) من قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله (صمد) يتضمن جميع صفات السكال . فالتفائض جنسها منفي عن الله تعالى . وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك . فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعانى ، فإنه ثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه . بل ما خلقه الله في الجنة من المأكول والمشرب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمي الله نفسه علماً حليماً رؤوفاً رحيماً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً ، وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء . مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شئ من الأشياء .

الرابعة - قدمنا ما ورد في الحديث من أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .
وقد ذكروا في ذلك وجوهاً - منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام . ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات .
وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقال الغزالي في (جواهر القرآن) : مهمات القرآن هي معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة . والباقي توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع . وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفو .

قال : والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواء .
نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم . فلذلك تعدل ثلث القرآن أي ثلث الأصول من القرآن كما قال (الحج عرفة) أي هو الأصل . والباقي تبع .

وقال ابن القيم في (زاد المعاد) : كان النبي ﷺ يقرأ في سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص والكافرون . وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد . فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشراكة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه . ونفي الولد والوالد الذي هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته . ونفي الكفو المتضمن لنفي التشبيه والتثميل والتنظير : فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيهه أو مثل له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه . وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك . ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن . فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء . والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهي ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه - فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه

وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن . وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العلمى . كخلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العلمى الإرادى القصدى . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازلته ، كانت سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر . و (قُلْ يَسَاءُ مَا يَكْفُرُونَ) تعدل ربع القرآن ، وفى الترمذى ^(١) : من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يرفعه : (إِذَا زُلْزِلَتْ) تعدل نصف القرآن و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن و (قُلْ يَسَاءُ مَا يَكْفُرُونَ) تعدل أربع القرآن . رواه الحاكم فى المستدرک ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العلمى الإرادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لما لها فيه من نيل الأغراض . وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمى وإزالته . لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ماهو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه . فجاء من التأكيد والتكرار فى سورة (قُلْ يَسَاءُ مَا يَكْفُرُونَ) التضمنة لإزالة الشرك العلمى ما لم يجئ مثله فى سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

ولما كان القرآن شطرين : شطراً فى الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها . وشطراً فى الآخرة ومايقع فيها . وكانت سورة (إِذَا زُلْزِلَتْ) قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر فيها إلا الآخرة ، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن . فأخبر بهذا الحديث أن يكون صحيحاً . والله أعلم .

(١) أخرجه فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٠ - باب ما جاء فى إذا زلزلت .

الخامسة - قال ابن تيمية : سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة . ولا منافاة . فإن الله أنزلها بمكة أولاً . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى . وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك . فإيذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقاً . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب . وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم في مقدمة هذا التفسير ، ومواضع آخر منه ، تحقيق البحث في معنى سبب النزول ، بما يدفع المناقاة في أمثال هذا . فراجعهم . ولهذه السورة الشريفة تفاسير على حدة . من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما في تفسيرها ، والثاني في سر كونها تعدل ثلث القرآن . فاحتفظ بهما . والله الهادي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٣ - سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية ، وآيها خمس : روى الإمام مسلم^(١) عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال :
ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة ، لم ير مثلهن قط : قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الفاس .
وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ
صلى بهما في سفر .

(١) أخرجه في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

[٢] (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

[٣] (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

[٤] (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

[٥] (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » أى ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فَعَلَ بمعنى المفعول . كَفَصَّصَ بمعنى مقصوص . قال ابن تيمية : كل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بَانَ لك أن أكثره عن انفلاق . كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح . فإنه يقال : هذا أبيض من فلق الصبح وقرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله . وأما من قال إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته . لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي ﷺ ، ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كل ما انفلق أو رب النور الذى يظهره على العباد بالنهار . فإن في تخصيصه هذا بالذكر ، ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى .

وقوله تعالى « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم ، كأننا ما كان من ذوات الطباع والاختيار . وقوله سبحانه « وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » قال أبو السعود :

تخصيص لبعض الشرور بالذكر، مع اندراجہ فیما قبلہ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه، لكثرة وقوعه . ولأن تعین المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة ، وأدعى إلى الإعاذة . وقال الإمام ابن تیمیة : وإذا قيل الفلق نعم ويخص ، فبعمومه استعین من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النہاری استعین من شر غاسق إذا وقب . فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله (١) (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة . قالوا : ومعنى (وَقَبَ) دخل في كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل ليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذی (٢) والنسائي عن عائشة أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال : يا عائشة ! تعوذى بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب . وروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً : الغاسق النجم . وقال ابن زيد : هو الثريا . وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر ، ثم فسروا وقبه بسكونه . قال ابن قتيبة : ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسود . ومعنى وقب دخل في الكسوف . وهذا ضعيف . فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق . وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى (٣) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل . فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل وذليله وعلامته . والدليل مستلزم للمدلول . فإذا كان شر القمر موجوداً، فشر الليل موجود . وللقمر من التأثير ما ليس لغيره . فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى . ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى (٤) (هو

(١) [١٧ / الإمراء / ٧٨] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١٣ و ١١٤ سورة المودتين .

(٣) [١٧ / الإمراء / ١٢] . (٤) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ،

٩ - سورة التوبة ، ١٤ - حدثنا قتيبة ، عن أبي سعيد الخدري .

مسجدي) هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء^(١) (هؤلاء أهل بيتي) مع أن القرآن يتناول نساءه . فالتخصيص لكون الخصوص أولى بالوصف . فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن ، مالا تنتشر بالنهار . ويجرى فيه من أنواع الشر مالا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك . فالشر دائماً مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جعله الله لسكون الأدميين وراحتهم . لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار . ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته . وأبو معشر البلخي له (مصحف القمر) يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

ثم خص تعالى مخلوقات آخر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررها وعسر الاحتياط منها . فلا بد من الفرع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه « وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » قال ابن جرير^(٢) : أى ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل . فمن مجاهد : الرقي في عقد الخيط . وعن طاووس : ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين . ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشري : النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقن . والنفث النفخ مع ريق . ولاتأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثمَّ إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه ، أو مباشرة السحور به على بعض الوجوه . ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا ياتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٠ - باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه .

أحدها - أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ، ومن إغتهن في ذلك .

والثاني - أن يستعاذ من فتنهن الفاس بسحرهن وما يخذعنهم به من باطلهن .

الثالث - أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عقد نفهن . انتهى .

وفي الآية تأويل آخر . وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله . قال : النفقات النساء . والعقد

عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال . والنفت وهو تلين العقدة من الحبل برقيق

يقذفه عليه ليصير حبله سهلاً . فمعنى الآية : إن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال

يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة . فأمر الله رسوله

بالتعوذ من شرهن . كقوله ^(١) : (إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْدَاجِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ)

فكذلك عظم الله كيدهن فقال ^(٢) : (إِنْ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ) .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل في (التأويلات) عن أبي بكر الأصم أنه قال : إن حديث سحره

صلوات الله عليه ، الروى هنا ، متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة أنه مسحور . وهو

مخالف لنص القرآن حيث أ كذبهم الله فيه . ونقل الرازى عن القاضي أنه قال : هذه الرواية

باطلة . وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول ^(٣) : (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

وقال ^(٤) : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) ولأن تجوزة يفضى إلى القدح في النبوة .

ولأنه ، لو صح ذلك ، لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ،

ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل . ولأن الكفار يميرونه بأنه

مسحور . فلوقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة ، ولحصل فيه ، عليه

السلام ، ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٨] .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٧] . (٤) [٢٠ / طه / ٦٩] .

ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان مخرجاً في الصحاح . وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى . كما يعرفه الراسخون . على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

قال الإمام الغزالي في (المستصفى) : ما من أحد من الصحابة إلا وقد ردّ خبر الواحد . كردّ على رضى الله عنه خبر أبي سفيان الأشجعي في قصة (بروع بنت واشق) وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردّ عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت بيبكاء أهله عليه . وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث عن الرسول ﷺ . وأمثال ذلك مما ذكر . أورد ذلك الغزالي في مباحث (خبر الآحاد في شبه المخالفين فيه) . وذكر رحمه الله في (مباحث الإجماع) إجماع الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية في (المسودة) : الصواب أن من ردّ الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا . فإن هذا لا يكفر ولا يفسق . وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً ، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وقال العلامة الفناري في (فصول البدائع) : ولا يضل جاحد الآحاد . والمسألة معروفة في الأصول . وإنما توسعت في نقولها لأنّي رأيت من متعصبة أهل الرأي من أكبر ردّ خبر رواه مثل البخاري ، وضلل منكروه . فعلمت أن هذا من الجهل بفن الأصول ، لا بل بأصول مذهبه . كما رأيت عن الفناري . ثم قلت : المهد بأهل الرأي أن لا يقيموا للبخاري وزناً . وقد ردوا المثني من مروياته بالتأويل والنسخ . فتى صادقوه حتى يضلّوا من ردّ خبراً فيه؟؟ وقد برهن على مدعاه ، وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث في هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً . وقد أوسع المقال فيه شراح (الصحيح) وابن قتيبة في شرح (تأويل مختلف الحديث) والرازي . والحق لا يخفى على طالبه ، والله أعلم . «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» قال الزخشرى : أى إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بنى الفوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على من حسده . بل هو الضار لنفسه ، لا غنما به بسرور غيره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٤ - سُورَةُ النَّاسِ

مكية ، وهي ست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

[٢] (مَلِكِ النَّاسِ)

[٣] (إِلَهِ النَّاسِ)

[٤] (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

[٥] (الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ)

[٦] (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » أى الجأ إليه وأستمع به ، و (رب الناس) الذى يربهم بقدرته ومشيتته وتديره . وهو رب العالمين كلهم والخالق للجميع « مَلِكِ النَّاسِ » أى الذى ينفذ فيهم أمره وحكمه وقضاؤه ومشيتته دون غيره « إِلَهِ النَّاسِ » أى معبودهم الحق وملاذمهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذى هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها « مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أى الشيطان ذى الوسوسة . وقد زعم الزمخشري ومن تبعه ؛ أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير (ذى) . وحقق غير واحد أنه صفة كالترثار ، وأن فيلألا (مصدر فعل) بالكسر والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام فى ذلك الإمام ابن القيم فى (بدائع الفوائد) « الْخَنَّاسِ » أى الذى عادته أن يخنس - أى يتأخر - إذا ذكر الإنسان ربه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة . وكلما تنبه العبد فذكر الله ، خنس « الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ » أى بالإلقاء الخفى فى النفس . إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و (الوسوسة) من جنس (الوسوسة) بالشين المعجمة . يقال (فلان يوسوس فلانا) و (قد وشوشه) إذا حدثه سرّاً في أذنه . وكذلك الوسوسة . ومنه وسوسة الحلي . لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام : إنما جعل الوسوسة في الصدور ، على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال (إن الشك يحوك في صدره) وما الشك إلا في نفسه وعقله . وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

وقوله تعالى « مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » بيان للذي يوسوس ، على أنه ضربان : ضرب من الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم . وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان ، كما قال تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) . وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن . قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ) فالشر من الجهتين جميعاً . والإنس لهم شياطين كالأجن شياطين . وقال أيضاً : الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس . فليس من شرط الوسوسة أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

لطائف :

الأولى - قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم المستمعون . فيستمعون

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

بربهم الذى يصونهم ، وبملكهم الذى أمرهم ونهاهم وبإلههم الذى يعبدونه من شر الذى يحول بينهم وبين عبادته . ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذى يحصل فى نفوس منهم ومن الجنة . فإنه أصل الشر الذى يصدر منهم والذى يرد عليهم .

وقال الناصر : فى التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فإنه معه آتم .

الثانية - تكرير المضاف إليه وهو (الفاس) باللفظ الظاهر ، لمزيد الكشف والتقريب والتشريف بالإضافة . فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق له عطف البيان . وأدل على شرف الإنسان . وقيل : لا تكرار . لجواز أن يراد بالعام بعض أفراد . فـ (الفاس) الأول بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية . والثانى الكحول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم . والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمل .

الثالثة - فى تعداد الصفات العليا هنا ، إشارة إلى عظم المستعاذ منه . وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به فى السورة قبل ، وكرره هنا إظهاراً للاهتمام فى هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة - قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام . ولهذا قال المفسرون فى قوله (مَا تَوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ) قالوا : ما تحدث به نفسه . وقد قال عليه السلام ^(١) : إن الله تجاوز لأمتي ما تحدث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به . وهو نوعان : خبر وإنشاء . فالخبر إيمان ماض وإيمان مستقبل . فالماضى يذكره والمستقبل يحدثه ، بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره . فهذه الأمانى والمواعيد الكاذبة . والإنشاء أمر ونهى وإباحة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

الخامسة - قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة . فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود . وإن كان مما دل على أنه فجور ، فهو من الوسواس المذموم . وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشیطان ، فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه . وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فأنهها عنه .

السادسة - قال الإمام الغزالي في (الإحياء) في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن ومُطر من أعمال الصلاة ، مأمثاله : وإذا قلت (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك ومترصّد لصرف قلبك عن الله عز وجل ، حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل ، وسجودك له . مع أنه لمن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها . وإن استمادتك بالله سبحانه منه ، بترك ما يحبه ، وتبديله بما يحب الله عز وجل ، لا بمجرد قولك . فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقّته فقال (أعوذ منك بهذا الحصن الحصين) وهو ثابت على مكانه ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيد إلا بتبديل المسكان . فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يقنيه مجرد القول ، فليقرن قوله بالعزم على التعمود بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان . وحصنه (لا إله إلا الله) إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ - . لا إله إلا الله حصني . فمن دخل حصني أمن من عذابي . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه . فأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعمود ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعبد من ابتعاده بالفعل عما يتعمد منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لي من قبل أن أراه في كلام حجة الإسلام ، حتى رأيته ، فحمدت الله على الموافقة .

السابعة - قال الإمام الغزالي في (الإحياء) أيضا ، في بيان تسلط الشيطان على القلب

بالوسواس ، ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب في مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة ، فتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس . وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان . فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب . وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وسبب قوة من المزاج ، حصل منها في القلب أثر . وإن كفف عن الإحساس ، فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء . وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة في هذه الخواطر - وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار - وأعني به إدراكه علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر . فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر ببدن أن كان القلب غافلا عنها .

والخواطر هي الحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور النوى بالبال لا محالة . فبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو للشر ، أعني إلى ما يضر في العاقبة . وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعني الداعي إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة . ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب . هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فهما استنفارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم

سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستتارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان . فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً . وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً . واللفظ الذى يهيم به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً . والذى به يهيم لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً . فإن المعانى المختلفة تنمقر إلى أسامٍ مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفاضة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف . وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك . وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف ، عند الهمة بالخير ، بالفقر ، فالوسوسة فى مقابلة الإلهام . والشيطان فى القابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزالي : ولا ينجو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به . لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شيء أنعم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى ، وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان . وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وسواس الشيطان ذكر الله بالاستعانة والتبرؤ عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى . وإنما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) . ثم قال : فالوسوسة هى هذه الخواطر . والخواطر معلومة . فإذا ، الوسواس معلوم بالمشاهدة . وكل خاطر فله سبب . ويفتقر إلى اسم يعرفه . فاسم سببه الشيطان . ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي . وإنما يختلفون بعصيانهم ومتابعتهم . فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

وإلى هنا وقف القلم بالمؤلف رضى الله تعالى عنه . وبه تم كتاب (محاسن التأويل) والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فهارس التفسير

- ١ - فهرس محتويات أجزاء التفسير
- ٢ - فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة
- ٣ - فهرس موضوعات القرآن ، حسب صحيح البخاري
- ٤ - فهرس أسماء المؤلفين
- ٥ - فهرس أسماء الكتب التي تناولها التفسير

١ - فهرس محتويات أجزاء التفسير

الجزء	من صفحة	إلى صفحة	
١	١	٣٤٩	ويحتوى على المقدمة المشتملة على قواعد التفسير
٢	٣	٣٤٠	ويحتوى على تفسير ١ - سورة فاتحة الكتاب ، ثم تفسير
			٢ - سورة البقرة، من أولها إلى الآية رقم ١٥٧
٣	٣٤٣	٧٤٢	ويبتدى بتفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة، وينتهى بتفسير آخر آياتها
٤	٧٤٩	١٠٨٥	وفيه تفسير ٣ - سورة آل عمران بتمامها
٥	١٠٩٢	١٧٨٠	» » ٤ - سورة النساء بتمامها
٦	١٧٨٨	٢٥٩٨	» » ٥ - سورة المائدة و ٦ - سورة الأنعام
٧	٢٦٠٩	٢٩٤٠	» » ٧ - سورة الأعراف
٨	٢٩٤٤	٣٣٠٦	» » ٨ - سورة الأتقال و ٩ - سورة التوبة
٩	٣٣٢١	٣٦٩٤	» » ١٠ - سورة يونس و ١١ - سورة هود و ١٢ - سورة يوسف و ١٣ - سورة الرعد
١٠	٣٧٠٤	٤٠١٢	» » ١٤ - سورة إبراهيم و ١٥ - سورة الحجر
			و ١٦ - سورة النحل و ١٧ - سورة الإسراء
١١	٤٠٢٠	٤٣١٦	» » ١٨ - سورة الكهف و ١٩ - سورة مريم
			و ٢٠ - سورة طه و ٢١ - سورة الأنبياء
١٢	٤٣٢٠	٤٦٠٠	» » ٢٢ - سورة الحج و ٢٣ - سورة المؤمنون
			و ٢٤ - سورة النور و ٢٥ - سورة الفرقان
١٣	٤٦٠٤	٤٩٣٠	ويبتدى بتفسير ٢٦ - الشعراء، وينتهى بتفسير ٣٣ - الأحزاب
١٤	٤٩٣٦	٥٣٣٠	» » ٣٤ - سبأ، وينتهى بتفسير ٤٥ - الجاثية
١٥	٥٢٣٦	٥٦٣٨	» » ٤٦ - الأحقاف، وينتهى بتفسير ٥٥ - الرحمن
١٦	٥٦٤٤	٦٠٠١	» » ٥٦ - الواقعة، وينتهى بتفسير ٧٥ - القيامة
١٧	٦٠٠٨	٦٣١٦	» » ٧٦ - الإنسان، وينتهى بتفسير ١١٤ - الناس

٢ - فهرس سور القرآن الكريم

وموضع تفسير كل سورة

رقم الجزء	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم مسلسل	رقم الجزء	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم مسلسل
١١	٤٢٤٣	الأنبياء	٢١	٢	٣	الفاتحة	١
١٢	٤٣٢٠	الحج	٢٢	٢	٣١	البقرة	٢
١٢	٤٣٨٦	المؤمنون	٢٣	٤	٧٤٨	آل عمران	٣
١٢	٤٤٢٣	النور	٢٤	٥	١٠٩٢	النساء	٤
١٢	٤٥٦١	الفرقان	٢٥	٦	١٧٨٨	المائدة	٥
١٣	٤٦٠٣	الشعراء	٢٦	٦	٢٢٣٠	الأنعام	٦
١٣	٤٦٥٥	النمل	٢٧	٧	٢٦٠٨	الأعراف	٧
١٣	٤٦٩٤	القصص	٢٨	٨	٢٩٤٤	الأنفال	٨
١٣	٤٧٣٥	العنكبوت	٢٩	٨	٣٠٦٠	التوبة	٩
١٣	٥٧٦٤	الروم	٣٠	٩	٣٣٢٠	يونس	١٠
١٣	٤٧٩٢	لقمان	٣١	٩	٣٤٠٧	هود	١١
١٣	٤٨٠٩	السجدة	٣٢	٩	٣٥٠١	يوسف	١٢
١٣	٤٨٢١	الأحزاب	٣٣	٩	٣٦٣٧	الرعد	١٣
١٤	٤٩٣٦	سبا	٣٤	١٠	٣٧٠٤	إبراهيم	١٤
١٤	٤٩٧١	فاطر	٣٥	١٠	٣٧٤٥	الحجر	١٥
١٤	٤٩٩٠	يس	٣٦	١٠	٣٧٧٦	الزحل	١٦
١٤	٥٠٢٤	الصفات	٣٧	١٠	٣٨٨٢	الإسراء	١٧
١٤	٥٠٧٥	ص	٣٨	١١	٤٠٢٠	الكهف	١٨
١٤	٥١٢٦	الزمر	٣٩	١١	٤١٢٤	مريم	١٩
١٤	٥١٥٤	غافر	٤٠	١١	٤١٦٨	طه	٢٠

٢ - فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة (تابع)

رقم مسلسل	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الجزء	رقم مسلسل	اسم السورة	رقم الصفحة	رقم الجزء
٤١	فصلت	٥١٨٥	١٤	٦٤	التغابن	٥٨١٧	١٦
٤٢	الشورى	٥٢١٩	١٤	٦٥	الطلاق	٥٨٢٨	١٦
٤٣	الزخرف	٥٢٥٧	١٤	٦٦	التحريم	٥٨٥١	١٦
٤٤	الدخان	٥٢٩٢	١٤	٦٧	الملك	٥٨٧٤	١٦
٤٥	الجاثية	٥٣١٧	١٤	٦٨	ن	٥٨٩١	١٦
٤٦	الأحقاف	٥٣٣٦	١٥	٦٩	الحاقة	٥٩١٠	١٦
٤٧	محمد ﷺ	٥٣٧١	١٥	٧٠	المعارج	٥٩٢٣	١٦
٤٨	الفتح	٥٣٩٤	١٥	٧١	نوح	٥٩٣٢	١٦
٤٩	الأحقاف	٥٤٣٧	١٥	٧٢	الجن	٥٩٤٢	١٦
٥٠	ق	٥٤٨٠	١٥	٧٣	المزمل	٥٩٥٧	١٦
٥١	الذاريات	٥٥١٩	١٥	٧٤	المدثر	٥٩٦٨	١٦
٥٢	الطور	٥٥٤٠	١٥	٧٥	القيامة	٥٩٨٧	١٦
٥٣	النجم	٥٥٥٣	١٥	٧٦	الإنسان	٦٠٠٨	١٧
٥٤	القمر	٥٥٩١	١٥	٧٧	المرسلات	٦٠١٩	١٧
٥٥	الرحمن	٥٦١٠	١٥	٧٨	النبأ	٦٠٣٠	١٧
٥٦	الواقعة	٥٦٤٤	١٦	٧٩	النازعات	٦٠٤٢	١٧
٥٧	الحديد	٥٦٧٠	١٦	٨٠	عبس	٦٠٥٥	١٧
٥٨	المجادلة	٥٧٠٤	١٦	٨١	التكوير	٦٠٦٧	١٧
٥٩	الحشر	٥٧٣٣	١٦	٨٢	الانقطار	٦٠٨٣	١٧
٦٠	المتحنة	٥٧٥٧	١٦	٨٣	المطففين	٦٠٩١	١٧
٦١	الصف	٥٧٨٠	١٦	٨٤	الانشقاق	٦١٠٥	١٧
٦٢	الجمعة	٥٧٩٦	١٦	٨٥	البروج	٦١١٢	١٧
٦٣	المنافقون	٥٨٠٦	١٦	٨٦	الطارق	٦١٢١	١٧

(تابع) ٢ - فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة

رقم الجزء	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم مسلسل	رقم الجزء	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم مسلسل
١٧	٦٢٤٢	القارعة	١٠١	١٧	٦١٢٨	الأعلى	٨٧
١٧	٦٢٤٦	التكاثر	١٠٢	١٧	٦١٣٧	الفاشية	٨٨
١٧	٦٢٤٩	العصر	١٠٣	١٧	٦١٤٤	الفجر	٨٩
١٧	٦٢٥٤	الهمزة	١٠٤	١٧	٦١٥٩	البلد	٩٠
١٧	٦٢٥٩	الفيل	١٠٥	١٧	٦١٦٧	الشمس	٩١
١٧	٦٢٦٩	قريش	١٠٦	١٧	٦١٧٤	الليل	٩٢
١٧	٦٢٧٣	الماعون	١٠٧	١٧	٦١٨١	الضحى	٩٣
١٧	٦٢٧٧	الكوثر	١٠٨	١٧	٦١٨٩	الشرح	٩٤
١٧	٦٢٨١	الكافرون	١٠٩	١٧	٦١٩٥	التين	٩٥
١٧	٦٢٨٥	النصر	١١٠	١٧	٦٢٠٦	العلق	٩٦
١٧	٦٢٩٠	المسد	١١١	١٧	٦٢١٩	القدر	٩٧
١٧	٦٢٩٤	الإخلاص	١١٢	١٧	٦٢٢٥	البينة	٩٨
١٧	٦٣٠٤	الفلق	١١٣	١٧	٦٢٣٢	الزلزلة	٩٩
١٧	٦٣١٠	الناس	١١٤	١٧	٦٢٣٧	العاديات	١٠٠

٣ - فهرس موضوعات القرآن ، حسب صحيح البخارى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رقم الجزء والصفحة

رقم السورة والآية

١ - كتاب الوحي

١ - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

١٧٢٢/٥ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده

٤/١٦٣

٣ - حدثنا يحيى بن بكير

١٧/٦٢٠٦ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم ١/٩٦-٣

١/٧٤

١٦/٥٩٦٠ يا أيها المدثر * قم فأنذر

٤ - حدثنا موسى بن إسماعيل

١٦/٥٩٩١ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه

١٦/٧٥

٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع

٤/٨٦١ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد

٣/٦٤

إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله

فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

٢ - كتاب الإيمان

١ - باب الإيمان

٤/٤٨

١٥/٥٣٩٩ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم

١٣/١٨

١١/٤٠٢٧ وزدناهم هدى

٧٦/١٩

١١/٤١٦٠ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٥٣٨١/١٥	والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ١٧/٤٧
٥٩٧٩/١٦	وزداد الذين آمنوا إيماناً ٣١/٧٤
٣٣٠٢/ ٨	أيكم زادته هذه إيماناً ١٢٤/ ٩
٣٣٠٢/ ٨	فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ١٢٤/ ٩
١٠٣٩/ ٤	فاخشوهم فزادهم إيماناً ١٧٣/ ٣
٤٨٣٧/١٣	وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ٢٢/٣٣
٦٧١/ ٣	ولكن ليطمئن قلبي ٢٦٠/ ٢
٥٢٣١/١٤	شرع لكم من الدين ١٣/٤٢
٢٠١٥/ ٦	شرعة ومنهاجا ٤٨/ ٥

٣ - باب أمور الإيمان

٣٨٧/ ٣	ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر ١٧٧/ ٢
٤٣٨٧/١٢	قد أفلح المؤمنون ١/٢٣
١٣ -	باب قول النبي ﷺ أنا أعلمكم بالله
٥٧٧/ ٣	ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ٢٢٥/ ٢
١٧ -	باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم
٣٠٧٢/ ٨	فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ٥/ ٩
١٨ -	باب من قال إن الإيمان هو العمل
٢٦٨٩/ ٧	وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ٤٣/ ٧
٣٧٧٠/١٠	فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ٩٢/١٥
٥٠٣٩/١٤	لمثل هذا فليعمل العاملون ٦١/٣٧
١٩ -	باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل
٥٤٧١/١٥	قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ١٤/٤٩

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٤ / ٨٩٦	٣ / ١٩
٤ / ١٥٦٣	٢٢ - باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها ، إلا بالشرك
٥ / ١٥٦٣	٤ / ١١٦
٦ / ٢٣٨٧	٢٣ - باب ظلم دون ظلم
١٣ / ٤٧٩٧	٦ / ٨٢
٢ / ٢٨١	٣١ / ١٣
٢ / ٢٨١	٣٠ - باب الصلاة من الايمان
١١ / ٤٠٢٧	٢ / ١٤٣
١٦ / ٥٩٧٩	٣٣ - باب زيادة الايمان ونقصانه
٦ / ١٨١١	١٨ / ١٣
١٧ / ٦٢٢٦	٧٤ / ٣١
١٣ / ٤٨٠٨	٥ / ٣
٤١ - ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة	٣٤ / ٣١
١٠ / ٣٩٨١	١٧ / ٨٤
٨ / ٣٢٣١	٩ / ٩١

٣ - كتاب العلم

١ - باب فضل العلم

- ١٦ / ٥٧١٨ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات
١١ / ٤٢١٢ رب زدنى علما
٢٠ / ١١٤

١٠ - باب العلم قبل القول والعمل

- ١٥ / ٥٣٨٣ فاعلم أنه لا إله إلا الله
١٤ / ٤٩٨٣ إنما يخشى الله من عباده العلماء
١٣ / ٤٧٥٠ وما يعقلها إلا العالمون
١٦ / ٥٨٨١ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير
١٤ / ٥١٣٠ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون
٣٩ / ٩

١٦ - باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر

- ١١ / ٤٠٧٨ هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا
١٤ / ٤٠٧٧ أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت
١١ / ٤٠٧٨ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا
١٨ / ٦٦
١٨ / ٦٣
١٨ / ٦٤

٣٥ - باب من سمع شيئا فراجع حتى يعرفه

- ١٧ / ٦١٠٧ فسوف يحاسب حسابا يسيرا
٨٤ / ٨

٤٢ - باب حفظ العلم

- ٣ / ٣٥١ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات

٤٤ - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أى الناس أعلم فيكمل العلم إلى الله

- ١١ / ٤٠٧٧ آتانا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا
١١ / ٤٠٧٨ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا
١١ / ٤٠٧٨ هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا
١٨ / ٦٢
١٨ / ٦٤
١٨ / ٦٦

رقم السورة والآية

رقم الجزء والصفحة

- ٤٠٧٩/١١ ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ٦٩/١٨
 ٤٠٨٠/١١ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ٧٢/١٨
 ٤٠٨١/١١ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ٧٤/١٨
 ٤٠٨٢/١١ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ٧٧/١٨
 ٤٠٨٢/١١ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ٧٧/١٨
 ٤٧ - باب قول الله تعالى : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

٣٩٨١/١٠ ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ٨٥/١٧

٤ - كتاب الوضوء

- ١ - باب ما جاء فى الوضوء وقول الله تعالى : إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم .
 ١٨٧٦/ ٦ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ٦/ ٥
 ٥ - باب التخفيف فى الوضوء
 ٥٠٤٩/١٤ إني أرى فى المنام أنى أذبحك ١٠٢/٣٧
 ٣٣ - باب الماء الذى يغسل به شعر الإنسان

١٢٤٣/ ٥ فلم تجدوا ماء فتيمموا ٤٣/ ٤
 ١٨٧٦/ ٦ ٦/ ٥

٥ - كتاب الغسل

- ١٨٧٦/ ٦ وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ٦/ ٥
 ١٢٤٣/ ٥ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ٤٣/ ٤

٦ - كتاب الحيض

٥٦٣/ ٣ ويستلونك عن الحيض قل هو أذى ٢٢٢/ ٢

رقم الجزء والصفحة

رقم السورة والآية

٧ - باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت

١٢١ / ٦

٢٤٨٢ / ٦ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه

٢٤ - باب إذا حاضت في شهر ثلاث حيض

٢٢٨ / ٢

٥٨١ / ٣ ولا يحل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن

٧ - كتاب التيمم

٤٣ / ٤ }
٦ / ٥ }

١٢٤٣ / ٥ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا
١٨٧٦ / ٦

٧ - باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت

١٢٠٢ / ٥ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما

٨ - كتاب الصلاة

٢ - باب وجوب الصلاة في الثياب

٣١ / ٧

٢٦٥٧ / ٧ خذوا زينتكم عند كل مسجد

٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان

١٤٢ / ٢

٣٠٠ / ٢ قد نرى تقلب وجهك في السماء

١٤٢ / ٢

٢٧٩ / ٢ ما ولائم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب

يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

٣٢ - باب ما جاء في القبلة

١٢٥ / ٢

٢٤٦ / ٢ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى

٦٣ - باب التعاون في بناء المساجد

٣٠٨٥ / ٨ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ٩ / ١٧

٩ - كتاب مواقيت الصلاة

١ - باب مواقيت الصلاة وفضلها

٥ / ١٥١٨ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ٤ / ١٠٣

٢ - باب منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة

١٣ / ٤٧٧٨ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ٣٠ / ٣٩

٤ - باب الصلاة كفارة

٩ / ٣٤٩١ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ١١ / ١١٤

٢٦ - باب فضل صلاة الفجر

١١ / ٤٢٣٤ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ٢٠ / ١٣٠

١٠ - كتاب الأذان

١ - باب بدء الأذان

٦ / ٢٠٤٦ وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتخذوها هزا ولعبا ٥ / ٥٨

٣١ - باب فضل الصلاة في جماعة

١٠ / ٣٩٥٩ إن قرآن الفجر كان مشهودا ١٧ / ٧٨

١٠٥ - باب الجهر بقراءة صلاة الفجر

١٣ / ٤٨٣٦ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ٣٣ / ٢٩

١١ - كتاب الجمعة

١ - باب فرض الجمعة

١٦ / ٥٨٠١ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ٢٢ / ٩

١٨ - باب المشي إلى الجمعة

١٠ / ٣٩٩٦ وسمى لها سعيها ١٧ / ١٩

٣٨ - باب إذا نقر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة

١١/٦٢

٥٨٠٢/١٦ وإذا رأوا تجارة أو لهمو انقضوا إليها وتركوك قائماً

١٢ - كتاب صلاة الخوف

١ - باب صلاة الخوف

٥/١٥٠١ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ٤/١٠١

إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا

١٣ - كتاب العيدين

١١ - باب فضل العمل في أيام التشريق

٢٨/٢٢

٤٣٣٤/١٢ ويذكروا الله في أيام معلومات

١٩ - باب موعظة النساء يوم العيد

١٢/٦٠

٥٧٧٤/١٦ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك

١٥ - كتاب الاستسقاء

٢ - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف

١٠/٤٤

٥٢٩٥/١٤ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين

١٦ - كتاب الكسوف

٢٩ - باب لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله

٤٨٠٨/١٣ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ٣١/٣٤

١٧ - كتاب سجود القرآن

١١ - باب من قرأ السجدة في الصلاة فسجد لها

١/٨٤

٦٢٠٦/١٧ إذا السماء انشقت

١٩ - كتاب التهجيد

١ - باب التهجيد بالليل

٣٩٦٨/١٠ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ٧٩/١٧

١١ - باب قيام النبي ﷺ بالليل ونومه وما نسخ من قيام الليل

٥٩٥٨/١٦ يا أيها الزمّل قم الليل إلا قليلا ١/٧٣

٢٣ - كتاب الجنائز

٥٧ - باب سنة الصلاة على الجنائز

٣٢٢٣/٨ ولا تصلّ على أحد منهم ٨٤/٩

٨٤ - باب ما يكره من الصلاة على المنافقين ، والاستغفار للمشرّكين

٣٢٢٣/٨ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ٨٤/٩

٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر

٢٤١٥/٦ إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ٩٣/٦

٣٢٤٤/٨ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ١٠١/٩

٥١٧٠/١٤ وحقّ بألّ فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ٤٥/٤٠

٣٧٢٨/١٠ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ٢٧/١٤

٢٤ - كتاب الزكاة

٦ - باب الرياء في الصدقة

٦٧٩ / ٣ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ٢٦٤/٢

٧ - باب لا يقبل الله صدقة من غلول

٧١٠ / ٣ ويربّي الصدقات والله لا يحبّ كل كفار أثيم ٢٧٦/٢

١٠ - باب اتقوا النار ولو بشقّ تمرّة

٦٨٠ / ٣ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ٢٦٥/٢

- ١١ - باب أى الصدقة أفضل
 ٥٨١٥/١٦ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ١٠/٦٣
 ٦٥٦/٣ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ٢/٢٥٤
 ١٢ - باب صدقة العلانية
 ٦٩٣/٣ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ٢/٢٧٤
 ٢٧ - باب قول الله تعالى : فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى
 ٦١٧٥/١٧ فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى ٦/٩٢
 ٢٩ - باب صدقة الكسب والتجارة
 ٦٨٣/٣ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ٢/٢٦٧
 ٤٤ - باب الزكاة على الأقارب
 ٨٨٩/٤ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ٣/٩٢
 ٢٥ - كتاب الحج
 ١ - باب وجوب الحج وفضله
 ٨٩٥/٤ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ٣/٩٧
 ٤٢ - باب فضل مكة وبنائها
 ٢٤٦/٢ وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ٢/١٢٥
 ٤٣ - باب فضل الحرم
 ٤٦٩٢/١٣ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرما ٢٧/٩١
 ٤٧١٥/١٣ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء ٢٨/٥٧
 ٤٤ - باب توريث دور مكة وبيعتها وشرائها
 ٤٣٣٣/١٢ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ٢٢/٢٥
 ٣٠٤٤/٨ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ٨/٧٢

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٤٦ - باب قول الله تعالى : وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً	٣٧٣٢/١٠
رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام	٣٥/١٤
٤٧ - باب قول الله تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام	٢١٦١/ ٦
جعل الله الكعبة البيت الحرام	٩٧/ ٥
٧٩ - باب وجوب السعى بين الصفا والمروة	٣٤٣/ ٣
إن الصفا والمروة من شعائر الله	١٥٨/ ٢
١٠٣ - باب ركوب البدن	٤٣٤٣/١٢
والبدن جعلناها لكم من شعائر الله	٣٦/٢٢
١٢٣ - باب وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت	٤٣٣٤/١٢
وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت	٢٦/٢٢
٢٦ - كتاب العمرة	
١ - باب وجوب العمرة وفضلها	٤٨٣/ ٣
وأتوا الحج والعمرة لله	١٩٦/ ٢
١٠ - حدثنا أبو نعيم	٣٤٣/ ٣
إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح	١٥٨/ ٢
عليه أن يطوف بهما	
٢٧ - كتاب المحصر وجزاء الصيد	
١ - باب المحصر وجزاء الصيد	٤٨٣/ ٣
فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ	١٩٦/ ٢
الهدى محله	
٥ - باب قول الله تعالى : فمن كان منكم مريضاً أو به أذى	٤٨٣/ ٣
فمن كان منكم مريضاً أو به أذى	١٩٦/ ٢

- ٩ - باب قول الله تعالى: فلا رفث
٣ / ٤٩٢ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج
٢ / ١٩٧
- ٢٨ - كتاب جزاء الصيد
١ - باب جزاء الصيد ونحوه
٥ / ٩٥
- ٣٠ - كتاب الصوم
١ - باب وجوب صوم رمضان
٣ / ٤١٤ يأياها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم
١٥ - باب قول الله جل ذكره: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم
٣ / ٤٥٠ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم
٢ / ١٨٧
- ١٦ - باب قول الله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض
٣ / ٤٥٠ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود
٢ / ١٨٧
- ٤٨ - باب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام
٣ / ٤٥٠ ثم أتموا الصيام إلى الليل
٢ / ١٨٧
- ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر
١ - باب فضل ليلة القدر
١٧ / ٦٢١٩ إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر
٩٧ / ٢٠١
- ٣٣ - كتاب الاعتكاف
١ - باب الاعتكاف في العشر الأواخر
٢ / ١٨٧
- ٣ / ٤٥٠ ولا تبأثروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد

٣٤ - كتاب البيوع

- ٧٠٠/٣ وأحل الله البيع وحرم الربا ٢٧٥/٢
- ٧١٩/٣ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ٢٨٢/٢
- ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض
- ٥٨٠١/١٦ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ١٠/٦٢
- ٥٨٠٢/١٦ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انتفضوا إليها وتركوك قائماً ١١/٦٢
- ٤٦٥/٣ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ١٨٨/٢
- ٧١٩/٣ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ٢٨٢/٢
- ١١ - باب
- ٤٥٢٩/١٢ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ٣٧/٢٤
- ٢٤ - باب آكل الربا وشاهده وكتبه
- ٧٠٠/٣ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من اللس ٢٧٥/٢
- ٢٥ - باب موكل الربا
- ٧١٣/٣ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ٢٧٨/٢
- ٢٦ - باب
- ٧١٠/٣ يمحى الله الربا ويربى الصدقات ٢٧٦/٢
- ٢٩ - باب ذكر القين والحداد
- ٤١٦٠/١١ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ٧٧/١٩
- ٥١ - باب الكيل على البائع
- ٦٠٩٢/١٧ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ٣/٨٣
- ١٠٠ - باب شراء المملوك من الحربى وهبته وعتقه
- ٣٨٣١/١٠ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم ٧١/١٦

٣٧ - كتاب الإجارة

٤٧٠٢/١٣ إن خير من استأجرت القوى الأمين ٢٦/٢٨

٢٠ - باب كسب البغى

٤٥١٩/١٢ ولا تسكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ٣٣/٢٤

٣٩ - كتاب الكفالة

٢ - باب

١٢١٠/٥ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصابهم ٣٣/٤

٤١ - كتاب الحرث والمزارعة

١ - باب فضل الزرع والفرس

٥٦٥٦/١٦ أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٦٣/٥٦

٤٢ - كتاب المساقاة

٤٢٦٦/١١ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ٣٠/٢١

٥٦٥٧/١٦ أفرايتم الماء الذى تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٦٩/٥٦

٤٣ - كتاب الاستقراض وأداء الديون

٣ - باب أداء الديون

١٣٣٠/٥ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ٨٥/٤

١٩ - باب ما ينهى عن إضاعة المال

٥٠٨/٣ والله لا يحب الفساد ٢٠٥/٢

٣٣٨٥/٩ لا يصلح عمل المفسدين ٨١/١٠

٣٤٧٨/٩ أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن تفعل فى أموالنا ما نشاء ٨٧/١١

١١٢٤/٥ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ٥/٤

٤٦ - كتاب المظالم

٣٧٣٦/١٠ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص

فيه الأبصار

٣٧٣٧/١٠ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا

إلى أجل قريب

٢ - باب

٣٤٢٤/ ٩ ألا لعنة الله على الظالمين ١٨/١١

٦ - باب الانتصار من الظالم

١٦٢٦/ ٥ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ١٤٨/ ٤

٥٢٤٩/١٤ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ٣٩/٤٢

٧ - باب عفو المظلوم

١٦٣٠/ ٥ إن تبدوا خيرا أو تحفوه أو تغفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ١٤٩/ ٤

٥٢٥٠/١٤ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب

الظالمين

٥٢٥٢/١٤ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ٤٤/٤٢

١٥ - باب

٥٠٨/ ٣ وهو آلة الخصاص ٢٠٤/ ٢

٤٨ - كتاب الرهن

٧٢٣/ ٣ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ٢٨٣/ ٢

٤٩ - كتاب العتق

٦١٦٢/١٧ فك رقبة * أو إطعام في يوم ذى مسغبة * يتيا ذا مقربة ١٥ - ١٣/٩٠

- ١٣ - باب من ملك من العرب رقيقا
٣٨٣٤/١٠ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء
٧٥/١٦
١٥ - باب قول النبي ﷺ : العبيد إخوانكم
١٢٢٦/ ٥ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا . . وما ملكت ٤ ٣٦/
أيمانكم
١٧ - باب كراهة التناول على الرقيق
٤٥١٦/١٢ والصالحين من عبادكم وإمائكم
٣٢/٢٤
٣٨٣٤/١٠ عبدا مملوكا
٧٥/١٦
٣٥٣١/ ٩ وألفيا سيدها لدى الباب
٢٥/١٢
١١٩٤/ ٥ من فتياتكم المؤمنات
٢٥/٤

٥٠ - كتاب المكاتب

- ١ - باب المكاتب ونجومه في كل سنة
٤٥١٩/١٢ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت إيمانكم فكتبوهم
٣٣/٢٤

٥١ - كتاب الهبة

- ١٥ - باب هبة المرأة لغير زوجها
١١٢٤/ ٥ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم
٥/ ٤
٢٩ - باب الهدية للمشركين
٥٧٦٨/١٦ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم
٨/٦٠ أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم
٣٢ - باب ما قيل في العمرى
٣٤٦١/ ٩ استعمركم فيها
٦١/١١

٥٢ - كتاب الشهادات

١ - باب ما جاء في البينة على المدعي

- ٣ / ٧١٩ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ٢ / ٢٨٢
 ٥ / ١٦٠٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ٤ / ١٣٥
 ٥ - باب الشهداء عدول

- ١٦ / ٥٨٣٦ وأشهدوا ذوي عدل منكم ٢ / ٢٦٥
 ٣ / ٧١٩ ممن ترضون من الشهداء ٢ / ٢٨٢

٨ - شهادة القاذف والسارق والزاني

- ١٢ / ٤٤٤٨ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ٤ / ٢٤٤
 ١٠ - باب ما قيل في شهادة الزور
 ١٢ / ٤٥٩٨ والذين لا يشهدون الزور ٢٥ / ٧٢

١٢ - باب شهادة النساء

- ٣ / ٧١٩ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ٢ / ٢٨٢
 ١٨ - باب بلوغ الصبيان وشهادتهم
 ١٢ / ٤٥٤٨ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا ٢٤ / ٥٩
 ٣٠ - باب القرعة في المشكلات
 ٤ / ٨٤٢ إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ٣ / ٤٤

٥٣ - كتاب الصلح

١ - باب ما جاء في الإصلاح بين الناس

- ٥ / ١٥٤٢ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح ٤ / ١١٤
 بين الناس

٤ - باب

- ٥ / ١٧٩٣ أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ٤ / ١٢٨

٥٥ - كتاب الوصايا

١ - باب الوصايا

- ٢ / ٤٠٦ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً
٢ / ١٨٠ باب ٨
- ٥ / ١١٣٨ من بعد وصية يوصى بها أو دين
٤ / ١١ باب ٩
- ٥ / ١١٤٥ من بعد وصية يوصون بها أو دين
٤ / ١٢ باب ١٨
- ٥ / ١١٣١ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين
٤ / ٨ باب ٢١
- ٥ / ١١٠٠ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب
٤ / ٢ باب ٢٢
- ٥ / ١١٢٦ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح
٤ / ٦ باب ٢٣
- ٥ / ١١٣٦ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً
٤ / ١٠ باب ٢٤
- ٣ / ٥٥٥ ويستألفونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير
٢ / ٢٢٠ باب ٣٥
- ٦ / ٢١٩٤ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ٥ / ١٠٦
اثنتان ذوا عدل منكم

٥٦ - كتاب الجهاد

١ - باب فضل الجهاد والسير

- ٨ / ٣٢٧٢ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
٩ / ١١١

- ٢ - باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله
٥٧٩٢/١٦ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم
١٠/٦١ ٦ - باب الحور العين وصفتهن
٥٤/٤٤ { ٥٣١٥/١٤ وزوجناهم بحور عين
٢٠/٥٢ { ٥٥٤٤/١٥
٨ - باب فضل من يصرع في سبيل الله فاته فهو منهم
١٤٩٥/٥ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت
١٠٠/٤ ١١ - باب
٥٢/٩ ٨ ٣١٧٣/ هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين
١٢ - باب
٢٣/٣٣ ١٣ ٤٨٣٧/ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
١٣ - باب عمل صالح قبل القتال
٢/٦١ ١٦ ٥٧٨١/ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون
١٦ - باب من اغترب قدما في سبيل الله
١٢٠/٩ ٨ ٣٢٩٥/ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن
رسول الله
١٩ - باب
١٦٩/٣ ٤ ١٠٣٢/ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا
٣١ - باب
٩٥/٤ ٥ ١٤٨١/ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر
٣٣ - باب التحريض على القتال
٨٤/٤ { ١٤١٥/٥ حرص المؤمنين على القتال
٦٥/٨ { ٣٠٣٢/٨

- ٤٥ - باب من احتبس فرسا ٨ / ٣٠٣٢ ومن رباط الخيل
٦٠ / ٨
٤٨ - باب الخيل لثلاثة ١٠ / ٣٧٨٠ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة
٨ / ١٦
٧٣ - باب فضل رباط يوم في سبيل الله ٣ / ١٠٨٠ يا أيها الذين آمنوا اصبروا
٢٠٠ / ٣
٧٨ - باب التحريض على الرمي ٨ / ٣٠٢٤ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
٦٠ / ٨
١٠٢ - باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام ٤ / ٨٧٣ ما كان لبشر أن يؤتيه الله
٧٩ / ٣
١١٠ - باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ١٥ / ٥٤١٦ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة
١٨ / ٤٨
١١٢ - باب استئذان الرجل الإمام ١٢ / ٤٥٥٦ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع ٢٤ / ٦٢
١٢٣ - باب حمل الزاد في النزو ٣ / ٤٩٢ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى
١٩٧ / ٢
١٤١ - باب الجاسوس ١٦ / ٥٧٥٨ لا تتخذوا عدوئى وعدوكم أولياء
١ / ٦٠
١٨٩ - باب القلول ٤ / ١٠٢٤ ومن يقلل يأت بما غل
١٦١ / ٣
٥٧ - كتاب فرض الخمس
٤ - باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ
٣٣ / ٣٣
٤٨٤٨ / ١٢ وقرن في بيوتكن

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٤٨٩١/١٢	٥٣/٣٣
لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم	
٧ - باب	
٢٩٩٧/٨	٤١/٨
فأن لله خمسه	
٨ - باب قول النبي ﷺ : أحلت لكم الفغائم	
٥٤١٨/١٥	٢٠/٤٨
وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها	
٥٨ - كتاب الجزية والموادعة	
١ - باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب	
٣١٠٥/٨	٢٩/٩
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر	
١٢ - باب الموادعة والمصالحة مع المشركين	
٣٠٢٧/٨	٦١/٨
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها	
١٥ - باب ما يحذر من الغدر	
٣٠٢٧/٨	٦٢/٨
وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله	
١٦ - باب كيف ينبذ إلى أهل العهد	
٣٠٢١/٨	٥٨/٨
وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء	
١٧ - باب إثم من عاهد ثم غدر	
٣٠٢٠/٨	٥٦/٨
الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم	
٥٩ - كتاب بدء الخلق	
١ - باب	
٤٧٧٤/١٣	٢٧/٣٠
وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه	
٥٤٨٨/١٥	١٥/٥٠
أفعمينا بالخلق الأول	
٥٥١٦/١٥	٣٨/٥٠
وما مسنا من لغوب	
٥٩٣٤/١٦	١٤/٧١
وقد خلقكم أطوارا	

١٢/٦٥	٢ - باب ماجاء فى سبع ارضين ٥٨٤٧/١٦ الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن
٥/٦٧	٣ - باب فى النجوم ٥٨٨٠/١٦ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح
٥٧/ ٧	٥ - باب ٢٧٥٧/ ٧ وهو الذى ارسل الرياح بشرا بين يدي رحمته
٦٩/١٧	١٠/ ٣٩٥٠ فيرسل عليكم قاصفا من الريح
٢٢/١٥	١٠/ ٣٧٥٣ وأرسلنا الرياح لواقح
٢٦٦/ ٢	٣/ ٦٨٢ فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت
١١٧/ ٣	٤/ ٩٤٥ كمثل ريح فيها صرٌّ
١٦٥/٣٧	٦ - باب ذكر الملائكة ٥٠٦٩/١٤ لنحن الصافون
٢٥/ ٢	٨ - ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ٨١/ ٢ أزواج مطهرة
١٥/ ٣	٣/ ٨٠٦ «
٥٧/ ٤	٤/ ١٣٢٩ «
٢٥/ ٢	٢/ ٨١ كلما رزقوا منها
٢٣/٦٩	١٦/ ٥٩١٥ قطوفها دانية
١٤/٧٦	١٧/ ٦٠١٣ وذللت قطوفها تذليلا
٣١/١٨	١١/ ٤٠٥٦ متسكنين فيها على الأرائك
٥٦/٣٦	١٤/ ٥٠١٢ على الأرائك متكئون
٢٣/٨٣	١٧/ ٦١٠٠ على الأرائك ينظرون
٣٥/٨٣	١٧/ ٦١٠٣ «

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٦٠١٢/١٧ ولقاهم نضرة وصررا	١١/٧٦
٦١٠٠/١٧ تعرف في وجوههم نضرة النعيم	٢٤/٨٣
٦٠١٤/١٧ عينا فيها تسمى سلسيلا	١٨/٧٦
٥٠٣٦/١٤ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون	٤٧/٣٧
٥٦٤٨/١٦ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون	١٩/٥٦
٦٠٣٨/١٧ وكأسا دهاقا	٣٤/٧٨
٦٠٣٨/١٧ وكواعب أترابا	٣٣/٧٨
٦١٠٠/١٧ يسقون من رحيق مختوم	٢٥/٨٣
٦١٠١/١٧ ومزاجه من تسنيم	٢٧/٨٣
٦١٠٠/١٧ ختامه مسك	٢٦/٨٣
٥٦٣٢/١٥ فيهما عينان نضاختان	٦٦/٥٥
٥٦٤٨/١٦ على سرر موضونة	١٥/٥٦
٥٦٤٨/١٦ بأكواب وأباريق وكأس من معين	١٨/٥٦
٥٦٥١/١٦ عُرْبًا أترابًا	٣٧/٥٦
٥٦٦٧/١٦ فَرَوْحٌ وَريحان وجنة نعيم	٨٩/٥٦
٥٦٥٠/١٦ وطلح منضود	٢٩/٥٦
٦٥٥٠/١٦ في سدر منضود	٢٨/٥٦
٥٦٥١/١٦ وفرش مرفوعة	٣٤/٥٦
٥٦٤٨/١٦ لا يسمعون فيها لنوا ولا ثائبا	٢٥/٥٦
٥٦٢٩/١٥ ذواتا أفنان	٤٨/٥٥
٥٦٣٠/١٥ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ	٥٤/٥٥
٥٦٣١/١٥ مدهامتان	٦٤/٥٥

(تابع) ٣- فهرس موضوعات القرآن حسب صحيح البخارى

رقم الجزء والصفحة

رقم السورة والآية

١١- باب صفة إبليس وجنوده

٨/٣٧	وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٥٠٢٧/١٤
٩/٣٧	دَحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٥٠٢٨/١٤
١١٧/٤	وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١٥٦٤/٥
١١٩/٤	فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ ١٥٦٧/٥
٦٤/١٧	وَاسْتَفْزَمْنَ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ ٣٩٤٧/١٠
٦٢/١٧	لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ٣٩٤٦/١٠
٥١/٣٧	إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥٠٣٨/١٤
٣٦/٤٣	فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٥٢٧٢/١٤

١٢- باب ذكر الجن ونوابهم وعقابهم

١٣٠/٦	يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ ٢٥٠٦/٦
١٥٨/٣٧	وَجَمَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ٥٠٦٦/١٤
١٥٨/٣٧	وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنُّ مِنْهُمْ لِحْزُونَ ٥٠٦٦/١٤

١٣- باب

٢٩/٤٦	وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ٥٣٥٧/١٥
-------	---

١٤- باب

١٦٤/٢	وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ٣٥٥/٣
١٠/٣١	» » » ٤٧٩٤/١٣

٦٠- كتاب الأنبياء

١- باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته

٢٦/١٥	وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ ٣٧٥٤/١٠
٢٨/١٥	إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ٣٧٥٥/١٠
٣٣/١٥	لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ ٣٧٥٥/١٠
١٤/٥٥	خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ ٥٦١٧/١٥

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
١٩١٩/ ٧	١٨٩/ ٧
٢٦٢٠/ ٧	١٢/ ٧
٩٤/ ٢	٣٠/ ٢
٦١٢١/ ١٧	٤/ ٨٦
٦١٦٠/ ١٧	٤/ ٩٠
٢٦٤٤/ ٧	٢٦/ ٧
٥٦٥٤/ ١٦	٥٨/ ٥٦
٦١٢٢/ ١٧	٨/ ٨٦
٦٢٠١/ ١٧	٤/ ٩٥
٦٢٠١/ ١٧	٥/ ٩٥
٥٠٣١/ ١٤	١١/ ٣٧
٥٦٥٥/ ١٦	٦١/ ٥٦
٩٤/ ٢	٣٠/ ٢
١١٠/ ٢	٣٧/ ٢
١٠٩/ ٢	٣٦/ ٢
٦٦٨/ ٣	٢٥٩/ ٢
٥٣٨٠/ ١٥	١٥/ ٤٧
٣٧٥٥/ ١٠	٢٦/ ١٥
٢٦٤١/ ٧	٢٢/ ٧
٢٦٣٩/ ٧	٢٠/ ٧
٤٢١٥/ ١١	١٢١/ ٢٠
٤٢١٥/ ١١	١٢١/ ٢٠
١٠٩/ ٢	١١١/ ٢١

- ٣ - باب
- ٧ / ٢٧٦٠ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه
- ٥٩ / ٧
- ٤ - باب
- ١٤ / ٥٠٥٩ وإن إلياس لمن المرسلين
- ١٢٣ / ٣٧
- ٥ - باب
- ١١ / ٤١٥١ ورفعناه مكانا عليا
- ٥٧ / ١٩
- ٦ - باب
- ٧ / ٢٧٦٧ وإلى عاد أخاهم هودا
- ٦٥ / ٧
- ١٥ / ٥٣٥٢ إذ أنذر قومه بالأحقاد
- ٢١ / ٤٦
- ١٩ / ٥٩١١ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية
- ٦ / ٦٩
- ٧ - قصة يأجوج ومأجوج
- ١١ / ٤١٠٢ قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج
- ٩٤ / ١٨
- ١١ / ٤٠٩٩ ويستأونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا
- ٨٣ / ١٨
- ٨ - باب
- ٥ / ١٥٧٦ واتخذ الله إبراهيم خليلا
- ١٢٥ / ٤
- ١٠ / ٣٨٧٤ إن إبراهيم كان أمة قانتا
- ١٢٠ / ١٦
- ٩ / ٣٤٦٨ إن إبراهيم لحليم أواه منيب
- ٧٥ / ١١
- ٩ - باب
- ١٤ / ٥٠٤٨ فأقبلوا إليه يرفقون
- ٩٤ / ٣٧
- ١١ / ٤٣١٠ وهم من كل حذب ينسلون
- ٩٦ / ٢١
- ١٤ / ٥٠١١ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون
- ٥١ / ٣٦
- ١١ - باب
- ١٠ / ٣٧٥٨ ونبئهم عن ضيف إبراهيم
- ٥١ / ١٥
- ٣ / ٦٧١ ولكن ليطمئن قلبي
- ٢٦٠ / ٢

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
١٢ - باب	
١١/٤١٥٠	واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان كان صادق الوعد
١٤ - باب	
٢/٢٦٦	أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت
١٥ - باب	
١٣/٤٦٧٤	ولوطا إذ قال لقومه
١٦ - باب	
١٠/٣٧٦٠	فلما جاء آل لوط المرسلون
١٧ - باب	
٧/٢٧٨٢	وإلى نوح أخا نوح صالحا
١٠/٣٧٦٦	كذب أصحاب الحجر المرسلين
١٨ - باب	
٢/٢٦٦	أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت
١٩ - باب	
٩/٣٥١٣	لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين
٢٠ - باب	
١١/٤٢٩٧	وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر
٢١ - باب	
١١/٤١٤٩	واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا
١٤/٥١٦٣	وقال رجل مؤمن من آل فرعون
٢٢ - باب	
١١/٤١٧١	وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا

٢٨/٤٠	باب ٢٣ -	٥١٦٣/١٤ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه
٩/٢٠	باب ٢٤ -	٤١٧١/١١ وهل أتاك حديث موسى
١٦٤/٤		١٧٢٣/٥ وكلم الله موسى تكليماً
١٤٢/٧	باب ٢٥ -	٢٨٤٩/٧ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر
١٣٨/٧	باب ٢٩ -	٢٨٤٦/٧ يعكفون على أصنام لهم
١٣٩/٧		٢٨٤٦/٧ إن هؤلاء متبرّ ما هم فيه
٧/١٧		٣٩٠٣/١٠ وليتبرّوا ما علوا تتبيرا
٦٧/٢	باب ٣٠ -	١٥٢/٢ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة
١١/٦٦	باب ٣٢ -	٥٨٦٩/١٦ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون
٧٦/٢٨	باب ٣٣ -	٤٧٢٥/١٣ إن قارون كان من قوم موسى
٨٥/٧	باب ٣٤ -	٢٨١٠/٧ وإلى مدين أخاهم شعيبا
١٣٩/٣٧	باب ٣٥ -	٥٠٦١/١٤ وإن يونس لمن المرسلين
١٦٣/٧	باب ٣٦ -	٢٨٨٧/٧ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر

رقم الجزء والصفحة

رقم السورة والآية

٣٧ - باب

١٧٢٢/٥ وآتينا داود زبوراً ١٦٣/٤

٣٩ - باب

٥٠٨٤/١٤ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ١٧/٣٨

٤٠ - باب

٥٠٩٨/١٤ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ٣٠/٣٨

٤١ - باب

٤٧٩٥/١٣ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ١٢/٣١

٤٢ - باب

٤٩٩٥/١٤ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ١٣/٣٦

٤٣ - باب

٤١٢٥/١١ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ٢/١٩

٤٤ - باب

١٤٣١/١١ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ١٦/١٩

٤٥ - باب

٨٤٠/٤ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على ٤٢/٣
نساء العالمين

٤٦ - باب

٨٤٤/٤ إذ قالت الملائكة يا مريم ٤٥/٣

٤٧ - باب

٢١٠٦/٦ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ٧٧/٥

٤٨ - باب

٤١٣١/١١ واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها ١٦/١٩

- ٥٢ - باب
٩/١٨ ٤٠٢٥/١١ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم
- ٦١ - كتاب المناقب
١ - باب
١٣/٤٩ ٥٤٦٧/١٥ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
- ٢٦ - باب
٢ ٣٠٤/ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم
١٤٦/ ٢ }
٢٠/ ٧ }
- ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار
١ - باب
٩/٥٩ ٥٧٤٠/١٦ والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم
- ٣٢ - باب ذكر الجن
١/٧٢ ٥٩٤٣/١٦ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن
- ٤١ - حديث الإبراء
١/١٧ ٣٨٨٣/١٠ سبحان الذى أمرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
- ٦٤ - كتاب المغازى
٣ - باب قصة غزوة بدر
١٢٣/ ٣ ٩٦٠/ ٤ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة
- ٤ - باب
٩/ ٨ ٢٩٥٦/ ٨ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم
- ١٧ - باب غزوة أحد
١٢١/ ٣ ٩٥٣/ ٤ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال

- ١٨ - باب
٩٥٩/ ٤ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا
١٢٢/ ٣
- ١٩ - باب
١٠١٣/ ٤ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان
١٥٥/ ٣
- ٢٠ - باب
٩٩٩/ ٤ إذ تصعدون ولا تلون على أحد
١٥٣/ ٣
- ٢١ - باب
٩٦٨/ ٤ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم
١٢٨/ ٣
- ٢٥ - باب
١٠٣٨/ ٤ الذين استجابوا لله والرسول
١٧٢/ ٣
- ٣٤ - حديث الإفك
٤٤٥٩/ ١٢ إن الذين جاءوا بالإفك
١١/ ٢٤
- ٣٥ - باب غزوة الحديبية
٥٤١٦/ ١٥ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة
١٨/ ٤٨
- ٥٤ - باب
٣٠٩٢/ ٨ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم
٢٥/ ٩
- ٧٩ - باب حديث كعب
٣٢٨٧/ ٨ وعلى الثلاثة الذين خلفوا
١١٨/ ٩
- ٨٣ - باب مرض النبي ﷺ
٥١٣٩/ ١٤ إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ٣٩/ ٣١ و٣٠
- ٦٦ - كتاب فضائل القرآن
٢ - باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب
٣٥٠٢/ ٩ قرآنا عربيا
٢/ ١٢

- ١٩ - باب من لم يتغن بالقرآن ، وقوله تعالى :
 ٤٧٥٨/١٣ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم
 ٥١/٢٩
 ٢٦ - باب نسيان القرآن ، وقول الله تعالى :
 ٦١٣٠/١٧ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله
 ٦/٨٧
 ٢٨ - باب الترتيل في القراءة ، وقوله تعالى :
 ٥٩٥٨/١٦ ورتل القرآن ترتيلا
 ٤/٧٣
 ٣٤ - باب في كم يقرأ القرآن ، وقول الله تعالى .
 ٥٩٦٣/١٦ فاقروا ما تيسر منه
 ٢٠/٧٣

٦٧ - كتاب النكاح

- ١ - باب الترغيب في النكاح ، لقوله تعالى :
 ١١٠٤/٥ فانكحوا ما طاب لكم من النساء
 ٣/٤
 ١٤ - باب تزويج المعسر ، لقوله تعالى :
 ٤٥١٦/١٢ إن يكونوا فقراء يغفمهم الله من فضله
 ٣٢/٢٤
 ١٥ - باب الأكفاء في الدين . وقوله :
 ٤٥٨٤/١٢ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً
 ٥٤/٢٥
 باب ما يلقى من شؤم المرأة ، وقوله تعالى :
 ٥٨٢٤/١٦ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم
 ١٤/٦٤
 ١٩ - باب لا يتزوج أكثر من أربع ، لقوله تعالى :
 ١١٠٤/٥ مثنى وثلاث ورباع
 ٣/٤
 ٢٠ - باب
 ١١٧٣/٥ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم
 ٢٣/٤
 ٢١ - باب من قال لارضاع بعد حولين ، لقوله تعالى :
 ٦٠٩/٣ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة
 ٢٣٣/٢

رقم السورة والآية

رقم الجزء والصفحة

٢٤ - باب ما يحل من النساء وما يحرم ، وقوله تعالى :

١١٧٣/ ٥ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم

٢٣/ ٤

٢٥ - باب

١١٧٣/ ٥ وربائبكم اللاتي في حجوركم

٢٣/ ٤

٢٦ - باب

١١٧٣/ ٥ وأن تجمعوا بين الأختين إلى ما قد سلف

٢٣/ ٤

٣٤ - باب

٦١٥/ ٣ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء

٢٣٥/ ٢

٣٥ - باب من قال لانكاح إلا بولي ، لقول الله تعالى :

٦٠٨/ ٣ فلا تمضوهن

٢٣٢/ ٢

١١٥٦/ ٥ ولا تمضوهن

١٩/ ٤

٣٨ - باب إنكاح الرجل أولاده الصغار ، لقوله تعالى :

٥٨٣٩/ ١٦ واللاتي لم يحضن

٤/ ٦٥

٤٣ - باب تزويج اليتيمة لقوله تعالى :

١١٠٤/ ٥ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا

٣/ ٤

٤٩ - باب

١١٢٢/ ٥ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة

٤/ ٤

٨١ - باب

٥٨٦٦/ ١٦ قوا أنفسكم وأهليكم نارا

٦/ ٦٦

٩١ - باب

١٢١٢/ ٥ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض

٣٤/ ٤

٩٥ - باب

١٥٩٣/ ٥ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً

١٢٨/ ٤

١٢٣ - باب

٤٥٠٩/١٢ ولا يبدین زینتهنّ إلا لبعولتهنّ ٣١/٢٤

١٢٤ - باب

٤٥٤٦/١٢ والذین لم یبلغوا الحلم ٥٨/٢٤

٦٨ - کتاب الطلاق

١ - باب

٥٨٢٩/١٦ یا ایها النبیّ إذا طلقتم النساء ١/٦٥

٤ - باب من أجاز طلاق الثلاث ، لقول الله تعالى :

٥٨٦/٣ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ٢٢٩/٢

٥ - باب من خیر نساءه ، وقول الله تعالى :

٤٨٤٥/١٣ قل لأزواجك إن کنتن تردن الحياة الدنيا ٢٨/٣٣

٨ - باب

٥٨٥٢/١٦ لم تحرم ما أحل الله لك ١/٦٦

٩ - باب لا طلاق قبل الفکاح وقول الله تعالى :

٤٨٨١/١٣ یا ایها الذین آمنوا إذا نکحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ٤٩/٣٣

١٢ - باب الخلع وكيف الطلاق فيه ، وقول الله تعالى :

٥٨٦/٣ ولا یحل لکم أن تأخذوا مما آتیتموهن شیئا ٢٢٩/٢

١٣ - باب الشقاق وهل یشیر بالخلع عند الضرورة ، وقوله تعالى :

١٢٢٣/٥ وإن خفتم شقاق بینهما فابعثوا حکما من أهله ٣٥/٤

١٨ - باب

٥٥٨/٣ ولا تنکحوا المشرکات حتی يؤمننّ ٢٢١/٢

٢١ - باب

٥٧٨/٣ للذین یؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ٢٢٦/٢

٢٣ - باب

٥٧٠٥/١٦ قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها ١/٥٨

٢٤ - باب اللعان ، وقول الله تعالى :

٤٤٥٥/١٢ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ٦/٢٤

٣٨ - باب

٥٨٣٩/١٦ واللاتى يئسن من المحيض من نسائكم ٤/٦٥

٣٩ - باب

٥٨٣٩/١٦ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤/٦٥

٤٠ - باب

٥٨١/ ٣ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ٢٢٨/ ٢

٤١ - باب

٥٨٢٩/١٦ واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ١/٦٥

٤٣ - باب

٥٨١/ ٣ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ٢٢٨/ ٢

٤٤ - باب

٥٨١/ ٣ وبعلتهن أحق بردهن ٢٢٨/ ٢

٥٠ - باب

٦١٢/ ٣ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا ٢٣٤/ ٢

٦٣١/ ٣ » » » » ٢٤٠/ ٢

٥٣ - باب الميعة التي لم يفرض لها لقوله تعالى :

٦١٨/ ٣ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ٢٣٦/ ٢

٦٩ - كتاب النفقات

١ - باب فضل النفقة على الأهل

٥٥٠/ ٣ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو

٤ - باب

٦٠٩/ ٣ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة

١٤ - باب

٦٠٩/ ٣ وعلى الوارث مثل ذلك

٧٠ - كتاب الأطعمة

١ - باب

١٣١/ ٢ كلوا من طيبات ما رزقناكم

٣٧٧/ ٣ » » »

٢٨٨٥/ ٧ » » »

٤١٩٨/ ١٦ » » »

٦٨٣/ ٣ أنفقوا من طيبات ما كسبتم

٤٤٠٢/ ١٢ كلوا من الطيبات واعملوا صالحا

٧ - باب

٥٤١٤/ ١٥ ليس على الأعمى حرج

١٤ - باب الشواء ، وقول الله تعالى :

٣٤٦٤/ ٩ فجاء بمجمل حنيذ

٤١ - باب الرطب والتمر ، وقول الله تعالى :

٤١٣٤/ ١١ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا

٥٩ - باب

٤٨٩١/ ١٣ فإذا طعمتم فانتشروا

٤١

٧٢ - كتاب الذبائح والصيد

- ٦ / ٢١٥٣ يا أيها الذين آمنوا ليموتنكم الله بشيء من الصيد
٥ / ٩٤
٦ / ١٧٩١ أحلت لكم بهيمة الأنعام
٥ / ١
باب إذا أكل السكب
٦ / ١٨٤٣ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات
٥ / ٤
باب
٦ / ٢١٥٧ أحل لكم صيد البحر
٥ / ٩٦
باب التسمية على الذبيحة
٦ / ٢٤٨٢ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه
٦ / ١٢١
باب ذبائح أهل الكتاب
٦ / ١٨٥٨ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
٥ / ٥
باب أكل المضطر
٣ / ٣٧٧ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم
٢ / ١٧٢
٦ / ١٨١١ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم
٥ / ٣
٦ / ٢٤٧٨ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه
٦ / ١١٨
٦ / ٢٥٣٣ قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه
٦ / ١٤٥
١٠ / ٣٨٧٠ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا
١٦ / ١١٤

٧٤ - كتاب الأشربة

- ٥ / ٢١٤٢ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام
٥ / ٩٠
باب شرب اللبن
١٠ / ٣٨٢٣ من بين فرث ودم لبنا خالصا
١٦ / ٦٦
باب شراب الخلواء
٥ / ٥
٥ / ١٨٥٨ أحل لكم الطيبات

٧٥ - كتاب المرضى

باب ما جاء فى كفارة المرض

١٥٧٣/٥ من يعمل سوءاً يجز به ١٢٣/٤

باب

٤٢٩٧/١١ أنى مسنى الضرّ وأنت أرحم الراحمين ٨٣/٢١

٧٦ - كتاب الطب

باب الدواء بالعسل

٣٨٢٦/١٠ فيه شفاء للناس ١٦٩/١٦

باب السحر

٢٠٧/٢ ولكن الشياطين كفروا ١٠٢/٢٢

٧٧ - كتاب اللباس

٢٦٧٠/٧ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ٣٢/٧

باب لبس القميص

٣٥٩٠/٩ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى ٩٣/١٢

٧٨ - كتاب الأدب

٤٧٣٨/١٣ ووصينا الإنسان بوالديه ٨/٢٩

٤٧٩٧/١٣ » » » ٤/٣١

٥٣٤٧/١٥ » » » ١٥/٤٦

باب الوصاة بالحار

١٢٢٦/٥ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ٣٩/٤

- باب
٨٥/ ٤ من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها
- باب
١١/ ٤٩ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم
- باب
١٢/ ٤٩ ولا يغتب بعضكم بعضا
- باب ما يكره من النيمة
١١/ ٦٨ هازم شاء بنعيم
- ١/ ١٠٤ ويل لكل همزة لمزة
- باب
٣٠/ ٢٢ واجتنبوا قول الزور
- باب
٩٠/ ١٦ إن الله يأمر بالعدل والإحسان
- باب ما ينهى عن التحايد والتدابير
٥/ ١١٣ ومن شر حاسد إذا حسد
- باب
١٢/ ٤٩ يا أيها الذين آمنوا اجعلوا كثيرا من الظن
- باب
١١٩/ ٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين
- باب الصبر على الأذى
١٠/ ٣٩ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب
- باب الحذر من الغضب
٣٧/ ٤٢ وإذا ما غضبوا هم يغفرون

باب إكرام الضيف

٢٤/ ٥١ ٥٥٣٠/١٥ ضيف إبراهيم المكرمين

باب ما يجوز من الشعر والرجز

٢٢٤/ ٢٦ ٤٦٤٩/١٣ والشعراء يتبهمم الفاوون

باب علامة حب الله عز وجل

٣١/ ٣ ٨٢٨/ ٤ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله

باب رفع البصر إلى السماء

١٧/ ٨٨ ٦١٣٩/١٧ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت

٧٩ - كتاب الاستئذان

٥٣/ ٣٣ ٤٨٩١/١٣ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم

باب السلام اسم من أسماء الله تعالى

٨٦/ ٤ ١٤٢٣/ ٥ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها

باب آية الحجاب

٥٣/ ٣٣ ٤٨٩١/١٣ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي

باب

١١/ ٥٨ ٥٧١٨/١٦ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس

باب لا يتفاجى اثنان

٩/ ٥٨ ٥٧١٦/١٦ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم

باب طول النجوى

٤٧/ ١٧ ٣٩٣٧/١٠ وإذا هم نجوى

باب كل هو باطل

٦/ ٣١ ٤٧٩٣/١٣ ومن الناس من يشتري هو الحديث

٨٠ - كتاب الدعوات

٦٠/٤٠	٥٤٢٦/١٤ ادعوني أستجب لكم
٦٠/٤٠	٥١٧٦/١٤ إن الذين يستكبرون عن عبادتي
	باب أفضل الاستغفار
١٠/٧١	٥٩٣٤/١٦ استغفروا ربكم إنه كان غفارا
١٣٥/ ٣	٩٧٦/ ٤ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم
	باب التوبة
٨/٦٦	٥٨٦٧/١٦ توبوا إلى الله توبة نصوحا
	باب
١٠٣/ ٩	٣٢٥١/ ٨ وصل عليهم

٨١ - كتاب الرقاق

	باب مثل الدنيا في الآخرة
٢٠/٥٧	٥٦٩٠/١٦ اعملوا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
	باب في الأمل وطوله
١٨٥/ ٣	١٠٥٧/ ٤ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز
	باب من بلغ ستين سنة
٣٧/٣٥	٤٩٨٦/١٤ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر
	باب
٣٣/٣١	٤٨٠٧/١٣ إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا
	باب ما يتقى من فتنة المال
٢٨/ ٨	٢٩٨٠/ ٨ إنما أموالكم وأولادكم فتنة
١٥/٦٤	٥٨٢٥/١٦ » » » »

باب

١٤/ ٣ زين للفاس حب الشهوات ٨٠٤/٤

باب المسكنون هم المقلون

١٥/١١ ٣٤٢١/ ٩ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها

باب الغنى غنى النفس

٥٥/٢٣ ٤٤٠٣/١٢ أيجسبون أنما نعدهم به من مال وبنين

باب الرجاء مع الخوف

٦٨/ ٥ ٢٠٨٥/ ٦ لستم على شيء حتى تقيموا التوراة

باب الصبر عن محارم الله

١٠/٣٩ ٥١٣٢/١٤ إنما يوفى الصابرون أجرهم

باب

٣/٦٥ ٥٨٣٧/١٦ ومن يتوكل على الله فهو حسبه

باب حفظ اللسان

١٨/٥٠ ٥٥٠٠/١٥ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

باب

٧٧/١٦ ٣٨٤٠/١٠ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر

باب

١/٢٢ ٤٣٢١/١٢ إن زلزلة الساعة شيء عظيم

٥٧/٥٣ ٥٥٨٨/١٥ أوزت الآزفة

١/٥٤ ٥٥٩٢/١٥ اقتربت الساعة

باب

٤/٨٣ ٦٠٩٣/١٧ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون

باب فى الحوض

١/١٠٨ ٥٢٧٧/١٧ إنا أعطيناك الكوثر

٨٢ - كتاب القدر

باب جف القلم على علم الله

٢٣/٤٥ ٥٣٢٤/١٤ وأضله الله على علم

باب

٣٨/٣٣ ٤٨٦٤/١٣ وكان أمر الله قدرا مقدورا

باب

٩٥/٢١ ٤٣٠٩/١١ وحرام على قرية أهلكناها

باب

٦٠/١٧ ٣٩٤٣/١٠ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس

باب

١/١١٣ ٦٣٠٥/١٧ قل أعوذ برب الفلق

باب

٥١/ ٩ ٣١٧٣/ ٨ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

باب

٤٣/ ٧ ٢٦٨٩/ ٧ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

٨٣ - كتاب الأيمان والنذور

باب

٢٢٥/ ٢ ٥٧٧/ ٣ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم

٨٩/ ٥ ٢١٣٤/ ٦ » »

باب

١٠٩/ ٦ ٢٤٦٥/ ٦ وأقسموا بالله جهد أيمانهم

٣٨/١٦ ٣٨٠٩/١٠ » » » »

٥٣/٢٤ ٤٥٤٣/١٢ » » » »

٤٢/٣٥ ٤٩٨٨/١٤ » » » »

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
باب	
٥٧٧/ ٣ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم	٢٥٥/ ٢
٢١٣٤/ ٦ » » » »	٨٩/ ٥
باب	
٤٨٢٢/ ١٣ وليس عليكم جفاح فيما أخطأتم به	٥/ ٣٣
باب اليمين الغموس	
٣٨٥٤/ ١٠ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم	٩٤/ ١٦
باب	
٨٦٩/ ٤ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم	٧٧/ ٣
٥٧٤/ ٣ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	٢٢٤/ ٢
٣٨٥٥/ ١٠ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا	٩٥/ ١٦
باب إذا حرّم طعامه	
٥٨٥٢/ ١٦ يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك	١/ ٦٦
باب الوفاء بالنذر	
٦٠١١/ ١٧ يوفون بالنذر	٧/ ٧٦
باب النذر في الطاعة	
٦٨٥/ ٣ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر	٢٧٠/ ٢
٨٤ - كتاب كفارات الأيمان	
٢١٣٤/ ٦ فكفاراته إطعام عشرة مساكين	٨٩/ ٥
باب	
٥٨٥٦/ ١٦ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم	٢/ ٦٦
باب	
٢١٣٤/ ٦ أو تحرير رقبة	٨٩/ ٥

٨٥ - كتاب الفرائض

١١٣٨/ ٥ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين
باب

١٧٧٦/ ٥ يستفتونك قل الله يفتيكم

٨٦ - كتاب الحدود

باب

١٩٧٦/ ٦ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما

باب

١٩٥٤/ ٦ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله

باب إثم الزناة

٤٥٩٠/ ١٢ ولا يزنون

٣٩٢٥/ ١٠ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة

باب السكران يجلدان وينفیان

٤٤٢٦/ ١٢ الزانية والزانی فجلدوا كل واحد منهما

باب

١١٩٤/ ٥ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات

باب رمى المحصنات

٤٤٤٨/ ١٢ والذين يرمون المحصنات

٨٧ - كتاب الديات

١٤٥١/ ٥ ومن يقتل مؤمنا متعمدا

باب

١٩٥١/ ٦ ومن أحياناها فكلنا أحياء الناس جميعا

- باب
٣ / ٣٩٥ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص
٢ / ١٧٨
- باب
٦ / ٢٠٠٢ أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف
٥ / ٤٥
- باب
٥ / ١٤٤٢ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا
٤ / ٩٢
- ٨٨ - كتاب استتابة المرتدين
- ١٣ / ٤٧٩٧ إن الشرك لظلم عظيم
٣١ / ١٣
- ١٤ / ٥١٤٨ لئن أشركت ليحبطن عملك
٣٩ / ٦٥
- باب حكم المرتد
٤ / ٨٨٠ كيف يهتدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم
٣ / ٨٦
- باب قتل الخوارج
٨ / ٣٢٨٣ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم
٩ / ١١٥
- ٨٩ - كتاب الإكراه
- ١٠ / ٣٨٦٢ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان
١٦ / ١٠٦
- ١٠ / ٣٨٦٢ ولكن من شرع بالكفر صدرا
١٦ / ١٠٦
- ٤ / ٨٢٢ إلا أن تتقوا منهم تقاة
٣ / ٢٨
- ٥ / ١٤٨٦ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم
٤ / ٩٧

٩١ - كتاب التعبير

- باب رؤيا الصالحين
١٥ / ٥٤٣٦ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق
٤٨ / ٢٧

باب رؤيا يوسف

٩ / ٣٥٠٣ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت

٤ / ١٢

باب رؤيا أهل السجون

٩ / ٣٥٣٨ ودخل معه السجنَ فتيان

٣٦ / ١٢

٩٢ - كتاب الفتن

٨ / ٢٩٧٦ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة

٢٥ / ٨

٩٣ - كتاب الأحكام

٦ / ٢١٤٥ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

٩٢ / ٥

باب أجر من قضى بالحكمة

٦ / ٢٠١٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون

٤٧ / ٥

باب من نكث بيمينه

١٥ / ٥٤٠١ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله

١٠ / ٤٨

٩٤ - كتاب التمنى

باب ما يكره من التمنى

٥ / ١٢٠٩ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض

٣٢ / ٤

باب ما يجوز من اللغو

٩ / ٣٤٧٢ لو أن لى بكم قوة

٨٠ / ١١

٩٥ - كتاب أخبار الآحاد

٨ / ٣٢٩٨ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة

١٢٢ / ٩

باب

١٣ / ٤٨٩١ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم

٥٣ / ٣٣

٩٦ - كتاب الاعتصام بالسنة

باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ

٧٤/٢٥ واجعلنا للمعتقين إماما ٤٥٩٩/١٢

باب ما يكره من القيل والقال

١٠١/٥ ٢١٦٤/٦ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم

باب ما يكره من التعمق في الدين

٧٧/٥ ٢١٠٦/٦ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم

باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس

٣٦/١٧ ٣٩٢٨/١٠ ولا تقف ما ليس لك به علم

باب

١٠٥/٤ ١٥٣٠/٥ بما أراك الله

باب

٦٥/٦ ٣٢٥٥/٦ أو يلبسكم شيعا

باب ما جاء في اجتهاد القضاة

٤٤/٥ ١٩٩٥/٦ ومن لم يحكم بما أنزل الله

٤٤/٥ ٢٠٠٢/٦ » » » »

٤٧/٥ ٢٠١٤/٦ » » » »

باب إثم من دعا إلى ضلالة

٢٥/١٦ ٣٧٩٤/١٠ ومن أوزار الذين يضلونهم

باب

١٢٨/٣ ٩٦٨/٤ ليس لك من الأمر شيء

باب

٥٤/١٨ ٤٠٧٣/١١ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا

- ٤٧٥٢/١٣ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن
باب
٤٦/٢٩
- ٢٨١/٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطا
باب الأحكام التي تعرف بالدلائل
١٤٣/٢
- ٦٢٣٣/١٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
باب
١١٧/٩٩
- ٥٢٤٨/١٤ وأمرهم شورى بينهم
٣٨/٤٢
- ١٠٢٠/٤ وشاورهم في الأمر
١٥٩/٣
- ١٠٢٠/٤ فإذا عزمته فتوى كل على الله
١٥٩/٣
- ٩٧ - كتاب التوحيد
- باب
٤٠١١/١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن
باب
١١٠/١٧
- ٥٥٣٨/١٥ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين
باب
٥٨/٥١
- ٥٩٥٣/١٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا
باب
٢٦/٧٢
- ٤٨٠٨/١٣ إن الله عنده علم الساعة
٣٤/٣١
- ١٧٦٠/٥ أنزله يعلمه
١٦٦/٤
- ٥٢١٤/١٤ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه
٤٧/٤١
- ٥٢١٤/١٤ إليه يرد علم الساعة
٤٧/٤١
- باب
٥٧٥٣/١٦ السلام المؤمن

باب	١٧/٦٣١١ ملك الناس	٢/١١٤
باب	١٠/٣٧٠٦ وهو العزيز الحكيم	٤/١٤
	١٤/٥٠٧٢ سبحان ربك رب العزة	١٨٠/٣٧
	١٦/٥٨١١ والله العزة ولرسوله	٨/٦٣
باب	٦/٢٣٦٦ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق	٧٣/٦
باب	٥/١٦٠٣ وكان الله سميعا بصيرا	١٣٤/٤
باب	٦/٢٣٥٥ قل هو القادر	٦٦/٦
باب مقلب القلوب	٦/٢٤٦٩ وتقلب أفئدتهم وأبصارهم	١١٠/٦
باب	١٥/٥٦٢٠ ذو الجلال	٢٧/٥٥
	١٥/٥٥٤٥ البر الرحيم	٢٨/٥٢
باب	٤/٨٢٢ ويحذركم الله نفسه	٢٨/٣
	٤/٨٢٨ » » »	٣٠/٣
	٦/٢٢١٩ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك	١١٦/٥
باب	١٣/٤٧٣٣ كل شئ هالك إلا وجهه	٨٨/٢٨
باب	١١/٤١٧٩ ولتصنع على عيني	٣٩/٢٠

٥٥٩٨/١٥ تجرى بأعيننا

١٤/٥٤

باب

٥٧٥٣/١٦ هو الله الخالق البارئ المصور

٢٤/٥٩

باب

٥١٢٢/١٤ لما خلقت بيدي

٧٥/٣٨

باب

٢٢٦٣/ ٦ قل أى شئ أكبر شهادة

١٩/ ٦

باب

٣٤١١/ ٩ وكان عرشه على الماء

٧/١١

باب

٥٩٢٥/١٦ تعرج الملائكة والروح إليه

٤/٧٠

٤٩٧٥/١٤ إليه يصعد الكلم الطيب

١٠/٣٥

باب

٥٩٩٥/١٦ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة

٢٢/٧٥

باب

٢٧٥٥/ ٧ إن رحمة الله قريب من المحسنين

٥٩/ ٧

باب

٤٩٨٨/٢٤ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا

٤١/٣٥

باب

٥٠٧٠/٢٤ ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين

١٧١/٢٧

باب

٣٨٩٠/١٠ إنما قولنا لشيء

٤٠/٢٦

باب

٤١٣٠/١٩ لو كان البحر مدادا

١٠٩/١٨

رقم السورة والآية

رقم الجزء والصفحة

- باب
- ٥٦/٢٨ ٤٧١٥/١٣ إنك لا تهدي من أحببت
- باب
- ٢٣/٣٤ ٤٩٥١/١٤ ولا ترفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له
- ٢٥٥/٢ ٦٥٨/٣ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه
- باب
- ٦/٢٧ ٤٦٥٧/١٣ وإنك لتلقى القرآن
- باب
- ١٦٦/٤ ١٧٦٠/٥ أنزله بملءه والملائكة يشهدون
- باب
- ١٥/٤٨ ٥٤١٢/١٥ يريدون أن يبدلوا كلام الله
- ١٤١٣/٨٦ ٦١٢٥/١٦ إنه لقول فصل * وما هو بالهزل
- باب
- ١٦٤/٤ ١٧٢٣/٥ وكلم الله موسى تكليماً
- باب
- ١٥٢/٢ ٣١٠/٢ فاذكرونى أذكركم
- ٧١/١٠ ٣٣٨٠/٩ وأتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه
- باب
- ٢٢/٢ ٦٨/٢ فلا تجعلوا لله أنداداً
- ٩/٤١ ٥١٨٨/١٤ وتجعلون له أنداداً
- ٦٨/٢٥ ٤٥٩٠/١٢ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر
- ٦٥/٣٩ ٥١٤٨/١٤ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك
- ١٠٦/١٢ ٣٦٠٤/٩ وما يؤمن أكثر بالله إلا وهم مشركون

٤٧٦٠/١٣ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ٦١/٢٩

ليقولن الله

٥٢٩٠/١٤ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ٨٧/٤٣

٤٥٦٣/١٢ وخلق كل شئ فقدره تقديرا ٢/٢٥

٣٧٤٨/١٥ ما نزل الملائكة إلا بالحق ٨/٢٥

٤٨٣٠/١٣ ليسأل الصادقين عن صدقهم ٨/٣٣

٣٧٤٨/١٥ وإناله لحافظون ٩/١٥

٥١٤٠/١٤ والذي جاء بالصدق وصدق به ٣٣/٣٩

باب

٥١٩٨/١٤ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمكم ٢٢/٤١

باب

٥٦٢١/١٥ كل يوم هو في شأن ٢٩/٥٥

٤٢٤٤/١١ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ٢/٢١

٤٦٠٦/١٣ » » » » ٥/٢٦

٥٨٢٩/١٦ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ١/٦٥

٥٢٢٤/١٤ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ١١/٤٢

باب

٥٩٩١/١٦ لا تحرك به لسانك لتعجل به ١٦/٧٥

باب

٥٨٨٣/١٦ وأمرؤا قولكم أو أجهروا به ١٣/٦٧

٥٨٨٤/١٦ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ١٤/٦٧

باب

٢٠٦٧/٦ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ٦٧/٥

رقم الجزء والصفحة	رقم السورة والآية
٥٩٥٦/١٦	ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم
٢٨/٧٢	
٢٧٦٣/٧	أبلغكم رسالات ربى
٦٢/٧	
باب	
٨٩١/٤	قل فأتوا بالتوراة فاتلوها
٩٣/٣	
باب	
٥٩٢٨/١٦	إن الإنسان خاق هلوعا
١٩/٧٠	
باب	
٥٩٦٣/١٦	فاقرءوا ما تيسر من القرآن
١٧/٥٤	
باب	
٥٥٩٩/١٥	ولقد يسرنا القرآن للذكر
١٧/٥٤	
٥٦٠٠/١٥	» » » »
٢٢/٥٤	
٥٦٠١/١٥	» » » »
٣٢/٥٤	
٥٦٠٢/١٥	» » » »
٤٠/٥٤	
باب	
٦١١٨/١٧	بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ
٢٣ و ٢٢/٨٥	
٥٥٤١/١٥	والطور * وكتاب مسطور
٢١/٥٢	
باب	
٥٠٤٨/١٤	والله خلقكم وما تعملون
٩٦/٣٧	
٥٦٠٦/١٥	إنا كل شىء خلقناه بقدر
٤٩/٥٤	
٢٦٩٩/٧	إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض
٥٤/٧	
باب	
٤٢٧٢/١١	ونضع الموازين بالقسط
٤٧/٢١	

تم فهرس الموضوعات

فهرس هذا الفهرس

رقم الصفحة	رقم الصفحة
١٦ - كتاب العمرة - ٢٦	٦ - كتاب الوحي - ١
— - كتاب المحصر - ٢٧	٦ - كتاب الإيمان - ٢
١٧ - كتاب جزاء الصيد - ٢٨	٩ - كتاب العلم - ٣
— - كتاب الصوم - ٣٠	١٠ - كتاب الوضوء - ٤
— - كتاب فضل ليلة القدر - ٣٢	— - كتاب الفسل - ٥
— - كتاب الاعتكاف - ٣٣	— - كتاب الحيض - ٦
١٨ - كتاب البيوع - ٣٤	١١ - كتاب التيمم - ٧
١٩ - كتاب الإجارة - ٣٧	— - كتاب الصلاة - ٨
— - كتاب الكفالة - ٣٩	١٢ - كتاب مواقيت الصلاة - ٩
— - كتاب الحرث والمزارعة - ٤١	— - كتاب الأذان - ١٠
— - كتاب المساقاة - ٤٢	— - كتاب الجمعة - ١١
— - كتاب الاستقراض وأداء الديون - ٤٣	١٣ - كتاب صلاة الخوف - ١٢
٢٠ - كتاب المظالم - ٤٦	— - كتاب العيدين - ١٣
— - كتاب الرهن - ٤٨	— - كتاب الاستسقاء - ١٥
— - كتاب العتق - ٤٩	— - كتاب الكسوف - ١٦
٢١ - كتاب المسكاتب - ٥٠	— - كتاب سجود القرآن - ١٧
— - كتاب الهبة - ٥١	١٤ - كتاب التهجد - ١٩
٢٢ - كتاب الشهادات - ٥٢	— - كتاب الجنائز - ٢٣
— - كتاب الصلح - ٥٣	— - كتاب الزكاة - ٢٤
٢٣ - كتاب الوصايا - ٥٥	١٥ - كتاب الحج - ٢٥

رقم الصفحة	قم الصفحة
٤٥ - ٧٩ - كتاب الاستئذان	٢٣ - ٥٦ - كتاب الجهاد
٤٦ - ٨٠ - كتاب الدعوات	٢٥ - ٥٧ - كتاب فرض الخمس
— - ٨١ - كتاب الرقاق	٢٦ - ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة
٤٨ - ٨٢ - كتاب القدر	— - ٥٩ - كتاب بدء الخلق
— - ٨٣ - كتاب الإيمان والنذور	٢٩ - ٦٠ - كتاب الأنبياء
٤٩ - ٨٤ - كتاب كفارات الإيمان	٣٥ - ٦١ - كتاب المناقب
٥٠ - ٨٥ - كتاب الفرائض	— - ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار
— - ٨٦ - كتاب الحدود	— - ٦٤ - كتاب المغازي
— - ٨٧ - كتاب الديات	٣٦ - ٦٦ - كتاب فضائل القرآن
٥١ - ٨٨ - كتاب استتابة المرتدين	٣٧ - ٦٧ - كتاب النكاح
— - ٨٩ - كتاب الإكراه	٣٩ - ٦٨ - كتاب الطلاق
— - ٩١ - كتاب التعبير	٤١ - ٦٩ - كتاب النفقات
٥٢ - ٩٢ - كتاب الفتن	— - ٧٠ - كتاب الأطعمة
— - ٩٣ - كتاب الأحكام	٤٢ - ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد
— - ٩٤ - كتاب التمني	— - ٧٤ - كتاب الأشربة
— - ٩٥ - كتاب أخبار الآحاد	٤٣ - ٧٥ - كتاب المرضى
٥٣ - ٩٦ - كتاب الاعتصام بالله	— - ٧٦ - كتاب الطب
٥٤ - ٩٧ - كتاب التوحيد	— - ٧٧ - كتاب اللباس
	— - ٧٨ - كتاب الأدب

٤ - فهرس أسماء المؤلفين

باب الهمزة

الألوسي المفسر

ابن أبي الحديد

ابن أبي الدنيا

ابن الأثير صاحب الكامل

ابن الأثير صاحب المثل السائر

ابن الأثير صاحب النهاية

ابن الأنباري

ابن بطال

ابن تيمية

ابن التين

ابن جرير الطبري (أبو جعفر)

ابن الجزري

ابن جماعة

ابن جني

ابن الحاجب

ابن حجر المسقلائي

ابن حزم

ابن الحصار

ابن خرداد (ابن خرداذبة)

ابن خلدون

ابن دريد (أبو بكر)

ابن دقيق العيد

ابن زشد

ابن سعد

ابن السكيت

ابن السمعاني

ابن السيد

ابن سيده

ابن الطلاع (صاحب الأحكام)

ابن عبد البر

ابن عبد السلام

ابن عربي

ابن العربي (القاضي)

ابن عرفة

ابن عطية

ابن قدامة

ابن كثير (الحافظ)

ابن مالك

ابن مفلح الحنبلي

ابن منده

ابن المنذر

ابن هشام

أبو إسحاق الشاطبي

أبو إسحق النحوى	أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني
أبو إسماعيل الأنصاري	أبو منصور (صاحب التأويلات)
أبو البقاء العكبري	أبو نعيم الأصفهاني
أبو بكر الباقلاني	أبو هاشم بن خضر
أبو بكر الخلال	أبو يعلى القاضي
أبو بكر بن فورك (صاحب التأويلات)	أبو يوسف (الإمام)
أبو بكر القاضي	أحمد بن حنبل
أبو جعفر بن الزبير	أدوارسبوس
أبو حاتم (صاحب المعمرين)	ارنست دي يونس
أبو الحسن بن القطان	الأزهري
أبو حيان التوحيدى	الأسفرائيني
أبو حيان المفسر	إسماعيل القاضي والفاكهي
أبو الخطاب عمر بن دحية	الإسنوى
أبو سعد الحسن بن كرامة الجشمي الباني	الأشعري (أبو الحسن)
أبو السعود	إمام الحرمين
أبو شامة	الأموي ، صاحب المغازي
أبو العباس أحمد بن زروق	باب الباء
أبو عبد الله الشريف القرناطي	برهان الدين البقاعي
أبو عبيد	الزار
أبو علي الجرجاني (صاحب النظم)	البغوي
أبو علي الفارسي	البلقيني
أبو الفضل الإيراني	البيضاوي (القاضي)
أبو القاسم بن سلامة	البيهقي
أبو مسمود	

باب التاء	باب الخاء
التبريزي	الخازن
التفتازاني	خالد (الشيخ)
التوربشتي	الخطابي
	الخيالي
باب الشاء	خير الدين الآلوسي
الشمالي	
نعلب	باب الدال
الشملي	الداني
باب الجيم	الدبلي
الجاحظ	باب الذال
الجاربردي	الذهبي (الحافظ)
الجرجاني (السيد)	باب الراء
الجصاص	الرازي (الفخر)
جمال الدين الخونشاري	الراغب الأصفهاني
الجوهري	الرافعي
الجويني	رحمة الله الهندي
باب الحاء	الرضي النحوي
الحارث المحاسبي	الرضي (الشريف)
الحاكم	باب الزاي
الحرالي	الزبيدي (شارح القاموس)
حسن چلي (العلامة)	

الشوكانيّ	الزركشيّ
الشيرازيّ	الزنجشيريّ
باب الصاد	زين العابدين بير محمد دره
الصاغانى	باب السين
صديق خان	السبكيّ
باب الطاء	السخاويّ
الطباطبائيّ	السعد
الطبرسيّ	سعدى
الطومى	السفاريّ
الطبيّ	السكاكيّ
باب العين	السمرقنديّ
عبد الله بن أحمد	السمين
عبد الله بك (الشيخ)	المهرورديّ
عبد الله الهنديّ (السيد)	سيبويه
عبد الجبار (القاضي)	السيالكوتيّ
عبد الرزاق (صاحب المصنف)	السيوطيّ (جمال الدين)
عبد العزيز بن يحيى الكفائيّ	باب الشين
عبد القادر الجيلانيّ	الشافعيّ (الإمام)
عبد الكريم بن مالك الجزريّ	الشعرانيّ
عبد المؤمن الدميّاطيّ	شمس الدين ابن القيم
العتبيّ	الشهاب الخفاجيّ
	الشمهرستانيّ

القرطبي	عز الدين بن عبد السلام
قره علي	المعضد
القسطلاني	المطار
الققال	علاء الدين الخازن
باب الكاف	عياض (القاضي)
الكازروني	باب الغين
الكرماني	الفزالي
الكواشي	باب الفاء
باب الميم	الفارسي
مارسيه	الفاسي ، علي القاموس
المارودي (الإمام)	الفاكهي وإسماعيل القاضي
المبرد	الفرّاء
المجد (صاحب البصائر)	الفلاّني
محمد بن إبراهيم الوزير	الفناري
محمد بن إسحاق	الفيروزابادي
محمد بن إسماعيل الأمير	باب القاف
محمد بن بحر الرهني	القاشاني
محمد عبده المصري (الأستاذ الإمام)	القالي صاحب الأمالي
محمد بن المرتضى اليماني	القتبي (ابن قتيبة)
محيي الدين بن عربي	القرباب
محيي الدين النووي	القرافي
المرتضي (الشريف)	
المرجاني	

باب الهاء	المزني
الهمدانيّ (صاحب الإكليل)	المقريزي
الهمدانيّ	مكيّ (صاحب الكشف)
	المفردى
باب الواو	موفق الدين بن قدامة
الواحدىّ (الإمام أبو الحسن)	المهايمى
الواقدىّ	
ولى الدين البهلوى	باب النون
ولى الدين التبريزى	الفاصر
	النسفى
باب الياء	النووى
يحيى بن الحسن (الإمام)	النورى

٥ - فهرس أسماء الكتب التي تناولها التفسير

الإبانة	أشهر مشاهير الإسلام
الإبانة ، للباقلائي	أصول التفسير
إبراز الحكم ، في شرح حديث رفع القلم	الأطراف لأبي مسعود
إبطال التأويل	إظهار الحق
الأبنية ، لابن القطاع	أعلام الموقعين
الإتقان	أعلام النبوة
الأثر الجليل ، لقدماء وادي النيل	إغاثة اللهنان
اجتماع الجيوش الإسلامية	الاقتصاد في الاعتقاد
الأحكام ، لابن الطلاع	أقسام القرآن
الأحكام ، للجصاص	الإكيل ، للسيوطي
الأحكام ، لفاكهة وإسماعيل القاضي	الإكيل للهمداني
إحكام النظر	أمالى ابن الحاجب
إحياء علوم الدين	أمالى السهيلي
أدب الكاتب	أمالى القالي
الأذكار	الأنساب
أساس البلاغة	الاقتصار ، للقاضي أبي بكر
أسباب النزول ، للسيوطي	الاقتصار
الاستعاذة	إنجيل برنابا
الاستيعاب	إنجيل لوقا
الإسلام والنصرانية	إنجيل متى
الأسماء والصفات ، للبيهقي	إنجيل يوحنا
الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز	الأنوار

تحفة المتقين	إشار الحق على الخلق
تخجيل الأناجيل	الإيجاز والإعجاز
تخريج أحاديث الرافعي	الإيضاح
تخريج أحاديث الهداية	إيقاظ الهمم
القدمرية	الإيمان ، لابن تيمية
تذكرة الحفاظ	البحر
التصريح للشيخ خالد	بدائع الفوائد
التصفية	البدع والحوادث
تفسير ابن كثير	البراهين الإنجيلية
تفسير أبي حيان	ضد الأباطيل البابوية
تفسير البقاعي	البرهان
تفسير الرازي	البسيط للواحدى
تفسير الراغب	البصائر
تفسير السمرقندى	البصائر ، للفيروزابادى
تفسير سورة الإخلاص	البيان والتحصيل ، فى شرح القلبية
تفسير سورة العصر	التاج
تفسير صديق خان	تاريخ العتبي
تفسير الطبرسى	تاريخ ابن عساكر
تفسير السكازونى	تاريخ الكنيسة
تفسير ابن كرامة الجشمى	تأسيس التقديس
تفسير السكواشى	تأويل الأسماء الواقعة فى الكتب السالفة
تفسير النار	التأويلات لابن فورك
تفسير المهاجى	التأويلات ، لأبى منصور
التفكر والاعتبار	التبصرة

التقريب	الجواهر والدرر
التلخيص الجيد	حادى الأرواح
التمهيد	الحجة البالغة
التمهيد للأسنوى	الحسبة فى الإسلام
التفوير فى مولد السراج المنير	الحكمة فى خلق المخلوقات
تنوير الاقتباس	حواشى البيضاوى
تنوير المقياس	حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب
التهذيب	حواشى جامع البيان
التهذيب للتبريزى	حواشى شرح المواقف
التهذيب للنووى	الحيون
التوراة	الخراج
التوكل والاعتبار	الخطط
الجامع الصغير	الدرر البهية
الجامع الكبير	الدرر والغرر
جامع البيان	الدر المنثور
جامع بيان العلم	الدلائل للبيهقى
الجغرافية العمومية	دلائل النبوة ، للأصفهانى
جللاء الأفهام	الذخيرة
جمال القراء	ذخيرة الألباب
جواب أهل الإيمان	الذريعة
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح	ذم الثاويل
الجواب الفسيح	ذم الكلام وأهله
الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى	رحمة الأمة
جواهر القرآن	الرد على الجهمية

الرد على المنطقيين	السيموف البقارة
رسالة التوحيد	الشافق
الرسالة ، للشافعي	شرح الإبانة
رسالة بولس الثانية	شرح أسماء الله الحسنى ، للغزالي
الرسالة القبرصية	شرح التجريد
الرسالة المخترسة	شرح حديث النزول
الرسالة المدنية	شرح ديوان المتنبي لابن جني
رفع الملام عن الأئمة الأعلام	شرح السنة
الروح لابن القيم	شرح الشافية
الروض الأنف	شرح الشفا
الروضة	شرح الفاسي ، على القاموس
الروضة لابن قدامة	شرح القاموس
الروضة الندية	شرح الكشف
ريحانة النفوس	شرح مسلم
زاد المستنقع	شرح الفصل
زاد المعاد	شرح المقاصد
الزهد ، لابن حنبل	شرح مقصورة حازم
زهر الأكم	شرح المنازل
زوائد المشكاة	شرح المذهب
السنة ، لأبي بكر الخلال	شرح المواقف
سوسنة سليمان	شرح الموطأ
السياسة الشرعية	شرح نظم الفصيح
السيرة	شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد
السيل الجرار	الشفاء ، للقاضي عياض

فتح البيان	الشَّعْب
فتح القدير	الصحابة ، لابن منده
الفتح المبين	الصحاح
الفتوحات المكية	صفوت الاعتبار
الفرائد	طبقات ابن سعد
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان	طبقات السبكي
الفرقان بين الحق الباطل	طبقات الشهداء المسيحيين
الفصوص	طريق المهجرتين
فصول البدائع	العياب
الفصيح لشعاب	العبر لابن خلدون
فضائل القرآن	عرائس الأفراح
فقه اللغة	عروس الأفراح
الفلك الدائر	عقيدة السفاريني
الفوز الكبير	العقيدة الواسطية
فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة	عقيدة المسلمين في بعض المسائل القرآنية
القاموس	علم اليقين
القواطع	علوم الحديث
قواعد التصوف	العلو ، للذهبي
الكافية الشافية	العواصم
الكامل ، للمبرد	العناية
الكامل ، لابن الأثير	الغنية ، للجيلاني
الكشاف	غيث النفع
كشف المغطى ، في تبين الصلاة الوسطى	الفاصل بين الحق والباطل
الكشف ، لمكي	فتح الباري

مشكاة المصابيح	الكنز الثمين في أخبار القديسين
المشكل ، لابن قتيبة	الكنوز
المصباح	اللباب
المصنف ، لعبد الرزاق	لباب التأويل
المضنون ، للغزالي	لباب النقول
المعارف	لسان الصدق
المعتقد الصحيح ، في صلب السيد المسيح	لسان العرب
المعمرين ، لأبي حاتم	لطائف الأعلام
مغازي الأموي	اللطائف ، للقسطلاني
المغني ، لابن هشام	اللطائف واليوافيت
مفاتيح الأصول في علم الأصول	متشابه الحديث ، لابن فورك
المفتاح ، للسكاكي	متشابه القرآن
مفتاح دار السعادة	المثل السائر
المقاييس	الحكم
المقاصد	المختصر ، للشافعي
مقدمة ابن خلدون	مختصر المزني
المقصد الأسنى	مدارج السالكين
مقصورة ابن دريد	المدارك
الملل والنحل ، لابن حزم	المدحة الكبرى
الملل والنحل ، للشهرستاني	المدنية ، لابن تيمية
مناهج الأدلة	مرشد الطالبين
المناسبات ، للبقاعي	المسالك والممالك
منتخب كنز العمال	المستقصى
المنتقى	المستوفى

منهاج السنة	نقض عثمان بن سعيد
منهاج العابدین	النهاية
منية الأذكياء ، في قصص الأنبياء	نهج البلاغة
المهذب	النهر
الموافقات	النهر ، لأبي حيان
المواقف للمعضد	النهر المورود ، في تفسير آية هود
المواهب اللدنية	نيل الأوطار
الميزان ، للشعراني	وبل الغمام
الفاسخ والمنسوخ	الوجيز ، للغزالي
النشر ، لابن الجزري	الوسيلة ، لابن تيمية
النصرانية الحققة	وفية الأسلاف ونجبة الأخلاف
النظام والإسلام	اليواقيت والجواهر
نقد المحصل	